أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية

الجزء الأول



ترجمة

أحمد الشيباني

تدهور الحضارة الغربية

أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية

ترجمة

أحمد الشيباني

الجزء الأول

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الفهرس

ـ الجزء الاول ـ

عندما يتدفق في الابدي الشيء نفسه مكررا
ذاته أبـدا ، وتتماسك آلاف القناطر جبارة
بعضها ببعض ، تفيض الرغبة في الحياة من
كل الاشياء من اضخم النجوم واتفه المُدر
وكل إجهـــاد وجهاد هو هدوء سرمدي
في الله .

« غوتيه »

مقدمة المترجم

١ ـ مدخل :

بلغ التقدير لهذا الكتاب في الغرب حداً صنف معه كأعظم مؤلف صدر في النصف الاول من القرن العشرين . فهو كتاب يعالج جميع مواضيع الحضارات الانسانية وانجازاتها من فن وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، فاشبنغلر يرى أن كل حضارة من الحضارات هي كل متكامل غير قابل للتجزئة وظاهرة أولية متفردة وذلك لأن لكل حضارة نفساً اولية واحدة ، وتعبر برموزها عن نوازعها وطاقاتها ، وأن تلك تنطلق عنها النفس وهذه الظاهرة وهذا الرمز هي التي تسيطر وتوجه جميع نتاج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب واديان ، لهذا سيجد القارىء شبنغلر يعالج في هذا الكتاب الضخم جميع هذه الفروع الحضارية ، وسيراه يستشهد بالموسيقى وهو يبحث في الرياضيات، ويدلل على صحة اقواله بالدين وهو يتحدث عن النحت والتصوير ، ويقتبس براهينه من الطقوس المذهبية او الدينية ليثبت نظرياته في الهندسة المعمارية ، ويختار دليله من الرقم الرياضي ليبرهن على صحة نظريته في الجنس . لهذا

فان القارىء سيذهل لوفرة معلومات شبنغلر الموسوعية وسيعجب بمنطقه المنسق والدقيق الملاحظة .

والحق أن هذا الكتاب يُدرس ولا يُقرأ. واعتقد ، لا بل اؤمن بان الزمان الذي يتوجب فيه على القارىء العربي أن ينتقل من القراءة للترفيه عن نفسه الى القراءة لتثقيف نفسه قد حلّ وآن . وكتاب شبنغلر هذا على ما أرى هو أول محاولة تتحدى فيها المكتبة العربية القارىء العربي بتراث إنساني خالد من هذا العيار . ولا أريد ان اكتم أنني أشعر بفخر وانا أحقق نقل هذا المؤلف إلى العربية ، فترجمتي لهذا الكتاب جاءت نتاج كدح لا عمل ، فلقد عبأت كامل طاقات ضميري وعقلي لانجاز هذا العمل الضخم ، فنقلته الى العربية بدقة حرفية وأمانة متزمتة في اخلاصها وذلك لادراكي اهمية العمل المنوط بي ، وقد بذلت كل جهد لاصوغ ترجمتي باسلوب سهل هين ولا اريد ان ادعي هنا انني بلغت في ترجمتي الكمال ولكن الكمال كان نصب عيني عند ترجمة كل كلمة من كلماته .

وقبل ان اختتم مدخل هذه المقدمة أرى لزاماً على ان اشكر أصحاب دار مكتبة الحياة على اقدامها على مثل هذه المغامرة في تقديمها للقارىء العربي مثل هذا الكتاب الضخم واخص فيها اخي وصديقي المفكر العربي الكبير الاستاذ يوسف الحوراني الذي قام بمراجعة الكتاب ، واشكر القيمين على مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت اذ انهم وفروا لي بسخاء وكرم كل امكانيات العمل الفكري ، واشكر اخيراً لا آخر اخي وصديقي السيد هنري حنا الذي افسح لي في مكتبه مكاناً هادئاً ولطيفاً للعمل ، وبعيداً عن ضوضاء البرج ببيروت حيث يقع النزل الذي كنت فيه أقيم .

٢ – من هو شبنغلر ؟

انه اوزفالد شبنغلر ولد في شهر مايو عام ١٨٨٠ وفي مدينة بلاكنبورغ في الهرتس من أب يدعى برنهرد وأم من أسرة غرنتسوف ويدين بالمسيحية

البروتستنتية وقد تلقى دراسته الثانوية في مدرسة « هلة » ثم انتقل الى جامعة برلين حيث تخصص في العلوم الطبيعية ، وانتقل من هذه الجامعة الى جامعة ميونيخ ليعود منها الى برلين ثانية ومن ثم ليلقي عصا الترحال في مدينة «هلة» لفترة من الزمن ، وليغادرها ليستقر أخيراً في مدينة ميونيخ حيث قضى حياته في التأمل والدرس وعاش وحيداً في عزلة هائلة وحرية كاملة حتى وافته المنية في ٥ أيار عام ١٩٣٦

أما أشهر مؤلفاته لا بل اعظمها فانه هذا الكتاب الذي نقلناه الى العربية أي « تدهور الغرب » .

« Der Untergang des Abendlandes »

وقد رأينا تسميته بتدهور الحضارة الغربية وذلك انسجاماً مع روح الكتاب ، أما بقية مؤلفاته فهي مجموعة من مقالات ومحاضرات وكراريس لا يتجاوز أضخمها المئتين من الصفحات واشهر هذه الكراريس هي هيرقليطس : « دراسة في الافكار الرئيسية الديناميكية » في فلسفته ، البناء الجديد للريخ الالماني ، السنوات الحاسمة ، المانيا وتطور التاريخ العالمي .

٣ – نفسانية شبنغلر :

يبدو ان الطريقة المثلى لفهم إحدى الفلسفات انما تتمثل في فهم شخصية فيلسوفها ، وروحانيته التي انبجست عنها تلك الفلسفة ، ولا شك بان لشبنغلر فلسفة جديدة كل الجدة في فهمه لتطور التاريخ البشري وللحضارات البشرية التي تشكل هذا التاريخ ، وفلسفة شبنغلر هذه فلسفة تشاؤمية بأوسع ما لكلمة التشاؤم من معنى ومفهوم ، ولعل السبب الرئيسي الذي جعل من شبنغلر فيلسوفاً متشائماً يتجاوز في تشاؤمه شوبنهور بمراتب ودرجات ، هذا السبب ناشيء، من ايمانه العميق بالطبقية في المجتمع وقناعته بان النبلاء وحدهم هم الطبقة الوحيدة التي تمثل الأمة حق تمثيل في المجتمع ، وان بقية الطبقات

لا تمثلها إلا تمثيلاً ناقصاً ، او بالاحرى انها لا تمثلها على الاطلاق ، فطبقة الفلاحين على حد زعمه لا تمثل الأمة في شيء وذلك لأنها حسب اجتهاده خارجة عن التاريخ ، وان التاريخ لا يقوم إلا مع الحضارة وهو (أي شبنغلر) يرى ان طبقة الفلاحين تسبق ميلاد الحضارة . زد على ذلك ان شبنغلر يرى ان من أهم مقومات الحضارة هي تلك النوازع والنزعات الفروسية التي تتمرد على حساب الارباح والخسائر ، إذ انها تعتمد مبدأ العطاء والتضحية ، ولهذا وفي عصر رأى شبنغلر بأم عينه المبدأ والروح الطبقيين يتهاويان ويندثران تحت لطمات الجماهير وقبضات الطبقات العاملة من فلاحين وعمال ، ورأى الثورات والزلازل الاجتماعية تدك صروح النبالة دكاً ، ورأى المادية في أبشع صورها تسود المجتمعات الاوروبية وتتخذ من مبدأ الخسائر والارباح دستوراً أخلاقياً لها ، ورأى أبناء المدن يتناسون لا بل يسخرون من تقاليد النبالة واعرافها ويرون فيها الدلالة على رجعية المجتمع وانحطاط الدولة ، ورأى الامتيازات الطبقية والحواجز الاجتماعية تنهار امتيازاً بعد امتياز ، وحاجزاً بعد حاجز ، لهذا كله لم يكن أمام شبنغلر المؤمن بالطبقية العنصرية وبالنبالة على وجه أخص كنظام للحضارة إلا ان يثور على المادية في شكليها البرجوازي والاشتراكي ، من غربي وشيوعي ، وان يلجأ الى التشاؤم والكفر بالعقل والتغني بمزايا الوجدان واندفاعات البديهة التي تتدفق تدفق الينبوع من الارض والتي لا تتوخى من دفقها غرضاً حسياً او مأرباً مصلحيا لانها لا تستطيع ولا تريد إلا ان تتدفق ، لهذا ارسل شبنغلر بصيحته المدوية القائلة بان العقل يقتل ، وان العلم يدمر ، وان التحليل يهدم ولا يبني ، لكن شبنغلر العالم الرياضي السابق كان يدرك ويعي ، بان صيحته هي صرخة في واد ، وان التيار لأضخم واعتى من ان توقفه صيحة مفكر او يسيطر عليه مذهب او يتحكم به دين او فلسفة ، لذلك ارتمى في احضان جبرية تشاؤمية وأخذ على نفسه في هذا الكتاب ان يفلسف الفناء ويحلل العدم كضرورتين حتميتين لا على ظهر هذا الكوكب فقط بل انما في الكون الكبير ايضاً ، والكون الكبير بكل

ما فيه من مجرات وانظمة شمسية وكواكب .

وشبنغلر يشن حملة لا هوادة فيها او لين على كل ما هو حسي ، ويكره العقل لأنه يدخل الاشياء الغامضة في ميدان الحواس ، ويناهض الرياضيات والفيزياء والكيمياء لانها تتعامل مع الحواس حتى في فرضياتها ولعل السبب الرئيسي لعداء شبنغلر لكل ما ذكرت يعود اولاً واخيراً الى الحواس وهي التي تساوي الفرد بأفراد طبقة النبالة ، هذه الطبقة التي يتعبد لها شبنغلر ويقدسها ويعتبرها روح الأمة والقوة الدافعة في التاريخ ، وذلك لأن اقلية ضئيلة ، على حد زعمه ، من الناس الممتازين النبلاء هي التي تمثل الامة ، ولان الامة ، على حد قوله ، هي ككل رمز من الرموز الكبرى للحضارة ، رمز يرتبط بنفر قليل من الناس ، وهذا النفر هو الدولة وتجسيد للامة في الدولة وهو ينادي بهذا المبدأ بوضوح حينما يقول في احدى فقرات هذا الكتاب ما يلي :

« ان التاريخ لا وجود له الا بالامم ، لأن الامم هي الصورة الحية فاذا حطمتها حطمت التاريخ ، وان لكل امة طالما هي تحيا وتناضل دولة ، ولا تكون الامة ذات دولة الا اذا كانت مكونة من طبقتين لا اكثر ولا اقل وهما طبقة النبلاء وطبقة الكهنوت .

اما الفلاحون والعمال وحتى في نقاباتهم فانهم لا يؤلفون طبقة ».

مثل هذا الفيلسوف لا شك سيفر الى التشاؤم وسينظم قصائد الرثاء وهو يرى الطبقة البرجوازية الاوربية ، هذه الطبقة التي رأت النور على يد الثورة الفرنسية واعتمدت الفلسفة الانكليزية ديناً لها ومذهباً ، تضرب النبلاء والكهنوت معاً وتسيطر على كل اعراف المجتمع وتقاليده وتشترع للدول الاوروبية دساتيرها وقوانينها .

هذه دراسة عاجلة لنفسانية شبنغلر ، وهي دراسة استعراضية نأيت بها عن كل نقد او تحليل .

٤ ـ الحضارة :

يرى شبنغلر أن الحضارة تولد في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة ، وتنفصل هذه الروح عن الروح الاولية للطفولة الانسانية الأبدية ، كما تنفصل الصورة عما ليس له صورة ، وكما ينبثق المحدود من اللامحدود ، ويرى شبنغلر ايضاً ان الحضارة تولد وتنمو في تربة بيئة يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً وان الحضارة ككل كائن لها طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها ، وانها تموت عندما تحقق روحها جميع إمكاناتها الباطنية على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون وعلوم ودول ، وان الحضارة عندما تحقق هذه الامور وتستنزف إمكانات روحها في تجسيد هذه الانجازات تتخشب وتتحول الى مدنية واخيراً تتجاوز المدنية الى الانحلال والفناء .
ويرى شبنغلر أن لكل حضارة صيرورة واتجاها وزماناً ومصيراً وتاريخاً ، وان الحضارة أسيرة مصيرها ، وان اتجاهها هو اتجاه لا يمكن ان يقلب أو يعكس أو يُحوّل وذلك لان هذا الاتجاه هو اتجاه وسمه المصير وحددته الصيرورة . ويرى شبنغلر ان لكل حضارة تاريخاً ، وان هذا التاريخ هو تاريخ النفس الاولية للامة ذات الحضارة ، وانه لا يمكن ان تكون هناك حضارتان متماثلتان كل التماثل ، وذلك لان كل حضارةهي تاريخ مستقل بذاته لا يتأثر أبداً بتاريخ أية حضارة أخرى ، واذا ما تأثر فانما لا يعبر أبداً عن جوهره ، بل انما يتمثل أشكالا كاذبة تتنافى واصالته الحقيقية وينشأ تمثله هذا عن ظروف معينة تحد من حرية عمل النفس الاولية للحضارة ، لكن هذه النفس الاولية المحدودة الحرية تسعى حتى في مثل هذه الظروف الى طبع الحضارة المتأثرة بها بطابعها ويضرب شبنغلر الامثلة على هذه الواقعة بالحضارة العربية التي تمكنت ، حتى في اعتمادها القواعد الكلاسيكية في الهندسة المعمارية ، ان تفرض طابعها على المباني الرومانية ابتداءً من عهد هادريان. فالبانتيون Pantheon مثلا الذي بناه هدريان يعتبر أول مسجد اسلامي بني في التاريخ . فالحضارة تولد وهي تحمل معها صورة وجودها ، وهي على صلة

رمزية عميقة ، صلة تكاد تكون صوفية ، بالمكان الذي فيه وبواسطته تريد ان تحقق وجودها وهي تصارع وتناضل داخل المكان الذي اختاره لها مصيرها لتنظم كل خليط فيه على صورتها . زد على ذلك ان لكل حضارة طرازها الخاص بها ، وباستطاعة المرء ان يتلمس هذا الطراز في كل إنجاز من انجازاتها، أفنياً كان أم علمياً أم دينياً . لكن التركيب الباطني لأية حضارة هو نفس التركيب الباطني لكل الحضارات ، ولا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة في الصورة التاريخية لحضارة ما دون ان يوجد ما يقابلها تماماً في غيرها من الحضارات ،ومثل هذه الظاهرات هي ظاهرات ينعتها شبنغلر «بالمتعاصرة» فبامكاننا ان نقول مثلا ان فيثاغورس معاصر لديكارت وافلاطون معاصر للابلاس ، وارشميدس معاصر لغاوس وان الاسكندرية معاصرة لبغداد العباسية ، وان بغداد العباسية معاصرة لواشنطن ، ولكن اختلاف النفس الاولية لحضارة ما عن النفس الاولية لحضارة اخرى هو الذي يحدد الفرق بين هذه الظاهرات المتعاصرة ، فالنفس الفاوستية لغاوس هذه النفس التي اعتمدت المنهاج التحليلي الفراغي اللانهائي نفس تختلف كل الاختلاف عن النفس اليوقليدية لفيثاغورس ، فالنفس اليوقليدية تؤمن بالمحسوس وبالنهاية والمحدودية الى حد يجعلها تعتقد بأن الكون ينتهي عند قبة السماء الزرقاء ، بينما ان النفس الفاوستية هي بالاضافة الى ما ذكرت عنها آنفاً لا تشترط المحسوس اساساً لعلومها ، ولا تعتمد كما تعتمد النفس اليوقليدية على بُعدين فقط ، أي الطول والعرض ،بل انما تقصد الابعاد الثلاثة وهي الطول والعرض والعمق . كما تؤمن بالاستمرار التاريخي ولا تقيد نفسها أبداً بالحاضر وبالمكان كما كانت حال النفس اليوقليدية ، بل انما ترتبط بالزمان وبالفراغ اللانهائيين .

ويرى شبنغلر كما سبق لي ان قلت انه لا يمكن ابداً فهم آية ظاهرة اساسية كانت ام اجتماعية ام اقتصادية ام علمية او ادبية ام فلسفية إلا بواسطة فهم كل ما للحضارة من ظاهرات ، وهو بذلك يقول :

« حينئذ رأيت فيضاً زاخراً من الروابط التي شعر بها بعض المؤرخين

شعوراً واضحاً حيناً وغامضاً في معظم الاحيان دون ان يصلوا الى فهمها اطلاقاً ، روابط بين صور الفنون التشكيلية والفنون العسكرية او الادارية ، ورأيت تشابها عميقاً بين الاشكال السياسية والرياضيات في الحضارة الواحدة ، بين النظرات الدينية والصناعية ،بين الرياضيات والموسيقى وفنون التشكيل ، بين صور الاقتصاد وصور المعرفة ، وتبينت بجلاء ووضوح الارتباط الروحي العميق بين احدث النظريات الفزيائية الكيمائية والتصورات الاسطورية الخاصة بالاجداد عند الجرمان ، بين اسلوب المأساة ، والآلية الديناميكية ... ورأيت وراء هذا كله ، في فيض من النور ، ان هذه المجموعات القوية المتشابهة في هيئتها والتي تمثل كل واحدة منها ، تمثيلاً رمزياً في الصورة العامة للتاريخ العام ، نوعاً انسانياً خاصاً ، اقول رأيت ان هذه المجموعات تكون بناء متجانساً في اجزائه كل التجانس . وهذه النظرة هي وحدها التي تستطيع ان تكشف عن سياق التاريخ واسلوبه الخاص . »

ويرى شبنغلر ان لكل حضارة عناصر خاصة بها وعناصر غريبة عنها ، وان هذه العناصر من خاصة وغريبة تحددها النفس الاولية لكل حضارة ، لذلك يؤمن شبنغلر بانه من المستحيل على فرد او افراد ينتمون إلى احدى الحضارات ، ان يفهموا حضارة اخرى غير حضارتهم فهماً كاملاً ودقيقاً في صحة وذلك بسبب العناصر الغريبة عنهم هذه العناصر التي تتشكل منها تلك .

ويرى شبنغلر ان للحضارة دستوراً أخلاقياً يتمثل في العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وان الدستور الحضاري لا يعتمد العقل ابداً بل انما يعتمد الوجدان هذا الوجدان الممثل في الشعور ، لا بالحس وأن العقلانية في شتى مذاهبها هي فلسفة مدنية لا حضارية لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلاني من تطورها تبلغ خريف عمرها وتشيخ وتهوي الى درك المدنية ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال .

٥ – المدنية :

يشن شبنغلر حملة عنيفة على المدنية ، ففي المدنية ، تصبح الصيرورة ، Becoming صيراً Become ويمسي التاريخ طبيعية ويغدو الزمـــان مكاناً والاتجاه امتداداً والعلوم الروحية علوماً طبيعية ، وتصبـح طبيعة « غوتيه » الحية ، طبيعة ميتة وتزول الصفة العضوية (Organic) عن كل مفهوم وأمر وشيء ، ويتخشب كامل الوجود ، إذ تجف العصارة الحياتية من ساقه وتاجه واغصانه وافانينه ، وتصبح الفخامة المادية والوفرة العددية صاحبتي الحول والطول وتنحل الضمائر وتصبح العظمة تقاس بالباع والذراع وتقدر بالقنطـار والدينار . وكانت من قبل تقدر ، أيام الحضارة ، بما لا يحس به من العزائم والأخلاق . وتنشأ المدن العالمية العظمى اما سكان المدن فانهم لا يمثلون أمة بل انما يمثلون ركام جماهير تتفاعل معاً نتيجة لعوامل مصلحية مادية لا تمت الى الوجدان او الضمير بوشيجة او صلة ، اما منازلها فليست سوى ملاجىء يأوي اليها أناس لا تجمع بينهم رابطة الدم ، بل الصدفة ، ولا توحد كلمتهم وحدة الشعور القومي بل روح المصلحة الاقتصادية ، واذا ما انتقل احد سكانها من مدينة الى اخرى تصبح المدينة وطنه ، أما القرية فتبدو لناظريه أجنبية غريبة ، والعلة على حد قول شبنغلر : ان ساكن المدينة لا يستطيع أن يعيش في مكان آخر غير هذه الأرض الصناعية ، وهي تمثل تقهقر السياق الكوني لوجوده الأصيل ، بينما تصبح توترات وجوده الواعي اشد خطراً يوماً بعد يوم . والانسان في المدينة لا يؤمن الا بالتفسير السببي ولا يفهم التجربة الحية اللاحسية ، وهو فاقد كل مميزات الدم والقومية والشعور بالتقاليد ، وهولذلك عقيم ، وعقمه يدل على انه يمم شطر الموت وهو قد فقد الرغبة في الحياة وفقد الخوف من الموت ولم يعد يشعر بان هناك مبرراً لوجوده واسباباً تبرر بقاءه واستمراره بالحياة .

والحق ان مع مآخذي الكثيرة على شبنغلر ، فانني اقر واعـــترف بان شبنغلر قد ابدع في وصف الازمة الروحية التي تعانيها المدنية الغربية اليوم ،

هذه الازمة التي تسعى بالحاح لتجد لها منفساً ومخرجاً والتي تتجه اليوم الى الوجودية وما يماثلها علها تجد لديها ما ينفي قلقها ويعيد اليها طمأنينتها الباطنية ، فالمدنية الغربية اليوم مدنية تشيع الاضطراب والقلق في نفوس ابنائها وقد اخذت ابتداء من عام ١٩٤٥ تنقل هذا القلق والاضطراب الى الشرق العربي ، وعقب التجارب التي مررنا بها لا يسعني الا ان اسلم بمبدأ شبنغلر القائل بان العقل يقتل والفراغ يلد الموت ، وان المكان يميت الزمان وان الصير ينحر الصيرورة ، وان الامتداد يقتل الاتجاه . وان العقلانية لا يمكن لها ان تدفع الانسان او الامة الى بناء حضارة ، فالعقلانية مذهب يؤمن بالمحسوس المدرك ولذلك يحول الانسان الى كائن يتمسك بالحاضر ويشد بذاته الى كل ما هو آتي ويطمع الى تحقيق الربح الفوري ، لهذا فان مثل هذا الانسان هو فريسة دائمة للانتهازية ، وهو يستغرب التضحية ويستهجن العطاء ، ويسخر من كل عمل لا يحقق ربحاً آنياً وفورياً ،ومثل هذا الانسان لا يمكن ان يكون لبنة في صرح الحضارة ، كما وان العصر الذي يعيش فيه ويدين بمذهبه ، لا يمكن ان يكون عصر انبعاث وحضارة . والانسان في المدنية يضع نصب عينيه اشباع الحس هدفاً له ويقوم كل عمل بمقومات حسية تصب كلها في الجيب والبطن وما يشتق عنها ، لذلك فان المدنية عاطلة من العظمة الحقيقية ،عقيمة لا مجال فيها للبناء الاصيل ، وهي تحاول ابداً ودوماً ورغبة منها في الصمود أمام شعورها بالنقص ان تغرق نفسها بعيش حسي مترف يخنق صوت الوجدان داخل الانسان ، ولكن لما كانت الاحاسيس لا تشبع بل تنهك لذلك تصاب المدنية بالسأم والملل ويفتش اهلوها عن مهرج لا صديق ، وعن نديم لا رفيق ، وبهذا تنقلب موازين القيم وتختل الى درجة يجعل اهلوها في كثير من اللحظات يحسون بعقم الحياة وبانعدام اي حافز او مبرر لها .

ومما يغلق باب الامل في وجه شبنغلر ويقطع عليه كل سبيل الى التفاؤل ايمانه المطلق بان الوقائع الحضارية لا تتكرر ابداً ، وشبنغلر يريد ان يقول

في هذا للشعوب التي كان لها حضارات فيما مضى ، بأن حضاراتها لن تتكرر على ايدي ابنائها مرة اخرى . وشبنغلر مع انه لا يصرح علناً بأن الحضارة الفاوستية هي اسمى حضارة بلغها الجنس البشري على ظهر الكوكب ، لكن منطوق كتابه ومجمل آرائه الواردة في هذا الكتاب تشير جميعاً الى ان شبنغلر يؤمن ايماناً وطيداً بان الحضارة الفاوستية هي ذروة الحضارات على الارض ، كذلك يؤمن وهو الذي عاش ليرى الحضارة الفاوستية تمتد بظلالها آنا استعماراً وحينا آخر نفوذاً لتشمل كامل الشعوب والامم من اسيوية وافريقية وغيرها من ابناء القارات الاخرى ، وعاش أيضاً ليرى أن هذه الشعوب من مستعمرة ونصف مستعمرة تسارع لتأخذ بأسباب الحضارة الفاوستية ولتتغذى بثقافتها ولتقتبس اساليبها وحتى مناهجها في الحياة ، اقول ان شبنغلر يؤمن ايماناً جازماً بان الجنس البشري على ظهر هذا الكوكب مقبل أكيداً على الفناء في وقت جد قريب ، وان تدهور الحضارة الغربية سيجر معه حتماً تدهور الحضارة الانسانية بكاملها : بالرغم من انه لا يجوز لنا ان نقول حضارة انسانية وذلك اذا ما رغبنا في الانسجام ومفهوم شبنغلر الحضاري ، فهل تؤكد الاسلحة النووية من ذرية وهيدروجنية والمكروبية مخاوف شبنغلر وتبرر تشاؤمه ؟ إن شبنغلر نفسه حبا منه بتعزية نفسه يعود لينادي مبشراً باقتراب ولادة روح حضارة جديدة !

٦ ـ الحضارة العربية :

اذا كان هناك من فيلسوف اعجب بالامة العربية اعجاباً يكاد يكون دون تحفظ ، فانما هو شبنغلر . فشبنغلر يرى أن جميع الحضارات التي قامت في الشرق الاوسط ، ما عدا الحضارة الفرعونية هي حضارة عربية ، ويسمي النفس الاولية للحضارة العربية بالنفس المجوسية فاليهودية والمسيحية والزرادشية والمترائية والنسطورية وجميع ما قام في منطقة الشرق الاوسط بكاملها وامتد حتى الصين وشمالي افريقيا هو فروع من الحضارة العربية ذات

النفس الاولية المجوسية . ويرى في معركة « اكثيوم » التي دارت بين انطونيوس ، معركة دارت بين الروح الابلونية (اليونانية الرومانية) وبين الروح العربية او المجوسية كما يسميها شبنغلر ، اي انها معركة دارت بين الالهة المتعددة وبين الاله الواحد ، بين الامارة والخلافة . ويؤمن شبنغلر بانه لو قدر لانطونيوس ان ينتصر لانقذ الروح العربية ، لكنه هزم ولهذا كفنت هزيمته الروح العربية بكفن روماني امبراطوري ، لكنها مع هذا استطاعت كما اوردت آنفاً حتى في اعتمادها الشكل الكاذب في الهندسة المعمارية والزخرف من ان تفرض وجودها على الحضارة الابولونية .

ويبلغ اعجاب شبنغلر بالحضارة العربية حداً يضعها معه ، جنباً الى جنب والحضارة الفاوستية ، وذلك حين تقريره ان الحضارة العربية كانت ايضاً كالحضارة الفاوستية تؤمن بثلاثة أبعاد ، أي طول وعرض وعمق ، لكن الفرق بين العمق الفاوستي والعمق العربي ، هو ان العمق الفاوستي يتسامى عالياً ليحلق في الفراغ (Space) بينما ان العمق العربي ينحدر ليغوص عميقاً في باطن الارض ، ولنسمع ما يقوله شبنغلر عن الروح العربية وذلك عندما تحررت هذه الروح من القيود الابولونية من فن وسياسة ، بعد رضوخ طويل لهذه القيود :

« وهذا وحده كاف ليفسر لنا سر الحُميّا الجبارة التي دفعت بالحضارة العربية عندما انطلقت أخيراً من قيودها الفنية وأغلالها الأخرى لتلقي بظلالها على جميع البلدان التي تنتمي اليها باطنياً منذ قرون وقرون سبقت انطلاقتها الاولى . ان هذه الحُميا لدلالة على ان النفس العربية هي في عجلة دائمة من أمرها ، فهي تلاحظ أعراض شيخوختها حتى قبل بلوغ شبابها . وانه والحق لا مثيل هناك في التاريخ لتحرر الجنس المجوسي وانطلاقه ، فلقد افتتحت سوريا ، لا بل حررت عام ٦٣٤ ، وسقطت دمشق عام ٦٣٧ وزيزفون مثلها ، وفي عام ٦٤١ استعيدت مصر وبلغ العرب الهند ، وفي عام ٦٤٧ عادت قرطاجة ، واستعيدت سمرقند عام ٦٧٦ ، وفي عام ٧١٠ سقطت

اسبانيا ، وفي عام ٧٣٢ أخذ العرب يقرعون أبواب باريس .

لقد ضغطت في هذه السنوات القلائل جميع العواطف العربية المدخرة والآمال المؤجلة والاعمال المحفوظة ، هذه التي تكفي لتملأ قروناً وقروناً من التاريخ .

فالصليبيون أمام القدس وسلالة هوهنشتاوفن في صقلية ، والهانسا في البلطيق ، والفرسان التيتونيون في الشرق السلافي ، والاسبان في أميركا ، والبرتغاليون في الهند الشرقية ، وامبراطورية شارل الخامس التي لا تغرب الشمس عنها ، وبداية عصر الاستعمار الانكليزي تحت رعاية كرومويل ، كل هذه الانطلاقات تعادل في زخمها زخم انطلاقة واحدة حملت العرب الى اسبانيا وفرنسا والى الهند وتركستان .

مما ورد يتضح الاعجاب الشديد الذي يكنه شبنغلر للعرب والحضارة العربية التي يفوق زخمها مرات ومرات زخم الحضارة الفاوستية ، كما ويبدو من كلام شبنغلر ان العرب لم يستعمروا البلدان التي فتحوها ، بل انما استعادوا بكل بساطة جميع بلادهم وحرروها من نير الاجانب والاغراب .

٧ – معنى الرمز

يرى شبنغلر ان الرمز هو تشبيه للوجود الحقيقي ، والرمز شيء غير قابل للتفسير ، وذلك لأنه اذا ما فسر فانما سيفسر عندئذٍ برموز اخرى، وشبنغلر يصف الرمز بالجملة الآتية :

ان الرمز لمحة من لمحات الوجود الحقيقي وهو يدل عند الناس ذوي الشعور اليقظ على شيء من المستحيل ان يعبر عنه بلغة عقلانية ، وهو دلالة تقوم على يقين باطن مباشر . والرمز هو تعبير عن الصلة بين الكائن وبين الكون . والرمز يرتبط ارتباطاً مباشراً بالصير ، فهو يدل على شيء ما عضوي حي قد تخشب وتجمد أي على شيء مات ، وفي الرمز يتحول الاتجاه

الى امتداد ،والحياة الى موت ،لذلك فان طابــع الرمز هو الفناء اما ارتباطه فانما هو بالفراغ لا بالزمان .

وهناك ارتباط عميق بين الفراغ والموت،فالفراغ هو الامتداد ، والامتداد هو المادة ، والمادة هي نقيض الروح ، والروح هي الحياة ، والحياة هي نقيض الموت،لذلك فان المادة هي الموت، واذا ما كانت المادة هي الفراغ فإن الموت والفراغ إذن متساويان . زدعلى ذلك ان لكل حضارة رمزها الاولي، فالرمز الاولي للحضارة الكلاسيكية هو الحجم المادي المحسوس المحدود، اما الحضارة العربية فرمزها الاولي هو الكهف ، واخيراً فان الرمز الاولي للحضارة الغربية هو الفراغ اللانهائي اللامحدود . اما الحضارة الكلاسيكية فكانت ترى في الكون كوناً محدوداً تحديداً دقيقاً بواسطة قبة السماء ، وترى فيه ايضاً كلا محدوداً تحديداً مادياً مجسماً لا يوجد وراءه أي شيء آخر ، وقد تمادى الرواقيون في ميدان الحس والمحدودية حتى أنهم قالوا بان العلاقات التي تشد الاشياء بعضها الى بعض ، وخصائص هذه الاشياء هي أحجام مادية ، بينما أن الحضارة الغربية كانت ترى الكون فراغاً لامتناهياً تسبــح فيه الاجرام السماوية ، التي لا تعد ولا تحصى تائهة شاردة .

ويشن شبنغلر حين حديثه عن الرمز حملة شعواء ، على الحضــارة الكلاسيكية من يونانية ورومانية ، فهو يرى أن هذه الحضارة حضارة حسية من معنى ومفهوم ، فالآلهة الكلاسيكيون آلهة مرتبطــون بالمكان الذين هم فيه ، زد على ذلك ان دولتهم كانت دولة المدينة ، دولة لا تتعدى في سياستها أسوار المدينة التي تحيط بها ، فلم يكن الاغريق يعرفون سياسة المسؤوليــة الوزارية ، ولم يكونوا يعملون بدبلوماسية مجلس الوزراء المعروفة حالياً في الغرب . حتى معابدهم كان يفرضها الظرف ، والمكان .

أما الحضارة المصرية فلقد كان رمزها الاولي هو الدرب ، وذلك لأن النفس المصرية كانت تحس بان الحياة هي رحلة عليهــا ان تقوم بها سالكة درباً مرسوماً لها ومحدداً تحديداً دقيقاً صارماً .

ويثني شبنغلر على الحضارة المصرية بالغ الثناء ، ويعتبرها حضارة تعبر عن نفس جريئة مقدامة وتؤمن بالخلود إيماناً عميقاً لذلك اختارت الحجر وأصلد انواعه لتشيد منها معابدها ولتنحت تماثيلها ، واكتشفت أسرار التحنيط ، ونحن نرى حتى اليوم جثث الفراعنة مسجاة حتى اليوم في المتاحف .

ويغتنم شبنغلر هـــذه الفرصة ليعاود شن حملته العنيفة على الحضـارة الكلاسيكية ، فيقارن بين مواد الفن والبناء التي اختارها الكلاسيكيون الاوائل ، وبين المواد التي اختارها المصريون ، فيصف هذه بالصلدةوالخالدة ، وتلك بالهشة والفانية ، ويستنتج من هذه المقارنة أن العدمية هي التي كانت تسيطر على شعور الإنسان الكلاسيكي ، وان الايمان العميق بالخلود هو الذي كان يوجه نشاطات الانسان المصري وفعالياته .

٨ - فكرة الامة بين الحضارات

يرى شبنغلر ان فكرة الامة تقوم عند الامة العربيـــة على أساس من الروابط الروحية المجردة ، ولذلك فان العربية تريد من زعيمها ان يتمتـــع بصفات النبي ومؤهلاته ، فالامة العربية كما يرى شبنغلر ذات وجود روحي يكاد يكون مطلقاً في روحانيته ، وقد صدق شبنغلر على ما اعتقد في تعريفه لجوهر اخلاق الامة العربية ، فالعربي إذا ما اردت ان تستفزه وتدفع به الى أقاصي الارض فعليك ان تتوجه الى وجدانه لا إلى معدته ، ولذلك تلعب النخوة والفروسية أدواراً جد هامة في السلوك الاخلاقي للفرد العربي . كما وان للايمان لا العقل المركز الاول والممتاز لدى العرب ، واعتقد هذا مما جعـــل شبنغلر يعجب بالعرب كأمة ، ولنسمع ما يقوله عمر بن الخطاب في إرشاداته الستراتيجية والتكتيكية التي وجهها الى سعد بن وقاص :

« أما بعد فاني آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى مكيدة في الحرب ، وآمركم ان تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عـــدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من

عدوهم ... واسألوا الله العون على انفسكم كما تسألونه على عدوكم . »

وإنني لواثق من ان شبنغلر الذي لا شك تبحر في تاريخ العرب واطلع على كل شاردة وواردة فيه لولا بعض رواسب من قومية المانية فاوستية الروح ، جرمانية الطابع ، بروسية النزعة ، لعبر عن اعجابه بالعرب ، واعني بالعرب ، عرب الخلفاء الراشدين ؛ بلغة المفتتن لا المعجب فقط ، وإنني لا أتحدث هنا بوصفي عربياً بل إنما اتحدث بوصفي انساناً ، لأن العروبة كانت تضع دائماً الانسانية فوق كل مفهوم . ولا اعتقد ان شبنغلر صادف ، وهو البحاثة الموسوعي ، أمة تتفق ومزاجه الفكري كالأمة العربية ، وهو حينما يتحدث عنها حيناً معجباً واحياناً مكبراً ، يلمس المرء ان جرمانية شبنغلر ، تجاهد وتصارع لتكبح من جماح افتتانه بالعرب كأمة ، فهو وانا واثق يؤمن بان الامة العربية هي الامة الوحيدة التي وضعت ، وفي عصر الخلفاء الراشدين ، الوجدان فوق العقل ، والحق المطلق فوق المصلحة ، مهما كان لهذه المصلحة من اشكال ودوافع ونزعات .

وقد صدق ابن خلدون حينما وصف العرب فقال :

« والعرب اسرع الناس قبولاً للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق » .

ولا استطيع ان اتصور شبنغلر الا مبهوراً مذهولاً وهو يقرأ الجملتين التاليتين لابن خلدون :

« إن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة » .

« إن المدينة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير » .

والحق أن ابن خلدون قد لخص كامل فلسفة شبنغلر في الجملة الآنفة الذكر .

فالنفس الاولية للامة العربية ، ذات قومية منفتحة لا تسعها الا الانسانية ، ولا تنتظمها إلا الاخلاق ، والأخلاق الحميدة ، والحميدة فقط على وجه التخصيص ، الاخلاق التي تغلب الحق على المصلحة ، والوجدان على العقل ،والعدل على الظلم ، والروية على الاندفاع ، والعف على السفك ،أخلاق تنبذ المكيافيلية ، وتؤمن بان الغاية الشريفة لا يجوز ابداً أن يُسلك اليها وسائل غير شريفة ، لهذا اؤمن بان الاخلاقية العربية كقوة انسانية تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفي أو اقتصادي ، او سياسي أو ... أو ... وذلك لانها تسامت فيما مضى فوق كل الاعراف والتقليد والمفاهيم ، وأعني بكلمة فيما مضى ، عهد الخلفاء الراشدين ، ولهذا فانا واثق من ان شبنغلر عندما اختتم كتابه بومضة من تفاؤل فانما اختتمه بمثل هذه الومضة التفاؤلية، لافتتانه بالروح العربية ، ويكفينا قوله الذي اوردته آنفاً :

« كل هذه الانطلاقات تعادل في زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب الى اسبانيا وفرنسا ، الى الهند وتركستان » .

أو قوله :

« لقد ضغطت في هذه السنوات القلائل ، جميع العواطف العربية المدخرة والآمال المؤجلة والاعمال المحفوظة ، هذه التي تكفي لتملأ قروناً وقروناً من التاريخ » .

أما فكرة الأمة في الحضارة الفاوستية فانما تعبر عنها كلمة « الوطن » ويرى شبنغلر ان هذه الكلمة تعبير عن نزعة النفس الفاوستية الى اللانهائي ، من زماني ومكاني سواءً بسواء ، فالوطن من ناحية المكان هو كما ترى الروح الفاوستية ، بقعة من الارض لا يشعر الفرد الفاوستي بان لها حدوداً جغرافية، بل انما لها أفق يمتد الى ما لا نهاية فهو وطن تنتظمه الروح الفراغية ذاتها التي تنتظم وتسيطر ، وتوجه جميع انجازات الحضارة الغربية ، واعتقد بان هذه الفراغية ، الروح التي تنزع أبداً الى المطلق نزوعاً لا نهائياً هي التي كانت العامل الأساسي في توجيه الانطلاقات الأوروبية وجهة استعمارية ، فنزوع

الروح الفاوستية الى المطلق يختلف تماماً عن نزوع الروح العربية وحنينها اليه ، فالروح الفاوستية نظراً لتأثرها العميق بالحضارة الكلاسيكية ، وان كان شبنغلر يحاول في كل صفحة من كتابه ان ينفي عن الحضارة الغربية التأثر بالكلاسيكية ، روح لا تستطيع ان تمارس وجودها وتغتبط بـه وتسر اذا أشركت مشاعرها الحسية في تجسيد مثل هذا الوجود. أما الروح العربية فانها في حنينها الى المطلق ، وفي سعيها اليه ، فانما تتناسى الأحاسيس الجسدية والمشاعر الحسية ، لا بل تنساها نسياناً مطلقاً ، فالزخم الذي يفيض منها زخم صوفي ، بكل ما لكلمة الصوفية من معنى ، وهو لا يستهدف أبداً في كل نشاطاته توفير الأسباب التي تيسر لها المتع الجسدية ، بل انما يستهدف أولاً وأخيراً الاندماج في الحق الذي هو الله .

ويتوجب علي هنا ان اشير الى ان الروح العربية تختلف ايضاً اختلافاً كلياً في تصوفها عن الروح الهندية واللا شيئية النيرفانية ، فالتصوف العربي الحضاري تصوف ايجابي ينفعل ويتفاعل ويفعل في الكون المحيط به ، اما النرفانية الهندية ، او بالاحرى اللا شيئية الهندية ، فهي تصوف سلبي ينفعل مع الوجدان ويقف عند التفاعل معه فقط ، وذلك لعدم نفوذ الوجدان الهندي الى الكون المحيط به .

واعتقد ان شبنغلر نفسه يقرني على ما ذهبت اليـه فهو حين يبحث في تاريخ كل من الحضارات الكلاسيكية والعربية (المجوسية على حد تعبيره) والفاوستية ، يرى :

ان التاريخ الابولوني هو عبارة عن سلسلة من المصادفات تمر من لحظة الى اخرى ، اما التاريخ المجوسي (العربي) فهو بالنسبة الى الرجل « المجوسي » التحقق المتتالي لخطة كونية ارادها الله ، خطة تسير باتصالها بالشعوب ومن خلالها ، من الخلق الى الافناء ، وأخيراً فان التاريخ الفاوستي هو بالنسبة الى الرجل الفاوستي ، ارادة عظمى واحدة ذات منطق شعوري تعمل الامم على تنفيذها بتوجيه من الحكام الذين يمثلون هذه الأمم .

يتضح مما ورد ان فكرة الامة في الوطن لدى الامة العربية ، هي فكرة تعتبر ان الوطن هو كل مكان تنتشر وتنشر فيه عقيدتها ، اما الفكرة الفاوستية فانها تعتبر الوطن كل بقعة من الارض تسيطر وتفرض ارادتها عليها .

والحق انني لأعجب من موقف شبنغلر واحار ، فهو بالرغم من انه الفيلسوف الذي يؤمن بالوجدان والبديهة ، ويرفض رفضاً كلياً العقل والحس ، يقف من الحضارة الفاوستية (اقول الحضارة لا المدنية) موقفاً فيه الكثير من التمجيد والاعتزاز والفخر ، بينما انني ارى ان الحضارة الفاوستية هي في واقعها الحضارة الكلاسيكية المتطورة بالذات ، حضارة اضافت الى بُعدَي الحضارة الكلاسيكية ، بعداً ثالثاً هو العمق ، بعداً قفز بها من المحدودية الكلاسيكية الى اللا نهائية الفراغية الفاوستية ، ولكن كلتا الحضارتين تعتمدان الحسية العقلانية دستوراً لها ، وان كانت الحسية العقلانية الكلاسيكية اكثر التزاماً بالحواس الخمس من الحسية العقلانية الفاوستية ، بينما ان الحضارة العربية فهي بالاضافة الى كونها ايضاً حضارة ذات ابعاد ثلاثة ، لكن البعد الحقيقي وهو العمق ، هو البعد الذي لا يسيطر على البعدين الآخرين فقط ، بل انما ينفيهما ايضاً ، لذلك كله نرى ان الروح الحضارية العربية روح مغرقة في الايمان باللا محسوس الى درجة تجعل في كثير من حوادثها واحداثها الحضارة العربية تتنافى والمنطق وتتمرد على الظروف في كل اشكالها ، ويكفي المرء ان يدرس سيرة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب دراسة فيها بعض امعان ليتضح له نكران الانسان العربي الحضاري لكل ما فيه انتشاء حس ، لذلك صدق شبنغلر كل الصدق عندما قال ان السيد المسيح والمسيحية هما عربيا المنشأ والوجود ، اذ انه لا يمكن لأية امة غير الأمة العربية ان تدفع الى الوجود المادي روحية كروحية السيد المسيح ، لهذا فان الحضارة العربية حضارة غير متأثرة ابداً بالحس اليوقليدي ، كما هي حال الحضارة الفاوستية التي تستمد براهين عقلانيتها من الحواس الخمس ، وتحاول في

هذا العصر ، عصر الصواريخ ، عصر غزو الفضاء ، ان تخضع رياضياتها الفراغية اللاحسية في الوقت الحاضر للحواس الخمس ، وان كانت بعض عوالم هذه الحواس لا تزال متمردة على طاقات الحواس .

٩ – الدولة والشعب وارادة الانسان :

يرى شبنغلر ان اجتماع المحاربين في قبيلة او جنس او خليط من الشعب بقصد الدفاع ضد قوة خارجية معادية ، هو البذرة الاولى للدولة ، وبهذا يرى شبنغلر ، ان الاصل في الدولة هو الحرب ، ولا شك ان شبنغلر الذي يعتبر الخوف او بالاحرى الرعب عاملا إبداعياً خصباً ، عليه ايضاً ان يعتبر الحرب التعبير الفعال عن الارادة الانسانية التي تعزم على الصمود أمام الرعب، ان لم تكن تقصد حقاً استئصاله . والحق ان شبنغلر هو من المعجبين بنيتشه فيلسوف القوة ، وفيلسوف إرادة القوة ، وان لم يبد اعجابه بصورة علنية واضحة ، لكنه يلتقي مع نيتشه عند اعتباره الدولة دولة قوة ، ويرى ان من الوظائف الاساسية للدولة هو القيام بالحروب ، فالحروب حسب اعتقاده هي التي تحافظ على حيوية وحدة الجماعة ، والحرب على حد قول شبنغلر « هي الخالقة لكل ما هو عظيم ، وان كل ما له معنى في تيار الحياة قد ولد ونشأ عن النصر والهزيمة . »

والدولة تقوم على أيدي الرجال وبهذا يقول شبنغلر :

« ان الدولة من شأن الرجال ، إنها الاهتمام بالمحافظة على الكل ، بما فيها المحافظة الروحية على الذات وهي التي يسمونها باسم الشرف واحترام النفس ، انها الانتصار على التعدي ، وتوقع الاخطار قبل حدوثها ، انها أولا وقبل كل شيء الهجوم بمعناه الحقيقي ، هذا الهجوم الذي هو طبيعي وواضح بنفسه ، بالنسبة الى كل حياة هي في سياق التسامي والصعود . »

ويرى شبنغلر ان الدولة هي صورة للشعب ، لكنه يرى في الوقت ذاته ان الاحداث هي التي تصنع الشعب ، وليس الشعب هو الذي يصنع الاحداث

وبهذا يقول :

« ان الشعب هو وحدة للروح ، وان كل الاحداث العظمى في التاريخ لم تكن في الواقع من عمل الشعب ، بل إنما هي التي اوجدت الشعوب أولا .»

ويستطرد قائلا :

« إن الفعل هو الذي يغير من روح الفاعل . ومن الجائز ان يجتمع الناس حول اسم مشهور ، لكن وجود شعب محل خليط من الناس وراء هذا الاسم هو نتيجة وليس شرطاً لوجود أحداث عظمى . »

ويرى شبنغلر ان ليست وحدة اللغة ولا وحدة الانتساب الى جنس واحد ، العاملان الاساسيان في كون الشعب شعباً بمعناه الحقيقي ، بل إنما وحدة الشعور ، أو « الحس الجماعي القومي » كما اسماه « يوهان جويكيب فيخته » هي الجوهر والاساس ، ويرى ان حيوية الشعب تقاس دائماً بمدى عمق هذا الشعور بالوحدة وحيويته . فالشعوب على حد تعبير شبنغلر ليست وحدات سياسية او لغوية أو ذات دم نقي ، بل إنما هي وحدات روحية . وهكذا فان شبنغلر يقسم الشعوب الى شعوب سابقة للحضارة وهي الشعوب الاولية ، على حد تعبيره ، ويُعرّف هذه الشعوب على الشكل التالي :

« إنها الجماعات المراوغة الفرارة وغير المتجانسة ، والتي تتكون وتنحل بلا قاعدة معروفة في ديناميكية الاشياء ، والتي تنتهي بأن تشعر شعوراً سابقاً غامضاً بحضارة لم تولد ، كما كانت الحال في الزمن السابق لهوميروس ، والزمن السابق للمسيح وزمن الجرمان ، والتي تتركز في طبقات كاملة ذات طابع يتجلى شيئاً فشيئاً ، وهي جامعة اخلاط من الناس في هيئات جماعية . بينما لم يتغير طابعها الانساني إلا قليلا . » ومن ثم يقسمها الى شعوب موجودة في الحضارة ، وشعوب متأخرة عنها . ويسمي شبنغلر الشعوب المتأخرة عن الحضارة باسم « شعوب الفلاحين » .

ويرى شبنغلر أن الشعوب هي نتاج الحضارات ، وليست الحضارات ابداً

نتاج الشعوب وبهذا يقول :

« يجب أن نؤكد بكل ما أوتيناه من قوة على ان الحضارات العليا هي شيء أصيل كل الأصالة ،شيء انبثق من اعمق اعماق الروح ، بينما ان الشعوب هي على العكس من ذلك ، ليست بصوزتها الباطنية وبكل ظاهراتها المنتجة للحضارة ، بل انما هي رموز للحضارات ، رموز الى ارواح الحضارات ، وهي الرموز الاولية للحضارات .

١٠ ـ فكرة المصير والتاريخ :

يرى شبنغلر أن التاريخ خاضع لقانون حديدي يتمثل في المصير ، وأن الانسان مجرد من الارادة الحرة ،إذ أن عليه أن يخضع لمصيره ويذعن ، فليس الانسان هو الذي يصنع التاريخ ، بل إنما الحوادث والاحداث هي التي تختار انسانها وتحط تاريخها ، ويضرب المثل شبنغلر على هذا القانون بنابليون، فهو يرى أن نابليون كان العربة التي امتطتها الحوادث والاحداث ، وانه كان باستطاعة هذه الحوادث أن تجد العشرات على أمثال نابليون ليدونوها في سجلات التاريخ . ويلتقي شبنغلر في ايمانه بمعظم الفلسفات التي عرفتها اوروبا في اعقاب الثورة الفرنسية ،وخاصة بالمادية الديالكتكية وبالداروينية، ويلتقي حتى بالمسيحية البولصية . (نسبة الى بولص الرسول) .

١١ ـ بين التاريخ والطبيعة :

يقول شبنغلر بان التاريخ مطبوع بطابع الحدوث مرة واحدة فقط ، بينما أن الطبيعة مطبوعة بطابع إمكان تكرر الحدوث ، فشبنغلر يرى ان التاريخ لا يتكرر أبداً ، وإن كل واقعة تاريخية هي واقعة فريدة في نوعها وفريدة في حدوثها ، ويؤمن شبنغلر بان الوجدان والصيرورة والزمان والمصير والحياة ، هي أعمدة التاريخ وأسسه ، وأن الصير والفراغ والتخشب والتحليل والعقل ، هي التي تشكل الاسس التي تعالج مواضيع الطبيعة وفقها . وإن

كل مذهب طبيعي يتألف من مجموعة من الحقائـــق ، أما التاريخ فيتألف من مجموعة من الوقائع والوقائع تتالٍ وتتابـع ، بينما ان الحقائق يستنبط بعضهـا من بعض ، والحقائق قابلة للتحديد والتعريف ، أما الوقائع فانها غير قابـلة لتحديد او تعريف وذلك لانها ترتبط بالصيرورة وبالمصير ، بالزمان والحياة ، وهذه الاشياء ،جميعاً ترفض التعريف وتأبى التحديد ، ويستشهد شبنغلر بقول نيتشه في هذا الموضوع ، إذ يقول نيتشه :

« إن القابل للتعريف هو وحده الذي لا تاريخ له ».

ويرى شبنغلر أن هناك كبير فرق بين التاريخ والتأريخ ، وذلك لان التاريخ صيررورة كاملة ، أما التأريخ فأمر غير مستطاع إلا بواسطة تحويـــل شيء من الصيرورة الى الصير .

١٢ ـ مبدأ القوة :

يرى شبنغلر ان التاريخ الواقعي لا يتمثل في سيادة المثل العليا والخـــير والاخلاق ، بل يتمثل في سيادة العزيمة والارادة القوية للذهـــن الحاضر والموهبة العملية فالحياة عند شبنغلر هي نضال مستمر من أجـــل السيطرة والسيادة وليست هناك من قوة اخرى تنتظمها سوى قوة المصير ، هــــذا المصير الذي لا يرحم ولا يكترث بصيحات الشاكين واحكامهم الاخلاقية .

وشبنغلر يلتقي في هذا المبدأ ونيتشه ،ويكاد يكون صدى لصوته ومرجعاً لفلسفته ، وان كان شبنغلر يتفوق على نيتشه في منطقه وخبرته الواسعـــة في العلوم الطبيعية ومعرفته الموسوعية .

١٣ — الاشتراكية :

يرى شبنغلر ان الاشتراكية قد تكون آخر دفعة من دفعـــات الحضارة الفاوستية في ميدان الاجـــتماع والسياسة ، ومع مآخذ شبنغلر الكثيرة على

الاشتراكية في شتى اشكالها المتعارف عليها ، إلا انه يعترف بصورة غير مباشرة بان للاشتراكية من الزخم والقوة طاقات ستجعلها نظام المستقبل ودستوره ، وذلك لا بالنسبة الى الامم الفاوستية بل إنما بالنسبة لجميع الامم على ظهر هذا الكوكب . وقد يخيل الى القارىء ان شبنغلر حينما يلمح الى هذه الواقعة فانما يناقض الكثير إن لم أقل كل نظرياته وخاصة القانون الحديدي الذي اشترعه والذي ينص على انه لكل أمة حضارة خاصة بها ، حضارة تختلف عن حضارات الأمم الاخرى أصلا وجوهراً ، وان شتى الانظمة والعلوم والفنون المنبثقة عن حضارة ما تختلف بالضرورة عن مثيلاتها النابعة من حضارة أخرى ، ولكن شبنغلر يرى ان العالم لا يعرف اليوم سوى الحضارة الفاوستية التي تحولت في مطلع القرن التاسع عشر الى مدنية ، وانه لا توجد في الوقت الحاضر أية مدنية أخرى سوى المدنية الفاوستية ونحن إذا ما تأملنا في إيمان شبنغلر هذا لوجدناه يلتقي بالحق ، فالامم الاخرى من شرقية وغربية وفي القارات الخمس تعتمد اليوم العقلانية الفاوستية وتحاول ان تتمثلها ، ولا شك ان شبنغلر كان سيسمي مثل هذا التمثل وذاك الاعتماد « بالتشكيل الكاذب » وذلك لانه يؤمن بان الاشتراكية هي خاصة مميزة للمدنية الفاوستية . ولكن أية اشتراكية هي تلك التي يؤمن شبنغلر بانها ستكون نظام المستقبل ودستوره ؟ هل هي الاشتراكية الماركسية أم الاشتراكية الغربية من ديمقراطية وفابية وحتى فاشية ونازية ؟

ان شبنغلر يرى كما اعتقد ان المستقبل وقف على الاشتراكية العقلانية العلمية وذلك لان شبنغلر يقرر في كل مناسبة بأن العقل والعلم هما موجها كل مدنية وسيداها ، وهنا علي ان أشير انه بالرغم من النقد القاسي العنيف الذي يوجهه شبنغلر أحياناً الى الديالكتيك المادي وهيغل وماركس وخاصة في اللوائح المرفقة لمؤلفه ، إلا انه كما تراءى لي في كثير من صفحات كتابه ان شبنغلر يعتمدالديالكتيك نهجاً في تفسيره للتاريخ في شكليه الحضاري والمدني ، زد على ذلك ان جبرية شبنغلر تلتقي بجبرية الديالكتيك بالرغم من الروح

المتشائمة التي تغلف آراءه ومعتقداته .

١٤ – العلوم :

يرى شبنغلر أن جميع العلوم من فيزياء وكيمياء ورياضيات تتجه اليوم لتصبح علماً واحداً بحيث لا يمكن معالجة أي فرع من الفروع التي ذكرت آنفاً دون الاعتماد على الفرعين الآخرين ، ويرى أيضاً ان اندماج العلوم وصيرورتها وحدة غير قابلة التجزئة ضرورة من ضرورات المدنية الفاوستية ، وخاصة البعد الثالث منها ، هذا البعد الذي تطمح المدنية الفاوستية أن تغوص بواسطته عميقاً في مجاهل الفراغ (الفضاء Space) ويقف شبنغلر معجباً مذهولاً أمام النظرية النسبية ، وخاصة اعتماد هذه النظرية مبدأ الزمان المكاني قانوناً هاماً من قوانينها ويرى أن هذه النظرية قد تجاوزت نطاق المعرفة على هذا الكوكب ، وانها قد دخلت نطاقاً لا يزال مجهولاً للانسان حتى الآن .

١٥ - بمن تأثر وأثر شبنغلر :

لا شك أن شبنغلر قد تأثر بنيتشه وبمذهبه وتأثر ايضاً بهيغل وبفكرته عن الدولة ، وتأثر ايضاً بالمادية الديالكتيكية التاريخية وتأثر ايضاً وأثر ايضاً بالوجوديين الحديثين ، واعتقد بأنه كان احد الوجوديين القلائل ، الذين استطاعوا وهم يشنون حملات كاسحة على العلم والعقلانية ، أن يقدموا للمذهب الوجودي اسساً علمانية عقلانية وبعيدة كل البعد عن الصوفية والرمزية ، وهو يتفق والوجوديين على الكثير من الامور وخاصة مع تلك الزمرة منهم التي تحاول ان توفق بين الوجودية المادية والوجودية الصوفية .

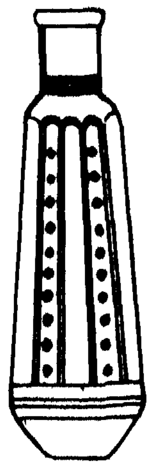
١٦ - الخاتمة :

هذه هي مقدمة مبتسرة لمؤلف ضخم يعتبر من ذخائر التراث الانساني

الخالد ، ومع علمي بانني لا استطيـع ان أفي شبنغلر حقه بصفحات معدودة إلا أنني رغبت في ان اقدم واعرض بعضاً من آرائه الواردة في هـذا المؤلف الضخم ، لا بل في هذه الموسوعة الحضارية الضخمة التي تقـدم لاول مرة بالعربية بواسطةدار مكتبة دار الحياة ، آمـلاً ان تلقى لدى القارىء العربي مطالعة ودرساً .

بيروت في ١ كانون الثاني سنة ١٩٦٤

أحمد الشيباني



مقدمة الطبعة الأولى

كانت مخطوطة هذا الكتاب ، وهو ثمرة ثلاثة اعوام من العمل،قداكتملت عندما نشبت الحرب العالمية . وقد قمت في ربيع عام ١٩١٧ بالعمل ثانية في المخطوطة ، وبشيء من تفاصيل معينة اوضحتها وأضفتها اليها.ولكن الكتاب لم يقدم الى الطبع نظراً للظروف التي كانت سائدة آنذاك .

وبالرغم من ان فلسفة التاريخ هي مجال التاريخ وفكرته ، إلا أنها تملك ايضاً مغزى معيناً اعمق بوصفها شرحاً للحظة حقبية عظمى كانت نذرها بادية للعيان عندما كونت الافكار الرئيسية في هذا الكتاب .

إن عنوان الكتاب الذي بت قراري عليه عام ١٩١٢ يعبر تعبيراً حرفياً عن هدف هذا الكتاب الذي أريـــد له أن يصف ، على ضوء تدهور العصر الكلاسيكي ، طوراً عالمياً تاريخياً ابتدأناه وسيمتد بنا عدة قرون .

لقد بررت الاحداث الكثير من الآراء الواردة في هذا الكتاب،ولم تدحض أيّاً منها .وبدا واضحاً ان هذه الآراء يجب بالضرورة ان تتقدم في هذه الفترة بالذات وفي المانيا، زد على ذلك ان الحرب بحد ذاتها كانت عنصراً في المقدمات المنطقية التي يمكن لنا أن نرسم منها الصورة الجديدة للعالم رسماً متقناً مضبوطاً. وذلك لانني وطيد القناعة بان القضية ليست مجرد قضية وضع فلسفة من شتى الفلسفات الممكنة التي يمكن تبريرها تبريراً منطقياً ، بل انما القضية هي أن

بضع فلسفة زماننا ، وهذه الفلسفة هي الى حـد ما فلسفة طبيعية . والجميع يشير اليها إشارة كليلة مبهمة .

هذا هو ما يمكنني ان أقوله دون غطرسة او كبر، وذلك لأن الفكرةالتي تكون جوهرية بالنسبة للتاريخ (أي انها لا تبرز خلال حقبة ، بل انما هي نفسها التي تصنع الحقبة) هي الى حد محدود فقط ، ملك ذاك الانسان الذي يختاره القدر ليكون علة صدورهـا . فهذه الفكرة تنتمي الى زماننا ككل وتؤثر في جميع المفكرين دون أن يعرفوا بها . لكن الموقف التصادفي الخاص نحوها (وبدون هذا الموقف لا يمكن ان توجد فلسفة) هـــو بكل حسناته وسيئاته مصير الفرد وسعادته .

اوزفالد شبنغلر

ميونيخ — ديسمبر ١٩١٧

مقدمة الطبعة المنقحة

حينما نقترب من نهاية عمل ذي أبعاد غير محسوبة من قبل، عمل استغرق انجازه ، منذ وضع مخططه الاولي حتى اتخاذه شكله النهائي، عشر سنوات من الزمن ، فعندئذ إذاما القيت بلمحة الى الوراء على ما كنت انتويه وما انجزته ، على نظرتي بالأمس ونظرتي اليوم ، فان لمحتي هذه لن تكون في غير محلها .

لقد أكدت في المقدمة التي وضعتها لطبعة هذا الكتاب عام ١٩١٨ (وتلك المقدمة كانت مجرد شذرة في مظهرها وجوهرها) ، أقول أكدت قناعتي بان في هذا الكتاب فكرة قد صيغت الآن صياغة لا تقبل تفنيداً أو دحضاً ، فكرة لن يعترض عليها أي معترض حالما تتجسد الحروف والكلمات ، وكان من الواجب علي أن اقول حالما ُتدرك وتفهم . والآن ارى قناعتي تزداد رسوخاً يوماً بعد آخر ، (وليس فقط في هذه الحالة ، بل في كامل تاريخ الفكر) قناعتي بانه من المتوجب علينا أن نتطلع الى الجيل الجديد الذي ُولد بكفاية وهمة تمكناه من انجازها .

ولقد قلت ايضاً في تلك المقدمة ، بان هذا الكتاب يجب أن ُيعتبر محاولة اولى ، محاولة مشحونة بكل الاخطاء المألوفة ، محاولة غير كاملة وغير خالية من تعارض باطني . غير ان هذه الملاحظة لم تؤخذ مأخذ الجد المقصود لها . واولئك الناس الذين يرسلون بنظرات ثاقبة فاحصة الى فرضيات الفكر الحي

ونظرياته سيعلمون باننا لم ُنعط القوة لاكتساب البصيرة في مبــادىء الوجود الاساسية دون أن تعتلج صدورنا بعواطف متعارضة متصارعة . فالمفكر هو إنسان يــتركز دوره على تجسيد الزمان رمزاً وذلك وفق رؤياه وفهمه . والحقيقة في نظره هي ، على المدى الطويل ، صورة العالم الذي ُولد حــين ولادته . إنها ذاك الشيء الذي لا يخترعه ، بل بالأحرى يكتشفه داخل ذاته . إنها (الحقيقة ـ المتربعة) نفسه مرة ثانية ، إنها وجوده المُعَبَّر عنه بكلمات، إنها معنى شخصيته المُصاغة في مذهب غير قابل للتعديل أو التبديل بالنسبة الى حياته، وذلك لأن الحقيقة وحياته تنطبق الواحدة منهما على الثانية انطباقاً كلياً . وهذه الرمزية هي الجوهر ، فهي وعـــاء التاريخ الانساني وتعبيره . ومـــا الاعمال الفلسفية الضليعة سوى من النوافل التي تزيد كثيراً في حجم الادب المُحترَف .

إذن فباستطاعتي ان أصف ما اكتشفته بانه حقيقي ، واعني بذلك أنــه حقيقي بالنسبة إلي ، وحقيقي كما اعتقد في نظر العقول القيادية في زمان مقبل . ولكنه ليس حقيقياً في ذاته إذا ما ُعزل عن الظروف التي فرضهــا الدم واستوجبها التاريخ ، لأن هذا الأمر مستحيل . وعــلي أن أعترف بان ما كتبته خلال تلك السنوات المترعة بالشدائد والعواصف ، جاء بمثابة تصريح ناقص نقصاً شديداً عما كان ينتصب أمام ناظري بجـــلاء ووضوح . وهكذا وجدتني اكرس السنوات التي تلت تلك ، لواجب ربط الوقائع بعضها ببعض، والعثور على وسائل التعبير الــتي يجب ان تمكنني من عرض فكرتي باشد الاشكال قوة وإلزاماً .

أما أن نبلغ بذاك الشكل مستوى الكمال ، فهذا أمر مستحيل ، فالحياة نفسها تكتمل فقط في الموت . ولكنني قمت مرة ثانية بالمحاولة للارتفاع حتى بالاقسام الاولى من هذا الكتاب الى مستوى من التحديديــة التي بتُ أحس بانني قادر الآن على الكلام معها . وعند هذا الحد اترك كتابي بآماله وخيبة آماله ، بحسناته وسيئاته .

وفي هذه الاثناء بررت النتيجة نفسها في نظري . وإذا ما تأملنا فيما لها من أثر بدأ ينتشر رويداً رويداً في ميادين الدراسة المترامية الاطراف ، نقول بانها بررت نفسها في نظر الآخرين . ولا أريد لأي انسان أن يترقب بانه سيجد كل شيء قد رتب ونسق في هذا الكتاب . فأنا لا أرى سوى الجانب الواحد أمامي ، وما أراه هو نظرة جديدة الى التاريخ وفلسفة المصير ، وهي فعلاً النظرة الأولى من نوعها في هذا الميدان . وهي حدسية تصويرية سداة ولحمة ، وقد دونت بلغة تسعى الى عرض المواضيع والعلاقات عرضاً توضيحياً بدلاً من ان تقدم حشداً من المذاهب والمفاهيم المنضدة المبوبة . وهذه النظرة تتوجه بنفسها فقط الى القراء الذين يستطيعون أن يحيوا ذواتهم داخل أجراس الكلمة والصور وهم يقرأون . وهذا الامر لا شك قاس صعب ، وخاصة لان رعبنا أمام الاسرار الغامضة (وهو الاحترام الذي كان يحسه غوتيه) يحرمنا من قناعة التفكير بان التشريح هو كالتوغل والنفوذ تماماً .

وما كاد يصدر هذا الكتاب حتى تعالت فوراً صرخة تقول : دونكم التشاؤم : وارتفعت هذه الصرخة من حناجر اولئك الذين يعيشون أبداً في الماضي ويندبون كل فكرة اوجدت لرائد درب الغد. لكنني لم اكتب لاولئك الناس الذين يتخيلون ان التنقيب عن منابع الفعل هو الفعل ذاته ، فأولئك الذين يضعون التعاريف يجهلون المصير .

إنني اعني بفهم العالم كوني معادلاً للعالم ومتكافئاً معه. فالجوهر هو حقيقة الحياة الصلدة وليس مفهوم الحياة الذي تعرضه فلسفة النعامة المثالية. واولئك الذين يرفضون ان يتركوا للتصاريح ان تغرر بهم ، لن يعتبروا ما قلته تشاؤماً . أما الآخرون فلست بهم بمهتم او مكترث . ونظراً للتركيز الشديد في متن الكتاب، ذكرت من أجل فائدة القراء الجادين والذين يسعون للحصول على لمحة عن الحياة ، وليس على تعريف ، أقول ذكرت في هوامش الكتاب عدداً من المؤلفات التي تساعدهم على الامتداد بنظرتهم الى ميادين أبعد من ميادين المعرفة .

وأخيراً أحس بأنــه من المتوجب علي أن أسمي مرة أخرى أولئك الذين أدين لهم عمليا بكل شيء ، انهما غوتيه ونيتشه ، فلقد اعطاني غوتيه المنهاج ومنحني نيتشه موهبة الاستنطاق ، وإذا ما سألني أحد أن أجد صيغة لعلاقتي بنيتشه،اقول بأنني جعلت من نظرته الى الحياة (Outlook) نظرة تستشرف الحياة (Overlook) ولكن غوتيه كان دون أن يعلم تلميذاً « لليبنتز » في صيغة فكره،ولذلك اراني افخر بأن أعتبر هذا الذي اتخذ له أخيراً (لدهشتي وعجبي) شكلاً على يـــدي ، وادعوه فخوراً ، بالرغم من سنوات البؤس والتقزز هذه ، فلسفة المانية .

بلانكبرج في الهارتس

ديسمبر ١٩٢٢

اوزفالد شبنغلر



الفصل الاول

مدخل

- ١ -

في هذا الكتاب نُحاوِل ، لأول مرة المغامرة في وضـــع تقرير مُسبق للتاريخ ، والاقدام على تتبُّع مراحل غـــير مطروقة في مصير الحضـــارة ، واعني على وجه التخصيص الحضارة الغربية ، من أوروبية واميركية،حضارة زمننا على ظهر هذا الكوكب، هذه الحضارة التي بلغت في واقع الحال مرحلة الاكتمال والتحقق .

والحق،أنه لم يسبق أبداً للخيال حتى اليوم أن راوده حل مشكلة مترامية الأطراف كهذه المشكلة ، وحتى حالة حدوث مثل هذه المراودة ، فإن وسائل حلها بقيت في مجموعها إما مجهولة،أو انها، وفي أحسن الأحوال قد استخدمت استخداماً غير كاف ولا يفي بالمراد .

هل هناك منطق للتاريخ ؟ وهل وراء جميع عناصر الحوادث المتفرقة من عرضية وغير مرتقبة ، أو محسوبة ، شيء يمكننا أن نسميه بالتركيب

الميتافيزيقي للانسانية التاريخية ، شيء مستقل استقلالاً جوهرياً عن الاشكال الخارجيـــة (. الاجتماعية والروحيـــة والسياسية) وينبري لأنظـــارنا بوضوح وجلاء ؟

أليست هذه الحقائق هي ، فعلا ، ثانوية أو ناجمة عن ذلك الشيء ؟

هل يعرض التاريخ العالمي على العين المبصرة خصائص عظمى معينة ، مرة بعد أخرى ، خصائص متانة وثبات كافيين كي يبرر نتائج معينة ؟ فإذا كانت الحال هذه ، فما هي الحدود النهائية التي يمكننا أن ندفع اليها ، بالمحاكمة والمناظرة الفكريتين المنطلقتين من مقدمات كهذه ؟

هل يمكننا أن نجد في الحياة ذاتها (وذلك لأن تاريخ الانسانية هو مجموعة من مجارٍ حياتية جبارة كان عليها أن تطبع بطابع « الأنا » (Ego) والشخصية أثناء التعبير والتفكير المتداولين،وأن تستند الى ذاتية نظام اسمى، كالمدنية الكلاسيكية أو الصينية أو العصرية ، سلاسل من مراحل يتوجب علينا أن نعبرها ، وأن نعبرها بالاضافة الى ذلك،في سياق تاريخي لحمته النظام وسداه الارغام ؛ فكل شيء منظم ، كادراك الولادة والموت والشباب ، والسن والعمر، جميع هذه اشياء أساسية أفلا يجوز القول أن هذه الادراكات، في هذا الحقل أيضاً تملك مفهوماً صارماً عنيفـاً لم يستطع أحـــد حتى الآن استخلاصه ؟ وقصارى القول ،هل التاريخ يتمثل لنا أنه نموذج للسيرالشخصية العامة ؟ إن تدهور الغرب ، الذي يبدو لنا لأول وهلة انه انحطاط يماثـل انحطاط الثقافة الكلاسيكية ويرافقه ، هو ظاهرة محـدودة الزمن والمجال . وإننا ندرك الآن أن المشكلة تصبح مشكلة فلسفية ، عندما نعي خطورتهـا وعياً كاملاً ، وعندئذ تحتوي مثل هذه المشكلة على جميع مسائل الوجـــود العظمى وقضاياه .

ولذلك فنحن،اذا ما أردنا أن نكتشف الشكل الذي يريد لها القدر قدر الحضارة الغربية ، أن تتبدى منجزة ومكتملة فيـه ، علينا أولاً أن نعرف بوضوح ما هي الحضارة ، وما هي ارتباطاتها بالتاريخ المنظور ، وما هـــي

علاقاتها بالحياة وبالروح وبالطبيعة.وبالفكر وما هي اشكال مظاهرها ، والى أي مدى تمتد هذه الاشكال (الشعوب واللغات والعصور التاريخية والمعارك والعقائد والأفكار والدول والآلهة والفنون والعلوم والقوانين والانظمة الاقتصادية والأفكار العالمية والرجال العظام والاحداث الضخمة) ويمكن القبول بها والاشارة اليها بوصفهانماذج ومُثُلا .

– ٢ –

إن الوسائل التي نتعرف بواسطتها على الأشكال الميتة هي قانون رياضي أما الوسائل التي تمكننا من فهم الاشكال الحية فتجتمع في قانون المشابهة أو المماثلة . وبواسطة هذه الوسائل نستطيع أن نميز بين الاستقطابية Polarity والتتالي (Periodicity) في العالم .

لقد كان من المعلوم ، كما هو اليوم أيضاً ، أن الاشكال التعبيرية للتاريخ العالمي هي محدودة العدد محصورته ، وأن العصور والمراحل والأوضاع والاشخاص ، تكرر ذاتها كنماذج حقيقية . فمن النادر أن كتب أحد بحثاً عن نابليون دون أن يلقي نظرة جانبية على قيصر واسكندر الكبير (وهذه مقارنات كما سنرى فيما بعد ، أن الألوف منها– أي أن التاريخ يعيد نفسه – غير مقبولةمن حيث الشكل الخارجي«Morphologically» أماالثانية فصحيحة) . بينما ان نابليون كان يرى نفسه مماثلاً لشارلمان . أضف الى ذلك أن الجمعية الثورية الفرنسية كان اعضاؤها يتحدثون عن قرطجنة وهم يعنون بريطانيابهذا الاسم وكان اليعاقبة يعتبرون أنفسهم رومانيين .

وهناك مقارنات أخرى بعضها صحيح وآخر مغلوط ، كمقارنة فلورنسا بأثينا ، وبوذا بالمسيح ، والمسيحية البدائية بالاشتراكية المعاصرة ، والثراء العريض في عصر قيصر بثراء « اليانكي » [١] ، وبترارك طليعة علماء الآثار

---

(١) لقب يطلق على سكان الولايات المتحدة الاميركية .

العاطفيين (أو ليس علم الآثار في حد ذاته ،تعبيراً عن حس بأن التاريخ يعيد نفسه) ربط نفسه فكرياً بشيشرون ، ومؤخراً فإن سيسيل رودز منظم افريقيا الجنوبية البريطانية والذي كان يملك في مكتبته ترجمات معدة عن حياة القياصرة الكلاسيكية ، كان يرى في ذاتـه مثيلاً للامبراطور هادريان . أما شارل الثاني عشر ، ملك السويد المنكود ، فإنـــه كان يحمل في جيبه سيرة الاسكندر الكبير التي وضعهـا كونتيوس كورتيوس وكان هدفـه المتعمد المقصود تقليد هذا الفاتح في كل عمل يأتيه .

أما فريدريك الكبير ، فكان يصول ويجول في هذا الحقل وهو وطيد القناعة راسخ الثقة . ونحن اذا ما عدنـــا الى كتاباته السياسية ، وكتابه « التقديرات » عام ١٧٣٨ ، على سبيل المثال نجده يماثل بين الافرنسيين وبين المقدونيين في عصر فيليب ، وبين الألمان واليونان، فهو يذكر مثلاً قوله :

« حتى الآن فإن ، ثرموبايل « الألمانيـة : الالزاس واللورين لا تزال في أيدي فيليب » .

وبهذا يمثل فريدريك الكبير سياسة الكاردينال فلوري تمثيلاً صادقاً ، كما وأننا نرى أن فريدريك ينشىء المشابهات بين عائلتي هبسبورغ والبوربون ، ويتحدث عن نفي أنطوني واكتافيوس .

ومع ذلك فإن هذه لم تكن في مجموعها سوى نبذ مجزّأة متعسفة ، وهي عادة تدل على رغبة آنية في استعمال التعابير الشعرية الواضحة ، أكثر من دلالتها على حس مرهف حقيقي بالأشكال التاريخية .

أما « رنكه » سيد المماثلة الفنية ، فإن مماثلاته بين سياكسارس وهنري الصياد وبـــين غزوات ، الكميريانيين والهنغاريين هـــي غير ذات اهمية « مورفولوغية ». كما لمماثلته بين دول المدن الهيلينية (اليونانية)وبين جمهوريات مدن عصر النهضة ضآلة شأن وقلة اهمية .

أما مقارنته العميقة في حقيقتها بين السبيادس ونابليون فإنها جاءت عرضية

وغير متعمدة . « رنكه » ليس بـذاك الرياضي الصارم الذي يجد علاقات داخلية بين مجموعتين من المعادلات التفاضلية (Differential equations) ، بينما لا يرى الرجل العادي في مثل هاتين المجموعتين سوى الاختلاف في أشكالها الخارجية . لذلك فإن « رنكه » وغيره من المؤرخين يرسمون مماثلاتهم التاريخية بريشة بلوتارك العاطفية المشهورة ويهدفون فقط الى عرض مناظر تجري المقارنة بينها على مسرح العالم .

إنه لمن اليسير علينا أن نرى أن الحقيقة العميقة التي تفرض اختيار المناظر واللوحات لا تنبع من مبدأ ولا تتدفق من حس بالضرورة التاريخية ، بل انما هي مجرد رغبة عادية وميل بسيط غير معقد . فنحن لا نزال بعيدين كل البعد عن اية تقنية « Technique » من تقنيات المماثلات فهي (الدراسات التاريخية) تحشد حشودها (وفي يومنا هذا اكثر من غيره) دونما مخطط أو وحـدات واذا ما قدر لها أن تقع على شيء حق (ويبقى المعنى الحقيقي لهـذه الكلمة غير مقرر) فإن الفضل في ذلك يعود الى الحظ ، وأقل ندرة الى الغريزة ، ولكن لا يعود قطعا الى مبدأ عام أو مخطط . ففي هـذا الحقل لم يكلف أبداً أي انسان نفسه عناء وضع منهاج (Method) لدراسته ، ولم يسبق لأي شخص أن ادرك من قريب أو بعيد ، أن هناك منشأً أو جذراً ينمو عليه حل عريض وواسع لمشاكل التاريخ .

إن المماثلات (Analogics) طالما هي تعرض التركيب الجوهري فإنهـا نعمة وبركة بالنسبة الى الفكر التاريخي . فتقنيتها المتطورة برعايـة فكرة مفهومة ، ستنتهي بها حتما وتأكيداً الى نتائج محتومة والى براعة منطقية فائقة . لكن هذه المماثلات كما فُهمت ومورست من قبل كانت لغة حيث انها أتاحت للمؤرخين اتباع اذواقهم الخاصة بدلاً من أن يدركوا بوعي أن واجبهم الأول المترع بالمصاعب يتعلق بنموذجية التاريخ ومماثلاته . وقد نتج عن هـذا الواقع أن المشكلة لم تفهم حتى الآن ، ناهيك عن حلها . وهـذه المماثلات سطحية في قضايا عديدة (مثلاً ندل الى قيصر بوصفه أول من أوجد الجريدة الرسمية)

واضحل من السطحية في أمور أخرى (وذلك في استعراضها لبعض ظواهر العصر الكلاسيكي ، هذه الظواهر التي هي بالاضافة الى كونها بالغة التعقيد فإنها غريبة كل الغرابة عنا ولن يخفف من شذوذها الملتقي بالضلال،وسمها بشعارات جذابة كالاشتراكية والتعبيرية والرأسمالية والكهنوتية) لما تحملها الصدف إلى درجة محيرة بشذوذها – ومثل ذلك – نوادي اليعاقبة ، وفي مبدأ عبادة « بروتس » عندهم ولنمعن النظر في قناص الملايين « بروتس » هذا الذي أقدم مدعوماً بالمذهب الأوليغاركي ، وبموافقة مجلس الشيوخ الممثل للأوليغاركية على اغتيال نصير الديمقراطية ورجلها .

– ٣ –

وهكذا نرى أن موضوعنا الذي يحتوي فقط ، في الأساس على المشكلة المحددة لمدنيتنا الحاضرة ، يتسع ليصبح فلسفة جديدة هي فلسفة المستقبل ، وذلك على قدر ما تستطيع تربة الغرب المستنزفة ميتافيزيقياً احتمال فلسفة كهذه ، فلسفة هي على كل حال الفلسفة الوحيدة التي بمتناول امكانات الفكر الأوروبي الغربي خلال المراحل القادمة . أضف الى ذلك أن هذه الفلسفة تمتد لتمسي ادراكاً كلياً للتركيب الخارجي (Morphology) للتاريخ العالمي ، وللعالم كتاريخ مضاد للتركيب الخارجي للعالم كطبيعة(Nature) كانت تقريباً حتى الآن الموضوع الوحيد للفلسفة . وهي علاوة على ذلك تغوص مرة أخرى الى اعماق أشكال العالم وحركاته وتستعرض ممحصة خطورتها النهائية .لكنها هذه المرة تقوم بعملها المذكور وفق منهاج مختلف ونظام مغاير لا يجمع بين هذه الأشكال والحركات في صورة متلاحمة الرقعة تضم كل ما هو معلوم ومعروف ، بل إنما يجمع بينها في صورة من صور الحياة ويقدمها لا كأشياء تصير ، بل انما كأشياء صائرة .

إن العالم كتاريخ مفهوم منظور .ومعطى شكلاً مستمداً من خارج مضاده العالم كطبيعة ،هو مظهر جديد للوجود الانساني على هذه الأرض .وحتى الآن

فإن هذا المظهر، بالرغم من اهميته الهائلة في كل من الحقلين العلمي والنظري لم يعرف طريقه الى التحقق ، وعرضه لا يزال دون تحققه بأشواط واشواط.

وقد يكون هناك بعض مفهوم غامض لهذا المظهر، أو قد يكون البعض قد لمحه من بعيد لمحة آنية عابرة . ولكن لم يقم أحد حتى يومنا هذا ليواجه هذا المظهر عامداً متعمداً وليأخذ به وبكل مايشتمل عليه من عقدومضامين.

ان أمامنا سبيلين محتملين قد يستطيع الانسان إن سلكها أن يمتلك باطنا الخبرة بالعالم المحيط به . وانني لأميز بكل صراحة (وذلك بالنسبة الى الشكل لا الجوهر) بين الأثر الجوهري وبين الأثر العالمي الميكانيكي ، بين محتوى الخيال وبين القانون ، بين الصورة والنموذج وبين المعادلة والنهج ، بين الواقع آنياً وبين المحتمل دائماً ، بين أهداف الخيال ومقاصده الآمرة وفق خطة مرسومة، وبين مقاصد الخبرة وأهدافها المُشرَّحة وفق منهاج ، واخيراً (وحتى لو كان من السابق لأوانه اذكر معارضة لم يأت على ذكرها أحد بالرغم من اهميتها) بين مجال التاريخ المتسلسل(Chronology) وبين مجال الرقم الرياضي (Number)

ونتيجة لما تقدم ، فإننا في حالة قيامنا ببحث موضوع كالموضوع المطروح أمامنا،لا نستطيع أن نقف في **بحثنا عند سطح الحوادث** السياسية والروحية كلما ازدادت هذه الحوادث وضوحاً يوماً بعد آخر ، فنكتفي بمعرفة مظهر قيمتها دون جوهرها ، فنعدها في منهاج من الأسباب والمؤثرات ونقتفي خطاها الميممة شطر جهات واضحة المسالك الفكرية لا تكلف السائر تعباً أو عناء .

إن معالجة التاريخ مثل هذه المعالجة الذرائعية Pragmatic ليست سوى جزء من « العلوم الطبيعية » داء تنكري ، أضف الى ذلك أن مناصري المذهب التاريخي المادي لايحيطون من جانبهم هذه الحقيقة بالسرية، لكن معارضيهم هم الذين لا يستطيعون أن يروا التشابه بين المنهاجين .

ليست الحقائق التاريخية في ذاتها Per se التي تبرز في هذا الزمن أو ذاك ، وهي التي تستأثر باهتمامنا ، بل انما يهمنا ان نعلم ماذا تمثل والى ماذا تشير في بروزها . إن المؤرخين المعاصرين يعتقدون بانهم يؤدون عملاً هو فوق طاقة البشر وذلك في تجميع لتفاصيل دينية واجتماعية ، واكثر من هذا لتاريخ الفنون ، كي « يرسموا » المفهوم السياسي لعصر من العصور . لكنهم ينسون العنصر الحاسم (وأصفه بالحاسم طالما ان التاريخ المنظور هو تعبير الروح ، رمزها وتجسدها) . إنني لم أصادف أحداً من الناس الذين أمعنوا النظر باهتمام في العلاقة المورفولوجية التي تربط ضمناً بين الاشكال التعبيرية لجميع فروع الحضارة أو غيره من الذين تجاوزوا السياسة النهائية لكل من اليونان والعرب والهنود والغربيين في الرياضيات ، أو آخر في مغزى الزخرفات القديمة ، والاشكال الأساسية في فنونهم المعمارية أو جوهر فلسفاتهم وتمثيلياتهم المأساوية وأشعارهم الغنائية واختيارهم وتطويرهم للفنون العظمى ، أو تفاصيل مهارتهم وانتقائهم ، ناهيك عن مصادقتي لأي امرىء أدرك الأهمية الحاسمة لهذه الأمور بالنسبة الى مشاكل شكل التاريخ .

فمن منهم يستطيع أن يدرك أن هناك شبهاً كبيراً بين حساب التفاضل وبين المبادىء **الاساسية للسياسة** في عصر لويس الرابع عشر ، بين ابعاد المرئيات في التصوير الزيتي الغربي وبين قهر المسافات والابعاد بواسطة السكك الحديدية ، بين دولة المدنية الكلاسيكية وبين هندسة يوقليد ، بين الهاتف (التلفون) وبين السلاح البعيد المدى ، بين موسيقى البلوفونيك (المتعددة النغمات) وبين الاقتصاد المتعمد Credit economic ؟

ومع هذا كله ، اذا ما نظرنا الى هذه الامور من وجهة نظر مورفولوجيه ، فعندئذ تتخذ هذه الحقائق السياسية التافهة طابع النموذجية ، وحتى طابع الميتافيزيقيا (وهذا أمر ربما كان اعتباره من المستحيل حتى الآن) .

ومثال على هذه الحقائق : النظام الاداري المصري ، ونظام صك النقود في العهود الكلاسيكية والهندسة التحليلية والشك cheque وطباعة الكتب عند

الصليبيين والجيش البروسي والهندسة الرومانية لشق الطرق ... كل هـذه الحقائق نستطيع أن نصنع منها نماذج مفهومة ومدركة على نطاق واسع .

لكن سرعان ما تطل الحقيقة برأسها لتقرر أنه لايوجد حتى الآن فن واضح المذهب لعلاج التاريخ ودراسته . أما ما يتراءى لنا من دراسات فإن هذه الدراسات تستمد نهجها من المجال العلمي فقط ، هـذا المجال الذي هو وحده المهذب لمناهج المعرفة « كالعلوم الطبيعية » لذلك فإن ما يخيل الينا على انه بحث تاريخي ليس في الواقع إلا ربط موضوعي بين الصلة والمعلول .

والحق انها الحقيقة جديرة بالاعتبار كون الفلاسفةالقديمي المنهاج والاسلوب لم يخيل اليهم أبداً إمكانية وجود أية علاقة بين الادراك الانساني الواعي وبين العالم الخارجي ، فكانت Kant الذي وضع القوانين **السابقة** للمعرفة في مؤلفه الرئيسي ، اعتبر الطبيعة الهدف الأوحد لفعالية العقـل ، ولكنه لم يشر هو أو غيره الى التحفظ السابق الذكر . فالمعرفة بالنسبة الى كانت هي معرفـة رياضية . فمع أنه يعالج الأشكال الحدسية للفكر ودرجاته غير أنـه لا يفكر ابداً بالميكانيكية المختلفة ، كلياً ، والتي بواسطتها تُدرك المؤثرات التاريخية . وشوبنهاور الذي يلجأ بوضوح كاف الى الاعتماد على نظرة واحدة فقط مـن نظرات « كانت » وهي السببية ، يتحدث بغرور مُخرف عن التاريخ. فهناك الى جانب « السبب والأثر » والذي يمكن لي أن اسميه (بمنطـق الفضاء) ضرورة أخرى ، ضرورة جوهرية أساسية في الحياة، ضرورة القضاء والقدر (منطق الزمن) وهي حقيقة عميقة وطيدة الوجود وهي التي تلون جميـع الأديان الخرافية والفكر الفني وتوجد جوهر كل التاريخ ونواته (متعارضة في ذلك والطبيعة) غير أنه لا يمكننا ادراك هذه الضرورةبواسطة اشكال المعرفة التي يبحثها « كانت » في كتابه المعروف باسم « نقـد العقل المجرد » وهـذه الحقيقة لا تزال تنتظر حتى الآن قانونها المذهبي . وكما يقول « جليلي» في المقطع المشهور : إن الفلسفة هي كتاب الطبيعة الضخم المكتوب بلغة رياضية : إننا ننتظر اليوم الفيلسوف الذي نريد منه أن يعلمنا بأية لغة كتب التاريخ وما

هي الطريقة لقراءته .

إن الرياضيين ومبدأ السببية يقودنا الى عدم التاريخ « الطبيعي » بينما أن عقيدة القضاء والقدر تقضي بنا الى تنسيق تاريخي لظواهر العالم.وكلا المذهبين كل منهما على طريقته تغطي مباحثه كل العالم .أما الخلاف بينهما فإنما يتوقف على العيون المبصرة التي بها وبواسطتها يتحقق العالم .

– ٤ –

إن الطبيعة هي الشكل الذي بواسطته يؤلف الانسان الأكثر حضارة تعابير حسه الفورية ويترجمها . أما التاريخ فهو ذاك الشكل الذي بواسطته يسعى الانسان الى ادراك الوجود الحي للعالم من حيث علاقته بحياة الانسان الخاصة والتي بسببها يصل الى ادراك حقيقة أعمق غوراً .

أما قدرته على خلق هذه الاشكال وأي منها هو الذي يسيطر على وعيه المتحفز ، فإن هذين الأمرين يؤلفان المشكلة الاصلية لجميع الوجود الانساني .

لذلك فإن أمام الانسان إمكانيتين لتركيب العالم . ولكن يتوجب علينا أن نشير بادىء ذي بـــدء الى ان هـــاتين الامكانيتين ليستا بالضرورة أمرين واقعيين ، واذا كان علينا أن نتساءل عن مفهوم كل التاريخ يتحتم عندئذ أن نبدأ بالاجابة عن سؤال لم يطرح أبداً حتى الآن وهو : لمن هو التاريخ ؟

إن هذا السؤال يبدو متعارضاً متناقضاً لأن التاريخ كما هو واضح ومعلوم هو لكل امرىء ، اضف الى ذلك أن كل انسان بكل وجوده وكامل وعيه هو جزء من التاريخ . ولكن اختلافاً جوهرياً ينشأ فيما اذا كان هناك شخص ما يعيش تحت تأثير فكرة ثابتة تقول بأن حياته هي عنصر في مجرى حياتي أعرض اتساعاً واعمق جذوراً ويعود الى مئات وآلاف من سنين خلت لحياة أخرى أو انسان آخر منغلق على نفسه منعزل عن الناس.وأمام وعي مثل هذا الانسان وفكره يختفي بالتأكيد العالم كتاريخ وينعدم التاريخ العالمي .

فكيف هي الحال اذا ما قام وعي الشعب بكامله أو اسندت حضارة بكاملها الى روح لا تاريخية كهذه ؟ وكيف يجب أن يتبدى شكل الواقع ؛ أو العالم أو الحياة ؟!! فلنتأمل بالحضارة الكلاسيكية .

كانت كل خبرة في وعي الاغريق للعالم (وليست فقط الخبرة الشخصية بل العامة الماضية) تتحول فوراً الى منطلق جامد لازمن له ، **يرتدي طابعاً اسطوريا بالنسبة خاصة الى الحاضر الآني** ، لذلك فإن تاريخ الاسكندر الأكبر قد بدأ ، حتى قبل وفاته ، يمزج بعاطفة كلاسيكية ، وذلك في **خرافة** « ديونيس » ولم يبدُ لقيصر أن الزعم القائل بتحدره من صلب « فينوس » أمر غير معقول .

ويبدو لنا ، نحن معشر الغربيين ، أن وضعاً روحياً كهذا هو أمر مستحيل من الوجهة الواقعية ؛ فشعورنا بالزمان والمسافة له من القوة والسيطرة علينا ما يجعلنا نتحدث عادة ودونما تساؤل أو شك ، عن سنين عديدة قبل أو بعد المسيح ، وذلك كي نعيد خلقها في ذواتنا . لكن هذا الواقع لا يعفينا ، حينما نعالج مشاكل التاريخ ، أن نتجاهل الحقيقة بيسر وسهولة .

إن أية مذكرات أو سير شخصية تستقطب فرداً فإنها في الوقت ذاته تستقطب روح حضارته بكاملها ، وذلك لأن البحث التاريخي في مفهومه الأوسع يعنى بجميع انواع المقارنات السيكولوجية وتحليل نفسيات الشعوب الاجنبية والأزمنة والعادات .

لكن الحضارة الكلاسيكية كانت معدومة الذاكرة ، ولم تمتلك حساً تاريخياً في هذا المعنى ، فذاكرة الانسان الكلاسيكي (اذا جاز لنا هذا القول مع انه من الظلم نوعاً ما أن نطالب الشعوب الغريبة باحساس يشتق من احساسنا الخاص) هي شيء مغاير مختلف وذلك طالما أن الماضي والمستقبل كظاهرتين منتظمتان داخل الوعي الفاعل ، وغائبتان عنه تاركتان للحاضر المجرد ، الذي كثيراً ما استثار كوامن اعجاب « غوته » بكل ما أنتجته الحياة الكلاسيكية ، وخاصة في النحت حيث ملأت الحياة بكثافة تجهلها كل الجهل .

إن هذا الحاضر المجرد ، الذي يتخذ من العامود الدوري (نسبة لدوريس) اعظم نماذجه ، هو في حد ذاته نفي للزمن و (للاتجاه) . وكان الماضي، بالنسبة الى هيروديت وسيفوكليس ، كما هو بالنسبة الى تيميستوكلس أو أي قنصل روماني يترجم فوراً ويحدد على أنه غير قابل للتبديل ومعدوم الزمن مُستقطب لا متتابع في تركيبه (وزبدة كل تحليل ،كان الماضي يتركب من معدن كهذا المعدن الذي تصاغ منه الخرافة) بينما أن حسّنا العالمي وبصيرتنا الداخلية يريان بالتأكيد، في الماضي تتابعاً،وهو تركيب عضوي مقصود لقرون أو عقود قرون من الزمن .

ولكن هذا المنطلق هو في حد ذاته الأساس الذي يعطي الحياة ، أكلاسيكية كانت أم غربية ، لونها الخاص . وما كان اليونان يدعونه بالكون (Cosmos) فإنه كان يمثل صورة عالم كامل ، غير متتابع التطور والنمو . لهذا أصبح بالضرورة الفرد اليوناني إنساناً موجوداً لا صائراً . ولهذا السبب بالذات ، لم يستطع الفرد الكلاسيكي مع اطلاعه الحسن على تواريخ البابليين وتقاويمهم وخاصة المصريين ، هذه المتدفقة من شعور عريض عميق بالخلود وعدم اهتمام بالحاضر ، واللذين يتبديان بجلاء في عملياتهم الفلكية وقياساتهم الدقيقة لمراحل زمنية طويلة، فإن الفرد الكلاسيكي لم يستطع أن يجعل من كل هذه الاشياء أو من أي منها جزءاً من كيانه وفكره .

أما ما حدثه به فلاسفته ، بين حين وآخر ، عن هذا الموضوع الذي لم يتجاوز سماعهم الى الاختبار ، كما وان ما اكتشفته بعض عقول ممتازة نشأت في المدن اليونانية الاسيوية (كهبارخوس وارستارخوس) قد رفض من قبل الرواقيين والارسطوطاليين على حد سواء وبقي هذا الموضوع ملحوظاً فقط داخل حلقة جد ضيقة من الناس .

ولم يكن افلاطون او ارسطوطاليس يملك مرصداً فلكياً وقد اصدر الشعب اليوناني في اواخر عهد بركليس قانوناً يجرم كل من يبث المعلومات الفلكية أو ينشرها بين الناس بالخيانة. وهذا العمل الآنف الذكر نموذج عميق

بارز الأهمية لرغبة الروح الكلاسيكية وعزمها على نفي مفهوم المدى من كل مجال من مجالات وعيها العالمي

ولنأخذ « توسيديدس » كمثل لنا على الأدب التاريخي الكلاسيكي . إن براعة هذا الرجل تكمن في مقدرته الكلاسيكية الأصيلة القادرة على جعل حوادث الحاضر تنبض بالحياة وتوضح نفسها بنفسها ، كما وتتبدى براعته في نظرته الرائعة في مفهومها العملي لرجل الدولة بالولادة ، **ولا غرو في ذلك « فتوسيديدس » كان هو نفسه قائداً عسكرياً ومنظماً ادارياً بارعاً.** ونظراً لتمتعه بفضيلة الاختبار (والتي كثيراً ما نخلط بينها وبين الحس التاريخي الأساسي) فإن كتابه يُعتبر في نظر المتعلمين ومحترفي التاريخ نموذجاً لا يضاهى ، ولهم كل الحق في ذلك .

ولكن الرؤيا والمقدرةعلى استشراف تاريخ قرون طويلة بقيتا خافيتين على بصيرته ، مع أنهما يشكلان بالنسبة إلينا مفهوم التاريخ بالذات . إن بعض المقاطع الجميلة في أدب التاريخ الكلاسيكي ، هي تلك المقاطع الوحيدة التي كتبها المؤلف **عامداً الى بحث الماضي على ضوء حاضره السياسي،** بينما أن **اسلوبنا في البحث هو على** طرفي نقيض ، وهذاالاسلوب ، حيث إنروائعنا التاريخية هي تلك التي تبحث في ماضي غارق القدم .

لا شك ان « توسيديدس » كان حتماً سينهار اذا ما تطرق الى معالجة الحروب الفارسية ، ناهيك عن تطرقه لمعالجة التاريخ اليوناني العام ، بينما أنه لو عمد الى بحث التاريخ المصري لكان هذا البحث فوق مستوى إدراكه . وهو يفقد البصيرة الثاقبة الواثقة من نفسها حالما ينظر الى الوراء أو يقابلأية قوى دافعة خارج نطاق خبرته العملية ، شأنه في ذلك شأن بوليبيوس وتاسيتوس . فالحروب البونية بالنسبة الى بوليبيوس وحتى ولاية اغسطس في نظر تاسيتوس هي مواضع غير قابلة للتفسير . اما « توسيديدس » فان فقدانه للحس التاريخي (وفق مفهوم هذا التعبير) يكشف عن ذاته بجلاء ووضوح في الصفحة الأولى من كتابه عندما يورد تقريراً مذهلاً يقول بأنه لم تقع في

العالم قبل زمنه (٤٠٠ قبل المسيح) أية حادثة بارزة أو ذات اهمية خاصة .

ونتيجة لما تقدم ، وبسبب ما ذكرت آنفاً ، فإن التاريخ الكلاسيكي ، حتى الحروب الفارسية ، هو هيكل أقيم على تقاليد مراحل اخرى اعقبتها بعد زمن طويل ، لذلك فهو في جوهره نتاج فكر خرافي (ميثلوجي).

فالتاريخ الدستوري لاسبرطة هو قصيدة من الشعر الأغريقي وقد يكون أن « لكورجوس » الذي يرتكز عليه هذا التاريخ والذي وصلت الينا سيرته كاملة غير منقوصة، كان في البدء إلهاً محلياً،لا شأن له أو اهمية ،من آلهة جبل « تايجيتوس » . زد على ذلك أن « اختراع » التاريخ الروماني السابق لعهد هنيبال كان لا يزال يجري حتى عصر قيصر . فقصة طرد بروتس لتاركوين نسجت حول أحد المعاصرين لأبيوس كلاوديوس(٣١٠ قبل المسيح) أما أسماء ملوك الرومان فكانت تستمد في تلك المرحلة من أسماء عائلة شعبية معينة ارتقت فبلغت ذرى الثراء العريض (ك . ج نيومان) .

ونرى التاريخ الدستوري ، وذلك اذا ما تغاضينا عن دستور «سرفيوس ليشنيوس ، وذلك ٢١٧ قبل المسيح) الذي لم يكن موجوداً أيام الحرب البونية **الثانية (ب. نيسي)** انه وعندما منح أبا مينونداس الحرية للمسينيين والاركاديين واقام لهم كيانين دوليين أصبح لهذين الشعبين تاريخ مبكر.

ولكن انتاج تاريخ من هذا النوع ليس بالأمر المدهش المذهل ، بل انما ما يبعث على الذهول الانعدام العملي لوجود التاريخ من أي نوع كان ، لذلك فإن أوجه الخلاف بين النظريتين الكلاسيكية والمعاصرة في التاريخ تبدو واضحة وضوحاً كافياً في القول بان التاريخ الروماني السابق لعام ٢٥٠ قبل المسيح ، وكما عرف في عصر قيصر ، هو في جوهره تلفيق وتزوير ، وان القليل الذي نعرفه منه قد وضعناه نحن أنفسنا وكان غير معروف لقدماء الرومان .

ونستطيع أن ندرك ما كان مفهوم كلمة « تاريخ » في ذهن العالم الكلاسيكي من خلال ما كان للأدب الرومنطيقي الاسكندري (نسبة

الاسكندر)من أثر بارز قوي وفعال في مسائل تاريخية خطيرة سياسية ودينية، وحتى فيما يتعلق بمادتها أيضاً . فلم تطرق أبداً الدماغ الكلاسيكي فكرة ايجاد اي تمييز من حيث المبدأ بين التاريخ كقصة وبين التاريخ كوثائق وعندماقام « فارو » في نهاية عصر الجمهورية الرومانية واراد أن يرسي الدين الذي كان يذوي يومذاك سريعاً ، على أسس ثابتة ، صنف الآلهة ، **مع رعاية الدولة لطقوس العبادة بعناية وحرص شديدين،** اقول صنف الآلهة الى آلهة مؤكدة الوجود وأخرى مشكوك في أمر وجودها ، آلهة لا يزال شيء ما معروفاً عنها ، وغيرها تعيش بالاسم فقط بالرغم من المثابرة على عبادتها . والحق يقال إن دين المجتمع الروماني في عصر « فارو » هذا الدين ، ودين الشاعر ، الذي اعاد « جوته » وحتى « نيتشه » بكل حسن نية . « **انتاجه** » إنما كان في خطوطه الرئيسية نتاج الأدب الاغريقي ، ولا يمت تقريباً بأيــة صلة الى الممارسات والطقوس الغابرة ، والتي لم يفهمها أحد فيما بعد .

ولقد حدد « مومسون » بوضوح موقف أوروبا الغربية من هذا التاريخ حينما قال « إن المؤرخين الرومانيين كانوا رجالاً يدونون ما هو حريٌ بالحذف ويحذفون ما هو جدير الأهمية بالتدوين » . (ومومسون يعني ناسيتوس في قوله هذا) .

أما الحضارة الهندية فهي حضارة فاقدة لأبسط مظاهر الروح التاريخية . ويتبدى تعبيرها الحاسم عن ذاتها في النيرفانا البرهمية . فليس هناك أي عالم فلك هندي صاف في هنديته ، ولذلك ليس لهم تاريخ طالما أن التاريخ هو درب التطور الروحي الواعي . وما نعرفــه عن المجرى المنظور لحضارتهم ، الذي بلغ بالنسبة إلى مظهره الجوهري ، نهايته في نشوء البوذيـة ، هو أقل بكثير مما نعرفه عن التاريخ الكلاسيكي ، مع أن التاريخ الهندي لابد أن كان خصباً غنياً خلال أحداث ضخام وقعت بين القرن الثاني عشر والقرن الثامن . ولكن ليس هذا الأمر بالمستغرب طالما أن كلا الحضارتين قد تركت للأحلام والأرقام الخرافية أن تحدد شكليهما . وقد تصرم ألف عام بالتمام على

وفاة بوذا قبل أن تنتج جزيرة سيلان شيئاً مـــا فيه بعض شبه بعيد لمؤلَّف تاريخي وأعني بهذا الشيء « الماهافانسا » (٥٠٠ قبل المسيح) .

لقد بلغت الجهالة بالفرد الهندي في وعيه التاريخي للعـــالم مبلغاً أصبح معه عاجزاً عن اعتبار ظهور كتاب وضعه مؤلف فرد حادثـــة محددة الزمن . وبدلاً من وجود سلاسل من الكتابات ألفها أشخاص معينون محددون ،برزت إلى الوجود مجموعة من النصوص الغامضة ضمَّنها كل فرد مـــا أراد واشتهى . لذلك لم تلعب أحاسيس كأحاسيس الفردية الفكرية والتطورية الذهنية ، أو العصور العقلية ، أي دور في هذا المجال .

على هذا الشكل المبهم الغامض تناهت الينا الفلسفة الهندية (والتي هي في الوقت ذاته تؤلف كل التاريخ الهندي الموجود بين ايدينا) . وانـــه من المفيد لنا أن نقارن بينها وبين تاريخ الفلسفة في الغرب ، هـــذا التاريخ الكامل في هيكله تحديداً وتعييناً وتخصيصاً ويتألف من كتب فردية وشخصيات

لقد نسي الانسان الهندي كل شيء ، بيـــنما لم ينس الشخص المصري أي شيء ، لذلك بينما كان فن التصوير (وهذا الفن هو في نواته تاريـــخ سِير) مجهولاً في الهند ، كان في مصر الموضوع العملي الرئيسي للفنان .

إن مركب الروح المصريـــة يمتلك حساً تاريخياً عميقاً واضح المعالم تستفزه عاطفة بدائية ، عاطفة الحنين الى المطلق. وقد وعت الروح المصريـــــة الماضي والمستقبل على أنها كامل عالمها ، أما الحاضر (المطابق للوعي اليقظ) فبدا لها حداً بسيطاً ضيقاً ومشتركاً بين امتدادين غير قابلين للقياس . إن الحضارة المصرية هي تجسد للاهتمام **(وهو من ميزان المدى الروحي ر ّمانته)**فالاهتمام بالمستقبل يعبر عنه الفنان المصري باختيار المواد التي يصنع منهـــا تماثيله من صخور الجرانيت والصوان ، وبمحفوظـــات انظمتهم الادارية المنقوشة على الجدران وبانشائهم شبكات الري الواسعة ، وهذه الأمور تعني بالضرورة اهتمام المصريين بالماضي أيضاً .

فالمومياء المصرية نموذج رائع جوهري الأهميـــة . فلقد كانوا يخلدون جسد

الميت تخليدهم لشخصيته .فصفاته (كما) كانت تخلدفي تماثيل ذات نسخ متعددة احياناً وكان من المسلم به أنها تشابهه شبهاً فائقاً في روعته .

هناك علامة عميقة الجذور بين الموقف الذي نتخذه من الماضي التاريخي وبين المفهوم الذي نكونه عن الموت ، ويُعبرّ عن هذه العلامة بما نتدبر به أمر الميت .فالمصريون كانوا ينكرون الفناء أما الكلاسيكيون فكانوا يؤكدونه في جميع حقول رموز حضارتهم .

وقد حنط المصريون حتى تاريخهم في تواريخ وأرقام متسلسلة ، بينما نرى أن الأغريق ابتداءً مما قبل عصر « صولون » لم يزودونا باي خبر ، أو تحديد عام ، أو اسم حقيقي ، أو حادثة ملموسة (لذلك فإن تاريخ ما بعد «صولون» والذي نعرفه نحن غير ذي اهمية) ، بينما اننا نملك وقائع تاريخية عن مصر تعود الى الألف الثالث قبل المسيح ، ولدينا اسماء وحتى تواريخ بالغة الدقة لعهود ملوك كثيرين تعاقبوا على الحكم في مصر ، ولا شك أن الامبراطورية الجديدة كانت على معرفة باسماء هؤلاء الملوك .

واليوم تتبدى لنا نماذج شبحية لارادة البقاء في جثث الفراعنة المسجاة في المتاحف والتي لاتزال وجوهها واضحة المعالم .

كما واننا نقرأ على قمة اهرام امنمحيت الثالث الجرانيتية المصقولة اللامعة جملة تقول (امنمحيت يطل على جمال الشمس) بينما نقشت على الصفحة الأخرى «إن روح امنمحيت لهي ارفع سمواً من زحل ومتحدة مع العالم السفلي».

هذا قول يمثل حقاً انتصاراً على العدم وعلى الحاضر المجرد ، وهو قول ينافي كل مفهوم من مفاهيم الكلاسيك .

— ٥ —

إزاء هذه النماذج الجبارة من الحياة المصرية تطالعنا على عتبة الحضارة الكلاسيكية ، عادة حرق الميت ، هذه العادة التي تمثل السهولة واليسر في

نسيان الحضارة الكلاسيكية بكل شيء خارج نطاق ماضيها وداخله .

وكان تطور طقوس الدفن في العصر الماسيني الى هذا النهج الجنائزي الذي مارسته جميع شعوب العصر الحجري أمراً غريباً في جوهره وغير مألوف . والحق ان المدافن الملكية التي اقامتها تلك الشعوب توحي أن الدفن كان يعتبر طقساً من طقوس تكريم الميت . لكننا نفاجأ في اغريقيا هوميروس ، كما نفاجأ في الهند « الفيدية » بتطور الدفن إلى الاحراق ، على صورة تجعلنا نرد بالضرورة اسباب هذا التطور إلى أصول سيكولوجية ،حيث أن الاحراق (والالياذة تصف هذه العملية وصفاً شجياً) كان المشهد الختامي لطقوس الجناز والانكار لكل ديمومة تاريخية .

ومنذ تلك اللحظة بلغت مرونة التطور الروحي للفرد نهاية مطافها .وكان أخذ الدراما الكلاسيكية بالدوافع التاريخية الأصيلة قليلاً نادراً شأنها في ذلك شأنها في بحث مواضيع التطور الداخلي ، زد على ذلك ان مناهضة الغريزة الاغريقية لفن التصوير مناهضة عنيدة أمر معروف لدى الجميع . وبقي الفن الكلاسيكي حتى العصر الامبراطوري وخلاله يعالج فقط الأشياء التي تتفق وطبيعته ، أي الخرافة . زد على ذلك أن التماثيل « النموذجية » التي نحتها الاغريق كانت ايضاً خرافية المواضيع ومن الطراز ذاته الذي كتب وفقه بلوتارك سيره .

ولم يحدث أبداً أن دوّن اغريقي عظيم حدثاً من شأنه أن يساعد على تثبيت مظاهر التجربة والخبرة للبصيرة الداخلية . وحتى سقراط نفسه لم يذكر لنا ، وذلك فيما يتعلق بحياته الداخلية ، أمراً ذا أهمية أو شأن بما لهذا التعبير من معنى ومفهوم . وانها والحق لمسألة تبعث على التساؤل عما اذا كان حتى باستطاعة الفكر الكلاسيكي أن يتفاعل والدوافع الرئيسية المفترضة سبقاً في انتاج برسيفال [١] وهملت [٢] أو فيرتر [٣] . ونحن نعجز عن أن

---

(١) اوبرا وضعها فاجنر (٢) تمثيلية كتبها شكسبير (٣) رواية ألفها جوتيه .

نلاحظ لدى أفلاطون أي تطور واعٍ في مذهبه ، أما مؤلفاته المختلفة فليست سوى نبذ ومقالات دبجها وفقاً لوجهات النظر التي كان يشكلها بين وقت وآخر ، أضف إلى ذلك أن أفلاطون لم يكلف نفسه عناء معرفة ارتباط تلك النبذ بعضها ببعض ، أو ادراك شكلها حينما تجتمع .

وعلى العكس من أفلاطون ، يتبدى لنا دانتي في كتابه « الحياة الجديدة » التاريخ الروحي للغرب . ويا لقلة مـــا كان يملكه « غوتيه » من الحاضر الكلاسيكي المجرد ، هذا الرجل الذي لم ينس شيئاً والذي يعتبر انجازاته ، كما جاهر هو نفسه بذلك وصرح ، مجرد مقتطفات من اعتراف عظيم واحد .

عقب أن دمر الفرس أثينا اختفت جميع الانجازات الفنية القديمـــة تحت تلال التراب والغبار ، ولم نسمع أبداً أن أحداً من الاغريق قام بالتنقيب عن آثار ميسينا وفاستوس بغية تأكيد بعض الحقائق التاريخية . لقد كان رجالهم يقرأون هوميروس ، لكن لم يفكر أحد منهم ، كما فكر « شليمان » بالتنقيب عن طروادة ؛ وذلك لأن أولئك الرجال كانوا يبحثون عن الخرافة لا عن التاريخ . ولقد فقدت أجزاء من مؤلفات آشيل وغيره من الفلاسفة ما قبل سقراط خلال العصر الأغريقي نفسه . بينما كانت الحال في الغرب مغايرة تماماً لحال الاغريق .

فلقد تمثل الورع الفطري أمام الحضارة ، وخاصة في تلك الحقبة التي سبقت عصر شليمان بقرون خمسة ، في شخص « بترارك » المجمع الرائع للآثار ، من نقود ومخطوطات ، والمثال الأصيل للرجل ذي الحس التاريخي المرهف والذي يستشرف الماضي الغارق في القدم ويحدق في المستقبل البعيد (ألم يكن بترارك أول من حاول تسلق قمة من قمم جبال الألب؟) لقـد كان يعيش في عصره ، لكنه في الواقع لم يكن من أهل عصره .

إن روح المجتمع تبدو فقط واضحة المعالم في احترامها لمفهوم الزمن . وهناك روح ، ربما تكون أشد عاطفية وذات لون مختلف ، تتجلى في مجموعات الآثار الصينية . فكل من يتجول في الصين ويضرب في فيافيها وأقاليمها يقتفي آثار الخطى القديمة (الكوتسي والطاو) . فالمبدأ الاساسي للوجود الصيني يستمد

كل مفاهيمه من حس تاريخي عميق الأغوار .

ومع أن الاغريق كانوا يجمعون بعض التماثيل ويعرضونها في جميع الاماكن : لكن هذه التماثيل كانت بالنسبة اليهم غرائب خرافية النزعات كما وصفها « باوسنياس » لا تهتم بالتاريخ أو معرفة الغاية من وراء نحتها ، وقد حدث هذا أيضاً أثناء وجود مصر التي تحولت حتى في عصر تاغوسس الى متحف واسع الأرجاء يُدار وفقاً لتقاليد صارمة دقيقة .

يعود فضل اختراع الساعة ، هذا الرمز المخيف لسير الزمن، الى الألمان من الشعوب الغربية . والحق ان الأنغام التي ترسلها الساعات من على قبب أوروبا الغربية لهي اجمل تعبير عما يستطيع الشعور التاريخي العالمي انجازه . ونحن لا نجد للساعة مثيلاً في أرياف العالم الكلاسيكي ومدنه . وكان الزمن يقاس حتى عصر بركليس بامتداد الظل وتقلصه ؛ والفضل يعود الى ارسطوطاليس في نشر مفهوم كلمة ساعة التي وضعها البابليون قبله ، فلم يكن العالم الكلاسيكي قبل أرسطو يعرف أي تقسيم دقيق لليوم ، وبينما كانت بابل ومصر قد اخترعتا منذ عهود مبكرة ساعات مائية ومزاول شمسية فإن أثينا انتظرت أفلاطون ليقدم اليها ساعة مائية قديمة الطراز بدائية الصنع ، ومع هذا بقيت هذه الساعة ذات شأن تافه بالنسبة الى الاغريق ولم يكن بمقدورها أن تفعل أو تؤثر شيئاً في الشعور الكلاسيكي بالحياة .

بقي أمامنا أن نتطرق الى بحث أوجه الخلاف العميق بين الرياضيات الكلاسيكية والحديثة . ولم يسبق لأحد أن بحث مثل هذا الموضوع بحثاً وافياً كافياً . فلقد كانت الرياضيات الكلاسيكية تدرك الاشياء كما هي في ذاتها وتعيها كأجرام معدومة الزمن تعيش حاضرها المجرد، لذلك لجأت الى الهندسة اليوقليدية (Uclidean) وعلم السكون الرياضي (علم القوى المتوازية) ومزجت منهاجها الفكري بنظرية القطاعات المخروطية الشكل . أما نحن فندرك الاشياء من خلال صيرورتها وسلوكها وفعاليتها وهذا الادراك أمضى بنا الى الديناميكية ، فالهندسة التحليلية ومن ثم الى حساب التفاضل . فالنظرية

الحديثة للفعالية هي فرض وتنسيق لجماع الفكر .

إنها لحقيقة غريبة ، ومع هذا صحيحة من الوجهة السيكولوجية ، أن الفيزياء الاغريقية ، بسبب كونها ساكنة لا ديناميكية ، لم تعرف أو تشعر بغياب عنصر الزمن عنها ، بينما نحن من الجهة الاخرى نشغل أنفسنا بجزء من ألف من الثانية .

أما نظرية التطور الوحيدة المعدومة الزمن وغير التاريخية فهي نظرية ارسطو في الكمال .

هذا هو إذن واجبنا . فنحن معشر الغربيين بحسّنا التاريخي نشكل النشاز لا القاعدة . فتاريخ العالم هو صورة عالمنا وليس بصورة جميع الجنس البشري؛ زد على ذلك أن الفرد الهندي والانسان الكلاسيكي لم يرسما صورة للعالم في تطوره وصيرورته وربما عندما تستنزف الحضارة الغربية اسباب وجودها وتخبو نارها في الوقت المقرر لها ، عندئذ لن تنشأ أبداً أية حضارة مرة أخرى ونموذج بشري يكون فيه تاريخ العالم شكلاً فعالاً كهذا للوعي اليقظ .

— ٦ —

إذن ما هو تاريخ العالم ؟ إنه بالتأكيد عرض منتظم للماضي ، إنه افتراض باطني ، إنه تعبير طاقة من أجل شعور بالشكل . لكن الشعور من أجل الشكل ، مهما كان أكيداً مُعَرّفاً محدداً فانه ليس كالشكل نفسه . لاشك اننا نشعر بتاريخ العالم ونختبره ونعتقد بانه يجب ان يقرأ تماماً كما تقرأ الخارطة غير اننا حتى هذا اليوم لا نعرف سوى اشكاله وليس شكله الخاص الذي هو صورة مرآة حياتنا الباطنية الخاصة

ومن البدهي أن يجيب كل إنسان منا إذا ما سُئل ، بانه قد شاهد الشكل الباطني للتاريخ بوضوح تام أكيد . وسبب بقاء هذا الوهم يعود إلى أنه لم يقم أي من الناس بالتأمل في التاريخ تأملاً جدياً ،واقل من هذا لم يُدرك الشكوك

بالنسبة الى معرفته الخاصة ، وذلك لانه لا يوجد عند أي انسان أقل فكرة عما للشك من ميدان رحب فسيح في هذا الحقل . والحق إن عرض تاريخ العالم هو رأي شخصي ذاتي غير محقق ورثه جيل عن جيل (وهـــذا ليس بالنسبة الى الرجل العادي بل انما بالنسبة الى المؤرخين المحترفين) وهو بمسيس الحاجة الى القليل من تلك الارتيابية التي نظمت وعمقت ، ابتداءً من جاليليو فما بعد ، افكارنا الفطرية عن الطبيعة .

وبفضل تقسيمنا التاريخ الى « قديم » و « وسط » و « حديث » (وهذا التقسيم هو منهاج تافه سقيم غير ذي معنى الى حـــد لا يصدقه العقل ، لكنه منهاج ، على كل حال ، سيطر على تفكيرنا التاريخي سيطرة مطلقة) ، اقول بفضل تقسيمنا هذا فشلنا في ادراك المركز الحقيقي للجنس البشري في التاريخ العام ، وللعالم الجزئي الصغير الذي نما وتطور على تربـــة أوروبا الغربية منذ عهود الامبراطورية الالمانية الرومانية ، كما وفشلنا في الحكم على أهميته النسبية وفوق كل ذلك فشلنا في تقدير اتجاهه .

إن الحضارات القادمة ستجد من الصعوبة عليها بمكان أن تصدق بان صحة منهاج كهذا ، بما له من تتالٍ بسيط محدود بخطوط مستقيمة Rectilinear ، وتناسبات عديمة من كل معنى ، منهاج تزداد لامعقوليته مع كل قرن ، منهاج عاجز عن أن يمتص داخله الميادين الجديدة للتاريـــخ على الشكل الذي تخرج متعاقبة وفقه الى نور معرفتنا ، اقول إن الحضارات القادمة ستجد من الصعب عليها أن تصدق بان هذا المنهاج بالرغم من كل ذلك لم يهاجم بحمية واخلاص . أما الانتقادات التي تَعَوّد دارسو التاريخ منذ زمن طويل ، أن يشنوها على المنهاج فانها لا تعني شيئاً ، فهؤلاء الدارسون قد طمسوا معالم المخطط الواحد الموجود دون أن يقدموا أي مخطط آخر بديلاً عنه . زد على ذلك أن العبث باشباه الجمـــل ، كالقول مثلاً « العصور الاغريقية الوسيطة » أو « العصور الجرمانية الغابرة » ، لا يقدم لنا اقل مساعدة لتشكيل صورة باطنية واضحة مقنعة تحتل داخلها الصين والمكسيك ، وامبراطورية اكسوم وامبراطوريـــة

الساسانيين ، أماكنهــا اللائقة بها . أمــا التذرع بدفع نقطــة انطلاق « التاريخ الحديث » من الحملات الصليبية الىعصر النهضة ، أو من عصرالنهضة الى مطلع القرن التاسع عشر ، فانما يظهر فقط أن المنهاج بحد ذاتــه يعتبر منهاجاً لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام .

إن المنهاج لا يحدد فقط مساحة التاريخ ، بل إن ما هو أسوأ من هذا ، أنه ُيعد المسرح ايضاً . فهو يعالج رقعة اوروبا الغربية بوصفهــا قطباً ثابتاً ، وبقعة فريدة في نوعها أختيرت على سطح الكرة الارضية دون ما سببٍ مفضل إلا لأننا كما يبدو نعيش فوقها . كما ويجعل تواريخ عظمى ذات ديمومة تبلــغ دورات ألفية من الاعوام وحضارات جبارة غارقة في القدم تدور حول هذا القطب بكل بساطة وتواضع . إنه منهاج غريب طريف لشمس وكواكب ! فنحن نختار قطعة من الارض كمركز طبيعي للمنهاج التاريخي ونجعلها الشمس المركزية . ومن هذه القطعة تستمد جميع أحداث التاريخ وحوادثه ضوءهــا الحقيقي ، ومنها تصدر الاحكام على اهميتها حسبما تراها العين . لكن « تاريخ العالم » الشبحي هذا ،الذي تكفي نفخة من نقد لتبدده لايعرف له وجوداً إلا داخل غرورنا الاوروبي الغربي الخاص .وعلينا أن نشكر هذا الغرور منأجل الخداع البصري الهائل (الذي أمسى أمراً طبيعياً نتيجة للعــادة المزمنة) والذي بواسطته تتقلص تواريخ طويلة بعيدة لهــا الاف الاعوام من العمر ، كتاريخي الصين ومصر ، فتمسي أبعاداً لاحداث وقصص عارضة استطرادية مجردة ، بينما نرى في جوار مركزنا الخــاص ، عقود الاعوام منذ عهد لوثر ، وخاصة منذ عصر نابليون تنبلج ضخمة كأنها الاطياف المنكسرة . إننانعرف تماماً بان البطء الذي تبدو سحابة سامقة أو قطار بعيد يتحرك وفقه ، هوأمر ظاهري فقط ، ومع هذا نؤمن بان إيقاع التــاريخ المبكر من هندي وبابلي ومصري كان حقاً أشد بطءاً من ماضينا الخاص القريب العهد . ونعتقد بانهــا (التواريــخ الهندية والبابلية والمصرية) اقل جوهريــة واقل كثافــة واكثر تخفيفاً ، وذلك لاننا لم نتعلم (باطناً وظاهراً) أن نراعي ما للمسافات

والابعاد من حق .

إنه لمن الغني عن البيان أن وجود اثينا ، فلورنسا أو باريس ، هو بالنسبة الى حضارات الغرب أهم من وجود لو ـ يانج او باتالبوترا Pataliputral. ولكن هل من الجائز أن يوضع منهاج لتاريخ العالم وفق تقديرات كهذه ؟ فاذا كان هذا الأمر جائزاً ، فعندئذ يحق للمؤرخ الصيني كل الحق في أن يضع تاريخاً للعالم يمر بالحملات الصليبية وبعصر النهضة وفريدريك الكبير مروراً صامتاً كريماً بوصفها تافهة غير ذات بال . فكيف يجب أن يكون قرننا الثامن عشر من الوجهة المورفولوجية أشد أهمية من أي قرن آخر من القرون الستين التي سبقته ؟ اليس من المضحك أن نقابل تاريخاً حديثاً يتألف من قرون قليلة ، تاريخاً يرتكز في جزئياته وكلياته على اوروبا الغربية ، بتاريخ « قديم » يغطي دورات الفية من الاعوام كتلك ، ونغرق في هذا التاريخ القديم كامل جمهرة الحضارات ما قبل الهيلينية دون أن يسبر لها غور أو تنظم . وذلك بوصفها مجرد مادة إضافية ملحقة ؟ وهذا ليس بالمبالغة ، أفلا نطرح جانباً من أجل الحفاظ على المنهاج الهرم ، مصر وبابل ، ولكل منهما تاريخ مستقل قائم بذاته ومساوٍ في قيمته لما ندعوه بتاريخنا للعالم ابتداء من شارلمان حتى الحرب العالمية وما بعدها ايضاً، معتبرين تاريخ ذينك البلدين مقدمة للتاريخ الكلاسيكي؟ ألا ننحدر بحركة من حيرة وارتباك بالمركبات الواسعة لكل من الحضارتين الصينية والهندية فنجعل منها هوامش ؟ أما بالنسبة الى الحضارات الأميركية العظمى ، الا نتجاهل هذه الحضارات تجاهلاً مطلقاً باعتبار انها لا تتناسب (وماذا ؟) .

إن افضل ما يليق بهذا المنهاج الاوروبي الغربي الشائع للتاريخ والذي تجعل فيه الحضارات العظمى تتبع مدارات Orbits حولنا بوصفنا المركز المزعوم لعل أحداث العالم ، هو اسم المنهاج البطليموسي . أما المنهاج الذي يقدمه هذا الكتاب بدلاً من ذاك فانني اعتبره اكتشافاً كوبيرنيكيا (نسبة الى كوبيرنكوس) في الميدان التاريخي ، وبهذا فانه لا يعترف باي نوع من

مركز ممتاز للحضارة الكلاسيكية او الحضارة الغربيةعلى الحضارات منهندية بابلية ، صينية ، مصرية ، عربية ، ومكسيكية . وهذه هي عوالم منفصلة لكينونة ديناميكية لها تماماً من حيث الكتلة داخل الصورة العامة للتاريخ ، ما للحضارة الكلاسيكية من قيمة ، بينما انها تتجاوز مراراً الكلاسيكية من حيث العظمة الروحية وقوة التسامي والتحليق .

- ٧ -

إن المنهاج القائل بتقسيم التاريخ الى « قديم » « ووسيط » و« حديث » كان في شكله الاول ابداعاً للحس المجوسي بالعالم . وقد ظهر أول ما ظهر في الاديان الفارسية واليهودية بعد قورش. وحصل على مفهوم عجائبي فيتعاليم سفر دانيال عن عصور العالم الاربعة ، ومن ثم طوِّر في الاديان المسيحية المتأخرة زمناً في الشرق وخاصة فيمناهج المعرفيين Gnostic الى تاريخ للعالم . ولقد كان هذا المفهوم داخل حدوده البالغة الضيقوالتيحددت قواعدهالذهنية مفهوماً لا يُعاب أو يُلام . ولم يُدخل التاريخ الهندي ولا حتى المصري

في نطاق اقتراح او رأي ، فكلمة « تاريخ » تعني بالنسبة الى المفكر المجوسي عملاً فريداً في نوعه وسامياً في دراميتكيته،يتخذه من البلدان الواقعة بين هيلاس وفارس مسرحاً له حيث عَبّر مفهوم الشرق للعالم والصارم في ثنائيته عن نفسه . ولم يأتِ تعبيره هذا بواسطة نظريات قطبية لميتافيزيقا معاصرة ، « كالنفس والروح » « كالخير والشر» بل انما جاء على صورةلكارثة ورسم لتبدل حقبي يطرأ على الطور التاريخيالواقعبين خلق العالم وبينانحلاله.

وليس هناك أي عنصر وراء هذه العناصر التي نجدها وطيدة راسخة في الآداب الكلاسيكية من جهة وفيالكتاب المقدس (او كتاب مقدس آخر للمذهب المعين) من جهة أخرى قد دخل الصورة التي تعرض(وشأنها فيذلك شأن « العهد الجديد » و « العهد القديم » ولكل ما يختص به) التناقضات

السهلة الادراك بين الأمي ، Gentile واليهودي ، بين المسيحي والوثني ، بين الكلاسيكي والشرقي ، بين الصنم والمذهب بين الطبيعة والروح ، عرضاً ذا دلالة ومضمون زماني ، وهذا يعني كدراما ينتصر فيها الواحد على الآخر . فالتبدل التاريخي للمرحلة يرتدي الزي المميز « للغذاء » الديني . وزبدةالقول إن « تاريخ العالم »هذا كان نظرة ضيقة واقليمية،لكنها كانت داخل حدودها منطقية وكاملة.ولذلك فلقد كانت بالضرورة خاصة بهذا الاقليم وهذهالانسانية وعاجزة عن أي امتداد طبيعي .

لكنه قد أضيف الى هاتين الحقبتين حقبة ثالثة ، إنها الحقبة التي ندعوها على التربة الغربية « بالحديثة » . وهذه هي التي تعطي للمرة الاولى صورة التاريخ منظر التتالي او التعاقب.أما الصورة الشرقية فكانت صورةمستكينة هادئة فهي قد عرضت نقيضاً Antithesisمستقلاً قائماً بذاته وذا توازن كنتاج له ، وفعل إلهي فريد في نوعه كنقطة لتحوله . ولكن لما كانت الصورة قد تبناها وانتحلها نموذج من الجنس البشري جديد كل الجدة ، لذلك سرعانما حُولت (دون أن يلحظ أحد غرابة التحول)الى مفهوم لتقدم طولي Linear يبتدىء بهوميروس او آدم (وباستطاعة الانسان الحديث ان يستعيض عن هذين الاسمين باسماء الجرماني الهندي ، أو انسان العصر الحجري القديم أو القرد الانساني Pithecanthropus ويمر بالقدس وروما وفلورنسا وباريس ، وذلك وفقاً لذوق كل مؤرخ او مفكر او فنان ، حيث أن كل واحد من هؤلاء له الحرية المطلقة في ترجمة المنهاج ذي الاقسام الثلاثة .

والحق ان هذا الأمد الثالث ، « الازمنة الحديثة » ، الذي يزعم بانهآخر الآماد ونهاية السلسلة ، قد عُمل فيه ، مرة بعد أخرى ، منذ الحروب الصليبية ، شداً ومطاً حتى بلغ نقطة مرونته ولم يعد يتحمل اكثر من الشد او المط . ولقد قيل على الاقل قولاً مضمراً في معناه وذلك ان لم يكن قد بذلت كلمات كثيرة للتصريح بان هنا وراء الأمدين القديم والوسيط شيئاً ما نهائياً كان آخذاً بالبدء ، إنه مملكة ثالثة وُجد في مكان ما منها الاكتمال

وبلوغ اعلى منزلة ، مملكة ذات نقطة موضوعية .

أما بالنسبة الى ماذا تكون النقطة الموضوعية هذه ، فان كل مفكر ابتداءً من شولمان وانتهاء بالاشتراكي في يومنا هذا ، يسند بها اكتشافه الخاص المميز . وقد تكون نظرة كهذه الى مجرى الاشياء سهلة ومتملقة معاً في نظر صاحب امتياز الاكتشاف Patantee ، لكن صاحب الامتياز قد اتخذ فعلاً روح الغرب فقط، كما عكست على ذهنه بدلاً من معنى العالم ومغزاه . وهكذا فان عظماء المفكرين الذين يصنعون فضيلة ميتافيزيقية من ضرورة ذهنية ، لم يقبلوا فقط بمنهاج التاريخ الذي « تم الاتفاق عليه بصورة إجماعية » دون ما فحص وتحرٍ جديين، بل انما جعلوا منه ايضاً قاعدة لفلسفاتهم ومنطلقاً لها وجروا بالله إليه بوصفه الواضع لهذا أو ذاك « المخطط للعالم » .

ومن المؤكد ان للرقم الصوفي « ٣ » المطبق على آماد العالم شيئاً ما شديد الاغراء بالنسبة لذوق الميتافيزيقي . فلقد وصف هردر التاريخ على أنه تربية الجنس البشري وتهذيبه ، ونعته «كنت» بأنه تطور فكرة الحرية وارتقاؤها، وعرفه هيجل بانه امتداد ذات لروح العـــالم ، ووصفه آخرون بمصطلحات أخرى ، ولكن كل واحد منهم كان بالنسبة الى المخطط الاساسي بالغ القناعة والرضاء عندما استخلص فكريا معنى تجريديا لما للنظام الثلاثي التقليدي .

ونصادف على مطلع عتبة الحضارة الغربية يواكيم فلوريس العظـــيم (١١٤٥ — ١٢٠٢) وهو أول مفكر من الطابع الهيغلي (نسبة الى هيجل) دك أسس الشكل الثنائي لعالم اوغسطين دكاً ، وشكل يواكيم فلوريس للعالم قرار الذهن الغوطي بصورة جوهرية ، المسيحية الجديدة لعصره في شكل واحد ثالث بالنسبة إلى ديني العهد الجديد والعهد القديم ، معبراً عن الاماد الثلاثـة بوصفها أمد الآب وأمد الابن وأمد الروح القدس . وقد مست تعاليم فلوريس شغاف قلوب افضل الفرنسيسكانيين والدومينيكيين ، دانتي وتوما الاكويني، ولامست اعمق اعماق نفسيهما ، وايقظت نظرة جديدة الى العـــالم ، نظرة استولت ببطء ، لكنها استولت أكيداً على كامل المفهوم التاريخي لحضارتنا .

أما ليسنج Lessing (الذي حدد مرحلته الخاصة بالنسبة الى المرحلة الكلاسيكية على انها « العالم ما بعد »After world) فانه اقتبس فكرته عن « تربية الجنس البشري وتهذيبه » بما لهذه الفكرة من مراحل ثلاث ، مرحلة الطفولة والشباب والرجولة ، اقول اقتبسها من نعاليم المتصوفة في القرن الرابع عشر . وإبسن يعالج هذه الفكرة علاجاً شافياً وافياً في روايته « الامبراطور والجليلي » ، حيث يعرض في هذه الرواية عرضاً مباشراً مفهوم العارفين [١]. Gnostic للعالم وذلك بشخص الساحر مكسيموس ، وإبسن لا يخطو خطوة واحدة أبعد من هذا المفهوم في خطاب استوكهولم المشهور لعام ١٨٨٧ . وهكذا قد يبدو ان الوعي الغربي يشعر بنفسه ملزماً على التأكيد على نوع من ختام أو نهاية ملازمة لظهوره الخاص .

لكن إبداع رئيس دير Abbot فلوريس كان لحة صوفية تستشف اسرار النظام الإلهي للعالم . وقد كان محتما عليها أن تفقد كل معنى حالما تستعملها المحاكمة العقلية وتجعل منها فرضية للتفكير العلمي ، وذلك كما كان حالها مراراً وتكراراً منذ القرن السابع.

والحق أنه لنهج لا يقبل التبرير مطلقاً أن يبدأ بعرض تاريخ العالم فيطلق الاعنة لمعتقداته الدينية والسياسية أو الاجتماعية ويسبغ على المنهاج نوازع تدفع به ليتفق تماماً ووجهة نظره الخاصة . وهذا الأمر هو فعلاً بمثابة ان نجعل من قانون رياضي (مثلاً :« عصر العقل » الانسانية، اوسع سعادة لاكبر عدد من الناس ، عصر التنوير ، التقدم الاقتصادي، الحرية القومية ، غزو الطبيعة او السلام العالمي) ميزاناً نحكم بواسطته على دورات الفية كاملة من التاريخ . وهكذا ترانا نصدر احكامنا فنقول بانهم كانوا يجهلون « الطريق الحقيقية » أو أنهم لم يوفقوا في اتباعها وسلوكها .

ونحن نصدر هذه الاحكام والحقيقة البسيطة تقول بان إرادة هؤلاء

---

(١) العارفين : طائفة مسيحية تؤمن بان الخلاص يتم بالمعرفة دون الايمان .. المترجم

وأهدافهم وغاياتهم ليست هي نفس ارادتنا واهدافنا وغاياتنا. إن قول غوتيه القائل : « إن ما هو هام في الحياة وخطير ، هو الحياة وليس نتيجتها » لهو الجواب على اية وكل محاولة بليدة ترمي الى حل أحجية الشكل التاريخي بواسطة منهاج .

وإنها الصورة ذاتها هي التي نجدها عندما نلتفت الى مؤرخي كل فن او علم خاص (وكذلك ايضاً مؤرخيْ الاقتصاد القومي والفلسفة) فنحن نجد :

«التصوير الزيتي» ابتداءً من المصريين (او انسان الكهف) الى الانطباعيين أو :

« الموسيقى » من هوميروس الى بايروت وما بعدها

أو :

« التنظيم الاجتماعي » ابتداءً من السكنى على شواطىء البحيرات حتى الاشتراكية ، وذلك كما قد تعرض الحال وفق خط بياني مسطري يرتفع بعزم وثبات متوافقاً وقيم المناقشات (المختارة) . ولم يعتبر أي إنسان بانـه قد يكون للفنون أجل محدود من الحياة وأنها قـد تربط كأشكال للتعبير عن الذات الى اقاليم خاصة ونماذج خاصة من الجنس البشري ، وانـه قد يكون لذلك بمجموع تاريخ فن مجرد تصنيف او تنسيق من الممكن إضافته الى تطورات منفصلة لفنون خاصة دون أن تكون له عروة من اتحاد ما عدا الاسم وبعض تفاصيل تقنية مهارة Craft-technique

إننا نعلم صوابا وحقاً بان ايقاع وشكل وديمومة حياة ، وايضاً كل تفاصيل خاصة لمركب عضوي انمـا تقررها وتحددها ملكات نوعه وصفاته . فليس هناك من انسان يجرؤ وهو يتطلع الى شجرة البلوط التي تبلـغ حياتها الدورة الالفية من العمر ، على القول بان هذه الشجرة على وشك ان تسلك هذه اللحظة ، الآن ، مجرى حياتها الحقيقي والخاص بها. كما وانه لا يستطيع اي انسان أن يـترقب وهو يرى اليسروع (دودة تتطور الى فراشـة) ينمو يوماً بعد آخر ، أنه سيتابع نموه لمدة سنتين او ثلاث . فنحن نحس في

هذه الحالات وبقناعة تامة كاملة بحد نهائي ، وهـذا الاحساس بالحد النهائي ينطبق على إحساسنا بالشكل الباطني . أما في حالة التاريخ البشري الارقى فأمرنا على العكس من ذلك ، إذ اننا نستمد افكارنا فيما يتعلق بمجرى المستقبل من تفاؤل جموح يستخف ويستصغر كل ما هو تاريخي ، مثلا كالعضوي والخبرة ولذلك ينطلق كل انسان ليكتشف في الحاضر العرضي آماداً يستطيع أن يمد بها لتمسي بعضاً من سلسلة متتالية مذهلة لا يستند وجودها على برهان علمي بل انما يرتكز الى ميل سابق ومحاباة ، فتراه يعمل في امكانات غير محدودة ، (دون أن تكون هناك ابدا نهاية طبيعية) ويخطط دون أي فن من قمة المجرى الآني لآجُرَّة تتابع في بناء هيكله .

وعلى كل حال ، فليس للجنس البشري هدف او فكرة أو مخطط اكثر مما لعائلة من الفراشات او الاركيديا Orchids مما ذكرت . « فالجنس البشري » هو تعبير زولوجي Zoological أو كلمة فارغة . ولكن فلنطرد سحر الشبح ولنكسر الدائرة السحرية فعندئذٍ ستبرز فوراً ثروة مذهـــلة من الاشكال الواقعية ، ـ إنها الحي بكل ماله من امتلاء هائل وعمق وحركة وهو الذي كان حتى الآن ُمقنّعاً بوصلات الكلام وبمنهاج جاف كالغبار وبتشكيلة من « المثل العليا » الشخصية . إنني لأرى في مكان ذاك الاختلاق لتاريخ واحد ضيق كالخط Lincar ، تاريخ من غير المستطاع الحفاظ عليه إلا إذا مـــا أغمض المرء عينه عن جمهرة هائلة من الحقائق ، أقول إنني لأرى بدلاً من ذاك الاختلاق دراما تتألف من عدد من حضارات جبارة ، تنبجس كل حضارة منها بقوة بدائية من تربة الاقليم الأم حيث تبقى مشدودة إليه برسوخ وثبات طيلة دورة حياتها ، وتطبع كل واحدة منها مادتها وجنسها البشري وصورتها الخاصة بطابعها ، ولكل واحدة من هذه الحضارات فكرتهـــا وعواطفها وانفعالاتها الخاصة وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بهـــا [1] . وهنا يوجد حقاً الوان وأضواء وحركات لم تكتشفها اية عين فكرية بعـــد . وهنا تزدهر

---

(١) يعني المؤلف في هذه الدراما — المترجم —

الحضارات والشعوب واللغات والحقائق والالهة والاصقاع وتهرم وتشيخ شأنها في ذلك شأن اشجار البلوط والصنوبر والعساليج والزهر والاوراق . لكنه لا يوجد « جنس بشري » يهرم ويشيخ . إن لكل حضارة إمكاناتهـــا الجديدة الخاصة بها للتعبير عن ذاتها ، هـــذا التعبير الذي ينشأ وينضج وينحل ولن يعود أبداً . فلا يوجد هناك فن واحد للتصوير الزيتي او رياضيات واحدة أو فيزياء واحدة ، بل انما هناك الكثير والعديد مما ذكرت ؛ وكل فن يختلف في اعمق اعماقه عن مثيله الآخر . وكل واحد محدود بديمومة ومستقل قائم بذاته وهو تماماً ككل طائفة من النبات التي لها نوارها الخاص او ثمارها ونموذجها المعين لنمائها وانحلالها . إن هـــذه الحضارات َصعَّدت عالـــيا جواهر الحياة ، وهي تنمو وفق اللاهدفية الفاخرة الرائعة نفسها الـــتي تنمو وفقها زهور الحقل . وهي كالنبات والحيوان تنتمي الى طبيعة غوتيه الحية ، لا إلى طبيعة نيوتن الميتة. إنني لأرى التاريخ كصورة من تشكلات وتحولات لانهاية لها لنمو وتضاؤل بديعين لاشكال متعضية .اما المؤرخ المحترف فهو على العكس من هذا ، إذ انه يرى التاريخ كنوع من دودة واحدة تعمل بجد وتكدح بنشاط كي تضيف الى ذاتها حقبة بعد أخرى .

لكن السلسلة المتألفة من « تاريخ قديم » و « وسيط » و « حديث » قد استهلكت أخيراً نفعها واتت على فائدتها .وبالرغم من كونها ذات زوايا ضيقة ضحلة كأساس علمي ، إلا أننا مع ذلك لم نمتلك أي شكل آخر غيرها لم يكن بكامله شكلاً غير فلسفي نستطيع بواسطته وداخله أن ننظم معلوماتنا . وعلى تاريخ العالم (كما فهُم حتى الآن) أن يشكر هذه السلسلة على ترشيح فضلاتنا الراسخة القابلة للتنسيق والتبويب . ولكن عدد القرون التي يستطيع المنهاج أن يغطيها إذا ما عمل فيه شداً ومطاً قد تجاوزناه منذ عهد بعيد ، وقـــد أخذت الصورة ، مع التزايد السريـــع في حجم مادتنا التاريخية (وخاصة تلك المادة منها التي لا نستطيع أن ندخلها في المنهاج) ، أقـــول أخذت الصورة بالانحلال الى لوثة مشوشة . وكل طالب يدرس التاريـخ وغير اعمى تماماً

يعرف بهذه الحقيقة ويحس بها : لكنه كالغريق يجاهد ليتشبث بالمنهاج الوحيد الذي يعرف به . إن على كلمة الأمد الوسيط(العصور الوسطى) التي ابتكرها البروفسور هورن اوف لايدن عام ١٦٦٧ أن تغطي كتلة لا شكل لها، كتلة متزايدة الامتداد ، كتلة لا نستطيع أن نعرفها إلا تعريفاً سلبياً، ككل شيء آخر يستعصي على كل زعم لادراجه في المجموعتين الأخريين (الحسنتي الانتظام نوعاً ما) . ولدينا مثال ممتاز من ما ذكرت،وهـذا المثال يتجلى في علاجنا السقيم الهزيـل واحكامنا الحائرة المترددة على تاريـخ كل من الفرس والعرب والروس، ولكن قبل كل شيء قد أمسى من المستحيل علينا أن نطمس الحقيقة القائلة بان ما يدعى بتاريـخ العالم انما هو تاريخ محدود فهو اولاً تاريـخ الاقليم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، ومن ثم فهو مع تبديل مبتور للمنظر الى الهجرات (وهذه الهجرات هي حدث هام بالنسبة الينا ولذلك بالغنا في اهميتها ، انها حدث ذو أهمية نقية خالصة في غربيتها وليست حتى عربية) . اقول ومن ثم فهو تاريخ اوروبا الغربية الوسطى . وعندما صرح هيجـل بسذاجة ،إذ قـال بانه قد تعمد تجاهل اولئك الشعوب الذين لا يتناسبون ومنهاجه للتاريـخ ، فانه لم يكن يدلي إلا باعتراف أمين صادق عن المقدمات المنطقية المنهاجية التي يجدها كل مؤرخ ضرورية لغايته وقصده وتبرزهـا كل دراسة تاريخية في مخططها . والحق ان المسألة قد أصبحت الآن مسألة حصافة عامية تقضي علينا بان نقرر أيا من التطورات التاريخية يتوجب علينا ان ندخلها في حسابنا وأياً منها علينا ان نهملها .إن رانكه Ranke لمثال جيد يحتذى به .

- ٨ -

إننا اليوم نفكر بقارات،وفلاسفتنا ومؤرخونا وحدهم هم الذين لم يتحققوا من هذا الأمر . إذن فأية أهمية للمفاهيم ومجالات الادراك التي يضعها هؤلاء أمامنا بوصفها ذات صحة كونية بالنسبة الينا ، وذلك عندما نرى أن أبعد آفاقهم لا يمتد ليتجاوز الدائرة الذهنية للانسان الغربي ؟ .

ولنتفحص من وجهة النظر هذه أفضل مؤلفاتنا وكتبنا . فعندما يتحدث افلاطون عن الانسانية ، فانما يعني الهلينيين في تباينهم والبرابرة ، وهـذا ما يتفق تماماً والصيغة اللاتاريخية للحياة والفكر الكلاسيكيين ، زد على ذلك أن مقدماته المنطقية تنطلق به الى نتائج هي بالنسبة الى الاغريق هامة وكاملة . وعلى كل حال عندما يفلسف « كنت » مثلاً الفكرات الاخلاقية ، فهو يصر على أن نظرياته صحيحة بالنسبة الى كل الناس في كل العصور والبلدان . وهو لا يصرح عما اورد بكلمـات ، لأن هذا الرأي في نظر « كنت » ونظر قارئه هو شيء ما مُسلم به ولا يحتاج الى تصريح او تلميح. وكنت في فلسفته للجمال لا يصوغ مبادىء فن فيدياس او فن رمبراندت، بل انما يصوغ مبادىء للفن بصورة عامة . ولكن ما يعرضه « كنت » كأشكال ضرورية للفكر ، فانما هي والحق اشكال ضرورية للفكر الغربي فقط ، بالرغم من أن لمحة الى ارسطوطاليس والى نتائجه المختلفة بصورة جوهرية عن نتائج « كنت »كانت يجب ان تكون كافية لتريه أن عقل ارسطوطاليس الذي لم يكن يقل عـــن عقله نفوذاً ، كان ذا تركيب يختلف عن تركيب عقله . إن مراتب الانسان الغربي هي مراتب غريبة عن الفكر الروسي غرابة مراتب الانسان الصيني او الاغريقي عنه . زد على ذلك إن الادراك الكامل الفعال لكلمات الجذر الكلاسيكية هو مستحيل تماماً بالنسبة الينا استحالة كلمات الجذر الروسية والهندية على الانسانين الحديثين من صيـــني وعربي ، بما لهذين الانسانين من تركيبين ذهنيين مختلفين اختلافاً مطلقاً .

وليس للفلسفة ابتداءً من « بيكون » حتى « كنت » سوى قيمة حب الاستطلاع والتقصي فقط . وهذا هو مـــا ينقص المفكر الغربي ، هذا المفكر ، الذي ربمـــا ترقبنا ان نجده لديه – إن ما ينقصه هو البصيرة النافذة الى الطابع النسبي تاريخياً لمعلوماته التي هي تعابير وجود واحد معين خاص وواحد فقط ، والمعرفة بالحدود الضرورية لصحة هذه التعابير ، والقناعة بان حقائقه « الوطيدة الراسخة » ونظراته « الخالدة » هي صحيحة

بالنسبة إليه فقط ، وخالدة بالنسبة الى نظرتـه الى العالم ، والواجب بان يتطلع الى ما وراء هذه الحقائق والنظرات ليعرف مـا الذي ولده أهالي الحضارات الأخرى بقناعة تعادل قناعته من داخل ذواتهم . هذا وحده وليس أي شيء آخر هو الذي سيبلغ بفلسفة المستقبل ذروة الكمال ، ونحن لا نستطيع أن نفهم رمزية التاريخ إلا بواسطة فهمنا للعالم الحي . فهنا لايوجد أي شيء ثابت لا يتغير أو أي شيء كوني . وعلينا أن نكف عن التحدث عـن اشكال « الفكر » ، ومبادىء « التراجيدي » ورسالة « الدولة » . فالصحة الكونية تشتمل دائماً على ضلال المناقشة من الخاص الى الخاص .

ولكن هناك شيئاً ما أشد إزعاجاً وإقلاقاً من الضلال المنطقي ، وهـذا الشيء يأخذ بالظهور عندما ينتقل مركز ثقل الفلسفة مما هو منهاجي تجريدي الى ما هو أخلاقي واقعـي ، كما وان المفكرين الغربيين منا ابتداء بشوبنهور فمن بعد يتحولون بابحاثهم من مشكلة المعرفة الى مشكلة الحيـاة (الارادة للحياة ، للقوة ، للفعل) . وهنا لا نجد انسان « كنت » المثالي التجريدي هو الذي يخضع للبحث والتقصي ، بل انمـا نجد الانسان الواقعي كما قطن الارض خلال الزمان التاريخي واجتمع ، أبدائياً كان أم متقدماً في قبائل وشعوب .

وفي هذه الحال نجده في اية حال أخرى ، وذلك في تعريفنا لتركيب ارقى نظرياته (نظريات الانسان الواقعي) بمصطلحات منهـاج « القديم والوسيط والحديث » بما لهذا المنهاج من تحاديد محلية . ولكن مع ذلك هذا هو ما يحدث ويجري .

ولنتأمل في افق نيتشه التاريخي . ان مفاهيمه عن الانحطاط والعسكرية وتقييم كل القيم ، والارادة للقوة ، تكمن عميقاً في جوهر المدنية الغربية ،وهي ذات اهمية حاسمة بالنسبة الى تحليل المدنية الغربية . ولكن ما الذي نجده لديه وكان الاساس الذي شيد عليه إبداعه؟ اننا نجد رومانا واغريقاً وعصر نهضة وحاضراً

اوروبيا مع لمحة جانبية سريعة عابرة وغير مُدركة القى بهـــا على الفلسفه الهندية. وزبدة القول أننانجد عند نيتشه التاريخ من «قديم ووسط وحديث» ونحن نقول جازمين بان نيتشه لم يتخط أبداً المنهاج ، كما وأنه لم يتخطه أي مفكر آخر في عصره .

فاي ترابط أو تناسب يمكن أن يكون هناك بين فكرته في الانسان الديونيسي ، وبين الحياة الباطنية لانسان صيني بلغ شأواً رفيعاً من المدنية، أو بين انسان أميركي معاصر؟وما هي أهمية نموذجية الانسان الاعلى (السوبرمان) ومغزاه بالنسبة الى عالم الاسلام ؟

وهل يمكن ان يكون لتشكيل صورة للنقيض بين الطبيعة والذهن ، بين الوثني والمسيحي ، بـــين الكلاسيكي والحديث أي معنى بالنسبة الى نفس الانسان الهندي او الروسي ؟ وما الذي يستطيع تولستوي – الذي رفض من اعماق انسانيته كامل الفكرة الغربية في العالم بوصفها شيئاً ما غريباً نائياً ان يفعل « بالعصور الوسطى » وبدانتي ولوثر ؟ وما الذي يستطيـع الياباني ان يفعل ببارسيفال وزردشت أو الهندي بسفوكليس ؟ وهل مجال فكر شوبنهور وكومت وفيورباخ وهيبل أو سترنـــدبرغ ارحب واوسع ؟ أليست سيكولوجيتهم ، بكل ما لها من مقاصد وعزم على أن تكـــون ذات صحة عالمية هي سيكولوجية ذات مغزى اوروبي غربي محض ؟

وكم تبدو مشاكل نساء إبسن مضحكة هازلة ، هذه المشاكل التي تستأثر باهتمام « الانسانية . وتتحداه ، وذلك إذا ما استبدلنا نوراه Nora الشهيرة، هذه السيدة ربيبة احدى مدن اوروبا الشمالية الغربية ، وذات افق يدل عليه ايجار منزل يتراوح بين المئة والثلاثماية جنيه ، والبروتستنتية النشأة ، بزوجة قيصر او مدام دي سيفيني،أو بامرأة يابانية او تركيةقروية !ولكن دائرة رؤيا إبسن بالنسبة الى هذه القضية ، هي دائرة الطبقة الوسطى في مدينة كبرى بالأمس واليوم . أما بخلافاته التي تنطلق من مقدمات روحية فلم يكن لهـــا وجود حتى قرابة عام ١٨٥٠ وهي من النادر ان تبقى ما بعد عام ١٨٥٠ ،

فهي ليست خلافات العالم الكبير ، أو خلافات الجماهير الدنيا ، واكثر من ذلك فانها ليست بخلافات المدن التي يقطنها سكان غير اوروبيين .

كل هذه الاشياء هي قيم محلية ووقتية ، ومعظمها هـــو فعلاً موقوف على « الانتلجنسيا » الوقتية في المدن من الطراز الاوروبي الغربي . وهي بالتأكيد ليست قيماً تاريخية عالمية « خالدة » . ومهما قد تكون الاهمية الجوهرية لجيل إبسن ونيتشه ، فانها تخالف المعنى كل معنى كلمة « تاريخ العالم » (التي تدل على المجموع وليس على جزء مختـــار منه) تخالفهـــا في إخضاعهـــا وتجاهلها وتبخسها حق العناصر التي تقع خـــارج المصالح الحديثة . ومع ذلك فان هذه العناصر قد بُخس فعلاً حقها الى درجة كتلك ، او تجوهلت الى حد مذهل . أما ما قاله الغرب وفكر به من مشاكل الفراغ والزمان والحركة والرقم والزواج والمِلكية والتراجيدي والعلم فانما بقي ضيق الافق غامضاً مشكوكاً في أمره وذلك بسبب ان الناس كانوا دائماً يبحثون عن حل القضية .ولم يُفطن أبداً الى الحقيقة القائلة بان المستجوبين الكثيرين يستوجبون اجوبة كثيرة ، وأن اي سؤال فلسفي هو فعلاً رغبة مقنعة في الحصول على تصريح واضح جازم عما هو مضمر في السؤال نفسه ، وان الاسئلة الكبرى لاية مرحلة من المراحل هي مائعة وراء كل مفهوم ، وانه لذلك لا نستطيع ان نبلغ الاسرار النهائية إلا فقط بواسطة الحصول على مجموعـة من (الحلول المحدودة تاريخياً ووزنها بميزان متحرر من كل عامل شخصي تحرراً مطلقاً. إن من يدرس حقاً الجنس البشري لا يعالج أية وجهة نظر بوصفها على صواب أو خطأ مطلقين . ولا يكفي أمام مشاكل خطيرة ، كالزمان او الزواج أن يتوجه الانسان الى الخبرة الشخصية او الى الصوت الباطني او العقل أو رأي الاجداد او المعاصرين.فهؤلاء قد يقولون ما هو صحيـح بالنسبة الى المستجوب نفسه او بالنسبة الى زمانه ، لكن ليس هذا كل ما في الأمر . فالظاهرات في الحضارات الأخرى تتحدث بلغة مختلفة ، وبالنسبة الى الرجال الآخرين هناك حقائق مختلفة ، وعلى المفكر ان يقر بصحة جميعها أو ان لا يقر بصحة

أية واحدة منها .

إذن فبالضخامة ما يمكننا ان نعمل في نقد العالم الغربي توسيعاً وتعميماً ! كيف يتوجب على المرء أن يبتعد ببصره بعداً هائلاً ما وراء نسبية نيتشه البريئة وعصره — وكيف يتوجب على حس المرء بالشكل أن يصبح رهيفاً وعلى بصيرته السيكولوجية ان تمسي حساسة — وكيف يتوجب على الانسان ان يحرر نفسه تحريراً كاملاً من محدوديات الذات والمصالح العملية والافق قبل ان يتجرأ فيؤكد التظاهر بفهم تاريخ العالم وبفهم العالم كتاريخ .

— ٩ —

ومعارضة لكل هذه المناهج التعسفية الضيقة والمشتقة من التقليد او الاختيار الشخصي والتي حشر فيها التاريخ حشراً ، اتقدم بالشكل الطبيعي « الكوبيرنكي » لمجرى العملية التاريخية الذي يكمن عميقاً في جوهر مجرى هذه العملية ويكشف عن نفسه فقط لعين متحررة تماماً من كل تحامل وتحيز ومحاباة .

وغوتيه كان عينا كهذه ، فان ما دعاه غوتيه بالطبيعة الحية هو تماماً ما ندعوه هنا بتاريخ العالم ، بالعالم كتاريخ . فغوتيه بوصفه فناناً صوّر حياة اشخاصه وتطورها ، ودائماً حياتها وتطورها ، صورة الشيء في الصيرورة وليس الصير (ويلهلم مايستر ، الحقيقة والخيال) ، اقول ان غوتيه هذا كان يكره الرياضيات . فالعالم كميكانيكا كان بالنسبة اليه ينتصب نقيضاً للعالم كتركيب عضوي ، والطبيعة الميتة للطبيعة الحية ، والقانون للشكل . وهو بوصفه « طبيعياً » فانه كان يقصد من وراء كل سطر كتبه ان يعرض صورة الشيء في الصيرورة ، « الشكل المنطبع » يحيا ويتطور . وكان العطف والملاحظة والمقارنة واليقين الباطني الفوري والحصافة الذهنية هي الوسائل التي تمكن بواسطتها من الاقتراب الى اسرار العالم الظاهري في حالة الحركة .

والآن فإن تلك هي وسائل البحث التاريخي .انها هي بكل دقة وليس هناك من وسائل أخرى غيرها. لقد كانت هذه البصيرة الشبيهة ببصيرة الله هي التي الهمت غوتيه ليقول وهـــو جالس بالقرب من نار اضرمت في العراء عشية معركة « فالمي » .

« هنا والآن تبدأ حقبة جديدة من تاريـخ العالم ، وباستطاعتـــكم ايها السادة ان تقولوا بانـكم قد كنتم هناك . »

ولم يسبق ابداً لجنرال او دبلوماسي ، ناهيك عن الفلاسفة ، أن أحس بالتاريخ في « الصيرورة » إحساساً مباشراً كهذا . إنه اعمق حـكم نطق به إنسان ، في أي وقت ، على عمل تاريخي عظيم في لحظة انجازه .

وتماماً كما تتبع غوتيه نمو شكل النبات ابتداء من الورقة حتى ولادة النموذج الفقري ومجرى عملية الطبقات الجيولوجية — المصير في الطبيعـــة وليس السببية (العلية) — كذلك سننمي هنا لغة شكل التاريخ البشري ، أي تركيبها الدَوْري ، منطقها المتعضي ، اقول سننميهـــا من فيض كل التفاصيل المناهضة ووفرتها .

ومن وجهات نظر أخرى فان الجنس البشري كما هو شائع ومألوف يعتبر وبحق واحداً من الانظمـــة المتعضية على سطح الكرة الارضية . فتركيبه الجسماني ووظائفه الطبيعية ، وكامل المفهوم الظاهري عنه ، جميـع هـــذه الاشياء تنتمي الى وحدة اوسع شمولاً واشد ادراكاً ومن هذه الوجهة فقط ، يُعامل خلافاً لذلك ، بالرغم من تلك القرابة التي نحس بها إحساساً عميقاً بين مصير النبات والمصير البشري والتي هي موضوع خالد لكل الشعر الغنائي . وبالرغم من ذاك الشبه بين التاريخ البشري وبين أي تاريخ آخر لمجموعات الاحياءالراقية هذا التاريخ الذي هو اللازمة (بمفهومها الموسيقي) لاساطير وحوش وخرافات وخزعبلات لا تنتهي .

ولكن فلندفع فقط بالمماثلة Analogy لتحمل على وجهة النظر تلك ، كما

تحمل على الباقي ، تاركين لعالم الحضارات الانسانية أن يعمل بود ودون تحفظ في الخيال بدلاً من أن نحشره حشراً في منهاج جاهز من قبـــل . ولنترك الكلمات : الشباب والنمو والنضوج والانحلال (هذه الكلمات التي كانت حتى الآن ، وهي اليوم اكثر من اي يوم آخر مضى ، تُستَخدم للتعبير عن تقييم شخصي وعن إيثارات مطلقة في ذاتيتها وذلك في علوم الاجتماع والاخلاق والجمال) . اقول لنترك لتلك الكلمات لتؤخذ أخيراً على أنهـــا اوصاف موضوعية لحالات متعضية . ولنستعرض الحضارة الكلاسيكية بوصفها ظاهرة مستقلة قائمة بذاتها تتجسد وتعبر عن النفس الكلاسيكية، ولنضعها الى جانب الحضارات الأخرى من مصرية وهندية وبابلية وصينية وغربيـــة ، ولنقرر بالنسبة الى كل فرد من هؤلاء الافراد الارقى ما هو نموذجي في جيشانهـــا وصخبها ، وما هو ضروري في ضجة المصادفة وشغبها . وعندئذٍ ستكشف أخيراً صورة تاريخ العالم عن نفسها ، هذه الصورة التي هي طبيعية بدهيـــة بالنسبة الينا والينا فقط نحن معشر الغربيين .

— ١٠ —

إذن ، فإن واجبنا الأشد حصراً ، هو أولاً ، أن نقرر ، وفق مخطط عالمي كهذا ، وضع أوروبا الغربية واميركا ، كما هي حال هـــذا الوضع في المرحلة الواقعة بين عامي / ١٨٠٠ / و / ٢٠٠٠ / وان نكـّون الموقف التقويمي التاريخي (Chronological - Position) لهذه المدة ، شريطة أن يأتي تكويننا للموقف الآنف الذكر ، نتاجاً لما اجتمع لتاريخ الحضارة الغربية من اسباب ومقومات ، وأن نحدد أهميتها كإصحاح او فصل يتبدى بالضرورة ، في هذا الزيّ أو ذاك ، في سيرة كل حضارة، وأن نُعرّف معانيها الأساسية والرمزية المتجلية في أشكالها التعبيرية من سياسية وفنية وفكرية واجتماعية .

ونحن اذا ما عالجنا هذا الموضوع بروح المماثلة، فإن هذه المرحلة (١٨٠٠— ٢٠٠٠) تبدو متوازية في تقاويمها التاريخيـــة . فالطور الحضاري الاغريقي

(وفق حسّنا الخاص المعاصر) وبلوغ هذا الطور لذروته في الحرب العالمية ، يوازي مرحلة الانتقال من العصر الإغريقي إلى العصر الروماني .

فروما بواقعيتها الصارمة (غير المُلْهَمة ، البربرية ، الانضباطية العملية البروتستنتية البروسية) ستعطينا دائماً وأبداً المفتاح لفهم مستقبلنا الخاص ، وهذا يقتضينا أن نلجأ في أبحاثنا إلى المماثلات .

ان نافذة القدر التي نعبر عنها ونتمثلها في قيامنا بالتنقيط بين الكلمتين التاليتين تنقيطاً مزدوجاً متوازياً : الاغريق - الرومان وهذا يحدث لنا أيضاً الآن ، وبفصل بين ما أُنجز وتم ، وبين ما هو آت .

وكان باستطاعتنا منذ طويل زمن ، أو بالاحرى كان يجب علينا أن نرى في العالم الكلاسيكي تطوراً هو صورة طبق الأصل لتطور عالمنا الغربي الخاص، ومع أن ذاك التطور يختلف عن هذا في جميع التفاصيل السطحية ، لكنه في الواقع يشابهه مشابهة تامة في قوته الداخلية التي تدفع هذا النظام العظيم نحو نهايته . لقد كان بإمكاننا أن نجد « بخدن الأنا » الثابتة (Alter ego) في واقعنا الخاص بقيامنا بمطابقة كل فقرة على فقرة ، « حرب طروادة » على الحروب الصليبية ، هوميروس على انشودة « نبيلونج » [1] ، « الدوري » [2] على يوهان سبستيان باخ ، أثينا على باريس ، ارسطو على «كانت» ، الاسكندر على نابليون ، المدينة العالمية على الاستعمار المألوف لدى كل من الحضارتين.
ولسوء الحظ يتطلب هذا العمل ترجمة صورة التاريخ الكلاسيكي ترجمة تختلف كلياً عن الترجمة غير المعقولة في سطحيتها وتحاملها ومحدوديتها ، والتي نحن في الواقع قد اعطيناها الصورة .

والحق ! إننا كنا شديدي الوعي لعلاقتنا القريبة بالعصر الكلاسيكي ونتيجة لوعينا الشديد لهذه العلاقة أمسينا أشد عرضة لتأكيد تلك الترجمة للصورة تأكيداً بعيداً عن كل تأمل ودرس . إن المشابهة السطحية هي مكيدة عظمى

---

(١) Nibelungenlied (٢) قدماء الاغريق

وقعت في شباكها جميع أبحاثنا الكلاسيكية وذلك حالما انتقلت هذه الابحاث من تنسيق الاكتشافات ونقدها الى ترجمة مغزاها الروحي . فتلك العلاقة الباطنية الوثيقة ، التي بواسطتها ندرك ذواتنا لنقف عند الحضارة الكلاسيكية ، والتي أيضاً تفضي بنا إلى الاعتقاد بأننا نحن تلامذة هذه الحضارة وخلفاؤها (بينما نحن ، في الواقع ، المدلهون بحبها) اقول ان تلك العلاقة الباطنية ليست سوى هوى مُبَجَّل يتوجب علينا أخيراً أن نطرحه جانباً .

إن جميع إنجازات القرن التاسع عشر من دينية وفلسفية وتاريخ فن ونقد اجتماعي كانت ضرورية بالنسبة الينا لا لتمكننا من فهم آشيل وافلاطون وابولون ، ديونيسوس ، ودولة أثينا والقيصرية (وفهمنا لهذه الأمور لايزال بعيد المجال عزيز المنال) بل إنما كي نبدأ ، منذ الآن والى الأبد ، بإدراك ما يفصل ذواتنا الباطنية ، من بون شاسع لا محدود ، عن هذه الأمور التي ربما كانت أبعد غرابة عنا من آلهة المكسيك أو الهندسة الهندية .

لقد كانت آراؤنا في الحضارة الرومانية الاغريقية ، تتأرجح دائماً بين نقطتين متناقضتين ، وكانت مواقفنا تحدد لنا ، دون ما تبدل أو تغير ، وفق « المنهاج » منهاج « القديم والوسيط والحديث » فهناك مجموعة من الناس ، وخاصة اولئك العاملين منهم في الحقل العام ، الاقتصاديين والسياسيين والقضاة يزعمون أن الجنس البشري الحاضر يخطو خطوات واسعة رائعة في طريق التقدم ، ويقيّمون ، هؤلاء البشرية المعاصرة أرفع تقييم ، بينما يقيسون كل شيء سبق الجنس البشري المعاصر بالمستوى الذي بلغه هذا الجنس .

ولا يوجد هناك اي حزب سياسي معاصر لم يزن كليون أو ماريوس أو تميستوكلس أو كاتلين الجراتشي ، بميزان مبادئه .

ومقابل هؤلاء نرى مجموعة أخرى من الناس تتألف من فنانين وشعراء وعلماء اشتقاق اللغات وفلاسفة . وهؤلاء يشعرون داخل ذواتهم بأنهم مجردون من جوهرهم في الحاضر الآنف الذكر لذلك فهم يختارون من هذه او تلك الحقبة التاريخية من الماضي ، موقفاً لا يختلف في اطلاقه ودغماتيته (Dogmatic)

عن موقف الفئة الأولى من الناس ، ومن هذه المواقف يستصدرون الاحكام القاضية بادانة « الحاضر » وهذه الفئة ترى أن الحضارة الغربية لم تبلغ حضارة اليونان بعد ، بينما ترى الفئة الأولى أن الحضارة الغربية هي حضارة مكررة مرة ثانية ، لكن كلا الفئتين تنشط وتعمل مفتونة بمنهاج التاريخ هذا المنهاج الذي يعتبر الحقبتين التاريخيتين جزءاً من الخط المستقيم ذاته .

من خلال هذه المعارضة تعبر روحا « فاوست » عن نفسيهما . إن خطر الفئة الأولى يكمن وراء سطحيتها الماهرة،وفي النهاية فإن جميع ما يترسب على يديها من كامل الحضارة الكلاسيكية ، ومن انعكاسات روحها ، لا يتجاوز حزمة من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسيكولوجية ، أما باقي ما تزخر به حضارة الكلاسيكيين فهوفي نظر هذه الفئة نتائج ثانويةوانعكاسات وظواهر ملازمة مرافقة لما اكتشفت هـــذه الفئة في الحضارة الكلاسيكية من « حقائق » .

ونحن لا نجد في مؤلفات أي ذكر ، ولو عابر ، لقـــوة أجواق آشيل الاسطورية ، أو لمحة عن الصراع الجبار الذي خاضته أمنا الأرض من أجـــل تجسيد فن النحت المبكر ، أو تطرقاً عابراً لموضوع العامود « الدوري » أو معالجة عاجلة للثراء العريض الذي تزخر به طقوس عبادة ابولون ، أو كلمة عن عمق مغزى عبادة الامبراطور عند الرومـــان . أما الفئـة الأخرى التي تضم قبل كل شيء رومانتيكيين جاءوا متأخرين عـــن عصرهم (ويمثل هؤلاء في إيامنا الحاضرة ، أساتذة ، بازل [١]، الثلاثة ،باخ أوفن وبركهاردت ونيتشه) فإن هؤلاء يرزحون أيضاً تحت وطأة الاخطار العادية الناجمة عن المذهب (Ideology) وهم يعانون الضياع فيفقدون ذواتهم في غيوم العتاقة (Antiquity) هذه العتاقة التي هي ليست سوى صورة حساسيتهم الخاصة ، معكوسة على المرآة الفيلولوجية ، وهم يسندون قضيتهم إلى الدليـــل الأوحد الذي يعتقدون بأهليته لإثباتها ؛ (القضية) واعني بهذا الدليل ذخائر الأدب

---

(١) مدينة سويسرية

القديم ، ومع كل ذلـك لم يحدث أبداً أن مَثّل كتاب عظام حضارتهم لدينا تمثيلاً ناقصاً تماماً كما فعل كتاب الحضارة الكلاسيكية . اما الفئة الأولى فإنها تجمع ادلتها ، على صحة مزاعمها ، من منابـــع التشريع والقانون ومن النقوش والتداوين (جمع تدوين) والنقود (الامر الذي يحتقره بركهاردت ونيتشه ، لسوء حظهما) ويخضعون لها الآداب الـتي وصلت الينا . ونتيجة لذلك ، لا تكن أية فئة للأخرى في ميدان أسس النقد ، أي احترام أو تقـــدير . ولم يترام الى سمعي أبداً أنه كان هناك أقل احترام متبادل بـــين « نيتشة » ومومسون .

ولكن لم تستطع أية فئة أن ترتفع إلى ذاك الفهم في المعالجـــة الذي من شأنه أن يحيل هذه المعارضة القسطاسية (نسبة الى قسطاس) إلى رماد ،مع أن بلوغ هذا النهج لم يكن فوق طاقتهم . وقـــد جعلتهم محدودية ذواتهم جزاء ما اقترفوه من اخذهم لمبدأ السببية من العلوم الطبيعية . وهم دون ما وعي منهم ، انتهوا إلى فلسفة ذرائعية نقلت بأمانة ودقة صورة العالم التي سبق ان رسمتها العلوم الطبيعية ، وبهذا يكونون قد طمسوا وشوشوا الأشكال الأخرى الهادئة للتاريخبدلاً من أن يجلوا معالمها ويكشفوا عـــن وجهها. فلم يكن لديهم أي نهج مـــلائم لإخضاع حشد المادة التاريخيـــة وفحصها على ضوء النقد المقارن ، سوى اعتبارهم لواحد من مركبات الظواهرPhenomena جوهرياً ، ومسبباً ، وايمانهم بان المركبات الأخرى ثانوية الأهمية ، كأنها نتائج للمسببات . ولم يقتصر هذا النهـج على المدرسة الواقعية ، بـــل سار الرومنتيكيون وفقه ايضاً .فالتاريخ لم يكشف، حتى لحملقتهمالحالمة ، منطقه الخاص. ومع ذلك شعروا بان هناك ضرورة راسخة تلزمهم بان يضعوا على شكل ما ، تقديراً محدداً بدلاً من أن يديروا ظهورهم يأساً للتاريخ ، كما فعل شوبنهاور .

وزبدة القول ان هناك نهجين بالنسبة إلى معالجة الحضارة الكلاسيكية النهج المادي والنهج المثالي (الايديولوجي) فالمذهب الأول يؤكد أن هبوط إحدى كفتي الميزان يؤدي إلى ارتفاع الكفة الأخرى ، وهذا المذهب يدلل على أن مثل هذا الأمر يقع على صورة ثابتة لا تتغير (حقاً إنه لقانون رياضي قاصم) . ونجد بداهة في هذا الترابط بين السبب والنتيجة ، الحقائق الاجتماعية والجنسية ، ونرى في كل الحوادث ، الحقائق السياسية مصنفة كأسباب ، بينما نجد الحقائق الدينية ، والفكرية والفنية (وذلك اذا ما تسامح الماديون فاعتبروهاحقائق) منضدة على أنها نتائج . ويرينا المثاليون من جهة ثانية ، كيف أن ارتفاع إحدى كفتي الميزان يتبع ابتداء من انخفاض الكفة الأخرى ، وهؤلاء قادرون بالطبع على إقامة الدليل على ما يقولون على صورة صحيحة تعادل صحة دليل الماديين ، ويعاني المثاليون الضياع في مجاهل الطقوس الدينية والأسرار الغامضة والعادات ، واسرار الاسجاع الانشادية (Strophe) .

ونادراً ما يلقون بلمحة جانبية على الحياة اليومية العادية (فمثل هذه الحياة هي في نظرهم نتيجة غير مبهجة للنقصا الأرضي) ولذلك فإن أتباع النهجين المادي والمثالي (الايديولوجي) : ينطلقون ، وهم محلقون في السببية ، الى اتهام بعضهم بعضاً بالعجز أو باستحالة فهم قانون الترابط بين الاشياء ثم ينتهي كل فريق إلى وصم الفريق الآخر بالعماء والسطحية والحماقة والسخف والطيش ، أو بالشواذ أو الهرطقة . فالمثالي يصاب بصدمة عنيفة اذا ما وقف أحد الناس ليعالج المشاكل المالية الاغريقية ، فحدثنا عن الصفقات

الضخمة والعمليات المالية الواسعة التي كان يقوم بها كهنة دلفي[1] وعما اجتمع اليهم من ثراء عريض ، وذلك بدلاً من أن يحدثنا عن المغزى العميق لوحي (Oracle) دلفي . أما السياسي فينظر الى هؤلاء باسماً ساخراً ويأسف لهم على استنزاف اوقاتهم الثمينة في وضع معادلات طقوسية وفي بحث زي شبيبة مدينة « أتيكة » بدلاً من أن يضعوا كتاباً يزخرفونه بالشعارات الجذابة للصراع الطبقي في الأزمنة القديمة . ولقد كان بترارك رائد الطراز الأول ورمزه ، وهذا الطراز هو الذي خلق فلورنسا وفيار ووضع مبادىء العلوم والفنون الكلاسيكية . أما الطراز الآخر فاندفع إلى مسرح الوجود خلال القرن الثامن عشر ، وجاء مرافقاً لنشوء سياسات المدن العظمى جداً (Megalopolitan) ، وتعتبر انكلترا لهذا السبب مسقط رأس هذه المدن العظمى .

الحق إن الخلاف في اعماقه يمثل في الاختلاف بين الانسان الحضاري وبين الانسان المتمدن وهو ابلغ عمقاً وأشد تركيزاً لجوهر انسانيته من أن يسمح بكشف عورات كل من النهجين (المادي والمثالي) على حد سواء ، أو التغلب عليهما . فالمادي نفسه يصبح مثالياً أمام هذا الواقع .فهو أيضا قد جعل آراءه في أن يريد أو يشتهي تعتمد على أمانيه ورغباته .

ولا يسعنا إلا أن نقرر أن جميع عقولنا الفذة دون استثناء قد طأطأوا رؤوسهم خاشعين أمام الحضارة الكلاسيكية وتنازلوا في هذه الحالة الواحدة عن النقد اللامحدود وغير المقيد . لذلك فإن رهبة تقارب الرهبة الدينية كانت تعطل حرية البحث وقوته في الحضارة الكلاسيكية وتطمس المدلولات البيانية . ولا يوجد أبداً في جميع صفحات التاريخ أية قضية مماثلة من قضايا حضارة ما تجعل هدفها ابتكار طقوس عبادة عاطفية لتقديس ذكرى قضية أخرى . وتعبدنا يبدو جلياً واضحاً في الحقيقة التي نقرر أننا منذ عصر النهضة حتى يومنا هذا قد بخسنا دوراً ألفياً كاملاً من التاريخ اشياءه ، كي ننشىء

---

(١) وحي دلفي ، كان يحتمل دائماً تفسيرين الواحد منهما يناقض الثاني تماماً

حقبة وسطى تقوم مقام حلقة الوصل بيننا وبين عصور العتاقة . لقد ضحينا، نحن معشر الغربيين ، بطهارة فننا واستقلاله ، على المذبح الكلاسيكي ، لأننا لم نتجرأ أبداً على الإبداع دون أن نُلقي بامحة جانبية على « المثال الرائع ». فخططنا أعمق حاجاتنا الروحية ومشاريعنا لتجيء مطابقة والصورة الكلاسيكية ، وسيأتي اليوم الذي لا بد أن يبرز فيه عالم نفساني موهوب ليعالج فينا هذا الوهم المشئوم ويطلعنا على قصة الحضارة الكلاسيكية التي احطناها بهالة من الخشوع والقدسية منذ العصر «الغوطي» ولا شك أنه سيكون من المفيد ضرب قليل من الأمثلة ، بغية فهم الروح الغربية ابتداء من «أوطو» الثالث ، أول ضحايا « الجنوب » وانتهاء « بنيتشيه » آخر ضحاياه .

يتحدث غوتيه في كتابه المعروف « رحلات ايطالية » بحماس واعجاب عن المباني التي شيدها « اندريا بلاديو » الذي ننظر اليوم إلى جمود فنه وأكاديميته بكثير من الشك والحذر، لكن عندما تقود عصا الترحال « غوتيه» إلى « بومباي » ، فإنه لا يخفي امتعاضه النابع من خبرته فيقول : إنه لانطباع غريب متوسط البهجة. ما كان عليه أن يقوله عن هياكل « باستوم » « وسيجستا » (روائع الفن الأغريقي) فهو مشوش تافه . ومن الواضح ان الحضارة الكلاسيكية العتيقة عندما جابهت بكل قوتها « غوتيه » هذه لا تختلف أبداً عن حال غيره من المفكرين ، الذين كانوا يفضلون ألا يشاهدوا الكلاسيكي الأصيل ؛ وهكذا أنقذوا صورة الحضارة الكلاسيكية التي رسمها عقلهم الباطن من التشويه ، هذه الصورة التي كانت تشكل في الواقع جهود العمر متجسدة في هذا المثل الأعلى (صورة الحضارة الكلاسيكية) الذي خلقوه بأنفسهم وغذوه بدماء قلوبهم ، وإناء ملأوه بمشاعرهم وشعورهم العالمي ، إنه شبح معبود . والاوصاف « الوقحة » للمدن الكلاسيكية التي وردت على السنة « ارستوفان ، وجوفنال أو بترنيوس » :

« الاوساخ ، الاوغاد والسفلة ، الإرهاب وسفك الدماء »المخانيث ؛ عبادة الأعضاء التناسلية ، التهتك الجماعي » كل هذه الأمور تستثير الطالب أو

الغاوي الذي يرى نفس هذه الحقائق تسرح وتمرح في مدننا ، فيقف أمامها مشمئزاً من مظهرها .

وهاكم ما قاله نيتشه :

« إن الحياة في المدن رديئة ، فهي مكتظة بالمتهتكين ، هكذا تكلم زاردشت »

إنهم يمجدون إحساس الرومان بالدولة لكنهم يحُقرون الرجل المعاصر الذي يسمح لنفسه باي احتكاك بالمسائل العامة . وهناك طراز من العلماء تنتاب صفاءهم الذهني نوبة من السحر لا تقاوم ، حالما ينتقل البحث من « لباس الفراك » إلى « التوغا [1] » ومن ملعب بريطاني لكرة القدم إلى سرك بيزنطي ، ومن الخطوط الحديدية عبر القارات ، إلى الطريق الروماني في جبال الألب ،ومن المدمرةالتي تبلغ سرعتهاثلاثين عقدةالى مركب بحري روماني .

ومن الحراب البروسية الى الرماح الرومانية ، (وفي يومنا هذا) من قنال السويس الذي شقه مهندس عصري ، الى القنال الذي شقه فرعون . وهذا الطراز كان لا شك سيعترف أن الآلة البخارية رمز للعاطفة الانسانية الجياشة وتعبير عن قواه الذهنية ، وذلك لو أن « هيرو » الاسكندري لا غيره هو الذي اخترعها .

ولهذا الطراز يبدو الحديث عن تفضيل التدفئة المركزية الرومانية ، أو مسك الدفاتر ، على طقوس عبادة الأم العظمى للالهة ، أقول يبدو الحديث كفراً وتجديفاً .

لكن المدرسة الأخرى لا ترى شيئاً سوى هذه الأشياء . فهي تفكر وتنهك جوهر هذه الحضارة الغريبة عن حضارتنا ، باعتبارها الاغريقيين

---

(١) توغا Toga .. عباءة رومانية

مساوين لنا ، وتستحصل نتائجها بواسطة بدلاء (جمع بديل) بسيطة ، متجاهلة في كل اعمالها الروح الكلاسيكة .

ولا تدرك هذه المدرسة أنه لا يوجد أي نوع من الترابط الباطني بين مفاهيم كلمات « كالجمهورية » والحرية والملكية ، لدى أولئك حينذاك ، وبين مناهيم الكلمات ذاتها في عصرنا اليوم وهي تسخر من مؤرخي عصر « غوتيه » الذين عبرّوا بأمانة عن مثلهم السياسية العليا المتبدية في اشكال التاريخ الكلاسيكي ، واعلنوا عن حماسهم الشخصي الخاص في تبريرهم أو إدانتهم لأشخاص عاديين يدعون ، ليكورجوس ، بروتوس ، كاتو ، شيشرون أوغسطس لكن هذه المدرسة لا تستطيع أن تكتب فصلاً واحداً دون أن تعكس رأي الحزب في جريدته الصباحية .

وعلى كل حال ، فالوضع لا يتبدل أعَمد إلى علاج الماضي بروح « دون كيشوت »أم عمد إلى معالجته بروح سانشو بانزا فلن ينتهي بنا أي النهجين إلى نتيجة . وخلاصة القول ان كل مدرسة تسمح لنفسها أن تبرز من الحضارة الكلاسيكية الجزء الذي يعبر أحسن تعبير عن آرائهاونظرياتها الخاصة (فنيتشه مثلا يختار أثينا من قبل سقراط) والاقتصاديون يبرزون الحقبة الهيلنية (الاغريقية) والساسة يعرضون روما الجمهورية ، والشعراء ينتقون العصر الامبراطوري

فليست تلك الظاهرة الدينية والفنية أحط بدائية من الظاهرة الاجتماعية والاقتصادية والعكس بالعكس ، فالرجل الذي اكتسب الحرية غير المشروطة لنظرته الى المستقبل Outlook وارتفع بفكره فوق جميع المصالح والاعتبارات الشخصية ، أمام مثل هذا الرجل تنتفي مبادىء الاتكال (Dependence) والأفضلية (Priority) والارتباط بين السبب والنتيجة ، والمفاضلة بين (Differentiation) القيمة والأهمية .

ان التفاوت بين صفاء وقوة شكل لغة وأخرى ، هو الذي يعين المراتب النسبية للحقائق التفصيلية الفردية ، لذلك فإن رمزية هذه المراتب هي فوق

جميع قضايا الخير والشر ، السمو والانحطاط ، المفيد والمثالي .

- ١٢ -

إننا اذا ما نظرنا من وجهة النظر الآنفة الذكر، نرى ان تدهور الغرب » لا يحتوي على أقل من مشكلة المدنية Civilization وبهذا تجابهنا إحـــدى القضايا الأساسية لكل ما اشتمل عليه التاريخ الأرقى Higher من قضايا.

ما هي المدنية ، بوصفها نتيجة منطقية جوهرية مفهومة ، وتحققاً مكتملاً ونهاية لمطاف الحضارة ؟

فلكل حضارة مدنيتها الخاصة .

ونحن في هذا الكتاب نستعمل لأول مرة هاتين الكلمتين ، (الحضارة ، والمدنية) اللتين استعملتا حتى الآن لتعبرا عن تمييز غير محدَّد أخلاقي الموضوع تقريباً . أقول نستعمل هاتين الكلمتين لنعبر بالمفهوم الدوري Periodic عـن تتال ضروري تنظيمي حازم . إن المدنية هـي المصير المحتوم للحضارة . ومن هذا المبدأ نستمد وجهة النظر الـتي تصبح من خلالها أعمق مشاكل « المورفولوجيا » (التركيب الخارجي للتاريخ) التاريخية وأشدها خطورة ، قابلة للحل . إن المدنيات هي أضحل الاوضاع سطحية ، وأبعدها على الطبيعة إضالة ، وهي تدخل في حيز قدرة مرتبة معينة من مراتب الانسانية .

والمدنيات هي نتائج الشيء «يصير» (Thing become) يخلف الشيء في حالة الصيرورة Thing-becoming ، إنها الموت يتبع الحياة ، إنها الصلابة تعقب المرونة ، إنها العصر الفكري والمدينة العالمية الصلبة المبنية من الحجارة ، تخلفان الأرض الأم والطفولة الروحية للعصرين « الدوري » والغوطي . إن المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع أن تقف أمام تحققها إرادة أو عقل ، ومع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد أخرى ، مدفوعة بضرورة باطنية . وهكذا

ولأول مرة خُولنا القوة لندرك أن الرومان هم وارثو اليونان ، كما أن النُور قد سُلط على أعمق مـــا للحضارة الكلاسيكية ، المتأخرة ، بزمنها ، من اسرار .

اذن أي معنى يمكن أن يكون لهذه الحقيقة ، غير المعنى المقرر :

ان الرومان كانوا برابرة ، ولم يأتوا في اعقاب اليونان ليدفعوا بتقدم عظيم الى الامام بـــل إنما جاءوا ليختتموه (ولا تُجادَل هذه الحقيقــة إلا بجمل باطلة المعنى والمفهوم)

ان الرومان المجردين من الروح والفلسفة والفن ، والذين تبلغ بهم العصبية العرقية حد الوحشية ، هؤلاء المركزون لكل جهودهم ومجهوداتهم على تحقيق انتصارات محسوسة ، يحتلون مرتبة تقع بين الحضارة الاغريقية والعدم . أما خيالهم فكان مُركزاً بكليته على اهداف عملية (مع أنه كان لهم قوانين دينية تنتظم علاقاتهم بالآلهة وقوانين أخرى تنظم علاقـــات الناس بعضهم ببعض ، لكنه لم يكن هناك أساطير رومانية خاصة عن الآلهة) ومثل هذا الخيال لم يكن أبداً موجوداً في مخيلة سكان أثينا ، وبكلمة واحدة ، الروح اليونانية مقابل الفكر الروماني ، وهذا النقيض Antithesis يمثل الفرق بـين الحضارة والمدنية .

ومرة تلو أخرى ، يظهر طراز من الناس قـوي الفكر ، معدوم الحس الميتافيزيقي تماماً ، وعلى أيدي هذا الطراز يتقرر المصيران الفكري والمادي، لكل مرحلة متأخرة زمناً . من هذا النوع هم اولئك الرجال الذين جسدوا المدنيات البابلية والمصرية والهندية والصينية والرومانية وفي مثل هذه المراحل مرت البوذية والرواقية والاشتراكية ، لتصبح عقائـد عالمية تمكن الانسانية المحتضرة من أن تُهاجم ويُعاد تشكيلها Re-formed في تركيبها المألوف .

إن المدنية المجردة ، بوصفها عملية تاريخيـــة ، تتألف من اطـّراح متتال للأشكال التي تصبح غير جوهرية أو ميتة .

تجاوز العالم الكلاسيكي مرحلة الانتقال إلى المدنية في القرن الرابع ، أما العالم الغربي فقطعها في القرن التاسع عشر . ومنذ هذين التاريخين المذكورين آنفاً أصبحت تُتخذ القرارات الفكرية الحاسمة العظمى في مدن عالمية ثلاث أو اربع ، إذ لم تعد الحال على ما كانت عليه في عصر حركة أورفيس أو الاصلاح الديني حينما كانت تُتخذ مثل تلك القرارات في « كامل العالم » وحينما لم يكن هناك من دسكرة أصغر من أن يُهتم بها أو يؤبه لها .

لقد امتصت تلك المدن العالمية الثلاث أو الأربع كل محتوى التاريخ واستأثرت بكل صفحاته ، بينما أصبحت أصقاع الحضارة المترامية الأطراف ريفية قروية مهمتها أن تطعم المدن بما تبقى لها من جنس بشري أرفع رقياً

إن المدينة العالمية World-city والمقاطعة Province (وهما ركيزتا كل حضارة) تخلقان مشكلة جديدة كل الجدة لشكل التاريخ ، أي المشكلة ذاتها التي نعانيها اليوم والتي لا تختلف في أبسط مفاهيمها عما أوردت آنفاً . فلقد استعيض عن العالم ، بالمدينة City ، وهي نقطة تتجمع فيها جميع أسباب الحياة لأقاليم واسعة ، بينما تنضب منابع الحياة في هذه الأقاليم وتجف .

ولا يسكن المدينة العالمية شعب موحد الأصل نبت من تربة أرضه ، بل يقطنها نوع جديد من القبائل الرحالة ، حيث تتلاحم جماهيرها المائعة غير المستقرة وتلتئم ، وهؤلاء السكان الطفيليون معدومو التقاليد ، مغرقون في الواقعية ، لا دينيون ، أذكياء، عقيمون ، يكنون احتقاراً عميقاً لابن الريف وخاصة لأرقى ما للريف من أبناء ، « الجنتمان » الريفي .

وهذا يشكل خطوة واسعة نحو «اللااساسي » Inorganic أي نحو النهاية .

فما هو مغزى هذه الخطوة ؟ إن فرنسا وانجلترا قد سبقتا منذ زمن المانيا في سلوك الطريق التي بدأت هذه الأخيرة تسلكه الآن . وروما

جاءت على أعقاب سيراكوسا وأثينا والاسكندرية . وبرلين ونيويورك تقتفي اليوم آثار مدريد وباريس ولندن . وهكذا كُتب على أقاليم بأ كملها تقع خارج محيط إشعاع المدن العالمية، كالشمال الاسكندنافي اليوم، (كما كانت كريت القديمة ومقدونية) ان تصبح أقاليم ومقاطعات .

ومنذ القدم كان الصراع بين المفهومين المتعارضين لحقبة تاريخية ما يدور حول مشكلة ما ذات طابع ميتافيزيقي أو ديني ، (دغماتي) (Dogmatic) وكان الصراع ناشباً بين عباقرة التربة من أهل الريف (الأشراف والكهنة) وبين نبلاء عالميين لمدن صغيرة مشهورة في ربيعي العصر الدوري والغوطي . هذه كانت طبيعة الخلافات حول الدين (الديونيسي) (كما حدث في عهد طغيان كلايستين السكيوني [1]) وهي أيضاً الطبيعة ذاتها للخلافات التي نشبت في المدن الألمانية الحرة ولحروب « الهيجنوت » . وكما قهرت هذه المدن الريف (وهذه نظرة مدنية تجريدية تبدو واضحة فيما خطه «بارمنيدس» وديكارت) كذلك تغلبت المدن العالمية على تلك المدن أيضاً . والحق إنها لعملية فكرية عادية سارت في سياقها الحضارتان « الأيونية » و« البروكية » وسارت في السياق ذاته حضارات مدن كفلورنسا ونورنمبرغ وسلامانكا وبروجوس ، وبراغ، هذه المدن التي تغلبت عليها المدن العالمية وأخضعتها لسلطانها وجعلتها مدناً ريفية . وهي اذا ما صارعت لتحول دون انحدارها إلى هذا الدرك ، فإنما تعي وعياً باطنياً أنها تخوض معركة خاسرة ضد المدن العالمية، واستدراكاً أقول ان العصر الأغريقي ادرك في مستهله الأسس الغريبة عنه وغير الطبيعية « الاصطناعية » التي قامت عليها مدينة الاسكندرية)

إن المدينة العالمية تعني « كوسموبوليتانية » بدلاً من الوطن ، وتعني الواقعية الباردة بدلاً من احترام التقاليد والسن : وتعني الدين العلمي المتحجر بدلاً من دين القلب القديم ، وتعني المجتمع بدلاً من الدولة ، وتعني الطبيعي

---

(١) هو الذي حرم عبادة ادراستوس بكل مدينة « سكيون » وتلاوة اشعار هوميروس مستهدفاً في ذلك اقتلاع النفوذ الروحي للاشراف الدوريين ، من جذوره

Natural بدلاً من الحقوق المكتسبة نتيجة لجهد شاق وعرق . ولقد كان كل ما اقتبسه الرومان من اليونان هو النقد Money (كوسيلة لتقدير القيمة والتبادل) . هذا امر غير اساسي وذو اهمية تجريدية مطلقة لا تمت بأية رابطة أو صلة إلى الأرض الطيبة الخصبة ، ونتيجة لما تقدم أصبح المثل الأعلى للحياة قضية تتعلق الى حد كبير بالمال .

فالرواقيون التابعون لمذهب ، كاتو (الروماني)مثلاً، لم يكونوا كالرواقيين اليونانيين من أنصار مذهب « كريسبوس » إذ ان الأوائل كانوا من ذوي المداخيل الخاصة،كما وانالعاطفة الاخلاقية الاجتماعية لأبناءالقرن الثامنعشرهي غير عاطفة ابناءالقرن العشرين إذاما بحثنا عاطفتهم هذه على مستوى أرفع من احتراف الاثارة المجزية مادياً ، نجد أنها هي في الواقع قضية ملؤك المال .

فليست المدنية العالمية ملكاً لشعب ، بل إنما هي ملك لجمهور . إن عداءها ، الذي لا يُفهم سبباً له ، لجميع التقاليد الممثلة للحضارة (الاشراف ، الكنيسة ، الامتيازات ، العائلات المالكة والفن وحدود المعرفة في حقل العلم) وذكاءها الحاد البارد المربك لحكمة الفلاح ، وطبيعتها التي تعود بكل مالها من ارتباطات بالجنس والمجتمع ، إلى ما قبل روسو وسقراط بآجال وآجال ، كي تخففمن غلواء الغرائز والاوضاعالبدائية ، والخلافات على تحديد الأجور وملاعب كرة القدم ، كل هذه الأمور تدل على خاتمة الحضارة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الوجود البشري ، مرحلة معادية للريف ، متأخرة زمناً،لا معالم لها أو ستائرمستقبل،لكنها مرحلةحتمية لايمكنتجنبها.

هذا ما يتوجب علينا تمحيصه ، وعلينا أن نمحصه لا بعين المتمول من نبلاء المدن ، ولا بعين المثالي Ideologue أو بعين الروائي المعاصر ، بل إنما يستلزمنا تمحيصه أن ننظر إليه بعين متحررة من قيود الزمن ، عين يمتد مدى بصرها ليشمل جميع أشكال التاريخ خلال العديد من الدورات السنوية الألفية Millenniums وذلك اذا ما أردنا أن نفهم حقيقة الازمة العظمىالتي نعانيها في الوقت الحاضر .

وإنلي في روما وفي عهد« كراسوس» مثلا بالغ الأهمية (روما في مبانيها الجبارة منها والتافهة). فلقد كان الشعب الروماني في ذلك العهد ، (هـــذا الشعب الذي كانت ترتجف هلعاً لذكره شعوب عديدة ،« كالغوليين » واليونان والبارثيين والسوريين ، والذي كان يفخر بتماثيله : ويعيش حياة بالغة البؤس والشقاء ، ويسكن في مبانٍ متعددة الطوابق تقع في أحياء نتنة مظلمـــة ، أقول لقد كان الشعب الروماني يتقبل بلامبالاة ، أو بالاحرى بروح رياضية ، جميع نتائج الفتوحات العسكرية التوسعية ، فانحدرت عائلات نبيـلة عريقة النسب إلى الحضيض حيث كانت تعيش في منازل حقيرة يجلبها البؤس ويرتع في ظلماتها الشقاء ، وذلك لأن أبناء مثل هذه العائلات العريقة لم يستطيعوا أن يمتطوا متن المغانم والكسب، زد على ذلك انه بينما كانت تنتصب على طريق « إيبان » مدافن الأغنياء الرائعة الجمال ، وهي لا تزال على روعتهـــا حتى اليوم).كانت جثث الأموات من أبناء البشر تطرح إلى جانب جثث الحيوانات النافقة ، في قبر واسع مشترك . وبقيت روما تسلك إزاء أمواتها من الفقراء، هذا المسلك ، حتى جاء الامبراطور اغسطوس فاستصدر أمراً يقضي بدفن جثث الفقراء بدلاً من اطراحها مع النفايات وجثث الحيوانات في حفرة واحدة . كما وأصبحت متنزهات « ميسينا » الواقعة في أثينا القليلة السكان ، مرتعاً لحديثي النعمة من سكان روما ، حيث كانوا يؤمونها ليحملقوا في روائع عهد بركليس ، دون ان يعوها أو يفقهوا لها مغزى ، شأنهم في ذلك شأن السواح من أثرياء الولايات المتحدة الاميركية في عصرنا ، حيث يقف هؤلاء في كنيسة « سستين » يحدقون فيما أبدعه « ميكايلنج » وهم خالو الذهن تماماً من أي مفهوم جمالي . وقد أقدم أثرياء الرومان على نقل كل قطعة فنية يونانية رائعة إلى روما ، أو شرائها بسعر خيالي كما وانهم قاموا ببناء المباني الضخمة التي كانت تنتصب مغرورة جبارة إلى جانب المباني القديمة المتواضعة . في مثل هذه الأمور (ومن واجب المؤرخ ألا يمتدحها أو ينتقدها بل أن ينظر اليها، من وجهة نظر مرفولوجية) تكمن فكرة مباشرة لكل من تعلم ان يرى بسرعة ووضوح .

وليكن معلوماً ، أنه منذ اللحظة ، سنخضع جميع الخلافات العظمى بين وجهات النظر العالمية في السياسة والفن والعلوم والشعور ، لمبدأ هذه المقابلة Opposition ، ما هي أوجه التعارض بين الطابع السياسي الكلي لمدنيتنا اليوم ، وبين مثيله لحضارة الأمس ؟ إنها تتمثل في البلاغة الكلاسيكية بالأمس ، وفي الصحافة الغربية اليوم ، وكلاهما موظفان في خدمة ذاك المجرد Abstract الذي يمثل قوة المدنية — المال — إنها روح المال هي تلك التي تنفذ ، دون أن يشعر بها أحد ، إلى الاشكال التاريخية للوجود البشري ، وكثيراً ما تنفذ هذه الروح إلى داخل الاشكال المذكورة دون أن تدمرها أو تزعجها (فلقد طرأ من التعديلات على شكل الدولة الرومانية منذ عهد سيبيو الأول حتى عهد اغسطوس ، أقل بكثير مما يُخال أو يُظن .

ومع ان الأشكال التاريخية لتلك المرحلة حافظت على وجودها ، غير أن الأحزاب السياسية العظمى فقدت اعتبارها كقوة حاسمة في اتخاذ القرارات إذ أن مثل هذه القوة كانت تكمن في موضع آخر غير الأحزاب . فلقد كانت حفنة قليلة من الرؤوس الكبيرة ، بالكاد تتمتع بدوي الشهرة وبريق الأسماء ، هي التي تملي رغائبها قرارات وقوانين تاركة للخطباء والنواب والصحفيين وأعضاء البرلمان ، الذين انتخبهم سكان الأقاليم انتخاباً حراً ، كما يزعمون أن يغرروا بالناس قائلين بأنهم يصدرون فيما يأتونه عن مبدأ حق الشعب في تقرير مصيره .

وما هو شأن الفن ؟ او الفلسفة ؟ ان المثل العليا في عصر أفلاطون أو تلك في عصر « كانت » كانت تحظى من الجنس البشري الارقى بالموافقة الجماعية على صحتها ، بينما ان المثل العليافي عهد الهلينستية، أو المثل العليا لعهدنا لا تتمتع إلا باحترام دائرة محدودة تتمثل في ذهن ابن المدينة العظمى Megalopolitan . أما الاشتراكية فشأنهاشأنقريبتها (الداروينية Darwinien (وهذا المذهب المنافي لمذهبغوتيه منافاة كلية والذي يدور حول إثباتالمبدأ

القائل بالصراع من أجل البقاء والانتقاء الطبيعي) وكحال مشكلة الزواج التي أثارها ، « إبسن » وسترندبرغ وشو والوثيقة الارتباط بالداروينية ، وكالميول الانطباعية للشهوانية الفوضوية وجميع التوق الحديث البارز في التجربة (المراودة) والألم ، اللذين عبر عنهما بودلير ، في شعره وفاغنر في موسيقاه، أقول إن جميع الأمور لا وجود لها في ذهن القروي ، أو بصورة عامة في ذهن الرجل الطبيعي ذي الشعور العالمي ، في أحاسيسه ومنابع رغائبه . فكلما صغر شأن القرية وتقلص حجمها وانخفض عدد سكانها ، تقل اهمية الفرد من سكانها لاشغال نفسه برسوم زيتية أو بالاستماع إلى موسيقى من هذه الأنواع . إن الجمناز والمبارزة والسباق ظواهر الحضارة ، أما الرياضة فهي ظاهرة من ظواهر المدنية ، وهذا هو بالتحديد الفرق الصحيح بين « الستاد » الاغريقي والسرك الروماني . إن الفن نفسه يصبح رياضة (Sport) (من هنا ينشأ المبدأ :الفن من اجل الفن) طالما يعرض على جمهور بالغ الذكاء عميق الفهم يتألف من الخبراء والمشترين ، ولا فرق هناك أكانت براعة الفن تتألف من حشد أنغام عقيمة تصدر عن مختلف الآلات الموسيقية ، أم تتبدى مهارته في شعوذة غريبة من مزيج الألوان . وهنا تبرز فلسفة واقع جديد ، لا تستثير سوى ابتسامة باهتة على شفتي المفكر الميتافيزيقي ، ويطل علينا أدب جديد هو ضرورة حياتية لذوق سكان المدن العظمى واعصابهم ، لكن كلا من تلك الفلسفة وهذا الأدب غامض بشع في نظر ابن الريف .

« فالشعب » لا يعلق أية اهمية ، على الشعر الاسكندري أو على الصور الزيتية المرسومة في العراء .

إن مظهر عصر الانتقال ، أعصرنا كان أم غيره من العصور السابقة ، مطبوع بسلسلة من المهازل لا تتبدى إلا في لحظات كهذه (عصور الانتقال) فالغضب الذي استثاره « يوربيدوس » وصور «ابولودورس الثورية» في نفوس شعب أثينا ، تؤججه اليوم موسيقى « فاغنر ومانيت » وروايات « إبسن » وفلسفة « نيتشه » في نفوس جماهيرنا من جديد .

إنه لمن السهل علينا أن نفهم الشعب اليوناني دون أن نلقي نظرة على انظمتهم الاقتصادية في مختلف ترابطها وارتباطاتها . بينما اننا لا نستطيع أبداً أن نفهم الشعب الروماني إلا بواسطة دراستنا لتلك الانظمة (الاقتصادية) وهذه الارتباطات .

لقد كانت « كورونيا » ولايبزغ » آخر ميداني معركة دارت عليها الحرب من أجل مذهب أو فكرة . ولم يعد بإمكاننا أن نتغاضى ابتداءً من الحروب البونية ، ومن عام ١٨٧٠ ، عن العوامل الاقتصادية المستقرة وراء الاحداث العالمية . ولم يتخذ « النظام العبودي » طابعه الجماعي الواضح، هذا الطابع الذي يعتبره طلاب التاريخ الطابع المميز للنظام الكلاسيكي في شتى حقوله الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، والذي هبط بالقيمة الباطنية للعمل الحر الذي بقي يسير والعمل العبودي جنباً إلى جنب . أقول لم يتخذ النظام العبودي طابعه المميز حتى اندفع الرومان بواقعيتهم الحية على مسرح التاريخ. ولم تكن الشعوب اللاتينية ، بل انما كانت الشعوب الجرمانية في الغرب واميركا هي التي طورت الآلة البخارية إلى صناعية بدلت وجه الأرض .

إن ارتباطات هذه الظاهرات(النقد Money· بالرواقية والاشتراكية أمر صحيح وواقع . فالعالم الكلاسيكي لم يستطع ادراك ما للنقد من أهمية جوهرية قبل عهود القيصرية المسبوقة بعهدي فلامينيوس وخاصة ماريوس واضع حجر الزاوية لنظام النقد ، هذا النظام الذي جرى ارساء قواعده وتطويره على أيدي رجال مغرقين في الواقعية .

لذلك فإننا لا نستطيع أن نفهم قيصر أوروما بصورة عامة ، قبل فهمنا لهذه الحقيقة (النقد) إن هناك « دون كيشوت »داخل نفس كل يوناني ، وسنشبانزا في باطن كل روماني ؛ ولهذين العاملين كامل السيطرة وواسع النفوذ .

كانت السيطرة الرومانية على العالم تشكل في حد ذاتها ظاهرة سلبية ،فلم تكن هذه السيطرة وليدة فضلة من حيوية لم تخب في الرومان ، (فالرومان قد استنزفوا آخر طاقات حيويتهم منذ عهد زاما) بـــل إنما جاءت نتيجة لعجز الشعوب الأخرى عن المقاومة والدفاع . فالشيء المؤكد ان الرومان لم يفتتحوا العالم ، بل إنما وضعوا أيديهم على غنائم واسلاب كانت في متناول يد كل راغب . فلم تسلك الامبراطورية الرومانية طريقها إلى التجسد والوجود نتيجة لضرورات عسكرية أو جهود مالية كتلك التي طبعت الحروب البونية بطابعها ، بل إنما مارست وجودها لأن الشرق القديم كان قد تنازل عن جميع حقوقه في تقرير مصيره .

ويجب ألا تخدعنا مظاهر بعض انتصارات عسكرية رائعـــة قليلة ، فلوكولوس و « بومباي » استطاعا، بحفنة من الألوية الرومانية الرديئة القيادة والتدريب ، أن يفتتحا ممالك واسعة ويخضعا أقاليم شاسعة ووقوع مثل هذه الظاهرة أمر غـــير معقول في فـترة كالفترة الـتي نشبت خلالهـــا معركة « إبسوس » .

فالخطر المجوسي الفارسي ، وهو خطر فيه من الدهماء ما يكفي بالنسبة إلى نظام ذي قوة مادية لم تُمتحن ، لم يكن ليشغل بال قاهري هنيبال من قريب أو بعيد . والحق ان الرومان عقب معركة « زاما » لم يعودوا قادرين مرة أُخرى على شن حرب على دولة عسكرية عظمى، فحروبهم الكلاسيكية تتمثل في تلك الحروب التي خاضوا غمارها ضد «السنميت» وبيروس وقرطاجة ؛ أما ساعتهم العظمى فقد أزفت في معركة « كانا »

ليس باستطاعة أي شعب أو أمة ، أن تحافظ على موقفها البطولي لمدة

قرون وقرون لا نهاية لها . لقد عرفت الأمة الألمانية البروسية في حياتها ثلاث لحظات جليلة القدر رائعة (١٨١٣ – ١٨٧٠ – ١٩١٤) وهذه اللحظات أضخم عدداً من اللحظات التي عرفتها أمم أخرى .

إنني أقرر هنا ، أن الاستعمار الذي كان الأساس الذي ارتكزت اليه الامبراطوريات ، بين مصرية ورومانية وصينية وهندية، (وقامت على أشلاء الضحايا وإذلال الجماهير التي اعتبرت نفايات مواد تاريخ عظيم) أقول إن الاستعمار هو الرمز المميز لاحتضار المدنية (الغربية) وموتها . زد على ذلك أن الاستعمار هو المدنية الأصيلة غير المزيفة . في هذا الشكل الظاهري (الاستعمار) قد بتّ الآن بمصير الغرب ، بتاً لا عودة عنه أو تعديل .

إن حيوية الانسان الحضاري تتجه في مجراها إلى الباطن ، بينما تتجه حيوية الانسان المدني إلى الخارج ؛ وبهذا فإنني أرى في سيسيل رودز الرجل الأول لعصر جديد، فهو من وجهة النظر السياسية مثال صادق لمستقبل الغرب « التيتوني » Teutonic وخاصة الألماني ، البعيد المدى والمجال . وما قوله : « إن التوسع هو كل شيء » إلا ترديد للتأكيد النابليوني للنزعة الباطنية في كل حضارة بلغت أعلى مراحل النضوج ، أكانت هذه الحضارة رومانية أم عربية أم صينية الخ ... فليست المسألة مسألة اختيار ، وليست الارادة الواعية للفرد ، أو حتى لطبقات اجتماعية بكاملها أو حتى لشعوب ، هي التي تبت وتقرر ، فالنزعة إلى التوسع هي بمثابة القضاء والقدر ، ومفعولها أشبه ما يكون بمفعول سحر خارق يطبق بقبضته على جماهير الجنس البشري المتأخر زمناً من سكان المدن العالمية ، ويسخرها لخدمته ، أمختارة كانت أم مرغمة ، واعية أم غير واعية .

إن الحياة عملية من إمكانيات مؤثرة، وبالنسبة لرجل العقل لا يوجد غير إمكانات واسعة فقط . فالاشتراكية التي لا تزال في منتصف الطريق إلى الاكتمال ، والتي تحارب اليوم ضد التوسع والاستعمار ، ستصبح في أحد الأيام الداعية الأولى للتوسع ، وستندفع على سبله بكل ما للقدر من قوة وجبروت.

فهنا ُيعالج شكل اللغة السياسية بوصفه أداة تعبير ذهني مباشر لنوع معين من البشرية ، مشكلة ميتافيزيقية عميقة الغور ، تمثل حقيقةً تتأكد في القبول بصحة مبدأ السببية قبولاً غير محدود أو مشروط ، وأعني بهذه الحقيقةالقول بأن الروح هي تتمة لامتدادها .

وعندما بدأت مجموعة من الدول الصينية تتجه خلال الفترة الواقعة بين عامي ٤٨٠ — ٣٢٠ قبل المسيح ، نحو الاستعمار أصبحت مناهضة مبدأ الاستعمار ، هذا المبدأ الذي مارسه « ليان-هينغ » في الدولة « الرومانية » « تسن » ووطد قواعده النظرية الفيلسوف « دشانجيي » اقول أصبحت مناهضة مبدأ الاستعمار بالدعوة إلى اقامة عصبة أمم كالتي نادى بها «هو- تسونج» الذي استمد معظم مبادئه من « وانغ هي » المستريب العميق ، والخبير برجال تلك الفترة واحتمالاتها ، أمراً عقيماً غير مثمر ، وأخيراً كُتب « لليان — هينغ » لا « هوستونغ » أن يسبح في التيار الطبيعي للمدنية التوسعية .

علينا أن نرى في سيسيل رودز بشيراً لنشوء طراز غربي من القياصرة الذين قدر لهم أن يروا النور فيما بعد . ويقف سيسيل رودز في منتصف الطريق الممتد بين نابليون إلى « رجل القوة » Force man ، لذلك فإن رودز أشبه ما يكون بـ « فلامينيوس » الذي دفع بالرومان ابتداء من عام ٢٣٢ ق.م. إلى إخضاع الصقالبة من الغول ، فكان أول روماني ينهج سياسة ترتكز إلى مبدأ التوسع والاستعمار ، وبهذا يقف « فلامينيوس » في منتصف الطريق الممتد من الاسكندر حتى قيصر . وأقرر حصراً أن فلامينيوس كان رجلاً عادياً ، بسبب أن قوته الحقيقية كانت من ذاك النوع الذي لا يتسلح بالوطنية الرسمية) لكنه كان ذا نفوذ واسع في الدولة ؛ وفي مرحلة أخذت خلالها فكرة الدولة تخضع شيئاً فشيئاً لضغطالعوامل الاقتصادية أما سياسته إزاء روما فكانت تمثل الطراز الأول لمناهضة القيصرية ، فبفلامينيوس انتهى مفعول مبدأ « خدمة الدولة » وحل محله مذهب إرادة القوة والتطلع إلى

السلطة ، هذا المذهب الذي تجاهل جميع التقاليد ولم يعترف بغير القوى نازعاً وحافزاً .

ومع أن الاسكندر ونابليون كانا يقفان على عتبة المدنية وينشقان هواءها البارد النقي ، لكنهما كانا ذوي مزاجين رومانتيكيين ، فكان الأسكندر يرى نفسه آشيل بينما كان نابليون لا يرتوي من قراءة « فيرتير » [1] أما قيصر فكان نقيضاً لهما ، إذ كان رجلاً موهوباً عميق الادراك ، واقعياً عملياً .

وحتى في نظر رودز ، لا يعني النجاح السياسي سوى النجاح المالي والنجاح في التوسع بضم المستعمرات . وكان « رودز » يعي نزعته الرومانية وعياً كاملاً ، مع أن المدنية الغربية لم تكن قد استكملت مقوماتها إلى هذا الحد من القوة والصفاء .

ولم يكن باستطاعة أي شيء غير الخرائط الجغرافية ، ان ينقل رودز إلى غيبوبة شعرية يحلق في أجوائها على أجنحة المتعة والخيال فهذه الشخصية الفذة التي أُرسل بها إلى افريقيا مجردة من كل وسيلة وسبب استطاعت أن تجمع ثروة عريضة جبارة في ضخامتها وان توظف هذه الثروة في خدمة الاهداف السياسية ؛ فمخططه لمد خط حديدي عبر القارة الأفريقية يبدأ بالاسكندرية وينتهي بمدينة « الكاب » ؛ وخطته لانشاء امبراطورية افريقيا الجنوبية ، وسيطرته الذهنية البالغة الأثر على نفوس ملوك التعدين الصلبة كالحديد واخضاعهم وثرواتهم لمخططه وعاصمته « بولاوايو » التي خططها لتصبح مقراً ملكياً لرجل دولة قدير على كل شيء ، ومع هذا لا يرتبط بالدولة برابط معين ، وحروبه ، وصفقاته الدبلوماسية ، ومخططه للطرق العامة ، ونقاباته ، وجيوشه ومفهومه لرسالة « رجل العقل » في المدنية ، جميع هذه الأمور الجليلة تمثل فاتحة مستقبل ينتظرنا ، مستقبل سيكون الخاتمة المحتومة لتاريخ الجنس البشري في أوروبا الغربية . إن الذي لا يدرك أن هذه النتيجة ، التي أوردتها آنفاً ، أمر

(١) الام فيرتير رواية كتبها غوتيه

محتوم لا مفرّ منه ، وعلينا أن نختار بين قبولنا بها وبين قبولنا باللاشيء ، بين تمسكنا بهذا المصير وبين يأسنا من المستقبل ومن الحياة نفسها ، إن الذي لا يشعر بان هناك جلالاً وعظمة في تحقق العقول الجبارة واكتمالها، وفي حيوية طبائع قاسية صلبة كالمعدن وانضباطها ، وفي معارك جليدية مجردة ، إن الذي يركبه شيطان الافتتان بمثالية الريف فيريد انيمسك بوسائل حياة العصور الماضية وأسبابها ، عليه ان يطّرح كل رغبة في فهم التاريخ ، وفي الحياة خلال التاريخ أو في صنع التاريخ .

وبعد هذا ... لا تبدو لنا الامبراطورية الرومانية من خلال هذا المنظار كظاهرة منعزلة ، بل إنما تبدو نتيجة طبيعية لروحية المدينة العظمى الصارمة الحية المتسلطة الواقعية، وكخاصة لوضع نهائي غير قابل للتعديل أو التحوير ، وضع طرأ مراراً وتكراراً ، مع أنه لم يُتعرف عليه ، كما جرى التعرف عليه في هذه اللحظة .

اذن ؛ فليكن معلوماً بعد الآن ان سر شكل التاريخ لا يكمن على السطح (سطح الشكل) وأننا لا نستطيع ادراك كنهه بوسائل المشابهة المخادعة ، لكن هذه المشابهة هي في باطنها بعيدة عن الصواب ، كالمشابهة بين شارلمان وهارون الرشيد ، وبين الاسكندر وقيصر ، وبين حروب الألمان ضد روما ومذابح المغول في اوربا الغربية، أو ظاهرة أخرى عديمة الشبه تماماً من حيث المظهر لكنها لا تقل شأناً عن تلك ، كالمشابهة بين « تراجان » ورمسيس الثاني وبين « البوربون » و « دوموش الأتيكي» وبين محمد وفيثاغورس » .

وهكذا فنحن اذا ما نظرنا إلى القرنين التاسع عشر والعشرين بوصفهما أعلى نقطة في خط مستقيم صاعد من خطوط التاريخ ، نرَ أن هذين القرنين يشكلان في الواقع ، مرحلة من مراحل الحياة ، مرحلة ملحوظة في كل حضارة بلغت آخر مراتب النضوج ، مرحلة من الحياة لا يطبعها الاشتراكيون أو الانطباعيون ، أو الخطوط الحديدية الكهربائية ، او الطوربيد ، او المعادلات التفاضلية بطابعها (لأن هذه هي مجرد أجزاء أساسية من الزمن) بل إنما

طابعها روحية متمدنة لا تملك ما ذكرت فقط من إمكانات بل تملك أيضاً امكانات مبدعة أخرى .

ولما كان عصرنا يمثل مظهراً انتقالياً يحدث بالتأكيد نتيجة لأوضاع خاصة، لذلك فإن هناك أوضاعاً محددة تحديداً كاملاً (كالأوضاع التي طرأت أكثر من مرة فيما مضى من تاريخ) وهذه الاوضاع أكثر تأخراً في زمنها من وضع أوروبا الغربية الحالي ؛ ولذلك فإن مستقبل الغرب ليس اتجاها صاعداً متتابعاً أبدياً غير محدود نحو مثلنا العليا ، بل إنما هو ظاهرة واحدة من ظواهر التاريخ ، ظاهرة محدودة من حيث الشكل والديمومة تحديداً صارماً ، وهي تغطي عدداً قليلاً من القرون ، وباستطاعتنا أن نراها وأن نستنبط بالضرورة الجواب عليها من السوابق المتوفرة لدينا .

- ١٤ -

عندما نبلغ هذا المستوى السامي من التأمل والبحران ، يصبح كل أمر آخر هيناً ليّناً ، وباستطاعة المرء أن يستند إلى هذه الفكرة ، وبمقدوره أيضاً أن يحل دون ما عناء أو جهد جميع تلك المشاكل المتفرقة من دينية وتاريخ فن وعلم منطق وأخلاقية وسياسية واقتصادية ، هذه المشاكل التي أشغل بها ذاته الفكر الحديث بصورة عاطفية عقيمة ولمدة عقود وعقود من السنين .

وهذه الفكرة تنتمي إلى تلك الحقائق التي يتوجب علينا أن نعبر عنها فقط بنقاء ووضوح كي تصبح فوق النقاش والجدل ، فهي تشكل ضرورة جوهرية من ضرورات الحضارات الغربية وشعورها العالمي ، وهي أيضاً القادرة على تغيير النظرة العالمية Outlook لكل من يدرك كنهها إدراكاً عميقاً كاملاً ويجعلها جزءاً خاصاً به . وهي تعمق ، على صورة جبارة ،صورة

العالم ، الطبيعية والضرورية بالنسبة الينا نحن الذين دُرّبنا على أن نعتبر التطور التاريخي العالمي وحدة جوهرية ، وتمكننا ، إذا ما انطلقنا منها في الحاضر ملتفتين إلى الوراء ، من أن نرى الخطوط العريضة للمستقبل ، وهذا ، والحق ، امتياز لحساب حالم كان في الواقع ، وأكرر قولي ثانية ، البديل «الكوبيرنيكي» (نسبة لكوبيرنيكوس) للنظرة البطامية (نسبة لبطليموس) في التاريخ ، وهي تُوسّع آفاق فكرنا سعة لا تحد أو تقاس .

لقد كان كل واحد حتى اليوم حراً طليقاً في تحديد ما يأمله من المستقبل. وعندما تنعدم الحقائق تسيطر العواطف ، ولكن منذ الآن سيصبح الشغل الشاغل لكل فرد أن يعرف ماذا قد يحدث ، وأن يدرك نتيجة لذلك ماذا سيحدث بالضرورة غير القابل مصيرها للتعديل أو التبديل أو التأثر بالمثل العليا الشخصية أو الآمال والرغائب الفردية . ونحن عندما نستعمل الكلمة الخطرة ، الحرية ، فإننا لن نعني بها الحرية في أن نقوم بهذا الأمر أو ذاك ، بل إنما نعني الحرية في عمل ما هو ضروري أو عمل لا شيء . إن الشعور القائل بأن هذا الأمر « هو كما يجب أن يكون » الطابع المميز لانسان الواقع ، ولا يبدل الرثاء أو ملامته من حاله شيئاً ، فالموت يخص الولادة ، والسن الشباب ، والحياة لها بصورة عامة ، شكلها المحدد . والحاضر هو زمن متمدن وليس بالزمن الحضاري بالتأكيد ، ولهذا فإن عدداً كبيراً من قدرات الحياة تسقط لتصبح مستحيلة . وهذا الواقع قد يستثير في داخلنا الأسى والنواح ، وهو ، في الواقع ، يقرّع اجفان الفلسفة والشعر التشاؤميين ويستدر من مآقيهما الدموع ، لكن ليس بمقدورنا له تبديل أو تغيير . ولا يجوز أبداً ، (والآن خاصة لا يجوز) لنا أن نتحدى التجربة التاريخية النقية الصافية ، وان نترقب أن ينمو هذا الشيء أو أن يزدهر ذاك ، لمجرد أننا نرغب في ذلك . . وسيناهض البعض هذه النظرية التي أوردتها آنفاً والتي تحدد الخطوط الخارجية لسياق التاريخ تحديداً واضحاً ؛ وسيقولون إن هذه النظرية تقضي على جميع الآمال العراض ، وهذا الأمر هو بالغ الضرر بالجميع .

وخطر على الكثيرين ، وذلك حالما تخرج هذه النظرية من الحقـــل النظري تصبح مخططاً عملياً للحياة تقوم على تنفيذه جماعة من الرجال الذين «يُقَوْلبون» المستقبل ويحددون شكله .

لكنني ، أنا شخصياً ، لا أرى رأيهم ، فنحن بوصفنا أناساً متمدنين ، لا شعوباً غوطية أو « روكوكية » علينا أن نتعامل والحقائق الجليدية للحياة القادمة ، ونحن لن نجد مثيلاً لهذه الحقائق في اثينا « البركليسية » بل إنما نجد مثيلاً لها في روما « القيصرية ». فلم يعد بمقدور الشعوب الغربية إبداع روائع اللوحات الزيتية أو ابداع الموسيقى ، على ذلـــك ان الشعوب الغربية قد استنزفت إمكاناتها الهندسية خلال هذه القرون من السنين ، وكل ما تبقى لها من إمكانات هي إمكانات امتداد وتوسع .

ومع هـــذا فإنني لا أرى فيما أوردته أي تثبيط لعزائم جيل واع بارز الشخصية يفيض آمالاً غير محدودة في ان يكتشف قبل فوات الأوان أن بعض آماله ستنتهي إلى احـــلام غير قابلة للتجسد والتحقق . واذا ما كانت تلك الآمال ، التي كتبت لها الخيبة ، هي أعز الآمال واغلاها ، فعلى الشخص الجدير بقيمة ما أن لا يرتعب أو يفزع .

إنني أعرف أن هذه الحقيقة تشكل مأساة داميـــة لبعض الأفراد الذين سيطرت عليهم ، خلال سني حياتهم الحاسمة ، القناعة بان المتقدمين لم يتركوا لهم شيئاً في ميادين الهندسة والتصوير والدراما .

وماذا يهم اذا ما ُقدّر لهم أن يتداعوا تحت وطأة هذه القناعة ؟! فلقد عودنا أنفسنا ، منذ الآن ، على عدم قبول أية حدود نهائية ، مهما كان نوعها في هذا المضمار ، وأخذنا على أنفسنا أن نؤمن بان لكل مرحلة مهمتها الخاصة في كل حقل من حقول الحياة .

ولهذا اوجدت المهام بهذه الوسيلة او تلك ، أمـــا اهميتها فتقرر عقب انقضاء المرحلة التي استلزمت تلك المهام ، ولا يهم أبداً إحياء تقريرها ليبرر ايمان

الفنان أو ينفيه ، أو ليقر بضرورة ما أنجزه في حياته أو ينكرها . وعقب ما اوردت لا يستطيع أحد سوى الرومنتيكي أن يخرج على هذه القاعدة ؛ وهذه الكبرياء ليست بالكبرياء الرومانية ، فماذا سيكون موقفنا من رجل يقف أمام منجم أُستنزف ما في باطنه ؟ هل نقول إن الغد سيكشف له عن عروق جديدة في المنجم (وهذا القول كاذب من اساسه تصنعته اللحظة الآنية) ، ؟! أم هل نرشده إلى أرض بكر تقع بالقرب منه ؟ وهذا الدرس كما اعتقد ، عميم الفوائد بالنسبة إلى الأجيال القادمة ، كي تدرك ما هو داخل في حيز الامكان (وهو لذلك ضروري) وما هو خارج نطاق الامكانيات الباطنية لزمنها . والحق انه قد جرى حتى الآن تبديد مجموعات لا تصدق من الطاقات الفكرية على الجري في اتجاهات خاطئة .

ومهما كان للفرد الغربي من فكر وحس تاريخيين ، فإنه يمر اليوم بمرحلة من مراحل حياتية يقف فيها موقف غير الواثق من الاتجاه خاطىء ، فهو يتحسس ويتلمس طريقه ، واذا ما صادفه سوء الحظ في بيئته ، فإنه سيضل طريقه . ولكن الآن واخيراً وبفضل انجازات قرون طويلة أصبح باستطاعته أن يدرك طابع حياته الخاصة بالنسبة الى ارتباطاتها بالمنهاج الحضاري العام وان يمتحن قواه وأهدافه . إن كل ما أطمح اليه وآمل به هو ان ينحرف هذا الكتاب بافراد الجيل الجديد إلى تكريس أنفسهم للتقنية بدلاً من تكريس مواهبهم للشعر الغنائي ،وان يتعهدوا لون الموجة بدلاً من فرشاة الألوان ، وأن يهتموا بالسياسة بدلاً من اهتمامهم بفلسفة المعرفة والمنطق Epistemology وهذا هو أفضل عمل يستطيعون إتيانه .

- ١٥ -

يبقى علينا أن ندرس علاقة مورفولوجيا التاريخ العالمي بالفلسفة ؛ فجميع المؤلفات التاريخية الأصيلة هي في ذاتها فلسفة ، إلا إذا كانت مثل المؤلفات المناهضة للاجتهاد . لكن يتوجب علينا أن ندرك أن جميع أعمال الفيلسوف

المنهاجي عرضة لخطأ خطير دائم وذلك إذا ما زعم مثل هذا الفيلسوف بخلود صحة النتائج التي وصل اليها .

فهو بعمله هذا يتجاهل أن كل فكرة تعيش داخل عالمها التاريخي ، وأن مصيرها نتيجة لذلك مرتبط بمصير الأخلاقية العام Morality زد على ذلك أنه يفترض أن الفكر الأرقى يملك موضوعية خالدة غير قابلة للتعديل أو التبديل ، وأن جميع القضايا العظمى لجميع المراحل التاريخية متطابقة ، وأن النتائج التي وصل اليها تستطيع أن تقدم له ، في النهاية ، الأجوبة الفريدة في نوعها على الاسئلة التي يطرحها التاريخ عليه . لكن السؤال والجواب هما هنا في الواقع شيء واحد ، وأن الأسئلة العظمى تصبح عظمى ، بسبب الحقيقة البدهية القائلة بان الاجوبة الواضحة على الاسئلة العظمى هي ملحاح العاطفة في طلباتها إلى درجة تصبح كرموز الحياة التي هي وحدها ذات قيمة وأهمية. فالحقائق الخالدة معدومة الوجود هناك ، وكل فلسفة هي تعبير عن ذاتية زمنها فقط ، ولا يوجد أبداً عصران يمتلكان المقاصد الفلسفية ذاتها ، (وذلك إذا ما فهمنا بالفلسفة ، الفلسفة الأصيلة ، لا التفاهات التي تعالج مراتب الحس والأحكام على الاشكال وما شابهها) . وأن الخلاف لا يدور حول عقائد فانية وأخرى خالدة غير فانية ، بل إنما يدور حول عقائد تعيش زمنها الخاص بها وأخرى لم ترَ أبداً نور الحياة وأنوار الوجود . إن خلود الأفكار الصائرة وهم باطل ، فالجوهري فيها هو نوع الرجل الذي يأتي ليعبر عنها . وكلما ازداد الانسان عظمة ، ازدادت الفلسفة صحة وحقاً ، وزودت بالحقيقة الباطنية القائلة بان عملاً عظيماً يتجاوز كل دليل على عناصرها المتعددة أو حتى على ائتلاف كل عنصر منها والعنصر الآخر . وقد تمتص الفلسفة في اسمى مراتبها كامل محتوى حقبة تاريخية ، وتحقق هذا المحتوى في داخلها ثم تجسده في شكل شخصية عظيمة وبعدئذٍ تناوله إلى غيرها ليطوره اكثر فأكثر .ولا أهمية هنا للزي العلمي ، (أو الطابع المعرفي) الذي ترتديه الفلسفة . وليس هناك شيء اسهل من أن نضع منهاجاً يفقر الأفكار ويجعل من الأفكار الرديئة جيداً ،

ويجعل من فكرة جيدة ذات قيمة قليلة عندمـــا يصرح بها أحد الوقورين الأغبياء . فيجب أن تترك الفكرة للحياة وحدها كي تقرر أهميتها .

لذلك أعتقد أن قيمة المفكر تمتحن بامتحان بصيرته لمعرفة قدرتهـا على استيعاب حقائق عصره الخاص . وهذه هي وسيلتنا الوحيدة لمعرفة ما إذا كان مثل هذا المفكر مجرد مهندس ذكي للمناهج والمبادىء المحددة بتعاريف وقواعد وتحاليل ، أم أنه الروح الصادقة لعصره والمعبرة عن نفسها بانجازاته وبديهته ووجدانه . فالفيلسوف الذي لا يستطيع أن يفهم الواقع ويسيطر عليه لن يصبح أبداً فيلسوفاً من الدرجة الأولى .

لقد كان معظم الفلاسفة ، مـا قبل سقراط ، تجاراً وسياسيين . وكادت رغبة أفلاطون في وضع افكاره السياسية موضع التطبيق في سيراكوس تكلفه حياته ، وهو نفس افلاطون الذي اكتشف ووضع سلسلةالقواعد الهندسية التي اتخذ منها « أقليد » حجر الزاوية للمنهاج الرياضي الكلاسيكي .

كما وان باسكال (الذي لقبه نيتشه بالمسيحي المحطم) وديكارت وليبنتز كانوا رواد الرياضيين والاختصاصيين في عصرهم . وكان معظم فلاسفة الصين ما قبل سقراط ابتداء « بكونشي » (٦٧٠ ق.م) وانتهاء « بكونفوشيوس» (٥٥٠—٤٧٨ ق.م) رجال دولة وحكام ومشرعين كفيثاغورس وبارميندس وهوبس وليبنتز . وقد رافق ظهور لاوتسي ، هذا الفيلسوف المناهض لمبدأ سلطة الدولة ومبدأ السياسات العليا ، والمتحمس لإنشاء مجتمعات صغيرة من البشر تعيش آمنة لا تهتم بالعالم وأموره ؛ أقول رافق ظهوره ، ظهور طلائع من المحاضرين وطلاب الفلسفة . لكن لاوتسي كانفيعصره يمثل الصين القديمة ، وكان شاذاً في وسط مجموعة من الفلاسفة الذين كانوا يرون أن علم المنطق يعني معرفة العلاقات الهامة للحياة العملية . وبهذا يصبح ، على ما أعتقد ، جميع فلاسفة العصر الاجد ، موضوعاً لنقد شديد خطير .

فليس لهم أي موقف حقيقي من الحياة العملية ، ولم يحاول أي منهم أن يتدخل بصورة فعالة في السياسة العليا أو في تطور التقنية الحديثة ، أو في وسائل المواصلات ، أو في القضايا الاقتصادية ، أو في أي مجال عملي آخر ،

فيفرض نهجاً أو فكرة لما يناله أي واحد من وسائـــل المواصلات ، أو في القضايا الاقتصادية ، او في أي مجال عملي آخر ، فيفرض نهجاً أو فكرة ما. ولم يبلغ أي واحد من هؤلاء الفلاسفة الجدد مـــا بلغه « كانت » في ميادين الرياضيات والفيزياء وفن الحكم .

فلنلق بنظرة إلى الوراء ! لقد شغل كونفيشيوس منصب الوزارة عدة مرات ، وكان فيثاغورس المنظم لحركة سياسية هامـــة شبيهة بالحركة الكرومويليه (نسبة لكرومويل) هذه الحركة التي لا يزال الباحثون الكلاسيكيون يبخسون قيمتها . وغوتيه بالاضافة إلى كونه وزيراً تنفيذياً (ويا للأسف كانت مجالات نشاطاته ضيقة ومحدودة) كان يولي قناتي السويس وبناما وأثرهما على الاقتصاد العالمي بالغ اهتمامه ، بالاضافة الى أنه كان يشغل نفسه ، المرة تلو الأخرى بالمشاكل الاقتصاديـــة للحياة الاميركيـــة وردود أفعال هذه المشاكل في العالم القديم ، ويبحث في فجر الصناعة الآتية . وكان هوبس أحد واضعي المخطط لكسب جنوبي أميركا لم يتجاوز ، حين وضعه موضع التنفيذ ، احتلال جامايكا ؛ لكنه مع هذا كان هوبس أحد أولئك الذين كان لهم شرف تأسيس الامبراطورية البريطانية الاستعمارية .أما ليبنتز ، وهو دون ريب أضخم العقول الفلسفية الغربية واقواها ، ومؤسس الحساب التفاضلي ، فإنه قد أسهم في وضع مخططات سياسية رئيسية ، وكان أحد هذه المخططات التي أسهم فيها ليبنتز يرمي الى تحويل أنظار لويس الرابع عشر إلى مصر وجعلها عاملاً هاماً من عوامل السياسة الفرنسية بغيـــة تخفيف الضغط الفرنسي على ألمانيا . وكانت الأفكار التي تضمنتها المذكرة الـــتي رفعها إلى المليك العظيم (لويس الرابع عشر – ١٦٧٢) متقدمة على عصرها ، بحيث بقيت مهملة حتى جاء نابليون واعتمدها دستوراً لمغامراته في الشرق .

وحتى في ذلك الوقت المبكر ، وضـــع ليبنتز المبدأ الذي تبنـــاه نابليون وادرك كنهه عقب معركة « فاغرام » ، هذا المبدأ القائـــل بأن احتلال الرين وبلجيكا لن يحسّن من مركز فرنسا تحسينا مستمراً دائماً ، وان

عنق السويس سيصبح ، في احد الأيام ، المفتاح للسيطرة على العالم . ولاريب أن لويس الرابع عشر كان عاجزاً عن فهم المغزى العميق لهذه المبادىء السياسية والستراتيجية التي وضعها الفيلسوف ليبنتز .

ونحن اذا ما حولنا انظارنا عن هذا الطراز من الرجال ، إلى « الفلاسفة » المعاصرين تنتابنا صدمة من الاشمئزاز والخجل . فيالهم من شخصيات فقيرة عقيمة ، ويا لتفاهة نظراتهم السياسية والواقعية ! ولا أدري ما الذي يستثير داخلنا الشفقة عليهم والرثاء لحالهم ، إذا مـــا خطر لنا مجرد خاطر يطالبنا بالتوجه إليهم ليجربوا رفعتهم الفكرية في الحكم والدبلوماسية والتنظيم الواسع أو في ادارة شتى المشروعات الكبرى من استعمارية أو تجارية أو شركة مواصلات ؟ وهذا القصور لا يدل على أنهم حائزون على الباطنية بل إنما يدل على أنهم عديمو القيمة والوزن . إنني اتطلع حولي عبثاً علني أجد « فيلسوفاً » معاصراً اكتسب صيتاً وشهرة نتيجة لدراسة عميقة بعيدة النظر أجراهـــا لمشكلة من مشاكل يومنا ، فلا أحد أمامي سوى آراء ضيقة الأفق لا تختلف عن غيرها من الآراء .

والحق انني كلما تناولت كتابا جديدا أسأل نفسي عمـــا اذا كان لمؤلف الكتاب نظرة خاصة به يرى من خلالها الوقائع السياسية العالمية أو مشاكل المدن العالمية او الرأسمالية أو مستقبل الدولة او علاقة التقنية بالمدنية ، أو روسيا ، او العلوم ، . لا شك أن « غوتيه » كان سيدرك كل هذه الأمور ، وكان سيعالجها جذلان فرحاً .

ولكن لا يوجد في يومنا هذا فيلسوف واحد على قيد الحياة ، قادر على القيام بعلاج مثل هذه الامور ودراستها ، ومن البدهي أن هذا الشعور بالوقائع ليس هو الشيء ذاته الذي يمثله محتوى الفلسفة ، لكنه ، واكرر قولي ثانية ، هو عارض الضرورة الباطنية للفلسفة ، إنه إخصابها وأهميتها الرمزية .

ويتوجب علينا أن لا نسمح لانفسنا بالضرب في متاهات الوهم فيما يتعلق بتقدير خطورة هذه النتيجة السلبية. لقد أمسى فقداننا لرؤية الأهمية القصوى

للفلسفة الجدية أمراً من الأمور الملموسة. إننا نمزج الفلسفة بالوعظ وبالتحريض وبتأليف الروايات وبالثرثرات التي تدور في قاعات المحاضرات . لقد هبطنا من المرتفع الذي يطل منه العصفور على العالم الى مستوى الضفدع ، وأصبحت امكانية نشوء فلسفة حقيقية في يومنا هذا او في غدنا موضع شك وتساؤل .

لقد كان من الافضل لهؤلاء ان يمتهنوا الاستعمار أو الهندسة أو أية مهنة حقيقية أصيلة أخرى بدلاً من أن يجتروا مواضيع أكل الدهر عليها وشرب ، تحت شعار « الموجة الجديدة للفكر الفلسفي » المزعوم . وانه لأفضل ألف مرة لنا أن يقدم أحد هـؤلاء على اختراع محرك طائرة بدلاً من أن يعرض علينا نظرية جديدة للترابط الحسي لا يحتاج اليها العالم ولا يريدها .

والحق انها لانجازات هزيلة لحياة فقيرة ، أن يقوم المرء بتكرار ما قاله المئات من الاسلاف بتعابير جديدة واصطلاحات مستجدة عن الإرادة أو عن مبدأ توازي علاقات العقل بفعالية الجسد . وقد يكون مثل هذا العمل حرفة أو مهنة ، لكنه بالتأكيد ليس فلسفة . فالمذهب الذي لا يهاجم حياة حقبة ويؤثر في أعماق اعماقها ليس بمذهب ومن الافضل ألا يُدرس أو يُستعرض . وما كان ممكناً بالأمس هو على الأقل ليس بالأمر الذي لا يُستغنى عنه اليوم . فتمحيص أعماق القواعد الرياضية والفيزيائية يبعث في قلبي السرور والفرح ، بينما أي من علماء الجمالية والنفس مجرد متسكعين عامهين . وإنني لافضل العقل المولد لطرز جديدة من البواخر السريعة ، أو هيكل فولاذي أو مخرطة دقيقة أو زقـــة وجمال عمليات بصرية وكيميائية ، على جميع «مسروقات الفن » والهندسة والمهارة التي نشهدها اليوم . وأفضل عقد بناء روماني على جميع ما للرومان من تماثيل وهياكل .

إنني أحب « الكلوسيوم » وقنطرة « بلاتين »الجبارة لأنهما يمثلان اليوم لي في ضخامتها الغبراء وبنائهما الآجري روما الحقيقية ويعرضان علي حس مهندسيهما العظماء الواقعي ، لكنني لا أبالي أبـــداً احافظ الناس على الآ ثار المرمرية المغرورة للقياصرة وماهم من تماثيل وأفاريز وعوارض متشابكة أم لم

يحافظوا ؟ ! واذا ما القينا بلمحة على بعض مباني « فورا » الامبراطورية ، نجد هذه المباني صورة طبق الاصل عن معرض دولي حديث ، فهي تبدو فضولية ضخمه فارغة ، متبجحة في بنائها واتساعها ، وغريبة تماماً عن اليونان « البركليسية » غرابتها عن فن الديكور من طراز « ريكوكو » . لكنها متوازية تماماً والتجديد في الفن المصري المتبدي في الآثار المصرية من عهد رمسيس الثاني (١٣٠٠ ق.م) والموجودة حالياً في الأقصر والكرنك ؟

ولم يكن الروماني الأصيل ليحتقر التمثيل « الغريكولوسي »دون ما غاية وخاصة ذاك الطراز من الفنانين والفلاسفة الذين كانوا يعيشون على تربة المدنية الرومانية . فلقد أخبره حسه الغريزي بحقائق الحياة.أن عهد الفن والفلسفة قد انقضى وتصرم ، وانهما قد استنزفا كل عصارتيهما واصبحا لا طائل تحتهما او فائدة لهما . ولقد كان اشتراع قانون روماني أهم من جميع مدارس الفلاسفة الغيبية وقصائد الشعر الغنائي معاً . وإنـــي انا شخصياً أرى ان المخترع او الدبلوماسي أو المالي لأعمق فلسفة من اولئك الذين يمارسون مهنة علم النفس التجريبي . وهذه الحالة تكرر ذاتها بانتظام في مستوى تاريخي معين .

ولا شك أن العقل الروماني الحاذق اللماح ، هـــذا العقل الذي اذا ما توفرت له الفرصة يقوم بقيادة الجيوش وتنظيم المقاطعات وبنـــاء المدن وشق الطرق ، أقول لا شك ان مثل هذا العقل كان سيرى من السخف والغباء ان يحاول « تفريخ » فلسفة جديدة متباينة والمدارس الفلسفية ما بعد افلاطون، هذه المدارس التي شهدتها كل من أثينا ورودوس . ولكن،ونتيجة لماوردت، لم يقم احد بمثل هذا العمل الذي لم يكن لينسجم وروح العصر ؛ لذلك فإنه لم يجتذب إليه سوى عقول من الدرجة الثالثة ، عقول من ذاك النوع الذي لن يتقدم عن روح الزمن الذي تصرّم ما قبل الأمس. وانه والحق لقضية خطيرة ما إذا كنا قد بلغنا . هذه المرحلة ام لم نبلغها بعد .

إن قرناً ذا فاعلية مجردة مترامية الاطراف ، ينبذ انتاجاً فنياً وغيبياً ضخماً (ولنقل بصراحة قرن لا ديني يتفق تماماً ومذهب المدن العالمية) لهو

من أزمان الانحطاط والسقوط . حقا إننا لم نختر هـذا الزمن. وليس بالبديهية ، فلقد شاء القدر لنا أن نولد في شتاء المدنية المبكر ، بدلاً من ان نولد في عصر الحضارة الذهبي ، عصر « فيدياس » أو عصر موزارت . لذلك فإن كل شيء يتوقف على معرفتنا بموقعنا وبعصرنا معرفة واضحة صافيـــة ، وعلى ادراكنا الكامل أننا قد نكذب على أنفسنا لكننا لا نستطيع أن نتجنب حقيقة كوننا أبناء مدنية هي في شتاء العمر . إن كل من لا يعترف من صميم قلبه بهـــذا الواقع لن يكون ابناً لهذا الجيل ، بل إنما يصبح أبلهاً متحذلقا أفاكا .

لذلك عندما يتقدم أحد الناس لمعالجة مشكلة الحاضر عليه أن يسأل نفسه السؤال التالي : (مع أن الجواب على هذا السؤال موجود سلفا في غريزة كل لوذعي أصيل) ما هو ممكن انجازه اليوم ، وما هو الشيء الذي يجب ان يمتنع عنه ؟

ليست هناك سوى مشاكل ميتافيزيقية جد قليلة مخصصة ليحلها الفكر في أية حقبة من حقباته . وحتى على هذه الصورة العاجلة من تتالي الزمن ، فإن عالما بأكمله يفصلنا عـن عصر نيتشه ، حيث كان لا يزال هناك أثر من آثار الرومنتيكية نشيطا فاعلاً ، أما عصرنا فقد استهلك كل ذرة منها .

لقد جاءت نهاية الفلسفة المنهاجية مرافقة لخاتمة القرن الثامن عشر . لقـد جاءت نهاية الفلسفة في أشكال عظيمة في ذاتها ونهائيـــة معا بالنسبة للروح الغربية . وقد أعقب « كانت » كما أعقبت افلاطون وأرسطو ، فلسفـــة الميغالوبوليتيه (مدينة عظمى) لا تعتمد التأمل ، بل إنمـــا هي واقعية لا دينية وأخلاقية اجتماعية . وهـــذه الفلسفة توازي في مدنية الصين فلسفة « يانغ – تشو » الابيقورية ، وفلسفة « موتي » الاشتراكية ، وفلسفـــة « تشانغ – تسو » التشاؤمية ، وفلسفة « منشوس » الايجابيـة ، وتوازي في المدنية الكلاسيكية ، فلسفات « الهازئين » والقيراويين (أتباح ارشيب) ، والرواقيين والأبيقوريين .

وهذه الفلسفة « الميغالوبوليتية » تبدأ بالغرب بشوبنهاور الذي كان أول

من جعل إرادة الحياة (قوة الحياة الخلاقة) مركز دائرته الفكرية ، مع أن الاتجاه الأعمق لمذهب « شوبنهاور » غامض بسبب حفاظه على مبدأ التميز السخيف بين الظاهرة وبين الشيء في ذاتــه . وهلمجرا . ويعود سبب تملك شوبنهاور بهذا المبدأ الى تأثره بالتقاليد العظمى . لقد كان مبـــدأ اسلوب الارادة الخلاقة للحياة ، هذا المبدأ الذي أنكر في « أوبرا تريستان » ومبدأ أسلوب داروين الذي أُكـّد في أوبرا « سيجفريد » واللذان الف منهما نيتشه زرادشت ، على صورة مسرحية رائعة هما ذاتهما اللذان قادا ماركس«الهيغلي» إلى فرضياته الاقتصادية ومالتوس الدارويني إلى فرضياته البيولوجية .وهذان النوعان من الفرضيات هما اللذان بدلا تبديلاً جذريا النظرة الفلسفية لسكان المدن العظمى الغربية وأنتجا السلسلة المتجانسة من مفاهيم المأساة التراجيدي) الممتدة من رواية « جوديت » لهيبل » إلى « أبولوغ » إبسن » وبهذا يكونان قد احتويا جميع إمكانات الفلسفة الصحيحة واستهلكا هــذه الامكانات في الوقت نفسه .

إذن فاننا قد خلفنا الفلسفة المنهاجية وراءنا بأشواط وأشواط ، كما أنناقد طوينا صفحة الفلسفة الأخلاقية ، لكن هناك إمكانية فلسفية تطابق فلسفة الشك الكلاسيكية ، وهذه الامكانية الفلسفية هي اليوم في متناول أيدينا وهي لا تزال روح العالم بالنسبة إلى غربنا المعاصر،وباستطاعتنا أن نخرج بهذه الامكانية الفلسفية الى النور إذا ما لجأنا الى وسائـــل مورفولوجية تاريخية لم تزل مجهولة حتى الآن .

إن كل ما هو إمكانية هو ضرورة أيضا . إن الشك الكلاسيكي مذهب منافٍ للتاريخ . فأصحاب هذا المذهب يعربون عــن شكهم بالشيء بواسطة إنكارهم للشيء إنكاراً مباشراً . لكن على مذهب الشك في الغرب ، اذا ما كان ضرورة باطنية ورمزاً لخريف روحيتنا ، أن يكون مذهبا تاريخيا بكل ما لكلمة تاريخية من معنى ومفهوم . وهو يصل إلى حلوله بواسطة نظرته إلى كل شيء نظرة نسبية ، ويرى في كل امر ظاهرة تاريخية، أما اجراء معالجته

للأمور فهو إجراء سيكولوجي . بينما ان فلسفةالشكالكلاسيكيةالتي نشأت في البلادالاغريقية كنفيللفلسفةوانكارها، قدصرحت بأنه ليس للفلسفة من غرض أو هدف ، بينما نحن نرى في تاريخ الفلسفة أخطر مواضيع الفلسفة وأهمها . وهذا هو « الشك » في معناه الحقيقي ، لانه بينما كان يقاد اليوناني ليعبر عن نبذه للمواقف المطلقة باحتقاره للماضي الفكري ، نقاد نحن للحذو حذوه بواسطة إدراكنا لذاك الماضي كنظام .

إن مهمتنا في هذا الكتاب أن نزيل من الأذهان هذه الفلسفة اللافلسفية آخر الفلسفات التي ستعرفها أوروبا . إن الشك هو تعبير مدني مجرد وهو يوضح معالم الصور العالمية لحضارة تصرم عهدها ؛ ويتحقق نجاح مذهب الشك بالنسبة إلينا في إذابته لجميع المشاكل الأعرق قدما في مشكلة واحدة هي المشكلة الوراثية .

إن قناعتنا بأن ما هو كائن قد اصبح ، وبأن ما هو طبيعي ومدرك هو عميق الجذور التاريخية ، وبأن العالم كواقع هو مبني على « الأنا » بوصفه جهداً قد تحقق ، وبأن في « متى » « وحتى متى » سراً عميقا كما هي الحال في « ماذا » وهذه القناعة تفضي بنا مباشرة الى معرفة الحقيقة القائلة بأن كل شيء مهما كان شكله أو نوعه أو جوهره ، يجب أن يكون على كل حال ، تعبيراً عن شيء حي .

إن المعرفة والحكم (على الاشياء) هما أيضا عملان منأعمال الناس الأحياء. لقد كان مفكرو الماضي يدركون الواقع الخارجي كما تصوره المعرفة وتحركه الأحكام الاخلاقية ؛ لكن هذه الأشياء ، بالنسبة الى مفكر المستقبل ، هي فوق كل تعبير ورمز . وهكذا تصبح مورفولوجيا التاريخ العالمي بالضرورة رمزية كونية .

بهذا يتهاوى الزعم القائل بأن المفكر الأرقى يمتلك حقائق عامة خالدة ويندثر . فالحقائق هي حقائق فقط بالنسبة الى نوع معين من الجنس البشري. وهكذا فإن فلسفتي الخاصة قادرة أن تعبر وتعكس فقط الروح الغربية

(كروح مميزة عن الكلاسيكية والهندية وغيرها) في مرحلتها المدنية الحالية، وهذه المرحلة هي التي تحدد لها مفاهيم عالمها ومداهـا العلمي ودائرة أثرهـا ونفوذها .

- ١٦ -

قد يسمح لي القارىء بان أضيف الى هذه المقدمة ملحوظة شخصية ، فلقد اقترحت عام ١٩١١ على نفسي أن أضع دراسة واسعة عن الظاهرة السياسية آنذاك وعن تطوراتها المحتملة . ويومذاك كانت الحرب العالمية تبدو لي انهـا وشيكة الوقوع ومظاهرة خارجية محتومة للازمة التاريخية التي كانت تجتاحنا حينذاك ، لذلك وضعت نصب عيني أن أجدّ لافهم هذه الازمة بواسطة فحص وتمحيص روح القرون ، لا السنين الماضية .

واثناء قيامي بتلك الدراسة الضيقة بصورة عامة ، فُرضت عـليّ القناعة بان التفهم المجدي لتلك الحقبة التاريخية يستلزمني توسيع دائرة دراستي توسيعا هائلا ، وانه إذا ما اردت أن أصل في بحث من هذا النوع الى نتائج اساسية جازمة ، فانه من المستحيل علي أن أحصر نفسي في عصر واحـد وأن اقصر أبحاثي على وقائعه السياسية ، أو أن احشر فكري في اطار ذرائعي ، أو أن لا ألجأ، في معالجتي الى اساليب ميتافيزيقية تجريدية أو متعالية Transcendental رفيعة . لقد اتضح لي أنه من غير الممكن أن نتفهم قضية سياسية اذا ماقصرنا دراستنا على السياسة ، واننا لا نستطيع ان ندرك اعماق الكثير من العوامل الهامة إلا عن طريق تظاهراتها الفنية ، أو حتى بواسطـة اشكال مذاهبهـا العلمية والفلسفية المجردة ، وذلك اذا ما نظرنا اليها من بعيد .

زد على ذلك انه إذا مـا أقدمنا حتى على إجراء تحليل سياسي اجتماعي للقرن التاسع عشر (وهذا القرن مشدود الى حدثين هائلين جبارين ، يتمثل الحدث الاول في الثورة الفرنسية وفي نابليون ، وقد ثبّت هـــذا الحدث صورة

اوروبا الغربية لمدة قرن من الزمن ، أما الحدث الثاني والذي لا يقل عن الأول أهمية وخطورة فكان يتراءى في الافق وتندفع طلائعه الى المسرح العالمي) ؛ اقول إننا إذا ما أقدمنا على إجراء مثل هذا التحليل فاننا سنرى انفسنا مضطرين لدراسة جميع مشاكل الوجود العظمى على مختلف مذاهبها ؛ وذلك لانه لا يوجد في الصورة التاريخية للعالم ، كما هي الحال في الصورة الطبيعية له، أي شيء ، مهما كان ضئيل الشأن،لا يحتوي على كامل مغزى السياق التاريخي.

وهكذا بدأ الموضوع الاساسي الذي اتخذته لدراستي يتسع اتساعا هائلا . وفجأة وجدتني امام عدد هائل من اسئلة غير منتظرة (وهي في معظمها اسئلة جديدة) وترابطات وارتباطات واخيراً اتضح لي بجلاء ما بعده من جلاء ، أنني لا أستطيع أن أوضح نبذة واحدة من التاريخ ايضاحا تاما ، إلا إذا أوضحت سر التاريخ نفسه ، ونظرت الى قصة الجنس البشري الأرقى بوصفها نظاما التركيب نظامي . وحتى الآن لم يقم أحد بمثل هذا العمل ، حتى في أبسط درجاته .

ومنذ هذه اللحظة فصاعداً أخذت العلاقات والارتباطات (وكثيراً ما جرى مسها في الماضي مسا رفيقا لكنها لم تفهم ابداً) تتدفق علي بغزارة متزايدة فكانت أشكال الفنون تربط نفسها الى اشكال الحرب وسياسة الدولة. وقد تجلى لي أن هناك علاقات وثيقة بين المذاهب السياسية وبين المذاهب الرياضية للحضارة ذاتها ، وبين المذاهب الدينية وبين المفاهيم التقنية ، بين الرياضيات والموسيقى والنحت وبين الاقتصاد واشكال المعرفة . كما وتبدى بوضوح ما بعده وضوح ، أن الفيزياء والنظريات الكيمائية الحديثة تعتمد اعتماداً اساسيا على مفاهيم الاسطورة لأسلافنا من الجرمان . أضف الى ذلك أن الاسلوب الائتلافي للمأساة ، والتقنية الجبارة التي تنتظم علم المال ، وحقيقة كون المناظر الزيتية (مع أن هذه الحقيقة تبدو شاذة لاول وهلة لكنها حقيقة في واقعها) والطباعة وانظمة الاعتماد (Credit) والأسلحة البعيدة المدى وموسيقى البلوفونيك من جهة ، والتماثيل العارية ، ودولة المدينة والنقود المصكوكة (التي كان الاغريق اول من استعملها) من جهة أخرى كل هذه

الأشياء هي تعابير متطابقة بعضا على بعض وتصدر عن المبدأ الروحي ذاته . وفوق كل هذا وما وراءه ، تقف الحقيقة القائلة بان هذه المجموعات العظمى من الروابط المورفولوجية ، وكل مجموعة منها ترمز الى نوع خاص من الجنس البشري متبدٍ في الصورة الكاملة للتاريخ . أقول ان هذه المجموعات متناسقة الاجزاء تناسقا دقيقا في تركيبها . هذا هو المنظار الذي يرينا لأول مرة الاسلوب الحقيقي للتاريخ . ولما كانت هذه النظرة رمزاً وتعبيراً عن مرحلة زمنية واحدة ، وهي بمتناول يد الانسان الغربي المعاصر فقط (من بعيد) بافكار ما فوق (Ultra) الرياضيين الحديثين وذلك في مجال نظرية المجموعات (Theory of groups) .

هذه كانت الأفكار التي شغلتني أعواما وأعواما ، بقيت أفكاراً مظلمة غير محددة أو معروفة حتى انتشلتني هذه القاعدة في دراسة التاريخ ، حيث أعطت لتلك الأفكار شكلا ملموساً؛ وبعدئذٍ رأيت الحاضر (والحرب العالمية الوشيكة) على ضوء مختلف تماما.فلم يعد الحاضر أمامي بمجموعة من حقائق عرضية نشأت عن عواطف قومية أو نفوذ شخصي أو عوامل اقتصادية جعلها منهاج مؤرخ سياسي أو اجتماعي ، أو مذهب العلة والمعلول تتبدى في شكل وحدة وضرورة ؛ بل انما اتضح الحاضر لناظري نوعا منتبديل تاريخي للمظهر يطرأ داخل نظام تاريخي عظيم ذي بوصلة عينت مجراه منذ مئات السنين .

ويتبدى طابع الأزمة العظمى في أسئلتها وامتحاناتها الشجية التي لا تعد ولا تحصى . وكان لدينا الآلاف من الكتب والآراء والافكار ، لكنها كانت جميعا مشتتة غير مترابطة ، وقد جعلها الاختصاص محدودة الأفق لذلك كانت تغرينا وتحزننا وتشوشنا : لكنها لم تستطع أن تحررنا أبداً .

لهذا ، ومع أن هذه الاسئلة كانت منظورة ومعروفة ، لكننا كنا دائما نخطىء في تحديد هويتها . ولنتأمل الآن في مشكلات الفن تلك (مع أنها لم تفهم حتى اعماقها) التي تتجلى في الخلافات بين الشكل والمحتوى وبين الخط

والبعد ، بين الرسم واللون في طبيعة الاسلوب وفي فكرة الانطباعية وفي موسيقى فاغنر . ولنتأمل في انحطاط الفن وفي الثقة المزعزعة التي يوحي بها العلم ، وفي المعضلات الخطيرة الناجمة عن انتصار المدن العالمية الكبرى على الريف ، كانقطاع الذرية ، وإقفار الارض (الزراعية) من سكانها ، والمركز الذي تحتله الصحافة المتقلبة في المجتمع ، وفي أزمة (محنة) المادية ومحنة الاشتراكية والحكومة البرلمانية ، ومركز الفرد ، وجها لوجه من الدولة ، وفي معضلة الملكية الخاصة التي ترتبط بها مشكلة الزواج . ولنتأمل في الوقت ذاته في إحدى الحقائق التي تبدو في ظاهرها قد استقيت من ميدان مخالف تماما لما ذكرت ، في حقيقة العمل الضخم الذي أنجز في حقل السيكولوجية الجماعية ، وعالج أصول الخرافة والفن والأديان والفكر ، ولم يعالجها علاوة على ذلك ، بوجهة نظر مثالية ، بل إنما عالجها بوجهة نظر مورفولوجية ، حازمة . وفي اعتقادي ان كل سؤال من هذه الاسئلة كان في حقيقته يستهدف الاتجاه ذاته الذي استهدفه غيره من الاسئلة الأخرى ، وأعني بقولي هذا ، أنه كان يتجه نحو حل تلك الأحجية الواحدة للتاريخ ، والتي لم يقدر لها أبداً أن تتضح وضوحا كافيا للوعي البشري .

فالمهام التي تجابه الرجال ، هي ليست ، كما يظن ، مهام غفيرة متعددة لا نهاية لها ، بل انما هي في الواقع المهمة نفسها ، وكل واحد من هؤلاء الرجال كان يشتبه في أن الأمر هو على ما ذكرت ، ولكن لم يستطع أي واحد منهم نتيجة لنظرته الضيقة ، أن يرى الحل الوحيد والمفهوم لها ، ومع هذا فان هذا الحل كان يعرض نفسه منذ عصر نيتشه ، نيتشيه نفسه الذي تناول جميع هذه المشكلات بالبحث ، ولكن لم يجرأ نتيجة لرومانتيكيته ، على مجابهة الحقيقة الصارمة وجها لوجه ، ولكن هنا تكمن بالتأكيد الضرورة الباطنية لما ادعوه بعقيدة الأخذ بالأصل ، وكان على هذه العقيدة أن تبرز ، وهي لا تستطيع أن تبرز إلا في هذا الوقت ، إن شكنا فيها لا يمثل أبداً هجوما عليها ، بل إنما يمثل بالأحرى تمحيصنا لأصل افكارنا واعمالنا والتحقق منه .

وشكنا لا ينفي بل انما يثبت جميع تلك المباحث والاعمال التي أنجزتها الأجيال الماضية ، وهو لذلك متمم لجميع تلك النزعات التي تعيش حقـا ، والتي يصادفها شكنا في الأجواء الخاصة ، بغض النظر عما قد يكون لها من أهداف.

وهنا ، وقبل كل شيء ، يكشف لنا تعارض التاريخ والطبيعة عن ذاته ، والذي بواسطته وحـده فقط نستطيع إدراك جوهـر الاول . (تعارض التاريخ) وكما سبق لي أن قلت فيما تقدم ، ان الانسان بوصفه عضواً وممثلاً للعالم ، هـو ليس فقط عضواً في جسد الطبيعة ، بل انما هـو أيضا عضو في التاريخ ، الذي يشكل في الواقع كونا (Cosmos) ثانيا يختلف في تركيبه وملامحه (عن الطبيعة) والذي أهمل إهمالاً كليا من قبل الميتافيزيقيين الذين كرسوا كل جهودهم لدراسة موضوع الطبيعة . إن الذي دفعني في الواقع إلى التأمل في هذا الموضوع من مواضيع وعينا للعـالم ، هـو مشاهدتي المؤرخين المعاصرين وهم يعمهون ويدورون حول الحوادث المحسوسة والاشياء الجارية ، ويعتقدون مع ذلك بانهم قد ادركوا التاريـخ « وعرفوا جريانه » وصيرورته نفسها . وهـذا الهوى مألوف لدى كل من ينطلـق من العقل والمعرفة ضد الادراك المميز البدهي مثلاً .

وهذا الهوى كان منذ طويل زمن ، مصدراً لحـيرة « الايليين » (١) وارتباكهم ، وخاصة لمذهبهم القائل بان المعرفة عاجزة عن انتاج فكرة الصيرورة ، وانه لا يوجد هناك سوى كائن ، أو شيء قد أصبح . وبكلمات أخرى ، فانه كان يُنظر الى التاريخ « كطبيعة » Nature (بالمفهوم الموضوعي للفيزيائيين) وكان يعالج على هذا الاساس ، (التاريخ كطبيعة) والى هـذا الاساس يتوجب علينا أن نرد الخطأ الأليم في تطبيق مبادىء العلة والقانون والمنهاج (وهي هيكل هـذا الكائن المتحجر) على صورة الحوادث ، انهم يزعمون أن الحضارة الانسانية قد وجدت كما وجدت الكهرباء ووجـدت

---

(١) مدرسة يونانية في الفلسفة قامت في القرن السادس قبل الميلاد وكانت تؤمن بوحدة الكائن وبعدم حقيقة وجود الحركة والتبدل . المترجم

قوة تجاذب المادة ، وانها لذلك تخضع للتحليل وفق الطريق نفسها التي تخضع لها هاتيك ، وقد اتخذت عادات البحاثين العلميين كمثل يحتـــذى ، وإذا ما سأل بين حين وآخر طالب ما عمـــا كانت ماهية الغوطي أو الاسلامي ، أو المدني ، منذئذٍ لم يشغل أحد نفسه في الاستفسار عن الاسباب الـتي جعلت نماذج لشيء ما حي تتبدى بالضرورة آنذاك وهناك ، في ذاك الشكل الذي اتخذه ومن أجل تلك الحقبة الزمنية بالذات . وكان المؤرخون يقنعون كلمـا صادفوا اوجه الشبه العديدة بين ظواهر تاريخية مستقلة كل واحـدة منها عن الأخرى وذات مميزات خاصة ، فكانوا يدونونها ويضيفون عليها الحواشي الذاتية ، ومن أعاجيب الصدف أنهم يرتفعون بجزيرة « رودس » الى مصـاف « بندقية العصر القديم » ويضفون على نابليون شرف كونـه « الاسكندر المعاصر » أو شبيهه ، ومع هذا فان هذه هي الحالات التي دفعت بمشكلةالقدر الى مسرح الفكر ، وجعلت منها المشكلة الحقيقية للتاريخ (مثلا مشكلةالزمن) والتي يتوجب ان تعالج بكل جدية واهتمام ممكنين وأن تدرج من الوجهة العلمية في علم الفراسة كي تكتشف أية ضرورة ، عينت تعييناً غريبا ، وكاملة الغرابة عن المسببِ .تعيش وجودها ممارسة وعملاً .

إن هذه الظاهرة بالذات تعرض بالضرورة أحجية غيبية (ميتافيزيقية) وان الوقت التي حدثت فيه لم يكن ابداً إلا الوقت السديد المناسب ، وانـه لايزال امامنا أن نكتشف الترابط الداخـلي الحي (منفصـلا عن لا عضويته وقانون ترابطه الطبيعي) الذي يوجد داخل صورة العـالم والذي لايشع من خلال أي شيء أقل من كامل الانسان وليس من عضوه الواعي فقط على حد تعبير « كنت » وان الظاهرة ليست مجرد واقعة للفهم ، بل انما هي ايضـا تعبير روحي ، وانها ليست مجرد موضوع بل انما هي رمز ايضا.وليكن رمزاً لاسمى ابداعات الدين أو الفن ، أو رمزاً لاتفه حوادث الحياة اليومية ،فكل هذه الاشياء كانت تحتل شيئا جديداً من وجهة النظر الفلسفية .

وهكذا أصبحت في النهاية أرى الحل واضحاً أمام ناظري ، وماثلاً في

خطوط عريضة هائلة تركبها روح ضرورة باطنية كاملة، حلاً يشتق من مبدأ وحيد ، ومع أنه قابل للكشف عنه ، لكنه لم يكتشف ابداً . حل كان يطاردني منذ صباي ، يشدني إليه ويعذبني إذ يستثير في الشعـــور بوجوده وبضرورة مهاجمته ، ومع ذلك يتحداني كي أمسك به وانتزعه انتزاعاً، ولهذا ونتيجة لنوبة عرضية ، انتابتني منذ البدء ، قمت بوضع هذا المؤلف عامداًفيه الى تقديم تعبير وقتي عن صورة العالم الجديد . وكما أعرف ، أن هذا الكتاب مثقل بالأخطاء شأن كل محاولة اولى لكاتب ، وانه غير كامل وأنه بالتأكيد غير خالٍ من الترنح وعدم الثبات على الرأي ، ومع ذلـــك كله فانني راسخ القناعة من أنه يحتوي على قواعد فكرة غير قابلة للدحض ، فكرة إذا مـــا عُبرّ عنها بوضوح ، فعندئذٍ ستقبل دون ما نقاش أو جدل .

فإذا ما كان الآن الموضوع الأضيق ، هو تحليل انحطاط الحضارة الغربية الذي أخذ ينتشر في طول الأرض وعرضها، ومع ذلك فإن الموضوع الذيهو قيد الدرس هو موضوع تطور فلسفة ، وتطور منهاج فعال خاص بها ، وهو موضوع يجب أن يخضع للامتحان الآن ، مثل منهاج المقارنة المورفولوجية في تاريخ العالم ، أقول إذا ما كان هذا الموضوع الأضيق ، فان هذا المؤلفينقسم بداهــة الى قسمين . القسم الاول يبحث في الشكل (Form) والواقعـــة (Actuality) . ويبدأ من لغة–الشكل،شكل الحضارات العظمى، ويحاول أن يغوص ليبحث عن أعمق أصولها وبهذا يزود نفسه بقاعدة العلم الرمزية . اما القسم الثاني وهو يبحث في المرئيات التاريخية العالمية ، فانما يبدأ بحقائق الحياة الواقعية ، ومن الممارسة التاريخية التي تقوم بها البشرية الأرفع رتبة،والتي تبحث للحصول على معرفة جوهر الخبرة التاريخية ، الذي نستطيع بواسطته أن ندبر أمر تكوُّن مستقبلنا الخاص. إن اللوائح المرفقة بهذا الكتاب تستعرض استعراضاً عاماً ما وصلت إليه أبحاثنا من نتائج ، وقد تعطي في الوقت نفسه انطباعاً عن خصوبة هذا المنهاج الجديد ومداه .

الفصل الثاني

مفهوم الأرقام

- ١ -

أرى لزاماً علي أن ألفت النظر إلى بعض المصطلحات الرئيسية ، كما هي مستعملة في هذا المؤلف ، وهي مصطلحات ذات مداليل صارمة وفي بعض الحالات جديدة . ومع أن المحتوى الغيبي ، (الميتافيزيقي) لهذه المصطلحات يصبح بالتدرج جلياً واضحاً ، وذلك حين تتبع مجرى التفكير[1] ، ولكن بالرغم من هذا ، فانه يتوجب علينا أن نوضح ، من مستهل البداية ، المغزى الصحيح الذي يجب أن ينسب إليها ، ايضاحاً بحيث لا يحتمل معه أي سوء فهم أو تأويل .

إن التميز الشائع ، (وهذا ما يحدث في الفلسفة ايضاً) بين « الكائن » (Being) والصيرورة (Becoming) يبدو أنه يخطىء النقطة الاساسية في التعارض الذي يريد أن يعبر عنه . إن صيرورة لا نهاية لها (عملاً ووقائع)

(١) لاحظ التفكير لا الفكر — المترجم .

يفكر بها على أساس أنهـــا حالة أيضا (كما هي الحال مثـلاً في التصورات الفيزيائية، كالتحرك[1] المطرد، وحال الحركة وفي الفرضيات المتعلقة بنظرية[2] مسببات حركة الغازات) ولذلك فانها تصنف في مرتبة الكائن . ومن جهة أخرى وبسبب النتائج التي نحصل عليها ، بالواقع ، بواسطة وعينا وداخـله فباستطاعتنا أن نميز متفقين بذلك وغوتيه عناصر نهائيـــة هي في مجرى الصيرورة وعناصر أخرى هي في الصير (The Become)[3] وفي جميع الحالات، ومع أن الجوهر الفرد (Atom) الانساني قد يقع خارج نطاق قوى إدراكنا المجرد ، فان مجرد الشعور الواضح الآتي بهذا التعارض (وهو شعور أساسي ومنتشر في كامل وعينا) يشكل أول شيء من الاشياء الاولية ، والتي نتوصل الى إدراكها . ولهذا يتبع بالضرورة التقرير ان الشيء في الصير ، هو دائمـاً مبني على الصيرورة وليس العكس .

ثم إنني أميز في هاتين الكلمتين : الخالص، والغريب، (Proper, alien) ، هاتين الحقيقتين الرئيستين من حقائق الوعي ، واللتين يدركهما جميع من هم في حالة اليقظة (وليس في الحلم) إدراكاً سريعاً ويقتنعون بهما قناعــة باطنية فورية ، دون أن تكون هناك حاجة او احتمال لتحديد دقيق آخر . أمـا العنصر المدعو بالغريب ، فانما دائماً يرتبط على صورة ما بالحقيقة الرئيسية التي يعبر عنها بمصطلح « إدراك المحسوسات » مثلا كالعالم الخارجي ، او الحيـــاة الحسية . ولقد قام عظماء المفكرين باخضاع جميع مـا حباهم به الله من قوى تصور لمهمة التعبير عن هذا الارتباط ، تعبيراً يزداد، كلما استرسلوا فيـــه ، عنفاً وفظاظة ، يساعدهم على ذلك تصنيف صادر عن نصف بديهة، كتصنيفهم

(١) لاحظ التحرك لا الحركة .

(٢) مسبب الحركة ، Kinetic

(٣) رأينا ان نترجم (The Become) الصير والصير قد اعطت المعاجم الفلسفية التفسير التالي له :

المرور من حال الى حال ، ومن وضع حال الى آخر ، وذلك بواسطة اكتسابها، او حصولها على صفات ومؤهلات او مادة اضافية ، او طابع جديد — المترجم .

التالي : الظواهر ، والاشياء في ذاتها، او « العالم كإرادة والعالم كفكرة » أو « الأنا » (Ego) « واللاأنا » (Non-Ego) ، وهكذا كله بالرغم من أن القوى الانسانية في حقل المعرفة الصحيحة غير كافية لإنجاز هذه المهمة[1] .

وكذلك العنصر الخاص (Proper) الذي تكتنفه الحقيقة الرئيسية المعروفة بالشعور مثلاً : (الحياة الباطنية) وهذا الشعور يتبدى من خلال نهج ما صميمي ثابت يتحدى بدوره التحليل بمناهج الفكر المجرد .

ثم إنني أميز ثانية ، بين النفس[2] (Soul) والعالم ووجود هذا التعارض بينهما مطابق مع حقيقة الوعي الانساني اليقظ : (Waking consciousness)

وهناك درجات للتعارض في سلمي الوضوح والفطنة ، لذلك هناك مراتب للوعي وللروحانية ، والحياة. وتنضد معرفة الشعور هذه الدرجات والمراتب، مع أن هذه المعرفة معرفة خاملة، لكن نوراً باطنياً يغمرها في بعض الاحيان، وهي خاصة مميزة للانسان البدائي وللطفل (وايضاً لتلك اللحظات من الوحي الديني والفني، والتي يتناقص حدوثها كلما تقدمت الحضارة في العمر) وحتى للفطنة واليقظة في ارفع مراتبها ، واللتين تتجليان مثلاً في فِكْرَيْ « كنت » ونابليون ، اللذين أمست النفس والعالم بالنسبة إليهما ذاتاً وموضوعاً .

إن هذا التركيب الأولي للوعي ، بوصفه حقيقة صادرة عن معرفة باطنية فورية ، غير قابل للتأثر بالتجزئة التصورية (تجزئة التصور (Concept) وكذلك هي أيضاً حال العنصرين (النفس والعالم) اللذين لا يمكن أن يميز بينهما أبداً ، إلا بالكلام وبصورة غير طبيعية ، وذلك لانهما متحدان اتحاداً

---

(١) يعني المؤلف بالمهمة : مهمة التعبير عن الارتباط بين العنصر الغريب وبين ادراك المحسوسات ـ المترجم .

(٢) سنترجم كلمة (Soul) بالنفس و (Spirit) بالروح .

دائماً ، ومتشابكاً أبدياً ، ويعرضان نفسيهما كوحدة وكل كامل. إن نقطة انطلاق المثالي بالفطرة في حقل فلسفة المعرفة والمنطق(Epistemology)تشابه تماماً نقطة انطلاق الواقعي بالفطرة . فالزعم القائل بان النفس بالنسبة الى العالم (او العالم بالنسبة الى النفس) هي بمثابة الأساس للبناء، أو بمثابة السبب للنتيجة ، او الأصل للمشتق ، اقول إن هذا الزعم لا يرتكز الى أية قاعدة مهما كان شأنها من قواعد حقيقة الوعي المجردة . ولذلك فعندما يقوم منهاج فلسفي ليؤكد هذا العنصر (النفس) او ذاك (العالم) ، فان هذا المنهاج لا لا يطلعنا إلا على شخصية الفيلسوف القائل به ، ولهذا فإن كل ماله أهمية إنما هي أهمية « بيوغرافية » مجردة .

وبذلك عندما نعتبر الوعي اليقظ من حيث تركيبه ، أنه توتر المتناقضات ونلتمس له أو نطبق عليه تصورات الصيرورة وتصورات الشيء في الصير ، عندئذٍ نجد أن للكلمة « الحياة» مفهوماً كاملاً محدداً ، ونرى أن الحياة وثيقة الصلة بالصيرورة .

وباستطاعتنا ان نصف الصيرورة ، والصير بانهما الشكل الذي توجد فيه نتائج الحياة وحقائقها ، كل فيما يختص بها ، داخل الوعي اليقظ .

وبالنسبة إلى رجل في حالة يقظة ، فان حياته الخاصة السائرة قدماً الى الامام والماثلة ذاتها بذاتها ، تعرض نفسها من خلال عنصر الصيرورة داخل وعيه ، وبمقدورنا أن نطلق على هذه الحقيقة اسم «الحاضر » وهذه الحقيقة تمتلك تلك الملكية الغامضة ، ملكية الاتجاه ، والتي حاول رجال اللغات المتقدمة عبثاً أن يسجنوها وأن يسبغوا عليها مفهوماً منطقياً بواسطة استعمال تلك الكلمة المبهمة ، « الزمن » .

ويتبع بالضرورة ، مما ورد أعلاه ، أن هناك صلة أساسية تشد الصير إلى الموت . ونحن إذا اعتبرنا الآن النفس (النفس كما يُحَسُّ بها لا كما تُصور تصويراً معقولاً) أنها هي الممكن ، واعتبرنا من جهة أخرى ، العالم ، أنه هو

الواقع (ولا يمكن لاي إنسان ذي حس باطني أن يخطىء في فهم مفهوميها) نرَ أن الحياة هي الشكل الذي يتم فيه تحقق الممكن وصيرورته واقعاً . واستناداً إلى ملكة الاتجاه ، فاننا ندعو الممكن بالمستقبل ، والمُتَحقق واقعاً بالماضي ، أما التحقق ذاته ، وهو مركز الثقل ولب مفهوم الحياة ، فانما ندعوه بالحاضر . إن النفس هي الشيء الذي لا يزال من المتوجب تحققه ، أما العالم فهو الشيء المُتحقق واقعاً ، وأما الحياة فهي المُنجِزة والمحُقِقة . وبهذه الطريقة نستطيع أن نخص تعابير اللحظة ، والمدة ، والتقدم ومحتوى الحياة ، والمهنة والمدى والهدف ، وامتلاء الحياة وفراغها ، بمفاهيمها الأكيدة التي سنحتاج إليها فيما بعد لفهم الظواهر التاريخية خاصة .

وأخيراً ، كما لا شك لاحظ القارىء ، أن كلمتي التاريخ والطبيعة قد أعطيتا في هذا الكتاب مفهوماً محدداً غير مألوف في دقته من قبل وهاتان الكلمتان (التاريخ والطبيعة)تتضمنان الحالات الممكنة لإدراك كلية المعرفة وفهمها (الصيرورة والصير ، الحياة والأشياء التي عيشت) كصورة للعالم ، صورة واحدة متجانسة حسنة التنظيم تفيض روحانية ، صورة استمدت خطوطها والوانها من الانطباع الجماعي ، غير القابل للتوزيع او التقسيم ، وذلك تبعاً لهذا النهج او ذاك ووفقاً للصيرورة او الصير للاتجاه (الزمن) أو الامتداد (الحيِّز) ، اقول إن فهمنا لهاتين الكلمتين على هذا الشكل هو العنصر الرئيسي . وليست القضية قضية كون عنصر الاول بديلاً للعنصر الآخر فالامكانات التي في حوزتنا لامتلاك « عالم خارجي » يعكس ويثبت وجودنا الخاص هي إمكانات لا يحصرها العد ، وهي بالغة في عدم تجانسها ،وتغايرها .

وما منظر العالم العضوي المجرد ، ومنظر العالم الميكانيكي المجرد ايضاً ، (وذلك بكل ما تعنيه هذه الكلمة) سوى العضوين النهائيين في السلسله . فالرجل البدائي (وذلك الى أحط درجة يبلغها تصورنا لوعيه اليقظ)والطفل (كما نستطيع أن نذكر) لا يستطيعان أن يريا أو يدركا هذه الإمكانات

(إمكانات امتلاك عالم خارجي) إدراكاً كاملاً . وتتمثل إحدى حالات الوعي الاعلى للعالم في امتلاك اللغة ، ولا نعني باللغة مجرد النطق البشري ، لكننا نعني بها اللغة الحضارية ، ولا وجود لمثل هذه اللغة بالنسبة الى الرجل البدائي وهي موجودة لكنها ليست بمتناول اليد بالنسبة الى الطفل .

وبكلمات أخرى أقول بأن كلًّا من الطفل والرجل البدائي هما مجردان من أي تصور واضح مُميز للعالم ، ولا شك أن لدى كل منهما لمحة (عن العالم) ولكنهما لا يتمتعان بمعرفة حقيقية بالتاريخ والطبيعة. وذلك بسبب كونهما متحدين اتحاداً جد وثيق مع مركب التاريخ والطبيعة ، وهما (أي الطفل والرجل البدائي) لا يملكان أية حضارة . ومن الآن فصاعداً فان هذه الكلمة (الحضارة) قد أعطيت مفهوماً إيجابياً ذا اهمية ، تبلغ اسمى درجات الاهمية ، وهي ستواظب على أهميتها منذ الآن فصاعداً حين استعمالنا لها .

وقد شئنا ، بالطريقة ذاتها ، أن نميز بالنفس كممكن ، وبالعالم كواقع ، وبهذا نستطيع أن نفرق بين الحضارة الممكنة والحضارة الواقعية ، فمثلاً إن الحضارة هي فكرة في الوجود (in existence) ، وهي بمثابة الجسد لهذه الفكرة ، جسد كل ما هو منظور ومحسوس ومدرك من تعابيرها ، كالاعمال ، والاراء ، والدين ، والدولة ، والفنون ، والعلوم ، والشعوب ، والمدن والاقتصاد ، والاشكال الاجتماعية ، والنطق ، والقوانين والعادات ، والطبائع وخطوط الوجه والازياء . إن التاريخ الاعلى بوصفه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الممكنة في مجرى التحقق . ويجب ألا يغرب عن بالنا ، القول أن هذه الحتميات الأساسية للمعنى هي في معظمها غير قابلة للتخصيص او التعريف او البرهان ، ويتوجب علينا إدراك مفهومها الأعمق بواسطة الشعور والخبرة والبديهة . وهناك تمييز قلما ُفهم أو أدرك ، وأعني بـه التمييز بين الخبرة كما مورست وعيشت ، وبين الخبرة كما ُدرست ، وهناك فرق بين الثقة الفورية المتجلية في مختلف الانواع المتدفقة من البديهة ، كالفيض ، والالهام ، وملكة

---

(١) المترجم

المميز الفنية ، وتجربة الحياة ، وقوة انجذاب الانسان نحو العلاء ، (وخيال غوتيه المدرك) ، أقول هناك فرق بين الثقة الفورية من جهة وبين نتائج الإجراء العقلي والخبرة الفنية(Technical) من جهة أخرى. فالاولى تُعرف بواسطة المماثلة والصور والرمز ، بينما تعرف الثانية عن طريق القاعدة والقانون والمنهاج .

إن الشيء في مجرى التحول يُختبر بالدرس ، (وبالفعل كما سنرى فيما بعد ، ان مفهوم الشيء الذي أتم عملية تحوله ، ينطبق ، بالنسبة الى العقل البشري ، على مفهوم عمل مكتمل مُنجز من اعمال المعرفة ، بينما أننا لا نستطيع أن نختبر ، من جهة أخرى ، الشيء في مجرى الصيرورة ، إلا إذا عشناه وأشعرنا به فهمٌ عاجزٌ عن التعبير عنه . وعلى هذه القاعدة يرتكز ما ندعوه « بمعرفة الانسان » والحق ان فهم التاريخ يتوجب معرفة بشرية سامية فالعين التي تستطيع أن تنظر الى اعماق نفس غريبة عنها ، لا تدين باي فضل لمنهاج البحث عن المعرفة الذي يتضمنه الكتاب المعروف باسم نقد العقل المجرد [1] ، ومع هذا كلما ازدادت الصورة التاريخية وضوحاً وجلاءً ، تزداد غموضاً بالنسبة إلى العين الأخرى (التي لا تستطيع أن تنظر الى اعماق نفس غريبة عنها – المترجم) إن ميكانيكية صورة مجردة للطبيعة ، كما هي حال صورة عالم نيوتن وكنت ، تعرف وتدرك وتشرح بواسطة قوانين ومعادلات ، وأخيراً تُختزل في منهاج ، أما التركيب العضوي لصورة التاريخ الحقيقية ، لصورة عالم بلوتونيوس ودانتي وجيوردانو برونو،فانما يُرى (التركيب العضوي) بالبديهة وبالخبرة الباطنية ويدرك كشكل او رمز، ثم يترجم أخيراً الى مفاهيم شعرية او فنية . إن الصورة التي رسمها « غوتيه » للطبيعة الحية ، هي صورة لتاريخ العالم .

---

(١) المؤلف الفلسفي الشهير الذي وضعه الفليسوف الالماني « عمانويل كنت » – المترجم–

رغبة مني في ايضاح الوسيلة التي تعمد النفس إليها ، في سعيها إلى تحقيق ذاتها في صورة عالمها الخارجي (وحباً مني بان أرى أن الحضارة مهما نأت بها مراحل حال التحول ، فانها قادرة على التعبير وتصوير فكرة ما عن الوجود البشري ، لذلك كله اخترت الرقم (Number) ، وهو العنصر الاولي الذي ترتكز عليه كل الرياضيات ، موضوعاً للدراسة في هذا الفصل . ولقد تعمدت العمل لأن الرياضيات التي هي في اعماقها يتناول فهم قلة القلة من الناس ، تحتل مركزاً خاصاً مُميّزاً بين إبداعات العقل . وهي علم من اشد انواع العلم قسوة وصرامة ، شبيهة في ذلك بالمنطق ، لكنها أيسر إدراكا واكثر إمتلاءً منه ، وهي فن أصيل ، يسير جنبـــاً الى جنب وفن النحت والموسيقى. ولما كانت الرياضيات تحتاج إلى توجيه الوحي والالهـام وتتطور تحت تأثير مصطلحات عظمى للشكل ، لذلك فانها هي ، أخيراً ، غيبٌ (ميتافيزيقا) من ارفـع درجات الغيب ، كما اثبت لنا ذلك افلاطون وليبنتز .

ولقد كان يرافق نمو كل فلسفة نمو الرياضيات الخاصة بهـــا ، وما الرقم إلا رمز للضرورة السببية . وهي كمفهوم « الله » ، تتضمن المعنى النهائـــي للعالم كطبيعة ، لذلك فاننا نستطيع أن ننعت وجود الارقام بغموض الصوفية . ولقد أحس باثرها الفكر الديني لكل حضارة .

وكما أن جميـع الاشياء في مجرى الصيرورة ، تمتلك ملكة ، اتجــاه (لا يتبدل او يتغير او يُقلب) ، فان جميـع الأشـــياء في مجرى الصير تمتلك ملكة الامتداد (Extension) وهاتان الكلمتان تحوزان على رضى ظاهر ، نتيجةً لذلك التمييز المصطنع فقط الذي نستطيع أن نقوم به . إن السر الحقيقي الكامن وراء جميـع الاشياء في الصير ، وهي اشياء واقعيـة امتدت

اتساعاً ومادة . أقول إن هذا السر يتجسد في الرقم الرياضي حينما يقابل بالرقم التسلسلي للتاريخ . إن الرقم الرياضي يحتوي داخل لب جوهره ، على تصور لتعيين آلي للحدود ، ولذلك فان الرقم من هذه الناحية مشابه للكلمة حيث إنه في الواقع يعبر ويدل ويحدد لعالم الانطباعات . والحق أن اعمق أعماق مغزى الرقم يستعصي على إدراكنا وتعبيرنا ، لكن الرقم الحقيقي الذي يتعامل به الرياضي ، من عدد ومعادلة وإشارة ورسم بياني ، وزبدة القول ، إن إشارة الرقم التي يفكر أو ينطق او يكتب بها هي (كالكلمة المستعملة في موضعها) منذ البدء رمز لهذه الاعماق ، وهي شيء ما في متناول خيال وادراك العين الباطنية والخارجية ،حيث تستطيع أن تقبل بها (إشارة الرقم) كخطوط فاصلة وحدود .

ان أصل الرقم يشابه أصل الخرافة. إن الرجل البدائي يرتفع بالانطباعات الطبيعية غير القابلة للتعرف او التحديد (او الغريبة حسبما اصطلحنا عليه) فيجعل منها آلهة ، ثم يعود في الوقت نفسه ليسجنها داخل اسم يحددها .

وهذه هي حال الارقام ايضاً ، فانها شيء ما يستحوذ ويطبع الانطباعات الطبيعية باشاراته ، وبواسطة الاسماء والارقام يستطيع الادراك البشري أن يستحصل على القوة التي تمكنه من السيطرة على العالم . وزبدة القول إن لغة الارقام للرياضيات ، تتشابه وصرف اللغة ونحوها ، من حيث التركيب . وليس المنطق سوى أحد أنواع الرياضيات والعكس بالعكس .

ونتيجة لذلك فان الرجال يهدفون من وراء جميع الاعمال الذهنية الملازمة للرقم الرياضي ، (كالقياس والعد والرسم والوزن والتقسيم) ، إلى تحديد الممتد والمتسع بكلمات ايضاً ،مثلاً أن ينضدوها في بداهات واستنتاجات ونظريات ومناهج ، وبواسطة اعمال من هذا النوع فقط (التي قد تكون متعمدة او غير متعمدة) ، يستطيع الانسان اليقظ أن يبدأ باستعمال الارقام استعمالاً منهاجياً كي يحدد المواضيع والملكيات والعلائق والاختلافات والوحدات وصيغ الجمع ، وزبدة القول أنه يستطيع أن يحدد تركيب صورة العالم الذي

يحس بضروزته ورسوخ قدمه ويدعوه بالطبيعة ويعرفه . إن الطبيعة هي ما ُيعد" ويحسب ، بينما أن التاريخ هو تراكم لما ليس له أي ارتباط بالرياضيات ، ومن هنا تنشأ الصحة الرياضية لقوانين الطبيعة « وصحة قول غاليلو ، المذهل والقائل بان الطبيعة قد كُتبت بلغة رياضية ، وصحة الحقيقة التي أكدها « كنت » حينما قال ، إن إمكانات العلوم الطبيعية الصحيحة تصل إلى الحدود التي تسمح لها الرياضيات التطبيقية بالوصول إليها . ففي الرقم إذن ، بوصفه إشارة لحد مكتمل واضح « يوجد جوهر كل ما هو واقعي ، وماهو معروف ومحدد ، تحقق فجأة . وقد استطاع فيتاغوروس وآخرون معنيون غيره ، أن يروه (الجوهر) بثقة باطنية وببداهة دينية حقيقية . ومع هذا فالرياضيات، (وأعني بها المقدرة على التفكير العملي بواسطة الارقام) يجب ألا يخلط بينها وبين تلك الرياضيات العلمية البالغة الضيق إذا ما قورنت بتلك، واعني بذلك نظرية الارقام من خلال المحاضرة والمقالة . إن الرؤيا والفكر الرياضيين اللتين تتضمنها حضارة ما قد عرضتا عرضاً غير كاف في رياضياتها المكتوبة ، شأنها في ذلك شأن ما لاقته رؤياها وفكرها الفلسفيان من عرض على ايدي كتاب المقالة . إن الرقم ينبع من نبع له منافذ أخرى ، ولذلك فاننا نجد في بدء كل حضارة نهجاً معمارياً مبتذلاً ومهجوراً لقدمه ، والذي كان بالامكان أن ُيسمى وبحق ، نهجاً هندسياً في حالات أخرى ، كما ُيدعى النهج الاغريقي القديم . وهناك عنصر رياضي واضح ومشترك بين النهج المعماري الكلاسيكي في القرن العاشر قبل الميلاد وبين النهج المعماري لبناء الهياكل المصرية في عهد الأسرة الرابعة ، هذا النهج الذي اعتمد المطلق في الخط المستقيم والزاوية القائمة ، بين الرسوم المحفورة على التوابيت الحجرية للمسيحيين الاولين ، وبين المباني والزخرفة الرومانية وهنا ، كل خط ، وكل صورة إنسان او حيوان تعمد ناقشوها الابتعاد عن التقليد ، تكشف فكراً رقمياً صوفياً يرتبط ارتباطاً مباشراً بغموض الموت . (اقسى الأمور) .

إن الكتدرائيات الغوطية والهياكل « الدورية » هي رياضيات منقوشة

على حجر . ولا شك أن فيتاغوروس كان اول من ادرك الرقم ادراكاً علمياً بوصفه مبدأ لنظام العالم ومبدأ للاشياء المُدركة قياساً وحجماً ، قانوناً واهمية ، ولكن حتى ما قبل فيتاغوروس ، وجد الرقم وسيلة للتعبير عنه ، بوصفه جلباباً نبيلاً مشرقاً لوحدات مادية حية ، أقول وجد ، في النظام الصارم الذي نحتت وفقه التماثيل « الدورية » وانتظمت تبعاً له الاعمدة « الدوروية » . إن الفنون العظمى أحدها ومجموعها ، هي صيغ تترجم بواسطة الحدود المرتكزه الى الرقم (فلنتأمل مثلاً تمثيل الابعاد في اللوحة الزيتية) .

إن هبة (منحة) رياضية سامية قد تثمر وتبلغ اعمق درجات المعرفة بالذات في المجالات الفنية ، دون أن تحتاج إلى أي علم رياضي مهما كان نوعه او شكله .

وفي وجود مثل هذا الاحساس الجبار بالرقم الذي نلمسه حتى في المملكة القديمة [1] (المصرية) والذي نشهده في أبعاد هياكل الاهرامات وفي تحديد فن البناء وفي نظام الرقابة على المياه وفي الادارات العامة (ناهيك عن ذكر التقويم (Calender) ؛ أقول في وجود مثل هذا الاحساس الجبار بالرقم ، لن يصر بالتأكيد أحد على الرأي القائل بان علم الحساب التافه الذي وضعه « أحميس » في عهد الأمبراطورية الجديدة يمثل المستوى الذي بلغته الرياضيات المصرية . إن سكان استراليا الاصليين ، وهم من الوجهة الفكرية غارقون في البدائية ، يملكون غريزة رياضية (او بالأحرى يملكون قوةالتفكير بواسطة الرقم مع أنهم لا يستطيعون أن يعبروا عنهابواسطة الإشارة اوالكلمة) وهم فيما يتعلق بترجمة المدى (Space)المجرد، ارفع شأناً بكثير من اليونان . فاكتشافهم « للبوميرانج » لا يمكن إلاّ أن يُرد إلى تمتعهم بحسٍّ أكيد واثقٍ بالرقم ، حسٍ يبلغ مرتبة يتوجب علينا أن نعتبرهامن مراتب الهندسة

---

(١) يعني شبنجلر بالمملكة القديمة : المملكة المصرية ابتداء من الاسرة الاولى الى الرابعة ، والحق أن بناء الاهرامات بدأ بالاسرة الرابعة — المترجم —

العالية ، وتبعاً لذلك ، فانهم يمتلكون هبة تتدفق بطقوس رسمية باللغة التعقيد، وللغتهم من الظلال الجميلة الناعمة للتعبير عن مراتب المطابقة ، مما تعجز الحضارات الارقى عن اظهار مثيل لها .

وهنا تطل علينا المماثلة برأسها من جديد، المماثلة بين الرياضيات «اليوقليدية» (نسبة إلى يوقليد) وبين انعدام أي شعور ، أكان بالحياة الرسمية العامة ، أم بالتوحيد ، لدى الفرد اليوناني في العصر « البركليسي » (نسبة لبركليس) بينما أننا نرى أن المنهج « البروكي » [1] يختلف اختلافاً كلياً عن المنهج الكلاسيكي حيث يقدم إلينا رياضيات تحليل الاتساع ، المماثلة في مباني بلاط فرساي ، ونظام دولة يستند الى العلائق السلالية الملكية . (نسبة الى السلالة (dynastic) إن طراز النفس هو الذي يتبدى في عالم الارقام. ولذلك فان عالم الارقام يحتوي على شيء اكثر من العلم (Science) .

- ٣ -

ونتيجة لما ذكرت ، تتبع حقيقة ذات أهمية حاسمة ، كانت حتى الآن مختفية عن أنظار الرياضيين أنفسهم هي :

لا يوجد ولا يمكن أن يوجد رقم [2] كهذا . فهناك عوالم رقم متعددة ، كما أن هناك حضارات متعددة ، ونحن نجد أن هناك انماطاً (طرازات) هندية وعربية وكلاسيكية وغربية من الفكر الرياضي ، ولكل نمط مما ذكرت طراز رقم يلائمه ويطابقه ، ولكل طراز مميزات أساسية تجعله فريداً في نوعه ، وهو تعبير عن إحساس معين محدد مميز ، وهو ايضاً رمز ذو صحة وشرعية معينتين محددتين ، رمز صالح للتحديد العلمي ، وهو أيضاً

---

(١) منهج في الهندسة والفن مورس إبتداء من عام ١٥٥٠ حتى نهاية القرن الثامن عشر تقريباً ، وقد تميز باعتماده رسم ونقش الاشكال المحدودبة والنحتية وبناء الاقواس ـ المترجم ـ

(٢) ان المؤلف يعني أنه لا يمكن أن يوجد رقم يسجن داخل علم تأخذ به كل الحضارات والامم والشعوب ـ المترجم .

مبدأ ينظم الصير ، (The become) الذي يعكس الجوهـر المركز لنفس واحدة وواحدة فقط ، مثـــلاً نفس تلك الحضارة التي هي موضوع البحث بالذات . ونتيجةً لما ورد فهناك عدد من الرياضيات يتجاوز الواحد عداً .

ومما لا شك فيه أن التركيب الباطني للهندسة اليوقليدية ، هـو تركيب يختلف كلياً عن التركيب « الكارتي »[1] زد على ذلك أن تحليل أرخميديس هو تحليل « غاوس » (عالم رياضي الماني – المترجم) والمغايرة بينهما لا تتمثـل فقط في الشكل المادي والبديهة والمنهاج ، بل إنمـــا تتمثل قبل كل شيء في الجوهر ، في المفهوم الجوهري الالزامي للرقم بالنسبة إلى كل منهما (ارخميدس وغاوس) والذي يعمد كل منهما الى استنباط مفهومه الخاص به وايضاحه .

إن هذا الرقم ، وهو الافق الذي استطعنا داخله أن نجعل الظاهرات تفسر نفسها بنفسها ، وبذلك أصبح كل « الطبيعة » او العـــالم الممتد سجيناً داخل الحدود المعينة له ، ومطواعاً للنمط الرياضي الخاص به . اقول إن هذا الرقم ليس مشتركاً بين جميع أمم الجنس البشري وشعوبه ، لكنه محـــدد في كل حالةوخاص بنوع واحد من الجنس البشري .

إن الطراز الذي يتجسد وجـــوداً ، أية وحدة رياضية من الرياضيات ، يعتمد كلياً على الحضارة التي يضرب جذوره فيها ، أو على ذاك النـــوع من الجنس البشري الذي يتأمله ويمعن فيه النظر ويتدبر أمره. إن النفس تستطيع أن تدفع بامكاناتها الفطرية في مضمار التقدم العلمي ، وتستطيع أن توجهه توجيهاً لهذه الامكانات لأرفع المستويات ، لكنها عاجزة كل العجز عن تبديلها . إن فكرة الهندسة « اليوقليدية » قـــد تحققت في العصر الأول من عصـور الزخرفة الكلاسيكية ، اما الفكرة المتناهية في صغرها عن حساب التفاضل والتكامل (Calculus) فانما تجسدت في الاشكال المبكرة جداً من الهندسة

(١) « الكارتية » كلمة مشتقة من اسم الفيلسوف ديكارت ، وهي نظرة فلسفية في المثـــل الأعلى الذي كان هو التأكيد الرياضي في الظاهرات الميتافيزيقية ، والذي أكد الفارق بين الفكر والامتداد (العقل والمادة) – المترجم .

الغوطية ، وذلك قبل قرون سبقت ولادة الاوائل من العلماء الرياضيين لكل حضارة .

إن تجربة باطنية عميقة ، وهي اليقظة الأصليلة « للأنا» (Ego)والتي تحيل الطفل رجلا ارقى وتشده الى مجتمع حضارته ، أقول إن مثل هذه التجربة تشير الى بداية الاحساس بالرقم ، شأنها في ذلك عند بداية التحسس باللغة .

وفقط عندما تخرج هذه المواضيع الى الوجود ، بالنسبة الى الوعي اليقظ ، اشياء محددة مميزة في العدد والنوع ، عندئذٍ فقط تصبح الملكيات ، والعقائد ، والضرورة السببية ، والنظام فيما يحيط بنا من عالم ، وشكل العالم ، وقوانين العالم (وذلك بالنسبة لما أنشىء واستقر ، وهو واقعاً قد حُبك بين خيوطه ورُصّ وحكم رقميا) عرضة للتعريف الصحيح . وفجأة يداهمنا ايضاً ضمن ما اوردناه سابق شعور مفاجىء يكاد يكون ميتافيزيقي الأصل ؛ شعور قلق ورعب ، ينبعث من المفهوم الاعمق للقياس والعد والرسم والشكل . والآن فان « كنت » قد صنف مجموع المعرفة البشرية في مركبين هما البداهة (a priori) وهي (على حد زعم كنت شرعية وصحيحة صحة كونية) والتدرج (a posteriori) (وهو بزعمه اختباري ومتغير في تدرجه من حال الى حال) وقد صنف المعرفة الرياضية في المرتبة السابقة ، وبذلك تمكن دون ريب ، أن يختزل الشعور الباطني القوي إلى شكل تجريـــدي . ولكن ، بغض النظر عن الحقيقة (وهي تشاهد مراراً وتكراراً في الرياضيات والميكانيكا الحديثة) والمقررة أنه لا يوجد هناك أي تمييز صارم بين المركبين (البداهة والتدرج) كما ينص عليه المبدأ في الاصل دون قيد او شرط ، أقول لكن البداهـــة نفسها ، مع أنها بالتأكيد من أشد تصورات الفلسفة إلهاماً ، هي تصور يشتمل ، على ما يبدو على مصاعب جسيمة ضخمة . و «كنت» يفترض (دون أن يحاول البرهان على ما يستعصي على البرهان تماماً) الأمرين : عـــدم طروء أي تبدل على الشكل خلال مجموع عمليات النشاط الذهني ، وهوية الشكل بالنسبة الى جميع الناس . ونتيجة لذلك ، وبفضـــل التحيز الفكري الذي ساد

تلك المرحلة ، وذلك إذا ما تغاضينا عن تحيزه الخاص ، فان عنصراً لا تحد أهميته قد طواه التجاهل بكل بساطة بين جناحيه . وأعني بهذا العنصر تبدل درجة هذه « الشرعية الكونية » المزعومة . ولا شك أن هناك طبائع جد واسعة في شرعيتها والتي هي (كما يبدو في اية حال) مستقلة عن الحضارة والقرن اللذين قد ينتسب إليهما الفرد المدرِك . ولكن تسير ، الى جانب هذه الطبائع ، ضرورة خاصة بالشكل ، ، تجعل من كل فكر الفرد المدرك بديهة ، ويخضع لها بسبب كونه منتسبا الى حضارته الخاصة وليس إلى حضارة غيرها .

وهنا أيضاً يطالعنا نوعان جد مختلفين للمحتوى الفكري للبداهة ، وإيجاد حد فاصل، وميز بين هذين النوعين،وحتى لو قام الدليل على وجود هذا الحد ، إنما هو معضلة لا تطالها جميع إمكانات المعرفة ولن تحل أبداً . وحتى الآن لم يجرأ أحد على الزعم بان التركيب الثابت المفترض للذهن هو وهم وبان التاريخ المنشور أمامنا يحتوي على اكثر من نمط واحد من المعرفة . ولكن يتوجب علينا ألا ننسى أن الاجماع على اشياء لم تصبح معضلات بعد ، يفترض الوقوع في خطأ كوني ، كما يفترض تأكد حقيقة كونية . حقاً إنه كان هناك دائماً شعور معين من الشك والغموض ، إلى درجة قد (يستطيع معها المرء أن يصل إلى التخمين الصحيح بواسطة اختلاف الفلاسفة فيما بينهم هذا الاختلاف الذي تكشفه كل لمحة يلقي بها الانسان على تاريخ الفلسفة . ولم ينشأ هذا الخلاف بسبب عدم كمال الذهن البشري، او بسبب الثغرات التي مازالت تكتنف المعرفة المتكاملة ؛ وبكلمة أخرى ، لم ينجم هذا الخلاف عن نقص او عجز ، بل إنما تعود اسبابه كلها الى المصير والضرورة التاريخية ، وهذا القول يشكل إكتشافاً. ونحن لا نستطيع أن نتوصل إلى اكتساب الاستنتاجات عن الاشياء العميقة والنهائية ، إذا ما عمدنا إلى التأكيد على ماهو ثابت وراسخ، بل إنما إذا ما درسنا المميزات والخصائص وأظهرنا المنطق الأساسي للخلافات وأثمناه . ان المورفولوجيا المقارنة لاشكال المعرفة هي ما يتوجب على الفكر

الغربي أن يصول فيه ويجول .

- ٤ -

لو قُدر للرياضيات أن تكون مجرد علم ، كالفلك او التعدين ، لكان بالامكان تحديد مادتها ، لكن هذا ما لم ولن يستطيعه الانسان . ونحن معشر سكان اوروبا الغربية ، قد نقدم على استخدام تصورنا العلمي للرقم كي ننجز المهام ذاتها التي أشغل رياضيو أثينا وبغداد أنفسهم بها . ولكن الحقيقة تبقى ماثلة أمام أعيننا لتقرر أن الموضوع والقصد والمناهج لـ"سمي" علمنا في أثينا وبغداد ، كانت تختلف كلياً عن مثيلاتها الخاصة بنا . فلا يوجد هناك رياضية (Mathemantic) (مفرد رياضيات [١]) بل انما هناك رياضيات . إن ما ندعوه « بتاريخ الرياضيات » ليس في الواقع سوى مجـــرد تحقق متتال لمثل أعلى واحد ثابت لا يتبدل أو يتغير ، وتاريخ الرياضيات يقع فعلاً تحت السطح المخادع للتاريخ ، وهو مركّب تجتمع فيه تطورات مستقلة تسيطر على ذواتها ، وهو عملية أبدية التكرار ، تستولد عوالم جديدة للشكل ، وتلائم تحولاتها وتطرح الدخيل منها ، مجرد قصة عضويـــة عن الازدهار والنضوج والذبول والموت داخل المرحلة المقررة لها . لذلك على الطالب ألاّ يسمح لاحد بخداعه . فلقد انبثقت رياضيات النفس الكلاسيكية من العدم . وعلى الروح الغربية المتجسدة تاريخياً ، والتي لا تزال تمتلك العلم الكلاسيكي (ظاهراً لا باطنا كشيء مكتسب) أن تكتسب الرياضيات الخاصة بها ، بواسطة ما يبدو في ظاهره أنه تبديل وتغيير وتحسين ، بينما هو في الواقع هدم وتدمير يـــنزل بالمنهاج « اليوقليدي » الغريب عنا غرابة جوهرية مطلقة . ولقد كان فيثاغوروس العامل الرئيسي فيما طرأ على منهاج يوقليد من تبديل وتحسين ، بينما كان ديكارت العامل الاساسي في هدمه وتدميره ، ولكننا إذا ما تعمقنا في عمليها نجد انها قاما بالعمل ذاته .

---

(١) المترجم .

ان العلاقة بين لغة شكل الرياضيات وبين الفنون الرئيسية المتشابهة ،علاقة موجودة قائمة تكون بهذه الطريقة دون شك وريب . إن مزاج المفكر يختلف ، بالواقع ، اختلافاً كبيراً ومزاج الفنان ، لكن مناهج التعبير للوعي اليقظ لكل منهما ، هي في الباطن مناهج واحدة . إن حس الفنانين بالشكل من نحاتين او رسامين او موسيقيين ، هو في جوهره ذو طبيعة رياضية ، وإن التنفيذ الملهم ذاته لعالم غير متناهٍ يعرض ذاته من خلال التحاليل الهندسية الصميمية (Projective) في القرن السابع عشر ، لينعش ويضاعف في حيوية الموسيقى المعاصرة ويغمرها بالنور بتناغمها الذي ظهّرته من فن النغم العميق (Bass) (والذي هندسه عالمَ الصوت) وليزود التصوير بمبادىء علم المرئيات (وهو الهندسة المحسوسة لعالم الابعاد الذي حصرت معرفته بالغرب فقط) إن هذا التنفيذ الملهم هو ذاك الذي وصفه « غوتيه » إنها الفكرة التي يُفهم بها فورا الشكل في ميدان البديهة ؛ بينما لا يدركها العلم المجرد ،بل إنما يراقبها ويشرحها إن الرياضيات تتعدى حدود المراقبة والتشريح ، وهي في اسمى لحظاتها ، تجد طريقها إلى التجلي بواسطة الرؤيا لا التجريد ، ونحن مدينون لغوتيه ايضاً بهذا التقرير العميق حينما قال : « إن الرياضي يبلغ مستوى الكمال عندما يشعر داخل نفسه بجمال الحق »

ومن هذا القول يتضح لنا الترابط الوثيق الذي يشد سر الرقم إلى سر الابداع الفني ، وهكذا يحتل الرياضي بالفطرة مكانه إلى جانب عظماء مؤلفي الموسيقى الباولوفونية وكبار ارباب الأزميل والفرشاة ، فهو يجاهد كما يجاهدون ، وعليه أن يجاهد كي يحقق النظام الأعظم لجميع الأشياء بواسطة إلباسه رمزاً (Symbol) كي ينقله الى الرجل العادي الذي يسمع بصوت هذا النظام يدوي في باطنه ، لكنه لا يستطيع أن يمتلكه أو يستحوذ عليه . ان ميدان الرقم ، هو كميدان النغم والخط واللون ، لذلك يصبح صورة لعالم الشكل ، ولهذا السبب يصبح لكلمة « مبدع » في ميدان الرياضيات معنى اوسع من معناها في العلوم المجردة. ولقد كانت لنيوتن و « غاوس » و « ريمان » طبائع الفنانين ، ونحن نعرف

المفاجأة المذهلة التي داهمت بها نظرياتهم العظمى عقولهم . ولقد قال « فايرستراس » الكهل: إن الرياضي الذي هو ليس في الوقت نفسه بعض شاعر لن يصبح أبداً رياضياً مليئاً .

إذن فالرياضيات هي فن ، وهي بوصفها فناً لها مناهجها ومراحل المناهج . وهي ليست كما يخال الرجل غير الخبير والفيلسوف (والفيلسوف رجل غير خبير) أنها غير قابلة للتبديل تبديلاً جوهرياً ، إذ أنها خاضعة كغيرها من الفنون بين مرحلة وأخرى لتبديلات غير ملحوظة . لذلك يجب ألا يعالج أبداً موضوع تطور الفنون العظمى دون إلقاء نظرة جانبية (وهي بالتأكيد لن تكون عقيمة) على الرياضيات المعاصرة .

ولم يحدث أبداً أن قام أحد ليتحرى من خلال الترابط الذي يشد التبدلات التي تطرأ على النظرية الموسيقية ، إلى تحليل اللانهائي ، أقول ليتحرى عن التفاصيل ويبحثها، مع أن الجمالية (Aesthetics) قد تعامت من هذه التفاصيل اكثر بكثير مما تعامه منها ما يُسمى « بعلم النفس » .

ومما قد يزيد في الايضاح والكشف عن خفايا الامور دراسة تاريخ تطور الآلات الموسيقية ، شريطة ألا يكون مكتوبا (كما هي حاله دائماً) من وجهة نظر فنية تعالج إنتاج الصوت ، بل يكون دراسة تستهدف القواعد الروحانية العميقة لالوان الانغام وآثارها ، إذ أنها كانت رغبة بلغت بها الشدة الحنين إلى إملاء فراغ لامتناه بواسطة الصوت الذي يصدر عنها . وتقف قبالة القيثارة والمزمار والقصبة الكلاسيكية والطنبور العربي ، العائلتان الضخمتان من الآلات الموسيقية واعني بهما عائلة لوحة المفاتيح كالارغن والبيانو والعائلة القوسية ، منذ مطلع العصور الغوطية .

إن تطور كلتا العائلتين روحانيا (ومن المحتمل ايضاً من وجهة النظر الفنية في اصولها) يعود إلى الشمال الكلتي الجرماني الممتد من ارلندا الى نهر « الفيزير » فنهر « السين » . « فالارغن » والكلافيكورد[1] يعود فضل

---

(١) شبيه بالبيانو -- المترجم

صنعها الى انجلترا ، بينما أن الآلات القوسية وصلت الى اشكالها الحالية المعروفة في ايطاليا العليا وخلال المدة الواقعة بين عامي ١٤٨٠ و ١٥٣٠ ، بينما أن المانيا هي التي قامت بادخال التحسينات على الارغن حتى أمسى تلك الآلة الجبارة التي نعرفها والتي لم يشهد لها تاريخ الموسيقى مثيلاً . إن عزف « باخ » العذب الطليق ، على الارغن ، والعزف عليه في عصره ، لن يكون أي شيء ، إذا لم يكن تحليلاً ، تحليلاً لعالم نغم غريب واسع . وبالمثل ، إمتثالاً لفكر الرقم الغربي ، ومعارضة لفكر الرقم الكلاسيكي ، فان آلاتنا الموسيقية من وترية وهوائية قد تطورت جماعات جماعات ، ولم تتطور كل آلة بمفردها ، وقد سارت وفق نظام باطني كانت بوصلته هي الأصوات البشرية ذات الدرجات الاربع . إن تاريخ الجوقة (اوركسترا) الحديثة بكل ما فيها من اكتشافات جديدة ومن تحسينات طرأت على الآلات القديمة ، هو بالواقع التاريخ الواعي لذاته ، لأحد عوالم الصوت ، عالم ، من المستطاع تماماً ان يعبر عنه علاوة على ذلك ، بواسطة اشكال من التحليل الارقى .

— ٥ —

عندما وصلت ، قرابة عام ٤٥٠ قبل المسيح ، دائرة فيثاغوروس الى الفكرة القائلة بان الرقم هو جوهر كل الاشياء ، فان هذه النظرية لا تمثل خطوة من خطوات الرياضيات في طريق التقدم ، بل إنما تدل على أن رياضيات جديدة كل الجدة قد ولدت وخرجت الى النور .

لقد سبق هذه الفكرة كثير من بشائر عرضت معضلات ميتافيزيقية ، وانعطافات فنية في الشكل ، لكن الآن ، تدفقت من اعماق النفس الكلاسيكية نظرية متماسكة ، وولدت بضربة واحدة رياضيات جديدة في لحظة عظمى من لحظات التاريخ ، تلك اللحظات التي دفعت الى الوجود الرياضيات المصرية ، والجبر الفلكي لحضارة بابل بمناهجه لدراسة خسوف القمر وكسوف الشمس ؛ نعم لقد خرجت رياضيات جديدة ، لأن رياضيات بابل كانت قد استهلكت وخبا

نورها منذ طويل زمن ، بينما ان المصري لم يدون رياضياته .

وقد اكتملت الرياضيات الكلاسيكية في القرن الثاني قبل الميلاد ، توارت عن المسرح واختفت لتعطي مكانها للرياضيات العربية (مع أنهـا كما يبدو لا تزال موجودة حتى في يومنا هذا ، لكن دورها لا يتجاوز انها طريقة من طرق الترقيم الذي تقوم به)

أما ما نعرفه عن الرياضيات الاسكندرية ، فانما تفرض الضرورة علينا أن نفترض أنه كانت داخل الشرق الاوسط حركة رياضية عظمى ، وأن مركز ثقل هذه الحركة كان لا بد أن يكون موزعاً بين المدارس الفارسية-البابلية (كمدارس « أديسّا » و « جونديسابور » و «ستسيفون » ولكن لم يجد سوى بعض التفاصيل من علوم هذه المدارس طريقه إلى مجالات النطـق الكلاسيكي . وبالرغم من الاسماء اليونانية الـتي يحملها العلماء الرياضيون الاسكندريون ، (كتزونودوراس الذي عالج أرقاماً لا يقل مجالها العامي عن مجالات الارقام الفارسية والبابليـة ، « وسيرنيوس » الذي أبـدى براعة متناغمة في دراساته في خواص الفراغيات (Spacc) وهيبسكليس الذي ادخل نظرية تقسيم الدائرة الكلدانية ، « وديوفانتوس» قبلهم جميعاً) أقول إن هؤلاء العلماء كانوا جميعاً ، دون ريب ، آراميين ، واعمالهم جميعاً تشكل جزءاً صغيراً من الآداب التي كتب معظمها باللغة السورية .

ولقد وجـدت الرياضيات اكتمالها على أيـدي المفكرين العرب والمسلمين ، وبعد أن اكتملت ، سادت فترة أخرى طويلة (من العقم [١] .) اعقبتها ولادة رياضيات جديدة كل الجدة ، واعني بهـا الرياضيات الغربية ، رياضياتنا ، والتي يدفعنا افتتاننا بها إلى اعتبارها رياضيات واعتبارها الرياضيات التي وصلت بمقصد عشرين قرناً من الزمن الى أعلى مرتبة ، مع أن قرونها في الواقع هي قرون يحصرها حتماً الرقم ، وهي في معظمها قد استهلكت الآن .

إن أثمن شيء في الرياضيات الكلاسيكية هو افتراضها أن الرقم هـو

(١) المترجم

جوهر كل الاشياء التي تدركها الحواس ، ففي تعريفنا للرقم على أنه وحدة قياس ، فانما يشتمل هذا التعريف على كامل عالم شعور النفس المكرسة بحماس ذاتها لـ « هنا » ولـ « الآن » . فالقياس وفق هذا المفهوم يعني قياس شيء قريب ومتجسد ، فلنتأمل في محتوى الانجازات الفنية الكلاسيكية ، ولنأخذ على سبيل المثال ، تمثالاً لرجل عارٍ ، إننا نرى في التمثال أن كل عنصر جوهري وهام في هذا «الكائن» قد استنزف، تبديداً في السطوح (Surfaces) والابعاد ، الترابط الحسي بين أعضائه .

إن التصور « الفيثاغوري » لتناغم الارقام ، بالرغم من أن فيثاغورس قد يكون استنتج تصوره هذا من الموسيقى (وليكن معلوماً أنني اعني الموسيقى التي لم تعرف « البلوفوني » والتناغم والتي كانت الاتها تعطي أنغاماً بسيطة عميقة تكاد تكون مترهلة تقريباً) أقول إن التصور « الفيثاغوري » ذاك كان القالب الحقيقي الذي جسد فيه النحات هذا المثل الأعلى . إن الحجر المنحوت هو شيء ما طالما يأخذ بعين الاعتبار الابعاد والشكل المقاس . أما ماهيته ، فإنما هي تلك الماهية التي تتبدى تحت أزميل النحات ، أما ما عدا ذلك فان الحجر المنحوت هو هيولي Chaos أي شيء ما لم يتحقق بعد ، وهو بالواقع عدم ، وإذا ما نحن تطورنا بشعورنا هذا به إلى مرتبة أعظم ، ووصلنا به إلى مرتبة تناقض مرتبة العدم وتعارضها، أي الى مرتبة الكينونة، والتي تتضمن بالنسبة إلى النفس الكلاسيكية حالة موضحة للعالم الخارجي ، ونظاماً متناغماً يشتمل على كل شيء بمفرده كماهية حاضرة معرفة تعريفاً جيداً ومدركة إدراكاً حسناً . إن مجموع اشياء كهذه لا يشكل اقل من كامل العالم. أما ما قد يقع بين هذه الاشياء من فراغات ، والتي يملأها بالنسبة إلينا الرمز الانطباعي لكون الفراغ Universe of space ، فانها فراغات عديمة الأهمية في نظر تلك الأشياء (التي يكون مجموعها كامل [1] العالم)

إن الامتداد يعني بالنسبة إلى جسم الجنس البشري الكلاسيكي وبالنسبة

---

(١) المترجم

إلينا الفراغ، والاشياء تتبدى أمامنا كعمل يقوم به هذا الفراغ. ونحن إذا ما نظرنا إلى الوراء بوجهة النظر هذه فعندئذٍ قد نستطيع أن نغوص بانظارنا إلى أبعد أعماق « الميتافيزيقا » الكلاسيكية عمقاً.

إن كلمة « أنكسياندر » (. .) هي كلمة غير قابلة للترجمة الى اللغات الغربية، وهي الكلمة التي لا تمتلك رقماً بالنسبة الى إحساس العالم « الفيثاغوري » بالكلمة. وليست لها ابعاد قابلة للقياس او حدود معرفة، ولذلك فليست لها كينونة[1] (Being). فالشيء معدم القياس والنفي للشكل، والتمثال الذي لم ينحت بعد من الحجر، الـ (. . .) المعدوم الحدود والشكل بصرياً يصبح شيئاً ما (أعني العالم) بعد أن تشقه الاحاسيس. ان الشكل المستتر، (البداهة) للمعرفة الكلاسيكية، وهو المنعدم الجسد إلى ذاك الحد، هو الذي حلت محله تماماً صورة العالم الكانتيه[2]، حينما تخطت ما وراء الفراغ عندما أكد « كنت » أنه بالامكان أن « يُفكر مسبقاً » بكل الاشياء.

والآن باستطاعتنا أن نفهم ما هو الذي يفرق بين رياضيات وأخرى، وخاصة بين الرياضيات الكلاسيكية والرياضيات الغربية.

إن كامل شعور العالم الكلاسيكي الناضج بالعالم، هو الذي دفع به إلى أن يرى في الرياضيات، نظرية تنظم علاقات الحجم والبعد والشكل بين الاجسام. وعندما انطلق « فيثاغوروس » من شعور ليعبر عن القاعدة الحاسمة، أمسى الرقم بالنسبة إليه رمزاً بصريا، وليس وحدة قياس للشكل بصورة عامة. لقد أمسى الرقم علاقة تجريدية، لكنها نقطة أمامية في ميدان التصيّر (The Become) او بالأحرى نقطة من ذاك الجزء منه (الصير) الذي كان بمقدور الحواس أن تشقه وتخضعه للنقد.

ولقد فهم كل العالم الكلاسيكي دون استثناء بالارقام وحدات للقياس،

(١) لا شك ان القارىء يدرك الفرق بين كلمتي كينونة ووجود (Existence)
(٢) نسبة الى « كنت ».

وأحجاماً وأطوالاً وسطوحاً ،ولم يكن باستطاعتهم أن يتخيلوا أي امتداد آخر لمفهومهم هذا عنها . إن كامل الرياضيات الكلاسيكية هي في اعماق مفاهيمها هندسة متحجرة ، Stercomtry « فيوقليد » الذي جمعهـا في منهاج وضعه في القرن الثالث رأى في المثلث ضرورة عميقة لتحد سطح جسم من الاجسام ، ولم يرَ فيه أبداً منهاجاً لخطوط ثلاثة متقاطعة ، أو جماعة من نقاط ثلاث في فراغ ذي ثلاثة أبعاد . وهو يُعرِّف الخط أنه طول بلا عرض ، ومثل هذا التعريف لا يلقى منا سوى الرثاء له ، بينما أن الرياضيات الكلاسيكية كانت تعتبره تعريفاً رائعاً ممتازاً .

إن الرقم الغربي هو أيضاً فراغي بنوع خاص ، وهـــو بذلك نظام (او تنضيد) للوحدات المماثلة ، وليس هو كما اعتقد « كنت » وحتى « هلمهولتز » أنه ينطلق من الزمن كما تنطلق البداهة من التصور . ان الزمن الواقعي (كما سنرى بوضوح يزداد جلاءً كلما توغلنا في سياق هذا المؤلف) ليست له أدنى علاقـة بالاشياء الرياضية . فالاعداد تابعة حصراً لميدان الامتداد . ولكن هنـــاك بالتأكيد الكثير من الامكانات (وهي لذلك ضرورات ايضا) لتقـديم عرض منظم للممتد ، طالما هناك حضارات . ان الرقم الكلاسيكي ، هو عملية فكرية لا تتعامل والعلاقات الفراغية ، بل انما تتعامل فقط ووحـــدات منظورة محسوسة محدودة ، ومن هذا يستنتج بداهة وبالضرورة ان الفرد الكلاسيكي يعرف فقط (إيجاباً وكلا) الارقام « الطبيعية » والتي هـي بالعكس ، تلعب لدينا في الرياضيات الغربية دوراً تافها وسط مناهجنا الرقمية المعقدة والبالغة في التعقيد واللاأرخميدية (نسبة الى أرخميدس) . ولذلك فان فكرة الارقام غير المنطقية (كالكسور العشرية اللامتناهية) كانت فكرة غير قابلة للادراك داخل الروح الأغريقيـة . ان يوقليد يقول (وكان الواجب ان يفهم على صورة افضل » ان الخطوط المستعصية على القياس لا تربط بينها أية علاقـة شأنها في ذلك شأن الارقام . والواقع أنها فكرة الارقام غير المنطقية التي عندما تفهم ، هي التي تفرق بين تصور للرقم وبين تصور للحجم ، فان حجم

رقم كهذا (مثلاً) لا يمكن ابداً أن يُعَرّف أو يُعرض عرضاً سطحياً بواسطة خط مستقيم . ويستنتج ايضاً من هذا أن الأغريقي اذا ما حاول ان يتأمل قطر المربع مفتشاً عن العلاقة الـــتي تشده الى أحد أضلاع المربع ، فعندئذٍ سيجد الأغريقي نفسه يجابه فجأة نوعاً آخر من الرقم ، نوعاً كان غريباً غرابة جوهرية عن النفس الكلاسيكية ، ونتيجة لذلك كانت ترهب اذا ما نزعت عن سره القناع أن يمسي شديد الخطر . هناك خرافة اغريقية فريدة في نوعها وأهميتها ، وهذه الخرافة تقول بان الرجل الأول الذي نزع القناع عن غموض اللامعقول المستتر لاقى حتفه نتيجة لجنوح سفينة . وذلك « لأنه من المتوجب ان يترك كل ما لا شكل له ، أو ما يستعصي على التعبير مستوراً »

ان الرعب الكامن وراء هذه الخرافة هو التصور ذاته الذي منع حتى أشد الاغريق نضوجاً أن يوسع في حدود دول مدنه (City-states) توسيعاً يمكنه من تنظيم جوانب الريف تنظيماً سياسياً ، وأن يشقوا طرقهم شقاً ينتهي بها الى تحقيق الفائدة المرجوة منها، ويحولوا أزقتهم الى مناظر فسيحة ، فجعلتهم يرتدون بابصارهم الى الوراء ، ومنعهم ايضا من أن يتأملوا بالفلك البابلي ذي الفضاء المرصع بالنجوم ، وجعلهم يرفضون المغامرة في البحر المتوسط فيتبعون خطوط سير شقها من قبلهم الفينقيون والمصريون . لقد خندق الوجود الكلاسيكي داخل ذاك الرعب الميتافيزيقي ، ولذلك كان عليه أن ينهار وأن ينحدر بعوالمه (خلق الفن معظمها وصانه) الى درك بدائي . ان ادراك هذا الرعب هو ايضاً ادراك للاهمية النهائية للرقم الكلاسيكي ، واعني بذلك التمارض بين ما يُقاس وبين ما لا يقاس ، وفهم الأهمية الأخلاقية العالية لمحدوديته .

ولقد أحس غوتيه ايضاً بهذا ، بوصفه تلميذاً للطبيعة ، ولذلك فان القدر الاكبر من كراهيته المرعبة للرياضيين ، والتي نستطيع أن نراها الآن ، كانت في الواقع بمثابة ردة فعل **غير ارادية** ضد الرياضيات غير الكلاسيكية ، ضد حساب التفاضل المتناهي في صغر ارقامه ، والذي كان يكمن وراء الفلسفة الطبيعية في عصره .

كان الشعور الديني في الفرد الأغريقي يركز ذاته يوماً بعد يوم على الحاضر المجسد .

زد على ذلك العبادات المحلية التي كانت وحدها تعبر عن جامعة ديانات يوقليدية . أما التجريد والمذاهب التي تسبح شديدة في فضاء الفكر فانها بقيت أبداً غريبة عن شعور الفرد الكلاسيكي .

إن لمذهب من هذا النوع صفات مشتركة والمذهب « الرومي » الكاثوليكي كما للتمثال من صفات مشتركة وأرغن الكاتدرائية . ولا شك أن رياضيات يوقليد كانت تشتمل على شيء ما من المذهب الديني . فلنتأمل ، مثلاً ، في العقائد الفيثاغورية السرية والنظريات المتعلقة بالجسم المتعددالسطوح والجوانب المنتظمة (Polyhedrons) وفيما لهذه من أهمية مستترة في دائرة أفلاطون ، وهذه هي الحال تماماً ، فان هناك علاقة عميقة تربط بين تحليل « ديكارت » للانهائي وبين اللاهوت « الدغماتي » المعاصر عندما انطلق من مقررات الاصلاح الديني والردة على الاصلاح الى ايمان ، معدوم الحس تماماً ، بالله وحده (Deism)[1] . لقد كان « ديكارت » وباسكال رياضيين ويدينان بمذهب « جانسن »[2] ، أما « ليبنتز » فكان زنديقاً يتظاهر بالتقوى والورع ، أما فولتير ولاغرانج و « دالمبرت » فكانوا أنداداً لهؤلاء .

لقد أحست النفس الكلاسيكية بأن مبدأ اللامعقول ، هذا المبدأ الذي حرق الرداء الحجري الذي كان يتلفع به كامل الارقام ، وطوح بالنظام العالمي المكتفي ذاتياً ، والذي كانت تمثله هذه الارقام وتدافع عنه ، أقول أحست النفس الكلاسيكية بان مبدأ اللامعقول هو إلحاد وكفر بالالهي المقدس نفسه ، ويتبدى هذا الاحساس جلياً فيما اورده افلاطون على لسان«تيماوس»،

---

(١) Deism الايمان بالله وحده وإنكار الوحي .

(٢) هو « كورني جانسن » (١٥٨٥ — ١٦٣٨) مطران مدينة « ايبر » وكان يؤمن بفساد العالم المطلق ، وبالنعمة الالهية التي لا تقاوم ، وبفقدان الارادة الحرة وبالقدر وبالكفاءة المحدودة . — المترجم —

وذلك لأن تحول سلاسل من الارقام المُمَيّزة والقائمة بذاتها الى «كونتنيوم»[1] (Continuum) ، لم يتحدّ فقط التصور الكلاسيكي للرقم بل إنما تحدى ايضاً الفكرة الكلاسيكية في العالم نفسها . ولهذا من اليسير علينا أن نفهم ان حتى الارقام السلبية ، هذه الارقام التي لا تشكل أية صعوبة تقف عندها أفهامنا كانت ارقاماً مستحيلة في الرياضيات الكلاسيكية ؛ ناهيك عن « الصفر » (٠) كرقم هذا الابداع الرائع لقوة تجريدية عجيبة ، والذي اعتبرته النفس الهندية قاعدة للترقيم « المنزلي » (نسبة الى المنازل : منزلة الاحاد منزلة العشرات ... الخ المترجم) والذي هو في واقعه المفتاح لمفهوم الوجود . إن الأحجام السلبية ليس لها أي وجود فالتعبير التالي مثلاً (— ٢) × (— ٣) = ٦ تعبير لا تدركه الحواس ولا يمثل حجماً زد على ذلك ان سلاسل الأحجام التي تنتهي بـ (+ ١) بالعرض البياني (graphic) للارقام السلبية :

$$\left(\begin{array}{ccccccccccccc} +\,3 & & +\,2 & & +\,1 & & 0 & & -\,1 & & -\,2 & & -\,3 \\ -\,0 & & -\,0 & & -\,0 & & 0 & & -\,0 & & -\,0 & & -\,0 \end{array} \right)$$

تجسد أمامنا فجأة إبتداءً من الصفر (٠) فما فوق رموزاً ايجابية لشيء ما سلبي ، وهي تعني شيئاً ما ، لكنها لم تعد هي ذاتها ، غير ان اكتمال هذا العمل (الآنف الذكر) لم يكن ليقع أبداً في اتجاه الفكر الكلاسيكي نحو الرقم .

إذن إن كل نتاج وُلد به الوعي اليقظ للعالم الكلاسيكي ، يُصعد به الى مرتبة الواقعة بواسطة التعريف النحتي (نسبة الى نحت ـ المترجم)

لذلك كان الكلاسيكيون يرَون أن كل شيء لا يُرسم هو ليس «رقماً» ، أما «أرختياس » ويودوكسوس » فهما يستعملان مصطلحي أرقام « للسطح » والحجم ، ليعبرا عما نعني نحن به حينما نقول مرفوع للقوة الثانية

---

(١) رقم متتال وهو نفسه ، ولا يستطاع تأكيد محتواه إلا بالاشارة الى شيء آخر ، مثلا البعد الرابع ـ المترجم .

او الثالثة مثلاً (ب ٢ أو ج ٣ — المترجم) ومن اليسير علينا أن ندرك أن تصور قوى متممة مكملة ، لم يكن موجوداً داخل مخيلتيهما أو فكريهما ، ولذلك فإن القوة الرابعة كانت لا شك ستعزو فوراً للفكر المستند الى شعور تشكيلي [١] (Plastic) ان امتداداً ذا أبعادٍ اربعة ، وان ادخـــال أبعادٍ مادية اربعة في الصفقة (حساب مستخيل) سخف وهراء .

ولا شك أن اصطلاحات كـ(E^{ix} والتي نستعملهانحن دائماً ،او حتى إشارات الكسور (مثلاً ١/٢ ٥) والتي تستخدمفي الرياضياتالغربية منذ عصر«أريسم» (القرن الرابع عشر) كانت لاريب ستكون في نظرهم مجرد سخف وهباء . وكان «يوقليد» يُسمي عوامل النتائج (الحسابية) بالجوانب ، وكان يعالج الكسور (نهائية بالطبع) كعلائق مكتملة الرقم تربط بين خطين ، لذلك يتضح لنا مماورد،أنه لا يمكن أن يتدفق من مثل هذا الفكر مفهومللصفر(٠) كرقم ، وهو مفهوم عديم المعنى بالنسبة الى الرسام . ومع هذا يتوجب علينا نحن الذين نمتلك عقولاً رُكبت تركيباً مغايراً لتركيب عقولهم ، ألا نناقش، منطلقين من عاداتنا ، عاداتهم ، فنعتبر رياضياتهم خطوة اولية في مضمارتقدم « الرياضيات » . فلقد كانت الرياضيات الكلاسيكية تمثل شيئاً كاملاً في نظرة الانسان الكلاسيكي الى عالمه وأهدافه (ونحن لا نرى اليوم ما رآه .)

لقد احتوى منذ زمن طويل العالمان الرقميان لبابل والهند ، على عناصر رياضية جوهرية كان الأغريقي يعتبرها سخفاً وهراء ،ولم تكن الجهالةهيالتي أملت عليه وجهة النظر هذه ، وذلك لأن الكثيرين من مفكري الاغريق كانوا يعرفون بها ومطلعين عليها .

ويتوجب علينا أن نكرر قولنا بأن الرياضيات هي وهم وخداعحواس ان التفكير الرياضي ، وبصورة عامة ، التفكير العلمي ، تفكير صحيـــح ومقنع و «ضرورة فكرية » شريطة أن يعبر عن شعورالحياة الخاصة به وإلا

---

(١) Plastic arts : الفنون التشكيلية .

فإنه يكون إما مستحيلا عقيماً هراءً ، أو يكون كما ترغب أحيانا نفسنا التاريخية المتجرفة في وصفه ، بدائيا .

ان الرياضيات الغربيةمع أنهارياضياتصحيحة بالنسبة الىالروح الغربيةفقط هي بلا ريب انجاز رئيسي رائع من انجازاتتلكالروح.ومع ذلك فانها كانت قد تبدو في نظر افلاطون انحرافاً سخيفاً مؤلما عن الطريق المؤدية الى عقل الرياضيات الكلاسيكية الحقيقية وذكائها . وحالنا لا تختلف عن حالافلاطون فنحن فاقدون لكل تصور لجمهرة فِكـَر الحضارات العظمى الأخرى والتي أهملناها اماالاخاطئالأن عقلنا بمحدوديته المعروفة لم يسمح لنا بان نتمثلها أو (والنتيجة ذاتها) لأن عقلنا المحدود نبذها ورفضها ووصمها بالخطأ وقرر أنها سخيفة ومن نوافل القول .

- ٦ -

ان الرياضيات الاغريقية بوصفها علماً مُدرَكاً تتعمد أن تسجن ذاتها داخل حقائق الحاضر الملموس وأن تحصر نفسها وصحتها في القريب (Near) والصغير . ونحن اذا ما قابلنا الرياضيات الغربية بهـــذا الثبات المعصوم عن الخطأ ، لاتضح لنا عمليا أن الرياضيات الغربية رياضيات غير معقولة نوعا ما . مع أن هذه الحقيقة لم تعرف واقعا ،إلا منذ اكتشاف الهندسة« اللايوقليدية». ان الارقام هي صور فهم بمجرد تماما من القدرة على استثارة الإحساس ، وهي فِكر العقل المجرد وهي تحتوي على صحتها المجردة داخل ذواتها . لذلك فان تطبيقها تطبيقا صحيحا على وقائع الخبرة الواعية يشكل ، في حد ذاته معضلة ، معضلة تتبدى يوما بعد يوم ، لكنها لم تُحل أبداً . زد على ذلك ان ائتلاف المنهاج الرياضي والمشاهدةالاختبارية قديكون في الحاضر ، أي شيء، لكنه لن يكون أبداًبالواضح الغني عن البيان . ومع ان الفكرة الرئيسية (كما وضعهـا شوبنهور) تقول بان الرياضيات ترتكز الى دلائل الاحساس

المباشرة . الا أن الهندسة اليوقليدية بالرغم من كونها متفقة اتفاقا سطحيا والهندسة الشائعة في كل العصور ، لا توافق الا على العالم الظاهري تقريبا وداخل حدود ضيقة . وهذه الحدود هي في لوحة رسم . فلنمدّ بهذه الحدود لنرى الى أي مصير تنتهي اليه متوازيات يوقليد . ان هذه الخطوط المتوازية تلتقي عندئذٍ في خط الافق . وهذه حقيقة بدهية يستند اليها كامل علم المرئيات في الفن .

والحق أنه عمل لا يغتفر من « كنت » ، وهو مفكر غربي ، أن يتجنب رياضيات المسافة (Distance) وأن يلجأ الى مجموعة من الأمثلة العددية ، والتي يكفي مجرد تفاهتها أن يستثنيها من المعالجة بواسطة المناهج الغربية المميزة والمتناهية في الصغر . لكن يوقليد ، بوصفه مفكراً في العصر الكلاسيكي ، كان ثابت العقيدة راسخ الايمان بروح هذا العصر ، لذلك أحجم عن البرهان على الحقيقة الظاهرية لقواعده ، بواسطة الاستشهاد مثلاً ، بالمثلث الذي يتشكل من شخص مراقب ونجمتين اثنتين ثابتتين تقعان على مسافة لا متناهية في بعدها ، وذلك لأن هاتين النجمتين تستعصيان على الرسم والفهم معاً ، وشعور يوقليد في استشهاده هذا ، كان هو ذاك الشعور بذاته الذي ينكمش على نفسه عندما يواجه اللامعقول ، وهو الشعور الذي لم يتجرأ على إعطاء العدم قيمة كصفر (٠) (في الترقيم مثلاً) ، ويغمض (أي الشعور) عينيه ، حتى حين تأمله وبحرانه في العلاقات الكونية ، عن اللانهائي ويتمسك برمزه (Symbol) للتناسب .

أما « آرستارخوس » الذي كان ينتسب منذ عام ٢٨٨ — ٢٧٧ للمدارس الاسكندرية الفلكية فلا ريب ، انه كان ذا علاقة بالمدارس الكلدانية — الفارسية ، فهو الذي خطط النظام العالمي لمركزية الشمس . وحينما اكتشف كوبرنيكوس هذا النظام الجديد ، فإنه هز عواطف الغرب الميتافيزيقية هزاً عنيفاً ارتجفت معه أسسها وقواعدها . ولنتأمل في جيوردانو[1] برونو » الذي

(١) جيوردانو برونو ولد عام ١٥٤٨ وأحرق عام ١٦٠٠ باعتباره هرطيقاً ، وقد ←

قدر له أن يكتمل فيه الالهام والشعور المسبق الجبارين ، وأن يبرر الشعور الفوستي (نسبة الى فوست) والغوطي باللانهائية ، هذا الشعور الذي عبر عن نفسه بوضوح بأشكال الكاتدرائيات . لكن العالم قابل إنجازات « آرستارخوس » بلا مبالاة متناهية في عدم اكتراثها واهتمامها ، لذلك سرعان ما طوى النسيان هذه الانجازات ، ونسيها العالم متعمداً كما أظن وأخمن . ولقد كان معظم اتباعه القلائل من سكان آسيا الصغرى ، وكان سليوقوس ابرز اتباعه (عام ١٥٠) من سكان مدينة « سليوقيا » الواقعة على نهر دجلة . والحق أن نظام «ارستارخوس » لم يكن بالنظام المشوق للحضارة الكلاسيكية ، وكان بالامكان أن يصبح فعلاً خطراً عليها ، ومع هذا كان نظاماً تفصل بينه فوارق واضحة وبين النظام « الكوبرنيكي » (وهذا أمر لم يدرك من قبل) وهذه الفوارق كانت تصدر عن شيء ما يجعله مطابقاً مطابقة كلية للشعور الكلاسيكي بالعالم ، مثلا الزعم القائل بان الكون محدود محدودية مادية ، وبأن البصر يستطيع أن يدركه كمحيط مقعر ، حيث تتحرك الانظمة الكوكبية في وسطه ، وفق الخطوط والسياقات التي عينها كوبرنيكوس .

لقد كان علم الفلك الكلاسيكي يعتبر دائماً ان الأرض والأجرام الفلكية الأخرى كذاتيات ، تختلف ذاتية الارض عنها ، وانها والأجرام نوعان مختلفان ، مهما تكررت تفسيرات دورانها وشرحه . زد على ذلك أن الفكرة المعارضة لهذه ، والقائلة بان الارض ليست سوى نجم بين نجوم ، هي فكرة لم يأخذ بها تماماً نظام بطليموس، او نظام كوبرنيكوس ، ولقد كان رائدها بالفعل ، « نيقولا كوسانوس » وليوناردو دافنشي . ولكن هذا التخطيط لمحيط فلكي قد أخمد أنفاس مبدأ اللانهائية والذي كان يشكل خطراً على التصور الكلاسيكي المحسوس فيخرجه خارج الحدود التي سجن نفسه

← كرس كامل حياته للتبشير باسم الله وبنظام « كوبورنيكس » الكوني، ولمكافحة العقائد الارسطوطالية بالكون . ـ المترجم ـ

داخلها . وقد يفترض أحد الناس فيقول بأن تطبيق منهاج ارستارخوس : كان أمراً محتوماً ، ولقد سبقه المفكرون البابليون الى معرفته بطويل زمن ، غير اننا لا نصادف مثل هذه الفكرة ، فارخميدس يبرهن على أن تعبئة هذا الحجم المقرر الثابت (والذي هو الكون بالنسبة الى ارستارخوس بعد كل شيء) بذرّات من الرمال ، فان التعبئة ترتفع بعدد ذرات الرمال الى نتيجة عددية (Figure - resutls) جد مرتفعة ، لكن هذه النتيجة لن تكون لانهائية . ان هذه الفرضية التي كثيراً ما قيل عنها أنها هي الخطوة الأولى نحو حساب التكامل (Integral calculus) ، انما تمثل انكاراً (واضحاً في كل مرحلة من مراحله) لكل شيء نعنيه بكلمة التحليل ، بينما نشاهد ،في فيزيائنا ، ان الفرضيات ، المتزايدة جيشاناً وعدداً والقائلة بوجود فضاء مطلق مادي ، (يعرف فوراً) تتكسر الواحدة منها تلو الاخرى على أسوار رفضنا للاعتراف بالمحدودية المادية لأي نوع من الانواع، ولقد قام يودوكساس « وأبولونيوس » « وأرخميدس » وهم جميعاً بالتأكيد أشد الرياضيين الكلاسيكيين جرأة وذكاءً ، بوضع تحليل بصري مجرد للاشياء في الصير مستندين في ذلك على قواعد حدود النحت الكلاسيكي ، وقد استخدموا في معظم أعمالهم حين وضع هذا التحليل المسطرة والفرجار . لقد عمد هؤلاء الى مناهج في التكامل عميقة الفكر جداً (وهي مناهج من الصعب علينا فهمها) لكنهم كانوا متشابهين تشابهاً سطحياً حتى ومنهاج ليبنتز التكاملي المحدّد ، ولقد استخدموا أماكن هندسية وأحجاماً متطابقة ، لكن هذه هي انما أحوال ووحدات محددة للقياس ، وليست أبداً ، كما هي حالها عند «فرمت» «وديكارت » خاصة ، علاقات فراغية غير محدّدة : قيم لنقاط تعبر عن مراكزها في الفضاء . ويتوجب علينا أن نضع في مرتبة هذه المناهج ، منهاج أرخميدس المستنفد (Exhaustion) ، هذا المنهاج الذي ضمنه الرسالة المكتشفة حديثاً ، والتي ارسل بها الى « إيراتوستينس » وبحث فيها مواضيع كتربيع الدوائر والأقواس في القطع المخروطي الشكل بواسطة المستطيلات

داخله (بدلاً من الاشكال المتعددة الزوايا والاضــلاع polygons) غــير أن مجرد التعقيد المراوغ والمفرط في تشابكه الذي يكتنف مناهج ارخميدس المرتكزة ، بالتأكيد ، على آراء افلاطون الهندسية ، يجعلنا نتبين بالرغم من المماثلات السطحية مدى الفوارق الهائلة التي تفصله عن باسكال . ونحن اذا ما استثنينا نظرة « ريمن » في التكامل ، فعندئذٍ ، أي تعارض وهــذه الافكار يمكنه أن يجابهنا ويكون أشد من التعارض الذي نسميه بتربيعات الدوائر والاقواس المعاصرة . ان هذا الاسم بحد ذاته لا يمثل أكثر من أن يد النحس قد ابقت عليه ، بعد أن طمس النسيان غيره . فالسطح تشير اليــه ُمهمة محدّدة له ، ورَسم اشكال كهذه ، قد أتى عليه الدهر واختفى . والحق ! أنه لم يحدث أبداً أن اقترب العقلان الرياضيان من بعضهما بعضــاً كما اقتربا في هذه النظرة ، كما وأنه ليست هناك من نظرة أخرى تعبر عــن الهوة السحيقة التي لا يمكن ردمها أو تجاوزها والتي تفصل بــين الروح الكلاسيكية ، والروح الغربية .

ولقد أخفى (مثلاً) المصريون في طراز هندستهم المعمارية التكعيبية الارقام المجردة ، خشية أن يعثر على سرها (سر الارقام) . وكانت الارقام ايضاً بالنسبة الى الأغريقيين تشكل مفهوم الصير (The become) ، مفهوم المتحجر ، مفهوم المُقدر له الموت والزوال . إن التمثال الحجري والمنهـاج العلمي ينكران الحياة . وإن الرقم الرياضي وهو المبدأ الرسمي لعالم امتداد يشتق منه وجوده الظاهري ويخدم العقل البشري اليقظ . اقول إن هذا الرقم يحمــل الطابع الكامل للضرورة السببية وهو لذلك مرتبــط بالموت كارتباط الرقم التقويمي بالصيرورة ، بالحياة ، بضرورة المصير .

إن هذا الارتباط ذا الشكل الرياضي الصارم ، بالكائنه من تركيب وأسس ، وبظاهرة فضلته التركيبية ، الجسم ، سيتضح لنا أكثر فأكثر أنه هو أصل كل فن عظيم . ولقد سبق لنا أن لاحظنا تطور الزخرفــة المحفورة والمنقوشة على الأدوات والأواني الجنائزية . إن الارقام هي رموز للفناء والزوال . وإن

الاشكال المتحجرة المتيبسة هي نفي للحياة ،وإن القواعد والقوانين تطبع وجه الطبيعة بالصرامة والقسوة ، وإن الأرقام تحتم الموت ، بينما تجلس « الامهات » في القسم الثاني من « فاوست » متوجة ذات بهاء وجلالة ، مُترفعة في :

« ممالك الصورة غير المحدودة تتشكل وتتحول
وهي الدور الخالد للعقل الخالد
هي مظاهر كل الاشياء في الخليقة
تدور أبداً وأبداً حولنا

إن « غوتيه » يقترب جداً من افلاطون في استطلاعه غيب أحد الاسرار النهائية ، « فأمهات » غوتيه ، التي تطالها اليد هي أفكار افلاطون ، وهي امكانات روح ،وأشكال لم تولد بعد لحضارات فاعلة متعمدة يجب ان تتحقق فناً وفكراً وأنظمة حكم (Polity) وديناً تقرره وتنتظمه هذه الروح . وهكذا يرتبط الفكر الرقمي بالفكرة العالمية لحضارة ما ، ويرقى به هذا الارتباط فوق المعرفة المجردة والخبرة ويصبح نظرة في الكون ، وينشأ عن هذا الواقع عدد من الرياضيات أي عدد من العوالم الرقمية يعادل عدد الحضارات الارقى . وبهذه الواسطة فقط نستطيع أن نفهم ، كأمر هام وضروري ، الحقيقة القائلة بان اعظم المفكرين الرياضيين ، الفنانين الخلاقين في ممالك الرقم ، قد وصلوا الى اكتشافاتهم الرياضية الحاسمة في حضاراتهم المتعددة ، وهم مدفوعون ببديهة دينية .

ويتوجب علينا ان نعتبر الرقم الكلاسيكي و « الابولي » نسبة الى « ابولون » [1] من مخلوقات فيثاغورس الذي اوجد ديناً ايضاً . ولقد كانت الغريزة هي التي قادت مطران مدينة بريكسن العظيم ، « نقولا كوسانوس » (١٤٥٠) من الايمان بالله اللامتناهي في الطبيعة الى اكتشاف عناصر حساب

(١) إله الجمال والشعر والموسيقى و « الاورا كل » وتوأم ارطميس ، كما تقول الخرافة اليونانية وهو ايضاً إله للشفاء . ـ المترجم ـ

التفاضل والتكامل اللامتناهي في صغره ، زد على ذلك ان « يبنتز » نفسه الذي قرر وثبت ، بعده بقرنين من الزمن ، مناهج وترقيم حساب التفاضل والتكامل ، إنما قام بهذا العمل نتيجة لتأمل غيبي (ميتافيزيقي) مجرد في المبدأ الإلهي، وتأمل علاقة هذا المبدأ بالاتساع اللامتناهي ، كي يدرك ويطور تصور تحليل الوضع الطبيعي (Situs) (ولربما كان حساب التفاضل والتكامل ، أشد تراجم الطبيعة نقاء وتحرراً في جوه) . وقد قام فيما بعد « جراسمان » بتطوير وتحسين إمكانات هذا العلم وخاصة في نظريته المعروفة بنظرية الامتداد ، لكن الفضل الاكبر في هذا المضمار إنما يعود الى « ريمن » الخالق الحقيقي لحساب التفاضل والتكامل ، فرمزيته للسطح المستوي ذي الجانبين تمثل طبيعة المعادلات . أما «كبلر » و « نيوتن » ، وكلاهما متدينان تديناً شديداً فانهما كانا وبقيا مقتنعين كافلاطون ، بانهما استطاعا ان يدركا إدراكاً بدهياً جو نظام العالم الإلهي بواسطة الرقم فقط .

— ٧ —

لقد قيل لنا دائماً أن تجريد علم الحساب الكلاسيكي من عبودية حسه وتوسيعه وتعميقه ، إنما تم على يد « ديوفانتوس » الذي لم يخلق بالفعل علم الجبر (علم الأحجام غير المحددة)لكنه أدخله كمعبّر داخل إطار الرياضيات الكلاسيكية التي نعرفها اليوم ، ولذلك نضطر فجأة للزعم بانه لا شك كان هناك مخزون من الافكار السابقة لوجود « ديوفانتوس » عمل فيها هذا الأخير معالجة ودرساً واستنتاجاً . ولكن انجازات « ديوفانتوس » لم تأت لتزيد في الحس الكلاسيكي بالعالم إرهافاً وشعوراً ، بل إنما جاءت لتمثل انتصاراً كاملاً شاملاً على هذا الحس ، ومجرد اتجاهه العلمي يكفي ليثبت لنا أن «ديوفانتوس» لا ينتمي مطلقاً إلى الحضارة الكلاسيكية . أما العنصر الفعال فيه ، فانما هو حسٌ جديد بالرقم ، او لنقل أنه حس جديد بالمحدودية وذلك فيما يتعلق بالواقعي وبالصير . فحسه لم يعد ذاك الحس الإغريقي بالمحدوديات الحسية الحاضرة ، والذي أنتج الهندسة « اليوقليدية » والتمثال العاري وقطعة النقد

المعدنية . إننا لا نعرف أية تفاصيل عن تشكل هذه الرياضيات الجديدة ، « فديوفانتوس » يقف وحيداً متوحداً دونما شقيق أو زميل أو رفيق ، فيما ندعوه بالتاريخ المتأخر للرياضيات الكلاسيكية والتي يُظن أنها تأثرت بنفوذ الرياضيات الهندية . ولكن هنا أيضاً يجب أن يكون النفوذ الحقيقي الذي تأثرت به الرياضيات الكلاسيكية في تاريخها المتأخر ، المدارس العربية المبكرة ، هذه المدارس التي لم تبحث نتائجها حتى الآن (ما عدا الدغماتية منها) سوى بحث منقوص مبتور . فمن « ديوفانتوس » وبالرغم من أنه ربما لم يكن يعي تعارضه الجوهري والأسس الكلاسيكية التي حاول أن يبني عليها مذهبه . أقول لدى « ديوفانتوس » يتدفق من تحت سطح قصد يوقليد ، حس جديد بالمحدودية ، وأسمي هذا الحس « المجوسي » .ولم يقم «ديوفانتوس » بتوسيع فكرة الرقم بوصفه حجماً ، بل إنما اطرحها غير متعمد ، إذ لم يكن باستطاعة أي يوناني أن يعرض رقماً غير محدد او معرف كالرقم (ه) مثلاً ، او رقماً لم يُسمَّ كالرقم (٣) ، وهذان الرقمان ليسا بحجمين او خطين ، بينما أن الحس الجديد بالمحدودية والذي عُبر عنه بواسطة ارقام من هذا النوع ، كان على الاقل يكمن ، إذا لم يكن يشكل المنهاج الذي استند إليه «ديوفانتوس» في بحثه وعلاجه . أما الترقيم الابجدي الذي نستخدمه لنكسو علم الجبر الخاص بنا فإن اول من أدخله على الرياضيات كان « فيتا » عام ١٥٩١ ، وقد جاء عمله هذا بمثابة احتجاج في موضعه وغير مقصود على اتجاه النهضة « لكلسكة » (classicize) الرياضيات .

عاش « ديوفانتوس » قرابة عام ٢٥٠ مسيحية ، أي في القرن الثالث من تلك الحضارة العربية التي لا تزال تطمس حتى الآن الاشكال السطحية للامبراطورية الرومانية والقرون الوسطى معالمها ، والتي تحتوي على كل ما حدث ، عقب بداية حقبتنا التاريخية ، في الميدان الذي دُعيَ بالاسلام فيما بعد . وفي تلك الحقبة بالذات أخذ آخر ظلال فن النحت « الاثيني » (نسبة الى أثينا) يذوي أمام الحس الجديد بالفراغ والماثل في القبة وفي تضاريس الفسيفساء والمقاشع والتوابيت الحجرية التي تطالعنا في النهج المسيحي

السوري المبكر ، ففي ذلك الوقت برزت الزخرفة الهندسية والاقواس والقناطر الى ميدان الفن مرة [١] ثانية ، وفي ذلك الوقت ايضاً أتم « ديولكتسيان » تحويل الامبراطورية (الرومانية) المُزوَّرة الى خلافة (Caliphate) .

ان القرون الاربعة التي تفصل بين يوقليد وبين ديوفانتوس ، تفصل ايضاً بين افلاطون وافلوطين (Plotinus) آخر المفكرين المقنعين ، و « كنت » (Kant) حضارة بلغت أعلى مراحل الاكتمال ، (لاحظ اكتمال ، لا كمال – المترجم) وأول مدرسي ، والخلية الاولى في حضارة استيقظت لتوها .

وهنا نشعر لاول مرة بوجود تلك الذاتيات الارقى ، والتي تشكل ولادتها ونموها وانحطاطها الجوهر الحقيقي للتاريخ ، والتي هي سر الالوان الجمة والتبدلات الغفيرة التي تطرأ على السطح . ان الروحانية الكلاسيكية التي بلغت مرحلتها النهائية في ذكاء الرومان البارد والتي تشكل كامل حضارتها من افكار واعمال وآثار « الجسد » ، (جسدالحضارةالرومانية) انما ولدت قرابة عام ١١٠٠ قبل الميلاد في البلاد الواقعة بالقرب من بحر ايجه . أما الحضارة العربية ، فانما بدأت تنبت وتفرخ في الشرق متسترة وراء المدنية الكلاسيكية ، منذ عهد اغسطوس . وقد بُعثت بكاملها من تلك المنطقة الواقعة بين ارمينيا وجنوبي جزيرة العرب ، وبين الاسكندرية ومدينة زيزفون (Ctesiphon) .

ويتوجب علينا ان نعتبر معظم انجازات الفن « الكلاسيكي المتأخر » في الامبراطورية وجميع الاديان الفنية الملتهبة غيرة وحماساً في الشرق ، كالاسلام والمانية [٢] والمسيحية والافلاطونية الجديدة ، وحتى في روما نفسها ، بما في ذلك السوق الامبراطورية (Imperial Fora) و « البانثيون » [٢] أول

---

(١) امبراطور روماني شهير اسمه الحقيقي اركتافيوس.

(٢) نسبة الى « مان » وهو فارسي (٢١٦ ؟ – ٢٧٦ ؟) اوجد مذهباً يمزج بين الثنائية الزرادشتية وبين عقيدة الخلاص المسيحية . ويقول هذا المذهب بان روح ←

المساجد (الجوامع) ، أقول علينا ان نعتبر كلّ ما ذكرت آنفاً تعابير عبرت بها عن نفسها الروح الجديدة .

أما القول بأن مدينتي الاسكندرية وانطاكية كانتا حينذاك لا تزالان تكتبان وتفكران باللغة اليونانية ، فان هذا القول تعادل أهميته ، أهمية القول بان اللغة اللاتينية كانت اللغة العلمية بالنسبة الى الغرب حتى عصر « كنت » أو القول بان شارلمان قد جدد الامبراطورية الرومانية .

لم يعد الرقم على يد « ديوفانتوس » قياساً وجوهراً للاشياء التشكيلية ، ولم يعد الانسان جسداً في فسيفساء . ودون أن يلحظ أحد ، فقد المصممون اليونانيون ترابطهم الأصيل ، فلقد غادرنا مملكة أثينا والرواقيين . ان « ديوفانتوس » لم يعرف بان الرقم (٠) هو رقم سلبي ، وهذا صحيح وحق ، لكنه لم يعد يتعرف على الارقام الفيثاغورية . وهذا الانعدام في تعيين الرقم عند العرب ، هو بدوره ، أمر يختلف تماماً عن قابلية التحول المضبوطة في رياضيات الغرب فيما بعد ، وأعني قابلية تحول مهمة الرياضيات ووظيفتها . أما الرياضيات المجوسية ، ونحن لا نستطيع ان نرى سوى مختصر لها ، إذ أننا نجهل تفاصيلها ، فانها خطت بواسطة « ديوفانتوس » (وهو كما واضح ليس نقطة بدء انطلاقها) خطوات منطقية جريئة نحو الذروة وذلك في العصر العباسي (القرن التاسع) وهذا ما نستطيع ان نتحقق منه حين دراستنا للخوارزمي . وكما هو مركز الهندسة اليوقليدية من النحت الاثيني (وهو الشكل التعبيري ذاته بوسائل مختلفة) ومركز التحليل الفراغي من الموسيقى البلوفونية ، كذلك هو مركز علم الجبر من الفن المجوسي ، بفسيفسائه وزخارفه العربية (التي نقشت في عهود الامبراطورية الساسانية ، وجاءت في عصور بيزنطة لتعبر عن دوافع أساسية ملموسة وغير ملموسة تتزايد جزالة وترفاً يوماً بعد آخر) ونتوء الزخارف القسطنطينية ، حيث تبتدىء فيها

ـــ الانسان انبثقت من مملكة النور وهي تجاهد لتنجو من مملكة الظلام المثلة في الجسد ـ المترجم ـ
(٢) هيكل كرسه الرومان لجميع الالهة . ـ المترجم ـ

نقاط مموهة شديدة السواد تفصل بين الرسوم المترفة في مقدمة الصورة .

وكما هو شأن علم الجبر في الحساب الكلاسيكي والتحليل الغربي ، كذلك أيضاً هي قبة الكنيسة في الهيكل « الدوري » ، والكاتدرائية الغوطية . ونحن عندما نسترسل في حديثنا عن « ديوفانتوس » فاننا لا نريد أن يُفهم من استرسالنا هذا أننا نعتبره رياضياً من عظماء الرياضيين ، بل بالعكس تماماً ، وذلك لأن معظم الاشياء التي تنسب إليه هي في الواقع ليست من إنجازاته ، بل إنما تحمل اسمه خطأً ، أما أهميته العرضية فانما تكمن وراء كونه ، قدر ما نعلم ، اول رياضي تجسده ، دون ريب ، الحس الجديد بالرقم . ونحن إذا ما قارنا « ديوفانتوس » بأرباب الرياضيات الذين دفعوا بهذا العلم قدماً إلى الأمام ، وقابلنا بينه وبين ابولونيوس وارخميدس أو بينه وبين « جاوس» « وكوتشي » وريمن ، يتضح لنا أن شكل لغته على وجه التخصيص ، شكل بدائي . وهذا « الشيء ما » الذي كنا حتى الآن ننسبه بسرور الى الانحطاط « الكلاسيكي المتأخر » ، سنتعلم في الوقت الحاضر أن نفهمه ونقدره ، وذلك اثناء عملية التنقيح والتهذيب التي نجريها على افكار نعزوها الى ، الفن الكلاسيكي « المتأخر » ، والمحتقر ، حيث تبدأ نظرتنا الى هذه الافكار بوصفها تعبيراً مجرباً مختبراً لحضارة عربية مبكرة آخذه بالنمو . ولم تكن رياضيات نقولا اورسم ، مطران مدينة « ليسيا » (١٣٢٣ — ١٣٨٢) والذي كان اول رياضي غربي استعمل الاحداثيات (Co-ordinates) بمرونة ، مثلاً ، والأهم من هذا ايضاً استخدامه للقوى الكسرية (من كسور) وكلا العمليتين يفترض مسبقاً ، شعوراً رقمياً ، وقد يكون هذا الشعور غامضاً ، ولكنه دون ريب شعور غير كلاسيكي وغير عربي ايضاً ، اقول لم تكن رياضيات أو رسم « اورسم » تقل ابتذالاً وبدائية وتسكعا عن تلك (رياضيات ديوفانتوس) . لكننا إذا ما أمعنا الفكر في ديوفانتوس وفي التوابيت الحجرية في عصور المسيحية المبكرة حقاً ، ومن ثم تأملنا في نظريات اورسم وفي النحت « الجداري »(نسبة الى جدار)على جدران الكاتدرائيات

الغوطية ، يتضح لنا أن هناك شيئاً ما مشتركا بين الرياضيين والفنانين ، وهو أنهم جميعاً ، وكل منهم فيما يختص بحضارته ، يقفون في مستوى واحد من مستويات الفهم التجريدي . فلقد أتت يد الدهر ، في عصر ديوفانتوس وعالمه ، على حس نظرية الاحجام (Stereometric) بالحدود ، والذي سبق له ، منذ طويل زمن ، أن بلغ في ارخميدس ، آخر مراحل إرهافه وحساسيته ، وهما خاصتان مميزتان للذكاء في المدن العالمية الكبرى . وعقب ذلك أمسى جميع رجال العالم صوفيين ، تخبط أذهانهم خبط عشواء ، بالغي التوق والحنين ، ولم يعودوا أحراراً ذوي أذهان صافية على غرار الطراز الاثيني ، لقد أمسوا رجالاً تضرب جذورهم عميقاً في تربة الريف الفني ، ولم يعودوا رجالاً ينتمون الى المدن العالمية الكبرى ، كيوقليد ودالمبرت . ولم يعد بمقدورهم فهم الاشكال العميقة والمعقدة للفكر الكلاسيكي ، أما أشكالهم الخاصة فكانت اشكالاً مرتبكة حائرة وجديدة وبعيدة كل البعد عن صفاء المدينة وتأنقها .

لقد كانت حضارتهم يومذاك لا تزال تجتاز الدور الغوطي ، شأنها في ذلك شأن كل حضارة في صباها ، وحتى شأن الحضارة الكلاسيكية في المرحلة « الدورية » ، هذه المرحلة التي لا نعرف عنها شيئاً سوى ما يعطينا خزف « ديبلون » من معلومات عنها . وفقط في بغداد وفي نهاية القرن التاسع وخلال القرن العاشر ، كانت الافكار الفتية لعصر ديوفانتوس ، آخذة في التطور والتقدم حتى بلغت الاكتمال على أيدي أرباب ناضجين كانوا من وزن افلاطون « وغاوس » .

- ٨ -

إن العمل الحاسم الذي قام به « ديكارت » الذي خرجت هندسته الى الوجود عام ١٦٣٧ ، لا يتمثل في إدخاله منهاجاً جديداً او فكرة جديدة على ميدان الهندسة التقليدية ، (كما يقال لنا مراراً وتكراراً) بل إنما يتمثل في

مفهوم جازم قطعي لفكرة رقمية جديدة ، وقد عبر هذا المفهوم عن نفسه في تحريره الهندسة من عبودية التراكيب المتحققة بصرياً ، وعبودية الخطوط المقاسة منها وغير المقاسة بصورة عامة . وبهذا أصبح تحليل اللانهائي حقيقة وأمراً واقعاً . أما المنهاج « الكارتي » (نسبة الى ديكارت ، والمسمى بمنهاج مصغر لمنهاج يوقليد ، ويمثل بصورة مثالية الأحجام القابلة للقياس) فانه كان معروفاً منذ طويل أمد (ولنلاحظ اورسم) وكانت تضفى عليه أهمية قصوى ، غير أننا إذا ما غصنا عميقاً في فكر « ديكارت » نرى أن ما فعله ديكارت لم يكن مداورة ، بل انما جاء بمثابة انتصار وسحق لهذا المنهاج الذي كان « فيرمت » ، المعاصر لديكارت ، آخر ممثل تاريخي له.

ولقد حل محل العنصر الحسي الماثل في الخطوط والمستويات المقررة الثابتة (والتي هي خاصة من خصائص الحس الكلاسيكي بالحدود) أقول حل العنصر التجريدي الفراغي وغير الكلاسيكي ، الماثل في النقطة والتي اعتبرت منذ ذلك الحين فصاعداً مجموعة من الارقام المجردة المترابطة .

لقد دُمرت فكَرُ الحجم وفكر الابعاد المدرَكة ، المشتقة من النصوص الكلاسيكية والتقاليد العربية ، وحل محلها قيم العلاقة المتبدلة بين المراكز في الفراغ . وهذ الواقع لم يُدرك ، بصورة عامة ، انه أدى الى اطراح الهندسة التي لم تعد تتمتع بغير وجودٍ خرافي يتستر وراء التقليد الكلاسيكي .

ان لكلمة « هندسة » معنى « ابولونياً » نسبة « لابولون » غير قابل للمط او المد ، وان ما يُسمى ، منذ عصر ديكارت حتى اليوم ، بالهندسة الجديدة ، فان جزءاً من هذه الهندسة هو معالجة مركبة (Synthetic) لمركز النقاط (Points) في الفراغ ، هذا الفراغ الذي لم يعد بالضرورة ذا أبعاد ثلاثة (نقاط متعددة) . أما الجزء الآخر منه فهو تحليل يحدد الارقام بواسطة مراكز النقطة في الفراغ . إن احلال النقاط محل الأطوال يحمل معه مفهوماً فراغياً مجرداً ، إذ لم يعد هناك بعد من مفهوم مادي في الامتداد .

ان أوضح مثل على هذا التدمير (الذي حل بفكر الحجم والابعاد

ـ المترجم ـ) هو كما يبدو لي ، تحول الوظائف ذات الزوايا Angular) ، والتي كانت في الرياضيات الهندية ارقاماً (بمعنى الكلمــة التي يصعب على اذهاننا ادراكها) الى وظائف دَوْرية ، ودخولها من هنـا الى ميدان رقم لا متناه ، حيث تصبح في هــذا الميدان سلاسل ، لا بقايا أثر لرقم يوقليدي بالغ الصغر . وفي جميع أجزاء هذا الميدان ، تولد إشارة الدائرة ، كما تولد القاعــدة « النيبرية » (Napierian) « E »علاقات من كل الانواع ، تطمس مميزات الهندسة ، وحساب المثلثات والجبر ، والتي هي جميعاً ليست حسابية او هندسية في طبيعتها ، وحيث لا يحلم أحد بعد برسم دوائر ، أو استنتاج قوى (أس) .

ـ ٩ ـ

ويطابق ما اكتشفته النفس الكلاسيكية بشخص [١] فيثاغوروس (٥٤٠) من رقم « ابولوني» وحجم مُقـاس ، همـا خاصان بها ومميزان لها ، اقول يطابق هذا تماماً مـا اكتشفته النفـس الغـربية بشخص « ديكارت» وبجيله (باسكال ، فيرمت ، وديسارغس) من تصور لرقم هو طفـل هوى فوستي (نسبة الى فاوست) شجي إلى اللانهائي . ويوازي الرقم بوصفه حجماً مجرداً ملازماً لوجود الأشياء ، ارقاماً هي مجرد علاقــة مجردة . وإذا ما سُمح لنا بوصف « العالم » الكلاسيكي أو الكون ، بأنه يرتكز إلى حاجة عميقة إلى الحدود المرئية ، وبانـه يتألف ، نتيجـة لهذه الحاجـة ، من مجموع الأشياء المادية ، فاننا عندئذٍ نقول بأن صورتنا للعالم ، هي صورة لتحقق (أو تجسد ـ المترجم) فراغ لانهائي ، فراغٍ تبدو فيه الاشياء المرئيــة كحقائق نظام أدنى ، نظام محدود أمام وجود اللامحدود .

---

(١) ألفت نظر القارىء الى الفرق بين مصطلحي « بشخص » وفي شخص. ـ المترجم

إن الرمز الخاص بالغرب ، هو رمز فكرة ، لاتشير إليها حتى من بعيد او قريب ، أية حضارة أخرى . إنه رمز فكرة قيام الشيء بوظيفته (Function) وإن الوظيفة (قيام الشيء بوظيفته) قد تكون أي شيء ما عدا الامتداد ، إنها التحرر الكامل من أية فكرة سابقة عن الرقم .

وأمام هذه الوظيفة لا تندثر فقط قيم الهندسة اليوقليدية وتتلاشى اهميتها وتنحط معها الهندسة الشائعة ، هندسة الاطفال والرجال العاديين المبنية على الخبرة اليومية) بل إنما تندثر ايضاً قيم علم الحساب الارخميدي (نسبة الى ارخميدس) وتتلاشى أهميته بالنسبة الى الاهمية الحقيقية لرياضيات اوروبا الغربية ، وهذا يتضمن فيما بعد على التحليل المجرد فقط ، وذلك لان كلاً من الهندسة وعلم الحساب الكلاسيكيين ، كانا علمين مستقلين كاملين قائمين بذاتهما، ويتربعان في ارفع المراتب، وكان كل منهما ظاهريين ، ويهتمان بالاحجام القابلة للرسم أو العد ، وهذا الواقع يتعارض تماماً ومفهومنا ، فنحن نرى في تلك الاحجام الآنفة الوصف ، قوى مساعدة (غير رئيسية – المترجم) واقعية في الحياة اليومية . فلقد اختفى الجمع (+) (addition) والضرب (×) ، كما اختفى شقيقهما ، الرسم الهندسي تماماً في لانهائية العمليات الوظيفية . (نسبة الى وظيفة) حتى القوة (واساتها جمع اس) التي كانت تشير عددياً في البدء الى مجموعة من عمليات الضرب (نتائج احجام متساوية) هي أيضاً قد قطعت كل مالها من علاقة او ارتباط بالحجم ، نتيجة لفكرة دليلية القوة ، (اللوغارتم) واستخدامها في المُركب (Complex)، وفي الاشكال السلبية والكسرية ، وبذلك انتقلت القوة الأسية إلى عالم ترابطي (Relational) أرفع وأسمى ، عالم لم يستطع اليونان أن يبلغوه بسبب معرفتهم المحصورة فقط بقوتي كامل الرقم الايجابيتين واللتين تمثلان في المساحات والاحجام .

ولنتأمل ، مثلاً في تعابير كالتالية : $E^{-x}, \pi\sqrt{x}, \frac{1}{n!}$

إن كل واحدة من هذه البدائع ، والتي تأخذ الواحدة برقبة الأخرى ، وتلحق بها الى الوجود بسرعة مذهلة ابتداءً من عصر النهضة فما بعده ، هذه

البدائع المتجلية مثلاً في الارقام الخيالية والمركبة، والتي دفع بها « كاردانوس » منذ عام ١٥٥٠ الى الوجود ، وتقررت نظرياً بواسطة اكتشاف نيوتن العظيم (عام ١٦٦٦) للنظرية الجبرية الثنائية الحدين (Binomial) ، وفي الهندسة التفاضلية ، وفي نظريـــة ليبنتز في التكامل المحدّدة ، وفي المجموع بوصفه وحدة رقم جديدة ، أشار إليها حتى ديكارت إشارة عابرة ، وفي عمليـــات جديدة كعمليات التكامل العام تلك ، واتساع دائرة عمـــل الوظائف الى سلاسل وحتى ايضاً الى سلاسل لانهائية من دوائر عمل وظائف أخرى غيرها . اقول فلنتأمل في كل ما أوردته آنفاً ، عندئذٍ يتضح لنـــا أن تلك البدائع تمثل انتصاراً على الشعور الحسي الشائع بالرقم داخل ذواتنا . إنه لانتصار كان من المتوجب على الرياضيات الجديدة أن تحرزه كي تجعل شعورنا الجديـد بالعالم شعوراً واقعياً .

ولم يحدث في التاريخ أبداً أن قامت حضارة ما بتقديم كل هذه الطاعـة والخضوع والاحترام ، وذلك في قضايا علمية، لحضارة خبت نارها منذ طويل زمن ، كما قدمت حضارتنا للحضارة الكلاسيكية .

ولقد امتد بنا الزمن مراحل طويلة قبـــل أن نجد في انفسنا الجرأة على التفكير بفكر خاص بنا مميز لنا . وبالرغم من أن رغبتنا في منافسة الحضارة الكلاسيكية ، كانت رغبة دائمة الجيشان في صدورنا ، إلا أن كل خطوة كنا نخطوها استجابة لهذه الرغبة ، كانت تبتعد بنا عن المثل الأعلى الذي كان يداعب خيالنا . ان تاريخ المعرفـة الغربية ، هـــو في واقعه تاريخ التحرر التقدمي من عبودية الفكر الكلاسيكي ، وأنه والحق كان تحرراً لم نرغب فيه أو نطلبه أبداً ، لكنه فرض في اعماق لاوعينا فرضاً ، ولهذا فان تقدم الرياضيات الجديدة يتألف من معركة طويلة سريعة ظافرة ضد معالم الحجم .

لقد جاءت إحدى نتائج الرغبة في«الكلسكة »(جعل الشيء كلاسيكيا) لتمنعنا من إيجاد ترقيم خاص برقمنا الغربي ، والحق أن لغة الإشارات الرياضية المعاصرة تفسد المحتوى الحقيقي لرياضياتنا ، والسبب الرئيسي لهذا الواقع إنما يعود الى تلك الرغبة الآنفة الذكر ، فالايمان بالارقام بانها أحجام ، ايمان لا يزال مسيطرا حتى بين الرياضيين انفسهم . أو ليس هذا الايمان هو القاعدة التي يقوم عليها كل ترقيمنا المكتوب ؟ ولكن ليست الإشارات المفضلة ، مثلاً s π z هي التي تستخدم لتعبر عن الوظائف ، بل عن الوظيفة ، نفسها ، كوحدة ، كعنصر ، وهكذا لا تعود العلاقة المتغيرة المتبدلة قابلة للتعريف البصري ، وهذا هو الذي يُكَوِّن الرقم الجديد ، وكان من المتوجب على هذا الرقم أن يطالب بترقيم جديد مبني على أسس لا تتأثر مطلقاً بكل ما للكلاسيكية من نفوذ .

ولنتأمل في الفرق بين معادلتين كهاتين (او إذا جاز لنا استعمال الكلمة ذاتها الفرق بين مثل هذين الشيئين غير المتشابهين) :

$$3^x + 4^x = 5^x \; ; \; X^n + y^n = z^n$$

(انها معادلة نظرية فيرمت)

ان المعادلة الاولى تتألف من ارقام كلاسيكية، عديدة،ولنقل من أحجام، لكن الثانية هي رقم واحد من طراز مغاير مختلف ، ومقنع حين تدوينه بشكل مطابق لشكل الرقم في المعادلة الاولى وذلك حسب زعم التقليد اليوقليدي الارخميدي . وفي المعادلة الاولى فان الاشارة = تقيم ترابطاً حازماً بين أحجام معرفة مقررة محسوسة ، بينما أن الاشارة ذاتها في الحالة الثانية تقرر أن داخل ميدان الصور المتبدلة ، توجد علاقة تشير الى أن

تبدلات معينة تنشأ ، بالضرورة ، منها تبدلات معينة أخرى . ان المعادلة الاولى تستهدف في كل مفاهيمها التحديد بواسطة قياس الحجم المقرر ، وأعني أنها تستهدف « النتيجة » ، أنه لا توجد للثانية، بصورة عامة ، نتيجة ، بل إنما هي، بكل بساطة، صورة العلاقة واشارتها والتي هي في هذا المثل 2 < n (هذه مسألة فيرمت الشهيرة) كما نرى ، تطرح وتخرج الأعداد الصحيحة من حسابها . ولا شك أن رياضيا يونانيا ما كان سيجد من المستحيل عليه أن يتهم لمثل العملية الآنفة الذكر والتي لم يُقصد حلها ، فحوى ومغزى .

أما فيما يتعلق بالأحرف المستعملة في معادلة « فيرمت» فان تصور المجهول مضلل تماماً ، فالحرف x في المعادلة الاولى هو حجم مُعرَّف وقابل للقياس ، ووظيفتنا أن نحسبه . أما في المعادلة الثانية فان كلمة مُعرَّف فاقدة كل معنى بالنسبة الى الأحرف x y z n ، ولذلك فاننا لا نحاول أن نحسب « قيمها» ولهذا فان تلك الأحرف ليست أبداً ارقاماً وفق المفهوم التشكيلي لهذه الكلمة (ارقام) انما هي اشارات تحتل ترابطاً يفتقر الى معالم الحجم وحدوده، وهي صورة ومعنى فريد في نوعه ، وانها اللانهائية لمراكز محتملة ذات طبائع متشابهة ، وهي مجموعة وُحّد بين اعضائها وهكذا استطاعت ان تكتسب وجودها كرقم .

ان كامل المعادلة ، بالرغم من أنها قد دُونت بترقيمنا المنكود كتجمع مصطلحات ، إلاّ أنها هي في الواقع رقم واحد مفرد ، فليست الأحرف x ،y ،z ارقاماً اكثر مما هي + و = بأرقام .

وهكذا تدخل مباشرة الفكرة المناهضة كليا للفكرة الاغريقية ، فكرة اللامعقول ، ميدان العلم ، وبذلك تنهار أسس الفكرة القائلة بان الرقم ثابت ومُعرف ومقرر. ولم تعد منذ الآن فصاعداً سلاسل أرقام كهذه صفاً منظوراً من التزايد ، أرقاماً مُميّزة قائمة بذواتها، أرقاماً قادرة على التجسد التشكيلي، بل إنما أصبحت هذه السلاسل « كونتنيوم » (Continnum)موحدالابعاد، حيث يمثل كل مقطع منه رقماً . ومن الصعب جداً أن نوفق بين مثل هذا

الرقم وبين الرقم الكلاسيكي ،وذلك لأن الرياضيات الكلاسيكية تعرف فقط رقماً واحداً يقع بين ١ و ٣ (اسات) بينما أن الرقم الغربي ذو مجموعات من أرقام كهذه لا نهائية في مجموعها . ولكن عندما ندخل في حسابنا الارقام الخالية (i أو $\sqrt{-1}$) وأخيرا الارقام المركبة ($a + bi$) كما ويتسع « الكونتنيوم » المخطط طولاً ، ليصبح شكلاً فائق السمو لجسد الرقم ومثلاً على ذلك ، محتوى مجموع من العناصر المتجانسة ، حيث يصبح فيها أيٌ من مقاطعها ممثلاً بسطح رقم ومحتوياً على مجموع لانهائي من أرقام أدنى قوة ، (مثلاً : جميع الارقام الحقيقية) وهنا لايبقى أي أثر للرقم ، بما للرقم من مفهوم كلاسيكي أو شائع . إن هذه السطوح الرقمية التي لعبت ، منذ عهد « كوتشي » « وريمن » ، دوراً هاماً في نظرية الوظائف هي صور فكر مجردة.وحتى الرقم الايجابي غير المعقول(مثلاً $\sqrt{2}$) كان بالامكان أن تدركه العقول الكلاسيكية وفق طراز سلبي ، والحق أنه كان لديهم عنه قدر من فكرة ما يكفي لتحريمه . ولكن ادراك تعابير شكل ($x + yi$) كان فوق كل إمكانات العقل الكلاسيكي ، بينما أننا نحن قد أقمنا على مبدأ امتداد القوانين الرياضية إلى كامل ميدان الارقام المركبة، حيث تبقى هذه القوانين داخل هذا الميدان نشيطة فعالة ، أقول أقمنا على مبدأ الامتداد نظرية الوظيفة (Function theory) ، هذه النظرية التي استطاعت أخيراً أن تعرض الرياضيات الغربية بكل نقاء ووحدة . ولم نستطع قبل بلوغ هذه النقطة الانفة الذكر ، أن نعدل أو نصلح في الدائرة الموازنة لها (للرياضيات) ، دائرة فيزيائنا الغربية الديناميكية ، وذلك لأن الرياضيات الكلاسيكية لاتصلح لغير « الستريومتري »[1] المؤلف من أشياء فردية ، ولاتناسب سوى الميكانيكا السكونية كما تطورت هذه الميكانيكا ابتداءً من ليوسبوس حتى أرخميدس .

إن العصر الذهبي للرياضيات «الباروكية » ، وهي نسخة طبق الأصل عن

---

(١) Stereometry فن تقرير الاحجام والعناصر الأخرى المؤلفة من اشكال صلدة .

الرياضيات « الايونية » يقع بصورة رئيسية ، في القرن الثامن عشر ، ويمتد من الاكتشافات الحاسمة التي قام بها « نيوتن » وليبنتز ، « فـأيلر » ، و« لاغرنج » ، و« لابلاس » و« دالمبرت » حتى « غاوس » .وعندما وجد هذا الابداع الجبار جناحين له ،أمسى نموه عجائبياً مذهلاً ،حتى أن الكثيرين من الرجال كان من الصعب عليهم أن يصدقوا حواسهم ، فلقد شهد عصر الشك الراقي ولادة حقائق تبدو مستحيلة يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولقد توجب على « دالمبرت » أن يقول فيما يتعلق بنظرية المعامل التفاضلي :

« تقدم ! فالايمان سيأتيك ! » .

حتى المنطق نفسه بدا يرفع الاعتراضات كي يبرهن على أن الاسس التي قامت عليها تلك الحقائق أسس مخادعة مضللة ، ولكن الهدف قد تحقق ، والغاية قد تجسدت .

لقد كان القرن الثامن عشر مهرجاناً للتفكير التجريدي غير المادي ، حيث قام أرباب التحليل العظماء ، وقـام معهم « باخ » و« غلوك » « وهايدن » و «موتزارت » ، وهم جماعة صغيرة ارباب عقول عميقة تأملية ،قاموا لينتشوا بخمرة أعظم الاكتشافات وأشدها إرهافاً وليذوبوا في بحران التأملات ، التي بقي « غوتيه » و «كنت » بمعزل عنها .

ان محتوى هذا القرن (الثامن عشر) يوازي (يعادل) تماماً محتوى أنضج القرون « الايونية » قرن « يودوكسوس » و « ارختاس » (٤٤٠ - ٣٥٠) وبمقدورنا ان نضيف قرن « فيدياس « وبوليكليتوس و « ألكامينس » وأبنية الاكروبول ، حيث تبدى فيه شكل عـالم النحت والرياضيات بانضج قواه وإمكاناته ،.فختم بذلك نهايته .

والآن أصبح باستطاعتنا ، لأول مرة ، أن ندرك إدراكاً كاملاً التعارض الجوهري بين النفسية الكلاسيكية والغربية . والحق ، أننا لانجد في كامل المنظر العام « البانوراما » للتاريخ ، بما فيه من علائق وثيقة لاتعد ولاتحصى،

شيئين متعارضـــين مختلفين اختلافـــاً جوهرياً كهذين الشيئين . (النفس الكلاسيكية والنفس الغربية) وقد يكون احترامنا للكلاسيك ناشئاً عن القاعدة القائلة بان النقيضين يلتقيان ويتفقان عندما يبلغ كل منهما نهاية مطافه ، وذلك لأن هناك أصلاً عميقاً مشتركاً بينهما يكمن وراء تباعدهما واختلافهما ، وهذا مما نجده في حنين النفس «الفوستية » الغربية الى المثل الاعلى «الابولوني» وهو المثل الوحيد الغريب عنا الذي أحببناه وحسدناه على قدرته على العيش بقوة في الحاضر المحسوس .

- ١١ -

لقد سبق لنا أن لاحظنا أن الجنس البشري البدائي ، هو كالطفـــل ، يكتسب (كجزء من خبرته الباطنيـــة ، وأعني ولادة « الأنا » ego) فهمـــاً بالرقم وملكية عالم خارجي ُتنسب الى « الأنا » . وحالما تدرك عين الانسان البدائي المذهولة فجر عالم الامتداد المُنتظم ، ويبرز أمامـــه المغزى ، في خطوط عريضة كبرى ، من حمأة الانطباعات المجردة ، وينفصل العـــالم الخارجي عن عالمه الخاص انفصالاً محتوماً لا لقاء بعده ، ويعطي عالمه الباطني حياته الواعية شكلا واتجاهاً ، عندئذٍ ينبعث فوراً في النفس وعي بتوحدها وعزلتها ووحشتها ، وهذا الوعي هو شعور جذر الحنين، وهو الذي يستحث الصيرورة نحو هدفها ، وهو الذي يدفع بكل الاحتمالات الباطنية الى التحقق والاكتمال ، وهو الذي يكشف عن فكرة الكائن الفرد . إنه حنين الطفل ، حنين يزداد تدفقه على الوعي ويزداد وضوحاً ، يومـــاً بعد آخر ، كحس بالاتجاه ، ثم يقف أخيراً أمام الروح الناضجة ، كأحجية الزمان ، غريبة شاذة ، مغرية غير قابلة للحل ، وفجـــأة تكتسب الكلمتان ، « الماضي » و « المستقبل » مفهوماً خطيراً حتمياً .

لكن الحنين النابع من نعيم الحياة الباطنية هو ، في صميم جوهر كل نفس،

مروع ومرعب ايضاً ، وذلك بمـــا أن كل شيء في الصيرورة ينطلق ليصبح شيئاً قد صار، حيث ينتهي ، فهكذا فان الشعور الاولي للصيرورة (الحنين) يلامس الشعور الاولي لما صار ، أي الرعب . أما الحاضر فنشعر بانه يستهلك نفسه قطرة قطرة ، وأما الماضي فيستلزم مُضيّاً . وهنا يكمن جذر رعبنا الأبدي مما لا يُرد أو يُنقض ،رعبنا المُدرَك النهائي ،الرعب من الفناء، ومن العالم نفسه كشيء في مجرى الصير ، حيث يشكل الموت كما تشكل الولادة حداً . رعبنا من اللحظة التي يتحقق فيها ، فتكتمل الحيـــاة باطناً ويقف الوعي عند هدفه . انه رعب عالم الطفل العميق ، هذا الرعب الذي لا يفارق أبـداً الانسان الارقى ، المؤمن ، الشاعر ، الفنان ، وهو الذي يستثير في الانسان شعوراً طاغياً بالتوحد والعزلة والوحشة أمام قوى غريبة عنه تتبدى طلائعها مهددة منذرة وراء ستار ظاهرات الحس . ان عنصر الاتجاه ايضاً ، وهو عنصر ملازم « للصير » هو عنصر يحس نتيجة لحتميته التي لا ترحم ، بأنه عنصر غريب عدائي مناجز ، زد على ذلك ان الارادة البشرية للفهم تسعى أبداً لتسجن كل غامض ومبهم داخل قمقم الاسم .

ان هذا التحول من المستقبـل الى الماضي لأمر يستعصي على الادراك ، ولذلك فان للزمان دائماً ، في تعارضـه والفراغ ، غموضـاً مُحبِطاً ظالماً ، لا يستطيع معه أي انسان جدي أن يتقي شره تماماً .

ان الرعب من العالم هو لا شك ، أخصب الأحاسيس الاوليـــة ابداعاً وخلقاً ، والانسان ليدين لهذا الحس باعمق الاشكال وانضج الصور وأكملها ، وانني لا أعني فقط صور حياته الباطنية واشكالها ، بل انمـا أعني ايضاً صور الحضارة واشكالها الخارجية المتعددة الانواع تعدداً غـير متناه والتي تعكس هذه الحياة .

والرعب من العالم أشبـه بنغم سري لاتستطيع كل أذن أنتدركه، لكنه ينساب مع هذا ، من خلال شكل لغة كل عمل فني أصيل ، ومن كل فلسفة باطنية ،ومن كل عمل هام خطير،وبالرغممن ان اولئك الذين تستطيع آذانهم

أن تدركه هم قلة القلة ، إلا أن هذا النغم تلف تموجاته حول جذر القضايا الرياضية العظمى ولا يستطيع غـــير الانسان الميت روحاً ، انسان المدن الخريفية ، انسان بابل حمورابي ، وانسان الاسكندرية « البطلمية » وانسان بغداد المسلمة ، وانسان باريس وبرلين اليوم، بالاضافة الى السفسطائي ،والمادي والدارويني ، أن يعجز عن سماعه او أن يتجنب سماعه بواسطة اقامته لنظرة علمية عالمية مفضوحة الاسرار ، بين ذاته وكل عنصر غريب عنه .

ولما كان الحنين يشد نفسه الى ذاك الشيء ما (Some thing)الهبائـــي المستعصي على اللمس ، والمستوعب لمظاهر ذات الف شكل وشكل ، مظاهر يستوعبها اكثر مما تشير هي اليه ، لذلك فان كلمة « الزمان » (وهكـــذا أيضا الشعور الأولي « الرعب ») تجد التعبير عنها في رموز الامتداد الذهنية المفهومة الوجيزة ، ولذا نجد أن كل حضارة ، تعي (كل واحدة منها وفـق اسلوبها) التعارض بين الزمان والفراغ ، بين الاتجاه وبـين الامتداد ، ويكمن الاول وراء الثاني ،كما تتقدم الصيرورة ما قد صار .ان الحنين هو الكامن وراء الرعب ، وهو يناسبه ويلائمه وليس العكس .

فالاول لا يخضع للعقــل ، بينما أن الثاني هو خادم العقل وعبده ، ودور الأول تحدده الخبرة والتجربة ، بينما أن دور الثاني تحدده المعرفة وعيشه.ولقد عبرت اللغة المسيحية عن التعارض بين الشعورين بالعالم (الحنين اليه والرعب منه) بالجملة التالية :

« فلتخف الله ولتحبه ! »

ان داخل نفس جميع أبناء الجنس البشري البدائي ، كما هي حال الطفولة المبكرة جداً ، شيئا ما يحرض على ايجاد وسائــل للتعامل مع القوى الغريبة لعالم الامتداد ومعالجة أمرها ، وهذه القوى تؤكد ذواتها باصرار وعناد في الفراغ وخلاله ، أما السيطرة عليها أو لجمها او تهدئتها او معرفتها ، فإن هذه الأمور في نهاية المطاف هي أمر واحد لا يختلف أحدها عن الآخر .

لقد كان الانسان في العهود الصوفية البدائية يسلك الى معرفـة الله سبيل

التضرع والمناشدة ، ويسعى كي يرضى عنه ويجاهد كي يمتلكه باطنا ، وكان يحقق هذه الأمور بواسطة استخدام وسائل كلمـــة هي الاسم » (Name) الـ « Nomen »[1] وهذه الكلمة تشير الى كلمة أخرى هي (Numen)[2]، وبواسطــة الممارسات الطقوسية والتعبد لقوة سريـــة ، ولكــن أشد اشكال هذاالدفاع (عن النفس أمام هذه القوى الغريبة مراوغة وجبروتـاً ، انما يتمثل في المعرفة السببية المنهاجيـة التي تعبر عن نفسها بتحديدهـا للتخوم بواسطة الاشارة والرقم . ويصبح الانسان انسانا مكتملاً عندمـا يكتب لغة ، وحينا تنضج المعرفه فتتألق ثمارها كلمات،عندئذٍ تتحول مادة الانطباعات الهيولية داخل نفسها فتصبح طبيعة (Nature) لهـا قوانين تتوجب عليها اطاعتها ، ويمسي العالم داخل نفسه عالماً لنا .

ان الرعب من العالم لا يهدأ إلا عندمـا يقوم شكل اللغة الفكري بطرق النحاس ليصنع منه اوعية يأسر الغامض داخلها ويسجنه ويجعله واضحـاً مفهوماً ، وهــذا العمل هو بالواقع مغزى فكرة « التابو »[3] (Taboo) وفحواها ، و « التابو » تلعب دوراً حاسماً وخطيراً في الحياة الروحية لجميع ابناء البشر البدائيين ، وذلك بالرغم من ان محتوى هذه الكلمة يبلغ من البعد عن اذهاننا حداً لا نستطيع معه ان نترجمها الى كلمة أخرى من كلمات لغات الحضارات الناضجة .

ان الارهاب الأعمى ، والرعب الديني والتوحيــد العميق والكآبة ، والبغضاء والدوافع الغامضة التي تدفع بنا كي نقترب ، ونخوض الغمرات ، أو نفر ، ان كل هذه الأحاسيس الناجزة التكوين لنفس ناضجة، تكون في مرحلة

---

(١) Nomen اسم يدل على الفخذ الذي يشتمل علىالعائلات تنحدر من صلب واحد لكنه لا يأخذ بعين الاعتبار سوى الذكور من افرادها . ـ المترجم ـ

(٢) Numen دين روماني يؤمن بوجود روح إلهية مسيطرة على العالم . ـ المترجم ـ

(٣) نهي مقدس عن اتيان اعمال معينة او استعمال كلمات واشياء معينة ، قالت بهذا النهي الديانات البدائية ـ المترجم ـ

الطفولة مشوشة ُملوثة داخل الحيرة الرتيبة .

ان لكلمة التضرع معنيين ، متلازمين هما الربط والمناشدة ، وهذان المعنيان قد يساعداننا على إيضاح مغزى عملية التصوف التي تجعل من الشيء الغريب الجبار في نظر الانسان البدائي « تابو » ، فالرعب المُبجّل لما هو مستقل بذاته عن الانسان ، او فالاشياء المنتظمة والمقررة وفق قانون ، أو قوى العالم الغريبة ، هو النبع الذي تنبع منه كل الاعمال المتزايدة ، فرداً ومجموعاً .

ولقد تجسد هذا الشعور (الرعب)في الازمنة المبكرة في الزخرفة والاحتفالات العملية والطقوس الدينية الشاقة ، وفي قوانين التزاوج الناظمة القاسية ، ولقد أصبحت هذه التشكيلات الآنفة الذكر ، بالرغم من احتفاظها.باطناً بطابع أصلها وحفاظها على مميزات التصدع والربط ، وذلك حينما بلغت الحضارات العظمى ذراها ، أقول أصبحت شكلاً مكتملاً لعوالم فنون وديانات وعلوم متعددة ، لكنها أصبحت قبل كل شيء شكلاً مكتملا للفكر الرياضي . أما المنهاج المشترك بين هذه التشكيلات كلها (وهو الوسيلة الوحيدة التي تعرفها النفس للتحقق) فانما هو الرمز إلى الامتداد وإلى الفراغ أو إلى الاشياء . وهذا ايضاً (الرمز الى) نجد له مثيلاً في مفاهيم الفراغ المطلق الذي،يتخلل فيزياء نيوتن ، وفي قاعات الكاتدرائية الغوطية والمساجد المغربية ، وفي اللانهاية اللوحية المتبدية في رسوم رمبراندت ، وفي عوالم أنغام رباعيات بيتهوفن المظلمة ، وفي أحجام يوقليد البولوهدرونية (المتعددة الزوايا والاضلاع) وفي النحت « البرثوثنوني » . وفي اهرامات مصر القديمة ، وفي نيرفانا بوذا ، وفي ترفع تقاليد البلاط في عهود سسوسترس » ويوستنيان الاول ولويس الرابع عشر ، وفي فِكرَ (جمع فكرة) اشيل وبلاطنيوس ودانتي ، وفي عالم التقنية الحديثة المشتمل على طاقة فراغية .

ولنعد الآن الى بحث موضوع الرياضيات لقد كانت نقطة الانطلاق لكل عمل اشتقاقي (Formative) تتمثل ، كما سبق لنا أن رأينا، في تنظيم «الـصَّير» كما هو موجود ومرئي وقابل للقياس وللاحصاء . أما الحس الغربي ، الغوطي، بالشكل فانما هو حس مخالف تماماً للحس الكلاسيكي ، إذ أنه ينبع من نفس لا يقيدها قيد ولا يحدها حد ، نفس ذات ارادة قوية طليقة بعيدة المدى اختارت الفراغ المجرد اللامحدود وغير المحسوس شعاراً لها . ولكن علينا ألاّ نُقاد لنعتبر أن رموزاً كهذه هي رموز غير مشروطة ، فهي بالعكس تماماً مشروطة ، ومشروطة بدقة ، انها جديرة بان يُنظر اليها على انها ذات جوهر وصحة مطابقين لها .

ان كوننا (Universe) ذا الفراغ اللامتناهي والذي نعتبر وجوده فوق كل نقاش وجدل بالنسبة الينا ، لم يكن موجوداً وقائماً في نظر الانسان الكلاسيكي ، ولم يكن حتى بالامكان عرض مثل هذا الكون عليه . ومن جهة أخرى فان الكون الاغريقي الغريب على اسلوب تفكيرنا كل الغرابة (ومن الجائز أننا اكتشفنا هذه الحقيقة منذ طويل زمن) كان أمراً غنيا عن البيان بالنسبة الى الانسان الاغريقي . ان الحقيقة اذن هي أن الفراغ اللامتناهي لفيزيائنا هو شكل يتألف من عناصر بالغة الضخامة في عددها وتعقيدها ، وهذه العناصر تُنتحلُ انتحالاً مقدراً مُضمَرا ، وقد خرجت الى ميدان الوجود بوصفها فقط صورة وتعبيراً عن نفسنا، (Soul)وهي واقعية وضرورية وطبيعية بالنسبة الى نمطنا في الحياة الواعية .

ان التطورات البسيطة هي دائما اشد التطورات صعوبة . وهي بسيطة في أنها تشتمل على كمية ضخمة من الامور التي لا تستعصي فقط على العرض عرضاً كلامياً ، انما هي ايضاً لا تحتاج حتى الى الافصاح عنها ، لانها ترسو بالنسبة الى جماعة معينة من الاشخاص داخل البديهة ، وهي صعبة ايضاً ، لان محتواها

الحقيقي يستعصي ، في حد ذاته ، تماماً ، على ادراك الشخص الغريب .

ان تصوراً كهذا يبدو فوراً سهلاً وصعبا ، هو المعنى الغربي المميز لكلمة « فراغ » .

ان جميع رياضياتنا ابتداء من ديكارت فما بعده، قد كُرِّست الترجمة هذا الرمز الديني العظيم برمته ، ترجمة نظرية ، زد على ذلك أن هدف كل فيزيائنا ابتداء من « جليليو » فما بعده ، هو هدف مطابق مماثـــل لهدف رياضياتنا الآنف الوصف ، لكن محتوى هذه الكلمة (الفراغ) كان مجهـــولاً تماماً من الرياضيات والفيزياء الكلاسيكيتين .

وهنا ايضاً تلقي الاسماء الكلاسيكية الموروثة عن الأدب اليوناني والـتي لا تزال متداولة بين الناس ، الأقنعة عن وجوه الحقائق . فكلمة « الهندسة » تعني فن القياس ، وكلمة « الحساب » تعني فن العد، ولقد خرجت الرياضيات الغربية منذ طويل زمن ، من نطاق التعريفين السابقين الذكر، لكنها لم تستطع ان تتدبر أسماء جديدة لعناصرهـا الخاصة ، وذلك لأن كلمة « التحليل » كلمة لا تفي بالمراد أبداً .

ان الرياضيات الكلاسيكية تبدأ وتنتهي بالاهتمام بخاصيات أجسام افراديـة وسطوح حدها ، وهكذا فانها تدخل ، بصورة غير مباشرة، في دائرة اهتمامها المقاطع المخروطية والاقواس (الخطوط المنحنية) الارفع رقيـاً . بينما نحن ، من جهة أخرى، لا نعرف سوى العنصر الفراغي التجريدي للنقطة، (Point) وهذا العنصر يستعصي على النظر والقياس والتسمية ، لكنه يمثل ، ببساطة ، مركزاً للاستدلال ، زد على ذلك ان الخط المستقيم هو في نظر الاغريق حـد قابل للقياس ، بينما هو في نظرنا يشكل « كونتنيوم » لا متناهياً من النقاط . ويصور « ليبنتز » مبدأه في اللانهائي الصغر ، فيورد الخط المستقيم كوسيـلة تحديد ، والنقطة كوسيلة تحديد أخرى لدائرة نصف قطرها غـير متناهٍ في طوله ، أو دائرة أخرى نصف قطرهـــا لا نهائي في قِصَره . لكن الدائرة كانت في نظر الانسان الاغريقي مستوى ، وكان كل ما يهمه من امرها هو ان

يدفع بهذا المستوى الى حال يجعله قابلاً للقياس ، وهكـــذا اصبح تربيع الدائرة ، بالنسبة الى العقل الكلاسيكي ، المشكلة العليا للنهائي .

ولقد بدا للعقل الكلاسيكي ان أشد معضلات شكل العالم تعقيـداً تتمثل في تبديل سطوح محددة بخطوط منحنيـة ، الى مستطيلات ، شريطة ان يحافظ على أحجامها ، كي يجعل مثل تلك السطوح قابلة للقياس ، امـا نحن ، من جهة أخرى ، فلقد تعودنا ، وهذا ليس بأمرٍ ذي أهمية خاصة ، على ان نعرض الرقم (π) بوسائل جبرية ، دون ان نكترث أو نأبه بأيـــة صورة هندسية .

ان الرياضي الكلاسيكي لا يعرف سوى ما يراه ويدركه . لذلـك تنتهي علومه حيث ينتهي مدى رؤيته المُعَرّفة والمقررة ، وهذه الرؤيـــة تشكل كامل ميدان فكره . بينما ان الغربي قد انطلق ، حالما نفض عنه شباك التحيز للكلاسيكية ، الى ميدان تجريدي مطلق يحتوي على العديـد من متضاعفات (Manifolds) الابعاد التي نعبر عنها بالحرف N ، ولم يعد بهـذا رهين سجن الابعاد الثلاثة ، وبذلك أصبح ما يُسمى بالهندسة قادراً دائماً ، وعليه ان يعمل دائماً دون ما حاجة الى مساعدة أي من الأمور المعلومة .

وعندما ينطلق الانسان الكلاسيكي ليعبر عن حسه بالشكل تعبيراً فنياً ، فانه يحاول بواسطة الرخام والبرونز ، ان يعطي الرقص او شكل الانسان المصارع ، ذاك الوضع Pose او الموقف حيث تصبح فيها معـــاني السطوح ومحيطات الشكل وتناسبها بمتناول الفهم ؛ بينما ان الفنـــان الغربي الاصيل يغمض عينيه ويشرد في ميدان الموسيقى المعدومـــة الجسد ، حيث يقوده التناغم والبولوفوني [1] الى صور تقع وراء كل حس وتتسامى فوق كل امكانات التعريف البصري . ويكفي للمرء ان يفكر بما كانت تعنيه كلمـــة شكل في مفهوم المثّال الاغريقي ، وبما كانت تعنيه الكلمة ذاتها للموسيقي البـــولوفوني

الموسيقى المتعددة الاصوات : Polyphony

الشمالي ، عندئذ يتضح التعارض بين العالمين ، الكلاسيكي والغربي ، ويتبدى الخلاف بين رياضياتها جلياً واضحاً . لقـــد كان الرياضيون الاغريق يستعملون دائماً الكلمة (. . .) للتعبير عن ذاتياتهم ، تماماً كما كان المحامون الاغارقة يستعملونها الى اشخاص مميزين عن الاشياء . (. . . .) لذلك فان الرقم الكلاسيكي ، التكاملي منه والعيني ، كان يسعى بالضرورة لربط ذاته بولادة الانسان المتجسد . فالرقم « ١ » مثلاً من الصعب حتى الآن ادراكه كرقم واقعي ، بل انما بالاحرى هو كـ (...) ، المادة الاولية لسلاسل رقمية ، وأصل جميع الارقام الحيوية ، ولذلك فهو [١] اصل كل الاحجام والقياسات والشيئية .

لقـــد كانت الاشارة الرقمية ، في المجموعـة الفيثاغوريـــة للرقم هي الرمز ايضاً لرحم الام ، اصل كل حيـــاة . ولذلك صنف العدد الاحادي – ٢ – ، هو مضاعف الرقم – ١ – ذكراً وأعطي اشارة هي اشارة العضو التناسلي للذكر ، واخيراً فان العدد – ٣ – ، هـــذا العدد المقدس لدى الفيثاغوريين ، كان يشير الى مواقعة الرجل للمرأة ، اي الى عمليـــة التكاثر والتفريخ . اما الاستهواء الشهواني الواضح بسهولة في الجمع (+) والضرب (×) (وهما العمليتان الوحيدتان لمضاعفة التكاثر ، والتفريخ ، وهـــذا امر مفيد للانسان الكلاسيكي) فانها قد اعطيا اشارة (+)(×) هي مركب للاولين .

والآن فاننا لنسلط ضوءاً جديداً كل الجدة على الخرافات التي اشرنا اليها سابقاً ، الخرافات المتعلقة بانتهاك حرمات الاشياء المقدسة وتدنيسهـــا حينما نمزق القناع عن اللامعقول .

ان اللامعقول ، (والذي نعبر بلغتنا عنه باستخـــدام كسور عشرية غير متناهية ،) قد استلزم تدمير نظام عضوي جسدي تناسلي وضعته الالهـــة .

---

(١) رأينا ان نترجم الكلمـــة الالمانية Dinglichkeit بالشيئية ، بينما ترجمهـــا المترجم الانكليزي «Materiality» بالصيرورة مادياً . وقد استعملنا النقاط مكان الالفاظ اليونانية التي ليس لها مرادف باللغات الاوروبية او العربية .

ولا شك بأن الاصلاحات الفيتاغورية التي طرأت على الدين الكلاسيكي، كانت نفسها مستندة الى مذهب الالهة ديمتر [1] ، وديمتر ، هي شبيهة بالأرض الأم ، وهناك علاقة عميقـة بين التبجيل الذي تدفعه لهذه الإلهة وبين المفهوم المبجّل للارقام .

وهكذا اصبحت الكلاسيكية تدريجياً حضـارة الصغار . ولقد حاولت الروح الابولونية ان تقيد الأشياء في الصير ، بواسطة مبدأ الحدود المنظورة ، وكان «تابوها » (Taboo)مركزاً على الحاضر الآني وعلى الغريب الملازم له . وكان ما هو بعيد ، او غير منظور ، «غيرَ موجود » قولاً وفعلاً . وكان من عادة الانسان الاغريقي او الروماني ، ان يضحي لإله البلدة او المدينـة التي يمكث فيها او يقطن ، اما بقية الآلهة فكانت وراء مرمى بصره . زد على ذلك ان اللسان الاغريقي (اللغة الاغريقية) (ونحن سنشير دائماً ومرة بعد اخرى الى الرمزية الجبارة لظاهرات لغوية كهذه) لم يكن يملك كلمة فراغ، وهكذا فان الاغريقي كان يفتقر الى شعورنا بالصقع والافق والتبـاشير والمسافات والغيوم ، ويفتقر ايضاً الى مفهوم الوطن المترامي الاطراف والذي يضم الى صدره امة عظيمة . فالوطن بالنسبة الى الاغريقي هوليس اكبر من تلك البقعة من الارض التي يستطيع ان يراها من ابراج قلعة بلدته ، وكان كل ما يقع وراء مرمى بصر هذه الذرة السياسية ، غريباً عنه معادياً له من قمة رأسه حتى اخمص قدمـه ، وقـد تمركز الخوف وراء مرمى ذاك البصر ، وتدفقت ، نتيجة له ، المرارة المنفرة للنفس ، لتنظيم علائـق هذه البلديات التافهة بعضها ببعض ولتدفع بكل منهـا لتجاهد ضد الاخـرى ولتدمر الواحدة الثانية . إن « دولة المدينة » (Polis) هي اصغر اشكال الدول التي يمكن للعقل ان يدركها ، وسياستها بصراحة ، هي سياسة قصيرة النظر ، وهي لذلك تختلف عن سياستنا المعروفة « بالدبلوماسية الوزارية » والتي هي

---

(١) ديمتر – Demeter – الهة الارض والخصب والزراعة والاخصاب البشري عنـد اليونان وحارسة الزواج ، وكان اسمها عند الرومان « سيريس » (Ceres) – المترجم –

سياسة اللامحدود . وشبيه لهذا الهيكل الكلاسيكي والذي تستطيع العين ان تستوعبه بلمحة واحدة من لمحاتها ، وهو والحق لشكل معماري جد اولي. (لاحظ لم يقل بدائياً – المترجم) فقد كانت الهندسة الكلاسيكيه أبتداءً من ارخيتاس حتى يوقليد ، تشغل نفسها بأعداد واجسام واحجام واشكال صغيرة تستطيع ان تتدبر امرها ، (شأنها في ذلك شأن المدرسة الهندسية المعاصرة التي لاتزال مستعبدة للكلاسيكية) ولذلك فان الهندسة الكلاسيكية بقيت لاتدري بالمصاعب التي تنجم عن تقرير ارقام ذات ابعاد فلكية ، والتي في كثير من الحالات لاتذعن للهندسة اليوقليدية ، ولولا ذلك لاستطاعت النفس «الأتيكية » المخاتلة المراوغة ان تتوصل الى بعض تصور لمسائل هندسية غير يوقليدية ، وذلك لأن نقدها لقاعدة المتوازي[1] المعروفة جداً ، والتي سرعان ما اثار الشك فيها معارضة ، مع أنه لم تشرح هذه القاعدة بأية طريقة من الطرق ، اقول ان نقدها ذاك قد اقترب بها حتى كادت تلامس الاكتشاف الحاسم . (الهندسة اللايوقليدية – المترجم –) لقد كرس العقل الكلاسيكي ، دون جدل ، كل امكاناته للصغير والقريب ، بينما ان عقلنا قد كرس نفسه لبحث اللانهائي وما وراء البصر . لذلك اخضع الغرب آليا جميع الافكار التي ابدعها او استعارها من الآخرين الى شكل لغة اللامتناهي ، وذلك قبل زمن طويل سبق اكتشاف حساب التفاضل الحالي . ولقد امتص المنهاج التحليلي الجبر العربي وحساب المثلثات الهندي والميكانيكا الكلاسيكية امتصاصاً بدهياً طبيعياً .

ان ، حتى الفرضيات الحسابية الابتدائية (لاحظ الفرضيات لا العمليات – المترجم) التي نقول عنها بانها « غنية عن الايضاح والبيان » مثلاً كالفرضية التالية :

$$٢ \times ٢ = ٤$$

تصبح اذا ما تأملنا فيها تأملاً تحليلياً مسائل ومعضلات ، ونحن لم نستطع

---

(١) انه بالامكان رسم خط مواز واحد فقط بواسطة نقطة معينة لخط مستقيم معين .

ان نجعل حل هذه المعضلات أمراً ممكناً إلا بواسطة الاستدلالات التي قدمتها إلينا نظرية الجاميع .

(Theory of Aggregates)

ولا شك بأن افلاطون وعصره كانا لن يريا في أمر كهـذا هلوسة فقط ، بل عقلاً لا رياضياً مغرقاً في غبائه ايضاً .

انه يمكننا ان نعالج الهندسة ، الى حد معين ، علاجاً جبرياً ، كما ويمكننا ايضاً معالجة الجبر الى الحد ذاته ، علاجاً هندسياً ، وهذا ما يعني ان باستطاعة العين ان تغمض عليها جفنيها ، أو بمقدورها ايضاً ان تراقب وتحكم . ولنأخذ لانفسنا البديل الاول ، ولنعطِ الاغريق البديل الثاني ، عندئــذٍ نرى ان ارخميدس قد لامس بمعالجته البديعة للاشكال الحلزونية بعض حقائق عامة هي جد اساسية بالنسبة الى منهاج « ليبنتز » التكاملي المحدّد ، لكن عملياتـه بالرغم من اصطناعها مظهراً حديثا لهــا ، تخضع للمبادىء الستريومتريكية ، وفي مثل هذه الحالة ، بمقدورنا ايضاً ان نقول بان رياضياً هندياً قد توصل الى شيء من نتيجة ما لمعادلات في حساب المثلثات .

- ١٣ -

وينشأ عن هذا التعارض الجوهري بين الارقام الكلاسيكية والارقــام الغربية ، اختلاف جذري في الترابط الذي يشد العنصر الواحد الى الآخر ، في كل من العالمين الرقميين ، فرباط الاحجام يسمى تناسباً ، أمــا رباط النسب فانما هو مُستَوَعب داخل تصور الوظيفة . ان أهمية هاتين الكلمتين(تناسب والوظيفة)لا تقتصر على الرياضيات بالذات ،بل إنها بالغتا الأهمية ايضاًبالنسبة للفنون المتحالفة ، فن النحت والموسيقى . وبغض النظر تماماً عن دورالتناسب في تنظيم أجزاء التمثال الفردي ، فان الاشكال الفنية للتمثال ، والنموذجية في كلاسيكيتها ،التضريس والنقش،تسمح بتضخيم او تصغير المقياس،(Scale)

(وهذه كلمات لا معنى لها اطلاقـــا في الموسيقى) كما نرى ذلـــك في فن الاشكال حيث تختزل مواضيعها مقاسات أصولهـــا الحية ، أما في ميدان الوظيفة ، فانما الحال هي على عكس ما ذكرت تماماً ، إذ أن لفكرة تحول المجموعات الأهمية الحاسمة ، ولا شك أن الموسيقي سيوافق دون ما اعتراض على أن فِكَراً مشابهة لتلك الفكرة تلعب دوراً أساسيا في نظريـــة التأليف الموسيقي الحديث . ولست بحاجة إلا الى أن أشير الى اجمال اشكال الموسيقى الجوقية في القرن الثامن عشر ، والمعروف باسم :

« (1) Tema con Variazioni »

أن التناسب يفترض الثبات ، بينما أن التحول يفترض تبـــدل الأصول ، ولنقابل مثلاً بين تطابق نظريات يوقليد والـــتي يعتمد بالواقع برهانهـــا على النسبة المفترضة

1 : 1

وبـــين الاستدلال الرياضي الحديث على النسبة ذاتها ، بواسطة الوظائف الزاوية (Angular) .

– ١٤ –

ان ألفا (A) واوميغا (∇) في الرياضيات الكلاسيكيـــة هي تركيب ، (لاحظ هي وليست هما – المترجم) (تركيب يشتمل في معناه الواسع على الحساب الابتدائي) أي انه نتاج شكل واحد منظور حاضراً . ان الازميل هو ، في هذا الفن النحتي الثاني ، البوصلة . ونحن في البحث الوظيفي ، حينما لا يكون الموضوع نتيجة لطراز من حجم ، بل انما يكون نتيجـــة بحث في امكانات شكلية عامة ، فان احسن ما نصف به عندئذٍ نهج العمل هو انـــه

---

(١) الموضوع ضد التبدلات . وعلى أساس هذا المبدأ تؤلف الموسيقى السمفونية – المترجم

اجراء تأليف يماثل مماثلة قريبة للتأليف الموسيقي. زد على ذلك أننا نقابل في نظرية الموسيقى عـدداً كبيراً من الفِكَر (المفتاح ، تركيب الاشارات ، وتركيب الالوان) التي نستطيع ان نستخدمهـا مباشرة في الفيزياء ، ونحن لن نكون بحاجة إلا الى أضيق جدل حينما نقرر اننا نوضح بعملنا الآنف الذكر الكثير من العلاقات .

ان من طبيعة كل تركيب ان يؤكد المظاهر ، ومن طبيعة كل عملية ان تنكرها ، وهكذا فان الاول يجسد ما هو معين بصرياً ، بينما ان الثاني يذيبه ، وهكذا نلتقي مرة اخرى بتعارض آخر بـين نوعي الرياضيات ، فالرياضيات الكلاسيكية ، رياضيات الاشياء الصغيرة تعالج الحال الفرديـة الصلدة وتنتج تركيباً هو بيضة الديك (الاول والأخير) . بينما ان رياضيات اللانهائي تعالج مراتب كاملة من الامكانات والاحتمالات الشكلية ومجموعات من الوظائف والعمليات والمعادلات والاقواس (الخطوط المنحنية) وتقوم بعلاجها كلها بعين لا ترقب ما قد يكون لهذه من نتيجة ، بل انما ترقب سياقهـا ومجراها .

لقد اخذت ، طيلة القرنين السابقين ، فكرة مورفولوجيا عامة للعمليات الرياضية تنمو وتتشكل (مع ان الرياضيين المعاصرين يجـدون من الصعب عليهم ادراك هذه الحقيقة) ونحن نملك كل المبررات في اعتبارنا لهذه المورفولوجيا الجديدة ، المعنى الحقيقي للرياضيات الحديثة ككل . وهذا كله ، كما سندرك بوضوح اكثر فأكثر ، هو ظاهرة من ظواهر ميل ملازم للفكر الغربي والخاص بالروح الفاوستية وحضارتها فقط ، لا غير .

ان الاكثرية الساحقة من المشاكل التي تشغل رياضياتنـا ، والتي تعتبر مشاكلنا الخـاصة ، كما كان تربيـع الدائرة يعتبر مشكلة الاغريق ، هذه المشاكل التي تبدو مثلاً في الابحاث الدائرة حول التقارب بين سلاسل لا متناهية (كوتشي) وحول تحول التكاملات الاهليلجية والجبرية الى وظائف دورية متكاثرة ، (آبل وغاوس) اقول ان هذه الاكثرية الساحقـة من المشاكل

كانت ستبدو للغابرين الذين كانوا يستهدفون دائماً نتائج كمية بسيطة ومقررة ، بمثابة عرض لمهارة غامضة مبهمة . والحق ان عقول العامة المعاصرة لا تزال تنظر اليها حتى اليوم نظرة الغابرين ذاتها . وليس هنـــاك من شيء بعيد عن العامة كالرياضيات الحديثة ، وهي ايضاً تحتوي على رمزيتها البعيدة بعداً غير متناه عن المسافة . ان جميع انجازات الغرب العظمى ، ابتداءً من الكوميديا الالهية حتى « بارسيفال » هي غير مألوفة او شائعة لدى العامة ، بينما ان كل شيء كلاسيكي من هوميروس حتى مذبح « برغامم » كان على ارفع درجة من الشهرة والصيت .

- ١٥ -

وهكذا وأخيراً ، فان كامل محتوى الفكر الرقمي الغربي يركز نفسه على مشكلة الحد للرياضيات الفاوستية ، والتي هي مفتاح اللانهائي ، هذا اللانهائي « الفاوستي » الذي يختلف اختلافاً كليا عن الفكر العالميـة لكل من العرب والهنود . ومهما كان الزي الذي يبدو به الرقم ، أكان سلاسل غير متناهية أم أقواساً أم وظائف) في حالة معينة خاصة ، فان جوهر (الرقم) هـو نظريةُ الحد (Theory of limit) ، وهذا الحد يمثـل التعارض المطلق للحد الذي يتمثل في المشكلة الكلاسيكية الماثلة في تربيع الدائرة . ولقـد قامت الفرضيات اليوقليدية الشائعة ، حتى خلال القرن الثامن عشر ، بطمس المعنى الحقيقي لمبدأ التفاضل . ان فكرة الكميات غير المتناهية في صغرها ، كانت كما يجوز لنا أن نقول ، بمتناول اليد ، .ومهما بلغت المهارة في معالجتها آنذاك ، فان هذه المعالجة لم تكن تخلو أبداً من أثر يطبعها به الثبات الكلاسيكي ، أثر يجعلها شبيهة بالأحجام ، مع أنها لو قدر لها أن تعرض على يوقليد نفسه لما كان باستطاعته أبداً أن يتعرف عليها أو ان يقبل بها وهـي على مثـل هذه الحال .

وهكذا فان الصفر (٠) هو رقم ثابت كامل في « الكونتنيوم » الخطي الممتد من + ١ ألى − ١ ، ولقد اصطدم « اويلر » بعقبة كؤود ، كما اصطدم بها غيره من بعده في بحثه التحليلي ، حينما عالج التفاضل بوصفه صفرا. ولم نستطع أن ننفض عنا هذا الأثر من الحس الكلاسيكي بالرقم نفضاً نهائياً الا في القرن التاسع عشر ، وذلك عندما أرسى « كوتشي » بايضاحاته المعرفة الاكيدة لفكرة الحد ، حساب التفاضل والتكامل اللامتناهي على أسس منطقية.

ان الخطوة الفكرية التي خطوناها من الكمية غير المتناهية في صغرها الى الحد الادنى لكل حجم ممكن في تناهي صغره ، هي وحدها التي قادتنا الى مفهوم رقم يتذبذب تحت رقم معين ليس هو بالصفر (٠) ولم يعد لرقم من هذا النوع أية خاصة من خصائص الحجم مهما كان شكلها او لونها ؛ وهكذا أخذ الحد أخيرا يعرض نفسه في نظرية ، ولم يعد الحد بعدذاك الشيء المقارب الى ، بل انما اصبح المقاربة نفسها ، أصبح السياق ، أصبح العملية ذاتها . وهو ليس حالاً بل انما هو علاقة .

وهكذا ، وبواسطة هذه المعضلة الحاسمة في رياضياتنا أصبحنا فجأة نرى أي حد تاريخي بلغه دستور النفس الغربية .

- ١٦ -

ان تحرر الهندسة من المنظور ، وتحرر الجبر من تصور الحجم ، واتحادهما معاً اتحاداً لا يتقيد بجميع محدوديات الرسم والعد ، انما هو التركيب العظيم الذي ابدعته نظرية الوظيفة . وهذا لا شك كان السبيل العظيم الذي شقه الفكر الرقمي الغربي . فلقد انحل الرقم الكلاسيكي الثابت المتحجر في الرقم المتحول المتغير . واصبحت الهندسة هندسة تحليلية اذابت جميع الاشكال المتحجرة . وحلت محل الاجسام الرياضيات التي كانت منها وبواسطتها

يستحصل على القيم الهندسية الصلدة الصارمة ، اقول حلت محل هذه العلاقات الفراغية التجريدية ، التي لم تعد في النهاية قابلة للتطبيق على اية ظاهرة حسية حاضرة . ولقد بدأت هذه تستعيض عن اشكال يوقليد البصرية بالمراكز (Loci) الهندسية المستندة الى نظام مماثل في مقامه لذاك ، وذي « أصل » جرى اختياره بصورة تعسفية . ومن ثم اخذت تختزل الموضوعية المفترضة لوجود الموضوع الهندسي حتى تبلغ بها تلك الحالة الواحدة، حيث يجب ان لا يطرأ فيها على المنهاج المماثل في مقامه لذاك ، والمختار اي تعديل خلال العملية (التي هي ذاتها عملية تعادل وليست بعملية قياس) .

ولكن سرعان ما اعتبرت هذه الأبعاد الاحداثيات قيما مجردة وبسيطة ، لا تكرس نفسها للتحديد تقريراً ، كما تكرس ذاتها لتمثل وتضع الحلول محل النقاط بوصفها عناصر فراغية .

ان الرقم وهو حد الاشياء في الصير ، لم يعد يعرض ، كما كان يعرض في السابق في صورة شكل، بل انما أصبح يعرض عرضاً رمزياً في صورة معادلة. فلقد بدلت الهندسة « معناها » ، واختفى المنهاج المماثل في مقامه ، كتصوير ورسم ، وأصبحت النقطة مجموعة رقمية كاملة التجريد. ونحن نجد هذا التحول الباطني للهندسة المعمارية من عصر النهضة الى العصر « الباروكي » في بدع ميخائيل انجلو و « فغنولا » . فلقد اصبح حال الخطوط المنظورة المجردة في واجهتي المحل والكنيسة ، كحالها في الرياضيات ، بلهاء عقيمة . وحل محل الابعاد الاحداثية الواضحة التي نراها في نظام صف الاعمدة الرومانية - الفلورنسية ، وفي طراز طوابق العمارات ، اقول حل لا نهائي الصغر محلها وجاء حلوله دفقاً فخماً من العناصر ، ومن الأقراص و « الخرطوش » ، وهكذا ذاب عنصر الانشاء في عنصر الزخرفة (الديكور) ، (ونحن اذا ما أردنا ان نعبر عن هذا العمل باللغة الرياضية نقول ذاب في العنصر الوظيفي ، فالاعمدة وانصافها المجتمعة في تشكيلات ومجموعات ، تعطل الواجهات وتجتمع وترفضُ ثانية قلقة متبرمة . وسطوح الجدار والسقف والطبقة ، هذه السطوح

المستويـــة تذوب في ثراء من انجازات معجون الرخام والزخارف ، وتختفي لتشرق في ارتجاج الضوء والظل . فلقد أصبح الضوء نفسه ، نتيجـــة للدور الذي خصه بـه عالم الشكل « البروكي » الناضج (مثلاً) في المرحـلة الممتدة من برنيني (١٦٥٠) الى الفن « الروكوكي » في مدن « درسدن وفينـــا وباريس » ، اقول أصبح في جوهره عنصراً موسيقياً ، فبناء « تزفنجر [١] » في درسدن هو لا شك سيمفوني كاملة. وهكذا نرى ان الفن المعماري في القرن الثامن عشر يتطور والرياضيات منذ ذاك القرن ليصبح عـالم شكل موسيقي الطباع .

- ١٧ -

لقد كان من المحتم على رياضياتنا ان تصل في الوقت المناسب الى نقطة تجعل النظرية والنفس معاً تحسان لابحدود الشكل الهندسي المصطنع فقـــط ، بل ايضاً بحدود الشكل المنظور ذاته ، بأنهـــا حدود بالواقع والفعل ، حدود تشكل عقبات في طريـــق التعبير ، الذي لايمكن له ان يعكس ، عـــن الإمكانات والاحتمالات الباطنية . وبكلمة اخرى اقول ، النقطة التي بدأ فيها المثل الاعلى لامتداد التسامي صراعه الاساسي ضد محدوديات الادراك الحسي الفوري . فالنفس الكلاسيكيـة كانـــت تخضع ، بالرغـــم من الاعتزال الافلاطوني والرواقي ، للحس الشهواني (كما يرينا المعنى الشهواني المستتر وراء الارقام الفيثاغورية) ، لذلك فانها كانت تحس برموزها اكثر بكثير من ان تعمل على بعث هذه الرموز من باطنها . لذا فان الجسدي كان عاجزاً هنـا ، وهناك عن التسامي عجزاً تامـــاً . ولكن حيث ان الرقم كما يفهم من الفيثاغوري يعرض جوهر معلومات (Data) فردية مميزية وقائمة بذاتها ، في

---

(١) بناء شيد في عهد الملك اغسطس الثاني عام ١٧١١ . – المترجم –

الطبيعة . الا ان « ديكارت » وخلفاءه كانوا يرون في الرقم شيئاً يتوجب عليهم ان يفتتحوه ويكتسحوه ويعتصروه ويغتصبوه ، وهو في نظر هؤلاء علاقة تجريدية ملوكية في عدم اكتراثها ولامبالاتها بجميع انواع المساعدات البصرية ، وهي قادرة على الاحتفاظ وحماية جوهرها من الطبيعة وفي كل الاحوال . ان ارادة القوة ، (ولنستعمل قاعدة « نيتشيه » العظيمة) ابتداء من العهود الغوطية المبكرة ، مرحلة الاداس[1] ، فالكاتدرائيات ، فالحروب الصليبية وحتى ابتداء من عهود الغزاة الغوطيين والفيكنغ ، أقول ان ارادة القوة قد اوضحت موقف النفس الغربية من عالمها ، وهذه الارادة تظهر ايضاً في الحيوية الحسية المتسامية ، في ديناميكية الرقم الغربي . لقد كان العقل في الرياضيات « الابولونية » خادماً للعين ، اما اليوم فلقد اصبح العقل في الرياضيات الفوستية ، سيداً لها ورباً . لذلك نرى ان الفراغ الرياضي المطلق ، لا يمت من قريب او بعيد الى الكلاسيكية باية صلة او نسب ، بالرغم من ان الرياضيين لم يجرأوا ، باجلالهم العميق للتقاليد الاغريقية ، على ملاحظة هذه الحقيقة ، اذ انها شيء مختلف عن السعة غير المعينة ، سعة الخبرة اليومية والرسم المألوف ، ولم يتجرأ هؤلاء حتى على معرفة استدلالية « كنت » الفراغية ، مع انها بدت كمفهوم غير مبهم وأكيد . انها والحق لحقيقة تجريدية مجردة ومثل أعلى وعرض لنفس لن تقبل بالاكتمال ، نفس تقصر الوسائل الحسية أقل فاقل ، عن اشباعها ، نفس ستطرح أخيراً تلك الوسائل جانباً ، فالعين الباطنية قد استيقظت من غفوتها .

وهنا ولاول مرة ، فان اولئك الناس الذين فكروا تفكيرا عميقاً ، قد أرغموا على اعتبار الهندسة اليوقليدية ، التي هي الهندسة الحقيقية والوحيدة للبسيط في كل العصور ، على أنها مجرد فرضية وذلك اذا ما نظر اليها من وجهة نظر أرقى وأرفع . أما صحتها العامة كما نعرف ، منذ عهد « غاوس » فهي مستحيلة على البرهان اذا ما جوبهت بهندسات أخرى تقع خارج نطاق الادراك

---

(١) عصر الاناشيد البطولية ، ويقع بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر . ــ المترجم

الحسي . ان الفرضية الخطيرة في هذه الهندسة التي تتمثل في قاعدة المتوازيات الفيثاغورية، هي مجرد زعم،نستطيع نحن بكل حرية أن نستبدله بزعم آخر. فقد نزعم،بالواقع ،أننا لا نستطيع أن نرسم من نقطة معينة أي خط موازٍ ، او نستطيع ان نزعم بانه بمقدورنا ان نرسم خطين ، أو خطوطاً كثيرة أخرى موازية للخط المستقيم المعين،وجميع هذه المزاعم تقود كلها الى هندسات أبعاد ثلاثة لا يأتيها اللوم من خلفها أو قدامها .

ويمكننا ان نستخدم هذه الهندسات في العلوم الفيزيائية والفلكية ، وهي في بعض الحالات مفضلة على الهندسة اليوقليدية . وحتى أن النظرية القائلة بان الامتداد لا حد له (وهذا الامتداد أصبح لا حد له منذ عهد ريمن وعهد نظرية الفراغ المحدودب ، وعلينا أن نميز بين مصطلحي لا حد له وبين ما لا نهاية له) أقول إن هذه النظرية تتناقض والطابع الجوهري لكل ادراك حسي فوري ، وفي هذه الحال فان هذا الأخير يعتمد على وجود مقاومة خفيفة ، وهو نتيجة لذلك يملك بحد ذاته قيوداً مادية . لكن يمكن للمرء أن يتخيل مبادىء الحد التجريدية التي تتسامى بالاحتمالات المعرفة بصرياً لتدخل بها نطاق حس جديد كل الجدة . زد على ذلك انه يكمن داخل الفكر العميق وحتى في الهندسة الكارتية ، نازع يدفع به كي يتجاوز الفراغ التجريبي ذا الابعاد الثلاثة ، حيث يعتبره حظراً غير ضروري على رمزية الرقم .وبالرغم من ان التصور لفراغ ذي أبعاد عديدة غفيرة،(ومن المؤسف أننا لا نجد كلمة أحسن من هذه لنصف بها الفراغ الآنف الذكر) قد امد التحليل بأسس اوسع . الا انالخطوة الحقيقية الاولى قد مشيت ، في اللحظة التي قطعنا بها علاقة القوى (وهي بالواقع اللوغرتمات) بالسطوح والاجسام المدركةحسيا ، واستطاع استخدام اللامعقول « والاسات » ان يدخل الى ميدان الوظيفة قيم علاقة عامة كاملة .

ولا شك بأن كل من يمتلك اي قدر من التفكير الرياضي يسلّم بأننا قد اجتزنا مباشرة مرحلة تصور a^3 كحد طبيعي اعلى الى مرحلة تصور a^n ،

وبهذا نفضنا من اذهاننا نهائياً الضرورة غير المشروطة لفراغ ذي ابعاد ثلاثة .

وحالما فقد العنصر الفراغي ، او النقطة ، آخر اثر بصري عليه ، واصبح بدلاً من ان يعرض على العين بوصفه مقطعاً في خطوط متساوية ، يعرض كمجموعة من ارقام مستقلة ثلاثة ، لم يعد هناك عندئذٍ من اعتراض ملازم على استبدال الرقم 3 بالرقم العام n . وهكذا تغير تصور الابعاد تغيراً جذرياً . فلم يعد يهدف الى معالجة خاصيات النقطة علاجاً عشرياً، مستنداً في ذلك الى مركزها في المنهاج المتطور ، بل انما اصبح يعرض كامل الخاصيات التجريدية لمجموعة رقمية بواسطة اي عدد يشاؤه من الابعاد .

ان المجموعة الرقمية المؤلفة من عدد n من العناصر المنتظمة المستقلة ، هي صورة للنقطة ، وهي تدعى النقطة . وبالمثل فان المعادلة التي يتوصل اليها منطقيا مما ذكرت ، تدعى بالمستوى (Plane) وهي صورة للمستوى . اما مجموع كل نقاط n من الابعاد فانما يدعى الفراغ ذا الابعاد n .

في عوالم الفراغ المتسامية هذه. والتي هي بعيدة كل البعد عن اي نوع من الانواع الحسية،توجد العلاقة التي يتوجب على التحليل ان يتحرى عنها ويبحثها ، والتي هي ، بصورة دائمة ، على وفاق ومعلومات الفيزياء التجريبية .

ان هذا الفراغ ذا المرتبة الارقى هو في كامله ملكية خاصة مميزة محصورة بالفكر الغربي . وذاك الفكر هو وحده الذي حاول ونجح في « الصير » وامسى ، نتيجة لذلك ، امتداد هذين الشكلين : ان تتضرع وان تربط ، هو ان تعرف « الغريب » بواسطة هذا النوع من وضع اليد او الاستيلاء او « التابو » .

والحق انه لم يكن بالامكان ، قبل وصول اجواء فكر رقمي كهذه ـ ومثل هذه الاجواء لا يتمتع بها الكثيرون من الناس ، بل القلة منهم ـ ان تكتسب مثلاً المناهج ذات الارقام المفرطة في تعقيدها (Hypercomplex) (كرباعيات حساب التفاضل والتكامل للموجهات (The Quaternions of the calculus of vectors) اي معنى ، او كما يبدو لرموز غير ذات معنى كـ ∞ ، اقول

لم يكن بالامكان ان تكتسب كل هذه المعاني طابع شيء واقعي .

ووفق هذا فقط ، لا وفق اي منهاج آخر ، يجب ان يفهم ان الواقعية هي ليست فقط الواقعية الحسية ، (لاحظ لم يقل المحسوسة – المترجم) اذ ان الروحاني لم يعد محدوداً بالاشكال المدركة حساً عندما يضع فكرته موضع التحقق .

– ١٨ –

من هذه البداهة العظمى لعوالم الفراغ الرمزي ، انبثقت آخر ابداعات الرياضيات الغربية ، (تمدد ومخاتلة النظرية الوظيفية في مجموعاتها ، فالمجموعات هي مجاميع او تكتلات من الصور الرياضية المتجانسة) مثل كل المعادلات التفاضلية لطراز معين ، والتي هي في تركيبها وانتظامها مماثلة لاجسام « ديديكايند » الرقمية .وهنا تطالعنا عوالم نحس بهاعلى انها عوالم ذات ارقام جديدة كل الجدة ، مع انها لاتتسامى مطلقاً حسيا فوق العين الباطنية للوذعي الماهر .

ان المعضلة الآن هي ان نكتشف ، في مناهج الشكل التجريدية هذه ، عناصر معينة تبقى بالنسبة الى مجموعة من العمليات المعينة (مثلاًتحول المنهاج) غير متأثرة به ، وهذا ما يعني انها تمتلك عدم التبدل او التحول ، ولنصف ما اوردناه آنفا باللغة الرياضية ، فنقول ان المسألة هي كما ادلى بها « كلاين » اذ قال :

هناك متضاعف (Manifold)ذو n من الابعاد (Space) ومجموعة من التحولات ،والمطلوب الان هوفحص اشكال المتضاعف من جهة خاصيات كهذه والتي لاتتبدل نتيجة لتحول المجموعة .

وببلوغ رياضياتنا الغربية هذه الذروة ، وباستنزافها لجميع امكاناتها الباطنية

وبانجازها لمصيرها بوصفه نسخة وتعبيرا وهو الاوضح تعبير عن فكرة النفس الفاوستية ، تنهي رياضياتنا تطورها بالطريقة ذاتها التي انهت وفقها الرياضيات الكلاسيكية في القرن الثالث تطورها .

ان كلا من هذين العلمين (الرياضيات الكلاسيكية والغربيـــة) (وهما الوحيدان اللذان يمكناننا ، حـــتى اليوم من فحص التركيب الأساسي فحصاً تاريخياً) قـد انبجس من فكرة رقم جديدة كل الجـــدة ، فتجسدَ الاولُ فيثاغوروس ، وتجسد الثاني « ديكارت » . وكلاهما اتسع وامتد بكل روعة وجمال وبلغ مرحلة نضوجه بعد أن اصبح له مئة عام من العمر ، ثم ازدهر مده هي قرون ثلاثة من الزمن حيث انجز خلالها تركيب فكرته ، وفي لحظة انجازهما لرسالتيهما انتقلا كما انتقلت حضارتاهما الى المدنيـــة ، مدنية المدينة العالمية الكبرى . واننا سنوضح المغزى العميق لهذا التكافل والتضامن في الوقت المناسب ، اذ أنه يكفينا أن نقول الآن أن عهد الرياضيين العظماء قـد تصرم بالنسبة الينا ومضى ، وأن واجباتنا هي اليوم أن نصون ونجمع ونصفي ونختار ، فلقد حل الانشغال « الشاطر » بالتفاصيل ، هذا الانشغال الذي طبع الرياضيين الاسكندرانيين بطابعه في العهود الهيلينيـة المتـــأخرة ، محل الإبداع الديناميكي .

والمخطط التالي سيوضح ما أعنيه :

الرياضيات الكلاسيكية

١ — مفهوم رقم جديد

٥٤٠ ق.م تقريباً

الرقم بوصفه حجماً

(الفيثاغوريون)

(٤٧٠ ق.م. تقريباً: انتصار النحت على النقش على الحائط)

٢ — ذروة التطور المنهاجي

٤٥٠ — ٣٥٠

افلاطون ، أرخيتاس ، يودوكسوس .

(فيدياس وبراكستيلس)

٣ — الاكتمال الباطني وانجاز عالم الرقم لرسالته

٣٠٠ — ٢٥٠

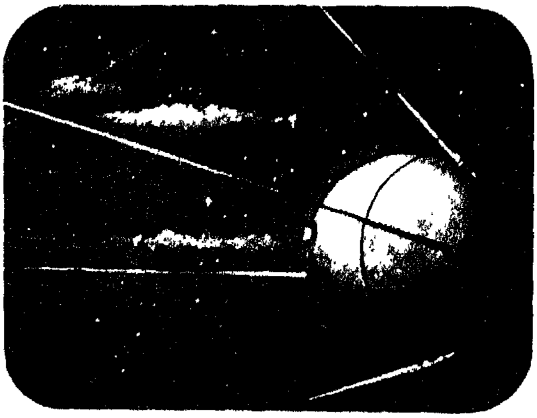
يوقليد ، ابولونيوس ، ارخميدس
(ليسبّوس ، ليوخارس)

الرياضيات الغربية

١ — ١٦٣٠ ب.م تقريباً
الرقم بوصفه علاقة
(ديكارت ،باسكال ، فيرمت)
(نيوتن ، ليبنتز ١٦٧٠)
(١٦٧٠ تقريباً: انتصارالموسيقى
على الرسم الزيتي .)

٢ — ١٧٥٠ — ١٨٠٠
أُويلر ، لاغرانج ، لابلاس
(غلوك ، هايدن ، موزارت

٣ — ما بعد ١٨٠٠
غاوس ، كوتشي ؛ ريمن
(بيتهوفن)





الفصل الثالث

مشكلة التاريخ العالمي

ـ السيماء والمنهج ـ

وأخيراً ، أصبح بالامكان الآن ان نخطو الخطوة الحاسمة لرسم صورة للتاريخ ، صورة مستقلة عن وجهة النظر العرضية للمرحلة التي يعيش فيهاهذا او ذاك المراقب . زد على ذلك ، ومستقلة ايضاً عن شخصية المراقب نفسه ، الذي هو ، بوصفه عضوا ذا مصلحة في حضارته الخاصة 'معرّض ، تحت تأثير نزعاته الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية ، لأن ينظم مواد التاريخ وفق نظرة محدودة «في الزمان والمكان» ولأن يرسم اشكالا اعتباطيّة يدخل مجالات التاريخ ضمن نطاقها قسراً وهي في نفس الواقع غريبة عن محتواها كل الغرابة . وما ظلّ مفقوداً حتى الآن هو التجرد عن المواضيع التي يدور حولها البحث . ولقد تحقق هذا التجرد منذ زمن بعيد بما يتعلق بالطبيعة مع أنه بالطبع كان سهل التحقيق نسبيا ، طالما أن الفيزيائي يستطيع بكل وضوح أن يرسم الصورة الميكانيكية السببية لعالمه دون أن يترك لشخصه أي أثر فيها

كأنه هو نفسه لم يكن له وجود فيـــه ابداً . وانه لامر جد ممكن أن نتخذ الموقف ذاته بالنسبة الى التاريخ . لكننا لم نكن لنعي هذا الامكان . ومؤرّخ اليوم إذ يتبجّح « بموضوعيته » يكشف بسذاجة وبطريقة لا شعورية عن تحيزه .

ولهذا السبب يحق لنا تماماً ان نقول (ولا شك ان هذا القول سيقال يوما ما) انه لم يقم احد حتى الآن بمعالجة التاريخ معالجة فاوستية وان التاريـــخ لا يزال يفتقر الى صورة فاوستية له . ونعني بهذا النوع من المعالجة ، معالجة تقف بقسط من التجرد يمكنها من التسليم بان كل « حاضر » ليس «حاضراً» الا عندما يتمتع المرء بقدرٍ كافٍ من الانعزال ، يجعله يعترف بان أي حاضر هو بالنسبة الى جيل معين من الناس ، وان عدد الاجيال لا حد له . وانه من الضروري ان ننظر الى « الحاضر » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة نظرتنا الى شيء متناهٍ في البعد ، ونظرتنا الى الغريب ، وان نعالجـه معالجتنا لحقيقة من الزمن لا تقل ولا تزيد في معناها عن اي حقبة اخرى في الصورة الكاملة التي ترسمها للتاريخ . ولن تستخدم مثل هذه المعالجة عوامل مثل عليا تشوه الصورة الحقيقية للتاريخ ولن نضع اصلاً شخصياً لاحداثياته (co - ordinates) ولن تتأثر بأي من الآمال او المخاوف الشخصية او باي من الدوافع الباطنة الاخرى التي لها اهميتها الكبرى في الحياة العملية . ومثل هـــذا التجرد (ولنستعمل كلمات نيتشه ، لا بد من أن نقول انه كان يفتقر الى القدر الكافي من التجرد) يمكننا أن ننظر الى الحدث الانساني بكامله من بعـــد شاسع ، وان ننظر الحضارات الفردية بما فيها حضارتنا ، كما ننظر الى قمم جبال تمتد في سلسلة على طول الافق .

ولذلك ؛ لا بد من ان نقوم ثانية بالعمل الذي قام به كوبرنيكس وهو عمل يحررنا من الحاضر الراهن باسم اللانهاية .

ولقد حققت النفس الغربية هذا التحرر في ميدان الطبيعة منذ طويل زمن، وذلك عندما انتقل من نظام الكون الذي وصفه بطليموس الى النظام الوحيد

الذي يطابق واقعه ، والذي يرى في وضع المراقب الموجود على سيارة (Planet) ما وضعاً عرضياً وليس قياسياً. ان تحرير التاريخ العالمي من وجهة النظر العرضية أي من « العصر الحديث » الذي يعاد تحديده دوماً لأمر ممكن بل ضروري . ولا ريب في ان القرن التاسع عشر للميلاد يبدو لنا مليئاً بالحوادث وذا اهمية لا تقدر اذا ما قارناه بالقرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ولكن علينا الا ننسى ان القمر ايضاً يبدو لنا اكبر من عطارد والمشتري . لقد حرر الفيزيائي نفسه من التحيز للبعد النسبي منذ عهد بعيد ، لكن المؤرخ لم يحقق بعد هذا التحرر . فنحن نسمح لانفسنا بان نعتبر حضارة الاغريق حضارة « قديمة » بالنسبة الى حضارتنا « الحديثة » . او لم يكن الاغريق بدورهم « حديثين» بالنسبة الى المصريين الذين عاشوا في بلاط تحوتمس الكبير، قبل هوميروس بعدة قرون ، وكانوا قد وصلوا الى نضجهم التاريخي في ذلك العصر ؟

ان الأحداث التي جرت في المرحلة التاريخية الممتدة من عام ١٥٠٠ والمنتهية بعام ١٨٠٠ ، تشكل بالنسبة لنا أهم ثلث من اثلاث التاريخ الثلاثة . ولكن حال المؤرخ الصيني هي عكس حالنا تماماً،فهو يقف ليعود بناظريه الى الوراء وليحاكم تاريخاً له من العمر اربعون قرناً . أما قروننا الثلاثة تلك فهي بصورة عامة مرحلة وجيزه وغير ذات أهمية ، وأهميتها تتلاشى اذا ما قيست باهمية قرون سلالة «الهان» المالكة (٢٠٦ ق.م — ٢٢٠ بعد الميلاد) التي تعتبر في تاريخ « العالم » صانعة مراحل. ان تحرير التاريخ من عبودية أحكام المراقب السابقة ، هذا التاريخ الذي لم يكن ، حتى اليوم بالنسبة الينا ، اكثر من تدوين متحيز مغرض لماضٍ يفضي بنا الى الحاضر العرضي الذي نتخذمن مثله العليا ومصالحه قسطاساً للانجاز وميزانا للامكان ، أقول إن تحرير التاريخ من كل ما ذكرت هو موضوع كل ما هو آتٍ في هذا المؤلف .

- ٢ -

ان الطبيعة والتاريخ هما الاصطلاحان النهائيان المتقابلان على طرفي خط المدى لامكانات الانسان ، وهما اللذان يمكنان الانسان من تنظيم الوقائع المحيطة به على شكل صورة للعالم . ان الواقعة (Actuality) هي الطبيعة طالما انها تخصص للاشياء في الصيرورة مكانها كأشياء في الصير . أما التاريخ فهو تاريخ طالما أنه ينظم الاشياء في الصير بالاستناد الى صيرورتها . اما الواقعة فبوصفها تداعياً للفكر (واستحضاراً للفكرة) فانها تخضع للتأمل والبحران ، وأما من حيث انها تأكيد حواس فإنما تُفهم فهماً دقيقاً .

ولقد شرحت الواقعة في حالها الاولى الآنفة الذكر، في عوالم افلاطون ورمبراندت وغوتيه وبيتهوفن ، أما الحال الثانية للواقعة فانما قامت بشرحها عوالم بارمنيدس وديكارت و « كنت » و « نيوتن » . ان المعرفة في معناها الدقيق الحازم هي عمل التجربة ، هذه التجربة التي تُدعى نتيجتها المكتملة « بالطبيعة » ..

ان المعروف و « الطبيعة » هما شيء واحد ، وهما الشيء نفسه ، ولقد اوضح لنا رمز الرقم الرياضي ان مجموع الاشياء المعروفة هو نفس ما عُرّف به عالم الاشياء ميكانيكياً ، أشياء قررت صحتها ، وأمست تخضع للقانون . ان الطبيعة هي مجموع الضرورات التي فرضها القانون . وليس هناك من قوانين غير قوانين الطبيعة ، لذلك لا يوجد هناك أي فيزيائي يدرك واجبه حق الادراك يرغب في تخطي هذه الحدود (قوانين الطبيعة) . لذلك فان واجبه هو ان يشترع دستوراً منتظماً لا يشتمل فقط على كل هذه القوانين التي يستطيع أن يجدها في صورة الطبيعة التي هي ذاتية بالنسبة اليه ، بل انما يتوجب عليه أيضاً ان يعرض هذه الصورة بكامل عناصرها وعليه الا يبقي أبسط البسيط خارجها .

ان التأمل او الرؤيا من جهة اخرى ، (وهنا يتوجب علي ان أورد قول غوتيه المأثور : علينا ان نميز باهتمام وعناية بين الرؤيا والنظر) هي عمل التجربة ذاك الذي هو في حد ذاته تاريخ لانه هو نفسه انجاز وتحقيق .

فذاك الذي عِيشَ ، هو ذاك الذي حدث ، وهو تاريخ .

ان كل حدث هو فريد في نوعه وعاجز عن ان يكرر ذاته . فهو يحمل كامل طابع الاتجاه (Direction) (الزمن) ، طابع عدم الارتداد .

لذلك فان ما حدث يدرج في باب الصير ، وليس في باب الصيرورة ، انه يدرج في باب المتحجر ، وليس في باب الحي ، وهو ينتمي ، دون شك ، الى الماضي حيث تكمن ينابيع رعبنا من العالم . ان كل شيء معروف على عكس (ما هو مدرج في باب الصير) هو معدوم الزمان ، فهو ليس بماضٍ وليس بمستقبل ، انه بكل بساطة هو هنا ، وهو نتيجة لذلك صحيح دائم الصحة ، كما يستلزم بالواقع صحته دستور القوانين الطبيعية نفسه . ان القانون وميدان القانون هما مناهضان للتاريخ . فهما يستثنيان المصادفة. ان قوانين الطبيعة هي اشكال صارمة عنيفة ، وهي لذلك ضرورة غير متأسسة . وبهذا يصبح من اليسير علينا ان نرى السبب الذي يجعل الرياضيات ، حين تنظيمها للاشياء في الصير ، تتحد دائماً ، وبنوع خاص ، وقوانين العلة .

ليس للصيرورة رقم، ونحن نستطيع ان نحصي ونقيس فقط الاشياء غير الحية ، والشيء الذي نستطيع ان نفصله عن الحياة . فالصيرورة المجردة ، الحياة المجردة ، هي جوهر غير قابل للحد ، فهي تقع خارج دائرة مبدأ العلة والمعلول وما وراء القانون والقياس . وليس هناك من بحث تاريخي عميق مجرد يفتش عن نقاط الوفاق بين بحثه وقوانين العلة ، لانه اذا ما قام بمثل هذا الامر ، فعندئذ يكون جاهلاً بجوهره الخاص .

وفي الوقت ذاته ، فان التاريخ ، اذا ما عولج معالجة ايجابية ، ليس بصيرورة مجردة ، انه صورة ، انه شكل عالم يشع من الوعي اليقظ للمؤرخ

حيث تسيطر الصيرورة على الصير . ان امكانيـــة استخلاص نتائج مهما كان نوعها بواسطة مناهج علمية ، تتوقف على نسبة الاشياء في الصير الموجودة في الموضوع المطروح على بساط البحث ، لكن هناك فرضيـــة تحمل خللاً ونقصاً في الاشياء في الصير ، اذ ان هذه الفرضية تقول بانـه كلما ازدادت النسبة ارتفاعا (نسبة الاشيـاء في الصير الموجودة في الموضوع المطروح على البحث — المترجم) يزداد مظهر التاريخ ميكانيكية ومنطقاً وسببية . وحتى الطبيعة الحية « لغوتيه » مع ما كانت عليـــه صورة عالمه من بعد مطلق عن الرياضيات ، الا انها احتوت على ما يكفي من الميت والمتحجر من الاشياء مما سمح له ان يعالج على الاقل مطلع بحثه معالجة علمية .

ولكن عندما يتضاءل محتوى الاشياء في الصير الى بالغ الصِغر ، عندئذ يصبح التاريخ صيرورة مجردة تقريباً ، ويمسي التأمل والرؤيا تجربة لا تترجم الا بواسطة اشكال الفن . ان ما شـاهده « دانتي » ماثلاً امام عينيـــه الروحانيتين كمصير للعالم ، لم يكن بامكانـــه ان يصل اليه بوسائل العلم ، ومثله « غوتيه » فانه لم يكن بمستطاعه ان يبلغ بهذه الوسائل (العلميـــة) تلك اللحظات العظمى في دراساته « لفاوست » ولا يشذ عنهما بلوطانيوس وجيوردانو برونو اللذان لم يكن بمقدورهما ان يقطرا رؤاهما بواسطة الابحاث العلمية.ان هذا التعارض يكمن تحت جذر كل خلاف يدور حول الشكل الباطني للتاريخ . وفي حالة وجود الموضوع نفسه ، او الحقائق ذاتها، امام عدد من المراقبين ، فعندئذٍ يُكوّن كل مراقب منهم انطباعاً مخالفاً لانطباع غيره عن ذاك الموضوع او هذه الحقائق ، وذلك وفقاً لما تمليه عليه نزعته الخاصـــة ، وهذا الانطباع هو انطباع مستعصٍ على اللمس والتعبير ، وهو الذي يكمـــن وراء حكم المراقب ويعطيه لونه الشخصي . اما درجة استيعاب الاشياء في الصير ، فانها تختلف بين شخص وآخر ، وهذا الواقع ، بحد ذاتـــه ، كافٍ على ان المؤرخين لن يتمكنوا أبدا من الوصـــول الى اتفـــاق على الموضوع والمنهاج ، لذلـــك نرى ان كل واحد منهم يتهم الآخر بالعجز والقصور في

« صفاء التفكير » ، ومع هذا فان شيئاً ما ُعبر عنه بشبه الجملة هذه (صفاء التفكير) هو شيء لا ُيبنى بالايدي ولا يدل على تفوق او فضيلة للدرجة ، بل إنما يدل على اختلاف ضروري في النوع . والشيء نفسه ينطبق على جميع العلوم الطبيعية . ومع ذلك فيجب الا تغرب عن بالنا الحقيقة القائلة بان الرغبة في كتابة التاريخ كتابة علمية انما هي رغبة تختزن في اعماقها تناقضاً وتعارضاً . فالعلم الحقيقي يبلغ مداه مدى ما يبلغه تصور الصواب والخطأ من صحة . وهذا القول ينطبق على الرياضيات وينطبق ايضاً على علم العمل الجاروفي (نسبة الى جاروف) التاريخ كغربلة المواد التاريخية وتنظيمها . غير ان الرؤيا التاريخية الحقيقية تنتمي الى مملكة المغازي (جمع مغزى) حيث لا تكون الكلمات المتعارضة : صواباً وخطأ ، بل انما تكون : عميقة وضحلة . فالفيزيائي الحقيقي ليس بعميق ، بل انما هو حاذق ثاقب البصيرة ، وهو لايستطيع ان يصبح عميقاً الا اذا انطلق خارج ميدان الفرضيات ونفض عنه غبار الاشياء النهائية . لكنه اذا ما اقدم على ما ذكرت لايعود فيزيائياً بل انما يمسي « ميتافيزيقيا » . ان الطبيعة يجب ان تعالج معالجة علمية ، اما التاريخ فمن المتوجب ان يعالج معالجة شعرية وينسب فضل ابداء الملاحظة التالية الى (الشيخ » ليوبولد فون رانكة

وبعد كل شيء ، فان رواية « سكوت » « كوينتن داروورد » كانت كتابة تاريخية صحيحة ، وهكذا فان مزية كتاب تاريخ جيد ما تتمثل في ان يمكن مثل هذا الكتاب القارىء من ان يصبح « سكوته » الخاص .

ومن جهة اخرى ، هناك داخل حيز الارقام والمعرفة الصحيحة ما اسماه « غوتيه » « بالطبيعة الحية » ، وهذه رؤيا فورية للصيرورة المجردة وللتشكل الذاتي ، وهي ، بالواقع ، التاريخ كما عرفناه اعلاه . لقد كان عالم غوتيه ، في الوهلة الاولى ، تركيباً عضوياً ، اي ، وجوداً ، ولذلك من السهل علينا ان نرى السبب الذي يجعله في ابحاثه ، وحتى عندما تعالج هذه الابحاث نوعاً مادياً ، لا يستعمل الارقام او القوانين او السببية المسجونة في قواعد ، او

التشريح مهما كان موضوع تلك الابحاث . بل انما كانت كل ابحاثه ابحاثاً مورفولوجية بارفع مما لهذا الوصف من معنى، كما ونعرف ايضاً لماذا لا يستخدم وليس في حاجة الى ان يستخدم في عمله الاساليب الغربية غير الكلاسيكية الخاصة بالمعالجة السببية ، (أي) التجربة القياسية . أما معالجته لموضوع اديم الارض (قشرة الارض) فانما هي معالجة جيولوجية لا تتغير ، ولم تكن ابداً معالجة منرالوجية (علم المعادن) حيث انه أسمى المنرالوجي علم الشي الميت .

ولنقل مرة ثانية بانه لا توجد هناك حدود ثابتة صحيحة تفصل بين هذين النوعين من تصور العالم . (العالم كصيرورة ، والعالم كصير – المترجم) فمهما بلغ التعارض من الشدة بين الصيرورة والصير ، فان الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا ، حقيقة وجودهما المشترك في كل نوع من انواع الفهم . فذاك الذي يتطلع الى الصيرورة والتحقق فيها ، فانما يختبر التاريخ ، اما ذاك الذي يشرحها بوصفها صيراً ومتحققاً فانما يطلع على الطبيعة .

ان داخل كل رجل ، وداخل كل حضارة ، وداخل كل مظهر حضارة ، توجد نزعة ملازمة ، ميل ملازم ، اختيار لازم لكل ما ذكرت، الى تفضيل احدهما على الآخر (الصيرورة والصير) واتخاذه مثلاً أعلى لفهم العالم . ان الانسان الغربي لفي مرتبة رفيعة من مراتب الميل الى التاريخ ، بينما لم تكن هذه حال الانسان الكلاسيكي ، فنحن نتابع ما نعطاه بعين تنظر الى الماضي والمستقبل ، بينما ان الانسان الكلاسيكي لم يكن يعرف إلا الحاضر الآني ومحيط اسطورة وخرافة . ونحن نرى رمزاً للصيرورة في كل فاصلة (Bar) من فواصل موسيقانا ابتداء من « بلسترينا » حتى (فاغنر) ونرى في الاغريق رمزاً للحاضر المجرد في كل تمثال من تماثيلهم ، « فايقاع » الجسد يرتكز على الرباط المعاصر بين الاعضاء ، بينما ان « الفيوغ[1] » (Fugue)، تقوم على تتالي العناصر في الزمان .

---

(١) الفيوغ ، قطعة موسيقية متعددة الانغام (بولوفونيك) . – المترجم –

- ٣ -

من هنا ينشأ اذن العنصران الأساسيان لكل تصوير للعالم ، واعني بهذين العنصرين ، مبدأ الشكل ومبدأ القانون . وكلما زادت صورة العالم في مزايا الطبيعة وخصائصها ابرازاً ، تزيد سيطرة القانون والرقم عليها دون قيد او شرط . وكلما ازدادت صورة العالم بداهة ووجدانية بوصفها صيرورة خالدة، تزداد الصورة غربة عن الارقام ومتضاعفاتها وعناصرها المحسوسة . ان الشكل هو شيء ما متحرك ، شيء ما صائر ، شيء ما عابر . ومذهب التشكل هو مذهب التحول ايضاً « ان التحول هو مفتاح حامل ألف بائية الطبيعة » ، بهذه الجملة تبدأ ملاحظة غوتيه ، وهي جملة توضح بجلاء الخلاف المنهاجي بين نظريته المشهورة والقائلة « بالخيال المدرك الصحيح » والذي يسمح للحي بان يستخدمه ، وبين عملية التقتيل الصحيح الذي تقوم به الفيزياء الحديثة . ولكن مهما كان نوع العملية وشكلها ، فان فضلة تتألف من قدر كبير كهذا من العنصر الغريب ، كما هو موجود ، يُعثر عليها دائماً .

ان هذه الفضلة تتخذ فيالعلوم الطبيعية الصارمة شكل نظريات وفرضيات محتومة ، تُفرض على ، وتخمر الكتلة المتحجرة للارقام والقواعد . وتبدو الفضلة في البحث التاريخي كتقويم تاريخي ، (Chronology) أي التركيب الرقمي للتواريخ والاحصاءات والتي ، بالرغم من ان الرقم غريب على جوهر الصيرورة ، يبلغ التفافها حول وفي عالم الاشكال التاريخية حداً يحس معه المرء بان هذه الفضلة غير دخيلة أبداً على ذاك العالم أو متطفلة عليه ، وذلك لانها مجردة من المعنى الرياضي . ان الرقم التقويمي التاريخي يميز وقائع فريدة في نوع حدوثها ، بينما ان الرقم الرياضي يميز امكانات ثابتة لا تتغير . ان الرقم التقويمي يصقل الصور ويضع الخطوط العريضة للمرحلة التاريخة ويضع الحقيقة للعين المدركة ، بينما ان الرقم الرياضي هو نفسه القانون الذي يسعى لاقراره ، وهو هدف البحث ونهاية مطافه .

ان الرقم التقويمي التاريخي هو اسلوب رَوْدٍ علمي مُستعارٌ من علم العلوم ، الرياضيات ، وهو يستعمل ، كما هو ، دون أي اعتبار لخاصياته الخاصة . فلنقابل ، مثلاً بين مفهومي هذين الرمزين :

١٢ × ٨ = ٩٦ وبين ١٨ تشرين الاول ١٨١٣ (هزيمة نابليون في معركة ليبتزج وتحرر المانيا – المترجم) .

ان المتمعن في هذين الرمزين يجد ان الفرق بينهما ، في استخدامنا للارقام، هو نفس الفرق بين النثر والشعر الذي يتجلى في حالة استخدامنا للكلمات .

وهناك نقطة اخرى يتوجب علينا ان نشير اليها . لما كانت الصيرورة دائماً تقع على قاعدة الصير ، ولما كانت صورة العالم الممثلة للصيرورة ، هي تلك الصورة التي يعطينا إياها التاريخ ، لذلك فان التاريخ هو الشكل الأصيل للعالم ، بينما ان الطبيعة (ميكانيكية العالم المتقنة الصنع) هي الشكل المتأخر للعالم والذي يستطيع اشخاص ينتمون الى حضارة ناضجة ان يحققوه تحقيقاً كاملاً . وبالفعل ، فان الظلام الذي يغمر النفس البسيطة للجنس البشري البدائي ، والذي نستطيع ان نتحقق منه حتى اليوم بواسطة عاداتهم الدينية واساطيرهم ، (هذه التي تشكل عالماً أساسياً كامل الأسس في عناده المجرد وصلابته الفولاذية وعفاريته العدائية وقواه اللطيفة) أقول ان هذا الظلام كان كلاً حيا مسيطراً كاملاً ، غير مفهوم او معرف او محسوب ، ونحن باستطاعتنا ان نسميه بالطبيعة اذا كانت لنا رغبة في ذلك . لكنه ليس هو ما نعنيه بكلمة « الطبيعة » التي نفهم فيها على انها هي الصورة الدقيقة التي رسمها عقل مدرك . ولا يستطيع احد ان يسمع الآن أصداء العالم الذي طواه النسيان منذ زمن ، عالم الانسانية الوليدة ، سوى نفوس الاطفال والفنانين العظماء ، لكن ذاك العالم لا يزال يردد أصداءه ، ويدفع بموجاتها ، وليس نادراً ، الى داخل بيئة « الطبيعة » غير المرنة التي تبنيها روح المدينة في الحضارة الناضجة حول الفرد بناءً متحجر القلب معدوم الضمير والوجدان . من هنا ينشأ هذا التعارض الحاد بين فكرة العالم العلمية (« الحديثة ») وبين

فكرته الفنية « غير العملية » ، هذا التعارض الذي كان مألوفاً في كل مرحلة متأخرة زمنا . لذلك فان الرجل والشاعر لا يفهم ولا يستطيع بالواقع أن يفهم احدهما الآخر . ومن هنا ايضاً ينبعث ذاك الميل للدراسة التاريخية ، والتي يتحتم عليها ان تحتوي على العنصر الصبياني، العنصر الحالم ، الغوتي (نسبة الى غوتيه) كي تزهو كعلم ، وكي تصبح (ولنستعمل نفس كلمتها الساذجة) « مادية » حتى ولو اضطرت ان تجابه الخطر المهدد بجعلها مجرد فيزياء للحياة العامة .

ان « الطبيعة » في مفهومها الصحيح هي الوسيلة لامتلاك الواقعة التي هي خاصة بالنسبة الى القلائل ، ومحصورة بسكان المدن العالمية الكبرى في المراحل المتأخرة زمناً من الحضارات العظمى ، المكتملة الرجولة وربما الهرمة أيضاً . بينما ان التاريخ هو الوسيلة الساذجة الغضة الفتية، وهي خاصة بجميع الناس على حد سواء . وان تلك هي على الاقل الطبيعة المرتكزة الى الرقم وغير الصوفية والقابلة للتشريح والمشرحة ، طبيعة كل من ارسطوطاليس و « كنت » والسوفسطائيين والدارونيين والفيزياء والكيمياء الحديثتين ، والتي يقابلها وجهاً لوجه الطبيعة المعاشة والمحسوسة وغير المحصورة طبيعة كل من هوميروس و « إداس » والانسانين « الدوري » والغوطي . ونحن اذا ما تغاضينا عما ذكرت آنفاً فعندئذٍ سنخطىء كامل جوهر المعالجة التاريخية . ان التاريخ هو الشيء الطبيعي الحقيقي ، اما « الطبيعة » الصحيحة في ميكانيكيتها ، طبيعة العلماء ، فانها مفهوم النفس غير الطبيعي (الاصطناعي) للعالم . ومن هنا ينشأ التناقض القائل بان الرجل الحديث يجد دراسة « الطبيعة » أمراً سهلاً ، بينما يجد دراسة التاريخ عسيرة شاقة .

ان الميول نحو تكوين فكرة رياضية عن العالم والتي تنبثق بكاملها من تحديد التخوم الرياضي ومن المفاضلة والتمييز المنطقيين ، اي من القانون والسببية فانما تبدو في وقت مبكر تماماً . وهذه الميول موجودة في جميع القرون الاولى لكل الحضارات ، لكنها تكون لا تزال ضعيفة ومشتتة وضائعة في التيار

الممتلىء بمفهوم العالم الديني(أما الاسم الذي يجب ان نتذكره في هذا الموضوع ، فانما هو اسم « روجر باكون » .) ولكن سرعان ما تكتسب هذه الميول طابعاً قاسياً متجهاً ، شأنهـا في ذلك شأن كل ما يُقصد من النفس ويتوجب عليه ان يدافععن نفسه ضد الطبيعة البشرية ، وهذه الميول لا ينقصها الغرور والحصر (Exclusiveness) . وبهدوء وسكينة يصبح الميل الفراغي المدرك منها ، (والادراك هو في جوهره رقم ، وفي تركيبــه كمي Quantitative) سائداً جباراً في سيطرته على كامل العالم الظاهري للفرد ، وهو بسبب اسناده واستناده على انطباعات الحياة الحسيـــة ، يؤثر في مركب (Synthesis) ميكانيكي ، ذي نوع هو مزيج من السببية والقانونية ، وهكذا يصبـح ، في النهاية البعيدة ، الوعي الحاد لابن المدينة الكبرى أكان ابنا « لطيبـــة » او بابـــل ، او بنارس او الاسكندرية ، او اي مدينة اوروبية غربية كبرى. اقول يصبـــح الوعي الحـاد خاضعـــاً لمثل هذه الدرجة من ضغط دائم ملحاح منبثق من تصوراته لقانون طبيعي ، بحيث نادراً مـا يتحدى ، حتى عندما يملي التحيز العلمي والفلسفي (وليس هناك من تحيز غير هذا) الفرضية القائلة بان حالة النفس هذه ، هي النفس ذاتهـــا ، وبان الصورة الميكانيكية للعالم هي العالم نفسه ، اقول نادراً ما يتحدى مثل هـــذا الزعم الذي اصبح بفضل مناطقته(جمع منطيق) كأرسطوطاليس وكنط زعماً مسيطراً سائداً ، لكن افلاطون وغوتية قد رفضا هذا الزعم ورداه جملة وتفصيلاً .

– ٤ –

ان عمل المعرفة بالعالم ، هو عمل كل انسان ينتمي الى الحضارات الارقى ، وهي حاجته وواجبه المنظور للتعبير عن جوهره الخاص ، وهذا الواجب هو بالتأكيد ، نفسه في كل حال ، مع ان مجراه قد ُيدعى بالعلم او الفلسفــة ، وذلك بالرغم من ان نزوعه الى الابداع الفني والى وجدان الايمان قد يكون

امراً ملموساً بالنسبة الى احد الناس ، وامرا هو موضع تساؤل الى حد ما ، بالنسبة الى انسان آخر .

ان واجب المعرفة بالعالم ، هو ان تقدم ذاك الشكل لصورة العالم دون ازدياد والذي هو في كل الاحوال ذاتي وذو مغزى خطير بالنسبة الى الفرد ، وهذا الشكل هو ، بالواقع ، (وذلك اذا ما عمد المرء الى عدم المقارنة) العالم . لهذا فان عمل المعرفة بالعالم هو عمل مزدوج ، وذلك من وجهة نظر التمييز بين الطبيعة « والتاريخ » ان كلاً من هذين (الطبيعـــة والتاريخ) ينطقان بشكلي لغتين يختلف احدهما عن الآخر اختلافا كليـــا ، ومع هذا فـــان هذين الشكلين متداخلان متلاحمان متراكبان ويشوشان على بعضهما بعضا داخل الصورة غير المنقحة والغامضة للعالم ، كصووة الحياة اليومية تلك ، ولهذا فانهما عاجزان عن تحقيق اي نوع من الوحدة الباطنية بينهما . ان الاتجـــاه والامتداد هما الميزتان الرئيستان اللتـــان تميزان (لاحظ لم يقـل بين — المترجم) النوعين التاريخي والعلمي للتأثر ، ومن المستحيل استحالة مطلقة على الانسان ان يجعل هذين النوعين يعملان ، في وقت واحد عملاً ابداعيا داخل ذاته . ان المعنى المزدوج للكلمة الالمانية Ferne (مسافة ، ُبعد)هو معنى كشاف مضيء .

فهو في النظام الاول للفِكـَر ، يستلزم الاستقبال (المستقبل) ، ويستلزم في النظام الثاني لها فترة فراغية من الحياد ، ولا شك ان القارىء لن يفشل في الاشـــارة الى ان المؤرخ المادي يدرك بالضرورة تقريبـاً الزمـــان كبُعد (Dimension) رياضي ، بينما ان حـــال الفنـــان بالولادة (المفطور) هي عكس حال ذاك ، فانطباعات البعد (المسافة) تتمثل في المناظر الطبيعية في الغيوم والافق والشمس الغاربة التي تترابط جميعاً دون اي جهد ، نحو مفهوم المستقبل . (يعني تترابط بداهـــة — المترجم) ان الشـــاعر الاغريقي ينكر المستقبل ، وهو لا يرى ولا يرمز الى اشياء المستقبل ، بل انما يلتصق بالقريب بوصفه ينتمي كلياً الى الحاضر .

ان البحاثـــة في العلوم الطبيعيـــة ، المُحاكِم العقلي المنتج بكـــل معنى

الكلمة ، اكان مخبريا « كفرداي » او نظرياً « كفاليليو » او حسّاباً كنيوتن ، يجد في عالمه فقط كميات عديمة الاتجاه ، حيث يقوم بقياس هذه الكميات واستبارها وتدبير امرها . ان الكمي فقط هو وحده القابل للفهم والادراك بواسطة الاعداد ، وهو القابل التعريف السببي ، وهو القابل للأسر داخل القانون والمعادلة ، وعندما ينجز الكمي ما ذكرت ، عندئذ « تتربس » المعرفة المجردة بالطبيعة مزلاج بابها ، فتصبح كل قوانينها ذات ترابطات كمية ، او وفق مصطلح الفيزيائي ، تتخذ جميع العمليات المادية مجراها في الفراغ ، وهو مصطلح كان سيصححه الفيزيائي الاغريقي (دون ان يبدل في حقيقة معناه) فيقول « جميع العمليات التي تحدث بين الاجسام » والمطابقة للشعور النافي للفراغ ، شعور النفس الكلاسيكية ..

ان نوع عملية الانطباع التاريخي هو نوع غريب عن كل ما هو كمي ، وهو يؤثر على عضو مغاير . فهناك اساليب معينة لادراك العالم كطبيعة ، كما يوجد هناك اساليب معينة وخاصة لادراك العالم كتاريخ ، ونحن نعرف هذه الاساليب ونستخدمها كل يوم دون أن نكتسب الوعي (حتى الآن) بتعارض هذين النوعين من الاساليب وتناقضهما . فهناك معرفة بالطبيعة ، وهناك معرفة بالانسان ، وهناك خبرة علمية وهناك خبرة حية . وليقتف القارىء آثار هذا التناقض حتى تصل به الى وجوده الخاص ، وعندئذ سيدرك ما اعنيه .

ان جميع اساليب ادراك العالم بالامكان نعتها « بميرفولوجيا » فميرفولوجيا الميكانيكي والممتد ، وهي العلم الذي يكتشف وينظم القوانين الطبيعية والعلاقات السببية تدعى بالمنهاجية ؛ اما مرفولوجيا الأساسي ، ميرفولوجيا التاريخ والحياة ، وكل ما يحمل علامة الاتجاه والمصير فانما تنعت بالسيمائية .

— ٥ —

بلغ الاسلوب المنهاجي ، في الغرب ، لمعالجة العالم ، ذروته ومر بها في القرن الاخير ، بينما ان الايام المجيدة للمنهاج السيمائي لا تزال مرتقبة وهي

لا شك قادمة . وخلال المئة عام القادمة ستصبح جميع العلوم ، التي تكون لا تزال ممكنة على هذه الارض أجزاءً من سماء واسعة لكل الاشياء البشرية. وهذا هو ما تعنيه مرفولوجيا التاريخ. فالانسان في كل علم ، وهو لا يستهدف أقل من محتوى كل علم ، يسرد قصة نفسه ويحدّث بها . فالخبرة العلميـة هي المعرفة الروحية بالذات . ونحن انطلاقاً من وجهة النظر هذه ، قمنا بمعالجـة الرياضيات بوصفها فصلا من فصول السماء . ونحن لا نهتم بما قصد هذا او ذاك الرياضي ، او بعلاّمة كهذا ، أو بالنتائج التي وصل اليها فأضافهـا الى مجموع المعرفة ، بل انما نركز كل اهتمامنا على الرياضي بوصفه كائناً بشريـاً ، نرى في عمله ظاهرة من ظاهرات نفسه ، وفي معرفته ومقاصده جزءاً من تعبيره . هذا وحده هو كل ما يستأثر باهتمامنا الآن ، فهو (الرياضي) لسان حضارة تحدثنا بواسطته عن نفسهـا ، وهو ينتمي كشخصيـة ، وروح ومكتشف ومفكر ومبدع الى سماء تلك الحضارة .

ان كل رياضيات تخرج وتجعل فكرة الرقم الخاصة بهـا متطورة وغريزية (فطرية) في ذاتها الواعية ، هي بمثابة معتقـد للنفس ، وذلك بغض النظر عما تتخذه من شكل تعبيري ، أتمثل هذا الشكل في منهاج علمي ام في منهاج هندسي معماري (كما كانت الحال في مصر) . وما يقال – عن ان الانجازات المتعمدة المقصودة للرياضيات تنتمي الى سطح التاريخ هو حق وواقع ، كما وانه ليعادل هذا القول صحة وحقاً ، القول بان العنصر اللاواعي في الرياضيـات، ورقمهـا بالمثَل ، واسلوبهـا التي تبني وفقـه كونها من الاشكال ، هي جميعاً تعبير عن وجودها ، وهي دمها . فتاريخ حياتها ، تاريـخ نضوجها وذبولها ، وعلاقتها العميقة بالاعمال الابداعية ، الاساطـير وطقوس وديانات الحضارة نفسها ، اشياء كهذه هي مادة موضوع المورفولوجيـا الثانية ، أي المورفولوجيا التاريخية ، بالرغم من انه بالكاد ان يُعترف بامكانية وجود مثل هذه المورفولوجيا ويُسلم بها.

لهذا ان لصدر التاريخ نفس مغزى ظاهرات الفرد الانسان الخـارجية ،

(تمثاله ، سلوكه هيئته ، خطوته ، اسلوبه في النطق والكتابة) كما يميز مما يقوله او يكتبه . وهذه الاشياء تمارس وجودها في « المعرفة بالبشر » ولها اهميتها . ان الجسد وجميع انجازاته (وهي المعرفة بالصير ، والفناء) هي تعبير النفس . ولكن منذ الآن فصاعداً ، فان المعرفة بالبشر تستوجب ايضاً المعرفة بتلك الانظمة السامية البالغة الرفعة والتي ادعوها بالحضارات، ومعرفة سيمائها ونطقها واعمالها ، ونحن نعني بهذه المصطلحات نفس المعاني التي قررناها سابقاً حينما تحدثنا عن الفرد .

ان السيماء الوصفية المبدعة هي فن التصوير منقول الى الميدان الروحي . فدونكشوت وفيرتر وجوليان سوريل هؤلاء جميعاً صور مرحلة تاريخية ، اما فاوست فانه صورة حضارة كاملة . ان ما هو مورفولوجي بوصفه منهاجها هو في نظر الباحث الطبيعي تصوير للعالم وهو عمل تقليد مطابق بأمانة للطبيعة وهو شبيه تماماً بعمل العامل الماهر في الرسم والذي في اعماقه يعمل مستخدماً خطوطاً رياضية مجردة . لكن الصورة الحقيقية في مفهوم رمبراندت للعالم هي سيمائية ، اي التاريخ المستوعب خلال برهة . زد على ذلك ان مجموعة رمبراندت في صورة لنفسه ليست سوى سيرة شخصية عريقة في اسلوبها « الغوتي » (نسبة الى غوتيه) .وعلى هذا الشكل يجب ان تعالج سير الحضارات العظمى . ان الجزء المنقول « بأمانة » من الصورة ، اي عمل المؤرخ المحترف المستخدم للوقائع والاعداد ، هو وسيلة فقط وليس بغاية . ان مُحيا التاريخ وملامحه يتألف من جميع هذه الاشياء التي ما زلنا حتى الآن نتدبر امر تنميتها وفقاً للمعيار الشخصي ، فنعتبرها مثلاً اشكالاً سياسية واقتصادية ومعارك وفنوناً وعلوماً وآلهة ورياضيات واخلاقاً نافعة او ضارة ، جيدة او رديئة مرضية او غير مرضية .

ان كل شيء قد اصبح « صيراً » هو رمز وتعبير لنفس ما ، وهو لا يلقي بالقناع عن وجهه الا امام الشخص الوثيق المعرفة بالاشخاص ، وهو يشمئز من كبح القانون ، وما يطالب به فانما هو وجوب التحسس بمغزاه ،

Alles verganglische ist nur ein gleichnis «1»

انه لمن الممكن ان يثقّف الباحث الطبيعي ، لكن الشخص الذي يعرف التاريخ فانما يعرفه (بالولادة) يعرفه غريزة وفطرة ، فهو يمسك بالحقـائق والاشخاص ويخترقهم بضربة واحدة ، يسيرة، ويرشده شعور لايمكن اكتسابه بواسطة التعليم ، وغير قابل للتأثر بالاقناع . لكن وفقط ، من النـادر جداً ان يتجلى هذا الشعور باغنى جبروته. ان الاتجاه والتحديد والتنظيم والتعريف بواسطة مبدأ العلة والمعلول ، هي أمور يستطيع المرء القيام بها فيما اذا رغب في ذلك ، فهذه الاشياء كلها تمثل عملا بينما ان تلك تحتل ابداعاً . فللشكل والقانون ؛ وللتصوير والادراك ، وللرمز والمعادلة اعضاء مختلفـة ، وتعارض هذه الاعضاء هو كتعارض الحياة والموت ، تعارض الانتاج والتدمير . ان العقل والمنهاج والادراك ، كل هذه تقتل حيـنما تدرف ، فالشيء المعروف يصبح ذاتا متخشبة متحجرة قابلة للقياس والتجزئة ، امـا الرؤيا الوجدانية فانها من جهة اخرى ، تحيي وتنعش وتمتص التفاصيل وتصوغها في وحدة حية محسوسة باطنياً .

ان بين الشعر والدراسة التاريخية ، صلة من عصب ودم ، كما وان الحساب قريب المعرفة ونسيبها ، ولكن كما قال « هيبل » في احد كتبه ، ان المناهج ليست وليدة حلم ، كما وان الانجازات الفنية ليست بنـات الحسـاب ، او (وهو المعنى نفسه) ليست وليدة تفكير . فالفنان او المؤرخ الاصيل يرى شيئاً ما في صيرورته ، وهو يستطيع ان يصادق ثانية على صيرورته بواسطة ملامح هذا الشيء وقسماتـه ، بينما ان الانسان المنهاجي ، أكان مؤرخـاً فيزيائياً ام منطقياً ام تطورياً ام ذرائعياً فانما يعرف الشيء الذي صار .

ان حال نفس الفنان كحال نفس الحضارة (نعني بالنفس هنا Soul — المترجم) فهي شيء ما تام وكامل ، وهي في لغة الفلسفة القديمة العالم الصغير (Microcosm) اي الانسان .اما الروح المنهاجية بوصفها روحـاً ضيقـة

(١) الخاتمة الشعرية للجزء الثاني من فاوست وترجمتها بالعربية :
كل ما هو عابر هو مجرد رمز — المترجم —

ومنعزلة عن الشهوات ، فهي ظاهرة خريفية عابرة من ظاهرات اشد حالات الحضارة نضوجاً ، وهي مرتبطة بالمدينة ، حيث تزداد حياتها جماعية اكثر فاكثر ، وهي تولد مع المدينـــة وتموت بموتهـــا . لقد كان يوجد في العالم الكلاسيكي علم ، ابتداء فقط من القرن الســـادس ، العصر « الايوني » حتى المرحلة الرومانية ، ولكن وجود الفن كان ماثلا (في العالم الكلاسيكي طيلة ما كان هناك لهذا العالم وجود) .

ومرة اخرى ، فان المخطط التالي قد يساعدنا ايضا على ما نريد ايضاحه :

	النفس				**العالم**
الوجود	الامكانية	←	الاكتمال (الحياة)	←	الواقعة ↓
الوعي			الصيرورة	←	الصير
			الاتجاه		الامتداد
			الاساسي		الميكانيكي
			رمز ، صورة ↓		الرقم ، التصور ↓
صورة العالم			التاريخ		الطبيعة
			الايقاع ، الشكل		التوتر ، القانون
			السيمائي		المنهاجي
			الوقائع		الحقائق

وهكذا فنحن اذا ما سعينا لنحصل على فكرة واضحة عن المبدأ الموحد

(بين النفس والعالم) وذلك مما يفهم به كل من هذين العالمين ، نجد ان المعرفة الخاضعة للاشراف الرياضي ترتبط دائماً (وكلما كانت اكثر صفاء تزيد مباشرة في ارتباطها) بالحاضر المتتالي . ان صورة الطبيعة التي يعالجها الفيزيائي هي تلك الصورة التي تنتشر امام احاسيسه في برهة معينة . وهناك مستلزم مضمر ، الا انه مستلزم راسخ ، من مستلزمات البحث الطبيعي ، وهذا المستلزم يقول بان الطبيعة هي نفسها بالنسبة لكل وعي وفي كل الاوقات ، وان تجربة ما هي حاسمة حسماً نهائياً ، وان الزمان لا ينكر تماماً ، لكنه يحذف من موضوع البحث وميدانه . ان التاريخ الحقيقي يرتكز ايضاً على حس مساو لهذا في تناقضه ، فان ما يستلزمه اصلا (Origin) له هو بالواقع ، تقريباً ، قوة عقلية حساسة غير قابلة للوصف ضمنا ، وهي متغيرة تغيراً متتالياً تحت تأثير الانطباعات المتتالية ، وهي لذلك عاجزة عن امتلاك ما يجوز لنا ان ندعوه بمركز الزمان . (وسنرى فيما بعد ما يعنيه الفيزيائي « بالزمان ») ان صورة التاريخ ، أ كان تاريخ الجنس البشري، ام تاريخ عالم التراكيب العضوية ، ام تاريخ الارض ، ام تاريخ الانظمة الكوكبية ، انما هي صورة الذاكرة . « فالذاكرة » نفهمها في معرض بحثنا هذا ، بوصفها مرتبة ارقى ، (وهي ليست خاصة بكل وعي وتمنح الى الكثيرين لكن على درجة ادنى) وبوصفها نوعاً مؤكداً كاملاً من قوة التصور . وهي التي تمكن الخبرة من ان تعبر كل برهة خاصة ذات خلود ثانوي ، كنقطة من مركب متكامل لجميع الماضي وكل المستقبل ، وهي التي تنشىء القاعدة الضرورية التي يرتكز اليها كل تطلعنا الى الوراء ، وتستند عليها كل معرفتنا الذاتية وكل معتقدنا الذاتي . ووفق هذا المفهوم الآنف الذكر ، فان الانسان الكلاسيكي لا يملك ذاكرة ، ولا يملك لهذا تاريخاً داخله او حوله .

ويقول غوتيه :

« لا يستطيع احد ان يحكم على التاريخ الا ذاك الذي اختبر التاريخ داخل نفسه . »

لقد كان الحاضر الآني يمتص كل الماضي من وعي العالم الكلاسيكي. ولنقارن بين تماثيل تلك الرؤوس المطلقة في تاريخيتها والمعروضة في كتدرائية «نورنبرغ»، ولنقارن بين روائع ديرر ورمبراندت ، وبين تمثال سوفوكليس مثلا من فن النحت الهيلينستي، فالأولى تحدثك بتاريخ النفس، بينما ترى ان الثانية تحصر عملها بفظاظة وقسوة في التعبير عن آثار كائن (سوفوكليس) آني ، ولا تحدثك باي شيء ، عن كيفية صيرورة هذا الكائن موضوعاً لمجرى الحياة ، وذلك اذا استطعنا حقاً ان نتحدث عن « مجرى الحياة » حديثاً مرتبطاً بالانسان الكلاسيكي ، الذي هو دائماً مكتمل ولا يعرف ابداً الصيرورة .

- ٦ -

والآن اصبح بامكاننا ان نكتشف العناصر الرئيسية لعالم الشكل التاريخي . فهناك اشكال لايحصرها العد تظهر وتختفي ، تتراكم وتذوب ثانية وهناك جمع لجب منها ذو الف لوين (تصغير لون) متألق براق يبدو كأنه اتفاق متعمد وصدفة مقصودة كاملة القصد .على هذا الشكل تتبدى صورة تاريخ العالم عندما تُنشر امام عيننا الباطنية . ولكن النظرة الثاقبة تستطيع ان تكتشف من خلال هذه الفوضى الظاهرة الاشكال الاصيلة التي تكمن وراء كل صيرورة انسانية ، وتستطيع ان تخترق الحجاب السحابي وان تنزع عنها اقنعتها قسراً وارغاماً .

ولكننا لن نعالج ايةصورةمن صور صيرورة العالم،ولن نبحث في اكوام هذه المستويات العظمى التي تراها عين فاوست ، كومة وراء اخرى ، صيرورة السماوات ، صيرورة غلاف الارض وقشرتها ، صيرورة الحياة ، صيرورة الانسان ، اقول لن نعالج من كل هذه المواضيع سوى تلك الوحدة المورفولوجية الصغيرة جداً والتي اعتدنا على ان نسميها « تاريخ العالم » هذا التاريخ الذي انتهى غوتيه الى احتقاره ، تاريخ الجنس البشري الارقى الذي

له من العمر ما يقارب الستين قرنا ،ونحن لن نذهب في بحثنا الى حد نستعرض عنده المشكله العميقة ، مشكلة التجانس الباطني بين كل هذه العناصر الآنفة الذكر .

ان ما يعطي عالم الشكل الرشيق هذا معنى وجوهرا ، وان ما كان حتى الآن مدفوناً عميقاً تحت تلال من الوقائع والتاريخ (Dates) ، هذه التلال التي نادراً ما نقب فيها ، اقول انما.هو ظاهرة الحضارات العظمى .

ولن نستطيع قبل ان نجعل هذه الاشكال الرئيسية منظورة ومحسوساً بها ومفسرة على ضوء المفهوم السيمائي ، ان نقول باننا ادركنا جوهر التاريخ البشري وشكله الباطني في تعارضها وجوهر تاريخ الطبيعة او بالاحرى ، ان نقول بأننا نفهم هذه الاشكال .

وفقط عقب هذه النظرة الباطنية، وهذه النظرة الظاهرية ، تصبح فلسفة تاريخية جدية في حيز الامكان . وفقط عندئذ يصبح بمستطاعنا ان نرى كل واقعة في الصورة التاريخية (كل فكرة وفن وحرب وشخصية ومرحلة) وفقاً لمحتواها الرمزي ، وان لا نعتبر التاريخ مجرد مجموع للاشياء الماضية ، مجموع لا ينتظمه نظام جوهري او ضرورة باطنية ، بل انما نرى فيه تركيباً عضوياً لبناء صارم مدقق ، ونطقاً ذا فحوى ومغزى ، تركيباً عضوياً لا يذوب في مستقبل معدوم الشكل غامض مبهم ، وذلك عندما يبلغ هذا التركيب الحاضر العرضي الطارىء للمراقب .

ان الحضارات هي تراكيب عضوية،وانالتاريخ هو مجموعسيرتها الشخصية . ونحن نقول من وجهة نظر مورفولوجية بان التاريخ الضخم للحضارة الصينية او الكلاسيكية ، يعادل التاريخ القزم للفرد الانسان ، او تاريخ الحيوان ، او تاريخ شجرة او زهرة . وقولي هذا ليس بزعم او فرضية بالنسبة الى الرؤيا الفاوستية ، انما هو بالنسبة الى ما ذكرت اختبار وخبرة . ونحن اذا ما اردنا ان نتعلم المعرفة بالاشكال الباطنية التي تكرر ذواتها في كل زمان ومكان ، فان المورفولوجيا المقارنة بين النبات والحيوان قد امدتنا منذ طويل

زمن بالمناهج . ففي مصائر الحضارات المتعددة التي تتبع الواحدة منها الاخرى ، او التي تنمو احداها الى جانب الاخرى ، او تلامس الواحدة منها الثانية ، او تغمر هذه تلك بظلالها ، او تخمد احداها انفاس الاخرى ،اقول في مصائر هذه الحضارات يُضغط كامل محتوى التاريخ البشري . لذلك فاننا اذا ما قمنا باطلاق سراح اشكالها (الحضارات) التي لا تزال مختفية في اعماق سطح « تاريخ التقدم البشري » التافه المبتذل ، وتركنا لهذه الاشكال ان تمر بروحنا فعندئذٍ لا نستطيع الا ان ننجح في ان نميز وسط كل ما هو خاص او غير جوهري ، الشكل الحضاري البدائي ، اي الحضارة التي ترتكز اليها كنموذج جميع الحضارات الافرادية . انني اميز فكرة حضارة ما ، بوصفها المجموع النهائي لامكاناتها الباطنية ، من ظاهرتها الحساسة او مظهرها على صورة التاريخ ، كواقعة مكتملة منجزة . وهي علاقة النفس بالجسد الحي ، علاقته بتعبيره في عالم النور المدرك لأعيننا . ان هذا التاريخ لحضارة ما هو التحقق المطرد للممكن فيها ، واكمال التحقق وانجازه يعادل تماماً النهاية ، والخاتمة .

ووفق هذه الطريقة فان النفس الابولونية ، التي قد يفهمها بعضنا ويشارك فيها ، ترتبط بتفتحها في ميدان الواقعة ، اي ترتبط بما ندعوه بالميدان « الكلاسيكي » او « القديم » ، حيث يقوم علماء الآثار واللغات والجماليون والمؤرخون ببحث وفحص آثاره المحسوسة المفهومة .

ان الحضارة هي الظاهرة الرئيسية لكل تاريخ عالم ماضٍ ومستقبل ،وان الفكرة العميقة التي نادراً ما فهمت ، فكرة « غوتيه » التي اكتشفها في « طبيعته الحية » والتي جعلها دائماً قاعدة لابحاثه المورفولوجية ، هي التي سنطبقها هنا ، بأوسع ما لها من معنى خاص ، على جميع تشكيلات التاريخ البشري ، أكانت هذه التشكيلات تشكيلات تامة النضوج ، او تشكيلات هصر عودها وهي لما تزل في ريعان الصبا والشباب ، او اخرى تفتحت نصف تفتح او غيرها خنقت وهي لما تزل داخل نواتها . وهذا المنهاج في البحث هو

الموضوع المعاش حيث يقابله من جهة اخرى الموضوع المشرّح .

ان اسمى ما يبلغه الانسان هو ان يتعجب ويعجب ، فاذا ما جعلته الظاهرة الرئيسية عاجباً متعجباً ، فليقنع اذن ، فليس هناك من شيء آخر من هذا (التعجب) تستطيع ان تعطيه . وعليه ألا يفتش عن اي امر آخر ابعد من التعجب ، اذ فيه تتمثل حدوده النهائية . ان الظاهرة الرئيسية هي تلك التي تعرض فيها فكرة الصيرورة نقية صافية . لقد كانت فكرة النبتة الاصلية في نظر عين « غوتيه » الروحية واضحة جلية في شكل كل نبتة قدر لها ان تنبت ، او لكل نبتة يمكن ان تنبت .

ولقد كانت نقطة انطلاق غوتيه في بحثه لموضوع عظام الفك العلوي ، هي الظاهرة الرئيسية للنوع المتفقر، (ذي الفقرات) اما نقاط انطلاقه في ميادين الابحاث الاخرى فكانت تتمثل في التنضيد الجيولوجي ، او في الورقة بوصفها الشكل الاولي للتركيب العضوي للنبات ، او في تطور النبات بوصفه الشكل الاولي لكل صيرورة عضوية . ولقد كتب الى « هردر » يعلن له اكتشافه هذا ويقول :

« ان هذا القانون نفسه يطبق على كل شيء آخر يعيش ويحيا . »

والحق ان ما وصل اليه « غوتيه» كان بمثابة نظرة الى صميم الاشياء ، وكان « لايبنتز » سيعيها ويدركها ، لكن قرن «دارون» هو قرن بعيد عن مثل هذه الرؤيا ، الى اقصى ما يستطيع الخيال ان يتصور من بعد . ونحن في الوقت الحاضر نفتش عبثاً عن دراسة للتاريخ متحررة تحرراً كاملاً من المناهج الداروينية ، اي انها متحررة من العلم الطبيعي المنهاجي المرتكز على السببية ، واعني بمثل هذه الدراسة ، تلك الدراسة السيائية للتاريخ ، النقية الواضحة الواثقة من نفسها والتي لم تقم لها حدود نهائية حتى الآن،ولن تقوم لمثل هذه الحدود قائمة الا بواسطة اكتشاف منهاج لا يزال علينا ان نكتشفه . وهذه هي المعضلة الكبرى التي انيط بالقرن العشرين امر حلها ، وعليه ان يستقصي التركيب الباطني للوحدات العضوية التي بواسطتها وفيها

يكمل تاريخ العالم ذاته ، وعليه ان يعزل الوحدات المورفولوجية الضرورية عن اخواتها من عارضة وطارئة ، وان يستولي على فحوى الحوادث ومغزاها كي يتحقق من اللغات التي تنطق بها هذه الحادثات .

-٧-

ان حشداً لا حد له من الكائنات البشرية يجري في جدول فاقد الضفتين ، ويطالعنا في مشرعة الجدول ماضٍ مظلم يفقد فيه احساسنا بالزمان كل قوى التعريف فيه ، ويتوسل خيالنا القلق ، او المتبرم بالمراحل الجيولوجية كي يخفي عن الانظار أحجية غير قابلة للحل ، أبد الدهر . ويمثل امامنا في ادبارة الجدول مستقبل لا يقل عن الماضي ظلاماً وانعداماً زمانياً . على هذه الشاكلة هو منشأ الصورة الفاوستية للتاريخ البشري ومصدرها .

وعلى امتداد الماء تمر بنا سلسلة أمواج من الاجيال غير المتناهية . وتتسع هنا وهناك سهام من نورٍ متألق ، وتتراقص في كل مكان فوق الجدول ومضات تشوش وتعكر المرآة النقية الواضحة ، ومضات تتبدل وتتلألأ وتختفي ، وهي ما ندعوه بالافخاذ والقبائل والشعوب والاجناس والتي توحد بين سلاسل من الاجيال داخل هذه او تلك المنطقة المحدودة من مناطق السطح التاريخي.واتساع التفاوت في قواها الابداعية يفرض تفاوتاً في ديمومتها وتغضنها ، وعندما تموت القوة الابداعية ، عندئذٍ تختفي ايضاً اشارات التعريف السيمائية واللغوية والروحية ، وتخمد الظاهرة وتذوب ثانية في غضون الاجيال .

فالآريون والمغول والجرمان والكلتيون و « البارثيون » والفرنك والقرطاجيون والبربر والنبط ، هم كلهم أسماء نميز بواسطتها بعض الصور غير المتجانسة لهذا النظام .

ولكن فوق هذا السطح ايضاً تنجز الحضارات العظمى دورة أمواجهـــا الفخمة الجليلة ، وهذه الأمواج تظهر فجأة وتنتفخ متورمة في خطوط جميـلة رائعة ، ثم تهبط لتستوي وسطح الماء وتختفي ، فيبدو اثر ذلـــك ، سطح الماء ، مرة ثانية قفراً يغط في سبات عميق .

ان الحضارة تولد في اللحظة التي توقظ فيها نفس عظيمة الروحانية الاولية (Proto spirituality) للانسانية الابدية الطفولة ، وتعزل نفسها ، لتصبح شكلاً مما لا شكل له ، وشيئاً محدوداً فانياً مما هو خالد وغـــير محدود ، فتزدهر في تربة رقعة من الارض محددة لها ومعرفة بها تعريفاً تامـاً ، حيث تبقى ملتصقة برقعة الارض هذه شأنها في ذلك شأن النبات ، ثم تموت عندما تحقق هذه النفس (التي ايقظتها – المترجم) كامـل امكاناتهـا في اشكال شعوب ولغات ومذاهب وفنون ودول وعلوم ، وتعود الى نفسهـا الاولية . (Proto-Soul) لكن وجودها الحي ، واعني به سياق الحقبات العظمى التي تعرّف وتعرض مراحل الاكتمال ، هو صراع شجي بغية صيانة فكرتهـــا (Idea) من قوى الفوضى التي تهمهم خارجها وتدمدم داخلهـا دونما وعي . وليس الفنان وحده هو الذي يصارع ويجاهد ضد ما هو مادي وضد اختناق الفكرة في داخله ، فلكل حضارة علاقة رمزية عميقة في رمزيتها حتى تكاد تبلغ الصوفية ، بالامتداد ، بالفراغ ، الذي فيه وبواسطته تناضـل كي تحقق ذاتها . وعندما تبلغ هذا الهدف (تحقيق ذاتها) (وتكتمل الفكرة وكامل محتوى امكاناتها الباطنية وتنجز وتصبح واقعية في ظاهرها) آنذاك تتصلب فجأة وتفسد وتتسمم وتجمد دماؤها وتخور قواهـــا فتمسي مدنية ، تمسي الشيء الذي نحس به ونفهمه في كلمات المصرية والبزنطية والمندرية ، وتغدو حالها كحال غابة فطرية عملاقة مهترئة تشرئب أغصانها النخرة الباليـــة بأعناقها نحو السماء لمئات أو آلاف من سنين ، كما نشاهد في الصين والهنــد والحقبة الاسلامية . على هذه الشاكلة ، (شاكلة الغابـــة الآنفة الوصف) انتفضت الحضارة الكلاسيكية عملاقاً في العصر الامبراطوري ، لكن اوجه

الشبه بينها وبين الثبات والقوة والاكتمال ، كانت اوجه شبه زائفة مزورة مخادعة ، ثم سلبت من الحضارة العربية الشابة في الشرق الهواء والنور .

ان هذا الاكتمال الباطني والظاهري ، الخاتمة ، التي تنتظر كل حضارة حية ، هو مغزى جميع الانحطاطات التاريخية ، بما فيها الانحطاط الكلاسيكي الذي نعرف به معرفة تامة ، وبما فيها انحطاط آخر يشابه تماماً الانحطاط اللاكلاسيكي في مجراه وديمومته ، هذا الانحطاط الذي سيشغل القرون الاولى من الدورة الالفية القادمة من الاعوام ، لكننا نرى الآن طلائعه ونحس به حولنا ، واعني به انحطاط الغرب .

ان كل حضارة تمر بمراحل العمر ذاتها التي يمر بها الفرد الانسان ، فلكل حضارة طفولتها وشبابها ورجولتها وشيخوختها . وانها لنفس شابة مرتعدة مثقلة بالريب والشكوك ، تلك النفس التي تكشف عن ذاتها في الفنين المعماريين الروماني والغوطي . وهي تملأ الحقبة الفاوستية الممتدة من التروبادورز[1] حتى كاتدرائية « هلديشايم التي بناها المطران « برنفارد [2] » . ونحن حينما نتأمل في هذه الكاتدرائية نحس برياح الربيع تهب من فوقها .

ويقول غوتيه :

« ان الانسان ليرى في الهندسة المعمارية الالمانية القديمة ازدهار دولة عجائبية غير مألوفة . »

ان اي امرىء يواجه فوراً بمثل هذا الازدهار لايستطيع الا ان يعجب ويتعجب ، لكنه يجب ان يكون ذاك المرء الذي يقدر ان يتغلغل بنظرة داخل الحياة الباطنية للنبات ويخترق ببصره مجموعة قواها ويستطيع ان يراقب البرعم وهو يتفتح قليلاً قليلاً ، مثل هذا المرء يرى الشيء بعين تختلف

---

(١) التروبادورز : شعراء غنائيون ومغنون معاً اشتهروا خلال القرون الثلاثة، الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . ـ المترجم ـ

(٢) برنفارد : كان مطراناً لمدينة هلديشايم من عام ٩٢٣ حتى عام ١٠٢٢ ، وكان في الوقت ذاته مهندساً وقد بنى الكاتدرائية المذكورة . ـ المترجم ـ

تماماً عن العين العادية ويعرف ما يراه ويدركه .

ان الطفولة تتحدث الينا (وباللهجة ذاتها) بألسنة فن العصور الهوميرية والدورية والفن المسيحي المبكر . (وهو في حقيقته فن عربي مبكر) . وتتحدث الينا ايضاً من خلال المجازات واعمال المملكة القديمة في مصر التي بدأت بعهد الاسرة الرابعة . فهناك نرى الاشياء الآنفة الذكر وعياً عالميـاً اسطوريا يكافح كأنـه المدين يلاحقه بلجاجة دائنون لايرحمون، ضد الظلام والجن داخل نفســه وفي الطبيعة ، بينما يكون هذا الوعي في ذات الوقت ينضج ذاته ويعد نفســه للتعبير النقي الواضح النير عن وجوده الذي سيحققه ويعرفه ، وكلما اقتربت الحضارة من ذروة كينونتها ، وكلما ازداد شكل اللغة الذي امنته لنفسها ، رجولة وصداقة ، عبوساً وضبطاً وشدة ، وكلما ازداد احساسها بقوتها ثقة بنفسه وقناعة ، تزداد ملامح هذه الحضارة نقاء وصفاء .

ولقد كانت كل هذه الاشياء الآنفة الذكر في ربيع الحضارة مظلمة معتمة مشوشة مرتبكة تطفح بحنين الطفولة ومخاوفها ، ولنا في الزخارف الرومانية الغوطية التي تزين ابواب وسقوف كنائس سكسونيا وجنوبي فرنسا وسراديب المسيحيين الاوائل واواني « دبيلون » احسن الشواهد واوضح الامثـــال . ولكننا نصادف وعياً كاملاً لقوة ابداعية ناضجـــة تتجلى في ايام المملكـة الوسيطة المبكرة في مصر ، وفي اثينة « بسستراتدي » وفي عهد يوستنيـان وفي العصر المناهض للاصلاح ، كما ونجد كل ملمح من ملامح التعبير المتحرر فيما ذكرت من عصور ، دقيقـــا مقاساً بديعاً في ترفه ورخائه وثقته بنفسه . ونجد ايضـــاً في كل مكان ، وفي فترات ، ان الاكتمال المرتقب كان يبشر بحلوله في فترات كتلك الفترة التي ابدعت رأس الفرعون امنيمحيت الثالث (اي ما يدعى بأبي الهول) او غيرها التي ابدعت قباب آياصوفيا ، او اخرى التي خلقت صُوَر تيسيان . ثم وعقب هذه الحقبة ببعض زمن ، نرى الحضارة تصل الهشاشة ، ونشم بعطر اواخر تشرينها (اكتوبر) يتضوع من تمثـال افروديت الكنيدي ، ومن قاعـــة العذارى في «آرشتويتم » ومن الزخرف

العربي المنقوش على قباب لها شكل حذوة الحصان ، ومن قصر « تزفنجر » في درسدن ، ومن « فاتاو » وموزارت . واخيراً تخبو شعلة النفس على مطلع فجر المدينة الاغبر ، لكن سرعان ما تنتفض القوى المتهالكة مرة ثانية فيلاقي مجهودها الابداعي نصف نجاح فتنتج « التكلسك (Classicism) المألوف في كل حضارة تماني نزع الاحتضار ، فتصبح النفس مرة اخرى فريسة للافكار ، وترتمي في احضان الرومانطيكية ،.وتعود بناظريهـــا اتحملق في طفولتها كئيبة .واخيراً ، وبعد طويل اجهاد وتردد وبرودة ، تفقد رغبتها في الحياة، كما حدث في روما الامبراطورية عندما تمنت الهروب من رابعة النهار الى ظلام الصوفية الاولية ، الهروب الى رحم الأم ، الى القبر . ويتلبس النفس سحر « تدين ثان » ويتوجه الأنسان الكلاسيكي المتأخر زمناً الى ممارســـة طقوس اديان « ميترا » « وازيس » والشمس ، انها الاديان ذاتها التي وُلدت ضمنهـــا نفس وليدة في الشرق ، نفـــس تسيـــل من جديد بخمرة الاحلام والمخاوف والتوحُّد .

- ٨ -

ان الاصطلاح « عادة » «Habitus , Habit» اصطلاح يستفاد منه للنبتة (Plant) ويدل على الطريق الخاصة بها والمميزة لذاتها والتي بواسطتها تعرض نفسها ، مثلاً : الصفات، او دور وديمومة مظهرها في عالم النور حيث نستطيع ان نراها . ان كل نوع ، وذلك فيما يتعلق بكل جزء وبكل مظهر من مظاهر وجوده واجزائه ، إنما يميز بعادته بينه وبين جميع النماذج التابعـــة لمرتبة او طائفة اخرى . وبمقدورنا ان نطبق هذا التصور المفيد « للعادة » على سيمائية هذا المركب العضوي العظيم ، فنتحدث عن عادة الحضارة الهندية او المصرية او الكلاسيكية ، تاريخاً وروحانية . لقد كان هناك دائماً بعض من شبه غامض لهذه الكلمة (عادة) يكمن وراء التصور لمعنى كلمة « اسلوب » ، ونحن لن

نحمل تلك الكلمة (عادة) فوق ما تحمله من مفهوم ، بل انما سنوضحها ونعمق مغزاها فقط . وذلك اذا ما تحدثنا عن الاسلوب الديني او الفكري او السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي لحضارة من الحضارات . ان «عادة» الوجود في الفراغ هذه ، والتي فيما يتعلق بالفرد الانسان تشتمل على عمل الانسان وفكره وسلوكه وطبعه ، تشتمل فيما يتعلق بوجود كل الحضارات على مجموع التعابير الحياتية للنظام الارقى .

ان اختيار فروع معينة من الفن (مثلاً اختيار اليونان للتصوير على الحائط، تصويراً يعتمد الخطوط المنحنية والفيء ، واختيار الغرب للموسيقى الكونتروبونتية — المتعددة الانغام — والتصوير الزيتي) والرفض الكلي لفروع اخرى (مثلاً : رفض العرب للفن التشكيلي) واتجاه الغير الى الاخذ بالفروع الفنية الباطنية (كالهند) او الشعبية المألوفة (كبلاد اليونان وروما) او تفضيل الخطابة (الحضارة الكلاسيكية) او الكتابة (كما فعلت الصين والغرب) ، كشكل للتواصل الروحي ، اقول ان جميع ما ذكرت آنفاً من فروع للفن ، هي كلها مظاهر اسلوب ، وهكذا هي ايضاً طرازات مختلفة من طرازات الزي (Costume) ، طرازات للاداء ، والمواصلات والمجاملات الاجتماعية .

ان جميع الشخصيات العظيمة ، المنتمين الى عالم الشكل الكلاسيكي ، وهم يشكلون جماعة من الناس مستقلة قائمة بذاتها ، جماعة تختلف بالتأكيد عادتهم الروحية ، عن عادة جميع كبار الرجال المنتمين الى الجماعتين العربية او الغربية. فلنقارن حتى بين «غوتيه» ورفائيل وبين الرجال الكلاسيكيين ، زد على ذلك ان هرقليط وسوفوكليس وافلاطون والسبيادس وتوستكلس وهوراس وتيبريوس يجتمعون معاً كأعضاء عائلة واحدة . ان كل مدينة عالمية كبرى كلاسيكية ، ابتداءً من سيراكوسة هيرو ، حتى روما الامبراطورية هي تجسد وصورة احساس لنفس الشعور الواحد فقط بالحياة ، وهي تختلف اختلافاً جذرياً في انتشارها وفي مخطط شوارعها وفي لغة هندستها المعمارية

الخاصة منها والعامة ، وفي طراز ميادينها وعطفاتها وازقتها وقصورها ، وفي لونها وصخبها ، وواجهاتها وحياة شارعها وحياتها الليلية . اقول انها تختلف في كل ما ذكرت عن مجموعة المدن الهندية او العربية او الغربية . فلقد كان بالامكان ان يحس المرء ببغداد والقاهرة متجسدة في غرناطة ، وذلك عقب انقضاء طويل زمن على الفتح العربي ، وحتى لمدريد فيليب الثاني جميع ملامح سيماء كل من لندن وباريس الحديثتين. وهنا رمزية عميقة تكمن وراء كل انعدام تشابه من هذا النوع ، وهناك تعارض بين الاسلوب الغربي في اعتماده للخطوط المستقيمة في الابعاد البصرية ، وفي تخطيطه للشوارع (كالامتداد العظيم لشارع الشانزيلزيه من اللوفر ، وبيازا أمام كنيسة القديس بطرس) وبين التعقيد والضيق المتعمدين تقريباً والماثلين في « فياسكرا » والفوروم رومانيوم و« الاكروبول » وقد بنيت هذه جميعاً دون أي تناسق بين أجزائها ودون أي منظور خطي . وحتى تنظيم المدن ، أكان هذا التنظيم تنظيماً غامضاً كما كانت حاله في العصور الغوطية ، أم كان تنظيماً واعياً كما هي حاله في عهدي الاسكندر ونابليون ، يعكس المبدأ ذاته الذي تعكسه الرياضيات ، فهو في الحالة الاولى (الاسلوب الغربي) يعكس نظرية ليبنتز الرياضية في الفراغ اللامتناهي ، واما في الحالة الثانية (الاسلوب الكلاسيكي) فانما يعكس نظرية يوقليد الرياضية في الاجسام المنفصلة .ولكن بالاضافة الى ما للجماعة من « عادة » فان لها ايضاً ديمومتها الحياتية المقررة وسرعة معينة لتقدمها وتطورها . وهذان الامران (الديمومة والسرعة) هما ملكتان يتوجب علينا الا ننسى ادخالهما في حساب نظرية التركيب التاريخي .

فلقد كان ايقاع (Rhythm)الوجود الكلاسيكي يختلف عن ايقاع الوجودين المصري والعربي ، ولذلك نستطيع ان نصف الايقاع اليوناني والروماني بالأندنتي (andante[1]) وايقاع الروح الفاوستية بالالغرو (السريع) . (Allegro)

---

(١) andante : الايقاع البطيء في الموسيقى . ـ المترجم ـ

ان تصور ديمومة الحيـــاة ، كما هو مطبق على الانسان والفراشة وشجرة البلوط وورقة عشب ، يشتمل على قيمة زمانية معينة مستقلة استقلالاً تاماً عن جميع الحوادث الطارئة على كل ما ذكرت . فعشر سنين هي شريحة من الحياة، وهي متساوية تماماً بالنسبة الى كل الاشخاص. وتطور الحشرات يستلزم عدداً من الايام معروفاً ويمكن التكهن به بالنسبة الى كل حشرة من الحشرات . لقد كانت تصورات الرومان لمراحل الطفولة والمراهقة والشبـــاب والرجولة والشيخوخة ، تصورات تمتلك مفهوماً رياضياً معيناً تقريباً . وليس هناك من شك في ان بيولوجيا المستقبل ـ مخالفة منها للداروينية واطراحاً لمبـــدأ عوامل المناسبة السببية لأصول الانواع ـ ستتخذ من هذه الديمومـات الحياتية المعينة مسبقاً نقطة انطلاق لاعراب جديد عن مشكلتها . ان ديمومة جيل ، (مهما كانت طبيعة هذا الجيل) هي واقعة ذات مغزى صوفي تقريباً .

والآن ، فان علاقات كهذه هي صحيحة ايضاً ، الى حد لم يتصوره أحد بعد ، بالنسبة الى جميع الحضارات الارقى ، فلكل حضارة ، ولكل مرحلة من مراحل مراهقتها ونضوجها وانحطاطها ، ولكل من اطوارهـا وحقباتها الذاتية والضرورية ، ديمومة معينة ، وهي دائماً الديمومة ذاتها ، وهي تتكرر دائماً حاملة معها التأكيد على رمز وقـانون ايمان . ونحن في هذا الكتاب ، لا نستطيع ان نحاول فتح هذا العالم ذا الصلات الأشد غموضاً وابهاماً ، الا ان الحقائق التي ستبرز مرة بعد اخرى في سيـاق البحث ، ستخبرنا بنفسها عن مقدار ما هو كامن في هذا العالم ومستتر . فما هو مفهوم فترة الخمسين سنـــة المدهشة الأخاذة تلك ؟ وما هو مفهوم الايقاع السيـــاسي والفكري والفني لصيرورة كل الحضارات ؟ وما هو مفهوم فترة الثلاثمائة سنة «الباروكية »وما هي مفاهيم « الايوني » والرياضيات العظمى والنحت « الاتيـكي » والتصوير الفسيفسائي والموسيقى الكونتربونتية . والميكانيكا « الغليلية » ؟ وما الذي يعنيه المثل الاعلى لحياة تبلغ دورة الفية من الاعوام ، مقارنة بحيـــاة الفرد الانسان البالغة ثلاث عشرينات وعشرة واحدة من السنين ؟

ولما كانت ذاتية النبتة ترفع للتعبيرعن نفسها شكلاً وزياً وهيئة ، بواسطة الاوراق والزهر والاغصان والثمر ، كذلك فان ذاتيةالحضارة تتجلى في صيغ دينية وفكرية وسياسية واقتصادية . وكما تحدث ذاتية غوتيه عن نفسها باشكال واسعة في تباينها ، « كفاوست » و « علم الالوان »، ورينكه فوخس و « تاسو » و « فيرتر » والرحلة الى ايطاليا ، وغرام فريدريك ، والديوان الغربي الشرقي ، و « الاليجا » الرومانية، كذلك فان ذاتية العالم الكلاسيكي، تعرض نفسها في الحروب الفارسية وفي الدراما الاتيكية وفي دولة المدينة ، وفي الاحتفالات « الديونسية » . وحدث عن الانظمة الاستبدادية ولا حرج ، وفي العمود الايوني ، وفي الهندسة اليوقليدية،وفي الفرقة العسكرية الرومانية، وفي مبارزات المجتلدين ، وفي شعار « الخبز الابيض والعاب السيرك » الذي ساد في العصر الامبراطوري .

ووفق هذا المفهوم ايضاً تقوم كل ذاتية فردية تمتلك اي نوع من الاهمية ، مدفوعة بالضرورة ، بتلخيص جميع حقبات الحضارة التي تنتمي اليها . ان كل فرد منا ، في اللحظة الحاسمة التي يبدأ فيها بمعرفة ذاته على انه « انا » (Ego) فان الحياة الباطنية تستيقظ عندئذٍ تماماً بالطريقةذاتها التي استيقظت وفقها الحياة الباطنية للحضارة ، ان مكاناً وان كيفا . ان كل فرد منا نحن معشر الغربيين يعيش مرة ثانية احلام اليقظة لطفولته ومسرحيتها ، غوطيته، يعيشها في الكاتدرائيات والقلاع واساطير الابطال وفي البطل الصليبي لـ « Dieu le veult » وفي قسم نفس الشاب « بيرسيفال » . ولقد كان لكل اغريقي شاب جيله « الهوميري » و « ماراثونه » ، وفي « فيرتر » غوتيه تتبدى للمرة الثانية صورة تقلب الشباب ، هذه الصورة التي يعرفها كل انسان فاوستي (لاكلاسيكي) ، وتطالعنا للمرة الثانية ايضاً ايام ربيع بترارك « والمينيسنجر » Minnesanger[1]

---

(١) Minnesanger : جماعة المالية كانت تجمع بين الموسيقى والشعر الغنائي وهي مماثلة « للتروبادورز : — المترجم —

وعندما وضع « غوتيه » مسودة « فاوست » كان « برسيفال » وعندما انجز الجزء الاول من فاوست كان هملت ، لكنه لم يصبح رجل القرن التاسع عشر العالمي ، الرجل الذي يستطيع ان يفهم « بيرون » الا عندما انجز الجزء الثاني من فاوست .

وحتى بامكاننا ان ندرس شيخوخة القرون الكلاسيكية العقيمة المتأخرة في زمنها جداً للحضارة الاغريقية ، هذه القرون التي كانت بمثابة الطفولة الثانية لذكاء متعب انهكته اللذات ، اقول بامكاننا ان ندرسها في اكثر من شخصية من كبار شخصياتها الهرمة . وهكذا فان الكثير من « Bacchae » يوربيديس يقدم مسبقاً مطلاً للحياة ، (Out - look)والكثير من«Timaeus» افلاطون يتوقع التوفيق الديني بين النقيضين في العصر الامبراطوري،وفاوست الجزء الثاني لغوتيه وبارسيفال يكشفان لنا مقدماً عن الشكل الذي ستتقمصه روحانيتنا (وهذا الشكل من الوجهة الابداعية آخر شكل لها) في القرون القادمة علينا .

ان البيولوجيا تستخدم اصطلاح مشاكلة الاعضاء (Homology) كي تشير الى تعادل مورفولوجي، وذلك كي تميزه بضده أي اصطلاح المماثلة (Analogy) الذي يرتبط بتعادل وظيفي (Functional). وهذا التصور الهام ، والأغزر ثمراً في سياق البحث ، قد ادركه غوتيه ووعاه (حيث قاده الى اكتشاف ترابط عظام الفك العلوي للانسان) وقد وضع « اوين » لهذا التصور شكلاً علمياً صارماً ، ونحن سنترك لمنهاجنا في البحث التاريخي ان يمتصه ايضاً .

ان من المعلوم بان لكل جزء من اجزاء التركيب العظمي لرأس الانسان جزءاً مطابقاً له عند جميع الحيوانات الفقرية حتى ادناها مرتبة أي السمكة، وان الزعانف الصدرية للسمكة ، وقوائم وأجنحة وايدي المخلوقات الفقرية الارضية هي جميعاً اعضاء متشاكلة ، بالرغم من انهما قد فقدت كل أثر للشبه بينها.زد على ذلك أن رئتي الحيوان الارضي تتشاكل وكيسي الهواء للحيوان المائي ، بينما انهما تماثلان الخيشوم عند الطيور ، أي انهما ذات وظائف

متشابهة من حيث الاستعمال. ان البصيرة المورفولوجية المدربة العميقة المطلوبة لاقامة مثل هذا التميز ، لهي شيء يختلف تماماً عن المنهاج الحاضر للبحث التاريخي ، بمقارناته الضحلة بين المسيح وبوذا وبين ارخميدس وجليليو ، وبين قيصر وفلانستاين وبين المانيا المجزأة واليونان المجزأة . وستطالعنا بوضوح يتزايد كلما ذهبنا بعيداً في بحثنا مناظر ونظرات رائعة هائلة تعرض نفسها على العين التاريخية وذلك حالما يُفهم المنهاج المورفولوجي المدقق الصارم ويهذب . ولنضرب قليلا من الأمثلة :

ان الاشكال المتشاكلة (Homologous) هي مثلاً :

النحت الكلاسيكي والجوقية الاوروبية الغربية ، اهرامات الاسرة الرابعة والكاتدرائيات الغوطية ، البوذية الهندية ، والرواقية الرومانية (أما المسيحية والبوذية فليستا حتى متماثلتين) عصور الدول المتنازعة في الصين ، الهكسوس في مصر والحروب الفونية ، عصر بركليس والعصر الأموي ، عصور « الرغفادا » وبلوطونيوس ودانتي .

كما وان الحركة الديونوسية متشاكلة وحركة النهضة ، لكنها مماثلة لحركة الاصلاح الديني .

ان « فاغنر » هو ملخص العصرية على حد تعبير نيتشه ، والحق ان نيتشه أصاب بقوله هذا كبد الحقيقة ، اما المعادل « لفاغنر » والذي يجب ان يوجد منطقياً في العصرية الكلاسيكية فاننا نجده في فن « بارغامين » .

(وقد يجتمع للقارىء حين دراسته للوائح الملحقة بهذا الكتاب بعض من تصور اولي مثمر بالنسبة الى هذه النظرة الى التاريخ) .

ان تطبيق مبدأ المشاكلة على الظاهرات التاريخية يحمل معه مضموناً جديداً كل الجدة لكلمة معاصر . وانني اعني بكلمة معاصر واقعتين تاريخيتين يشغلان تماماً المركزين النسبيين ذاتيهما ، وذلك بالنسبة الى كل واقعة وحضارتها ، وهما لهذا يمتلكان أهميتين متساويتين متعادلتين . ولقد سبق لنا

ان اظهرنا كيف ان تطور علمي الرياضيات الكلاسيكي والغربي تدرجا مؤتلفين متطابقين ، حتى كدنا نغامر فنصف فيثاغوروس بانه معاصر لديكارت وارخياتيس للابلاس وارخميدس لغاوس .

ولقد سار العصران الايوني والباروكي في مجريين يعاصر [1] ايضاً الواحد منها الآخر، زد على ذلك ان بوليجنوتوس يتفق في عصره وعصر رمبراندت، وكذلك هي ايضاً حال بوليكليتوس وباخ. ان حركة الاصلاح الديني وحركة التطهير Puritanism وقبل كل شيء الانعطاف نحو المدنية يظهر في كل الحضارات ، ولقل حمل هذا الانعطاف في الحقبة الاخيرة من الحضارة الكلاسيكية اسمي فيليب والاسكندر ، اما في انعطاف حضارتنا فانما يحمل اسمي الثورة (الفرنسية) ونابليون . أضف الى ذلك ان بناء الاسكندرية معاصر لبناء بغداد وواشنطن ، كما وان سك النقود الكلاسيكي هو ايضاً معاصر لمناهجنا في مسك الدفاتر وحساب « الدوبيا » ، وكذلك هي حال الاستبداديين الاوائل وحال حزب الفروند (Fronde [2]) واغسطوس وشي هوانغ تي ، هنيبال والحرب العالمية .

وانني لآمل بان اظهر ، دون استثناء ، ان جميع الابداعات العظيمة واشكال دين او فن او سياسة او حياة اجتماعية او اقتصاد او علوم ، تظهر وتكمل نفسها وتموت في اوقات معاصرة في كل الحضارات ، وان التركيب الباطني لاي من هذه الابداعات او الاشكال ينطبق كلياً وبدقة على مماثليه من الاشكال في الحضارات الاخرى ، وانه لا توجد اية ظاهرة ذات اهمية سيمائية عميقة في سجل احدى الحضارات حيث لا نجد نسخة طبق الاصل عنها في كل حضارة اخرى ، وان هذه النسخة طبق الاصل موجودة تحت شكل مميز

---

(١) لا شك ان القارىء يدرك ما يريد المؤلف ان يقرره وذلك حينما عرف فيما تقدم مفهومه بالمعاصرة فهو لا يعني المعاصرة الزمنية ، بل انما يعني المماثلة analogy الزمنية في الدورات الحضارية . ـ المترجم ـ

(٢) Fronde : حزب سياسي نشأ في فرنسا أثناء عهد الوصاية على لويس الرابع عشر ، وكان يعارض كلاً من الحكومة وحزب البلاط . ـ المترجم ـ

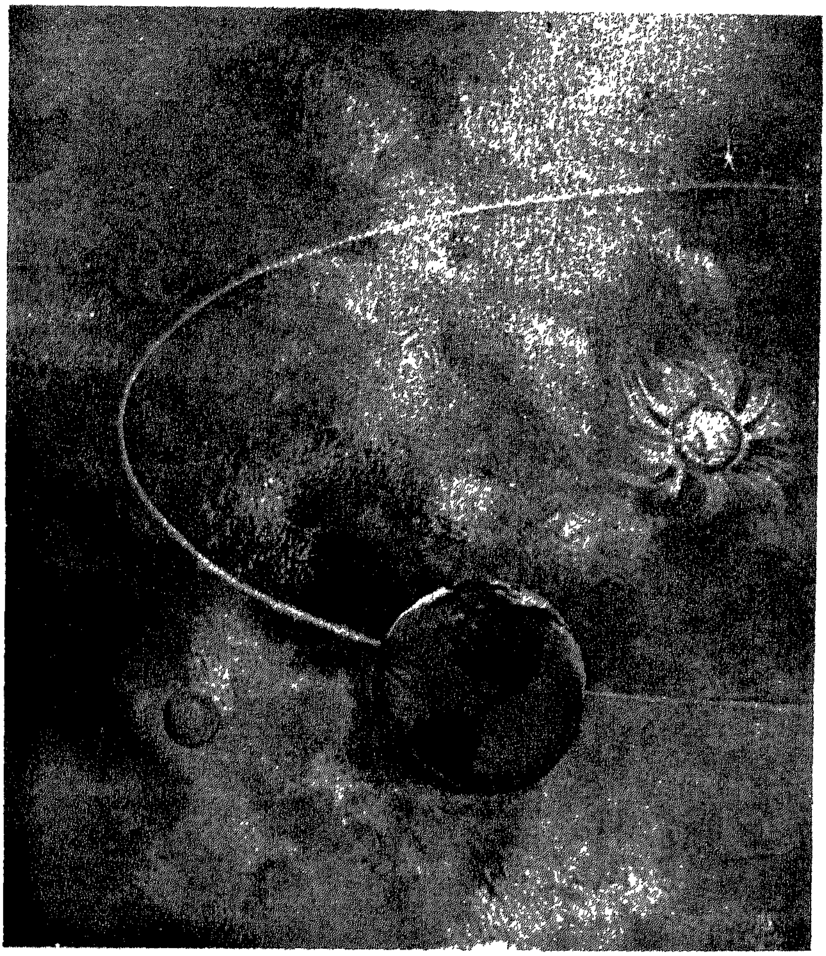
وفي موقع تقويمي تاريخي (كرونولوجي) معين ومحدد تحديداً تامـــاً . وفي الوقـــت ذاتـــه ، فاننا اذا ما اردنا ان نفهم تشاكلات حقائـــق كهذه ، (Homologies) يتوجب ان تكون لدينا بصيرة اعمق ، وموقف انتقادي نحو صدور الاشياء المنظورة ، اشد بكثير من المواقف الانتقادية التي اتخذها المؤرخون حتى الآن وتعودوا على ان يعرضوها ، والذين قد نجد بينهم مثلاً من قد يسمح لنفسه بان يحكم فيعتقد بان النسخة طبق الاصل عن البروتستانتية انما هي موجودة في الحركة الديونوسية ، وان حال حركة التطهير البريطانية بالنسبة الى الغرب ، لاتختلف عن حال الاسلام بالنسبة الى العالم العربي !

ونحن اذا ما نظرنا من هذه الزاوية ، نجد ان التاريخ يقدم لنا امكانات تتجاوز بعيداً كل ما كانت تطمح اليه جميع الابحاث التاريخيـــة السابقة ، هذه الابحاث التي قنعت ، بصورة رئيسية ، بتدبر امر حقائق الماضي الى الحد الذي تُعرف عنده هذه الحقائق واعني بهذه امكانات (وفق المنهاج ذي الخط الواحد) بصورة عامة :

تخطي الحاضر كحد نهائي للبحث ، ووضع تقدير مسبق للشكل الروحي وللديمومـــة والايقاع ولمغزى ونتاج المراحل التي لم تكتمل بعد من مراحل تاريخنا الغربي ، واعادة تركيب مراحل غير معروفـــة مراحل اختفت منذ طويل زمن ، وحتى اعادة بناء حضارات كاملة من حضارات الماضي بواسطة القرابات المورفولوجية ، وذلك بالطريقة ذاتها التي يستدل بها علم الحفريات (Palaeontology)ويصل بواسطتها الى نتائج بعيدة المجال وجديرة بالثقة ، مثلاً الى استنتاج التركيب الهيكلي ، والنوع من شظيـــة جمجمة بسيطـــة وقعت في يده .

ومن المملكة ، اذا ما اعطينا تفاصيل مشتتة لزخرف ، لبناية ، لمخطوط ، او لبيانات سياسية مستهجنة ومعلومات اقتصادية ودينية ، ايقاعاً سيمائياً ، ان نكتشف من هذه الاشياء كلها:الطبائع الجوهرية لقرون كاملة من التاريخ ، وان نكتشف من عناصر معروفة في سلم ايقاع تعبير الفن ، عناصر مطابقـــة

لهذه في سلم ايقاع الاشكال السياسية ، او ان نكتشف من الاشكال الرياضيـة الاشكال الاقتصادية . وهذا هو المنهاج الغوتي (نسبة الى غوتيـــه) الحقيقي الذي يضرب جذوره حقاً في مفهوم غوتيه للظاهرة الاوليـة ، وهذا المفهوم شائع الى حد محدود في علم الحيوان (زولوجيا) ولكن من الممكـــن ان يوسع الى درجة لم يُحكم بها بعد ، ليشمل كامل ميدان التاريخ .



الفصل الرابع

مشكلة التاريخ العالمي

- ٢ -

فكرة المصير ومبدأ السببية

عندما نتابع تسلسل الفكر هذا حتى النهاية، تحضرنا مقابلة (Opposition) نستطيع بواسطتها ان نعاين المفتاح (المفتاح الاوحد) الذي يمكننا من الاقتراب وحل (لغاية ما للكلمة اطلاقاً من اي معنى) احجية من اقدم احاجي الانسان واخطرها . وهذه المقابلة ، هي المقابلة بين فكرة المصير ومبدأ السببية ، وهي مقابلة ، وبامكاننا ان نقول باطمئنان ، لم تعرف وظيفتها أبداً حتى الآن ، اذ انها هي الاساس الضروري لبناء العالم . ان اي شخص يفهم اي شيء مما يعنيه القول بان النفس هي فكرة وجود ، يستطيع ايضاً ان يتكهن بعلاقة قريبة تربط بينها وبين المغزى الاكيد للمصير ، ويتوجب عليه ان يعتبر الحياة نفسها (وهي الاسم الذي نطلقه على الشكل الذي يتحقق بواسطته الممكن وينجز) كما هي متجهة اتجاهاً لا يرد او ينقض ، وانها مشحونة في كل خط من خطوطها بالقضاء والقدر . ان الانسان البدائي يحس بهذه الحقيقة احساساً مظلماً قلقاً ، بينما ان لها من الثبات لدى الانسان

الارقى، ما يكفيها لتصبح رؤياه للعالم،مع ان هذه الرؤيا يبلغ بها فقط بواسطة الدين والفن ولا يمكن التبليغ بها ابداً بواسطة الاستدلالات والبراهين .

ان كل لغة ارقى تمتلك كلمات كهذه : خط ، قسمة ، اقتران ، شدة ، دعوة دينية (Vocation)(حرفة دينية)، وتغلف هذه الكلمات، وكأنها في ستار وقناع . ولا تستطيع اية فرضية او علم ان يلامس ما نشعر به عندما نترك لانفسنا ان تغوص الى معنى هذه الكلمات وجرسها ،فهي رموز وليست بدلائل او قرائن ، ففيها مركز ثقل صورة العالم التي اسميتها بالعالم كتاريخ ، حيث يقابلها من جهة اخرى العالم كطبيعة . ان فكرة المصير تستلزم خبرة حياتية لا خبرة علمية ، وتتطلب قوة النظر لا قوة الحساب ، وتفرض العمق لا العقل . فهناك منطق عضوي ، منطق غريزي ، منطق واثق الحلم بكل الوجود ، ويقابل هذا المنطق منطق جمادي (Inorganic) منطق الفهم ومنطق الاشياء المفهومة .

اذن هناك منطق الاتجاه يقابله ويضاده منطق الامتداد ، ولم يعرف أي منهاجي او ارسطوطالي او « كنتي » (نسبة الى كنت) . كيف يعالج هذا المنطق (منطق الاتجاه) . لكن هؤلاء عندما يتحدثون الينا عن « الحكم » و « الادراك الحسي » و « الانتباه » و « التذكر » فانهم يصولون في هذا الميدان ويجولون ، اذ انه ميدانهم ، لكن اذا ما انتقل الحديث الى « الأمل» او « السعادة » او « اليأس » او «الندم » او « الورع » او « المؤاساة » فعندئذ لا ينبسون ببنت شفة .

ان الانسان الذي ينتظر هنا ، في ميدان الحي ، ان يجد اسباباً ونتائج ، او ان يتخيل ان معنى ضرورة باطنية بالنسبة الى معنى الحياة ، هو نفس معنى « الجبرية » و « القدرية » ، فان مثل ذاك الانسان لا يعرف اي شيء عن الامور التي هي مادة البحث ، وهو يخلط بين الخبرة المعاشة ، وبين الخبرة المكتسبة او القابلة للاكتساب . فالسببية هي المعقول ، رباط القانون ،

القابلة للوصف ، وهي شعار كل يقظتنا، وشعار كل وجود محاكمتنا الفكرية . بينما ان المصير هي كلمة لضرورة باطنية وهي غير قابلة للوصف . ونحن نستطيع ان نستخرج ما هو داخل السببي بواسطة منهاج فيزيائي او منهاج من مناهج فلسفة المعرفة والمنطق ، بواسطة الارقام والتبويب المعلل ، ولكننا لا نستطيع ان نتعرف على فكرة المصير الا من خلال عمل الفنان ، وبواسطة وسائل كالتصوير والمأساة (التراجيديا) والموسيقى . فالسببي يستوجب التمييز والتمييز يستلزم التشريح والتدمير ، بينما ان المصيري هو خلاق مبدع من قمة رأسه حتى أخمص قدمه ، وهكذا فان المصير يرتبط بالحياة ، بينما ترتبط السببية بالموت .

ان النفس تكشف في فكرة المصير عن حنين عالمها ، عن رغبتها في الارتفاع الى النور ، وعن توقها للتحليق وانجاز مهمتها . وليست هذه الفكرة غريبة عن اي رجل غرابة مطلقة ،ولا يمكن للاحساس بالامر الواقع وللفكر الذي يريد ان يجعل كل امر ميكانيكياً، ان يكتسحا الرؤيا الاصيلة اكتساحاً تاماً قبل ان يصبح الانسان ، الانسان المتأخر زمناً المتحلل ، انسان المدينة العالمية الكبرى . وحتى في هذه الحال ، وفي ساعة من شدة وضيق ، تعود الرؤيا الى انسان ما ذي صفاء مرعب ، لتدمر في لحظة كل السببية على سطح العالم . وذلك لان العالم كمنهاج لترابطات سببية ، هو ليس بمنهاج متأخر زمنا فقط ، بل انما هو ايضاً منهاج على درجة عالية من التلطيف والتخفيف ، ولذلك فلا تستطيع الا العقول الفعالةالنشيطة في الحضارات الراقية انتمتلكه، (او ربما يتوجب علينا ان نقول) ان تخططه عن قناعة واعتقاد . ان تصور السببية متحد وتصور القانون، فكل ما هنالك من قوانين هي قوانين سببية . ولكن لما كان السببي يتضمن ، وفقاً لما يقوله « كنت » ، على ضرورة الوعي المفكر وعلى الشكل الاساسي لعلاقته بجوهر الاشياء ، كذلك فان هناك شيئاً ما تشير اليه كلمات مصير ، افتقاد إلهي ، رسالة دينية ، هو ضرورة محتومة لا تستغني عنها الحياة . فالتاريخ الحقيقي مثقل بالقضاء والقدر، لكنه متحرر

من القوانين ، فالمرء قد يتكهن بالمستقبل (والحق ان هناك بصيرة تستطيع ان تنفذ الى اعماق اسراره) لكن لا يستطيع احد ان يحسبه . فالموهبة السيمائية التي تمكن الانسان من قراءة حياة كاملة حينما يتفرس في وجه ما ، وتجعله قادراً على احصاء شعوب باكملها من صورة حقبة تاريخية ، وان يقوم بكل هذه الاعمال دون ان يبذل اي جهد متعمد مقصود ، او دون اي منهاج ، اقول ان هذه الموهبة بعيدة كل البعد عن كل ما يتعلق بمبدأ العلة والمعلول .

ان الذي يدرك عالم النور الماثل أمام عينيه ادراكاً منهاجياً لا ادراكاً سيمائياً ، ويجعل هذا العالم عالمه الفكري الخاص وذلك بواسطة مناهج الخبرة السببية ، سيتوجب عليه بالضرورة في نهاية الأمر ان يؤمن بانه يستطيع ان يفهم كل شيء حي برده لهذا الشيء الى مبدأ العلة والمعلول ، أي انه لا يوجد هناك اي سر وأي توجيه باطني . اما من يترك ، من جهة أخرى ، ويفعل كما فعل غوتيه ، (او كما يفعل في هذا الموضوع كل تسعة اشخاص من عشرة في لحظات اليقظة) أقول من يترك لانطباعاته عن العالم ان تعمل في أحاسيسه، ويمتص هذه الانطباعات ككل ، فان مثل هذا الانسان يشعر بالصير داخل صيرورة هذا العالم . ان الانسان يطرح قناع السببية الجامد في اللحظة التي يتوقف فيها عن التفكير ، فعندئذٍ وفجأة لا يبقى الزمان أحجية ، دلالة ، « شكلا » او بعداً بل انما يصبح يقيناً باطنياً ، يصبح المصير نفسه ، حيث ينكشف القناع في توجيهه، في « لامقلوبية » «Irreversibility» في معيشته، عن المعنى الحقيقي لصورة العالم .

ان الترابط بين المصير والسببية هو كالترابط بين الزمان والفراغ . اذن فان المصير او السببية ، هو او هي التي تتغلب وتسود عالمي الشكل الممكنين ، اي التاريخ والطبيعة ، اي سيماء كل صيرورة ومنهاج كل الاشياء في الصير . وان الفرق بينهما هو كل الفرق القائم بين شعور الحياة وبين منهاج المعرفة . وكل منهما هو نقطة الانطلاق لعالم كامل مستقل بذاته ، لكنه ليس

عالماً فريداً في نوعه . ومع هذا ، وبعد كل شيء ، فكما ان الصير مبني على الصيرورة ، كذلك فان معرفة العلة والمعلول فمبنية على مصير اكيد الشعور .

فالسببية ، كما نقول ، هي مصير في الصير ، مصير ُجعل جمادياً ،وصيغ في اشكال عقليـــة . ان المصير نفسه (وقد تجاوزه كنت وغيره من بنائي مناهج العالم العقليـة ، صامتين ساكتين ، لان ما لديهم في مستودعـاتهم من اسلحة تجريدية لم تمكنهم من ملامسة الحيـــاة . اقول ان المصير نفسه يقف ما وراء وخارج كل الطبيعة المدركة المفهومة . ومع كل هذا فلما كان المصير هو الاصيل فانمـا هو وحده الذي يعطي المبدأ الجـامد الميت ، مبدأ العلة والمعلول ، الفرصـة كي يبدو في المناظر الاخيرة من مسرحية الحضارة حيـا وتاريخيا بوصفه تجسداً لتفكير استبدادي . ان وجود النفس الكلاسيكية هو شرط لظهور منهاج ديموقريطس كما ان وجود النفـس الفاوستيـة هو شرط لظهور منهاج نيوتن . ونحن باستطاعتنا ان نتخيل بان كلًا من هاتين الحضارتين (الكلاسيكية والغربية) كانت قد تتعرض للفشل في انتاج علوم خاصة بها ، لكننا لانستطيع ان نتصور أبداً المناهج مجردة من اسسها الحضارية .

وهنا ايضاً نرى للمرة الثانيـة ، كيف ان الصيرورة والصير ، الاتجـاه والامتداد ، يشتمل احدهما على الآخر ، ويخضع كل منهما للآخر ، وذلـك وفقاً للبؤرة (Focus)التاريخية او الطبيعية التي تقف فيها . فإذا كان التاريخ هو ذاك النوع من نظام العالم ، حيـث يكون الصير خليقـاً بالصيرورة ، ومناسباً لها ولائقاً بها ، عندئذٍ يتوجب علينا ان نعالج نتائج العمل العلمي ضمن الاشياء الاخرى على هذه الصورة ، والحق انه بالنسبة للعين التاريخية لايوجد سوى تاريخ الفيزياء .

حقاً ، انها لمصيرٌ تلـك الاكتشافات، كيفما وحينما حدثت ، كاكتشافات الاوكسجين وكوكب نبتون والجاذبية وتحليل الطيف .

وانها لمصيرٌ ان تتمكن ، اطلاقاً ، نظرية الاحتراق ونظرية تموج الضوء ونظرية تولد حركة الغازات ، من النشوء ، باعتبار ان هذه النظريات شروح

وايضاحات ، وهي في هـذه الحال ، نظريات جـد شخصية بالنسبة الى واضعيها . وانه لمصير ان نظريات أخرى غير هـذه ، (أصحيحة كانت أم خاطئة) ربما كان بالامكان ان تظهر بدلاً منها .

وانه مرة اخرى لمصير ، ان تصبح شخصيـة اخرى عظيمة نجمة القطب لعالم الفيزياء حينما تختفي شخصية عظمى سابقـة عن مسرح الفيزياء . وحتى الفيزيائي بالفطرة يتحدث عن قضاء مسألة ما وقدرها ، او تاريخ الاكتشاف.

ونحن اذا عكسنا الآية فقلنا اذا كانت الطبيعة هي دستور الاشياء الذي يتوجب فيه على الصيرورة ان تندمج في الشيء في صيره ، وعلى الاتجاه الحي ان يندمج في الامتـداد الصارم ، فعندئذ ، فان احسن معالجة قد يلاقيهـا التاريخ ، هي ان يعالج بوصفه فصلا من فصول فلسفة المعرفة والمنطق، وليس (Epistemology) هناك من ريب في ان « كنت » كان سيعمد فعلا الى مثل هذه المعالجة ، لو انه تذكر ان يضمها كلية الى منهاجه في المعرفـة . ولكن من الواضح ، بانه لم يقم بما ذكرت ، فالطبيعة في نظره ، كما هي في نظر كل منهاجي بالفطرة ، هي العالم ، ونحن عندمـا نراه يبحث الزمان دون ان يلاحظ ان للزمان اتجاهـاً لا يمكن عكسه ، نرى انـه يعالج عالم الطبيعة ، وليس لديه أبسط فكرة عن احتمال وجود عالم آخر ، عالم التاريخ . وربمـا كان وجود مثل هذا العالم مستحيلا من الوجهة الواقعية في نظر « كنت » .

والآن ، فليست هناك اية علاقة مهما كان شأنها او لونها ، بين السببيـة والزمان . والحق ان اطلاق مثل هـذا القول الآنف الذكر في عالمنـا اليوم المؤلف من كنتيين (نسبة الى كنت) لا يعرفون مدى ما هم عليه من كنتية ، سيبدو قولاً متناقضاً تناقضاً شنيعاً معيناً . ومع هذا فان كل قانون فيزيائي من قوانين الفيزياء الغربية ، يعرض الـ « كيف » والـ « كم طوله » كشيء مميز في جوهره . وحالما يطرح الموضوع على بساط البحث ، فان السببية تحدد جوابها تحديداً صارماً بتقريرها ان شيئـاً ما يحدث (وليس متى يحدث) ، فالمعلول يجب ان يوضع بالضرورة مع العلة ، والمسافـة الفاصلة بينهما (العـلة

والمعلول) انما تنتمي الى نظام آخر مغاير ، وهي (المسافة) توجد داخل عمل الفهم نفسه (وهذا العمل هو عنصر من عناصر الحياة) وهي لا توجد داخل هذا الشيء او الاشياء المفهومة ، فمن جوهر الممتد ان يتغلب على التوجيه ، كما وان من جوهر الفراغ ان يتعارض والزمان ، ومع هذا فان الاخير (التوجيه ، الزمان) هو الذي يتقدم على الاول ويكمن وراءه . فالمصير يدعي الاولية لنفسه، ونحن ننطلق من فكرة المصير ، وبعدئذٍ فقط عندما يتطلع وعينا اليقظ خائفاً مرعوباً ومفتشاً عن تعويذة تكبل بالحديد، في عالم الشعور . الموت الذي لا نستطيع ان نتجنبه ونتغلب عليه ، حينئذٍ نلجأ الى السببية وندركها كضد للقضاء والقدر ، ونجعلها تخلق لنا عالماً آخر كي تحمينا وتعزينا وتواسينا في هذا الأمر (الموت) . وعندما يبدأ مبدأ العلة والمعلول بنشر نسيجه تدريجياً فوق السطوح المنظورة ، تتشكل صورة مقنعة لديمومة لازمنية ، وهي بصورة أساسية كائن ، لكنه كائن انعمت عليه القوة المحضة للعقل المجرد بخصائصه وملكاته .

ان هذه النزعة تكمن وراء الشعور ، وهي معروفة جداً في جميع الحضارات الناضجة ، وهي تقول بان « المعرفة هي قوة » القوة على المصير (السيطرة على المصير ــ المترجم) . زد على ذلك ان العلامة التجريدي والبحاثة في العلوم الطبيعية ، والمفكر المنهاجي ، المفكر وفق مناهج ، والذين يركزون كامل وجودهم الفكري على مبدأ السببية ، هم مظاهر « متأخرة » زمناً لبغضاء غير واعية تصب نقمتها على قوى المصير غير المدركة . « فالفكر المجرد » يفكر في جميع الامكانات والاحتمالات التي تقع خارج ميدانه ، حيث يسود خلاف ابدي بين الفكر الحازم الصارم وبين الفن العظيم ، فالاول يتشبث بموطىء قدميه ، بينما ينطلق الثاني حراً من كل قيد . ولا شك ان رجلاً « ككانت » يجب دوماً ان يحس المراهق بانه ارفع منزلة من بيتهوفن كمنزلة البالغ من الطفل ، ولكن هذا الاحساس لم يمنع بيتهوفن من ان يعتبر كتاب

« نقد العقل المجرد »[1] يمثل نوعاً يرثى له من الفلسفة .

ان التليولوجيا » « Teleology » ، (فلسفة البحث عن غايات الطبيعة — المترجم) وهي هراء كل هراء في ميدان العلم ، لهي محاولة مضللة تتوخى ان تعالج المحتوى الحي للمعرفة العلمية علاجاً ميكانيكياً (وذلك لان المعرفة تدل على ان هناك انساناً ما ، يعرف ، وبالرغم من ان الفكر قد يكون «طبيعة» الا ان عمل الفكر هو تاريخ) وهكذا هي ايضاً حالها حينما تعالج الحياة نفسها فتعتبرها سببية مقلوبة رأساً على عقب . ان « التليولوجيا » هي رسم « كاريكاتوري » يحول رسالة « دانتي » الى هدف للعلامة البحاثة . وهي والحق لمن اشد النزعات عمقاً والزم المميزات لكل من الداروينية (هذه الداروينية التي هي النتاج الفكري الابلغ في تجريده للمدينة العالمية الكبرى ، الذي عرفته كل المدنيات) والمفهوم المادي للتاريخ الذي ينبع من النبع الذي تنبع منه الداروينية ذاتها ، وهو ايضاً مثلها ، يقتل ويدمر كل ما هو جوهري وخطير .

وهكذا فان العنصر المورفولوجي للسببي هو مبدأ ، بينما ان العنصر المورفولوجي للمصير هو فكرة ، فكرة غير قادرة على الوجود (المادي — المترجم) والادراك وغير قابلة للوصف او التعريف ، وهي يُحَسّ بها فقط وتُعاش باطنيا .

وهذه الفكرة هي شيء ما يكون الانسان اما جاهلا به كل الجهل ، واما مقتنعاً به كل القناعة (كانسان النبع وككل رجل بارز في الفصول الحضارية المتأخرة ، وكالمؤمن والعاشق والفنان والشاعر)

وهكذا نرى ان المصير هو الصيغة الحقيقية لوجود الظاهرة الاولية حيث تكشف فيها فكرة الصيرورة الحية فوراً عن نفسها امام الرؤيا الوجدانية ، ولذلك فان فكرة المصير تسيطر على كامل صورة التاريخ للعالم ، بينما ان

---

(١) المؤلف المشهور الذي وضعه الفيلسوف « عمانوئيل كنت » . — المترجم —

السببية التي هي صيغة وجود المواد والتي تطرد خارج عالم الشعور مجموعة من الاشياء المميزة والمعرفة تعريفاً حسناً ، « خاصيات وعلاقات » ، اقول ان السببية تخترق وتسيطر و بوصفها شكلاً للفهم ، على عالم الطبيعة ، اي « خدن الأنا » (alter - ego) للفهم .

لكن البحث في درجة صحة الترابطات السببية داخل عرض ما للطبيعة ، او البحث في المصائر المشتمل عليها هذا العرض ، (وهو من الآن فصاعداً الشيء نفسه) يزداد صعوبة حتى عندما نبدأ بالتحقق من انه لايوجد ابداً في نظر الانسان البدائي او الطفل عالم منظم تنظيما سببياً مفهوماً ومُدركا حتى الآن ، كما واننا نحن انفسنا وذلك بالرغم من اننا اناس « متأخرون زمنا » ونملك وعيا يضبطه فكر جبار في دقة نطقه ، لانستطيع ، حتى في برهات الانتباه الاشد اجهاداً وتوتراً ، (وهي البرهات الوحيدة التي نكون حقاً خلالها داخل بؤرة الطبيعة) الا ان نؤكد على ان النظام السببي الذي نراه خلال برهات كتلك ، هو حاضر حضورا متتاليا في الواقعة المحيطة بنا . وحتى في يقظتنا ، فاننا نستوعب السببي ، (جلباب الالوهية الحي ، وكساءها) ، استيعاباً سيمائياً ، ونحن نقوم بهذا الامر مرغمين لامختارين ، بسبب قوة الخبرة التي تضرب جذورها في اعماق ينابيع الحياة .

ان التخطيط السيمائي ، هو على العكس من التخطيط السببي ، اذ انه يمثل فهماً متحرراً من الادراك الحسي . ونحن بواسطة هذا التخطيط ندفع بالصورة الذهنية لكل الازمان ولكل الاشخاص لتطابق الصورة البرهية (نسبة ــ لبرهة المترجم) للطبيعة كما نظمتها انفسنا . لكن هذه الصيغة من التنظيم والتي تتضمن تاريخاً ، والتي لا نستطيع ان نتدخل في شؤونها ولو تدخلاً طفيفاً ، هي ليست نتاجاً وعملاً للسببية ، بل انما هي عمل المصير ونتاجه .

- ٢ -

ان طريقنا الى معالجة معضلة الزمان تبدأ بالتوق البدائي وتمر بنتيجته الاوضح ، أي فكرة المصير . وعلينا الآن ان نحاول تلخيص محتوى هذه المعضلة تلخيصاً موجزاً على قدر ما يؤثر هذا المحتوى على موضوع كتابنا هذا.

ان كلمة زمان هي نوع من طلسم او سحر أنيط به ان يلخص ذاك الشيء ما ، المشدود في كونه الشخصي ، والذي كان يُسمى في وقت أبكر بالذاتي ، والذي هو قناعة باطنية نقابلها « بالغريب » ، انه شيء ما حُمّل كل منا به ، بين وداخل الانطباعات الفقيرة المتجمهرة لحياة الشعور . ان « الذاتي » ، « المصير » والزمان هي كلمات من الجائز للمرء ان يستعيض عن احداها بالأخرى .

ان معضلة الزمان ، كمعضلة المصير ، معضلة قد أساء كل المفكرين فهمها اساءة كاملة حيث انهم اقتصروا في تفكيرهم على منهاجية الصير . وفي نظرية « كنت » المشهورة المبجلة لا توجد كلمة واحدة عن طبع اطراد الزمان . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، اذ ان اغفال هذا الموضوع (طبع اطراد الزمان) لم يلاحظ حتى الآن مطلقاً. ولكن ما هو الزمان بوصفه امتداداً وزماناً لا اتجاه له ؟

ان كل شيء حي ، ونحن لا يسعنا الا أن نكرر ، يملك « حياة» اتجاهاً ، حافزاً ، ارادة ، ونوع حركة هو وثيق التحالف والحنين ، ولا يمت بأية صلة الى مفهوم الحركة ، الفيزياء . فالحي غير قابل للتجزئة او للنقض او للقلب، وهو يحدث مرة واحدة ، حدوثاً فريداً في نوعه ،ولا يمكن للميكانيكا ان تقرر مجراه ، وذلك لان انواعاً كهذه تنتمي الى جوهر المصير والزمان (الذي نشعر به بالواقع من جَرْس الكلمة (زمان) والذي يبدو اشد وضوحاً في الموسيقى منه في اللغة وفي الشعر منه في النثر) اقول وللزمان

جوهره العضوي الخاص ، بينما ان الفراغ لا يملك مثل هذا الجوهر ، ولهذا ، وعلى الرغم من « كنت » والآخرين من أضرابه ، من المستحيل علينا ان نخضع الزمان والفراغ معاً لنقد عام واحد ، فالفراغ هو مفهوم بينما ان الزمان هو كلمة تشير الى شيء غير قابل للفهم ، وهي رمز صوت ، لذلك فان استعمالها كتصور واستخدامها استخداماً علمياً ، لا يعني سوى اساءة فهم طبيعتها اساءة كلية . زد على ذلك ، ان حتى كلمة اتجاه (هذه الكلمة التي ويا للاسف لا نستطيع استبدالها بكلمة اخرى) هي عرضة لان تغرر بنا وتضلنا بسبب ما لها من محتوى بصري . اما التصور الموجه في الفيزياء فهو موضوع بيت القصيد .

ولا تستطيع كلمة « الزمان » ان يكون لها أي معنى بالنسبة الى الرجل البدائي . فهو ببساطة يعيش دون ان يكون مضطراً لتعيين مقابلة وشيء ما آخر . وهو يملك زماناً لكنه لا يعرف شيئاً عنه . ونحن جميعاً نعي الفراغ لا الزمان . فالفراغ هو (مثلاً يوجد داخل ومع عالم شعورنا) كامتداد ذات ، بينما نكون نحن عائشين الحياة العادية ، حياة الحلم ، الحافز ، البديهة والسلوك ، حياة المفهوم الدقيق لتلك اللحظات من الانتباه المجهد في الفراغ . اما الزمان فهو على عكس الفراغ ، اذ انه اكتشاف ينجزه التفكير فقط . ونحن نخلقه كفكرة او تصور ، ولا نبدأ الا بعد مضي طويل وقت على خلقنا له ، بالشك في اننا نحن أنفسنا زمان نظراً لاننا نحيا او نعيش . ولا تستطيع سوى الحضارات الارقى التي بلغت مفاهيم عالمها المرحلة الطبيعية الميكانيكية ، ان تستخرج من وعيها الفراغي الحسن الانتظام ، القابل للقياس والادراك ، صورة تخطيطية لزمن شبح يشبه حاجتها للادراك وللقياس وتنظيم كل الاشياء تنظيماً سببياً .

وهذا الحافز (الدليل على السفسطة في الوجود ، ويخرج الى النور في وقت جد مبكر في كل حضارة) يتشكل خارج وما وراء شعور الحياة الحقيقي ، ووراء ما يسمى بالزمان في كل اللغات الارقى والذي أصبح بالنسبة

الى ذهن المدينة حجماً مطلقاً في جماديته ومخادعاً كما هو شائع ومألوف. ولكن اذا كانت الخصائص ، او بالاحرى خاصة الامتداد (المحدودية والسببية) هي عدة الساحر التي تحاول نفسنا الاصلية ان تتضرع وتربط بواسطتها القوى الغريبة ، (وغوتيه يتحدث في احدى صفحات احد مؤلفاته عن مبدأ النظام المعقول الذي نحمله داخل انفسنا ونستطيع بواسطته ان نطبقه كخاتم لقوتنا الخاصة على كل شيء نلمسه) واذا كانت كل القوانين هي قيود يسارع بها رعب عالمنا ، كي يفرض العناصر الحسية المتجمهرة داخلنا ، ضرورة عميقة من ضرورات المحافظة على البقاء ، فعندئذ يكون اختراع زمان ما ، زمان قابل للمعرفة ، وقابل للعرض عرضاً فراغياً داخل السببية ، هو عملا متأخراً من اعمال هذه المحافظة على البقاء نفسها ، عملا هو بمثابة محاولة يراد لها ان تربط بواسطة قوة التصور ، الاحجية الباطنية المعذبة ، والتي تضاعف تعذيبها للعقل ، هذا العقل الذي بلغ القوة فقط كي يجد نفسه موضوع ازدراء وتحد .

وهناك دائماً بغضاء مخاتلة مراوغة تكمن تحت كل اجراء عقلي يرمي الى حشر اي شيء في ميدان وفي عالم شكل القياس والقانون . فالحي يقتل عندما يدفع به الى ميدان الفراغ ، لان الفراغ ميت مميت . فمعطيات الولادة هي الموت ، ومعطيات الاكتمال هي النهاية . فهناك شيء ما يموت في المرأة عندما تحمل ، ومن هنا تنشأ البغضاء الخالدة تلك بغضاء الجنسين . وهي بمثابة طفل لخوف العالم . فالرجل يدمر ، بالمفهوم العميق جداً لهذه الكلمة ، عندما ينجب – وتدميره هو نتيجة لعمل جسماني يقوم به في عالم الحس ، اما تدميره في عالم الفكر فينجم عن « المعرفة » .

ولكلمة « يعرف » حتى في نظر الكتاب المقدس ، ترجمة لوثر ، مفهوم تناسلي ثانوي . وبواسطة « المعرفة » بالحياة ، (هذه المعرفة التي تبقى غريبة عن حيوانات الدنيا) اكتسبت المعرفة بالموت تلك القوة التي تسيطر على كامل وعي الانسان اليقظ .

ان الواقعي يتحول بواسطة صورة الزمن الى انتقالي عابر .

ان مجرد خلق اسم للزمان كان بمثابـــة تخلص لا مثيل له ، فإطلاق اسم على شيء يعني الفوز بالقوة عليــه . وهذا هو جوهر فن السحر عند الانسان البدائي ، فلقد كانت القوى الشريرة تُكبَّل بالقيود بواسطة اطلاق الاسماء عليها ، وكانت السبيـل الى اضعـاف العدو او قتله تتمثل في ربط اجراءات سحرية معينـــة باسمه . وهناك شيء ما من هذا التعبير البدائي عن خوف العالم يمثل في الاسلوب الذي يعتمده جميع الفلاسفـــة المنهاجيين حيث انهم يستعملون كإجراء اخير ، مجرد الاسمـاء كي يتخلصوا من اللامدرك ، اي القدير على كل شيء ، البالغ الجبروت بالنسبة الى العقل . فنحن نسمي هذا الشيء او ذاك بالمطلق ، ثم نشعر فوراً باننا اقوى منه وارفع . والفلسفة ، اي حب الحقيقة ، هي في اعماق اعماقها دفاع ضد اللامدرك . ان ما يُسمى و يُفهم ويقاس يُتغلب عليه ، و يُجعل خامداً و « تابو » ثم نعود لنقول مرة اخرى : المعرفة هي القوة . وهنا يكمن احد جذور الفرق بين موقف المثالي وموقف الواقعي مما لا يُطال . وجذر الفرق هذا يعبر عنه معينا الكلمـــة الالمانيـــة (Scheu) (اي الرهبة ، وهي مزيج من الاحترام والبغضاء) . فالمثالي يتأمل ، اما الواقعي فيخضع و « يمكنك » (جعل الشيء ميكانيكيا) ويترجم دون ان يؤذي او يضر . لقد كان افلاطون وغوتيـه يتقبلان السر بتواضع وخضوع ووداعة ، لكن ارسطوطاليس و « كنت » كانا يكشفـان عنه القناع ويدمرانه . ان اعمق الامثال مغزى على هذه الواقعية يتجلى في معالجتها لمعضلة الزمان . (فيتوجب على سر الرعب من الزمان ، وعلى الحياة نفسها ، ان يُسحرا وان يبطل مفعولها بواسطة سحر الادراك .

ان ما جاء في الفلسفـة العلميـة وعلم النفس والفيزياء العلميتين عن الزمان (وهو الجواب المفترض على سؤال كان من المستحسن الا يُطرح واعني به : ما هو الزمان ؟) لايلامس عند نقطـة السر نفسه ، بل انما كل ما جاء فيما اوردته من علوم ، انما يمثل شبحاً صيغ في شكل فراغي ينوب عن الزمان ويمثله . فلقد استبدلت حياة الزمان واضطراره ومجراه المقدر له بعدد الذي ،

وان لم يفهم ابداً فهماً وثيقاً على هذا الشكل ، هو فقط خط قابل للقياس والتجزئة والقلب ، وليس هو صورة لذاك الشيء غير القابل للتصوير ، لقد استبدل الزمان بزمان بالامكان ان يعبر عنه تعبيراً رياضياً في اشكال كهذه :

$$\sqrt{t}\ ,\ t^2\ ,\ -t$$

اشكال لم تستثن على الاقل مثلاً افتراض الزمن صفرا (٠) في حجمه ، او ازمنة سلبية . ومن الواضح ان مثل هذا الزمان الآنف الذكر هو شيء ما خارج ميدان الحياة وخارج ميداني المصير والزمان التاريخي الحي ، وهو منهاج تصوري لزمن بعيد كل البعد حتى عن الحياة الحسية . ويكفي للمرء ان يستبدل كلمة « المصير » بكلمة « الزمان » ، في اي مؤلف فلسفي او فيزيائي يرغب فيه ويحبه ، كي يرى فوراً كيف يضل الفهم طريقه ، عندما تحرره اللغة من ربقة الحس ، وكيف يصبح من المستحيل الجمع بين الزمان والفراغ .

ان ما لا يختبر وما لا يحس به ، اي ان ما يفكر به فقط ، يتخذ بالضرورة شكلاً فراغياً ، وهذه الحقيقة توضح لنا السبب الذي جعل جميع الفلاسفة المنهاجيين عاجزين عن استنتاج اي شيء من الرمزين المجلببيْن بغيوم الاسرار واللذين تذهب اصداء صوتيهما بعيداً بعيداً ، رمزي « الماضي » و « المستقبل » ونحن لا نجد اي اثر لهاتين الكلمتين في كل ما كتبه « كنت » او تفوه به ، والحق اننا لا نستطيع ان نرى اية علاقة تشدهما الى ما كتبه « كنت » او تحدث به . لكن هذا الشكل الفراغي فقط هو القادر على دفع الزمان والفراغ الى تكافل وظيفي بوصفهما حجمين ينتميان الى نفس النظام ، كما يظهر لنا ذلك بوضوح التحليل الموجه ذي الابعاد الاربعة . ولقد وصف بصراحة « لاغرانج» « الميكانيكا » في عام مبكر لعام ١٨١٤ ، بانها هندسة ذات ابعاد اربعة ، وحتى مفهوم نيوتن الحذر في : (Tempus absolutum sive duratio) لا يمكن استثناؤه من هذا التحويل الذهني المحتوم للحي الى مجرد امتداد . ولقد وجدت في الفلسفات الاقدم من فلسفتنا عرضاً واحداً

للزمان وواحداً فقط، يتمتع بالعمق والاحترام ، لقد وجدته عند اوغسطين وفي قوله :

« اذا لم يسألني احد فانا أعرف ، واذا كان علي ان أشرح لسائل فانني لا أعرف » .

وعندما « يتحفظ » فلاسفة الغرب اليوم ، (كما يفعل جميعهم) فيقولون بان الاشياء موجودة في الزمان كما هي موجودة في الفراغ ، وبأنه خارج هذين المجالين لا يوجد أي شيء قابل للادراك ، فعندئذٍ يقومون فقط بوضع نوع آخر من الفراغ الى جانب الفراغ العادي ، وعملهم هذا شبيه بعمل من يختار الامل والكهرباء ، ليعتبرهما القوتين الاساسيتين في الكون .

لقد كان من المتوجب تأكيداً على « كنت » ، عندما تحدث عن الادراك الحسي ذي الشكلين ، الا تفلت منه تلك الحقيقة القائلة : بينما أنه من السهل ما فيه الكفاية ، ان يصل المرء الى فهم علمي للفراغ (ولو انه لا يفسره بما لكلمة التفسير من معنى اذ انه وراء القوى البشرية) لكن معالجة الزمان وفق الخطوط العلمية ذاتها ، معالجة تنهار انهياراً كلياً .

ولا شك ان قارىء كتاب « نقد العقل المجرد » ، ومقدمته التمهيدية يلاحظ ان كنت يقدم برهاناً محترماً على الترابط القائم بين الفراغ والهندسة ، لكنه يتجنب بحذر تقديم مثل هذا البرهان على الترابط القائم بين الزمان والحساب. ففي هذا الموضوع لا يذهب الى أبعد من التصور والظن، فالتأكيد الملحاح للمماثلة بين هذين المفهومين (الزمان والفراغ) يستدرجه الى ثغرة قد تكون نجسة مشؤومة مهلكة لمنهاجه .

وتقف « أين » (Where) وجهاً لوجه و « كيف » (When) بينما ان عالم اشكال « متى » (When) هو عالم مستقل بذاته ، وبعيد عن عالم تينك بُعد عالم الميتافيزيقا عن عالم الفيزياء .

ان الفراغ والمادة والرقم والتصور والسببية ، هي متقاربة جميعاً بعضها

من بعض الى درجة تجعل من المستحيل ان تعالج احداها مستقلة عن الأخرى (كما تثبت ذلك مناهج مغلوطة لا تعد او تحصى) . زد على ذلك ان الميكانيكا هي نسخة عن المنطق والعكس بالعكس . فصورة الفكر كما يرسمها علم النفس اليوم ، وصورة عالم الفراغ كما تصفها الفيزياء المعاصرة ، هي انعكاس صورة الواحدة على الاخرى . فالتصورات والاراء والاشياء والبواعث والاسباب والنتائج والعمليات تتحد كلها معاً حالما يتسلمها الوعي بجمال وروعة يجعلان المفكر التجريدي نفسه يستسلم مرة بعد مرة لغواية تغريه بترتيب عملية الفكر ترتيباً بيانياً (Graphically) منهاجياً ولنا في جداول ارسطوطاليس وكنت المنضدة المرتبة خير دليل وشاهد .

« حيث لا يوجد منهاج لا توجد فلسفة » هذا هو رفض المبدأ وممانعته (مع انه قد يكون غير معترف به) وهو رفض كل الفلاسفة المحترفين للبديهات التي يشعرون في داخلهم بانهم اسمى منها بكثير وارفع . وهذا هو السبب الذي جعل « كنت » يصف بهياج وغضب منهاج التفكير الافلاطوني بأنه « فن تبذير الكلمات الجميلة في الثرثرة » ، وهذا هو ايضا السبب الذي يجعل فلاسفة قاعات المحاضرات لا يملكون اية كلمة يقولونها عن فلسفة « غوتيه » . ان كل عملية منطقية هي عملية قابلة للرسم ، وان كل منهاج هو نهج هندسي في معالجة الافكار ، ولذلك فان الزمان اما لا يجد له مطلقاً مكانا في المنهاج ، واما يُجعل منه ضحية للمنهاج .

هذا هو دحض ونقض لاساءة الفهم الواسعة الانتشار تلك ، التي تربط الزمان بالحساب ، والفراغ بالهندسة بواسطة مماثلات سطحية ، وهذا الخطأ كان يجب على « كنت » الا يستسلم له ابداً ويذعن (مع انه ليس مما يثير الدهشة ان يتردى شوبنهور ، وهو الضعيف في الرياضيات ، في هذا الخطأ) .

لكن الترقيم ليس بالرقم ، كما وان التصوير ليس بالصورة ، فالتصوير والترقيم هما الصيرورة ، اما الارقام والاحجام فانما هي الأشياء في الصير . « فكنت » واضرابه ، يختزنون داخل عقولهم الآن العمل الحي (الترقيم) ،

والنتيجة الناشئة عنه الآن ، (علاقات الاعداد المنتهية) لكن الاول يدخل في ميداني الحياة والزمان ، بينما ان الثاني حبيس في مجالي الامتداد والسببية .

فكوني احسب فهذا عمل المنطق العضوي ، اما الذي احسبه فانما هو عمل المنطق الجمادي . فالرياضيات كوحدة (وباصطلاح عام الحساب والهندسة) تجيب على الـ « كيف » (how)وعلى الـ « ماذا » (What) ذلك هو مشكلة النظام الطبيعي للاشياء ، ويقابل هذه المشكلة ، مشكلة الـ « متى » (When) للاشياء ، وهي المشكلة التاريخية الخاصة بالمصير ، الماضي والمستقبل ، جميع هذه الاشياء مستوعبة في كلمة « كرونولوجي » التقويم التاريخي المتسلسل . والتي يفهمها الانسان البسيط فهماً تاماً لا لبس فيه او ابهام .

ولا يوجد هناك اي وجه للمقابلة بين الحساب والهندسة . فكل نوع من انواع الرقم ، كما اوضحنا في فصل سابق ، ينتمي بكليته الى ميدان الممتد والصير أكان هذا الرقم حجماً يوقليدياً ام وظيفة تحليلية ، وفي اي باب يجب علينا ان ندخل الوظائف الدورية ، والنظرية ذات الحدين، وسطوح «ريمان» ونظرية المجموعات ؟

لقد قام « اويلر »و« «المبرت » بدحض منهاج « كنت » حتى قبل ان يضعه « كنت » بزمن ، ولكن جهل خلفاء كنت برياضيات عصرهم ، (ويا لهذا الجهل من تناقض واضح وديكارت وباسكال ولايبنتز ، الذين استولدوا رياضيات عصرهم من أعماق فلسفاتهم !)

اقول جهلهم برياضيات عصرهم جعل من الممكن تجاوز تصورات رياضية لعلاقة ما تربط بين الزمان والحساب ، دون ان يوجه اليها تقريباً اي نقد ، كأنها متاع موروث .

لكن لا توجد هناك اية علاقة مهما كان شأنها تربط بين الصيرورة والرياضيات . والحق ان « نيوتن » كان راسخ القناعة (وهو لا شك ليس بفيلسوف حقير) من انه قد ادرك من خلال قوانينه في التفاضل مشكلة

الصيرورة ، وبذلك فهم مشكلة الزمـان ، ولقد وعى هذين الامرين بشكل يفوق بكثير شكل « كنت » في دهائـه ومراوغته . ولكن حتى نظريـة نيوتن لا يمكن أن تؤيد او تسند، بالرغم من انها قد تجد لها حتى اليوم مدافعين عنها ومحامين .

ولما كان « فاييرشتراس » قد برهن على وجود وظائف متتالية ، يكون التمييز بينها اما مستحيلاً ، واما تكون هذه الوظائف قـابلة للتمييز الجزئي فقط ، ولما كان مجهود « فاييرشتراس » هو أعمق المجهودات غوراً ، فبذلك تكون معضلة الزمان قد خرجت من دائرة البحث الرياضي .

– ٣ –

ان الزمان هو المفهوم المضاد للفراغ ، وهو ينشأ بعيداً عن الفراغ ، تماماً كما ينشأ تصور الحياة (بوصفه مختلفاً عن الواقعة) كمضاد للفكر ، وكما ينشأ تصور الولادة والحيل (بوصفـه ايضاً مختلفـاً عن الواقعة) كمضادة للموت . وهذا الامر معروف ضمنا في جوهر الوعي ذاته .

وكما انه لا يمكن ملاحظة اي انطباع حسن الا فقط عندمـا يتحرر هذا الانطباع من انطباع آخر وينعزل عنه ، كذلك فان أي نوع من الفهم يكون فعالية اصيلة محكمة لا يصبح ممكنا الا بواسطة اقامة مفهوم جديد يصبح بمثابة قطب معاكس لقطب موجود قبل الآن ، او بواسطة اجراء طلاق (اذا سمح لنا بان نسمي هذا الاجراء بهذا الاسم) بين زوجين هما في باطنيهما مفهومان قطبيان لا يملكان اية واقعة « Actuality » طالما هما مجرد جزئين ذاتيين نهائيين .

ولقد زعم منذ طويل زمن (وهذا الزعم هو صحيح وفوق كل شبهة او

ريب) ان جميع كلمات الجذر (Root - words) أعبّرت هذه الكلمات عن اشياء او عن خاصيات ، فانما قد خرجت الى الوجود زوجاً زوجاً ، ولكن حتى فيما بعد ، وحتى هذا اليوم ، فان المضمون الذي تحصل عليه كل كلمة جديدة ، هو انعكاس لاحدى الكلمات الاخرى . وهكذا فان الفهم ، المسترشد باللغة والعاجز عن تركيب يقين ذاتي باطني للمصير في عالم الشكل ، « خلق » من الفراغ ضدا للمصير ، ولكننا من اجل هذا الامر كان علينا الا نمتلك الكلمة او مضمونها .

ولقد بلغت عملية تشكل الكلمة الى هذا الحد ، حتى دفع هذا الطراز المعين من الامتداد الذي كان يمتلكه العالم الكلاسيكي اي تصور كلاسيكي خاص للزمان ، تصور يختلف عن تصورات الهند والصين والغرب للزمان ، اختلاف الفراغ الكلاسيكي عن فراغات هذه الحضارات .

ولهذا السبب نشأ تصور شكل الفن (والذي هو مرة ثانية مفهوم مضاد) فقط عندما اصبح الناس يدركون ان لابداعاتهم الفنية مضموناً كليا ، اي عندما لم تعد لغة التعبير عن الفن وممتلكاتها شيئاً ما كاملاً في طبيعته ومسلماً به كما كانت حالها في زمن بناة الاهرامات ، وزمن من شاد القلاع « المسينية » والكاتدرائيات الغوطية المبكرة . ان الناس يعون فجأة وجود « انجازاتهم » وعندئذٍ تصبح عين الفهم لاولى مرة قادرة على التمييز بين الجانب السببي والجانب المصيري في كل فن حي . ويكمن داخل كل عمل يعرض كامل الانسان وكامل معنى الوجود ، الخوف والحنين متلاصقين جنباً بجنب ، لكنهما شيئان (الخوف والحنين) مختلفان ويبقيان مختلفين . ويدخل في باب الخوف ، او في باب السببي كامل الجانب « التابوي » (نسبة الى (Taboo) من الفن ، اي مخزون الفن من الدوافع والبواعث التي طورت في مدارس دقيقة صارمة ، وحسنت عقب مجهودات من التدريب المهني ، وتعهدتها الصيانة بحذر وعناية ونقلت بتقوى وورع ، كما ويدخل في هذا الباب ، باب الخوف ، كل ما هو قابل للادراك وللتعلم وكل ما هو رقمي

وعددي ، وكامل منطق اللون والخط والبناء والنظام الذي يكون لغة الأم لكل فنان قدير ذي قيمة في كل حقبة عظيمة .

ولكن الجانب الآخر المقابل « للتابو » كما يقابل المطرد الممتد ، وكما يقابل مصير تطور داخل احدى لغات الشكل قياساته المنطقيـــة (Syllogisms) ينبعث في العبقرية (واعني بالعبقرية ما هو بكامـــله شخصي بالنسبـة الى الافراد الفنانين ، اي قواهم التصويرية والخيالية ، وعاطفتهم المبدعة والعمق والثراء ، مقابـل كل تفوق الشكل الخالص .) ويقع حتى وراء العبقرية ذاك الفيض من الابداع في الجنس (Race) الذي يشترط نشـــوء فنون كاملة وانهيارها .

هذ هو الجانب « الطوطمي » للفن ، وبفضل هذا الجانـــب لا يوجد (رغما عما خطه كل الجماليين من كتـــب ومؤلفات) اسلوب حقيقي واحد فقط ، لا زمان له للفن ، بل انما يوجد فقط تاريخ للفن ، تاريخ ممهور ككل شيء يحيا ويعيش ، بخاتم عدم النقض او القلب . وهذا هو السبـــب الذي يجعل الهندســة المعمارية ذات الاسلوب الفخم ، (والتي هي الفن الوحيد من الفنون ، الذي يضم الغريب وتسري الخوف نفسه ، الممتد المباشر ، الحجر) اقول هذا الذي يجعل الهندسة المعمارية الفن الطبيعي المبكر في كل الحضارات ، وهي تتنازل خطوة فخطوة عن اسبقيتها للفنون الخاصة ، بما لهذه الفنون من اشكال دنيوية تتمثل في التمثال والصورة والتأليـف الموسيقي . وربمـا كان « ميخائيلنجلو » من بين جميـع فناني الغرب ، هو الذي عانى اكثر من غيره آلام كابوس رعب شديد وخـاز من العالم ، وهو وحده ايضـاً من بـين جميع ارباب الفن في عهد النهضة الذي لم يحرر نفسه ابداً . وحتى عندما كان يرسم ، فانه كان يرسم كأن السطوح التي يرسم عليها هي حجر ، صير ، جمود ، بغيضة . لقد كان جميع انجازاتـه صراعاً مريراً ضد قوى الكون التي كانت تواجهـه وتتحداه في الشكـل المادي ، بينما ان الحنين الذي نراه في لون ليوناردو ،

يتبدى كأنه كان التجسيد المادي الفرح السعيد لما هو روحي . ولكن من كل معضلة هندسيـة معماريـة ينطلق منطق سببي حقود لا يرحم (كي لا نقول منطقاً رياضياً) للتعبير عن نفسه . ويتجلى هذا المنطق في الترتيب الكلاسيكي للأعمدة ، اي في العلاقة اليوقليدية بين الشعاع والضمانات ، وفي نظام الثقل الغوطي المرتب ترتيبا « تحليليا » ، اي في العلاقـة الديناميكيـة بين القوة (لاحظ لم يقل طاقة — المترجم —) والكتلة .

ان تقاليد بناء الاكواخ ، (ونستطيع ان نقتفي اثر هذه التقاليد ، في هذه او تلك ، وهي الضروري حتى للهندسـة المماريـة المصرية ، والتي تتطور فعلاً في كل حقبة مبكرة وتختفي بانتظام في كل حقبـة متأخرة) اقول ان هذه التقاليد هي كامل مجموع منطق الممتد . لكن رمزية الاتجاه والمصير هي فوق كل « تقنيـة » Technique) للفنون العظمى ، ومن الصعب ادراكها بالاعتماد على الاسلوب الجمالي . فهي تكمن (ولنضرب بعض الامثال) في التعارض الذي نُحس به دائماً (هذا التعارض الذي يشرحه ابداً لسنج او هيبل) بين المأساة (المسرحية)الكلاسيكية والمأساة الغربية ، وفي تتابع مناظر التضريس (Relief) المصري القديم ، وبصورة عامـة في الترتيب المتسلسل للتماثيل والاهرامات والمسلات وقاعات الهياكل المصرية وفي اختيار المواد صعبـة المعالجة (اختيار اقسى الصخور الصوانيـة كي تؤكد المستقبل والخشب الاطرى عودا لتنكره له) ،وفي حدوث الفنون الافراديـة لا في صرفها او نحوها ، مثلا انتصار الزخرفة العربية على الصورة المسيحيـة المبكرة ، وتراجع التصوير الزيتي امام الموسيقى المنزلية (Chamber musi) في العصر « الباروكي » وفي تعدد اشكال الغرض لفـن نحـت التماثيل في الحضارات المصرية والصينية والكلاسيكية . كل هذه الاشياء ليست بأمور « امكان » بل انما هي أمور الزام ، ولذلك فهي ليست برياضيات وفكر تجريدي : بل انما هي الفنون العظمى بقرابتهـا الى الاديان المعاصرة ، والتي

تقدم المفتاح لحل معضلة الزمان ، هذه المعضلة التي من الصعب حلها في ميدان التاريخ وحده .

- ٤ -

ينشأ عن المعنى الذي خصصنا به الحضارة كظاهرة اولية ، وعن المفهوم الذي حددناه للمصير بوصفه وجوداً عضوياً منطقياً ، ان كل حضارة يجب ان تمتلك بالضرورة فكرتها المصيرية الخاصة بها . والحق ان هذا الاستنتاج مفهوم ضمناً داخل ذاك الشعور القائل بان الحضارة هي ليست الا التحقق والشكل لنفس واحدة مفردة فريدة في نوعها .

ان ما يمكن ان يحس به من قبل نوع من الناس ، كما يحس تماماً به من قبل نوع آخر من البشر ، (وذلك بما ان حياة كل نوع من البشر هي تعبير عن الفكرة الخاصة به) وان ما هو دون الاحساس دقة في النقل والنسخ وهو ما نسميه « بالترابط » و « بالمصادفة » و « بالعناية الالهية » و « بالتدبر » ، وما يسميه الانسان الكلاسيكي بـ :

Nemesis, Ananka, Tyche, or, Fatum

وما يسميه العرب «بالقسمة» ، وما يدعوه كل فرد وفق طريقته الخاصة ، اقول ان هذا كله هو ترجمة امينة لكل فطرة نفس ، فطرة هي فريدة في نوعها وواضحة وضوحاً كلياً لجميع الناس الذين يشتركون فيها ولا يمكن لهذه الفطرة ان تتوالد او تتكاثر او يعاد وضعها من جديد .

انني سأغامر وسأنعت شكل الفكرة المصيرية الكلاسيكية «باليوقليدية» وهكذا فهي شخص اديبوس « Œdipus » الحسي الواقعي ، انها ، « انا » التجريبية الاختبارية » ، (Empirical ego) كلا انها الجسم .. الذي يطارده المصير ويطرحه . « فاديبوس » يشكو من ان « كريون » قد

اساء استعمال « جسمه » وان « الاراكل » « Oracle » (السحر) قد تلبس جسمه وانطبق عليه ، واخيل يتحدث ثانية عن « أغا ممنون » بوصفه «الجسم الملوكي قائد الاساطيل »[1] ، والحق انها هي الكلمة ذاتهـا « الجسم » التي يستخدمها الرياضيون اكثر من مرة للتعبير عن الاحجام التي يعالجونها . لكن مصير الملك « لير » هو مصير من نوع « تحليـلي » (ونحن هنـا نستعمل الاصطلاح المقابل لاصطلاح عالم الرقم الآخر (يوقليدي) ويتألف مصير الملك لير من علاقات باطنية سوداء مظلمة ، فـالابوة تنبعث ، والخيوط الروحية تنسج نفسها ضمن القضية نسجاً روحانياً متسامياً ثم تنار قدرياً بواسطة النغم المضاف (Counterpoint) والماثل في المأساة الثانوية ، مأساة عائلة «غلوستر» و « لير » هو في النهاية مجرد اسم ، وهو المحور لشيء ما غير محدد . وهذا المفهوم للمصير هو مفهوم « الرقم » غير المتناهي في صغره ، فهو يمتد في زمان وفراغ غير متناهيين ، وهو لا يلامس مطلقـاً الوجود اليوقليدي الحجمي ، لكنه يؤثر فقط في النفس . فلنتأمل الملك لير وهو واقف بين الجنون والمنبوذ الشريد في العاصفة على المرج الاخضر ، ومن ثم فلنتطلع على مجموعة « لاكون »[2] (Laocoon) ، عندئذ يبين لنا ان « الملك لير » يدل على النوع الفاوستي من الآلام ، بينما نرى الثاني يبرز النوع « الابولوني » منهـا . ولقد كتب ايضاً سوفوكليس اسطورة « لأوكون » في مأساة مسرحية ، لكن قد يكون باستطاعتنا ان نتأكد من ان مسرحية سوفوكليس هذه خالية تماماً من اي عذاب نفسي ، « فأنيتغون » تغوص تحت الارض حسداً ، لانهـا قد دفنت جثة اخيهـا . ولنتمعن في « آجاكس » وفي « فيلوكتيتس » ومن ثم في امير

---

(١) لاحظ لقد استعملنا كلمة الجسم لا الجسد وذلك انطباقاً وروح المؤلف الذي تقدم كما يتوخى ان يقيم الدلالةعلى الارتباط الكلي بين الفكرة المصيرية الكلاسيكيةوبين رياضيات يوقليد. — المترجم —

(٢) «Laocoön» كاهن طروادي شك وولديه في الحصان الخشبي ، فارسلت الالهة اثينا بثعبانين هائلين من البحر-انقضا على الكاهن وولديه ومزقاهم ارباً ارباً — المترجم -

هومبرج وفي تاسو غوتيه ، ألا نقتفي بعد هذا التأمل آثار الفرق بين الحجم والعلاقة حتى اعمق اعماق الابداعات الفنية ؟

وهذا مما يقودنا الى علاقة اخرى ذات مغزى رمزي رفيع . فالتمثيلية الغربية هي عادة تعالج الطبع والخلق ، بينما ان التمثيلية الاغريقية هي عادة تعالج الطبع والخلق ، بينما ان التمثيلية اليونانية ، من جهة اخرى ، تمثيلية احسن ما توصف به انها تعالج الحالة ، الوضع ، وباستطاعتنا ان ندرك في النقيض (Antithesis) كل ما يحس بـه الرجل الكلاسيكي والرجل الغربي كشكل اساسي للحياة تهدده المأساة بغاراتها والقضاء والقدر بهجماتهما . ونحن اذا استعضنا عن كلمة « اتجاه » فقلنا « اللا مقلوبية » واذا ما تركنا لانفسنا ان تعوص عميقاً في معنى هـذه الكلمات « متأخر جداً زمنا » حيث نتنازل بهذه الكلمات عن لحظة عابرة من الحـاضر للماضي الخـالد ، عندئذٍ نعثر على الاساس العميق لكل ازمة مفجعة . ان الزمان هو المفجع (Tragic) ، فالمفهوم الذي تقرره بداهة احدى الحضارات للزمان هو الذي يميزها عن حضارة اخرى ، ونتيجة لما اوردت فان المأساة المسرحية ذات الاسلوب والطراز العظيمين ، نشأت وتطورت اما في حضارات كانت تؤكد الزمان اشد التأكيد الحار ، واما في حضارات كانت تنفي الزمان اشد النفي العاطفي المنفعل . فعاطفة النفس اللاتاريخية تعطينا المأساة الكلاسيكية ، مـأساة اللحظة التي هي فيها ، اما عاطفة النفس الما فوق التاريخية (Ultra) فانما تعرض علينا نحن معشر الغربيين مأساة تعالـج تطور كامل احدى الحيوات . ان مأساتنا المسرحية تنبع من شعور عنيد لا يرحم هو شعور منطق الصيرورة ، بينما ان الاغريقي يحس بعنصر اللحظة اللا منطقي الاعمى السببي ، فحيـاة الملك « لير » تنضج وتتجه في نضوجها نحو كارثة ، بينما ان حياة «اوديبوس» تتعثر بالحالة ، بالوضع دون ما سابق تحذير .

والآن قد يكون باستطاعة المرء ان يدرك لماذا نشأ وانهار في وقت واحد مع الدراما الغربية فن عظيم جبـار ، (بلغ ذروته (في رمبراندت) فن

طرازه طراز تاريخي بيوغرافي ، ولانه كان هذا طرازه اعرضت عنه بلاد اليونان الكلاسيكية عندما بلغت الدراما « الاتيكية » ذروة رفعتها. فلنتأمل في « الفيتو » «Veto » الموضوع على فن نحت التماثيل المتشابهة في الذبائح والتقدمات المنذورة المكرسة ، ولنلاحظ كيف انه ابتداءً من « ديمتريوس » حتى «ألوبيكي» (قرابة القرن الرابع) اخذ فن رعديد فن تصوير « نموذجي » يغامر فيشق طريقه قدماً الى الامام ، وقد تم له ذلك فقط ، وفقط عندما اطرحت نبذ الحياة الاجتماعية الخفيفة ، للكوميديا الوسطى ، المسرحية العظمى وراءها .

وفي الاساس كانت جميع التماثيل الاغريقية اقنعة مقاسة ، شأنها في ذلك شأن الممثلين في مسرح « ديونيزوس » فمهمتها جميعاً ان تعبر بشكل بارز صارم عن مواقف جسمانية ومراكز جسدية . وهذه التماثيل هي من الوجهة السيمائية غبية جسمانية وبالضرورة عارية ، اما تماثيل الرؤوس المعبرة عن طبع وخلق ، فانما جاءت مع العصر «الهليني» . وهنا نذكر مرة اخرى بالتناقض بين عالم الرقم اليوناني بما فيه من حسابات وعد وتخمينات لنتائج ملموسة ، وبين عالم الرقم الآخر ، عالمنا ، بما له من علائق تربط بين مجموعات من الوظائف والمعادلات ، او بصورة عامة ، فان عناصر القواعد والمعادلات لهذا النظام تبحث بحثاً مورفولوجياً وتجدد طبائع هذه العلائق كما يعبر عنها في القوانين .

– ٥ –

يختلف كل شخص عن الآخر في قدرته على ان يعيش التاريخ خبرة ، وفي الطريقة التي يُعاش وفقها التاريخ ، وخاصة تاريخ الصيرورة الشخصية اختلافاً عظيماً . فكل حضارة تمتلك اسلوباً كاملاً في فرديته حيث تنظر وتفهم وفقه العالم كطبيعة ، او بكلمة اخرى (لها المعنى ذاته) ان لكل حضارة

طبيعتها الخاصة والتي لا يستطيع اي نوع آخر من الناس ان يمتلكها بالشكل ذاته تماماً ولكن كل حضارة ، بما في ذلك جميع الافراد الذين يستوعبونها، (والذين تفصل بينهم فوارق طفيفة تافهة) تمتلك ايضاً الى حد ابعد نوعاً معيناً وخاصاً من التاريخ ، وبواسطة هذا النوع ، هذه الصورة تدرك وتحس وتعاش فوراً كل الصيرورة من صيرورة عامة او فردية ، باطنية او ظاهرية ، عالمية تاريخية او « بيوغرافية » ، لذلك فان نزعة الانسان الغربي الاوتوبيوغرافية (لاحظ الفرق بين الاوتوبيوغرافية ، والبيوغرافية — المترجم) (وقد تجلت هذه النزعة حتى في العصور الغوطية في رمز الاعتراف الشخصي السري) هي نزعة غريبة كل الغرابة عن الانسان الكلاسيكي ، بينما ان ادراكه التاريخي الشديد يناقض مناقضة تامة الادراك اللاواعي الحالم تقريباً لدى الانسان الهندي . وعندما يستعمل الشخص المجوسي (او المسيحي البدائي او العالم الاسلامي الناضج) كلمة « تاريخ العالم » فما هو ذاك الشيء الذي يراه ماثلاً أمام عينيه ؟

ولكن هناك من الصعوبة ما فيه الكفاية، كي يشكل المرء فكرة صحيحة حتى عن الطبيعة الخاصة بجنس آخر من البشر ، بالرغم من ان الاشياء القابلة للمعرفة تخصيصاً هي أشياء منظمة تنظيماً سببياً وقد وحد بينها في منهاج قابل للتعبير عنها والتبليغ بها . والحق انه لمن المستحيل علينا ان نغوص الى اعمق اعماق نظرة تاريخية عالمية لصيرورة ما ،نظرة شكلتها نفس تختلف تماماً في تركيبها عن نفسنا ، فهنا يجب ان تبقى دوماً فضلة جموح شديدة المراس ، فضلة أضخم او أصغر بالنسبة الى غريزتنا التاريخية ، والى حصافتنا السيمائية ومعرفتنا بالبشر . وان كل حل لهذه المعضلة بالذات ، هو كغيره من الحلول يكمن في الظرف السابق لكل فهم عميق للعالم ، فالبيئة التاريخية للغير هي جزء من جوهره ، ولا يمكن ان نفهم مثل هذا الغير ، دون معرفتنا بمفهومه للزمان وبفكرته المصيرية ، وبطراز ودرجة مضاء حياته الباطنية . ولهذا بما ان هذه الاشياء لا يعترف بها اعترافاً مباشراً ، فعلينا ان نستخلصها من

رمزية الحضارة الغربية عنا ، ولما كان على هذا النمط ، وعلى هذا النمط فقط نستطيع ان ندرك اللامدرك ، لذلـــك يكتسب اسلوب احدى الحضارات الغربية عنا والرموز الزمنية العظمى التي تخصهـا أهمية غير قابـلة للتحديد او القياس .

ونستطيع ان نتخذ من الساعة مثلاً على تلك الرموز التي تدرك حتى الآن ، فالساعة هي احد ابداعات الحضارات المتطورة تطوراً رفيعاً ، وهي – أي الساعة – تزداد غموضاً كلما تعمق الانسان ببحث موضوعها وفحص مغزاها . ولقد استطاع الانسان الكلاسيكي ان يتدبر أموره دون ان يكون بحاجة الى الساعة ، وقد جاء إعراضه عنها متعمداً ومقصوداً تقريباً . وكان الوقت يقدر في مرحلة اوغسطين وفي مراحـل طويلة أخرى أعقبتهـا بطول ظل المرء ، بالرغم من ان المزاول الشمسية ، والساعات المائية التي صممهـا تقدير صارم للوقت ودقيق ، وفرضها حس عميق بالماضي وبالمستقبل كانت شائعة الاستعمال في كل من الحضارتين القديمتين المصرية والبابلية .

فلقد كان كامل وجود الانسان الكلاسيكي ، هذا الوجود اليوقليدي المنعدم العلاقة والمحدد القصد ، سجين اللحظة التي هو فيها . فلم يكن هناك أي شيء يتوجب عليه ان يذكره بالماضي او المستقبل ، ذلك لأنه لم يكن هناك من وجود للاركيولوجيا (علم الآثارالقديمة) الحقيقية ، كما ان انعكاسها الروحي ، علم الفلك، لم يكن ايضاً موجوداً ، زد على ذلك ان « الاورا كل» والسيبـل « Sibyl [1] » ، شأنهن شأن عرافات « اتروسكيا » الرومانيـة ، ومنجميها ، فانهن لم يكن يتنبأن بمستقبل بعيد ، بل انمـا كن يجبن بمجرد اشارات عن اسئلة خاصة ذات اتجـاه وتسلسل فوريين . فلم يدخـل تقدير الوقت في صميم حساب الحياة اليومية (ذلـك لان الدورات الاولمبية كانت مجرد مناسبات ادبية) والمهم في الامر ليس رداءة التقويم (Calendar) أو جودته انما المهم ، هما هذان السؤالان :

---

(١) Sibyl : نبية او نبيات ، عرافة او عرافات يونانيات . – المترجم –

من الذي يستعمله ؟ وهل تسير حياة الشعب وفقه ؟ فلم يكن هنـاك في المدن الكلاسيكية القديمة اي شيء يوحي بالديمومة أو يرمز الى ازمنة غابرة، او يشير الى اخرى مقبلة ، فلم تكن هناك أية صيانة ورعة للآثار ، ولم يكن هناك أي انجاز فني توخى صانعه منه ان يكون ذا فائدة لاجيال المستقبل ، زد على ذلك ان اختيار المواد التي صنعت منها تلك الانجازات ، لا نجـد فيه اختياراً كان يتقصد المواد ذات الديمومة ، فلقد تجاهـل الاغريقي الدوري « تقنية Technique » « المسيني » الحجرية ، فأخذ يشيد منازله من الخشب والطين ، بالرغم من ان كلا من فني البناء المسيني والمصري قد سبقاه وشيدا أبنية حجرية من الطراز الاول . فلقـد كان الطراز « الدوري » طرازاً خشبياً ، وحتى في عصر « بوسانياس » كانت لا تزال هناك بعض أعمـدة خشبية فيها رمق من حياة تنتصب في الميدان الاولمبي . ان عضو التاريخ الحقيقي (organ) هو الذاكرة بما لهذه الكلمة من معنى افترضناه ونفترضه دائماً في كتابنا هذا ، فهي التي تحفظ ، كحاضر دائم ، صورة ماضي الانسان الشخصي ، وصورتي الماضي القومي وماضي العالم التاريخي ايضاً ، وهي تعي وعياً كاملا مجرى كل من الصيرورة الشخصية ومـا فوق الشخصية . لكن لم يكن لهـذا العضو (الذاكرة) من وجود في تركيب النفس الكلاسيكية ، ولم يكن هناك من زمان في هذه النفس . فلقد كان المؤرخ يرى فوراً وراء حاضره الخاص أساساً يفتقر الى العنصر الزمني ، ولذلك فهو مفتقر الى نظام باطني . فقد كانت الحروب الفارسية بالنسبة الى « ثوسيديدس » ، وكان شغب الغراتشي بالنسبة الى تاستوس ، ملتصقين منذ زمن بهـذا الاساس الغامض ، وكانت للعائلات الرومانية الكبيرة تقاليـد كانت مجرد روايات خيالية ، فلنتأمل في مصرع يوليوس قيصر ، وفي بروتس بما له من ايمان ثابت لا يتزعزع باجداده المشهورين بقضائهم على الطغاة .

ونحن نستطيع تقريبـاً ان نعتبر اصلاح قيصر للتقويم عملا تحررياً من ربقة الحس الكلاسيكي بالحياة ، ولكن يتوجب علينا الا ننسى انه كانت تجول

ايضاً في خاطر قيصر فكرة هجران روما وانكارها وتحويل دولة – المدينة الى امبراطورية ذات نظـــام ملكي وراثي موسومة بميسم الديمومة وَجعْل مدينة الاسكندريـــة مركز الثقل في هذه الامبراطوريـــة . والحق ان الاسكندرية كانت مسقط راس التقويم . لذلك كان مصرع يوليوس قيصر يبدو لنا كثورة اخيرة اجج نيرانها الشعور المناهض للديمومة ، هذا الشعور المتجسد في المدينة وفي روما المتمدنة . وحتى ذاك العصر ، (عصر يوليوس قيصر) كان الجنس البشري الكلاسيـكي لا يزال يعيش كل ساعـة وكل يوم بمفرديها ، وهذا القول حق وحقيقـــة وذلك اذا اخذنا بعين الاعتبار الفرد الاغريقي او الروماني ، او المدينة او الامـــة او كامل الحضارة. فالمهرجانات الدموية وخلاعات البلاد ومعارك « السيرك » في عصري نيرون وكاليغولا ، (وتاسيتوس يصر في اقتصاره على بحث هذه الامور ، وتجاهله تطور الحياة الهادىء في الولايات البعيدة عن رومـــا) اقول ان تلك المهرجانات والخلاعات كانت التعابير الختامية والمتعددة الالوان للشعور اليوقليدي بالعالم الذي يؤله الجسد والحاضر .

اما الهنود فهم ايضاً لم يكن لديهم تقدير للزمـــان (ويتجلى انعدام تقديرهم في النيرفانا) ولم تكن لديهم ساعات ، لذلك لم يكن لديهم تاريخ او حياة او ذكريات او اهتمام . امـا ما يدعوه الغرب التاريخي « بالتاريخ الهندي » فانما هو تاريخ انجز نفسه دون ان يعي من قريب او بعيد مـــاذا كان يفعل او يصنع . فالدورة الالفية من الاعـــوام التي تقع بين « الفيدا » Vedas وبين بوذا تبدو وكأنها اقتصرت في اعمالها على دغدغة نائم ، فالحياة هنا كانت فعلاً ُحلماً . لكن حضارتنا الغربية بعيدة بعداً لا يحده الخيال عن كل ما ذكرته آنفاً ، والحق أن الانسان لم يكن أبـــداً (حتى في الصين « المعاصرة » في مرحلة « تشو » بما لهذه المرحلة من حس عميق متطـــور بالحقبات والمراحل التاريخية) على هـــذا القدر الرفيع من اليقظـــة والدراية والحس العميق بالزمان ،والوعي بالاتجاه والقضاء والقدر والحركة ، كما كان

في الغرب .

فالتاريخ الغربي كان تاريخاً مُتقصدا مُتعمداً ، اما التاريخ الهندي فهو تاريخ قد حدث . ففي التاريخ الكلاسيكي كان نادراً ما تُحسب السنين ، وفي الهندي كان من الاندر أن تعتبر القرون ، أما في تاريخنا فان للساعة للدقيقة ، لا بل للثانية أهمية ووزن ، ففي حالات من توتر مفجع ينشأ عن أزمات خطيرة كأزمة شهر آب عام ١٩١٤ ، تبدو حتى الدقائق رهيبة مروعة ، بينما أن الاغريقي أو الهندي لا يستطيع ان يمتلك مثل هذا الحس في حالات مماثلة لتلك . وباستطاعة انسان غربي عميق الحس ان يختبر مثل هذه الأزمات داخل ذاته ، على وجه لا يستطيع أبداً الاغريقي الحقيقي أن يجاريه فيه (اختبار الأزمات) . فمن الاف القباب المنتشرة في طول ريفنا وعرضه تقرع الاجراس ليلاً نهاراً ، هذه الاجراس التي تربط بين الماضي والمستقبل وتدمج الموضوع البرُهي (من برهة) الكلاسيكي في علاقة عظمى . فالحقبة التي تحدد ولادة حضارتنا (وهي حقبة أباطرة السكسون) هي الحقبة ذاتها التي تم خلالها اكتشاف الساعة ذات الدولاب » فنحن لا نستطيع ان نفكر بانسان غربي لا يملك قياساً دقيقاً صحيحاً للزمان ولا يملك تقويماً متسلسلاً (كرونولوجي) للصيرورة ينطبق على الحاجة الالزامية الى علم الاثار (أركيولوجي)(المحافظة على التنقيب وتجميع الاشياء في الصير) . ولقد بالغ العصر البروكي في تضخيم ما كان يرمز اليه العصر الغوطي من القبة الى درجة تثير السخرية والاستهجان ، وأنتج ذاك العصر ساعة الجيب التي ترافق الفرد بصورة دائمة .

وهناك رمز آخر لا يقل شأنا عما ترمز اليه الساعة ، وهو أيضا كرمز ساعة مفهوم فهماً ضئيلاً ، واعني بهذا الرمز ، رمز عادات الجنازة ، هذه العادات التي كرستها جميع الحضارات العظمى طقوساً وفناً . ويبدأ الطراز الهندي العظيم لهذه العادات ببناء هياكل الاضرحة ، أما الكلاسيكي فيبدأ بصنع الانية المخصصة لاختزان رماد الجثث ، اما المصري فانما ينطلق من

بناء الاهرامات ، واخـــيراً فالقصور المسيحية الاولى تبدأ بالسراديب والتوابيت الحجرية .

وفي فجر الحضارات تكون هناك اشكال ممكنة لا يحصيها العدد حيث تختلط هذه الاشكال بعضها ببعض بفوضى وغموض ، ومثل هذه الاشكال تنشأ عن عادات الافخاذ والقبائل وتقررها الضرورات الخارجية والملاءمات. لكن كل حضارة تطور هذا او ذاك الشكل منها وترتفع بـــه الى أعلى درجات الرمزية . فالانسان الكلاسيكي وخضوعاً منه لحسه العميق اللاواعي بالحياة قد اختار الاحراق،وهذا العمل هو عمل ابادة وافناء يعبر فيه،الطراز اليوقليدي من الوجود ، طراز بين لحظة واخرى ، عن نفسه أبلغ تعبير . فالانسان الكلاسيكي لم يُرد أن يكون له تاريـخ او ديمومة او ماضٍ او مستقبـل او حفاظ او تحلل ، لذلك أفنى كل ما لم يعد يمتلك حاضراً ، أفنى جثة من كان كبركليس او قيصر او سفوكليس او فيدياس ، أمـا ارواح هؤلاء ، فعبرت لتنضم الى جمهور غامـــض ، يقوم الاحياء من عشائرهـــا بتقديم فروض التكريم وطقوس عبادة الاسلاف وعيد الروح (لكن سرعان ما توقفوا عن اداء هذه الفروض) . وهذه الطقوس نظراً لانعـدام الشكل فيهـــا ، تمثل تعارضاً كليـــاً وسلاسل الاسلاف ، وتتعـــارض وشجرة العائلة المخلدة بكل مـــا فيها من دلائل واشارات تاريخية في بهو العائلة . ولا يوجد في هذا الامر باستثناء فجر الحضارة الهندية في العصر الفيدي (هـــذا الاستثناء المذهل) مثيل للحضارة الكلاسيكية . وعلينـا أن نلاحظ ان انسان العصر الدوري الهوميروسي ، وقبل كل انسان آخر ، انسان « الالياذة » قد حشر داخل عملية الاحراق (احراق جثة الميت) كامل الشعور الحي الواضـــح بالرمز الوليد ،مع ان المحاربين الذين جاءت على ذكرهم « الالياذة» والذين قد تشكل أعمالهم نواة الملحمة ، كانت طقوس جنائزهم بالواقع طقوساً تتشابـــه تقريباً والطقوس المصرية ، اذ انهم دفنوا في قبور تقوم في بقــاع « مسينيا » و « تيرنيس » و « ارخمونوس » وغيرها من الاماكن الاخرى . وفي العصور

الامبراطورية عندما أخذت التوابيت الكلسية ، آكلة لحوم البشر ، تحل محل أواني الرماد ، بدأت ايضاً الآنية الهوميروسية بالاحتفاظ برماد الميت ، تحل محل القبر الاسطواني « الميسيني » ، وهذا والحق لتبدل يطرأ على الشعور بالزمن ، وهو الذي يكمن وراء التبدل الطارىء على الطقوس .

ان المصريين الذين صانوا ماضيهم في شواهد من حجر ، وفي الهيروغليفية ، صيانة مقصودة متعمدة ، حيث نستطيع معها نحن الآن وعقب انقضاء اربعة آلاف سنة من الزمن عليها ان نعين جازمين مدد ولايات ملوكهم . ان هؤلاء المصريين الذين خلدوا جثث ملوكهم خلوداً يجعلنا نبصر بأم عيننا حتى هذا اليوم الفراعنة العظماء مسجين في متاحفنا ، ونرى كل ملمح من ملامح وجوههم جلياً واضحاً ، ان هذا كله ليمثل رمزاً لانتصار مخيف مرعب بينما لم تصلنا حتى اسماء ملوك الدوريين . اما فيما يتعلق بنا ، فاننا نعرف ، منذ عصر دانتي حتى اليوم بتواريخ ميلاد ووفاة كل رجل عظيم ، زد على ذلك ان معرفتنا بما ذكرت لا نراها أمراً غريباً او غير مألوف ، ومع ذلك نجد انه حتى في عصر ارسطوطاليس ، وهو ذروة الثقافة الكلاسيكية ، لم يكن يعرف بالتأكيد ، ما اذا كان « لسيبّس » مكتشف مذهب الجوهر الفرد (Atomism) ، ومعاصر بركليس ، (مثلاً لم يعش الا بما يقارب القرن قبله) قد وُجد حقيقة وعاش ، وهذا يشابه كثيراً بالنسبة الينا ، ما اذا كان وجود « جيوردانو برونو » موضع تساؤل وشك ، وما اذا كان عصر التنوير قد امسى مجرد خرافة واسطورة .

وهذه المتاحف نفسها ، والتي نجمع فيها كل شيء من الماضي المحسوس جسداً ، أليست هي رمزاً من ارفع نموذج وطراز ؟ الا تتوخى ان تصون داخل مومياء كامل جثة التطور الحضاري؟ ونحن عندما نقوم بجمع المعلومات والاحصاءات من مليارات من الكتب المطبوعة ، ألا نجمع ايضاً في الوقت نفسه كل انجازات جميع الحضارات الميتة في هذه القاعات المغيزة في المدن الاوروبية الغربية ؟ اقول الا نجمعها في كتلة بمجموعة ’تعرّي وتجرد كل قطعة

مفردة منها ، من قصدها الهام المتحقق ، هذا القصد الذي هوخاص بها ، وهو المتاع الوحيد الذي كانت النفس الكلاسيكية ستراعي حرمته ، فلا تتعرض له ؟ ألا نذيب بعملنا هذا تلك القطعة في زماننا القلق اللا متناهي ؟

ألا فلنتأمل فيما سبق للاغريق ان اسموه بـ Mouoelo ، ولنتأمل في مغزاه العميق الكامن وراء [1] تغير الشعور وتبدل الحس .

- ٦ -

انه الشعور البدائي بالاهتمام هو الذي يسيطر على سماء التاريخ الغربي ، كما يسيطر أيضاً على سماء كل من التاريخين المصري والصيني ، وهذا الشعور يخلق فضلاً عن ذلك الرمزية للعنصر الشهواني الذي يتمثل في دفق غير متناه من الحياة في شكل سلاسل عائلية من الوجود الفردي . أما وجهة النظر المحددة في الوجود اليوقليدي للانسان الكلاسيكي ، فانها ، هي في هذا الموضوع كما هي في المواضيع الأخرى تدرك فقط العمل المعين المقرر بين فينة وفينة ، عمل الانجاب ، وعمل الحمل : وهكذا فاننا نجد آلام مخاض الام هي جوهر العبادة الديمترية (نسبة الى ديمتر) ، ونرى رمز العضو التناسلي (وهو الاشارة الجنسية المكرسة نفسها تكريساً كلياً للحظة التي هي ناشطة فيها ، وهي تفقد داخلها الماضي والحاضر معاً) يصادفنا تقريباً في كل ما هو كلاسيكي الطابع والجوهر . أما في العالم الهندي فاننا نجد اشارة تطابق الاشارة الآنفة الذكر (العضو التناسلي) ، وهي اشارة « Lingam »(لنجام) كما ونجد فيه مذهب عبادة « البرواتي » ، وفي كلتا الحالين يحس الانسان نفسه كطبيعة ، كنبتة ، كعنصر مسلوب الارادة غير آبه من عناصر

(١) كان هذا في الأصل هيكلاً خصص للمحاضرات الفلسفية والعلمية وقد شيده الاغريق تكريماً لارسطوطاليس، وقد حملت جامعةالاسكندرية الكبرى اسمه فيما بعد ، وكان ارسطوطاليس وتلك الجامعة من بعده ، يجمعان مجموعات من الكتب والنماذج الطبيعية التاريخية الحية والمأخوذة من الحياة . — المترجم —

الصيرورة . لقد كان الدين المنزلي في روما يتخذ من العبقرية ، مثلاً من القوة الابداعية لرب العائلة ، مركزاً له . ومقابل هذا كله فان الاهتمام الغربي العميق المفكر قد قاوم اشارة حب الام ، وهي رمز ارتسم فقط في الحضارة الكلاسيكية ، فوق الأفق الى الحد الذي نستطيع ان نراه فيه ، مثلاً : في نواح بيرسيفون ، او في تمثال ديمتر الكنيدوسي المعتقد .

فصورة الام وطفلها معاً ، أي صورة المستقبل الملتصق بصدرها ، أي مذهب عبادة مريم ، وفق الشكل الفاوستي الجديد ، بدأ فقط بالازدهار في القرون الغوطية ووجد أسمى التعابير عنه لدى رفائيل في صورته لمادونا سيستين (Sistine Madonna) . وهذا المذهب (مذهب عبادة مريم) لا يمت بصورة عامة الى المسيحية بصلة ، بل انما هو على العكس من ذلك ، فالمجوسية المسيحية هي التي ارتفعت بمريم « أم الله » ، « الام التي ولدت الله» الى رمز أحِسّ به احساساً مغايراً لما نحس به نحن. فالام المهدهدة هي غريبة عن الفن المسيحي البيزنطي المبكر ، غرابتها عن الفن الاغريقي (بالرغم من وجود اسباب اخرى) وان غريتشن [1] فاوست هي بالتأكيد المؤكد ، بما تلبسها من سحر الامومة اللاواعي ، لأقرب الى « المادونا » الغوطية من كل ما اختزنته فسيفساء بيزنطة « ورافانا » من صور لمريم ومريمات (جمع مريم) .

ولا شك ان محاولة اقامة علاقة روحية تربط بين رموز الام في الحضارات الآنفة الذكر تنهار تماماً امام الحقيقة القائلة بان المادونا ذات الطفل تنطبق كلياً على ازيس المصرية وحوروس ، فكل منهما أم معتنية مربية ، وان هذا الرمز قد اختفى مع ذلك لمدة الف سنة ونيف (طيلة الحضارتين الكلاسيكية والعربية) قبل ان توقظه النفس الفاوستية من جديد .

وتقودنا الطريق من اهتمام الام الى اهتمام الاب ، وهنا نصادف أسمى الرموز الزمانية التي عرفت طريقها الى الوجود ، نصادف الدولة . فالطفل

(١) بطلة الجزء الاول من فاوست .

يعني في نظر أمه المستقبل ، يعني التتابع ، وخاصة تتابع حياتها ، وما حب الام ، كما كان ولا يزال ، الا الحلم وجودين فرديين منفصلين . وبالمثـــل هو مفهوم الدولة في نظر الانسان ، فالانسان يفهم في الدولة الزمالة في السلاح ، بغية حماية دياره ، وحماية زوجته وطفله ، وبغية تأمين الشعب بأكمـــله على مستقبله وفاعليته ونفوذه . فالدولة هي الشكل الباطني للامـة او الشعب . انها الشكل العضلي للامة ، اما التاريخ ، في مفهومه الرفيع ، فانما هو الدولة المُدْرَكة ، لا كشيء مُحَرَّك ، بل كحركة . فالمرأة حالهـــا حال الام ، والرجل بوصفه محارباً وسياسياً يصنع التاريخ .

وهنا ايضاً يقدم لنا تاريخ الحضارات الارقى ثلاثة نماذج لتشكلات الدول حيث يبدو فيها عنصر الاهتمام جلياً واضحاً . فهناك نموذج الادارة المصريـة حتى ايضاً نموذج المملكة المصرية القديمـة (ابتداءً من عام ٣٠٠٠ ق.م) . ومن ثم هناك الدولة الصينية في عهد عائلة «تشو» المالكة (١١٦٩–٢٥٦ق.م) حيث يعرض علينا « تشو لي » صورة كتلك للتنظيم والادارة ، حيث لم يجرأ معها أحد فيما بعد على الايمان بصحة السجلات والدفاتر ، وأخيراً هناك دولة الغرب التي تكمن وراء عينها الخاصة المحملقة في المستقبل ارادة جبارة للمستقبل لا تعلوها أية ارادة أخرى .

ولدينا من جهة أخرى نموذجان آخران اتخذا من العـــالمين الكلاسيكي والهندي ميدانين لهما، وهذان النموذجان بمثابة صورة لخضوع ذليـل متهامل تهاملاً مطلقاً ، خضوع واذعان للحظة وصدفها . وهمـا يختلفان عن بعضهما اختلاف الرواقية عن البوذية (وهما النزعتان القديمتان لكل من هذين العالمين) فهما متفقتان معاً على نفي الاحساس التاريخي بالاهتمام وعلى احتقار الغـــيرة والحماس والقوى التنظيمية وحاسة الواجب ، لذلك لا نجد في البلاطـــات الهندية او في الاسواق الكلاسيكية اي تفكير بالمستقبل ، أكان هذا التفكير شخصياً ام جماعيا . فمبدأ الانسان « الابولوني » القائل ان انتهز فرص المتعة واللذة ينطبق على الدولة الابولونية ايضاً .

ويسير الوجود الاقتصادي جنبا الى جنب والوجود السياسي. فحياة « من اليد الى الفم » تنطبق ايضاً على حياة العشق الذي يبدأ وينتهي بشبع اللحظة. فلقد كان في مصر تنظيم اقتصادي على مستوى جد رفيع ملأ كامل صورة الحضارة. تنظيم تنص علينا الاف صوره قصة اجتهـــاده ومثابرته وترتيبه وتنسيقه.

وفي الصين حيث تنصب كل جهود ملوكها وآلهتها الاسطورية على الزراعة، وفي اوروبا الغربية التي بدأت بالزراعة النموذجية وارتفعت الى ذرى العـــلم الخاص، ذرى الاقتصاد القومي، هذا النوع من الاقتصاد الذي هو في كل مبدأ من مبادئه، فرضية عاملة فاعلة تتوخى ان لا تظهر ما يحدث بل مـــا سيحدث، نرى من جهة اخرى العــــالم الكلاسيكي (وسنصمت الآن عن الهند) يتدبر امر إنسانه من يوم ليوم بالرغم مما ضربت له مصر من مثل، فالارض كانت تجرد لا من ثرواتها فقط بل انما كانت تجرد ايضاً من طاقاتها وامكاناتها، وكان فائض المحاصيل الطارئة يبذر ويبعزق فوراً على غوغـــاء المدينة. ولنتأمل بعين النقد في أي من رجال الدولة الكلاسيكيين العظماء، مثلا بركليس او قيصر او الاسكندر او تسيبيو، او حتى في الثوريين منهم ككليون وتيبريوس وغراكوس! اننا لا نجد أيا ممن ذكرت كان يتمتع ببعد نظر في الامور الاقتصادية، ولم تشغل اية مدينــــة كلاسيكية نفسها بشق الاقنية وتحريج المنطقة المحيطة بها، او ان تدخل اساليب جديدة على الزراعة، او ان تستنبت مزروعات جديدة وتستولد قطعان ماشية جديدة، ونحن اذا ما ربطنا الحركة الغراتشية، بمفهوم غربي، هو مفهوم الاصلاح الزراعي، فعندئذ سنسيء فهم مغزى تلك الحركة اساءة كلية.

فلقد كان هدف قـــادة تلك الحركة يقتصر على جعل مناصريهم ملاكا للارض، ولم تداورهم مطلقـــاً أية فكرة ترمي الى تدريبهم على تدبر أمر ارضهم، او الارتفاع بمستوى الزراعة الايطالية بصورة عامة، فكان الواحد منهم يترقب قدوم المستقبل، دون ان يحاول ان يفعل فيـــه. والنقيض

الاصيل لاقتصاد العالم الكلاسيكي الرواقي هو الاشتراكيـــة ، وانا لا اعني بالاشتراكية ، اشتراكية ماركس ، بل انمـــا اعني ممارسة فريدريك غليوم الاول ، هذه الممارسة التي سبقت نظرية ماركس بطويـل زمن ، وهي التي ستحل محلها ، انها الاشتراكية التي يشابه باطنها نظام مصر القـــديم ، والتي تدرك وتعي عنصر الاهتمام بعلاقات اقتصادية دائمة ، وتدرب الفرد على واجبه تدريباً كاملا وتمجد العمل الشاق بوصفه تاكيدا للزمان والمستقبل .

– ٧ –

ان الانسان العادي في كل الحضارات يـــلاحظ جزءاً من سيماء الصيرورة (صيرورته الخاصة وصيرورة العالم الحي المحيط به) يعادل الجزء الذي يشتمل على ما في صدر سيماء الصيرورة وما هو قابل للحس به فوراً . امـــا مجموع تجاربه الباطنية والخارجية فانما تملأ مجرى يومه بوصفها مجرد سلاسل من الوقائع. والرجل البارز هو وحده الذي يشعر بان هناك وراء وحدات سطح التاريخ المُنار ، منطقاً عميقاً للصيرورة ، وهذا المنطق الذي يـبرز نفسه في فكرة المصير يقوده الى اعتبار مجموعات وقائع اليوم الاقل اهمية وخطورة والسطح معاً مجرد مصادفات عرضية .

ويبدو لنا لاول وهلة ان هناك فقط تفاوتاً في الدرجة بـــين مضمون المصير وبين مضمون المصادفة . فالمرء يشعر تقريباً بانها كانت المصادفـة تلك التي دفعت « بغوتيه » للسفر الى « سيسنهـايم » لكنه يشعر بانه هو المصير ذاك الذي جعله يلقي عصا الترحال في فيار . فالمرء قد يعتبر الاول حادثة ، والثاني حقبة او دورة تاريخية . ولكننا نستطيع ان نرى فوراً ان التمييز بين هذين الامرين يتوقف على النوعية الباطنية للانسان المتأثر ؛فقد تبدو كامل حياة « غوتيه » للجمهور سياقاً لمصادفات قصصية ، بينما ان قلة القلة هم الذين يدركون مذهولين الضرورة الرمزية الفطرية الملازمة حتى لأتفـــه الحوادث

وابسطها . وربما كان اكتشاف آرستارخوس ، لنظام مركزية الشمس آنذاك مصادفة غير ذات معنى بالنسبة الى الحضارة الكلاسيكية ، لكن مـا يقال عن معاودة اكتشاف هذا النظام من قبل كوبرنيكوس ، انمـا هو مصير في نظر النفس الفاوستية ؟ هل كون لوثر رجلاً دون « كلفن » في التنظيم الدقيق كان مصيراً ؟ واذا كانت الحال على ما ذكرت ، فالنسبة الى من كان هــذا الأمر مصيراً ؟ هل بالنسبة الى البروتستانتيةبوصفها وحدة حية ، الى الالمان ، ام الى الجنس البشري الغربي بصورة عامة ؟ وهـل كان تبيريوس وغراكوس وسلا مصادفات وكان قيصر مصيرا ؟

ان اسئلة كهذه تتسامى ارفع بكثير من الفهم الذي ينشط ويعمل تصوراً وظناً وفكراً . فالمصير هو مـا تقرره المصادفـة ، التجارب الروحية لنفس الفرد ، (وتجارب نفس الحضارة) . فالمعرفة المكتسبة والبصيرة العلميـة والتعريف ، كل هذه الامور لا حول لهـا ولا طول . زد على ذلك ان مجرد محاولة ادراك المصادفـة والتجارب الروحية ادراكاً منطقيـاً تشطب على موضوعها وتلغيه . فنحن لا نستطيع اطلاقاً ان ندرك عالم الصيرورة اذا ما اطرحنا جانباً اليقين الباطني بان المصير هو امر مـا جموح شديد المراس يستعصي كلياً على الفكر الناقد . ان المعرفة والمحاكمـة واقامة ترابط سببي داخل المعروف ، (مثلاً بين الاشياء والملكات والمراكز التي عُرفت ومُيزت) كل هذه الأمور هي شيء واحد والشيء نفسه ، فالذي يدنو من التاريخ بروح المحاكمة العقلية لن يجد في التاريخ سوى معلومات واحصاءات وارقام ، لكن ذاك (أكان العناية الالهيـة ام القضاء والقدر) الذي يتحرك في احشاء حدوث حاضر ، او في اعماق حدوث ماضٍ ممثـل قد عيش ، وعيش فقط باليقين الجبار غير القابل للتعريف ذاته ، هذا اليقين الذي توقظه الفاجعـة المسرحية (تراجيدي) في داخل المتفرج غير الناقد . ان المصير والمصادفـة يشكلان تناقضاً تحاول النفس داخله ان تكسو شيئاً مـا يتألف فقط من الشعور والعيش والبديهة ، وهذا الشيء ما لا يمكن ايضاحه الا بواسطة اشد

الاديان والابداعات الفنية ذاتية (Subjective) ، اديان وابداعات اولئك الاشخاص الذين انيط بهم علم الغيب . ونحن اذا ما اردنا ان نستحضر هذا الشعور الجذري بالوجود الحي الذي يخلع على صورة التاريخ معناها ومحتواها، فانني لا اعرف اسلوباً أفضل (وذلك لان« الاسم هو مجرد ضوضاء ودخان») من أن اقتبس ثانية أبيات « غوتيه » التي جعلت منها فاتحة لهذا الكتاب كي أشير الى القصد الاساسي من وضعها .

في الابدي يتدفق الشيء نفسه
مكرراً ذاته دائماً
والعقود (القناطر) الغفيرة ترتفع وتلتقي
كي تسند الهيكل الجبار
وحب العيش يفيض من كل الاشياء
من أعظم الكواكب واتفه المدُر
وكل اجهاد وجهاد
هو سلام سرمدي في الله [1]

ان اللامتوقع ، هو الذي يحكم سطح التاريخ . وكل حادثة فردية هي قرار وشخصية موسومة بميسمه . فلم يكن هناك أحد يتوقع هبوب عاصفة الاسلام حينما عرف محمد طريقه الى الوجود ، كما وأنه لم يكن هناك ايضاً أي

---

(١) هناك بعض تصرف في ترجمة أبيات غوتيه الانكليزية ، إذ أن الترجمة الحرفية عن الالمانية لها هي كما يلي :
عندما يتدفق في الابدي الشيء نفسه
مكرراً ذاته أبداً
وتتماسك آلاف القناطر جبارة بعضها بعض ،
تفيض الرغبة في الحياة من كل الاشياء
من اضخم النجوم ومن اصغرها
وكل إجهاد وكل جهاد
هو هدوء سرمدي في الله .
ـ المترجم ـ

انسان ترقب نابليون في سقوطروبسبيير. فبروز الرجال، وأعمالهم وحظوظهم، أمور كلها غير قابلة للحساب. فلم يعرف أحد ما اذا كان مقدراً لتطور أطل بجبروت على الدنيا، أن يشق مجراه في خط مستقيم كما شقه نظام العائلات الموسرة الروماني، أم أنه سينهار ويهلك كما انهار نظام عائلة «هوهنشاوفن»، أو كما هلكت حضارة «المايا» Maya [1].

وهذه الحقيقة، رغماً عن العلم، تنطبق ايضاً على مصير كل طائفة من طوائف الحيوان والنبات داخل تاريخ الارض وحتى ما وراء هذا التاريخ، كما وتنطبق على مصير الارض ذاتها وعلى مصائر جميع الانظمة الشمسية وكل دروب التبانة. فاوغسطس التافه صنع حقبة تاريخية كاملة.

بينما أن تيبريوس العظيم قد مر به التاريخ مروراً كريماً، اذ انه لم يخلف وراءه أي أثر يذكر. وهذه هي ايضاً حال حظوظ العقائد والمذاهب والنظريات والاكتشافات. فيحدث أن يذعن في دوامة الصيرورة أحد العناصر لمصيره ويستسلم، بينما يصبح عنصر آخر نفسه مصيراً (وكثيراً ما يتابع وسيتابع مثل هذا العنصر كينونته مصيراً). فالاول يختفي مع سلسلة أمواج السطح، بينما ان الثاني يصنع الـ «هذا» والـ «هذا» شيء ما لا نستطيع ان نفسره او نوضحه «بكيف ولذلك»، ومع ذلك فهو ضرورة باطنية، وهكذا تكون الجملة التي استعملها اوغسطين في احدى اللحظات العميقة ليصف بها الزمان، صحيحة ايضاً بالنسبة الى المصير:

«اذا لم يسألني أحد فانني اعرف، واذا كان علي ان اشرح لسائل فانني لا أعرف».

وهكذا ايضا فان التعبير الاخلاقي الاسمى عن المصادفة والمصير موجود في فكرة النعمة المسيحية الغربية، (النعمة التي استحصل عليها بواسطة

---

(١) Maya: اسم قبيلة من قبائل هنود أميركا، تسكن حاليا مقاطعة «يوكاتان» الواقعة في شمالي غواتيمالا وفي هندوراس البريطانية وعندما اكتشفت هذه القبيلة في مطلع القرن السادس عشر كانت لها حضارة راقية. ـ المترجم ـ

تضحية المسيح بنفسه ، اذ انه كان حرا في ان يختار بين الموت والحياة .

ان استقطاب الخطيئة الاصلية والنعمة ، وهو استقطاب يجب الا يكون ابداً ايعاز حس من احاسيس الحياة العاطفية ، ولا يمكن ان يكون نتيجة لمحاكمة عقلية عالمة دقيقة مدققة ، اقول ان استقطاب الخطيئة الاصلية والنعمة يشتمل على وجود كل شخصية بارزة حقا من شخصيات هذه الحضارة ، وهو حق بالنسبة الى البروتستانت وحتى الملحدين الذين مع انهم قد يتسترون وراء فكرة الارتقاء (وهذا في الواقع ليس بارتقاء لها (للفكرة) بل انما هو انحطاط مباشر لها) اقول ان هذا الاستقطاب هو الاساس الذي يرتكز اليه كل اعتراف وكل سيرة شخصية كتبها صاحبها ، وغياب استقطاب الفطرة والنعمة عند ذهنية الإنسان الكلاسيكي هو الذي جعل الاعتراف ، أشفهياً كان ام فكريا ، امرا مستحيلا بالنسبة اليه .

ان استقطاب ذلك هو المعنى النهائي لصور رامبراندت لنفسه ، ولموسيقى باخ وبيتهوفن . ونحن قد نسمي ذاك الشيء ما الذي يقيم العلاقات المتبادلة بين مجاري حياة ، كل الناس الغربيين بالسقوط او بالتدبر ، او بالارتقاء الباطني ، لكنه مع ذلك يبقى هذا الشيء ما مستعصياً على الفكر . ان الادارة الحرة هي يقين باطني ، لكن كل ما قد يريده او يفعله احد الناس ، والذي بالواقع يتلو العزم ويصدر عنه فجائيا مباغتا وغير مرتقب ، يخدم ضرورة اعمق ، وهو بالنسبة الى العين التي تطوف فوق صورة ماض عتيق ، ينطبق بصريا على النظام الرئيسي . وعندما يكون مصير ما قد اريد ، هو الاكتمال والانجاز ، عندئذ نستنجد مسرورين « بالنعمة » المستحيلة على الفهم ، فماذا هو الذي اراده انوسنت الثالث ولوثر وليولا وكلفن وجانسن وروسو وماركس ؟ وماذا دخل من الاشياء التي ارادها هؤلاء في سير التاريخ الغربي ومجراه ؟ هل كان « نعمة » او كان قضاء وقدرا ؟ هنا ينتهي كل تشريح عقلي هراء بهراء . فنظرية كلفن وباسكال في الجبرية ،(وكلاهما اكثر استقامة من لوثر وتوما الاكويني ،حيث انها تجرأا على استخلاص الاستنتاج السببي من

جدلية اوغسطين) اقول ان نظريتهما هي العبثيـــة الضرورية التي يقود تعقيب العقل لمثل هذه الاسرار اليها . فلقد فقدا منطق مصير العـــالم في الصيرورة ، ووجدا نفسيهما يجولان في ميدان المنطق السببي لكل من التصور والقانون . لقد هجرا مملكة الرؤيا البدهية المباشرة الى ميدان نظام ميكانيكي للاجسام .

ان الاصطدامات النفسية المرعبة التي كان يعانيها « باسكال » كانت تمثـل كفاح انسان هو في وقت واحد قوي الروح ورياضي بالفطرة معا ، انسان قد عقد العزم على اخضاع آخر معضلات النفس وأخطرها لكل من البديهـة ذات الايمان العميق العظيم ، ولنظام رياضي دقيق لا يقل عن تلك البديهة عمقاً وعظمة وبهذه الطريقة أدخلت فكرة المصير ، وهي العناية الالهية بلغة الدين في الشكل المنهاجي لمبدأ السببية ، أي في الشكل «الكنتي» (نسبة لكنت) لنشاط الفكر وحيويته (الخيال المنتج) ، لان هذا هو ما تعنيه الجبريـة ، بغض النظر عن أن الجبرية هذه قد جعلت النعمة الطليقة من قيد علاقة العلة والمعلول ، النعمة الحية التي لا يستطيع المرء أن يخبرها الا بوصفها يقيناباطنيا، تبدو كقوة طبيعية مقيدة بقانون لاينقض ، قوة أحالت الصورة الدينية للعالم الى نظام ميكانيكي كئيب صارم متجهم .

ومع ذلك ، أليس هو مصيراً بالنسبة لانفسهم وللعالم؟إن المطهرين الانكليز الذين كانوا ممتلئين ايمـانا ، قـد دحروا ودمروا ، لا بسبب استسلامهم الذاتي السلبي ، بل انما نتيجة لايمانهم ويقينهم القلبيين البارزين بان ارادتهم كانت هي ارادة الله نفسه !

- ٨ -

ونحن نستطيع الآن ان ننتقل الى ايضاح أوفى« للتصادفي» (أو العرضي) دون أن نتعرض لمخاطر تجعلنا نعتبر « التصادفي » عنصراً استثنائياً أو ثغرة في التتالي السببي « للطبيعة » ، وذلك لأن الطبيعة ليست أبداً صورة العـالم

التي ينشط فيهــا المصير ويفعل . فاينا وحيثما يحرر النظر نفسه من الصير المحسوس ، ويُصَعِّدُ ذاته روحياً فيمسي رؤيا (Vision) ويخترق العــالم المُغَلَّف ويترك للظاهرة الاولية بدلاً من المواد والمواضيع أن تفعل فيــه وتوجهه، عندئذ نستحصل على المَطلّ (outlook) التاريخي العظيم الذي يتجاوز الطبيعة ويسمو فوقها ، على مَطلّ دانتي وفولفرام وأيضاً على مَطلّ غوتيه في شيخوخته ، مَطله الذي يعرض نفسه بوضوح شديد وصفاء ما بعده صفاء في خاتمة الجزء الثاني من فاوست . ونحن اذا استغرقنا في تأمــل عالم المصير والمصادفة هذا ، فعندئذٍ من المحتمل جداً أن يبدو لنا أن حدثا ما من أحداث تاريخ العالم، كان عليه أن يتخذ هذا المظهر او ذاك لأحد الكواكب المعينة من ملايين الكواكب التابعة للانظمة الشمسية ، هو أمر « تصادفي » : وأنه لأمر « تصادفي » ايضاً ، أن يكون من المتوجب وجــود رجال ، هم مخلوقات مميزة تشابه الحيوان ، يسكنون على قشرة (سطح) هذا الكوكب التي تعرض مشهد المعرفة ، واكثر من ذلك ، تعرض هذا المشهد في هــذا أو ذاك الشكل المعين تماماً وذلك وفقاًلمايترجمه ارسطوطاليس و«كنت»وغيرهما ، وأنه ايضاً لأمر تصادفي ، أنه كان من المتوجب نشوء هــذه الدساتير بالذات لقوانين الطبيعة، وأن يزعم كل دستور منها بانه خالد سرمدي عالمي الشرعية، وأن يبعث كل منها (الدساتير) صورة يدعي بانها هي صورة الطبيعة العامة والمألوفة ، وأن تكون كل هذه الدساتير هي القطب المناهض للقطب الآخر من هذه « المعرفة » .

ان الفيزياء ، (وهذا صحيــح تماما) ، تطرح الامــور « التصادفية » خارج ميدان نظرتها ، ولكنه ايضاً لأمر « تصادفي » أنــه كان على الفيزياء نفسها أن توجد في المرحلة « الغرينية » (مرحلة الطمي) من مراحل تطور قشرة الارض ، كنوع خاص فذ من الانشاء الفكري .

ان عالم المصادفة هو عالم الواقع الذي سيتحقق ذات مرة ، وهو العالم الذي نعيشه بالتطلع اليه بحنين وشوق أو قلق ، وهو ايضاً ذاك العالم الذي نتأمل

فيه بسرور أو حزن . أما عالم العلل والنتائج فهو عالم المُحتَمل دائماً ، عالم الحقائق اللازمنية التي نعرفها بواسطة التشريح والتمييز ، والتي لا نستطيع أن نبلغها الا بواسطة العلم ، وهي بالواقع تنطبق على العلم .

أما ذاك الانسان الذي لا يستطيع ان يرى العالم الاول (عالم المصادفة)، العالم «ككوميديا إلهية [١]»، أو العالم كمسرحية من أجل إله، فانه لا يستطيع ان يرى أو يسمع سوى ضوضاء مصادفات لا مغزى لهـا او مفهوم ، ونحن نستعمل هنا الكلمة بأتفه ما لها من معنى . وهذه هي حال « كنت » وحال معظم ممنهجي الفكر غيره ، لكن الطراز المحترف العديم الذوق من البحث التاريخي بما فيه من جمع وترتيب معلومات مجردة ، فان مهارته ، هو ايضاً ، لا تتجاوز اعطاء «التصادفي» التافه العادي المألوف غلافاً وطابعاً إلاّ قليلاً .

فالبصيرة وحدها ، البصيرة القادرة على النفوذ الى الغيبي (الميتافيزيقي) تستطيع ان ترى في المعلومات رموزاً لمـا حدث ، وهكذا تتمكن من الارتفاع باحدى المصادفات فتجعل منها مصيراً . وإن ذاك الانسان الذي هو نفسه مصير (كنابليون) ليس بحاجة الى هذه البصيرة ، وذلك نظراً لما بين ذاته ، بوصفه واقعـة ، وبين الوقائع الأخرى من تناغم ذي إيقـاع ميتافيزيقي يعطي قراراته يقينها الشبيه بالحلم . وهذه هي البصيرة التي تنظم ميزة شكسبير وقوته . وحتى الآن لم يسبق لبحثنا او تأملنا أن لامسا الحقيقـة القائلة بان شكسبير هو المؤلف المسرحي « للتصادفي » ، ومع ذلك فان «التصادفية» هي جوهر لب المأساة المسرحية الغربية التي هي نسخة طبق الاصل عن فكرة التاريخ الغربية ، والتي تعطينا المفتاح لفهم الزمان في هذا العالم الذي أساء « كنت » تركيبه الى هذا الحد البالـغ . والحق أنه لأمر « تصادفي » أن يتخذ وضع « هملت » السياسي ، ومقتل الملك وقضية الخلافة، فقط ذاك الطبع والخلق ،طبع هملت وخلقه ضحية لها وفريسة . أو فلنأخذ

---

(١) يشير المؤلف الى كتاب دانتي المشهور — المترجم —

لنا « عطيل » مثلاً : فانه لأمر تصادفي أن يكون الانسان الذي يسدد إليه « إياجو » ضربته ، « إياجو » هذا المتشرد المألوف المبتذل الذي باستطاعة المرء أن يلتقطه من أي زقاق او شارع ، هو ذاك الانسان الذي يمتلك شخصه فقط هذه السيماء الخاصة . و « لير » (الملك لير) ! أهناك من شيء أكثر مصادفة من اتحاد مهابته الآمرة مع تلك العواطف الخطيرة المشؤومة ، مع إرث بناته لها ؟ ولم يدرك أحد حتى هذا اليوم مغزى الحقيقة القائلة بان شكسبير أخذ قصص مسرحياته كما عثر عليها ، وفي مجرد العثور عليها ، ملأها بقوة الضرورة الباطنية،ولم يسمُ بها أبداً اكثر من هذا إلا في مسرحياته التي اقتبس مواضيعها من التاريخ الروماني.أما سبب عدم فهم حقيقة شكسبير هذه فانما يعود إلى أن الارادة لفهمه قد استهلكت طاقاتها في مجهودات يائسة توخت إدخال سببية خلقية عليها ، إدخال « لذلك » ، إدخال الترابط بين الاثم والكفارة . لكن كل هذا ليس بمصيب او مخطىء إذ أن هاتين الكلمتين (مصيب ، مخطىء ،) تنتميان إلى العالم كطبيعة وتشيران إلى أن هناك شيئاً سببياً قد صدر الحكم عليه (بل انما هو سطحي ضحل ، أي أنه يناقض بحث الشاعر العميق في ذاتية واقعة الرواية . والانسان وحده الذي يشعر بهذا قادر على الاعجاب بالسذاجة العظمى في مدخلي مسرحيتي « الملك لير » و « مكبث » . أما « هيبل » فهو النقيض الصحيح لشكسبير ، فهو يترك لمبدأ العلة والمعلول أن يدمر أعماق القصة في مسرحيته . فخلق تصاميمه (Plots) التعسفي التجريدي والذي يحس به كل شخص حساً غريزياً ، ينبع من كون المنهاج السببي لاصطداماته الروحية متعارضاً والشعور المُحَرِّك تاريخياً بالعالم ، ويناقض المنطق الخاص بهذا الشعور ، المنطق المنافي تماماً للمنطق الآخر ، منطق السببية . فالاشخاص هنا (عند هيبل – المترجم) لا يعيشون بل انما يبرهنون بظهورهم على شيء ما ، والانسان يحس حينما يشاهدهم بانه في حضرة فهم عظيم ، وليس في حضرة حياة عميقة . وبدلاً من أن نحصل على المصادفة نحصل على مشكلة او معضلة .

وأبعد من ذلك ان هذا النوع الغربي من التصادفي هو غريب كل الغرابة

عن الشعور الكلاسيكي بالعالم ، وبذلك هو غريب عن مسرحياتـــه ايضاً . « فأنتيغون » لا تمتلك طبعاً تصادفياً كي تؤثر باي وجـــه من الوجوه ، على حظوظها ، وما حدث « لأوديبوس » (وهو مغاير لقسمة الملك لير) يمكن أن يحدث ايضاً لاي انسان آخر . هـذا هو « المصير » الكلاسيكي ، وهذه هي حاله ، وهو « القسمة » المألوفة لدى كل الجنس البشري ، والتي تؤثر في « الجسم » ولا تمت باية صلة إلى مصادفات الشخصية ، فعلى طراز التاريـخ الذي يكتب بصورة عادية ، وذلك اذا لم يضع نفسه في تنسيق المعلومات وترتيبها ، أن يقف عند التصادفي « السطحي » .. فهذا هو مصير كُتّابـه الذين يبقون روحياً في حشوده . ففي أعين هؤلاء الكتاب تمـــتزج الطبيعة بالتاريخ في وحدة رخيصة ، وتصبح المصادفة أو الحادثة الطارئـــة ، أي Sa sacrée majesté le Hazard (صاحبة الجلالة المقدسة الصدفة) بالنسبة لانسان الحشود أسهل الاشياء في العالم على الفهم . فهو يستبدل المنطق السري للتاريخ ، هذا المنطق الذي لا يشعر به بالمنطق السببي الذي ينتظر فقط وراء المشهد ليخرج ويبرهن على نفسه . وإنه لمن المناسب تماماً أن يُلزم المطلـــع القصصي للتاريخ بان يكون ميدانـــاً لجميع الصيادين العلميين السببيين وجميع الروائيين وكتاب التصاميم ذوي الطابع المشترك . فكم من الحروب قد بدأت بسبب رغبة أحد رجال البلاط في ابعاد قائد من القواد عن جوار زوجته ! وكم من معارك كسبت وخسرت نتيجة لمصادفات سخيفة ! وعلى المرء أن يفكر فقط كيف كتب التاريخ الروماني في القرن الثـــامن عشر ، وكيف يكتب التاريخ الصيني هذا اليوم ! ولنتـــأمل في حادثة « الباي » [1] حينما ضرب القنصل بمروحته ؟ وفي مصادفات أخرى كهذه التي تنعش المشهـــد التاريخي بنعشات الاوبرا الهزلية ودوافعها ؟

ألا يبدو موت غوستاف ادولف والاسكندر ملائمـــين لمؤلف مسرحي مُربك محير ، وموت هنيبال فاصلاً بسيطاً وتطفلاً مفاجئاً على التاريـــخ الكلاسيكي ؛ ومرور « نابليون » بالتاريخ كرواية تتخللها مفاجئات وانغام

(١) الحادثة المشهورة التي تذرعت بها فرنسا لاحتلال تونس . ـ المترجم ـ

حزينة (ميلودراما) ؟ ان أي انسان يفتش ويبحث عـــن الشكل الباطني للتاريخ في أي تتالٍ سببي لحوادثه التفصيلية المنظورة يجب دائما ، وذلك اذا ما كان صادقاً أمينا ، أن يجد مهزلة ذات تدافـــع ماجن وتعارض هازل . وإنني لأستطيع أن اتصور تماماً أن مشهد السكارى الثلاثـــة في مسرحية « انطونيوس وكليوبترا » (وهذا المشهد مُغفل تقريباً ، لكنه أشد المشاهد قوة في هذا العمل [المسرحية] الجبار وقد نشأ ونما من احتقار أميرالمسرحية التاريخية (شكسبير –المترجم) للنظرية الذرائعية Pragmatism فيالتاريخ . وذلك لان هذه هي نظرة التاريخ ، النظرة التي سادت دائماً وشجعتالطامحين من صغار القوم على التدخل في أموره . ولان العيون كانت مركزة على هــذه النظرة ،وعلى تركيبها العقلي استطاع جان جاك روسو وكارل ماركس أن يقنعا نفسيهما بانه بمقدورهما أن يبدلا « مجرى العالم »بواسطة نظرية . وحتى ترجماتنا الاجتماعية أو الاقتصادية للتطورات السياسية والـــتي يحاول العمل التاريخي المعاصر أن يقيمها كذروة مثالية (رغماً من أن قالبهـا البيولوجي يدفع بنا الى الاشتباه بانها ذات أسس سببية النوع) لا تزال بالغـة الضحالة والتفاهة . لقد كان نابليون يملك في لحظاته الاشد خطورة ، شعوراً بمنطق عميق للصيرورة ، وفي لحظات كهذه كان بمقدوره ان يتكهن بمدى مـا هو نفسه مصير ، وبمدى ماله من مصير . ولقد قال :

« أحس بأنني مَسوق نحو نهاية لا أعرفها وحالما أبلـغ هذه النهاية ، لن تكون هناك من ضرورة لوجودي ، وتكفي عندئذٍ ذرة واحدة لتدمرني . ولكن قبل أن يحين ذاك الوقت لن تستطيع كل قوى الجنس البشريأن تقوم بأي عمل حاسم ضدي . »

لقد تفوه نابليون بهذا القول في مطلع الحملة على روسيا ولا شك ان هــذا القول ليس بقول الرجل الذرائعي . وفي هذه اللحظة من لحظات تأمله قـــد أظهر لنا بجلاء كيف ان منطق المصير قليل الحاجة قلة مذهلة الى فرص معينة ورجال افضل واوضاع احسن . ولنفترض أن نابليـــون نفسه بوصفه « رجلاً

عمليـــاً » قد خر صريعاً في معركة « مارينغو » فعندئذ فان ما كان يرمز اليه ويعنيه كان سيتحقق في شكل آخر . فاللحن اذا مـــا اوكل أمره الى مؤلف موسيقي عظيم ، فستهبط على هـــذا اللحن ثروة من التنويعات (Variations) ، كما ومن الممكن تحويل شكله الى الحد الذي يستأثر باهتمام السامع العادي البسيط دون أن نبدله (وهذا أمر مخالف تمامـــاً لتحويل الشكل) تبديلاً أساسياً .

لقد حققت مرحلة الوحدة القومية الالمانية نفسها في شخص بسمارك ، في «حروب الحرية[1]» وفي حوادث ضخمة وأخرى لا أسماء لها تقريباً ، ولكن أي موضوع منها ، ولنستعمل اللغة الموسيقية ، كان بالامكان أن ينجز وفق أساليب أخرى .

فلقد كان من الممكن ان يطرد بسمارك من وظيفته في وقت مبكر ، وكان من الممكن أيضاً ان تخسر بروسيا معركة « ليبزغ » وكان من الممكن أخيراً ان يستعاض عن مجموعة حروب اعوام ١٨٦٤–١٨٦٦–١٨٧٠ بوقائع دبلوماسية او بين الاسر المالكة أو ثورية أو اقتصادية ومع ذلك فعلينا ألا ننسى ان التاريخ الغربي يتطلب نتيجة لضغط فيضه السيمائي (وهذا مختلف عن اسلوبه السيمائي، وذلك لان حتى التاريخ الهندي له هذا الاسلوب) مثلاً لهجة «كونتروبونتية» قوية (حروب او شخصيات عظيمة) في لحظاته الحاسمة .

ويقول بسمارك نفسه في مذكراته بانه كان بالامكان ان تحقق الوحـــدة القومية في ربيع عام ١٨٤٨ على نطاق أوسع من النطاق الذي تحققت وفقـه عام ١٨٧٠ ولكن سياسة (والاصح الذوق الشخصي) ملك بروسيا حالت دون هذا الأمر .

وهنا نقول مرة ثانية واعتماداً على ما أورده بسمارك بان انجاز هذا الموضوع كان سيمسي لا شك انجازاً جد مألوف وذلك لان خاتمتـــه (Coda)

---

(١) الحروب التي خاضتها المانيا مستهدفة من ورائها تحقيق وحدتها القومية . ـ المترجم ـ

أجاءت حرباً أم مفاوضات هي ضرورية إلزامية . زد على ذلك ، أن الوقائع اتخذت هذه الاشكال أم تلك ، فانها لا تستطيع أبـــداً أن تبدل الموضوع (وهو معنى المرحلة) . لقـد كان من المحتمل أن يموت « غوتيه » في شرخ الشباب لكن « فكرته » لا تموت معه. وكان من المحتمل ألا ترى المسرحيتان « فاوست » و « تاسو » النور ، لكنهما كانتا ستتقمصان مفهومـــاً عميقاً في غموضه ، حتى ولو كان يعوزهما شرح الشاعر وايضاحه .

لذلك اذا ما كان بالأمر التصادفي ان ينجز تاريخ الجنس البشري الارقى في شكل حضارات عظمى ، واذا ما كانت إحدى هـــذه الحضارات هي الحضارة التي استيقظت في اوروبا الغربية قرابة عام ألف ، لذلك فان هـذه الحضارة هي مرتبطة منذ لحظة يقظتها بميثاقها . ان في كل حقبة تاريخيـــة فيضاً غير محدود من الامكانات المفاجئة وغير المرتقبة للتحقق الذاتي في وقائع مفصلة ، لكنها الحقبة ذاتها هي ضرورية لان وحدة الحياة تكمن فيهـــا . وكون شكلها الباطني هو تماماً ما هو عليه ، انما يُحدد مقصدها الخاص المعين، فالتصادفيات الجديدة تستطيع ان تؤثر في اسلوب تطورها ، فتجعله عظيماً او تافهاً، يانعاً او محزناً . لكنها لا تستطيع ان تبدل تطورهـــا بالذات . فالحقيقة التي لا تدحض او تنقض ليست مجرد قضية خاصة بل انمـا هي نوع خاص . وهكذا فان لدينا في تاريخ الكون نوعاً من « نظام شمسي » لشمس تدور حولها كواكب ، ولدينا في تاريخ كوكبنا هـــذا النوع من « الحياة » بشبابه وشيخوخته ، بديمومته وتناسله وتكاثره . ولدينا في تاريخ الحياة هذا النوع من الانسانية [١] . ولدينا في مسرح العالم التاريخي هـــذا النوع من الحضارات العظمى الفردية . وهذه الحضارات ترتبط وثيق ارتباط بكواكبها الخاصة، وهي بذلك مشدودة الى التربة التي انبثقت منها طيلة ديمومة حياتها. لذلك فان طبيعة فهم الاشخاص الحضاريين وطبيعة خبرتهم بالمصير هما أخيراً

---

(١) لاحظ ان شبنغلر هنا يفكر ايضاً بوجود حيوان وأجناس بشريـــة أخرى في انظمة شمسية اخرى . ـ المترجم ـ

طبيعتان نوعيتان ، ومنها اختلفت الوان الصورة بالنسبة لهذا او ذاك ، وما أقوله هنا ليس « بصحيح » ، بل انما هو ضرورة باطنية بالنسبة الى هذه الحضارة وبالنسبة الى طورها الزماني هذا . وإذا ما أقنعتك فليس سبب اقناعها لك يعود الى ان هناك « حقيقة » واحدة فقط ، بل انما يعود الى انني انتمي واياك الى الحقبة ذاتها .

ولهذا السبب لم تستطع النفس اليوقليدية للحضارة الكلاسيكية ان تختبر سوى وجودها الخاص مشدوداً كما وصفت الى مطالع الحاضر في شكل مصادفات من الطراز الكلاسيكي ، فاذا ما اعتبرت النفس الغربية المصادفة نظاماً اصغر من المصير ، فان النفس الكلاسيكية ترى عكس رأينا تماماً ، فالمصير هو في نظرها مصادفة تصبح ضخمة فسيحة ، وهذا هو المعنى كل المعنى للمفردات Fatum Ananke, Heimarmene . ولما كانت النفس الكلاسيكية لم تعش عيشاً أصيلاً التاريخ، لذلك فانها لا تملك شعوراً أصيلاً بمنطق المصير . فنحن يجب ألا تضل بنا الكلمات، فان أشهر آلهة الاغريق كانت الإلهة « Tyche » « تيتشي » والتي لم يستطع الاغريق ان يميزوا بينها وبين « أنانكا » تمييزاً عملياً . لكننا نحن نحس بالمصادفة وبالمصير بكل ما تستثير فينا المقابلة من قوة إحساس ، ونشعر بان كل ما هو أساسي في وجودنا يرتكز على موضوع هذه المقابلة (بين المصادفة والمصير).فتاريخنا هو تاريخ الارتباطات والروابط العظمى ، بينما ان التاريخ الكلاسيكي (بكامله وواقعه ، وليس فقط صورته المجردة التي نستطيع ان نحصل عليها من المؤرخ « هيرودوت مثلاً ») هو تاريخ القصص والروايات وسلاسل من التفاصيل التشكيلية . فطراز الحياة الكلاسيكية بصورة عامة ، وطراز كل حياة فردية داخله ، هما طرازان روائيان قصصيان ، وانني لاستعمل هذا الوصف بكل جد . فالجانب المدرك حساً من الحوادث يتكاثف في مصادفات شيطانية شاذة مناهضة للتاريخ ، وهو تنصل ودحض لكامل منطق الحدوث. فقصص المسرحيات الكلاسيكية المأسوية الكبرى، الواحدة منها وكلها تستنزف ذواتها في مصادفات تسخر من أي

معنى في هذا العالم ، وهي الدلالة الصحيحة على ما تفيد بههذه الكلمة (يخوض ...) ، بعكس منطق المصادفة الشكسبيري .

ولنتأمل في « أديبوس » مرة أخرى . ان جميع مـا حدث له كان كله عرضياً طارئاً لم يستلزم حدوثـه أي شيء ذاتي داخله ، وكان بالامكان ايضاً ان يحدث لاي انسان آخر غيره . وهـذا هو الشكل كل الشكل للاسطورة الكلاسيكية . ولنقارن النزعة الكلاسيكية بالضرورة (الملازمة لكامـل وجود الانسان والمحكومة من وجوده ، وعلاقة هذا الوجود بالزمان) المستقرة في « عطيل » ودنكي شوت ، وفيرتر . وهذه المقارنة تقودنا كما قلت سابقاً الى ادراك الفرق بين مسرحية الوضع والحال ، وبين مسرحية الطبع والخلق.

وهذا التعارض يكرر ذاته في التاريخ الأصيل؛ فكل حقبة غربية تعرض خلقاً وطبعاً وكل حقبة كلاسيكية تعرض فقط وضعاً وحالاً .

فبينما كانت حياة غوتيه حياة ملأهاالقضاء والقدر منطقاً ، كانت حيـاة يوليوس قيصر حياة ذات منطق تصادفي اسطوري ، وكان على شكسبير أن يحقنها بالمنطق . فنابليون ذو طبع فاجع ، أما السبياد فإنه قد تردى فيوضع مفجع . فالتنجيم الذي عرفته النفس الغربية ابتداءً من المرحلة القوطية حتى الباروكية ، (وقد سيطر التنجيم عليها مع انكارها لهذه الواقعة) كانمحاولة رمت من ورائها الى تمكين الانسانمنالسيطرة على كامل مجرى حياته مستقبلاً. فاستطلاع النجوم الفاوستي، وأحسن مثل على هذا النوع من التنجيم هواسلوب كبلر في استطلاعه لمستقبل « فلانشتاين » يستلزم اتجاهاً ثابتاً مليئاً بالمقاصد في الوجود الذي لا يزال من المتوجب تحقيقه . لكن « الاوراكل » الكلاسيكي كان دائمـاً يستشار في قضايا فردية ، وهـو لذلك الرمز الاصيل الى المصادفة واللحظة اللتين لا معنى لهما أو مفهوم . « والاوراكل » يتلقى دائماً الرأي المحدد واللامتتالي ، كعنصرين في مجرى العالم ، وكان ما ينطق بـه « الاوراكل » ينطبق تماماً على ذلك الشيء الذي كان يُكتب ويُختبر كتاريخ

في أثينا . فهل كان هنــاك اغريقي واحـد يملك تصوراً لتطور تاريخي نحو هذا او ذاك الهدف ؟ ونحن أكان باستطاعتنا أن نتأمـل في التاريخ او نصنعه لو لم نكن نمتلك مثل هذا التصور ؟

ونحن اذا ما قارنا بين مصيري أثينا وفرنسا في عهودهما المنطبقة بعضاً على بعض ، عقب تيموستكليس ولويس الرابع عشر، لا نستطيع الا ان نشعر بان اسلوب الشعور التاريخي واسلوب تحققه ، هما دائما اسلوب واحـد ، وبان المنطق في فرنسا كان آنذاك عرضة للطعن بينما أنـه كان في أثينا لا منطقا . ونحن نستطيع الآن أن نفهم المغزى النهائي لهذه الواقعة البارزة ، فالتاريخ هو تحقق لنفسما ، والاسلوب الذي يحكم التاريخ الذي يصنعه المرء هو ذات الاسلوب الذي يحكمه حينما يتأمل المرء فيه .

زد على ذلك ان الرياضي الكلاسيكي ينبذ رمز الفراغ اللانهائي ويطرحـه جانباً ولذلك فان التاريخ الكلاسيكي يحذو حذوه . وليس دون ما سبب ، ان مسرح الوجود الكلاسيكي اصغر المسارح واضيقها ، فالمدنية الفردية الـتي يعوزها الافق والمرئيات وذلك رغماً عن مرحلة غزوات الاسكندر ، هي تماماً كالمسرح « الاتيكي » تبتر الافق والمرئيات بجدارها الخلفي التافـه ، خلافاً للفاعلية البعيدة المدى لدبلوماسية مجلس الوزراء الغربي والعاصمة الغربية. وتماماً كما ان الاغريق والرومان لم يعرفوا (بمقتهم وبغضائهم للعلوم الفلكية الكلدانية) ولن يعترفوا باي كون [1] كونا واقعياً ، ما عدا ذلك الكون الذي يقـع في مطلع الاكوان ، وكما ان آلهتهم هي في اعماق ايمانهم آلهة نجوم وكواكب ، كذلك فان مارسموه وصوروه كان المطلع فقط. ونحن نجد ابداً في « كورينث » او أثينا او « سيكون » أي صورة لمنظر ريفي بافقه الجبلي وبغيومـه المنتشرة وبقراه النائية البعيدة ، فكل نوع من الرسم على الاواني والمزهريات

---

(١) هناك كون وهناك أكوان يجمعها الكون الكبير (Cosmos) — المترجم —

له الاجزاء ذاتها ، الاجزاء المطابقة للاحجام اليوقليدية المفككة ، ولها اكتفاؤها الذاتي الفني . وقد نُقش كل « كرنيش » او مجموعة من الافاريز نقشاً متسلسلاً لا نقشاً كونتربوينتياً (متعدد الاشكال والمناظر – المترجم). ولكن كانت خبرة الحياة آنذاك خبرة تقتصر بصورة دقيقة حازمة على مطلع الحياة فقط ، ولم يكن المصير « مجرى الحياة » بل انما كان شيئاً ما يعثر به الانسان فجأة . وعلى هذه الشاكلة أنتجت أثينا بفريسكو (التصوير على الحائط) بوليغنوتوس وبهندسة افلاطون مسرحية فاجعة (تراجيدي) قدرية، حيث القدر هو فيها تماماً ذاك القدر الذي نعيبه في مسرحية «عروس مسينا» « لشللر » . فالقسمة العمياء التي لا معنى لها اطلاقاً والتي تجسدت مثلا في عائلة « أتـُريْس » ساعدت النفس الكلاسيكية اللاتاريخية على كشف كامل مغزى عالمها الخاص .

– ٩ –

باستطاعتنا الآن ان نحدد ما نعنيه ببعض الامثلة التي وان كانت خطرة غير أنه يتوجب علينا الا تفتح في هذه المرحلة من كتابنا باب سوء الفهم على مصراعيه . فلنتصور مثلاً ان فرنسا بدلاً من اسبانيا هي التي قامت بمد يد العون الى خريستوفر كولومبوس ، وهذا امر كان بالواقع جد محتمل في فترة من الفترات التي سبقت انطلاق كولومبوس لاكتشاف العالم الجديد .

فلو ان فرنسيس الاول كان سيد اميركا ، لكان دون شك هو الذي استحصل لا شارل الخامس الاسباني على التاج الامبراطوري . لذلك فان المرحلة « الباروكية » ابتداءً من نهب روما حتى صلح واستفاليا ، والتي كانت في الواقع مرحلة اسبانية في الدين والفكر والفن والسياسة والطبائع ، كانت ستجدد باريس لا مدريد شكلها ، وكان تاريخ هذه المرحلة سيتضمن

بدلاً من الاسماء الاسبانية ، اسماء فيليب والبا وسيرفانتس وكالدرون فيلاسكيز اسماء شخصيات فرنسية عظيمة الذين ، اذا ما سمح لنا بالتعبير عن فكرة جد صعبة ، بقوا في رحم الغيب ولم يولدوا .

وكان طراز الكنيسة الذي حدد في تلك الحقبة تحديداً نهائياً على يد « ليولا » وعلى ايدي المؤتمرين في « ترانت » الذين سيطر عليهم « ليولا » سيطرة روحية واسعة ، وطراز السياسة الذي طبعته فنون الربابنة الاسبان الحربية ودبلوماسية الكرادلة الاسبان وروح « اسكوريال » المهذبة بطابعها ، والذي بقي معمولاً به حتى مؤتمر « فيينا » وبقيت مبادىء هذا الطراز حتى ما بعد بسمارك ، وكانت الهندسة المعمارية الباروكية ، وعصر التصوير الزيتي العظيم ومجتمعات المدن الكبرى الطقوسية والمهذبة ، اقول كانت لا شك ستقوم بعرض كل هذه الأمور وتمثيلها رؤوس أخرى عميقة الفكر من اشراف واكليريكيين وحروب اخرى غير حروب فيليب الثاني وبلاط آخر غير بلاطه ، ومهندس معماري آخر غير «فيغنولا » لكن التصادفي اختار الشعار الاسباني شعاراً (للمرحلة المتأخرة من تاريخ الغرب ، الا أن المنطق الباطني لذلك العصر ، هذا المنطق الذي قدر له أن يجد اكتماله في الثورة الفرنسية العظمى (او في حدث آخر له محتواها) بقي صحيحاً سليماً . ولقد كان بالامكان ان تتمثل الثورة الفرنسية في شكل حادثة اخرى مختلفة ، حادثة تقع في بلاد غير فرنسا ، في بريطانيا او ألمانيا مثلاً . لكن فكرتها (فكرة الثورة والتي سنأتي على ذكرها فيما بعد) كانت تمثل مرحلة الانتقال من الحضارة الى المدنية ، وتمثل انتصار المدينة العالمية الكبرى اللامتعضية على الريف المتعضى الذي كتب عليه أن يمسي روحياً منذ ذاك التاريخ « الاقاليم » وكل هذه الأمور كانت ضرورية وكانت لحظة حدوثها ضرورية ايضا . ولكي أصف لحظة كهذه سأعمد إلى استعمال كلمة (طالما شوه معناها وأسيء استعمالها ككلمة مرادفة لكلمة مرحلة) حقبة .

ونحن عندما نقول أن حادثة ما تصنع حقبة فاننا نعني بان هذه الحادثة

تشير إلى منعطف ضروري وخطير في مجرى الحضارة . أما الحادثة التصادفية المجردة وهي تبلور شكل ما على السطح التاريخي ، فانه من الجائز لمصادفات أخرى مناسبة أن تمثلها ، لكن الحقبة التاريخيـــة ضرورية ومعينة مسبقاً . ولذلك فان من الجلي الواضح أن مسألة ما إذا كانت حادثة ما تقع في مجرى الحضارة ، يجب أن تعتبر وتصنف كحقبة ، أم يجب أن تعتبر وتصنف كحدث (حادثة هامة Ebisode) فان هذا الأمر تقرره الأفكار المصيرية والتصادفات التي يحمل بها الحدث ، ولذلك فهو ايضاً يتعلق بفكرتهـــا في الفاجع (Tragic) بوصفه حقبيـــاً (نسبة الى حقبة) [كما هي الحال في الغرب] أو بوصفه حدثياً (نسبة الى حدث) [كما هي الحال في العـــالم الكلاسيكي] .

ونحن نستطيـع أبعد من ذلك أن نميز بين المجهول ذاتـاً (impersonal) والمغفل والمعلوم ذاتا (personal) من الحقبات التاريخية وذلك اعتماداً على ما لهذه الحقبات من طراز سيمائي في صورة التاريخ . ونحن ندرج مع المصادفات التي هي من الدرجة الاولى ، العظام من الناس الذين وهبوا قوة اشتقاقية ، ضخمة كتلك ، حيث تجسد مصير الالاف ، مصير شعوب ومصير أجيال في المصائر الخاصة بمثل هؤلاء العظام من البشر . لكننا نستطيـع في الوقت ذاته أن نميز بين المغامر والرجل النـــاجح من جهة وهذان يفتقران الى العظمة الباطنية (كدانتون وروبسبيير) وبين بطل التاريخ من جهة أخرى وذلك بواسطة الحقيقة القائلة بان مصير بطل التاريخ يعرض مميزات المصير العـــام وخصائصه . فقد تدوي بعض أسماء بين اليعاقبة ، لكن اليعاقبة مجتمعين لا أفراد معينين منهم ، كانوا الطراز الذي سيطر على الزمان ، لذلك كان الجزء الاول من حقبة الثورة غفلاً تماماً ، بينما كان الجزء الثاني منها « نابليونيا » أي ذاتياً في أرفع درجة من سلم الذاتية . ولقد تمكنت القوة الجبـــارة لهذه الظاهرة أن تنجز خلال سنين قليلة ، ما استلزم الحقبة الكلاسيكية المطابقة لها ، هذه الحقبة المائعة المعدومة الثقـة بنفسها ، مجهودات عشرات الاعوام

(٣٨٦ – ٣٢٢) من أعمال النسف كي تحقق ما حققته الحقبة المماثلة لهـــا ، حقبة الثورة الفرنسية . إن في جوهر كل الحضارات حقيقة تقول بأن في مستهل كل مرحلة تتوفر الامكانات ذاتها وأن الضرورة تنجز تحقق ذاتها إما في أشكال أشخاص (الاسكندر ، ديوكلتيان ، محمد ، لوثر ، نابليون) وإما في أحداث مغفلة من التوقيع تقريبـــاً (الحرب البلوبونية ، وحرب الثلاثين عاماً ، وحرب الخلافة الاسبانية) أو غير ذلك ، في تطور ضعيف مبهم غير واضح (فترات الديادوتشي والهكسوس وخـــلو سدة العرش في المانيا) .

أما إذا سأل سائل : أي من هـــذه الأشكال هو أقرب الى التحقق من غيره في فترة زمنية معينة ؟

فانني أجيب : إنه الشكل الذي تأثر مسبقاً بالاسلوب التاريخي للحضارة المعنية ولذلك تأثر أيضاً باسلوبها « الفاجع » (Tragic) .

إن الاسلوب الفاجع في حياة نابليون ، (هذا الاسلوب الذي لا يزال ينتظر شاعراً عظيماً ليكتشفه ويدركه ويصوغ له قالباً) يتمثل في أنه وهو (نابليون) الذي ارتفع إلى الوجود المؤثر الفاعل نتيجة لجهاده ضد السياسة البريطانية والروح البريطانية التي مثلتها تلك السياسة اوضح تمثيل ، هـــذه الروح التي اكتملت وأمست روح القارة الاوروبية نتيجة لصراع نابليون ضدها بالذات ، وأصبح لها من القوة المقنعة بقناع سُمي « بالشعوب المحررة » ما يكفي للتغلب عليه وإرساله إلى جزيرة القديسة هيلانه ليموت فيها ، أقول لم يكن نابليون هو الذي بعث الحيـــاة في مبدأ التوسع ، فهـــذا المبـــدأ ولد وترعرع وشب في بيئة كرومويل البيورتانية (المطهرة) ودفع بالأمبراطورية الاستعمارية الى مجالات الوجود . ونتيجة لمـــا بثه ذهنا جان جاك روسو وميرابو خريجي المدرسة الفلسفية الانكليزية في جيوش الثورة ، هذه الجيوش التي اتخذت من العقائد الفلسفية الانكليزية منابع لقوى انطلاقها ، فان هذه الجيوش اتخذت من مبدأ التوسع عقب معركة « فالمي » عقيدة ونازعاً

لم يستطلع حقيقتها آنذاك إلا غوتيه . فلم يكن نابليون هو الذي شكل الفكرة ، (فكرة مبدأ التوسع – المترجم) بل إنما كانت تلك الفكرة هي التي شكلت نابليون وخلقته ، لذلك عندما تبوأ سدة العرش الامبراطوري كان ملزماً بان يتابعها وأن يندفع بها ضد القوة الوحيدة ، أي انكلترا ، التي كانت أهدافها هي أهداف نابليون ذاتها . لقد بنى أمبراطوريته بالدماء الفرنسية لكنه جاء بناؤه لها وفق الطراز الانكليزي .

لقد تم في لندن ثانية ، بنــاء نظرية « المدنية الاوروبية » ، (الهيلنية الغربية) على أيدي جون لوك و « وشفتسبري » و « صموئيل كلارك » ، وفوق هؤلاء جميعاً ، « بنتام » وقد قام « بايل » و « فولتير » و « روسو » بحمل هذه النظرية الى باريس . وهكذا باسم هذه « الـ » بريطانيا البرلمانية وباسم أخلاقية تجارتها ، وباسم صحافتها خاضت الجيوش النابليونية غمرات معارك « فالمي » و « مارينغو » و « يينا » و « سمولنسك » و « وليبزغ » وكانت الروح البريطانية في كل هذه المعارك هي التي أنزلت الهزيمة بحضارة الغرب الفرنسية . فالقنصل الأول بونابرت ، لم يكن أبـداً يقصد ضم اوروبا الغربية إلى فرنسا ، لقد كان هدفـــه الاساسي (ولنذكر فكرة الاسكندر المتجلية في مطلع كل مدنية !) أن يحل أمبراطورية استعماريـة فرنسية محل الامبراطورية الاستعمارية البريطانية ، وبذلك كانت ستكون الارجحية في سيادة ميادين الحضارة الغربية لفرنسا ، وكانت هذه السيادة ستقوم على أسس لا يمكن اقتحامها عملياً، وكانت ستكون لفرنسا امبراطورية شارل الخامس التي لا تغرب الشمس عنها ، لكنها امبراطورية كانت ستدار بعد كل هذا ، من باريس رغماً عن كولمبوس وفيليب، وكانت ستنظم كوحدة عسكرية اقتصادية لا وحدة اكليريكية فروسية الى هذا الحـــد كان سيبلغ مصير نابليون به . لكن صلح باريس عام ١٧٦٣ كان قد بت في هذه القضية منذ زمن ضد فرنسا ، لذلك انحلت عرى زمـــان مشاريع نابليون العظيمة وتفتتت الى مصادفات تافهة . ففي عكا قامت السفن الحربية البريطانية بانزال

بضعة مدافع في وقت الحاجة المسيسة إليها . ومن ثم أطلت لحظة برأسها ثانية ، وأطلت قبيل توقيع صلح « أميان » ، وذلك عندما كان كامل حوض نهر المسيسيبي لا يزال رصيداً من أرصدته ، وكان لا يزال وثيق الاتصال بقبائل « الماراتا » الهندية التي كانت تقاوم تقدم الجحافل البريطانية ، ولكن مرة أخرى وقت حادثة[1] بحرية طفيفة جعلته يتخلى عن كامل المشروع الذي أعده بعناية وحذر . وأخيراً عندما أصبح البحر الادرياتكي ، نتيجة لاحتلاله لدالماتسيا وكورفو وكامل ايطاليا ، بحيرة فرنسية ، وكان في الوقت ذاته مشروع ارسال حملة عسكرية أخرى. الى الشرق لا يزال يداعب مخيلته ، إذ كان حينذاك يفاوض شاه ايران لاشراكه معه في حملة يوجهها الى الهند ، عندئذٍ تدخلت نزوات القيصر الروسي اسكندر لتفسد عليه كل خططه الآنفة الذكر . والحق ان اسكندر هذا كان ، فيما مضى على ذلك من وقت ، مستعداً لمعاضدة نابليون في مشروعه ، ولا شك في أنه لو عاضده وسانده لكان مشروع نابليون لغزو الهند قد تكلل بالنجاح. ولم يخط نابليون الخطوة التي جعلته إنساناً لا لزوم للحياة به او ضرورة ، إلا بعد أن فشل في جميع ما اختار من اشكال اتحادات اوروبية استثنائية ، تضم المانيا واسبانيا، وهكذا دواليك ، وذلك كاجراء اقصى في معركته ضد بريطانيا ، وبهذا يكون نابليون قد استثار ضد نفسه افكاره الثورية الانكليزية الخاصة ، هذه الافكار بالذات التي كان هو عربتها واداتها .

وقد يحدث أحياناً ان تقوم الروح الاسبانية ، وأخرى الانكليزية أو الفرنسية بتخطيط النظام الاستعماري المشتمل على العالم بتحقيق قيام ولايات متحدة اوروبية بواسطة نابليون بوصفه مؤسساً لنظام ملكي عسكري شعبي ،

---

(١) يشير شبنغلر بهذه الحادثة الى الرحلة البحرية التي كانت تنوي القيام بها عام ١٨٠٣ تشكيلة صغيرة من سفن الاسطول الفرنسي تحت امرة الاميرال « لينوس » الى « بولدي شيري ». وقد اعترضت هذه التشكيلة تشكيلة بريطانية صغيرة ، فصدرت الاوامر الى الاميرال « لينوس » بالانسحاب الى ميناء « موريتيوس » . — المترجم —

شبيه بتحقق دولة « الديادوتشي » على يدي قيصر واقعي، وصيرورة مثل هذه الدولة نظاماً اقتصادياً للقرن الحادي والعشرين ، وهو أيضاً نسخة طبق الاصل عن الامبراطورية الرومانية .

ان هذه الأمور جميعاً هي أمور تصادفية غير أنها على كل حال موجودة في صورة التاريخ . لكن انتصارات نابليون والهزائم التي نزلت به (وهي كلها تخفي دائماً في جوهرها انتصار بريطانيا وانتصار المدنية على الحضارة) ومهابته الامبراطورية وسقوطه و « الشعب العظيم » وتحرير ايطاليا تحريراً روائياً (وهو تحرير لا تختلف حاله في عام ١٧٩٦ عن حاله عام ١٨٥٩ اذ انه كان في جوهره بمثابة استبدال زي سياسي بزي آخر لشعب غدا منذ طويل زمن شعباً تافهاً) وتدمير الآثار الغوطية في الامبراطورية الرومانية الالمانية ، كل هذه الأمور هي مجرد ظاهرات سطح يزحف وراءها المنطق العظيم للتاريخ الأصيل غير المنظور . ولقد كان وفق هذا المنطق ان الغرب عندما أنجز حضارته ذات الشكل الفرنسي في شكل النظام البائد (ancien régime) اختتمها بالمدنية الانكليزية . وأرى ان الرموز الكلاسيكية المعاصرة [1] لرموز أحداث : اقتحام الباستيل ومعارك «فالمي» و « اوسترليتز » و « ووترلو » وانبعاث بروسيا تتمثل في الوقائع التاريخية الكلاسيكية التالية :

« كيرونيا » و « غوغاميلا » (اربيلا) وغزوة الاسكندر الاكبر للهند وانتصار الرومان في معركة « سنتينوم [2] » .

(١) شرحنا فيما تقدم ما يعني شبنغلر بمفهوم « المعاصرة » واعود هنا لاكرر ان شبنغلر لا يعني المعاصرة الزمنية كما هو واضح ومعلوم بل انما يعني المماثلة في آثار المحتوى ويرى ان العصور المتماثلة في آثار محتواها هي عصور « معاصرة » حتى ولو باعدت بينها حقبات طويلة من القرون . ـ المترجم ـ

(٢) في عام ٢٩٥ قبل المسيح انزل الرومان الهزيمة الحاسمة في معركة « سنتينوم » بعشيرة السمنيت (Samnit) وكانت هذه العشيرة تستهدف السيطرة على ايطاليا . وتنتمي «السمنيت» الى شعب السابين (Sabine) الذي كان يقطن جبال الابنين . ـ المترجم ـ

والآن يتضح لنا انه ليس النصر في الحروب وليس السلام في الكوارث السياسية (والحروب والكوارث هي المادة الرئيسية لابحاثنا التاريخية) هما جوهر الصراع ، كما وانه ليس ابداً السلام هو الهدف للثورة .

— ١٠ —

إن أي إنسان يتشرب هذه الفِكَر (جمع فكرة) لن يجد أية صعوبة في فهم كيف أن مبدأ السببية يؤثر تأثيراً مميتاً في مقدرة المرء على اختبار التاريخ اختباراً أصيلاً ، وخاصة عندما يكتسب مبدأ السببية شكله المتخشب في ذلك الظرف « المتأخر » من ظروف الحضارة والذي هو ظرف خاص بهذا المبدأ وموقوف عليه ويمكنه من أن يستبد بصورة التاريخ ويتجبر عليها .

ولقد صاغ « كنت » ، ببالغ حكمة ، من مبدأ السببية شكلا ضروريا للمعرفة ، ونحن لا نستطيع أن نؤكد دائماً ، مراراً وتكراراً ، أن هذا يعني الاشارة الى فهم الانسان لبيئته بواسطة العقل حصراً . ولكن بينما نرى أن كلمة « ضروري » قد قـُبلَ بها بسرعة كافية ، نرى في الوقت ذاته أنه قد تـُغوضي عن أن حصر تطبيق هذا المبدأ في ميدان واحد ، مفرد ، من ميادين المعرفة ، هو تماماً الأمر الذي يمنع تطبيقه على اختبار التاريخ الحي والتأمل فيه . فالمعرفة بالانسان والمعرفة بالطبيعة هما في جوهريهما أمران لا يمكن أن يقارن بينهما إطلاقاً ، ومع ذلك فان كامل القرن التاسع عشر قد خاض بحوراً من الألم والعذاب كي يُلغي الحد الذي يفصل بين المعرفة بالانسان والمعرفة بالطبيعة ، لصالح المعرفة بالطبيعة . وكلما ازدادت محاولة الناس للتفكير تفكيراً تاريخياً ، يزداد نسيانهم للحقيقة القائلة بان عليهم الا يفكروا داخل هذا الميدان. ففي فرضهم لهذا المبدأ المتخشب للعلاقة الفراغية المناهضة

للزماني ، علاقة العلة والمعلول ، على شيء ما حي ، يشوهون وجه الصيرورة المنظور بخطوط تركيب صورة الطبيعة الفيزيائية ، ويروضونه لبيئتهم الخاصة ذات النهج السببي في تفكيرها ، بيئة المدينة الكبرى المتأخرة زمناً . وهم لا يعون السخافة الاساسية في علم سعى الى فهم صيرورة عضوية بواسطة إساءة فهمها ، فاعتبرها آلة الشيء في الصير . فليس النهار سبباً لليل ، وليس الشباب سبباً للشيخوخة ، وليست الزهرة سبباً للثمرة .

ان لكل شيء ندركه ادراكاً عقلياً سبباً ، وان لكل شيء نعيشه عيشاً عضوياً بيقين باطني ماضياً ، فهذا الشيء يتعرف على القضية التي هي محتملة بصورة عامة والتي لها شكل باطني ثابت محدد ، وهذا الشكل هو الشكل ذاته اينما وحينما وكيفما تكرر حدوثه . أما الشيء الاول (المدرك عقلا) فانما يتعرف على الحادثة التي تحدث فقط مرة واحدة ولن تتكرر أبداً . ووفقاً لما اوردت فإننا عندما نستحوذ على شيء ما في هذا العالم استحواذاً واعياً ونقدياً ، او سيمائياً وقسرياً فعندئذ نستخلص استنتاجاً من الخبرة التقنية او الخبرة الحية ونربط بالخبرة الاولى سبباً لا زمان له في الفراغ أو نربط بالخبرة الثانية اتجاهاً يقود من الأمس الى اليوم الى الغد .

لكن روح مدننا الكبرى ترفض أن تذعن للاكراه والقسر . فهي لما كانت مُحاصَرَة بتقنية الآلة التي خلقتها بنفسها في أخطر سر من أسرار الطبيعة المباغتة ، في « القانون » لذلك فان تلك الروح تسعى لاقتحام التاريخ « تقنياً » ، « نظرياً » ، و « عملياً » « فالفائدة » و «الملاءمة» هما الكلمتان المتشاكلتان اللتان ترددهما تلك الروح في كل مناسبة . فالمفهوم المادي للتاريخ الذي تحكمه قوانين الطبيعة السببية يقود إلى جعل مثل الفائدةالعليا «كالتنوير» والانسانية ، « والسلام العالمي » أهدافاً لتاريخ العالم ، أهدافاً تُبلغ بواسطة « زحف التقدم » . لكن الشعور بالمصير قد مات داخل مخططات الشيخوخة الحضارية هذه ، وماتت معه تلك الشجاعة الفتية المقدامة التي تضغط ضغطاً متواصلاً بنكران ذات وعظمة مستقبل كي تلائم حُكماً مظلماً وقراراً قائماً .

وذلك لأن للشباب وحده مستقبلاً والشباب هو المستقبل ، هـــذا المرادف الغامض للزمان الاتجاهي وللمصير . فالمصير أبدي الشباب، أزلي الصبـا . إن ذاك الذي يستعيض عن المصير بمجرد سلسلة من العلل والمعلولات فانه يرى حتى في الشيء ما ،الذي لم يتحقق بعد ، افتقاراً الى الاتجاه . اما ذاك الذي يعيش متجهاً نحو شيء ما في فيض اسمى من الاشياء ، فانه لن يحتاج ليشغل نفسه بالاهداف والمقدرات وذلك لأنه يُحس بانه هو نفسه المعنى لمـــا سيحدث ، وهذا هو الايمان بالبرج (بالنجم) وهو الايمان الذي لم يتخلّ أبداً عن قيصر او نابليون أو أي فاعل عظيم من طراز آخر غير هذين .

وهذا هو الذي يكمن ، فتياً رغم كآبته ، أعمق مـا يكمن في كل طفولة وقبيـــلة وأمة وحضارة ، وهو الذي يمتد فوق تأريخهـــا لرجال عمل ورؤيا ، الذين هم ابديو الشباب مهما اشتعلت رؤوسهم شيباً ، وهم اكثر شباباً حتى من أشد اولئك الفتيان الذين يتطلعون دائماً الى نفعية لا ينتهي لهـــا زمان .

ويكشف الشعور ذو المغزى ، في محيط العالم الحاضر آتياً ، عن نفسه في ابكر ايام الطفولة ، وذلك عندما يكون هذا الشعور لا يزال فقط اشخاصا وأشياء أقرب البيئات الموجودة جوهراً . ثم يتطور بواسطة خبرة صامتة غير واعية الى صورة مُدرَكة مفهومة ، وهذه الصورة تشتمل على التعبير العام عن كامل الحضارة كما هي موجودة في تلك المرحلة المعنية . ولا يستطيع ان يترجم هذه الصورة الا القاضي الحاذق والبحاثة العميق في التاريخ . وعنـد هذه النقطة يُطل التمييز برأسه ، التمييز بين انطباع الحاضر الفوري ، وبين صورة الماضي التي تتبدى فقط داخل الروح ، او بكلمات اخرى ، يتضـــح الفرق بين العالم كحدوث ، وبين العالم كتاريخ . ويستهوي الاول عين الرجل الفعال (رجل الدولة والقائد العسكري) أما الثاني فيستأثر برجل التـأمل (المؤرخ والشاعر) . ويغوص المرء في الاول ليعمل او يتألم عمليـــاً ، اما التقويم التاريخي المتسلسل (Chronology) هذا الرمز العظيم لماضٍ لا ينقض

أو يقلب ، فانما يستأثر بالثاني (العالم كتاريخ) . اننــا نتطلع الى الوراء ونعيش ما امامنا متجهين بابصارنا نحو ما لا يُرى ، ولكن خبرتنا التقنيــة حتى في الطفولة ، سرعان ما تدخل في صورة عناصر ، المُرتقب حدوثــه مرة واحدة فقط . وهي صورة لطبيعة منظمة لا تخضع للواقعة السيمائية، بل إنما تخضع للحساب . فنحن ندرك « رئيساً للعبة » كذاتية ، ثم نتخذ منــه فوراً مادة للبحث ، ونرى وميض برق كخطر ، وبعدها نراه كإفراغ شحنة كهربائية . وهذا الثاني وهو التصميم المتحجر للعالم يتجه فيما بعد ليطغى أكثر فاكثر على الاول في المدينة العالميــة الكبرى ، « فتُمَكْنَن » (تجعــل ميكانيكية) صورة الماضي ويُجعل منها صورة مادية حيث يستخلص منهــا مجموعة من القواعد السببية للماضي والحاضر ، فنصبح نؤمن بالقوانين التاريخية وبفهمنا العقلي لها .

ومع ذلك فان العلوم هي دائماً علوم طبيعية ، فالمعرفة السببيــة والخبرة التقنية تشيران فقط الى الصير الى الممتد الى المُدرَك ، وحال الحياة بالنسبة الى التاريخ ، هي تماماً كحال المعرفة بالنسبة الى الطبيعة ، اي حال المعرفة بالنسبة الى العالم المحسوس كما هو مفهوم بوصفه عنصراً يُعالج كما يُعالــج في الفراغ (Space) ويُخضع الى قوانين العلة والمعلول . اذن هل هناك اطلاقاً علم تاريخ ؟ ونحن كي نجيب على هذا السؤال يتوجب علينا ان نتذكر ان هناك في كل صورة شخصية للعالم ، وهي تقارب قليلاً او كثيراً الصورة المثاليــة ، يوجد شيء ما من الطبيعة وشيء آخر من التاريخ . فلا توجد هنــاك من طبيعة بلا عيش ولا يوجد تاريخ بلا تناغمات سببية ، وذلك بالرغم من انــه يكون داخل ميدان الطبيعة، لتجربتين متماثلتين وفقاً للقانون نتيجتان متماثلتان ومع ذلك فان كل تجربة منهما هي حادثة تاريخية تمتلك تأريخاً (Date) ولا تتكرر ثانية . وداخل ذلك من التاريخ ، فان تآريخ (Dates) المــاضي ومعلوماته (التقاويم التاريخية والاحصاءات والاسمــاء والاشكال) تشكل غشاءً متخشباً ، «فالوقائع هي وقائع» حتى ولو كنا لا نشعر بها او نكترث

لها ، وكل شيء ما عداها هو صورة ، نظرية ، في كل من الميـــدان الاول والثاني (العالم كطبيعة ، والعالم كتاريخ) .

لكن التاريخ في حد ذاته هو شرط الكينونة « في المركز ، في البؤرة ، لذلك فان كل ما هو مادي هو مجرد عضد لهذا الشرط ، بيـــنما ان الهدف الحقيقي في الطبيعة هو كسب كل ما هو مادي ، وما النظرية سوى خادم لهذه الغاية . لذلك فلا يوجد علم تاريخ ، بل انما يوجد علم مساعد للتاريخ يؤكد ما كان وما حدث . فالمعلومات بذاتها هي دائماً رموز بالنسبة الى المطل التاريخي ، اما البحث العلمي فهو عكس ذلك ، إذ انه علم وعـــلم فقط ، وهو ينطلق نتيجة لأصله وقصده التقنيين ، للبحث عن معلومات وقوانـــين من الطراز السببي ولا يسعى ابداً الى غير ذلك ، وفي اللحظة التي يركز فيها ناظريه على شيء آخر يصبح ميتافيزيقا ، اي شيئاً ما يقع وراء العلم وبسبب هذا الواقع فقط تختلف المعلومات التاريخية عن المعلومات الطبيعية فالأخيرة تكرر نفسها بصورة دائمة اما الاولى فلا ، والاخيرة هي حقائق اما الاولى فهي وقائـــع . ومهما بدا من وثيق ترابط بين التصادفيات والسببيات في صورة الحياة اليومية فان كلاً منها ينتمي في الاساس الى عالم يختلف عن عالم الآخر ، ولما كان من الامور التي لا يناقش فيها ان نسبة ضحالة صورة انسان ما للعالم تعادل نسبة سيادة التصادفيات الصريحة على تلك الصورة ، لذلك فانـــه ايضاً لما لا يقبل الجدل ان نسبة تفاهة التاريخ المكتوب تتساوى ونسبة ما يجعل المؤرخ من إقامة الارتباطات الوقائعية هدفاً له . وكلما ازداد الانسان عمقـــاً في عيشه للتاريخ يزداد ازوراراً عن الانطباعات السببية ، ويزداد ثقة بتفاهتها المطلقة. واذا ما نظر القارىء بعين الفاحص المختبر الى كتـــابات « غوتيه » في العلوم الطبيعية فانه لا شك سيذهل حينما يبصر كيفية شرح « الطبيعة الحية » دون أن يكون بحـــاجة الى قواعد وقوانين ، ودون الاستعانة تقريباً باي اثر من آثار السببية للايضاح والتبيان . فالزمان بالنسبة الى غوتيه ليس مسافة بل انما هو شعور ، زد على ذلك ان اعمق الاشياء وآخرها هو محرم تحريمـــاً

واقعياً على العالم العادي الذي يُشرح ويحس .

لكن التاريخ ، خلافاً للعلم ، يرى في قوة الخبرة [1] (الزمان كشعور) ضرورة لازمة له . وهكذا تبرر صحة التناقض القائل بانه كلما ابتعد البحث التاريخي عن العلم الحقيقي ، فان ذلك هو افضل للتاريخ وأحسن .

وإننا نلجأ الى الجدول البياني التالي للايضاح مرة ثانية .

النفس ←	**العالم** ←
الحياة ، الاتجاه	الامتداد
خبرة المصير	المعرفة السببية
الفريد في نوعه	المحتمل دائماً
الحقيقة	الواقعة
الحصافة السيمائية (الغريزة)	النقد المنهاجي (العقل)
↓	↓
الوعي كخادم للوجود	الوعي كسيد للوجود
صورة العالم للتاريخ	صورة العالم للطبيعة
خبرة الحياة	المناهج العلمية
صورة الماضي	الدين . العلوم الطبيعية
التأمل الانشائي	النظري : الخرافة والعقيدة . الفرضية
(المؤرخ ، كاتب المسرحية الفاجعة)	العملي : الطقس الديني . التقنية
بحث المصير	
الاتجاه داخل المستقبل	
العمل الانشائي	
(رجل الدولة)	
ليكون مصيراً	

(١) استعملنا « الخبرة » لنعبر عن معرفة الشعور غير المقيد بالحس،فالشعور كما يرى شبنغلر يتسامى فوق الحس ، لان الحس مادي الادراك بينما ان الشعور وجداني اليقين .
– المترجم –

هل من الجائز لنا ان نعين أية مجموعة من مجموعات الوقائع الاجتماعية ، او الدينية او الفيزيولوجية او الاخلاقية سبباً لمجموعة من وقائع أخرى ؟ طبعاً وتأكيداً ! بهذا قد تجيب مدرسة التاريخ العقلانية ، واكثر منها مدرسة علم الاجتماع الحديث . وهاتان المدرستان قد تقرران قائلتين ان هذا هو ما نفهمه من ادراكنا للتاريخ وتعميقنا لمعرفتنا بـــه . ولكن ، في الحقيقة ، يرافق الانسان « المتمدن » دائماً افتراض مضر يكمن وراء قصده العقلاني ، وبدون هذا القصد يصبح العالم في نظره لا معنى له او مفهوم . وهناك شيء مـــا مضحك بالأحرى في حريته المبالغة في لاعلميتها والتي يبيحها لنفسه في اختياره لعلله واسبابه الاساسية . فأحدهم قد يختار هذه المجموعة من الوقائع كعلـل اساسية وغيره قد يختار تلك (وهذا نبع لا ينضب له معين من الجـــدل) وجميعهم يملأون انجازاتهم بايضاحات وشروح مزعومــة ، مستندة على دعائم من العلوم الطبيعية ، لمجرى « التاريخ » . ولقد قدم لنا شللر التعبير الكلاسيكي لهذا النهج في أحد توافهه الخالدة ، في قصيدته التي قرر فيها ان نشاطات العالم يحافظ عليها بواسطة الجوع والحب ، زد على ذلك ان القرن التاسع عشر المنطلق من العقلانية الى المادية قد جعـــل قرار شللر ذاك ناموساً كنسياً . وجعل من مذهب النفعية قمة وذروة ، وعلى مذبح هذا المذهب ضحى داروين باسم عصره بنظرية غوتيه في الطبيعة ، وتسللت الميكانيكا مراوغة مخادعـــة تحت ستار الفيزيولوجيا لتحل محل المنطق العضوي لحقائق الحياة . فمبادىء الوراثة والتكيف والانتقاء الطبيعي هي جميعاً علـــل واسباب نفعية ذات مضامين ميكانيكية صرفة ، كما واستعيض عن النواميس التاريخية بحركـــة طبيعية في « الفراغ » . (ولكن هل هناك اية عمليات تاريخية او روحية او عمليات حياة من أي نوع كان ؟ وهل « لحركات » تاريخية مثلا كحركة النهضة او حركة التنوير اية علاقة او اي ارتباط بالتصور العلمي للحركة ؟) فكلمة « عملية » قد استأصلت المصير وألقت القنـــاع عن سر الصيرورة ،

وهوذا لم يعد هناك أي تركيب تراجيدي لأحداث العالم بل انما حل محله تركيب ميكانيكي محكم مدقق . ووفقاً لهذا فان المؤرخ « المضبوط » قد أعرب عن فرضيته القائلة بان صورة التاريخ الماثلة أمام اعيننا هي سياق « اوضاع » و « حالات » ذات طراز ميكانيكي ، وان هذه الصورة تذعن للتحليل العقلاني كما تذعن تجربة فيزيائية أو رد فعل كيمائي لمثل هذا التحليل ، وانه نتيجة لذلك أصبح بالامكان التجميع بين العلل والاسباب والطرائق والمواضيع في منهاج مدرك على السطح المنظور . وهكذا يصبح كل شيء بسيطاً بساطة مذهلة ، فيفترض في المرء ان يقبل اذا ما قدم اليه مراقب علمي ضحل (وذلك فيما يتعلق بشخصيته وصورته للعالم) .

فان النظرية العلمية تنطلق عندئذ سريعاً الى ميدان الوجود . وهكذا يصبح الجوع والحب سببين ميكانيكيين من عملية ميكانيكية في « حياة الشعوب » .

وتصبح المشاكل الاقتصادية ومشاكل الجنس (وكلا هذين النوعين ينتميان الى الوجود « الفيزيائي » أو الوجود الكيمائي (الشعبي لا بل الواسع الشعبية) مواضيع واضحة للتاريخ النفعي ، ولذلك فهي تكون ايضاً مواد مفيدة للتراجيدي المنطبقة على ذاك النوع من التاريخ ، وذلك لأن الدراما الاجتماعية ترافق بالضرورة المعالجة المادية للتاريخ ، وهكذا تمسي قرابات الاختيار (Wahlverwandtschaften) التي كانت مصيراً في ارفع درجات مفهوم المصير « سيدة من البحر » « لإبسن » أي لا شيء اكثر من مشكلة جنسية . إن إبسن وكل الشعراء العقلانيين يبنون ، (ويبنون إبتداءً من اولى عللهم إلى آخر معاليلهم) لكنهم لا يغنون أو ينشدون . ولقد صارع « هيبل » صراعاً قاسياً للتغلب على هذا العنصر النثري المجرد في طبعه الذي كان يتغلب عليه النقد اكثر من الوجدان ، كي يصبح شاعراً مثله بالذات (أي غوتيه) ولهذا السبب كرس كل مجهوداته « اللاغوتيه » كي يبعث حياة واتجاهاً في الحوادث . لكن بعث الحياة والاتجاه عند « هيبل » ، كما هو عند إبسن ؛

لا يعني سوى محاولة صياغة التراجيدي صياغة سببية ، فلقد شرّح وأعاد التشريح ، وبدل في شكل وأعاد في تبديل شكل قصته حتى جعل منها منهاجاً يثبت إحدى القضايا ويبرهن عليها . فلنتأمل في معالجتة لقصة « جوديت » فلو أن شكسبير تناول مثل هذه القضية بالعلاج لتركها على حالها ولاستنشق عطر سر عالمي في الفتنة السيائية للمغامرة المجردة . لكن تحذير غوتيه القائل :

أرجوكم لا تفتشوا عن أي شيء وراء الظاهرات ، فهي بنفسها تعليم « Sie selbst sind die lehre »

أقول لكن تحذير غوتيه هذا لم يفهمه قرن ماركس وداروين . فلقد كانت فكرة محاولة قراءة المصير في كتاب الماضي ، وفكرة عرض مصير غير مزيف بوصفه تراجيديا ، فكرتين بعيدتين كل البعد عن أذهان ابناء ذاك القرن . وفي كلا الميدانين وضع المذهب النفعي نصب عينيه هدفاً يختلف تماماً عن الأمرين السابقي الذكر .

فلقد دفع بالاشكال الى الوجود ، ولم يكن وجودها هو المستهدف ، بل انما كان يتوخى منها أن تبرهن على شيء ما . وعولجت « قضايا » العصر ، وحُلت المشاكل الاجتماعية حلّاً مناسباً ، وأصبح المسرح ، ككتاب التاريخ ، وسيلة الى غاية ، وجعلت الداروينية ، بالرغم من جهلها بما تفعل ، البيولوجيا عميقة الأثر في السياسة ، فعلى شكل ما أو آخر ، كانت تحدث اضطرابات ديمقراطية داخل الجبلة الأولى (Protoplasm) ، وكان صراع دودة المطر من أجل البقاء درساً مفيداً للحيوانات من ذوات الساقين .

ومع هذا كله فان مؤرخينا قد فشلوا في تعلم الدرس الذي كان يمكن لانضج ما لدينا من علوم ولاشدها صرامة واعني الفيزياء أن تلقنهم إياه ، ألا وهو درس الفطنة والحصافة ، ونحن حتى اذا ما أذعنا لمنهاجهم السبي فان

سطحيتهم في تطبيقه عدوان يثير الاشمئزاز والسخط . فهذا المنهاج خالٍ من الانضباط الفكري ومن البصيرة الثاقبة ناهيك عـــن الشك الملازم لمعالجتنا للنظريات الفيزيائية ، وذلك لأن موقف الفيزيائي من ذراتـــه والكترونـاته وتياراته ومجالات قوته ، ومن الأثير والكتلة ، بعيد كل البعد عن الايمان الساذج للانسان العادي ، ويقين المُوحِّد المادي(Monist) [1] بهذه الاشياء. فتلك هي صور يخضعها الفيزيائي للصلات التجريدية لمعادلاته التفاضلية حيث يكسو أرقاماً تقع ما وراء الظاهرات ، واذا ما سمح لنفس بحرية معينة في الاختيار بين نظريات متعددة ، فانما يقوم بمثل هذا العمل لا محاولة منه للعثور فيها على أية واقعة ، بل رغبة منه في العثـــور على الأشارة التقليدية » . (Conventional sign)

فهو يعرف أيضاً بأنه فوق وأرفع من درايتـــه بالتركيب التقني للعـــالم المحيط به ، وبأن كل ما يمكن انجازه بواسطة هـــذه العملية (وهي العملية الوحيدة المنتشرة للبحث العلمي) توجد ترجمة رمزية، لا أكثر ، لهذه الدراية التي هي بالتأكيد ليست « معرفة » [2] بما لهذه الكلمة من مفهوم واسع لدى العامة . وذلك لأنه لما كانت صورة الطبيعة قد خلقها العقل وهي نسخة عنه « وخِدن أناه » (Alter - ego) في ميدان الممتد ، لذلك فان من يعرف الطبيعة ، يعرف نفسه .

وإذا مـــا كانت الفيزياء هي أنضج العلوم ، فان البيولوجيا المكلفـــة باستكشاف صورة الحياة العضوية هي أضعف العلوم منهاجاً ومحتوى . ولا يستطيع أحد أن يصور ماهيـــة حقيقة البحث التاريخي بوصفه بحثاً سيمائيـــاً مجرداً افضل مما صوره غوتية في مجرى دراساته للطبيعة . فنحن نراه يبحث في علم المعادن ، وفجأة ترى نظراته تتلاحم متناسبة بعضاً مع بعض ويجتمع

---

(١) «Monisim» مذهب يقول بان هناك نوعاً واحداً من الجوهر فقـــط ، أو حقيقة نهائية واحـــدة تتمثل في الذهن أو المادة . وان الحقيقة هي كل عضوي واحد لا يملك أيـــة أجزاء مستقلة .

(٢) لاحظ الفرق بين المعرفةوالدراية : Acquaintance

في خلاصة لتاريخ الارض ، حيث يشير صُوّانه المحبوب تقريباً الى نفس مـا يشير إليه ما ادعوه بالانساني الاول (Proto human) في تاريخ الانسان . وهو يبحث في نباتات معروفة مشهورة ، وفي ظاهرات التطور الاوليـة ، فاذا بالشكل الأصيل لتاريخ وجود كل النبات يكشف عن نفسه ، ثم يتقدم في ابحاثه فيصل الى تلك الافكار الاستثنائية في عمقها عن انعطافاتِ النبات من حلزونية وعمودية ، هذه الانعطافات التي لم تفهم حتى الآن زد على ذلك أن دراساته للعظام المبنية في كاملها على التأمل في الحياة ، تقوده إلىاكتشاف العظمة ما بين فكي الانسان وإلى النظرة القائلة بان تركيب جمجمة الحيوانات ذات الفقرات قد نمت وتطورت من ستفقرات . واننا لا نجد في كل دراساته هذه أية كلمة عن السببية فهو كان يشعر بضرورة المصير تماماً كما عبر عنهـا في : Orphische Urworteإذ قال :

« هكذا يجب ان تكون ، فانت لا تستطيع ان تنجو من نفسك وهـذا ما قالته العرّافات اولاً ثم الانبياء ولن يستطيع الزمان او القوة ان تعطب الشكل المطبوع المتوجب على الحي نفسه ان يفضه » .

لقد كان يجـد لذة في دراسة كيمياء النجوم المجردة وفي الجانب الرياضي من الملاحظات الفيزيائية وخاصة في الفيسيلوجيا (علم وظائف الاعضاء الحية) أما مؤرخو الطبيعة العظام فلم يستأثروا باهتمامه إلا قليلاً جداً ، وذلك لانهم كانوا ينتمون الى الميدان المنهاجي وكانوا يشغلون أنفسهم بالتعلـيم التجريبي للصير ، للميت والمتخشب. وهذا هو السر في جدليته المناهضة لجدلية نيوتن ، وهنا يتوجب علينا ان نقر بأن كلاً من نيوتن وغوتيـه كانا على صواب ، إذ كان الاول يمتلك « معرفة » بعملية الطبيعة المنتظمة في ميدان الالوان الميتة ، بينما كان اختبار غوتيه للالوان اختبار فنان، اختبار شعور وجداني حساس ، وبهذا يتجلى أمامنا العالمان في تعارضهما الصريح ، ولذلك يتوجب علينا ان نقرر العناصر الجوهرية لهذا التعارض تقريراً دقيقاً صارماً .

ان التاريخ يحمل طابع الحقيقة المفردة التي لا تتكرر ، اما الطبيعة فانما

تحمل طابع المحتمل حدوثه دائماً . فطالما انا امعن النظر في صورة العالم المحيط بي كي ارى أياً من القوانين يجب أن يحقق نفسه بغض النظر عما اذا كان سيحدث، او عما اذا كان قد يحدث تحققه ، (وأعني بغض النظر عن الزمان) فعندئذ اكون اعمل داخل ميدان العلم الاصيل ، وذلك لان ضرورة القانون الطبيعي (ولا توجد هناك قوانين اخرى) هي ضرورة مطلقة في لا ماديتها ، أأمست هذه الضرورة ضرورة يتكرر ظهورها حتى اللا نهاية ، او لا تظهر ابداً ، اي انها مستقلة عن المصير . فهناك الآلاف من التراكيب الكيمائية التي لا تنتج مطلقاً، لكنها قابلة للعرض دائماً. ولذلك فانها موجودة بالنسبة الى سماء الكون الدائر . فالمنهاج يتألف من حقائق اما التاريخ فيستند الى وقائع ، والوقائع تتبع الواحدة الاخرى ، اما الحقائق فان الواحدة منها تنشأ عن الاخرى ، وهذا هو الفرق بين « متى » وبين « كيف » . فكون البرق قد شع وميضاً هو واقعة ويمكن ان يشار الى الواقع بالسبابة ودون التفوه بكلمة واحدة ، اما اذا قال قائل : « عندما يكون هناك برق يكون رعدٌ ايضاً » فهذا القول يتعارض تماماً والقول الاول ، اذ ان التبليغ به يستلزم مسنداً ومسنداً اليه او جملة . اما الخبرة المُعايشة فقد تكون خرساء بكماء ، بينما ان الكلمات وحدها هي الطريق الى المعرفة المنهاجية . ويقول نيتشه في احدى صفحات كتبه : « ان ذاك الذي لا يملك تاريخاً هو وحده قابل للتعريف » لكن التاريخ هو صيرورة حاضرة تتجه الى المستقبل وتتطلع وراءها في الماضي . اما الطبيعة فتقف خارج كل زمان ، وطابعها هو الامتداد ، وهي لا تملك صفة اتجاهية ، لذلك فان للطبيعة ضرورة رياضية ، وللتاريخ ضرورة تراجيدية . ولكن كلا العالمين ، عالم التأمل والامعان وعالم القبول والتسليم هما داخل واقعة الوجود اليقظ متلاحمان متشابكان تلاحم السدى واللحمة في قماش « برابانت » المزركش . فكل قانون بمتناول الفهم إطلاقاً ، يجب أن يكون قد اكتشفته فطرة مصير في تاريخ ذهن أحد الناس ، أي انه يجب ان يكون قد وجد مرة داخل الحياة الاختبارية ، زد على ذلك ان كل مصير يتبدى في احدى البزات المحسوسة ، في اشخاص اعمال ، مناظر واشارات

تمارس بواسطتها قوانين الطبيعة نشاطها . ان الحياة البدائية تذعن للوحدة الشيطانية للحتمي المشؤوم ، وتكون صورة العالم « المبكرة » داخل وعي الحضارة الناضجة على خلاف دائم والصورة المتأخرة للعالم ، ويذعن الشعور التراجيدي في الشخص « المتمدن » للذهن « الممكنن » (جعله ميكانيكياً). ويقف التاريخ والطبيعة داخل ذواتنا وجهاً لوجه ، كما تقف الحياة والموت ، وكما يقف الزمان اللامتناهي في صيرورته والفراغ المستمر في صيره. وتصطرع الصيرورة والصير داخل الوعي بغية السيطرة على صورة العالم ، وترى ارفع اشكال كل منها وأنضجها (وهي اشكال ممكنة فقط بالنسبة الى الحضارات العظمى) مثلاً في التعارض بين افلاطون وارسطو داخل النفس الكلاسيكية وفي التناقض بين غوتيه وكنت داخل النفس الغربية ، بين سماء العالم المجرد التي تتأمل فيها نفس طفل خالد في طفولته وبين المنهاج المدرك بواسطة عقل شيخ خالد في شيخوخته .

- ١٢ -

فيما تقدم ، أرى اذن آخر فرض عظيم للفلسفة الغربية ، وهو الفرض الوحيد المتبقي من مخزون الحكمة الهرمة للحضارة الفاوستية ، وهو المسألة المعينة مسبقاً ، كما يبدو ، لقرون خلت من تطورنا الروحي . فليس هناك من حضارة حرة في اختيار درب فكرها وسلوكه ؛ ولكن ، هنا ، وللمرة الاولى ، تستطيع احدى الحضارات ان ترى مسبقاً الطريق التي اختارها لها المصير . وانني لأرى امام عيني ، ببصيرة الرؤيا ، نشوء بحث تاريخي من ارفع طراز ، من طراز لم يعرف حتى الآن له مثيلاً ، وهو طراز أصيل في غربيته وغريب بالضرورة عن النفس الكلاسيكية وعن كل نفس أخرى غيرها ، طراز سيمائي مدرك لكل الوجود ، ومورفولوجية صيرورة لكامل الانسانية التي تندفع قدماً نحو أرقى الفكر وآخرها ، وواجب يلزمنا بالنفوذ الى

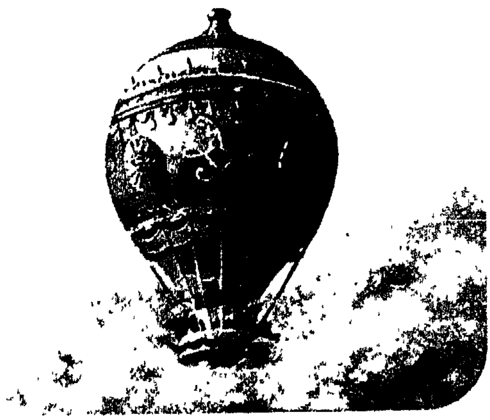
الشعور بالعالم ، وليس فقط شعور نفسنا الخاص بالعالم ، بل انما شعور كل النفوس ، مهما كانت أجناسها ، هذه النفوس التي احتوت على امكانات ضخمة وعبرت عنها في ميدان الواقعة كحضارات عظمى .

ان هذه النظرة الفلسفية والتي نستحقها نحن وحدنا ، ووحدنا فقط ، بسبب ما نملك من رياضيات تحليلية وموسيقى كونترابونتية وتصوير يستند الى المرئيات وبما لها من مدى بصري يجعلها تتسامى بعيداً بعيداً فوق المنهاج والمنهاجي . اقول ان هذه النظرة الفلسفية تستلزم عين فنان ، فنان يستطيع أن يشعر بكل البيئة المدركة المحسوسة ويذيبها في لا نهاية عميقة من الترابطات الغامضة ، هكذا كان يشعر « دانتي » وكذلك غوتيه .

فأن نستخلص من غشاء حدوث العالم دورة الفية من اعوام تاريخ حضارة عضوي ذاتية وشخصاً ، وأن ندرك ظروف أعمق اعماق روحانيته ، هكذا يجب أن يكون الهدف . وكما أن المرء ينفذ ببصيرته من ملامح صورة رمبراندت وأساريرها أو من تمثال نصفي لقيصر إلى الاعماق ، كذلك فان الفن الجديد سيتأمل ويفهم الخطوط الخطيرة العظمى في محيا إحدى الحضارة بوصفها أسمى فردية إنسانية ؛ أما أن يحاول المرء أن يترجم الحضارة ترجمة شاعر أو نبي ، مفكر أو فاتح ، فهذا العمل بالطبع ليس بجديد ، لكن أن يحاول الغوص الى اعماق نفس إحدى الحضارات (كلاسيكية مصرية ، أو عربية) إلى عمق تستطيع معه نفسه أن تمتص كلية ما عُبر عنه بواسطة رجال واوضاع معينة وبواسطة دين ونظام ديني وطراز ونزعة وفكر وعادات ، وأن تجعل النفس هذه كلها جزءاً من حياة صاحبها ، فان هذا الأمر والحق لاسلوب اختبار للحياة جديد . إن كل مرحلة وكل شخصية عظيمة وكل لاهوت ، وان المدن واللغات والشعوب والفنون ، (وباختصار إن كل ما وُجد وكل ما سيوجد) هي مميزات سيمائية ذات مفاهيم رمزية رفيعة ، وهي التي ستجعل مهمة نوع جديد من العارفين بالبشر ، أن يترجموها

فالقصائد والمعارك وايزيس وسيبيل [1] (Cybele) والمهرجانات والقداديس الرومانية الكاثوليكية ، والأواتين والعاب المجالدين ، والدراويش والداروينيون والسكك الحديدية والطرق الرومانية ، «والتقدم » والنرفانا ، والصحافة والعبودية الجماعية ، والنقد (Money) والآله ، كل هذه ، سواءً بسواء ، إشارات ورموز في صورة العالم للماضي التي تعرضها النفس على نفسها والتي ستترجمها . « كل ما هو ماض » [2] هو مجرد رمز .

وهناك حلول ونظرات شاملة لم تطرق ميدان الخيال بعد تنتظر من يكشف سرها ، وسيسلط النور على القضايا المظلمة الكامنة وراء الرعب والحنين ، هذين الاحساسين اللذين هما أعمق ما للشعور الانساني البدائي من أحاسيس ، واللذين كستها إرادة المعرفة ، بأزياء « معضلات » الزمان والضرورة والفراغ والحب والموت والعلل الاولى . إن هناك موسيقى رائعة في أجواء الكرات ترغب وتريد أن تُسمع والتي ستسمعها القلة من أرواحنا الأعمق ، وستصبح الفلسفة السيمائية لحدوث العالم آخر الفلسفات الفاوستية .



(١) « سيبيل » الإلهة العظيمة للطبيعة لدى سكان الاناضول الغابرين . ـ المترجم ـ

(٢) مطلع خاتمة الجزء الثاني من « فاوست » ـ المترجم ـ

الفصل الخامس

الكون الكبير

رمزية صورة العالم ومعضلة الفراغ

ان تصور تاريخ العالم تصوراً من طراز رمزي ، يجعل مثل هذا التصور يمتد وفقاً لذلك في الفكرة الاوسع لرمزية كاملة الشمول . فالبحث التاريخي وفق المفهوم الذي افترضناه في كتابنا ، عليه فقط ان يبحث في صورة الماضي الحي فيما مضى وان يقرر شكلها الباطني ومنطقها ، أما فكرتها في المصير فانها تشكل الحد الاقصى الذي يمكن للبحث التاريخي ان ينفذ اليه . ولكن مثل هذا البحث، مهما حاول التوجيه الجديد ان يجعله مدركاً مفهوماً، فانه لا يستطيع أن يكون أكثر من ُهتّامة (شظية) وأساس لمعالجة اوسع بعداً . ويوازي هذا البحث لدينا البحث الطبيعي الذي لا يزال بحثاً ُهتاميا كالبحث التاريخي ، ومقيداً بمنهاجه السببي الخاص للارتباطات والصلات . ولكن لا تستطيع الحركة التراجيدية ولا الحركة التقنية (وذلك إذا ما ميزنا بهذين الوصفين للحركة القواعد الخاصة بكل ما قد عاش ومما قد عُرف) أن تستنزفا الحي نفسه ، فنحن نعرف ونعيش مَعاً عندما نكون مستيقظين، لكننا بالاضافة الى ذلك نعيش حينما يكون العقل نائماً والحواس تغط في

سبات عميق . وبالرغم من أن الليل قد يطبق جفني كل عين ، إلا أن الدم لا ينام ، فنحن نتحرك داخل المتحرك(وهكذا نحاول أخيراً أن نشير بواسطة كلمة مستعارة من العلم الى ما لا يعبر عنه والذي نشعر به في ساعات النوم بيقين باطني) . ولكن في الوجود اليقظ تبدو كلمة « هنا » وكلمة « هناك » ثنائية لا يمكن الفصل بين عنصريهما . فكل حافز خاص بأحد الناس يشكل تعبيرا ، وكل حافز غريب عن المرء يشكل انطباعاً . وهكذا فان كل شيء نعيه وندركه بواسطة شكل مهما كان نوعه (أكان « النفس » و « العالم » ، الحياة والواقعة ، التاريخ والطبيعة ، القانون والشعور ، المصير أو الله ،الماضي والمستقبل ، او الحاضر والابدية) أقول أن لكل شيء معنى اعمق بعداً ، ومغزى نهائياً ، أما الوسيلة الواحدة والوحيدة فقط التي نستطيع أن نجعل بواسطتها اللامُدرَك مُدرَكا ، فهي تتمثل في الميتافيزيقا التي تعتبر أن لكل شيء مهما كان شكله او نوعه ، فحوى كرمز .

إن الرموز إشارات محسوسة وهي إشارات نهائية غير قابلة للتجزئة ، وهي فوق كل ذلك انطباعات غير مطلوبة وذات معنى ُمعرف محدد . فرمزٌ ما هو ميزة لواقعة ما ، لدى الشخص المستيقظ بحسه معنى فوري باطني أكيد ، وهي غير قابلة للتبليغ بها بواسطة العقل . فايضاح زخرف دوري أو عربي أو روماني مبكرين ، واشكال الاكواخ والعائلات والمعاملة والعادة والطقس الديني ، ومطلع وهيئة ومشية وسحنة انسان ما او كامل طبقات وشعوب واجناس بشرية ، واشكال مؤصلة وبيئة الانسان والحيوان، وفوق كل هذا لغة الطبيعة الصامتة بما فيها من أحراج ومراعٍ وقطعان وغيوم ونجوم وضياء قمر وزوابع رعدية وازدهار وانحلال وقرب وبعد ، كل هذه هي انطباع كنائي (رمزي) عما فوقنا من كون ، انطباع لاولئك المطلعين والقادرين معاً على الاصغاء الى هذه اللغة . وعكس هذا تماماً هو الفهم المتجانس الذي ينشىء العائلة ، الطبقة ، العشيرة ، أو أخيراً الحضارة من الانسانية العامة ويُجَمِّعها على ما ذكرت من شاكلات .

إذن فيجب علينا ألاّ نشغل أنفسنا هنا بما هو : العالم ، بل إنما علينا أن نهتم بما يعنيه العالم بالنسبة الى الكائن الذي يُغلفه ، فنحن عندما نستيقظ يمتد فوراً شيء ما بين « هنا وهناك » ونحن نعيش ألـ « هنا » كشيء ما خاص بنا ، أما الـ « هناك » فانما نختبره كشيء ما غريب عنا ، فهنـاك ثنائية توجدها النفس وأخرى يوجدها العالم كقطبين للواقعة . ويوجد داخل ثنائية العالم توتر ندركه سببياً كأشياء وملكات ، ويوجد ايضاً فيهـا حوافز نحس بأنها هي التي تجعل الكائنات المماثلة لنا تماماً فاعلة ناشطة ، ولكن يوجد فيها أكثر من هذا شيء ما يستأصل الثنائية ويطرحهـا جانباً . فالواقعة (وهي العالم في علاقته بالنفس) هي بالنسبة الى كل فرد الايعاز النفسي للمُوَّجه فوق ميدان الممتد ، أي أنه الخاص يتملى نفسه في مرآة الغريب ، لذلك فانواقعة الفرد تعني نفسه ايضاً . وبهذا يقوم عمل إبداعي غير واع معـاً بنزع جسر الرمز الممتد بين الـ « هنا » والـ « هناك » الحيتين ، (وذلك لانني لست أنا الذي أحقق الممكن بل انما الممكن هو الذي يحقق ذاته بواسطتي) وهكذا يخرج ، فجأة وبالضرورة ، وكاملاً ، العالم الى الوجود من مجموع العنـاصر العالقة بالذاكرة والمتلقاة ، ككائن فرد يدرك العالم ، لذلك يوجد لكل فرد عالم مفرد . ولهذا فهناك عدد من العوالم يعادل عدد الكائنات اليقظة ، وعدد مجموعات من الكائنات المتشابهة في حياتها وفي شعورها . أمـا العالم الخارجي المفترض أنه مفرد ومستقل،والذي يؤمن كل امرىءٍ بانه مألوف للجميع، فانما هو في حقيقته خبرة كل شخص بوجوده الخاص ، وهي خبرة أبدية الجـدة فريدة في حدوثها ولا تتكرر أبداً .

وتقود سلاسل من الدرجات ابتداءً من جـذر الوجدان الطفولي الغامض حيث ينتفي وجود عالم صريح بالنسبة الى نفس ما ، أو بالنسبة الى نفس تعي ذاتها داخل عالم ما ، أقول تقود هذه السلاسل من الدرجات الى حـالات مركزة تركيزاً فكرياً رفيعاً ، حالات لا يستطيعها غير أبناء من مدنيـات مكتملة النضوج . وهذا التدرج هو في الوقت ذاته امتداد للرمزية من المرحلة

التي يكون فيها لجميع الاشياء معنى ومغزى شاملان ، الى المرحلة التي تُميز فيها الاشارات المعينة والمنفصلة .

إنني لست فقط منفعلاً وعالم مليء بالمعاني المظلمة انفعال الطفل او الحالم والفنان ، أو الانفعال الذي أختبره عندما أكون مستيقظاً وفي وضع يجردني من منتهى شدة الفكر والعمل ، (وهذا الوضع الذي هو أقل ندرة مما هو مُفترض حتى في وعي المفكر الحقيقي ورجل العمل) بل إنني أهب ، دائماً ، وبصورة مستمرة ، وطيلة ما تعتبر حياتي متيقظة ، ما هو خارج-ذاتي كل محتوى ذاتي ، ابتداءً من الانطباعات نصف الحالمة عن التئام العالم وملاصقته لي ، وانتهاءً بالعالم المتخشب ، عالم القوانين السببية التي يغطيها الرقم ويقيدها . وحتى ميدان الرقم المجرد لا ينقصه الرمزي ، وذلك لاننا نجد ذاك الفكر المثقف المُصَفّى يحقن إشارات كالمثلث والدائرة والرقمين ٧ و ١٢ ، بمعانٍ لا يمكن التبليغ بها .

إن الواقعة بوصفها المجموع الكلي لكل الرموز في علاقتها بنفس كل إنسان ونفسه ، هي فكرة الكون الكبير . ولا يُحرَم أي شيء من ملكة كونه ذا مغزى ومعنى ، فكل ما هو موجود يشع بالرمز ، ابتداءً من الظاهرات الجسدية كالمحيا والشكل والسحنة (وهذه ايضاً تنطبق على الافراد والطبقات والشعوب المتماثلة) وانتهاءً باشكال المعرفة والرياضيات والفيزياء المفترض أن لها صحة كونية خالدة . فكل شيء ينطق بلسان جوهر نفس واحدة وواحدة فقط . وتنشأ ، في الوقت ذاته ، لعوالم الافراد هذه ، كما عيشت واختبرت من اشخاص ينتمون إلى حضارة واحدة ، او جماعة روحية واحدة ، رابطة مشتركة تربط بينها ، وبنسبة ارتفاع او انخفاض درجة هذه الرابطة المشتركة يُعين تفاوت الوجدانات والأحاسيس والأفكار في مقدرتها على التبليغ ، أي إمكان جعل ما أبدعه كل إنسان بنفسه لنفسه وفق طراز وجوده الخاص به وأبدعه بواسطة وسائل تعبير كاللغة أو الفن أو الدين ، أقول جعل هذه الابداعات واضحة صريحة بواسطة نغم كلمة أو معادلات

أو إشارات تكون هي نفسها رموزا . إن درجة الرابطة المشتركة بين عالم إنسان ما وعالم إنسان آخر ، هي التي تعين الحد الاقصى الذي يصبح الفهم إذا ما تجاوزه خداع ذات .

وبالتأكيد فاننا لا نستطيع أن نفهم النفس الهندية أو المصرية إلا فهما جد ناقص وذلك كما تتبدى هذه النفس من خلال اشخاصها وعاداتها وآلهتها ولاهوتها وكلمات الجذر عندها وفكرها ومبانيها واعمالها . أما اليونان ، وما كانوا عليه من لا تاريخية ، فانهم لم يستطيعوا حتى أن يخمنوا جوهر الارواح الغريبة عنهم ، ولنتأمل في السذاجة التي تعودوا بواسطتها أن يعاودوا اكتشاف آلهتهم الخاصة وحضارتهم في تلك الشعوب الغريبة عنهم . ولكن نحن ايضاً لا نختلف في هذا الأمر عن اليونان ، فالترجمتان الشائعتان لكلمتي « آتمان »[1] Atman « وتاو »[2] Tao ، وهما كلمتان صاغها فلاسفة أغراب عنا ، تلتزمان شعورنا الخاص بالعالم ، وهذا الشعور الذي يجعل لكلمتينا المكافئتين معنى صلاحهما كقواعد لتعبير نفس غريب عنا . ونحن ايضاً نوضح ، بصورة مشابهة لهذه طبائع صور صينية ومصرية مبكرة ، وفقاً لخبرتنا الخاصة بالحياة . ونحن في كلا هذين العملين نخدع انفسنا . أما القول بأن هناك روائع فنية لكل الحضارات لا تزال تعيش بالنسبة إلينا ، (ونحن نصفها بالخلود) فان هذا القول هو وهم آخر مماثل لذاك . وقد حافظ هذا الوهم على وجوده بسبب إجماع الاراء الذي يجعلنا نفهم الانجاز الغريب عنا وفق المفهوم المناسب لنا . وخير مثال على نزعتنا هذه هو ما كان لجماعة « لاوكون » من أثر في فن النحت في عصر النهضة ، ولسنيكا من تأثير في الدراما الفرنسية « المكلسكة » (التي تعتمد القواعد الكلاسيكية منهاجاً لها) .

---

(١) Atman : كلمة هندية تعني مبدأ الحياة ، النفس، او جوهر الفرد، او الأنا الكونية .

(٢) Tao : دين وفلسفة صينيان ، أسسهما لاوتسي (٦٠٤ – ٥٣١) وكانت تعاليمهما تقول بمطابقة الفرد والنظام الكوني ، وتنادي ببساطه التنظيمين الاجتماعي والسياسي .
– المترجم –

كما كانت الرموز هي أشياء قد تحققت ، لذلك فانها تدخل في ميدان الممتد ، وهي صير وليست صيرورة (مع أنها قد تمثل الصيرورة) ولذلك فهي محددة تحديداً صارماً وخاضعة لقوانين الفراغ ، ولهذا السبب لا توجد إلا رموز فراغية وحتى الاشكال الباطنية للموسيقى ، كما سنرى فيما بعد ، لا تستثنى من هذا القرار . لكن الامتداد هو طابع حقيقة «الوعي اليقظ»، وهذا الوعي يشكل جانباً واحداً فقط من وجود الفرد وهو ملتزم التزاماً وثيقاً بمصائر ذاك الوجود ، لذلك فان كل ميزة من مزايا الوعي اليقظ الواقعي ، أكانت هذه الميزة شعوراً او فهماً ، تصبح في اللحظة التي ندري بها ، ماضياً قد مضى .

ونحن لا نستطيع ان نتأمل إلا في الانطباعات ، وجملتنا المأثورة هي « فكر في الأمر » ، لكن ذاك الذي يعتبر ماضياً بالنسبة الى حياة الحيوانات الحسية ، هو مُضِيٌّ وعابر بالنسبة إلى فهم الانسان المقيد بقيود الكلمة .. وذاك الذي يحدث هو بداهة عابر ، لان الحدوث لا يُرد أو يُنقض ، ولكن كل نوع ذا مغزى هو ايضاً عابر زائل . ولنقتفِ مصير العمود ابتداءً من هيكل الضريح المصري ، حيث كانت تنتظم فيه الاعمدة صفوفاً صفوفاً كي تدل على درب المسافر ، ومروراً بالاروقة « الدورية » حيث كان هيكل البناء يجمع بينها ، فالصرح العربي المبكر حيث كانت تعضد داخل الصرح ، الى واجهات أبنية عصر النهضة حيث كانت الاعمدة بمثابة عناصر تجاهد لترتفع بالدعامة والاساس . وهكذا نرى أن المغزى القديم لا يعود ثانية أو يتكرر ، فالذي دخل ميدان الامتداد قد بدأ وانتهى فوراً . لذلك فان هناك علاقة عميقة ، علاقة أُحِسَّ بها في وقت مبكر ، تربط بين الفراغ والموت . إن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف الموت ، أما غيره من الكائنات الأخرى فانها تهرم وهي ذات وعي جد ملتزم باللحظة التي هي

فيها حيث يجب ان تبدو اللحظة في نظرها خلوداً . وهذه الكائنات تحيا ، ولكن حياتها كحيـــاة الاطفال في سنيهم الاولى ، الاطفال الذين لا تزال المسيحية تعتبرهم حتى الآن « أبرياء » ، فهم لا يعرفون أي شيء عن الحياة، وهم يموتون ويرون الموت دون أن يعرفوا بأي أمر عنه . لذلك فان الانسان ذا الوعي المكتمل في يقظته ، الانسان السديد ، الانسان الذي حرر عادة باللغة فهمه من الاتكال على البصر ، يتملك (بالاضافة الى الاحساس) تصوراً عن الزوال ، أي ذاكرة عن الماضي كماض ، وقناعة اختباريـــة بحتميته ، فنحن الزمان ، ولكننا نمتلك ايضاً صورة للتاريخ ، وفي هذه الصورة يرتسم الموت ، وترتسم الى جانبه الولادة ، ويبدو الموت والولادة أحجيتين مغلفتين بلغزين . أما بالنسبة الى كل الكائنات ما عدا الانسان ، فان الحياة تتابع مجراها دون ان تستثير في هذه الكائنات أي شك في حدود الحياة ، أي ان تلك الكائنات تعيش دون معرفة تعي واجبها ومعناها وديمومتها وهدفها ، ولهذا السبب فاننا نجد هذه الهوية العميقة وذات المغزى ، فيما نجده مراراً ، ان يقظة الحياة الباطنية في الطفل لها علاقة ما بالموت . فالطفل يدرك فجأة معنى جثته ، ويرى فيها شيئاً قد تحول كلياً الى مادة ، الى فراغ كامـــل ، وفي اللحظة ذاتها تشعر هذه الجثة بذاتها ككائن فرد في عالم ممتد .

ولقد قال « تولستوي » مرة :

« ان هناك خطوة واحدة تفصل بين الطفل البالغ من العمر خمس سنوات وبيني ، ولكن المسافة التي تفصل بين الطفل الوليد وبيني هي مسافة هائلة مرعبة . »

هنا ، وفي لحظات الوجود الحاسمة ، عندما يصبح الإنسان إنسانا ويدرك توحده المرعب فيما هو كوني « Universal » ، يلقي الرعب من العالم بالقناع عن وجهه لاول مرة ، بوصفه الرعب الانساني الجوهري من الموت ، ومن حد عالم النور والفراغ المتخشب الصارم . فجميع الاديان والابحاث العلميـــة ، والفنون والفلسفة انطلقت من رعب الانسان من الموت ، وتربط جميع الرموز

العظمى اشكال لغتها ، بمذهب الميت ، وتتبدى هذه الاشكال في تدبر أمر الميت وفي تزيين قبور الموتى .

ويبدأ الاسلوب المصري في هياكل أضرحة الفراعنة ، وينطلق الاسلوب الكلاسيكي بالزخرفة الهندسية للاواني التي يحفظ فيها رماد الموتى ، أما الاسلوب العربي فيبدأ بالسراديب والتوابيت الحجرية ، وأخيراً ينطلق الاسلوب الغربي من الكاتدرائيات حيث يقوم الكاهن كل يوم بالمصادقة على تضحية المسيح بنفسه ، وتتبع الحساسية بكل صيغها من هذا الرعب البدائي ، فتحتل الصيغة الكلاسيكية في استمساكها بالحاقد الذي هجرته الحياة ، أما الصيغة الغربية فانها تتجلى في طقس المعمودية الذي يكتسب الحياة ويقهر الموت ، وأخيراً ترتسم الصيغة الفاوستية في الندامة التي تؤهلها لتلقي جسد يسوع المسيح والخلود بواسطته . ونحن ما لم نمتلك الاهتمام اليقظ الدائم بالحياة التي لم تمض بعد ، فاننا نبقى مجردين من كل اهتمام بما مضى ، فالحيوان يمتلك مستقبلاً فقط ، أما الانسان فيعرف ماضياً أيضاً ، وبهذا توقظ كل حضارة جديدة بنظرة جديدة في العالم ، أي أنها توقظ نتيجة للمحة مفاجئة للموت بوصفه سر العالم المُدرَك . فلقد ولدت الروح الفاوستية لهذا الدين عندما انتشرت في اوروبا الغربية الفكرة القائلة بان نهاية العالم قد أصبحت وشيكة دانية ، ولقد استنفر الرجل البدائي ، في ذهوله العميق من الموت ، جميع قوى روحه كي ينفذ الى عالم الممتد ويُتلمّسه بواسطة الحدود النهائية التي لا ترحم والمتوفرة دائماً لسببيته . فهذا العالم (عالم الممتد) هو مليء دائماً بقدرة مظلمة ، قادرة على كل شيء ، تهدده أبداً بوضع نهاية لوجوده . ولقد كان هذا الدفاع الحيوي الفعال يكمن عميقاً في وجوده اللاوعي ، ولكنه لما كان هذا الدفاع هو الحافز الاول الذي كشف للانسان البدائي ان النفس والعالم شيئان منفصلان متعاديان ، لذلك فان هذا الحافز يعتبر مطلع السلوك الشخصي في الحياة ؛ وهكذا يبدأ شعور « الأنا » وشعور العالم بالعمل ، وكل حضارة ، في ظاهرها وباطنها ، في سلوكها وإنجازها هي في كاملها

تشديد على رغبة الانسان في صيره إنسانا ، ولذلك فان كل ما يقاوم إحساساتنا فيما بعد ، ليس مجرد مقاومة او مجرد شيء أو مجرد انطباع ، كما هي الحال بالنسبة الى الحيوان والطفل ، بل إنما هو تعبير ايضاً . فالاشياء ليست مجرد أشياء يحتويها العالم المحيط بنا ، بل انما هي أشياء لها معنى ومفهوم بوصفها ظاهرة في نظرتنا الى العالم . وهي ، في الاساس، كانت تمتلك صلة بالانسان، ولكن الآن أصبح للإنسان صلة بها [1] ، ولقد أمست تلك الاشياء شعارات لوجوده . (الانسان) وهكذا فانه جوهر كل رمزية أصيلة (لا واعية وضرورية باطناً) ينطلق من المعرفة بالموت حيث يحسر سر الفراغ القناع عن وجهه ، زد على ذلك أن كل الرمزيات تشتمل على نازع دفاعي ، وهذا النازع تعبير عن رهبة عميقة ، رهبة تعبر عنها الكلمتان القديمتان في مفهوميهما للاحترام والبغضاء ، كما وأن الشكل اللغوي لكلمة رهبة ينبئنا فوراً بالعداوة والاحترام .

إن كل شيء في مجرى الصير هو فان، وليست الشعوب واللغات والاجناس والحضارات هي وحدها زائلة فانية، فعقب بضعة قرون من يومنا هذا لن تكون هناك حضارة غربية ، ولن يكون هناك من الالمان والانكليز او الافرنسيين، أكثر مما كان هناك من الرومان في عصر يوستنيان . وهذا لا يعني أن تتالي الأجيال البشرية قد فشل ، بل إنما يعني فشل الشكل الباطني لأمة قد صنعت من عدد من الاجيال إشارة واحدة مفردة لم يعد لها وجود. فالمدنية الرومانية مثلاً وهي أشد رموز الوجود الكلاسيكي قوة ومناعة ، كانت لها ، مع ذلك بوصفها شكلاً ، ديمومة لا تتجاوز بضعة قرون . ولكن الظاهرة البدائية للحضارة العظمى ستختفي في أحد الايام ايضاً ، وسيختفي الانسان، وسيختفي ما وراء الانسان من ظاهرات وجود نبات وحيوان على سطح هذا الكوكب،

---

(١) لا شك ان القارىء يدرك ما يعنيه شبنغلر في قوله الانف الذكر ، فهو يريد ان يقول أن الانسان كان في البداية ينفعل معها أما الآن فأصبح يتفاعل وإياها .

— المترجم —

وسيختفي كامل العالم بما فيه من مجموعات شمسية . إن كل الفنون فانية زائلة ، وليست الفنون البدائية فقط ، بل الفنون نفسها ، وفي أحد الأيام سيطوي الفناء آخر فاصلة موسيقية كتبها موزارت ، وسيطمس الزوال آخر صورة رسمها رمبراندت ، رغماً من أنهما قد يبقيان على قطعة من قماش ملون ، او صفحة من نوتة موسيقية ، وذلك كله لأن العدم يكون آنذاك قد افترس آخر اذن تسمع هذا اللحن ، والفناء قد أتى على آخر عين تتملى تلك الصورة . ان كل فكر وإيمان وعلم يموت حالما تخمد أنفاس الارواح التي كانت حقائقها في عوالمها « حقائق خالدة » وضرورية . وستموت ايضاً عوالم الكواكب التي بدت عوالم خاصة بعين خاصة ، عوالم خاصة بعلماء الفلك على ضفاف النيل والفرات ، وذلك لان عيننا تختلف عن أعين اولئك الفلكيين ، وعيننا ايضاً هي بدورها فانية . كل هذه هي اشياء نعرفها لكن الحيوان لا يعرف بها ، وما لا يعرفه لا وجود له في العالم المختبر المحيط به . ولكن إذا ما زالت صورة الماضي ، فان الحنين الى إعطاء العابر معنى اعمق يزول ايضاً ، وهكذا واستناداً الى الكون الكبير الانساني المجرد ، نجعل من بيت الشعر الذي اقتبس مراراً شعاراً لنا ، وأعني به البيت القائل :

« كل ما هو ماضٍ هو مجرد رمز » .

ومن هنا نُقاد ، دون أن نلحظ ، لنعود إلى معضلة الفراغ ، مع ان هذه المعضلة تتخذ الآن شكلاً طرياً غضاً ومفاجئاً . والحق انه نتيجة لما اوردته آنفاً يبدو أن هذه قابلة لاول مرة للحل، او نقول بمزيد من التواضع، قابلة للتعبير عنها ، تماماً كما جعلنا فيما سبق معضلة الزمان بواسطة فكرة المصير أقرب الى الادراك والفهم . ففي لحظة استيقاظنا تبدو الحياة المحتومة الموجهة في الحياة الظاهرية كعمق مختبر . فكل شيء يمتد بنفسه ، لكنه لم يصبح « فراغاً » بعد ، لم يصبح شيئاً ما قائماً بذاته ، بل انما هو امتداد ذات يتابع بحركته من التحرك هنا إلى التحرك هناك . زد على ذلك ان خبرة العالم ترتبط وثيق ارتباط بجوهر العمق ، وينظر اليها بالاضافة الى الطول والعرض

على أنها ُبعد ثالث ، لكن هذا الثالوث من العناصر ذات النظام المتشابـــه ، هو مضلل من مستهله ، وذلك لان هذه العناصر داخل انطباعنا عن العـــالم الفراغي ، هي عناصر غير متكافئة ، زد على ذلك انها غير متجانسة . ولا شك ان الطول والعرض يشكلان اختبارياً وحـــدة ، وليس مجرد مجموع ، لكنهما (ونحن نتعمد استعمال الجملة التالية) مجرد شكل للتصديق والقبول ، وهما يمثلان الانطباع الحسي المجرد ، أما العمق فانما هو ممثل للتعبير ، ممثـــل للطبيعة ،.وبه يبدأ العالم .

ان هذا التمييز بين « البعد الثالث » وبين مـــا يطلق عليهما بالبعدين الآخرين ، ونحن لسنا بحاجة الى القول بانهما غريبان غرابـــة كلية عن الرياضيات ، هو تمييز ملازم للتعارض القائم بين تصورات الحس وبين التأمل.

فالامتداد الى العمق يحوّل تصورات الحس الى تأمل ، والحق أن العمق هو البعد الأصيل الاول بكل ما للأصالة من معنى، ففيه ينشط الوعي اليقظ، بينما يكون في «البعدين» الآخرين مستكينـــا خامداً . وهو المحتوى الرمزي لنظام معين لحضارة معينة ، ُيعبر عنها بواسطة هذا العنصر الجوهري الأصل غير القابل للتحليل (العمق) . واختبار العمق وما سأقوله يشكل مقدمة منطقية يرتكز إليها كل ما سيتبع) هو فعل ، له من الاكراه والضرورة ، ما له من الابداع ، وبواسطته تحفظ الأنا عالمها ، أو بالأحرى تخضعه لها.وتصوغ الانا من دفق الانطباعات وحدة شكلية ، أي صورة سينمائية ، وهذه الصورة حالما يسيطر عليها الفهم ُتخضَع لمبدأ القانون والسببية ، وهي لذلك وبوصفها تصميا وضعته روح فرد ، عابرة فانية .

ومما لا شك فيه ، أن اختبار العمق ، هذا الامتداد ، الذي مهما نازعه العقل وخاصمه ، هو قادر على التزيي باشكال لا نهاية لها ، ولا شك أنه ينشط وفق مختلف الاساليب ، وليس اختلاف نشاطه فقط كاختلاف نشاطـــه في الانسان المكتمل عن نشاطه في الطفل ، أو اختلافـــه في انسان الطبيعة عن إنسان المدنية ، أو في الصيني عن الروماني ، بل إنما هو يختلف بـــين فرد

وفرد ، وذلك وفقاً لاختبار كل فرد للعالم ، وما إذا كان هـذا الاختبار إختباراً تأمليا أم يقظاً ، نشيطاً أم وديعاً مسالماً . لقد ترجم كل فنان الطبيعة بواسطة الخط او النغم ، لكن كل فيزيائي (أعربياً كان أم يونانياً أم المانياً) قد شرّح الطبيعة إلى عناصر نهائية ، ولكن كيف جرى أن جميعهم لم يكتشفوا الشيء نفسه ؟ وجواباً على هذا السوآل اقول لانه كان لكل واحد منهم الطبيعة الخاصة به ، وكان كل واحد منهم يؤمن (بسذاجة جاءت والحق بمثابة نجاة لفكرة عالمه ولنفسه بالذات) بان جميع الاشخاص الآخرين يشاركونه في رأيه .

ان الطبيعة هي حيازة تمتصها اكثر المضامين الشخصية ضغطا وعصرا ، والطبيعة هي وظيفة حضارة معينة .

- ٣ -

لقد اعتقد « كنت » بانه قد بت في القضية الكبرى وهي ما إذا كان عنصر البداهة سابق الوجود ، أم أنه يُكتسب بالخبرة ، وذلك في نظريته المشهورة القائلة بان الفراغ هو شكل الادراك الحسي الذي يكمن وراء جميع الانطباعات عن العالم . ولكن « عالم » الطفل اللامكترث ، وعالم الحالم ايضاً يمتلك دون ريب ، ايضاً هذا الشكل بطريقة مترددة غير واثقة ، وأن المعالجة المتوترة العملية التقنية لموضوع العالم المحيط بنا (هذه المعالجة المفروضة على الكائن الحر في تحركه والذي هو لايشابه زنابق الحقل حيث عليه أن يهتم بتدبر أمور عيشه وحياته) هي التي تجعل الامتداد الذاتي الحسي يتصلب ويتخشب ليمسي ثالوث الابعاد العقلاني . وان إنسان المدينة في الحضارة الناضجة ، هو وحده الذي يعيش حقاً في هذه اليقظة الواضحة الساطعة ، وليس هناك إلا بالنسبة الى فكره فراغ لا يمت من قريب أو بعيد بأية صلة

الى الحياة الحسية ، فراغ ميت وغريب غرابة مطلقة عن الزمان ، وهـذا الفراغ لا يوجد في شكل مدرك بداهة ، بل انما يوجد في شكل مفهوم فهماً عقلانياً . وليس هناك من شك إطلاقاً أن الفراغ الذي أبصر بـه « كنت » في كل ما حوله وادركه بمثل ذلك اليقين غير المشروط وذلك عندما كان يحل لغز التاريخ فكراً ، لم يكن يوجد في أي شيء مشابـه لشكل صارم مدقق كهذا ، بالنسبة الى أسلافه من « الكرولنجيين » . إن عظمة كنت تقوم على فكرته في « جوهر البداهة » وليس على تطبيقه لهـذه الفكرة . فلقد سبق لنا ان رأينا أن الزمان ليس شكلاً للادراك الحسي ، كما وأنـه ليس بشكل لاي شيء آخر اطلاقاً ، وذلك لان الاشكال توجد داخل ميدان الممتد ، وليس لدينا أية إمكانية لتعريف الزمان سوى قولنا بانه هو المفهوم المعاكس لمفهوم الفراغ . ولكن هناك سؤالاً آخر : هل كلمة « الفراغ » هذه تغطي صحيحاً المحتوى الأصلي لما هو مُدرَك بداهة ؟ ووراء كل هذا توجـد الحقيقة البسيطة الصريحة القائلة بان « شكل الادراك الحسي » يتبدل مـع المسافة . فكل سلسلة جبال بعيدة تدرك كسطح مشهدي ، ولا يوجد هناك أي انسان يستطيع أن يزعم بانـه يرى القمر كحجم ، فالقمر بالنسبة الى العين هو مجرد سطح ، وهو لا يكتسب شكلاً فراغياً إلا عندمـا ينظر إليه بالتلسكوب ، وذلـك حينما تختصر المسافة بـين الراصد والقمر اختصاراً مصطنعاً . فمن الواضح إذن أن شكل الادراك الحسي هو وظيفة المسافـة . زد على ذلك اننا عندما نتأمل في أي شيء من الاشياء فاننا لا نتذكر تمامـاً الانطباعات التي حصلنا عليها في ذلك الوقت ، بل إنما « نعرض على انفسنا » صورة لفراغ مستخلصة من تلك الانطباعات ، ولكن هذه الصورة قد تخدعنا أو بالاحرى حقاً تخدعنا بالنسبة الى الواقعة الحية . لقد سمح كنت لنفسه بان يضلل ، إذ كان عليه بالتأكيد ألا يسمح لنفسه بان يفرق بين اشكال الادراك الحسي وبـين اشكال القياسات المنطقية ، وذلك لان تصوره للفراغ يضم في الاساس كلا النوعين من الاشكال .

وكما ان «كنت» قد شوه معضلة الزمان حينما دفع بها ليربطها بالحساب الذي أُسيء فهمه إساءة جوهرية ، ولذلك فانه عالج وفق هذه القاعدة نوعاً شبحياً من الزمان الذي يفتقر الى صفة حياتية للاتجاه وهو لذلك مجرد مخطط فراغي ، كذلك فان كنت قد شوه معضلة الفراغ حينما ربطهـا الى الهندسة المألوفة .

وقد حدث ان اكتشف «غاوس» عقب بضع سنين من انجاز كنت لكتابه الرئيسي ، اولى النظريات الهندسية غير اليوقليدية. وقد عرضت هذه النظريات عرضاً لا يُعاب او ينقد بالنسبة الى صحتها الخالدة حيث مكنتها من ان كتبت بان هناك انواعاً رياضية صارمة عديدة ذات امتداد مثلث الابعاد، وان جميع هذه الانواع هي حقيقة بالبداهة ، وأنه ليس بالامكان ان يُميز أي نوع منها بوصفه « الشكل » الأصيل «للادراك الحسي» . والحق انه كان الخطأ شنيعاً لا يغتفر ان يُزعم في عصر يعيش فيه « أيلر ولاغرانج » بان الهندسة المدرسية الكلاسيكية (وهي الهندسة التي استأثرت ابداً بفكر «كنت») تتوالد وتحيا من جديد في اشكال الطبيعة المحيطة بنا . ففي لحظات من مراقبة دقيقة قصيرة النظر جداً ، وفي حالات تكون فيها العلاقات التي هي موضوع البحث ، من القلة ما يكفي ، فعندئذٍ تتفق أكيداً الانطباعات الحية والقواعد الهندسية المألوفة ، ولكن ما تؤكده الفلسفة من وجود اتفاق صحيح بينها أو مضايقة بعضها بدقة على بعض ، هو أمر تعجز العين أو آلات القياس عـــن عرضه . فعلى كل من العين وآلات القياس ان تقصر عند حد معين من الدقــة والصحة ، حد بالغ البعد أكيداً عن المركز الضروري الذي يخولنا ان نقرر مثلاً أية وحدة هندسية من الوحدات الهندسية اليوقليدية ، هـــي الهندسة التجريبية للفراغ . ففي المستويات الرفيعة والمسافات الشاسعة حيث تسيطر خبرة العمق على صورة الادراك الحسي سيطرة كاملة (مثلاً التأمل في منظر طبيعي كما هو في تعارضه والرسم) فان شكل الادراك الحسي يكون عندئذٍ متعارضاً تعارضاً اساسيا والرياضيات ، فلمحة واحدة نلقي بها على أي شارع

مستقيم تثبت لنا أن الخطوط المتوازية تلتقي في الافق ، فالمرئيات العربية في اللوحات الزيتية وغيرها من المرئيات الصينية التي تختلف عن تلك تماماً ، تستند معاً على هذه الواقعة ، زد على ذلك ان ارتباط هذه المرئيات بشا كل الجذر لكل من رياضياتها الخاصة أمر لا يخطئه ظن أو فهم .

ان العمق الاختباري في نوع صيغة اللانهائي ، فرار زواغ يفلت من كل تعريف رقمي . فكامل الشعر الغنائي والموسيقي ، وكل التصوير الزيتي من مصري وصيني وغربي ينكر في فرضياته أي تركيب رياضي صارم كما يُحس به ويرى في الفراغ ، ويعود سبب فشل الفلاسفة المحدثين في ملاحظة هذا التعارض الى افتقارهم الى أبسط مقدرة على فهم التصوير الزيتي . « فالأفق » الذي فيه وبواسطته تذوب جميع الصور البصرية في سطح نهائي ، هو شيء غير قابل لاي نوع من المعالجات الرياضية، وكل مسحة من فرشاة فنان تدحض مزاعم الفلسفة التقليدية للمعرفة والمنطق . وكما ان الأحجام الرياضية مجردة من الحياة ، فكذلك ليس « للابعاد الثلاثة » حدود طبيعية ، ولكن عندما يتشابك هذا الموضوع والمحمول (Proposition) مع سطح وعمق الانطباع المختبر ، فان الخطأ « الابستمولوجي » يقود الى خطأ أصلي آخر ، واعني بهذا الخطأ ، القول بان الامتداد المدرك هو ايضاً دون ما حدود ، بالرغم من ان رؤيتنا حقاً لا تحيط إلا بالقطعة المضاءة من الفراغ ، وتتوقف عند حد ضوئي لتلك البرهة المعينة التي قد تكون أجلاد (جمع جلد) كوكب او مجرد الهواء الجوي (Atmosphere) النيّر . فكامل العالم المنظور هو مجموع المقاومات الضوئية ، وذلك طالما أن الرؤية تعتمد على وجود ضوء مُشعٍّ او معكوس . ولقد توقف الاغريق عند هذا القول الآنف الذكر ، أما الفضل كل الفضل في اكتشاف فكرة تقول بوجود كونٍ لا متناه للفراغ ، فراغ يضم أنظمة نجمية لا نهاية لعددها وذات مسافات لا تبلغها كل الامكانات البصرية ، فان هذه الفكرة جاءت ابداعاً لرؤيا باطنية ، رؤيا غير قابلة لكل انواع التحقق بواسطة العين ، وحتى التحقق كفكرة ، وهي غريبة عن

أشخاص كل الحضارات المختلفة ، ولا يمكن لهؤلاء مهما اختلفت أجناسهم وتباينت حضاراتهم ان يدفعوا بها الى التحقق .

- ٤ -

إذن فلقد كان نتاج اكتشاف « غاوس » ، هذا الاكتشاف الذي بدل مجرى الرياضيات الحديثة تبديلاً كاملاً ، يتمثل في تقريره القائل بان هناك تراكيب عديدة متساوية في صحتها للامتداد المثلث الابعاد . أما اذا كان على أحدهم ان يتساءل فيقول أي من هذه التراكيب ينطبق على الادراك الواقعي ، فان مثل هذا السؤال يكشف عن ان السائل لا يفهم ابسط أمور المشكلة . فالرياضيات أشئنا أم أبينا تستخدم الصور المنظورة والمشاهد كملاءمات فعالة ، وتشغل نفسها بالمناهج التي هي متحررة كامل التحرر من الحياة والزمان والمسافة ، وتهتم بعوالم شكل لارقام مجردة حيث تكون صحتها (لا أساسها الواقعي) معدومة الزمان وشبيهة بكل شيء آخر مما هو « معروف » ومعروف بواسطة المنطق السببي ، لكنه غير مختبر .

وبهذا اصبح الفرق بين طريقة الوجدان وبين لغة الشكل الرياضي صريحاً واضحاً كما رفض سر الصيرورة الفراغية .

ولما كانت الصيرورة هي أساس الصير ، الذي هو التاريخ الحي المتتالي للطبيعة المكتملة الميتة ، والمصير الخاضع للقانون السببي ولما اقيم على قواعد سببية ، لذلك فان الاتجاه هو ايضاً أصل الامتداد .

ان سر الحياة الذي يحقق ذاته، والذي نلامسه (نلامس معناه — المترجم) بكلمة الزمان يشكل أساس ذاك الشيء الذي عندما يُنجز ، يُفهم (أو بالأحرى يشير الى شعور باطني داخلنا) بكلمة فراغ . ان كل امتداد واقعي قد انجز داخل وبواسطة خبرة عمق ، وان ما كان يُشار اليه في الأصل

بكلمة زمان هو تماماً عملية الامتداد ، وهذه العملية تبدأ اول ما تبدأ حسّاً (وخاصة بصرياً) وتصبح بعدئذ فقط فكراً يغوص في العمق والمسافة مثلاً الخطوة من شبه الانطباع عن أصغر الديدان المائية الى الانطباع عن الصورة الكونية الكبيرة المنتظمة بما فيها من حركات واضحة غامضة . فنحن نشعر (والشعور هو الذي يشكل حالة الدراية بما كل ما هو محيط بنا) باننا داخل امتداد يحيط بنا ، ونحن لسنا بحاجة إلا الى اتباع هذا الانطباع الأصيل عما نشاهده في العالم ، كي ندرك ان هناك بالواقع ، بعداً حقيقياً واحــــداً فقط للفراغ ، وهذا البعد هو الاتجاه المنطلق من نفس الفرد خارجاً ضمن المسافــة « الـ – هناك » ، والمستقبل ، وان المنهاج التجريدي للابعاد الثلاثة هو عرض ميكانيكي وليس حقيقة من حقائق الحياة. فبواسطة خبرة العمق يمتد الإحساس ضمن العالم . ولقد سبق لنا ان رأينا ان التوجيه الموجود داخل الحياة يحمل طابع غير القابل لعكس مجراه، وهناك شيء ما من طابع الزمان هذا داخل نزعتنا الغريزية الى الاحساس بالعمق الموجود داخل عالم ذي اتجاه واحــــد وحيد ايضاً ، مثلاً ، من داخل انفسنا الى الخارج ، وليس أبداً من الافق الى داخل [1] انفسنا .

وقد رتبت الحركة الجسمانية للرجل وللحيوان وفق هذا المفهوم . فنحن نتحرك قدماً الى الأمام ، نحو المستقبل ، ونحن لا نقترب فقط بكل خطوة نخطوها من أهدافنا بل انما نقترب ايضاً من شيخوختنا ، ونحس بان كل نظرة نلقي بها الى الوراء ، هي لمحة نلمح بها شيئاً ما قد أصبح ماضياً ، شيئاً قـــد أمسى تاريخاً . واذا كان باستطاعتنا ان نصف المدرَك (ما ُفهم) ، وأعني به السببية ، بانها مصير يصبح متخشباً ، فعندئذٍ باستطاعتنا ايضاً ان نصف بالمثل العمق الفراغي بانه زمان يصبح متخشباً . ان ذاك الشيء الذي لا يحس به فقط الانسان بل الحيوان ايضاً ، ويحسه ناشطاً فيما حوله كمصير ويدركــه

---

(١) هذا القول الوارد اعلاه يشكل إحدى نقاط التعارض الاساسية بين شبنغلر والفلسفة المادية ، وخاصة الفلسفة المادية الديالكتيكية . – المترجم –

بواسطة اللمس والنظر والسمع والشم كحركة ، اقول ان ذاك الشيء يتخشب عند إمعان النظر فيه ويصبح سبيباً . فنحن نشعر باقتراب الربيع ، ونشعر مقدماً كيف تمتد مناظر الربيع حولنا ، لكننا نعرف ايضاً بان الارض كما تتحرك في الفضاء ، تدور ، وان ديمومة الربيع تتشكل من تسعين دورة كهذه ، او يوم . ان الزمان يلد الفراغ ، لكن الفراغ يميت الزمان . ولو ان « كنت » كان أكثر دقة واحكاماً في تحديد نظرياته ، لقال ان الزمان هو شكل الادراك ، وان الفراغ هو شكل المدرَك ، وعندئذٍ فان الترابط بين هذين كان لا شك سيكشف عن سره « لكنت » ان المنطيق والرياضي او الفيزيائي ، لا يعرف في لحظات الفكر المركز إلا الصير ، (الذي قد فصل عن حادثة مفردة بواسطة التأمل والتأمل فقط فيه) ولا يعرف الا الفراغ المنهاجي الحقيقي (هذا الفراغ الذي لكل شيء فيه ملكة ذات ديمومة قابلة للتعبير الرياضي عنها) لكن هذا الواقع وحده هو الذي يدلنا على كيفية نمو الفراغ وتطوره المتتاليين، فنحن عندما نحملق في المسافة بحواسنا يطفو الفراغ حولنا ، لكننا عندما نُذعر ، فان العين اليقظة ترى فراغاً متخشباً صلباً . ان الفراغ ، ومبدأ كامل وجوده هو ، خارج نطاق الزمان ومنفصل عنه وعن الحياة . ففيه تكمن الديمومة ، وهي جزء من زمان اضمحل وباد ، بوصفها ملكة معروفة للاشياء . ونحن بما أننا نعرف انفسنا ايضاً باننا كائنات في الفراغ ، نعرف بان لنا ديمومة وحدّاً ، وبهذين ينذراننا عقربا الساعة بصورة متواصلة مستمرة . لكن الفراغ المتخشب هو عابر ايضاً ، (وهو يختفي من عالمنا المحيط بنا ذي الالوان المتعددة والواسعة الانتشار ، وذلك عند اول فترة من راحة واسترخاء تعقب التركيز الفكري) وهكذا فانه اشارة ورمز من اعظم الرموز ، واشدها جبروتاً واقواها جوهراً ، إذ انه رمز الى الحياة نفسها . وذلك لان الادراك القسري المكثف الكامل للفراغ ، هذا الادراك الذي يسيطر على الوعي بقوة حادثة مبدأية (تحدث في آن واحد واستيقاظ الحياة الباطنية) هو الذي يحدد الخط الفاصل بين الطفل

وبين الرجل . فالذي يفتقر اليه الطفل هو الخبرة الرمزية بالعمق ، فهو يتطلع الى القمر ، ويحس ببعده ، لكنه مع ذلك لا يعرف بعد أي معنى في العالم الابعد ، وهو شبيه بالانسان البدائي الذي يَعْمَهُ في « كونتنيوم » من الاحاسيس الحالمة .

ومن البديهي ان لا يخلو الطفل من الخبرة بالممتد شريطة ان يكون من ابسط الانواع ، لكنه يخلو من ادراك للعالم ، فهو يحس بالمسافة ، لكن المسافة لا تكون تتحدث الى نفسه بعد . ومع يقظة النفس يكتسب الاتجاه ايضاً في البدء تعبيراً حياً عنه (فالتعبير الكلاسيكي يتمثل في التشبث الدائم بالحاضر القريب واطراح البعيد والمستقبل جانباً ، والفاوستي في طاقة الاتجاه التي كرست نظرها للتطلع فقط الى أبعد الآفاق ، والصيني في تجوال طليق بين هنا وهناك ، وأمام وخلف ، مع أنه أخيراً يعتز بهدفه والمصري في زحف ثابت القدم على درب وضع قدميه عليه . وهكذا فان فكرة المصير تتجلى في كل خط من خطوط الحياة . وبواسطة هذه الفكرة فقط نصبح أبناء حضارة معينة خاصة ، حضارة يربط بين أبنائها شعور مشترك بالعالم، وشكل مشترك للعالم مشتق من هذا الشعور . وتوحد هوية عميقة يقظة النفس وخروجها الى الوجود الصريح ، وتعميدها باسم الحضارة ، وبين إدراكها المفاجىء للمسافة والزمان وولادة عالمها الخارجي على يد رمز الامتداد ، وهذا الرمز يكون ويبقى فيما بعد الرمز الاولي لتلك الحياة ، وهو الذي يكشف عن طرازها المعين . وعن شكلها التاريخي الذي تحقق داخله إمكاناتها الباطنية تحققاً مطرداً ويشتق الرمز المعين للامتداد من التوجيه المعين ، وهو مثلاً بالنسبة الى النظرة الكلاسيكية الى العالم ، القريب والمحدود تحديداً صارماً والمستقل بذاته . أما النظرة الغربية فترى فيه الفراغ المثلث الابعاد اللا متناهي في اتساعه وعمقه ، أما النظرة العربية فهي ترى في العالم مغارة وكفناً . وهكذا نرى معضلة فلسفية قديمة تنتهي الى لا شيء . فهذا الشكل الاولي للعالم هو شكل فطري بقدر ما هو ملك أصيل لنفس تلك الحضارة التي تعبر عنها حياتنا ككل ، كما

وأنه يكتسب بقدر ما تصادق كل نفس فردية لنفسها على ذلك العمل الابداعي وبقدر ما يتفتح في ذاتها رمز العمق الذي هو قضاء وجودها وقدره ، وذلك كما يتفتح جناحا الفراشة وينتشران .

إن أول إدراك للعمق هو عمل من أعمال الولادة ، أي إنه التتمة الروحية لما هو جسدي ، ففيه تولد الحضارة من أحشاء مناظر وطنها الطبيعية ، كما وتكرر كل نفس من نفوس أبنائها هذه العمل وهذا هو الذي أسماه افلاطون -بربطه بالعقيدة الهيلينية المبكرة- « Anamnesis» والذاكرة الاولى ذاكرة الوجود الاول . إن محدودية شكل العالم الذي يتكون في كل نفس هي في فجر اكتمالها ، يكتسب معناه من الصيرورة . « فكنت » المنهاجي بماله من مفهوم لشكل البديهة، كان لا شك سيبدأ بترجمة هذه الاحجية بالذات بواسطة نتيجة ميتة ، بدلاً من أن يسلك اليها طريقاً حياً .

ومن الآن فصاعداً فاننا سنعتبر نوع الامتداد بوصفه الرمز الاولي لحضارة من الحضارات ، ومنه سنستنتج ونستخلص كامل شكل لغة واقعته، ونستدل على سيمائه في تضادها وسيماء كل حضارة من الحضارات الأخرى ، وحتى اكثر من كل ذلك سنستخلص كامل افتقار الانسان البدائي تقريباً الى معرفة سيماء ما يحيط به من عالم . ومن الآن فصاعداً ترتفع تراجم العمق الى أعمال ، إلى تعابير اشتقاقية داخل الانجازات ، الى تحول الواقعة ، تحولاً لا يتوخى فقط خدمة ضرورات الحياة (كما هي الحال بالنسبة الى الحيوانات) بل انما يخدم فوق كل شيء في إبداع صورة من شتى انواع العناصر الامتدادية (المادي منها والخط واللون والنغم والحركة) صورة كثيراً ما تنبعث من جديد انبعاثاً له من القوة ما يسحر ، تنبعث بعد قرون ضائعة في صورة عالم لحضارة أخرى، كي تطلع تلك الصورة الاشخاص الجدد على الطريقة التي كان رساموها يفهمون العالم وفقها .

لكن الرمز الاولي لا يحقق ذاته ، بل إنما هو ناشط بواسطة حسّ كل إنسان بالشكل ، وحس كل بيئة وعمر ومرحلة ، وهو الذي يملي اسلوب كل

تعبير للحياة ، وهو ملازم لشكل الدولة ، وللاشكال الدينية والخرافية والمذهبية ، وللمثل العليا الأخلاقية ، ولاشكال الرسم الزيتي والموسيقى والشعر ، ولكل التصورات الجوهرية للعلوم ، غير أن هذه الأشكال جميعاً لا تعرضه (أي ان الرمز الاولي ليس من معطياتها) . ونتيجة لذلك فانه غير قابل للعرض بواسطة الكلمات ، لان اللغة والكلمات هي نفسها رموز اشتقاقية ، وكل رمز على حدة يتحدث عنه (الرمز الاولي) لكنه يتحدث عنه فقط الى الشعور الباطني لا الى الادراك او الفهم . ولذلك فنحن عندما نقول ، كما وسنقول منذ الآن فصاعداً ، بان الرمز الاولي للنفس الكلاسيكية هو ما هو مادي وجسم فرد ، وبان الرمز الاولي للنفس الغربية هو الفراغ المجرد اللامتناهي ، يصبح من المتوجب علينا أن نضيف الى قولنا هذا التحفظات القائلة بان النظريات والمفاهيم لا تستطيع أبداً ان تعرض اللا مدرك ، وهكذا فان اقصى ما يستطيع جَرْس الكلمات ان يفعله هو أنه قد يتمكن من إيقاظ شعور هام خطير .

لقد كان الفراغ اللامتناهي هو المثل الاعلى الذي تجاهد النفس الغربية لبلوغه ، وأن تراه يتجسد فوراً أمام ناظريها في العالم المحيط بها ، ولهذا فان هذا هو السبب الذي يجعل نظريات الفراغ التي لا يحصيها العدد، والتي تمخضت عنها القرون الأخيرة ، كتلك (قبل وفوق كل النتائج الظاهرة) فحوى عميقاً كأعراضٍ (Symptoms) لشعور بالعالم . فإلى أي حد يكمن الامتداد اللا محدود وراء كل الاشياء الموضوعة ؟ والحق أنه لا يوجد تقريباً أي سؤال آخر لاقى من الامعان والتفكير العميق والتدبير ما لاقاه السؤال الآنف الذكر ، حتى أنه ليبدو لنا تقريباً كأن سوآل كل عالم آخر كان يدور حول المعضلة الواحدة ، معضلة طبيعة الفراغ . أوَ ليست هذه حالنا ايضاً؟ فكيف إذن لم يستئثر إحجام كامل العالم الكلاسيكي عن صرف أية كلمة عنه إحجاماً كلياً ، أية ملاحظة ، زد على ذلك ان العالم الكلاسيكي لم يكن في الواقع يملك حتى الكلمة التي يمكن بواسطتها تلخيص هذه المعضلة تلخيصاً دقيقاً صحيحاً ؟

لماذا لم يأت الفلاسفة العظام ما قبل سقراط على ذكره ابداً ؟ فهل تغاضوا في عالمهم عن ذاك السوآل الذي يبدو لنا نحن معضلة كل المعضلات ؟ ألا يتوجب علينا أن نرى وندرك بان الاجوبة على اسئلتنا تلك تكمن في سكوتهم وصمتهم وكيف يحدث وفقاً لاعمق ما لنا من شعور بان « العالم » هو ليس سوى عالم الفراغ ذاك ، والذي هو الابن الحقيقي لخبرتنا بالعمق ، والذي تؤيد الانظمة النجمية التائهة فيه فراغيته العظمى وتثبتها ؟ فهل كان من المستطاع أن يُفهم عالم هذا شكله ومفهومه ، ويُدرك من مفكر كالمفكر الكلاسيكي ؟ وزبدة القول ، اننا نكتشف فجأة ان « المعضلة الخالدة » التي ألمّ بها « كنت » باسم الانسانية إلماماً ذا عاطفة هي نفسها رمزية، هي معضلة غربية صرفة،ومعضلة لا تنشأ ولا تعانيها أذهان الحضارات الأخرى .

إذن فما هو ذاك الشيء الذي كان يعتبره الانسان الكلاسيكي ، هذا الانسان الذي لا تقل قوة بصيرته بالعالم المحيط به نفوذاً عن بصيرتنا ،المعضلة الاولية لكل كينونة ؟ لقد كانت المعضلة الأولى (apxn) ،أي الأصل المادي، وأساس كل الاشياء المُدركة ادراكا حسيا ونحن اذا ما وعينا مضمون هذا القول فعندئذٍ سنقترب من مغزى الحقيقة ، لا حقيقة الفراغ ، بل إنما الحقيقة التي جعلت بضرورة المصير معضلة الفراغ معضلة غربية ، ومعضلة موقوفة فقط على النفس الغربية . إن هذه الفراغية بالذات والتي هي اصفى وأصدق عنصر في نظرتنا الى الكون ، والتي تمتص نفسها وتلد أحشاؤها جوهر كل الاشياء ، هي الفراغية ذاتها التي ترفضها وتردها الانسانية الكلاسيكية (التي لا تعرف كلمة تعبر بها عنها ولذلك فانها لا تمتلك فكرة عن الفراغ) بإجماع الآراء بوصفها أنها (أي الفراغية) اللا موجود ، بينما هي ليست باللا موجود . ولا اعتقد بانه بالامكان المبالغة في هذا النفي ، فكامل عاطفة النفس الكلاسيكية تتركز في داخل عمل الاخراج هذا الصادر عن نفي للرمزية ، هذه الرمزية التي لا تستطيع ان تحس النفس الكلاسيكية بانها واقعية ، والتي لا تستطيع بواسطتها (الرمزية) أن تعبر عن وجودها الخاص . وهنا يجابهنا فجأة عالم

ذو لون مختلف ، يجابهنا التمثال الكلاسيكي [1] بلاجسمانيتـــه ، (فهو كله تركيب وسطوح معبرة وهو مجرد من كل باعث خفي مهما كان نوعه) يحتوي على كل ما تمثله الواقعة للعين الكلاسيكية ويحتوي عليه دون أن يترك أيـــة فضلة منه . فهو (التمثال) المادي المحدد بعدياً المدرك والحـاضر الفوري • وهذه الرغبة تستنزف مميزات هذا النوع من الامتداد . فالعالم الكلاسيكي ، اي الكون الكلاسيكي المؤلف من مجموعةحسنة الانتظام من كل ما هو قريب وقابل للنظر تماماً،كون قد اكتمل في قبة السماء ، هذه القبة الزرقاء المجسدة، وليس هناك أي شيء أكثر من هذا الكون .

فالحاجة التي نحس بها باطناً الى التفكير بان الفراغ هو وراء كما هو أمـام هذه القوقعة ، كانت حاجة يفتقر اليها الشعور الكلاسيكي بالعالم افتقاراً كلياً . ولقد اشتط الفكر بالرواقيين الى حد جعلهم يعالجون حتى ملكات الاشيـاء وعلاقاتها بوصفها « أحجاماً » .

فبالنسبة مثلا الى « كريسبوس » كانت حتى الروح الإلهية حجماً، وكان ديمقريط ، يرى ان النظر (البصر) ينشأ عن نفوذ ذرات الاشياء المنظورة الى العين .

وان الدولة هي جسم قد صنع من جميع أجسام المواطنين فيها ، والقانون لا يعرف الا أجساد الاشخاص والاشياء المادية والشعور يجـــد آخر وأنبل تعبير عنه في الهيكل الحجمي للمعبد الكلاسيكي فلقد أخفي داخِلـُه الخالي من النوافذ بعناية وحذر، وذلك بواسطة انتظام من أعمدة، ولكن من الصعب على المرء ان يجد خارجه خطاً مستقيماً حقيقياً واحـــداً فلكل خطوة من درجات مدى ضيق يتجه خارجاً ، وكل درجة تلتصق نسبياً بالأخرى ، زدِ على ذلك ان رواقه وسطح قمته وجوانبه ، كل هذه هي جميعاً منحنية ، ولكل عمود انتفاخ خفيف ، ولا ينتصب أي عمود منها انتصاباً ذا زواية

---

(١) لاحظ : استعملت كلمة لاجسمانية ، ولم استعمل كلمة لا حجمية ، وذلك لأن شبنغلر كما لا شك يدرك القاريء يريد أن يقول بان التمثال الكلاسيكي مجرد من الحياة -- المترجم -

قائمة ، كما ان الابعاد الفاصلة بين كل عمود وآخر ابعاد ليست متساوية . لكن الانتفاخ والانعطاف والمسافـة تتبدل من زوايا ومراكز الجوانب تبدلاً ذا نسب محسوبة بعناية وحذر ، وهكذا فان كامل الحجم قد اعطي شيئا ما يتأرجح غامضا حول المركز . أضف الى ذلك ان انحناءاتها وتقوساتها هي من الجمـــال الى حد يجعلهـا مستعصية على العين ، ولا يستطيع المرء ان يعرفها الا « احساساً » ، ولكن هذه الوسائل ذاتها هي التي تستأصل الاتجـــاه الى العمق . فبينما يحلق الاسلوب المعماري الغوطي ويسمو ، ويحوم الأسلوب الايوني ويعلو، ويشمخ داخل الكاتدرائية عالياً كما تشمخ اشجار الغابة الفطرية البكر يضطجع المعبد الكلاسيكي ويجلس بهدوء ملوكي . وهـذه الاشياء هي ايضاً صحيحة وذلك فيما يتعلق بالآلهة الفاوستية والآلهة الابولونية ، وكذلك فيما يتعلق ايضاً بالنظريات الاساسية لكل فيزياء منها . فتقابل مبادىء المركز والمادي والشكل مبادىء الحركة المتوترة والقوة (لاحظ القوة لا الطاقة) والكتلة . وقد عرفنا الكتلة بانها النسبة الدائمة بين القوة والعجلة (السرعة) ، اللذين يُصَعّد كلاهما أخيراً في العناصر الفراغية الصرفة لكل من القدرة والشدة.

وقد استوجب اسلوب ادراكنا للواقعة هذا، بالضرورة ان تصبح الموسيقى الآلية التي وضعها أربابها العظام في القرن الثامن عشر ، اقـــول ان تصبح بالضرورة فنا رئيسيا عظيماً (master art) ، وذلك لانها الفن الوحيد من الفنون الأخرى الذي يرتبط عالم شكله ارتباطاً باطنياً بالرؤيا التأملية في الفراغ المجرد . وهي خلافاً للتماثيل المنصوبة في المعابد والاسواق الكلاسيكية ، فانها ميادين لاحجمية (لاحظ الفرق بين اللاحجمية واللاجسمانية ، اوردناه آنفا — المترجم) من النغم وفواصل النغم وبحوره. فالجوقة تنتفخ وتنفجر وتنحسر ، فهي ترسم المسافات والاضواء والظلال والعواصف والغيوم المنسابة وومضات البرق ، وألوانا صُيِّرت ألوانا أثيرية (الاثير) الوانا مترفعة متسامية ، ولنفكر فقط بالموسيقى الآلية لكل من غلوك وبيتهوفن .

نحن نجد القانون الصارم (الذي انجزه ستامتيز عام ١٧٤٠ تقريباً) لحركة

السوناتا ذات العناصر الاربعة والـــتي تبدأ تكاسلها في رباعيات بيتهوفن وسيمفونياته المتأخرة (الأخيرة — المترجم) .

وأخيراً يحرر نفسه هذا القانون في عالم نغم موسيقى «تريستان» هذا العالم المتوحد واللامتناهي كلياً في صغره ، تحريراً كاملاً من كل قابلية ارضية لادراكه ، أقول إننا نجد هذا القانون « معاصراً » في مفهومنا لمعنى المعاصرة الذي سبق لنا فشرحناه لقانون بوليكليتوس الذي سنه هذا النحات العظـــيم في كتابه والذي حدد بموجبه القواعد الصارمة لتركيب الجسد الانساني ، والذي دام ساري المفعول حتى مابعد ليسبّوس . ان شعور النفس الاولي هذا بالخلاص المخلخل ... في اللانهائي ، شعورها بالتحرر من كل ثقل مادي ، هذا الشعور الذي توقظه فينا دائماً موسيقانا في أسمى اللحظات التي تمر بنا ، يطلق ايضاً سراح طاقة العمق التي تختزنها النفس الفاوستية ، بينما ان أثر الانجاز الفني الكلاسيكي هو أثر يربط بقيد ويحدد ، ويـــؤمن حس الجسد ، ويُعيد العين من البعيد الى القريب الخامد الهادىء المشبـــع بالجمال .

- ٥ -

إذن فإن كل حضارة عظمى قد وصلت (حصلت) الى لغة سرية لشعورها بالعالم ، وهذه اللغـــة لا يفهمها إلا ذاك الشخص الذي ينتمي نفسه الى تلك الحضارة . وربما أنه باستطاعتنا أن نقرأ قليلاً في النفس الكلاسيكية ، وذلك لان شكل لغتها هو الشكل المعاكس تماماً لشكل لغة النفس الغربية . أمـــا الى أي حد قد نجحنا أو هل بمقدورنا أن ننجح إطلاقـــاً في قراءة النفس الكلاسيكية ، فان هذا السوآل هو الذي يشكل بالضرورة نقطة الانطلاق لكل ما هنالك من نقد [1] ويتمخض عنه عصر النهضة والانبعـــاث ، وهو

(١) لا شك ان شبنغلر يريد ان يقول ان عصر النهضة والانبعاث قد اكتمل وتحقق ولذلك كتب كتابه هذا الذي قمنا بترجمته ، وهو كما يدرك القارىء يرى ان النفس الفاوستية وهي النفس المميزة للحضارة الغربية قد بدأت تنطلق فعالة ابتداء من عصر النهضة — المترجم —

والحق لسوآل بالغ الصعوبة . ولكن إذا ما قيل لنا بأنه من المحتمل (والحق أنه لمغامرة مشكوك في نتائجها أن نتأمل في تعبير كائن غريب عنا الى ذاك الحد) ان الهنود ادركوا ارقاماً لم تكن تملك بالنسبة الى افكارنا قيمة او حجماً أو نسبة ، ارقاماً أصبحت فقط ايجابية او سلبية ، وأمست وحدات صغيرة أو ضخمة وذلك وفق ما قررته منزلتها،عندئذٍ علينا ان نقر ونعترف بانه من المستحيل علينا أن نعاود اختبار العنصر الروحي الذي يكمن وراء هذا النوع من الرقم اختباراً دقيقاً صحيحاً . فالرقم ٣ هو بالنسبة الينا دائماً شيء ما أكان هذا الرقم ايجابياً أم سلبياً ، أما بالنسبة الى اليونان فكان هذا الرقم دائماً حجماً ايجابياً غير مشروط في إيجابيته،إذ كان دائماً + ٣،لكنه بالنسبة الى الهنود فانما يشير الى امكانية لا وجود لها،امكانية،لا تنطبق عليها حتى كلمة «شيء ما»خارج الوجود واللاوجود اللذين هما كلاهما ملكتان حققت الامكانية بهما.

وهكذا فان + ٣ ، - ٣ ، $\frac{١}{٣}$ هي وقائع انبعاثية من مرتبة ثانوية تكمن في الجوهر الغامض للرقم (٣) وعلى شكل مستور كلياً عن أعيننا . لذلك فان هذه الارقام بحاجة الى نفس برهمية لتدركها كأرقام صريحة وغنية عن البيان وكشعارات مثالية لشكل عالم كامل قائم بذاته ، أما الارقام الهندية فهي بالنسبة الينا ارقام غامضة مبهمة غموض النارفانا البرهمية . ولما كانت هذه الارقام كالنارفانا تقع ما وراء الحياة والموت ، وما وراء النوم واليقظة وما وراء العاطفة في حنوها وحنانها وتبلدها، ومع هذا كله فإنها واقعية على شكل ما ، لذلك تعصانا الكلمات للتعبير عنها عصياناً كليا . ان هذه الروح وحدها (الهندية) هي القادرة على ان تبرأ المفهوم العظيم للاشيئية بوصفه رقماً حقيقياً هو الصفر (٠)، ومع أن هذا الصفر هو صفر هندي يرى في الموجود واللاموجود دلالتين خارجيتين متساويتين . لقد قام المفكرون العرب في أشد مراحل حضارتهم نضوجاً (وكان من بين هؤلاء عقول من ارفع طراز كالفارابي وقابوسوس[1]

(١) قابوس بن وشمجير Alkabi رابع أمراء بني زياد في العراق العجمي وطبرستان كان عالماً فلكياً رخطاطاً بارعاً . توفي عام ١٠٢٢ ، له رسائل بالعربية والفارسية . ـ المترجم ـ

ابن وشمجير) أقول قام العرب حين مناقشتهم ومحاجتهم .لانطلوجيا (عـلم الكائنات وحقيقتها – المترجم) ارسطوطاليس بالبرهنة على أن حجماً كهذا (الصفر) لم يتخذ بالضرورة لنفسه فراغاً من أجل وجوده ، وقـد استنتج العرب جوهر هذا الفراغ (وهو النوع العربي للامتداد) من ميزة كينونـة الانسان في أحد المنازل [١] . ولكن هذا لا يبرهن على انهم كانوا مخطئين في حق ارسطوطاليس و « كنت » ، أو ان تفكيرهم كان مشوشاً مرتبكاً (كما نصف حالا نحن به كل ما لا يقبل به ذهننا) ، بل انما يدل على ان الروح العربية قد امتلكت مراتب عالم تختلف عن مراتب عالمنا . فلربمـا كان باستطاعتهم ان يدحضوا نظريات « كنت » او ربما كان باستطاعة « كنت » ان يدحض نظرياتهم ، وكان بمقدور كل من العرب ومن « كنت » ان يدحض الواحد منهما نظريات الآخر بدهاء البرهان ذاتـه ، وكان كل من المتجادلين سيبقى مقتنعاً بوجهات نظره الخاصة .

وعندما نتكلم نحن اليوم عن الفراغ ، فاننا جميعاً نفكر تقريبـاً وفق الطراز نفسه ، تماماً كما نستعمل جميعاً اللغات ذاتها واشارات الكلمة ذاتها ، وذلك بغض النظر عما اذا كان تفكيرنا يدور حول الفراغ الرياضي أو الفراغ الفيزيائي ، أو فراغ التصوير الزيتي ، او فراغ الواقعة ، وذلك بالرغم من ان كل التفلسف الذي يُصِرُّ (وهو ملزم) على احلال هوية فهم محل قرابـة شعور بالفحوى كهذه، هو تفلسف يجب أن يبقى مشكوكاً في أمره نوعاً ما. ولكن لا يستطيع أي إغريقي أو مصري أو صيني ان يختـبر من تلك الاحاسيس الخاصة بنا (الفراغات بكل انواعها السابقة الذكر – المترجم) ولا يستطيع اي انجاز فني او منهاج فكري أن ينقل اليه بوضوح مـا يعنيه « الفراغ » في نظرنا . ومرة ثانية اقول ان المفاهيم الاولية التي برئت في نفس الاغريقي المختلفة تماماً عن نفسنا ، مفاهيم الأصل 'α,pxn والمادة 'üsn والشكل 'uopon تشتمل على كامل محتوى عالمه (الاغريقي) . لكن عالم

(١) جمع منزلة (آحاد ، عشرات ... الخ ...)

الاغريقي هذا عالم يختلف في تركيبه عن عالمنا . فهو غريب علينا وبعيد بعداً شاسعاً عنا . ونحن باستطاعتنا ان نأخذ تلك الكلمات الاغريقية ونترجمها الى كلماتنا الخاصة الى « الأصل » و « المادة » و « الشكل » لكن ترجمتنا هذه هي تقليد صرف ، وهي جهد ضعيف واهن كي ننفذ بواسطته الى عالم شعور تبقى فيه أجمل العناصر وأعمقهـــا ، وبالرغم من كل مجهود نبذله ، بكماء خرساء ، فمثل هذا الأمر شبيه بمن يحاول ان يستعيض عن تماثيـــل معبد « بارثنون » [١] برباعية وترية او ان يسكب إله فولتير في تمثال برونزي .

إن آثار الفكر والحياة ووعي العالم العظمى ، هي آثار وفيرة مختلفة ، وفرة ملامح الاشخاص الافراديين واختلافها ، وتوجد من وجهات النظر هذه ، كما توجد من وجهات النظر تلك فوارق بـــين الاجناس والشعوب ، والناس لا يعون هذه الفوارق ، كما وانهم يجهلون ما اذا كان « الأحمر » و « الأصفر » يعنيان او لا يعنيان الشيء نفسه للاخرين ، ما يعنيانه لهم . والحق ان العنصر الرمزي المشترك للغة هو الذي يغذي بصورة خاصة الوهم القائل بان هناك دستوراً من جنس واحد للحياة الانسانية الباطنية ، وان هناك شكل عالم ينطبق على الجميع . وفي هذه الناحية فان حال المفكرين العظام لحضارة او أخرى هي تماماً كحال المصابين بعماء الالوان ، فكل واحـــد من عمي الالوان هؤلاء لا يدري بواقع حاله ، لذلك تراه يقابل أخطاء غيره بالابتسام.

والآن أحدد الاستنتاجات فاقول : أن هناك وفرة من الرموز ، وهي خبرة العمق التي بواسطتها يصير العالم ، وبواسطتها أيضاً يمدّ الادراك بنفسه الى العالم . ومغزى هذه الوفرة هو مغزى النفس التي تنتمي إليها وإليهـــا فقط ، وهي تختلف في اليقظة عما هي في الحلم ، وفي التلقي والقبول عما هي في التأمل والامعان ، اختلافها بين الشباب وبين الشيخوخة ، بين المدني وبين القروي ، بين الرجل وبـــين المرأة . وهي (وفرة الرموز) تحقق لكل

---

(١) « بارثنون » معبد « دوري » مشهور في أثينا شيد في القرن الخامس قبل المسيح للالهة العذراء أثينه .
ـ المترجم ـ

حضارة إمكانية الشكل ،هذا الشكل الذي يرتكزإليه وجود تلك الحضارة ، وهي تقوم بهذا العمل مدفوعة بضرورة عميقة . إن جميع الكلمات الجوهرية ككلماتنا : الكتلة ، الجوهر ، المادي ، الشيء الجسم ، (الحجم) الامتداد (وحشد من كلمات نظـام مشابه في ألسنة حضارة أخرى) هي شعارات الزامية قررها المصير وهي التي تستدعي باسم الحضارة الإفرادية من الفيض اللامتناهي من إمكانات العالم ، تلك الامكانات التي هي وحدها خطيرة وذات مغزى ، ولذلك فهي ضرورية لها . وليس أي واحـــد من هذه الامكانات قابلاً للنقل الى حضارة أخرى على الصورة الدقيقة ذاتها والشكل الذي عاشته حضارته واختبرته وعرفته .

كما وأنه لا تتكرر أية كلمة من هذه الكلمات . إن اختيار الرمز الاولي في لحظة يقظة نفس الحضارة لتصبح وعياً لذاتها على تربتها الخاصة (وهذه اللحظة تحتوي كذلك بالنسبة الى من يستطيع ان يقرأ تاريخ العالم على شيء من نازلة وكارثة) أقول إن اختيار الرمز هوالذي يبت في كل شيء ويقرره .

فلما كانت الحضارة هي مجموع ما تعبر عنه كلمة « الصير » ، وكانت قابلة للادراك بواسطة الإشارات والانجازات ، ولما كان جسدها العـــابر عرضة للقانون والرقم والسببية :

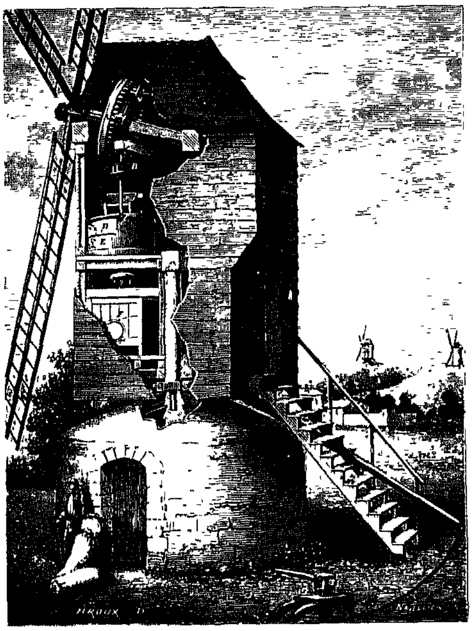
ولما كانت الدراما التاريخية هي صورة داخل كامل صورة تاريخ العالم :

ولما كانت الحضارة هي مجموع الشعارات العظمى للحياة والشعور والفهم ،

لذلك فهذه هي اللغة (الحضارة – المترجم) التي تستطيع بواسطتهـــا إحدى النفوس أن تخبرنا عما تعانيه ، تكابده وتقاسيه .

زد على ذلك أن الكون الكبـــير هو أيضاً ملكة ، لنفس ، ونحن لا نستطيع ابداً أن نعرف حاله ونفس فرد آخر . فان ذاك الذي يشتمل عليه الفراغ « اللامتناهي » هذا الفراغ الذي « يتجـــاوز كل فهم » والذي هو الترجمة الخلاقة لخبرة العمق الخاصة بنا والموقوفة علينا نحن ابنـــاء الغرب

(وهو النوع من الامتداد الذي كان عدمـــاً في نظر الاغريق ، والذي هو الكون في نظرنا) ، أقول إن ذاك هو الذي يصبغ عالمنا بلون لم تعرفـــه النفوس الكلاسيكية والهندية والمصرية . فهناك نفس تصغي الى الخبرة بالعالم وفق Flat major [1] وأخرى وفق F minor[2] ، وغيرها تدركه بالروح اليوقليدية ، ورابعة تفهمه في الموسيقى الكونتروبونتية ، وخامسة تعرفـــه بالروح المجوسية . وتوجد هناك ابتداءً من الفراغ الاشد تحليلاً وتجريداً ، وابتداءً ايضـاً من النارفانا الى حقيقة أثينا الجسيمة ، توجـــد سلسلة من الرموز الاولية يستطيع كل رمز منها أن يشكل من نفسه عالماً كاملاً . وكما أن فكرة العالم البابلي أو العالم الهندي ، كانت بعيدة ومراوغة وغريبة عن شعوب خمس او ست حضارات اعقبتها كذلك ايضاً فان العالم الغربي سيكون غير قابل للادراك بالنسبة الى شعوب الحضارات التي لم تولد بعد .



(١) ، (٢) هما سلمان موسيقيان .

الفصل السادس

الكون الكبير

٢

النفوس الابولونية والفاوستية والمجوسية

- ١ -

إننا منذ الآن فصاعداً سنخص نفس الحضارة الكلاسيكية التي اختارت الحجم الإفرادي الحاضر المحسوس نموذجاً مثالياً للممتد ، (بالاسم الذي أشاعه عنها نيتشه) اي النفس الابولونية . ولدينا كضد لهذه النفس النفس الفاوستية التي اختارت الفراغ اللا محدود رمزاً أولياً لها ، والتي اتخذت من الحضارة الغربية ، هذه الحضارة التي وُلدت بولاية الطراز الرومانسكي(١) في القرن العاشر وفي السهل الممتد بين نهري « الإلبه » و « التاج » ، وازدهرت بعدئذٍ الازدهار الذي شاهدناه فيما مضى . وكلمة أخرى لدينا

(١) الرومانسك : طراز معماري هو وسط بين الطرازين الروماني والغوطي .
ـ المترجم ـ

الآن التمثال العاري الذي يمثل النفس الابولونيــة ، وفن الفوغيه (Fugue) الذي يمثل النفس الفاوستية وتتمثل انجازات النفس الابولونية في عالم السكون (القوى المتوازية) الميكانيكي وفي المذاهب الحسية لإلهة جبل الاولمب ، وفي دول المدن الافرادية السياسية لبلاد اليونان ، وفي هـلاك اوديب ، وفي رمز العصر التناسلي . أما إنجازات النفس الفاوستية فانما تتمثل في ديناميكيات غاليلو ، وفي الداغمائيات الكاثوليكية والبروتستنتية ، في السلالات الملكية « الباروكية » العظمى ، بما كان لهـــا من دبلوماسية مجلس وزراء ، ومصير الملك لـــير ، فبياتريس مثال دانـــتي الاعلى للمادونا حتى آخر سطر من سطور الجزء الثاني من فاوست. فالتصوير الزيتي الذي يُعَرِّف الحجم الافرادي بتحديد حدود شكله هو تصوير صادر عن نفس أبولونية ، أما التصوير الذي يشكل فراغاً بواسطة الضوء والظل فانما هو تصوير صادر عن نفس فاوستية (وهذا هو الفرق بين التصوير المظلم ذي الفيء لبوليجنتوس وبـــين تصوير رمبراندت . فالوجود الابولوني هو ذاك الذي يصف الاغريقي « أناه »(Ego) بالجسد (Soma) ، وهو وجود يفتقر الى كل فكرة عن التطور البـــاطني ، ولذلك فهو فقر الى كل تاريخ حقيقي في باطنه وظاهره ، أمـــا الفاوستي فهو وجود يقوده وعي عميق واستبطان للأنا (Ego) وحضارة شخصية ثابتـــة القدم راسخة العزم تُشاهد في المذكرات والتأملات والبحران في الماضي وفي المناظر والضمير . ونشأت في عهد اوغسطس في البلاد الواقعة بين نهر النيل ونهر الفرات وبين البحر الاسود وجنوب الجزيرة العربيـــة النفس المجوسية (وهي نفس بعيدة منعزلة لكنهـــا قادرة على الحديث الينا بواسطة اشكال مستعارة ومتبناة وموروثة) أقول النفس المجوسية للحضارة العربية بجبرهـــا (Algebre) وبعلوم فلكها والخيها (Alchemy)[1](لاحظ لم يقل كيمياء — المترجم) وبفسيفسائهـــا ونقوشها العربية وانظمة الخلافة وفي اسرارهـــا

---

(١) يلاحظ أن Alchemy هي علم كان يستهدف تركيب الادوية الطبية وتحويـــل المواد الرخيصة الى مواد ثمينة ، كتحويل التنك مثلا الى ذهب الخ ... ـ المترجم ـ

المقدسة وفي أسفارها (الكتب) الدينية من فارسية ويهودية ومسيحية ، وفي ديانتها المانية[1] (نسبة الى مان) وما بعد الكلاسيكية .

ان الفراغ (ونحن نتحدث الان وفق المصطلح الفاوستي) هو شيء ما روحي يُميزُ تمييزاً صارماً بينه وبين الحاضر الآني المحسوس والذي لا يمكن للغة الابولونية ان تعبر عنه او تمثله، أكانت هذه اللغة لغة اغريقية املاتينية . زد على ذلك ان تعبير الفنون الابولونية عن الفراغ هذا التعبير الذي ابدعته لنفسها هو تعبير أيضاً يتساوى في غرابته عن تعبير فنوننا . فالقوس البالغ الصغر للهيكل الكلاسيكي المبكر هو لاشيئية خرساء مظلمة ، وهوفي الاساس تركيب صُنع من مواد قابلة للعطب ، وهو غلاف للحظة الآتية ، وذلك خلافاً لبهو (Vault) القبة المجوسية ، وقبة اضحية المعبد القوطي زد على ذلك أن صفوف الأعمدة الكلاسيكية المتراصة في تقاربها بعضاً من بعض ترى العين على كل حال أن هذا الحجم لا يملك باطنا . ولم يسبق لأية حضارة أخرى أن اكدت على الاساس الثابت القدم وركيزة العمود الراسخة كما أكدت الحضارة الكلاسيكية . فلقد كان العمود « الدوري » يخترق الارض ويغوص عميقاً فيها ، وكان مصممو الابنية الدورية يفكرون بهـا دائماً ابتداء من الاسفل فالاعلى (بينا كانت أبنية عصر النهضة تحلق طافية فوق أسسها .) أضف الى ذلك أن جميع مدارس النحت الكلاسيكي كانت ترى في تثبيت أشخاص تماثيلها مشكلتها الرئيسية ، لهذا نرى في الانجازات المبتذلة والمهجورة لقدمها ان التأكيد على الساقين كان تأكيداً غير متساوٍ او متناسق ، فالقدم ترتكز على كامل خفّها ، فإذا ما تدلى منهـا الثوب تدلياً عمودياً مباشراً ، كانوا يعمدون الى حسر جزء من هدب الثوب كي تظهر القدم مرتكزة واقفة . ولا يغربن عن البال ان التضريس الكلاسيكي هو تضريس محدد الحجم على السطح

---

(١) المانية (Manichean) نسبة الى الفارسي « مان » (٢١٦؟ - ٢٧٦ ؟) وكانت تعاليمه مزيجـاً من الثنائية الزرادشتية وعقيـدة الخلاص المسيحية. وكان يرى ان روح الانسان انبعثت من مملكة النور وانها تناضل لتنجو من مملكة الظلام - المترجم -

المستوي تحديداً دقيقاً ، كما وان هناك فواصل لا عمق لها بين الاحجام ، بينما أننا اذا ما أمعنا النظر في أحد المناظر الطبيعية التي رسمها كلود لورين نراه انه مخالف تماماً لاي منظر آخر رسمه أي رسام كلاسيكي ، فهـذا المنظر هو ليس غير فراغ ، وكل جزء من جزئياته قـد رسم كي يصبح معواناً للصورة حيث تملك جميع الأجسام داخلها معنى لوحيا وذلك بوصفها مجرد حاملات للضوء والظل ، أما غاية هذا اللاتجسيد للعالم الموضوع في خدمة الفراغ فهي الانطباعية . ولما كانت النفس الفاوستية قد اعطيت هذا الشعور بالعالم ،لذلك فانها وصلت بالضرورة في ربيعها الى مشكلة هندسية معمارية ، وقد اتخذت هذه المشكلة مركز ثقلها في انشاء العقود الفراغية ، لكتدرائياتها وسقيفات الأماكن الديناميكية في عمقها والمخصصة للجوقات فيها . وهذه الاخـيرة عبرت عن خبرتها بالعمق ، لكن هذه الخبرة كانت تربط ايضاً ، وذلك خلافاً للتعبير المجوسي النخروبي عن الفراغ ، بعنصر الارتفاع والسمو الى الكون العريض الفسيح . فالتسقيف المجوسي أجاء على شكل قبة او عقد أو سقف (جملون) أفقي، فانما يغطي الداخل ويستره . ولقد ابدع ستر تزغوفسكي حينما وصف الفكرة الهندسية المعمارية التي بنيت بموجبها كاتدرائية آجيـا صوفيا فقال انها جهاد غوطي قلب رأساً على عقب تحت غلاف خارجي مغلق . ومن جهة أخرى نرى قبة كاتدرائية فلورنسا تتوج الجسم الغوطي الطويل لعـام ١٣٦٧ ، ونلمس نشوء هذه النزعة ذاتها في مخطط «برامنتي» لكاتدرائية القديس بطرس ، وتطورها الى تلك القبة الشامخة البديعة الصحيحة والمتفوقـة والتي بلغ بها ميكلانجيلو الكمال في تلك القبة التي تطفو مشرقة عاليـة فوق العقد الفسيح .

وتعارض النفس الكلاسيكية هذا الحس بالفراغ برمز المحيط « الدوري » الحاضن للحجم ، هذا الرمز الذي هو بكامله حجمي وقابـل للادراك بلحظة واحدة .

إذن فالنفس الكلاسيكية تبدأ بالنبذ والاقلاع والانكار . فلقـد كان

بمتناول يدها منذ زمن فن تصويري تجاوز مرحلة نضوجه تقريباً ، لكن لم يكن بمقدور هذا الفن أن يصبح تعبيراً عن نفس فتية لذلك يبدو الاسلوب الهندسي « الدوري » المبكر والخشن الضيق ، وفي اعيننا الناقص البربري ، أقول يبدو هذا الاسلوب ابتداءً من عام ١١٠٠ قبل المسيح متعارضاً واسلوب العصر البرونزي . فلم تشهد خلال قرون ثلاثة ، هذه القرون التي تنطبق على عصرنا الغوطي ، أي أثر للهندسة المعمارية ، ولم يقم لطراز الهيكل الدوري والاتروسكي قائمة إلا في عام ٦٥٠ قبل المسيح تقريباً ، وهذا العصر هو عصر معاصر « لعصر انتقال ميكلانجيلو الى الفن الباروكي » .

إن كل فن « مبكر » هو فن ديني ، وإن هذا النفي الرمزي الكلاسيكي لا يقل عن التأكيد المصري والغوطي في تدينه. ففكرة إحراق الموتى تنطبق على الطقوس المذهبية ولكنها لا تنطبق على اشتراع مذهب. فالدين الكلاسيكي المبكر الذي يختبىء عن انظارنا وراء أسماء مهيبة كـ كلتشاس[1] وتيريسياس[2] واورفيوس[3] هو دين لا يملك طقوساً له سوى ما تبقى له من فكرة هندسية معمارية بعد أن تطرح منها الهندسة المعمارية مثلاً التخم او النطاق المقدس . وهكذا فان مخطط العبادة الأساسي هو المساحة الاتروسكية المقدسة التي يحددها الكاهن بحدود لا يستطيع أي إنسان أن يتجاوزها ، ويخصص لها مدخلاً مناسباً يقع على جهتها الشرقية . وكان الكلاسيكيون يعينون أماكن العبادة حيث يتوجب عليهم إداء فروضها ، أو حيث يكون ممثل سلطة الدولة ، او ممثل مجلس الشيوخ ، او الجيش قد اتخذ مقراً له .

وكانت ديمومة هذه الأماكن مرتبطة باستعمالها ، فاذا ما هجرها الناس بطل سحرها . ولم تستطع النفس الكلاسيكية أن تسيطر على ذاتها إلا قرابة

---

(١) كاهن ابولو جاءت على ذكره الالياذه في حديثها عن الجيش اليوناني المحاصر لطروادة .
(٢) عراف من أهالي طيبة اعطته الإلهة اثينا معرفة أحداث المستقبل ولغة الطيور .
(٣) أشهر موسيقي التاريخ القديم وهناك ديانة تعرف باسمه.

– المترجم –

عام ٧٠٠ قبل المسيح ، كي تمثل هـــذا اللا شيء الهندسي المعماري في شكل محسوس لحجم مُشاد . وقد برهن الشعور اليوقليدي في المدى الطويل على أنه أقوى من النفور الروحي المجرد من الديمومة .

أما الهندسة المعمارية الفاوستية فانها خلافاً لتلك تبدأ على نطاق واسع وفي وقت واحد تقريباً وبدء هياج التدين الجديد (الاصلاح « الكلانيكي » عـام ١٠٠٠) وتحرك فكر جديد (الجدل حول سر العشاء الرباني الذي دار بين بيرنيجار ولانفرانك عام ١٠٥٠) .

ثم تخطو الهندسة المعمارية الفاوستية لتصبح مخططات لمقعد جبار ، وكان كثيراً ما يحدث ، كما كانت حال شبيير ، أن الطائفة بأكملها لم يكن عددها كافيـــاً ليملأ رحاب الكتدرائية ، كما وبدا ايضاً في الكثير من الاحيان انه من المستحيل انجاز المخطط الهندسي للكتدرائية . زد على ذلك ان اللغة الشجية لهذه الهندسة المعمارية ، هي لغة القصائد ايضاً . ومهما بدا من انعدام اوجه الشبه بين الترنيم المسيحي لاهل الجنوب وبين «الاداس» ، لاهل الشمال الذين كانوا لا يزالون وثنيين ، فان الترنيم المسيحي والاداس : متشابهان في علمي عروضهما وصرفيهما واعرابيهما وتصويريهما وذلـــك في لا نهائية الفراغ المفهومة ضمنا . فلتقرأ الـDies Irae والـ Vôluspa التي هي أقدم من الاولى معاً فانك عندئذٍ تحس بأن كلا منهما تجيش بالارادة الصلبة كاساس ذاتها ، هــذه الارادة التي تجاهد لتتغلب على كل ما هو منظور . وليس هناك من نَـظم (شعر) تصوره الخيال مشعاً بضخامات الفراغ والمسافة كما هو النظم الشمالي القديم فلنستمع الى هذا القول :

الى التعاسة نصير – ايضا الى أبعد المدى

أزواج وزوجات – خلقوا في العالم

لكن كلانا – نبقى معاً

أنا وسيغورد .

ان النظم الهوميري السداسي الأوتاد هـــو كحفيف الاوراق الناعم في شمس الظهيرة ، انه نظم المادة ، بينما ان بحر النظم الفاوستي هو مشابه للطاقة الكامنة في صور عالم الفيزياء الحديثة ، وهـــو يخلق كبحاً وتوتراً في الخواء اللامحدود ، ويثير زوابع ليلية نائية تلف فوق اعلى الذرى وتعصف فـــوق اسمى القمم . وفي تعريفها المتراقص تذوب كل الكلمات والاشياء ، فهي لغة الديناميكيات وليست لغة علم السكون (لغة القوى المتوازية) . وهـــذا الشيء نفسه ينطبق ايضاً على النظم الخطير لـ MediaVita in morte Sumus . ففي هذه تباشير ألوان رامبراندت وموسيقى بيتهوفن الجوقية ، وهنا يُحَس بالعزلة بوصفها موطنا للنفس الفاوستية . فما هي فالاهَلا[1] ؟ هذه المجهولة من العشائر الالمانية في عصور هجراتها ، وحتى المجهولة في العصر « المورفينجي » ومع ذلك أدركتها النفس الفاوستية الوليدة ، ولا شك أنها أدركتها ادراكا متأثراً بالوثنية الكلاسيكية وبالانطباعات العربية المسيحية عـــن الكتابات القديمة والمقدسة ، ومتأثراً بالآثار والفسيفساء « والميناتور » (صور صغـيرة منقوشة على العاج أو المعدن) والعبادة والطقوس والمذاهب لجميع هـــذه الحضارات السابقة ، التي بلغت حياة جديدة في كل النقاط . ومع هذا فان هذه الفالاهَلا هي شيء ما يقع وراء كل الوقائع المحسوسة ، ويطفو فـــوق الاصقاع الفاوستية النائية المظلمة . أما جبل الاولمب فانه راسخ في موطنه على التربة الاغريقية ، وجنة الآباء الاغريقيين هي تلك الحديقة السحرية التي تقع في مكان ما في الكون ، لكن الفالاهلا غير موجودة في أي مـكان ، فهي ضائعة في اللامحدود لذلك فانها تبدو بآلهتها غير المتناغمة وابطالها الرمز الاسمى للتوحـد والعزلة . فسيغفريد وبارزيفال وترستان وهملت وفاوست هم أشد ابطال كل الحضارات عزلة وتوحداً . ولتقرأ البعث العجيب للحياة الباطنية لبارسيفال وولفرام ، فانك تجد نفسه تختلج بالحنين الى الغابات وبالرحمة والحنو

---

(١) قاعة الإله اودين التي كان يستقبل فيها ارواح الابطال الذين خروا صرعى في المعارك .
— المترجم —

الغامضين وبالحس الذي لا يوصف بالهجر (وهـــذه الأمور جميعها فاوستية وفاوستية فقط) . وكل واحد منا يعرفها . ونحن نُحِس بالدافع لها يعود يتكرر بكل عمقه وغموضه في مشهد عيد الفصح في الجزء الاول من فاوست:

« انه حنين مجرد غير قابـــل للوصف هو ذاك الذي دفع بي للتجوال في الحقول والغابات وفي ضباب من دمع سخين غزير شعرت بعالم يستيقظ ويعيش من أجلي » .

ان هذه الخبرة بالعالم لايعرف بها وعنها أي شيء أي من الناس الابولونيين او المجوسيين أو الرسل . فذروة شعر ولفرام ، وذاك المشهد العجيب مشهد صباح الجمعة الحزينة ، وذلك عندما يقابل البطل ، هذا البطل المختلف وإلهه ونفسه معاً ، « غاوان » النبيل ثم يعزم على إداء فريضة الحج الى تفريتسنت، أقول ان كل ما ذكرت آنفاً يقودنا الى صميم الدين الفاوستي وقلبـــه . فهنا يستطيع المرء ان يُحس بغموض سر العشاء الرباني الذي يربط المشترك فيـــه (العشاء الرباني) برفقة صوفية ، أي بكنيسة هي التي تستطيع وحدها ان تهب الهناء ومنتهى الغبطة والسعادة . فالمرء يستطيع ان يُحس في خرافـــة الكأس [1] المقدسة ، او القصعة المقدسة . وفرسانها بالضرورة الباطنية للكثلكة الالمانية الشمالية . فهنا توجد خلافاً للضحايا الكلاسيكية التي تقدم الى الالهة أفراداً وفي هيا كل متفرقة ، ضحية واحدة لا تنتهي أبداً ، ضحية تتكرر التضحية بها في كل مكان وفي كل يوم . هذه هي الفكرة الفاوستيـة للمرحلة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر ، وهي مرحلة « الادا » والتي رمز اليها من قبل المبشرون الانجلوسكسون ك « ونفريد » لكنهـــا لم تنضج إلا بعدئذٍ ، وما الكاتدرائية بمذبحها العالي المشتمل على الاعجوبـــة المنجزة سوى تعبير عنها منحوت في حجر .

ان وفرة الأحجام المتفرقة التيتمثل الكون بالنسبة الى النفس الكلاسيكية

(١) هي الكأس ، او القصعة التي استخدمها السيد المسيح حينما تناول وتلامذته على جبـــل الزيتون العشاء الاخير معهم . ـ المترجم ـ

تستلزم هيكلاً لكل الالهة (Pantheon) ، ومن هـــذا نشأ القول بتعدد الالهة (Polytheism) . ان حجم العالم الواحد ، أأُدرك هذا الحجم بوصفه كهفاً أم مغارة ، أم أُدرك بوصفه فراغاً يتطلب إلهاً واحداً ، أكان مجوسياً أم مسيحياً غربياً . فمن الممكن ان تمثل الإلهة أثينا او الإله ابولو بواسطة تمثال ، لكنه قد اتضح ويتضح لشعورنا بان لاهوت الاصلاح الديني ولاهوتات الحركة المناهضة للاصلاح ، لا يمكن ان يتمثلا إلا بواسطة عاصفة « فوغيه » الارغن وفي تطور الترنيمة المهيبة وفي القداس. وهكذا تنشأ خرافتنا ابتداءً من وفرة الاشخاص في « الإدا » وفي اساطـير القديسين المعاصرة ، وانتهاءً « بغوتيه » وتكمل ذاتها وتكتمل بوصفها خرافـــة تتعارض تعارضاً راسخاً والخرافة الكلاسيكية ، فهي (أي خرافتنا) تقوم من جهة بسحق الإلهي الذي تطور فبلغ ذروته في الامبراطوريـــة الكلاسيكية المبكرة إذ أمسى مجموعات مستحيـــلة من الديانات واللواهيت ، اقول بسحق الإلهي سحقاً متواصلاً ، وتقوم من جهة أخرى بعملية اختزال وتبسيط هذه العمليـة التي قادتنا الى لاهوت [١] القرن الثامن عشر (Deism) .

لقد ازدادت الكهانة المجوسية بملائكتهـــا وقديسيها واشخاص ثالوثهـا اصفراراً على اصفرار وتضاءل وجودها أكثر فأكثر في ميدان الشكل الغربي الخداع غير المنتظم وذلك بالرغم من كامل دعم السلطة الكنسية لها . ولقد اختفى حتى الشيطان نفسه (هذا الخصم العظيم في الدراما الغوطية العالمية) من بين إمكانات الشعور الفاوستي بالعـالم دون أن يشعر باختفائه أحد . ومع أن لوثر[٢] كان لا يزال باستطاعتـه أن يقذف الشيطان بالدواة ، إلا أن اللاهوتيين البروتستنتيين الحـــائرين المشوشين قد مروا به منذ طويـل زمن

---

(١) يعني شبنغلر بهذا اللاهوت ، الاعتقاد بالله وحده وانكار الوحي والانظمة الدينية .

(٢) يشير شبنغلر بهذا الى تلك الرواية التي تروى عن لوثر وتقول أن الشيطان داهم لوثر في إحدى المرات وهو جالس الى مكتبه فما كان من لوثر إلا أن قذفه بالدواة .

ـ المترجم ـ

صامتين ، وذلك لان توحد النفس الفاوستية لا يوافق أبداً على ثنائية القوى في العالم . فالله وحده هو كل شيء . ولم يعد هذا التدين في القرن السابع عشر تقريبـــاً قابلاً للتعبير التصويري عنه ، لذلك جاءت الموسيقى الجوقية بمثابة الشكل الأوحد والاخير للفنه ، وباستطاعتنا أن نقول بان الايمان الكاثوليكي بالنسبة الى الايمان البروتستنتي ، هو بمثابة القطعة المذبحية بالنسبة الى الترنيمة . لكن حتى آلهة الجرمـان وأبطالهم هم أيضاً محاطون بهذا الاتساع اللامحدود الرافض وتلك الكآبة الغامضة المظلمة ، وهي لذلك قد جرفتهـا الموسيقى والليل ، لأن النهار يعطي حدوداً بصرية ولهذا فانه يشكل اشياء حجمية ، أما الليل فانه يستأصل الحجم ويطرحه جانباً ، بينما أن النهار يستأصل النفس وينكرها ، فأبولو وأثينـا لا يملكان نفسية ، وعلى قمة الاولمب يوجد الضوء الخالد مشعاً ، ضوء اليوم الجنوبي الشفاف ، أما الساعة المحببة لأبولو فهي ساعة الظهيرة ، وذلك عندما يكون الإله « بان[1] Pan يغط في نومه . لكن فالاهلا" لا ضوء لها او فيهـا ، ونحن نستطيع أن نحس حتى في « الإدا » بمنتصف الليل العميق حينما يدرس فاوست ويَكدُّ ذهنـه ، انتصاف الليل الذي نقشه رمبراندت على المعدن ، وهو منتصف الليل الذي يمتص الوان نغم بيتهوفن . فليس لووتان او بلدور أو فريّا حجم يوقليدي . ونحن نستطيع أن نقول عن هذه الالهة ما نقوله عن الالهة الهندية الفيدية ، أي انها لا تحشد في صور محفورة أو في أي شبه لها مهما كان شكله . واستحالة رسمهـا او نحت تماثيل لهـــا يدل على الاعتراف الضمني بان الفراغ الخالد ، وليست النسخة الجسدية التي تنحدر بمستواهم وتدنسهم وتنكرهم ، هي الرمز الأسمى. وهذا الدافع العميق الذي أثار العواصف الاسلامية والبيزنطية التي عصفت بالتماثيل والصور الدينية وسحقتها سحقاً عنيفاً (ويلاحظ أن كلا من العواصف البيزنطية والاسلامية هبت في القرن السابع) ، هو الدافع ايضاً لحركتنـــا في الشمال

(١) هو Pan إله قطعان الماشية والمراعي عند اليونان .

ـ المترجم ـ

البروتستنتي والمشابهة لتينك الحركتين شبهاً قريباً .

ألم يكن إبداع تحليل ديكارت الفراغي المناهض ليوقليد عاصفة سحقت التماثيل والصور الدينية .

إن الهندسة الكلاسيكية تعالج عالم رقم النهار ، أما النظرية الوظيفية فهي رياضيات الليل الأصيلة .

- ٢ -

ان ما عبرت عنه النفس الغربية بواسطة ثروتها الغريبة في وفرة وسائلها (كالكلمات والانغام والالوان والمناظر التصويرية والمناهج الفلسفية وأساطيرها ورحابة كاتدرائياتها الغوطية ودستور وظائفها) هذه الوسائل التي هي مظاهر شعورها بالعالم ، قد عبرت عنه ايضاً النفس المصرية القديمة (التي كانت بعيدة عن كل طموح الى العلوم النظرية والآداب) تعبيراً خاصاً بواسطة لغة الحجر. فهي بدلاً من أن تعمد الى استعمال مراوغات الكلمة لتدور بها حول شكل امتدادها حول «فراغها» وحول زمانها ، تقوم بارساء رمزيها العظيمين في مناظر النيل واصقاعه بكل هدوء وسكينة . فالحجر هو الشعار العظيم للصير اللازماني ، ففيه يبدو الفراغ والموت مرتبطين به . ويقول « باخ اوفن » في سيرته الشخصية : إن الناس قد شيدوا للموتى قبل أن يشيدوا للأحياء ، ومع أن تركيباً خشبياً سريع العطب قد أعطي للأحياء ، تركيب لا يعيش سوى برهة من الزمان ، إلا أن إيواء الموتى كان أبداً يطالب بحجر الارض الصلب مادة يُبنى منها بيتا ومنزلاً : فأقدم المذاهب يرتبط بالحجر الذي يدل على مكان الدفن ، ويرتبط اقدم أبنية المعابد بتركيب الجدث . ولقد خلق الرمز نفسه في القبور ، فما يفكر ويُحس به ويُصلى له بجانب القبر هو شيء ما لا يمكن للكلمة أن تعبر عنه ، بل انما يشار إليه فقط بواسطة دلالة للرمز الذي يرمز

الى هجوع القبر الذي لا يتبدل او يتغير. فالموتى قد كفوا عن الكدح والجهاد ولم يعودوا زمانا بل انما أصبحوا فراغاً فقط ، فراغاً باقياً (اذا كان حقاً باقياً) لكنه لا ينضج نحو مستقبل ما ، ولذلك فهو حجر ، الحجر المقيم الثابت الذي يعكس صورة الموتى داخل وعي الأحياء اليقظ .

ان النفس الفاوستية تبحث عن الخلود وتترقبه أن يتبع نهاية الجسد ، والخلود هو في نظرها نوع من زواج يشدها الى الفراغ اللامتناهي ، لذلك فانها تنزع من الحجر حجمه ، جسده ، في منهاجها الغوطي الوخاز (وتعاصر كما تلاحظ تسلسل الموسيقى الكنسية) حتى لا يبقى منه أي شيء منظوراً ما عدا العمق وطاقة الارتفاع لهذا الامتداد الذاتي . اما النفس الابولونية فانما كانت تفضل إحراق موتاها ، وتفضل إبادتهم ، ولهذا كانت تنفر من البناء الحجري طيلة المرحلة المبكرة من مراحل حضارتها . لكن النفس المصرية كانت ترى ذاتها تسير في درب حياة خط لها تخطيطاً صلباً عنيداً لا يلين كي يفضي بها في النهاية لتقف أمام قضاة الموتى ، (كتاب الموتى الفقرة ١٢٥) وهذه كانت فكرة المصير المصرية . فالوجود المصري هو وجود ذاك المسافر الذي يتبع (يتجه — المترجم) اتجاهاً واحداً لا يتبدل ، زد على ذلك أن كامل شكل لغة هذه الحضارة هو ترجمة هذا الموضوع الواحد الى المحسوس (ترجمة حسية — المترجم) . وكما أننا قد اتخذنا من الفراغ الرمز الاولي للشمال ، وقررنا الجسد ، الحجم ، رمزاً اولياً للنفس الكلاسيكية ، ولذلك فباستطاعتنا أن نقرر كلمة « الدرب » كلمة تعبر بوضوح بيِّن ومفهوم عن الرمز الاولي للنفس المصرية . ومن الغريب ، لا بل من الأمور غير المفهومة بالنسبة الى الفكر الغربي ، أن ذاك العنصر الواحد من الامتداد الذي يؤكده المصريون هو ذاك الذي يعبر عن الاتجاه في العمق . فهيا كل أجداث المملكة المصرية القديمة ، وخاصة تلك الهيا كل الهرمية الجبارة منها والتي بنتها الاسرة الرابعة ، لا أقول انها تمثل تنظيماً متعمداً مقصوداً للفراغ كالتنظيم الذي نصادفه في الجامع والكاتدرائية ، بل أقول إنما

تمثل سياقاً منتظماً بإيقاعه من الفراغات .فالدرب المقدسة تقود من بوابة البناية القائمة على نهر النيل الى الممرات فالقاعات فالبـــلاط ذي الرواقات المقنطرة والغرف المستندة الى الاعمدة ، هـــذه الغرف التي تضيق فتضيق حتى تفضي أخيراً الى قاعة الموتى. وكذلك فان هياكل الشمس التي بنتها الاسرة الخامسة ليست بأبنية بل انما هي درب يحيط بـه بناء جبار من الحجر . فالتضاريس والصور تبدو في هذه الهياكل صفوفاً تقود المشاهد نتيجة لارغام انطباعي الى اتجاه معين مقرر. كما وأن لطرق برج الحمل وأبي الهول التي بنتها الأمبراطورية الجديدة الموضوع ذاته والهدف نفسه . فلقد كانت خـــبرة المصري بالعمق ، هذه الخبرة التي سيطرت على شعوره بشكل العالم ، خبرة ملحاحا للتأكيد على النازع الاتجاهي الى درجة جعلته يدرك الفراغ ، على صورة اكثر او أقل ، على أنه عملية تَحققٍ متتابعة . فليس لدى المصريين أي تخشب في المسافـة التي يعبرون عنها هنا ، فعلى الانسان ان يتحرك ، وأن يصبح بهـــذا رمزاً للحياة ، وذلك كي يوجد ارتباطاً له بالجزء الحجري من الرمزية . « فالدرب » تدل على كل من المصير والبعد الثالث . رد على ذلك أن سطوح الجدار العظمى والتضاريس وسوابيط الاعمدة التي يتحرك المصري ماراً بها هي مجرد «طول» وعرض : أي انها مجرد إدراك للأحاسيس ، وقوة دفع الحياة الى الأمـــام ، هي التي تمدُّ بهـــم في العالم . وهكذا نستطيع القول بان المصري قد اختبر الفراغ وذلك بواسطة وخلال الزحف الموكبي طيلة عناصر الزحف البعيـدة النائية ، بينما أن الاغريقي الذي اعتاد على أن يضحي بضحيته خارج المعبد ، لم يُحس بالفراغ او يشعر به ، أما إنسان عصورنا الغوطية الذي يصلي داخل الكاتدرائية ، فانه يترك لنفسه أن تغرق تأملاً في لانهائية الفراغ الهادئـــة الساكنة . ونتيجة لذلك فان فن اولئك المصريين يجب أن يستهدف اشكالاً مستوية منبسطة ، ولا شيء آخر غيرها ، وحتى في حالة استخدامه لوسائل صلبة . فالاهرام الذي ينتصب فوق الجدث الملكي هو في نظر المصري مثلث ، وهو سطح ضخم معبر تعبيراً جباراً ، ومهما كان الاتجاه الذي يسلكه المرء للاقتراب منه فان الاهرام يبقى مشيراً الى « الدرب » ومطـــلاً على المنظر الطبيعي .

فأعمدة الممرات الداخلية والقاعات بأرضياتها السوداء وبنظامها الكثيف في التزيين ، تبدو بأكملها في نظر المصري كخطوط عمودية ترافق سير موكب الكهنة في ايقاعه . كما وأن نقش التضاريس (وذلك خلافاً للنقش الكلاسيكي) قد حُصر في مستوى واحد ، وقد تقلصت سماكة النقش خلال مجرى تطور هذا الفن ابتداءً من الاسرة الثالثة حتى الخامسة ، من سماكة الأصبع الى سماكة قصاصة ورق ، وأخيراً أغرق التضريس في المستوى وذاب فيه . فسيادة الخطوط الافقية والعمودية والزاوية القائمة وتجنب كل تقليص ، هذه الامور كلها تعضد مبدأ البعدين وتوافقه وتساعد على عزل هذه الخبرة الاتجاهية بالعمق التي تنطبق على « الدرب » وعلى القبر في نهايته . والحق أن الفن المصري فن لا يقر بأي انحراف حباً في التفريج عن النفس المتوترة .

أو ليس هذا التعبير ، تعبير النفس المصرية ، هو تعبير جادت به أنبل لغة يمكن لها أن تدرك كل ما تريد نظرياتنا الفراغية أن تعبر عنه بواسطة الكلمات؟ أو ألا نرى أن هذه الميتافيزيقا المنقوشة على الحجر ، هي ميتافيزيقا تبدو الى جانبها ميتافيزيقا « كنت » المكتوبة تأتأة وتلعثماً ميؤوساً يائسين ؟ وهناك على كل حال حضارة أخرى ، قد وجدت ، بالرغم من اختلافها الاساسي والحضارة المصرية ، أقول وجدت لها رمزاً أساسياً اولياً وثيق الارتباط بالرمز المصري ، وأعني بهذه الحضارة الحضارة الصينية بمبدإها الشديد في اتجاهيته ، مبدأ[1] « التاو » ، لكن بينما نرى المصري يغذ السير على الدرب الذي حددته له ضرورة لا ترحم حتى يبلغ نهايته ، نرى الصيني يتجول في العالم ، وهو نتيجة لواقعه هذا يقاد الى إلهه أو الى مقبرة اسلافه ، لا بواسطة مهاوٍ حجرية حصرت بين جدران ناعمة رهيفة متقنة البناء ، بل انما تقوده الطبيعة الودود نفسها الى إلهه ومقبرة اسلافه . ولم يمس المنظر الطبيعي في أية حضارة أخرى المادة الأصلية للهندسة المعمارية كما أمسى في الحضارة الصينية . ويقول ا . فيشه في الصفحة ٢٤ من كتابه « التصوير الريفي الصيني » ما يلي : « هنا

---

(١) شرحنا هذا المبدأ فيما تقدم . ـ المترجم ـ

وعلى أسس دينية جرى تطوير قانونية عظيمة ووحدة مشتركة بين كل نماذج البناء الذي إذا ما اتحد مع المحور العام للشمال والجنوب اتحاداً وثيقاً ، عندئذٍ يشد دائماً أبنية البوابات والجوانب والقاعات ومجالس البلاط بعضها الى بعض داخل المخطط المتجانس ، الذي قاد اخيراً الى تخطيط عظيم كذاك وإطلالة وسيطرة على الارض والفراغ كتينك بحيث يحق معها للمرء بأن يقول بأن الفنان يبني والمنظر الطبيعي لا يغيب دقيقة واحدة عن ذهنه .. » فالمعبد الصيني ليس معبداً مستقلاً قائماً بذاته ، بل إنما هو عرض تبدو فيه للتلال والمياه والاشجار والزهور وللحجارة في اشكالها المقررة المعينة ونوازع هذه الأشكال ، الأهمية ذاتها التي هي للبوابات والجدران والجسور والقناطر والمنازل . وهذه الحضارة ، الحضارة الصينية ، هي الحضارة الوحيدة التي تعتبر فن البستنة فناً دينياً عظيماً.فهناك حدائق وبساتينهي تأملات لطوائف بوذية خاصة ، لهذا فان الهندسة المعمارية المستندة كلياً على المنظر الطبيعي ، هي الهندسة التي تشرح وتوضح الهندسة المعمارية للأبنية الصينية بامتدادها الطبقي وبتأكيدها على السطح بوصفه الجزء المعبر الحقيقي ، وكما أن الدروب الصينية المراوغةالتي تبدأ من خلال الابواب فتمر على الجسور والقناطر وتدور حول التلال والجدران ، تفضي أخيراً بالمرء الى النهاية ، كذلك هي ايضاً حال التصوير الصيني الذي ينطلق بالمُشاهد من تفصيل الى تفصيل ، بينما أن التضريس المصري يدل المُشاهد دلالة خبير على الاتجاه الوحيد المعين . ويقول « جلاسر » :

« علينا ألا نرى الصورة دفعة واحدة ، فالتتالي الزماني يستلزم تتالياً لعناصر الفراغ حيث يتوجب على العين أن تنتقل خلال هذا التتالي من عنصر فراغ الى آخر . »

لهذا بينما نرى أن الهندسة المعمارية المصرية تسيطر على المنظر الطبيعي ، نرى الهندسة المعمارية الصينية تتزوج به وتدافع عنه وتحميه ، ومع هذا نرى ان كلتا الحضارتين تؤمنان بان الاتجاه في العمق هو الذي يحافظ على صيرورة الفراغ بوصفها خبرة حاضرة حاضراً متتالياً .

- ٣ -

إن كل فن هو لغة تعبير ، زد على ذلك أن هذه اللغة حتى في نُبَذِها المبكرة جداً ، والتي تمتد الى الوراء بعيداً بعيداً حتى عالم الحيوان ، هي لغة ذاك الوجود الفعال الذي يتحدث عن نفسه فقط، وهو وجود لا يحس بالسامع أو المُشاهِد وحتى بالرغم من غياب السامع او المشاهد ، فان الحافز على التعبير قد لا يتحدث او ينطق . ونحن نشاهد مراراً حتى في الظروف « المتأخرة » جمهوراً من صُناع الفن يرقصون جميعاً او يغنون أو يمثلون تمثيلاً صامتاً . والحق أن فكرة « الجوقة » بوصفها مجموعاً من الاشخاص الحاضرين هي فكرة لم يحدث لها أن اختفت اختفاء كلياً من تاريخ الفن . إن الفن الارقى هو وحده الذي يصبح بصورة حاسمة فناً وذلك أمام « المُشاهدين » وخاصة (كما يشير نيتشه في أحد مؤلفاته) أمام المشاهد الأسمى الذي هو الله .

إن هذا التعبير هو إما زينة (Ornament) وإما تقليد، (Imitation) والزينة والتقليد هما إمكانان من الإمكانات الارقى ، ومن الصعب أن ندرك بحسنا في البداية استقطابية الواحدة بالنسبة الى الأخرى . ولاشك أن التقليد هو أقدم واقرب من الزينة الى الجنس المنتج . فالتقليد هو نتاج الفكرة السيمائية لشخص ثان استماله شخص اول فدفع به إلى التجارب ورنين إيقاع الحياة ، بينما أن الزينة تبرهن على « أنا » « Ego » تعي طبيعتها الخاصة ، إن التقليد واسع الانتشار في عالم الحيوان ، بينما أن الزينة مرهونة بالانسان ووقف عليه وحده .

إن التقليد هو وليد الايقاع السري لكل الأشياء الكونية . فالشيء يبدو

للانسان اليقظ شيئاً منفصلاً قائماً بذاته وممتدا ، فيرى امام ناظريه « هنا » و «هناك»، ويرى شيئاً ما خاصاً وآخر غريباً ، ويشهد الكون المكرسكوبي والكون الكبير،وجميع هذه الاشياء متباعدة عن بعضها بعضاً تباعد القطبين، وما مهمة التقليد في ايقاعه إلا إقامة جسر يربط بين كل قطبين من الاقطاب المتباعدة . إن كل دين هو جهد تبذله النفس اليقظة كي تبلغ القوى العالمية المحيطة بها ، وكذلك ايضاً هي حال التقليد الذي يكون ، في أشد لحظاته إخلاصاً وتكريساً ، نازعاً دينياً كاملاً ، وذلك لأنه يتوقف على هوية باطنية، هي هوية وسط بين النفس والجسد ، بين أل « هنا » والعالم المحيط به أي أل « هناك » هذه الـ « هناك » التي تكون متذبذبة أثناء صير الواحد واحداً .

وكما يحافظ الطائر على توازنه حلال العاصفة ، أو كما يستجيب الطوف لترنح الأمواج ، كذلك تستجيب اعضاؤنا الى ايقاع لا يقاوم لصوت موسيقى الزحف (March) زد على ذلك أن تقليد المرء لسلوك انسان آخر وحركاته لا يقل في عدواه عما ذكرت،ويُبَرِّز الاطفال ويبزون غيرهم في هذا المضمار. والتقليد يبلغ ذروته، عندما نطلق لذواتنا الاعنة في أغنية مشتركة أو زحف استعراضي او رقص يخلق من وحدات عديدة من الشعور والتعبير وحدة شعور وتعبير واحدة هي « نحن » . ولكن صورة إنسان « ناجحة » او صورة منظر طبيعي ، هي ايضاً نتاج الحركة التصويرية في تناغمها وترنح الحي وتمايله قبالتنا ، وهذا هو التحقق للإيقاع السيائي الذي يتطلب من مُنَفِّذه أن يكون اللوذعي الماهر الذي يستطيع أن يكشف فكرة أو نفس الغريب في تحرك سطحه . ونحن في بعض اللحظات المعينة وغير المتحفظة ، جميعاً لوذعيون مهرة في هذا النوع ، وذلك حينما نكون مندفعين في ايقاع الموسيقى غير المحسوس وفي تحرك التعابير الوجهية ، إذ أننا في مثل هذه الحالات نخترق فجأة بابصارنا كل تصنع وتظاهر وادعاء لنشهد الاسرار العظمى .

إن هدف كل تقليد هو الإثارة الفعالة ،وهذا يعني تمثُّل (Assimilation)

نفسنا داخل شيء ما (وتبديل في المكان واستحالة الانسان الواحـــد الى انسان ثان ، حيث يعيش الواحد منذ تمثله للآخر داخـل الآخر الذي يصفه ويصوره) وهو (اي التقليد) قادر على ايقاظ شعور شديد بالاتحاد حيث يمتد هذا الشعور ليشمل كامل السلسلة المبتدئة بالامتصاص الهادىء فالاقناع فالاذعان حتى أشد القهقهات تهتكاً وخلاعة وحتى اعمق اعماق الأحاسيس الشهوانية ، ومثل هذا الاتحاد غير قابل للانفصال عن النشاط الابداعي . على هـــذا النمط نشأ الرقص الشعبي الدائري (نسبة الى دائرة) فرقصـــة (Shuhplattler) البافارية هي في الأساس تقليد لحركات مطارحة دجاجة الارض الغرام لديكها ، لكن هذا هو ايضاً ما يعنيه « فاسيري عندما يمتدح كيمابي » وجيوتو اللذين كانا أول من عاد الى تقليد الطبيعة ، أي طبيعة رجل النبع التي قال عنها المعلم « إيكارت » :

« إن الله يجري في كل المخلوقات ، لذلك فان كل ما هو مخلوق هو الله ».

إن ذاك الشيء الذي يعرض نفسه على تأملنا في العالم المحيط بنا كحركة فاننا لنعيده ترجمة كحركة ايضاً ، وذلك لانه يشتمل على معنى بالنسبة الى شعورنا ، ولهذا فان كل تقليد هو « درامي » في مفهومه الاوسع ، وتعرض الدراما في حركة فرشاة الفنان أو في إزميل النحات ، وفي الانعطاف النغمي للأغنية ، وفي لهجة التلاوة والالقاء ، وفي بيت من الشعر ، وفي الوصف وفي الرقص . لكن كل ما نختبره داخل وبواسطة النظر والسمع هو نفس غريبـة عنا ، نفس نوحد ذواتنا معها . ولا يعمد الناس إلا في مرحلة المدينة العظمى فقط الى تجزئة الفن تجزئة عقلية واستلال الروح منه ، فيتحول الفن في تلك المرحلة ليصبح طبيعياً (Naturalism) وفق المفهوم السائد في عصرنا هذا ، مثلاً على ذلك أن يقلد أحدهم مظاهر فتنة الآخر ، أو أن يقلد أصل صفات محسوسة قابلة لأن تحدد تحديداً علمياً .

إن الزينة تفصل نفسها عن التقليد ، وذلك بوصفها شيئاً مـــا لا ينساق وراء تيار الحياة ، بل إنما يجابه تيارها بصلابة وقسوة . ونحن هنا قـد قمنا

بدلاً من المميزات السيمائية التي اختلسناها بعداً ونظراً من كائن غريب، دوافع ورموزاً طبعتها بطابعها ، إذ لم يعد القصد هنا ادعاءً وتعللاً بل إنما أصبح مناشدة وتضرعاً . « فالأنا » تطغى هنا على « الأنت » ، والتقليد يتحدث فقط بوسائل هي وليدة لحظتها ، وسائل لا تتناسل او تتكاثر ، لكن الزينة تستخدم لغة متحررة من النطق ، وذخيرة من أشكال تمتلك ديمومة ، وهي لا تعيش أبداً على رحمة الفرد .

ونحن لا نستطيع أن نقلد إلا الحي ، والحي يُقلد فقط بواسطة الحركات لأنه بواسطة الحركات يكشف عن نفسه لأحاسيس الفنان والمتفرجين. وهكذا فان التقليد ينتمي حتى ذاك الحد الى الزمان والاتجاه . فجميع انواع الرقص والرسم والوصف والتصوير هي بالنسبة الى العين والأذن اشياء اتجاهية لا تنقض أو تُرد ، ولذلك فان أسمى إمكانات التقليد تكمن في استنساخ مصيري ، أ كانت تلك النسخة لحنا أم شعراً أم صورة أم مشهدا مسرحيا . أما الزينة فهي على عكس التقليد ، إذ أنها شيء ما أُبتُعد بها عن الزمان ، فهي امتداد مجرد ، امتداد بُتّ فيه واستقر. وحيث إن التقليد يعبر عن شيء ما بواسطة انجاز ذاته ، فان الزينة لا تستطيع أن تقوم بمثل هذا العمل إلا بواسطة عرض نفسها على الأحاسيس بوصفها شيئاً قد أنجز وتم . ولما كانت هذه هي حالها لذلك فهي مستقلة استقلالاً تاماً عن الأصل . وكل تقليد يمتلك بداية ونهاية ، بينما أن الزينة لا تمتلك سوى ديمومة ، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقلد غير مصير الفرد (مثلا مصير أنتيجون أو ديديمونا) ، بينما أن فكرة المصير العامة تستطيع أن تعرض نفسها بواسطة الزينة او الرمز فقط (كما عرضت مثلا فكرة مصير العالم الكلاسيكي بواسطة العمود « الدوري ») فالتقليد يفترض موهبة ، بينما الزينة تفترض موهبة ومعرفة مكتسبة ايضاً .

إن لكل فن من الفنون الدقيقة صرفه (Grammar) ونحوه وإعرابه في لغة شكله، وله قواعده وقوانينه ومنطقه الباطني وتقليده (Traditions) وهذا لا ينطبق فقط على المعبد « الدوري » ذي الغرفة الواحدة ، أو على

الكاتدرائية القوطية الماثلة في كوخ او على مدارس النقش المصرية والأثينية وعلى الكاتدرائية الطينية في شمالي فرنسا ، او على مدارس التصوير في العالم الكلاسيكي ومثيلاتها من مدارس فلورنسا وهولندا والرين ، بل إنما ينطبق ايضاً على القواعد المقررة الثابتة « للسكالد » Skalds [1] و« الميسنجر » Minnesanger [2] هذه القواعد التي كانت تدرس وتمارس بوصفها حرفة وصنعة يمتهنها الانسان ، (ولم تكن تعالج هذه المهنة الجملة وبحر الشعر فقط ، بل انما كانت تعالج الايماءة واختيار التصور والخيال) . لقد كانوا يمتهنون رواية الملاحم الفيدية والهوميرية والالمانية الكلتية ، وتأليف المواعظ القوطية وإلقائها (بكل من اللغتين العامية واللاتينية) ويمتهنون إعداد النثر الخطابي باللغة الكلاسيكية وإعداد قواعد الدراما الفرنسية .

ويعكس زخرفُ الانجاز الفني السببية المحصنة للكون الكبير ، كما يراها انسان من نوع خاص ويدركها . ولكل من الزخرف والسببية منهاج ، وينفذ الى كل منهما جانب الحياة الديني ، الخوف والحب . فباستطاعة الرمز الأصيل ان يبث الخوف او ان يحرر من الخوف . « فالحق » يحرر ، اما الخطأ فيؤلم ويشيع الكآبة في القلب او يسحقه . بينما ان الجانب المباده من الفن هو خلاف ذلك ، إذ انه يقف اقرب من غيره الى شعور الجنس الحقيقي بالبغضاء والحب ، ومن هذا الشعور ينشأ التعارض بين القبيح والجميل ، وذلك فيما يتعلق بالحي فقط ، هذا الحي ذي الايقاع الباطني الذي ينفرنا او يجذبنا معه الى الصورة ، أكانت تلك الصورة صورة سحابة تتكبد السماء ساعة الغروب ، او لهاثاً شديداً لآلة. ان التقليد جميل ، لكن الزينة ذات مغزى ، وهنا يكمن الفرق بين الاتجاه والامتداد ، وبين المنطق العضوي والمنطق اللاعضوي ، وبين الحياة والموت . فذاك الشيء الذي نعتقد بانه جميل

---

(١) Skald : أحد الشعراء الاسكندنافيين الغابرين واحد رواة الشعر الملحمي .
— المترجم —

(٢) Minnesanger طائفة من الشعراء والموسيقيين الغنائيين الالمان. وقد ازدهرت فنون هذه الطائفة في الفترة الواقعة بين عام ١١٥٠ وعام ١٣٥٠ تقريباً -- المترجم —

« يستحق منا ان ننسخه » . وهو يترنح معنا ويتمايل بسهولة ويسر ويدفع بنا لان نقلد ، ولان نشترك في الغناء وان نكرر ونعيد . فتزداد قلوبنـــا خفقاناً ، وترتعش اعضاؤنا ، وننفعل ونـُثار حتى تفيض ارواحنـــا وتطفح كؤوسها . ولكن لما كان الجميل ينتمي الى الزمان ، لذلك « فان له زمانه ». فالرمز جلود ذو ديمومة ، لكن كل ما هو جميل يختفي باختناء نبضات الحياة في الانسان وفي الطبقة والشعب والجنس الذي يُحِسُّ به بوصفه جمالاً خاصاً مُمَيزاً في الايقاع الكوني العام . « فالجمال » الذي كان يشع به النحت والشعر الكلاسيكيان يبهر العين الكلاسيكية ، هو شيء ما مختلف عن الجمال الذي يشعان (النحت والشعر) به امام عيننا ، اذ انه شيء مـــا قد خمد بخمود النفس الكلاسيكية ولا يمكن استرداده ، اما ما نعتبره جميـــلاً من الجمال الكلاسيكي ، فانما هو شيء ما لا يوجـد إلا بالنسبة الينا فقط . وليس ذاك فقط الذي هو جميل في عين احد الاجناس البشرية او محايد او بشع في عين جنس آخر ، مثلا كـكامل موسيقانا بالنسبة الى اهـــل الصين ، او النحت المكسيكي . بالنسبة الينا ، هو الجمال ، وذلك لان الحياة الواحدة نفسهـــا ، الحياة المعتادة المألوفة ، نظراً للحقيقة كل الحقيقة التي تقول بان للحياة ديمومة ، تجعلها عاجزة عن امتلاك الجمال . والآن نستطيع لاول مرة ان نرى التعارض حتى اعمق اعماقه بين هذين الجانبين من الفن ، التقليد والزينـــة . فالتقليد يبث الروحانية ويشيعها وينعش ، أما الزينة فتخلب اللب وتفتن وتقتل . فالاول يصير (لاحظ استعمالنا لكلمـــة يصير) بينما الثاني كائن وموجود ، لذلك فان الاول متحالف والحب ، وفوق كل شيء متحالف (في الاغاني والهياج والرقص) والحب الجنسي ، هذا الحب الذي يستدير بالوجود ليجابه المستقبل ، بينما الثاني يستدير ليهتم بالماضي والذاكرة والشعائر الجنائزيـــة . فالجميل يطارد بحنين وتوق وحنان ، أما ذو المغزى فانمـــا يشيع الخوف والرعب ، ولا اظن ان هنـــاك تعارضاً اعمق من التعارض القائم بين منزل الحي ، ومنزل الميت . فكوخ الفلاح ومشتقاتـــه ابتداءً من قصر الاقطاعي

الريفي الى البلدة المسوّرة فالقلعة ، هي جميعاً منازل للحياة ، وهي تعابير غير واعية للدم في دورته ، تعابير لم ينتجها اي فن ولا يستطيع كل فن ان يعمل فيها ان تعديلا او تبديلا .

ففكرة العائلة تبدو اول مـــا تبدو في مخطط البيت الاولي (الاول في بدائيته – المترجم) (Proto house) . كما ويبدو شكل الأرومة الباطني في مخطط قراه ، هذه القرى التي لا تزال تستطيع ان تخبر عقب قرون طويلة وعقب احتلالات متعددة بالجنس البشري الذي اسسها وبناها ، وتظهر حياة الشعب ونظامه الاجتماعي في مخطط المدينة (وليس في تعاليها ورفعتهـــا وصورتها الطيفية) .

ومن جهة أخرى فان الزينة ذات النظام الارقى تطور نفسها وفق رموز الموت المتيبسة ، ابتـداءً من قارورة رماد الميت ، فالتابوت الحجري فشاهد القبر ، فمعبد الموتى ، ووراء هذه الاشياء ، في هيا كل الله فالكاتدرائيات التي هي زينة محضة ، إذ أنها ليست تعبيراً لجنس بشري بل انماهي لفتة نظرة في العالم . فالكاتدرائيات هي فن محض ، بينما أن الأكواخ والقلاع ليست بفن ، وذلك لأن الأكواخ والقلاع هي مبانٍ يصنع داخلها الفن وخاصة الفن التقليدي ويُنجز ، فهي مواطن الملاحم الفيدية والهوميرية والجرمانيـــة ، وموطن أناشيد الابطال ، ورقص العامة والنبلاء والنبيلات ، وموطن النشيد .

ومن جهة أخرى فان الكاتدرائية فن ، وهي اكثر من ذلك ، الفن الوحيد الذي لا يقلد أي شيء ، فهي توتر مجرد اشكال دائمـــة ، وهي منطق مجرد ثلاثي الابعاد ، يعبر عن نفسه بالحافات والسطوح والاحجام . لكن فن القرى والقلاع فن مشتق من انعطاف اللحظة وميلها ، من الضحك وارواح الاعياد والالعاب المرحة ، وهي تعتمد ، حتى مثل هذا الحد ، على الزمان ، وهي بنت المناسبة الى ذاك الحد الذي جعـــل « التروبادور » يستحصل حتى على اسمـــه بواسطة العثور على المكان الذي يختاره له مقراً ، زد على ذلك أن الارتجال في الموسيقى والشعر والرقص ، أو غير ذلك ، (كما نرى في رقص

الغجر اليوم) هو ليس سوى جنس بشري يعرض نفسه تحت تأثير الساعة على أحاسيس غريبة عنه . إن كل فن روحاني معتمد على هذه القوة الابداعيـــة الطليقة يناهض المدرسة الصارمة التي يكون فيها الفرد (كما هو في الترنيمة واعمال البناء والنقش) خادماً لمنطق اشكال لا زمان لها ، فان تاريخ طراز كل حضارة يكمن في المذهب الديني المبكر للهندسة المعمارية التي تختارها تلك الحضارة منهجاً لها . ففي القلعة تمتلك الحياة لا التركيب طرازاً ، وفي البلدة فان مخططها هو صورة لمصائر سكانها . إن الصور الطيفية والخازونات البارزة والقباب تنبىء بمنطق صورة عالم بُناتها ، تنبىء باول الاشياء وآخرها ، تنبىء بكونهم (Universe) .فالحجر في الهندسة المعمارية للاحياء يخـــدم غرضاً دنيويا ، بينما هو رمز في الهندسة المعمارية للمذهب الديني . ولا اعتقد بان هناك أمراً قد جرح تاريخ الهندسات المعماريـــة العظمى الجرح البليـغ ، كما جرحه ذاك القول القائل بانـــه تاريخ « التقنيات (Technique) الهندسية المعمارية » بدلاً من أن يقولوا بأنه تاريخ الفِكـر الهندسية المعماريـــة التي اتخذت وسائل تعبيرها التقنية اينما وكيفما وجدتهـــا . وكذلك كانت الحال ايضاً وتاريخ الآلات الموسيقية التي هي ايضاً قد طُورت على أساس لغة النغم. أما إذا كانت زاوية تقاطع العقود (groin) والدعائم الطائرة ، وعقد القبة وقوسها قد تُخيلت خصيصاً من أجل الهندسات المعمارية العظمى ، أم كانت وسائل وذرائـــع موجودة ومتوفرة وبمتناول اليد كثيراً أو قليـــلا ، أم استخدمت ، فان كل هذه الاشياء هي في نظر تاريخ الفن أمر ليس بذي بال ، وهذا الأمر شبيه بالأمر المتسائل عما إذا كانت الآلات الموسيقية الوترية قـد نشأت أول ما نشأت في الجزيرة العربية أم في بريطانيا الكلتية . وقد يكون العمود الدوري « بوصفه انجازاً » لصنعة أُستعير من المعابد المصرية في عهد الأمبراطورية الجديدة ، وقد يكون طراز بناء المساكن في العصور الرومانية المتأخرة قد اقتبس من « الاتروسك » ، او قد يكون طراز بناء القاعـة الفلورنتية قد اقتبس من برابرة افريقيا الشمالية ، ومع ذلك فان «البريبتيرز »

« الدوري » « والبنثايون » « والبلازوفارنس » ينتمي كل واحد منهـــا الى عالم يختلف كلياً عن عالم الآخر ، إذ ان كل واحد منها يشير الى تعبـــير عن رمز اولي لحضارة من الحضارات الثلاث .

– ٤ –

يوجد في كل مرحلة نبع(١) حضارية فنان زخرفيان وغيرتقليديين ، وهما فن البناء وفن « الديكور » وينتمي التعبير الاولي بصورة خاصة وخـــلال القرون الحبالى السابقة لهالى الزخرف فيمفهومه الضيق . فالمرحلة الكارولنجية هي مرحلة ممثلة بزينتها بوصف هذه الزينة هندسة معمارية لها ، وذلك لأن انعدام وجود الفكرة يقف فاصلاً بين طرازاتها وأساليبها . وتماثل هذهالمرحلة المرحلة المسينية ، فالعدم لم يعف عن أي بناء من ابنية هذه المرحلة ، وهذه حقيقة من حقائق تاريخ الفن . ولكن الهندسة المعمارية بوصفها زينة تندفع فجأة في فجر كل حضارة عظمى الى مسرح الوجود بقوة تعبيرية طاغيـــة كتلك ، حيث يتقلص ديكور كذاك ويتراجع أمامهـــا لمدة قرن من الزمن خائفاً مرعوباً . وهنا تستأثر فراغات وسطوح وحافات الحجر بالحديث ، فجدث « تشفرين » هو ذروة السذاجة الرياضية (فانت تشهد في كل مكان من هذا الجدث زوايا قائمة ، ومربعات واعمدة قائمة الزوايا لكنك لا ترى في اي مكان منها زخرفا او نقشا) ولم يجرأ التضريس على المغامرة في التعدي على سحر هذه الفراغات المهيب إلا عقبان طوى الفناء عدة اجيال ،وعندئذ اخذ الاجهاد بالتراخي والانفراج . كما وان « الرومانسكية) النبيـــلة في فاستفاليا وسكوسونيا (كأبنية هلديشايم، وجرنرود وبولنتسيلا وبادربورن)

---

(١) مرحلة النبع ، هي اولى مراحل الحضارة إذ يأخذ الناس بالاستقرار بالقرب منالينابيع فيبنون المنازل والقرى ، ويضعون الاسس لأول المجتمعات البشرية ، ويبـــدأ الانسان بممارسة حياته المجتمعية . المترجم

وفي جنوبي فرنسا ، والنورمان (نورويتش وبيتربورو) تدبرت امرها فاستطاعت ان تترجم بمهابة وبقوة لا توصف كامل الحس بالعالم بواسطة خط واحد ، او تاج عمود واحد ، او قوس واحد .

ويبلغ عالم الشكل في مرحلة النبع ذروته ، قبل ان تصبح علاقة الهندسة المعمارية بالزينة ، كعلاقة السيد الاقطاعي برقيق الارض . وعلينا هنا ان نفهم الزينة باوسع ما لها من معان . فكلمة الزينة تشمل تقليديا حتى وحدة الدافع الكلاسيكي بتناسقه المتوازن الهادىء او بملحاقاته الشاردة التائهة ، وتشمل ايضاً سطح الزخرف العربي المغزول ، والسطح غير اللامشابه له لنموذج الفن « المايي » والنموذج الرعدي (نسبة الى رعد) ونماذج اخرى تعود الى مرحلة « تشعر » هذه النماذج التي تثبت دون شك قواعد المنظر الطبيعي في الهندسة المعمارية الصينية . لكن صور المقاتلين المرسومة على مزهريات « دبيلون » هي ايضاً صور رسمتها روح الزينة ، كما وان الزينة تشمل ايضاً في مرتبة اعلى من مراتب مفاهيمها بمجموعات التماثيل في الكاتدرائيات الغوطية .

ويقول « دفوراك » في الصفحة ٤٤ من كتابه « المثالية والطبيعية » في النحت والتصوير الغوطيين ما يلي :

« لقد نضدت الاحجام كالاعمدة أمام المشاهد ، فالاحجام ذات الكينونة العمودية كانت بالنسبة الى المُشاهِد منضدة في مراتب تعلو الواحدة منها فوق الاخرى كأنها احجام ايقاعية لسيمفونية تحلق عالياً نحو السماء وترسل باصواتها الى كل اتجاه . »

وإلى جانب كون الستائر والايماءات ونماذج الحجم زينة ، فان حتى تركيب انعطاف النغم الجوقي في الترنيمة ، والحركة المتوازية لاجزاء الموسيقى الكنسية هي ايضاً زينة موضوعة فيخدمة الفكرة الهندسية المعمارية المسيطرة على كل شيء.ولا يبطل سحر الزخرف العظيم إلا في بداية المرحلة «المتأخرة» حيث تتهاوى الهندسة المعمارية الى مجموعة من فنون دنيوية مدنية خاصة تكرس ليلاً نهاراً كامل وجودها لأشاعة « الانبساط» (تعمدنا كلمة الانبساط

لا الانشراح) والتقليد المـــاهر ، وبهذا تصبح الهندسة المعمارية في واقعها هندسة ذات طابع شخصي . وينطبق على التقليد والزينة مـــا ينطبق على الزمان والفراغ ، ولقد سبق لنا ان اشرنا الى هذين من قبل ، فالزمـــان يلد الفراغ ، اما الفراغ فيقتل الزمان. ولقد حَجّرت الرمزية في البداية كل شيء حي ، فلم يكن يُسمح للتمثال القوطي بان يصبح جسداً حيا ، بل انما كان مجرد مجموعة من الخطوط نظمت على شكل انسان . لكن الزينة تفقد الآن كل صرامتها المقدسة وتصبح يوماً بعد يوم واكثر فاكثر « ديكوراً » بالنسبة للتركيب الهندسي المعماري لحياة مهذبة متأنقة .

وقد تبنى الاثرياء ورجال البلاط في عـــالم الشمال (والشمال فقط) ذوق النهضة في الهندسة المعمارية بوصفه ديكوراً مُجَمّلا. ولقد كان للزينة في المملكة المصرية القديمة معنى يختلف تماماً عن المعنى الذي كان لها في المملكة المصرية الوسيطة ، وكان معناها ايضاً في المرحلة الهندسية مختلفاً ايضاً عن معناها في المرحلة الاغريقية (الهلينية) ، كما وان معناها في نهاية القرن الثاني عشر كان هو ايضاً مختلفاً عن معناها في نهاية عهد لويس الرابع عشر ، زد على ذلك ان الهندسة المعمارية تصبح ايضاً تصويرية وتقوم بادوار موسيقية فاشكالهـــا كما تبدو تحاول دوماً ان تقلد شيئاً ما في صورة العالم المحيط بها . ونحن نخطو من العاصمة «الايونية» الى الكورنثيه ومن فيغنولا لنمر ببرنيني الى «الروكوكو» .

وأخيراً عندما تأخذ المدنية محطاقدامها فعندئذ تخمدجذوة الزينة الحقيقية ويختفي معهـــا الفن العظيم بكامله . وتشتمل مرحلة الانتقال على (وفي كل حضارة) « التكلسك » والرومانطيقية» ويكون التكلسك نظرة عاطفية الى الزخرف ، (القواعد والقوانين والاساليب) هذا الزخرف الميت (الفـــاقد النفس) والذي يكون قد هجر منذ طويل زمن لقدمه ، أما الرومانطيقية فهي تقليد عاطفي لا للحياة بل إنمـــا هي تقليد لتقليد اقدم من تقليدها . فنحن نجد الذوق الهندسي المعماري قد حل محل الطراز الهندسي المعماري . فاساليب التصوير الزيتي والتصنع في الكتـــابة والاشكال من قديمة وجديدة

والوطني منها والغريب ، كل هذه الاشياء تأتي مع الزي (Fashion) وتختفي باختفائه ، وذلك لانه لم يعد هناك من وجود للضرورة البـــاطنية ، ولم يعد هناك من « مدارس » (هندسية معمارية وزينة – المترجم) بل اصبح كل فرد حراً في ان يختار ويقتبس ما يشاء واينما يشاء مما يرغب ويختار . فالفن قد امسى صناعة فن في كل فروعه منهندسة معمارية وموسيقى شعر ودراما، ويصبح لدينا في النهاية مخزوناً متداولاً تجارياً منالانجازات الادبية والتصويرية التي تفتقر الى كل مغزى اعمق ، وتستخدم وفق ما يمليه الذوق . ونحن لا نشاهد فقط هذا الشكل الصناعي للزينة ، (الذي لم يعد شكلاً تاريخياً او في وضع صيرورة) في نماذج السجاد الشرقي والانجـــازات المعدنية من فارسية وهندية ، والاواني الخزفية الصينية ، بل انما نشاهده ايضاً في الفن المصري (والبابلي) في الحال التي آل عليها الى الاغريق والرومان . فالفن «المونوي» (Minoan) في جزيرة كريت هو صناعة فن مجرد ، وهو غريب الديار عن كريت. إذ انه نتاج الذوق المصري ما بعد عصر « الهكسوس »،اما «معاصر» هذا الفن فانما هو الفن « الهيليني » الروماني ابتداءً من عصر سيبيو وهنيبال ، وهو ايضاً يخدم بصورة مماثلة عادة التسلية ، ويساعد الذهن على إداء دوره . وباستطاعتنا ابتداءً من الديكور المترف للدعامة المرتكزة (Entablature) على عمود « فوزوم نيرفا » في رومـــا الى المرحلة المتأخرة عن تلك مرحلة الصناعة الفخارية في الغرب ، ان نلمس تشكلاً متواصلاً لصناعة فن غير قابلة للتعديل او التبديل ، هذه الصناعة التي نجد لها مثيلا في كل من العالمين المعنوي المصري والاسلامي ، والتي نفترض بانهـا قد سادت الهند عقب بوذا والصين بعد كونفوشيوس ايضا .

– ٥ –

والآن ، فان الكاتدرائيات تختلف عن معابد الاهرام بالرغم من القربى

الباطنية العميقة التي تشدها بعضاً الى بعض، والحق أننا داخل هذا الاختلاف بالذات الذي يفرق بينها نمسك بتلابيب الظاهرة الجبارة للنفس الفاوستية ، هذه النفس التي يرفض لها زخمها للعمق أن ترتبط بالرمزي الاولي على أي شكل من الاشكال ، والتي تجاهد منذ الايام الاولى لولادتها كي تتسامى فوق كل حد بعدي . فهل هناك معه شيء يكون اكثر غرابة عن المفهوم المصري للدولة ، (هذا المفهوم الذي يجوز لنا أن نصف نازعه بأنه نبيل رزين ووقور) من المطامح السياسية للأباطرة العظام من سكسونيين وفرنكونيين وآل هوهنشتاوفن ، هؤلاء الأباطرة الذين غمرت الكآبة والاحزان قلوبهم لأنهم تجاهلوا كل الوقائع السياسية،والذين كانوا يعتبرون الاعتراف بأي حدود بمثابة خيانة لفكرة سلطتهم ؟ فهنا قد دخل الرمز الأولي للفراغ اللامتناهي، بكل قواه التي يعجز عنها الوصف ميدان الوجود السياسي الفعال ، فنحن نشاهد الى جانب شخصيات اوتو وكونراد الثاني وهنري الرابع وفريدريك الثاني الفايكنغ النورمان فاتحي روسيا وجرينلند وانجلترا وصقلية والقسطنطينية تقريباً ، ونرى ايضا البابوات العظام كغريغوري السابع وانوسنت الثاني ، وهؤلاء جميعهم كانوا يهدفون أن يجعلوا دوائر نفوذهم المنظورة تنطبق على كل العالم المعروف لهم . وهذا هو الذي ميز ابطال الكأس المقدسة ، وفرسان آرثر وابطال أساطير سيغفريد الذين كانوا جميعاً يعمهون في اللانهائي ، اقول هذا هو الذي ميزهم عن ابطال هوميروس بما كان لهؤلاء الابطال من أفق جغرافي محدود ، وميز الحملات الصليبية التي كانت تندفع برجال نهري الالب واللوار الى آخر حدود العالم المعروف عن الحوادث التاريخية التي بنت عليها النفس الكلاسيكية الالياذة التي بمقدورنا واعتمادا على اسلوبها أن ندعي واثقين من أن تلك الحوادث كانت حوادث محلية ومحدودة المكان ومحسوساً بها تماماً .

لقد حققت النفس « الدورية » رمز الشيء الإفرادي الحاضر جسداً وتعمدت أن ترفض جميع الخلائق الكبرى وتنبذ كل ما هو بعيد المجال ،

ولهذا السبب الوجيه لم تخلف المرحلة الاولى ما بعد « الماسينية » أي شيء لعلماء الآثار من علمائنا . ولقد كان التعبير النهائي الذي بلغتــه هذه النفس مثلاً في المعبد «الدوري» بما لهذا المعبد من تأثير خارجي (لا باطني ـالمترجم) مجرد ، ولقد ارسى على ُصقع كأنه صورة منتفخة الجوف كثيفة صامتة ، لكنها تنكر وتتجاهل فينا الفراغ داخلاً بوصفه الـ OV او UN الذي كان يعتبر عاجزاً عن الوجود .

لقد كانت الاعمدة المصرية المنتظمة صفوفاً تحمل سطح القاعة ، وعندما اقتبس الانسان الاغريقي هذا النازع خلع عليـــه المفهوم الخاص به (أي الاغريقي ـ المترجم) فجعل داخله خارجه ، كما يقلب المرء فردة قفـاز ، فجاءت مجموعات الأعمدة الخارجية ، بمعنى ما ، كأنها مخلفات أثرية لداخل منبوذ ُمنكر . أما النفسان المجوسيه والفاوستية ، فانما كانتا خلافاً للنفس الكلاسيكية تشمخان عاليـا في بناءيها ، فلقد أصبحت صور حلميها مادية بوصفها عقوداً ترتفع فوق فراغات داخلية ذات فحوى ومغزى ، وهي بمثابة توقع بنائي لشعور مسبق ببدهيات الجبر والرياضيات التحليلية . فطراز عقد الدعامة ، الذي يشع من كل من بورغوندي والفلاندرز ، بما لهذا الطراز من طابية هلالية الشكل (Lunettes) وركائز طائرة ، قد حرر الفراغ السجين من السطح المدرك حِساً الذي يحده . ويقول « دهيو » في الصفحة ١٦ من الجزء الاول لكتابه « تاريخ الفن الالماني » ما يلي :

« ان النافذة في داخل البناء المجوسي هي مجرد عامل تركيبي سلبي ، انها شكل منفعة وهي لم تتطور على أي وجه من الوجوه لتصبـح شكل فن ، ولنصفها بفج الكلام ، انها مجرد ثغرة في الحائط . »

وعندما أمست النوافذ لا يستغنى عنها في الواقع ، فانهـا ، ومن أجل الانطباع الفني ، قد أخفيت بواسطة رواقات كما هي الحال في الابنيةالرومانية الشرقية المستطيلة الشكل .(Basilica) فالنافذة كهندسة معمارية ، هي من جهة أخرى خاصة من خصائص النفس الفاوستية ، وهي أشد رموز هـذه

النفس دلالة الى الخبرة بالعمق ، والمرء ليحس وهو يتطلع اليها بالارادة التي تريد أن ترتفع من داخل البناء لتحلق طليقة فيما لا حدود له . فالارادة نفسها الملازمة للموسيقى الكونتروبونتية ، هي إرادة مألوفة لدى هذه العقود. فالعالم اللامادي لهذه الموسيقى كان ولا يزال وحتى عقب مضي طويل زمن على ذاك العصر ، وذلك عندما بلغت الموسيقى البولوفونية (المتعددةالنغمات) الى تلك الذرى التي بلغتها (في القطع الموسيقية الخالدة ـ المترجم) « آلام انجيل متى » و « إيرويكا » وتريستان وبرسيفال ، أقول كان العالماللامادي ولا يزال ذاك العالم الغوطي الاول الذي أمسى نتيجة لضرورة باطنية شبيهاً بالكاتدرائية ، وعاد الى موطنه ، الى لغة الحجر للعصور الصليبية . وحبا منه في أن يتخلص من كل اثر من آثار المادية الكلاسيكية . فانه قد دفع به كي يستخدم كامل قوى زخرف عميق المغزى زخرف يتحدى قوة تحديد التخوم العائدة للحجر . بما لهذه القوة من قدرة على إجراء تبديلات انطباعية مستهجنة على اشكال الاحجام النباتية والحيوانية والانسانية ، زخرف يذيب جميع خطوطه في انغام وتنوعات (Vari-tions) في الموضوع (Theme) ويذيب جميع واجهاته في « فوغات (Fugues) غفيرة الاصوات ، ويذيب كل نحته الجسدي في موسيقى طيات نسيج الستائر . وهذه هي الروحانية التي أعطت مفهومهم العميق الى امتداد الزجاج الجبار في نوافذ كاتدرائيتنا ، بما لهذا الزجاج من الوانمتعددة ونصف شفافة ولذلك فهي تصوير زيتي خال كلياً من الجسدية ، والحق أن هذا الفن لم يسبق له أن كرر نفسه أبداً في اي مكان وهو يشكل اكمل ما يمكن للخيال أن يتصوره من تعارض بينه وبين التضريس الكلاسيكي . ولربما كانت كنيسة « سانت شابل » في باريس هي خير برهان على هذا التحرر من الجسدية . ففي هذه الكنيسة يذوب الحجر في وميض الزجاج وبريقه ، بينما أن التصوير الزيتي على التضريس يشترك في مادتهوالحائط الذي نما التضريس عليه ومعه ، وللونهالأثر الذي يتركهالمادي، فهنا لدينا ألوان لا تعتمد على سطح حامل لها ، بل إنها ألوان طليقة حرة في الفراغ حرية « نوتات » الارغن وانطلاقها ، ونرى ايضاً اشكالاً وأحجاماً

متوازنة في اللا نهائي . وتقابل الروح الفاوستيه لهـذه الكنيسة (التي هي تقريباً دون جدران ، وسامقة ذات عقود ، ينيرها ضوء متعدد الالوان ، وتشخص بابصارها من صحنها (صحن الكنيسة المتربعة) الى المكان المخصص للجوقة الكنسية العربية ذات القباب (واعني بها الكنيسة المسيحية البزنطية المبكرة) فقبة هذه الكنيسة التي تبدو للرائي كأنها تطفو محلقة فوق البناء المستطيل الشكل او المثمن الزوايا، تمثل ايضاً انتصاراً حقاً على مبدأ الجاذبية الطبيعية الكلاسيكية ، هذا المبدأ الذي تعبر عنـه العارضة المرتكزة على الاعمدة (Architrave) والعمود ، وقد جاءت هذه القبـة لتتحدى ايضاً الجسم الهندسي المعماري لخارج البناء (Exterior) لكن غيـاب « خارج البناء » بالذات يؤكد أكثر ما يؤكد على الحائط الملتئم المرصوص والخالي من كل ثغرة والذي يغلق الكهف ويسد منافذه ولا يسمح لأية نظرة او أمل بأن تنفذ او ينفذ الى خارجه . فهناك تخلل صادق مربك لاشكال دائرية ومتعددة الزوايا والأضلاع ، وحمل وضع على صحفة عمود حجرية وعلى شكل يجعل هذا الحمل يحلق فاقد الوزن عالياً . لكنه مع هذا يغلق داخل البناء ويسد فيه كل منفذ ، زد على ذلك ان جميع خطوط البناء قد اخفيت ، ولا يسمح سوى لضوء مبهم غامض بالتسرب من ثغرة صغيرة فتحت في قلب القبة ، ولكنها فتحت لتؤكد فقط بصرامة وعناد على التسوير حول الداخل ، هـذه هي المميزات التي نراها في الانجازات العظمى لهذا الفن ، ونراها خاصة في كنيسة سان فيتال في رافينا، وفي آيا صوفيا في القسطنطينية وفي مسجد الصخرة في القدس .

فحيث يضع المصري التضاريس ويقدح فكره ليجنب سطوحها المنبسطة أي إيعاز من تشذيب يوعز به العمق الجانبي، وحيث يضع المهندسون الغوطيون صورهم الزجاجية كي يجذبوا داخلاً الفراغ من الخارج ، يقوم المجوسي بكساء جدرانه بالفسيفساء البراقة والذهبية في معظمها والزخارف والنقوش. وهكذا يغرق كهفه بذاك النور الاسطوري وغير الحقيقي والذي هو دائماً الغواية

والاغراء في الفن البربري بالنسبة الى أهل الشمال .

- ٦ -

إذن فإن ظاهرة الطراز العظيم ، هي انبعاث ، لا بل فيض يتدفق من جوهر الكون العظيم ، من الرمز الاولي لإحدى الحضارات العظمى . وإن كل إنسان يفهم مضمون هذه الظاهرة فهماً كافيـــاً يمكنه من أن يرى ان هذه الظاهرة لا تشير الى مجموعة شكل بل إنما تشير الى تاريـخ شكل ، فعندئذٍ فان مثل هذا الانسان سيحاول ان يرتب الهتامات والنبذ الفنية للجنس البشري البدائي وفق اليقين الباطني لأحد الطرازات الذي يتطور بصورةدائمة مستمرة خلال القرون المتعاقبة . إن فن الحضارات العظمى وحده ، هذا الفن الذي لم يعد فناً فقط بل انما بدأ يصبحوحدةذات أثر من تعبير وفحوى، يملك طرازا . إن التاريخ العضوي للطراز يشتمل على ما قبل (pre) وعلى لا (Non) وعلى ما بعد (post) . فالرسمالصاعد للثور فيعهد الاسرة الاولى، ليس هو بمصري بعد ، فانجازات المصريين الفنية لا تكتسب طرازا لهـا إلا في عهد الاسرة الثالثة، لكنها تكتسب طرازها في هذا العهد اكتساباً مفاجئاً ومعيناً ، تعييناً دقيقاً صارماً . وكذلك ايضاً هي حال الحقبة الكارولونجية إذ ان هذه الحقبة تقف حائرة بين الطرازات،فنحن نرى فيها مختلفالاشكال التي مرت عليها يد الفنان او امتحنتها،لكنها جميعاً مفتقرة الى التعبير الباطني الضروري . ويقول « فرنكل » في الصفحة ١٦ من كتابه « فن البنـــاء في العصور الوسيطة » :

«إن مبدع كنيسة آخن يفكر واثقاً ويبنيحقيقةولكنه لا يحس أكيداً.» زد على ذلك ان لكنيسة مارين « في قلعة فيرتزبرج (٧٠٠ م) نسخة طبق الأصل عنها في سلونيكا (كنيسة القديس جريس) ، كما وأن كنيسة القديس

جرمين دي بري » (٨٠٠ م) هي بقبابها وبكواهـا ذات شكل حذوة الحصان مسجد إسلامي تقريباً . والحق ان القرن الممتد من عام ٨٥٠ — ٩٥٠ هو قرن عقيم بالنسبة الى جميع بلدان اوروبا الغربية . واليوم ، هذا اليوم ، لا يزال الفن الروسي يتأرجح بين طرازين اثنين . فالهندسة المعمارية الخشبية البدائية بما لها من سقف خيمي (نسبة الى خيمة) ثمـاني الجوانب منحدر (وهذا السقف يمتد من النرويج الى منشوريا) هي هندسة متـأثرة بالنوازع البزنطية المنسابة إليها مما وراء الدانوب، وبالدوافع الارمنية الفارسية الوافدة عليها مما وراء القوقاس . ونحن لا شك نستطيع ان نلمس « ألفة اصطناعية » (Elective affini'y) بين النفسين الروسية والمجوسية ، لكن الرمز الاولي الروسي ، اي السطح المستوي بلا حد ، لم يجد له حتى الآن تعبيراً أكيداً واثقاً في الدين او في الهندسة المعمارية . فسقف الكنيسة يرتفع كالرابية، لكنه لا يملك إلا القليل من المنظر الطبيعي ، وعلى هذا السقف تجلس السطوح الخيمية التي ُمشطت أطرافها « بالكوكوشنكس » التي تكبـح لا بل تطرح نازع التسامي جانباً . فهذه السطوح لا ترتفع كقبة الأجراس الغوطية ولا تُسَوِّرُ كقبة المسجد ، بل انما تستوي لتؤكد بذلك أفقية البناية والتي كان يقصد ان يراها المُشاهِد من الخارج فقط . وعندمـا منع المجلس الكنسي (Synod) عام ١٧٦٠ السطوح الخيمية وطلب بناء القباب الارثوذكسية البصلية الشكل، شيدت هذه القبـاب الثقيلة على اسطوانات . رهيفة غير محدودة العدد وقد ارتكزت هذه الاسطوانات على استواء السطح. وهذا الأمر لا يمثل طرازاً قد اكتمل بل إنما هو تباشير لطراز سينبعث عندما يتم انبعاث الدين الروسي . ولقد حدث هذا الانبعاث في العـالم الفاوستي قبيل عام ١٠٠٠ بعد المسيح . فلقد اندفع الطراز الرومانسكي خلال لحظة واحدة الى ميدان الوجود فقامت فجأة ديناميكية صارمة دقيقة للفراغ بدلاً من التنظيم المائع للفراغ على مخطط أرضية غير آمن او مضمون . وقد عينت منذ مستهل البداية العلاقة الثابتة التي تربط بين التركيب الداخلي والتركيب الخارجي ، ونفذت لغة الشكل الى الحائط وصيغ الشكل جداراً وذلك كله باسلوب لم يراود ابداً خيـال أية

حضارة من الحضارات . وقد اعطيت النـــافذة وقبة الأجراس منذ مستهل البداية مفهوميها الحقيقيين ، وعين الشكل تعيينـــا غير قابل لأي دحض او نقض او تبديل . ولم يبق أمام الاجيال بعدها إلا ان يطوروا هذا الطراز ويسيروا به قدماً الى الأمام .

ولقد بدأ الطراز المصري بعمل ابداعي خلاق آخر كذاك ، وكان مثل الغوطي في لاوعيــه ومثله ايضاً مليء بقوة رمزية كاملة . فلقد اندفع الرمز الاولي المصري للدرب فجأة الى الوجود وذلك في بدايـــة عهد الاسرة الرابعة (٢٩٣٠ ق.م) فخبرة العمق الخالقة للعالم لهذه النفس تستمد جوهرها من عنصر الإتجاه نفسه . فالعمق الفراغي ، كالزمان المتخشب والمسافة والموت وحتى المصير نفسه ، يسيطر على التعبير ، ويصبح البعدان المحسوسان المجردان ، بعد الطول وبعد العرض مستوى مرافق حـارس يخطط درب المصير ويحدده تحديداً صارماً .

فالتضريس المصري المنبسط الذي صُمم كي يُرى من أماكن قريبة ، ورُتب ترتيباً تسلسليا على شكل يرغم المُشاهِد ان يمر بمحاذاة مستويات الجدار وفي الاتجاه المعين ، اقول إن هذا التضريس يندفع الى الوجود اندفاعـــاً مماثلاً في فجأته لذاك ، وذلك في بداية عهد الاسرة الخامسة تقريباً . زد على ذلك أن شوارع الاهرامات وتماثيلها ومعابدها الصخرية منها والمدرجة ، التي شقت وشيدت في عصور متأخرة عن عصر التضريس ، هي ايضاً تزيد في شدة ذاك النـــازع الى البُعد الوحيد الذي يعرفه الجنس البشري المصري ، أي القبر . فلتلاحظ السرعة التي تصبح فيهـــا سوابيط الاعمدة في الحقبة الاولى مناهج لاعمدة متراصة ضخمة جبارة تحجب كل نظرة جانبية ، إن هذا الشيء لم يكرر ذاته في أية هندسة معمارية أخرى .

إن عظمة هذا الطراز تبدو لنا صارمة لا تقبل باي تبدل او تغيير ، ولا شك أنها تقف ما وراء العاطفة تبحث أبداً وتُرعَب وتخاف ، وهكذا فانها تعطي الطبائع الثـــانوية صفة حركة شخصية قلقة في دفق القرون . ولكن

والعكس بالعكس، فنحن لا نستطيع أن نشك في أن الطراز الفاوستي (الذي هو طرازنا ابتداءً من العهود الرومانسكية المبكرة فالروكوكو فالامبراطورية) قد يبدو بإلحاحه القلق على شيء ما ، في نظر المصري اكثر تناسقاً مما نخال نحن او نظن .

وعلينا ألا ننسى اعتماداً على مفهوم الطراز الذي نتابع بحثه هنا ، أن الرومانسكي والغوطي وعصر النهضة والباروكي والروكوكو، هي فقط مراحل الطراز الواحد نفسه ، والذي نلحظ نحن طبيعية تنوعه ، ويلحظ رجال بعيون أخرى الثابت فيها .

وفي الواقع فان الوحدة الباطنية لعصر النهضة في الشمال تُرى في إعادات التعمير التي لا تحصى او تـُعد للانجاز الرومانسكي ، وفق الاسلوب «الباروكي» وللانجاز الغوطي المتأخر وفق اسلوب الروكوكو [١] .

وهذا الامر ليس بالمفزع او المُجَفِّل . فالاسلوب الغوطي ينطبق على الاسلوب الباروكي في فن الفلاح ، فشوارع المدن القديمة بما فيها من تناغم مجرد وجميع انواع الجملونات (السقوف الهرمية) وواجهات الأبنية والمساكن (وهذه من المستحيل علينا أن ننسبها جازمين الى الاسلوب الرومانسكي او عصر النهضة الغوطي ، او الباروكي ، او الروكوكو) ترى أن المشابهة العائلية بين اعضاء العائلة ، هي اوثق بكثير مما كان يخيل اليهم او يدركون .

كان الطراز المصري طرازاً هندسياً معمارياً مجرداً وبقي على هذه الحال حتى لفظت النفس المصرية انفاسها . والحق أن هذا الطراز كان الطراز الأوحد الذي لا نرى فيه ابداً الزخرف ملحقاً ديكورياً متمماً للهندسة

(١) لاحظ لقد عمدنا هنا الى استعمال كلمة اسلوب لاطراز وذلك انسجاماً منا وروح شبنغلر في بحثه فالطراز ذو أساليب عديدة متعددة ، لكنها جميعاً تجتمع في الطراز ، لهذا فاننا نقول مثلاً :

يتفرع من الطراز الفاوستي : الاسلوب « الباروكي » واسلوب الروكوكو .

ـ المترجم ـ

المعمارية . وهو لم يسمح أبداً بأي انحراف نحو فنون الترفيه والتسلية ، فليس فيه تصوير زيتي يتيه تفاخراً ، أو تماثيل نصفية (Busts) أو موسيقى دنيوية .

وخلال « الدور الايوني » انتقل مركز ثقل الطراز الكلاسيكي من الهندسة المعمارية الى فن تشكيلي مستقل ، أما في الدور « الباروكي » فان الطراز الغربي أصبح موسيقى حيث سيطر شكل لغتها على كامل فن البناء في القرن الثامن عشر ، أما في العالم العربي ، وعقب يوستنيان ، وبعد عصر كسرى انوشروان، فان الزخرف العربي قد أذاب كل اشكال الهندسة المعمارية والتصوير الزيتي والنحت في إنطباعات طراز علينا أن نعتبره اليوم صناعة فن . لكن سيادة الهندسة المعمارية في مصر بقيت راسخة القدم ، ولم يحاول أحدٌ أن يتحداها ، وكل ما طرأ عليها من تعديل فانما يتمثل في تخفيف لهجة لغتها قليلاً . فنحن نشاهد في معبد الهرم « هرم خفرين » وفي عهد الاسرة الرابعة اعمدة ذات زوايا لم تزخرف أو تزين ، ونشاهد عمود الأساس يطل علينا في حقبة العائلة الخامسة . (هرم ساهورري) ونرى كيف تحولت ازهار اللوتس والبابيروس الى حجارة تطل جبارة من رصيف مرمري شفاف يمثل الماء ، ويحيط به الجدران القرمزية . ونرى السقف قد زين بالطيور والنجوم ، ونشاهد الدرب المقدس الممتد من بوابات الأبنية الى قاعة الموتى ، وهو (الدرب) صورتهم للحياة ، كأنه النهر ، إنه نهر النيل ذاته يلتقي بالرمز الاولي للاتجاه ويتحد معه ، اتحاد روح المنظر الطبيعي الأم مع النفس التي انبثقت منها .

ونشاهد في الصين ، بدلاً من البوابة المثيرة للرعب ، هذه البوابة ذات الجدار السميك والمدخل الضيق ، حائط الروح (yin-pi) الذي يخفي الدرب في الداخل . فالانسان الصيني ينزلق الى الحياة وبعدئذٍ يسلك «الطاو» درب الحياة ، وكما هي حال وادي النيل بالنسبة الى المنظر الطبيعي ذي المرتفعات والمنخفضات لهوانغ هو ، كذلك هي حال درب المعبد المسور

بالحجر بالنسبة الى الدروب المربكة للهندســـة المعمارية الجنائنية الصينية .
وهكذا أيضاً فأن الوجود الكلاسيكي مرتبط على صورة غامضة ما بفيض من الجزر الصغيرة والجبال الداخلية في بحر إيجه ، أما الوجود الغربي فانه يجول في اللانهائي مع السهول الفسيحة لفرنكونيا وبورغونديا وسكسونيا .

- ٧ -

إن الطراز المصري هو تعبير نفس جريئة مقدام . ولم يكن الفرد المصري ليحس أبداً بقوة هذا الطراز او ليؤكد دقته ، فلقد كان المصري يجرؤ على كل شيء لكنه لم يكن ليفوه بأية كلمة ، وذلك خلافـــاً للطرازين الغوطي والباروكي إذ أن النصر على الثقل أمسى فيهما عاملاً واعيـــاً وفعالاً في لغة الشكل . فدراما شكسبير تعالج على المكشوف موضوع النزاع اليائس بين الارادة والعالم . أما الانسان الكلاسيكي فلقد كان ايضاً ضعيفاً أمام «القوى» التي يواجهها ، وكانت فكرة الخوف والرثاء «التفريج والابلال للنفس الابولونية في لحظات المخاطر والمغـــامرات هي على حد قول ارسطوطاليس المعلول المُستهدف عمداً في التراجيدي الاتيكية . فعندما كان المُشاهِد اليوناني يرى القدر يسيء بجنون معاملة أحد الذين يعرفهم (وذلك لان كل مشاهد كان يعرف الاسطورة ويعرف أبطالها ويعيش فيهم) دون أن تكون لدى البطل أية إمكانية مدركة للمقاومة ، ويرى البطل يتهاوى تحت ضربات القدر رائع الطلعة متحدياً مقداماً شجاعا ، كانت النفس اليوقليدية للمُشاهـد الاغريقي تختبر حينذاك تسامياً عجيباً رائعاً . فإذا ما كانت الحياة دون ما قيمة او ثمن ، فان النزعة العظمى لفقدانها لم تكن كذلك . فاليوناني لم يكن ليريد أي شيء ولم يكن ليجرأ على أي شيء ، لكنه كان يجد جمالاً أخاذاً في الاحتمال والصبر ، وهذه الصفة كانت بارزة حتى في أشخـــاص الاوديسية المبكرين ذوي الصبر الذي لا ينفذ، وخاصة في آخيل النموذج الأصلي الكامل

للرجولة الاغريقية ، والذي كان الاحتمال الصبور صفته المميزة . فالمذاهب الأخلاقية من كلبية [١] (Cynics) ورواقية وابيقورية ، والمثل العليا الشائعة للحكمة اليونانية وتكريش ديوجنيس نفسه للبرميل ، [٢] تمثل جميعاً جبناً مقنّعاً أمام المسائل والمسؤوليات الخطيرة ، وهي ، حقاً وواقعاً ، تختلف اختلافاً كلياً عن عزة النفس المصرية وكبريائها . فالانسان «الابولوني» يغوص في الارض متجنباً درب الحياة ، ويبتعد عن هذه الدرب حتى الانتحار الانتحار الذي يعتبر في هذه الحضارة وحدها (وذلك إذا ما تجاهلنا بعض المثل العليا الهندية) عملا اخلاقياً رفيعاً يُعالج بمهابة الرمز الطقوسي ووقاره. ان الثمل الديونيسي يبدو نوعاً من اغراق هائج ثائر للقلق الذي لم تعرفه النفس المصرية أبداً ، ولذلك فان الحضارة الاغريقية هي حضارة الصغير الهين الأنيس والبسيط . أما تقنيتها (Technique) اذا ما قورنت بتقنية الحضارة المصرية او البابلية فانها تبدو لغواً ماهراً وبطلاناً بارعاً . فليس هناك من زخارف تكشف عن فقر في الابداع كتلك الزخارف التي تكشف عن فقرهم ومخزونهم من الوقفات (Position) النحتية يُعد على أصابع اليد الواحدة . ولقد قال « كولدوي بوخشتاين » في الصفحة ٢٢٨ من كتابه « المعبد اليوناني في جنوبي ايطاليا وصقلية » ما يلي :

« ونتيجة لفقر الطراز الدوري في الاشكال ، هذا الفقر الواضح الذي يجعل المرء يعتقد بانه (بما كان هذا الطراز أحسن حالاً حتى في بدء تطوره من المراحل الأخرى ، أقام الطراز الدوري كل شيء على التناسب والقياس .»

وحتى لو كانت الحال على ما ذُكر اعلاه ، فيا لها من مهارة في التفادي والاجتناب !

---

(١) الكلبية: مدرسة فلسفية إغريقية كانت تقول بان الفضيلة هي الخير الاوحد وان جوهره يكمن في ضبط النفس واستقلالها ، وقد عرفت بالكلبية لخشونة حياة اصحابها .

(٢) إشارة الى قصة ديوجينس وبرميله المشهورة الذي اتخذه مسكناً له .

ـ المترجم ـ

إن الهندسة المعمارية اليونانية بما لها من مطابقة بين الحمل والمُرتكز ، ومن صغر مميز للمقياس ، توحي بانهـا تتملص دائماً من المشاكل الهندسية المعمارية الصعبة التي كان سكان النيل وسكان الشمال فيما بعد يبحثون عنها بمـا لكلمة البحث من معنى حرفي ، زد على ذلك أن هذه المشاكل كانت معروفة ، ولم تُطمس بالتـأكيد في العصر المسيني . لقد كان المصري يحب الحجر الصلد للبنايات الجبارة ، وذلك حباً منه في الوفاق ووعيه بان عليه أن يختار فقط أقسى المواد وأصلبها ليشيد إنجازاته منها ، لكن الأغريقي كان يتجنب كل هـذه الامور ، فلقد كرست هندسته المعمارية ، باديء ذي بدء ، نفسها للصغائر ، ومن ثم انحلت وتلاشت تماماً . فنحن إذا مـا نظرنا الى الهندسة المعمارية اليونانية ككل ، ومن ثم قارنا بينهـا وبين مجموع انجازات الهندسة المعمارية المصرية او المكسيكية اوَ حتى الغربيـة ، فعندئذٍ نذهل للتطور الواهن الضئيل الذي طرأ على طرازها . فنحن لا نرى سوى بضعة تنويعات من المعابد الدورية تستنزف كامل إمكانات هذا الطراز . فلقد جاء آخر عطاء لهذا الطراز ممثلاً في تاج العمود (Capital) الكورنثي وذلك قرابة عـام ٤٠٠ ، أما كل ما جاء عقب ابداع ذاك التاج ، فانما هو مجرد إجراء تحوير او تعديل على ما هو قائم وموجود .

وكانت نتيجة هذا الواقع التوحيد الحجمي لنماذج الشكل وانواع الطراز . فبمقدور المرء ان يختار ما يشاء من بين تلك النماذج وهـذه الانواع ، لكن لا يجوز له أبداً ان يتجاوز حدودها الدقيقة الصارمة ، فمثل هذا التجاوز هو تقريباً بمثابة اعتراف بلانهائية الامكانات . فلقد كان هناك ثلاثـة أنساق من الاعمدة وتركيب معين لكل عارضة (Architrave) مطابقة لكل نسق من الانساق الثلاثة هاتيك ، وقام الاغريق بغية معالجة الصعوبة (هذه الصعوبة التي اعتبرت تعارضاً منذ عهد فيترفيوس) الناشئة عن تعاقب بِبَحْرات الشكن (Triglyphs) وجبهات البَحْرات (Metopes) عنـد الزوايا بتضييق أقرب المسافات الفاصلة ما بين الأعمدة ، (Intercolumniations)

(إذ لم يفكر أي واحد منهم باشكال جديدة توافق مقتضيات الحال) . وكانوا اذا ما رُغب في ابعاد أطول يلجأون الى التطابق وتراكب الاشكال (Super position) والى المجاورة (Juxtaposition) الخ ... في العناصر الاضافية . وهكذا فان « الكولوسيوم » يمتلك ثلاث حلقات ، وللديدم في ميلتا ثلاثة صفوف من الاعمدة أمامه ولافريز عمالقة « برجاموم » تتالياً لا نهاية له من الدوافع الفردية غير المترابطة . وهذا الأمر مشابه لحال أنواع أسلوب النثر ونماذج الشعر الغنائي والرواية والتراجيدي . وبصورة عامة فان انفاق القوى على الشكل الأساسي كان إنفاقاً مقنناً تقنيناً بالغ الضيق إذ انه كان محدوداً بالحد الادنى فقط ، وكانت الطاقة الابداعية للفنان موجهة نحو جمال التفصيل ، والحق .

ان معالجة الطراز « الدوري » هي معالجة احتكاكية سكونية لا تؤثر بغير ثقلها ، (Statical) انها معالجة الفصائل السكونية ، وهي بذلك على تعارض شديد والاخصاب الفاوستي الديناميكي بما لهذا الاخصاب من دفق ابداعي لا ينضب له معين من النماذج الجديدة في ميادين الشكل .

- ٨ -

لقد أصبح الآن بمقدورنا ان نرى التركيب العضوي للطراز العظيم في مجراه فهنا العديد من الاشياء والأمور الأخرى التي كان «غوتيه» اول من حلت رؤياها عليه فهو يقول في « فنكلمان » عندما يتحدث عن « فاليوس باتركولوس » «Valleius paterculus» ما يلي :

« ونتيجة لما كان له من موقف فإنه لم يتح له ليرى أن من المتوجب ان يكون لكل فن بوصفه شيئاً حيا بداية غير واضحة ونمو بطيء ولحظة رائعة من لحظات الاكتمال ، وانحطاط تدرجي ككل الكائنات العضوية الأخرى ،

وذلك بالرغم من أنه يعرض في مجموعة من الاشخاص . »

ان هذه الجملة التي تفوه بها «غوتيه» تشتمل على كامل مورفولوجيا تاريخ الفن . فالطرازات لا تتبع بعضها بعضاً كالأمواج أو كنبضات النبض. وليست شخصية الفنان أو ارادته او ذهنيته هي التي تصنع الطراز ، لكن الطراز هو الذي يصنع نموذج الفنان. فالطراز هو كالحضارة ظاهرة اولية بكل ما لهذه الكلمه من معنى دقيق صارم وفق المفهوم الغوطي ، أكان هذا الطراز طراز فن او دين أو فكر او طراز الحياة نفسها ، فحاله كحال « الطبيعة » اي انه خبرة ابدية التجدد للانسان اليقظ وهو خيدن أناه (Alter ego) وصورة مرآته للعالم المحيط به ، ولذلك لا يمكن ان يوجد في الصورة التاريخية العامة للحضارة سوى طراز واحد ووحيد فقط ، هو طراز الحضارة . اما منشأ الخطأ فانما يعود الى مجرد مظاهر الطراز مثلا المظهر الرومانسكي او الغوطي او الباروكي او الروكوكو أو الامبراطوري ، فكثيراً ما يعتقد الناس بان هذه المظاهر هي طرازات على المستوى ذاته وذلك بوصفها وحدات تمت الى نظام آخر تماماً كالطراز المصري او الصيني (او حتى طراز ما قبل التاريخ) .

ان الاسلوب الغوطي والاسلوب الباروكي هما شباب ورجولة مجموعة الاشكال نفسها،فالاول يمثل الطراز الغربي في طريقه الى النضوج ، والثاني يمثل إكتمال نضوج هذا الطراز ، وان ما كان يعوزنا في ابحاثنا الفنية فانما هو التفريق والتحرر من الاهواء والتحيز وارادة التجريد . ولكي نوفر على انفسنا المتاعب قمنا بتصنيف كل ميدان بشكل يخلق فينا انطباعا قويابوصفه «طرازاً» ولسنا بحاجة الى القول بان بصيرتنا قد دُفع بها الى ضلال ابعد وذلك عندما اعتمدنا تقسيم منهاج التاريخ الى قديم ووسيط وحديث، ولكن في الواقع أن حتى احد الانجازات الرائعة الذي ينتمي انتماءً جد وثيق الى عصر النهضة كبلاط بلاتزو فارنيس « Palazzo Farnese » هو اقرب بكثير الى الرواق المقنطر « لباتروكلوس » في « سوست » والى داخل كاتدرائية ماغديبورج

والى سلالم قلاع جنوبي المانيا في القرن الثامن عشر منه الى معبد البستوم او الى اريشتيم « Erechtheum » .زد على ذلك ان العلاقة ذاتها هي الـتي تشد الاسلوب الدوري الى الايوني ، ولذلك فبمقدورنا ان نوحد بين العمود الايوني وبين أشكال البناء الدوري توحيداً تاماً ، كما نوحد بـين الاسلوب الغوطي المتأخر .وبين الاسلوب الباروكي المبكر والمتجلي في كنيسة القديس لورنس في نرنبورغ، او بين الاسلوب الرومانسكي المتأخر وبين الاسلوب الباروكي المتأخر والمتمثل في القسم العلوي الجميل والمخصص للجوقة الغربية في كنيسة ماينز . والحق انه يصعب حتى الآن على أعيننا ان نُميز في الطراز المصري عناصر المملكة القديمة والامبراطورية الوسطى التي تضاهي شباب الدوري الغوطي ، ونضوج الايوني والباروكي ، وذلك لأن هـذه العناصر تتخلل بكل تناغم وانسجام ابتداءً من عهود الاسرة الثانية عشرة لغة الشكل لجميع الانجازات الارقى .

إن الواجب المفروض على تاريخ الفن هو أن يقوم هذا التاريخ بكتابة سير شخصية مقارنـة للطرازات العظمى ، وذلك بوصفها جميعـاً تراكيب عضوية تنتمي الى الفصيلة ذاتها وتمتلك تواريخ حياة تعود (التواريخ) تركيباً الى أصل واحد .

ويبدو الفن في البدء تعبيراً جزوعاً هياباً لنفس استيقظت حديثاً ، نفس لا تزال تبحث عن علاقة تربط بينها وبين العالم الذي لا يزال بالرغم من كونه مخلوقها الخاص ، يتبدى غريباً عنها وغير ودود بالنسبة اليها . فنحن نشهـد رعب الطفل في بناء المطران برنفارد في « هلدشايم » كما نشهده في التصوير على جدران الدهاليز في العهود المسيحية المبكرة ، وكما نراه في قاعات الاعمـدة المصرية في عصور الاسرة الرابعة . فالبدء هو بمثابة فبراير (شباط) الفن ، وهو هاجس عميق هاجس ثروة من الاشكال المقبـلة القادمة ، وتوتر جبار مكبوت يصم المنظر الطبيعي الذي لا يزال ساذجاً كلياً في ريفيته ويُزين نفسه بالقلاع الاولى والبليدات والقرى ، ثم يتبع الارتفاع المرح الفرح الى العصر

الغوطي العالي فالعصر القسطنطيني بأبنيته المستطيلة الشكل وذات الاعمـدة وبكنائسه المقببة ، والى زخرفة تضاريس المعبد في عصر الأسرة الخامسة . فالوجود قد أُدرك وفُهم ، ولغة الشكل المقدسة قـد اكتملت وهي تشع أمجاداً ، والطراز ينضج ليصبح رمزية فخمة الى عمق اتجاهي للمصير ، ولكن الشباب المتوقد يلقى نهايته ، وتنشأ المتناقضات داخل النفس ذاتها . فالنهضة، والعداء الديونيزي الموسيقي للدوري الابولوني، والفن البزنطي لعام ٤٥٠ الذي يتطلع الى الاسكندرية ويشيح بناظريه عن الفن الانطاكي الطروب ، جميع هذه الامور تشير الى لحظة من مقاومـة ، لحظة من حافز فعال او مشلول ، لتدمير ما قد اكتسب . ومن الصعب جداً أن نشرح هذه اللحظة ونوضحها ، كما وأنه ليس الآن هو الوقت المناسب لشرحها هنا .

لقد حلت الآن مرحلة رجولة تاريخ الطراز . فالحضارة تتبدل لتصبح عقلانية المدن العظمى ، هذه العقلانية التي ستسيطر اليوم على الجانب الريفي من البلاد ، كما وأن الطراز آخذ بالصير عقلانياً ايضاً . فالرمزية العظمى تجف وتذوي ، وصخب من الاشكال ما فوق الانسانية تموت وتفنى ، وفنون أرق واكثر دنيوية تطرد فن الحجر المُطـوّر ، والنحت والتصوير على الحـائط يُشجع حتى في مصر على الحركة الاخف والارشق ، والفنـان يتبدى و « يُخطط » ما كان فيما مضى ينبت من التربة ، ومرة أخرى يعي الوجود ذاته ، ويقف هنا بعد ان انفصل عن الارض والحلم والغموض سائلاً متسائلاً ويصارع ليجد تعبيراً له عن واجبه الجديد ، (كما كانت الحـال في بداية الاسلوب الباروكي عندمـا أخذ ميكالنجلو في استيائه الوحشي وفي ركله لمحدوديات فنه ، ينضد عالياً قباب كنيسة القديس بطرس ، وكما كانت الحال ايضاً في عصر يوستنيان الاول الذي تم فيه بناء آيا صوفيا، وحال «باسيلكات» رافينا التي غطيت قبابها بالفسيفساء ، والحال في بداية عصر الاسرة الثانية عشرة في مصر والتي لخصها اليونان واطلقوا عليها إسم سيسوسترس Sesostris والحال في الحقبة الحاسمة في هيلاس (٦٠٠) والتي ربما ، لا بل بالتأكيد قد

عبرت هندستها المعمارية عما رجع صداه لنا حفيدها آشيل .

ومن ثم يحل خريف الطراز اللامع، وهنا تصور النفس غبطتها مرة أخرى، فهي تعي هذه المرة اكتمال ذاتها . « فالعودة الى الطبيعة » هذا المبدأ الذي بدأ يحس به منذ زمن المفكرون والشعراء (جان جاك روسو ، جورجياس و« معـــاصروهم » في الحضارات الأخرى) ويعلنون عنه ، يكشف عن نفسه في عـــالم شكل الفنون بوصفه حنينـــاً مؤثراً وهاجساً حساساً بالنهاية . فالذهن البالغ الصفاء والحضرية المرحة ، وحزن الفراق ، هي جميعاً الوان هذه العقود الاخيرة من الحضارة والتي أشار اليها تاليران فيما بعد حينما قال : « إن من لم يعش قبل عام ١٧٨٩ لا يفهم حلاوة الحياة » .

« Qui n'a pas vécu avant 1789 ne connaît pas la douceur de vivre »

وهذه ايضاً كانت حال الفن الطليق المشمس الفاخر في مصر تحت رعاية سيسوسترس الثالث (١٨٥٠ قبل المسيح) وحال اللحظات القصيرة المشبعة بالغبطة والسعادة والتي تمخضت عن روائـــع اكروبول بيركليس وانجازات تزويكوس (Zeuxis) وفيدياس . ونصادف مثل هذه اللحظات ايضاً عقب الف عام من تاريخ تلك في العصر الأموي وخاصة في بلاد الجن الجذلانـــة للهندسة المعمارية البربرية بما لها من أعمدة هشوش واقواس على شكل حذوة حصان والتي تذوب في الهواء متلونة في قوس قزح من الزخارف والرواشح الكلسية (Stalactites) . ثم نصادف مثل تلـك اللحظات عقب الف سنة أخرى وذلـك في موسيقى هايدن وموتزارت ، وفي رعويات درسدن ، وفي صور فاتو (Watteau) وغواردي ، وفي انجازات اساتذة البناء من الالمان في درسدن وبوتسدام وفيرتزبرغ وفيينا .

ومن ثم يذوي الطراز ، فلغـــة شكل ارشتويم (Erechtheum) ، ودرسدن تزفنجر ، لغة ملأها الذهن بثقوبه ونخاريبه ، وهي لغة هشوش مستعدة لتدمير ذاتها، ويعقبها التكلسك الهـَرِم الراجف شيخوخة والأخرق التافه والذي نجده في المدن الهلينية الكبرى ، وفي بيزنطه عـــام ٩٠٠ وفي

« امبراطورية » أساليب الشمال .

أما النهايــة فهي غروب ينعكس في اشكال تستفيق للحظة على أيدي فن متحذلق او اصطفائي ، وتسود شبه الجدية واصالة مشكوك في أمرها عالم الفنون. ونحن نمر اليوم في هذه الحال ، ونلاعب اشكالاً ميتة ملاعبة مضجرة مملة كي نحافظ على الوهم القائل بان لنا فناً حياً .

– ٩ –

لم يدرك أحد حتى الآن الفن العربي على أنــــه ظاهرة مميزة فريدة . فهو فكرة لا تستطيـع أن تتجسد وتتخذ شكلاً لها إلا عندما نتوقف عن أن نترك للقشرة التي غلفت الشرق الفتي بوجودات فن مــــا بعد وجود الفــن الكلاسيكي أن تخدعنا ، فهذه الوجودات سواءً كانت تقليداً للغابر ، أم أنهــا اختارت عناصرها من منابع خاصة بها أو غريبة عنهــا كما شاءت وأرادت ، فانها في أية حال ، قد تجاوزت كل حياة باطنية . وعندما اكتشفنا أن الفن المسيحي المبكر وكل عنصر حي حقيقي من عناصر الفن «الروماني المتأخر »، هو في الواقع « مرحلة النبع » « Springtime » للطراز العربي ، وعندمــا نرى حقبة يوستنيان الأول بوصفها حقبة متكافئة تماماً والحقبة الاسبانيــة – الفنيسية الباروكية التي سيطرت على اوروبا خلال الايام العظمى ، أيام شارل الخامس وفيليب الثاني وسادت قصور بيزنطة وصور معاركها الرائعـــة ومظاهرها الاحتفالية (هذه الامجاد الغابرة التي ألهمت اقـــلام علماء البلاط وأدبائهم « كبروكوبيوس ») وأن هذه الحقبة هي ايضاً بدورها حقبـــة متكافئة وحقبة القصور ، في العصر الباروكي المبكر ، في مدريد وروما وفينا والتصوير الزخرفي العظيم لروبنز وتنتوريتو ، (. Tintoretto) عندمــا نرى كل هذه الأمور عندئذٍ ندرك الفن العربي ونعيه . فالطراز العربي يشتمل على

كامل الدورة الالفية الاولى لعصرنا ، لذلك فهو يحتل مكاناً خطيراً في صورة تاريخ « الفن » العام ، زد على ذلك أن ارتباطه العضوي لم يكن قابلاً للادراك بسبب الأعراف الخاطئة والناجمة عما أوردت . والحق أنه لمن الغرابة بمكان (وذلك إذا ما كانت هذه الدراسات قد اعطتنا العين التي نرى بها الشيء الدفين المستتر) ، لا بل إنه لما يهز اوتار القلب هزاً ، أن نرى كيف أن هذه النفس الفتية (العربية ـ المترجم) المستعبدة للذهنية الكلاسيكية ، وفوق كل شيء ، لجبروت روما السياسي الذي لا يقهر ، لا تتجرأ على أن تدفع برأسها نحو الحرية ، بل إنما تخضع نفسها بتواضع لاشكال القيمة المتذلة المهجورة وتحاول أن تقنع باللغة اليونانية وبافكارها اليونانية وعناصر الفن اليوناني . إن القبول الخاشع الورع بقوى اليوم القوي ، هو أمر بدهي في كل حضارة فتية . وهو الدلالة على شبابها وفتوتها . فلنتأمل في مذلة الانسان الغوطي مما له من فراغات مقنطرة عالية وبما لهذه الفراغات من سوابيط تماثيل عمودية ، وصورها الزجاجية المليئة بالنور ، ولنتأمل ايضاً في التوتر العالي للنفس المصرية والمتجلي في وسط عالم اهراماتها ، وباعمدتها التي اتخذت من زهرة اللوتس شكلها ، وبقاعاتها المخططة بالتضاريس . ولكن هناك في مثل هذه اللحظة عنصر إضافي ، عنصر ذهني منهوك القوى خائرها أمام اشكال هي في الواقع اشكال ميتة ، مفترضة الخلود . وبالرغم من كل اقتباس لتلك الاشكان او متابعة لها ، فان هذه الاشكال لم تسفر عن شيء . فلقد نشأ ونما في سوريا الرومانية عالم شكل كامل وجديد ، وجاء نموه قهراً لا طوعاً ، ودون أن يلحظ به أحد أو أن تسانده كبرياء ملازمة له ، كما كانت حال عالم الشكل الغوطي ، حتى بدا تقريباً كأنه انحدار يُرثى له . لكنه استطاع تحت قناع الاعراف الاغريقية الرومانية ان يملأ حتى روما نفسها . فاساتذة بناء البانثيون ، « والفورا » الأمبراطورية كانوا سوريين ، وليس هناك من مثال آخر تتبدى فيه القوى البدائية لنفس فتية ، كهذا المثال ، إذ كان عليها أن تبدع عالمها الخاص معتمدة الفتح المحض . ففي هذه الحضارة

(العربية ــ المترجم) كما هي الحال في كل حضارة أخرى يحاول ربيعها لا بل يجاهد ليعبر عن روحانيته بواسطة زخرف جديد ، وفوق كل شيء، بواسطة الهندسة المعمارية الدينية ، بوصفها الشكل الرفيع لذاك الزخرف . ولكنه لم يعتبر (وفقط حديثاً) من كل عالم الشكل الثري المترف هذا ، سوى الحافة الغربية منه ، والتي زُعم نتيجة لذلك ، بانها الموطن الحقيقي لتاريخ الطراز المجوسي . والحق أن ما نجده في هــذا الموطن المزعوم للنفس المجوسية ، من أمور فن أو دين أو علم أو حياة اجتماعية سياسية ، هو ليس سوى إشعاع يتلألأ من خارج الحــد الشرقي للأمبراطورية . ولقد اكتشف « ريجل » ستر سيغوسكي هذا الواقع ، ولكن إذا ما كان علينا أن نخطو في مضمار هذا البحث أبعد فابعد كي نضع ملخصاً للفن العربي ، فيجب علينا أن نطرح جانباً الكثير من التحيزات الفيلولوجية والدينية . ومن سوء الحظ أن أبحاثنا الفنية بالرغم من أنها لم تعد تعترف بالحدود الدينية ، إلا أنها مع ذلك تدعيها وتتبناها دون ما وعي منها . وذلك لأنه لا يوجد في الواقع اشياء كتلك ، مثلاً كالفن الكلاسيكي المتأخر ، او المسيحي المبكر ، كما وأنــه لا يوجد فن إسلامي وذلك وفق مفهوم الفن الخاص بكل مذهب من هذه المذاهب، حيث قامت بتطويره الجماعات المؤمنة به ، بل بالعكس تماماً فان مجموع هــذه الاديان (ابتداء من ارمينيا الى جنوبي الجزيرة العربية فاكسوم ، ومن بلاد فارس الى بيزنطة فالاسكندرية) ، ذات مشابهة عريضة واسعة في تعبيرهــا الفني ، مشابهة ترفض المتناقضات من التفاصيل لا بل تدوس عليها . فجميع هــذه الاديان ، من مسيحي ويهودي وفارسي « وماني » وسنكريتي (Syncretic) ، امتلك بنايات مذهب (وعلى كل حــال في نصوصها) وزخرف من طراز اول ، ومهما بدت عقائدها متباينة مختلفة ، فان تدينا متجانساً ينتظمها جميعاً ويعبر عنها بواسطة رمزية متجانسة الى الخبرة بالعمق. فهناك شيء ما في « الباسيلكا » المسيحية وفي المذاهب الهيلنية واليهوديــة ومذهب « بعل » وفي مذهب ميثرا (إله الشمس) في معبد النار المازادي

وفي المسجد ، وهذا الشيء ما ينبىء بروحانية متشابهة ، إنها الحس بالكهف.

لهذا يصبح الواجب الملزم للبحث أن يسعى لينقب في الهندسة المعمارية للمعبد العربي في جنوبي الجزيرة العربية ، والمعبد الفارسي ، هذه الهندسة التي تجوهلت حتى الآن، وللكنيس السوري وكنيس بلاد ما بين النهرين ،وللأبنية المذهبية في شرقي آسيا الصغرى وحتى في الحبشة ، كما وعليه أن لا يتحرى فيما يتعلق بالمسيحية عن الغرب البولصي ، [1] ولكن عليه أن يتحرى أيضاً عن الشرق النسطوري الذي امتد من الفرات الى الصين حيث تطلق سجلاته القديمة اسماً ذا مغزى على البنايات المذهبية ، هو « المعابد الفارسية » . فاذا لم يكن أي من هذا البناء قد فرض نفسه حتى الآن على ملاحظتنا خاصة ، فمن العدل أن نفترض إذن أن كلا من تقدم المسيحية اولاً ، ومن ثم تقدم الاسلام استطاع أن يغير دين مكان عبادة دون أن يتعارض ومخطط هذا المكان وطرازه . ونحن نعرف بان هذه الحال كانت حال المعابد في العهد الكلاسيكي المتأخر ، ولكن كم من الكنائس في أرمينيا لربما كانت فيما مضى معابد للنار ؟ لقد كان المركز الفني لهذه الحضارة(كما لاحظ ستوتسيغوسكي) داخل المثلث المحصور بمدن إديسا Edessa ونسيبز (Nisibis) وعاميدا (Amida) وكان يقع غربي هـذا المثلث ميدان الشكل الكاذب (pseudomorphosis) للعصر الكلاسيكي المتأخر ، أي المسيحية البولصية التي سيطرت على المجالس الكنسية في افسوس وغلاطية واليهودية الغربية ومذاهب السنكريتيين. إن طراز الهندسة المعمارية للشكل الكاذب يتمثل في الباسليكا لكل من اليهود والأميين .وهذا الطراز يستخدم الوسائل الكلاسيكية ليعبر عما يريد ، لذلك فهو عاجز عن تحرير نفسه من هذه الوسائل (وهذا هو جوهر مأساة الشكل الكاذب) . فكلما زادت التوحيدية الكلاسيكية في تعديل مذهب يسود مكان يوقليديا ، الى مذهب آخر تقر به طائفة تقيم في مكان معين، كلما زادت أهمية شكل داخل المعبد وتفوقت على شكله الخارجي

(١) نسبة الى بولص الرسول

وذلك دون أن تكون هناك حاجة الى إدخال تعديلات واسعة على المخطط او السقف او السطح او الاعمدة . إن الشعور بالفراغ هو شعور مختلف عن هذا ، لكن الوسائل التي تعبر عنه لا تختلف عن وسائل ذاك . (وذلك في البدء) فهناك في الهندسة المعمارية الوثنية الدينية في العصر الامبراطوري حركة مُدركة (بالرغم من أنها لم تفهم حتى الآن) وهذه الحركة تتجلى في المعبد الاوغسطيني الكامل في حسية حجمه ، فالسللا (Cella) في هذا المعبد هي تعبير هندسي معماري للعدم ، وذلك بالنسبة الى أن الشكل الداخلي وحده يملك معنى ومغزى . وأخيراً فان الصورة الخارجية للبريبتورس « الدورية » peripteros قد نقلت الى الجدران الداخلية الاربعة . فالاعمدة المنتظمة صفوفاً أمام الجدار المعدوم النوافذ هي بمثابة إنكار للفراغ ما وراءها ، الذي هو بالنسبة الى المُشاهد الكلاسيكي فراغ في الداخل ، لكنه بالنسبة الى المُشاهد المجوسي فراغ في الخارج . لهذا فليس من بالغ الاهمية ما إذا كان كامل الفراغ مغطى ومسقوف وذلك كما هي حال « الباسيليكا » أو كان المحراب وحده هو المسقوف كما هي الحال في هيكل الشمس في بعلبك بما لهذا الهيكل من ساحة أمامية شاسعة واسعة والتي ستصبح فيما بعد العنصر الدائم للمسجد والتي ربما كان أصلها عربياً . أما الصحن الذي شيد في ساحة تحيط بها قاعات ، فلم يوح به التطور الخاص بطراز الباسيلكا في السهول السورية الشرقية (وخاصة حوران) بل إنما اوحى به ايضاً تطور التنسيق الاساسي للسفينة ، فالصحن وتقسيم الزوايا (Choir) هما مرحلتان تؤديان الى المذبح ، وذلك لأن الماشي (وفي الاساس القاعات الجانبية للساحة) تنتهي الى العماء ، ولا ينطبق على القباء سوى الصحن الأصلي . ونحن نشهد هذا المعنى الاساسي بوضوح تام في كنيسة القديس بولس في روما ولو ان الشكل الكاذب (قلب المعبد الكلاسيكي) هو الذي فرض الوسائل الفنية مثلا العمود والعارضة المرتكزة على الاعمدة . ويا لها من رمزية عظيمة أن تقوم بإعادة تعمير الاعمدة معبد افروديسياس في « كاريا » حيث كانت تحيط

بالسيلا (Cella) في هذا المعبد ، فنزعت الاعمدة واستعيض عنها بجـــدار جديد خارجها .

لقد كان للشعور بالكهف خارج ميدان الشكل الكاذب كامل الحرية في تطوير لغة شكله الخاص ، ولهذا فان السطح والسقف المعينين أصبحا موضع التأكيد (بينما أن الاحتجاج على الحس الكلاسيكي قد أدى داخل ميدان الشكل الكاذب الى مجرد تطوير القسم الداخلي) . أمـــا متى وأين انطلقت إمكانات القباب والابراج ودعامات الاقواس والعقود الى ميدان الوجود بوصفها مناهج تقنية ، فهذا الامر كما سبق لنا أن قلنا ليس بذي بال . أما ذو الاهمية الحاسمة فانما هي تلك الحقيقة القائلة بان نشوء شعور جديد بالعــالم ، ونشوء رمزية فراغية جديدة ، يجب أن يكون قد حدث قرابة مولد المسيح ، وأن ذاك الشعور والرمزية الفراغية قد بدأت تستخدم هذه الاشكال وتطورهـــا وتخطو بها أبعد فابعد في ميدان التعبير . وليس من المستبعد أبداً أن معابد النار وكنيسات (جمع كنيس) بلاد ما بين النهرين (ولربما ايضاً معابد أتتار Athtar في جنوبي الجزيرة العربية) كانت في الاصل مبـــاني ابراج . وبكل تأكيد فان معبد مارنا الوثني في غزه كان على ما ذكرت . وقد قام البناؤون الشرقيو الاصل بتقديم هذه النماذج من الابنية كبدع توخوا من ورائها إدخال السرور على أفئدة سكان المدن العظمى في جميع انحاء الأمبراطورية الرومانية وذلك قبل أن تستولي المسيحية البولصية بطويل زمن على هذه الاشكال تحت قيادة قسطنطين . ففي روما نفسها استخدم «ترجان » ابولودوروس الدمشقي كي يقنطر معبد « فينوس روما » زد على ذلك أن السوريين هم الذين قاموا ببناء قاعات حمامات كراكالا وقاعات ما تعرف باسم « منيرفا — ميدكا » في عصر جالينوس . لكن القطعة الفنية الرائعة ، وأول مسجد انمـــا يتمثل في البانثيون كما أعاد هادريان بناءه . ففي « البانثيون » كان الأمبراطور لا شك يقلد المباني المذهبية التي شاهدها في الشرق . .

إن الهندسة المعمارية للقبة المركزية ، هذه القبة التي عبر بواسطتها الحس

المجوسي بالعالم أعمق تعبير عن نفسه ، قد امتدت الى ما وراء حدود الأمبراطورية الرومانية . وذلك لان المسيحية النسطورية التي امتدت من أرمينيا حتى داخل الصين ، كانت هي الشكل الاوحد ، كما وانها كل الشكل الاوحد لكل من « المانية » والمازادية ، وقد أثرت ايضاً بروعة ، لا بل فرضت نفسها فرضاً على « باسيليكا » الغرب وذلك عندما أخذ الشكل الكاذب يتهاوى وينهار ، وطوى الموت آخر مذاهب السنكريتيين . أما في جنوبي فرنسا (حيث كان يوجد بعض المذاهب المانية حتى العصور الصليبية) فان الشكل الشرقي كان مألوفاً ومعروفاً ومعمولاً به . وفيعهد جوستنيان عندما تم امتزاج الشكلين نشأ عن مزيجها الباسيليكا ذات القباب في كل من بزنطه و « رافينا » . ولقد دفع بالباسيليكا المجردة الى داخل الغرب الجرماني كي تحولها طاقة زخم العمق الفاوستي الى الكاتدرائية التي نعرفها اليوم . ولقد انتشرت الباسيلكا ذات القباب ايضاً في بزنطة وارمينيا فروسيا حيث أصبح يحسُ بها احساساً تدريجياً بطيئاً بوصفها عنصراً لهندسة معمارية للشكل الخارجي ، وانها تنتمي الى رمزية ترتكز في كاملها على السطح . ولكن الاسلام في العالم العربي ، هذا الوريث للمذهب اليعقوبي (المذهب القائل بان للمسيح طبيعة واحدة - المترجم) وللمسيحية النسطورية ولمذاهب اليهود والفرس ، هو الذي سار بتطور هذا الطراز حتى بلغ به نهايته . فالاسلام عندما حول كنيسة آيا أصوفيا الى مسجد فانه لم يقم إلا باسترداد ما كان له من سبق مُلْك . فلقد سار الاسلام بالبناء المقبب مقتفياً آثار المازادية والنسطورية طيلة الطريق حتى شانتونغ والهند . فلقد ارتفعت المساجد بمآذنها في الغرب البعيد ، في اسبانيا وصقلية ، حيث يبدو طراز تلك المساجد طرازاً شرقياً آراميا فارسياً اكثر منه طرازاً غربياً آراميا سورياً . وبينما كانت مدينة البندقية تتطلع الى بزنطة ورافينا (كنيسة القديس مرقس) فان العهد اللامع ، عهد حكم النورمان وسلالة هوهنشتاوفن كان يكرز على مدن الساحل الايطالي الغربي وحتى على فلورنسا ليعلم السكان الاعجاب بالبناء

البربري [1] وتقليده . فهناك اكثر من دافع من الدوافع التي خيل لعصر النهضة أنها كانت دوافع كلاسيكية (مثلاً الساحة المحاطة بالقاعات واتحاد العمود والقوس) كانت في حقيقتها دوافع نشأت من طراز ذاك البناء .

إن ما ينطبق على الهندسة المعمارية ينطبق ايضاً واكثر ، على الزخرف ، هذا الزخرف الذي تغلب في العالم العربي وفي وقت مبكر على جميع عروض المشخصات وابتلعها ابتلاعاً كاملاً . وعندئذ وبوصفه زخرفاً عربيـاً انطلق قدماً ليقابل ويسحر ويضلل المقصد الفني الفتي للغرب . ففن الشكل الكاذب من مسيحي مبكر وكلاسيكي متأخر يظهر الزخرف ذاته ممزوجاً بالمشخصات الموروثة أو الغريبة أو الذاتية ، كما يظهر فن الرومانسك في العهد الكارولينجي المبكر (وخاصة) في جنوبي فرنسا وايطاليا العليا . ففي الحالة الواحدة فان الفن الهليني يمتزج بالفن المجوسي المبكر ، اما في الحالة الثانية فان الفن البربري البيزنطي يمتزج بالفاوستي . لذلك يرى الباحث نفسه ملزماً في أن يتتبع خطاً بعد خط وزخرفاً بعد آخر كي يكتشف الحس بالشكل الذي يميز بين مرتبة وأخرى . ففي كل عارضة (ترتكز على الاعمـدة) وفي كل أفريز ، هناك معركة سرية تـدور بين الوعي الهرم واللاوعي لكن النصر يكتب دائماً للدوافع الجديدة . فالمرء يحتار ويربك نتيجة لهـذا الامتزاج ، بين الفن الهيليني المتأخر والفن العربي المبكر كما يراه مثلاً في التماثيل النصفية الرومانية (وهنا في هذه التماثيل لا يتجلى التعبير الجـديد إلا في تدبر شعر الرأس) وفي براعم نبتة الكنكر (شوك الجمل ، شوك اليهود) Acanthus التي تظهر (وكثيراً على الافريز ذاتـه) عمل الأزميل وعمل المثقب جنباً الى جنب ، وفي التوابيت الحجرية التي تعود الى القرن الثالث والتي يتبدى فيها شعور مشابه لشعور الطفـل ويحس الانسان بطابع جيتو (Jiotto) وبيسانو (Pisano) هذا الطابع ذو الطبيعة المميزة لاحساس سكان المدن الكبرى والتي تذكر المرء قليلاً او كثيراً بداود أو كارستنس ، وفي أبنيـة

---

(١) يعني شبنغلر البناء الاسلامي في شمالي افريقيا . ـ المترجم ـ

كباسيليكا ماكسنتوس (القسطنطينية) ، وفي أجزاء كثيرة من « الفورا » الأمبراطورية التي لا تزال حتى الآن بالغة الكلاسيكية في مفهومها . ومع هذا كله فان النفس العربية قد حيل بينها وبين النضوج ، وهي شبيهة في تاريخها بشجرة غضة فتية عرقلت نموها ، لا بل اوقفته شجرة عملاقة متهاوية من اشجار الغاب . فهذه النفس لم تشعر او تختبر تلك اللحظة الرائعة ، كلحظتنا التي اختبرنا فيها وفي وقت واحد والحملات الصليبية كيف تطبق العوارض الخشبية في سقف الكاتدرائية وسطحها بعضها على بعض وتنغلق في دعائم مقنطرة ، وكيف يشاد القسم الداخلي ليحقق ولينجز فكرة الفراغ اللانهائي . فلقد تحطمت إبداعات ديوكلتسيان السياسية ، وهي لما تزل في ذروة المجد ، على صخرة الحقيقة القائلة بانه لما كان ديوكلتسيان يقف على ارض كلاسيكية ، لذلك كان لزاماً عليه أن يقبل بكامل حشد العرف الاداري وتقاليده العائدة الى روما المتحضرة ، وهذا وحده كاف لينحدر بكل إنجازاته الى مستوى الإصلاح المجرد للاحوال المبتذلة المهجورة . ولكن ومع هذا فان ديوكلتسيان كان أول خليفة من خلفاء العرب . فمع ديوكلتسيان ظهر مفهوم العرب للدولة الى النور بجلاء ووضوح فنظم إدارة ديوكلتسيان ونظم الساسانيين التي سبقتها وكانت لها مثالاً يحتذى ، هي التي تعطينا بعض فكرة عن المثل الأعلى الذي كان يجب أن تتحقق فيه النفس العربية وتكتمل ، ولكن هذا ما حدث في كل الاشياء فنحن حتى هذا اليوم نعجب بالابداعات المتأخرة فننعت آخر إبداعات الفكر المتمثلة في بلوطونيوس ومارك اوريل ومذاهب إزيس ومترا وإله الشمس ، والرياضيات الديوفنتية ، وأخيراً كل فن حمله الينا الزحف الروماني من الشرق والذي كانت انطاكية والاسكندرية (Points d'appui) له نقطتي استناد . اقول ننعت كل هذا بالكلاسيكي (وذلك لاننا لا نستطيع او بالأحرى لا نريد أن نعتبره غير ذلك) .

وهذا وحده كاف لان يشرح الآن سر الحُميا الجبارة التي انطلقت بها الحضارة العربية عندما تحررت أخيراً من قيود الفن ومن الاغلال الأخرى ،

لتنشر بظلالها فوق كل الاقطار التي كانت باطناً ملكاً لها قبل قرون وقرون من انطلاقها الجبار . إنها دلالة نفس تحس أبداً بالعُجالة وتلاحظ جزعة وقبل أن تبلغ شبابها ، عوارض الشيخوخة والهرم . إن تحرر هذا الجنس البشري المجوسي لا مثيل له في التاريخ ، فسوريا قد افتتحت ، لا بل حررت عام ٦٣٤ ، ودمشق سقطت عام ٦٣٧ ومثلها زيزفون ، ومصر استعيدت عام ٦٤١ ، وفي هذا العام ايضاً بلغ العرب الهند ، وقرطاجة عادت عام ٦٤٧ ، وسمرقند استعيدت عام ٦٧٦ ، واسبانيا سقطت عام ٧١٠ ، وقرع العرب ابواب باريس عام ٧٣٢ .

لقد ضغط في هذه السنوات القلائل وادخر فيها كامل العواطف والآمال المؤجلة والاعمال المتحفظة التي لا تسعها قرون وقرون من تواريخ حضارات أخرى . فالحملات الصليبية أمام القدس ، وعائلة هوهنشتاون في صقلية ، والهانسا في البلطيق والفرسان التيتونيون في الشرق السلافي ، والاسبان في أميركا ، والبرتغال في جزر الهند الشرقية ، وامبراطورية شارل الخامس التي لا تغرب الشمس عنها أبداً ، وبداية العصر الاستعماري الانكليزي تحت رعاية كرومويل ، هذه الانطلاقات كلها ، تقابلها وتعادلها انطلاقة واحدة وحيدة حملت العوب الى اسبانيا وفرنسا ، والى الهند وتركستان .

نعم إن كل حضارة (باستثناء الحضارات المصرية والمكسيكية والصينية) قد نمت تحت وصاية حضارة اعرق منها قدماً . فعالم شكل كل حضارة يظهر آثاراً غريبة عنه وهكذا بما أن النفس الفاوستية في العصر الغوطي قد حُملت على احترام الاصل العربي للمسيحية لذلك أخذت تمد بيدها الى ذخائر الفن العربي المتأخر . فشعور غوطيأولي هو جنوبي المنشأ، حتى ليستطيع المرء أن ينعته بالعربي وقد نسج نسيجه فوق واجهات الكاتدرائيات البورغوندية وبروفانس وسيطر بسحر الحجر على لغة الشكل الخارجي لكاتدرائية ستراسبورغ ، وخاض معارك صامتة في التماثيل والسقائف ونماذج البناء والنقوش والاعمال المعدنية ، ولم يكن نفوذها بأقل في الفلسفة المدرسية وفي

ذاك الرمز الغربي الشديد في رمزيته ، رمز اسطورة الكأس المقدسة، متعاوناً في ذلك والشعور الاولي الغوطي الفايكنغ الذي يسيطر على القسم الداخلي من كاتدرائية ماجديبورغ وأطراف كنيسة فرايبورغ وصوفيـة الاستاذ ايكارت . فأكثر من مرة يبدو القوس كأنه يريـد أن ينفجرويفجر خطه الكابح كي يتحول الى قوس على شكل حذوة الحصان لكن على طراز الهندسة المعمارية البربرية النورمانية وهكذا ايضاً هي حـال الفن الابولوني في الربيع « الدوري » ، (هذا الفن الذي لم تصلنا انجازاته الاولى) فانه قد تأثر دون ريب بالعناصر المصرية الى حد كبير ، وقد تمكن بمساندة هذه العناصر وبواسطتها أن يحقق رمزيته الخاصة به . لكن النفس المجوسية لا تمتلك الجرأة أمام الشكل الزائف لتنتقي الوسائل المناسبة لها دون أن تخضع لهذه الوسائل وتذعن . وهـذا هو السبب الذي يجعل سيماء النفس المجوسية تمتلك الشيء الكثير لتكشف عنه للسائل والبحاث .

— ١٠ —

إذن فان فكرة الكون الكبير التي تعرض نفسها في مشكلـة الشكل ، كفكرة مبسطة وقابلة للمعالجة ، تقدم حشداً من الأعمال للمستقبل ليعالجها ويُلم بها . ولكي نجعل عالم الشكل بمتناول اليد ، بوصفه وسيلة نستطيع أن ننفذ بواسطتها الى روحانية كامل الحضارات ، (وذلك بمعالجتنا لهـا علاجاً سيميائياً كاملاً وبروح رمزية) فانما هذا الأمر هو بمثابة تعهد لم يتجاوزحتى الآن التأمل الذي يبدو لنا قصوره جلياً واضحاً . ونحن حتى الآن بالكاد نعي أنه ربما كانت هناك سيكلوجية للأسس الميتافيزيقيـة لجميع الهندسات المعمارية العظمى . زد على ذلك أننا لا نملك أية فكرة عما يجب ان يكتشف في تبدل المعنى الذي يكابده شكل الامتداد المجرد عندما تضطلع به حضارة اخرى غير حضارته . ان تاريخ العمود لم يُكتب أبداً حتى الآن ، كما وانه

ليست لدينا اية فكرة عن المغازي الرمزية العميقة الـــتي تكمن في وسائل الفن وآلاته .

فلنتأمل في الفسيفساء ! لقد كانت الفسيفساء تصنع في الأزمنة الهلينية من قطع صغيرة من المرمر ،وكانت معتمة غـــير شفافة وذات حجمية يوقليدية (مثلاً : صورة معركة إسوس في نابولي).وكانت تزين أرض القاعة ، ولكن حالما استيقظت النفس العربية أخذوا يصنعون الفسيفساء من قطع من الزجاج ومن الذهب المصهور ، وكانت تغطي ببساطة جدران وسقوف الباسيليكا ذات القباب ، وهذا التصوير الفسيفسائي العربي يطابق ، في طوره ،التصوير الزجاجي للكاتدرائيات الغوطية ، وذلك بوصف كلا الفنين فنين مبكرين مساندين للهندسات المعمارية الدينية.فالتصوير الزجاجي ونتيجةلاجتذابه الضوء يضخم فراغ الكنيسة ويجعله فراغ عالم ، بينما أن التصوير الفسيفسائي يحول الضوء الى دائرة سحرية ذهبية لألاءة ، دائرة تحمل الناس بعيداً عن الواقعة الدنيوية الى الرؤى ، رؤى بلوطونيوس ، واريجن ، والمـــانيَّة والغنوســية والآباء والاشعار العجائبية السرية .

ولنتأمل ثانية في الميل الجميل لتوحيد القوس المستدير والعمود ، وهــــذا الميل هو سوري ايضاً ، وذلك إذا لم يكن عربياً شمالياً ، وابداعاً انجز في القرن الثالث (او القرن الغوطي الراقي) . إن الأهمية الثورية لهذا الدافع ، والذي هو دافع مجوسي على وجه التخصيص ، لم يُعترف بها مطلقاً ، بل كان الأمر على العكس من ذلك ، إذ انه كان يُزعم بان هــــذا الدافع هو دافع كلاسيكي ، وهو بالواقع حتى في اعين معظمنا كلاسيكي . لقد تجاهل المصريون كل علاقة عميقة تربط بين السقف والعمود ، فلقد كان العمود بالنسبة اليهم عمود غرسة لا يمثل البدانة والشدة والشجاعة بل إنما يمثل النمو .

أما الانسان الكلاسيكي الذي كان العمود المنحوت من حجر واحد في نظره أضخم رمزٍ للوجود اليوقليدي ، (فعموده كان بكامله حجمياً ووحدة وثبات) فانمـــا ربط العمود وفق نسب عمودية وأفقية بالغة الدقة من القوة

والحمل بعارضته المرتكزة على الاغمدة .

ولكن هنا وفي هذا الاتحاد بين القوس والعمود والذي قام عصر النهضة بما له من إغواء فاجعي هازل ليعجب به فيصفه بأنه اتحاد كلاسيكي صريح « واضح » (بالرغم من أنه كان ميلاً لم يعتلج او يمكن ان يعتلج في صدر الفن الكلاسيكي) فان مبدأ الحمل والقصور الذاتي الكلاسيكي هو مبدأ مرفوض هنا ، فالقوس قد شيد ليقفز بوضوح خارج العمود الناحل الرقيق . والفكرة التي تحققت هنـــا هي تحرر فوري من كامل الجاذبية الارضية والاستيلاء على الفراغ ، وهناك بين هذا العنصر وعنصر القبة التي تحلق طليقة حرة لكنها مع ذلك تشتمل على « الكهف » العلاقة العميقة ذات المعنى المتشابه ، فالقبة والكهف هما كلاهما عنصران مجوسيان رفيعان جباران وقد بلغـــا اكتمالهما المنطقي في مرحلة « الركوكو » من مراحل بناء المساجد والقلاع البربرية ، حيث تبدو الأعمدة الرقيقة الأثيرية (التي تنمو من الارض اكثر بكثير من ارتكازها على الارض) كأن سراً ما قد خولهـــا السلطة لحمل عالم كامل من الاقواس المحزوزة والزخارف ورواشح الكلس الوضاءة والعقود المشبعة بالالوان. ومن الجائز ان يُعبر عن كامل اهمية هذا الشكل الاساسي من اشكال الهندسة المعمارية العربية بالقول بان مركب العمود والعارضة هو دافع كلاسيكي ، وان مركب العمود والقوس الكروي هو دافع عربي ، وان مركب العمود والقوس المدبب هو دافع فاوستي .

ولنأخذ تاريخ الدافع الكنكري ! (نسبة الى الكنكر ، شوك الجمل ، او شوك اليهود — المترجم) إن الشكل الذي يبدو فيه هذا الدافع يتجلى مثلاً في نصب « ليسيكراتيس » في أثينا ، وهذا النصب هو من اشد الزخارف الكلاسيكية تميزاً . فله حجم وهو إفرادي ويبقى افرادياً ، وباستطاعة لمحة واحدة ان تستوعبه ، لكن سرعان ما يتبدى الدافع الكنكري أشد ثقلاً وأعرض ثراءً في زخرف « الفورا » الأمبراطورية (وزخرف نرفا وترجان) وفي زخرف هيكل مارس اولتور Mars Ultor ، فالنازع العضوي في هذا

الدافع قد بلغ من التعقيد حداً يتوجب على المرء معه ، وكقاعدة عامة ، ان يدرسه ، كما وان الميل لملء السطوح يتبدى ايضاً واضحاً . وتضاف الى الدافع الكلاسيكي اوراق الكرمة والنخيل الآرامية القديمة ، هذه الاوراق التي لعبت دوراً في الزخرف اليهودي . دخلت الحدود المتشابكة للأرصفة الفسيفسائية الرومانية « المتأخرة » وحافات التوابيت الحجرية وحتى النماذج الهندسية المستوية على الزخرف ، وأخيراً فان الحركة وكل ما هو غير مألوف في العالم الأناضولي الفارسي يبلغ ذروته في الزخرف العربي الذي هو الدافع المجوسي الأصيل، الدافع المناهض للتشكيلي (Plastic) حتى النهاية والمعادي للتصوير والشخصاني معاً .

فالزخرف العربي لا جسد له ، وهو يجرد الموضوع من جسده حيث يغطي الجسد ويستره بنسيج مترف لا نهاية لثرائه . وخير مثل على هذا النوع هو الابداع الاستاذي الرائع المتجلي في واجهة قلعة ماشطه (Mashetta) التي بناها الغساسنة في جبال موآب، وهذه هي الواجهة قطعة من الهندسة المعمارية استحالت بكاملها زخرفاً . إن الفن الصناعي ذا الاسلوب البزنطي الاسلامي (وحتى الآن اسميناه بالاسلوب اللومباردي الفرنكي الكلتي ، النوردي القديم) الذي اكتسح جميع بلدان الغرب الفتي وسيطر على الأمبراطورية الكارولنجية، هو فن سبق أن مارسه من قبل الصناع المهرة الشرقيون ، أو استورد كنماذج لحائكينا وحفاري المعادن منا وصانعي الاسلحة . ولقد كانت رافينا ولوتشا والبندقية وغرناطة وبليرمو مراكز بارعة للغة الشكل الراقية في مدنيتها هذه . وفي عام ١٠٠٠ عندما تطورت اشكال الحضارة الجديدة في الشمال وأقرت ، كانت ايطاليا لا تزال خاضعة بكاملها للفن الصناعي ذي الأسلوب البزنطي الاسلامي .

ولنأخذ أخيراً وجهة النظر المتغيرة نحو الجسد الانساني ، فننظر لانتصار الشعور العربي بالعالم فان مفهوم البشر في الجسد الانساني كابد ثوره كاملة . فالانسان يستطيع أن يُدرك في صورة كل رأس روماني يعود الى الفترة الواقعة ما بين عام ١٠٠ و ٢٥٠ ، وذلك في المجموعة الموجودة في الفاتيكان

التعارض بين الشعور الابولوني والشعور المجوسي ، والتعارض في الوضع الفعلي و « النظرة » وذلك بوصف هذين قاعدتين مختلفتين من قواعد التعبير . وحتى في روما نفسها ، ومنذ عهد «هدريان» أخذ النحت يستخدم المِثْقب (drill) استخداماً دائماً ، والمثقب ، كما هو معروف ، يعافه الشعور اليوقليدي بالحجر ويشمئز منه اشمئزازاً كامــلا ، فبينما أن الازميل يُظهِّر السطوح المُحددة وبذلك يؤكد في الواقع الطبيعة الحجمية المادية لكتلة المرمر، نرى أن المثقب بتحطيمه للسطح وابداعه لآثار الضوء والظل ينكر هــذه الطبيعة الحجمية المادية ويرفضها ، وبهذا فان النحت أكان مسيحياً او « وثنياً » يفقد ميـله القديم الى ظاهرة الجسد العاري ، ويكفي المرء ليتأكد مما أوردت أن يلقي بنظرة على تماثيل انطونيوس الضحلة الفارغة ، (ومع ذلك فان هـذه التماثيل كانت أكيداً تماثيل كلاسيكية ، فنحن نرى في هذه التماثيل أن الرأس وحده هو الذي يستأثر بالانتباه السيمائي ، وهذه الحقيقة لم تكن مألوفة في النحت « الاتيكي » . أما الثياب فقد اعطيت معنى جديـداً كل الجدة وهي تسيطر وحدها على كامل المظهر ، زد على ذلك أن تماثيل القناصلة الموجودة الآن في متحف « الكابتولن » هي أمثال واضحة جلية على ما ذكرت . ونحن إذا ما تأملنا في هذه التماثيل ، نرى حدقاتها مُتعبة ضجرة ونرى أعينها تتطلع الى البعيد ، ويتضح لنا أن كامل التعبير لهذا الانجاز لم يعد يرتكز على جسده او حجمه بل إنمـــا أصبح يعتمد على المبدأ المجوسي مبدأ الروح ، (Pneuma) هــــذه الروح التي تزعم الافلاطونية الجديــــدة وقرارات المجالس الكنسية والمذهبان المتري والمازدي ، بأنها موجودة في الانسان .

ولقد كتب « الأب » الوثني « إيامبلتشوس» (Iamblichus) كتابـــاً قرابة عام ٣٠٠ يدور حول موضوع تماثيل الآلهة ، وقد قال في كتابه أن العنصر الإلهي موجود دائماً ويؤثر في المشاهد . ولقد انتفض الشرق والجنوب ضد فكرة الصورة هـذه (وهي فكرة الشكل الكاذب) ليعصفا بالصورة وليحطما التماثيل ، أما منابع تحطيم الصور والتماثيل فانما تكمن في مفهوم ما من مفاهيم الابداع الفني وهو مفهوم من المستحيل علينا تقريباً إدراك كنهه .



الفصل السابع

الموسيقى والفنون التشكيلية (Plastic)

١

فنون الشكل

- ١ -

إن أوضح طراز للتعبير الرمزي الذي اوجده حس الجنس البشري بالعالم هو (إذا ما استثنينا المجال الرياضي العلمي للعرض ورمزية قواعده الاساسية) فنون الشكل البناءة (Die bildenden kunste) والتي يعتبر الرقم فصيلة منها . ونحن نعتبر الموسيقى بكل انواعها البالغة في عدم تشابهها، جزءاً من هذه الفنون ، ولو أن هذه الانواع قد أدخلت في مجال البحث التاريخي الفني ، بدلاً من أن تصنف في مرتبة منعزلة عن الفنون التشكيلية لكنا قد خطونا حتماً خطوات اوسع الى الأمام في فهمنا لمغزى هذا النشوء والارتقاء حتى نهاية ما .وذلك لأن الزخم الاشتقاقي الذي هو المحرك والفاعل

في الفنون التي لا تستخدم الكلمة ، زخم لا نستطيع أن نفهمه أبداً إلا إذا ما أصبحنا نعتبر أن التمييز بين الوسائل البصرية (Optical) وبين الوسائل السمعية (Acoustic) هو تمييز سطحي . ونحن لن نبلغ آية غاية إذا ما تحدثنا عن فن العين وفن الأذن . فليست أشياء كهذه هي التي تفرق بين هذا الفن وذاك . ولم يستطع غير القرن التاسع عشر أن يبالغ في تقديره لأثر الظروف السيكلوجية إلى حد جعله يطبق هذا التمييز بين ما ذكرت على التعبير والرأي أو الشركة من صحبة ومخالطة (Communion) .

فلوحة شادية لكلود لورين او فاتو (Watteau) ، لا تعرض في الواقع نفسها على عين الجسد ، أكثر مما تعرضه الموسيقى ذات الأرومة الفراغية ذاتها ، منذ باخ (Bach) على الاذن . فالعلاقة الكلاسيكية التي تربط بين الانجاز الفني وبين عضو الحس ، (والتي كثيراً ما نذكر انفسنا تذكيراً خاطئاً بها في هذا الميدان) هي شيء ما مغاير ومختلف تماماً ، إنها شيء ما أبسط كثيرا واكثر مادية من علاقتنا التيتربط انجازنا الفني بعضو حسّنا . فنحن نقرأ عطيل وفاوست وندرس العلامات الجوفية ، اي اننا نبذل فاعلية حس بفاعلية حس أخرى ، وذلك كي نترك للروح المركزة لهذين الانجازين ان تفعل فعلها فنيا فهنا استئناف دائم من الحواس الباطنية ، استئناف الى قوة الخيال الفاوستية الحقيقية اللاكلاسيكية مظهراً وجوهراً. وبهذا فقط نستطيع ان نفهم التبدل اللانهائي الذي يطرأ على المنظر الشكسبيري ، مقابل وحدة المكان الكلاسيكي . وفي الحالات القصوى ، مثلاً في تلك المتبدية في مسرحية «فاوست» نفسها ، فانه لمن المستحيل عرض هذه الرواية (أعني عرض كامل محتواها) عرضاً جسمانيا . ولكن كذلك هي الحال ايضاً في الموسيقى (مثلاً في A capella غير المرافقة من الطراز البالستريني ، ومثلهA fortiori في قطعة « الآلام » لهنري شوتس ، وفي فوغات باخ ورباعيات بيتهوفن وترستان) فاننا نختبر ونحيا وراء الانطباعات الحسية ، عالماً كاملاً من الانطباعات الأخرى ، ومن

خلال هذه الانطباعات وحدها يبدأ الاكتمال والعمق للانجـــاز الفني بتقديم نفسيهما إلينا ، وهي تطلعنا على شيء عن نفسها بالواسطة فقط ، بواسطـــة صور ذات الوان شقراء ورمادية وغبشاء وذهبية ، وصور غروب الشمس ، وذرى سلاسل الجبال النائية المنتظمة ، وصور العواصف والربيـع والمناظر الطبيعية ، والمدن الغارقة المتهاوية والوجوه الغريبة التي يتوسل بها التناغم (Harmony) الينا والحقوانها لم تكن بالمصادفة هي تلك التي جعلت بيتهوفن يكتب آخر انجازاته وهو أصم ، فالصمم قد حرره فقط من آخر أغلاله . فلمثل هذه الموسيقى (التي كتبها بيتهوفن وهو أصم – المترجم) فان النظر والسمع معاً ليسا سوى جسرين الى النفس لا اكثر . ولقد كان مثل هذاالنوع من الرؤيا في الفن أمراً غريباً عن الأغريقي غرابة كلية . فلقد كان الاغريقي يحس بالمرمر بعينيه ، وكانت انغام ألوس (Aulos) الأجشة تحركه جسدياً تقريباً . فالعين والأذن هما بالنسبة اليه هو المتلقيتان لكامل الانطباع الذي يرغب في تلقيه . لكن هذا الأمر لم يعد حتى في المرحلة الغوطيـــة صحيحاً وحقيقياً بالنسبة الينا .

ان الانغام ، هي في الواقع شيء مـا ممتد ومحدود ومعدود محسوب ، حالها في ذلك حال الخطوط والالوان تماماً كما وان التناغم والنغم والقافية ، والايقـــاع هي جميعاً ليست أقل من المرئيـــات والتناسب والجلاء والقتمة والمعـالم Chiaroscuro . فالمسافة التي تفصل بين نوعين من التصوير يمكن لها أن تكون أطول بكثير من تلك المسافة التي تفصل بين التصوير والموسيقى في إحدى الحقبات التاريخية . فنحن إذا ما تأملنا فيما يتعلق بتمثال مايرون ، نرَ أن فن رسم المناظر الطبيعية لبوسن Poussin هو فن الكانتاتا (Cantata) نفسه ، ونرى أن فن رمبراندت هو نفس فن بوكستهودي Buxtehude في انجازاته الموسيقية التي وضعها للاورغن ، وانجازات باخلبل Pachelbel وباخ ، كما ونرى أن فن غواردي Guardi هو نفسه فن موزارت في الاوبرات التي وضعها ، وذلك لأن شكلي اللغة الباطنيين لكل من العين والأذن، هما شكلان

ينطبق الواحد منها على الآخر انطباقاً وثيقاً الى حد يبدو معه الفرق بين الوسائل البصرية والسمعية تافهاً لا يؤبه له .

إن الأهمية التي كان يعلقها دائماً « علم الفن » على تحديد التخوم المدركة لمجالات كل فن على حدة ، تبرهن فقط على أن العناصر الاساسية للمشكلة لم تطرح بعد على بساط البحث . فالفنون هي وحدات حية ، والحي لا يمكن إخضاعه للتشريح . لقد كان اول عمل يعمد إليه دائماً وعي العلم المتحذلق هو تقسيم العالم اللامتناهي في سعته الى اقاليم ومقاطعات قررتها موازين الواسطة والتقنية الكاملة في سطحيتها ، وإسباغه على هذه الاقاليم والمقاطعات الصحة الخالدة ومبادىء الشكل التي لا تقبل تبدبلاً او تغييراً (!) . وبهذا فرق بين « الموسيقى » و « التصوير » ما بين « الدراما » و « الموسيقى » ، وبين « التصوير » و « النحت ».ثم انطلق ليُعَرّف « فن التصوير »، «فن النحت » وهكذا دواليك . ولكن لغة الشكل التقنية هي في الواقع ليست اكثر من قناع الانجاز الواقعي . فالطراز ليس هو ما زعمه « سمبر » (خدن داروين والمادية في عصرنا) حينما قال بأنه الطراز هو نتاج لكل من المادي والتقنية والغاية ، بل إنما هو عكس ما قاله « سمبر » تماماً ، فهو شيء ما يستعصي على عقل الفن ، إنه رؤيا من نسق ميتافيزيقي ، إنه « إلزام » غامض ، إنه مصير ، وليست له أية علاقة من قريب او بعيد بالحدود المادية لمختلف الفنون .

لذلك فنحن إذا ما قمنا بتنسيق الفنون وفق انطباع الحس ، فاننا عندئذ نفسد المشكلة وننحرف بها في مطلع مستهلها . إذ كيف بامكاننا أن نؤكد جنس (فصيلة) « نحت » له مثل هذه الطبيعة العامة كي نقر ونقبل بقوانين عامة تنبثق عنه ؟ ما هو النحت ؟

لنعد الى التصوير ثانية ! لا يوجد هناك شيء كهذا يدعى (الـ) فن [1]

---

[1] « The » Art of painting
يريد شبنغلر هنا أن يؤكد بأل التعريف The على كلمة فن ولذلك اوردنا أل التعريف بين قوسين -- (المترجم)

التصوير ، فان أي إنسان يقارن بين صورة لرفائيل تبرز فيها المعالم (Outline) وبين صورة لتيسيان تبرز فيها بقع الضوء والظل ، دون أن يشعر بأن هاتين الصورتين تنتميان إلى فنين مختلفين ، وأن أي انسان لا يستطيع أن يتحقق من انعدام وجه الشبه في الجوهر بين انجازات « جيوتو » Jiotto او منتغنا (Mantegna) (تضريس أبدعته ضربة فرشاة) وبين انجـــازات فرمير وغويا ، وهي موسيقى ابدعت على خيش ملون ، فان مثل هـــذا الانسان لن يستطيع أبداً أن يدرك المشاكل الاشد عمقاً . أمـــا فيما يتعلق بالتصوير على الحائط لبوليغنوتوس وبفسيفساء رافينا ، فانـه لا توجد حتى اوجه الشبه في الوسائل التقنية كي ندخلها في الجنس (الفصيلة) المزعوم ، كذلك ما هو العنصر المشترك بين الحفر على المعدن وبين فن « فرانجيلكو » أو بين التصوير البروتوكورنثي على المزهريات والاواني وبين نوافذ الكاتدرائيات الغوطية ، او بين تضاريس مصر وبين تضاريس بارثينون ؟

إنه إذا كانت هناك حدود للفن ، (حدود شكل صير نفسه) فان هذه الحدود هي حدود تاريخية وليست حدوداً تقنية او سيكلوجية . فالفن هو مركب عضوي وليس منهاجاً . وليست هناك أجناس فن تنساب في كل القرون وفي كل الحضارات .

وحتى حيثما نجد (كما هي الحال في عصر النهضة) تقاليد واعرافا تقنية مزعومة تخدعنا بين لحظة وأخرى لنؤمن بخلود صحـــة قوانين الفن العتيق (اليوناني والرومـــاني — المترجم) ، فان مـــا نجده حينذاك هو مختلط متناقض في اعماقه . فليس هناك من أي انجاز فني يوناني او روماني يرتبط باي رابط بلغة شكل تمثال لدوناتيلـلو ، أو صورة لسيغنوريللي او واجهة لميكالنجلو . والحق أن الكواتروتشنتو [١] Quattrocento يرتبـــط باطنيا بالعهد الغوطي المعاصر وليس باي شيء غيره ، أما الحقيقة القائلة بان

(١) Quattrocento : القرن الخامس عشر محصوراً بالفن والاداب الايطالية ـ المترجم

الطراز الاغريقي الابولوني قــد « تأثر » بالتصوير المصري ، أو أن الفن « التوسكاني » المبكر « تأثر» بتصوير « الاتروسكان » على القبور ، فانها تدل أكيداً على ما هو مضمر حينما يكتب باخ فوغيه عن موضوع غريب عنه ، فهو يُري ما الذي يستطيع أن يعبر عنه بواسطتها . إن كل فن افرادي ، أكان فن تصوير المناظر الطبيعية الصيني . أو الفن التشكيلي المصري ، أو الغوطي الكونتروبونتي ، هو فن يتواجد مرة واحدة فقط ويختفي باختفاء نفسه ورمزيتها ولا يعود أبداً .

– ٢ –

وبهذا ينفتح رأي الشكل انفتاحاً عريضاً واسعاً ، فليست الآلة التقنية فقط وليست لغة الشكل وحدها ، إنما اختيار جنس الفن نفسه يُرى ايضاً وسيلة من وسائل التعبير . فان ما يعنيه ابداع رائعة معلم (Masterpiece) بالنسبة للفردالفنان (مثلاً الحراسةالليلة لرامبراندت،او المايستر سنجرلفاغنر)، اي ابداع صنف أو مرتبة من فن مدرك على هذه الصورة ، يعني بالنسبة الى تاريخ حياة حضارة من الحضارات . انــه حقي تاريخي . وبغض النظر عن الظواهر الخارجية ، فان كل فن كهذا هو تركيب عضوي افرادي لا سلف له او خلف . فنظريته وتقنيته وعرفه او تقليده هــي جميعاً أشياء تنتمي الى طبيعته ولا تحتوي على أي شيء من الصحة الخالدة او الكونية . فمتى يولد أحد هذه الفنون، ومتى يستهدف نفسه ، وهل يموت أو يُحَوّل الى فنآخر، ولماذا هذا الفن او ذاك ، فن سائد أو غائب عن حضارة معينة ، فجميع هذه الاسئلة هي اسئلة شكل في ارفع ما للشكل من مفهوم ، وهــي اسئلة كتلك الاسئلة تماماً التي تسأل، لماذا يتجنب مصورون او موسيقيون افراديون له دون ما وعي منهم ظلالاً او تناغمات معينة ، او على العكس من هذا ،

يفضلون تلك الظلال وهذه التناغمات الى درجة نتمكن معها من معرفة شخص المصور او الموسيقى من تلك الظلال او هذه التناغمات .

ان النظرية لم تعترف حتى الآن بأهمية هذه المجموعة من الاسئلة ، وحتى نظرية يومنا هذا ، ومع هذا فاننا من هذا الجانب بالذات ، الجانب السيمائي ، يستطيع الفهم ان يبلغ الفنون ويدركها ، لقد افترض حتى الآن ، وذلك دونما البسط لتمحيص القضايا الخطيرة التي يثيرها ما يلي من افتراض .

ان «الفنون» المتعددة المعينة في منهاج التبويب (الذي يزعمون صحته) هي جميعاً فنون ممكنة في كل زمان وكل مكان ، وان غياب هذا الفن أو ذاك في حالات خاصة ، انما يرد أولاً واخيراً : الى العوز العرضي الى الشخصيات المبدعة الى الظروف الحافزة الدافعة ، او الى المناصرين الحصفاء لقيادة «الفن» على دربه . وهنا يبرز لنا ما أدعوه بنقل مبدأ السببية (العلية) من عالم الصيرورة . ولما لم تكن لديهم أية عين ليروا بهـا منطق الحي وضرورته المختلف تماماً ، وليبصروا بها المصير وحتمية الحدوث الفريد في نوعه لامكانات التعبير ، لذلك لجأ الناس الى الاسباب : (العلل) الواضحة والمحسوسة لبناء تاريخهم للفن ، هـذا التاريخ الذي أمسى يتألف من سلاسل من الحوادث ذات وفاق ومطابقة سطحيين فقط .

ولقد سبق لي في الصفحات الاولى من هذا الكتاب أن فضحت ضحالة الرأي القائل بالتتالي المسطري (نسبة الى مسطرة) للجنس البشري والبادي في تقسيم التاريخ الى حقبات ثلاث ، قديمة ووسيطة وحديثة ، هذا التقسيم الذي اعمانا عن رؤية التاريخ الحقيقي وتركيب الحضارات الارقى . فتاريخ الفن هو حالة واضحة في حد ذاتها . فإذا ما زُعم وجود عدد من دوائر فن معرفة تعريفاً جيداً وثابتة وغنية عن البيان ، فان المرء سينطلق عندئذ إلى تنظيم تاريخ هذه الدوائر المتعددة وفقـاً للمنهاج الغني عن البيان غنى تلك ، والمقسم للتاريخ الى حقبـات قديمة ووسيطة وحديثة ، وطبعاً الى اطراح الفنين الهندي والاسيوي الشرقي جانبـاً ، واطراح فن اكسوم وسبأ ، وفن

الساسانيين وفن روسيا ، وإذا لم يحذف هذه الفنون جميعاً ، فانه في أحسن الحالات سينفيها الى الملاحق . ولم يخطر على بال أحد أن نتائج كهذه تستثير الجدل في اختلال النهج وفساده ، فهم قد وجدوا المنهاج أمامهم ووجدوا أنه يتطلب حقائق ، وأن عليهم أن يغذوه بهـــا مهما كان الثمن . وعلى هذه الشاكلة جرى ترسم تاريخ الفن صعوداً وهبوطاً ترسماً عقيماً غبيـــاً أبله . فالازمنة الساكنة الهامدة وصفت بانها «توقفات طبيعية » ، وعندما كان يموت حقاً فن عظيم كانوا يسمونه «انحطاطاً» ، وعندما كانت ترى عين متحررة حقاً من التحيز ولادة فن آخر في صقع آخر ليعبر عن الانسانية ، كانوا يسمون هذه الولادة بعثاً وانبعاثاً . وهم لا يزالون يدرسوننا حتى هذا اليوم أن عصر الانبعاث هو الولادة الثانية للعصر الكلاسيكي . وهكـــذا استخلصوا ذاك الاستنتاج القائل بانه يمكنك ويحق لك أن تتناول فنوناً ضعيفة وحتى ميتة (وحاضرنا فيما يتعلق بهذا الموضوع ميدان معركة حقيقي) وأن تدفع بها الى الانطلاق بواسطة منهاج اصلاح واع او انبعاث ارغامي .

ومع هذا ، فان في هذه المشكلة مشكلة النهاية ، مشكلة النهايـــة المؤثرة الفجائية لاحد الفنون العظمى (نهاية الدراما الاثيكية في يوربيديس ، ونهاية النحت الفلورنسي بميكالنجلو ، ونهايـــة الموسيقى الاداتية بلست وفاجنر وبروكنر) تكون الطبيعة العضوية لهذه الفنون في أشد حالات الوضوح ، ونحن اذا ما أمعنا النظر امعاناً كافياً لن نجد أية صعوبة في إقناع انفسنا بانه لم يولد أي فن له شيء من العظمة مرتين. فلم ينتقل أي شيء من اسلوب الهرم الى الاسلوب الدوري ، وليس هناك من أي شيء يربط المعبـــد الكلاسيكي ببزيليكا الشرق الأوسط ، أما فيما يتعلق باقتباسها المجرد للعمود الكلاسيكي بوصفه عنصراً معمارياً ،.ومع أن هذا الاقتباس يبدو ذا أهمية قصوى في نظر المراقب السطحي ، فانه في الواقع لا تزيد أهميته عن أهمية استخدام «غوتيه» للميتولوجيا القديمة حين وضعه لمشهد ليلة فالبرجس الكلاسيكية في مسرحيته «فاوست» . ان الايمان ايماناً أصيلاً بولادة الفن الكلاسيكي مرة ثانية ، او

ولادة أي فن كلاسيكي ، في القرن الخامس عشر يستلزم أن نمطّ الخيال مطاً نادراً . زد على ذلك أن الفن العظيم قد لا يموت فقط مع الحضارة بل انما قد يموت أيضاً داخلها ، وهذا ما نستطيع أن نشهده في مصير الموسيقى في العالم الكلاسيكي . فلا شك أن امكانات الموسيقى العظمى في هذا العالم المذكور يجب ان تكون قد تجلب في زمن رجل النبع الدوري ، (والا كيف نستطيع خلافاً لذلك ان نقدر أهمية اسبرطة ذات الطراز العتيق في أعين موسيقيين كاولئك من الذين جاءوا فيما بعد (لان تيرباندر وتالتياس والكمان كانوا لايزالون نافذي الاثر هناك ، وذلك عندما كان فن التماثيل في أماكن أخرى مابرح في عصر طفولته) ومع ذلك أمسك العالم الكلاسيكي المتأخر عنه . ووفق الاسلوب ذاته فان كل ما حاولته المجوسية في ميدان التصويري الجبهي (نسبة الى جبهة) ، التضريس العميق والموزاييك قد خضع أخيراً واستكان امام الزخرف العربي ، كما وان كل شيء من الفنون التشكيلية الذي انبثق في ظلال الكاتدرائيات الغوطية في « شارتر »و« ريمس» و «بامبرج»و «نورمبرج» وانجازات بطرس فيشر في نورمبرج ، وفيروتشيو في فلورنسا قد اختفت وتلاشت امام التصوير الزيتي في مدينة البندقية والموسيقا الاداتية الباروكية.

- ٣ -

ان معبد « بوسايدون » في بيستوم ، وكاتدرائية مدينة اولم Ulm ، وهما انجازان من انجازات اشد العصور الدورية والغوطية نضوجاً ، يختلفان بالذات اختلاف الهندسة اليوقليدية التي تحدد حجماً للسطوح ، عن الهندسة التحليلية هندسة مركز النقاط في الفراغ المستندة الى المحاور الفراغية . ان جميع الابنية الكلاسيكية تبدأ من الخارج ، بينما ان جميع الابنية الغربية تبدأ من الداخل ، كما وان الابنية العربية تبدأ ايضاً من الداخل . اذ ان هناك نفساً واحدة ، وواحدة فقط هي النفس الفاوستية التي تتوق الى اسلوب ، وهي

التي تخترق الجدران لتغوص في الكون اللا محدود للفراغ ، وتجعل من داخل البناء وخارجه صورتين تكمل الواحدة منهما الاخرى ، صورتين تعبران عن نفس الشعور الواحد بالعالم . ان المظهر الخارجي للبازيليكا قد يكون ميداناً للزخرف والزينة ، لكنه ليس بالتأكيد هندسة معمارية . فالانطباع الذي يصادفه المُشاهِد عندما يقترب منه (المظهر الخارجي للبازيليكا – المترجم) هو انطباع عن شيء ما يدرأ ، شيء ما يخفي سراً . فلغة الشكل في غُبشة الكهف موجودة بالنسبة الى المؤمن فقط ، وهذا العامل هو عامل مشترك بين اسمى انجازات هذا الاسلوب وارفعها وبين ابسط الاعمال الفنية المتروية (نسبة لمترا اله الشمس عند الفرس – المترجم) والسراديب التي جاءت كمطلع تعبير جبار لنفس جديدة . والآن حالما تستولي الروح الجرمانية على طراز البازيليكا يطرأ تحول فجائي عجائبي على كل الاجزاء المعمارية ، وذلك فيما يتعلق بكل من المركز والفحوى . فهنا في الشمال الفاوستي يبدأ الشكل الخارجي للبناء ، أكان هذا البناء كاتدرائية او بناءً للسكن ، اقول يبدأ بالارتباط بالمعنى الذي يسيطر على ترتيب الشكل الداخلي ، وهذا المعنى لم يفصح عنه المسجد ، وهو معدوم الوجود في المعبد الكلاسيكي . فللبناء الفاوستي مُحَيّا وليس مجرد واجهة ، وينسلك مع هذا المُحيا جذع ذو مفاصل يجر بنفسه خارجاً من خلال سهل فسيح كالكاتدرائية في سبيير (Speyer) ، او ينتصب شامخاً يطاول براسه السماوات كتلك الحلزونات التي لا يحصيها العد والموجودة في المخطط الاصلي لكاتدرائية ريمس . ان النازع الى الواجهة الذي يرحب بالمُشاهِد ويطلعه على المعنى الباطني للمنزل ، لا يسيطر فقط على البنايات الرئيسية الافرادية ، بل انما يسيطر ايضاً على كامل منظر شوارعنا واحيائنا وبلداتنا بما لها من ثراء مُميّز في النوافذ .

إن الهندسة المعمارية في المرحلة المبكرة هي الأم لكل ما يتبعها من فنون . فهي التي تقرر اختيارهم وتقرر روحهم . ووفقاً لذلك نرى أن تاريخ فن التشكل الكلاسيكي هو جهد واحد لا يكل او يمل لانجاز مثل أعلى

واحد ، مثـــلاً إخضاع الجسم البشري الطليق في وقفته بوصفه إناء الحاضر الحقيقي المجرد ووعاءه . فهيكل الجسد العاري كان بالنسبة إليه ، كما كانت تماماً كاتدرائية الاصوات بالنسبة الى الفاوستي (تاريخ فن التشكل الفاوستي — المترجم) وذلك ابتداءً من ابكر العصور الكونتروبونتية حتى التأليف الجوقي في القرن الثامن عشر . لقد فشلنا حتى الآن في فهم القوة العاطفية لهـــذا الانعطـــاف الدنيوي للفن الابولوني ، وذلك لاننا لم نشعر كيف ان الجسد المادي المحض والعديم النفس (وذلك لأن هيكل الجسد ليس لـــه « شكل داخلي » ايضاً !) هو الهدف الذي جاهد للوصول إليـــه كل من التضريس المهجور لقدمه والتصوير الكورنتي على الخزف ، والتصوير الاتيكي على الحائط ، حتى جاء أخيراً بوليكلتوس وفيدياس وأظهرا لهم كيف ينجزونهم على أكمل وجه . وقد زعمنا نحن بعماء رائع عجيب بأن هذا النوع من النحت هو جازم بات وممكن كونياً معاً ، وانه هو في الواقع « فن النحت » . وقمنا بكتابة تاريخه بوصفه تاريخاً يهتم بكل الشعوب والمراحل والحقبات التاريخية ، وهناك حتى يومنا هذا نحاتون يتحدثون ، تحت تأثير مبادىء عصر الانبعاث غـير المجربة ، عن الجسد البشري العاري بوصفـــه أنبل وأعرق موضوع « لفن النحت » . ومع ذلك ، فان فن — التمثال هذا ، فن الجسد العاري الواقف طليقاً على موطىء قدميه والمدرك من جميع جوانبه المتماثلة ، قد وُجـــد في الفن الكلاسيكي ، والكلاسيكي وحده ، وذلك لان تلك الحضارة كانت هي وحدها التي رفضت رفضاً باتاً جازماً أن تتخطى حدود الحس الى الفراغ . لقد كان يُراد دائماً للتمثال المصري ان يُرى من الأمام ، وهو تضريس سطح مستوٍ متباين ، زد على ذلك أن تماثيل عصر الانبعاث المدركة بوصفهـــا كلاسيكية (ونحن حقاً نذهل من قلة عددها اذا ما خطر لنـــا خاطر كي نحصيها) هي ليست سوى تذكارات شبه غوطية .

ان تطور هذا الفن الصارم في لافراغيته يشغل القرون الثلاثة المبتدئة من عام ٦٥٠ — ٣٥٠ ، وهي مرحلة تمتد من اكتمال العصر الدوري وتحديد الحلبة

المعمارية (Frontalness) حتى حلول التصوير الهليني والتخيلي الذي اختتم الاسلوب العظيم . وهذا النحت لن يفهم أبداً على حقيقة الا حينما يُعتبر آخر وارفع فن كلاسيكي ، بوصفه ينبع من فن سطح مستوٍ ، وقد أذعن اولاً للتصوير على الحائط ثم تغلب عليه . ولا شك انه باستطاعتنا ان نقتفي آثار أصله حتى التجارب في معالجة ذاك الحجم المماثل له معالجة العمود الفقري ، أو الالواح التي كانت تستخدم لتغطية جدار المعبد ، ولا ريب أننا سنجد هنا وهناك الكثير من التقليد للانجازات المصرية (كرسوم ميلتيوس الجالسة) بالرغم من انه قد تكون قلة القلة من الفنانين الاغريق هي التي رأت انجازاً واحداً من تلك الانجازات . ولكن التمثال بوصفه مثلاً أعلى للشكل يعود من خلال التضريس الى التصوير الخزفي القديم والذي ينبعث منه ايضاً التصوير على الحائط . ان التضريس هو كالتصوير على الحائط، أي انه مشدود إلى الحائط الحجمي وان كل هذا النحت حتى عصر مايرون يمكن اعتباره تضريساً قد فصل عن السطح . وقد عومل الحجم في النهاية بوصفه جسماً مستقلاً قائماً بذاته ومنفصلاً عن كتلة البناء ، لكنه يبقى في جوهره صورة (سلهوطه) قائمة امام الجدار . ولقد أُطرح الاتجاه الى العمق جانباً ، فالانجاز ينتشر جبهياً امام المُشاهد . وحتى تمثال مارسياس «لمايرون» يمكن نسخه على المزهريات او قطع النقود المعدنية دون كبير عناء او تكثيف مُدرك .

ونتيجة لذلك فان ما يحظى أكيداً بالافضلية من الفنين الرئيسيين « المتأخرين زمنا » هو التصوير على الحائط . ان المخزون القليل من النماذج يمكن ان نجدها دائماً أولاً في الاشكال المرسومة على المزهرية ، والتي كثيراً ما يجعلونها وبحق متوازية مع فنون النحت المتأخرة كليـاً زماناً . ونحن نعرف بان مجموعة كنتور Centaur ، لكرنيش الغرب في اولمبيا قد استخلصت من التصوير ، أما في معبد ايجنيا فان الانطلاق من كرنيش الغرب الى كرنيش الشرق هو بمثابة انطلاق من طبيعة الرسم على الحائط الى طبيعة الجسم . وقد تم هذا التبدل على يدي بوليكليتوس قرابة عام ٤٦٠ ومنذ هذا العام فما بعد

اصبحت المجموعة التشكيلية هي النموذج للتصوير الدقيق الحازم في اسلوبه. ولكن ابتداءً من ليسيبوس اصبحت المعالجة المكعبة، المعالجة بكل الوسائل والطرق معالجة فرستيكية Veristic بكاملها [١]، معالجة تقول بان للبشع والسوقي ايضاً مكانتهما لدى الحقيقة والقيمة الجمالية. [٢] لقد امست هذه المعالجة مذعنة « للواقعة » ، وحتى آنذاك ، وحتى فيما يتعلق ببراكسيتيلس ايضاً ، فانه لا يزال لدينا تطور جانبي او افقي المسقط (Planar) للموضوع بالإضافة الى مُسودة واضحة التي هي ذو اثر كامل في فعاليته ، وذلك فقط بالنسبة الى وجهة او وجهتي نظر. لكن ممارسة تعدد الالون على الرخام هي برهان ساطع لا يدحض على اصل صورة النحت المستقل وهي ممارسة لم يعرفها عصر الانبعاث وعصر « التكلسك » والتي من الممكن ان يُحس بها على انها بربرية كما وباستطاعتنا ان نقول نفس الشيء عن نحت التماثيل الذهبية والعاجية وعن الطلاء (المنيا) الذي يغطي البرونز ، هذا المعدن الذي يمتلك نغمة ذهبية خاصة به.

- ٤ -

ان المرحلة الفنية الغربية الموافقة لتلك (الكلاسيكية) تشغل القرون الثلاث الممتدة من عام ١٥٠٠ — ١٨٠٠ ، أي انها تقع بين نهاية الفن الغوطي المتأخر زمناً وبين انحلال فن الروكوكو وانحطاطه ، هذا الفن الذي يعبر عن أسمى ما وصل اليه الاسلوب الفاوستي. ففي هذه الحقبة ، وتجاوباً مع النماء المطرد الملحاح لوعي إرادة التسامي الفراغية ، فان الموسيقى الإدائية قد تطورت حتى أمست الفن الزائد والمسيطر على غيرها من الفنون. ففي مطلع القرن السابع عشر ، أخذت الموسيقى تستخدم ألوان النغم المميزة للالات الموسيقية ، وتستعمل متباينات في الاوتار والنَّفَس والأصوات البشرية كوسائل تصوير. وطموحها هذا (وهو طموح لا شعوري) كان يستهدف الارتفاع

---

(١) Verism : النظرية القائمة بان للبشع والسوقي من الفن والآداب مكانتها لدى الحقيقة والقيمة الجمالية.

(٢) اضفنا هذه الجملة من عندنا رغبة منا في ايضاح كلمة Veristic — المترجم —

بها إلى مصاف الاساتذة المصورين العظام ابتداءً من تيتسيان وانتهاءً « بفلاسكي » ورامبراندت . فهي تصور صوراً (السوناتا ابتداءً من جبريللي ، توفي عـــام ١٦١٢ حتى كوريللي ، توفي عام ١٧١٣ وتظهر في كل حركة من حركاتهـــا موضوعاً نمقته الفخامة ودبجته العظمة ويستند الى أساس وتراث الـ — « باصو كونتنيو » (Basso Continuo) وترسم بالزيت مناظر طبيعية بطولية (في الكانتاتا الريفية) وتصور لوحات بخطوط من الانغام (في Lament of Ariadne) لمونترفيدي عام ١٦٠٨) ولكن هذا التعايش والانسجام بين التصوير والموسيقى ينتهي ويزول مع أساتذة الموسيقى العظام من الالمان . فلم يعد التصوير يطيق الموسيقى أو يحتملها ، والموسيقى نفسها أمست مستبدة طاغية ، فالموسيقى (ودون ما شعور منها) هي التي أصبحت على أيدي الموسيقيين الالمان تسيطر على التصوير وتتحـكم بالهندسة المعمارية في القرن الثامن عشر ، وأخذ النحت يذوي شيئاً فشيئاً ويختفي أكثر فأكثر وبصورة جازمة ، من الامكانات الاعمق لعالم الشكل هذا .

ان ما يميز بين التصوير كما كان من قبل وبين التصوير كما اصبح فيما بعد ، اي التحول من فلورنسا الى مدينة البندقية (او لنقل بكلمة اوضح : ان ما يفرق بين تصوير رفائيل وتصوير تيشيان ، ويجعلهماممثلين لفنين يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً تاماً) اقول ان ما يميز بين ذاك وهـــذا ، فانمـــا هو الروح التشكيلية للازول التي تسلك التصوير مـــع التضريس ، بينما أن الروح الموسيقية المتحلية في انجازات الفن الثاني وفي تقنية ضربات فرشاة منظورة ومعلولات عمق لوحية ، هي روح مماثلة لروح الوتر الـملون النغمات ولتَنَفّسِ الجوقات . وهاتان الروحان تمثلان لنا تعارضاً لا مرحلة انتقال ، واعترافنا بهذه الحقيقة أمر حيوي كي نتمكن من فهم التركيب العضوي لهذه الفنون . وعلينا هنا ، كما علينا في كل زمان ومكان، ان نحترس من الفرضياتالتجريدية بوجود « قوانين فن خالدة » . ان « التصوير » هـــو مجرد كلمة . فالتصوير الغوطي على الزجاج كان مجرد عنصر من عناصر الهندسة المعمارية الغوطية ،

لقد كان خادماً لرمزيتها الصارمة،حاله في ذلك كحال الفنين المصري والعربي، او اي فن آخر كان في هذه المرحلة خادماً للغة الحجر . فالاجسام الملفوفة قد بنيت (لاحظ كلمة بنيت – المترجم) كما بنيت الكاتدرائيات تماماً . ولم تكن الطيات التي تلفها سوى زينة وزخرفاً لاخلاص لا نهاية لعمقه ، ولتعبير حازم صارم دقيق . ونحن اذا ما انتقدنا صلابتها وتيبسها وذلك من وجهة نظر تقليد الطبيعة ، فاننا نكون بعملنا هذا قد أخطأنافحواها تماماً .

زد على ذلك ان « الموسيقى » هي مجرد كلمة أيضاً . وهناك بعض موسيقى كان موجوداً في كل زمان ومكان وحتى قبل وجود أية حضارة أصيلة ، وحتى بين الوحوش . لكن الموسيقى الكلاسيكية الجديدة لم تكن سوى تشكيلا (Plastic) للاذن . فالاوتار الرباعية، في تلون انغامها وسلمها الرخو (Enharmonic) لها معنى معماري لا معنى تناغمي (هرموني) . ولكن هذا هو الفرق كل الفرق بين الجسم والفراغ . لقد كانت تلك الموسيقى (الكلاسيكية) وحيدة الصوت ، والآلات الموسيقية القليلة التي استخدمتها قد صنعتها وطورتها وهي تستهدف ارضاء التشكيل النغمي ، ولذلك فان رفضها للقيثارة المصرية هذه الآلة المشابهة في لونها النغمي للبيان (Harpischord) كان أمراً بدهياً . وفوق كل هذا ، فان اللحن (كبيت الشعر الكلاسيكي ابتداء من عصر هوميروس حتى عصر هادريان) قد عولج علاجاً كمياً لا نبرياً او تفخيمياً ، أي ان المقاطع (مقاطع اللحن) وأحجامها وامتدادها واتساعها هي التي كانت تقرر الايقاع . والهتامات القليلة المتبقية لدينا منها كافية لترينا ان السحر الحسي لهذا الفن هو شيء ما خارج نطاق إدراكنا ، لكن هذه الحقيقة بالذات يجب ان تجعلنا نعيد النظر في آرائنا وافكارنا في الانطباعات التي يخلقها نحت التماثيل والتصوير على الحائط ، وذلك لاننا لا نعرف ولا نستطيع ان نعرف او نختبر السحر الذي تفتن هذه به عين الاغريقي .

وكذلك تتساوى الموسيقى الصينية ايضاً وتلك في عجزنا عن ادراكها .

فنحن لا نستطيع ابدا ان نميز في هذه الموسيقى بين ما هو مرح ومُسر وبين ما هو كئيب ومحزن . والعكس، بالعكس ، فان الصينيين يعتبرون الموسيقى الغربية دون استثناء موسيقى زحفعسكري(Marche music). وهذا هو الانطباع الذي يخلفه العنصر الايقاعي الديناميكي من عناصر حياتنا في « الطاو » المعدم النبرات للنفس الصينية ، وهو في الواقع ، الانطباع الذي يخلفه في كامل نفس الجنس البشري الغريب عنا ، انه في الحيوية الاتجاهية المتجلية في صحون كنائسنا وواجهات طبقات منازلنا ، ومرئيات العمق في صورنا ، وفي زحف مأساتنا المسرحية ورواياتنا ، ناهيك عن تقنياتنا ، وكل مجرى حياتنا الخاصة والعامة . فنحن نمتلك بانفسنا نبرة في دمنا ، ولهذا السبب لا نلحظها او نشعر بها . ولكن عندما نضع ايقاعنا جنباً الى جنب وحياة غريبة عنا ، فاننا عندئذٍ نجد التنافر بينه وبينها أمراً لا يُطاق او يحتمل . زد على ذلك ان الموسيقىٰ العربية هي ايضاً عالم آخر تماماً . ونحن لم نعرفها حتى الآن الا من خلال تشكلها الكاذب (الزائف) ، اي في الشكل الذي عرضتها علينا فيه التراتيل البيزنطية والترتيل اليهودي للمزامير ، وحتى هذه فاننا لا نعرف منها الا ما تسرب الينا بواسطة كنائس الغرب البعيد بكتب من الترانيم والتراتيل ،وكترتيلترددادي للمزامير وكترانيم دينية . وانه لغني عن البيان ان ليس الغرب المتدين ، غرب « الاديسا » فقط ، (او المذاهب التوفيقية،وخاصة العبادة السورية للشمس ، والغنوسيين والمانديين) بل ايضاً تلك المذاهب الشرقية الاخرى (المزدية والمانية — نسبة لمان — وكنائس العراق ، والمسيحيون النسطوريون عندما حان حينهم) كان لا شك لها موسيقى دينية مقدسة من نفس الطراز ، موسيقى تطورت جنباً الى جنب والموسيقى الدنيوية المرحة (وخاصة في تقاليد الفروسية من عربية جنوبية وساسانية) وقد بلغ كلا هذين النوعين من الموسيقى (الديني والدنيوي) ذروتهما في الاسلوب المراكشي الذي سيطر على البلاد الممتدة من اسبانيا حتى فارس . ولم تقتبس النفس الفاوستية من هذا الثراء كله غير

بعض اشكال كنسية قليلة ، زد على ذلك انهـا حالما اقتبست تلك الاشكال قامت بتبديلها جذراً وفرعا (هوكبالد ، غويدو دارتزو ، في القرن العاشر) لقد انتجت النبرة النغمية ، وترقيم الميزان الموسيقي (Beat) « الزحف » والبلوفوني (كقافية الشعر المعاصر) اللذين اجتمعـــا ليشكلا صورة للفراغ اللامتناهي . ولكن لكي نستطيع ان نفهم هذا ، علينا ان نميز بين الجوانب التقليدية والجوانب الزخرفية للموسيقى ، وبالرغم من ان معرفتنا محـــدودة بالتاريخ الموسيقي لغربنا ، وذلك بسبب الطبيعة الرشيقة لجميع ابداعـــات اللحن ، الا ان هذه المعرفة كافية لتظهر تلك الثنائية للتطور التي تعتبر احد المفاتيح الرئيسية لتاريخ الفن باكمله . فالاول من تلك الثنائيـة هو النفس ، اللوحة الطبيعية ، الشعور ، أمـــا الثاني فهو الشكل الصارم ، الاسلوب ، المدرسة . ان للغرب موسيقى زخرفية ذات اسلوب عظيم (وهي تقابـــل كامل الموسيقى التشكيلية الكلاسيكية) وهذه الموسيقى ترتبط بتـــاريخ الهندسة المعمارية للكاتدرائية ، وهي تشبهه شبهاً وثيقاً الفلسفة اللاهوتيـــة والصوفية ، وتجد قوانينها في موطن الفن الغوطي الرفيع والممتد ما بين نهري السين والشلدت .

ولقد تطور اللحن الكونتربونتي في وقت واحد ومنهاج الدعامة الطائرة في الهندسة المعمارية ، امـــا نبعه فكان اسلوب « الرومانسك » اسلوب فوكسبوردن «والدسكانت » بحركته الموازية والمعاكسة . والحق ان هذه الهندسة المعمارية هي هندسة اصوات بشرية ، زد على ذلك أن التصوير على الزجاج ، هو كمجموعة التماثيل ، لا يمكن ادراكه الا في انتظام هذه العقود الحجرية . فمع هذه العقود يتبدى فن فراغ رفيع ، فن ذاك الفراغ الذي اعطاه نقولا اوريسم ، مطران ليسي Lisieux معنى رياضياً وذلك بواسـطة تقديمه للابعاد الاحداثيـــة Co - ordinales وهذه هي الـ « Rinascita » والـ Reformatio الاصليين كما شاهدهما يواكيم فلوريس في نهـاية القرن الثاني عشر ،انها ولادة نفس جديدة تعكس صورتها مرآة لغة الشكل لفن جديد .

ولقد ولدت مع هذا الفن ، وفي القلعة والقرية موسيقى مقلدة دنيوية ، موسيقى التروبدورز والمينيسنجر والمسترلز . وقد انتقلت هذه الموسيقى « كفن جديد » من ساحات الاقاليم الى قصور أثرياء « توسكان » وذلك قرابة عام ١٣٠٠ ، أي في عصر دانتي وبترارك ، وكانت تتألف من انغام بسيطة تروق للقلب بما لها من Minor Major ، ومن Canzoni (نوع من الشعر أو الأغنية الايطالية – المترجم) وأرجوزه و Caccias ، كما وانها كانت تشتمل على طراز من الاوبيرتا الشهمة (كاوبريتا آدم ديلا هيل المعروفة باسم روبين وماريون) . وقد دفعت هذه الاشكال بعد عام ١٤٠٠ اشكال الغناء الجماعي الى النمو ، كالقصيدة الثلاثية الابيات والقصة الشعرية Ballade . وجميع هذه هي فن للجمهور والعامة . فالاحاسيس تصور منقولة عن الحياة ، أحاسيس الحب والصيد والفروسية . وبيت القصيد فيهما هو الاستنباط النغمي بدلاً من رمزية تقدمها المسطري ، وبذلك فإن هناك بوناً بين الكاتدرائية والقلعة . فالكاتدرائية هي موسيقى ، بينما ان القلعة تصنع موسيقى . فالكاتدرائية تبدأ بنظرية أما القلعة فتبدأ ارتجالاً ، وهذا الفرق هو الفرق بين الوعي اليقظ وبين الوجود الحي ، بين المنشد الروحي وبين المغني الفروسي ، فالتقليد يقف قريباً جداً من الحياة والاتجاه ، لذلك فهو يبدأ باللحن ، بينما ان رمزية الكونتروبونتية ، تنتمي الى الامتداد ، وهي تشير بواسطة البلوفوني الى الفراغ اللامتناهي . ولقد جاءت النتيجة ، من الجهة الأولى ، مخزوناً من القوانين والقواعد « الخالدة » ، اما ، من الجهة الثانية ، فكانت ذخيرة من الالحان الشعبية التي كان حتى القرن الثامن يستمد منها الالهام لصوره ، ويكشف هذا تباين ذاته عن نفسه فنياً في التعارض الطبقي في عصري الانبعاث والاصلاح الديني . فلقد كان ذوق فلورنسا الظريف المتأدب يَنفر من الروح الكونتربونتية ، ولقد تدرج تطور الشكل الموسيقي الصارم من الموتيت (Motet) الى القداس ذي الاصوات الأربعة تطوراً كلياً داخل الدائرة السحرية للهندسة المعمارية الغوطية وذلك على أيدي

دنستابل Dunstaple وبنشوا Binchois ودوفاي Du fay (عام ١٤٣٠) . وابتداءً من « فرا انجليكو » حتى ميكالنجلو ، فـــان الاساتذة الهولنديين العظام انفردوا في السيطرة على الموسيقى الزخرفية . ولم يجد لورنسو دي – مديتشي شخصاً واحداً في فلورنسا قادراً على فهم الاسلوب الصارم ، لذلك كان عليه ان يستدعي دوفاي اليه . وبينما كان ليوناردو ورفائيل لا يزالان يصوران بلغ أوكجهم (Okeghem) (توفي عـــام ١٤٩٥) في الشمال ومدرسته ، وجوسكين دي بري (توفي عام ١٥٢١) بالبلوفـــوني الرسمية للاصوات البشرية ذروة الاكتمال .

وتتبدى طلائع مرحلة الانتقال الى العصر « المتأخر زمناً » في رومـــا ومدينة البندقية . ولقد انتقلت امارة الموسيقى في العهد الباروكي الى ايطاليا، ولكن الهندسة المعمارية تنازلت في الوقت ذاته عن كونهـــا الفن السائد والمسيطر ، وتكونت هنا مجموعة من الفنون الفاوستية الخاصة كان التصوير الزيتي قطب الرحى فيها . وبلغت امبراطورية الأصوات البشرية قرابـة عام ١٥٦٠ نهايتها في اسلوب الكابلا (Cappella) وذلك على أيدي بلاسترنيا وارلندو لاسو (توفي كلاهما عام ١٥٩٤) ، إذ لم تعد قواهمـــا قادرة على الاندفاع الشجي في اللانهائي ، وبهذا افسحت الطريق لجوقة الآلات والنفَس والوتر . ولذلك انتجت البندقية موسيقى تيسيان والارجوزة الجديـدة التي تتبع في مدها وجزرها مغزى المتن (النص) . ان الموسيقى الغوطيـة هي موسيقى هندسية معمارية وصوتية (Vocal) بينما أن الموسيقى الباروكية هي موسيقى تصويرية وآلية . فالغوطية تشيد وتبني ، بينما الباروكية تفعل بواسطة الحوافز والدوافع ، وذلك لأن جميـــع الفنون قد اصبحت فنونا حضرية ، وبهذا أمست فنونا دنيوية . فنحن نمر من الشكل الشخصي الاسمى الى التعبير الشخصي للاستاذ، ولقد انتجت ايطاليا قبيل عام ١٦٠٠ الـ(Basso Continuo) الذي يتطلب فنانا لوذعيا لا مشتركاً ورعاً تقيا .

ومنذ ذاك الحين فصاعداً ، باتت المهمـــة العظمى تستوجب مَدّ جسم

اللحن في اللانهائي ، او بالأحرى اذابته في فراغ لا نهائي للحن . وطـــور العصر الغوطي الآلات فجعلها عائلات ، لكل عائلة منها صوتها المميز . لكن «الجوقة» الوليدة لم تعد تراعي المحدوديات التي فرضها الصوت البشري ، بل انما اصبحت تعامل الصوت ، بوصفه صوتاً يجب أن ينضم ويلتئم مع الأصوات الأخرى، ولقد تدرجت رياضياتنا في الوقت ذاته من التحليل الهندسي (لفيرمت) الى التحليل الوظائفي المجرد لديكارت . وتظهر في تناغم (هرموني) تزارلينو، مرثيات أصيلة ذات فراغ صوتي مجرد. وهنا نبدأ بالتمييز بين الآلات الموسيقية الزخرفية وبين الآلات الأساسـية ، حيث كما يلتقي اللحن بالزخرف لينتجا الدافع (Motive) وهذا التطور يفضي بنا الى الولادة الجديدة للكونتر بونتية المتمثلة في اسلوب الفوغيه ، هذا الاسلوب الذي كان فريسكو بالدي أول استاذ له ، والذي بلغ ذروته في يوهان سابستيان باخ . ويعارض الاسلوب الباروكي القداديسي والموتات الصوتية باشكاله العظمى المُدَركة جوقياً والمتبدية في (الأورتوريو) (قصة دينية غنائية) (كاريسمي Carissimi وفي الكانتاتا (فيادانا) الاوبرا (منتفردي) .

ولا يهم ما اذا كان لحن « الباص » قد وضع ضد الأصوات العليـا ، أو ركبت الاصوات العليا جوقياً بعضهـا ضد بعض مستندة الى الـ « باصو كونتنيو » ، فان عوالم الصوت ذات الصفة التعبيرية المميزة تعمل عملا متبادلاً مشتركاً ، الواحد منها مستنداً الى الآخر ، وتنشط معـاً في لانهائية الفراغ الصوتي عاضدة مشددة باعثة منيرة مهددة غامرة بظلالها ، وهي موسيقى كلها عزف وغناء متقاطعان ، ومن النادر فهمها ، إلا بواسطة التحليل المعاصر .

وقد تدرجت في القرن السابع عشر من هذه الأشكال المنتمية الى العصر الباروكي المبكر ، أشكال شبيهـة بالسوناتا كطاقم السيمفوني ، والكونشرتو والجروسو . ولقد أمسى سياق الحركات ، والحـل الموضوعي والترخيم ، يرتكز يوماً بعد آخر ، وأكثر فأكثر الى قواعد ثابتة مقررة . وعلى هـذه الشاكلة تحقق الشكل العظيم الهائل الديناميكي للموسيقى (والتي أصبحت بهذا

معدومة الجسم تماماً) وارتفع بها كوريللي وهندل وباخ ليجعلوا منهـــا الفن المسيطر في الغرب . وعندما اكتشف نيوتن وليبنتز قرابة عام ١٦٧٠ حساب التفاضل والتكامـــل اللانهائي في صغره ، بلغ الاسلوب (الفوغي) ذروة اكتماله . وعندما بدأ (اويلر) قرابـة عام ١٧٤٠ في وضع دستوره النهائي للتحليل الوظائفي ، كان ستاميتز وجيله يكتشفون آخر الاشكال وانضجها للزخرف الموسيقي ، أي الحركة ذات الأجزاء الأربعة ، بوصفها عربة لحركة مجردة غير محدودة ، وذلك لأن ذاك العصر لم يعد يختزن من طاقة لغير هذه الخطوة الواحدة التي استوجبها ، ان موضوع الفوغية هو « كائن » (is) أما موضوع حركة السوناتا فهو « يصبح » (Become) أما نتيجة حل الاول فهي صورة ، بينما ان نتيجة حل الثاني هي « دراما » .

ونحن بدلا من ان نحصل على سلسلة من الصور نستحصل على تتال دوري، اما النبع الحقيقي للغة اللحن هذه فانما كانت الامكانات التي تحققت فيالنهاية ، امكانات اعمق واخلص نوع من الموسيقى ، موسيقى الاوتار . ولا شك ان الكمان هي انبل الالات التي تخيلتها النفس الفاوستية ودربتها للتعبير عن آخر اسرارها ، ولا شك ايضاً ان النفس الفاوستية قد اختبرت في رباعيات الوتر، وفي سوناتات الكمان اسمى واقدس لحظات تنويرها . فهنا وفي الموسيقىالمنزلية (Chamber music) يبلغ فن الغرب ككل ارفع ذراه . فهنا قد عُبر عن رمزنا الاولي الى الفراغ اللامتناهي تعبيراً كامـــلاً ، كا عبر تمثـــال الرمّاح لبوليكليتوس عن الجسد الشديد الصـــارم . فعندما يحول حنين احـــدى نغمات الكمان الذي لا يوصف في الفراغ الممتد حولها وذلك في جوقية تارتيني او نارديني ، هايدن او موزارت او بيتهوفن ، حينذاك نعرف انفسنا باننا في حضرة فن ، لا يستحق أن يوضع في مصافه الا الاكروبول وحده . بهـــذا اصبحت الموسيقى الفاوستية الفن المسيطر بين الفنون الفاوستية ، فهي تنفي التشكيل في التمثـــال ، ولا تتسامح ، او تطبق الا الفنون الصغرى (وهي بكاملها فنون موسيقية مصفاة ، غير كلاسيكيةومناهضة لفن عصر الانبعاث)

فنون الخزف (البورسيلين) والتي ، بوصفها اكتشافاً من اكتشافات الغرب تعاصر نشوء الموسيقى المنزلية بكل ما لهذه من تأثير . بينما ان نحت التماثيل القوطي هو بكامله زخرف هندسي معماري ، انـــه عمل بشري تعريشي (espalier) اما النحت الروكوكو فانه يضرب الامثال بصورة رائعـة على التشكيل الكاذب الناشيء عن الاذعان التام للغة شكل الموسيقى ، ويريـنـا الى اية درجة تستطيع التقنية السائدة في صدر الصورة ان تبلغ بتناقضها ولغة التعبير الحقيقية المستترة وراءها .فلنقارن بين « فينوس » التي تجلس القرفصاء في اللوفر والتي نحت تمثالها كيسوفو Coysevox [1] (١٦٨٦) وبين النموذج الاصلي الموجود في الفاتيكان ، فعندئذ نجد في الاول التشكيل الذي يدرس ليصبح موسيقى ، بينما نجد في الثاني التشكيل نفسه . ان افضل مصطلحات نصف بها حركات تمثال كسيفو ذاك وانسياب خطوطه وميوعته في كونه في الحجر ذاته ، الذي فقد كثيرا او قليلا اكتنازه الدقيق الرائـع كالبرسلين ، هي مصطلحات كهذه :

Allegro ; andante; accelerando; staccato . وهـــذا هو السر وراء شعورنا بان المرمر الحُبَيْبي هو خارج احساسنا ، وهـــذا هو السر ايضاً في الميل الكامل في لا كلاسيكيته الى العمل اعتماداً على ما للضوء والظل من آثار. وهذا مما يتفق تماماً ومباديء التصوير الزيتي ابتداء من تيتسيان فما بعده ، وهذا هو ايضاً ما كان يُدعى في القرن الثامن عشر « لونا » في الحفر المعدني ، او الرسم او بمجموعة التماثيل التي تدل حقاً على الموسيقى . ان الموسيقى تسيطر على تصوير « فاتو » watteau وفراغونارد وفـن غوبيلنز والمراقم ، وأَلَمْ نكتسب منذ ذاك الحين العادة ، عادة التحدث عن انغـام اللون او نغم الالوان ؟ اوَ ليست هذه الكلمات بذاتها تدل على اعترافنا بتجانس نهائي بين هذين الفنين اللذين هما غير متشابهين سطحياً كما هي حالها ؟ واوَ ليست هذه

---

(١) Coysevox ولد عام ١٦٤٠ وتوفي سنة ١٧٢٠ وقد قام بنحت معظم التماثيل والزخارف الموجودة في فرساي . — المترجم —

الـكلمات تصبح عديمة المعنى كلياً اذا ما نعت بهـــا اي او كل فن كلاسيكي ؟ لكن الموسيقى لم تقف عند هذا الحد ، بل انما بدأت الهندسة المعمارية في عهد برنيني من العصر الباروكي لتنسجم وروحهـــا الخاصة وصنعت منهـــا فن الروكوكو ، اسلوب الزخرف المتسامي والذي تتلاعب فيـــه الاضواء (او بالاحرى الانغام) لتذيب السقف والجدران وكل عنصر معماري وواقعي آخر في بلوفونيات وهرمونيات وذلك برعشات هندسية معمارية وتعميرية تنطلق لانجاز اثبات هوية لغة الشكل لهذه القاعات والاروقة مع لغـــة الموسيقى المتخيلة لها . ان مدينتي درسدن « وفيينا » هما موطنا هـذه البلاد السحرية المتأخرة زمناً والتي قدر لها ان تتلاشى سريعاً بعدها ، بلاد الموسيقى المنزلية موسيقى الاثاث والرياش المحفورة وقاعات المرايا ، والراعيات في الشعر وعلى البورسيلين . انها والحق لتمثل الخريف النهـــائي الرائع الذي تنجز النفس الغربية فيه التعبير عن اسلوبهـــا الرفيع ، هذا الاسلوب الذي ذوى في فيينا ومات في عصر المؤتمر [١] .

– ٥ –

إننا اذا ما نظرنا الى فن عصر الانبعاث من هذه الوجهة الخاصة من وجهاته الغفيرة ، فاننـــا نراه يمثل ثورة على روح موسيقى الغابـــة الفاوستية الكونتربونتية الـــتي كانت في ذلك الوقت تستعد لأن تخضع لها كامل لغـــة شكل الحضارة الغربية . وهذه هي نتيجة منطقية للتأكيـــد العلني الصريح لهذه الارادة في العصر الغوطي الناضج . وهذا الفن لم يجحد او يتنكر لأصله وقد حافظ على طبيعة إحدى الحركات المناهضة البسيطة، ولذلك بقي معتمداً بالضرورة على أشكال الحركة الأصلية وقد عرض فقط ما كان لهذه الاشكال من أثر على نفس مترددة هيابة ، ولهذا فان هذا الفن كان فناً خالياً من العمق

(١) مؤتمر فيينا الذي عقد عقب هزيمة نابليون . – المترجم –

الحقيقي في كلا المجالين ، المثالي منها والظاهري . أمـــا فيما يتعلق بالأول (المثالي) فعلينا فقط ان نفكر بالعاطفة الانفجاريـــة التي حملت الشعور الغوطي بالعالم ذاته فيها الى كامل الاصقاع الغربيـــة ، وعندئذٍ سنرى فوراً أي نوع من حركة كان ذاك الذي كرسته حفنة من الارواح المختارة (العلماء والفنانين والانسانيين) قرابة عام ١٤٢٠ . لقد كان قضية الاول (المثالي) قضية حياة او موت بالنسبة الى نفس وليدة، أما في الثاني (الظاهري) فانما القضية كانت قضية ذوق . لقد قبض الفن الغوطي على الحياة بكاملهـــا ونفذ الى أشد زواياها اظلاماً وستراً . لقد خلق رجالاً جدداً وعالمـــاً جديداً . فابتداءً من الكثلكة حتى نظرية الدولة لاباطرة الامبراطوريـــة الرومانية المقدسة ، ومن البرجاس الفروسي الى شكل المدينة الجديد ، ومن الكاتدرائية الى الكوخ ، ومن لغة المعمار الى زي ثوب زفاف الفتاة العذراء ، ومن التصوير الزيتي الى أغنية شبيلمان ، كل هذه الاشياء هي موسومة جميعاً بطابع الرمزية الواحدة نفسها. لكن عصر الانبعاث ما كاد يتقن بعض فنون الكلمة والصورة حتى أغلق الباب عليه بالضبـــة والمفتاح . ولم يبدل مثقال ذرة في أساليب الفكر والشعور بالحياة في اوروبا الغربية . فلم يكن باستطاعته ان ينفذ الى ما هو اعمق من الزي والإيماءة ، لكنه عجز عن ان يلمس او يلامس جذور الحياة ، وحتى في ايطاليا فان النظرة الباروكية الى العالم هي في جوهرهـــا استطراد للنظرة الغوطية . وهي (الباروكية) لم تنتج اية شخصية عظيمة حقاً في العهد الممتد من « دانتي » الى ميكالنجلو اللذين كان كل واحـــد منهما يضع احدى قدميه خارج نطاقها . أما فـــيما يتعلق بالظاهري او المُوضح ، فان عصر الانبعاث لم يتحسس أبداً بالشعب وحتى في فلورنسا ذاتها .

فالرجل الذي كانت آذانهم تصغي اليه ، كان سافونارولا ، وهو ظاهرة تنتمي الى نظام روحي آخر تماماً ، نظام يصبح قابلا للفهم والادراك عندما نفطن الى الحقيقة القائلة بان جميع التيارات الخفية كانت تجري طيلة الوقت متجهة نحو الفن الغوطي الباروكي الموسيقي . ولعصر الانبعاث بوصفه حركة

مناهضة للغوطية وردة ضد روح الموسيقى البلوفونية مثيـــل في الحركة الديونسية ، فهذه الحركة كانت حركة ارتجاعيـــة موجهة ضد الفن الدوري وضد الشعور الابولوني بالعالم في ميدان النحت . وهـــي لم تنشأ في مذهب الديونيسي التراكمي ، بل انما استخدمت فقط هذا المذهب كسلاح ضد الرمز المناهض للدين الاولمبي ، وذلك كما حدث تماماً في فلورنسا عندمـــا لجأوا الى المذهب الغابر(Antique) اليوناني الروماني – المترجم) ليبرروا وليثبتوا شعوراً كان في الواقع موجوداً . لقد حدثت مرحلة الاعتراض (Protest) في القرن السابـع في اليونان وحدثت (لهـــذا) في القرن الخامس عشر في اوروبا الغربية ، ويتمثل أمامنا بالواقع في كلتا الحالين نشوب صراع بـــين خلافات راسخة في الحضارة ، خلافات تسيطر سيمائياً على حقبة كاملة من تاريخها ، وخاصة عالمها الفني وبكلمة أخرى نقول ، انها تمثل موقفا تحاول أن تتخذه نفس ضد المصير الذي تدركه أخيراً . ان القوى الباطنية المناهضة (نفس فاوست الثانية التي ستفصل ذاتها عن الاولى) تجاهد لتنحرف بمغزى الحضارة ولترفض وتتخلص او تجتنب الضرورة التي لا ترحم ، وهـــي تقف قلقة ملهوفة في حضرة دعوتها لتنجز قدرها التاريخـــي في العصرين الايوني والباروكي . ولقد شد القلق نفسه في اليونان الى مذهب ديونيزوس بما لهـذا المذهب من تجريد موسيقي للجسد من تهيج جنسي ورعشة جمّاع . امـــا في عصر الانبعاث فان القلق قد لجأ الى تقليد العهود الغابرة (الانتيكية) والى مذهبها في عرف التشكيل الجسمي . وقد أدخلت في كلتا الحالين وسائـــل التعبير الغريبة بوعي وادراك وتعمد وذلك كي تزودطاقة لغة الشكل المناهضة مباشرة الأحاسيس المكبوتة بما لهـــذه الاحاسيس من عاطفة وسطوة ونفوذ لكي تتمكن من الصمود في وجه التيار . (لقـد كان التيار يجري في اليونان ابتداءً من هوميروس فالهندسيين ففيـــدياس ، أما في الغرب فانمـا كان ينطلق من الكاتدرائيات الغوطيّة ماراً برمبراندت حتى بيتهوفن) .

وينتج عن جوهر الحركة المناهضة انه اسهل بكثير على مثل هذه الحركة

ان تُعرّف وتحدد ما تناهضه من ان تعرف ماذا تستهدف . وهذه الواقعة هي الصعوبة كل الصعوبة التي تعترض البحاثة في كل بحث من ابحاثه في عصر الانبعاث . أما حال العصر الغوطي (والعصر الدوري) فانها تختلف تماماً عن تلك ، فالناس في هذا العصر يجاهدون ويناضلون من أجل شيء ما لا ضد شيء ما ، لكن فن عصر الانبعاث لا يقل ولا يزيد عن كونه فناً مناهضاً للفن الغوطي ، زد على ذلك ان موسيقى عصر الانبعاث هي ايضاً موضوع يستحق التأمل بحد ذاته ، فموسيقى بلاط مديتشي كانت (الفن الجديد) لجنوب فرنسا ، اما موسيقى ديومو الفلورنسية ، فكانت كونتربونتية جاءت من بلدان المانيا المنخفضة ، ولكن كلا هذين النوعين من الموسيقى هما في جوهريهما غوطيان ، ويعودان الى الغرب الاوروبي بكامله . ان النظرة التي يكونها الناس عادة عن عصر الانبعاث هي الدليل كل الدليل على كيف ان النوايا المزعومة لحركة من الحركات قد يساء فهم مغزاها الاعمق . فمنذ بوركهاردت كان النقد يناقش ويحاج كل فرضية فردية قدمتها ارواح العصر الرائدة وذلك كل منها وفق ميولها الخاصة ، ومع هذا ، فان النقد تابع استخدم مصطلح (عصر الانبعاث) وفق مفهوم جوهره السابق .

ولا شك في ان الانسان سرعان ما يدرك اذا ما مر بجنوبي جبال الالب عدم التشابه خاصة في الهندسة المعمارية ، وفي طلعة الفنون بصورة عامة . لكن هذا الوضوح بالذات لهذا الاستنتاج الذي يقدمه فوراً الانطباع الينا ، كان عليه ان يقودنا الى الشك فيه ، والى ان نسأل انفسنا بدلا منه عما اذا كان التمييز المزعوم بين الغوطي والغابر (الانتيكي) ليس هو في الواقع الفرق بين النظرات الشمالية والجنوبية لعالم الشكل ذاته . فهناك اشياء غفيرة في اسبانيا تستثير في النفس انطباعا على انها كلاسيكية ، وهذا الانطباع ناشىء لان تلك الاشياء هي مجرد جنوبية ، واذا ما جوبه انسان عادي بالدير العظيم دير القديسة مريم الجديدة (S . Mari~ Novella) او بواجهة (بلاتزو. ستروزي) في فلورنسا وسئل ليجيب عما اذا كان ما يراه هو (غوطيا)

فانه ولا شك سيحزر خطأ ، والا فان التبدل الروحي كان يجب ان لا يبتدىء وراء جبال الالب، بل انما عبر جبال الابنين فقط، وذلك لان مقاطعة « توسكانا » هي فنيا جزيرة في ايطاليا الايطالية . ان ايطاليا العليا تنتمي بكاملها الى الفن الغوطي ذي اللوين (تصغير لون) البزنطي ، امـا سينا (Siena) بصورة خاصة فهي تمثال اصيل لعصر الانبعاث المناهض ، وروما هي منذ حين موطن الفن الباروكي . ولكن في الواقع ان تبدل المنظر الطبيعي هو الذي ينطبق على تبدل الشعور والحق أن ايطاليا لم يكن لهـا اي مسهم باطني في الولادة الواقعية للاسلوب الغوطي ، فايطاليا كانت لا تزال حتى عام ١٠٠٠ خاضعة في شرقها خضوعاً مطلقاً لسيطرة الذوق البزنطي ، وللذوق العربي المسلم في جنوبها . وعندما ضرب الفن الغوطي اول جذر له في تربـة ايطاليا ، فان هذا الفن كان قـد بلغ آنذاك مرحلة النضوج ولقد مكن جذوره هنا بشدة وقوة نفتش عنهما عبثا في ابداعات عصر النهضة . فلنتأمل في(Stabat mater)وفي(Dies Irae)وفي(Catharine of Siena) وفي اعمال (Jiotto) وسيمون مارتيني !

فلقد شع هذا الفن في الوقت ذاته من الجنوب ، وقد هُذبت غرابتـه فألفت وتأقلمت . أما ذاك الذي كبت أو اطرح منـه فلم يكن كما زعموا ، بعضاً من مجهود كلاسيكي متلبث ، بل انما كان لغة شكل بزنطية عربيـة وافقت هوى لدى النفوس في الحياة اليومية المألوفة (وتتمثل في مباني رافينا والبندقية وحتى اكثر من هذا في الزخرف والنسيج والاواني والاسلحة التي استوردت من الشرق .)

واذا ما كان عصر الانبعاث هو «تجديد»(مهما كان لهذه الكلمة من معنى) للشعور الكلاسيكي بالعالم ، فعندئذٍ ألم يكن عليه ان يستبدل بالتأكيد ذاك الرمز ، رمز الفراغ المنتظم ايقاعاً والمعتنق ، بذاك الجسم المعماري الضيق ؟ لكن مثل هذا الامر لم يراود ابداً خاطراً او بالاً ، بل انمـا كان على العكس منه تماماً ، اذ ان عصر الانبعاث قد مارس بكامله وبصورة خاصة الهندسة

المعمارية الفراغية التي وصفها له الفن الغوطي ، والتي تختلف عن هذا الفن فقط في انها بدلاً من ان تتنفس رياح حركة (Sturm und drang)[1] العاصفة والضغط) في الشمال ، تنفست النسيم العليل في الجنوب الهادىء المشمس اللامبالي واللا متسائل ، زد على ذلك انها لم تنتج اية فكرة معمارية جديدة ، اما انجازاتها في ميدان الهندسة المعمارية ، فيمكن ان تلخص في واجهات الدور وصحونها . والآن فان هذا التركيز للجهد المعبر على واجهة الدار على الشارع ، او التركيز على جانب لدير (ذي نوافذ عديدة ودائم المغزى للروح داخله) هو خاصة من خصائص الفن الغوطي (وتشابه شبهاً عميقاً فنها في التصوير) ، كما وان الصحن الرواقي ذاته هو ابتداء من هيكل الشمس في بعلبك حتى قاعة الاسود في الحمراء فن عربي اصيل . ويقف في وسط هذا الفن معبد بوسايدون (Poseidon) في بيستوم (Paestum) حجم وجسم يقف وحيداً لا تشده اية رابطة الى ما حوله ، ولم يرَه احد او يحاول اي من الناس ان ينسخ عنه شبيهاً . اما النحت الفلورنسي فهو ايضاً نحت غير اتيكي سواء بسواء ، وذلك لان النحت الاتيكي هو تشكيل حر ، بينما ان كل تمثال فلورنسي يحس وراءه بكوة حيث بنى خلالها النحت الغوطي سابق ما لها من كوى . اضف الى ذلك ان في ارتباط الجسم بالاساس ، وفي بناء الجسم يعرض اساتذة « رؤوس الملوك » في مدينة شارتر ، واساتذة جوقة (جورج) في بامبرج التحلل ذاته في وسائل التعبير من غابرة (أنتيكية) وغوطية، هذه الوسائل التي لم نقم نحن بالتشديد عليها او بمعارضتها في اسلوب جيوفاني وبيسانو وجبرتي وحتى فيرونشيو .

ونحن اذا ما جردنا عصر الانبعاث من جميع النماذج التي نشأت بعد العصر الامبراطوري الروماني ، اي من النماذج التي تنتمي الى عالم الشكل المجوسي ، فعندئذٍ لن يبقى لهذا العصر اي نموذج . وحتى ابتداءً من الهندسة المعمارية

---

(١) حركة ادبية المانية نشأت في اواخر القرن الثامن عشر وكانت تطالب بتحرير الآداب الالمانية من نواتها الفرنسية . ـ المترجم ـ

المتأخرة زمناً ، فان كل العناصر التي اشتقت منذ ايام هيلاس العظيم قد اختفى الواحد منها اثر الآخر .

ان اشد دوافع عصر الانبعاث جزماً هو ذاك الدافع الذي يسيطر فعلاً على عصر الانبعاث ، والذي نعتبره بسبب انتمائه للجنوب انبل طبع لهـذا العصر ، مثلاً ترابط القوس المستدير والعمود وهذا الترابط هو لا شك غير غوطي ابداً ، ولكنه لا يوجد ايضاً في الاسلوب الكلاسيكي وهو في الواقع يعرض اللايتموتيف (Leitmotif) للهندسة المعمارية المجوسية التي نشأت في سوريا .

ولكن في تلك المرحلة تماماً تلقى الجنوب الحوافز الحاسمة التي ساعدته قبل كل شيء على تحرير نفسه تحريراً كامـلاً من البزنطية ، ومن ثم على الخطو من الاسلوب الغوطي الى الباروكي . ففي هذه المنطقة الواقعة بـين أمستردام وكولون وباريس (وهي القطب المعاكس لتسكانا في أسلوب تاريخها وحضارتها) أبدعت الموسيقى الكونـتربونتية والرسم الزيتي مترابطين والهندسة المعماريـة الغوطية ، ولهذا السبب جاء دوفاي عام ١٤٢٨ وفيلارت عـام ١٥١٦ الى الكنيسة البابوية ، وقد أسس الأخير عام ١٥٢٧ تلك المدرسة في البندقية التي كانت حاسمة حازمة في موسيقاها الباروكية . أما خلف (فيلارت) فكان دي رور من انتفرب (De rore of antwerp)

وقد كلف فلورنسي هوغو فان درغوس بتنفيذ بناء مذبح بورتناري في كنيسة القديسة مريم الجديدة ، وكلف مملنك برسم صورة الدينونة . وقبـل هذا وفوقه فلقد اكتسبت ومارست صور عديدة (وخاصة صور البلدان المنخفضة) نفوذاً هائلاً . وفي عام ١٤٥٠ حضر روجيه فان در فايدن نفسه الى فلورنسا ، حيث أعجب أهلوها بفنه وقلدوه معاً . وفي عام ١٤٧٠ أدخل جوستوس فان جنت التصوير الزيتي الى اومـبريا (Umbria) وجـاء انطونللو دا ماسينا بما تعلمه في هولندا الى مدينة البندقيـة . فبالوفرة ماهو (هولندي) وبا لنـدرة ما هو (كلاسيكي) في صور (فيليبينو لـبي)

وغرلاندايو ، وبوتشللي وخاصة في أحافـــير بوليلو (Pollaiulo) ! أو في انجازات ليوناردو نفسه . وحتى اليوم لا يكاد النقـــاد يهتمون بالاعــتراف بمدى النفوذ الواسع الذي مارسه الشمال القوطي على فنون الهندسة المعماريــة والموسيقى والتصوير والتشكيل العائدة لعصر الانبعاث . وفي ذلك الوقــت تماماً طلع ايضاً نقولا كوسانوس ، كاردينال ومطران بركسن (١٤٠١ — ١٤٦٤) على الرياضيات بمبدأ اللامتناهي في صغره ، هذا المبدأ الذي هـــو بمثابة منهاج كونـترابونتي للرقم والذي وصل اليه بواسطة استدلاله بفكرة الله بوصفه كائناً غير متناه . ومن نقولا كوسا حصل ليبتز على ذاك الزخم الحاسم الذي دفع به الى انجاز حساب تفاضله ، وهكذا طرقت الفيزياء الديناميكية الباروكية النيوتينية فولاذ سلاحها لتهزم به أكيداً الفكرة السكونية (static) المميزة للفيزياء الجنوبية ، هذه الفيزياء التي تمد باحدى يديها الى ارخميدس ، والتي لا تزال نافذة الاثر حتى في غاليلو .

ان المرحلة الرفيعة من مراحل عصر الانبعاث ، هي لحظة اسقاط واضح للموسيقى من الفن الفاوستي . وقد استصوبت ودعمت فلورنسا لمدة عقودقليلة من السنين ، وذلك في المنطقة الوحيدة التي تلامست فيها المناظر الكلاسكية والغربية ، وبمجهود عظيم واحد ، مجهود كان في جرهره ميتافيزيقياً ودفاعياً صحيحاً ، أقول دعمت فلورنسا صورة لما هو كلاسيكي ، صورة مقنعة الى حد مد بعمرها بالرغم من كون طبائعها الاعمق طبائع مناهضة للقوطية دون استثناء، الى ما بعد غوتيه : وإن لم تكن لنقدنا لها فهي لشعورنا لا تزال تعيش صحيحة حتى اليوم .

ان فلورنسا لورنزو دي مديتشي ، وروما ليو العاشر ، وهذا هو ما هو الكلاسيكي بالنسبة الينا ، هما الهدف الخالد لاشد ما لنا من حنين سري ، ففيهما خلاصنا الوحيد من قلوبنا المثقلة وتحررنا من الحد المضروب حول أفقنا. وذلك لانهما فقط وايضاً فقط ، مناهضتان للقوطية . الى هـــذا الحد البين الواضح يبلغ التعارض بين الروحانية الابولونية والروحانية الفاوستية .

لكنني لا أريد لأحد ان يخطىء معرفة مدى هذا الوهم . فلقد كان الناس في فلورنسا يقومـــون بالتصوير على الحائط والتضريس على صورة تتناقض والتصوير الغوطي على الزجاج وتتعارض والفسيفساء البزنطية الارضية المذهبة. وهذا حدث في اللحظة التي كان النحت يحتل فيها المكان الرئيسي بين الفنون. وكانت العناصر السائدة في الصورة تتمثل في الاجسام المتوازنة والمجموعات المنظمة والجانب المعماري من الهندسة المعمارية . أما مؤخرات الصورة فـلم تكن تمتلك أية قيمة جوهرية ، اذ كانت وظيفتها محصورة في ملء ما بـين ووراء الحاضر المعتمد على ذاته للاشخاص في صدر الصورة . ولقد خضع فعلا التصوير هنا لفترة لسيطرة التشكيل فغروتشيو وبوليلو وبتشللو كانوا يحترفون صياغة الذهب ، ومع هذا فالأمر سيان فان هذا التصوير على الحائط لا يختلج فيه نَـفَس واحد من روح بوليغنوتوس . فلتتفحص في مجموعـــة من الأواني الكلاسيكية المزينة بالرسوم ، ولا أعني في نموذج افرادي منها أو نسخ عنها والتي قد تعطي فكرة خاطئة بل في جمهرة هذه المجموعات لأن هذه الجمهرة هي نوع من الفن الكلاسيكي حيث توجد فيه من الاصول (جمع أصل) مايكفينا لتشكل انطباعاً نافذ الأثر عن الارادة التي تختفي وراء الفن وسنرى على ضوء هذه الدراسة كيف تقفز روح عصر الانبعاث الكاملة في لاكلاسيكيتها الى العين . فانجـــازات (جيوتو) العظمى ، ابـداع ماساتشيو لفن التصوير على الحائط ، ليس هو فقط ببعث ظاهري لاسلوب الشعور الابلوني ، فخبرة العمق وفكرة الامتداد اللتان تكمنان وراء ما ابدعه جيوتو وماساتشيو هما ليستا الفكرة الابولونية اللافراغية والجسم القائم بذاته ، بـــل انما هما المجال الغوطي وميدانه .

فمها كانت مؤخرات الصور رجعية فانها لا شك موجودة . ومع هذا فان هنا ثانية امتلاء ضوء ونقاء لوحة وهدوء الظهيرة العظيم في الجنوب . ولقد تم تبديـل الفراغ الديناميكي في توسكانا ، وفي توسكانا فقط أمسى هـذا الفراغ فراغاً سكونياً كان استاذه بيرو ديلا فرانشسكا . ومع أن حقول الفراغ قد

صورت ، لكنها لم ترسم بوصفها وجوداً غير محدد كالموسيقى التي تجاهد أبداً لتغوص في العمق ، بل انما رسمت على شكل يمكن من تعريفها تعريفاً حسياً . فلقد أعطي الفراغ نوعاً من اللاجسمية ونظاماً في مداميك السطح ، ودُرس الرسم وحذاقة الترسيم وتعريف السطح وتحديده بعناية بلغت في ظاهرها المثل الاعلى الهيليني . ومع هذا فلقد بقي هذا الفرق قائماً دائماً ، ففلورنسا رسمت الفراغ رسماً بصرياً بوصفه مفرداً في تعارضه والاشياء كجمع ، بينما ان اثينا عرضت الاشياء كمفردات منفصلة في تعارضها واللاشيئية العامة . وتناسباً وهبوط جيشان عصر الانبعاث ، تقلصت شدة هذا النازع من تصوير ماساتشيو على الحائط والمتجلي في الصور الموجودة في كنيسة برانكاتشي الى صور رفائيل في (ساتنزي الفاتيكان Vatican Stanze) حتى طلع ليوناردو (بالسفوماتو Sfumato) ، بالحروف الذائبة ضمن أرضية الصورة والتي تحل مثلاً أعلى موسيقياً محل مثل التضريس الأعلى ضمن التصوير الزيتي . ولا يمكن للعين ان تخطىء الديناميكية المستترة في نحت فلورنسا ، ومن قلة الحيلة بمكان ان يفتش المرء عن مرافق (اتيكي) لتمثال الفارس الذي نحته (فيروتشيو).

ولقد كان هذا الفن بمثابة قناع ، ومزاج ذوق نخبة (élite) وأحياناً كوميديا ، بالرغم من ان الكوميديا لم تخرج أبداً بكياسة افضل من هذه . ان نقاء الشكل الغوطي ، هذا النقاء الذي لا يوصف ، كثيراً ما يدفعنا الى نسيان أي افراط من قوة ذاتية وعمق امتلكهما هذا الشكل . ان الغوطية ، ويتوجب علينا ان نكرر هذا القول ثانية ، هي الاساس الوحيد الذي يستند اليه عصر الانبعاث . فهذا العصر لم يلامس ابداً الفن الكلاسيكي الحقيقي ، ناهيك عن فهمه لهذا الفن او احيائه له . ولقد قام وعي النخبة الفلورنسية بصياغة اسم مخادع غرار كي يحولوا العنصر السلبي في الحركة الى عنصر ايجابي ، وبهذا يتضح الى اية درجة من القلة كانت تيارات كهذه تعي طبيعتها الخاصة . فلا يوجد هناك من انجاز عظيم لعصر الانبعاث الذي لم يكن ليطرحه معاصرو بركليس او حتى قيصر جانباً وذلك بوصفه انجازاً غريباً غرابة كلية

عنهم . فساحات قصورهم هي ساحات عربية مراكشية ، أمـــا قناطرهم المستديرة والمستندة الى اعمدة نحيلة فهي ذات اصل سوري .

ولقد قام كيمابو (Cimabue)بتعليم قرنه ان يقلدوا بالفرشاة فن الفسيفساء البزنطية . ومن العمارتين المقببتين الشهيرتين لعصر الانبعاث ، فان كاتدرائية فلورنسا ذات القباب هي قطعة استاذ فن تعود الى العصر الغوطي المتـــأخر زمناً ، اما كاتدرائية القديس بطرس فانما هي احدى روائع العصر الباروكي المبكر . وعندما كرس ميكالنجلو نفسه لبناء هذه الكاتدرائية الاخيرة وقـال بانه يريد تشييد « البانتيون المتشامخ فوق بازيليكا مكسنتيوس » فانما كان يعني عمارتين قد شيدا وفق طراز عربي مبكر صاف في عروبته . والزينة ! هل هناك زُخرفة تعود حقاً الى عصر الانبعاث واصيلة في انتمائهـا اليه ؟ لا شك في انه لا يوجد اي شيء منها يمكن ان يقارن في قوته الرمزية بالزخرفة في العصر الغوطي . ولكن ما هو المنبع الاصلي لذلك التزيين الرشيق الزاهي والذي كانت له وحدة باطنية خاصة بـــه والذي خلب لب كل البـــلدان الاوروبية ؟ هناك فرق كبير بين موطن (ذوق) وبين موطن وسائل التعبير التي يستخدمها هذا الذوق . فالمرء يجد الغفير من الانجازات التي تنتسب الى الشمال وذلك في النوازع الفلورنسية المبكرة ، نوازع بيسانو وميانو وغبرتي ودللاكويرشيا . وعلينا ان نميز في كل هذه المذابح (جمع مذبح) والاجداث والكوى والسدف بين الاشكال الخارجية والقابلة للتحويل منها (فالعمود الايوني هو مزدوج التحويل لانه نشأ في مصر) وبين روح لغة الشكل التي تستعملها كوسائل واشارات . فاحد العناصر الكلاسيكية او احد الاشياء الكلاسيكية ، هو معادل ومساو للاخر وذلك طالما ان هناك شيئاً ما غير كلاسيكي هو موضع التعبير ، فالمغزى لا يكمن في الشيء بل انمـا يكمن في الطريقة التي يستخدم وفقهـــا هذا الشيء . ولكن هذه النوازع حتى في دوناتللو هي اقل بكثير مما هي عليه في العصر الباروكي الناضج . أمـــا فيما يتعلق بتاج عمود كلاسيكي صارم في كلاسيكيته ، فانما لا يوجد مثل هذا الشيء .

ومع هذا فان فن عصر الانبعاث قد نجح في انجاز شيء ما ' عجيب رائع لم تستطع الموسيقى ان تضاعفه او تعيد انتاجه ، انتاج شعور بمنتهى السعادة والغبطة بالدنو الكامل ، وبآثار الفراغ النقية المريحة المحررة المتألقة الانيقة والمتحررة من الحركة الشجية للغوطي والباروكي . فعصر الانبعاث ليس كلاسيكياً بل انما هو حلم بالوجود الكلاسيكي ، وهو الحلم الوحيد الذي استطاعت فيه النفس الفاوستية ان تنسى ذاتها .

- ٦ -

والآن ، ومع اطلالة القرن السادس عشر يبدأ الانعطاف الحقبي (نسبة الى حقبة) الحاسم بالنسبة الى التصوير . ففي هذا القرن انتهى عهد وصاية الهندسة المعمارية في الشمال ، وعهد النحت ذاك في ايطاليا ، واصبح التصوير يستهدف البحث عن اللانهائي البهيج الذي يستحق ان يصور ، وامست الالوان انغاماً ، وأخذ فن الفرشاة يزعم صلات من قربى تشده الى اسلوب الكانتاتا والارجوزة (Madrigal) وغدت تقنية الزيت قواعد لفن ينشد قهر الفراغ واذابة ما في ذلك الفراغ من اشياء . وبليوناردو وجيورجيوني (Giorgione) يبدأ عصر الانطباعية . ويتجلى في الصورة الواقعية تقييم لجميع العناصر ، يرفض المستويات التقليدية وينبذها . (Transvaluation) فبمؤخرة الصورة التي كانت حتى ذاك القرن توضع في الصورة بحذر وتعتبر فائضة عن الحاجة بوصفها فراغاً ، وتكاد توارى عن البصر تقريباً ، أخذت تكتسب في ذاك القرن أهمية أشد وزناً ، وبدأ عهد تطور لا مثيل له في أية حضارة أخرى ، وحتى في الحضارة الصينية ، هذه الحضارة التي هي بالغة القرب الينا في كثير من وجوهها . فمؤخرة الصورة بوصفها رمزاً للانهائي تقهر وتتقلب على صدرها المدرك حسيا ، واخيراً (وهنا يكمن التمييز بين اسلوبي التصوير والترسيم المحدد) فان خبرة العمق للنفس الفاوستية قد

أسرت داخل اطار الصورة . فتضريس الفراغ لمداميك سطح مانتجنــا (Mantegna) يذوب في تنتوريتو (Tintoretto) ليصبح طاقة اتجاهية ، وهنا ينبثق في الصورة ويتجلى الرمز العظيم لكون فراغ غير محدود ، كون فراغ يشتمل على الاشياء الافرادية بوصفها اشياء تصادفية عرضية ، واعـني بهذا الكون ، الافق . والان يبدو دائماً لنا ان صورة لمنظر طبيعي يتوجب ان يكون فيها افق أمراً غنيــا عن البيان الى درجة لم نسأل معها انفسنا السؤال الهام التالي :

« هل هناك دائماً أفق : واذا لم يكن هناك من أفق فمتى ولمــاذا ؟ » والحق لا يوجــد للافق أي ذكر في رأي فن التضريس المصري والفسيفساء البزنطية أو في الرسم على الآنية وتصوير الحائط الكلاسيكيين ، أو حتى في التصوير الهيليني بالرغم من معالجة هذا التصوير لصدور الصور معالجةفراغية. فهذا الخط ، (الافق – المترجم) الذي يذوب في بخاره غير الحقيقي السماء والارض ، ومجموع الرمز الفعال الى البعيد ، يحتوي على ترجمة المصور لمبدأ (اللانهائي الصغر) . ومن بعد هذا الافق تتدفق موسيقى الصورة ، ولهـذا السبب قام ويقوم مصورو المنــاظر الطبيعية العظام من الهولانديين برسم مؤخرات الصور واجوائها فقط ، وللسبب المعاكس لهذا قام اساتذة التصوير (المناهضين للموسيقى) كسغنوريللي وخاصة مانتغنا برسم صدور الصور والتضاريس . اذن في الافق تنتصر الموسيقى على التشكيل ، ويتغلب نازع الامتداد على جوهره . وليس كثيراً علينا ان نقول بانه لا توجد اطلاقا اية صورة لرمبراندت ذات صدر . ففي الشمال موطن الكونـتربونتية ، قدوجد في عصر مبكر جدا فهم ومغزى عميقان للافاق وللمسافات السامقة الانارة ، بينما بقيت في الجنوب ولمدة طويلة مؤخرة الصورة العربية البزنطية المذهبة النهائية ، صاحبة السيطرة والسيادة . ونحن نصــادف الولادة الاولى الاكيدة للشعور النقي المجرد بالفراغ في الكتابين اللذين وضعها قرابة عام ١٤١٦ الدوق اوف بري والمعروفين باسم (كتب الساعات Books of hours) الكتاب

الذي في شانتللي والآخر الذي كتبه في تورين ، فعقب صدور هذين المؤلفين بدأ حس الافق يغزو الصورة ببطء ولكن اكيداً .

وللغيوم (في الصورة المترجم) المعنى الرمزي ذاته . فالفن الكلاسيكي لايشغل نفسه بها أكثر من اشغاله لنفسه بالافاق ، زد على ذلك أن المصور في عصر الانبعاث يعالجها بنوع من سطحية مزوح لعوب ، لكن الفن الغوطي أخذ منذ عصر جد مبكر يتطلع الى جمهرات غيومه ومن خلالها بنظر صوفي بعيد المدى ، أضف الى ذلك ان أهل مدينة البندقية (جيورجيوني وخاصة بوالو فيرونيسي) قد اكتشفوا كامل سحر عالم الغيم ، هذا الكائن ذي الألف لون والذي يملأ السماء بصحائفه ونسالاته ومزقه وجباله . ولقد تسامى غرونيفالد والهولانديون بمغزى هذا العالم وأهميته حتى بلغوا به مستوى التراجيدي . وأدخل (El greco) إلْ غريكو الفن العظيم لرمزية الغيم الى اسبانيا ، وفي هذا الوقت وجنباً الى جنب والتصوير الزيتي نضج فن الحدائق (Garden out)) . ففي هذا الفن وعلى صورة الطبيعة نفسها عُبر بواسطة البرَك الممتدة وجدران الأجر والشوارع المغروسة جوانبها بالاشجار ومناظرها (Vistas) ومعارضها ، عن النازع ذاته الممثل في التصوير بواسطة الجهد النازع نحو المرئي مسْطرياً والذي أحس به الفنانون الفلمنكيون الاوائل بوصفه المشكلة الاساسية لفنهم ، والذي وضع دستوره برونللسكو والبرتي وبييرو ديللا فرنشسكا . ونحن باستطاعتنا ان لا نعتبر وضع دستور المرئي في تلك اللحظة الخاصة ، هذا الدستور الذي هو تكريس رياضي للصورة (أكانت منظراً طبيعياً أو داخلا) بوصفها ميداناً محدود الجانبين لكنه هائل في ازدياد عمقه ، كلية من باب المصادفة .

لقد كان وضع ذاك الدستور بمثابة بلاغ للرمز الاول واشهاد له . فالنقطة التي يلتقي عندها الخطان (جانبا الشارع) المرئيان ويتحدان هي اللانهاية . ويعود فقط سبب انعدام وجود المرئي في الفن الكلاسيكي الى تجنب هذا الفن للانهاية ورفضه للمسافة ، ونتيجة لذلك فان الحديقة العامة، هذه المعالجة

اليدوية للطبيعة ، رغبة في الحصول على ما للفراغ والمسافة من آثار هي أمر مستحيل في الفن الكلاسيكي . فلم يكن هناك من فن حدائق في اثينا أو روما بصورة خاصة ، ولم يرض سوى العهد الامبراطوري ذوقه في تخطيط الاراضي ، لكن هذا التخطيط ذو أصل شرقي ، ولمحة واحدة يلقيها المرء على أية مخططات لهذه « الحدائق » كافية لإظهار قصر مدى تلك الحدائق وللتأكيد على محدوديتها . ومع هذا فان أول عالم نظري لفن الحدائق ، وأعني به ل . ب . البرتي ، كان قد بدأ في عصر مبكر يعود الى عام ١٤٥٠ أسس رابطة البيت بما يحيط به (أي بالنسبة الى المشاهد داخله) ، وبمقدورنا ان نرى من خلال مشروعاته حتى الحدائق العامة في لودوفيسي وفيلات الباني أهمية منظر المرئي تتزايد يوماً بعد آخر . زد على ذلك ان البحيرة الضيقة الطويلة في فرنسا بعد فرنسيس الاول (فونتنبلو) هي مظهر اضافي يمتلك المغزى ذاته .

ان اهم عنصر في فن الحدائق الغربي هو لذلك الـ (Point de vue) للحديقة الروكوكية العظمى ، حيث يمكن للرؤية ان تتجول في كل شوارعها ووشائعها المجزوزة وان تضيع نفسها في مسافاتها . وهذا العنصر يفتقر اليه لكن له نظيراً هو عديله تماماً ويتمثل في بعض تلك الصور النائية المناظر الموسيقى الريفية لذلك العصر (عصر كوبيرين Couperin مثلاً) .

ان (Point de vue) وجهة النظر هي تلك التي تعطينا المفتاح المهم الحقيقي لهذا المزاج العجيب الذي يجعل الطبيعة نفسها تتحدث بلغة شكل الرمزية البشرية . وهي من حيث المبدأ مماثلة لاذابة صور الرقم النهائية الى سلاسل لا متناهية في رياضياتنا ، وكما ان تعبير الباقي [1] يكشف عن المعنى الاقصى الاساسي لهذه السلاسل ، كذلك فان لمحة الى اللا محدود هي التي تكشف ، في الحديقة ، لنفس فاوستية عن معنى الطبيعة . لقد كنا نحن لا

(١) هذا التعبير عن مجموع سلاسل متقاربة لا يمكن ان يحدها مصطلح مألوف .
- المترجم -

رجال اليونان او عصر الانبعاث ، من عرف قيمة ، وفتش عن قمم الجبال الشاهقة سعياً وراء مدى الرؤية غير المحدود الذي تقدمه مثل هذه القمم . وهذا يمثل نزوعاً فاوستياً الى الانفراد مع الفراغ اللا محدود . فانجازات النحن العظمى وبساتنة المناظر الطبيعية في الاقاليم الشمالية من فرنسا ، ابتداءً بالحقبة التاريخية التي تمثل صنعها في فوكيه وفي ابداع Le nôtre ، هي خير دليل على مقدرتهم على التعبير عن هذا الرمز Vaux - le Vicomte والتأكيد عليه بمثل هذه الشدة . ولنقارن حديقة عامة من حدائق عهد المديتشي في عصر الانبعاث (والتي يمكن ان تستوعب مرحة مُريحة وحسنة الاستدارة) بهذه الحدائق التي توحي فطرياً جميع انجازاتها المائية وصفوف تماثيلها ووشائعها ومتاهاتها بالمدى البعيد . انها مصير التصوير الزيتي الغربي يروى ثانية بلسان جزء من تاريخ الحدائق .

لكن الشعور بالمدى البعيد هو في الوقت ذاته شعور بالتاريخ . فالفراغ يصبح مع البعد زماناً والافق يرمز الى المستقبل . والحديقة الباروكية هي حديقة فصل متأخر ، حديقة النهاية الوشيكة ، حديقة تساقط ورق الشجر. أما حديقة عصر الانبعاث فانما تعني حديقة فصل الصيف ووقت الظهيرة . فهي غير ذات زمان وليس فيها شيء يذكرنا بالموت . انها مرئي يبدأ بايقاظ إلهام بشيء ما عابر سريع الزوال ونهائي اخير . ان مجرد كلمات المسافة والبعد تمتلك في الشعر الغنائي في جميع لغات الغرب نبرة مشجية خريفية يفتش المرء عنها عبثاً في اللغتين اليونانية واللاتينية . وهذه النبرة موجودة في أوسيان مكفرسون ، ولدى هلدرلن ، وفي (Dionysus - Dithyrambs) لنيتشه ، وأخيراً لدى بودلير وفارلين وجورج ودرويم .

ان الشعر المتأخر زمناً للشوارع الذاوية الاشجار ، والخطوط اللامتناهية في شوارع المدن العالمية العظمى ، وصفوف الاعمدة في احدى الكاتدرائيات ، وقمم سلسلة من الجبال النائية ، جميع هذه الاشياء تقول لنا بان خبرة العمق التي تشكل عالم الفراغ بالنسبة إلينا ، هي في نهاية المطاف ثقتنا الباطنية

بصير ، باتجاه مرسوم ، بزمان ، بشيء لا يدحض او يعكس اتجاه سيره . وهنا ، وفي اختبارنا للافق بوصفه مستقبلاً ، نعي مباشرة وأكيداً هوية الزمان مع « البعد الثالث » لذاك الفراغ المُختبر والذي هو امتداد ذاتي حي . ونحن في هذه الايام الاخيرة نمهد مخطط شوارع مدننا العالمية العظمى بالطابع المصيري الاتجاهي ذاته الذي مهر بـه القرن السابع عشر حديقة فرساي . اننا نخطط اليوم شوارعنا ونشقها في مسافات نائية فتبدو كأنها طيران سهم ، ولا نقيم أي وزن في عملنا هذا للمحافظة على الأجزاء القديمة والتاريخية من مدننا ، (وذلك لأن رمزية هذه الاجزاء التاريخية ليست بجبارة داخل نفوسنا) ، بينما ان مدن العالم الكلاسيكية العظمى كانت ابداً تحافظ في امتدادها على تلك العقد من الأزقة الملتوية التي مكنت الانسان الابولوني من ان يحس بنفسه جسماً بين الاجسام . وفي هذا ، وكما هو دائماً ، فان ما يدعى بالمتطلبات العملية ، ليس سوى قناع يختفي وراءه وجه ارغام باطني عميق .

إذن فبنشوء المرئي يتجه الشكل الاعمق وكامل المغزى الميتافيزيقي للصورة ، ليتركزا على الافق ويركزا عليه . وفي فن عصر الانبعاث كان المصور يقرر وكان المُشاهِد يقبل بمحتويات الصور على ما كانت عليه بوصفها محتويات قائمة بذاتها ومتساوقة ولقب الصورة . ولكن المحتويات أمست فيما بعد وسيلة ، وأصبحت مجرد عربة يمتطيها المعنى الذي لا يمكن ان يعبر عنه شفهياً . وكان بالامكان ان تعتبر « الرسمة » بالقلم الرصاصي ، في عصر « مانتغنا » و « سيغنو ريللي » صورة ، دون ان تكون هناك من حاجة لأنجازها بالالوان (ونحن لا نستطيع في بعض الحالات إلا ان نأسف لان الفنان لم يتوقف عند « الرسم » بقلمه الرصاصي) . أما في « الرسمة » المشابهة للتمثال فان اللون كان مجرد ملحق ومتمم .

فمن جهة أخرى كان باستطاعة ميكالنجلو ان يقول لتيتسيان ، بانه لا يعرف كيف يرسم . (لاحظ برسم لا بصور — المترجم) .

فالموضوع (موضوع الصورة) والذي كان بالمستطاع مثلاً تحديده تحديداً تاماً بمسودة مرسومة ، والذي يمثل مـا هو قريب ومادي ، قد فقد حقـاً واقعيته الفنية ، ولكن لما كانت نظرية الفن لا تزال خاضعة لانطباعات عصر الانبعـاث ، لذلك نشأ ذاك الصراع الغريب والذي لا حـد له والدائر حول « الشكل » « والمحتوى » للانجاز الفني . وقد أخفى التعبير المشوه عن هذا الموضوع مغزاه الحقيقي والعميق عنا . فلقد كان من المتوجب أن تكون النقطة الاولى للبحث تدور عما إذا كان من المستلزم علينا أن نـدرك التصوير ادراكاً تشكيلياً أو ادراكاً موسيقياً ، وعما اذا كان علينا أن نفهمه كأشياء سكونية أو بوصفه فراغاً ديناميكياً ، (وذلك لأن في هـذا يكمن جوهر التعارض بين التصوير على الحائط وبين تقنية الزيت) ، أمـا النقطة الثانية فانما يجب ان تكون بحث التعارض بين الشعور الكلاسيكي وبـين الشعور الفاوستي بالعالم . فالمسودات تعرف ما هو مادي ، بينما ان انغام اللون تترجم الفراغ . لكن الصورة من النوع الاول تنتمي مبـاشرة الى الطبيعة الحسية ، فهي تروي وتحكي ، بينما ان الفراغ هو على العكس من تلك ، فهو في جوهره بالذات يتسامى ويتوجه بنفسه الى قوانا التخيلية ، لذلك فان العنصر الروائي (يعني الطبيعة الحسية بهذا – المترجم) يضعف ويطمس النازع الاكثر عمقاً في كل فن يخضع لسيادة الفراغ وسيطرته . لذلك فان النظري Theorist وهو ذاك القادر على الاحساس بانعدام التناغم البصري بين المحتوى والشكل، لكنه العاجز عن فهمه ، هو الذي يتشبث بالتعارض السطحي القائم بينهما . ان المشكلة هذه هي مشكلة غربية محضة ، وهي تكشف على اشد الصور وضوحاً الانقلاب التام الذي طرأ على مغزى عناصر التصوير عندمـا انتهى عصر الانبعاث واندفعت الموسيقى الاداتية ذات الطراز العظيم الى الطليعة . أمـا بالنسبة الى العقل الكلاسيكي فانـه لم يكن من الممكن وجود مشكلة شكل ومحتوى وفق هذا المفهوم ، فهما في التمثال الاتيكي متطابقان تماماً ومعروفان في الجسم البشري . أما فيما يتعلق بالتصوير الباروكي ، فان المشكلة هي أشد

تعقيداً وذلك بسبب الواقعة المشتملة على التعارض القائم بين الشعور العادي الشعبي وبين الاحساسية الأرهف . فكل شيء يوقليدي ومحسوس بـــه هو أيضاً شعبي ، لذلك فان الفن الشعبي الأصيل هو الفن الكلاسيكي . ويستلزم هـــذا الشعور بالطابع الشعبي للفن الكلاسيكي والذي يشكل سحره الذي لا يوصف بالنسبة الى العقول الفاوستية ، اقول يستلزم هذه العقول ان تحارب من أجل التعبير عن نفسها كي تكتسب عالمها نتيجة لصراع شاق . فالتأمل في الفن الكلاسيكي بالنسبة الينا هو مجرد راحة وانتعاش ، ففي هذا الميدان لا يحتاج أي أمر ان نصارع من أجله ، فكل أمر فيه يقدم نفسه الينا طائعاً مختاراً . وقد حقق النازع المناهض للغوطية في فلورنسا شيئاً ما من هـــذا النوع . فرفائيل يحظى في كثير من جوانب ابداعه بشعبية واسعة ، لكن رمبراندت لا يحظى بمثل هذه الشعبية ولا يمكن ان يكون على هذه الشاكلة فالتصوير يزداد سرية وباطنية ابتداء بتيتسيان ، وكذلك الشعر ، وهذه هي حال الموسيقى ايضاً . زد على ذلك ان الغوطية بحد ذاتها كانت خفية باطنية منذ مستهل مطلعها ، ولنتأمل في دانتي وفولفرام . زد على ذلك ان قداديس اوكيغهم وبالسترينا ، أو باخ ، لم تكن أبداً مفهومة من قبل العضو العادي في احد المحافل الكنسية ، كما وان الناس العاديين يستثقلون ظل موسيقى موزارت وبيتهوفن ، ويعتبرون الموسيقى بصورة عامة كشيء ما يتفق أو لا يتفق ولحظات المزاج الذي يسيطر على الفـــرد . ومنذ ان اخترع عصر التنوير تلك الجملة القائلة « الفن للجميع » تمكنت قاعات الحفلات الموسيقية من رفع اهتمام الجمهور بهذه الأمور الى درجة معينة . لكن الفن الفاوستي هو ليس ولا يمكن له ان يكون « فناً للجميع » . واذا كان التصوير لم يعـــد يروق لأي واحد بل لحلقة ضيقة من الخبراء (ويتناقص عددها باستمرار) ، فإن هذا يعود أولاً واخيراً الى ان التصوير قد ابتعد عن تصوير الأشياء التي يستطيع ان يفهمها رجل الشارع . فلقد نقل ملكة الواقعة من المحتوى الى الفراغ ، الفراغ الذي فيه وحده توجد الاشياء اعتماداً على ما يقوله «كنت ».

وبهذا دخل على التصوير عنصر ميتافيزيقي وهذا العنصر لا يطرح بنفسه على الرجل العادي . امـــا بالنسبة الى فيدياس فان كلمة عادي لا معنى لها . فنحته كان يتوجه بكامله الى الجسماني لا الى العين الروحانية .

ان الفن دول ما فراغ هو بداهة لا فلسفة .

- ٧ -

ويرتبط بهذا مبدأ تأليف هام . فمن الممكن لك ان تنفـــذ في الصورة الاشياء بصورة غير عضوية الواحد منها فوق الآخر او جنباً الى جنب ، او احدها وراء الآخر دون اي تأكيد على المرئي او الترابط ، مثـــلا دون الاصرار على اعتماد الواقعة في تركيب الفراغ والذي لا يعني بالضرورة رفض هذا الاعتماد . والرجال البدائيون والاطفال يرسمون على هذه الشاكلة وذلك قبل ان تنجب خبرتهم بالعمق انطباعات حسهم بالعالم وتنظمها في نظام اساسي مكتمل او ناقص . ولكن هذا النظام يختلف باختلاف الحضارات وذلك وفق ما لهذه الحضارات من رموز اولية . فنوع تأليف المرئي الذي هو غني عن البيان بالنسبة الينا ، هو حالة خاصة ، وهذه الحالة غير معروفة او متعمدة في تصوير اية حضارة اخرى . لقد اختار الفن المصري ان يعرض الحوادث التي تعاصر الواحدة منها الاخرى منضداً اياها صفاً فوق صف ، وبهذا كان يستأصل الفن المصري البعد الثالث من طلعة الصورة . اما الفن الابولوني فكان ينظم الاشخاص والمجموعات كل واحدة منهـــا بمعزل عن الاخرى ، وكان تنظيمه هذا تنظيماً يتعمد اجتناب علاقات الفراغ والزمان في عرض السطح . وتصوير بوليجنوتوس على جدران « Lesche of theCnidians » في « دلفي » هو دليل مشهور على ما ذكرت . فليست هناك من مؤخرة للصورة تربط بين المشاهد الافرادية ، لان مثل هذه المؤخرة كانت ستكون بمثابة تحدٍ للمبدأ القائل بان الاشياء هي وحدها الواقعية ، وبأنه لا وجود للفراغ . فكورنيش

المعبد « الايجي » وصورة موكب الالهة على آنية فرنسوا (François vase) وافريز الجبابرة في بدغاموم فهذه الاشياء قد ألفت جميعاً بوصفها مُركباً متعرجاً تائهاً لنوازع منعزلة قابل احدها للاستبدل بالآخر ، وجميعها دون ما طبع عضوي . ولم يعرف النازع اللا كلاسيكي طريقه الى الوجود ، هذا النازع الى السلاسل المتماسكة من الصور (وافريز تلفاس Telephus لمذبح برغاموم هو ابكر مثال باقٍ حتى الآن) الا في العصر الهليني . وشعور عصور الانبعاث في هذه الناحية هو كشعوره في النواحي الاخرى، اي شعور غوطي حقاً . وقد ارتفع هذا الشعور بتأليف المجموعة الى ذروة من الكمال كتلك ، حيث يبقى معها انجازها الأنموذج لجميع الاجيال المتعاقبة . لكن نظامها قد انطلق كلياً خارجاً من الفراغ ، وهو في نهاية مطافه موسيقى صامتة لامتداد اثارة اللون ، امتداد خلق داخل ذاته توترات ضوء تستطيع العين الفهيمة ان تدركها بوصفها اشياءً وبوصفه وجوداً ، تستطيع ان تدفع بها لتخطر خارجاً في البعد بايقاع وخطوات غير منظورة . وهذا التنظيم الفراغي وباستبداله مرئي الخط بمرئية للهواء والضوء غير الملحوظين ، قد شكل في جوهره هزيمة انزلها بعصر الانبعاث . والآن وابتداءً بنهاية عصر الانبعاث الماثلة في اورلاندو لاسو وبالاسترينا وصعوداً حتى فاغنر ، وابتداءً بتيتسيان وصعوداً حتى مانيه وماريي Marées ولايبل ، تتابع الموسيقيون والمصورون العظام الواحد منهم إثر الآخر تتابعاً جد وثيق ومتصل ، بينما انحدر الفن التشكيلي ليتوارى في زوايا التفاهة وعدم الاهمية . واخذ التصوير الزيتي والموسيقى الاداتية يتطوران عضوياً نحو اهداف ادركت وفهمت في العصر الغوطي وتحققت وانجزت في العصر الباروكي . وكلا هذين الفنين ، الغوطي والباروكي ، هما فنان فاوستيان بارفع ما للفاوستية من معنى ، وهما يشكلان داخل تلك الحدود الظاهرة الاولية . فلهما نفس وسيماء ولذلك لهما تاريخ ، وهما في هذا وحيدان فريدان . ولقد كان كل ما استطاع ان ينجزه النحت فيما بعد هو القليل من القطع العرضية الطارئة الجميلة التي انجزها في

ظلال التصوير وفن الحدائق او الهندسة المعمارية . ولم يكن فن الغرب بحاجة حقيقية الى مثل هذه القطع . فلم يعد هناك من اسلوب تشكيل وذلك وفق مالاسلوبي التصوير الزيتي والموسيقي من معنى ومفهوم . وليس هناك من تقليد مناسب او وحدة ضرورية تربط بين انجـــازات مادرنا كوجون ، بوجيت وشليتر . وحتى ليوناردو نفسه يبدأ باحتقار الازميل احتقاراً كليـاً . وهو ان قبل بشيء من انجازات النحت لذاك العصر ، فانما يقبل على الاكثر بالقالب البرونزي وذلك نظراً لما لهذا القالب من مزايا تصويريـة . وبهذا فهو يختلف عن ميكالنجلو الذي كان لا يزال يعتبر اللوح المرمري العنصر الحقيقي . ومع هذا فان حتى ميكالنجلو لم يستطع ان يلاقي المزيد من النجاح في شيخوخته في ميدان التشكيل ، ولا يوجد اي نحات من النحاتين الذين جاءوا فيما بعده ، يتمتع حقاً بالعظمة ، وذلك وفق مفهوم عظمة رمبراندت او باخ . ولا شك في انه كانت هناك انجازات ماهرة يستسيغها الذوق ، ولكن لم يكن فيها أي انجاز من هذه الانجازات يمكن ان يقارن او يسلك في النظـام الذي تنسلك فيه صورة «الحراسة الليلية» او « آلام انجيل متى » او يستطيـع ان يعبر ، كما يعبر الانجـــازان الآنفا الذكر عن كامل العمق لنوع من الجنس البشري بكامله . فهذا الفن (النحت) قد اطرح من حساب مصير الحضارة . ولغته لا تعني اي شيء الآن . فما هو موجود في صورة رمبراندت لا يمكن وبكل بساطة ان يترجم في تمثال نصفي . ويحدث بين فترة واخرى ان تنبجس قوة نحـــات ، كبرنيني ، او اساتذة المدرسة الاسبانية المعاصرة ، او بيغالي Pigalle او رودان (وطبعاً لا يوجد اي واحد ممن ذكرت استطاع ان يتسامى فوق الاسلوب الزخرفي او يبلغ مستوى الرمزية العظمى) ، لكن كل فنان من هذا الطراز ، كان ، كما هو منظور دائماً ، إمـــا مقلداً متأخراً لعصر الانبعـاث كتورفالدسن Thorwaldsen ، او مُصوراً متنكراً في زي نحـــات كهودون او رودان ، او مهندساً معمارياً كبرنيني وشليتر ، او مُزَخْرِفاً كـَ Coysevox . وظهوره بحد ذاته على المسرح يُظهر على صورة

اوضح ان هذا الفن عاجز عن حمل العبء الفاوستي ، وانه لم تعد له ايـة رسالة ، ولذلك ليست له نفس او تاريخ حياة يتناول تطوراً معيناً طرأ على اسلوبه في العالم الفاوستي . امـا في العالم الكلاسيكي فكانت الموسيقى قد لاقت من الفشل ما لاقاه النحت في الغرب . فهي كما يحتمل قـد بدأت بانطلاقات هامة في ابكر العصور الدورية ، لكن كان عليها ان تفسح الطريق في القرون الناضجة من العهد الايوني (٦٥٠ ــ ٣٥٠) امام الفنين الابولونيين الحقيقيين واعني بهما فن النحت والتصوير على الحائط ، ولمـا كانت تلك الموسيقى قد نبذت التناغم والبلوفوني ، لذلك توجب عليها ان تنبذ كل زعم او مطلب لها في التطور العضوي بوصفها فناً ارقى .

- ٨ -

اوقف الاسلوب الصارم للتصوير الزيتي الكلاسيكي لوحة ألوان المصور على الألوان الاصفر والاحمر والاسود والابيض منها . وهذه الواقعـة المفردة قد لوحظت منذ زمن طويل ، ولكن لما كان تفسيرها قد اعتمد فقط في بحثـه الاسباب السطحية والمادية الاكيدة في ماديتها ، لذلك اندفع بعضهم في تقديم فرضيات طائشة رعناء لتفسيرها ، مثلاً افترضوا ان الاغريق مصابون بعمى اللون ، وحتى نيتشه نفسه بحث هذا الموضوع . (في كتابه مورغن رويتي ص ٤٢٦) ولكن لماذا تجنب التصوير الزيتي في أيامه العظمى اللون الازرق وحتى اللون الأخضر الأزرق ، وسلم النغم (Gamut) للنغم المسموح بـه لا يبدأ إلا بالاصفر المخضوضر والاحمر المزرورق ؟ والجواب عن هذا السؤال هو ان الفنانين ، الغابرين لم يكونوا يجهلون اللون الازرق وآثاره . فلقد كان لميتوبات (Metopes) العديد من المعابد مؤخرات زرقـاء كي تبدو عميقة في تناقضها وفن العمارة الدوري (Triglyphs) ، زد على ذلك ان التصوير التجاري قد استخدم جميع الالوان التي كانت موجودة من الوجهة التقنية .

فهناك خيول زرقاء أصيلة الزرقة في بعض الانجازات داخل الاكروبول ذي الاقواس وفي التصوير الاترسكاني على القبور ، أضف الى ذلـــك ان تكوين الشعر باللون الازرق البراق كان أمراً مألوفاً . ولا شك ان الحرم قد القـــاه على هذا اللون الفن الارقى الذي فرضته النفس اليوقليدية بواسطة رمزهـــا الاولي . ان الأزرق والأخضر هما لونا السماء والبحر والسهل الخصيب وظلال الظهيرة في البلاد الجنوبية ، والمساء والجبال النائية . وهما في جوهريهما لونان جويان وليسا بلونين أساسين ، فهما باردان يسلبان الاشياء أجسامها ويثيران في النفس الانطباعات عن المسافة والمدى واللامحدودية . ولهذا السبب تعمد عدم إدخال هذين اللونين في الصور المرسومـــة على جدران البوليغنتوس ، ولهذا السبب ايضاً فان اللون الازرق المائـــل الى الخضرة هو العنصر المبدع للفراغ في كل تاريخ تصويرنا الزيتي للمرئي ، وذلك ابتداءً بمصوري البندقية وصعوداً حتى القرن التاسع عشر ، فهذا اللون هو النغم الاساسي ذو الاهمية القصوى الذي يعاضد مجموعة أثر اللون المتعمدة، كما يعضد الـ Basso Continuo الجوقة ، بيـــنما أنهم كانوا يقتصدون في استخدام اللونين الدافئين من أصفر واحمر ، ويستخدمونهما استخداماً يعتمد على النغم الأساسي . وليس اللون الأخضر المليء والرائع المألوف هو اللون الذي يستعمله أحياناً (لابل نادراً) رفائيل ودورير ، هذا اللون المستخدم في المنسوجات ، بل إنما يستعملان ذلك اللون الاخضر المائل للزرقـــة والمبهم وذا الألف تحول الى الابيض والرمادي والسنجابي ، انه شيء ما عميق في موسيقيته حيث يُغمس فيـــه (وخاصة اقمشة غوبلين المزركشة) كامل الجو . ان النوعية التي اسميناهـــا بالمرئي الهوائي وذلك لتعارضها والمرئي المسطري (الخطي) (وكان بامكاننا ايضاً ان ندعوها بالمرئي الباروكي وايضاً لتعارضها ومرئي عصر الانبعاث) ترتكز حصراً على هذا (المرئي الهوائي – المترجم) ونحن نجدها ماثلة بشدة تتزايد اكثر فاكثر في اثر العمق لدى ليوناردو وغورتشينو وألباني وذلك في ايطاليا ، أما في هولندا فنصادفها لدى رويسدايل Ruysdael وهوبمـــا

Hobbema ، كلنا نجدها قبـــل وفوق كل شيء لدى العظام من المصورين الفرنسيين ابتداءً ببوسين فكلود لورين ففاتو حتى كورو Corot . زد على ذلك ان اللون الازرق هو ايضاً بدوره لون مرئي ، وهو دائم الارتبـــاط بالقاتم غير المنار واللاواقعي ، وهو لا ينضغط داخلاً علينا بل انمـــا يجرنا خارجاً الى البعيد ، انه « لا شيئية ساحرة» بهذا يدعوه غوتيه في علم ألوانه.
ان اللونين الازرق والأخضر هما لونان متساميان روحيان غير حسيين . وهما لونان يفتقدهما التصوير الاتيكي الصارم على الحائط ، ولهذا فهما لونان سائدان في التصوير الزيتي . أما اللونان الاصفر والأحمر ، فانما هما لونا ما هو مادي وقريب وممتلىء دماً . والاحمر هو اللون المميز للشهوة الجنسية ، وهو لذلك اللون الوحيد ذو الأثر في الحيوانات والوحوش . وهو يماثل على أحسن تقدير رمز العضو التناسلي ، وهو لذلك يُماثل التمثال والعمود « الدوريين » ، لكن الازرق النقي هو ذاك الذي يضمخ بلونه جلباب « االمادونا » . ولقد جعلت علاقة الالوان من نفسها في كل مدرسة عظمى ضرورة يُحس بهـــا احساساً عميقاً أما اللون البنفسجي وهو لون خاضع للازرق فهو لون النسوة اللائي لم يعدن مخصبات ، ولون الكهنة الذين يعيشون حياة العزوبة . أما الأصفر والاحمر فهما لونان شعبيان ، لونا الجمهور والاطفال والنساء والمتوحشـــين . وقد أثر في الشخصيات المرموقة الرفيعة من اهل البندقية والاسبان لون اسود او ازرق رائع بما لهذين اللونين من ترفع وتفرد غـــير واعيين وموروثين . وذلك لاناللونين الاحمر والاصفر اللذين هما اللونان الاساسيان في تعدد الالوان الابولونية اليوقليدية ، ينتميان الى صدر الصورة حتى فيما يتعلق بالحيـــاة الاجتماعية ، وهما لونان يناسبان أيام السوق والاجازات الصاخبة المرحـــة ويوافقان الفوريةالساذجة لحياة تخضع للمصادفات العمياء «للفاتوم» الكلاسيكي، بيت القصيد في الوجود . لكن الازرق والاخضر ، وهما اللونان الفاوستيان الموحدان (Monotheistic) في الالوان ، هما لونا التوحد والهم ، لونا حاضر يرتبط الى ماضٍ ومستقبل ، لونا مصير بوصفه ناموساً يحكم الكون من داخله.

أما علاقة المصير الشكسبيري بالفراغ ، وعلاقـــة المصير السوفوكلي بالجسم الافرادي ، فلقد سبق لنا ان بحثنا هذا الموضوع في فصل أسبق . ان كل الحضارات الأصيلة في تساميها (أي ان كل حضارة يستلزم رمزهـــا الاولي التغلب على الظاهر ، ويستوجب حياة صراع لا حياة تقبل وقبول) لها نفس النازع الميتافيزيقي الى الفراغ، كنازعها الى الالوان الزرقاء والسوداء . وهناك ملاحظات جد عميقة في دراسات غوتيه للالوان الانتوبتكية (Entoptic) وذلك فيما يتعلق بالترابط بين فِكَر الفراغ وبين مفهوم اللون في الجو ، ونحن على وفاق تام في آرائنا التي استخلصناها من فِكَر الفراغ والمصير مع الرمزية التي اعلن عنها غوتيه » في علم الوانه .

ان ابرز استخدام للأخضر الأغبش بوصفه لوناً للمصير هو ذاك الذي قام به غرينفالد . فالقوة التي لا توصف للفراغ في « لياليه » (ليالي غرينفالد) لا يعادلها إلا ما تتجلى في صور رمبراندت من قوة . وهنا يعرض لنا السؤال نفسه ويسألنا عما اذا كان من الممكن لنا ان نقول بان لون جرينفالد للاخضر المزرورق ، هذا اللون الذي كثيراً ما يستخدم في طلاء داخل الكاتدرائيات العظمى هو لون كاثوليكي ؟ (ويجب ان يُفهم باننا نعني بالكاثوليكية المسيحية الفاوستية حصراً « بقربانها المقدس كمركز لها » والتي أسست في مؤتمر لاتيران عام ١٢١٥ واكتملت في مؤتمر ترنت) . ان هذا اللون بجلاله الصامت هو بعيد عن مؤخرات الصور المسيحية البزنطية وارضياتها الذهبية المتألقة بعده عن الالوان المرحة المهذارة « الوثنية » المستخدمة في التماثيل والمعابد الهلينية . ويتوجب علينا ايضاً ان نشير الى ان أثر هذا اللون يختلف كلياً على ما للونين الاصفر والأحمر من أثر ، إذ انه يعتمد على عرض الصورة داخل جدران المنزل . ان التصوير الزيتي الكلاسيكي هو بكل تأكيد فن شعبي ، بينما ان التصوير الزيتي الغربي ، هو بالتأكيد ذاته فن « استوديو » . فجميع ما لنا من صور زيتية عظيمة ابتداءً بليوناردو وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، فانها صور لم يقصد مصوروها عرضها في ضوء النهار الباهر . وهنـــا نصادف مرة

أخرى التعارض المماثل للتعارض القائم بين الموسيقى المنزلية وبين التمثال ذي الوقفة الحرة. أما التفسير المناخي لهذا التعارض فانما هو مجرد تفسير سطحي، ومثل التصوير الزيتي المصري قد يكفي لدحض مثل هذا التفسير ، وذلك اذا كانت هناك من ضرورة للدحض اطلاقاً .

فالفراغ اللانهائي لم يكن يعني في نظر الشعور الكلاسيكي سوى اللاشيئية الكاملة، لذلك فان استخدام الازرق والأخضر بما لهما من قوى مُذيبة للقريب ومبدعة للبعيد ، لا يعني سوى تحد لاستبداد صدر الصورة واجسام وحدتها، وهذا ما يعني تحدياً للمعنى كل المعنى الذي يقصده الفن الابولوني . فالعين الأبولونية كانت سترى في صور رسمت بألوان فاتو صوراً تفتقر الى كل جوهر واشياءً لا يمكن للسان ان يعبر عن خوائها وزيفها . فبواسطة هذه الالوان يُجعل سطح الصورة المدركة بصرياً والعاكسة للضوء قادراً على التعبير بصورة فعالة لا عن الاشياء المحدودة بل انما عن الفراغ المحيط بها . ولهذا السبب ينعدم وجود هذه الالوان في اليونان ، وتسود في الغرب .

– ٩ –

سار الفن العربي بالشعور المجوسي بالعالم الى التعبير عن نفسه بواسطة الارضية الذهبية لفسيفسائه وصوره . وشيء ما من هذا الفن الساحري غير الماكر ، وباشتماله على قصده الرمزي ، هو معروف لدينا بواسطة فسيفساء رافينا ، وفي انجازات العصر الرئيسي المبكر ، وخاصة بواسطة الاساتذة في شمالي ايطاليا الذين كانوا لا يزالون يخضعون خضوعاً كلياً لتأثير النماذج اللومباردية البزنطية ، وأخيراً وليس آخراً في الكتب المصورة الغوطية التي اتخذت من المخطوطات البزنطية نموذجاً أصلياً لها ، ونحن في هذه البرهة نستطيع ان ندرس نفس ثلاث حضارات تعمل أعمال جد متشابهة ولكن بوسائل وطرق بالغة في تفاوتها وعدم تشابهها . فالحضارة الابولونية تعترف

بالواقعي على انه الحاضر فوريا في الزمان والمكان ، ولهـــذا السبب رفضت مؤخرة الصورة كعنصر تصويري . بينما ان الحضارة الفاوستية جاهدت ضد كل الحواجز الحسية لتخطو الى اللانهائي وسلطت مركز ثقل فكرتها التصويرية بواسطة المرئي على المسافة . أما الحضارة المجوسية فانها أحست بكل الحدوث على أنه تعبير لقوى غــامضة تملأ كهف العالم بمادتها الروحية ، لذلك أغلقت المنظر المرسوم بمؤخرة ذهبية للصورة ، أي انها عمدت الى شيء ما (الذهب — المترجم) الذي يقع عبر وخارج جميع ألوان الطبيعة ، فالذهب ليس بلون . وهو في حالة مقارنته باللون الاصفر العادي ، فانـــه يستثير انطباعاً حسياً معقداً وذلك بواسطة ما يولده سطحه المتوهج من تألق معدني مشع . فالالوان وبغض النظر عما اذا كانت مادة ملونة دمجت Incorporated في سطح جدار مصقول (التصوير الزيتي على الحائط) أو خضاباً عملت فيه الفرشاة تطبيقاً ، هي الوان طبيعية . لكن الوميض المعدني الذي لا يوجد عملياً أبداً في أوضاع طبيعية هو شيء ما غير أرضي . فهو يذكرنا بصورة فعالة بالرموز الأخرى لهذه الحضارة ، يذكرنا بألخيمي [١] وبالكبالا وبحجر الفلاسفة وبالنصوص المقدسة وبالزخرف العربي وبالشكل الباطني لاسطورة « الف ليلة وليــلة » . فالذهب الوهاج يطرح من المنظر الكائن المادي للحياة والجسد . فكل شيء دُرّس في دائرة بلوطونيوس او دوائر « العارفين » (Gnostics) وذلك فيما يتعلق بطبيعة الاشياء واستغلالها (الاشياء) من الفراغ واسبابها التصادفية (وهذه أمور متناقضة ويعجز شعورنا بالعالم عن التحسس بها) أقول ان كل شيء من هذا تشتمله ايضاً رمزيـــة المؤخرة الغامضة الكهنوتيــة لهذه الصورة . فلقد كانت طبيعة الاجسام هي الموضوع الرئيسي الذي دار حــوله الجدل والنزاع بين فلاسفة الفيثاغورية الجديدة وبـــين فلاسفة الافـلاطونية الجديــدة ، وكذلك كانت الحال في بغداد والبصرة ، فالسهروردي يمـــيز الامتداد بوصفه الوجود الاولي للجسم ، ويفرق بينه وبين العرض والارتفاع

---

(١) Alchemy لا شك ان القارىء يدرك الفرق بينها وبين الكيمياء . — المترجم —

والعمق اذ انه يعتبر هذه الاشياء على انها تصادفات الامتداد. وقـــام النظام Nazz^m ليعلن معارضته للرأي القائل بالماديـــة الجسدية ، وبطبيعة الذرة المالئة للفراغ . هذه الاراء وما شابهها كانت الافكار الميتافيزيقية التي جاهرت ابتداءً بفيلو (Philo) وبولس الرسول حتى آخر الاسماء العظيمة في الفلسفة الاسلامية ، بالشعور العربي بالعـــالم . ولقد لعبت دوراً رئيسياً في المؤتمرات التي عقدت لبحث موضوع النزاع الدائر حول طبيعة المسيح المادية ، ولهذا فان المؤخرة الذهبية للصورة تمتلك في ايقونية الكنيسة الغربية أهمية دغمائية واضحة . فهي تأكيد صريح لوجود ونشاط الروح الإلهية ، وهي تمثل الشكل العربي للوعي المسيحي العالمي ، وتمثله بلباقة عميقة الى درجة جعلت معالجتها لمؤخرة الصورة ولمدة الف سنة تعتبر المعالجة الميتافيزيقية (وحتى الاخلاقية) الوحيدة الممكنة والملائمة لتمثيل الاسطورة المسيحية في شتى اشكالهـــا . ولذلك عندما أخذت تظهر في العصر الغوطي المبـــكر المؤخرات الطبيعية للصور بسماواتها الزرقاء المخضوضرة وآفاقهـــا البعيدة ومرئي عمقها ، فلقد كانت لهذه المؤخرات في البدء طلعة الكافر الجدف والدنيوي . فالتبديـــل الذي كانت تضمره للمذهب (Dogma) كان ، حتى لو لم تعترف بـــه ، تبديلاً محسوساً على كل حال ، ولتتأمل في مؤخرات الصور المطبوعة عـــلى القماش المزركش ! فعندئذ لا شك أنك سترى كيف كانوا يغطون العمق الحقيقي برعب ورع يقنّعون به ما لا يجرأون على عرضه . ولقد رأينا ايضاً كيف ان المسيحية الفاوستية (الالمانية الكاثوليكية) عندما بلغت وعيهـــا لنفسها بواسطة نظام السد المقدس للندامـــة وانسحاق القلب (Sacrament of Contrition) ، وقد بلغته في الوقت ذاته تماماً ، هذا الوقت الذي هو الآن موضوع حديثنا ، نشأ دين جديد يتلفـــع برداء عتيق ، دين ينزع الى المرئي واللون وسيادة الفراغ الجدي ، وقـــد تجلى هـــذا كله في فن رهبنة الفرنسيسكان التي حولت كامل المعنى للتصوير الزيتي . ان ما يربط مسيحية الغرب بمسيحية الشرق ، هو نفسه الذي يربـــط رمز المرئي برمز الارضية

الذهبية ، وقد حدث الانشقاق الديني والفني في وقت واحد تقريباً ، اذ انه أدركت مؤخرة صورة المنظر الطبيعي واللانهائية الديناميكية لله في اللحظة ذاتها ، وتوارى في الوقت ذاته ، مع الارضية الذهبية للصورة المقدسة ، من المجامع الكنسية الغربية ، المشكلة المجوسية الانطلوجية ، مشكلة رأس الله التي كانت موضوعاً بالغ الإثارة لمجامع ناسين (Nicaea) وافسيس وخلقيدونيا وجميع المجامع الكنسية الشرقية .

— ١٠ —

اكتشف اهل البندقية التصوير الزيتي وقدموه على أنه نازع شبه موسيقى ومشكل للفراغ ، وبوصفه خط يد لمسات الفرشاة. أما الاساتذة الفلورنسيون فلم يسبق لهم أبداً وفي أي وقت ، ان تحدوا العادة ، (وهذه العادة فيهم قد تكون كلاسيكية ومع هذا يستخدمونها في الغوطية) عادة صقل وتمهيد جميع انعطافات الفرشاة ودوراتها كي يتمكنوا من انتاج سطوح لون نقية مرسومة رسما نظيفاً ومستوية . ونتيجة لذلك فان لصور هؤلاء نغمة كينونة معينة ، نغمة هي شيء ما ملموس ، ومناهضة دون شك لنوعية الحركة الفطرية في وسائل التعبير الغوطية التي كانت تقتحم زاحفة من فوق جبال الألب .

ان طريقة استخدام القرن الخامس عشر للون تمثل انكاراً للماضي والمستقبل . وفقط من انجاز الفرشاة الذي يبقى منظوراً دائماً ، ويبقى بطريقة ما غضاً طرياً على مدار السنة ، ينبجس الشعور التاريخي . فرغبتنا هي في ان لا نشاهد في عمل الفنان شيئا ما في الصير بل انما في الصيرورة ايضاً . وهذا هو تماماً ما اراد عصر الانبعاث اجتنابه . فقطعة من قماش بيروجينو لا تحدثنا بشيء عن أصلها الفني ، فهي قطعة قد صنعت واعطيت وحاضرة فقط . لكن لمسات الفرشاة الافرادية (ولقد صادفت هذه اللمسات

اول ما صادفت معه شكل لغة جديد كل الجدة في انجـــازات تيتسيان المتأخرة) هي نبرات مزاج شخصي ، وخاصة من خصائص جوقـة الالوان « لمونتيفردي » وتسيل انغاماً عذبة كأنها ارجوزة من اراجيز مدينة البندقية فخطوط الالوان المغايرة « والطبطبات» توضع فوراً جنباً الى جنب او يقاطع أحدها الأخرى أو يغطي بعضها بعضاً ، أو يلامس واحدها الثاني ، وتدخل بذلك حركة لا نهاية لها على العنصر البسيط للون . وكذلك تمامـــاً جعل التحليل الهندسي للزمان . أهدافه الصيرورة بدلاً من الصير . فلكل صورة زيتية في تنفيذها تاريخ وهي لا تخفيه او تستره ، والفرد الفاوستي الذي يقف امامها يشعر هو ايضاً بدوره بان له تطوراً روحياً . واذا مـــا وقف أحدنا أمام صورة زيتية عظيمة لمنظر طبيعي رسمه احد كبار الفنانين من اســاتذة العصر الباروكي ، فان كلمة « تاريخية » كافية وحدها لتجعلنا نحس بان هناك معنى فيها كلي الغرابة عن المعنى الذي يكمن في التمثـــال الاتيكي . فلمسة الفرشاة هذه هي ايضاً ، كنغم آخر ، جزء من الاستقرار الديناميكي لكون الصيرورة الخالدة والزمان الاتجاهي والمصير . فالتعارض القائم بين اسلوب التصوير الزيتي وبين اسلوب الرسم هو مستمسك خاص على التعارض بين الشكل التاريخي وبين الشكل اللاتاريخي ، بين التأكيد وبـين انكار التطور الباطني ، بين الخلود وبين البرهية . ان الانجاز الفني الكلاسيكي هو حـادثة بينما ان مثيله الغربي هو فعل وعمل ، فالاول يرمز الى نقطة « الـ ـ هنـا » الآن » بينما يرمز الثاني الى المجرى الحي . فسيماء هـــذا المخطوط للفرشاة (وهو زخرفة جديدة كل الجدة نداؤها لا ينضب وشخصية وخاصة بالحضارة الغربية) هي فقط سيماء موسيقية محضة . ونحن لا نخادع انفسنا ابـداً حينما نقارن الـ Andante con moto لفاندايك بالـ Allegro foroce لفرانس هالس او الـ Minorلجورتشينو بالـ Major لفلاسكيز . فمنذ الان فصاعدا فـــان فكرة الـ Tempo (درجة حركة السرعة الموسيقية) يشتملها تنفيذ الصورة الزيتية ، وهي تذكرنا أبداً ودائماً بان هذا الفن هو فن نفس مناهضة منها

للكلاسيكية لا تنسى أي شيء ولا تريد ان تترك النسيان يطوي اي شيء قد حدث وكان . فلسان الفرشـــاة الهوائي يذيب فوراً السطح المحسوس للاشياء . فمحيطات الشكل تذوب في الجـــلاء والقتمة Chiaroscuro . ويتوجب على المشاهـــد ان يتراجع بعيداً من امام الصورة كي يتمكن من استخلاص الانطباع الجسمي من قيم الفراغ الملونـــة ، وحتى مع هذا فان الكرومتيك (علم الالوان وتركيبها) نفسه والنغم الفعال نفسه هـما اللذان يمنحان الاشياء ولادتها .

وظهر في الوقت ذاته ومرافقاً لما ذكرت آنفاً ، في التصوير الزيتي الغربي رمز ذو مغزى جد رفيع ، رمز اخضع اكثر فاكثر واقعـــة كل الالوان ، واعني بهذا الرمز لون الاستوديو البني . (Studio brown) وهـــذا اللون لم يكن معروفاً من الاساتذة المبكرين من فلورنسيين وفلمنكيين وريتشيين على حد سواء ، وهو لون يفتقده باخر ودورير وهولباين مهما بدا نازع هؤلاء الى العمق الفراغي شجياً قوياً ، ويبدأ عهد « سلطنة » هـــذا اللون في السنين الاخيرة للقرن السادس عشر . وهذا البني مع انه لا ينكر اصله وتحدره من الالوان الخضراء لمؤخرات صور ليوناردو وشونجاور وغرينفالد ، الا انـــه يمتلك قوة على الاشياء اشد من قوى اولئك ، وهو يندفع بمعركة الفراغ ضد المـــادة حتى نهايتها الحاسمة . وهو يتسلط ايضاً حتى على المرئي المسطري الاكثر بدائية ، هذا المرئي العاجز عن اطراح ما لعصر الانبعاث من روابط بالنوازع الهندسية المعمارية . وهناك بين هذا اللون وبين التقنية الانطباعيـــة للمسة الفرشاة المنظورة ارتباط مستديم عميق الايحاء . فكلاهما يذَوِّبان في النهاية وجودات عالم الحس الملموسة (عـــالم البرهات وصدور الصور) في مشابهات جوية . فالحظ يختفي من صورة النغم . والارضية الجوسية المذهبة لم تحلم فقط الا بقوة صوفية تسيطر وتستطيع ساعة تشاء ان تطرح جانبـــاً القوانين التي تحكم الوجود الجسدي داخل كهف العالم . لكن البني في هـــذه الصور قد شقت لها مطلاً على عالم لا نهاية لاشكاله النقية، ولهذا فان اكتشاف

هذا اللون يعتبر ذروة الاسلوب الغربي في مجرى صيرورته . وهذا اللون في تعارضه واللون الأخضر الذي تقدمه ، هو لون فيه شيء ما من البروتستنتية . فهو لون يتوقع الحلولية (Pantheism) الشمالية الهولندية ، حلولية القرن الثامن عشر التي يعبر عنها غوتيه بلسان رئيس الملائكة رفائيل في فاتحة فاوست . زد على ذلك ان اجواء الملك لير ومكبث هي اجواء مماثلة لهذه . كما وان نازع الموسيقى الاداتية المعاصرة وجهادهـا نحو « كرومتيك » اكثر حرية وتحرراً (دي رور ، لوقـا ، ماريـنزيو) ونحو تشكيل اجسام للنغم بواسطة الجوقات الوترية والهوائية تنطبق تماماً على النازع الجديـد للتصوير الزيتي ، النازع الى ابداع كرومتيك تصويريـة من الالوان المجردة ، متوسلة بذلك هذه الظلال البنية غير المحدودة، والاثر المناهض للمسات اللون الموضوعة فوراً جنباً الى جنب . وبعد هذا فان كلا الفنين ينتشران في عالميهـما من الانغام والالوان (انغام لون ، ونغم ألوان) وهما جو أنقى ما يكون من الاجواء في فراغيتـه ، جو لم يعد يغلف او يترجم الجسم (وذلك بوصف الكائن الانساني شكلاً) بل انمـا يغلف ويترجم النفس غير الحبيسة . وبهذا بلغنا الباطنية التي نستطيع بواسطة اعمق مالرمبراندت وبيتهوفن من انجازات ان نفض الاسرار الاخيرة (لاحظ قال الاخيرة لا النهائية - المترجم) نفسها ، انها الباطنية ذاتها التي حاول الفرد الابولوني وسعى بواسطة فنـه الصارم في جسمانيته لايقافها عند حدها .

ومن الآن فصاعداً بُدىء في استخدام لوني صدر الصورة، الاصفر والاحمر (النغمين الكلاسيكيين) اندر فأندر ، وكان دائماً يُتعمد في استخدامها كي يظهروا التناقض والمسافـات والاعماق الـتي ارادوا من وراء استخدام هذين اللونين ان يأكدوا عليهـا تأكيداً شديداً (اي على المسافات والاعماق المترجم) (فيرمير خاصة وبالطبع الى جانب رمبراندت) ان هذا اللون البني الجوي ، والذي كان غريباً كل الغرابة عن عصر الانبعاث ، هو اللون غير الواقعي (حقيقي Unrealist) الموجود في الالوان . فهذا اللون ، هو

احد الالوان الرئيسية التي لا يشتمل عليها قوس القزح . فهناك ضوء ابيض واصفر واخضر واحمر وضوء غير هذه وهي جميعاً اضواء تتمتع باشد ما نعرف من نقاء . لكن ضوءاً بنياً نقياً هو في غير متناول الطبيعة التي نعرفها . فلكل الانغام البنية المخضوضرة والمفضضة والبنية الرطبة والمذهبة العميقة القتمة والتي تظهر بتنوعها الرائع مع « جورجيوني » تزداد قوة فقوة في المصورين الهولانديين والتي تفقد ذواتها قرابة نهاية القرن الثامن عشر ، اقول فلكل هذه الالوان صفتها المشتركة التي تسلب الطبيعة من واقعتها المحسوسة . ولهذا فان هذه الالوان تحتوي على ما تحتوي عليه تقريباً الحرفة الايمانية الدينية ، فنحن نشعر عند هذه الالوان باننا لا نبعد كثيراً عن بورت رويال وليبنتز . لكن ابتداءً بكونستبل من جهة اخرى (وهو مؤسس التصوير الزيتي لمدينتنا الحاضرة) نشعر بارادة مغايرة لتلك ، بارادة تبحث عن التعبير ، وكل لون بني تعلمه هذا من المصورين الهولانديين يعني له ما لم يكن يعنيه لهم (فهو (اي اللون البني) يعني للهولانديين (المصير والله ومعنى الحياة) فالبني يعني لكونستبل الروايات من غرامية وخيالية، ويعني الحسية والحنين الى شيء ما قد تولى وانقضى ، انه احياء لذكرى ماضٍ عظيم لفن يتحشرج . زد على ذلك اننا نشاهد ما نشاهده لدى كونستبل ، لدى آخر الاساتذة الالمان ايضاً (لسنج ، ماريز ، شبتسفيغ ، ديتز ولايبل) هؤلاء الذين فنهم هو فن رومانتيكي تأملي في الماضي وهو بمثابة النشيد الختامي ، لذلك يبدو لنا انهم يتمسكون بالانغام البنية كأنها متاع موروث ثمين . وهم ولما كانوا غير راغبين قلبياً ان يفترقوا عن آخر ما للاسلوب العظيم من ذخائر لذلك فانهم فضلوا ان يقيموا من انفسهم معارضين للنازع الجلي الواضح لجيلهم (الجيل المعدوم النفس ، القاتل للنفس ، جيل الهواء الطلق Plein air وهيكل .

ان معركة بني رمبراندت هذه ، التي فهمت صواباً ، (ولم يسبق لأية

معركة ان فهمت كما فهمت هذه) ضد المدرسة الجديـــدة ، مدرسة الهواء الطلق ، هي بكل بساطة قضية أخرى من قضايا المقاومة الميؤوس منهـــا تخوضها النفس ضد العقل وتشنها الحضارة على المدينة ، انها معركة التعارض بين الفن الرمزي الضروري وبين فن المدينة العالميـــة الكبرى « التطبيقي » هذا الفن الذي يؤثر في البناء والتصوير الزيتي والنحت والشعر على حد سواء. ونحن اذا ما اعتبرنا بهذا فان مغزى اللون البني يصبح جلياً بما فيه الكفاية ، فعندما يموت هذا اللون تموت معه كامل حضارتنا . لقد كان اولئك هم أعظم الاساتذة باطنياً (ورمبراندت اعظمهم جميعاً) الذين فهموا هـــذا اللون على أحسن وجه ، فهو هذا البني الغامض لافصح انجازات رمبرانــدت حديثاً ، أما أصله فيعود الى الاضواء العميقة لنوافذ الكنائس الغوطية ولغبشة صحونها السامقة في قناطرها . ان النغم الذهبي لاساتذة البندقية العظام (تيتسيان فيرونيز ، بالما وجيورجيوني) يذكرنا دائماً بالفن الشمالي الزجاجي الذي باد والذي لا يعرف أهلوه أي شيء عنه تقريباً .

وهنا ايضاً يبدو لنا عصر الانبعاث بلا جسميته المتعمدة للون مجرد قصة استطرادية ، مجرد حادثة على سطح كل سطح وعي الذات ، وهذه لم تكن نتاجاً للغريزة الفاوستية المستترة وراء النفس الغربية ، فالبني الذهبي الوهاج للتصوير الزيتي البندقي يربط بين الغوطي والباروكي ، ويربط بين فن التصوير على الزجاج وبين موسيقى بيتهوفن القاتمة . وتنطبق تماماً من حيث الزمان على اعتماد الاسلوب الباروكي ذي موسيقى اللون انجـــازات الهولانديين واخص منهم فيلارت وسايبريان دي رور وجبرائيلي الاكبر والمدرسة الموسيقية التي أسسوها في مدينة البندقية .

اذن فالبني أصبح اللون المميز للنفس ، وعلى اكثر من التخصيص ، للنفس المطبوعة على فطرة ما . ولقد تحدث كما أذكر نيتشه في احد مؤلفاتـــه عن موسيقى « بيزي » البنية ، ولكن هذه الصفة (البنية – المترجم) تلائم اكثر بكثير الموسيقى التي كتبها بيتهوفن للآلات الوترية وللجوقات التي تملأ

كثيرا من المرات ومتأخرة حتى ايام « بروكنر» الفراغ بمدى ذهبي بني للنغم. اما الالوان الاخرى كلها فانما ترد الى وظائف ثانوية ، ولذلك فان الاصفر البراق وقرمزي « فرمير » يتطفلان بالفراغي كأنهما ينتميان الى عالم آخر ، ويتطفلان بتأييد ما هو ميتافيزيقي حقيقي ، كما وان الاضواء الحمراء بلون الدم لرمبراندت تبدو في معظمها كأنها تتلاعب بالفراغ . لكن « روبنز » هو عكس ما ذكرت (انه صانع لامع لكنه ليس بالمفكر) فاللون البني عنده يفتقر تقريباً الى الفكرة ، فهو ظلال لون . (ففيه وفي « فاتو »يتنازع الازرق المخضوضر « الكاثوليكي » الافضلية واللون البني .) ان كل هذه الامور تظهر كيف انه اذا ما اسلمت وسيلة خاصة الى ايدي رجال ذوي عمق باطني ، تصبح رمزاً لاستدعاء تسام رفيع كهذا يبلغ ما بلغه المنظر الطبيعي الذي رسمه رمبراندت ، بينما انها قد تمسي بالنسبة الى اساتذة عظام آخرين مجرد ذريعة تقنية يمكن استخدامها (أو بكلمة أخرى) (كما سبق لنا ان رأينا) شكلاً تقنياً وفق المفهوم النظري لشيء ما مناهض «للمحتوى» وليست له اية علاقة بشكل حقيقي لاي انجاز عظيم .

لقد لقبت البني باللون التاريخي . واردت من وراء هذا ان أشير الى ان جو الفراغ المصور يدل على التوجيهية (لاحظ توجيهية لا اتجاهية — المترجم) والمستقبل ، وانه يتغلب على تأكيد أي عنصر برهي قد يمكن عرضه او تقديمه . وللالوان المسافة الأخرى ايضاً هذا المغزى ، وهي تقود الى امتداد هام وجدير بالامعان وشاذ للرمزية الغربية . لقد انتهى الهلينيون الى تفضيل البرونز وحلى البرونز المموه بالذهب على المرمر المصور عليه ، وذلك كي يتمكنوا من التعبير باسلوب افضل (بواسطة تألق هذه الظاهرة ضد الجلد القاتم الزرقة) عن الفكرة الافرادية لاي وكل شيء جسماني . والان وعندما نبش عصر الانبعاث هذه التماثيل ، فانه الفاها سوداء وخضراء تحمل عليها « باتينا (Patina) »[1] الكثير من القرون . ولقد ربطت الروح التاريخية بما لها من ورع وحنين نفسها الى هذه ، (ومنذ ذلك الزمن أثبت شعورنا

(١) Patina : النحاس الذي يعلوه الصدأ

بالشكل قداسة هذا الاسود والاخضر للمسافة . واليوم هذا فان عيننا تجد « الباتينا » أمراً لا يستغنى عنه لكي نتمتع بمنظر البرونز (وسخرية التصوير لهذه الحقيقة ان هذا الصنف من للفن بكامله هو شيء ما لم يعد يستأثر باهتمامنا الى هذا الحد) . فما الذي يعنيه شكل قبة كاتدرائية بالنسبة الينا دون ان ان تغطيه « باتينا » تحول المدى القصير للتألق الى بعد في الزمان والمكان ؟ ألم نتوصل الى انتاج هذه « الباتينا » صناعياً ؟

ولكن هذا الموضوع يتضمن حتى اكثر من هذا وذاك فيما يتعلق بالرفع من قدر انحطاط مستوى وسيلة فن ذات مغزى مستقل . فنحن نستطيع بالكاد نشك في ان الفرد الاغريقي اعتقد « بالباتينا » كآثار انجاز فني . فلم يكن اجتنابه لذاك اللون الاخضر ، بما لهذا اللون من ارتبـــاط « بالمسافة » ناجماً عن دوافع روحية . فالباتينا هي رمز الفناء ولذلك فهي تربط بصورة عجيبة الى رمزي قياس الزمان والطقس الجنائزي . ولقد سبق لنا في فصل ابكر أن بحثنا اعتبار الروح الفاوستية التواق الى الخراب وذلك فـــيمايتعلق بالآثار بوصفها دلائل على الماضي البعيد السحيق ، وبحثنا ميلهـــا الى جمع « الانتيكات » والمخطوطات والنقود المعدنية ، وذهبنا في بحثنا الى الحجيج الى «فوروم روماتوم» وبومباي والى التنقيب عن الآثار والدراسة الفيلولوجية والتي ظهرت في وقت مبكر كوقت بترارك . فمتى يمكن ان يكون قـــد خطر للفرد الاغريقي خاطر ليشغـــل نفسه بالتنقيب عن آثار Cnossus أو Tiryns ؟ لقد كان كل اغريقي يعرف « إلياذته » ولكن لم يفكر أي منهم في ان ينقب في تلة طروادة ، بينما نحن مدفوعون بورع سري لنقوم بالمحافظة على القناطر المائية التي بنتها كامبانا(Campagna)وعلىأجداث الأوترسكيين وعلى آثار الاقصر والكرنك ، وعلى القـــلاع المتداعية على ضفاف « الرين » وعلى « الجبر » الروماني وعلى هرسفلد وبولنتزلا ، وذلك رغبة منا في ان يصبح كل ما ذكرت مجرد نفايات ، لكننا نحافظ نحن عليها كآثار ، ونشعر بصورة مراوغة فرارة بان إعادة تعميرنا لها يجردها من شيء ما لا تستطيع

المصطلحات ان تعبر عنه ، ولا يمكن ان يعاد انتاجها ثانية . ولم يكن هناك شيء أبعد على العقل الكلاسيكي من الاحترام والتبجيل كما كان وما حدث فيما مضى من دلائل ضربتها يد الطقس ضرباً عنيفاً . فالعقل الكلاسيكي قد أزاح من أمام البصر كل شيء لا يتحدث عن الحاضر ، ولم يحافظ أبداً على العتيق ، لانه كان عتيقاً . وعقب ان دمر الفرس اثينا القديمة ، رمى مواطنو هذه المدينة بالاعمدة والتماثيل والتضاريس بغض النظر عما اذا كانت مهشمة أم لم تكن من وراء حائط الاكروبول ، وذلك رغبة منهم في ان يبدأوا من جديد بلوح اردوازي نظيف ، وكانت نتيجة عملهم هذا ، نتيجة هذه الكوم من « الخردة » اغزر منابع معرفتنا بالقرن السادس . لقد كان عملهم هذا يتفق تماماً وطراز حضارتهم ، هذا الطراز الذي ارتفع باحراق جثة الميت الى مصاف الرمز الرئيسي ورفض ساخراً ان يربط الحياة اليومية بالكرونولوجي ، اما اختيارنا فكان كالعادة ، اختياراً معاكساً لاختيارهم . فصورة من طراز مود كلود لورين للمناظر الطبيعية صورة لا يمكن ادراكها دون ما آثار . والحديقة الانكليزية بايحائها الجوي والتي أزاحت بطريقة مخاتلة مخادعة الحديقة العامة الفرنسية قرابة عام ١٧٥٠ ونبذت الفكرة العظمى للمرئي للحديقة الاخيرة لحساب « طبيعة » « اديسون » و « بوب » والحسية ، قد ادخلت في مخزونها نوازع ربما تكون أغرب النوازع وأشدها استثارة للدهشة والعجب والتي لم يسبق لمثلها ان تجنت على الآثار الاصطناعية كي تعمق الطابع التاريخي فيما تعرضه صورها من مناظر طبيعية . لقد استعادت الحضارة المصرية انجازات عهودها المبكرة ، ولكن لم يكن ابداً يخطر لها على بال ان تبني آثاراً بوصفها رموزاً لماضيها . ومرة أخرى نقول ، انه ليس التمثال الكلاسيكي هو ما نحب ، بل انما هو جذعه الذي نحب حقاً . فلقد كان لهذا الجذع مصير ، كان له شيء ما يوحي بالماضي ، كما يغلفه الماضي ، وخيالنا يبتهج ويسر ليملأ الفراغ الخاوي لهذه الاعضاء المفقودة بنبض وخطوط غير منظورة . إنها شفاء طيب ، وان سحر الامكانات السري

اللامتناهية قد ذهب وولى . وإنني لأغامر فأقول بواسطة هـــذه الوسيلة من التبديل في المركز الى الموسيقى ، اصبح بامكان بقايا النحت الكلاسيكي ان تصل الينا . فالبرونز الاخضر والمرمر المسود وشظايا من جسم هي التي تزيل من أمام عيننا الباطنية محدوديات الزمان والفراغ . انهـــا قابلة للتصوير وتستحقه ، هذا ما سبق لهم ان نعتوها به ، هذا ما نعتوا به التمثال الجديد ابن ساعته والبناية والحديقة العامة التي يبالغون في العناية بها ، لكن هـــذه كلها ليست بالرائعة القابلة للتصوير ، والمعنى العميق لهذا النعت هو الى هذا الحد تماماً هو معنى عميق للذواء هذا كما يعنيه اللون البني ، « بني الاستديو ». ولكن ما يعبر عن كليهما في العمق هو الموسيقى الادائية . فهل يؤثر فينـــا رمّاح بوليكليتوس اذا ما وقف امامنا ببرونزه المتـــألق وعينيه المشعتين بالميناء (الطلاء الخزفي — المترجم) وشعره المموه بالذهب كما يؤثر في أبنـــاء دولة العهد المسود ؟ ألا يفقد جذع تمثال هرقل الموجود في الفاتيكان انطباعيته الجبارة اذا ما قدر في يوم حسن الطالع ان نكتشف ونستبـدل أعضاءه المفقودة ؟ والا تفقد أبراج وقباب مدننا العتيقة سحرها الميتافيزيقي العميق إذا ما غلفت هذه بنحاس جديد ؟ ان السن بالنسبة الينا ، كما هو بالنسبة الى المصريين يرفع من قدر جميع الاشياء ، اما بالنسبة الى الفرد الكلاسيكي فانه يبخسه حقها ويغض من شأنها .

وأخيراً فلنتأمل بالتراجيدي الغربية ، ولنلاحظ كيف ان الشعور ذاته يقود التراجيدي الى تفضيل ما هو « تاريخي » مادي (ولا أعني بهذا ما هو الى أقرب حد واقعي او محتمل بل انما اعني المواضيع البعيدة والمغلفـــة بغشاوة) ، هذه المواضيع التي ارادتها النفس الفاوستية ، والتي يجب ان تحصل عليها ، لا يمكن ان يعبر عنها بأية حادثة ذات مغزى بدهي ، مغزى يفتقر الى المسافة والزمان او المكان ، او يعبر عنها بواسطة فن تراجيدي من نوع كلاسيكي ، أو بأسطورة معدومة الزمان . ولهذا فان تراجيدياتنـــا هي تراجيديات ماضٍ ومستقبل معاً ، فتراجيديات المستقبل التي يتوجب عليهـــا

ان تري الناس كيف يحملون عبء مصيرهم تتمثل الى حد ما في « فاوست » وبيرجنت « peer gynt » و « غسق الالهة » . لكننا لا نملك تراجيديات للحاضر ، ما عدا الدرامات الاجتماعية التافهة التي طلع علينا بها القرن التاسع عشر . فعندما كانت المناسبة تطلب من شكسبير ان يعبر عن شيء ذي اهمية في الحاضر ، كان على الاقل ينقل المشهد من مسرح هذا الشيء الى بلد اجنبي، (وكان يفضل ايطاليا) التي لم تطأها قدم له ، وكان الالمان يحذون حذوه فيستبدلون مكان المشاهد بريطانيا او فرنسا ، وذلك كله رغبة منهم في التخلص من قرب الزمان او المكان اللذين كانت تؤكد عليهما الدراما الاتيكية حتى في موضوع اسطوري .



الفصل الثامن

الموسيقى والفنون التشكيلية

- ٢ -

الجريد[١] (act[٢]) والصورة الشخصية[٣] Portrait

- ١ -

وُصفت الحضارة الكلاسيكية بأنها حضارة الجسد ، بينما نعتت الحضارة الشمالية بانها حضارة الروح ، ولم يتم هذا التقرير دون باعث خفي معين يرمي الى بخس حق احداهما على حساب الاخرى . ومع ان ذوق عصر الانبعاث

---

(١) الجريد : المجرد من ثيابه ، العاري : nude

(٢) يقول شبنغلر انه يعني بكلمة act , pose اي « وقفة » ونحن عربنا هذه الكلمة ثم يقول ان مفهوم act الفني هو nude ، ونحن ترجمناها بكلمة الجريد ، وذلك لان معظم البحث يدور في هذا الفصل عن التمثال الاغريقي العاري .

(٣) اود ان اشير هنا الى أننا ترجمنا portrait بالصورة الشخصية ، واحيانـاً صورة شخصية ، وغيرها اقتصرنا على كلمة صورة ، والصورة الشخصية (portrait) تقتصر على رسم الاشخاص وخاصة وجوههم . كما واننا ترجمنا Self - portrait بالصورة الذاتية وقد اجبت انه انبه الى هذه الامور في اول الفصل دفعاً لكل التباس . ـ المترجم ـ

قد اقام تبايناته بين الحضـــارة الكلاسيكية وبين الحضارة الحديثة ، بين الوثنية وبين المسيحية ، على التفاهات بصورة رئيسية ، الا ان حتى هذا الواقع كان من الممكن ان يقود الى اكتشافات حاسمة لو ان الناس عرفوا فقط كيف ينفذون من وراء القوانين والاعراف الى الاصول .

فاذا كانت بيئة انسان ما ، هي بالنسبة اليـــه نسبة الكون الاكبر الى الكون الإصغر (Microcosm) (واي شيء آخر يمكن ان تكون) ، اي انها (البيئة) مجموع هائل من الرموز ، فعندئذٍ فان الانسان طالما هو ينتمي الى نسيج الواقعة وطالما هو ظاهري phenomenal يجب ان يُضمّن الرمزية العامة . ولكن في أثره الذي يطبعه على أناس آخرين من أمثاله يجعلنـــا نتساءل : ما هو ذاك الذي يمتلك قوة الرمز ، مثلاً المقدرة على ان يجمع داخل ذاته ويعرض بجلاء ووضوح جوهر ذاك الرجل ومغزى وجوده ؟

ان الفن هو الذي يقدم الينا الجواب .

لكن هذا الجواب هو بالضرورة جواب يختلف باختلاف الحضارات فلما كان كل انسان يعيش على طريقة تخالف غيره ، لذلك فان انطباعه عن الحياة هو انطباع مخالف لانطباع غيره . وذلـــك لأن صيغة التخيل الانساني (والتخيلات،منميتافيزيقي واخلاقي وفني على حد سواء) هي اكثر من مهمة، فمن الأهميةالحاسمة ان يشعر الفرد بنفسه كجسد بين الاجساد، او على العكس من ذلك كمركز في الفراغ اللامتناهي ، ان يرهف « أناه » (ego) بوضوح فريد ، أو على العكس ان يعتبرها كجزء جوهري من الاتحاد العام ، ان يؤكد خلقه الاتجاهي ، أو على العكس ان يفكر في ايقاع حياته ومجراها . وبهذه الطرائق جميعاً يبرز الرمز الاولي للحضارة العظمى الى الوجود ، وهذا حقاً هو شعور عالمي لكن المثل الاعلى للحياة يقره ويصادق عليه . لقد نجم عن المثل الاعلى الكلاسيكي قبول غير متحفظ بالبرهة الحسية ، أما على المثل الاعلى الغربي فنجم صداع شجي للتغلب على البرهة الحسية . فالنفس الابولونية اليوقليدية أحست بالجسم التجريبي المنظور على انـــه التعبير الكامل عن نهج

كينونتها ، اما النفس الفاوستية الهائمة في كل المسافات فانها لم تجد تعبيرها في الشخص بل انما وجدته في الشخصية ، في الخلف ، ولتسمه بما ترغب وتختار . لقد كانت النفس بالنسبة الى الفرد الاغريقي الحقيقي هي ، بعد كل تحقيق وتدقيق ، شكل جسده ، وعلى هذا النحو عرفها ارسطوطاليس . اما الجسد في نظر الرجل الفاوستي فانما كانت وعاء الروح ، وعلى هذا النحو أحس به غوتيه .

ونتيجة لذلك فان كل حضارة تختلف عن الاخرى اختلافاً عظيماً في اختيار وتكوين فنونها الخيرة الكريمة . فبينما يعبر « غلوك » عن فاجعة الارمادا بلحن يتألف من انغام كئيبة موحشة قاضمة قارضة في موسيقى ادائية مساوقة ، فان الشيء ذاته يُنجز في منحوتات بيرغامين بواسطة جعله لكل عضلة لساناً تتحدث به . ان التصوير الشخصي الهليني يحاول ان يرسم نموذجاً روحياً في تركيبه للرؤوس . بينما ان رؤوس قديسي لنغ- يان - سي تحدث نظراتها والتلاعب بزوايا الفم عن حياة باطنية كاملة .

ان النازع الكلاسيكي الى جعل الجسد الناطق الوحيد بلسانه هو بكل تأكيد ليس ناجماً عن أي شبق حيواني شهواني مادي خصت به شعوبه ، (فرجل Oupoouvn لم يكن يُسمح له بالفجور والخلاعة) ولم يكن نيتشه محقاً في اعتقاده بانه كان نازعاً منبجساً عن مرح طليق داعر خليع يتدفق من حيوية انفعال نفساني شهواني حار . فمثل هذا الوصف هو اقرب بكثير الى المثل العليا للفروسيات الالمانية المسيحية او الهندية . أما ما يستطيع الفرد الابولوني او الفن الابولوني ان يدعيه ملكية محصورة به ، فانما هو تأليه الظاهرة الجسدية بما لهذه الكلمة من مفهوم حرفي (ولنتأمل بالتناسب الايقاعي للاعضاء والتركيب المتناغم للعضلات .) وهذا الفن ليس فناً وثنياً يقف وجهاً لوجه والفن المسيحي ، بل انما هو اتيكي يجابه « باروكيا » . وذلك لان الجنس البشري الباروكي (أمسيحيين كانوا او ملحدين رهباناً أو دهريين) هو أول من نبذ مذهب المجوس به ، وقد نقل ملكيته الى اقصى حد وأبعده

عنه الى الدنس الجسدي الذي ساد حاشية لويس الرابع عشر ، الذين كانت شعورهم المستعارة واشرطة الدانتلا وحواشي اكمامهم وأحذيتهم « المبكلة » تغطي الجسد بنسيج كامل من الزينة .

وهكذا فان الفن التشكيلي الكلاسيكي بعد أن حرر الشكل تماماً من الواقعي ، او من الجدار الخلفي التخيلي ونصبه في الهواء الطلق حراً غير مرتبط كي يرى كجسد بين الاجساد فانه تقدم منطقياً ليجعل من الجسد العاري موضعه الاوحد . وعلاوة على ذلك ، فان هذه المنحوتات (العارية) هي منحوتات لا تشابه كل نوع آخر من النحت المدون في تاريخ الفن ، وذلك من حيث ان معالجتها للسطوح المحددة لهذا الجسد هي سطوح مقنعة من الوجهة التشريحية . فهنا ذهب بالمبدأ اليوقليدي الى اقصى حد له ، فأي غلاف من أي نوع كان قد يتعارض ، مهما كان تعارضه طفيفا ، والظاهره الابولونية ، فانه كان سيشير ، مهما بلغ جبنه ، الى وجود الفراغ المحيط بالاشياء .

أما ما هو تزييني بارفع معنى ، في هذا الفن فانما يكمن كلياً في تناسب هيكل الجسد وتكافؤ المحاور فيما يتعلق بتعضيد الحمل . ولا فرق هناك أكان التمثال في وضع واقف او جالس او مضطجع ، لكنه دائماً آمناً ، فان الجسد كالبربتورس « Peripteros » ليس له داخل (جواني) ، أي ليس له « نفس » . فمغزى تضريس العضل المنفذ نحتاً صحيحاً مطلقاً في صحته ، هو تماماً بنظام تنضيد الاعمدة المنغلق على نفسه ، فكلاهما يحتوي على كامل لغة شكل الانجاز والحق أنه كان سبباً ميتافيزيقياً جازماً بميتافيزيقيته هو الذي دفع بالهيلينيين المتأخرين زمنا الى هذا الفن ، لقد كان هذا السبب يتمثل في شعورهم بالحاجة ، الى رمز حياة اسمى لهم ، لكن هذا الفن هو بين كل فنونهم فن ضيق ، وليس صحيحاً القول بان لغة السطح الخارجي هي الصيغة الاكمل أو اكثر الصيغ طبيعية ووضوحاً لعرض الكائن الانساني ، بل انما الواقع هو على العكس من هذا تماماً ، فاذا كان عصر الانبعاث بنظريته الغيور

الحـــارة وبسوء فهمه الهائل لنازعه الخـــاص لم يتابع سيطرتـه على احكامنا (وذلك طويلاً عقب أن أصبح الفن التشكيلي غريباً غرابة كلية عن نفسنا الباطنية) فلقد كان علينا أن لا ننتظر حتى هذا اليوم كي نلاحظ هذا الطابع المميز للاسلوب الاتيكي . فلم يسبق ابداً لاي نحات مصري أو صيني أن حلم ولو مرة باستخدام التشريح الخارجي ليعـبر عما يعنيه . فلم يسمع ابداً بان الصورة الغوطية كانت تبرز لغةعضلات. فالمشبك الانساني الذي يكسو الاطار الغوطي الجبار بنسيج من اشكال ومشخصات وتضاريس لا تعد ولا تحصى (ولكاتدرائية شارتر اكثر من عشرة الاف من هذه) ليس مجرد زينة او زخرف ، فمنذ عهد يعود حتى عام ١٢٠٠ استخدم مثل هذا المشبك ليعبر عن مخططات ومشاريع واهداف وغايات أعظم بكثير من أعظم ما في الفن الكلاسيكي التشكيلي . وذلك لان جماهير هذه الاشكال والمشخصات تؤلف وحدة تراجيدية . فهنـــا في الشمال وابكر من دانـتي يبلغ الحس التاريخي للنفس الفاوستية (الذي يشكل السر المقدس للندامة تعبيرها الروحي وطقس الاعتراف معلمه الرزين الوقور) الاكتمال التراجيدي لدراما العالم . فذاك الذي كان يراه يواكيم فون فلوريس في ذلك الوقت تماماً في صومعته (صورة العالم ليس بوصفه كوناً انمـــا بوصفه تاريخاً إلهياً وتتابعاً لاجيـــال عالم ثلاثة) كان يراه ايضاً العمال المهرة في رايمس واميان وباريس في سلاسل تعرض التاريخ ابتداءً من الخطيئة الاولى حتى يوم الدينونـــة . فكل منظر ولكل مشخص رمزي عظيم له مكانه ذو المغزى في الصرح المقدس ، ولكل دوره في قصيدة العالم الهائلة . وهنا أخذ كل انسان يشعر كيف ان مجرى حياته قد أعد ورتب كزينة في مخطط التاريخ الالهي ، وأخذ يختبر ارتباطه الشخصي به بواسطة سري الندامة والاعتراف .

وبهذا فان هذه الاجسام المنحوتـة من الحجر ليست مجرد خدم للهندسة المعمارية . فلهذه الاجسام معناها العميق الخاص بها، انـــه نفس المعنى الذي ينطلق به القبر التذكاري بقوة تتزايد ابتداءً من القبور الملكية في سان دنيس

فما بعد ، إذ هذه القبور تتحدث عن الشخصية .وتماماً كما ان الفرد الكلاسيكي قد عني بصورة رئيسية ، وبواسطة الوصول بانجازه للجسد السطحي حـــد الكمال ، (فالى هذا ينتهي الطموح التشريحي لجميع الفنانين الأغارقة) اقول قد عني ان يستهلك كامل جوهر الظاهرة الحية في وبواسطة ترجمته لسطوحه المحددة ، كذلك تماماً وجد الفرد الفاوستي ، وبمنطقية لا تقـــل عن منطقية ذاك ، ان أشد التعابير أصالة وأوحدها فصاحة ، عن شعوره بالحياة يكمن في الصورة الشخصية.ان المعالجة الهيلينية للتمثال العاري تشكل حالة استثنائية، فهذه المعالجة وحدها هي التي قادت الى فن راق .

لم يُحس ابداً احد حتى الآن بان الصورة الشخصيـــة والجريد كأنهما تشكلان تعارضاً ، ونتيجة لهذا لم يدرك ابداً المغزى الكامل لظهورهمـــا في تاريخ الفن . ومع هذا فان من خلال الخلاف بين هذين المثلين الاعليين للشكل يتضح التباين بين العالمين على اكمل وجه . فهنا من جهة يوجد وجود قد صُنع ليُري نفسه متآلفاً وخارج البناء ، وهناك من جهة اخرى الداخل الانساني ، النفس ، قـد بُدىء ليتحدث عن نفسه ، كما يتحدث الينا داخل الكنيسة ، بلسان واجهتها او محياها . اما المسجد فليس له وجه ، ونتيجة لذلك فان حركات تحطيم الصور والتماثيل الاسلامية منها والبوليصية (هذه الاخيرة التي انتشرت بقيادة ليو الثالث الى بيزنطة وما وراءها) قد اطرحت بالضرورة الصورة الشخصية خارج فنون الشكل ، وهكذا فانهم لم يمتلكوا عقب هذه الحركات سوى مخزون معين من الزخرف العربي الانساني . اما في مصر فان وجه التمثال معادلاً للبوابة ، وجه مخطط المعبد ، ولقد جاء انبعاثـاً جباراً من كتلة الحجر للجسد كما نرى ذلك في سفنكس الهكسوس لتانيس وهو صورة أمنمحيت الثالث . اما الوجه في الصين فكان مشابهاً للمنظر الطبيعي ، فهو مليء بالفضول وباشارات صغيرة تعني شيئاً ما . ولكن الصورة بالنسبـة الينا هي موسيقى . فالنظرة والتلاعب بالفم و « بوز » الرأس واليدين ، فهذه هي كلها «فوغيه» ذات مغزى بالغ في دهائـــه ومراوغته،وهي مؤلف موسيقي

يضم الكثير من النغمات والاصوات التي تصدح لفهم المشاهد وادراكه . ولكن كي نتمكن من ادراك مغزى الصورة الشخصية في الغرب على صورة ادق في تباينها والصورتين من مصرية وصينية ، يتوجب علينا ان نتمعن في التغيير العميق الذي طرأ على اللغة في الغرب والذي بدأ في العهد الميروفنجي كإرهاص فجر شعور جديد بالحياة . وهذا التبدل امتد ليشمل سواءً بسواء اللغة الالمانية القديمة واللاتينية العامية ، لكنه لم يؤثر في غير الالسن الناطقة في بلدان الحضارة القادمة (مثلاً الالسن: النرويجي والاسباني لكن ليس الروماني) الا ان التبدل لا يكون من الممكن تفسيره اذا ما اكتفينا فقط باعتبار روح هذه اللغات واثر احداهـا على الاخرى ، وذلك لان التفسير يكمن في روح الجنس البشري الذي ارتفع بمجرد طريقة لاستخدام الكلمات الى مستوى الرمز . فنحن بدلاً من Sum ، وفي الغوطية im ، نقول بالالمانية Ich bin وبالانكليزية Iam (انا اكون) وبالافرنسية Je suis ونقول بدلاً من Fecisti . وثانية ، Tu habes factum , tu a fait , du habes gitân un home , daz wip man hat .

ولقد كانت هذه حتى الآن أحجية وذلك لأن عائلات اللغات كانت تعتبر ككائنات ، ولكن سرعان ما نتمكن من حل هذا الغموض عندما نكتشف في المصطلح إنعكاس نفس من النفوس . فالنفس الفاوستية تبدأ هنا لتصوغ ثانية لاستعمالها الخاص مادة غرامتيكية (صرف ونحو الخ ...) تشتق من أصل جد متباين . فمجيء هذه « I » (أنا) على وجه التخصيص هو الفجر الاول لفكرة الشخصية التي قدر لها فيما بعد بزمن طويل ان تبدع سري الندامة والغفران الشخصي . فهذا الـ Ego Habeo Factum ، أي اقحام فعلي المساعدة « Be » « Have » بين الفاعل وبين الفعل بدلاً من « Feci » التي تعبر عن جسم محرض منشط يستبدل عالم الاجسام بعالم وظائف بين مراكز القوة ، يستبدل علم تركيب الكلام السكوني (Static Syntax بعلم الكلام الديناميكي . وهذه الـ « I » والـ « Thou » هما المفتاح للصورة الشخصية الغوطية . أما الصورة الهيلينية فهي نموذج لموقف ، وهي ليست باعتراف

بالنسبة الى كل من مبدعها ومُشاهدها . لكن صورتنا ترسم شيئاً ما Sui Generis ، شيئاً ما يحدث مرة واحدة ولا يتكرر أبداً حدوثه، انه تاريخ حياة عبر عنه بلحظة ، انه مركز للعالم وكل شيء ما عداه هو العالم المحيط به ، انه تماماً كالموضوع الغرامتيكي « I » الذي يصبح مركزاً للقوة في الجملة الفاوستية . لقد سبق لنا ان اظهرنا كيف ان أصل الامتداد هو في الاتجاه الحي والزمان والمصير . أما في الكائن المكمل لكل ما حول الجسم العاري فان خبرة العمق قد جرى استئصالها ، لكن « منظر » الصورة تقود هذه الخبرة الى لانهائية « سوبر » حسية Supersensuous لذلك فان الفن العتيق هو فن القريب المحسوس والمعدوم الزمان ، فهو يفضل نوازع برهة قصيرة لا بل أقصد برهة تفصل بين حركتين ، يفضل اللحظة الأخيرة التي تفصل بين الرياضي « مايرون » وبين قذفه للقرص ، أو اللحظة الأولى التي اعقبت هبوط « نايك » « بيونيوس » من الهواء وذلك عندما انتهى تأرجح الجسد ولم تنسدل عليه عباءته السيالة بعد . ان المواقف معدومة الديمومة والاتجاه وغير مرتبطة بالمستقبل وبالماضي سواء بسواء . ان جملة Veni , Vidi , Vici (جئت فرأيت فانتصرت) هي بدورها موقف آخر ، لكن في جملة أنا جئت ، أنا رأيت ، أنا انتصرت ، I Came . I Saw I-Conquered صيرورة في كل مقطع من مقاطع الجملة .ان خبرة العمق هي صيرورة وهي تؤثر في المصير ، وهي ترمز الى الزمان وتستدعي الفراغ ، وهي فورية في كونيتها وفي تاريخيتها . رد على ذلك ان الاتجاه الحي يزحف الى الافق كما يزحف الى المستقبل . « فالمدونا » في مدخل كنيسة القديسة « حنة » في نوتردام تحلم بهذا المستقبل منذ وقت مبكر يعود ١٢٣٠ ، وكذلك مادونا « كولون » ما بعدها ، مادونا « ذات زهرة اللوبياء » ، التي نحتها الاستاذ وليم .

وقبل ان ينحت ميكالنجلو تمثال موسى بزمن طويل ، كان موسى كلاوس سلوتر في شارتر – ديجون يتأمل في المصير ، وحتى كاهنات(Sibyls)

في كنيسة « سستين » قد توقع قدومهن جيوفاني بيسانو في سانت اندريا في « بستويا » (١٣٠٠) . وأخيراً هناك المشخصات القائمة على القبور الغوطية، وهذه تظهر كيف يرتاحون عقب رحلة مصير طويلة ، وكيف يتباينون تماماً والقبر المعدوم الزمان والمرح والذي تعرضه شواهـد المقابر الاتيكية . ان التصوير الغربي هو تصوير لانهائية له بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وذلك لانه يبدأ بالاستيقاظ من الحجر منذ قرابة عام ١٢٠٠ ولقد أمسى موسيقي بكامله في القرن السابع عشر . وهو لا يأخذ شخصه على انـه مجرد مركز للعالم كطبيعة والذي بوصفه ظاهرة يتلقى شكلاً ومغزى من كينونته ، بـل انما يأخذه على انه مركز للعالم كتاريخ ولا شيء آخر غير هذا . أما التمثال الكلاسيكي فهو قطعة من « الطبيعة » الحاضرة فقط لا غير ، زد على ذلك ان الشعر الكلاسيكي هو تمثالية (Statuary) منظومة. ومن هنا ينبع شعورنا الذي يتهم اليونان بالولاء غير المتحفظ للطبيعة ، ونحن لا نستطيع أبداً ان نتخلص من هذه الفكرة القائلة بان الاسلوب الغوطي إذا ما قورن بالاسلوب الاغريقي فانما هو اسلوب « غير طبيعي » . وهو بداهـة وطبعاً كما قلت ، وذلك لانه أسلوب أكثر من الطبيعة . ونحن فقط ننفر ونشمئز دون ما سبب من ان ندرك ان ما اكتشفه شعورنا في الاسلوب الاغريقي انما هو النقص والقصور . فلغة الشكل الغربية هي أوفر ثراء (فالتصوير الشخصي ينتمي الى الطبيعة والتاريخ) . فقبر من تلك القبور التي شيدها « اولئك الهولانديون العظام في سانت دنيس ابتداء من عام ١٢٦٠ ، أو صورة شخصية صورهـا هولباين او تيتسيان او رمبراندت او غويا ،هي سيرة شخصية (biography) وصورة ذاتية هي اعتراف تاريخي . فاذا ما اقدم احدهم على الاعتراف فلا يعني هذا التصريح بعمل أتاه ، بل انما يعني بعرض التاريخ الباطني لما أتاه من عمل على القاضي . فالعمل صريح وجذوره هي السر الشخصي . وعندمـا يعارض البروتستنتي او المفـكر الحر الاعتراف السري ، فانما لا يخطر لهذا أبداً على بال انه يرفض فقط مجرد الشكل الخارجي للفكرة وليست الفكرة نفسها . فهو يأبى ان يعترف للكاهن ،لكنه يعترف أمام نفسه ، أو لصديق

و للجميع وبصيغ متعددة متنوعة . فكامل شعر الشمال هو اعتراف واحدا صريح وكذلك ايضـــاً هي صور رمبراندت وموسيقى بتهوفن ، فما قاله رفائيل وكالديرون وهايدن للكهنة قاله رمبراندت وبتهوفن بلغة انجازاتها . اما ذاك الذي يرغم على الصمت وذلك لان عظمة الشكل الذي يستطيع ان يستوعبه ، حتى الاشياء النهائية قد منع عنه ، فان مثل هذا يندرج في باب فنانين كهلدرلين . ان الرجل الغربي يعيش داخـــل وعي صيرورته وعيناه مركزتان بصورة دائمة على الماضي والمستقبل . أما الاغريقي فيعيش في البرهة التي هو فيها ، ويعيش حياة لا تاريخيـــة وجسدية . فليس هنـــاك من اغريقي واحد كان بامكانه ان يفقد ذاته . فكما ان ظاهرة التمثال العاري هي نسخة لا تاريخية وطبق الاصل عن الانسان ، كذلك فان الصورة الذاتية الغربيةهي معادلة تماماً لسيرتي « لفرتير او تاسو » ، وهذان على حد سواء غريبان عن الفن الكلاسيكي غرابة مطلقة . فليس هناك من فن لا شخصي كالفن اليوناني ، فمثلاً ان يقوم سكوباس أو بوليكلتوس بتصوير نفسه فهـــذا امر لا يقبله عقل .

ونحن إذا ما تطلعنا الى انجازات فيدياس او بولكيلتوس ، أو انجازات اي استاذ جاء ما بعـــد الحروب الفارسية ، الا نرى في تقوس الحاجب او الجبين ، الا نرى في الشفتين في تركيب الانف في العينين العمياوين ، تعبيراً عن حيوية كاملة في لا شخصيتها ، حيوية مماثلة لحيوية النبـــات ، حيوية لا نفس لها ؟ او ليس يحق لنا ايضاً أن نسأل عما إذا كانت هذه لغة شكل تلمح ولو تلميحاً الى خبرة باطنية ؟

لقد كرس ميكالنجلو نفسه بكل انفعال لدراسة عـــلم التشريح ، لكل الجسد الظاهري الذي نحته هو دائمـــاً تعبير عن حيوية كل العظام ووترات العضلات والاعضاء في الداخل ، ودون اي قصد متعمد نرى الحي يخرج من تحت الجلد في الظاهرة . فما استدعاه ميكالنجلو الى الحياة هو سيماء وليس نظام عضلات ، ولكن هذا يعني فوراً ان المصير الشخصي وليس الجسد المادي قد

اصبح نقطة الانطلاق للشعور بالشكل . ففي ذراع احد عبيده (عبيد موسى لميكالنجلو) من السيكولوجيا (واقل من الطبيعة) اكثر بكثير مما في كامل رأس تمثال هرمز لبراكستيلس . ومن جهة اخرى فان تمثال دسكوبوليس لمايرون.يترجم الشكل الخارجي كما هو تماماً ودون اي ارتباط باي نوع من الاعضاء الباطنية ، ناهيك باي « نفس » . وليس على المرء إلا ان يأخذ افضل انجازات هذه المرحلة ويقارنها بالتماثيل المصرية القديمة ، مثلا تماثيل قريةالشيخ او تمثال الملك فيوبس (بيي) ، او ثانيه بتمثال داود لدونا تللو ، وعندئذ سيدرك فوراً ماذا يعني الاعتراف بالجسد المجرد اعتماداً على حدوده المادية . فكل شيء في الرأس (رأس التمثال – المترجم) يمكن له ان يسمح لشيء ما أليف ودود ار روحاني بان يصبح ظاهرياً تجنبه الاغريقي بأشد حذر (ومن المدهش هذا الـ – « مايرون » نفسه) .

وحالما تصفعنا هذه الخاصة ، تبدأ افضل الرؤوس (رؤوس التماثيل) التي نحتت في العصر العظيم بأن تفقد لذتها عاجلا ام آجلا . ونحن إذا ما نظرنا إليها وفق مرئي شعورنا بالعالم ، فاننا نجد هذه الرؤوس غبية بليدة تفتقر الى عنصر السيرة الشخصية ومجردة من المصير .

ولم يكن اعتراض ذاك العصر ذاك الاعتراض الشديد على الصور المكرسة المنذورة ناجماً عن غرض او هوى . فتماثيل المنتصرين الاولمبيين تحتل موقفاً محارباً . وهذه التماثيل انحداراً حتى ليسبوس لا يوجد لاي منها رأس ذو خلق ، بل ان رؤوسها جميعاً هي اقنعة . ولذلك ادعوك مرة اخرى للتأمل بالتمثال بكامله ، .... فيا لها من براعة مكنت الاغريق من تجنب اعطاء أي انطباع عن ان الرأس هو الجزء المفضل من الجسد ! وهذا هو السبب الذي يكمن وراء كون الرؤوس صغيرة الى ذاك الحد وتافهة في « بوزاتها » ومنحوتة نحتاً لا مبالياً . فلقد كانوا دوماً يشكلون الرأس بوصفه جزءاً من الجسد لا يختلف عن الذراعين او الساقين ، ولم يحاولوا مرة واحدة ان يجعلوا منه البؤرة ، الرمز ، « الأنا » .

وأخيراً فاننا نأتي الى التأمل حتى في النظرة النسائية (ولا أريد ان اقول المخنثة) لكثير من هذه الرؤوس التي طلعت علينا في القرن الخامس ، وابعد من ذلك ، القرن الرابع كنتاج جهد (ولا شك انـه ليس مقصوداً) يرمي الى التخلص نهائياً من الخلق الشخصي . وأظن انه لدينـا من المبررات ما يكفي لنستنتج ان المثل الاعلى للطراز الوجهي لهذا الفن (الذي كان أكيداً ليس فناً للشعب ، كما تظهر فوراً الصورة المنحوتة الطبيعية التي جاءت بعد ذاك العهد) قد بلغه الاغريق بواسطة رفضهم لجميع عناصرالسمة الفردية او التاريخية،وذلك عن طريق تضييقهم المستمر لميدان الرؤيـة حتى بلوغهم النظرة اليوقليدية المجردة النقية .

أما التصوير الشخصي في العصر الباروكي العظيم ، فهو على العكس تمامـاً من الكلاسيكي، إذ انه يلتمس الى المسافة التاريخية كل وسائل الكونتروبونية التصويرية تلك ، والتي سبق لنا ان ذكرناها بوصفها مصنعاً لمسافتهم الفراغية (الجو المغموس بالبني المرئي ، لمسة الفرشاة الديناميكية ، أنغام اللون والاضواء المرتعشة) وقد نجحوا بمساعدة هذه الوسائل في معالجـة الجسد بوصفه شيئاً ما لا مادياً في جوهره ، كالغلاف البليغ في فصاحة تعبيره «للأنا» الآمرة للفراغ . (وهذه المعضلة ، تعجز تقنية التصوير على الحائط وهي تقنية يوقليدية ، عن حلها)

فللتصوير الزيتي موضوع واحد وحيد هو النفس . ولنتأمـل في إداء رمبراندت لليدين وللجبين (مثلاً : في الحفر على المعدن لبرغوماستر سكس أو صورة مهندس في كاسل) ، ولنتأمل ثانية ، حتى ولو كان ما سأورده متأخراً زمناً ، في اليدين والجبين لدى ماريي Marées وليبل ، انها لا شك يدان وجبين روحانية الى درجة تحس معها رؤيا غنائية ، ثم فلنقابلهـا بيدي « ابولو » وجبينه ، أو بوسايدون في عصر بركليس !

ولقد أحس الفن الغوطي بهذا ايضاً احساساً عميقاً مخلصاً . فهو كان يكسو الجسد ، وليس حباً بالجسد ، بل انمـا رغبة في تطوير لغة شكل من

خلال القماش المزركش ، تتفق ولغة الرأس واليدين في « فوغيه » للحياة . وتتفق ايضاً وعلاقات الاصوات في الكونتروبونتية ، وفي الفن الباروكي ، بتلك الاصوات ابتداء من الـ « Continuo » حتى الاصوات العليا في الجوقة. أما لدى رمبراندت فهناك دائماً عزف مقاطع ذات نغم باص في الزي والنوازع في الرأس .

والفن المصري ، هو كالشخص الغوطي المكسو ، ينكر الاهمية الجوهرية للجسد . فبينما الغوطي يعالج كساء الشخص علاجاً تزيينياً فيدعم بذلك تعبيرية الرأس واليدين ، نرى المصري يدفع بفكرة عظمى لم نجد لها منذ ذلك الحين مثيلاً (على كل حال في النحت) فيحجز الجسد كما يحجز اهراماً أو مسلة ضمن مخطط رياضي ويحصر العنصر الشخصي في الرأس .

كانوا في اثينا يرمون من وراء اكساء التمثال ابراز مفهوم الجسد ، أما الشمال فكان يستهدف من ورائه إخفاء هذا المفهوم ، لذلك فان القماش يصبح في الحالة الاولى جسماً ، بينما يمسي في الحالة الثانية موسيقى . وعن هذا التعارض نشبت تلك المعركة الصامتة ، التي استمرت في انجازات عصر الانبعاث الرفيعة ، بين المثل العليا المتعمدة وعياً وبين مثيلتها اللحوح بلا وعي للفنان ، وهي معركة كسب الاول (التيار المناهض للغوطي) النصر السطحي ، بينما حقق الثاني (وقد اصبح باروكياً) ودون ان يتبدل الانتصار الاساسي .

- ٢ -

باستطاعتنا الآن ان نقرر بكلمات قليلة التعارض بين المثل العليا الابولونية وبين المثل العليا الفاوستية في الانسانية . ان الجريد هو بالنسبة الى الصورة الشخصية كنسبة الجسم الى الفراغ ، والبرهة الى التاريخ وصدر الصورة الى مؤخرتها ، والرقم اليوقليدي الى الرقم التحليلي ، والتناسب الى العلاقة .

فالتمثال يضرب جذوره في تربـــة الارض ، امـــا الموسيقى (والصورة الشخصية الغربية هي موسيقى ، انهـــا نفس منسوجة من انغام لون) تغزو وتخترق الفراغ ولا تستقيم امامها حدود او سدود . ان التصوير على الحائط مشدود الى الحـــائط ومُروض عليه ، لكن التصوير الزيتي ، « الصورة » ، مشدود الى خيش او لوحـــة او طاولة اخرى ، وهو حر من محدوديـــة المكان . ان لغـــة الشكل الابولوني لا تفصح الا عن الصير بينما ان الفاوستي يفصح فوق كل شيء عن الصيرورة ولهذا السبب كانت صور الطفل ومجموعات العائلة هي اجمل واخلص واصدق ما للفن الغربي من انجازات . وهذا النازع معدوم تماماً في النحت الاتيكي ، وبالرغم من ان النازع اللعوب الى تصوير كيوبيد (او باتو) Putto امسى في ايام الهلنستية نازعاً مرغوباً فيه ، الا انه كيوبيد كان كائناً مختلفاً عن غيره من الكائنـــات ، ولم يكن ابداً كشخص ينمو و « يصير » . فالطفل يربط المـــاضي والمستقبل ، وللطفل في كل فن تمثيل انساني يزعم بان له مغزى رمزي ، يشير الى الديمومـــة وسط التبدل الظاهري ، الى لا نهاية الحياة لكن الحياة الكلاسيكية استهلكت ذاتهـا في اتمام اللحظة . فالفرد فيها يغمض عينيه عن مسافات الزمـــان وهو يدرك في فكره امثاله من الناس الذين شاهدهم حوله، لكنه لا يدرك الاجيال القادمة ، ولذلك لم يوجد فن ابداً تجاهل اكيداً عرض الاطفال الودود كالفن الاغريقي. ولنتأمل في الوفرة الغفيرة من صور الاطفال التي انتجها فننا ابتداء من الغوطي المبكر حتى الروكوكي المتحشرج ! (وفي عصر الانبعـــاث قبل كل شيء) وأوجد ، اذا استطعت ، في الفن الكلاسيكي انحداراً الى الاسكندر انجـــازاً واحد ذا اهمية الذي يتعمد وضع عنصر طفل لا يزال يطل على الوجود امامه الى جانب جسد منجز لرجل او امرأة .

ان الصيرورة اللا متناهية تدرك في الامومة، فالمرأة كأم هي زمان وهي مصير . وتماماً كما ان الفعل الغامض لخبرة العمق يصوغ من الاحساس امتداداً وعالماً، كذلك فمن الأم يصنع من الانسان الجسدي عضواً فرداً في هذا العالم ،

حيث يصبح له ، وفقاً لذلك ، مصير . ان جميع الرموز الى الزمان والمسافة هي ايضاً رموز الى الامومة . فالهم هو شعور جذر المستقبل ، وكل هم هو امومي ، وهو يعبر عن نفسه في فكرتي العائلة والدولة وفي مبدأ الوراثة الذي يكمن وراء تينك الفكرتين . فالهم يمكن إما ان يؤكد او ان ينفي ، والانسان يستطيع ان يعيش مترعاً بالهم او طليقاً منه . وكذلك يمكن للمرء ان ينظر الى الزمان على ضوء الخلود او على ضوء البرهة . ويمكن له ان يختار. دراما الحمل والانجاب او دراما الام المربية وطفلها رمزاً للحياة حيث يجعل هذا الرمز مُدركاً بواسطة جميع وسائل الفن . ولقد اختار الفن الكلاسيكي والفن الهندي الحالة الاولى ، بينما اختارت مصر والغرب الحالة الثانية . فهناك شيء ما من حاضر مجرد لم يُروَ في العضو التناسلي للذكر وفي ظاهرة العمود الدوري وفي التمثال الاتيكي ايضاً . لكن الام المربية تشير الى المستقبل ، وهي المشخص الوحيد التي يفتقدها الفن الكلاسيكي كلياً . فمن المحتمل ان اسلوب فيدياس كان عاجزاً عن ترجمتها . والمرء ليحس بان هذا الشكل يناهض معنى الظاهرة .

ولكن في الفن الديني الغربي يعتبر عرض الأمومة أشرف الاعمال وانبلها. وعندما بدت تباشير الفجر الغوطي بدل تيوتوكوس بزنطه أم الله الى الام دولوروزا . والام تظهر في الاساطير الالمانية (لا شك ابتداء بالعصر الكارولنجي فقط) « كفرجه » Frigga والسيدة « هولي » . وتبدي الشعور ذاته في تخيلات المينسنجر الجميلة حينما يدعونها « السيدة شمس » والسيدة العالم « السيدة الحب » . ويتخلل كامل « بانوراما » الجنس البشري الغوطي المبكر شيء ما أمومي مهموم صبور ، زد على ذلك أن المسيحية الجرمانية الكاثوليكية (عندما نضجت فبلغت كامل وعيها لذاتها وقامت بزخم واحد فبثت في اسرارها وابدعت اسلوبها الغوطي) لم تضع المخلص المعذب في مركز الصدارة من صورتها للعالم بل انما وضعت فيه الأم المتألمة . وقرابة عام ١٢٥٠ وخلال الملحمة « التاثيلية » العظمى التي شهدتها كاتدرائية

« رايمس » فان المكان الرئيسي في نقطة المركز للسدنة الرئيسية ، قد خصت به المادونا ، بينما كانت كاتدرائيات باريز وأميان لا تزال تنزل المسيح بمثله . وفي مثل هذا الوقت تقريباً بدأت ايضا مدارس التوسكان في « اريزو » و « سنيا » (جويدو دا سينا) يوحون بحب الام الى « ثيوتوكوس » بيزنطة التقليديين . وبعد هذا انطلقت « مادونات » رفائيل لتشق الطريق أمام النموذج الانساني للام المعشوقة في الفن الباروكي (اوفيليا وجريتشن) هذه الأم التي يكشف سرها عن نفسه في الخاتمة المجيدة للجزء الثاني من فاوست وفي أنصهارها ومريم الغوطية المبكرة .

ومقابل هذه النماذج فان خيال الاغريق وعى الإلهات إما كأمازونات (Amazon) كأثينا ، أو خليلات من طبقة ارقى (Hetaerea) كافروديت زد على ذلك أنه كان للطراز الانثوي الذي انتجه جذر الشعور الكلاسيكي طبيعة نباتية ، ولذا فان كلمة (Oüeua) تعبر في هذا المجال كما تعبر في المجالات الأخرى عن معنى ظاهرة مسهب مستوعب . ولنتأمل في قطع الاستاذية الفنية التي انتجها الفن في هذا الميدان ، في الاجسام النسائية الجبارة الثلاثة المنحوتة في الكورنيش الشرقي من البارتنون ، ولنقارن هذه بانبل صورة للام ، بمادونا « سستين » لرفائيل ، اننا لا شك نجد أن كل جسمية قد اختفت من الاخيرة ، فهي جميعاً مسافة وفراغ . ونحن اذا ما قارنا هيلين « الالياذة » بكريمهلد ، الرفيقة الامومية لسيجفريد ، لالفينا أن هيلين امراة عاهرة داعرة ، بينما ان انتيغون وكليتمنيسترا هما أمازونيتان . والا نذهل عندما نرى حتى آشيل تمر صامتة بمأساة الام المتجلية في كليتمنيسترا ؟

أما شخصية « ميديا » فانها ليست سوى الام دولوروزا الفاوستية لكنها مقلوبة رأساً على عقب ، ومأساة « ميديا » ليست مأساة مستقبل او مأساة اطفال بل انما هي مأساتها وعشيقها ، وهي مأساة تمثل الحياة الحاضرة المجردة ، وهذا ما جعل كونها يتهاوى وينهار . ان كريمهلد تنتقم لطفلها الذي لم يولد بعد (وهو هذا المستقبل الذي قتل داخل احشائها) لكن

ميديا تنتقم فقط لسعادة قد مضت .

وعندما بلغ النحت الكلاسيكي في مرحلته المتأخرة زمناً ، تحويل صور الالهة الى صور دنيوية ، ابدع هذا النحت المثل الاعلى « الانتيكي » للمرأة في افروديت الـ (Cnidian) وهذه ليست سوى قطعة جميلة ، وليس فيها أي شيء من خلق أو « أنا » (ego) بل انها هي مجرد قطعة من الطبيعة .

واخيرا وجد براكستيلس في نفسه من الشجاعة ما جعله يعرض إلهة وهي عارية تماماً . وقد قوبلت هذه البدعة بنقد شديد ، وذلك لان معاصري براكستيلس أحسوا بان عمله هذا هو دلالة على انحطاط الشعور الكلاسيكي بالعالم . ومع ان عمل براكستيلس هذا كان يلائم الرمزية الشهوانية الا أنه كان يشكل تعارضاً حاداً ووقار الدين الاقدم . ولكن في الوقت ذاته بدأ ايضاً فن تصوير شخصي يغامر في اظهار نفسه ، وحدث ذلك في وقت واحد واختراع الشكل الذي لم يُنس منذ ذلك الحين « التمثال العاري » واعني بهذا الفن التمثال النصفي (Bust) ولكن لسوء الحظ فان البحث الفني (في هذا المجال كما في غيره) قد اخطأ في اعتبار التمثال النصفي « بدايات » لـ « صورة » الشخصية . ومع أن وجهاً غوطياً يتحدث حقاً عن مصيره ، وحتى لوجه مصري (بالرغم من التخطيط القواعدي الصارم للمشخص) ملامح معروفة تدل على شخص فرد (وذلك لان الوجه اذا لم يكن كما ذكرت لا يصلح ليكون مسكنا للنفس الارقى للميت ، « لكاه » Ka) ، الا ان الاغريقيين قد ابتدعوا ذوقاً لعرض نموذجي بالنسبة اليهم ، يشابه تماماً ما تنتجه الكوميديا المعاصرة من اشخاص واوضاع ، والتي باستطاعة المرء أن يطلق عليها أية اسماء يشاء ويرغب . « فالصورة الشخصية » التي ابتدعها الاغريق لا يمكن التعرف على صاحبها من خلال ما لصاحبها من سمات وملامح بل انما فقط من خلال اليافطة المعلقة عليها . وهذه هي العادة المألوفة لدى الاطفال والشعوب البدائية ، وهي عادة ترتبط بسحر الاسم . فالاسم يستخدم لاستيعاب « لاحتجاز » جوهر ما لمن هو مسمى ، ويستهدف ربطه

بوصفه جسماً فيصبح بذلك خاصا بكل مشاهد . فتماثيل قتلة الطغاة ،وتماثيل الملوك « الاوترسكان » في الكابيتول ، والصور الايقونية في الاولمبيا ، يجب أن تكون جميعاً صوراً شخصية من هذا النوع ، أي انها لا تشابه أصحابها ، بل انما هي مجرد مشخصات اطلقت عليهـــا اسماء . ولكن الآن وفي طور اقدم من هذا ، نشأ عـــامل اضافي ، هو نازع العصر الى نوع من فن تطبيقي قدر له أن ينتج ايضاً الصمود الكورنثي. اما ما انتجه نحاتو هذا الفن فانما كان يمثل نماذج مرحلة الحياة (...) والتي تخطىء ترجمة طبيعتها ، لكنها هي في الواقع انواع مزاجات سلوك الجمهور وموقفه ، وهكذا طلع علينـــا القائد الرزين الوقور والشاعر التراجيدي و « الـ » ممثل الملتهب العاطفة و « الـ » فيلسوف المتبحر . وهذاهو مفتاحنا الحقيقي لفهم التصوير الشخصي الهيلنستي المشهور الذي يدعمه زعم لامبرر له أبداً يقول بان انتاج هذا التصوير هو تعابير عن حياة روحية عميقة ولكن ليس الأمر بشديد أهمية ما اذا كان الانجاز يحمل اسم شخص ما قـــد توفي منذ زمن طويل (فتمثال سوفوكليس قد نحت قرابة عام ٣٤٠) او يحمل اسم رجل حي كبركليس الكريسيلي بـــل ان المهم هو ديمتريوس الالوبوكي قد بدأ في القرن الرابع يؤكـــد على ملامح الفرد في التركيب الخارجي للشخص ، وبدأ لسستراتوس شقيق ليسبّوس ينسخ (كما يقول بلني Pliny) قالباً من ملاط عن وجه موضوعه دون كثير من تحوير لاحق . والآن ، يا لضآلة هذا التصوير الشخصي وفق مفهومنا لما قام به رمبراندت في هذا الميدان ! وهـــذا واقع كان يجب ان يدركه كل واحد منا . فالنفس لا تعرف له مقراً في هذا التصوير . وأمانة النقل والدقة في النسخ في التماثيـــل النصفية الرومانية يُخطأ فهمها إذ توصف بانها عمق سيمائي . ولكن ممـــا يميز حقـــاً الانجازات الارقى عن انجازات الصناع المهرة وهواة الفن ، هو القصد الكامن وراء هذه الانجازات والذي يتعارض أكيداً والقصد الفني لكل من ماريي ولايبل . فالمهم وذو المغزى في انجاز كهذا لم يُستخرج بل انما ادخل على الشخص موضوع النحات ادخالاً

ونرى المثل على ما اقول في تمثـــال ديموستين الذي من المحتمل ان يكون قد رأى الفنان الخطيب في حياته . فنحن نشاهد هنا التأكيد ، ان لم أقل المبالغة في التأكيد على خصائص سطح الجسم(صادقة والطبيعة كما كانوا يسمون هذا العمل يومذاك) لكن مزاج الفنان يستغرقه الى درجة نرى في ديموستين الخطيب الجاد الوقور في خلقه ، ثم نعود لنصادف ديموستين هـــذا ذا خلق مختلف ومغاير لذاك وذلك في صورايشنس ولسياس الموجودة الآن في نابولي .

هذا هو الصدق والحياة لا شك ، لكنه صدق وحياة هي كما أحس بهـا الفرد الكلاسيكي ، حياة طبق الاصل ولا شخصية . لقد تأملنا في النتائج باعيننا وقد أسأنا فهمها بموجب ذلك .

– ٣ –

اصبح بالامكان في عصر التصوير الزيتي الذي اعقب نهـاية عصر النهضة قياس محتوى الصور الشخصية لاحد الفنانين قياساً دقيقاً . وبالكاد ان نجد استثناءً لهذه القاعدة فجميع الاشكال في الصورة (اكانت هـذه الاشكال مفرداً او مجموعات او جمهرات) يُحس بها بوصفها صوراً شخصية ، اكان الفنان يقصد هذا الأمر ، او لا يقصده ، فصوره جميعاً هي صور غير مادية إذ انه لم يكن للفنان من خيار في هذا الموضوع.وليس هناك من شيء إنشائي اكثر من ان يلاحظ المرء ويراقب كيف يحول حتى الجريد نفسه بين يدي الانسان الفاوستي الحقيقي الى دراسة للصورة الشخصية . ولنأخذ لنا استاذين المانيين مثلا لوكاس كرناخ وتامان ريمنشنيدر Riemenschneider اللذين لم تمسسهما اية نظرية (عكس ديرر الذي جعله نازعه الى الجمالية ، لين العريكة عن دهاء وخبث امام النوازع الغريبة عنه) فاننا نجدهما يرسمان بسذاجة

وفطرية لا مثيل لها . فمن النادر ان رسم هذان الفنانان الجريد ، وإذا ما رسماه فانهما يظهران نفسيهما عاجزين عجزاً كلياً عن التركيز على التعبير عن الحاضر الآني او الجسم المحدد سطحاً . ونحن نشهد ان مغزى الظاهرة الانسانية ولذلك عرض هذا المغزى ايضاً مركزاً تركيزاً كلياً في الرأس ، وهو لهذا مغزى سيمائي اكثر منه تشريحي . والشيء نفسه يمكن لنا ان نقوله عن صورة لوكريتسيا Lucrezia لديرر ، ناهيك بدراساته الايطالية والقصد المعاكس تماماً .

فالجريد الفاوستي هو تناقض في ذاته ، ولذلك فان سمة الرؤوس التي كثيراً ما نشاهدها في عروض هزيلة ، للجريد (منذ عصر النحت الكاتدرائي الفرنسي القديم) وصور الخلق الغامضة التي تحتمل معنيين والتي تستثير اشمئزازنا بسبب ما بذل فيها من جهد ومحاولات إرغام « لتطييب » خاطر المثل الاعلى الكلاسيكي ، هي جميعاً ضحايا لم تضح بها النفس بل انما قدمها الفهم المهذب المثقف . فنحن لا نجد في كل التصوير الذي اعقب ليوناردو صورة واحدة هامة وممتازة تستمد مغزاها من الكائن اليوقليدي ، ذي الجسم العاري . ولا شك انه لمجرد سوء ادراك ان نأخذ هنا « روبنز » ونقارن على أي وجه كان ديناميكيته الجموح والمتجلية في أجسامه المنتفخة ، بفن براكستليس وحتى فن سكوباس . فبُعد « روبنز » الشديد عن أجسام سيغنوريللي السكونية يعود بالتأكيد الى شهوانيته الرائعة . فإذا كان هناك من فنان يستطيع حقاً ان يضع حداً نهائياً للصيرورة في جمال الاجسام العارية وان يعالج الازدهار علاجاً تاريخياً (علاجاً غير اغريقي اطلاقاً) وان يعبر عن الفكرة المتدفقة من الباطن ، فان هذا الفنان هو لا شك روبنز . فلتقارن رأس الحصان في كرنيش « البارتنون » برؤوس خيل روبنز في صورته « معركة الأمازونات » فعندئذ ستحس فوراً بالتعارض المتيافيزيقي بين مفهومي نفس العنصر الظاهري . فالجسم لدى روبنز (واعود هنا لاذكر ثانية بالتعارض المميز بين الرياضيات الابولونية والرياضيات الفاوستية) ليس حجماً (Magnitude) بل انما هو علاقة . فالمهم هو ليس نسق ظاهر تركيب

روبنز ، بل انما المهم هو امتلاء الحياة الذي يتدفق من هذا التركيب وينطلق هادراً في مجراه من الشباب الى الشيخوخة حيث الدينونة الأخيرة التي تحيل الاجسام الى لهب ، فهذه هي التي تمسك بنازع روبنز وتحبكه في نسيج الفراغ الفعال المرتعش . فمثل هـــذا المركب (Synthesis)هو كلياً مركب غير كلاسيكي . ولكن حتى جنيات البحر (Nymphs) عندما يصورهـا كورو (Corot) تبدو هي أيضاً كأنها تكاد تذوب برقع اللون في الفراغ العاكس اللامتنـــاهي ، ولم يكن قصد الفنان الكلاسيكي كهذا القصد عندما كان يرسم الجريد .

وفي الوقت ذاته فـــان المثل الاعلى للشكل الاغريقي (وحدة الكائن المستقل بذاته والمعبر عنها في النحت) وبين مجرد الاجسام الجميلة التي كان المصورون ابتداءً من جيورجيوني حتى (Boucher) يحكون مهارتهم بها ، فهذه الاجسام مع انها شهوانية حسية لكنهـــا تنبض بالحياة ، وهي نوع من انجاز مألوف تعبر فقط عن شهوانية لعوب (مثلاً زوجة روبنز وهي ترتدي معطفاً من الفرو) وهي في تباينهـــا والمغزى الاخلاقي للجريد الكلاسيكي لا تملك أية قوة رمزية تقريباً . ولهذا فمها كان تصوير هؤلاء رائعاً ، إلا انهم لم ينجحوا في بلوغ ارفع مستويات التصوير الشخصي او عرض الفــراغ في المنظر الطبيعي . فالوانهم من بـــني واخضر ومرئيهم يفتقر الى الورع والى المستقبل والمصير . فهم اساتذة فقط في ميدان الشكل الابتدائي ، وعندما تحقق هذا الشكل استنزف فنهم كل اسباب وجوده . وهم الذي يشكلون عضو عنصر الجوهر في تطور تاريخ فن عظيم . ولكن اذا ما ارغم فنان ما بعد هؤلاء على ان يصل الى شكل يحتوي على كامل مغـــزى العالم فعندئذٍ يترتب بالضرورة على مثل هذا الفنان ان يدفع بمعالجة الجسم الجريد الى الكمال وذلك اذا كان عالمه هو العالم الكلاسيكي ، لكن عليه ألا يقوم بهذا العمل أبداً اذا كان عالمه هو عالم شمالنا . فرمبراندات لم يصور أبداً جريداً وفــق مفهومنا هذا لصدر الصورة ، واذا كان ليوناردو اوتيتسيان او فلاسكيز

(ومن الحديثين منزل ، ليبل، ماريي وماني) قد صوروا شيئاً من هذا ، فان صورهم هي من الندرة بمكان ، وحتى هذه الصور فانها ، مثلاً ، اجسام بوصفها مناظر طبيعية .

ولكن لا يقبل احد بان يحكم على اساتذة كسغنوريللي ومانتغنا وبوتيتشلي او حتى فيروتشيو مستوحياً حيثيات حكمه من نوعية صوره . ان تمثـال الفارس « كان غراندي » هو اقرب بكثير في مغزاه الى الصورة الشخصية من برتلميو كوليوني ، وصور رفائيل الشخصية (وأحسن هـذه الصور مثلاً صورته للبابا يوليوس الثالث ، وقام رفائيل برسم هـذه الصور تحت تأثير سبستيان دل بيومبو) يمكن للمرء ان يتجاهلها جميعاً امام انجـازه المبدع . والحق ان الصورة الشخصية بدأت مع ليوناردو وأمست ذات قيمة في الفن . وهناك بين تقنية التصوير على الحائط وبين التصوير الزيتي تعـارض مراوغ مخاتل . والحق ان صورة « جيوفاني بيلليني » المعروفة باسم « الدوج » هي اول صورة شخصية زيتية عظيمة . وهنا ايضاً يفضح نفسه خلق عصر النهضة كخلق يحتج على الروح الفاوستية الغربية . اما حقبة فلورنسا فان جل ما تُشعر به فهو انها محاولة لاستبدال الصورة الشخصية ذات الاسلوب الغوطي (بوصفها متباينة « والمثل الاعلى » للصورة الشخصيـة في الفن الكلاسيكي المتأخر زمناً والتي كانت مشهورة بواسطة التماثيل النصفية لقيصر) بجريـد يمثل رمزاً انسانياً . ولذلك فان كامل فن عصر الانبعاث يجب منطقياً ان يكون مفتقراً الى الملامح السيمائية . ومع ذلك بقي التيار الخفي لارادة الفن الفاوستي يهدر لا فقط في البليدات والمدارس في ايطاليا الوسطى ، بل ايضاً داخل غرائز الاساتذة العظام انفسهم ، وبقي التقليد تقليداً غوطياً لا يقاطع. واكثر من ذلك فان سيمائية الفن الغوطي نصبت نفسها سيداً على الجريدالجنوبي (ايطاليا الجنوبية) بالرغم من غرابة هذا العنصر عنها . فابداعـه (الجريد) لم يكن اجساماً تتحدث الينا بالتعريف السكوني لسطوحهـا المحددة . فما نراه فيها هو منظر ابكم ينتشر من الوجه ليشمل كل اجزاء الجسد، وتستطيع العين

البصيرة ان تكشف في عراء توسكانا ذاته هوية عميقة للقماش الغوطي المزركش فكلاهما غلافان وليسا بمحذودية . اما الاجسام العارية المتكئة في كنيسة مديتشي والتي نحتها ميكالنجلو فهي جميعاً محيا نفس ولسانها . وفوق كل ذلك فان كل رأس قد صور او نحت فانما اصبح بذاتــه صورة شخصية ، حتى ولو كانت هذه الرؤوس رؤوساً للالهة والقديسين . فكل التصوير الشخصي الذي قام به روسالينو ، دونالكو ، بنيدتو دي مايانو ، مينودافيسولي ، هو قريب من روح فانديك وممنلك والاساتذة الرئيسيين الاوائل ، وكثيراً من الاحيــان يصعب التمييز بين انجازات هؤلاء واولئك .

ليس هناك ولا يمكن ان يكون هناك ، وهذا مــــا اقرره ، أي تصوير شخصي اصيل لعصر الانبعاث ، وأعني بهذا عاطفة فنية يمكن ان تفرق بين بلاط بلازو ستروبزي من بلاط لوجيا داي لانزي ، وبين بلاط بيروجينو من كيمابي ، وتطبـع ذاتها على ترجمة المحيا . لقد كان بامكانهم في ميدان الهندسة المعمارية وهذه ابولونية الروح ، أن ينجزوا شيئاً ما مناهضاً للغوطية ، أما في التصوير الشخصي فلا . فهذا كان رمزاً محصوراً بالروح الفاوستية . ولقد رفض ميكالنجلو القيام بهـــذا الواجب « التصوير الشخصي » وكرس نفسه بانفعال كما هو مألوف فيه ، لمتابعة المثل الاعلى التشكيلي ، ولا شك أنه كان سيعتبر اشغال نفسه بالتصوير الشخصي بمثابة تنازل عن عرشه . ان تمثـــاله النصفي لبروتس فيه من قلة الصورة الشخصية ما في تمثاله النصفي لمديتشي ، بينما ان صورة بورتيتشللي لمديتشي هي واضحة في غوطيتها من قمة رأســها حتى اخمص قدمها . ان رؤوس ميكالنجلو هي اشعارات(Allegories) في الفن الباروكي الذي كان تتبدى تباشير فجره آنذاك،وتشابهها حتى والفن الهلنستي هو شبه سطحي فقط . ونحن مهما اعجبنا بالتمثال النصفي الذي نحته دونا تللو لأزانو (وهذا التمثال قد يكون اعظم انجـــازات ذاك العصر وتلك الدائرة) فان قيمته تكاد تتلاشى اذا ما وضع جنبـــاً الى جنب والصور الشخصية التي رسمها فنانو البندقية .

ويجدر بنا هنا أن نشير الى أن هـــذا التغلب ، او على الاقل الرغبة في تغلب الجريد الكلاسيكي على الصورة الشخصية الغوطية (وهو أمر بمثابـــة تغلب الشكل اللا تاريخي على الشكل التاريخي ذي السيرة الشخصيـــة) تظهر في وقت واحد ، وترتبط في الحطاط المقدرة على الاختبار الذاتي والاعتراف الفني وذلك وفق المفهوم الغوطي . ففرد عصر الانبعاث لم يكن يعرف حقاً ما يعنيه التطور الروحي . ولقد تدبر أمره ليعيش كلياً خارج العالم ، وهذا كان من وراء الحظ السعيد والنجاح العظيم Quattrocento [1] (٤٠٠ عام) !. فليس هناك بين (Vita Nuova) (الحياة الجديدة) لدانتي وبين سوناتات ميكالنجلو أي اعتراف شعري أو صورة ذاتية من طراز رفيع .. ففردعصر النهضة الفنان والانسان هو فريد في نوعه من ابنـــاء الجنس البشري الغربي ، وذلك لأن كلمة « التوحد » لم تكن تعني له شيئاً . فلقد اتمت حياته مجراهـــا على ضوء وجودها اللطيف المتأدب . وكانت أحاسيسه وانطباعاته جميعـــاً أحاسيس شعبية وانطباعات جماهيرية ، فلم يكن لديه من شيء يخفيـــه أو يتحفظ فيه ، بينما كان معاصروه من الهولانديين على العكس منه تماماً إذ انهم كانوا يسيرون في ظلال انجازاتهم . ولهذا فهل يجوز لنا أن نضيف فنقول بانه نتيجة لما ذكرت اختفت ايضاً من عصر الانبعاث الرموز الأخرى كالمسافـة التاريخية والديمومة والهم والأهمية والدولة وذلك طيلة المدة الفاصلة بين دانتي وميكالنجلو ؟ ففي فلورنسا الهوائية القلب ، حيث عومل جميع رجالها العظام معاملة وحشية ، والذين يبدو عجزهم عن الابداع السياسي الى جانب اشكال الدول الغربية الأخرى شاذاً غريباً ، وبصورة عامة اكثر ، كان كلما استأسدت الروح المناهضة للغوطية (أي الروح المناهضة للمصير) وتنمرت

---

(١) سبق لنا أن شرحنا معناه في حاشية سابقة .

في ميادين الفن والحياة العامة ، كانت تفسح الدولة المجال أمـــام الدناءات الهيلينية الحقة ، دناءات آل مديتشي وخسة آل سفورزا ونذالات آل بورجيا وآل مالاتست ونفايات الجمهوريات . أما المدينة الوحيدة التي لم يكن فيهـــا للنحت موطىء قدم ، حيث كانت الموسيقى الجنوبية تشعر فيها بواضعهـــا ، وحيث صافح الفن الغوطي الباروكي في شخص جيوفاني بيلليني ، وحيث بقي عصر الانبعاث مسألة هواية عرضية لفنون جميلة ، وحيث كان فيها للتصوير الشخصي قيمة ووزن ، وبذلك أصبح لها دبلوماسية ذكية أدبية وإرادة للديمومة السياسية ، أقول إن هذه المدينة الوحيدة هي مدينة البندقية .

– ٤ –

وُلد عصر الانبعاث من احشاء التحدي ، ولذلك افتقر الى العمق والسعة والامتداد والثقة بالغريزة المبدعة . والحق ان هذا العصر كان الحقبة التاريخية الواحدة والوحيدة التي كانت تلح على النظرية أكثر بكثير من الانجاز ، وهي في تعارضها الحاد والغوطي والباروكي ، المرحلة الوحيدة ايضاً التي كانت فيها المقاصد المكونة نظرياً تتقدم على (واحياناً تتجاوز بمـا فيه الكفاية) المقدرة على الانجاز . ولكن الحقيقة ، حقيقة ارغـام الفنون الافرادية على الصيرورة توابع تدور في فلك النحت الكلاسيكي لا تستطيع في نهاية المطاف ان تبدل من جوهر هذه الفنون ، وهي لا تستطيع الا ان تفقرها مما في مخزونها من امكانات باطنية . فهـــذا العصر لم يكن بالنسبة الى طبيعتي الوسيلة والحجم بالعصر البالغ العظمة ، ومع انه كان نظراً لصراحته وبساطته المطلقتين عصراً جذاباً ، الا اننا نفتقد فيه نتيجة لهذا ذلك الصراع الغوطي والمشاكل الجبارة غير المحكمة التي تمتاز بها المدارس الريتشية والفلمنكية . فسهولة عصر الانبعاث المغرية المضللة ونقـاؤه يرتكزان الى حد كبير جـــداً على المراوغة وحسن التخلص، المراوغة من إحجام (إحجامات) اعمق بمساندة قاعدة حسنة الظاهر

وبسيطة . ولا شك ان اوضاعاً كهذه كانت ستكون اوضاعاً مميتة بالنسبة الى رجـال يمتلكون باطنية كباطنية مملنك ، او قوة كقوة غرنيفالد في عـالم الشكل التوسكاني . فمثل هؤلاء الرجال كانوا لا شك سيعجزون عـن تطوير قوتهم بواسطتها وخلالها ، فمثل هـذا التطوير لا يمكن ان يتم الا اذا وجهوا قوتهم ضد مثل هذه الاوضاع . ونحن عندما نرى ، والحق نرى ، ان شكل اساتذة عصر الانبعاث خال من الضعف نميل الى المبالغة في تقدير انسانيتهم . ففي الفنين من غوطي وباروكي كان الفنان العظيم كلية ينجز فنـه ويعمقه ويستكمل لغته ، بينا كان فنان عصر الانبعاث يكتفي بتدمير فنه فقط .

وهذه كانت الحال بالنسبة الى ليوناردو ورفائيل وميكالنجلو، هؤلاءالرجال العظماء الثلاثة فقط الذين عرفتهم ايطاليا عقب دانتي . أوليس غريباً انه كان من المتوجب ان يوجد بين اساتذة الفن الغوطي (هؤلاء الذين لم يكونوا سوى عمال صامتين في ميدان فنهم ، ومع هذا حققوا اسمى العظمة التي كان يمكن تحقيقها داخل اطار تقليده وميدانه) وبـين اساتذة البندقية وهولانديي عـام ١٦٠٠ (والذين كانوا بدورهم عمـالاً) هؤلاء الرجـال الثلاثة الذين لم يكونوا نحاتين ، او مصورين ، بل مفكرين ، ومفكرين لم يشغلوا بالضرورة انفسهم فقط بجميع وسائل التعبير الفني الموجودة ، بل انما اشغلوا انفسهم بألف شيء آخر الى جانب تلك ، ولم يعرفوا ابداً دعة او راحـة او قناعـة بمسعاهم الى الوصول للجوهر الحقيقي لكينونتهم وهدفها ؟ الا تعني هذه الحقيقة ان هؤلاء الفنانين الثلاثة لم يستطيعوا في عصر الانبعاث ان يجدوا ذواتهم ؟ فلقد جاهد كل واحد من هؤلاء العمالقة الثلاثة كل منهم وفق طريقته وخياله الخاصتين كي يصبح «كلاسيكياً» حسب المفهوم المديتشي ، ومع ذلك فانهم كانوا هم انفسهم الذين دمروا الحلم بطريقة او اخرى ، (رفائيـل فيما يتعلق بالخـط وليوناردو بالسطح ، وميكالنجلو بالجسم). ففيهم يتضح جلياً ان النفس المضللة تجد طريق عودتها الى نقطة انطلاقها الفاوستية . اما ما كانوا يقصدونه فانما كان يتمثـل في محاولتهم لاستبدال العلاقـة بالتناسب واثر الضوء والهواء بالرسم والفراغ

المجرد بالجسم اليوقليدي . غير انه لم يستطع هؤلاء او غيرهم من معاصريهم ان يلتجوا نحتاً يوقليدياً سكونياً ، لأن مثل هذا النحت كان ممكناً ولمرة واحدة وحيدة فقط في اثينا . فالانسان يحس في جميع اعمالهم بموسيقى سرية ويشعر في كل اشكالهم بنوعية الحركة ، ويلمس نوازعهم الى المسافات والاعماق . فهم لم يكونوا يتجهون نحو فيدياس بل انما نحو بالسترينا : ولم يصبحوا فيما بعد جزءاً من الآثار الرومانية،بل انما امسوا جزءاً من الموسيقىالكاتدرائية الهادئة فلقد اذاب رفائيل التصوير الفلورنسي على الحائط، وميكالنجلو التمثال ، وكان ليوناردو قد بدأ يحلم برمبراندت وباخ . وكانت كلما ازدادت جهودهم إحساساً بضمائرهم لتحقيق فِكـَر العصر تزود هذه الجهود في لا حسيتها .

ان النهجين الغوطي والباروكي هما شيئان كائنان ، بينما ان نهج عصر الانبعاث هو مجرد مثل أعلى ، لا يمكن ادراكه.ككل المثل العليا الاخرى ، يطفو على سطح إرادة العصر . فجيوتو هو غوطي في نهجه ، اما تيتسيان ، فهو فنان باروكي ، ولقد رغب ميكالنجلو في ان يصبح فنان عصر الانبعاث لكنه فشل في تحقيق رغبته هذه ، اذ ان كل ما هنالك لديه من مطامح ، غلبت الروح التصويرية في تحقيق رغبته فيه . فلقد غلبت الروح التصويرية كل ما كان لديه من تشكيل وما كان لهذا التشكيل من طموح ، وكانت هذه الروح التصويرية تضمر ايضاً المرئي الشمالي للفراغ . وحتى انه كان يحس في عهد مبكر يعود الى عام ١٥٢٠ على ان التناسب الجميل والقاعدة المجردة هما شيئان متخشبان متكلفان . فالكورنيش الذي يصفه ميكالنجلو لواجهة سانغاللو النقية في « كلاسيكيتها » كان لا شك تشويهاً من وجهة نظر عصر الانبعاث ، لكن ميكالنجلو والكثيرين غيره كانوا يحسون بان هذا الكرنيش هو ارفع بكثير من انجازات اليونان والرومان .

وكما ان بترارك كان أول فلورنسي كرس نفسه تكريساً منفصلا لعصر « الانتيك » ، كذلك فان ميكالنجلو قد قدر له ان يكون آخرهم ، لكن هذا التكريس لم يكن تكريساً كليـاً ، فالمسيحية الفرنسيسكانية ، مسيحية

فرا انجيليكو ، بما لهذه من رقة مراوغة اريبة وورع هادىء انعكاسي ، (واللتين تدين لهما ثقافة الجنوب في عصر الانبعاث بأكثر مما يقال او يفترض) كانت قد بلغت آنذاك نهايتها . فالروح الجليلة للحركة المناهضة للاصلاح كانت تعيش رزينة رائعة منعشة ثقيلة الوزن في شخص ميكالنجلو . ونحن نشهد في هذه المرحلة شيئاً ما من انتاج عصر النهضة الذي كان يعتبر آنذاك « كلاسيكياً » ، لكنه لم يكن في الواقع سوى رداء نبيل متعمد يغطي الاحساس المسيحي الالماني بالعالم نفسه به ، وكما سبق لنا ان ذكرنا فيما تقدم فان مركب القنطرة المستديرة والعمود ، الاثير لدى النازع الفلورنسي كان ذا أصل سوري ، ولكن فلنقارن العمود الكورنثي الكاذب (Pseudo) والعائد الى القرن الخامس عشر ، باعمدة أثر روماني حقيقي ، واذكر حين مقارنتك ان مثل هذه الآثار كانت تعرف فوراً حال مشاهدتها ! ان ميكالنجلو وحده هو الذي لم يكن يتسامح بانصاف الحلول ، فهو كان يريد النقاء ويستهدفه وكانت قضية الشكل بالنسبة اليه قضية دينية ، ولقد كان يطلب الحصول على كل شيء او لا شيء (وهو الوحيد فيهذا النهج) . وهذا هو التفسير الوحيد للصراع المتوحد المرعب لهذا الانسان ، ولا شك انه كان اشد شخصيات فننا شقاءً وتعاسة ، فالاجزاء المعذبة المرعبة غير القنوعة في اشكاله كانت ترهب معاصريه وتخيفهم . وكان النصف الاول من طبيعته يجره الى الكلاسيكية ، وهذا ما أفضى يه اخيراً الى النحت ، ونحن نعلم جميعاً بما كان لـ(Laocoon) الذي اكتشف حديثاً من أثر في نفسه . فليس هناك من رجل أخلص الجهد كما اخلصه ميكالنجلوكي يجد بواسطة الازميل طريقة الى عالم مدفون . فكل شيء أبدعه كان يرمي الى ابداعه ابداعاً نحتياً ، ونحتياً وفق ما فهمه هو وحده من معنى لهذه الكلمة . فالعالم معروض «في إله الرعاة العظيم — Pan » والعنصر الذي أراد غوتيه ان يعبر عنه عندما ادخل شخصية هيلينا في الجزء الثاني من فاوست ، والعالم الابولوني بأشدما لوجوده من حس جسدي ، هذه كانت هي نوازع جهاده بكل ما له من قوة كي يستولي عليها ويثبتها في كائن

فني ، وذلك عندما كان يقوم بتصوير سقف « ستين » . فكل ذريعة من ذرائع التصوير على الحائط (محيطات الشكل والسطوح الواسعة والقرب الهائل للاجساد العارية ومادية اللون) قد اجهدت هنا (سقف ستين) للمرة الاخيرة وعصرت عصراً حتى قشرتها كي تحرر الوثنية ، وثنية عصر الانبعاث الارقى التي كانت تقبح بها جوانحه . لكن نفسه الثنائية ، النفس المسيحية الغوطية ، نفس دانتي ونفس موسيقى الامتدادات العظمى كانت تشد به نحو اتجاه معاكس لذاك في مفهومه ، فمنهاجه للتجمع (Ensemble) هو منهاج واضح الروح في ميتافيزيقيته .

فلقد كان هو صاحب الجهد ، المكرر ثانية فثانية كي يُضَمِّن كلية شخصية الفنان لغة الحجر ، لكن المادية اليوقليدية لم تلاقِ داخل ميكالنجلو الا الفشل ، فهو لم يقف منها موقف الاغريقي ، زد على ذلك ان طبيعة التمثال الذي عمل به الازميل ، هي طبيعة تناقض بحد ذاتها الشعور بالعالم الذي يحاول ان يجد شيئاً ما ، لا ان يمتلك شيئاً ما ، بواسطة انجازه الفني .

فلقد كان المرمر بالنسبة الى فيدياس هو المادة الكونية التي تستغيث مطالبة بشكل . وقصة بيجماليون وغالاتيا (Galatea) تعبر عن جوهر كل جوهر ذاك الفن ، بينما ان المرمر كان في نظر ميكالنجلو هو العدو الذي يجب ان يُغلب ويُقهر ، والسجن الذي يتوجب على ميكالنجلو ان يحرر منه فكرته كما حرر سيجفريد برونهلدي . وكل انسان يعرف نهج هذا الفنان في عمله . فهو لم يعالج كتلة المرمر علاجاً بارداً من كل زاوية من زوايا الشكل المقصود ونظرياته ، بل انما هاجم الكتلة المرمرية هجوماً جبهياً انفعالياً فكان ينحت فيه كأنه ينحت في الفراغ ، ويقتطع المادي منها مدماكاً بعد مدماك ويغوص فيها اعمق فأعمق حتى يجعلها تنطق بلغته وتتحدث بلسانه بينما كانت الاعضاء (اعضاء التمثال – المترجم) تنشيء وتطور نفسها ببطؤ من وجه كتلة المرمر الغشيم . وربما انه لم يسبق لأحد ان عبر بتعبير اوضح من هذا عن رعب العالم في حضرة الصير – الموت – وعن الارادة العازمة على التغلب

عليه واسره داخل الشكل المتذبذب . ولا يوجد أي فنان غربي كانت علاقته بالحجر علاقة ود وألفة وفي الوقت ذاته علاقة استاذ ماهر منفعل ، كما كانت علاقة ميكالنجلو به . فالحجر كان رمزه الى الموت . وفي الحجر يُقيم المبدأ المعادي الذي كانت طبيعة ميكالفجلو الشيطانية تجاهد دائماً للتغلب عليه ، ولا فرق في هذا أ كان ميكالنجلو يقوم بنحت التماثيل أو بناء العمارات من الحجر . ولقد كان هو النحات الواحد من عصره الذي اوقف كل مجهوداته على المرمر . فقالب البرونز يسمح للمثال ان يستنجد بنوازع تصويرية ويستخدمها ولهذا فان البرونز كان يلقى حظوة عند فناني عصر الانبعاث الآخرين وعند الاغريق الارهف حساً ، لكن العملاق (ميكالنجلو) بقي مترفعاً عن البرونز .

كانت الوقفة (البوز) البرهية الجسمية هي ما أبدعه النحات الكلاسيكي، لكن هذا الفنان الفاوستي كان عاجزاً عن اصطناع مثل هذه الوقفة لتماثيله ، فهنا تماماً كما في قضية الحب ، فان الرجل الفاوستي لا يكتشف في الأصل العمل الناجم عن اتحاد رجل وإمرأة ، بل انما يكتشف حب دانتي العظيم ، ويكتشف ما وراء هذا الحب الأم المهتمة . فشهوانية ميكالنجلو كشهوانية بتهوفن ايضاً ، هي شهوانية غير كلاسيكية بكل ما يمكن للكلاسيكية أن يكون لها من شهوانية . فهو ينتج جرائد (جمع جريد) ويقدمها قرباناً للمثل الاعلى الهيليني) لكن النفس داخل هذه الجرائد هي التي تسيطر وتنكر الشكل المنظور . فمكالنجلو يستهدف ويريد اللانهاية ، كما كان يستهدف الاغريقي التناسب ويطلب القاعدة ، وهو يعانق الماضي والمستقبل ، كما كان الاغريقي يعانق الحاضر . وكانت العين الكلاسيكية تمتص الشكل التشكيلي إلى داخلها ، بينا كان ميكالنجلو يبصر بالعين الروحية ويخترق لغة صدر الصورة للحسية الفورية ، ولذلك حتم عليه في المدى الطويل أن يدمر اوضاع هذا الفن وظروفه . فلقد أمسى المرمر اتفه من تافه بالنسبة الى إرادته للشكل ، لذلك توقف عن النحت والتفت الى الهندسة المعمارية . وعندما

اكتملت شيخوخته واكتفى بانتاج هتامات فطرية فقط كادونا « روندانيني » (Rondanini) وكان بالكاد يبرز مشخصاته من الكتلة ويصقلها ، آنذاك بدأ ينساب النازع الموسيقى من فنه . وأخيراً لم يستطع ميكالنجلو أن يكبح من جماح حافزه على الشكل الكونتربونتي ، ولما كان غير راضٍ مطلقاً عن الفن الذي افنى عليه حياته ، ومع ذلك كان لا يزال خاضعاً كلياً للارادة التي لا تخمد للتعبير عن ذاته ، لهذا حطم دستور الهندسة المعمارية لعصر الانبعاث وابتدع الدستور الروماني الباروكي عوضاً منه . واستبدل علائق المادة والشكل بالمباراة بين القوة والكتلة ، وجمع الأعمدة في حُزم ، أو دفع بها في الكوى والمحاريب . وفض طبقات البنايات بانصاف من الأعمدة الضخمة وأعطى الواجهة نوعاً من الجيشان وقوة دافعة . فاذا تحوله عن القياس للنغم ، وخضعت السكونية للديناميكية . وهكذا جندت الموسيقى الفاوستية زعيم كل الفنانين الآخرين ليعمل في خدمتها .

انتهى بميكالنجلو تاريخ النحت الغربي ، وكان كل ما جاء بعده مجرد سوء فهم او شيء ما شبيه بالتذكار. اما خليفته الحقيقي فكان باليسترينا ولننتقل الآن الى الحديث عن ليوناردو الذي كان يتحدث بلغة تختلف عن لغة ميكالنجلو ، بكل ما للمثل الاعلى التوسكاني من روابط قلبية . فهو وحده لم يكن يطمح الى ان يكون نحاتاً او مهندساً معمارياً . والحق انه كان وهماً غريباً ذاك الوهم الذي انتشر في عصر الانبعاث والقائل بانه من الممكن ادراك الشعور الهيليني ومذهبهم في الشكل الخارجي للبناء بواسطة الدراسات التشريحية . ولكن عندما درس ليوناردو التشريح ، فهو لم يدرسه بوصفه تشريحاً لصدر الصورة ، كما كانت حال ميكالنجلو ، اي بوصف طوبوغرافية السطوح تدرس رغبة في التشكيل ، بل انما درسه بوصف هذا العلم (التشريح) سيكولوجياً لتفهم الاسرار الباطنية . فبينما كان ميكالنجلو يحاول ان يدخل غصباً كامل مغزى الوجود الانساني في لغة الجسد الحي ، كانت دراسات ليوناردو تظهر عكس ما يريده ميكالنجلو ويتوخاه. فالسفوماتو (Sfumato)

الأثير جداً لقلبـه هو اول دليل على نبـذه للحدود الجسدية لصالح الفراغ ولهذا فان السفوماتو هي نقطـة الانطلاق للمذهب الانطباعي . فليوناردو يبدأ بالباطن، بالفراغ الروحي داخلنـا ، ولا يبدأ بخط التعريف المقرر ، وعندما ينتهي (اي انه اذا كان ينتهي مطلقـاً دون ان ينجز الصورة) يمسي جوهر اللون كأنه مجرد نفثات يزفر فوق التركيب الحقيقي للصورة ، وهـذا امر غير جسدي ولا يمكن وصفه. ان صور رفائيل تنتهي الى مستويات ينضد عليها مجموعاته الحسنة الانتظـام ، وينفتح على الكل بمؤخرة صورة حسنة التناسب . لكن ليوناردو لا يعرف سوى فراغ واحـد ، وهو فراغ واسع وخالد ، ومشخصاته تطفو فيه على ما كانت عليه حالها . فالاول (رفائيـل) يضع داخل اطار الصورة مجموعة من الاشياء الافرادية القريبة ، بينما ان الثاني (ليوناردو) يقطع جزءاً من اللانهاية .

لقد اكتشف ليوناردو الدورة الدموية . ولم تكن الروح التي دفعت به الى هذا الاكتشاف بروح عصر الانبعاث ، بل انما الامر على العكس من هذا تماماً، فكامل مجرى افكاره قد نأى بـه خارج مفاهيم عصره . ولم يكن باستطاعة ميكالنجلو او رفائيل الوصول الى مثل هـذا الاكتشاف ، وذلك لان عـلم تشريحهم التصويري يعـالج فقط الشكل والوضع ، ولا يتطلع الى وظيفة الاجزاء، ونقول بلغة رياضية ان معالجاتها التشريحية كانت معالجات ستريومترية تقابلها معالجات ليوناردو التحليلية . أفلم يجد عصر الانبعاث ان دراسة الاجسام تكفيه لاعداد مناظر عظيمة مصورة ، وبذلك يكون قـد اخضع الصيرورة لحساب الصير مستنجداً بالموتى ليجعـلوا له الـ Eia. (الجسد) A'Rapa الكلاسيكية مألوفة للحيوية الشمالية المبدعة ؟ لكن ليوناردو كان كروبـنز وسيغنوريللي ، يتحرى الحياة داخل الجسد لا الجسد نفسه . ولقد جـاء اكتشافه للدورة الدموية معـاصراً لاكتشاف كريستوفر كولومبس ، وكلا الرجلين متشابهان تشابهاً عميقـاً لانها يمثلان انتصار اللانهـائي على المحدودية المادية للحاضر المحسوس به . وهل كان بامكان أي اغريقي ان يهـتم بقضايا

كقضايا ذينك الاثنين ؟

فلقد كان تحري الاغارقة داخل منظمتهم الخاصة من القلة كتحريم عن منابع النيل ، فمثـــل هذه القضايا هي قضايا تعرض الدستور اليوقليدي لكينونتهم للخطر . ففي مجرد كلمة « اكتشاف » يوجد شيء ما هو صريح في لا كلاسيكيته . فلقد كان الاغريقي يبــذل كل جهد كي لا ُينزع القناع ، الغلاف المادي ، عن أي شيء كوني ، لكن القيام بمثل هذا العمل ، بفض الغلاف المادي هو أهم مميزات حافز الطبيعة الفاوستية . فلقد تمت اكتشافات العالم الجديد والدورة الدموية والكون الكوبرنيكي في وقت واحد تقريباً ، وهذه الاكتشافات في اعماقها تتساوى جميعاً في أهميتها ، زد على ذلك ان اكتشاف ملح البارود (السلاح البعيد المدى) واكتشاف المطبعة (المخطوط البعيد المدى) قد تما في وقت ابكر قليلاً من ذلك الوقت .

لقد كان ليوناردو مكتشفاً من قمة رأسه حتى أخمص قدمه ، وكان الاكتشاف ، في مجمل القول ، كامل طبيعته . فالفرشاة والازميل والمشرط « المُشَرِّح » وقلم الرصاص الحاسب والفرجار للرسم ، جميع هذه الاشياء كانت متساوية في أهميتها لديه . وهي كانت بالنسبة اليه بمثابة مـــا كانت البوصلة البحرية بالنسبة الى كولومبوس . وعندما ينجز رفائيل باللون الرسم الايجازي فهو يؤكد على الظاهرة الجسدية في كل لمسة من لمسات فرشاتـــه ، لكن ليوناردو يكشف في « كروكياته » (Sketches) المرسومة بالطبشور الأحمر وفي مؤخرات صوره عن الاسرار الهوائية في كل خط من خطوطه . ولقد كان ليوناردو أول من ركز فكره على الطيران ايضاً . فان يطير المرء وان يحرر نفسه من الارض وان يضيع ذاته في سعة الكون وامتداده، أليس هذا كله طموحاً فاوستيـــاً من ارفع طراز ؟ أليس هو في الواقع تحققاً لاحلامنا؟ ألم ُيلاحظ من قبل كيف ان الاسطورة المسيحية أمست فيالتصوير الغربي عبوراً للمشخصات وقت هذا النازع ؟ فكل ما هو من مصور يرتفع الى السماء ويسقط في الجحيم ، فالمشخصات الالهية التي تطفو فوق الغيوم ،

والملائكة والقديسون الذين يحومون أحراراً طلقاء ، والتأكيد الملحاح على التحرر من ثقل الارض، جميع هذه الامور كلها هي شعارات لطيران النفس، وخاصة من خصائص المسيحية الفاوستية وبعيدة كل البعد عن المسيحية البزنطية .

- ٥ -

ان التحول من التصوير على الحائط في عصر الانبعاث ، الى التصوير الزيتي لفناني مدينة البندقية هو قضية من قضايا التاريخ الروحي . وعلينا ان ندرك الملامح البالغة في وقتها والسمات البالغة في رقتها كي نتمكن من ان نفطن الى عملية هذا التبدل . فنحن نستطيع ان نبصر بالتبدل في كل صورة تقريباً ابتداءً من فسيفساء « بطرس ومال الجزية » الموجودة في كنيسة برانكتشي، فمؤخرة الصورة المحلّقة التي اعطاها بيرو ديللا فرنشسكا لمشخصات فريدريغو وباتيستا اوف اوربينو ، فصورة بيروجينو «للمسيحوهو يقدم المفاتيح»فطبيعة رضاء التصوير على الحائط بالشكل الاجتياحي الجديد ، بالرغم من ان التطور الفني الذي دفع به رفائيل خلال مجرى عمله على « ستانزا » الفاتيكان هو الامر الوحيد تقريباً الذي يكشف لنا بجلاء ما بعده جلاء عما طرأ من تبدل على الفن . فالتصوير الفلورنسي على الحائط يستهدف الواقعة (Actuality) في الاشياء الإفرادية وينتج مجموعة من اشياء كهذه في تنضيد معماري . بينما ان التصوير الزيتي من جهة اخرى يرى هذه الاشياء ككل بثقة متزايدة طرداً بالامتداد ، يرى هذه الاشياء ككل ، ويعالجها بثقة متزايدة طرداً بالامتداد بوصفها ممثلة له . (الامتداد ــ المترجم) لقد ابدع الشعور الفاوستي بالعالم التقنية الجديدة التي يحتاج اليها ، لذلك نبذ اسلوب الرسم كما نبذته الهندسة التحليلية منذ ايام اوريسم (Oresme) فلقد حول المرئي المسطري المرتبط بنازع الهندسة المعمارية الى مرئي هوائي نقي يرتبط بتدرجات نغم

لا وزن له او ثقل . ولكن تعارض فن عصر الانبعاث (الماثل في عجزه اما عن فهمه لنوازعه الاعمق وإما عن فشله في تحسين المبدأ المناهض للفن الغوطي) جعل عملية الانتقال عملية غامضة شاقة . فلقد كان كل فنـــان ينساق مع التيار وفق نهجه الخاص ، فكان احدهم يصور بالزيت على الحائط العـــاري وبذلك حكم على انجازاته بالفنـــاء (العشاء الاخير لليوناردو) وكان غيره يصور صوراً كأنها صور حائط (فريسكو) (ميكالنجلو) . وكان بعضهم يغامر والبعض الآخر يخمن او ينفر خجلاً . لقد كانت حالهم كما هي الحال دائماً عندما ينشب الصراع بين اليد والنفس ، بين العين والاداة ، بين الشكل الذي يريده الفنـان وبين الشكل الذي يريده العصر ، الصراع بين التشكيل وبين الموسيقى . وعلى هذا الضوء نستطيع ان نفهم اخيراً ذلك المجهود الجبار الذي بذله ليوناردو في الرسم الايجازي (Cartoon) المعروف باسم « سجود المجوس » والموجود في اوفيزي . (Uffizi) وهـذا الرسم هو اعظم القطع الفنية واشدها جرأة في عصر الانبعاث ، ولم يراود حتى الخيـــال اي شيء كهذا الرسم حتى عصر رمبراندت . فليوناردو وهو يتسامى في هـذا الرسم فوق كل القياسات البصرية وكل شيء يُسمى رسماً او ايجازاً او تأليفاً او موسيقى ينطلق غير هياب او وجل ويندفع في تحديه للفراغ الخـالد ، فاذا بك ترى كل ما هو جسدي في هذا الرسم يطفو كأنه الكواكب السيارة في نظام كوبرنيكوس او كأنه الانغام في فوغات باخ تتماوج في ابهام الكاتدرائية وعتمتها. ان رسماً ديناميكياً كهذا للفراغ لا يمكن ان يبقى وفق الامكانيات التقنية لذاك العصر سوى جذع تمثال . (Torso)

أما في مادونا سستين التي تعتبر مجموع كل مجموع عصر الانبعاث ، فان رفائيل يجعل ايجاز الرسم يجتذب الى داخله كامل محتوى الانجاز . وهـــذه المادونا تعتبر أعظم وآخر خط في الفن الغربي . فالتقليد يبدو لدى رفائيل قد أجهدته شدة الشعور الباطني حتى نقطة الانهيار تقريباً . (وهذا مما يجعل رفائيل أقل فناني عصر الانبعاث صراحة ووضوحاً) ومع ان رفائيل لم يتعمد

الصراع والمشاكل ، فهو لم يكن يدري بها من قريب او بعيد ، إلا انه انطلق بالفن الى حافة حيث لم يعد بامكان الفن معهـــا ان يتهرب او يتملص من الانغماس ، وعاش رفائيل لينجز اقصى الامكانات داخل عالم شكل الفن . ان الرجل العادي الذي يعتقد في رفائيل الصراحة والسذاجة لا يستطيع ان يتحقق مما يستهدفه منهاجه ويعتلج به. فلننظر ثانية ايها القارىء الى «المادونا» المبتذلة . فهل لاحظت كيف ان سحب الفجر الصغيرة تحول ذاتها الى رؤوس طفل وتحيطه بالجسم الرئيسي المحلق ؟ فهذه السحيبات هي جمهرة لم تولد بعد جمهرة من الذين تشد بهم المادونا الى الحياة .

ونحن نلتقي ثانية بمثل هذه السحب الخفيفة والتي تحمل المعنى ذاته وذلك في الخاتمة العجيبة للجزء الثاني من فاوست . وفي هـــذا الذي لا يفتن لدى رفائيل ، وفي لا شعبيته الرائعة هذه يتجلى انتصاره الباطني على الشعور بعصر الانبعاث داخله . اننا نفهم بروجينو بلمحة واحدة ، ونعتقد فقط باننا نفهم رفائيل . فخطه بالذات ، وطابع الرسم ذاك الذي يبدو كلاسيكياً الى ذاك الحد ، هو شيء ما يطفو في الفراغ محلقاً متسامياً كبيتهوفن. وفي هذا الميدان فان رفائيل هو دون كل الفنانين وضوحاً ، وهو أقل وضوحـــاً حتى من ميكالنجلو الذي يكشف قصده عن نفسه في كل هتامية انجازاته . أما لدى فرا بارتولوميو Fra Bartolommeo ، فان الخط المادي المحـــدد لا يزال هو المسيطر سيطرة كلية . فهذا الخط خط كله صدر صورة ، ومغزى الانجاز قد تُرجم بواسطة تعريف الاجسام ترجمة مستوعبة . لكن الخط أمسى عند رفائيل صامتاً مترقباً مقنعاً ينتظر وهو على اشد ما يكون من التوتر الذوبان في اللانهاية ، في الفراغ والموسيقى .

أما ليوناردو فانه كان اثناء ذلك قد تجاوز الحدود ، فصورته « عبادة المجوس » هي موسيقى . وليس من باب الصدفة ، بـــل انما هي حاله ذات مغزى عميق كون ليوناردو في هذا الانجاز (عبادة المجوس) كما في إنجازه الآخر « القديس جيروم » لم يتجاوز اللون البني ، مرحـــلة « رمبراندت »

اللون البني الجوي للقرن القادم . وبالنسبة الى ليوناردو فانه قد بلـــغ كامل امتلاء ووضوح قصده بواسطة اعماله في تلك الحـــال ، ولو أنه خطا خطوة واحدة اخرى في ميدان اللون لكان قد دمر النفس فيما ابدعه . (وذلك لان ميدان اللون كان لا يزال خاضعاً للمحدودية الميتافيزيقية لاسلوب التصوير على الحائط) . فالشعور باعمق اعماقه والذي كان من المحـــتم فيما بعد على التصوير الزيتي ان يصبح عربته ، جعل ليوناردو يرهب من اتمام صوره على الحائط وصقلها اللذين (الاتمام والصقل) كانا سيدمران حتى فكرته . فدراساته في حقل هذا النوع من التصوير تظهر كيف ان علاقته بحفر رمبراندت على المعدن كانت علاقة جد وثيقة والحفر على المعدن هو فن (غير معروف في فلورنسا) موطنه موطن الكونتربونتية نفسه . ولقد خصت مدينـــة البندقية فقط ، التي كانت خارجة على التقاليد الفلورنسية ، بان تنجز ماجاهد ليوناردو من اجله هنا ، فتصوغ عالم لون يعني الفراغ لا الاشياء . ولهـــذا السبب ايضاً عزم ليوناردو (عقب محاولات لا تعد ولا تحصى) على ان يترك رأس المسيح في صورة « العشاء الاخير » غير منجز . فرجال عصره لم يكونوا ناضجين حتى يفهموا التصوير الشخصي ، بمـــا لهذه الكلمة من مفهوم لدى رمبراندت ، اي ان يبني الفنان من لمسات الفرشـــاة الديناميكية والاضواء والانغام بناءً رئيسياً لتاريخ نفس. ولكن ليوناردو وحده كان له من العظمة ما يكفيه لأن يختبر هذه المحدودية بوصفهـــا مصيراً ، فالآخرون قد اشغلوا انفسهم بتصوير الرؤوس (وفق الحالات التي عينتها مدارسهم الخاصة)ولكن كان لليوناردو (وهو الاول هنـــا الذي جعل الايدي تتكلم ايضاً وتتحدث بلسان سيمائي) قصد اشـــد اتساعاً في لا نهائيته من مقاصدهم . فلقد كانت نفسه تهوم بعيداً في المستقبل ، بالرغم من ان اجزاء جسده الفانية ، عينه ويده ، قد أضاعتا روح العصر . ولا شك ان ليوناردو كان اوسع الثلاثـــة العظام حرية . فهو كان بعيداً عما كانت طبيعة ميكالنجلو الجبارة تصارع عبثاً ضده . لكنه كان يألف جميع قضايا الكيمياء والتحليل الهندسي والسيكولوجيا (وطبيعة غوتيه الحية كانت ايضاً طبيعة ليوناردو) وتقنية

الاسلحة النارية . وليوناردو كان اعمق من ديرر واشجع من تيتسيان واوسع ادراكاً من اي إنسان عاش في عصره ، وهو كان في جوهره فنان جذوع التماثيل . وكذلك كان ايضاً ميكالنجلو النحات المتأخر زمنا ، لكن وفق مفهوم مغاير لمفهوم ليوناردو ، ولقد بلغ في ايام غوتيه ذاك الذي لم يستطع ان يبلغه مصور « العشاء الأخير » وتجاوزه الناس ايضاً .

كان ميكالنجلو يجاهد لارغام الحياة على ان تدب في عالم شكل ميت ، اما ليوناردو فكان يحس بعالم شكل جديد في المستقبل ، اما غوتيه فلقد تكهن بانه لا يمكن ان تقوم عوالم شكل اكثر . وبين الاول والأخير تقع القرون الناضجة للحضارة الفاوستية .

- ٦ -

يبقى أمامنا ان نعالج الآن الطبائع الأساسية للفن الغربي خلال مرحلة الاكتمال . ويمكن لنا في هذه ان نلاحظ الضرورة العميقة لكل التاريخ ناشطة فعالة . لقد تعلمنا ان نفهم الفن بوصفه ظاهرة اولية ، ونحن لم نعد نتطلع لنبحث عن عمليات مبدأ العلة والمعلول كي يقدم وحدة لقصة التطور . ولقد اقمنا بدلاً من هذا المبدأ فكرة المصير لأحد الفنون ، وقبلنا بالفنون كتراكيب عضوية للحضارة ، تراكيب عضوية تولد وتشيخ وتموت أبداً .

عندما بلغ عصر الانبعاث نهايته (أي آخر اوهامه) بلغت النفس الغربية مرحلة نضوج وعيها لقوتها وامكاناتها الخاصة فلقد اختارت فنونها . ففي المرحلة المتأخرة زمناً أمسى الفن الباروكي ، كالفن الايوني تماماً ، يعرف ما الذي يجب ان تعنيه لغة شكل فنونه ، وتوجب على الفن ان يصبح فلسفة دينية بدلاً من ان يكون ديناً فلسفياً . فتقدم الاساتذة العظام الى الطليعة ليحلوا محل المدارس الغفل من الاسماء ويتبدى أمامنا حين بلوغ الحضارة

ذروتهـــا منظر مجموعة رائعة من الفنون العظمى الحسنة الانتظام والمترابطة كوحدة بواسطة وحدة الرمز الاولي الذي يكمن وراءها جميعاً ، فالمجموعـة الابولونية من الفنون التي تنتظم التصوير على الآنية وعلى الحائط والتضريس والهندسة المعمارية المنتظمة للاعمدة صفوفاً ، والدراما الاتيكية والرقص ، أقول ان هذه المجموعة تركز على التمثال العاري . بينما ان المجموعة الفاوستية تشكل ذاتها حول المثل الاعلى للانهائية الفراغية المجردة ، أما مركز ثقلهـا فهو الموسيقى الاداتية . فمن هذا المركز تشع خيوط رفيعة جميلة لتدخل في جميع لغات الشكل الروحية وتنسج رياضياتنا اللامتناهية في صغرها وفيزيائنا الديناميكية والدعايـــة اليسوعية وقوة شعارنا المشهور « التقدم » والتقنية الالية الحديثة والاقتصاد الاعتمادي (Credit) والدولة السلالية الدبلوماسية، تنسج كل هذه المجموعة الهائلة للتعبير الروحي . فابتداءً بالايقاع البـــاطني للكاتدرائية وانتهاءً « بترستان » و « برسيفال » لفاغنر ينشد الغـزو الفني للفراغ اللامتناهي كامل قواه بدءاً من عام ١٥٥٠ تقريباً . فالتشكيل يموت في روما مع ميكالنجلو ، وذلك في الوقت نفسه الذي يصبح فيه فن قيـاس المسطحات (Planimetry) الذي كان سائداً حتى ذاك الوقت ، أقل فروع رياضياتنا شأنـــاً ، وفي الوقت ذاته ايضاً انتجت البندقية نظريات تزرلينو (Zarlino) للهرموني والـكونتربوينت . (١٥٥٨) والنهـــج العملي « لباسو كنتنيو » (Basso Continuo)(الذي هو بمثابة المرئي والتحليـــل لعالم النغم).

ومع هذا تبدأ أخت الموسيقى ، رياضيات التفاضل والتكامل الشماليـــة بالارتقاء . وهنا ينطلق التصوير الزيتي والموسيقى الاداتية ليدخلا مملكتيهما . وكذلك ، ونتيجة لما أوردنا ، نقول بان الفنون الماديـــة واليوقليدية في جوهرها ، فنون الحضارة الكلاسيكية مثلا : التمثال التـــام والتصوير على الحائط الدقيق في مسقطه الافقي ، قـــد استحصلا على الافضلية في الوقت المماثل لذاك أي في عام ٦٠٠ ق . م . وعلاوة على هذا فان التصوير هو أول

ما ينضج في كلتا الحضارتين ، وذلك لان التصوير من كلا النوعين على السطح هو فن أقل طموحاً واسهل منالاً من النحت في كتل صلدة أو التأليف في امتداد لا مادي (الموسيقى - المترجم) . ان الحقبة الممتدة من عام ١٥٥٠ الى ١٦٥٠ تنتمي بكاملها الى التصوير الزيتي . كما ينتمي التصوير على الحائط والاواني الى القرن السادس قبل المسيح . فرمزية الفراغ ورمزيـــة الجسد ، اللتين يُعبر عن الاولى بواسطة المرئي ، وعن الثانية بالتناسب ، فانما يُشار اليها فقط ولا يعرضان فوراً بواسطة الفنون التصويرية . فهذان الفنان اللذان يستطيعان في كل حالة من الحالات ان ينتجا رمزيها الأولين مثلا : امكاناتها في الممتد) بوصف هذين الرمزين أوهاماً وخيـــالات صورت على سطح، هما فعلا قادران على الاشارة واستحضار المثل الاعلى لكل فيما يختص به ، لكنهما غير قادرين على انجازه ، لذلك فهما يبدوان في درب الحضارة المتأخرة زمناً كسلسلة من الصخور تمتد أمام آخر القمم . فكلمـــا ازداد الاسلوب العظيم اقتراباً من نقطة اكتماله ، يزداد النازع الى اللغة التزيينة عزماً وحسماً في نقاء رمزية متصلبة عنيدة . وتُبسّط فضلا على ذلك مجموعـــة الفنون العظمى . وحدث قرابة عام ١٦٧٠ ، وذلك تماماً حينما كان نيوتن وليبنتز يكتشفان حسابها للتفاضل ، ان وصل التصوير الزيتي بامكاناته حده الاقصى . فلقـــد طوى الموت آخر الاساتذة العظام لهذا الفن ، ومن تبقى منهم كان يحتضر ، ففلاسكيز توفي عام ١٦٦٠ وبوسين عام ١٦٦٥ ، وفرانس هالس عام ١٦٦٦، ورمبراندت عام ١٦٦٩ ، وفيرمر عام ١٦٧٥ ، وموريللو ورويسديل وكلود لورين عام ١٦٨٢ ، وما على المرء إلا ان يسمي بعضاً من خلف هـــؤلاء من ذوي القيمة (فاتو ، هوجارت ، تيبلو) حتى يحس فوراً بانحطاط هـــذا الفن ، وبنهايته . وحدث في هـــذا الوقت ايضاً ان همدت ايضاً الاشكال العظمى للموسيقى التصويرية .

فلقد توفي هينريخ شيتس عام ١٦٧٢ ، وكاريسمي (Carrissimi) عام ١٦٧٤ وبورسيل (Purcell) عـــام ١٦٩٥ ، وكان هؤلاء آخر اساتذة

« الكانتاتا » العظام الذين تلاعبوا في مواضيع الصورة بلون اداثي لانهائي في انواع صوته ، وصوروا صوراً محترمة ثمينة لمناظر طبيعية ومشاهد اسطورية عظيمة . و« بلوللي » (Lully) توقف قلب الاوبرا البطولية الباروكية « لمونتيفردي » عن الخفقان (١٦٨٧) . والشيء نفسه حدث للسوناتا « الكلاسيكية » القديمة للجوقة والارغن والثلاثي الاوتار ، التي كانت جميعاً تمثل تطوراً لمواضيع الصور وفق اسلوب « فوغي » . وبعد هذا أمست الاشكال ، اشكال آخر مراحل النضوج ، أمست الكونشرتو جروسو (Concerto Grosso) السويت ، والسوناتا الثلاثية الجزء للالات الموسيقية المنفردة (Three Part Sonata for Solo) . وحررت الموسيقى نفسها من آثار الجسمية الملازمة للصوت البشري وأصبحت مطلقة . فلم يعد الموضوع صورة بل إنما أصبح وظيفة حبلى تمارس وجودها في وبواسطة تطورها الخاص نحو اسلوب « الفوغي » الذي يجب فقط اعتباره حسبما مارسه باخ عملية لا تنتهي من عمليات حساب التفاضل والتكامل . ان انتصار الموسيقى المجردة على التصوير الزيتي مسجل في « الالام » (Passions) التي ألفها هينريش في شيخوخته (وهذه القطع الموسيقية هي بمثابة فجر منظور للغة شكل جديد)، ومدون ايضاً سوناتات دال آباكو (Dall Abaco) وكوريللي ، وفي المدائح الدينية (Oratorios) التي ألفها هندل وفي البلوفوني الباروكية لباخ . ومن هنا فصاعداً غدت هذه الموسيقى هي فن الموسيقى الفاوستي ، ويمكننا ان نصف فاتو « Watteau » بانه المصور كوبيرين (Couperin) ، وتبولو (Tepolo) بانه المصور هندل .

وقد حدث التبدل الموفق لهذا في العالم الكلاسيكي عام ٤٦٠ عندما تنازل بوليغنتوس آخر عظماء المصورين على الحائط عن تركة الاسلوب العظيم لبوليكليتوس وللنحت الحر بتمامه . وحتى ذلك الحين (وحتى أيام معاصري بوليغنتوس ، « كايرون » واساتذة كورنيش اوليمبيا) كانت لغة الشكل لفن افقي المسقط (Planar) تسيطر على لغة شكل التمثالية ايضاً ، وذلك

كما ان التصوير الزيتي كان قد طور شكله اكثر فأكثر نحو المثـــل الاعلى « لسلهوطه » اللون مع تطبيق داخلي للرسم ، الى حد كاد أخيراً ينتفي عنده تقريباً الفرق بين التضريس المصور وبين الصورة البطحاء ، كذلك ايضاً فان النحات قد اعتبر الرسم الايحازي الجبهي كما يعرض نفسه على المُشاهد وذلك بوصفه الرمز الحقيقي لنفسية الشعب (Ethos) ، والنموذج الحضاري الذي يريد لمشخصه ان يمثله .

ان مجال كورنيش المعبد يشكل صورة ، واذا ما نظر المرء اليـــه من مسافة مناسبة ، فان هذا الكورنيش يوجد في نفسه الانطباع ذاته تماماً الذي يوجده معاصره المشخص الأحمر المصور على الآنية . وفي جيل بوليكليتوس أفسح التصوير الفخم على الحائط الطريق أمام التصوير على اللوحة ، أمـــام الصورة المناسبة الاصليـــة المصورة « بالتمبيرا » (Tempera) أو الشمع ، وهذا دليل واضح على ان الفن العظيم قد اختار مسكناً له في مكان آخر . أما طموح تصوير ابولودوراس للظل فهو ليس وفق أي مفهوم كان بما ندعوه بالجلاء والقتمة والجو ، بل انما كان محض : (Modelling in the round) وفق مفهوم النحات ، وزيكيس (Zeuxis) فان ارسطوطاليس نفسه يقول بان عمل هذا الفنان يفتقر الى نفسية الشعب ، وبذلك يكون هذا التصوير الكلاسيكي الاجد بما فيه من مهارة وسحر انساني ، نظيراً لتصويرنا في القرن الثامن عشر . فكلا النوعين مفتقران الى العظمة الباطنية ، وكلاهمـــا حاولا بواسطة قوة الطهر والصلاح ان يتحدثا بلغة ذاك الفن الواحد والأخير الذي كان يدافع في كل من الحالين عن التزيين في مفهومه الارقى ، لذلك فان بوليكليتوس وفيدياس يقفان في صف واحد مع باخ وهندل . وكما ان الاساتذة الغربيين قد حرروا الشكل الموسيقي الصارم من المناهج التنفيذية ، كذلك فان الاساتذة الاغارقة قد انقذوا اخيراً التمثال من ارتباطاته بالتضريس .

وبهذا التشكيل المكتمل ، وبهذه الموسيقى الكاملة تبلغ كل حضارة من الحضارتين نهايتها الخاصة بها . فلقد أمست رمزية مجردة ذات صرامـــة

رياضية في حيز الامكان . واصبح بمستطاع بوليكليتوس ان ينتج « قانونه » لتناسبات الجسم البشري، وغدا بمقدار معاصره باخ ان ينشيء « فن الفوغيه » والبيانو ذا الطبع الحسن. Kunstder Fuge and Wohtemperiertes Klavier

وقد نشأ عن هذين الفنين آخر اكتمال لانجاز الشكل المجرد المُشبَّع بالمعنى الذي يستطيع ان يقدمه . فلنقارن بين جسم النغم للموسيقى الادائية الفاوستية ، ويدخل في هذا المنهاج ايضاً جسم الاوتار (وعند باخ ايضاً وحدة الأصوات الموسيقية الصادرة عن الآلات الهوائية) وبين أجسام التماثيلية الاتيكية . ولنقارن ايضاً بين معنى كلمة « مشخص » عند هايدن ، وبين معناها عند براكستيلس . فمعناها في الحالة الاولى يشير الى شخص ذي نازع ايقاعي داخل نسيج من الاصوات ، اما في الحالة الثانية فانما يشير الى شخص رياضي (Athlete) ولكن التصور ينشأ في كلتا الحالتين عن الرياضيات ، ويصبح من الواضح ان الهدف الذي قد بُلغ اخيراً انما هو اتحاد بين الروح الفنية والروح الرياضية، وذلك لأن الرياضيات التحليلية كالموسيقى، والهندسة اليوقليدية كالتشكيل، قد بلغا الادراك الكامل لواجباتها والمفهومين النهائيين للغتي رقميها . ومنذ الآن فصاعداً يصبح من المستحيل التفريق بين جمال الرياضيات وبين رياضيات الجمال .

ففراغ النغم غير المتناهي وجسم المرمر او البرونز المكتمل ، هما ترجمتان فوريتان للممتد . وهما ينتميان الى الرقم بوصف الاول علاقة ، والثاني مقياساً ، ففي التصوير على الحائط والتصوير الزيتي ، وفي قوانين التناسب وقوانين المرئي يُشار فقط الى العنصر الرياضي ، لكن هذين الفنين هما رياضيات ، وعلى هذه الذرى يمكن للمرء ان يشاهد كامل الفنين من ابولوني وفاوستي .

وبتواري التصوير على الحائط والتصوير الزيتي ، يتوافد الاساتدة العظام في التشكيل والموسيقى المطلقين على المسرح استاذاً بعد استاذ . فيعقب بوليكليتوس فيدياس وبنيوس Paeonius وألكامينيس وسكوباس وبراكستيلس

وليسبوس . ويجيء بعد باخ وهندل ، غلوك وستاميتز وآل باخ من الشباب ، وهايدن وموزارت وبيتهوفن ، وفي حوزة هؤلاء مستودع من آلات موسيقية عجيبة قد نُسيت الآن ، وتبدع روح الغرب المكتشفة المخترعة عالماً سحرياً كاملاً مؤملة من وراء ذلك في الحصول على الاكثر فالاكثر من الالحان والنغمات لاستخدامها في تنمية إمكانات التعبير الموسيقي الذي تزخر نبراته بفيض من اشكال عظيمة وقورة مزخرفة أنيقة ساخرة ضاحكة باكية منتحبة ، اشكال تركيب منتظم انتظاماً كاملاً ، اشكال لا يفهمها احد الآن . ففي تلك الايام ، في القرن الثامن عشر ، كانت هناك ، وخاصة في المانيا ، حضارة موسيقية واقعية فعالة ، حضارة غمرت كل الحياة بالوانها وانغامها . أما طرازها فكان :

رئيس الجوقة الكنسية Hoffmann's Rappelmeister Kreisler

وماتت مع القرن الثامن عشر ايضاً الهندسة المعمارية التي خنقتها الموسيقى الركوكية خنقاً . ولقد هبت زوابع النقد على آخر نمو رائع مدهش للهندسة المعمارية الغربية لتجلده بسياطها دون شفقة أو رحمة ، ولم يستطع النقد ان يتبين ان أصلها يضرب عميقاً في روح الفوغية ، وان لا تناسبيتها ولا شكليتها ، وان اضمحلالها وعدم استقرارها وبريقها ، وتدميرها للسطح وللنظام المنظور ، هي في كل هذا لا تمثل سوى انتصار الانغام والالحان على الخطوط والجدران ، وظفر الفراغ المجرد على المادة ، وغلبت الصيرورة المطلقة للصير . فهذه الأديرة والقلاع والكنائس بواجهاتها المنسابة وسدفها وقاعاتها « الزنجبيلية الكعك » وسلالمها الرائعة وأروقتها وصالوناتها وغرفها ، لم تعد أبنية ، بل انما أصبحت سوناتات ومنيوتيات (Miuets) واراجيز من حجر ، إنها موسيقى منزلية في معجون المرمر والمرمر والعاج والخشب الجميل ، وهي كانتيلنيات الحلى المعمارية ودَرجها ومحط نغم أغطية الاسوار . فبناء « درسدن تزفنجر » هو أجمل قطعة موسيقية وا كملها في كل الهندسات المعمارية العالمية ، بما فيها من زخرف يشابه نغم كمان قديم ، إنها كالليغرو —

فوجيتفو (Allegro fugitivo) لجوقة صغيرة .

لقد انجبت المانيا الموسيقيين العظام ، ولذلك انجبت ايضاً المهندسين العظام في ذاك القرن . (بوبلمان ، شليتر ، بير ، نيومان ، فيشر ، فون إرلاخ ، دنتسنهوفر) . أما في التصوير الزيتي فانها لم تقم مطلقاً بأي دور ، لكن على العكس من ذلك في الموسيقى ، اذ ان الموسيقى كانت دورها الرئيسي .

- ٧ -

هناك كلمة « الانطباعية » التي بدأت تتداولها السنة النـــاس في عصر مانيت (Manet) فقط ، (وكانت يومذاك تعني اصلاً الازدراء والاستخفاف اللذين تعنيها كلمتا باروكي وركوكي) ولكن لسرورنا ان هذه الكلمة تلخص الصفة الخاصة للطريقة الفاوستية التي نشأت عن التصوير الزيتي . غير انـنــا عندما ننطق بها بصورة اعتيادية ، فان الفكرة التي تحمل بها هذه الكلمة لا تملك سعة المعنى وعمقه اللذين يجب ان يكونا لها . فنحن نعتبرها كمشتق او ذيل لشيخوخـة فن ، مع ان هذه الكلمة ترافقه فعلاً منذ ولادتـُـه حتى موته . فما هو الذي يشابه « الانطباع » ويحاكيه ؟ انـــه شيء ما نقي في غربيته ، شيء ما مرتبط بالفن الباروكي ، ومرتبط حتى بالاهداف اللا واعية للهندسة المعمارية الغوطية ويتعارض على خط مستقيم ومقاصد عصر الانبعاث المتعمدة . أليست هذه الكلمة تشير الى النازع ، النازع العميق بالضرورة الى وعي يقظ يتوخى الاحساس بالفراغ اللا متناهي بوصفه الواقعة العليـا التامة الكاملة ، وبوصف جميع صور الحس وقائع ثانوية ومشروطة داخل الفراغ ؟ انه نازع يستطيع ان يعرض نفسه من خلال الابداعات الفنيـة لكن له ألفاً من المنافذ الاخرى غير تلك الابداعات . ألا يبدو قـانون « كنت » القائل بان الفراغ هو شكل البداهة للادراك الحسي » كأنه شعار لكل الحركة التي بدأت بليوناردو ؟ ان الانطباعية هي عكس الشعور اليوقليدي بالعالم . وهي

تسعى ان تبتعد الى اقصى ما يمكنها من الابتعاد عن لغة التشكيل وتحاول ان تقترب الى ادنى ما يمكنها من الاقتراب الى لغة الموسيقى . فالاثر الذي تحدثه فنياً الاشياء التي تتلقى الضوء وتعكسه لا يحدث نتيجة لان الاشياء موجودة هناك ، بل انما كأن هذه الاشياء « بحد ذاتها » غير موجودة هناك . فالاشياء ليست حتى اجساماً ، بل إنما هي توترات ضوء في الفضاء ، ويتوجب على لمسة الفرشاة ان تلقي بالقناع عن كثافتها (الاشياء) الوهمية المخادعة . اما مـــا نتلقاه ونترجمه فانما هو الانطباع عن توترات كهذه ، توترات تقوم ضمنــاً بوصفها وظائف لامتداد متسام . فعين الفنان الباطنية تخترق الجسم وتكسر تعويذة السطوح المحدودةوتضحي بها على مذبح جلالة الفراغ . والفنـــان مع هذا الانطباع وتحت تأثيره يشعر بنوعية الحركة اللا متناهية داخل العنصر المحسوس الذي هو على تضاد تام والـ (Ataraxia) التمثالية للتصوير على الحائط . لذلك لم يكن ولا يمكن ان يكون هناك انطباعية هيلينية ، واذا كان هناك من فن يجب من حيث المبدأ ، ان يطرح الانطباعية جانباً ، فانما هذا الفن هو النحت الكلاسيكي .

ان الانطباعية هي التعبير المـُدرِك للشعور بالعالم ، ولذلك يجب ان ينفذ بوضوح الى كامل سيماء حضارتنا «المتأخرة زمناً» . فهناك رياضيات انطباعية ، والتي تتسامى بصراحة وتعمد فوق كل المحدوديات البصرية . وهذه الرياضيات هي تحليل على الشكل الذي تطورت وفقه عقب نيوتن وليبنتز ، واليها تنتمي صور اجسام الرقم الرؤياوية والمجاميع والهندسة المتعددة الابعاد . وهنـاك ايضاً فيزياء انطباعية والتي ترى بدلاً من الاجسام منـــاهج نقاط كتلة اي وحدات هي ، كما هو غني عن البيان ، ليست اكثر من علاقات ثابتـة بين مُسببات قابلة للتحول والتبدل . وهناك علم اخلاق انطبـــاعي وتراجيدي ومنطق انطباعيان وحتى (في الزندقة) مسيحية انطباعية .

ان الفنان أمصوراً كان او موسيقياً ، فان فنه يتوقف على ابداع صورة لا ينضب لمحتواها معين ، ابداع عالم اصغر يناسب عيني الفرد الفاوستي واذنيـه

وذلك بواسطة لمسات او بقع او انغام قليلة ، اي ان يقيد لا نهـــائية الفراغ بتعويذة تتألفمن اشارات وعلائم لا جسمية عابرة لشيء موضوعي ما، الذي يرغم مثلاً الواقعة على ان تصبح ظاهرية (Phenomenal) . ان جرأة هذين الفنين المتجليــة في تحريك اللامتحرك هي جرأة لا مثيل لهـــا . فابتداء من انجازات تيتسيان المتأخرة زمناً «فكورو» Corot و «منزل» اخذت المادة ترتعش وتسيل كأنها السائل تحت الضغط الغامض للمسات الفرشاة والالوان والاضواء المتكسرة وملاحقة الموضوع ذاتهجعلت الموسيقى الباروكية موسيقى موضوع بدلاً من موسيقى نغمية ، وبدأت تحـد الموضوع وتزوده بكل سحر هرموني مناسب ، وبكل وسيلة من اللون الادائي والايقاع والتمبو، وطورت صورة النغم من قطعة يوم تيتسيان المقلدة الى نسيجاللايتموتيف(Leitemotiv) فاغنر ، واستولت على كامل العالم الجديد للشعور والخبرة . وعندمـــا كانت الموسيقى الالمانية تتكبد السماء ، اخذ هذا الفن ينفذ الى الشعر الغنائي (واعني الشعر الغنائي الالماني ، فهـــذا الامر مستحيل في الشعر الغنائي الفرنسي) ودفعت الى الاوج بسلاسل كاملة من روائع إبداع صغيرة ، ابتـداء بفاوست القديم (Urfaust) لغوتيه وحتى آخر قصائد هلدرلن (وهذه قصائد هيمقاطع تتألف من سطور قليلة لم يسبق لأحد ان لاحظها من قبل ناهيك بانها لم تجمـع حتى الآن ، مع كونها تشتمل مع هذا على عوالم كاملة من الشعور والخبرة) . والموسيقى، الى حد ما، تكرر وتردد دائماً انجازات كوبرنيكوسوكولومبوس ولا تمتلك اية حضارة زينة لها مثل هذا الاثر الانطباعي بالنسبة الى الوسائل التي تستخدمها . فكل نقطة او لمسة من لون ، وكل نغم يـــكاد ألا يُسمع ، يحرر بعضاً من سحر مذهل ويغذي بصورة دائمة الخيال بعناصر جديدةطازجة من مخزون الحيوية المبدعة للفراغ.فنحن نصادف لدى موساتشيو(Masaccio) وبيرو ديللا فرانشسكا اجساماً واقعية قد استحمت فيالهواء وثمليوناردو، أول من يكتشف انتقالات الضوء والعتمة الجوية، والحافات الرفيعةالناعمة والرسوم

الايجازية التي تغوص في العمـــق ، وممالك الضوء والظل التي تشتمل على المشخصات التي لا يمكن التفريق بينها. واخيراً فان المواد بين يدي رمبراندت تذوب الى مجرد انطباعات ملونة ، وتفقد الاشكال بشريتها المعينة فتصبح مجموعات من اللمسات والبقع التي تتحدث كأنها عناصر ايقاع عمقي شجي. ولما كانت المسافة تعالج على هذه الشاكلة ، لذلك أمست تمثل المستقبل ، لان مـا تستولي عليه الانطباعية وتمسك به بواسطة الفرضيات ، هو لحظـة فريدة في نوعها ولا يتكرر ابداً حدوثها ، وهو ليس بمنظر طبيعي في كينونته ، بل انما هو لحظة عابرة من تاريخ هذا المنظر الطبيعي . وتماماً كما هو الحال في الصورة الشخصية التي رسمها رمبراندت ، فاننا نشاهد في مثل هذه الصورة ان ما يُعبر عنه ليس هو تضريس الرأس ، بل إنمـــا هو المحيا الثاني الذي يُعترف به . إنه نظرة المنظر ونفسه ، وكما أن لمسات فرشاة رمبراندت لا تستأسر العين بل النظرة ، ولا الجبين بل الخبرة ، ولا الشفتين بل الشهوانية ، كذلك تماماً فان الصورة الانطباعية بصورة عامة لا تعرض على المشاهد طبيعة صدر الصورة ، بل انما تعرض المحيا الثاني ، نظرة المنظر الطبيعي الكاثوليكي البطولي لكلود لورين : او المنظر الريفي في فصله « لكورو » ، او شواطىء البحر والانهار والقرى لكيوب (Cuyp) وفان غويين (Van Goyen) فاننا نجد دائماً في هذه صورة شخصية وفق المفهوم السيمائي ، ونجد شيئاً ما فريد في حدوثه لم يترقب ، وقد جيء به الى النور لاول وآخر مرة ، وفي هـــذا الحب لخلق المنظر الطبيعي وسيمائه(وهو النازع ذاته الذي لم يكن يقدر الفن الكلاسيكي على التفكير به ولذلك فهو محرم دائماً عليه)يوسع فن التصوير الشخصي العالم بوصفه جزءاً من « الأنا » او بوصفه عالم الذات الذي يصور فيه المصور نفسه ويرى المشاهد فيه ذاته . وذلك لان توسع الطبيعة وصيرورتها مسافة يعكس مصيراً . ففي هذا الفن ، فن المناظر الطبيعية التراجيدية الشيطانية الضاحكة الباكية يوجد شيء ما لا يعرفه إنسان حضارة أخرى من بعيد أو قريب ، ولا يمتلك حتى عضواً ليحس به أو يراه . ان أي انسان يتحدث

في حضرة عالم الشكل هذا عن التصوير الهلليني التخيلي، يجب ان يكون بالضرورة عاجزاً عن التمييز بين تزيين من أعلى مرتبة وبين تقليد لا نفس فيه، وهو بمثابة تقليد القرد لكائن أمامه. ولو أن ليسبوس (كما يخبرنا بليني Pliny بانه قد قال) : إنه عرض الناس كما بدوا له، فان طموحه يكون عندئذٍ هو طموح الطفل، طموح الرجل العادي والفطري، لا طموح الفنان. فالاسلوب العظيم، والمغزى والضرورة العميقة، جميعها لا وجود لها لديه، وحتى سكان الكهف كانوا في العصر الحجري يصورون كما يصور ليسبوس، ومع ان صور المناظر الطبيعية لبومباي و « الاوديسا » قد صورت في زمن متأخر، إلا انها تحتوي على رمز. ففي كل صورة من تلك الصور نشاهد مجموعة من الاجسام مترجمة الى صخور واشجار وحتى بحر، وذلك بوصفها جسماً بين الاجسام! وليس في هذه الصور عمق، بل انما هي مجرد تراكب اشكال. (Superposition) ومن البدهي ان يكون بين المواد المعروضة في تلك الصور مادة أو اكثر قد ابتعد بها عن غيرها (وهي بالاحرى أقل قرباً) لكن هذا الامر يمثل فقط عبودية تقنية ليس بينها وبين المسافات السماوية المنيرة للفن الفاوستي أبعد شبه.

- ٨ -

قلت فيما تقدم إن التصوير الزيتي ذوى في نهاية القرن السابع عشر وذلك عندما اختطف الموت اساتذة هذا الفن العظام الواحد بعد الآخر. ولهذا السبب فمن البدهي أن يُطرح السؤال التالي :

« هل المذهب الانطباعي (بمفهومه الشائع الصيت)هو مخلوق من مخلوقات القرن التاسع عشر؟ وهل امتد العمر بالتصوير الزيتي، قرنين اكثر؟ وهل لا يزال له وجود؟ لكن يجب ألا نخدع بالمظاهر. فلم يكن هناك فقط فراغ ميت يفصل بين ديلاكروا أو كونستبل، (وذلك لأنه عندما نفكر بالفن

الحي ذي الرمزية الرفيعة الذي كان فن رمبراندت ، فان الفنانين المجردين في الزخرفة ، فناني القرن الثامن عشر لا يُحسب لهم حساب او يقام لهم شأن) بل انما الامر ايضاً هو اكثر من هذا فان ما بدأ بديلاكروا وكونستبل بالرغم من كل الاستمرار التقني هو شيء ما يختلف تماماً عن ذاك الذي انتهى برمبراندت ، فالحدث الجديد الذي وقع في ميدان التصوير الزيتي في القرن التاسع عشر (مثلاً ما وراء حدود عام ١٨٠٠ وفي المدنية) والذي نجح في ايقاظ بعض الأوهام في فن حضاري عظيم ، قد ختار بنفسه كلمة الهواء الطلق (Plein-air) ليعين مميزاته الخاصة . وهذا التعيين بالذات يكفي ليظهر لنا مغزى الظاهرة العابرة التي تمثل هذا الفن . فهو يدل على الرفض الذهني الواعي المقصود لذلك الشيء الذي ابتدعت له فطنة مفاجئة اسم « الصبغ البني » والذي كما نعلم اعتبره الاساتذة العظام اللون الحقيقي الميتافيزيقي الأوحد ، فعلى هذا اللون شيدت حضارة التصوير للمدارس ، وخاصة المدرسة الهولاندية التي ذابت في فن الروكوكو ، ومن المستحيل ان تعوض . فاللون البني ، رمز اللانهائية الفراغية والذي أبدع بالنسبة الى الجنس البشري الفاوستي شيئاً ما روحياً وخلقه من مجرد صورة ، أصبح يُعتبر فجأة الآن إساءة للطبيعة . فما الذي حدث واستجد ؟ أليس السبب الكامن وراء هذا الاعتبار هو بكل بساطة ان النفس الذي كان هذا اللون السماوي في نظرها شيئاً ما دينياً ودلالة على الحنين والتوق ، والمعنى الكامل « للطبيعة الحية » قد تلاشت واختفت ؟ لقد قامت مادية المدنية العالمية العظمى وأخذت تنفخ في الرماد فانبعث منه هذا البصيص القريب القصير الأجل ، بصيص قصير لم يمتد به العمر أكثر من جيلين ، لانه انطفأ ثانية في جيل مانيت . (Manet) لقد سبق لي ان وصفت (كما يذكر القارىء) اللون الاخضر النبيل لغرينفالد « وكلود » « وجيورجيوني » بانه اللون الكاثوليكي للفراغ ، ووصفت اللون المتسامي لرمبراندت بانه لون شعور البروتستنت بالعالم . ومن جهة اخرى فان الهواء

الطلق ومقاس لونـــه الجديد يمثلان الزندقة والكفر . فمن اجواء بيتهوفـن وامتدادات « كنت » الكوكبية هبطت الانطباعية ثانية على قشرة الارض . ففراغ هذه الانطباعية مُدرَك معروف وغير مُختبر ، وهو وليـــد البصر لا وليد التأمل، وما فيه فهو «دَوْزنة» (Tunedness) وليس مصيراً، المحسوس به (يعني الحس هنا الشعور - المترجم) عالم الريف الذي يقدمه الينا كوربيت (Courbet) و«مانيت» في صورهما للمناظر الطبيعية. ان نبوءة روسو المأساوية (العودة الى الطبيعة) تحقق ذاتها في هذا الفن المتحشرج ، والشامخ ايضـــاً ، والعائد الى الطبيعة يوماً بعد يوم. ان الفنان الحديث هو عامل (شغيل) وليس مبدعاً . فهو يضع الوان طيف غير متكسرة جنبـــاً الى جنب ، فالمخطوط الرقيق المغامر وتراقص لمسات الريشة ، تتخلى عن مكانهـــا للعاديات الفجة الركيكة السخيفة من مزج وتلطيخ للنقـــاط والمربعات وكتل غير عضوية وعريضة . وتبدو فرشاة التكليس والمسطرين بين ادوات المصور . ويُدخل تبطين القلع الزيتي في حيز التنفيد في بعض الاماكن ويترك في غيرها عارياً . والحق انه لفن غير مأمون الجانب ، فهو شديد التدقيق بارد وعليل ، وهو فن اعصاب بولغ في ارهاقها ، لكنه علمي حتى اقصى درجات العلم ، وحيوي في كل شيء يرتبط بغزو العقبات التقنية واجتياحها. شديد في منهاجه ومؤكد له . وهو كجوّال ساتير (Satyr)في عصر التصوير الزيتي العظيم الذي يمتد من ليوناردو الى رمبراندت ، وهو لا يستطيع ان يجد غير باريس بودلير موطناً له . ان المناظر الطبيعية المفضضة بالوانها الخضراء الرمادية والبنية والتي رسمها «كورو» لا تزال تحلم بالاساتدة القدماء ، لكن «كورو» و «مانيت» يجتاحان الفراغ الجسماني ، الفراغ «الواقعي» . فالمكتشف المتأمل والمـــاثل في شخص ليوناردو يفسح الطريق الى المصور التجريبي . وكورو الطفل الخالد، الفرنسي لا الباريسي ، يجـــد مناظره الطبيعية المتسامية في اي وكل مكان . وكوربي ومانيت وسيزان «Cèzanne» يصورون مرة بعد اخرى بجد وعناء وبـــلا نفس غابة «فونتنيبلو» وضفة نهر السين في «ارجنتويل» «Argenteuil»او ذاك

الوادي العجيب بالقرب من ارليس . (Arles) ان المناظر الطبيعية الجبارة لرامبرندت تقع بصورة رئيسية في الكون، اما تلك التي رسمها «مانيت» فانما تقع بالقرب من محطة للسكة الحديدية . ويحصل مصورو الهواء الطلق ، وهم من سكان المدن العالمية العظمى الاصلاء على عينات من موسيقى الفراغ وذلك من اقل منابع اسبانيا وهولاندا اضطراباً (من فيلاسكيز ، غويا وهوبمن وفرانس هالس) وذلك كي يشرحوها ثانية (بمساعدة مصوري المناظر الطبيعية من الانكليز وفيا بعد من اليابانيين ذوي الحواجب العالية) بمصطلحات تجريبية وعلمية . وهذه هي العلوم الطبيعية تقابلها خبرة الطبيعة ، والرأس يقابله القلب ، والمعرفة في تباينها والايمان . اما في المانيا فلقد كانت الحال على غير ما ذكرت آنفاً . فبينا كانت القضية في فرنسا هي مسألة انتهاء عهود مدارس عظمى، كانت المانيا تسعى لتلحق بالركب. وذلك لانه في الاسلوب التصويري كما مورس ابتداء من رتمان Rottmann وفاسمانوك. د. فريدريك وورنجه حتى ماربي ولايبل ، كان التطور المستمر هو قاعدة كل قاعدة التقنية ، اذ ان حتى اسلوباً جديداً يتطلب تقليداً مغلقاً وراءه . وهنا يكن ضعف وقوة آخر المصورين الالمان . فبينا كان المصورون الفرنسيون يمتلكون تقليداً خاصاً بهم وذلك ابتداء من العهد الباروكي المبكر حتى تشاردين وكورو، وبينا كانت هناك علاقة حية بين كلود لورين وكورو ، روبنز وديلاكروا ، كان جميع المصورين الالمان العظام في القرن الثامن عشر من الموسيقيين . وقد حوّلت ثانية هذه الموسيقى عقب وفاة بيتهوفن، دون ان يطرأ أي تبديل على الجوهر الباطني الى التصوير الزيتي. (وهذه هي احدى شكليات الحركة الرومانتيكية الالمانية) . وقد وجدت الموسيقى في التصوير اطول ايام ربيعها وحملت فيه باكرم ثمارها وذلك لان الصور الشخصية والمناظر الطبيعية التي رسمها هؤلاء الرجال هي صور مخضبة بموسيقى سرية تواقة ، وقد خلف ايشندورف وموريكي نفحة من نفحاتها حتى في صدر توما وبوكلين .

ولكن الاستاذ الاجنبي يُطالب بان يزود المرء بما ينقصه في تقليده الوطني،

ولهذا فان هؤلاء المصورين قـــد قصدوا جميعاً باريس حيث درسوا وقلدوا الاساتذة القدماء ، اساتذة عام ١٦٧٠ . وهـــذا ايضاً ما فعله « مانيت » ودائرته . ولكن كان هناك هذا الفرق التالي : فبينما كان الفرنسيون يجدون في هذه الدراسات تذكارات فقط من شيء ما كان في فنهم لمدة قرون عديدة، كانت انطباعات الالمان عنها طازجة وجد مختلفة عن انطباعات اولئـــك . وقد نشأ عن هذا الواقع ان فنون الشكل الالمانية (ما عدا الموسيقى) كانت في القرن التاسع عشر ظاهرة قد انتهى فصلها وولى زمنها ، ظاهرة متسرعة عجول قلقة مرتبكة حائرة في كل من هدفها ووسائلها ، فلم يكن هناك من وقت يمكن تمديده ، فالالمان يريدون ان يلحقوا بالركب ، فالمستوى الذي استغرق الموسيقى الالمانية او التصوير الفرنسي قروناً كي يبلغـــه ، كان على التصوير الالماني ان يبلغه خلال جيلين . فالفن المتحشرج كان يطالب بآخر مظاهره ، وعلى هذا المظهر ان يبلغ بسبق دواري يقطع كل الماضي . ومن هنا ينشأ عدم ثبات الطبائع الفاوستية الراقية ، كطبائع ماريي وبوكلين ، على كل شيء يتعلق بالشكل ، وهو عـــدم ثبات يستحيل وجوده في الموسيقى الالمانية ، نظراً لما لهذه الموسيقى من تقاليد راسخـــة أكيدة . (ولتفكر ببروكنر) . .

كان فن الانطباعيين الفرنسيين فناً بالغ الوضوح في منهاجه ، وهو لذلك شديد الفقر في نفسه كي يعرضهم الى مأساة كهذه . امـــا الآداب الالمانية فكانت على العكس من ذلك ، إذ انها كانت تمر بالظروف ذاتها التي يمر بهـــا التصوير الزيتي . فابتداء من عصر « غوتيه » أخذ كل انجاز رئيسي على نفسه ان يجد شيئاً ما ، وارغم على ان يستنتج أمراً ما . وكما ان كلايست قـــد أحس في داخله بانه هو شكسبير وستندال معاً ، وبذل عبثاً جهود اليائس في التبديل والبذل والاطراح دون ان يعرف كللاً او مللاً ، كي يصهر قرنين من فن سيكولوجي في وحدة ، وكما ان هيبل حاول ان يعصر كل معضلات هملت ورسمرسهولم « Rosmersholm » في نموذج دراماتيكي واحد ، كذلك ايضاً

سعى « منزل » ولايبل وماريي كي يرغموا النماذج القديمـــة والجديدة (رمبراندات ، كلود ، فان غويين وفاتو ، ديلاكروا كوربيت ، ومانيت) على ان تصبح ذات شكل واحد .

فبينما ان دواخل (Interiors) «منزل» المبكرة قليلاً ، قد توقعت كل اكتشافات مانيت ، ودائرته ، كما وان لايبل لم يكن نجاحه نادراً فيما حاوله كوربيت وفشل فيه ،إلا أن صور هؤلاء تجدد ألوان الاساتذة القدماء الميتافيريقية من بنية وخضراء ،وتعبر بافصح لسان عن خبرة باطنية. «فمنزل» قد اختبر وايقظ ثانية شيئاً ما من الروكوكو البروسي وماريي من روبـــنز ، ولايبل في صورته «السيدة جيدون» شيئاً من التصوير الشخصي لرمبراندت. زد على ذلك أنه كان هناك فن ثان يسير جنباً الى جنب وبني « الاستوديو » للقرن السابع عشر واعني بهذا الفن ،الفن المتزمت في فاوستية الحفر على المعدن. وكان رمبراندت في هذا الفن ، كما هو في الفن الآخر ، اعظم استـــاذ في كل عصر وجيل ، وفي هذا الفن ، كما في الفن الآخر يوجد شيء ما بروتستنتي الذي يصنفه في مرتبة تختلف تماماً عن مرتبة المصورين الكاثوليكيين من اهل الجنوب ، الذين كانوا يستخدمون اللون الأخضر المزرورق في اجوائهم واقمشتهم المزركشة . أمـــا « لايبل » آخر فنان استخدم اللون البني ، فانه كان آخر عظيم في الحفر على المعدن ، وأطباقه تمتلك لا نهائية « رمبراندتية » تحتوي وتكشف عن اسرار لا نهاية لها . وقد تجلى أخيراً في شخص « مانيت »كل القصد الجبار للاسلوب الباروكي العظيم ، ولكن مع أن جيريكو (Géricault) ودومير (Daumier) لم تفتهما الفرصة ليستأسرا بهذا الفن داخل شكل ايجابي ، إلا أن « مانيت : (لافتقاره الى تلك القوة وحدها التي كان يمكن أن تزوده بها التقاليد) عجز عن إرغامه على دخول عالم واقعه المصور .

- ٩ -

مات آخر الفنون الفاوستية مع «تريستان» فهذا الانجاز هو حجر الزاوية

العملاق للموسيقى الغربية . ولم ينجز التصوير شيئاً كهذا كخاتمة له ، بل انما الامر على العكس من ذلك تماماً ، فان اثر «منزل» ومانيت ، ولايبل ، بما لهؤلاء من ضوء طليق وتجديد حياة اساليب الاساتذة العظام ، هو اثر ضعيف.

«ويعاصر» هذه المرحلة ، بما لكلمة المعاصرة من مفهوم لدينا ، خاتمة الفن الابولوني التي نبذت في نحت «بيرغامين» . «بيرغاموم : تقابل بيرويت «Bayreuth» فالهيكل الشهير نفسه ، هو والحق قد بني في فترة متأخرة عن تلك ، ولربما ليس هو اهم انجازات تلك الحقبة ، يعاصر تريستان ، وعلينا هنا أن ندعي بان قرنا (٣٣٠-٢٢٠) من التطور قد فقد في صحارى النسيان . وبالرغم من جميع الاتهامات التي وجهها نيتشه الى فاغنر وبيرويت ، والى «الخاتم» ، وبيرسيفال ، (كالانحطاط والمسرحية وما شابهها) ، الا انه كان بالمستطاع ان توجه الاتهامات ذاتها وبالكلمات ذاتها الى نحت بيرغامين . وقد وصلت الينا قطعة رائعة من هذا النحت (وهي «خاتم» ثمين) من الافريز الجغانتوماشيا (Gigantomachia Frieze) للهيكل العظيم . فهنا نشهد نفس الملاحظة المسرحية ، ونفس استخدام النوازع المقتبسة من الميتالوجي الغابرة المعتبرة كـ « Points d'appui » ونفس قصف الاعصاب الذي لا يرحم ، وايضاً ، (بالرغم من أنه ليس بالامكان إخفاء الافتقار الى القوة الباطنية) نفس القوة الواعية لذاتها وعياً كاملاً ، والعظمة السامقة ، وينتمي أكيداً الى هذا الفن « نور فارنيس » والنموذج الاقدم لمجموعة « لا أكون Laocoon» .

ان عارض الانحطاط في القوة المبدعة ، هو الحقيقة القائلة بان انتاج شيء كامل وتام ، يجعل الفنان يتطلب التحرر من الشكل والتناسب ، وهنا تتبدى ظاهرة تذوق كل ما هو عملاق أمراً شديد الوضوح ، بالرغم من أن هذه الظاهرة ليست باعمق المعاني مغزى. فالحجم هنا ليس كما هو في الاسلوبين من غوطي وأهرامي ، أي انه التعبير عن عظمة باطنية ، بل انما هو تصنع لها نظراً لغيابها . فالاختيال في ابعاد حسنة الظاهر غرارة هو أمر مألوف في كل مدنية وليدة ، ونحن نجده في هيكل زفس في بيرغاموم وفي

«Helios of Chares» المدعو « بعملاق رودس » ، وفي الهندسة المعمارية للعصر الروماني الامبراطوري ، وفي انجازات الامبراطورية الجديدة في مصر ، وفي ناطحات السحاب الاميركية في عصرنا هذا ، ولكن مما هو ذو مغزى أعمق ودلالة ابعد ، هو الاستبداد والتطرف والافراط ، التي تدوس وتقوض تقاليد القرون . ففي بيرويت وبيرغاموم ، كان يجد الناس القاعدة الشخصية الاسمى ورياضيات الشكل المطلقة والمصير الملازم للغة فن عظيم نضجت بهدوء ، أموراً لا تطاق ولا يمكن التسامح بها ، وتوازي الطريق الممتدة من بوليكليتوس الى ليسبوس ، ومن ليسبوس الى نحاتي مجموعة غولز (Gauls) ، الطريق الممتدة من باخ عبر بيتهوفن الى فاغنر . ولقد كان الفنانون المبكرون يشعرون بانهم أساتذة ، أما من جاء بعدهم فكانوا يحسون بانهم عبيد الشكل العظيم . فبينا كان حتى براكستيليسُ و « هايدن » قادرين على التحدث بطلاقة داخل حدود اشد القوانين صرامة ، كان لا يستطيع ليسبوس وبيتهوفن الا ان يجهدا حيال صوتيهما كي يتمكنا من التعبير عنه . فعلامة كل فن حي ، والتناغم النقي بين «أريد» و «يجب» و«أستطيع» ، والهدف الغني عن البيان ، والتنفيذ العفوي ، ووحدة الفن والحضارة ، كل هذه الأمور اصبحت جميعاً في خبر كان . ففي كورو وتيبولو وموزارت وكياروزا لا يزال يوجد نوع من نبوغ حقيقي في لغة الام ، ولكنه بعد هؤلاء تبدأ عملية تشويه هذه اللغة غير انه لا يحس بها اي واحد من الناس وذلك لانه لا يستطيع اي من الناس ان يتحدث بها بطلاقة . ففي سالف الايام كانت الحرية تنطبق على الضرورة ، اما الآن فان ما يفهم فعلاً بالحرية هو اللانضباطية . وكان «الفشل» في عصر رمبراندت ، او «الاخفاق» في عهد «باخ» اللذين نعرف بها في عصرنا وثيق معرفة ، من الامور التي لا يقبلها العقل . فمصير الشكل يكمن في عنصر او مدرسة ، ولا يوجد ابداً في النوازع الشخصية للفرد ، فتحت تأثير سحر تقاليد عظيمة يصبح بامكان الصغار من الفنانين تحقيق انجاز كامل ، وذلك لان الفن الحي يقود الفنان الصغير ليعرفه

بواجبه ، والواجب ليعرفه به . اما اليوم فان هؤلاء الفنانين لا يستطيعون ان ينجزوا ما يتعمدون انجازه، لان العمليات الذهنية هي بديل هزيل للغريزة المدربة التي ماتت وخبت نارها . وجميع فناني هذه الحقبة قد اختبروا هذا الواقع . «فماريي» لم يكن يستطيع انجاز اي من مخططاته العظيمة . ولايبل لم يقدر ان يقنع نفسه بانه قد انجز صورة الاخيرة ، لذلك كان يعمل فيها مرة بعد اخرى حتى بلغ بها حداً امست معه باردة صارمة . ولقد تخلى سيزان ورينوار عن بعض انجازات من ارفع طراز دون ان ينجزاها ، وذلك لأنهما مهما كدحا وجاهدا فانهما لا يستطيعان ان يقوما بالمزيد من الانجاز . ولقد خارت قوى «مانيت» عقب ان صور ثلاثين صورة ، وصورته المعروفة باسم « اطلاق النار على الامبراطور مكسيميليان» هي بالرغم من العناية الشديدة المتجلية في كل جزء من الصورة ، وبالرغم من الدراسات التي اعدها لها ، لم تحقق بالكاد ما حققته صورة «غويا» « اطلاق النار في الثالث من ايار » التي صورها دون ما عناء او جهد والتي هي النموذج الاصلي لتلك . لقد كان بامكان باخ وهايدن وموزارت والآلاف من الموسيقيين المغمورين في القرن الثامن عشر ، ان يخرجوا اكمل الانجازات عملاً وبسرعة فائقة يبدو معها الانجاز كأنه عمل روتيني ، لكن فاغنر كان راسخ القناعة بانه لا يستطيع ان يبلغ الذرى الا اذا ركز كل حيويته على اعتصار آخر قطرة من افضل لحظات التجلي واكرمها .

هناك قربى عميقة بين فاغنر ومانيت ، وهذه القربى ليست واضحة لكل انسان ، لكن بودلير ببداهته التي لا تخطىء استطاع ان يكتشفها فوراً ، وذلك لان الانطباعيين ، وهم نهاية واكتمال فن ، كانوا بمثابة توسل الى عالم في فراغ خال من لمسات اللون وبقعه ، وهذا هو تماماً ما حققه فاغنر بواسطة فواصله (Bars) الموسيقية الثلاث، التي فاضت بالوان منتصف الليل الكوكبي والغيوم المنسابة، والخريف والفجر يتنفس عن خوف وحزن، ولمحات مفاجئة لمسافات يغمرها ضياء الشمس ، والرعب من العالم ، والهلاك المتوعد المهدد ،

واليأس ومجهوده الوحشي ، والامل اليائس ، كل هذه الانطباعات التي لم يفكر احد من المؤلفين الموسيقيين بامكانية تصويرها قبل فاغنر ، استطاع هذا ان يصورها بامتياز وروعة كاملين وببضعة انغام في الموتيف» . وهنا يبلغ التباين بين الموسيقى الغربية والتشكيل الاغريقي اقصى حدوده . فكل شيء هنا يذوب في لا نهائية غير جسمية ، ولم يعد حتى النغم المسطري يصارع ليتقي نفسه من جمهرة اللحن الغامضة ، التي تتحدى بتحويمها الغريب فراغاً خيالياً . فالموتيف يخرج منبعثاً من مهاو مظلمة مرعبة ، ويغمره للحظة بريق شمس وضاءة قاسية ، وفجأة يقترب منا الى درجة ننكمش عنده ونذعر . فهو «اي الموتيف» يضحك ويتملق ويهدد ، ثم سرعان ما يختفي في مملكة الاوتار ، ليعود الينا ثانية منبعثاً من مسافات لا نهاية لها، وهو قد حور ولطف تلطيفاً واهناً ، فيترامى الينا من صوت مزمار منفرد ليسكب نباتات قرنية طازجة من الالوان الروحية . ومهما كان هذا ، فهو لا شك ليس بموسيقى او تصوير زيتي وفق ما لهذين من معنى مرتبط الى الانجاز السابق حسب الاسلوب الصارم . ولقد سئل روسيني مرة : ما رأيك في موسيقى »الهوغونوت» ؟ فأجاب : «موسيقى ؟! لم اسمع باي شيء يشابهها » .

ولا شك ان مثل هذا الحكم قد صدر مراراً في اثينا على التصوير الجديد للمدارس الاسيوية والسيكيونية (Sicyonion) ، كما وان آراء لن تختلف كثيراً عن هذه كانت يجب ان تكون شائعة في طيبة المصرية ، وذلك فيما يتعلق بفن كنوسوس (Cnossus) وتل العمار (Tell - el - Amarna) .

ان كل ما يقوله نيتشه في فاغنر ينطبق ايضاً على ما ثبت . ففنها ، الذي يستهدف في ظاهره العودة الى الابتدائي ، الى الطبيعي ، مع تباين هذين والتصوير التأملي والموسيقى التجريدية ، يدل حقيقة على الاذعان لبربرية المدنية العالمية الكبرى ، وعلى الفساد والتحلل والعفونة الناشئة عن مزج

الوحشية بالثقافة . وبوصف هذا المزيج خطوة ، فانـــه بالضرورة الخطوة الاخيرة . فهو فن اصطناعي ليس امامه اي مستقبل عضوي ، وهو علامة النهاية وطابع الخاتمة .

ولكن الاستنتاج المرير يكمن في ان هذا الفن قد انقضى وانصرم وليس بالامكان ان يعوض وحاله في هذه كحال جميع فنون الشكل في الغرب . فأزمة القرن التاسع عشر هي نزاع الموت ، فالفن الفاوستي كالفن الابولوني والمصري يموت من الشيخوخة بعد ان حقق امكاناته الباطنية واكمل رسالتـه داخل مجرى حضارته .

اما ما يمارس من فن اليوم ، أكان موسيقى ألفت بعد وفاة فاغنر ، او تصويراً جاء في اعقاب سيزان « ولايبل » و « منزل » ، فانمـــا هو انحلال ووهن وبهتان . وليتطلع المرء مفتشاً بناظريه عما يشاء وحيثما يرغب ويختار ، فهل يستطيع مثل هذا المرء ان يجد الشخصيات العظيمة التي بمقدورها ان تبرر الزعم القائل بانه لا يزال هناك فن ذو ضرورة معينة محتومة ؟ وليوجه الانسان ناظريه حيثما يريد ، فهل يستطيع ان يجد الواجب الصريح الغني عن البيان الذي لا يزال يترقب فناناً كهذا لانجازه ؟ اننـا ندخل جميع المعارض ونشاهد جميع معروضاتهـا ، ونستمع الى « الكونسرتات » ونتفرج على كل التمثيليات والاوبرات ، فلا نجد الا الاسكافي المُجيد والغبي الصخاب واضرابهما من الذين يبتهجون اذ ينتجون شيئاً ما للسوق ، شيئاً ما يتذوقه الجمهور الذي لم تعد للفن والموسيقى والدراما منذ زمن طويل اية ضرورة روحية . فعلى اي مستوى من كرامة باطنية وظاهرية يقف اليوم ذاك الذي ندعوه فنـــاً واولئك الذين نطلق عليهم القاب فنانين ؟! اننـا نجد في اجتماع يعقده حملة اسهم اية شركة محدودة ، او هيئـة تقنية لاي مشروع هندسي من الطراز الاول ، قدراً من الذكاء والذوق والخلق والبراعة ، اكبر بكثير مما للموسيقى

والتصوير بكامليها والمعاصرين في اوروبا من صفات كهذه . لقد كانت توجد دائماً بالنسبة الى واحد من الفنانين العظـام ، مئة من الفضلات الذين يمارسون الفن ، ولكن طالما كانت هناك من طاقة لتقاليد عظيمة (ولذلك فن عظيم) يمكن ان تطيق وتحتمل ، كان حتى هؤلاء من فضلات الفنانين ينجزون شيئاً ما ذا قيمة. ونحن نستطيع ان نعذر هؤلاء المئة ونبرر وجودهم ، وذلك لأنهم يشكلون في مجموع التقاليد موطىء قدم للفرد الفنان العظيم . ولكن ما لدينا اليوم فهم هذه الفضلات ، وعشرة آلاف منهم يشتغلون في الفن « من اجل اللقمة » (كأن هذا الواقع يقدم مبرراً !) . ونحن واثقون من امر واحد ثقة راسخة وهو انه باستطاعتنا ان نغلق ابواب كل مدرسة فن دون ان يتأثر الفن بعملنا هذا من بعيد او قريب . ونحن نستطيع ان نتعلم كل شيء نرغب فيه عن صخب الفن وضجيجه اللذين تفتعلهما المدينة العالمية الكبرى كي تنسى ان فنها قد توفي ومات منذ ايام الاسكندريـــة لعام ٢٠٠ . فنحن نجد في الاسكندرية يومذاك مـا نجده اليوم في مدننا العالمية من جري وراء اوهام تقدم فني ، وخاصة شخصية « والاسلوب جديد » « وامكانات لم تـُطرق » وثرثرة نظرية ، وفنانين مكابرين معاصرين ، ورافعي اثقال بمقابضهم الحديدية ، « والرجل الاديب » الذي حل محل الشاعر ، ونكات الانطباعيـــة التي لا تعرف الخجل والتي نظمتها تجارة الفن بوصفها «مظهراً من مظاهر تاريخ الفن» ، اقول نجد كل هذه الاشياء والامور والاشخاص يفكرون ويشعرون ويشكلون فناً صناعياً . ولقد كان للاسكندرية ايضاً فنانيها من كتـــاب مسرحيات المعضلة ، وصناديق البريد ، الذين كانت تفضلهم على سوفوكليس ، وكان لهم مصورون اخترعوا نوازع جديدة تمكنوا بواسطتها ان يخدعوا جمهورهم بنجاح فما هو الذي نمتلكه اليوم كفن ؟ انها موسيقى مزورة كاذبة مليئـة بصخب مصطنع ناجم عن حشد من الآلات الموسيقيـة ، وتصوير مزيف مليء بالآثار

الدخيلة المجنونة التي تخلفها «حيل ورق اللعب» والذي يلفق كل عشر سنوات او ما يقاربها « اسلوباً » جديداً من ثروة الشكل المتراكمة منذ آلاف السنين، وهذا « الاسلوب » هو في واقعه ليس باسلوب ابداً ، لان كل فرد يفعل كما يشاء ويهوى ، انه تشكيل كاذب يسرق من الاشوريين والمصريين والمكسيكيين على حد سواء . ومع ذلك ، فان هذا وهـذا فقط ، ذوق « رجل العالم » الذي يمكن القبول به كتعبير وعلامة للعصر ، اما كل شيء غير هذا ، كل شيء «يتمسك» بالمثل العليا القديمة ، فانما هو مخصص لاستهلاك الريف .

أما التزيين العظيم الذي عرفـه الماضي ، فلقد أصبح لغـة ميتة كالسنسيكريتية أو اللغة اللاتينية الكنسية . وبدلاً من ان يكرموا رمزيتها ويطيعوها تراهم يضعون مياهها وتركاتها من الاشكال الكاملة كيفـما تيسر في البوتقة ويعيدون سبكها في اشكال غير عضوية . ان كل جيل حديث يعتبر التبدل تطوراً ، ويحل انعاش وصهر الاساليب القديمة محل الصيرورة الحقيقية، فلقد كان للاسكندرية أيضاً ممثلوها الهزليون ما قبل عهد رفائيل ، وكان لهؤلاء أوانيهم ومقاعدهم وصورهم ونظرياتهم ، وكان لها رمزيوها ودهريوها وانطباعيوها . وكان الزي المألوف في روما صينياً اغريقياً اسيويا وآناً اغريقياً مصرياً ، وتارة (عقب براكستليس) اتيكياً جديداً . ويبدو التضريس في عهد الاسرة التاسعة عشرة ، (وهي تمثل العصر الحديث في الحضارة المصرية) هذا التضريس الذي يغطي الجدران والتماثيل والاعمدة الجبارة المعدومة المعنى واللاعضوية ، محض فن جاد هازل للمملكة القديمة ، فمعبد حوروس البطلمي (نسبة الى بطلموس) في ادفو هو معبد لا مثيل له في اصطفائيته الفارغـة البلهاء ، لكن طالما لا نزال نحن فقط في مطلع تطورنا الخاص في هذا السبيل فـان ذاك المعبد هو معبد حسن المنظر زاه ومؤكد ، كما هو الآن طراز

شوارعنا واحيائنا . وفي الوقت المناسب تدوي الرغبة في إلتبديل ايضاً . فرمسيس العظيم سرعان ما ادعى لنفسه ملكية مبان شيدها خلفه ، إذ نزع عنها اسماءهم وحفر اسمه عليها . وكان هذا الوعي للضعف والانحلال ، هو الوعي ذاته الذي دفع بقسطنطين منذ زمن طويل ، زمن يعود الى عام مبكر هو فعلاً عام ١٥٠ الى احترام نسخ القطع الاستاذية الرائعة ، ولم يقم بنسخها لان هذه القطع كانت مفهومة ومحترمة على الأقل ، بل انما قام بنسخها لانه لم يكن يوجد فنانون قادرون على انجاز أصول(Originals). وعلينا ان لا ننسى أن هؤلاء النسّاخ كانوا فناني عصرهم ، ولذلك فان انجازاتهم (التي قاموا بها وفق هذا الاسلوب او ذاك ، واستجابة لوحي البرهة) تمثل اقصى ما في قوتهم الابداعية من طاقة .

ان كل تمثال روماني شخصي ، أذكراً يمثل او انثى ، انما يشرب في وضعه وسيمائه من منابع النماذج الهيلينية. وهؤلاء النسّاخ نسخوا بصدق تقريباً ووفق اسلوب جذوع التماثيل على الاقل ، وتركوا للمهرة من العمال ان ينحتوا الرؤوس لتجيء مشابهة واصحابها . فتمثال اوغسطس المدجج بسلاحه ، هذا التمثال المشهور قد استنسخ عن تمثال الرماح (Spearman)لبوليكليتوس. (ولكي نسمي بعضاً من النُذُر بالمرحلة ذاتها في عالمنا الخاص نقول بان لينباخ نقل عن رمبراندت ومكارت Makart عن روبنز) . ومنذ عام ١٥٠٠ (من آمسيس الاول حتى كليوبترا) فان الفن التمصيري(Egypticism) قد كوّم صورة شخصية فوق أخرى وذلك بالطريقة ذاتها .

ونحن نجد بدلاً من التطور الراسخ القدم الذي سار وفقه العصر العظيم للممالك الوسيطة ، الازياء التي تتبدل ارضاءً لذوق هذه الاسرة او تلك . وهناك بين الاكتشافات في طورفان (Turfan) آثار من درامات هندية ، معاصرة لمولد المسيح ، وهده الدرامات تشابه في كل وجوهها الكاليداسا

(Kalidasa) . أما التصوير الصيني كما سبق لنا ان قلنا ، فانـــه لا يُظهر تطوراً بل صعوداً وانخفاضاً في الازياء وذلك لمدة تتجاوز الالف من الاعوام ، وعدم الثبات هذا يجب ان يكون قد بدأ في عهد عائلة « الهان » . أمـــا النتائج النهائية فانما تتمثل في التكرار اللانهائي لمخزون من الاشكال المحددة والتي نراها اليوم في الفن من هندي وصيني وعربي فارسي. فالصور والانسجة وبيوت الشعر والاواني والاثاث والدرامات والمؤلفات الموسيقيـــة هي جميعاً منسوخات (Patternwork) .

ونحن نعجز عن تعيين تاريخ داخل قرن او قرون لاي منها ، ناهيك عن تعيين تاريخ العقود من السنين ، وذلك بواسطة لغتها في التزيين . وعلى هذه الحال هو آخر فصل من كل حضارة .



الفصل التاسع

صورة النفس وشعور الحياة

- ١ -

في شكل النفس

- ا -

إن كل فيلسوف مُعترف به مرغم على الإيمان، دون ما تمحيص وفحص جديين، بوجود شيء ما هو في رأيه قابل للعلاج بواسطة العقل، وذلك لأن كامل الوجود الروحي للفيلسوف يعتمد على إمكانية شيء ما كهذا. لهذا السبب فإن كل منطق أو عالم نفساني، مهما بلغ به الشك، فإن هناك نقطة يقف الشك عندها صامتاً، ويبدأ فيها الإيمان، نقطة تفرض حتى على أشد المفكرين التحليليين وأصدقهم أن يتوقف عن استخدام منهاجه، وأعني بهذه النقطة هي حيث يتعدى التحليل لنفسه ويُجابه بالسؤال عما إذا كانت مشكلته قابلة للحل، وعما إذا كانت حتى موجودة إطلاقاً. إن الفرضية القائلة: «إنه من الممكن أن نقيم بواسطة الفكر اشكال الفكر» لم يشك فيها «كنت» مهما بدت غامضة مريبة للعقل اللافلسفي. زد على ذلك أن الفرضية القائلة أيضاً:

« يوجد نفس تركيبها سهل المنال علمياً ، وان مـا أقرره بواسطة التشريح النقدي لأعمال الوجود الواعي في شكل من العناصر والوظائف والعقد النفسية انما هو نفسي أنا » ، أقول ان هذه الفرضية لم يشك فيها أحد من علماء النفس حتى الآن . ومع هذا وعن هذه الفرضية بالذات يجب أن تنشأ أقوى شكوك العالم النفساني وأشدها . فهل يمكن إطلاقاً للعلم التجريدي أن يعالج القضايا الروحية ؟ وهل ذاك الشيء الذي يجده المرء في دربه مطابق لذاك الشيء الذي يبحث عنه وينشده ؟ ولماذا كانت السيكولوجيا (ولا أعني بها معرفة البشر وخبرة الحياة بل السيكولوجيا العلمية) دائماً أضحل العلوم وأتفهها قيمة وأقلها جدارة بانضباطات الفلسفة ، وميداناً خاوياً الى درجة لم تخفه معها الا العقول العادية والمنهاجيون من عاقر وعقيم ؟ وليس السبب ببعيد عنا انبحث عنه . فهو والحق يمثل في سوء حظ السيكولوجيا التجريبية التي لا تمتلك حتى موضوعاً ، بما لهذه الكلمة من معنى ، في أية وكل تقنية علمية . أما ابحاثها وحلولها فإنما هي بمثابة معارك تخوضها ضد الأشباح والطيوف . ما هي النفس ؟ فإذا كان العقل المجرد يستطيع أن يجيبنا على سؤالنا هذا ، عندئذ يصبح العلم منذ البداية غير ضروري .

لا يستطيع أحد من الالاف من علماء النفس هذا اليوم أن يقدم إلينا تحليلاً أو تعريفاً حقيقياً واقعياً للإرادة أو الندم أو القلق أو الغيرة أو المزاج أو القصد الفني . ولما كان ما هو منهاجي هو وحده الذي يمكن تشريحه ، لذلك فمن البدهي اننا نستطيع فقط ان نعرف التصورات بالتصورات . فليس هناك من مراوغات لعرض فكري ذي مراتب تصورية أو ملاحظات معقولة لترابطات بين أوضاع جسمية حسية وبين « العملية الباطنية » تلامس ما في سؤالنا هنا . ان الإرادة ليست تصوراً ، بل انما هي اسم ، وكلمة أولية ككلمة الله ، واشارة الى شيء ما لنا فيه ثقة فورية لكننا لا نستطيع أن نصفه .

اننا نعالج هنا شيئاً ما لا يطاله ابداً البحث العلمي . وليس من العبث كون كل لغة تعرض علامات مربكة معقدة معجزة ترمز بها الى ما هو روحي ، وبهذا تنذرنا اللغة بأن ما هو روحي ليس سريع التأثر بالمركب النظري (Synthesis)

أو التنظيم المنهاجي . فهنا لا يوجد أي شيء لنا لننظمه . فالمناهج النقـدية (مثلًا : بالمعنى الحرفي العازلة الفاصلة) تطبق فقط على العالم كطبيعة . وإنـه لأسهل علينا بكثير أن نفض موضوعاً لبيتهوفن ببضع أو بجامض كيائي، من أن نفض النفس بواسطة مناهج الفكر التجريدي . فليست لمعرفـــة الانسان ولمعرفـة الطبيعة أية اهداف أو وسائل مشتركة. والانسان البدائي يختبر النفس أولاً في الاشخاص الاخرين ثم في داخله بوصفها Numen [1] (الروح الالهية، أو المترئسة-المترجم) ، وذلك كما يعرف تماماً معنى Numina من العالم الخارجي ، وهو يكون انطباعه في شكل اسطوري (ميثولوجي) . وكلمات الانسان البدائي الاشياء كهذه هي رموز وأصوات لا تصف ما لا يوصف بل انمـــا تخبر عنه بالنسبة اليه الذي له أذنان ليسمع بها . (for him who hath ears to hear) . وهـــذه الكلمات تستدعي صوراً ومشابهات (وفق مفهوم الجزء الثاني من فاوست) هي اللغة الوحيدة للمواصلة الروحية التي اكتشفها الانسان حتىهذا اليوم. فرمبراندت يستطيـع ان يكشف عن شيء من نفسه لأولئك الذين يرتبطون بـه بصلات من قربى باطنية ، وذلك بواسطة صورة ذاتية (Self portrait) أو لوحـــة لمنظر طبيعي ، وبالنسبة الى غوتيه « فان الهاً قد اعطاها لتخبر بمـــا تألم . » فبعض « هيجانات » نفس يمكن ان يبلغ عنها انسان لحساسية انسان آخر بواسطة نظرة، أو بواسطة فاصلتين موسيقيتين أو حركة لا يشعر بهـــا . هذه هي اللغة الحقيقية للنفوس ، وهي تبقى لغة غير مفهومة للا منتمي . فالكلمة تنطق، كعنصر شعري قد تقيم رابطاً ، لكنها كتصور ، كعنصر من نثر علمي فأبداً لن تقيم . ان النفس بالنسبة الى الانسان الذي قـد تقدم من العيش والشعور المجردين الى وضع من التيقظ والمراقبة هي صورة مشتقة من الخبر (جمع خبرة) الاولية تماماً للحياة والموت . وهي قديمة قدم الفكر مثـلًا التفريق الواضـــح بـين التفكير وبين النظر . فنحن نشاهد العالم حولنا ، ولمـا كان يتوجب على كل كائن طليق الحركة

---

١ - سبق لنا ان شرحنا هذه الكلمة .

أن يفهم ذلك العـــالم حباً في أمنه الخاص ، لذلك فان تجميع التفاصيل اليومية للخبرة التقنية والتجريبية يصبح مخزوناً من المعلومات الثابتة التي يجمعها الانسان ، حالما يصبح بارعاً في النطق ، في صورة لما يفهمه . هذا هو العالم كطبيعة . فالذي ليس ببيئة لا نراه بل انما نتكهن بوجوده « داخل ذواتنا وذوات الآخرين ، ونظراً لقوته » السيمائية والانطباعية فانه يستثير فينا (يستدعي الينا) القلق والرغبة في المعرفة ، وبهذا يوقظ الصورة التأملية للعالم المضاد (Counterworld) الذي هو اسلوبنا في جعل ما يبقى غريباً الى الابد عن عين الجسم منظوراً ومرئياً . ان صورة النفس هي صورة خرافية ، وتبقى موضوعية في ميـــدان الدين الروحي وذلك طالما يتأمل المرء في صورة الطبيعة بروح الدين ، وهذه الصورة تحول ذاتها الى تصور علمي وتصبح موضوعية في ميدان النقد العلمي حالمـــا ينظر المرء الى « الطبيعة » نظرة ناقد . وكما ان « الزمان » هو المفهوم المضـاد للفراغ ، كذلك فان « النفس » هي العالم المضاد « للطبيعة » ، ولهذا فهي غير مستقرة في اعتمادهـا على تصور الطبيعة كما هي حال هذه بين لحظة واخرى . لقد سبق لنـا ان شرحنا كيف نشأ الزمان عن الشعور بالصفة الاتجاهية التي تمتلكها حيـــاة دائمة الحركة بوصفها سلبياً تصورياً يقابل حجماً ايجابياً ، وتجسداً لذاك الذي ليس هو امتداداً ، وأن جميع خصائص الزمـــان ، الذي يعتقد الفلاسفة بانهم يستطيعون أن يحلوا معضلته بواسطة التحليل البارد ، هي عكس خصائص الفراغ تماماً . ووفق الاسلوب نفسه تماماً ، نقول بان تصور ما هو روحي قد جاء الى الوجود بوصفه العكس والسالب بالنسبة الى تصور العالم ، للتصور الفراغي للاستقطابية المساندة (« خارجاً » — « باطناً ») وللمصطلحات التي أعيد تقويمها تقويماً مناسباً على أسس جديـدة . ان كل سيكولوجيا هي فيزياء مضادة .

اما أن يحاول المرء أن يحصل على علوم « صحيحة » من نفس دائمـة الغموض ، فانما هي محاولة عاقر عقيم ، ولكن المدنية في مرحلتها المتأخرة زمنا ، يجب أن تحتاج الى التفكير التجريدي . لذلك تراها ترغم « فيزيائي العالم الباطني » على ايضاح العالم الخرافي بالمزيد من الاوهام والخرافـات ، وشرح التصورات بالاكثار منها ،

فهو يبدل اللاممتد الى ممتد ، ويبني منهاجاً لعله لشيء ما يُعرض عرضاً سيمائياً فقط ، ويندفع الى الاعتقاد بأن داخل هذا المنهاج يمثل هيكل « الـ » نفس أمام عينيه . لكن الكلمات التي يختارها بجد ذاتها ، وفي كل الحضارات ، كي يعلم بواسطتها الآخرين باعماله الذهنية الشاقة تخونه وتفضحه ، فهو يتحدث عن الوظائف وعن عقد الشعور والمنابع الرئيسية واعقاب الوعي والمجرى والسعة والكثافة والافراط والتوازي في العمليات الروحية ، وجميع هذه هي كلمات خاصة بصيغة العرض التي يستخدمها العلم ، فالإرادة تنسب الى المواد ، وهي صورة فراغية نقية وبسيطة . أما « الوعي » و « اللاوعي » فهما وبوضوح ليسا سوى مشتقين من « مما فوق الارض » و « مما تحتها » . ونحن نصادف في النظريات الحديثة عن الارادة كل مفردات الديناميكية الكهربائية . ويتحدثون عن وظائف الارادة وعن وظائف الفكر كما يتحدثون تماماً عن وظيفة منهاج قوى . أما إذا ما أردت تحليل الشعور فإن هذا يعني إقامة صورة ظل (سلهوطة) ممثلة له في مكانه ، ومعالجة هذهالصورة علاجاً رياضياً بواسطة التحديد والتقسيم والقياس . إن كل فحص نفساني من هذا الطراز ، مهما كانت دراسة تشريح الدماغ رائعة ، انما هو فحص يتخلله تصور ميكانيكي للمكان ويعمل وهو لايعلم تحت تأثير إهدائيات خيالية في فراغ خيالي . ان العالم النفسي « المجرد » لا يدرك ابداً أنه يقلد الفيزيائي ، ولكن ليس مما يثير الدهشة أبداً أن أسخف مناهج السيكولوجيا التجريبية تعطي بجزن نتائج صحيحة (ارثوذكسية) . فمسالك الدماغ وخيوط المشاركة كصيغ للعرض تنطبق كلية على منهاج بصري (وحجري ، الارادة او الشعوريعالجان معاً اشباحاً فراغية من أصل مشابه) . وليس هناك من فرق ، إذا ما حددت بعض مقدرة نفسية تحديداً إدراكياً ، أو حددت ميدان الدماغ المطابق لها تحديداً بيانياً . (graphically) فلقد خلقت السيكولوجيا العلمية لنفسها منهاجاً كاملًا للصور ، وهي تتحرك وفق هذا المنهاج بقناعة كاملة راسخة . ان نطق كل عالم نفسي يبرهن عند الفحص على مجرد شذوذ هذا المنهاج المنطبق على اسلوب علم العالم الخارجي هذا اليوم .

فالفكر النقي عندما يتحرر من جميع ارتباطاته بالنظر يستلزم لغة حضارة عفواً

له ، وهذه اللغة تبدعها نفس الحضارة بوصفها جزءاً يعضـــد الأجزاء الأخرى من تعبيرها ، وسرعان ما تبدع هذه اللغة ذاتها « طبيعة » من معاني الكلمة ، وكوناً لغوياً حيث تستطيع داخله التصورات التجريدية والاحكام والاستنتاجـــات ، وعروض الرقم والسببية (العليـــة) والحركة ، أن تقرد وجوداً "بت" فيه بتـاً ميكانيكياً . لذلك فإن صورة النفس الشائعة ورمزيتها الباطنية . ان جميع اللغات الغربية الفاوستية تمتلك تصوراً للارادة ، وقد أظهرت هذه الذاتيـــة الاسطورية نفسها في كل اللغات الآنفة الذكر على حد سواء ، وتجلت في تصريف الفعل الذي فرق بصورة حاسمة بين ألسنتنا والألسنة الكلاسيكية ، ولذلك ميز بين نفسنا وبين النفس الكلاسيكية .

وعندما حلت ego habeo factum محل feci نطقت روح جديدة للعـــالم الباطني . وفي الوقت ذاتـــه وتحت شعار معين ظهر في صور النفس العلمية لكل السيكولوجيات الغربية ، مشخص الارادة ، وليد مقدرة حسنة الاكتمال ، مقدرة يمكن أن تحددها مختلف المدارس بشتى الطرق ، لكن وجودها هو فوق كل شك .

— ٢ —

إن السيكولوجيا العلمية (ويمكننا أن نضيف ايضاً السيكولوجيـا من النوع ذاته والتي نمارسها جميعاً عندما ندرس بيننا وبين ذواتنـــا جيشان نفوسنا ونفوس الآخرين) قـــد أضافت نتيجة لعجزها عن اكتشاف ، وحتى الدنو من ، جوهر النفس ، رمزاً آخر أكثر ، وهـذا الرمز يشكل مع غيره من الرموز الكون الكبير (Macrocosm) للانسان الحضاري . والسيكولوجيـــا ، ككل شيء آخر لم يعد له صيرورة بل صيرا ، قد أحلت الميكانيكية محـل التركيب العضوي (Organism) . ونحن نفتقد في صورتها ذاك الذي يملأ شعورنا بالحياة ، (وهذا يجب أن يكون « نفساً » بالتأكيد وذلك إذا كان هناك من شيء) نفتقد صفـة

المصير وتوجيهية الوجود الضرورية والامكانية التي تحققها الحياة في مجراها . وأنا لا اعتقد بأن كلمة مصير تظهر في أي منهاج سيكولوجي ما . ونحن نعرف بأنه لا يوجد هناك من شيء في العالم يمكن أن يكون أبعد عن خبرة الحياة ومعرفة الانسان من منهاج لا يحتوي على عناصر كهذه . فالعلاقات والترابطات الحسية والعطف والنوازع والفكر والشعور والارادة هي جميعاً ميكانيكية ميتة ، وطبوغرافية مجردة يتشكل منها المجموع التافه « علمنا للنفس ». فالواحد تطلع إلى الحياة فوجد نموذجاً تزيينياً من التصورات ، ولكن النفس بقيت كما كانت عليه ، بقيت شيئاً ما لا يمكن ان يبلغه الفكر أو يعرض ، بقيت السر ،الصيرورة الدائمة والخبرة النقية .

إن جسم النفس الخيالي (ولنسمها لاول مرة على هذا الشكل) ليس شيئاً أبداً بل انما هو صورة المرآة تماماً للشكل الذي يتطلع فيه الرجل الحضاري الناضج الى العالم الخارجي. ففي الاول كما في الآخر تحقق خبرة العمق وعالم الامتداد . فالسر الذي تنوه عنه كلمة الجذر الزمان يخلف الفراغ ، أفأن هذا السر منبضاً من الادراك الحسي للعالم الخارجي أو من استيعاب العالم الباطني . إن لصورة النفس كما لصورة العالم عمقها الاتجاهي وافقها ، ومحدوديتها ولا محدوديتها فالعين الباطنية تبصر ، والاذن الباطنية تسمع . ويوجد هنا فكرة جلية لنظام باطني ، وهذا النظام الباطني هو كالنظام الظاهري يحمل شعار الضرورة السببية (العلية).

ولما كان الأمر على هذه الحال ، فان جميع الاشياء التي ذكرتها في هذا المؤلف وذلك فيما يتعلق بظاهرات الحضارات الرفيعة تتحد وتلتئم لتطالب بدراسة لنفس اعمق بكثير من أية دراسة أخرى عرفناها حتى الآن . وذلك لان كل ما يتوجب على عالم النفس المعاصر أن يطلعنا عليه (وأنا لا أشير هنا فقط الى العلم المنهاجي ، بل انما اشير ايضاً بمفهوم اوسع الى المعرفة السيمائية بالانسان) يرتبط بالوضع الحاضر للنفس الغربية ، وليس كما يقال اعتباطاً حتى الآن بالنفس البشرية بمفهومها الاوسع .

إن صورة النفس هي ليست بأي شيء أبداً ، بل إنما هي صورة لنفس واحدة

معينة تماماً . فليس بامكان أي مراقب أن يخطو خارج أوضاع ومحدوديات زمانه ودائرته ، ومهما كان الذي يعرضه أو يدري به ، فإن مجرد المعرفة نفسها تحتوي في كل الأحوال على الاختيار والاتجاه والشكل الباطني ، وهي لذلك منذ البداية تعبير عن نفسه الخاصة . ان الرجل البدائي ذاته يستولي على صورة نفس من حقائق حياته الخاصة كما هي مذعنة للنشاط الاشتقاقي للخبرات الرئيسية للوعي اليقظ (التمييز بين « الأنا » و « العالم » وبين الأنا و tu) ولخبرات الكينونة تلك . (التمييز بين الجسد والنفس ، بين حياة الحس والانعكاس ، حياة الجنس والعاطفة) ولما كان الناس المفكرون هم الذين يفكرون بمواضيع كهذه ، لذلك فإن روحاً باطنية numen (Spirit, Logos, Ka, Ruach تنشأ دائماً كنقيض للباقي. لكن نزعات هذه الروح numen وعلاقاتها في الحالة الافرادية ، والمفهوم الذي يتشكل من العناصر الروحية (مداميك القوى أو الجواهر ، الوحدة أو الاستقطابية أو الوفرة) تطبع المفكر منذ مستهل البداية كجزء من حضارته الخاصة المعنية . فعندما يقنع أحد الناس نفسه بأنه يعرف نفس حضارة غريبة عنه من أعمالها في الواقعة ، فإن صورة النفس التي تكمن وراء معرفته هي صورة نفسه الخاصة. وعلى هذا النمط فإن الخبرات الجديدة يتمثلها المنهاج الموجود ، ولذلك فليس مما يستثير الدهشة إذا ما آمن أحد الناس بأنه قد اكتشف أشكالاً ذات صحة خالدة . والحق أن كل حضارة تمتلك سيكولوجية منهاجية خاصة بها ، كما تمتلك أسلوبها الخاص المعرفة بالناس وللخبرة بالحياة ، وكما أن حتى كل مرحلة منفصلة (عصر الفلسفة الكلامية اللاهوتية ، وعصر السفسطائية وعصر الانبعاث) تشكل افكاراً خاصة عن الرقم والفكر والطبيعة حيث تنطبق عليها وحدها هذه الافكار فقط ، كذلك تماماً فإن حتى كل قرن على حدة يتملى ذاته في مرآة صورة نفسه الخاصة. فأذكى الحكام من رجال الغرب يخطىء حتماً إذا ما حاول أن يفهم الانسان الياباني والعكس بالعكس . زد على ذلك أن خطأ العلاّمة لا يقل عن خطأ ذاك ، عندما يحاول هذا أن يترجم كلمات رئيسية عربية أو يونانية إلى كلمات رئيسية في لغته . فالنفس (يريد أن يقول نفس Nephesh) العربية ليست Animus ،

و « âtmân » ليست Soul – النفس–ونحن ما نكتشفه بصورة دائمة تحت شعارنا « ارادة » لم يجده أبداً الانسان الكلاسيكي داخل صورة نفسه . وإذا ما ربطنا أحد الأشياء بالآخر ، يصبح من غير الممكن أن نشك في الأهمية الهائلة لصور النفس الافرادية التي ظهرت كل واحدة منها على حدة في تاريخ الفكر العام . فالانسان الكلاسيكي الأبولوني الانسان اليوقليدي ذو الكينونة المحدودة ، كان يتطلع الى نفسه بوصفها كوناً منتظماً في مجموعة من أجزاء ممتازة . ولقد سماها افلاطون (. . . . . .) وقارنها بالانسان والحيوان والنبات، وفي مكان آخر قارنها حتى بالانسان من جنوبي وشمالي وهيليني . ان ما يبدو قد نُقل ونُسخ هنا هو الطبيعة ، كما رآها العصر الكلاسيكي بوصفها مجموعة حسنة الانتظام من الأشياء الملموسة ، وذلك في تباينها والفراغ الذي كان يحس بأنه غير موجود وبأنه عدم . فأين توجد الارادة في هذا الميدان ؟ أو فكرة الترابطات الوظائفية ، أو ابداعات سيكولوجيتنا الاخرى ؟ (الاخرى تعود هنا الى ابداعات) . أم أن الارادة مفقودة هنا للسبب ذاته الذي يجعل الفراغ مفقوداً من الرياضيات الكلاسيكية والقوة من الفيزياء الكلاسيكية ؟

ولتأخذ ، عكس هذه ، أية سيكولوجيا غربية تشاء ، انك ستجد دائماً فيها انتظاماً وظائفياً لا جسمانياً . فالشكل الاساسي لكل الانطباعات التي نتلقاها من الباطن هو $y = f(x)$ ، وذلك بسبب أن الوظيفة هي قاعدة عالمنا الخارجي . فالتفكير والشعور والارادة تشكل ثالوثاً لا يستطيع أي عالم نفسي غربي أن يتخطاه مهما بلغت رغبته في تخطيه وتجاوزه ويبدو حتى في مناقشات المفكرين القوطيين التي دارت حول افضلية الارادة أو العقل ، أن القضية هي قضية علاقة بين القوى . ولا يهم ابداً ما اذا كان هؤلاء الفلاسفة القدماء يعرضون نظرياتهم كأصول أم انهم يتلونها عن اوغسطين أو ارسطوطاليس . فالعلاقات والترابطات الحسية وعمليات الاراده ، ولتسم هذه بما تشاء ، والتي هي عناصر صورتنا ، هي جميعاً ودون استثناء من الطراز الوظائفي الرياضي الفيزيائي ، وهي في كل اشكالها جذرية في لا كلاسيكيتها . والآن فان سيكولوجيا كهذه (الكلاسيكية

.. المترجم) لا تختبر النفس اختباراً سيمائياً يعرف بملامحها ، بل جسمانياً ، وذلك بوصف النفس مادة ترغب في تأكيد عناصرها ، ولذلك فمن البدهي تماماً أن نرى السيكولوجيا الكلاسيكية تنحط الى خبل وحيرة عندما تجابه بمشكلة الحركة . لقد كان للانسان الكلاسيكي ايضاً متاعبه الالية [1] (Eleatic) الباطنية ، وان عجز المدرسيين عن الاتفاق عما اذا كانت الاسبقية هي للارادة أم للعقل ينذر بالعيب الخطر في الفيزياء الباروكية ، في عجزها عن الوصول الى اقرار منيع عن كل تحد بالعلاقة القائمة بين القوة والحركة . ان صورتي النفسين الكلاسيكية والهندية تنكران الحيوية الاتجاهية (حيث أن كل شيء في هاتين الصورتين قد بت فيه بتاً جازماً) لكن الصورتين الفاوستية والمصرية تؤكدان وتشددان على مثل هذه الحيوية ، (حيث ان كل شيء فيهما هو مناهج ومركز للقوى) ، ومع ذلك وبسبب ان هذا التأكيد بالذات لا يستطيع الا أن يشتمل على عنصر الزمان ، ولذلك فان الفكر الذي هو غريب عن الزمان يجد نفسه ملتزماً بالتناقض وذاته .

ان صورتي النفس من فاوستية وابولونية هما على طرفي نقيض ، وهنا تطل برأسها جميع التناقضات القديمة من جديد . ففي الصورة الابولونية لدينا كوحدة خيال ما ندعده « بجسم النفس » أما في الفاوستية فلدينا فراغ النفس ،فالجسم يمتلك اعضاء بينها أن الفراغ هو مشهد عملية وتدرج. فالانسان الكلاسيكي يدرك عالمه الباطني ادراكاً تشكيلياً ، وحتى لغة هوميروس تفضح هذه الحقيقة ، وقد تبدو هذه اللغة رجع صدى كما تعتقد ، وتقاليد معبد غارقة في القدم فهو يرينا مثلاً

---

١ - نسبة الى إليا Elea او فليا ، Velia ، وهي مدرسة فلسفية يونانية تأسست في القرن السادس قبل المسيح وكانت تقول بوحدة الكائن وبعدم صحة الحركة .

(المترجم)

الموتى في هيدس Hades [1] نسخاً اصلية عن الاجسام التي كانوها . ان الفلسفة ما قبل سقراط باجزائها الثلاثة الحسنة الانتظام توحي الينا فوراً بجماعة « لا أكون » laocoon . ان الأثر في حالنا هو أثر موسيقي ، « فسوناتا » الحيـــاة الباطنية تتخذ من الارادة موضوعها الأول ،وتتخذ من الفكر والشعور كمبحثين (theme) لموضوعها الثاني ، والحركة محددة بالقواعد الصارمة للكونتروبونتية الروحية ، أما مهمة السيكولوجيا فهي تنحصر في اكتشاف الكونتروبونت . وأبسط العنـاصر تمسي نقائض (Antithesis) كالرقم الكلاسيكي والغربي . فهي في الحالة الأولى احجـــام ، وفي الثانيـــة علاقات روحيـــة ؛ ويقف السكون الروحي للوجود الكلاسيكي والمثل الأعلى الستيريومتري مناهضين لديناميكيـــة النفس للصورة الفاوستية .

ان صورة النفس الأبولونية تفر هاربة حالما تدنو النفس المجوسية . وهـــذه الصورة هي صورة ذاوية حتى في الرواقيين المتأخرين زمنـــاً ، حيث كان معظم الأساتـــذة الرئيسيين من آسيا الارامية ، وقد أصبحت هذه الصورة في عهود الامبراطورية الرومانية المبكرة ، وحتى في آداب المدنية نفسها مجرد ذكرى وتذكار .

ان الطابع المميز لصورة النفس المجوسية هو ثنائية صارمة تتألف من جوهرين غامضين همـا الروح والنفس . وبين هـذين الجوهرين لا يوجد أي من السكون الكلاسيكي أو العلاقة الوظائفية الغربية ، بل انما توجد علاقة مركبة في جزئياتهـا وكلياتها تركيباً مغايراً لتينك ، والتي نضطر نحن هنا لتسميتها « بالمجوسية » وذلك لافتقارنا الى أي اصطلاح آخر بالرغم من اننا قد نستطيع أن نصفها في ابراز التباين بين فيزياء ديموقريطس وفيزياء غليليو وبين الخيمي (Alchemy) حجر الفلاسفة .

---

١ – Hades : هي جهنم عند الاغريق ، وهيدس ايضاً يعرف باسم بلوتو وهو إله العـــالم السفلي .

(المترجم)

وعلى صورة النفس الشرق أوسطية هذه بالذات ، ترتكز ،نتيجة لضرورة باطنيـة ، كل السيكولوجيا وخاصة اللاهوت اللذين يملآن الحضارة العربية في عصر النبع ، عصرها « الغوطي » (من عام ٣٠٠ ب.م) وينتمي انجيل يوحنا والافلاطونيون الجدد والمانيون (نسبة الى مان) ومؤلفات العارفين (Gnostics) والنصوص الدغماتية في التلمود والأفستا Avesta [1] ، أقول تنتمي جميع هذه الى الحضارة العربية في عصرها المبتكر ذاك ، وكذلك ايضاً الروح المتعبـة للامبراطورية الرومانية ، والتي كان يعبر عنهـا فقط بواسطة التـدين الذي كان لا يزال موجوداً في فلسفتها من الشرق الفتي الشاب ، من سوريا وبلاد فارس . وحتى في القرن الأول قبل المسيح ، كان بوسيدونيوس العظيم ، السامي الحقيقي ، والعربي الشاب ، بالرغم من الرداء الكلاسيكي الذي غطى به تعاليمه الرائعة ، يحس باطنـاً بالتعارض الحاد بين الشعور الكلاسيكي بالحيـاة ، وبين تركيب نفسه المجوسي ، التي كانت بالنسبة اليه نفسه الحقيقية . وهذا هو الفرق - الواضح في القيمة بـين جوهر يتخلل الجسد وبين جوهر يهبط من كهف العالم ويحل في الانسانية ، جوهر تجريدي الهي بارىء كل المشتركين في الاتحاد . Consen sus وهـذه « الروح » هي التي تستدعي العالم الأرقى ، وبواسطة خلقها هذا تنتصر على الحياة المجردة ، على « اللحم » والطبيعة . وهـذه هي الصورة الأولية التي تكمن وراء كل احساس « بالأنا » . وهي ترى أحياناً تتقنع بقناع ديني واخرى فلسفي ، وغيرهـا فني . ولنتأمل في الصور الشخصية للعصر القسطنطيني ، وفي حملقاتها الجامدة في اللانهائية ، ان النظرة في أية صورة من تلك الصور . وقـد أحس بهـا بلوطونيوس وأوريجين . وبولس الرسول يميز مثلاً في رسالته أهل كورنيثه وفي الاصحـاح الخامس عشر ، عدد ٤٤ بين

---

١ الكتاب المقدس للزرادشتيين والذي لا يزال حتى الان موجوداً في بلاد فارس .
(المترجم)

ان مفهوم المزدوج (لاحظ قال المزدوج لا الثنائي ـ المترجم) أجسمانياً كان أم روحياً ، مفهوم النشوة الروحية وتقسيم الناس الى أدنى وأرقى ، النفس وعلم الخصائص الميكانيكية للغازات (Pneumatics) كان مفهوماً شائعاً ومألوفاً لدى جماعة العارفين (Gnostics) فالاداب الكلاسيكية المتأخرة زمناً (بلوتارك) مليئة بالسيكولوجيا الثنائية المتألفة من (.. .) والتي تشتق من منابع شرقية . وسرعان ما دفع بهذه السيكولوجيا الى الارتباط بالتباين القائم بين المسيحي وبين الوثني ، بين الروح وبين الطبيعة ، وقد أخرجت في ذلك النهج للتاريخ العـــالمي كدراما للانسان تبدأ بالخليقة وتنتهي بالدينونة الأخيرة (وطبعـاً مع تدخل الله بوصفه وسيلة) وهذه الدراما تشترك فيها جماعة العارفين والمسيحيين والفرس واليهود على حد سواء ، ولم يستطع حتى الآن التغلب عليها .

ان صورة النفس المجوسية هذه قد بلغت اكتمالها العلمي الصارم في مدارس بغداد والبصرة . ولقد قام الفارابي والكندي بمعالجة معضلات هذه السيكولوجيا المجوسة معالجة جذرية ، ودراستها لها دراسات معقدة بالنسبة الينا وغير مفهومة في معظمها . لكن يتوجب علينا ألا نبخس حقها فيما كان لها من أثر على نظرية النفس الغربيـة الفنية والكاملة في تجريديتها . (وذلك بالرغم من اختلافهـا عن شعور الأنا) ولم تستمد الفلسفة من كلامية لاهوتية وصوفية من أشكال هذه السيكولوجيـا ، أقل مما استمده الفن الغوطي من اسبانيا العربية وصقليا . وعلينا ألا ننسى ان الحضارة العربية هي حضارة أديان الرؤى المقررة ، والتي جميعها تتخذ لنفسهـا صورة نفس ثنائية . « والكابالا » والدور الذي لعبه الفلاسفة اليهود فيما يسمى بفلسفة القرون الوسطى (وهى مثلاً الفلسفة العربية المتأخرة زمناً والمتبوعة بالفلسفة الغوطيـــة المبكرة) هو دور معروف معرفة جيـدة . لكنني سأشير هنـا فقط الى سبينوزا الجدير بالاعتبار والذي لا يحبه الناس كثيراً . فهو ابن « للجيتو » (الحي الخـاص باليهود ـ المترجم) وهو مع معاصره الشيرازي آخر من يمثـل النفس المجوسية ، زد على ذلك انه غريب في عالم شكل الشعور الفاوستي . ولمـا كان سبينوزا تلميذاً فطناً رزيناً حكيماً للعصر الباروكي فإنه تدبر أمره ليكسو مناهجه بألوان الفكر

الغربي ، لكنه في أعماقه لا يزال تحت تأثير الثنائية العربية للنفس ذات الجوهرين . وهذا هو السبب الحقيقي الباطني لافتقاره إلى مفهوم القوة لكل من غاليليو وديكارت . فهذا المفهوم هو مركز ثقل الكون الديناميكي ، وهو في واقعه مفهوم غريب عن الشعور المجوسي بالعالم . فليس هناك من رابط بين فكرة حجر الفلاسفة (والتي هي واضحة في لاهوت سبينوزا بوصفها Causa Sui) وبين الضرورة السببية (العلية) لصورتنا للطبيعة ، ولذلك فإن جبريته هي بالتأكيد تلك الجبرية التي قالت بها حكمة بغداد الارثوذكسية ، أي انها - القسمة - . فهناك (بغداد) كان يجب ان يبحث عن موطن المنهاج الأكثر هندسة ، وهذا القول ينطبق على تلمود وأفستازند والكلامية العربية ، لكن ظهور هذا المنهاج في فلسفة الأخلاق لسبينوزا ، يعتبر نزوة مستهجنة ساخرة في فلسفتنا .

ومرة أخرى نقول بأن علينا أن نتوسل الى صورة النفس المجوسية هذه لبرهة أخرى . فالرومانتيكية الالمانية قد وجدت في خيوط فكر الفلاسفة الغوطيين الساحرة والمعقدة ، الافتتان ذاته الذي وجدته في المثل العليا الصليبية للأديرة والقلاع ، وقد وجدت أكثر من الافتتان حتى في الفن والشعر العربيين (وطبعاً دون ان تفهم كثيراً من هذه الأشياء البعيدة عنها) . وقد انغمس شللنغ واوكن « Oken » وبارد وغوريس « Görres » ودوائرهم في تأملات عاقر عقيم في الأسلوب العربي اليهودي ، والذي أحسوا به بغبطة ذاتية واضحة على أنه « مظلم » و « عميق » . (وهم لم يكونوا بالشرقيين ، والأسلوب هو بالتأكيد ليس كما وضعوه بالنسبة الى أهل الشرق) ، ولكن لما كانوا هم أنفسهم يفهمون الشرقيين جزئياً ، لذلك أملوا في أن يجدوا لدى مستمعيهم عدم الفهم المشابه لفهمهم .

أما النقطة الوحيدة الجديرة بالتدوين في هذه المرحلة ، فهي نقطة الافتتان بالغموض . ولهذا فنحن قد نغامر فنستنتج قائلين بأن أصفى ما في الفكر الفاوستي وأقربه الى الفهم (كما هو متيسر لنا مثلاً في المقدمات التمهيدية « لكانت » و « ديكارت ») من الجائز أن يعتبره طالب عربي غامضاً ومبهماً . فالذي هو صحيح بالنسبة الينا هو خطأ في نظرهم والعكس بالعكس . وهذا ينطبق على

صور النفس لشتى الحضارات ، كما هو بالنسبة الى أي نتاج آخر لتفكير هذه الحضارات العلمي .

- ٣ -

ان الفصل بين عناصرها الاساسية (صورة النفس – المترجم) هي المهمة التي تتركها النظرة الغوطية الى العالم وفلسفتها لشجاعة المستقبل . وكما ان تزيين الكاتدرائية والتصوير البدائي المعاصر لا يزالان يتنصلان من البت بين الذهب وبين المحيط الجوي الواسع في مؤخرة الصورة (أي بين النظرة المجوسية في الله وبين النظرة الفاوستية فيه في الطبيعة) كذلك فان صورة النفس المبكرة هذه ، والرعديدة وغير الناضجة ، هي كما تعرض نفسها في هذه الفلسفة ، تمزج بين طبائع مشتقة من الميتافيزيقا المسيحية العربيــة وثنائيتها المؤلفة من الروح والنفس وبين تلميحات شمالية الى قوى النفس الوظائفية التي لم يصرح عنها ويعترف بهــا بعد . وهذا هو التناقض الذي يكمن وراء الخلاف عمــا ذا كانت الاسبقية للارادة أو للعقل ، وهو المعضلة الرئيسية للفلسفة الغوطية والتي حاول الناس ان يحلوهــا آناً وفق المفهوم العربي القديم وحيناً وفق المفهوم الغربي الجديد . إن اسطورة العقل هذه (والتي رافقت وترافق مجرى كامل فلسفتنا تحت أقنعة متغيرة ابداً) هي التي تفرق بين فلسفتنا تفريقاً حاداً شديد الوضوح وبين الفلسفات الاخرى . وجاءت عقلانيــة العهد الباروكي المتأخر زمناً ، بكل ما لهذه العقلانية من كبرياء روح مدنية واثقــة من نفسها ، فقررت أسبقية القوة الاعظم ، أسبقية العقل الإله (« كنت » وجاكوبنز) ، ولكن عقب هذا القرار مباشرة تقريباً ، عاد القرن التاسع عشر (ممثلاً في نيتشه قبل كل الجميع) الى العمل بالقاعدة القائلة « الارادة أسمى من العقل (Voluntar superios intellectu) ، وهــذه القاعدة تسري حقاً في دمائنا جميعاً . وقد صاغ شوبنهاور آخر عظماء المنهاجيين دستوراً « العالم

كإرادة وفكرة » (العـــالم كإرادة وتصور الترجمة الصحيحة - المترجم ») ومذهبه الاخلاقي لا ميتافيزياءه هو الذي يحكم في غير صالح الارادة .

ونحن نبدأ هنـــا برؤية الضوء المباشر والأسس العميقة لمعنى التفلسف داخل احدى الحضارات . فالذي نشاهده هنـا هو النفس الفاوستية التي تكرس جهود قرون لتحاول تصوير صورة ذاتية لها ، وأكثر من هـذه ، صورة ذاتية تتفق اتفاقاً قلبياً مخلصاً وصورتها الخاصة للعالم . ان النظرة الغوطية الى العالم ، بما في هذه النظرة من صراع حول الارادة والعقل ، هي في الواقـع تعبير عن الشعور هوهنشتاوفن ، وللكاتدرائيات العظمى . وقد رأى هؤلاء الناس النفس على هذه الشكل ، لأنهم هم كانوا على هذا الشكل .

إن الارادة والفكر في صورة النفس ينطبقان على الاتجـــاه والامتداد ، على التاريخ والطبيعة ، على المصير والسببية (العلية) في صورة العالم الظاهري . وكلا هـــاتين النظرتين لطبائعنا الرئيسية تظهران في رمزنا الاولي الذي هو الامتداد اللامتناهي . ان الارادة تشد المستقبل الى الحاضر ، أمـــا الفكر فانما يربط اللا محدود بالـ « هنا » . (Here) زد على ذلك ان المستقبل التاريخي هو صيرورة مسافة ، بينما أن أفق العالم الذي لا يحد هو صير مسافة ، هـذا هو معنى خبرة العمق الفاوستية ومغزاها. فهي ترى في الشعور بالاتجاه إرادة، وفي الشعور بالفراغ فكراً » ، وتتخيله ذاتيتين (Entity) وشخصين اسطوريين تقريباً ، ومن هـذين تنشأ الصورة التي يستخلصها بالضرورة علمـــاء سيكولوجيتنا به من الحيـاة البـاطنية .

ونحن اذا ما سمينا الحضارة الفاوستية بحضارة الارادة ، فإن عملنا هذا يكون فقط بمثابة نهج آخر من التعبير عن الفطرة التاريخية السامية لنفس هـذه الحضارة . فاصطلاحنـــا لضمير المتكلم (ego habeo factum) وتركيبنا الديناميكي للكلام ، يعبران بأمانة « عن نهجنا في صنع الأشياء » التي تنشأ عن هـذه الفطرة التي لا تسيطر فقط بمالها من حيوية اتجاهية ايجابية على صورة العالم كتاريخ ، بل انما تسيطر ايضاً على تاريخنا الخاص من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . ان ضمير

المتكلم هذا (I) يحلق عالياً في الهندسة المعمارية الغوطية ، فما هو عسلوجي (حلزوني) في البناء هو I ، والدعامة الطائرة (flying Buttress) هي أيضاً « I » ، لذلك فان كامل الاخلاقية الفاوستية ابتداء من توما الاكويني حتى « كنت » هي اكتمال متسام متفوق لـ « I » .

فهذه الاخلاقية تتركز كلها على العمل الأخـلاقي المهارس على « الأنا » وعلى تبرير « الأنا » بالايمان والعمل ، وعلى احترام الجار « الـ أنت » (Thou) وعلى سرور « الأنا » وأخيراً على الخلود الفائق « للأنا » .

والآن فان هذه « الأنا » هي بالذات التي تعتبرها النفس الروسية مجـداً باطلاً حقيراً خسيساً . فالنفس الروسية مجردة من الارادة ، وهي لما كانت قـد اتخذت من السهول اللا محدودة رمزها الاولي ، لذلك فان كل ما لها من مطلب هو ان تنمو (خادمة مغمورة ومهملة لذاتهـــا) في عالم الاخ للسهول .فاتخاذ « الأنا » كنقطة انطلاق لتنظيم العلاقات بالجار ، وتطوير « الأنا » اخلاقيـاً بواسطة حب « جمع الأنا » (I'S) للقريب والعزيز ، والندم من اجل « الأنا » كل هـــذه الأشيـاء هي في نظر الانسان الروسي دلائل على الغرور الغربي ، وهي جسورة متكبرة عاتية كما هي في تحديها بكاتدرائياتها للسماء ، التي يقارنها الروسي بسطوح كنيسته المستوية وبقبابهـــا الضئيلة المتواضعة . فبطـــل تولستوي نيتشلودف « Nechludov » يعتني « بأناه » الاخلاقية كما يعتني بأظافر أصابعه ، وهـذا هو تماماً مـــا يفضح انتماء تولستوي الى التشكيل الكاذب للبطرسية (نسبة لبطرس الأكبر – المترجم) لكن « راسكولنيكوف » هو مجرد شيء ما في الـ «نحن» . فأخطاؤه هي أخطاء الجميع ، وحتى اعتبار خطيئته خطيئة ذاتية خاصة بـه يعتبر غروراً وخيـلاء . وشيء ما من هذا النوع يكمن وراء صورة النفس المجوسية أيضـــاً . فالمسيح يقول مثلاً في انجيل لوقا ، الاصحـــاح الرابع عشر ، العدد ٢٦ :

« إذا جاءني أحد وهو لا يكره أباه وأمه وزوجته وأولاده وأخوتـه وحتى حياته أيضاً فإنه لا يستطيع أن يكون أحد تلاميذي. »

وهذا الشعور ذاته هو الذي يجعله يلقب نفسه باللقب الذي نسيء ترجمته وأعني به « ابن الانسان » . ان المجمع الأرثوذكسي أيضاً هو مجمع لا شخصي وهو يحكم على « الأنا » بأنها خطيئة . وهذا أيضاً صحيح بالنسبة (للروسي الحقيقي) للحقيقة صحيح بالنسبة الى مفهوم الحقيقة (وهو مفهوم أصيل في روسيته) بوصفها الاتفاق المفضل للمصطفى والمختار .

ان الفرد الكلاسيكي بوصفه فرداً ينتمي بكامله الى الحاضر ، هو أيضاً مجرد من الحيوية الاتجاهية التي تسيطر على صورتنا للعالم والنفس ، هاتين الصورتين اللتين تجمعان داخلها كل انطباعاتنا الحسية كدرب يتجه بنا نحو المسافة ، وتصوغان من خبراتنا الباطنية شعوراً بالمستقبل . لكن الانسان الكلاسيكي معدوم الارادة ، وخير شاهد على ما أقول هو الفكرة الكلاسيكية في المصير والعمود الدوري ، اذ ان هذين يرتفعان بقولي فوق كل شك. لذلك فإن المباراة بين الفكر والارادة التي نشهدها في الموضوع المستتر لكل صورة شخصية جدية ابتداء من جان فان أيك (Jan Van Eyek) وانتهاء بماريه ، هي مباراة يستحيل وجودها في التصوير الشخصي الكلاسيكي ، وذلك لأن ذاتيات لا تاريخية ذات حوافز حيوانية ونباتية ، ذاتيات كاملة في جسمانيتها ومفتقرة افتقاراً تاماً الى الاتجاه الواعي نحو نهاية ما ، هي التي ترافق « زفس الباطني » داخل فكر صورة النفس الكلاسيكية .

ان المضمون الواقعي للمبدأ الفاوستي الذي يتعلق بنا وبنا وحدنا ، هو أمر لا يؤبه له . فالاسم هو بحد ذاته مجرد صوت . والفراغ ايضاً هو كلمة يمكن أن تستعمل في الف حقل ، فيمكن أن يستعملها الرياضيون والفلاسفة والشعراء والمصورون كي يعبروا عن شيء ما هو نفس الشيء الذي لا يعبر عنه أو يوصف ، وهو كلمة تبدو في ظاهرها مألوفة لكامل الجنس البشري ، ومع هذا فإنها تحمل معنى « تحتانيا » (لم يقل خفياً المترجم) متيافيزيقيا نحن اعطيناها أياه ، وهي (أي كلمة الفراغ المترجم) لا تستطيع الا أن تعطيه ، وهذا القول مفهوم صحيح بالنسبة الى حضارتنا فقط . فليس تصور «الارادة » هو الذي يعطي

كلمة الفراغ مغزاها الرمزي الرفيع ، بل إنما ما يعطيها هذا المغزى هو كوننا نمتلك هذه الكلمة بينما كان اليونان يجهلونها جهلًا مطبقاً . ونحن إذا ما غصنا عميقاً في معناها فإننا لا نجد هناك من فرق بين الفراغ كعمق وبين الارادة. ولم تكن اللغات الكلاسيكية تملك أي تعبير عن الفراغ وعن الارادة . فالفراغ المجرد لصورة العالم الفاوستية ليس مجرد امتداد ، بل إنما هو امتداد فعال نافذ الأثر في المسافة ، بوصفه تغلباً على الحسي المجرد وبوصفه اجهاداً ونازعاً ، وإرادة روحية للقوة . إنني أعي وأدرك تماماً مدى النقص في الكلمات التي أطلقتها آنفاً ولكن يستحيل علينا استحالة مطلقة أن نجد المصطلحات الصحيحة التي نستطيع بواسطتها ان نعبر عن الفرق بين ما نفهمه بكلمة الفراغ وبين ما يفهمه الهندي أو ما تفهمه الحضارة العربية وتحس به أو تتصوره في كلمة فراغ. أما أن هناك فرقاً بيننا وبين من ذكرت ، فإن هذا الأمر أكيد ومثبت في الأسس المتباينة بين رياضياتنا ورياضيات كل من ذكرت ، وفي فنون الشكل ، وقبل كل شيء في نطق الحياة الفوري . وسنرى كيف تعبر هوية الفراغ عن نفسها من خلال منجزات كوبرنيكوس و كولومبوس ، (وايضاً بواسطة آل هوهشتاوفن ونابليون) لكن هذه الهوية تكمن ايضاً ، وبطريقة اخرى،وراء التصورات الفيزيائية لمجالات الطاقة والطاقة الكامنة ، وهذه افكار كان من المستحيل التوجه بها الى إدراك الاغريق وعقلهم .

« الفراغ هو شكل البداهة للادراك الحسي . » هذا هو القانون الذي أعلن فيه « كنت » اخيراً عن ذاك الشيء الذي كافحت من أجله الفلسفة الباروكية ذاك الكفاح الشاق الطويل وهو يشتمل على تأييد لسيادة النفس على كل ما هو غريب، « فالأنا » بواسطة الشكل ، هي ان تحكم العالم .

وقد عبر عن هذا من خلال مرئي العمق في التصوير الزيتي ، هذا المرئي الذي يجعل ميدان الفراغ في الصورة ، يفهم على انه لا نهائي ومرتبط بالمشاهد الذي حينما يختار مسافته يؤكد سيطرته . وقوة جذب المسافة هذه ، هي التي تنتج ذاك النوع من المنظر الطبيعي البطولي والمحسوس به تاريخياً والذي نجده في صور العصر

الباروكي وحدائقه العامة ، وقد عبّر عن هذه القوة أيضاً في مفهوم الموجّه (Vector) الرياضي الفيزيائي . ولقد صارع التصوير الزيتي طيلة قرون كي يبلغ هذا الرمز الذي يحتوي على كل ما تعنيه . كلمات فراغ ، (لاحظ كلمات لا كلمة – المترجم) والذي تستطيع الارادة والقوة ان تشير اليه . وفي الوقت ذاته نجد في ميتافيزيائنا النازع الدائم الى الازدواجية في المفاهيم (مثلاً كالظاهرة والاشياء في نفسها ، الارادة والفكرة ، الأنا واللا أنا) وهذه جميعاً تنتمي الى المحتوى الديناميكي النقي ذاته . وهذا النازع يرمي ايضاً الى اقامة اعتماد وظائفي للأشياء على الروح (وفي هذا يتعارض ومفهوم بروتاغوروس في الانسان بوصفه القياس وليس مبدع الاشياء) . لقد كانت الميتافيزيقا الكلاسيكية تعتبر الانسان جسماً بين الاجسام ، وتعتبر المعرفة كنوع من التماس (Contact) تمر من المعروف الى العارف والعكس بالعكس . وكانت نظريات انكساغوراس وديموقريطس البصرية بعيدة عن الاعتراف بالمشاركة الفعالة المدرك في الادراك الحسي . فافلاطون لم يحس ابداً كما ارغم كنت على الاحساس « بالأنا » بوصفها مركزاً لبيئة التأثير المتسامية . فالسجناء في كهفه المشهور هم حقاً سجناء ، وهم العبيد وليسوا السادة بالنسبة الى انطباعاتنا الظاهرية ، وهم يتلقون النور من الشمس المألوفة وليسوا هم بأنفسهم شموساً تنير الكون .

إن العلاقة بين ارادتنا وبين الفراغ هي علاقة واضحة ايضاً في مفهومنا الفيزيائي لطاقة الفراغ ، الذي هو مطلق في الكلاسيكية والذي تبدو فيه حتى الفترة الفراغية كشكل ، وبالفعل كشكل اولي منه وذلك لأن تصورات « القدرة » والتوتر ترتكز على هذه الفترة الفراغية ، صورة العالم الديناميكية لكل من غاليليو ونيوتن ، هما مطابقان في مغزاهما لصورة النفس الديناميكية التي تتخذ من الارادة مركزها للثقل والاستشهاد . وكلا الصورتين (صورة العالم – صورة النفس المترجم) هما فكرتان باروكيتان ورمزان للحضارة الفاوستية التي اكتمل نضوجها .

ومع انه قد يكون من المألوف أن نعتبر مذهب الارادة مذهباً عاماً لا بالنسبة

الى الجنس البشري ، بل على كل حال بالنسبة الى المسيحية ، لكن من الخطأ أن نعتبر هذا المذهب منشقاً ، نتيجة لذلك ، من نفسية الشعب (Ethos) العربيـــة المبكرة . فهذا الارتباط هو مجرد ظاهرة من ظاهرات السطح التاريخي ، واطراح هذه الظاهرة عمل فاشل لأن اطراحها يخلط بين تاريخ الكلمات (السابق)والافكار ككلمة إرادة وبين مجرى مصيرها ، وبذلك يفقد التبديلات الرمزية العميقـــة للفحوى الذي يحدث في ذاك المجرى . فعندما يبحث علماء النفس (مرتضى مثلًا) احتمال وجود عدة « ارادات » ، ارادة ترتبط والعمل معاً ، واخرى تتقدم مستقلة عن العمل ، وغيرها لا تمت بأية صلة اطلاقاً إلى العمل ،وارادة هي فقطعلة المريد ، فعلمـــاء العرب يكونون عندئذ كما هو جلي وواضح ، يبحثون في المغزى الأعمق للكلمة العربية « ارادة » وذلك وفق قواعد صورة نفس تختلف كلية في تركيبها عن الصورة الفاوستية.وذلك لأن عناصر النفس بالنسبة الى كل انسان ، مهما كانت الحضارة التي ينتمي اليها ، هي لواهيت (جمع لاهوت) ميثالوجيا باطنية . فالذي كان « زفس» في نظر الأولمب الظاهري ، كان ايضاً بالنسبة الى العالم الباطني الذي كان كل يوناني يعيه بأنه عالمه ، أي أن «زفس» كان السيد المتوج على عناصر النفس الأخرى . فما هو الله في نظرنا ، الله كسعة العالم وكقوة الكون ، والخالق أبداً والمسعف ؟ انه منعكس من فراغ العالم على الفراغ الخيالي للنفس ، ومحسوس به بالضرورة كحضور واقعي (Presence) أقول انه هو ارادة .

ويرتبط بالضرورة مع ثنائية الكون الأصغر في الحضـــارة المجوسية ، بالروح والنفس ، بالنفس Pneuma والروح المجسمة Psyche التعارض القائم بين الله والشيطان ، بين ارموزد واهريمان بالنسبة للفرس ، بين يهوه وبلعزبوب بالنسبة لليهود والله وابليس بالنسبة الى المحدين ، وزبدة القول التعارض بين الخير المطلق وبين الشر المطلق . ولتلاحظ اكثر من ذلك كيف ان هذين التعارضين يشحب لونها بالنسبة الى الشعور الغربي بالعالم ، وذلك حينما تخرج الارادة من الصراع الدائر بينها وبين العقل ظافرة منتصرة وتصبح مركز التوحيد Monotheism الروحي ، عندئذ يذوي الشيطان ويختفي من العالم الحقيقي . وقد أمست فوراً حلولية Pantheism العـــالم

الظاهري في العصر الباروكي أحد العالمين الباطنيين ايضاً ، فكلمة «الله» هي بوصفها نقيضاً Antithesis «للعالم» كانت دائماً الشكل ذاك (أترجمت على هذا الشكل أو ذاك) تشتمل بدقة على المعنى الذي تشتمل عليه كلمه «ارادة» وذلك فيما يتعلق بالنفس ، مثلاً : إنه القوة التي تحرك كل شيء داخل ميدانها. ولا يكاد الفكر يترك الدين الى العلوم حتى نحصل على الاسطورة المزدوجة للمفاهيم في الفيزياء وعلم النفس. فمفاهيم « الطاقة » و « الكتلة » و «الارادة » والعاطفة لا تذكر على الخبرة الموضوعية بل إنما ترتكز على الشعور بالحياة . والداروينية ليست سوى صياغة ضحلة لهذا الشعور . فلم يكن هناك من أغريقي كان يمكن أن يستخدم كلمة « الطبيعة » كما تستخدمها البيولوجية الغربية ، وذلك بما في هذه الكلمة من دلالة على نشاط منهاجي مطلق . فالاصطلاح القائل « ارادة الله » هو لغو وحشو بالنسبة الينا فالله (أو « الطبيعة » كما يقول البعض) ليس سوى ارادة . ولقد أخذ تصور الله عقب عصر الانبعاث يريق الخبرات الحسية الشخصية القديمة لله ، (فالحاضر في كل مكان ، القادر على كل شيء هما مفهومان رياضيان تقريباً) ويصبح شيئاً فشيئاً تصوراً ينطبق على تصور الفراغ اللانهائي ، وبذلك أمسى تصور الله ارادة العالم المتسامية ، ولهذا أذعن التصوير الزيتي قرابة عام ١٧٠٠ للموسيقى الإدائية التي هي الفن الوحيد القادر في النهاية على التعبير بوضوح عما نحسه عن الله . ولتقارن هذا المفهوم في تعارضه وآلهة هوميروس . «زفس » لا يمتلك أكيداً « السيطرة التامة » على العالم ، بل انما هو جسم بين الأجسام ، (Primus inter Pares) وذلك لأن هذا هو ما يتطلبه الشعور الأبولوني بالعالم. والضرورة العمياء ، أل (Ananke) البارزة في كون الوعي الكلاسيكي ، لا يعتمد على « زفس » اطلاقاً ، بل إنما الأمر على العكس من هذا تماماً ، فالآلهة أنفسهم يخضعون لها ويذعنون . وآشيل يعبر عن هذا الواقع بصراحة في المقطع الرائع من « بروميثوس » « Prometheus » ، كما وان هوميروس يشير اليه بما فيه الكفاية ، مثلاً في جهاد الالهة ، وفي ذاك المقطع الحاسم الذي يصف كيف يأخذ زفس ميزان المصير بين يديه ، لا ليقرر المصير ، بل إنما ليعرف مصير

هكتور. لذلك فان النفس الكلاسيكية بأجزائها وملكاتها ، تتخيل ذاتها « اولمب » يصبح بآلهة صغار ، أما مثلها الأعلى الاخلاقي فانما يتمثل في المحافظة على الوفاق بين هذه الالهة ونشر السلام في ربوعهم . واكثر من واحد من الفلاسفة يفضح عـذه الصـلة بتسميته Nous ، أرقى جزء في النفس ، « زفس » . وارسطو يخص ألوهة زفس بالوظيفة الوحيدة وهي التأمل ، وهذا هو المثل الأعلى لديوجينس ايضـاً ، وهذا يمثل سكونية كاملة النضوج للحياة وذلك في تباينها والديناميكية المماثلة لها في نضوجها ، ديناميكية المثل الأعلى للقرن الثامن عشر .

إن الشيء ما الغامض المبهم في النفس والذي يسمى « بالارادة » التي هي عاطفة البعد الثالث وانفعاله ، هو لهـذا السبب إبداع خاص تماماً من إبداعات العصر الباروكي ، مثله في ذلك مثل مرئي التصوير الزيتي وفكرة الطـاقة في الفيزياء الحديثة وعالم النغم للموسيقى الادائية . وقد كان العصر الغوطي نذيراً بكل مـا دومت به هذه القرون المنجزة الى الاكتمال . ونحن هنـا حينما نحاول ان نستوعب قالب الحياة الفاوستية في تناقضها والحياتات الاخرى ، فان ما علينا ان نعمله هو أن نتمسك بشدة بالحقيقة القـائلة بأن الكلمات الأولية : الارادة ، والفراغ ، والطاقة ، والله التي يحمل بهـا ويتخللها مضمون الشعور الفاوستي هي شعارات ، هي الهيكل الذي يتحمـل عوالم الشكل العظمى والمتقـاربة التي تعبر فيها هذه الكينونة عن نفسها . لقد كان هناك اعتقاد سائد حتى الآن بأن الانسان فيما يتعلق بهذه المواضيع (الارادة الفراغ ، الطاقة ، الله — المترجم) يمسك بقبضته بكتلة من الحقائق الخالدة ، حقائق في ذاتها، حقائق ستعالج بنجاح إن عاجلاً أو آجلاً وتصبح « معروفة » ومبرهنة بواسطة منـاهج البحث النقدي . وقد شاركت السيكولوجيا العلوم الطبيعية أوهامه هذه . لكن النظرة القائلة بأن هذه الأمور الأساسية « ذات صحة كونية » هي نظرة تنتمي فقط الى الأسلوب الباروكي في الفهم والادراك . وهذه الامور بوصفها أشكال تعبير ، هي ذات أهمية انتقالية فقط ، وهي صحيحة بالنسبة إلى الطراز الغربي للعقـل ، لذلك فإن هذه النظرة تبدل كامل معنى تلك العلوم وتجعلنا لا ننظر اليها فقط بوصفها

مواضيـع للمعرفة المنهاجية ، بل انما ، وبدرجة أرفع بكثير،بوصفها ايضاً مواضيع للدراسة السيمائية .

لقد رأينا أن الهندسة المعمارية الباروكية قد بدأت عندمـا استبدل ميكالنجلو عنصري فن المعمار لعصر الانبعاث ، العاضدة والحمل (Support and load) ، بالعنصرين الديناميكيين ، الطاقة والكتلة . فبينما نرى كنيسة «بازي » برونيللتشي (Brunelleschi) في فلورنسا تعبر عن الرصانة ورباطة الجأش ، نرى واجهـة (Vignola) لجيسو (Gesù) في روما إرادة تتجسد حجراً. وقد لقب الاسلوب الجديد بشكله الاكليركي « باليسوعي » والحق ان هناك ارتباطاً باطنياً بين منجزة فيغنولا وبين منجزة جياتشومو ديللا بورتا (Giacomo della Porta) وبين إبداع اغناتيوس ليولا لنظام الرهبنة اليسوعية ، التي تمثل ارادة الكنيسة المجردة التجريدية ، كما وان هناك الارتباط ذاته بين عمليات هذا السلك (اليسوعي) غير المنظورة ومداه اللامحدود وبين فني حساب التفاضل والتكامل والتوجيه .

ولهذا فإن القارىء لن يصدم منذ الان فصاعداً إذا ما تحدثنـا عن الاسلوب الباروكي وعن حتى اليسوعي في السيكولوجيا والرياضيات والفيزياء المجردة. ان لغة الشكل للديناميكية التي تحل التضاد الحيوي للقدرة والطاقة محل التضاد الجسماني العديم الارادة للمادي والشكل ، هي لغة مشتركة بين جميـع إبداعات العقـل في هذه القرون .

- ٤ -

إن السؤال هو الان: الى أي مدى يحقق انسان هذه الحضارة بنفسه ما تتطلبه منه صورة النفس التي ابدعها ؟ فنحن اذا مـا استطعنا ان نقرر بصورة عامة ان موضوع الفيزياء الغربية .و الفراغ الفعال ، فعندئذ نكون فعلاً قـد عرفنا نوع الوجود ،أي محتوى الوجود كمايعيشه الانسان المعاصر. فنحن معشر ذوي الطبائع

الفاوستية قد اعتدنا على أن نشكل انطباعنا عن الفرد وفق مظهره الفعال المؤثر ، لا وفق مظهره التشكيلي السكوني في ميدان خبرة حياتنا . فنحن نقيس ماهية الانسان بنشاطه ، هذا النشاط الذي يمكن أن يوجه الى الباطن أو الظاهر ، ونحن نبني كامل حيثيات حكمنا على كل المقاصد والاسباب والقوى والقناعات على هذه التوجيهية . أما الكلمة التي تلخص هذه النظرة فانها كلمة الخلق . ونحن عادة نتحدث عن «خُلق» الرؤوس وصور المناظر الطبيعية والزينات ولمسات الفرشاة والمخطوطات ، وعن خلق فنون وعصور وحضارات بأكملها . ففن المميزة (characteristic) هو قبل كل شيء الموسيقى الباروكية ، وذلك بالنسبة الى نغمها والتأليف الموسيقي للآلات (Instrumentation) على حد سواء . وهنا تصادف ايضاً كلمة تشير الى شيء ما لا يوصف ، شيء ما يؤكد بصورة خاصة على الحضارة الفاوستية من بين كل الحضارات . ان العلاقة العميقة التي تربط بين كلمة « الخلق » وبين كلمة « الارادة » علاقة بينة واضحة ، فالارادة تحتل في صورة النفس المكانة ذاتها التي يحتلها الخلق في صورة الحياة كما نراها ، والحياة الغربية هي أمر غني عن البيان بالنسبة الى الانسان الغربي . فالفرضية القائلة بأن للانسان خُلقاً هي فرضية أساسية في جميع المناهج الأخلاقية مهما اختلفت هذه المناهج في نواميسها الميتافيزيقية أو العملية . فالخلق الذي يشكل نفسه في تيار العالم (الشخصية ، علاقة الحياة بالعمل) هو انطباع فاوستي عن انسان شكله الانسان . وكما انه بُرهن في صورة العالم الفيزيائية (بالرغم من أشد الاختبارات النظرية تدقيقاً) على استحالة فصل الفكرة التوجيهية (Vectorial) للطاقات ، عن فكرة الحركة (وذلك بسبب الصفة الاتجاهية الملازمة للموجه Vector) كذلك فانه من المستحيل علينا ايضاً أن نفصل فصلاً حاسماً بين الارادة والنفس ، بين الخلق والحياة . فنحن وقد بلغنا ذروة حضارتنا ، وطبعاً منذ القرن السابع عشر ، نشعر بأن كلمة « حياة » هي مرادفة ببساطة وصفاء لكلمة مُريد ، (Willing) زد على ذلك أن تعابير كالقوة الحية ، ارادة الحياة ، الطاقة الفعالة ، هي تعابير وفيرة في آدابنا الاخلاقية ، ومحتواها أمر مُسلم به ، بينما أنه لم يكن بمقدور عصر بركليس

حتى أن يترجمها الى لغته .

ولقد أدى حتى الان الزعم القائل بأن كل اخلاقية هي ذات صحة كونية إلى اخفاء الحقيقة التي تنص على أن كل حضارة تمتلك، بوصفها كائناً متجانساً من مرتبة أرقى ، دستوراً اخلاقياً خاصاً بها . فهناك عدد من الأخلاقيات كعدد الحضارات . ولقد كان نيتشه أول من لمح الى هذا الواقع، لكنه لم يقترب أبداً وفي أي مكان من المورفولوجيا الموضوعية الحقيقية للاخلاق « ما وراء الخير » (كله خير) « وما وراء الشر » (كله شر) ، بل انما قيّم الاخلاقيات من كلاسيكية وهندية ومسيحية وعصر انبعاثية بميزانه الخاص بدلاً من أن يفهم أسلوبها على أنه رمز . ومع ذلك فإذا كان هناك من شيء يمكن له أن يكتشف الظاهرة الأولية للاخلاق على أنها على هذه الشاكلة ، فإن هذا الشيء هو البصيرة التاريخية للانسان الغربي ، ومهما كان الأمر فإنه يبدو لنا أننا قد نضجنا فقط الآن النضوج الكافي الذي يؤهلنا للقيام بدراسة كهذه . ان المفهوم القائل بأن الجنس البشري هو كل فعال مقاتل متقدم متطور (وهذا المفهوم شاع منذ عهد يواكيم أوف فلوريس والعصور الصليبية) قد أمسى بالنسبة الينا فكرة ضرورية الى حد نجد معه انه من الصعب علينا فعلاً أن ندرك ونتحقق من أنه فرضية غربية بنوع خاص ، فرضية قائمة وصحيحة لمدة فصل فقط . (Season) ان روح الجنس البشري الكلاسيكي تبدو ككتلة ساكنة خامدة ، وطبقاً لهذا فإن لهذه الروح أخلاقية مغايرة تماماً يمكننا أن نتعقب آثارها منذ الفجر الهوميروسي حتى عصور الامبراطورية الرومانية . وأكثر من ذلك فإننا سنجد بصورة عامة أن الحيوية الهائلة لشعور الحياة الفاوستية تتناسب الى أقرب حد تقريباً وشعوري الحياتين الصينية والمصرية ، وأن سكونية الشعور الكلاسيكي الصارمة تطابق الشعور الهندي .

إذا كان هناك من شعوب أبقت قانون « الصراع من أجل البقاء » بصورة دائمة أمام أعينها ، فانها لا شك كانت شعوب الحضارة الكلاسيكية . فلقد شنت جميع مدنها من صغيرة وكبيرة حروباً شعواء بعضها ضد بعض ، واسترسلت في حروبها حتى الافناء المحض ، وقامت بهذه الحروب دون ما خطة أو هدف ، ودون ما

رحمة أو شفقة ، فكان سكانها يلتحمون جسداً بجسد ، مدفوعين بغريزة مناهضة كليـــة .

لكن المذهب الاخلاقي الاغريقي بالرغم من هيرقليطس ، كان مذهبــاً بعيداً عن الارتفاع بالصداع الى مرتبة المبدأ الاخلاقي . فالرواقيون والأبيقوريون كانوا يصفون الاستنكاف عنه بأنه مثل أعلى .

ونحن نقترب الى العدالة أكثر بكثير إذا ما قلنا بأن التغلب على المقاومات هو الحافز النموذجي للنفس الغربية . فالحيوية والعزم وضبط النفس هي فرضيـات . فأن تحارب صدر صورة الحياة المريحة وان تقاتل انطباعات البرهـة ، وأن تقاوم ما هو قريب ومحسوس وهين ، وأن تنتصر فتبلغ ما هو ذا عمومية وديمومة، وأن تربط الماضي بالمستقبل ، هذه الأمور كلها هي مجموع كل الملزمات الفاوستية ابتـداء من أبكر العصور الغوطيـة حتى « كنت » وفيختي ، وحتى مـــا وراء هذين الفيلسوفين ببعيد ايضاً ، حتى روحية مجتمع القوة والارادة الهـائلتين التي تعرض نفسها في دولنا ومناهجنا الاقتصادية وتقنياتنا .

ان وجهة النظر الكلاسيكية القائلة بانتهاز الفرص والتمتع بالحاضر والـكائن المشبع هي النقيض كل النقيض لمـــا أحس به « غوتيه » « وكنت » وباسكال والكنيسة والمفكرون الأحرار،بوصف ما أحسوا به هو وحده الذي يمتلك قيمة الصراع الفعال والـكائن المنتصر .

لما كانت جميع اشكال الديناميكية (أتصويرية أو موسيقية أو سيكولوجيـة أو اجتماعية أو سياسية) تهتم بحل وتفسير العلاقات اللانهـائية ولا تعالج الحـــالة الافرادية أو مجموع الحالات الافرادية ، كما فعلت الفيزياء الكلاسيكية ، بل انما تعالج المجرى النموذجي ، أو العملية وقاعدتها الوظائفية ، لذلك يجب أن يُفهم أن الخلق هو ذاك الشيء الذي يبقى من حب المبدأ ثابتاً في حل الحياة وتفسيرها ، وحينما ينعدم ثبات كهذا فعندئذ نتحدث عن « افتقار الى الخلق . » إنـــه الخلق (الشكل الذي بموجبه يستطيع وجود متحرك أن يجمع بين أسمى ثبات في الجوهر وبين أقصى حد من قابلية البذل في التفاصيل) هو الذي يجعل رواية السير الشخصية

أمراً ممكناً (كرواية غوتيه : Wahrheit und Dichtung) فسير الشخصية لبلورتاك الأصيلة في كلاسيكيتها هي عند المقارنة مجرد مجموعة من الحكايات التي نُظمت معاً تنظيماً كرونولوجياً ، وليست بصورة منتظمة من صور التطور التاريخي . ولا أشك في أن هناك من يجادل في كون هذا النوع الثاني من السير الشخصية أمراً يمكن له أن يداعب خيال السبياديس أو بركليس ، أو أي شخص أبولوني أصيل آخر بالنسبة الى هذا الموضوع . فلا تنقص خبرات هؤلاء الكتلة ، بل إنما تنقصها العلاقة ، فهناك شيء ما ذري Atomic حولهم . وبالمثل فإن الفرد اليوناني في ميدان العلم لم ينس فقط أن يبحث في مجموع معلوماته التجريبية عن قوانين عامة ، وذلك لأن مثل هذه القوانين لم تكن موجودة في كونه كي يعثر عليها .

مما ورد يتضح لنا ان علوم دراسة الاخلاق ، لن تستطيع ان تلتقط كثيراً من فضلات الحصاد (تعفر) في الحقل الكلاسيكي وخاصة فيما يتعلق بالأمور السيمائية والغرافولوجية (فن معرفة الأخلاق من خط اليد Graphology المترجم) . ونحن لا نعرف خط يدها ، لكننا نعرف اسلوبها في التزيين ، واذا ما قارنا هذا الاسلوب بالاسلوب الغوطي لوجدناه بسيطاً بساطة لا يصدقها العقل وشديد الوهن في تعبيره عن الخلق (ولنتأمل في التعرجات وبراعم شوك الجمل (اقنتا) التي يعتمدها هذا الاسلوب) . ومن جهة اخرى فانه لم يحدث ابداً أن تجاوز أي اسلوب آخر هذا الاسلوب في اعتداله واستوائيته . ولسنا بحاجة الى القول بأنه اذا ما انتقلنا الى البحث في الشعور الكلاسيكي بالحياة ، فعندئذ سنجد حتماً بعض العناصر الاساسية للقيم الاخلاقية ، تناقض والخلق ، التناقض ذاته القائم بين التمثال و « الفوغيه » ، بين الهندسة اليوقليدية والهندسة التحليلية ، بين الجسم والفراغ . ونحن نجدها في الوضع والإيماءة ، وهذان هما اللذان يزودان علوم دراسة الاخلاق الكلاسيكية بالأسس الضرورية لسكونية روحية . فالكلمة من المفردات الكلاسيكية التي ترادف كلمتنا « الشخصية » . . . . هي « Persona » ، وهذه معناها الدور (Role) أو القناع (Mask) ، ولقد كانت تعني أيضاً في

اللغة اليونانية ، أو الرومانية المتأخرة زمناً النظرة العـامة (العمومية) والسحنة ، وهذان يتساويان في نظر الانسان الكلاسيكي وجوهره ونواتـه . وكان الخطيب يوصف بأنه يتحدث بلسان (Persona) كاهن أو قائد عسكري . (وهو بذلك لا يتحدث بلهجة صادرة عن خلق أو مزاج كما يتوجب علينا أن نقول) .

وكان العبد هو .. ، أي انه ليس له موقف أو كيان في الحياة العـــامة ، ولكنه ليس ... ، وهذا ما معناه أن له نفساً . وكان الرومان عندما يريدون أن يعبروا عن الفكرة القائلة بأن المصير قد أناط بأحد الناس دور الملك أو القـائد العسكري يقولون : (Persona تعني ايضاً قناعاً مسرحياً ـ المؤلف) .

وهذا التعبير يظهر بما فيه الكفاية النظرة الابولونية الى الحيـــاة . فليست الشخصية (Personality) هي ما يشار اليها هنا ، واعني بالشخصية تفتح إمكانات باطنية خلال الجهاد الفعال) بل انما يشار الى اصطناع وقفة (بوز) تلائم ملاءمـة دقيقة ، ولنقل ، مثـلاً للمثل الاعلى التشكيلي للكائن الانساني . ويلعب الجمال في الاخلاقية الكلاسيكية وحدها دوراً هاماً وخطيراً ، حيث يبلغ دائمـــاً مرتبة المجموعة الحسنة الانتظام من الملامح والخلال والميزات المحسوسة الواضحة والمعرّفة للناس الآخرين تعريفاً تبدو معه أنهـــا خاصة بهم اكثر من خصوصيتها بصاحبها (صاحب الملامح والخلال ـ المترجم) . لقد كان موقف الانسان من الحياة الباطنية في نظر الكلاسيكية هو موقف المفعول به وليس موقف الفاعل . ولم يكن الفرد الكلاسيكي يكتسح الحاضر المجرد والبرهة وصدر الصورة بل انمـا كان يفسرها ويحللها ،ولهذا يصبح تصور حياة باطنية في مثل هـذه الأحوال أمراً مستحيلاً . إن مغزى شبه جملة ارسطوطاليس التالية : . (وهـذه جملة لا يمكن ترجمتها ، وهي وان كانت قد ترجمت الى اللغات الغربية ، غير انها ترجمت بروح هذه اللغات) يدل على ان الناس هم عدم إذا ما كانوا وحيدين متوحدين (وهل بعد هـذا القول من أمر منـــاف للعقل كأن يكون هناك روبنصون كروزو اغريقي ؟ !) وعلى انهم يعتبرون فقط شيئاً اذا مـــا اجتمع جمعهم في الاسواق العـــامة (Agora or Forum) ، حيث يعكس كل انسان رفيقه ، وبهـذا العمل وهذا

فقط يكتسب وجود الفرد حقيقة أصيلة . وهـذا كله مضمر في شبه الجملة : ... التي كانوا يسمون بها نواب الاقاليم في المدينة وبهذا نرى أن الصورة الشخصية الباروكية تنطبق على عرض الانسان عرضاً يجعله يمتلك خلقاً ، وأن العرض الاتيكي للانسان ، فيما يتعلق بموقفه كـ (Persona) ، وفي أحسن عصور « أتيكا » ، كان يجنح بالضرورة الى المثل الاعلى لشكل التمثال العاري .

- ٥ -

وقد انتج هذا التعارض اشكالاً من التراجيديا يختلف الواحد منها عن الآخر اختلافاً جذرياً في كل ناحية من نواحيه . والحق انــه ليس هناك ، من أي شيء مشترك بين الدرامـا الخلقية الفاوستية وبين الدراما الابولونية ذات الوضع الفخم سوى الاسم .

وابتداء بـ سنيكا (Seneca) وليس بآشيل وسوفوكليس ، وهذا ذو مغزى كاف (اعتماداً على ان الهندسة المعمارية المعاصرة قد ربطت نفسها بروما الامبراطورية وليس ببستوم) أخذت الدراما الباروكية تجعل بتأكيد متزايد من الخلق بدلاً من الواقعة مركز ثقلها ، أي أصلاً لمنهـاج من احداثيات روحية تعطي الوقائع المسرحية وضعاً رمعنى وقيمة فيما يتعلق بها . وقد أسفر هذا الاتجاه عن تراجيديا ارادية ذات قوى فعالة وذات حركة باطنية لا تحتم الضرورة عرضهـا في شكل منظور ، بينما ان منهاج سوفوكليس كان يستخدم أقل قـدر ممكن من الحدوث ، وكان يضع هذا الحدوث وراء المشاهد وخـاصة بواسطة براعة « الساعي » في صناعته .

ان التراجيديا الكلاسيكية ترتبط بأوضاع عامة وليس بشخصيات خاصـة معينة . وقد وضعها ارسطوطاليس محدداً معناها في الجملة اليونانية التالية : ..... ان ذاك الذي يدعوه ارسطوطاليس في كتابه « Poetica » (هذا الكتاب الذي

هو بالتأكيد أشد كتب شعرنا خطورة) بـ .... ، أي الاحتمال المثالي للفرد الهيليني المثالي ، وفي وضع أليم ، قدراً قليـلاً من المفهوم المشترك وتصورنا للخلق (وأعني بالخلق دستور « الأنا » الذي يفصل في الحوادث) يعادل مـــا للسطح في الهندسة اليوقليدية والمفهوم المسمى باسم مشابه لهذه في نظرية « ريمان » (Riem ann) للمعادلات الجبرية . ولقد كان من سوء حظنا ان ندرج ، لمدة قرون من الزمن ، على عادة ترجمة كلمة ... بكلمة « خلق » بدلاً من أن نفسرها بكلمة دور ، صبر احتمال ، وضع ، (لأن ترجمة تلك الكلمة أمر يكاد يكون مستحيلاً) . إن عطيل (Othello) ودنكيشوت ولا « ميزانتروب » وفيرتر وهيدا غابلر لهي الأخـــلاق (جمع خلق) ، ولذلك فان التراجيدي تتشكل من مجرد وجود الكائنات البشرية ، وذلك فيما يتعلق بكل كائن منهم وبيئته الخاصة . فصراعهم (أكان ضد هذا العالم أو العالم الثاني أو ضد انفسهم) هو صراع مكتوب عليهم ومحتوم نتيجة لأخلاقهم وليس نتيجة لأي سبب يفرض عليهم من خارج ذواتهم ، فهم بمثابة نفس ألقي بها في نسيج من علاقات متضاربة متناقضة لا تسلم بأي انحلال صاف أو ذوبان خالص . أمـا الاشخاص المسرحيون الكلاسيكيون ، فإنهم على العكس من هؤلاء ، فهم مجرد ادوار وليسوا بأخلاق ، فالاشخاص ذاتهم يبدون على المسرح المرة تلو الاخرى : الشيخ ، القاتل ، العاشق ، وجميعهم أجسام بطيئة الحركة تتقنع بأقنعة وتسير على أرجل خشبية (طوالة) . ولذلك فان القنـاع في الدراما الكلاسيكية (وحتى في المرحلة المتأخرة زمناً) عنصر عميق في ضرورتـه الرمزية ، بينما أن مسرحياتنا لا يمكن أن تمثل دون تحريك قسمات الوجـــه وحركات معالمه .

وليس هـذا بجواب في أن تشير الى الحجم الكبير للمسرح الاغريقي ، وذلك لأن حتى الممثل المجهول (حتى تمثال الصورة الشخصية) كان يتقنع بقنـاع ، ولو أنه كانت هنـــاك أية حاجة روحية إلى المزيد من الاستعدال فان الشكل الهندسي كان وشيك الظهور بسرعة كافية .

إن ما يحدث في التراجيدي الخلقية يكون نتاجاً لتطور باطني طويل الأمد ،

ولكن المقدمات السيكولوجية لا تلعب أي دور فيما ينزل بآجاكس وفيلوكتيتس وانتغون والكترا (وذلك في حالة افتراضنا بأن لهؤلاء مثل هذه المقدمـــات) . فالأحداث الحاسمة التي تنزل بهم بوحشية من الخارج كأنها المصادفة ، يمكن أن تنزل بأي إنسان آخر وتكون لهـــا النتائج ذاتها ، وليست هنـاك من ضرورة تستوجب هذا الانسان الآخر أن يكون من الجنس (Sex) نفسه .

ولا يكفي أن نفرق بين التراجيدي الكلاسيكية وبين التراجيدنا الغربيـة بقولنا أن هذه هي دراما الفصل وتلك دراما الحادثة . فالتراجيديا الفاوستية هي بيوغرافية أما الكلاسيكية فهي قصصية ، وهذا ما معناه أن الأولى تعالج مغزى حياة كاملة ، بينما أن الثانية تعالج محتوى برهة واحدة فقط . فمثلاً ما هي العلاقة التي تشد كامل الماضي الباطني لأوديب أور-تيس الى النازلة المدمرة التي تنزل بـه فجأة على طريقه ؟ اذن فهناك نوع من المصير الذي ينقض انقضاضاً أعمى كالصاعقة ، وآخر يجدل نفسه كخيط غير منظور مع مجرى الحياة وهو ذاك الذي يميز هـذه الحياة عن جميع الحياتات الأخرى فليس هناك من أثر مهما صغر شأنه في الوجود الماضي لعطيل (هذه الرواية الرائعة ، وهي قطعة استاذ من التحليل النفسي) الا وله شيء من علاقة بالمأساة . فالكراهية العنصرية وتوحد حديث النعمة بين النبـــلاء ، والبربري بوصفه جندياً وابناً للطبيعة ، ووحشة عازب متقدم في السن ، كل هذه الاشياء لها فحواها ومغزاها .

ولتقارن ايضاً بين خلق الملك لير وهملت وعرض هـــذين الخلقين وبين ما في مسرحيات سوفوكليس من أشخاص وشخصيات . إن هاتين المسرحيتين هما عرضان سيكولوجيان بدءاً ووسطاً وختاماً ، وليست جملة لتفاصيل ومعلومات خارجية . فالعالم النفساني وفق مفهومنا لهذه الكلمة ، أي البحاثة في نقاط الانعطاف الروحي لم يكن معروفاً أبداً للاغريق . (ومثل هذا العالم من الصعب أن نفرق هـــذا اليوم بينه وبين الشاعر) فهم لم يكونوا أكثر تحليلاً في ميدان النفس منهم في ميدان الرقم ، وكيف يمكن ان يكونوا كذلك وتلك هي حـــال النفس الكلاسيكية ؟ فالسيكولوجيا هي الدلالة الخاصة بالاسلوب الغربي لصياغة الناس ،

فهذه الكلمة تسع صورة شخصية صورها رمبراندت كما تسع موسيقى « تريستان » وجوليان سوريل لستندال سعتها « للحياة الجديدة » « لدانتي » ، ولا يوجد لها شبه في أية حضارة أخرى. وإذا كان هناك من أي شيء تطرحه الفنون الكلاسيكية جانباً وبصورة حاسمة فإنما هو هذه الكلمة ، وذلك لأن السيكولوجيا هي الشكل الذي يعالج فيه الفن الانسان بوصفه إرادة متجسدة وليس بوصفه ...

ونحن إذا ما لقبنا بوريبدس بالعالم النفسي فعندئذ نفضح جهالتنا بماهية السيكولوجيا . فلنتأمل في ميتولوجيا الشمال ! فيا لها من فيض من الاخلاق المتجلية في الاقزام المكارة الخبيثة والعمالقة العجر والسعالي المكيدين ، ولنتأمل في « بالدر » ولوكي ! أما زفس وأبولو وبوسيدون وآريس فهم مجرد رجال ، زد على ذلك ان هرمز الشاب وأثينا التي هي أفروديت الأنضج والالهة الصغار لا يمكن أن ُيعرفوا (كما يدل على ذلك الفن التشكيلي المتأخر زمناً) إلا بواسطة اليافطات المحفورة على تماثيلهم . والقول ذاته ينطبق دون تحفظ على ممثلي المسرح الأتيكي . أما لدى فولفرام فون ايشنباخ وسرفنتس وشكسبير وغوتيه ، فإن المأساوي هو فرد، وحياة تتطور من الداخل الى الخارج تطوراً ديناميكياً وظائفياً، ولا يمكن لنا ان نفهم مجاري الحياة إلا بنسبتها الى الأساس التاريخي للقرن. لكن الحياة لدى عظام كتاب التراجيديا في أثينا تنفذ من الخارج ، وهي لذلك سكونية يوقليدية ، ونحن نعود لنذكر الجملة التي سبق لنا ان استخدمناها حين معالجتنا لتاريخ العالم، فنقول بأن الحادثة المدمرة هي حقبية (نسبة الى حقبة) في التراجيدي الفاوستية بينما أنها عارضة عابرة في التراجيديا الكلاسيكية ، وحتى محط الموت في حالة كونه فقط آخر حلقة من سلسلة المصادفات المحضة يلفق وجوداً بالنسبة اليهم

إن التراجيدي الباروكية ليست سوى هذا الخلق التوجيهي ذاته الذي ُدفع به وطور في عالم النور ، وأظهر كمنعطف بدلاً من أن ُيظهر كمعادلة ، وكمسبب للحركة بدلاً من طاقة كامنة . فالانسان المنظور هو الخلق ككامن ، أما الفعل فهو الخلق في حالة العمل .

ان هذا الشيء المردوم تحت طبقات من تذكارات التكلسك وسوء الفهم الذي لا يزال يخفيه هو كامل معنى فكرة مأساتنا المسرحية . فالانسان التراجيدي في المفهوم الكلاسيكي هو جسم يوقليدي ضربه « هايرمين » « Heimarmene » في موضع لم تكن له إرادة في اختياره ولا يستطيع تبديله لكنه يرى في الضوء المسلط على سطوحه من الخارج شيئاً غير قابل للتشويه Quand même . وهذا هو المعنى الكامن وراء كون آغا منون، والذي وفقه أخضعت أوديب للأورا كل Oracle. فالاشخاص البارزون في التاريخ الاغريقي حتى الاسكندر يذهلوننا بعدم مرونتهم، فليس هناك من واحد تصهره معركة الحياة فتحول مجرى حياته وتبدله كأولئك الاشخاص الذين نعرفهم كلوثر وليولا أما ما نميـل نحن الى تسميته بالمميزات والخصائص (ميلاً شديداً) في الدراما الاغريقية ، فانما هو ليس سوى انعكاس الحوادث على البطل وليس ابداً انعكاس الشخصية على الحوادث .

ولذلك فنحن معشر الفاوستيين نفهم بالضرورة العميقة لدراما على أنها الحد الأقصى للنشاط ، ويفهمها الاغريق بالضرورة العميقة أيضاً ، على أنها الحد الأقصى للسكون وللقصور الذاتي . ونحن نقول بصورة عامـة بأنه ليس في التراجيديا الأتيكية أية حادثة إطلاقاً . فالمسرحيات الدينية كانت مجرد . . . ، أي أنها كانت اجراءات طقوسية . ومن شكل المسرحية الدينيـة بما تقتضيه من تجوال اقتبس آشيل (بوصفه أوليسي من اتيكا) [1] الدراما الرفيعة التي أبدعها .

ان ارسطوطاليس يعرّف التراجيدي بأنها محاكاة للحادثة وتقليد لها . وهذا التقليد يعادل « تدنيس » المسرحيات الدينية وينطبق عليه . ونحن نعلم بأن آشيل ذهب بعيداً في اتجاهه هذا إذ أنه جعل من الزمن الكهنوتي لكهنة إليوسيس (Eluesis) الزي الرسمي لممثلي المسرح الاتيكي ، وعلى هذا الاساس استندت التهمة التي وجهت اليه وذلك لأن .... بتحولها من المحدودية الى المرح

---

١ – نوع من الدراما الاغريقية كتبت خصيصاً لتمثل في أعياد الالهين ديمتر وبيرسيفون - المترجم -

والسرور ، لم تتوقف على الاسطورة المرواة ، بل انما على العمل الطقوسي الكامن وراءها ، ولذلك كان المشاهد يفهمها ويحس بها على انها ذات رمزية عميقة . وقد ارتبط بهذا العنصر من عناصر الدين اللاهو ميروسي المبكر عنصر آخر جليف ماجن وهـازل تمثل في مشاهد مهرجانات الربيع للاحتفال بعيد ديمتر وديونيسوس . فالرقصات الوحشيـة والاغنية المرافقة لها كانت جرثومة الجوقة المأساوية التي تضع نفسها أمام الممثل أو « رداد » ثيسبيس Thespis [1] (٥٣٤) .

تزعرعت التراجيدي الاصيلة ونمت من المرثاة. (Threnos Maenia) وأصبحت التمثيلية المرحة في مهرجان ديونسيس (الذي كان ايضاً عيداً من أعيـاد النفس) في وقت ما جوقة من الرجال النادبين ، وفي عام ٤٩٤ أخرج فرينتشوس مسرحية « سقوط « ميليتوس » (Fall of Miletus) (ولم تكن هذه المسرحية دراما تاريخية بل انما كانت مرثاة لنساء ميليتوس) .

وقد فرضت عليه غرامة باهظة نتيجة لعمله هذا ، وذلك لأن مسرحيته تعيـد الى أذهان الناس ذكرى كارثة عامة .

والحق ان إدخـال اشيل للمثل الثاني هو الذي حقق الجوهر في التراجيديا الكلاسيكية ، فالمرثاة بوصفها الموضوع المقرر ، أخضع فيما بعـد للعرض البصري للالام البشرية المبرحة بوصفها دافعاً حاضراً .

أما صدر القصة فليس « عملاً » بل انما هو مناسبة تغتنمها الجوقة لتنطلق بأغانيها التي لا تزال تؤلف الـ .... الأصلية . فليس من المهم أأشير الى الحـادثة رواية أو عرضـاً ، فالمشاهد كان يسيطر عليه مزاج وقور مهيب اذ كان يحس بان كلمات العاطفة الشجية المتألمة (Pathos) انما تعنيه وتعني مصيره . ففي داخله كان يحـدث الـ .... ، أي العنصر الرئيسي في تمثيل الواقعـة التاريخية . ومهما كانت بيئة الاسطورة ورسالتها ، فان المرثاة الدينية لآلام الجنس البشري كانت دائمـاً تحتل

---

١ — Thespis : مؤسس الدراما الاغريقية .

(المترجم)

مركز الثقل في كامل التمثيلية ، كما نرى اكثر من ذلك وخاصة في بروميثيوس وآغامنون والملك اوديب ، ولكن سرعان ما تسامت عظمة الاحتمال البشري فوق المرثاة ، هـذه العظمة المتجلية في موقف الـ ... للبطل . لكن الموضوع لا يدور حول الفاعل ذي الارادة الجياشة التي تصطدم بمقاومة العناصر الغريبة عنها وتتكسر عليها ، أو تجاهد ضد الشياطين داخل صدر البطل ، بل إنما هو يمثل إرادة الصبور الذي يدمر وجوده الجسدي تدميراً اعتباطياً . ان تريلوجي (الرؤية التمثيلية المؤلفة من ثلاثة فصول مستقل كل واحد منها عن الآخر - المترجم) بروميثيوس تبدأ في النقطة التي كان لا شك غوتيه سينطلق منها .

ان جنون الملك لير هو موضوع الفعل التراجيدي ، لكن اجاكس بطل سوفوكليس تضربه الإلهة أثينا بالجنون قبل أن تبدأ الدراما ، وهنا يكمن الفرق بين الخلق وبين الشخص المسيَّر (Operated) .

ان الخوف والرأفة هما حقاً كما يقول ارسطوطاليس يشكلان الأثر الضروري الذي تحدثه التراجيديا الأغريقية في نفس المشاهد الاغريقي (والاغريقي فقط) ، وهذا يتضح فوراً من اختيار المشاهد لأشد المناظر تأثيراً ، وأعني بهذه المناظر ، مناظر حطام النصيب المحزن ومناظر القبول والتسليم ، أما الانطباع الاساسي الذي ينشأ عن النوع الاول من المناظر فهو الرعب ، وتنشأ الرأفة والشفقة عن النوع الثاني . أما الـ .... داخل المشاهد فتستلزم المثل الأعلى لوجوده أن يكون مثلاً أعلى لذاك الـ ....

ان النفس الكلاسيكية هي كائن « حاضر » محض ، و .... محض جـامد مشلول الحركة ومنعزل . أما أن يرى المرء هذا الكائن مهدداً بأخطار غيرة الالهة وحسدهم ، أو أن يشهد المصادفة العمياء تنقض فوق رأسه دون ما سبب أو تحذير أو انذار ، فان مثل هذين الأمرين لهما من أشد الاختبارات خوفاً ورعباً . فجذور الكائن الاغريقي ذاتها يضربها نفس الشيء الذي ينعش الكائن الفاوستي المتحدي ويدفع به الى النشاط الحياتي . ومن ثم أن يجد الكائن الانساني أنه قد أنقذ ونجا ، وان يرى الشمس تشرق ثانية والغيوم الرعدية القاتمة المظلمة تتراكم

وتتدافع مبتعدة في أفق سحيق وان يغتبط بهـــذه اللفتة الكريمة العظيمة اغتباطاً عميقاً ، وان يشهد النفس الاسطورية المعذبة تستعيد انفاسها وتتنفس من جديد ، فان هذه الأشياء كلها هي الـ .... ، لكن هذه تستلزم شعوراً بالحياة غريباً عنا غرابة كلية ، حتى ان الكلمة الاغريقية نفسها التي اوردتها آنفاً ★ هي كلمة من الصعب ترجمتها الى لغاتنا وأحاسيسنا . ولقد اقتضى إقناعنا بأن هذه هي ايضـــاً القاعدة الروحية لمأساتنا المسرحية الخاصة ، ان يستنزف كل من الفن الباروكي وعصر « التكلسك » كل طـــاقات صناعتيها الجماليتين وتأكيدهما المسندين بأشد أنواع الاذعان تواضعاً أمام النصوص الغابرة ، ولا غرو في ذلك ، فان ما تحدثه فعلاً مأساتنا المسرحية من أثر في نفوسنا فانما هو مناقض تمامــاً للأثر الذي أراده هذان . (الباروكي والتكلسك) فمأساتنا المسرحية لا تنقذنا من ضغط الحوادث وثقلها المميت ، بل انما تلسعنا وتستثير فينا العناصر الديناميكية وتحثنا وتنعشنا . فهي توقظ الأحاسيس الأولية لكائن انساني نشيط فعال ، توقظ شراسة التوتر وغبطته ، وتستحث الخطر والفعل العنيف والنصر والجريمة وابتهاج النصر والتدمير ، وزبدة القول توقظ الأحاسيس التي كانت غافية في اعماق كل نفس شمالية منذ أيام الفايكنغز وآل هوهنشتاوفن والصليبيين . هذا هو الأثر الشكسبيري . اما الانسان الاغريقي فلم يكن بمستطاعه أبداً أن يتسامح وشخصيات « كمكبث » أو بصورة عامة ، لم يكن ليستطيع ابداً إدراك مغزى هذا الفن الجبار لعرض السيرة الشخصية .

ومن الواضح ان شخصيات كالملك ريتشارد الثالث ودون جوان وفاوست وميخائيل كول هاس وغولو (وهذه شخصيات غير كلاسيكية من قمة الرأس حتى أخمص القدم) لا توقظ في نفوسنا العطف بل الحسد العميق ، ولا تستثير فينا الرعب بل الرغبة الغامضة في أن نتألم ، ان نشاركها آلامها ، (وهذه هي شفقة من نوع آخر تماماً) وهذا أمر جلي منظور حتى يومنا هذا الذي نرى فيه أن التراجيديا الفاوستية قد بلغت طورها الختامي ونرى التراجيديا الالمانية قد ماتت اخيراً ، ونشهد فيها نازع الآداب في طورنا الاسكندري .

★ اضطررنا لحذف الكلمات اليونانية والاستعاضة عنها بنقاط تشير إلى مكانها لعدم تيسر الحرف اليوناني.

لكن النازع الفاوستي الجموح الى الفتح والاكتشاف لا يزال له حتى الآن بعض من أثر واضح في قصة المغامرة « المثيرة.» وفي القصة البوليسية ، وأكثر من هاتين في الدراما السينمائية (التي تحاكي التمثيل الصامت الكلاسيكي المتأخر زمنياً) .

هناك فروق متناظرة بين النظريتين الأبولونية والفاوستية في أشكال العرض الدرامي الذي تتمه الفكرة الشعرية . فالدراما الكلاسيكية هي قطعة من تشكيل أي مجموعة من المناظر الشجية المدركة كتضاريس، وهي تمثيل واقعة تاريخية ابطالها «قراقوزات» جبارة مفطورة على كراهية السطح المؤكد للجدار الخلفي. فالعرض يقوم على لفتات خلقها الخيال وبالغ فيها، أما وقائع الاسطورة فانما تتلى بوقار اكثر من أن تعرض وتمثل أما تقنية الدراما الغربية فانما تستهدف نقيض ما تستهدفه الكلاسيكية ، فهي تشكل من حركات غير متقطعة ومن اطراح حازم للبرهات السكونية التافهة . ان « الوحدات الثلاث » المشهورة، وحدة المكان ووحدة الزمان ووحدة الحادثة هي ، كما تطورت عفوياً في أثينا (مع أنها لم تضع كقواعد) ، تفسير وايضاح لنموذج من التمثال المرمري الكلاسيكي ، وهي مثله بيان ودلالة عما كان يحس به الانسان الكلاسيكي ، انسان المدنية ، وانسان الحاضر المجرد والإيماءة عن الحياة . وهذه الوحدات هي جميعاً وحدات فعالة السلبية ، وتشكلان انكارين للماضي والمستقبل ، ورفضاً لكل عمل روحي بعيد . ويمكن لنا أن نلخص هذه الوحدات في كلمة واحدة . أما فرضيات هذه « الوحدات » فانها فرضيات يجب أن يُلتبس بينها وبين الفرضيات المشابهة لها شبهاً سطحياً ، فرضيات دراما الشعوب المشتقة لغاتها من اللغة الرومانية . فلقد أخضع المسرح الاسباني نفسه في القرن السادس عشر لسلطة القواعد « الكلاسيكية » ونفوذها ، ولكن من السهل علينا أن نلحظ في هذا نفوذ Noblesse obligée . فالكرامة القشطالية (نسبة الى قشتاله) لبت النداء دون أن تعرف أو بالاحرى دون أن تكلف نفسها بأن تعرف المغزى الأصلي لهذه القواعد . فلقد قام كتاب الدراما العظام من الاسبانيين،وخاصة تيرسودامولينا « Tirso da Molina »

بصياغة « الوحدات » الباروكية ، لكن صياغتهم لها لم تكن بمثابـــة إنكارات ميتافيزيقية ، بل إنما كانت مجرد تعابير روح مجاملة من طراز رفيـع ، وعلى هـذه الشاكلة اقتبس كورنيي التلميذ اللين العريكة « للجرانديزا Grandezza » الاسبانية هذه الوحدات والحق أن هذه الخطوة كانت خطوة خطيرة . فاذا كانت فلورنسا قد القت بنفسها في أحضان تقليد النحت الكلاسيكي ، (هذا النحت الذي كان كل انسان يعمل فيه والذي لم يتوصل أي إنسان الى امتلاك مقياسه الأخير) فان عمل فلورنسا هذا لم ينجم عنه أي من أذى أو ضرر ، لأنه لم يكن هنـاك يومذاك من أي تشكيل شمالي قد يتضرر من جراء عمل فلورنسا . لكن الأمر يختلف في التراجيديا . فهنا كانت توجد إمكانيات لدراما جبارة ، درامـا فاوستية أصيلة ذات أشكال وجرأة لا يدركها الخيال. أما عدم ظهور مثل هذه الدراما ، وعجز كل عظمة شكسبير والدراما التيوتونية عن التحرر الكامل من سحر هـذا العرف الذي أسيء فهمه ، فانما يعود أولاً وأخيراً الى الإيمان الأعمى بـ لطـةأرسطوطاليس وسيادته . وذاك الذي ربما لم تأت به الدراما الباروكية ، ليته بقي تحت تأثـــير الملحمة الفروسية والتمثيلية الغوطية لعيد الفصح والتمثيلية الدينية وذلك في الجوار القريب من الأرانوريو وقصص العاطفةالموسيقية دون أن تترامى الى سمعه أية هتامة من المسرح اليوناني ! فان تراجيديا تنشأ من روح الموسيقى الكونترابونتية ، تراجيديا متحررة من المحدوديات الخاصة بالتشكيل، وشعر درامي يستطيـع ان يتطور ابتداء من اورلاندو ولاسو وبالاسترينا (جنباً الى جنب وهنريخ شوتز وباخ وهندل وغلوك وبيتهوفن ، لكن تطوراً كاملاً في حريته) ليصبح شكلاً نقياً خاصاً به : هذا ما كان ممكناً ، وهـذا هو الذي لم يحدث ، والفضل كل الفضل في كون تصويرنا الزيتي يمتلك حرية باطنيـة يعود أولاً واخيراً الى تلك المصادفة السعيدة التي أتت على فن التصوير الاغريقي على الحائط ولم تبق لنـــا منه أثراً .

- ٦ -

لم تكن الوحدات كافية بالنسبة الى الدراما الاتيكية . لذلك طالبت بأكثر منها ، فاستلزمت القناع الصارم بدلاً من حركات الوجه ، وبذلك حرّمت الوصف الخلقي الروحي بالروح نفسها التي حرمت بها العاطفة الاتيكية تحت تماثيل مشابهة لنماذجها . وطالبت بشخصات أحجامها اكبر من أحجامها الطبيعية ، وحصلت عليها بواسطة تضخيم حذاء الممثل وحشو بزته الى درجة كان يصعب معها عليه ان يتحرك أو يسير ، وبهذا استأصلت الدراما الاتيكية كل ما فيه من فردية ، واخيراً طالبت بالقاء رتيب الترداد للأغاني وقد امنت هذا المطلب بواسطة لسان آلة موسيقية كانت تثبت في القناع .

ان نص التمثيلية العاري كما نقرأه اليوم (دون أن نقرأ بين سطوره الروح الغوطية وشكسبير ورؤيانا الخاصة) هو قليل التعبير عن المغزى الأعمق لهذه الدرامات . لقد ابدعت منجزات الفن الكلاسيكي من اجل العين فقط ، وحتى من أجل العين الجسدية للانسان الكلاسيكي ، ولهذا فان الاسرار تكشف عن نفسها عندما توضع فقط في أشكال حسية . وهنا يُلفت انتباهنا الى أحد مظاهر التراجيدي الاغريقية الذي تجد فيه كل تراجيدي أصيلة في فاوستيتها مظهراً لا يمكن التسامح معه ، واعني بهذا المظهر الوجود الدائم للجوقة على خشبة المسرح . فالجوقة هي التراجيديا البدائية ، لأن الـ ... بدونها يصبح أمراً مستحيلاً . فخلق الانسان هو شيء خاص بالانسان ، لكن للموقف الذي يتخذه الانسان معنى فقط في ارتباطه بالآخرين .

فالجوقة كجمهور (وهذا أمر نموذجي في تعارضه والانسان الوحيد أو

الانسان الباطني ، ويتناقض والمونولوج (المناجاة - مخاطبة المرء لنفسه المترجم) الغربي . أقول ان هـذه الجوقة موجودة على خشبة المسرح بصورة دائمـة ، وهي الشهيد على كل مناجاة (مونولوج) . وهذه الجوقة التي ينتفي الخوف بواسطتها في الحياة ـ المسرح ، كما ينتفي أمام الجمهور من اللامحدود والفراغ في الحياة الحقيقية هي جوقة أصيلة في « ابولونيتها » . فاستعراض المرء لنفسه أمـــام الجمهور ، والندب المتفاخر امام الجموع - بدلاً من الاحزان المتوحدة التي يعانيها المرء في غرفة نومه ، والدموع والمراثي التي تمـــلأ سلسلة كاملة من درامات كفيلو كتيتس وتراشينا (Trachiniae) ، واستحالة كون الانسان وحيداً ، وشعور المدنية ، وكل ما هو أنثوي في هـــذه الحضارة الذي نراه ممجداً ومعبوداً في « بلفيدر ابولو » (Belveder Apollo) أقول ، إن هذه الأمور كلها انما تكشف عن ذاتها وتفضح نفسها في هذا الرمز الذي ترمز اليه الجوقة .

ونحن اذا ما فتشنا عن شبيه لهذا النوع من الدرامات فاننا نجـده في مونولوج شكسبير المنفرد ونحس في المحادثات وحتى في مناظر المجموعة من الناس بالبعـد الشاسع الذي يفصل بين الاشخاص ، حيث نشعر بأن كل شخص منهم يتحدث في اعماقه الى نفسه فقط ، وليس هناك من شيء يستطيـع أن يتغلب على هـــذا النأي والبعد اللذين نشعر بهـــما في هملت كما في « تاسو » وفي دنكيشوت كما في فيرتر ، ونحس حتى بأن برسيفال لإيشنباخ مليء بهما ومطبوع بمفهوم اللانهاية . وهذا الفرق قائم بين كل الشعر الغربي والشعر الكلاسيكي . فكل شعرنا الغنائي ابتداء من « فالتر فون دى فوجل فايدي » (Walther Von der Vogelweide) حتى غوتيه وحتى قصائد مدننا العالمية المتحشرجة ، هو مونولوج ، بينما ان الشعر الغنائي الكلاسيكي هو شعر غنائي جوقي ، وغناء ينشد امام المتفرجين . فالشعر الغنائي الغربي يتلقاه الانسان تلقياً باطنياً كأنه يتلقى موسيقى معدومة الصوت ، بينما ان الكلاسيكي يتلى امـام الجمهور ، فالأول ينتمي الى الغرفة الهادئة وينشر بواسطة الكتاب ، أما الثاني فانما هو وقف على المكان الذي يجهر به فيه .

وهكذا ، ومع ان التمثيليات الدينية « اليوسية » والمهرجـانات « التراقية »

اعياد ظهور (epiphany) ديونيزوس كانت مهرجانات ليلية ، فإن فن تيسبس (Thespis) تطور وفق مـــا اقتضته طبيعته الباطنية بوصفه مشهداً للصباح ولضوء الشمس ، لكن تمثيلياتنا الغربية الشعبية العـــاطفية هي على العكس من التمثيليات الكلاسيكية الدينية ، وقد نشأت تمثيلياتنا في الاساس في التــــلاوة الدينية للاجزاء الموزعة وكان الكهنة اول من اخرجها في الكنيسة ، ثم قام بعدهم الرجال العاديون باخراجها في الاحياء العامة وفي صباحات المهرجانات الرفيعة وقد أدت هذه التمثيليات دون أن يلحظها احـد الى فن مساء وليل . وكانت المشاهد التمثيلية تحدث في عصر شكسبير في وقت الأصيل المتأخر ، وقــــد بلغ المغزى الصوفي لهذا الارتباط بين الانجــــاز الفني وغروب الضوء هدفه على يد غوتيه وهناك ، بصورة عامة ، لكل فن وحضارة اوقاتها الهامة في النهار. فموسيقى القرن الثامن عشر هي موسيقى الظلام والعين الباطنية ، أما فن تشكيل اثينا فهو فن النهار الذي صفا جلده من الغيوم .

ونحن نستطيـع أن نتبين أن هذا التضاد ليس بتضاد سطحي حين مقارنتنا بين التشكيل الغوطي المغلف أبداً بالضوء الديني المغبش وبين النـاي الايونية التي هي الآلة الموسيقية لوقت الظهيرة . ان الشمعة تؤكد الفراغ بينما أن ضوء الشمس ينفيه بوصفه مضاداً للاشياء . ففي الليل ينتصر كون الفراغ على المادة ، أمـا في النهـــار فان الاشياء والقرب تؤكد نفسها وينبذ الفراغ ويُرفض . ويبدو هذا التعارض نفسه ايضاً في التباين القائم بين التصور الاتيكي على الحائط وبين التصوير الزيتي الشمالي ، وفي رموز هليوس (Helios) وبان (Pan) ، ورموز الليــــلة المرصعة بالنجوم وغياب الشمس الأحمر. ففي منتصف الضياء ، وخاصة خلال الليالي الاثني عشرة الطوال التي تعقب عيـد الميلاد تخطو نفوس موتانا خارج الحدود . أما في العالم الكلاسيكي فان النفوس تنتمي الى النهار ، وحتى الكنيسة المبكرة زمناً كانت لا تزال تتحدث عن الـ .... ، أي النهارات الاثني عشر المكرسة ، ولكن هـــذه النهارات أصبحت مع يقظة النفس الفاوستية « ليـــالي » اثنتي عشرة .

ان التصوير الكلاسيكي على الاواني والحـــائط لا يشير الى أي وقت من اوقات النهار ، (مع أن هذه الحقيقة لم يلحظها احد حتى الآن .) فليس في هذا التصوير ظل يشير الى وضع الشمس ، ولا سماء تظهر النجوم وتبديها ، وليس هناك من صباح أو مساء ، من ربيـع أو خريف، بل انما كل ما في هذا التصوير هو مجرد تألق معدوم الزمان . ولقـد تطور تصويرنا الزيتي ، ولأسباب متساوية وتلك في وضوحها ، في اتجاه معاكس لذاك الاتجاه ، واندفع نحو ظلام تخيلي ، وكان كالتصوير الكلاسيكي مستقلاً ايضـاً عن اوقات النهار ، وهذا ممـا يشكل الجو المميز والخاص لفراغ النفس الفاوستية . وإنه لأهم مغزى كأن تتعمد منذ البداية أن تعالج ميدان الصورة استناداً الى وقت معين من النهار أي تاريخياً . فهنـاك صباحات مبكرة ، وغيوم غروب ، وهناك ايضاً آخر ومضـات تتبدى على خط الأفق لجبال نائية ، وهناك الغرفة التي ينيرها ضوء الشمعة ومروج الربيع وغابات الخريف ، وظلال الادغال والاخاديد من طويلة وقصيرة ، لكن هذه جميعـــاً تتخللها من اولهـــا الى آخرها ظلماء قاهرة ناجمة عن حركة الاجرام السماوية . والحق ان التألق الدائم والغبشة الدائمة هما طابعه ما هو كلاسيكي ومـا هو غربي وذلك في الدراما والتصوير الزيتي على حد سواء ، لهذا ألا يجوز لنا ان نصف الهندسة اليوقليدية بانها رياضيات النهار ، وأن ننعت الهندسة التحليلية برياضيات الليـل ؟

لقد كان الاغريق يعتبرون تبديل المنظر نوعاً من التدنيس ، بينما انـه بالنسبة الينا ضرورة دينية وفرضية لشعورنا بالعالم فهناك شيء ما يبدو وثنياً في المنظر المحدد الثابت لتاسو . ونحن نحتـــاج الى مسرح ينفض عنه المحدوديات الحسية ويجتذب العـــالم بأكمله الى داخله . وقد بلغت اللانهائية الدرامية ، والتطويع الشجي بكل المحدوديات السكونية الذروة في شكسبير الذي ولد حيـــنما توفي ميكالنجلو وتوقف عن الكتابة عندما جاء رمبراندت الى العالم . فغابات شكسبير وبحوره وحدائقه وميادين معاركه تقع جميعـاً في البعيد اللا محدود . فالسنين تمر سريعـاً في فراغ الدقائق ، والملك لير المجنون الذي يتوزع شخصيته غبي ومنبوذ

متهور وهو يجلس على المرج في ليل داج عاصف، و « أناه » التي لا يوصف توحدها، في هذه الأمور كلها يتجلى شعور الحياة الفاوستية . ولا تفصل سوى خطوة واحدة بين منظر كهذا وبين المناظر الطبيعية ، التي تُرى ويحس بها باطنياً ، واعني مناظر موسيقى مدينة البندقية المعاصرة تقريباً لشكسبير ، وذلك لأنه كان يلمّح على المسرح الاليصاباتي الى كامل الشيء تلميحاً ، لهذا كانت العين الباطنية تصوغ لنفسها من تلميحات قليلة صورة للعالم حيث تعرض فيه المناظر ، (التي وجدت بعيداً) نفسها على المشاهد .

أما المسرح الاغريقي فانه لم يكن بامكانه ابداً ان يعالج مناظر كهذه . فالمنظر الاغريقي ليس أبداً صورة لمنظر طبيعي، وهو بصورة عامة لا شيء ، واذا ما أردنا ان نصفه فاننا نقول في أحسن الاحوال بأنه قاعدة لتمثال قابل للحركة . فالمشخصات في نظر الاغريق كانت كل شيء في الدراما كما هي في التصوير على الحائط . وهناك قول يقال احياناً بأن الانسان الكلاسيكي يفتقر الى الاحساس بالطبيعة .

ولا شك أن الفرد الكلاسيكي لا يحس بالطبيعة الفاوستية ، طبيعة الفراغ والمنظر الطبيعي . فطبيعته كانت الجسم ، ونحن اذا ما تركنا لعاطفة الجسد ان تغوص فينا عميقاً ، فعندئذ نعي فجأة العين التي قد يتابع بها الانسان الاغريقي تضريس الفصل المتحرك للجسم العاري ، فهذا ، وليست الغيوم والنجوم والأفق ، هو الذي كان « طبيعته الحية » .

-٧-

والآن ، فإن كل ما هو قريب حساً هو قابل لان يفهم من الجميع ، ولذلك فإن الحضارة الكلاسيكية هي أوسع الحضارات شعبية، بينما ان الحضارة الفاوستية في تعابيرها عن شعورها بالحياة هي أضيق الحضارات شعبية . ان الإبداع يكون

« شعبياً » عندما يعطي نفسه بكل اسرارها الى أول قادم عليه ، ومن أول لمحة ، ومثل هذا الابداع يشتمل ظاهره وسطحه على مغزاه .

إن العنصر « الشعبي » (Popular) في أية حضـارة كانت ، هو ذاك العنصر الذي تحدر إلينا ، دون أن يتبدل ، من أوضاع وتخيلات بدائيـــة ، وهو الذي يفهمه المرء منذ طفولته دون أن يضطر ليبذل أي جهد كي يتمكن من أي منهاج أو نظرة جديدة،وهو بصورة عامةالعنصر الصريح الفوري فيوضوحه للأحاسيس، وذلك في تباينه وذاك العنصر الذي يُلمح اليه تلميحاً والذي يتوجب أن يكتشف من قبل أناس قلائل وأحياناً من قبل قلة القلة من الناس . وهناك افكار ومنجزات وأناس ومناظر طبيعية ذات شعبية واسعة . فلكل حضارة خُلقها الخاص المعين من خفي باطني وشعبي جماهيري ، وهذا الخلق ملازم لكل أعمالها طالما أن لهذه الأعمال أهمية رمزية . فالعادي (العمومي) يقضي على فروق السعة الروحية كما يقضي على التباين في العمق بين انسان وآخر بينما أن الخفي الباطني يؤكد تلك الفروق وهذا العمق ويشد في عضدها .

واخيراً نرى بالنسبة الى خبرة العمق الأولية لهذا النوع أو ذاك من الانسان الموقظ ، (أي بالنسبة الى الرمزي الأولي لوجوده ونظرته الى العالم حوله) ان العنصر «الشعبي» المجرد والساذج يربط نفسه برمز مـا هو جسماني ، بينما نرى ان رمز الفراغ اللامتناهي ينتمي الى علاقة صريحة في لاشعبيتها تربط بين الابداعـات وبين رجال الحضارة .

إن الهندسة الكلاسيكية هي هندسة الطفل ، هندسة الرجل العادي (وعناصر هندسة يوقليد لا يزال يضمها حتى اليوم كتاب مدرسي يدرس في انكلترا) والعقل العامل المياوم سيعتبر دائماً هذه الهندسة ، الهندسة الحقة الصحيحة الوحيدة ، أمـا جميـع أنواع الهندسة الطبيعية التي هي في حيز الامكان (والتي اكتشفت فعلاً نتيجة لجهود هائلة كانت ترمي الى التغلب على ما هو شعبي وواضح) فإن هـــذه الأنواع لا يمكن أن تفهمها سوى دائرة ضيقة من الرياضيين المحترفين . « فالعناصرالاربعة» الشهيرة » « لامبيدوكليس » Empedocles ، هي عناصر كل انسان ساذج ، وهي

تشكل فيزياء الفطرة ، بينما أن فكرة النظـــائر المشعة التي جاءت وليدة الابحاث في الاشعاع هي فكرة من الصعب ادراكها حتى من قبل اللوذعي البارع في العلوم المتشابهة شبهاً قريباً . ان كل ما هو كلاسيكي يمكن ادراكه بلمحة واحدة ، أكان هذا معبداً « دورياً » أو تمثالاً ، أو مدينة عالمية ، أو مذاهب، ففي هذه لا توجد مؤخرات صور واسرار . ولكن فلتقارن بين واجهة كاتدرائية غوطية وبين عقد كلاسيكي (Propylaea) أو بين الحفر على المعدن وبين التصوير على الأواني ، بين سياسة الشعب الأثيني وبين سياسة مجلس الوزراء الحديث . ولنتأمل فيما تعنيه أعمالنا صانعة الحقبات التاريخية من شعر وسياسة وعلوم ، إذ انها استوجبت آداباً بأكملها من الشروح والتفاسير والتعاليل ونجاح هذه لم يكن مما لا يقبل الجدل . وبينما كان النحت البرثينوني « موجوداً » (مفهومـاً - المترجم) بالنسبة الى كل هيليني فإن موسيقى باخ ومعاصريه كانت خاصة بالموسيقيين وحدهم . فنحن لدينـا نماذج من الخبراء في رامبراندت ، والعلماء في دانتي ، ولدينـــا خبراء في الموسيقى الكونتروبونتية ، ولكن مما يُلام عليه فاغنر ويُعنف بسببه هو تيسيره للكثيرين الكثيرين من النــاس كي يصبحوا فاغنريين ، وذلك لأنه خص الموسيقيين المدربين بالقليل القليل من موسيقاه . ولكن هل نسمع بأن هناك خبيراً في فيدياس وحتى عالماً مختصاً بهوميروس ؟ وهنا تكمن مجموعة من الظواهر التي نميل حتى الآن الى معالجتها (بمزاج من فلسفة اخلاقية أو أفصح قولاً ، بنزعة ميلودرامية) بوصفهـا هنات تشترك فيها الانسانية ، لكنها في الواقع هي عوارض شعور الحياة الغربية ، وأعني بهذه : الفنان الذي « أسيء فهمه » ، الشاعر الذي « ترك ليتضور جوعاً » ، المكتشف « المستهزأ به » المفكر الذي « يتقدم عصره بقرون من السنين» وهكذا دواليك . ان جميع هؤلاء هم نماذج لحضارة خفية باطنية . فمصائر من هـذا النوع ترتكز قاعدتها على عاطفة البعد التي تختفي داخلها الرغبة في اللانهاية وإرادة القوة ، وهذه النماذج هي ضرورية في ميدان الجنس البشري الفاوستي (وفي كل المراحل) كما هي نماذج يستعصي فهمها على ألباب الجنس البشري الأبولوني .

ان كل مبدع حقيقي في الحضارة الغربية كان يهدف منذ البداية حتى النهاية الى

شيء ما لا تستطيع غير القلة فهمه . ولقد أطلق ميكالنجلو ملاحظة قال فيها أن اسلوبها قد ُعين كي ُيصلح الحمقى ويهذبهم . أما « غاوس » فلقد أخفى اكتشافه للهندسة غير اليوقليدية مدة ثلاثين عاماً خشية صخب « البوثيان »[1] Boeotians وضجيجهم . ونحن هذا اليوم نفصل بين أساتذة فن بناء الكاتدرائية الغوطية وبين ما هب ودب من المعماريين ، وهذا القول ينطبق ايضاً على كل مصور ورجل دولة وفيلسوف . ولنتأمل في جيوردانو برونو ، أو ليبنتز ، أو « كنت » في تباينه وآناكسياندر وهيرقليطس أو فيتاغوروس. فما الذي يعنيه عجز رجل الشارع عن فهم أي فيلسوف الماني يستحق الذكر ،وما الذي يعنيه عدموجود مركب البساطة والجلالة الذي نجده لدى هوميروس في أية لغــة غربية ؟ فأغنيــة النيبلونج (Niebelungen lied) هي ترديد شاق بحفظ ، أمــا فيما يتعلق بدانتي فان فهمه ، في المانيا على كل حال ، نادراً ما يتجاوز « البوز » الحرفي . إننا نجد في كل مكان من العالم الغربي ما لا نجده في العـالم الكلاسيكي ، (أي الشكل المحدود المحصور) . فهناك مراحل تاريخية (مثلًا الحضارة الريفية والفن الروكوكو) هي بأكملها محصورة الى أضيق حد بالنخبة ، وهي مراحل غير جذابة أو مغرية،وليس لافكارها وأشكالها أي وجود إلا في نظر طبقة صغيرة من الناس الأرقى . وحتى عصر الانبعاث لا يستثنى من هذا القول ، فهــذا العصر بالرغم من أنه يشير الى انبعاث تلك الفنون الغابرة التي هي بمتناول أفهام الجميع ، إلا أن هذا العصر هو ، فعلًا ، إبداع دائرة أو مجموعة من النفوس الافرادية المختارة ، وهو يمثل ذوقــاً يرفض الشعبية منذ مستهل بدايته ، ونحن نستطيع أن نكتشف مدى عمق مغزى الفصل بما كان يحدث في فلورنسا حيث كانت عامة الناس تنظر الى منجزات النخبة بلا مبالاة ، أو تحملق فيها فاغرة الأفواه ، أو تحدجها بنظرات البغضاء . وأحياناً تمزقها وتحطمها كما حدث في عهد سافونا رولا . أما في العالم الكلاسيكي فان الحال كانت على عكس ما ذكرت إذ كان كل نائب « أتيكي» من نواب الأقاليم ينتمي

---

١ - « البوثيان » قوم مشهورون بغبائهم -المترجم-

الى الحضارة الأتيكية التي كانت رحابها تتسع لكل انسان ، ونتيجة لهذا الواقع فان التمييز بين العميق والضحل هذا التمييز ذو الأهمية الحاسمة بالنسبة الينا ، لم يكن له إطلاقاً من وجود . أما نحن فنرى أن كلمة شعبية هي كلمة مرادفة لكلمة ضحل ، وذلك في الفن كما في العلوم، لكن الانسان الكلاسيكي لم يكن يرى ما نراه .

ولنتأمل في علومنا ايضاً . ان لكل منها ، دون استثناء، بالاضافة الى عناصرها البدائية ، ميادين معينة « أرقى » لا يمكن أن يلجها الانسان العادي ، وهذه الميادين هي ايضاً رموز الى ارادتنا للانهاية والى حيويتنا الاتجاهية . فعدد الجمهور الذي كتبت له فيزياؤنا الحديثة لا يتجاوز الألف من الناس على أوسع تقدير ، زد على ذلك أن هناك بعض المسائل في رياضياتنا الحديثة لا يستطيع فهمها سوى دائرة عدد أفرادها أقل بكثير مما ذكرت ، وذلك لأن علومنا الشعبية علوم معدومة من كل قيمة وهي مزورة ملفقة ومحطة في قدرنا . ونحن لا نملك فقط فناً خاصاً بالفنانين ، بل إنما نملك ايضاً رياضيات خاصة بالرياضيين، وسياسة خاصة بالسياسيين (سياسة لا يدركها الـ Profanum Vulgus قراء الصحف من بعيد أو قريب، بينما أن السياسة الكلاسيكية لم تتجاوز أبداً أفق السوق العامة) ونملك ديناً خاصاً « بالعبقريات الدينية » وشعراً خاصاً بالفلاسفة. والحق أننا نستطيع أن نعتبر الحنين الى الأثر الواسع كإشارة كافية بحد ذاتها الى بدء أفول العلوم الغربية التي نحس بأفولها الآن . أما كوننا نشعر بالعصر الباروكي الشديد في سريته وباطنيته على أنه عبء يثقل كاهلنا ، فهذا هو عارض من عوارض قوتنا المتداعية وتبلد مفهوم المسافة ذاك الذي اعترف بالمحدودية بمذلة وضعة وهوان .

لكن العلوم القليلة التي لا تزال تحافظ على جمالها ودهائها القديمين ، وعلى العمق والحيوية في الاستنتاج والاستدلال ولم تلطخها الصحافة بعفونتها ، (وهذه العلوم هي حقاً قليلة) أقول ان هذه العلوم من فيزياء نظرية ورياضيات ، ومذهب (Dogma) كاثوليكي ، وربما الفقه القانوني أيضاً ، إلى آخر القائمة ، تتوجه فقط الى عصبة مختارة من الخبراء عددهم قليل جداً . وهذا الخبير ونقيضه الرجل العادي ، هما ما

تفتقر اليها الحياة الكلاسيكية افتقاراً تاماً حيث أن كل إنسان فيها يعرف كل شيء . أما بالنسبة الينا فان الاستقطابية الخبير والرجل العادي كلما للرمز الرفيع من مغزى ، وحينما يبدأ توتر هذه المسافة الفاصلة بين الخبير والرجل العادي بالهدوء فعندئذ تكون الحياة الفاوستية قد أخذت بالذبول .

إن الاستنتاج الذي هو الآن موضوع الجدل بالنسبة إلى تقدم العلوم الغربية في طورها الأخير (هذا الطور الذي قد يمتد ، أو لا يمكن له أن يمتد ، طيلة القرنين القادمين) هو أنه لما كانت ضحالة المدينة العالمية الكبرى وتفاهتها ، تدفعان بالفنون والعلوم إلى زريبة الكتب وإلى داخل المصنع ، فتناسباً مع هذا الواقع ستحصر روح الحضارة اليتيمة المولد نفسها في دوائر يتزايد ضيقها يوماً بعد آخر ، وهي في بُعدها عن الدعاية ستعمل في أفكار وتعالج أشكالاً يبلغ غموضها حداً لا تستطيع معه سوى حفنة من العقول الفاخرة السامية أن تحقق تلك الافكار والاشكال بمعنى ومغزى .

-٨-

ليست هناك في أية منجزة فنية كلاسيكية من محاولة لاقامة علاقة بينها وبين المشاهد (المتفرج) وذلك لأن هذا الأمر يستوجب لغة شكل المنجزة أن تؤكد وتستفيد من وجود العلاقة بين المنجزة وبين الفراغ اللامحدود المحيط بها . فالتمثال الاتيكي هو بكليته جسم يوقليدي معدوم الزمان والعلائق ومنعزل مستقل قائم بذاته . فهذا التمثال لا ينطق ولا ينظر ، ولا يحس بوجود المتفرج عليه . وهو خلافاً لجميع الاشكال التشكيلية في كل حضارة اخرى ، يقف وحيداً لا يتلاءم وأي نظام هندسي معماري ، فهو فرد بين أفراد وجسم بين أجسام ، أما الفرد الحي فإنما يدركه بوصفه مجرد جار له ، ولا يحس به كنفوذ اجتياحي وأثر غزوي

وكفؤاً قادراً على اجتيـــاز الفراغ . على هذه الشاكلة ُيعبر عن شعور الحيـاة الأبولونية .

جاء الفن المجوسي ليعكس فوراً معنى هذه الاشكال ومغزاها . فأعين التماثيل والصور وفق الاسلوب القسطنطيني كبيرة محملقة وهي بالتأكيد موجهـــة . فهذه العيون تمثل الوجد أسمى ما في جوهري النفس . أما النحت الكلاسيكي فانه نحت عيوناً تبدو كأنها عمياء ، لكن تلاميذه (من المجوس - المترجم) قد ملوا اسلوبه ومجوه ، لذلك ضخموا العين بصورة غير طبيعية وجعلوها تحملق في الفراغ الذي لم يعترف بوجوده الفن الأتيكي . فالرؤوس في التصوير الزيتي الكلاسيكي على الحائط يتطلع بعضها الى بعض ، لكن في فسيفساء رافينا وحتى في الانجازات التضريسية المتبدية في التوابيت الحجرية العائدة الى العصر المسيحي المبكر زمناً والرومـــاني المتأخر زمناً ، فان هذه الرؤوس تتوجه بعيونها الى المشاهد (المتفرج) ، وتركز نظراتها الكاملة في روحانيتها عليه ، لذلك يجتاح ، بغموض ولا كلاسيكية ، بفعل ناء ولده العالم الموجود داخل المنجزة الفنية في جو المشاهد .ونحن نستطيع حتى الآن أن نعثر على شيء ما من هذا السحر في أرضيات الصور المذهبة العائدة الى العصرين الفلورنسي والرينيشي المبكرين .

ولنتأمل الآن في التصوير الزيتي الغربي ، وكيف كان يعي بعـــد ليوناردو رسالته وعياً كاملاً . وكيف كان يعالج الفراغ اللامتناهي بوصفه شيئاً مـا مفرداً فريداً يدرك كلًا من الصورة والمشاهد كمجرد مركزي ثقل للديناميكيـــة الفراغية . فشعور الحياة الفاوستية المكتمل وعاطفة البعد الثالث ، يستوليان على شكل الصورة ، على السطح المصور ، ويحولانه وفق أسلوب لم ُيسمع بـه ابداً . فالصورة لم تعد تقف بنفسها أو تتطلع الى المشاهد بل انما تأخذه وتبتعد به داخـل بيتها ووسطها . فالقطاع المحدد بجوانب الإطار (ميدان « صندوق الدنيا» وميدان المسرح)يستحضر الفراغ الكوني نفسه .ويفقد صدر الصورة ومؤخرتها كل نازع الى المادية والقرب ، وتكشف بدلاً من أن تطمس . وُتعمق الآفـاق البعيدة الميدان حتى اللانهاية ، وتستأصل معالجة اللون لصدر الصورة القريب السطح المثالي للفعل

الذي شكلته الصورة ، وبهذا يمتد ميدان الصورة ويتسع كي يشتمل على المشاهد نفسه .

والآن لم يعد المشاهد هو الذي يختار موقفه الذي تبدو منه الصورة على أشد ما لها من أثر ، بل إنما أصبح الأمر على العكس تماماً ، فالصورة هي التي تملي عليه لتحدد له المركز والمسافة . زد على ذلك أن الصورة قد تخلصت أيضاً من الحدود الجانبية ، فمنذ عام ١٥٠٠ فما بعد كان اجتياح الاطار يزداد جرأة وتكراراً .

إن المشاهد الاغريقي يقف أمام صورة زيتية صورها بوليغنيتوس على الحائط ، أما نحن فنغوص في الصورة ونغرق داخلها ، أي أننا ننجذب اليها نتيجة لقوة معالجة الفراغ . ولما كانت وحدة الفراغ قد أقرت ثانية لذلك فان اللانهاية التي تمتد بها الصورة في كل اتجاه قد أصبحت خاضعة لإحكام المرئي الغربي ، ومن المرئي يمتد درب امتداداً مباشراً مستقيماً الى إدراك صورة عالمنا الفلكي والى روده الشجي داخل البعد الذي لا يعرف نهاية له .

إن الانسان الأبولوني لم يشأ أن يراقب الكون الواسع ، ولم يأت أي منهاج فلسفي على ذكره ، فهذه المناهج لا تعرف سوى المعضلات المتعلقة بالاشياء الواقعية المحسوسة ، وليس في هذه المناهج أي شيء ايجابي أو ذي مغزى لتحدثنا عما هناك بين الاشياء . فالمفكر الكلاسيكي يأخذ بيئة[1] الارض التي يقف عليها والتي هي (حتى في هيبارخوس Hipparchus) مغلقة ببيئة فلكية ثابتة محددة ، بوصفها العالم الكامل المعين ، ونحن إذا ما سبرنا الأغوار والأسرار ذات الدافع ، للنظرة الكلاسيكية ، فإننا عندئذ لا شك سنفزع ونجفل تقريباً من الحاح النظرية الكلاسيكية وعنادها ، هذه النظرية التي حاولت مرة بعد اخرى أن تربط نظام

---

١ - لاحظ اخترنا هنا كلمة بيئة ترجمة لـ Sphere - المترجم -

هذه السماوات بنظـــام الارض وعلى صورة لا تتطاول على أسبقية الأرض وأفضليتها .

ولنقارن بين المحاولة الكلاسيكية هذه وبين الحميا الحاسمة التي دفعت باكتشاف « كوبرنيكوس » (« معاصر » فيثاغوروس) يغوص عميقاً في نفس الغرب ، لتتأمل مقارناً ، في روح الروغ التي كانت تنخس كيبلر (kepler) ليتبحر في قوانين المدارات (جمع مدار) الفلكية التي اكتشفها كرؤيا فورية فتح الله ناظريه عليها ، فهو لم يجرأ على الشك في كون هذه المدارات دائرية الشكل ، لأن أي شكل آخر لها سيكون معدوم القيمة كرمز . وهنا يلتقي شعور الحياة الشماليـة القديم ، توق اللانهاية الفايكنغية ، (Viking) بما يخصه وهنا ايضاً يكمن مغزى الاكتشاف ذي الميزة الفاوستية ، اكتشاف التلسكوب ، الذي ينفذ الى فراغات مستترة عن العين المجردة وممتنعة على إرادة القوة ، اذ يوسع التلسكوب مـا نمتلك من الكون . ان الشعور الديني الحقيقي الذي يستولي علينـا ، حتى هذا اليوم ، عندما نتجرأ على التأمل في أعماق الفراغ الكوكبي لأول مرة (وهو شعور القوة ذاته الذي تستهدف أعظم تراجيديات شكسبير ايقاظه) ، أقول ان هذا الشعور كان سيبدو لسفوكليس الحاداً ما بعده إلحاد .

اذن فإن انكارنا «لقبة» السماء الزرقـاء هو عزم وتصميم وليس خبرة حس . فالأفكار الحديثة في طبيعة الفراغ الكوكبي (أو لنتكلم بأكثر من تعقل وكلمة ، ولنقل أن الامتداد المشار اليه باشارات ضوء تراها العين والتلسكوب) هي افكار لا ترتكز أكيداً الى معرفة ثابتة مؤكدة ، وذلك لأن ما نراه بواسطة التلسكوب هي أقراص (قرص النجم المضيء) صغيرة متألقة مختلفة الاحجام . أمـــا الآلة الفتوغرافية فانها تقدم الينا صورة غير تلك تماماً (وصورتها ليست أدق من صورة التلسكوب ، بل انما هي مختلفة عنها) لذلك فإن تشكيل صورة مناسبة للعـــالم يتوقف على ربط هاتين الصورتين الواحدة بالأخرى بواسطة فرضيات عديدة ، ومراراً جريئة جداً ، (مثلاً فرضيات المسافات والاحجـــام والحركات) التي نقوم نحن بأنفسنا بصياغتها . ان اسلوب هذه الصورة (صورة العالم) ينطبق على اسلوب نفسنا

الخاصة. فنحن لا نعلم حقاً مدى اختلاف قوى الضوء بين نجم وآخر، ولا نعرف ما إذا كانت هذه القوى تتباين في مختلف الاتجاهات. ولا نعلم ما إذا كان الضوء يتبدل، يتقلص أو يطفأ في الامتدادات الكلية والاتساعات غير المحدودة للفراغ. ونحن ايضاً لا نعلم ما إذا كانت مفاهيمنا الأرضيـــة عن طبيعـة الضوء، وكل ما يشتق ويستنتج منها من نظريات وقوانين، تمتلك صحة ما وراء محيط الارض المبـاشر. فما «نراه» ليس سوى إشارات ضوء، أما ما نفهمه فإنما هو رموز لنفوسنا.

إن النهضة القوية لفكرة العالم الكوبيرنيكية (هذه الفكرة التي هي وقف على حضارتنا فقط «وانني لأغامر فاؤكد على انها قد تبدو حتى الآن متناقضة في ظاهرها» هي فكرة قد وسترغم على الانسحاب الى زوايا النسيان حالما تشمر نفس حضارة قادمة بمخاطر هذه الفكرة عليها) أقول إن النهضة القوية ترتكز الى اننا قد نزعنا ثقتنا منذ الآن فصاعداً بالسكون الجسماني وبالأرجحية المتخيلة للأرض في الكون. فحتى ذاك الوقت كانت السماوات التي يفكر أو يحس بها على أنها كمية جوهرية كالارض، تعتبر كأنها في حالة توازن قطبي والارض. لكن الآن أصبح الفراغ هو الذي يحكم الكون. فكلمة «العالم» تعني الفراغ، والنجوم بالكاد تعتبر أكثر من نقاط رياضية، فهي كرات بالغة الصغر داخل الاتساع اللامحدود، ولم يعد كونها كمادة يؤثر في الشعور بالعالم. فبينما اتخيل ديموقريطس الذي حاول (باسم الحضارة الأبولونية وكان مقدراً عليه ان يحاول) أن يعين شيئاً من حد ذي نوع جسماني للكون كله، أقول تخيل طبقة من ذرات لها شكل الخطاف كجلد يغطي الكون، نجد نحن أنفسنا مساقين بجوع لا يشبـع نحو الاكثر فالاكثر من البعد. فالنظام الشمسي الذي اكتشفه كوبيرنكوس قد مد بـه جيوردانو برونو ليصبح الفاً من أنظمة شمسية كهذا. وقد نما هذا النظـام نمواً لا يمكن قياسه في العصر الباروكي، ونحن نعرف اليوم بأن مجموع كل الأنظمـــة الشمسية يبلغ ٣٥ مليوناً تقريباً وهي تشكل نظاماً كوكبياً مغلقاً (نظاماً متناهياً بكل تأكيد) وهذا النظام يشـكل بدوره شكلاً اهليلجيـاً في دورانه ويقع خط استوائه على

محاذاة شريط درب التبانة تقريباً . ان أسراباً عديدة من الأنظمة الشمسية تجتاز هذا الفراغ ، كأنها الطيور الضوارب (Migrant) وتتحرك بالسرعة ذاتها وفي الاتجاه نفسه . وتشكل احدى هذه المجموعات مع قمة في برج هرقل ، من شمسنا والنجوم المتألقة التالية : كابيلا Capella ، فيغا Vega ، ألتير Altair ، وبيتلجيوز Betelgeuse أما محور هذا النظام الهائل الذي لا تبعد نقطة منتصفه (المحور) كثيراً عن المركز الحالي لشمسنا، فإنما يبلغ طوله ٤٧٠ مليون مرة طول المسافة الفاصلة بين الشمس والارض . وفي الليل تشكل السماوات الكوكبية ، اللحظة ذاتها التي نتطلع فيها اليها ، في نفوسنا انطباعات نشأت في الأصل منذ ٣٧٠٠ سنة منفردة في الزمان ، وذلك لأن هذه المسافة المقاسة بالسنوات الضوئية هي التي تفصل أرضنا عن الحد الأقصى الخارجي . وهذه المدة في صورة التاريخ كما تنشر نفسها أمام أعيننا تعادل ديمومة تغطي كل العصور الكلاسيكية والمجوسية وتتجاوز هذه لتشمل الذروة التي بلغتها الحضارة المصرية في عهود الأسرة الثانية عشرة . إن هذه النظرة (واكرر فأقول انها صورة وليست معرفة اختبارية) هي بالنسبة للانسان الفاوستي نظرة رفيعة ونبيلة ، لكنها كانت ستكون في نظر الانسان الأبولوني نظرة محزنة مرعبة وإفناء لأعمق شروط كينونته .

وربما أحس بها الانسان الكلاسيكي ايضاً على انها خلاص محض ، إذ أنه قد وجد في نهاية المطاف حداً وان كان بعيداً . ولكن نحن المساقين بضرورة عميقة تكمن في باطننا يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا بكل بساطة هذا السؤال الجديد : هل هناك من شيء خارج هذا النظام الكوكبي ؟ (لاحظ الكوكبي لا الشمسي المترجم) وهل هناك من مجاميع من انظمة كوكبية كهذه تقع على مسافات تصبح معها حتى الابعاد التي عينتها علوم فلكنا صغيرة قصيرة إذا ما قورنت بتلك المجاميع؟ واعتماداً على ملاحظات حسنا يبدو لنا اننا قد بلغنا حداً مطلقاً ، فلا الضوء ولا قوة تجاذب المادة (Gravitation) تستطيعان أن تقدما إشارة من وجود في هذا الفراغ الخارجي (الفراغ خارج الفراغ الذي نعرفه – المترجم) الخالي من الكتلة. لكن الفراغ الخارجي هو بالنسبة إلينا ضرورة فكر بدهية ، فعاطفتنا الروحية

وقلقنا هما بحاجة الى تحقيق فكرة وجودنا في رموز ، لذلك فهما يكابدان الآلام الناجمة عن هذه المحدودية ، محدودية إدراكنا الحسي .

-٩-

وهكذا كانت ايضاً حال الاجناس الشمالية التي استيقظ داخل نفوسها البدائية النازع الفاوستي ، فإن هذه الشعوب قد اكتشفت في غبشة فجرها فن استخدام الشراع في مخورها عباب البحار ، وجاء اكتشافها هذا بمثابة تحرير لها . لقد كان المصريون يعرفون الشراع ، لكنهم استفادوا منه بوصفه اختراعاً يوفر في طاقات العمل . وكانوا يقلعون بمراكبهم الشراعية كما كانوا يبحرون من قبل بمراكبهم ذات المجاذيف ، بمحاذاة الشاطىء الى بونط (Punt) وسوريا ، ولكن لم تكن لديهم فكرة الاقلاع الى عرض البحار (وأعني بهذه الفكرة تحرراً ورمزاً) . فالاقلاع[١] ، والاقلاع الحقيقي هو نصر على اليابسة اليوقليدية .

ففي مطلع القرن الرابع عشر بدا أن يد المصادفة هي التي دفعت الى اكتشاف البـارود والبوصلة في وقت واحد تقريباً (مع تشكل مراحل التصوير الزيتي والموسيقى الكونتربونتية) فالبارود يعني الاسلحة البعيدة المدى ، والبوصلة تعني المخالطة الواسعة المجال . وهاتان الوسيلتان قد اكتشفتها بالضرورة الحضارة الصينية

---

١ - يريد المؤلف ان يؤكد هنا على المراكب الشراعية ولا شك ان القارىء يدرك ما يرمي اليه شبنغلر من وراء هذا التأكيد ، ونحن سنستخدم هنا كلمة اقلع للمركب الشراعي وابحر للمركب ذي المجاذيف . انسجاما منا وروح المؤلف.

(المترجم)

لنفسها . لقد كان الاقلاع يمثل روح الفايكنغز والهانسا كما يمثل روح تلك الشعوب المظلمة التي لا تشابه ابداً الهلينيين بما لهؤلاء من أوان منزلية يضعون فيها رماد موتاهم ، وركامات مرتفعة من تراب يقيمونها في السهول الواسعة نصباً تذكارياً للنفس المتوحدة .

لقد كان الاقلاع يعبر عن روع اولئك الذين كانوا يرسلون بجثث ملوكهم في مراكب ترعى فيها ألسنة النار الى عرض البحر ، وهذه ظاهرة مذهلة تكشف عن حنينهم المظلم الى اللامحدود . إن روح أهل الشمال قد ساقت مراكبهم المحارية الشكل (في القرن العاشر البشير بالولادة الفاوستية) الى سواحل أميركا . لكن الجنس البشري الكلاسيكي لم يكن ليبالي بالتطواف بحراً حول أفريقيا ، هذا التطواف الذي سبق أن قام به المصريون وأتمه القرطاجنيون .

ومما يدل على مدى تمثالية الوجود الكلاسيكي ، حتى فيما يتعلق بالمخالطة البشرية ايضاً ، أن اخبار الحروب اليونية (وهي من أشد الحروب التي عرفها التاريخ) قد ترامت الى أثينا من صقلية كخبر مبهم غير مؤكد . وحتى نفوس موتى الأغريق كانت تحشد في هيدس (Hades) كخيالات غير قابلة للانفعال ، معدومة القوى والرغائب والشعور ، لكن أموات الشمال كانوا يجمعون شملهم في جيوش وحشية قلقة من الغيوم والعواصف .

إن الحادثة التي هي على نفس المستوى الحضاري الذي بلغته اكتشافات الاسبان والبرتغاليين ، تتمثل في الاستعمارات الهيلينية في القرن الثامن قبل المسيح . لكن بينما كانت يتلبس الاسبان والبرتغاليين افتتان مغامر جموح بمسافات لم تعرفها الخرائط ، وبكل ما هو مجهول ومحفوف بالمخاطر ، كان الاغريق ينطلقون متهيبين حذرين خطوة فخطوة سالكين سبلاً طرقها قبلهم الفنيقيون والقرطاجنيون والاتروسكان ، ولم يمتد بهم فضولهم ، في أية حال ، إلى ما يقع وراء أعمدة هرقل وبرزخ السويس ، مع انه من السهل ارتياد ما وراء هذين المعبرين ، إذ انهما كانا في حوزتهم .

ولا شك أن أثينا قد سمعت بالطريق الى بحر الشمال وبالطريق الى الكونغو

وزنجبار والهند ، (ولقد كان الحد الجنوبي للهند معروفاً في زمن نيرون، وكذلك الحد الجنوبي لجزر سوندا) (Soada) لكن أثينا أغمضت عينيها عن هذه الاشياء كما اغمضتها عن العلوم الفلكية للشرق القديم . وحتى عندما اصبحت الاراضي التي نسميها اليوم مراكش والبرتغال ولايات رومانية ، فانه لم يحاول ان يقوم أحد برحلة في المحيط الاطلنطي ، وبذلك بقيت جزر الكناري منسية .فحس الانسان الابولوني بجنين كولومبوس كان من التبلد كحسه بجنين كوبيرنكوس .

ومع ان التجار الاغريق كانت تسيطر عليهم الرغبة في اجتناء المرابح إلا أن نفوراً ميتافيزيقياً كان يكبح من جماحهم كي لا يوسعوا الأفق ، لذلك فانهم قد التصقوا في الجغرافيا بالأشياء القريبة منهم وبصدور الصور، شأنهم في هذا الموضوع كشأنهم في المواضيع الأخرى . فوجود دولة المدينة ، هذا المثل الأعلى المذهل للدولة كتمثال ، ليس سوى هروب من العالم الواسع وشعوب البحر ، وذلك بالرغم من انه كان للحضارة الكلاسيكية وحدها ، دون كل الحضارات التي قامت حتى الآن ، طوق من الشواطىء يحيط ببحر من الجزر ، ولم يكن لها امتداد قاري كوطن لها .

وحتى الهلينية بكل ما فيها من ميل وانكباب على اللهو والتسليات التقنية ، لم تحرر نفسها من المراكب ذات المجاذيف التي تربط البحار الى الشواطىء

لقد كان المهندسون البحريون في الاسكندرية قادرين على بناء مراكب عملاقة يبلغ طولها ٢٦٠ قدماً ، ولهذا السبب اكتشف المركب البخاري من حيث المبدأ. ولكن هناك بعض اكتشافات ، لها عاطفة رمز عظيم وضروري وتكشف عن أعماق في داخلها ، وهناك اكتشافات اخرى هي مجرد ألاعيب عقل . والمركب البخاري هو بالنسبة الى الانسان الابولوني اكتشاف من النوع الاخير ، لكنه في نظر الفاوستي هو اكتشاف من النوع الاول .

إن الامتياز أو التفاهة في الكون الكبير ككل هو أو هي، الذي يضفي على الاكتشاف وتطبيقه طابع العمق أو الضحالة .

لقد مدت اكتشافات كولومبوس وفاسكوداغاما بالأفق الجغرافي مداً

لا حد له ، واصبحت علاقة بحر العالم بالارض هي العلاقة ذاتها التي تربط بين كون الفراغ وبين الارض . وعندئـــذ فجّر أولاً التوتر السياسي نفسه داخل الوعي الفاوستي للعالم . أما بالنسبة الى اليونان ، فان هيلاس بقيت الجزء الهـام من سطح الارض، ولكن اوروبا الغربية أصبحت مع اكتشاف اميركا ولاية في كلٍّ عملاق . ومنذ ذاك الاكتشاف فصاعداً اصبح للحضارة الغربية طابع كوكبي

ان كل حضارة تمتلك مفهوماً خاصاً للبيت (Home) والوطن ، وهذا المفهوم من الصعب ادراكه ، ومن النادر ان تعبر عنه الكلمات ، إذ انه مليء بعلاقـــات ميتافيزيقية مظلمة ، لكنه مع هذا لا يمكن ان يخطىء في نازعه . فالشعور الوطني الكلاسيكي الذي كان يربط الفرد جسدياً ربطاً يوقليدياً الى دولة المدينـة ، هو النقيض كل النقيض للحنين الغامض الى الوطن (Heimweh) الذي يعتلج بـه صدر ابن الشمال ، والذي يبدو ان فيه شيئاً مـــا موسيقياً سامياً وغير ارضي . لقد كان الانسان الكلاسيكي يحس بما يستطيع أن يراه من على قمة الاكروبولوس في مدينته وطناً له . وحيث كان ينتهي أفق اثينا كان يبدأ « وطن » شعب آخر غريب .

وحتى الرومان انفسهم كانوا في العصور الجمهورية المتأخرة زمناً لا يفهمون بكلمة (Patria) سوى مدينة رومـــا ولم يكن مفهومهم يمتد ليشمل حتى « لاتيوم » (Latium) ودونها ايطاليا . وعندما بلغ العالم الكلاسيكي مرحلة نضوجه حل نفسه الى عدد كبير من الاوطان وقد اتخذت الحـــاجة الى التقسيم الجسمي بين هـــذه الاوطان شكل بغضاء هي اشد بكثير من أية بغضاء اخرى عرفها البرابرة . ولهذا السبب الذي يشكل الدليل الدامغ بين كل الأدلة على انتصار الشعور المجوسي بالعالم ، منح كراكالا عام ٢١٢ بعـد المسيح المواطنية الرومانية لجميع سكان الاقاليم . لان هذه المنحة قد ألغت المفهوم التمثالي القديم لفكرة مواطن ، إذ انـــه اصبحت الآن هناك دولة ، ونشأ نتيجة لذلك نوع جديد من العضوية فيها . زد على ذلك ان فكرة المفهوم الروماني للجيش قد طرأ عليه ايضاً تبديل هـــام . فلم يكن هناك في الازمنة الاصيلة في كلاسيكيتها جيش روماني

وفق مفهومنا للجيش البروسي مثلاً ، بل انما كانت هناك فقط « جيوش » وأعني بهذا تشكيلات معينة أوجدت (كما نقول) ككتائب محدودة واجساد حاضرة منظورة وذلك بواسطة تعيين ليغاتوس (Legatus) آمراً لكل كتيبة . ولقد كان كاراكالا هو نفسه الذي ألغى بمرسوم الحقوق المدنية الرومانية واستأصل الآلهة الرومانية بجعله الآلهة الغريبة معادلة لها. وكان هو ايضاً الذي ابدع الفكرة الكلاسيكية المجوسية فكرة الجيش الامبراطوري، وهي شيء ما تجلت في الفيالق الرومانية المتفرقة . وهذه التبديلات تعني الان شيئاً مـــا ، بينما لم تكن تعني في الازمنة الكلاسيكية شيئاً ، بل انمـــا كانت تحدث فقط . فلقـد حل محل الـ « Fides exercituum » القديم الـ « Fides exercitus » في العناوين، وأمسى بدلاً من الالهة الافرادية المدركة جسمانياً والخاصة بكل فرقة والمكرمة طقوسياً من ليغاتوس الفرقة ، مبدأ روحي مشترك بين الجميع . وهكذا ايضـــاً ووفق المفهوم ذاتــه طرأ في العهود الامبراطورية على معنى الشعور الوطني تغيير وتبديل بالنسبة الى الانسان الشرقي . (وليس بالنسبة الى المسيحيين فقط) . أمـا الانسان الأبولوني فهو طالما كان محتفظ بفضلة من شعوره الخاص بالعالم فإنه كان يعتبر الوطن ، في مفهومه الأصيـل في جسديته ، قطعـة الأرض التي شيدت عليها مدينتـــه ، (وهذا المفهوم يذكرنا « بوحدة المكان » في التراجيـــديا الأتيكيـة وفي التمثاليـــة) . لكن الوطن بالنسبة الى الانسان المجوسي ، الى المسيحيين والفرس واليهود « والاغريق » [1] والمانيين والنسطوريين والمحمديين لا يعني شيئاً له أي ارتباط بالوقائع الجغرافية . أما بالنسبة الينا فانه يعني وحـدة هبائية تتألف من الطبيعة واللغة والطقس والعادات والتاريخ ، ولا يعني ارضاً بل « بلاداً » ، ولا حضوراً محصوراً ، بل ماضياً ومستقبلاً تاريخيين ، ولا وحدة تتألف من ناس ومنازل وآلهة ، بل فكرة ، الفكرة التي تتخذ شكلاً لهـــا في التجوال

١ – الاغريق هنا شيع مذاهب سنسيكريتية مختلفة .

(المترجم)

القلق والتوحد العميق ، وفي ذلك الزخم الالماني النازع نحو الجنوب والذي كان سبباً لدمار نخبتنا ابتداء من الاباطرة السكسونيين وانتهاء بهولدرلن ونيتشه ، لهذا فان قصد الحضارة الفاوستية يتجه بقوة جبارة الى التوسع من سياسي واقتصادي وروحي . ولقد سعى (دون ان تكون له أية اهداف عملية وحباً في ارضاء رمزه فقط) الى بلوغ القطبين من شمالي وجنوبي . وانتهى الى تحويل كامل سطح الكرة الارضية الى نظام استعماري واقتصادي واحد . ولقد أراد كل مفكر من المعلم ايكهارت حتى «كنت» أن يخضع العالم الظاهري للسلطة المزعومة «للأنا» العارفة ، وقد قام كل قائد سياسي من اوتو الكبير حتى نابليون بهذا الأمر .

لقد كان الهدف الحقيقي الأصيل لطموحهم هو اللامحدود ؛ وهذا القول ينطبق على الفرنكيين العظام وعلى آل هوهنشتاوفن بما كان لهؤلاء من ممالك عالمية ، وعلى جورج السابع وانوسنت الثالث وعلى الهابسبورغ الاسبان الذين «لا تغرب الشمس أبداً عن ممتلكاتهم» ، وعلى الاستعمار في يومنا هذا الذي نشبت بسببه الحرب العالمية[1] والتي سيبقى اوارها مشتعلاً لأيام كثيرة طوال . أما الانسان الكلاسيكي فانه لا يستطيع لاسباب باطنية أن يكون فاتحاً أو غازياً ، وهذا بالرغم من حملة الاسكندر الرومانتيكية ، (وذلك لأننا نستطيع أن ندرك ما فيه الكفاية تردد رفاق الاسكندر وعدم رغبتهم في الحملة ، ولسنا بحاجة لنشرح هذه الحملة على انها «شاذ يبرهن على القاعدة») . أما الشهوة التي لا تعرف شبعاً من التحرر من العنصر المقيد ، والرغبة الضارية في الضرب بعيداً حراً في الأرض ، والتي هي جوهر المخلوقات الخيالية من أقزام وسعالي وعفاريت صغار ، فانها رغبة يجهلها دريادس Dryads وأريدس Oreads جهلاً تاماً . لقد غرست بنات المدن الاغريقية بالمئات على طول حافة البحر الابيض المتوسط ، ولكن لم تقم أية مدينة من هذه

---

١ – الحرب العالمية الاولى ، فاشبنغلر بدأ في كتابة هذا الكتاب بعد ان نشبت تلك الحرب بأيام قليلة .

(المترجم)

المدن بأبسط محاولة حقيقية لغزو الاصقاع التي تقع وراءها . إذ كان الاستيطان بعيداً عن الشاطىء يعني غياب «الوطن» عن الناظرين (ناظري الانسان الكلاسيكي، بينما أن الاستيطان في الخلاء ، وهو الحياة النموذجية بالنسبة الى الصياد ورجل البراري في أميركا كما كان ايضاً منذ زمن طويل بالنسبة الى ابطال الاسطورة الايسلندية) هو أمر فوق طاقات الجنس البشري الكلاسيكي . إن درامات كدراما الهجرة الى أميركا (فرداً فرداً وكل فرد مسؤول عن نفسه ومساق بتأهب عميق للتوحد) أو كدراما الغزو الاسباني ، أو اجتياح كلفورنيا بحثاً عن الذهب ، أو درامات حنين لا يكبح له جماح الى الحرية والتوحد والعزلة والاستقلال الهائل ، ودراما احتقار عملاق لكل المحدوديات مهما كان نوعها والمفروضة على الشعور بالوطن ، فهذه الدرامات هي جميعاً درامات فاوستية وفاوستية فقط ، ولم تعرف أية حضارة اخرى وحتى الحضارة الصينية لها مثيلاً .

أما المهاجر الهيليني فانه كان على عكس المهاجر الفاوستي ، إذ أنه كان يلتصق الطفل بحضن أمه . فان يصنع (لاحظ قال يصنع - المترجم) مدينة جديدة من من المدينة القديمة ، تكون صورة طبق الأصل عن هذه، بمواطنيها أنفسهم وبآلهتها ذاتها ، وعاداتها ، وبالبحر الرابط والذي لا يغيب ابداً عن النظر ، وان يمارس في هذه المدنية الجديدة وفي سوقها العامة الحياة المألوفة لـ (. . .) هذا هو اقصى حد يمكن أن يبلغه تبديل المنظر بالنسبة الى الحياة الابولونية . لكن حداً اقصى كهذا هو في نظرنا نحن الذين نعتبر حرية الحركة والتنقل أمراً لا يستغنى عنه (وإذا لم تكن هذه الحرية دائماً كحق عملي فمع هذا فهي على كل حال حق مثالي) هو حد أشد وطأة من كل أنواع العبوديات . وعلينا أن ننظر من وجهة النظر الكلاسيكية الى توسع روما الذي كثيراً ما أسيء فهمه ، فلقد كان هذا التوسع أي شيء ما عدا امتداد للوطن . ولقد سجن نفسه في حقول سبقه إليها رجالات حضارات اخرى فسلبهم إياها . ولم تكن في التوسع الروماني أية اشارة الى مناهج عالمية ديناميكية كمناهج آل هوهنشتاوفن ، أو برامج مطبوعة بطابع كطابع آل هابسبورغ ، أو استعمار يمكن أن يقارن بالاستعمار السائد في ايامنا هذه .

فالرومان لم يقوموا بأية محاولة لينفذوا الى داخل افريقيا ، أما حروبهم التي شنوها فيما بعد فانما كانت تستهدف الحفاظ على ما يمتلكونه فقط ، ولم يُشعل ضرامها طموح أو نازع باطني ، فلقد كان باستطاعتهم ان يتخلوا عن المانيا وبلاد ما بين النهرين دون ألم أو ندم .

والآن إذا ما ألقينا نظرة عامة على كل ما ورد على توسع صورة العالم الكوبيرنكية الى تلك النظرة ، نظرة الفراغ الكوكبي التي نمتلكها الآن ، وعلى تطور اكتشاف كولومبس وصيرورته إشرافاً غريباً على سطح الأرض بأكمله ، وعلى مرئي التصوير الزيتي ومرئي منظر التراجيديا ، وعلى الشعور الوطني الجليل الرائع ، وعلى عاطفة مدنيتنا ورغبتها في عبور سريع ،وعلى غزو الهواء،واكتشاف الاصقاع القطبية وتسلق الجبال التي من المستحيل تقريباً بلوغ ذراها ، عندئذ نرى أن الرمز الأولي للنفس الفاوستية ، أي الفراغ اللامحدود ، ينبعث من كل مكان ، وعلينا ان نعتبر خاصة تلك الابداعات الغربية (والفريدة في شكلها) لاسطورة النفس ، هذه الابداعات المسماة : « إرادة » « قوة » « فعل » كمشتقات عن هذا الرمز الأولي .

الفصل العاشر

صورة النفس في شعور الحياة

- ٢ -

البوذية والرواقية والاشتراكية

- ١ -

وأخيراً أصبحنا الآن في مركز يخولنا الدنو من ظاهرة الاخلاق ومن ترجمة الحياة ذهنياً لنفسها ، ومن صعود القمة التي تمكننا من مراقبة أوسع ميادين الفكر الانساني وأشدها خطورة . وسنحتاج ، في الوقت ذاته للقيام بهذه المراقبة ، إلى موضوعية لم يسبق لأحد حتى الآن أن سعى جديـاً لاكتسابها . ومهما كانت نظرتنا الى الاخلاق ، فانه ليس بجزء من الاخلاق أن تقوم هذه بتقديم تحليلها الخاص ، ونحن سنمسك الآن بالمعضلة ، ولن نتأمل فيما يجب أن تكون عليه أعمالنا وأهدافنا ومستوياتنا ، بل إنما سنحصر جهودنا في تشخيص الشعور الغربي في صميم شكل التصريح والاعلان .

إن الجنس البشري الغربي هو فيما يتعلق بقضية الاخلاق هـذه ، يخضع ، دون استثناء ، لنفوذ خداع بصري هائل ، فكل انسان يطالب الباقين من الناس بشيء

مـا ، ونحن نقول : « عليك ألا » وذلك بقناعة بان كذا وكذا سيبدل ومن المستطاع أن يبدل ويجب أن يبدل أو يصاغ أو يتدبر أمره كي ينطبق على النظام ويلائمه ، وإيماننا بكل من فاعلية انظمة كهذه وحقنا في أن نعطيها هو ايمان راسخ لا يتزعزع . فهذا ، وليس اقل من هذا هو بالنسبة الينا الأخلاق .

ان كل شيء في علم الاخلاق الغربي هو اتجاه ، ومطالبة بالقوة وإرادة للتأثير في البعيد القصي . وعلى هذا الأمر يتفق لوثر ونيتشه اتفاقاً تامـاً وكذلك البابوات والداروينيين ، والاشتراكيين واليسوعيين ، وذلك لأن بدء الأخلاق هو في نظر الواحد والجميع ادعاء بصحة عامة ثابتة للاخلاق . ومن الضروري للنفس الفاوستية أن يكون الأمر على هذه الحال . أما ذاك الذي يفكر أو يعلم « خلافاً لما ذكرت » فانه خاطىء مارق وعدو ويجب أن يحارب ويسحق دون رحمة أو شفقة. يجب « عليك » « على » الدولة ، « على » المجتمع ، هذا الشكل من الاخلاق هو بالنسبة الينا غني عن البيان ، فهو يعرض المعنى الحقيقي الوحيد الذي نستطيع أن نربطه الى الكلمة (عليك ، على ، المترجم .) لكن الأمر لم يكن على هذه الحال في أي من الحضارة الكلاسيكية أو الهندية أو الصينية . فبوذا مثلاً يخيرك بين أن تأخذ أو تترك ، وأبيقور يقدم نصائح ، ونحن لا ننكر أن هذين هما شكلان رفيقان من الاخلاق ، لكن كلاهما لا يحتويان على عنصر الارادة .

ان ما فشلنا حتى الآن في ملاحظته فشلاً تاماً هو الخصائص المميزة لديناميكية الاخلاق . ونحن اذا مـا أجزنا لأنفسنا القول بأن الاشتراكية (في مفهومها الاخلاقي لا الاقتصادي) هي ذاك الشعور العالمي الذي يسعى لتنفيـذ نظرياته الخاصة بالنيابة عن الجميع ، فعندئذ نكون نحن جميعاً ، أشئنا أم أبينا ، أتعمدنا أم لم نتعمد ، اشتراكيين . وحتى نيتشه نفسه ، هذا المناهض المتحمس « لأخلاق القطيـع » كان عاجزاً عجزاً تاماً عن حصر حماسه وغيرته بشخصه وفق الاسلوب الكلاسيكي . فهو كان يفكر فقط « بالجنس البشري » وقد هاجم كل انسان اختلف معه في الرأي ، أما ابيقور فهو على عكس نيتشه ، اذ أنه كان لا يبالي بآراء الاخرين وأعمالهم ، وهو لم يبدد فكرة واحدة « لتحويل » الجنس البشري

و « تبديله » . فلقد كان واصدقاءه قانعين بما هم عليه ، وبأنهم لم يخلقوا على غير ما هم عليه .

لقد كانت اللامبالاة هي المثل الأعلى الكلاسيكي ، اللامبالاة بمجرى العالم ، (الذي هو الشيء كل الشيء الذي جعله الجنس البشري الفاوستي شغله الشاغل كي يسيطر عليه) . وهناك عنصر هام مشترك بين كل من الفلسفة الرواقية والابيقورية ، واعني بهذا العنصر الاعتراف بفضيلة في اشياء لا تفضل ولا ترفض .

لقد كان في هيلاس هيكل لكل الاخلاق (بانثيون) كما كان فيها هيكل لكل الالهة ، وهذا ما يظهره لنا التعايش السلمي الذي ساد بين الابيقوريين والكلبيين (Cynics) والرواقيين ، لكن زرادشت « النيتشوي » (مع انه يقف علناً وراء الخير والشر) يرسل بزفرات الألم من أقصى الارض الى أقصاها وهو يرى الناس على غير ما يريده لهم ، ويبدي رغبة عميقة مطلقة في لا كلاسيكيتها ، في أن يكرس نفسه لاصلاحهم . ان هذا التقويم الثوري العام على أسس جديدة تنبذ الأسس التقليدية (Transvaluation) هو وحده الذي يجعل التوحيد (Monotheism) الأخلاقي (ونحن نستعمل هذا الاصطلاح لنعبر عن مفهوم جديد عميق) الاشتراكية . ان كل محسّني العالم هم اشتراكيون ، ونتيجة لذلك لا يوجد محسّنو عالم كلاسيكيون .

ان الملزم (imperative) الأخلاقي بوصفه شكلاً ، هو فاوستي وفاوستي فقط وليس هناك من أهمية أبداً كون شوبنهور ينكر نظرياً الارادة للحياة ، أو كون نيتشه يؤكدها ، فهذه هي خلافات سطحية تشير الى الاذواق والأمزجة الشخصية .

أما الأمر المهم الذي يجعل من شوبنهور الجد الأعلى للعصرية (Modernity) الأخلاقية (لاحظ العصرية الاخلاقية لا الاخلاق العصرية – المترجم) فهو كون شوبنهور يشعر ايضاً بكامل العالم بوصفه ارادة ، حركة ، قوة ، واتجاهاً . وليس هذا الشعور الجوهري مجرد اساس لفلسفتنا الاخلاقية ، بل انما هو كامل فلسفتنا

الاخلاقية ، أما الباقي فهو ثانوي .

فذاك الذي لا نسميه مجرد نشاط ، بل انما ندعوه فعلاً هو مفهوم تاريخي سداة ولحمة ، مفهوم مُشبع بالطاقة الاتجاهيـة . انه الدليل على الكينونـة ، وتكريس الكينونة ، يكمنان في ذاك النوع من الانسان الذي تمتلك « أناه » نازعـاً الى المستقبل ،والذي لا يحس بالحاضر البرهي ككينونة مُشبعة ، بل كحقبة، كمنعطف في مُركب صيرورة عظيم ، ويشعر ، بالاضافة الى ذلك بأن هذا المركب يتألف من حياته الشخصية ومن حياة التاريخ ككل . ان قوة هذا الوعي ووضوحه هما علامتا الانسان الفاوستي الأرقى، ولكنهما ليستا مطموستين تماماً لدى الفرد التافه من السلالة الفاوستية ، فهما تميزان ايضاً حتى اتفه اعماله عن أعمال أي وكل انسان كلاسيكي . انه التمييز بين الخلق وبين الموقف ، بين الصيرورة الواعية وبين المناسبة التمثالية البسيطة المسلم بها ، بين الارادة وبين التألم في التراجيدي.

ان كل شيء في هذا العالم كما تراه عين الفاوستي حركة ذات هدف ، والانسان الفاوستي نفسه يعيش مقيداً بمفهوم هذا الظرف ، فالحياة تعني بالنسبة اليه صراعاً وغلبة وانتصاراً كاملاً . زد على ذلك أن الصراع من أجل البقاء بوصفه الشكل المثالي للوجود هو قانون ثابت راسخ حتى في العصر الغوطي (عصر الهندسة المعمارية الذي يبدو فيها الاساس واضحاً) لذلك فان القرن التاسع عشر لم يكتشف جديداً، بل انما كل ما فعله هو أن صاغ هذا القانون (الصراع من أجل البقاء) في شكل ميكانيكي نفعي.

أما في العـالم الأبولوني فانه لا توجد حركة اتجاهية كهذه،فصيرورة هرقليط المتأرجحة اللاهادفة المجردة من كل غاية هي صيرورة لا يؤخذ بها وغير مقبولة، فهي ليست بالبروتستنتية (المذهب - المترجم) وليست بحركة « شتورم أند درانغ » وليست بثورة اخلاقية أو عقلانية أو فنية تهدف الى تدمير وضع قائم. فالاسلوب الايوني والكورنثي يبدوان الى جانب الاسلوب « الدوري » صامتين لا يطالبان بالاعتراف بصحتها الفردية والعامة ، لكن عصر الانبعـاث نبذ الاسلوب الغوطي واطرحه جانباً ، بينما أن اسلوب « التكلسك » رفض الباروكي ، زد على ذلك أن

تاريخ كل آداب اوروبية مليء بالمعارك التي دارت حول قضـــايا الشكل . وحتى رهباناتنا (جمع رهبنة) من هيكلية وفرنسيسكانية ودومينكانية الخ .. تتخذ شكلها كحركة نظام ، وهذا ما يتعارض تعارضاً حاداً « والأسكيسيس » Askesis للراهب في العصور المسيحية المبكرة .

أما أن يدير الرجل الفاوستي ظهره لهذا الشكل الأساسي للوجود ، ناهيك عن تحويله ، فهذا أمر يقع كلياً فوق كل طاقاته ، وهو (الشكل) ايضاً مستلزم حتى في الجهود الرامية الى مناهضته فأحدهم قد يحارب ضد الافكار « المتقدمة » لكنه ينظر طيلة الوقت الى حربه بوصفها عملاً متقدماً . وقد يشاغب آخر ويحرض على قلب الاتجاه وعكسه ، ولكن الذي يقصده حقاً من وراء عمله هذا فإنما هو استمرار التقدم . ان « اللا أخلاقي » هو فقط نوع جديد من « الاخلاقي » وهو يزعم لنفسه الحق ذاته في الأفضلية . فالارادة للقوة (لاحظ لم نقل إرادة القوة -- المترجم) هي إرادة متزمتة لا تعرف التسامح ، وكل ما يريده الانسان الفاوستي هو أن ينفرد وحده في الحكم . أما الشعور الأبولوني ، بما في عالمه من أشياء افرادية متعايشة ، فهو على العكس من هذا إذ أنه بداهة متسامح . ولكن اذا كان التسامح هو في ممـــاشاة « الاتاراكسيا » (البرود الفلسفي) المعدومة الارادة ، فإنه بالنسبة الى العالم الغربي بما لهذا العالم من وحدانية فراغ روح لا متناهية وتفرد في صناعة التوترات ، أقول ان مثل هذا التسامح هو علامة من علامات خداع الذات أو الاضمحلال . لقد كان عصر التنوير في القرن الثامن عشر متسامحاً (أي لا مبالياً) في الخلافات بين شتى المعتقدات المسيحية ، ولكنه فيما يتعلق بعلاقته الخـاصة بالكنيسة ككل فإنه كان أي شيء ما عدا المتسامح وذلك حالما توفرت له القوة ليكون خلافاً لما قيل فيه من تسامح . فالغريزة الفاوستية هذه الغريزة الناشطة القوية الارادة والعمودية في نازعها ككاتدرائيتها الغوطية ، والشامخة « كأناها » الخاصة (ego habeo factum) التي تحدق في الأفق البعيد وفي المستقبل ، انما تطالب بالتسامح - أي بمكان لها في الفراغ -- كي تمارس فيه نشاطها الخاص ، وهذا هو السبب الوحيد فقط لمطالبتهـا بالتسامح . ولنتأمل ، مثلاً ، في مدى استعداد ديمقراطية المدينة للوفاق مع الكنيسة

وذلك فيما يتعلق بادارة الكنيسة للقوى الدينية وتوجيهها بينما نرى أن هذه الديمقراطية تطالب بحقها في الحرية المطلقة في أن تمارس ذاتيتها وفي أن تعدل القانون « العام » كي يطابق رغباتها كلما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

إن كل « حركة » تستهدف النصر وتعنيه ، بينما أن كل « موقف » كلاسيكي يرغب في الكينونة فقط ، وهو لذلك يشغل نفسه قليلاً في اخلاقية جاره . ان الصراع مع أو ضد اتجاه الازمنة لتشجيع الاصطلاح أو الرجعة، البناء والتعمير أو الدمار ، كل هذا هو غير كلاسيكي كما انه ليس بهندي . إنه والحق هو النقيض القديم القائم بين التراجيديا السفوكلية وبين التراجيديا الشكسبيرية ، بين تراجيديا الانسان الذي يستهدف الكينونة فقط وبين تراجيديا الانسان الذي يريد أن ينتصر .

ومن الخطأ الفاحش أن نربط المسيحية الى الملزم الاخلاقي ، فلم تكن المسيحية هي التي بدلت الانسان الفاوستي ، بل إنما كان الانسان الفاوستي هو الذي بدل المسيحية ، فهو لم يجعل منها فقط ديناً جديداً بل انما أعطاها أيضاً اتجاهاً اخلاقياً جديداً . فالـ ... أصبحت الـ ... ، أصبحت مركز العالم المحشو بالحياء والعاطفة والاساس الذي يرتكز اليه السر المقدس العظيم ، سر الندامة الشخصية وانسحاق القلب . (Contrition) .

ان الارادة للقوة حتى في الاخلاق ، والصراع الشجي لاقامة اخلاقية ملائمة بوصفها حقيقة كونية وفرض هذه الاخلاقية على الانسانية فرضاً ، وإن اعادة ترجمة او التغلب او تدمير كل شيء مخالف لها ، هذه الأمور كلها لا يوجد من شيء آخر هو اكثر منها تمييزا لنا. لقد انطلقت الأخلاقية الفاوستية حتى بموجب أخلاقية عصر النبع الغوطي فأجرت تبديلاً باطنياً عميقاً في انطلاق المسيح (ولم يدرك هذا التبديل أبداً حتى الآن) ، فتلك الأخلاقية (المسيحية) التامة في روحانيتها والتي كانت تنبع وتتدفق من الشعور المجوسي (وهي أخلاق أو سلوك نصح به على أنه قادر على تهيئة كل اسباب الخلاص ، وأخلاق عرفت على أنها عمل خاص من نعمة)

أقول إن تلك الاخلاقية قد صيغت من جديد على صياغة جعلتها أخلاقاً لا مر ملزم. ان لكل منهاج أخلاقي ، أكان من أصل ديني أو فلسفي ، ارتباطاً بالفنون العظمى وخاصة بذاك الفن ، فن الهندسة المعمارية ، إذ ان كل منهاج أخلاقي هو مركب من مقترحات ذات طابع سببي (عليّ) ، فكل حقيقة يقصد استخدامها في التطبيق العملي تعرض مع «بسبب» (Because) ومع «بناء على ذلك» (Therfore) فداخل هذه الحقائق يوجد منطق رياضي ، وهذا القول ينطبق على « حقائق بوذا الأربعة » وعلى « نقد العقل العملي » « كنت » وفي كل «تعليم ديني » (Catechism) شعبي . أما ما هو ليس موجوداً داخل مذاهب الحقيقة المكتسبة هذه ، فانما هو المنطق اللاناقد للدم الذي يولد وينضج مستويات السلوك ، تلك مستويات الطبقات الاجتماعية والبشر العمليين (مثلاً الالتزامات الفروسية في عصور الصليبيين) التي لا تتحقق من وجودها وتعيه إلا عندما ينقضها أحد الناس أو يخرج عليها ، فالاخلاق المنهاجية هي ، كما كانت زينة ، وهي لا تظهر فقط المنهاجية ، هي ، كما كانت فيما مضى ، زينة وهي لا تكشف عن نفسها في السنن والنواميس فقط ، بل انما في اسلوب الدراما ايضاً ، وحتى في اختيار نوازع الفن ، فالتعرج مثلاً ، هو نازع رواقي ، والعمود الدوري هو التجسيد كل التجسيد للمثل الاعلى للحياة الغابرة .

ولأن العمود الدوري كان تماماً كما ذكرت ، اطرح ، بالضرورة وبصراحة ، الاسلوب الدوري هذا النهج الكلاسيكي الواحد جانباً ، والحق أن حتى عصر الانبعاث نفسه كان يحذره منه شيء من غريزة روحية بالغة العمق ، والشيء نفسه يقال ايضاً عن تحويل البعثة المجوسية الى سطح مقبب روسي ، وعن الهندسة المعمارية الصينية للمناظر الطبيعية وللدروب الزائفة التائهة ، وعن برج الكاتدرائية الغوطية ، فكل واحدة من هذه هي صورة للاخلاق خاصة فريدة في نوعها ، أخلاق من وعي الحضارة اليقظ .

- ٢ -

والآن فان الالغاز والحيرات القديمة تشرح نفسها ، فهناك عدد من الأخلاقيات يعادل عدد الحضارات لا اكثر ولا أقل . وتماماً كما أن لكل مصور أو موسيقي شيئاً ما في داخله لا يظهر ، نتيجة لقوة ضرورة باطنية ، في الوعي ، بل انما يسيطر على بداهة (à priori) لغة شكل عمله ويميز هذا العمل من عمل كل حضارة أخرى ، كذلك فان كل مفهوم حياة يتشبث به انسان حضاري ما انما يمتلك ايضاً بداهة ، (بأدق ما لهذه الكلمة من معنى كنتي - نسبة الى « كنت ») أي نظاماً اساسياً هو أعمق من كل الاحكام والاجتهادات البرهية ، نظاماً يطبع اسلوب هذه بطابع الحضارة الخاصة . فالفرد قد يأتي عملاً اخلاقياً أو لا اخلاقياً ، وقد يصنع « خيراً » أو « شراً » وذلك من جهة الشعور الأولي لحضارته ، لكن نظرية اعماله ليست نتيجة بل انما هي معلومات ومفروضات (Datum) فكل حضارة تمتلك مستوياتها ومقاييسها ، وصحة هذه تبدأ بها وتنتهي معها . لذا فليست هناك من اخلاقية عامة للانسانية .

مما ورد يتضح انه لا يمكن ان يوجد وليس بالامكان أن يوجد أي تغيير أو تبديل بمفهومه الاعمق . فالسلوك الواعي ، من أي نوع كان ، والذي يرتكز الى قناعات ومعتقدات هو ظاهرة أولية ، هي النازع الرئيسي لوجود تطور الى «حقيقة معدومة الزمان » ، أما الكلمات أو الصور التي تستخدم للتعبير عنها (الحقيقة المعدومة الزمان - المترجم) فهي ذات أهمية قليلة، أظهرت هذه كاثبات للاهوت ، أو كموضوع لبحران فلسفي ، أو بدت كاقتراح أو رمز ، كاعلان عن معتقدات خاصة أو كدحض لمعتقدات غريبة . فيكفينا أن تكون هذه (الحقيقة المعدومة

الزمان) قائمة وموجودة . فهي يمكن أن توقظ ، ويمكن أن تصاغ نظرياً في شكل مذهب ، ويمكن لها أن تبدل أو تحسن بطانة صورتها الذهنية ، ولكن لا يمكن أن تنجب أو تنتج . وكما اننا نحن عاجزون عن تبديل شعورنا بالعالم (وعجزنا هذا يبلغ بنا درجة تجعلنا حتى عندما نحاول تبديله نرغم على اتباع القواعد القديمة فنثبته بذلك بدلاً من أن نطرحه) كذلك فانا معدومو القوة لتبديل القاعدة الأخلاقية لكينونتنا اليقظة. ولقد سبق ان قام بعضهم بوضع تميز معين بين الأخلاق كعلم ، والاخلاق كواجب ، ولكننا كما نفهم الأخلاق ، لا نرى نشوء واجب ، إذ ان قدرتنا على تحويل إنسان ما ليتبع قواعد اخلاقية غريبة عن كينونته ، لا تزيد عن قدرة عصر النهضة على احياء الكلاسيكية ، أو صنع أي شيء من النوازع الأبولونية ، ما عدا صنع فن غوطي تأقلم جنوباً ، فن مناهض للفن الغوطي . اننا قد نتحدث اليوم عن تقييم جميع قيمنا على أسس وقواعد جديدة تكفر بالقديمة وتنبذها .

وبمقدورنا كأبناء لمدن عالمية كبرى أن « نعود الى » البوذية أو الوثنية أو الكاثوليكية الرومانتيكية ، وباستطاعتنا ان نناضل كفوضويين أو فرديين أو اشتراكيين من أجل اخلاق جماعية ، ولكن بالرغم من كل ما نفعله ، فإن شعورنا جميعاً هو الشعور الواحد ذاته وارادتنا كذلك . فالتحول من الصوفية الى التفكير الحر ، أو هناك اليوم احدى حركات الانتقال في الغرب ، وهي الانتقال من المسيحية المزعومة الى الالحاد المزعوم (والعكس بالعكس) فانما هذا لا يعني اكثر من تبديل كلمات السطح الديني أو الذهني وتصوراته ، فلم تبدل أية حركة من « حركاتنا » الانسان .

إن وضع مورفولوجيا لكل الاخلاقيات هو واجب مناط امره بالمستقبل . وهناك ايضاً خطا نيتشه الخطوة الاولى والجوهرية نحو موقف ووجهة نظر جديدين . لكنه فشل في ملاحظة ظروفه وإدراك وضعه ، فلم يعرف بأن على المفكر ان يسمو بنفسه « فوق الخير والشر » . فلقد حاول ان يكون نبياً ومرتاباً في وقت واحد ، وناقداً اخلاقياً ومبشراً بالاخلاق معاً . وهذا أمر

مستحيل لا يمكن انجازه . فالانسان لا يستطيع ان يكون عالمـــاً نفسانياً من الدرجة الاولى طالما لا يزال رومانتيكياً . وهكذا هي حال نيتشه هنا ايضاً، فهو بالرغم من جميـع صولاته المتقاطعة النافذة الباتة لم يبلغ إلا البـــاب حيث وقف خارجه . وعلى كل حال ، فلم يكن غيره احسن منه حالاً في هذا الميدان . والحق أننا كنا متبلدي الافهام وعمياناً عن الثروة العريضة الهائلة التي تختزنها الاخلاق ، كما تختزنها لغات الشكل الاخرى .

وحتى المتشكك نفسه لم يدرك واجبه ، فهو في اعمـاقه ، كغيره من الناس ، يجعل من تصوره الخاص للاخلاق هذا التصور المستمد من فطرته الخاصة وذوقـه الشخصي مقياساً يقيس بـــه الاخرين . وزد على ذلك ان الثوريين المعاصرين (سترنر ، ابسن ، ستراندبرغ ، وشو) يسلكون ايضاً السلوك نفسه ، فهم قـــد استطاعوا فقط أن يتدبروا أمر اخفاء الحقائق (عن أنفسهم وعن الاخرين ايضاً) وراء صيغ وشعارات جديدة .

لكن الأخلاق هي كالنحت والموسيقى وفن التصوير ، أي انها عالم شكل قائم بذاتـه ومعبر عن شعور بالحياة . انهـــا معلومات ومفروضات غير قابلة اساســـاً للتبديل أو التغيير ، إنهـــا ضرورة باطنية ، وهي دائماً صحيحة داخل دائرتها التاريخية ، وأبداً غير صحيحة خارجها . وكما سبق لنا أن رأينا أن مـا تعنيه المنجزات العديدة للشاعر او الموسيقي او المصور ، هو نفس ما تعنيه انواع الفن العديدة للفرد الأرقى الذي ندعوه بالحضارة ، وأعني الوحدات العضوية ، ورأينا ايضاً ان التصوير الزيتي ككل ، والنحت ككل ، والموسيقى الكونتربونتيه ككل ، والشعر الغنائي الايقاعي ككل الخ .. هي جميعاً صانعة حقبة تاريخية ، وهي بوصفها كما ذكرت تحتل مرتبتها كرموز رئيسية للحياة . فنحن نتعامل في تاريخ الحضارة كما نتعامل في الوجود الفردي، مع تحقيق الممكن ، وهذه هي قصة الروحانية الباطنية التي تصبح اسلوب عالم .

ونشهد الى جانب وحدات الشكل العظمى هذه التي تنمو وتكمل ذاتـــه ذاتها وتنغلق داخل سلسلة من الاجيال قُدرت وعينت من قبل ، لم تحتمل لقرون

قليلة لتنتهي الى موت لا رجعة بعده ، أقول نشهد الى جانب هذه مجموعة الاخلاق الفاوستية ومجموع الأبولونية كفردين من نظام أرقى . أما جوهرها وحقيقتها (الاخلاق) فهما المصير فهي معلومات ورؤيا (أو بصيرة علمية كما قد تكون الحال) ولكن ما عليك إلا أن تصوغها في شكل الوعي

ان هناك شيئاً ما لا يوصف ، وهو ذاك الذي يحشد كل النظريات ابتداء من هسيود وسوفوكليس الى افلاطون والرواق (Stoa) ليجابهها مجتمعة بكل ما عُلم ابتداء من فرنسيس « الأسيس » (Assisi) و « ابـلارد » (Abelard) فابسن فنيتشه ، وحتى أخلاق المسيح التي هي التعبير الأنبل الوحيد لاخلاقية عامة والتي صاغها مارسيون (Marcion) وماني، فيلو وبلوطونيوس،ابكتيتوس (Epictetus) واوغسطين وبروكليس (Proclus) ان كل الأخلاق الكلاسيكية هي اخلاقية موقف ، أما كل الاخلاق الغربية فانما هي اخلاقية فعل . وبالمثل فان مجموع كل المناهج الهندية ، وكل المناهج الصينية ، يشكل كل واحد من هذين المجموعين عالماً خاصاً به .

- ٣ -

إن كل اخلاقية كلاسيكية نعرفها أو نستطيع ان نتصورها ، تنظم الانسان بوصفه ذاتية سكونية ، جسماً بين أجسام، بينما أن كل التقييمات (Valuations) الغربية تنظر اليه بوصفه مركزاً للتأثير داخل عمومية لا متناهية . أما الأخلاق الاشتراكية فليست اكثر أو اقل من عاطفة عمل يقع بعيداً ، انها عاطفة البعد الثالث ، كما وأن شعور الجذر ، والاهتمام ، (الاهتمام بهؤلاء الذين يعيشون معنا ، وبأولئك الذين سيتبعون) هو شعار هذه العاطفة المرسوم في السماء ، ولهذا فاننا نجد شيئاً ما اشتراكياً بالنسبة الينا في الحضارة المصرية ، بينما أن النازع المعاكس

لهذا ، النازع الى الموقف الجامد والى اللارغبـــة والى الاستقلال الذاتي السكوني للفرد ، يذكرنا بالاخلاق الهندية وبالانسان الذي صنعته هذه الاخلاق . إن تمثال بوذا الجالس (إذا ما نظرنا الى سرة بطنـــه) واللامبالاة الفا لمفية (Ataraxia) لزينون ليسا غريبين عن بعضهما بعضاً . فالمثل الأعلى الاخلاقي للانسان الكلاسيكي ، كان ذاك الذي مورس في تراجيديته وكشف عنه في تطهير هـــذا المثل وتنقيته . (Katharsis) وهذا يعني في اعمق اعماقه تطهير النفس الأبولونية من كل شحنة ليست بأبولونية ، وليست طليقة من قيود عناصر المسافة والاتجاه ، ولكي نستطيع أن نفهم الاخلاق الأبولونيـــة علينا ان ندرك ان الرواقية هي ببساطة الشكل الناضج لها .

فذاك الذي أحدثته الدراما خلال ساعة وقورة في نفس الانسان الكلاسيكي من أثر ، كان الرواق (Stoa) يرغب في نشره في كامل ميدان الحياة ، واعني به الثبات التمثالي والاخلاقية الشعبية (Ethos) المعدومـة الارادة . والآن أليس مفهوم هـــذا مشابهاً شبهاً قريباً للمثل الأعلى البوذي النرفانا ، التي هي بوصفهـــا قانوناً متأخرة جداً في الزمان ، ولكن بوصفها جوهراً هي عريقة في هنديتها ويمكن لنا أن نتعقب آثارها حتى ابتداء من الأزمنة الفيدية ؟ وهذه القرابة ألا تقرب جداً بين الانسان الكلاسيكي المثالي وبين صنوه الهندي وتفرق بينهما وبين ذاك الانسان الذي تتجلى اخلاقيته في التراجيدي الشكسبيرية ، تراجيدي التطور الديناميكي والكارثة ؟ ونحن عندما نتأمل فيما بين الكلاسيكية والهندية من قرابة لا نجد مما لا يقبله العقل أن نرى سقراط وابيقور وخاصة ديوجينس يجلسون على ضفة نهر الكنج ، بينما أن ديوجينس لو قدر له أن يسلك سلوكه ذاك في مدينة عالمية غربية لما تجاوز شأنه شأن الأحمق لا يؤبه له . ومن جهة اخرى فان فريدريك وليم الاول ، هذا النموذج الأصلي للاشتراكي بمفهومـه الرفيع ، هو شخص لا يمكن للعقـــل ان يفكر به في نظام الدولة على ضفاف النيل ، بينما انه هو رجل مستحيل في اثينـــا بركليس .

ولو أن نيتشه تأمل في أيامه بأهواء أقل ، وبميل أخف الى البطولة الرومانتيكية

لمنجزات اخلاقية معينة ، لكان قد أدرك أن أخلاق الشفقة والرحمـــة المسيحية بوجه أخص لا وجود لها على ثرى اوروبا الغربية .

وعلينا ألا نسمح لكلمات القوانين الرحيمة أن تضلنا عن المغزى الحقيقي لهذه القوانين. فهناك بين الاخلاق التي يمتلكها المرء وبين الاخلاق التي يفكرها الانسان في المرء علاقة غامضة جداً وغير ثابتة ابداً ، وعند هذه النقطة تمامـــاً ، تصبح السيكولوجيا المنزهـة عن الغرض غير ذات قيمة . فالرحمة كلمة خطرة ، ولم يقم نيتشه (بالرغم من كل صولاته) أو أي انسان غيره حتى الآن بتحري معنى هذه الكلمة (مفهوماً وأثراً) في شتى الازمنة ومختلف العصور. فالاخلاقية المسيحية في عصر اوريجين (Origen)[1] تختلف تمامـاً عن الاخلاقية المسيحية في عصر القديس فرنسيس .

وليس هذا هو موضع البحث فيما تعنيه الرحمة الفاوستية (هل تعني تضحية أو ثورة وغلياناً أو غريزة عرق (Race) في مجتمع فروسي) وذلك في تعارضهـــا والنوع المجوسي المسيحي الجبري من الرحمـة ، أو الى أي مدى يجب أن ندركها كعمل يقع بعيداً وكديناميكية عملية ، أو (من وجهة اخرى) كطلب نفس لها كبرياؤها ،أو ثانية كمنطق لشعور بالمسافة عات غطريس . فهناك مخزون معين من عبارات اخلاقية ، كالعبارات التي نمتلكها منذ عصر الانبعاث ، يتوجب عليها ان تغطي جمهرة من الآراء وجمهرة اخرى اضخم من المعاني . وعندمـــا يقوم جنس بشري مفطور على التاريخ وعلى كل مـــا له أثر رجعي الى ذاك الحد الذي نحن مفطورون عليه بقبوله السطحي بوصفه المعنى الحقيقي وباعتبار المثل العليـا كمادة موضوعة لمجرد المعرفة ، فانه يكون عندئذ يدلل حقاً على احترامه للماضي، (وفي هذه اللحظة الخاصة على احترامه للتقاليد الدينية) .

---

١ ـ كاتب يوناني ومعلم وأحد اقطاب الكنيسة ١٨٥ ؟ ـ ٢٥٤ ؟

(المترجم)

إن شاهد المعتقد ليس ابداً الشاهد على حقيقته ، وذلك لأن الانسان نادراً ما يعي معتقداته الخاصة. فالشعارات والمذاهب هي دائماً شعبية تقريباً وهي ظاهرية اذا ما قورنت بالوقائع الروحية العميقة . إن احترامنا النظري لآراء العهد الجديد هو فعلاً من نفس نوع الاحترام النظري لعصر الانبعاث ولعصر « التكلسك » للفن الكلاسيكي ، والاول لم يغير روح الانسان كما وان الثاني لم يبدل روح المنجزات. أمـا تلك الأمور التي كثيراً ما يستشهد بها ، كأنظمة رهبنات الرهبان المتسولين (Mendicant) والمورافيين وجيش الخلاص فانهـا تبرهن بندرتها وحتى اكثر من ذلك بضآلة أثرها على انها شواذ عمومية جد مختلفة ، أي شواذ الاخلاق المسيحية الفاوستية . فالأخلاق لا يصوغها لوثر أو مجمع « ترنت » لكن جميع المسيحيين من الطراز الرفيع (كإنوسنت الثالث وكالفن وليولا وسافونا رولا وباسكال والقديسة تيريزا) كانوا يمتلكونها داخل ذواتهم حتى في حالات تعارض هـــذه الاخلاق اللاواعي وتعاليمهم الرسمية الخاصة .

ولكي ندرك الفرق بين الاخلاقية الكلاسيكية والاخلاقية الغربية ، علينـا فقط أن نقارن بين المفهوم الغربي المجرد لفضيلة الرجولة التي سماهـــا نيتشه (Moralin frei) « الفضيلة الطليقة من الأخلاق » ، أو الـ (Grandeazz) للاسبانية ، والـ (Grendeur) للباروكية الفرنسية ، وبين الفضيلة البـــالغة في انوثتها . . . المثل الاعلى الهيليني الذي يتوجب علينا تطبيقه العملي بوصفه قدرة على التمتع . . . ووداعة الفطرة ، وانتفاء للحاجات والمطالب ، وفوق كل هذا كذاك النموذجي الـ . . . ، إن مـــا سماه نيتشيه بالوحش الاشقر ، وآمن به تجسداً لانسان عصر الانبعاث الذي بالغ نيتشه في تقدير قيمته (لأن هذا الانسان كان في واقعه ثعلباً (إبن آوى) وصورة ممسوخة (مزورة) للالمان العظام في عهد آل هوهنشتاوفن) انما هو النقيض كل النقيض لذاك النموذج الذي تعرضه علينا كل اخلاقية كلاسيكية دون استثناء ، وهو الذي تجسده كل انسان كلاسيكي ذي قيمة ووزن .

لقد انجبت الحضارة الفاوستية سلاسل طويلة من الرجـال الفولاذيين ، لكن الحضارة الكلاسيكية لم تنجب أي رجل من هذا المعدن. وذلك لأنه كان لبركليس

وتيموستكليس طبيعتان رقيقتان متناغمتان وال ... الاتيكية ، أما الاسكندر فكان رومانتيكياً لم يستيقظ أبداً من رومانتيكيته ، وقيصر كان حاسباً اريباً ذكياً . أما هانيبال ، الغريب ، فكان وحده « الرجل » بينهم . زد على ذلك ان رجال العصور الغابرة كما يعرضهم علينا هوميروس (الاوديسي واجاكس) كانوا لا شك سيبدون شخصيات شاذة بين فرسان الصليبيين .

ان ذوي الطبائع الانثوية هم ايضاً قادرون على الشراسة ، الشراسة الوثابة والارتدادية الخاصة بهم ، ولقد كانت الوحشية الاغريقية من هذا النوع ولكن في الشمال يظهر الأباطرة السكسونيون والفرنكيون والهوهشتاوفن عند اول عتبة الحضارة محاطين برجال عمالقة كهنري الاسد (Henry the Lion) وغريغوري السابع ، ثم يعقب هؤلاء رجال عصر الانبعاث ، كرجال صراع الوردتين ، (The Struggle ofthe Two Roses) وحروب الهوغنوت والغزاة الاسبان والملوك والأمراء الناخبين [1] البروسيين (Elector) ونابليون وبسمارك وسيسيل رودس . ثم أين يوجد في كل التاريخ الهيليني مشهد جبار كمشهد عام ١١٧٦ ، حيث تشكل معركة لينغانو (Legnano) صدر صورته ، ثم يؤلف صراع آل هوهنشتاوفن والفلف (welf) العظام هذا الصراع الذي يكشف فجأة عن غاياته ، مؤخرة صورته ؟ ثم ابطال الهجرات العظام ، والفروسية الاسبانية والحيوية النابليونية ، فكم هو عدد الرجال والأشياء من هذا النوع الذين تمتلكهم الحضارة الكلاسيكية ؟ وأين نجد على ذرى الاخلاق الفاوستية ابتداء من الحروب الصليبية حتى الحرب العالمية (الاولى) أي شيء من « اخلاق العبيد » ، من الاستسلام الوديع ، أو خلق الشما [2] ؟

اننا لا نجد هذه الأمور في أي مكان ما عدا في الكلمات التقية الورعة . ان طراز

---

١ — الملوك والامراء الذين كان يحق لهم انتخاب الامبراطور .

(المترجم)

٢ — مؤنث شماس .

الكهانة بالذات هو فاوستي سداة ولحمة ، ولنتأمل بأولئك المطـــارنة اللامعين للامبراطورية الالمانية القديمة الذين قادوا من على ظهور خيولهم رعاياهم الى المعركة الضارية الوحشية ، أو في اولئك الباباوات الذين استطاعوا ان يفرضوا الخضوع والاذعان على هنري الرابع وفريدريك الثاني ، أو في الفرسان التيوتون في اوستمارك (Ostmark) ، أو في تحدي لوثر الذي يمثل انتفاضة الوثنية الشمالية القديمة على الوثنية الرومانية ، أو في الكرادلة العظـام (ريشيليو ، مازاران ، فلوري) الذين صنعوا فرنسا . هذه هي الاخلاق الفاوستية ، ولا شك ان الانسان يجب أن يكون أعمى اذا لم يرها ناشطة فعـــالة في ميدان تاريخ اوروبا الغربية بأكمله .

ونحن لا نستطيع الا بواسطة برهات عظيمة كهذه من عاطفة عالميـة تعبر عن وعي الرسالة ، أن نفهم اولئك الرجال من ذوي العاطفة الروحية العظيمة ، والخلق المستقيم الذي لا يستطيع ان يقاومه أحد ، وندرك البر (الاحسان) الديناميكي الذي لا يشبه من قريب أو بعيد الاعتدال الكلاسيكي والرقة المسيحية المبكرة. فهنـــاك صلابة في نوع الشفقة التي مارسها الصوفيون الالمان وفي رحمة الأنظمة العسكرية من ألمانية واسبانية وفي الشفقة الكالفينية من فرنسية وانكليزية . أما في الشفقة الروسية ، وأحسن نموذج لها هوراسكولنكوف ، فاننا نرى نفساً تذوب في تآخيها والنفوس ، بينما أننا نرى في الشفقة الفاوستية نفساً تنبعث منها انبعاثاً . وهنا ايضاً الـ (Ego Habeo Factum) هي قانون . فالبر الشخصي هو التبريـر أمام الله الشخص ، أمام الفرد .

وهذا هو السبب الذي يجعلنا نحترم دائماً وفق المفهوم اليومي للاحترام، أخلاق الشفقة ، ويجعل أحياناً المفكر يأمل في ألا تتحقق ابداً . ولقد رفض كنت اخلاق الشفقة بعزم وتصميم ، والحق أن هذه الاخلاق تتعارض تعارضاً عميقاً والملزم البات القاطع الذي يرى ان معنى الحياة يكمن في الاعمـال وليس في الاستسلام للآراء الرقيقة الشفوقة . أما « أخلاق العبيد » لنيتشيه فهي شبح ، لكن اخلاق سادته هي الحقيقة . ان الاخلاق لا تتطلب صياغة قانونية كي تصبح فعالة نافذة الأثر ، فهي

موجودة وقائمة منذ القديم . فأنت إذا ما نزعت عن انسان نيتشيه قنــاع بورجيا ونزعت من نيتشيه رؤياه الضبابية للسوبرمان ،فان ما يبقى من انسانه هو الانسان الفاوستي نفسه كما هي حــال هذا الانسان اليوم وكما كانت في أيام الاسطورة (Saga) ، أي النموذج لحضارة نشيطة فعالة ديناميكية مُلزمـة . ومها كانت الحال في العالم الكلاسيكي ، فان محسنينا العظام هم المحسنون العظـام حيث أن بصيرتهم الثاقبة واهتمامهم يؤثران في الملايين من البشر ، وهؤلاء المحسنون هم رجال الدولة العظام والمنظمون الذين هم نوع من الناس أرقى، والذين يستخدمون، بفضل ما لديهم من أرجحية إرادة ومعرفة وثراء ونفوذ، أوروبا الديمقراطية بوصفها اداتهم الأشد حركة وكفاءة ، كي تطال أيديهم الخاصة مصائر الارض ، وأن يصوغوا بوصفهم فنانين « الانسان » نفسه . « فكفانا - فان الوقت لا شك آت الذي سيجهل فيه الانسان فن السياسة ويتعلمه من جديد . » على هذا الشكل أنقذ نيتشه ذاته من آلامها بواسطة احـدى نبذه التي لم تنشر ، هذه النبذ التي هي أشد ثباتـاً بكثير من مؤلفاته المنجزة .

« علينا أن ننجب قدرات سياسية وإلا فإن الديمقراطية التي فرضت علينا فرضاً بواسطة فشل بديلاتها ستدمرنا تدميراً . »هذا ما يقوله جورج برنارد شو في مسرحيته « الانسان والانسان الاسمى » . وبالرغم من أن أفق شو الفلسفي هو أفق محدود، إلا انه يتفوق على نيتشه في الدراسة العملية وفي الأقل من الأيديولوجيـة ، زد على ذلك ان شخصيــة المليونير الكبير « أندرشافت » في مسرحيته ماجور باربارة تترجم المثل الأعلى للسوبرمان الى اللغة اللارومانتيكية للعصر الحديث (الذي هو فعلاً نبعها الحقيقي بالنسبة الى نيتشه ايضاً ، بالرغم من انها قد وصلت اليـه بصورة غير مباشرة من ملثس وداروين) .

ان رجال الأمر الواقع من الطراز العظيم هم اليوم ممثلو الارادة للقوة والسيطرة على مصائر الناس ، ولهذا فهم يتحلون بصورة عامة بالاخلاق الفاوستية .

إن رجالاً من هذا النوع لا ينثرون ملايينهم على الحــالمين وعلى « الفنانين » وضعاف النفوس ومنكسري الخواطر كي يشبعوا أريحية لا حد لها ، بل انمــا

اجل أولئك يستخدمون ملايينهم من أجل الذين مثلهم ، يعتبرون مادة المستقبل. فهم يتعقبون هدفاً معهم ، ويقيمون مركزاً للقوة من أجل وجود الاجيال التي يمتد بها العمر الى ما بعد حياة الافراد [1]. ان باستطاعة المال المجرد ايضاً أن يُطور الآراء ويحسنها وان يصنع تاريخاً . فسيسيل رودس (طليعة ذاك النموذج من الرجال الذين سيكونون خطيري الشأن حقاً في القرن الحادي والعشرين) قد قدم بتخليه الطوعي عن ممتلكاته الدليل على أن المال المجرد يجب أن تكون له القوة ليفعل ما ذكرت . انه والحق لحكم ضحل عاجز عن فهم التاريخ فهماً باطنياً ، ذاك الحكم الذي لا يستطيع أن يميز ثرثرات الاخلاقيين الاجتماعيين الشعبيين ورسل الانسانية من الغرائز الاخلاقية العميقة للمدنية الاوروبية الغربية .

إن الاشتراكية ، بمفهومها الأرفع وليس وفق مفهوم زوايا الشارع لها ، هي ككل مثل أعلى فاوستي آخر ، محصورة بالجنس البشري الفاوستي . ويعود الفضل في شعبيتها فقط الى سوء فهمها الكامل الذي لا ينجو منه حتى معظم المنافحين عنها والداعين اليها اذ أنهم يعرضونها بوصفها مجموعة من الحقوق ، بدلاً من كونها مجموعة من الواجبات ، والغاء للملزم «الكنتي» بدلاً من أن تكون تشديداً عليه وتعضيداً له وقوة معطلة للحيوية الاتجاهية بدلاً من كونها قوة دافعة لها .

إن النازع السطحي التافه الى المثل العليا « للرفاه » « والحرية » « والانسانية » والمذهب القائل « بأعرض سعادة لأكبر عدد » هي نفي خالص للاخلاق الفاوستية . لكن هذا النازع يختلف تماماً عن النازع الأبيقوري الى المثل الأعلى «للسعادة» وذلك لأن شرط السعادة الأبيقورية كان المجموع الفعلي للاخلاق الكلاسيكية وجوهرها . وهنا تماماً يصادفنا مثال يبدو أحياناً بكل مظهره الخارجي هو المثال نفسه ، لكنه بالفعل يعني في احدى الحالات شيئاً وفي الاخرى غيره . ولهذا باستطاعتنا من وجهة

---

١ — اود هنا ان الفت نظر القارىء الى التشاؤم المرعب الذي تنطوي عليه جملة « من اجل وجود الاجيال التي يمتد بها العمر الى ما بعد حياة الافراد . »

ــ المترجم ــ

النظر هذه أن نحدد محتوى الاخلاقية الكلاسيكية على انه « فيلانتروبي »[1] (Philanthropy) (البذل في سبيل الانسانية) ، أي منحة ينعم بها الانسان على نفسه . (على سوماه Soma) وهذه النظرة يساندها ارسطوطاليس ويؤيدها وذلك لأنه يستعمل وفق هذا المفهوم تماماً كلمة ... التي وجدتها أفضل رؤوس عصر التكلسك ، وفوفهم جميعاً ، ليسنغ مذهلة محيرة . إن ارسطوطاليس يصف الأثر الذي تحدثه التراجيديا الأتيكية في نفس المشاهد الأتيكي بأنه أثر «فيلانتروبوي» « فشائية » التراجيدي (Perpeteia) تريح المشاهد من التعاطف ونفسه . ولقد وجد في الهيلينية ايضاً نوع من نظرية تقول باخلاق السادة واخلاق العبيد ، وذلك في كاليكلس Callicles مثلاً ، ومن البدهي أن هذه النظرية كانت تعتمد على فرضيات صارمة في يوقليديتها الجسمية . لقد كان « السيبيادس » المثل الأعلى للسادة ، والسيبيادس هذا كان يفعل تماماً ما توحيه اليه البرهة الفورية بأنه هذا هو أفضل ما يفعله لشخصه بالذات ، ولقد أعجب به العالم الكلاسيكي وأحس به على أنه النموذج « للكالوكاغاتيا Kalokagathia » الكلاسيكية . ولكن بروتاغوراس لا يزال أشد وضوحاً من السيبيادس وذلك في فرضيته المشهورة (وهي فرضية اخلاقية الهدف) القائلة بأن الانسان (ويعني كل انسان ونفسه) هو معيار الاشياء ومقياسها . هذه هي أخلاق السادة في نفس تمثالية .

- ٤ -

عندما سطر نيتشه شبه الجملة القـــائلة : « إعادة تقييم كل القيم وفق مقاييس جديدة ونبذ المقاييس القديمة واطراحها » (Transvaluation of all values) [١] وجدت لأول مرة الحركة الروحية للقرون التي نعيش فيها قانونهـا (Formula) . فالتقييم الثوري لكل القيم هو الطابع الأهم جوهراً لكل مدنية ، وذلك لأن مطلع المدنية هو الذي يعيد صياغة جميع اشكال الحضـــارة التي عرفت من قبل ويفهمها على وجه مغاير ويمارسها بطريقة مختلفة . فمطلع المدنية لم يعـــد قادراً على الانجاب ، لذلك فمهمته أن يعيد ترجمة الاشكال فقط ، وهنا تكمن السلبية المألوفة في كل المراحل التي هي من هـــذا النوع . فمطلع المدنية يزعم بأن عمل الابداع الأصيل قد حدث وانتهى ، فيباشر التصرف في تركة من الوقائـع الضخمة . وقد وقعت هذه الحادثة في العصور الكلاسيكية المتأخرة زمناً داخل الرواقية الهيلينية الرومانية ، التي تمثل صراع الموت الذي كانت تعانيه النفس الأبولونية. ففي خلال الفترة الممتدة من سقراط (الذي كان الأب الروحي للرواق والذي تجلت فيه اولى علائم فقر ذهنية المدنية) حتى ابكتيتوس Epictetus « ومارك اوريل » أعيـــد تقييم كل مثل أعلى للوجود في الحضارة الكلاسيكية تقييماً ثورياً . أمـا في الهند فان مثل هذا تقييم للحياة البراهمية فقد انجز وتم في عهد الملك آسوكا ،(٢٥٠ق م) وهذا ما نستنتجه عندما نقارن بين أجزاء الفيدانتا (Vedanta) التي دونت قبله

---

١ — سنترجم Tranvaluation منذ الآن فصاعداً بالتقييم الثوري ، وذلك لأن مثل هـــذا التقييم يمثل وفن مفهوم اشبنغلر ثورة المدنية على الحضارة .

—المترجم—

وتلك التي دونت بعـــده . ونحن ما هي حالنا ؟ انه كما سبق لنا ورأينا ، ان الاشتراكية الاخلاقية للنفس الفاوستية وخاصة اخلاقيتها الاساسية، لا تزال تكابد حتى الآن عملية تقييم ثوري بوصف تلك النفس (الفاوستية) قد غلفت بحجر المدن الكبرى. ان روسو هو الجد الأعلى لهذه الاشتراكية،وهو يعتبر كسقراط وبوذا، الناطق الرسمي بلسان مدينة عظمى فرفض روسو لجميع الاشكال العظمى للحضارة، وجميع التقاليد الهامة والخطيرة الشأن ، ومذهبه المشهور القائل « بالعودة الى الوضع الطبيعة » كل هذه الأمور هي براهين أكيدة على صحة ما ذهبت اليه . ان كل واحد من هؤلاء الثلاثة (سقراط ، بوذا، روسو ،) قد دفن دورة الفية من السنين من العمق الروحي . وكل واحد من هؤلاء بشر بانجيله بين الجنس البشري ، لكن هذا الجنس البشري كان انتلجنسيا المدينة الذين كانوا قد تعبوا وملوا البلدة والحضارة المتأخرة زمناً ، والذين كان عقلهم المجرد (أي عقلهم المعـدوم النفس) يتوق الى التحرر منها ومن شكلها الحازم البات ومن شظفها ، ومن الرمزية التي لم تعـد تضمهم واياها شركة حية ، لذلك احتقروها ونبذوها. فالحضارة قد أبادها الجدل ودمرتها المناقشة ، ونحن إذا ما مررنا مستعرضين الأسماء العظمى التي أنجبها القرن التاسع عشر والتي نربط بها زحف هذه الدراما العظمى (شوبنهور،هيبل ، فاغنر، نيتشه، إبسن ،وستروندبرج)،عندئذ ندرك بلمحة واحدة ما عناه نيتشيه وأورده عامـداً متعمداً وصادقاً في مقدمته الهتامية لأعظم مؤلف له ، ودعاه بحلول العدمية. ان كل انسان ينتمي الى أية حضارة من الحضارات العظمى يعرف بالعدميـة ، وذلك لأنها ضرورة عميقة ملازمة للمرحلة الختامية لهذه الأنظمة العضوية الجبارة (الحضارات — المترجم) . فسقراط كان عدمياً وكذلك بوذا ، وهناك ايضاً تجريد مصري أو عربي أو صيني للكائن البشري من نفسه ، تماماً كما هي الحال في الغرب. وهـذا الامر ليس لا يمثل مجرد تغييرات سياسية واقتصادية ولا تبـديلات دينية وفنية ، بل انما يمثل وضع نفس عقب أن حققت امكاناتها تحقيقاً تاماً. انه لمن السهل ، لكنه العقيم ، أن نشير الى ضخامة المنجزات الهيلينية والاوروبية الحديثـة ، فالعبودية الجماعية ، والانتاج الميكانيكي بالجملة ، «والتقدم» واللامبالاة الفلسفية (Ataraxia) ،

والاسكندرانية (نسبة الى الاسكندرية) والعلوم المدنيـة ، وبيرغاموم وبابرويت ، والاوضاع الاجتماعية كما زعمها ارسطوطاليس وكما زعمها كارل ماركس، كل هذه الأشياء هي مجرد عوارض على السطح التـاريخي . فليست الحياة الظاهرية أوالسلوك وليست المؤسسات والعادات هي موضوع التساؤل هنا ،فالموضوع الذي يدور تساؤلنا حوله انما يتمثل في اعمق الأشياء وآخرها ، فهو يدور حول الانتهاء الباطني (Finishedness) لانسان المدينـة الكبرى ، كما يدور حول انتهــاء انسان الريف ايضاً . وهذا الظرف قــد بدأ يعانيه العـالم الكلاسيكي في الحقبة الرومانيـة ، أما نحن فاننـا سنبدأ بمعاناته ابتداء من عــام ٢٠٠٠ تقريبـاً .

الحضارة والمدنية ، الاولى تمثل الجسد الحي للنفس والثانية مومياءها وهـذا الفرق يبدأ بالنسبة الى الوجود الغربي قرابة عام ١٨٠٠ ، اذ أننـا نشاهد على أحد جانبي الحد ، الحياة باكتمالها وثقتها الراسخة بنفسها وقد تشكلت نتيجـة لنمو باطني وذلك خــلال تطور عظيم مستمر ابتدأ بالطفولة الغوطية وامتد حتى غوتيه ونابليون ، بينما نشاهد على جانب الحد الاخر الحياة الخريفية الاصطناعية المعدومة الجذور لمدنا الكبرى ، حياة تتسربل باشكال صاغها لها العقل .

الحضارة والمدنية ، الاولى نظـام عضوي أولدتـه الارض الأم ، والثانيـة انجبتها الميكانيكية المنطلقة من الصناعة المخشوشنة ، فالرجل الحضاري يحيا باطنـاً ، بينما أن رجل المدنية يعيش ظاهراً في الفراغ وبين الاجسام و « الوقائع » . أما ما يشعر بــه الاول على انه مصير ، فانمــا يفهمه الثاني على انه ترابط بين العلل والمعلولات ، ولذلك يصبح هذا الثاني مادياً (وفق مـا لكلمة المادية من مفهوم ينطبق على المدنية والمدنية فقط) شاء أم أبى ، فهو مادي وبغض النظر عمـا اذا كانت المذاهب البوذية والرواقيــة أو الاشتراكية ترتدي لبوس الدين أو لا ترتديها .

كان كامل عالم الشكل الفسيح من فن ودين وعادة ودولة ومعرفة وحيــاة اجتماعية بالنسبة الى الانسان من فن غوطي ودوري وايوني وباروكي ، عالمـاً سهلا

هيناً فكان باستطاعة هؤلاء أن يحملوه وينفذوه دون أن « يعرفوه ». فلقد كانوا يسيطرون على رمزية الحضـــارة السيطرة الطليقة ، تلك التي كانت لموزارت على الموسيقى .

فالحضارة هي البدهية الغنية عن البيان ، لأن الشعور بغرابة اشكالها، والفكرة القائلة بأن اشكالها عبء تطالب الحرية المبدعة باعفائها منه، والنازع الى تفحص هذه الاشكال على ضوء العقل كي ينتفع بهـــا على وجه افضل ، والضريبة المميتة التي يفرضها الفكر على النوعية الغامضة للابداع ، كل هذه الامور هي عوارض نفس بدأت تعـــاني التعب ، وذلك لأن الرجل المريض هو وحـــده الذي يحس بأعضائه .

وعندما يشيد الناس ديناً غير ميتافيزيقي ليناهض المذاهب والعقائد ، وعندما يشترع « قانون طبيعي » مضاداً لقانون تاريخي ، وعندما تخترع الاساليب في الفن اختراعاً ، ولا تعود اساليب بالولادة أو مكتسبة ، وعندما يفهم الناس الدولة على أنها «نظام مجتمع» لا يمكن فقط تبديله بل انما يتوجب ايضاً تبديله ، حينئذ يصبح جلياً واضحاً ان شيئاً ما قد تحطم وتهشم .

فالمدينة العالمية الكبرى ، البالغة في لاتعضيها ، تنتصب مستقرة بمبانيها وسط المنظر الطبيعي للحضارة ، هذا المنظر الذي تستأصل المدنية جذور أهليه وتغرقهم في جوفها وتستهلكهم استهلاكاً .

إن العوالم العلمية هي عوالم انتشارية مجردة ، وعليهـا ترتكز الافكار البوذية والرواقية والاشتراكية على حد سواء . فالحياة لم تعد تعاش كأنها شيء ما غني عن البيان ، قضية نادراً ما تتعلق بالوعي ، ناهيك عن الاختيار ، أو أمراً مسلماً به بوصفه مصيراً بارادة الله ، بل انما اصبحت تعالج كمعضلة تعرض كما يراهـا العقل ، وتوزن بميزان « نفعي » أو عقلي . وهذا هو جوهر ما تعنيه البوذية والرواقيـــة والاشتراكية . فالدماغ يسيطر ويحكم لأن النفس قد تنازلت عن عرشها .

والرجل الحضاري يحيا على صورة لا واعية ، بينما ان رجل المدينة يعيش بوعي ،

فابن المدينة الشكاك المرتاب العملي الاصطناعي هو وحده الذي يمثل المدنية اليوم . أما ثري الريف المترامي ما وراء أبوابها فليس له أية قيمة أو وزن . « فالشعب » يعني سكان المدينة الذين يشكلون كتلة غير متعضية ويؤلفون شيئاً مـا مائعاً متذبذباً. فالفلاح ليس ديمقراطياً، (وهذا تصور ينتمي ايضاً الى الوجود الميكانيكي المتحضر) ولذلك يهمل الفلاح ويحتقر وينبذ وعندما تختفي الضياع القديمة (النبلاء ورجال الكهنوت) حينئذ يصبح الفلاح الكائن العضوي الوحيد والأثر الأوحد للحضـارة المبكرة . وليس للفلاح من مكان في أي من الفكر الرواقي أو الاشتراكي .

وهكذا فان فاوست الجزء الاول من المأساة، الطالب العاطفي المجد والدارس في منتصفات الليالي هو منطقياً الجد الأعلى لفاوست الجزء الثـاني وللقرن الجديد النموذج للنشاط المجرد في عمليته وبعد نظره واتجاهيته الخارجية . ففيه قـد يتنبأ غوتيه نفسانياً بكامل مستقبل اوروبا الغربية . فهو مدنية تحل محل حضـارة ، وميكانيكية خارجية تستولي على مكانة نظام عضوي باطني ، انه ذهن كتحجر لنفس خامدة . وكما هي حـال فاوست البداية بالنسبة الى حال فاوست النهـاية ، كذلك ايضاً هي حال الانسان الهيليني في عصر بركليس ، بالنسبة الى الانسان الروماني في عهد قيصر .

- ٥ -

طالما ان انسان حضارة ما تقترب من اكتمالها لا يزال يعيش حيـــاته المنطلقة أمامه مباشرة بصورة طبيعية لا يخامره خلالهـا أي تساؤل أو سؤال ، فان لحياته عندئذ سلوكاً مستقراً . وهذا السلوك هو الاخلاق الغريزية التي قـد تتخفى تحت ألف شكل قابل للجدل ، لكن هذا الانسان لا يجادل اخلاقه أو يناقشها وذلك

لانـه يمتلكها . ولكن حالما ينزل بالانسان التعب ، وحالما يضع قدميه على ثرى المدن العالمية الكبرى (التي هي عوالم عقلية بالنسبة الى ذواتها) ويحتاج الى نظرية يعرض بواسطتها الحياة على نفسه عرضاً ملائماً ، عندئذ تصبح الاخـلاق معضلة . إن الاخلاق الحضارية هي تلك التي يملكها الانسان، أما الاخلاق المدنية فهي تلك التي يبحث عنهـا الانسان . فالأول هو أعمق من أن تستنزفه الوسائل المنطقية ، بينما ان الثاني هو وظيفة منطق . فمنذ عهد افلاطون وعهـد « كنت » لا تزال الاخلاق مجرد موضوع نقـاش وجدل وتلاعب بالمفـاهيم ، أو تجميـع لمناهج ميتافيزيقية ، وهذه جميعاً هي في جوهرها ليست فعلاً ضرورية . فالملزم الجازم هو مجرد تصريبع تجريدي عن شيء مـا كان بالنسبة الى « كنت فوق كل جـدل وسؤال . لكن موقف زينون وشوبنهور منـه يختلفان عن موقف « كنت » . إذ أنه اصبح من الضروري على المرء أن يكتشف ويخترع أو أن يقصد ذاك الذي لم يعد راسياً في الغريزة الى شكل يصبح قانوناً لكينونته ، ومن هذه النقطـــة تنطلق الاخلاق المدنية التي لم تعد انعكاساً للحياة ، بل إنما أمست انعـكاساً للمعرفة على الحياة . ولهذا فإن الانسان يُحس بأن هناك شيئاً ما اصطناعياً عديم النفس ، نصف حقيقي في كل هذه المناهج التي هي موضوع بحث والتي تملأ القرون الأولى من جميع المدنيات فهذه المناهج ليست بتلك الابداعات اللاأرضية تقريبـاً والتي تستحق أن تصنف في مرتبة الفنون العظمى. فكل ما هنالك من ميتافيزيقيا رفيعة الأسلوب ، ومن وجدان نقي صاف، يختفي أمام الحاجة الوحيدة التي تشعر الناس بوجودها فجأة ، الحاجة الى اخلاق عملية من أجل التحكم بالحياة التي لم تعد قادرة على حكم نفسها بنفسها .

لقد كانت الفلسفة حتى « كنت» وأرسطوطـاليس ، حتى مذاهب اليوغـــا والفيدانتا تسلسلاً من مناهج عالمية عظمى وكانت الأخلاق تحتل فيه مركزاً جد متواضع ، أما اليوم فأصبحت الأخـلاق « فلسفة الأخلاق » وذات ميتافيزيقيـا كسند لها وأساس . واضطرت الايبستيمولوجيا (فلسفة المعرفـة والمنطق) أن تفسح الطريق أمام الحاجات العملية الشديدة . وما الاشتراكية والرواقية والبوذية

سوى فلسفات من هذا الطراز .

فعندما لا يعود الانسان يطـل من على الذرى التي أشرف منها اشيل وافلاطون ودانتي وغوتيه على العالم ، بل ينظر الى العالم على ضوء الوقائع الجائرة الظالمة ، فعندئذ يستبدل مثل هذا الانسان مرأى الطير بمرأى الضفدعـة ، وهذا الاستبدال هو خير قياس للانحطاط من الحضارة الى المدنية . ان كل اخلاق هي ما تقرره نظرة النفس الى مصيرهـا من تشكيل بطولي أو عملي ، عظيم أو عـادي ، رجولي أو شيخوخي لذلك فانني أميز في الاخلاق اخلاقاً تراجيدية واخلاقاً عامية . (سافلة سمجة — Plebeian) فالاخلاق التراجيدية لحضارة ما تعرف ثقل الكينونة وتدركها ، لكنها تستمد من هذا الشعور بالكبرياء الذي يمكنها من حمل أعبائها ، وهذا هو ما أحس به آشيل وشكسبير ومفكرو الفلسفة البراهمية ، وكذلك دانتي والكاثوليكية (التكثلك) الألمانية ، وهو يُسمع أيضاً في ترنيمة الحرب العبوس اللوثرية « الله هو قلعتنا الحصينة » وتتردد أصداؤه حتى في نشيد « المارسيليز » . أما الأخلاق العامية ، أخلاق أبيقور والرواق ومذاهب عصر بوذا والقرن التاسع عشر فانها أعدت بالاحرى خططاً لمعارك تستهدف احباط مناورات المصير .

ان ما فعله آشيل بعظمة وفيض ، فعله الرواق بتفاهة وغيض ، اذ لم يعد هناك من امتلاء حياة ، فالحياة أمست فقيرة باردة فارغة ، ولقد جاء كل مـا حققته الضخامة الرومانية ليضاعف في البرداء والعبث العقليين . وهناك ايضاً العلاقة ذاتها التي تربط بين العاطفة الاخلاقية للاساتذة الباروكيين العظام ، (شكسبير ، باخ ، كنت ، غوتيه) بين الارادة الرجولية للبراعة الباطنية للاشياء الطبيعية التي يحس بها على انها دون ذاتها بكثير ، وبين شرطة الدولة الاوروبية الحديثة ، والمثل العليا الانسانية والسلام العالمي ، « وأعظم قدر من السعادة لأضخم عـدد من الناس » الخ ... التي تعبر عن الارادة للاخلاء الظاهري لطريق الأشيـاء التي هي على مستوى واحد . وهذه ايضاً لا تقل عن سابقتها في كونها مظهراً من مظاهر الارادة للقوة في تضادها والاحتمال الكلاسيكي لما هو مقدر ومحتوم ، ولكن هذا لا يعفينا من القول بأن الضخامة المـادية لا تعني مـا يعنيه الجلال الميتافيزيقي للمنجزة

فالضخامة المادية تفتقر الى العمق ، تفتقر الى ما كان اولئك الناس السابقون يسمونه بالله . إن الشعور الفاوستي بالعالم ، شعور **الفعل** ، الذي كان فعالاً داخل كل رجل عظيم ابتداء من عهود آل هوهنشتاوفن « والفلف » وانتهاء بفريدريك الكبير وغوتيه ، يتقلص اليوم لينحدر الى فلسفة **العمل** . وهذه الفلسفة أهاجمت العمل أو دافعت عنه ، فان هذا الأمر لا يؤثر في قيمتها الباطنية . أما ما يربط بين فكرة الفعل الحضارية وبين فكرة العمل المدنية فهو ذاك الذي يربط بين موقف بروميثوس لآشيل وبين بروميثوس ديوجينس . فالأول يتألم ويحتمل والثاني « يتدلع » ويترهل . لقد كانت أفعالاً من علم تلك انجزها غاليليو وكبلر ونيوتن ، لكنها أعمال من علم هي التي ينفذها الفيزيائيون الحديثون . وبالرغم من كل الكلمات التي قيلت منذ عصر شوبنهور حتى عصر شو ، فإن الاخلاق العامية اليومية « والعقل البشري السليم » هما قاعدتا كل شروحنا ومناقشتنا للحياة .

- ٦ -

وفضلاً عن ذلك ، فإن لكل حضارة اسلوبها الخاص في الانطفاء والخمود الروحيين ، وهذا الاسلوب ينشأ بالضرورة عن حياتها ككل . ومن هنا فإن البوذية والرواقية والاشتراكية تتساوى مورفولوجيا بوصفها ظاهرات نهاية وختام .

نعم حتى البوذية هي ايضاً ما ذكرت . إذ انه قد أسيء حتى الآن فهم مغزاها

الأعمق ، فالبوذية لم تكن حركة تطهيرية كالاسلام والجانسينية Jansenism [1] مثلاً ، ولم تكن حركة اصلاحية كما كانت الموجة الديونيزية بالنسبة الى العالم الأبولوني، ولم تكن بصورة عامة تماماً ديناً كأديان فيداس أو كدين بولس الرسول، بل انما كانت مجرد عاطفة عالمية عملية لسكان المدن العالميــة الكبرى خلفوا وراءهم حضارة وليس أمامهم من مستقبل . فالبوذية كانت الشعور الأساسي للمدنية الهندية، وهي بوصفها كما ذكرت مساوية « ومعاصرة » للرواقية والاشتراكية معاً . وجوهر البوذية هو جوهر دنيوي نصاً وروحاً ، وباستطاعتنا أن نعثر على فكرها غير الميتافيزيقي في الموعظة الشهيرة بالقرب من بنارس ، أي في الحقائق النبيلة الأربع التي اجتذبت الى الأمير الفيلسوف أول أشياعه ومناصريه . أما جذورها فانما تضرب في تربة فلسفة سانخيا (Sankyha) العقلانية الملحدة التي تسلم البوذية ضمناً بنظرتها الى العالم ، وهي بذلك تماماً كالأخلاقية الاجتماعية للقرن التاسع عشر، هذه الاخلاقية التي نشأت عن مادية القرن الثامن عشر وحسيته ، زد على ذلك الرواقية التي تحدرت (بالرغم من استغلالها السطحي لهرقليطس) من بروتاغوراس والسفسطائيين .

ونحن نجد في كل من هذه قوى العقل بأكملها هي نقطة الانطلاق الى مناقشة الاخلاق ، وليس للدين (وذلك في مفهومنا للايمان بأي شيء ميتافيزيقي) من مدخل الى هذه المناقشة . والحق أنه ليس هناك من مذهب يمكن له أن يصل في لادينيته ما وصلت اليه هذه المناهج بأشكالها الأصلية ، وهذه الأشكال الأصلية وليست مشتقاتها هي التي تنتمي الى مراحل المدنية الأشد تأخراً في زمنها والتي هي موضوع اهتمامنا في هذا الكتاب .

---

١ – نسبة الى المطران يانسن Jansen (١٥٨٥–١٦٣٨) مطران ايبرس Ypres وكان يقول بأن الفجور والفساد يعمان الكون ويؤمن بالنعمة التي لا تقاوم وبانعـدام الارادة الحرة وبالقضاء والقدر والفداء المحدود .

(المترجم)

أن البوذية ترفض كل التأملات في الله وفي المعضلات الكونية، ولا يهمها سوى الذات وسلوك الحياة الواقعية ، وهي بكل تأكيد لم تعترف بالنفس.

ولقد كانت وجهة نظر العالم النفساني الهنـــدي في البوذية المبكرة هي نفس وجهة نظر العالم النفساني « الاشتراكي » الغربي في يومنا هذا ، هذا العـــالم الذي يختزل الانسان الى حزمة من الأحاسيس ومجموع من الطاقات الالكتروكيمائية. فالمعلم ناجاسينا (Nagasena) يقول للملك ميليندا بأن أجزاء العربة التي يمتطيها في رحلته هي ليست العربة ذاتها ، فالعربة هي فقط كلمة ، وعلى هذه الحـال هي النفس ايضاً . وقد عينت البوذية العناصر الروحية على انها سكانداس Skandhas ، أي مجموعات وهي غير دائمة. وفي هذا نجد تطابقاً كاملاً وفكر علم النفس التشاركي، والحق أن نظريات بوذا تحتوي على الكثير من المادية. فكما أن الرواقية قد وضعت يدها على فكرة اللوغوس (Logos) (العقـل - الروح - النفس) لهرقليطس وبسطتها تمهيداً فسوتها مفهوماً مادياً، وكما أن الاشتراكية المرتكزة الى الداروينية قد « مكنكت » (جعله ميكانيكياً) فكرة غوتيه العميقة في التطور ، كذلك عالجت البوذية التصور البراهمي للكارما (Karma) وهذا فكرة كائن يكمل ذاته بنشاط ، وكثيراً ما اعتبرت البوذية هذه الفكرة ، فكرة مادية بوصفها مادة عالم في سباق التحول .

والآن يتضح لنا أن ما نراه ماثلاً أمامنا ، انمـا هو ثلاثة أشكال من العدمية ، والعدمية وفق مفهوم نيتشه . فنحن نرى ، في كل حالة من الحالات الثلاث ، مثل الأمس العليا والاشكال الدينية والفنية والسياسية التي نمت خلال قرون طوال من الزمن محاولة متلوفة ، ولكن حتى في هذا العمـل الأخير ، عمـــل جحود الذات وإنكارها ، نرى أن كل حضارة تستخدم رمزهـا الأولي رمز كامل وجودهـا ، لانجاز هذا العمل ، فالعدمي الفاوستي (ابسن أو نيتشه، ماركس أو فاغنر) يدمر المثل العليا ، أما العدمي الأبولوني (ابيقور أو انتيستينس أو زينون) فإنمـا يقف متفرجاً على هذه المثل وهي تتهاوى أمام عينيه ، واخيراً فان العدمي الهنـــدي ينسحب من أمام هذا المشهد لينطوي على نفسه .

إن الرواقية تتجه الى تدبير المرء لشؤون نفسه الخاصة ، الى الكائن الموجود حاضراً فقط ، ولا تهتم بالمستقبل أو الماضي أو الجار . أما الاشتراكية فهي المعالجة الديناميكية للموضوع ذاته ، وهي دفاعية كالرواقية ، ولكن ما تدافع عنه ليس هو الموقف، بل انما هو تفسير الحياة وانتاجها ، وهي اكثر من هذا ، إذ انها دفاعية هجومية ، وذلك لأنها باندفاعها الجبار الى البعد تنشر ذاتها على كل المستقبل والجنس البشري الذي سيخضع لنظام واحد . اما البوذية التي لا يستطيع سوى المستهتر بالابحاث الدينية ان يقارنها بالمسيحية ، فمن الصعب أن تترجم الى كلمات اللغات الغربية . ولكن من الجائز لنا ان نتحدث عن نيرفانا رواقية وان نشير الى ديوجينس كدليل عليها ، كما وأنه من الجائز لنا ايضاً ان نتصور وجود نيرفانا اشتراكية، فهذا التصور له ما يبرره طالما التعب الاوروبي يغطي هروبه من الصراع لأجل البقاء تحت شعارات السلام العالمي والانسانية والتآخي بين الشعوب والأمم. ومع هذا فليس هناك أي شعار من هذه الشعارات يقترب من غموض البوذية الغريب في مفهومها للنرفانا فالأمر يبدو لنا في هذه الحال انه بالرغم من تجاوز نفس حضارة هرمة ما آخر منجزاتها الى الموت، إلا أن نفس هذه الحضارة تتشبث غيوراً كسابق عاداتها بأكثف ملكاتها الخاصة بها جوهراً وتعض على محتوى شكلها بالنواجذ وتلتصق به برمزها الاولي الغريزي شديد التصاق .

ليس هناك من شيء في البوذية يمكن اعتباره مسيحياً ، كما وانه ليس هناك من أمر في الرواقية نستطيع أن نجده في السلام عام ١٠٠٠ ، وليس هناك من شيء يشترك فيه كونفوشيوس والاشتراكية .

إن شبه الجملة التالية : (Si duo faciunt idem non est idem) التي يجب أن تتوج كل منجزة تاريخية تعالج الصيرورات الحية الفريدة في حدوثها ولا تعالج الصيرات (جمع صير) المنطقية والسببية (العلية) والمفهومة رقماً ، هي شبه جملة تنطبق بصورة خاصة على التعابير الختامية لحركات الحضارة . فالكينونة في كل المدنيات لا تخضب (لا تعود تخضب) بالنفس ، بل انما يصبح العقل مخضبها وغامرها ، ولكن العقل في كل حضارة منفردة هو ذو تركيب خاص وخاضع

للغة شكل الرمزية الخاصة بها ، ولذلك وبسبب كل هذه الافرادية (لاحظ قال افرادية لا فردية - المترجم) التي تتمتع بها الكينونة التي تعمل دون وعي وتصوغ إبداعات آخر أطوارها على السطح ، تصبح قرابة الأمثلة بعضها من بعض، وذلك في فحوى الموقع التاريخي ومغزاه ، أمراً ذا اهمية حاسمة .

أما ما تخرج هذه الأمثلة به الى ميدان التعبير ، فهذا هو قضية اخرى، ولكن الحقيقة الشاهدة على ان هذه الامثلة قد عبرت عنه تطبعها بطابع « المعاصرة » بعضها للاخرى . فهناك نكهة رواقية في انكار البوذية للحياة الثابتة العزم العاقدة النية ، زد على ذلك أن هناك الآن وهماً قائماً وموجوداً يقول بانطباق « كاتارسيس » الدراما الاتيكية على فكرة النرفانا ، كما وان الانسان يحس بأن الاخلاقية الاشتراكية ، بالرغم من اعطاء تطورها فرصة تبلغ قرناً كاملاً من الزمن ، فانها لم تبلغ بعد شكلها النقي القاسي الخاص بها والذي ستمتلكه في نهاية المطاف . ومن الجائز أن عقود السنين القادمة ستعطيها الصيغة الناضجة التي اعطاها « كريسبوس » للرواقية . ولكن يوجد حتى الآن مظهر من الرواقية في الاشتراكية ، وذلك عندما تكون تلك الاشتراكية ذات الطراز الأرقى والنداء الى الدائرة الأضيق من الناس ، وحينما يكون نازعها هو ذاك النازع الروماني البروسي ، هذا النازع المطلق في لاشعبيته والذي ينزع ابداً الى الانضباط الذاتي وإنكار النفس أمام مفهوم الواجب العظيم ، كما وأن في الاشتراكية مظهراً من البوذية ، ألا وهو احتقار السهل الآني والتمتع بالحاضر .

ومن جهة اخرى فان للاشتراكية ايضاً دون شك ذلك المظهر الابيقوري الذي يجعلها في تلك الصيغة فقط ذات أثر فعال في ظاهر المجتمع وأسفله وذلك بوصفه مثلاً شعبياً أعلى تمارس فيه عبادة الافراد للذة (Hedonism) باسم الجميع ، (وليس صحيحاً ان كل فرد يمارس هذه العبادة لنفسه) .

إن لكل نفس ديناً الذي هو كلمة من كلمات وجودها . فكل الاشكال الحية التي تعبر النفس بواسطتها عن ذاتها (أي كل الفنون والمذاهب والنظريات

وكل عمود وبيت شعر وفكرة) هي اشكال مطلقة في دينيتها ويجب ان تكون كذلك. ولكن حالما تطل المدنية برأسها وتوطد اقدامها لا تستطيع هذه الاشكال أن تبقى على الحال التي ذكرت . وذلك لأنه لما كان جوهر كل حضارة هو الدين ، لهذا فان جوهر كل مدنية هو اللادين (والكلمتان هما مترادفتان) ، إذ أن ذاك الانسان الذي لا يستطيع أن يحس بهذا في إبداعية مانيت في تضادهـا وفيلاسكيز ، وفاغنر في تباينه وهايدن ، وليسبوس في تعـارضه وفيدياس ، وتيوكريتوس في تضـاده وبندار ، فإنه انسان لا يعرف ماذا يعنيه الأفضل في الفن ، فحتى فن الركوكو في إبداعاته البكماء هو فن ديني ايضاً ، لكن بنايات روما حتى عندما تكون هـذه البنايات هياكل هي بنايات لا دينيـة فاللمسة الواحدة من الهندسة المعمارية الدينية التي كانت موجودة في رومـا القديمة كانت « البانثيون » ذو النفس المجوسية المتطفـلة ، أي المسجد الاسلامي الاول ، فابن المدينة العالمية الكبرى (ابن الاسكندرية في تضاده وابن اثينا وابن باريس في تباينه وابن بروج (Bruges) وابن برلين في تعارضه وابن نرنبرغ) هو لا ديني من قمة رأسه حتى اخمص قدمه ،وانحداراً حتى الى منظر شوارعه وذكاء الوجوه الجـاف . وكذلك ايضاً هي العواطف الاخلاقية التي تنتمي الى لغة شكل ابن المدينة العالمية الكبرى ، فهي لا دينية ومعدومة النفس .

إن الاشتراكية هي الشعور الفاوستي بالعالم الذي يلائم اللادينية، أما المسيحية المدعوة كهذا ، (المسيحية المصنفة حتى بالمسيحية الحقيقية) والتي يتمشدق بهـا دائماً الاشتراكي الانكليزي ، فانهـا تبدو لهذا الاشتراكي شيئاً مـا مجرداً من « المذهبية الاخلاقية » . زد على ذلك أن الرواقية كانت هي ايضاً بدورها حركة لا دينية اذا مـا قورنت بدين اورفيوس ، وكذلك هي ايضـاً البوذية في حالة مقارنتها والفيدية .

ولا يهمنا من بعيد أو قريب كون الرواقي الروماني قد وافق وأقر بعبادة الامبراطور ، وان البوذي المتأخر زمناً قد أنكر وبإخلاص إلحاده ، أو ان الاشتراكي يلقب نفسه بالمفكر الحر الجاد ، أو انه يذهب حتى الى الايمان بالله ، فانطفاء التدين الباطني الحي هذا ، الذي ينم بالتدريج عن أقل العناصر تفاهة في كينونة الانسان ، والذي يصبح ظاهرياً (Phenomenal) في صورة العالم التاريخية عند انعطاف الحضارة الى المدنية ، هو ذاك الذي اسميته بالطور الحرج من أطوار حياة الحضارة ، وبوقت التبديل الذي يفقد فيه جنس بشري ما خصبه الى الأبد ، والذي يحل فيه البناء محل الانجاب . إن العقم(ولنفهم هذه الكلمة بكل جديتها المباشرة) يطبع عقل انسان المدينة العالمية الكبرى بوصفه دلالة على المصير المكتمل ، وهو ايضاً من أشد حقائق الرمزية التاريخية تأثيراً وأبلغها قولاً بأن التغيير لا يكشف عن نفسه فقط في خمود كل من فن عظيم أو كرم أريحي أو فكر رائع أو أسلوب عظيم في كل الميادين ، بل انما يكشف عنه نفسه في شهوانية وغلمة العاقر « والانتحار السلالي » للجماهير العريضة المعدومة الجذور ، وهذه ظاهرة ليست خاصة بنا فقط ، بل اننا قد لاحظناها ورثينا لها وطبعاً لم تعالج في كل من الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الصينية.

-٧-

أما فيما يتعلق بالممثلين الأحياء لهذه الابداعات الجديدة والمجردة في عقلانيتها ، فاننا لا نستطيع أن نشك أبداً في وجود رجال « النظام الجديد » الذين يجد فيهم كل زمان انحطاط آمالاً كهذه . فهؤلاء الرجال هم عامة المدينة الكبرى المائعة وجمهور المدينة الذي لا جذور له والذي حل محل الشعب وعشيرة الحضارة التي

نشأت من الارض وعاشت كالفلاحين حتى في المدن .

إن هؤلاء الرجال هم المتسكعون في أسواق الاسكندرية وروما وقراء الصحف في عصرنا هذا ، انهم ذاك الانسان « المثقف » الذي « يصنع »[1] بين فينة وأخرى مذهباً عقلانياً متوسطاً وكنيسة للتبشير ، انهم انسان المسارح وأماكن اللهو والرياضة ، « وأوسع الكتب والسلع رواجاً » . ان هذه الجماهير المتأخرة في ظهورها وليس « الجنس البشري » هي موضوع الدعاية من رواقية واشتراكية ، والانسان يستطيع ان يقارن بها الظاهرة المماثلة لها في كل من الامبراطورية المصرية الجديدة والهندية والبوذية والصين الكونفوشسية .

وينطبق على هذه الظاهرة شكل خاص للتأثير الشعبي ، وهو خطاب التشهير (Diatribe) . ونحن اذا ما لاحظنا أولاً هذه الظاهرة كظاهرة هيلينية ، فاننا نجدها ظاهرة فعالة في كل المدنيات ، فهي جدلية وعملية وعامية سداة ولحمة ، تحل التحريض الجموح للمرء الصغير الذكي محل إبداع الانسان العظيم القديم المليء بالمعنى ، وتستبدل الفكر بالاهداف ، والرموز بالمناهج .

إن عنصر التوسع هو عنصر مألوف لكل المدنيات ، فاستبدال الفراغ الباطني بالفراغ الظاهري يميز هذا الأمر ايضاً ، إذ أن الكمية تحل محل النوعية، والانتشار يتربع فوق سدة التعميق ، لكن علينا ألا نخلط بين هذا النشاط العجول والضحل وبين الارادة الفاوستية للقوة ، فكل ما في الأمر أن الحياة الباطنية المبدعة قد انتهت وان الوجود العقلاني يمكن الحفاظ عليه مادياً بواسطة الأثر الظاهري فقط في المدينة ، ولهذا فان خطاب التشهير ينتمي بالضرورة الى « دين اللاديني » وهو الشكل المميز الذي يتلقاه « شفاء النفوس » . ولهذ فان خطاب التشهير يبدو لنا كالوعظ الهندي والبلاغة الكلاسيكية والصحافة الغربية ، وهو لا يبدو الافضل بل الاكثر ، كما وانه لا يتوجه الى الافضل بل الى الاكثر عدداً ، وهو يقوّم

---

١ ــ لاحظ يصنع .

(المترجم)

وسائله بعدد النجاحات التي اكتسبها بواسطة الاكثر عـدداً ، فهو يستبدل بواسطة الخطابة والكتابة بالتفكير المتأمل القديم بالدعارة الوطنية التي تمـــلأ وتسيطر على قاعات المدينة العالمية واسواقها . وكما أن كل الفلسفة الهيلينية هي فلسفة خطابيـة بلاغية ، وكذلك فان الاسلوب الاجتماعي الاخلاقي لرواية « إميل زولا ودراما إبسن » هو ايضاً اسلوب صحافي . أمـــا اذا كانت المسيحية قد تورطت في توسعها الروحي الأصيل بهذه الدعارة الروحية ، فعندئذ يجب ألا نخلط بينهـــا وبين الاسلوب الصحفي ، فلقد أخطأنا دائماً تقريباً في فهم الهدف الجوهري للتبشير المسيحي .

فالمسيحية البدائية كانت ديناً مجوسياً وكانت نفس مؤسسها عاجزة تمامـاً عن ممارسة النشاط الوحشي دون حصافة أو عمق . ولقد كانت ممارسة بولس الرسول الهيلينية هي التي قدمتهـا (بالرغم من المعارضة الحاسمة للطائفة الأصلية كما هو معروف) الى الجمهور الصخاب المتحضر الدغماتي في الامبراطورية الرومانية . ومع ما قد كان عليه أثره من ضآلة شأن في التلوين الهيليني ، فان هذا كان كافياً ليجعل منه ظاهرياً جزءاً من الحضارة الكلاسيكية .

إن المسيح قد اجتذب الى داخله الفلاحين وصيادي الاسماك ، بينما أن بولس الرسول قد كرس نفسه للمدن العالمية الكبرى ، وللشكل المديني (لاحظ قلنا مديني نسبة الى مدينة – المترجم) للدعاية .

إن كلمة وثني (Pagan) لا تزال تعيش حتى هذا اليوم (وهي تعني الرجل ذا المدفأة ، المصطلى ، أو الريف) كي تعلمنا أية دعاية تلك هي التي أثرت اخيراً فينـــا . والحق يا له من فرق ، ويا له من تعارض عمودي بين بولس الرسول وبين بونيفاسيوس (Boniface) الفاوستي الشجي ، بونيفاسيوس المتوحد في الغـــابات والوديان والراهب البنديكتي المغتبط المصلح المزارع ، والفرســـان التيتون فرسان الشرق السلافي ! فهنـــاك تفجر الشباب مرة اخرى يانعاً تواقاً في المنظر الطبيعي للفلاح ، ولم تظهر خطـابات التشهير في الريف إلا في القرن التاسع عشر وذلك عندما شاخ المنظر الطبيعي وهرم كل التصوير الزيتي المتعلق به فأمسى عالماً

يرتكز الى المدينة العالمية الكبرى التي تقطنها الكتل والجماهير . وللريفية الحقيقية مكانة ضئيلة في ميدان وجهة النظر الاشتراكية تتساوى في ضآلتها والمكانة التي تحتلها في ميدان وجهات نظر بوذا والرواقية .

والآن فقط ينتصب في المدن الغربية الكبرى نموذج من الناس كنموذج بولس الرسول تماماً ليتصوروا أن في المسيحية أو من الحركات المناهضة للمسيحية « عللًا » (مسببات) اجتماعية أو صوفية وفكراً حراً ، أو صناعة لسلع دينية خيالية .

أن هذا الانعطاف الحاسم نحو النوع الواحد المتبقي من الحياة ، (وأعني به الحياة كواقعة تعالج على ضوء العلاقات البيولوجية والسببية (العلية) بدلاً من أن تعالج على ضوء المصير).يتجلى بصورة خاصة في العاطفة الاخلاقية التي يندفع بها الناس نحو فلسفات الهضم والتغذية والصحة. فقضايا الخمور والنباتية (Vegetarianism) تعالج اليوم بوقار وجدية دينيين،وهذه القضايا على ما يظهر هي أشد الأمور خطورة بالنسبة الى « الجنس البشري للنظام الجديد » والتي تستطيع أجيال مرأى الضفدعة أن تعالجها.ولا شك في أن الأديان الوليدة عندما تقف على أعتاب حضارة جديدة (كالاديان من فيدية وأورفية ومسيحية المسيح والمسيحية الفاوستية الالمانية القديمة، المانيا الفروسية) ستحس بمذلة ومهانة اذ تُلقي حتى بلمحة على قضايا من هذا النوع . لكن في أيامنا هذه فان الانسان يرتفع الى مستواها . فمن المستحيل على المرء أن يفكر بالبوذية دون أن يفكر بالحمية الجسدية التي تفرضها هذه كي تتلاءم والحمية الروحية ، زد على ذلك أن هذه القضايا كانت تتزايد أهميتها يوماً بعد آخر في نظر السفسطائيين وفي دائرة «انتيستينس » والرواقية والمشككين . وقد كتب حتى أرسطو في موضوع الخمور وعالجت سلسلة كاملة من الفلاسفة المذهب النباتي .

أما الفرق الوحيد بين المناهج الأبولونية والمناهج الفاوستية في هذا الموضوع فهو أن الكلبي (المؤمن بالمذهب الكلبي) قد اشترع النظريات لهضمه الخاص فقط، بينما أن شو قد اشترعها للجميع . فالأول لا يبالي بالغير ، أما الثاني فيملي إملاء .

وحتى نيتشه كما نعرف عالج أيضاً قضايا كهذه في « Ecce Homo » علاجاً ذا نكهة .

-٨-

ولنستعرض مرة اخرى الاشتراكية (بصورة مستقلة عن الحركة الاقتصادية التي تحمل الاسم نفسه) وذلك بوصفها المثال الفاوستي لأخلاقية المدنية. إن اصدقاءها يعتبرونها الشكل القادم للمستقبل، بينما أن أعداءها يرون فيها علامة انحطاط ودلالة على الانهيار ، وكلا الطرفين محقان فيما ذهبا اليه . فنحن جميعاً اشتراكيون شئنا أم أبينا ، أقصدنا أم لم نقصد ، وحتى مناهضة الاشتراكية ذاتها ترتدي طابع الاشتراكية وتتزيى بزيها .

وكذلك ، ومدفوعاً بضرورة مماثلة ، كان الجنس البشري الكلاسيكي في المرحلة المتأخرة زمناً ودون أن يدري ، رواقياً في مذهبه ، فالشعوب الرومانية بأكملها ، كجسد ، كانت لها نفس رواقية . فالروماني الأصيل الذي كان يشن على الرواقية أشد الحملات وأعنفها ، كان أشد تزمتاً في رواقيته حتى من أي يوناني دان بها واعتنقها ، زد على ذلك أن اللغة اللاتينية في القرون الاخيرة التي سبقت مولد المسيح كانت أشد ابداعات الرواقية جبروتاً .

إن الاشتراكية الاخلاقية هي الحد الاقصى التي يمكن أن يبلغه شعور بالحياة يدين بمبدأ الهدفية وذلك لأن حركة الحياة الاتجاهية ، التي يحس بها على أنها زمان مصير ، عندما تقسو وتتصلب تتخذ عندئذ شكل آلة ذهنية للوسيلة والغاية. فالاتجاه هو الحي بينما أن الهدف هو الميت ، كما وأن حيوية التقدم المنفعلة هي شمولية في فاوستيتها ، أما الفضلة الميكانيكية – التقدم – فهي اشتراكية حصراً، وكلاهما يرتبطان بعضاً ببعض ارتباط الجسد بهيكله العظمي ، ومن هاتين فان الصفة

الشمولية هي التي تميز الاشتراكية من البوذية والرواقية ، فالبوذية في مثلها الأعلى النرفانا ، وكذلك الرواقية في الاتاراكسيا ، لا يقلان في قصديها عن الاشتراكية ميكانيكية ،لكنها لا يعرفان أي شيء عن حيوية التوسع الديناميكية للاشتراكية ، وإرادتها للانهاية وشغفها بالبعد الثالث .

وبالرغم من المظاهر الخارجية للاشتراكية ، فان الاشتراكية الاخلاقية ليست بمنهاج شفقة واحسان ، أو منهاج إنسانية وسلام وعناية كريمة ، بل انما هي منهاج الارادة للقوة . وكل فهم آخر لها غير هذا هو فهم واهم متوهم . فهدف الاشتراكية هو هدف استعماري سداة ولحمة ، نعم انها تنادي بالبر ، لكنها تعني البر في مفهومه التوسعي ، ولا تعني البر بالعليل الممروض ،بل انما تعني البر بالانسان الحيوي النشيط الذي يجب أن يُعطى ومن المتوجب أن يعطى الحرية في الفعل (لاحظ قلنا الفعل لا العمل) بغض النظر عن عقبات الثروة والمولد والتقليد التي تعترض سبيله إن الاخلاق العاطفية ، الاخلاق الموجهة الى السعادة والانتفاعية هي ليست أبداً الغريزة الباتة الجازمة في داخلنا مهما حاولنا أن نقنع أنفسنا بخلاف ما قلت .ان رأس العصرية الأخلاقية وصدرها يجب أن يكون دائماً وأبداً « كنت » (وهو من هذه الناحية تلميذ لروسو) الذي يطرح جانباً من فلسفته الاخلاقية النازع الى الشفقة ويشترع القانون القائل : « افعل كذا لـ ...» ان جميع المذاهب الاخلاقية من هذا النوع تعبر ويُقصد من ورائها أن تعبر عن الارادة للانهاية وهذا ما يستوجب قهر البرهة ، قهر الحاضر وصدر صورة الحياة. فلدينا بدلاً من القانون الرواقي القائل « المعرفة فضيلة » حتى لدى « بايكون » القانون القائل : « المعرفة قوة » ، فالرواقي يأخذ العالم كما هو ، أما الاشتراكي فهو يريد أن ينظمه ويصوغه جوهراً وشكلاً صياغة جديدة كي يملأه بروحه الخاصة ، لذلك فالرواقي يتلاءم ويتوافق أما الاشتراكي فانما يأمر ،فهو يريد لكامل العالم أن يطبع بطابع نظرته ، وهكذا ينقل الاشتراكي فكرة « نقد العقل المجرد الى الميدان الاخلاقي. هذا هو المعنى النهائي للملزم الأمر الذي يُعدل و يصلح في القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية على حد سواء . (فلتفعل كأن المبادىء المقررة التي تمارسها هي التي

ستصبح بارادتك قانوناً للجميع .) وهذا النازع المستبد الطاغي لا تفتقر اليه حتى أضحل ظاهرات الزمان (العصر) .

انه ليس الموقف أو السحنة ، بل انما النشاط هو ذاك الذي يجب أن يعطى شكلاً . وكما كانت الحال في مصر وفي الصين ، فان الحياة تعتبر فقط ذات قيمة بوصفها فعلاً . ان «مكنكة» (جعله ميكانيكياً) المفهوم العضوي للفعل هي التي تقود الى مفهوم العمل كما يفهم بصورة عامة ، أي الشكل المتمدن للفعالية الفاوستية. فهذه الاخلاق ، هذا النازع اللجوج اللحوح الى اعطاء الحياة أشد ما يتصوره الخيال فعالية من أشكال ، هو أقوى من العقل الذي تصبح مناهجه فعالة فقط طالما هي تقع أو يفترض خطأ أن تقع في اتجاه هذه القوة، وإلا إذا كانت هذه المناهج خلافاً لما ذكرت فانها تبقى مجرد كلمات. وعلينا أن نميز في كل أساليب التجديد بين الجانب الشعبي بما فيه من كسل بهيج سار (dolce far niente) وقلق على الصحة والسعادة والتحرر من الهم والسلام الكوني (وبكلمة أخرى المثل العليا المزعومة المسيحية) وبين أخلاقية المجتمع الأرقى التي تقدر فقط الأفعال التي هي ككل شيء فاوستي آخر) لا تفهمها الجماهير ولا ترغب فيها، هذه الجماهير التي تعبد بصورة عامة الهدف ولذلك تقدس العمل (لاحظ قال العمل لا الفعل — المترجم) ونحن إذا ما أردنا أن نضع قبالة الشعار الروماني « Panem et Circenses » (الخبز وألعاب السيرك) (الذي هو الرمز الختامي للوجود الابيقوري الرواقي ورمز الوجود الهندي أيضاً بمفهومه الأعمق) شعاراً لأهل الشمال (والصين القديمة ومصر) بحيث يجيء مطابقاً لذاك الشعار ، فان هذا الشعار سيكون « حق العمل » . هذا كان قاعدة مفهوم « فيختي » (Fichte) البروسي شكلاً وجوهراً (والاوروبي الآن) لاشتراكية الدولة ، وهذا الشعار سيبلغ أوجه في آخر مراحل التطور المرعبة حيث يمسي شعار « الواجب نحو العمل» .

ولنتأمل أخيراً فيما في الاشتراكية من نابوليونية، في ارادة البقاء، الإرادة للديمومة. لقد كان الانسان الابولوني يتطلع وراءه الى العصر الذهبي ، وكان تطلعه هذا يريحه من عناء التفكير بما هو آت .

أما الاشتراكي (فاوست المتحشرج في الجزء الثـــاني) فهو إنسان ذو اهتمام تاريخي يشعر كأن المستقبل هو واجبه وهدفه ويعتبر السعادة الآنية، سعادة البرهة، غير ذات قيمة إذا ما قورنت بالمستقبل، لكن الروح الكلاسيكية كل «أوراكلها» Oracles وطيرانها (Omens) تريد فقط أن تعرف المستقبل، أما الروح الغربية فانما تتوخى أن تصوغه وتقولبه .

إن المملكة الثالثة هي المثل الأعلى الجرماني ، فابتداء من يواكيم فون فاوريس حتى نيتشيه وابسن ، كان كل رجل عظيم (وهؤلاء هم سهام من حنين قذف بها الى ضفة النهر الاخرى على حد تعبير زردشت) قد ربط حياته الى الصباح الخـالد . أما حياة الاسكندر فكانت نوبة من حمى عجيبة مدهشة، وحلماً يتضرع الى العصور الهوميروسية من القبر، لكن حياة نابليون كانت عملاً شاقاً وكدحاً هائلاً، ولم يكن يكدح من أجل نفسه أو فرنسا بل انما كان الكادح من أجل المستقبل .

ومن المستحسن أن نعود لنذكر هنا بالحقيقة القائلة بأن كل حضارة من شتى الحضارات العظمى قد صورت تاريخ العالم بطريقتها الخاصة . فالانسان الكلاسيكي رأى فقط نفسه ومستقبله حاضرين معه حضوراً سكونياً ولم يسأل أبداً «من أين؟ والى أين ؟ » فالتاريخ الكوني كان بالنسبة اليه فكرة مستحيلة . وهـــذه هي الطريقة السكونية في التطلع الى التاريخ . أما الرجل المجوسي فيرى التاريخ الكوني كدراما كونية عظمى تتألف من الخلق والصهر والسبك ، وصراعـاً بين النفس والروح ، الخير والشر ، الله والشيطان ، (حدوثاً محدداً تحديداً حاسماً يبلغ أوجه في ظهور المخلص الفادي) . لكن الانسان الفاوستي يرى في التاريخ انفتاحـــاً شديداً على هدف (نحو هدف) ويرى في سياق عصوره القديمة والوسيطة والحديثة صورة ديناميكية ، وهو لا يستطيع أن يصور التاريخ لنفسه بطريقة اخرى غير هذه وهذا المنهاج الذي يعتمد حقبات ثلاثا هو ليس على حاله هذه تاريخ العـالم العام ، لكنه صورة تاريخ العالم كما يدركها الاسلوب الفاوستي ، وهي صورة تبدأ مع الحضارة الغربيـــة وتنتهي بنهايتها ، والاشتراكية بمفهومهـا الأرفع هي منطقياً تاج هذه الصورة ، وكان شكل دولتها الباتة الجازمة مغمداً فيهـــا منذ

العهود الغوطية فما بعد .

وهنا ايضاً تصبح الاشتراكية (في تباينها والرواقية والبوذية) تراجيدية . والحق انه لذو مغزى خطير ان نيتشه الذي يعالج بصفاء وثقة تامين مـــا يتوجب تدميره وما يجب أن يعاد تقويمه ثورياً ، يضل ويفقد ذاته في عموميات ضبابية حالما ينطلق الى بحث « الى أين » أي الهدف . فنقده الانحطاط نقد لا يمكن أن يُرد عليه ، لكن نظرية السوبرمان هي بمثابة قلعة بنيت في الهواء . وهذه ايضاً حـال إبسن ، (« براند وروزميرسهولم ، الامبراطور والجليلي ، مـــاستر بيلدر) وكذلك فاغنر وكل واحد غير هؤلاء .

وهنا تكمن ضرورة عميقة ، لأنه ابتداء من روسو فما بعده لم يعد للانسان الفاوستي من شيء هو مدار أمل وذلك فيما يتعلق بأسلوب الحياة العظيم . فشيء ما قـــد انتهى والنفس الشمالية قد استهلكت امكاناتها الباطنية ولم يبق من القوة الديناميكية والالحاح اللذين عبرا عن نفسيهما برؤى تاريخية عالمية للمستقبل (رؤى تبلغ دائرة قصدها دورة الفية من السنين) سوى الضغط المجرد ، حنين العاطفة الى الابداع ، الشكل دون المحتوى .

لقد كانت هذه النفس إرادة ، ولا شيء غير إرادة . وقـد احتاجت الى هدف لحنينها الكولومبوسي ، وكان عليها على الاقل أن تعطي نشاطها الفطري الملازم لها معنى وموضوعاً وهميين . وهكذا فان ناقداً اشد حذاقة سيجد أثراً من هجالمار اكدال (Hjalmar Ekdal) في كل عصرية وحتى في ظاهراتهـــا الارفع . لقد دعاها إبسن بكذبة الحياة . وهناك شيء مـا من هذه الكذبة في كامل ذهن المدنية الغربية ، وذلك طالما العصرية تطبق نفسها على مستقبل الدين والفن والفلسفة والهدف الاجتماعي الاخلاقي والمملكة الثالثة . وذلك لأنه يكمن عميقاً تحت هذه العصرية شعور كئيب لا يمكن كبته أو كبحه ،وكل ما نراه من هذه الحميا المحمومة فانما هو مجهود نفس لا ترتاح الى خداع ذاتها . هذه هي الحال التراجيدية (قلب العكس لدافع هملت) التي انتجت مفهوم نيتشه المنفعل ، مفهوم «العودة» الذي لم يؤمن به حقاً أحد، لكن نيتشه تشبث به وعض عليه بنواجذه خشية أن ينزلق منه

شعوره بالرسالة وكذبة الحياة هذه هي الأساس الذي قامت عليه بيريوت Bayreuth (والتي قد تكون شيئاً ما حيث أن بيرغاموم كانت شيئاً ما) وخيط من هذه الكذبة محبوك في كامل نسيج الاشتراكية وفي كل ميادينها من سياسية واقتصادية واخلاقية ، والتي ترغم نفسها على جهل الجدية المدمرة المبيدة ، جدية مضامينها النهائية الخاصة ، كي تبقى على حياة الوهم القائل بالضرورة التاريخية لوجودها الخاص .

-٩-

ويبقى أمامنا أن نقول كلمة في مورفولوجي تاريخ فلسفة . ليس هناك من شيء يسمى الفلسفة « بحد ذاتها » فلكل حضارة فلسفتها الخاصة التي تشكل جزءاً من كامل تعبيرها الرمزي وتؤلف مع معضلاتها المحيرة ومناهج فكرها زخرفاً ذهنياً يرتبط وثيق ارتباط بزخرف الهندسة المعمارية وبفنون الشكل . ونحن إذا ما القينا بنظرة بعيدة المرمى عالية الإطالة فاننا لا نجد ما تدبرته « الحقائق » والمفكرون فصاغوه في كلمات كل حسب مدرسته الخاصة بالغ الاهمية بل انما نجده قليلها ، وذلك لأن في الفلسفة ، كما هي الحال في كل فن عظيم ، تشكل المدارس والتقاليد ومستودعات الاشكال العناصر الاساسية . والاهم اهمية لا متناهية من الاجوبة انما هو الاسئلة واختيارها وشكلها الباطني . وذلك لأن الطريقة الخاصة التي يعرض بواسطتها الكون الكبير نفسه على انسان حضارة معينة مدرك ، هي التي تقرر بداهة كامل الضرورة لتوجيهها والطريقة في توجيهها .

فلكل من الحضارات الكلاسيكية والفاوستية ، وكذلك الهندية والصينية ، طريقتها المعينة الخاصة في السؤال ، وأكثر من ذلك فان جميع الاسئلة العظمى لكل حضارة تطرح في مستهل البداية . فليس هناك من أية قضية حديثة لم يرها

العصر الغوطي ولم يصغ لها شكلاً ، كما وانه ليست هنـــاك أية مشكلة هيلينية لم تقترب من رحاب تعاليم المعبد «الاورفي» .

ولا يهمنا ابداً ما إذا كان الانعطاف المراوغ للفكر يعبر عن نفسه شفهياً هنـا وبواسطة الكتب هناك ، كما وأنه لا يهمنا أيضاً ما إذا كانت كتب كهذه هي منجزات شخصية ، منجزات « أنا » كما هي الحال بيننا ، أم انها كتل مائعة من النصوص كما كانت الحال في الهند ، أو ما إذا كانت النتيجة هي مجموعة من المناهج القابلة للفهم ، أو كانت ، كما في مصر ، لمحات الى الأسرار النهائية متصفة بتعابير من فن وطقوس دينية . فمهما تعددت التنوعات ، فإن المجرى العام للفلسفات بوصفها أنظمة عضوية هو هو .

ففي بداية كل مرحلة نبع تكون الفلسفة وهي المرتبطة ارتباطـاً وثيقـاً الى الهندسة المعمارية العظيمة والدين ، الصدى الذهني لحياة متيافيزيقية جبارة ، ويكون واجبها أن تقيم نقدياً السببية (العلية) المقدسة داخل صورة العـــالم المنظورة بعين الايمان . فالرتب الأساسية لا للعلم فقط بل للفلسفة أيضاً تعتمد ، ولا تفترق ، على عناصر الدين المطابق لها . لذلك فان المفكرين في عصر النبع هـذا ليسوا مفكرين روحيـــاً فقط ، بل انهم يحتلون فعلاً مراتب الكهنة . على هذه الشاكلة كان المدرسيون والصوفيون في القرون المبكرة من العهود الغوطية والفيدية والهوميروسية والعربية . وحينما تهل المرحلة المتأخرة زمناً ، وليس قبلها ، تصبـح الفلسفة فلسفة مدنيـة ودنيوية وتحرر نفسها من التبعية للدين ، وتتجرأ حتى على جعل ذاك الدين موضوعاً لنقدها الابيستمولوجي . لقد كان الموضوع العظيم للفلسفات من براهميـة وايونية وباروكية هو مشكلة المعرفة . اما الروح الحضرية فانها تستدير لتتطلع الى نفسها كي تقيم الفرضيه القائلة بأنه ليست هناك من منصة حكم للمعرفة أرفـــع من نفسها ، وبهذه الفكرة تقترب أكثر فأكثر من الرياضيات العالية ، وبهذا يصبـح لدينا بدلاً من الكهنة أناس دنيويون ، من رجال دولة وتجار ومكتشفين ، جربوا في المراتب الرفيعة وامتحنوا في الوجائب السامية ، أناس ترتكز آراؤهم في الفكر الى التجربة العميقة للحياة . من هذا الطراز هي السلاسل من المفكرين الممتدة من

طاليس الى بروتاغوراس ومن بيكون الى هيوم ، والسلاسل من المفكرين ما قبل كونفوشيوس وبوذا ، هؤلاء المفكرون الذين لا نعرف عنهم اكثر من انهم كانوا موجودين .

ويشكل «كنت» وأرسطوطاليس كل منهما آخر حلقة في سلسلته، فبعد هذين يدخل فلاسفة المدنية ميدان الوجود . ان الفكر يبلغ في كل حضارة الذروة، فهو يطرح الأسئلة ويجيب عليها بقوة تعبير ذهني تتزايد طرداً حتى يستهلك قوته ، ثم يبدأ بالانحطاط وتصبح قضايا المعرفة في كل ميدان تكارير تافهة مبتذلة لا معنى لها أو مغزى.

فهناك مرحلة متيافيزيقية ذات نظرة دينية في الأصل لكن نظرتها تمسي عقلانية عندما تبلغ نهايتها (وتكون الحياة والفكر عند نهاية هذه المرحلة لا يزالان يحتويان على شيء ما هيولي ، (Chaos) على ذخيرة لم تستنزف بعد ، تمكنهما من الابداع الفعال).

وهناك مرحلة أخلاقية تصبح فيها الحياة نفسها حياة المدينة العالمية الكبرى، التي تبدأ (باستدعاء) بالبحث، ويتوجب عليها أن تستخدم ما يكون لديها من فضلة قوة ابداع في سلوكها الخاص ولصيانة ذاتها . أما في المرحلة الأولى فإن الحياة تكشف عن نفسها ، لكن المرحلة الثانية تجعل من الحياة مادتها وموضوعها ، زد على ذلك أن الحياة في المرحلة الأولى هي حياة « نظرية » (تأملية) بما لهذه الكلمة من مفهوم رفيع ، بينما أنها في الثانية عملية اجبارية ، وحتى منهاج « كنت » هو في طبائعه نتيجة لأعمق نتائج تأمل في البرهة الاولى ، ثم صيغ فيما بعد صياغة منطقية ونظم تنظيماً منهاجياً .

وهذا ما نراه واضحاً في موقف « كنت » من الرياضيات . وليس هناك من انسان ميتافيزيقي أصيل إلا ونفذ الى عالم شكل الارقام وعاشها في باطنه كرمزية. والحق ان كبار المفكرين الباروكيين هم الذين أبدعوا الرياضيات التحليلية ، والشيء نفسه صحيح، بعد اجراء التغييرات الضرورية (Mutetis Mutendis)، بالنسبة الى كبار المفكرين الكلاسيكيين ما قبل سقراط وافلاطون . فديكارت

وليبنتز يقفان الى جانب نيوتن وغاوس ، ويقف فيتاغورس وافلاطون الى جانب آرخيتاس وارخميدس على قمم التطور الرياضي . ولكن الفيلسوف في « كنت » كان قد اصبح رياضياً مقصراً . فلم يكن نفوذ كنت الى آخر مراوغات حساب التفاضل والتكامل كما ألفـــاه في عصره الخاص بأعمق من تشربه لبدهيات (Axiomatics) ليبنتز الاولى . والشيء نفسه يمكن ان يقال عن ارسطوطاليس نفسه ، فبعد هذين الفيلسوفين لم يأت فيلسوف يُعد رياضياً . « ففيختي » وهيغل والرومانتيكيون كانوا بعيدين عن الرياضيات بعد السماء عن الارض ، وكذلك ايضاً كانت حالة زينون وأبيقور. وشوبنهور يبلغ به الضعف في هذا الميدان حدود التفاهة والسخافة ، أما فيما يتعلق بنيتشه فاننا كلما تحدثنا أقل عن براعته في هـذا الحقل فان ذلك أجدى له وأفضل .

عندمـــا فقد عالم شكل الارقام بصيرته فقدت الفلسفة تقليداً عظيماً من تقاليدها، ومنذ ذلك الحين لم تعد الفلسفة تفتقر فقط الى القوة التركيبية ، بل انما أصبحت تفتقر ايضـاً الى ذاك الذي نسميه بالاسلوب العظيم للتفكير . وشوبنهور نفسه اعترف بأنه مفكر مناسبات .

ومع انحطاط الميتافيزيقيا شبت الاخلاق على الطوق ، وأمست فلسفة بعد ان كانت عنصراً ثانوياً في نظرية تجريدية،ومنذ ذلك الحين امتصت الاخلاق التقسيمات الاخرى وأصبحت الحياة العملية مركز التأمل وموضوع الاعتبـار . وانحدرت عاطفة الفكر المجرد ، وغدت الميتافيزيقيا السيدة في الامس الخادمة اليوم ، وغدا كل ما يُطالب به المرء هو أن يقدم اساساً الى الآراء العملية ، وأخذ هذا الاساس ينحدر يوماً بعد آخر من نافل الى نافل ، وشاعت بين الناس عادة احتقار كل مـا هو ميتافيزيقي والسخرية مما هو غير عملي والهزء بفلسفة «مقايضة الرغيف بالحجر» . فلدى شوبنهور توجـد كتبه الثلاثة من أجل كتابه الرابـع فقط ، و « كنت » اعتقد فقط بأن هذه هي حاله ايضاً ، والحق أن كتابه « نقد العقل المجرد » وليس كتابه « نقد العقل العملي » هو الذي لا يزال جوهر منجزاته . ونحن نجد الفرق ذاته تماماً في الفلسفة الكلاسيكية ما قبل ارسطوطاليس وما بعده ؛ إذ أننـا نرى

في الفلسفة مـــا قبل ارسطوطاليس كوناً كبيراً مدركاً ادراكاً عظيماً حيث لا تضيف اليه الاخلاق أي شيء تقريباً، بينما نرى في الفلسفة ما بعد ارسطوطاليس أن الاخلاق قد اصبحت بكاملها ، والحالة كما ذُكر ، كمنهاج ، كضرورة ذات ميتافيزياء غير منتظمة كرست خصيصاً قاعدة لها . أما انعدام وجود الشك داخل الاسلوب الذي دون بـــه نيتشه نظرياته ذاك التدوين السريع المعروف ، فانه لا يؤثر من قريب أو بعيد في ادراكنا لفلسفة نيتشه الخاصة وفهمنا لها .

كلنا يعلم بأن شوبنهور لم ينطلق الى تشاؤميته من ميتافيزيائه، بل على العكس، فهو قد دُفع اليها ليطور منهاجه بواسطة التشاؤمية التي نزلت بـه وهو في السابعة عشرة من عمره . ويلاحظ « شو » ، وهو شاهد بالغ الأهمية ، في كتابه « جوهر الابسنية » ويقول بأن باستطاعة المرء أن يقبل فلسفة شوبنهور قبولاً حسناً وان يرفض في الوقت ذاته ميتافيزياءه . وهنا يكمن تماماً وصحيحاً مـــا يميز بين ذاك العنصر الذي يجعل من شوبنهور أول مفكر في العصر الجديد ، وبين العنصر الذي ضمنه فلسفته لأن تقليداً مبتذلاً مهجوراً لقدمه قد رأى فيـه عنصراً لا تستطيع فلسفة كاملة ان تستغني عنه . ولا اعتقد بأن هناك انساناً يأخـذ على عاتقه تقسيم فلسفة « كنت » على هذا الشكل ، ولا شك في انه سيفشل اذا ما حاوله .

أما فيما يتعلق بنيتشه فان المرء لن يجد أية صعوبة في ادراك فلسفته على انهـا سداة ولحمة تجربة باطنية عاناها في وقت مبكر جداً من عمره ، فبينما نراه قد غطى متطلبـــاته الميتافيزيقية بسرعة وكثيراً من الاحيان تغطية ناقصة معابة ، وذلك بواسطة عدد قليل من الكتب ، نراه انه لم يستطع أن يتدبر أمره فيقرر نظريته الاخلاقية بأية دقـة أو اتقان . ونحن نجد ذات الغشاء من الفكر الاخلاقي الذي يعيش ساعته يغطي جمهرات من الميتافيزياءات التي استوجبها التقليد (الذي هو في واقعه من النوافل) في الفلسفات الابيقورية والرواقية . ونحن بعد هذا لن يخامرنا أي شك في ماهية جوهر فلسفة المدنية .

لقد استهلكت الميتافيزياء الحازمة امكاناتها . وتغلبت المدينة العـالمية الكبرى أكيداً على الريف ، والآن ها هي روحها تصوغ نظرية خاصة بها موجهة بالضرورة

الى الظاهر ، الى ما هو عديم النفس . ونحن لنا شيء من الحق في أن نستبدل منذ الآن فصاعداً كلمة « نفس » بكلمة « دماغ » . ولما كان « الدماغ » الغربي ، الارادة للقوة ، المجرى المستبد المتجه نحو المستقبل والغاية الرامية الى تنظيم كل انسان وكل شيء يتطلب تعبيراً عملياً ، لذلك فان الاخلاق بوصفها تبتعد اكثر فأكثر عن ماضيها الميتافيزيقي ستنتحل بمثابرة وثبات طابعاً اجتماعياً اخلاقياً وآخر اجتماعياً اقتصادياً . ففلسفة هذا العصر التي تبدأ بهيغل وشوبنهاور هي الى الحد الذي تمثل فيه روح العصر (التي لا يمثلها مثلاً لوتزي Lotze وهربارت Herbart) أقول انها نقد للمجتمع .

إن الاهتمام والعناية اللذين كان يوليهما الرواقي جسده ، يكرسهما الغربي للجسد الاجتماعي . وليس بوليد المصادفة كون فلسفة هيغل قد دفعت بالاشتراكية (ماركس وانجلز) وبالفوضوية (ستيرنر)وبالدراما المستعرضة للمشكلة الاجتماعية (هيبل) الى الوجود .

إن الاشتراكية هي اقتصاد سياسي قد يحول الى صيغة اخلاقية وأكثر من هذا الى صيغة ملزمة . وقد بقي الاقتصاد السياسي، طالما كان للميتافيزياء من وجود (أي حتى « كنت ») علماً . ولكن حالما اصبحت الفلسفة ترادف في معناها الاخلاق العملية ، فانها اطرحت الرياضيات كقاعدة للفكر في العالم جانباً ، وهذا هو السر في أهمية كوزين ، بنتهام وكومت ومل وسبنسر .

فأن يختار الفيلسوف مواده اختياراً حراً أمر لم يمن بـه الله على الفيلسوف ، كما وانه ليست مواد الفلسفة هي دائماً وفي كل مكان المواد نفسها . فليس هناك من أسئلة أزلية أبدية ، بل انما هناك فقط اسئلة تنبع من شعور كينونة معينة وتطرحها هذه الكينونة . « إن كل ما هو ماض هو رمز » وهذا القول ينطبق أيضاً على كل فلسفة أصيلة بوصفها تعبيراً ذهنياً لهذه الكينونة وبوصفها تحقيقاً للامكانات الروحية في عالم شكل المفاهيم والاحكام والتراكيب الفكرية التي تشتمل عليها الظاهرة الحية لمؤلفها . وكل فلسفة كهذه من أول كلمة فيها حتى آخر كلمة ، ومن أشد فرضياتها تجريداً الى ملامحها نطقاً وأثراً عن الشخصية هي شيء في الصير انحدر صررة

من النفس الى العالم ، ومن مملكة الحرية الى مملكة الضرورة ومن الحياة العفوية الى المنطق الاتساعي ، ولهذا السبب بالذات هو شيء عابر فانٍ لحياته ايقاع وديمومة محددان محدودان ، لذلك فانٍ اختيارهما يخضع للضرورة الحازمة .

ان لكل حقبة تاريخية شيئاً هو هام بالنسبة اليها فقط ، وليس هاماً بالنسبة الى أية حقبة أخرى وأن الشاهد على الفيلسوف بالولادة كونه يرى حقبته وموضوعه بعين واثقة أكيدة ، وما عدا هذا فليس هناك من شيء ذي أهمية في الانتاج الفلسفي، بل انما هو مجرد معرفة تقنية وصناعة لازمة لبناء مراوغات منهاجية مفاهيمية .

ونتيجة لذلك فان الفلسفة المميزة للقرن التاسع عشر هي أخلاق ونقد اجتماعي فقط وفق ما لهذين من مفهوم مجدد ، وليست هي شيئاً أكثر من ذلك .

ونتيجة لذلك أيضاً فان أهم ممثليها (ما عدا المتمرنين العمليين) هم كتاب الدراما . فهم الفلاسفة الحقيقيون للفعالية الفاوستية ، وجميع فلاسفة قاعات المحاضرات والمنهاجيين هم هباء في هباء إذا ما قورنوا بهم . فكل ما قدمه الينا هؤلاء المتحذلقون التافهون هو أنهم كتبوا وأعادوا كتابة تاريخ الفلسفة (ويا له من تاريخ! انه مجموعات من معلومات و «نتائج ») مراراً وتكراراً حتى أصبح المرء في عصرنا هذا لا يعرف ما هو تاريخ الفلسفة وما يمكن له أن يكون .

وبفضل هذا الواقع لم يستطع أبداً أحد حتى الآن أن يدرك الوحدة المتعضية داخل فكرة هذه الحقبة التاريخية ونحن يمكننا أن نحدد جوهرها من وجهة النظر الفلسفية تحديداً مضبوطاً بطرحنا السؤال التالي :

إلى أي حد هو جورج برنارد شو تلميذ نيتشه ومكمله ؟

إننا لا نوجه هذا السؤال بروح ساخرة ، فشو هو المفكر الرفيع الشأن الواحد الذي تقدم بمثابرة وثبات في الاتجاه نفسه الذي اتجهه نيتشه ، وأعني به الانتقاد المثمر للاخلاق الغربية ، بينما أنه اقتفى كشاعر آخر مضامين « ابسن » وكرس توازن الابداع الفني داخله للمناقشات العملية .

اننا إذا ما غضضنا الطرف عن النازع الرومانتيكي الذي تجسد نيتشه في أواخر سني حياته.فقرر أسلوب فلسفته ولهجتها وموقفها ، نجد أن نيتشه هو في كل ناحية من نواحيه ، تلميذ لعقود السنين المادية

أما ذاك الذي جذبه بانفعال كذاك الى شوبنهور (وهذا لا يعني أن نيتشه أو أي واحد آخر كان يعي ما جذبه) فإنما كان ذلك العنصر من عناصر مذهب شوبنهور الذي دمر به المتيافيزياء العظمى وسخر (دون قصد منه) باستاذه « كنت » ، وأعني بذلك تبسيطه لجميع النظريات العميقة التي أنجبها العصر الباروكي ، في تصورات ميكانيكية محسوسة . ان « كنت » ينطق بكلمات لا تفي بالمرام ، لكنها كلمات تخفي حدساً جباراً من النادر إدراكه ، حدسا للعالم كمظهر أو ظاهرة أما هذا الحدس لدى شوبنهور فيجعل العالم كظاهرة دماغ ، وهكذا يبدو أمامنا أن التحول من الفلسفة التراجيدية الى العامية الفلسفية قد أنجز واكتمل. ويكفينا أن نروي فقرة واحدة عن شوبنهور لندلل على صحة ما ذهبنا اليه . يقول شوبنهور في كتابه « العالم كإرادة وفكرة » ما يلي :

« إن الإرادة بوصفها الشيء في ذاته تشكل الجوهر الباطني الحقيقي الذي لا يمكن تدميره في الانسان ، وهذا الجوهر في ذاته هو كيفما كانت حاله ، دون وعي . وذلك لأن الوعي يشترطه العقل ، وهذا هو مجرد صدفة لكينونتنا ، ولما كانت وظيفة العقل هي أيضاً (بمالها من أعصاب معتمدة ونخاع شوكي) مجرد ثمرة ، نتاج وغلة ، لا بل هي العنصر الطفيلي في التركيب العضوي من حيث أنها لا تتدخل مباشرة في نشاطات الارادة بل إنما تخدم فقط غرضاً من أغراض المحافظة على البقاء بواسطة تنظيم علاقاته بالعالم الخارجي .

هذا ما يقوله شوبنهور وفيه نجد الوضع الأساسي لأصرح مادية وأوضحها . ولم تكن من العبث دراسة شوبنهور للفلاسفة الحسيين الأنكليز كما فعل روسو من قبله فمن هؤلاء تعلم شوبنهور أن يخطىء فهم « كنت » بروح العصرية النفعية ، روح المدينة العالمية الكبرى . فالعقل كأداة للارادة للحياة ، وكسلاح في الصراع من أجل الوجود ، قد عبر عنها وعن فكرهما شو في مسرحيته «الانسان والسوبرمان»

تعبيراً ساخراً مضحكاً، ولأنه كانت لشوبنهور هذه النظرة الى العالم أصبح شوبنهور بعدما نشر داروين مؤلفه الرئيسي عام ١٨٥٩ الفيلسوف العصري المألوف. فهو في تضاده وشللنغ، هيغل وفيختي، كان فيلسوفاً، والفيلسوف الوحيد الذي يمكن لذهنية متوسطة أن تتشرب بسهولة فرضياته المتيافيزيائية. فالصفاء الذي كان يفخر دائماً به شوبنهور كان يهدد في كل لحظة بأن يتكشف تفاهة وسخفاً. وبينما كان يتمسك بما فيه الكفاية بالقوانين الفلسفية .كي يخلق حول فلسفته جواً من الغموض والاقتصارية، غير أنه قد عرض النظرة المتمدنــــة الى العالم كاملة وقابلة للتمثل Assimilable فمنهاجه هو الداروينية المرتقبة، وما اقتبسه من «كنت» ومفاهيم الفلاسفة الهنود سوى قناع تتقنع به داروينيته. فنحن نجد في كتابه «عن الأرادة في الطبيعة» الذي أصدره عام ١٨٣٥ الصراع من أجل الحفاظ على البقاء في الطبيعة، ونجد عقل الانسان السلاح الفعال في هذا الصراع والحب الجنسي بوصفه انتقاء غير واع يتم حسب ما تقرره المصلحة البيولوجية.

وهذه هي النظرة التي جعلها داروين (عبر ملثس) نظرة لا يقاوم لها نجاح في ميدان الزولوجيا Zoology ان الأصل الاقتصادي للداروينية تظهره الحقيقة القائلة بأن المنهاج المستنتج من التشابهات بين الجنس البشري وبين الحيوانات الأرقى يتوقف عن الملاءمة حتى عند عالم النبات ويصبح أكيداً منهاجاً شاذاً غريباً حالمـا يحاول المرء جدياً تطبيقه بكل نوازعه (الاصطفاء الطبيعي والمحـاكاة) على الأشكال العضوية البدائية.

أما البرهان بالنسبة الى الداروينية فانما يعني انتقاء للحقائق كي تطابق على شعوره الأساسي التاريخي الديناميكي بالنشوء والارتقاء فالداروينية (وأعني بها مجموعـة الفكر والنظريات الشديدة في تغايرها وتناقضها والتي لهـا قاسم مشترك أعظم هو تطبيق مبدأ السببية (العلية) على الأشياء الحية، وهي لذلك منهاج وليست نتيجة) أقول ان هذه الداروينية كانت معروفة بكل تفاصيلها للقرن الثامن عشر.

أما ما أنتجه داروين فانما كان فقط منهاج «مدرسة مانشستر» ولهـذا يعود الفضل في شعبيتها الى هذا العنصر السياسي الدفين.

ان الوحدة الروحية لهذا القرن جلية هنا وواضحة. فلقد كان كل واحد ابتداء من شوبنهور حتى شو يدفع دون أن يدري بالمبدأ ذاته الى داخل شكل. فكل واحد (حتى بما فيهم اولئك الذين هم كهبل لم يعرفوا أي شيء عن الداروينية) هو مشتق من فكرة النشوء والارتقاء (ومن الفكرة المتمدنة الضحلة منها، وليس من الفكرة « الغوتيية » في النشوء والارتقاء) ولا يهم ما اذا كان احدهم يخرج الفكرة في طابع بيولوجي أو يخرجها غيره اخراجاً اقتصادياً . فهناك ايضاً نشوء وارتقاء داخل فكرة النشوء والارتقاء ذاتها ، وهذا هو فاوستي شكلاً وجوهراً والذي يعرض (عرضاً يتناقض تناقضاً شديداً وفكرة الكمال المعدومة الزمان لارسطوطاليس) أقول يعرض كل حاجتنا المنفعلة نحو (لاحظ لم يقل الى) مستقبل لا نهاية له ، يعرض ارادتنا ومفهومنا للهدف الذي يبدو فطرياً وملازماً بصورة خاصة للروح الفاوستية الى حد يصبح معه كأنه شكل بداهة وليس بالأحرى مبدأ مكتشفاً لصورتنا للطبيعة . وفي نشوء هذا النشوء يجد التغير ذاته في مكان آخر ، في انعطاف الحضارة الى المدنية . فالنشوء والارتقاء عند غوتيه هو مذهب قويم منتصب على قدميه مستقيم ، بينما انه لدى داروين منبطح على بطنه مسطح ، فهو لدى غوتيه مذهب عضوي لكنه ميكانيكي عند داروين، وهو تجربة وشعار لغوتيه، بينما انه مادة معرفة وقانون في نظر داروين .

لقد كان هذا المذهب يعني لغوتيه الاكتمال الباطني ، بينما انــه عنى لداروين « التقدم » . فصراع داروين من أجل الوجود، هذا الصراع الذي تلاه على الطبيعة ولم تتله الطبيعة عليه هو فقط الشكل العـامي لذلك الشعور الابتدائي الذي يدفع في تراجيديات شكسبير الحقائق العظمى الواحدة منها ضد الاخرى ، لكن مـــا أبصرت به عين شكسبير الباطنية يُحس به ويحقق داخل أبطاله واشخاصه بوصفه مصيراً ، بينما أن الداروينية تفهمه على أنه ترابط سببي (علي) وتصوغه منهاجاً سطحياً من المنافع . وهذا المنهاج وليس ذاك الشعور الابتدائي هو دستور ما يفوه به زرادشت وقانون تراجيديا «الاشباح» ومشاكل «حلقة النيبلونج» . ولم يدرك شوبنهور وهو الحلقة الاولى في السلسلة الا برعب وهلع مـــا عنته معرفته الخاصة

(واعي بما ادركه جذر تشاؤميته ، وموسيقى « تريستان » لمناصرة فاغنر التي هي أبلغ تعبير وأنبله عما عنته معرفة شوبنهور) بينما أن الناس المتأخرين زمناً ، وعلى رأسهم نيتشه كانوا يواجهون معنى ،معرفتهم بحماس ، بالرغم من أن هذا الحماس كان أحياناً متصنعاً .

ان خلاف نيتشه وفاغنر (آخر من انتجته الروح الالمانية والذي عليه تبيض العظمة وتفرخ) يدل على التحول الصـامت في ولائه المدرسية ، وعلى الخطوة اللاواعية التي خطاها نيتشه من شوبنهور الى داروين ، من الصياغة الميتافيزيائية الى الصياغة السيكولوجية للشعور ذاته بالعالم ، ومن انكار الى تأكيد النظرة التي هي فعلاً نظرة مشتركة بين كل من شوبنهور وداروين ، اذ أن الأول يراها ارادة للحياة والثاني يراها صراعاً من أجل الوجود . ونيتشه حتى في كتابه « شوبنهور كمربي » لا يزال يعني بالنشوء والارتقاء النضوج الباطني ، لكن السوبرمان هو نتاج نشوء وارتقاء ميكانيكيين . وزرادشت هو من الوجهة الاخلاقيـة ثمرة احتجاج لا واع على « بارسيفال » (الذي يكتسح زرادشت من الناحية الفنية اكتساحاً) وثمره تنافس بين انجيليين .

لكن نيتشه كان أيضاً اشتراكياً دون أن يعرف ، وليست شعاراته بل انما هي غرائزه التي كانت اشتراكية عملية موجهة الى ذلك النوع من البر بالجنس البشري الذي لم يهدر عليه أبداً غوتيه أو « كنت » خاطراً من خواطرهما . ولا يمكن الفصل بين المادية والاشتراكية والداروينية الا فصلاً اصطناعياً سطحياً . وهذا هو الذي مكن جورج برنارد شو في الفصل الثالث من مسرحيته « الانسان والانسان الأعلى » وهذه المسرحية تعتبر احدى أعظم المنجزات التي تمخض عنها عصر الانتقال) من الحصول بواسطة اعطائه منعطفاً صغيراً فقط ، منعطفاً كاملاً في صحته المنطقية ، لنوازع « أخلاق السادة » والانتـاج السوبرمان ، أقول مكنه من الحصول على المبادىء المقررة Maxims المميزة لاشتراكيته الخاصة فهنا يعبر شو بصفاء لا يعرف ندماً وبوعي كامل لما هو عادي ومألوف عن الجزء غير المنتهي من زرادشت سيعبر عنه بالتعبير المسرحي الفاغنري وبالرومانتيكية الوفيرة الصوف . ان كل ما يهمنا

اكتشافه في محاكمة نيتشه العقلية، هو القواعد العملية والنتائج التي تنطلق بالضرورة من تركيب الحياة العامة العصرية. فهو يضرب بين أفكار غامضة «كالقيم الجديدة» و «السوبرمان» و «خطيئة الارض» والانحطاطات والمخاوف كي يصوغ هذه كلها صياغة فيها المزيد من الدقة والاتقان. وشو يحذو حذوه أيضاً. ونيتشه يلاحظ أن الفكرة الداروينية تستوجب تصوراً للانجاب، فيتوقف أمامها ويتركها عند شبه جملة طنانة رنانة. لكن شو يلاحق الموضوع (إذ انه ليس هناك من اعتراض على معالجتها طالما أن المرء لن يأتي أي شيء حيالها) ويسأل كيف ننجزه، ومن هنا ينطلق الى المطالبة الى تحويل البيئة البشرية الى مزرعة لانجاب الخيول.

ولكن هذا هو استنتاج مضمر في زرادشت لم يتجرأ نيتشه على الاعلان عنه أو كان بالأحرى أشد تأنقاً من أن يرسمه. ونحن إذا ما القينا بنظرة على الانجاب المنهاجي (وهذا تصور كامل في ماديته ونفعيته) عندئذ يتوجب علينا أن نكون مستعدين للاجابة عن هذا السؤال:

«من الذي سينجب وما، وأين وكيف؟»

ولكن نيتشه بوصفه أشد رومانتيكية من أن يواجه النتائج الاجتماعية البالغة في نثريتها (Prosaic) وأن يُعرض الأفكار الشعرية لمحك الحقـــائق، يتغاضى عن القول بأن كامل مذهبه بوصفه مشتقاً من الداروينية يستلزم الاشتراكية، ويستلزم أكثر من هذا الارغام والوسائل الاشتراكية، التي يستوجبها أي انجاب منهاجي لطبقة أرقى من الناس كشرط سابق لانتظام المجتمع انتظاماً حازماً في اشتراكيته، وان هـذه الفكرة الديونيزية لما كانت تستدعي عملاً مشتركاً وليست هي بقضية خاصة بكل مفكر على حدة، لذلك فهي فكرة ديمقراطية، ولتقلب ما قلته على أي وجه تشاء وترغب. إن الانسان الفاوستي رغبة في أن يفرض على العالم شكل إرادته لمستعد لأن يضحي حتى بنفسه، وهذا هو أوج القوة الأخلاقيـة «لعليك أن تفعل.»

إن فكرة انجاب السوبرمان تنبع من التصور الاصطفـائي، ونيتشه أصبح تلميذاً لداروين دون ان يعلم، منذ أن كتب خلاصة مبدئه، لكن داروين أعاد

صياغة افكار القرن الثامن عشر في النشوء والارتقاء صياغة تتفق ونوازع روبرت ملتس في الاقتصاد السياسي هذه النوازع التي سلطها على عالم الحيوان الارقى . لقد درس ملتس صناعة القطن في لانكشير ، ونحن نشاهد المنهاج الداروني قد طبق بكامله عام ١٨٥٧ على الناس فقط بدلاً من الحيوانات وذلك في تاريخ الحضارة الانكليزية الذي وضعه « باكل » (Buckle) .

وبكلمة أخرى نقول بأن « اخلاق السادة » لآخر ما في عنقود الرومانتيكية من « فلاسفة » تنبع من نبع كل العصرية الذهنية هذه ، واعني به جو المصنع الانكليزي (وهذا قول قد يبدو غريباً لكنه ذو مغزى عميق) .

إن الميكيافيلية التي امتدحت نفسها لنيتشه بوصفها ظاهرة من ظواهر عصر الانبعاث ، هي شيء ما مشابه شبهاً قريباً لتصور داروين للمماثلة والمحاكاة (وهذا أمر واضح الافتراض) . وهذه هي يعالجها كارل ماركس (وهو ذاك التلميذ المشهور من تلاميذ ملتس) في كتابه رأس المال الذي يعتبر الانجيل السياسي (لا الاخلاقي) للاشتراكية . هذه هي شجرة عائلة (Genealogy) ، « أخلاق السادة » .

إن الارادة للقوة إذا ما نقلت الميدان الواقعي السياسي الاقتصادي تجد من يعبر عنها في مسرحية شو « ما يجور باربارة » . ولا شك أن نيتشه كشخصية يقف على قمة هذه السلسلة من الفلاسفة الاخلاقيين ، لكن شو بوصفه سياسياً حزبياً يبلغ مستوى نيتشه كمفكر . إن الارادة للقوة هي اليوم ممثلة بقطبي الحياة العامة ، بالطبقة العاملة وبأصحاب الثروات والعقول الكبيرة تمثيلاً هو أشد فعالية وتأثيراً بكثير من تمثيل آل « بورجيا » لها في وقت أو زمان . فالمليونير ابدر شافت في أحسن كوميديات شو هو سوبرمان ، بالرغم من أن نيتشه الرومانتيكي لم يكن ليعرف في شخص كهذا مثله الأعلى . فنيتشه يتحدث دائماً عن إعادة تقويم كل القيم تقويماً ثورياً ، وعن فلسفة المستقبل (الذي هو عرضاً مستقبل الجنس البشري الغربي وليس بمستقبل الصيني أو الأفريقي) ولكن عندمايجتمع ضباب فكره في

شكل البعد الديونيسي ويتكثف ليصبح أي شكل محسوس كان ، عندئـذ تظهر أمامه الارادة للقوة متسترة تحت قنـــاع من خنجر وسم ،ولا تظهر أبداً متقنعة بالاضرابات و « التسويات » . ومـع هـذا فهو يقول بأن فكرة الارادة للقوة قد حلت فيه اول مـا حلت عندما رأى الفيالق البروسية تنطلق الى المعركة عام ١٨٧٠ .

لم تعد الدراما في هذه الحقبة التاريخية شعراً في مفهومنا الحضاري للشعر ، بل انما أصبحت شكلاً من تحريض وجدل ومظاهرة،واصبح المسرح مؤسسة لتدريس الاخلاق . ونيتشه نفسه فكر مراراً بوضع افكاره في شكل درامي . والقصائد في نيبلونغ لفاغنر وخاصة المخطوطة الاولى (عام ١٨٥٠) تعبر عن افكاره الاجتماعية الثورية ، وفاغنر حتى عندما أكمل «الرنغ» بعد مجرى دائري سلكه تحت عوامل مؤثرات فنية « وغير فنية ، فان سيغفريده لا يزال رمزاً للمنزلة الرابعـــة (Fourth Estate) ولا تزال « برونهلدي » « المرأة الطليقة » .

فالاصطفاء الجنسي (Sexual) الذي استمد منه « أصل الانواع » النظرية عام١٨٥٩ كان يجد في الوقت التعبير الموسيقي عنه في الفصل الثالث من «سيغفريد» وليست هي بنتاً من بنات المصادفة كون فاغنر وهيبل وابسن قد بدأوا عملياً في وقت واحد في انتقاء ذخائر النيبلونغ مواد لمواضيع دراماتهم . وهيبل يكتب معلقاً على تعرفه في باريس الى كتابات انجلز فيقول (في رسالة مؤرخة في ٢-٤-١٨٤٤) انه دهش اذ وجد أن مفاهيمه الخاصة في المبـدأ الاجتماعي لعصره والتي أراد أن يعرضها في دراما (Zu irgend einer Zeit) تنطبق تمامـاً على مفاهيم « البيان الشيوعي » للمستقبل . كما وان دهشة « هيبل » لم تكن لتقل عن دهشته هذه عندما تعرف الى شوبنهور ، فهو يورد في رسالة كتبها (في ٢٩ آذار عـام ١٨٥٧) بأنه مذهول للتشابه العجيب الذي يجده قائماً بين كتاب « العـــالم كإرادة وفكرة » وبين النوازع التي أقام عليها كتابيه « هولوفيرنيس » ، و « هيرودس ومريم » .

ان مذكرات هيبل والتي خط أهم أجزائها بين عام ١٨٣٥ وعام ١٨٤٥ هي (بالرغم من جهل هيبل بأهميتها) أعمق المجهودات الفلسفية في ذاك القرن . ولن ندهش أبداً اذا ما وجدنا جملاً كاملة انيتشه فيها هذا الذي لم يعرفه ولم يبلغ مستواه أبداً .

إذن فان افلسفة القرن التاسع عشر الواقعية.وذات الأثر موضوعاً أصيلاً واحداً هو الارادة للقوة . وهي تتأمل في الارادة للقوة هذه في شتى الاشكال المتمدنة من ذهنية واخلاقية أو اجتماعية وتعرضها (الارادة للقوة المترجم) كالارادة للحياة، كقوة حياة بوصفها مبدأ عملياً ديناميكياً ، وكفكرة وشخص دراماتي. (ان المرحلة التي انتهت بشو تنطبق على المرحلة الواقعة بين عام ٣٥٠ وعام ٢٥٠ من الحضارة الكلاسيكية)

أما ما تبقى من فلسفة القرن التاسع عشر فهي، ولنصفها بماوصفها به شوبنهور ، فلسفة « بروفسيرات » بواسطةبروفسيرات فلسفة،وهاك المعالم الحقيقية لفلسفة القرن التاسع عشر :

١٨١٩ — كتاب شوبنهور « العالم كإرادة وتصور » وفي هذا الكتاب تعتمد الارادة للحياة لأول مرة الحقيقة الواحدة (القوة الأصلية القوة الأزلية) ولكن في هذه الفترة لا تزال الآثار المثالية فعالة مقتدرة ، والارادة قد وضعت هنا لنفيها .

١٨٣٦ — كتاب شوبنهور « عن الارادة في الطبيعة » وهذا الكتاب ارهاص داروبني لكنه يتقنع بقناع متيافيزيقي .

١٨٤٠ — كتاب برودن « Qu'est - ce que la Propriété » وهذا الكتاب هو منطلق الفوضوية، وكتاب كومت Cours de Philosophie Positive وهو قانون « النظام والتقدم » .

١٨٤١ — « يوديث » لهيبل ، وهو أول مفهوم درامي للمرأة الجديدة وللسوبرمان . وكتاب فيورباخ كتاب المسيحية .

١٨٤٤ – كتاب انجلز « في نقد الاقتصاد القومي » وهو الأساس الذي يرتكز عليه المفهوم المادي للتاريخ . ومسرحية هيبل « مريم المجدلية » وهذه هي أول دراما اجتماعية .

١٨٤٧ – كتاب ماركس « بؤس الفلسفة » (وهذا مركب هيغل وملثس)، وهو يعبر عن الأعوام الحقبية التي بدأ فيها الاقتصاد على الأخـــلاق الاجتماعية والبيولوجيا .

١٨٤٨ – « موت سيغفريد » لفـــاغنر ، واخراج سيغفريد كثوري اجتماعي اخلاقي ، وكنز « فافنر » كرمز للرأسمالية .

١٨٥٠ – « الفن والمناخ » لفاغنر ، وهذا يستعرض المشكلة الجنسية.

١٨٥٠ – ١٨٥٨ – قصائد النيبلونغ لفاغنر وهيبل وابسن .

١٨٥٩ – (سنة المصادفات الرمزية) كتـاب أصل الأنواع لداروين (تطبيق الاقتصاد على البيولوجيا) و «تريستان » لفاغنر ، وكتاب « في نقـد الاقتصاد السياسي » لكارل ماركس .

١٨٦٣ – كتاب « النفعية » لجون ستيوارت مل .

١٨٦٥ – كتاب « قيمة الحياة » لدورنغ وهذا كتاب لم يسمع به إلا قلة القلة ، لكن كان له أعظم الأثر في الأجيال التي أعقبته .

١٨٦٧ – كتاب « براند » لإبسن ورأس المال لماركس .

١٨٨٧ – بارسيفـــال لفـاغنر ، وهو يمثـــل التحلل الأول المـادية الى الصوفيـة

١٨٧٩ – «نورا» لابسن .

١٨٨١ – كتاب احمرار الفجر لنيتشه ، وهو يمثل انتقال نيتشه من أخـــلاق شوبنهور الى أخلاق داروين كظاهرة بيولوجية .

١٨٨٣ كتاب هكذا تكلم زرادشت لنيتشه ، وهو يستعرض الارادة للقوة لكن تحت ستار رومانتيكي .

١٨٨٦ – كتاب رومر سهولم لإبسن وكتاب ما وراء الخير والشر لنيتشه .

١٨٨٧-٨٨- «فادرن» وفروكن يولي «لستروندبرغ» .

١٨٩٠ – نهاية الحقبة تقترب . المؤلفات الدينية لستروندبرغ والرمزية لأبسن .

١٨٩٦ – « جون جبرائيل بور كهان » لأبسن .

١٨٩٨ – كتاب الانسان الأعلى لنيتشه ، وحتى دمشق لستروندبرغ .

١٩٠٠ – آخر ظاهرة .

١٩٠٣ – كتاب الجنس والخلق لفانيغر (Weininger) ، وهذا الكتاب هو المحاولة الجدية الوحيدة لبعث «كنت» في هذه الحقبة التاريخية بواسطة رده الى فاغنر وإبسن .

١٩٠٣ – « الانسان والانسان الاعلى » لشو ، وهذا يشكل المركب الختامي لداروين ونيتشه .

١٩٠٥ – ما يجر باربارة لشو ، وهو يستعرض نموذج السوبرمان برده الى أصوله الاقتصادية . بهذه المنجزات تستهلك المرحلة الاخلاقية نفسها كما فعلت من قبل المرحلة الميتافيزيائية . فلقد بلغت الاشتراكية الاخلاقية أوجها حينما مهد الطريق لعظمتها الانفعالية فيختي وهيغل وهومبولدت وذلك في منتصف القرن التاسع عشر ، لكنها وصلت في نهاية هذا القرن الى مرحلة التكرارات . أما القرن العشرون فأنه أبقى على كلمة اشتراكية لكنه استبدل فلسفة اخلاقية يفترض فقط في ابيغوني (Epigoni) وحده أن يكون قادراً على تطويرها ، بالتدريب على قضية اقتصادية هي قضية كل يوم .

الفصل الحادي عشر

معرفة الطبيعة

من

فاوستية وأبولونية

- ١ -

أورد هولمهوتز Helmholtz في إحدى المحاضرات التي ألقاها عام ١٨٦٩ والتي أمست مشهورة فيما بعد ملاحظة تقول :

« إن الهدف النهائي للعلوم الطبيعية يتمثل في اكتشاف الحركات (Motions) التي تكمن وراء كل تغيير والقوى الدافعة فيها، أي أن تذيب نفسها الى ميكانيكا . » أما الذي يعنيه هذا الذوبان الى « ميكانيكا » فانما هو استشهاد كل الانطباعات النوعية بالقيم الأساسية الكمية ، وأعني بهذا ، الاستشهاد بالامتداد وبتبدل المكان فيه . ويعني فضلاً عن ذلك (إذا وضعنا نصب أعيننا التعارض القائم بين الصيرورة والصير ، بين الشكل والقانون ، بين الصورة والتصور) استشهاد صورة الطبيعة المنظورة بالصورة المتخيلة لنظام رقمي تركيبي وقابل للقياس إن النازع الخاص لكل

الميكانيكا الغربية ينزع الى الغزو الذهني بواسطة القياس ، ولكنه لهذا السبب مرغم على أن يفتش عن جوهر الظاهرة داخل منهاج يتألف من عناصر ثابتة هي سريعة التأثر والاحساس وقابلة للادراك الكامل الشامل بواسطة القياس والتي يميز منهـــا هلمهوتز الحركة بوصفها أشدها أهمية (ونحن نستعمل كلمة الحركة هنا بمعناها اليومي المألوف .)

ويبدو هذا التعريف في نظر الفيزيائيين تعريفاً واضحاً جامعـــاً مانعاً، لكنه يبدو بالنسبة الى المرتاب الشكاك الذي تتبع تاريخ هذه القناعة العلمية ليس واضحاً، وليس جامعاً أو مانعاً .

إن الميكانيكا المعاصرة هي في نظر الفيزيائي منهـاج منطقي يتألف من مفاهيم فريدة في أهميتها ومن علاقات بسيطة ضرورية ، بينما انها في نظر الآخر (المرتاب) هي صورة ممـــيزة لتركيب الروح الأوروبيـة الغربيـــة ، وذلك بالرغم من اعترافه بأن هذه الصورة متماسكة تماسكاً شديداً ولا تتغير ومقنعة أعمق اقناع وأوطده .

ومن الغني عن البيان أنه لا توجد أية نتائج عمليـة تستطيـع أن تبرهن على أي شيء بالنسبة الى « حقيقة » النظرية ، الصورة . «فالميكانيكا» تبدو فعلاً لمعظم الناس كمركب Synthesis غني عن البيان من انطباعات عن الطبيعة. لكن الميكانيكا تبدو فقط على هذا الشكل،وذلك لأنه ما هي الحركة ؟ أليست هي الفرضية القائلة بأن كل شيء نوعي هو قابل للاختزال الى حركة نقاط كتلة (Mass - Points) غير قابلة للتغيير أو التبديل على حد سواء ، هي نظرية فوستية في جوهرها وليست نظرية مألوفة للجنس البشري. فأرحميدس مثلاً لم يشعر بنفسه مرغماً على تبديـل وضع الميكانيكا التي شاهدها الى صورة ذهنية للحركات . وهل الحركة بصورة عامة هي كمية ميكانيكية مجردة ؟ وهل هي كلمة تقال من أجل الاختبار البصري ، أو أنها تصور مشتق من الخبرة ؟ وهل هي الرقم الذي يوجد بواسطة قياس حقائق منتجة انتاجاً إختبارياً، أم أنها الصورة التي أخضعت لذلك الرقم الذي يدل عليها؟ وإذا كان مقدراً للفيزياء أن تنجح حقاً في بلوغ هدفهـــا المفترض وذلك بواسطة

ابتكار منهاج لحركات « يحكمها القانون » ولقوى فعالة تختفي وراءها حيث يمكننا أن نجعل كل شيء ، مهما كان أمره أو حاله ، قابـــلا للادراك بواسطة الحواس ، منطبقاً على المنهاج وملائماً له فهل تكون الفيزياء لهذا السبب قد أنجزت « معرفة » ذاك الذي يحدث ، أو حتى خطت خطوة واحدة نحو مثل هذا الانجاز؟ ومع هذا فهل لغة شكل الميكانيكا هي لهذا السبب أقل دغماتية بمثقـال ذرة ؟ أليست ، على العكس من ذلك ، هي وعـاء الأسطورة ، ككلمات الجذر ، وهي لا تنطلق من الخبرة بل إنما تصوغها ، وفي هذه الحالة تصوغها بكل تدقيق وشدة وصرامة ؟ مـا هي القوة ؟ (Force)[1] ، ومـا هو السبب (العلة) ? ومـــا هو تدرج العملية (Process) ؟ لا بل وحتى اعتماداً على تصاريف الفيزياء الخاصة ، هـــل للفيزياء مسألة خاصة اطلاقاً ؟ وهل لها هدف خالد على كل القرون مثلاً ؟ وهـل لها حتى وحدة خيـــال واحـدة لا تصاب وذلك اعتماداً على ما يمكن لها أن تعبر عن نتائجهـا ؟

يمكننا أن نقدم الجواب على هذه الأسئلة ، فالفيزياء الحديثة بوصفها علمـاً هي منهـــاج هائل من الفهارس وذلك في شكل من الأسماء والأرقام التي نتمكن بواسطتها من العمل بالطبيعة كما نعمل بالآلة ، ولما كانت هذه هي حالها لذلك فان للفيزياء نهاية قابلة للتحديد تحديداً دقيقاً، ولكن بوصف الفيزياء قطعة من التاريخ، قطعة مشكلة بأكملها من المصائر والمصادفات في حياة الناس الذين عمـلوا في حقلها وفي مجرى الابحاث التي تناولتها نفسها ، لهـذا فان الفيزياء هي من حيث الموضوع مناهج ونتائج على حد سواء وتعبير حضارة وتحققها ، وهي عنصر عضوي ومولّد داخل جوهر تلك الحضارة ، زد على ذلك أن كل نتيجة من نتائجها هي رمز . إن مـــا تظن الفيزياء (التي هي موجودة فقط في الوعي اليقظ لرجل الحضارة) في أنها تجده داخل مناهجها ونتائجها كان بالفعل موجوداً وقائماً وكامناً ومضمراً في

---

١ – لاحظ : قوة« Force ، طاقة « Energy

(المترجم)

إختيار نوع تقصيها ، وكانت لاكتشافاتها ، وذلك فيما يتعلق بالمحتوى المتخيل لهذه الاكتشافات (كما هو نميز بينه وبين قوانين الاكتشافات ودساتيرها القابلة للطبع) طبيعة اسطورية مجردة حتى في داخل عقول حكيمة فطينة كعقول « مـــاييو » و « فرداي » وهرتز. فنحن مطالبون في كل قانون من قوانين الطبيعة ، مهما بلغت دقة هذا القانون وصحته ، بأن نميز بين الرقم الذي لا اسم له وبين تسميته ، بين التثبيت الواضح الصريح للحدود النهائية وبين ترجمتها النظرية . فالقوانين الفيزيائية تمثل قيماً منطقية عامة وارقاماً مجردة (واعني بهـــذا القول الفراغ الموضوعي) وعناصر الحد .

ان القوانين الفيزيائية هي خرساء بكماء ، فالمصطلح التالي $s = 1/2gt^2$ لا يعني أي شيء إلا اذا كان المرء قادراً ذهنياً على ربط هذه الحروف بالكلمات المعنيـة الخاصة وبمـا لهذه الكلمات من رمزية . ولكننا في الدقيقة التي نكسو الاشارات الميتة في كلمات كهذه ونعطيها لحماً ، جسماً وحياة ، وزبدة القول، نعطيها مغزى قابلاً للادراك الحسي في هذا العـــالم ، عندئذ نكون قد تجاوزنا الحدود النهائية لنظام محض . ان كلمة .... تعني صورة ، رؤيا ، وهذا هو مـــا يجعل القانون الفيزيائي لا رقم عنده أو دستور ، فكل شيء دقيق صحيح هو في نفسه لا معنى له ، وكل ملاحظة فيزيائية هي مركبة على شكل تبرهن معـه على أصل رقم معين لمضامين متصورة ، أما الأثر لنتيجته فانما ينحصر في جعل هذه المضامين أكثر إقناعاً من أي وقت آخر ، وما عدا هذا فان النتيجة تتألف فقط من أعداد فارغة ، لكننا فعلاً وواقعاً لا نبتعد ولا نستطيع أن نبتعد عنها . وحتى اذا مـا وضع باحث ما على أحد الجوانب كل فرضية يعرفهـا على هذه الشاكلة ، فانه حالما يعتمد العمل فكراً في معالجة عملية وضوحها مزعوم فان مثل هذا الباحث لا يكون مسيطراً على هذه العملية ، بل انمـا يكون خاضعاً لشكلها اللاواعي ، وذلك لأن الباحث هو دائماً خلال النشاط الحي انسان حضارته وعصره ومدرسته وتقاليده .

ان الايمان و « المعرفة » هما مجرد نوعين من الثقة الباطنية ، ولكن الايمان هو الإقدام زمناً وهو الذي يسيطر على كل شروط المعرفة حتى ولو لم تكن هذه

الشروط أبداً صحيحة الى مثل هذا الحد ، وبهذا فان النظريات وليست الارقام هي عضد كل علم طبيعي. والحنين اللاواعي الى ذاك العلم الأصيل (ولنكرر قولنا) والذي هو خـاصة بروح رجل الحضارة يأخذ على نفسه أن يدرك وينفذ ويشمل داخل فهمه صورة الطبيعة العالمية ، فالقياس المجرد من أجل القياس ، ليس هو ولم يكن أبداً أكثر من عمل تجد فيه العقول الصغيرة بهجتها وغبطتها . فالارقام قد تكون مفتاحاً للسر فقط وهي لن تكون أكثر من هذا ، ولا يوجد هناك من شخص بارز يمكن له أن يبدد نفسه على الارقام ، ومن أجلها .

ان « كنت » حقاً يقول في احدى الفقرات المشهورة ما يلي :

« إنني أؤكد على انه يمكن فقط أن نجد في أي وكل انضباط للفلسفة الطبيعية قدراً من العلوم الصحيحة يعادل ما نجده في الرياضيات » .

ان ما يعنيه « كنت » في جملته هذه هو التحديد التخومي في ميدان الصير ، وذلك حتى الحد الذي من الممكن عنده (في أية مرحلة معينة) مشاهدة القانون والدستور ، والرقم والمنهاج في ميدان الصير . ولكن قانوناً دون كلمات ، قانون يتشكل فقط من سلاسل من الاعداد ويعتبر كأداة ، لا يمكن أن يكون ذا أثر كامل حتى كعملية ذهنية في هذه الحالة المجردة . فكل تجربة قام بها عالم علاّمة ، مهما كان نوعها وشكلها ، هي في الوقت ذاته برهة من نوع الرمزية التي تسيطر على تخيل العلاّمة لفكرته وتصورها (Ideation) .

ان كل القوانين المصاغة بكلمات هي أنظمة أنعشت ونُشطت وبعثت حية وعُبئت بجوهر كل جوهر الحضارة الواحدة (والواحدة فقط). أمـا فيما يتعلق « بالضرورة » التي هي فرض في كل بحث صحيح دقيق ، فهنا ايضاً يوجد لدينا نوعان من الضرورة ، وأعني بذلك وجود ضرورة داخل مـا هو روحي وحي (لأن متى وأين وكيف يتخـذ تاريخ عمل البحث الفردي مجراه هو مصير) وضرورة موجودة داخل ما هو معروف (وهذه الضرورة مشهورة في الغرب باسم السببية (العليـة) . فاذا كانت الارقام المجردة لقانون فيزيائي تمثل ضرورة سببية (علية) ، فان وجود النظرية ، ولادتها وديمومة حياتها ، هو مصير .

ان كل حقيقة ، وحتى أبسط الحقائق ، تحتوي منذ البداية (Ab Intio) على نظرية . فحقيقة ما هي انطباع فريد في حدوثه لكائن يقظ ، وكل شيء يعتمد على ما اذا كان هذا الكائن ، الذي حدثت له هذه الحقيقة أو تحدث له ، هو كائن أو كان كائناً كلاسيكياً أو غربيـاً ، غوطياً أو باروكياً . ولتقارن بين مـا تحدثه ومضة برق في العصفور الدوري من أثر ، وبين ما تحدثه الومضة ذاتهـا في البحاثة الفيزيائي اليقظ ، ولتفكر كم ان ما تختزنه (حقيقـة) المراقب هو اكثر بكثير مما تختزنه حقيقة العصفور الدوري .

إن الفيزيائي الحديث هو شديد الاستعداد لنسيان حتى كلمات مثل : الكمية ، الوضع ، سير العملية ، تبدل الحال والجسم التي تمثل بصورة خاصة صوراً غربية . فهذه الكلمات تنبه ، وهذه الصور تعكس صورة شعور بالمغازي ، شعور بالغ المراوغة فراراً من الوصف الشفهي ، ولا يمكن أن يتنبأ به الجنس البشري الكلاسيكي أو المجوسي أو أي جنس بشري آخر ، تماماً كعجزنا نحن عن إدراك المراوغات الغرارة لشعور كل جنس بشري آخر وفكره . ان طبيعة حقائق علميـة كهذه (وأعني التي صيغة صيرورتها معروفة) يسيطر عليهـا هذا الشعور الغربي سيطرة كاملة ، وإذا كانت الحال على ما ذكرت ، فان حقائق أضخم بكثير من تلك ، حقـائق هي تصورات ذهنية معقدة الى ذلك الحد ، كالعمـل ، التوتر ، كمية الطاقة ، كمية الحرارة ، الاحتمال Probability ، أقول أن لكل حقيقة من هذه الحقائق أسطورة علمية حقيقية خاصة بها . اننا نفكر بصورة مفاهيمية كتلك التي تنشأ من البحث غير المتحيز أبداً وتخضع لظروف وحالات معينـة وصحيحة أكيداً ، لكن عالمـاً من الدرجة الأولى في عصر أرخميدس ، كان لا شك سيعلن ، عقب أن يدرس فيزياءنا النظرية الحديثة دراسة كاملة شاملة ، عن عجزه التـام عن ادراك كيف يسمح أي أمرىء لنفسه بأن يعتبر تصورات غريبة شاذة تعسفية كهذه علماً ، وأقل من هـذا كيف يمكن أن يزعم بأن مثل هذه التصورات هي نتائج ضرورية ووليدة الحقائق الواقعية . وكان مثل هذا العالم سيقول « ان الاستنتاجات المبررة علمياً » هي « في الواقع كذا وكذا » ووفقاً لهذا فانه كان سيصوغ اعتماداً على أصل العناصر ذاتهـا

التي جعلت «حقائق» بواسطة عينيه وفكره نظريات كان سيصغي اليها فيزيائيون اصغاء من أذهلته أشياء ما بسخافتها وتفاهتها واستثارت فيه هزءاً عجيباً وسخرية مذهلة .

وبعد كل شيء، ما هي تلك التصورات الأساسية التي ولدت وطورت في ميدان فيزيائنا بيقين منطقي باطني ؟ أليست أشعة الضوء المستقطب (Polarized) والدوالف (ions) (ذرة التحليل الكهربي – المترجم) الشاردة وجسيمات (Particles) الغاز الطائرة منها والمتصادمة ، والحقول المغناطيسية والتيارات الكهربائية والأمواج ، هي ، منفردة ومجتمعة ، رؤى فاوستية قريبة الشبه جداً الى الزخرف والتزيين الرومانسكيين (Romanesque) والى الهندسة الغوطية ذات الضغط الرافع ، والى رحلات الفايكنغز البحرية في بحار مجهولة، والى حنين كل من كولومبوس و كوبيرنيكوس ؟ وألم ينم عالم الأشكال هذا نمواً متناغماً منسجماً تماماً والفنون المعاصرة له، وخاصة فن التصوير الزيتي وفن الموسيقى الأداتية؟ وزبدة القول أليست هذه كلها هي توجيهاتنا (Directedness) الشجية ، هي عاطفة بعدنا الثالث ، المنطلقة الى التعبير الرمزي عن نفسها من خلال صورة الطبيعة المتخيلة كما هي داخل صورة النفس ؟

– ٢ –

اذن يتبع لما ورد أن كل « معرفة » بالطبيعة حتى أدق هذه المعارف صحة ترتكز الى ايمان ديني . فالميكانيكا المجردة التي وضعها الفيزيائي نصب عينيه بوصفها شكل النهاية لما هو واجبه (وهدف كل آليات الخيال هذه) في أن يختصر صورة الطبيعة ، يستلزم عقيدة ، (Dogma) وأعني بها صورة العالم الدينية التي بشكلتها القرون الغوطية ، لأن صورة العالم هذه هي التي تشتق منها الفيزياء الخاصة بالذهن

الغربي . فليس هناك من علم لا يحتوي على مضامين من هذا النوع، مضامين يعتقد البحاثة كل سيطرة عليها ، والتي يمكن للمرء أن يقتفي أثرها عائداً حتى أبكر أيام الحضارة يقظة واستيقاظاً . زد على ذلك أنه ليس هناك من علم طبيعي لا يتقدمه دين ، وفي هذه الناحية ، لا يوجد أي فرق بين النظرات الكاثوليكية والنظرات المادية الى العالم ، فكلاهما ينطقان بالشيء نفسه بكلمات مختلفة . فهناك حتى للعلم الملحد دين ، فالميكانيكا الحديثة تبعث ثانية تأملية الايمان فعندما بلغت العصور الأيونية ذروتها في طاليس ، وبلغت الباروكية أوجها في « بيكون » (Bacon) وبلغ الانسان المرحلة الحضرية من مدرج حياته بدأ تأكيده لذاته يتطلع الى العلم النقدي في تضاده ودين الريف الأكثر بدائية ، بوصفه الموقف الأسمى من الاشياء الذي يمسك كما يعتقد بالمفتاح الوحيد للمعرفة الحقيقية ، ولشرح الدين نفسه شرحاً اختبارياً تجريبياً وسيكولوجياً ، أو بكلمة أخرى ، المفتاح الى «غزو» الدين مع غيره من الأمور والاشياء المتبقية الأخرى . والآن فان تاريخ الحضارات الأرقى يرينا أن العلم هو مشهد انتقالي ينتمي فقط الى فصلي الخريف والشتاء من عمر كل حضارة ، وانه فيما يتعلق بالفكر من كلاسيكي وهندي ، صيني وعربي على حد سواء، فان قروناً قليلة كانت كافية كي يستهلك هذا الفكر إمكاناته استهلاكاً تاماً . فلقد ذوى العلم الكلاسيكي في المدة الواقعة بين معركتي « كاني » « واكتيوم » ، وأفسح الطريق أمام النظرة العالمية في « التدين الجديد » . واعتماداً على هذا يمكننا أن نتنبأ بالتأريخ الزمني الذي يتوجب فيه على الفكر العلمي الغربي أن يبلغ الحد الأقصى لتطوره .

ليس هناك من يبرر لنا كيف نخص عالم الشكل هذا بالأفضلية على عوالم الشكل الأخرى . فكل علم نقدي محكم ، ككل اسطورة وايمان ديني ، يرتكز الى يقين باطني . ومهما قد تتنوع مخلوقات هذا اليقين فان بعضها لا يختلف عن البعض الآخر من حيث المبدأ الأساسي وفي كل من التركيب والصحة. لذلك فان أي لوم يوجهه علم الطبيعة الى الدين فانما هو « بوميرانغ » Boomerang . ولا تقل جرأتنا غطرسة وعتواً عن هذا، حينما نفترض بأننا نستطيع أبداً ودوماً أن نحل «الحقيقة»

محل المفاهيم الانتروبومورفيكية (Anthropomorphic)[1]، وذلك لأنه توجد اطلاقاً مفاهيم غير هذه المفاهيم . إن كل فكرة ممكنة اطلاقاً هي مرآة كينونة مؤلفها . زد على ذلك أن القول القائل بأن « الانسان قد خلق الله على صورته » هو قول صحيح بالنسبة الى كل دين تاريخي ، كما وان هذا القول لا يقل صحة عن ذاك بالنسبة الى كل نظرية فيزيائية مهما بلغ ثبات أساس صحتها رسوخاً وقوة . لقد كان العالم الكلاسيكي مقتنعاً بأن الضوء يتألف من جسيمات جسدية تنطلق من منبع الضوء الى عين المشاهد ، أما فيما يتعلق بالفكر العربي وحتى في مرحلته الا كاديمية اليهودية الفاوستية ، مرحلة أكاديميات « أديسا » (Edessa الدها) ورأس العين (Resaîna) « وبومباديتا » (Pombaditha) (وحتى بالنسبة الى الرخام السماقي ايضاً Porphyry) كانت تشاهد الألوان وأشكال الاشياء دون ما تدخل من واسطة ، إذ أنها كانت تدفع الى متناول قوة البصر بواسطة طريقة سحرية « روحية » تدرك على أنها جوهرية وموجودة داخل بؤبؤ العين .

وهذا هو المذهب الذي بشر به ابن حيان وابن سينا واخوان الصفا ، زد على ذلك أن فكرة الضوء بوصفه قوة وزخماً ، كانت فكرة شائعة قرابة عام ١٣٠٠ في أوساط الأكامستيين (Occamists) في باريس الذين تكتلوا حول البرت أوف ساكسوني وبوريدان (Buridan) وأراسم (Oresme) مكتشف الهندسة التحليلية. لقد قامت كل حضارة بصنع مجموعتها الخاصة من صور مجرى عمليتها ، وهذه الصور صحيحة بالنسبة اليها فقط ،وهي حية فقط طالما لا تزال حضارتها الخاصة حية تحقق إمكاناتها . وعندما تبلغ احدى الحضارات نهايتها وينطفىء اشراق عنصرها المبدع الخلاق (تخمد القوة التصورية ، أي تخبو الرمزية) عندئذ يخلف وراءه قواعد وقوانين فارغة ، وهيا كل عظيمة لمناهج ميتة يقوم أناس حضارة أخرى بقراءتها قراءة حرفية فيحسون بانها دون معنى أو قيمة فيلجأون إما الى اختزانها اختزاناً آلياً أو إلى احتقارها ونسيانها .

---

١ – Anthropomorphism : التجسيمية.

إن الأرقام والقوانين والدساتير لا تعني شيئاً وهي ليست شيئاً ، فهي يجب أن تمتلك جسماً ، ولكن لا يستطيع الا جنس بشري حي يسلط حياته عليها ويحققها بها ويعبر بواسطتها عن نفسه ويجعلها باطنياً ملكاً له ، أن يخلع عليها ذلك الجسم . وهكذا فانه لا يوجد علم فيزياء مطلق ، بل إنما توجد فقط علوم فيزياء افرادية يولد كل علم منها مع حضارته يشب ويزدهر ويذهب بذهابها .

لقد وجدت « طبيعة » الانسان الكلاسيكي ارفع شعاراتها الفنية في التمثال العاري ، ومن هذا التمثال نمت منطقياً ، هناك ، سكونية الاجسام ، أي فيزياء ما هو قريب . أما الحضارة العربية فكانت تمتلك الزخرف العربي وقبة المسجد الكهفية الشكل ، ومن هذا الشعور بالعالم نشأت الألخيمي (Alchemy) بفكرها في الذاتيات المادية الفعالة الغامضة «كالزئبق الفلسفي» الذي هو ليس بمادة أو خاصة لكنه شيء ما يكمن وراء الوجود الملون للمعادن وباستطاعته أن يحول معدناً الى معدن آخر. أما نتاج فكرة الانسان الفاوستي في الطبيعة فكان اتساعاً ديناميكياً غير محدود ، كان فيزياء ما هو بعيد . إذن فإلى الفكرة الكلاسيكية تنتمي مفاهيم المادة والشكل،والى العربية تنتمي فكرة الجوهر ذات الخصائص المنظورة أو السرية ، (وهذه فكرة تامة في سبينوزيتها) والى الفاوستية تنتمي فكرة القوة (Force) والكتلة . فالنظرية الابولونية هي نُجران هادىء ، أما العربية فهي معرفة صامتة بالألخيمي ، واسطة النعمة ووسيلتها (وحتى هنا يجب أن نفطن الى النبع الديني للميكانيكا) ، واخيراً فان الفاوستية هي في مستهل مستهلها فرضية علمية عاملة .

إن الاغريقي يسأل : ما هو جوهر الكينونة المنظورة ؟ ونحن نسأل : أية امكانية موجودة هناك للسيطرة على قوى الصيرورة الدافعة وغير المنظورة ؟ فللإغريق استغراقهم القانع للمنظور ؛ ولنا الاستجواب البارع المسيطر للطبيعة وللتجربة المنهاجية .

وكما هي حالنا ومشاكل الصياغة ومناهج معالجة هذه المشاكل ، كذلك هي حالنا ايضاً والمفاهيم الاساسية ، فهي رموز في كل حال للحضارة الواحدة ،

والواحدة فقط . إن كلمات الجذور الكلاسيكية التالية : ... ... هي كلمات غير قابلة للترجمة الى لغتنا . فاذا ما نحن ترجمنا كلمة : ... الى كلمة : « المادة الاولية » فعندئذ نكون قد استأصلنا مضمونها الابولوني وجعلنا الصدفة الفارغة للكلمة تبدو ذات جرس غريب. وذاك الذي شاهده الانسان الكلاسيكي أمامه بوصفه « حركة » في الفراغ فانما فهمه على انه .... ، أي تبديل في مركز الاجسام، أما نحن فلقد استنتجنا من أسلوب خبرتنا للحركة مفهوم مجرى العملية، أي « السير قدماً الى الامام» وبهذا نعبر ونؤكد على عنصر الطاقة الاتجاهية ذاك، الذي يثبته فكرنا بالضرورة في مجاري الطبيعة. لقد اخذ ناقد الطبيعة الكلاسيكي التجاوز المنظور للمنزلات بوصفها التنوع الأصيل،وعين بذلك عناصر امبيدوكليس (Empedocles) الاربعة المشهورة (واعني بهذه العناصر ، الارض كجسم متحجر ، والماء كجسم غير متحجر ، والهواء كلا جسم ، مع النار التي هي اقوى من كل الانطباعات البصرية الى درجة لم يعد معها يخامر الروح الكلاسيكية أي شك في لا جسمانية النار أما «العناصر» العربية فهي على العكس من الكلاسيكية، اذ أنها عناصر مثالية ومضمرة في الدساتير السرية والابراج الفلكية التي تحدد ظاهرات الأشياء للعين .

ونحن اذا ما حاولنا الاقتراب قليلاً منهذا الشعور،فعندئذ سنجد أن للتعارض القائم بين ما هو متحجر وبين ما هو سائل في نظر السوري معنى يختلف تماماً عن معناه بالنسبة الى الاغريقي الارسطوطاليسي، فهذا الاخير يرى فيه درجات مختلفة في اللاجسمانية ، بينما يرى فيه الاول خصائص سحرية مختلفة ، لذلك تنشأ لدى الاول صورة لعناصر كيمائية كنوع من جوهر سحري تدفع به سببية (علية) سرية الى الظهور من الأشياء (والى الاختفاء ثانية داخلها) وهذا الجوهر السحري خاضع حتى لأثر الكواكب ونفوذ النجوم .

وهناك في الأخيمي شك علمي عميق وذلك بالنسبة الى الواقعة التشكيلية للأشياء (الجسم (Somata) رياضيي الأغريق وفيزيائييهم وشعرائهم) وهذا الشك يذيب ويدمر الجسم (Soma) أملاً في العثور على جوهره . انه يمثل حركة

تحطيم التماثيل والصور شأنه تمامـــاً في ذلك شأن الحركات المماثلة له من اسلامية وبوغوميلية (Bogomils) بيزنطية . وهـذا الشك يكشف عن كفر عميق بالمشخص المحسوس للطبيعة الظاهرية (Phenonenal) ، هذا « المشخص » الذي كان بمثابة قدس الاقداس في نظر الانسان الاغريقي .

ان الخلاف الذي نشب حول شخص المسيح وكشف عن نفسه في المجامع الكنسية الاولى، وأدى الى الانشقاقات النسطورية واليعقوبية[1] (Monophysite) انما هو يمثل قضية الخيمية . ولم يكن ليخطر ابداً على بال فيزيائي كلاسيكي أن يبحث في الأشياء ويتحراها حينما يكون في الوقت نفسه ينكر أو يدمر شكلها المدرك حساً . ولهذا السبب وحده لم توجد كيمياء كلاسيكية اكثر من وجود أية صياغة نظريات للجوهر بوصفه مضاداً لمظاهر « أبولو » .

ان نشوء منهاج كيمائي ذي اسلوب عربي قد أنبأ بوعي جديد للعالم . فاكتشاف هذا المنهاج الذي استطاع بضربة واحدة أن ينهي العلم الطبيعي الأبولوني للسكونية الميكانيكية يرتبط باسم الغامض ، اسم هرمس تريسميجستوس (Hermes Trismegistus) الذي يفترض أنه عاش في العصر ذاته الذي عاش فيه كل من افلوطين وديوفانتوس . وبالمثل فان تحرر الكيمياء الغربية من الشكل العربي على يدي « شتال » (١٦٦٠ – ١٧٣٤) وبواسطة نظريته الفلوجستونية (Phlogiston) [1] قد تم في الوقت نفسه الذي تحررت فيه الرياضيات الغربية على أيدي نيوتن وليبنتز تحرراً أكيداً ، إذ أصبحت الكيمياء والرياضيات الغربيـة معاً تحليلاً مجرداً .

وكان باراسيلسوس Paracelsus (١٤٩٣ - ١٥٤١) قد حول الجهد المجوسي

---

١ – المؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة .

- المترجم -

٢ – Phlogiston : المبدأ الافتراضي الذي يعتبر النار جوهراً مادياً .

(المترجم)

الرامي الى صناعة الذهب الى علم صيدلي ، وهذا تحويل لا يستطيع المرء إلا أن يخمن معه أن تبديلاً قد طرأ على الشعور بالعالم . ثم ابتكر روبرت بويل (Boyle) (١٦٢٦ – ١٦٩١) منهاجاً تحليلياً ووضع مع هذا المنهاج المفهوم الغربي للعنصر ، ولكن علينا ألا نخطىء في ترجمة التبدلات التي نجمت عن ذاك المنهاج وهذا المفهوم . فذاك الذي يُسمى بايجاد كيمياء حديثة ، والذي يتخذ من شتال ولوفوازية نقطتي منعطف له ، هو أي شيء ما عدا كونه بناء لفكر « كيمائية » ، وذلك طالما كانت الكيمياء تشتمل على النظرة الأخيمية في الطبيعية . فذاك الشيء يمثل فعلاً نهاية كيمياء أصيلة ، وذوبانها في منهاج شامل جامع للديناميكية المجردة وتمثلها (Assimilation) ضمن النظرة الميكانيكية التي قررها العصر الباروكي بواسطة غاليليو ونيوتن . ان عناصر أمبيدوكليس منزلات للجسمانية ، لكن عناصر لوفوازيه التي سرعان ما أعقبتها نظريته في الاحتراق الداخلي المبنية على فعل الأوكسجين ، (عام ١٧٧١) تجعل مناهج الطاقة بتناول الارادة الانسانية ، وبذلك أصبح « المتحجر » « والسائل » مجرد اصطلاحين لوصف علاقات التوتر بين جزيئات [1] . (Molecules) اننا بواسطة تحليلنا ومركبنا (Synthesis) لا نسأل الطبيعة أو نقنعها بل انما نرغمها إرغاماً . زد على ذلك ان الكيمياء الحديثة هي فصل من فيزياء الفعل الحديثة .

ان ما ندعوه وننعته بالسكونية وبالكيمياء وبالديناميكية (وهذه كلمات تستخدم في العلوم لتمثل فروقاً تقليدية فقط دون أن يكون لها معنى أعمق) هي في الواقع مناهج فيزيائية يخص أولها النفس الأبولونية وثانيها العربية أما ثالثها فيخص النفس الفاوستية ، وكل منهاج من هذه المناهج قد نما في حضارته الخاصة وصحته محدودة بحضارته فقط . وتقابل المنهاج الفيزيائي الأول الهندسة اليوقليدية ، أما

---

١ . الجزيء : جزء من المادة يحتفظ بصفته الطبيعية ويحتوي على عدة آطومات (المترجم)

الثاني فيقابله الجبر ، والثالث ينطبق عليه التحليل ويناظره ، كما ويناظر هذه من الفنون التمثال للأول والزخرف العربي للثاني والفوغيه للثالث . ونحن نستطيع أن نفرق بين هذه الأنواع الثلاثة من الفيزياء (شريطة أن نضع نصب أعيننا أن حضارات أخرى غير هذه قد تنشيء أو بالفعل تنشيء أنواعاً أخرى غير هذه) بواسطة موقف كل نوع من الحركة ، حيث يسميها الأول الانتظام الميكانيكي للمنزلات والثاني يدعوها بالقوى السرية والثالث مجاري العمليات .

- ٣ -

والآن ، فإن ميل الفكر البشري (الذي هو دائماً مفطور على السببية «العلية») الى اختصار صورة الطبيعة الى أبسط وحدات من شكل كمي ممكن نستطيع الحصول عليه بواسطة المحاكمة العقلية السببية (العلية) والقياس والعد (وبكلمة أخرى بواسطة المفاضلة الميكانيكية) ، أقول إن هذا الميل يقود بالضرورة في كل من الفيزياء الكلاسيكية والغربية ، وفي كل فيزياء أخرى ، الى نظرية ذرية. ونحن بالكاد نعرف بأكثر من الحقيقة القائلة بأن علماً هندياً أو صينياً قد وجد في أحد الأيام ، أما العلم العربي فانه بالغ التعقيد الى حد يجعله حتى الآن يتحدى كل عرض وشرح ، لكننا نعرف بعلمنا وبالعلم الأبولوني معرفة كافية تمكننا في هذا المجال أيضاً من ملاحظة التعارض الرمزي العميق القائم بينهما .

إن الذرات الكلاسيكية هي أشكال مُصغرة (miniature) ، بينما أن الذرات الغربية هي وحدات نشاط ذرية أصغرية (minimal Quanta) ووحدات من طاقة أيضاً وهكذا نجد من ناحية أن امكانية الادراك الحسي ، القرب الحسي ، ومن الناحية الأخرى التجريد هما الشرطان الأساسيان للفكرة .

فالتصورات الذرية للفيزياء الحديثة (هـذه التصورات التي لا تشتمل فقط على الذرة (الدالتونية) أو الكيميائية ، بل انما تشتمل ايضـاً على الالكترونات وعلى وحدات نشاط ذري من الترموديناميكا (Thermodynamics) (علم الحركة والقوة الحرارية) تزداد مطالبها يوماً بعد آخر من القوة الفاوستية الحقيقية للرؤيا الباطنية التي تفترضها فروع كثيرة من الرياضيات العليا (كالهندسات اللايوقليدية وكنظرية المجموعات) وهذه الفروع هي ليست بمتناول أفهام الناس العاديين . فوحدة نشاط ذرية من فعل ، هي عنصر امتداد يُدرك بغض النظر عن أيـة صفة تدرك حساً من أي نوع ، فمثل هذه الوحدة طليقة من كل علاقة بالنظر واللمس ، وليس لتعبير كلمة شكل أي معنى مهما كان بالنسبة اليها (وهي لذلك شيء مـا يستعصي على ادراك البحاثـة الكلاسيكي) . على هـذه الشاكلة كانت (مونادات) ليبنتز ، وكذلك أيضاً هي الأجزاء الجوهرية الرائعة لصورة رذرفورد Rutherford للذرة بوصفها نواة مشحونة إيجابياً مع الكترونات سلبية سيارية (Planetary)، وهذه هي حال أجزاء الصورة التي تصورها نيلز بور « Niels Bohr » بادخاله هـذه الأجزاء مع وحـدات نشاط ذرية « بلانك » أمـا ذرات لوسيبوس وديمقريطيس فكانت ذرات تختلف عن هذه ، شكلاً وحجماً ، وأعني بهذا ، انها كانت مجرد وحدات تشكيلية غير قابلة « للانشطار » كما يؤكد ذلك اسمها ، لكنها غير قابلة للانشطار تشكيلياً فقط . لكن ذرات الفيزياء الغربية التي ترى في « عدم القابلية للانشطار » معنى آخر تماماً ، فانما تمثل اعداد الموسيقى ومواضيعها ، تمثل كينونتها أو جوهرها (الاعداد والمواضيع) المشتمل على التذبذب والاشعاع ، وتمثل ايضاً علاقة هـــذه المواضيـع وتلك الاعداد بمجرى عملية الطبيعة ، بوصفها هي علاقة « الدافع » الموسيقي (Motive) بالحركة الموسيقية (Movement) .

إن الفيزياء الكلاسيكية تختبر منظر هذه العناصر النهائيـة في صورة الصير ، بينما أن الفيزياء الغربية تختبر عمل هـذه العناصر التي هي في نظر الاولى تصورات لمادة وشكل ، بينما هي في نظر الاخيرة تصورات لقدرة وكثافة . هناك ذرتان ، إحداهما تدين بالرواقية والاخرى تدين بالاشتراكية ، فالرواقية تصف الفكر

السكونية التشكيلية،والاشتراكية تصف الفِكَر الديناميكية الكونتربونتية. وعلاقات هذه الفِكَر بالاخلاقيتين فيما يختص بكل منهما هي علاقات ذات شكل يحتم على كل قانون أوتعريف أن يدخلها في حسابه. فمن جهة يوجد حشد ديمقريطيس من الذرات الحائرة التي نضدت هناك صبورة، تطوف بها الصدفة العمياء التي يدعوها كما يدعوها ايضاً سوفوكليس بـ ... مطاردة «كاوديب». ومن جهة اخرى توجد مناهج لنقاط قوى تجريدية تعمل بالفة واتحاد نقاط نشيطة عدوانية تسيطر بحيوية على الفراغ (بوصفه ميداناً)وتتغلب على المقاومات كمكبث. وهذا التعارض القائم بين الشعورين الاساسيين هو الباعث على التعارض بين الصورتين الميكانيكيتين للطبيعة. فالذرات بناء على ما يقوله ليسبوس تحوّم داخل (خواء) ذواتها، وديمقريطيس يعتبر الهزة والهزة المضادة (Countershock) مجرد شكل لتبدل المكان، وارسطوطاليس يشرح الحركات الفردية على انها تصادفية، وامبدوكليس يتحدث عن الحب والبغضاء، وآنكساغوراس عن اجتماع الشمل وانفراطه.

كل هذه الاشياء هي عناصر التراجيدي الكلاسيكية ايضاً وارتباط الاشخاص أحدهم بالآخر هو على هذه الشاكلة تماماً على خشبة المسرح الاتيكي. زد على ذلك أن هذه الاشياء هي أيضاً منطقياً عناصر السياسة الكلاسيكية. فهناك في العالم الكلاسيكي نشاهد مدناً بالغة الصغر كأنها ذرات سياسية نشرت على محاذاة الشواطىء والجزر، وكل مدينة من هذه المدن كانت تقف لوحدها وتأكل الغيرة كبدها، ومع انها كانت ابداً بحاجة الى عضد وعون لكنها بقيت تعيش منغلقة على نفسها خجولة هيابة حتى السخافة والبطلان، وقد صفعتها أحداث التاريخ الكلاسيكي غير المنتظمة هنا وهناك، فكانت تنشأ اليوم لتدمر غداً.

ولدينا كضد لهذه الحال دولنا السلالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي كانت ميادين قوة سياسية بما لهذه الميادين من وزارات ودبلوماسيين عظام بوصفهم مراكز اتجاه متعمد ورؤيا جامعة شاملة. والحق اننا لا نستطيع أن نفهم الروحين من كلاسيكية وغربية الا اذا درسنا التناقض القائم بينهما. وهذا

القول نستطيع ايضاً أن نطبقه على الفكرتين الذريتين اعتماداً على الاسس لكل من الفيزياء الكلاسيكية والفيزياء الغربية .

إن غاليليو الذي أبدع مفهوم القوة ، والمليزيين الذين اوجدوا مفهوم ... ، وديمقريطس وليبنتز ، ارخميدس وهلمهولتز ، هم جميعاً « متعاصرون » ومن أبناء الأطوار الذهنية ذاتها لحضارتين مختلفتين تماماً .

لكن العلاقة الباطنية بين نظرية الذرة وبين الاخلاق تمتد الى أبعد مما ذكرت . ولقد سبق لنا ان عرضنا كيف ان النفس الفاوستية (التي تشتمل كينونتها على قهر الحضور وشعورها على العزلة والانفراد وحنينها على اللانهاية) تدخل حاجتها الى العزلة والمسافة والتجريد في كل واقعة من وقائعها ، تدخلها في حياتها العامة وعالمي شكلها الروحي والفني على حد سواء .

إن هذا الانفعال للمسافة (ونحن نستعمل هنا تعبير نيتشه) هو غريب بصورة خاصة عن العالم الكلاسيكي الذي كان كل بشري فيه يتطلب قرباً وعضداً وجماعة . وهذا هو ما يميز روح العصور الباروكية من الروح الايونية ، وحضارة النظام الغابر (Ancien Régime) من أثينا البركليسية . وهذا الانفعال الذي يميز الفاعل البطولي من المتألم البطولي يتجلى ايضاً في الفيزياء الغربية كتوتر .

ان ما يفتقده علم ديمقريطس هو التوتر وذلك لأن في مبدأ الهزة والهزة المضادة انكاراً مضمراً لوجود قوة تسيطر على الفراغ وتنطبق عليه وتماثله . وبالمثل ، لا يوجد عنصر الارادة داخل صورة النفس الكلاسيكية . فبالرغم من كل ما شهده العالم الكلاسيكي من مخاصمات وبغضاء وغيرة وحسد ، الا أنه لم يكن هناك من توتر باطني ولا حاجة عميقة لحوح الى المسافة والانفراد والتسامي تسيطر على الجنس البشري الكلاسيكي أو دوله أو نظراته الى العالم ، ونتيجة لذلك لم يكن هناك من توتر بين الذرات والكون ايضاً .

ان مبدأ التوتر (الذي طور داخل النظرية الاحتمالية Potential Theory) والذي لا يمكن ترجمته اطلاقاً الى اللغات الكلاسيكية أو تبليغ العقول

الكلاسيكية به ، قد اصبح مبدأ جوهرياً بالنسبة الى الفيزياء الغربية. أما محتواه فينبع من التصور للطاقة ، من الارادة للقوة داخل الطبيعة ، ولهذا السبب تعادل تماماً ضرورته لنا استحالته على الفكر الكلاسيكي .

- ٤ -

اذن فإن كل نظرية ذرية هي أسطورة وليست بتجربة. فمن خلال هذه النظرية تكشف الحضارة ، بواسطة القوة التأملية المبدعة لفيزيائييها العظام ، عن دقيق جوهرها وأعمقه وعن نفسها بالذات . وانه فقط افكرة نقد مدركة سابقاً تلك الفكرة القائلة بأن الامتداد يوجد بذاته ومستقلاً عن شعور العارف بالشكل وبالعالم. ان المفكر عندما يتخيل بأنه يستطيع أن يقتطع عامل الحياة ويلقي به جانباً فانه عندئذ ينسى أن المعرفة ترتبط بالمعروف ارتباط الاتجاه بالامتداد ، وأنه بواسطة الصفة الحية للاتجاه فقط يمتد ما يُحس به في المسافة والعمق ويصبح فراغاً .

فالترتيب المعروف للممتد هو استنباط الكائن المعروف وتدبيره وايعازه .

لقد سبق لنا أن شرحنا الأهمية الحاسمة لخبرة العمق ، هذه الخبرة التي تماثل يقظة النفس ، وهي لذلك تنتمي مع أبداع العالم الخارجي الى تلك النفس . ان انطباع الحس يحتوي فقط على الطول والعرض وان فعل الترجمة الحي والضروري (لهذا الانطباع - المترجم) ، (الذي هو ككل شيء حي آخر يمتلك اتجاهاً وحركة وانعدام عكس اتجاه ، (أي الصفات التي ركبها وعينا من كلمة زمان) هو الذي يضيف العمق الى انطباع الحس وبذلك يصوغ الواقعة والعالم . زد على ذلك أن الحياة نفسها تدخل الخبرات بوصفها بعداً ثالثاً ، والمعنى المزدوج لكلمة « بعيد »

الذي يشير الى كل من المستقبل والأفق يكشف عن المعني الأعمق لهذا البعد الذي يستدعي امتداداً كهذا . فالصيرورة تتخشب وتذهب وتصبح فوراً الصير ، والحياة أيضاً تتخشب وتخمد وتمسي فوراً فراغ المعروف ذي الابعاد الثلاثة .

ويشترك ديكارت وبارمنيدس في النظرية القائلة بأن التفكير والكائن أي المتخيل والممتد ينطبق الواحد منها على الآخر . ان الكلمة المأثورة التالية

(Cogito ergo sum) (القابل للفكر هو لذلك الأرفع) هي مجرد صياغة خبرة العمق . (أنا أعرف لذلك فأنا داخل الفراغ) . لكن أسلوب هذه المعرفة ، ولهذا السبب ثمرة المعرفة ، الرمز الأولي للحضارة الخاصة ، يظهر على المسرح . إن الامتداد المتقن المنجز للوعي الكلاسيكي هو امتداد حسي وحضور جسماني ، أما الوعي الغربي فانه ينجز الامتداد وفق أسلوبه الخاص كفراغ متسام ، وعندما يفكر بفراغه بتسام مطرد فانه ينشيء تدريجياً الاستقطابية التجريدية للقدرة والكثافة ، هذه الاستقطابية التي تتعارض تعارضاً تاماً والاستقطابية الكلاسيكية المنظورة للمادة وللشكل .

ولكن ينتج مما ورد أنه لا يمكن أن يتبدى الزمان الحي ثانية فيما هو معروف ، وذلك لأن هذا الزمان انتقل الى المعروف الى «وجود» ثابت لا يتغير بوصفه عمقاً ، ولذلك فان الديمومة (أي انعدامية زمان) والامتداد ينطبق أحدهما على الآخر . إن المعرفة وحدها هي التي تمتلك طابع الاتجاه . وتطبيق كلمة «زمان» على البعد الزماني المتخيل والقابل للقياس في الفيزياء هو خطأ . أما السؤال الوحيد فهو عما إذا كان بامكاننا تجنب الخطأ أم لا . وإذا ما استبدل انسان ما كلمة « مصير » بكلمة «زمان» في أي تصريح فيزيائي ، فان هذا الانسان سيشعر فوراً أن الطبيعة المجردة لا تحتوي على زمان . ان عالم شكل الفيزياء يبلغ تماماً امتداده عالم الشكل المعروف للرقم والتصور ، ولقد سبق لنا أن رأينا (رغماً عن « كنت ») أنه لا توجد هناك أية علاقة مهما كان شأنها ونوعها ، تربط بين الرقم الرياضي والزمان . ومع ذلك تقوم الآن واقعة الحركة في العالم المحيط بنا لتجادل فيما أوردناه آنفاً .

وهذا والحق ليمثل المعضلة الالبية [1] (Eleatics) التي لم تحل وغير القابلة للحل ، فالكائن (أو التفكير) والحركة هما ضدان لا يجتمعان، لكن الحركة لا «وجود» لها (بل انما هي ظاهرية فقط) .

وهنـــا يصبح العلم المرة الثانية دغماتياً واسطورياً . فكلمتا الزمان والمصير عسان، بالنسبة لمن يستخدمها استخداماً فطرياً ، الحياة ذاتها وبأعمق اعماقها، وأعني بالحياة ككل التي يجب ألا تفصل عنها الخبرة المعاشة . لكن الفيزياء ، (أي العقل المراقب) يجب عليها من جهة اخرى أن تفصل بينهما . فالمختبر حياتيـاً « بذاته » والمتحرر ذهنياً من عمل المراقب وموضوع الصير الميت المتخشب واللاعضوي هو الآن « الطبيعة » هو شيء ما معرض للمعالجة الميكانيكية الجامعة المانعة .

ووفق هذا المفهوم فان معرفة الطبيعة هي نشاط قياس وفعله، ومع ذلك فنحن نكون على قيد الحيـــاة عندما نراقب ولذلك فان الشيء الذي نراقبه يعيش معنا ايضاً .

إن العنصر الكائن داخل صورة الطبيعة والذي هو بموجبهـا ليس موجوداً من لحظة الى اخرى ، بل انما هو موجود داخل دفق مستمر معنا وحولنا ، يصبح أداة الوصل بين الوعي اليقظ وبين العالم . وهذا العنصر يدعى الحركة وهو يتعارض والطبيعة كصورة ، ولكنه يمثل تاريخ هذه الصورة . ولذلك فبالدقة ذاتهـا التي يستخلص بواسطتها (بواسطة الكلمات) الفهم من الشعور ، والفراغ الرياضي من مقاومـــات الضوء (الاشياء) كذلك ايضاً يستخلص « الزمان » الفيزيائي من انطباع الحركة .

إن الفيزياء تتحرى الطبيعة ونتيجة لذلك فهي تعرف الزمان بوصفه طولاً فقط . لكن الفيزيائي يعيش داخل تاريخ هـذه الطبيعة ، ولذلك فهو مرغم على

---

١ - نسبة الى المدرسة الالبية الفلسفية اليونانية التي نشأت في القرن السادس قبل المسيح وكانت ول بوحدة الكائن وعدم صحة الحركة والتبدل

—المترجم—

ادراك الحركة بوصفها حجماً قابلاً للتقرير الرياضي، بوصفها تحجراً من ارقام مجردة حصل عليها بواسطة الخبرة ودونها في قوانين . يقول كيرشهوف : « إن الفيزياء هي الوصف الكامل والبسيط للحركة . وهذا هو فعلاً كان ابداً ودائماً هدف الفيزياء وموضوعها . ولكن السؤال لا يدور حول الحركات داخل الصورة ، بل انما يدور عن حركات الصورة. فالحركة داخل طبيعة الفيزياء ليست سوى ذاك الشيء ما الميتافيزيقي الذي يدفع بوعي التتالي الى النشوء. أما المعروف فهو منعدم الزمان وغريب عن الحركة، ووضع ملاءمته يستوجب هذا. انه مجرى المعروف العضوي هو الذي يجعلنا نتوهم فيه أنه حركة . فالفيزيائي يتلقى الكلمة لا كانطباع عن العقل ، بل انما يتلقاها كانطباع عن كامل الانسان ، ووظيفة هذا الانسان ليست الطبيعة فقط بل انما هي العالم بأكمله ، وهذا هو ما يعنيه العالم كتاريخ . اذن « فالطبيعة » هي تعبير الحضارة في كل حال .

ان كل الفيزياءات هي معالجة لمعضلة الحركة (التي تشتمل ضمناً على معضلة الحياة ذاتها) ، وهذا لا يعني أن الفيزياءات ستحل يوماً ما هذه المعضلة ، بل انما يعني بأنه بالرغم من هذه المعالجات لا بل بسببها فان معضلة الحركة غير قابلة للحل .

ان سر الحركة يوقظ في الانسان ادراك الموت .

اذن ، فاذا كانت معرفة الطبيعة هي نوع مخاتل من معرفة الذات (واعني بالطبيعة المدركة بوصفها صورة ومرآة للانسان) اذن فان المحاولة الرامية الى حل معضلة الحركة هي محاولة معرفة ترمي الى السير على درب سر هذه المعضلة ، والانطلاق على درب مصيرها الخاص .

- ٥ -

إن الحصافة السيمائية وحدها ، إذا ما كانت مبدعـــة ، تستطيـع أن تنجح في الانطلاق على درب مصير الحركة الخاص ، والحق أن هذه الحصافـة قد دللت على قدرتها هذه منذ القدم في ميادين الفن وخاصة في الشعر التراجيدي . ان الانسان الذي تحيره الحركة هو الانسان المفكر ، فالحركة هي بالنسبة الى الانسان المتأمل أمر غني عن البيان .

ومهما بلغ كمال الانسان المفكر في اختصار حيراته الى منهـاج ، فالنتيجة هي دائمـاً نتيجة منهاجية وليست بنتيجة سيمائية انها امتداد مجرد نظم تنظيماً منطقيـاً وكمياً ، وليس فيه أي شيء حي ، بل انما كل ما فيه هو صير وميت .

وهذا هو ما أخذ بيد غوتيه الذي كان شاعراً وليس احصائياً ليلاحظ فيقول : « ليس للطبيعة منهاج ، إن للطبيعة حياة وتتالياً يمتد من مركز مجهول الى حد غير قابل للمعرفة . »

لكن للطبيعة منهاجاً بالنسبة لمن يعرفها ولم يعشها ، ولكن هذا المنهاج لا يتعدى كونه منهاجاً لا أكثر ولا أقل ، والحركة هي تناقض وتعارض داخله . ويمكن أن يغطى هذا التعارض بصياغة حاذقة أريبة للقوانين ، لكنه يبقى حياً داخل المفاهيم الجوهرية . فالهزة والهزة المضادة لديمقريطس وانتليتشي (Entelechy) أرسطوطاليس وتصورات القوة النابعة من « زخم » أو كامستيي القرن الرابع عشر ، حتى نظرية وحدة نشاط ذرية للاشعاع ، جميع هذه تحتوي على التعارض الموجود داخل المنهاج . وليدرك القارىء الحركة داخل منهاج فيزيائي بوصفها شيخوخة هذا المنهاج (وهذه هي حالها فعلاً لكونها خبرة عاشها المراقب) وعندئذ سيشعر القارىء فوراً بوضوح

وجلاء بالحتمية الملازمة للمحتوى العضوي الذي لا يقهر لكلمة « الحركة » ولكل فكرها الاشتقاقية . ولكن لما كانت الميكانيكا لا دخل لها في الشيخوخة ، لذلك يجب ألا تكون لها أيضاً أية علاقة بالحركة أيضاً ، ولذلك لما كان لا يوجد أي منهاج علمي يمكن ادراكه دون معضلة حركة داخلة، لذلك فإن وجود ميكانيكا كاملة مستقلة وقائمة بذاتها هو أمر مستحيل . فهناك دائماً في مكان ما أو آخر نقطة انطلاق عضوية داخل المنهاج حيث تنطلق منها الحياة الآنية الفورية الى داخله، وهذه النقطة هي بمثابة حبل السرة الذي يربط جنين العقل بالأم الحياة ويربط الفكر بالمفكر.

وهذا مما يسلط على جواهر علمي الطبيعة من فاوستي وأبولوني ضوءاً آخر. كلا إن الطبيعة هي نقية ، فهناك دائماً شيء ما من التاريخ داخلها . فاذا كان المرء انساناً لا تاريخياً كالاغريقي ، فعندئذ يستغرق الحاضر المنعزل مجموعة انطباعاته عن العالم وتصبح صورة طبيعته سكونية مستقلة قائمة بذاتها (أي أن هناك جداراً يفصلها عن الماضي والمستقبل) . وذلك خلال كل برهة افرادية . ان الزمان بوصفه حجماً يظهر في الفيزياء الاغريقية قليلاً كقلة ظهوره في فكرة «الانتيليتشي» لأرسطوطاليس . أما اذا كان من جهة اخرى الانسان مفطوراً على التاريخ، فان الصورة التي يشكلها عن الطبيعة هي صورة ديناميكية . فالرقم هذا التطور النهائي للصير هو في نظر الانسان اللاتاريخي قياس ، لكنه وظيفة بالنسبة الى الانسان التاريخي .

فالمرء يقيس فقط ما هو موجود وحاضر ولكنه يقتفي آثار ما له ماض ويتتبع مستقبله كمجرى . ولقد تجلى أثر هذا الفرق في تغطية تقلبات معضلة الحركة بنظريات كلاسيكية ، وبارغامها على احتلال صدر الصورة في النظريات الغربية .

ان التاريخ هو صيرورة خالدة ، ولذلك فهو مستقبل خالد ، أما الطبيعة فهي صير ولهذا فانها ماضٍ أزلي . وفي قولنا هذا يبدو أن قلباً غريباً للمفاهيم قد تم

وحدث فالصيرورة قد فقدت أفضليتها على الصير . فعندما يتطلع الذهن وراءه من ميدانه فعندئذ ينعكس شكل الصير ونظرة الحياة ، ففكرة المصير التي تحمل في احشائها هدفاً ومستقبلاً قد حول مجراها الى المبدأ الميكانيكي للعلة والمعلول الذي يكمن مركز ثقله في الماضي . وهكذا رقي ما اختبر فراغياً الى مرتبة تسمو فوق مرتبة الحي زمنياً ، واستبدل الزمان بالطول داخل منهاج عالم فراغي . ولما كان الامتداد ينشأ داخل الخبرة المبدعة عن الاتجاه ، وينشأ الفراغي عن الحياة ، لذلك فان الفهم البشري (نتيجة لتطلع الذهن وراءه من ميدانه – المترجم) يفسر الحياة على أنها مجرى عملية داخل الفراغ اللاعضوي لخياله ، فبينما تنظر الحياة الى الفراغ بوصفه شيئاً ما يخص ذاته وظائفياً ، نرى أن الذهن يرى في الحياة شيئاً ما موجوداً في الفراغ ، فالمصير يسأل إلى أين ؟ أما السببية (العلية) فتسأل من أين ؟ وذلك بغية إقامة الدليل علمياً وهذا ما يعني أن نبدأ من الصير ومما تحقق ، وأن نفتش عن الاسباب (العلل) بواسطة عودتنا الى السير وراءه طيلة الطريق المدرك ادراكاً ميكانيكياً ، وأن نعالج الصيرورة بوصفها مصيراً . ولا أرى للقارىء أن يعتقد بأن المصير والزمان يمكن أن يعكس اتجاهها ، بل انما أريد أن اركز على ما يسميه الفيزيائي وحده بالزمان ويدخله قوانينه كشيء قابل للانشطار ويفضله كشيء سلبي وككميات متخيلة .

ان الحيرة دائماً موجودة وقائمة ، بالرغم من انها نادراً ما شوهدت على أنها حيرة فطرية وملازمة بالضرورة . فلقد قام « الإليون » في العلم الكلاسيكي ليرفضوا ضرورة التفكير بالطبيعة كما في الحركة ، وأقاموا ضدها الفرضية القائلة بأن التفكير هو كائن ، ونتيجة لذلك فان المعروف والممتد ينطبق احدهما على الآخر ، ولهذا فانه لا يمكن التوفيق بين المعرفة وبين الصيرورة . ونقدهم هذا لم يدحض ولا يمكن أن يدحض ، لكنهم لم يستطيعوا أن يعطلوا من سير تطور الفيزياء الكلاسيكية ، هذه الفيزياء التي كانت تعبيراً ضرورياً عن النفس الأبولونية ، وبوصفها كذلك هي أسمى من الصعوبات المنطقية وارفع . ولقد حاولت ما تسمى بالميكانيكا « الكلاسيكية » في العصر الباروكي ، والتي أنشأها

غاليليو ونيوتن ، مرة بعد اخرى ، ايجـــاد حل لايعاب لمعضلة الحركة وفق الخطوط الديناميكية .

ان تاريخ مفهوم القوة الذي روي وروي ثانية بكل مـا للفكر من انفعال لا يعرف التعب ، والذي يشعر بمخاطر الصعوبة تحدق بـه هو ليس سوى تاريخ الاجتهادات الرامية الى ايجاد شكل للحركة يسمو رياضياً ومفاهيمياً فوق كل شك وريب . وكانت آخر محاولة لتحقيق هذه الغاية (وهي محاولة فشلت بالضرورة كسابقاتها) هي محاولة هرتز (Hertz) فهرتز دون ان يكتشف منبـع كل حيرة ، (ولم يكتشف هذا المنبـع أي فيزيائي الآن) حاول ان يستأصل تصور القوة استئصالاً تاماً (وشعوره الذي دفعه الى هذا هو شعور محق في قناعته بأنه يتوجب على المرء أن يبحث عن الخطأ في كل المنـاهج الميكانيكية ، داخل هـــذا المفهوم الأساسي أو ذاك) وأن يبني صورة الطبيعة بأكملها على كميات من الزمان والفراغ والكتلة . ولكنه لم يلاحظ أن الزمان نفسه (الذي هو عامل اتجاه موجود داخل مفهوم القوة) هو العنصر العضوي الذي لا يمكن دونـــه أن يعبر عن نظرية ديناميكية ، والذي بواسطته لا نستطيع الحصول على حـل صحيح نظيف لمعضلة الحركة . زد على ذلك ، وما عدا هذا ، فانه ما للقوة والكتله والحركة من مفاهيم فهي تشكل وحدة دغماتيـة . فهذه المفـاهيم يرتبط أحدهـــا بالآخر على صورة يستوجب ضمناً تطبيق أحدها تطبيق المفهومين الآخرين وذلك ابتداء ببداية البداية . ان كامل المفهوم الأبولوني لمعضلة الحركة هو مضمر في كلمة الجذر الكلاسيكية ، أما كامل المفهوم الغربي لهذه المعضلة فتشتمل عليه فكرة القوة . فتصور الكتلة لا يزيد عن كونه متمماً لتصور القوة . ونيوتن ،هذا الانسان المتدين تديناً عميقاً كان فقط يخرج بالشعور الفاوستي الى ميدان التعبير عندمـــا شرح مفهومي « القوة » و «الحركة» فقال

« ان الكتل هي نقاط الهجوم للقوة ، وهي حاملات الحركـة . » وعلى هذا الشكل أدركت صوفية القرن الثالث عشر وعلاقته بالعالم .

ولا شك أن نيوتن قد نبـــذ العنصر الميتافيزيقي ورفضه حينما قال قوله المشهور :

(Hypotheses non fingo)

(الفرضية العلمية لا أصبع لها) ولكن لا فرق فنيوتن كان ميتافيزيقياً سداة ولحمة في تأسيسه لميكانيكيته. فالقوة هي صورة الطبيعة الميكانيكية للرجل الغربي، وهي بمثابة الارادة بالنسبة الى صورة نفسه ورأس الله اللامتناهي في صورته للعالم. لقد بقيت الفكر الأولية راسخة القدم وطيدة العزم قبل أن يولد أول فيزيائي وذلك لأنها كانت تكمن في أبكر عصور وعيناً العالمي لحضارتنا هذه.

-٦-

وبهذا يصبح من الواضح أن للتصور الفيزيائي للضرورة أصلاً دينياً أيضـاً. وعلينا ألا ننسى أن الضرورة الميكانيكية التي تحكم في ما يفهمه ذهننا على أنه طبيعة، هي ضرورة متعضية وحتمية الخطورة في الحياة نفسها، وهـذه الضرورة المتعضية تبدع وتنشيء أما الضرورة الميكانيكية فانهـا تقيد وتحدد. فالمتعضية تنبـع من تعيين باطني، أما الميكانيكية فانها تنبـع من التظاهرة، وهذا هو التمييز بين ما هو تراجيدي وبين ما هو منطق فيزيائي.

وهناك، فضلاً عن ذلك، فرق داخل الضرورة التي يفترضها العلم ويتخذهـــا لنفسه (ضرورة العلة والمعلول) وهذا الفرق قد تملص، حتى هـذه الساعة، من أصفى العقول وأشدها بصيرة. فهنا نجابه فوراً بقضية هائلة في صعوبتها وذات أهمية بالغة الخطورة شديدتها، فمعرفـة الطبيعة (مهما كان تعبير الفلسفة عن العلاقة) هي وظيفة الدراية التي هي ذات اسلوب خاص في كل حالة من الحـالات، لذلك

فان للضرورة العلمية اسلوب الذهن الذي وضع يده عليها ، وهذا ما يُدخل فوراً فروقات مورفولوجية في الميدان. فمن الممكن لنا أن نرى ضرورة صارمة في الطبيعة حتى في الحال التي لا يمكننا معها أن نعبر عن مثل هـــذه الضرورة بقوانين طبيعية .

والحق أن القوانين الطبيعية التي تكون بالنسبة إلينـا غنية عن البيان بوصفها الشكل الخاص للتعبير في ميدان العلم، هي ليست ابداً على هذه الحال التي ذكرت بالنسبة الى اناس ينتمون الى حضارات اخرى. فهذه القوانين تفترض مسبقاً شكلاً خاصاً تامـــاً هو الشكل الفاوستي المميز للفهم والادراك ولذلك تستلزم الشكل الفاوستي للدراية بالطبيعة. وليس هناك من شيء باطل محال بالفطرة في داخل مفهوم ضرورة ميكانيكية ما،حيث أن كل حالة على حدة هي حالة مستقلة قائمة بذاتهـــا مورفولوجيا،وهي حالة لن تتجدد أو تتكرر ثانية على الحال التي كانت عليها تماماً، ولذلك فان تفاصيل المعرفة لا يمكن لها أن تصاغ في قوانين دائمة الصحة ، فالطبيعة قد تبدو في حالة كهذه (ولنعمد الى المجـازي من الوصف) ككسر عشري غير متناه الذي هو ايضاً غير متكرر الحدوث ومفتقراً الى الدورية (Periodicity). ولا شك أن العقول الكلاسيكية قد أدركت الطبيعة على مـــا وصفت آنفاً ، فشعورها يكمن بجلاء وراء مفاهيمها الفيزيائية الابتدائية ، فان الحركة الاصلية لذرات ديموقريطس مثلاً هي حركة قد حددت تحديداً يطرح جانباً كل امكانية لحساب الحركات مقدماً .

إن قوانين الطبيعة هي اشكال المعروف حيث يوجـد بين مجموع من القضايا الافرادية كوحدة من درجة ارقى . وهنا يتجاهل الزمان الحي ، واعني بهذا انـه لا يهم أبداً متى أو كم مرة تنشىء احدى قضايا هذا المجموع ، وذلك لأن المسألة ليست بذات سياق كرونولوجي ، بل انما هي ذات سياق رياضي ، ولكن داخل الوعي القائل بأنه ليست هناك من قوة في العالم تستطيـع أن تهز هـــذا الحساب ، توجد ارادتنا التي تحكم الطبيعة وتسيطر عليها . وهذا هو الفاوستي . ومن وجهـة

النظر هذه وحدها تبدو العجائب كثلمات في قوانين الطبيعة . ولقد كان الانسان المجوسي يرى في العجائب ممارسة لقوة ليست مشاعة للجميع، وهذه القوة لا تتناقض في أي وجه من وجوهها وقوانين الطبيعة . أما الانسان الكلاسيكي فكان وفق ما قاله بروتاغوراس قياساً للأشياء فقط وليس مبدعها أو خالقها، وهذه نظرة تتنازل دون ما وعي عن كل غزو للطبيعة بواسطة الاكتشاف وتطبيق القوانين .

إذن نرى أن مبدأ السببية (العلية) في الشكل الذي هو بداهة ضروري بالنسبة الينا (أي بوصف هذا الشكل قاعدة الحقيقة المتفق عليها لكل من رياضياتنـــا وفيزيائنا وفلسفتنا) هو مبدأ غربي ، وبصورة أدق ظاهرة باروكية . وهذه الظاهرة لا يمكن أن تبرهن وذلك لأن كل برهان يعرض في لغة غربية، أو كل تجربة يقوم بها عقل غربي إنما تفترض نفسها مسبقاً .

فالتصريح في كل قضية يحتوي على البرهان كنطفة ، (germ) ومنهاج كل علم هو العلم نفسه . وانه لما لا جدال فيه أن تصور قوانين الطبيعـة ومفهوم الفيزياء بوصفها « Scientia Experimentalis » (علماً تجريبياً) حيث ساد هـذا المفهوم منذ أيام روجر باكون ، يحتويان بداهة هذا النوع الخاص من الضرورة . أمـــا الصيغة الكلاسيكية لاعتبار الطبيعة (خذن الانا للصيغة الكلاسيكية للكينونة) فانها على العكس من الفاوستية ، إذ انها لا تحتوي على هذا النوع من الضرورة، ومع ذلك فهي لا تبدو على انها قد أضعفت منطقاً لهذا السبب . ونحن إذا ما درسنا بروية وامعان ما تفوه به كل من ديموقريطس وآناكساجوراس وارسطوطاليس (الذي يختزن داخله كامل مجموع التأملات الكلاسيكية في الطبيعة) ، وفحصنـا فوق كل شيء مضـــامين مصطلحات أساسية . عندئذ سنجد أنفسنا نتطلع مذهولين الى صورة للعالم تختلف كلياً عن صورتنا الخاصة له ، فتلك الصورة هي صورة مكتفية بذاتها ، وهي لذلك صحيحة دون قيد أو شرط بالنسبة الى هـذا النوع المعين من الجنس البشري (الكلاسيكي المترجم) زد على ذلك أن السببية (العلية) وفق مفهومنا لها لا تلعب أي دور فيها .

إن عالم الأخيمي ، أو الفيلسوف ، يتخذ لنفسه في الحضارة العربيـة ضرورة داخل عالم كهفه تختلف اختلافاً كلياً عن الضرورة الديناميكية . فليس هنـا أي رابط سببي (علي) لشكل القانون ، بل إنما يوجد في الحضارة العربية فقط علة ، هي الله الذي يكمن دائماً وراء كل معلول ، لذلك فان وجهة النظر العربيـة هذه ترى أن الايمان بقوانين الطبيعة هو بمثابة شك في قدرة الله الكلية . وإذا ما نشأت هناك قاعدة ، فإنما هذا لا يعني سوى أن الله يرضى ذلك ويريده ، ولكن اذا ما افترض أحدهم أن هذه القاعدة كانت ضرورة ، فهذا معنـاه أن يستسلم مثل هــذا المرء لتجربة الشيطان .

ولقد كان هذا أيضاً موقف كارنيادس Carneades وبلوطونيوس والفيثاغوريين الجدد .. وهذه الضرورة (الله — المترجم) تكمن وراء الأناجيل كما تكمن وراء التلمود والافيستا (Avesta) وعليها ترتكز تقنية الأخيمي .

إن مفهوم الرقم بوصفه وظيفة يرتبط بالمبدأ الديناميكي للعلة والمعلول . فكلاهما قد ابدعهما عقل واحد ، وهما شكل تعبير عن الروحانية ذاتها ومباديء اشتقاقيـة للطبيعة ذاتها ، وأعني بها الطبيعة في الصير والمخضعة للحس . (objectivized nature) والحق أن فيزياء ديموقريطس تختلف عن فيزياء نيوتن ، وهذا الاختلاف يتجلى في كون نقطة الانطلاق المختارة لفيزياء ديموقريطس هي المعين بصرياً ، بينما أن نقطة انطلاق فيزياء نيوتن تتمثل في العلاقات التجريدية المستنتجة من المعين بصريـاً . « فحقائق » المعرفة الأبولونية بالطبيعة هي أشياء ، وهي توجد على سطح المعروف ، لكن حقائق العلم الفاوستي هي علاقات ، وهذه هي بصورة عامة خارج مدى بعد عيون العاديين من النـاس ، والتي تتوجب السيطرة عليها سيطرة ذهنيـة ، وهي تتطلب للتبليـغ بهـــا وعنها لغـة قانون (Code) لا يستطيـع أن يفهمها سوى البحاثة الخبير .

إن الضرورة الكلاسيكية السكونية تتجلى فوراً وتتضح في تبدل الظاهرات ، بينما أن المبدأ الديناميكي للعلاقة بين العلة والمعلول (Causation - Principle)

يسود ما وراء الاشياء وينزع دائماً الى اضعاف أو بالأحرى الى ابادة واقعة الأشياء الحسية . ولنتأمل مثلاً في عالم المغزى المرتبط وفق النظرية العلمية المعاصرة بالمصطلح « مغنطيس » .

ان مبدأ حفظ الطاقة (Conservation of Energy) الذي اعتبر بكل جدية منذ أن جاهر به ج. ر. « ماير » ضرورة مفاهيمية ساذجة صريحة ، هو بالفعل إعادة وصف للمبـــدأ الديناميكي للسببية (العلية) بواسطة المفهوم الفيزيائي للقوة . ان الاستشهاد «بالخبرة» والجدل حول ما اذا كان الرأي هو ضروري أو اختباري، وهذا الجدل مثلاً هو في لغة « كنت » (الذي خدع نفسه خداعاً عظيماً في موضوع الحدود المانعة جداً والتي تفصل بين الضروري وبين الاختياري) يدور حول مـا اذا كان الرأي هو بداهة، أو استدلالاً من المعلول على العلة فيما بعد (a posteriori) أقول ان الاستشهاد بالخبرة والجدل هما أكيداً خاصتان غريبتان . فليس هناك من شيء يبدو غنياً عن البيان وواضحاً غير غامض «كالخبرة» بوصفها نبع العلم الصحيح وأصله . فالتجربة الفاوستية المرتكزة الى فرضيات علمية عاملة والمستخدمة لمناهج القياس هي ليست سوى الاستغلال المنهاجي الجامع المانع لهذه «الخبرة» . ولكن لم يلحظ أحد أن نظرة كاملة الى العالم هي مضمرة داخل مفهوم «للخبرة» كهذا ، مما له مضمون ديناميكي عدواني ، وأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد «خبرة» : وفق هذا المفهوم المخصب ، بالنسبة الى شعوب الحضارات الأخرى . ونحن عندما نرفض أو لا نعـترف بالنتائج العلميـــة لكل من أنكساغوراس او ديموقريطس بوصفها نتائج اختيارية ، فهذا لا يعني أن هـــذين المفكرين الكلاسيكيين كانا عاجزين عن ترجمة الطبيعة وكانا يقذفاننا بخيالات وبجرد أوهام ، بل انما يعني أننا نفتقد في عمومياتها ذلك العنصر السببي (العلي) الذي يشكل بالنسبة الينا الخبرة وفق مفهومنا لهذه الكلمة . ومن الواضح أننا حتى الآن لم نعط من التفكير ما يكفي لهذا، أي المفهوم الفاوستي المجرد للخبرة فالتضاد بينه وبين الايمان هو واضح (وهو تضاد سطحي تماماً) وذلك لأن الخبرة الحسية الذهنية الصحيحة فعـــلاً تنطبق في

نقطة التركيب انطباقاً كاملاً على خبرة القلب (كما قد ندعوها) هـذه الخبرة التي هي بمثابة تنوير عرفته طبائع عميقة التدين في الغرب خلال برهات خطـيرة من كينوناتها (كباسكال مثلاً الذي جعلت منه الضرورة الواحدة نفسهـا رياضياً «وجانسانياً»). إن الخبرة تعني في نظرنا نشاط الذهن الذي لا يحصر بمجموع مهامه في تلقي واقرار وتدبر أمر انطباعات برهية مجردة في حاضرها، بل انما يبحث عنها في حضورها المحسوس ويتلاشى . ان الخبرة وفق مفهومنا تمتلك النازع المبتدىء من الذاتي الخاص والممتد الى اللانهائي . ولهذا السبب بالذات تتعارض الخبرة وشعور العلم الكلاسيكي . فسبيلنا الى اكتساب الخبرة هو السبيل ذاته الذي يفقدها عليه الاغريقي . ولذلك حافظ على ابتعاده عن منهاج التجربة الشديد المفعول ، ولهذا فبدلا من أن تكون فيزياؤه منهاجاً جباراً يتألف من قوانين قوية ودساتير تصنع بقوة حاضر الحس وتقهره وتتخطاه (فالمعرفة وحدهـا هي القوة) أمست مجموعاً من الانطباعات الحسنة الانتظام يعضدها تخيل حسي منزهة الغرض تترك الطبيعة غير محسوسة في اكتمالها الذاتي . ان علمنا الطبيعي الصحيح هو أمر ملزم ، بينما أن العلم الكلاسيكي هو Oeupia في مفهومها الحرفي ،أي أنه نتيجة تأملية سلبية .

-٧-

نستطيع أن نقول دون تردد بان عـالم شكل العلم الطبيعي ينطبق عـلى عوامل شكل الرياضيات والدين والفن المخصصة له . فالرياضي العميـق (ولا أعني به الاستاذ في الاحصاء بل انما أعني الانسان كل الانسان الذي يشعر بروح الارقام تعيش داخله) يتحقق من أنه بواسطة الرياضيات « يعرف الله » . ولقـد ادرك

فيتاغوروس وافلاطون هذا الأمر كما ادركه ايضاً باسكال وليبنتز. ولقــد ميز ترينتيوس فارو Terentius varro بجدية رومانية في كتابه عن الدين الرومـاني القديم (المهدى الى يوليوس قيصر) بين اللاهوت المدني (Theologia mythica) عالم خيال الشعراء والفنانين . وبين اللاهوت الفيزيائي للتأمل الفلسفي . ونحن اذا ما طبقنا هذا على الحضارة الفاوستية نجد ان ما علمه توما الاكويني ولوثر وكالفن وليولا انما ينتمي الى اللاهوت المدني ، أما غوتيه ودانتي فهما ينتميان الى اللاهوت الأسطوري ، وأخيراً فان الفيزيائيين العلميين ينتمون الى اللاهوت الفيزيـــائي طالما أن وراء دساتيرهم تكمن صور .

ليس الانسان البدائي والطفل وحدهما ، بل انمـــا الحيوانات الارقى تنشيء تلقائياً من الخبرات الصغيرة اليومية صورة للطبيعة تحتـوي على مجموع من دلائل تقنية تلاحظ كتواتر فالنسر «يعرف» اللحظة التي يجب عليه فيها أن ينقض على فريسته والطائر المغرد الحاضن لبيضه «يعرف» اقتراب السنسار martenوالايل «يجد» المكان حيث يتوفر فيه «طعامه» . أما الانسان فان خبرة كل الحواس فيه قد تقلصت وغاصت عميقاً داخل خبرة العين . ولكن لما كانت عادة النطق الشفهي قد أضيفت الآن عرضياً لذلك يصبح الفهم مجرداً من النظر ، ولهذا يتطور منـذ تلك اللحظة فصاعداً تطوراً مستقلاً بوصفه محاكمة عقلية ، كما تضاف الى التقنيـة فانها تطبق ذاتها على البعيد وأهوال غير القابل للنظر ، وتقيم الى جانب المعرفـة معرفة جديدة وتقنية جديدة ارقى ، ويضاف الىالاسطورة نظام وطقوس فالتقنية تعلمه كيف يعرف الارواح numina المهيمنة ، أما النظرية فتدربه على التغلب عليها ، وذلك لان النظرية في مفهومها الرفيع هي دينية سداة ولحمـــة . فالنظرية العلمية لا تنفك عن الدين الا في حالات متأخرة تماماً في زمـــانها وذلك عندما يصبح الناس يعون المناهج ، أما ما عدا هذا فـــلا يطرأ على النظرية سوى قليل من التعديل والتبديل . فصورة الفيزياء للعالم تبقى صورة اسطورية خيـالية ، ويبقى تصوفها طقساً من التوسل الى القوى داخل الاشياء ، أما الصور التي تشكلها

والمناهج التي تستخدمها فانها تتوقف على صور الدين وطقوسه المخصص لها .

ومنــذ اواخر ايام عصر الانبعاث فما بعد ناهز التصور لله داخــــل روح كل انسان ذي شأن رفيـع ، فكرة الفراغ اللامتناهي المجرد . فاله اغنـاطيوس ليولا الـ ExercitiaSpiritualis هو إله لوثر ايضاً ، هو الحصن الحصين ein feste Burg وإله الـ « improperia » «لباليستريتا» وكنتات باخ . فالله لم يعـــد أب القديس فرنسيس الأسيسي والكاتدرائيات ذات القناطر العالية والحاضر شخصيـاً والله الرؤوف المتدبر أمور البشر كما أحس به المصورون الغوطيـون كجيوتو وستيفان لوشنر ، بل انما أصبح مبدأ مجهولا غير شخصي مبدأ لا يدركه الخيال غير محسوس يعمل وينشط بغموض وخفاء في اللانهائي فكل أثر لشخصية الله يذوب في تجريد يستعصي على كل حس ، والوهية كهذه لا تستطيـع سوى الموسيقى الاداتية من الطراز الرفيـع أن تعرضها ، فهي الوهية يتهاوى أمامها التصوير الزيتي . ويرتد عن تصويرها فاشلا مخذولا . فالشعور بالله كان هو الذي كون للغرب صورة العالم العلمية، طبيعته وخبرته ، ومناهجه تتعارض تعارضاً مباشراً ونظريات العـــالم الكلاسيكي ومناهجـه . ان القوة التي تحرك الكتلة هي ذاك الذي رسمه ميكالنجلو في كنيسة «سستين»،وهي ذاك الذي نحس به يزداد قوة يوماً بعد يوم ابتداء من النموذج الأصلي Gesu حتى يبلغ الذروة في واجهات كاتدرائيات ديللا بورتا ومادرنا ، وابتـــداء الكنيسة من هنريك شوتز حتى عوالم النغم المتسامية ، عوالم الموسيقى الكنسية في القرن الثامن عشر ، وهو ذاك الذي يملأ التراجيدي الشكسبيرية بمشاهد صيرورة العالم الموسعة حتى اللانهاية . وهذا هو ما أسره غاليليو ونيوتن داخل قواعد وقوانين ومفاهيم .

ان الكلمة «الله» تحت قباب الكاتدرائيات الغوطية أو داخل اروقة مولبرون Maulbror وكنيسة القديس جالين st. Gallen نغماً يختلف عما لها من نغم داخل بازيليكات سوريا ومعابد روما الجمهورية . فطابع الكاتدرائية الفاوستية هو طابع ذاته . فالتعلية الجبارة لصحن الكنيسة فوق المماشي المجنحة في تعارضهـــا والسطح المنبسط «للبازليكا» وتحويل الاعمدة ، بما لها من قواعد وتيجان ، نصبت في الفراغ

كأنها أفراد مستقلون قائمون بذواتهم الى أعمدة واعمدة معقدة تنمو عاليـــاً من الارض وتنتشر ساحقة في تجزئة الجزء اللامتناهي وتضافر الخطوط والاغصان ، والنوافذ الجبارة التي تذيب الجدار وتغمر داخل الكاتدرائية بضوء غامض خفي ، هـذه الاشياء كلها هي التحقق الهندسي لشعور بالعالم وجد أول رمز له في الغابـة السامقة في السهول الشمالية ، هذه الغابة المقبلة بشابكها الغامضة ، وبمـا لاوراقها المتحركة أبـداً فوق رؤوس البشر من همس ، وباغصانها التي تجاهد من خـلال جذوعها لتتحرر من الارض . ولنتأمل في زخرف الرومانيسك ومشابهتـه العميقة لمفهوم الغابات ، فغبشه الغابة المتوحـدة اللامتناهية أمست وبقيت الحنين السري في كل اشكال البناء الغربي ، وهكذا خمدت طاقة شكل البناء الغربي ، وهكذا عندما خمدت طاقة شكل الاسلوب في العصر الغوطي المتأخر زمناً كما خمدت في ختام العهد الباروكي ، حلت لغـة الخط التجريدية فوراً فسها الى أغصان طبيعية وعساليج وبراعم وأوراق .

إن شجر السرو والصنوبر بما لها من اثر جسماني بوقليدي لم يكن بمستطاعها أن تصبح رموزاً لفراغ لا متناه ، لكن شجر البلوط والزان والزيزفون ببقع الضوء المتشنجة والمتراقصة داخل حجمها الممتليء ظلالا يحس بها كأنها روح لا جسم لها أو حد. فجذع شجرة السرو يجد الاكتمال النهائي لنازعه العمودي في الذروة المحدودة لعرمته المخروطية الشكل ، لكن جذع شجرة البلوط يبدو قلقـاً أبداً غير قانع ويجاهد ليتسامى ما فوق تاجه . ويبدو في شجرة الدردار أن انتصار الأغصان المتشابكة سماء على وحدة التاج قد تحقق فعلاً وواقعاً. ومنظر هذه الشجرة هو منظر شيء مـا يذوب ، شيء ما يمتد في الفراغ ، ولربما امسى لهذا السبب دردار العالم يغ - درازيل رمزاً في الأساطير الشمالية .

ان صراع الغابات ، وهو سحر لم يشعر به أبداً أي شاعر كلاسيكي (لأنه يقع خارج نطاق امكانية الشعور الابولوني) ينتصب بسؤاليه السريين « من اين ؟ » « والى اين؟ » فادماجه الحاضر في الابد داخل علاقة عميقة بالمصير وبشعور التاريخ

والديمومة مع صفة الاتجاه ، كل هذه هي التي تحرك النفس الفاوستية القلقة المهمومة نحو مستقبل لا متناه في بعده . ولهذا السبب فان الأرغن يهدر عميقاً وعالياً من خلال كنائسنا بأنغام اذا ما قوبلت بألحان القيثارة البسيطة الجامدة تبدو كأنها لا تعرف حداً أو كبحاً ، هو آلة الآلات الموسيقية في التعبدات الغربية .

إن الكاتدرائية والأرغن يشكلان وحدة رمزية مثل المعبد والتمثال . وتاريخ بناء الأرغن ، وهو من أعمق فصول تاريخ موسيقانا وأشدها تأثيراً ، هو تاريخ الحنين الى الغابة ، الحنين الى التحدث بلغة ذاك المعبد الحقيقي لمهابة الله الغربية . وقدحمل هذا الحنين واينع دون انقطاع ،ابتداء من شعر فولفرام فون ايشنباخ حتى موسيقى «تريستيان» بالثمار فوجاً بعد فوج . وكان نغم الاوركسترا في القرن الثامن عشر يكدح دون كلل أو ملل ليكتسب قرابة أوثق لنغم الارغن. «Schwe bend» (ترنح – تحويم) هذه الكلمة المعدومة المعنى إذا ما طبقت على الأشياء الكلاسيكية هي هامة في نظرية الموسيقى وفي التصوير الزيتي والهندسة المعمارية والفيزياء الديناميكية في العصر الباروكي على حد سواء . ولتقف في غابة مرتفعة ذات جذوع جبارة وذلك حينما تزأر العاصفة من فوقها وعندئذ ستدرك فوراً المعنى الكامل لمفهوم القوة التي تحرك الكتلة .

ومن خلال شعور ابتدائي في الوجود الذي أمسى متأملاً كثير الاهتمام ، تنشأ إذن فكرة ما هو الميفطري في العالم المحيط بنا، وهذه الفكرة تزداد تأكداً يوماً بعد آخر . فالمدرك المتأمل يستوعب انطباع الحركة في طبيعتنا الظاهرية ، فهو يحس بأنه محاط بحياة غريبة لا توصف تقريباً ، حياة قوى مجهولة ، ويتتبع آثار أصل هذه العلل حتى الأرواح المهيمنة وحتى **الأخر** ، نظراً لأن **الأخر** يمتلك حياة ايضاً .

إن الذهول الناشىء عن حركة غريبة هو نبع الدين وأصل الفيزياء أيضاً فكل منهما شرح للطبيعة (العالم المحيط بنا) تقوم بها النفس والعقل . « فالقوى » هي الهدف الاول لكل من التبجيل الناشىء عن الخوف أو الحب والبحث النقدي.

فهناك خبرة دينية وخبرة علمية .

والآن انه لمن المهم أن نلاحظ كيف يقرر وعي الحضارة ذهنياً ارواحها الابتدائية المهيمنة. فهذا الوعي يفرض عليها كلمات ذات مغزى (اسماء) وبذلك يعزم عليها (يضع يده أو يقيدها) . والروح نظراً للاسم الذي تحمله تخضع للقوة الذهنية للانسان الذي يمتلك الاسم ، فكامل الفلسفة والعلم وكل شيء يرتبط على أي وجه من الوجوه «بالمعرفة» هو (كما أظهرنا فيما تقدم) في اعمق اعماقه ليس سوى صيغة ممحصة تمحيصاً غير متناه لتطبيق الانسان البدائي سحر الاسم على «الغريب» فالتلفظ بالاسم الصحيح (وفي الفيزياء نقول المفهوم الصحيح) هو تعويذ سحري. Incantation فاللواهيت والتطورات الاساسية للعلم سواء بسواء تخرج أول ما تخرج الى الوجود كاسماء ترتبط بها فكرة تزداد يوماً بعد يوم قابلية للمعرفة الحسية. ان نتاج الروح المهيمن Numen هو اله Deus ، أما نتاج القصور فهو فكرة ففي مجرد تسمية الشيء بذاته « كالذرة » و«الطاقة» و «الجاذبية» و «العلة» و «التطور» وما شابه ذلك ، هو الخلاص بالنسبة الى اوسع الناس علماً ، وهذا الخلاص لا يختلف أبداً في مفهومه عن الخلاص الذي كان يحس به فلاح «لاتيوم» من خلال كلمات » لـ : «Vesta» «Janus» «Consus» «Ceres» أما بالنسبة الى الشعور الكلاسيكي بالعالم الموافق لخبرة العمق الابولونية ورمزيتها فلقد كان الجسم الفردي «كينونة» . ومنطقياً فان شكل هذا الجسم كما عرض نفسه في الضوء كان يحس لذلك بوصفه جوهر الجسم والمغزى الحقيقي لكلمة «كينونة» . أما ذاك الذي لم يكن له وجود أبداً . وعلى أساس هذا الشعور (الذي كان على درجة من الكثافة يصعب على الخيال تصورها) خلقت الروح الكلاسيكية كمفهوم مضاد للاشكل بالآخر واعني به مادة العمل stuff الـ (. . .) الذي لا يمتلك بنفسه كينونة وهو مجرد تتمة للباطن (Fmt) الممثل ضرورة ثانوية ملحقة . وفي مثل هذه الظروف يصبح من السهل علينا أن نرى كيف شكل مجموع الالهة Pantheon الكلاسيكية بالضرورة نفسه بوصفه جنساً بشرياً ارقى جنباً الى جنب والجنس البشري العادي وكمجموعة من أجسام بلغت الكمال في تكوينها وذات امكانيات عالية متجسدة

وحاضرة ، لكنها غير مميزة في اللاجوهري من مادة العمل ، ولهـذا فهي خاضعة للضرورة الكونية والتراجيدية ذاتها (التي يخضع لها البشر) .

أما الشعور الفاوستي بالعالم فانه يختبر العمق على شكل مغاير . فهنـــا يبدو مجموع الكينونة الحقيقية كفراغ فعال مجرد هو الكينونة ذاتها، فـان ما يشعر به حسياً ، ذاك الذي عين انشغال الفراغ بالهيولي Plenum تعييناً بالغ العمق في مغزاه يحس ، بوصفـه حقيقة من درجة ثانية ، وكشيء ما موضوع للتساؤل أو حسن الظاهر مموه،وكمقاومة يجب أن يتغلب عليها فيلسوف أو فيزيائي قبل أن يتمكن من اكتشاف المحتوى الحقيقي للكينونة .

إن الارتيابية الغربية لم توجه أبداً ضد الفراغ بل انما وجهت ابداً ودومـاً ضد الأشياء المحسوسة وحدها . فالفراغ هو الفكرة الأرقى (والقوة هي فقط أقل تجريدية في تعبيرها بالنسبة اليه) والكتلة لا تنشأ إلا بوصفها مفهوماً مضاداً للفراغ فقط . لأن الكتلة هي ما هي في الفراغ ، وهي تعتمد منطقياً وفيزيائياً عليـه . وقد تبع بالضرورة افتراض حركة موجـة الضوء التي تكمن وراء مفهوم الضوء كشكل طاقة ، افتراض كتلة مطابقة ، أي « الأثير المضيء » . فتعريف الكتلة ونسبة خصائص لها ينشأ من تعريف القوة (والعكس بالعكس) بكل مـا للرمز من ضرورة . فكل التصورات الكلاسيكية المادة الاولية ، مهما اختلفت هـذه التصورات وتعارضت الواقعية منها والمثالية فانها تميز « ما يجب ان يشكل » وهذا ليس سوى « عـدم » يتلقى فقط تعريفاً أوثق من المفهوم الاساسي للشكل ، مهما كان هذا الشكل في المنهاج الفلسفي الخاص . أما كل التصورات الغربية المـادة الاولية فانها تميز « ما يجب أن يحرك » ، وهذا الأمر لا شك سلبي ايضاً ، لكنه القطب الســالب بالنسبة لقطب موجب مختلف . فالشكل واللاشكل ، والقوة واللاقوة ، هــذه هي الكلمات التي تعبر بأفصح لسان عن الاستقطابيتين اللتين تكمنان في هاتين الحضارتين وراء الانطباع عن العـالم وتحتويان على كل صيغه .

أما ذاك الذي عبرت عنه الفلسفة المقارنة حتى الآن تعبيراً خاطئاً ومضللاً بكلمة واحدة هي «مادة» فانما يعني في الحالة الاولى ركن الشكل وأساسه ، أما في الحالة الثانية فهو يعني ركن القوة وأساسها . وليس هناك من تصورين يمكن لهما ان يتعارضا تعارضاً تاماً كهذين ، فهنا المتحدث انما هو الشعور بالله ، ومغزى القيم .

ان اللاهوت الكلاسيكي هو شكل رائع سام ، أما اللاهوت الفاوستي فهو قوة سامية رائعة ، أما « الآخر » فهو غير الهي لا تخصه الروح بمهابة الكينونة ، وهذا « الآخر » غير الالهي هو بالنسبة الى الشعور الأبولوني بالعالم جوهر بلا شكل ، أما بالنسبة الى الفاوستي فانه جوهر بلا قوة .

- ٨ -

تعود العلماء على الزعم بأن اساطير فكرة الله هي ابداعات الانسان البدائي ، وانه كلما « تقدمت » الحضارة الروحية فان القوة المشكلة للاسطورة تراق وتهدر ولكن الواقع والحقيقة يذهبان تماماً الى عكس ما يذهب اليه العلماء ، فلو أن مورفولوجيا التاريخ لم تبق حتى هذا اليوم حقلاً غير مطروق تقريباً ، لكانت القوة الشعرية الأسطورية قد اقتصرت منذ زمن طويل على مراحل تاريخية خاصة . ولكان الناس ايضاً قد تحققوا من أن قدرة النفس هذه على ملأ عالمها بأشكال وميزات ورموز (يتشابه بعضها وبعض ويتماسك) انما لا تعود يقيناً وأكيداً الى العهد البدائي ، بل انما تعود حصراً الى ازمنة النبع للحضارات العظمى . فكل أسطورة ذات الأسلوب العظيم انما تقف عند بداية يقظة روحانية . وهي العمل

الاشتقاقي الاول لتلك الروحانية ، ولا يمكن لنا أن نجدها في أية مرحلة تاريخية أخرى . فهناك - يجب أن تكون .

وانني لأتقدم بهذا الزعم فأقول بأن ذاك الذي يملكه أناس بدائيون (كالمصريين في أزمنة تاينيت (Thinite) واليهود والفرس ما قبل قورش وأبطال المدن الماسينية والمان عصور الهجرات) عن طريق الفكر الدينية لم يصبح بعد اسطورة بمفهومها الأرقى . فقد تكون مجموعة من مسحات مشتتة وغير منتظمة لمذاهب تلتحم بالأسماء وتلتصق بها ،وصور خرافية هتامية، لكنها لم تمس بعد نظاماً لاهوتياً أو تركيباً عضوياً أسطورياً ، واعتباري لهذه كأسطورة لا يزيد عن اعتباري لزخرف المسرح و«ديكوره» كفن . ولكن علينا أن نقول بانه الحذر كل الحذر هو أمر ضروري ومتوجب حين معالجتنا للرموز والاساطير الشائعة اليوم أو حتى التي كانت شائعة في قرون خلت بين أناس هم بدائيون ظاهراً ، وذلك لأن الاف السنين تلك لكل بلد في العالم قد تأثرت قليلاً أو كثيراً ببعض حضارة راقية غريبة عنها .

لذلك فانه يوجد عدد من عوالم شكل الاسطورة يعادل عدد الحضارات والهندسات المعمارية المبكرة . أما عوالم شكل الاسطورة السالفة (هذه الفوضى من التخيل غير المتطور والذي يضيع البحث الحديث في الفنون الفولكلورية نفسه نظراً لافتقاره الى مبدأ مرشد وهاد) فهي وفق هذه الفرضية لا تستأثر باهتمامنا من قريب أو بعيد،فنحن نهتم من جهة أخرى ببعض مظاهر حضارية معينة تلك التي لم يفكر بها ابداً حتى الان بانها تنتمي الى هذه المرتبة . ففي المرحلة الهوميروسيه القرن (١١ - ٨ ق.م) وفي مرحلة الفروسية من مراحل التيتونية (٩٠٠ - ١٢٠٠) وأعني بهاتين المرحلتين، الحقبتين الملحميتين ، وليس قبل أو بعدهما ، خرجت صورة عالمية عظمى الى الوجود . أما الحقبات الموافقة لهاتين فهما تتمثلان في الهند بالمراحل الفيدية وفي مصر بمراحل الاهرام . ويوماً ما سيكتشف أن الاسطورة المصرية قد نضجت عمقاً في عهود الاسرتين الثالثة والرابعة .

إننا لا نستطيع إلا وفق هذه الطريقة أن نفهم الثراء العريض الهائل للابداعات الوجدانية التي تملأ القرون الثلاثة للعهود الأمبراطورية في المانيا . اذن فان ما خرج الى الوجود فهو الميثالوجيا الفاوستية. وحتى الآن، وبسبب أن العنصر الكاثوليكي قد عولج معالجة تطرح العضد الوثني جانبــاً ، او العكس بالعكس ، فنحن قد عمينا عن سعة عالم الشكل هذا ووحدته والحق أنه لا يوجد فرق كهذا، فالتبدل العميق الذي طرأ على المعنى في دائرة الفكر المسيحية ، بوصف هذا التبدل عملاً مبدعاً ، هو بمثابة ترسيخ وتقوية للمذاهب الوثنية القديمة في عصور الهجرات ، وقد أصبحت الفنون الفولكلورية لهذه العصور في أوروبا الغربية كلاً كاملاً، ولو أن حجم مادتها كان اقدم بكثير ، أو مرة ثانية بعد ذلك بطويل ، مرتبطاً بخبرات ظاهرية وضوعف ثراؤه بواسطة معالجة واعية ، فمع هذا فان إنعاشها الرمزي قد حدث حينذاك وليس قبلاً أو بعد . وتنتمي الى الفنون اساطير الله العظمــى في الادا (Edda) ودوافع كثيرة في شعر التبشير الذي نظمه الرهبان ، وخرافات الابطال الالمانية من سيجفريد وجودرون وديتريش وفيلاند ، والثراء العريض في اساطير الفروسية المشتقة من خرافات كلتية غارقة في القدم ، والتي حان موسم حصادها على الارض الفرنسية في وقت واحد والملك آرثر والطاولة المستديرة والكأس المقدسة وتريستان وبرسيفال ورولاند. ومع هذه يحسب (الى جانب التقويم الثوري الروحي غير الملحوظ لكنه الاعمق بالنسبة الى ذاك) التاريخ الكاثوليكي الذي للمخطوطـات المقدسة والقديسين ، هذا التاريخ الذي بلغ أخصب ازدهاره في القرنين العــاشر والحادي عشر والذي انتج حياتات العـذراء وتواريخ س.س. روخ وسيباليـد وسيفرين وفرنسيس وبرنارد وأوديليا . فاسطورة « اوريا » قد نظمت قرابة عام ١٢٥٠ ، وهذا كان عصر الازدهار للملحمة البلاطية المتأدبة ولشعر « السكان » على حد سواء . فالهة «الفالهالا » العظام في الشمال والمجموعة الاسطورية المشكلة من المساعدين «الاربعة عشر» في جنوب المانيا هما أمران متعاضدان، كما والى جانب راغناروك وغبشة غسق الالهة في فولوسبا ، لدينا الشكل المسيحي المتجلي في موسبللي Muspilli في جنوب المانيا . ان الاسطورة العظمى تتطور ، كالشعر البطولي

في ذروة الحضارة المبكرة زمناً . فكلاهما ينتميان الى المنزليتين الابتدائيتــين ، الكهنوت والنبالة ، وهما يجدان موطنيهما في الكاتدرائية والقلق وليس في القرية التي هي دون هاتين حيث يعيش عالم الخرافة بين سكانها لمدة قرون من الزمن ويسمى أسطورة خرافية» و«ايماناً شعبياً» أو «خزعبلات» ومع هذا فان هذا العالم لا يقبل بأن يفرق بينه وبين العالم ذي التأمل الرفيـع .

وليس هناك من شيء يوضح المعنى النهائي لهذه الابداعات الدينية اكثر من تاريخ « الفالهالا ». وهذا التاريخ لم يكن فكرة المانية أصيلة،وحتى عشائر عصور الهجرات كانت بدونه تماماً . وقد اتخذ له شكلا في اللحظة ذاتها تمامـاً التي نشأت فيها ضرورة باطنية داخل وعي الشعوب التي بعثت جديداً على تربة الغرب . ولهذا فانه « معاصر» للاولمب الذي نعرفه من خلال الملاحم الشعرية الهوميروسية،والذي هو من القلة في « ماسينيته » كما هي الفالهالا في المانية أصلها . زد على ذلك انه من أجل المنزلتين الارقى تنشأ فقط الفالهالا من تصور العالم السفلي (Hel) ، وهي تبقى وفق معتقدات سكان العالم السفلي مملكة للأموات .

إن الوحدة الباطنية للعالم الفاوستي للاسطورة والخرافة (Saga) والانطبـاق الكامل لرمزية تعبيرها لم يتحقق أي منها حتى الآن ، ومع هذا فان سيجفريد ، بالدور ،رولاند ، والمسيح الملك ، في « الهيللاند » (Heliand) هي أسماء مختلفة للشخص ذاته . فالفالهالا وآفالون (Avalon) والطـاولة المستديرة والعشاء الرباني لهيكلي الكأس المقدسة ، وماري وفريجا (Frigga) والسيدة هولي تعني الشخص ذاته . ومن جهة أخرى فان النبع الظاهري للدوافع والعناصر المـادية ، والتي بدد عليها البحث الميثولوجي حميّا مفرطة ، هو مسألة لا تغوص أهميتها أعمق من السطح ، أما فيما يتعلق بمعنى الاسطورة ، فان أصلها لا يبرهن على أي شيء. فالروح المهيمنة (Numen) بحد ذاتها ، أي الشكل الابتدائي للشعور بالعـالم ، هي ابداع بمجرد ضروري وغير واع ، وهو غير قابل للترحيل أو التحويل . فالذي يقتبسه شعب ما من شعب آخر (وذلك ما يحوله الى نفسه أو يقلده باعجاب وحب) فانما هو اسم

أو لباس أو قناع يقتبسه لشعوره الخاص ولا يقتبسه أبداً لشعور ذاك الآخر. وعلينا أن نعالج الدوافع الاسطورية القديمة من كلتية أو جرمانية، كالبيانات ذات الاشكال الكلاسيكية التي امتلكها راهب متضلع في العلم، وكالجسم الكامل لايمان مسيحي شرقي الذي تضطلع به كنيسة غربية بوصفه فقط المادة التي أبدعت منـــه النفس الفاوستية خلال هذه القرون هندسة معمارية خاصة بها. وانه لا يهم الا قليلاً ما إذا كان الاشخاص الذين أبصرت الأسطورة في عقولهم أو أفواههم نور الحيـــاة كانوا « منذرين » افراديين، مبشرين أو كهنة، أو «الشعب»، كما وانه لا يهم مـا إذا كانت الفكر المسيحية التي أملت أشكالها تؤثر في الاستقلال البـــاطني لذاك الذي يبصر بنور الحياة.

ان الاسطورة في كل من الحضارات الكلاسيكية والعربية والغربية هي ما يجب أن نترقبه في كل حال من الأحوال من نبع تلك الحضارات، فهي في الاولى سكونية وفي الثانية مجوسية وفي الثالثة ديناميكية. فلنتفحص كل تفصيـــل من تفاصيل الشكل، كي ترى كيف أنها في العالم الكلاسيكي هي موقف وفي الغربي هي فعل، فهناك كينونة وهنا إرادة تكمن وراء التفاصيل، وكيف أن الجسماني والمحسوس والمشبع حساً يسيطر في العالم الكلاسيكي وكيف انه لهذا السبب يقع مركز الثقل في صيغة العبادة في مذهب انطباع الحس، بينما أن الفراغ والقوة يسيطران في الشمال ولذلك فهنا تدين تسوده الدغماتيـــة في تلوين تلك القاعدة. إن هـــذه الابداعات المبكرة جداً التي ابدعتها النفس الفتية تخبرنا بأن هناك علاقة تربط بين المشخصات الأولمبية والتمثال والمعبـــد الجسماني الدوري، وعلاقة أخرى تشد البازيليكا المقببة و «روح» الله والزخرف العربي بعضاً الى بعض، وثالثة تربط بين الفالهالا وأسطورة مريم ونيف الكنيسة السامق والموسيقى الأداتية.

لقد قامت النفس العربية ببناء اسطورتهـــا خلال القرون الفاصلة بين قيصر وقسطنطين، هـذه الأسطورة التي تتألف من كتلة خيالية من المذاهب والرؤى والخرافات حيث تجعل من الصعب علينا حتى هذا اليوم الاشراف عليها وتخطيطها،

فهنا المذاهب التوفيقية (Syncretic) (التوفيق بين النقيضين -المترجم) كمذاهب بعل السوري « وايزيس» و « مثراس » وهذه المذاهب لم تنقل الى سوريا فحسب بل انما حورت شكلاً وبدلت جوهراً على التربة السورية ، وهنا أيضاً الأناجيل وأعمال الرسل وسفر الرؤيا والرؤى في فيض مذهل ، وهنا الخرافات المسيحية والفارسية واليهودية والافلاطونية الجديدة والمانية (نسبة الى مان) وهنا المراتب السماوية للملائكة وأرواح الآباء والعارفين. (Gnostic) . وتقع ملحمة الشعب المسيحي كلها في قصة الآلام التي روتها الأناجيل بين قصة طفولة يسوع وأعمال الرسل وفي الخرافة الزوراسترية ، [1] (Zoroasxer) هذه الخرافة المعاصرة لملحمة الشعب ، المسيحي ، تجدنا نتطلع الى أشخاص الابطال في الملحمة العربية المبكرة ، ونرى آشيل في الملحمة الكلاسيكية ، وسيجفريد وبرسيفال في الفاوستية . ان مشاهد جبل الزيتون والجلجلة مشاهد تقف جنباً الى جنب وأنبل الأساطير من أغريقية وجرمانية .

أما الرؤى المجوسية فانها نمت جميعاً دون استثناء تحت ضغط الرؤى الكلاسيكية المتحشرجة والتي كانت نتيجة لطبيعة الأشياء عاجزة عن التبليغ بروحها ، وهكذا ألفيتها تعبر اشكالها بإلحاح ومحاجة . وانه لمن المستحيل علينا تقريباً الآن أن نخمن مقدار العناصر الأبولونية المعطاة والتي كان من المتوجب قبولها وإعادة تقويمها تقويماً ثورياً قبل أن تضرب الأسطورة المسيحية جذورها عميقاً في التربة وتكتسب الرسوخ والقوة اللذين امتلكتهما في زمن اوغسطين .

---

١ — Zoroastrianism : الايمان بأن العالم تحكمه قوتان هما النور والظلام ، الخير والشر .

-المترجم-

- ٩ -

ونتيجة لما تقدم فإن لتعدد الآلهة الكلاسيكي اسلوباً خاصاً بـــه يصنفه في مرتبة تختلف عن أية مفاهيم اخرى لأي نوع من الشعور بالعالم مهما كانت أوجـه الشبه السطحية بينه وبين غيره . فصيغة امتلاك الآلهـة بغير رؤوس ، هي صيغة وقعت مرة واحدة فقط ، وهذه الحضارة الواحدة هي التي جعلت من تمثال الانسان العاري المجموع الكامل لفنها . فالطبيعة كما أحس بها الفرد الكلاسيكي وعرفها فيما حوله ، أي أنها مجموع من الاشياء الحسنة التشكيل جسمانياً ، لا يمكن أن تؤلّه وتعبد بواسطة أي شكل غير هـذا (التمثال العاري) . ولقد كان الرومان يشعرون بأن في المطالبة بالاعتراف بيهوى إلهاً واحداً أحداً شيئاً مـا إلحادياً . فالروماني يرى في الاله الواحد لا اله ، والى هذا الاعتقاد يمكننا ان نرى الكراهية الشعبية الشديدة من رومانية واغريقية للفلاسفة طالما كان هؤلاء الفلاسفة حلوليين ولا اله لهم . فالآلهة في نظر الفرد الكلاسيكي هي أجسام ... ، والوفرة كانت سجية وملكة للاجسام بالنسبة للرياضيين والمحامين والشعراء على حد سواء . زد على ذلك أن مفهوم .... ، كان ينطبق على الآلهة والناس معــاً ، ولم يكن هناك من شيء غريب عن الجنس البشري الكلاسيكي كغرابة الوحدانية والعزلة واللياقـة الذاتية عنهم ، لذلك لم يكن أي نوع من الوجود ممكناً بالنسبة إليهم ، مـا عدا منظر وجود المجاورة الخالدة .

والحق انه لذو مغزى عميق أن نجد هيلاس دون بقية البلدان الأخرى هي التي تفتقر وحدها الى آلهة كوكبية ، الى ارواح البعد أما هيليوس (Helios) فكان ُيعبد فقط في رودس نصف الشرقية ، وسيلين (Selene) (آلهة القمر) لم يكن

لها أي مذهب أو طقس إطلاقاً ، وكلاهما لم يعدوا كونهما صيغتين فنيتين من صيغ التعبير (وهما يبدوان على هذا الشكل فقط في ملاحم هوميروس) زد على ذلك انهما عنصران ، كان « فارو » نوعاً اسطورياً لا نوعاً مدنياً . فالدين الروماني القديم الذي عُبر بواسطته عن الشعور الكلاسيكي بالعالم بنقاء خاص وصفاء مميز ، لم يكن يعرف شمساً او قمراً ، عاصفة أو سحابة كالحة . فاضطرابات الغابات وتوحدها ، والعاصفة وامواج الشاطىء الصخري التي تملأ كلها طبيعة الانسان الفاوستي وتسيطر عليها (وحتى طبيعة الكاتيين والتيتون ما قبل فاوست) والتي أعطت ميثالوجيتهم طابعها المميز الخاص ، فانها لم تحرك في الانسان الكلاسيكي عاطفة أو تثير خاطراً . فهو لا يعرف سوى الجمادات ـ المدفأة والباب والدغل والحقل ، وهذا النهر المعين وتلك التلة المحددة كل هذه تكشف كينونة في نظره . ونحن نلاحظ أن كل شيء ذي بعد ، كل شيء يحتوي على ايحاء غير محدود ولا جسماني واللذي قد يدخل بذلك الفراغ كباطن Ent ولاهوت في الطبيعة المحسوسة قد نبذ وبقي منبوذاً من الاسطورة الكلاسيكية . إذن كيف ندهش إذا ما رأينا أن الغيوم والآفاق ، التي هي مغزى المناظر الطبيعية الباروكية وجوهرها ، لا وجود لها إطلاقاً في التصوير الكلاسيكي على الحائط هذا التصوير الذي لا مؤخرة صورة له ؟ إن الحشد غير المحدود من الالهة الكلاسيكية (فكل شجرة وكل نبع وكل بيت ، لا بل كل جزء من أجزاء البيت هو إله) يدل على أن كل ما هو محسوس هو وجود مستقل ، ولذلك فلا يوجد أي شيء يخضع وظائفياً للاخر .

إن قواعد صورة الطبيعة الابولونية تختلف سياقاً ومتناً عن قواعد الصورة الفاوستية للطبيعة ، فهما يمثلان رمزين متضادين ، اولهما هو الشيء الفرد ، وثانيهما الفراغ الموحد . (ذو الاله الواحد .) . أما الاولمب وهاديس (جحيم الاغريق) فهما مكانان محددان تحديداً حسياً كاملاً ، بينما أن مملكة الاقزام والسعالي والعفاريت وفالهالا ونفلهايم هي جميعاً في مكان واحد أو آخر في الفراغ . ولم تكن تيلوس

ماتر Tellus Mater في الدين الروماني القديم الأم الكل بل انها كانت الحقل المنظور القابل للحراثة ذاته . وكانت فاونوس Founus هي الغابة وفولتورنوس هو النهر ، أما النهر ،أما اسم البذرة فهو Ceres ،واسم الحصاد فانه كونسوس Consus وهوراس يدلل على الأصالة الرومانية عندما يتحدث عن « Sub Jove frigido » تحت سديم بارد. ولا توجد في هذه الحالات حتى المحاولة لنسخ صور للاله من أي نوع كان في أماكن العبادة ، وذلك لان مثل هذا النسخ يعادل تماماً نسخ الاله ذاته . وحتى في الأزمنة المتأخرة جداً فلم تكن غريزة الرومان فقط بل غريزه اليونان ايضاً تعارضات الأصنام بدليل أنه كلما كان الفن التشكيلي يخطو خطوات اوسع في اتجاهه الدنيوي كان اصطدامه بالعقائد الشعبية والفلسفة التقية الورعة يزداد شدة مع كل خطوه يخطوها في هذا الاتجاه . ففي البيت كان « فاونوس » هو الباب بوصفه الهاً وكانت « نيستا » هي المدفأة بوصفها الهة وكلتا وظيفتي البيت قد جعلتا موضوعين لغرض والمتا فوراً. وكان لا يفهم اله النهر الهيليني (كأشيل الذي يبدو كثور) مثلاً أنه يعيش في النهر نفسه . أما كان يفهم على أنه هو النهر نفسه ؟ أمـا البانز (Pans) وساتيرس Satyrs فهي الحقول والمروج كما تعرفهـا الظهيرة ، فهي محدده تحديداً حسناً ، ولما كان لها شكل ، لذلك فـان لها وجوداً ايضـاً . زد على ذلك أن دريادس Dryads وهامـا درايادس هي اشجـــار ، وكانت كل شجره من الاشجار الباسقة ذات الجذع الضخم والتي لم تكن تحمل حتى اسماً ، تكرم بضفـــائر من الازهار تعلق على اغصانهـا وتقدم اليها القرابين .

ونحن على العكس من هذه الحال لا نشاهد أي أثر لهذه المـادية المحلية يلتصق بالسعالي والاقزام والعفاريت والساحرات والفالكيريز واقربائهـا جيوش ارواح الاموات التي تحوم وتطوف طيلة الليل . بينما اننا نرى أن « النيادز» (Naiads) هي ينابيع عرافات وساحرات وارواح اشجار، ونشاهد أن الجنيات (Brownies) هي ارواح ترتبط فقط بالينابيع والاشجار والبيوت وهي تحن الى اطلاق سراحها من هـــذه كي تتمتع بحرية التطواف . وهذا هو التعارض كل التعارض والشعور التشكيلي بالطبيعة ، وذلك لأننا نجد هنا أن الاشياء قـــد اختبرت بوصفها مجرد

فراغات من نوع آخر . فالجنية الكلاسيكية (وهـذه هي نبـع) تنتحل شكلاً بشرياً عندما تزور راعياً جميل الطلعة، لكن الجنية الفاوستية (Nixy) هي اميرة ساحرة فتانة تضع في شعرها حوذانا وتخرج في منتصف الليل من اعمـاق البحيرة أو البركة حيث تسكن . والامبراطور بارباروسا يجلس في كهف كفهيوسر (Kyffhäuser) وتقيم السيدة فينوس في هورسلبرج (Hörselberg) . وهكذا يبدو لنا كأن الكون الفاوستي يمقت أي شيء مادي وأصم كتيم . ونحن نشتبه من الأشياء بوجود عوالم اخرى . فكثافة الاشياء وصلودتها همـا مجرد مظهرين وهناك بعض الناس والناس جميعاً ابناء للموت قد اعطوا سلطانـاً ليروا من خلال الأجراف والصخور الضخمة الشاخة الى الاعماق ، وهـذه ميزة مستحيلة بالنسبة الى الاسطورة الكلاسيكية وذلك لأنها شديدة الخطر عليها .

ولكن أليست هذه الميزة هي القصد الخفي والعزم السري لنظرياتنا الفيزيائية وكل فرضية علمية جديدة ؟ فليس هناك من حضارة تعرف عدداً وفيراً كهذا من خرافات الكنوز الموجودة في الجبال والبرك وممالك مـا تحت الارض السرية والقصور والحدائق حيث تعيش كائنات اخرى .

إن الشعور الفاوستي بالطبيعة يرفض ذاتية العـالم المادية جملة وتفصيلاً ، حيث يصبح كل شيء ، في نهاية المطاف ، بالنسبة الى هذا الشعور ، لا يمت الى الارض بأية صلة ، بل انما يمسي الواقعي هو الفراغ وحده ، فاسطورة « الجن » تذيب مادة الطبيعة كما يذيب الاسلوب القوطي كتلة الحجر في كاتدرائياتنا الى ثروة شبحية من الاشكال والخطوط التي اطرحت كل ثقل عن عواتقها فهي لا تعترف بأي حد أو محدودية .

إن التأكيد المتزايد طرداً لمذهب تعـدد الآلهة الكلاسيكي على الافراد الشخصي الجسماني للألوهية واضح بصورة خاصة موقف هذا المذهب من « الآلهة الغريبة » عنـه . فآلهة المصريين والفينيقيين والالمان كانوا في نظر الانسان الكلاسيكي آلهة حقيقية طالما هو قادر على تصورها أشكالاً واجساماً ، فالقول

مثلاً « لا توجد هناك » آلهة اخرى كهذه قول لا معنى له داخل شعوره بالعالم . وكان الكلاسيكي عندما تقوده خطاه ، أو يتعامل وبلدان هذه الالهة فانه كان يقدم اليها فروض التبجيل والاحترام . فهذه الالهة كانت كائنات ما هو قريب ولم تكن كائنات الفراغ العام . وإذا ما حدث أن فرداً كلاسيكياً قـــد اغترب في بابل مثلاً وكان زفس وأبولو بعيدين عنه بعداً نائياً ، فان بعد هذين هو السبب كل السبب لكي يقوم هذا الفرد بتقديم تبجيل خاص للالهة المحلية . وهـذا هو المعنى الكامل وراء تكريس المذابح في الهياكل « للالهة المجهولة » ، كتلك المذابح التي أساء فهمها بولس الرسول في اثينـا اساءة ذات مغزى نبعت من مفهومه المجوسي الموحد ، ولقد كانت هذه الالهة غير معروفة بالاسم من قبـــل الفرد اليوناني ، لكن الاغراب من سكان الموانىء الكبرى (بيريوس كورنتيا وغيرهما) كانوا يعبدونها ، ولذلك كانت تستحق الاحترام المتوجب لها من الفرد اليوناني ولقـــد عبرت روما بوضوح وجلاء عن هذا الأمر بالقانون الديني الذي اشترعتـــه ، وبواسطة صياغة حذرة متحفظة مثـلاً قوله : (generalis Invecatio) « الابتهال العام ». فلما كان الكون هو مجموع الاشيـاء ، وكانت الالهة هي اشياء ، لذلك يتوجب الاعتراف حتى بهذه الالهة التي لم يرتبط بها الروماني بعد بأي رابط عملي او تاريخي . فهو لا يعرفها ، أو أنه يعرفها بوصفها آلهة اعدائه ، لكنها آلهة ، ومن المستحيل عليه أن يرى فيها خلاف هذا الرأي . وهذا هو معنى شبه الجملة المقدسة الواردة في 9,6, VIII و livy والقائلة potestas nostrorum hostiumque di quibus est .

إن الشعب الروماني يعترف بأن دائرة آلهته هي دائرة محددة تحديداً بدهيـاً فقط ، فهو بعد ان يتلو اسماء هذه الالهة اسماً اسماً ينهي الصلاة على وجـــه يجنبه الاعتداء على حقوق الآلهة الأخرى . ولقد كان القانون الروماني الديني ينص على أن ضم بلد اجنبي يعني ايضاً ضم جميع الواجبات الدينية المتعلقة بهذا البلد الى مدينة روما ، وهذا طبعاً ناشىء عن الشعور الكلاسيكي بجواز اضافة الآلهة . ولم يكن

الاعتراف بلاهوت ما يعني قبول طقوس مذهبه وأشكاله ، وهكذا فان أم بسينوس العظيمة قد استقبلت في الحرب اليونانية الثانية ، في روما على الشكل الذي أمرت به العرّافة ، لكن الكهنة الذين دخلوا روما بمذهبها ، هذا المذهب الذي كان في مظهره بعيداً كل البعد عن الكلاسيكية ، كانوا يمارسون طقوسه تحت رقابة بوليسية شديدة ، ولم يكن القانون يحرم تحت طائلة العقاب الشديد على المواطنين الرومان فقط ، بل على عبدهم ايضاً الانتساب الى سلك الكهنوت هذا ، فاستقبال الإلهة (أم بسنيوس) قد ارضى الشعور الكلاسيكي بالعالم ، لكن اقامة شعائرها كان لا شك سيؤذيه . ولقد كان موقف مجلس الشيوخ من مثل هذه القضايا أمراً لا لبس فيه أو غموض ، بالرغم من ان الشعب بما كان يتدفق عليه بصورة متزايدة من خليط من العناصر الشرقية ، كان يشعر بميل ورغبة في مذاهب كهذه ، ولقد اصبح الجيش في روما الامبراطورية، نظراً لشرقية العناصر التي كان يتألف منها ، المركبة (لا بل حتى المركبة الرئيسية) للشعور المجوسي بالعالم .

وهذا مما يسهل علينا فهم كيف أن مذهب الناس المؤلهين يمكن أن يصبح عنصراً ضرورياً في العالم الديني لهذا الشكل. ولكن علينا هنا أن نميز بين الظاهرات الكلاسيكية والظاهرات الشرقية التي تجمع بينها مشابهة سطحية. فعبادة الامبراطور الرومانية (وأعني بذلك تبجيل « عبقرية» الأمراء الأحياء وعبقرية أسلافهم الموتى بوصف هذا التبجيل Divi « تقديس ») قد خلط حتى الآن بينها وبين التبجيل الطقوسي للحاكم ، هذا التبجيل الذي كان عادة مألوفة في آسيا الصغرى (وخاصة في بلاد فارس) كما وخلط بينها وبين تأليه الخليفة ذي المعنى المختلف والذي يرى مجرى التشكل الكامل لهذا التأليه في شخصي ديولكتسيان وقسطنطين . والحق أن هذه الامور لا تتشابه أبداً . ومهما بدا تمازج هذه الاشكال الرمزية وثيقاً في شرقي الامبراطورية ، أو في روما نفسها ، فان النموذج الكلاسيكي (لعبادة الامبراطور) قد تحقق بصراحة ووضوح ودون ما افساد او غش . وقبل هذا

بزمان طويل كان هناك بعض ، من اليونان (كسفوكليس)وليساندر وخاصة الاسكندر) لا يهتف لهم متملقوهم كالهةوحسب ، بل انما كان يحس بهم الشعب على أنهم حقاً آلهة بما لهذه الكلمة من معنى كامل . والحق أنها لخطوة واحدة هي المسافة التي تفصل بين تأليه الشيء (كالايكة أو النبع أو ،في أقصى حد ،التمثال الذي يمثل الهاً) وبين تأليه انسان بارز الذي أصبح أولا بطلا ومن ثم الهاً . وفي هذه الحال، كما في بقية الأحوال الأخرى ، انما كان يبجل الشكل الكامل الذي حقق فيه اللا الهي ، مادة العالم،وكان القنصل في روما يلبس يوم الاحتفال بانتصاره درع جوبيتر كابيتولينوس ، وكان في الازمنة المبكرة يصبغ حتى وجهه وسلاحه باللون الاحمر كي يزيد في مشابهته للون الطين المحروق الذيصنع منه تمثال الاله الذي يتجسد القنصل روحه مدة الاحتفالفقط .

-١٠-

وخلال الاجيال الأولى من العهد الأمبراطوري أخذ مذهب تعدد الالهةيذوب تدريجياً في مذهب التوحيد المجوسي ، لكن ذوبانه هذا كثيراً ما حفظ له ظاهرية شعائره واسطورته . ففي خلال هذه الفترة خرجت نفس جديدةالى ميدانالوجود وعاشت الأشكال القديمة بصيغة جديدة . فالأسماء بقيت لكنها أسماء تدل على أرواح مهيمنة أخرى . (Numina) فلم يعد الناس يشعرون في كل المذاهب

الكلاسيكية المتأخرة زمنـاً ، كمذاهب ازيس وسيبل[1] وسول[2] ومثراس وسيرابيس[3] ، بالاله ككائن خص بمكان لا يتعداه وقابل للتشكيل .

ففي الأيام القديمة كان هرمز بروبيلوس Prupelaeus يعبد عند مدخل الاكروبول في أثينا ، بينما على بعد عدة ياردات من المدخل ، وفي النقطة التي بني عليها فيما بعد اريشتيم Erecht eum ، كان يقع مكان عبادة هرمز بوصفه بعلاً لأغلور (Aglaure) . وفي الطرف الجنوبي من الكابيتول الروماني ، وقريباً من محراب جوبيترفيريتريوس Feretr us (هذا المحراب الذي لم يكن يحتوي على تمثال لجوبتر بل انمـــا على حجر مقدس . سيلكس Silex) كان يقع محراب جوبتر او بتيموس مكسيمـــوس ، وعندما قام اوغسطس بتخطيط هيكل عظيم ضخم لهذا الأخير ، حرص كل الحرص على تجنب الارض التي تلتصق بها الروح المهيمنة numen ، بالرغم من أن اشيـــاع مذهب معين قد يؤمنون بانهم يعرفون بصورة خاصة الروح المهيمـــن في شكله الصحيح . ولهذا فان ازيس كان يمكن أن يقال عنها أنها هي الالهة ذات « المليون اسم » ، فالأسماء التي كانت حتى الآن تسميات لالهة بالغة العدد يختلف الواحد منها عن الآخر جسماً ومكاناً أصبحت الان ألقاب الاله الواحد الذي يصوره كل انسان لنفسه .

ان مذهب التوحيد المجوسي يكشف عن ذاتـه من الشرق وأغرق بسيوله الامبراطورية ، فهنا نرى ازيس الاسكندرية واله الشمس الأثير لدى اورليـان (وهو بعل تدمر) ومتراس الذي شمله ديولكتسيان بحمايته ، (ومتراس هذا قد بدل شكله الفارسي تبديلاً كامـــلا في سوريا) وبعلة قرطاجـــة تانيت ،

---

١ ـ سيبل : الالهة العظمى للطبيعة في الأناضول .

٢ ـ سول : إله الشمس .

٣ ـ سيرابيس : إله ذو أصل مصري يوناني روماني ويتمتع بصفات آبيس واوزيريس Osiris

ـ المترجم ـ

وداكلستيس Dea Caelestus التي اكرمها سبتيموس سيفيروس . لكن استيراد هذه الاشكال لم يعد يزيد في عدد الالهة الجامدة كما كان يحدث في الازمنة الكلاسيكية بل على العكس من ذلك ، فهذه الاشكال المستوردة من الالهة قد أخذت تمتص الالهة القديمة ، وكان امتصاصها لها يجري وفق اسلوب يحرمها اكثر فاكثر من الشكل القابل للتصوير . فالأحمي أخذت تحل محل السكونية ، والصور بدأت تفسح يوماً بعد آخر الطريق أمام الرموز (كالنور ، الحمل ، السمكة ، المثلث ، الصليب) واندفعت هذه الرموز الى الطليعة . وفي جملة قسطنطين التالية :

in hoc Signo vinces نادراً ما يتردد أي صدى كلاسيكي ، فهنا أخذت ريح الكراهية تعصف بتمثيل الانسان تمثيلا حسياً ، وقد انتهت هذه الكراهية الى تحريم الاسلام والبزنطية للصور .

وحتى عهد تراجان Trajan ، وهذا العهد ، أعقب استئصال آخر جذر من جذور الشعور الابولوني بالعالم من تربة اليونان بزمن طويل ، بل كانت عبادة الدولة الرومانية تمتلك من القوة ما يكفيها للتشبث بالنازع اليوقليدي ، ولزيادة عدد كراهيتها . فلقد خصصت لالهة البلدان الخاضعة للرومان أماكن معترف بها لعبادتها ، وكان لهذه الآلهة كهنوتها وشعائرها ، وكانت تنخرط في سلك الالهة القديمة بوصفها افراداً معينين تعييناً واضحاً كاملا . ولكن من هنا انطلقت الروح المجوسية لتكتسب مزيداً من الارض حتى في روما وذلك بالرغم من مقاومة شريفة تركزت حول عدد قليل من أقدم عائلات النبلاء. فلقد تلاشت اشكال الاله بوصفها أجساماً من أذهان الناس كي تفسح الطريق أمام شعور بالله متسام ، شعور لم يعد يعتمد البرهية الحسية ، وهكذا ذابت الاعراف والمهرجانات بعضها في بعض . وفي ٢١٧ عندما وضع كاراكالا نهاية للتمييز القانوني المقدس بين اللواهيت الرومانية وبين اللواهيت الغربية ، وعندما امتصت ازيس كل ما تقدمها من أرواح أنثوية مهيمنة (munina) ، واصبحت فعلا وواقعاً الالهة الاولى لروما(وبهذا أمست آخر منافسي المسيحية وأكثر الاهداف عرضة لكراهية

الاباء) عندئذ أصبحت قطعة من الشرق وأبرشية من أبرشيات سوريا . ثم أخذت بعول دوليتش Dolıche والبتراء وتدمر وإديسا (الرها) تذوب في مذهب التوحيد لسول الذي غدا وبقي (حتى سقط ممثله أمام قسطنطين) إله الامبراطورية . وبهذا لم تعد الان القضية محصورة بين الكلاسيكية والمجوسة (فخطر الالهة القديمة على المسيحية غدا طفيفا الى حد كان باستطاعة المسيحية معه أن تضفي على هذه الالهة نوعاً من عطف) بل انما أصبحت تتعلق باي من الاديان المجوسية هو الذي يجب أن يـلي الشكل الديني على عالم الأمبراطورية الكلاسيكية ؟ فمن الممكن مشاهدة مظاهر انحطاط الشعور التشكيلي القديم بجلاء ووضوح وذلك من خلال المراحل التي مرت بها عبادة الأمبراطور (فكان اولاً يدخل الأمبراطور المتوفي مملكة الالهة بواسطـة قرار يتخذه مجلس الشيوخ (ديفوس يوليوس ٤٢ ق.م) ، ويزود بكهنوت ثم تنزع صورته من بين صور اسلافه لذين كانت تقام لهم مجرد احتفالات عائلية ، ومن ثم ابتداء من عهد مار كوس اوريل فما بعد لم يعد تخصص للاباطرة المؤلهين كهنة ليقوموا على خدمته (وهذا ما معناه أنه لن تقام لهم هيا كل) وذلك لان العاطفة الدينية قد اكتفت الان بهيكل الالهة العام ، وأخيراً الاكتفاء فقط باللقب « ديفوس » الذي كان يستعمل كمجرد لقب لاعضاء العـائلة الأمبراطورية .) ان نهاية تطور عبـادة الأمبراطور تشير الى ظفر الشعور المجوسي . وهكذا نجـد أن الاسماء العديـدة في السجلات (كازيس - ماجنا ، ماتر - جونو - عشتروت بيللونا ، أو سول اومتراس ، انفكتوس هليوس) غدت تعني القاباً لرأس إله واحد أحد .

-١١-

إن الالحاد هو موضوع نادراً ما اعتبره حتى الان العالم النفساني او طالب اللاهوت موضوعاً جيداً بالبحث والتحري العميقين . فلقد كتب عنه الكثير ودارت حوله مجادلات ومناقشات عديدة ، وكان ابطال تلك الكتابات وهذه المجادلات والمناقشات ، بكل صراحة، شهداء الفكر الحر من جهة ومتزمتو الدين من جهة أخرى . ولكن لم يكن عند أي واحد من هذين الطرفين ما يقوله عن انواع الالحاد وأجناسه ، أو أنه لم يقم حتى الان أي انسان بمعالجته معالجة تحليلية بوصفه ظاهرة فردية ومعينة وايجابية ضرورية وكثيفة في رمزيتها ، أو أنه تحقق كيف أنه محدد بالزمن فهل الالحاد هو بداهة دستور وعي عالم معين ، أو أنه تعبير اختياري لذات ؟ هل يولد الفرد معه أم هل يرتد اليه ؟ وهل أن الشعور اللاواعي بان الكون قد أصبح بدون اله يجلب معه الوعي بأنه قد أصبح على هذه الحال ، والتحقق من أن « بانPan العظيم هو ميت » ؟ وهل هناك ملحدون مبكرون في العصرين الدوري والغوطي مثلاً ؟وهل هناك حالات من أناس يصرون على وصف انفسهم بالملحدين ، في الوقت الذي هم ليسوا بملحدين إطلاقاً ؟ ومن جهة أخرى هل هناك من أناس متمدنين هم ليسوا ملحدين جزئياً ؟ وليس هناك من جدل فكلمة الالحاد في كل اللغات تعني أن الالحاد هو في جوهره نفي وانكار ، وتعني تنازل فكرة روحية عن سلطانها ، ولذلك فانها تعني التنازل عن افضلية فكرة كهذه ، وتعني أنها ليست العمل الابداعي لقوة تكوينية لم تعطل أو يلحق بها أي ضرر ، ولكن ما هو ذاك الذي تجحده ؟ وبأية طريقة ؟ ومن هو الجاحد ؟ ان الالحاد كما يفهم على حقيقته هو التعبير الضروري لروحانية

انجزت نفسها واستنزفت امكاناتها الدينية، إنها روحانية تنحدر وتنحط الى اللامتعضي. وهكذا فان الالحاد يتفق تماماً والرغبة التواقة الى التدين الحقيقي ،) وهو بهذا يماثل الرومانطيقية ،التي هي كالحاد تستذكر ما لا يعود ، أي الحضارة) وقد يكون الالحاد تماماً داخل انسان بوصفه مخلوقاً لشعوره دون أن يعيه ، ودون حتى أن يتدخل في عادات فكره أو يتحدى معتقداته . وباستطاعتنا أن نفهم هذا اذا قدرنا أن نرى ذاك الذي جعل «هايدن» التقي الورع ينعت بيتهوفن بالملحد بعد سماعه بعضاً من موسيقاه . ان الالحاد لا يأتي مع مساء الحضارة ، بل انما يحل مع فجر المدنية . والالحاد ينتمي الى المدينة الكبرى ، الى «الانسان المثقف» من ابناء المدينة الكبرى ، هذا الذي يكتسب ميكانيكياً ما عاشه عضوياً اسلافه مبدعو الحضارة. أما فيما يتعلق بالشعور الكلاسيكي بالله فـــان ارسطوطاليس هو ملحد دون أن يدري ، كما وان الرواقية الهيلينية الرومانية هي ملحدة كالاشتراكية الغربية والبوذية العصرية ، الهندية ، بالرغم من أنها قد يمكن وتستعمل «كلمة» الله بخشوع واحترام .

ولكن اذا كان هذا الشكل المتأخر زمناً للشعور بالعـــالم وصورته التي هي مستهل «تديننا الثاني» هو انكار كوني لما هو ديني في باطننا ، فان تركيبه يختلف في كل مدينة عن تركيبه في اية مدينة أخرى . فليس هناك من أي تدين دون ان يكون له نقيض الحادي ينتمي اليه بصورة خاصة ويوجه ضده عـــلى التخصيص . فالناس يتابعون اختبار العالم الظاهري الذي يمتد حولهم بوصفه خاصة ويوجه ضده على وجه التخصيص. فالناس يتابعون اختبار العالم الظاهري الذي يمتد حولهم بوصفه إما كونا يتألف من أجسام حسنة الانتظام ، أو كهف عالم أو فراغاً فعـالاً ، كما قد تكون الحال ، ولكنهم لا يعودون يختبرون السببية (العلية) المقـــدسة فيه اختباراً حياً . فهم يتعلمون فقط كيف يعرفونها فقط في شكل سببية دنيوية ، أو يرغبون في أن تكون حصراً سببية ميكانيكية ، وهناك انواع من الالحاد، كالالحاد الكلاسيكي والعربي والغربي ، وكل نوع من هذه يختلف اختلافاً تاماً عن الاخر

معنى ومادة . ولقد صاغ نيتشه الالحاد الديناميكي على أساس « ان الله قد مات أما الفيلسوف الكلاسيكي فانه كان يعبر عن الالحاد السكوني اليوقليدي بقوله:

« إن الالهة التي تقطن في الأماكن المقدسة قد ماتت » ، فالاول يشير الى أن الفراغ اللامحدود قد أصبح بلا اله ، والثاني يفيد بان الاجسام التي لا يحصيها العدد قد أمست دون اله . ولكن الفراغ الميت والاشياء الميتة هي «حقائق» الفيزياء ، والملحد لا يستطيع أن يختبر أي فرق بين صورة الفيزياء للطبيعة وبين صورة الدين لها . ان اللغة ذات الاحساس المرهف قادرة على التمييز بين الحكمة وبين الذكاء ، بين أحوال النفس المبكرة وبين أحوالها المتأخرة زمناً ، بين أوضاعها الريفية وبين أوضاعها المدنية التابعة من المدينة العالمية الكبرى . ان لكلمـــة الذكاء جرساً الحادياً . وليس هناك من انسان يستطيع ان ينعت هرقليطس أو المعلم ايكارت بالذكاء ، لكن سقراط و «روسو» كانا ذكيين ولم يكونا حكيمين . ففي كلمة الذكاء شيء ما دون جذور ان الافتقار الى الذكاء هو محط احتقار فقط من وجهة نظر الرواقي والاشتراكي والرجل النموذجي في لا تدينه .

ان ما هو روحي هو في كل حضارة ديني ، وله دين أوعى هـذا الامر أم لم يعه. فكونه موجوداً وصائراً ومتطوراً ومتحمساً لنفسه فهذا هو دينه ، (أي ما هو روحي -- المترجم). فليس مباحاً للروحانية كي تصبح لا دين لها ، وهي على حد تستطيع فقط أن تتلاعب بالفكرة اللادينية كما تلاعب بها الفـــاورنسيون المديتشيون لكن ابن المدينة العالمية هو لا ديني ، وهذا يشكل جزءاً من كينونته وطابعاً لموقعه التاريخي . ومهما بلغ شعوره بالفقر والخواء الباطنيـين من المرارة ، ومهما تاق وحن جاداً الى صيرورته متديناً ، فانه لن يستطيع الى تحقيق هــــذا الغرض سبيلاً ، لانه يقع خارج متناول قواه . ان كل التدين في المدينة العالميـة الكبرى megalopolis يرتكز الى خداع الذات . ان درجة الورع التي تستطيعها احدى المراحل التاريخية تكشف عن نفسها في موقف مثل هذه المرحلة من مبدأ التسامح . فـالانسان يتسامح اما لأن لغة الشكل تبدو كأنها تعبر عن شيء

ما يحسه هذا الانسان في خبرته المعاشة على أنه مقدس ، أو لأن هذه الخبرة لم تعد تحتوي على أي شيء يحس به على ما ذكرت .

إننا ما دعوناه نحن أبناء العصرية «بالتسامح» هو في العالم الكلاسيكي تعبير عن نقيض الالحاد . فوفرة الأرواح المهيمنة (Numina) والمذاهب هي أمر فطري ملازم لمفهوم الدين الكلاسيكي ، ولم يكن التسامح ، بل الورع هو الذي أضفى الشرعية على تلك الأرواح وهذه المذاهب جميعاً . والعكس فان أي انسان كلاسيكي كان يطالب باستثناء هذا الإله أو ذاك من الشرعية كان يعتبر فعلاً انساناً لا إله له . فالمسيحيون واليهود كانوا يعتبرون ، ويعتبرون بالضرورة ، ملحدين في نظر أي انسان تتألف صورته للعالم من مجاميع من أجسام افرادية ، وعندما لم يعد هؤلاء يُرون على هذا الضوء في الأزمنة الامبراطورية بلغ الشعور الكلاسيكي الديني نهايته . ومن جهة أخرى فان الاحترام لشكل المذهب المحلي مهما كان هذا المذهب كان أمراً واجباً محتوماً وذلك لأن صور الالهة وتقديم القرابين لها والاحتفالات بأعيادها هي جميعاً أعمال مترقبة دائماً ، وكان سرعان ما يعرف أي انسان يسخر أو ينتهك حرمة الالهة حدود التسامح الكلاسيكي ، ولنتأمل في المهزلة التي وقعت في أثينا ودارت حول تشويه هرمي Hermae [١] وفي المحاكمات التي جرت بسبب تدنيس الأسرار الدينية الأليوسينية Eleusinian ، وأعني أن هذه جميعاً استهدفت معاقبة القلب الكافر للعنصر الحسي من جاد الى هازل . لكن بالنسبة الى النفس الفاوستية فان المذهب (Dogma) لا النظام الديني المنظور هو الذي يشكل الجوهر (وهنا ايضاً نشاهد التعارض القائم بين الفراغ والجسم ، بين الغزو الاجتياحي

---

١ – Hermae : عمود حجري محاط برؤوس هرمز .

(المترجم)

والقبول بالتواجد) . فما يعتبر كفراً فانما هو ما يتعارض والمذاهب ، ومن هنا يبدأ المفهوم الروحي الفراغي للهرطقة. فالدين الفاوستي في جوهر طبيعته لا يستطيع أن يسمح بأية حرية ضمير ، فسماحه بمثل هذه الحرية يجعله متناقضاً وديناميكيته الاجتياحية الفراغية، وحتى التفكير الحر نفسه لا يستثنى من هذه القاعدة، فعقب أن عانى الاعدام على الخازوق ، اعدم على المقصلة ، وعقب احراق نتاجه من الكتب حرم عليه الانتاج. وبعد أن كنا نشهد القوة منطلقة من المنبر، أخذنا نراها تنطلق من الصحافة .

ولا يوجد بيننا نحن معشر الغربيين أي ايمان دون أن يستند مثل هذا الايمان الى نوع من أنواع محاكم التفتيش واجراءاتها . ونحن اذا ما عبرنا عن الدين الفاوستي بصيغة الكترو ديناميكية مناسبة نقول : ان حقل قوة الايمان يصلح جميع العقول داخله وفق كثافته الخاصة أما الفشل في القيام بما ذكرت فانما لا يعني سوى غياب الايمان ، وهذا ما معناه باللغة الأكليريكية اللا إله .

أما بالنسبة الى النفس الابولونية فان الحال هي على عكس ما ذكرت ، إذ أن هذه النفس ترى في احتقار المذهب (بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة) هو عمل انكاري للإله ، وهنا كان دينها لا يسمح بحرية الموقف . وفي كلتا الحالتين من فاوستية وابولونية ، يوجد خط يفصل بين التسامح الذي يستوجبه الشعور بالاله وبين ذاك التسامح الذي يحرمه .

والآن فاننا نشاهد ان تأمل الفلسفة الرواقية الصوفية خلال العصور الكلاسيكية المتأخرة زمناً ، (وهذا التأمل يختلف عن النزعة الرواقية العامة) كان يتعارض والشعور الديني ، ولهذا فاننا نجد سكان اثينا (اثينا هذه التي كانت باستطاعتها ان تبني المعابد للالهة المجهولة) ينزلون اشد صنوف التعذيب والاضطهاد بمن يشذ عن مذهبهم شأنهم في ذلك شأن محاكم التفتيش الاسبانية . وتكفينا فقط مراجعة القائمة باسماء المفكرين الكلاسيكيين والشخصيات التاريخية الذين ضحوا على مذبح صحة المذهب وطهارته . فسقراط ودياغوراس (Diagoras) قد أعدما

بتهمة افساد الشباب ، ولم يجـــد انكساغوراس وبروتاغوراس وارسطوطاليس والسبيادس في غير الفرار أمناً وسلامة. وقد بلغ في اثينا وحدها، وخلال عشرات السنوات القليلة من الحرب البلوبونيزية ، عدد من أعدموا بتهمـة الكفر بالمذهب بالمئات . وعقب إدانة بروتاغوراس جرى تفتيش المنازل منزلاً منزلاً لجمع مؤلفاته واحراقهـا .

وفي روما بدأت الأعمال من هـذا النوع عام ١٨٢ قبل المسيح وذلك عندمـا أصدر مجلس الشيوخ قراراً يقضي باحراق « كتب النوما » الفيتاغورية في الساحة العامة . وقد اعقبت هذا الاجراء سلسلة متواصلة الحلقات من ابعاد ونفي للفلاسفة والمدارس الفلسفية الكاملة ، ومن ثم تبعت النفي الاعدامات واحراق الكتب في الساحات العامة بوصفها كتباً هدامة تتعارض والدين . وحدث مثلاً في عهد قيصر وحده أن دمرت بأمر القنـاصل أماكن عبادة أزيس مرات خمساً ، كما وأن تيبريوس أمر برمي صورتها في نهر التيبر . واعتبر رفض تقديم القرابين أمامصورة الامبراطور جرماً جزائياً . لقد كانت كل هذه الاعمال اجراءات ضد « الالحاد » بما لهذه الكلمة من معنى في المفهوم الكلاسيكي ، وقد تجلى هـذا الالحاد في احتقار نظري علمي أو عملي أو بصري للمذهب . ونحن اذا لم نستطع أن نبعد شعورنا الغربي ونعطل فعاليـاته حـــين دراستنا لمثل هذه القضايا فعندئذ لن نقدر أبداً على النفوذ الى جوهر صورة العـالم التي تكمن وراء الموقف الكلاسيكي من هـــذه القضـايا . لقـد كانت الحرية في العـالم الكلاسيكي مطلقة للشعراء والفلاسفة في أن يغزلوا الخرافات ويحولوا اشكال الإله كما يريدون ويرغبون ، وكان مباحاً لكل انسان ان يترجم المعلومات والتفاصيل ترجمة حسية. وكانوا يسمحون بالسخرية من تواريخ الالهة وجعلها درامات هجائية أو كوميديات وحتى هذه لم تحرك وجودهم التقليدي . أما تمثال الاله ، المذهب ، التجسيـــد العام للورع ، فانه لم يكن يسمح لاي انسان بان يمسه من بعيد أو قريب .والحق

أنه لم يكن الرياء أو النفاق هو الذي دفع أحسن العقول واضخمها في عهود الامبراطورية المبكرة زمناً ، هذه العقول التي لم تعد تنظر نظرة جدية الى الأسطورة من أي نوع كانت ، الى اقامة شعائر المذاهب العامة بكل دقة وأمانة وخاصة القيام بفروض مذهب عبادة الأمبراطور ، هذا المذهب العميق في حقيقته بالنسبة الى جميع الطبقات . ومن جهة اخرى كان الشعراء والمفكرون في عصور الحضارة الفاوستية الناضجة أحراراً في « ألا يذهبوا الى الكنيسة » وفي تجنب الاعتراف ، وفي البقاء في منازلهم خلال أيام المرافع وأن يعيشوا (في المحيط البروتستنتي) دون أن تكون لهم اية علاقة مهما كان نوعها بالكنيسة ، لكنهم لم يكونوا أحراراً في مس نقاط المذهب ، فمثل هذا العمل كان لا شك سيكون خطراً على أي اعتراف أو أية شيعة بما في ذلك ، وأقولها ثانية وصراحة ، خطراً على الفكر الحر نفسه .

ان للرواقي الروماني ، الذي راعى ، دون ايمان منه بما هو ديني اسطورياً ، الاشكال المذهبية ، نسخة طبق الأصل عنه في عصر التنوير ، تتمثل مثلاً في لسنج وغوتيه اللذين لم يراعيا طقوس الكنيسة وسننها ، لكنهما لم يشكا أبداً في « حقائق الايمان الجوهرية »

-١٢-

إذا ما التفتنا خلفنا من صير الشعور بالطبيعة شكلاً الى صير المعرفة بالطبيعة منهاجاً عندئذ نعرف بأن الله أو الآلهة على أنه أصل الصور التي يسعى الذهن بواسطتها الى جعل ما حوله من العالم مفهوماً ومدركاً بالنسبة اليه ، وقد نبه مرة غوتيه ريمر قائلاً :

« إن العقل قديم قدم العالم،فحتى الطفل لهعقل ، لكن العقل لا يطبق في كل الازمنة بالطريقة ذاتها أو على الاهداف والمواضيع ذاتها . فالقرون الابكر كانت تمتلك (فِكَرها) كوهميات للتخيل ، لكن قروننا تدفع بها لتصبح تصورات وآراء ، فالنظرات العظمى الى الحياة قد ادخلت في اشكال ، في آلهة ، أما الآن فانها تدخل في تصورات وآراء . لقد كانت القوة الانتاجية يومذاك أشد وأضخم، لكنها اليوم هي قوة تدميرية أو انها فن الفصل والعزل » .

ان ميكانيكا نيوتن الشديدة في تدينها وصيغ الديناميكا الكاملة في الحاذها تقريباً يتشابهان لوناً ، فهما السالب والموجب للشعور الاولي نفسه . فللمنهاج الفيزيائي بالضرورة جميع خصائص النفس التي ينتمي اليها عالم شكلها . فالتوحيد الباروكي Deism [1] ينتمي الى ديناميكاه وهندسته التحليلية ، أما مبادئه الثلاثة الاساسية : الله ، الحرية ، والخلود ، فهي في لغة الميكانيكا مبدأ القصور الذاتي (لغاليليو) ومبدأ الفعل الاقل least action (دالمبرت) ومبدأ حفظ الطاقة (ج. ر. ماير) .

إن ما نسميه اليوم بصورة عامة بالفيزياء فانما هو عمل بدائي قام به العصر الباروكي . ولا شك ان القارىء لن يحس بعد ان بلغنا هذه المرحلة من الكتاب ، بأن هناك تعارضاً حينما نربط صيغة العرض التي ترتكز على افتراض قوى بعيدة والفكرة (الكاملة في لا كلاسيكيتها والتي قد توصف بأي نعت ما عدا السذاجة) القائلة بالفعل على بعد (Action at a distance) ، وتجاذب الكتل وتنافرها ربطاً خاصاً بالاسلوب اليسوعي في الهندسة المعمارية التي اسسها فيغنولا ، وان ندعو فيزياءنا اليوم وفق ما أوردناه بالاسلوب اليسوعي الفيزياء . كما وانني سأدعو بالمثل حساب التفاضل والتكامل اللامتناهي في الصغر ، والذي اندفع

---

١ – Deism : الأعتقاد بالله وحده وانكار الوحي والأنظمة الدينية .

(المترجم)

بالضرورة الى الوجود تماماً حينما واينما وجـد ، بالاسلوب اليسوعي في الرياضيات . موفق هذا الاسلوب فان الفرضية العملية الفعالة التي تعمق تقنية العمل المختبري هي فرضية « صحيحة » ، وذلك لأنه كان شغل ليولا الشاغل ، كشغل نيوتن تماماً ، هو منهاج (Method) الطبيعة لا وصفها .

ان الفيزياء الغربية في شكلها الباطني هي فيزياء مذهبية ـ دغماتية ، لا فـيزياء طقوسية . فمحتواها هو مذهب « Dogma القوة ، بوصفه مذهباً ينطبق تماماً على الفراغ والبعـد ونظرية الفعل الميكانيكي (كنظرية مضادة للموقف الميكانيكي الكلاسيكي) في الفراغ . ونتيجة لهذا فان نازعه هو نازع ملحـاح على التغلب على ما هو ظاهري . فهو يبتدىء بتصنيف الفيزياء تصنيفاً ابولونياً حسياً تماماً الى فيزياء عين (البصريات) وأذن (السمعيات) وحس جلد (الحرارة) ، لكنه سرعان ما يأخذ بالاستئصال التدريجي لجميع الانطبـاعات الحسية ويحل محلها منـاهج تجريدية من علاقات ، وهكذا فان الحرارة المشعة تصنف اليوم ،نظراً لتأثير الفكر المتعلقة بالحركة الديناميكيـة في الاثير ، في باب «البصريات»وهذه كلمة لم تعد لها أية علاقة بالعين .

ان «القوة» هي كمية اسطورية ، وهي لا تنشأ من عمل علمي مختبري ، بل على العكس ، فانها تحدد بداهة تركيب العمل المختبري . فالمفهوم الفاوستي للطبيعة هو وحده الذي بدلا من أن يفكر بالمغنطيس يفكر بالمغنطيسية التي يشتمـل حقـل قوتها على قطعة من حديد ، وبدلا من أن يفكر بالاجسام المشعة، يفكر بالحرارة المشعة وبتلك المشخصات « كالكهرباء » وحال الحرارة Temperature والاشعاع

أما كون هذه «الطاقة» هي حقاً روح مهيمنة numen قد تحجرت في مفهوم (وانها ليست في اية حال نتيجة للخبرة العلمية) ، فهذا أمر توضحه تلك الحقيقةالتي كثـيراً ما غض النظر عنها ، والقائلة بان المبدأ المناسب المعروف بوصفه القـانون الاول للترموديناميكا (علم الحركة الحرارية ـ المترجم) لا يحدثنا بأي شيء مهما كان نوعه عن طبيعة الطاقة ، وبالمناسبة فانه يتحدث الينا عن افتراض غير صحيـح

(مع أنه عظيم الاهمية سيكولوجيا) حيث يقول بان فكرة « حفظ الطاقة » هي فكرة ثابتة فيه . ان القياس الاختباري يستطيع في طبيعة الاشياء أن يقيم رقماً فقـط ، هذا الرقم قد دعوناه عملاً ، (وهذا لذو مغزى ايضـاً) . لكن القـالب الديناميكي لفكرنا طالب باعتبار هذا الرقم (العمل) هو فرق الطاقـة ، بالرغم من أن القيمة المطلقة للطاقة هي مجرد بدعة أو خرافة ولا نستطيـع أن نترجمهـا الى أي رقم . فهنا دائماً يبقى ، لهذا السبب ، شيء ثابت constant كما ندعوه ، وهو شيء غير معرف وإضافته ممكنة . وبكلمة أخرى فاننا نكدح دائماً كي نحافظ على صورة لطاقة شكلتها عيننا الباطنية بالرغم من عـدم اهتمام الممارسـة الواقعة بها .

ولما كان هذا هو أصل مفهوم القوة ، فعندئذ يستنتج أن قدرتنا على تعريفه لا تزيد عن قدرتنا على تعريف تينك الكلمتين اللاكلاسيكيتين : الارادة،والفراغ . فهنا تبقى دائماً فضلة محسوسة مدركة ادراكاً وجدانياً تجعـل كل تعريف شخصي مذهباً دينياً تقريباً لصاحب التعريف. ولقد كان لكل عالم باروكي في هذا الموضوع خبرته الباطنية الشخصية التي كان يحاول أن يكسوها بالكلمات . « فغوتيه » مثلاً لم يكن ليستطيـع تعريف فكرته عن قوة العالم ، لكن هذه القوة كانت يقيناً بالنسبة اليه . وقد سمى « كنت » القوة بظاهرة باطن في ذاتـه . Ent-in-itself وقال : « اننا نعرف الجوهر في الفراغ ، ونعرف الجسم بواسطة القوى فقط . » وقد سماها « لابلاس » بالمجهول الذي لا نعرف شيئاً عنه غير أعماله ، وتخيل نيوتن وجود قوى لا مادية في البعد . وتحدث ليبنتز عن القوة المعنويةللحياة Vis viva بوصفه وحدة اشعاع ذري Quantum التي تشكل والمادة الوحدة التي دعاها «بالموناد» وديكارت بالاضافة الى عدد معين من مفكري القرن الثامن عشر لم يكن بالمثـل يرغب في اقامـــة فروق أساسية بين الحركة والمحرك . ونحن نجـــد الى جانب Impetus , Virtus , Potentia ، حتى في الأزمنـــة الغوطية كلمات معقدة كـ Canatus و Nisus ، حيث يبـدو بوضوح أنه لم يفرق بين القوة والسبب

(العلة) المحرر . وباستطاعتنا فعلاً أن نفرق تفريقاً حسناً عاماً بين التصورات للقوة من كاثوليكية وبروتستنتية وملحدة . لكن سبنوزا بوصفه يهودياً وهو لذلك روحانيا عضو في الحضارة المجوسية لم يستطع أن يهضم أبداً المفهوم الفاوستي للقوة ، ولهذا لم يكن هناك من مكان لهذا المفهوم في منهاجه . وانه والحق البرهان مذهل تقدمه الينا القوة الخفية السرية بفكرة الجـــذر في شخص هينريش هرتس وهو اليهودي الوحيد بين عظماء علماء الفيزياء اليوم ، كان ايضــاً العالم الوحيد بينهم ، الذي حاول حل معضلة الميكانيكا بواسطة استئصال فكرة القوة .

ان مذهب القوة هو الموضوع الواحد والوحيد للفيزياء الفاوستية . أمـا ذاك الفرع من العلم الذي قرر تحت اسم السكونية من منهاج الى منهاج ومن قرن الى آخر فانه مجرد وهم . فالسكونية الحديثة تحتل المركز ذاته الذي يحتـــله « الحساب » و « الهندسة » اللذان هما ، إذا ما حافظنا على معنييهما الحرفيين الاصليين ، عاطلان من اي معنى في التحليل الحديث ، وهما « والسكونية الحديثة » أسماء فارغـــة خلفها لنا العلم الكلاسيكي وقد حافظت هذه على وجودها فقط بسبب احترامنـــا لكل ما هو كلاسيكي ،هذا الاحترام الذي يحول ، حتى الآن ، بيننا وبين التخلص منها ، أو حتى الاعتراف بضحالتها . فلا يوجد هناك سكونية غربية ، واعني بهذا انه لا توجد ترجمة للحقائق الميكانيكية تكون ترجمـــة طبيعية بالنسبة الى الروح الغربية حيث تذكر ذاتها على فكرات الشكل والجوهر ، أو حتى بالنسبة الى هذه القضية ، على فكرات الفراغ والكتلة ناهيك عن ارتباطها بفكرات الزمن والقوة هاتيك . وباستطاعة القارىء أن يختبر ما اوردته في أي فرع من فروع العلوم يشاء ويهوى . وحتى « حال الحرارة » Temperature التي لها من دون كل أحجامنـــا الفيزيائية ، اقرب وجوه الشبه سكونية كلاسيكية وسلبية ، كي تكون فانها تقع فقط في مكانها في منهاجنا عندما يؤتى بها الى داخل صورة القوة ، واعني صورة كمية الحرارة المشكلة من الحركات ما فوق السريعة Ultra Swift والغرارة وغير المنتظمة الذرات جسم من اجسام مع « حال الحرارة » بوصفها قوة الحياة Vis Viva الرئيسية لهذه الذرات .

لقد خيل الى عصر الانبعاث في مراحله المتأخرة زمنا أنه قـــد أحيا الفيزياء الارخميدية ، تماماً كما خيل إليه أنه استمرار للنحت الكلاسيكي ، ولكن هـذا العصر كان في كلتا الحالين يمهد الطريق أمام الاشكال البارونيـة ، وكان يقوم بهذا العمل مدفوعاً بالروح الغوطية ، والى هذه السكونية ينتمي موضوع الصورة كما هو باد في اعمال مانتغنا Mantegna وسيغنوريللي الذي اعتبرت الاجيال فيما بعد خطه وموقفه باردين متخشبين . فالديناميكا تبدأ بليوناردو ، وتبلغ حركة الاجسام المنتفخة في روبنز ذروتها .

وفي زمن متأخر يعود الى عام ١٦٢٩ تتجلى روح فيزياء عصر الانبعـــاث في نظرية المغنطيسية التي صاغها اليسوعي نيقولاس كابيو ، وقد فهمت هذه النظرية في قالب فكرة ارسطوطاليسية في العالم ، ولقد قدر لهذه النظرية مسبقاً ان تنتهي الى لا شيء (شأنها في ذلك شأن عمل بلاديو في الهندسة المعمارية) . ولم يكن مصيرها على هذا الشكل ناجماً عن كونها نظرية « خاطئة » ، بحد ذاتها ، لكنه انما يعود سببه الى كونهـا نظرية متعارضة والشعور الفاوستي بالطبيعة الذي حرر نفسه من الخيوط المجوسية الرئيسية على أيدي مفكري ومجائي القرن الرابع عشر ، وقـد اكتسب اشكالاً خاصة به للتعبير عن شعوره بمعرفة العـالم . لقد تجنب « كابيو » تصورات القوة والكتلة ، وحصر نفسه في المفاهيم الكلاسيكية للشكل والجوهر ، (وبكلمة اخرى ، ان « كابيو » عاد من آخر مراحل هندسة ميكالنغلو وفيغنولا المعمارية الى ميشيلوزو (Michelozzo) ورفائيل اما المنهاج الذي شكله كابيو فكان منهاجاً كاملاً وقائماً بذاته ، ولكنه مجرد من أية اهمية بالنسبة الى المستقبل . فمغنطيسيته تدرك على انها حال من اجسام افرادية ، وليس على انهـا قوة في فراغ غير محدود ، هي مغنطيسية لا تشبع رمزياً عين الانسان الفاوستي البـاطنية ولا ترضيها . فالذي نحتاج اليه انما هو نظرية البعيد ، وليست نظرية القريب .

لقد كانت مبادىء نيوتن الرياضية الميكانيكية تتطلب أن تصبح واضحـــة صريحة قاطعة باتة كديناميكا نقية مجردة كاملة ، وقـد كان ذاك اليسوعي الآخر بوسكوفيتش أول من حقق لمبادىء نيوتن مطلبها عام ١٧٥٨

وحتى غاليليو نفسه كان لا يزال متأثراً بنفوذ شعور عصر الانبعاث الذي كان تضاد القوة والكتلة ، هذا التضاد الذي قدر له أن ينتج في ميادين الهندسة المعمارية والتصوير الزيتي والموسيقى على حد سواء عنصر الحركة العظمى . أقول كان هـذا التضاد شيئاً ما غريباً وغير مريح بالنسبة الى غاليليو ، لذلك حد من فكرة القوة فجعلها قوة التماس (الصدمة) وصياغة لم تذهب الى أبعد من حفظ قوة الجسم المتحرك (Momentum) (كمية الحركة) . فلقد عض غاليليو بالنواجذ على المتحركية (Moved - ness) وقاتل خجلاً من أية عاطفة فراغ ، وقد ترك لليبنتز ان يطور (أولاً في سياق الجدل ومن ثم ايجابـــاً بواسطة استخدام اكتشافاته الرياضية) فكرة القوى الاتجـــاهية الأصيلة الحرة ، (القوة الحية Activum Thema) . عندئذ أفسحت فكرة حفظ قوة الجسم المتحرك الطريق امام فكرة حفظ القوى الحية ، كما افسح الرقم الكمي الطريق امام الرقم الوظائفي . زد على ذلك ان مفهوم الكتلة لم يصبح مفهوماً ثابتاً مقرراً إلا بعد شيء من الزمن اعقب هذا . فمكان هذا المفهوم لدى غاليليو وكبلر يشغله مفهوم الحجم (Volume) ، وكان نيوتن هو الذي ادركه على انه مفهوم وظائفي . (العالم كوظيفة لله) . فتلك الكتلة (التي تعرف الآن بأنها العلاقة الثابتة بين القوة والعجلة (Acceleration) بالنسبة الى منهاج من النقاط المادية) التي يجب ألا تكون لها أية علاقة مهما كان نوعهـا بالحجم كانت بالرغم من دليل الكواكب وبرهانها ، استنتاجاً لا يقبل به شعور عصر الانبعاث .

ولكن ، ومع هذا ، فان غاليليو قـد أرغم على البحث في اسباب الحركة وعللها . ولا شك أن مثل هـذا البحث في السكونية الأصيلة التي تتعامـــل فقط بتصورات ما هو مادي وشكل ، لن يكون له أي معنى اطلاقاً . وذلك لأن الحيز كان امراً تافهاً بالنسبة الى ارخميدس إذا مـا قورن بالشكل الذي كان هو جوهر كل وجود جسماني ، وذلك لأنه إذا ما كان الفراغ عدمـاً فأي شيء ذو أثر يمكن أن يوجد خارج الجسم المعين ؟ فالاشياء ليست وظائف حركة ، فهي نفسها تتحرك . ولقد كان نيوتن هو أول من تحرر من شعور عصر الانبعاث تحرراً كاملاً .

وصاغ فكرة القوى البعيدة ، تنافر الاجسام وتجاذبها عبر الفراغ نفسه. فالبعد بحد ذاته قد أمسى قوة . فمجرد فكرته هـــي تحرر من كل محتوى ادراك حسي الى درجة لم يرتح معها نيوتن نفسه اليه ، والحق أن فكرة البعد هي التي سيطرت عليه وليس هو الذي سيطر عليها . لقد كانت الروح الباروكية ذاتها، بما لها من انعطاف نحو الفراغ اللانهائي ، هي التي بعثت هذه الفكرة الكونتربونتيه واللاتشكيلية مظهراً وجوهراً . زد على ذلك أنه كان يوجد تناقض داخلها . وحتى الآن لم يقم أي انسان بتقديم تعريف يروي الغليل لهذه القوى على بعد Forces-at-a-distance ولم يفهم أحد ماهية القوة الطاردة على حقيقتها . وهـــل قوة الأرض الدائرة على محورها هي سبب حركتها أم العكس بالعكس ؟ أو هل كلاهما متساويان ينطبق أحدهما على الآخر ؟ وهل سبب كهذا يعتبر بمفرده قوة أو حركة اخرى؟ وما هو الفرق بين القوة والحركة ؟ ولنفترض أن التبدلات في النظـام الكوكبي هي من أعمال القوة الطاردة ، فاذا صح افتراضنا فعندئذ يجب أن يقذف بالاجسام خـارج طريقها قذفاً مماسياً (Tangentielly) ، ولكن لما كان الواقع يكذب هـــذا الافتراض ، فعندئذ يتوجب علينا أن نزعم بوجود قوة جذب مركزي ايضـــاً .
ولكن ما الذي تعنيه كل هذه الكلمات ؟ إن استحالة الوصول الى نظـام وصفاء في هذا الموضوع ، هي التي قادت هرتز الى اطراح فكرة القوة جملة وتفصيلاً، والى تقليص منهاج ميكانيكا «(بواسطة» زاعم شديدة التكلف والتصنع بوجود ازدواجيات بين المركز ومسرعات الحركة) الى مبدأ التماس (الصدمة ـ الزخم) ولكن هذا المبدأ يخفي فقط الحيرات ولا ينفيها ، هذه الحيرات ذات الطابع الأصيـــل في فاوستيته والتي تضرب جذورها عميقاً في جوهر الديناميكا . هل باستطاعتنا «التحدث عن قوى يعود الفضل في منبعها الى الحركة ؟ » طبعاً لا ، ولكن هـل بمقدورنا التخلص من تصورات أولية هي فطرية بالنسبة الى الروح الفاوستية لكنها غير قابلة للتعريف ؟ ان هرتز لم يقم بأية محاولة لتطبيق منهاجه تطبيقاً علمياً .

إن هذه الصعوبة الرمزية للميكانيكا الحديثة لا تستأصل على أي وجه من الوجوه بواسطة نظرية الجهد الكامن (Potential Theory) التي أوجدها فردي عندمـا

انتقل مركز ثقل الفكر الفيزيائي من ديناميكا المادة الى الكترو ديناميكا الاثير. ففردي العالم التجريبي الشهير، الذي كان رؤياوياً جسداً وروحاً (والذي هو الوحيد بين اساتذة الفيزياء العصرية الذي لم يكن رياضياً) قد لاحظ قائلاً عام ١٨٤٦ ما يلي :

« انني ازعم بأنه لا يوجد هناك أي شيء يمكن ان يكون حقيقياً في أي جزء من اجزاء الفراغ (أكان هذا الفراغ خاوياً كما يقال بصورة عامة أو مملوءاً بالمادة) ما عدا قوى وخطوط تمارس بواسطتها هذه القوى » .

وهنا نشاهد بوضوح كاف النازع الاتجاهي بمحتواه الكثيف في تعضيه وتاريخيته، النازع في العارف الى عيش عملية معرفته . وبهذا يقف فردي ميتافيزيقياً جنباً الى جنب ونيوتن الذي تشير نقاط قواه على - بعد - الى اساس صوفي رفض الفيزيائي التقي الورع ان يبحث فيه ويتحراه .

ان الوسيلة البديلة الممكنة التي نستطيع بواسطتها ان نقدم تعريفاً غير غامض للقوة ، (واعني بهذه الوسيلة تلك التي تبدأ بالعالم وليس بالله ، تبدأ بموضوع حال الحركة الطبيعية وليس بذاتيتها ،) كانت تقود في الوقت نفسه الى صياغة مفهوم الطاقة . والآن فان هذا المفهوم يمثل باختلافه عن مفهوم القوة، وحدة اشعاع ذري للتوجيه وليس للاتجاه ، وبهذا هو الى هذا الحد شبيه بمفهوم ليبنتز للقوة الحية ، وهو غير قابل للتبديل تبديلاً كميا .

وعلينا ألا نسهو عن القول بأن مظاهر رئيسية من مفهوم الكتلة قد ادخلت في مفهوم الطاقة، والحق انه جرى بحث حتى التصور الشاذ لتركيب الطاقة الذري بحثاً جدياً .

ان تدبر أمر هذه الكلمات الاساسية لم يبدل الشعور بأن هناك قوة عالمية ، بما لها من اساس وركن ، قائمة وموجودة .

ان معضلة الحركة غير قابلة للحل كما هي ابداً . وكل ما حدث امتداداً من

نيوتن حتى فرداي، أو من بركلي حتى مل ، فانما يتجلى في إحلال فكرة العمل اللادينية محل فكرة الفعل الدينية . فنحن نحس في صورة الطبيعة لكل من برونو ونيوتن وغوتيه بأن هناك شيئاً ما الهياً ينجز نفسه من خلال الاعمال ، امـــا في الفيزياء الحديثة فان الطبيعة هي التي تقوم بالعمل ، وذلك لأن كل « عملية » داخل معنى القانون الاول للترموديناميكا هي ، أو بالأحرى يجب أن تكون قـــابلة للقياس بواسطة مصروف الطاقة الذي تنطبق عليه كمية العمل في شكل « طاقة ملتزمة » (Bound energy) .

ومن البدهي اذن ان نجد الاكتشاف الحاسم لـ ج ر. ماير يتفق في زمانـه وولادة النظرية الاشتراكية. فحتى المناهج الاقتصادية تحسن استعمال المفاهيم ذاتها، فمعضلة القيمة كانت ذات ارتباط بكمية العمل منذ عهد آدم سمث الذي وكويزني وتورغو يطبعون التحول من التركيب العضوي الى التركيب الميكانيكي في ميدان الاقتصاد بطابعهم .

إن « للعمل » الذي هو الآن الأساس الذي ترتكز اليه النظرية الاقتصادية الحديثة، معنى ديناميكياً خالصاً، ومن الممكن العثور على جمل في لغة الاقتصاديين تنطبق تماماً على فرضيات حفظ الطاقة وعلى الانتروبي (Entropy) ، وأقل طاقة من العمل .

إذن ، فنحن اذا ما استعرضنا المراحل المتتالية التي مرت بها الفكرة المركزية للقوة منذ ولادتها في العصر الباروكي وعلاقاتها الوثيقة بعوالم الشكل للفنون العظمى والرياضيات يتضح لنا ما يلي :

١

في القرن السابع عشر شكلت تشكيلاً تصويرياً يأتلف تماماً وفن التصوير الزيتي العظيم وانتهت عام ١٦٣٠ (غاليليو ، نيوتن ، ليبنتز) .

٢

في القرن الثامن عشر ، اكتسبت الطابع التجريدي لأسلوب الفوغه، وكانت على وفاق تام وباخ (الميكانيكا « الكلاسيكية » للابلاس ولاغرانج) .

٣

ببلوغ الحضارة نهايتها وبانتصار الذكاء المتمدن على ما هو روحي فانها تتجلى في ميدان التحليل المجرد وخاصة في نظرية :

Functions of several complex variables .

حيث تصبح في احدث اشكالها ، دون هذه النظرية ، من النادر فهمها .

-١٣-

ولكن مع هذا لا نستطيع أن ننكر ان الفيزياء الغربية تقترب من استنزاف آخر امكاناتها. فرسالتها ، بوصفها ظاهرة تاريخية في اعماقها، هي في أن تبدل الشعور الفاوستي بالطبيعة الى معرفة ذهنية وأن تحول أشكال الايمان لزمن النبع، الى اشكال آلة للعلم الصحيح . ومع انها في الوقت الحاضر ستتابع تقديم الأكثر فالأكثر من النتائج العملية وحتى النتائج « النظرية المجردة » ، لكن نتائج كهذه مهما كان نوعها ، فانها تنتمي الى التاريخي السطحي للعلم . فالى أعماقها ينتمي فقط تاريخ رمزيتها وأسلوبها، وانه لمن النوافل أن نقول أن الجوهر والنواة في أعماق علمنا يعانيان الآن انحلالاً سريعاً . اذ أن كل خطوة خطتها الفيزياء حتى نهاية القرن التاسع كانت تتجه بها الى الاكتمال الباطني والنقاء المتزايد والامتلاء الدقيق للصورة الديناميكية للطبيعة ، وهنا فان ذاك الذي دفع بالفيزياء الى ارفع درجة من النقاء

النظري هو الذي أمسى فجأة العنصر المذيب لها وعامل الانحلال فيها . وانحلال فيزيائنا غير متعمد أو مقصود ، فالعقول الرفيعة لعلماء فيزيائنا هم حقاً لا يحسون به اطلاقاً ، لكنه يحدث بسبب ضرورة تاريخية ملازمة فطرية .

فهكذا ايضاً كانت حال العلم الكلاسيكي تماماً فهو عندما بلغ المرحلة النسبية التي بلغها علمنا فانه حقق ذاته باطنياً واكتمل وذلك قرابة عـام ٢٠٠ ق.م. فالتحليل بلغ هدفه في غاوس وكوتشي وريمان،وهو اليوم يقوم فقط بملأ الثغرات في تركيبه .

وهذا هو أصل الشك المفاجىء المـدمر الذي يعصف اليوم بأشياء كانت حتى الأمس أساساً منيعاً راسخاً للنظرية الفيزيائية ، وأعني الشك في معنى مبدأ الطاقة ومفاهيم الكتلة والفراغ والزمان المطلق وقوانين السببية (العلية) بصورة عامة. ان الشك اليوم لم يعد ذاك الشك المخصب المثمر ، شك العصر الباروكي الذي جمع بين العارف وموضوع معرفته معاً، بل انما هو شك يمس جوهر امكانية العلم الطبيعي. ولنضرب مثلاً واحداً فقط ، فأي عمق من شكوك متزايـدة تكمن في الاستعمال المتزايد بسرعة للمناهج التعدادية والاحصائية التي تستهدف فقط ترجيـح النتائج على غيرها وتتقدم سلفاً على الصحة العلمية المطلقة التي كانت مذهباً ودستوراً للاجيـال الأبكر المملوءة صدورها أملاً .

لقد حانت الآن لحظة اليأس المطلق من امكانية قيام ميكانيكا متماسكة مستقلة بذاتها . فكل فيزياء كما سبق لي أن أبديت يجب أن تتحطم على صخرة معضلة الحركة حيث توغل الذات الحية للعارف منهاجياً في عالم الشكل اللامتعضي للمعروف. ولكن هذه المعضلة اليوم ليست لا تزال فقط ملازمة لأحدث النظريات جميعاً،بل أن ثلاثة قرون من العمل الذهني قد دفعت بها ايضاً الى البؤرة دفعاً شديداً أصبح من المستحيل علينا معه تجاهلها أو غض النظر عنها . فنظرية الجاذبية التي كانت منذ عهد نيوتن حقيقة لا يأتيها الباطل من خلف أو قدام أصبح يُعترف بهـا اليوم على انها نظرية موقتة محدودة وفرضية علمية مترنحة . زد على ذلك أنه لا معنى هنا لمبدأ

حفظ الطاقة إذا ما افترض أن الطاقة لا نهاية لها في فراغ لا متناه . والتسليم بهذا المبدأ – حفظ الطاقة – لا يتفق ابداً والتركيب المثلث الابعاد للفراغ ، أكان لهذا التركيب حجم غير متناه ، أو يوقليدي أو كروي (كما تعرضه الهندسات اللايوقليدية) . أو كان « متناهياً لكنه مع ذلك غير محدود » .

فصحة مبدأ « حفظ الطاقة » لذلك محصورة« بنظام من الاجسام المستقلة بذاتها والتي لا تتأثر من الخارج » وتحديد كهذا لا يوجد ولا يمكن أن يوجد داخل الواقعة . لكن اللانهائية الرمزية هي التي توخاها الشعور الفاوستي للتعبير عنها بهذه الفكرة الاساسية ، التي كانت بكل صراحةالصياغة الميكانيكية الامتداديةالجديدة لفكرة الخلود ونفس العالم .

والحق ان هذا الشعور كان شعوراً لم تستطع المعرفة ابداً أن تنجح في ان تصوغ منه منهاجاً نقيـاً مجرداً . ولقد كان الاثيز المشع ثانية فرضية نموذجية للديناميكا الحديثة ، وذلك بما ان كل حركة كانت تتطلب شيئاً ما كي يحركها، لكن كل فرضية علمية قابلة للادراك تتعلق بدستور هذا الاثير وتركيبه قد انهارت تحت وطأة المتناقضات الباطنية ، زد على ذلك أن اللورد كالفن قد برهن رياضياً على أنه لا يمكن أن يكون هناك تركيب لمرسل الضوء هذا ، وهذا أمر يغلق الباب في وجه كل معترض واعتراض . ووفقاً لترجمة تجارب فرسنيل Fresnel فان أمواج الضوء هي أمواج عرضيـة الامتداد Transversal ، اذن الاثير يجب ان يكون جسماً متخشباً (ذا خصائص هي حقاً نادرة وغير مألوفة) ولكن هنـا يتوجب على قوانين المرونة Elasticity أن تنطبق عليه ، وفي هذه الحال تصبح أمواج الضوء ، أمواجاً طولية الامتداد Longitudinal .

ان معادلات ماكسويل – وهرتز في نظرية الضوء الالكترو مغنطيسية والتي هي معادلات تتألف فعلاً من ارقام مجردة لا اسماء لها وذات صحـة لا تقبل الجدل تطرح جانباً تفسير الأثير بواسطة أية ميكانيكا مهما كان نوعهـا أو شكلها ، ولذلك فان الفيزيائيين ونظراً لاحترامهم ايضـاً لنتائج النظرية النسبية ، يعتبرون اليوم

الأثير بوصفه خواء Vacuum . ولكن بعد هذا كله ، فان اعتباراً كهذا لا يختلف كثيراً عن تحطيم الصورة الديناميكية ذاتها .

ومنذ أيام نيوتن كان للزعم القائل بوجود كتلة ثابتة (وهذه هي صورة طبق الأصل عن القوة الثابتة) صحة فوق كل نقاش وجدل، لكن نظرية النشاط الذري لبلانك ، واستنتاجات نيلس بور منها المتعلقة بالتركيب الدقيق الذرات ، هـذا التركيب الذي اعتبرته الخبرة التجاربية ضرورياً ، قد هدمت ذاك الزعم .

ان كل منهاج قائم بذاته يمتلك بالاضافة الى الطاقة الحركية ، طاقة من حرارة مشعة ، وهذه الطاقة غير قابلة للفصل بينها وبين الطاقة الحركية ، ولذلك فانها لا يمكن أن تعرض عرضاً مجرداً بواسطة مفهوم الكتلة ، لأنه اذا ما كانت الكتلة تعرف بواسطة الطاقة الحية،فهي لا تعود فعلا ثابتة من جهة الحال الثرموديناميكية. ومع هذا فانه لمن المستحيل علينا أن نسلك نظريات وحدات من النشاط الذري ، في مجموعة الفرضيات العلميـة التي تشكل الميكانيكا الباروكية « الكلاسيكية » . زد على ذلك أن القواعد الاساسية لحساب التفاضل والتكامل اللامتناهي في صغره ، الذي أوجده نيوتن وليبنتز تجابه اليوم ومبدأ الاستمرار السببي (العلي) تهديداً شديد الخطر . ولكن اذا كانت هذه كلها هي حقاً شكوكاً فيها من الخطر ما يكفي ، فان فرضيات النظرية النسبية التهكمية الساخرة تسدد طعنة مباشرة الى صميم فؤاد الديناميكا . فهـذه النظرية مدعومة بتجارب ا. ا. مايكلسون ، هـذه التجارب التي دللت على أن سرعة الضوء تبقى غير متأثرة بحركة الوسيط ، (Medium) ، وقيام لورنتس ومنكوفسكي باعدادها إعداداً رياضياً ، فانمـا تنزع أول ما تنزع الى تدمير فكرة الزمان المطلق . فالاكتشافات الفلكية (وفي هذا الحقل يخدع العلماء المعاصرون ذواتهم خداعاً خطيراً) لا تستطيع ان تثبتها أو تدحضها . فكلمتا « صحيح » أو « غير صحيح » همـا ليستا الميزان الذي نختبر بواسطته مزاعم كهذه، فالسؤال كل السؤال هو عما اذا كانت هذه النظرية تستطيع خلال هـذه الفوضى من الفكرات المتشابكة والمتكلفة ، هذه الفكرات التي

جاءت نتاجاً لفرضيات علمية لا يحصيها العد في الاشعاع الذري والثرموديناميكيا، ان تبقي على ما يخصها كفرضية قابلة للاستعمال والاستخدام أم لا . ولكن مهما قد تكون حالها، فانها قد ألغت ثبات تلك الكميات الفيزيائية وادخلتها في تعريف دخله الزمان ، وخلافاً للسكونية الكلاسيكية ، فالديناميكية الغربية لا تعرف سوى كميات كهذه . فلم يعد هناك من مقاييس مطلقة للطول والاجسام المتخشبة ، ومع هذه ولت ايضاً تحديدات التخوم الكمية المطلقة ، وبذلك انهار المفهوم «الكلاسيكي» للكتلة بوصفها نسبة ثابتة بين القوة والعجلة ، وحدث انهياره تماماً بعد أن أقرت الوحدة من النشاط الذري ، بنت الطاقة والزمان ، عاملًا ثابتاً جديداً .

ونحن اذا ما أوضحنا لنفوسنا أن الأفكار الذرية لرذرفورد وبور لا تعني شيئاً ما عدا هذا ، وان النتائج الرقمية للملاحظات قد زودت فجأة بصورة لعالم كوكبي داخل الذرة ، بـــدلاً من اسراب الذرة التي كانت حتى الآن هي الأثيرة لدى الفكر ، واذا ما لاحظنا السرعة التي تتهاوى بها الفرضيات العلمية الكرتونية هذا اليوم ، وكيف أن كل تناقض يعطى فوراً بفرضيات مستعجلة جديدة ، واذا ما تأملنا في قلة المبالاة بالحقيقة القائلة بأن هذه الصور تتناقض احداهــا والاخرى ، وتتناقض والميكانيكا «الكلاسيكية» الباروكية على حد سواء ، عندئذ لا نستطيع إلا أن نتأكد من أن الأسلوب العظيم لصياغة الفكرات قد بلغ نهايته ، وأنـه ، حاله في ذلك حاله في الهندسة المعمارية وفنون الشكل ، قد أفسح الطريق أمام فن صناعة فرضيات علمية ، وليس هناك غير براعتنا القصوى في التقنية المختبرية (البنت الحقيقية لقرننا) هي التي تخفي انهيار الرمزية .

- ١٤ -

إن فكرة الانتروبي Entropy [١] هي أوضح رموز الانحطاط هذه، وهي التي تشكل موضوع القانون الثاني من قوانين الترموديناميكا. فقانونها الاول المتعلق بحفظ الطاقة، صياغة صريحة لجوهر الديناميكا (ولا نقول جوهر دستور النفس الاوروبية الغربية التي تصبح الطبيعة بالضرورة بمتناول بصرها فقط من خلال شكل السببية (العلية) الكونتربونتية الديناميكية، (خلافاً لسببيةارسطوطاليس السكونية التشكيلية). فالعنصر الأساسي في صورة العالم الفاوستية ليس هو الموقف، بل انما هو الفعل، وهو وفق الاعتبار الميكانيكي، العملية Process، وهذا القانون القانون الاول – يضع فقط الطابع الرياضي لهذه العمليات داخل شكل بوصفها عوامل متغيرة وثابتة. لكن القانون الثاني يذهب الى أعمق، فهو يظهر انحرافاً في حدوث الطبيعة لا تشترطه في أية حال من الأحوال الجواهر المفاهيمية للديناميكا.

إن الانتروبي تعرض ميكانيكياً بواسطة كمية حددتها الحال البرهية لمنهاج مستقل قائم بذاته يتشكل من الأجسام، وهذه الكمية لا تستطيع تحت كل التبدلات الكيمائية والفيزيائية الا أن تنمو وتزداد، وفي أحسن الأحوال أن تبقى بمعزل عن كل تغيير أو تبديل. فالانتروبي هي كالقوة والارادة، أي أنها شيء ما واضح وضوحاً باطنياً وذات مغزى عميق (بالنسبة الى كل انسان يمكن له أن يلج

---

١ – Ent opy : هو عامل رياضي يعتبر مقياساً للطاقة غير المتاحة في منهاج الترموديناميكا.
(المترجم)

عالم الشكل هذا) لكن صياغتها القانونية صياغة تختلف باختلاف كل مرجع عن الآخر ، غير أنه لا توجد بين كل هذه الصياغات صياغة واحدة مرضية . فهنا ثانية يتهاوى الذهن وينهار حينما يطالبه الشعور بالعالم بتعبير ما.

لقد صنفت عمليات الطبيعة بصورة عامة، الى عمليات غير قابلة للإنعكاس وأخرى قابلة . ففي أية عملية من عمليات الصنف الأول تحول الطاقة الطليقة الى طاقة ملتزمة، وإذا ما كان من المتوجب تحويل طاقة الفعل هذه مرة أخرى الى طاقة حية ، فمثل هذا الأمر يمكن أن يحدث فقط بواسطة ربط متواقت لوحدة نشاط اضافية من طاقة حية ، في عملية ما ، وأحسن الأمثلة المعروفة على ما أوردت ، هو احتراق الفحم (وأعني بهذا تحويل الطاقة الحية المختزنة داخله الى حرارة محدودة بشكل غاز ثاني اكسيد الكربون ، وذلك إذا ما كانت طاقة الماء الكامنة يجب أن تترجم الى ضغط بخار ومن ثم الى حركة . يتضح مما ورد أن الانتروبي في العالم ككل هي في تزايد مستمر ، وأعني أن المنهاج الديناميكي يقترب بوضوح الى حالة نهاية ما ، مهما كان نوع هذه الحالة أو شكلها . وهذه بعض الأمثلة على العمليات غير القابلة للعكس :

ايصال الحرارة ، استطارة (انتشار) الضوء واحتكاكه وانبعاثه ، والتفاعلات الكيميائية ، أما الأمثلة على العمليات القابلة للعكس : الجاذبية (قوة تجاذب المادة) ، التذبذبات الكهربائية ، والامواج الكهرطيسية وامواج الصوت.

ان ذاك الذي لم يحس به أحد حتى الآن ، ذاك الذي يدفع بي الى اعتبار نظرية الانتروبي (١٨٥٠) بمثابة بدء تدمير تلك الصورة الرائعة للذكاء الغربي ، صورة الفيزياء الديناميكية القديمة ، هو التعارض العميق القائم بين النظرية والواقعة التي أدخلت هنا لأول مرة في النظرية ذاتها . لقد رسم القانون الأول (من قوانين الترموديناميكا) صورة صارمة لحدوث سببي (علي) للطبيعة ، ولكن القانون الثاني نتيجة لادخاله اللاإعكاسية قد ادخل لأول مرة في الميدان الميكانيكي المنطقي نازعاً ينتمي الى الحياة الذاتية ، وعلى هذا فانه يتعارض تعارضاً أساسياً وجوهر

كل جوهر في هذا الميدان .

ونحن إذا ما اقتفينا آثار الانتروبي حتى ختامها يتضح لنا :

أولاً :

يجب أن تكون جميع العمليات نظرياً قابلة للإعكاس (وهـذه هي أحدى الفرضيات الأساسية للديناميكا وهي فرضية أكد على صحتها بكل دقـة وحزم بواسطة قانون حفظ الطاقة) ولكن :

ثانياً :

إن عمليات الطبيعة في الواقعة هي جميعـاً غير قابلة للإعكاس ، وحتى في الأحوال المصطنعة للتجربة المجزية لا يمكننا أن نعكس أبسط العمليات اعكاسـاً دقيقـاً صحيحاً ، فتلك العملية هي حـال مرت وولت وليس بالمستطاع اقامتها من جديد .

ولا أعتقد أن هناك أمراً أعمق مغزى في الوضع الحاضر للمنهاجيات اكثر من ادخال الفرضية العلمية القائلة « بالاختلال الابتدائي » بغية ردم الهوة القـائمة بين الفرضية الذهنية والخبرة الواقعية . «فأصغر جسيمات » (Particles) جسم من الاجسام(وهذه لم تعد صورة) تنجز من الأول الى الآخر عمليات قابلة للإعكاس، لكن هذه الجسيمات الصغرى في الأشياء الواقعية هي اختلال ، وهكذا فان العملية غير القابلة للاعكاس والتي يلاحظها وحدهـا المراقب ، ترتبط بتزايـد الانتروبي بواسطة أخـذ احتمالات الحدوث المناسبة . وبهذا تصبح النظرية فصلاً من حساب الاحتمالات ، ويصبح لدينا بدلاً من المناهج الصحيحة مناهج احصائية.ومن الواضح أن مغزى هذا قد مر دون أن يلحظه أحد ، فالاحصاءات ، كالكرونولوجيـا تدخل في ميدان المتعضي وتنتمي الى الحياة المتذبذبة، والى المصير والمصادفة وليس الى عالم القوانين والسببية (العلية) المعدومة الزمان .

فالاحصاءات كما يعرف كل انسان تستخدم قبل كل شيء لتمييز ما هو سياسي واقتصادي ، وأعني بأنه يخدم اغراض التطورات التاريخية . ولا شك ليس هنـاك

من مكان للاحصاء في أن الاحصاءات كانت لن تجـــد لها مكاناً في الميكانيكا «الكلاسيكية» لكل من غاليليو ونيوتن .

أما الآن فاذا كان يفترض فجأة بأن محتويات ذاك الحقل يمكن أن تفهم ، أو هي قابلة للفهم احصائياً فقط ومن الوجهة الاحتمالية (بدلاً من أن تفهم بالصحة البدهية تلك التي أجمع على المطالبة بها مفكرو العصر الباروكي) فما هو إذن معنى هذا الافتراض؟

انه لا شك يعني أن موضوع الفهم انما هو ذواتنا . فالطبيعة « المعروفة» هي ، على هذا النمط ، الطبيعة التي نعرف بها بواسطة الخبرة الحية ونعيشها داخل ذواتنا . أما ما تؤكده النظرية (وهي بسبب كونها ذاتها يجب أن تؤكد) (وتطالبنـــا بالاقرار بهذه اللاإعكاسية التي لا تحدث أبداً في الواقعة) فإنمـا يمثل أثراً من آثار الشكل الذهني الصارم القـــديم ، انه ذاك التقليد الباروكي العظيم الذي اتخذ من الموسيقى الكونتربونتية شقيقة توأما له . ولكن اللجوء الى الاحصاءات يظهر ان تلك القوة التي ضبطها ذاك التقليد وجعلها قوة فعالة مؤثرة قد استنزفت آخر طاقاتها . فالصيرورة والصير ، المصير والسببية (العلية) ، والعناصر التاريخية وعناصر علم الطبيعة ، هذه كلها أمور بدأ الناس يخلطون بينها ، وأخذت قوانين الحياة والنمو والعمر والاتجاه والموت تزدحم وتتجمهر .

والآن هذا هو ما يجب أن تعنيه ، من وجهـة النظر هذه ، اللاإعكاسية في عمليات العالم . فهي لم تعد تعبيراً عن حرف T الفيزيائي ، بل إنما أصبحت الزمان التاريخي المختبر باطنياً والذي ينطبق كل الانطباق على المصير .

لقد كانت الفيزياء الباروكية غصناً وجذعاً فيزياء منهاجية ، وبقيت على حالها هذه طالما لم تنهك تركيبها نظريات كهذه النظريات ، وطالما كان ميدانها خالياً من أي شيء عبر عن المصادفة والاحتمال . ولكن حالما اندفعت هـــذه النظريات الى الوجود ، أمست الفيزياء البـــاروكية فيزياء سيمائية . «فمجرى العالم » قد بلغت نهايته ، وفكرة نهاية العالم تتستر الآن تحت قناع من قواعد وقوانين رياضية لم تعد

في جوهرها أبداً قواعد وقوانين .

إن شيئاً « غوتياً » قد دخل الفيزياء ، واذا مـــا فهمنا المعنى الاعمق لمعارضة غوتيه الشجية لنيوتن في موضوع « علم الألوان » عندئذ سنتحقق من كامل ثقل ما تعنيه هذه المعارضة . ففيها كانت الرؤيا الوجدانية تناقش ضد العقل ، والحيـاة تجادل ضـــد الموت ، والصورة المبدعة تعارض القانون الاشتقاقي . فعالم الشكل الانتقادي لمعرفـــة الطبيعة انبثق من الشعور بالطبيعة ، من الشعور بالله ، بوصفه الضد المستعان به . وهنا في نهاية هذه المرحلة المتأخرة ، يبلغ عالم الشكل الانتقادي نهاية المسافة المقررة له ، وها هو يستدير ليعود الى موطنه (Home) .

وهكذا فان قوة التصوير أي الديناميكا الفعالة تعزّم مرة ثانيـة على الرمز العظيم للعاطفة التاريخية للانسان الفاوستي واعني بها الاهتمام ، المطل على أبعد البعيد من ماضي ومستقبل ، والدراسة التاريخية المحلقة فيما وراءها ، والدولة المحدقـة فيما أمامها ، والاعترافات والتأملات الباطنية ، والاجراس التي تتردد اصداؤها في كل جوانب ريفنا ، والتي ذرعت مرور الحياة .

إن نفسية كلمة الزمان ، كما نحس بها نحن وحدنا ، بوصفها فقط موسيقى ادائية ، والتي لا تستطيـع أن تحملها أية تشكيلية تمثاليـة ، هي نفسية كلمة موجهة الى هدف ، ولقد شخص هذا الهدف في كل صورة حياة أدركها الغرب ، شُخص على انه المملكة الثالثة ، على أنه العمر Age الجديد ، على أنه مهمة الجنس البشري ، على أنه نتيجة التطور ، وشُخص في الانتروبي على انه حالة الختـــام المقدرة لكل « الطبيعة » الفاوستية .

إن الشعور الاتجاهي ، وهو الرابطة بين الماضي والمستقبـل ، هو شعور مضمر في المفهوم الاسطوري للقوة الذي يرتكز اليه كامل عالم الشكل «الدغماتي » هذا ، وهو حين وصف العمليات الطبيعية يبرز بوضوح . ولهذا لن يكون كثيراً إذ قلنا بأن الانتروبي ، بوصفها الشكل الذهني الذي يُجمع فيــه مجموع أحداث الطبيعـة كوحدة تاريخية فراسية ، تكمن ضمناً وراء كل تشكيلة من المفاهيم الفيزيائية وذلك

منذ بداية البداية ، وهكذا فإنها عندما خرجت الى ميدان الوجود (كما قدر لها أن تخرج في يوم ما) كانت بمثابة « اكتشاف » لاستقراء علمي يطالب كل العناصر النظرية الأخرى في المنهاج « بمساندته » و« معاضدته ». وكلما ازدادت الديناميكا في استهلاك امكاناتها الباطنية وهي تقترب من هدفها ، تزداد الضرورة المتعضية للمصير حدة في تأكيد ذاتها جنباً الى جنب والضرورة اللامتعضية للسببية (العلية) ، ويجعل الاتجاه نفسه محسوساً به مثله كمثل القدرة والكثافة عاملي الامتداد المجردين . ويطبع مجرى هذه العملية بظهور سلاسل كاملة من الفرضية العلمية الجريئة ، وكلها من نوع متشابه ، والتي تستوجبها فقط النتائج التجاربية ، والتي تخيلها فعلاً الشعور بالعالم والميثولوجيا منذ زمن طويل يعود الى العصر الغوطي .

وهذا الأمر وضح ، قبل كل شيء ، في الفرضية العلمية الشاذة والقائلة بالانحلال الذري ، والتي توضح ظواهر الاشعاع الذري ، والتي بموجبها ذرات الاورانيوم ، التي صانت جوهرها مدة ملايين السنين من الزمن بالرغم من كل المؤثرات الخارجية ، دون تعديل أو تبديل ، تنفجر فجأة ودون ما سبب محدد لها لتبعثر جسيماتها الصغرى المنطلقة في الفراغ بسرعة آلاف الكيلومترات في الثانية . وهناك فقط افراد قلائل من مجموع الذرات المشعة هم الذين ضربهم المصير هذه الضربة ، أما جيران هذه الذرات المنكوبة فانها بعيدة كل البعد عن آثار ضربات المصير هذه . وهنا ايضاً نشاهد صورة للتاريخ لا « للطبيعة » ، وبالرغم من المناهج الاحصائية تبرهن على ضرورتها هنا ايضاً ، الا أنه باستطاعة المرء أن يقول تقريباً بأن الرقم الرياضي قد استبدل بالرقم الكرونولوجي .

فالروح الفاوستية ، مع فكرات كهذه ، تعود الآن الى اصولها . ففي مستهل بداية العصر الغوطي ، وتماماً في الوقت الذي كانت خلاله تبنى الساعات الميكانيكية ، شاعت الاسطورة القائلة بأن العالم قد بلغ نهايته ، ونشأ راجناروك Ragnaröck وضباب الآلهة .

وقد يكون راجناروك ، ككل اشكاله في الاساطير الالمانية القديمة المشهورة عن راجناروك ، (أكان في شكل فولوسبا Völuspa ، أو في شكل موسبللي Muspilli المسيحية) قد شخص ، كثيراً أم قليلاً ، وفق النوازع الكلاسيكية وخاصة النوازع المسيحية العجائبية ، لكنه مع هـذا هو تعبير النفس الفاوستية ورمزها . فالمدرسة الاولمبية لا تعرف صيرورة ولا برهات حقبية تاريخيـــة ولا هدفاً ، لكن الاندفاع في البعد هو خلة فاوستية .

ان للقوة والارادة هدفاً ، وحيث يوجد هدف توجد ايضاً نهـاية بالنسبة للعين المتسائلة . فذاك الذي عبر عنه مرئي التصوير الزيتي بالنقاط المتلاشية ، وعبرت عنه الحديقة العامة الباروكية بوجهة نظرها ، (Point de Vue) وعبر عنـه التحليل بالمصطلح التـاسع Nth (وهذه كلها استنتاج لتوجيه مقدر) ينتحل هنا شكل المفهوم Concept . ففاوست بطل الجزء الثاني من دراما « غوتيه » يعاني الآن الاختصار ، لأنه بلغ هدفه ، فما تعنيه اسطورة غسق الآلهة ، هو نفسه الذي تعنيه نظرية الانتروبي اليوم ، انهـــا تعني نهاية العالم ، بوصفها اكتمالاً لتطور باطني ضروري .

-١٥-

والآن يبقى أمامنـا أن نخطط المرحلة الأخيرة للعلم الغربي . فدرب الأفول المنحدر برفق من وجهة نظرنا واضح ومنظور .

إن التطلع اماماً الى المصير المحتوم ، هو ايضاً جزء من المقدرة التاريخية التي هي هبة خاصة من هبات الفاوستية . فالانسان الكلاسيكي قد مات ، كما سنموت نحن ،

لكنه مات وهو غير عالم،ولقد كان يؤمن بكينونة خالدة وعاش أيامه حتى آخرها برضى صريح ، وكان يعتبر كل يوم يمضيه هبة من الالهة . لكننا نحن نعرف تاريخنا وأمامنا تتجسد الآن أزمة روحية أخيرة ستعصف بكل من اوروبا واميركا ، أما فعلى أي شكل سيكون مجرى هذه الأزمة وسبيلها ، فان الهيلينية المتأخرة زمناً هي التي تجيبنا عن هذا السؤال . ان طغيان العقل ، (هذا الطغيان الذي لا نحس به ولا نعيه لأننا نحن قمته وذروته) هو في كل حضارة ليس اكثر من حقبة تمتد بين الانسان والانسان القديم ، أما أبرز تعبير له فهو يتمثل في مذهب من العلم الصحيح والجدلية والتظاهرة والسببية .

فالعلم الايوني بالنسبة للعصور القديمة ، والعلم الباروكي بالنسبة الينــــا كانا يشكلان عضده الصاعد، والان فاننا نسأل: أي شكل سينتحله منعطفه الانحداري؟

انني اتنبأ انه في هذا القرن ، قرن الاسكندرانية العلمية الانتقادية، قرن الحصاد الوفير والصياغات الختامية ، سينشأ عنصر جديد من داخل الباطن ليكتسح ارادة العلم للنصر ويخلعها .

فالعلم الصحيح يجب أن يهوي حالاً على سيفه المرهف الحاد . فلقد استهلكت مناهجه في القرن الثامن عشر ، واستنزفت قواه في التاسع عشر ، والآن يراجع دوره التاريخي بنظرة نقادة خطرة . ولكن هناك درباً من الارتيابية الى « التدين الثاني » الذي يعتبر ذيلاً للحضارة وليس مقدمة لهـا . فالناس (في مثل هـــذه الحقبة) يستغنون عن البرهان ويرغبون فقط في الايمان ولا يريدون التحليل أو التشريـــح .

ان الفرد يقلع وينبذ العلم بواسطة وضعه الكتب جانباً، أما الحضارة فتعبر عن نبذها له بالتوقف عن التجلي في الاذهان العلمية الرفيعة. لكن العلم يوجد فقط داخل الفكر الحي لأجيال عظيمة من العلماء والحكماء ، وليست للكتب أية قيمة اذا لم تكن حية فعالة ومؤثرة في الناس الذين هم جديرون بها ، وما النتائج العلميــة غير

عبارات وجمل لتقليد ذهني ، وعندما لا يعود أي انسان يعتبر العلم بوصفه حدثاً ، فهذا هو ما يشكل اندثاره وموته ، زد على ذلك أن عربدة علمانية صحيحة تمتد قرنين كفيلة بتعميم الامتلاء والتشبع ، وليس الفرد هو الذي يتشبع ويكتفي بل انما هي الحضارة ، وهي تعبر عن امتلائها واكتفائها بواسطة دفعها بالأقل فالأقل من البحاثين غير المخصبين الى ميدان الوجود. لقد كان قرن ازدهار العلم الكلاسيكي هو القرن الثالث بعد وفاة ارسطوطاليس ، وعندما توفي ارخميدس وبرز الرومان الى مسرح التاريخ كان العلم الكلاسيكي قد بلغ نهايته . أما قرن ازدهار علمنا فانما هو القرن التاسع عشر ، وفي عام ١٩٠٠ لم يعد للعلماء من وزن جاوس وهومبلدت وهلمهولتز وجود ، فالاساتذة العظام في الفيزياء كما في الكيمياء ، في البيولوجيا كما في الرياضيات قد توفوا جميعاً ، ومن نراهم اليوم فانهم هم المعفرون اللامعون في حقل العلم الذين يتدبرون الأمور من جمع واعداد ونسخ وينتهون دائماً الى ما انتهى اليه العلماء الاسكندرانيون في العصر الرومـــاني . فكل شيء لا ينتمي الى جانب الحياة الواقعي ، الى السياسة والتقنية أو الاقتصاد ، فانما يعرض العارض العادي المـألوف ..

وبعد وفاة ليسيبوس لانرى أي نحات عظيم أوفنان يوصف كرجل مصير ، كما واننا لانشاهد عقب تصرم عصر الانطباعية أي مصور ، ولا نصادف بعد فاغنر أي موسيقي ، فعصر القيصرية لا يحتاج فناً أو فلسفة. فإراتوستينيس Eratosthenes وارخميدس هذان المبدعان الأصيلان ، يخلفهما بوسيدونيوس وبليني ، الجامعان المعفران واخيراً يعقبهما بتوليمي و « غالن » الناسخان الأصيلان. وكما أن التصوير الزيتي والموسيقى الأداتية قد استنزفت خلال قرون قليلة امكاناتها ، كذلك فان الديناميكا التي بدأت تتبرعم قرابة عام ١٦٠٠ قد أمست في يومنا هذا في قبضة الانحلال .

ولكن ، وقبل إسدال الستار ، هنـــاك مهمة أخيرة منوطة بالروح الفاوستية التاريخية ، مهمة لم تحدد بعد ، ولم تراود حتى خيال أحد من الناس على انها ممكنة ، فلا يزال أمامنا أن نكتب مورفولوجيا العلوم الصحيحة ، هذه المورفولوجيـا التي

ستكتشف كيف أن كل القوانين والقواعد العلمية والمفاهيم والنظريات ترتبط باطناً بعضها ببعض كأشكال ، وستعرف ما هو مغزاها ، بوصفها كما ذكرت ، في مجرى حياة الحضارة الفاوستية . فمعالجة ثانية للفيزياء والكيمياء والرياضيات النظرية بوصفها مجموعة من الرموز هي بمثابة غزو اجتياحي أكيد تشنه نظرة حدس متدينة الى العالم على مفهوم العالم الرياضي وتكتسحه اكتساحاً ، وستكون هذه المعالجة ايضاً مجهوداً ابداعياً سيمائي الجوهر اخيراً ، مجهوداً يستهدف حتى تحطيم المنهاجية وامتصاصها بوصفها تعبيراً ورمزاً .

وفي أحد الايام لن نعود نسأل كما كانوا يسألون في القرن التاسع عشر عن القوانين الصحيحة التي تكمن وراء المشابهة الكيميائية أو وراء الدايا – مغنطيسية Diamagnatism ، بل بالأحرى سنذهل فعلاً ونتساءل كيف سوغت عقول من طراز ممتاز لنفسها بالانشغال التام في مثل هذه الأمور . وسنسأل انفسنا من أين جاءت هذه الأشكال التي خصت وعينت للروح الفاوستية ، ولماذا خص بها جنسنا حصراً من دون بقية الجنس البشري الآخر ، وما هو المغزى العميق الكامن في حقيقة صيرورة الارقام التي اكتسبناها ظاهرية Phenomenal في هذا الثوب التنكري المشابه للصورة . ولا يفوتنا القول بأنه بالكاد يخطر اليوم على بالنا كم هي وفرة قيمنا الموضوعية وخبراتنا التي ترتدي لباساً تنكرياً ، وهي مجرد صورة وتعبير .

ان العلوم المتفرقة من ابستيمولوجيا وفيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك تقترب بسرعة غريبة اليوم من بعضها بعضاً وتتقارب في اتجاهاتها نحو اكتساب وحدة كاملة لنتائجها . أما نتيجة هذا التقارب والاقتراب فانما ستكون انصهار عوالم الشكل واندماجها بعضاً في بعض ، وهذا الاندماج سيعرض من جهة منهاجاً لأرقام ذات طبيعة وظائفية وسيكون منهاجاً مختزلاً الى عدد قليل من القوانين الأساسية ، ويكون من جهة أخرى مجموعة صغيرة من النظريات ، بوصفها مخارج الكسور ، لصور الكسور هاتيك ، حيث سترى هذه في النهاية كأنها أساطير

أزمنة النبع تتقنع باقنعة حديثة ، وهي لذلك قـــابلة للاختزال ، (وبالضرورة تختزل فوراً) الى طبائع سيمائية هامة قابلة للتصوير ، هي الجوهريات .

ان هذا التقارب في الاتجاه بين العلوم المختلفة لم يلاحظ بعد ، ومرد هذا الأمر يعود لسبب واحد هو أنه منذ أن توفي « كنت » (والحق منذ أن توفي ليبنتز) لم ننجب بأي فيلسوف ذي سطوة على معضلات كل العلوم الصحيحة . فحتى منذ قرن واحـد ، كانت الفيزياء غريبة عن الكيمياء ، لكننا اليوم لا نستطيع أن نعالج الواحدة منهـــما بمعزل عن الاخرى . ولنتأمل بالتحليل الطيفي ، وبالنشاط الاشعاعي ، وباشعاع الحرارة . فبينما كنا نستطيع منذ خمسين عامـــاً أن نصف جوهر الكيمياء دون الاستعانة تقريباً بالرياضيات ، نرى أن العناصر الكيمائية اليوم تصعد نفسها لتصبح عوامل رياضية ثابتة في مركبات علاقة المتغير

The Variable Relation — Complexes

زد على ذلك أن الفيزيولوجيا هي في طريقهـــا لتصبح فصلاً من الكيمياء العضوية ، وهي تستغل اليوم مناهج حساب التفاضل والتكامل اللانهائي الصغر . كما وان فرع الفيزياء القديمة (هــــذا الفرع المميز بموجب الاحاسيس الجسمانية والمشتمل على البصريات والسمعيات والحرارة) قـد ذاب في ديناميكا المادة وفي ديناميكا الاثير ، وهذان النوعان من الديناميكا هما ايضاً لا يستطيعان ان يحافظا على الحدود الفاصلة بينهما محافظة رياضية واضحة. أضف الى ذلك ان آخر جدليات الابستيمولوجيا تتحد الآن وجدليات التحليل الارقى والفيزياء النظرية كي تحتل ميداناً غير قابل للانفتاح تقريباً ، والى هذا الميدان تنتمي مثـلاً النظرية النسبية ، أو يجب أن تنتمي اليه .

إن لغة الاشارة التي تعبر بواسطتها نظرية انبعاث الاشعاع الذري عن نفسها ، هي لغة كل جردت تجريداً كاملاً من كل محسوسية .

وحالمـا تبدأ الكيمياء بمعالجة تعريف خصائص العناصر أدق تعريف ممكن ،

كالكفاءة الكيميائية Valency والثقل والمماثلة والتفاعل تبدأ بالعمل للتخلص من الآثار المحسوسة لهذه . فالقول هو ان العناصر تختلف في طبائعها وفقاً لاشتقاقها من هذا المركب أو ذاك . وهي تعرض على انها مركبات من وحدات مختلفة تسلك فعلاً (وواقعياً) كوحدات من نظام أرقى ، وهي غير قابلة عملياً للتفريق بينها ، لكنها تظهر اختلافات عميقة بينها في ميدان النشاط الاشعاعي . وبواسطة انبعاث الطاقة المشعة فان الانحلال يستمر دائماً في عمله ، وهكذا باستطاعتنا أن نقول بأن هناك زمان حياة للعنصر ، وذلك تناقضاً منـــا ، والمفهوم الاصلي للعنصر وروح الكيمياء الحديثة التي أبدعها لوفوازييه .

ان جميع هذه النوازع تدفع بفكرات الكيمياء لتقترب اقتراباً وثيقاً من نظرية الانتروبي ، وبإيحائها الينا بالتعارض القائم بين السببية (العلية) والمصير ، بين الطبيعة والتاريخ . كما وان هذه النوازع تشير الى الدروب التي يسلكها علمنا ، فهناك من جهة دروب تتجه نحو الاكتشاف الذي تنطبق نتائجه المنطقية والرقمية على تركيب العقل نفسه ، وهناك من جهة اخرى دروب تتجه نحو الرؤيا (الوحي الالهام — المترجم) القائلة بأن كامل النظرية التي تلبسها الارقام انمـــا تمثل التعبير الرمزي للحياة الفاوستية .

وهنا يتوجب علينا ، ونحن نقترب بدراستنا من ختامهـا ، أن نذكر النظرية الفاوستية الأصيلة ، نظرية « المجـاميـع » Aggregates ، وهذه نظرية من أخطر نظريات كامل عالم الشكل هذا لعلمنا . فهي في تناقضها الأشد والرياضيات الأقدم ، لا تعالج كميات افرادية ، بل انما تعالج المجاميع التي تتشكل من كل الكميات ، (او المواد) مثلاً كل الأرقـــام المربعة أو كل المعادلات التفاضلية لنوع معين . ومجموع كهذا يدرك كوحدة جديدة ، رقماً جديداً من نظام أرقى ، ويزن هذا الرقم بموازين من أنواع جديدة لم تخطر على بال أحد حتى الآن ، « كالفاعلية » Potency و « النظام » و « التكافؤ » و « المحاسبة » ويبتكر الرقم قوانـــين ومناهج فاعلية بالنسبة الى هذه الموازين .

وهكذا عندما تحققت هذه النظرية ، فانها تعتبر بمثابة نهاية الامتداد للنظرية الوظائفية التي امتصت كامل رياضياتنا ، وهي الان تعالج العوامل المتغيرة بواسطة مبادىء نظرية المجموعات Theory of Groups ، وذلك من جهة طبيعة الوظيفة للعوامل المتغيرة ، وبواسطة مبادىء نظرية المجاميع من جهة قيم العوامل المتغيرة . ان الفلسفة الرياضية تعرف تماماً بأن هذه التأملات القصوى في طبيعة الرقم تنصهر وتندمج في تأملات المنطق ، وهناك اليوم بعض الناس يتحدثون عن علم جـــبر المنطق Algebra ، فدراسة القواعد الأولية الهندسية قـــد اصبحت فصلاً من الابستيمولوجيا .

ان الهدف الذي تقصده كل هذه النظريات ، والذي يحس به كل بحاثة خاص في الطبيعة داخل باطنه على انه زخم ومُحرك ، انما هو التحقيق لتسام رقمي مجرد ، والاجتياح الكامل لكل ما هو منظور وظاهر ، واستبداله بلغة تخيلية لا يفهمها الرجل العادي ، ويستحيل علينا أن نتحقق منها حسياً ، لكنها لغة يضفي عليها الرمز الفاوستي العظيم للفراغ اللامتناهي مهـــابة الضرورة الباطنية ووقارها .ان الارتيابية العميقة لهذه الأحكام النهائية تشد من جديد النفس الى اشكال التدين الغوطي المبكر .

فما حولنا من العالم اللامتعضي والمعروف والمشرّح ،العالم كطبيعة وكمنهاج ، قد عمق ذاته حتى أصبح مجرد دائرة من الأرقام الوظائفية . ولكن كما سبق لنا ان رأينا أن الرقم هو رمز من أهم الرموز الأولية في كل حضارة ، ولذلك فـان الطريق الى الرقم المجرد تفضي بنـــا ايضاً الى العودة الى الضمير الحي ، الى سره الخاص ، والى رؤيا ضرورته الرسمية الخاصة .

وعندما يُبلغ الهدف يتساقط النسيج الواسع الرث البـــالي المتزايد في لغوه والمنسوج حول علومنا الطبيعية على الأرض مزقاً مزقـاً ، فهو على كل لم يكن

سوى التركيب الباطني « للعقل » وكان له بمثابة علم الصرف والنحو الذي اعتقد بأنه يستطيع بواسطته ان يتغلب على المنظور وان يستخلص الحقيقة منه . ولكن ذاك الذي كان يغطيه النسيج ، هو مرة اخرى ، الأعمق والأبكر ، انه الأسطورة ، انه الصيرورة الفاعلة ، انه الحياة نفسها .

إن الهدف الختامي الذي تنزع اليه الحكمة الفاوستية (وهو هدف بالرغم من أنها لم تره إلا في أسمى لحظاتها) يتمثل في إذابة كل المعرفة في منهاج ضخم يتألف من الروابط المورفولوجية . فالديناميكا والتحليل ، من حيث كونها لغة شكل وجوهر ، ينطبقان كل الانطباق على الرومانسك والزينة ، وعلى الكاتدرائيات الغوطية والمذهب المسيحي الالماني والدولة السلالية ، فهناك شعور واحد هو الشعور نفسه ينطق من الديناميكا والتحليل . فهذان قد ولدا مع الحضارة الفاوستية وشاخا معها وهما يعرضان الحضارة في عالم النهار ، والفراغ بوصفه دراما تاريخية . ان اتحاد شتى النظريات العلمية في ارادة واحدة يحمل كل طوابع فن الكونتربنتيه العظيم ، فالموسيقى اللانهائية الصغر المنسابة الحانها في فراغ العالم اللامحدود ، هي الحنين العميق القلق للنفس الفاوستية ، تماماً كما كان الكون اليوقليدي المنتظم تمثالياً ، بغية النفس الكلاسيكية ومناها . أما ذاك الذي صاغته الضرورة المنطقية للعقل الفاوستي على شكل سببية (علية) ديناميكية آمرة ملازمة ، ثم طورته الى علم دكتاتوري كادح محول للعالم ، فإنما هو التركة العظمى التي تخلفها النفس الفاوستية وراءها لنفوس الحضارات الاخرى التي ستنطلق من عالم الغيب مستقبلاً ، وهي تركة تتألف من أشكال هائلة في تساميها والتي قد يتجاهلها الورثة . والان وبعد كدح طويل يعود العلم الغربي متعباً الى بيته الروحي .

الفصل الثاني عشر

الأصل والمنظر الطبيعي

(أ)

الكوني والكون الأصغر (Microcosm)

- ١ -

تأمل في الازهار عند الغروب ، وانظر كيف تغتمض الواحدة منهـا تلو الاخرى ، ان شعوراً غريباً ينضغط عليك ، واحساساً غامضاً يتملكك وانت في حضرة هذا الوجود الاعمى الشابيه بالحالم والمحدود أرضاً ، فالغابة الخرساء والمروج الصامتة وهذا الدغل وذاك الغصن ، هي جميعاً لا تحرك ذواتها ، فالهواء هو الذي بها يلعب ويتلاعب ، والبعوضة الصغيرة هي وحدها حرة - انهـا ترقص صامتة على أضواء الغروب وتتحرك الى حيث ترغب وتريد .

ان النبتة هي لا شيء بحد ذاتها ، فهي تشكل جزءاً من المنظر الطبيعي الذي دفعت بها المصادفة اليه لتضرب جذورها فيه . إن الغسق ، والبرداء وانغماض كل

زهرة ، هي أمور ليست بعلة ومعلول، وليست خطراً أو جواباً مراداً على خطر. انهـا جميعاً عملية بسيطة من عمليات الطبيعة التي تنجز نفسها بالقرب ومع وداخل النبتة ذاتها .

إن الحيوان هو نقيض النبتة، فهو بمقدوره أن يختار، اذن انه محرر من عبودية كل ما تبقى من العالم . فجماعة النحل القزمة هذه التي تتراقص وترقص باستمرار ، وذاك الطائر المتوحد الذي لايزال يطير خلال المساء، والثعلب الذي يقترب خلسة من العش ، كل هذه هي عوالم صغيرة خاصة بها داخل العالم العظيم الاخر . وهـذا الحيوان الهدبي Animalcule الذي يقطن قطرة من الماء ، والذي هو أصغر من أن تبصر به العين البشرية ، فبالرغم من انه لا يعمر اكثر من ثانية وليس له أكثر من زاوية من قطرة الماء هذه كميدان حياة ، الا أنه مع هذا كله حر ومستقل في وجه الكون ، أما شجرة البلوط الجبارة التي تعلق على احدى اوراقها قطرات من مـاء فانها ليست حرة مستقلة (كالحيوان الهدبي) .

ان العبودية والحرية ، يشكلان في نهاية كل مطاف واعمقه الصفـة المميزة أو العلامة الفارقة التي نتمكن بواسطتها أن نفرق بين الوجود النبـاتي وبين الوجود الحيواني .

ومع كل ذلك فان النبتة وحدها هي بكليتها مـا هي ، بينما أنه يوجد داخل كينونة الحيوان شيء ما ثنائي مزدوج . فالنبتة هي فقط نبتة ، أمـا الحيوان فهو نبتة بالاضافة الى شيء ما اكثر . فالقطيـع الذي يتكتل مرتجفاً أمـــام الخطر ، والطفل الذي يتشبث باكياً بأمه، والانسان الذي يجاهد جهاد اليائس ليشق طريقه الى الله ، كل هؤلاء ينشدون العودة من حياة الحرية الى عبودية النبات التي حرروا منها ودفعوا الى الفردية Individuality والعزلة والتوحد .

إن بذور نبتة مزهرة تظهر تحت المجهر ورقتين غمديتين تشكلان وتصونان النبتة الفتية ، التي ستندفع في التو الى عالم الضوء ، بما لهـذه النبتة من اعضاء دورة حياتية وتناسل بالاضافة الى شيء ثالث يحتوي على جذر المستقبل ويقول لنا بأنه قد

ُقدر للنبتة قدراً محتوماً في أن تصبح مرة ثانية جزءاً من المنظر الطبيعي. أما لدى الحيوانات الأرقى ، فاننا نجد عكس ما نجده لدى النبات ، إذ اننا نرى انالبويضة الملقحة تشكل في الساعات الأولى من وجودها الافرادي غمداً خارجياً (بداني) ينغلق على الأوعية الداخلية المركبات للاجزاء – الدورية والتناسليـة (واعني بهذه العنصر النباتي في جسم الحيوان) ويفصلها عن جسم الأم وكامل بقية العالم. إن هذا الغمد الخارجي يرمز الى الطبـع الجوهري للوجود الحيواني ويميز النوعين اللذين اتخذهما ظهور الكائن الحي على هذه الأرض .

هناك أسماء نبيلة للحيوان والنبات ، وقد ابتدع هذه الاسماء وورثها لنا العـالم الكلاسيكي . فالنبتة هي شيء ما كوني ، والحيوان بالاضافة الى كونيته ، هو كون أصغر بالنسبة الى الكون الكبير . فعندما تفصل الوحدة ذاتها ، على هذا النمط ، عن الكل ، وتصبح قادرة على تحديد مركزها بالنسبة الى الكل ، حينئذ وحينئذ فقط تغدو الوحدة نتيجة لذلك كوناً أصغر وحتى الكواكب في دوراتها العظمى وأفلاكها الهائلة ترسف في اغلال العبودية ، وليس هناك غير هذه العوالم الصغرى هي وحدها التي تتحرك حرة طليقة بالنسبة الى عالم ضخم عظيم يبدو لوعيهـا بوصفه العالم المحيط بها (البيئة) . وبواسطة فردية الكون الأصغر هذه وحدها ، يكتسب ذاك الذي يقدمه الضوء الى عيونها – عيوننا – معنى « كجسم » . ونحن حتى فيما يتعلق بالنبات ترانا نحجم ، بسبب من نازع باطني ما ، عن أن نرضى بكينونتنا الجسمانية .

إن كل ما هو كوني يحمل طابـع مراحل الدورة Periodicity ، وهو ذو ايقاع (نظم، نهج) ، أما كل ما هو كوني أصغر فإنما يمتلك استقطابية Polarity ، يمتلك « توتراً » . ونحن نتحدث عن تنبه متوتر ، فكر متوتر ، لكن كل اوضـاع اليقظة هي في جوهرها توترات . فالحاسة والموضوع ، أنا وأنت ، العلة والمعلول ، والشيء والخاصة ، كل واحد من هذه الأشياء هو توتر بين اشياء مميزة منفصلة قائمة بذاتها . وعندما يتجسد الوضع الذي نسميه حامـــلا بالمعنى ، أي بالضغط

من الحياة . وحالما يغط الكائن البشري في سباته ويتراخى فيه كل توتر ، حينئذ يمارس فقط هذا الكائن وجوداً شبيهاً بوجود النبات . Détente ، عندئـــذ يـنزل فوراً التعب والنوم بالجانب الكوني الأصغر

ومن جهة اخرى فان الايقاع الكوني هو كل شيء يمكن شرحه وتفسيره بمصطلحات كالاتجاه والزمان والايقاع والمصير والحنين ، وذلك ابتـــداء من وقع حوافر زوجين من الخيل الكريمة الأصل على الارض،والايقاع العميق لاقدام جنود أباة الى صحبة عاشقين صامتة ، فالى الحصافة المدركة التي تضفي على محفل اجتماعي مهابة ووقاراً ، فالى ذاك الحكم السريع الثاقب الذي يصدره « الخبير بالنـــاس» والذي سبق لي أن اسميته في هذا الكتاب بالحصافة السياسية .

ان ايقاع الدورات الكونية هذا ، يستمر ويتتـــالى بالرغم من حرية حركة الكوني الأصغر في الفراغ ، وهو من حين الى آخر يحطم توتر الكائن الفردي اليقظ ويصوغ من توتره تناغماً واحداً عظيماً محسوساً . فنحن إذا ما كنا قد تتبعنا في أحد الأيام السالفة طيران طير في الاجواء العالية (ورأينا كيف انه يرتفـــع ويستدير ويخفق ويفقد نفسه في البعد) فعندئذ كان يجب علينا أن نكون قد شعرنا بيقينه الشبيه بيقين النبات ، والشبيه بيقيننا، هذا اليقين المتجلي في جملة الحركة هذه، والذي لا يحتاج الى جسر من العقل ليربط احساسك باحساسي . وهذا هو مغزى رقصات الحرب ورقصات الحب بين الناس والحيوان . وعلى هذا النمط ينصهر لواء من الجند تحت نيران الحرب وهو يندفع الى الهجوم ، فيمسي وحدة ، وعلى هذا المنوال ايضاً يمسي جمهور من الناس جمعت بين اشخاصه مناسبة مثيرة،جسماً واحداً قادراً على التفكير والعمل بحقارة وعماء وشذوذ لمدة برهة تسبق انفراط عقده.ففي أحوال كهذه يكون الحائط الكوني الأصغر مطموساً مندرساً ، وهكذا ترى هذا الجمهور يتدافع بالمناكب ويهدد ، ويدفع ويجر ويفر ويميل وينحرف ويترنح. فأعضاء من فيه من الناس متشابكة متعاقدة، واقدامهم مصطخبة متزاحمة،وصرخة واحدة تنطلق على شفاههم ، ومصير واحد يركبهم جميعاً ، وهكذا نرى أن عالماً

كاملا قد انبثق فجأة من مجموع عوالم صغيرة فردية .

إن ادراك ايقاع الكوني ندعوه شعوراً (Fühlen) أما ادراك ايقاع الكوني الأصغر فاننا ندعوه احساساً (Empfinden) . إن غموض كلمة « احساس » Sinnlichkeit قد طمس الفرق الواضح بين الجانب العام والنباتي من الحياة والجانب الحيواني منها على وجه التخصيص . فاذا أطلقنا على الأول اسم الحياة العنصرية أو الحياة الجنسية ، وسمينا الثاني بالحياة الحسية ، فان صلة عميقة تكشف عن نفسها بينهما. فالأول يحمل دائماً وابداً طابع مراحل الدورة وايقاعها حتى الى حد التناغم والدورات العظمى للكواكب ، يحمل طابع علاقة الطبيعة الأنثى والقمر ، طابع علاقة هذه الحياة ، بصورة عامة ، بالليل والربيع والدفء . أما الثاني فيتضمن التوترات واستقطابيات الضوء وموضوع المعرفة المضاء ، وذاك الذي هو معروف ، يتضمن موضوع الجرح والسلاح الذي سببه . وكل جانب من جوانب الحياة هذه قد تجسد له شكلًا في اعضاء خاصة وذلك في الفضائل التي طورت تطويراً راقياً ، وكلما ارتقى التطور وسما ، يزداد تأكيد كل جانب بياناً ووضوحاً .

ونحن نمتلك عضوين دوريين الوجود الكوني، نظام الدم Blood - System ، وعضو التناسل ، ونملك عضوين مميزين للحركة الكونية الصغرى ، هما الحواس والأعصاب . وعلينا أن نزعم بان الجسم بأكمله كان في الأصل عضواً دورياً واتباعياً .

إن الدم هو رمز الحي بالنسبة الينا . فهو يتابع مجراه دون توقف ابتداء من التلقيح حتى الموت ، ويجري من جسم الأم الى الجنين في احشائها ، وفي الجنين ، ثم الوليد ، ويستمر في مجراه في حالات اليقظة والنوم ولا يعرف ابداً توقفاً أو نهاية . فدماء أسلافنا تجري في عروق سلاسل من الاجيال وتربط هذه الاجيال برباط عظيم من مصير وايقاع وزمان . وقد انجز هذا الأمر في الاصل بواسطة عملية انقسام ومعاودة انقسام ومن ثم انقسام ، فانقسام ابدي التجدد في الدورات

حتى انتهت اخيراً هذه العملية الى عضو جنسي تناسلي معين ، وجعلت من لحظة[1] واحدة رمزاً للديمومة . أما كيف بعدئذ اخذت المخلوقات تنجب وتحمل ، وكيف دفع شبيه النبات في داخلها الى التناسل والتكاثر بغية الحفاظ على دورة خالدة تتجاوزهم ، وكيف ينشطر خفقان نبض عظيم واحد من خلال كل النفوس المنفصلة ، فيملأ ويدفع ويضبط ويكبح وكثيراً من الاحيان ما يدمر ، فهذه الأمور كلها هي أعمق ما للحياة من اسرار ، إنها السر الذي حاولت كل الاسرار الدينية والشعراء العظام أن ينفذوا اليه ، وهو السر الذي أثارت « تراجدياه » Tragedy غوتيه في « حنينه المبارك » Selige Sehnsucht ، وفي « قرابات انتقائه » Wahlverwandtschaften » حيث يتوجب على الطفل أن يموت لأنه قد دفع به الى الوجود بسبب تنافر بين دورات الدم ، ولأنه ثمرة خطيئة كونية .

ويضيف الكوني الاصغر الى هذه الاعضاء الكونية التي هي على هذه الشاكلة ، « حاسة » العضو (وشدة هذه الحاسة تتوقف على درجة امتلاكها لحرية الحركة قبالة الكون الكبير) ، وهذه الحاسة هي في الاصل ليس اكثر من حاسة اللمس . ونحن حتى الان مع كل ما بلغناه من تطور راق لا نزال نستعمل كلمة « لمس » لنعبر بصورة عامة عن تماسات العين والاذن وحتى الفهم ، وذلك لأن هذه الكلمة هي أبسط تعبير عن حركة المخلوق الحي الذي هو بحاجة دائمة الى اقامة علاقته بعالمه المحيط به . ولكن الاقامة (اقامة علاقة — المترجم) تعني هنا تحديد مكان ، وهكذا فان جميع الحواس مهما قد تبدو مغالطتها أو بعدها عن البدائي سحيقاً ، فانها في جوهرها حواس ايجابية ، وليس هناك من حواس اخرى . فالاحساس في جميع انواعه يميز بين الخاص به والغريب عنه . أما من أجل التحديد أو التعريف

---

(١) لا شك ان المؤلف يعني بهذه اللحظة لحظة التلقيح .

– المترجم –

المركزي   الموضعي – للغريب بالنسبة الى الخاص فان حاسة شم كلب الصيد تفي بهذا الغرض كما تفي بـــه تماماً حاسة سمع الايل أو عين النسر . فاللون والتألق والانغام والروائح هي جميعاً صيغ مدركة للاحساس وهي تدل على فصل – عزل – تفريق – وبُعد وامتداد . وكالدورة الكونيـة للدم ، كذلك فان النشاط المميز للحاسة هو في الأصل وحدة Unity . فالحاسة الناشطة هي دائماً حاسة فاهمة ايضاً ، وفي هذه العلاقات البسيطة ، فان البحث والعثور هما أمر واحد ، وهو ذاك الأمر الذي نسميه بسداد واحكام « اللمس » .

ولم يبدأ الاحساس في عدم انطباقه على فهم الاحساس إلا فيما بعد وذلك خلال المرحلة التي أمست فيها الحواس المتطورة مطالبة بمطالب ذات بال ، فهنا أخـــذ الاحساس يفصل نفسه بوضوح متزايد عن فهم الاحساس . ففي الغمـد الخارجي (البراني) عزل العضو الانتقادي نفسه عن عضو الحاسة. (كما يعزل عضو الجنس نفسه عن عضو الدورة الدموية) . لكن استخدامنـا لكلمات كـ « ثاقب » « حساس » « بصيرة » « تطفل » وقوة تميز، ناهيك بمصطلحات المنطق ، وهذه كلهـــا كلمات مقتبسة من العالم المنظور، فان استعمالنا لها يظهر بما فيه الكفاية اننا نعتبر كل الفهم عملاً مشتقاً من الاحساس ، وانه حتى فيما يتعلق بالانسان ، فان الفهم والاحساس لا يزالان يعملان يداً بيد .

اننا نرى كلباً يتمدد غير مبال ، وفجأة نراه متوتراً مصغياً متشمماً ، إن ما يتحسسه الكلب ، فانما هو ايضاً يسعى فقط ليفهمه . فالكلب قـــادر ايضاً على التأمل ، وهذه حال يكون خلالها الفهم وحده تقريباً ناشطاً فعالاً يداعب أحاسيس كابية . وقد عبرت اللغات الاقدم بوضوح شديد عن هذا التدرج وميزت بدقة بين كل درجة ودرجة منه بوصفها نوعاً خاصاً معيناً ، وقد قامت بتمييزها بواسطة يافطة ـ وسم ـ (Label) معينة ، لرأى ، سمع ، أصغى ، أصـــاخ السمع ، شم استروح Scent تنشق ، رأى ، تلصص Spy راقب . ففي سلاسل كهذه تزداد أهمية محتوى العقل اكثر فاكثر بالنسبة الى محتوى الاحساس .

واخيراً تتطور على كل حال حاسة عليا سامية من بين الحواس . وهي شيء ما في الكل ، وهذا الشيء ما يبقى أبد الدهر مستعصياً على الارادة للفهم ويستحضر لنفسه عضواً جسمانياً .

فالعين تندفع الى ميدان الوجود ، ويندفع في العين ومعها الضوء بوصفه قطبها المناهض . والتفكير التجريدي بالضوء قد يقود (وفعلاً قاد) الى ضوء مثالي قابل للعرض بواسطة اجتماع صورة الامواج والأشعة ، لكن مغزى هـــذا التطور في الواقعة أن الحياة ، منذ ذاك الوقت فصاعداً ، قد حضنت واستوعبت من خـلال عالم الضوء للعين . وهذه هي الاعجوبة الكبرى ـ العليـــا ـ التي تجعل كل شيء بشري ما هو عليه من حال. وبواسطة عالم الضوء للعين وحده *تجسد الابعاد كينونة بوصفها ألواناً وضياءات ، وفي هذا العالم وحده يصبـح الليل والنهـــار والاشياء والحركات في امتداد الفراغ المضاء بمتناول البصر ، يضاف الى هذه كلها كون تلك الكواكب اللانهائية في بعدها والتي تستدير فوق الارض ، وافق الضوء ذاك لحياة الفرد التي تمتد بعيداً ما وراء مكتنفات الجسد .

ففي عالم هذا الضوء ، (ولا أعني به الضوء الذي استخلصه العـلم بصورة غير مباشرة وبواسطة ما أمدته به المفاهيم العقليـة من عضد ، هذه المفاهيم التي تشتق نفسها من الرؤى (وهي النظريات في المفهوم الاغريقي)، أقول في عالم هذا الضوء يحدث أن رؤية القطعان البشرية تتجول على سطح الارض ، الكوكب الصغير ، وأن أحوال الضوء (الفيضان الجنوبي على مصر والمكسيك وسنجابية الشمال) تهب هذه القطعان البشرية المقدرة على تقرير كامل حياتها . فمن أجل عينه يطور الانسان سحر هندسته المعمارية ، حيث أن عناصر البناء التي تعطيها اللمسة ، يعبر عنها ثانيـة بعلاقات يلذ بها الضوء .

فالدين والفن والفكر قد نشأت جميعاً من أجل الضوء ، وجميـع المفاضـلات تختصر في نقطة واحدة هي ما اذا كان المخاطب هو العين الجسدية، أم العين العقلية.

وينشأ مع هذا بوضوح كلي فرق آخر ، وهذا الفرق عـــادة ملتبس بسبب استخدام الكلمة الغامضة «الوعي» Consciousness . فأنا أميز الكينونة ، أو الكينونة هنا Dasein ، من الكينونة اليقظة أو الوعي اليقظ (Wachsein)[1]. فالكينونة تمتلك ايقاعاً واتجاهاً ، بينما أن الوعي اليقظ هو توتر وامتداد فالمصير هو الحـــاكم والمسيطر على الكينونة ، بينما أن الوعي اليقظ يميز العلة والمعلول فالسؤال الأولي للكينونة هو « متى ولماذا ؟ » بينما أن السؤال الأولي للوعي اليقظ هو « أين وكيف ؟ »

ان النبتة تمارس وجوداً مجرداً من الوعي اليقظ . وخلال النوم تمسي جميـع المخلوقات نباتاً ، فتوتر الاستقطابية بالنسبة الى العالم المحيط يتراخى وينفرج ويهمد، أما ايقاع الحياة فانه يسترسل ويستمر في مجراه ، والنبتة لا تعرف أية علاقة ، ما عدا علاقتها بمتى ولماذا . فاندفاع أولى الغصينات (الشناغيب) الخضراء من التربة الشتوية ، وانتفاخ البراعم ، وكامل عملية الازدهار الجبارة ، والاريج ، مجد اللون والنضوج ، كل هذه الأمور هي رغبة في انجاز مصير ، وحنين دائم الى – متى ؟ أما « أين » من جهة اخرى ، فانها لا تستطيـع أن تكون بذات معنى بالنسبة لوجود النبات ، أما هذه « الـ » – أين فهي سؤال يعرّف الانسان اليقظ كل يوم من جديد نفسه بمكانها من العالم المحيط بها ، وذلك لأن ايقاع نبض الكينونة هو وحده الذي يدوم طيلة الأجيال ، بينما أن الوعي اليقظ يبدأ من جديد مـع كل كون أصغر . وهنا يكمن الفرق بين التوليد Procreation والولادة ، فالتوليد

---

١ – Wachsein : كلمة المانية ترجمتها الحرفية الكينونة اليقظة ، ولهذا فان الترجمـة الحرفية للجملة السالفة ، هي : أميز الكينونة هنا Dasein من الكينونة اليقظة Wachsein ، لكننا ترجمناهـــا (Wachsein) بالوعي اليقظ ، اعتماداً منـــا على الترجمة الانكليزية لهـــا waking - Consciousness وقناعة منا بانها تفي بالمراد اكثر من تلك .

(المترجم)

مرهون بالديمومة ، بينما أن الولادة هي بداية . لذلك فان النبتة توّلد ولا تُولّد . فهي « كائنة هنا » لكن ليست لها يقظة ولا يوم مولد يوسعان نطـــاق مفهوم العالم المحيط بها .

- ٢ -

وبهـذا نكون قد دُفعنا وجهاً لوجه والانسان . ففي الوعي اليقظ للانسان ليس هناك من شيء يزعج سيادة العين المجردة أو يعكر عليهـا صفوها . فأصوات الليل وزئير العواصف ونحيب الرياح ولهاث الحيوان وأريج الزهور ، كل هـذه تنعش داخل الانسان « الـ ـ الى أين » و « الـ ـ من أين » ، في عـالم الضوء ، ولا يوجد من استثناء لهذا القول مهما كان نوعه ، حتى في عـالم الرائحة ، حيث لا يزال حتى أقرب رفيق لنا ، وهو الكلب ، يوفق بين انطباعاته البصرية وبين حاسة الشم فيه . ونحن لا نعلم بأي شيء عن عالم الفراشة التي لا تعكس عينهـا البلورية الشفافة أية صورة سنتيزية (تركيبية Synthetic) أو عن عوالم تلك الحيوانات التي هي ، مع عدم افتقارها الاكيد الى الحواس ، عمياء . وهكذا لا يبقى لنـــا من فراغ إلا الفراغ المنظور ، وفيه قد أوجدت أماكن لذخائر عوالم حاسة اخرى ، (كالانغام ، ـ الاصوات ـ والروائح والحرارة والبرد) بوصف هـــذه العوالم خصائص أشياء الضوء وآثارها ـ انهـا لنار منظورة هي تلك التي ينساب الدفء منها ، وانها لوردة منظورة في الفراغ المضاء هي تلك التي تتضوع أريجـاً ، ونحن نتحدث عن صوت معين فنقول أنه صوت كمان (كمنجة) .

أما بالنسبة الى الكواكب والنجوم فان علاقاتنا الواعية التي تشدنا اليها ، هي علاقات محدودة بنظرنا إياها ، فهذه النجوم والكواكب تشع فوق رؤوسنا واصّفة

مسارها المنظور . لكن مما لا شك فيه أن الحيوانات وحتى البدائيين من البشر لا يزالون يمتلكون حتى اليوم احاسيس عن عوالم الحاسة تلك تختلف كلياً عن أحاسيسنا . وبعض هذه الأحاسيس نستطيع أن نصورها لذواتنا بواسطة استعانة غير مباشرة بالفرضيات العلميــة ، غير ان بعضها الآخر يفلت منـــا جملة وتفصيــلا .

إن الافتقار في المحسوس هـــذا ، يشتمل على تعميق لا يحده قياس . فالوعي الانساني اليقظ لم يعد مجرد توتر بين الجسد والبيئة ، بل انما هو اليوم الحياة في عالم ضوء مستقل قائم بذاتــه ، فالجسد يتحرك داخل الفراغ المنظور ، وخبرة العمق هي اندفاع خارجي جبار في البعد القابل للنظر من مركز لضوء ، وهذا المركز هو النقطة التي ندعوها « أنا » « I » .

إن « أنا » هي ـ مفهوم ضوء ، وانطلاقاً من هذه النقطة قدماً ، تصبح حياة « أنا » في جوهرها حياة تحت ـ في ـ الشمس ، ويمسي الليل شبيهاً بالموت ومن الليل ينشأ ايضــاً احساس جديد بالخوف يمتص كل الاحاسيس الاخرى داخـله ، الخوف امام اللامنظور ، الخوف مما يسمع به المرء أو يحس به أو يترقبه أو يراقبه من خلال آثاره دون أن يبصر بـه . والحق أن الحيوانات تعرف الخوف وتختبره في اشكال اخرى ، لكن الانسان يجد هذه الاشكال مربكة محيرة ، وحتى القلق الذي ينتاب الانسان عندمــا يشتمله الصمت وتلفه السكينة اللذين يفزعان الجنس البشري البدائي والاطفال (فيحاولون أن يطردوهما بواسطـة الضجيج والحديث بصوت مرتفع) ، اقول حتى هذا القلق يختفي ويتلاشى من صدور النماذج الارقى من الجنس البشري .

إن الخوف من اللامنظور هو جوهر التدين البشري وطابعه . فالآلهـة تخمن وتتصور وتتخيل على انها وقائع ضوء، وما فكرة الاله غير المنظور إلا أسمى تعبير عن التسامي البشري ، فحيث تنتهي حدود عالم الضوء ، يوجد المـــا وراء ، وما الخلاص سوى التحرر من سحر عالم الضوء وحقائقه . في هذا بالذات يوجد السحر

الذي لا يوصف بجوهر قوة التحرير الحقيقية التي تمتلكها الموسيقى بالنسبة الينا نحن معشر البشر . وذلك لأن الموسيقى هي الفن الوحيد الذي تقع وسائله خارج عالم الضوء الذي أمسى منذ مدة طويلة متساوياً في امتداده وانتشاره وكلية عالمنـا ، ولذلك فالموسيقى هي وحدها التي تستطيع أن تخرج بنـا من هذا العالم وان تحطم الاستبداد الفولاذي للضوء ، وتتيح لنا أن نتخيل باعزاز أننا على شفا سر النفس النهائي ، وهذا الوهم ناشىء عن الحقيقة القائلة بأن سيطرة حاسة واحدة على وعينا اليقظ هي سيطرة بلغت الآن حداً من الشدة ، وبأن وعينا اليقظ قد وفق بينه وبين عــالم العين ، الى درجة اصبح معها عاجزاً عن تشكيل عالم للاذن من الانطباعات التي يتلقاها . اذن فان فكر الانسان هو فكر منظور ، ومفاهيمنا مشتقة ومستخلصة من الرؤية ، وكامل نسيج منطقنا هو عــالم ضوء داخل الخيـــال .

ان هذا التضييق والتعميق اللاحق له اللذين افضيا بنا الى الملاءمة بين كل انطباعاتنا الحسية وبين انطباعات البصر وتنظيمنا لتلك الانطباعات وفق هذه ، قد افضيا بنا ايضاً الى استبدال المناهج التي لا يحصيها عدد للمواصلة الفكرية التي يعرفها الحيوان بوسيط لغة واحدة هو الآن بمثابة جسر في عــالم الضوء يصل بين شخصين يجتمع الواحد منهما والآخر ، جسمانياً أو نظرياً متخيلا . أمــا الصيغ الاخرى من التحدث ، والتي اذا مــا كان قد بقي منها إطلاقاً بقية من آثار أو ذرات منقرضة ، فان اللغة قد امتصتها جميعاً في شكل محاكاة ، ايماءة أو تأكيد . وما الفرق بين النطق البشري المجرد وبين التفوه الحيواني سوى أن الكلمات وروابط الكلمة تشكل ميداناً من فكرات ضوء باطنية ، فكرات بنيت تحت رقابة العين واشرافها وسيادتها . فلكل معنى كلمة قيمــة من ضوء ، وحتى في حــالات كلمات كـ « نغم » « ذوق » « برد » أو تسميات كاملة في تجريدها .

وحتى بين الحيوانات الارقى فان عادة الفهم المتبادل المشترك بواسطة رباط

حاسة ، قد أدخل فرقاً مميزاً بين الاحساس المجرد وبين الاحساس الفاهم . ونحن اذا ما ميزنا على هذا النمط بين انطباعات الحاسة ، واحكام الحاسة (واعني حكم الشم ، حكم الذوق أو حكم السمع) نجد في كثير جداً من الاحيان ، أن مركز الثقل حتى في النمل والنحل ، ناهيك بالطيور الجارحة والخيول والكلاب ، قد تحول بوضوح نحو جانب حكم الكينونة اليقظة . ولكن تحت تأثير اللغة وحدها يقام داخل الوعي اليقظ تعارضاً أكيداً معيناً بين الاحساس والفهم ، وهذا التعارض هو توتر غير موجود ابداً لدى الحيوان ، وحتى انه بالنسبة الى الانسان بالكاد كان في البدء أكثر من امكانية نادراً ما حققت . إذن فان تطور اللغة قد جر معه قراراً ذا مغزى جوهري ، ألا وهو تحرر الفهم من الاحساس .

وهكذا أمسينا نشهد تزايد ظهور إدراك مغازي مركب انطباعات حسية يوماً بعد آخر ، هذا الادراك الذي كان بالكاد يمكن ملاحظته كانطباع حسي من قبل ، بدلاً من الادراك البسيط الساذج للانطباع .

وأخيراً جرى نبذ هذه الانطباعات نفسها واستبدلت بمضامين اصوات كلمة مألوفة . فالكلمة ، وهي في الاصل اسم لشيء منظور تتبدل دون ما وعي الى وسم - طابع - إشارة - لشيء عقلي ، هو « المفهوم » . ونحن بعيدون كل البعد عن المقدرة على تعيين معان صحيحة لأسماء كهذه ، وكل ما نستطيع أن نقنع به وحده فانما هو اسماء جديدة جملة وتفصيلاً . فنحن لا نستعمل ابداً كلمة مرتين ونحن نعني المعنى ذاته في كل مرة ، وليس هناك من انسان يفهم تماماً كما يفهم الآخر ، وبالرغم من هذا فان الادراك المشترك هو أمر ممكن وذلك بسبب النظرة المشتركة الى العالم التي استخلصت باستعمال ومع استعمال لغة مشتركة ، وفي بيئة تجمع بين الحياتات والنشاطات فان مجرد أصوات الكلمة تكفي لتداعي فكرات متشابهة في أصولها (من أصل واحد Cognate المترجم) . وهذه الصيغة من الادراك بواسطة الاصوات المشتقة فوراً والمنعزلة (التجريدية) عن النظر الواقعي الذي على كل حال نادراً ما نستطيع ان نحس به أكيداً لدى المخلوقات من

المستوى البدائي . أقول هذه الصيغة من الادراك هي التي تفصل فصلاً دقيقاً بين النوع الحيواني ذي الوعي اليقظ وبين النوع البشري المجرد الذي تلا ذاك النوع وتبعه . وهكذا تماماً فان ظهور الوعي اليقظ ، في مرحلة ابكر ، على هذا الشكل هو الذي اختط الحد الفاصل بين وجود ما هو شبيه بالنبات بصورة عـــامة وبين الوجود الحيواني على وجه التخصيص .

ان الفهم المنفصل عن الحس يدعى فكراً . والفكر قد أدخل انشقاقاً دائماً على الوعي الانساني اليقظ . فهو الذي سعر الفهم والاحساس بوصف ذاك قوة نفس « أرقى » وهذا قوة نفس « أدنى » . وهو الذي خلق تعارضاً خطيراً بين عالم الضوء للعين الموصوف بأنه بدعة واختلاق وبين الوهم والعالم المتخيل (الذي يشيده المرء لنفسه » والذي تعيش فيه المفاهيم بما لها من لوين باهت لكنه لا يطمس مفاهيم كيفية تركيب ألوان الضوء ، (Coloration) التي تمارس اعمالها -- وتقوم بتجاربها — ، والانسان طالما هو « يفكر » بأن هذا هو العالم الحقيقي ، العالم بنفسه . لقد كانت الأنا (ego) في مستهل البداية كينونة يقظة على هذه الشاكلة (فالى حد ما هي كائنة وبوصفها أن لها بصراً فلقد أحست بنفسها على أنها مركز عالم ضوء) ، والآن فانها تصبح « روحاً » ، وأعني بذلك فهماً مجرداً « يعرف » نفسه على هذا الشكل ، وعما قريب جداً ستبدأ هذه « الأنا » لا باعتبار هذا العالم المحيط بنفسها فقط ، بل باعتبار ايضاً المتبقي من مركب الحياة ، جسمها الخاص ، بوصفه نوعيا دون ذاتها . وهذا الأمر ليس واضحاً فقط من خلال قامة الانسان المنتصبة علاء ، بل انما هو واضح ايضاً من التشكيل الذهني الكامل لرأسه ، حيث تصبح فيه العينان والجبهة والصدغان أكثر فأكثر وسائل نقـــل التعبير .

إذن فمن الواضح أن الفكر عندما أصبح مستقلاً فانه اكتشف لنفسه صيغة جديدة من نشاط ، وقد أضيف الى الفكر العملي الموجه نحو دستور اشياء الضوء ، هذه أو تلك النتيجة العملية ، أقول أضيف اليه الفكر النظري الثاقب الناقد الذي

فأخذ على نفسه اقامة دستور هذه الاشياء « في ذواتها» أي The Natura Rerum بالضوء مُجرد من ذاك الذي يُرى ، وتقوم خبرة العمق للعين بتقوية نفسها خلال سياق عظيم لا يحتمل الخطأ لتطور يفضي بها الى خبرة عمق داخل ميدان مضامين الكلمة الناصع البياض . وهنا يبدأ الانسان بالاعتقاد بأنه ليس بالمستحيل على عينه أن ترى مباشرة من خلال الاشياء الموجودة فعلاً . وهنا يأخذ مفهوم برقبة مفهوم حتى تنهض أخيراً هندسة معمارية جبارة لفكر تتألف من أبنية تنتصب بوضوح كامل تحت الضوء الباطني .

إن تطور الفكر النظري داخل الوعي البشري اليقظ يُولّد نوعاً من نشاط يفضي الى نزاع جديد محتوم ينشب بين الكينونة (الوجود) وبين الكينونة اليقظة (الوعي اليقظ) . فالكون الحيواني الأصغر الذي يجتمع فيه الوجود والوعي في وحدة حياة غنية عن البيان ، لا يعرف في الوعي سوى خادم للوجود . فالحيوان « يعيش » ببساطة ولا يُمعن النظر في الحياة . وعلى كل حال ، ونتيجة للسلطة المطلقة غير المشروطة التي تمارسها العين ، تُعرض الحياة بوصفها الحياة الذاتية منظورة في الضوء ، وعندما يشتبك الفهم والنطق ، فعندئذ يشكل الفهم مفهوماً لفكر ويشكل مع هذا المفهوم مفهوماً للحياة مضاداً لذاك ، وفي النهاية يميز الحياة كما هي حالها من حال الحياة التي يمكن أن تصير اليها . وهكذا يصبح لدينا بدلاً من العيش المباشر غير المعقد النقيض الذي تعبر عنه شبه الجملة « الفكر والعمل » ولا يصبح ذاك الذي هو مستحيل في الحيوان ممكناً لدى كل انسان فقط ، بل انما يصبح حقيقة ايضاً ، ويمسي في النهاية بديلاً . والحق أن النقيض Autithesis هو الذي شكل كامل تاريخ البشرية الناضجة بكل ما لهذا التاريخ من ظاهرات ، وكلما ارتقت الحضارة شكلاً ، كلما تزايدت سيطرة النقيض على اللحظات الخطرة الشأن لكينونتها اليقظة .

ان الكوني الشبيه بالنبات والكينونة المثقلة بالمصير والدم والجنس ، جميع هذه الأمور تمتلك سيادة وتفوقاً يعودان الى ما قبل كل تاريخ ، وقد حافظت على

سيادتها تلك وتفوقها هذا لأنها هي الحياة . أما الآخر (الكوني الأصغر المترجم) فانما يخدم فقط أغراض الحياة ، لكن هذا الآخر ، لا يريد أن يخدم، بل انما يريد أن يسيطر ويحكم ، زد على ذلك أنه يؤمن بأنه يسيطر ويحكم فعلاً ، لأن من أشد المزاعم جزماً التي تزعمها الروح البشرية ، زعمها القائل بأنها تمتلك سلطاناً على الجسد وعلى «الطبيعة » . ولكن سؤالنا هو : أليس هذا الايمان بحد ذاته هو خدمة للحياة؟ ولماذا يفكر فكرنا على هذه الشاكلة تماماً ؟ ربما كان الكوني الـ ـــ هو (لغير العاقل) it هو الذي يريد لفكرنا أن يفكر على هذا النمط ؟ ان الفكر يستجلب الانظار الى قواه عندما يدعو الجسد وهماً وتصوراً (Notion)وعندما يقيم الدليل على حقارة الجسد ويأمر أصوات الدم بالصمت . ولكن الدم هو الذي يحكم حقاً وواقعاً ، وذلك في أنه يأمر بصمت وهدوء نشاط الفكر بأن يبدأ وأن يتوقف . وهناك ايضاً فرق بين النطق والحياة ، فالكينونة تستطيع أن تستغني عن الوعي وحياة الفهم وليس العكس بالعكس . وبالرغم من كل هذا فان الفكر يسيطر ويحكم في « ميدان الفكر » فقط .

-٣-

الحق ، أن الفرق بين قولنا بأن الانسان قد خلق الفكر ، وبين قولنا بأن الفكر قد خلق الجنس البشري الأرقى ، لا يعدو كونه فرقاً شفوياً. لكن الفكر يضفي لحوحاً على نفسه شرف رتبة بالغة الرفعة في مجموع الحياة ، وهو بجهله أو بلا مبالاته بالحقيقة القائلة بأن هناك صيغاً اخرى للتحقق والاثبات الى جانب صيغه ، يفقد فرصته في مراقبة الكل دون هوى أو تحيز . والحق أن جميع اساتذة الفكر (وهؤلاء كانوا وحدهم تقريباً الناطقين الرسميين في كل حضارة) قد اعتبروا من البدهيات كون الفكر التجريدي البارد هو الطريق لبلوغ « آخر الاشياء » . زد

على ذلك انهم قد زعموا ايضاً ، بأنه لمن الغني عن البيان ، بأن الحقيقة التي يبلغونها وهم يتقدمون على هذه الطريق هي الحقيقة ذاتها التي وضعوها نصب أعينهم هدفاً لهم ، وانها ليست كما هي فعلاً حالها ، بوصفها نوعاً من صورة متخيلة تحل محل الاسرار المستعصية على المعرفة

وذلك لأنه بالرغم من ان الانسان هو كائن مفكر ، إلا انه بعيد كل البعد عن الحقيقة القائلة بأن كينونته تتوقف على تفكيره . وهذا هو فرق لا يستطيع أن يدركه المتحذلق بالفطرة . ان هدف الفكر يدعى « حقيقة » والحقائق « تقام » (وأعني بهذا انها تستخرج من اللاحسية الحية لعالم الضوء في شكل مفاهيم ، ويعين لها دائماً أماكن في منهاج لا يعني سوى أنه نوع من فراغ ذهني . زد على ذلك أن الحقائق هي مطلقة وخالدة ، وأعني انه ليس لها من عمل اكثر في الحياة.

ولكن لا توجد هناك حقائق بالنسبة الى الحيوان ، بل انما توجد فقط وقائع Facts ، وهنا يكمن الفرق بين الفهم العملي والفهم النظري . فالوقائع والحقائق تختلف اختلاف الزمان والفراغ ، المصير والسببية (العلية) .

فالواقعة تتوجه بذاتها الى كامل الوعي اليقظ وذلك من أجل خدمة الكينونة ، ولا تتوجه بنفسها الى جانب الوعي اليقظ ذاك الذي يتصور ان بمقدوره أن يفصل ذاته عن الكينونة . فالحياة الواقعية والتاريخ لا يعرفان سوى الوقائع ، وخبرة الحياة ومعرفة الناس تتعاملان فقط مع الوقائع ، كما وان الانسان النشيط الذي يفعل ويريد ويعزم ويقاتل ويقارن يومياً بين نفسه وقوى الوقائع ، ينظر باحتقار الى الحقائق المجردة بوصفها غير ذات بال . ورجل الدولة الأصيل لا يعرف غير الوقائع السياسية لا الحقائق السياسية . والحق أن سؤال بيلاطوس [1] المشهور هو سؤال كل انسان .

---

١ – يعني سؤال بيلاطوس البنطي للسيد المسيح : ما هي الحقيقة ؟

(المترجم)

لقد كان من اعظم منجزات نيتشه، أنه جابه العلم بمعضلة قيمة الحقيقة والمعرفة، بالرغم من ان هذه المجابهة تبدو رخيصة وحتى كافرة في نظر المفكر أو العلامة بالولادة ، حيث يعتبرها أنها تطعن في كامل العقل بذاته وديكارت تعمد الشك في كل شيء ، ولكنه لم يتعمد أكيداً الشك في قيمة شكه .

وعلى كل حال فهناك فرق بين أن تعرض مشاكل ومعضلات وبين أن تؤمن في حلولها .

ان النبات يعيش ولا يدري بأنه يعيش، والحيوان يعيش ويعرف بأنه يعيش، لكن الانسان يرعب من الحياة ويذهل ويطرح الاسئلة عنها، ولكن حتى الانسان لا يستطيع أن يجيب على اسئلته الخاصة ، فهو بمقدوره فقط أن يؤمن بصواب جوابه ، ومن هذه الجهة لا يوجد هناك أي فرق بين ارسطوطاليس وبين أحط البشر بدائية .

فمن أين ينشأ اذن الارغام على حل الاسرار وتفسيرها والاجابة عن الاسئلة ؟ ألا ينشأ من ذاك الخوف الذي يطل حتى من عيني طفل ، الخوف ، هـذا المهر المرعب الذي دفعـــه الوعي الانساني اليقظ الذي يرغم الفهم الطليق الآن من الاحساس والمحتضن لصوره ، على ان يسبر الاغوار تفتيشاً عن الحلول التي تعني فرجاً وانعتاقاً ؟

« إن الرعب الراجف هو أنبل دور للجنس البشري » فهذا الذي حرمه القدر من هذه النعمة (الدور) يتوجب عليه ايضاً ان يسعى ليكتشف الاسرار، ويهاجم ويشرح ويدمر ما يثير الرعب ، وان يستخلص منه غنيمة من المعرفة . فالارادة - المنهاج هي ارادة - لقتل شيء ما حي بغية « اقامته دليلاً » واقراره وتخشيبه وقطره بسلسلة المنطق . والذهن يكتسح ويظفر عندمـــا ينتهي من عمله في التخشيب .

إن التمييز الذي يحدده عـــادة بين « العقل ». (Reason) وبين « الفهم » (Understanding) هو في حقيقته تمييز بين العلم بالغيب (Divination)

وبين قوة التمييز الفطرية (Flair) ، التي تنتمي الى الجانب النباتي من حياتنا ، هذا الجانب الذي يستخدم فقط لغة العين والكلمة، والفهم بذاته ينتمي الى الجانب الحيواني من حياتنا المستنتج من اللغة . و « العقل » وفق هذا المفهوم هو ذاك الذي يستدعي الفكرات الى الحياة ، أما الفهم فهو الذي يجد « الحقائق » . والحقائق هي معدومة الحياة ويمكن أن تعطى ويبلغ بها ، أما الفكرات فانها تنتمي الى الذات الحية لمؤلفها ولا يمكن للمرء اكثر من أن يتعاطف مع شعور مؤلفها (Mitgefuhlt) . زد على ذلك أن الفهم هو في جوهره انتقادي ، بينما ان «العقل» هو خلاق ومبدع ، فالأخير يلد بموضوع نشاطه ، أما الاول فانه يبدأ منه . والحق ان الانتقاد الفاهم قد مورس أول ما مورس وطور في اتحاده والاحاسيس العادية ، فبواسطة احكام الاحساس يتعلم الطفل الادراك والمفاضلة . وعندما تحرر الانتقاد من ارتباطه والاحاسيس وانهمك بعد تحرره في شؤون نفسه، أمسى بحاجة الى بديل لنشاط الاحساس الذي كان موضوعه فيما مضى، ولكن الانتقاد لا يمكن أن يعطى هذا البديل إلا بواسطة صيغة فكر هي قائمة وموجودة منذ حين ، والانتقاد مرتكزاً الى هذه الصيغة يعمل الآن وينشط . وهذه الصيغة وحدها ، ووحدها فقط ، وليس شيء ما يبني طليقاً على اللاشيئية ، هي الفكر .

وبزمن طويل،قبل أن يبدأ الرجل البدائي بالتفكير تفكيراً تجريدياً،يشكل لنفسه صورة عالم دينية ، وهذه الصورة هي الموضوع التي يبدأ الفهم بالعمل فيها نقداً وتنديداً ، ضبطاً واحكاماً . فالعلم كان دائماً وأبداً ينمو على دين ما وكان عليه يشب ويترعرع ، ويشتد ساعده تحت مؤثرات الممتلكات السابقة لهذا الدين ، وهو دوماً لا يشير الى اكثر من تحسين أو اصلاح لتلك العقائد المعتبرة خاطئة بسبب انها أقل تجريداً .

والعلم يحمل أبداً معه نواة دين يكتنف بمجموع مبادئه واعلاناته عن معضلته ومناهجه . وكل حقيقة يعثر عليها الفهم ليست اكثر من حكم انتقادي صادر على حقيقة ما اخرى كانت قائمة وموجودة. ان الاستقطابية بين المعرفة القديمةوالجديدة

تشتمل على نتيجة تقول بأن هناك في عالم الفهم يوجد شيء ما صحيح صحة نسبية فقط ، وأعني بهذا وجود أحكام ذات قوة اقناع اضخم من قوة احكام اخرى . فالمعرفة الانتقادية ترتكز على الايمان بأن الفهم في هذا اليوم هو أحسن حالاً من حاله في الأمس ، أما الذي يرغمنا على هذا الايمان فانه الحياة ثانية .

فهل يستطيع الانتقاد كانتقاد أن يحل المشاكل العظمى ، أو انه يستطيع فقط أن يعرضها ؟ اننا في بداية المعرفة نؤمن بقدرته على حلها ولكننا كلما ازددنا علماً نزداد قناعة بقدرته على عرضها فقط . وطالما لا تزال قلوبنا تنبض بشيء من أمل فاننا ندعو السر بمشكلة أو معضلة .

وهكذا فانه توجد هناك بالنسبة للجنس البشري الواعي معضلة مزدوجة : الكينونة اليقظة ، والكينونة ، أو معضلة الفراغ ومعضلة الزمان ، أو معضلةالعالم كطبيعة ، ومعضلة العالم كتاريخ ، أو معضلة النبض ومعضلة التوتر . ان الوعي اليقظ لا يستهدف أن يفهم ذاته فقط ، بل انما يسعى بالاضافة الى هذا الى فهم شيء ما شبيه بذاته . وبالرغم من أن صوتاً باطنياً قد يقول للانسان بأن جميع امكانات المعرفة بهذا الشيء ما قد خُلفت وراء ، الا أن الخوف ، بالرغم من هذا الصوت ، يكتسحه (يكتسح كل انسان) قناعة ورغبة ، وهكذا يسترسل الانسان في سعيه وبحثه مفضلاً الزعم بحل ، على البديل لهذا الزعم ،ألا وهو التحديق فيالعلوم (اللاشيئية) .

- ٤ -

ان الوعي اليقظ يتألف من الاحساس والفهم ، أما الجوهر المشترك بين هذين فانما هو ملاءمة ذات مستمرة والكون الكبير . والى هذا الحد ينطبق الوعيالبقظ

على التأكيد والاثبات ، أكنا نعالج ملمس تفكير حيوان نقاعي Infusorian أو ملمس تفكير انساني من أرفع طراز . ولما كان الملمس وذاته على هذا النمط ، فاننا نشعر بأن الوعي اليقظ يجابه أول ما يجابه المشكلة الابستمولوجية . فما الذي نعنيه بالمعرفة أو بعلم المعرفة ؟ وما هي العلاقة التي تربط بين معاني هذه المصطلحات وبين صياغتها في كلمات فيما بعد؟ ان اليقظة والنوم متعاقبان متتاليان كالليل والنهار ، وذلك وفق مدارات الكواكب ومساراتها ، وهكذا ايضاً فان المعرفة تتلو الاحلام وتعقبها . فما هي أوجه الخلاف بين هذه وتلك ؟ ان الوعي اليقظ ،على كل حال ، (أكان وعي الاحساس أم وعي الفهم) هو مرادف في معناه لوجود التعارضات كتلك التعارضات القائمة بين المعرفة والموضوع المعروف ، أو بين الشيء والخاصة ، أو بين الموضوع والحدث . ففي أي شيء يكمن جوهر هذه التعارضات ؟

وهكذا تنشأ مشكلة ثانية ، هي مشكلة السببية (العلية) فعندما نطلق اسمي « العلة» و «المعلول» على زوجين من عناصر حسية ، أو اسمي «المقدمة» و«النتيجة» على زوجين من عناصر ذهنية ، فعندئذٍ نكون بعملنا هذا نثبت بين هذين العنصرين علاقة من القوة والمرتبة (Power and Rank) ، فحينما توجد الأولى يجب أن توجد الثانية حتماً . ولتلاحظ أنه لا وجود اطلاقاً للزمان في هذه العلاقات.فنحن لا نهتم هنا بوقائع المصير ، بل انما نهتم بالحقائق السببية (العلية) ، ولا نشغل أنفسنا بالـ « متى» When بل انما نشغل ذواتنا بارتباط محدد تحديداً قانونياً . ولا شك في أن اسلوب نشاط الفهم هذا ، هو أوفر أساليب الفهم أملاً .

وربما كان الفضل كل الفضل في تمتع الجنس البشري بأسعد برهات حياته انما يعود الى الاكتشافات التي حققها هذا النظام من الفهم ، (العلة والمعلول ، المقدمة والنتيجة ــ المترجم) فالجنس البشري ينطلق من هذه التعارضات في أشياء الحياة اليومية من قريبة وحاضرة ، والتي تنزل فوراً به ، أقول ينطلق قدماً الى الامام الى سلاسل غير متناهية من الاستنتاجات ، الى العلل الأولى والنهائية في تركيب

Structure الطبيعة التي يدعوها الله ، والى مغزى العالم ومفهومه .

فالجنس البشري يجمع وينظم ويراجـــع منهاجه ، مذهبه (Dogma) في العلاقات الخاضعة للقانون ، ويجد فيه ملجأ وملاذاً مما لا يستطيع أن يراه مسبقـاً ويتنبأ به ، فذاك الانسان الذي يستطيع يثبت ويقيم الدليـل ، لا يعود الخوف يعرف الى قلبه سبيلاً ولكن أين يكمن جوهر السببية (العلية) ? فهل يكمن في المعرفة أو في المعروف أو في اتحاد هذين ?

ان عالم « التوترات » بحد ذاته متخشب بالضرورة وميت ، واعني بذلك، انه عالم « الحقيقة الخالدة » وهذه هي شيء ما يقع ما وراء كل زمان ، انها شيء مـا هو حال أو وضع (State) . والعالم الواقعي للوعي اليقظ هو على كل حال مليء بالتبدلات والتغيرات ، وهذا الواقع لا يذهل الحيوان من قريب أو بعيد ، لكنه يترك فكر المفكر عاجزاً عديم الحيلة ، وذلك لأن السكون والحركة ، الديمومة والتبدل ، الصير والصيرورة ، هي تعارضات تشير الى شيء ما « يتخطى في جوهر طبيعته كل فهم » ولذلك يجب أن يحتوي (من وجهة نظر الفهم) على محـالية وبطلان . لأنه هل تعتبر واقعة تلك التي تبرهن عن عجزها عن ان تقطر من عالم الحس في شكل حقيقة ? ومن جهة اخرى ، ومع ان العالم يعرف بوصفه عالمـاً معدوم الزمان ، الا أن عنصراً من زمان يلازمه بالرغم من هـذا ، فالتوترات تبدو كإيقاع ، والاتجاه يخرط ذاته في سلك الامتداد ، وهكذا يجمع على شكل ما كل ما هو مبهم وغامض ، بالنسبة الى الوعي الفاهم ، نفسه في معضلة اخيرة هي أشد المعضلات خطورة ، وأعني بها معضلة الحركة . وعلى صخرة هـذه المعضلة يتحطم الفكر الحر والتجريدي ، ونبدأ ندرك أن الكوني الأصغر هو في نهـاية المطاف يعتمد دائماً وابداً على الكوني ، حاله في ذلك ، حال فردية كائن ما الذي لا يتكون منـذ لحظته الاولى بواسطة جسم ، بل إنمـا يتكون بواسطة غمد جسم .

ان الحياة تستطيـع ان توجد دون فكر ، لكن الفكر هو صيغة واحدة فقط

من صيغ الحياة . ومهما قد تبلغ مكانة الموضوعات التي يضعها الفكر نصب عينيه رفعة وسمواً ، فان الحياة تستخدم، في الواقعة ، الفكر لأغراضها وتعطيه موضوعاً حياً منفرداً تماماً عن حل المشكلات التجريدية . فحلول المشكلات بالنسبة الى الفكر هي اما صحيحة أو خاطئة، أما هذه الحلول بالنسبة الى الحياة فهي اما حلول ذات قيمة أو غير ذات قيمة ، واذا ما كانت الارادة - للمعرفة تتحطم على معضلة الحركة ، فقد يكون سبب انحطامها يعود الى أن غرض الحياة قد بلغ وأنجز في هذه النقطة (معضلة الحركة - المترجم) . وبالرغم من هذا ، وفعلاً بسبب هذا تبقى معضلة الحركة مركز الثقل لكل فكر أرقى ، فكل ميثالوجيا وكل علم طبيعي قد انبثقا عن عجب الانسان وذهوله من سر الحركة .

ان معضلة الحركة تمس فوراً اسرار الوجود التي هي غريبة عن الوعي اليقظ ومع هذا فانها تضغط عليه ضغطاً لا يرحم . ونحن حينما نعرض الحركة فانما نؤكد على ارادتنا العازمة على ادراك اللا مدرك ، ادراك الـ - متى ، والـ - إذن ، المصير والدم وكل ما يلامسه مجرانا الوجداني في أعماقنا . ولما كنا قد ولدنا لنرى لذلك نكدح لنضع اللامدرك في الضوء ، أمام أعيننا كي نتمكن من ادراكه بالمفهوم الحرفي الحسي لكلمة ادراك، وأن نؤكد لذواتنا على انه شيء ما محسوس، وذلك لأن المراقب لا يستهدف في كل جهوده الحياة بل انما يستهدف مشاهدة الحياة ، وهو لا يستهدف الموت بل مشاهدة الموت، وهذه هي الواقعة الحاسمة التي لا يعيها المراقب . فنحن نحاول ادراك الكوني كما يبدو في الكون الكبير في نظر الكون الأصغر بوصفه حياة جسم في عالم الضوء الممتد بين الولادة والموت ، بين التوليد والانحلال ، وان ندرك مع هذا المفاضلة بين الجسم والنفس ، هذه المفاضلة التي تتبع نتيجة لأعمق الضرورات ، نتيجة لمقدرتنا على اختبار ما هو ذاتي باطناً كغريب حساً .

إن كوننا لا نحيا فقط ، بل اننا نعرف عن « امور الحياة » هو نتيجة لوجودنا

الجسدي في عالم الضوء . لكن الحيوان يعرف الحياة فقط ولا يعرف الموت . فلو اننا كنا اشياء شبيهة بالنبات ، لتوجب علينا أن نموت دون أن نعي الموت ، لأن الاحساس بالموت والموت همـــا أمران ينطبق الواحد منهما على الآخر . لكن الحيوانات بالرغم من سماعها لصرخات الموت ومشاهدتهـا للجسم الميت واستروائها لتعفن الجسد، الا أنها تتملى الموت بأنظارها دون أن تدركه أو تفهمه . ولم يصبح الموت اللغز العظيم في نظر الانسان فيما حوله من عالم الضوء إلا عندما انفصل الفهم بواسطة اللغة عن الادراك البصري المجرد . وهنا ، وهنا فقط ، تمسي الحياة مقياساً قصيراً الزمان ، مقياساً طرفه الاول الولادة والاخير الموت ، زد على ذلك ان نشوء السر العظيم الآخر ، سر التوليد ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالموت . وهذا هو الذي يجعل حب الرجل والمرأة ، وحب الأم والطفل وشجرة الاجيال ، والعائلة والناس ، وهكذا واخيراً تاريخ العالم نفسه وقائع المصير ومعضلاته اللامتناهية في عمقها والكائنة وجوداً . وتلازم الموت ، بوصفه نصيب كل كائن انساني ولد في الضوء ، فكرة الذنب والعقاب ، فكرة الوجود ككفارة ، فكرة وجود حياة جديدة ما وراء عالم هذا الضوء ، فكرة خلاص تضع حداً للخوف من الموت ونهاية له . ومن معرفتنا بالموت تتولد تلك النظرة الى العـــالم التي نمتلكها بوصفنا اناساً ولسنا بحيوانات.

- ٥ -

هناك رجال مصير بالفطرة ورجال سببية (علية) بالولادة . إن عالمـاً كاملاً يفصل بين الانسان الذي يحيا الحياة المجردة (كالفلاح والمحارب ، رجل دولة وقائد عسكري ، رجل عالم ورجل عمل ، وككل انسان يريد أن ينجح ، أن يحكم ،

أن يقاتل ، أن يغامر ، وكالمصمم المنظم أو المقاول (المتعهد ـ الملتزم) أو المغامر أو القاتل المأجور أو المقامر) وبين الانسان الذي كتب عليه ، إما لسبب قوى عقله أو نتيجة لخلل أو عيب في دمه ، أن يكون رجل ذهن (كالقديس والكاهن والعلامة والمثالي والايديولوجي) .

ومن النادر أن نجد هناك من إنسان ذي أهمية ما في أي حقل ، لم تسيطر عليه بصورة بارزة الكينونة أو الكينونة اليقظة ، النبض أو التوتر ، النوازع أو الفكرات ، الاعضاء الدورية أو اعضاء اللمس . فكل ما يحرك ويحرض عين الناس والاوضاع ، والايمان بالبرج (بالطالع) الذي يمتلكه كل انسان هو رجل فعل بالنظرة ، وهذا الايمان هو شيء ما يختلف كل الاختلاف عن الايمان بصحة وجهة نظر ما ، وأصوات الدم الذي ينطق في لحظات الحسم ، والقناعة الوطيدة الراسخة التي تبرر أية غاية أو وسيلة ، كل هذه الأمور قد حرم منها الانسان النقاد المتأمل .

إن ، حتى لو قع قدم رجل الفعل ، جرساً يبدو كأنه اكثر رسوخاً من وقع قدم المفكر الذي يخيل له أن العنصر الكوني الأصغر المجرد فيه لا يستطيع أن يكتسب علاقة راسخة بالارض .

ان المصير قد خلق الانسان على هذه الشاكلة أو تلك ، فهو إما داهية مراوغ خجل من الواقعة ، وإما نشيط فعال يتكبر على الفكر . فالانسان من المرتبة الفعالة هو انسان كامل ، بينما ان الانسان من المرتبة التأملية هو مجرد عضو واحد يستطيع ان ينشط دون (وحتى ضد) الجسد . واسوأ ما في الأمر هو عندما يحاول هذا العضو أن يسيطر على الواقعة وعلى عالمها الخاص ، وذلك لأننا نحصل عندئذ على كل تصاميم الاصلاح الاخلاقية السياسية ـ الاجتماعية التي تثبت بما لا يدحض أو يرد كيف يتوجب على الاشياء أن تكون و كيف ينطلق الى صنعها على هذه الشاكلة ، وهذه هي نظريات ترتكز جميعها ودون استثناء على الفرضيات العلمية القائلة بأن جميع الناس هم اثرياء في الفكرات وفقراء في النوازع كواضع هذه

النظريات أو مؤلفها (أو كما يعتقد هذا المؤلف نفسه) . ان نظريات كهذه، حتى عندما تنطلق في الميدان متسلحة بكامل سلطة دين من الاديان أو بمهابة اسم شهير ووقاره ، أقول ان هذه النظريات لم تؤثر ، ولو في مثال واحد ، في أبسط تعديل أو تبديل يطرأ في الحياة ، (لاحظ قال في لا على الحياة . المترجم) بل انما دفعت بنا فقط الى التفكير بالحياة بأسلوب مغاير لما كان لنا من سابق اسلوب ، وهذا هو تماماً وأكيداً قضاء العصور « المتأخرة زمناً » للحضارة وقدرها ، العصور التي تكثر فيها الكتابات والقراءات التي تستلزم أبداً الخلط بين التعارض القائم بين الحياة والفكر -عن- الحياة والفكر -عن- الفكر . إن كل محسّني- العالم والكهنة والفلاسفة يجمعون على الاصرار على أن الحياة موضوع مناسب لأجمل تأمل ، لكن الحياة تسير في طريقها الخاص ولا تهتم أدنى اهتمام بما يقال عنها . وحتى عندما تنجح طائفة من الطوائف في العيش « وفقاً لقانون » ، فان كل ما تنجزه هو في أحسن حال ، مجرد حاشية ترد عنها في تاريخ يدون مستقبلاً للعالم ، وذلك اذا ما وجدت هذه الحاشية مكاناً لها في صفحات ذاك التاريخ عقب أن يكون قد عالج مادة موضوعه الوحيدة في أهميتها وأصالتها . وذلك لأنه ، في نهاية المطاف ، لا يعيش غير الانسان الفعال ، انسان المصير في العالم الواقعي ، علم القرارات السياسية والعسكرية والاقتصادية ، حيث لا قيمة فيه للمفاهيم والمناهج أو وزن ، فهنا الضربة الأريبة أثقل وزناً من الاستنتاج الأريب ، وهناك مغزى في نظرة الاحتقار التي كان ابداً ودوماً رجال الدولة والقادة العسكريون يحدجون بها « ديدان الكتب » و « مريقي المداد » الذين يعتقدون بأن تاريخ العالم انما يوجد من أجل الذهن أو العلم أو حتى الفن . ولنقلها بصراحة بأن الفهم المنعزل عن الاحساس هو جانب واحد فقط من جوانب الحياة وهو ليس بالجانب الحاسم منها . فتاريخ الفكر الغربي قد لا يحتوي على اسم نابليون ، لكن أرخميدس مع كل ما لهذا من اكتشافات ، هو في تاريخ الواقعة، أقل أثراً من الجندي الذي قتله عندما اقتحمت سيراكوس .

ان أرباب النظريات يقترفون خطأ جسيماً عندما يعتقدون بأن مكانهم هو رأس

الأحداث العظمى وليس حلقة في سلسلتها ، وهم يسيئون فهم الدور الذي لعبه مثلاً السفاسطة السياسيون في أثينا أو فولتير وروسو في فرنسا إساءة تامة . فكثيراً من الاحيان لا « يعرف » رجل الدولة ماهية العمل الذي يقوم بـه ، لكن جهله هذا لا يمنعه من أن يتبع ، بيقين وقناعة ، ذاك الدرب الواحد تماماً الذي يفضي به الى النجاح ، بينما ان الرجل السياسي النظري هو على العكس تماماً من رجل الدولة، إذ انه يعرف ما الذي يتوجب عمله ، ومع ذلك فان فعاليته حالما لا تعود محدودة بالقرطاس ، تصبح أقل الفعاليات نجاحاً وابخسها قيمة في التاريخ .

ان هذه التطفلات التي يقوم بها النظريون تحدث اكثر مـا تحدث في أزمان الحيرة والالتباس، كزمن عصر التنوير الاتيكي، أو كالثورتين الفرنسية والالمانية، وذلك حينما يتوق ايديولوجي الكلمة أو القلم الى إشغال نفسه بالتـاريخ الواقعي للناس بدلاً من إشغالهـا بالمناهج . وهنا يخطىء الايديولوجي مكانه ، فهو لا ينتمي بمبادئه ومناهجه الى أي تاريخ ، ما عدا تاريخ الآداب . والتاريخ الحقيقي يدينه ويحكم عليه ، وهذه الادانة لا تتمثل في مناقشة التاريـخ الحقيقي للانسان النظري ومجادلة نظرياته ، بل انما تتمثل في تركه وترك كل افكاره له .

ان باستطاعة افلاطون أو روسو (ناهيك بالاذهان الذين هم أصغر من هذين) أن يبنيا تراكيب تجريدية سياسية، ولكن هذين كانا في نظر الاسكندر ،سيبيو ، قيصر ونابليون ، بما لهؤلاء من خطط ومعارك وتسويات ، مجردين إطلاقاً من كل أهمية ، فالمفكر يستطيـع أن يبحث في المصير اذا ما رغب في ذلك ، لكنه كان يكفي اولئك ان يكونوا مصيراً .

ومن بين كامل وفرة الكائنات الكونية الصغرى نصادف بصورة مستديمـة تشكل وحدات - جمهور ملهمة ، وهذه الوحدات ، أنمت نمواً بطيئاً أو اندفعت الى الوجود خلال برهة ، انما تحتوي على كل أحاسيس الفرد وعواطفه، وهي غامضة مبهمة في طابعها الباطني ومستعصية على المحاكمة العقليـة بالرغم من أن الخبير العليم

يستطيع أن يغوص ، بما فيه الكفاية ، في دراسة ردود افعالها وتأملها . وهنا نميز ايضاً الوحدات النوعية الحيوانية المحسوسة ، هذه الوحدات التي تعتمد اعتماداً كلياً وعميقاً على الكينونة والمصير ، (مثلاً كطريق نسر في الهواء) من الصلات الانسانية المجردة التي تعتمد على الفهم وتتفق وأسس آراء واغراض ومقاصد ومعرفة مشابهة لأسسها ومماثلة لها . فللانسان وحدة نبض كوني حتى لو لم يردها، أما وحدة الأساس المشترك فانما يكتسبها كما يريد ويرغب . فالمرء يستطيع أن ينتسب أو يستقيل من رابطة فكرية ما ، وهو حر في عمله هذا ، وذلك لأن وعيه اليقظ هو وحده المشترك في مثل هذه الرابطة، ولكن المرء ملتزم بالوحدة الكونية، وكامل كينونته مرتبطة بها . وتعصف بالجماهير ، من هذا النوع من الوحدة ، عواصف الحماس ، أو تهب عليها فوراً رياح الذعر والهلع ، فهم صخابون مذهلون في اليوسيس Eleusis ولوردز ، أو ثابتون ثبات الابطال كإسبرطيي ثرموبيلي و كآخر الغوط في معركة فوسيفيوس[1] (Vesuvius) وهذه الجماهير ذاتها وفق موسيقى التراتيم الكنسية أو موسيقى « المارشات » العسكرية أو الراقصة ، وهي حساسة ، كذي الأرومة الكريمة من البشر والحيوان ، بالألوان الوضاءة والزينة والزي واللباس الرسمي .

ان هذه الجماميع Aggregates (الوحدات الجماهيرية المترجم) تولد وتموت ، أما الروابط الذهنية فهي مجرد مجاميل Sums في المفهوم الرياضي تختلف حالها في الجمع (+) عن حالها في الطرح(—) إلا اذا، وحتى (كما يحدث أحياناً) تضرب بمجرد مصادفة من رأي ضرباً مؤثراً يبلغ الدم وهكذا تخلق هذه المصادفة فجأة من المجهول كينونة ان الكلمات قد تصبح عند المنعطفات السياسية مصائر وآراء وعواطف وهكذا تبصر بجمهور المصادفة يساق قطعاناً في الشارع ويمتلك وعياً واحداً واحساساً واحداً ولغة واحدة حتى يخبو ضياء النفس القصير

---

١ — Vesuvius : معركة نشبت عام ٥٣٣ م بين الغوط والرومان .

— المترجم —

العمر ويذهب ثانية كل انسان في سبيله. وكان هذا الأمر يحدث كل يوم في باريس عام ١٧٨٩ وكلما كانت تبلغ الصرخة القائلة : A la lanterne الأذن .

ان لهذه النفوس سيكولوجيا خاصة،ومعرفة هذه السيكولوجيا أمر جوهري بالنسبة الى رجل يشغل نفسه بالأمور العامة. فنفس واحدة هي طابع كل نظام أو طبقة أصيلة ، أكانت هذه أنظمة الصليبيين من فروسية وعسكرية ، أو مجلس الشيوخ الروماني ، أو النادي اليعقوبي ، أو المجتمع المهذب في عهد لويس الرابع عشر ، أو نبلاء الريف من البروسيين ، أو الفلاحين والنقابات ، أو جماعات الهجرات وقبائلها ، أو سكان وادٍ متوحد منعزل ، أو شعوب الهجرات وقبائلها ، أو أتباع محمد ، أو بصورة عامة اتباع أي دين أو مذهب أسس جديداً،أو فرنسي الثورة أو الماني حروب التحرير .

إن أشد الكائنات ، من هذا النوع الذي نعرف ، جبروتاً هي الحضارات الأرقى التي تولد خلال جيشانات روحية عظمى ، وتصهر خلال الف سنة من وجودها كل الجاميع من مرتبة أدنى (التصورات والطبقات والاجيال) في وحدة واحدة .

ان كل أحداث التاريخ العظمى قد نفذتها وتنفذها كائنات من نوع كوني ، أي الشعوب ، الاحزاب ، الجيوش والطبقات ، بينما أن تاريخ الذهن يجري في مجراه بروابط رخوةودوائر ومدارس ومستويات ثقافة «وميول »و«Isms »وهنا ايضاً فانها لمسألة مصير عما اذا كانت مجاميع (بشرية – المترجم) كهذه نجد في اللحظات الحاسمة ذات الأبلغ تأثيراً قائداً لها ، أو تندفع اندفاعاً أعمى ، وعما اذا كانت المصادفة قد وضعت على رأس هذه المجاميع رجلاً من المرتبة الأولى ، أو أن جيشان الأحداث واضطرامها قد ارتفع الى السطح باشخاص مجردين من العظمة الحقيقية كروبسبيير وبومبي .

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

بلغ التقدير لهذا الكتاب في الغرب حدًّا صُنِّف معه كأعظم مؤلَّف صدر في النّصف الأوّل من القرن العشرين ؛ فهو كتابٌ يعالج جميع مواضيع الحضارات الإنسانية وانجازاتها مِنْ فنّ وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، فاشبنغلر يرى أنّ كلّ حضارة من الحضارات هي كل متكامل غير قابل للتجزئة وظاهرة أوليّة متفرّدة ، وذلك لأنّ لكلّ حضارة نفساً أوليّة واحدة تنطلق عنها ، وتعبّر برموزها عن نوازعها وطاقاتها ؛ وأنّ تلك الظاهرة وهذه النفس وهذه الرموز هي التي تسيطر وتوجّه جميع نتاج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، لهذا سيجد القارئ اشبنغلر يعالج في هذا الكتاب الضخم جميع هذه الفروع الحضارية ، وسيراه يستشهد بالموسيقى وهو يبحث في الرياضيات ، ويدلل على صحة أقواله بالدين وهو يتحدث عن النحت والتصوير ، ويقتبس براهينه من الطقوس المذهبية أو الدينية ليثبت نظرياته في الهندسة المعمارية ، ويختار دليله من الرقم الرياضي ليبرهن على صحة نظريته في الجنس . لهذا فإنّ القارئ سيذهل لوفرة معلومات اشبنغلر الموسوعية وسيعجب بمنطقه المنسّق والدقيق الملاحظة في هذا الكتاب .

من مقدمة المترجم

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية

الجزء الثاني



ترجمة

أحمد الشيباني

أسوالد اشبنغلر

تدهور الحضارة الغربية

ترجمة

أحمد الشيباني

الجزء الثاني

★

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الفهرس

الفصل الثالث عشر

الأصل والمنظر الطبيعي

(ب)

مجموعة الحضارات الأرقى

– ١ –

والآن ، فإن الانسان ، بغض النظر عما إذا كان قد ولد في هذا العالم من أجل أن يعيش أو أن يفكر ، فانه طالمـــا يعمل فكراً وتصرفاً ، فهو يقظ واع ، ولذلك هو داخل مركز الدائرة ، واعني بذلك انه قد نظم وأعد وفق المغزى الذي يحتويه من أجله عالم الضوء للبرهة التي هو فيها . فكل واحد منا يعلم بانه لمن المؤلم جداً تقريباً أن ينعطف المرء فجأة وهو منهمك مثلاً في إجراء لاحدى التجارب الفيزيائية الى التفكير بحادثة مـا من حوادث اليوم . ولقد قلت في فصل أسبق بان الاوضـاع التي تتنـاوب على وعي الانسان اليقظ تنقسم الى مجموعتين واضحتين مختلفتين ، مجموعـة عوالم المصير والخفقـان Pulsation ومجموعـة عوالم الاسباب (العلل) والتوترات .

أما الصورتان اللتان تشكلها هاتان المجموعتان ، فلقد أسميت الاولى منهما بالعالم

كتاريخ ، والثانية بالعالم كطبيعة . وتستخدم الحيـــاة في الصورة الاولى الفهم التنديدي المحكم ، وفي هذا تخضع العين لامرتهـا ويصبح الخفقان المحسوس سياق التموج وسلسلته المتخيلين باطناً ، وتمـي الخبرة الروحية المدمرة مرسومة بوصفهـا ذروة حقبية (Epochal) أما في الصورة الثانية فان الفكر نفسه هو الذي يسيطر ويحكم حيث يحيل نقده السببي (العلي) الحياة الى عمليـة صارمة وتدرج مدقق ، ويحول المحتوى الحي للواقعـــة الى حقيقة تجريدية ، والتوتر الى دستـور رياضي .

فكيف يمكن أن يكون هذا الأمر ممكناً ؟ إذ إن كلتا الصورتين هما صورتان رسمتها العين ، لكن الناظر يستسلم في الصورة الاولى الى الوقائع التي لا يمكن أن يتكرر حدوثها ، بينما أنه يناضل في الصورة الثانية كي يجمع الحقـائق ويتصيدها من أجل منهاج دائم الصحة . ففي صورة التاريخ ، حيث تحتل المعرفة فيها مكاناً ثانوياً فقط ، فان الكوني (Cosmic) يستخدم الكوني الأصغر وينتفع بـــه . اما داخل الصورة التي ندعوها ذاكرة وتأملا فان الاشياء تحضرنا على الشكل الذي يبرزها فيه ضوء باطني ويظهرها خفقان وجودنا، لكن العنصر الكرونولوجي يعلمنا بأن التاريخ حالما يصبح تاريخ فكر ، فانه لا يعود منيعاً على الظروف الاساسية لكل وعي يقظ. ففي صورة الطبيعة (العلم) فان الذاتي (Subjective) الحاضر أبداً ودائماً ، هو الغريب الوهمي الغرار ، لكن في صورة التاريخ فـان الرقم الموضوعي الذي لا يمكن بالمثل حذفه ، هو الذي يقود الى الخطأ .

وعندما نكون منهمكين في العمل داخل ميدان الطبيعة (العلم) فان اوضاعنا وملاءمات ذاتنا يجب أن تكون ، ويمكن ان تكون الى حد معين أوضـــاع وملاءمات غير شخصية ، لكن كل انسان أو طبقة أو أمة أو عائلة ، ترى صورة التاريخ بالنسبة الى ذاتها .

إن طابع الطبيعة هو امتداد يشتمل على كل شيء ، لكن التاريخ هو ذلك الشيء الذي ينبثق من ظلماء الماضي ويعرض نفسه على الناظر حيث ينطلق منه قدماً

الى المستقبل . ولما كان الناظر بوصفه الحاضر ، فانه يشكل نقطة الوسط ، وانه لمن المستحيل على الناظر أن ينظم الوقائع بأية وسيلة كانت اذا ما كان يجهل وجهة الوقائع واتجاهها ، هذا الاتجاه الذي هو عنصر خاص بالحياة وليس بالفكر . فلكل زمان وأرض ومجموع حي أفقه التاريخي ، وان طابع الفكر التاريخي الاصيل يبتدىء في انجاز صورة التاريخ التي يطالبه بها زمانه .

وهكذا فان الطبيعة والتاريخ يمكن أن يميز بينهما كما يميز بين النقد النقي والنقد غير النقي ، واعني بالنقد الشيء المعاكس للخبرة المعاشة . فعلم الطبيعة هو نقد وليس أي شيء آخر . لكن النقد في التاريخ لا يستطيع اكثر من ان يعد الحقل إعدادا علميا حيث يتوجب على عين المؤرخ أن تصول وتجول . فالتاريخ هو تلك النظرة ذات الامتداد مهما كان الاتجاه الذي تمتد فيه النظرة ، وذاك الانسان الذي يمتلك مثل هذه العين ، يستطيع أن يفهم كل واقعة ووضع فهماً «تاريخياً» . أما الطبيعة فهي منهاج ، والانسان يستطيع أن يدرس المنهاج ويتعلمه .

ان عملية ملاءمة الذات ، ملاءمة تاريخية ، تبدأ بالنسبة الى كل إنسان مع ابكر انطباعات طفولته . فعيون الاطفال ثاقبة النظرات حادتها ، فهم يحسون بوقائع اقرب البيئات إليهم ، أي بوقائع حياة العائلة والبيت والشارع إحساساً يبلغ بهم نواة هذه الوقائع ولبها ، وذلك قبل ان تدخل المدينة وسكانها نطاق بصرهم بزمن طويل ، وحينا تكون كلمات «كالامة» و «الوطن» و «الدولة» لا تزال تفتقر الى معنى حسي بالنسبة للاطفال . وعلى هذه الشاكلة تماماً فـان الانسان البدائي يعرف كل ما يعرض داخل نطاق نظرته الضيقة بوصفه تاريخاً وعيشاً ، ويعرف فوق كل شيء الحياة نفسها ، هذه الدراما المؤلفة من ولادة وموت ، من ولادة وشيخوخة ، من تاريخ حرب شعبي وحب عاطفي كما اختبره داخل ذاته أو لاحظه داخل ذوات الآخرين ، ومن مصائر الاقرباء وعشيرته وسكان قريته ، واعمال هؤلاء ونوازعهم ودوافعهم واساطير عداوات طويلة نجمت عنها معارك وانتصار وانتقام . وهنا يتسع أفق الحياة ، لكنه لا يظهر حياتات بل إنما يعرض

الحياة في اقبالها وادبارها . فالواقعة التاريخية حين تمثلهـا أو عرضها ، لم تعد الآن واقعة محصورة بقرى أو افخاذ أو عشائر ، بل انما أصبحت واقعـة ترتبط بأجناس وبلدان غارقة في القدم ، ولا تعود تقاس بالاعوام بل بالقرون . فالتـاريخ الذي يعيشه الانسان ويشارك فيه لا يتجاوز ابداً في مداه الزمني الجد (Grand Fathen) وهذا القول ينطبق على الالمان كما ينطبق على الزنوج (Negroes) في يومنا هذا، وعلى بركليس وفالنشتاين . فهنا يبدأ أفق النهايات الحية وأفق مستوى جديد حينما تكون الصورة قد اسندت الى روايات وأخبار وتقليد تاريخي، أفق مستوى يلاءم فيه بين العواطف المباشرة وصورة الذهن التي هي واضحة مميزة، ولطول الاستعمال، مستقرة معاً . والشكل الذي طورت وفقه الصورة ، يجعل الصورة تظهر وفرات مختلفة واتساعات متباينة بالنسبة لأمم مختلف الحضارات . أمـــا بالنسبة الينا نحن معشر الغربيين فـان التاريخ الأصيل يبدأ مع هذه الصورة الثانوية ، وذلك لأننا نعيش تحت تأثير نظرتنا الى الخلود ، بينما أن التاريخ ينتهي ، بالنسبة الى الاغريق والرومان ، عند هذه النظرة تماماً . فأحداث الحروب الفارسية من وجهـــة نظر ثوسيديدس، والحروب البونية بالنسبة الى قيصر كانت أحداثاً وحروباً قد جردت منذ زمن من محتواها الحي .

وتنتصب لتطالعنا وراء هذا المستوى صور اخرى لوحدة ، صور مصائر عالم النبات وعالم الحيوان والمنظر الطبيعي والكواكب ، هـذه الصور التي تنصهر في النهـاية وآخر صور العلم الطبيعي لتمسي صوراً اسطورية لخلق العـــالم ونهـايته .

ان الصورة التي يشكلها الطفل والانسان البدائي عن الطبيعـة (العلم) تنشأ من التقنية البسيطة ، لا بل التافهة للحياة اليومية ، وترغم دائماً وابداً كلا منهما على الابتعاد عن التأمل المرعب في الطبيعة الواسعة الفسيحة ليركزا بصريهما على نقد وقائع بيئتيهما القريبة واوضاعها . والطفل حاله كحال الحيوان الحديث السن ، إذ أنه يكتشف اولى حقـائقه بواسطة العبث واللعب . ففحصه « للعبة » وبعجه

للدمية وإدارته للمرآة كي يرى مـــا وراءه ، وشعوره بنشوة الانتصار في تقريره لشيء مـا تقريراً دائم الصحة ، كل هذه الأمور لم يستطع أي نوع من البحث الطبيعي ، أيـاً كان ، أن يتجاوزه . زد على ذلك ان الانسان البدائي يطبق هذه الخبرة النقدية التنديدية ، حالما يكتسبها ، على اسلحته وادواته ، وعلى مواد كسائه وغذائه ومنزله ، واعني بذلك على الاشياء بوصفها اشياء ميتة. كما وأنه يطبقها بالمثل على الحيوانات ايضاً، وذلك حالما لا يعود فجأة لهذه الحيوانات أي معنى في نظره ، بوصفها كائنات حية يترصد حركاتها ويتكهن بها أكان مطارداً او مطارداً ، حيث يدركها ادراكا ميكانيكيا ، بدلاً من أن يعيها وعياً حيـــاً ، كمجاميع من لحم وعظم ينتفع بها انتفاعاً معيناً ، وذلك تماماً كوعيه للحادثة في حالة تلك ، بوصف هذه الحادثة عملاً من اعمال روح خفية ، ومن ثم عقب برهة ، وحين تطور حالة تلك الى حال أخرى ، يعيها كسياق من علة ومعلول . زد على ذلك أن الانسان الناضج في حضارة ما يبدل وفق الطريقة ذاتها تماماً مكان كل يوم وكل ساعة . وهنـا نشهد ايضـاً أفق « طبيعة » ، ويقع وراء هذا الافق مستوى ثانوي شكل من انطباعاتنا عن المطر والبرق والعاصفة والصيف والشتاء واوضاع القمر ومداراتالكواكب . ولكن التدين في هذا المستوى ، هذا التدين الذي يرتعد رعباً وألمـا ، يفرض على الانسان ميزاناً من نوع جد ارقى من ذاك .

وكما أن الانسان يسبر تماماً غور وقائع الحياة ، فانه هنا يسعى لاقامة الحقائق النهائية للطبيعة ، لذلك تراه يسمي كل شيء يقع بعيداً ما وراء حدود المعرفة بالله ، أما كل مـا يقع داخل هذه الحدود فانه يكد ويكدح كي يدركه ويعرفه بوصفه عملاً وخليقة وظاهرة سببية (علية) لله .

لذلك فان لكل مجموعة من عناصر مقررة تقريراً علمياً ، نازعاً ثنائياً فطرياً لم يطرأ عليه أي تبديل منذ العصور البدائية . فالنازع الاول يستحث الانسان قدما نحو اكمل المناهج الممكنة للمعرفة التقنية وذلك من أجل خدمة الغايات العملية من اقتصادية وشبه حربية ، هذه الغايات التي بلغت بها عدة انواع من الحيوان ذروة من

كمال ، والتي ينطلق مباشرة منها ، ابتداء من الانسان ودرايته بالنار والمعادن الى تقنيات الآلة لحضارتنا الفاوستية . أما النازع الثاني فانما تجسد واتخذ له شكلاً فقط بواسطة التفريق بين الفكر الانساني الدقيق وبين الرؤيا الجسمانية ، وذلك بواسطة اللغة ، أما هدف مجهوده فلقد كان ، بالمثل ، معرفة نظرية كاملة ، هذه المعرفة التي نسميها ، في مراحل الحضارة الابكر ، تديناً وفي مراحلها المتأخرة زمناً علمانية .

إن النار هي بالنسبة الى المحارب سلاح ، لكنها بالنسبة الى العامل الماهر عدة ووسيلة ، أما بالنسبة الى الكاهن فهي إشارة من الله ، غير انها في نظر العلماني معضلة . ولكن وفق هذه النظرات ، كلها على حد سواء ، الى النار فان الصيغة العلمية للوعي اليقظ هي خاصة ذاتية من خصائص العامل «الطبيعي» ونحن في العالم كتاريخ لا نجد ناراً على هذه الشاكلة ، بل انما نجد حريق قرطاجة ولهيب النار المنبعث من حزم الحطب التي مدد فوقها جون هوس وجيوردانو برونو .

- ٢ -

انني أعود فأكرر قولي بأن كل كائن يختبر كل كائن آخر اختباراً حيناً من وجهة نظره الخاصة . فالفلاح يرى في سرب من الحمام يحط على حقله غير ما يراه انسان يتعشق الطبيعة في الشارع ، كما وان نظرة الصقر في الجو الى سرب الحمام تختلف عن نظرة كل من الفلاح وعاشق الطبيعة اليه .

إن الفلاح يرى في ابنه المستقبل والميراث ، لكن هذا الابن هو في نظر الجار فلاح وفي نظر الضابط جندي وفي نظر الزائر من سكان الريف الاصليين . لقد كانت خبرة نابليون بالرجال والاشياء ، حينما كان ملازماً في الجيش ، تختلف اختلافاً كبيراً عن خبرته بهم وبها ، عندما امسى امبراطوراً . ولتضع ايها القارىء

أحـد الناس في وضع جديد ، ولتجعل من الثوري وزيراً، ومن الجندي جنرالاً ، عندئذ سيصبح فوراً التاريخ ورجاله الاساسيون في نظر مثل هذا الانسان شيئاً ما يختلف عما كانوه . لقد كان تاليران يسبر اغوار رجال زمانه وذلك لأنه كان ينتمي اليهم ، ولكن لو ان احدهم دفع فجـأة بتاليران الى رفقة كراسوس وقيصر وكاتالين وشيشرون، لجاء فهمه لاجراءات هؤلاء ونظراته اليهم إما باطلاً أو خاطئاً. وليس هناك تاريخ في ذاته . فتاريخ عائلة ما ينظر اليه كل عضو من اعضاء هذه العائلة نظرة تختلف عن نظرة العضو الآخر ، زد على ذلك أن نظرة كل حزب الى تاريخ بلاده تختلف عن نظرة الحزب الآخر ، كما وان لكل أمة نظرة خاصة بها وتختلف عن نظرة الامم الأخرى الى تاريخ العصر . فنظرة الالمان الى الحرب العالمية (الاولى) تختلف عن نظرة الانكليز ، كما وان نظرة العامل الى تاريخ الاقتصاد تختلف ايضاً بدورها عن نظرة رب العمل ، واخيراً فان للمؤرخ الغربي تاريخاً عالمياً يختلف تمامـاً عن التاريـخ الذي يراه كبار المؤرخين من العرب أو الصينيين .

ان الطريق الى معالجة حقبة تاريخية ما معالجة موضوعية تستوجب ان تكون مثل هذه الحقبة غارقة في القدم وتستلزم أن يكون المؤرخ متجرداً تجرداً جذرياً كاملاً من كل مصلحة أو غرض ، ونحن نجد أن مؤرخينا لا يستطيعون ان يحكموا على أو يصفوا حتى الحروب البولوبونيزية ومعركة اكتيوم، دون ان يتأثروا بطريقة ما بالمصالح الراهنة .

انه ليس من المناقض او المضاد، وبالأحرى إنه لمن الجوهري بالنسبة الى المعرفة العميقة بالرجال ، كون المقيم مرغماً على أن ينظر من خلال نظارتين صبغ زجاجتيها بلونه الخاص . والحق أن هذه المعرفة هي تماماً العامل الذي ندرك افتقارنا اليه في تلك العموميات التي تشوه أو تتجاهل كلياً تلك الحقيقة التي ما فوقها حقيقة ، واعني بها جوهر الحادثة في التاريخ، هذا الجوهر الفريد في نوعه وحدوثه . واسوأ مثل على ما أردت هو النظرة « المادية » الى التاريخ ، هذه النظرة التي سبق

لي أن قلت عنها كل ما يتوجب علي قوله تقريباً ، وذلك عندما بحثت العقم السياني . ولكن بالرغم من هذا ووفق هذا معاً، فانه يوجد بالنسبة لكل انسان ، صورة نموذجية للتاريخ ، كما يتوجب على هذه الصورة أن تبدو في نظره ، وذلك لان كل انسان ينتمي الى طبقة وزمان وأمة وحضارة ، كما وأنه توجد بالمثل ايضاً ، صور نموذجية خـاصة بالزمان او الطبقة أو الحضارة وذلك فيما يتعلق بما ذكرت . إن التعميم ، او الاطلاق، الاسمى الممكن لكل حضارة بوصفها كينونة رئيسية ، هو أمر أولي أساسي ، وهو في نظرهـا صورة رمزية لعالمها الخاص كتاريخ ، وجميع ملاءمات Attunements الفرد لذاته ، (أو ملاءمات مجموعة من الناس لذواتها ، مجموعة تنشط نشاطاً حياً بوصفها فرداً) فانما تتم وفق هـذه الصورة واستناداً اليها . وعندما ننعت افكار أحد الناس بأنها عميقة أو سطحيـة ، أصيلة أو تافهة ، خاطئة أو مبتذلة ، فاننا نكون نصدر أحكامنا عليهـا ، دون أن ندري،اعتماداً على الصورة التي تنتصب لنسعر القيمةفي لحظة من نشاط متتال لزماننا وشخصيتنا .

فمن الواضح إذن أن كل انسان ينتمي الى الحضارة الفاوستية يمتلك صورته الخاصة عن التاريخ وذلك الى جانب صور اخرى لا تعد أو تحصى يكون قـد شكلها منذ صباه فيما بعد ، وهذه الصور تتذبذب وتتبدل ، دون انقطاع ، تجاوباً وخبرات اليوم والسنة . ومرة اخرى نقول يا له من اختلاف ذاك الذي يقوم بين الصور التاريخية النموذجية للناس ، ولشتى العصور والطبقات . ويا له من تبـاين يسود بين عالم اوتو الكبير وعالم غريغوري[1] الثامن ، بين عالم دوج مدينةالبندقية وعالم ذاك الحاج المسكين ! ويا لها من عوالم مختلفة متباينة تلك العوالم التي عاش فيها لورنزو دي مديتشي وفالنشتاين وكرمويل ومـارا وبسمارك ، وقن في العصر

---

١ – احد البابوات المشهورين في التاريخ .

(المترجم)

الغوطي وعالم في العصر الباروكي وضابط في حرب الثلاثين عاماً وحرب السنوات السبع وحروب التحرير ! أو لنتأمل في أزماننا التي نعيشها ، ولنمعن النظر في حياة الواقعة لفلاح «فريزي» (Frisian) ، هذه الحياة المحدودة بريفه وأنداده ، وفي حياة تاجر ثري من تجار هامبورج ، وفي حياة بروفسور في الفيزياء ! ومع هذا كله ، وبغض النظر عن العصر الافرادي والمقام والمرحلة، فان هناك عاملاً مشتركاً يميز مجموعة هؤلاء الاشخاص الذين ذكرت ، ويميز بين صورتهم الاولية وبين الصورة الاولية لكل حضارة أخرى .

ولكن فوق هذا وقبله ، فان هناك فرقاً من نوع آخر يفصل بين صورتي التاريخ لكل من الحضارتين الكلاسيكية والهندية وبين صور التاريخ لكل من الحضارات الصينية والعربية وخاصة الفاوستية ، وهذا الفرق يتمثل في الافق الضيق لتينك الحضارتين اللتين كانتا اول ما ذكرت (الكلاسيكية والهندية) إن كل ما قد عرف به الاغريق (ويجب فعلاً أن يكونوا قد عرفوا به) عن التاريخ المصري القديم ، لم يسمحوا له أبداً بان يتسرب الى صورتهم الخاصة للتاريخ ، هذه الصورة التي كانت بالنسبة الى الأغلبية منهم محصورة داخل ميدان الحوادث والاحداث التي كان يمكن أن يرويها أحياء منهم طاعنون في السن سبق لهم أن اشتركوا فيها ، والتي كانت تنتهي حتى بالنسبة الى انقى مـنا لدى الاغريق من عقول واذهان عند حرب طروادة التي كانت تشكل في نظرهم حداً جعلهم لا يسلمون بانه كانت توجد إطلاقاً وراءه حياة تاريخية .

ومن جهة أخرى فان الحضارة العربية قد أقدمت في وقت جد مبكر على تلك اللفتة العجيبة المذهلة (والتي نشاهدها في الفكر التاريخي لليهود وفرس عصر قورش على حد سواء) هذه اللفتة المتمثلة في ربط اسطورة الخليقة بالحاضر وذلك بواسطة تقويم (كرونولوجي) تاريخي أصيل . ولقد قام الفرس فعلاً بتضمين لفتتهم الكاسحة المستقبل ايضاً ، فحددوا مسبقاً تاريخ يوم الدينونة وعودة المسيح . ان هذا التحديد المصيب والضيق جداً للتاريخ الانساني (فالفرس يحددون مداه بـ ١٢ دورة الفية

من السنين ، أما اليهود فيقررون ان مداه لا يتجاوز حتى الوقت الحاضر دورات الفية ستا) ، أقول ان هذا التحديد هو تعبير ضروري عن الشعور المجوسي بالعالم ، وهو يميز بصورة جوهرية بين الاساطير اليهودية الفارسية عن الخليقة ، وبين أساطير الحضارة البابلية التي اشتق منها الكثير من الملامح الظاهرية لتلك الاساطير (اليهودية الفارسية) .

زد على ذلك ان الشعورين الاولين اللذين يعطيان الفكر التاريخي في كل من الحضارتين الصينية والمصرية افقيها الواسع اللامحدود ، واللذين يتمثلان في سياقات من سلالات حاكمة مقررة تقريراً تقويمياً ، سلالات تتجاوز في امتداداتها الدورات الالفية من الاعوام وتذوب أخيراً في بعد سحيق أغبر ، أقول ان هذين الشعورين الاولين يختلف ايضاً الواحد منها عن الآخر .

أضف الى ذلك أن الصورة الفاوستية لتاريخ العالم ، هذه الصورة التي أعدها سلفاً التقويم المسيحي ، قد خرجت فجأة الى الوجود بامتداد وتعميق هائلين للصورة المجوسية التي اضطلعت بها الكنيسة الغربية ،وقد قدر لذلك الامتداد وهذا التعميق أن يعطيا يواكيم فون فلوريس ، في ذروة العهد القوطي ، قاعدة لترجمته الرائعة لجميع مصائر العالم بوصفها سياقاً من دهور ثلاثة، وذلك وفق مفاهيمه للأب والابن والروح القدس . ويسير ، جنباً الى جنب وما ذكرت ، التعميق الماثل للافق الجغرافي ، هذا التعميق الذي امتد حتى في الازمنة القوطيـة (بفضل الفايكنغز والصليبيين) من جزيرة ايسلندا حتى اقصى اطراف آسيا .وأمسى الانسان المتقدم في العصر الباروكي ، ابتداء من عام ١٥٠٠ فما بعد ، قادراً على القيام بما لم يستطعه أي من انداده من أبناء الحضارات الأخرى ، إذ أنه (ولاول مرة في التاريخ الانساني) بات يعتبر كامل سطح هـذا الكوكب ميدانا له . وبفضل البوصلة والتلسكوب استطاع لاول مرة علامة ذاك العصر الناضج ألا يثبت فقط كروية الارض ، كقضية نظرية ، بل انما تمكن فعلاً من أن يشعر بانه يعيش فوق جسم كروي في الفراغ (Space) . ايضاً .

وهنا انتفى أفق الارض ولم يعد له وجود ، وهكذا ذابت ايضاً آفاق الزمان في التقويم ذي اللانهائية المزدوجة ، تقويم ما قبل المسيح وما بعده . واليوم فاننا نجد ، تحت تأثير هذه الصورة التي تستوعب كامل هذا الكوكب ، والتي ستحتوي أخيراً على كل الحضارات الراقية ، أن التقسيم الغوطي للتاريخ الى قديم «ووسيط» وحديث قد أمسى غثا تافهاً ، وأنه آخذ بالانحلال على مشهد منا .

إن جميع المفاهيم لتاريخ العالم وتاريخ الانسان تنطبق بعضها على بعض في كل الحضارات . فبداية العالم هي بداية الانسان، ونهاية الانسان هي نهاية العالم . لكن الحنين الفاوستي الى اللانهائية قد فرق ، خلال العصر الباروكي ، لاول مرة بين النظرتين، وقد جعل الآن التاريخ بكل مـا له من امتداد هائل لا يزال حتى الآن مجهولاً ، مجرد قصة استطرادية في تاريخ العالم ، بينما ان الارض (التي لم تشهدها حتى كلها الحضارات الأخرى ، بل انمـا شاهدت أجزاء سطحية منها اعتبرتها « العالم ») قد أمست نجماً صغيراً بين الملايين من الانظمة الشمسية .

إن امتداد صورة العـالم التاريخية يضاعف حتى في هذه الحضارة (الفاوستية) اكثر من غيرها في ضرورة تمييزنا بين الملاءمات الذاتية اليومية للناس العاديين وبين الملاءمة الذاتية القصوى التي لا تستطيعها سوى العقول الارقى ، هذه العقول التي لا تثبت حتى فيـها الملاءمة الذاتية سوى برهـات واعتقد بان الفرق بين ميدان نظرة تيميتوكلس التاريخية وبين ميدان نظرة فـــلاح « إتيكي » هو فرق جد بسيط ، لكن هذا الفرق هـائل بين نظرة هنري السادس ونظرة أجير فلاح في عصره . وكلما تسامت الحضارة الفاوستية عاليا فعاليا، فان قوة تركيز الذات تبلغ ذرى واعماقاً كتلك بحيث تزداد معها دائرة البراعة ضيقاً يوماً بعد يوم . والحق أنه قد شكل هرم من امكانات صنفت فيه درجات الافراد وفق مواهبهم ، فكل فرد، يقف ،حسب فطرته ، في مستوى يستطيـع في حالة تركيزه الشديد الاحتفاظ به . وينجم عما أوردت أن هناك بين الشعوب الغربية محدوديات لامكانيات الفهم المتبادل لمشاكل الحيــــاة التاريخية ، وهذه محدوديات لا تنطبق على الحضارات الأخرى ، واقول أنها على كل حال لا تنطبق على تلك الحضارات بمثل هذه الصرامة

الخطيرة التي تنطبق بها على حضاراتنا . فهل يستطيع العامل في عصرنا هذا أن يفهم حقا الفلاح ؟ أو هل يستطيع الدبلوماسي أن يفهم العامل الماهر ؟ فالافق التاريخي الجغرافي الذي يقرر لكل من ذكرت آنفـــاً الاسئلة التي هي جديرة بان تطرح والشكل الذي تطرح فيه هذه الاسئلة ، انما هو افق يختلف عند كل واحد منها اختلافاً كبيراً عن افق الآخر بحيث يجعل مـا يستطيعان أن يتبادلاه من حديث ليس بواصلة ذهنية بل انما هو مجرد ملاحظات عابرة . ومن البدهي أن طابع المقيم الحقيقي للنـــاس يتبدى في فهمه كيفية تركيب « الانسان الآخر » وفي تنظيمه لمعاملته له وفق ذاك التركيب (كما نفعل نحن جميعاً حينما نتحدث الى الاطفال) ، لكن فن التقييم حسب هذا المفهوم إنمـــا يتناول انسانا عاش في الماضي (ولنقل هنري الاسد أو دانتي مثلا) لهذا فهو فن يستوجب المقيم أن يعيش ذاتــه داخل صورة تاريخ من يقيمه عيشا يبلغ من الكمال درجة تتخذ معها افكاره وأحاسيسه وقراراته طابعاً مـــا هو غني عن البيان . ولكن نظراً للفرق الواسع بين الوعي اليقظ المقيم وبين وعي المقيم اليقظ ، فان هذا الفن كان من الندرة الى حد جعلنا لا نرى حتى مطلع القرن الثـــامن عشر أنه من المتوجب على المؤرخ أن يحاوله . ومنذ عام ١٨٠٠ فقط أمسى هذا الفن أمنية لكتابة التاريخ ، لكن نادراً ما صادف أحدهم النجاح في تحقيق هذه الأمنية .

إن الفصل النموذجي في فاوستيته للتاريخ الانساني عن تاريخ العـــالم الاشد إتساعـاً بكثير من تاريخ الانسان ، على هذه الشاكلة ، قد اسفر عن نتيجة تقرر أن صورتنا للعـــالم قد اشتملت ، منذ نهاية العصر الباروكي ، على عدة آفاق نسق الواحد منهـا وراء الآخر على مستويات تعادلها عدداً . ومن أجل سبر أغوار هذه المستويات ، اتخذت علوم افرادية ، ذات طابع تاريخي تقريباً ، اشكالاً لها . فعلوم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا والانتربولوجيا يأخذ بعضها برقاب بعض وهي تقتفي مصائر عالم الكواكب وقشرة الارض والحياة والانسان ، ونحن هنا فقط نلتقي بتاريخ «العالم» (كما لا يزالون يسمونه حتى اليوم) للحضارات الارقى التي قد شُدّ اليهـــا ايضاً تواريخ شتى العناصر الحضارية الأخرى ، كتاريخ العائلة والسيرة

الشخصية – Biography – (أخيراً هذه السيرة التي تعتبر خـــاصية غربية بلغت درجة رفيعة من التطور) .

ان كل مستوى من هذه المستويات يستوجب تركيز ذات خاص ، وفي اللحظة التي يصبح فيهـا التركيز حـــاداً لا تعود المستويات الأضيق والاعرض كينونة تعاش ، بل تمسي مجرد وقـائع مقررة . ونحن اذا مـــا بحثنا في معركة غابة تيتوبورجر Teuteburger ، فان نمو هذه الغابة في عالم النبات في السهل الالماني الشمالي أمر يستلزمه البحث . أمـا اذا كنا ، من جهة أخرى ، نبحث في تاريخ عالم الاشجار الالمانية فان التنضيد الجيولوجي لطبقات الارض هو الموضوع المفترض مسبقاً لبحثنـا ، بالرغم من أن هذا الموضوع هو مجرد واقعة لا مجـال الآن لتتبع مصيرها بهذا الصدد . أمـا ، ايضاً ، اذا كان سؤالنا يدور حول أصل الطبقة الطباشيرية ، فان وجود الارض ذاتها ككوكب في النظام الشمسي هو حقيقة وليس مشكلة . أو لنعبر عما أوردناه بصيغة اخرى ولنقل بأن هناك أرضـاً موجودة في عالم الكواكب ، وان ظاهرة «الحياة» تتبدى وتحدث على الارض ، وانه داخل هذه الحياة يوجد الشكل «الانسان» ، وانه داخل تاريخ الانسان يوجد الشكل العضوي للحضارة ، فقولنا هذا يدل في كل حالة أوردناها على أن هناك واقعة طارئة في صورة المستوى الأرقى الذي يتلو سابقه .

ونحن نجد في غوتيه ابتداءً من مرحلة شتراسبورغ حتى سكناه الأول في فيمار، أن رغبته في ملاءمة ذاته وتاريخ «العالم» كانت رغبة ضارية شديدة ومخطوطاته التي تتناول سير قيصر ومحمد وسقراط واليهودي التائه وإغمونت خير مصداق على ما ذكرت . وقد كان اطراحه[1] الأليم لآماله في تحقيق انجازات سياسية مرموقة ،

---

١ – عزم غوتيه اثناء رحلته في ايطاليا عام ١٧٨٦ على الاستقـــالة من منصبه السياسي في فيار والاحتفاظ بمقعده في مجلس الشورى فقط كي يكرس اوقاته للفن والعلم . وقد نفذ عزمـــه هذا حين عودته الى فيار عام ١٧٨٨ ، وظهرت مسرحية «تاسو» عام ١٧٩٠

–المترجم–

(هذا الاطراح الأليم الذي يستصرخنا في مسرحية «تاسو» حتى من خلال الاذعان الوقور لشكلها النهائي) أقول كان اطراحه ذاك بالتأكيد بمثابة ملاءمة ذات اختار أن يقتطعها من حياته ، وهكذا نراه انه عقب أن حقق تلك الملاءمة يوزع نشاطاته بوحشية تقريباً بين دراسة مستويات صورة تواريخ النبـــات والحيوان والارض (لطبيعته الحية) وبين كتابة السير الشخصية .

ان كل هذه « الصور » التي تطورت في الانسان ذاته لهـــا ذات التركيب . وحتى تاريخ النبات والحيوان ،وحتى تاريخ قشرة الارض أو قشرات الكواكب ، هو اسطورة أو خرافة تعكس في الواقعة الظاهرية النازع الباطني لكينونة الأنا (ego) . فالباحث في عالم الحيوان أو في طبقات الأرض هو انسان يعيش في عصر وله قوميته ومنزلته الاجتماعية ، ولذلك فان قدرته على استئصال وجهة نظره الذاتية من معالجته لهذه المواضيع لا تزيد عن قدرته على تقديم بيان كامل في تجريديته عن الثورة الفرنسية او الحرب العالمية (الاولى).

ان النظريات المشهورة لكل من « كنت » ولابلاس وكوفيير ولايل وداروين ايضاً لونها السياسي الاقتصادي،زد على ذلك أن جوهر قوة هذه النظريات وتأثيرها في الجمهور العامي يظهران أن صيغة النظرة الى كل هذه المستويات التاريخية انمـــا تنطلق من نبع واحد . أما ما يحقق ذاته اليوم فهو المنجزة الأخيرة التي يستطيعها التفكير التاريخي الفاوستي (أي الربط والتنسيق العضويان لهذه المستويات التاريخية في تاريخ واحد واسع للعالم ، تاريخ ذي نسق سيمائي سيمكن نظرنا من الامتداد دون انقطاع من حياة الفرد الانسان الى اول وآخر مصائر الكون . والقرن التـاسع عشر قد أعرب عن المعضلة ونطق بهـــا (بصيغة ميكانيكيــة « واعني بهذا لا تاريخية ») . وهذه المعضلة هي احــدى المعضلات التي انيط بالقرن العشرين حلها .

- ٣ -

ان الصورة التي نمتلكها عن تاريخ قشرة الارض وعن الحياة لا تزال في الوقت الحاضر خاضعة لسيطرة الافكار والنظريات التي طورها الفكر الانكليزي المتمدن [١] منذ عصر التنوير، واستنبطتها من العادة الانكليزية في الحياة . فنظرية لايل البلغمية (Phlegmatic) في تشكل الطبقات الجيولوجية ، ونظرية داروين في اصل الانواع ، هما في الواقع نظريتان مشتقتان من تطور انكلترا ذاتهـــا . فالانكليز يستعيضون عن الكوارث والتغيرات التي لا تحصى ، كتلك التي اعترف بهـا فون بوخ وكوفيير ، بتطور منهاجي يستوعب حقبات طويلة من الزمان ويقررون كأسباب (علل) تلك العلل العلمية المحسوبة فقط ، وهذه هي فعلاً علل نفعية ميكانيكية .

ان نموذج السببية (العلية) الانكليزية هذا ، ليس بضحل فقط بل انه هو بالغ الضيق ايضـــاً . فهو يحصر في الدرجة الاولى ، الارتباطات السببية المحتملة بتلك الاشياء التي تفسر كامل مجراها على سطح الارض، ولكن هذا الأمر يطرح جانباً كل الارتباطات الكونية العظمى بين الظاهرة الحياتية على الارض وبين احـداث النظـام الشمسي والكون الكوكبي ، ويطالعنا بالزعم بفرضية مستحيلة تقول بأن الوجه الخارجي للكرة الارضية هو منطقة معزولة عزلاً تاماً عن الظاهرات الطبيعية.

---

١ ـ لاحظ الفرق بين المتمدن والمتحضر ، انه الفرق بين الحضارة وبين المدنية ، فالمدنية هي في رأي اشبنغلر المرحلة الاخيرة للحضارة.

ـ المترجم ـ

ثم يزعم ثانية بأن الارتباطات التي لا يمكن ادراكها وفهمهـــا بواسطة الوسائل المتوفرة حاليـــاً لدى الوعي الانساني ، (واعني بهذه الوسائل والاحاسيس التي أرهفتها الأجهزة والفكر الذي ضبطته النظرية) أقول يزعم بأن مثل هـــذه الارتباطات لا وجود لها .

وستكون المهمة المميزة للقرن العشرين ، كما هو مقارن بالقرن التاسع عشر أن يتخلص من هذا المنهاج للسببية (العلية) السطحية الذي تمد جذوره لتغوص في عقلانية العصر الباروكي ، وان يستعيض عنه بمنهاج سيمائي نقي مجرد .

إننا ننظر بعين الشك الى أية وكل صيغة من صيغ الفكر التي تقدم لنا تفسيراً سببياً (علياً) . فنحن نترك للاشياء أن تتحدث بنفسها ونحصر ذواتنـــا بالحس بالمصير اللازم والفطري فيها ونتامل في ظاهرات الشكل الذي لن نستطيع ابداً النفاذ اليه . أما اقصى مـا نتمكن من بلوغه فهو يتمثل في اكتشاف اشكال غير علية ولا هدفية ، اشكال موجودة فقط وتكمن وراء صورة الطبيعة المليئـــة بالتبدلات والتغيرات .

لقد كانت كلمة « تطور » تعني في القرن التاسع عشر التقدم ، بما لهذه الكلمة من مفهوم لتزايد موافقة الحياة واطراد اهليتها للغايات والأهداف . فليبنتز يخطط في كتابه المعروف باسم (Protogaea) (الصادر عـام ١٦٩١) صورة لطفولة العالم وصورته غوطية سداة ولحمة ، وهي صورة خططها استناداً الى دراسات جرت في مناجم الفضة في جبال الهرتز ، وهي والحق دراسات تنم عن فكر عميق .

أما التطور بالنسبة الى غوتيه فانما يعني الاكتمال وفق مـــا لهذه الكلمة من مفهوم لتزايد محتوى الشكل ومضمونه .

إن نظريتي غوتيه وداروين ، نظرية اكتمال الشكل ، ونظرية التطور ، همـا نظريتان متعارضتان تعارضاً كلياً ، تعارض المصير والسببية (العلية) زد على ذلك تعارض الفكر الانكليزي والفكر الالماني ، وتعارض التاريخ الالماني والتاريخ الانكليزي .

وليس هناك من دحض جازم بات للداروينية كذلك الدحض الذي قدمه الينا علم الأحافير النباتية (Palaeontology) فالأرجحية البدهية البسيطة تشير الى ان ذخائرنا من الأحافير المتحجرة (Fossil) لا يمكن أن تكون إلا عينـــات (Samples) اختبـــارية فقط . إذن فكل عينة يجب أن تمثل مرحلة مختلفة من مراحل التطور ، ولهذا يجب أن يكون هناك فقط نماذج « انتقالية » لا تعريف لها ولا نوع ، لكننا نجد بدلاً من هذه اشكالاً بلغت الكمال في استقرارها وعـــدم تبدلها أو تغيرها ، اشكالاً خالدة على مر العصور الطويلة ، اشكالاً لم تطور ذواتهـا وفق مبدأ الأهلية ، انها تظهر فجأة وتتخذ فوراً شكلاً معيناً لها . وهذه اشكال لا ترتقي فيما بعد نحو تكييف أفضل ، بل انها يزداد وجودها ندرة واخيراً تختفي بينما تنبثق اشكال مختلفة مرة اخرى .

ان ما يكشف عن نفسه بثراء متزايد أبداً للشكل، فانما هو الطبقات والانواع العظمى للكائنات الحية التي توجد وجوداً أصلياً أولياً ولا تزال توجد دون نماذج انتقالية في تجمع يومنا هذا . فنحن نرى كيف أن نوع السلاخيان[1] Selechian من الاسماك ، بما لهذا النوع من شكل بسيط ، يبتدى في مقدمة التاريخ ثم يختفي رويداً رويداً مرة اخرى ، بينما نرى ان نوع التليوستيان[2] Teleostians يدفع شيئاً فشيئاً الى السيطرة نموذجاً مكتملاً من السمك . والشيء ذاته ينطبق في عـالم النبات على السرخس والاسـوخ (ذيل الفرس) اللذين لا تزال آخر انواعها تعيش في مملكة النبات المزدهرة التي بلغت الذروة من تطورهـــا . لكن الزعم بوجود اسباب نفعية ، أو بالاحرى علل مرئية لهذه الظاهرات لا تمده الواقعة بأي تأييـد أو سند . فالمصير هو الذي ايقظ ودفع الى هذا العالم بالحياة بوصفها حيـاة ، وهو

---

١ – السلاخيان : نوع من الاسماك له غضاريف بدلا من العظام .

٢ – نوع من الاسماك ذو عظام ويطلق هذا الاسم على كل انواع الاسماك ذوات العظام .

(المترجم)

الذي أوجد التعارض المتزايد ابداً حدة بين النبات والحيوان ، وبين كل نموذج وفصيلة ونوع .

وقد اعطيت ايضاً الى جانب هذا الوجود طاقة معينة للشكل ، وبموجب هذه الطاقة ، وفي سياق انجاز الشكل لذاته ، فان الشكل إما أن يصون ذاته نقية، أو على العكس من ذلك ، أي ان تتبلد ذاته وتمسي غير واضحة أو مراوغة فتنقسم الى عدة اصناف ، واخيراً فان ديمومة هذا الشكل تؤدي بداهة الى شيخوخة النوع ومن ثم الى اختفائه (وذلك إذا لم تتدخل المصادفة لتختصر من ديمومته المعينة) .

أما فيما يتعلق بالجنس البشري ، فان اكتشافات عصر الطوفان Diluvial ، تشير بدقة واحكام الى ان اشكال الانسان التي كانت موجودة آنذاك تنطبق على شكل الانسان الذي يعيش في عصرنا الحاضر ، وليس هنالك من أي أثر يدل على عملية تطور نحو جنس ذي أهلية أعظم في نفعيتها . أما الفشل المتتالي لنظرية التطور فانما يتبدى في اكتشافاتنا العائدة الى العصر الثلاثي[1] Tertiary ، هذه الاكتشافات التي تدل بوضوح أشد فأشد ، على ان شكل الحياة الانسانية كشكل كل حياة اخرى ، أي انه ينشأ نتيجة لنشوء فجائي (Wandlung) تبقى أمامه «من أين» و « كيف » و « لماذا » سراً مغلقاً . ولو انه كان هناك حقاً تطور بما لهذه الكلمة من مفهوم انكليزي ، لما كان هناك أي نوع من طبقات أرض مقررة معينـة ، أو أية مراتب حيوان ، بل لوجدت هناك فقط كتلة جيولوجية وفوضى (Chaos) من اشكال افرادية حية قد نفترضها انها من مخلفات الصراع من أجل البقاء . غير أن «كل ما نراه» حولنا يستحثنا على القناعة مرة بعد اخرى بالتبدلات الفجائية العميقة التي تطرأ على كينونتي النبات والحيوان ، تبدلات هي من نوع كوني وهي ليست ابداً أسيرة لسطح الارض ، إذ انها تقع ما وراء معرفة الحس والفهم الانسانيين ، وذلك من جهة الاسباب والعلل ، ان لم نقل فعلاً من كل الجهات .

---

١ – العصر الثلاثي هو العصر الذي بدأت فيه الاحياء اللبونة بالظهور .

(المترجم)

وهكذا نلاحظ ايضاً ان التبدلات السريعة العميقة تؤكد ذواتها في تاريخ الحضارات العظمى دون ان تكون هناك اسباب أو مؤثرات أو غايات مخصصة معينة من أي نوع كان .

إن الاساليب من غوطية واهرامية تخرج فجأة الى الوجود الكامل كما يخرج الاستعمار الصيني في عصر شي – هوانج – تي والروماني في عهد اوغسطس ، أو الهيليني والبوذي والاسلامي . ويحدث الشيء نفسه تماماً ايضاً بالنسبة الى احداث حياة كل فرد ذي اهمية واعتبار ، وكل من يجهل بهذه الواقعة فانه لا يعرف بأي شيء عن الرجال ومعرفته بالاطفال هي ايضاً دون جهالته تلك . إن كل كائن ، أكان حياً ناشطاً أو متأملاً متبحراً ، يخطو قدماً خلال حقبات نحو اكتماله ،وعلينا ان نفترض ايضاً حقبات كهذه تماماً في تاريخ الأنظمة الشمسية وتاريخ العالم والكواكب الثابتة .

وما أصول الأرض والحياة والحيوان الذي يتحرك طليقاً إلا حقبات كهذه ، وهي لذلك اسرار لا نستطيع حيالها اكثر من ان نقبل بها ونسلم .

– ٤ –

إن ذاك الذي نعرفه عن الانسان ينقسم بوضوح الى دهرين [١] عظيمين من كينونته . أما الدهر الاول ، وذلك فيما يتعلق بوجهة نظرنا ، فانه محدود من

---

١ – ترجمنا كلمة Age بكلمة دهر ، ولم نترجمها بعصر وذلك انسجاماً منا ومما يعنيه اشبنغلر .

– المترجم –

الجانب الواحد بتلك « الفوغيه » (Fugue) العميقة للمصير الكوكبي الذي ندعوه ببداية العصر الجليدي (والذي لا نستطيع أن نقول عنه (داخل صورة تاريخ العالم) اكثر من ان تبدلاً كونياً قد طرأ وحدث) ، أما الجانب الثاني فهو محدود ببدايتي الحضارتين الراقيتين على ضفاف نهري النيل والفرات ، واللتين أمسى فجأة بواسطتهما كامل مغزى الوجود الانساني مختلفاً عما كان عليه . فنحن نكتشف في كل مكان الحد الدقيق الواضح للعصر الثلاثي وعصر الطوفان ، ونرى الانسان على جانبه نموذجاً بلغ الكمال في شكله، ونراه مسلماً بالعودة والاسطورة، وذا حصافة وفطنة ، له تقنية واسلوب في الزينة، وقد منح تركيباً جسمانياً لم يطرأ عليه ، مادياً ، أي تبديل حتى عصرنا الحاضر .

إننا سنعتبر الدهر الاول دهر الحضارة البدائية. أما المكان الوحيد الذي اتخذته هذه الحضارة ميدانا لها حيث كابدت فيه وبقيت طيلة الدهر الثاني ، (وذلك بالرغم من أنها كانت أكيداً حينذاك في شكلها «المتأخر» زمناً) ،فاننا لا نزال نجده حياً ومنتظماً انتظاماً حسنا في افريقيا الشمالية الغربية . والحق انها لحصافة عظمى هي تلك التي يتمتع بها «ليو فروبنيوس» والتي تتجلى باعترافه بما اوردت آنفاً بجلاء ووضوح ، هذا الاعتراف الذي ينطلق به من الافتراض القائل بان في هذا الميدان (افريقيا الشمالية الغربية) قد بقي عالم كامل من الحياة البدائية (وليس فقط عدة اكبر أو أصغر من عشائر بدائية) بمعزل عن مؤثرات الحضارات الراقية . لكن العالم السيكولوجي الانتولوجي (علم أصول السلالات البشرية) ، هو على العكس مما ذكرت ، إذ أنه يجد لذته وسروره ، في تجميعه لهتامات من شعوب ، من القارات الخمس ، هتامات ليس لها من أي شيء مشترك وحضارات راقية أخرى ، مما عدا تلك الحقيقة السلبية ، حقيقة عيشها وجوداً ثانوياً في وسط حضارات لم تشارك او تشترك في حياتها الباطنية . والنتيجة هي مجموعة من عشائر بعضها ثابت مستديم ، والبعض الآخر منها أحط من الاول رتبة ، وغيرها منحل منحط ، زد على ذلك أن جميع صيغ تعبيرها قد جمعت دون ما تمييز وكتلت معاً .

لكن الحضارة البدائية ليست بهتامة ، بل انما هي شيء ما قوي كامل ، شيء مـا هي عميق الاثر والتأثير . وهذه الحضارة تختلف فقط عن كل شيء نمتلكه نحن ابناء الحضارة الارقى من ناحية امكانياتها الروحية اختلافاً قد يجعلنا نتساءل عما إذا كانت حتى هذه الاقوام التي حملت ودفعت عميقاً بالدهر الأول داخل أحشاء الدهر الثـاني تشكل بواسطة صيغ كينونتها المجردة والواعية كبنية حسنة بالنسبة الى ظرف الزمان القديم وحاله .

وقد كان للوعي اليقظ للانسان لمدة بضعة الاف من سنين ، انطباع عن تماس مستديم متبـادل بين العشائر والاقوام ، بوصف هذا التماس حقيقة واضحة من حقائق الحياة اليومية. ولكننا حينما نعالج الدهر الاول علينا ألا ننسى ان الانسان كان خلال هذا الدهر ، يندمج في جماعات بالغة القلة في عددهـا ، وكان الانسان ضائعاً تامـاً في الاتساع والامتداد غير المحدودين للصقع الذي كانت فيه قطعان هـائلة من الحيوانات الضخمة هي العنصر السائد والمسيطر . وندرة ما نعثر عليه من آثار ، تقدم برهاناً كافياً على صحة ما ذهبنا إليه . ولربما كان عدد الذين يعيشون في فرنسا في عصر الانسان الاوريني‌كي (Aurignacian) لا يتجاوز الاثنتي عشرة قبيلة ، ولا يزيد عدد الواحدة منهـا على المئة ، وكانت هذه القبائل ترتحل في كامل مساحة فرنسا ، ولا شك أن هذه العشائر كانت تقف مذهولة حائرة إذا ما ترامى (وذلك إذا ترامى) الى علمها نبأ وجود غيرها من البشر .

وهل نستطيع أن نتصور ، حتى ابسط درجة ، مـا تعنيه الحياة في عالم خال مهجور ، نعم هل نستطيع ذلك نحن الذين أمست ، منذ زمن طويل، كل الطبيعة بمثـابة الأساس للحشد الانساني ؟ وأي تبدل يجب ان يكون قد طرأ على وعي الانسان للعالم حينما بدأ يصادف ، اكثر فاكثر ، في الاصقاع بشراً آخر « مثله تمامـاً » ، الى جانب الغابات وقطعان الوحوش ؟ ان تزايد عدد البشر (وهذا التزايد حدث دون شك فجأة) جعل خبرة الانسان بغيره من ابنـاء البشر خبرة عـادية مألوفة ، واستبدل انطباعه الذاهل بأحاسيس من سرور أو عداء ، وهذه

الأحاسيس قد استثارت فيه ايضاً عالماً جديداً من الخبرات ومن العلاقات القهرية الحتمية . وهذا الأمر بالنسبة الى تاريخ النفس البشرية قد يشكل اعمق الأحداث وأخصبها . ان الانسان بدأ أول ما بدأ بادراك شكل حياته الخاصة استناداً الى اشكال الحياة الغريبة عنه . وبهذا ازداد التنظيم الداخلي للفخذ (Clan) ثراء من اشكال ارتباط عشائري مشترك ، ارتباط سيطر فيما بعد سيطرة كاملة على الحياة والفكر البدائيين . وذلك لانه انبثقت آنذاك أصول اللغة الشفوية ، وجاء انبثاقها من صيغ متناهية في بساطتها لفهم حسي . (وهكذا ايضاً عرفت أصول الفكر التجريدي طريقها الى الوجود) . وهناك من بين هذه الاصول تلك الأصول المجدودة بصورة خاصة والتي بمقدورنا ، (بالرغم من اننا لا نستطيع أن نكون فكرة عن تركيبها)،أن نفترضها أصولاً لمجموعات اللغات الهندية الالمانية والسامية فيما بعد .

ومن ثم انبثقت فجأة (وقرابة عام ٣٠٠٠ ق.م) حضارتا مصر وبابل ، وقد تم انبثاقها المفاجىء من هذه الحضارة البدائية العامة لانسانية تنتظمها روابط عشائرية مشتركة . ومن الجائز أن كلا من مصر وبابل كانتا قبل هذا التاريخ (٣٠٠٠ ق.م - المترجم) بدورة ألفية كاملة من الاعوام . تتمخضان عن شيء ما يختلف اختلافاً جذرياً عن كل حضارة بدائية في نوعه ومحتواه ، شيء ما يمتلك وحدة باطنية مشتركة لكل أشكال تعبيره ، واتجاهية في كل حياتها . ويبدو لي أنه من الجائز جداً أن تبدلاً قد تم خلال ذاك الزمان ، وإن لم يكن هذا التبدل قد طرأ فعلاً على كامل سطح الارض لكنه على كل حال قد طرأ على جوهر الانسان . وإذا كانت الحال على ما ذكرت ، فعندئذ يجب أن تكون أية حضارة بدائية جديرة باسمها، والتي وجدت لا تزال حية ومن ثم أخذت تنحط وتنحل بصورة مستمرة بين الحضارات الارقى ، أقول يجب أن تكون اية حضارة بدائية شيئاً ما يختلف عن حضارة الدهر الاول . ولكن ما أدعوه بما قبل الحضارة بالنسبة الى الحضارة البدائية (والذي يمكن أن يرى حدوثه كنسق لتدرج في بداية كل حضارة) هو شيء ما يختلف في نوعه ، انه شيء ما جديد كل الجدة .

ان الـ « It »[1] ، أي العنصر الكوني هو في كل وجود بدائي فعال ناشط بفورية من قوة كتلك التي تجعل كل تلفظ (Utterance) كونيا أصغر ، أجاء هذا التلفظ في شكل اسطورة أو عادة او تقنية او زينة ، يطيع ويـــذعن فقط لضغوط اللحظة الفورية في آنيتها .

وبالنسبة الينا ، ليست هناك من قواعد ، يمكن التحقق منها ، لديمومة وايقاع تطور هذه التلفظات ومجراه . فنحن نلاحظ ، مثلاً ، لغة شكل تزييني ، (ويجب الا تدعى هذه اللغة باسلوب) تسيطر على سكان مساحة واسعة من الارض وتنتشر وتتبدل وتموت اخيراً .

وقد نجد الى جانب لغة الشكل هذه ، وربما نجد ايضاً في ميادين شتى من امتداد ، انماطاً من ازياء واستخدام الاسلحة والتنظيمات العشائرية والممارسات الدينية ، ونجد كل واحدة من هذه تتطور وفق اسلوب خاص بها لها نقاطها الحقبية الخاصة ، ولها بداياتها ونهاياتها ، ومتأثرة تأثراً كاملاً بمجالات اخرى للشكل . ونحن عندمـا نتعرف ، في احدى مراتب ما قبل التاريخ ، على نموذج من فخار معروف معرفة صحيحة ، فعندئذ لا نستطيع انطلاقاً منه ان نناقش في عادات السكان ودينهم الذين يعود اليهم هذا النموذج من الفخار واذا كانت المنطقة ذاتها (التي اكتشفنا فيهـا ذاك النموذج من الفخار - المترجم) يتمسك اهلوها ، نتيجة لاحدى المصادفـات بشكل خاص للزواج ، أو لنقل أن لهم نموذجاً معيناً من وشم ، فان هذا الأمر لا يعني ابداً أن لأهليها فكرة أساسية تربط بينهم ، كتلك الفكرة التي يعبر عنهـا اكتشاف البارود ، أو المرئي في التصوير الزيتي مثلاً . ولا تظهر الى الضوء ارتباطات ضرورية بين الزينة والتنظيم بواسطة طبقات الدهر ومراتبه ، أو بين مذهب عبادة

---

(١) It : هو ، أو هي لغير العاقل .

(المترجم)

أحد الالهة وبين نوع الزراعة الممارسة .

فالتطور في هذه الحالات يعني شيئاً من تطور مظهر أو ميزة فرديين للحضارة البدائية ولا يعني ابداً تطور هذه الحضارة نفسها. وهذا الأمر هو ، كما سبق لي أن قلت ، مشوش معدوم النظام ، فالحضارة البدائية ليست بنظام عضوي وليست مجموعاً من انظمة عضوية .

ولكن الـ « It » (العنصر الكوني – المترجم) يذعن مع هذا النموذج من الحضارة الارقى لنـــازع غير منتشر او موزع . فالعشائر والافخاذ هي ، داخل الحضارة البدائية ، مجرد كينونات دبت فيها الحياة، وهي مغايرة طبعاً للافراد من الناس . وهنا تكون الحضارة ذاتها كينونة كتلك الكينونات ، إذ أن كل شيء بدائي هو مجموع، إنه مجموع من اشكال التعبير للتجمعات البدائية. لكن الحضارة الراقية هي على العكس من الحضارة البدائية ، فهي كينونة واعية لنظـام عضوي ضخم واحد ،نظام لايجعل فقط العادة والاساطير والتقنية والفن ،بل ايضاً الاقوام والطبقات التي تضمها أحشاؤه ، أوعية للغة شكل واحدة وتاريخ واحد. إن أقدم نطق (Speech) نعرفه هو ذاك النطق الذي ينتمي الى الحضارة البدائية ، ولهذا النطق مصائر عاصية متمردة خـاصة به ، مصائر لا نستطيـع أن نستدل عليها من الزينة والزواج مثلاً . لكن تاريخ الخطوط ينتمي كليـا الى تاريخ التعبير لشتى الحضارات الارقى. أما كون الحضارات من مصرية وصينية وبابلية ومكسيـكية، قد اوجدت كل واحدة منها ، خلال حقبة مـا قبل الحضارة ، خطاً خاصاً بها ، وكون الحضارتين الهندية والكلاسيكية ، من جهة أخرى ، لم تحذوا حذو تلك الحضارات ، بل انما اقتبستا (وفي عصر جد متأخر زمنا) خطي المدنيتين المجاورتين لهما ، هذين الخطين اللذين كانا قد بلغـا حينذاك مرتبة رفيعة من التطور ، وكون كل دين أو مذهب جديد في الحضارة العربية قد اتخذ له فوراً خطاً خاصاً به : كل هذه الأمور هي حقائق ترتبط ارتباطاً وثيقاً وعميقاً بتاريخ الشكل الشامل الجامع وبمغزاه الباطني لهذه الحضارات . ان معرفتنا بالانسان محصورة بهذين الدهرين وهما لا يكفيان بالتـأكيد ليبررا صحة استنتاج عصور محتملة أو جديدة ، من أي نوع

كانت ، او تخمين زمن هذه العصور وكيفيتها ، وذلك بغض النظر تماماً عن تلك الحقيقة القائلة بان الارتباطات الكونية التي تحكم تاريخ الانسان بوصفه جنساً ، هي في كل حال ارتباطات تستعصي كلياً على مقاييسنا .

إن طريقتي في الفكر وطرازي في الملاحظة محدودان بسياء مـا هو واقعي . والنقطة التي تمسي عندها خبرة «الحاكم على الناس» قبالة بيئته ، وخبرة «رجل الفعل» قبالة وقائعه ، باطلتين عقيمتين، عندئذ نجد البصيرة حدودها ايضـاً . ان وجود هذين الدهرين هو واقعة من وقائع الخبرة الـتاريخية ، زد على ذلك أن اختبارنا للحضارة البدائية لا يتوقف فقط على المراقبة وعلى آثارها كشيء قائم بذاته ومنغلق على نفسه ، بل يتوقف ايضاً على تفاعلنا ومغزاهـا الاعمق نظراً لرباط باطني يشدنا اليها ، وهو رباط لجوج ملحاح داخل ذواتنا .

لكن الدهر الثاني يفتح أمامنا ميداناً لخبرة أخرى ذات نوع مختلف تمامـاً . إن الظهور المفاجىء لنموذج الحضارة الارقى في ميدان التاريخ البشري جاء وليد مصادفة لا نستطيـع أن نتحرى مغزاها او نتقصاه . والحق أنه من الجائز تماماً أن حادثة مفاجئة قد وقعت في مجال تاريخ الارض ، فدفعت بشكل جديد مختلف ، الى الوجود الظاهري . ولكن حقيقة وجود ثماني حضارات كهذه أمامنا، حضارات لها جميعاً الشكل ذاته والتطور نفسه والديمومة ذاتهـا ، تخولنا أن ننظر اليها نظرة قياسية مقارنة ، ولذلك تبرر معالجتنا لها معالجة مقارنة، ودراستنا لها دراسة مقارنة ايضـاً ، وان نستحصل من دراستنا على معرفة نستطيـع أن نمتد بهـا وراء لتغطي حقبات مفقودة من التاريخ ، وأمامـاً لتشمل المستقبل وذلك شريطة ألا يستبدل مصير نظام مغاير، وبصورة اساسية مفاجئة ، عالم الشكل هذا ، بعالم شكل آخر . إن حقنا في ان ننطلق بدراستنا على هذا النحو ينبـع من خبرتنـا العـامة للكينونة العضوية . وكما أننا لا نستطيـع في ميدان تاريخ سباع الطير أو تاريخ النبات ذي الثمار المخروطية الشكل (Coniferae) أن نتنبأ ، أين أو متى ستنشأ فصـائل جديدة ، كذلك فاننا لا نستطيع أن نقرر أين أو متى ستنشأ حضارة جديدة .

ولكن في اللحظة التي يحمل الرحم بكائن جديد ، أو تدفن البذرة في التربة ، فاننا نعرف الشكل الباطني لمجرى الحياة الجديد هذا ، ونعرف ايضاً بان سياق تطوره الصامت واكتماله ، قد يعكر صفوه ضغط قوى خارجية ، لكنه لا يبدله أبداً .

إن هذه الخبرة تعلمنا ايضاً ، ان المدنية التي تقبض الآن على كامل سطح الارض هي ليست بدهر ثالث ، بل انما هي مرحلة (ومرحلة ضرورية) من مراحل الحضارة الغربية التي تمتاز عن مثيلاتها من الحضارات فقط بشدة نازعها الى الامتداد .

وعند هذه النقطة تنتهي الخبرة ، ويصبح كل رجم بالغيب عن ماهية الاشكال الجديدة التي ستسيطر على حيـــاة الجنس البشري مستقبلاً ، (أو بالنسبة الى هذا الأمر عمـا اذا ستقوم مستقبلاً أية اشكال جديدة كهذه) ويمسي كل بنـاء لقصور كرتونية فخمـة ، تنشأ على أساس من « يجب أن يكون » أو « سيكون » مجرد تفاهة تبدو لناظري أن فيها من العقم والبطلان قدراً يجعلني لا أبرر إهدار مجهودات حياة واحدة من أي نوع كانت ، عليها .

إن مجموعة الحضارات الراقية ، بوصفها مجموعة ، ليست بوحدة عضوية . أمـــا كونها قد بلغت تماماً هذا الرقم عدداً وقامت في تلك الاماكن والازمنة وحدها ، فهذان الأمران همـــا بالنسبة الى العين البشرية مجرد مصادفة لا تمتلك أي وضوح اعمق . بينما أن تنسيق الحضارات الافرادية هو على العكس من ذلك ، إذ بلغ درجة من الوضوح مكنت التقنية التاريخية للعوالم من صيني ومجوسي وغربي ، (ومراراً كثيرة مكن بالفعل الوفاق المشترك بين المثقفين من ابنـــاء هذه الحضارات) من صياغة مجموعة من الاسماء التي يستحيل علينا أن ندخل أي تحسين عليها .

اذن فامـــام الفكر التاريخي واجب ذو شقين ، ويتمثل الشق الاول منه في معالجة مجاري حياتات الحضارات الافرادية معالجة مقارنة ، أمـا الثاني فيتجلى في تمحيص العلاقات الطارئة الشاذة لهذه الحضارات بعضها ببعض وذلك من جهة معناها . ومن الواضح بما فيه الكفاية إنه قد تغوضي حتى الآن عن ضرورة الشق الاول من هذا الواجب . أما الشق الثاني فانه قد عولج بواسطة منهاج كسول ضحل فقط ،

منهاج بفرض السببية (العلية) على كامل العقدة ويعرضها بترتيب وكياسة بمحاذاة مجرى تاريخ « عالم » افتراضي ، وبهذا يجعل من المستحيل اكتشاف سيكولوجيا هذه العلاقات الصعبة لكنها الغنية الجياء ، أو الحياة الباطنية لاية حضارة خاصة . والحق أن شرط حل المعضلة الاولى هو أن تكون المعضلة الثـانية قد حلت قبل الآن . فالعلاقات (الحضارية) هي علاقات مختلفة جداً حتى من الناحية البسيطة ، ناحية الزمان والفراغ . فالصليبيون قد حملوا ربيعاً حضاريـاً ليضعوه قبالة مدنية عتيقة ناضجة . ونحن نرى أن زمـان البذر يقف ، في العالم الكريتي - الماسيني ، جنبا الى جنب والخريف الذهبي . فالمدنية قد تفيض متدفقة من بعد هـائل ، كما تدفقت المدنية الهندية من الشرق لتفيض في الحضـارة العربية ، أو قد ترقد هرمة شائخة خانقة فوق طفولة الحضارة ، كما كانت حال المدنية الكلاسيكية بالنسبة الى الجانب الآخر من الحضارة العربية . ولكن هناك ايضاً فروقاً في النوع والقوة ، فالحضارة الغربية تبحث عن العلاقات ، أمـا المصرية فتحاول أن تتجنبها ، زد على ذلك أن الحضـارة الغربية تتعرض مرة بعد أخرى للطمات هذه العلاقات وضرباتها خلال أزمات مأساوية ، بينما أن الحضارة الكلاسيكية تستحصل على كل ما يمكنها استحصاله منها دون ما عذاب أو ألم . ولكن لجميع هذه النوازع جذورها الضاربة عميقاً في روحانية الحضارة نفسها ، واحيانا تقدم إلينا هذه النوازع من أخبار تلك الحضارة، اكثر بكثير مما تقدمه الينا لغة الحضارة الخاصة بها ، هذه اللغة التي تبطن أكثر مما تجاهر به وتعلن .

- ٥ -

إن لمحة نلقي بها على مجموعة الحضارات تكشف لنا عن مهمة بعد مهمة وواجب اثر واجب . فـالقرن التاسع عشر الذي وجه فيه العلم الطبيعي البحث التاريخي ،

وسيطرت خلاله افكار العصر الباروكي على الفكر التاريخي، قد ارتفع بنا فقط الى ذروة سامقة مكنتنا من أن نرى عالماً جديداً ينفسح من تحتنا. فهل سنتمكن من ان نضع في أحد الأيام أيدينا على ذاك العالم الجديد ؟

ان المعالجة المطردة الوحيدة النسق للمجاري العظمى، مجاري الحياة، لا تزال حتى يومنـــا هذا بالغة الصعوبة شديدتها، وذلك لانه لم يجر البحث عن الميــادين التاريخية الابعد بحثــاً جدياً، وهذا الأمر ناشىء عن النظرة المتكبرة المتعالية لانسان اوروبا الغربية، فهذا الانسان يلاحظ فقط مـا يقترب اليه من هذا العهد العتيق أو ذاك، سالكاً نحوه (نحو انسان اوروبا الغربية) درباً خاصاً لائقاً لعصر وسيط، أمـا ذاك الذي يسلك سبله الخاصة، فانه لن يستأثر الا بالقليل من اهتمام الانسانالاوروبيالغربيوانتباهه. وهكذا نجد أن انساناوروبا الغربية قد بدأ الآن يعالج مواضيع من انواع معينة خاصة من محتويات العالمين الهندي والصيني (الفن، الدين، الفلسفة)، لكن علاجه للتاريخ السياسي، وذلك اذا مـا عالج مثل هذا الموضوع، لا يتعدى الثرثرة ولغو الكلام. ولا يخطر على بال أي انسان أن يعالج المعضلات العظمى منأساسية ودستورية للتاريخ الصيني، كمصير لي - وانغ (٨٤٢) المماثل لمصير آل هوهنشتاوفن [١] او أول مؤتمر عقده الأمراء (عام ٦٥٩)، او الصراع المذهبي الذي نشب بين العقيدة الاستعمارية لدولة «تسن» [٢] والرومانية» (لين - هنغ) وبين الدعوة الى تأسيس جامعة أمم (هو - تسونغ)، هذا الصراع الذي دار بين عـــامي ٥٠٠ و ٣٠٠، أو ظهور اوغسطس الصيني، هوانغ - تي (عام ٢٢١)، أقول لا يخطر على بال أي انسان أن يعــالج هذه الأمور باي من

١ - سلالة مالكة المانية. (المترجم)

٢ - لاحظ الدراسة المقارنة للتاريخ، فدولة « تسن » دولة قامت في الصين.

(المترجم)

عمق أو تفصيل كالذين كرسها « مومسون » لدراسة ولاية اوغسطس .

ونعود الآن لنطرق موضوع الهند ثانية ، فنقول بانه مها بلغ نسيان الهنود انفسهم لتاريخ دولتهم درجة من التام، إلا أن المواد المتوفرة لدينا، على كل حال، من زمن بوذا هي أوفر من المواد التي وصلت إلينـــا من القرنين التاسع والثامن الكلاسيكيين ، ومع ذلك ترانا نسلك حتى اليوم سلوك من يرى أن الانسان الهندي قد كرس كل حياته وعاشها في فلسفته ، تمـاماً كما أمضى سكان اثينا (على حد ما يريده المتكلسكون منا أن نؤمن به) حياتهم يفلسفون الجمال على ضفاف « الاليسوس » . ولكن حتى السياسة المصرية تحظى بالقليل من الاهتمام التـأملي . فالمؤرخ المصري المتـأخر زمنا قد أخفى وراء اسم « مرحلة الهكسوس » الأزمة ذاتها التي عالجها نده الصيني تحت عنوان « مرحلة الدول المتنازعة » .

وهنا ايضاً نصادف شيئاً ما لم يبحث أبداً . أما الاهتمام بالعـالم العربي فانه بلغ حدود الالسنة الكلاسيكية ولم يتجاوزها الى ما هو أبعد من ذلك . ولكن بأية مثابرة لا تعرف تعباً او مللا ، وصفنا نظـــام ديوكلتسيان وجمعنا مواد تاريخ اداري غير هـام كليا لولايات اسيا الصغرى ، وذلك كله لان ذاك النظام وتلك المواد قد دونت باللغة اليونانية . لكن الدولة الساسانية ، وهي، على كل الوجوه ، النموذج لدولة ديوكلتسيان ، لا تظهر في الصورة التاريخية إلا اتفاقـاً ومصادفة ، وتظهر حتى في هذه الحال كخصم مناجز لروما في الحرب . ولكن ما الذي لدينا من تاريخها الاداري والتشريعي ؟ فيالها من مجموعة فقيرة هي تلك المجموعة التي تمنا بتجميعها من قوانين واشكال اقتصاد مصر والهند والصين ، وذلك إذا مـا قارناها بالجهود التي بذلناها على القانونين من اغريقي وروماني .

فقرابة عام ٣٠٠ ق. م. ، وعقب حقبة « ميروفنجية » (Merovingian) طويلة لا تزال جلية واضحة المعالم في مصر ، ولدت اقدم حضارتين عرفها العالم ، وذلك في مناطق جد محدودة تقع على اسفل مجريي نهري النيل والفرات . وقـد عرف منذ زمن طويل ، التمييز بين المراحل المبكرة والمراحل المتأخرة زمنـــاً

لهاتين الحضارتين بالمملكة القديمة والمملكة الوسيطة ، وبالسومريين والأكاديين (Sumer Akkad) .

إن نتاج الحقبة الاقطاعية المصرية المطبوع بطابع توطد اركان النبالة الوراثية وانحلال المملكة الاقدم (ابتداء بالاسرة السادسة) يشبه الى حد مذهل مجرى الحوادث في ربيع الحضارة الصينية المبتدىء بأي – وانج (٩٣٤ – ٩٠٩) ويشبه أيضاً الربيع الحضاري الغربي المنطلق من الامبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦) شبهاً عجيباً بحيث يحملنا نقدم على المغامرة بالقيام بدراسة مقارنة موحدة بين الحضارات الثلاث جميعاً . فنحن نشاهد في بداية العصر البابلي « الباروكي » شخص سرجون الاكبر (٢٥٠٠) الذي انطلق فبلغ شواطىء البحر الابيض المتوسط واحتل جزيرة قبرص ونصب نفسه ، كما نصب نفسيهما كل من يوستنيان الاول وشارل الخامس ، « أي سيداً على اجزاء الارض الاربعة . » كما واننا نلاحظ في حينه، وقرابة عام ١٨٠٠ بدايات اولى المدنيات تطل برؤوسها على النيل، وتبتدىء في وقت ابكر من هذا في الحضارة السومرية الاكادية . ولقد أبدى العنصر الاسيوي في هذه المدنيات قوة انتشارية هائلة. «فانجازات المدنية البابلية»، وهي أشياء وافكار وتصورات كثيرة تتعلق بالقياس والعد والحساب ، قد بلغت (كما تقول الكتب) بانتشارها تخوم بحر الشمال والبحر الاصفر ولربما وجدت الهمجية الجرمانية كثيراً من الطوابع البابلية التي شاهدتها على أداة أو آنية بابليتين وصلتا اليها ، بوصف هذه الطوابع رموزاً سحرية ، وهكذا من الجائز أن يكون قد نشأ عن هذه الطوابع زخرف « المأني مبكر زمناً » . ولكن المملكة البابلية كانت في تلك الاثناء تنتقل من يد الى يد ، من يد الحثيين الى الاشوريين فالكلدانيين فالميديين فالفرس فالمقدونيين .

وكان جميع هؤلاء الذين يتألفون من جماعات محاربة يقودها قواد بارعون أقوياء الشكيمة ، تغتصب الجماعة منهم مقاليد السلطة في العاصمة من الجماعة الأخرى ، دون أن تلقى من السكان أية مقاومة تذكر . وهذا أول مثال في التاريخ من طراز الأمثلة التي ضربتها « الامبراطورية الرومانية » فيما بعد . لكن سرعان ما

حذت مصر حذو بابل في هذا المضمار . وكان الحرس البريتوري في عهد الحثيين يعزل الحكام وينصبهم ، أمـــا الاشوريون فشأن حكامهم كان شأن الاباطرة العسكريين الرومان المتأخرين زمناً (وخاصة مـا بعد كومودبوس) ، إذ انهم حافظوا على الاشكال الدستورية الاساسية القديمة للدولة . كما وان قورش الفارسي واوستروغوث الثيودري كانا يعتبران نفسيهما بمثابة مديرين للامبراطورية ويريان في العصابات المقاتلة من ميديين ولومبارديين أقواماً سيدة مستقلة في بيئات غريبة عنها .

ولكن هـــذه الأمور هي « دروق » دستورية أكثر من كونها فروقاً واقعية .

والحق أن فيالق سبتيموس سفيروس الافريقي لم تكن في جوهرها وغايتهـا مختلفة عن المحاربين من الفيزيغوت (Visigoths) في جيوش « ألاريك » . وفي معركة ادريانوبل انعدم التمييز تقريباً بين الرومان البرابرة .

وعقب عـــام ١٥٠٠ تبدأ ثلاث حضارات جديدة : الاولى ــ الهندية ، وقد ولدت هذه في منطقة البنجاب العليا . والثـانية ــ الصينية التي شاهدت النور عقب الاولى بمئة عام في منطقةهوانغ ــهو ــ الوسطى ،والثالثة ــالكلاسيكية وقد عرفت هذه طريقها الى الوجود على شواطىء بحر ايجيه قرابة عام ١١٠٠ .

ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن ثلاث أسر مالكة عظمى ، وهذه الاسر هي : « هسيا » (Hsia) وشانغ وتشو ، وحديثهم عن هذه الأسر مماثل في اسلوبه تقريباً لاعتبار نابليون نفسه مؤسساً لاسرة رابعة تخلف الاسرات المالكة من مورووفونجية وكارولنجية وكابيتسيانية . لكن الاسرة الصينية الثالثة قد عايشت فعلاً الحضارة الصينية في كل حالة من حالاتها وطيلة ما كان لهذه الحضارة من عمر .

وفي عام ٤٤١ ق.م عندما وقع الامبراطور ، سليل عائلة تشو ، والذي لم يكن يملك من السلطة سوى اسمها ، أسيراً في قبضة « الدوق الشرقي » ، وعندما نفذ حكم

الاعدام عام ١٧٩٣ « بلويس كابي »[1] عندئذ تحولت الحضارة في كل من الحالتين الانفتي الذكر الى مدنية .

وهناك مخلفات أثرية برونزية صينية تعود الى عهود جد غـارقة في القدم ، ولا تزال محفوظة منذ الأزمنة المتأخرة لعائلة تشانغ ، وعلاقة هذه المخلفـات بالفن الصيني الذي اعقبها هي تماماً كعلاقة الفن الماسيني بالحرف الكلاسيكي المبكر ، وكعلاقـة الزخرف الكرولونجي بفن الرومانسك . وباستطاعتنا ان نرى في الربيـع الحضاري ، من فيدي وهوميروسي وصيني ، وفيا تمخض عنه هذا الربيـع من « قلاع » وفروسية وسيادة اقطاع ، كامل صورة عهدنا القوطي ، زد على ذلك أن « مرحلة الحماة العظام » (هذه المرحلة المتمثلة في منغ تشو ٦٨٥ — ٦٩١) تنطبق انطباقاً كلياً على أزمنة كروموبل وفلانشتاين وريشيليو،وعلى عصر الطغاة الاول في العالم الاغريقي .

ويسمي المؤرخون الصينيون المرحلة الممتدة بين عامي ٤٨٠ و ٢٣٠ ق. م. « بمرحلة الدول المتنازعة » وقد بلغت هذه المرحلة ذروتها في قرن توزعته حروب متواصلة دارت رحاها بين جيوش هائلة ، واضطرابات اجتماعية مرعبة ، واخيراً تمخضت تلك الحروب. وهذه الاضطرابات عن قيام دولة « تسن » بوصفها مؤسسة الامبراطورية الصينية .

أما مصر فلقد مرت بالتجربة الآنفة الذكر ذاتهـا خلال المرحلة الممتدة بين عامي ١٧٨٠ و ١٥٨٠ ، وقد اوقف القرن الاخير من هذه المرحلة ، أحداثه على « الهكسوس » .

أما العالم الكلاسيكي فقد عانى المحنة ذاتها وذلك ابتداء من معركة كـكرونيا (عام ٣٣٨) وبلغت هـذه المرحلة الذروة في رعبها ابتداء بمعركة « جراتشي » (عام ١٣٣) وانتهـاء بمعركة اكسيوم (عام ٣١) ، وأخيراً فان القرنين

---

١ — لويس السادس عشر .

(المترجم)

التاسع عشر والعشرين يشكلان المرحلة نفسها بالنسبة الى العالم الاوروبي الغربي الاميركي .

ويبدل مركز الثقل خلال هذه المرحلة موضعه وينقله ، وكما نقله من أثينا الى لاتسيوم ، كذلك نقله من هوانج - هو (الواقعة في هو - نان - فو) الى اليانغتسي (الاقليم الحديث من هو - بي) . ولقد كان نهر سيكيانغ في تلك الايام غامضاً بالنسبة الى علماء الصين غموض نهر الالبه بالنسبة الى العالم الجغرافي الاسكندري ، ولم تكن تراود أي انسان من هؤلاء أية فكرة أو خاطر عن وجود الهند .

وكما ارتفعت على الجانب الآخر من الكرة الارضية أسرة جوليان كلوديان الى السلطان ، كذلك نشأت هنا في الصين شخصية وانغ - تشينغ الجبارة الذي قاد دولة «تسن» خلال صراع حاسم ، ليبلغ بها مرتبة السيادة العليا واتخذ له عام ٢٢١ لقب تي (وهذا مماثل تماماً في معناه للقب اوغسطس ،) وسمى نفسه باسم القياصرة أي هوانغ - تي . وهو الذي اسس الـ « Pax Serica » كما يجوز لنا أن ندعوها ، وقام باصلاحات اجتماعية عظيمة في الأمبراطورية المتعبة المنهوكة وبدأ (بسرعة روما وفوريتها) ببناء « سوره » ، السور الصيني العظيم الذي اضطره استكماله الى ضم جزء من منغوليا الى أمبراطوريته وذلك عام ٢١٤ وهوانغ - تي كان اول من أخضع البرابرة في الاقاليم الواقعة جنوباً من نهر يانغ تسي ، وذلك عقب سلسلة من حملات واسعة المدى اتبعها ودعمها بشق الطرق العسكرية وبناء القلاع وتشييد الحصون وانشاء المستعمرات . ولكن تاريخ عائلته كان ايضاً تاريخاً « رومانيا » (لقد كان هذا التاريخ بمثابة دراما «تاسيتيه» قام بتمثيل بعض ادوارها لوي - تي (مستشار الأمبراطور وزوج أمه) ولي ستسو (اغريبا عصره وموحد الخط الصيني) لكنها كانت دراما سرعان ما انتهت بفظائع نيرونية . وخلف اسرة هوانغ - تي في الحكم اسرتا الهان (الغربية من ٢٠٦ ق.م الى ٢٣ ب.م ، والشرقية من ٢٥ ب.م الى ٢٢٠ ب.م) وقد أخذت رقعة الصين خلال عهدي

هاتين الامبرتين تزداد اتساعاً يوماً بعد آخر ، وذلك بينما كان الخصيان من الوزراء والقادة العسكريين في العاصمة ينصبون الحكام ويخلعونهم حسبما تشاء لهم نزواتهم وتهوى . وفي فترات معينة نادرة ، كفترة حكم وو – تي (١٤٠ – ٨٦) وعهد منغ – تي (٥٨ – ٧٦) بلغ ، في مناطق بحر قزوين ، اقتراب قوى العالم من كونفوشيوسية صينية وبوذية هندية ورواقية كلاسيكية بعضها من بعض درجة تجعلنا نرجح حدوث تماس واقعي بينها .

وقد شاء الحظ أن تتكسر هجمات الهون (Huns) على سور الصين الذي كان يجد له في كل محنة أمبراطوراً قوياً يدافع عنه . ولقد صد الامبراطور «تراجان» الصيني ، وو – تي ، هجمات الهون صداً حاسماً وذلك خلال المدة الواقعة بين عامي ١٢٤ و ١١٩ . والامبراطور وو – تي هو الذي ضم في النهاية المناطق الجنوبية الصينية الى الامبراطورية مستهدفاً من وراء ذلك بلوغ الهند ، كما وانه شق طريقاً عسكريا عظيماً الى «تاريم» . وعندما فشل الهون في اقتحام سور الصين اتجهوا بهجماتهم غرباً وظهروا في حينه وجماعة من العشائر الجرمانية التي اغروها بالانضمام اليهم أمام اسوار العالم الروماني . وقد صادفهم هذه المرة النجاح فتهاوت الامبراطورية الرومانية واندثرت . وهكذا لم يبق من الامبراطوريات الثلاث سوى امبراطوريتين أصبحتا غنيمتين سال لها لعاب قوى متواترة مختلفة . وأمسى بربري الغرب « ذو الشعر الاحمر» هو الذي يقوم على مشهد من البرهمي والمندريني (Mandarin)[١] اللذين بلغا درجة من المدنية ، بالدور ذاته ، الذي قام به فيما مضى المغولي والمنشو . وبراعة بربري الغرب في تمثيل دوره ليست افضل أو اسوأ من براعة نده . وسيحل اكيداً في الوقت المناسب محل البربري الغربي ذي الشعر الاحمر آخرون ليمثلوا الدور ذاته . لكن بينما كانت الحضارة الغربية تنضج خفية

---

١ – Mandarin : الموظف الصيني في عهد الأمبراطورية

–المترجم–

في الغرب الشمالي من الميدان الاستعماري لروما المتعثرة ، كانت الحضارة العربية قد تجاوزت طور ازدهارها في الجزء الشرقي من ذاك الميدان . والحق ان الحضـــارة العربية هي كشف واكتشاف . ولقد اشتبه العرب المتأخرون زمنـــاً في وحدتها لكن انعتاقها من البحث التاريخي الغربي بلغ درجة من الكلية بحيث لم نستطع معها أن نجد لها حتى إسماً نرضى عنه ونطمئن اليه . غير أننـــا نستطيع اعتماداً على اللغات السائدة التي عرفتها هذه الحضارة أن ندعو طورها الجنيني وربيعها الحضاري بالعهد الارامي ، وان نسمي أطوارها الأخرى بالعهد العربي . لكننا لا نستطيع في هذا المجال ، مجـــال التسمية من تحديد الاسماء تحديداً حقيقياً يفي بالغرض ، وذلك لان الحضارات في هذا المجـــال كان بعضها قريبـــاً من بعض وادى امتداد المدنيات التي آلت اليها الى الكثير من التراكم والتمويه .

بدأت وانتهت الحقبة مـا قبل الحضارية من الحضارة العربية ، هذه الحقبة التي نستطيـع أن نقتفي آثارها في التاريخين الفارسي واليهودي داخل مناطق العالم البابلي القديم . غير أن الربيـع الحضاري العربي تأثر تأثراً جباراً بالمدنية الكلاسيكية التي انطلقت من الغرب بكل ما لهـا من قوى وزخم نضوج كانت قد بلغته لتوها ، زد على ذلك أنه كان للمدنيتين المصرية والهندية أثر بارز ايضـاً في الربيـع الحضاري العربي . ومن ثم قامت الروح العربية بدورها (وهي تخفي معظم فعالياتها تحت اقنعة كلاسيكية تعود الى أزمنة متأخرة) باخضاع الحضارة الغربية الوليدة لسلطان سحرها .

وتشكلت المدنية العربية فوق طبقة من مدنية كلاسيكية كانت لا تزال حية في النفس الشعبية في أقاليم اسبانيا الجنوبية وفي بروفانس وصقلية،وأمست النموذج الذي هذبت وفقه النفس الغوطية ذاتها . وقد مُد في مجالات هذه الحضارة الخاصة مداً عجيباً وجزئت ايضاً هذه المجالات تجزئة شاذة غريبة . فلينتقل الانسان بخياله الى تدمر أو زيزفون مثلا وليتأمل سارحاً بفكره خارج هاتين المدينتين أو ممعنـاً النظر في كل ما حولها ، فهو عندئذ سيرى Osrhoene في الشمال، وستقع انظاره

على أديسه التي أمست « فلورنسا » الربيع الحضاري العربي . وسيشهد في الغرب سوريا وفلسطين موطن العهد الجديد والمشنا اليهودية وستطالعه الاسكندرية بوصفها مركزاً أمامياً دائماً . أما شرقاً فلقد اختبرت المازادية تجدداً جباراً يعادل ما كان لولادة المسيح من أثر على اليهودية ، وعن تجدد المازادية نستطيع أن نقول اعتماداً على الحالة المتامية لآداب الافستا بأنه قد وقع حتماً وحدث . وهنـــا ايضاً شاهد التلمود ومذهب ماني النور . أما في الجنوب البعيد ، موطن الاسلام المقبل ، فان عصر الفروسية قد تمكن من أن يبلغ الذروة من تطوره كما بلغها الساسانيون من قبل في بلادهم . وحتى هذا اليوم لا تزال توجد آثار ، لم تكتشف بعد ، من قلاع وحصون شهدت حروباً ضارية حاسمة نشبت على ساحلي البحر الأحمر بـــين دولة اكسوم (Axum) المسيحية ودولة حمير اليهودية ، وكانت الدبلوماسية الفارسية والرومانية تغذي هذه الحروب وتسعر ضرامها . أما في الشمال الأقصى فلقد كانت تقوم بيزنطة وهي مزيج غريب من عناصر كلاسيكية متمدنة جافة وذات شباب وفروسية تجليا قبل كل شيء في تاريخ نظام الجيش البيزنطي المحير المربك . واخيراً (لا بل متأخراً جداً) حمل الاسلام الى هذا العالم الانف الذكر الوحدة الوجدانية ، وهذا هو السر في زحفه الظافر والاستجابة المستسلمة تقريبـــاً للمسيحيين واليهود والفرس على حد سواء الى دعوته .

ومن الاسلام انبثقت في الوقت المناسب المدنية العربية التي بلغت ذروة كتالها الذهني حينما اقتحم البرابرة[1] من الغرب لفترة من الزمن البلاد الاسلامية في طريقهم الى القدس . وقد نسأل ذواتنا كيف بدت يومذاك هذه الغـــارة في أعين العرب المتمدنين ؟ هل بدت مثلاً شيئاً ما شبيهاً بالبلشفية ؟ وذلك لأن علاقات الفرنجة (Frankistan) السياسية وأنظمتهم كانت دون الأنظمة الادارية في العالم العربي

١ ـ لا شك ان اشبنغلر يعني بهؤلاء الصليبيين .

(المترجم)

درجة ومستوى. وحتى خلال حرب الثلاثين عندما بذل مبعوث[1] بريطاني قصارى جهده ليستعدي الباب العالي على أسرة هابسبورغ ، فان السلطان الذي كان يوجه سياسة منطقة تمتد من مراكش الى الهند قد رأى حتماً ان الدول الصغيرة المعتدية النهابة والبعيدة عن بلاده غير جديرة باهتمامه . وحتى عندما نزل نابليون بجيوشه في مصر بقي الكثيرون من الناس مجردين من كل خاطر عن المستقبل .

وشهدت المكسيك في هذه الفترة من الزمن تطور حضارة جديدة ، غير ان عزلة هذه الحضارة عن الحضارات الاخرى كانت شديدة الى حد انها لم تبادل غيرها من الحضارات كلمة واحدة . ولكن مما يثير الدهشة لا بل الذهول هو أوجه الشبه بين تطور هذه الحضارة وتطور الحضارة الكلاسيكية . ولا شك ان علماء الآثار اذا ما وقفوا امام معبد مكسيكي فانهم سيذعرون ويهلعون اذا ما أشار أحدهم الى اوجه الشبه بين هذا المعبد والمعبد الدوري ، ومع هذا فان لهذا المعبد مسحة كاملة في كلاسيكيتها (مسحة تبرز ضعف الارادة - للقوة في ميدان التقنية) وهذا الضعف هو الذي أبقى شعب الازتيك (Aztecs) مسلحاً تسليحاً رديئاً وجعل الكارثة التي نزلت بهم أمراً ممكناً . وذلك لأن هذا النوع الواحد من الحضارة كما يحدث قد لاقى موتاً عنيفاً مروعاً . فحضارة المايا لم تمت جوعاً ولم تكبح أو يعترض سبيلها معترض ، بل انها قتلت قتلاً ، وقتلت وهي في أوج ازدهارها ، ودمرت كما تدمر زهرة عباد الشمس اذا ما قطع احد المارة تاجها . فكل هذه الدول (دول الازتيك) (بما فيها من قوة عالية واكثر من اتحاد) وبما لها من حجم وموارد أضخم بكثير من موارد الدول الاغريقية والرومانية في زمن هنيبال ، واوسع من احجامها ، وبما لها من سياسة واعية مدركة ونظام مالي

١ - يدعى هذا المبعوث السير توماس رو Thomas Roe وقد قام بمهمته هذه عام ١٦٢٠ .

(المترجم)

أعد بعناية وفهم ، وتشريع بلغ درجة رفيعة من التطور ، وأنظمة ادارية وتقاليد اقتصادية لم يحلم بمثلهـــا حتى وزراء شارل الخامس ، وثراء عريض في الآداب واللغات ، ومدن عظمى ذات مجتمعات متأدبة ولا معة ذهنياً ، مجتمعات لا يستطيع الغرب أن يقدم مجتمعاً واحداً يضارع هاتيك ، أقول كل هذه الدول وبكل مـا لها من ارصدة حضارية لم تندثر نتيجة لحرب بائسة ، بل انما جرفتها خلال سنوات قليلة عصابة ضئيلة العدد من اللصوص ودمرتها تدميراً جعل الآثار التي خلفها السكان بلهاء لا تحتفظ حتى بأية ذكرى عن تلك الحضـــارة . فمن المدنية العملاقة « تينوشتتلان » (Tenochtitlan) لم يبق حجر واحد لم يغيبه الثرى في أحشائه . وأذعنت العناقيد من مدن « المايا » العظيمة التي شيدت في غابات يوكاتان العذراء لهجمات نبات الارض واستسلمت لها استسلام من فترت همتـه وخارت عزيمته . وهكذا ترانا اليوم لا نعرف اسم أية مدينة من تلك المدن . ولم تعف يـد الدمار الا عن ثلاثة كتب من آدابهم ، لكنها كتب لم يتمكن أحـــد حتى الآن من قراءتها .

أمـــا أشد مظاهر هذه المأساة إيلاماً للنفس وترويعاً لها كون هذا التدمير الساحق الماحق يتنافى نزوله وأبسط ضرورات الحضارة الغربية . وقد جـاء وليد نزوات خاصة فاضت بهـا نفوس اولئك المغامرين ، ولم يترام يومذاك الى مسامع المانيا وفرنسا أو انكلترا أي نبأ عما يدور في المكسيك ويحدث . وهـذا المثال لدليل قاطع ما بعده من دليل على ان تاريخ الانسانية لا يمتلك أي معنى كان ، وعلى أن المغزى العميق انما يكمن ويثوي في مجرى حياة كل حضارة على حدة . فالعلاقات المشتركة بين الحضارات هي من بنات الصدفة ودون أهميـــة . ولقد بلغت الصدفة في هذه الحال درجة من القسوة والتفاهة والشذوذ والغباء بحيث لا يجوز لنا معها أبداً أن نبدي أي نوع من التسامح نحوها . فعدد قليل من المدافع والبنادق بدأ هذه المأساة وأنهاها .

وهكذا نرى أن معرفة أكيدة حتى بأكثر تاريخ العـــالم عمومية هي أمر

ممكن دائماً وأبداً . ونشهد أيضاً أن أحداثاً هامة كالحملات الصليبية والاصلاح الديني قد اختفت من صورة التاريخ دون أن تترك أي أثر وراءها . ولم يستطع البحث التاريخي الا خـــلال هذه السنوات الاخيرة أن يتدبر أمره فيقرر مخططاً عاماً لمجرى التطور في مراحله المتأخرة على كل حـــال ، وبهذا أمسى بمقدور المورفولوجيا المقارنة بمساعدة هـــذه المعلومات ان تحاول تعميق صورة التاريخ وتوسيعها مستعينة بوسائل الحضارات الأخرى تلك .

وانطلاقا من هذه القاعدة نقول بان النقــاط الحقبية لحضارة المــايا هذه هي على بعد زمني يبلغ قرابة المئتي سنة ما بعد النقاط الحقبية العربية ، وسبعماية سنة ما قبل نقــاط حضارتنا الحقبية . وقد مر الأزتيك بحقبة سبقت حضارتهم ، شأنهم في ذلك شأن المصريين والصينيين ، وقد طوروا خلال هذه الحقبة خطهم وتقويمهم الزمني ، لكننا لا نزال نجهل حتى اليوم كل شيء عن هذين ، فمعرفة الزمان بدأت بالتأريخ الاولي الذي يقع بعيداً ما قبل ميلاد المسيح ، لكنه من المستحيل علينا الآن أن نحدد مطمئنين واثقين التأريخ بالنسبة الى حضارة المايا . وعلى كل حال فـان هذه الحضارة تظهر أن الجنس البشري المكسيكي يتمتع بحس تاريخي غير مـــألوف في عمقه وقوته .

ويطالعنا الربيع الحضاري لدول المـــايا « الهيلينية » من خلال الاعمدة ذات التضاريس والتي نقشت التواريخ عليها، وهذه الاعمدة تنتصب في المدينتين القديمتين الجنوبيتين « كوبان» وتيكال Tikal ، وفي المدن الشمالية ، التي بنيت في وقت ما بعد تينك ، كتشتن اتزا « Chichen Itza » « وناراتجو » « وسايال » . وقد تم بنــاء كل هذه المدن التي ذكرت في الفترة الواقعة بين عام ١٦٠ و ٤٥٠ . وفي نهاية هذه الفترة الزمنية أمست مدنية « تشتن اتزا » نموذجاً للهندسة المعارية طيلة قرون . أمـا الازدهار التام « لينك » (Palenque) و « بيدراس نيغراس » (في الشمال) فانه قد ينطبق على العصر القوطي المتـــأخر وعصر الانبعاث (فحقبة حضارة المـــايا الممتدة من ٤٥٠ – ٦٠٠ تنطبق على الحقبة الممتدة من ١٢٥٠ –

١٤٠٠ ؟) . وفي العصر «الباروكي» ، أي في المرحلة المتأخرة زمناً ، من حضارة المايا تبدو « تشامبوتون» كأنها قد أمست مركزا لتشكل الاسلوب والنسق ، زد على ذلك أن التيــار الحضاري قد بدأ في هذه المرحلة بفعل فعله في اقوام « ناهوا » Nahua « الايطاليين » Italic الذين كانوا يسكنون النجود المرتفعـــة . وكان هؤلاء الاقوام من النـــاحيتين الفنية والروحية مجرد مقتبسين ، لكنهم كانوا في غريزتهم السياسية ، اوفع بكثير من شعوب المـايا . (وحقبة « ناهوا » تبدأ قرابة عام ٦٠٠ ، وتنتهي قرابة عام ٩٦٠ ، وهذه تنطبق على الحقبتين الكلاسيكية من عام ٧٥٠ – ٤٠٠ ق.م، والغربية من عام ١٤٠٠ الى ١٧٥٠ ؟) . وبعد هـــذه الحقبة دخلت حضارة المايا طورها « الهيلينستي» .

وقرابة عام ٩٦٠ شيدت مدينة « اوكسمال » لتصبح سريعـاً مدينة عالمية من طراز أول ، ولتمسي الاسكندرية أو بغداد ، وقد تم انشاؤها في مطلع مدنيـة المايا . ونجد الى جانب هذه المدينة العالمية سلسلة من المدن الشهيرة كمدن «لابان » و « مايان » و « شاكولتون » و « تششن إتزا » جديدة مجددة. وهذه المدن تمثل الذروة في الهندسة المعمارية الفخمة ، وقد نشأ عنها فيما بعد اسلوب جديد في الهندسة، لكنه كان اسلوباً يطبق النوازع الهندسية القديمة وذا ذوق وحصافة في علاجه لكتل البناء الجبارة . أما من الناحية السياسية فان هذه الحقبة هي الحقبة الشهيرة والمتميزة بعصر جامعة دول «مايابان » .

ولقد كانت هذه الجامعة بمثابة حلف يربط بين ثلاث دول رئيسية . ويبدو أن هذا الحلف قد حافظ بنجاح على الوضع القــائم وذلك بالرغم من الحروب الكبرى والثورات المتواترة ، وبالرغم مما شاب اجراءاته من تكلف واستبداد. (وتمتد هذه الحقبة من عام ٩٦٠ – ١١٦٥ وتنطبق على الحقبة الكلاسيكية الممتدة من ٣٥٠ – ١٥٠ والحقبة الغربية من ١٨٠٠ – ٢٠٠٠) .

وقد تميزت نهاية هذه الحقبة بنشوب ثورة عظمى رافقها تدخل اكيد من قبل قوى « ناهوا » (« الرومانية ») في شؤون المـــايا . وقد تمكن هوناك كيل

(Hunac Ceel) بمساعدة «الناهوا» من التطويح بدول المايابان وتدميرها تدميراً شـــاملا . (وذلك قرابة عام ١١٩٠ = عام ١٥٠ بالنسبة للحضــارة الكلاسيكية) .

وجاءت هذه النتيجة التي آلت اليها دول «المايابان» مثالاً نموذجياً من الأمثلة التي تضربها لنا مدنية تجاوزت آخر مراحل النضوج حيث يصبح أهلوها شيعاً واقواماً مختلفة تتنازع على السيادة العسكرية . وهكذا أخذت مدن المايا العظمى تغرق في أحضان الدعة والرفاه والترف شأنها في ذلك شأن أثينا الرومانية والاسكندرية ، لكن افق بلاد « النـــاهوا » كان يتمخض عن آخر هذه الاقوام ، عن الازتيك البرابرة الفتيان الشديدي المراس والذين تركبهم إرادة للقوة لا تعرف شبعاً . وقد شيّد هؤلاء عام ١٣٢٥ (عصر اوغسطس) مدنية تينوشتتلان Tenochtitlan التي سرعان ما أصبحت جوهرة المدن وعاصمة كل العالم المكسيكي . وفي عـام ١٤٠٠ بدأ التوسع العسكري على نطاق واسع ، وقد حوفظ على الأقـاليم المحتلة بواسطة إنشاء مستعمرات عسكرية وشبكة من الطرق الحربيـــة ، ودبلوماسية حصيفة ابقت الدول التابعة موزعة الكلمة وخاضعة لسيطرتها . ونمت العاصمة الامبراطورية تينوشتتلان واتسعت رقعتها وأمست مدينة عملاقة يقطنها سكان « كسموبوليتن » ينطقون بكل لغة من لغات هذه الامبراطورية. وغدت أقاليم «ناهوا» آمنة سياسياً وعسكريا ، وكان التوق الى الاندفـاع نحو الجنوب يتطور تطوراً مريعاً ، وبدا أن وصاية ما وشيكة أن تفرض على دول المـايا ، ولكن ليس هناك من أثر يدل على الشكل الذي سيتخذه مجرى القرون التالية ، إذ أن النهاية باغتتهم فجأة .

وفي ذلك الحين كان الغرب قد بلغ المستوى الذي تجاوزته حضارة المـايا عـام ٧٠٠ . وليس هناك من شيء دون عصر فريدريكالكبير يمكن له أن يبلغ النضوج الكافي ليفهم سياسة جامعة دول مايابان ويدركها ، أمـــا ذاك الذي كان بعده الازتيك في عام ١٥٠٠ من تنظيم فـــانه لا يزال بالنسبة الينا (معشر الغربيين — المترجم) مرهوناً بالمستقبل . لكن ذاك الذي يميز الانسان الفاوستي حتى في ذاك

الجن ، عن أي إنسان حضارة أخرى ، فانما يتمثل في حافزه الذي لا يكبح الى البعد . وقد كان هذا الحافز هو الذي قتل في نهاية المطاف ، وحتى أباد الحضارة المكسيكية والبيروية ، انه الاندفاع الذي لا مثيل له ، اندفاع مستعد للعمل في أي مجال وكل ميدان .

لا شك أنه قد جرى تقليد الاسلوب « الايوني » في كل من قرطاجة وبرسيبوليس، كما وان الذوق الهيليني في فن غاندارا قد وجد له مقدرين ومعجبين. زد على ذلك أن الابحاث المقبلة قد تكشف شيئاً من الفن الصيني في الهندسة الخشبية الالمانية البدائية . أضف الى ذلك أن اسلوب المسجد في البناء سيطر على الهندسة المعمارية من اقاصي الهند حتى روسيا شمالاً فافريقيا واسبانيا غرباً . لكن هذه الاشياء كلها تبدو تافهة إذا ما قورنت بزخم التوسع الذي تفيض به النفس الغربية. ومن النوافل أن نقول بان تاريخ اسلوب هذه النفس الحقيقي قد اكتمل فقط على ارض وطنه ، لكن آثاره ومؤثراته الناجمة عنه لا تعرف حدوداً . فعلى بقعة الارض ذاتها التي كانت تقوم عليها تينوشتتلان شيد الاسبان « كاتدرائية باروكية » الطراز وزينوها بروائع الصور الزيتية ، والتماثيل . كما وان البرتغاليين كانوا قد بدأوا آنذاك بالعمل في الهند . وانطلق المهندسون الاسبان والايطاليون من مدرسة الفن الباروكي المتأخر زمناً يعملون في قلب بولندا وداخل روسيا . أما فنانو الركوكو الانكليز وخاصة الامبراطوريين منهم ، فلقد اتخذوا لانفسهم من الولايات المستعمرة في أميركا الشمالية ميداناً فسيحاً لهم حيث تعرف المانيا عن غرف هذه الولايات ومخادعها الرائعة العجيبة ، وأثاثها أقل بكثير مما يجب ان تعرفه عنها . وكان التكلسك قبل ذلك قد أخذ ينشط في كندا و « الكاب » ولم يكن هناك مطلقاً من حدود لهذه النشاطات. والحالة كانت هي نفسها تماماً في كل ميدان آخر من ميادين الشكل .

فالعلاقة بين هذه المدنية الفتية ذات التأثير الشديد الفعال وبين المدنيات القديمة التي كانت لا تزال باقية هي أن تلك المدنية تغطي جميع المدنيات القديمة على حد

سواء بطبقات من اشكال الحياة الاوروبية الغربية الاميركية ، تزداد كثافة يوماً بعد آخر ، حيث يختفي معها الشكل الوطني (Native) القديم رويداً رويداً .

-٦-

أمام هذه الصورة لعالم الانسان ، (التي مقدر لها أن تحل محل الصورة القديمة ، صورة «القديم والوسيط والحديث» والتي لا تزال ماثلة حتى في افضل الاذهان) ، أقول ، أمام هذه الصورة سيمسي بالامكان ايضاً ان نعطي جواباً جديداً (وهو كما اعتقد جواب نهائي بالنسبة الى مدنيتنا) على السؤال القديم :

ما هو التاريخ ؟

يقول « رانكه » في مقدمة كتابه « تاريخ العالم » :

« ان التاريخ يبدأ فقط عندما تصبح الأبنية الأثرية mon uments ملموسة محسوسة ، وتمسي الدلائل المخطوطة الجديرة بالقناعة بمتناول اليد . » هذا هو جواب جامع لمعلومات ومرتب لها . وهو لا شك يخلط بين ذاك الذي حدث ووقع وبين ذاك الذي حدث داخل ميدان نظر منفتح على زمان معين بالنسبة الى دارس معين للتاريخ . لقد هزم ماردونيوس في بلاتيا Plataea . فهل لا تعود هذه الواقعة تاريخاً اذا ما سقطت بطريقة ما عقب الفين من الاعوام، من شباك معرفة المؤرخين وبصيرتهم ؟ وهل كي تكون الواقعة واقعة يجب ان تذكر في الكتب ؟ ويقول ادوارد ماير ، وهو أخطر المؤرخين شأناً منذ عصر رانكه :

« ان التاريخي هو ما له أو كان له أثر فعال .... وبواسطة التصرف التاريخي فقط ، تصبح العملية الافرادية المنتشلة من بين كتلة من عمليات معاصرة لا نهاية لها حادثة تاريخية » .

هذه الملاحظة تتفق كليـا واسلوب هيجل وروحه . فنقطة انطلاقها أولاً ، هي الواقعة ،وليست أية معرفة تصادفية أو جهالة عرضية بالواقعة ، وإذا كان هناك أي اسلوب لتصوير التاريخ ، اسلوب يفرض بالضرورة نقطة انطلاق كهذه ، فـانه الاسلوب المعروض في هذه الصفحات وذلك طالما أنه يرغمنا على ادعاء وجود وقائع من المرتبة الاولى في سياقات فخمة ذات جلال ، وذلك حتى عندمـــا لا نعرفها (ولن نعرفها أبداً) . بحماسة علمية إن علينا أن نعـالج المجهول وفق اوسع الطرق إدراكاً وشمولاً .

ثانياً : إن الحقائق توجد بالنسبة الى العقل ، أمـــا الوقائع فوجودها متعلق بالحياة . إن التصرف التاريخي ، (وهو في عرفي الواقعة السياسية) ، يقرره الدم، تقرره موهبة الحكم على الرجـال المنفسحة والضاربة في أحشاء المـاضي والمستقبل ، وقوة التمييز والتشريح الفطرية للاشخاص والاحوال والحدث ، وذلك لأن مـا كان عليه أن يكون ، يجب ان يكون قد كان . إن المعـالجة التاريخية لا تتوقف على النقد العلمي ومعرفة المعلومـات . فالاسلوب العلمي للخبرة هو بالنسبة الى كل مؤرخ حقيقي شيء ما إضافي أو ثانوي . فالاسلوب يتوجه الى الوعي بواسطة الفهم والتبليـغ ببرهـان متعب مكرر شاق على ذاك الذي كانت دفعت به ، قبل الآن وفوراً ، لحظة واحدة من استنارة الى الكينونة .

وفقط بسبب ان قوة كينونتنا الفاوستية يجب أن تكون الآن قد ضربت حولنا دائرة من الخبرات الباطنية ما لم يستطع أن يكتسب مثلها أي جنس بشري غيرنا أو زمان آخر ، وفقط بسبب أن أبعد الأحداث يزداد مغزاه يومـــاً بعد آخر ، ويكشف عن علاقـات لا يستطيـع ادراكها أي انسان آخر حتى اقرب الناس معاصرة لهذه الاحداث ، بسبب هذا فقط أصبح الكثير ، ممـا لم يكن منذ قرون تاريخاً ، (واعني الحياة المتناغمه وحياتنا) تاريخاً . ومن الجائز ان تاسيتوس كان مطلعاً على المعلومات المتعلقة بثورة تيبريوس جراكوس ، لكن هذه الثورة لم يعد لها بالنسبة الى تاسيتوس أي معنى مؤثر فعـال ، بينا أنهـــا في نظرنا مترعة

بالمعنى. زد على ذلك ان تاريخ المونوفيزيت وعلاقتهم ببيئة محمد ليس له أي معنى، مهما كان، في نظر المسلم المؤمن، بينما أنه في نظرنا هو القصة المشهودة المصاغة في قالب آخر لحركة المطهرين الانكليزية. وفي نهاية المطاف ليس هناك من شيء غير تاريخي تماماً بالنسبة الى نظرة مدنية جعلت من كامل الكرة الارضية مسرحها.

ان منهاج التاريخ المنقسم الى « قديم ووسيط وحديث »، وذلك كما فهم في القرن التاسع عشر، لم يحتو الا على مجموعة مختارة من العلاقات الاكثر وضوحاً. لكن الأثر الذي أخذ التاريخان القديمان من صيني ومكسيكي يخضعاننا له، هو من نوع أشد مراوغة وعقلانية. فهنـــاك (في هذين التاريخين — المترجم) تسير أغوار آخر ضرورات الحياة نفسها. فنحن نتعلم من مجرى حيـاة أخرى لنعرف أنفسنا من نحن، وما الذي يجب أن نكونه وما سنكون عليه.

ان مجرى الحياة تلك هو مدرسة مستقبلنا العظمى. ونحن الذين لا يزال لدينا تاريخ، ولا نزال نصنع التاريخ، نجد هنا على اقصى حدود الانسانية التاريخية ما هو التاريخ.

ان معركة تنشب بين قبيلتين سوداوين في السودان أو نشبت بين تشورسكي وتشاتي في عصر قيصر، أو بين طوائف النمل (والمعركة بين هذه الطوائف هي في جوهرها الشيء ذاته)، انما هي مجرد دراما « الطبيعة الحية ». ولكن عندما ينزل التشورسكي الهزيمة بالرومان ،كما حدث عام ٩، أو يغلب الازتيك الطلاسكلانز، فهذا هو التاريخ. فالـ « متى » هنا هي ذات اهمية وبال، ولكل عقد من الاعوام وحتى لكل سنة أهمية، لأن المرء هنا يتعامل وزحف لمجرى حيـــاة عظيم حيث يرتفع كل قرار الى مرتبة تجعله يسمي كالحقبة التاريخية. وهنـا يوجد هدف يدفع كل حدوث احـــد الكائنات ويحركه نحوه، هذا الكائن الذي يكدح ويناضل لينجز ايقاعاً، ديمومة عضوية، وهـذا الحدوث ليس هو بتصاريف الدهر المشوشة

التي مـارسها السكيث [١] Scythians والغول أو الكريبس Caribs حيث أن التفصيل المعين من تفاصيل هذه التصاريف يعادل في عدم اهميته تفاصيل مـا يجري من عمل في مستعمرة من مستعمرات كلاب البحر ، أو قطيع من غزلان البراري والصقوع . فهذه هي حدوث زلوجية تحتل مركزها في مكان مختلف كليـاً من توجيه مطلنا على العالم ، وذلك من حيث اننا لا نهتم بمصير شعوب افرادية أو قطعان ، بل انما نشغل انفسنا بمصير « الـ » انسان أو « الـ » غزال أو « الـ » نمل بوصفهـا أنواعـاً .

إن الانسان البدائي يملك تاريخاً وفق ما للمفهوم البيولوجي من معنى فقط ، وكل دراسة سابقة للتاريخ انما تتقلص لتخضع لبحث هذا المفهوم وتحريه .

إن الاعتياد المتزايد للانسان على النار والادوات الحجرية والقوانين الميكانيكية التي تجعل الاسلحة ذات أثر فعال ، انما يميز فقط تطور نموذج الامكانات الكامنة لهذا الاعتياد . وليست للاهداف التي من أجلها استخدمت احدى العشائر هذه الاسلحة ضد عشيرة أخرى ، أية أهمية على هذا المستوى من التاريخ . فالعصر الحجري ، والعصر الباروكي همـــا مرتبتا عصر في وجود كل من احد الاجناس واحدى الحضارات ، أي انهما نظامان عضويان ينتميان الى تركيبين يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً .

وهنـــا أود أن احتج على زعمين قد افسدا حتى الآن كل الفكر التاريخي : الزعم القائل بأن للجنس البشري ككل ، هدفاً نهائياً ، والانكار المطلق لوجود أهداف نهائية .

إن للحياة هدفاً ، انه تحقق وانجاز ذاك الشيء الذي عين وفرض على مفهومها . لكن الفرد ينتمي بالولادة من جهة الى الحضارة الراقية المعنية ، وينتسب من جهة

---

١ – Scythians : قبائل بدوية كانت تعيش على شواطىء البحر الاسود .
(المترجم)

أخرى الى الانسان النموذج ، وليست هناك وحدة ثالثة من كون بالنسبة اليـه . فمصيره يجب أن يقع إمـــا داخل الميدان الزلوجي وإما داخل الميدان العالمي التاريخي فالرجل « التاريخي » كما أفهم هذه الكلمة ، وكما أراد لهـا جميع عظماء المؤرخين أن تُفهم ، هو انسان حضارة تزحف دون توان أو ابطاء نحو انجـــاز ذاتها . والانسان قبل هذه (الحضارة – المترجم) وبعدها وخارجهـا ، هو دون تاريخ . أما مصائر الشعوب التي ينتمي اليها فان لها من الاهمية الزهيدة مـا لمصير الارض وذلك عندمـــا يكون مستوى الاهتمام هو المستوى الفلكي وليس الجيولوجي .

وتنشأ من هذا واقعة ذات أهمية بالغة في حسمها ، واقعة لم يسبق لهـا ابداً أن قورت من قبل ، وهذه الواقعة تقول بأن الانسان ليس فقط دون تاريـخ قبل ولادة الحضارة ، بل انما يصبح ايضاً بلا تاريخ حالمـا تكمل المدنية نفسها اكمالا تامـاً حيث تمسي معه الشكل النهائي الذي يشير الى نهاية التطور الحي للحضـارة ، ونضوب آخر امكانيات وجودها الخطير الشأن .

ان ما نراه في المدنية المصرية بعد عصر «ستي» الاول (١٣٠٠) ، وما نراه حتى اليوم في المدنيات من صينية وهندية وعربية ، هو بالرغم من كل مهـارة الاشكال الدينية والفلسفية وخاصة السياسية التي غُلف بها ، أقول انمـــا هو فقط تصاريف العصر البدائي مرة أخرى ، أما مـا إذا كان الاسياد المتربعون في بابل حشداً من محاربين متوحشين كالحثيين ، أو ورثة مهذبين متأدبين كالفرس ، ومتى ، وما هي المدة الزمنية ، وبأي نجاح حافظوا على مقاعدهم ، فان هذه الأمور لم يكن لها أي مغزى من وجهة نظر بابل . ومن البدهي أن أموراً كهذه كانت تؤثر على راحـة الشعب واطمئنانه ، ولكنها لم تؤثر في كلتا الحالين على الواقعة القائلة بان روح هذا العالم قد همدت وان أحداثها كانت لذلك معدومة من أي معنى عميق . فقيـــام اسرة مالكة وطنية كانت أم أجنبية في مصر ، ونشوب ثورة في الصين أو غزوها وبروز شعب جرماني جديد في الأمبراطورية الرومـــانية ، كل هذه الأمور هي

عناصر في تاريخ المنظر الطبيعي ، وهي مماثلة للتبدل في الأحياء الخاصة بزمان أو موطن (Fauna) أو في هجرة سرب من طيور .

وقد كانت الغنيمة التي حورب من أجلها في التاريخ ، التاريخ الأصيل للجنس البشري الارقى ، ومبدأ الصراع الحيواني للتغلب والسيادة - هما أبداً ودوماً - وحتى عندما يكون المطارد والمطارَد فاقدي الشعور بالقوة الرمزية لعمليها وغافلين عن مقاصدهما وغير عالمين بخطيها ، أقول هما تحقق شيء ما روحي في جوهره وترجمة فكرة الى شكل تاريخي حي . وهذا ينطبق ايضاً بالمثل على الصراع بين نوازع الاساليب الضخمة في الفن (القوطي وعصر النهضة) والصراع بين الفلسفات (الرواقية الابيقورية) وبين المثل العليا السياسية (الاليغاركية والاستبداد) وبين الاشكال الاقتصادية (الرأسمالية والاشتراكية . لكن ما بعد التاريخ (Posthistory) عاطل من كل هذه الأمور . وكل ما يتبقى فانما هو الصراع من أجل القوة فقط ، من أجل منفعة حيوانية مجردة ، بينما كانت القوة من قبل ، حتى عندما كانت تبدو في كل مظهرها مفتقرة الى الوحي والالهام ، تخدم أبداً ودوماً الفكرة على وجه أو آخر . ويكون في المدنية «المتأخرة زمناً» أشد ما لوهم فكرة من اقناع اقناعاً فقط للكفاح الزولوجي المجرد.

إن الفرق بين الفلسفة الهندية قبل بوذا وبينها بعد بوذا هو ان الاولى هي تحرك عظيم نحو بلوغ هدف الفكر الهندي بواسطة النفس الهندية وداخلها، أما الثانية فهي ظهور دائم مستديم لأوجه جديدة ، أوجه أرومة فكر متبلور الآن وغير قابل للتطور ، فالحلول موجودة فيها بصورة نهائية بالرغم من أن صيغ التعبير عنها تتغير وتتبدل . والشيء نفسه صحيح ايضاً بالنسبة للتصوير الزيتي الصيني ما قبل وبعد سلالات الهان المالكة ، (أعرفنا بهذا الأمر أم لم نعرف) وصحيح ايضاً بالنسبة الى الهندسة المعمارية المصرية قبل وبعد بداية الامبراطورية الجديدة . وهذه هي حال التقنية ايضاً (Technics) .

فالانسان الصيني يتقبل اليوم مخترعات الغرب ، الآلة البخارية والكهرباء

بالطريقة ذاتها تماماً (وبالرهبة الدينية نفسها) التي تقبل بها منذ اربعة آلاف سنة البرونز والمحراث ، وكما تقبل النار في عصر اعتق من هذا ماضياً . فالآلة البخارية والكهرباء تختلفان روحياً اختلافاً كلياً عن الاختراعات التي صنعها الصينيون لأنفسهم في مرحلة « تشو » ، والتي كانت تمثل في كل مثل ضربته ، حقبة في تاريخهم الباطني . فقبل وبعد تلك المرحلة تلعب القرون دوراً أقل أهمية بكثير من دور عقود من سنين وحتى الاعوام من عمر الحضارة ، وذلك لأن مقاييس الزمان تعود تدريجياً الى النظام البيولوجي . وهذا هو ما يمنح هذه الظروف المتأخرة جداً زمناً ، والتي تبدو للشعوب التي تعيشها غنية عن البيان تقريباً ، أقول يمنح ذاك الطابع لأبهة ثابتة لا تتغير ، أبهة وجدها الانسان الحضاري الأصيل (مثلاً : هيرودوت في مصر وخلفاء ماركوبولو في الصين) مذهلة للغاية حين مقارنتهـا بالخفقان الشديد لتطوره الخاص إنها اللاتغير للاتاريخ .

ألا يبلغ التاريخ الكلاسيكي باكتيوم والسلم الروماني Pax Romana نهايته ؟ فبعدهما لم يعد هناك المزيد من تلك القرارات العظمى التي تكشف المعنى الباطني لحضارة بكاملها . فنحن هنا نجد اللا عقل ، البيولوجيا ، قد بدأت بالتسلط والسيادة وان العالم لم يعد يكترث أو يبالي بما اذا كانت احدى الحادثات قد انتهت على هذا الوجه أو ذاك ، (علماً بأن لا مبالاته لاتشمل اعمال الفرد الخاص) . فكل الاسئلة السياسية العظمى قد أجيب عليها كما اجيب ويجاب عليها ، عاجلاً أو آجلاً في كل مدينة ، من حيث ان الاسئلة لم يعد أحد يحس بها كأسئلة أو يطرحها . ومع ذلك ، فبرهة قصيرة من زمن ، والمرء سيكف بعدهـا عن فهم أية مشاكل وقضايا كانت تكتنفها حقاً النوازل والكوارث الابكر زمناً .

ان ما لا يستطيع المرء ان يختبره اختباراً حياً من نفسه ، لا يستطيع ان يختبره مثل هذا الاختبار الحي ، من الآخر . فعندما يتحدث المصريون ما بعد عصر الهكسوس ، عن زمان الهكسوس ، أو الصينيون ما بعد مرحلة (الدول المتنازعة) المطابقة لزمان الهكسوس عن هذه المرحلة ، فانهم يصدرون أحكامهم على الصورة الظاهرية وفق ميزان اساليبهم الخاصة في الحياة التي لم تعـد تحتوي على المزيد من

الالغاز والاحاجي . فهم يرون في هذه الاشياء مجرد صراعات من أجل القوة ، ولا يرون أن هذه الحروب اليائسة ، الخارجية منها والداخلية ، هذه الحروب التي استعدى فيها الناس الاجانب والاغراب على أبناء قومهم الخاصين ، انهـــا كانت حروباً شنت من أجل فكرة .

إننـــا اليوم نفهم وندرك ما كان يحدث ويدور في التعاقب المفزع من توتر وانفجار ، حول مقتل تيبريوس غراكوس ومقتل كلوديوس ذاك ، لكن هذا لم يكن باستطاعتنا ان ندركه عام ١٧٠٠ ولن يكون أيضاً باستطاعتنا ادراكه عام ٢٢٠٠ . والأمر هو نفسه تماماً فيما يتعلق بتشيان Chian ، وهو شخصية نابليونية لم يستطع المؤرخون المصريون فيما بعد ان يكتشفوا أي شيء يعطيها طابعها المميز أكثر من ملك هكسومي . وربما لولا مجيء الالمان لكان المؤرخون الرومان قـد اعتبروا ، عقب الف عام ، غراتشي ، ماريوس ، سولا وشيشرون معـاً سلالة مالكة أطاح بها قيصر .

ولنقارن مصرع تيبريوس غراكوس بمصرع نيرون عندما تلقت رومـا انباء انتفاضة غاليا ، أو ولنقابل بين انتصار سولا على حزب ماريوس وبين انتصـار سبتيموس سيفيروس على بسينيوس نيغر (Pescennius Niger) فلو أن الحدث في هذه الحالات المتـأخرة قد اتخذ وجهة أخرى ، فهل كان مجرى العصر الأمبراطوري قد تبدل على أية حـــال من الاحوال ؟ إن التميز الذي اختطه مومسون وادوارد ماير ، بمثل تلك العناية والحذر ، بين «ولاية» بومباي واوغسطس و «ملكية» قيصر انما يخطىء الهدف تماماً . ففي تلك المرحلة كان الموضوع الأساسي موضوعاً دستورياً فقط ، بالرغم من أنه لو قام قبل خمسين عاماً قبل تلك المرحلة ، لبقي يرمز الى تعارض بين الفكر . فعندمـا انطلق فندكس وغالبا عـــام ٦٨ لاستعادة «الجمهورية» ، فانهما كان يقامران على ميل في أيام لم يعد فيهـا للميول أية قوة رمزية أصيلة ، فالسؤال الوحيد آنذاك كان يدور حول من هو ذاك الشخص الذي يجب أن يتسلم مقاليد القوة المـادية العارية . وأخذ الصراع على لقب قيصر يزداد بمثابرة وثبات أكثر فاكثر زنجية (نسبة للزنوج) وكان من الجائز أن يستمر

قرنا بعد قرن في اشكال متزايدة في بدائيتها ، اشكال هي لذلك «خالدة» .
إن هذه المجموعات من السكان لم تعد تملك نفساً . ونتيجة لذلك فليس بامكانها أن يكون لها تاريخ خاص بهـــا . وباستطاعتها في أحسن الاحوال أن تكتسب شيئاً من أهمية بوصفها موضوعاً في تاريخ حضارة غريبة عنهـــا ، ومها امتلكت هذه العلاقة من معنى أعمق ، فان هذا المعنى سيكون مشتقاً بكامله من ارادة الحياة الغريبة عنها . (العلاقة – المترجم) .

إن أي حدوث تاريخي فعال يحدث على تربة مدنية قديمة إنمـا يكتسب شكله ونوعه من مكان آخر ، ولا يكتسبه ابداً من أي دور يقوم بـه فيه انسان تلك التربة . وهكذا نجد انفسنا مرة أخرى نتـــأمل في ظاهرة « تاريخ العالم » من الناحيتين ، ناحية مجاري حيـــاة الحضارات العظمى ، وناحية العلاقات بين هذه الحضارات .

* * *

الفصل الرابع عشر

الأصل والمنظر الطبيعي

(ج)

العلاقات بين الحضارات

- ١ -

بالرغم من أن إمعان النظر في الحضارات ذاتها يجب ان يسبق التأمل في العلاقات بينها ، الا أن الفكر التاريخي الحديث يعكس بصورة عامة هذا النظام. والحق انه كلما تدنت معرفة الفكر التاريخي الحديث بمجاري الحياة التي تشكل معاً وحدة ظاهرية من حدوث عالمي ، يزداد تعصباً وحماساً للبحث عن الحياة داخل نسيج العلاقات، ويزداد قلة حتى في فهمها. فيا لها من ثروة من سيكولوجيا هي تلك التي توجد في سبر الاغوار وفي الرفض والاختيار والتقويم والاخطاء والادراك والترحيب . وليس هذا فقط بين الحضارات التي تلامس فوراً الواحدة منها الاخرى ، وتتطلع الواحدة منها بدهشة الى الاخرى ، وتقاتل إحداها الاخرى ،

بل انما ايضاً بين حضارة حية وبين شكل عالم لحضارة ميتة لا تزال آثارها قائمة مشهودة في المنظر الطبيعي . ومن جهة أخرى ، كم ضيقة وفقيرة هي تلك المفاهيم التي يعنونها المؤرخون بكلمات : (تأثير) (استمرار) و (مؤثرات دائمة) .

إن هذا الأمر هو قرن تاسع عشر مجرد . فالذي يُبحث عنه انما هو فقط سلسلة من علل ومعاليل . فكل شيء يتبع وليس هناك من شيء هو فاتحة أو مطلع ولما كانت كل حضارة تظهر سطحياً عناصر شكل لحضارة أقدم منها ، لذلك يُفترض انه مذ كان لهذه العناصر معلول مستمر ، وعندما تُنظم تشكيلة من معاليل كهذه معاً ، يأخذ المؤرخ بتأملها راضياً قانعاً بوصفها قطعة صحيحة من عمل .

ويرتكز هذا النهج من المعالجة في اعماقه ، على تلك الفكرة التي ألهمت الغوطيين العظام منذ طويل زمن ، الفكرة القائلة بوحدانية خطيرة ذات دلالة في تاريخ كل الجنس البشري . فلقد شاهد هؤلاء كيف تبدل الناس والشعوب على الارض ، لكن الفكر بقيت على حالها ، وقابلية التأثير الجبارة للصورة لم تُقبل ذاتها حتى هذا اليوم ، وفي الأصل كان يُنظر الى هذه الصورة بوصفها مخططاً يفسره الله بواسطة أداة انسانية .

ومن الممكن ايضاً اعتبارها على هذا الشكل ، في مرحلة اكثر تأخراً من الزمان وذلك طالما امتد فعلاً العمر بسحر المنهاج القائل بمراحل « قديمة ووسيطة وحديثة » وطالما استعراضها لديمومتها وخلودها قد حال بيننا وبين الملاحظة بأن الواقعة هي دائماً وابداً في تغير وتبدل مستمرين . وفي غضون ذلك فان مطلنا على الحياة قد تبدل أيضاً فأمسى أشد برودة واتساعاً . زد على ذلك أن معرفتنا قد تخطت بعيداً حدود هذه الخريطة ، أما اولئك الذين لا يزالون يحاولون أن يبحروا مسترشدين بها فانهم يتخبطون خبط عشواء . فليست النتائج هي التي «تؤثر» بل انما هم المبدعون الذين يتشربون ويمتصون . فلقد خلط بين الكينونة والكينونة اليقظة ،

وخلط بين الحياة وبين الوسائل التي بواسطتها تعبر الحياة عن نفسها . فالعقل النقاد ، أو حتى الوعي اليقظ البسيط ، يرى في كل مكان أن الوحدات النظرية قد أخضعت للحركة . وهذا الامر هو حقاً ديناميكي وفاوستي ، وذلك لان الناس في أية حضارة أخرى لم يخالوا أبداً أن التاريخ هو على هذه الشاكلة . فالانسان اليوناني بما له من فهم للعالم كامل في جسمانيته ، لم يكن أبداً ليقتفي أثر المعاليل لوحدات تعبير مجردة « كالدراما الاتيكية » أو « الفن المصري » أما ما يحدث أصلاً فهو أن اسما يعطى لمنهاج من اشكال تعبير يستثير في عقولنا مركباً معيناً من علاقات . لكن هذا لا يمتد به الأجل بعيداً ، فهو يتلاشى حالما يفترض المرء بالاسم كائناً وبالعلاقة معلولاً ، وعندما نتحدث اليوم على الفلسفة اليونانية أو البوذية أو الكلامية (اللاهوتية) Scholasticism ، فاننا نعني شيئاً ما يحيا على صورة من الصور ، نعني وحدة من قوة نمت ونمت حتى بلغت من الجبروت ما يكفيها للاستيلاء على الناس ولاخضاع وعيهم اليقظ وحتى كينونتهم ، لكي ترغمهم في نهاية المطاف داخل مطابقة Conformity فعالة تمتد بالاتجاه الذي تتبعه «حياتها» الخاصة . إنها ميثولوجيا كاملة ، وبما هو ذو مغزى ودلالة ، أن شعوب الحضارة الغربية وحدها ، هي الجنس البشري الوحيد الذي يعيش مع وداخل هذه الصورة ، إنه الجنس البشري الغربي الذي تحتوي اسطورته Myth على فيض من الجن من هذا النوع ، « الكهرباء والطاقة المركزية » مثلاً .

والحق ان هذه المناهج توجد فقط داخل الوعي الانساني اليقظ ، وهي توجد كصيغ من نشاط . فالدين والعلم والفن هي نشاطات الوعي اليقظ المرتكزة الى كائن . وما الايمان والتأمل والابداع ، وأي شيء يتطلب من النشاط المشهود كنتاج لهذه الامور غير المشهودة ، (كالتضحية والصلاة والتجربة الجسمانية ونحت التمثال والتصريح عن خبرة بكلمات متداولة) إلا نشاطات الوعي اليقظ وحده وليست نشاطات أي شيء آخر غيره . إن اناساً آخرين يبصرون فقط بالمنظور ويسمعون الكلمات وحدها : وهم بعملهم هذا يختبرون شيئاً ما داخل ذواتهم ،

لكنهم لا يستطيعون أن يقدموا أي بيان عن العلاقة بين هذه الخبرة وتلك الخبرة التي عاشها المبدع داخل نفسه . فنحن نرى شكلاً ، لكننا لا نعرف مـــا الذي أنجب هذا الشكل داخل نفس الآخر . ونحن نستطيع فقط ان نمتلك بعض اعتقاد أو ايمان حول المادة ، ونحن نؤمن بواسطة ايلاج نفسنا الخاصة داخلاً .

ومهما قد يبلغ أحد الأديان من الدقة تعريفاً وتمييزاً في التعبير عن نفسه بواسطة الكلمات ، فهذه تبقى كلمات والسامع يضع داخلها مفهومه الخاص لها .

ومهما كان ما يدونه الفنان ويلونه مؤثراً ومحركاً للعواطف ، فان المُشاهد يرى ويسمع نفسه فقط داخل عمل الفنان ، واذا لم يستطع ان يقوم المُشاهد بما ذكرت ، فعندئذ يكون انجاز الفنان معدوماً من المعنى في نظره . (أما الموهبة الحديثة النادرة جداً والرفيعة والتي تمتلكها قلة من الناس قلة ذات كثافة تاريخية شديدة ، موهبـة « وضع المرء نفسه في مكان الآخر » فليس من حاجة لامعان النظر فيها في هذا المجال .) فالفرد الالماني الذي هـــداه بونيفاس الى الدين لم ينقل ذاته الى داخل نفس المبشر (بونيفاس – المترجـــم) فلقد كانت رعشة ربيـــع هي تلك التي مرت خلال تلك الايام مخترقة عالم الشمال الفني بكامله ، أما ما كانت تعنيه ، فهو أن كل انسان وجد فجأة في تبديل دينه (هدايته – المترجم) لغة ليعبر بها عن تدينه الخاص ، وهكذا تماماً تشرق عينا الطفل عندما نطلعه على اسم المادة التي يمسك بها بيده .

إذن فليست الوحدات الكونية الصغرى هي التي تتحرك ، بل انما هي الذاتيات الكونية هي التي تختار فيما بينها وتضع يدها عليها . ولو كانت الحال خلافاً لما قلت ، (ولو كانت هذه المناهج كائنات مؤكدة أكيدة تستطيع أن تمارس نشاطاً ، لأن « التأثير » هو نشاط عضوي ») أقول لو كانت الحال خلافاً لما قلت لكانت صورة التاريخ صورة اخرى مغايرة تماماً لما هي عليه الآن . ولنتأمل كيف أن كل انسان ناضج وكل حضارة حية تُغسل بصورة دائمة مستمرة بتأثيرات كامنـة محتملة لا يحصيها العد . ومن كل هذه (التأثيرات) يُقبل ببعض القليل منها على أنها تأثيرات

أما الاغلبية الساحقة منها فهي ليست كذلك . فهل يتعلق الاختبار بالاعمال أم بالناس ؟

إن المؤرخ الذي يتعمد إقامة سلسلة سببية (علية) يُدخل في حسابه التأثيرات الحاضرة فقط ، أما الجانب الآخر من المعرفة (وهو تلك التأثيرات غير الحاضرة) فانه لا يظهر أو يتبدى . فبسكولوجيا التأثيرات ترتبط سكولوجيا بالتأثيرات « السالبة »، وهذه ميدان لم يجرأ أي انسان على ولوجه حتى الآن . ولكن إذا كان هناك من أي مكان توجد فيه ثمار لتجنى ،فانه هنا ، ويجب أن يُلم به إلا اذا كان يُراد الجواب على كامل السؤال أن يُترك غير مقرر أو معين ، وذلك لأنه إذا ما حاولنا أن نتجنبه فاننا نساق الى رؤى وهمية لحدوث تاريخي عالمي بوصف هذا الحدوث عملية مستمرة يُعلل فيها كل شيء التعليل اللازم . فقد تتلامس حضارتان بين انسان وانسان ، أو قد يواجه انسان الحضارة الواحدة بعالم الشكل الميت لحضارة اخرى ، كما هو معروض في ذخائره وآثاره القابلة للتبليغ عنها . وفي كلتا الحالتين يكون الفاعل ، المحرك ، هو الانسان نفسه . فالعمل المغلق لـ - أ - يمكن أن يُنشط من قبل - ب - وتنشيطاً منبعثاً فقط من داخل كينونة - ب - وبهذا يصبح ملكية باطنية لـ - ب - ، يصبح عمله وجزءاً من ذاته . فلم تكن هناك من حركة بوذية انتقلت من الهند الى الصين ، بل انما كان هناك قبول لجزء مما تدخره البوذية الهندية من صور ، وقد تقبل هذا الجزء افراد صينيون ذوي نازع روحي معين حيث صاغوا منه اسلوباً لتعبير ديني له معنى بالنسبة الى البوذيين الصينيين والصينيين وحدهم .

إن المهم في كل الحالات التي هي مثل هذه ، ليست المعاني الأصلية للاشكال ، بل الاشكال نفسها بوصفها تكشف لحساسية المراقب الفعالة وفهمه حالات محتملة كامنة لقوة ابداعه الخاصة . إن المضامين غير قابلة للنقل أو الترحيل . فالناس الذين ينتمون الى جنسين مختلفين ، تفصل بين كل واحد منهما، في توحده الروحي الخاص، هوة لا يمكن عبورها . وحتى بالرغم من أن الهنود والصينيين كانوا يحسون جميعاً

في تلك الايام على أنهم بوذيون ، لكن كل أمة منها كانت تقف روحياً بعيدة وبمعزل عن الآخرى ، كما هي الحال أبداً ، فالكلمات هي نفسها والطقوس هي ذاتها والرمز هو الرمز ، لكنهما كانتا نفسين مختلفتين كل واحدة منهما تسلك سبيلها الخاص بها .

إذن ، إذا ما بحثنا ونقبنا كل الحضارات ، فان المرء منا سيجد أن استمرار الابداعات الابكر زمناً في حضارة تلي هو أمر ظاهري فقط ، والحقيقة هي ان الكائن الاصغر سنا قد أقام عدداً قليلاً (وقليلاً جداً) من العلاقات والكائن الاكبر سنا ، وعمله هذا يأتي دائماً دون إقامة أي اعتبار للمعاني الأصيلة لذاك (الابداع) الذي يجعله خاصته . إذن ما الذي سيحدث « للفتوحات الدائمة » للفلسفة والعلم ؟ انهم يحدثوننا المرة تلو المرة عن الكمية التي لا تزال حية حتى اليوم من الفلسفة اليونانية ، لكن حديثهم هذا هو كلام مجازي فقط وليس له أي محتوى حقيقي ، وذلك لان الانسانية المجوسية اولاً ، ومن ثم الانسانية الفاوستية ، قد رفضت كل واحدة منها ما لها من حكمة عميقة لفطرة لم يلحق بها ضرر . فتعطل اقول رفضت كل واحدة منها تلك الفلسفة (اليونانية - المترجم) أو جرت بها دون أن تأبه لها أو تكترث ، أو ابقت على قواعدها لكنها ترجمت هذه القواعد ترجمة جذرية في جدتها . إن سلامة النية الساذجة للحماس اللوذعي تخدع نفسها هنا ، فالتصورات الفلسفية اليونانية قد تؤلف قائمة (كاتالوغ) طويلة ، وكلما أبعدنا بها تزداد نسبة المتبقي منها ، حياً ، كما يزعم ، ضآلة لة تقارب التلاشي . ان عادتنا هي أن نغض الطرف ببساطة فنعتبر تلك المفاهيم ، كنظرية الصور الذرية لديمقريطس ، والعالم الكامل في جسمانيته « لفكرات » افلاطون ، والاجسام الكروية المقعرة الاتني والخمسين لكون ارسطوطاليس ، أقول نعتبرها « أخطاء » عرضية طارئة ، كأنه باستطاعتنا أن نخمن باننا نعلم ما الذي عناه الموتى افضل مما عرفوه هم أنفسهم! ان هذه الاشياء هي حقائق وجوهرية ، لكنها ليست كذلك بالنسبة الينا فقط . فكل مجموع الفلسفة اليونانية الذي نمتلكه حقاً واقعاً وليس سطحياً فقط ، انما هو من الوجهة الواقعية لا شيء إنه عدم (Nil) .

ولكن صادقين مع ذواتنا ، ولنأخذ الفلاسفة القدامى بكلامهم ، اننا لا نجد أية فرضية من فرضيات ديمقريطس أو افلاطون صحيحة بالنسبة الينـــا ، اللهم إلا وحتى نلائم بينها وبين ذواتنا . وبعد هذا كله ما هو مقدار ما اقتبسناه من مناهج ومفاهيم ومقاصد ووسائل العلم اليوناني ، ناهيك عن مصطلحاته غير القابلة للادراك والفهم بصورة أساسية ؟ ان الناس يقولون بان عصر النهضة كان يخضع خضوعاً تاماً لنفوذ الفن الكلاسيكي . ولكن ماذا عن شكل الهيكل الدوري والعمود الايوني وصلة العمود بالعارضة ، واختيار اللون وعلاج أرضية الصورة والمرئي في التصوير الزيتي ومبـــادىء تجمـــع المشخص (Figure) ، والتصوير الزيتي على الاواني والفسيفساء وتثبيت الالوان بالحرارة (Encaustic) والعنصر التركيبي في نحت التماثيل ، وتناسبات ليسبوس ؟ لماذا لم تمارس هذه كلها أي «تأثير» أو «نفوذ» ؟

ان ذلك يعود الى أن الذي يريد المرء (وهنا اعني فنان عصر النهضة) أن يعبر عنه انما هو بدهي فيه . فمن مخزون الاشكال الميتة التي كانت أمـام ناظريه ، رأى حقاً عدداً قليلا فقط بما أراد أن يراه ، وشاهده كما أراد أن يشاهده ، واعني بذلك أنه شاهده وفق قصده الخـاص ، وليس وفق قصد المبدع الأصلي ، وذلك لأنه لا يوجد اي فن حي يولي هذا الامر (قصد المبدع الاصلي - المترجم) اعتباراً جدياً . ولتحاول أن تقتفي عنصراً فعنصرا أثر «تأثير» التشكيل (Plastic) المصري في التشكيل اليوناني المبكر زمنـــاً ، انك ستجد في النهاية انعدام وجود أي تأثير انعداماً مطلقاً، لكن الارادة اليونانية للشكل قد أخرجت من مخزون الفن الاقدم زمنا بعض القليل من المميزات التي كانت على كل حـال ستكتشفها لنفسها في بعض من شكل لقد كانت هناك حيـــا من عمل تحيط أو أحاطت بالعالم الكلاسيكي من أطرافه الاربعة ، فكان هنـــاك المصريون والكريتيون والبابليون والاشوريون والحثيون والفرس والفنيقيون ، وكانت أعمال هذه الشعوب ، من أبنية وزخارف وانجازات فنية ومذاهب واشكال دول ومخطوطـات وعلوم ، معروفة لليونان بفيض وافراط . ولكن ما هو مقدار مـا استخلصته النفس الكلاسيكية من كل هذا الحشد كوسيلة خاصة بهـا للتعبير ؟ اعود فأكرر قولي بان العلاقات المقبول بها

هي وحدها التي نلاحظها . ولكن ماذا عن تلك العلاقات التي لم يقبل بها ؟ لماذا مثلاً لا نستطيع أن نجد في المرتبة السابقة (العلاقات المرفوضة - المترجم) اهرام وبوابة ومسلة مصر ، أو الخط الهيروغليفي أو المسماري ؟ وما هو الذي لم يقبل به الفن والفكر القوطيان في اسبانيا وصقلية من مخزون بيزنطة والشرق المراكشي ؟ إنه لمن المستحيل أن نفرط في امتداح الحكمة (دون ما وعي تماماً) التي سادت الاختيار وإعادة التقييم غير المتردد لما جرى اختياره . فكل علاقة قُبل بها ، لم تكن استثناء فقط ، بل انما كانت سوء فهم ايضاً ، ولم يسبق أبداً أن شوهدت القوة الباطنية لاحدى الكينونات بوضوح كهذا ، كما تشاهد في هذا الفن من سوء الفهم المتعمد المقصود . وكلما ازددنا حماساً في ثنائنا على مبادىء فكر غريب عنا، نزداد والحق بصورة أساسية في مسخه وتغيير خواصه الطبيعية. ولنتأمل فقط بما يجزيه الغرب لافلاطون من مديح وثناء! ابتداء من برنراد أوف تشارترس ومارسيليوس فيسينوس الى غوتيه وشيللنغ وكلما ازداد قبولنا بدين غريب عنا ، تواضعاً، تزداد الحقيقة القائلة بان هذا الدين قد انتحل له شكل نفس جديدة. والحق أنه كان يجب على أحد الناس ان يكتب تاريخ الأرسطة (جمع ارسطوطاليس) الثلاثة ، ارسطو اليوناني وارسطو العربي وارسطو القوطي، هؤلاء الذين ليس لاي واحد منهم مفهوم واحد او فكر مشترك بينهم ، أو يكتب تاريخ تحول المسيحية المجوسية الى المسيحية الفاوستية ! انهم يقولون لنا موعظة وكتاباً بان هذا الدين قد امتد من الكنيسة القديمة ليغطي الميدان الغربي ويتخلله وذلك دون أن يطرأ على جوهره أي تبديل. والواقع ان الانسان المجوسي قد طور من اعمق اعماق وعيه الثنائي Dualistic للعالم لغة لدرايته الدينية الخاصة التي ندعوها « بالـ » - دين المسيحي . إن مقداراً كهذا من الخبرة - أي كلمات وقواعد وطقوس - قد تقبله إنسان المدنية الكلاسيكية المتأخرة زمناً بوصفه قابلاً للتبليغ به ، وكوسيلة للتعبير عن حاجته الدينية ، ثم انتقل هذا المقدار من الخبرة من انسان الى آخر ، وانتقل حتى الى جرمان ما قبل الحضارة الغربية ، وكان انتقاله يتم دائماً بواسطة الكلمات ذاتها ، لكن معناه كان دائم التبدل والتغير . ولم يكن الناس يجرأون على ادخال

أي تحسين على المعاني الأصيلة لهذه الكلمات المقدسة ، وذلك لانهم، بكل بساطة ، لم يكونوا يدركون هذه المعاني او يعرفونها . وإذا كان هنـاك من أحد يشك فيا أقول ، فليدرس هذا المتشكك فكرة النعمة (The Idea of Grace) كما تبدو على ضوء ترجمة اوغسطين الثنائية لهـا ، حيث أن هذه الترجمة تؤثر في جوهر الانسان، وليدرس ايضاً هذه الفكرة على ضوء ترجمة كالفن Calvin الديناميكية لها ، هذه الترجمة التي تؤثر في إرادة الانسان . أو فليدرس تلك الفكرة المجوسية التي بالكاد نستطيع إدراكها ، واعني بها فكرة الاجماع ، Consensus ، حيث يعتبر الرأي الاجمـاعي للمصطفى ، كنتيجة للتواجد في كل انسان ذي نفس Pneuma منبعثة من الروح الالهية، أقول يعتبر ذاك الرأي على أنه الحقيقة الالهية الفورية . وقد كانت هذه الفكرة هي التي تعطي قرارات المجامع الكنسيه المبكرة طابعها البات الجازم، وكانت هي التي تكمن وراء المناهج العلمية التي لا تزال تسود عالم الاسلام حتى هذا اليوم . وبسبب عدم فهم الانسان الغربي لهذه الفكرة ، لم تبلغ المجامع الكنسية فيا بعد من الأزمنة القوطية، في نظره أي شيء اكثر من نوع من برلمان مهمته أن يحد من التحرك الروحي للبابوية. وهذه الفكرة التي عناها المجمع سادت حتى في القرن الخامس عشر (ولتعد الى ذاكرتك مدينتي كونستانس وبازل وشخصي سافونا رولا ولوثر) لكنها اختفت في النهاية ، بوصفها فكرة عقيمة غير ذات معنى أمام نظرية المعصومية البابوية . أو فليدرس المتشكك ايضـاً تلك الفكرة الشاملة المبكرة في العـالم العربي ، فكرة بعث الجسد وقيامته ، والتي كانت تدل على ما هو الهي ونفس بشرية .

أما الانسان الكلاسيكي فانه قد افترض ان النفس بوصفها شكلاً ومعنى للجسد، فانها قد خلقت طبه وإياه معاً ، ونادراً مـا يأتي الفكر الكلاسيكي على ذكرها ، وقد يعود سكوته ازاء موضوع على هذا الجـانب من الخطورة الى هذا أو ذاك السبب من السببين الاتيين :

فاما أن هذه الفكرة لم تكن موجودة إطلاقاً، واما أنها كانت غنية عن البيان فلم تبرز داخل وعيه كمشكلة . لكن تصور الانسان العربي ان روحه كانت فضياً

من الله اتخذ له من جسده مقرا ، كان غنياً عن البيان تماماً كتلك الفكرة في نظره، ولذلك توجب بالضرورة ان يكون هناك شيء ما يتوجب على النفس البشرية أن تنشر ، او تنهض منه ثانية في يوم الدينونة. من هنا كان يفكر بالبعث على أنه ... (القيامة) وهذا الأمر في معناه الاعمق غير قابل مطلقاً للفهم بالنسبة الى الغرب والحق أنه لم يشك أحد في كلمات الاسفار المقدسة ، لكن العقول الاشد مضاءً بين الكاثوليك قد استعاضت عن معناها بمعنى آخر ، وهذا المعنى الذي لم يخطئه النظر في لوثر من قبل ، والشائع اليوم شيوعاً تاماً ، هو مفهوم الخلود ، بوصفه الوجود المستمر والكلي الابدية للنفس التي هي بمثابة مركز للقوة . ولو أنه قدر لبولص او أوغسطين ان يتعرفا الى افكارنا المسيحية ، لكانا رفضا كل مذاهبنا وكتبنا ومفاهيمنا بوصفها مطلقة في هرطقتها وضلالها .

وباستطاعتنا أن نأخذ القانون الروماني كأقوى الأمثلة لاسلوب بدا في كل مظهره أنه عبر عن دورتين الفيتين من الاعوام ، ومع ذلك مر فعلا خلال ثلاث مراحل كاملة من التطور وفي حضارات ثلاث، وكانت معانيه في كل مرحلة تختلف اختلافاً كلياً عن معانيه في المرحلة الاخرى من سابقة او لاحقة .

٢

ان القانون في العالم الكلاسيكي يشترعه المواطنون من أجل المواطنين ، ويفترض ان شكل الدولة هو شكل المدينة Polis. وهذا الشكل الاساسي للحياة العامة هو الذي قاد - واكيداً - الى التصور أن الشخص Person هو مطابق للانسان Man الذي اذا ما اضيف الى غيره من امثاله ، يشكل جسم الدولة . من هذه الواقعة الشكلية لحس الكلاسيكي بالعالم نما تركيب القانون الكلاسيكي .

إذن فالشخص (Persona) هو تصور كلاسيكي بنوع خاص ، تصور يمتلك معنى وقوة تكافؤ Valency ، وذلك في الحضارة الكلاسيكية فقط . فالشخص الفرد هو جسم ينتمي الى مخزون المدنية من الاجسام واستناداً اليه يجري تنظيم قانون المدنية انحداراً فيمسي قانوناً للاشياء (مع العبد ، كقضية هامشية ، حيث أنه كان جسماً لا شخصاً) ويجري تصعيده فيصبح قانوناً للالهة (مع البطل من حيث كونه شخصاً استحصل على رأس اله واكتسب الحق المشروع في ان يكون له مذهب - بعبد وفقه - المترجم- كما كانت حال ليساندر والاسكندر في المدن اليونانية وديفوس بوليوس وخلفائه في روما .

ان هذا النازع في ازدياده ثبوتاً ورسوخاً في الفقه الكلاسيكي يوضح ايضاً التصور لمعنى Capitis Deminutio Media الذي هو غريب الى حد بعيد على الافكار الغربية . إذ أنه كيف نستطيع ان نتخيل شخصاً مـا (بفهومنا لكلمة شخص) محروماً من حقوق معينة أو حتى من كل الحقوق ، لكن الانسان الكلاسيكي ، تحت طائلة هذه العقوبة ، لم يعد شخصاً بالرغم من أنه تابع عيشه كجسد . زد على ذلك ان الفكرة الكلاسيكية عن الشيء Res بنوع خاص هي فكرة قابلة فقط للحس في تباينها والشخص وبوصفها غايته .

ولما كان الدين الكلاسيكي هو دين الدولة سداة ولحمة ، لذلك لم يكن يقام أي تمييز بالنسبة الى مصدر القانون وينبوعه . فلقد كان المواطنون هم الذين يشترعون القانون الوضعي والقانون الالهي ، كما يشترعون القانون الشخصي ، وكانت علاقات الاشياء والإلهة بالاشخاص محددة ومعينة . والآن فان هناك واقعة ذات مغزى حاسم بالنسبة الى الفقه الكلاسيكي ، وهي أن هذا الفقه كان أبداً ودوماً نتاج خبرة المشرعين المحترفين ، بل انما كان نتاج الخبرة العملية اليومية لأناس يعتبرون بصورة عامة ذوي شأن في الحياة من سياسية واقتصادية .

فالانسان الذي كان يختار الحياة العامة عملاً له ، كان يتوجب عليه أن يكون بالضرورة محامياً وقائداً عسكرياً وإدارياً ومديراً مالياً . وهكذا فانه عندما كان

يصدر حكمه كقاض روماني ، كان يستند الى خبرة واسعة في حقول عديدة غير القانون . فطبقة الفقهاء المحترفين (ناهيك بالنظريين) والمختصين بالقانون والمكرسين كل نشاطهم له ، كانت طبقة لا وجود لها في العالم الكلاسيكي . وهذه الحقيقة هي التي حددت كامل مظهر الفقه الروماني ومطله ، واعني هنا الفقه الروماني المتخلف زمناً . ففي هذا الزمن لم يكن الرومان منهاجيين أو مؤرخين أو نظريين ، بل انما كانوا عمليين فقط وعمليين بصورة رائعة . ففقههم هو علم إختباري تجزيبي لقضايا فردية ، انه تقنية محضة ، وهو ليس أبداً تركيباً من تجريد .

انها لفكرة غير مصيبة أن نضع القانون اليوناني والقانون الروماني وجها لوجه بوصفهما كميات من الطراز ذاته .فالقانون الروماني في كل تطوره هو قانون ذاتي لاحدى المدن ، وهو واحد من مئات القوانين من هذا الشكل ، أمـــا القانون اليوناني ككل كامل ، او وحدة ، فانه لم يكن له أبداً من وجود .

وبالرغم من أنه كثيراً ما كانت للمدن الناطقة باللغة اليونانية قوانين متشابهة ، إلا أن هذا الواقع لم يبدل الحقيقة القائلة بان قـانون كل مدينة من هذه المدن كان قانونها الخاص بها وليس بقانون أية مدينة أخرى غيرها .

ولم يسبق ابداً أن رأت النور فكرة تهدف الى ايجـــاد تشريع دوري (Doric) عام ، أو دون هذا ، تشريع هيليني عـام . فمثل هذه الافكار كانت غريبة غرابة مطلقة عن الفكر الكلاسيكي .

فالقانون المدني Jus Civile كان يطبق فقط على المواطنين – Quirites ، أما الأجانب والعبيد ، وكل من كان في العالم خارج اسوار المدينة ، فانهم جميـــعاً لم يكونوا ذوي شأن في نظر القانون ، بينما أننـا نرى أن حتى الساخسنشبيجل (١)

---

١ – اسم مجموعةمن أعراف وعادات جرمانية جمعها واطلق عليها اسم Sachsenspiegel ايكي فون ريبجوف في القرن الثالث عشر

(المترجم)

Sachsenspiegel قد فطن الى فكرتنا الخاصة التي نحس بها إحساساً عميقاً والتي تقول بانه لا يمكن ان يكون هناك في الواقع سدى قانون واحد . زد على ذلك أنه حتى في العصور الامبراطورية المتأخرة زمناً كان لا يزال هناك تمييز دقيق صارم بين الـ Jus Givile – الساري على مواطني المدينـــة الاصليين وبـــين الـ Jus Gentium المطبق على الأناس الآخرين، الذين كان ينظر اليهم الفقه الروماني بوصفهم مغتربين . (ومن نافل القول ان نضيف قائلين بانـــه لم يكن « لقانون الشعوب » هذا ، أي وجه من شبه والقانون الذي نطلق عليه نحن الاسم ذاته) . وفقط بسبب كون مدينة رومـــا قد بلغت بوصفها مدينة . وحدة مرتبة الامبراطورية واستحوذت على السلطان المطلق (وربمـــا كان بامكان مدينة الاسكندرية ان تبلغ ما بلغته روما لو أن ظروفها كانت غير ظروفها تلك) أقول فقط بسبب استحواذ رومـــا على السلطان المطلق على العالم الكلاسيكي أمسى القانون الروماني القانون الفائق المفضل ، ولم يمس على ما ذكرت بسبب مـــا لهذا القانون من سمو ذات ورفعة شان في الجوهر ، بل انمـــا ارتقى الى تلك المرتبة أولاً نتيجة لانتصار روما السياسي ومن ثم بسبب احتكار رومـــا للخبرة العملية على نطاق واسع .

إن تشكل فقه كلاسيكي عام من الطراز الهيليني (وذلك إذا ما جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على التشابه في الروح التي تكتنف عدداً ضخماً من مناهج قانونية متفرقة) قد تم في مرحلة تاريخية كانت لا تزال فيها روما دولة من الدرجة الثالثة في الميدان السياسي .

وعندما بدأ القانون الروماني يتخذ لنفسه أشكالاً أضخم ، فان هذا العمل كان يدل على مظهر واحد من مظاهر الحقيقة المقررة أن العقل الروماني قد قهر الهيلينية وأخضعها له . فلقد انتقلت مهمة التشريع الكلاسيكي فيما بعـد من الهيلينية الى روما ، وأعني بهذا ، انهـــا انتقلت من مجموعة من دول المدن ، هذه الدول التي أشعرت جميعها بضعفها ووعته وعياً كاملاً مؤثراً ، الى مدينة واحدة كرست في

النهاية كل طاقاتها وحيويتها لتدعيم واستغلال سلطان فاعل فعال . وهنا يكمن السر في كون الهيلينية لم تشرع أبداً أي فقه باللغة اليونانية . وعندما دخل العالم الكلاسيكي المرحلة التي أمسى خلالها ناضجاً لمثل هذا العلم (الفقه) (وهو آخر كل العلوم) ، لم يكن هناك سوى مدينة مشترعة واحـــدة تعتبر ذات شأن في هذا الميدان .

والحق أنـه لم ُينظر فيا مضى باهتمام كاف الى الحقيقة القائلة بأن القانونين الاغريقي والروماني ليسا بقانونين متوازيين زمنـــاً ، بل انهما قانونان متتاليان . فالقانون الروماني هو الأصغر سناً ، وهو يحتوي على خبرة سلفه الطويلة . أما القانون اليوناني فقد استن في وقت متأخر حقاً ، وتم اشتراعه قبل اطلالة القانون الروماني بمدة جد وجيزة ، وانه ليس دونما مغزى كون ربيع الفلسفة الرواقية التي أثرت تأثيراً عميقاً في الافكار القانونية قد تلا القانون اليوناني ، بل كونه قـــد تقدم القانون الروماني وسبقه .

- ٣ -

وهذا الفقه ، مهما كانت حاله ، هو فقه اشترعه عقل لنوع من الجنس البشري مغرق في لا تاريخيته . ونتيجة لذلك فان القانون الكلاسيكي هو قانون النهار وحتى قانون اللحظة ، ولقد كان في فكرته تشريعاً عرضيا يستهدف قضايا معينة خاصة ، لذلك كان عندمـا يتم البت في أية قضية من هذه القضايا كانت تزول صبغة القانون عن هذا التشريع ولا يعود قانونا . لهذا فنحن إذا ما أمددنا بسريان مفعوله على قضـــايا لاحقة أو تابعـــة لتلك ، نمسي بعملنا هذا على طرفي نقيض والمفهوم الكلاسيكي الحاضر .

لقد كان قاضي القضاة الروماني Preator يصدر في الايام الاولى لولايته لمنصبه المحددة مدتها بسنة واحدة ، مرسوماً يحدد فيه القواعد التي ينتوي السير وفقها ، لكن خلفه في السنة التالية لم يكن في أية حال ملزماً باتباع مــا اتبعه سلفه من قواعد واجراءات . زد على ذلك ان حتى تحديد مدة سريان مفعول الاجراءات هذا ، بسنة واحدة ، لم يكن يعني في الواقع أن هذه هي مدة ديمومة صحة هذه القواعد ، بل ان الحال على عكس ما ذكرت (وخاصة عقب Lex Aebutia) إذ أن قاضي القضاة كان يسن لكل قضية فردية نهجاً معيناً ثابتاً في القانون يطالب القضاة ، الذين يرفع اليهم مثل تلك القضية للحكم ، باتباعه وحده ووحده فقط . وبهذا يكون قاضي القضاة يستصدر ويولد فعلاً قانونــاً للحاضر البرهي معدوم الديومة .

ويشابه هذا القانون في المظهر ، لكنه يختلف عنه إختلافاً عميقاً بالغاً ، ونقول هذا كي لا نترك أي أثر من شك في الهــوة السحيقة التي تفصل بين القـــانون الكلاسيكي والقانون الغربي ، اقول يشابه هذا القـانون مظهراً ذاك الفكر الجرماني الاصيل في الفقه الانكليزي ، وتلك القوة الابداعية للقاضي الذي «ينطق» بالقانون. فمهمة هذا القاضي هي أن يطبق قانوناً يتلك من حيث المبدأ صحة وسريان مفعول خالدين . وباستطاعته حتى في تطبيق مجموعة القوانين القائمة أن ينظم ويدير الأمر وفق الحـالات التي تتبدى أثنـــاء السير في القضية وذلك بواسطة اجراءاته وقواعده (التي لا تمت بـأية صلة الى اجراءات قاضي القضاة الروماني وقواعده) . وإذا ما إستدل في حالة وجود مجموعة خاصة من الوقائع على أن في القانون قصوراً أو نقصاً بالنسبة الى هذه الوقائع ، فان باستطاعته ان يتلافى فوراً هذا النقص ، وهكذا يبدع ،والمحاكمة لا تزال تـاماً في منتصفها ، قانوناً جديداً يمسي فيما بعد (إذا ما وافقت عليه هيئة القضاة) جزءاً من مجموعة القوانين الدائمة ، وهذا هو ما يجعل الفقه الانكليزي غريباً غرابة كلية عن الروح الكلاسيكية . وقد جاء تدرج مجموعة من القواعد والاجراءات في تشكلها في الفقه (الكلاسيكي) القديم فقط نتيجة للحقيقة القائلة بان الحياة العامة قد اتبعت بصورة جوهرية مجرى متجانساً

طيلة مرحلة معينة من الزمن ، وقد انتجت مرة بعد أخرى الحالات والظروف ذاتها التي كان من المتوجب أن تعالج ويتدبر أمرها ، ولم يعتمد أن يكون لمثل هذه القواعد القانونية سريان مفعول في المستقبل ، بل انما كانت تقريباً تشترع مرة بعد أخرى بوصفها قواعد تجريبية في حالة خاصة .

وقد جاءت مجموعة هذه القواعد (وهي مجموعة وليست بنهـــاج) لتشكل «القانون» كما نجده من خلال التشريع فيما بعد،هذا التشريع المتبدي فيالتشريعات القضائية لقضاة القضاة الذين وجد كل واحد منهم أنه من المناسب له عملياً أن يأخذ عن سلفه جزءاً جوهرياً من انجازه .

اذن فان الخبرة تعني في نظر المشترع القديم شيئاً ما يختلف عما تعنيه في نظرنا انها لا تعني تلك الاطلالة المدركة لكتلة ثابتة من القوانين ، كتلة تحتوي ضمناً على كل حالة ممكنة ، وترافقها مهـــارة عملية حين تطبيقهـا ، بل انما تعني المعرفة الاختبارية بأن هناك حالات قانونية خاصة يتجدد حدوثها أبداً ودومـــاً الى درجـــة توفر على الانسان عنـاء اشتراع قانون جديد في كل فرصة أو مناسبة .

ان الشكل الكلاسيكي الأصيل للتراكم البطيء لمادة القانون ونموها، هو تقريباً مجموع آلي لتشاريع فردية تتبدى على الصورة التي تطالعنا في ربيع حقبة قـاضي القضاة الروماني وربعانها . وكل مـــا يسمى بتشاريع صولون وتشاروندا Charondas واللوائح الاثنتي عشرة هي ليست اكثر من مجموعـــات عرضية من تشاريع كهذه ، تشاريع وجدت فيها منفعة وفائدة . أما قانون جورتين Gortyn الذي هو معاصر تقريباً للوائح ، فانما هو ذيل وملحق لاحدى المجموعات الاقدم زمناً . فاحدى المدن التي كانت تؤسس حديثاً ، كانت لا شك ستزود نفسها فوراً بمجموعة كهذه من القوانين ، وكان يحدث اثناء عملية تزودها بمثل هذه المجموعة ، أن يتسرب اليها بعض من الفذلكة (ولتذكر قصيدة « الطيور » لأريستوفان التي يهجو فيها المشترعين) ، ولكن هذه القوانين لم تكن تحتوي ابداً على أي نهج

أو منهاج ، واكثر من ذلك لم تكن هناك حين اشتراعها أية نية على أن تكون هذه القوانين بذلك ذات ديمومة .

أما في الغرب فان الحال تختلف اختلافاً جلياً واضحاً عن الحال في العالم الكلاسيكي . فالنازع الغربي يستهدف منذ بدايته صهر كامل الجسد الحي للقانون في قانون عام منظم تنظيماً ابدياً وكاملاً كل الكمال ويحتوي مقدماً على البت في كل قضية يمكن ان تحدث في المستقبل . ان كل قوانين الغرب مطبوعة بطابع المستقبل ، أما كل القوانين الكلاسيكية فهي ممهورة بخاتم اللحظة البرهية .

- ٤ -

ولكن من الجائز أن يقول احدهم ، بأن ما أوردته آنفاً تناقضه الواقعة المقررة أنه كانت هناك انجازات قانونية كلاسيكية بوجها بعض الفقهاء المحترفين وصنفوها للاستعمال الدائم . ولا شك أن هذا القول حق ، لكن يتوجب علينا أن نتذكر أننا نجهل جهلاً مطبقاً بالقانون الكلاسيكي المبكر زمناً (١١٠٠-٧٠٠) واننا واثقون كل الثقة من أن قوانين الريف والبلدة الاخذة بالنمو لم تدون ابداً كما دونت مثيلاتها في العصور القوطية في الساخسنشبيجل ، أو تلك التي سطرت في العصور العربية المبكرة في كتاب القانون السوري . فأبكر تنضيد من القوانين (الكلاسيكية ــ المترجم) نستطيع أن نكتشفه الان، انما يتكون من مجوعات من القوانين (تبدأ عام ٧٠٠ ق. م.) وتنسب الى شخصيات اسطورية أو شبه اسطورية كليكورغوس Lycungus وزاليكوس Zaleucus وتشاروندآس Charondus ودراكون وبعض الخاصة من ملوك الرومان . أما كون هذه

المجموعات قد وجدت فان شكل الاسطورة يُري ذلك ويظهره ، لكن فيا يتعلق بواضعيها الحقيقيين وبالعملية الواقعية لجمعها وتنسيقها ، وبمحتوياتها الاصلية ، فان حتى الاغريق الذين عاصروا الحرب الفارسية كانوا يجهلون بكل ما أوردت .

وهنـــاك مجموعة ثانية من القوانين تتشارك وقانون يوسنيان ، و « لتقبل » القانون الروماني في المانيا ، وهذه المجموعة ترتبط بأسماء صولون (٦٠٠) وبتاكوس (٥٥٠) وآخرين غيرهما . وهنا نجد ان القوانين قد أصبح لهـــا هيكل وأمست تستلهم المدينة ، وتوصف على انها (Politeiai) و (Nomoi) ، وذلك في تباينها والكلمتين القديمتين (Thesmai) و (Rhetrai) . ولهذا فنحن في الواقع لا نعرف الا تاريخ القانون الكلاسيكي المتأخر زمناً . والان لماذا نُجابه على هذه الصورة المفاجئة بجمع الشرائع وتنسيقها هذين ؟

ان مجرد نظرة نلقي بها على تلك الاسماء (صولون وبتاكوس الخ المترجم) ترينا أن جمع القوانين وتنسيقها لم يكونا في اعماقها وليدي الرغبـة في تدوين نتائج الخبرة المجردة ، بل انما كانا قرارات حاسمة لمشا كل السلطة وقضايا السلطان .

انه والحق لخطأ خطير أن يفترض المرء أن باستطاعة أحد القوانين الذي يعـاين كل الأشياء بتساو وعدل دون أن يتأثر بالمصالح السياسية والاقتصادية يمكن ان يكون له اطلاقاً من وجود .

ان حالة كهذه للاشياء يمكن لها أن تُرسم ، وهي دائماً تُرسم من قبل اولئك الناس الذين يفترضون أن تخيل الامكانات السياسية هو عمل سياسي . ولكن ليس هناك من شيء يمكن أن يبدل الحقيقة القائلة بأن قانوناً كهذا جادت بـه احشاء التجريدات ليس له من وجود في التاريخ الواقعي .

ان القانون يحتوي دائمـــاً في الشكل التجريدي على صورة عالم مشترعه أو واضعه ، وكل صورة تاريخية للعالم تحتوي على نازع سياسي اقتصـادي ، نازع لا يرتبط بما يفكر به هذا الانسان أو ذاك ، بل انما يعتمد على مـا تعنيه عملياً الطبقة التي تستأثر واقعاً بالسلطان وتستأثر معه بالتشريع .

ان كل قانون تشترعه احدى الطبقات الاجتماعية باسم جميع الطبقات .

ولقد قال اناطول فرانس مرة :

« إن قوانيننا ، بمساواة رائعة وجلال ، لا يقل تحريمها على الاغنياء ، عن تحريمها على الفقراء ، سرقة الخبز والاستعطاء في الشارع . »

وهذا الأمر ، يمثل دون شك ، عدالة ذات جانب واحد، لكن الجانب الاخر، سيحاول بدوره أن ينتصر فينفرد بسلطة اشتراع القوانين النابعة من نظرته الى الحياة .

إن هذه القوانين الاشتراعية ، هي جميعاً ، جملة وتفصيلا، افعال سياسية، افعال حزبية سياسية ، وفي هذه الحال تكون مجموعة صولون من القوانين تمثل دستوراً ديمقراطياً يمتزج بقوانين خاصة من الطابع ذاته ، أما مجموعتا دراكون وديسمفرس ، فانما تشكل دستوراً اوليغاركيا بعضده قانون خاص . وقد ترك للمؤرخين الغربيين الذين تعودوا على قانونهم الخاص ذي الديمومة ،أن يبخسوا أهمية هذا الترابط ، أما الانسان الكلاسيكي فإنه لم يكن ابداً يعاني أي سوء فهم لما كان يحدث فعلا في هذه الحالات .

وقد جاء نتاج ديسمفرس في روما ليكون خاتمة القوانين التي تطبعها طبقة النبلاء Patricians بطابعها . ويسمي تاسيتوس هذا القانون بنهاية القانون الحق . وما هو ذو دلالة ومغزى ، أن يعقب مباشرة سقوط ديسمفرس نهوض العشرة الآخرين ، المعروفين باسم قضاة الشعب Tribunes ، وسرعان ما انطلق قانون الشعب (Lex Rogata) ليهاجم ويقوض في مجرى تشكله اللوائح الاثني عشرة والدستور الذي تستند اليه هذه اللوائح ، وأخذ هذا القانون على نفسه أن ينجز ما عرف عن الرومان من مثابرة وحماس ، ما أنجزه صولون بضربة واحدة حينما قوض ما أنجزه دراكون ، هذا الانجاز الذي كان يعتبر مثلا أعلى للقانون في نظر الاوليغاركية الأتكية Attic .

ومنذ ذاك الحين فصاعداً أمسى دراكون وصولون الشعارين اللذين دارت حولهما تلك المعركة الطويلة بين الاوليغاركية وعامة الشعب Demos ، واللتين عرفتا في

روما باسم مجلس الشيوخ Senate ومجلس قضاة الشعب Tribunate . أمـا الدستور الاسبرطي الذي ارتبط باسم ليكورغوس (Lycurgus) فانه لم يكن فقط يناصر مثل دراكون الاعلى واللوائح الاثنيعشرة، بل انما أقرها وأثبتها أيضاً وباستطاعتنا أن نرى ما يوازي مجرى الحوادث في روما ويشابهه شبهاً جد قريب، نازع الملكين الاسبرطيين نحو الخروج من وضع الطغاة التاركوينين Tarquinian الى وضع قضاة الشعب من النوع الجراتشي Gracchan .

فسقوط آخر التاركوينين ، او دستور ديسمفرس (وهذا يمثل انقلاباً من هذا النوع أو ذاك ضد النـــازع الشعبي في التشريع)ينطبق تقريباً على سقوط كليومينس Cleomenes (٤٨٨) وباوسانياس (٤٧٠) ، كما وان ثورة آجيس Agis وكليومينس الثالث(٢٤٠)تنسلك في عقد النشاط السياسي لفلامينيوس Flaminius ، الذي بدأ عقبها بسنوات قليلة فقط. ولكن الملوك في اسبرطة لم يستطيعوا ابداً أن يحققوا انتصاراً كاسحاً على عناصر النبلاء الذين كان يمثلهم افورس Ephors .

وخلال حقبة الصراع أمست روما مدينة عظمى منالنوع الكلاسيكي المتأخر زمناً . وأخذت الغرائز الغشيمة الساذجة تتراجعيوماً بعد آخر أمام ذكاء المدينة. ونتيجة لهذا الواقع نجد قرابة عام ٣٥٠ قانون الشعب يسير جنباً الى جنب وقانون البينات Lex Data ، قانون الاجراءات للبريتور. وبهذا تطرح فكرة اللوائحالاثنتي عشرة خارج حلبة الصراع،وتصبح اجراءاتالبريتور الكرةالتي تتقاذفها الاحزاب في المعركة .

ولم يحتج البريتور طويل وقت ليمسي مركزاً للمارسة التشريعية والقضائية . وانسياقاً وراء توسع سلطان المدينة السياسي ، سرعان ما بدأ يعتري سلطةالبريتور التشريعية ويعتوي القانون المدني ، قانون المواطنين ، هزال في مغزاها وأهميتها ، وأمسى البريتور الاجنبيبقانونه للأجانب Jus Gentium ، فيالمقدمة. واخيراً عندما أصبح قانون الاجانب ينطبق على كامل سكان العالم الكلاسيكي ، مـا عدا تلك الفئة القليلة التي كان ابناؤها يحملون الجنسية الرومانية ، أمسى هذا القانون قانوناً

امبراطورياً من الوجهة العملية . وقد احتفظت كل المدن الاخرى ، وحتى قبائل جبـال الألب ، والعشائر البدوية الرحل التي كانت تعتبر متحضرة من الوجهـة الادارية ، أقول احتفظت بقوانينها المحلية بوصف هذه القوانين فقط ذيلاً ، وليس بديلاً ، لقانون الاجانب لمدينة روما .

وهكذا عندما أصدر هادريان قرابة عام ١٣٠ ب . م الـ Edictum Perpetuum الذي أعطى الشكل النهائي للأصول الحسنة الانتظام،لاجراءاتالبريتور وأحكامه وحرم ادخال أي تعديل آخر عليها ، فان عمل هادريان هذا كانبمثابة خاتمةاشتراع القوانين الكلاسيكية .

وبقي من واجبات البريتور ، كما كان مألوفاً من قبل ، نشر « قانون عـامه » ولكن مع أن هذا القانون لم يكن على نطاقمن السريان أوسع مما يتفق وسلطات البريتور الادارية، لميكن قانون الامبراطورية،غير أن البريتور كانعليه أن يتقيد منذ ذاك الحين فصـاعداً بالنص المقرر . وهذا هو الرمز كل الرمز لمدنية متحجرة « ومتأخرة زمناً » .

ومع العصر الهيلني أطل الفقه ، علم القانون ، الادراك المنهاجي للقانون، وأخذ النـاس عملياً بتطبيقه . ولمـــا كان الفكر القانوني يفترض سلفاً جوهراً للعلاقات السياسية والاقتصادية شأنه في ذلك شأن الفكر الرياضيالذي يفترض مقدماً عناصر فيزيائية وفنية للمعرفة ، لذلك سرعان ما أمست روما موطن الفقه الكلاسيكي . ويشابه هذه الحال في العالم المكسيكي ، الازتكس الغزاة الذين جعلت جامعاتهم (مثلاً تزكوكو Tezcuco) القانون الموضوع الرئيسي للتدريس والدراسة . فالفقه الكلاسيكي كان العلم الروماني ، وعلمه الوحيد فقط . ففي اللحظة ذاتها التي انتهت الرياضيات الخلاقة المبدعة بارخميدس،يبدأ الأدب الفقهي بثلاثية Tripertita إليوس Aelius ، وهذه الثلاثية هي شرح الوائح الاثني عشرة (عام ١٩٨ ق.م.) . وقـد كتب م. سكيفولا M. Scaevola أول قانون منهاجي خاص قرابة عـام ١٠٠ . وقد استغرق نضوج الفقه الكلاسيكي الأصيل قرنين من الزمن ابتداء من عـام

٢٠٠ ق.م الى عام ٠ – ، وذلك بالرغم من أننا نعمد بمشاكسة غير مألوفة الى اعتماد أزمنة وتواريخ تعود في الواقع الى الفقه العربي المبكر زمناً . وباستطاعتنا بما لدينا من ذخائر وآثار لهذين الادبين الفقهيين أن نقيس ضخامة الهوة التي تفصل بين فكري هاتين الحضارتين . فالرومان يعالجون فقط القضايا وتصنيفها ، وهم لا يحللون أبداً الفكرة الاساسية ، مثلاً كفكرة الخطأ القانوني .

وهم يميزون بعناية واهتمام انواع العقود ، ولكنهم لا يملكون أي مفهوم عن العقد كفكرة ، أو أية نظرية بالنسبة الى البطلان وعدم الصحة . ويقول « لينيل » Lenel :

« ونحن إذا ما راعينا كل أمر ، يتضح لنا أنه لا يمكننا ان نعتبر الرومان قدوة تحتذى في النهج العلمي . »

ان آخر طور يتمثل في مدرستي « سابنياني » (Sabiniani) وبروكولياني (Proculiani) (ابتداء من اغسطس حتى قرابة عام ١٦٠ ب. م.) وهاتان المدرستان هما مدرستان علميتان كمدارس الفلسفة في اثينا ، ومن الجائز أن آخر جولات الصراع بين نظريات النبلاء ونظريات الشعب (القيصرية) في القانون قد دارت في رحاب هاتين المدرستين ، لأن شخصين من أفضل تلامذة سابنياني يتحدران من صلب قتلة قيصر، وثالث من انبغ تلامذة بروكولياني اختاره تراجان خليفة له. وحينما اكتمل المنهاج وبت فيه من كل الوجوه والمقاصد ، ثم صهر القانون المدني الاساسي ، وقانون البريتور (Jus Honorarium) هنا ايضاً واكتمل .

ان آخر ما جاد به الفقه الكلاسيكي ، حسبما نعلم ، كانت شرائع غايوس (قرابة عام ١٦١) .

إن القانون الكلاسيكي هو قانون الاحجام ، وهو في تشكيله للعالم من وجهة عامة ، يميز اشخاصاً حجميين وأشياء حجمية كأنه نوع من رياضيات يوقليدية للحياة العامة ، ويقيم نسباً ودرجات بينها . والشبه بين الفكر الرياضي والفكر

القانوني جد قريب. فقصد كل من الفكرين هو أن يأخذ البينات عند أول نظرة، وان يعزل ما هو طارىء حسي ، وان يجد المبدأ العقلاني الاساسي ، (الشكل المجرد الموضوع ، النموذج المجرد للوضع ، الترابط المجرد بين العلة والمعلول) .

إن الحياة في القانون الكلاسيكي تعرض ذاتها على الوعي اليقظ للانسان الكلاسيكي في شكل يتخلله طابع يوقليدي ، والصورة التي تتولد في الذهن القانوني هي صورة أحجام ، صورة علاقات أوضاع بين أحجام ، وصورة آثار متقابلة متبادلة لاحجام ، آثار تنشأ عن تماس وردة فعل ، شأنها في ذلك شأن ذرات ديمقريطس ، إنها والحق لسكونية فقهية .

- ٥ -

ان أول إبداع للفقه العربي جاء متمثلا في مفهومه للشخص الروحي الذي لا جسد له أو حجم ، وهذا المفهوم لا وجود له إطلاقاً في الفقه الكلاسيكي ، وهو يتبدى فجأة لدى الفقهاء « الكلاسيكيين »، (الذين كانوا جميعاً من الاراميين) ، وانه لمن غير المستطاع أن نقدر قيمة هذا الابداع حق قدرها ، أو أن نقيم أهميته الرمزية ، بوصفه دليلا من أدلة الشعور الجديد بالعـــالم ، إلا إذا أدركنا كامل مساحة الميدان الذي كان يصول فيه هذا الفقه العربي ويجول .

وهذا الميدان الجديد يضم سوريا وشمالي العراق وجنوبي جزيرة العرب وبيزنطة. ففي هذه الاقاليم جميعـاً أخذ فقه جديد يشق طريقه الى الوجود ، إنه الفقه المـألوف ، الشفهي أو المكتوب ، وهو من النموذج « المبكر » ذاتـه الذي نجده في الساخسنشبيجل .

وهنـا نرى فقه المدن الافرادية ، الواضح الصريح والغني عن البيان على التربة الكلاسيكية ، يتحول ، بروعة وصمت ، الى فقه طوائف مذهبية . انه فقه عمومي

سداة ولحمة ، فهنا تتجلى دائماً وأبداً روح واحدة ، نفس واحدة ، معرفة مطابقة واحدة ، وإدراك واحد، لكامل الحقيقة الوحيدة الفريدة، فتصهر وتذيب المؤمنين بالدين ذاته في وحدة من ارادة وعمل ، في شخص فقهي واحـــد . وهكذا فان الشخص الفقهي هو ذاتية جماعية ، ذاتية لها مقاصدها وقراراتها ومسؤولياتها بوصفها ذاتية . ونحن نرى هذه الفكرة في المسيحية فعالة ومؤثرة في طائفة مدينة القـدس البدائية ، ونراهـــا سرعان ما تسمو وتحلق فتبلغ مفهوم الأقانيم الثلاثة ، للأشخاص الثلاثة .

وقبل زمن قسطنطين ، وبالرغم من الحفاظ على الشكل الروماني لفقه المدينة ، كان حتى الفقه الكلاسيكي المتأخر زمناً ، الفقه القائم على المراسيم الامبراطورية، هو أصلاً فقه أشترع من أجل ابناء الكنيسة الموفقة بين النقائض والاراء ، هـــذه الجمهرة من المذاهب ، التي نبرها تدين واحد ووحيد .

والحق ، ان القانون في روما نفسها كان يفهم من قبل جزء كبير من السكان ، على أنه قانون دولة المدينة ، لكن هذا الاحساس بالقانون كان يزداد هزالاً وضعفاً مع كل خطوة يخطوها نحو الشرق . وقد تأثر ، بصورة صريحة واضحة ، انصهـار المؤمنين في طائفة فقهية واحدة وحيدة ، بمذهب عبادة الامبراطور ، هذا المذهب الذي كان ، جملة وتفصيلاً ، قانوناً دينياً . وكان اليهود والمسيحيون يعتبرون في نظر هذا القانون،من الكافرين المستكنين وراء قوانينهم الخاصة في ميدان آخر من ميادين القانون .

وفي عام ٢١٢ عندما منح الامبراطور الارامي كراكلا Caracalla بموجب دستور انطونيانا ــ الجنسية الرومانية جميع سكان الامبراطورية ، مـا عدا طبقة الديدتيثي Dediticii [1] الرحالة، فان شكل عمله هذا كان شكلاً كلاسيكياً مجرداً،

---

١ – Dediticii : طبقة اجتماعية عرفها المجتمع الروماني وكانت تتشكل من افراد غـير مرغوب فيهم من قبل طبقات المجتمع الروماني الاخرى .

(المترجم)

ولا ريب أن الكثيرين من الناس آنذاك ، فهموا هذا الأمر بروح كلاسيكية ، وأعني بذلك انهم اعتبروا هذا العمل بمثابة دمج سكان كل مدينة اخرى من مدن الامبراطورية في سكان مدينة روما .

لكن الامبراطور كان يرى في هـــذا الأمر غير ما يراه اولئك ، إذ أن عمله هذا جعل كل انسان خاضعاً « لأمير المؤمنين » ، رأس المذهب الديني والمبجـــل بوصفه « الهاً » Aivus . وقد حدث التغيير العظيم على يد الامبراطور قسطنطين ، حيث انه استعاض عن قانون التوفيق بين المذاهب ، بقانون الخلفة الامبراطوري الناظم لدستور المسيحية ، وبهذا يكون قسطنطين قد حدد معالم الأمـــة المسيحية وقرر هويتها . وهكذا بدل شعارا «المؤمن» والكافر مكانيهما. وابتداء بقسطنطين فما بعده أخذ التحول الصامت للقانون الروماني الى قانون مسيحي ارثوذكسي يزداد حسماً وحزماً ، وعلى هذه الصورة تقبل المهتدون من الاسيويين والجرمان هذا القانون (المسيحي) وتبنوه . وهكذا شق قانون جديد كل الجدة طريقه الى الوجود وهو يتلفع بأشكال قديمة .

ولقد كان من المستحيل أن يجري ، وفق قانون الزواج القديم، عقد قران احد نواب مدينة روما ، على ابنة احد نواب كابيوان Capuan مثلاً، وذلك اذا لم يكن هناك قانون بزواج مشترك ونافذ المفعول في كل من المدينتين . أما الآن (ابتداءً بقسطنطين فما بعده المترجم) فان القضية اصبحت عما إذا كان يستطيع المسيحي أو اليهودي ، وبغض النظر عما إذا كان مثل هذا الانسان رومانياً أو سورياً أو من سكان المغرب العربي ، أن يتزوج فتاة من غير بنات دينه، وذلك لأنه لم يكن يجري في عالم الفقه المجوسي أي زواج يربط بين زوجين يختلفان ديناً أو مذهباً . فلم يكن هناك أي حائل ، مهما قل شأنه ، يحول بين زواج رجل إرلندي يقيم في اسطنبول ، من فتاة زنجية ، وذلك في حالة كون مثل هذين الزوجين يدينـــان بالمسيحية ، ولكن كيف يستطيع المسيحي اليعقوبي أن يتزوج من فتاة نسطورية يعيش كلاهما في قرية سورية واحدة ؟ فهذان ، قد يكونان غير مختلفين عنصراً ،

ولكن كل واحد منها إنما ينتمي من الوجهة القانونية الى أمة تختلف عن أمة صاحبته أو صاحبها .

إن هذا المفهوم العربي للجنسية ، (للقومية) هو مفهوم جديد ، وحقيقة حاسمة قاطعة فالحدود التي كانت في العالم الأبولوني تفصل بين وطن وآخر ، إنما كانت تقوم بين كل مدينتين من مدن ذاك العالم ، غير أن هذه الحدود في العالم المجوسي ، كانت تخطط بين كل طائفتين من طوائفه . زد على ذلك أن التباين الذي كان قائماً آنذاك بين « العدو » الغريب ، وبين الروماني ، هو التباين ذاته الذي يقوم بين المسيحي والوثني ، بين الأمهري (الحبشي) واليهودي ، وما كان يعنيه اكتساب «غالي» أو اغريقي للجنسية الرومانية في عهد قيصر ، هو ذات ما أصبحت تعنيه المعمودية المسيحية بالنسبة الى هذين الشخصين ، أي إنها أصبحت تعني دخولهما صفوف أمة طليعية للحضارة الطليعية .

فالفرس في العهود الساسانية لم يعودوا يرون في نفوسهم ما كان اسلافهم في عصور خمينيين يرون أي على انهم وحدة من أصل واحد ولغة واحدة ، بل إنما أصبحوا يؤمنون بانهم وحدة من المؤمنين «بالمازدية» تقابلهم وحدة من الكفرة ، وذلك بغض النظر عن الحقيقة المقررة بان هذه الوحدة قد تكون أصيلة في قوميتها الفارسية (كما هو واقع الحال بالنسبة الى الاكثرية الساحقة من النساطرة) . وهكذا ايضاً كانت الحال واليهود ، ومن ثم حال « العارفين » Mandaeans ومن بعدهم « المانيين » ، وعقب هؤلاء ايضاً المسيحيين من يعاقبة ونساطرة ، فكل ملة من الملل الآنفة الذكر كانت تشعر بانها أمة أو شعب ، وبأنها طائفة ذات كيان حقوقي ، وذاتية قانونية وفق مفهوم جديد .

وعلى هذا النمط أخذت مجموعة من القوانين العربية المبكرة بالنشوء ، وكان يجري التمييز بين هذه القوانين وفق الاديان والمذاهب ، وذلك على القياس الحاسم ذاته الذي كان يجري التمييز بين القوانين الكلاسيكية وفق المدن . ونشأ في رحاب المدارس الساسانية ، ومن أجل التدريس ، القانون الزرادشتي الخاص بهذه

المدارس، كما وان اليهود الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً جداً من سكان البلدان الممتدة من أرمينيا حتى « سبأ» قد اشترعوا قانونهم الخاص ، هذا القانون المدون في التلمود، والذي تم وضعه وأختتم قبيل بضع سنوات من وضع Corpus Juris .

ولقد كان لكل كنيسة من هذه الكنائس تشريعها الخـــاص ، المستقل عن الحدود الجغرافية البوهية (كما هي الحال اليوم في الشرق) وكان القاضي الممثل لحاكم البلد لا يقضي إلا في القضايا القـائمة بين أطراف ينتمون الى مذاهب مختلفة . ولم يحدث أبداً أن قام أي امرىء بمنافسة التشريع الذاتي لليهود داخل الأمبراطورية، غير النساطرة واليعاقبة ، وحالمـا انفصلوا الى طائفتين مستقلتين ، أخذوا بدورهم يشترعون ويطبقون قوانين خاصة بهم ، وقد قاموا بعملهم هذا وفق منهاج سلبي ، وأعني بذلك ، انهم أخذوا ينعزلون تدريجيـــاً عن جميع الطوائف الهرطوقية ، وهكذا أصبح القانون الأمبراطوري الروماني فقط قانون المسيحيين الذين يدينون بالمذهب الذي يدين به الأمبراطور ،ولهذا السبب تمتع مجموعة القوانين الرومانية السورية بتلك الاهمية البـــالغة ، هذه المجموعة التي لا تزال محفوظة في العديد من اللغات ، ومن الجائز جداً أن تكون قد وضعت مـــا قبل قسطنطين ، وجرى تدوينها من قبل المجلس العدلي لبطريرك انطاكية . وهي لا ريب تشريع عربي مبكر يتسربل بجلباب كلاسيكي متأخر زمناً ، ويعود الفضل في رواجها الواسع ، كما يدل على ذلك ترجمتهـــا الى العديد من اللغـــات ، الى مناهضتها للكنيسة الارثوذكسية الأمبراطورية .

وهذه المجموعة ، هي ، لا شك ، القواعد التي ارتكز إليها القانون اليعقوبي ، وقد بقيت مسيطرة وسارية المفعول ، حتى بزوغ الإسلام وانتشاره فوق ميدان أوسع بكثير من الميدان الذي غطاه الـ ـــ Corpus Juris .

وهنا يتبادر الى ذهننا السوآل التالي :

ما الذي يمكن ان يكون للجزء المدون باللغة اللاتينية من هذه الفسيفساء من القوانين ، من أهمية حقيقية وعملية ؟

ان مؤرخي القانون قد نظروا الى هذا الجزء وحده بكل ما للخبير من نظرة

وحيدة الزاوية والجانب ، ولهذا السبب لم يتبينوا إطلاقـاً أن في الأمر قضية ومشكلة . فنصوص هذا الجزء كانت تشكل «قانوناً» ناقصاً عديم الاهلية ، وهو القانون الذي تحدر من رومـا إلينا ، وقد حصر المؤرخون همهم في تحري تاريخ هذه النصوص فقط ، ولم يتجـاوزوا التحري ، الى تفهم المغزى الحقيقي لهذه النصوص في نظر الشعوب الشرقية وحياتها . إن ما يطالعنا ، في الحقيقة ، في هذا الجزء (المدون باللاتينية - المترجم) إنما هو قانون بلغ اعلى مراتب المدنية ، انه قانون حضارة هرمة فُرض على حضارة في ربيع عمرها ، وتحدر كمؤلف صال فيه العلم وجال ، وجاء مشدوداً الى سلسلة من التطورات السياسية التي كانت لا شك ستصبح غير مـا أمست ، لو أنه قدر للاسكندر او قيصر أن يمتد به الأجل فترة أطول من الزمن ، أو كتب لانطونيو النصر في معركة اكسيوم .

إنـه لمن المتوجب علينا أن نتطلع الى القانون العربي المبكر من وجهة نظر ستسيفون Ctesiphon لا من وجهة نظر روما . فقانون الغرب الجاف والبعيد قد بلغ ومنذ زمن طويل قبل بزوغ القانون العربي، آخر مراحل اكتماله الباطني، فهل يمكن ان يكون هذا القانون ، في هذه الحال ، اكثر من مجرد مؤلف ؟ وما هو الدور الذي لعبه ، إن كان له أي دور ، في الدراسة القانونية الفعالة وفي اشتراع القوانين وممارستها في هذا الصقع من العالم ؟ (الصقع العربي - المترجم) . وعلينا، حقاً، أن نتوجه بسؤال آخر فنقول : ما مقدار ما تحتوي مجموعة القوانين المدونة باللاتينية إياهـا ، على روح رومانية ، أو في هذا الموضوع ، على روح كلاسيكية بصورة عامة ؟

إن تاريخ هذا القانون المدون باللغة اللاتينية ينتمي ما بعد عام ١٦٠ الى الشرق العربي ، وفيه الشيء الكثير الذي باستطاعتنا ان نقتفي آثاره بمجار متوازية تماماً ، حتى داخل تاريخ المؤلفـات اليهودية والمسيحية والفارسية . فالفقهـاء « الكلاسيكيون » « بابنيان » Papinian « وألبيان » Ulpian وبولس كانوا من الارامين ، وقد وصف « ألبيان » نفسه مفاخراً بأنه فينيقي من بلدة صور . اذن فهؤلاء جميعاً يتحدرون من اولئك السكان الذين تحدر منهم تانايم Tannaim

الذي بلغ بالمشنا [1] Mishnah أعلى ذرى الكمال عام ٢٠٠ ، بالاضافة الى معظم الجدليين المسيحيين (ترتوليان ١٦٠ – ٢٢٣) ويعاصر [2] هؤلاء تثبيت اعتماد العهد الجديد قانون ايمان ونص ، والعهد القديم العبراني والافستا ، وذلك من قبل الأئمة المسيحيين والعبرانيين والفرس كل فيما يختص بدينه

إن هذه الأمور جميعاً لتمثل الكلامية الرفيعة لربيع الحضارة العربية .

إن مكانة مجموعات قوانين هؤلاء الفقهاء وشروحهم أمام المخزون الكلاسيكي المتحجر من القوانين لمماثل تماماً لمكانة « المشنا » من توراة موسى (والحديث من القرآن ، بعد تلك بزمن جد طويل) . فتلك هي جميعـــاً اجتهادات وتفاسير « هلاكوت » Halakhoth [3] ، إنها قانون يستند الى العرف والعـادة ويُدرك بأشكال من مادة قانون جازمة تقليدية . زد على ذلك ان النهج في الفتـــاوى الشرعية ، هو نهج واحد دائماً في كل مكان . ولقد كان يهود بابل يملكون قانوناً مدنيا بلغ درجة جيدة من التطور ، وكان هذا القانون يُدرّس في كليات سورا (Sura) « وبامبديتا » Pumbeditha . وفي كل مكان كانت تخلق طبقة من رجال القانون ذاتها ، فهناك طبقة المتبصرين من الشعب المسيحي ، وطبقة الحاخامين من الشعب اليهودي ، وجاءت فـــيما بعد طبقة العلماء (وبالفارسية الملة) من الشعب الاسلامي ، وكانت مهمة افراد هذه الطبقة تتركز على الافتاء ، واذا ما اعترفت الدولة بأحدهم فعندئذ يطلق عليه لقب « المفتي » . وهكذا نرى ان الاشكال هي ذاتها تماماً في كل مكان .

---

١ – المشنا : اجتهادات حاخامي اليهود في تفسير التوراة . (المترجم)

٢ – لا يعني هنا المؤلف المعاصرة الزمنية ، لقد سبق وشرحنا ما يفهم اشبنجلر بالمعاصرة .

(المترجم)

٣ – Halakhoth : هي التفاسير او الاجتهادات ، او الاعراف الشفوية الدينيـــة اليهودية ، وتعتبر ملاحق للكتب الدينية اليهودية ، المنزلة .

(المترجم)

وتحول ، قرابة عام ٢٠٠ ، الجدليون الى الآباء السديدي الرأي ، والتانايم الى آمورايم Amoraim ، والمجتهدون العظام في الفقه الشرعي الى متضلعين في شرح الكتب الدينية ومنسقين للفقه الدستوري (Lex) . وما دساتير الاباطرة ابتداء من عام ٢٠٠ فما بعده ، هذه الدساتير التي تعتبر المنبع الوحيد للفقه « الروماني » الجديد ، سوى « اجتهادات وتفاسير » « هلاكوت » جديدة وضعت فوق تلك في مؤلفات رجال القانون ، ولذلك فهي تنطبق تماماً على الجيارا Gemara [1] التي سرعان ما نشأت كجزء منفصل عن المشنا .

وقد بلغت النوازع الجديدة اكتمالها في الـ Corpus Juris والتلمود معاً .

ويعبر التعارض القائم بين الفقه الشرعي والفقه الدستوري في العرف العربي اللاتيني عن نفسه بأوضح عبارة في تشاريع جوستينان. فالأنظمة ومجموعات القوانين تشكل الفقه الشرعي، وتحتوي في جوهرها على مغزى النصوص الشرعية ومفهومها. والدساتير وبعض قوانين جوستينيان Novels تشكل الفقه الدستوري، أي انها تشكل فقهاً جديداً في شكل شروح وايضاحات . كما وان الكتب الدينية العائدة الى العهد الجديد وتقاليد آباء الكنيسة يرتبط الواحد منها بالآخر وفق الطريقة ذاتها .

وليس هناك اليوم من أحد يشك أو يرتاب في الطابع الشرقي للالاف من الدساتير .

فكون الضغط الحي المتطور قد أخضع لنصوص الفقهاء إنما هو مجرد عرف وعادة متعارف عليها في العالم العربي ومألوفان من قبل شعوبه وسكانه . كما وان المراسيم ، التي لا تعد ولا تحصى ، والتي صدرت عن حكام بيزنطه المسيحية ، وعن فرس سنسيفون ، ويهود بابل (طبقة رش – غاليوتا) [2] ، وأخيراً مراسيم خلفاء

---

١ – الجيارا : شرح التلمود .

– المترجم –

٢ – رش – غاليوتا : هي الطبقة اليهودية المترعة للطائفة اليهودية التي عاشت السبي البابلي . (المترجم)

المسلمين ، فان لكل هذه المراسيم المغزى ذاته والمفهوم نفسه تماماً .

ولكن أي مغزى كان لذاك الجزء الآخر من القانون ذي الشكل الكلاسيكي الكاذب Pseudo - Classical ، قانون الفقهاء القدماء ؟ وهنا لا يكفي أن نشرح النصوص ، بل انما يتوجب علينا ان نعرف ما هي العلاقة التي كانت تربط بين النصوص والشرع وقرارات المحكمة . فمن الجائز أن يحدث فيرى الوعي اليقظ لطائفتين من الناس في المجموعة الواحدة من القوانين ذاتها ، على انها مجموعتان تختلف الواحدة منها عن الاخرى اختلافاً جوهرياً .

ولم يمض طويل زمن ، إلا وتفشت عادة عدم تطبيق القوانين القديمة لمدينة روما على أساس الدعوى المنظورة من القضاء ، بل انما كانوا يستشهدون بنصوص الفقهاء كما يستشهد المرء بنصوص من الكتاب المقدس .

فما هو مغزى هذه الواقعة ؟ إن هذا الأمر في نظر عشاق الرومانية منا ، انما يمثل ظاهرة انحطاط وتدهور ، ولكننا اذا ما نظرنا اليه من وجهة نظر الانسان العربي فانما يمثل العكس تماماً ، فهو دليل على ان الانسان العربي قد نجح اخيراً في ان يمتلك باطناً مؤلفات غريبة عنه فرضت عليه فرضاً ، وأن يجعلها ملكاً خاصاً به ويصوغها في شكل مقبول به من شعوره الخاص بالعالم . وبهذا يصبح اكتمال التعارض القائم بين الشعور الكلاسيكي بالعالم وبين الشعور العربي جلياً صريحاً وواضحاً .

-٦-

بينما كان القانون الكلاسيكي يشترع من قبل النواب والحكام وعلى اساس من الخبرة العملية، كان القانون العربي يُنزّل من عند الله ويُعلن بواسطة المصطفين المستنيرين من الرجال. ولقد أمسى التمييز الروماني بين القانون (Jus) والحق (Fas)

فاقداً لكل معنى (كما كانت حاله، وذلك لأن محتوى الحق انبثق عن التأمل البشري). فالقانون مهما كان نوعه، أروحياً أم دنيوياً، فانما انطلق الى الوجود، كما قال جوستنيان، في الكلمات الاولى من مجموعات قوانينــه، كعمل من أعمال الله.

إن سلطان القانون الكلاسيكي يستند الى النجاح الذي صادفه، اما سلطان القانون العربي فانما يرتكز الى جلال الاسم الذي يحمله.

والحق أنه لمن الأهمية بمكان، بالنسبة الى شعور الانسان، ما اذا كان الانسان يعتبر القانون تعبيراً جادت به ارادة أحد النــاس الآخرين، أم أنه عنصر من عناصر ناموس الهي، فهو في الحالة الاولى امـا أن يرى، بينه وبين نفسه، أن القانون صواب وحق واما أن يذعن للقوة ويخضع، لكنه في الحالة الثانية يقر به بخشوع وورع، (وكلمــة الاسلام تعني أسلم الانسان أمره، أو أوكله). والانسان الشرقي لا يطالب بأن يرى الموضوع العملي للقـانون المنطبق عليه، ولا يبحث عن الاسس المنطقية لاحكامه. لذلك فأنه لا توجد أية أوجه شبه بين علاقة القاضي الشرعي بالنـاس، وبين علاقة القـاضي الروماني بالمواطنين الرومان. فهذا الأخير تصدر أحـكامه عن بصيرة جربت وأمتحنت في المراكز العالية، أمــا الأول فانمـا يستند في أحكامه الى روح فعـالة وفطرية داخل ذاته، روح تتحدث بلسان القاضي وفمه.

ومن هذا يستدل على أن علاقتي كل من القـــاضي الشرعي والقاضي الروماني بالقـانون المكتوب (علاقة القاضي الروماني بقوانينه واجراءاته، وعلاقة القاضي الشرعي بنصوصه الفقهية) يجب ان تكونا مختلفتين اختلافـاً كليـــاً. فالقاضي الروماني يعتمد في أحكامه على زبدة خبرة مركزة يجعلها ملكاً خاصاً به، أمـا القـاضي الشرعي فيرى في النصوص نوعـاً من « الاوراكل » Oracle يستفتيها باطنــاً.

ولا يعير هذا الاخير أدنى اهتمام لما تعنيه أية فقرة في الأصل، أو للشكل الذي صيغت وفقه، بل انما يمحص الكلمات (ويمعن النظر حتى في الاحرف) ولا

يقوم بهذا ابداً بغية معرفة معانيها اليومية المألوفة ، بل حبـــاً بمعرفة العلاقات السحرية التي يجب أن تربط بينها وبين الدعوى التي ينظر فيها . ونحن نعرف علاقة « الروح » « بالحرف » من مؤلفات الروحانيين Gnostico [1] العـــارفين ، ومؤلفـــات المسيحيين الاوائل والفرس العجائبيين والصوفيين ، ومن الفلسفة الفيثاغورية الجديدة ، ومن الكابالا ، وليس هناك أقل شك أو ريب في أن الملاحق والتعديلات اللاتينية كانت تستخدم بالطريقة ذاتها تماماً في الممارسة القضائية الثانوية للعالم الآرامي .

إن الايمان بأن الأحرف تحتوي على معان سرية تتخللهـا روح الله ، ليعبر عن ذاته تعبيراً خيالياً من خلال الحقيقة (المذكورة اعلاه) والمقررة أن جميع أديان العالم العربي قد سطرت مخطوطاتها الخاصة بها ، ودونت فيها جميـع كتبها المقدسة ، وقد صانت هذه الكتب ، حتى ما بعد التغيرات والتبدلات التي طرأت على اللغة ، مـــا ورد فيها بصلابة مذهلة وتماسك عجيب ، وذلك بوضعها شعارات « الأمم والشعوب » التي دانت بها .

ولكن حتى في القانون ، فان تقرير الحقيقة باعتماد اكثرية النصوص ، فانما هذا يمثل واقعة تقول باتفاق المصطفين روحاً : انه الاجماع وقد سار العلم الاسلامي بهذه النظرية حتى استولدها نتائجها المنطقية . فنحن (أي معشر الغربيين - المترجم) نبحث عن الحقيقة ونتحرى عنها ، ويقوم كل واحد منا بهذين البحث والتحري ، مستقلاً عن الآخر ، وبامعان وبجران شخصيين ، لكن المجتهد العربي انما يستشعر في بحثه ويتوجه في تحريه نحو التأكد من قناعة زملائه العامة ، هـذه القناعة التي لا يمكن لها أن تخطىء ، لأن عقل الله وعقل الجماعة ، هما العقل الواحد ذاته . فاذا ما

---

١ - Gnosticism « حركة فلسفية دينية سبقت المسيحية زمناً ، وكانت تقول بان الخلاص يتم عن طريق المعرفة .

- المترجم -

حصل الاجماع ، فعندئذ تقرر الحقيقة ، تثبت وتقوم .

إن مبدأ الاجماع هو الدعامة الرئيسية التي ارتكزت اليها كافة المجامع (الدينية - المترجم) المبكرة زمناً ، من مسيحية ويهودية وفارسية ، ولكن هذا المبدأ هو ايضاً الاساس الذي قام عليه قانون فالنتينيان الثالث المشهور (٤٢٦) ، قانون الاستشهاد ، هذا القانون الذي جعله رجال القانون في العالم مرتكزاً لسخريتهم وهزئهم ، دون أن يفهموا على الاقل الاسس الروحية التي قام عليها . وهذا القانون يحد من عدد الفقهاء العظام الذين يجوز الاقتباس ، أو الاستناد الى اجتهاداتهم ونصوصهم ، ويحصر عددهم بخمسة ، وهكذا فانه يشترع ناموساً - بما للناموس من معنى في كل من العهدين القديم والجديد ، واللذين كان كلاهما ايضاً مجموعات من النصوص التي يجوز أن تعتبر قوانين شرعية .

وقد نص قانون فالنتينيان، انه اذا ما حدث خلاف في الآراء ، فعندئذ يجب اعتماد رأي الاكثرية ، أو اذا ما اختلفت النصوص اختلافاً مماثلاً فعندئذ يعتمد بابنيان Papinian . وما منهاج الاستيلاد ، والحشر في النص الأصلي الذي استخدمه تريبونيان Tribonian على صورة جد واسعة في معالجته لقوانين جوستنيان سوى ثمرة لهذه الاطلالة ذاتها .

إن النص الشرعي هو في جوهر فكرته ، صحيح ولا يحتمل أي تحسين . ولكن الحاجات العملية للروح تبدل وتعدل ، وهكذا نمت تقنية Technique لتعديلات مسرة ، حافظت في المظهر على الوهم القائل بعدم احتمال النصوص أي تعديل أو تبديل ، ولكنها استخدمت فعلاً بجرية جد واسعة في جميع الكتابات والكتب الدينية التي عرفها العالم العربي بما في ذلك الكتاب المقدس .

ويعتبر ، جوستينيان ، بعد ماركاأنطوني أخطر الشخصيات وأشدها شؤماً التي شهدها العالم العربي . وهو ، « كمعاصره » شارل الخامس ، قد دمر كل شيء أثار أو استثار اهتمامه . وكما عصف بالغرب ذاك الحلم الفاوستي ، حلم بعث الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومرت انفعالاته في كل ما جادت به الرومانطيكية السياسية ،

هذه الرومانطيكية التي أغرقت مفهوم الحقيقة بلجج الظلام ، خلال وما بعد عصر نابليون ، (وحتى عصر اولئك الحمقى من ملوك وامراء عـــام ١٨٤٨) كذلك ركبت رأس جوستنيان لحاجة من طيش مفتون باستعادة كامل الامبراطورية.

لقد كان هذا الشرقي مركزاً دائماً ابصاره على روما النائية عنـه ، بدلاً من أن يركزها على عالمه الخاص به . وحتى قبل أن يرتقي العرش ، دخل في مفـاوضات وبابا روما الذي كان في ذلك الحين لا يزال تابعـاً لبطريرك المسيحية العظيم ، ولم يكن قد اعترف به بعد ، على وجه العموم ، حتى بوصفه الأول بـــين أنداده Primus inter Pares. وبناء على الحاح البابا واصراره أدخل جوستنيان رمز الطبيعة الثنائية (للمسيح – المترجم) على مجمع خالقيدونيا Chalcedon ، وقد جـاء عمله بمثابة خطوة أضاعت الى الأبد جميع البلدان التي يدين سكانها بالمذهب اليعقوبي (وهذا المذهب يقول بأن للمسيح طبيعةواحدة–المترجم)وكانت نتيجة أكسيوم Octium ، أن جذبت المسيحية خلال القرنين الأولين من عمرهـــا ، والاشتقاقيين الحاسمين في حياتها ، الى الغرب ، الى الديار الكلاسيكية ، حيث بقيت الطبقـــة الراقية المفكرة بمعزل عنها . ومن ثم انطلقت الروح المسيحية المبكرة من جديـد مع اليعاقبة والنساطرة،ولكن جوستنيان عطل هذا الانبعاث ، وكانت النتيجة في ميدان المسيحية الشرقي، أنه عندما ظهرت الحركة الاصلاحية في الوقت المناسب، فانها لم تظهر كحركة مطهرين Puritanism ،بل انما ظهر الدين الجديد،دين الاسلام، وفي اللحظة التي أصبح القانون الشرقي المألوف ناضجاً ليصبح دستوراً ، أقـــدم جوستنيان ، بالطريقة ذاتها، على اشتراع دستور لاتيني حكم عليه منذ مطلع حياته، أن يبقى في الشرق لاسبـــاب لغوية ، وفي الغرب لأسباب سياسية ، مجرد نتاج أدبي .

ان هذا النتاج ، بحد ذاته ،هو مطـــابق لقوانين دراكون وصولون ، اذ أنه خرج الى الوجود في فجر مرحلة متأخرة زمنـا ، وكان يحمل في أحشائه أغراض ومقاصد سياسية . أمـــا في الغرب ، حيث نجمت عن الوهم القائل باستمرار

الامبراطورية الرومانية ، معارك بليزاريوس ونارسس ، هذه المعارك التي لا معنى لهـــا اطلاقاً ، فلقد قام الفيزغوت والبورغوند والاستروغوت ، بجمع الشرائع اللاتينية (قرابة عام ٥٠٠ ب.م) للرومان المغلوبين على أمرهم ، وهكذا وجدت بيزنطة نفسها ملزمة باستخراج شرائع أصيلة في رومانيتها مقابل تلك . أما في الشرق ، فكان الشعب اليهودي آنذاك قد بلغ تشريعه المـائلة في التلمود شكلها النهائي ، وذلك حينما أمسى اشتراع شريعة لذاك العدد الغفير من النـاس الذين يخضعون لدستور الامبراطور ، شريعة مناسبة لشعب الامبراطور الخاص، الشعب المسيحي ، ضرورة ماسة وحاجة ملحة .

وذلك لان القانون الروماني Corpus Juris ، بما فيه من قلب للأمور راساً على عقب ، وبما يحتوي عليه من أخطاء فنية ، هو بالرغم من كل شيء ابداع عربي (أو بكلمة أخرى ديني) وذلك كما هو جلي واضح في النزعة المسيحية الى حشر الكثير في النصوص الاصلية ، وفي الحقيقة الماثلة في كون الدساتير المتعلقة بالشرع الكنسي والتي كانت قد وضعت في نهاية التشاريـع الثيودوسية ، قد وضعت الآن في مطلعها ، وبصورة جد أوضح في ديباجات الكثير من القوانين . ومع هذا فان القانون الروماني لا يمثل البداية ، بل انما يمثل النهاية. فاللغة اللاتينية التي أمست منذ طويل زمن غير ذات قيمة ، أخذت الان تتلاشى وتغيب تماماً عن ميادين الحيـاة القانونية وقد دونت معها الانجازات على تلك الصورة الضالة المضلة (وحتى القرارات كتبت معظمها باللغة اليونانية) . لكن تاريخ القانون كان لا يزال يتابـع طريقه التي أشار اليها التشريـع السوري الروماني ، وقد بلغ في القرن الثامن مرحلة جادت بانجازات تعادل الانجازات التي عرفها قرننا الثامن عشر ، كما كلوغا Ecloga الامبراطور ليو مثلاً ، وقانون البطريرك المشترع الفارسي العظيم جوسوبوخت Jesubocht ، كما وشهد ذاك العصر ايضاً أعظم شخصية عرفها الفقه الاسلامي، ألا وهو ابو حنيفة .

- ٧ -

ان تاريخ القانون في الغرب يبدأ بداية مستقلة استقلالاً كاملاً عن انجازات جوستنيان . ولقد كانت تلك الانجازات في ذاك الزمن ، تنام في احضان نسيان كامل ، وكانت معدومة الاهمية انعداماً مطلقاً الى درجة أنه لم يكن ، والحق ، قد تبقى من عناصرها الاساسية ، سوى مخطوطة واحدة ، واعني بها الفتاوى ، مجموعة القوانين المدونة باللغة اليونانية ، هذه المجموعة التي شاءت لها صدفة (من حظ عاثر سيء) أن تكتشف في عام ١٠٥٠ وتُعرف .

ان مرحلة ما قبل الحضارة (الفاوستية - المترجم) ، هذه المرحلة التي تبدأ قرابة عام ٥٠٠ بعد المسيح ، قد انجبت سلاسل من التشاريع العشائرية ، أعراف القبائل وعاداتها - تشاريع فيزغوتية واوستروغوتية وبرغوندية وفرنكية ولومباردية - وهذه التشاريع تماثل التشاريع التي تمخضت عنها مرحلة ما قبل الحضارة العربية ، والتي لا تزال محفوظة لنا في سفر التثنية اليهودي ، وفي تاريخ الكهنوت الممثل الآن في السفر الثاني والثالث والرابع من أسفار موسى الخمسة . وكلتا المجموعتين تعنيان بقيم المغزى الرئيسي لوجود بدائي (بمطالب العائلة وهمومها) ، وكلتاهما تستخدمان قانوناً متمدناً استخداماً خشناً لكنه أريب ذكي ، فاليهود (ولا شك الفرس وغيرهم) كانوا يعالجون التشريع البابلي المتأخر زمناً ، بينما كان الجرمان يعالجون بعضاً من ذخائر قليلة مما خلفته روما في حقل التشريع .

ان الحياة السياسية لربيع الحضارة الغوطية ، بما لها من قوانين فلاحين وقوانين اقطاع ، وتشاريع مدنية بسيطة ساذجة ، سرعان ما تفضي الى تطور مميز خاص يتناول ثلاثة فروع عظيمة من القانون ، فروع لا يزال كل منها متباعداً عن الآخر

حتى هذا اليوم إذ انه لم يقم في الغرب تاريخ قانون موحد ومقارن كي يسبر المغزى العميق لهذا التطور .

ولقد كان أشد هذه القوانين أهمية، وذلك نظراً للمصائر السياسية المترتبة عليه، هو القانون النورماندي الذي اقتبس من التشريع الفرنكي . فلقد اطرح هذا القانون جانباً ، بعد الغزو النورماندي لبريطانيا عام ١٠٦٦ ، القانون السكسوني الأهلي ، وأمسى منذ ذاك اليوم قانون الرجال العظام في بريطانيا قانونا لكافة الشعب ولقد طورته روحه الجرمانية النقية ، دون أية كارثة ، من قانون لنظام اقطاعي لا مثيل له في صرامته الاقطاعية الى تلك الانظمة الحالية التي أمست اليو القانون السائد في كل من كندا والهند واستراليا وافريقيا الجنوبية والولايات المتحدة الأميركية وحتى بغض النظر عن اتساع سلطانه ، فان هذا القانون يعتبر افضل الوسائل والمناهج التهذيبية في بلدان اوروبا الغربية . وقد جرى تطويره على صورة مغايرة لبقية القوانين الاخرى، اذ ان هذا التطوير لم يتم على أيدي الفقهاء النظريين. فلم يكن يسمح لدراسة القانون الروماني في اوكسفورد أن تلامس الممارسة ، كما وان طبقة النبلاء الأشد رفعة قد رفضته في ميرتون Merton عام ١٢٣٦ ونبذته بكل جلاء ووضوح . زد على ذلك أن هيئات القضاء ذاتها واظبت على تطوير المواد القانونية القديمة عامدة في ذلك الى الاستعانة بسوابق ابداعية، ولهذه القرارات العملية (التقارير) يعود الفضل كل الفضل في ايجاد قواعد كتب القانون ، ككتاب براكتون Bracton مثلا . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ، حافظ نظام أساسي واحد على حياته ، وزودته قرارات المحاكم بدماء التقدمية والوجود ، وقام الى جانبه قانون عام يكمن دائماً ببهاء ونشاط وراء التشريع ، دون أن تستدعي الضرورة في أي يوم من الايام ، ممثلي الشعب الى بذل أي جهد ضخم لجمع القوانين في قانون عام واحد .

وبقي القانون القائم على التشاريع الجرمانية الرومانية المذكورة اعلاه ساري المفعول في الجنوب ، أما في جنوبي فرنسا فكانت السيادة للتشاريع الفيزغوطية

(هذه التشاريع المعروفة باسم القانون المكتوب Droit Ecrit وذلك تبايناً منها والتشاريع الفرنكية للشمال والمعروفة باسم قانون العرف والعادة) ، وأمـــا في ايطاليا فلقد كانت الكلمـة فيهـا للتشاريع اللومباردية (هذه التشاريع التي كانت أعظم كل التشاريع المذكورة ، وكانت مجرد تشاريع جرمانية تقريباً ، وبقيت سارية المفعول حتى خلال عصر النهضة) . ولقد أصبحت « بافيا » Pavia مركزاً لدراسات الفقه الجرماني ، وانتخب قرابة عــــام ١٠٧٠ القانون المعروف باسم Expositio ، وهذا الانجاز في ميدان القانون يعتبر الى حد بعيد أعظم الأنجازات الفقهية في ذاك العصر ، وقد اعقب مباشرة هذا الانجـــاز القانون المعروف باسم قانون لومبارد . ومن ثم جـــاء قانون نابليون المدني ليضع حداً لتطور القانون في كامل الجنوب ، وليحل محله ، ولكن هذا القـانون أصبح بدوره في جميع البلدان اللاتينية ، وما وراء هذه البلدان بيعد، قواعد انطلاق لانجازات ابداعية أخرى ، ومن هنا يعتبر ، بعد القانون الانجليزي ، أشد تلك القوانين أهمية .

أما في المانيا فان تلك الحركةالتي انطلقت على ذاك الشكل من القوة والجبروت المـاثلين في القوانين القوطية العشائرية (المعروفـة بسخسن شبيجل عــــام ١٢٣٠ وشوبنشبيجل عـام ١٢٧٤) فانهـا بددت طاقاتها حتى العدم . وقد أخذت جمهرة من الحقوق المدنيـة والاقليمية الطفيفـة الزهيـدة تتدفق الى الوجود ، حتى فجر السخط على الحقائق لإثارة رومانتيكية سياسية غير واقعية في نفوس الحالمين والمتحمسين ، وكان الأمبراطور مكسيمليان في عداد هؤلاء ، وحتى أمسى القانون نفسه هدف تهجم وهجوم شأنه في ذلك شأن الباقي من الأمور . وفي عـام ١٤٩٥ قـام مجلس نواب مدينـــة « ورمس » Worms ، باشتراع القـــانون المعروف باسم Kammer gericht sordnung ، ناهجاً في عمله نهجـــاً ايطالياً . وهنا لم تشهد الارض الالمانية « الأمبراطورية الرومانية المقدسة » فقط ، بل انمـا شهدت ايضاً « قانوناً رومانيا » بوصفه القانون الالماني العام . كما واستبدلت الاجراءات الالمانية القديمة باجراءات ايطالية ، واصبح من المترتب على القضاة أن يدرسوا قانونهم مـا وراء جبال الألب ، ولم يعودوا يكتسبون خبرتهم مما يحيط أو يكتنف الحياة من

أمور ومشاكل ، بل انما أصبحوا يكتسبونها من « فيلولوجيا » مهدمة المنطق مهشمة لقواعده . وفي هذا البلد وحده (المانيا) نجد فيا بعد اولئك الايديولوجيين الذين أمسى القانون الروماني ، في نظرهم ، بمثابة تابوت العهد الذي يتوجب عليهم ان يدافعوا عنه ويذودوا عن حياضه ضد انتهاك الحقائق لحرماته .

فما هو ، بربك ، ذاك الشيء الذي أمسى باسمه الرنان محطاً للعناية الفكرية لحفنة من الرجال الغوط ؟ لقد قام احد الالمان ، المدعو ارنريوس Irnerius قرابة عام ١١٠٠ ، وفي جامعة بولونيا Bologna ، وجعل من تلك المخطوطة الوحيدة ، والفريدة في نوعها ، مخطوطة مجموعة القوانين والفتاوى ، موضوعاً لاهوتياً صحيحاً في لاهوتيته . وقد نقل المنهاج اللومباردي الى النص الجديد الذي كان الناس يؤمنون بحقيقة ايمانهم بالكتاب المقدس وبارسطو ، هذا الايمان الذي لم يكن ليأتيه الشك من خلف أو قدام .

إنه الحق! لكن الادراك الغوطي المرتبط بمحتوى الحياة الغوطية ، كان عاجزاً حتى عن أن يخمن ، أو يحدس ، حدساً غامضاً ، بروح تلك النصوص ، وذلك لأن المبادىء المقررة فيها كانت مبادىء حياة متمدنة ، وحيــــاة مدنية عظمى (Megalopolitan) . وهذه المدرسة من الشراح ، وهي كالمدرسة اللاهوتية بصورة عامة ، كانت أسيرة لسحر مبدأ حقيقة الاشياء . ولما كان هؤلاء يؤمنون بأن ما هو أصيل وحقيقي ، وبان جوهر العالم ، لا يكمن داخل الأشياء ، بل انما يكمن في المبادىء الكونية ، لذلك زعم هؤلاء ، لا بل اكدوا ، أن القانون لا يكمن في العرف والعادة كما هو مبين في قانون لومباردا المحتقر المهان ، بل انما يكمن في معالجات وتصورات تجريدية . ولقد كان اهتمامهم بالكتاب مجرد اهتمام ديالكتيكي ، ولم يخطر لهم ابداً أن يطبقوا انجازاتهم على الحياة ولم تشق شروحهم وتفاسيرهم واجتهاداتهم المعادية لقانون لومباردا ، طريقها الى مدن عصر النهضة إلا ما بعد عام ١٣٠٠ ، وقد جاء دخولها حتى حينذاك هذه المدن متئداً بطيئاً .

ولقد قــــام فقهاء العصر الغوطي المتأخر زمناً ، وعلى رأسهم بارتولوس

(Bartolus) بصهر الشريعة والقانون الجرماني في قانون جامع واحـد ، وقاموا بعملهم هذا مدفوعين بقصد عملي مؤكد العملية ، وأدخلوا في هذا القانون فكرات الواقعة ، وهنا نصادف ، كما نصادف في قانون دراكون والقوانين الامبراطورية ابتداء من ثيودوسيوس حتى جوستينيان ، واقعة حضارة على عتبة مرحلتها المتأخرة زمناً . ولقد كان إبداع بارتولوس هو الابداع الذي اصبح ساري المفعول في كل من اسبانيا والمانيا بوصفه « القانون الروماني » . وفي فرنسا وحدها عاد فقهاء العصر الباروكي بعد كوجاسيوس Cujacius ودونيللوس Donellus عن النص المدرسي الى النص البيزنطي .

غير أن بولونيا شهدت الى جانب انجازات ارنيريوس في التجريد ، حادثة لها محتوى آخر تماما وحاسم ايضاً ، وهذه الحادثة تتمثل بالقانون الكنسي المشهور ، قانون غراتشيان Gratian's Decretum والمدون قرابة عام ١١٤٠ . وهذا هو ما خلق علم القانون الروحي الغربي ، وذلك لأن جعل قانون الكنيسة الكاثوليكي القديم والمجوسي والمستند الى سر المعمودية المقدس ، هذا السر الذي هو سر عربي مبكر زمنـا ، اقول ان جعل هذا القانون منهاجاً ، قد اعطى المسيحية الفاوستية الكاثوليكية الجديدة الشكل كل الشكل الذي تحتاج اليه للتعبير الشرعي عن وجودها الخـاص الذي يعود الى السر الأولي ، سر المذبح ورجـال الكهنوت المكرسين المرسومين . ويعتبر القـانون الكنسي قد بلغ مرحلة الاكتمال بالقانون المعروف باسم Liber Exra والذي صدر عام ١٢٣٤ . وهكذا فان ما لم تستطع الأمبراطورية انجازه (واعني بهذا عجزها عن ايجاد قانون كنسي غربي عـام من تلك الوفرة والفيض الهائلين من القوانين العشائرية) أنجزته البابوية . وقد برز الى الوجود ايضاً قانون خاص وكامل ، وذو حدود واجراءات ، وقد جرى اخراجه وفق منهاج المـاني ومن مواد قانونية كنسية ودنيوية تعود الى العصور القوطية. وهذا القانون هو القانون المسمى بالقانون «الروماني» والذي سرعان ما سكب بعد بارتولوس في كل دراسة لنصوص جوستينيان ذاتهـا . ويرينا هذا القانون في ميدان الفقه ، كما في الميادين الاخرى ، ذاك الخلاف الهـائل في الرأي والملازم للطبيعة

الفاوستية والذي نجم عنه ذاك الصراع الجبار بين البـــابوية والامبراطورية . ان التمييز بين الحق والقانون ، هذا التمييز الذي لا وجود له اطلاقاً في العالم العربي ، كان امرا محتوماً في العالم الغربي . وهمـا (الحق والقانون المترجم) ليسا سوى تعبيرين من تعابـــير ارادة القوة المستهدفة السيطرة على اللانهـائي ، لكن الارادة الكامنة وراء التشاريـع «الدنيوية» انمـا تضرب جذورها في العادة وتقبض على أزمة أجيال المستقبل ، بينا تلك الارادة الكامنة وراء التشاريـع « الروحية » تتولد وتنشأ في اليقين الصوفي وتنطق بقانون خالد غير محدود بوقت أو زمان . ان هذه المعركة التي تدور بين خصمين متكافئين في القوى (البابوية والامبراطورية – المترجم) لم تنته أبداً بعد، وما نراه اليوم من تعارض بين قانوني الزواج من كنسي ومدني لخير دليل على ما ذكرت .

ومع الفجر الباروكي ، تبدأ الحيـــاة ، بعد أن اتخذت لها أشكالاً مدنية واقتصادية - نقدية ، بالمطالبة بقـــانون كذاك القانون الذي اتخذته دول المدن الكلاسيكية عقب عصر صولون ناظماً لهـــا . لقد أمسى القصد من وراء القانون الساري المفعول واضحاً الآن تام الوضوح .

ولكن بالهـا من تركة مشؤومة تلك التي ورثناها من القوطية والتي ترى في « القانون الفطري داخلنا » على أنه منة وفضل اطبقة مثقفة ، ولم يستطع أحد أن ينجح في زعزعة تلك المنة وهذا الفضل .

واتجهت العقلانية الحضرية ، كما اتجه السفسطائيون والرواقيون من قبـل ، الى اشتغال ذاتها « بقانون الطبيعة » وذلك منذ تأسيسها من قبل أولد ندورب Olden dorp وبودينوس Bodinus حتى تدميرها على يدي هيغل . وقـد ذاد كوك Coke [1] العظيم بنجاح عن حيـاض القانون الجرماني الذي كان آنذاك يطور ذاته ، ضد محاولات آل تيودور لادخال الفتاوى والاجتهادات الرومانية .

---

١ – اللورد أدورد كوك (١٦١٩ – ١٦٨٣) احد كبار المشرعين البريطان – المترجم

ولكن مناهج المجتهدين في القارة الاوروبية تطورت في اشكال رومانية وبلغت في تطورها هذا حتى قوانين الدولة في المانيا ومناهج النظام الغابر في فرنسا التي استند اليها قانون نابليون . ولذلك فـان كتاب بلاكستون المعروف باسم تعليقات على قوانين انجلترا (عـام ١٧٦٥) هو القانون الجرماني الواحد النقي في جرمانيته ، وقد صدر هذا الكتاب عندما كانت الحضارة الفاوستية قد بلغت أعتاب مدنيتها .

— ٨ —

بهذا أبلغ قصدي ، وآخذ بالتحديق فيما حولي . انني أرى ثلاثـة تواريخ — قانون ، ترتبط بمجرد عناصر من شكل كلامي ولغوي ، أحدهم مقتبس من الآخر ، وهذا الاقتباس جاء امـا طوعاً وامـا قسرا ، لكنه لا يكشف أبداً للمستخدم الجديد طبيعة الكينونة الاجنبية الغريبة الكامنة وراءها (التواريخ الثلاثة — المترجم) ان تاريخين ، من هذه التواريخ الثلاثة ، هما كاملان أما الثالث فهو ذاك الذي ننتصب نحن بذواتنا داخله ، ونقف ايضاً في نقطة حاسمة حيث نباشر بدورنا العمل الانشائي العظيم الذي انجزته روما والاسلام قبلنا ، وانجزه كل منها لنفسه وكل منهما في موسمه .

فما الذي كانه القانون «الروماني» بالنسبة الينا حتى الآن ؟ ومـا الذي أتلفه ؟ وماذا سيكونه بالنسبة الينا في المستقبل ؟

ان هناك لازمة أساسية (محركاً Motive) تتخلل كامل تاريخ قانوننا ، انها الصراع بين الكتاب والحياة .

فالكتاب الغربي (القانون — المترجم) ليس بنص سحري أو اورا كل Oracle ذي مفهوم مجوسي باطني ، بل انما هو قطعة من تاريخ محفوظ . انه ماض مضغوط

يريد أن يصبح مستقبلاً بواسطتنا نحن معشر من نقرأه ، وحيث يعيش محتواه داخلنا من جديد . ان الانسان الفاوستي لا يستهدف كالانسان الكلاسيكي ، أن يبلغ بحياته كمالاً قائماً مستقلاً بذاته ، بل انما يستهدف متابعة حياة انبثقت قبله بزمن طويل ، وستقترب وتبلغ نهايتها بعده بزمان طويل .

ان القضية بالنسبة للانسان القوطي ، وعلى قدر ما هداه تأمله في ذاته اليه ، لم تكن في نظره عما اذا كان من المتوجب عليه ان يبحث عن الروابط بين وجوده والتاريخ ، بل انما كانت القضية تتمثل في أي اتجاه عليه ان يبحث عنها . فهو قد استلزم ماضياً كي يجد في الحاضر مغزى وعمقاً . وكان الماضي الذي قدم نفسه اليه من الجانب الروحي يتمثل في اسرائيل الغابرة ، اما ذاك الماضي الذي عرض نفسه عليه من الجانب الدنيوي ، فقد تجسد في رومـــا العتيقة حيث كان يرى آثارها وذخائرها تحيط به من كل جانب . فما كان يقدر ويحترم ، كان يقدر ويحترم لانه ناء عتيق ، لا لكونه ضخماً عظيماً . ولو قدر لهؤلاء الرجال أن يعرفوا بمصر ، لكان بالكاد أن التفتوا الى روما ، ولكانت لغة حضارتنا قد تطورت تطوراً مغايراً لما سلكته من سياق تطور .

ولما كانت الحضارة (الفاوستية ـ المترجم) حضارة كتب وقراء ، لذلك « تقبلت » شعوبها النصوص الكلاسيكية على الصورة ذاتهـــا التي « تقبل » وفقها الناس القانون الروماني في المانيا ، كما وأن تطويرها فيما بعد اتخذ لنفسه شكل تحرير ذات بطيء وغير راغب . « فتقبل » ارسطو ويوقليد والقانون الرومـاني ، يعني بالنسبة لهذه الحضارة (غيرمـا يعنيه بالنسبة للشرق المجوسي) انه يعني اكتشاف مركب جاهز لفكرنا باسرع وقت ، وقد نجم عن هذا الأمر ان جعل من نوع انسان بني بنـاءً تاريخياً ، عبداً للنظريات والاراء . ومن البدهي ان شعور الحياة الغريبة عنه ، لم تلج ولم تستطع ان تلج فكره ، لكنها كانت عقبة في طريق تطوير شعوره الخاص بالحياة للغة مطلقة حرة خاصة بهذا الشعور .

والان فـان الفكر القانوني قد أرغم على ان يربط ذاته بشيء مـا مادوس ،

فيجب ان يكون هناك شيء ما قبل أن يستطيع استخلاص آرائه ونظرياته، فعليه أن يمتلك شيئاً ما يستخلص منه . وشاء الحظ العاثر للفقه الغربي أن يستخلص، قبل الاوان وعلى عجـــالة من أمره ، من المؤلفات اللاتينية ، بدلاً من أن يجعل من العادات القوية الثابتة في الحيـــاة الاجتماعية والاقتصادية مقالعه ومحـاجره . فغدا المشرع الغربي عالمـــاً فلولوجياً ، واستبدلت الخبرة العملية بالحياة بالخبرة النظرية وذلك في الفصل والتنسيق المجردين للاراء والنظريات القانونية المرتكزة وعلى أسس مستقلة بذاتها .

ونتيجة لهذا الأمر فقدنا تماماً كل تماس مع الحقيقة القائلة بان القانون الخاص يقصد من وراء اشتراعه أن يمثل الوجود الاجتماعي والاقتصادي لمرحلته .

وهذه الحقيقة لم يعها أكيداً قـــانون نابليون ولا قانون بروسيا كما ولم يعها ايضاً غروشيوس ولا مومسن .ونحن لا نلمس ، أو نكتشف في كل من التمرين في الحرفة القانونية ، أو في المؤلفات عنهـا ، أبسط تلميح ، أو أقل إشارة الى هذا المنبع (الأصيل) للقانون الساري المفعول .

ونتيجة لمـا ذكرت فاننا نمتلك اليوم قانوناً خاصاً يرتكز الى الأسس الظلالية للاقتصاد الكلاسيكي . ان المرارة الشديدة ، التي تضع في مطالع اقتصاد مدنيتنا ، أسم الرأسمالية كمعارض ، او نقيض للاشتراكية، يتدفق معظمها من الحقيقة القائلة بان الفقه النظري،والفكر المثقف بصورة عامة نظراً لتأثره بالفقه النظري،قد ربط كل تلك الاراء الهامة في الشخص والشيء والملكية مثلاً،بأحوال الحياة الكلاسيكية ونوازعها . ان الكتاب يضع نفسه ، بين الحقـائق وبين ادراكها . والمتضلعون ، وأعني هنا المتضلعين في الكتاب ، يوزنون كل شيء بموازين هي كلاسيكية الجوهر . والرجل العامل فقط في الحياة ، والذي لم يدرب على المحاكمة ، يشعر بانه قد أسيء فهمه . فهو يرى التعارض القائم بين حيـاة الازمان وبين القوانين التي تطالعه ، فيطالب برؤوس اولئك ، الذين حبـــاً منهم في تحقيق غايات خاصة كما يخيل اليه ، قاموا بايجاد هذا التعارض وترويجه .

ومرة أخرى يطالعنا هذا السؤال: مَن ومن أجل مَن وضع القانون الغربي؟ فلقد كان القاضي الروماني ملاكاً وضابطاً في الجيش ، وكان رجلاً خبيراً بالأمور الادارية والمــــالية ، وكانت خبرته هذه هي وحدها التي تؤهله للوظيفتين اللتين لا يمكن الفصل بينهما ، ألا وهمـــا وظيفة المجتهد في القانون وشارعه . وكان القاضي الروماني المتجول يطور قانونه الأجـانب ، بوصفه قانونـاً للمعاملة التجارية المدنية الكلاسيكية العظمى والمتأخرة زمناً ، وكان يقوم بعمله هذا دون الاعتماد على أية خطة أو نازع أو حافز ، انما كان يستوحيه من القضايا التي تعرض أمامه وليس من أي شيء آخر .

لكن إرادة الديمومة الفاوستية تطالب بكتاب ، تطالب بشيء مـــا ثابت وممكن ، تطالب بمنهاج يفترض فيه أن يقدم سلفاً الاحكام في كل قضية ، وهذا الكتاب ، هو انجاز دراسة وعلم ، ويستلزم بالضرورة وجود طبقة من العلماء ، من الفقهاء والقضاة ،ويستلزم وجود دكاترة الجامعات والعائلات الالمـــانية العريقة في ميدان القـانون ، وطبقة نبلاء « الروب » « Noblesse de robe » الفرنسية . فـالقضاة الانكليز الذين بالكاد يتجاوز عددهم المئة ، انما يجري اختيارهم من طبقة المحامين العليا ، من طبقة « البارستيرز » Barristers ولكن مركزهم فعلاً يسمو فوق مركز أي عضو من اعضاء الحكومة .

ان طبقة العلماء ، هي طبقة غريبة عن العـالم ،وهي تحتقر الخبرة التي لا تتأمل وتتولد داخل الفكر . ولهذا ينشب صراع محتوم بين « حال المعرفة » كما يريد أن يتقبلها العالِم، وبين العادة السارية للحياة العلمية. فمخطوطة ارنريوس الفقهية أصبحت وبقيت طيلة قرون من الزمن « العالم » الذي عــــاش فيه المشرعون . وحتى في انجلترا نفسها حيث لا توجد كليـات حقوق (بالمعنى الاوروبي) فلقد سيطرت كلياً حرفة القـــانون على المزيد من البناء والتطور ، الى حد انه حتى في بريطانيا انحرف تطوير النظريات القانونية عن مجرى تطور الحياة العامة .

وهذا الذي سميناه حتى الآن بعلم القانون ، هو في الواقع واحد من شيئين ، فهو اما فيلولوجيا لغة القانون ، واما دراسة النظريات القانونية . وهذا العلم — علم

القانون – لا يزال اليوم العالم الوحيد الذي ما انفك يستنتج معنى الحياة ومفهومها من المبادىء « الخالدة في صحتها وصوابها » . ويقول سوم Sohm « ان الفقه الالماني المعاصر يمثل ، فعلاً والى حد كبير ، تركة خلفها لنـا لاهوت القرون الوسطى ». ونحن حتى الآن لم نبدأ بجد عميق في تقدير مركز القيم الأساسية للحيـاة العملية ، فيا حولنا ، من نظرية القانون ونحن لا نعرف حتى ما هي هذه القيم .

وها هنا إذن عمل يتوجب على الفكر الالماني أن ينجزه في المستقبل . فمن الحياة العملية للحاضر ، يجب أن تطور اعمق مبادىء هذه الحياة ، وان يرتفع بها حتى تمسي نظريات أساسية في القانون . واذا مـا كنا قد خلفنا فنوننا العظمى وراءنا ، فان فقهنا العظيم لا يزال في رحم المستقبل . وذلك لأن انجازات القرن التاسع عشر ، مهما خـال هذا القرن في نفسه من ابداع ، كانت مجرد أعمـال تمهيدية . لقد حررنا ذاك القرن من كتاب جوستينيان، ولكنه لم يحررنا من النظريات والاراء . ولم تعد للاجتهادات في القانون الروماني أية قيمة أو بال ، غير أن التلمذة وفق القالب باقية وموجودة . ان ما نحتاج اليه اليوم هو نوع آخر من الفقه ، نوع يحررنا من منهاجية هذه النظريات والمفـاهيم . فعلى الاختصاص الفيلولوجي أن يخلي مكانه للاختصاص في حقلي الاجتماع والاقتصاد .

إن لمحة عابرة نمر بهـا على قانوني الجزاء والمدني الالمانيين ستجعل الموقف جلياً واضحاً . فيها منهاجان طوقـا بإكليل ضفر من قوانين ثانوية . وكان من المستحيل تجسيد مواد هذه القوانين الثانوية في قانون رئيسي . فتلك المواد التي يمكن ان تفهم فيها هي تركيب لغة ، بمصطلحات وتعابير المنهـاج الكلاسيكي ، تعزل نفسها وتنفصل عن تلك التي يمكن ان تفهم بمصطلحات هذا المنهاج وتعابيره .

فكيف حدث عام ۱۹۰۰ عندما طرحت قضية سرقة طاقة كهربائية ، أن قرر ، عقب مناقشة شاذة غريبة دارت حول مـا اذا كان المسروق شيئاً مادياً جسمانيا ، أن هذه القضية يجب أن تعالج وفق قانون خاص بها وحدها ؟ ولماذا كان

من المستحيل دمج جوهر قانون براءة الاختراع في مجموع القانون المتعلق بالاشياء ؟ ولماذا عجز قانون حقوق الطبع والترجمة والنشر أن يميز مفهومـــاً بين الابداع الفكري بشكله القابل للتبليغ عنه ، أي بمخطوطته ، وبين الانتـــاج الموضوعي طباعة ؟ ولماذا ، تعارضاً وقانون الاشياء ، كان من المتوجب أن يميز بين الملكية الفنية والمادية بصورة تميز بين تلك الأصل وبين تملك حق اعادة اخراجه ؟ ولمـــاذا يعـاقب من يسرق قصاصة ورق ولا يعـاقب من يختلس فكرة لمشروع عمل أو منهاجاً للادارة والتنظيم يطبع على تلك القصاصة ؟ ان الجواب على كل مـا طرحته آنفـاً من أسئلة يقول باننـــا لا نزال حتى هذا اليوم خـاضعين لسيطرة النظرية الكلاسيكية في الشيء المادي . اننـا نعيش خلافاً لهذه النظرية ، فخبرتنا الفطرية خاضعة لمفاهيم وظائفية ، كقوة العمل ،والاختراع ذهنيا وجسديا وفنيا ، وتنظيم الطاقات والقدرات والمواهب . وفي فيزيائنا (مع أن نظريتهـا متقدمة كما هي حالها ، غير أنهـا ليست سوى نسخة طبق الأصل عن نموذج حياتنا) فان فكرة الحجم لم يعد لهـا من وجود مبدئياً ، كما هي الحـال في هذه اللحظة ، لحظة وجود الطاقة الكهربائية . ولمـاذا يقف قانوننا مشلول اليدين ، متهدماً ، أمـام الحقائق الكبرى للاقتصاد الحديث ؟ انه يقف على هذه الحال ، لأنه لا يعرف في الاشخاص سوى أحجام .

فاذا كان الفقه الغربي قد تسلم كلمات غـابرة ، فانه مع ذلك لا تزال اشد العناصر سطحية للمعاني القديمة ملتصقة بتلك الكلمات . فتماسك النص وتركيبه انما كشفا فقط عن الاستخدام المنطقي للكلمات ولم يكشفا عن الحيـاة التي تكمن وراءها . وليست هناك من أية ممارسة تستطيـع أن توقظ الميتافيزيقا الصامتة للاراء الفقهية . وليس هناك من قانون في العـالم يستطيـع أن يجعل هذا العنصر الأخير والاعمق واضحاً جلياً ، وذلك لأنه ، ولأنه فقط غني عن البيان . فالجوهري من العناصر هو مقدر ضمنا في جميعها ، فعين التطبيق ، ليس فقـط القانون ، بل انمـا هو ، وبصورة اوليـة ، العنصر الذي لا يمكن التعبير عنه ، الذي يكمن وراء

القانون ، هو ذاك الذي يفهمه الشعب ويستطيع أن يمارسه . فكل قانون ، الى الحد الذي يمسي من المستحيل المبالغة فيه ، هو قانون عرف وعادة. وليقم القانون بتحديد الكلمات ، لكن الحياة هي التي تفسرها .

واذا ما حاول عالم لغة قانون ، من أصل أجنبي ، ووفق منهاج أجنبي ، أن يقيد قانوناً أهليا خاصاً ، فان نظرياته ستبقى عبثاً وباطلا ، وستبقى الحياة بكماء خرساء . وعندئذ لا يصبح القانون اداة بل عبثاً ، ولا تمشي الواقعة الى جانب تاريخ القانون بل انما تتجنبه وتسير بمنأى عنه .

وعلى هذه الحال ، فما تحتاج اليه مواد قانون مدنيتنا ، فانها تتفق فقط ، وذلك اذا ما اتفقت اطلاقاً ، وظاهر منهاج كتب القانون الكلاسيكي ، وهي بالنسبة الى فقهنا الذاتي والخاص ، والى فكرنا المثقف بصورة عامة ، لا تزال دون ما شكل ، وهي لهذا ليست بمتناول يدنا .

فهل الاشخاص والاشياء وفق مفهوم تشريعنا اليوم مفاهيم قانون على أية حال؟ كلا! ان مهمتهم فقط تنحصر في رسم الخط الفاصل، في التمييز الزيولوجي ، مثلاً ، بين الانسان وبقية الكائنات . ولكن الكينونة الميتافيزيقية الكلاسيكية كانت ، منذ القدم ، تلتصق بنظرية الشخص ، الجسم . فالتمييز بين الانسان والالوهية ، جوهر المدنية العظمى ، جوهر البطل والعبد ، وكون المادة والشكل والمثل الأعلى للبرود الفلسفي ، كانت كل هذه الأمور هي المقدمة المنطقية الغنية عن البيان، وهذه المقدمة قد اضمحلت بالنسبة الينا وتلاشت تماماً. فكلمة «ملكية» ترتبط داخل فكرنا بالتعريف الكلاسيكي السكوني ، ولذلك فهي تشوه وتزور في كل تطبيق لنا لها على اسلوب حياتنا الديناميكي . ونحن نترك تعاريف كهذه الى اولئك الاساتذة التجريديين الجحولين من العالم ، أساتذة علم الأخلاق والفقهاء والفلاسفة ، والى المناقشة غير النبيهة التي يقوم بها العقائديون السياسيون ، وهذا بالرغم من أن كامل فهم تاريخ الاقتصاد اليوم يرتكز الى هذه النظرية الميتافيزيقية الواحدة .

إذن يتوجب علينـــا أن نؤكد ، وبشكل شدة وصراحة ، على أن القانون الكلاسيكي كان قانوناً للاحجام ، بينما أن قانوننا هو قانون للوظائف . ان الرومان قد خلقوا سكونية حقوقية ، وواجبنا أن نخلق ديناميكية حقوقية . فالاشخاص بالنسبة الينا ليسوا بأحجـام ، بل انهم وحدات من قوة وارادة ، والاشياء ليست بأحجام ايضاً ، انهـــا أهداف ووسائل وابداعات لهذه الوحدات . فــــالعلاقة الكلاسيكية بين الاحجام كانت علاقـة مراكزية ، لكن العلاقة بين القوى انمـا تدعى عملاً وفعلاً . فالعبد كان في نظر الروماني شيئاً ينتج اشياء جديدة ، وكاتب كشيشرون لا يمكن له أن يدرك « ملكية فكرية » ناهيك عن ملكية تنشأ عن تصور ذهني ، أو تتولد عن امكانات موهبة ، بينما أن الحـال تختلف عندنا تماماً عن تلك ، فالمنظم أو المخترع أو المؤسس هو قوة مولدة تعمل في قوى تنفيذية أخرى ، وذلك بواسطة تحديد الاتجاه والهدف ووسائل أعمالها . وكلتا الملكيتين تنتميان الى الحياة الاقتصادية ، لا بوصفها مالكتين للاشياء ، بل انما بوصفها حاملتين للطاقات وناقلتين لها .

ان المستقبل سيطالب بان يبدل مكان كامل فكرنا في القانون ليتناسق وفيزيائنا ورياضياتنا الارقى . ان كامل حياتنـا الاجتماعية والاقتصادية والفنية ـ التقنية لتنتظر أن تفهم ـ وتفهم أخيراً ـ وفق هذا المفهوم . ونحن لفي حـاجة الى قرن أو أكثر من أرهف ما للفكر من ذكاء وأعمق مـا للذهن من أغوار كي نصل الى الهدف . والضروري ، الضروري هو نوع كامل من التدريب التمهيدي في الفقه . وهو يتطلب ما يلي :

١ ـ خبرة فورية شاملة وعملية في حياة الحاضر الاقتصادية .

٢ ـ معرفة صحيحة بتاريخ القانون الغربي ، ومقارنة دائمة بين التطور الالماني والانجليزي « والروماني » .

٣ ـ معرفة بالفقه الكلاسيكي ، وليس بوصفه نموذجاً لمبادىء لها سريان مفعولها اليوم ، بل انمـا بوصفه مثالاً رائعـاً لكيف يستطيع القانون ان يتطور من حياة عصوره قوياً نقياً .

الفصل الخامس عشر

المدن والشعوب

– أ –

نفس المدنية

قرابة منتصف الدورة الالفية الثانية قبل المسيح كان هناك ، على بحر ايجيه ، عالمان يتعازضان اوضاعاً واحوالاً ، وكان اولها يسير عامهاً حاملاً كبار آماله ، وسنان سكران مفتوناً بأعماله وآلاله يشق طريق نضوجه ميمماً بصمت شطر مستقبله ، وكان هذا العالم ، العالم المسيني Mycenaean ، اما ثانيهما فكان فرحاً طروباً ، انيقاً راضياً ، يستكين مختبئاً في كنوز حضارة عتيقة غابرة متأنقة رشيقة الخطى خفيفتها بعد أن خلفت جميع احمالها وقضاياها العظمى وراءها بعيداً بعيداً . وهذا العالم كان العالم المنواني Minoan الذي عرفته جزيرة كريت .

ونحن لا نستطيع أبداً أن نفهم هذه الظاهرة على حقيقتها ، والتي أخذت هذا اليوم تستأثر باهتمام الباحثين ،الا اذا أدركنا التعارض العميق الذي يفصل بين نفسي هذين العالمين . ولا شك أن انسان تلك الايام البعيدة كان يحس احساساً

عميقاً بذاك التعارض ، ولكنه كان بالكاد يعرفه أو يتعرف عليه .

انني أرى أمام ناظري وداعة مواطن تيرنس Tiryns ومسينا وخضوعه أمام روح الحياة في «كنسوس» التي لا تدرك ، وأرى احتقار كنسوس المؤدبة المهذبة للرؤساء الصغار التافهين وأتباعهم ، وأرى ايضاً شعوراً خفياً كتوماً من الاستعلاء تعتلج به صدور البرابرة المتعافين ، كشعور الجندي الالماني وهو يقف في حضرة أعيان روما الطاعنين في السن .

فكيف تيسر لنا أن نكون في مركز يمكننا من معرفة هذا ؟

هناك كثير من لحظات كهذه ، حيث استطاع خلالها انسانا حضارتين ان يتطلع كل واحد منها الى وجه الآخر . فنحن نعرف اكثر من حضارة وسيطة واحدة Inter - Culture حيث كشفت فيها عن ذاتها بعض من اعظم نوازع النفس الانسانية وأعمقها مغزى .

(ونحن نستطيع أن نقول واثقين) بأنه كما كانت الحال بين كنسوس وميسنا، كذلك كانت الحال ايضاً بين بـــلاط بيزنطه وبين رؤساء القبائل الالمانية ، الذين دخلوه ، على شاكلة اوتو الثاني ، واقترنوا منه ، فبدا عملهم هذا اعجوبة سافرة في نظر الفرسان و« الكونتات » Counts ، عملاً اجابت عليه مدنية خالصة مهذبة ، شاحبة الوجه ، كالحته بعض الشيء ، بذهول مزدر مشدوه بفجر ذاك العزم الخشن الفظ المتبدي فوق الاراضي الالمانية التي وضعها شفل Scheffel في كتابه أكهاردت Ekhardt .

وفي شارلمان ، يتبدى المزيج بين روحانية انسانية بدائية تقف على اعتاب يقظتها ، وبين ذهنية متأخرة زمناً ، جلياً واضحاً . وهناك خصائص معينة لحكمة قد تقودنا الى اطلاق لقب خليفة Caliph الفرنكة عليه ، ولكنه من الجانب الآخر لم يكن سوى رئيس قبيلة جرمانية ، وهذا المزيج بين الجانبين هو ما يعطي لشخصه رمزاً كالرمز نفسه المتجلي في شكل كنيسة القصر في مدينة آخن، هذه الكنيسة التي لم تعد مسجداً ولكنها لم تمس كتدرائية بعد. ان ما قبل الحضارة الغربية الجرمانية كانت اثناء ذلك تنطلق قدماً الى الأمام ، لكن انطلاقها كان

بطيئاً خفياً ومستتراً ، وذلك لأن تلك النورانية الناجئة التي نطلق عليهـــا اسماً هو في غير محله اطلاقاً ، اسم عصر الانبعاث الكرولنجي ، انما هي (النورانية) شعاع من بغداد .

ويتوجب علينا الا نتغاضى عن الحقيقة القـائلة بان عصر شارل الاكبر ، كان حادثة سطح لا عمق لهـا او غور ، حادثة انتهت كما ينتهي كل مـــا هو عرضي أو طارىء ، انتهت دون ما عاقبة أو نتيجة . فبعد عام ٩٠٠ ، وبعد انحطاط جديد وعميق ، يبدأ شيء ما جديد ، وحقيقي في جدته ، شيء ما يمتلك تلك القوة المعبرة عن مصير وعمق يبشران ببقاء وديمومة . أمـــا في عام ٨٠٠ فلقد كان نور شمس المدنية العربية يتسرب منتقلاً من المدن العالمية في الشرق الى أرياف الغرب. وحتى على هذا الشكل أيضاً انتشرت أضواء شمس الهيلينية فبلغت الاندوس .

إن ما يقوم الآن على تلال تيرنس ومسينا ، لهو بلاط ملـكي Pfalz وقلعة ، وذو نموذج جرماني الجذور . وقصور جزيرة كريت ، التي لم تكن قلاع ملوك ، بل مبان دينية ضخمة لجمهرة من الكهنة والكاهنـات ، كانت مجهزة بوسائل ترف المدن العظمى ، لا بل بوسائل ترف العصور الرومانية المتأخرة زمناً . وتناثرت على أقدام هذه التـلال أعداد غفيرة من اكواخ الفلاحين ورقيق الاقطـــاع ، لكن الحفريات في جزيرة كريت (في غورنيا ، هاجيا وترياذا) وفي المدن والدارات Villas قد أظهرت أن متطلبات الحياة فيها كانت متطلبات حياة مدنية رفيعـــة راقية ، كما وان فن البناء أثبت انه فن يسند الى خبرة طويلة تستهدف اشباع أشد الأذواق اغراقـاً في الترف ، وأرهفهـــا في اختيار الأثاث والرياش ، وديكور الجدران ، وعلمية بالاضاءة ومجاري المياه والسلالم وغيرها من مثل هذه المشا كل والأمور .

ومخطط البيت في مسينا انما هو رمز للحياة دقيق وصارم ، بينما هو في كريت تعبير عن مذهب نفعي خالص . ولتقـــارن بين مزهريات كماريس Kamares والتصوير على الحائط بمعجون المرمر الناعم الملمس وبين كل شيء «مسيني» أصيل ،

انك لترى تلك انها جميعاً ، مظهراً وجوهراً ، نتاج فن صناعي حاذق لكنه فارغ، لا يمت بأية صلة الى أي فن عظيم عميق المغزى غير متقن الصناعة لكنه يمثل رمزية قوية شديدة كتلك الرمزية التي عرفتهـــا مسينا والتي كانت تنمو وتتضح لتمسي اسلوباً هندسياً . وبكلمة اخرى فان ما كان في كريت فإنما كان يمثل ذوقـاً لا أسلوباً .

لقد كان يقطن في مسينا قوم اختاروا مواقع مساكنهم وفقـــاً لقيمة التربة وسهولة الدفاع ويسره ، بينما أن سكان العالم المنواني اختاروا أماكن سكناهم على ضوء مستلزمات الأعمال والتجارة وهذا يبدو جليـاً وواضحاً تماماً من أمر بلدة فيلاكوبي Philakopi في ميلوس Melos التي أنشئت خصيصاً لتجارة الصادرات في السبج (حجر زجاجي أسود) . ان القصر المسيني يمثل أملاً ، بينما أن القصر المنواني فهو يمثل شيئاً ما يتجه الى نهايته . ولكن هذه الحال كانت ذاتها في الغرب قرابة عام ٨٠٠ ، فهناك المزارع والمنازل الريفيـة الممتدة من نهر اللوار حتى نهر ابرو ، بينما كانت تقع الى الجنوب منها القلاع والدارات البربرية ــ المغربيـــة Moorish ومساجد قرطبة وغرناطة .

ومن المؤكد انه ليس من بنات الصدفة أن تنطبق ذروة هذا الترف المنواني على عصر الثورة المصرية العظمى وخاصة عصر الهكسوس (١٧٨٠ ــ ١٥٨٠ قبـــل المسيح). فمن الجائز ايضاً أن يكون العمال المهرة المصريون قد فروا آنذاك الى الجزر التي كانت ترتع في بحبوحة من الأمن والسلام،وأن يكون فرارهم قد حملهم حتى القلاع على البر الأصلي (للعالم المنواني) ، كما حدث في عصور تلت عندما فر علماء بيزنطة الى ايطاليا ، وذلك لأنه من المتعارف عليه أن الحضارة المنوانيـة هي جزء من الحضارة المصرية ، ولقد كان بامكاننا أن نتحقق من هذا الأمر على صورة أوسع لو لم تأت الرطوبة على ذاك الجزء من مخزون الفن المصري ، وأعني بهذا الجزء ، ذاك الذي أنجز في الدلتا الغربية ، والذي كان من الجائز أن يمسي الدليل الحاسم على مـــا ذكرت آنفاً . ونحن لا نعرف من الحضارة المصرية اكثر من تلك التي ازدهرت على تربة الجنوب الجافة ، ولكن قد اتفق الجميـع منذ طويل أمد

وتأكدوا من أن مركز ثقل تطور الحضارة المصرية انما كان يقع في مكان آخر غير الجنوب .

وليس بامكاننا أن نخطط حداً دقيقاً بين الفن المنواني المتأخر زمناً، وبين الفن المسيني الفتي. فباستطاعتنا أن نلحظ في كل بقعة من بقاع العالم المصري ــ الكريتي هوى جد عصري لتلك الاشياء الغريبة والبدائية ، أما عصبة الملوك المتحاربين ، ملوك قلاع البر الأصلي ، فإنهم ، خلافاً لذلك ، كانوا يسرقون أو يشترون التحف الفنية الكريتية أينما وكيفما جاءتهم ويعجبون بها ويقلدونها. وحتى أسلوب الهجرات Migrations الذي كان قد افترض مرة وُقدر على أنه أسلوب جرماني أصيل ، انما يستعير لغة شكله من الشرق .

لقد بنى أولئك قصورهم وقبورهم وزينوها مستخدمين في ذلك عمالاً مهرة من الأسرى او الذين أغراهم الأجر . لذلك فإن « بيت الكنوز » ، قبر « أتريس Atreus في مسينا ، مشابه تماماً لجدث تيودور في « رافينا » .

ومن جهة النظر هذه ، فان بيزنطة نفسها لمعجزة واعجوبة . فهنا في بيزنطة ، كان من المتوجب أن يفرزوا . بعناية ، طبقة عن طبقة . وفي عام ٣٢٦ عندمـــا أخذ قسطنطين يعيد البناء على اطلال تلك المدينــة العظمى التي دمرها سبتيموس سيفروس ، أبدع مدينة عالية من النسق الكلاسيكي المتأخر زمناً ، ومن الدرجة الاولى ، وما كاد قسطنطين يبني هذه المدينة حتى أخذت تتدفق عليهـــا أمواج الابولونية المرمة من الغرب ، والمجوسية الفتية من الشرق .

وبعد هذا بزمن طويل ، وفي عام ١٠٩٦ ، غدت بيزنطة مدينة عالية مجوسية متأخرة زمناً ، تجابه أيضاً في أواخر أيام خريفها ربيعاً تجسد صليبي جودفري بوالون Godfreiy of Bouillon الذين وصفتهم تلك السيدة الملكية الاديبـــة، آنا كومنينا Anna Comnena باحتقار وازدراء .

وقدفتنت هذهالمدينةالغوطيوصفها الجانب الشرقيمنالغرب الكلاسيكي،وسحرت بعد دورة ألفية من السنين،الروس ،لكونها الجانب الشمالي من العالمالعربي .ويقف فاسيلي بلازني VasiliBlazheni (١٥٥٤)المذهل والمبشر فيموسكو بما قبلالحضارة

الروسية « بين الاسلاويين » ، كما وقف قبل ألفي عام هيكل سليمان بين المدينة العالمية البابلية وبين المسيحية المبكرة زمناً .

- ٢ -

ان الانسان البدائي لهو جوّال رحال ، وكائن يتحسس وعيه اليقظ طريقه خلال الحياة قلقاً متبرماً ، وهو كله كون اصغر لا يخضع لعبودية المكان او المسكن ، وحواسه مرهفة قلقة ، وفي حال من تنبه دائم لطرد عنصر ما من الطبيعة المعادية . ان تبدلاً عميقاً يبدأ اول ما يبدأ مع الزراعة ، لأن الزراعة هي شيء ما اصطناعي لبس للصياد أو الراعي أي تماس بها . ان ذاك الذي ينبش التربة ويحرثها لا يستهدف السلب والغنيمة ، بل انما يستهدف تغيير الطبيعة . فان تزرع لايعني أن تأخذ شيئاً ما، بل انما يعني ان تنتج شيئاً ما . ولكن الانسان نفسه يصبح، بهذا العمل، نبتة، وأعني بهذه ، فلاحاً . وهو يضرب جذوره في التربة التي يعتني بها ويرعاها، وتكتشف نفس الانسان نفساً في الريف وارتباطاً جديداً الكائن بالتربة ، وشعوراً جديداً يُعلن عن ذاته . وهنا تصبح الطبيعة المعادية صديقاً ، وتمسي الارض ، الأم الارض . فهناك شبه عميق قد تبدى وانتصب ، الشبه بين البذر والانجاب ، بين الحصاد والموت ، بين الطفل والبذرة . وهنا يعبر ورع جديد عن نفسه في مذاهب عبادة للأرض الخصبة التي تنمو جنباً الى جنب والانسان . ويتبدى لنا في كل مكان الشكل الرمزي للبيت الريفي ، كتعبير كامل لهذا الشعور بالحياة ، فهو في تنسيق غرفه وفي كل خط من خطوط شكله الخارجي انما ينبىء عن دماء سكانه .

ان مسكن الفلاح هو لرمز عظيم للاستقرار والاستيطان . فهو نفسه نابتة تضرب جذورها عميقاً عميقاً في « تربتها الخاصة » . انه الملكية بأقدس ما لهذه الكلمة من معنى . فالأرواح اللطيفة الانيسة للموقد والباب وارضى البيت والمخدع هي ارواح استقرت وتوطدت فيه ، كاستقرار الانسان نفسه وتوطده .

ان هذه الحال ، هي شرط متقدم من شروط كل حضارة ، حيث تنمو هذه بدورها من الصقع الأم وتجدد وتقوّي من أواصر الالفة بين الانسان والتربة . ان ما يمثله الكوخ في نظر الفلاح تمثله البلدة في نظر انسان الحضارة . وكما ان لكل منزل ارواحه الانيسة اللطيفة ، كذلك فان لكل بلدة إلهها الوصي الحارس أو قديسها . ان البلدة هي ايضاً كائن شبيه بالنبات ناء عن البداوة نأي الفلاحين عنها وعن الكوني الاصغر المجرد . لذلك فان تطور لغة شكل راقية هو مرتبط دائماً بالصقع ، ولا يستطيع الفن ولا الدين ان يبدل موضع نمائها ، ونحن لا نختار أو نحرر ، انفسنا ايضاً من جذور هذه اللغة إلا عندما نعيش في المدن العملاقة المدنية . فالانسان بوصفه انساناً متمدناً ، بوصفه بدوياً رحالاً مدركاً ، هو ايضاً بكليته كوني اصغر دون ما منزل أو مسكن إطلاقاً ، وهو حر ذهنياً حرية الصياد والراعي حساً وشهوة .

ان المثل القائل Ubi bene , ibi patria ، هو مثل ثابت الصحة قبل الحضارة وبعدها . فقبيل ربيع الهجرات كان ذاك الذي يبحث في الجنوب عن موطن تعشش فيه حضارته المقبلة ، حنيناً جرمانياً ، حنيناً عذراوياً لكنه ناضج الامومة .

واليوم ، وفي ختام هذه الحضارة ، يطوف الذهن الفاقد الجذور ويجوب محوّماً فوق كل الارياف والاصقاع وإمكانيات الفكر . ولكن بين هذه الحدود النهائية ، يقع الزمن الذي اعتبر فيه الانسان رقعة من الارض ، وحفنة من التراب شيئاً ما جديراً بان يموت المرء من اجله .

أنها لحقيقة حاسمة جازمة ، حقيقة لم يدركها الانسان حتى الآن ، ألا وهي

أن جميع الحضارات العظمى انما هي حضارات بلدة . فالانسان الارقى ، انسان الجيل الثاني ، هو حيوان مشدود الى البلدة بكل رباط . وهنا يتبدى لنا الميزان الحقيقي « لتاريخ العالم » هذا الميزان الذي يفرق بصورة جد دقيقة بين « تاريخ العالم » وتاريخ الانسان — فتاريخ العالم هو تاريخ الانسان المتمدن . فالشعوب والدول والسياسات والدين ، وجميع الفنون والعلوم انما ترتكز كلها الى ظاهرة أولية من ظاهرات الوجود الانساني ، ألا وهي البلدة .

ولما كان جميع مفكري الحضارات يعيشون في البلدة (وحتى ولو كان من الجائز أن يقطنوا جسدياً في الريف) فانهم لا يدركون اطلاقاً أي شيء غريب شاذ هي البلدة . ونحن كي نحس بهذا الامر ، يتوجب علينا ان نضع انفسنا دون ما تحفظ ، في مكان الانسان البدائي المذهول عجباً حينما يرى لأول مرة كتل الحجارة والاخشاب منضدة في الريف والاصقاع ، بشوارعها المسورة بالحجارة وساحاتها المرصوفة بالحجر — إنه والحق لمسكن ذو شكل غريب ومكتظ بالناس على شكل عجيب .

ولكن الاعجوبة الحقيقية انما تتبدى في ولادة نفس البلدة ، انها لنفس جمهور من نوع جديد كل الجدة ، نفس ستبقى آخر أسسها مختفية عن انظارنا الى الابد ، نفس تبرعم فجأة وتفرخ من الروحانية العامة لحضارتها . وحالما تستيقظ هذه النفس تشكل لذاتها جسداً منظوراً . وتنشأ عن المجموعة الريفية العشيمة من المزارع والاكواخ ، التي لكل منها تاريخها الخاص ، وحدة مجموع كامل . ومنذ ذاك الحين فصاعداً ، تصبح الكاتدرائية والقصر ومنظر البلدة نفسها ، وذلك بالاضافة الى كل منزل على حدة ، أقول تصبح وحدة تعبر تعبيراً موضوعياً عن لغة الشكل وتاريخ الاسلوب اللذين يرافقان الحضارة طيلة دورة حياتها ومجراها .

ومن البدهي ، أن ما يميز البلدة عن القرية ، ليس هو الحجم ، بل انما هو وجود نفس . ونحن لا نجد فقط في الاوضاع البدائية ، كتلك الاوضاع القائمة في افريقيا الوسطى ، بل نجد ايضاً في الاوضاع المتأخرة زمناً — كأوضاع الصين

والهند واوروبا واميركا الصناعيتين ، أقول نجد مستوطنات بالرغم من ضخامتها لا يجوز ان نسميها بالمدن . فهذه المستوطنات هي مراكز لأرياف وأصقـاع ، وهي لا تشكل باطناً عوالم داخل ذواتها . وليس لها نفس فجميع السكان البدائيين يعيشون كلياً كفلاحين وأبناء للأرض ، وليس « للمدنيـة » من وجود لديهم أمـا ذاك الذي ينشأ ويتطور من القرية فليس هو بالمدينة ، بل انما هو سوق ، وهو مجرد نقطة التقاء لمصالح الحياة الريفية. وهنا لا يمكن أن تقدم أية قائمة لوجود منفرد ، فمن الجائز أن يكون ساكن أحد الأسواق عاملاً ماهراً أو تاجراً لكنه يعيش ويفكر كفلاح . وعلينا أن نعود الى الوراء وأن نخمن تخميناً صحيحاً مـا الذي يعنيه عندمـا تنبثق من الحياة البدائية للقرية المصرية أو الصينية ، وهي نقطة صغيرة في رقعة واسعة فسيحة من الارض ، مدنية تشق طريقها الى الوجود . ومن الجائز جداً أن لا يميز هذه المدنية أي من المعالم الظاهرية ، لكنها ، روحانياً ، هي مكان يعتبر معه الريف ، منذ قيام المدينة فصاعداً، ويحس به ويختبر بوصفه ضاحية وبكونه شيئاً ما يختلف عن المدينة وتابعاً لها . ومنذ الآن فصاعداً توجد حياتان ، حياة الباطن وحياة الظاهر ، والفلاح يدرك هذا الأمر بالوضوح ذاته تمامـاً الذي يدركه ابن البلدة . فحداد القرية ، وحداد المدينة ، ومختـار القرية ، ورئيس البلدية ، يعيش كل واحد منها في عالم يختلف عن عـالم الآخر . وانسان الريف ، وانسان المدينة هما جوهران مختلفان .

وهمـا ، بادىء ذي بدء ، يشعران بهذا الفرق ، الذي يسيطر عليها عندئذ ، وأخيرا لا يعود الواحد منها قادراً على فهم الآخر إطلاقاً . واليوم فان فلاحاً من مقاطعة براندنبورغ هو أوثق عروة بفلاح من سليسيا ، منه بساكن مدينة برلين . وابتداء من لحظة هذا التناغم الخاص ، تخر المدينة الى حيز الوجود، وهذا التناغم بوصفه شيئاً ما بدهياً ، يكمن وراء الوعي اليقظ لكل حضارة .

ان كل ربيع حضارة هو حتماً ربيع نموذج جديد لمدينة وتمدن . ويعصف بصدور أناس ما قبل الحضارة قلق عميق وهم يشاهدون هذه النماذج الجديدة التي لا يستطيعون أن يقيموا معها علاقة باطنية . وكثيراً مـا كان الجرمان على ضفاف

نهري الرين والدانوب ، كما وفي ستراسبورغ ، يلقون بعصـــا الترحال ويستقرون أمام أبواب المدن الرومانية التي بقيت خالية من سكانها . أما في جزيرة كريت ، فإن الغزاة الفاتحين شيدوا القرى على أطلال المدن المحروقة كغورنيا وكنسوس. ولقد استوطنت فصائل رهبان ما قبل الحضارة، كالبندكتيين ،وخاصة الكلانياك، Cluniacs والبريمونستريتنسيان Premonstratensians على أرض حرة شـــأنهم في ذلك شأن فرسان القرون الوسطى . وكان الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان هم أول من بدأ بالبناء داخل المدن القوطية المبكرة زمناً . وهنـــا استيقظت لتوها نفس جديدة . ولكن ، حتى هنا ، لا تزال سويداء نضيرة ساذجة تلازم الهندسة المعارية ، كما تلازم الفن الفرنسيسكاني ككل . انها الخوف غامض يملأ قلب الفرد في حضرة الجديد والنبيه والواعي الذي تقبلته الاغلبية آنذاك بتبلد . فانسان ذاك العصر نادراً ما تجرأ على التخلي عن شخصيته كفلاح .

وكان اليسوعيون هم أول من مارس حياة أبناء المدن الكبرى الأصلاء وعاشوها بكل نضوجها ويقظتها وتنبهها . وعندما كان الحاكم ينتقل في كل فصل ربيع من قصر الى قصر ، فإن انتقاله هذا ليشكل دلالة على أن الريف لا يزال المتفوق تفوقاً غير مشروط ولم يعترف بالمدينة بعد . وفي المملكة المصرية القديمة كانت ممفيس (الجدار الابيض) ، والكثيفة السكان مركزاً للادارة ، غير أن مقر الفراعنة كان يتبـــدل باستمرار شأنه في ذلك شأن بابل السومرية والامبراطورية الكارولانجية .

وكان الحكام الصينيون الاوائل من سلالة شو قد درجوا على عادة اقامـــة بلاطهم في لو - يانغ (وهي اليوم مدينة هو - نان - فو) وذلك ابتداء من عام ١٦٠٠ تقريباً ، ولكن هذا المركز لم يتطور ليصبح المقر الملكي الدائم الا في عام ٧٧٠ وهذا التاريخ يتوافق وقرننا السادس عشر .

ولم يحدث أبداً أن عبر شعور الكوني المماثل للنبات بمحدودية الارض عن نفسه بمثل تلك القوة ، كما عبر عنها في الهندسة المعارية للبلدان الحقيرة الصغيرة والمبكرة زمناً والتي كانت بالكاد تتألف من أكثر من بضعة طرق تحيط بالسوق أو من

قلعة أو مكان للعبادة . وإذا كان هناك من مكان يتجلى فيـه كل أسلوب عظيم على أنه هو نفسه مماثل للنبات ، فانه ليتجلى صريحاً ها هنا . فالعمود الدوري والاهرام المصرية والـكاتدرائية القوطية ، كل هذه ، إنما تنمو من التربة وتتبدى جـــادة ضخمة ذات مصير ، وتتجلى كينونة مجردة من الوعي اليـقـظ . كما وأن العمود الايوني ، ومباني المملكة الوسيطة والعمارات الباروكية تنتصب على الارض حرة واثقة تعي وتدرك بهدوء ذواتها .

وهنا وعندما تنفصل الكينونة عن زخم التربة وقوتها ، وتنقطع صلتهـا بالتربة حتى ولو بواسطة الرصيف الذي تدوسه الاقدام ، يزداد فتور همتهـــا ضعفاً على ضعف ، ويزداد الحس والعقـــل قوة على قوة ، ويصبح الانسان ذهنــاً ، حراً ، كالبدوي الرحال الذي يمسي شبيهـاً له ، ولكنه يكون أضيق أفقاً من البدوي وأشد برودة منه . فالذهن هو الشكل الحضري الخاص للوعي اليقظ المدرك . ورويداً رويداً ، يتعقلن ، [1] كل فن ودين وعلم ، ويصبح غريبـــاً عن التربة ومستعصياً على ادراك الفلاح . فالمدنية يبدأ طور حرج وخطر من أطوار الحياة. فجذور الكينونة الغارقة في القدم تجفـوتيبس في كتل حجارة مدنها ، ويبـــدو الذهن الحر (وهذه كلمة مشؤومة خطيرة) كأنه اللهب يتصاعد بروعة وجلال في الهواء ثم يخبو وينطفىء على صورة يرثى لها .

---

١ – يصبح عقلانياً .

- ٣ -

ان النفس الجديدة للمدنية تتحدث بلغة جديدة ، لغة سرعان مـا تصبـح مماثلة للغة الحضارة نفسها . أما التربة الطليقة المفتوحة بنوع انسانها القروي فانهـا قد جُرحت ، ولم تعـد بقادرة على فهم تلك اللغة ، فهي مرتبكة بكماء حائرة . ان كل اسلوب تاريخ اصيل انما يستنزف طاقاته في المدن . ان مصير المدنية وخبرة الانسان المتحضر فقط هما اللذان يتحدثان الى العين بمنطق الاشكال المنظورة . ان ابكر الاساليب الغوطية كان لا يزال نماء جادت به التربة ، نماء سيطر على المنزل الريفي بكل ما فيه من سكان وما له من محتويات . ولكن اسلوب عصر النهضة أينع وازدهر في مدنية عصر النهضة فقط ، كما وان الاسلوب البـاروكي أخصب واينع في المدينة الباروكية فقط ،ناهيك بالعمود الكورنثي أو الروكوكو،اللذين هما المجازان من المجازات المدن العظمى . وربما تسرب بهدوء وصمت بعض من هذه الاشياء الى الريف ، لكن الارض ذاتها لم تعد قادرة على الاتيان بأقل المجهودات الابداعية ، وكانت الكراهية الخرساء هي كل ما تستطيعه . ولقـد بقي الفلاح ومسكنه في كامل جوهريهما غوطيين ، ومنزله لا يزال غوطياً حتى هـذا اليوم .. زد على ذلك ان الريف الهيليني احتفظ بالاسلوب الهندسي ، كما حافظت القرية المصرية على سحنة المملكة القديمة .

ان تعبير 'محيا المدينة هو الذي يملك تاريخاً قبل كل شيء آخر . وحركات تعبير هذا المحيا هو فعلاً التاريخ الروحي للحضارة ذاتها تقريباً . ويصادفنا اول ما

يصادفنا المدن الاولية الصغيرة ، مدن الحضارة القوطية وغيرها من الحضارات المبكرة زمناً ، هذه المدن التي تذيب معالمها في الريف ، في الصقع ، والتي لا تزال تتألف من مساكن فلاحين أصيلة تتجمهر تحت ظلال قلعة أو معبد ، وتمسي ، دون أن يطرأ عليها أي تبدل باطني ، مساكن بلدة ، وذلك فقط ، وفق المفهوم القائل بأنه قد أصبح لهذه المساكن مساكن مجاورة لها وتحيط بها بدلاً من الحقول والمروج .

فشعوب الحضارة المبكرة زمناً تحولت تدريجياً الى شعوب بلدة ، ووفقاً لهذا لم يعد هناك فقط اشكال بلدات صينية وهندية وأبولونية وفاوستية بميزة خاصة ، بل انما أصبح هناك علاوة على ذلك سيماءات بلدات أرمنية وسورية وايونية واترسكانية والمانية وفرنسية وانجليزية فهناك مدينة فيدياس ومدينة رمبراندت ومدينة لوثر . وهذه التسميات بالاضافة الى مجرد أسماء غرناطة والبندقية ونورينبرغ ، انما تستحضر فوراً صوراً معينة ومحدودة تماماً ، لان كل ما تنتجه الحضارة في ميادين الدين والفن والمعرفة، انما يجري وجرى انتاجه في مدن كهذه فبينما كانت روح فرسان الحصون والاديرة الريفية لا تزال الروح التي استثارت الصليبين ، فان عصر الاصلاح الديني ، هو عصر حضري ، عصر ينتمي الى الطرق الضيقة والمساكن ذات السقوف الهرمية الرافقة الانحدار . والملاحم العظمى التي تتحدث وتتغنى بالدم ، انما تنتمي الى البلاط Pfalz والقلعة Burg ، أما الدراما حيث تمتحن الحياة المستيقظة نفسها ، فهي شعر مدينة ، كما وان الرواية العظمى ، حيث يقوم العقل المحرر بمعاينة كل شيء بشري ، فانها لتدل على المدينة العالمية . والشعر الغنائي الوحيد ، ما عدا الاغاني الشعبية الصادقة الاصالة ، هو غنائية المدينة فقط ، وما خلا فن الفلاح « الخالد » هناك فقط تصوير زيتي حضري وهندسة معمارية حضرية ذات تاريخ سريع العبور سريع النهاية .

وهذه السحنات الحجرية التي دمجت في عالم نورها انسانية المواطن نفسه ، وهي مثله ، أي أنها كلها عين وذهن ، فبأية لغة شكل واضحة مختلفة تتحدث ، وبالاختلافها عن لغة الصقع الساذجة البطيئة النبرات ! وصورة ظل Silhouette المدينة العظمى ،

بسطوحها ومداخنها وبروجها وقبابها المرتسمة على الافق ! وأية لغة تذيعها لنا نظرة واحدة نلقي بهـــا على نورنبرغ او فلورنسا أو دمشق أو موسكو أو بكين أو باريس ! ومـــا الذي نعرفه عن المدن الكلاسيكية ، نظراً الى أننــا لا نعرف الخطوط التي تعرضها هذه تحت ضيــاء ظهيرة الجنوب ، وتحت الغيوم في الصباح ، وتحت سماء ليل رصعته النجوم ؟ فأنمـاط الطرق المستقيمة أو المتلوية ، العريضة او الضيقة ، المساكن الخفيضة أو الشامخة ، الزاهية أو المعتمة ، والتي تدير لنــا في كل المدن الغربية واجهاتها ، وجوهها ، وتعطينا في المدن الشرقية ظهورهــا ، والجدار الابيض ، وسور المنزل باتجاه الطريق ، وروح الساحات والزوايا والطرق المسدودة والمنـــاظر والينابيـع والأنصاب التذكارية والكنائس او الهياكل أو المساجد أو المسارح المدرجة ومحطـات سكك الحديد والاسواق وقاعات البلدة ! والضواحي ايضاً ، الضواحي المرصعة بالداوات المحاطة بالحدائق والجنائن ، أو المكتظة بخليط من بنايات موزعة الى شقق ، بنايات كأنها حشود نفايات وحصص . والأحياء من عصرية ، وحقيرة وبيئة ، وضواحي روما الكلاسيكية ، وضاحية فوبورغ سانت جرمان في باريس ، وبايي Baiae (١) الغـــابرة ومدينة نيس العصرية ، وصورة البلدة الصغيرة كبروجس Bruges (٢) وروتنبورغ ، وذلك البحر من المساكن كمدن بابل ، وتنوشتلان ورومـا ولندن ! كل هذه لهـــا تاريخ وهي تاريخ . ويكفي لحادثة سياسية عظمى أن تمر باحدى المدن كي تجعل من وجهها ذي قسمات مختلفة . فنابليون أعطى باريس البوبونية سحنة جديدة ، كما وأعطى بسمارك برلين الصغيرة الوجيهة طلعة جديدة ، لكن الريف ينتصب بعيداً عن كل مؤثر ، مرتاباً منفعلاً مهتاجاً .

وفي أقدم الأزمان كان منظر الصقع هو وحده الذي يسيطر على عين الانسان.

---

١ – منتجع كان يرتاده سكان روما القديمة

٢ – تقع في بلجيكا (المترجم)

فهو يعطي نفس الانسان شكلاً ويهتز متناغماً معهـــا . فالمشاعر وحفيف الغابات والاحراج تتناغم معاً، والمروج والروابي تنسق ذواتها لتتلاءم وهيئة الصقع وبجراه وحتى لبـــاسه . والقرية بسطوحها التلالية الصامتة ، وبدخانها عند الغروب ، وبينابيعها وآبارها وسياجاتها النباتية تسام معانقة الصقع وتذوب كلياً في أحضانه . ان البلدة الريفية تؤكد الريف ، وهي تكشف لمنظر الريف وصورته . والمدينة المتـــأخرة زمناً هي أول من يتحدى الريف ويناقض الطبيعة بخطوط صورة ظلها وتنكر الطبيعة بكل مـا فيها . فهي تريد أن تكون شيئاً ما مختلفاً عن الطبيعة وأرقى منهـــا . فذرى تلك السقوف الهرمية ، وتلك القباب والمسلات والبروج الباروكية لا ترتبط ولا ترغب في ان تكون لهـا أية صلة باي شيء من الطبيعة . وهنا تولد المدينة الجبارة العملاقة ، المدينة بوصفها عالماً ، والتي لا تجيز أي شيء ما عدا وجودهـا ، وتنطلق لتدمر ولتمحو صورة الريف . والبلدة التي كانت في احد الايام تلائم بتواضع بين ذاتها وبين الريف ، تصر الآن من ان تكون هي نفسها . ويمسي ما خارج الاسوار من غابات ومراع ومرو حدائق عامة ، وتصبح الجبال مشاهد ومطلات للسواح ، وينشأ داخل الاسوار تقليد للطبيعة ، فنوافير المياه تحل محل العيون والينابيع ، وتخلي المروج والغدران والبحيرات والادغـــال والايك أماكنها لاحواض الزهور وبرك السباحة والوشيع المعلم . فالسطوح ذات الروافد في القرية لا تزال شبيهة بالتلال ، وطرقهـــا تتماثل طبيعة والممرات الترابية بين الحقول . ولكن هنـا وفي المدينة فان الصورة تبدي أفاجيج عميقة تشق مسالكها بين مساكن حجرية عـالية ، مساكن يملأها غبـار ملون وضوضاء غريبة ، وبشر يسكنونها ، بشر لم يخطر أبداً على بال أي كائن من كائنات الطبيعة ، فهنـا تعتمد الازياء وحتى الوجوه الحجر نموذجاً لهـا ، ويلاءم بينها وبين صورته . وتنطلق في النهـار حركة مرور ذات الوان واصوات غريبة ، ويشع في الليل ضيـــاء جديد يكسف ضياء القمر ، ويقف الفلاح على الرصيف عـاجزاً عديم الحيلة لا يفهم شيئاً مما يشهد ويرى ولا يفهمه أي انسان ، والمدينة تتسامح معه وتحتمله لانه نموذج من حشوة نافعة ، ومورد الخبز اليومي لهذا العالم .

وعلى كل حال ، ونتيجة لما تقدم، (وما يأتي هو أهم نقطة في الموضوع واكثفها جوهراً) ، أقول بأننا لا نستطيع اطلاقاً ان نفهم التاريخ السياسي والاقتصادي ، الا اذا ادركنا ان المدينة بانفصالها التدريجي عن الريف وتقليصها النهائي له ، انما هي الشكل البات الحاسم الذي ينطبق عليه ويتوافق معه ، بصورة عامة ، مجرى التاريخ الارقى ومفهومه . فتاريخ العالم هو تاريخ المدينة .

ومن البدهي أن أوضح مثال على مـا ذكرت هو العالم الكلاسيكي حيث كان الشعور البوقليدي بالوجود يربط فكرة المدينة بحاجتهـا الى اختزال الامتداد وتقليصه ، وبهذا كان يثبت ، بتأكيد والحاح متزايدين ، هوية الدولة بالحجم الحجري للمدينة الافرادية . ولكن ، وبعيداً تماماً عن هذا المثال ، نجد (سرعان مـا نجد) في كل حضارة نموذج المدينة العاصمة . وهذه المدينة ، كما يشير اسمها بوضوح ، هي تلك المدينة التي تسيطر روحها ، بما لها من وسائل ومناهج ومقاصد وقرارات سياسية واقتصادية ، على الريف بسكانه ، هو مجرد اداة ومادة في نظر هذه الروح المهيمنة . والريف لا يفهم ما يجري ويدور من أحداث وأمور ، ولا يُسأل حتى عن رأيه في ذلك . فـالاحزاب الكبرى والثورات والقيصريات والديموقراطيات والبرلمانات في جميع بلدان الحضارات المتأخرة زمناً ، هي الاشكال التي تتحدث من خلالها روح العاصمة ، الى الريف وتحدد له ما ينتظر منه ، وتطالبه بالتضحية بحياته اذا مـا طلبت اليه مثل هذه التضحية . فالفوروم [1] الكلاسيكي والصحافة الغربية هي الاجهزة الفكرية للمدينة الحـاكمة . وان أيـاً من سكان الريف الذي يفهم حقاً مغزى السياسة ومفهومها في مراحل زمنية كهذه ، ويشعر بذاته أنه على هذا المستوى ، فانه يهاجر الى المدينة ، ومن الجـائز أن لا يهاجر بجسده ، ولكنه سيهاجر أكيداً بروحه اليهـا . زد على ذلك ان عاطفة الريف والرأي العـام فيه يجري توجيهه بواسطة مـا تصدر اليه المدينة من مطبوعات وخطب. فمصر هي مدينة طيبة، و Orbis Terrarum هي مدينة روما والاسلام

١ - ساحات الخطابة .

هو بغداد وفرنسا هي باريس . ان تاريخ كل حقبة وبيعية ينشأ في العديد من المراكز الصغيرة لمنـــاطق متفرقة كثيرة فالاقاليم المصرية وشعوب هوميروس الاغريقية ، والمقاطعات الغوطية والمدن الحرة ، كل هذه كانت من صناع التاريخ منذ القديم . لكن السياسة تأخذ تدريجيـاً بحشد نفسها داخل عواصم جد قليلة ، ولا يحتفظ أي مكان او شيء آخر سوى تلك العواصم ، بغير بعض من ظل من الوجود السياسي . زد على ذلك أن نازع التفتيت في العالم الكلاسيكي الى جعل كل مدينة من مدنه دولة ، لم يستطـع أن يصمد في وجه الحركات الرئيسة . فخلال الحرب البلوبونيزية انفردت أثينا واسبرطة بمعالجة القضايا السياسية ، ولم تكن بقية مدن إيجيه اكثر من مجرد مناطق نفوذ لهذه أو تلك ، ولم يعد لهـا سياسات خاصة بها . وأخيراً فـــان فوروم مدينة روما وحده مسرح التاريخ الكلاسيكي . فقد يحارب قيصر في بلاد الغال ، وقد يجـــاهد قتلته في مقدونيا ويناضل انطونيو في مصر ، ولكن جميـع ما يحدث في هذه الميادين ، وكل حادثة تشهدها انما تكتسب مفهومها ومغزاها من علاقتها بمدينة روما .

- ٤ -

إن كل تاريخ ذي أثر وفعال يبدأ بالطبقتين الاوليتين وهما طبقة النبلاء وطبقة الكهنوت ، حيث تشكل هاتان الطبقتان ذاتيهما وترتفع بها ، على هـذا النحو ، فوق طبقة الفلاحين . وان التصادم بين طبقة النبلاء في شقيها الارقى ومـا دونه ، بـين الملك والسيد الاقطاعي ، بين السلطة الزمنية وبين السلطة الروحيـة ، هو الشكل الأساسي لجميـع السياسات البدائية أهوميروسية كانت أم صينية أم غوطية ، وتبقى هذه القاعدة سارية المفعول حتى تطل المدينة ببنائها (نائب في مجلس الأمة)

وتمر بطبقة ثالثة ، وهنا يبدل التاريخ اسلوبه . ولكن كامل معنى التاريخ يلتصق بهذه الطبقات وحدها وبوعيها الطبقي . أما القرية فانها تقف خارج دائرة تاريخ العالم ، وكل تطور ، ابتداء من الحروب الطروادية وانتهاء بحروب مثرا[1]، ومن الاباطرة السكسونيين حتى الحرب العالمية (الاولى - المترجم) لما يمر بهذه النقاط الصغيرة المنتشرة فوق الاصقاع بدمرها حيناً ويستنزف دماءها احيانا ، لكنه لا يلامس ابداً باطنها اقل ملابسة .

إن الفلاح لانسان خالد مستقل عن كل حضارة تختفي ذاتها داخل المدن ، وهو يتقدم الحضارة زمناً ويعمر أطول مما تعمر ، وهو مخلوق أخرس يتوالد جيلاً فجيلاً وقد ارتبط بالتربة ونداءاتها واستعداداتها ، انه روح غامضة وفهم جاف فطين أريب يلتصق بالأمور العملية ، وأصل وينبوع دم دائم التدفق يصنع تاريخ العالم داخل المدن .

ويتقبل الفلاح كل ما تحمل به الحضارة وتصوره في اشكال الدولة من اقتصاد وأزياء ووسائل ايمان وأدوات ومعرفة وفن ، أقول يتقبل كل هذا بارتياب وتردد، بالرغم من أنه في النهاية قد يقبل بهذه الاشياء ، غير أنه لا يتبدل أبداً نوعاً بواسطتها .

وهكذا فان فلاح أوروبا الغربية تقبل ظاهراً جميع عقائد المجامع ابتداءً من مجمع لاتيران العظيم حتى مجمع ترنت ، وجاء تقبله هذا لها بالطريقة ذاتها التي تقبل بها ثمرات الهندسة الميكانيكية والثورة الفرنسية، لكنه مع هذا يبقى ما كانه وما قد كانه في عصر شارلمان .

وان تدين الفلاح وورعه الحاليين لها أقدم من المسيحية زمناً ، وآلهته لأقدم من أي اله في اي دين أرقى . وأنت اذا ما أزحت عن منكبيه ضغط المدن الكبرى ، فعندئذ سيعود الى الطبيعة وحالها دون أن يشعر بأنه قد فقد أي شيء بعودته هذه . زد على ذلك أن اخلاقيته الحقيقية وميتافيزيقاه الصحيحة اللتين لم

---

١ - مثرا ، اله الشمس عند الفرس .

يفكر أي عالم حتى هذا اليوم انهما جديرتان بالاكتشاف ، انما تقعان خارج نطاق كل تاريخ ديني وروحي ، وليس لهما فعلاً أي تاريخ اطلاقاً .

إن المدينة هي ذهن ، وأما المدينة العالمية العظمى فهي ذهن «حر» . وتبـدأ الطبقة المفكرة ، طبقة سكان المدينة ، الطبقة البورجوازية ، من خلال مقاومتهـــا لطاقات الدم والتقاليد «الاقطاعية» بوعي وجودها الخاص المنفصل .

وهـــذه الطبقة تقلب العروش وتجد من الحقوق القديمـة باسم العقل وباسم «الشعب» قبل كل شيء ، هذا الشعب الذي يعني منذ ذلك الحين فصـاعداً سكان المدينة وحدهم فقط .

ومـا الديمقراطية سوى الشكل السياسي لنظرة ابن المدينة الى العالم ، هـذه النظرة التي يطالب الفلاحون بأن تكون نظرتهم ايضا . زد على ذلك ان الذهن المتحضر يصلح الأديان العظمى ، أديان ربيـع الحضارة ، ويضع الى جانب الدين القديم ، دين النبلاء والكهنة . الدين الجديد ، دين الطبقة الثالثة ، وأعني بهـذا العلم الليبرالي .. وهنا تتولى المدينة أزمة قيادة التاريـخ والسيطرة عليه ، وذلك بواسطة استبدالها القيم البدائية للارض التي لا يمكن ابداً الفصل بينهـا وبين حياة القروي وفكره، بفكرة النقود المطلقة في سلطانها بوصفها مميزة ومختلفة عن السلع ، فالكلمة الريفية الغارقة في القدم والمرادفة لكلمة تبادل السلع ، هي كلمة المقايضة . وحتى حينما كانت تتناول عملية التبادل ، مبادلة سلعة ما بمعدن ثمين فان الفكـرة الكامنة وراء هذه العملية لم تصبح بعد فكرة نقدية (نقودية) وأعني بهذا انهـا لا تشتمل على تجريد الاشياء من القيمة وتحديد القيمة بكميات معدنية أو خيالية يقصد بها قياس الاشياء بوصفها «سلعاً» . فبعثـات القوافل ورحلات الفيكنغ كانت تجري في ربيـع الحضـــارة بين مستوطنات ريفية وكانت تعني المقايضة أو الاسلوب ، بينا أمست هذه الرحلات والقوافل في المرحلة المتأخرة زمناً تتنقل بين المدن وتستهدف النقود . وهذا هو الفرق بين النورمان مـا قبل الحروب الصليبية وبين مدن الهنسا وأهل البندقية ما بعدها ، كما وهو الفرق ايضاً بين جوابي البحار

في العصور السينية وبين اولئك النـــاس الذين عرفتهم حقبة الاستعمار فيما بعد في اليونان . ان المدينة لا تعني فقط أنها ذهن بل تعني أنها نقود أيضاً .

وسرعان مـا تطل حقبة يبلغ خلالها تطور المدينة ذاك المركز من القوة بحيث لا يعود فيه مضطر للدفاع عن نفسه ضد الريف والفروسية ، بل تمسي حـاله على العكس من ذلك تاماً ، اذ أنه يغدو طغيانـاً يخوض ضده الريف وأنظمة مجتمعه الأساسية غمار معركة دفاعية لا رجاء فيها أو أمل ، وهنا نرى الريف يحارب المدينة في ميادين ثلاثة ، فهو في الميدان الروحي يناضل ضد القومية ، وفي الميدان السياسي يقاتل الديمقراطية ، وفي الميدان الاقتصادي يجاهد النقود .

وقد أمسى الآن ، وفي هذه المرحلة ، عدد المدن التي تعتبر بحق ذات سيطرة ونفوذ تاريخيين جد قليل . وبهذا نشأ ، فرق جد عميق ، وهو فرق روحي قبل كل شيء آخر ، فرق بين المدينة العظمى وبين المدينـــة الصغيرة أي البلدة . وهذه الأخيرة التي تسمى بالبلدة الريفية ، ولتسميتها هذه مغزى جد عميق ، كانت جزءاً من ريف لم يعد في حـال من تكافؤ . والواقع أن الفرق لم يتقلص بين ابن البلدة والقروي في بلدان كهذه ، بل انمـــا أصبح هذا الفرق زهيداً لا يؤبه به اذا ما قورن بينه وبين الفرق الجديد بين هذين الانسانين وبين المدينة العظمى . فدهاء الريف الماكر وذكاء المدينة العظمى هما شكلان للوعي اليقظ ، ومن النادر امكان قيام فهم مشترك بينهما . وهنا يبدو ثانية وبوضوح أن العبرة ليست في عدد السكان بل انما هي في الروح .

وفضلاً عن ذلك ، فـــانه لمن الواضح أن هناك آثاراً من زوايا في جميع المدن العظمى لا تزال قـائمة حيث كان يعيش فيها جنس بشري من النوع الريفي تقريباً ويمـارسون حياتهم كأنهم يعيشون في الريف ، وتبدو العلاقة التي كانت تربط بين الناس الذين كانوا يسكنون على جانبي الطريق مماثلة تقريباً للعلاقة القائمة بين قريتين . والحق ، أن هناك اهراماً متصاعداً من المواطنية يتناقص عدداً ويتزايد اتساعاً في مجال نظره ، ويتدرج من عناصر شبه ريفية تدرجاً تزداد دائمـاً معه درجاته ضيقاً

فتصبح متــألفة من عدد جد قليل من سكان المدن الاصلاء الذين يتربعون على قمته ويحسون أنهم في مواطنهم وبين أهليهم وذويهم حيثما يشعرون برضـــاء افتراضاتهم الروحية وشبعها .

وبهذا يصبح تصور النقود تصوراً تجريديــاً كاملاً . فلا تعود النقود تسهل فهم المعاملة الاقتصادية وتخدمه ، بل انمــا تخضع تبادل السلع لتقييمها الخاص . وهي لا تعود تقيم الاشياء معادلة بينها ، بل انما تقيمها بالنسبة الى ذاتها (النقود) . زد على ذلك أن علاقتها بالتربة ، وبانسـان التربة ، قد تلاشت واختفت تمامــاً حتى ذاك الحد الذي أصبح معه الفكر الاقتصادي للمدن القيادية ، للاسواق المالية ، بتجاهلها لا بل يجهلها ويرفض الاعتراف بهــا . فالنقود قد أصبحت الآن قوة ، وعلاوة على ذلك قوة ذهنية مظهراً وجوهراً ، قوة لا تفهم الا بواسطة المعدن الذي تستخدمه ، قوة تكمن حقيقتها في الوعي اليقظ للطبقة العليـــا من سكان ينشطون اقتصادياً ، قوة تجعل اولئك النـــاس الذين يهتمون بأمرها ، يعتمدون عليها اعتماد الفلاح على الارض ، وكما ان هناك فكراً رياضياً وآخر قانونيا ، كذلك فان هناك ايضاً فكراً نقودياً .

ولكن الارض هي شيء واقعي وطبيعي ، أما النقود فهي شيء مجرد معنوي واصطناعي ، انهـــا مجرد « مرتبة » « كالفضيلة » في مفهوم مخيلة عصر التنوير . ولذلك فان كل اقتصاد أولي لمــا قبل التمدن هو أسير القوى الكونية اذ انه يعتمد على التربة والطقس ونوع الانسان ، بينما أن النقود ، بوصفها الشكل المجرد للمعاملة الاقتصادية داخل الوعي اليقظ ، لا تريد الواقعة من محدوديتها داخل الدائرة المحتملة اكثر من محدودية كميات العالم الرياضي والمنطقي . وكما أنه ليست هناك أية نظرة الى الحقائق تستطيـع ان تمنعنا من انشاء أي عدد نريده من الهندسات اللااوقليدية ، كذلك فانه لا يوجد أي اعتراض فطري وملازم في « اقتصادات » المدن العظمى المتطورة ، يحول بيننا وبين زيادة عدد النقود وانواعها ، أو التفكير ، مثلا ، بأبعاد Dimensions نقودية أخرى . وهذا الأمر لا يمت بـأية صلة بامكانية نيل الذهب

والانتفاع به ، أو بأية قيمة واقعية اطلاقاً . وليس هناك من قياس ولا أي نوع من السلع بحيث نستطيع بواسطتها أن نقارن قيمة الوزنة (وزنة من ذهب او فضة) في الحروب الفارسية بقيمتها من أسلاب بومبـاي المصرية . لقد أصبحت النقود ، بالنسبة الى الانسان ، كأنهـا حيوان اقتصادي ، وأمست شكلاً لنشاط الوعي اليقظ ، ولم يعد لها أية جذور في تربة الكينونة .

وهذا هو قاعدة قوتها الهـائلة المريعة وأساسها ودستور سلطانها على فاتحة كل مدينة ، هذا السلطان الذي يمثل دائمـاً دكتاتورية النقود المطلقة ، بالرغم من أنه يتخذ اشكالاً مختلفة في الحضارات المختلفة . ولكن هذا هو ايضاً سبب افتقارها الى الصلابة والتماسك والثبات ، وهو الذي يدفع بهـا أخيراً الى فقدانهـا لسلطانها ومعناها ، حيث تختفي في النهـاية ، كما حدث في أيام ديوكلتسيان ، وتغيب عن فكر المدينة في دورها الختامي ، وتعود قيم التربة الأولية لتحل محلها من جديد .

وأخيراً يطل الرمز الهائل المريع للعقل المحرر تحريراً كاملاً ، وتتبدى أشرعة سفينته في الافق ، انه المدينة العالمية ، المركز الذي ينتهي فيه مجرى تاريخ العـالم ويصفي نفسه بنفسه . وتطالعنا في كل مدينة أماكن عملاقة جبارة لا يتجاوز عددها عدد اصابع اليد الواحدة ، فتقدم هذه على حرمان كامل الارض الأم من حقوقها وتبخس قيمة حضارتها الخـاصة بهـا بتسميتها بذاك الأسم المهين « الاقاليم » لقد أصبح الآن كل شيء ، مهما كان حجمه أو نوعه ، أأرضاً كان أم بلدة أم مدينة ، « اقليماً » ما عدا هاتين النقطتين أو الثلاث . ولم يعد هناك من نبيل أو برجوازي، من حر أو عبد ، من هيليني أو بربري ، من مؤمن أو كافر ، بل انمـا هناك فقط سكان المدن العالمية Cosmopolitans وسكان الاقاليم . وكل ما هناك من تباين آخر ، انما يذوي ويشحب لونه أمام ذاك التباين (المذكور آنفا) والذي يسيطر على كل الحادثات وعادات الحياة والنظرات الى العالم .

إن أقدم المدن العالمية هي بابل وطيبة المملكة الجديدة ، أمـا عالم كريت المنوائي ، فمع كل ما عرفه من سناء وأبهة وجلال ، فانهـا ينتمي الى « الأقاليم » المصرية . امـا في العالم الكلاسيكي فجاءت الاسكندرية لتكون أول مثال على

المدن العالمية ، وقد استطاعت هذه المدينة أن تهوي بضربة واحدة ببلاد اليونان الى مستوى الاقليم ، ولم تستطع حتى روما ولا حتى قرطجنة التي استتب لها الأمر من جديد ، ولا حتى بيزنطة أن تخضع الاسكندرية أو تكشف ضياءها .

وفي الهند كانت المدينتان العملاقتان اوجينا Ujjainu وكانوج Kanauj وخاصة مدينة باتاليوترا Pataliputra ذائعة الصيت حتى في الصين وجزيرة جاوى ، وليس هناك من انسان لا يعرف بالمركز الاسطوري الذي كانت تحتله بغداد في الشرق وغرناطة في الغرب . أما في العالم المكسيكي فإن مدينة اوكسمال Uxmal (أسست عام ٩٥٠) كانت على ما يبدو أول مدينة عالمية في دولة المايا ، غير أن هذه المدينة هوت الى مستوى الأقاليم عندما برزت المدينتان العالميتان التولتكيتان Toltec ،مدينتا تزكوكو Tezcuco وتنوشتتلان Tenochtitlan، الى الوجود .

وعلينا ألا ننسى أن كلمة إقليم ظهرت أول ما ظهرت كتسمية دستورية أطلقها الرومان على جزيرة صقلية .والحق ان اخضاع صقلية لهو أول مثال يشير الى هبوط حضارة صقع كانت فيا مضى رفيعة الشأن متفوقة الى ذاك الحد الذي اصبحت معه مجرد شيء أو مادة فقط . أمـا سيراكوس ، وهي أول مدينة عالمية في العـــالم الكلاسيكي ، فانها كانت في أوج ازدهارها عندما كانت روما لا تزال مدينـــة ريفية ، لكنها أمست فيا بعد أمام روما مدينة ريفية .

والى هذا ايضاً آل حال مدريد الهسبورجية وروما البابوية، هاتين المدينتين اللتين احتلتا مركز القيادة في اوروبا في القرن السابع عشر ،لكن ما كاد القرن الثامن عشر يطل على القارة الاوروبية حتى هبطت بها باريس ولندن الى مستوى الأقليم . زد على ذلك أن ارتفاع مدينة نيويورك خلال الحرب الأهلية (١٨٦١– ١٨٦٥) الى مصاف المدن العالمية قد يبرهن على أنه أشد الحادثات اخصابـــاً التي حملت بها أحشاء القرن التاسع عشر .

- ٥ -

إن تمثال الحجر الهائل الحجم ، أي المدينة العالمية العظمى ، ينتصب عند نهاية مجرى حياة كل حضارة عظيمة . فالانسان الحضاري الذي صنعته وشكلته الارض ، قد أمسى في قبضة انجازه الخاص وغدا ملكاً لهذا الانجاز ، ملكاً للمدينة . وقد جعل منه مخلوقاً لها وعضوها المنفذ وأمسى أخيراً ضحيتها . إن هذه الكتلة الحجرية لهي المدينة المستبدة والمطلقة السلطان . وصورتها كما تبدو بكل ما لها من جمال فخم عظيم في عالم نور العين البشرية ، إنما تحتوي على كامـــل رمزية الموت النبيلة للشيء الحتمي في الصير . فالحجر الذي كانت تتخلله الروح ، حجر المباني القوطية ، قد أصبح بعد دورة ألفية من السنين مر بها تطور أساليبه ، مادة لا روح لها لهذه الصحراء الشيطانية من الحجر .

ان هذه المدن الختامية هي بكاملها ذهن أو عقل ، ومساكنها لم تعد كما كانت تلك المساكن لايونية والباروكية ، أي اشتقاقات من مساكن بيوت الفلاحين القديمة ، وذلك حينما كانت الحضارة تعيش وبيعها في التاريخ . فهذه المساكن لم تعد بصورة عامة مساكن تيسر أي نوع من موطىء قدم لفستا وجانوس ، للاريس وبنيتس Penates [1] ، بل انها أصبحت مجرد عقارات لم يصممها الدم ، بل صممتها متطلبات العيش ، ولم يخططها الشعور ، بل انما خططتها روح المشروع التجاري . وطالما يبقى الموقد (المنزلي) معنى من تقى وورع ، بوصفه مركزاً واقعياً وأصيلاً

---

١ – فستا إلهة الموقد جانوس إله الأبواب والبوابات ، وهو لذلك إله كل بداية ، لاريس وبنيتس ، الهة التدبير المنزلي .

(المترجم)

تلتف حوله العائلة ، فعندئذ يكون ضياء العلاقة القديمة بالتربة لم يخبُ تماماً. ولكن عندما يتبع ايضاً الموقد ما تبقى فيغيب في غياهب النسيان ، وعندما يعيش المستأجرون وشاغلو الأسرة في ذاك الخضم من المنازل ، وجوداً زائلاً مشرداً فيتنقلون من ملجأ الى ملجأ كأنهم الصيادون وقسس الأزمنة السالفة ، فعندئذ يكون البدوي الرحال المفكر Intellectual قد بلغ آخر مراحل تطوره. إن هذه المدينة هي عالم ، لا بل إنها العالم ، وهي لها معنى ككل بوصفها فقط مكاناً لسكنى البشر ، أما مساكنها فهي مجرد حجارة جرى تجميع المدينة منها .

والآن تبدأ المدن الناضجة القديمة ، بنواة الكاتدرائية القوطية ودور بلدياتها ، وطرقها ذات السقوف الهرمية الشامخة ، وبجدرانها العتيقة وابراجها وبواباتها المحاطة بناء من مساكن الطبقة الثرية ، مساكن وقصور وقاعات كنائس هي أكثر تألقاً وتأنقاً ، أقول تبدأ هذه المدن بالتدفق في كل اتجاه ، ويجيء تدفقها هذا على صورة من كتل لا شكل لهـا ، وتأخذ بالتهام الريف الآخذ بالانحلال ، وتأتي عليه بمساكنها المائلة المتكنات وبمبانيها ذات النفع العام ، وتباشر في تدمير المنظر النبيل للزمن العتيق وذلك بواسطة الهدم واعادة البناء . ونحن اذا مـا القينا بنظرة من قمة أحد الابراج القديمة على ذاك الخضم من المساكن ندرك من خلال تحجر كائن تاريخي الحقبة الحقيقية التي تشير الى نهاية نماء متعض وبداية حقبة لا متعضية ، ولذا فـما يجري، انما هو عملية من تكتيل لا يكبح لها جماح وتجميع لا حدود له . ويتبدى لنا الآن ايضـاً ذاك النتاج المصطنع والرياضي والغريب تماماً عن التربة ، نتـاج الرضاء الذهني بالملائم والمناسب ، واعني به مدينة مهندس المدينة . وهذه المدن في كل المدنيات على حد سواء ، والتي جل ما تقصده هو ان تستوي وشكل رقعة الشطرنج ، انما تمثل رمزاً لمـا لا نفس له . ولقد اذهلت عمارات بابل المنتظمة في زواياها القائمة ، هيرودوت ، وهذا ما حدث ايضـاً لكورتيز وهو يشاهد مدينة ينوشتتلان . أما في العالم الكلاسيكي فان اول سلسلة من المدن « التجريدية » تبدأ بمدينة « ثوري » Thurii التي « وضع تصميمهـا » هيوداموس المايلتسي Hippodamus of Miletus عام ٤٤١ . زد على ذلك « برين » التي يتجاهل

مخطط رقعة شطرنجها مرتفعات المكان ومنخفضاته ، ومن ثم تتبع هذه مدينتـــا رودوس والاسكندرية واللتان تصبحـــان بدورهما مدينتين اقليميتين في العصر الامبراطوري . ولقد قام المهندسون المسلمون ببناء مدينة بغداد عام ٧٦٢ وتشييد مدينة سامراء العملاقة بعد تلك بقرن من الزمن ، وقاموا بعملهم هـــذا وفق مخطط .

أما في عالم اوروبا الغربية واميركا فان شكل مدينة واشنطن الهندسي هو لأول مثال ضخم . وليس هناك من شك في أن المدن العالمية في الصين وفي عصور الهان، بالاضافة الى مثيلاتها من المدن الهندية في عصور أسرة الموريا Maurya كان لهـا النموذج الهندسي ذاته . لكن المدن العالمية للمدنية الغربية لا تزال حتى الآن بعيدة عن ذروة تطورها كل البعد . وانني لأرى بعين الخيال ، ما بعد عام الألفين ب م، مدناً صممت لسكنى عدد من البشر يتراوح بين العشرة والعشرين مليوناً ، مدناً تنتشر فوق مساحات هـــائلة الاتساع من الريف ، وذات بنايات ستجعل اضخم العمارات التي نعرفها تبدو أمامها كما يبدو القزم امام عملاق ، ووسائل مواصلات وحركة سير سنراها تتجاوز الخيال الى الجنون .

ويبقى شكل المثل الأعلى للانسان الكلاسيكي ، حتى في هذا الشكل النهائي لكينونته ، النقطة الجسمية . فبينما نحن نرى مدننا العملاقة الحـالية تعتوف بنازعنا الى اللانهائي ، هذا النازع الذي لا يكبح له جماح ، ونرى أحياءنا ومدننا المسورة بالحدائق تغزو الريف الواسع ، ونشاهد شبكات طرقنـا الوفيرة الشاملة ، ونشهد في المساحات الكثيفة المبـاني حركة مرور سريعة منتظمة تسير على وفوق الطرق العريضة، المستقيمة وتحتها، أقول بينما نرى كل هذا، نرى المدن العالمية الكلاسيكية تجاهد وتناضل لا بغية الاتساع والامتداد ، انمـــا بغية التكثف ، فطرقها ضيقة مغلولة يستحيل عليها أن تيسر حركة مرور سريعة (بالرغم من أن هذه الحركة قد عولجت علاجاً شافياً بواسطة الطرق الرومانية الكبرى) ونشعر ايضـاً برفض كامل للسكنى في الضواحي ، أو حتى جعل قيام الضواحي أمرا ممكنا . وحتى في تلك المرحلة كانت المدينة ملزمة بأن تكون حجماً، وحجماً كثيفاً مستديراً بكل

ما لهاتين الكلمتين من معنى. فعامل الاجتماع الذي دفع تدريجياً بسكان الارياف ، في العصور الكلاسيكية المبكرة الى المدن وأوجد نموذجاً للمدينة الكبرى ، قد كرر أخيراً ذاته على شكل شاذ غريب ، اذ ان كل انسان كان يريد ان يسكن في وسط المدينة ، وفي أشد أحيائها كثافة ، والا فأنه لن يكون بمستطاعه ان يشعر بأنه الرجل المتحضر الذي كانه . ان جميع هذه المدن هي مجرد قرى « باطنية » « داخلية » . وعامل الاجتماع الجديد قد أوجد بدلاً من مناطق الضواحي ، عالماً من طبقات المساكن العليا .

وقد بلغ محيط دائرة مدينة روما عام ٧٤ ، وبالرغم من عدد سكانها الهائل ، ١٩ كيلو متراً ونصف ، وهذا والحق لمحيط تافه في صغره . ونتيجة لما ذكرت ، كانت أحجام المدن لا تمتد عرضاً ، بل تزداد يوماً بعد آخر ارتفاعاً . وكانت المساكن في عمارات روما « كانسولا » « وفليشولي » Feliculae الشهيرتين مثلاً ، ترتفع بعرض والطريق يتراوح بين الثلاثة والخمسة أمتار فقط ، وتبلغ مستوى من الارتفاع لم تشهد له أبداً اوروبا الغربية مثلاً ، مستوى لم تعرفه سوى القليل من مدن أميركا . وقد بلغت سطوح العمارات المجاورة للكابيتول مستوى سفح التلة . ولكن هذه المدن من الكتل تتستر دائماً على فقر يرثى له وعادات منحطة حقيرة ، كما وأن طبقات المساكن العليا والسقوف المنكسرة والاقبية والساحات الخلفية تلد نموذجا جديداً لانسان خام ، نموذجاً عرفته بغداد وبابل وتنوشتلان ، وتعرفه اليوم لندن وبرلين . وديودورس يحدثنا عن ملك مصري مخلوع هبطت به الحياة فسكن في أحد الطوابق العليا من تلك الطوابق المزرية البائسة التي شهدتها روما . ولكن ليس هناك من تعاسة أو حقارة ولا من ارغام ولا حتى رؤيا الجنون الصافية لهذا التطور يمكن لها أن تبطل مفعول القوة الجذابة لهذه الانجازات الشيطانية . فعجلات المصير تتدحرج وتدور حتى تبلغ منتهاها ، وولادة المدينة تستلزم موتها . فالبداية والنهاية ، وكوخ الفلاح « والشقة » في العمارة ، انما ترتبط احداها بالأخرى ارتباط النفس بالذهن ، وارتباط الدم بالحجر . ولكن « الزمان » ليس بكلمة معنوية مجردة ، بل انما هو أسم واقعة لما لا يمكن أن يقلب

اتجاهه أو بعكس .

فهنا لا يوجد الا اندفاع الى الأمام ولن يكون هناك تراجع الى الوراء أبداً . فمنذ زمن جد طويل حمل الريف البلدة الريفية وغذاها بأحسن ما في شرايينه من دم . لكن اليوم تمتص المدينة العملاقة الريف حتى الجفـاف ، وامتصاصها هذا امتصاص لا يروي ، وتطالب أبداً وتلتهم كل يوم كتلاً جديدة من البشر ، حتى يعتريها الوهن وتموت في وسط قفر بوار من الريف وخـال من السكان تقريباً . فعندما تقع ضحية ما بين مخالب هذا الجمال الفارق في الشر والأثم ، جمال آخر ما للتاريخ من أعاجيب ، فانّ هذه الاعجوبة لن تطلق أبدا سراح تلك الضحية ولن تخلي سبيلها . ان الشعوب البدائية تستطيع أن تحرر ذاتها من الارض وتجوب فيافيها رحالة جوالة ، ولكن الانسان البدوي العقلاني لا يستطيع هـذا الأمر أبداً .

فالعليل شوقه الى موطنه هو اشد من كل حنين آخر الى الوطن . والوطن في نظره هو احدى هذه المدن العملاقة ، ولكن حتى اقرب القرى اليه تعتبر بلداً غريباً عنه . وهو يفضل أن يموت على احد الأرصفة ، على ان يعود الى الريف . ولا تستطيع حتى عجرفة المدينة هذه ، وتعب ابنها وملله من البريق ذي الألف لون ولون ، ولا حتى غثيانه من الحياة ، هذا الغثيان الذي يسيطر في النهاية على نظرته الى الكثير من الاشياء ، أقول لا تستطيع كل ردود الافعال النفسانية هذه ، ان تحرره من المدينة . فهو ينقل المدينة معه الى الجبال أو الى البحر ، وهو قد فقد الريف داخل ذاته وأضاعه ، ولن يسترده أبداً من الخارج .

ان ما يجعل ربيب المدن العالمية عاجزاً عن العيش في أي مستقر آخر غير هذا المستقر المصطنع ، هو كون النبض الكوني لكينونته يعاني فتوراً يتزايد في كل حين ولحظة ، بينما تزداد توترات وعيه اليقظ خطراً يوماً بعد آخر . ويتوجب علينا أن نتذكر هنا ، أن الجانب الحيواني من الكوني الاصغر يتلو ويتبع الجانب النباتي لهذا الكائن وليس العكس بالعكس . فالفرق القائم بين النبض والتوتر ، بين الدم والذهن ، بين المصير والسببية ، هو الفرق ذاته الذي يقوم بين الريف في

فصل ازدهاره وبين مدينة الحجر ، انه الفرق بين شيء ما يمارس وجوده مستقلاً قائماً بذاته وبين شيء ما آخر لا يملك هذا الاستقلال في ممارسة وجوده . فالتوتر اذا ما حرم من خفقان نبض كوني لينتفس ويحيا ، فعندئذ يكون مرحلة انتقال الى العدم . لكن المدينة ليست سوى توتر والرأس في جميع المدنيات البارزة يسيطر عليه حصراً تعبير توتر متناه في شدته . وما الذكاء غير المقدرة على الفهم في حال من توتر عال ، وهـــذه الرؤوس في كل حضارة هي نماذج لرؤوس الدورة الختامية من البشر ، ويكفي المرء ان يقارن بينها وبين رؤوس الفلاحين ، عندما يحدث ان تظهر مثل هذه الرؤوس في دوامات حياة شوارع المدن الكبرى . زد على ذلك ان الانطلاق من حكمة الفلاح – من « النحول » ، من حصافة الأم ، من الغريزة ، المبنية على نبض الحياة المحسوس بـه حس كل حيوان آخر – خلال الروح المدنية الى الذكاء الكوسموبوليتي (وهـذه الكلمة بالذات يكشف جرسها الحاد عن اختفاء الاساس الكوني القديم) أقول ان هذا الانطلاق يمكن وضعه على انه تبلد (نقصان) شعور متزايـد بالمصير وزيادة لا يكبح لها جماح في الحاجات والاحتياجات وفق عملية السببية (العلية) .

إن الذكاء هو استبدال الحيـاة اللاواعية بممارسة الفكر ممارسة ماهرة ، لكنها ممارسة سقيمة تافهة نضبت شرايينها وأوردتها من الدم . كما وان الطلعات الذكية هي طلعات متشابهة في كل العناصر (القومية) ، والذي يكرر ذاته انما هو العنصر (القومي) . وكلما ازداد الشعور بالضرورة ، وبالكينونة الغنيـــة عن الشرح والبيان ، ضعفاً على ضعف ، تزداد معه عادة الايضـاح نماء ، ويزداد الاعتماد على الوسائل السببية (العلية) لتسكين الخوف داخل الوعي اليقظ . ومن هنا جاء تمثل المعرفة بواسطة البرهان الدامغ ، واستبدال مـــا هو ديني بالنظرية العلمية ، أي الاسطورة السببية (العلية) . ومن هنا ايضاً تبدت النقود في شكلها التجريدي ، بوصفها السببية (العلية) المجردة للحياة الاقتصادية ، في تباينهـا والمقايضة الساذجة الغشيمة التي تمثل خفقان نبض لا منهاجاً لتوترات .

وعندما يصبح التوتر عقلانياً ، لا يعود يعرف التسلية البريئة أو النزهات ، بل يعرف منها ما هو مميز وخاص بالمدينة العالمية ، وأعني بهذا الاسترخاء والذهول .

فاللهو الأصيل Joie de vivre والمسرات والثمل هي ثمرات النبض الكوني ، وهي بوصفها على ما ذكرت ، لم تعد في جوهرها قابلة للادراك والفهم . ولكن التخلص من عناء العمــــل الذهني الشديد الوطأة بواسطة نقيضه ، وهو عبث واع وممارس ، ومن التوتر العقلاني بواسطة التوتر الجسماني الناشىء عن الرياضــة ، ومن التوتر الجسماني بواسطة الاجهاد الشهواني عقب اللذة ، ومن الاجهاد الروحي عقب الانفعالات الناشئة عن المراهنات والمضاربات ، ومن المنطق المجرد للعمــل اليومي بواسطة صوفية يستمتع بها استمتاعاً واعياً ، كل هذه الاشياء ، هي أمور مألوفة في جميع المدن العالمية لجميع المدنيات . ودور السينما والانطباعيـــة ، (التعبيرية) والملاكمة والمباريات ، ورقص الزنوج ، « والبوكر » والسباق ، باستطاعة المرء أن يجد كل هذه الأمور في روما . والحق أنه لبمقدور الباحث أن يتوسع في ابحاثه عن هذه الأمور وأن يمتد بها لتشمل أيضاً المدن العالمية من هندية وصينية وعربية. واذا ما أوردنا مثلًا واحداً فقط ، وهو انه اذا ما قرأ أحـــدهم الكاما - سوترام Kama - Sutram فسيدرك كيف حدث أن استساغت أذواق النــــاس البوذية أيضاً ، وعندئذٍ ستختلف نظرتنا الى مشاهدة مصارعـة الثيران في قصر كنسوس اختلافاً كلياً . ولا شك أن مذهباً كان يكمن وراء هذه كلها ، ولكن مذاقـــاً ونكهة كانا يتحكمان بها جميعاً ، كما هي حال مذهب روما الايزيسي التقليدي الذي عرفته ضواحي مسرح مكسيموس .

ومن ثم عندما تستأصل جذور الكينونـة استئصالاً كافياً ، وتمسي الكينونة اليقظة في حالة من توتر كاف ، عندئذٍ تندفع فجأة الى ميدان نور التاريخ الوضاء ، ظاهرة كانت تعد ذاتها في الخفاء منذ طويل زمن ، ظاهرة تتقدم الآن لتضع النهاية للدراما ، وهذه الظاهرة هي عقم الانسان المتمدن . وهذه الظاهرة هي شيء مـا لا يمكن ادراكه بوصفه أمراً مألوفاً من أمور السببية (العلية) (وذلك كما حاول العلم الحديث ادراكه وهذا أمر فيه من البداهـة مـا يكفي) بل انمـــا يتوجب ادراكه بوصفه انعطافاً جوهرياً ميتافيزيقياً نحو الموت . فالانسان الاخير للمدينة العالمية لا يعود يرغب في أن يحيا أو يعيش ، وقد يتشبث بأهداب الحياة كفرد ،

ولكنه كنموذج ، كمجموع ، لا يريدها ولا يرغب فيها ، لان ميزة هذا الوجود الجماعي تستأصل الرعب من الموت وتطرحها جانباً . فذاك الذي يثير في الفلاح خوفاً عميقاً غير قابل للتفسير ، الخوف من أن تفنى العائلة وينطفىء الاسم ، قد فقد الآن مغزاه ومعناه . واستمرار رابطة الدم ، في العالم المنظور ، لم يعد واجب الدم ، والمصير المقدر على أن يكون آخر حبات العنقود ، لم يعد يحس به على انه لعنة وهلاك . والاطفال لم يعودوا يشقون طريقهم من الارحام الى الحياة ، وهذا الامر لا يعود الى ان انجابهم أمسى مستحيلاً ، بل انما يعود ، بصورة أساسية ، الى ان العقل الذي بلغ ذروة توتره ، لم يعد يجد أي سبب يبرر وجودهم . وليحاول القارىء أن يتقمص نفس الفلاح وروحه . لقد جلس الفلاح على تربة أرضه منذ أزمان عتيقة غارقة في القدم ، وربط تلك التربة الى قبضته والتصق بها بدمه ، وضربت جذوره فيها عميقاً عميقاً بوصفه متحدراً من صلب أسلافه ، ولكونه سلفاً لمن في ارحام المستقبل من خلف .

ان بيته ، ان عقاره ، لا يعنيان هنا ، ترابطاً وقتياً بين الانسان والشيء ، ترابطاً محدوداً بفترة من سنوات قصار ، بل انما يعنيان اتحاداً باطنياً دائماً بين الارض الخالدة والدم الخالد . ومن هذه القناعة الصوفية وحدها ، قناعة التوطن ، تستمد جميع الحقبات العظمى للدورة - دورة التناسل والولادة والموت - ذاك العنصر الميتافيزيقي من عناصر الاعجوبة التي تتكشف في رمزية العرف والعادة والدين ، هذه الامور التي يمتلكها كل انسان مشدود الى الارض ، والتي أمست بالنسبة « للانسان الاخير » (انسان المدينة العالمية) أشياء غيبها الماضي ، وذهبت بها الايام . وليس تجانس الذكاء والعقم وتحالفهما في العائلة العريقة والشعوب القديمة والحضارات الغابرة مجرد كون أن عنصر الحيوان المكبل بالأغلال والمرهق في كل كون أصغر قد أخذ يلتهم عنصر النبات (في الكون الأصغر - المترجم -) بل انما أيضاً لأن الوعي اليقظ يتوهم أن الكينونة انما عادة تنتظمها السببية . وذاك الشيء الذي يطبعه انسان الذكاء ، بصورة عميقة المغزى بالغة التمييز ، بطابع « النبض الطبيعي » أو « زخم الحياة » فهذا الانسان لا يعرف ذاك الشيء معرفة

سببية فقط ، بل انا يقيمه تقييما سببياً أيضاً ويخصه بالمكان الذي يقرره لهحكمه العقلاني بين احتياجاته الاخرى . وعندما يبدأ الفكر العادي لشعب رفيع الثقافة والعلم بان يعتبر « انجاب الاطفال » هو قضية لهـــا وجوههـا المؤيدة والمناهضة ، Pro's and Con's فعندئذ تكون نقط الانعطاف العظمى قد جاءت وحـــان أوانهـــا ، فالطبيعة لا تعرف أي شيء عن عوامل تأييد Pro's and Con's أو مناهضته ، ففي كل مكان حيثما تكون الحيـــاة حقيقة وواقعة يسود منطق باطني متعضي، انه « It » وبه يطر اندفاع مستقل استقلالاً تاماً عن الكائن الواعي بما لهذا الكائن من ارتباطات سببية ، وحتى هذا الاندفاع هو غير ملحوظ حقـاً من قبل هذا الكائن . ان التكاثر الحضري Proliferation الغزير في الشعوب البدائية لهو ظاهرة طبيعية ، ظاهرة لم يفكر حتى بهـــا ، وحتى أقل من هذا ، لم يحكم عليها بالنسبة لنفعها أو عكسه . وعندما يتوجب علينا أن نقدم ، إطلاقاً ، الاسباب اقضية من قضايا الحياة ، عندئذ تصبح الحياة ذاتها مشكوكاً في أمرهـــا ومدار تساؤل . وعند هذه النقطة يبدأ تحديد المواليد تحديداً متدبراً بصيراً بالعواقب . وقد قـام بوليبيوس في العالم الكلاسيكي يشكو وينوح على هذا الاجراء (تحديد المواليد) واصفاً اياه بأنه خراب اليونان ودمارها ، ولكن هذا الاجراء كان حتى في زمن بوليبيوس ، قد أمسى ، منذ طويل زمن ، قـاعدة مقررة وعملاً مألوفاً في المدن الكبرى، كما وشاع في الازمان الرومانية التي تلته على صورة مرعبة مفزعة . وكان الناس ، بادىء ذي بدء يفسرونه بالبؤس الاقتصادي ، ولكن مرعان مـا تخلى هذا الاجراء عن تفسير له وشرح . وعند هذه النقطة ايضاً ، وفي كل من الهند البوذية وبابل ، كما في روما ، وكما هي الحال في مدننا نحن معشر الغربيين ، أصبح اختيار الرجل للمرأة، لا بوصفها أماً لأولاده كما هي الحال بين الفلاحين والبدائيين، بل بوصفها « رفيقة حيـاة » معضلة للعقول ومشكلة . فالزوا عند إبسن يبدو على أنه « الامتزا الروحي الارقى » حيث يكون فيه كل من الفريقين (الزوجين — المترجم) « حراً طليقاً » وأعني بالحرية هنا ، أنهما عقلان حران ، متحرران من حافز الدم الشبيه بالنبات ، حـافزه الى استمرارية ذاته ومتابعتها وهكذا يصبح

«قدور « شو »[1] أن يقول « أنه مـــا لم تفكر المرأة بأنوثتها ، وبواجبها إزاء زوجها واطفالها والمجتمع والقانون ، وإزاء كل انسان آخر ، ما عدا واجبها إزاء نفسها ، فانها لا تستطيع أن تحرر ذاتها . »

إن المرأة الاولية ، المرأة الفلاحة ، هي أم . وإن كامل رسالتها ، هذه الرسالة التي تحن اليها منذ طفولتها ، إنما تحتويها تلك الكلمة، كلمة أم . ولكننا نرى اليوم امرأة إبسن ، المرأة الرقيقة الزميلة الخدن ، تخرج الينا ، ونراها بطلة جميع آداب المدن العـالمية العظمى ، ابتداء من الدراما الشمالية حتى الرواية الباريسية . فهي بدلاً من أن يكون لها اطفال لها تصادمات وتناقضات نفسية، وما الزواج غير فن من براعة هدفه تحقيق « التفاهم المتبادل » . وسيان أكانت القضية ، قضية معارضة إنجـــاب الاطفال ، هي قضية السيدة الاميركية التي لن تقايض على حضور أي موسم حفلات ، بأي ثمن، أو قضية السيدة الباريسية التي تخشى أن يهجرها عشيقها، أو قضية بطلة إبسن التي « لا تنتمي الى احد مـــا عدا نفسها » فالقضية واحدة وجميعهن ملك ذواتهن فقط، وكل واحدة منهن عاقر عقيم. وعطفاً على ما اوردت نجد الواقعة ذاتها في الاسكندرية وفي المجتمع الروماني ، وبداهـة ، في كل مجتمع متمدن آخر ، ونجدها بصورة جلية واضحة في المجتمع الذي نشأ فيه بوذا وترعرع. وهناك قواعد أخـلاق للعقول المعدومة الذرية في كل من الهيلينية والقرن التاسع عشر ، كما في أزمان لاوتسي ومذهب تشارفا كا Charvaka ، وآداب تتحدث عن التناقضات الباطنية لنورا ونانا . فتلك « الرعشة » ، التي كانت لا تزال حتى أيام فيرتر ، مشهداً فيه الكفاية من الصدق والشرف تصبح شيئاً ما « فلاحياً » قروياً . والأب الكثير الاولاد يمسي موضوعاً للرسم الكاريكاتوري ، ولم يفت إبسن أن يسجل هـــذه الحقيقة إذ انه عرضها في كوميدياه المعروفة باسم كوميديا الحب .

وعند هذا المستوى تدخل جميع المدنيات مرحلة من تدن وتنـاقص مرعبين

١ – جورج برنارد شو

في السكان وتستمر هذه المرحلة قروناً من الزمن . وهنـــا يضمحل كامل هرم الانسان الحضاري ويتلاشى ويزول . وهذا الهرم يبدأ تفتته بذروتـه ، إذ تتفتت أول ما تتفتت المدن العالمية ، ومن ثم الاشكال الريفية واخيراً الارض ذاتهـا التي تدفقت أنقى دمائها بشهوة داعر الى البلدات كي تسندها لفترة من زمن . وفي نهاية المطاف لا يبقى حيـــاً سوى الدم البدائي ، لكنه دم سُلب من أقوى عناصره وأوسعها مدار أمل ومحط رجـاء . وهذه الفضلة المتبقية هي نموذج الفلاح . واذا كانت هنـاك من واقعة تظهر ان السببية لا تمت من بعيد أو قريب ، بأية صـلة للتاريـخ ، فان هذه الواقعة لتتمثل بتدهور العالم الكلاسيكي وانحطاطه ، فهـــذا التدهور قد حقق اكتماله قبل غارات الهجرات الالمانية على العالم الكلاسيكي بزمن طويل . فلقد كانت الامبراطورية (الرومانية – المترجم) المطلقـــة السلطان Imperium ترتع آنذاك في أرحب مجالات الطمأنينة وأوسع ميادين الراحـــة والسلام ، وكانت عريضـــة الثراء رفيعة التطور ، حسنة التنظيم ، وامتلكت في أباطرتهـا ، ابتداء من نيرفا Nerva حتى مارك اوريل ، سلسلة من الحكام ، لا تستطيـع أية قيصرية في أية مدنيه أخرى ، ان تقدم لهم نظراء او مثلاً . ومع هذا تضاءل عدد السكان تضاؤلاً سريعاً وجماعيا .

ولم تستطع قوانين الزواج والاطفال اليائسة التي اشترعها أوغسطس ، ومن بين هذه القوانين القـانون المعروف باسم Lex de Maritandis Ordinibus والذي أثار من الفزع في المجتمع الرومـاني أشد ممـا أثارته إبادة جيوش فاروس وهزيمتها الساحقة المـاحقه ، ولم يستطع تبني الاطفـال بالجملة ، ولا التجنيد الدائم لمن هم من أصل بربري في الجيوش الرومانيه ، ليملأوا الثغرات الواسعة من الريف المستنزف المنهوك ، ولا الصدقات الهـــائلة في غزارتها التي وزعها نيرفا وترجان Trajan على الأطفال والآباء المعوزين ، لم يستطع أي عمل من هذه أو أي عمل آخر أن يوقف ذاك التيار .

فايطاليا ومن بعدها شمالي أفريقيا وبلاد الغال ، واخيراً اسبانيا التي كانت في

عصور القياصرة الأولين أشد بلدان الأمبراطورية كثافة سكان أمست جميعها خاوية مقفرة يباباً . وقول بليني Plyni الشهير المأثور « Lati fundia perdidere Italian , Jam,vero et provincias » والذي كثيراً ما يقتبس اليوم حين التحدث عن الاقتصاد القومي ، انما هو قول يقلب القضية رأساً على عقب . فالملكيات الزراعية الواسعة لم تكن لتصل الى هذه النقطة لو ان المدن لم تكن قد امتصت قبل الآن طبقة الفلاحين ، ومع أن امتصاصها للفلاحين قد لا يكون قد جرى من صورة ظاهرة مكشوفة ، لكن الفلاحين تنازلوا باطنياً عن الارض وهجروها .

وأخيراً أطلت الحقيقة المرعبة برأسها من بين سطور قانون برتيناكس Pertinax الصادر عام ١٩٣ ب م ، والذي يخول كل فرد في ايطاليا والولايات الأخرى أن يضع يده على أية رقعة مهملة من الارض ويعطيه ، اذا ما استصلحها بأن تصبح ملكاً مشروعاً له . وما على دارس التاريخ الا أن يتجه جديا بابصاره الى المدنيات الاخرى ليرى أن هذه الظاهرة مألوفة في جميع المدنيات . ونحن نستطيع أن نتبين تدني السكان بصورة جلية واضحة ، في بدء عهود الأمبراطورية المصرية الجديدة وخاصة ابتداء من عهد الاسرة التاسعة عشرة فما بعد . فتلك الطرق ، كطريق امينوفيس الرابعة في تل العمارنة والبالغة الخمسين من الياردات عرضاً هي طرق لم تخطر أبداً على بال السكان الاشد كثافة في العصور القديمة . وبالكاد تمكنوا من صد هجوم « شعوب البحر » بعد جهود ما بعدها جهد ، وكانت فرص هذه الشعوب في الحصول على أراض ومقاطعات لا تقل تأكيداً في امكانيات نجاحها عن فرص الالمان في القرن الرابع تجاه العالم الروماني . وهناك أخيراً تسرب الليبيين الدائم الى الدلتا ، هذا التسرب الذي بلغ ذروته عندما استولى أحد قادتهم في عام ٩٤٥ قبل المسيح على مقاليد السلطة والسلطان ، وذلك تماماً كما فعل ادواسر Odoacer عام ٤٧٦ بعد المسيح . ولكن باستطاعتنا أيضاً أن نلمس النازع ذاته في تاريخ البوذية السياسي ما بعد القيصر آسوكا Asoka . واذا ما كانت شعوب المايا قد تلاشت واختفت بكل ، ما لهاتين الكلمتين من معنى حرفي ، وبادت في وقت جد قصير بعد الفتح الاسباني ، وزحفت الادغال والغابات على مدنها الكبرى

الخاوية من السكان فأعادتها اليها ، فــان هذه الامور لا تبرهن فقط على وحشية الفاتح وقــوته ، اللتين لن يكون لهما حول وطول أمام قوة تجدد ذاتهـــا لجنس بشري حضاري مثمر وفتي ، بل انهـا تبرهن على انطفاء داخلي وخمود باطني كانا لا شك قد بدءا منذ زمن طويل ، وبعد ، اذا ما اتجهنا بابصارنا الى مدنيتنا الخاصة ، فاننا سنلحظ أن العائلات العريقة من طبقة النبلاء الفرنسية لم تبد في معظم الحالات الكبرى خلال الثورة ، بل انما اضمحلت منذ عام ١٨١٥ ، وانتشر عقمها الى الطبقة البرجوازية ، ثم انتقل ، ابتداءً من عام ١٨٧٠ ، الى طبقة الفلاحين ، هذه الطبقة التي أعادت تلك الثورة ايإهـا ، خلقها من جديد . وفي بريطانيا لا بل واكثر من هذه في الولايات المتحدة الاميركيـــة ـ وخاصة في الشرق ، في تلك الولايات ، التي تضم أعرق ما في الولايات المتحدة من عناصر وأفضل ما فيها من أقوام ، فان عملية « الانتحار العنصري » بدأت على أوسع صورة ، وقبل أن يشجبها روزفلت بزمن طويل .

ونتيجة لما تقدم نجد في كل مكان من هذه المدنيات أن المدن الريفية في مرحلة مبكرة زمناً ، والمدن العملاقة في نهاية التطور ، تنتصب خاوية من السكان ، وتؤوي داخل كتل حجارتها عدداً قليلاً من السكان الفلاحين حيث يسكنون ، كما كان ابناء العصر الحجري يسكنون في الكهوف والمساكن المكدسة بعضاً فوق بعض . ولقد هجرت سامراء في القرن العاشر ، وكانت باتاليبوترا Pataliputra ، عاصمة آسوكا ، كانت قفراً هائلاً من بيوت مهجورة تماماً ، وذلك عندما زارها الرحالة الصيني هوين ـ تسانغ Hiouen - tsang قرابة عام ٦٣٥ بعد المسيح . ولا شك أن العديد من مدن المايا العظمى كانت حتماً في الحال ذاتها حتى في عصر كورتيز . وتورد سلسلة طويلة من الكتاب الكلاسيكيين ، إبتداءً ببليبيوس فمن بعده ، ذكر مدن قديمة شهيرة أمست طرقها خطوطاً من هياكل أبنية خـــاوية مهجورة حيث تقضم قطعان الماشية أطراف النبات في الاسواق والملاعب الرياضية ، وحيث أمست المسارح المدرجة حقولاً مبذورة نقطتها تمـــاثيل بارزة وأعمدة يعلوهـا رأس هرمز . أما رومـــا فلم يتجاوز عدد سكانهـا في القرن الخـــامس من بعد

الميلاد عدد سكان قرية ، لكن قصورهـا الأمبراطورية كانت لا تزال مأهولة في ذاك القرن .

اذن فهذه هي نهاية مطاف تاريخ المدينة ، وهذه هي نتيجته . انهـا تنمو من مركز المقايضة البدائي، لتصبح مدينة حضارة ومن ثم لتمسي أخيرا مدينة عالمية، انها تهدر أول مـا تهدر دم خالقيها ونفوسهم ، لتشبع ضرورات تطورها الفخم الجليل ، وأخيرا تقطف آخر زهرة من ذاك النماء لتقدمهـا الى روح المدنية ، وهكذا تتابع سيرها مقضياً عليها بالهلاك ، حتى تدمر ذاتها تدميراً نهائياً .

- ٦ -

اذا مـا كانت المرحلة المبكرة زمناً تتميز بولادة المدينة من أحشاء الريف ، واذا مـا كانت المرحلة المتأخرة تتميز بالمعركة بين المدينة والريف ، فـان مرحلة المدنية هي مرحلة انتصار المدينة على الريف ، حيث تحرر نفسها من قبضة الارض، لكنها تتحرر لتنطلق الى دمارها النهائي . والمدينة تقف موقفاً ميتـاً لا جذور له بالكوني ، وترتبط ارتباطاً ، لا رد له أو نقض ، بالحجر والعقلانية ، وتنشىء لغة شكل تنسخ كل مسحة أو خلة من جوهرها، وهذه اللغة ليست لغة صيرورة ونماء، بل انها لغة صير وانهاء ، لغة قادرة أكيدا على التبديل ، لكنها عاجزة عن التطور. وهنـا لا يحكم المصير بل السببية ، ولا يسيطر الاتجاه الحي بل الامتداد . وينشأ مما تقدم أنه ، بمـا أن كل لغة شكل لإحدى الحضارات تلتصق وتاريخ تطورها بالنقطة الأصلية ، لذلك فان الأشكال المتمدنة موجودة وقائمة في أي مكان وقادرة لهذا على امتداد لا حدود لهـا حالما تبدى وتظهر . وانها لحقيقة وواقعة أن بلدات الهنسا Hanse بما لهـا من قوام رومي شمالي قد شيدت على طراز غوطي ، وأن

البلدات الاسبانية في أميركا الجنوبيــة قد بنيت على طراز باروكي ، ولكن لزوم إنتشار أصغر فصل من تاريخ الطراز القوطي خـارج حدود أوروبا الغربيـة كان أمراً مستحيلاً استحالة انتشار الدراما الاتيـكية أو الانجليزية، انتشار فن الفوغيه Fugue أو الدين اللوثري أو الاورفي ، أو حتى تمثيل هذه الأمور باطنيـاً بين ومن قبل شعوب حضارات غريبة عنهـــا . ولكن جوهر الاسكندرانيـة (نسبة للاسكندرية . المترجم) وجوهر رومانتيكيتنا هما أمران تشترك فيهما جميع الشعوب المتمدنه دون حصر أو تمييز . والرومانتيكية تشير الى بداية ذاك الشيء الذي اسماه غوتيه ، بما لغوتيه من رؤيا واسعة وبصيرة ثاقبة ، بالآداب العـــالميه ، آداب المدينة العـالميه القائدة ، هذه الآداب التي تجـاهد في كل مكان ضدها آداب الريف ، ابنة الأرض والتربة ، وتكافح ، دون أن يبالي بهـا أحد ، وتتخطف أنفاسها جهاداً في كل ميدان كي تحافظ على ذاتها . وليس بالامكان إعـادة خلق دولة البندقية ، أو دولة فريدريك الأكبر ، أو البرلمان البريطاني (كحقيقة واقعة وذات أثر) ولكنه بالأمكان « إدخـال » « الدساتير الحديثة » على أية دولة افريقية أو اسيوية ، كما وأنه بالامكان ايضـاً اقـــامة البلدة الكلاسيكية بين النوميديين والبريطـــان القدامى . وفي مصر لم تكن الكتابة الهيروغلوفية هي الشائعة بين الناس ، وإنما كان الحرف المخطوط ، هذا الحرف الذي كانَ ، دون ريب، اكتشافاً تقنيا لحقبة المدينة. وبصورة عامه نقول أنه ليست لغات الحضارات الأصيلة ، كاللغة اليونانيه التي كتب بها سوفوكليس ، أو اللغه الالمانيه التي استعملها لوثر ، هي اللغات التي يستطيـع أي وكل شخص أن يكتسبها، بل إنها تلك اللغات العالمية ، لغة « كون » Koine الاغريقية والعربية والبابلية والانجليزية ، هذه اللغات التي هي نتـاج الممارسة اليومية العملية في المدينة العالمية ، هي وحدهـا سهلة المنال على أي انسان وكل مرء . ونتيجه لما تقدم نقول أن المدن الحديثه في جميع المدنيات تتخذ طرازاً تتزايد وحدانية نسقه يوماً بعد يوم . فلتذهب اينما شئت ، فانك ستجد برلين ولندن ونيويورك ، بالنسبة الينا في كل مكان ، تماماً كما كان يصادف الرحالة الروماني هندسته المعمارية العمودية وساحاته واسواقه بما نصب فيها

من تماثيل ، وهياكله في تدمر وترير أو تمجاد Timgad ،[1] أو المدن الهلينستية التي امتدت فبلغت الاندوس[2] والآرال Aral[3] . ولكن هـذا الذي شاع وذاع ، على هذه الصورة ، لم يعد اسلوباً أو طرازاً ، بل إنما هو ذوق ، وهو ليس بعرف أصيل ، بل هو تكلف وتصنع ، وليس بعادة وطنية قومية ، بل هو «موضة» وزي . ومن البدهي أن هذا الواقع لا يجعل فقط بامكان الشعوب النائية البعيدة أن تتقبـــل بمكاسب المدنيـة «الدائمة» ، بل إنما يجعل ايضـاً هذه الشعوب قادرة على أن تعود فتشع بهذه المكاسب بشكل مستقبل . وخير مثل على مدنية «ضوء القمر» هذه ، يتجلى في الاقاليم الصينية الجنوبية ، ويتبدى خاصة في اليابان (التي كانت صينية الطابع حتى ختام حقبة الهان عـام ٢٢٠ ب.م) ، وبطل من جزيرة جاوا بوصفها محطة تقوية لتيار المدنية البرهمية ، ومن قرطجنة التي استحصلت على اشكالها من بابل .

إن جميـع هذه هي اشكال من وعي يقظ كان قد أصبح آنذاك حاداً وحاراً حتى الافراط ، لا تلطف من مضائه أو تحده قوة كونية ، فسداة هذه الاشكال هي العقلانية ولحمتها الامتداد ، وهي لهذا السبب بالذات قادرة على فيض هائل غزير من الانتـاج ، وتمتد أشعتها الأخيرة الرجراجة فتبلغ ، ومؤثراتها المتوافقة لا بل المتماثلة ، لتعم كامل الكرة الارضية تقريباً . فمن الجائز أن نعثر على بعض شظايا اشكال المدنيـة الصينية في الهندسة المعمارية الخشبية السكندنافية ، وعلى المقاييس والمعايير البابلية في البحـار الجنوبية ، وعلى قطع النقود المعدنية الكلاسيكية في افريقيا الجنوبية وعلى آثار من نفوذ مصري وهندي في بلاد الإنكا Inka .

ولكن بينما كانت عملية الامتداد هذه تجتاز كل الحدود ، كان تطور الشكل الباطني للمدنية يغذ السير حثيثاً الى انجاز ذاته .

---

١ – تمجاد – بلدة قديمة في الجزائر اسسها تراجان عام ١٠٠ ب.م– المترجم

٢ – الاندوس – نهر ينبع من التيبيت ويجري في باكستان – المترجم

٣ – الآرال بحيرة في روسيا تقع بين كازاخستان والاوزبك – المترجم

ويتوجب علينـا أن نميز بوضوح وجلاء ثلاث مراحل ، مراحل تطور الشكل الباطني للمدنية ، إن المرحلة الأولى هي مرحلة التحرر من الحضارة ، والثانية هي مرحلة نشوء شكل أصيل للمدنية ، والثالثة والاخيرة هي مرحلة التيبس والتصلب النهائيين ، وقد بدأ هذا التطور الآن بالنسبة الينا نحن معشر الغربيين . وانني ، كما أرى ، أعتقد بأن القدر يريد لألمانيا ، بوصفها موطن آخر شعب من شعوب الغرب ، أن تتوج هذا الصرح الضخم الجبار .

فجميع قضايا الحياة ، أمورها ومشاكلها ، - الحياة من أبولونية أو مجوسية أو أو فاوستية - قد بلغ التفكير بهـا نهاية مداه وأخضعت لشرط نهائي وواضح من معرفة أو عدم معرفة . وذلك لأن الناس لم يعودوا اليوم يقتتلون حول العقائد . فالعقيدة الأخيرة - عقيدة المدنية ذاتها - قد قررت ورسمت ، واحتواها مخطط والمهارات الفنية Technics والاقتصادات (جمع اقتصاد المترجم) هي بوصفها قضايا ومشاكل ، قد أعلن عنهـــا وصرح وأعدت للمعالجـــة . ولكن هذا الأمر ليس سوى بداية عمل ضخم واسع ، فعلينا أن نكشف القناع عن الفرضيات ونبسطها وأن نطبق هذه الاشكال على كامل وجود الكرة الارضية .

وفقط عندمـا يتحقق هذا الأمر وينجز ، وتشيد المدنية تشييداً أكيدا لا شكلاً فقط ، بل كتلة ، عندئذ يبدأ الشكل بتيبسه وتصلبه . فـالاسلوب في الحضارات ، كان إيقاع عملية انجـاز الذات واكمالها . ولكن الأسلوب المتمدن ذلك(إذا جاز لنا استعمال كلمة اسلوب واطلاقا) ينشأ بوصفه تعبيراً عن حـــالة اكتمال . وهو يبلغ - (وبلغ خـاصه في مصر والصين) مرتبة من كمال رائع ، ويعطي هذا الكمال لكل ما تنطق به الحياة وتفوه ، هذه الحياة التي هي الآن غير قابلة للتبديل باطنـا ، إنه يسبـغ كماله على اشكال الحياة ووجوهها الطقوسية ، كما يسبغه على الاشكال الفخمة الفاخرة المدروسة لمارستها للفن .

ولا يعود هناك أي مجال للحديث عن التاريخ ، وذلك بوصف التاريخ حافزاً أو انطلاقـاً نحو مثل أعلى للشكل ، بل هنـاك ملاءمة لا تعدم حيلة ، وهي هينة

سطحية تداور وتراوض ، المرة بعد المرة ، قضايا وحلولا طـازجة صغيرة لقضايا الفن ، وذلك خلال اللغـة التي أمست الآن مستقرة جوهراً . وينخرط في هذا النوع كامل « تاريخ » التصوير الزيتي الصيني الياباني (كما نعرفه) و « تاريخ » الهندسه المعمارية الهندية . وكما يختلف تماماً التاريخ الصادق للاسلوب القوطي عن التـاريخ الكاذب ، كذلك يختلف فـــارس العصور الصليبيه عن الماندرين الصيني Manderin ، أي إختلاف الدولة في الصيرورة عن الدولة في الانتهـاء . فالأول منها هو تاريخ ،أما الثاني فلقد تغلب على التاريخ وهزمه منذ زمن طويل ، نعم منذ زمن طويل ، هذا ما اقوله ، وذلك لأن تاريخ هـذه المدنيات ، كما هو واضح وجلي ، هو كتاريخ مدنها الكبرى ، وهذا التاريخ يتبدل دائماً مظهراً ، ولكنه لا يتغير ابداً جوهراً ، فجوهره يبقى باستمرار على حاله . ففي هذه المدن لا توجد نفس ، فهي ثرى وتربة في شكل متحجر .

فما هو ذاك الذي يفنى هنا ويبيد ؟ وما هو ذاك الذي تكتب له الحيـاة ؟ انها لمجرد حادثة عرضية أن تقوم الشعوب الألمانية فتستولي ، تحت ضغط قبائل الهون ، على الصقع الروماني ، وبهذا تحول المدنية الكلاسيكية ، دون تهديد ذاتها في دولة نهاية « صينية » . كما وان حركة «شعوب البحر» (وهذه الحركة شبيهـــة حتى بتفاصيلها بالحركة الجرمانية) والتي انطلقت ضد المدنية المصرية ابتـداء من عـام ١٤٠٠ق.م. ، نجحت فقط في مناطق السيادة الكريتية (نسبةالى جزيرة كريت) ، أما حملاتها الجبارة على السواحل الليبية والفينقية ، برفقة أساطيل الفايكنغ فلقـد فشلت كما فشلت حملات الهون على الصين . وهكذا فان المدنية الكلاسيكية هي أحد الأمثلة التي نظرنا على مدنية انهارت في اللحظة التي بلغت فيها ارقى مراتب فخامتها وجلالها . ومع هذا فان الجرمان دمروا فقط الطبقة العليـا من الاشكال واستبدلوها بحياة عصور ما قبل حضارتهم الخاصة . لكن الطبقة الخالدة ، لم يبلغها أحد اطلاقاً فهي تبقى مختفية ومغلفة تغليفاً كاملاً بلغة شكل جديد في اعمـاق كل ما يتبعها من تاريخ . وحتى الان لا تزال هناك ذخائر وآثار كلاسيكيـــة ملموسة في مقاطعات فرنسا وايطاليا الجنوبية ، وفي مقاطعات اسبانيا الشماليـــة .

ففي هذه المقاطعات يشوب الكاثوليكية الشعبية في اعماقها لون كلاسيكي متأخر زمناً ، لون يفرزها بصورة مميزة عن كاثوليكية كنيسة الطبقة الاوروبية الغربية التي تقع فوقها . فالمهرجانات الكنسية التي تقام في المقاطعات الايطالية الجنوبيـــة تكشف عن طقوس كلاسيكية (وحتى ما قبل الكلاسيكيـة) فنحن نجد ، بصورة عامة ، في هذا المجال آلهة (قديسين) حيث ، يبدو ، في التعبد لهم، النظام الكلاسيكي واضحاً منظوراً ومستتراً بأسماء كاثوليكية .

وهنا يدخل ، على كل حال ، عنصر آخر على الصورة ، عنصر ذو مغزى خاص به ، فنحن نقف الآن أمام مشكلة العنصر .

الفصل السادس عشر

المدن والشعوب

(ب)

الشعوب ، العناصر ، الألسنة

(أ)

لقد أفسد ، طيلة القرن التاسع عشر ، الصورة العلمية للتاريخ ، تصور ذهني اشتق إما من الرومانتيكية ، أو بلغت به الرومانتيكية ، على كل حال ، شأواً هاماً وملحوظاً ، وأعني بهذا التصور الذهني فكرة « الشعب » بما لهذه الكلمة من مفهوم حامي إخلاقي . فلقد كان اذا ما تبدى ، هنا أو هناك ، في الازمنة القديمة ، دين جديد ، أو زخرفة جديدة ، أو هندسة معمارية جديدة ، أو أبجدية جديدة ، فان القضية التي كان يثيرها أي بما ذكرت آنفاً كانت تعرض ذاتها على بصيرة البحاثة على هذا الشكل : ما اسم ذاك الشعب الذي ولّد الظاهرة ؟

ان عرض القضية هذا ، هو أمر خالص بالروح الغربية ومميز للقالب الحالي لتلك

الروح ، لكنه عرض خاطىء بكل زاوية من زواياه، وخاطىء الى درجة تستلزم الصورة التي يستخلصها هـذا العرض من مجرى الاحداث ، أن تكون مغلوطة بالضرورة .

إن « الشعب » بوصفه شكلاً اساسياً مطلقاً ، شكلاً يكون فيه الناس فعالين تاريخياً ، والموطن الأصلي ، والمقر الأصيل ، وهجرات « الـ » شعوب ، كل هذه الأمور إنمـــا هي انعكاس لتلك الفكرة المهزوزة الرجراجة التي عبرت عن ذاتها بمفهوم كلمة « أمة » Nation لعام ١٧٨٩ ، ولكلمة « قوم » Volk لعـــام ١٨١٣ ، وكلتا الكلمتين ، همـــا بعد كل تحليل وتمحيص ، مشتقتان من تأكيد انكلترا لذاتها ومن حركة المطهرين Puritanism . لكن حدة العاطفة بالذات التي تحتويها تلك الفكرة (الأمة ، القوم — المترجم) قد وفرت لها حماية ممتازة من النقد فقط . وحتى اللواذع من البحاثة قد جعلوا ، سهواً ، هذه الكلمة تمتد لتغطي جمهرة من الاشياء غير المشابهة إطلاقاً ، وذلك بالاضافه الى النتيجه القائلة بأن « الشعوب » قد تطورت الى كميات من وحدة معينة محددة ومفترض انها مفهومة فهماً جيداً ، كميات من وحدة صنعت كل ما هنالك من تاريخ . فتاريخ العـالم يعني بالنسبة الينا اليوم ، أنه هو تاريخ الشعوب ، ونحن لا نستطيـع هنا ان نزعم جازمين بأن الاغريق أو الصينيين مثلاً يرَون مـا نراه نحن للتاريخ منْ معنى . ان كل شيء ما عداه ، من حضارة ولغة وذكاء وحصافة ودين ، انما هو من خلق الشعوب وإبداعها ، وما الدولة سوى شكل الشعب .

إن الهدف من وراء كتابة هذا الفصل هو تدمير هذا المفهوم الرومانتيكي .

«فذاك الذي سكن الارض منذ العصر الجليدي انما هو الانسان وليس «الشعوب» ...

ولقد قررت مصير الانسان ، في الوهلة الاولى ، واقعـــة التعاقب الجسماني للاباء والابناء ، رباط الدم المولد للجماعات الطبيعية والذي يكشف عن نازع أكيد الى ضرب جذوره في الصقع . وحتى القبـــائل الرحالة تحصر تنقلاتها داخل ميدان محدود ، وبهذا يطبع الجـانب الكوني الشبيه بالنبات من جـانبي الحيـــاة ، من الكينونة ، بطابع الديمومة . وهذا هو مـــا أسميه بالعنصر (Race) . فالقبائل

والافخاذ والبطون Clans والعائلات ، كل هذه هي مسميات لواقعة من دم يدور ويتوارث بالتناسل والولادة في صقع ضيق أو فسيح .

ولكن هذه الكائنات البشرية تمتلك أيضاً الجانب الحيواني الكوني الأصغر من الحياة داخل الشعور الواعي وقوة الذاكرة والعقل . أما الشكل الذي يتم فيه ترابط الشعور الواعي لانسان ما بالشعور الواعيِ لآخر ، فانا أسميه لغة ، حيث تبدأ هذه بكونها مجرد تعبير حي غير واع تلقته كاحساس ، غير أنه يتطور تدريجياً ليصبح فناً واعياً للمواصلة ، فناً يعتمد على حس مشترك للمعاني المرتبطة بالاشارات .

وفي النهاية أقول ان كل عنصر انما هو جرم عظيم واحد ، وان كل لغة هي الشكل الكفؤ الفعال لشعور واع واحد وعظيم ، شعور يربط الكثيرين من الافراد بعضهم ببعض . ونحن لا نستطيع أبداً أن نصل أبا من المكتشفات النهائية لأي منها (العنصر ، اللغة) ، ا لم نعالجها معاً ونقيم بينهما مقارنة دائمة .

ولكن ، وبالاضافة الى ذلك ، فنحن لن نستطيع أبداً أن نفهم التاريخ الارقى للانسان إذا ما تجاهلنا الواقعة القائلة بان الانسان بوصفه جوهر العنصر وأصله ، وبوصفه المالك للغة والمتحدر من وحدة من دم ، وبوصفه عضوا من وحدة مدركة ، إنما له مصيران مختلفان، أحدهما لكينونته ، والآخر لكينونته الواعية. وهذا ما يعني أن أصل وتطور وديمومة جانب العنصر فيه ، إنما هو مستقل تماماً عن أصل وتطور وديمومة جانب اللغة فيه . فالعنصر هو شيء ما كوني ونفساني ومتعاقب ودوري وفق طريقة غامضة ، وهو بطبيعته الباطنية مكيف ومشروط الى حد ما بالروابط الفلكية العظمى .

أما اللغات فهي من جهة أخرى ، أشكال سببية (علية) وهي تعمل بواسطة استقطابية وسائلها . فنحن نتحدث عن غرائز العنصر أو فطرته، وعن روح اللغة ، لكن هذين انما هما عالمان متباعدان ، فالعنصر ينتسب الى أعمق ما لكلمتي « الزمان » و « الحنين » من معاني ، أما اللغة فهي تخص معاني تينك الكلمتين : « الفراغ » Space و «الخوف» . ولكن فكرة « الشعوب » كانت حتى الآن

تغشي جميع هذه الأمور وتخفيها عن بصائرنا .

اذن فهناك تيارات لكينونة ، واعمال من ربط لكينونة واعية ، وللأولى سياء ، أما الأخيرة فانها ترتكز الى منهاج . فالعنصر ، كما نراه في العالم المحيط بنا ، هو مجموع كل السمات الجسمانية وذلك الى الحد الذي توجد فيه هذه السمات بالنسبة الى مدارك حس المخلوقات الواعية . وهنا يتوجب علينا أن نتذكر أن الجسد انما يتطور ويكمل ، ابتداء من الطفولة حتى الشيخوخة ، الشكل الباطني النوعي المحدد له لحظه الحمل ، بينما أن ماهية الجسد هي ، في الوقت ذاته ، (وفي حالة تأملها منفردة عن شكلها أقول هي في حال من كينونة دائمة التجدد . ونتيجة لما تقدم ليس هناك من شيء يبقى فعلاً من الجسد في الانسان سوى المعنى الحي لوجوده وكل ما نعرفه عن هذا (المعنى الحي) هو ذاك القدر كما يعرض ذاته في عالم الشعور الواعي . فالانسان من النوع الارقى ، فيما يتعلق بتأثير العنصر الذي يستطيع أن يتلقاه ، انما هو مقيد تماماً بذاك الذي يتبدى لعينيه في عالم الضوء ، وهكذا فان العنصر ، متنا وحاشية ، هو ، بالنسبة اليه ، شمس من سمات وسجايا منظورة . ولكن ، حتى بالنسبة اليه ، لا توجد هناك من ذخائر وآثار غير وفيرة لقوة ملاحظة السمات غير البصرية ، كالرائحة مثلاً وكصياح الحيوانات ، وأهم من هذا كله ، نماذج (Modelities) الكلام البشري . والأمر على العكس من هذا لدى الحيوانات الارقى الاخرى ، فان قدرة هذه الحيوانات على تلقي تأثير العنصر لا يقرره أبداً البصر ، فحاسة الشم لدى هذه هي أشد وأقوى ، وللحيوانات ايضاً ما عدا هذه الحاسة ، حالات من انفعال تراوغ الفهم البشري وتنفلت منه . وعلى كل فان الانسان والحيوان هما وحدهما القادران على تلقي تأثير العنصر ، وليس النبات الذي له أيضاً عنصر كما يعلم كل مُربٍ . وانه والحق ليثير في نفسي اعمق الانفعالات ، أن أشاهد كيف تتوق أزاهير الربيع ، كأنها الوحامى ، لتلقيح ولتلقح ، ولا تستطيع ، مع كل ما أعطيت من بهاء وضاح ، أن تجذب الواحدة منها الاخرى ، أو حتى أن تراها ، ولكن هذا المشهد (مشهد أزاهير الربيع) يجب أن يكون له معنى لدى الحيوانات ، التي توجد بالنسبة اليها وحدها ، هذه

الألوان والروائح .

إنني ادعو « اللغة » بكامل النشاط الحر للكون الأصغر الواعي ، وذلك طالما أنها تنطلق بالشيء الى ميدان التعبير للاخرين . أما النبات فليس له من شعور واع ، وليست له قدرة التنقل والحركة ، وهو لذلك لا يمتلك لغة . أما الشعور الواعي للوجود الحيواني ، فهو على العكس من ذلك ، إذ أنه شعور ناطق متناً وحاشية ، أكانت الأعمال الافرادية تعتمد التعبير أو لا تعتمده ، أو حتى أكان الهدف المدرك أو غير المدرك للعمل يقع في اتجاه مغاير تماماً .

فالطاووس ، دونما جدال ، يتحدث عندما ينشر ريش ذيله ، لكن هريرة تلاعب بكرة مشدودة الى خيط ، تتحدث ، دونما شعور ، الينا أيضاً من خلال مفاتن حركاتها الظريفة . ان كل انسان يعرف الفرق القائم في حركات الواحد كما لو كان الواحد مدركاً أو غير مدرك أنه موضوع لمراقبة ، والواحد يبدأ فجأة بالتحدث ، بوعي وادراك ، في جميع أعمال الواحد .

وهذا ، على كل حال ، يقودنا فوراً الى التمييز البالغ الأهمية بين نوعين من اللغة ـ النوع الأول وهو اللغة التي هي تعبير فقط بالنسبة للعالم ، وهي ضرورة باطنية تنبع من الحنين الملازم لكل حياة ، حنين الحياة الى تحقيق ذاتها أمام نواظر شهود ، وعرض وجودها الخاص على ذاتها ، أما النوع الثاني ، فهو اللغة المقصود بها أن تفهم من قبل كائنات معينة . ولهذا فان هناك لغات تعبير ولغات مواصلة ، والأولى تتخذ فقط لنفسها حالة لكائن واع ، أما الثانية فانها تتخذ صلة لكائنات واعية . فان تفهم يعني أن تجيب أو تستجيب لما للاشارة من محرض أو محرك ، وأن ترافق استجابتك شعورك الخاص بمغزاها . وأن يفهم الواحد الآخر ، وأن تجري بينهما « محادثة » ، وأن تتحدث الى « الـ » « أنت » ، يشترط لذلك أن يكون لدى الآخر حس بالمعاني ينطبق تماماً على حسك بها . ان لغة التعبير أمام شهود تبرهن فقط على وجود أو حضور « الأنا » ، لكن لغة المواصلة تفترض وجود ، أو حضور « الأنت » .

« فالأنا » هي التي تتحدث ، و « الأنت » هي المقصود منها أن تفهم كلام « الأنا » . فـــالشجرة أو الحجر أو السحابة يمكن أن تكون في نظر الانسان البدائي « الأنت » ، كما وأن كل ألوهيـــة هي « الأنت » . وليس هناك من شيء في الاساطير عاجزاً عن الحديث الى الانسان ، ويكفينا فقط أن نتأمل في نفوسنا ، في لحظات الهياج الجامح أو الانفعال الشعري ، كي نتحقق من أن أياً من الاشياء يستطيع أن يصبح في نظرنا حتى هذا اليوم « الأنت». ونحن توصلنا أول مـا توصلنا الى معرفة « الأنا » بواسطة بعض من « انت » . لذلك « فالأنا » هي مسمى للواقعة القائلة بان هناك جسراً قائماً يمتد الى كائن آخر ما .

لذلك فمن المستحيل علينا ، على كل حال ، أن نخطط حدوداً دقيقة في صحتها بين لغات التعبير الديني والفني وبين لغات المواصلة . وهذا القول صحيح أيضـــاً وينطبق (خاصة) على الحضارات الارقى بمـــا لهذه الحضارات من تطور منفصل لدوائر شكلها . وذلك لأنه لا يستطيع ، من جهة ، أي انسان أن يتحدث دون أن يدخل في صيغة الكلام بعضاً من مسحة أو ميزة بارزة للتأكيد ، دون أن تكون لتلك المسحة ، أو هذه الميزة ، أية علامـــة بضرورات المواصلة على هذا الشكل ، ومن جهة أخرى ، جميعنا يعلم بالدراما التي أراد فيها الشاعر أن «يقول» شيئاً ما كان باستطاعته أن يقوله بالجودة ذاتها ، أو بافضل منها ، اذا مـــا عمد الى الحض او النصح أو التحذير، أو الانذار ، زد على ذلك التصوير الزيتي الذي تعمدت محتوياته أن تهذب أو تحذر أو تحسن ، وهذا يتجلى لنـا في سلاسل الصور التي نشاهدها في أي من الكنائس الارثوذكسية والتي تتفق وتنطبق على قواعد قانون كنسي صارم ، وتهدف الى تحقيق هدف صريح يتمثل في جعل حقيقة الدين جلية واضحة للمشاهد الذي لا يقول الكتاب له شيئاً ، أو ما استعاض به هوغارت عن المواعظ الدينية ، أو حتى بالصلاة ، فيا يتعلق بهذا الأمر ، الصلاة التي هي بمثـابة توجه مباشر ، أو حديث مباشر الى الله ، والتي يمكن أيضاً أن تستبدل بالقيام بالطقوس المذهبية على مشهد من النـاس ، هذه الطقوس التي تتحدث الى المشاهد بلغة صريحة واضحة . ان الجدل النظري الدائر حول غاية الفن أو هدفه يستند الى

الفرضية القـــائلة بان لغة التعبير الفني يجب ألا تكون ، وفي كل الأحوال ، لغة مواصلة ، وأن ظاهرة الكهنوت ترتكز الى القنـاعة بأن الكاهن وحده هو الذي يعرف اللغة التي يستطيع الانسان ان يواصل بواسطتها الله .

ان جميع تيارات الكينونة تحمل طابعاً تاريخياً ، وكل مناهج الربط للكينونة الواعية مطبوعة بطابع ديني . وان ما نعرفه بكونه ملازماً لكل لغة شكل ، من دينية أو فنية ، وخاصة في تاريخ كل أبجدية ، (لأن الكتابة هي لغة لفظية للعين) ، انما يسري مفعوله وينطبق ، دون شك ، بصورة عــامة ، على الكلام البشري الواضح المعنى والحق أن الكلمات الأولية (للتركيب الذي لا نعرف الآن عنه أي شيء مهما كان نوعه) يجب أن يكون لها ايضاً وبالتأكيد صبغة من مذهب . ولكن يوجد هناك منها ربط يوفق من جهة أخرى ، بين العنصر وبين كل شيء نسميه حياة (كالصراع من أجل القوة) ، والتاريخ (بوصفه مصيراً) أو السياسة اليوم . وانه قد يكون أمراً خيالياً أن نناقش شيئاً ما ذا غريزة سياسية في البحث في نبات متعرش يتسلق ليبلغ بماسك تمكنه من الالتفاف والتغلب وخنق الشجرة بغية أن يثبت نفسه أخيراً ويتطاول عاليا برأسه فوق تاج الشجرة -أو نناقش شيئاً من شعور ديني بالعالم في أغنية قبرة تتسامى عالياً في الأجواء . ولكن بالتأكيد انه من خلال أشياء كهذه تتشكل هذه التلفظات للكائن والكائن الواعي ، وللنبض والتوتر سلاسل متصلة تبلغ الاشكال المتكاملة من سيـــاسية ودينيـــة لكل مدينة حديثة .

وهوذا أخيرا المفتاح لهذين العــالمين الغريبين اللذين اكتشفهما علمـــاء أصول السلالات البشرية في جزئين مختلفين تمامــاً من العالم ، وبتطبيقات هي نوعاً مـــا محدودة ، ولكنهما أخذا منذ اكتشافهما يزحفان بهدوء الى مقدمةالبحث وأعني بهذين العالمين «الطوطم» «Totem» «والتابو» Taboo . وكلما ازدادت هاتان الكلمتان غموضاً وابهاماً ، وازداد عدم امكانية تعريفها وتحديدهما،يزداد شعورنا بأننا نلمس في هاتين الكلمتين قاعدة نهائية للحياة ، قــاعدة لم تكن بالقاعدة تلك ، أي بجرد

قـاعدة الانسان البدائي . والآن ونتيجة لاستقصائنا المذكور أعلاه ، نجد أمامنا معاني واضحه لكل منهما . فالطوطم والتابو يصفان المعـــاني النهـائيه لكل من الكينونة والكينونة الواعية ، للمصير والسببية (العلية) ، للعنصر واللغه ، للزمان والفراغ ، للحنين والخوف ، للنبض والتوتر ، للسياسة والدين . فجـانب الطوطم من الحياة هو الجـانب الشبيه بالنبات ، وهو ملازم وموروث في كل كائن ، بينما أن جانب التابو (من الحياة) هو الجـــانب الحيواني وهو يفترض مسبقاً الحركة الحرة الطليقة لكل كائن في أحد العوالم . أمـــا وسائل « طوطمنا » فهي وسائل الدورة الدموية والتناسل، بينما أن وسائل «تابونا» هي وسائل الحواس والأعصاب. ان لكل ما هو طوطم سيماء ، وان لكل مـــا هو تابو منهاجاً . ويكمن داخل الجـــانب الطوطمي الشعور المشترك بين الكائنات هذا الشعور الذي ينتسب الى تيار الوجود ذاته ، ونحن لا نستطيع أن نكتسب الجـانب الطوطمي أو أن نتخلص منه ، فهو واقعة ، لا بل إنه واقعة كل الوقائع . أما ما هو تابو ، من جهة أخرى ، فهو المميز لانظمة الشعور الواعي للربط ، وهذا قـــابل لأن يتعلمه الانسان ويكتسبه ، وهو لهذا السبب بالذات يصان ويحافظ عليه من قبل الطوائف المذهبية ومدارس الفلاسفة واتحـادات الفنانين بوصفه سراً ، وكل من هذه تملك نوعاً من لغه خفية المعنى سريته خاصة به وموقوفة عليه .

ولكننا نستطيع أن نفكر بالكينونة دون أن نكون بحاجة للشعور الواعي، ولكننا لا نستطيع العكس ـ فهناك مثلاً كائنات عنصر لا لغة لها ، ولكن لا توجد لغات لا عنصر ، او عناصر لها . ولذا فان كل ما هو من عنصر يمتلك تعبيره الذاتي الملائم وهو مستقل عن أي نوع من انواع الشعور الواعي ، ومشترك بين النبات والحيوان . وهذا التعبير ـ وعلينـا أن لا نخلط بينه وبين لغة التعبير التي تتوقف وتحتوي على تبديل فعال للتعبير ـ أقول ان هذا التعبير لا يقصد ان يكون له مشاهدون أو شهود ، لكنه موجود وقائم بكل بساطة ، انه سيماء . وهو ليس بذاك الذي يتوقف عند النبات ، فهنـاك في كل لغة حية ايضـاً (وبا لعمق مغزى كلمة حية) نستطيع أن نكتشف ، الى جانب التابو القابل للتعلم ، صفة عنصر لا

يمكن اطلاقـــاً تحويلها والتي لا تستطيع الأوعية القديمة للغة أن تنقلها الى خلف غريب ، وهذه الصفة تكمن في اللحن والايقـــاع والنبرة ، وفي اللون والرنين ومقياس سرعة Tempo التعبير ، وتكمن في اللهجة المرافقة للايماءة أو الاشارة. وعلينا بهذا الخصوص أن نميز بين اللغة وبين النطق ،فالاولى هي مجد ذاتهـا مخزون ميت من الاشارات ، بينا أن الثـــاني (النطق) هو الحيوية ، أو النشاط . الذي يعمل بهذه الاشارات . وعندمـا نعجز عن سماع أو الرؤية المباشرة لكيفية النطق باللغة ، فعندئذ كل ما نستطيـع أن نعرفه عن تلك اللغة انما هو مجرد عظامها وليس بلحمها . وهذه هي حـال اللغات من السومرية والغوطية والسنسكريتية ، وحال جميع اللغات الأخرى التي حللنا رموزها من المخطوطات والمحفورات ، ونحن لعلى حق اذا مـــا نعتنا هذه اللغات باللغات الميتة لأن الجماعـات البشرية التي كانت قد تكونت بواسطتها زالت من سفر الوجود . فنحن نعرف اللسان المصري ولكننا لا نعرف الألسنة المصرية . ومن اللغة اللاتينية الاغسطية نعرف تقريباً قيم جرس الحروف ونعرف معـــاني التكلمات ، ولكننا لا نعرف كيفية جرس خطابات شيشرون وهو يلقيها من على منصات الخطابة ، زد على ذلك أن معرفتنا بهذه اكثر من معرفتنا بطريقة ونغم القاء هسيود وسافو Sappho لقصائدها ، أو أي شكل حقيقي كانت الاحاديث تتخذه في ساحة السوق الأثينية . واذا مـــا كانت اللغة اللاتينية قد أمست ثانية في الحقبة الغوطية لغة واقعية وعملية ، فانهـــا كانت لغة جديدة. وهذه اللغة الغوطية اللاتينية لم تحتج الى وقت طويل كي تنتقل من تشكيل الايقاعات والاجراس المميزة لها (والتي لم تستطع مخيلتنا اليوم أن تستعيد اكثر من تلك ــ الايقاعات والاجراس ــ العـــائدة للغة اللاتينية القديمة) أقول كي تنتقل الى التجاوز على معاني الكلمة بالاضافة الى التجاوز على علم تركيب الكلام . ولكن اللغة المضادة للغة الغوطية اللاتينية ، وأعني بهذه لغة حركة الانسانيين والتي قصد بها أن تكون لغة شيشيرونية، كانت أي شيء ما عدا ظاهرة انتعاش ونهضة. وباستطاعتنا أن نقيس كامل مغزى العنصر في اللغة اذا ما قارنا بين ألمانية نيتشه وموممسن ، أو بين فرنسية نابليون ، ونلاحظ أن ليسنغ Lessing هو أقرب

بكثير باسلوب تعبيره الى فوئتبر منه الى هلدرلن .

والحال ذاتها تنطبق على اكثر لغات التعبير أعلاماً ، ألا وهو الفن بجانب التابو منه — وأعني بهذا المخزون من الاشكال وقواعد الاعراف ، والاسلوب الى ذاك الحد من حيث أنـه مصنع وترسانة لوسائل مقررة (وهو من هذه الوجهة شبيه بالمفردات وعلم تركيب الكلام في لغة اللفظ) فـان هذا الجانب يقوم مقام اللغة وبالامكان تعلمه . وهو يتعلم وينقل بواسطة تقـاليد المدارس العظمى في التصوير الزيتي ، وبناية الاكواخ ، وبصورة عامة في الانضباط التقني الصارم الذي يمتلكه بداهة كل فن أصيل ، والذي قصد به في كل العصور أن يعطي السلطة الأكيدة لاسلوب تعبير كان أو لا يزال في وقت معين اسلوبا لا شك أبداً في حياته في ذاك الوقت . وذلك لأن في هذا المجال ايضاً لغات حية وأخرى ميتة . فنحن نستطيع فقط أن نصف لغة شكل ما بأنها لغة حية عندما نشاهد فصائل الفنانين يستخدمونها كمجموعة كما يستخدم المرء لغته الأصلية دون أن يكون في حاجة حتى الى التفكير بتركيبها . ووفق هذا المفهوم كان الاسلوب القوطي لعـام ١٦٠٠ ، واسلوب الروكوكو لسنة ١٨٠٠ ، يمثلان معاً لغتين ميتتين . ولنقابل بين الثقة التامة التي عبر بهـا مهندسو القرنين السابع عشر والثامن عشر وموسيقيوهما عن ذواتهم وبين تردد بيتهوفن وفن شنكل وشادو الفيلولوجي ، هذا الفن الذي اكتسباه بعد أن عـانيا مرير الألم ، وعلماه نفسيهما بنفسيهما تقريبـاً ، ولنتمعن في مشوهات الفنانين ما قبل رفائيل وفي القوطيين الجدد وفي المذهب التجريبي المربك المحير الذي يدين به فنانو هذا العصر .

اننا لنرى، في لغة شكل فني كما تعرض علينا من خلال انجازاته ، لسان الجانب الطوطمي ، العنصر ، ينطلق بصوته ليفرضه على أسماعنا ، وصوته ليس أقل جلجلة في الفنانين كأفراد منه في أجيال كاملة من الفنانين . ان مبدعي الهياكل الدورية Doric في جنوبي ايطاليا وفي صقليه ومبدعي المعـابد القوطية المبنية من الأجر في شمالي المانيا كانوا أكيدا رجالاً عنصريين ، وهكذا ايضاً كانت حال الموسيقيين الألمان ابتداء بهينريخ شوتز حتى جوهـان سبستيان باخ . ان مؤثرات الدورات

الكونية تنتمي الى الجـــانب الطوطمي ، وبالكاد أشتبه حتى بوجود أهمية لهذه المؤثرات في تركيب تاريخ الفن ناهيك عن تقريرها ، وان أزمنه الابداع ، أزمنة الربيــع ، وأزمنة محركات الحب ومحرضاته التي (كلها مـا عدا الثقة الاجرائية في الشكل الاعلامي) تقرر زخم الاشكال وعمق التصورات والاراء تنتسب ايضاً الى الجانب الطوطمي . ان الشكليين (اتباع المذهب الشكلي ـ المترجم) يفسرون بواسطة عمق الخوف من العالم ، أو بواسطة قصور ، أو عيب في « العنصر » ، أما الفنانون اللاشكليون العظام فانهم يفسرون بفيض من دم أو قصور في الانضباط . اننا ندرك أن هناك فرقـــاً بين تاريخ الفنانين وبين تاريخ الأساليب ، وأن من الجائز أن تنقل لغة أحد الفنون من بلد الى آخر ، لكنه من المستحيل أبداً أن يتقن البلد الآخر التحدث بها اتقانا تاماً كاملاً .

ان للعنصر جذوراً ، وان العنصر والصقع ينتمي احدهما الى الآخر وينتسب اليه . واينما يضرب النبات جذوره فهناك يموت ايضـــاً . وهناك بالتأكيد حقيقة نستطيع وفقها أن نتتبع دون ، مـا بطلان أو سخف ، العنصر حتى نعود به الى « مواطنه »، ولكن أهم من هذا بكثير أن نعرف ونتحقق من أن العنصر يلتصق أبداً ودائمـــاً بهذا الموطن ، مشدوداً اليــه ببعض من أهم مميزات جسده وروحه الجوهرية . واذا كنا لا نستطيــع أن نجد لذاك العنصر من أثر ، فـان هذا الأمر يعني أن هذا العنصر لم يعد له وجود . ان العنصر لا يهاجر، بل ان الناس يهاجرون وذراريهم يولدون في أصقاع دائمة التبدل . لكن الصقع يمارس زخمـــاً خفياً على طبيعة النبـات فيهم ، وأخيراً يتبدل تعبير العنصر تبدلاً كاملاً ، ويتم تبدله نتيجة لخمود التعبير القديم وظهور تعبير جديد . ان الانكليز والألمـــان لم يهاجروا الى أميركا ، بل ان الذين هاجروا الى هناك هم أناس ، أما ذراريهم فهم أميركيون . ولقد أتضح منذ طويل زمن أن تربة الهنود قد طبعتهم بطابعها ، وانهم يمسون جيلاً بعد جيل اقرب شبهاً بالشعب الذي أبادوه ولقد أظهر لنا غاولد Gould وباكستر أن البيض من جميــع العناصر والهنود والسود قد بلغوا جميعـــاً ذات المستوى من الحجم الجسماني ، وذات السن من البلوغ ، وأن المهاجرين الارلنديين الذين وصلوا

وهم صبيان ينمون نمواً كسيح البطء ، قد جرفتهم بصورة ســـاحقة قوة الصقع خلال الجيل ذاته .

لقد أبان لنا « بوس » Boas أن الأطفال المولودين في أميركا من الأباء ذوي الرؤوس الصقيلة الطويلة ، والرؤوس الالمـــانية اليهودية القصيرة قد أمسوا فوراً ذوي رؤوس ذات نموذج واحد . وهذه ليست بحالة خاصة ، بل إنمـا هي ظاهرة عامة ، يتوجب علينا أن نستفيد منهـا لنكون جد حذرين حين معالجتنا لهجرات التاريخ التي لا نعرف عنهـا شيئاً اكثر من بعض اسماء القبائل متشردة وآثار من لغات (كالدانيا Dania ، الأترسكان ، بيلاسجي ، آخيان ، دوريان) .

أما بالنسبة الى عنصر هذه « الشعوب » فنحن لا نستطيع أن نستنتج أي شيء مهما كان أمره . وان ذاك السيل الذي تدفق على أراضي جنوبي اوروبا تحت مختلف الاسماء من غوط ولمباردين وفندال ، فانه كان دون ريب عنصراً قائماً بذاته ، ولكن ما كادت أزمان عصر النهضة تطل برأسها حتى كانت هذه قد أتمت ذاتها تماماً داخل مميزات جذور تربة بروفنسال وكاستليا وتوسكانا .

وليست الحـــال هي هذه واللغة . فموطن اللغة يعني فقط المكان التصادفي لتكونها ، وهذا لا يشده أي رابط الى شكلها الباطني . فاللغات تهاجر وهي بهذا تنتشر بواسطة نقلهـا من عشيرة الى عشيرة . وهي قابلة للوجود ، وقابلة للتبادل ، ونحن في حال دراستنا لتاريخ العناصر المبكرة زمنا ، لسنا بحاجة ، لا بل يتوجب علينا الا نشعر بأقل تردد نفترض حينها قيام تبدلات لغوية كهذه. إن «وأكرر ثانية» ما يقتبس هو محتوى الشكل وليس لهجة اللغة ، وهو يقتبس (كما يقتبس البدائيون حوافز الزخرف) بغية استخدامه بقناعة تامة كعناصر من لغة شكلهم الخـاصة . وفي الأزمنة الغابرة كان اذا مـــا أظهر الشعب نفسه أنه هو الأقوى ، أو تبدى الشعور بأن لغته تمتلك فاعلية أسمى ، فهذان الأمران كانا كافيين لاستمالة الآخرين وترغيبهم في التخلي عن لغتهم الخـــاصة – برهبة دينية أصيلة – واقتباس لغة ذاك الشعب لغة لهم . ولنتتبـع التبدلات التي طرأت على لهجة النورمانديين الذين نجدهم

في منطقة نورماندي وانكلترا وصقلية والقسطنطينية ، ونجد أن لهؤلاء لغة تختلف عن الاخرى باختلاف المكان ،ونجد أستعدادهم الدائم لأن يبادلوا الواحدة منها بالاخرى . ان الخشوع أو الورع أمام اللغة الأصلية (لغة الأم) ، وهذه الجملة تدل بالذات على قوى أخلاقية عميقة ، وتوضح مرارة معاركنا اللغوية المتكررة أبداً أقول أن هذا الخشوع هو سجية من سجايا النفس الغربية المتأخرة زمنـاً ، وهي غير معروفة تقريباً من قبل شعوب الحضارات الاخرى ، ومجهولة تماماً لدى الجماعات البدائية .

ومن سوء الحظ أن مؤرخينا لا يدركون فقط هذه بل انما يعطون بها ضمنا ويشدون بها بوصفها فرضية ، ليجعلوها تغطي كامل ميدانهم حيث تؤدي في النهاية الى استخلاص جمهرة من الاستنتاجات الخادعة الغراوة وذلك فيما يتعلق بارتباط الاكتشافات اللغوية وأثرها في أقدار « الشعوب » ولنتأمل في اعادة تركيب والهجرة الدورية، Dorian من زاوية توزع اللهجات العامية الاغريقية التي عرفت فيما بعد . لذلك فمن المستحيل علينا أن نستخلص الاستنتاجات عن أقدار الجانب العنصري من القضية ، من مجرد أسماء الأماكن والاسماء الشخصية والخطوط والنقوش واللهجات العامية .ونحن لا نعرف بالبداهة أبداً عما اذا كان أسم قوم ، يقوم مقام ، أو يدل على جرم لغة ، أو جزء من عنصر أو كلا الأمرين ، أو لا يدل على أي منها – زد على ذلك أن أسماء الاقوام وحتى أسماء الاراضي ونحوها تلك مصائر خاصة بها .

- ٢ -

إن أنقى ما للعنصر من تعابير ، انما هو الدار ،فمنذ اللحظة التي يستقر فيها الانسان ويتوطن ، لا يعود قانعاً بمجرد مأوى ، بل انما يبني له مسكنا ، وهذا

التعبير الدار – يتجلى داخل « الانسان » العنصر (الذي هو مـادة صورة العالم البيولوجي) ويميزه كما يميز كل عنصر من العناصر البشرية في تاريخ العـالم ، هذه العناصر التي تشكل أنهـاراً من كينونة أشد بكثير بأهميتها ومغزاهـا الروحيين (من انسان العنصر – المترجم) ان الشكل الاولي للدار هو في كل مكان نتـاج شعور ونمـاء ، وليس أبداً نتاج معرفة . وهو كصدفة القوقعة ، أو قفير النحل ، أو عش الطير ، له وضوح ذاتي فطري ، وكل سمة من سمات العادة الاصلية وشكل الكائن والزواج والحياة العائلية والنظام القبلي انمـا تنعكس داخل المكان وفي تنظيم الغرف ، تنظيم صحن الدار ، القاعة ، الكوخ المخروطي الشكل ، Wigwam[1] الايوان ، الحوش ، المخدع ، ومخدع النساء . والمرء ليس بحاجة الى اكثر من أن يقارن بين مخطط لدار سكسونية قديمة وآخر لمسكن روماني ، حتى يشعر بأن روح أهل كل دار منها انما تنطبق بكل ناحية من نواحيها على روح الدار .

ولقد كان من المتوجب على تاريخ الفن ألا يمد بأصابعه الى هذا الميدان . فـانه كان من الخطأ البالغ أن يعالج بناء الدار كفرع من فن الهندسة المعمارية . فالدار هي شكل ينشأ من مجاري الكائن الغامضة ، ولا تنشأ من أجل العين التي تبحث عن الاشكال في الضوء . فلم يحدث أبداً أن قـام أي من المهندسين بوضع مخطط لغرف كوخ الفلاح الالماني القديم Boor ، كما وضع مخطط احدى الكتدرائيات وصمم . وهذا الخط من الحدود ذو المغزى العميق قد سها عن بال الابحاث الفنية – بالرغم من أن دهيو Dehio يشير في احدى صفحـاته الى أن الدار الخشبية الالمانية القديمة لا تمت بـأية صلة الى الهندسة المعمارية العظمى والتي عرفت فيما بعد ، ونشأت نشأة مستقلة تماماً – وهكذا جاءت النتيجة لتخلق حيرة وارتباكاً دائمين في المنهاج ، هذا المنهـاج الذي يملك اللوذعي في الفن احساساً كافياً به ، لكنه لا

١ – Wigwam اسم الكوخ الذي يسكنه الهنود الحمر وخاصة القاطن منهم على البحيرات الأميركية العظمى

(المترجم)

يستطيع أن يفهمه . فعله يجمع دون ما تمييز ، وفي كل « المراحل البدائية » والسابقة لها ، جميع انواع العدد والاسلحة والفخار والاقمشة والنصب التذكارية والدور ، ويعالج كل هذه الاشياء من وجهة نظر الشكل بالاضافة الى دراسته لها على أضواء الزخرف « الديكور » ، وهو بانطلاقه على هذا النمط لا يشعر بـأنه يسير فوق أرض راسخة ثابتة حتى يبلغ التاريخ المتعضي Organic لفن التصوير الزيتي والنحت والهندسة المعمارية ، (وأعني بهذا الفنون المميزة والقائمة بذاتها) . ولكن دون أن يحس أو يعرف فهو قد تجاوز حداً يفصل بين عالمين ، عالم تعبير النفس وعالم لغة التعبير المنظورة . فالدار ومثلها الاشكال الأساسية (أعني العادة) التي لم تدرس أبداً ، أشكال الأواني والاسلحة والثياب والعدد ، كل هذه إنما تنتسب الى الجانب الطوطمي .

وهذه لا تمثل ذوقاً ، بل إنما تمثل نمطاً من القتال والسكن والعمل . فكل مقعد بدائي إنما هو عملوج من عساليج وضع الجسد كنموذج ، وكل حلقة جرة إنما هي امتداد للذراع اللدنة الطرية العود . أما التصوير الزيتي المنزلي والحياطة والحلة كزخرف أو زينة ، وزخرفة الأسلحة والمعدات الحربية فهي ، على العكس من تلك ، إذ أنها تنتمي الى جانب التابو من جانبي الحياة ، والحق أن نماذج هذه الاشياء وحوافزها إنما تمتلك في نظر الانسان البدائي حتى الصفات السحرية . ونحن جميعاً نعرف شعار السيوف الالمانية القديمة في عصور الهجرات ، وما عليها من زخرفة شرقية ، ونعرف القلاع الماسينية بمهارتها الفنية المنوانية . وزبدة القول ، أن التمييز بين هذين العالمين (الطوطم ، والتابو – المترجم) إنما هو تمييز بين الدم وبين الحس ، بين العنصر وبين الكلام ، (اللغة . المترجم) بين السياسة وبين الدين .

والحق أنه لا يوجد حتى تاريخ عالم للدار وللعناصر التي سكنتها لذلك فان ايجاد تاريخ كهذا يجب أن يكون من أشد واجبات البحاثة الحاحـاً . ولكن يتوجب علينا أن نعمل (في هذا الموضوع – المترجم) مستعينين بوسائل أخرى تختلف تماماً عن وسائل تاريخ الفن هاتيك . فمسكن الفلاح ، اذا ما قورن أو قيس بمقياس سرعة

l'empo كل تاريخ فن ،يتبدى شيئاً ما ثابتاً دائماً ووخالداً، كالفلاح نفسه . فمسكنه يقع خارج دائرة الحضارة ، ولذلك هو خارج نطاق التاريخ الأرقى للانسان ، وهو لا يعترف بالحدود الدنيوية والفراغية معاً لهذا التاريخ ، ويصون ذاته بصورة مثالية من كل تغيير أو تبدل طيلة التبدلات والتغيرات التي تطرأ على الهندسة المعمارية هذه التبدلات التي يشاهدها مسكن الفلاح لكنه لا يشترك أو يشارك فيها . فنحن لا نزال نجد الكوخ المستدير ، الذي عرفتـــه ايطاليا القديمـــة ، وجوداً في العصور الأمبراطورية ، كما وأننا نجد شكل الدار الرومانية . القائمة الزوايا ، والتي تمثل طابع وجود لعنصر ثان ، في مدينة بومبي وحتى في القصور الأمبراطورية . ولا شك أن كل نوع من زخرفة واسلوب انما قد اقتبس من الشرق ، غير أننـــا لا نستطيع أن نجد أنساناً رومانياً واحداً يمكن أن يراود أبداً عقله التفكير بتقليد دار سورية ، اكثر مما أن يراود مثل هذا التفكير مهندس مدينة هيلينية فيبعث بشكل دار مسنية (نسبة لمدينة مسينا) وأخرى تايرنسية (نسبة لمدينة Tiryns) وثالثة دار فلاح اغريقي قديم كتلك الدار التي وصفها غالن Galen . فدار الفلاح السكسوني أو الفرنكوني قد حافظت وصانت نواتها الجوهرية من كل ضرر ابتداء من المزرعة الريفية ومروراً بالدار التي عرفتها المدن الحرة القديمة ، وانتهاء بمباني الطبقة الثرية في القرن الثامن عشر ، وذلك كله بينما كانت الأساليب المعمارية القوطيـــة واساليب عصر النهضة والباروكية والامبراطورية تتحدر فوق دار ذاك الفلاح اسلوباً بعد اسلوب فتجليها بجواهرها من القبو حتى غرفة سطحها العلوية ، لكنها مع هذا لم تستطع أبداً ان تحرف روح تلك او تعكسها او تقلبها . والقول نفسه هو صحيـــح ايضاً بالنسبة لأشكال الأثاث المنزلي الذي يتوجب علينا ان نفرق فيه بحـــذر وعناية ، بين الشكل السيكولوجي وبين المعالجة الفنية له . فتطور المقعـــد الشمالي صعوداً حتى المتكأ (المقعد ذو التكاة) Armchair المعروف في النوادي هـــو بصورة خاصة قطعة من تاريخ العنصر وليس هو كما يسمى جزء من تاريخ الاســـلوب . وكل مسحة أخرى يمكن أن تغرر بنا وتخدعنا بالنسبة لأقدار العنصر – فان نجد أسماء أثو وسكانيه ، بين « شعوب البحر » التي هزمها رمسيس الثالث ، وأن نتأمل

في النقوش الغامضة المكتشفة في جزيرة ليمنوس Lemnos ، وفي الصورة الزينية على جدران قبور اتروريا Etruria ، كل هذه الأمور لا تقدم الينا دلائل مقنعة على أن ترابطاً جسمانياً يقوم بين هذه الأقوام. ومع أنه وقرابة نهاية العصر الحجري قد نشأت واستمرت وامتدت زخرفة معبرة ناطقة في الاقاليم الفسيحة الواقعة شرقي جبال الكاربات ، فمن الجائز تماماً أن يكون عنصر قد حل محل عنصر آخر في تلك الأقاليم. ونحن لو كان كل ما نملكه في اوروبا الغربية فقط بقايا خزفية وآثار من فخار تعود الى تلك القرون الممتدة من تروجان Trojan حتى شلودفغ Chlodwig ، لتوجب علينا ألا يكون لدينا أقل فكرة عن ذلك الحدث الذي نعرفه باسم « الهجرات العظمى ». ولكن وجود دار بيضاوية الشكل في اقليم بحر إيجا ، واخرى مدهشة في مماثلتها لها في روديسيا ، وذلك التوافق التام (في الشكل) ، بين دار فلاح سكسوني ودار فلاح بربري ليبي Kabyle ، هذا التوافق الذي كثيراً ما نوقش وبُحث ، كل هذه الأمور انما تكشف عن قطعة من تاريخ عنصر .

ان الزخرفة تنتشر عندما يقوم شعب من الشعوب بضمها اليه بما لها من لغـة شكل ، ولكن الدار إنما تنقل فقط مع عنصرها. فاختفاء نوع من الزخرفة لا يعني أكثر من أن تبدلاً قد طرأ على اللغة ، ولكن عندما يختفي نموذج الدار، فهذا يعني ان عنصراً قد اختفى ،وحمد وباد.

مما تقدم يتضح أنه من المتوجب على تاريخ الفن ، بالاضافة الى انتباهه بأن يبدأ ببحث الحضارة باسلوب ملائم وسديد ، أن لا يهمل حتى في مجراه أن يفصل بعناية وحذر جانب العنصر عن اللغة الخاصة به . ففي مطلع كل حضارة ينشأ شكلا نظام أرقى ، وهما محددان ومعرفان تعريفاً واضحاً وينتصبان فوق قرية الفلاح بوصف الاول منهما تعبيراً لكائن ، والثاني للغة كائن واع . انهما القلعة والكاتدرائية. وفيهما يتسامى التمييز بين الطوطم وبين التابو ، بين الحنين وبين الخوف ، بين الدم وبين الذهن ، فيبلغ رمزية عظمى . فالقلاع القديمة من مصرية وصينية وكلاسيكية ، وعربية جنوبية وغربية ، تنتصب كل واحدة منها بوصفها موطناً لأجيال مستمرة ، وهي قريبة جداً الى كوخ الفلاح ، وكلاهما ـ القلعة والكوخ بوصفهما نسختين

طبق الأصل عن حقيقي الحي ، التوالد والموت ، يقعان خارج دائرة كل تاريخ لفن. فتاريخ القلاع الالمانية هو قطعة من تاريخ عنصر متناً وحاشية ،والزخرفة المبكرة زمناً لا تغامر فعلاً بنشر نفسها عليها،وان كانت تزين هنا العوارض وهناك الابواب، وايضاً السلالم لكنها يمكن أن تكون على هذا الشكل أو ذاك،أو على تلك الحال،التي تراد وتشتهى،أو أن تحذف كلها.وذلك لانه لا يوجد أي رباط باطني بين هيكل القلعة وبين الزخرفة.اما الكاتدرائية من جهة اخرى.فهي لا تزخرف لانها هي الزخرفة فسها . وتاريخها انما هو ذاك الذي يطبق تمام الانطباق على تاريخ الاسلوب القوطي. وهذا القول صحيح ايضاً وينطبق على المعبد الدوري وعلى جميع الحضارات المبكرة الاخرى . والتوافق ، في هذا الميدان بين الحضارة الغربية وكل حضارة اخرى نعرف شيئاً من فنها . تام الى ذاك الحد حيث أنه لم يخطر على بال احد ليندهش ويذهل من الواقعة المقررة ان الهندسة المعمارية الدقيقة في قواعدها والتي هي بداهة الشكل الارقى للزخرفة المجردة ، انما تنحصر كلياً في المباني الدينية . فكل ما هنالك في جلنهاوسن وغوسلار وفارتبورغ هو من فن الكاتدرائيه.وهو ديكور وليس جوهراً.فالقلعة أو السيف او الجرة يمكنه ان يستغني كلياً عن هذا الديكور دون ان يفقد معناه او حتى شكله . ولكن تمييزاً كهذا في الكاتدرائية او معبد اهرام مصري . بين الجوهر وبين الفن هو امر غير معقول بداهة .

إذن فاننا نميز هنا بين المبنى الذي يملك اسلوباً ، وبين المبنى الذي للانسان فيه اسلوب. فبينا نحن نرى في الدير والكاتدرائية أن الحجر هو الذي يمتلك شكلاً يعبر عنه الناس الذين هم في خدمته ، نرى في الدار الريفية والقلعة الاقطاعية انهما تمثلان كامل قوة حياة الفلاح والفارس ، هذه القوة التي تبني البناء من داخل ذاتها . وهنا نرى الانسان لا الحجر في الطليعة ، وهنا ايضاً توجد زخرفة، ولكنها زخرفة خاصة بالانسان تتضمن الطبيعة الصارمة والشكل المستقر الراسخ للأعراف والعادات . ويجوز لنا أن نصف هذا الاسلوب بالاسلوب الحي تمييزاً له من الاسلوب المتخشب. ولكن ما تكاد قوة هذا الشكل الحي تضع يدها على الكهانة

أيضاً ، خالقة في الازمان الغوطيه والفيدية ، نموذج الكاهن الفارس ، حتى تستولي لغة الشكل الرومانسكية الغوطية المقدسة على مقاليدكل أمر يتعلق بالحياة الدنيوية هـذه من ازياء واسلحة وغرف وعدد الخ ... وتجعل لسطحها أسلوباً ، ولكن يتوجب على تاريخ الفن ألا يسمح لنفسه بأن تفقد اتجاهها في هـذا العالم الغريب فهو ليس اكثر من السطح .

والحال هي الحال ذاتها في المدن المبكرة زمناً ، فليس هناك من شيء يتبع أو يتلو ، وبين الدور التي بناهـا العنصر والتي تشكل الآن شوارع أو طرق أو أزقة ، نصادف حفنة من شتيت مبان للعبادة تمتلك اسلوبـاً . وحينا يقوم هذا الشتيت بمسي مقاعد تاريخ الفن والمنابع التي تشع اشكالها على الساحات والواجهات وغرف الدار . ومع أن القلعة تتطور الى قصر مدني ومسكن لعـائلة ثرية ، والبلاتيوم ، والمنزول ، الى دار نقابة وقاعة بلدية ، فـان الواحدة منها وجميعها لا تمتلك اسلوباً بل انمـا تتلقاه وتحمله . والقول بأن الدين المبكر زمناً قد فقد إبداعه الميتافيزيكي في مرحلة الاستبلاد [1] الحقيقي هو قول صحيح ،وهو(الدين المبكر زمنا) يسير قدما بتطوير الزخرف ، ولكن ليس الى حد جعل البناء زخرفة،ومن هذه النقطة يتنـاثر تاريخ الفن الى تواريخ فنون متفرقة . وتصبح الصورة ، والتمثال ، والدار ، مواضيـع خاصة يطبق عليها الاسلوب .

وهنا تمسي حتى الكنيسة داراً كهذه . أما الكاتدرائية الغوطية فهي زخرفة ، لكن قاعة الكنيسة الباروكية هي بناء جلبب بالزخرفة . وسياق هذه العملية بدأ بالاسلوب الأيوني،واكتمل القرن السادس عشر،بالأسلوب الكورنثي والروكوكو ومن هنا انفصل البيت عن زخرفته انفصالا لالقاء بعده ، وافترقا فراقاً تاماً بلغ من التنائي حداً لم تعد معه حتى التحف من كنائس القرن الثامن عشر وادواتـه قادرة على تضليلنا ـ فنحن نعرف بأن كل فنها هذا انما هو فن دنيوي ، انه زخرفة

١ـ أستبلاد: سكن البلدة

ـ المترجم ـ

ومع حلول العصور الأمبرارطورية يحول الاسلوب نفسه الى «ذوق» Taste، وبنهاية هذه الحــــال تتحول الهندسة المعمارية الى فن مهارة craft-art وهـذا الفن هو لغة التعبير الزخرفي ، وخاتمة تاريخ الفن معه ، لكن دار الفلاح بما لهــا من شكل عنصر غير متبدل تستمر في الحياة .

- ٣ -

تبدأ أهمية الدار بوصفها تعبيراً عن عنصر حالمــا يبــدأ المرء بادراك المصاعب الهـائلة التي تعترض طريقه الى بحث لب العنصر . وأنا لا أشير هنــا الى جوهره الباطني ، الى نفسه - كما أشير الى ذاك الشعور الذي يتحدث الينا بوضوح كاف ، ونحن جميعــاً نعرف انسان العنصر ، الانسان الكريم الارومة عندما نشاهده . ولكن ما هو الطابع بالنسبة لحسنا ، وقبل كل شيء بالنسبة لعيننا الــتي تمكننا من التعرف على العناصر وتمييزهـا ؟ ان هذا الطابع هو أمر يدخل لا ريب في ميدان السيماء ، كما يدخل تصنيف اللغات في دائرة المنهــاج . ولكن يا لضخامة المادة التي قد تطلب وبا لكثرة تنوعها ! ويا لوفرة مـا يضيع منها ولا يستورد أبدا نتيجة للدمار ، وأكثر ممــا يضيعه الدمار منها ، ما يأتي عليه التلف او الفساد ! ان ما لدينا من آثار بشر ما قبل التاريخ هو ، في أحسن الحالات ، هياكلهم العظمية ، ولكن كم من الأمور لا يحدثنا عنهـا الهيكل العظمي ! انه لا يحدثنا عن كل شيء تقريباً . ان البحث فيما قبل التاريخ بيدي باندفاعه السقيم وحماه السخيفة استعداده لأن يستنتج اللامعقول من عظم فك أو عظم ذراع . ولكن ليتأمل المرء في أحد تلك القبور الجماعية ، قبور الحرب في شمالي فرنسا ، فهذا القبر يضم كما نعرف رفات أناس من جميع العناصر ، وفي مثل هذا القبر يضطجع القتلى من البيض والملونين ،

من الفلاحين وابناء المدن ، من الشباب والرجال جنباً الى جنب . ولو أن المستقبل لم يكن لديه دلائل تكميلية بالنسبة لطبيعة هؤلاء ، فانه أكيداً لن ينور بواسطة البحث الانتربولوجي .

وبكلمات أخرى أقول إن الدرامات الهائلة للعنصر يمكن أن تجتاز بقعة من الارض دون أن يحصل الباحثون في عظام المقابر على أقل علم بها . ان الجسد الحي هو الذي يحمل تسعة أعشار التعبير - وليست عقد أجزاء الجسد ومفاصله ، ولكن حركاتها الواضحة البينة ، والتعبير لا يرتسم على عظام الوجه ، بل إنما يتبدى على سحنته . وبالنسبة لهذا الموضوع كم من تعابير العنصر المحتملة والقابلة للترجمة تلاحظ فعلا من قبل أشد المعاصرين ، لأحد الناس ، إرهاف حس ؟ وكم من الأمور تفوتنا رؤيتها ويفوتنا سماعها ! ومـا هو ذاك الأمر أو الشيء الذي نحن البشر - خلافاً للكثير من فصائل الحيوان - نفتقد عضو حاسة به ؟

لقد جـــابه العلم في العصر الداروني هذه القضية بثقة هينة وتأكيد بسيط . ولكن بالهذا المفهوم الذي استخدمه من مفهوم سطحي أملس زلق وميكانيكي ! فهذا المفهوم يجمع أولاً مجموعة من ذات سمات سمجة مفرطـة واضحة كتلك التي يمكن ملاحظتهـا في تشريح المكتشفـات - وأعني بهذا السمات التي يمكن حتى للجثث أن تبديها . أما فيما يتعلق بملاحظة الجسد بوصفه شيئاً حياً ، فان هذا المفهوم لا يتطرق اليـــه من بعيد أو قريب . ثم ان هذا المفهوم يتحرى تلك الاشارات فقط التي لا تحتاج إلا الى أقل القليل من الفطنة وحدة الذهن ، ويتحراها فقط من حيث كونها قابلة للقياس وللاحصاء .

وكلمة الجسم هنا للمجهر وليست لجس النبض . وعندما تستعمل اللغة كعلامة فارقة ، أو صفة مميزة ، فعندئذ لا يجري تصنيف العناصر وفق طريقـة النطق أو اللهجة ، بل إنما يتم وفق التركيب الكلامي للنطق من صرف ونحو ، وهذا الأمر هو تماماً تشريح ومنهاج من نوع آخر . ولم يدرك أحد حتى الآن أن البحث في عناصر النطق هذه هو أحد الفروض البالغة الأهمية التي بامكان البحث أن يكرس

نفسه لها . ونحن جميعاً نعرف تمام المعرفة من خلال واقعة التجربة اليومية بأن طريقة النطق هي ميزة من أهم المميزات للانسان المعاصر . والأمثلة على هذا القول جمة غفيرة ـ وكل واحد منا عليم بأي عدد من هـذه الأمثلة . ففي الاسكندرية كان النا س يتكلمون اللغة اليونانية بلهجات عنصر بالغة في تباينها واختلافها ، وهذا واضح لنا ، حتى هذا اليوم ، من المخطوطات والنصوص . أما في أميركا الشمالية فان الناس المولودين فيها يتحدثون بلهجات متماثلة تماماً أجاء حديثهم باللغـــات من انكليزية أو المانية أو حتى فيما يتعلق بهـذا الأمر ، بالهندية . فما هي خاصة عنصر الأرض التي تتبدى من خلال لهجة يهود أوروبا الشرقية ، وهي لذلك أيضاً موجودة في اللغة الروسية ايضاً ، وما هي خاصة عنصر الدم المشتركة بين كل اليهود والمستقلة عن كل مكان يقطنونه وعن مضيفيهم هذه الخاصة التي تتبدى في لهجـــاتهم حينما يتكلمون أية لغة «أم» اوروبية ? وما هي ، تفصيلا ، تراكيب الصوت ، والنبرات من تشديد أو تفخيم ، ومواضع الكلمات ?

ولكن العلم فشل في أن يلاحظ أن العنصر هو ليس الشيء نفسه بالنسبة للنبات الذي يضرب جذوره في التربة ، كما هو بالنسبة للحيوانات المتحركة ، وأن هناك ، بالنسبة للجانب الكوني الأصغر من الحياة ، مجموعة طـــازجة من الخصائص تطل وتتبدى ، وأن هذه هي بالنسبة لعالم الحيوان جازمة حاسمة . ولم يدرك ايضاً أن مغزى مختلفاً كل الاختلاف يجب أن يحمل أو يربط الى « العناصر » ، عندما تدل هذه الكلمة (العنـاصر) على التفرعـــات أو التشعبـات داخل العنصر المتكامل « الانسان » . وهو ـ أي العلم ـ بحديثه عن التكيف والوراثة لما يقيم تسلسلا أو ارتباطاً سببياً (عليّاً) لا روح له ، تسلسلا من خصائص سطحية ، ويلطخ الواقعة القائلة بان الدم هنا ، وقوة الارض المؤثرة على الدم هنـــا ، انمـــا يعبران عن نفسيهما ـ عن أسرار لا يمكن أن تصبح مداراً لبحث أو قياس ، ولكن يمكن فقط أن تختبر اختبارا حيا وأن يشعر بها حينما ترمق عيناً عين أخرى .

وليس العلماء ايضاً مجمعين فيما بينهم على رأي واحد فيما يتعلق بالمرتبة النسبية لهذه

الخصائص السطحية . فيلومنباخ صنف عناصر الانسان وفق اشكال الجمجمة ، وفريدريك ميللر (بوصفه ألمانيا أصيلا) صنفهم معتمداً في ذلك على الشعر وتركيب اللغة ، وتوبنار Topinard (بوصفه ايضاً فرنسيا أصيلا) أجرى تصنيفه لهم بالنسبة للون الجلد وشكل الأنف،وهاكسلي (لكونه انكليزيا عريقاً) اعتمد مثلا خصائص الرياضة Sport . وآخرهم هذا قد أقام ، دون ريب ،ميزاناً جد ملائم ، ولكن أي خبير بالخيول كان سيقول له أن خصائص الأرومة لا يمكن أن يحكم وصفها بواسطة الاصطلاحات العلمية .

إن « اوصاف »العناصر هي دون استثناء عديمة الجدوى كعدم جدوى أوصاف أناس مطلوبين للقضاء فتقوم الشرطة بتعميمها معتمدة في ذلك على معرفتها النظرية (Theoretical) بالناس .

ومن الواضح،أن ما هو مشوش وعادم النظام في مجموع تعبير الجسد البشري، لم يجر التحقق منه من قريب أو بعيد . فبغض النظر تماماً عن الشم (الذي هو في نظر الصينيين مثلا خاصة من أهم الخصائص المميزة للعنصر) وعن الصوت (صوت النطق ، الاغنية ، وقبل هذا كله صوت الضحك الذي يمكننا من ان نشعر شعوراً عميقاً وصحيحاً بالفروق التي يعجز المنهاج العلمي عن النفوذ اليها) ، أقول بغض النظر عن الامور هذه كلها ، فان وفرة الصور التي تتراءى للعين هي مفرطة، حتى الذهول ، في تفاصيلها المنظورة فعلا أو التي تحس بها الرؤيا الباطنية ، وإفراطها هذا يبلغ حداً يجعل امكانية تنسيقها في وجهات قليلة أمراً يستعصي على الفكر تماماً . وكل جوانب هذه الصورة ، وكل الملامح التي تشكلها ، إنما الواحد (الجانب ، الملمح) منها مستقل تماماً عن الآخر ، وله تاريخه الخاص به . وهناك حالات يتغير فيها التركيب العظمي (وخاصة شكل الجمجمة) تغيراً كاملا دون ان يصبح تعبير الأجزاء اللحمية – مثلا الوجه – تعبيراً مختلفاً . والاخوان والاخوات الذين ينتمون الى العائلة ذاتها قد يعرضون كل خاصة أو ميزة (تميز الواحد ، أو الواحدة منهن عن الاخرى – المترجم) من الخصائص التي اعتبرها بلومنباخ ، ميللر أو

هاكسلي حقـائق ثابتة ، ومع ذلك فيمكن ان يكون تعبيرهم الحي عن عنصرهم طابعاً « مسجلاً » لأي واحـد ينظر اليهم . ويتكرر حتى اكثر من ذلك التشابه في التركيب الجسماني المرافق بتنوع حقيقي وكامل في التعبير الحي – ويكفيني هنا أن اذكر الفرق غير القابل للقياس والقائم في أرومة الفلاحين الأصيلة كالفرق بين الفريزيين أو البريطان مثلاً وبين أرومة سكان المدينة الاصيـلة . ولكن هناك ، بالاضافة الى طاقة الدم – التي تصوغ الملامح الحية ذاتها (ملامح العائلة) مرة بعد أخرى وطيلة قرون من الزمن ، والى قوة الارض – التي نشاهدهـــا من خلال طـابع الانسان – اقول هناك ايضاً تلك القوة الكونية الغامضة ، قوة تجـاوب (Syntony) الروابط البشرية الوثقى . وان ما يعرف بالوحام لدى المرأة الحامل فانما هو ليس مثالاً بالغ الاهمية ، بل مثال خاص على عمل مبـــدأ اشتقاقي بالغ والعمق وملازم لكل ما يحتويه جانب العنصر من الحياة . وإنهـــا لظاهرة عامه أن يلاحظ المرء أن المتزوجين المتقدمين في السن يصبح الواحـــد منهم ، شبيهاً بالآخر على صورة غريبة ، بالرغم من ان العلم بقياساته واجهزته قـــد « يثبت » العكس تماماً . ومن المستحيل علينا ان نغالي في القوة الاشتقاقية لهذا النبض الحي ، هذا الشعور الباطني الذي يحس به الواحد باكتمال طرازه الخاص .

إن الشعور بجمال العنصر – وهو شعور يتعارض تماماً مع الذوق الواعي لسكان المدن الناضجة ، تذوقهم لملامح الجمـــال الذهنية الفردية – هو بالغ القوة هائلها في الانسان البدائي ، ولهذا السبب وحده لا ينبجس أبداً داخل وعيه . ولكن شعوراً كهذا إنما يخلق عنصراً . وهو ، دون ريب ، تلك القوة التي قولبت طراز المحارب أو البطل من القبائل الرحـالة ، وقولبته أكثر فأكثر ليصبح مثلاً جسمانيا أعلى ، حيث أصبح بالامكان أن يتحدث المرء بوضوح تام عن شكل منظر Figure عنصر الرومان أو الاوستروغوط . والقول هذا صحيـح ايضاً وينطبق على أية طبقة قديمة من النبلاء – فهي نتيجة لامتلائهـا بحس قوي عميق بوحدتها الخـــاصة تنجز تشكيل مثل جسماني أعلى .

فالزمالة تتجنب العناصر وتربيها . وما طبقة النبلاء الفرنسيين ، أو الالمان سوى تعابير أو إشارات لعنصر . ولكن هذه هي ايضاً التي انجبت وربت تمامــــاً نماذج اليهودي الاوروبي ، بما له من زخم عنصر هائل ، ومن حياة « غيتو » Ghetto [1] تمتد الى ألف خلت من الأعوام ، والتي ستصهر دائمــــاً سكانا داخل احد العناصر ، حينما يقف هذا العنصر لمدة طويلة متماسكا روحياً ومتحداً أمام مصيره . وحينما يوجد مثل أعلى لعنصر ، على الحـال المتفوقة التي يوجد فيها في الحقبة المتقدمة من الحضارة – الازمان الفيدية والهوميرية،وأزمان هوهنشتاوفن الفروسية – فان حنين الطبقة الحاكمة الى هذا المثل الأعلى ، الى تقرير ارادتهـــا على هذا الشكل وليس على أي شكل آخر ، يعمل وينشط (مستقلاً تمـاماً عن اختيـار الزوجات) لتحقيق هذا المثل الأعلى ، وهو يحققه أخيراً . زد على ذلك أن هناك ناحية احصائية لهذا الأمر ، وهذه الناحية قد لقيت من الاهتمام أقل بكثير ممـا تستحقه . فلقد كان لكل كائن بشري يعيش اليوم مليون من الأسلاف حتى في عام ١٣٠٠ ميلادية وعشرة ملايين في عام ١٠٠٠ ميلادية ، وهذا يعني أن كل ألماني يعيش اليوم هو ، دون استثناء ، قريب من ناحية الدم لكل اوروبي آخر عاش في عصور الحملات الصليبية . وعلاقة القربى هذه تزداد مئة أو ألف مرة وثوقـاً ، اذا ما قلصنا من ابعاد هذا الميدان ، تقليصاً يمسي السكان معه خلال عشرين قرن من الزمن أو أقل مجرد عائلة واحدة . وهذا بالاضـافة الى اختيار الدم ونداءه ، هذا الدم الذي يتسرب خلل الأجيال ، ويدفع دائمـــاً باستمرار المتجانسين بعضاً الى أذرع بعض ، فيذيب الزواج أو يكسره ، ويتجنب أو يقتحم كل العقبات والعادات ، أقول أن هذا الدم يؤدي الى توالدات لا يحصيها عد ، توالدات تنفذ في حالة من لا شعور تام لإرادة العنصر . وهذا ينطبق بصورة أولية على الملامح النباتية ، على « سيماء المركز »بوصفه منفصلاً عن حركة مـــا هو متحرك – واعني بهذا كل شيء لا تختلف له حـال في الجسد

---

١ – Ghetto الحي الخاص باليهود في أي من المدن الاوروبية

(المترجم)

الحيواني من حي وميت ، ولا يستطيع الا أن يعبر عن نفسه حتى من خلال أعضائه المتخشبة .

وهناك ، دون ريب شيء مـا من أصل واحد في نماء نجوم البلوط (Ilex) وشجرة الحور اللومباردية وفي نماء الانسان – إنه الاكتناز– النحول، الاحديداب الخ ... وبالمثل فان الخطوط الخارجية لظهور النجائب من الابل وجلد النمر والحمار الوحشي هي طابع عنصر نباتي . وهذه هي أيضاً حال أعمال حركة الطبيعة الواقعة على أو مع المخلوق – حالها على ومع شجرة البتولا أو طفل ذي بنية نحيلة اللذين يترنح كلاهما في الهواء ، كما وهي حالها وشجرة البلوط بما لهذه من تاج منثور ، ومع الدوائر الثابتة أو الرفرفات الرعديدة التي ترسمها الطيور وهي تحلق في العاصفة ، جميع هذه الامور انما تنتمي الى الجانب النباتي من العنصر . ولكن على أي جانب من الخط تقف خصائص كهذه عندما يناضل الدم والتربة في سبيل الشكل الباطني للأنواع ، المنقولة Transplanted ، من بشرية أو حيوانية؟ وكم هي الحالة هذ من دستور النفس وشرعة الاجتماع ؟

وانها والحق لصورة أخرى تماماً عندما نضبط أنغام ذواتنا Attune لتلقي تعابير الجانب الحيواني المجرد . فالفرق بين الكائن ذي النمط النباتي وبين الكائن الواعي ذي النمط الحيواني (وليذكر القارىء مـا أوردناه فيما تقدم) هو على هذه الحال ، أي أننا هنا لا نهتم فقط بالكائن الواعي ذاته وبلغته ، بل لأننا نهتم بذلك المركب من الكوني والكوني الأصغر ، كي يتشكل جسد يتحرك بحرية، يشكل كوناً أصغر يقف والكون الاكبر وجهـا لوجه ، هذا الكون (الاكبر) الذي تمتلك حيوية حياته تعبيراً خاصاً بها والتي تستخدم بعضاً من أعضاء الشعور الواعي، والتي يهدر معظمها ثانية عند توقف الحركة وزوالهـا – كما ينبت المرجان ذلك – واذا ما كانت سيماء المركز تحتوي في اغلب الأحيان على تعبير عنصر النبات ، فان تعبير الحيوان يكمن داخل سيماء الحركة – وأعني هنا أنه يكمن في الشكل المتلك حركة ، وفي الحركة ذاتهـا ، وفي تركيب الأعضاء على الحـال التي ترسم الحركة وتصورها .

ولا يكشف الكثير من تعبير العنصر هذا في الحيوان النائم ، وأقل من هذا بكثير في الحيوان الميت هذا الحيوان الذي ارتادت بحوث العلماء أجزاءه . وليس هنـاك عمليا من شيء نتعلمه الآن عن جمجمة المتفقر (ذي الفقرات) . ومن هنـا كانت الاطراف في الحيوانات المتفقرة اكثر تعبيراً من العظام . ومن هنـا أيضاً كانت مقاسات الطرف هي منطلق التعبير في تباينها والأضلاع وعظام الجمجمة ـ أما الفكان فهما استثناءان ، بسبب كون تركيبها يكشف خصـائص غذاء الحيوان ، بينما أن غذاء النبات هو مجرد عملية من عمليات الطبيعة .

وعلى هذا أيضاً كان هيكل الحشرة الذي يجليب جسمها ، أغنى في تعبيره من هيكل الطير الذي يجليبه جسمها . إن أعضـــاء الغمد الخارجي التي تجمع بتفوق وبقوة متزايدة تعبير العنصر لذواتهـا ــ كالعين وليس بوصفهـا شيئاً من شكل أو لون ، بل بوصفها لمحـة وطلعة معبرة ، والفم الذي يصبح نتيجة لعادة النطق تعبيراً للفهم ، والرأس (ليس الجمجمة) بمـا فيه من أسارير وملامح شكلها اللحم ، هذا الرأس الذي أمسى كل ما الجانب اللانباتي من تاج . ولنتأمل كيف نستنبت من جهة الاركيديا والورود ونؤصلهـــا ،ونستولد من جهة أخرى الخيول والكلاب ونجنسها ، وقد نرغب ايضاً في استيلاد الكائنات البشرية وتأصيلها .

ولكن ليس، واكرر ثانية، الشكل الرياضي للأجزاء المنظورة الذي هو الذي يعرض هـذه السِماء ، بل انما الذي يعرضه حصراً هو تعبير الحركة . ونحن عندما ندرك من خلال لمحة واحدة تعبير عنصر إنسان متوقف عن الحركة، فانما ندركه لان عيننا المجربة كانت قد رأت الحركة المناسبة الكامنة في أطرافه .

فمظهر العنصر الحقيقي لثور البرية (الاميركية) Bison ،أو سمك السلمون المرقط أو النسر الذهبي ، لا يمكن أبداً استيلاده بواسطة حساب أبعاده العادية والفراغية، وقوة الجذب العميقة التي تملكها هذه المخلوقـــات الانفة ، الذكر ، بالنسبة للفنان المبدع ، تنبع حصراً من الحقيقة المقررة أن سر عنصرهـــا لا يكشف عن ذاته بواسطة التقليد المجرد لمـــا هو منظور منها ، بل انها يكشف عن نفسه في الصورة بواسطة النفس . وعلى المرء أن يرى ، وحينما يرى عليه أن يشعر بمـــا لزخم هذه

الحياة من طاقات هـــائلة تركزها على الرأس والعنق ، و كيف تتحدث في العين الملتهبة احمراراً ، وفي القرن القصير المحكم البنـاء ، وفي المنسر الاقنى المعقوف ، وفي الصورة الظلالية لجوارح الطير ، أقول على المرء أن يرى ويشعر ليذكر نقطة أو نقطتين من هذه النقاط التي لا يحصيها عد ، والتي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات وأنا لا استطيع أن أعبر هنا عنها لك الا بواسطة لغة فن فقط .

ولكن مع هذه الملاحظات كالتي استشهدنا بهـــا آنفاً ، والتي تمثل انبل انواع الحيوان ، نقترب جداً من مفهوم العنصر الذي يمكننـا ، داخل نموذج و الجنس البشري » ، من ادراك الفروق لنوع ارقى من كل النبـــات والحيوان – وهذه فروق روحية ، ومسارب المناهج العلمية اليهـــا هي بالبداهة اقل من مساربها الى الحيوان والنبات .

لم تعد الخصائص الخشنة لتركيب الهيكل العظمي تمتلك أهمية مستقلة . ولقد قام رتزيوس Retzius (عـام ١٨٦٠) بوضع خاتمة لعقيدة بلومنباخ القائلة بأن تكوين الجمجمة والعنصر شيئان مترافقان ينطبق الواحد منهما على الآخر ، كما وأن ج. رانكه يلخص مذاهبه في هذه الكلمات :

« ان مـا يعرضه الجنس البشري ، بصورة عـامة ، من ناحية نوع تكوين الجمجمة ، انما تعرضه ايضـــاً ، على درجة أقل ، كل عشيرة ، وحتى الكثير من الجماعات التي تضم عدداً لا يستهان به من الناس – ان إتحاداً من اشكال مختلفة للجمجمة بمـــا له من نهـــايات ، قد أدى أخيراً الى تخرج – ظهور – أشكال وسيطة » .

لا يستطيع أحد أن ينكر أنه من المعقول أن يبحث المرء عن اشكال أساسية مثالية، لكن يتوجب على الباحث ألا تغيب عن نظره حقيقة كون هذه الاشكال مثالية ،وانه مع الاحترام لكل موضوعية قياساته ، فـان ذوقه هو الذي يحدد حدوده النهائية وتصنيفه. وهناك حقيقة أهم بكثير من أية محاولة لاكتشاف مبدأ تنسيق ، ألا وهي الحقيقـــة المقررة أن كل هذه الاشكال تظهر وظهرت داخل وحدة « الانسانية » ، منذ أقدم الازمان الجليدية ، وانها لم تتبدل تبدلاً واضحاً،

وأنها توجد دون مــــا تميز حتى في العائلات نفسها . والاستنتاج الاكيد الوحيد الذي لاحظه العلم ، جاء به رانكه عندما قال أن المرء عندما ينضد اشكال الجمجمة تنضيداً متسلسلاً بالنسبة لمراحل التحول عندئذ تنشأ مستويات معينة ليست من خصائص « العنصر » بل خاصة من خصائص الارض .

والحق ان تعبير عنصر راس الانسان يمكنه أن يرتبط بأي شكل من اشكال الجمجمة ، إذ أن العظم ليس عنصر الحسم في الامر ، فعنصر الحسم هو اللحم ، النظرة، حركة السحنة . إننا نتحدث منذ أيام العصر الرومانتيكي عن العنصر والهندي الجرمـاني ، ولكن هل يوجد هنـاك ذاك الشيء الذي ندعوه بالجمجمة الآرية أو بالسامية ؟ وهل باستطاعتنا أن نميز بين جمجمة كلتية وأخرى فرنكية ، أو حتى بين ثالثة بوبرية ورابعة كفيرية Kaffir (١) ؟ وإذا كنا لا نستطيـع هذا الامر فأية من هذه الجماجم قد تكون الارض لم تشهدها خلال العصور التي لم يدونها التاريخ ، والتي لم يبق منهـا أي دليل أكثر من العظام ؟ وكم ستكون تافهة ، في نظر ذاك الشيء الذي نسميه العنصر في الجنس البشري الارقى ، تلك الاشياء التي تستطيع أن تظهرها التجربة العلمية العنيفة . ولتأخذ مجموعة من النـاس تتـألف من شتى انواع العناصر التي يدركها العقل ، ولتتمحصهم من خلال جهـــاز أشعة إكس ، وانت تحـاول ذهنيا أن تصور العنصر ، لا شك أن النتيجة التي سيبلغها من خلال هذه التجربة ستكون نتيجـة مضحكة ،إذ أن الأشعة لا تكاد تنطلق فتتخلل أي واحد منهم حتى يختفي « العنصر » فجأة وتماماً .

إننا فضلاً عن ذلك ، لا نستطيع ان نكرر مراراً أن ذاك القليل الذي يتبدى في تركيب الهيكل العظمي ، إنما هو نتاء الصقع ، وليس أبداً عملاً من اعمال الدم . ولقد قـام إليوت سمث في مصر وفون لوشن في جزيرة كريت بفحص مواد هائلة الغزارة من عظام وضعتها تحت تصرفهما مغاور تبدأ بالعصور الحجرية وتمتد الى عصرنا

---

١ – Kaffir : قبيلة صغيرة تسكن في جبال الهندكوشوش الهندية

(المترجم)

الحاضر . وقد تدفقت ، كما نعلم ، مصر وكريت على ابتداءً من «شعوب البحر» في منتصف الدورة الألفية الثانية قبل المسيح حتى العصور العربية والتركية ، سيول هائلة من البشر ، وسيلاً بعد سيل ، لكن مستوى تركيب العظام بقي على حاله ولم يطرأ عليه أي تبديل . وقد يكون صحيحاً الى حد ما أن نقول بان العنصر بوصفه لحماً قد مر على شكل الهيكل العظمي الثابت للارض . وأقليم جبال الألب ، يضم اكثر الأجناس البشرية تنوعاً - فهناك التيتون واللاتين والسلاف وتكفينا لمحة واحدة نلقي بها الى الوراء لنكتشف في هذا الاقليم اتروسكان وهن Huns أيضاً . ولقد كانت فيه عشيرة تتلو عشيرة ، غير ان تركيب الهيكل العظمي للجنس البشري الذي عاش ويعيش في هذا الاقليم بقي دائماً وأبداً نفس التركيب بصورة عامة ، وهو لا يختفي الا عند حافات هذا الاقليم باتجاه وهو السهول ، حيث يخلي مكان لاشكال أخرى ، أشكال هي محدودة ثابتة كذلك . اذن فان ما يتعلق بالعنصر ، وبترحال عنصر الانسان البدائي وتجواله ، فان لقطاتنا المشهورة والعائدة الى ما قبل التاريخ ، ابتداءً من نيندرتال Neanderthal وحتى Aurignacian ، لا تثبت أي شيء . فهي ما عدا بعض استنتاجات تتعلق بعظام الفك بالنسبة لأنواع الطعام المأكول ، إنما تدل فقط على شكل الأرض الأساسي الذي لا يزال موجوداً وقائماً حتى الآن .

ومرة أخرى أقول بأن قوة التربة الغامضة هي التي يمكن اثباتها فوراً في كل كائن حي ، وذلك حالما نكتشف ميزانا متحرراً من اليد الثقيلة للعصر الداروني . فلقد نقل الرومان الكرمة من الجنوب الى اراضي نهر الراين ، والكرمة بالتأكيد لم تتغير ، في موطنها الجديد ، منظراً - أعني نباتياً Botanically - ولكن «العنصر» في هذا المثال ، الآنف الذكر ، يمكن تقريره بوسائل أخرى ، فهناك فروق نبتت من التربة وولدت من أحشائها ، وهذه الفروق لا تقوم فقط بين أنواع النبيذ من شمالي وجنوبي ، من رايني - نسبة للراين - وموزيلة - نسبة للموزيل - بل انما تقوم بين منتوجات كل موقع والمواقع الأخرى ، وثمار مختلف

المضاب. والقول هذا ينطبق ايضاً على كل « عنصر » نباتي آخر ذي مرتبة عالية ، « كالشاي » والتبغ مثلاً. فالشذا، هو النتاج الريفي الأصيل ، هو احدى خصائص العنصر الأصيل البارزة ، (وهذه الخصائص تزداد أهميتها لأنها غير قابلة للقياس) . ولكن العناصر الانسانية النبيلة انما يميز بينهـا وفق الاسلوب الذهني الذي يعتمد للتمييز بين أنواع النبيذ النبيل . (الفاخر - المترجم) وهناك جوهر مماثل ، لا يدركه غير أشد المدارك صفـــاء، انه شذا خفيف يتضوع من كل شكل يكمن وراء كل حضـــارة أرقى ، ويشد الاتروسكان وعصر النهضة في توسكانا ، والسومريين وفرس عـــام ٥٠٠ قبل المسيح ، وفرس العصور الاسلامية الذين توطنوا ضفاف نهر دجلة .

والعلم الذي يقيس ويزن لا يستطيع أبداً أن ينفذ الى جميــع هذه الأمور . فهي موجودة بالنسبة الى الشعور فقط - ووجودها يستند الى قناعة بدهية تكتسب عند أول لمحة - لكنها لا توجد من أجل أن يعـالجها علامة لوذعي . والنتيجة التي أبلغها هي أن العنصر هو كالزمان والمصير ، وهو جوهر حاسم في كل قضية من قضايا الحياة ، وانه شيء ما يستطيع كل انسان أن يعرفه بجلاء وتأكيد ، طالما هذا الانسان لا يحـــاول أن يترك نفسه تسلك الى فهمه السبيل العقلاني - العديم النفس - سبيل التسريع والتنسيق والتصنيف . فالعنصر والزمـان والمصير ينتمي الواحد منها الى الآخر . ولكن في اللحظة التي يقترب الفكر العلمي منها ، فعندئذ يكتسب « الزمـان » معنى البعد ، ويصبح لكلمة « المصير » مفهوم الترابط ، بينما العنصر الذي تحتفظ له ، حتى في المرحلة العلمية ،بقناعة أكيدة وعميقة، يصبح خليطاً مشوشاً من خصائص غير مترابطة أو متجانسة، خصائص تتدفق على مفهومه (تحت عناوين ، الارض ، الحقبة ، الحضارة ، الارومة) دون ما نهاية أو نظام . فبعض من هذه الخصائص تلتصق بقوة وثبات بالارومه وهذه قابلة للنقل والتحويل ، وغيرها ترفرف فوق السكان كأنها مجرد ظلال سحابة ، والكثير منهـا هي ، كما كانت ، عفاريت الارض ، عفاريت تتلبس كل انسان يسكنها ، طيلة مدة اقامته في ارضها . وبعضها يطرد بعضاً ، وأخرى تبحث عن غيرها .

إن ايجاد نظام صارم لتصنيف العناصر – وهو امنية كل علم لأصول السلالات البشرية ومشتهاه – لعمل مستحيل . لذلك فان أية محاولة ترمي الى بلوغ هذا الأمر ، هي محاولة مكتوب لها الفشل منذ بدايتها ، وذلك لأنها تتعارض والجوهر العنصري جملة وتفصيلا ، وان كل مخطط لاقامة مثل هذ التصنيف ، انما كان ، وسيكون حتما تزويراً وسوء فهم لطبيعة هذا الموضوع . فالعنصر ، خلافاً للنطق ، هو غير منهاجي متناً وحاشية .

وفي نهاية المطاف لكل انسان فرد ، ولكل لحظة من وجوده عنصر خاص ولذلك فان الطريق الوحيدة لبلوغ الجانب الطوطمي ، ليست التصنيف ، بل انما هي الواقعة السيمائيه .

– ٤ –

ان كل من يرغب في أن ينفذ الى جوهر اللغة يتوجب عليه أن يطرح جانباً كل ما العالم الفيلولوجي من أجهزة وأن يراقب كيف يتحدث الصياد الى كلبه . فالكلب يتابع الأصبع الممدودة ويصغي بتوتر لجرس الكلمة أو صوتها ، ولكن يهز برأسه ، فهذا النوع من نطق الانسان لا يفهمه الكلب . ثم يتفوه الصياد بجملة أو جملتين ليعبرعما يجول في خاطره ، فعندئذ يقف الكلب جامداً في مكانه وينبح ، وهذا النباح في لغة الكلب انما يشكل جملة تحتوي على السؤال :

هذا هو ما يقصده السيد ؟ » ومن ثم وبلغة الكلاب ، يعبر الكلب عن غبطته لأنه فهم صواباً ما قصده سيده .

الحال هي ذاتها أيضاً مع انسانين لا يعرف الواحد منهما كلمة واحدة من لغة الآخر . وعندما يشرح كاهن ريفي شيئاً ما لامرأة ريفية فأنه يقوم بالتحديق فيها

مليـا ويحمل أسارير وجهه جوهر المفهوم الذي كانت المرأة لن تستطيع أكيداً ادراكه أبداً بواسطة صيغة التعبير الكهنوتي .

وان كل الأحاديث التي ينطق بها اليوم هي، دون استثناء ، غير قابلة للفهم إلا اذا ترافقت وصيغ أخرى من النطق ، وهذه الصيغ ليست كافية بحد ذاتهـا ولم تكن أبداً كذلك .

واذا ما كان الكلب يريد ، الآن ، شيئاً ما فانه يبصبص بذيله، ويبدو متبرماً بغباء سيده الذي لم يستطع أن يفهم نطقه الواضح في تعبيره تامـاً وكاملاً ، ثم يضيف الكلب الى بصبصته تعبيراً صوتيا – فينبح – واخيراً يردف نباحه بتعبير عن وجهة نظره ، فيقلد أو يأتي ببعض الإشارات .

وأخيراً يحدث شيء مـا بالغ العجب ، فعندما يستنزف الكلب كل وسائله لادراك شتى مـا فاه به سيده ، ينتصب فجأة ويحدق في سيده وتخترق عينه العين البشرية غائصة فيها. ان شيئاً ما بالغ الغموض عميقه يحدث هنا الآن – انه الاتصال المباشر بين « الأنا » و « الأنت » والنظرة تتحرر منعتقة من محدوديات الشعور الواعي. فالكينونة تدرك نفسها دون ما اشارات .

وهنا أمسى الكلب « قاضياً عليماً » بالناس ، تحدق عينه فيمن أمامه مباشرة وتحملق ، وتفهم المتكلم من وراء النطق .

ونحن عادة ما نستعمل لغات من هذا النوع دون أن نعي هذه الحقيقة الواقعة. فالرضيع يتكلم قبل أن يتعلم أولى الكلمات بوقت طويل ، والكبار يتحدثون اليه دون حتى أن يفكر الواحد أو الواحدة منهم بالمعاني العـادية للكلمات التي يستعملونها ، وهذا ما يعني أن أشكال الصوت تصلح ، في هذه الحال، لتكون لغة تختلف تماماً عن لغة الكلام . ولغات كهذه لهـا أيضاً مجموعات ولهجات عامية ، وبالامكان ايضاً تعلمها واتقانها واساءة فهمها ، وهي أمور لا يمكن ان يستغنى عنها بالنسبة الينا ، اذ أن اللغة الشفهية ستتمرد علينا اذا ما حاولنا أن نطلب اليها القيام بكل عمل دون الاستعانة بلغة الصوت والايماء . وحتى كتابتنا التي هي لغة شفهية

بالنسبة للعين ، كانت لا شك ستكون غير قـابلة للفهم تقريبـا ، لولا العون الذي تتلقاه من لغة الايماء ، هذا العون الماثل بأشكال علامات الوقف Punctuation .

إن الخطأ الأساسي الذي يقترفه علم اللغة أنه يخلط بين اللغة بصورة عامة وبين لغـة الكلمة الانسانية ، وعمله هذا ليس محصوراً فقط داخل الميدان النظري ، بل انما يتجاوزه عادة الى جميـع الابحاث العملية التي يجريهـا . ونتيجة لهذا الخطأ بقي علم اللغة جـاهلاً جهلاً مطبقاً بالوفرة المفرطة لصيـغ النطق من شتى الأنواع ، هذه الصيـغ التي تشترك في استخدامها الحيوانات والبشر . فميدان النطق، ككل كامل، هو أوسع بكثير مما يظنون ، والنطق الشفهي بعجزه أن ينتصب وحده على قدميه (وهذا العجز لم نتغلب عليه حتى اليوم) وما يملكه هو جزء أكثر تواضعاً وأشد بسـاطة مما يخاله تلاميذ هذا النطق ودارسيه . أما فيما يتعلق «بأصل النطق البشري» فان شبه الجملة هذه (أصل النطق البشري) تدل على تعبير خـاطىء عن المشكلة . فالنطق الشفهي ـ بمـا تعنيه هاتان الكلمتان ـ لم يكن له أبداً أية أصول بالمفهوم المفترض . فهو ليس أولياً وليس موحداً . والاهمية البالغة التي ادركها منذ مرحلة معينة من تاريخ الانسان، يجب أن لا تخدعنا حين تقدير مركزه في تاريخ الذاتية (Entity) المطلقة في حركتها من كل قيـد . والبحث في النطق يجب بالتأكيد ألا يبدأ بالانسان .

ولكن الفكرة القائلة بأن هناك بداية للغة الحيوان، هي فكرة خاطئة ايضاً. فالتكلم مرتبط الى الكائن الحي من الحيوان ارتباطاً يبلغ حداً من التماسك حيث يصبح معه القول بأن حتى الخلية الوحيدة Unicellulor ، هذه المخلوق العديم من أعضاء الحواس ، هي خرساء بكماء ، أمراً لا يقبله عقل ، (وهنا وجـه التعارض بين الحيوان والكائن من النبات) . فأن يكون هناك كون أصغر في الكون الأكبر فان هذا يعني الشيء الواحد ذاته ، يعني ان يملك قوة للمواصـلة بين نفسه وغيره . لذلك فان الحديث عن بداية للنطق في تاريخ الحيوان هو حديث لا معنى له أو مفهوم . فكون الوجودات ، الكونية الصغرى هي وجودات متعـــددة

متجمعة ، هو أمر بسيط وغني عن البيان . أما ان يحاول المرء التفكير بامكانات أخرى فهذا تبذير للوقت واهدار له .

ومن المسلم بـه ان الاوهام الداروينية ، في النوع الاساسي وفي السلفين الاولين ، انما تنتمي الى مؤخرة الجيش الفكتوري (نسبة لفكتوريا) ويجب ان تترك حيث هي ، زد على ذلك الحقيقة القائمة والقائلة بأن طائفة النحل ، أو النمل ، هي ايضاً واعية ومدركة باطناً ، وتعيش حساً « ال ـ نحن » وكل نحلة أو نملة ، تتطلع الى الاخرى وتتلمس لديها روابط الشعور الواعي .

إن الكائن الواعي هو نشاط فيا هو ممتد ، وهو بالاضافة الى ذلك نشاط مُراد . وهذا هو الفرق بين حركات الكوني الأصغر وبين الحركة الميكانيكية للنبات والحيوان والانسان في حال النبات ـ أي في حال نومها ـ ولنتأمل في نشاط الحيوان في أحوال التغذية والتوالد والدفاع والهجوم ـ لا شك أن أحد جوانب هذا النشاط يتوقف بصورة منتظمة على الاتصال بالكون الاكبر بواسطة الحواس ، أو بواسطة الحساسية غير المميزة للخلية الوحيدة ، أو بواسطة رؤيا عين بالغة السمو في تطورها التي هي موضوع البحث . وهنا توجد ارادة اكيدة لتلقي التأثير ، وهذا هو ما نسميه توجيهاً . ولكن بالاضافة الى هذه توجد ايضاً ، منذ البدء ارادة لتوليد التأثير في الآخرين ، وهي ما نسميه تعبيراً ـ وبذلك يصبح التكلم فوراً لدينا نشاطاً للشعور الحيواني الواعي ، ولم يتلُ هذه الواقعة أو يعقبها أي شيء جوهري آخر . فلغات عالم المدنيات الراقية ليست اكثر من شروح تجاوزت كل حد في نقائها وصفائها ، إنهـا شروح امكانات كانت جميعها تكمن وتوجد داخل واقعة التأثيرات المرادة للمخلوقات ذات الخلية الوحيدة ، والتي تفرضها الواحدة منها على الاخرى .

ولكن أسس هذه الواقعة انما ترتكز الى الشعور الأولي بالخوف كما وان الشعور الواعي يحدث شقاً أو فتقاً فيا هو كوني ، ويبرز فراغاً بين الخصائص ويقصيها . فأن يشعر المرء بنفسه وحيداً إنما هو أول تأثير يتلقاه المرء في اليقظة

اليومية ، ومن هنا ينشأ حافز الانسان البدائي للتجمهر وغيره من الناس في وسط هذا العالم الغريب وذلك بغية أن يؤكد المرء البدائي حسياً لنفسه قرابته للاخر ومجاورته له ، باحثاً عن رباط واع يشده اليه .

إن « الأنت » لهي الخلاص والتحرر من خوف الكائن من كونه وحيداً . واكتشاف « الأنت » ، اكتشاف مفهوم ذات اخرى، 'قورت عضوياً وروحياً، من عالم غريب ، انما يمثل اللحظة العظمى في التاريخ المبكر للحيوان . وعلى ذلك هي الحيوان . وما على المرء إلا أن يحملق طويلاً وبعناية في نقيطة ماء وضعت تحت المجهر كي يقتنع من ان اكتشاف « الأنت » ومعها « الأنا » انما يجري هنا على أبسط شكل يراود خيال الانسان. فهذه المخلوقات البالغة في صغر حجمها لا تعرف فقط الآخر بل الآخرين ايضاً ، وهي لا تمتلك فقط شعوراً واعياً، بل تمتلك ايضاً روابط لهذا الشعور الواعي ، ولا تمتلك معه تعبيراً فقط ، بل وتمتلك ايضاً عناصر نطق لتعبير .

ويجدر بنا أن نتذكر هنا الفرق بين مجموعتي النطق العظيمتين . فنطق التعبير يعامل الآخر بوصفه شاهداً ويستهدف فقط توليد مؤثرات فيه ، بينما أن نطق المواصلة يعتبر الآخر متكلماً ويترقب منه أن يجيب عليه . فأن يفهم المرء يعني ان يتلقي التأثيرات بشعوره الخاص بمعانيها ، وعلى هذه الواقعة تعتمد مؤثرات أرقى شكل لنطق التعبير البشري ، الا وهو الفن . فأن أبلغ فهماً وأن أجري حديثاً يفترضان أن يكون شعور الآخر بالمعاني هو نفس شعوري الخاص . ان الوحدة الأولية لنطق التعبير أمام شهود انها تسمى دافعاً Motive . والسيطرة على هذا الدافع هو كل ما لتقنية التعبير من قواعد وأصول . ويسمى ، من جهة أخرى ، التأثير المستولد لأجل الفهم إشارة Sign ، وهو الوحدة الأولية لكل تقنية مواصلة ، وهو لذلك يشتمل ، في أعلى مستوياته ، على النطق البشري .

ونحن بالكاد نستطيع أن نشكل حتى اليوم فكرة عن اتساع كلا عالمي

النطق هذين داخل الشعور الواعي. ولا يحتوي نطق التعبير ، الذي يظهر في ابكر الأزمان بكل ما للتابو من وقار ديني ، فقط على زخرفة ذات شأن خطير وحازمة في قواعدها التي تنطبق تماماً في البداية على فكرة الفن وتجعل كل مـــا هو هامد ومتيبس اداة لتعبيرهـا – بل انها يحتوي ايضـــاً على أمر طقوسي وقور . ينشر شبكة قواعده فيغطي بها كامل الحياة العامة بما فيها حتى حياة العائلة - زد على ذلك أن لغة الزي من ثياب ووشم وتبرج شخصي لكل من هذه لغة منتظمة وقد حاول باحثو القرن التاسع عشر عبثاً أن يردوا الثياب الى دوافع من خجل أو نفعية . والحق أن الثياب لذات مفهوم قابل للفهم تصفها وسائل نطق تعبير ، وهي لكونها على ما ذكرت تتطور حتى تبلغ مستوى جليلاً فخماً في جميع المدنيات بما فيها مدنيتنـــا الحاضرة . ونحن يكفينا ان نفكر فقط بالدور المسيطر الذي تلعبه « الموضة » في كامل حياتنا اليومية وفي كل ما نأتيه من عمل ، وفي قواعد اشكال الزي وألوانه في الواجبات الاجتماعية ، كالزي المخصص لحضور المأتم أو الآخر المعين لحفلات الزواج ، وان نتـأمل في الزي العسكري ورداء الكاهن وفي الاوسمة والاوسخة ، وفي تاج الاسقف ، وجز الشعر ، والشعر المستعار والضفيرة والمسحوق والخواتم ونماذج تصفيف الشعر ، وفي كل ما يعرضه الشخص أو يخفيه ، وفي زي الماندرين ، وعضو مجلس الشيوخ ، وزي الجارية من الحريم ، أو الراهبة ، وفي اعراف بلاط نيرون ، أو صلاح‌الدين ومونتزوما – هـذا اذا لم نذكر تفاصيل أزياء الفلاحين ، ولغـة الزهور والألوان والحجارة الكريمة . ومن نافلة القول ان نذكر هنا لغة الدين ، لأن كل ما ذكرته آنفاً انما هو دين .

ان لغات المواصلة، حيث يكون باستطاعة تأثير الحس أن يدرك عددا أقل أو اكثر من المشتركين (فيه) قد ولدت تدريجيا (فيما يتعلق بشعوب الحضـارات الأرقى) ثلاث اشارات بارزة – الا وهي الصورة والصوت والايمـــاءة ، والتي جميعهـــا قد تبلورت في نطق الكتابة للمدنية الغربيـة في وحدة من حرف وكلمة وعلامة وقف .

ونشأ أخيرا في سياق هذا التطور الطويل الأمد انفصال الكلام عن النطق ، وليس لأية عملية أخرى من عمليات مجرى التاريخ من مركز أسمى وأوسع ممـا لهذه العملية من مركز ومقام . وبالأصل فـأن جميـع الدوافع والاشارات هي ، دون جدل ، نتاج البرهة وثباتها ، ويقصد بهـا فقط فعلًا افرادياً واحداً من أفعال الشعور الواعي الفعال. أما معانيها العملية فليست هيذات المعاني المرادة والمحسوس بها . ولكن الحال لا تبقى على ما هي عليه عندما يتقدم خزين من الاشارات نفسه الى العمل الحي المعطي للاشارة ، لأن بهذا لا يفترق فقط النشاط عن وسائله ، بل انها تفترق أيضاً الوسائل عن معانيها ، والوحدة بينها لا يصبح فقط انفصامها أمراً غنياً عن البيان ، بل انها لا تعود ايضاً أمراً ممكنا

فالشعور بالمغزى وهو شعور حي، وهو ككل شيء غيره انها ينتمي الى الزمان والمصير ، وهو يحدث مرة واحدة ووحيدة ، ولا يتكرر أبداً. ولا تتكرر هناك من إشارة مهما كانت معروفة واستعمالها مألوفاً ، حيث يجيء تكرارها يحمل تامـاً المعنى السابق ذاته وفحواه . ومن هنـا ينشأ كون أية أشارة لم يتكرر أبداً في الشكل ذاتـه . فدائرة الاشارة المتخشبة انها تقع دون قيد أو شرط داخل ميدان الشيء في الصير ، وفي عـالم الممتد ، فهي ليست جهازاً عضوياً ، بل منهاج يمتلك منطقه السببي (العلي) الخاص به ، ويدخل ايضاً التعارض ، الذي لا يمكن أبداً ازالة أسبابه ، والقـائم بين الفراغ والزمان ، بين الذهن والصيغة في الشعور الواعي لكائنين .

ان هذا الخزين من الاشارات والدوافع ، بما له من معاني قورنت ظاهرياً ، يجب أن يكتسب بواسطة التعلم والممارسة، وذلك اذا ما كان الراغب في اكتسابه، يريد أن ينتمي الى المجتمع الذي يتعامل معه ويرتبط به . وايجـاد الاقتران اللازم بين الكلام المنفصل عن النطق يمثل الرأي في المدرسة وميلها .

وقد تطور هذا (الاقتران) في الحيوانات الارقى حتى اكتمل ، وكل دين مستقل قائم بذاته ، وكل فن أو مجتمع ، يفترض هذا اساساً يستند اليه المؤمن كما

ويستند اليه الفنان والكائن البشري الذي احسن تعليمه وتربيته . وابتداء من هذه النقطة يصبح لكل طائفة حدودها المحددة تحديداً دقيقاً ، ولكي يكون المرء عضواً من أية طائفة من هذه الطوائف ، يجب أن يكون علمياً بلغتهـــا وأعني بذلك أن يكون عليماً بقوانين ايمانها واخلاقها وقواعدها. زد على ذلك ان الشعور المجرد والنية الطيبة لا يستطيعان أن يحيطا بالغبطة في الموسيقى الكونتروبنتية والكاثوليكية على حد سواء . ومن هنا تعني الحضارة تشديداً في التعمق وصرامة في لغة الشكل يفرضان على كل دائرة من الدوائر . وذلك لأنهما تتضمن بالنسبة لكل انسان ينتمي اليهـــا – بوصفها حضارته الشخصية في شتى فروعها من دينية واخلاقية واجتماعية وفنية – عملية من ثقافة وتدريب على هذه الحيـاة تمتد امتداد أجل الانسان . ونتيجه لذلك نشاهــــد في جميع الفنون العظمى ، في الكنائس والأسرار والأنظمة العظمى ، تحقق نوعا من إتقان شكل يدهش الانسان نفسه ، وينتهي الى تحطيم ذاته تحت وطأة ضروراته ومقتضيـاته ، وعلى ذلك نرى الشعار القائل « بالعودة الى الطبيعة » يقرر (علناً أو سراً) في جميع الحضارات على حد سواء . وهذا النوع من الرغبة الغامضة يمتد الى اللغة الشفهية ايضــاً . فنحن نرى فن الخطابة الاتيكية والحديث الفرنسي ، اللذين يفترضان كأي فن آخر تقاليد صارمة نضجت بوعي وحذر وتدريب صحيح وطويل للفرد ، يقوم جنباً الى جنب والصقل الاجتماعي الذي عرفته مرحلة Tyrants أو التروبودورز ، ومرحـــلة فوجيه باغ ، والتصاوير الزيتيه على الاواني الخزفيه لايكســكياس Exekias .

ونحن بالكاد نستطيع أن نبلغ ميتافيزيقيا في تقدير مغزى هــذا الانفصال الواقع في لغـه ثابته مقررة . فالممارسة اليومية المخالطة (والبشرية) في اشكال مقررة ثابته ، وتحقق سيطرة كامل الشعور الواعي بواسطــة اشكال كهذه – التي لم يعد يوجد من اجلها مجرى عمليه تكون أو تشكل، والتي انما تقوم وتوجد هناك وتتطلب فهماً بكل ما تعنيه هذه الكلمه .. أقول ان تحقق سيطرة كامل الشعور تقود الى تمييز يزداد ابداً ودائماً حدة بين الفهم والشعور داخل الشعور الواعي .

فاللغة البدائية يحس بها بادراك وفهم ، وممارسة اكماله تتطلب من المرء ان يحس أولاً باداة النطق المعروفه ، وتستوجبه ثانياً أن يفهم القصد الذي أدخل فيها لهذه المناسبه . ونتيجه لما تقدم فان جوهر كل درس أو تدريس انما يكمن في اكتساب عناصر المعرفه .

وكل كنيسة تعلن دون تردد أن ليس الشعور بل المعرفة هي التي تقود الى الخلاص . وكل مهارة فنية حقيقية انما ترتكز الى المعرفة الأكيدة بالاشكال التي لا يتوجب على الفرد اكتشافها بل تعلمها . « فالفهم » هو معرفة تعتبر كائناً . وهو ذاك الشيء الغريب كل الغرابة عن الدم والعنصر والزماني ، ومن تعارض النطق المتخشب ودوران الدم وتطور التاريخ تنشأ المثل العليا للمطلق ، والخالد والمتعارف عالميا على صحته – وأعني بهذه المثل العليا للكنيسة والمدرسة .

ولكن هذا هو تماماً الذي يجعل ، في نهاية الأمر ، اللغة ناقصة غير كاملة ويؤدي الى التعارض الخالد القائم بين مـا نطق به فعلاً وبين مـا أراده أو عناه المتكلم . ويجوز لنا حقاً أن نقول بأن الكذب شق طريقه الى العالم بواسطة فصل النطق عن الكلمة . فالاشارات هي ثابته مقررة ، ولكن معانيها ليست كذلك – ونحن منذ البدء نشعر بأن الأمر هو على هذه الحـال ، ومن ثم نعرفه ، وأخيراً نستفيد – بمعرفتنا . وانهـا والحق لخبرة غارقه في القدم اختبرها الانسان عندما كان يريد أن يقول شيئاً ما فوجد أن الكلمات تخذله ، فأحد الناس قد ولا يعبر عما يريده تعبيرا صحيحا ، فيقول فعلاً شيئاً مـا ، لا يحمل ما يراد له من معنى ، وغيره قد ينطق نطقاً صحيحاً ويفهم فهمـاً خاطئاً . وهكذا أخيراً نبلغ فن استخدام الكلمات لاخفـاء حقيقة افكارنا ، وهذا الفن واسع الانتشار حتى بين الحيوانات (مثلاً الهرة) . فأحدهم لا يقول كل شيء ، أو يقول شيئاً ما باسلوب جد مختلف ، أو يتكلم وحسب الأصول عن لا شيء ، أو يتحدث بسرعة ليغطي حقيقة كونه قال شيئاً ما . أو أن أحد الناس يقلد نطق الآخر . فطائر الجزار يقلد الانغام التي تتبادلها صغار الشوادي من الطير كي يغويهـا . وهذه حيلة من حيل الصيـاد المشهورة ،

ولكن هنا ايضاً تتقدم عليها الدوافع والاشارات المقررة ، التقدم ذاتـــه الذي يشترطه تقليد الآثار أو تزوير الامضاء . وجميع هذه السمات التي نصادفها في وضع السحنة كما نجدها في الحظ والتفوه الشفهي، تظهر ثانية في لغة كل دين وفن ومجتمع - ويكفينا فقط أن نشير الى الفكر التي تعبر عنها الكلمات التالية : « منافق » « مستقيم » « خـارج على الدين » والكلمة الانكليزية « رياء » والمفاهيم الثانوية لكلمات « دبلوماسي » « يسوعي » « ممثل » زد على ذلك تحفـظ المجتمع المهذب وحذره ، والتصوير الزيتي المعاصر الذي لم يعد يحتوي على أي رسم صـادق والذي يعرض في كل معرض على العين الكذب في كل شكل قد يراود الخيال .

ان المرء لا يستطيـع أن يكون دبلوماسياً في اللغة التي يتلعثم في نطقهـــا . ولكن قد يكمن ، في حال السيطرة الحقيقية على احدى اللغات الحطر ، في ان يجعل من العلاقة بين الوسيلة ، أو الاداة ، وبين المعنى ، اداة جديدة . وهنا ينشأ فن عقلاني للتلاعب بالتعبير ، وقـــد مارس هـذا الفن الاسكندرانيون والرومانتيكيون وقد مثل الاولين ثيوكريتس ، ومثل الآخرين برنتانو في الشعر الغنائي وريجر Reger في الموسيقى و كير كيغارد في الدين .

واخيراً فان النطق والحقيقة [١] يطرح الواحد منها الآخر جانباً. وهذا الواقع هو الذي يستولد في عصر اللغة المقررة الثابتة « القاضي النموذجي الخبير بالناس » والذي تتكامل كل خلية فيه والخلايا الاخرى لتصوغ منه عنصراً ، فيعرف كيف يدرك الكائن الذي يتحدث . فان تحذق بشدة في عيني انسان ، وان تحيط به من وراء نطقـــه الثوري الأبتر ، أو خطابه الفلسفي ، وان تعرف القلب من وراء الصلاة ، وان تدرك مستويات الأهمية الاجتماعية الأشد اخلاصاً من وراء اللهجة الودود المألوفة ، وان تعرف كل هذه الأمور فوراً وبقناعة راسخة وطيدة وبميزة

---

(١) لاحظ لم نقل هنا الواضحة .

(المترجم)

لكل ما هو كوني – هذا هو ما يفتقده انسان التابو الذي تحمل ، على كل حال ، لغة واحدة القناعة بالنسبة اليه . فالكاهن الذي هو دبلوماسي ايضاً لا يستطيع أن يكون كاهناً أصيلاً . وفيلسوف اخلاقي من طراز « كنت » Kant ليس ابداً « قاضياً خبيراً بالناس » .

ان الانسان الذي يكذب في تفوهاته الشفهية يكشف دون أن يشعر ، عن ذاته في سلوكه أو تصرفه . والانسان الذي يستخدم سلوكه للتصنع يكشف عن ذاته بجرس صوته . وهـــذا ناشىء حصراً عن كون النطق المتخشب يفصل بين الاداة والمحتوى الذي لا تحمـــله الاداة في نظر مقيم فطين . فالفطين يقرأ بين السطور ، ويفهم الانسان حالما يشاهد مشيته أو خط يده . وكلما ازدادت المعاشرة الروحية عمقاً والفة ، يزداد فوراً استغناؤهـا عن الاشارات والروابط الناشئة عن الشعور الواعي . فالزمالة الحقيقية إنما تعبر عن ذاتها بكلمات قليلة ، امـا الايمان الحقيقي فهو ، جملة وتفصيلاً ، ساكت صامت .

ان أنقى ما هناك من رموز الفهم ، هو ذاك الرمز الذي غدا ثانية مـا وراء اللغة ، إنه الزوجان الريفيان القديمان والجالسان عند الغروب امام كوخهما ، حيث يرفه الواحد منهما عن الآخر دون ان يبادل الواحد منهما الآخر بكلمة ، وكل واحد منهما يعرف بما يشعر به الآخر ويفكر . فالكلمات هنا لن يكون لهـا من أي أثر سوى تشويش التناغم . ومن حال كهذه لتفاهم مشترك ، يمتد شيء ما أو آخر الى الوراء متجاوزاً بعيداً الوجود الجماعي لعالم الحيوان الارقى ، وضارباً عميقاً في بطون التاريخ الفطري العتيق للحيـــاة المتحركة والمتحررة بحركتها من كل قيد . وهنا ، يحقق الانسان تقريباً خلاصه للحظات من الشعور الواعي .

- ٥ -

ليس هناك من اشارة من الاشارات التي قررت قد أدت الى نتائج أعظم من تلك الاشارة التي ندعوها ، في وضعها الحالي ، « كلمة » . فالكلمة تنتمي ، دون ريب ، الى التاريخ البشري المجرد للنطق ، ولكن مع ذلك فان الفكرة ، أو على كل حال ، الفكرة التقليدية ، عن أصل اللغة الشفهية هي فكرة عقيم ومعدومة المعنى ، كنقطة الصفر بالنسبة الى النطق بصورة عامة . كما وان ايجاد بداية محددة تحديداً واضحاً للنطق هو أمر غير معقول ، لأن النطق موجود مع الكون الاصغر هذا الكون الذي يحتويه ايضاً ، وكذلك هي الحال بالنسبة للغة الشفهية لأنها تتضمن العديد من الانواع الكاملة التطور لنطق المواصلة ، وتعيّن فقط مادة واحدة فقط تتطور تطوراً بطيئاً هادئاً بالرغم من انها تصبح في النهاية المادة السائدة - . إنه والحق لخطأ جوهري يغشى جميع النظريات (مهما بلغ التناقض بين الواحدة منها والاخرى) كنظريات فوندت Wundt وجسبرسن Jespersen ، في ان يبحث عن التكلم داخل الكلمات ، كما ولو ان التكلم كان شيئاً ما جديداً ومستقلاً قائماً بذاته ، وهذا ما يؤدي حتماً بهذه النظريات الى تشكيل سيكولوجيا خاطئة خطأً جذرياً . فاللغة الشفهية هي ، في الواقع ، ظاهرة متأخرة جداً من حيث الزمان ، وهي ليست برعماً طرياً فتياً ، بل انما هي آخر زهرة يحملها أحد فروع الساق الأم لكل النطوق الصوتية .

والحق أنه لا يوجد في الواقع نطق مجرد لكلمة . فليس هناك من انسان يتحدث دون أن يستخدم ، بالاضافة الى الكلمات المقررة ، صيغاً أخرى تماماً من النطق ، كالتشديد والايقاع وأسارير الوجه مثلاً ، وهذه أعرق بكثير في أوليتها من لغة الكلمة ، والتي أصبحت زيادة على ذلك مرتبطة متلاحمة مع لغة الكلمة هذه . ولذلك

فانه لمن الضرورة القصوى بمكان ، أن نتجنب اعتبار مجموع لغات الكلمة المعاصرة، بما في هذه اللغات من افراط في التعقيد والتشابك ، وحدة باطنية ذات تاريخ متجانس . فلكل لغة كلمة معروفة لدينا جوانب جد مختلفة ، ولكل جانب من هذه الجوانب مصيره الخاص داخل التاريخ ككل . فليس هنا من ادراك حس يمكن أن يكون غير ملائم اطلاقاً لتاريخ سديد لاستعمال الكلمات واستخدامها . زد على ذلك أنه يتوجب علينا أن نميز بدقة بين اللغة الشفهية وبين اللغة الصوتية . فالأخيرة هي لغة مألوفة حتى للأبسط من انواع الحيوانات ، أما الأولى فهي في خصائص معينة شيء مختلف اختلافاً جذريا عن الثانية – وبالرغم من أن هذه الخصائص هي خصائص فردية ، فكونها كذلك يجعلها أعمق مفهوماً ومغزى . فكل حيوان يستطيع أن يميز لغة الصوت بوضوح وذلك بالاضافة الى دوافع التعبير (هدير الغضب مثلا) واشارة المواصلة (كصرخة التحذير) ،والقول ذاته ينطبق ، دون ريب ، على أبكر الكلمات . ولكن هل نشأت آنذاك اللغة الشفهية كلغة تعبير أم كلغة مواصلة ؟ وهل كانت في أوضاعها الغارقة في البدائية مستقلة الى حد قريب أو بعيد عن أية من اللغات البصرية كالصورة والايماءة مثلاً ؟ اننا لا نملك أجوبة على أسئلة كهذين السؤالين وذلك لأننا لا نعرف أقل معرفة ما كانت عليه الاشكال السابقة لما يسمى وجوباً « بالكلمة » . والحق انها لفيلولوجيا سخيفة هي تلك التي تستخدم ما ندعوه اليوم باللغات البدائية (وهذه اللغات هي صور غير كاملة لأوضاع اللغة المتأخرة زمناً) كمقدمات لنتائج عن أصل الكلمات وأصل « الكلمة » . فالكلمة في هذه اللغات هي اداة مقررة طورت تطويراً راقيا وأمست واضحة وغنية عن البيان .

لا شك أن الاشارة التي مكنت لغة مستقبل الكلمة من فصل ذاتها عن النطق الصوتي لعالم الحيوان كانت تلك التي أدعوها « بالأسم » – وهو صورة صوتية تستخدم لتدل على شيء ما قائم في العالم المحيط بنا ، شيء ما يحس به على أنه كائن وحينما أطلق عليه اسماً أصبح روحاً « الهيا » Numen . ولسنا بحاجة للحدس والتخمين عن كيفية بروز الاسماء الاولى الى الوجود فليس هناك من لغة بشرية

يمكن أن ننفذ اليهــا تستطيع أن تعطينا أية قـاعدة أو مستنداً لهذا الموضوع . ولكن ، خلافـاً لوجهة نظر البحث الحديث ، أقدر أن المنعطف الحاسم لم ينشأ لتكوين الحنجرة، أو لخاصية تكوين الصوت ، أو لأي عامل فيزيولوجي آخر - فاذا كانت قد وقعت مطلقاً تبدلات كهذه فان مثل هذه التبدلات تؤثر في جانب العنصر (من جوانب الانسان) - كما وأن هذا المنعطف الحاسم لم ينشأ حتى نتيجة للانتقـــال من الكلمة الى الجملة (كما يقول هـ . بول) ، بل نتيجة لتبدل روحي عميق . فمع الأسم ينشأ مطل جديد على العالم أو نظرة جديدة فيه . واذا ما كان النطق بصورة عامة إبناً للخوف ، إبناً للرعب الذي لا يسبر له غور ، هذا الرعب الذي يتدفق جيشانه عندمـا تعرض الوقائع على الشعور الواعي ، والذي يستحث كل المخلوقات معاً في الحنين الى برهنة كل واحدة منها على حقيقة الأخرى وجوارها - فعندئذ تمثل الكلمة الاولى ، الأمم قفزة جبارة الى العلاء . فالاسم يسحج معنى الشعور ومنبع الخوف على حد سواء . فالعالم ليس مجرد قائم وموجود ، بل انمـا يحس بسر فيه . فالانسان ، قبل وما عدا المواضيـع العديدة للغة التعبير والمواصلة، يطلق اسماً على ذاك الشيء الذي يكون غامضـــاً . والحيوان وحده هو الذي لا يعرف الغوامض . والانسان لا يستطيـع أن يفكر ببالغ من عميق الوقـــار والاحترام بهذه التسمية الاولى . فلم يكن انذاك من الحكمة ، أن يتفوه دائمـاً بالاسم أو يلهج به باستمرار ، فـــالاسم يجب أن يبقى سراً ، اذ أن قوة خطرة تسكنه . ومع الاسم تمت الخطوة من الوضع الفيزيولوجي اليومي للحيوان الى الوضع الميتافيزيقي للانسان . فالاسم كان اعظم منعطف في تاريخ النفس البشرية.

ولقد تعودت الابستمولوجيا ان تضع النطق والفكر جنباً الى جنب ، وهــذا شيء صحيح تماماً اذا ما اعتبرنا اللغات التي تملك النفوذ في الوقت الحاضر. ولكنني اعتقد بأننا نستطيـع ان نذهب الى اعمق من ذلك ، فنقول بأنه قد برز مع الاسم الدين بمفهومه الذاتي الخـاص ، وولد الدين الثابت المقرر من وسط ورع شبه ديني لا شكل له . والدين بهذا المفهوم انما يعني التفكير الديني . وهـو المفهوم الجديد للفهم المبدع والمتحرر من الاحساس . ونحن نستعمل اصطلاحاً ذا مغزى عميق اذ

نقول اننا« نتأمل في » ونفكر ملياً » في شيء ما . فمع فهم الاشياء المسماة ، يبدأ تكون عالم أرقى ، وأهم من هذا كله ، يبدأ الوجود الحسي - وهو عالم ارقى استناداً الى الرمزية الواضحة ، واستدلالاً على مركز الرأس الذي يخمنه المرء (ويخمنه مراراً بدقة أليمة) انه موطن افكاره . وهذا التفكير الديني يعطي الشعور البدائي بالخوف موضوعاً ولحظة من تحرر . وعلى التفكير الديني الاول هذا كانت ولا تزال تعتمد جميع الافكار الفلسفية والمدرسية والعلمية، في الازمنة المتأخرة ، بأعمق ما لها من أسس. وبتوجب علينا ان نفكر بهذه الاسماء الاولى بوصفها مواد فردية ومنفصلة تماماً ، مواد من مخزون اشارات لغة صوت وايماءة طورت تطويراً راقياً ، لغة لم يعد بامكاننا ان نتخيل تراءها ، وذلك لأن هذه المواد الاخرى قد اصبحت تابعة للغات الكلمة ، وإن المزيد في تطويرها يرتبط بها ويعتمد عليها . وعلى كل حال فان هناك شيئاً واحداً قد حُقق وأثبت عندما دشن الاسم تحول تقنية المواصلة واعطاءها روحاً - ألا وهو تفوق العين على بقية اعضاء الحواس الاخرى . فيقظة الانسان ودرايته كانتا في فراغ منور مضاء ، وكانت خبرته بالعمق اشعاعاً خارجياً يتجه نحو منابع الضوء ومقاومته وأدرك على أن « أناه » Ege هي نقطة الوسط في الضوء . « فالمنظور » أو « اللامنظور » كان البديل الذي سيطر على الفهم عندما نشأت الاسماء الاولى . فهل كانت الاسماء الاولى ربما اسماء لأشياء من عالم الضوء وكان يُحس بها وتلاحظ في مؤثراتها ولكنها لم تكن منظورة ؟

لا شك ان مجموعة الأسماء هي ، وهي ككل شيء يشكل منعطفاً في مجرى أحداث العالم، يجب ان تكون قد تطورت بسرعة وقوة معاً . فكامل عالم الضوء حيث يمتلك كل شيء فيه صفات المركز والديمومة في الفراغ كان - في أي وسط من توترات العلة والمعلول ، الشيء والملكة ، الموضوع والذات ! وكان قد جُلب بكشوف من اسماء لا تعد ولا تحصى ، ومن ثم رسا على هذا الشكل في الذاكرة، لأن ما نسميه الآن « بالذاكرة » إنما هو القدرة على التخزين من أجل الفهم ، بواسطة الاسم والمسمى. ففوق ميدان الاشياء المنظورة المفهومة يمتد ميدان عقلاني

لتسميات يشترك فيه الملكة المنطقية بكونه امتداداً مجرداً ومنتظماً في الاستقطابية ومحكوماً بالمبدأ السببي (العلي) . ولكل نماذج الكلمة كالضمائر واحرف الجر (التي تنشأ طبعاً بعد تلك بكثير) معنى سببي (علي) أو محلي فيما يتعلق بالوحدات المسماة ، كما وان الصفات والافعال قد برزت مراراً الى الوجود بأزواج بحيث يناقض الفرد من الزوجين الآخر ، وكثيراً ما تلفظ الكلمة (كما هي حال لغات إو E'we في افريقيا الغربية والتي بحث فيها وسترمان) بصوت مرتفع أو خفيض كي تعني مثلاً كبيراً أو صغيراً بعيداً أو قريباً ، فعلاً معلوماً أو مجهولاً . وهذه الآثار من لغه الايماء تمر فيها بعد لتدخل بكاملها شكل الكلمة ، كما نرى ذلك بوضوح في بعض الايماءات اليونانية مثلاً وفي اصوات المصرية هذه الاصوات التي تدل على الألم .

وشكل التفكير في المتناقضات ، هذا الشكل الذي يبدأ من زوجي الكلمة المتناقضين ، هو الذي يوجد أساس كل منطق غير متعضٍ ، وهو الذي يحول كل اكتشاف علمي للحقائق الى حركة تناقضات مفاهيمية والتي أبرز ما فيها من مثال كوني ، هو مثال النظرة القديمة والنظرة الجديدة حيث تتباينان بوصف الواحدة منهما « خطأ » أو « صوابا » .

ويتمثل المنعطف الثاني العظيم في استخدام الصرف والنحو . فبالاضافه الى الاسم تقوم الآن الجملة ، وتوجد زيادة على التسمية الشفهية العلاقة الشفهية ، واستناداً الى هذا أصبح التأمل ـ الذي هو تفكير في علاقات الكلمة الناشئة عن ادراك الاشياء التي من أجلها توجد دمغات الكلمة ـ أقول أصبح التأمل الميزة الحاسمة للشعور الواعي للانسان . اما السؤال عما اذا كانت لغات المواصلة قد احتوت فعلاً على « جمل » كاملة قبل ظهور الاسم « الاصيل » فان الجواب عليه لعسير فالجملة بقبولها الحالي للكلمة قد تطورت ، فعلاً مع صورها الخاصة ، داخل هذه اللغات وتبعاً لظروفها الخاصة ، ولكن مع هذا فانها تفترض وجود الاسم سابقاً لوجودها، ويصبح تركيب الجمل ، بوصفها علاقات مفاهيمية ، أمراً ممكنا فقط مع التبدل

الذهني الذي يرافق ولادتها . ويتوجب علينا ان نفترض اكثر من هذا فنقول بأنه قد حدث ، داخل اللغات المعدومة الكلمة والبالغة مرتبة رفيعة من التصور ، وفي سياق الاستعمال العملي المستمر ، تحول خاصة أو ميزة بعد ميزة الى شكل شفهي هبط على حاله هذه في مكانه ، وبتركيب متزايد في صلابته ، تركيب هو الشكل الاولي لكل لغاتنا المعاصرة وبهذا فان البنية الباطنية لكل اللغات الشفهية ترتكز على أسس التركيب اقدم بكثير منها ، وهي لا تعتمد في المزيد من تطورها على مخزون الكلمات ومصيره .

ولكن في الواقع هو العكس تماماً وذلك لأن المجموعة الأصلية للأسماء الفردية قد تحولت مع علم تركيب الكلام الى منهاج كلمات لم تعطه معاني الكلمات الخاصة طابعه ، بل انما أعطاه إياه معناها الأجرومي Grammai. فلقد ظهر الأسم بوصفه شيئاً ما جديداً ومستقلا قائماً تاماً بذاته. ولكن انواع الكلمه نشأت بوصفها مواد الجملة ، ولذلك تدفقت محتويات الشعور الواعي بوفرة عرمة فائضة على عالم الكلمات هذا ، مطالبة بأن تدمغ وتمثل فيه ، حتى اصبح « الكل » أخيراً ، وعلى هذا الشكل أو ذاك ، كلمة بمتناول عملية التفكير .

ومن الآن فصاعداً ، أمست الجملة المسادة الحاسمة فنحن ننطق بجمل وليس بكلمات . والمحاولات لتعريف الجمل والكلمات كانت جديدة متعددة ، ولكنها لم تكن أبداً ناجحة . فتركيب الكلمة على حد ما يقول ف . ب فنك هو نشاط تحليلي للعقل ، بينما أن تركيب الجملة هو نشاط تركيبي للذهن ، وأن الأول منهما يتقدم الثاني ويسبقه .

ونحن نستطيع أن نثبت أن الواقعة التي تتلقى كتأثير انما تفهم فهماً متنوعاً ، ولهذا السبب فان الكلمات قابلة لتحديد معانيها من قبل عدد جد كبير من وجهات النظر المختلفة . ولكن وفق التعريف المألوف للجملة ، فالجملة هي التعبير الشفهي لفكر ، وهي رمز (كما يقول هـ . بول) يرمز الى ترابط فكر متعددة داخل نفس المتكلم . ولكن يبدو لي أنه من المستحيل أن نثبت في طبيعة الجملة معتمدين

في ذلك على محتوياتهـا ، فنحن نسمي ببساطة الوحدات الميكانيكية الأكبر نسبياً والمستخدمة « جملا » وندعو الأصغر ، منها نسبياً « بكلمات » . وعلى هذا الميدان تمتد القوانين الأجرومية . ولكن حالمـا ننتقل من النظرية الى التطبيق نرى أن اللغة ، كما درج الناس على استعمالها ، لم تعد نظاماً ميكانيكيا كهذا ، فهي لا تلبي أوامر القوانين ، بل انما تطيع النبض . وهكذا فـان خاصة من خصائص العنصر تكتشفها بالبداهة وذلك في كون الطريقة التي يبلغ فيها عن الموضوع قد قررت . بجمل . فالجمل ليست هي الشيء ذاته بالنسبة لتاسيتوس ونابليون كما هي لدى شيشرون ونيتشه . والانسان الانكليزي ينظم مـــادته صرفـا ونحوا باسلوب يختلف عن الاسلوب الالماني .فليست الخواطر والافكار بل انما هو التفكير ونوع الحياة والدم الذي يقرر في طوائف النطق البدائية من كلاسيكية وصينية وغربية نموذج وحدة الجملة ، ويقرر معه العلاقة الميكانيكية بين الكلمة والجملة . فالحد بين الصرف والنحو وبين تركيب الكلام يجب أن يقوم عند النقطة التي ينتهي عندها النطق الميكانيكي ويبدأ منهـا المتعضي من المتكلم - أي الخصائل والعـــادة وسياء الاسلوب الذي يستخدمه الانسان للتعبير عما في نفسه . أما الحد الآخر فيقع عند النقطة التي ينتقل التركيب الميكانيكي الكلمة فيدخل في العوامل المتعضية لتكوين الصوت والتعبير . وحتى نستطيع أن نميز مرارا حتى أطفال المهاجرين من اللهجةالتي يتلفظون بهـــا بـ Th الانكليزية - فهذه هي سمة من سمات الارض . وفقط كل مـا يقع بين هذين الحدين وهو مـا يسمى بصورة سديدة « اللغة » التي لهـا منهاج ، انما هو اداة يمكن أن تخترع وتحسن وتبدل وأن تبلى، لكن التصريح والتعبير هما على العكس من ذلك ، فهما يلتصقان بالعنصر ويلازمانه . فنحن نستطيع أن نتعرف على انسان نعرفه دون أن نراه من لفظه للكلمات ، واكثر من هذا ، فاننا نستطيع ايضاً أن نتعرف على عضو من عنصر غريب حتى ولو كان يتقن الحديث باللغة الالمانية . والتعديلات الكبرى التي طرأت على الصوت ، كالالمانية الراقية القديمة في الأزمان الكرولانجية ، واللسان الألمـاني المتوسط الرقي في العصور القوطية المتأخرة حدود اقليمية تؤثر فقط في التكلم باللغة ،ولا تؤثر في الشكل الباطني للجملة والكلمة .

إن الكلمات ، كما قلت آنفاً ، هي الوحدات الصغرى نسبياً في الجملة . وقد يكون ليس هناك من ميزة تميز تفكير نوع من الانواع البشرية ، كأساليبه الذي يتم بواسطته اكتساب هذه الوحدات . فالشيء الذي يراه مثلاً الانسان الاسود من قبيلة البـــانتو [1] Bantu إنما ينتمي الى عدد جد كبير من مراتب الادراك . وانطباقاً على هذا القول فان الكلمة المعبرة عن هذا الشيء تتألف من لب أو جذر ومن عدد من ادوات التصدير ذات المقطع الواحد . فعندمــــا يتحدث عن امرأة موجودة في حقل فـان حديثه يكون شيئاً ما مشابهاً لـما يلي : تعيش ، واحدة ، كبيرة ، مسنة ، امرأة ، خارجاً ، بشرية.

(Living , one , big , old , female , outside , human).

وهذه « الجملة » تشكل سبعة مقاطع وتدل على عمل صافي الذهن من اعمـال الادراك ، غير ان هذا العمل هو غريب تماماً بالنسبة الينا . وهناك لغـات تكون الكلمة منها مساوية في امتدادها الجملة .

إن الإحلال التدريجي للايماءات الأجرومية ، محل مـا هو جسماني أو عميق ، بشكل العامل الحاسم في تكوين الجمل ، لكن هذا الاحلال لم يُنجز ابداً . فليس هناك من لغات شفهية مجردة . فنشاط التكلم بكلمات كما ينشأ ويزداد دقـــة واتقاناً ، يتضمن على اننا نوقظ بواسطة اصوات الكلمة الشعور بالمعنى الذي يوقظ بدوره ، وبواسطة ترابطات الصوت ، الشعور بالعلاقة . ودراستنا اللغة لا تدربنـا فقط على الفهم بهذا الشكل المختصر المفيد ، فهم أشياء الضوء وعلاقاته ، بل تدربنا أيضاً على فهم اشياء الفكر وعلاقاته . فالكلمات لـما تسمى فقط ، ولا تُستعمل استعمالاً محدداً ، وعلى السامع ان يشعر بما يعنيه المتكلم . وهـذا وحده هو الذي يعتبر نطقاً ، ومن هنـا تلعب السحنة والجرس دوراً أهم بكثير من الدور الذي

---

١ ــ Bantu قبيلة غفيرة العدد تقطن في افريقيا الاستوائية وجنوبي افريقيا .
(المترجم)

يعترف به فهم النطق الحديث بصورة عامة . فاشارات الاسماء الموصوفة قد توجد حتى بالنسبة للكثير من الحيوانات ، ولكن اشارات الفعل لا توجد ابداً (بالنسبة اليها - المترجم) .

ان آخر مـا في هذا التاريخ من أحداث عظمى هو ولادة الفعل الذي يسير تقريباً بتكوين لغة النطق الى نهايتها . وهذا (الفعل) يتخذ ، في مستهل ولادته لنفسه نظامـاً بالغ الرفعة في التجريد . وذلك لأن الاسماء الموصوفة هي كلمات تصبح بواسطتها الاشياء المعرّفة حسّاً في الفراغ المضاء مستوجبة ايضاً في التفكير الطارىء فيا بعد ، بينا أن الافعال تصف نماذج من تبدل ، وهذي لا تُشاهد أو يبصر بها ، بل انما تستخلص من عالم الضوء اللانهائي في تغيره وتلونه ، وذلك بواسطة ملاحظة الميزات الخاصة للقضايا الفردية ، وتوليد المفاهيم منها . « فالحجر الساقط » هو اصـــلاً تعبير وحدة ، ولكننا نفصل أولاً الحركة عن الكثير من الانواع والظلال - عن الغرق ، الترنح ، التعثر ، الانزلاق . وهنا « لا نشاهد » الفرق ، بل انما « نعرفه » . فالفرق بين الهرب والركض ، والطيران ، والطفو ، يتسامى بجميع هذه فوق التعبير البصري الذي ينشأ عنها ومنها ، وهو قابل للادراك فقط بواسطة شعور مدرب على الكلمة . ولكن حتى الحياة ذاتهـا اصبحت الآن ، مع تفكير الفعل هـذا ، بتناول التأمل والتفكير . فيستأصل من الطابع الحي الذي طبـع بـه الشعور الواعي ، ومن بيئة الصيرورة (حيث يقلع نطق الاعاء دون ان يُسـأل أو يُسبر له غور لكونه نطقاً تقليدياً مجرداً) أقول يستأصل ، دون ما وعي ، ما هو الحياة نفسها - واعني به وحدانية الحدوث - أما مـا يتبقى (بعد استئصال الحياة) فيجري ترتيبه بوصفه معلولاً لعلة (كالهواء يهب ، والبرق يومض، والفلاح يحرث) وتنسيقه وفق اوصاف شاملة في مواضع مناسبة من منهـــاج الاشارة . ويتوجب على المرء ان يدفن نفسه تمامـــاً في المحدودية الصلبة للمبتدأ والخبر ، للفعل من معلوم ومجهول ، للحاضر وصيغة الماضي التام Perfect ، كي يدرك كيف يسيطر هنا الفهم تماماً على الحواس ويسلب النفس من الواقعة .

أمـا في الاسماء الموصوفة فان المرء لا يزال يستطيع أن يعتبر الشيء الذهني (الفكرة) بوصفها نسخة طبق الأصل عن الشيء البصري ، ولكن في الفعل قد أحل شيئاً ما غير متعض محل شيء ما متعض . فواقعة كوننا نحيا – وأعني بذلك أننا ندرك في هذه اللحظة شيئاً ما – تصبح في النهاية ملكة الشيء مـا المدرك . وفي مصطلحات تفكير الكلمة يحتمل المدرك الفعل النـاقص « Is » . وعلى هذا النمط تشكلت مراتب الفكر ، وجرى تدريجها وفق ما هو طبيعي لهـا وما هو ليس بالطبيعي . وعلى هذه الحـال يبدو الزمان بعداً ، ويبدو المصير علة ، ويبدو الحي كأنه نظـام ميكانيكي كيمائي أو نفساني . وعلى هذا الشكل ينشأ أسلوب الفكر من رياضي وفقهي ودغماتي .

وعلى هذا النمط ينشأ الانشقاق ، الذي يبدو لنـا أنه ملازم للانسان ، وهو والحق ليس سوى تعبير من تعابير سيطرة لغة الكلمة على شعوره الواعي . وقد صاغت اداة المواصلة هذه ، بين « الأنا » و « الأنت » ، وبسبب كمالها ، من الفهم الحيواني للاحساس ، تفكيراً في الكلمات التي تقوم مقام الاحساس وتنوب عنه . فـالتفكير الدقيق – أو التمسك بالزهيد من الامور كما يسمونه – انما هو أن يتحدث المرء لنفسه في مغازي الكلمة ومعانيها . وليس هنـاك أي نوع من لغة يصلح للنشاط سوى لغة الكلمات ،وهو يمسي حين اكتمال اللغة أمراً مميزاً أو منفصلاً عن عـادة حياة كامل طبقات من الكائنات البشرية . واطلاق النطق من التكلم ، هذا الطلاق الذي يجعله متخشباً وفـاقدا لعناصر الحيـاة ، والذي يصبح معه من المستحيل على النطق ان يحتوي على كامل الحقيقة في تلفظ شفهي ، أقول ان لهذا الطلاق خـاصة نتائج بعيدة المدى على منهاج اشارة الكلمة . فالتفكير التجريدي يقوم على استخدام اطار كلمة محدود ، ومن ثم يحاول هذا التفكير أن يحشر كامل محتوى الحيـاة اللامحدود داخل هذا الاطـار . فالمفاهيم تقتل الكينونة ، وتزور الكينونة الواعية . وفي الايام الغابرة ، أيام ربيع تاريخ اللغة ، حينما كان لا يزال على الفهم أن يناضل ضد الاحساس ليحافظ على ما لديه ، لم يكن لهذه الميكانيكية

أي أهمية بالنسبة الى الحياة . ولكن الآن تطور الانسان من ذاك الكائن الذي كان يفكر بين فترة وأخرى، الى كائن مفكر ، وأمسى المثل الاعلى لكل منهاج تفكير يتمثل في اخضاع الحياة ، اخضاعاً لا تحرر بعده ، لسيطرة الذهن. ويتحقق هذا الاخضاع ، من الناحية النظرية ، بواسطة اضفاء ثوب الصحة على كل ما هو معروف ، وبدمغ كل ما هو واقعي بدمغة الكذب والوهم والهوس . أما من الناحية العلمية فانه يتحقق عن طريق ارغام أصوات الدم على السكوت في حضرة المبادىء الاخلاقية الكونية .

ان كلا من المنطق والاخلاق هما منهاجان ، سواءً بسواء ، منهاجان لحقائق مطلقة وخالدة بالنسبة للذهن ، ومطابقة لغير الحقائق بالنسبة للتاريخ . فمها بلغ انتصار العين الباطنية من الكمال على العين الظاهرية في ميدان الفكر ، فان الاعتقاد بالحقائق الخالدة في ميدان الوقائع انما هو مسرحية تافهة سخيفة لا توجد الا في رؤوس الافراد . فلا يمكن أكيداً أن يوجد منهاج حقيقي للافكار ، وذلك لانه لا تستطيع أية اشارة أن تحل محل الواقعة. والمفكرون المخلصون والعميقو الفكر يقادون دائما الى الاستنتاج القائل بان كل معرفة هي معرفة مكيفة بداهة بشكلها الخاص ، وهي لا تستطيع أبداً أن تبلغ ذاك الذي تعنيه الكلمة — وذلك بغض النظر ، ثانية ، عن حال التقنيات ، حيث أن المفاهيم فيها هي ادوات وليست أهدافاً بحد ذاتها .

وهذا القول يتوافق ايضاً وبديهة كل لوذعي اصيل ، خلص الى التقرير ان المبادىء التجريدية للحياة هي مبادىء مقبولة فقط بوصفها تعابير مجازية ، وقواعد رثة مبتذلة للاستعمال اليومي ، حيث تجري من تحتها الحياة ، كما جرت فيما مضى ، منطلقة دائماً الى الامام . والعنصر هو ، في النهاية ، أقوى من اللغات ، وهكذا فان المفكرين — والذين هم اشخاص — وليسوا بمناهج — لا تثبت على حال — هم ، وتحت كل ما نراه من عناوين عظمى ، الذين أثروا في الحياة وفعلوا فيها .

- ٦ -

إذن فالتاريخ الباطني للغـــة الكلمة يُظهر حتى الآن ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى تظهر الاسماء - الوحدات من نوع جديد من الفهم - داخل لغات مواصلة تطورت تطوراً راقياً ، لكنها مجردة من الكلمات . فالعالم في هذه المرحلة يستيقظ بوصفه مرأً ، ومن هنا يبدأ التفكير الديني . أما في المرحلة الثانية فان نطق مواصلة تاماً يتحول تدريجياً الى قيم من صرف Grammar فالاماءة هنـا تصبح جملة ، والجملة تحول الاسماء الى كلمات . وتمسي الجملة بالاضـــافة الى ذلك مدرسة عظمى للفهم تنتصب قبالة الاحساس ، ويستدعي شعور متزايـد ودقيق بالمغزى يتوق الى العلاقات التجريدية داخل ميكانيكية الجملة فيضـــاً هائلاً من التصاريف (جمع تصريف في الصرف) التي تربط ذواتها خاصـة بالاسم الموصوف والفعل ، بكلمة - الفراغ وكلمة - الزمان . وهذا يمثل عصر ازدهـار الصرف ، أي المرحلة التي نستطيـع ان نعتبر (بكل تحفظ) انها استغرقت الدورتين الألفيتين السابقتين لولادة الحضارة المصرية والحضارة البابلية . أما المرحلة الثالثة فانها تتميز بانحلال سريع يطرأ على التصاريف وبحلول النحو ، في الوقت ذاته ، محل الصرف. وهنا تبدأ عملية تعقل (الصيرورة عقلاً - المترجم) الشعور الواعي للانسان ، فهذا الشعور قد بلغ الآن شأواً لم يعد معه بحاجة الى دعائم حس التصريف، وهو يطرح الاشكال القديمـــة الغزيرة للكلمة ، ويُبلغ بجرية ويعين مستعيناً بأبسط ظلال الفروق في المصطلحات وأبهتها ، (كالحروف ، ومراكز الكلمة ، والايقـاع) ونتيجة للاكثار من التلفظ بكلمات حقق الفهم سيطرته على الشعور الواعي ، وهو اليوم في طريقه الى تحرير ذاته من محدوديات الآلية الشفهية المحسوسة وقيودهـا ،

وينشط الآن متجهاً نحو ميكانيكية عقل مجردة . فالعقول هي اليوم تتصل بعضاً ببعض وليست الحواس .

وفي المرحلة الثالثة هذه من التاريخ اللغوي ، والتي تحدث وفق هذه الحال، على مستوى بيولوجي وهي لذلك تنتمي الى الانسان بوصفه نموذجاً ، أقول في هـذه المرحلة يتدخل تاريـخ الحضارات الارقى ويدخل بنطق جديد كل الجـدة ، نطق البعد ، المســافة ، ـ أي الكتابة ـ وهي اختراع يملك ذاك القدر من القوة الباطنية بحيث ينشأ ، ايضاً ، وفجأة ، انعطاف حاسم في مصائر لغات الكلمة .

فاللغة المصرية المكتوبة كانت في عام ٣٠٠٠ ق. م. قـد أمست في وضع من انحلال صرفي ، وكذلك ايضاً كانت حال اللغة الادبية السومرية المعروفـة باسم (eme - Sal) (أي لغة النساء) . كما وان اللغة المكتوبة الصينية ـالتي كانت اللغات الدارجة في العالم الصيني قد شكلت تجاهها منذ زمن طويل لغة منفردة عن هذه ـ هي ، حتى في اقدم النصوص المعروفة ، معدومة كلياً من كل تصريف ، بحيث أن البحث الحديث فقط قد اثبت أنه كانت لهذه اللغة ، في وقت مـــا ، تصاريف إطلاقاً . زد على ذلك أن المنهاج الهندي الجرماني هو معروف لدينا فقط في وضع من تهشم تام . أما فيما يتعلق بالمنهاج الفيدي (قرابة عام ١٥٠٠ ق.م.) فان اللغات الكلاسيكية ، التي جاءت بعده بألف عـــام ، لم تحتفظ بأكثر من هتامات منه . فمنذ زمن الاسكندر الاكبر اختفت التثنية ، من تصريف الاسماء للغة الهيلينية الدارجة ؛ وتلاشى الفعل المبني للمجهول من تصريف الفعل إطلاقاً . كما وان اللغات الغربية ، بالرغم من أن منابعها متنوعة الى اقصى حد يمكن ان يدركه الخيـال ـ الشكل الجرماني ذو الارومة البدائية ، الشكل اللاتيني ذو الأصل الراقي في تمدنه ـ فهذه اللغات تحوّر وتعدّل في الاتجاه ذاته ، فالمواضيع اللاتينية قد اختزلت الى موضوع واحد ، اما الانكليزية فقد اختزلت ، بعد حركة الاصلاح الديني ، الى صفر .

زد على ذلك أن اللغة الألمـانية العادية قد اطرحت المضاف اليه جانباً في مطلع

القرن التاسع عشر ، وهي اليوم في طريقها الى الفناء المجرور . والمرء فقط عندما يحاول أن يترجم قطعة صعبة من نثر مليء – ولنقل لتاسيتوس أو مومسن – الى احدى اللغات الخارقة في القدم والغنية في التصاريف ، عندئذ يستطيع هذا المرء أن يتحقق كيف تبخرت تقنية الأشارات ، خلال المرحلة الزمنية التي تفصل تلك اللغة عن تاسيتوس أو مومسن ، الى تقنية أفكار لا تحتـــاج الآن الى استخدام الاشارات – المختزلة لكن المليئة بالمعنى – إلا لأنهـــا تعتبر هذه الاشارات مجرد فريق يباريها في لغة لا يستطيع أن يفهمها غير المكرسين في طائفة نطقها . وهذا هو السبب الذي يجب أن تبقى دائما من أجله النصوص الصينية المقدسة كتابا مغلقاً، بكل مـا لهذه الكلمة من معنى ، بالنسبة الى الانسان الاوروبي الغربي ، ولكن هذا القول ينطبق ايضاً على الكلمة الأولية في لغة كل حضارة أخرى – كالكلمتين السنسكريتيتين آتمان وبراهمان – وهما تدلان على نظرة هذه الحضارة في العالم،ولا يستطيع أي انسان ، غير مسلسل نسباً في هذه الحضارة أن يفهم لها معنى .

إن التاريخ الظاهري للغات ، وخاصة أشد أجزائه أهمية ، يعتبر بمثابة المفقود. فربيعه يكمن عميقـاً في الحقبة البدائية ، حيث يتوجب علينا (ولأكرر مـا قلته آنفـا) أن نتصور الانسانية في شكل من جماعات صغيرة مشتتة وتائهة في أرجاء الارض الفسيحة. ثم طرأ على هذه الجماعات تبدل روحي عندما أصبحت الاتصالات المتبادلة أمراً مألوفاً (وهذه في النهاية شيء طبيعي)، ولكن ليس هناك من ريب في أن هذه الجماعات قد نشدت اولاً هذه الاتصالات ومن ثم قـامت بتنظيمها ، أو تجنبها بواسطة النطق ، ولا ريب أن تأثير أرض مترعة بالنـاس كان ذاك هو أول دفع بالشعور الواعي الى نقطة الفطنة الشديدة في ذكائها ، مرغماً اللغة الشفهية أن تطفو تحت الضغط على السطح. وهكذا ، فلربما كانت ولادة الصرف ترتبط بطابع عنصر العدد الاعظم .

ومنذ ذاك التاريخ حتى اليوم لم يعرف أبداً أي منهـــاج صرفي طريقه الى الوجود ، ما عدا فقط مشتقات جديدة من كلمات كانت قائمة وموجودة . كما وأننا

لا نرى ، طيلة المدى الذي نستطيع ان تحملنا اليه نظرة نلقي بها الى الخلف اكثر من مناهج لغوية كاملة ومطورة ، يستعملها كل انسان ويتعلمها كل طفل بوصفها شيئاً مـــا كاملاً في طبيعته . ونحن بالاضافة الى ذلك نجد انه اكثر من صعب أو عسير ، أن نتخيل انه لربما كانت الاشياء في احد الأيام السالفة تختلف عما هي اليوم ، وأن رعدة من خوف قد تكون رافقت سماع لغة غريبة غامضة كهذه – أو ورعاً كذاك الذي كان المخطوط في الازمان التاريخية ولا يزال يثيره في النفوس. ومع هذا فعلينا أن ندخل في حسابنا الاحتمال القائل بأن لغة شفهية قد أوجدت ، في عالم مواصلة معدوم الكلمات ، امتيازاً ارستقراطياً هو سر لطبقة تحافظ عليه بغيرة وحماس . ولدينا على ما قلته آنفاً الف مثال ومثل – الدبلوماسيون بلغتهم الفرنسية ، العلماء بلاتينيتهم ، والكهنة بسنسكريتيتهم – يخولنا الافتراض انه لربما كان آنذاك نازع كهذا . وإنه لجزء من كبرياء الانسان العريق الاصيل أن يكون قادراً على الحديث مع نده بأسلوب لا يفهمه دخيل – لأن اللغة هي بالنسبة لكل انسان عامية دارجة . فلكي تكون على « مستوى اصطلاحات الحديث » وشخص ما هو امتياز لك أو حجة . وهكذا ايضاً فان استعمال اللغة الفصحى في الحديث مع الناس المثقفين واحتقار اللغة العامية ، هو مما يميز الكبرياء البرجوازية الصحيحة . وانـــه لأمر مألوف لنا نحن فقط الذين نعيش في المدينة حيث يتعلم الأطفال الكتابة كما يتعلمون المشي – لكنه في الحضارات المبكرة كان يمثل انجازاً نادراً لا يطمح اليه الا القليل . وانني لواثق من انه كانت هذه هي الحال أيضاً ، في أحد الأيام ، واللغة الشفهية .

ان مقياس (Tempo) سرعة زمن التاريخ اللغوي هائل في سرعته ، فمجرد جيل واحد فقط يعني الكثير من الاشياء والعظيم من الأمور . ويجوز لي هنا ان أشير ثانية الى لغة الايماء للهنود الشماليين ، هذه اللغة التي أمست ضرورة لازمة بسبب التغيرات السريعة التي طرأت على اللهجة العامية للعشائر ، فجعلت التفاهم أمراً مستحيلاً بدون لغة الايماء .

ولنقارن ايضاً بين اللاتينية التي اكتشفت حديثاً في نقوش الفوروم (قرابة عام ٥٠٠) وبين لاتينية بلاوتوس (قرابة عام ٢٠٠) وبين هذه ايضاً وبين لاتينية شيشرون (قرابة عام ٥٠) . لذلك فاذا ما فرضنا ان اقدم النصوص الفيدية قد حافظت على الوضع اللغوي لعام ١٢٠٠ ق.م، عندئذ قد تكون حتى النصوص العائدة لعام ٢٠٠٠ قد اختلفت عن ذاك الوضع اكثر بكثير مما يظن أو يحدس أي فيلولوجي، من فيلولوجيي الهندية الجرمانية ، يقوم بابحاثه فوق مناهج متتالية متلاحقة . ولكن الأليغرو Allegro يتبدل الى لنتو ento ! ، في اللحظة التي يتدخل الحظ فيكبل المناهج بالأغلال ويشل حركتها عند مستويات حقبة مختلفة تماماً . وهذا هو ما يجعل التطور معتماً غامضاً الى هذا الحد بالنسبة الى البحث ، وكل ما نمتلكه الآن انما هو آثار وبقايا من لغة مكتوبة . أما من عالمي اللغتين المصرية والبابلية ، فلدينا تعود حتى عام ٣٠٠٠ ولكن اقدم الآثار الهندية الجرمانية هي نسخ طبق الاصل Copies ، حيث الوضع اللغوي فيها أغض ايهاباً بكثير من المحتويات .

لقد كانت مصائد الصروف (جمع صرف) والمفردات ، تحت ضغط عوامل الحسم هذه بالغة في التنوع فالصروف ترتبطبالذهن أما المفردات فانها ترتبط بالاشياء والأماكن . والمناهج الصرفية هي وحدها الخاضعة للتبدل الطبيعي الباطني . أما استعمال الكلمات ، فهو على العكس ، إذ أنه يفترض سيكولوجياً ، بالرغم من أن التعبير قد يتبدل ، أقول يفترض الحفاظ على التركيب الميكانيكي ويبالغ في تثبيته) لكونه القاعدة التي تستند جوهريا التسمية اليها . ان العائلات اللغوية العظمى هي العائلات الصرفية العظمى .

فالكلمات فيها هي ، الى حد قريب أو بعيدة ، مشردة لا موطن لها ، جوابة رحالة من واحد الى آخر . وهناك خطأ أساسي في البحث الفيلولوجي ،(وخاصة الهندي الجرماني منه) وهذا الخطأ يتمثل في معالجة الصرف والمفردات بوصفها وحدة (كلمة المترجم). فكل المفردات المخصصة ــ كرطانة الصياد ، الجندي ،

الرياضي ، البحري ، العلامة — هي في الواقع مجرد مخازن من الكلمات ، ويمكن استعمالها داخل أي وكل المناهج الصرفية . فمفردات الكيمياء والدبلوماسية الفرنسية ، والمفردات الانكليزية المستعملة في ميدان السباق قد جنست في جميع اللغات الحديثة على حد سواء . فنحن قد نتحدث عن كلمات « غربية » ولكن الوصف نفسه كان يمكن أن يطلق في أحد الايام أو غيره ، على أعمق الكلمات « جذوراً » كما يصفونها ، في جميع اللغات القديمة .

ان جميع الاسماء تلتصق بالاشياء التي تسميها وتشارك في تاريخها. فأسماء المعادن في اللغة اليونانية هي أسماء ذات منابع غريبة عن هذه اللغة ، فهناك اسماء سامية المنشأ . كما وان الاعداد الهندية أعداد موجودة في النصوص الحثية التي دونت في بوغاز كو Boghaz kaui ، والقرائن التي تتخذها هي قرائن دخلت البلاد مع تربية الخيول وتأصيلها . كما وأن المصطلحات الادارية قد اكتسحت الشرق الأغريقي ، زد على ذلك أن جمهرة من المصطلحات الألمانية قد تدفقت بغزارة على روسيا البطرسية (نسبة لبطرس الأكبر) ، أضف الى ذلك أن الكلمات العربية تتخلل مفردات الرياضيات الغربية والكيمياء وعلم الفلك . والنورمان ، وهم جرمانيون ، قد أغرقوا اللغة الانكليزية بالمفردات الفرنسية . واللغة المصرفية (البنكية) في الاقاليم الناطق أهلوها بالالمانية ، مليئة بالتعابير الايطالية ، وبالمثل فان جمهرات من تسميات جد أوسع ، تسميات ترتبط بالزراعة وبتوليد قطعان الماشية ، وبالمعادن والاسلحة ، وترتبط بصورة عامة بكل صفات المهارة اليدوية والمقايضة والقانون المشترك بين العشائر ، أقول بأن هذه الجمهرات يجب ان تكون قد هاجرت من لغة الى أخرى ، تماماً كما كانت تنتقل دائماً المسميات الجغرافية الى المفردات الخاصة باللغة المسيطرة ، ودليلنا أن اللغة الاغريقية تحتوي على العديد من أسماء المكان الكارية Carian والجرمانية والكلتية . ونحن لا نبالغ اذ نقول بأنه كلما اتسعت دائرة توزيع الكلمة الهندية الجرمانية ، تزداد هذه الكلمة فتوة وشباباً ، واكثر من هذا أن تكون هذه الكلمة كلمة غربية . فالاسماء القديمة جداً هي وحدها التي تسبغ بوصفها ممتلكات خاصة. واللغتان اللاتينية والاغريقية تشتركان فقط في كلمات

هي في مستهل مطلع الشباب . أو هل تنتمي كلمات « كتلفون » « وغاز » واوتومبيل الى مخزون كلمة الشعب البدائي ؟ ولنفترض جدلاً أن ثلاثة أرباع الكلمات البدائية الآرية قد تحدرت الينا من المفردات المصرية او البابلية العائدة الى الدورة الالفية الثالثة ، عندئذ يتوجب علينا ألا نجد أي أثر لهذه الواقعة في اللغة السنسكرتية ، وذلك لانه لم يعد بامكاننا اطلاقاً أن نتعرف ، حتى في اللغة الالمانية، على الالاف من الكلمات اللاتينية المستعارة، اذ أن هذه الكلمات قد أصبحت منذ طويل زمن كلمات لا يمكن تمييزها عن الالمانية . فالمقطع الاخير « Ette » من أسم هتربيت هو مقطع اتروسكاني — وكم هناك من المقاطع الأخيرة من آرية وسامية أصلية ، تتحدانا ، بالرغم من أصلها الغريب تماماً لتبرهن على أنها مقاطع متطفلة ؟ فما هو التفسير الذي يقدم للتشابه المذهل للكثير من المفردات في اللغتين الاوسترالية والهندية الجرمانية ؟

ان المنهاج الهندي الجرماني هو أصغر المناهج سناً، وهو لذلك اكثرها عقلانية. وان اللغات التي تشتق منه ، هي ، لهذا السبب اكثرها عقلانية . فاللغات التي تشتق منه تحكم اليوم الأرض، ولكن هل كانت توجد إطلاقاً في عام ٢٠٠٠ لغات بوصفها صرحاً صرفياً معيناً ؟ وكما هو معروف لدينا تماماً أن مجرد شكل الحرف الأولي يفترض اليوم شيئاً محتملاً بالنسبة الى الآري أو السامي أو الحامي. فأقدم ما هناك من نصوص هندية تحافظ (على الارجح) على الشروط اللغوية العائدة الى ما قبل عام ١٢٠٠ ، كما وأن أقدم النصوص الاغريقية تحافظ على تلك الشروط العائدة (على الارجح) الى عام ٧٠٠ . ولكن الاسماء الهندية ، من شخصية والهية ، نراها أيضاً تدخل سوريا وفلسطين في الوقت ذاته، الذي يدخل فيه الحصان هذين البلدين ، ونلمس أن الذين يحملون هذه الاسماء كانوا ، في الظاهر ، أول ما كانوا ، جنوداً مغامرين ، ومن ثم أصبحوا ذوي صولة ودولة .

فهل من الجائز أن تكون أقوام فايكنغ الارض هؤلاء الفرسان الاوائل — هؤلاء الذين نموا وترعرعوا وشبوا من سروج خيولهم ، لا يفرق بينهم وبينها أي

عامل ، هؤلاء الاصول المرعبة لأسطورة الصنطور ، فايكنغ عام ١٦٠٠ – أقول هل من الجائز أن يكون هؤلاء قد ضربوا جذورهم :أغاص عمقهم أم قل ، في تربة السهول الشمالية بوصفهم شيوخاً لمغامرين يجلبون معهم نطق الالوهيـــات للحقبة الاقطاعية الهندية ؟ والأمر ذاته هو أمر المثل العليـا الارستقراطية الآرية ، مثل التزاوج والسلوك.

ووفقاً لما قلناه آنفاً عن العنصر ، فهذا قد يفسر المثل الأعلى لعنصر الأقاليم التي تتحدث بالالمانية ، دون أن تكون هناك أية ضرورة تستوجب « هجرة » أي من الاقوام « البدائية » ، وفضلاً عن ذلك – فهذا كان النمط الذي أسس وفقـــه الصليبيون الفرسان دولهم في الشرق – وفي الاماكن نفسها تماماً التي قامت بهـــا أسماء خيول ماتاني Mitanni قبل ٢٥٠٠ سنة خلت .

أو هل كان هذا المنهاج العـائد الى قرابة عـام ٣٠٠٠ لهجة دارجة عامية ، غير ذات بال ، من لغة لم يعد لها أثر ؟ إن عائلة اللغة اللاتينية قد سيطرت عـام ١٦٠٠ على كل البحار . ولكن اللغة الاصلية التي كانت لغة نهر التيبر كانت تملك من مجال يزيد بقليل في مساحته على الالف من الكيلومترات المربعـة . ومن المؤكد أن الصورة الجغرافية للعائلة الصرفية Grammatical ، كانت لا تزال ، قرابة عـــام ٤٠٠٠ ، مدبجة بالنقوش . فالمجموعة السامية – الحامية –الآرية (وذلك اذا كانت اطلاقاً قد شكلت وحدة في يوماً ما) تكاد بالكاد تكون ذات أهمية في هذا اليوم. فنحن نتعثر في كل منعطف بـآثار من عـــائلات نطق – اتروسكان ، بابلك ، سومري ، والليغوريين ، من ألسنة آسيا الصغرى وغيرها – وهذه النطوق (جمع نطق) يجب أن تكون منتمية في عصرهـــا الى مناهج بالغة جداً في اتساعها وانتشارها . ففي محفوظات بوغـاز كيوي Boghaz - keüe قد تعرفنا حتى الآن على ثمـاني لغـاتجديدة ، وجميـع هذه اللغات كانت متداولة قرابة عام ١٠٠٠ وبهذا ووفقاً لمقياس السرعة الزمنية للتعديل Tempo ، الذي كان سائداً آنذاك ، فمن الجائز أن تكون اللغة الأرية قد شكلت وحدة مع لغات يتوجب علينا أبداً ألا نجعلها تختلط معها .

٧

إن الكتابة هي لغة من نوع جديد كل الجدة ، وتدل على تبدل كامل طرأ على علاقات الشعور الواعي للانسان ، وهي بهذا تحرره من طغيان الحاضر . أما لغات الصورة التي ترمم الاجسام والمواد فهي أقدم من هذه بكثير وقد تكون أقدم من اي نوع كان من الكلمات . ولكن الصورة هنا (في لغة الكتابة — المترجم) لم تعد تسمية لجسم منظور ، بل إنما هي في الاصل اشارة كلمة - وأعني بذلك أنها شيء ما مجرد عن الاحساس . وهي أول الامثلة لا بل وحيدها للغة تتطلب وتطلب التدريب الاولي الضروري ، دونما أن توفر هي بنفسها مثل هذا التدريب .

إذن فالخط يفترض صرفـــاً مطوراً تطويراً كاملاً حيث أن نشاط الكتابة والقراءة هو على صورة لا نهائية اكثر تجريداً من نشاط التكلم والسماع . والقراءة تقوم على التفرس وإمعـان النظر في صورة الخط بشعور بمعـــاني أصوات الكلمة المنطبعة على هذه الصورة .

أما مـــا يحتويه الخط فهو إشارة لإشارات أخرى وليس إشارات لاشيـاء . والحس الصرفي يجب أن يوسع بواسطة الادراك الفوري البرهي .

إن الكلمة هي بمتلك من ممتلكات الانسان ، بينا أن الكتابة تنتمي حصراً لابناء الحضارة أو ناسها . والكتابة تبايناً منهـا واللغة الشفهية ؛ مرهون مصيرها ، لا جزئياً فقط بل كله ، بمصائر تاريخ العالم من سياسية ودينية . وجميع الخطوط تظهر الى الوجود في الحضـارات الفردية ويجب أن تعتبر من بين أعظم مـــا لهذه الحضارات من رموز . ولكن لم يكتب حتى الآن أي تاريخ جامع شامل للخط ، ولم تقم أبداً حتى اليوم أية محـاولة لدراسة سيكولوجيا أشكاله أو التعديلات التي طرأت عليها . إن الكتابة هي الرمز الاعظم لما هو ناء أو بعيد ، هي لا تعني فقط

مسافة امتداد ، بل انما تعني ايضاً ، وقبل كل شيء ، الديمومة والمستقبل والارادة للخلود . فالتحدث والاصغاء يحدثان متجاورين متقاربين وفي الحاضر ، ولكن المرء يستطيع بواسطة الكتابة الى أناس لم يرهم أبداً ، وحتى الى بشر لم يولدوا بعد ، وصوت المرء يسمع حتى بعد قرون طويلة من وفاته . وهذه أولى الدفعات المميزة للهبة التاريخية .

ولهذا السبب بالذات ، لا يوجد من شيء يميز للحضارة اكثر من علاقتها الباطنية بالكتابة . واذا كنا نعرف فقط هذا القليل الذي نعرفه عن الكتابة الهندية الجرمانية ، فهذا الامر يعود سببه الى أن الحضارتين الابكر زمناً واللتين استخدمت شعوبها هذا المنهاج - الهندي والكلاسيكي - كانتا حضارتي شعوب بلغت فطرتها اللاتاريخية حداً جعلها لا تكتفي فقط بعدم إنشاء ، أو تكوين أي خط خاص بها ، بل انما دفع بها لتحارب الخطوط الغريبة واستمرت حربها حتى الحقبة المتأخرة من سياق هاتين الحضارتين .

والحق أن كامل فن النثر الكلاسيكي قد صمم ليلائم فوراً الاذن . فالانسان يقرأه كأنه يتكلمه ، بينما نحن ، بالنسبة لذلك ، نتكلم بكل أمر كأننا نقرأه وهكذا كانت النتيجة ، نتيجة التأرجح الابدي بين صورة الخط وجرس الكلمة ، اننا لم نبلغ أبداً مستوى أسلوب نثر ، بحيث يبدو صحيحاً كاملاً وفق المفهوم الاتيكي . أما في الحضارة العربية ، من جهة أخرى ، فان كل دين من أديانها قد وضع له خطاً خاصاً به وحافظ عليه خلال التبدلات التي طرأت على اللغة الشفهية . فديمومة الكتب المقدسة وديمومة التعاليم الدينية بالاضافة الى ديمومة الخط الابجدي بوصفه رمزاً لديمومة ، انما تنتمي كل واحدة منها الى الاخرى . وقد وجدت اقدم البراهين على الخط الابجدي في جنوب جزيرة العرب ، وفي خط سبأ ومنيا - والفوارق بين هذين الخطين تنبع ، دون ريب ، من الفوارق بين المذهبين - اللذين قد يعودان الى القرن العاشر قبل المسيح . زد على ذلك أن اليهود ، من ماندايان Mandaeans ومانيشيان Manichaeans ، كانوا يتكلمون اللغة الآرامية الشرقية

في بابل ، ولكنه كان لكل طائفة ، من هاتين الطائفتين ، خط خاص بها . وقد سيطرت الابجدية العربية ابتداء من الحقبة العباسية ، غير أن المسيحيين واليهود كانوا يكتبون بحروفهم الخاصة . وقد نشر الدين الاسلامي الخط العربي ، على نطاق عالمي ، بين اتباعه ، بغض النظر عما اذا كانت اللغة التي يتكلمها هؤلاء سامية أو منغولية أو آرية أو لسان شعب من السود . ويجلب نمو عادة الكتابة حتما معه وفي كل مكان الفرق القائم بين اللغات المكتوبة وبين اللغات العامية . وتطبع اللغة المكتوبة وضعها الصرفي الخاص بومزية الديمومة ، وهذا الوضع بدوره يستسلم فقط ببطء وتردد للتعديلات والتحويرات التقدمية التي تجريها اللغة العامية – لذلك فان اللغة العامية تمثل ، في أية لحظة ، وضعاً أصغر عمراً من الوضع الصرفي . ولا توجد هناك لغة هيلينية واحدة ، بل انما هناك لغتان ، زد على ذلك أن التباين الهائل القائم بين اللغة اللاتينية المكتوبة وبين العامية في العصور الامبراطورية ، أمر واضح وضوحاً كافياً في تركيب اللغات اللاتينية المبكرة . وكلما ازدادت المدينة عمراً تزداد هوة العرف عمقاً حتى نبلغ ذاك المهوى الذي يعمق اليوم بين اللغة الصينية المكتوبة وبين الكوان هاو Kwah - nua ، اللغة التي يتكلمهاالفرد الصيني المثقف من أبناء الشمال الصيني – ولم يعد هذا المثل يشير الى لهجتين ، بل انما يدل على لغتين الواحدة منها غريبة عن الأخرى .

وهنا يتوجب علينا أن نلاحظ التعبير المباشر للواقعة والقائل بأن الكتابة هي ، قبل كل شيء ، قضية مركز أو منزلة ، وهي على وجه أكثر من التحديد ، امتياز لرجال الكهنوت . أما الفلاحون فليس لهم تاريخ ولذلك لا توجد لهم كتابة . ولكن بغض النظر عن هذا الأمر ، فانه يوجد في العنصر كراهية للكتابة لا تخطئها عين . وانني لأعتقد بانه كلما كان الكاتب اعرق أصالة في عنصره ، كلما تزداد معالجته للتركيب الزخرفي زهوا واختيالاً ، ويزداد معه ميله لاستبدال هذا التركيب بصور خط شخصية ، وهذه واقعة بالغة الأهمية بالنسبة الى الغرافولوجيا

. Graphloghy [1]

وإنسان التابو هو وحده الذي يقر بنوع من احترام للاشكال الملائمة للحروف، ويحاول، دائماً ودون مـــا وعي منه، أن يزيد في عددها . وهذا هو الفرق بين رجل العمل الذي يصنع التاريخ وبين العالم الذي يدون فقط التاريخ على الورق، «ويخلده» . ولقد كان الخط في جميع الحضارات في عهدة رجال الكهنوت الذي يتوجب علينا أن نعتبر الشعراء والعلماء ايضاً منتمين الى طبقة هؤلاء ايضاً . أمـا طبقة النبلاء فانهـــا تحتقر الكتابة، فلهذه الطبقة أناس يكتبون لها . ولقد كان، منذ أقدم الزمان، لهذا النشاط ـ الكتابة ـ شيء ما من طابع عقلاني كهنوتي. والحقائق، التي لا زمان لها، لم تصبح هذه حالها بواسطة النطق، بل انمـا أصبحت كذلك عندما أمسى لهـــا خط . وهنـــا يتبدى ثانية التنـاقض بين القلعة وبين الكاتدرائية، ولكن مـــا الذي ستكتب له الديمومة الفعل أم الحقيقة ؟ ومن بيع الأرشيفي (منسق المحفوظات) تصون الوقائع وتحفظها، أمـــا الكاتب الديني فيحفظ الحقائق . وما تعنيه أسفار التاريخ والوثائق في نظر الأرشيفي هو ذات ما تعنيه الشروح أو التفاسير والمكتبة بالنسبة الى الكاتب الديني . وهكذا فان هناك شيئاً ما الى جانب الهندسة المعمارية المذهبية، شيئاً ما لم يزين بزخرفة بل انمـــا هو نفسه زخرفة ـ إنه الكتاب . وتاريخ الفن في كل ربيـع حضـارة يجب أن يبدأ بالخط، وبالخط الرقمي حتى قبل النسخي .وهنا نستطيـع أن نلاحظ جوهر نمط الخط القوطي، أو المجوسي، بوصفه أنقى الانماط وأصفاها . فليس هنـــاك من زخرف آخر ـ غير هذين النمطين ـ يمتلكان باطنيـة شكل الحرف، أو شكل صفحة من مخطوط . ولا تبلغ النقوش العربية، في أي مكان، تلك الدرجـة من الكمال كما تبلغها في النصوص القرآنية المخطوطة على جدران الجوامع .

ثم هنـاك أيضـــاً ذاك الفن العظيم فن كتابة الحروف الأولى من الاسماء،

---

[1] الغرافولوجيا : فن معرفة الأخلاقية من خط اليد

(المترجم)

وهندسة الصورة الهامشية وتصميمها وتركيب دفوف الكتاب ! وكل صفحة من صفحات القرآن المكتوب بالخط الكوفي هي بالفعل قطعة من زركشة . كما وأن كتاباً غوطياً ، يضم الاناجيل ، انما يبدو ؛ كما كان ، كأنه كاتدرائية صغيرة . أمـا بالنسبة الى الفن الكلاسيكي ، فان الشيء الوحيد الذي لم يزينه هذا الفن بلمساته ، انما هو الخط ولغة الكتاب ، وهذا أمر بليغ المعنى عميق المغزى — وهذا الاستثناء انما يقوم على الكراهية الكلاسيكية العميقة لكل ما له ديمومة ، وينبع من الاحتقار الكلاسيكي . لتقنية تصر على أن تكون اكثر من تقنية . ونحن لا نجد في كل من هيلاس أو الهند أي فـن من نقوش حفرت على التماثيل كذلك الفن الذي نجده في مصر . ويبدو أنه لم يطرأ على بال أي من النـاس (الكلاسيكين) أن صفحة مدونة بخط افلاطون انما تعتبر ذخراً أثريا ، أو أن أصلا جميلا من أصول مسرحيات سوفوكليس يجب أن تكتنز في الاكروبول . وعندما شمخت المدينة برأسها فوق الريف ، وحالمـا انضم البرجوازي الى النبيل والكاهن ، وحينما طمحت الروح المدنية الى السيادة ، تحولت الكتابة من كونها المبلغ بشهرة النبلاء وبالحقائق الخالدة الى صيرورتها وسيلةمن وسائل المعاملة التجارية والعلمية ، أما الحضارتان الهندية والكلاسيكية فانها قد رفضتا هذه الحجة واستوردتا من الخارج مـا يفي بمتطلبات العمل ، وقبلتا ببطء بالخط الأبجدي اذ كان اداة متواضعة للاستعمال اليومي .

ويصنف في مرتبة هذا الحدث ويعاصره ويماثله في مغزاه حدث ادخال الخط الصوتي Phonetic في الصين قرابة عام ٨٠٠ واكتشاف طباعة الكتب في الغرب في القرن الخامس عشر ، فاكتشاف الطباعة قد ارتفع برمز الديمومة والمسافة الى أعلى مراتب القوة ، اذ أنه جعل بمتناول عدد كبير من الناس . وأخيراً خطت المدنيات آخر خطوتها وألبست الخط زيـاً نفعيا . فاكتشاف الخط الأبجدي في المدينة المصرية، قرابة عام ٢٠٠٠ ، كان، كما رأينا، بدعة تقنية بحردة . وبالطريقة ذاتهـا أدخل لي — سي Li - Si مستشار اغسطوس الصيني ، الخط الصيني النموذجي عام ٢٢٧ . وأخيراً ظهر بيننا نحن نوع جديد من الخط ، بالرغم من أن القليلين منا

فقط هم الذين ادركوا المغزى الحقيقي لهذا الأمر . ويدلل على أن الخط الأبجدي المصري ليس ، في أية حال الشيء النهائي المكتمل ، أقول يدلل على هذا اكتشاف زميله ، خطنـا للاختزال Steno graphy، ، الذي لا يعني مجرد تقصير الكتابة بل انمـا يعني التغلب على الخط الأبجدي بواسطة شكل مواصلة جديد وبالغ الرفعة في تجريده .

والحق أنـــه ليس من المستحيل أن تطرد اشكال خط الاختزال ، في سياق القرون القادمة ، الحروف طردا نهائياً كاملا .

- ٨ -

هل يجوز ، وفي هذه الحـــال المبكرة ، أن تقوم محاولة لكتابة مورفولوجيا للغات الحضارة ؟ ومن المؤكد أن حتى العلم لم يكتشف حتى اليوم وجود واجب كهذا . ان لغات الحضارة هي لغـــات ناس تاريخيين . والمصير لا ينجز ذاته في فراغات بيولوجية من زمان ، بل انمـــا يساير في خطاه تطوراً عنصريا ذا أزمان حياتية محددة تحديداً دقيقاً صارماً .

ولغات الحضارة هي لغـات تاريخية تعني أصلا أنه لا يوجد هنـــاك أي حدث تاريخي أو مؤسـسة سياسية لم تقرر بجسم روح اللغة التي استخدمهـا ذاك الحدث أو هذه المؤسسة جزء من ذاك أو هذه ، كمـا وأنه لا يوجد أي حدث أو مؤسسة لم تؤثر في الشكل الروحي لتلك اللغة . فتركيب الجملة اللاتينية لا يزال نتيجة أخرى من نتائج المعارك التي خاضتها روما ، هذه المعارك التي اذ حققت للاتينية الفتوحات أرغمت الشعب ككل أن يفكر تفكيراً ادارياً . زد على ذلك أن النثر الألماني لا

يزال يحمل حتى اليوم آثاراً من حرب الثلاثين عاماً بسبب احتياجه الى قواعد ثابتة مقررة ، كما وأن المذهب المسيحي كان لا شك سيكتسب شكلاً مغــايراً لو أن مخطوطاته الدينية قد كتبت بالشكل السرياني ، كأشكال المـــاندان تلك ، ولم تكتب باليونانية جملة وتفصيلاً . ولكن هذا يعني ثانية أن التـاريخ يعتمد – الى درجة نادراً مـــا تصورها دارسوه حتى الآن – على وجود خط بوصفه الوسيلة الجوهرية التاريخية للمواصلة . كما وان الدولة (بمـا لهذه الكلمة من مفهوم اوقى) تفترض المعـــاملة ، أو المخالطة ، بواسطة الكتابة . زد على ذلك أن أسلوب كل السياسات يقرره بصورة مطلقة المغزى القائل بان التفكير التاريخي السياسي للشعب يرتبط في كل حالة بحروف ومحفوظات وتواقيـع ، يرتبط بغلال المشترع ، فمعركة التشريع هي معركة من اجـــل أو ضد قـانون مكتوب ، والدساتير تحل محل القوة المـادية بواسطة صياغة فقرات ، واضفاء مهابة السلاح على قطعة من كتابة . والنطق يساير الحاضر ، أمـا الكتابة فتجاري الديمومة ، ولكن ، بالمثل ، يقترن الفهم الشفهي بالخبرة العملية ، بينا تقترن الكتابة بالتفكير التاريخي .

ونحن نستطيـع أن نود حجم التاريخ السياسي الباطني في كل المراحل المتأخرة ، الى هذا التعارض (الآنف الذكر) . والوقائع الأبدية التنوع تقاوم «الحروف» ، بينا أن الحقائق تطالب بهـا – هذا هو التعارض التاريخي العالمي القائم بين فئتين ، والذي نصادفه ، على هذا الشكل أو ذاك ، في الازمات الكبرى التي تنزل بكل الحضارات . فالفئة الأولى (الوقـائع – المترجم) تعيش في الواقعة ، أمـا الثانية فانها تنمق نصاً في وجهها ، زد على ذلك أن جميـع الثورات الكبرى تستلزم منسبقاً كتباً ومؤلفات .

ظهرت مجموعة لغات الحضارة الغربية في القرن العاشر . وقـــد جرى تطوير متون اللغة الموجودة – وأعني بهذه المتون الجرمانية واللغات العامية اللاتينية (بما في ذلك لاتينية الرهبان – الى لغات خط وتحت تأثير روحي وحيد . وانـه لمن المستحيل أن يتوجب أن لا يكون هنـاك طابع مشترك لتطور الالمانية

والانكليزية والايطالية والفرنسية والاسبانية ، هذا التطور الممتد من عام ٩٠٠ الى عام ١٩٠٠ ، كما هي الحال في تاريخ الهيلينية والايتاليكية Italic (بما في ذلك الاتروسكانية) والواقع بين عام ١١٠٠ والامبراطورية . ولكن ، وبغض النظر عن مساحة امتداد عائلات اللغة أو العناصر، فما هو ذلك الشيء الذي يكتسب وحدة معينة من حد صقع الحضارة وحدها ؟ وما هي التعديلات المشتركة بين كل من الهيلينية واللاتينية عقب عام ٣٠٠ التعديلات في اللفظ والاصطلاح قياساً وصرفاً واسلوباً ؟ وما هو موجود في الالمانية والايطالية بعد عام ١٠٠٠ ، لكنه ليس موجوداً في الايطالية والرومانية ؟ هذه الاسئلة ، وغيرها من الاسئلة المشابهة لها ، لم يجر ابداً حتى الآن بحثها بحثاً منهاجياً ؟

ان كل حضارة تستيقظ لتجد نفسها في وسط لغات الفلاح ونطوق ريف خال من المدن ، ريف أبدي لا يكترث تقريباً بأحداث التاريخ الكبرى التي عبرت ، خلال الحضارة المتأخرة والمدنية ، كلهجات عامية لم تدون وطرأت عليها تغيرات بطيئة لم يشعر بها وعلى قمة هذه ترتفع لغة هاتين المنزلتين الأوليتين بنفسها بوصفها الظاهرة الاولى لعلاقة واعية تمتلك حضارة ، وهي حضارة . وهنا تصبح اللغات في دائرة النبلاء والكهان لغات حضارة، أما الحديث فانه ينتمي، بمزيد من التخصص، الى القلعة، بينما ينتسب النطق الى الكاتدرائية . وهكذا ينفصل، في مطلع التطور، الشبيه بالنبات نفسه ، عن الحيوان، انفصال مصير الحي عن مصير الميت، والجانب المتعضي عن الجانب الميكانيكي من الفهم . وذلك لأن الجانب الطوطمي يؤكد الدم والزمان ، بينما أن جانب التابو ينفيهما . ونحن نصادف ، في كل مكان ، وفي وقت جد مبكر فعلاً ، لغات مذهب متخشبة يضمن قداستها عدم قابليتها للتحوير أو التعديل ، أو مناهج طواها الردى منذ زمن طويل ، أو انها غريبة عن الحياة وقد قيدت بقيود صناعية وذات مفردات دقيقة هي مطلب صياغة الحقائق الخالدة ومشتهاهـــا . فاللغة الفيدية قد تخشبت كلغة دينية ، وكذلك السنسكريتية كلغة علماء . ولقد خلدت اللغة المصرية العائدة الى المملكة القديمة بوصفها لغة الكهنة ، وهكذا فان القواعد المقدسة لم تعد مفهومة في الامبراطورية الجديدة اكثر مما كانت

الكارمن سالبار Carmen Saliare أو ترنيمة فراتريس ارفاليس Fratres Arvales مفهومة في الازمــان الاوغسطينية . وفي الحقبة الـابقة للحضارة العربية يطل ، في وقت واحد ، استخدام اللغات البابلية والعبرانية والأفستية كلغات متداولة للأعمال اليومية - ومن الجائز أن يكون بطلانها هذا قد تم في القرن الثاني قبل الميلاد ولهذا السبب بالذات استخدم اليهود هذه اللغات لكتابة مخطوطاتهم الدينية تبايناً من هذه اللغـات واللغتين الآرامية والفهلوية .والمغزى ذاتــه ينطبق ويرتبط باللغة القوطية اللاتينية الكنيسة ، وبلاتينية حركة الانسانيين لتعلم الاسلوب الباروكي ، وبالسلافية الكنسية في روسيا ، وينطبق دون ريب على السومرية في بابل .

وتبايناً والآنف الذكر ، فان القلاع والقصور الجليلة الشأن هي مهد الحديث . ففي هذه تشكلت لغـات الحضارة الحية . فالحديث هو زي النطق وسجاياه انه « الشكل الحسن » في التجويد والاصطلاح ، والمهـارة الرفيعة في اختيار الكلمات وصيغ التعبير . وجميـع هذه الأمور هي علامة من علامــــات العنصر ، وهي لا تكتسب في صومعة من دير ، أو في غرفة مطالعة العالم ودراسته ، بل انما تكتسب من الاختلاط المهذب والأمثلة الحيـــة . ففي بيئة النبلاء ، نشأت وشيدت لغة هوميروس وكذلك اللغة الفرنسـية القديمة ، لغة الصليبين واللغة الألمـانية الوسيطة الرقي ، لغة الهوهنشتاوفن ، أقول نشأت هذه وبنيت من الحديث العادي للجانب الريفي وبوصفها طابعاً للنبالة . ولذلك فنحن عندمـــا نتحدث عن شعراء الملاحم العظام ، عن السكالديين والتروبادورز ، Trobadours , Skalds ، يتوجب علينا ان لا ننسى ، أنهم قد بدأوا تدريبهم لانجـــاز واجبهم في اللغة كما في الأمور الأخرى ، بالتنقل بين دوائر النبلاء . وما الفن العظيم الذي تجد بواسطته الحضارة لسانها سوى انجاز عنصر ، وليس انجاز مهارة .

أمــــا اللغة الاكليريكية فهي تبدأ ، من ناحيـة أخرى ، من المفـــاهيم والاستنتاجات . وهي تعمل وتكدح لكي تحسن الطاقات الديالكتيكية للكلمات واشكال الجمل الى أقصى الحدود . وهنا ينشأ ، نتيجة لذلك ، فرق ، يتزايد أبداً ،

بين الاصطدام المدرسي العقلاني المهذب وبين المخالطة الاجتماعية . ويوجد ما وراء جميع الانقسامات السائدة بين عائلات اللغة عامل مشترك بين تعبير بلوطينوس وتوما الأكويني ، ومشترك أيضاً بين الفيدا Veda والمشنا . وهنا نجد، في الغرب، نقطة الانطلاق لكل لغات العلماء الناضجة ـ والتي تحمل اللغات من ألمانية وانكليزية وفرنسية ، على حد سواء ، حتى هذا اليوم علامات لا تخطئها عين تشير الى أصلها في لغة العلماء اللاتينية ـ وهي لذلك أيضاً نقطة انطلاق كل أجهزة التقني وشكل الجملة المنطقي .وهذا التعارض في التعبير القائم بين صيغ فهم المجتمع وبين فهم العلم يجد نفسه مرة بعد أخرى ويصل بعداً زمنياً يتخلل الحقبة المتأخرة. ولا شك أن مركز الثقل في تاريخ اللغةالفرنسية كانت بصورة حاسمة ملكاً لجانب العنصر ـ وأعني بذلك الحديث . ففي بلاط فارساي وصالونات باريس تنشر الروح الثمينة للروايات الارثوذية ، في « المحادثة » فن الحديث الكلاسيكي ، هذا الفن الذي يعترف كامل الغرب بسلطانه . وكون اللغة الايونية الاتيكية قد صيغت بكاملها داخل قاعات الطغاة والمستبدين ، وفي شكل من أحاديث تجري في اجتماعات دورية ، قد خلق أشد المصاعب بالنسبة الفلسفة اليونانية : وذلك لانه أصبح ، فيما بعد ، من المستحيل أن يناقش المرء القياس المنطقي لالسيبادس .

ومن جهة أخرى ، فالنثر الالماني ، وفي المرحلة الباروكية الحاسمة ، لم يكن يملك نقطة مركزية يستطيع منها أن يسمو الى مراتب الجودة ، وهو لا يزال حتى هذا اليوم يتذبذب، من جهة الاسلوب ، بين الفرنسية واللاتينية ـ بين لغة البلاط ولغة العلماء ـ وذلك وفق ما اذا كانت بديهة الكاتب ترغب في التعبير عن نفسه تعبيراً حسناً أم تعبيراً صحيحاً . وقد اكتسب كتابنا الكلاسيكيون ، بفضل أصلهم اللغوي في الوظيفة أو الدراسة ، وبسبب اقامتهم كمدرسين ومربين في القلاع والبلاطات الصغيرة ، أقول اكتسب هؤلاء أساليب شخصية ، وهناك آخرون يستطيعون أن يقلدوا هذه الاساليب ، ولكنهم جميعاً لم يستطيعوا حصراً أن يبدعوا أسلوباً نموذجيا للنثر الألماني .

وقد أضاف نشوء المدن الى لغتي الطبقة لغة ثالثة ،هي اللغة البرجوازية التي تمثل

النطق الحقيقي للخط ، تمثل النثر العقلاني النفعي بكل مـا لهذا النثر من مفهوم . وهذه اللغة تتأرجح بتؤدة ورقـة بين صيـغ تعبير المجتمع الانيق ، ومجتمع العلم ، وهي في تأرجحها نحو الاتجاه الاول تفكر دائمـــاً بايجاد دورات جديدة وكلمات « على الموضة » A La Mode ، وتقبض ، في الاتجاه الثاني ، بقوة على مخزونها من الفكر الموجودة . غير أن هذه اللغة هي ، بجوهرها البـــاطني ، لغة ذات طبيعة تجارية . وهي تشعر بنفسها بصراحة على انها شعار طبقة يقف ، وجها لوجه ، أمام تركيب الجمل اللاتاريخي واللامتغير ، تركيب جمل « الشعب » الذي استعمله لوثر وآخرون الى حد فضح معاصريهم السطحيين فضيحة نكراء .

ويمتص النطق المدني ، مع الانتصار النهائي للمدينة النطق الأنيق والمتعلم معاً . وهنا تنشأ داخل الطبقة العليا من سكان المدن العظمى ، اللغة الوحيدة النسق الحـادة الذكاء والعملية ، وهذه طفل مدينتها ورمزهـــا ، وتنفر بالمثل من اللغة العـامية والشعر ـ انها شيء ميكانيكي متنا وحاشية ، دقيق بارد ، لا يترك الا أقل القليل الممكن للايماء . وهذه اللغات النهائيـــة المشردة المعدومـة الجذور يمكن أن يتعلمها كل تاجر وعتال ـ انها الهيلينية في قرطاجة وعلى ضفاف نهر ، أو كسوس والصينية في جزيرة جافـا ، والانكليزية في مدينة شنغهاي ـ ولا قيمة أو مغزى للحديث لفهمها وادراكها .

ونحن اذا ما فتشنا عن الحافز الذي أبدع حقاً هذه اللغات ، نجد أنه لم يكن حافز روح أو عنصر ، بل إنما كان حافز الاقتصاد وروحه .

الفصل السابع عشر

المدن والشعوب

(ج)

البدائيون ، شعوب الحضارة ، الفلاحون

– ١ –

وأخيراً أصبح بامكاننا أن ندنو الآن – وبأشد الحذر – من مفهوم كلمة « الشعب » وأن ندخل شيئاً من نظام على هذه الفوضى من أشكال الشعب التي لم ينجح البحث التاريخي المعاصر الا في جعلها أسوأ ارتباكا وحيرة بما كانت عليه من قبل . فليست هناك من كلمة – ككلمة الشعب – استعملت بجرية ودون ما نقد اكثر بما استعملت هذه الكلمة ، ومع هذا لا توجد كلمة أخرى تستدعي أن يكون نقدها أصرم وأدق أكثر من هذه الكلمة . فالمؤرخون الشديدو العناية والاهتمام ، ينزلقون ، حتى بعد الجهود المضنية التي يبذلونها لايضاح نظريتهم (ايضاحاً يبلغ حداً معينا) ، أقول ينزلقون الى الوراء فيعالجون الشعوب وأجزاء العنصر وطوائف النطق بوصف هذه جميعاً مواضيع متكافئة متعادلة ومتساوية .

واذا ما عثر هؤلاء على اسم أحد الشعوب ، فانهم يرون فوراً في هذا الاسم تسمية للغة ودلالة عليها كذلك . واذا ما اكتشفوا نقشا يتألف من ثلاث كلمات فعندئذ يعتقدون بأنهم قد أقاموا الترابط العنصري . واذا ما انطبق القليل من « الجذور » بعضهـا على بعض ، فعندئذ يرفع الستـار فوراً عن شعب بدائي له موطن بدائي . زد على ذلك أن الروح القومية قد بالغت فقط في تقدير مصطلحات التفكير بالشعوب هذه .

ولكن هل الهيلينيون والدوريون أم الاسبرطيون هم شعب ؟ واذا ما كان الرومان شعبا فماذا يتوجب أن نقول عن اللاتين؟ وأي نوع من وحدة داخل سكان ايطاليا عـام ٤٠٠ نعني باسم « الاتروسكان » ؟ ألم تكن جنسيتهم تعتمد فعلا ، كجنسية الباسك والتراقيين ، على بنية اللغة؟ وما هي الفكرة السلالية التي تكمن وراء كلمة « أميركي » أو «سويسري» أو « يهودي» أو بويري ؟ الدم، النطق ، العقيدة ، الدولة ، الصقع - أي من هذه الكلمات كلها تعني العامل الحـاسم في تكوين شعب من الشعوب ؟ فعلاقـات الدم باللغة تقرر عـادة بواسطة العلم أو الدراسة ، أمـا الفرد العادي فلا يشعر اطلاقـاً بهذه العلاقات . فمفهوم المصطلح « الهندي الجرمـاني » هو مجرد مفهوم علمي فقط ، ومفهوم فيلولوجي على وجه أكثر من التخصيص .

وقد لاقت محاولة الاسكندر الاكبر لصهر اليونان والفرس في أمـة واحدة فشلاً ذريعاً كاملاً ، كما واننا نشهد اليوم بأم عيننا القوة الحقيقية لشعور الطائفة[١] الانجلو ألمانية . ولكن « الشعب » هو نظام روابط يشعر به الفرد ويعيـه . وفي العرف العادي يدل المرء الى شعبه -وهو يشعر عانياً - تلك الطائفة من الطوائف

---

١ - لا شك ان اشبنغلر يعني هنا اقتتال الالمان والانكليز في الحرب العالمية الاولى ، وهو يورد القول الآنف الذكر من باب السخرية .

(المترجم)

الغفيرة التي ينتمي اليها والتي تقف باطنياً أقرب من غيرها منه . ومن ثم يمـــدد استعمال هذا المفهوم ، وهذا أمر هو ، فعلاً ، ذاتي تمامـــاً ويشتق من الخبرة الشخصية بالتجمعات البشرية التي هي من أشد الانواع تنوعاً . فالارفيرني Arverni كانوا في نظر قيصر Civitas ، والصينيون هم في نظرنا « أمة » Nation . واعتماداً على هذه القاعدة فان اهل أثينا وليسوا الاغريق هم الذين شكلوا أمـة ، والحق انه كان هناك عدد جد قليل من الافراد الذين شعروا، كما شعر إسو كراتس، بأنهم بالأصل هيلينيون . واعتماداً على هذه القاعدة ايضاً يجوز لأخوين ، أن يسمي الأول منهما نفسه سويسرياً وان يكون للأخ الآخر الحق ذاته في تسمية نفسه ألمانياً . وهذه ليست مفاهيم فلسفية ، بل انما هي وقائع تاريخية .

إن الشعب هو مجموعة من الناس تشعر وتحس بأنهـــا تشكل وحدة قائمة . والاسبرطيون أحسوا بأنفسهم أنهم شعب وفق هذا المفهوم،ومن الجائز ان يكون الدوريون عام ١١٠٠ قد شعروا كما شعر هؤلاء، لكن دوربي عام ٤٠٠ لم يشعروا أكيداً بهذا الشعور .

والصليبيون قـد أصبحوا حقاً شعباً عندما اقسموا بين كليرمون ، وكذلك المورمون عندما طردوا من ولاية ميسوري عام١٨٣٩، والمامرتين Mamertines عندما دفعت بهم الحاجة لاكتساب حصن يلجأون اليه . وهل كان مبدأ التشكيل (تشكيل شعب - المترجم) يختلف اختلافاً كبيراً مع البعـاقبة والهكسوس ؟ وكم من شعوب ربما نشأت كأتباع لرئيس ، أو عصابة من هاربين ؟ وجماعة كهذه يمكن لهـــا ان تبدل عنصرها ، كما حدث للعثمانيين الذين ظهروا في اسيا الصغرى بوصفهم منغولاً ، أو أن تبدل لغتها كالنورمان الصقليين ،أو اسمها كـ Achaean و Danaoi . فطالما يوجد هناك حس جماعي ، فالشعب موجود ايضـــاً على هذه الحال .

ويتوجب علينا ان نفرق بين مصير الشعب وبين اسمه . فالاسم كثيراً مـــا يكون الشيء الوحيد الذي يخلف لنا معلومات عنه واخباراً . ولكن هل نستطيع

أن نستنتج من أحد الاسماء أي شيء عن التاريخ والمتحدرين منه ، واللغة ، أو حتى مجرد هوية الذين حملوه ؟ وهنا ايضاً يتوجب علينا ان نوجه اللوم الى البحاثة في التاريخ، ووجه لزمنا له انه عالج العلاقة بين الاسم وبين حامله ، بالبساطة ذاتها التي قد يعالج بها الاسماء المعاصرة . وهل لدينا أي مفهوم عن الامكانات غير المسبورة في هذا الميدان ؟ واستهلالاً نقول بأن مجرد القيام باطلاق اسم ، كان على درجة هائلة من الاهمية ، في الاختلاطات البشرية المبكرة . وذلك لأن مع الاسم تنتصب مجموعة واعية من البشر يسندها نوع من كرامة مذهبية . ولكن قد توجد هنا اسماء مذاهب ، جنباً الى جنب ، واسماء حروب ، وأخرى قد تطلقها الارض أو توفرها التركة . واسم احدى القبائل قد يتغير فيصبح اسماً كان يحمله بطل تاريخي ، كما كانت الحال مع العثمانيين ، وأخيراً ، بالامكان أن يطلق عدد غير محدود من الاسماء على طول حدود جماعة منالناس دون أن يكون اكثر من جزء من هذه الجماعة قد سمع بها اطلاقاً . ولو كانت فقط اسماء كهذه قد وصلت الينا لكانت عملياً الاستنتاجات عن حامليها مغلوطة حتماً . فالاسماء المذهبية الثابتة للفرنك والالمان والسكسون قد تلت جمهرة من الاسماء العائدة الى مرحلة معركة فرسوس ـ ولو اننا كنا لا نعرف بهذا الامر ، لكنا قد اقتنعنا منذ زمن طويل بأن طرد أو ابادة قبائل قديمة قد جرت هنا على ايدي معتدين جدد . والاسماء التالية : الرومان ، الكويريتس Quirites ، والاسبرطيون ، اللاكيديمونيون Lacedaemonians والقرطاجيون والفونيون قد عاشت معاً وجنباً الى جنب ـ وهنا أيضاً يكمن الخطر ثانية في ان يفترض المرء ، استدلالاً من الاسماء التي ذكرت آنفاً ، وجود شعبين بدلاً من شعب واحد . وما هي العلاقة بين اسماء « Danai » « Achaeans » « Pelasgi » وارتباط كل واحد منها بالآخر ، هذا ما لن نعرفه ابداً ، ولو انه لم يكن متوفراً لدينا أكثر من هذه الاسماء لكان العلماء قد خصوا كل اسم من هذه الاسماء بشعب منفصل كامل يملك لغة ولمات نسب عنصرية . أو لم يحاولوا أن يستخلصوا من التسمية الاقليمية « دورية » استنتاجات عن مجرى الهجرة الدورية ؟ وكم من مرة اقتبس احد الشعوب اسم

الارض وحمله معه؟ وهذه هي الحال والبروسيين الجدد، ولكنها ايضاً الحـــال والزردشتيين من الفرس Parsees والحال واليهود والاتراك ، بينما انها على العكس من ذلك وبورغونديا ونورمانديا . لقد نشأ الاسم « الهيلينيون » عام ٦٥٠ ، ولذلك لا يمكن أن يُربط هذا الاسم بأي حركة سكان .

وإقليم اللورين سمي باسم أمير لا شأن له إطلاقاً ، وجـــاء هذا الاسم نتيجة تقرير تركة أو ميراث ، وليس نتيجـة لهجرة قوم . وقـــد سمت باريس الالمان عام ١٨١٤ بالالمان ، ثم دعتهم بالبروسيين عام ١٨٧٠ ، ولقبتهم « البوش » عـام ١٩١٤ – وفي حالات غير هذه كان من الجـائز أن تدل هذه الاسماء على ثلاثة شعوب مختلفـة . كما وأن الانسان الاوروبي الغربي يسمى في الشرق « الفرنجي » ويدعى اليهودي بالاسبانيولي – وهذه الواقعة قد فسرتها الظروف التـــاريخية ، ولكن أي شيء كان الفيلولوجي قد استرلده من هذه الكلمات وحدها ؟

ولا شك أن الخيال لا يستطيـع أن يتصور النتائج التي قد يصل اليها العلماء في عـام ٣٠٠٠ بعد الميلاد ، لو أن هؤلاء استندوا في ابحاثهم الى المناهج المعاصرة التي تعتمد ، الاسماء والبقـايا اللغوية والظنون في المواطن الأصلية والهجرات ، أساساً لهـــا . فمثلاً (كانوا سيقررون – المترجم) أن الفرسـان التيوتون قد طردوا « البروسيين » الوثنيين عام ١٣٠٠ ، غير أن هؤلاء الناس ظهروا فجأة عام ١٨٧٠ أمـام ابواب باريس ! أو أن الرومان هاجروا ، تحت ضغط الغوط من التيبر الى القسم السفلي من نهر الدانوب ! أو أن جزءاً منهم ربمـا استقر في بولندا حيث كان أهلوهـــا يتكلمون اللاتينية ؟ أو أنْ شارلمان قد دحر السكسون على ضفاف نهر الفيزر ، فهـــاجر هؤلاء الى جوار درسدن ، واستولى الهونوفريون على أرضهم ، هؤلاء الذين كان موطنهم الأصلي ، اعتماداً على اسم العائلة الحاكمة منهم ، يقوم على ضفاف نهر التيمز Themes (في بريطانيا) ! ان المؤرخ الذي يكتب تاريخ الاسماء بدلاً من تاريخ الشعوب ينسى أن للاسماء ايضـاً مصائرها ، وكذلك فان اللغات أيضاً ، بمـا لها من هجرات ومـــا طرأ عليها من تعديلات ، وما « عرفته » من

انتصارات وهزائم، ليست بأدلة جامعة مانعة حتى بالنسبة لوجود الشعوب المرتبطة بها . وهذا هو الخطأ الاساسي للبحث الهندي الجرماني بصورة خاصة. ولو حدث في الازمان التاريخية أن تنقل إسما « Pfalz » و « Calabria » ، أو أن العبرانية طردت من فلسطين الى وارسو ، والفارسية من نهر دجلة الى الهند ، فما هي الاستنتاجات التي يمكن أن تستخلص من تاريخ اسم الاتروسكان ومن النقش « الترسيني » Tyrsenian المزعوم في ليمنوس ؟ أو هل شكل الفرنسيون والسود من سكان هايتي في أحد الازمان شعباً بدائياً واحداً كما يظهر من لغتهم المشتركة ؟ وهناك اليوم في المنطقة الواقعة بين بودابست واسطنبول لغتان منغوليتان وواحدة سامية ، واثنتان كلاسيكيتان ، وثلاث سلافية ، وكل طائفة من طوائف هذه اللغات، تشعر جوهرياً بأنها شعب .

ونحن اذا ما أردنا أن نؤلف في هذه المنطقة قصة هجرات ، فان أخطاء المنهاج ستتبدى في نتائج فريدة في شذوذها . ان كلمة « دوري » هي تسمية عامية، وهذا كل ما نعرفه . ولا شك أن بعضاً من لغات عامية قليلة قد انتشرت بسرعة من هذه المجموعة ، وكل هذا لا يشكل دليلاً على انتشار أو حتى وجود أرومة بشرية تنتسب اليها .

- ٢ -

وهكذا نأتي الى الفكرة المدللة للتفكير التاريخي الحديث . فاذا ما حدث أن صادف أحد المؤرخين ، في ابحاثه ، شعباً حقق شيئاً من انجاز ، فان مثل هذا المؤرخ يشعر بأنه مدين لهذا الشعب بأن يجيب على السؤال التالي :
« من اين جاء هذا الشعب ؟ » إذ أنه لأمر يتعلق بكرامة الشعب ، أن

يكون الشعب قد جاء من مكان مـا وأن يكون له موطن أصلي . فالظن في أن الشعب مكاناً حيث نصادفه هو ظن يكاد يكون زعماً مهيناً تقريباً . فالترحال أو التجوال هو نازع لأسطورة عزيزة على أفئدة الجنس البشري البدائي ، ولكن استخدامه في الابحاث الجدية جنون مطبق . فليس هناك من أحد يسأل عمـا اذا كان الصينيون قد افتتحوا الصين أو المصريون مصر ، بـل أن الجميع يسألون متى وقع ذلـك ومن اين . ويقتضينـا جهداً أقل أن نؤصل الساميين في البلاد الاسكندنافية ، والاريين في بلاد كنعان ، ممـا يقتضينا التخلي عن الزعم بوجود موطن أصلي .

إن الواقعة ، القائلة بان جميع اجناس السكان المبكرين زمنـا كانوا كثيري الترحال والتجوال ، قد أصبحت اليوم واقعة لا تقل نقاشاً أو جدلاء وفي أحشائها يكمن سر المشكلة الليبية ، فأسلاف الليبيين كانوا يتكلمون اللغة الحامية،ولكنهم كانوا جميعاً، كما تظهر النقوش النافرة المصرية، ذوي بشرات شقراء وعيون زرقاء، ولذلك فهم دون ريب ينتسبون الى أصول اوروبية شمالية . وقد ثبت أن آسيا الصغرى قد شهدت منذ عـام ١٣٠٠ ثلاث دفعات من هجرات يحتمل أن تكون اسبابها عائدة لهجمات « شعوب البحر » في مصر ، وشيء مـا شبيه بهذا قد ظهر في الحضارة المكسيكية. ولكننا لا نعرف أي شيء اطلاقاً عن طبيعة هذه الحركات. وعلى كل حال ، فالهجرات ليست موضوعاً لجدل كما يريد أن يصورها المؤرخون الجدد - حركات من شعوب مضغوطة بشدة تجوب الارض بجماهير غفيرة ، تدفع و تُدفع حتى تبلغ في النهاية مستقرا في مكان ما أو آخر ، وليست التعاقبات بحد ذاتها ، بل انا المفاهيم التي شكلناها (عن تعاقبات الشعوب هذه على بلد أو قطر - المترجم) هي التي أفسدت نظرتنـا الى طبيعة الشعوب . فالشعب ، وفق مفهوم الشعب الحديث ، لا يرحل ، أما ذاك الذي كان يرحل في قديم العصور فيحتاج الى بحث حذر بالغ الدقة قبل أن يُدمغ أو يوسم ، لأن الدمغة أو الوسم لن تعني دائماً الشيء نفسه . كما وأن الحافز الذي عن هذه الهجرات ، وجعل حافزها ، هو حافز

لا لون له وجدير بالقرن الذي اخترعه فأسماه ــ الضرورة المادية . فالجوع عــادة يولد مجهودات من نوع مغاير تمامــاً ، ولا شك أبداً أن الجوع كان آخر الدوافع التي دفعت بناس العنصر الى خارج أعشاشهم ــ بالرغم من أنه من المفهوم بأنه كان في الكثير من الأحيــان يشعر النـــــاس بوجوده عندما كانت العقبات العسكرية تعترض سبيل عصابات كهذه .

ولا شك أنه كان من الطبيعي أن تتنقل اللجماجة الأولية الميكروكوسمية ، التي يختزنها باطن هذا النوع البشري البسيط والقوي ، بحرية في الفيافي والاصقاع ، اذ أنهـا لحاجة تنبع من أعماق نفسه ، وتتدفق على شكل حب المغامرة والاقدام وحب السلطة والأسلاب ، وعلى شكل من رغبــة ملتهبة ؛ رغبة لا نستطيـع نحن اداكها تقريباً ، تتفجر أفعـــالاً وسروراً بالمذابح وموت البطل . ولا شك أن النزاع المحلي ، أو الخوف من انتقام الأقوى ، كان في كثير من الأحيــان الدافع (للتجوال والترحال ــ المترجم) ولكنه كان ايضاً أحد الدوافع ، القوية الهامة . ودوافع كهذه هي دوافع معدية ــ فالانسان الذي يتخلف في داره يعتبر جبــانا . وهل كان ايضــاً الجوع الجسماني المشترك هو الذي حرك الصليبيين ، أو حملات كورتيز وبيزارو ، أو أوجد مغامرات رواد «الغرب المتوحش» في عصرنا الحالي؟ وحينما نجد في التاريخ تلك الحفنة من الناس الذين يفتتحون الاراضي الفسيحة، فان أصوات الدم والحنين الى مصائر سامية هي التي تدفع بهم أبداً .

زد على ذلك أنه يتوجب علينا أن نتــأمل في وضع البلد الذي يجتازه أو يجوبه الغزاة . وهنا نلحظ أن خصائص هذا البلد تعدل دائماً ، وكثيراً أم قليلاً ، ولكن هذه التعديلات ليست ناشئة فقط عمــا للمهاجرين من نفوذ ، بل انمـــا تنشأ اكثر فـــاكثر عن طبيعة السكان المتوطنين ، والذين يشكلون في النهـــاية الأكثرية العددية المطلقة .

ومن الواضح انه من السهل على الأضعف أن يتجنب الاكتساح والغـارات في فياف تــكاد تكون خالية من السكان تقريباً ، وبصورة عامة كان باستطاعتــه أن

يتجنبها . ولكن الغارة أصبحت ، في ظروف أشد كثافة ، تعني في نظر الأضعف الاغتصاب والطرد من بلده ، وكان عليه في هذه الحال ، إما أن يدافع بنجاح عن نفسه ، أو أن يرتحل ليكتسب أرضاً جديدة يستعيض بها عن أرضه القديمة . وهنا يتبدى الاندفاع نحو الفراغ (الفضاء) . ولا يمكن لأية قبيلة أن تعيش دون أن تكون لها احتكاكات دائمة بكل من يسكن الى جوارها ، ودون أن يكون لديها استعداد شاك مرتاب لتهب الى سلاحها . وضرورة الحرب القاسيـــة تنجب الرجـــال . والشعوب تنمو بواسطة وضد شعوب اخرى حتى تكتسب العظمة الباطنية . والاسلحة تصبح اسلحة ضد الرجال لا ضد الوحوش . وهنـا نأتي أخيراً الى شكل الهجرات الوحيد الذي له قيمة واعتبار في الازمان التاريخية - فعصابات المحاربين تكتسح اكتساحاً تاماً بلاداً مأهولة بالسكان ، ويبقى سكانها آمنين إذ انهم يمثلون جزءاً إجوهرياً من اسلوب النصر . وهنا تنشأ أوضاع جديدة كل الجدة نتيجة لكون المنتصرين يشكلون أقلية من السكان . والشعب الذي يمتلك شكلا باطنيـاً قوياً ينشر نفسه فوق قمة عدد من السكان أكبر من عدده بكثير ، لكن ذاك العدد لا شكل له،زد علىذلك أن ما يطرأ من التغيرات أو التحولات علىالشعوب واللغات والعناصر إنما هو مرهون بعوامل من تفصيل بالغة التعقيد . ونحن نعرف منذ أن قام بيلوخ Beloch ودلبروك Delbrück بابحاثها الحاسمـة بأن الشعوب المهاجرة - بالاضافة إلى فرس فورش Mamertines والصليبيين والاستروغوط ، وشعوب البحر ، شعوب النقوش المصرية ، وهي جميعاً شعوب وفق هذا المفهوم - أقول نعرف بأن الشعوب المهاجرة كانت بالغة في قلة عدد أفرادها إذا مـا قيست بعدد سكان البلاد الأصليين بعزيمتهم على أن تكون مصيراً وتصميمهم على أن لا يخضعوا لأي إنسان كان . وهؤلاء لم يمتلكوا أرضاً غير مسكونة أو قابلة للسكن ، بل إنما امتلكوا أرضاً مأهولة ، وبهذا أصبحت العلاقـة بين الشعبين موضوع منزلة أو مركز ، وتحولت الهجرة إلى حملة عسكرية ، وغدت عمليـة التوطن عمليـة سياسية .

وهنا نقول ايضاً بأنه أمام هذه الواقعة ، واقعة انتصارات حققتها عصبة محاربة

قليلة العدد ، خلال فترة تاريخية من الزمن ، ونجم عنها انتشار اسمـــاء المنتصرين ولغتهم ، نقول بأنه من السهل بأن يتوهم المرء بأن جميـع هذه الأسماء هي أسماء لشعوب مهاجرة . وهنا يصبح من الضروري أن نكرر سؤالنا :

ما هم فعلاً الناس والاشياء والعوامل القادرة على الهجرة ؟

وها كم بعض الأجوبة - فعندما ينتشر اسم منطقـة أو مستوطن (أو اسم بطل تبناه اتباعه) يصبح بانتشاره منطفئاً خامداً هنا ، ويعطى أو يتم تبنيه هناك من قبل سكان يختلفون تماماً عن مسماه . وبهـذا يمكن ان ينتقل من الارض أو الشعب ، وأن ينتقل مع الشعب أو العكس بالعكس - ومثـــال على ذلك لغة الفاتح ، أو لغة المغلوبين على أمرهم ، أو حتى لغة ثالثة ، يتم تبنيها من أجل تحقيق الفهم المتبـادل المشترك - زد على ذلك العصابة المحاربة برأسها رئيس والتي تخضع بلداناً بأكملها وتنتشر ذاتها من خلال وقاعها للنساء الاسيرات ، أو جمـاعة من مغامرين غير متجانسين ألفت بينهم الصدفة ، أو عشيرة بنسائهـــا وأطفالها كالفلسطينيين القدماء الذين عرفهم عام ١٢٠٠ ، والذين كانوا يرتحلون وفق التقليد الالماني تماماً ، فيستخدمون العربات التي تجرها الثيران ويجوبون الساحل الفينيقي حتى مصر . ونتيجة اوضاع كهذه ، الآنفة الذكر ، يجوز لنا ان نسأل : هل نستطيع ان نستخلص من مصـــائر الاسماء واللغات ، استنتاجات عن هـذه الشعوب والعناصر ؟ ان هناك جواباً واحداً ممكناً على هذا السؤال ، ألا وهو السلب الأكيد .

ويبرز من وسط « شعوب البحر » التي هاجمت مصر مراراً وتكراراً إسماً : Danni و Aciaeaus - ولكن كلا هذين الاسمين هما لدى هوميروس تسميتان اسطوريتان تقريباً - زد على ذلك اسم لوكا Lukka الذي التصق بـ Lycia بالرغم من أن سكان هذه المنطقة كانوا يسمون انفسهم بـ Tramilae - واسماء الاتروسكان والسردس و Siculi - لكن هذه الواقعة (الاسماء) لم تبرهن ابداً على أن هذا الخليط قد تكلم فيما بعد لغة الاتروسكان ، وانه كان هناك أقل ترابط جسماني بين

السكان المتشابهين إسماً في ايطاليا ، أو وجود أي شيء آخر يخولنا أن نتحدث عن « الشعب الواحد ذاته » فالزعم بأن نقش ليمنوس هو نقش اتروسكاني ، وان الاتروسكانية هي لغة هندية جرمانية يمكن أن يستنتج من هذا الكثير في ميدان التاريخ اللغوي ، لكننا لا نستطيع أن نستنتج منه أي شيء ، مهما كان ، في ميدان التاريخ العنصري فمدينة روما كانت مدينة اتروسكانية ، ولكن أليست هذه الواقعة عديمة من كل أثر أو نفوذ على نفس الشعب الروماني ؟ وهل الرومان هنود جرمان لأنه قدر لهم أن يتكلموا اللهجة العامية اللاتينية ؟

ان علماء أصول السلالات البشرية يعترفون بعنصر مجري متوسطي ، وبعنصر ألبي (نسبة للألب) ، ولكن يوجد الى الشمال والجنوب من هذين يوجد تشابه جسماني مذهل بين الألمان الشماليين وبين الليبيين . ولكن الفيلولوجيين يعرفون بأن الباسك Basque هم ، استدلالاً من لغتهم ، سكان ايبريا ما قبل الهنود الجرمان . وكلا الرأيين متعادلان في اطلاقيتها .

وهل كان الهيلينيون هم بناة ميسينا و Tiryns ؟ ومن المناسب هنا أن نسأل عما إذا كان الاستروغوت جرماناً ؟ وأنا هنا لأعترف بأنني لا أستطيع أن أدرك لماذا أوجدت أسئلة كهذه .

فالشعب هو ، في نظري ، وحدة نفس . والأحداث العظمى في التاريخ لم تنجزها الشعوب ، بل انها هي نفسها التي خلقت الشعوب . فكل عمل يبدل روح عامله . وحتى لو سبق الحديث نوع من تجمع حول وتحت اسم شهير ، فالواقعة القائلة بأن هناك شعباً وليس مجرد عصابة تكمن وراء مكانة هذا الاسم ، ليست شرطاً للحدث بل انما هي نتيجة له . فأقدار هجرات العثمانيين والاستروغوت هي التي جعلتهم ما كانوا عليه فيما بعد . والأمير كيون لم يهاجروا من اوروبا ، واسم الجيوغرافي الفلورنسي ، آمير كو فيسبوتشي Amerigo Vespucci لا يشير فقط اليوم الى قارة ، بل انه يدل ايضاً على شعب بكل ما للكلمة من معنى ومفهوم شعب ولد طابعه الخاص خلال الاضطرابات الروحية التي عرفها عام ١٧٧٥ ، وقبل

كل شيء ، التي شهدتها الفترة الزمنية بين عام ١٨٦١ و عام ١٨٦٥ . وهـــذا هو المضمون الوحيد لكلمة «شعب» . فليست وحدة اللغة ،أو التحدر من صلب واحد ، هو عامل الحسم فذاك الذي يميز الشعب من السكان ويرتفع بالشعب من وســط السكان ، والذي سييسر له اليوم الذي يمكنه فيه من ايجاد مستواه بين السكان ، انما هو ، دائماً ، خبرة «الـ نحن المعاشة» . وكلما ازداد هـــذا الشعور عمقاً تزداد فاعلية الشعب وحياته . وهناك اشكال لشعوب حية فعالة وأخرى داجنة أليفة ، وغيرها سريعة الزوال ورابعة لا يمكن تحطيمها . والشعب قد يستطيع أن يبدل الاسم والعنصر والأرض ، ولكن طالما لروحه حياة ، فان ابنــــاءه سيجمعون اشتاتهم وسيبدلون شكل المادة البشرية مهما كان أصلها أو جنسها . وكلمـــة رومان كانت تعني في أيام هنيبال شعباً ، غير أنها لم تعد تعني في عصر تراجان اكثر من سكان .

ومن البدهي أنه يجوز لنا أن نصنّف الشعوب في عناصر ، لكن يتوجب ، في هذا المجال ، ألا نفسر العنصر وفق المفهوم الداروني المعاصر لهـذه الكلمة . ولا يمكن لنا ان نقبل أو نسلم ، بقناعة ، بأن الشعب قـد حافظ على تماسكه بسبب وحدة أصله الجسمانية ، أو انه لو صح هذا الزعم ، يستطيـع حقاً أن يصون هذه الوحدة حتى طيلة عشرة قرون من الزمن . ونحن لا نستطيـع ان نكرر القول مراراً وتكراراً بأن لا وجود لهـــذا المنبـع الفيزيولوجي إلا بالنسبة الى العلم — وليس ابـداً وعي القوم — وانه لم يحدث ابداً حتى الآن ان استثار حماس الشعب المثل الاعلى القائم بنقاء الدم وصفائه . ففي العنصر لا يوجد أي شيء مادي ، بل انما يوجد شيء ما كوني واتجاهي ، يوجد التناغم المحسوس للمصير ، محط النغم الوحيد لزحف الكينونة التاريخية . وهو متماثل في درجته ، وهـــذا النبض (الميتافيزيكي مظهراً وجوهراً) والذي يولـّد البغضاء العنصرية ، التي هي في شدتها بين الالمان والفرنسيين ، كما هي تماماً بين الألمان ، واليهود وتجاوبها وهذا النبض هو الذي يجعل الحب الحقيقي ، الحب المتبـــادل بين الزوج والزوجة — مشابهاً البغضاء الى حد بعيد . والمرء الذي لا يمتلك عنصراً لا يعرف شيئاً عن هذا الحب

الخطر . واذا كان هناك جزء من هذه الجمهرة البشرية التي تتكلم اللغات الهندية الجرمانية ، تعتز بمثل أعلى لعنصر ، فهذا لا يدل على وجود نموذج اصلي جد عزيز على قلب العالم ، بل انما يدل على الارغام والقوة الميتافيزيكيين لهذا المثل . والحق انه لذو مغزى عميق ان لا يجري التعبير عن هـذا المثل الاعلى من خلال كامل السكان ، بل انه يعبر عنه ، بصورة رئيسية ، من خـــلال العنصر المقاتل من السكان ، وان يكون تعبيره متعالياً سامياً من خلال طبقة النبلاء من السكان – أي ان يتخذ المعبرين عنه – اولئك الذين يعيشون كلياً في عـــالم من الوقائع ، وتحت تأثير سحر الصيرورة ، يتخذ الرجال الذين يعزمون ويخاطرون – وهذا ، حصراً ، هو الذي يجعلنا نتفهم كيف استطاع أمرؤ غريب ذو نوعية وكرامة ، أن يكتسب قبول الطبقة الحاكمة لهبين اعضائها ،زد على ذلك أن أخبار النساء كان يجري وفق توليدهن [١] وليس حسب تحدرهن من أصول . ويتوافـق مع هـذا كون طابع سمات العنصر هي الأضعف (كما قد يلاحظ حتى الآن) في الطبيعتين الحقيقيتين لكل من الكاهن والعالم ، حتى بالرغم من روابط الدم الوثقى التي تشد أحدهما الى الآخر . فالروح القوية تصهر الجسم في نتاج فن. فلقد شكل الرومان، في وسط القبائل الحائرة وحتى الشاذة في ايطاليا ، عنصراً من اشد العناصر تماسكاً وحزمـــاً في وحدته ، وهذا العنصر لم يكن اتروسكانيا أو لاتينيـا ولا حتى كلاسيكيا ، بل كان رومانيا بصورة محدودة خاصة .

وليس هناك من شيء يتبدى فيه الارغام الذي يجعل الشعب متماسكاً كالبنيان المرصوص ، كمـــا يتبدى في التماثيل النصفية Busts التي نحتت في المرحلة الجمهورية المتأخرة زمنا .

واني هنـا سأورد مثلاً آخر ، مثلا ، ليس له من مثيل لكشف أخطاء ظنون العلماء هذه بوضوح ، في الشعب واللغة والعنصر ، وهو مثل يؤدي حتماً ، ويكمن

---

(١) لاحظ المولدات عند العرب .

–المترجم–

فيه السبب النهائي ، ولربما كان السبب الحاسم الذي يجعلنا نتساءل لماذا لم يعترف حتى الآن بالحضارة العربية كنظام عضوي . ان السبب يعود الى الفرس . ولما كانت الفارسية لغة آرية ، لذلك فـان الفرس هم شعب هندي جرماني ، ولهذا فان التاريخ والدين الفارسيين هما من اختصاص الفيلولوجيا « الايرانية » .

واستهلالاً نتساءل : هل تتساوى اللغة الفـارسية والهندية مرتبة وتشتق من أصل واحد ، أم هل هي مجرد لغة عامية هندية ؟

إن هناك سبعة قرون من التطور اللغوي اللامخطوط والسريـع لذلك ، تفصل بين فيدية النصوص الهندية القديمة وبين نقوش داريوس الـ Behistum . وهـذه تشكل هوة عميقة تقريباً بالنسبة الى الهوة التي تفصل بين لاتينية تاسيتوس وفرنسية قسم ستراسبورغ عام ٨٤٢ . زد على ذلك أن كتابات تل العمارنة ، ومحفوظـات بوغاز كوي Boghaz keüi تطلعنـا على الكثير من اسماء الاشخاص والآلهة الآرية العائدة الى منتصف الدورة الألفية الثانية قبل الميـلاد — أي الى عصور الفروسية الفيدية . ولكن فلسطين وليست سوريا هي التي تقدم هذه الأسماء. ومع هذا فإن ادوارد ماير يلاحظ بأن هـذه الأسماء هي أسماء هندية وليست فارسية ، والشيء ذاته ينطبق على الأرقام التي اكتشفت الآن. فليس هناك أية وحدة فارسية ، أو أية وحدة لشعب آخر ، وفق مفهوم كتابنا التاريخيين . فهؤلاء كانوا ابطـالاً هنوداً انطلقوا غرباً ، وقد جعلوا انفسهم يُحس بها بواسطة اسلحتهم الغالية وخيولهم الحربية وحيويتهم الغيورة وطاقتهم الحارة ، كقوة أبعد مدى واكثر اتساعاً من الامبراطورية البابلية الهرمة .

وتظهر ، قرابة عام ٦٠٠ ، في وسط هذا العالم پرسيس Persis ، وهي منطقة صغيرة تضم سكاناً متحدين سياسياً ومن أرومة برابرة فلاحين . وهيرودوت يقول بأن ثلاثاً فقط من قبائل هذه المنطقة كانت قبائل فارسية أصيلة. فهل استمرت حياة لغة هؤلاء الفرسان في التلال ، وهل فارس هي حقاً اسم أرض أطلق على شعب ؟ فالماديون الذين كانوا جد مشابهين لهؤلاء ، يحملون اسم البقعة من الارض ، حيث

تعلمت طبقة المحاربين العليا أن تشعر ، نتيجة لنجاحاتها السياسية العظمى ، بأنهـــا تشكل بنفسها وحدة . ونحن نجد ، في المحفوظات الاشورية العائدة الى سيرجون وخلفائه (قرابة عام ٧٠٠) ، الى جانب أسماء المكان اللا آرية ، أسماء وآرية ، عديدة لأشخاص ؛ جميعهم شخصيات بارزة ، لكن Tiglath - Pilser (٧٤٥-٧٢٧) يسميهم بالشعب ذي الشعر الأسود . ولذا فإن «الشعب الفارسي» في عهدي قورش وداريوس ، قد تشكل فقط فيما بعد ، وتشكل من أصول متنوعة مختلفة ، ولكنه صُهر في وحدة باطنية قوية لخبرة مُعاشة . ولكن عندما وضع المقدونيون ، بعد بالكاد من مضي قرنين ، نهاية لسيادتهم هل كان هذا يعني أن الفرس لم يعـــد لهم وجود في هذا الشكل ؟ (وهل كان يوجد هناك إطلاقاً شعب لومباردي في ايطاليا عام ٩٠٠ بعد المسيح ؟) . وانه لمن المؤكد ان الانتشار الواسع جداً للغة فارس الامبراطورية ، وتوزع الالاف القليلة من شبـــان فارس المراهقين على الشؤون العسكرية والادارية الهائلة ، يجب أن يكون قد أدى ، منـذ وقت طويل ، الى انحلال الشعب الفارسي ، وإحلال من يحملون هذا الاسم كطبقة عليا تعي ذاتهـــا بوصفها وحـدة سياسية ، التي قد لا يستطيـع فقط ، وفعلاً ، أن يزعم إلا القليل بأنه متحدر من أصلاب فاتحي فارس . وليس فعلاً هناك حتى بلد واحد التي يمكن اعتبارها مسرحاً للتاريخ الفارسي .

فالاحداث ابتداء من داريوس فالاسكندر ، في شمالي بلاد مـــا بين النهرين (وهذا يعني في وسط السكان الذين يتكلمون الآرمية) قد وقعت جزئيــاً في (Sinear) القديمة ، وفي أي مكان ما عدا برسيس Persis ، حيث ان البنـايات الطبقة التي بدأت بكزرسس لم تُنجز ابداً . أمـا البارثيون Parthians الذين تلوا مرحلة Achaeminid ، فلقد كانوا قبيلة منغولية اقتبست لهجة عامية فارسية ، وحاولت في وسط هذا الشعب ان تتجسد شعوراً قومياً داخل ذاتها .

وهنا يبرز الدين الفارسي كقضية لا تقل في مصاعبها عن قضايا العنصر واللغـة تلك . ولقد ربطته الدراسة بهذه القضايا ، كما ولو ان هذا الارتباط كان غنياً عن

البيان ، ولهذا قد عالجته دائماً بالاستدلال بالهند . ولكن دين فابكنغز الارض هؤلاء لم يكن مرتبطاً به ، لقد كان منطبقاً على الفيـدي ، كما يظهر ذلك تزاوج ميترا – فارونا واندرا ناساتيا لنصوص بوغاز كيوي . وداخل هـذا الدين الذي حافظ على رأسه داخل هذا العالم البابلي ، ظهر زردشت الان، من صفوف الشعب السفلي ، كمصلح . ولقد كان معروفا بأنه لم يكن فارسياً . وهذا الذي أبدعـه (كما آمل أن أظهره) كان يمثل تحويل شكل الدين الفيدي الى اشكال من تأملات آرامية، التي كانت قد دخلتها بدايات التدين المجوسي. فالديفاس Daevas ، آلهة المذاهب الهندية القديمة، قد غدوا وشبوا ليصبحوا عفاريت السامية وجن العرب. والعلاقة التي تقوم بين يهوى وبلعزبوب هي تمامـاً كالعلاقة بين Ahamazda و Ahriman ، في هذا الدين الفلاحي ، الذي كان في الاساس ديناً آرامياً ولهذا وجد في قالب من شعور أخلاقي ثنائي بالعالم . ولقد حدد ادوارد ماير ، بصورة صحيحة ، الفرق بين النظرة الهندية والنظرة الايرانية الى العـالم ، ولكنه نتيجة لقدمته الخاطئة لم يتعرف على اصل هذا الفرق. فزردشت كان رفيق ترحال لانبياء اسرائيل ، الذين كانوا مثله ، قـد بذلوا في الوقت ذاته شكل معتقدات الشعب (الموسوية والكنعانية) . وبما له مغزى كبير ان جميع فلسفات الحشر والنشور، هي ملك مشترك بين الدينين اليهودي والفارسي ، وأن نصوص الافستا قد كتبت أصلاً بالارامية (في ازمان بارثا) وقد ترجمت فقط فيما بعد الى الفهلوية.

ولكن كان قد حدث في الأزمة البـارثية ، وبين كل من الفرس واليهود ، ذاك التبدل العميق المتآلف الذي لم يعد يجعل الترابط العشائري، بل صحة المعتمد الطابع العام للقومية . فكان اذا مـا تحول اليهودي عن دينه الى الدين المازدي ، يصبح بهذا فارسيا ، أمـا الفارسي الذي كان يعتنق المسيحية ، فكان بذلك ينتمي الى « الشعب » النسطوري .

زد على ذلك أن السكان الكثيفي العدد جداً والذين كانوا يسكنون في المنـاطق الشمالية من بلاد مـا بين النهرين – الموطن الأصلي للحضارة العربية –

يتحدرون من جنسية يهودية وفارسية بكل معنى الكلمة وهم لم يكونوا يهتمون اطلاقاً بالعنصر ، واهتمامهم باللغة كان جد زهيد . وكلمة « كافر » كانت تعني حتى قبل ميلاد المسيح ، اللافارسي ، أو اللايهودي .

إن الامة هي « الشعب الفارسي » في الحقبة الساسانية وارتباطاً بهذه الواقعة نجد أن اللغتين البهلوية والعبرية تموتان في وقت واحد ، وصيرورة اللغة الآرامية اللغة الأصلية لكلا الطائفتين . ونحن اذا ما تكلمنا عن الآريين والساميين ، نقول بأن الفرس العائدين الى عصر مراسلة Tell - el - Amarna كانوا آريين ، لكنهم لم يكونوا « شعباً » . وكانوا في عصر داريوس شعباً دون مـــا عنصر : وكانوا في الأزمان الساسانية طائفة من المؤمنين ، لكنها طائفة ذات أصل سامي . فليس هناك « شعب فارسي » أصيل يشتق من الآرية ، كما أنه لا يوجد ايضاً تاريخ عام للفرد ، أضف الى ذلك ، أنه لا يوجد حتى مسرح تاريخي مشترك للتآريخ الثلاثة الخاصة التي نراها متماسكة بسبب الروابط اللغوية فقط .

- ٣ -

وبهذا نكون قد أرسينـــا اخيراً أسساً « لمورفولوجيا الشعوب » وهذه ذات جوهر منظور مباشرة ، كما ونرى ايضاً انتظاماً باطنياً داخل هذا النهر المتدفق من الشعوب ، وهذه ليست بوحدات لغوية ولا وحدات سياسية ولا زلوجيه ، بل انها وحدات روحية . وهذا يؤدي بنا فوراً الى التمييز بين شعوب ما قبل وخلال وما بعد الحضارة . والحق أنهـــا لواقعة محسوسة ، في كل العصور ، كون الشعوب الحضارية شعوباً تمتلك طابعاً أكثر تميزاً من طـابـع بقية الشعوب . وأسلاف هذه الشعوب الحضارية أسميهم بالشعوب البدائية ، وهذه هي بمثـابة اتحادات تضم أناساً مشردين غير متجانسين يشكلون اتحادات ويحلونهـا دون أية قـاعدة يمكن التثبت

منهـــا . ويبقى أمرهم على هذه الحال حتى يتزايد أخيراً الحس الداخلي ، اكثر فأكثر ، وطوراً بعد طور ، لحضارة لم تولد بعد (مثلاً : حقبات ما قبل الهوميروسية والمسيحية والجرمانية) أقول يتزايد ثبوتاً في نموذجه ، وهنا يجري تجميع المادة البشرية في جماعات ،بالرغم من أنه لم يطرأ طيلة الوقت السابق لهذا التجميع ، سوى تبدل طفيف ، أو بالأحرى أي تبدل على طـــابع الانسان . وتراكب اشكال أطوار كهذا يبدأ من كمبري Cimbri والتيوتون مـــاراً بمار كوماني والغوط الى الفرنجة Franke واللومبارديين والسكسون .

والأمثلة على الشعوب البدائية ، هم اليهود والفرس في عصر سلوقس و «شعوب البحر» والنوميون Nomes في زمن مينيس Menes . أما الشعوب التي تتلو احدى الحضارات وتتبعها ، فيجوز لنا أن نسميها – اعتماداً على أفضل مثال معروف لدينا أي المصريين ما بعد العصور الرومانية – بشعوب الفلاحين .

استيقظت فجأة ، في القرن العاشر من زمننا ، النفس الفاوستية ، وأعلنت عن ذاتها في اشكال لا يحصيها عد . ويتبدى بين هذه الاشكال ،وجنبـــاً الى جنب والهندسة المعمارية والزخرفة ، شكل مميز تمييزاً خاصاً لشعب .

اذ تنتصب فجـــأة من وسط اشكال الشعب في الأمبراطورية الكارولانجية – السكسوني ، السوابي ، الفرنكي ، الفيزغوطي واللومباردي – اشكـــال الشعوب : الالمـــاني والفرنسي والاسباني والايطالي . ولقد أحل ، حتى الآن ، البحث التاريخي (عامداً أم غير متعمد ، واعياً أم غير واع) شعوب الحضارة هذه المحل الأول وأحل الحضارة نفسها المحل الثاني، معتبرا الحضارة نتاجاً لهذه الشعوب. وبنـاءً عليه تكون وحدات التاريخ المبدعة هي فقط الهنود والاغريق والرومان والجرمان وهكذا دواليك . ولما كانت الحضارة الأغريقية هي انجاز الهيلينيين ، لذلك يجب أن يكونوا قد وجدوا على هذه الحال في العصور الابكر زمنا ، ولهذا يجب أن يكونوا قد كانوا مهاجرين . وهكذا تبدت كل فكرة أخرى عن مبدع وابداع ، فكرة لا يقبلها العقل والادراك .

لذلك فانني اعتبر الوقائع التي سأوردها والتي تؤدي الى الاستنتاج المضاد لذلك، اكتشافاً ذا أهمية حاسمة. واني سأقرر هنا بكل حزم وصرامة أن الحضارات العظمى هي ذاتيات أولية وأصيلة، وأنها تنشأ من أعمق أغوار الروحانية وأسسها، وان الشعوب تحت تأثير سحر احدى الحضارات، متماثلة في شكلها الباطني وكامل اعلانها، وان الشعوب هي نتاج الحضـــارة، وليست مؤلفيهـا . فالاشكال، التي يتم داخلها استيعاب الانسانية وقولبتها، تمتلك تاريخ اسلوب لا يقل عما لانواع الفن وصيغ الفكر من تاريخ اسلوب. ان شعب اثينـــا هو رمز لا يقل عن المعبد الدوري، والانسان الانكليزي لا يرمز الى أقل من الفيزياء الحديثة. وهنـاك شعوب ذات قـــالب ابولوني، أو مجوسي أو فاوستي. فالحضارة العربية لم يبدعها العرب، بل على العكس من هذا تماماً، وذلك لأن الحضارة المجوسية تبدأ في زمن المسيـح والأمة العربية تمثل آخر الابداعـات العظمى لهذه الحضارة بوصفهـا طـائفة مقيدة بالاسلام، كما كان اليهود والفرس طـائفتين ترتبط كل واحدة منها بدينها. وان تاريخ العـالم هو تاريخ الحضـارات العظمى ومـــا الشعوب سوى الاشكال الرمزية والمواعين التي يحقق بواسطتهـــا رجـــال هذه الحضـــارات مصائرهم.

فهناك في كل حضارة من هذه الحضارات: المكسيـكية، والصينية، والهندية والمصرية (أكانت علومنا تعرف بهذا أم لا تعرف) مجموعـة أفراد، من شعوب عظمى ذات أسلوب متماثل، وتنشأ هذه المجموعة في مطلع ربيـع الحضارة فتشكل الدول وتحمل التاريخ وتنطلق، طيلة سياق تطور الحضارة، بشكلها الأسامي قدماً حتى تبلغ الهدف. وأفراد هذه المجموعة متباينين الى أعقد درجات التباين — فمثلاً من النادر أن نجد من خلاف أشد من الخلاف الذي قام بين الأثينيين والاسبرطيين، بين الألمان والفرنسيين، بين تسن وتسو — زد على ذلك أن كل تاريـخ عسكري يدلل على أن البغضاء القومية هي أفضل السبل لاتخاذ المقررات التاريخية. ولكن في اللحظة ذاتها التي يبرز الى ميدان التاريخ شعب غريب عن الحضـارة، فعندئذٍ يستيقظ في كل مكان شعور جارف من قرابة روحية، وتنشأ فكرة البربري التي

تعني انساناً لا ينتمي باطنياً الى الحضارة – وهذه الظاهرة واضحة تماماً في شعوب المستوطنات المصرية ودول العالم الصيني ، كما هي واضحة في العالم الكلاسيكي . والشكل زخم تبلغ شدته درجة تجعله يستحوذ على الشعوب المجاورة ويتقولبها من جديد،ولنتأمل في قراطجة الأزمان الرومانية بما لهم من أسلوب نصف كلاسيكي ، وفي الروس الذين اعتبروا ، ابتداء من كاترين الكبرى حتى سقوط القيصرية البطرسية ، شعباً ذا اسلوب غربي .

وسنسمي الشعوب ، اعتياداً على اسلوب حضارتها،أمماً ، وهذه الكلمة – الأمم – تميزها عن الاشكال التي تقدمتها والتي تتلوها . فليس ذلك بمجرد شعور قوي بال « نحن » هو الذي يصوغ الوحدة الباطنية من أعمق ما لكل الاتحادات البشرية من مغزى ، إذ أن هناك فكرة تكمن وراء الأمة . فهذا السيل من الكائنات الجماعية يملك رابطاً بالغ العمق يشده الى المصير والزمان والتاريخ ، رابطاً يختلف في كل أمة عن الأمة الأخرى ، وهو الذي يقرر ايضاً علاقة المادة البشرية بالعنصر واللغة والارض والدولة والدين.كما تختلف أساليب الشعوب الصينية والكلاسيكية القديمة ، كذلك تختلف أساليب تواريخها .

فالحياة ، وفق خبرة الشعوب البدائية والفلاحين،هي تصاريف زمان زولوجية، وحدوث غير مخطط أو مرسوم ودون ما هدف أو زحف ايقاعي داخل الزمان ، حيث الحدوث تكثر فيه ، ولكنها مجردة ، في نهاية المطاف ، من كل معنى أو مغزى . فالشعوب التاريخية الوحيدة ، الشعوب التي يكون وجودها تاريخاً للعالم ، هي الأمم . ولنكن واضحين تماماً بما نعنيه من وراء هذا القول . لقد كابد الاستروغوط مصيراً عظيماً ، ولهذا فهم لا يملكون ، باطنياً ، تاريخاً . فمعاركهم ومستوطناتهم لم تكن ضرورية ، ولذلك جاءت عرضية ، ونهايتهم كانت تافهة لا مغزى لها . زد على ذلك أن أولئك الذين ، عاشوا عام ١٥٠٠ قبل المسيح،بالقرب من ميسينا و Tiryns ، لم يكونوا قد أصبحوا أمة بعد ، أما اولئك الذين قطنوا في جزيرة كريت المنوانية Minoan فلم يعودوا أمة .

ولقد كان تيبريوس آخر حاكم حاول أن يقود الرومان كأمة قدماً على دروب التاريخ ، وسعى أن يستعيدها للتاريخ .

وفي عصر ماركوس اوريل لم يكن هناك غير سكان ليدافع عنهم – وهذا العصر ميدان حدوث، لكنه لم يعد ميدان تاريخ. ونحن لا نستطيع أن نجزم أو نستند إلى قاعدة لنقرر كم كان عدد الأجيال الحرة مما قبل Mede أو Achaean وقوم الهون ،وأي نوع من حياة جماعات اجتماعية كان أسلافهم وذراريهم يعيشون. ولكن حقبة حياة الأمة هي حقبة مقررة معلومة، وكذلك سرعة السير والايقاع اللذين ينطلق تاريخها وفقها الى الاكتمال. فعدد الأجيال ، منذ بداية حقبة شو حتى حكم شيه – هوانغ – تي – ، ومنذ الاحداث التي شيدت عليها أسطورة طروادة حتى اوغسطس ، ومنذ أزمان Thinite حتى الأسرة الثامنة عشرة، أقول أن عددها لواحد تقريباً . فالمرحلة المتأخرة من الحضارة ، ابتداءً بصولون وانتهاءً بنابليون ، لا تضم اكثر من عشرة أجيال تقريباً .

ويبلغ مصير شعب الحضارة الأصيل ، ومعه مصير تاريخ العالم ، داخل حدود نهائية كهذه ، درجة الاكتمال . زد على ذلك أن الرومان والعرب والبروسيين هم أمم ولدت في زمن متأخر . وكم من أجيال فابي Fabii وجوني Junii عبرت بوصفها رومانية في فترة معركة كاني Cannae ؟

أضف إلى ذلك ، أن الأمم هي الشعوب الحقيقية لبناء المدن. وهي تنشأ داخل القلاع ، وتنضج في المدن وتنحل في المدن العالمية . وكل تشكل بلدة يملك طابعاً، انما يمتلك أيضاً طابعاً قومياً ، أما القرية ، والتي هي بأكملها شيء من عنصر ، فانها لا تمتلكه ، زد على ذلك أن المدينة العالمية الكبرى قد فقدته ولم تعد تمتلكه .

ومن هذا الجوهر الذي يكوّن الحياة العامة بصورة مميزة إلى درجة تجعل أبسط ظواهر هذه الحياة تشير اليه وتدل عليه،لا نستطيع أن نغالي – بل نستطيع بالكاد أن نتخيل – القوة والاكتفاء الذاتي والتوحد. فاذا كان الستار الفاصل بين روحي حضارتين ، ستاراً لا يمكن أن تنفذ من خلاله بصيرة ، وإذا ما فقد الفرد

الغربي كل أمل في فهم الانسان الهندي أو الصيني ، فهذا القول ينطبق تماماً،لا بل اكثر ، على الأمم التي بلغت درجة راقية من التطور. ففهم الأمم بعضها لبعض هو من القلة كفهم الافراد لبعضهم بعض . فكل واحد من هؤلاء يفهم فقــط عن الآخر الصورة التي شكلها لنفسه عن قرينه ، أمـا اولئك الذين حباهم الله ببصيرة تنفذ الى الأعمق ، فهم قلة ويوجدون في فترات متباعدة .

وكذلك هي الحال والمصريين ، كما وان جميع الشعوب الكلاسيكية قــد أحست بالضرورة بنفوسها بأنهم أقرباء في كل واحد ، لكن فيا بينهم لم يفهم أحد منهم الاخر أبداً. فهل هناك من تناقض اشد من التناقض القائم بين الروح الاثينية والروح الاسبرطية ؟ زد على ذلك أن صيغ التفكير الفلسفي من المانية وفرنسية وانكليزية ، تختلف كل واحدة منها عن الاخرى ، واختلافهـا لا يتبدى فقط في بيكون وديكارت ولايبنتز ، بل انما قد ظهر ايضاً واضحاً وجلياً في الفلسفة الكلاميــة اللاهوتيةScholasticism، ويظهر حتى الان في الفيزياء والكيمياء الحديثين ، وفي المنهاج العلمي ، واختيار نماذج التجارب والفرضيات ، زد على ذلك ترابطات هذه والاهمية النسبية لسياقها وبحراها بالنسبة الى البحاثة تختلف لدى كل أمة اختلافاً بيناً عما هي لدى الامة الاخرى . فالورع الالماني والتقوى الفرنسية والاعراف الاخلاقية الاجتماعية الانكليزية والاسبانية ، والعادات الالمــانية الانكليزية في الحياة، كل واحدة من هذه الأمور تقف بصورة بعيدة عن الاخرى الى حد يبقى معه المفهوم الباطني الحقيقي لكل شعب ، في نظر الانسان العادي ، ولذلك في نظر الرأي العام لطائفته ، سراً عميقاً ومنبعاً لاخطاء مستمرة فادحة .

وفي الامبراطورية الرومانية بدأ الناس يفهمون ، بصورة عامة ، بعضهم بعضاً ، ولكن مرد هذا الأمر ، يتمثل ، حصراً ، في انه لم يعد هناك من شيء في المدينة الكلاسيكية يستحق ان يُفهم . فهذا النوع الخاص من الانسانية ، لم يعــد عند مطلع حقبة الفهم المتبادل المشترك ، يعيش بوصفه أمماً ، لذا لم يعد له طابع تاريخي اكيد .

وبسبب عمق الخبرات بالذات ، ليس بامكان الشعب بأكمله ان يكون شعباً

حضارياً من أول فرد فيه حتى آخر فرد ، أن يكون أمة . فلكل انسان من الأقوام البدائية الشعور ذاته بواجبات الجماعة ، لكن يقظة الأمة لوعي ذاتها ، انما تحدث ، تدريجياً – تحدث في طبقة خاصة معينة هي اقوى روحاً أو نفساً ، وتسحر الاخرين بقوة تنبع من تجاربها المعاشة . وكل أمة تمثلها أقلية منها في التاريخ. وهذه الأقلية تكون في مطلع ربيع الحضارة ، طبقة النبلاء ، وظهورها الاول يمثل ازدهاراً رائعاً لشعب ، وإناءً يحتوي دون ما وعي لكن الشعور بنبضه الكوني يتزايد أبداً – على الطابع القومي ويتلقى الاسلوب المصيري المقدر للأمة. « قال – نحن» هي طبقة الفرسان في الحقبة الاقطاعية المصرية لعام ٢٧٠٠ ، وليست هي دون ذلك في الحقبتين الاقطاعيتين من هندية وصينية لعام ١٢٠٠ . فالأبطال الهوميريون هم الـ Danai ، والبارونات النورمان هم انكلترا . وقد اعتاد سان سيمون – والقول عنه بأنه تجسد لفرنسا الأقدم زمناً ، قول حق – اعتاد ان يقول بأن « كل فرنسا » كانت مجتمعة في غرفة انتظار Ante . room الملك ، وعرفت الامبراطورية الرومانية عصراً كان خلاله مجلس الشيوخ هو روما بذاتها . ويصبح البورغر Burgher [1] ، مع إطلالة البلدة على الوجود ، إناء القومية وماعونها الوعي القومي (وهذا ما يتوجب علينا ان ننتظره من نماء العقلانية) الذي يرثه من طبقة النبلاء ويسير به حتى اكتماله . وهناك دائماً دوائر خاصة تتخرج من ظلال رائعة ، وهذه الدوائر هي التي تعيش وتشعر وتعمل وتعرف كيف تموت باسم الأمة ، وهي تزداد اتساعاً مرحلة بعد مرحلة واقد نشأ في القرن الثامن عشر المفهوم الغربي الأمة ، هذا المفهوم الذي يفترض (وفي بعض المناسبات يلح) في كل فرد ان يتبناه ويدافع عنه دون استثناء . غير اننا نعرف حقاً بأن قناعة المهاجرين (من الملكيين عقب الثورة – المترجم)Emigrés كانت

---

١ – الرجل الحر من ابناء بلدة محصنة ومسورة ، أو في مجموعة من بيوت بطريقها الى شكيل بلدة .

(المترجم)

لا تقل ابداً عن قناعة اليعاقبة بأنهم هم الأمة الفرنسية . أما الشعب الحضاري الذي ينطبق على الجميع ويتفق معهم ، فليس له وجود - وهذا الانطباق امر ممكن فقط بين الشعوب البدائية وشعوب الفلاحين ، وذلك نتيجة لمجرد صلة لا تمتلك عمقاً أو كرامة تاريخية . وطالما ان الشعب يبقى أمة ، وينتج مصير أمة ، فهناك اقلية منه تمثل الجميع وتنجز باسم الجميع تاريخ الامة .

- ٤ -

كانت الشعوب الكلاسيكية ، انسجاماً والروح اليوقليدية السكونية ، وحدات جسمانية من أصغر الاحجام التي يمكن أن تراود الخيال . فلم يكن الهيلينيون أو الايونيون هم الذين كانوا أمتين ، بل كان لكل مدينة دهماؤها، دهماء تتمثل في جماعات متحدة من الناس الراشدين ، وموزعة من الوجهة القانونية وكذلك القومية ، الى جماعات كان لها البطل نموذجاً بوصفه الحد الاعلى ، وأخرى البعد بوصفه الحد الادنى .

فتلك العملية الغامضة التي شهدتها الحقبات المبكرة والتي كان سكان الريف يتخلون خلالها عن قراهم ويتجمعون بوصفهم بلدة ، تدل على اللحظة التي عندما بلغ الكلاسيكيون فيها وعي ذاتهم ، كونوا أمتهم على هذا الشكل ، (شكل البلدة) . ونحن لا نزال نستطيع أن نقتفي آثار تشكل هذا الشكل من الامة من العصور الهوميرية حتى حقبة الاستعمار المظلم وهذا التشكل ينطبق ويتجاوب تاماً والرمز الاولي الكلاسيكي : فكل قوم كانوا حجماً منظوراً قابلاً للمسح والقياس ، وهناك كلمة اغريقية تعبر عن الانكار الواضح لفكرة الفراغ الجغرافي.

ولا يهم أبداً التاريخ الكلاسيكي أن يعرف ما إذا كان الاتروسكان في ايطاليا

يتفقون جسما أو لغـة وحملة هذا الاسم من « شعوب البحر » ، ولا يكترث أبداً بماهية العلاقة التي تربط بين الوحدات البشرية منPelasgi او Danai ، وبين الوحدات الأخرى التي حملت الاسم الدوري أو الهيليني . فـاذا كانت توجد ، قرابة عـام ١١٠٠ ، شعوب دورية واتروسكانية بدائية (ومن الجائز أنها وجدت) ، فبرغم هذا فـانه لم توجد أبداً أمـة دورية أو اتروسكانية . وفي توسكانا كما في البولوبونيز كان يوجد فقط دول مدينة ، نقـاط قومية ، لم تستطع خلال حقبة الاستعمار أكثر من التكاثر عدداً ، لكنها لم تمتد أبداً . كما وان حروب رومـا الاتروسكانية كانت تشن دائمـاً ضد مدينة أو اكثر . زد على ذلك أن الأمم التي تصدى لها الفرس والقراطجة كانت هذا الطراز نفسه .

أمـا حديثنا عن « الاغريق والرومان » كما تحدث عنهم القرن الثـامن عشر (وكما لا نزال نتحدث حتى الآن) فهو لأمر خاطىء تمامـاً ومغلوط . فالقول بالاغريق كأمة ، هو في نظرنا ، سوء فهم أو ادراك ، فالاغريق نفسهم لم يعرفوا إطلاقاً فكرة كهذه . والاسم « الهيلينون » هذا الاسم الذي عرف قرابة عـام ٥٠٠ ، لم يشر ابداً الى شعب ، بل انما أشار الى مجموعة من الرجال الحضاريين ، الى مجموع أبهم تمييزا لها عن العالم « البربري » . أضف الى ذلك أن الرومان ، وهم شعب متمدن حقـاً ، لم يستطيعوا أن يدركوا أمبراطوريتهم على شكل مخالف لكونها كيانا يتألف من نقاط أمة Civitates ، لا تعد أو تحصى ، نقـاط حل الرومان داخلها جميع الشعوب البدائية في الامبراطورية من الوجهة القانونية ، كما حلوهـا من الوجهات الأخرى . وعندمـا يجمد الشعور القومي من هذا الشكل ، عندئذ يبلغ التاريخ الكلاسيكي نهايته .

والحق انه سيكون من الواجب ــ ومن اثقل واجبات المؤرخين ــ ان يقوم المرء بتعقب آثار الامم الكلاسيكية الداوية جيلاً بعد جيل ، في المنطقة الشرقية من البحر المتوسط ، خلال الحقبة « الكلاسيكية المتأخرة زمنـاً » ، ويتمعن في الانسكاب الداخلي المتزايد ابداً شدة في دفقه ، انسكاب روح أمـة جديدة ،

ألا وهي المجوسية .

إن الامة من الطراز المجوسي هي طائفة يوحد الايمان المشترك بين أبنائها، وهي جماعة يعرف جميع افرادها الطريق الصحيح الى الخلاص ، ويشد باطنياً الاجماع على هـذا الايمان ، بعضهم الى بعض . والمرء كان ينتمي الى احـدى الامم الكلاسيكية بسبب امتلاكه لتذكرة هوية تلك الأمة ، لكن انتماءه الى الأمة المجوسية لا يتم إلا بعد طقس من الطقوس الدينية ـ كالختان عند اليهود وانواع خاصة من المعمودية لدى الـ Mandaeans أو المسيحيين . فالمارق كان في نظر القوم المجوس ما كانه الغريب في نظر الكلاسيكيين ـ أي منبوذاً لا يجوز الاختلاط به والتزاوج معه ، وهذا الفصل القومي بلغ حداً في فلسطين حيث تشكلت ، معـه جنباً الى جنب ، لغة عامية آرامية يهودية واخرى آرامية مسيحية .

أما الأمة الفاوستية ، فبالرغم من انها مرتبطة بالضرورة بتدين معين ، غير انها ليست كذلك باعتراف خاص ، أما الأمة الكلاسيكية فهي بنموذجهـا ذات علاقات مطلقة بمختلف المذاهب . لكن الأمة المجوسية لا تضم أكثر أو أقل من أولئك الذين يؤمنون بفكرة هذه الكنيسة المجوسية أو تلك والأمة الكلاسيكية ترتبط ارتباطاً باطنياً بالمدينة ، أما الفاوستية فبالصقع ، ولكن الأمـة العربية لا تعرف وطناً أو لغة أم . ونظرتها الى العالم يعبر ظاهراً عنهـا فقط الخط المميز الذي توجده وتطوره كل أمة كهذه حالما تبصر النور . ولكن لهذا السبب بالذات فان باطنية وزخم شعور الأمة المجوسية ـ السحري فعلاً ـ يؤثران فينا نحن معشر الفاوستيين حيث نرى في غياب فكرة الوطن لدى الامة العربية أمراً غامضاً كل الغموض ولا ينم عن مكر أو احتراس . وهذا التماسك أو التلاحم الضمني والضامن للذات (تماسك اليهود مثلاً في مواطن الشعوب الغربية) هو الذي دخل « القانون الروماني » (هذا القانون الذي يحمل طابعاً كلاسيكياً لكنه من انجاز الآراميين) بوصفه مفهوماً « للشخص الاعتباري » Juridical Person الذي هو ليس الا مجرد رأي مجوسي في الطائفة ، زد على ذلك أن يهودية ما بعد السبي كانت قـد اصبحت

شخصاً اعتبارياً قبل طويل زمن من اكتشاف هذا المفهوم .

لقد كان البدائيون الذين سبقوا هذا التطور يشكلون بصورة رئيسية جماعات عشائرية ، وكان المينيون Minaens الذين قطنوا جنوب جزيرة العرب من بين هذه الجماعات ، وقد ظهر هؤلاء في مطلع الدورة الافقية الاولى ، واختفى اسمهم في القرن الاول قبل المسيح ، وكذلك كان الكلدانيون الذين يتكلمون الآرامية والذين نشأوا ايضاً ، قرابة عام ١٠٠٠ ق.م ، كجماعات قبلية ، وحكموا العالم البابلي من عام ٦٥٩ — ٥٣٩ ، وكذلك ايضاً الاسرائيليون قبل السبي ، وفرس قورش . وقد كان حس السكان بالشكل على تلك الدرجة من القوة حيث أطلقت أسمـــاء الكهانات ، التي نشأت وتطورت هنا وهناك وفي كل مكان ، بعد عصر الاسكندر ، على قبائل حقيقية وأخرى وهميـــة . وكان كهان تلك الكهانات يُعرفون بين اليهود والسبأيين في جنوب جزيرة العرب باسم اللاويين ، أمـــا الميديون والفرس فعرفوهم باسم المجوس (وهو اسم لقبيلة هندية بائدة) ، وعرفوا بين اتباع الدين البابلي الجديد باسم الكلدانيين (حتى بعد انحلال هـذا التجمع العشائري) . ولكن هنا ، كما في كل الحضارات ، ألغى زخم الاتحـاد القومي جميع الاعراف العشائرية لهؤلاء البدائيين تماماً . وكما كانت « الامة الرومانية » تحتوي ، دون شك ، على جماعات من أقوام بالغةفي اختلاف اصولهاومنابعها،وكما تبنت أمة الفرنجة الفرنك الساليين Salian ، والرومان والكلت المواطنين القدماء على حد سواء، كذلك لم تعد ايضاً الامة المجوسية تعتبر الاصل (العنصر ـ المترجم) علامة مميزة، ولا شك ان عملية هذا الاعتبار استغرقت وقتاً جد طويل من الزمن، إذ أن العشيرة كانت لا تزال تحافظ على اعتبارها بين اليهود حتى في الحقبة المكابية ، وكذلك عند العرب في عصر الخلفاء الاوائل ، غير انها — أي العشيرة ـ لم تعـد تمتلك في نظر شعوب حضارة هـذا العالم الناضجين باطنياً ، كالشعب اليهودي في حقبة التلمود ، أي معنى .

فالمرء الذي كان « ينتمي » إلى الدين ، كان ينتمي بصورة تلقائية الى الأمةالتي

تدين به ـ ولقد كان من التجديف قبول أي تمييز آخر . وحدث في الأزمنة المسيحية المبكرة أن اعتنق أمير Adiabene ، وكامل قومه اليهودية ، فأمسوا بذلك فعلاً جزءاً من الأمة اليهودية.

والشيء نفسه ينطبق على طبقة النبلاء الأرمن وحتى على العشائر القوقازية (التي لا شك أنها اعتنقت اليهودية على نطاق واسع) ، وينطبق ايضاً على سكان المنطقة المعاكسة في اتجاهها الجغرافي لهذه ، وأعني ، على بدو الجزيرة العربية حتى أقصى الجنوب ، وعلى من وراء هؤلاء ببعيد ، على القبائل الافريقية الضاربة حتى بحيرة تشاد . وهنا يتبدى جلياً شعور قومي مشترك كدليل حتى ضد تمايز عنصرية كهذه .

ويقال أن اليهود يستطيعون حتى في أيامنا هذه أن يميزوا عند اللمحة الأولى عناصر جد مختلفة من ابناء دينهم ، وأنه يمكن التعرف في الأحياء اليهودية الخاصة في مدن أوروبا الشرقية على هذه «العشائر» (بمفهوم العهد القديم) بجلاء ووضوح. ولكن لا يشكل أي من هذه العناصر تبايناً داخل أمة . ونموذج الفرد اليهودي الاوروبي الغربي ، هو نموذج موزع ، على حد قول « فون لركارت » بصورة جد واسعة داخل الشعوب القوقازية غير اليهودية ، بينما يقول فيزنبرغ أن هذا الأمر غير موجود اطلاقاً بين يهود جنوب جزيرة العرب ذوي الرؤوس المستطيلة،وحيث تظهر نقوش القبور السبائية نموذجاً لانسان بشري يجعلنا نفترض تقريباً أنه يتحدر من أصول رومانية أو جرمانية ، وهـذا النموذج هو الجسد الأعلى لهؤلاء اليهود الذين اعتنقوا اليهودية ، نتيجة لمجهودات المبشرين ، قرابة ميلاد المسيح على الأقل .

ولكن انحلال هذه القبائل البدائية في الأمم المجوسية من فرس ويهودومانديين Mandaeans ومسيحية ومن تبقى ، يجب أن يكون قد حدث بصورة شاملة وعلى نطاق هائل في اتساعه . ولقد سبق لي أن أشرت في هـذا الكتاب الى تلك الواقعة الحاسمة والمقررة أن الفرس كانوا يمثلون ، قبل مطلع تاريخنا

طائفة دينية فقط ، وأنه من المؤكد أن عددهم قد تزايد دون مـــا تحديد بسبب اعتناقهم المذهب المازدوي (Mazdaist) كما وان الدين البابلي قـد اختفى في ذلك الزمن – وهذا ما يعني أن اتباعه قد توزعهم اليهود والفرس – ولكن قد خرج من هذا الدين ، دين جديد ، دين غريب باطنياً عن كل من الدين اليهودي والفارسي ، وهو دين فلـكي ويحمل اسم الكلدانيين ، واتباع هذا الدين هم الذين كونوا أمة تتكلم الآرامية الأصيلة . ومن هؤلاء السكان الآراميين اشتقت القومية الكلدانية – اليهودية – الفارسية ، وأطل أولاً التلمود البابلي والعارفون ، ودين ماني ، وظهرت ، ثانياً في الأزمنة الاسلامية الصوفية والشيعة .

زد على ذلك ، أن سكان العالم الكلاسيكي ، يبدون ايضاً ، كما تعرضهم ادبسا (الرها)، أنمـــاً من طراز مجوسي . (والاغريق ، يعنون وفق مفهوم الاصطلاح الشرقي ، بمجموع جميع اتباع المذاهب التوفيقية ، وكان يشدهم بعضاً الى بعض مبدأ الاجماع من التدين الكلاسيكي المتأخر زمناً. فلم يعد لأمم المدينة الهيلينية موضع في الصورة التي تظهر فقط طائفة واحدة من المؤمنين ، عبدة الغوامض والاسرار ، والذين كانوا يعبدون ، تحت أسماء هيليوس ،جوبتردوميتوا ، نوعاً من يهوه أو الله. فالتأغرق (أصبح اغريقياً) كان ، في طول الشرق وعرضه ، فكرة دينيـــة أكيدة ، ومن أجل هذا الموضوع يتوافق المرء تماماً والوقائع كما كانت يومذاك ، فشعور المدينة قد همد أو انطفأ تقريباً ، والأمة المجوسية لا تحتـــاج الى وطن أو طائفة من أصل واحد . وحتى هيلينية الامبراطورية السلوقية [1] ، التي أوجـدت لها اتباعاً ومريدين في تور كستان وعلى ضفاف الاندوس ، كانت ترتبط باطنيـاً باليهودية الفارسية، وبيهودية ما بعد السبي. ولقد حاول فيما بعد بورفيري الآرامي، تلميذ بلوتينوس ، أن ينظم هذا التأغرق كمذهب لكنيسة على الطراز المسيحي

---

١ – أسس هذه الامبراطورية سلوقس نيكاتور احـــد قواد الاسكندر وكانت تضم فارس وبابل وسوريا وجزءاً من آسيا الصغرى .

(المترجم)

والفارسي ، وقد ارتقى الامبراطور جوليان به الى جعله مذهباً لكنيسة الدولة - وهذا ليس بمجرد عمل ديني ، بل انما هو ايضاً عمل قومي قبل كل شيء . وكان اليهودي عندما يقدم القرابين الى صول Sol أو أبولو ، يصبح بذلك اغريقياً . وعلى هذه الحال انتقل مثلاً أمونيوس ساكاس Ammonius Sakkas (٢٤٢) أستاذ بلوطينس ، وربما أوريجن من أيضاً صفوف « المسيحين » الى صفوف « الأغارقة » ، وكذلك أيضاً بورفيري ، الذي أطلق عليه عند ولادته اسم ملخوس وكان (كالفقيه « الروماني » يولبيان Ulpian) فينيقياً من أهالي صور ونحن نشاهد في هذه الحالات المشترعين وموظفي الدولة يتخذون لهم اسماء لاتينية ، بينا يتخذ الفلاسفة اسماء اغريقية - وهذه الواقعة كافية بالنسبة الى الروح الفيلولوجية للبحث الحديث والديني ، لكي تعتبر تاريخياً هؤلاء الناس روماناً واغريقاً وفق المفهوم القومي الكلاسيكي المدينـــة ! ولكن كم عدد اولئك من بـــين الاسكندرانيين العظام ، الذين من الجائز كانوا أغارقة حسب مـــا يعنيه فقط المفهوم المجوسي لهذه الكلمة ؟ أو لم يكن بلوطينس وديوفانتس من ناحيـة المولد ، وربما يهوديين أو كلدانيين ؟

أضف الى ذلك ، أن المسيحين قد شعروا ايضـاً في مطلع المسيحية بأنهم أمة من الطراز المجوسي ، واكثر من ذلك أن الآخرين : الاغريق (الوثنيين) واليهود على حد سواء قد اعتبروهم كذلك . ومن المعقول تماماً أن يعتبر اليهود انشقاق المسيحين عن اليهودية بمثابة خيانة عظمى ، وأن يرى الأغارقة في تسرب المبشرين بالمسيحية الى مدنهم غزواً وفتحـاً ، وأن يرى المسيحيون ، من جهة أخرى ، في الشعوب التي تدين بمذاهب مخالفة للمسيحية شعوباً أجنبية . . . . وعندما انفصل اليعـــاقبة والنساطرة عن الارثوذكسية ، خرجت شعوب جديدة الى الوجود كما ولدت كنائس جديدة ايضـاً . ولقد حكم النساطرة ابتداء من عـام ١٤٥٠ رجل يدعى مار شمعون ، وكان هذا أمير قومه وبطريركهم ، وبالمثل ، فان السلطان كان يحتل المركز نفسه ، كما احتله ايضاً ، وقبله بزمان طويل رش غالوثا Resh Galutha اليهودي في الامبراطورية الفارسية .

وهذا الوعي القومي النابع من شعور خاص ومحدد بالعالم ، والمتمتع اكيداً بقناعة بدهية ، لا يمكن لنا ان نتجاهله اذا ما أردنا ان نفهم الاضطهادات التي نزلت بالمسيحيين فيما بعد . فالدولة المجوسية ترتبط ارتباطاً لا انفصام بعده بمفهوم صحة المعتقد (الارثوذكسية) وتشكل الخلافة والامة والكنيسة وحدة متكاملة . و Adiahene انتقلت، بوصفها دولة، الى الديانة اليهودية ، وكدولة هجرت امرحون Osrhoene قرابة عام ٢٠٠ (وبهذه السرعة !) الاغريقية الى المسيحية، وكذلك ارمينيا عندما تركت الكنيسة اليونانية الى الكنيسة اليعقوبية . وكل حادثة من هذه الحوادث تعبر بصراحة عن الواقعة المقررة ان الدولة تنطبق كل الانطباق على الطائفة الصحيحة المعتقد بوصفها شخصاً اعتبارياً (قانونياً) . واذا ما كان المسيحيون قد عاشوا في دول اسلامية ، وعاش النساطرة في دول فارسية ، واليهود في دول بيزنطية ، فان هؤلاء لم يكونوا ، لا بل لم يستطيعوا الانتماء الى هذه الدول ، بوصفهم كفرة مارقين ، ولذلك يرفضون ويردون الى دائرتهم . وكانوا اذا ما أصبحوا ، بسبب عددهم أو روحهم التبشيرية خطراً يهدد استمرار هوية الدولة وطائفة مذهبها ، فعندئذ كان يصبح اضطهادهم واجباً قومياً . وهذا هو السبب الذي اضطهدت من اجله الكنيسة « الارثوذكسية » (أو « اليونانية ») اولا ومن ثم الكنيسة النسطورية في الامبراطورية الفارسية ، وديوكلتسيان بوصفه « خليفه » (Domius et Deus) قد ربط ايضاً الأمبراطورية بكنائس المذهب الوثني ، ورأى في نفسه ، وبكل اخلاص ، أميراً لهؤلاء المؤمنين ، فلم يستطع أن يتجنب واجبه في اخضاع الكنيسة الثانية وقهرها. أما قسطنطين فانه بدل الكنيسة « الحقيقية » وبهذا يكون قد بدل ايضاً قومية الامبراطورية البزنطية . ومن هذه النقطة أخذ الاسم اليوناني ينتقل ، رويداً رويداً ، الى الامة المسيحية وخاصة الى تلك الامة التي اعترف بها الامبراطور بوصفه أميراً للمؤمنين ، وسمح لها بالجلوس في المجامع الكنسية العظمى .

ومن هنا تنشأ الخطوط غير الثابتة في صورة التاريخ البزنطي – ففي عام ٢٩٠

يطالعنا ذاك التنظيم لامبراطورية كلاسيكية ، ونرى في عام ٣١٢ تبدلاً قومياً مع الحفاظ على الاسم. وتحت أسم « الاغارقة » حاربت أولا الوثنية كأمة، المسيحيين، وحاربت ثانيا المسيحية كأمة ، المسلمين، وفي هذه المعركة طبع الاسلام أيضاً ، بوصفه أمة (عربية) الاحداث أعمق فاعمق بطابعه . ومن هنا فان أغارقة هذا اليوم هم من خلق الحضارة المجوسية ، وقد طوروا أولا بواسطة الكنيسة المسيحية ومن ثم بواسطة اللغة المقدسة لهذه الكنيسة وأخيراً بواسطة اسم هذه الكنيسة . وقد حمل الاسلام معه ، من موطن محمد ، الاسم العربي ، وجعله شعاراً لقوميته . وانه لمن الخطأ أن نساوي بين هؤلاء « العرب » وبين القبائل البدوية في الصحراء . فذاك الذي خلق الأمة الجديدة بروحها الجياشة والمميزة تميزا شديداً وخاصا ،كان الاجماع على الايمان الجديد. ووحدة هذا الايمان لم تنبع من العنصر أو الوطن اكثر مما نبعت وحدة الايمان من مسيحي ويهودي وفارسي ، ولذلك لم « يهاجر » هذا الايمان ، بل أن الفضل في اتساعه الهائل يعود ، بالأحرى ، إلى امتصاصه للجزء الأكبر من الشعوب المجوسية المبكرة . وبانتهاء الدورة الألفية الأولى من حقبتنا هذه ، أمست هذه الأمم جميعاً شعوبا من فلاحين ؛ ومـا تلك الشعوب المسيحية التي يحكمها الاتراك في البلقان سوى شعوب فلاحين ، وكذلك الفرس في الهند ، واليهود ايضاً في اوروبا الغربية مارسوا هـذا النوع من الحياة منذ ذاك التاريخ حتى اليوم .

أما في الغرب ، فلقد أخذت تبرز إلى ميدان الوجود أمم من الطراز الفاوستي وذلك بصورة تتزايد وضوحاً وتميزا إبتداء من زمن اوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣) وأخذت الشعوب البدائية العائدة للحقبة الكارولانجية تذوب بسرعة داخل هـذه الامم وتنحل . وما أطل عام ١٠٠٠ حتى بدأ ذوو الحيثيات : من الناس يشعرون في كل مكان ، بأنفسهم أنهم المان وايطاليون واسبان وفرنسيون ، بينما كان أسلافهم قبيل ستة قرون من هذا التاريخ يحسون في أعماق نفوسهم بأنهم فرنجة ولومبارديون وفيزغوط .

ينبع شكل شعب هذه الحضارة، كما ترتكز هندسته المعمارية الغوطية وحسابه اللانهائي الصغر من التفاضل والتكامل Infinitesmal Calculus ، من النازع الى اللانهائي بمفهومه الفراغي ، والزمني أيضاً فشعور الأمة يشتمل ، بادىء ذي بدء ، على أفق جغرافي لا بد أن يوصف فقط بأنه شاسع لم يسبق لأية حضارة أخرى أن عرفت له مثيلاً في اتساعه ، وذلك اذا ما أدخلنا في حسابنا تلك الحقبة ووسائل مواصلاتها. فالوطن كامتداد، كمنطقة ذات حدود نادراً ما شاهدها الفرد، وذلك اذا ما سبق له أن شاهدها ، وبالرغم من هذا يكون الفرد عازماً على الدفاع عنه والموت في سبيله ، اقول بأن الوطن (الفاوستي – المترجم) يمثل شيئاً مما لا تستطيع أبداً أمم الحضارات الأخرى أن تفهمه بعمقه الرمزي وزخمه . فالأمة المجوسية لا تمتلك موطناً أرضياً على هذا الشكل ، أمـــا الكلاسيكية فتمتلكه بوصفه فقط بؤرة نقطة .

والواقعة التي وحدت حتى في الأزمان الغوطية بين مشاعر الناس على ضفاف الادج Adige وبين مشاعر الناس في قلاع ليتوانيا ، واقعة لربما استعصت حتى على أذهان مصر والصين ، وهي تتناقض تناقضاً شديداً وواقعة رومـا وأثينا ، حيث كان لا يغيب أبداً كل الشعب Demos عن ناظري أي عضو من أعضائها .

زد على ذلك أن الحساسية بالمسافة داخل الزمان هي أقوى من تلك (الحساسية بالوطن – المترجم) . فقبل أن ينشأ الوطن (وينشؤوه هذا هو نتيجة وجود الأمة) اطلاقاً ، استوجبت عاطفة الحساسية هذه فكرة أخرى تدين لهـا الامم الفاوستية باسباب وجودهـــا – وأعني ، بهذه الفكرة ، فكرة الخلافـة السلالية الملكية Dynastic . فالشعوب الفاوستية هي شعوب تاريخية ، وطوائف لا تحس بـــأن تماسكها هو وليد مكان أو نتاج اجماع ، بل انما هو من صنع التاريخ ، وبأن « البيت » المالك هو الرمز الرفيع لمصيرها المشترك وماعونه . أمــــا بالنسبة الى الجنس البشري من صيني ومصري ، فان السلالة المالكة ترمز الى شيء آخر تماماً . فهي تعني هنا ، بوصفها ارادة وحيوية ، الزمان . فكل مـا كناه وما قد نكونه

انما يتبدى ويظهر من خلال ذرية واحدة ، وحسنا بهذا الأمر أعمق من أن يزعج بتفاهة نائب ملك Regent ، أو وصي على العرش . فليس المهم هنا الشخص ، بل انما هي الفكرة ، ومن أجل هذه الفكر كثيراً مـا مشى الناس الى حتوفهم ، بقناعة وايمان ، في الحروب السلالية . أما التاريخ الكلاسيكي فلم يكن اكثر من سلسلة من الحوادث تنطلق من برهة الى برهة ، غير ان التاريخ المجوسي يمثل التحقق التقدمي ، داخل ومن خلال الجنس البشري ، لمخطط عـالم وضعه الله وأنجزه في الفترة الواقعة بين الخليقة والطوفان ، لكن التاريخ الفاوستي يمثل في نظرنا مشيئة عظمى ووحيدة لمنطق واع ، حيث يقوم الحكام بقيادة الامم الى انجازها وتمثيلها . وهذه سمة من سمات العنصر .

وليس لهذه ، كما وأن هذه لا تستطيع أن تكون لهـا قواعد عقلانية – فلقد كان يحس بها على هذا الشكل فقط ، ولانه كان يشعر بها على هذا الشكل ، تطورت ثقة الرفقة في زمن الهجرات الجرمانية الى الميثـاق الاقطاعي الذي عرفه القوط ، والى الاخلاص المعهود بالحقبة البـاروكية ومن ثم الى وطنية القرن التـاسع عشر اللاسلالية في ظاهرها فقط . ويتوجب علينا ألا نخطىء في الحكم على عمق هذا الشعور ومكانته بسبب أن هناك قائمة لا نهـاية لهـا من اقطاعيين مزورين وشعوب ومهزلة خالدة في تذلل رجال الحاشية ومداهنتهم وحقارتهم ، وفي دناءة السوقة وخستهم . فجميع الرموز العظمى هي رموز روحية لا يمكن ، ادراكها الا من خلال أسمى اشكالها وأرفعها . فحياة البابا الخاصة لا تمت بأية صلة الى فكرة البابوية أو مبدئها . وانشقاق هنري الاسد Henry the Lion ، يظهر بوضوح كيف يحس الحـاكم الحقيقي احساسا كاملاً ، خلال حقبة تكوُّن الامة ، بأن مصير شعبه يتجسده ، وأنه يمثل هذا المصير أمـام التاريخ ، وفي كثير من الاحيان يكلف هذا العمل الحاكم شرفه ثمناً له .

ان جميع أمم الغرب هي أمم من أصول تؤمن بالسلالات الملكية . فروح البدائيين الكرولانجيين لا تزال ترتعش من خلال الرومانسكيه وحتى من خلال

الهندسة المعمارية الغوطية المبكرة زمناً . فليست هناك من هندسة معمارية فرنسية أو المـــانية أو غوطية ، بل سالبانية Salian ورينيشيه وسوابية ، كما هنـــاك رومانسكيه فيزغوطية (شمال اسبانيا ، جنوب فرنسا) ولومباردية وسكسونية. ولكن سرعان مـا تنتشر فوق هذه كلها أقلية تتألف من رجال عنصر يحسون بان عضويتهم في أمـــة هي رسالة تاريخية عظيمة . ومن هذه ينطلق الصليبيون هؤلاء الذين كانت نفوسهم تختزن الفروسية الصحيحة من ألمانية وفرنسية . وان للشعوب الفاوستية طابعاً أو وسماً ، ألا وهو وعيها وادراكها لاتجاه تاريخها ووجهة سيره . ولكن هذا الاتجاه يرتبط بسياق الاجيال وتسلسلها، وهكذا فـــان طبيعة المثل الأعلى للعنصر هي طبيعة سلالية Genealogical مظهراً وجوهراً ـ وما الداروينية، حتى في نظرياتها في السلالات والوراثة ، الا نوع من صورة كريكاتورية لما كان منقوشاً على الدروع والاسلحة الغوطية من صور ـ زد على ذلك أنه اذا مـا عاش كل فرد على مستوى التاريخ بوصفه عالمـاً ، فأن هذا التاريخ لا يحتوي فقط على شجرة عائلة كل فرد ، بل انما يشتمل أيضـاً على شجرة أصل الشعب بوصف الشعب الشكل الأساسي لكـــل حوادثـه . ولهذا يتوجب علينـا أن نلاحظ بدقـة لندرك أن المبدأ السلالي الفاوستي ، وآراءه التاريخية الرفيعة الشأن في النسب ونقاء الدم هو غريب تماماً عن المصريين غرابته عن الصينيين مع كل ما لهولاء من فطرة تاريخية ، كما وهو غريب ايضاً عن طبقة النبلاء الرومانية والأمبراطورية البزنطية، ومن جهة أخرى لا يستطيـع أحد أن يفهم طبقة فلاحينـا ، أو طبقة الاثرياء من سكان مدننا اذا لم يعتمد على هذا المبدأ . أضف الى ذلك أن المفهوم العلمي للشعب، هذا المفهوم الذي سبق لي أن شرحته أعلاه ، انما هو مفهوم يشتق أصلاً من المفهوم السلالي للحقبة الغوطية . والظن في أن للشعوب ايضاً شجرات عائلاتها (أصولها ـ المترجم) قد جعل الايطاليين يعتزون ويفخرون بأنهم ورثة روما ، وجعل الالمان فخورين بذكرى أجدادهم التيتون، وهذا أمر يختلف تماماً عن الاعتقاد الكلاسيكي بالتحدر العديم الزمن من أصلاب الابطال والآلهة . وأخيرا عندمـا أدخلت ، في اعقاب عام ١٧٨٩ ، فكرة لغة الام ادخالاً مناسباً على المبدأ السلالي ، حول ذاك

الذي كان مجرد وهم علمي راود مخيلة شعب هندي جرماني ، أقول حول نفسه الى سلسلة نسب لعنصر آري ، سلسلة يحس بها احساساً عميقاً ، وأمست كلمة عنصر ، في سياق هذه العملية ، اسماً للمصير تقريباً .

ولكن « عناصر » الغرب ، ليست هي الخالقة والمبدعة للامم العظمى ، بل انما هي حصيلتها ونتاجها . فلم يكن قد خرج ، في الازمان الكرولانجية ، أي منها الى الوجود ، بل كان المثل الاعلى لطبقة الفروسية هو الذي عمل مبدعاً وسالكاً شتى السبل ، في ألمانيا وانكلترا وفرنسا واسبانيا ومهر مساحة هائلة من الارض ، بذاك الذي تشعر به كل أمـــة ، على حدة ، وتخبره كعنصر . وعلى هذا ترتكز الامم المنسوبة ونقـــاء الدم ــ الامم البالغة في تاريخيتها والغريبة كل الغرابة عن الكلاسيكية . وبسبب كون دم العـائلة الحـاكمة يشتمل على مصير كامل الامة وكينونتها ، جاء تركيب نظام الدولة في الحقبة الباروكية تركيباً سلاليا ، ولهذا كانت تتخذ معظم الازمـــات الكبرى شكل حروب سببها الخلاف حول وراثة السلطان . وقد اتخذت حتى الكارثة المدمرة التي نزلت بنابليون ، والتي فرضت الاستقرار على النظام السياسي طيلة قرن ، شكلها من الواقعة القائلة بـأن مغامرا تجرأ بدمه على طرد السلالات الملكية القديمة ، وأن هجومه على هذا الرمز ، جعل مقاومته من وجهة النظر التاريخية عملًا مقدساً . وذلك لان هذه الشعوب كلهـــا كانت نتاجاً للمصائر السلالية .

وأن يوجد هناك شعب برتغالي ، وبرازيل برتغالية في وسط أميركا الاسبانية ، هو حصيلة زواج الكونت هنري اوف بورغوندي عام ١٠٩٥ . وأن يكون هناك سويسريون وهولنديون فانما هو ردة فعل ضد آل هابسبورغ . زد على ذلك أن اسم اللورين ، ليس باسم قطعة من الارض او باسم شعب ، فهذه المقـاطعة تحمل اسمها الحالي بسبب عقم لوثار الثاني من الذرية . ففكرة ــ القيصر هي التي صهرت البدائيين المفككين في زمن شارلمان ، وجعلت منهم الامة الالمـــانية . فألمانيا والامبراطورية يمثلان فكرتين لا يمكن الفصل بينهما . وسقوط عائلة هوهنشتاوفن

لا يعني سوى استبدال سلالة عظيمة بجفنة من سلالات صغيرة تافهة ، زد على ذلك أن الامة الالمانية من الطراز القوطي ، كانت أمة ممزقة الاوصال حتى قبل مطلع الحقبة الباروكية - وهذا في الوقت كل الوقت الذي أخذ الناس خلاله يرتفعون بفكرة - الامة الى مستويات أرقى من العقلانية في مدن كباريس ومدريد ولندن وفينا . وحرب الثلاثين عاماً ، قد دمرت ،حسبما يقول التاريخ التقليدي ، ألمانيا وهي في ربيعها . ولكن هذا القول ليس بصحيح ، فكون هذه الحرب قد قدر لها أن تحدث اطلاقا ، على هذا الشكل المزري البائس ، انما أثبت وأظهر فقط الانحلال الطويل الذي تم وانجز - فهذه الحرب كانت النتيجة النهـائية لسقوط عائلة هوهنشتاوفن . وبالكاد أن نجد دليلا مقنعاً كهذا يثبت ان الامم الفاوستية هي وحدات سلالية . ولكن هنا خلق أيضاً آل السالبان والهوهنشتاوفن وعلى الاقل فكرة - أمة ايطالية من الرومان واللومبارديين النورمـان . ولكن الامبراطورية وحدها هي التي مكنت هؤلاء من أن يمدوا يدهم ، الى الوراء ، الى عصر روما .

وحتى بالرغم من أن قوة غريبة قد أثارت عداء سكان المدن ، وشقت النظامين الأولين ، فجعلت النبلاء يساندون الامبراطور ، والكهنة يناصرون البابا ، وبالرغم من أنه سرعان ما فقد النبلاء ، في صدامات غيلف Guelph وغيبلين Ghibelline أهميتهم ، فارتفعت البابوية ، بواسطة المدن المعادية للسلالة ، الى قمة السلطان السياسي ، وبالرغم من هذه الأمور قد أسفرت في النهاية عن قيـام عقدة من دول سلالية نيابة دفعتهـا سياسات عصر النهضة الى مقاومـة السياسة العالمية الشامخة للامبراطورية القوطية ، كتحدي ميلان القديم لارادة فريدريك باربروسا - نعم بالرغم من كل هذه الأمور فان المثل الأعلى لشعار ايطاليا الواحدة ، Una Italia هذا المثل الأعلى الذي ضحى دانتي من أجله بسلام حياته وطمأنينتها ، إنما كان المجازاً سلالياً صافياً من انجازات عظماء الأباطرة الجرمان . فعصر النهضة ، هـذا العصر الذي كان أفقه أفق الأثرياء المتمدنين ، قد خرج بالأمـة عن طريق تحقيق ذاتها وضل بها في أوسع متاهـة يمكن أن تخطر على بال . وقد ضغط على الأرض

الايطالية طيلة الحقبتين الباروكية والروكوكية ضغطاً متواصلاً حتى أمست مجرد مخلب من مخالب سياسات القوة للبيوت المالكة الغربيــة . ولم تنشأ الرومانتيكية الا في عام ١٨٠٠ لتعيد بعث الشعور القوطي وتحققه بزخم من تكثيف جعل منـه قوة سياسية .

لقد صهر ملوك الفرنسيين أمتهم وصاغوها من الفرنجة والفيزغوط وتعلمت، لأول مرة ، الأمة الفرنسية الشعور بذاتها ككل كامل في بوفيني Bouvines عام ١٢١٤. وماهو أعمق من هذا مغزى هو عائلة هابسبورغ التي أبدعت الأمة النمساوية من سكان لا يربط بينهم رابط من لغة ولا وشيجة من حس قومي، أو تقليــد ، وجعلت منهم أمة أثبتت قوميتها في الدفاع عن ماريا تيريزا وفي مقاومة نابليون وكان هذا الامتحان الاول والاخير لها . زد على ذلك أن التاريخ السياسي للحقبة الباروكية كان في جوهره تاريخاً لعائلتي البوربون والهابسبورغ .

ونشوء عائلة فيتن Wettin محل عائلة فلف Welf هو السبب الذي يكمن وراء وجود « سكسونيا » على نهر الفيزر عــام ٨٠٠ ، ووجودها اليوم على نهر الالب Elbe . فالاحداث السلالية ، وأخيراً تدخل نابليون ، جعل بافــاريا تشارك في تاريخ النمسا ، وجعل الجزء الاكبر من سكان الدولة البافارية يتــألف من الفرنكونيين والسوابيين .

وكما أن الامة العربية كانت آخر مــا أنتجه الاجماع الديني ، وكانت الامة الرومانية نهاية منجزات شعور المدينة الكلاسيكي ، كذلك فان آخر أمم الغرب هي الامة البروسية ، هذه الامة التي أبدعتها عائلة هوهنتزولون . فهذه الامة الفتية حققت الاعتراف بهـــا في معركة فيلين (ضد السويد عــام ١٦٧٥ — المترجم) Fehbellin ، وكسبت النصر لالمـــانيـا في معركة روسباخ . (ضد الفرنسيين وملحقاتهم من الالمان عام ١٧٧٥ — المترجم) ولقد كان غوتيه، ذو العين المعصومة عن الخطـــأ في معرفة المنعطفات التاريخية ، هو الذي وصف «منـــافون برنهلم» Minna von Barnhelm ، بأنها باكورة الشعر الالماني ذي المحتوى القومي

بصورة خاصة ، وهذه مثل آخر أيضاً ومثل عميق المغزى، يظهر لنا مدى تعريف الامم الغربية لذواتها تعريفاً سلالياً ، وكيف أن المانيا، استطاعت، بهذا الشكل، أن تعيد اكتشاف لغتها الشعرية. فلقد رافق سقوط حكم عائلة هوهنشتاوفن سقوط الآداب القوطية ايضاً . وكل مـا نشأ هنا وهناك من أدب خلال القرون التي تلت هذا السقوط - هذه القرون الذهبية بالنسبة الى الآداب الغربية - انما لا يستحق الاسم الذي يحمله . ولكن شعراً جديداً عظيمـاً ولد مع انتصارات فريدريك الاكبر . والمرحلة الممتدة من ليسنغ الى هيبل تعني تماماً مـا تعنيه المرحلة من روسباخ الى سيدان . أما المحاولات التي قـامت لاستعادة المضمون المفقود بواسطة الاعتماد أولاً على الفرنسيين ومن ثم على شكسبير والأغاني الشعبية، والاعتماد أخيراً (في عصر الترمنتك) على حقبة الفروسية ، أقول بأن هذه المحاولات قد أسفرت ، على الاقل ، عن ظاهرة فريدة في نوعهـا من ظاهرات تاريخ فن كان في معظمه يتألف من ومضات عبقرية ، بالرغم من أنه لم يبلغ أبداً هدفاً واحداً .

وشهدت نهاية القرن الثامن عشر اكتمال ذاك المنعطف الجـديد بالاعتبار حيث أخذ عنده الوعي القومي ينشد تحرير نفسه من المبدأ السلالي . ويبدو للجميع ان هذا المنعطف ، وجد في انكلترا قبل نهاية القرن الثامن عشر ببعيد، وهنا قد تشرد أذهان معظم القراء الى التفكير بالماجنا كارتا (عام ١٢١٥) ، غير انني اعتقد بان بعض القراء لم يفشلوا في ملاحظة العكس تماماً ، إذ ان الاعتراف، كل الاعتراف، بالأمة إعترافاً يشتمل على الاعتراف بمثليها ، قـد زود الشعور السلالي بقوة عمق اقتحامية جديدة ونقاء بقيا غريبين غرابة كلية تقريباً عن شعوب القارة الاوروبية. فاذا كان الفرد الانكليزي الحديث هو اليوم (دون أن يبدو على هـذا الشكل) أشد الناس ، في العالم ، إغراقاً في المحافظة ، واذا ما كان تدبيره السياسي ، نتيجة لذلك ، يعتمد في حل مشاكله السياسية على التناغم العديم الكلمات ، تناغم النبض القومي ، بدلاً من اعتماده على المناقشة الواضحة الصريحة ، ولهذا كان اكثر الناس نجاحاً حتى اليوم، فان السبب الكامن وراء هذه الامور انما يعود الى تحرر شعوره السلالي المبكر زمناً ، من تعبيره بواسطة القوة المالكة .

أما الثورة الفرنسية ، فهي على العكس من ذلك، إذ انها كانت تمثل ، من هذه الناحية ، انتصار العقلانية . فتحريرها لمفهوم الشعب ، هو اوسع من تحريرها للشعب نفسه . فالمبدأ السلالي قد تغلغل في دماء العناصر الغربية ، ولهذا السبب بالذات ، هو مزعج ومكدر لعقلها وذلك لان السلالة الملكية تمثل تاريخاً ، وهي التاريخ الذي يصبح دماً وارضاً ، بينما أن العقل عديم الزمان وغير تاريخي . فمثل الثورة الفرنسية العليا كانت جميعاً « خالدة » و « صحيحة » . ومـــا الحقوق الانسانية العالمية ، والحرية والمساواة ، سوى آداب وتجريد ، وليست بوقائع .

ولتستنجد ذاكرتك بجميع الجمهوريين ، اذا ما رغبت في ذلك ، فانك لن تجد في الواقع سوى أقلية من الناس تناضل باسم الجميع لادخال مثل أعلى جديد في عالم الواقعة . وهذه الاقلية اصبحت قوة ، ولكن على حساب المثل الاعلى ، وكل مـا فعلته لم يتعد استبدال المناصرة المحسوس بها قديماً ، بالوطنية العقلانية للقرن التاسع عشر ، وبالقومية المتمدنة الممكنة فقط في حضارتنا ، والتي هي في فرنسا ذاتهـــا لا تزال بصورة لا شعورية ، قومية سلالية ، وبمفهوم الوطن كوحدة سلالية ، هذا المفهوم الذي انبثق اول ما انبثق خلال الثورات الاسبانية والبروسية ضد نابليون، ومن ثم تجلى في حروب التوحيد السلالي الايطالي والالماني . وقد نشأ عن التعارض القائم بين العنصر والنطق ، بين الدم والعقل ، مثل أعلى جديد وبميز ليجابه المثل الاعلى السلالي ــ انه لغة الام . ولقد قام في كل من البلدين (ايطاليا والمانيـا ــ المترجم) الغيارى والمتحمسون منادين باستبدال القوة الجـــامعة الموحدة ، قوة الامبراطور ، وفكرة ــ الملك ، بالربط بين الجمهورية والشعر ــ وفي هذا شيء مـا من شعار العودة الى الطبيعة ، لكنها عودة التاريخ الى الطبيعة . وهكذا حلت صراعات اللغة محل الحروب على توارث العرش، حيث اخذت الامة الواحدة تحاول أن تفرض لغتها ، وبذلك تفرض قوميتهـا على هتامات من أمم اخرى . ولكن لن يغيب عن ذهن احد حتى أن المفهوم العقلاني للامة بوصفها وحدة لغوية يستطيع في أحسن الاحوال ان يتجاهل الشعور السلالي ، ولكن لا يستطيع أبداً ان يستأصله

أو يلغيه ، وقدرته هذه لا تزيد ابداً عن قدرة الاغريقي الهيليني على التغلب باطناً على وعي مدينته ، أو قدرة اليهودي الحديث على قهر الاجماع القومي . زد على ذلك أن لغة الام لا تنشأ من اللاشيء ، بل انها في نفسها ثمرة التاريخ السلالي . فلولا خط الكابتيان Capetian لما كانت هناك لغة فرنسية ، بل لكانت لغة رومانسية فرنكية في الشمال ، واخرى بروفنسالية في الجنوب . والفضل في وجود لغة ايطالية مكتوبة يعود الى الاباطرة الالمان وعلى رأس هؤلاء فريدريك الثاني . والامم الحديثة هي ، أصلاً ، السكان وفق مفهوم التاريخ السلالي القديم . ومع هذا فان المفهوم الثاني للأمة بوصفها وحدة من لغة مكتوبة قد استأصلت في القرن التاسع عشر ، اللغة النمساوية ، ولربما هي التي خلقت اللغة الاميركية . ومن هنا فصاعداً استأثرت مجموعتان من الناس ، من كل أمة ، بتمثيل الشعب من وجهتي نظر متعارضتين ، فالمجموعة الاولى تمثل وحدة سلالية تاريخية ، والثانية وحدة عقلانية ـ انها حزب العنصر وحزب اللغة ـ ولكن هاتين هما انعكاسان سرعان ما يثيران مشاكل سياسية يجب أن ينتظر بحثها فصلاً سنأتي به فيما بعد .

- ٥ -

في البدء ، عندما كانت الارض لا تزال خالية من المدن ، كانت طبقة النبلاء هي التي تمثل الأمة باسمى ما لكلمة تمثيل من مفهوم . أمـــا طبقة الفلاحين ، هذه الطبقة ذات الديمومة الابدية واللاتاريخية ، فلقد كانت شعبـاً قبل فجر الحضارة ، واستمرت ، بجميـع طباعها الجوهرية ، شعباً بدائياً بقي موجوداً عندمـــا اندثر شكل الامة ثانية وتلاشى .

ان الامة ، ككل رمز عظيم آخر من رموز الحضـارة ، هي ملك عزيز لفئة قليلة من الناس ، واولئك الذين يملكونها هم مفطورون عليها كاولئك الذين فطروا على الفن أو الفلسفة ، كما وأن الخصائص المميزة للمبدع أو الناقد أو الرجل العادي ، أو أي شيء يماثل هؤلاء ، انما هي خصائص مميزة للامة — وهذا القول ينطبق ايضاً على المدينة الكلاسيكية والاجماع اليهودي والشعب الغربي على حد سواء .

وعندما تهب الامة لتقاتل بحماس من أجل حريتها أو شرفها ، فان الاقلية من ابنائها هي التي تضرم دائـــاً وحقـاً جذوة الحماس في أفئدة الجماهير وتؤجج لهبه . وعندما يقول أحدهم « الشعب قد استيقظ » ، فهذا القول اكثر من تعبير مجازي ، وذلك لانه فقط اذ ذاك وعلى هذا الشكل يتبدى الشعور الواعي للجميع ، ويجعل جلياً واضحاً « :

فجميع هؤلاء الافراد الذين كان بالامس « شعورهم بال « نحن » واضياً بافق العائلة قانعاً بالوظيفة وربما مكتفياً ببلدته ، قد أصبحوا فجأة اليوم رجال لا شيء أقل من الشعب . فتفكيرهم وشعورهم « وأنا هم » ومع هذه الـ « It » ، قد تحولت حتى اعماق الأعماق . فالشعب قد أصبح شعباً تاريخياً ، وهنا يصبح حتى الفلاح اللاتاريخي . عضوا من الامة ، فاليوم ينبلج للفلاح عن فجر جديد يعيش خلاله التاريخ ، ولا يترك للتاريخ أن يمر به فقط مروراً عابراً .

ولكن تنشأ في المدن العالمية الى جانب الاقلية التي تملك تاريخاً وتحيا الاختبارات وتشعر وتسعى الى قيادة الامة ، أقول تنشأ أقلية أخرى من أدباء لا تاريخيين معدومي الزمان ، أناس محردين من المصير متشبثين بالعلل والمعلولات ، أناس مفصولين باطنا عن نبض الدم والكينونة وذوي شعور واع واسع التفكير لا يجد أي محتوى معقول لفكرة ـ الامة . فالكوسموبوليتية هي مجرد اتحاد من شعور واع يضم الانتلجنسيا . وصدر هذا الاتحاد يعتلج ببغضاء مريرة للمصير ، وقبل كل شيء ، بكراهية أكول للتاريخ بوصف التاريخ لسان المصير وتعبيره . ان كل ما هو قومي ينتمي الى العنصر ـ الى درجة أنه عاجز عن ايجاد لغة لنفسه ، ومبهم غير مـاهر في كل مـا يتطلب تفكيراً وعديم الحيلة حتى القدرية Fatalism فالكوسموبولتية هي آداب وتبقى آداباً بالغة القوة في الاسباب ، وبالغة الضعف في الدفاع عنها بغير المزيد من الاسباب ، وهزيلة في الذود عن حياضها بالدم

واكثر من هذا فان هذه الاقلية ، ذات العقل البالغ في سلطانه ، تختار السلاح العقلاني ، وقدرتها تتزايد في هذا المضمار ، وذلك بسبب كون المدن العالمية عقلاً مجرداً لا جذور له ، وهو ، استناداً الى كل فرضية ، ملك مشترك للمدينة . ان المواطنين العالميين ، أنصار السلام في العالم ، دعاة الوئام في العالم ، هم ـ كما كانوا في حين « الدول المتحاربة » وهند بوذا ، وفي العصر الهلينستي ، وفي عصرنا هذا نحن معشر الغربيين ـ انهم القادة الروحيون للفلاحين . فشعار « الخبز والالعاب » انما هو مجرد صيغة أخرى للمسالمة . ان هناك في تاريخ كل حضارة مادة معادية للقومية ،

أشعرنا بهـــا أم لم نشعر . فالتفكير المجرد والموجه ذاته كان ولا يزال غريباً عن الحياة ، وهو لذلك غريب عن التاريخ وغير نضالي ومعدوم العنصر ، فلنتأمل في مذهبنـا في الانسانية ، والتكلسك ، Classicism وفي سفسطائيي أثينـا ، وفي بوذا ولاوتسي - ناهيك عن ذكر الاحتقـار العميق لكل القوميات ، هذا الاحتقـار الذي أبداه الابطـــال العظـام المدافعون عن النظرة العـــالمية من اكليريكية وفلسفية .

ومهما اختلف هؤلاء في آرائهم فهم من جهـة أخرى متفقون على أن شعور العنصر العـالمي ، والغريزة السياسية (وهي لذلك قومية) من أجل الواقعة (انه وطني مصيبـاً كان أم مخطئاً) ، والعزم على الكون موضوع التطور وليس هدفه (فـــالأمر يجب أن يكون هذا أو ذاك) - وبكلمة أخرى الارادة - للقوة ، أقول انهم متفقون على ضرورة تراجع هذه الأمور والتخلي عن مكانها لنـــازع يكون حملة ألويته ، في معظم الاحيان رجالاً فارغين من الزخم الاصيل ، لكنهم يعتمدون أكثر فأكثر على منطقهم ، ورجالاً يحسون ، في عالم الحقائق والمثل العليا والطوباويات ،بأنهم بين أهليهم ، رجـــال كتب يؤمنون بأن بمقدورهم استبدال الواقعي بالمنطقي ، وجبروت الوقـــائع بعدالة تجريدية ، والمصير بالعقل . وهذا النازع يبدأ بالرعاديد ، دائـاً وأبداً ، هؤلاء الذين ينسحبون من عـالم الواقعة الى صوامعهم وغرف دراساتهم وطوائفهم الروحيـة ويعلنون بطلان أعمـــال العـالم وحبوطها ، وينتهي ، في كل حضارة ، بدعاة السلام العالمي والمبشرين به . وكل شعب يملك نتـاج نفـايات كهذه . وحتى رؤوس هذا النوع من البشر ، تشكل سيمائياً مجموعة مستقلة قـــائمة بذاتها . وهؤلاء يحتلون في « تاريخ العقل » مراتب رفيعة ، وهناك أسماء واسعة الشهرة بينهم ، ولكن اذا مـا نظرنا اليهم من زاوية التاريخ الواقعي ، فانهم يبدون عاجزين مجردين من كل الكفاءات

إن مصير أمة أغرقت في خضم أحداث عالمها يتوقف على مدى نجـــاح نوعية عنصرها في ابطال مفعول هذه الاحداث تاريخيا في هذا المصير . ومن الجائز أن

ثبت ، حتى في يومنا هذا ، أن مقاطعة تسن قد انتصرت (عام ٢٥٠ ق.م) في دول عالم الصين لانها فقط أبقت نفسها بمعزل عن العواطف الطاوية Taoist . كما وأن الشعب الروماني تمكن من السيطرة على العالم الكلاسيكي لانه استطاع أن يعزل توجيه سياسته عن فلاح الهلينستية .

إن الامة هي الانسانية المصاغة في شكل حي . والنتيجة العملية للنظريات القائلة بتحسين العالم هي دائماً نتيجة لا شكل لها ، ولذلك هي جمهور لا تاريخ له . وجميع الدعاة الى تحسين العالم وكل المواطنين العالميين انما يتبنون ويدافعون عن المثل العليا للفلاحين ، أعرفوا بهذا الامر أم لم يعرفوا . ونجاح هؤلاء لا يعني تنازل الامة التاريخي عن سلطانها للسلام الدائم ، بل تنازلها لامة أخرى . فالسلام العالمي هو ، أبداً عزم ذو جانب واحد . فالسلام الروماني كان له معنى عملي واحد لدى الاباطرة العسكر وملوك العصابات الجرمان ، وهذا يعني أنه جعل من سكان لا شكل لهم ويتجاوز عددهم المئة مليون ، مجرد هدف لارادة القوة لمجموعات صغيرة من المحاربين .

إن السلم يكبد المسالمين ضحايا تبدو الى جانبها خسائر معركة كاني تافهة حتى التلاشي . والعوالم البابلية والصينية والهندية والمصرية كانت تنتقل من فاتح الى فاتح ، وكان دم هذه العوالم هو الذي يدفع ثمن النزاع . هذا هو — سلامهم . وعندما احتل المغول بلاد ما بين النهرين أقاموا نصباً تذكاريا لنصرهم من جماجم مئة ألف من سكان بغداد الذين لم يدافعوا عن أنفسهم . ولا شك ، أن انطفاء الأمم ، أو خمود نار القوميات ، يضع عالم الفلاحين ، وجهة النظر العقلانية ، فوق التاريخ ،ويجعل منهم اخيراً اناساً متمدنين الى الابد ، لكن عالم الفلاحين يرتد في ميدان الوقائع الى وضع الطبيعة ويتناوبه إذلال طويل وغضبات قصيرة لا تستطيع مع كل الدماء التي تهرقها — والسلام العالمي لا يقلل منها — أن تبدل شيئاً . وكان الفلاحون في العهود الغابرة يريقون دماءهم من أجل نفوسهم ، أما الآن فيجب أن يهرقوها من أجل غيرهم ، وكثيراً ما يهرقونها من أجل مجرد

تسلية الغير والترفيه عنـــه ـ وهذا هو الفرق . فـــالقائد العزام الذي يجمع حوله عشرة آلاف من المغـامرين يستطيع أن يفعل مـا يرغب ولو أن العـالم بأكمله كان أمبراطورية واحدة ، لامسى مجرد ميدان معقول لانجازات أبطـال غزاة كهؤلاء .

« الموت أفضل من العبودية » هـذا مثل قديم شائع بين الفلاحين الفريزيين . وعكس هذا المثل كان يقع عليه اختيار كل مدينة متاخرة زمنـاً ، وكان على كل مدينة كهذه أن تختبر كم كلفها هذا الاختيار من ثمن

الفصل الثامن عشر

مشاكل الحضارة العربية

(أ)

التشكل التاريخي الكاذب

HISTORIC PSEUDOMORPHOSES

- ١ -

ترقد ، داخل طبقة إحدى الصخور ، بلورات معدن . وتحدث في الصخرة شقوق وشروخ يتسرب إليها الماء ويجرف تدريجياً البلورات خارج مراقدها حيث تخلف ، وفي الوقت المناسب ، وراءها تخاريب داخل الصخرة . ثم تحدث انفجارات بركانية تُفجّرُ الجبل فتتدفق الكتل المصهورة داخل الصخرة وتتصلب وتتبلور بدورها ، لكن هذه الكتل ليست حرة في تبلورها بأشكالها الخاصة ، إذ يتوجب عليها أن تملأ التخاريب الموجودة داخل الصخرة . وهكذا تنشأ اشكال مشوهة وتتوضع بلورات يتناقض تركيبها الباطني وشكلها الخارجي ، وتبرز حجارة من

نوع معين لكنها تبدى في شكل حجارة من نوع آخر غير نوعها . وهذه الظاهرة يسميها علماء التعدين بالتشكل الكاذب .

وأنا أرمي من وراء استعمال اصطلاح « التشكل التاريخي الكاذب » إلى تعيين تلك الحالات التي تكون فيها حضارة غريبة وأقدم زمناً متموضعة بصورة واسعة فوق أرض أحد البلدان ، حيث تمسي الحضارة الفتية التي ولدت في تربة هذا البلد عاجزة عن تخطف أنفاسها نتيجة لتموضع تلك الحضارة الأقدم منها زمنـاً . وهذه الحضارة الفتية لا تفشل فقط في تحقيق أشكال تعبيرها الخاصة والنقية ، بل إنما تفشل أيضا في تطوير شعورها الخاص بذاتها تطويراً كاملاً . فكل ما يتدفق من الروح الفتية لهذه الحضارة قد جرت صياغته في قوالب قديمة ، وهكذا يتصلب الشعور الفتي داخل إنجازات هرمة ، وبدلاً من أن يشب وينتصب مستنداً الى قوته الابداعية الخاصة نراه لا يستطيع غير كراهية القوة الجافة كراهية تتزايـد لتصبح مروّعة هائلة فظيعة .

وهذه هي حال الحضارة العربية . فكامل حقبتها ما قبل التاريخ تقع داخـل دائرة المدنية البابلية القديمة ، هـــذه المدنية التي ظلت طيلة الألفين من الأعوام فريسة لفاتح يتلوه فاتح . وتتميز الحقبـــة « الميروفنجية » Merovingian من الحضارة العربية بديكتاتورية فخذ فارسي قليل العدد ، وبدائي كالاستروغوط ، واستمرت سيطرة هذا الفخذ طيلة قرنين من الزمن ، ولم تشهد خلال هذه المدة إلا ما ندر من التحدي ، وقد أقام سلطانه على الفتور غير المتناه لعالم الفلاحين . ولكن في عام ٣٠٠ ق . م ، فما بعده ، بدأ وعي عظيم بالانتشار بين الشعوب الفتية الناطقة باللغة الآرمية والقاطنة في المنطقة الواقعة بين صحراء سيناء وسلسلة جبـــال زغروس . وكما حدث في حقبة حرب طروادة وحقبـــة أباطرة السكسون ، فلقد تخللت علاقة جديدة بين الانسان والله ، أي شعور جديد كل الجدة بالعالم ، أقول تخللت هذه العلاقة جميع الاديان الشائعة والمألوفة ، أكانت هذه الاديان تحمل اسم اهورامازدا Ahuramazda أو بعل أو يهوه ، وحركت

في كل مكان قوى جبارة من الابداع . ولكن عند نقطة الاتصال هذه بالذات برز المكدونيون على المسرح – وجاء بروزهم مُحكماً الى درجة تجعل افتراض وجود نوع من علاقة باطنية بين هؤلاء واولئك أمراً ليس بمستحيل ، وذلك لأن السلطة الفارسية كانت تستند في حكمها على فرضيات روحية ، وهذه الفرضيات بالذات هي التي تلاشت واختفت . أما المكدونيون فلقدبدوا في نظر البابليين زمرة أخرى من المغامرين كغيرها من الزمر التي سبقتها .

ولقد غطى المكدونيون البلاد حتى تركستان والهند بغطاء رقيـــق من المدنية الكلاسيكية . والحق ان ممالك الديادوتشي كان باستطاعتهـا ان تصبح دولا متبلدة ذات روح لما قبل الحضارة العربية – زد على ذلك ان الامبراطورية السلوقية التي كانت تنطبق جغرافياً كل الانطباق على الاقاليم الناطق اهلوهــا بالارامية كانت فعلاً في عام ٢٠٠ ق . م دولة من هذا النوع . لكنهـا ابتداء بمعركة بدنا Pydna فما بعد ، أخذت الأمبراطورية الكلاسيكية بامتصاص هذه الدولة ، بجزئها الغربي أكثر فأكثر ، وهكذا أخضعتها الى انجازات جبارة لروح يقوم مركز ثقلها في اقليم بعيد ناء عن الامبراطورية السلوقية وعلى هذا الشكل تهيأت اسباب التشكل الكاذب .

إن الحضارة المجوسية هي ، من الوجهتين الجغرافية والتاريخية ، بمثابة القلب من جميع الحضارات الارقى . فهي الحضارة الوحيدة التي تلامس عملياً ، من حيث الزمان والمكان ، جميع الحضارات الاخرى . لذلك فان تركيب تاريخها ككل في صورتها للعالم يعتمد كل الاعتماد على تعرفنا على الشكل الباطني الصحيح الذي شوهته قوالبنا . ومن المؤسف ، ان هذا الشكل هو الذي لا نعرفه حتى الآن ، والفضل في جهلنا به يعود الى التحيّزات اللاهوتية ، والفيلولوجيـة ، واكثر من هذه ، ان النازع الحديث الى الاغراق في التخصص ، الذي وزّع بصورة غــير معقولة البحث الغربي الى عدد من فروع منفصلة – وكل فرع من هذه الفروع لا يتميز عن الآخر بمواده ومناهجه فقط ، بل باسلوبه في التفكير ايضاً – وهكذا

حجب هذا النازع المشكلة الكبرى عن انظارنا . وقد كانت نتائج التخصص في هذا الموضوع أشد خطراً من نتائجه في أي موضوع آخر . فالمؤرخون الذاتيون بقوا داخل ميدان الفيلولوجيا الكلاسيكية ، وجعلوا حدود اللغة الكلاسيكية أفقهم الشرقي ، ومن هنا نشأ فشلهم في فهم وحدة التطور العميقة الواقعة على جانبي حدودهم التي لم يكن لها روحياً وجود . وجاءت النتيجة متمثلة في تقسيم التاريخ الى قديم ووسيط وحديث وتنظيمه وتعريفه بواسطة استخدام اللغتين اليونانية واللاتينية . فاكسوم وسبا وحتى مملكة الساسانيين كانت بالنسبة الى الخبراء في اللغات القديمة ، بما لدى هؤلاء من نصوص ، مواضيع خارج نطاق البحث ، ولهذا فنادراً ما لهذه المواضيع من وجود اطلاقاً في « التاريخ » . أما البحاثة في الاداب (وهو فيلولوجي أيضاً) فانه يخلط بين روح اللغة وروح الانجاز ، فاذا ما حدث ان أن دوّن أو حتى حفظ نتاج أدبي لاقليم ناطق بالآرامية ، باللغة اليونانية ، فان هذا البحاثة يقوم بضم هذا النتاج الى « آداب اليونانية المتأخرة زمناً » وينطلق الى تصنيفه بوصفه نتاج حقبة خاصة من هذه الآداب . زد على ذلك أن النصوص ، التي هي من أصل واحد في اللغات الاخرى ، تقع خارج دائرة هذا البحاثة ، وقد أدخلت في مجموعات أخرى من الآداب بالاسلوب الاصطناعي ذاته . ومع هذا فهنا دليل ما بعده دليل على أن تاريخ الآداب لا ينطبق أبداً على تاريخ اللغة . فهنا كان يقوم مجموع آداب قومية مجوسية مستقلة وقائمة بذاتها ، وذات روح واحدة ، لكنها كُتبت بلغات متعددة — من بينها اللغة الكلاسيكية . وذلك لأن الامة من الطراز المجوسي لا تملك لغة أم . فهنا توجد آداب قومية تلمودية ومانية ونسطورية ويهودية أو حتى نيوفيثاغوريه ، ولكن لا توجد آداب هيلينستية أو عبرانية .

وأدلى البحث اللاهوتي ، هو الآخر ، بدلوه ، فوزع موضوعه الى فروع وفق مختلف المذاهب الاوروبية الغربية . وهكذا اعتمد ولا يزال اللاهوت المسيحي أيضاً الحدود الفيلولوجية الفاصلة بين الشرق والغرب . فالعالم الفارسي

أصبح من اختصاص البحاثة في الفيلولوجيا الايرانية ، وبما أن نصوص الأفستا كانت منثورة مبثوثة ، وان لم تكتب بلغة عامية آرامية ، لذلك اعتبرت مشكلتها الضخمة ، فرعاً ثانوياً من عمل المنطيق الهندي ، وهكذا اختفت تماماً من ميدان بصيرة اللاهوت المسيحي . وهناك أخيراً تاريخ اليهودية التلمودية ، فلما كانت الفيلولوجيا العبرانية مرتبطة بتخصص واحد ، الا وهو التخصص في العهد القديم ، لذلك لم يلق أبداً هذا التاريخ ، معالجة مستقلة ، بل تناسته تماماً كل ما أعرفه من التواريخ الرئيسية للاديان ، مع ان هذه التواريخ تجد في صفحاتها مكاناً لكل ملة هندية ، وتجد لكل دين زنجي Negro بدائي فائدة ونفعاً (فالفولكلور بلغ مرتبة التخصص أيضاً .)

- ٢ -

كان العالم الروماني يمتلك ، في حقبة الامبراطورية من تاريخه ، فكرة حسنة عن دولته الخاصة . وكتابات الكتاب الذين جاءوا بعد هذه الحقبة مليئة بالتذمر والشكوى من تناقص عدد السكان والخواء الروحي في كل من افريقيا واسبانيا وبلاد الغال ، وقبل هذه كلها ، في البلدين الاصليين ايطاليا واليونان . ولكن تلك المناطق العائدة الى العالم المجوسي ، كانت دائماً مستثناة من دراساتهم المتقيحة هذه . فسوريا خاصة كانت كثيفة السكان ، وكانت كبلاد ما بين النهرين والبارتيه ، Parthian ، مزدهرة دماً وروحاً .

كانت أهمية الشرق الفني وخطورته واضحتين للجميع ، وكان سيجد في وقت قريب أو بعيد ، تعبيراً سياسياً عن ذاته أيضاً . ولذلك فنحن اذا ما تأملنا في المشهد من وجهة النظر هذه ، نرى ، وراء الوقائع التاريخية الملحمية التي وقعت بين ماريوس وسولا ، بين قيصر وبومباي ، بين انطونيوس وأكتافيان ، هذا

الشرق يناضل بشدة متزايدة لتحرير نفسه من الغرب المحتضر تاريخيـــاً ، ونرى عالم الفلاح يستيقظ . فنقل العاصمة الى بيزنطة انما هو لرمز عظيم . ودبولكتسيان كان قد اختار نيكوديميا Nicodemi عاصمة له ، وكان قيصر يفكر في اختيار الاسكندرية ، أو طروادة عاصمة له . ولا شك في أن انطاكيـة كانت ستحتل اختياراً أفضل من تلك كلها . ولكن اختيار بيزنطة جاء متأخراً ثلاثة قرون عن زمنه المناسب ، وكانت هذه القرون الثلاثة تمثل حقبة حاسمـــة من ربيـع الحضارة المجوسية .

بدا التشكل الكاذب بمعركة اكتيوم ، وفي هذه المعركة كان من المتوجب أن يكون انطونيوس هو المنتصر .. فهذه المعركة لم تكن تمثـــل صراعاً بين روما وبلاد اليونان ـ فهذا الصراع انتهى أمره ودار في معركتي « كاني » وزاما Zama ، حيث شاء مصير هنيبال الفاجع أن لا يكون دوره في هاتين المعركتين دور البطل المدافع عن وطنه الخاص، بل دور المدافع عن الميلينستية . ففي معركة اكتيوم كانت الحضارة العربية التي لم تولد بعد هي التي تجابه المدنية الكلاسيكية الشهباء الحديدية اللون ، وكان موضوع الصراع يدور بين مبـدأ « القيصرية » ومبدأ الخلافة ، ولو قـُدر لانطونيوس النصر في هذه المعركة لكان حرر الروح المجوسية ، فهزيمته غطت بلاد هذه الروح بلوح الامبراطورية الرومانية الصلب . وهناك حدث مشابه لهذا الحدث في تاريخ الغرب ، الا وهو المعركة التي دارت رحاها بين تور Tours وبواتيه Poities عام ٧٣٢ ب . م . فلو قـُدّر للعرب أن ينتصروا في هذه المعركة لأدخلت « فرنكستان » في خلافـــة الشرق الشمالي ، ولأمست اللغة والدين والعادات العربية مألوفة لدى الطبقات الحاكمة ، ولنشأت مدن عملاقة كغرناطة والقيروان ، في اللوار والراين ، ولأرغم الشعور القوطي أن يجد التعبير عن ذاته داخل اشكال تحجرت منذ طويل أمد ، اشكال المسجـــد والنقوش العربية ، ولكان لدينا نوع من الصوفية بدلاً من الصوفية الالمانيـة . وكون مثل هذه الامور قد وقعت فعلاً في العالم العربي ، فالسبب في ذلك يعود

الى ان الشعوب السورية الفارسية لم تتجب شارل مارتل ليقاتل جنباً الى جنب ومترودات وبروتوس وكاسيوس أو انطونيوس (أو بدونهم) ضد روما .

وهناك تشكل كاذب ثان يتجلى في روسيا أمام عيننا . فاساطير الابطـــال الروسية العائدة لبايلني Bylini بلغت ذروتها في الجيـــل الملحمي لأمير كيف فلادمير (عام ١٠٠٠) بما كان لهذا الأمير من مائدة مستديرة ، وفي البطل الشعبي إليا موروميتس Ilya Muromyets . ويتبدى كامل الفرق الماثل بين النفس الروسية والنفس الفاوستية في تباين هذه الاساطير ، ومعاصرتها ، أساطير آرثر وإرمانارينش وخرافات النيبلونجن Nibelungen العائدة الى حقبـــة الهجرة والماثلة في شكل اغنيتي هلد براند وفالتاري Waltharilied . أما الحقبـــة « الميروفنجية » الروسية فتبدأ عندما أسقط ايفان الثالث (عام ١٤٨٠) سيطرة التتر وتمر بآخر أمراء عائلة روريك وبأول أمراء آل رومانوف حتى تبلغ بطرس الاكبر (١٦٧٩ – ١٧٢٥) . وهذه الحقبة تنطبق كل الانطباق على الحقبـــة الواقعة بين كلوفيس (٤٨١ – ٥١١) ومعركة تستري Testry (٦٨٧) والتي رفعت الكرولونجيين ، بصورة فعالة ، الى مراكزهم من التفوق والسيادة . وانا هنا أنصح جميع القراء بمطالعة التاريخ الفرنكي الذي وضعه غريغوري التوري (نسبه لتور) (حتى عام ٥٩١) وذلك توازياً والأجزاء المنطبقة عليـــه من روايات كرامزن Karamzin البطريركية ، وخاصة تلك الروايات المتعلقـــة بايفان المرعب ، وبوريس غودونوف ، وفاسيلي شويسكي Shuiski . وبالكاد أن تكون هناك من روايات متوازية على هذه الصورة الصحيحة ، كهذه وتلك . وقد تبع الحقبة الموسكوبة ، حقبة عائلات بويار Boyar العظيمة والبطاركة ، حيث نجد المادة الدائمة في هذه الحقبة تتمثل في مناهضة حزب روسيا القديمة لأصدقاء الحضارة الغربية ، أقول تبع هذه الحقبة ، ابتداء من تأسيس مدينة بطرسبورغ في عام ١٧٠٣ ، تشكل كاذب حشر النفس الروسية البدائيـــة حشراً في قالب غريب عنها ، وجاء أولا هذا التشكل في قالب باروكي كامل ، ومن ثم في قالب

عصر التنوير ، وأخيراً اتخذ له القرن التاسع عشر قالباً . وتتمثل شخصية القدر في التاريخ الروسي في شخص بطرس الاكبر ، الذي يجوز لنا أن نقارنه بشارلمان الذي ناضل متعمداً وبكل قواه ليفرض الشيء ذاته الذي حاول مارتل دون فرضه ، ألا وهو سيطرة الروح البوبرية البزنطية . وكانت توجد هناك إمكانية معالجة العالم الروسي بالطريقة الكارولونجيه ، أو بالاسلوب السلوقي – واعني بهذا الاختيار بين الوسائل الروسية القديمة ، وبين الوسائل الغربية ، واختـــار آل رومانوف الوسائل الاخيرة . فالسلوقيون كانوا يرغبون في ان يشاهدوا أنفسهم وسط الهيلينيين لا وسط الاراميين. وقيصرية موسكو البدائية لا تزال حتى اليوم الشكل المناسب للعالم الروسي ، لكن هذا الشكل شُوِّه في مدينة بطرسبورغ ، إذ جعلوا منه شكلاً سلالياً ينتمي الى اوروبا الغربية . فسلطان الجنوب المقدس – سلطان بيزنطة والقدس ، والشديد في كل نفس ارثوذكسية ، قد حُرِّف على يد الدبلو ماسية الدنيوية التي اتجهت بأبصارها نحو الغرب. فإحراق موسكو ، هذا العمل الرمزي الجبار من أعمال شعب بدائي ، وهذا التعبير الماثل عن بغضاء مكابية ، للغريب والهرطيق ، قد تبعه دخول الاسكندر الاول مدينة باريس ، وتلاه الحلف المقدس واتفاق الدول الكبرى في الغرب . وهكذا أرغمت قومية ، كان من المتوجب على مصيرها ان يعيش دون ما تاريخ لبضعة أجيال ، على أن تدخل تاريخاً اصطناعياً مزوراً لم تكن نفس روسيا القديمة قادرة على فهمـــه وهكذا أدخلت فنون الحقبة المتأخرة زمناً وعلومها وتنويرها وآدابها الاجتماعيـة ومادية المُدن العالمية على روسيا ، بالرغم من ان الدين وحده ، كان في تلك الحقبة ما قبل الحضارية ، اللغة الوحيدة التي يفهم ، بواسطتها ، الانسان الروسي نفسه والعالم . وهكذا انتصبت في الارض الخالية من البلدان ووسط فلاحيها ، مدن غريبة تبدت كأنها ندبات وقروح – وبدت كاذبة مزورة غير طبيعية وغير مقنعة . ولقد جاء على لسان دستوفسكي قوله :

« ان مدينة بطرسبورغ هي أشد مُدن العالم تجريداً وصنعة . » ومع ان

دستوفسكي وُلد فيها ، غير انه كان يحس دائماً بأنها ستتلاشى في احـــد الايام وتختفي مع ضباب الصباح . وعلى هذا الشكل الشجي وغير المعقول تتاثرت المدُن الاصطناعية الهيلينية فوق أراضي الفلاح الآرامي . والمسيح عرف بهذا في جليله (الجليل) . ولا شك ان القديس بطرس يجب ان يكون قد أحسّ بـه حالما وقعت عيناه على روما الأمبراطورية .

وبعد هذا ، أصبح الانسان الرومي الأصيل يحس بكل شيء ينشأ حوله على انه مسموم وأكاذيب . وهكذا سُلطت على اوروبا كراهية عجائبية الجوهر حقاً ، وكانت « اوروبا » تعني في نظر مثل هذا الانسان كل ما هو ليس روسيا بما في ذلك اثينا وروما ، وحاله في هذه لا تختلف عن حال العالم المجوسي الذي كان يرى في مصر القديمة وبابـــل بلدين بائدين شيطانيين ووثنيين . ولقد كتب أكساكوف الى دستوفسكي في عام ١٨٦٣ يقول :

« إن أول شروط تحرير النفس الروسية ، يتمثل في انه يجب على هذه النفس أن تكره مدينة بطرسبورغ بكل قواها وجوارحهـــا . » فموسكو ، في نظر الروسي الأصيل ، مدينة مقدسة وبطرسبورغ شيطانية ، وهناك اسطورة شعبية واسعة الانتشار تصور بطرس الاكبر على صورة عدو المسيح Antichrist وبهذا الاسلوب ايضـــاً يستغيث التشكل الآرامي الكاذب ويصرخ في جميع اسفار الرؤى ابتداء من دانيال فأخنوخ في الازمنة المكابية الى يوحنا وباروخ وعزرا الرابع بعد تدمير القدس ، ويزعق مهاجماً انتياخوس عدو المسيح وروما عاهرة بابل ، ومدن الغرب بما لها من تهذيب وورنق وسناء وكل الحضـــارة الكلاسيكية . فجميع اعمالها كاذبة ودنسة ، بما في ذلك مجتمعها المتأدب وصناعتها الفنية الماهرة وطبقاتها الاجتماعية والدولةالغربية بما لها من دبلوماسية متمدنة وعدالة وادارات . ان التباين القائم بين العدمية الروسية وبين العدمية الغربية واليهودية والكلاسيكية المتأخرة زمناً هو تباين يبلغ اقصى الحدود فالأولى هي كراهية

عميقة للاجنبي الذي يسمم حضارة لا تزال جنيناً في رحم الارض ، اما الثانية فتمثل اشمئزازاً متخماً للذات من نموها الخاص الذي تجاوز حدوده . فأعمـــاق المشاعر الدينية وومضات التجلي وقشعريرة الخوف من يقظة عظمى والأحلام الميتافيزيقية والحنين ، كل هذه تنتمي الى بداية التاريخ كما تنتسب آلام الصفاء الروحي الى نهايته ، لكن هذه جميعاً تختلط بعضها ببعض داخل هذه التشكلات الكاذبـــة . ويقول دستوفسكي :

« ان كل انسان في الشارع والسوق يفكر الآن في طبيعة الايمان . » وهذا قول من الجائز انه قد قيل عن الاديسا او القدس . فاولئك الروس ما قبـــل عام ١٩١٤ - اولئك القذرون المكفهرو الوجوه المكتئبون في الزوايا والغارقون أبداً في الميتافيزيقا الذين ينظرون الى كل شيء بعين الايمان حتى عندما يكون الموضوع في ظاهره موضوع منح امتياز او كيمياء أو تربية النساء - اولئك كانوا اليهود والمسيحيين الاوائل من المدن الهيلينية الذين كان الرومان ينظرون إليهم نظرة هي مزيج من تسلية أكيدة وخوف غامض خفي . ولم يكن للبرجوازي وجود في روسيا القيصرية ، كذلك لم يكن هناك نظام طبقي بصورة عامـــة ، بل إنما كان يوجد فقط ، كما كانت الحال في المقاطعة الفرنكية ، سيد وفلاح . ولم تكن هناك بلدان روسية . وكانت موسكو تتألف من مقر محصّن (الكرمل Kreml) تحيط به سوق هائلة الاتساع . وما المدينة المقلدة التي نبتت حول ذاك المقر وطوقته ، الا مدينة كغيرها من المدن التي تتربع على تربة الام روسيا ، اذ انها أنشئت لتأمين منافع البلاط والادارة والتجار ، ولكن تلك الكتل التي كانت تعيش فيها ، كانت أعلاها تجسيداً لوهم والخيال ، اذ انها الانتلجنسيا المنكبة على اكتشاف المشاكل والمنازعات ، وكان يلي هذه طبقة فلاحين أجتثت جذورهـــا من الارض لتعيش كآبة ميتافيزيكية ، وتعاني قلق دستوفسكيها الخاص وبؤسه ، وتحن ابداً الى الأرض الطليقة ، وتكره برارة هذا العالم الحجري الأغبر الذي أغواها عدو المسيح بدخوله . ولم تكن لموسكو نفس خاصة بها فالطبقات العليا

من أهليها كانت غريبة ، وأدخلت الطبقات الدنيا معها نفس الريف . وهكذا لم يكن هناك أي تفاهم متبادل أو مواصلة أو تعاطف بين هذين العالمين . ولكي نتمكن من فهم هذين العالمين ، يتوجب علينا ان نستعرض الناطقين بلسانيهما ، وضحيتي هذا التشكل الكاذب ، وأعني بهما دستوفسكي الفلاح وتولستوي ربيب المجتمع الغربي . فأولهما لم يستطع أبداً أن يهرب بنفسه من الريف ، أما الثاني فانه لم يتمكن أبداً ، وبالرغم من المجهودات اليائسة التي بذلها ، من ان يقترب بذاته من الريف .

كان تولستوي هو روسيا الماضية ، أما دستوفسكي فكان روسيا المقبلة . وكان جوهر تولستوي الباطني يلتصق بالغرب ، فهـو لسان البطرسية الفصيح وخطيبها البليغ حتى عندما يحاول إنكارها . فالغرب لا تستقيم له قائمة دون سلبية أو إنكار — والبلشفية كانت أيضاً الابنة الشرعية لفرساي — ومهما بلغ صخب تولستوي وغضبه على الأمبراطور فهو لا يستطيع أن ينفي هـذا الاتهام عنه . وهو حينما يكره الغرب فإنما يكره نفسه ، وبذلك يصبح أباً للبلشفية . ويتبدى العجز الكامل لهذه الروح ولثورتها عام ١٩١٧ جلياً وباسلوب اعترافي في كتابه اليتيم المولد ، والمعروف باسم « نور يشع في الظلام » . أما دستوفسكي فلا يعرف هذه الكراهية . فطاقات حياته الانفعالية لها من الشمولية ما فيهـا الكفاية لتضم الى صدرها كل الأشياء بما فيها الغربية منها ، وبهذا الصدد يقول — إن لي وطنين ، روسيا واوروبا . فهو قد تجاوز كلاً من البطرسية والثورة ،وهو من مستقبله ، يلقي عليهما بنظرات الى الوراء ، كأنه قد نأى عنهما بعيداً بعيداً . ونفسه هي نفس عجائبية مترعة بالحنين واليأس ، لكنها عميقة اليقين بالمستقبل . وبهذا الصدد ورد في روايته الأخوة كرامازوف ، قول ايفان لأخيه اليوشا : « سأذهب الى اوروبا ، وأنا عالم كل العلم بأنني سأذهب فقط الى باحة كنيسة ، ولكنني اعرف ايضاً بأن تلك الباحة عزيزة وعزيزة جداً على نفسي . فأحبابنـا الموتى يرقدون هناك ، وكل حجر فوق قبورهم يحدثنا عن حياة عيش بحرارة وحماس ،

وعن إيمان بانجازاتها سريع التأثر سريع الانفصال ، أما حقيقتها ومعركتها ومعرفتها فأنا بهذا كله عليم ، - وأنا به حتى الآن خبير - لكنني سأخر راكعاً على ركبتي وأقبل تلك الحجارة وأذرف الدمع فوقها مدراراً . »

أما تولستوي فهو على العكس من دستوفسكي ، إذ أنه هو أصلاً ، فهم عميق كبير ، « مُنوّر » يهتم بشؤون المجتمع . وكل ما يراه حوله يتخذ الشكل الغربي شكل الحقبة المتأخرة زمناً شكل المدينة العالمية المشكلة ، بينما ان دستوفسكي لا يعرف حتى ما هي المشكلة . وتولستوي حدث داخل المدينة الغربية وأحد احداثها ايضاً . وهو يقف في منتصف الطريق بين بطرس والبلشفية اللذين لم يستطع أي منهما ان يصل ببصره الى التربة الروسية . فالشيء الذي يحارب بطرس والبلشفية ضده يتبدى ثانية معروفاً من خلال الشكل كل الشكل الذي يحاربان به . فنوعية معارضتهما ليست بعجائبية بل إنما هي عقلانية . فكراهية تولستوي للملكية هي كراهية الاقتصادي ، وكراهيته للمجتمع هي كراهية المصلح ، وبغضاؤه للدولة ، هي بغضاء العالم النظري السياسي . ومن هنا نشأ تأثيره الهائل في الغرب — فهو ينتمي ، في هذه الناحية وتلك ، الى عصبة كارل ماركس وابسن وزولا .

أما دستوفسكي فهو عكس تولستوي ، إذ أنه لا ينتمي إلى أية عصبة ، اللهم الا اذا كانت عصبة من رُسل المسيحية البدائية « فشياطينه » وصمتها الانتلجنسيا الروسية بوصفها « الرجميين » . ولكنه هو نفسه لم يكن يشعر أبداً بوجود منازعات كهذه — فالمحافظة والثوروية كانتا اصطلاحين غريبين خلفاه غير مكترث أو مبال . فباستطاعة نفس كنفسه أن تنظر الى ما وراء كل شيء نصفه بالاجتماعي ، وذلك لأن اشياء هذا العالم تبدو لها غير ذات أهمية الى درجة لا تستحق معها التحوير او التحسين . وليس هناك من دين أصيل يستهدف تحسين عالم الوقائع ، ودستوفسكي هو ، ككل إنسان رومي بدائي لا يشعر أصلاً بوجود

هذا العالم ، فهو يعيش في عالم ثان ، عالم ميتافيزيقي يقع ما وراء هذا العالم . فما دخل آلام النفس وكروبها بالشيوعية ؟ والدين الذي يبلغ به اجتهاده مدى يجعله يمسك بالقضايا الاجتماعية بيديه لا يعود ديناً . ولكن الحقيقة التي عاشها دستوفسكي ، وحتى خلال حياته هذه ، هي إبداع ديني حاضر وموجود مباشرة لديه . وشخصية اليوشا في روايته استعصت على كل انواع النقد الادبي وأبوابه ، وحتى الروسي منها : وحياة المسيح لو كتبها - كما كان يردد دائماً انه عازم على تدوينهـــا - لجاءت إنجيلا صحيحاً كأناجيل المسيحية البدائية ، هذه الأناجيل التي تقع بكاملها خارج الاشكال الادبية من كلاسيكية ويهودية . أما تولستوي ، من جهة أخرى ، فهو معلم في فن الرواية الغربية - وأننا كارنينا تسبق كل منافسة لهـــا باشواط ومراحل - ولكن تولستوي يبقى حتى داخل ردائه الفلاحي رجلاً ينتمي الى مجتمع أديب مهذب .

وهنا ترى البداية والنهاية تصطدمان ، نرى دستوفسكي القديس ، ونرى تولستوي مجرد ثوري . فمن تولستوي ، خليفة بطرس الشرعي ، ومنـه وحده تنطلق البلشفية التي لا تمثل النقيض البطرسية ، إذ أنها آخر ابنائها ، وآخر خزي أو هوان ينزل بما هو ميتافيزيقي ، ويُنْزله به ما هو اجتماعي ، ويلقاه فعـــلا على يدي شكل جديد من التشكل الكاذب . فإذا كان تشييد مدينة بطرسبورغ هو الفصل الأول من رواية عدو المسيح ، فإن تدمير المجتمع ، الذي تشكل من بطرسبورغ هذه ، لذاته هو الفصل الثاني ، وعلى هذه الصورة يجب ان تحس بـــه نفس الفلاح . وليسوا حتى بجزء منها ، بل هم أسفل طبقـــة من طبقات المجتمع البطرسي ، وهم أجانب وغريبون ، فالطبقات الأخرى ، ومع هذا لم يعترف بهم من قبل هذه الطبقات ، ونتيجة لذلك تأكل كراهية من ديس بالقدم أكبادهم . فجميع هذه ثمرات مدن عالمية و « متمدنة » - السياسة الاجتماعية الانتلجنسيا ، والاداب التي تكافح أولا بالاساوب الرومانتيكي ومن ثم تستعمل الرطانـــة الاقتصادية في جهادها من أجل الحريات والاصطلاحات . وأما جمهور من المستمعين

فينتمي هو نفسه الى المجتمع. ان الانسان الروسي الأصيل هو تلميذ لدستوفسكي، بالرغم من انه قد لا يكون قرأ شيئاً لدستوفسكي أو غيره ، وقد يكون ، بسبب جهله بالقراءة ، هو نفسه جوهر دستوفسكي ولبّه ، ولو ان البلاشفة الذين يرون في المسيح ثائراً اجتماعياً مثلهم ، لم يكونوا ضيقي الافق عقلانياً الى ذاك الحد ، تعرفوا في دستوفسكي على شخص عدوهم اللدود . فلم تكن كراهية الانتلجنسيا هي التي حققت الثورة بطاقاتها وزخمها ، بل إنما كان الشعب نفسه الذي حرضته ، دون كراهية ، حاجته للخلاص من مرض ، فدمر بانتفاضة واحدة التشبه بالغرب القديم Westernism وسيلحق الجديد (البلشفية) به بانتفاضة واحدة أخرى ، وذلك لأن ما يحن اليه هذا الشعب الذي لا مدن له ، انما هو شكل حياته الخاصة ، ودينه وتاريخه الخاصين . أما مسيحية تولستوي فكانت سوء فهم ، فهو كان يتحدث عن المسيح ويعني ماركس ، ولكن على مسيحية دستوفسكي موقوفة الألف القادمة من الأعوام .

- ٣ -

وعندما تضاءل النفوذ الكلاسيكي في البلاد وهنا على وهن ، انبثقت ، خارج التشكل الكاذب ، وبتناسب أشد عزماً وقوة ، جميع أشكال الحقبة الاقطاعية الأصيلة . فأطلت الفلسفة اللاهوتية والصوفية والولاء الاقطاعي ، وصناعة الانشاء وروح الصليبية ، كل هذه كانت موجودة في القرون الأولى من الحضارة العربية ، ويمكننا أن نجد آثارها ، حالما نعرف كيف نبحث عنها . لقد كان الفيلق يوجد اسماً حتى بعد سبتيموس سفيروس ، ولكن الفيالق في الشرق تبدو في نظر كل العالم أتباع دوق (أو أمير – المترجم) من خدم وبطانة وحشم . والموظفون كانوا يعينون ، ولكن التعيين كانت قيمته الحقيقية تتمثل في العلاقة

القائمة بين الكونت والقن من رقيق الأرض . وبينما كان لقب قيصر يتساقط في الغرب في أيدي رؤساء القبائل ، حوّل الشرق نفسه الى خلافة مبكرة ومذهلة في تشابهها والدولة الاقطاعية في الحقبة القوطية الناضجة . فلقد أطل فجر حقبة إقطاعية نقية على الأمبراطورية الساسانية ، وحوران وجنوبي الجزيرة العربية . وخُلدت مآثر ملك سبأ ، سامر جوهاريش ، تخليد مآثر رولاند وأرثر — في الأساطير العربية التي تحدثنا عن تقدم جيوشه في بلاد فارس وبلوغها حتى الارض الصينية ، ووجدت مملكة معن Main جنباً الى جنب ومملكة اسرائيل خلال الدورة الالفية الاولى قبل ميلاد المسيح ، وآثارها (التي توحي بالمقارنة بينها وبين ميسينا وتايرنس) تمتد عميقاً داخل أفريقيا . لكن الآن ازدهر عصر الاقطاع في طولي الجزيرة العربية وعرضها وحتى في جبال الحبشة . ونشأت هناك في أكسوم Axum خلال الازمنة المسيحية المبكرة قلاع جبارة وقبور ملوك عرفت بأن حجرها الواحد كان أضخم الحجارة كتلة في العالم . وكان يقف وراء الملوك النبلاء الاقطاعيون من الامراء (الكونتات) والقيسون والاقطاعيون المشكوك في ولائهم ، والذين كانت بمتلكاتهم الواسعة تحد أكثر فأكثر من سلطة الملك وأهل بيته . والحروب المسيحية اليهودية اللامتناهية بين جنوبي جزيرة العرب ومملكة أكسوم طابع هو في جوهره طابع الحروب الفروسية ، وكانت مراراً ما تستمر هـذه الحروب فتمسي منازعات وخصومات بين الامراء وتتخذ من القلاع قواعد لها . وقد حكم في سبا الهمذانيون الذين اعتنقوا المسيحيـــة فيما بعـــد . وكانت تنتصب وراء هؤلاء مملكة اكسوم المسيحية المتعاهدة وروما والتي امتدت في عام ٣٠٠ من النيل الأبيض الى ساحل الصومال فالخليج الفارسي ، وطردت الحيريين اليهود عام ٥٢٥ . وفي عام ٥٤٢ عقد أمراء مأرب اجتماعاً أرسلت اليـه كل من روما والامبراطورية الساسانية سفراء لهما . وحتى اليوم لا تزال مأرب مليئة بآثار لا تعد ولا تحصى لقلاع جبارة نسب العوام في الازمنة الاسلامية

بُناتها الى أصول تعود الى ما وراء الطبيعة . فقلعة غمدان مثلاً هي بناء يتألف من عشرين طبقة .

حكم الامبراطورية الساسانية الـ Dikhans ، أو الاسياد المحليون ، بينا كان البلاط الرائع لهؤلاء « الموهنشتاوفن » المبكرين ، في كل وجهة من وجوهه ، نموذجاً للبزنطيين الذين اتبعوا ديوكلتسيان .

وحتى بعد مضي أزمان وازمان على اندثار الامبراطورية الساسانية لم يستطع العباسيون في بغداد ان يفكروا بشيء أفضل من تقليد المثل الاعلى لحياة البلاط الساسانية على مستوى رفيع . وقد نشأت في شمالي جزيرة العرب وفي بلاطات الغساسنة واللخميين زمر تروبادور Troubadour أصلاء ، وشعر « المني » Minne وكان الشعراء الفرسان ، في أيام الآباء الاوائل ، يستعملون « الكلمة والرمح والسيف » في مبارزاتهم . واحد هؤلاء كان السموأل اليهودي سيد قلعة الابلق الذي صمد أمام حصار شهير ضربه عليه ملك الحيرة بسبب دروع ثمينة . ومقام هذا الشعر الغنائي من الشعر العربي المتأخر زمناً والذي أينع وازدهر في اسبانيا خاصة ابتداءً من عام ٨٠٠ ، هو كمقام فالتر فون در فوجل فايدي من أولاند وايشندورف .

ومن المؤسف ان الله لم يمن على علماء الآثار واللاهوت منا بعيون ليروا هذا العالم الفني الذي شهدته بعيون القرون الاولى من تاريخنا . زد على ذلك أن كون هؤلاء الى جانب دولة روما من جمهورية وامبراطورية يجعل أوضاع الشرق الاوسط تبدو لهم أوضاعاً بدائية مجردة وخالية من كل مغزى او معنى . ولكن العصابات البارثية التي هاجمت الفيالق الرومانية المرة بعد المرة كانت تجري في دماء افرادها روح الفروسية وكانت مبجلة عظيمة القدر لدى المازادية ، ففي جيوش هؤلاء كانت تتجسد روح صليبية . وكان بمقدور المسيحية ان تكون هي أيضاً على هذا الحال لو لم تكن مكبلة بأغلال قوة التشكل الكاذب تكبيلاً

كاملاً . فالروح كانت موجودة في المسيحية ، فتورتليان يتحدث عن ميليشيا المسيح ، والعشاء الرباني كان يمين الولاء الذي يقسمه بعد مضي العديد من الاعوام ، حينما انطلق باسمه اتباعه ضد الوثنيين . ولكن طبقة ذاك لم يعرف جانب الحدود الرومانية هنا لوردات وفرساناً مسيحيين ، بل عرف فقط حكاماً رومانيين ، ولم يعرف قلاعاً بل معسكرات ، ولا مهرجانات فروسية ، بل تنفيذ احكام الاعدام . ولكن مع كل هذا فلم تكن هذه الحرب حصراً حرباً بارتيه ، بل كانت حملة صليبية أصيلة شنتها اليهودية عام ١١٥ عندما زحف تراجان على الشرق ، وقد جاء قتل كامل سكان قبرص الكفرة (اليونانيين) - الذين يبلغ عددهم ٢٤٠,٠٠٠ تقريباً - بمثابة ثأر لتدمير القدس . ولقد قاومت نصيبين Nisibis ، التي كان يدافع عنها اليهود مقاومة رائعة ، زد على ذلك أن هديب Adiabene الباسلة (تقع في سهول دجلة العلوية) كانت دولة يهودية . ولقدقاتل الاعيان والفلاحون والمجندون اليهود من رقيق الارض في بلاد ما بين النهرين ، طيلة الحروب البارتية والفارسية ضد روما ، في الصفوف الامامية .

وحتى بيزنطة لم تستطع أن تتجنب تماماً تأثير الحقبة الاقطاعية العربية ، وقد برز نظام القنانة (وخاصة داخل آسيا الصغرى) الى الوجود مغلفاً بقشرة من الاشكال الادارية الكلاسيكية المتأخرة زمناً . ولقد كانت توجد هناك عائلات قوية واسعة النفوذ وكان اخلاص هذه العائلات مشكوكاً في امره،وكان طموحها يستهدف امتلاك العرش الامبراطوري . ويقول روث Roth في كتابه « التاريخ الحضاري لدولة بيزنطة » ما يلي :

« ولما كانت طبقة النبلاء هذه محددة اقامتها اصلاً في العاصمة ، وكان لا يسمح لها بمغادرتها الا باذن من الامبراطور ، لذلك استقرت هذه الطبقة فيما بعد في اقطاعياتها الواسعة في الأقاليم ، وامست هذه الطبقة النبيلة الريفية ابتداء من القرن الرابع فما بعده « اقطاعية من المملكة » من الوجهة الواقعية ، وحصلت مع الزمن على استقلال معين من الاشراف الامبراطوري . »

وتحول « الجيش الروماني » اثناء ذلك ، وخلال اقل من قرنين من جيش حديث الى جيش اقطاعي النظام . فاختفى الفيلق الروماني حينما أعيد تنظيم الجيش في زمن سيفيروس قرابة عام ٢٠٠ ب.م. وبينما كان الجيش في الغرب ينحط الى زمر وزرامات ، نشأت هناك في الشرق ، وفي القرن الرابع ، فروسية أصيلة وان جاءت متأخرة ـ وهذه واقعة اشار اليها مومسن منذ زمن طويل دون أن يرى مغزاها على كل حال . فكان الفتيان النبلاء يدربون تدريباً كامـــلاً على المبارزة الفردية ، وركوب الخيل واستخدام القوس والرمح . وقرابة عام ٢٦٠ شكل الامبراطور جالينوس صديق بلوتينس ، ومُشيِّد بورتا نيجرا Porta Nigra في تريير ، وأحد اشد الشخصيات بروزاً وسوء حظ من الاباطرة العسكريين ـ اقول شكل هذا الامبراطور من الجرمان وبرابرة المغرب طرازاً جديداً من قوى الفرسان ، ألا وهو التابعة العسكرية الشخصية . وهناك واقعة ذات مغزى تمثل في التبدلات التي طرأت على آلهة المدينة القديمة ، فهذه الآلهة كانت تتراجع ، في دين الجيش ، امام الآلهة الجرمانية ، فالبطولة الشخصية ، التي كانت تحل محـــل تلك وتدمغ بدمغتي مارس وهرقل. فحرس ديوكلتيان المعروف باسم بالاتيني Palatini ليس البدل للحرس البريتوري الذي ألغاه سبتيموس سفيروس ، بل انما هو جيش فرومي صغير حسن الانضباط ، وكان يجري تنظيمه للمجندين في سرايا Company . وكانت التكتيك هو تكتيك كل حقبـــة مبكرة بما لهذه من فخر واعتزاز بالشجاعة الشخصية . وكان الهجوم يتخذ الشكل الالماني المعروف باسم « رأس الخنزير » ـ الحشد العميق المسمى فنياً بـ Gevier thaufe . ونجد لدى جوستنيان نظاماً طوِّر تطويراً كامـــلاً وينطبق تماماً على نظام رقيق الارض Lands Knecht لشارل الخامس ، حيث يحول فيـــه قائد عصبة مرتزقة Condottieri من طراز فروندسبرغ تجنيد قوات محترفة على أساس اقليمي . وقد وصف بروكوبيوس حملة نارسيس تماماً على شكل كأن أحدهم يصف عمليات التجنيد الواسعة التي قام بها فلانشتاين .

ولكن ظهرت هناك ايضاً ، وفي القرون المبكرة هــــذه ، فلسفة لاهوتية (كلامية) وصوفية رائعة من الطراز المجوسي ، وقد جرى تدجين هذه الفلسفة في المدارس الشهيرة التي قامت في الاقليم الآرامي – كالمدارس الفارسيـــة في تستـفون Ctesiphon ورأس العين Resaina وجنديسابورا Gundisapora ، والمدارس اليهودية في Sura ، Neherdea ، وقنسرين . وكانت هذه مراكز رئيسية ازدهرت فيها علوم الفلك والفلسفة والكيميـــاء والطب . ولكن هذه الظاهرات العظمى عندما اتجهت نحو الغرب امست مزورة ايضاً نتيجة التشكل الكاذب . فالعناصر المجوسية المميزة لهذه المعرفة تنتحل في الاسكندرية اشكال الفلسفة اليونانية ، وفي مدينة بيروت اشكال الفقه الروماني ، فهي تلتزم بالكتابة باللغات الكلاسيكية ، وتحشر حشراً في اشكال غريبة تحجرت منذ زمن طويل ، وتُحرّفها منطق هرم لمدنيــة ذات تركيب يختلف تماماً عن تركيب تلك . وفي هذا الزمن ، وليس في الأزمان الاسلامية بدأت العلوم العربية . ومع هذا فان فيلولوجيينا لم ينبشوا سوى ما ألبس الثوب الكلاسيكي منها في الاسكندريـــة وانطاكية ، ولا يعرفون حتى انفســه الاشياء من الثروة العريضة المذلة لربيع الحضارة العربية ، او المحور الحقيقي لابحاثه وفكره . ومن هنا نشأ الزعم المحال ، الذي لا يقبله عقل او عاقـل ، والقائل (Epigoni) بأن العرب كانوا اقل نمواً ورقياً روحياً من الحضارة الكلاسيكية . والحق أن كل شيء تقريباً اتبع على الجانب «الآخر» من حدود الفيلولوجيا هو ليس الا انعكاساً للباطنية العربية ، بالرغم من أنه يبدو للعين الغربية خلفاً للروح الكلاسيكية المتأخرة زمناً . وهكذا نأتي الآن لنتأمل فيما فعله التشكل الكاذب للدين العربي .

– ٤ –

عاش الدين الكلاسيكي ، بعدده الوفير من المذاهب المنفصل الواحد منها عن

الآخر ، والتي كانت على هذا الشكل ، طبيعية واضحة وغنية عن البيان بالنسبة الى الانسان الكلاسيكي ، أقول عاش هذا الدين في حرز يمتنع عن أي انسان غريب . والحق أنه حالما تنشأ مذاهب من هذا النوع ، عندئذ تطالعنا حضارة كلاسيكية ، وعندما يتبدل جوهرها ، كما حدث في الأزمنة الرومانية المتأخرة ، تبلغ روح هذه الحضارة نهايتها . ولم تكن المذاهب الكلاسيكية في يوم ما خارج الصقع الكلاسيكي حية وأصيلة . فالإله (الكلاسيكي ، المترجم) هو دائماً مرتبط بالموقع (المكاني) ومحدود به ، وذلك انسجاماً والشعور السكوني والبوقليدي بالعالم . وكذلك فان علاقة الانسان بالإله تتخذ شكل مذهب محلي ، وتكمن مغازي هذا المذهب داخل شكل الإجراء الطقوسي ، ولا تكمن في عقيدة تسند هذه المغازي وتركزها . وكما أن السكان كانوا متناثرين جغرافيا في نقاط لا تعد ولا تحصى ، كذلك تناثرت روحانية دينهم الى المذاهب الصغيرة التافهة . وكان كل مذهب منها مستقلاً عن البقية . أما ما كان قادراً على التكاثر او التزايد ، فهو عددها وليس مجالها او مداها . فالتكاثر كان هو الشكل الوحيد للنماء داخل الدين الكلاسيكي ، وهكذا أطرح جانباً كل جهد من الجهود التبشيرية ، وذلك لأنه كان باستطاعة الناس ان يمارسوا هذه المذاهب دون ان ينتموا اليها . فلم تكن هناك طوائف تضم الرفاق المؤمنين . ومع أن الفكر قد بلغ فيا بعد في أثينا نوعاً ما من افكار اكثر عن الله وخدمته ، لكن ما حققه الفكر كان فلسفة وليس ديناً . وهذه قد استهوت فقط قلة من المفكرين ، لكن لم يكن لها اقل اثر على شعور الأمة — أي المدينة .

ويقف الشكل المنظور للدين المجوسي موقفاً شديد التناقض والكلاسيكي واعني بالشكل المنظور : الكنيسة ، وأخوة المؤمنين التي لا وطن لها ، ولا تعرفان حدوداً ارضية ، وتؤمنان بما قاله المسيح : « عندما يجتمع اثنان او ثلاثة باسمي ، آنذاك أكون في وسطهم . » وانه لمن نافل القول أن مؤمناً من هذا النوع يجب أن يؤمن بأنه لا يمكن أن يكون هناك الا إله واحد فقط ، والإله

الصحيح ، وأن آلهة الآخرين هي شريرة وباطلة . والعلاقة بين هذا الإله وبين الانسان لا تقوم على تعبير او اقرار ، بل انما تكمن في القوة الخفية ، في سحر اجراءات ومزية معينة ، التي اذا ما أريد لها ان تكون مؤثرة فعالة ، يجب أن تكون معروفة تماماً شكلاً ومغزى ، وأن تمارس وفقيها . ومعرفة هذا المغزى أمر خاص بالكنيسة — والحق أن الكنيسة نفسها هي بمثابة طائفة المرشدين . ولذلك فان مركز الثقل لكل دين مجوسي ، لا يكمن في المذهب بل انما يكمن في العقيدة ، في المُعتقد .

وقد استمر التشكل الكاذب لجميع كنائس الشرق معتمداً اسلوب الغرب طيلة بقاء الدين الكلاسيكي ذا روحانية قوية . وهذا هو أهم مظهر من مظاهر المذهب التوفيقي Syncretions . ويتخذ الدين الفارسي شكل مذهب مترا ، اما الكلداني السوري فيتخذ مذاهب آلهة النجوم وبعل (جوبيتر Dolichenus ، Atargatis ، Invictus Sol ، Sabazius) ، أما الدين اليهودي فيتخذ شكل مذهب يهوه (وذلك لأنــــه لا يوجد اسم آخر يمكن ان يأتي موافقاً للطوائف المصرية في حقبـــة بطليموس) اما المسيحية فقد اتخذت — كما تظهر لنا بوضوح رسائل بولس ومراديب روما — جوهراً بوصفه مذهب يسوع . ومها ضج أيّ من هذه الاديان المتنوعة — التي دفعت قرابة عصر هدريان الآلهة الكلاسيكية الى المؤخرة تماماً — معلناً عن نفسه أنه الإعلان الإلهي عن الايمان الحقيقي فانها جميعاً تحمل ، في الواقع ، طابع الانفصالية الكلاسيكية — اي أنها تتكاثر حتى اللانهاية ، وإنيس أقامت لنفسها deorum dearumque facies uniformis فكل طائفة من الطوائف الآنفة الذكر مستقلة عنْ غيرها ومحلية المعتقد . وجميع الهياكل والسراديب ، وأماكن عبادة مترا ، ومُصلّيات المنازل هي أماكن مقدسة تعتبرالآلهة مرتبطة بها (شعورياً ، بالرغم من أنه لا يُعبر عن هذا الارتباط شكلياً). وبالرغم من هـــذا يوجد شعور مجوسي حتى في هذا النوع من التقوى والتدين . فالمذاهب الكلاسيكية تمارس ، وباستطاعة الانسان أن يمارس منها أي عدد يهوى

او يريد ، لكن الانسان ، في هذه المذاهب الجديدة ، ينتمي الى مذهب واحد ، وواحد فقط . ولقد كانت الدعاية في المذهب القديم امراً لا يخطر على بال ، اما في المذهب الجديد فانها محـــل بدهي ، كما وأن مغزى المارسات الدينية ينعطف اكثر فأكثر نحو الجانب العقائدي .

وابتداء بالقرن الثاني فما بعد ، ومع ذواء الدين الابولوني ، وازدهار النفس المجوسية ، عكست العلاقات . زد على ذلك أن نتائج التشكل الكاذب قـــد استمرت ، لكن مذاهب الغرب هي التي تنعطف الآن لتصبح كنيسة جديدة الشرق – وأعني بهذا نشوء طائفة من مجموع هذهالمذاهب المنفصلة تتألف من الذين يؤمنون بآلهة هذه المذاهب وطقوسها – وهكذا نشأت ايضاً في سياق من تدرج ، قومية مجوسية يونانية . ونما من الاشكال المقررة تقريراً صارماً ، ومن الاجراءات المنفصلة القرابين والاسرار الدينية ، نوع من عقيـدة ، Dogma تتعلق بالمغزى الباطني لهذه الاعمال . واصبحت المذاهب قادرة الآن على تمثيل بعضها بعضاً ، ولم يعـــد الناس يمارسونها ، او يجرونها حسب الاسلوب القديم ، بل انما امسوا « اتباعاً » او « مشايعين » لها . وأصبح الإله الصغير للمكان – دون ان يلحظ اي انسان خطورة التحول – الله العظيم الحاضر حقاً في المكان .

وبالرغم من العناية التي لاقاها المذهب التوفيقي في السنين الاخيرة فان مفتاح تطوره قد فقد – وأعني بتطوره عمليـــة تحول الكنائس الشرقية الى مذاهب غربية ، ومن ثم انعكاس هذه العملية بتحول المذاهب الغربيـــة الى كنائس شرقية . ومع ذلك فانه لمن المستحيل علينا أن نفهم التاريخ الديني للمسيحية المبكرة بغير هذا المفتاح . فالمعركة التي كانت تدور رحاها بين المسيح ومتراس بوصفهما المتي مذهب ، اتخذت ، شرقي انطاكية ، شكل منافسة بين الكنائس الفارسية والكنائس المسيحية . لكن اشد المعارك ، التي كان يتوجب على المسيحية أن تخاريها ، وذلك بعـــد أن وقعت تحت تأثير التشكل الكاذب وبدأت تطور روحانيتها وانظارها متجهـــة نحو الغرب ، لم تكن تلك المعركة معركة الآلهة

الكلاسيكية . فالمسيحية لم تجابه ابداً هذه الآلهة وجهاً لوجه ، وذلك لان المذاهب الشعبية للمدن ، كانت باطناً قد قضت نحبها منذ زمن طويل ، ولم تكن تلك ابة سيطرة ، مهما كان وزنها ، على نفوس الناس . فالوثنية Paganism أو الهيلينية ، هي التي كانت عدو المسيحية الجبار ، وقد انبثقت ككنيسة جديدة صلبة العود شديدة المراس ، وولدت من تلك الروح بالذات التي ولدت منها المسيحية نفسها . وفي نهاية المطاف لم تقم في الشرق من الامبراطورية الرومانية ككنيسة مذهب واحدة فقط ، بل قامت كنيستان ، واذا كانت احدى هاتين قد ضمت اتباع المسيح بنوع خاص ، فان الاخرى كانت ايضاً تتألف من طوائف تعبد بوعي ، وتحت الف عنوان وعنوان ، المبدأ الإلهي ذاته .

لقد كتب الكثير عن التسامح الكلاسيكي . ومن الجائز أن نرى ، بأشد وضوح وجلاء ، طبيعة اي دين من خلال الحدود النهائية لتسامحه ، ولقد كانت هناك حدود نهائية لتسامح الأديان الكلاسيكية كغيرها من الأديان الأخرى . والحق أنه كان هناك طابع جوهري واحد لهذه الأديان يتمثل في كون هذه الأديان غفيرة العدد ، وطابع آخر يتجلى في كونها أدياناً تتألف من اجراءات (طقوس) مجردة ، ولذلك لم تنشأ قضية التسامح ، في الأديان الكلاسيكية بالمعنى الذي تعنيه عادة هذه الكلمة . ولكن احترام شكليات المذهب كان أمراً متوجباً ومطلوباً . وكم من فيلسوف ، او حتى اجنبي غريب ، كان اذا ما اعتدى سهواً على هـــذا القانون ، بالقول او بالعمل ، يُقاد قوداً الى التحقق من الحدود النهائية للتسامح الكلاسيكي . اما الاضطهادات المتبادلة بين الكنائس المجوسيـــة فكانت شيئاً ما يختلف عن هذا ، ففي هذه الكنائس كان واجب الموحِّد بالله Henotheist نحو معتقده الخاص هو الذي يمنعه من الاعتراف بالمعتقدات الباطـــلة . وقد تتسامح المذاهب الكلاسيكية ومذهب المسيح معتبرة اياه واحداً منها . ولكن كنيسة المذهب كانت ملتزمة بمهاجمة كنيسة المسيح . اما جميع الاضطهادات العظمى التي نزلت بالمسيحيين (وهذه تتطابق تماماً والاضطهادات التي لاقتها الوثنية فيما

بعد) فهي لم تنشأ عن الدولة الرومانية ، بل نشأت عن كنيسة المذهب وكانت سياسية فقط من حيث أن هذه الكنيسة كانت تضم كلاً من الأمـــة والوطن . ويلاحظ أن قناع عبادة القيصر كان يغطي عرفين للدين ، ففي المدن الكلاسيكية في الغرب ، وخاصة في روما ، نشأ مذهب عبادة القيصر Divus كآخر تعبير لذلك الحس اليوقليدي الذي تطلب وجوب ايجاد وسيلة مواصلة قانونية ، وهي لذلك مقدسة ، بين انسان وحدة الجسد وبين إله وحدة الجسم . ومن جهة اخرى ، جاء تاج مذهب عبادة القيصر في الشرق ايماناً بقيصر بوصفه مخلصاً ، وانسان الله ، ومسيح جميع المؤمنين بالمذهب التوفيقي الذي جعلته الكنيسة يعبر عن ذاتـــه بشكل قومي رائع . وكان تقديم القرابين للامبراطور يمثل اهم الاسرار المقدسة لهذه الكنيسة – وهو يماثل تماماً وسر المعمودية عنـــد المسيحين – ولذلك من السهل ان يفهم المرء المغزى الرمزي الكامن في أيام اضطهاد الفريضة ، كانت لها اسرارها المقدسة : وجبات الطعام المقدسة كشرب الفرس للهاؤما Haoma [1] ، وعيد الفصح عند اليهود ، والعشاء الرباني لدى المسيحيين ، وطقوس أخرى مشابهة لهذه لأجـــل Attis والمـــثرا ، وشعائر المعمودية بين الـ Mandaeans والمسيحين وعبدة ايزيس وسيبيل Cybele . والحق أنه من الجائز اعتبار المذاهب الإفرادية لكنيسة الوثنية نحَلًا Sect وأنظمة Order تقريباً – وهذه النظرة تفضي بنا الى فهم اوسع بكثير (من أي فهم آخر – المترجم) للدعايات المتبادلة لهذه المذاهب .

ان جميع الاسرار « الدينية » الكلاسيكية الحقيقيـــة ، كأسرار إليُسس Eleusis وتلك التي ابتدعها الفيثاغوريون في مدن ايطاليا الجنوبية قرابة عـــام ٥٠٠ ب. م ، كانت محدودة بالمكان ومقيدة اليه ، وتتضمن عملاً رمزياً او طريقة.

---

(١) Haoma ، نبتة ترمز الى شجرة الحياة ، كما ترمز نبتة السوما في البراهميـــة – المترجم –

وقد حررت ذواتها ، داخل ميدان التشكل الكاذب ، من مواقعها (المكانية — المترجم) .

وكان يجوز القيام بطقوسها اينما يجتمع اتباعها ، وكان هدفها النشوة الروحية المجوسية والتحول التقشفي في الحياة وقد حوّل زوار المكان المقدس أنفسهم الى فصائل ممارسة ، زد على ذلك أن طائفة النيوفيتاغوريين ، التي تشكلت قرابة عام ٥٠ ق م وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأسّينيين Essenes اليهود ، قد تكون أي شيء ما عدا كونها مدرسة فلسفة ، كلاسيكية ، وهذه فصيلة مجردة من رهبان أو نساك ،وهي ليست الفصيلة الوحيدة من هذا النوع في حركة المذهب التوفيقي الذي حرر المثل العليا للنساك المسيحيين والدراويش المحمديين . فلقد كان لهذه الكنائس الوثنية نساكها وقديسوها وانبياؤها وهداياتها العجائبية ،وكتبها الدينية، ووحيها الإلهي . وقد طرأ على مغزى الصور تبدل جد بارز وعجيب لا يزال ينتظر التمحيص والبحث . ففي قرابة عام ٣٠٠ ب م ، أوجد أخيراً أعظم اتباع بلوطينوس Plotinus ، ألا وهو إيامبليخوس Iamblichus ، نظاماً جبار اللاهوت الارثوذكسي ، وسلطة كهنوتية منظمة ، وطقوساً صارمة لكنيسة الوثنية، وقد كرس تلميذه جوليان نفسه ، وضحى أخيراً بحياته من أجل محاولة إقامة كنيسته وجعل ديمومتها بعمر الخلود . ولقد جدّ الى خلق حتى الاديرة ليُمكّن الرجال والنساء من التأمل الروحي ، وكدّ لادخال مبدأ الكفارة — التوبة — الاكليريكية . وكان يدعم هذا العمل المظيم ، حماس أعظم تسامى فبلغ ذرى الاستشهاد ، وبقي مخلداً حتى بعد وفاة الأمبراطور بزمن طويل . وهناك نقوش موجودة (تعود الى جوليان — المترجم) لكن من الصعب ترجمتها الا اذا اعتمد المرء القاعدة المنادية .

« لا إله إلا الله وجوليان نبي الله . » ولو قدّر لهذه الكنيسة أن تعيش عشر سنوات اكثر فقط ، لأصبحت واقعة تاريخية دائمة . فالمسيحية لم ترث في النهاية فقط

سلطان هذه الكنيسة ، بل انا ورثت ايضاً تفاصيل هامة منها ومن كل شكل ومحتوى . وهنا قول يتردد بأن الكنيسة الرومانية قد وفقت بين ذاتهـا وبين تركيب الدولة الرومانية ، وهـذا قول ليس صحيحاً تمامـاً . فتركيب الدولة الرومانية ، كان بحد ذاته ، من الوجهة النظرية ، كنيسة . وقـد شهد التاريخ مرحلة كانت خلالها الدولة والكنيسة متلامستين متصلتين - فقسطنطين الأكبر ، كان في ، وقت واحد ، الداعي الى مؤتمر نيقيا Nicaca والحبر الأعظم معاً ، زد على ذلك أن أولاده ، وهم المسيحيون الغياري ، جعلوا منه « إلهاً » Divus وقدموا اليه الطقوس المقررة .ولقد تجرأ القديس أوغسطين على التأكيد بأن الدين الحقيقي كان موجوداً قبل ولادة المسيحية ، وفي شكل الدين الكلاسيكي .

- ٥ -

يتوجب علينا ، بغية فهم اليهودية ككل ، وخلال المدة الزمنية الواقعة بين قورش وطيطوس ، أن نضع بصورة دائمة أمام أعيننا ثلاث وقائع يدري بها العلم تماماً ، لكنه يرفض لاسباب فيلولوجية ولاهوتية ، أن يسلم بها كعوامل في بحثه . اولاً ، ان اليهود هم « أمة بلا أرض » ، وهم ، علاوة على ذلك ، اتحاد يقوم في وسط عالم يتألف من أمم صافية ، ومن الطراز ذاته . ثانيـاً ، ان القدس هي بالفعل مكة (المكرمة) ، وهي مركز مقدس لكنها ليست وطن اليهود ولا بؤرتهم الروحية . وأخيراً فان اليهود ظاهرة شاذة غريبة في تاريخ العالم ، وذلك طالما نصر نحن على معالجة موضوعهم على هذا الشكل . وانه لصحيح أن يهود ما بعد السبي ، في حالة التمييز بالضد ، بينهم وبين اسرائيلي ما قبل السبي هم -كما قال هوجو فنكلر ، وهو أول من ميزهم - شعب من نموذج جديد تماماً . ولكنهم ليسوا هم الممثلين الوحيدين لهذا النموذج . فالعالم الآرامي كان قد بدأ

في تلك الايام بتنظيم نفسه في عدد كبير من شعوب كهذه ، بما فيهم الفرس والكلدان ، وجميعهم كانوا يعيشون في المنطقة ذاتها ولكنهم كانوا متباعدين تباعداً صارماً عن بعضهم بعضاً ، وكانوا حتى في ذلك الحين ، يمارسون الطريقة العربية الحقيقية في الحياة التي نسميها « غيتو Ghetto »[1] .

جاءت أول تباشير النفس الجديدة متمثلة في الاديان النبوية ، بما لهذه الأديان من باطنية رائعة ، وبدأت بالنشوء قرابة عام ٧٠٠ ق . م ، وتحدث الممارسات العتيقة الفطرية للشعوب وحكامها . وهذه هي ايضاً ظاهرات آرامية . والحق أنني كلما زدت تمعناً في عاموس واشعيا وارميا ، من جهة ، وفي زردشت من جهة أخرى ، أحس بأن ارتباط اولئك يزداد وثوقاً بهذا . أما ما يبدو على أنه هو الفاصل بينهم ، فليس هو بمعتقداتهم ، بل انما هو أهداف هجماتهم . فالأولون قارعوا ذاك الدين القديم المتوحش ، دين اسرائيل ، والذي هو في الواقع حزمة كاملة من عناصر دينية - كالإيمان بالحجارة المقدسة والاشجار وآلهة أماكن لا يحصيها عد (دان ، بيت إيل ، حبرون - الخليل - شيشم She chem ، بير السبع جلجال) ، ويهوه واحد (أو إلوهيم) يعطي اسمه جمهرة من أشهر الأسماء انعداماً في تجانسها ، كعبادة الأسلاف ومن ثم القرابين من البشر ، ورقص الدراويش ، والبغضاء الطقوسي - وهذه كلها تختلط بتقاليد موسى وابراهيم الغامضة وبالكثير من العادات والأعراف والاساطير التي ابتدعها العالم البابلي المتأخر زمناً والتي بعد أن توطدت في ارض كنعان مدة طويلة ، انحطت وتصلبت في اشكال فلاحية . أما الثاني (زردشت - المترجم) فلقد قارع المعتقدات الفيدية القديمة بالابطال « والفايكنغ » ، وهذه لاشك غليظة غير مصقولة كتلك ، وتحتاج اكيداً ، لأن تستدعي إلى الرافعة ، مرة بعد اخرى ، بواسطة تمجيد

---

(١) الحي الذي يسكنه اليهود في أية مدينة غير يهودية ، أو تسكنه قومية مميزة عنصراً - المترجم -

البهائم المقدسة ورعايتها. عاش زرادشت، قرابة عـــام ٦٠٠ق م. ، وكان في معظم حياته معوزاً مضطهداً ، ومفهوماً على غير مـا يريد ،وسقط وهو شيخ في ميدان القتال ضد الكافرين ـ وهو معاصر كفؤ لأرميا المنكود ، والذي كرهه مواطنوه بسبب نبوآته ، وسجنه ملكه ، وحملـه معهم الهاربون الى مصر بعـد الكارثة ، حيث أعدم . وإنني لأعتقد بأن هذه الحقبة العظمى قـــد جاءت بدين نبوي ثالث ، ألا وهو الدين الكلداني .

فهذا الدين ، بما له من علم فلك ثاقب نافذ ، وباطنية رائعة دائماً وأبداً ، كان ، كما أنجزأ فأُخمِّن ، قد وُلد في ذاك الزمان من ذخائر الدين البابلي القديم ، وتعهدته شخصيات مبدعة خلاقة من وزن أشعيا . ولقد كان الكلدانيون قرابة عام ١٠٠٠ ق.م كالاسرائيليين من القبائـــل الناطقة باللغة الآرامية ويعيشون جنوبي شنعار ولا تزال لغة المسيح الأصلية تدعى حتى الآن في بعض الاحيان باللغة الكلدانية . وقد أطلق هذا الاسم في الازمنة السلوقية على طـــائفة دينية واسعة الانتشار ، وخاصة على كهنة هذه الطائفة . ولقد كان الدين الكلداني ديناً فلكياً ، غير انه لم يكن على هذه الحال ، مثل حوراني البابلي. وهذا الدين يمثل أعمق التراجم للكون المجوسي ، لكهف العالم ، وللقسمة Kismet التي تعمل داخـله ، ونتيجة لذلك بقي الأساس الجوهري للتفكير الاسلامي واليهودي حتى آخر مراحل هـذا التطور الطويـل . وبواسطة هذا الدين ، وليس بواسطة الحضارة البابلية ، تشكلت ، عقب القرن السابـع ، علوم فلك تستحق بأن تدعى علماً صحيحاً ـ وأعني بهـــذا تقنية كهنوتية لمراقبة عجائبية في دقتهـــا . وقد استبدل الاسبوع القمري الـــبابلي، بالاسبوع الشمسي . وعشتار ، إلهة الحيــــاة والخصب ، وابرز شخصية في الدين القديم ، أصبحت الآن كوكبا ، وتموز الذي يموت دائماً وُيبعث دومــــاً ، إله النبات ، صار نجماً ثابتاً . وأخـيراً اعلن الشعور المُوَحّد (بالله ـ المتوجم) عن نفسه . فكان ماردوك العظيم في نظر نبوخـــذ نصر الإله الحقيقي الواحد ، إله الرحمة ، وكان نبو Nebo ، إله بورسيبا Borsippa ، ابنه وسفيره الى الجنس

البشري . وغدا ملوك الكلدانيين طيلة قرن من الزمن (٦٢٥ – ٥٣٩) حكاماً للعالم . ولكنهم كانوا ايضاً نذراً بالدين الجديد . وعندما كان الناس يبنون المعابد ، كان هؤلاء الملوك يحملون بانفسهم الأجُر . ولا تزال الصلاة التي تلاها نبوخذ نصر عندما اعتلى العرش ، موجودة لدينا ، ولا تفوقها صفاء وعمقاً ، اجمل ما في النبوءات الاسرائيلية، من مقاطع إطلاقاً. ومزامير التوبة الكلدانية، وهي مزامير ترتبط ايقاعاً وتركيباً باطنياً ، بالمزامير اليهودية ، تعرف الخطيئة التي لا يشعر بها الانسان ، وتعرف آلام المعترف المنسحق القلب ، والتي يستطيع ان يتفاداها امام الإله المُسَخِّر وهذه الثقة برحمة الاله هي نفسها التي وجدت لها تعبيراً مسيحياً صحيحاً في نقوش هيكل « بعل » BEL في تدمر .

إن لُبّ التعاليم النبوية هو لب مجوسي . فهنا يوجد إله واحـــد ـ سمّي بيهوه ، او اهورا مازدا او ماردوك ـ بعل ـ وهو مبدأ الخير ، وجميع الآلهة الاخرى هي آلهة إما عاجزة او شريرة .

وقد ربط الامل بالمسيح نفسه إلى هذه العقيدة ، وهذا واضح جـــداً لدى اشعيا ، غير انه يتفجر ايضاً في كل مكان خلال القرون التـــالية ، ويتفجر تحت ضغط ضرورة باطنية . وهو الفكرة الرئيسية للدين المجوسي ، وذلك لانه يحتوي ضمناً على مفهوم الصراع التاريخي العالمي بين الخير والشر ، وسيادة الشر في الحقبة الوسيطة ، وانتصار الخير اخيراً في يوم الدينونة . وتحقّق التاريخ بطاقـــات الخلاقية أمر شائع ومشترك بين الفرس والكلدان واليهود ، ولكن مع حلوله تختفي حتماً فكرة الشعب المشدود الى موضع او مكان ، وبذلك فان تكون الأمم المجوسية دونما اوطان وحدود ارضية أمراً يتناول اليد . وهنا نشأت فكرة الشعب المختار . ولكن من السهل علينا ان نفهم ان اناساً تفور اجسادهم بدماء قوية ، وخاصة العائلات الكبرى منهم ، قد وجدوا في هذه الفكر المفـــرقة في الروحانية ، « فكرات » تشمئز منها طبائعهم وتنفر ، فعادوا الى المعتقـــدات

المشائرية الراسخة القديمة . واعتمادا على ما تقوله ابحاث كومونت Cumont ، كان دين الفرس ديناً متعـــدد الآلهة ، ولم يكن يملك السر المقدس هاأوما Haoma وهذا يعني انه لم يكن زردشتياً متنا وحاشية . والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمعظم ملوك اسرائيل ، ومن المحتمل جداً ان يكون كذلك بالنسبة لـ نابو ـ نابيد Nabu - Nabid (نابونيدوس Nabonidus) الذي اصبح خلعه بواسطة رعاياه وقورش امرا ممكناً بسبب رفضه الايمان بمذهب ماردوك . زد على ذلك ان اليهود اكتسبوا في السبي ، ولاول مرة ، الختان والسبت (البكداني) بوصفها طقسين .

وعلى كل حال ، فلقد اوجد السبي البابلي فرقاً هاماً بـــين اليهود والفرس ، وهذا الفرق لا يتعلق بالحقائق النهائية للدين الواعي ، بل انما يتعلق بجميع وقائع الواقع . ومن ثم بموقف الناس من هذه الوقائع . فالمؤمنون بيهوه هم الذين سمح لهم بالعودة الى الوطن ، واتباع اهورامازدا هم الذين سمحوا لهم بذلك ، وهاتان العشيرتان الصغيرتان والتان لربما كانتا قبل مئتي عام من ذاك التاريخ ، متساويتين في عدد الرجال المقاتلين ، انطلقت الواحدة منهما فامتلكت عالماً ، بينما اصبحت الاخرى ـ حينما عبر داريوس الدانوب شمالاً ، وامتدت سلطته عبر شرقي جزيرة العرب الى سوكوترا الواقعة على شاطىء الصومال جنوبا ـ الاول اصبحت الاخرى مخلباً لا قيمة له إطلاقاً من مخالب سياسة أجنبية . وهذا هو الذي جعـــل الدين الواحد منهما متعالياً إلى ذاك الحد ، وجعل الثاني متضعاً ذليلا الى تلك الدرجة . وليتمعن الدارس في نقش بهستون Behistun العظيم لداريوس ليرى التباين بـين معناه ومعاني إرميا ، هـــذا النقش القائل : يا له من اعتزاز رائع وفخر عميق للملك بإلهه المنتصر ! وليتأمل اية درجة من اليأس بلغتهـــا مناقشات الانبياء الاسرائيليين في محاولتهم الحفاظ على صورة الههم سليمة من كل أذى . فهنـــا في السبي ، وقد وجه النقد الفارسي كل عين يهودية نحو العقيدة الزردشتية ، نرى نبوة ارض اليهودية Judaic (في عاموس وأشعيـــا وأرميا) تتحـــول الى رؤيا

Apocalypse (تثنية اشعيا حزقيال زكريا) .

زد على ذلك ان جميع الرؤى الجديدة، رؤى ابن الانسان والشيطان ، وكبار الملائكة ، والسموات السبع ، والدينونة ، إنما هي استحضارات فارسية للشعور المشترك بالعالم . وفي سفر اشعيا يظهر قورش نفسه ويُحتفى له بوصفه المسيح . فهل استمد المؤلف العظيم لتثنية سفر إشعيا استنارته من تلميذ زرادشتي؟ وهل من الجائز ان الفرس أعتقوا اليهود بسبب شعورهم بوجود علاقة باطنية بين تعاليم هؤلاء وتعاليم اولئك ؟ وعلى كل حال فإنه من المُحقق ان كلا من الفرس واليهود كانوا يشتركون في عقيدة شعبية واحـدة ، وذلك فيا يتعلق بالاشياء الاخيرة ، وقد احسّوا وعبروا عن بغضاء مشتركة للدينين البابلي والكلاسيكي ، وللكافرين بصورة عامة ، ولم يشعروا بمثل هذه البغضاء نحو بعضهم بعضاً .

وعلى كل حال ، يتوجب علينا ان ننسى النظر الى « العودة من السبي » من وجهة نظر بابل . فالجماهير الكبرى ، وهي جماهير ذات طاقة عنصر قوية ، كانت في الواقع ، بعيدة كل البعد عن هذه الفكرة ، او انها كانت تعتبرها مجرد رؤى واحلام . ولا شك ان طبقة الفلاحين المتماسكة ، وطبقة الحرفيين ، وطبقة الارستقراطية الناشئة ، بقيت خالدة الى السكينة في معاقلها ، وتحت قيادة امير من ابنائها ، رش غالوتا ، الذي كانت عاصمته نهاردي Nehardea . اما اولئك الذين عادوا الى وطنهم ، فكانوا اقلية صغيرة، جمعت كل عنيد ومتعصب. وكان عدد هؤلاء ،رجالاً ونساءً واطفالاً ، لا يتجاوز الاربعين الفاً،وهذا العدد لا يمكن ان يكون الا جزءاً من عشرة او من عشرين من المجموع ، وان اي انسان يخلط بين هؤلاء المستوطنين ومصيرهم ، وبين اليهودية ككل ، فإنه يجب بالضرورة أن يفشل في استقراء المعاني الباطنية لجميع الاحداث التي تلت فيا بعد . فعالم منطقة اليهودية الصغير عاش حياة روحية منعزلة ، اما الامة ككل ، ومع انهـا كانت تنظر الى هذه الحياة باحترام ، فإنها لم تشترك أكيداً او تشارك فيها . وفي الشرق

ازدهرت آداب الرؤى ، ورينة النبوة ، بوفرة وثراء . وكانت هذه الآداب ، شعراً اصيلاً للشعب ، ونحن لا نزال نملك منها تلك التحفة الرائعة سفر ايوب — وهذا السفر اسلامي الطابع ، وهو حتماً ليس بيهودي — بينما انتشرت جمهرة من اساطير هذا الشعب وخرافاته « كجوديت » وتوباط Tobit واشيكار Achicar ، كنوازع غطت جميع آداب العالم « العربي » . اما في منطقة اليهودية فلم يزدهر سوى القانون . فالروح التلمودية تبدو اول ما تبدو في حزقيال ، وامست هذه الروح بعد عام ٤٥٠ جسداً على ايدي النساخ (السوفيريم) الذين كان يرأسهم عزرا . وابتداء من عـــام ٣٠٠ حتى عـــام ٢٠٠ ق . م قام التاناثيم Tannaim (المعلمون) بشرح التوراة وتطوير المشنا . ولم يعطل مجيء المسيح ، ولا تدمير الهيكل هذا العلم التجريدي . واصبحت القدس في نظر المؤمن المتعصب بمثـــابة مكة ، وامسى قرآنه شريعة من القوانين أضيف اليها تدريجياً تاريخ بدائي كامل يتألف من نوازع كلدانية فارسية أعيد تنسيقها وفق الافكار القرّيسية . ولكن لم يكن في هذا الجو مكان لفن دنيوي او شعر او دراسة . فكل مـــا يحتويه التلمود من معرفة فلكية وطبية وفقهية هو حصراً في الأصل من بلاد مـــا بين النهرين . ومن الجائز ايضاً ، انه بدأ في بلاد ما بين النهرين ، وقبل نهاية السبي ، تكوّن النحل الكلدانية — الفارسية — البابلية ، التي تطورت الى تشكل اديان عظيمة ، وذلك في بداية الحضارة المجوسية ، وبلغت ذروتها في تعاليم ماني Mani. « القانون والانبياء » هذان الاسمان يحددان عملياً الفرق بين منطقة اليهودية وبين بلاد ما بين النهرين . وكلا النازعين اتحدا او وُجدا في اللاهوت الفارسي المتأخر زمناً كما وفي كل لاهوت مجوسي آخر ، وهما منفصلان مكاناً في هـذا الموضوع الذي بحثناه . فقرارات القدس كان معترفاً بها في كل مكان ، ولكن العبرة هي فيما كان لاطاعتها من انتشار ونجـــاح . فحتى الفريسيون ، الذين كانوا موضع شكوك وريب ، بينما لم يكن بالامكان سيامة او تكريس أي ربي (معلم) في بابل . وكان جامالييل العظيم ، استاذ بولس ، يرى في اطاعة فتاويه واجتهاداته ، خارج منطقة اليهودية ، علامة من علامات الشهرة . وقد اظهرت الوثائق العائدة

الى العصر القبلي وعصر أسوان مدى الاستقلال الذي كانت تتمتع به حياة اليهود في مصر . فقرابة عام ١٧٠ استأذن اونياس Onias الملك ببنـــاء هيكل ، وفق مواصفات هيكل القدس : متذرعاً بأن الهياكل العديدة ـغير المتوافقة شكلاً : والموجودة هي سبب الخصام والمنازعات بين الطوائف .

وهناك موضوع آخـر تتوجب دراسته . فاليهودية كالفرس ، تزايدت منذ السبي بصورة هائلة تخطت جميع حدود الافخاذ الصغيرة ، والسبب في هذا يعود الى الاعتناقات والانشقاقات المذهبية ـ وهذه هي الشكل الوحيـــد للغزو او الفتح الميسور لامة لا ارض لها ، ولذلك فهو طبيعي وواضح للاديان المجوسية . وهـذا الغزو دفع في الشمال وفي وقت مبكر جداً ، بدولة Adiabene اليهودية حتى بلغ بها القوقاز ، وفي الجنوب تسرب (ربما بمحاذاة الخليج الفارسي) حتى سبأ ، وفي الجنوب كان مسيطراً في الاسكندرية والقيروان وقبرص . وكان اليهود يشغلون معظم الوظائف الادارية المصرية ، والوظائف الادارية في الامبراطورية البارثية.

ولكن هذه الحركة خرجت من بلاد ما بين النهرين وحدها ، وكانت روحها روح رؤيا وليست روحاً تلمودية . اما القدس فكانت لا تزال آنذاك منهمكـة في ابتداع حدود قانونية ضد الكافرين ولم يكن يكفيها ان تتخلى عن التبشير وخلق المهتدين. فلقد سمع احد الفريسيين باستدعاء الملك هيركانوس (١٣٥-١٠٦) الذي اجمع الناس على حبه.، وطلب اليه ان يتخلى عن وظيفة رئيس الكهنة لأن ام هذا الملك كانت في احد الايام في قبضة الكافرين . وهذا هو ضيق افق التفكير ذاته ، الذي اتخذ بين الاخوة المسيحية في منطقة اليهودية ، شكل مقاومـــة التبشير بالانجيل بين الوثنيين . ومثل هـذا الخاطر كان لا يمكن ان يراود اي انسان في الشرق ، ليخطط حدوداً كهذه إذ انها تتناقض وكامـــل فكرة الامة المجوسية . ولكن في هذه الواقعة بالذات كان يكمن التفوق الروحـــاني للشرق المنفسح الوسيـع . فالسنهدرين في القدس، يملك سلطة دينية مطلقة لا تناهض ،

ولذلك كانت سلطة رش غالوتا السياسية وكذلك التاريخية ، أمراً مختلفاً عن تلك تماماً. وقد فشل البحّاثون المسيحيون واليهود على حد سواء في إدراك هذه الاشياء. وعلى قدر ما اعلم ، فأنه لم يلاحظ احد تلك الواقعة الهامة القائلة بأن اضطهاد انتيوخوس أبيفانيس لم يكن موجهاً ضد الديانة اليهودية ، بل إنما كان موجهاً ضد منطقة اليهودية . Judea . وهذا ما يفضي بنا الى واقعة أخرى ذات قيمة اعظم وأهم من تلك الواقعة التي ذكرتها آنفاً :

إن تدمير القدس نزل فقط بجزء جد صغير من الأمة، وهذا الجزء، هو علاوة على ذلك ، كان اتفه الاجزاء قيمة ، روحياً وسياسياً . والقول بأن اليهود قد عاشوا حياة من تشتت وانحلال منذ تدمير القدس ، قول ليس صحيحاً ، فهم قد عاشوا طيلة اجيال (ومثلهم في ذلك مثل الفرس والآخرين) . إن أثر تلك الحرب كان ، بالمثل ، ضئيلاً على اليهودية التي عرفتها منطقة اليهودية وفكرت بها وعاملتها على أساس كونها ذيلاً او ملحقاً . فلقد احست جوارح كل نفس بانتصار الوثنيين وتألمت لتدمير قدس الاقداس ، وانتقمت انتقاماً مريراً لها في الحملة الصليبية لعام ١١٥ ، ولكن المثل الاعلى الذي انتهك ومن ثم زكّي ، كان مثل اليهودية الأعلى وليس مثل منطقة اليهودية الاعلى . لذلك فالصهيونية هي ، في عصرنا كما كانت في عصر قورش ، حقيقة لأقلية صغيرة وضيقة بأفقها الروحي . فلو أنه قد أحسّ بالكارثة على انها « فقدان وطن » (على الشكل الذي تفهمه عقولنا الغربية لهذا الفقدان) لكان بإمكان اليهود ان يغتنموا مئات الفرص التي سنحت لهم عقب عصر ماركوس اوريل ، لاستعادة المدينة (القـــدس – المترجم) . ولكن هذا الأمر كان سيتعارض والمفهوم المجوسي للأمة الذي كان شكله العضوي المثالي هو الكنيس ، الاتحاد المجرد – « كالكنيسة المنظورة » الكاثوليكية المبكرة والاسلام – وكان استئصال شأفة منطقة اليهودية وتدمير روحها العشائرية ، هو ، حصراً ، الذي حقق تماماً ولأول مرة هذا المثل الأعلى .

فحرب فاسبسيان التي شنت على منطقة اليهودية كانت تمثل انعتاقـــاً وتحررا

اليهودية . فلقد وضعت اولاً نهاية لمطالبة شعب بمنطقة صغـــيرة كي يصبحوا امة أصيلة ، واخرست مزاعم روحـــانية عارية ساذجة كانت تتطلع الى التكافؤ والمساواة وحيـــاة نفس الكل الكامل (اليهودية - المترجم) ، وامسى بحث الاكاديميات الشرقية ولاهوتها وصوفيتها حقاً مكتسباً من حقوقهم ، وهكذا فان القاضي كارنا Karna مثلاً - وهذا معاصر تقريباً ليوليان وبابنيان - قـد صاغ في اكاديمية نهارديا اول قانون مدني . ومن ناحية ثانية ، انقذت حرب فاسبيان هذا الدين من اخطار التشكل الكاذب الذي كانت المسيحيـــة في تلك الأيام بالذات ترزح مستكينة تحت وطأته . وقد وجـــد منـذ عام ٢٠٠ ق. م آداباً يهودية نصف هيلينية . فكتاب « الواعظ » (Ecclesiastesi, Koheleth) يحتوي على افكار لا ادرية . ويتبـع هـــذه حكمة سليمان ، والمكابيون والثيودسيون ، ورسائل ارستياس الخ .. وهناك اشياء اخرى كمجموعة ميندار Menander « من المبادىء المقررة » والتي يستحيل علينا ان نقرر ما إذا كانت هذه مجموعة يهودية ام يونانية . وقد وجد عام ١٦٠ كهنة بلغت روحهم درجة من الهيلينستية حيث اخذوا معها يكافحون الدين اليهودي الصحيح ، وجاء فيا بعـــد حكام يهود كهركانوس وهيرودوس ، قاموا بالقتال ذاته بوسائل سياسية . وقد زال هـــذا الخطر نهائياً عام ٧٠ ب. م.

وكانت تسود القدس في ايام المسيح ثلاثة تيارات ، نستطيع ان نصف اولها بالآرامي بصورة عامة ،وكان يمثل هذا التيارالفريسيون ، ومثل ثانيها الصدوقيون ويمثل ثالثها في الآسينيين . ومع ان مضامين هذه الاسماء متنوعة ، وبالرغم من أن البحث من يهودي ومسيحي يحتوي على أشد وجهات النظر تبايناً فيها ، غير انه يجوز لنا ان نقول ، على كل حال ، بأن اول هذه التيارات الثلاثة قـد وجد في أشد نقائه في مذهب منطقة اليهودية ، ووجد الثاني في المذهب الكلداني ، امـــا الثالث فكان في المذهب الهيليني . فالاسينيون (وهم فصيلة تقريباً) هم بدء مذهب

متوا في شرقي آسيا الصغرى. اما الصدوقيون فهم ، بالرغم من انهم ظهروا في القدس كجماعة صغيرة مميزة ـ ويوسيفوس يقارنهم بالابيقوريين ـ فأنهم ، فرداً وجماعة ، آراميون في نظراتهم في ميدان الرؤية وفلسفة الحشر والنشور ، وهناك عامل خاص يجعل منهم ، دستوفسكيي هذه الحقبة المبكرة . ومكانة هؤلاء من العبريين هي كمكانة يوحنا من بولس ، او بونداهيش من فندرداد في العالم الفارسي . وعندهم الرؤى عنصر شعبي ، والكثير من سماتها هي ملكة روحية مشتركة في طول العالم الآرامي وعرضه . اما الفريسية التلمودية والأفستية فهي حاجبة مانعة ، وتحاول ان تنفي كل دين آخر بتزمت لا يعرف حلا وسطاً .

اما الأسينيون فهم يظهرون في القدس كفصيلة من رهبان او نساك كالفيثاغوريين الجدد . وكانوا يمتلكون مخطوطات ونصوصاً سرية . ولقد كانوا حسب المفهوم العريض الواسع ، بمثلين للتشكل الكاذب، ولذلك اختفوا كلياً من اليهودية بعد عام ٧٠ مسيحية ، بينما كانت الآداب المسيحية في هذه المدة بالذات تصبح مجرد آداب أغريقية ـ وليس ابدا بسبب هذا الواقع، ترك اليهود الغربيون المتأغرقون مذهب منطقة اليهودية واعتنقوا تدريجياً المسيحية ، كي ينسحبوا الى شرق مذهب المنطقة اليهودية .

ولكن الرؤيا ايضاً ، والتي هي شكل تعبير لجنس بشري لا مدن له ويهاب المدن ، لاقت نهايتها داخل الكنيس، وذلك بعد ردة فعل رائعة ومدهشة نشأت عن باعث الكارثة العظمى ومثيرها . فعندما اصبح واضحاً ان تعاليم المسيح لن تؤدي الى إصلاح مذهب منطقة اليهودية ، بل ستنتهي الى دين جديد، وعندما أدخلت قرابة عام ١٠٠ ب.م صيغ اللعنات الموجهة الى اليهود ـ المسيحيين ، عندئذٍ استقر ما تبقى من الرؤى من عناصر وجود داخل الكنيسة الشابة .

ان الامر الذي لا نظير له ، والذي سما بالمسيحية فوق جميع اديان ربيــــع الحضارة الغني ، هو شخصية المسيح . فليس بين إبداعات هــذه الحقبة إبداع واحد يمكن ان يوضع جنباً الى جنب وهذه الشخصية . ولا شك ان أي إنسان كان يقرأ آنذاك او يصغي الى قصة آلام المسيح التي كانت لا تزال حديثة العهد والى رحلته الاخيرة الى القـدس ، والعشاء القلق الأخير ، وساعات اليـــأس في الجثمانية ، والموت على الصليب – أقول بأن أي إنسان كان يقرأ او يصغي لمثل هذه فيجب ان تبدو في ناظريه جميع الأساطير والمغامرات الدينية المـأثورة والأتسيه والاوزيريسية أليفة وفارغة . فالموضوع هنا ، ليس موضوع فلسفة . وما تفوه به المسيح من كلام وحفظته ذاكرة الكثيرين من المؤمنين حتى مر في مرحلة متقدمة من العمر ، انما كان كلام طفل عن وسط عالم غريب هرم ومريض. فكلامه لم يكن يستعرض استقصاءات وقضايا ومناقشات اجتماعية . فلقـد كانت حياة اولئك الصيادين والعمال على ضفاف بحيرة طبريا بمثابة جزيرة هادئة من غبطة ونعيم في وسط عصر تيبريوس العظيم ، وبعيدة كل البعد عن التاريخ وكل احداثه ، وبريئة غافلة عن افعال الواقعة ، تتلألأ حولها المدن الهيلينستية بمسارحهـا وهياكلها ومجتمعها الغربي المتأدب ، ولَهْو دهمائها الصخّاب وفيالقهـا الرومانية وفلسفتهـا الأغريقية . وعندما غزا الشيب رؤوس اصدقاء المتألم وتلاميـذه ، وأمسى أخوه رئيساً لجماعتهم في القدس ، وضعوا معاً ، من الروايات والقصص والاحـــاديث الشائعة بين طوائفهم الصغيرة ، سيرة شخصية للمسيح ، وباسلوب جذاب باستهوائه الباطني الى درجة ابدع معها شكل عرض خاص به ، ولا تمتلك الحضـــارات

الكلاسيكية والعربية مثلاً له – وأعني بهذا – الانجيل. فالمسيحية هي الدين الواحد في تاريخ العالم الذي اصبح فيه مصير إنسان الحاضر الفوري شعاراً ومركز ثقل لكامل الخليقة.

وفي تلك الايام انتاب العالم الارامي طولاً وعرضاً انفعـــال غريب ومشابه للانفعال الذي خبره العـــالم الجرماني قرابة عام ١٠٠٠. فالنفس المجوسية قـــد استيقظت. والجوهر الذي كان يكمن في الاديان النبوية كأنه هاجس او اختلاج، وعبر عن نفسه في زمن الاسكندر بخطوط ميتافيزيقية عريضة، بلغ الآن مرحلة الاكتمال. وقد ايقظ هـــذا الاكتمال، وبشدة لا توصف، الشعور البدائي بالخوف. فولادة « الأنا »، وقلق العالم المنطبق عليها، هي احد الاسرار النهائية لجنس البشري والحياة المتحركة بصورة عامة. فهناك يقف امام الكون الاصغر كون اكبر منفسح وسيع مُرهب قهّار، وإنه لهواة من اجنبي غريب، ووجود يبهر البصر، ونشاط يرعب « الانا » الصغيرة المتوحدة فيعيدها داخل ذاتهـــا. فالبالغ سن الرشد لا يخبر حتى في احلك الساعات من حياته رهبة أو خوفـــاً، كالخوف الذي يركب أحياناً الطفل في أزمة اليقظة.

غلّف هـذا القلق المميت الحضـارة الجديدة بجلبابه الرهيب. فأخـــذت العيون، في مطلع صباح الشعور المجوسي بالعالم هذا، هذا الشعور الهيّاب المتردد والجاهل بذاته، ترى ان نهاية العالم امست وشيكة التحقق والوقوع. وهـذا هو أول فكر يسلك بكل حضـارة حتى اليوم الى معرفة ذاتهـــا ولم ترتعد سوى النفوس الأضحل امام الرؤى والعجـائب واللمحـــات الى باطن الاشياء. وقـد اصبح الناس الآن يعيشون ويفكرون فقط وفق نهج يتـــألف من صور وحي ورؤى. وامست الواقعة مظهـراً. وأخذ الواحد يحدث الآخر بغموض وإبهام عن رؤى غريبة مرعبة، وتُستقرأ من نصوص مُقنّعة غـامضة، وتُتقبّل فوراً بقناعة باطنية فورية. وكانت هذه الكتابات تنتقل من طائفة الى طـــائفة، ومن قريـــة الى قرية، ومن المستحيل علينا ان نخصّ بها ديناً واحـداً مميـــزاً وخاصاً. فلونها فارسي وكلداني ويهودي، لكنها امتصت جميع ما كان يدور في

أذهان الناس . فالكتب القانونية الدينية هي كتب قومية ، بينما ان آداب الرؤى والوحي هي آداب امية بكل ما لهذه الكلمة من معنى ومفهوم . فهذه الآداب قائمة وموجودة وتبدو كأن لا مؤلف لها او واضع . ومحتواها وجراح صائغ - فهي تُفهم اليوم على هذا الشكل ، وفي الغد على شكل مغاير له . ولكن هذا لا يعني أنها شعر - فهي ليست شعراً . فهذه الابداعات تماثل الاشكال المسرعة لسقائف الكاتدرائيات الرومانسكية في فرنسا ، والتي هي ايضاً ليست فنا ، بل إنها رُعب حُوّل الى حجر . وكل انسان يعرف اولئك الملائكة والشياطين ويدوي بصعود الجوهر الالهي الى السماء وهبوطه الى الجحيم ، ويعلم بآدم الثاني وبمبعوث الله ، وبالقادي للايام الاخيرة ، وبابن الانسان ، وبالمدينة الخالدة . وبالديمونة الاخيرة . فلقد كان من الممكن ان تُعرّف وتناقش العقائد المختلفة في المدُن الاجنبية ومن قبل من يحتلون المراكز العالية في الكهنوت اليهودي او الفارسي ، مناقشة حسية ، ولكن هنا بين طبقات جماهير الشعب الدنيا ، لم يكن موجوداً ، من الوجهة العملية ، دين مُعين ، بل كان يوجد تَدَيُّن مجوسي عام ملأ جميع النفوس ، وربط ذاته الى ومضات من رؤى من كل أصل يمكن ان يتصوره الخيال . فاليوم الاخير وشيك . والناس ينتظرونه مترقبين وعالمين بأن الـ« ممو » الذي تتحدث عنه جميع الرؤى سيتجلى ويظهر . فأطلّ الانبياء وخرجوا الى ميدان الوجود ، وتزايد اكثر فأكثر عدد الطوائف الجديدة وتألفت جماعات كانت تؤمن بأنفسها بأنها اما وجدت فهماً افضل للدين التقليدي ، وإما وجدت الدين الحقيقي . ونشأ في هذا الزمن المُدهش بقلقه المتزايد ابداً ، وفي الاعوام المقاربة لعام ولادة المسيح ، اقول نشأ الى جانب عدد لا نهاية له من طوائف وملل ، دين فداء جديد ، ألا وهو دين المنديين Mandaean ، والذي لانعرف اي شيء عن مؤسسه او اصوله . فدين المنديين ، بالرغم من البغضاء التي يكنها لمذهب منطقة اليهودية ، مذهب القدس ، وتفضيله الاكيد لفكرة الفداء الفارسية ، فإن هذا الدين يبدو انه كان من المعتقدات الشعبية اليهودية السورية .

وكل يوم يطل علينا يزودنا بنبذ من وثائق رائعة لهذا الدين ، وهذه الوثائق

تُرينا بصورة دائماً الـ « هو » إبن الانسان الفـــادي الذي أرسل به ليغوص في الاعماق ، والذي يجب هو نفسه ان يُفتدى، وهو هدف ترقب الناس ومطمحهم. فالاب في كتاب يوحنا ، هذا الاب المترفّع عالياً في بيت الاكتمال ، والمُسْتَحِمّ بالنور يقول لابنه الوحيد : « يا بُني كن لي سفيراً ! واذهب الى عـالم الديجور ، حيث لايضيء فيه شعاع واحد من نور . » ويُنبه الابن أباه بقوله : « يا أبت بماذا اخطأت حتى ترسل بي الى الظلمات ؟ » ومن ثم يسترسل : » بدون خطيئة أهبط ، وليس هناك من خطيئة او عيب فيَّ . ونحن نرى هنـــا طوابع جميع الاديان النبوية العظمى ، وكامل لمحات الرؤى التي جمعت فيما بعد في اسفار الرؤى ، هي الاسس والدعائم (ـ لهذا الدين المترجم) . ولم تصل نفثة واحدة من نفثـــات الفكر والشعور الكلاسيكيين هذا العالم المجوسي السُفلي (الطبقات الشعبية الدنيا ـ المترجم) .

وليس هناك من شك في اننا قد فقدنا بدايات هذا الدين الجديد فقـــداناً لا إسترداد لها بعده .

ولكن تطالعنا شخصية تاريخية واحدة ومذهلة في امتيازها من دين المتدين ، شخصية مأساوية القصد والنهاية كالمسيح نفسه ـ انها يوحنا المعمدان . فهو وقد تحرر تقريباً من ربقة مذهب منطقة اليهودية ، انطلق بنفس تفيض بكراهية روح القدس ككراهية النفس الروسية البدائية لبطرسبورغ الملك ، إنطلق لينذر بنهاية العالم ويبشر بقدوم بارناشا Barnacha ، ابن الانسان ، الذي لم يعد مدار حنين اليهود الطويل الى المسيح القومي ، بل اصبح حامل السنة اللهب التي ستـأتي على العالم . الى هذا الانسان جاء المسيح واصبح تلميذه ، حيث كان في الثلاثين من عمره عندما استيقظ على رسالته . ومن هذه السن فصاعداً ملأت الرؤى واعلان الالهي ، وخاصة عالم فكر الدين « المتديني » كل خلية في كينونته . امـا العالم الآخر الذي كان مترامياً من حوله ، فكان في نظره عالمـاً كاذباً مزوراً أجنبياً وعاطلاً من كل معنى . وايمانه بأنه الـ « هو » الذي جاء ليضع نهاية لهذه الحقيقة

اللاحقيقية ، كان بمثل قناعته الرائعة البديعة ، وهكذا انطلق كمله يوحنا للكون نذيراً. ونحن لانزال حتى الآن نرى في اقدم الاناجيل التي أدخلت على العهد الجديد، ومضات من مرحلة حياة المسيح هذه ، حيث لم يكن بشورة وعيه غير نبي .

ولكن كانت هناك لحيظة راوده فيها خاطر ثم اصبح قناعة وطيدة وسيخ قناعة « بأنك انت نفسك « الـ هو » . فضمت جوانحه هذه القناعة وحافظت عليها سراً ، بالكاد اعترفت به حتى له ، وفقط فيا بعد أطلع أقرب اصدقــائه ورفاقه على ما هو قانع به ومؤمن ، وهكذا شارك هؤلاء ، بكل هدوء، المسيح رسالته المباركة ، وأبقوها بعيدة عن كل دعاية واعلان ، حتى تجرأوا اخيراً على الكشف عن حقائقها امـام انظار كل العالم بواسطة رحلتهم الخطيرة الى القدس . وإذا كان هناك من سحابة تغطي كامل نقاء فكره وشرفه ، فإنه ذاك الذي كان يراوده بين فينة واخرى في عما إذا كان قد خدع ذاته وضللها ، وهو شك تحدث عنه تلامذته فيا بعد بجلاء ووضوح تامين . وعاد المسيح الى بلدتـــه وسارع اليه أهل القرية زرافات زرافات ، وتعرفوا فيه على النجّار السابق الذي ترك عمـــله فاستشاطوا غضباً وبدت عائلته ـ امه واخوته واخواته ـ خجولين به وكادوا يسجنونه . وعندما سُلطت عليه جميع هذه الانظار المألوفة لديه اعـــترته حيرة وأرتباك وأحس بالقوة السحرية تهجره وتتخلى عنـــه (انجيل مرقص أصحاح خمسة) . وفي حديقة الجثمانية اختلط الشك بالرعب مما هو آت داخل نفسه ، وحتى وهو على خشبة الصليب سمعه الناس يصرخ معاتباً الله لتخليه عنه .

وحتى هذه الساعات الأخيرة عاشها المسيح عيشاً مطلقاً داخل شكل عالم رؤياه هذا العالم الذي كان وحده حقيقياً دائماً في نظر المسيح . وما كان في نظر الحرس الروماني تحت صليبه واقعاً وحقيقياً ، كان في نظره موضوع عجيبة معدومة الحيلة ، ووهماً قد يتلاشى في كل لحظة ويمسي عدماً دون تحذير او انذار . فالمسيح كان يمثلك النفس النقية غير المزيفة ، نفس الارض التي لاتقوم على تربتها بلدة او مدينة. فحياة المدن وروحها كانتا أمرين غريبين عنه غرابة كلية . وهل رأى المسيح حقاً

القدس شبه الكلاسيكية ، التي دخلها ممتطياً أتانه بوصفه ابن الانسان وهـــل فهم طبيعتها التاريخية ؟ وهذا هو الذي يهز مشاعرنا ويأخذ بمجامع افئدتنـــا في الايام الاخيرة للمسيح – تصادم الوقائع بحقائق عالمين لن يفهم ابداً احدهما الآخر، وعدم إدراك المسيح المطلق لما كان يجري من حوله .

وهكذا انطلق يبشر برسالته دون تحفظ في طول البلاد وعرضها . ولكن هذه البلاد كانت فلسطين . وهو ولد في الامبراطورية الكلاسيكية ، وعـــاش تحت رقابة أعين مذهب منطقة اليهودية في القدس ، وعندمـــا تطلعت نفسه ، وهي لتوّها مدركة الوحي الاليم لرسالتها ، حولها جوبهت بواقعي الدولة الرومـــانية والفريسية . ونفور المسيح واشمئزازه من المثل الاعلى المتصلب الاناني الفريسية ، هذا الاشمئزاز الذي يشاركه فيه جميع المتدينين ، ولا شك الفلاحين اليهود ايضاً في الشرق المنفسح الوسيع ، إنما هو الطابع العام لجميع احاديثه وعظاته بداية وختاماً . وقد اغضبه ان يرى ان هذا الفقر ، من الصيغ الباردة القلب المتحجرة الاحاسيس ، هو الطريق الوحيد الى الخلاص . وغضبه هذا هو حتى هذا الحدايضاً نوع آخر من ورع كانت قناعته تؤكده ضد المنطق التلمودي . وكان الموضوع حتى الآن يتمثل في القانون ومناهضته للانبياء . ولكن عندمـــا اقتيد المسيح وجيء به امام بيلاطوس ، عندئذ أصبح عالم الحقائق وجهاً لوجه وعالم الوقائع ، وكانت جوانح هذين العالمين تصخب بعداوة حقود لا ترحم يكنهـــا كل منهما للآخر . وانه والحق لمشهد مرعب رهيب بوضوحه ، مشهد ساحق ماحق برمزيته ، مشهد لم يشهد له التاريخ من قبل ومن بعـد مثيلاً له . فالنزاع الذي يكمن على جذور كل حياة متحركة منذ بدايتها حتى نهايتها ، بمقتضى كينونتهـــا بالذات ، وبمقتضى امتلاكها وجوداً ودراية معاً ، قد اتخذ هنا اسمى شكل ، بمكن إدراكه اطلاقاً ، المأساة الانسانية . ففي سؤال الحاكم الروماني : « مـــا هي الحقيقة ؟» (ما هو الحق ؟) – وهاتان الكلمتان هما وحدهما الصافيتان عنصراً في كل كتاب العهد الجديد الإغريقي – اقول في هذا السؤال يكمن كامل مغزى التاريخ ،

وشرعية العمل المطلقة ، وهيبة الدولة ومكانة الحرب والدم وجميع جبروت النجاح والاعتزاز بالاهلية السامية الرفيعة الشأن . ولم يكن حقاً فم المسيح ، بل كان شعوره الصامت هو الذي اجاب على سؤال بيلاطوس بسؤال آخر حاسم في كل اشياء الدين وأموره ، الا ما هو : ما هو الواقع ؟ فالواقع كان كل شيء في نظر بيلاطوس ، لكنه لم يكن شيئاً في نظر المسيح . ولو كان دين المسيح بالفعل أي شيء من تدين مجرد لما كان بمستطاعه ابداً ان يقف في وجه التاريخ وقواه ، او ان يجلس ليقضي في الحياة الفعالة قضاءه ، واذا ما فعل ذلك فإنه لا يعود دينا بل يُخضع ذاته لروح التاريخ .

ان مملكتي ليست من هذا العالم . هذه هي الكلمة التي لا تحتاج الى صقل او شرح او تعليق ، والتي يتوجب على كل انسان ان يضبط المجرى الذي وضعته فيه الولادة والطبيعة . فلا يوجد هناك حلّ وسط صادق وشريف بين كائن يستخدم شعوره الواعي ، وبين شعور واع يخضع الكائن له ، ولا بين النبض والتوتر ، ولا بين الدم والذهن ، ولا بين التاريخ والطبيعة ، ولا بين السياسة والدين فهنا على المرء ان يختار فقط هذا او ذاك منهما . فرجل الدولة قد يكون عميق التدين متين الدين ، والانسان التقي الورع يستطيع ان يموت في سبيل بلاده ـ ولكن يتوجب عليهما ان يعرف كل منهما في اي جانب يقف حقا . فالسياسي بالفطرة يحتقر عملية التفكير الباطني للايدلوجي والفيلسوف الاخلاقي في عالم الواقعة ـ واحتقاره هذا في محله . وكل طموح وتتال في عالم التاريخ هما خطيئتان في نظر المؤمن ولا قيمة دائمة لهما ـ وهذا ايضا مصيب في رأيه . والحاكم الذي يرغب في ان يُحسّن الدين باتجاه أغراض سياسية ومقاصد عملية هو اخرق الرأي مجنون . والواعظ الاجتماعي الذي يحاول ان يدخل الحقيقة والبرّ والسلام والغفران في عالم الواقع هو مجنون ايضا . ولم يوجد حتى الآن ايمان بدّل العالم او غيّره ، كما لا توجد واقعة تستطيع ان تفند الايمان او تدحضه . وليس هناك من جسر يربط بين الزمان الاتجاهي والابدية المعدومة الزمان ، او بين مجرى التاريخ وبين وجود

نظام الهي للعالم حيث تشير في تركيبه كلمة « العناية الالهيـــة » او « الناموس » الى شكل السببية (العلية) . وهذا هو المعنى النهائي لتلك اللحظة التي جعلت المسيح وبيلاطوس يقفان وجها لوجه . ففي العالم الواحد تسبب العامل التاريخي ، الروماني ، بصلب الجليلي ــ وهذا كان مصيره . وفي العالم الآخر كان محكوما على رومـــا بالدمار والهلاك ، واصبح الصليب عهداً للفداء ــ هـــذه كانت « ارادة الله » .

ان الدين هو ميتافيزيقا وليس اي شيء آخر Credo quia absurdum — وهذه الميتافيزيقا ليست بميتافيزيقا المعرفة والمنافسة والدليل (التي هي جميعاً مجرد فلسفة أو تعلم) بل انها ميتافيزيقا قد عيشت وخبرت ــ أي انها غير قابلة للتفكير بوصفها قناعة ، وبوصف ما فوق الطبيعي واقعـــة ، والحياة وجوداً في عالم ليس واقعياً بل حقيقي . ولم يعش المسيح لحظة واحدة في اي عالم آخر غير هذا العالم . ولم يكن هو داعية اخلاقية ، فان يرى المرء في الدعوة الى الاخلاق الهدف النهائي للدين ، يعني ان يكون مثل هذا جاهلاً بماهية الدين . فالدعوة الى الاخلاق هي عصر التنوير في القرن التاسع عشر ، وهي دعوة مادية فيها شفقة واحسان وكرم . اما أن نعزو مقاصد واهدافاً اجتماعية الى المسيح ، فهذا كفر وتجديف .

وما كان يتفوه به احياناً من كلمات ذات نوع من طابع اجتماعي ، فانهـــا في حالة صحة نسبتها اليه ، وليس بمجرد عزوها اليه ، هي كلمات تتجه فقط نحو تهذيب وتثقيف وترقية . وهذه لا تحتوي اي شيء مهما كان نوعه من العقيدة الجديدة ، وتشتمل على امثلة عامة كانت من النوع الشائع والمألوف في ذلك العصر . وتعاليمه لم تكن اعلاناً عن شيء ما عدا عن هذه الاشياء الاخيرة التي كانت صورها تملأ دوماً عليه نفسه ، كفجر الدورة التاريخيـــة الجديدة Age ، وظهور السفراء السماويين ، والدينونة الاخيرة ، وسماء وارض جديدتين . ولم يكن لدى المسيح اي مفهوم آخر غير هذه للدين ، كما وأنه لا يوجد غيرها في اية حقبة تاريخيـــة يسودها شعور عميق . فالدين هو ميتافيزيقا اولاً واخيراً متنا وحاشية ، وهو محبة

عالم آخر ، ودراية او معرفة داخل عالم تضيء فيه دلائل الحواس صدور الصورة فقط . وهو الحياة داخـــل ومع الشديد الحساسية والمرهف الشعور . وعندما تكون طاقـة هذه الدراية ، او حتى المقدرة على الايمان بوجودها غير موجودة فعندئذ يكون الدين الحقيقي قد بلغ نهايته . « ان مملكتي ليست من هذا العالم » والمرء الذي يستطيع ان يحلق داخل الاعماق التي تنيرها هذه الومضة هو وحده القادر على ادراك الاصوات التي تتصاعد منها . وفي حقبات المدنية المتأخرة زمناً ، حيث لم يعد من المستطاع النظر الى داخـــل الاعماق ، قام الناس بقلب فضلات التدين على العالم الخارجي واستبدل الدين بالمذاهب الانسانيـــة Humanities ، والميتافيزيقيا بالدعوة الى الاخلاق والآداب الاجتماعية .

غير أننا نجـــد في المسيح عكس هذا تماماً فهو القائل : « اعطوا ما لقيصر لقيصر » وهذا يعني « وفقوا بين انفسكم وقوى عالم الواقع ، وتمسكوا بالصبر ، وتأملوا ولا تسألوا عما اذا كان هـــذا « عدلاً » . فالمهم هو خلاص النفس وحده . اما قوله : تأملوا زنابق الحقل ! » فهو يعني : لا تهتموا بالثراء والفقر ، فكلاهمـــا يقيدان النفس ويشدانها الى الاهتمام بأمور هذا العالم . وقوله : « لا يستطيع الانسان أن يخدم الله ومامون معاً » ــ والمسيح يعني بمامون كامل الواقع . وانه لمن الضحالة ، لا بل من الجبن أن نجرد بالمناقشة والجدل الاقوال الانفـــة الذكر من مغزاها الأعظم . والمسيح كان لا شك لن يشعر بأي فرق اطلاقاً بين أن يعمل الانسان لزيادة ثروته او ان يعمل من أجل تأمين الرخـاء لكل فرد . فعندما ارعبته الثروة ، وعندما رفضت الطائفة البدائية في القدس ــ وهذه كانت تمثل فصيلة ذات نظام صارم وليست نادياً اشتراكياً ــ اقول رفضت الملكية العامة ، فان العاطفة التي حركتها نحو هذا الرفض كانت العاطفة المناهضة تماماً للعاطفة « الاشتراكية » فقناعة هذه الطائفة لم تكن منصبة على أن الوضع المنظور للاشياء هو كل شيء ، بل على أنه لا شيء اطلاقاً . وهي لم ترتكز على الرغبة في الهناء والرخاء في هذا العالم ، لكنها ارتكزت الى احتقاره بلا تحفظ او

شروط . نعم هناك شيء ما يجب أن يوجد دائماً للانطلاق ضده ، ولاحباط الثراء الدنيوي ، وهنا نعود ثانيـــة الى التباين القائم بين تولستوي ودستوفسكي ، فتولستوي ربيب المدينة والغربي ، لم ير في المسيح سوى المصلح الاجتماعي ونظراً لعجزه الميتافيزيقي - وهو بهـــذا كالغرب كله الذي لا يستطيع أن يفكر الا بالتوزيع وليس بالنبذ او الانكار ابداً - قد ارتفع بالمسيحية البدائية الى مرتبة الثورة الاجتماعية . اما دستوفسكي الذي كان فقيراً ، لكنه كأن في ساعات معينة قديساً تقريبا ، فانـــه لم يفكر ابداً بالاصلاحات الاجتماعية - فما هي الفائدة المتوقعة لنفس الانسان من الغاء الملكية ؟

- ٧ -

وبينا كان تلاميذ المسيح على تلك الحال من الذهول الصاعق الناجم عن النتائج المرْعبة لرحلة القدس ، انتشرت في وسطهم ، بعد ايام قليلة اخبار قيامته وتجليه . وتأثير هذه الانباء على نفوس كهذه وفي اوقات كتلك ، لا يمكن ان يكون لها اكثر من جزء من صدى في احساسات جنس بشري متأخر زمناً . وقد عنت هذه الانباء التحقق الفعلي لجميع رؤى ذاك الربيع الحضاري المجوسي ووحيه ، - وعي نهاية الدهر الحاضر مطبوعة بصعود الفادي المُفْتَدى ، آدم الثاني سااوشيانت Saoshyant ، اخنوخ ، بارناشا Barnasha ، او اي اسم انسان آخر يتصل به « الـ. هو » في مملكة النور ، مملكة الآب . وبهـذا اصبح المستقبل المُتَنَبأ به ، ودهر العالم الجديد ، و« مملكة السماء » موجودة فوراً . وشعروا بأن نفوسهم بلغت النقطة الحاسمة في تاريخ الفداء .

وهذه القناعة حولت شكل نظرة هذه الدوائر الصغيرة الى العـالم تحويلاً كلياً تاماً . وانسحبت تعاليمه التي تدفقت بهـا طبيعته الوديعة النبيلة على ذاك الشكل البديع الرائع ، الى مؤخرة الصورة ، واحتلت محلها التعاليم الصادرة « عنه » - كما

وضغط شعوره الباطني بالعلاقة بين الله والانسان ، وبإحساسه بالمعنى السامي للأزمنة ضغطاً مستنفداً وعرّفت بكلمة محبة — . وهو ، بوصفه القائم من بين الاموات ، قد اصبح في نظر تلاميذه شخصية جديدة في الرؤيا ومن الرؤيا (وما هو اكثر من ذلك) أهم شخصية فيها وآخرها . ولكن بهذا اتخذت صورتهم المستقبل شكلاً بوصفه صورة لذاكرة . والآن كان هذا شيئاً ما ذا اهمية حاسمة تماماً ، شيئاً ما لم يسمع به عالم الفكر المجوسي ابداً — انه نقل واقع عيش وتُخبر الى مستوى القصة السامية نفسها . فانطلق اليهود (ومن بينهم الشاب بولس) والمندين (ومن بينهم تلامذة يوحنا المعمدان) يناهضون ويكافحون بانفعال هذه القصة ، وجعلوا من يسوع « مسيحاً مزوراً » كذلك الذي تحدثت عنه النصوص الفارسية الابكر زمناً . فالمسيح « الـ هو » في نظرهم كان لايزال مجيئه مترقباً من بعيد ، اما في نظر الطائفة فانه « الـ هو » قد جاء ، ألم يروه وعاشوا معه ؟ اما نحن فيتوجب علينا ان نطرق هذا المفهوم دونما تحفظ ، وذلك اذا ما اردنا ادراك التفوق الهائل الذي كان يحظى به في تلك الايام . فهنا نرى بدلاً من لمحة غير واثقة الى البعيد ، حاضراً ملزما مرغماً ، وبدلا من الترقب المرعب لقناعة محررة ، ونشاهد بدلا من اسطورة مصيراً انسانيا عيش وشورك فيه — حقا ان هذه البشائر سارة تلك التي جرى الاعلان عنها .

ولكن سارة لمن ؟ فحتى في الايام الاوائل انبعثت القصة التي حددت كامل مصير الاعلان الالهي الجديد . فيسوع واصدقاؤه كانوا يهوداً بالولادة ، ولكنهم لم يكونوا ينتمون الى منطقة اليهودية . وهنا في القدس كان الناس يترقبون مسيحا ينطبق على ماجاء في كتبهم المقدسة مسيحاً مقدراً لهأن يظهر للشعب اليهودي بمفهومه المشائري القديم ، ولهذا الشعب وحده . لكن بقية العالم الآرامي كلها كانت تنتظر مخلص العالم ، الفادي ، وابن الانسان ، شخصية جميع آداب الرؤى ، أكانت هذه الآداب قد كتبت بمصطلحات يهودية أوفارسية او كلدانية أم مندية . فموت المسيح وقيامته كانا من وجهة نظر واحدة يمثلان حدثين محليين فقط ، لكنهما يمثلان من وجهة نظر

اخرى تبدلا لعالم . وذلك لان اليهود كانوا في كل مكان آخر ، غير القدس ، امة مجوسية لا وطن لها او وحدة مولد ، اما القدس فقد استمسكت بشدة بالفكرة العشائرية . والصراع لم يكن يدور حول التبشير بين اليهود : او « التبشير بين الامميين » فاسبابه قد ذهبت الى اعمق من هذا بكثير . وقد كان اصلا لكلمة « رسالة » هنا معنى مزدوج . فمن وجهة نظر منطقة اليهودية لم يكن هناك أصلا من حاجة لتجنيد مسيحيين ـ بل على العكس من ذلك تماماً إذ ان هذا الامر يتناقض وفكرة ـ المسيح . وكلمتا «عشيرة» و «رسالة» هما بالتبادل كلمتان مطلقتان في مضيهما . فما كان على ابناء الشعب المختار ، وخاصة الكهنة منهم ، الا ان يقنعوا انفسهم بأن ما كانوا يتوقون اليه قد تحقق الآن . ولكن ما عناه البعث للأمة المجوسية المرتكزة على الاجماع او طائفة الشعور فكان يمثل حقيقة كاملة مؤكدة ، والاجماع على موضوع هذه الحقيقة وضع مبدأ الامة الحقيقية الذي كان من المتوجب عليه بالضرورة ان يمتد ويتوسع الى مدى يستوعب معه جميع المبادىء الاقدم وغير الكاملة مفهوماً « الراعي وخرافه » كان الصيغة لامة العالم الجديد . فأمــة الفادي كانت تنطبق على الجنس البشري ، ولذلك فعندما نمسح التاريخ المبكر لهذه الحضارات بنظراتنا ، نشاهـد ان المشادات التي كانت تجري في مجمع الرسل ، قد مُرَّت قبل خمسماية عام بواسطة الوقائع . فيهودية ما بعد السبي (باستثناء يهودية منطقة اليهودية المستقلة والقائمة بذاتها) قد جندت ، بصورة واسعة ، كما جند الفرس والكلدان وآخرون غيرهم ، اتباعاً من بين الوثنيين ابتداء من تركستان حتى قلب افريقيا ، وذلك بغض النظر عن الوطن او الاصل . وعلى هذه الحقيقة لا يختصم اثنان ولا تتناطح عنزتان . فلم يسبق ابداً ان راود هذه الطائفة اي خاطر بدعوها لتكون أي شيء آخر غير ما كانته فعــلا . وهي نفسها كانت نتيجة لوجود قومي في حالة من تشتت وانحلال . ولقــد كتبت آداب الرؤى ، بأسلوب مضاد تماماً لاسلوب النصوص اليهودية القديمة ـ هــذه النصوص الــتي كانت كنزاً يُصان ويحافظ عليه بحذر وعنــاية ، وقد حفظ الـ Halakha الربيون ـ الحاخاميون وصانوها بأنفسهم ـ اقول كتبت آداب

الرؤى باسلوب يستهدف ايصالها الى كل النفوس كي توقظها ، وكي تصيب مسكنا من كل نفس .

ومن السهل علينا ان نرى اياً من هذه المفاهيم كان مفهوم اقدم من المسيح من اصدقاء ، وذلك لأن هؤلاء قد اجتمعوا بوصفهم طائفة الأيام الاخيرة (العالم - المترجم) في القدس وكانوا يترددون على الهيكل . فالنسبة الى هؤلاء البسطاء من القوم ، وبينهم اخوة المسيح الذين سبق لهم ان رفضوه فيما مضى ، وأمه التي أصبحت تؤمن الآن بابنها الذي أعدم - كانت قوة تقليد منطقة اليهودية أشد حتى من روح الرؤى ، او الاعلان الإلهي . وقد فشل هؤلاء في اقناع اليهود (بالرغم من أنه قد تقاطر عليهم حتى الفريسيون في الايام الاوائل) وهكذا بقوا ملة من الملل العديدة داخل مذهب منطقة اليهودية ، ونستطيع بكل اطمئنان ان نصف نتاجهم « اعتراف بطرس » على انه تأكيد واضح على كونهم اليهود الحقيقيين ، وكون السنيدريون Synedrion يهوداً مزورين .

وقدر لهذه الدائرة أن كان النسيان مصيراً نهائياً لها ، اذ سرعان ماتجاوب كامل عالم الفكر والشعور الجوسي وتعاليم الرؤى الجديدة . وكان هناك الكثيرون من بين تلاميذ المسيح فيمابعد من الذين كانوا اكيداً مجوسيي الفكر والشعور ، ومتحررين تحرراً مطلقاً من الروح الفريسية . وكانوا قد بتوا بهدوء في موضوع الرسالة قبل أن يعتنق بولس المسيحية بزمن طويل . فعدم التبشير والتوقف عن الحياة كانا في نظرهم سواء بسواء ، وهكذا سرعان ما تجمعوا في كل مكان ، من دجلة حتى التيبر ، في دوائر صغيرة ، كانت شخصية المسيح تندمج ، في كل عرض يمكن أن يدركه عقل ، وجمهرة من رؤى سالفة متقدمة . وقد نشأ من هذه خلاف جديد ، كالخلاف حول ما اذا كانت الرسالة للوثنيين ام لليهود ، ولكن هذا الخلاف الجديد كان اهم بكثير من الخلاف بين منطقة اليهودية والعالم حول مواضيع كان قد بت في امرها . فيسوع عاش في الجليل ، فهل على تعاليمه أن تتجه نحو الغرب او نحو الشرق ؟ وهل يجب ان تصبح هذه التعاليم مذهباً يسوعيا

ام نظام المخلص ؟ وهل كان عليها ان تبحث عن وفاق ووئام بينها وبين الكنيسة الفارسية ام الكنيسة التوفيقيــة ، وكلتا الكنيستين كانتا لا تزالان في سياق التشكل ؟

هذه القضية بت فيها بولس – الشخصية العظيمة الأولى في الحركة الجديدة ، واول من كان يملك حساً لا بالحقائق وحدها بل بالوقائع ايضا . فهو بوصفـــه حاخاماً شابا يتحدر من الغرب ، وتلميــذاً لأحد اشهر شخصيات طائفة التانائيم Tannaim ، فقد أقدم على اضطهاد المسيحيين بوصفهم نحلة يهودية . ومن ثم بعد يقظـــة من ذاك النوع الذي كان كثيراً ما يحدث في تلك الايام ، اتجه نحو طوائف – مذاهب صغيرة وعديدة في الغرب وصاغ منها كنيسة وفق اسلوبه الخاص: وهكذا نشأت منذ ذاك الحين فما بعد ، كنيستا المذهبين من وثني ومسيحي في خطين متوازيين ، تتبادلان دائما العمل حتى ارتقتا فبلغتـــا أيامبليخوس Iamblichus واثناسيوس (قرابة عام ٣٣٠) . وأمام هذا المثل الاعلى العظيم ، كان بولس بالكاد يخفي احتقاره لطوائف – يسوع في القدس . وليس هناك من شيء في العهد الجديد يزيد في وضوحه وصحته على مطلع رسالة بولس الى غلاطية ، فنشاطه يمثل قرضا اختاره هو لنفسه ، فلقد علم كيفما استحسن وبنى كيفما راق له وانتهى . واخيراً نرى بولس يعود الى القدس بعد غياب عنها امتد ١٤ عاما ، كي يرغم ، بواسطة قوة عقله الاشد ، ونجاحــه واستقلاله الفعال عن رفاق يسوع القدامى ، اقول كي يرغم هؤلاء الرفاق على الموافقة على أن ما ابدعه بولس يحتوي على العقيدة الصحيحة . ولما كان بطرس ومريدوه ، غرباء عن الواقع ، فانهم لم يستطيعوا ان يستوعبوا ويدركوا المغزى البعيـــد المدى للمناقشة . ومنذ هذه اللحظة أمسى وجود الطائفة البدائية امراً نافلاً لا لزوم له او موجب .

كان بولس حاخاماً بعقله ، ورؤويا بشعوره . وقد اعترف بمذهب منطقة اليهودية ، لكنه وجد فيه مجرد منطلق أولي للتطور . وهكذا نشأ دينان مجوسيان لها نفس الكتب الدينية (أي العهد القديم) ولكن Halakha مزدوجة،

الاولى تنطلق نحو التلمود ـ وقد طورت على ايدي التنائيم في القدس ابتداء من عام ٣٠٠ فما بعد ـ والثانية وضع أسسها بولس وأكملها الاباء باتجاه الانجيــــل . ولكن بولس جمع ، بالاضافة الى ذلك ، كامل امتلاء الرؤى ، والحنين الى الخلاص اللذين كانا شائعين في هذه الميادين ، وجعل منها قناعة بالخلاص ويقيناً به ، وهذه القناعة كشفت فوراً عن نفسها له ، وله وحده بالقرب من دمشق . و يسوع هو الفادي وبولس هو نبيُّه ، هذا هو محتوى رسالته . وهكذا فان مماثلته لمحمد بالكاد ان تكون أوثق من هذا الواقع . فبولس ومحمد لم يختلفا في طبيعة يقظتهما ، ولا في ثقتها النبوية بذاتيها ، ولا في تأكيدهما التالي على الصحـــة الوحيدة غير المشروطة لشروح او تفاسير كل واحد منهما فيما يخصه منها .

ومع بولس يُطل الانسان المتمدن ، وذكاؤه ، ويدخل المشهد . ومع أن الاخرين قد يكونون عرفوا القدس او انطاكية ، لكنهم لم يدركوا ابداً جوهري هاتين المدينتين . فهؤلاء قد عاشوا مشدودين الى التربـــة ، قرويين ، يتألفون فقط من نفس وشعور . لكن الان ظهرت روح ترعرعت في المدن العظمى من القالب الكلاسيكي ، روح لا تستطيع أن تعيش الا في المدن ، وهي لا تفهم ريف الفلاح ولا تحترمه . فالتفاهم مع فيلو كان امراً ممكناً ، أما مع بطرس فهو امر مستحيل . وكان بولس اول من رأى في خبرة قيامـــة المسيح معضلة او مشكلة . فالرعب الذاهل ، وعب الريفي الشاب ، تحول في عقل بولس الى صداع يدور بين مبادىء روحيـــة . ويا له من تباين بين الصداع في حديقة الجثمانية وبين ساعة دمشق ! بين الطفل والرجل ، بين آلام النفس والقرار العقلاني ، بين التفاني حتى الموت والعزم على تبديل المعسكرات ! لقد بدأ بولس نشاطه برؤية الخطر الكامن في الملة اليهوديـــة (المسيحية البدائية ـ المترجم) والمهدد لفريسية القدس ، وفجأة نراه الآن يدرك أن الناصريين « هم على حق » ـ وهذه شبه جمـــلة لا يمكن ابداً ان تتمتم بها شفتا يسوع ـ ثم تبنى قضية المسيحية ضد مذهب منطقة اليهودية ، وبهذا جعل ذاك الذي كانت فيما مضى تحتويه معرفـــة

الحيرة ، كبة عقلانية . ولكن بولس يجعل هذه القضية كبة عقلانية دفع دون أن يدري بالمسيحية الى القرب من قوى عقلانيـة اخرى ، ألا وهي مدن الغرب . ففي دائرة الرؤيا المجردة لا يوجد ابداً « عقل » او « ذهن » . فلم يكن بامكان الرفاق القدامى ان يفهموه اقل فهم ، ولا شك انهم كانوا يحملقون فيه ، متفجعين مرتابين ، وهو يخاطبهم . فصورة المسيح الحية (التي لم يرها بولس ابداً) بهتت الوانها من جراء هذا الضوء اللامع الصارم ، ضوء المفاهيم والفرضيات . ومنـذ الآن فصاعداً ذوت الذاكرة فأمست منهاجاً لفلسفة كلاميـة (لاهوتية — المترجم) . لكنه كان لبولس شعور دقيق ومصيب بالوطن الحقيقي لافكاره . فجميع رحلاته التبشيرية يممت شطر الغرب ، اما الشرق فتجاهله . وهو لم يترك ابداً مناطق المدن الكلاسيكية . فلماذا ذهب الى روما والى كورنثيا ولم يذهب الى إدسا Eddisa أو تستيفون ؟ ولماذا لم يعمل الا داخل المدن ولم ينتقل ابداً من قرية الى قرية ؟

ان تطور الاشياء على هذا الشكل تم بسبب بولس وحده . فلم تكن لمشاعر كل الآخرين اية قيمة امام حيويته العملية ، وهكذا تبنت الكنيسة الشابة النزعة الغربية بصورة حاسمة ، وعلى درجة من حسم جعلها تصف فيا بعـد ما تبقى من الوثنيين بأنهم «وثنيون» قرويون . وهكذا نشأ خطر هائل ، لولا الشباب وزخم ربيعي لما تمكنت الكنيسة النامية من رده . فعالم الفلاح التابع لمدن الكلاسيكية استمسك بالكنيسة بكلتا يديه ، وعض عليها بالنواجذ ، ولا تزال علامات تمسكه بها بادية للعيان حتى هذا اليوم . ولكن كم كانت هذه بعيدة عن جوهر المسيح الذي امضى طيلة حياته مشدوداً الى الريف والريفيين ! فالتشكل الكاذب الذي تولد ، خلاله لم يلاحظه او يراه ، ونفسه نقيـة صافية من اقل آثاره وأدناها . والآن يأتي جيل بعده ، ولربما جاء وأمه كانت لا تزال آنذاك على قيد الحياة ، جيل نما من موتـه — المسيح — فأصبح مركزه هدفاً اشتقاقياً لذاك التشكل الكاذب . وهكذا سرعان ما اصبحت المدنية الكلاسيكية المسرح الوحيـد

التطور الطقوسي والدغماتي . اما الطائفة فانها لم تمتد نحو الشرق سوى خلسة وغير متطفلة . وكان يوجد هناك قرابة عام ١٠٠ مسيحيون ماوراء نهر دجلة ،ولكنهم فيا يتعلق بتطور الكنيسة ، كانوا، لربما ومعتقداتهم، بمثابة غير الموجودين تقريباً .

إذن فإن ما خرج من المحيطين ببولس ، احاطة السوار بالمعصم ، كان ابداعاً ثانياً ، لكن هذا الابداع كان ، اصلاً ، هو الذي حدد شكل الكنيسة الجديدة وعرّفه . لقد كانت شخصية يسوع وقصته تستغيثان بصوت عال مطالبتين بأن تُصاغا في قالب شعري، ومع هذا فإن الفضل لوجود الاناجيل يعود كله الى شخص واحد فقط الا وهو مرقص . فكل ما كان متوفراً امام بولس ومرقص قبـل وضع الاناجيل يعود على شكلها المألوف اليوم ، إنما هو تقليد ثابت لطائفة ، وكان « الانجيل » مجرد اقوال متسلسلة متفشية تدعمها حواش وتعليقات لا شكل لها او قيمة ، كتبت بالآرامية واليونانية ، لكنها غير منظمة بأي شكل من الاشكال . وبالطبع فإن وثائق خطيرة كانت ستظهر ، في كل حال ، الى الوجود في وقت او آخر ، لكن شكلها الطبيعي بوصفها نتاجاً للروح التي عايشت المسيح (وعايشت روح الشرق بصورة عامة) كانت ستكون مجموعة من اعراف كنيسة مسهبة لأقواله، وعُرّفت تعريفاً نهائياً باتاً و زودت بشروح وتفاسير من قبل المجامع الكنسية ، وتدور حول المجيء الثاني Advent ولكن انجيل مرقص قد قضى قضاء نهائياً على كل محاولة ترمي إلى الانطلاق في هذا الاتجاه ، وقد كتب هذا الانجيل قرابة عام ٦٥ ميلادية وفي الوقت ذاته الذي كتبت فيه آخر الرسائل البولسية ، وباليونانية ايضاً مثل هذه الرسائل . ولربما لم يكن كاتب هذا الانجيل يعلم بأهمية انجازه الصغير هذا ، لكن هذا الانجاز قد جعل منه إحدى أعظم الشخصيات لا في المسيحية فقط، بل شخصيات الحضارات العربية بصورة عامة. لقد اختفت جميع المحاولات الاقدم، تاركة الكتابات بشكل الانجيل، او باسلوبه ، المنابع الوحيدة لموضوع يسوع (حتى ان الانجيل انتقل في معناه من الاشارة الى محتوى البشائر السارة، الى الشكل ـ شكل الانجيل ـ المترجم ـ ذاته) لقد جاء انجيل مرقص تلبية لرغبات دوائر بولس المثقفة التي

لم يسبق لاي فرد من افرادها ان سمع شخصاً احد رفاق يسوع يتحدث عنه . وهذا الانجيل هو صورة رؤيا لحياة أخذت من مسافة نائية بعيدة . فهنا قد استبدلت الخبرة المُعاشة بالرواية ، ورواية بسيطة ومستقيمة الى درجة تجعل نزعة الرؤيا تمر دون أن يلحظها احد . ومع هذا . فإن الرؤيا هي شرطه المتقدم فليست كلمات يسوع ، بل عقيدة يسوع بالشكل البولسي هي التي تؤلف جوهر انجيل مرقص ، اول كتاب مسيحي ينشأ عن ابداع بولس . ولكن سرعان ما يصبح هذا الاخير أمراً غير قابل للتفكير بغير الاستعانة بهذا الكتاب وما تلاه من كتب . إذ انه سرعان ما نشأ شيء ما لم يقصده ابداً بولس الرجل المدرسي بالفطرة ، ولكنه بالرغم من هذا كان امراً محتوماً استوجبته نزعة هذا الكتاب ـ وأعني بهذا الشيء كنيسة ـ مذهب القومية المسيحية . فبينا اجتذبت طائفة المذهب التوفيقي ، تناسباً والوعي الذي يلقته لذاتها ،ما لا يعد من مذاهب المدنية القديمة ووحدتها والمذاهب المجوسية بواسطة مذهب رفيع أنعم على التركيب بالشكل المُوحّد ، كان مذهب يسوع للطوائف الغربية الاقدم زمناً قد شُرِّح وهُذِّب وثقف امداً بلغ مداه حداً جعله ايضاً يتألف من جهة اخرى مثل تلك المذاهب . فلقد نمت حول ولادة يسوع قصة طفولته هذه القصة التي لم يكن يعرف تلامذته عنها شيئاً . فهي لم تظهر الى الوجود في انجيل مرقص بعد .

والحق انه ورد فعلاً في الرؤى الفارسية أن Saoshyant ، بوصفه المخلص في الايام الاخيرة ، سيولد حسبما يقولون من عذراء . ولكنه كان للاسطورة الغربية الجديدة مغزى آخر غير هذا تماماً ، وقد نجمت عنها نتائج لا تعد أو تحصى . وذلك لأنه سرعان ما نشأت شخصية أخرى الى جانب شخصية يسوع الذي كان ابناً لتلك ، وقد تسامت هذه الشخصية فوقه ـ وأعني بها ام الله . وهذه كانت ، كابنها ، مصيراً انسانياً بسيطاً ، يختزن طاقات من جاذبية رائعة تأخذ بمجامع القلوب بذلك النوع من الأسس الذي يجعلها تتسامى عالياً فوق المئة عذراء وعذراء من الأمهات التي تحدث عنهن المذهب التوفيقي ـ كإيزيس ، وتانيت Tanit وسيبل وديمتر ـ وتحلق فوق جميع غوامض الولادة والألم ، وأن تتصهن

جميعاً . ولقـــد كانت مريم في نظر إرينيوس Irenaeus حواء الجنس البشري الجديد . وأوريجين Origin يدافع وينـافح مصراً على انهـــا استمرت عذراء . فبولادتها لله ـ الفادي ، هي التي افتدت حقاً العالم . فمريم الـ . « Theotokos » (التي حملت بالله) كانت اكبر حجر عثرة للمسيحيين خارج حدود العالم الكلاسيكي ، وكان التطوير العقائدي لهذه الفكرة هو الذي دفع اليعـاقبة والنسطوريـــين الى الانفصال واعادة تأسيس دين يسوع المجرد . ولكن الحضارة الفاوستية ، عندمـا استيقظت واحتاجت الى رمز لتعبر بواسطته عن الشعور الأولي باللانهاية في الزمان ، ولتعرض مفهومها لتعاقب الاجيال ، قد جعلت هي بدورها ال « Mater Dolorosa » ولبس الفادي المتألم ، محوراً للمسيحية الكاثوليكية الألمـانية ، في الحقبة القوطية . وبقيت شخصية هذه المرأة طيلة قرون من خصب باطنية واشعاع المُركّب Synthesis كل المُركّب للشعور الفاوستي بالعالم ، وموضوعاً لكل فن وشعر وورع . وحتى هذا اليوم يحتل يسوع المرتبة الثـانية بعد « المدونا » في طقوس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأهم من هذه في افكار الناس وقلوبهم .

ونشأ الى جانب مذهب مريم عدد عديد من مذاهب القديسين ، والذي يزيد أكيداً على عدد مذاهب آلهة المكان في الايام الغـابرة ، وعندما لفظت اخـــيراً الكنيسة الوثنية انفاسها ، كان بمقدور الكنيسة المسيحية ان تمتص كامل الحزين من المذاهب المحلية بشكل تبجيل القديسين .

وكان دور بولس ومرقص دوراً حاسماً ايضاً في موضوع آخر له من المغزى ما يفوق كل وصف او تقدير . فنتيجة لرسالة بولس اصبحت اللغة اليونانية ، خلافاً لجميع الاحتمالات الاولية ، لغة الكنيسة ولغة آداب يونانية مقدسة ـ مقتـــدية بذلك بالانجيل الاول . وليتأمل القارىء فيا لهـــذا الأمر من معنى بطريقـة او بأخرى . فكنيسة يسوع قد فصلت فصلاً اصطناعياً عن منابعها واصولها الروحية وشُدت الى جوهر أجنبي وعلماني . وبذلك فُقد كل قاس ووروح اقوام البـلاد الناطقة بالآرامية . ومن هنا اصبح لكنيستي المذهب اللغة ذاتها والتقاليد المفاهيمية

نفسها ، وكتب الآداب عنها والصادرة عن المدارس اياها . اما آداب الشرق الآرامية التي هي اقل زيفاً وغشاً من تلك ـ الآداب الصادقة في بجوسيتها والتي كتب وفكّر بها بلغة يسوع ورفاقه ـ هذه الآداب بُترت بتراً ومُنعت من التعاون في حياة الكنيسة . فلم يكن بالإمكان قراءتهـا ، ولذلك توارت عن الانظار ، واخيرا نُسيت جملة وتفصيلا . ومع هذا ، وبالرغم من أن الكتب الفارسية قد دونت بلغة الأفستاء والبهودية بالعبرانية ، فإن لغة المؤلفين وشارحي الكتب الدينية ومفسريها ، ولغة كامل الرؤى ، التي نشأت منها تعاليم يسوع ، واخيرا لغة علماء وجميع جامعات بلاد ما بين النهرين ـ اقول ان لغة هذه الاشياء كلها كانت الآرامية . كل هذه الامور اختفت من ميدان النظر ، ليحل محلها افلاطون وارسطو اللذين قبض عليهما مدرسيو كنيستي المذهب ، واشتغلوا عليهما متعاونين ، وأساءوا فهمهما مشتركين .

وحاول انسان آخر أن يخطو خطوة نهائية في هذا الاتجاه ، وكان هذا الرجل نداً لبولس في موهبته التنظيمية واعظم بكثير منه في ابداعه العقلاني ، ولكنه أقل منه حساسية بالامكانات والوقائع ، ولذلك فشل في تحقيق مناهجه العظيمة العقلانية ـ وهذا الشخص هو ماركيون Marcion . فهذا قد رأى فيما ابدعـه بولس وفي نتائج ابداعاته مجرد أسس او قواعد لدين الخلاص الحقيقي . وهذا كان يحس بسخافة الدينين اللذين كانا في حالة من حرب مستمرة شنها الواحد منهما على الآخر ، ويتلكان معاً الكتاب المقدس ذاتـه ـ وأعني به كتاب الشريعة اليهودية وتوجب حدوث هذا الامر يبدو في ايامنا هذه شيئاً لا يدركه العقل تقريباً ، لكنه كان هذا واقع الحال طيلة قرن من الزمن ـ غير أنه يتوجب علينا ان نذكر ما الذي كان يعنيه احد النصوص المقدسة في نظر كل نوع من انواع التدين المجوسي . وماركيون رأى في هذه المؤامرة الحقيقية على الحقيقة ، وأشد الاخطار المحدقة بالعقائد التي عناها يسوع ، والتي لم تتحقق حتى الآن من وجهة نظر ماركيون . فبولس النبي اعلن أن العهد القديم قد اكتمل وأنجز ـ لكن

ماركيون المؤسس قرر بأن هذا العهد قد هزم وألغي . وهكذا انطلق ليستأصل كل ما هو يهودي غير موفر في ذلك أقل التفاصيل شأناً . فماركيون كان ، منذ البداية حتى النهاية ، لا يناضل ضد اي شيء آخر ، ما عدا مذهب منطقة اليهودية . وهو ككل مؤسس أصيل أحر ، وككل حقبة دينية مبدعة ، وكزردشت ، وانبياء اسرائيل ، وأغارقة هوميروس ، فيهوه بوصفه الله ـ الخالق والـ Demiurge [1] بوصفه « العادل » لذلك فهو « الشر » : ويسوع بوصفه تجسيداً للإله المخلص في هذه الخليقة الشريرة ، فهو « الاجنبي الغريب » ـ هذا هو المبدأ الصالح . وهنا لا يمكن للبصر أن يخطيء رؤية أساس الشعور المجوسي بصورة عامة ، والفارسي منه على وجه خاص . ينتسب ماركيون لمدينة Sinope العاصمة القديمة لامبراطورية مترداث ، والتي كان دينها يشار اليه باسماء ملوكها بالذات . فهنا ايضاً نشأت في القديم مذاهب مترا .

ولكن لا شك يجب ان يكون للعقيدة الجديدة ككتب دينية جديدة . « فالشريعة والانبياء » الذين كانوا حتى الآن القواعد الكنسية للمسيحية بمجموعها، كانت الكتاب المقدس للاله اليهودي ، وهو في الواقع قد اعطي هذا الشكل النهائي ، وبهذا الشكل من قبل الـ Synedrion في جابنا Jabna . وهكذا فإن الكتاب الموجود لدى المسيحيين هو كتاب الشيطان ولذلك وضع ماركيون الكتاب المقدس للاله ـ الفادي ضد هذا الكتاب ـ وكتابه كان تجميعاً وتبويباً ككتابات كانت مألوفة ودارجة بين الطائفة ، بوصفها كتب تهذيب واصلاح خالية من كل المزاعم القانونية الاكليركية . وهو يضع موضع التوراة انجيلاً ـ واحداً وصحيحاً ـ حيث يبني هذا الانجيل بصورة رئيسية من الاناجيل المتنوعة المنفصلة ، التي هي في نظره فاسدة ومزوّرة . ويضع في موضع كتب الانبياء الاسرائيليين رسائل نبي يسوع الواحد الذي كان بولس .

(١) Demiurge : الاله التابع لله وهو الذي خلق العالم — المترجم —

وهكذا أصبح ماركيون الخالق الحقيقي للعهد الجديد . ولكن لهذا السبب بالذات يستعجل علينا ان نتجاهل تلك الشخصية الغامضة يوحنا المرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ، والتي قد كتبت قبله بزمن طويل الانجيل « حسبا يقول يوحنا . » وكانت مقاصد هذا الكاتب لا تتعمد الاسهاب في الشرح ولا إحلال كتابه محل الاناجيل بالذات ، فما فعله ـ وفعله بوعي لا كرقس ـ كان يستهدف خلق شيء ما جديد كل الجدة ، خلق الكتاب المقدس الاول للمسيحية ، خلق قرآن الدين الجديد . والكتاب يبرهن على ان الدين قد ادرك من قبل بوصفه شيئاً ما كاملاً ودائماً . فالفكرة القائلة بالنهاية المترقبة سريعاً للعالم ، والتي كانت تملأ كل جارحة من جوارح يسوع ، والتي شارك فيها بولس وماركيون الى حدّ ما ، تقع ما قبل يوحنا وماركيون بعيداً بعيداً . لقد بلغت الرؤى نهايتها ، والصوفية تبدأ الآن ؛ ومحتواها ليس محتوى تعاليم يسوع ، ولا حتى تعاليم بولس عنه ، بل انما هو احجية كون ، لغز كهف العالم World Cavern . فليس هنا اي ذكر لانجيل ، وليست شخصية الفادي ، بل مبدأ اللوغوس[1] Logos (الكلمة ، كلمة الله) هو معنى الحدوث وواسطته . وهنا ترفض ثانية قصة طفولة المسيح ، « فالإله » لم « يولد » بل انما هو « موجود » ويتنقل بشكل انسان على الارض . وهذا الله هو الثالوث ـ الله ، وروح الله وكلمة الله . ويحتوي هذا الكتاب المقدس الذي يعود الى اقدم عصور المسيحية ، يحتوي لاول مرة على معضلة « الجوهر » المجوسية التي سيطرت على القرون التي تلتها وحيث استثني خلالها كل شيء آخر ما عداها ، والتي أدت أخيراً الى انشقاق الدين الى ثلاث كنائس . وحل هذه المعضلة الذي يبدو ان يوحنا كان أقرب الناس اليه ، هو الذي وقف الى جانبه الشرق النسطوري معتبرين إياه الحل الصحيح ـ وهذا مما له دلالته

(١) يقول يوحنا في مطلع انجيله : في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت من عند الله . ونحن هنا سنستعمل كلمة لوغوس في ترجمتنا دفعاً للالتباس .

ـ المترجم ـ

ومغزاه في اكثر من ناحية أو جهة . وإنه بفضل فكرة اللوغوس ، (بالرغم من كون هذه كلمة اغريقية) وهي اشد ما في الاناجيل شرقية ، يُعرض يسوع أكيدا ، لا بوصفه الآتي بالاعلان الإلهي النهائي الكامل ، بل على انه مبعوث ثان ، سيتلوه ثالث (المعزي روح القدس - رؤيا يوحنا أ - ١٤ ، ١٦ و ٢٦ ، أ - ١٥ ، ٢٦). وهذه هي العقيدة المذهلة التي يعلن المسيح بنفسه عنها ، والاشارات الحاسمة لهذا الكتاب الغامض . فهنا نرى فجأة الاقنعة تتساقط عن ايمان الشرق المجوسي . فاذا كان اللوغوس لا يستطيع ان يذهب فان روح القدس لا يستطيع ان يحل ، (يوحنا ١٦ - ٧) ، ولكن بين هذين يقع الدهر الاخير حيث يسود اهرمان Ahriman أ ١٤ - ٣٠ . لقد حاربت كنيسة التشكل الكاذب التي كانت تسيطر عليها ذهنية بولس ، حربا طويلا ضد انجيل يوحنا ، ولم تعترف بهذا الانجيل الا عندما غطى تفسير لبولس هذه العقيدة المجوسية ذات الايماءات المظلمة. وينحسر القناع عن الوضع الحقيقي للأحوال العامة من خلال حركة المونتينين « Montanist » (التي شهدتها آسيا الصغرى عام ١٦٠) حيث عادت هذه الحركة الى التقاليد الشفوية ، وأعلنت في شخص مونتانوس البارقليط الظاهر ، ونهاية العالم . وقد حظيت هذه العقيدة بشعبية واسعة جبارة . حيث اعتنقها ترتليان في قرطاجة عام ٢٠٧ . وقرابة عام ٢٤٥ قام ماني ، الذي كان متصلا اتصالاً وثيقا بمجاري احداث المسيحية الشرقية ، ونبذ يسوع بولس الانساني ، واعتبره شيطانا ، واعترف بلوغوس يوحنا على انه المسيح الحقيقي ، لكن ماني اعلن نفسه روحا قدسا للانجيل الرابع . واوغسطين اصبح ايضا مانيا في قرطاجة ، وهذه واقعة توحي اتجاه شديدا بان كلتا الحركتين (المونتينية ، والمانية - المترجم) قد انصهرتا في النهاية مع حركة ماركيون .

ولنعد الآن الى ماركيون بالذات. فهذا هو الذي حمل وسار متجولاً بفكرة « يوحنا » وخلق الكتاب المقدس المسيحي . وعندما بلغ سن الشيخوخة، وأخذت طوائف الغرب البعيد ترتد عنه فزعة مرعوبة ، انطلق ليقيم التركيب الفذ لكنيسة مُخلّصه الخاص . وعاشت هذه الكنيسة من عام ١٥٦ - ١٩٠ قوة

وسلطانا ، ولم تستطع الكنيسة الاقدم منها زمناً أن تنحدر باتباع ماركيون إلى مرتبة المراطقة الا في هـذا القرن الذي تلا ذاك العام . وهذه ايضا كانت حال كنيسة ماركيون حتى في الشرق المنفسح العريض ، وحتى تور كستان ، وكانت ذات اهمية اشد في زمن جاء بعد ذاك بطويـــل ، ولكنها انتهت بانصهارها مع المانية ، وجاء انصهارها هذا على شكل عميق المغزى في شعوره الجوهري .

وبالرغم من أن ماركيون قد بخس ، داخل امتلاء تفوقه الواعي ، الاوضاع القائمة حقها ، فان مجهوداته العظمى لم تذهب سدى . فهو ـ كبولس من قبـــله واثناسيوس من بعده ، كان المنقـــذ للمسيحية في اللحظة التي كانت خلالها مهددة بالسقوط ، وعظمة فكرته ، لا تقلل ابداً من شأنها ، الواقعة القائلة بأن الاتحاد لم يتم بواسطته ، بل انما تم ضده . ولقد نشأت الكنيسة الكاثوليكية المبكرة زمناً ـ واعني بهذه كنيسة التشكل الكاذب ـ وبلغت عظمتها قرابـــة عام ١٩٠ فقط ، ومن ثم اصبح وضعها وضع المدافع عن نفسه ضد كنيسة ماركيون ، وفي دفاعها هـــذا استعانت بتنظيم اكتسبته من هذه الكنيسة . ومن ثم استبدلت الكتاب المقدس لماركيون بكتاب آخر ذي تركيب مشابه لتركيب ذاك ـ الأناجيل والرسائل الرسولية ـ حيث انطلقت آنذاك لمزج الشريعـــة والانبياء في وحدة واحدة . وأخيراً ، وبهذا العمل الذي ربط العهدين (القديم والجديد ـ المترجم) أحدهما بالأخر ، بت في موقف الكنيسة من مذهب منطقة اليهودية ، انطلقت الكنيسة لقتال الابداع الثالث لماركيون ، ألا وهو عقيدته في الفادي ، وذلك بواسطة خلق بدايـــة للاهوت خاص بها ، بداية ارتكزت على قواعد تصريح ماركيون عن المعضلة واعلانه عنها . وعلى كل حال فان هذا التطور قد حدث على تربة كلاسيكية ، ولذلك نظرت اليهودية التلمودية حتى الى الكنيسة التي هبت لتناهض ماركيون ودعوته المناهضة لمذهب منطقة اليهود ، اقول نظرت اليهودية التلمودية (التي كان يقع كامل مركز ثقلها في بلاد مابين النهرين وجامعاتها) اليها نظرتها الى مجرد نبذة من وثنية هيلينستية . لقد كان تدمير القدس حدثاً حاسماً جازماً لا تستطيع أية قوة روحية أن تلغيه من عالم الواقع . على هذا الشكل هي اللغة

العلاقة الباطنية بين الشعور الواعي ، للدين ، والنطق حتى أن القطيعة التامة التي وقعت بعد عام ٧٠ ، بين التشكل الكاذب والمنطقة الأرامية (وهذه عربيـة صحيحة) كان محتماً عليها ان تسفر عن قيام دائرتين مختلفتين للتطور المجوسي الديني . أما على الحافة الغربية من الحضارة الشابـة ، فكانت كنيسة المذهب الوثني ، كنيسة يسوع (التي نقلهـا الى هناك بولس) متشابكة في لغتها وآدابها ومذهب منطقه اليهودية الناطق باليونانية من طابع فيـلو وطرازه ، تشابكا بلغ درجـة جعلت هذا المذهب يتساقط داخل المسيحية حتى في القرن الاول بعـد الميـلاد ، وهنا اتحدت المسيحية والهيلينستية لتشكلا فلسفة مشتركة مبكرة . وتعاون ، من جهة اخرى ، مذهب منطقة اليهودية والمذهب البرمي (الفارسي) Persism ، داخل العالم الناطق بالآرامية الممتد من نهر العاصي حتى نهر دجلة ، تعاوناً دائماً ووثيقاً ، وقد خلق كل من هذين المذهبين في هذه الحقبة ، لاهوته وفلسفته الكلامية الدقيقين الصارمين والخاصين به والمتمثلين في التلمود والأفستا . وقـد كان لهذين اللاهوتين ، ابتداء من القرن الرابع ، اوسع الاثر واشده على المسيحية الناطقة بالآرامية والتي قاومت التشكل الكاذب مقاومة شديدة جعلتها في النهاية تنشق على الكنيسة وتتخذ لها شكل الكنيسة النسطورية .

ان الفرق بين فهم الحس وبين فهم الكلمـة ، هذا الفرق الفطري والملازم لكل شعور واع في الشرق ـ وهو لذلك قائم ايضاً بين العين والحرف ـ قد أدى الى نشوء المناهج الصافيـة في عروبتها للتصوف والفلسفة الكلامية . فالقناعـة الروحيـة ، حسب مفهوم القرن الاول ، بان يسوع كان يقصد الانعام بالتأمل والعاطفة الإلهيين ، هي قناعة الانبياء الاسرائيليين والـ Gathas والتصوف ، ولا نزال نراها لدى سبينوزا ، والمسيح البولندي بعل شم Baal Shem ، ولدى مرزا على محمد ، مؤسس البهائية المندفع ، والذي أعدم في طهران عام ١٨٥٠ .

اما الاسلوب الآخر « الـ Paradosis » فهو المنهاج المميز بتلموديته ، منهاج شروح الكلمة وتفاسيرها ، والذي كان بولس فيه معلماً واستاذاً . وهذا يتخلل

كل الكتب الافسنية التي وضعت فيما بعــــد ، ويتخلل ايضاً الجدل النسطوري وكامل اللاهوت الاسلامي . ومن جهة أخرى ، فان التشكل الكاذب هو واحد وكل ، في كل من قبوله بالاعتقاد المجوسي وفي قلبه الميتافيزيقي للظاهر الى باطن . ولقد قام بصياغة المعتقد المجوسي بشكله المتجه غرباً Westerly ومن اجل المسيحيين إرانيوس وأهم من هذا والجميع ، ترتوليان صاحب الكلمـــة المأثورة « credo quia ab surdum » التي تلخص مفهوم هذه القناعة بالمعتقد تلخيصاً شافيا وافيا . أما النسخة طبق الاصل الوثنية عن هذا فهو بلوتنيوس بآلهته التسعة Enneads ، وحتى اكثر من هذا بورفري في مؤلفــــه « في عودة النفس الى الله » . ولكن كان يوجـــد ايضا الكنيسة الوثنية آب ، (NUS) وابن وكائن وسيط ، كما كان تماما من قبل لفيلو Philo اللوغوس الإبن المولود أولاً والإله الثاني. وكانت العقائد المتعلقة بالنشوة والذهول الروحيين ، والملائكة والشياطين وثنائية جوهر النفس ، عقائد متداولة وشائعة بصورة واسعة بينهم ، ونحن نرى لدى بلوتنيوس واوريجين وكلاهما تلميذان للاستاذ ذاته ، أن الفلسفة الكلامية للتشكل الكاذب تتضمن تطور المفاهيم والافكار المجوسية بواسطـــة اعتماد تقييم منهاجي (Transvaluation) مخالف لأسس تقييم نصوص افلاطون وارسطو .

ان الفكرة المركزية المميزة لكامل فكر التشكل الكاذب هي اللوغوس ، في استعمال وتطوير صورته المزمنة . ولا يوجد هنا اي امكانيـــة لوجود تأثير يوناني ، حسب المفهوم الكلاسيكي ، اذ أنه لم يكن في تلك الايام ، اي انسان حي بتلك فطرة روحية تستطيع أن تتلقى اتفــــه اثر من آثار لوغوس هيرقليط ستوا Stoa . ولكن اللاهوتيـــين الذين عاشوا في الاسكندرية لم يستطيعوا ، بالمثل ، ابداً أن يطوروا ، بصفاء تام ، فكرة ـ اللوغوس ، كما عنوها ، بينما أنها لعبت دوراً حاسماً في تخيلات كل من الفرس والكلدان ـ بوصفها روحاً أو كلمة الله ـ وفي العقيدة اليهودية ـ بوصفها روحا Ruach وممرا Memra .

اما ما فعلته تعاليم اللوغوس في الغرب ، فهو أنها طورت صيغة كلاسيكية ،

من قبيل فيلو وانجيـــل يوحنا ، (صيغة لا تزال آثارها في الغرب متبدية على المدرسيين) ولم تطورهـــا فقط الى عنصر من عناصر الصوفيـــة المسيحية ، بل طورتها أخيراً إلى دوغما Dogma . وهذا أمر كان محتوماً لا بد منه . وهـــذه الدوغما التي استمسكت بها كلتا الكنيستين ، تطابق على جانب المعرفـــة ، ذاك الذي كان ممثلاً على جانب الايمان ، من قبل كل من المـذاهب التوفيقية ومذاهب مريم والقديسين . وقد تمرد وثار ، ابتـــداء من القرن الرابع ، شعور الشرق ضد هذا الشيء كله ، الدوغما والمذاهب ، ان تاريخ هذه الافكار والشعور تتكرر ، بالنسبة للعين ، في تاريخ الهندسة المعمارية المجوسية فالشكل الاساسي للتشكل الكاذب هو البازيليكا التي كانت معروفة لدى يهود الغرب ولدى الملل الهيلينستية من الكلدان حتى قبل زمن المسيح . وكما ان لوغوس انجيل يوحنا هو جوهر مجوسي في شكل كلاسيكي ، كذلك فان البازيليكا هي غرفة مجوسية تطابق جدرانهـــا الداخلية ، السطوح الخارجية المعبد الكلاسيكي ، فبناء المذهب هنا قلب باطنه الى ظاهره . ان الشكل الهندسي المعماري للشرق النقي هو البنـاء المقبب ، المسجد ، والذي دون ريب قد وجد قبل اقـدم الكنائس المسيحية ، في معـــابد الفرس والكلدان والكنيس في بلاد ما بين النهرين ، ومن الجائز أنه قد وجد في معـابد سبأ ايضاً . وقد تجسدت المحاولات للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتي قامت بهـا مجامع الكنيســة في الحقبة البيزنطية ، اقول تجسدت هذه اخيراً رمزية في الشكل المزيج ، شكل البازيليكا المقببة . وذلك لان هذا الجزء من تاريخ الهنـــدسة المعمارية الكنسية هو ، حقاً ، تعبير آخر عن التبدل العظيم الذي بدأ باثناسيوس وقسطنطين آخر حماة المسيحية العظام . فالواحد منها قد خلق الدوغما الغربية الثابتة الراسخة وأوجد نظام الرهبنة الذي انتقلت تدريجياً الدوغما اليه من ايدي المدارس الهرمة . اما الثاني فلقد اسس دولة القومية المسيحية ، التي تبعها بالمثل في النهاية امم « اليونان » . اما البازيليكا المقببة فهي رمز هذه المرحلة الانتقالية .

الفصل التاسع عشر

مشاكل الحضارة العربية

(ب)

النفس المجوسية

- ١ -

ان العالم كما هو منتشر ، بالنسبة الى الشعور الواعي المجوسي ، يمتلك نوعا من امتداد ، يجوز لنا ان نصفه بأنه شبيه بالكهف ، وذلك بالرغم من أنه من الصعب على الانسان الغربي ، أن يجد أياً من مفرداتـــه التي تستطيع ان تعبر ، بأية صورة ، تكون اكثر من مجرد لمحـــة او اماءة الى معنى « الفراغ » المجوسي . وذلك لأنه ، أصلاً ، لكل ادراك من ادراكي الحضارتين « للفراغ » ، معاني غير متماثـــلة ومعاني الادراك الآخر . فالعالم ـ ككهف ، يختلف تماماً عن العالم كامتداد ، العالم الفاوستي المنفعل الفوار العواطف والمندفع بعيداً بعيداً ، اختلافه عن العالم الكلاسيكي بوصفه مجموعاً من اشياء حجمية . فالمنهاج الكوبرنيكي ، الذي

تفقد الارض ، كما فقدت ، فيه نفسها يجب أن يبدو بالضرورة للفكر العربي ، منهاجاً مجنوناً طائشاً . وقد اصابت كنيسة الغرب كبد الحقيقة عندما ناهضت فكرة مناقضة لعالم شعور يسوع ، ولعلم الفلك الكلداني الكهفي ، الذي كان حاشية ومتنا طبيعيا ومُقنعا في نظر الفرس واليهود وشعوب التشكل الكاذب ، والاسلام فكرة اصبح بامكان حفنة من اليونانيين الاصلاء ادراكها ، بعد ان اعادوا تقييم آرائها في الفراغ على أسس مخالفة لتلك .

ان التوتر القائم بين الكون الاكبر والكون الاصغر (المنطبق على الشعور الواعي) يؤدي ، داخل صورة ــ العالم لكل حضارة ، الى قيام المزيد من التناقضات ذات الاهمية الرمزية . فكل ما للانسان من احاسيس او فهم وايمان ومعرفة ، إنما تتلقى شكلها من تعارض أولي لا يجعلها فقط نشاطات لفرد ، بل يجعلها ايضا تعبيراً لمجموع. فالتعارض الأولي لدى العالم الكلاسيكي ، هذا التعارض الذي يسيطر بصورة كونية مطلقة على الشعور الواعي ، انما هو التعارض القائم بين المادة والشكل ، اما في العالم الغربي فانه التعارض بين الكتلة والطاقة . فالتوتر في العالم الكلاسيكي ، يستنزف ذاته فيما هو صغير وخاص ، لكنه في الغرب يفرغ ذاته ويفجرها في صفة من عمل . بينما انه من جهة اخرى ، وفي كهف العالم يثابر على الاعتراض والترنح اقبالاً وادباراً في صراع غير قانع او واثق ، وهكذا تنشأ تلك الثنائية ــ « الأولية السامية » Semitic والتي تملأ دائما وابدا ، وتحت الألف من اشكالها ، العالم المجوسي . فالنور يضيء في الكهف ويحارب الظلمة (انجيل يوحنا الاصحاح الاول عدد ٥) . وكلاهما جوهران مجوسيان . ففوق وتحت ، السماء والارض ، تصبحان قوتين تمتلكان ذاتيتين تنازع الواحدة منهما الأخرى . ولكن هذه الاستقطابات تمتزج داخل اشد الاحاسيس أولية باستقطابات الفهم الناقد الممحص ، كالخير والشر ، كالله والشيطان . فالموت في نظر مؤلف انجيل يوحنا كما هو ايضا في نظر المسلم الدقيق ، ليس نهاية الحياة بل انه شيء ما ، انه « طاقة ــ موت » تصارع « طاقة ــ حياة » من اجل امتلاك الانسان .

ولكن لايزال هناك أمرا اهم من كل هذا بكثير ، الا وهو التعارض القائم بين الروح والنفس (بالعبرية : روخ Ruach ، نفش Nephesh ، بالفارسية أهو Ahu أرفان Urvan ، بالمندية مونوهد Monuhmed ، جيان Gyan باليونانية بنيوما Pneuma ، بسيشي Psyche) هذا التعارض الذي يظهر اول ما يظهر من خلال الشعور الاساسي للأديان النبوية ، ومن ثم يتفشى في كامل الرؤى ، واخيرا ويشكل ويُرشد تأملات الحضارة المستيقظة في العالم ـ فيلو ، بولس ، وبلوتينوس ، العارفون Gnostics ، المندين ، اوغسطين ، الأفستا ، الاسلام والكابالا . ان كلمة « رُوَخ » تعني اصلاً « هواء » Wind » ونفش يعني «تنفس» فالنفس هي دائما مرتبطة بشكل او بآخر ، بما هو جسماني وأرضي ، بالـ تحت ، بالشر بالظلمة . ومجهودها يستهدف « العلاء » . اما الروح فتنتسب لما هو المي لـ فوق Above ، للنور . وآثرها يتبدى عندما تحل على الانسان في بطولة كبطولة شمشون ، في غضب مقدس كغضب ايليا ، في اثارة القاضي (قضاء سليمان) وفي جميع انواع علم الغيب والانتشاء الروحي . فهي مندفقة مسكوبة ، والمسيح ، كما ورد في اشعيا الإصحاح ١١ عدد ٢ ، يصبح تجسدا للروح . وفيلو واللاهوت الاسلامي يقسمان الجنس البشري الى نوعين ، نوع هو نفس بالولادة ، وآخر هو روح (ومفهوم « المصطفى » هو مفهوم خاص بأكمله بكهف ـ العالم وبالقسمة) . وجميع ابناء يعقوب هم روحيون . ومعنى القيامة في نظر بولس يكمن في التعارض القائم بين الجسد النفساني والجسد الروحي (رسالته الاولى الى كورنتوس اصحاح ١٥) ، وهو يتفق ايضا وفيلو ومؤلف رؤيا باروخ ، على انطباق هذا التعارض مع التعارض القائم بين السماء والارض، بين النور والظُلمة. والمُخلّص ، بالنور ، في نظر بولس ، هو الروح السماوية . وهو ، في انجيل يوحنا ، يدمج اللوغوس بالنور ، وهو يتبدى لدى الافلاطونيين الجُدد نوس Nus ، أي الواحد ـ الكل المعارض لـ Physis ، وذلك حسب مصطلح التعريف الكلاسيكي . اما بولس وفيلو ، فهما ، بما لها من ميزات مفاهيمية كلاسيكية (وهذه غريبة) ، قد ساويا بين النفس والخير ، وبين الجسد والشر ،

اما أوغسطين فبوصفه من اتباع ماني ويمتلك ملكة تميز ترتكز الى أسس فارسية ـ شرقية ، فانه يجمع النفس والجسد معاً ويعتبرهما شراً طبيعياً ، في تباينه والله ، بوصفه الواحد الأحد ، ويجد في هذا التعارض منبعاً لعقيدته في النعمة ، التي تطورت ايضاً وفق الشكل ذاته في الاسلام (برغم استقلال تطورها هذا عن اوغسطين استقلالاً تاماً) .

ولكن النفوس هي باعماقها ذاتيات مميزة وقائمة بذاتها ، بينما أن الروح هي واحدة ، ودائماً الواحدة نفسها . فالانسان يمتلك نفساً ، لكنه يشترك او يشارك فقط في روح النور والله . والروح الإلهية تحل عليه ، وبذلك تربط جميع أفراد الدنيا Below معاً بالواحد الأحد في علين . وهذا الشعور الأولي الذي يسيطر على معتقدات جميع الناس المجوسيين وآرائهم ، هو شيء ما فريد تماماً ، لا يطبع فقط نظرتهم الى العالم بطابعه ، بل يميز بدمغته جوهر تدينهم ولبه في جميع اشكاله عن جوهر تدين اي جنس بشري آخر ولبه ، وهذه الحضارة ، كما اظهرنا فيما تقدم ، كانت بصورة مميزة حضارة الوسط . وكان باستطاعتها أن تقتبس أو تستعير أشكالاً وفكراً من معظم الحضارات الأخرى ، وكونها لم تفعل هذا ، بالرغم من كل ضغط واغواء وتجربة ، جعلها تبقى سيدة مطلقة لشكلها الباطني ، وتوجد هوة من فرق لا يمكن أن تردم او تعبر بينها وبين الحضارات الأخرى . فهي بالكاد قد اقتبست من كل ما للحضارتين البابلية والفارسية من ثراء اكثر من بضعة اسماء ، اما الحضارتان الكلاسيكية والهندية ، او بالاحرى مدنيتاهما اللتان ورثتاها ـ اي الهيلينية والبوذية ـ فقد شوهتا تعبير الحضارة المجوسية حتى درجة التشكل الكاذب . لكنهما لم تلمسا ابداً جوهرها . وجميع أديان الحضارة المجوسية ابتداء من ابداعات اشعيا وزرودشت حتى الاسلام ، تشكل وحدة باطنية كاملة الشعور بالعالم ، وكما أنه لا نستطيع أن نجد في معتقدات الأفستا اي اثر للبرهمية ، ولا في المسيحية المبكرة ولو نفخة من نفس شعور كلاسيكي ، بل نجد مجرد اسماء وارقام واشكال خارجية ، كذلك ايضاً لم تستطع المسيحية الكاثوليكية الجرمانية

الغربية امتصاص أي أثر من دين – يسوع ، بالرغم من أن تلك قد تلقت عزون معتقدات وملاحظات هذا الدين بأكمله .

بينا أن الانسان الفاوستي هو « أنا » « I » تستطيع في النهاية أن تشكل استنتاجاتها الخاصة عن اللانهـــائي ، وبينا أن الانسان الأبولوني ، بوصفه حجماً Soma وسط الكثير من الأحجام ، يمثل فقط نفسه ، فان الانسان المجوسي ، بما له من نوع كينونـة روحاني ، هو مجرد جزء من « نحن » روحانية ، تحل من فوق وتنزل ، وهي الواحدة نفسها لدى جميـع المؤمنـــين . فالانسان المجوسي بوصفه جسماً ونفساً انما ينتمي لذاته وحدها ، لكن هناك شيئاً ما آخر ، شيئاً ما أجنبياً وأرقى ، يسكن داخله ، ويجعله بكل ما له من لمحات وقناعات ومعتقدات ، مجرد عضو من اتحاد (اجماع) بوصفـــه فيضاً من الله وانبعاثاً ، يطارح الخطأ ويبعده ، ولكنه يطرح ايضا كل امكانية « للأنا » المعتدة بذاتها . فالحق هو في نظره شيء ما غير ما هو في نظرنا . وجميع المناهج الابستومولوجية المرتكزة الى المحاكمة الفردية ، هي بالنسبة اليه جنون وافتتان ، كما وأن نتائجها العلمية هي عمل من اعمال الشر الواحد ، الذي أربك وخدع الروح في نزعاتها ومقاصدها الحقيقية وهنا يكمن السر النهائي ، السر المستحيل علينا بلوغه ، سر الفكر المجوسي وتفكيره في عالم – كهفه – فاستحالة وجود « أنا » مفكرة ومؤمنة وعارفة هي الفرضية السابقة والملازمة لكل جواهر هذه الأديان . فبينا كان الانسان الكلاسيكي يقف أمام الهه كما يقف الانسان امام انسان ، وبينا أن « الأنا » الفاوستية المريدة تشعر بما لها من عالم ، بأنها تواجـــه الذات الإلهية ، وهذه هي فاوستية ومريدة ايضا وفعالة في كل مكان ، نرى أن الذات الإلهية المجوسية هي القوة الغامضة غير المعرفـة ، وهي تصب من عليائها ، غضبها أو نعمتها وتنحدر بذاتها الى الظلام ، أو ترتفع بالنفس الى النور ، وذلك كله وفق ما تراه مناسباً او سديداً . أمـــا فكرة الارادة الشخصية ، فهي بكل بساطـة ، فكرة لا معنى لها او مفهوم ، وذلك لأن الارادة ، « والفكر » ليسا أصليين في الانسان ، بل انما هما معلولان

من الذات الإلهية فيه . وينشأ عن شعور ـ الجذر هـذا الراسخ المكين ، الذي يعاد التعبير عنه فقط ، ولا يتبدل ابدا اصلا ، نتيجة لاي تبديـــل لدين ، أو استنارة ، او حذق في العالم ـ أقول تنشـــأ بالضرورة عن هذا فكرة الوسيط الإلهي ، فكرة الواحد الذي يبدل هذا الوضع من الالم ، العذاب ، الى النعمة . وهذه الفكرة تشد جميـع الاديان المجوسية بعضاً الى بعض ، وتفصلها عن جميـع أديان الحضارات الاخرى . وفكرة ـ اللوغوس بمعناها الواسع العريض ، وهي تجريـــد للاحساس المجوسي الكهفي بالنور ، هي الفكرة المترابطة تماما بهذا الاحساس داخـل الفكر المجوسي . فهي تعني أن من رأس الله الذي لا يمكن بلوغه ، تطلق روحه ، او « كلمته » كعامل للنور ، وآتٍ بالخير ، وتقيم علاقـة مع الكائن البشري ، كي تسمو به وتتخلله وتفتديه . وهذا التمييز للجواهر الثلاثة والذي لا يتعارض ووحدانيتها في الفكر الديني ، كان معروفاً من قبـــل لدى الاديان النبوية . فنفس آهورمازدا المشعة بالنور هي الكلمة ، وفي احدى الغاثات Gathas ، تتحدث روحه القدسية مع روح الشر . والفكرة ذاتها هذه تتخلل كامل الآداب اليهودية القديمة .

وقد بقي الفكر الذي اقامه الكلدان على اساس من الفصل بين الله وبـــين كلمته ، والتعارض القائم بين ماردوك ونابو ، والذي يتدفق بقوة وشدة في كامل الرؤى الآرامية ، اقول بقي هذا ، بصورة دائمة ، فعالاً ومبدعاً ، وقد دخـــل بواسطة فيلو ويوحنا ومار كيون وماني على التعاليم التلمودية ، ولذلك دخل ايضاً على كتابي الكابالا ، يسيراح Iesirah وسوهار Sohar ، ودخل على مجـــامع الكنيسة وكتب الآباء ، وعلى الافستا فيما بعد ، واخيراً على الاسلام حيث اصبح تدريجيا محمد اللوغوس، وجعل من محمدالحي فيالدين الشعبيشخصية المسيح. وهذا المفهوم واضح وغني عن البيان بالنسبة الى الانسان المجوسي الى درجة استطاع معها ان يقتحم التركيب الصارم في توحيده للاسلام الاصـــلي ، وان يبدو مع الله ، بوصفه كلمة الله الروح القدس ، و « نور محمد . »

وذلك لان اول نور شع من خليقة العالم هو نور محمد حسب اعتقاد الدين الشعبي ، وشع على شكل طاووس تكوّن من لآلىء بيضاء وأحيط بأقنعة وحجُب . ولكن الطـــاووس هو رسول الله وهو النفس الاولية ، منذ ازمان المندين ، وهو شعار الخلود المرسوم على التواويس المسيحيـــة المبكرة زمنا . فاللؤلؤة المشعة النائرة نورا والتي تـُنير ظلمة بيت الجسد ، هي الروح التي حلت في الانسان ، ويراها الفكر ، لدى المندين كما في اعمال توما ، جوهرا . ويبجـــل اليزيديون اللوغوس بوصفها طاووساً ونوراً ، وهؤلاء ، بعد الدروز ، قد حافظوا بنقاء شديد ، وصفاء ما بعـــده صفاء ، على المفهوم الفارسي للثالوث الجوهري . وهكذا نرى، مرة بعداخرى ، فكرة ـ اللوغوس تعود الى الاحساس بالنور الذي استخلص الفهم المجوسي منه . وعالم الجنس البشري المجوسي مليء بالشعور باساطير الجن . فالشياطين والارواح الشريرة تهدد الانسان ، والملائكة والجنيات يحمونه . وهناك في العالم المجوسي حجب وتمائم وطلاسم وتعاويذ ، واراض سحرية ، ومدن غامضة وكائنات خفية وأحرف سرية ، وخاتم سليمان وحجر الفلاسفة . وينسكب فوق كل هذه نور ــ كهف مرتعش رجراج تهدد الظلمة الطيفية دائماً بابتلاعه . واذا ما كان هذا الفيض من الشخصيات يدهش القارىء ويذهله ، فليتذكر اذن يسوع قد عاش فيـــه وعاشه ، وأن تعاليم يسوع لا يمكن فهمها الا بواسطته . فالرؤى الدينية هي ليست سوى اسطورة كثّفت شدتها حتى بلغت الحد النهائي للقوة المأساوية . ونحن نجد أخنوخ يحدثنـا في كتابه أخنوخ عن المكان البلوري لله ، والجبال المؤلفة من الحجارة الكريمة ، وسجن النجوم المارقة من الدين .

والحق أنه ايضاً لمذهـل خيالي ومدهش ، هو عالم الفكرة المسيطرة على كل شيء ، عالم فكرة المنديـين ، وعالم فكرة العارفين واتباع ماني ، وعالم فكرة منهاج اوروجين وشخصيات « بونداهش » الفارسية ، وعندما انتهى زمن الرؤى العظمى ، تحولت هذه الفكر الى شعر اسطوري ، والى روايات دينيـة لا يحصيها

عد ، روايات لا نزال نتملك نماذج منها في الأناجيـــل والتي تتحدث عن طفولة المسيح ، وفي أعمال توما والكلامنتيين الكاذبين المناهضين لبولس . واحدى هذه الروايات ، هي تلك التي تتحـــدث فتقول بأن ابراهيم هو الذي صك النقود التي قبضها يوذا الاسخربوطي ثمناً لخيانته . وغيرها تلك التي تتحدث عن « كهف الكنوز » الواقع تحت تلة الجلجلة ، حيث يختزن كنز الفردوس الذهبي ، ويضم عظام آدم . لقد كانت مادة دانتي الشعرية ، هي ، بعد كل شيء ، شعرية ، لكن هذه كانت واقعاً مجرداً ، وكانت تشكل العالم الذي عاشت فيه هذه الشعوب بصورة مستمرة . وأحاسيس كهذه ، هي أحاسيس نائيه ولا يمكن بلوغها بالنسبة لأناس يعيشون مع وداخل صورة ديناميكية للعالم . واذا ما حصلنا على بعض ايماءة من معرفة عن مدى غرابة كامل حياة يسوع الباطنية عنا ، - وهذه تشكل ادراكاً مؤلماً للمسيحي في الغرب ، الذي يبتهج حقاً ويسر اذا ما استطاع أن يجعل حياة يسوع الباطنية نقطة تماس وورعه الباطني الخاص - واذا ما اكتشفنا لماذا المسلم الورع وحده قادر هذه الايام على أن يخبر حياة يسوع خبرة حية ، عندئذ يتوجب علينا أن تغرق أنفسنا في عنصر - العالم هـــذا لصورة عالم كانت صورة - عالم يسوع . وآنذاك ، وآنذاك فقط نستطيع أن ندرك كم من القلة هو ذاك الذي اقتبسته المسيحيــة الفاوستية من ثروة كنيسة التشكل الكاذب - فهي لم تقتبس شيئاً من شعورها بالعالم ، واقتبست قليـــلا من شكلها الباطني ، والكثير من مفاهيمها وشخصياتها .

- ٢ -

تنبع الـ متى When ، بالنسبة الى النفس المجوسية ، من الـ أين Where . وهنا لا يوجد أيضاً ذاك الالتصاق الابولوني بالحاضر الشبيه بالنقطة ، كما ولا يوجد ذاك الاندفاع الفاوستي والانسياق نحو هدف لامتناه في بعده . فالكينونة هنا

نبض مخالف ، والكائن الواع نتيجة لذلك ، حس آخر بالزمان ، حسٌ هو صورة طبق الاصل للفراغ المجوسي . فالشيء الاولي الذي تشعر به انسانية هذه الحضارة ، ابتداء بالعبيـــد المنكودين والحالمين حتى الانبياء والخلفاء أنفسهم ، وتشعر بـه بوصفه قسمة قسمت لها ، هذا الشيء ليس فراراً غير محدود لعصور لا تسمح ابداً بتكرار لحظة مفقودة ، بل انما هو البداية والنهاية « لهذا اليوم » الذي قدر تقديراً لا يمكن عكسه او نقضه ، والذي يتخذ فيه الوجود البشري المكان المخصص له من الخليقة نفسها . وليس فراغ — العالم وحده ، بـــل انما زمان — العالم هو شبيـه بالكهف ايضاً . ومن هنا تنشأ القناعة المجوسية شكلاً وجوهراً والمقررة أن لكل شيء زماناً ، ابتـــداء بأصول المخلص ، التي دونت ساعته في النصوص الغابرة ، وانتهاء بأبسط تفاصيل الحياة اليومية التي قد تبدو فيها العجالة الفاوستية أمراً لا معنى له ، وشيئاً لا يدركه خيال . وهنا ايضاً تكمن أسس علم التنجيم المجوسي المبكر (وخاصة الكلداني منه) والذي يفترض ايضاً بأن كل الاشياء قد سطرت في النجوم ، وأن مدارات الكواكب القابلة للحساب العلمي ، تمكننا ايضاً من حساب مجاري الاشياء الارضية . أما الاوراكل الكلاسيكي فانـه كان يجيب فقط على السؤال الذي يربك الانسان الأبولوني ويشوشه — ألا وهو الشكل ، « الـ كيف » ? The How ، للاشياء الآتيـــة . لكن سؤال الكهف هو ، « متى » ? فجميع الرؤى ، وكامل حياة يسوع الروحية ، وآلام الجثمانية ، والحركة العظمى التي نشأت من موتـــه ، كل هذه الامور لا يمكن ادراكها اذا لم ندرك هذا السؤال الاولي للكائن المجوسي ، وندرك المستلزمات الكامنة وراءه . ولا شك أن علم التنجيم الذي دفع ، في انطلاقـه نحو الغرب ، بالاوراكل امامـــه خطوة فخطوة ، كان دلالة لا تخطىء على انطفاء النفس الكلاسيكية وخمودها . وليس هنـــاك من مثل يوضح هذا الوضع الانتقالي كما يوضحه تاسيتوس ، حيث نرى عنـده الارتباك والحيرة والتفسخ في صورته للعالم تسيطر على كامل تاريخه . فبوصفه رومانياً عريقاً يدخل اول ما يدخـل قوة آلهة المدينـة القديمة ، ومن ثم يعتبر ، بوصفه كوسموبوليتيا ذكيا هذا الايمان

ذاته ، بتدخل الآلهة خرافة وخزعبلة ، واخيراً يتحدث بوصفه رواقيا (وكانت النظرة الروحانية للرواقية يومذاك قد اصبحت مجوسية) عن قوة الكواكب السبعة التي تسيطر على اقدار الناس . وهكذا حدث خلال القرون التي تلت ، أن قامت الصوفية الفارسية فوضعت الزمان بوصفه آنية للقدر — وأعني بذلك سرداباً للزمان ومحدود الطرفين ، وبذلك يمكن للعين الباطنية أن تدركه — اقول وضعت الزمان في مرتبة أعلى من مرتبة نور — الله بوصفه تزروفان Zrvan ، الحاكم في الصراع العالمي بين الخير والشر . وقد أمست التزروفانية دين الدولة الفارسية من عام ٤٣٨ — ٤٥٧ . وهذا الايمان بان كل شيء قد سطر في النجوم هو أصلاً الذي يجعل الحضارة العربية تتميز بأنها حضارة من عصور — أي أنها حضارة حسابات زمان ، تبدأ بحدث يحس به على أنه عمل خاص مترع بالمغزى من أعمال العناية الإلهية . وأول هذه العصور وأهمها هو العصر الآرامي الجامع الشامل ، والذي يبدأ ، قرابة عام ٣٠٠ ق. م ، ببناء التوتر الرؤوي ، وهو « العصر السلوقي » . ولقد أعقبته الكثير من العصور غيره ، ومن بين هذه عصر الصابئة Sabaean « قرابة عام ١١٥ ق. م » ونحن لا نعرف نقطة انطلاقه معرفة دقيقة ، ثم عصر ديوكلتيان ، ومن بعده العصر اليهودي الذي يبدأ بالخليقة والذي بدأ على ايدي السنيدريون Synedrion عام ٣١٦ ، ومن ثم العصر الفارسي وذلك ابتداء من ارتقاء يزدجرد آخر الساسانيين العرش عام ٦٣٢ ، ومن ثم عصر الهجرة الذي طوح بآخر السلوقيين في سوريا وبلاد ما بين النهر . ولا يوجد خارج ميدان — الارض هذه سوى مجرد تقليد لغايات عملية كحدث فارّو Varro ، « ab urbe condita » وحدث الماركيونيين الذي بدأ بانشقاق ماركيون عن الكنيسة عام ١٤٤ ، ومن ثم حدث المسيحيين الذي جرى بعيد عام ٥٠٠ وبدأ بميلاد يسوع .

ان تاريخ العالم هو صورة العالم الحي التي يرى فيها الانسان نفسه قد حيكت داخلها بواسطة الولادة والسلف والخلف ، والتي يكافح من اجل ادراكها من

خارج شعور عاله . والصورة التاريخية للرجل الكلاسيكي تركز ذاتها على الحاضر المجرد . ومحتواها ليس صيرورة حقيقية ، بل انما هو صدر صورة الكينونة ، ذات مؤخرة من اسطورة معدومة الزمان ، تعقلنت بوصفها « العصر الذهبي » . وهذه الكينونة ، كانت ، على كل حال ، حشداً مدبجاً بالألوان من تصاريف الدهر ، من قدر حسن وآخر سيء ، « وُقرابات » عمياء ، وتبدلاً خالداً ، ومع هذا هي هي نفسها ابداً ودائماً ، بكل تبدلاتها ، ودون ما اتجاه ، وهدف أو « زمان » . أما شعور الكهف ، فهو على العكس من هذه ، فهو يتطلب تاريخاً يمكن قياسه حيث يتألف من بداية ونهاية للعالم ، وهذا يعني أيضاً بداية ونهاية للانسان — وهما عملان من اعمال الله ، جباران في سحريها — وبين هاتين الدورتين يقف الانسان معقود اللسان من الحدود النهائية للكهف والحقبة المقدرة ، وتدور المعركة بين النور والظلمة ، وصراع الملائكة Jazatas وجاتزاتاس مع اهريمان ، الشيطان ، ابليس والتي يتوقف عليها مصير نفسه وروحه . والله قادر على تدمير الكهف الحالي واستبداله بخليقة جديدة . وتعرض الرؤى الفارسية — الكلدانيـــة على البصيرة سلاسل كامــــلة من دهور كهذه ، وبسوع كان انسجاماً وزمنه ، يقف مترقباً نهاية دهره . وقد نجم عن هذا الاعتقاد مطــــل تاريخي ، كذاك المطل الطبيعي في نظر الاسلام حتى اليوم — النظرة الى زمن معين . « ان نظرة الشعب الى العالم تقسمه الى ثلاثة اقسام رئيسية — البداية ، تطور العالم ، وكارثـــة — العالم . فأهم الجواهر في تطور العالم بالنسبة للسلم المتمتع بحس اخلاقي عميق ، هي قصة — الخلاص والاسلوب الاخلاقي في الحياة وقد لحمت تلك بهذا ، وجعل منها ومنه (قصة الخلاص والاسلوب — المترجم) واحداً كاملاً بوصفه «حياة» الانسان . وهذه تصب،في كارثة العالم التي تحتوي الاقرار والمصادقة على التاريخ الأخلاقي للانسانية .

ولكن ، بالاضافة الى ذلك ، فان موضوع الشعور بهذا النوع من الزمان ، والنظرة الى هذا النوع من الفراغ هو ، بالنسبة للوجود البشري المجوسي ، نوع

خاص ويميز تماماً من انواع التقى والورع ، والذي نستطيع بالمثـــل أن ندرجه تحت اشارة الكهف – انه استسلام عديم الارادة لا يعرف « الأنا » الروحانية ، ويشعر بأن « الـ نحن » الروحانية التي دخلت جسداً دبت فيـــه الحياة ، مجرد انعكاس النور الإلهي . والكلمة العربيـــة التي تعبر عن هذا المعنى هي اسلام « خضوع » ، ولكن هذا الاسلام كان بالمثل حالة شعور عادية ليسوع ، ولغيره من الشخصيات من عباقرة الدين الذين ظهروا في هـــذه الحضارة . اما الورع الكلاسيكي فهو شيء ما يختلف تماماً عن هذا

أما نحن فاذا ما استطعنا في حضارتنا أن نستخلص عقلانياً « الأنا » من ورع كل من القديسة تيريزا ولوثر وباسكال – هذه « الأنا » العازمة على المحافظة على ذاتها من الخضوع ، أو حتى من الانطفاء بواسطـــة الله اللامتناهي – أقول اذا ما استطعنا أن نستخلص هذه الأنا فعندئـــذ لن يبقى من ورع هؤلاء أي شيء اطلاقاً . فسر الندامة المقدس الاولي والفاوستي يستلزم ارادة قوية وحرة تستطيع أن تقهر ذاتها . ولكن استحالة وجود « الأنا » قوة حرة أمام وجه الله هي بالذات التي تشكل « الاسلام » . وكل محاولة ترمي الى مجابهة أعمال الله بقصد شخصي ، أو حتى برأي شخص هو عمل Masiga – أي أنه لا يعني ارادة شريرة ، بل يعني أن قوى الظلام والشر قد سيطرت على الانسان وطردت ما هو الهي داخـــله خارجاً . فالشعور الواعي المجوسي هو مجرد ميدان معركة تدور رحاها بين هاتين القوتين ، وليس هو ، مثلاً ، قوة بذاته . زد على ذلك أنه لا يوجد في هذا النوع من حدوث – العالم أي مكان لعلل ومعلولات فرديـــة ، ناهيك عن وجود أي تركيز كوني مؤثر وفعال لها ، ونتيجة لذلك لا يوجد بالضرورة أي ترابط بـين الخطيئة والعقاب ، ولا المطالبـة بثواب ، ولا « برّ » اسرائيلي قديم . فالورع الحقيقي لهذه الحضارة يعتبر أشياء من هذا النوع دونه بمراتب ومراتب . فقوانين الطبيعة ليست أموراً بت فيها وقررت الى الابد ، وأن الله يستطيع ان يبدلها بواسطة منهاج من عجائب – بل انها الوضع الطبيعي للارادة الإلهية الاتوقراطية ، ا

وهذه القوانين لا تمتلك اي شيء من الضرورة المنطقية التي تمتلكها بالنسبة للنفوس الفاوستية . ففي كامل كهف ــ العالم توجد علة واحدة فقط وهي تكمن مباشرة وراء جميع الأعمال المنظورة ، وهذه هي رأس الله ، وتعمـــل دون ما علل . وحتى التفكير بعلل في موضوع الله كفر وتجديف .

من هذا الشعور الاساسي تنطلق الفكرة المجوسية في النعمة . وهذه تكمن وراء جميع الاسرار الدينية لهذه الحضارة (وخاصة السر المجوسي الاصلي ــ سر المعمودية) وتشكل (أي النعمة ــ المترجم) تباينـــاً بالغ الشدة بينها وبين الفكرة الفاوستية في الندامة . فالندامة تستلزم وجود ارادة « للانا » . لكن النعمة لا تعرف شيئاً كهذا . والفضل في تطوير هذه الفكرة الاسلامية الجوهر ، يعود الى انجازات اوغسطين الرفيعة ، اذ طورها بمنطق صلب عنيد ، وبنفوذ وعمق بالغين الى درجة أن النفس الفاوستية قد حاولت منذ بيلاجيوس Pelagius كل السبل والوسائل لتراوغ هذه القناعة وتخاتلها ــ لأنها تشكل بالنسبة لها خطراً داهماً يهددها بتدمير ذاتها بذاتها ــ وهي باستعمالها فرضيات اوغسطين للتعبير عن شعورها الخاص بالله ، كانت دائماً تسيء فهم هذه الفرضيات وتعيد تقييمها على أسس مباينة لأسس اوغسطين . والحق أن اوغسطين كان آخر كبـــار المفكرين في الفلسفة الكلامية العربية المبكرة ، ولكنه لم يكن ابداً عقلاً غربياً . وهو لم يكن فقط لفترة من الزمن من أتباع ماني ، بل انما بقي من اتباعه في بعض الخصائص الهامة حتى بعد أن اعتنق المسيحية ، وأقرب اقربائه فكرا يوجدون بين لاهوتيي الافستا فيما بعد ، من الفرس ، بما لهؤلاء من عقائد في مخزون النعمة المقدسة ، وفي الذنب المطلق . فالنعمة في نظره هي دفق جوهري من شيء ما الهي وانسكاب في الروح البشرية التي هي بدورها جوهرية ايضاً . ورأس الله يشع بها ، والانسان يتلقاها ، لكنه لا يكتسبها وفكرة الطاقة مفقودة لدى اوغسطين ، كما هي مفقودة عنـــد سبينوزا الذى تفصل بينه وبين ذاك قرون ، فمشكلة الحرية عند كل واحـــد منهما لا تشير الى الأنا وارادتها ، بـــل الى جزء من الروح الكونية سكب في الانســان والى علاقة هذا الجزء بباقي الانسان . فالكائن الواعي المجوسي هو

ميدان لمعركة تدور رحاها بين جوهري العالم ، بين النور والظلمة . أما المفكرون الفاوستيون المبكرون زمناً كدنز سكوتز Duns Scotus ووليام أوف أوكام Occam ، فهم يرون عكس هذا الرأي ، اذ أنهم يرون منافسة فطريـــة داخل الشعور الواعي الديناميكي نفسه ، منافسة بين طاقتي الأنا – وأعني بذلك الارادة والعقل ، وهكذا فان السؤال الذي طرحه اوغسطين يتحول بصورة لا شعورية الى سؤال آخر ، سؤال لربما كان هو نفسه عاجزاً عن فهمـــه ، – هل الارادة والعقل هما طاقتان مريدتان ومفكرتان وحرتان ، أم هما ليسا كذلك ؟ ولنجب على هذا السؤال كيفما نرغب ونشتهي ، ولكن هنا امرا واحدا مؤكدا ألا وهو أنه يتوجب على الأنا الفردية أن تخوض غمرات هذه الحرب ، لا أن تكابدها أو تعانيها . فالنعمـــة الفاوستية تشير الى نجاح الارادة وانتصارها وليس الى نوع الجوهر . ويقول اعتراف وستمنسر للبرسبيتريين « ١٦٤٦ » : « لقد كان الله مسرورا بأن يتغاضى عن بقية الجنس البشري وفق رأي ارادته التي لا يمكن تقصيها ، والتي بواسطتها يمنح الرحمة او يمنعها ، كيفما يشاء ، من أجل مجد سيادة سلطانه على مخلوقاته ، وأن يفرض الخزي والسخط بسبب خطيئتهم ، وتمجيـدا لعدالته البهية الرائعة . »

أما المفهوم الآخر القائل بان فكرة النعمة تطرح جانباً كل ارادة فردية وكل علة ما عدا العلة الواحدة ، وأنه لخطيئة حتى أن يسأل الانسان لماذا يتألم ، اقول أن هذا المفهوم يجد التعبير عنه في اقوى الاشعار التي عرفهـــا تاريخ العالم ، في قصيدة ظهرت الى الوجود في منتصف مرحلة ما قبـل الحضارة العربية ، وهذه الحضارة لا تملك لهذه القصيدة مثيلاً في روعتها الباطنية – وأعني بها سفر أيوب . فليس أيوب ، بل أصحابه هم الذين يفتشون عن خطيئة تعود اليها أسباب آلامه . فهم – كالأكثرية الساحقة من الجنس البشري لهذه الحضارة وكل حضارة أخرى ، ولذلك بما فيهم القراء المعاصرون ونقاد الاعمال – أقول هؤلاء يعوزهم العمق الميتافيزيقي كي يتمكنوا من الاقتراب من المعنى النهائي للتألم داخل كهف العالم .

فهنا البطل نفسه يحارب وحده طيلة مرحلة الاكتمال حتى الاسلام المجرد وبهذا يصبح الشخصية الوحيدة التي يمكن للمأساة المجوسية أن تضعها وفاوست جنباً الى جنب .

- ٣ -

ان الشعور الواعي لكل حضارة يسمح بطريقتين من باطنية ، تلك الطريقة التي ينتشر بموجبها الشعور التأملي داخل الفهم ، وتلك التي يحدث بموجبها العكس من ذلك . ويسمي سبينوزا التأمل المجوسي « بالمحبة العقلانية داخل الله (Mahw) » ويمكن ان يكتشف هذا التأمـــل فيبلغ الذهول الروحاني المجوسي الذي منح لبلوطينس مرات عديدة ، ولتلميذه بورفيري مرة واحدة في سن متقدمـــة من العمر ، في شيخوختـــه . أما الجانب الآخر من الباطنية ، (انتشار الفهم داخل الشعور الواعي – المترجم) أي الجدلية التلمودية ، فانه يظهر لدى سبينوزا كمنهاج هندسي ، ويتبدى في الفلسفة العربية - اليهودية كالكلامية بصورة عامة . وكلاهما يرتكزان الى الواقعة المقررة أنه لا توجد في المجوسية « أنا » فردية ، بل يوجد فقط روح واحدة موجودة ، في الوقت الواحد ، داخل كل فرد من المصطفين ، وهي كذلك الحق . ونحن لا نستطيع ان نبالغ في التشديد مؤكدين على أن نتائج فكرة الجذر ، فكرة الاجمـــاع ، هو اكثر من مفهوم او رأي وعلى أنها يمكن ان تكون خبرة معاشة حتى لطاقة كاسحة ماحقة ، وعلى أن جميع الطوائف من النوع المجوسي ترتكز اليها ، وأن بارتكازها هذا ، تنأى وتنعزل عن جميع الطوائف الاخرى لكل حضارة اخرى . فالطائفة الصوفية في الاسلام تمتد من هنا الى الماورائية ، وهي تبلغ ما وراء القبر ، وبهذا فهي تضم الموتى من المسلمين من الأجيال الأبكر زمناً . لا بل انها تضم ايضاً الأبرار في عصور ما قبـــل الاسلام . ويشعر المسلم بأنه مرتبط بوحدة واحدة وجميع من ذكرت . وهؤلاء

يقدمون العون له ، وهو بدوره يستطيع أن يزيد في غبطتهم وطوباهم بواسطة ممارسة أهليته وجدارته الخاصتين به . والشيء ذاته هو ما كان يعنيه تماماً المسيحيون واشياع المذهب التوفيقي للتشكل الكاذب عندما كانوا يستعملون الكلمتين Polis و Civitas – فهاتان الكلمتان اللتان كانتا فيما مضى تدلان على مجموع من الاجسام والاجسام ، أصبحتا تعنيان الآن اتحاداً يضم الرفاق المؤمنين. زد على ذلك أن Civitas Dei (دولة الله) الشهيرة لاوغسطين لم تكن مدينة كلاسيكية ولا كنيسة غربية ، بل كانت وحدة من مؤمنين ومباركين وملائكة ، تماماً كطوائف مترا والاسلام ، وماني ، وفارس . فالطائفة كانت ترتكز على الاجماع ، وهي معصومة عن الخطأ في الأمور الروحية . ولقد قال محمد : « ان شعبي لا يمكن ابداً أن تجمع كلمته على خطأ » ، وهذا الشيء ذاته هو المقدمة المنطقية في دولة الله لأوغسطين فالنسبة الى اوغسطين لم يكن هناك ولا يمكن ان يكون هناك اي وجود « للأنا » البابوية المعصومة عن الخطأ ، أو لأي نوع آخر من سلطة للبت في الحقائق الدغماتية ، فوجود مثل هذا الأمر يدمر تدميراً كاملاً المفهوم المجوسي للاجماع . والشيء ذاته ينطبق على هذه الحضارة بصورة عامة — ولا ينطبق فقط على الدوغما ، بل أيضاً على القانون والدولة . فالطائفة الاسلامية ، كطائفة بروفيري أو اوغسطين ، تضم كامل كهف العالم ، تضم الـ هنا والـ ما وراء ، والملائكة والارواح المستقيمة (الارثوذكسية) والخيرة ، والدولة تشكل داخل هذه الطائفة فقط وحدة أصغر من الجانب المنظور ، وحدة يحكم الكل الرئيسي اعمالها ويسيطر عليها . ولذلك فان الفصل بين السياسة وبين الدين هو امر مستحيل نظرياً في العالم المجوسي ولغو وبطلان ، بينما أننا نرى في الحضارة الفاوستية أن الحرب بين الكنيسة والدولة هي حرب ملازمة لكل المفاهيم — لذلك فهي حرب لا تنتهي بالضرورة من الوجهة المنطقية . فالقانون المدني في العالم المجوسي قانون ينطبق ، بكل بساطة على القانون الديني . فلقد كان البطريرك يقف جنباً الى جنب وامبراطور القسطنطينية ، وكذلك ترأراتستراتيا والشاه وغاؤن Gaon واكسلارخ ، وشيخ الاسلام والخليفة ، وهؤلاء كانوا في الوقت ذاته رؤساء ورعايا معاً . وليس هناك اقل

تشابـه بين هذا وبين العلاقة القوطية بين الامبراطور والبابا ، وكذلك كانت جميع مثل هذه الفكر غريبة عن العالم الكلاسيكي . وهذا المزج المجوسي بين الدولة وطائفة المؤمنين قد تم لأول مرة في دستور ديوكلشيان ، وسار بــه قسطنطين حتى اكتماله . ولقد سبق لنا أن أظهرنا أن الدولة والكنيسة والأمة ، تشكل معاً وحدة روحية — وخاصة ذاك الجزء من الاجماع الارثوذكسي الذي يظهر ذاته داخل الانسان الحي . ومن هنا كان يرى الامبراطور ، بوصفه اميراً للمؤمنين — اي اميراً لذاك الجزء من الطائفــة المجوسية الذي اوكل الله أمرهم اليه — أن واجبه واضح كل الوضوح ، في أن يوجه المجامع الوجهة التي تؤمن اجماع المصطفين على الرأي .

— ٤ —

ولكن يوجـــد ، الى جانب الاجماع ، نوع آخر من الاعلان الإلهي عن الحقيقة — وأعني بهذا « كلمة الله » بما لهذا التعبير من مفهوم مجوسي مقرر ومجرد ، وهذا مفهوم بعيد ، بالمثـل ، عن الفكرين من كلاسيكي وغربي ، وكان نتيجة لبعده عنها منبعاً لما لا يعد او يحصى من اخطاء فهم . أما الكتاب المقدس الذي أصبح فيه هذا المفهوم منظوراً وواضحاً ، والذي اسر داخله بواسطة سحر كتابة مقدسة ، فانه يشكل جزءاً من مخزون كتب كل دين مجوسي . وقد حيكت معاً داخل هذا المفهوم ثلاثة آراء مجوسية وكل رأي من هذه الآراء يمثل ، حتى بحد ذاته ، مصاعب هائـــلة بالنسبة لنا ، فانسلاخ كل رأي منها عن الآخر ، ووحدانيةهذه الآراءمعاً، هما أمران يستعصيان، بكل بساطة، على فكرنا الديني، مع أن هذا الفكر قد حاول مراراً أن يقنع نفسه بعكس ما أوردت . وهـذه الفكر الثلاث هي : الله ، وروح الله ، وكلمة الله . وهي المكتوبة في فاتحة انجيل يوحنا — « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الله الكلمة — »

وقد وردت هذه الفكر الثلاث ، قبل ورودها في انجيل يوحنا بزمن طويـل ، وخرجت ، قبل تلك ، الى ميدان التعبير خروجاً طبيعياً تاماً بوصفها شيئاً ما « غنيا » عن البيان في الفكر الفارسية سبنتا مينيو Spenta Mainyu وفوهو مانو Vohu Mano ، وتجلت بوضوح في المفهومـين من يهودي وكلداني ، والمطابقين لهذا المفهوم الفارسي . وكان اللب الذي دارت حوله الاشتباكات في القرن الرابع والخامس ، هذه الاشتباكات المتعلقة بجوهر المسيح . ولكن الحق هي في نظر الفكر المجوسي جوهر بحد ذاته ، والكذب (او الخطأ) هو جوهر ثان — وهذه ايضاً هي نفس الثنائية التي تقابل النور والظلمة ، الحيـاة والموت ، الخير والشر . والحق بوصفه جوهراً ، هو حيناً الله بذاتـه ، وحيناً روح الله بعينها ، وآخر كلمة الله نفسها . وفقط على مثـل هذا الضوء نستطيـع أن ندرك قولاً كهذا :

« أنا الحق والحياة » و « كلمتي هي الحق » وهذان قولان يجب ان يفهما ، كما قصد لهما من معنى ، استدلالاً بالجوهر . وعلى هذا الشكل ايضاً نستطيـع أن نعرف : بأية عين كان الرجل التقي لهذه الحضارة ينظر الى كتابه المقدس : ففي هذا الكتاب قد دخل الحق المنظور نوعاً منظوراً من وجود ، أو على حد تعبير انجيل يوحنا في الاصحاح الاول عـ ١٤ : « والكلمة صار جسداً وحـل بيننا » . وحسب قول الياسنا Yasna ، فان الافستا قد أنزلت من السماء الى الأرض ، والتلمود يقول بأن موسى تلقى التوراة من الله سفراً بعد سفر . فالاعلان الإلهي المجوسي هو عملية صوفية حيث تدخل كلمة الله — أو رأس الله بوصفه كلمة — الخالدة التي لم يتم شكلها انساناً من البشر ، بغية ان تتخـذ من خلاله الشكل المنظور المحسوس للاصوات وخاصة الأحرف . « فالقرآن » يعني « قراءه » . ومحمد شاهـد في احدى الرؤى ، ملفات من اسفار مقدسة في السماء واستطاع (بالرغم من أنه لم يتعلم ابدا القراءة) أن يحل رموزها « باسم الله » . وهذا هو شكل من اشكال الاعلان الإلهي ، وهو في الحضارة المجوسية قاعدة وقانون ،

وهو ليس حتى استثناء في الحضارات الأخرى ، ولكنه بدأ يتخذ شكلاً ابتداء من عصر قورش . فالانبياء الامرائيليون القدماء ، ولا شك زردشت ايضاً ، يشاهدون ويسمعون ، في ساعـة الانتشاء الروحي ، اشياء يقومون بنشرها واذاعتها فيا بعد . فسفر تثنية الاشتراع ، قد اعطي ، على الحال التي وجد فيها في الهيكل ، وهذا يعني أنـه يجب ان يعتبر بوصفه حكمة الآب . واول مثال (وعامد متعمد) للقرآن ، هو سفر حزقيال ، الذي تلقاه مؤلفه من الله خلال رؤيا متبصرة ثم ابتلع حزقيال السفر . وهنا تتبدى القاعدة التي ارتكزت عليها فيا بعد فكرة جميع كتابات الرؤى وشكلها . ويعبر عنها بشكل بعيد كل البعد عن الصقل او التشذيب او التكرير ، فهو خام الى ابعد حد يمكن ان يتصوره الخيال . ولكن هذا الشكل الجوهري من التلقي اصبح تدريجيا من متطلبات اي كتاب يراد له ان يكون كتابا قانونيا دينيا . وقد نشأت الفكرة القائلة بأن موسى قد تلقى لوائح الشريعة على جبل طورسينا ، في ازمان ما بعد السبي ، ومن ثم انتحلت كامل التوراة مثل هذا الاصل ، وامسى يزعم ، قرابة الحقبـة المكابية ، بأن للعهد القديم بأجمعه ، اصلا كهذا . وابتداء من مجمع جبنا Jabna (قرابة عام ٩٠ ق.م) اصبحوا يعتبرون بأن كل كلمة وردت في الكتب الدينية اليهودية ، هي كلمة من وحي وأنزلت بكل ما لحروفها من معنى . ولكن هذا التطور ذاته حدث في الدين الفارسي بغية ارضاء الأفستا ، وحدث في القرن الثالث ، وتتبدى فكرة التنزيل ذاتها في الرؤيا الثانيـة لهرماز Hermas ، وفي سفر رؤيا يوحنا ، وفي الكتابات الكلدانية و كتابات العارفين والمنديين ، واخيراً فهي تكمن كقاعدة طبيعية مضمرة ، وراء جميع الفكر التي شكلها الفيثاغوريون والافلاطونيون الجدد من كتابات اساتذتهم القدمـاء . « فالقانون الديني » هو التعبير الفني عن مجموع الكتابات التي تسلم بها الاديان على أنها منزلة . وقـد اعتبرت ، وفق هذا المفهوم المجموعتان الهرمزية والاوراكل الكلدانية ، وهذه المجموعة ظهرت ابتداء من عام ٢٠٠ ، اقول اعتبرت قوانين دينيـة — وكانت المجموعة الاخيرة كتاباً مقدساً للافلاطونيين الجدد ، وقـد وافق بروكلس

Proclus ، راعي هذه الكنيسة « ووالدها » عليها وقبل ان توضع في مصاف طيموس لافلاطون .

وقد اعترف أصلا دين يسوع الفني ،كما اعترف يسوع نفسه بالشريعة اليهودية . فالأناجيل الاولى لا تبدي اي نوع من زعم بأن الكلمة صارت منظورة ، وانجيل يوحنا هو اول كتاب مسيحي يستهدف الغرض ذاته الذي يستهدفه القرآن . ولا شك أن المؤلف المجهول لهذا الانجيل هو صاحب الفكرة القائلة بأنه من الجائز ، لا بل يجب ان يكون هناك قرآن مسيحي . فالقرار الخطير الحاسم في عما اذا كان متوجباً على الدين (المسيحي) الجديد أن ينسلخ عن ذاك الدين الذي آمن بـــه يسوع ، قد تقنع ، مرغماً تحت ضغط الضرورة العميقة ، بالسؤال عما اذا كان من الجائز أن يستوسل في اعتبار الاسفار الدينية اليهودية تجاسيد للحق الواحد . لقد كان جواب انجيل يوحنا بـــلا مضمرة ، وجواب ماركيون بكلا صريحة ، وجواب الآباء بنعم تتنافى تماماً والمنطق .

ويستنتج من هذا المفهوم الميتافيزيقي لجوهر أي من الكتب المقدسة ، أن التعبيرين « الله يتكلم » و « الكتاب الديني يقول » كانا تعبيرين ينطبق أحدهما على الآخر انطباقاً تاماً وبشكل غريب تامـــاً عن فكرنا (نحن معشر الغربيين ـــ المترجم) ويبدو لنا من الليالي العربية (الف ليلة وليلة) ، وبأسلوب احاجي ، أن الله يجب أن يكون معقود اللسان في هذه الكلمات والاحرف التي يمكن أن تفض اختامهـا وترغم على اظهار الحق بواسطة المتضلعين في هذا السحر . فالتفاسير الدينية لا تقل ابداً عن الوحي ، والتعاليم الدينية هي حملة من معاني باطنية صوفية (انجيل مرقص الاصحاح الاول عدد ٢٢) . ومن هنا ينشأ التبجيل ـــ الذي هو على طرفي نقيض والشعور الكلاسيكي ـــ الذي احاط برعايـــة هذه الكتب الثمينة والعناية بها ، وزخرفتها بكل وسيلة واسلوب عرفـــه الفن المجوسي الفني ، وظهور خطوط كتابية جديدة المرة بعد المرة ، خطوط كانت تبدو في

نظر مستخدميها أنها هي الوحيدة التي تملك قوة الاستيــلاء على الحق المنزل واستيعابه .

ولكن قرآناً كهذا هو مجد طبيعته بالذات ، قرآن غير مشروط في صحته ، ولذلك فهو لا يقبل تعديلاً او تحويراً ولا يحتمــل تحسينا . وتتيجة لذلك نشأت التفاسير السرية والفتاوى التي كانت تستهدف اقامة تناغم وانسجام بين النص وبين قناعات العصر . وتحفة هذه التفاسير والفتاوى هي مجموعة القوانين المدنيــــة التي وضعها يوستنيان ، ولكن هذا القول ذاته لا ينطبق فقط على كل سفر من اسفار الكتاب المقدس ، ولكنــه (دون ريب) ينطبق ايضا على كتب افلاطون وارسطو الدينية وغيرهما من علماء اللاهوت الوثني الذي كان شائعا بين الناس في ذاك العصر . وأهم من هذا هو الزعم ، الذي لا نزال نجـــد له اثراً في كل دين مجوسي ؛ الزعم بوجود اعلان الهي سري ، او معاني خفية للكتب الدينية ، وأن ذاك الاعلان وهذه المعاني لا تحفظ بواسطة تدوينها ، بل انما تحفظ داخل ذاكرة الفقهاء المتضلعين بأمور الدين ، وتنشر وتبلغ شفويا . وحسبما تقوله الظنون والآراء اليهودية ، فان موسى لم يتلق ، على طورسينا ، التوراة المكتوبة فقط ، بل انـما تلقى ايضا توراة شفوية خفيـــة ، منع من تدوينها . فالتلمود يقول بهذا الشأن :

(لقد رأى الله أنه سيأتي يوم يتملك فيه الوثنيون انفسهم توراة وسيقولون حينذاك لاسرائيل : « نحن ايضا ابناء الله . » وعاذا سيجيبهم الله آنذاك ، سيقول « ان الذي يعرف اسراري هو وحده ابني) . ولكن ما هي اسرار الله هذه ؟ انها التعاليم الشفوية . اذن فالتلمود، في الشكل الذي هو بمتناول اليدالآن ،يحتوي فقط على جزء من مادة الدين ، والأمر ذاته ينطبق ايضا على النصوص المسيحية التي عرفتها الحقبة المبكرة زمنا . ولقد لاحظ الكثيرون ومرات عديدة ، أن مرقص يتحدث عن الافتقاد الإلهي وعن قيامة المسيح تلميحا فقط ، وأن يوحنا يتحدث فقط عن الروح القدس ، ويحذف سنة عشاء السيد تماما . فالاوائل من

المطلعين فهموا ما تعنيه هذه التلميحات ، ومن المتوجب ألا يفهمها من لا يؤمنون بإيمانهم . وقد نشأ فيما بعد « نظام انضباط سري » كان يفرض على المسيحيين أن يصمتوا ، في حضرة غير المؤمنين ، عن الحديث في موضوع عقيدة المعمودية وفي مواضيع اخرى . وقد بلغت هذه النزعة بالكلدانيين وبالفثاغوريين الجدد وباتباع المذهب الكلبي وخاصة بالملل اليهودية والاسلامية الى درجة كتلك جعلتنا لا نعرف اي شيء من الجزء الاكبر من عقائدهم السرية . فلقد كان يحيط بالكلمة المحفوظة على هذا الشكل داخل اذهانهم فقط ، اجماع على الصمت ، واكثر من هذا كان كل مؤمن قانعاً بأن أخاه المؤمن يعرف ، « وعرف » مغزاها . ونحن أنفسنا نقامر ، كأننا نقامر في أهم الاشياء المتأكدين منها اشد التأكد المباشر ، فنسيء ترجمة العقائد الجوسية وذلك بأخذنا جزءا قد عبر عنه منها ، بوصفه كلا كاملا لتلك العقائد التي وجدت فيما مضى ، ونأخذ المعاني الحرفية الدنيويـة للكلمات على أنها معان للمغزى الحقيقي لها . اما المسيحية الغنوطية فـلم تكن لديها اسرار ، ولهذا شكت في التلمود شكاً مزدوجاً ، واعتبرته ، وبحق ، كمقدمة صورة العقيـدة اليهودية فقط .

والكابالا هي ايضاً نتيـة في مجوسيتها ، حيث أنها تفض المغازي السرية من الارقام واشكال ــ الحرف ، والنقاط والخطوط الفواصـل ، ولذلك لا يمكن لهذه ان تكون قديمة قدم الكلمة نفسها التي أنزلت بوصفها جوهراً الى الارض . ونحن لا نزال نجــد اثراً للعقيدة السرية القائلة بخلق العالم من الحروف الاثنين والعشرين للأبجدية العبرانية ، وعقيدة مركبة ــ العرش في رؤيا حزقيال ، في الازمان المكابية . وترتبط بهذه التفاسير المجازية للنصوص المقدسة ارتباطاً وثيقاً . وتملأ هذه ايضاً كل نبـذة من المشنا وكل رسائل الآباء وفلاسفة الاسكندرية . ففي الاسكندرية كانت تعالج كل الاساطيـر الكلاسيكية وحتى افلاطون نفسه بمثل هذا الاسلوب ، وقد اقاموا مماثلة بينها وبين الانبياء اليهود . (موسى = موساوس) (Moses = Musaeus) .

ان القرآن الذي لا يقبل تعديلا او تبديلا ، لا يسمح للرأي التقدمي من المناهج ، الا بالمنهاج الدقيق في علمانيته ، ألا وهو التفسير . فالفرضية كما تقول : ان « كلمة » العلم لا يمكن ان تحسن ، وأن الوسيلة الوحيدة التعامل معها هي اعادة ترجمتها . كما وأنه لم يكن هناك في الاسكندرية من انسان يستطيع أن يزعم بأن افلاطون كان « على خطأ » ، بل انما كانوا يتبحرون في اقواله ويتمعنون في معانيه . وقد تم هـــذا الامر وفق اشد ما للهالاخا Halakha من اشكال ، وتثبيت هذه الشروح كتابة يتخذ شكل التفسير ، هذا الشكل الذي يسيطر على كل الكتابات الدينية والفلسفية ومؤلفات العلماء لهذه الحضارة . واقتداء بمسلك اتباع مذهب المعرفة ، قام الآباء بجمع هذه التفاسير الى الكتاب المقدس ، وبالمثل فان التفسير البلهوي للزنـد Zend ظهر ايضاً جنباً الى جنب والأفستا ، وظهر المدراش Midrash الى جانب الشريعة اليهودية . ولكن الفقهاء من الرومان وفلاسفة الحقبة الكلاسيكية المتأخرة زمناً — واعني بهؤلاء مدرسي كنيسة المذهب الناشئة قد سلكوا الطريق ذاتها تماماً ، كما وأن رؤيا هذه الكنيسة التي شرحت المرة تلو المرة ، بعد بوسيدونيوس Posidonius ، فانها كانت طيميوس Timaeus لافلاطون . وما المشنا سوى تفسير واسع مسهب للتوراة . وعندما اصبح علماء التفسير انفسهم مراجع ، واصبحت كتاباتهم قرآنا ، انطلق الناس في كتابـــة التفاسير تفسيراً بعد تفسير ، كما فعل سمبليسيوس آخر الافلاطونيين في الغرب ، وفعل الأموريم الذين اضافوا الجارة الى المشنا في الشرق ، والفقهاء الذين صنفوا في بيزنطه ، الدساتير الامبراطورية في مجموعات من القوانين المدنية .

وهذا المنهاج ، الذي يرد ، متوهماً ، كل قول الى نطق موحى به مباشرة ، بلغ ذروتـــه في اللاهوتين من تلمودي واسلامي . فهالاخا جديدة ، او حديث جديد ، هو صحيح وصائب اذا كان مسنداً فقط الى سلسلة لا تنقطع من الرواة الموثوقين ، تبلغ موسى او محمد وكانت الصيغـــة المهيبة الخطيرة للاسناد في

القدس : « فليرووا هذا عني ! على هذا الشكل سمعته من المعلم . » والقيـــام بسرد سلسلة الموثوقين في الزند قاعدة وقانون ، واريناوس يبرر لاهوته بالواقعة القائلة بأن للاهوته سلسلة تمتد منه عبر بوليكارب حتى تبلغ الطائفة المسيحية البدائية. وقد دخل شكل هذه المالاخا على المسيحية بصورة غنية عن البيان الى درجة لم يشعر معها بدخولها احد . وتظهر ، ما خلا ، جميع هذه الاسنادات الدائمة الى القانون والانبياء ، اقول تظهر عناوين الأناجيل الاربعة ، التي يتوجب على كل انجيل منها (حسب قول مرقص) أن يقدم مرجعه اذا ما اراد أن يدعي صحة نسبة الكلمات التي يعرضها ، الى السيد المسيح . وهذا هو الذي اوجد السلسلة الممتدة وراء الى التوراة التي تجسدت في المسيح ، ومن المستحيل علينا أن نغالي في الحقيقة المكثفة الشديدة لهذا الامر ، داخل فكرة ــ عالم انسان كأوغسطين أو جيروم . وهذه هي القاعدة للمارسة هذه ، التي تزايـــد انتشارها اتساعاً حتى ابتداء من عصر الاسكندر فما بعده القاعدة القائلة بتزويد الكتابات الدينيـــة والفلسفية باسماء واضعيها ، كأخنوخ وسليمان وعزرا وهرمز وفيثاغوروس ــ مسانيد الحكمة الإلهيـــة ومواعينها ، والذين اصبحت فيهم الكلمة جسداً منذ القديم . ونحن لا نزال نملك رؤى تحمل اسم باروخ ، الذي كان يقارن بومذاك بزردشت ، ونحن بالكاد نستطيع ان نشكل فكرة ، عما كان شائعاً وذائعاً من كتابات غطيت باسمي افلاطون وفيثاغوروس . ولقد كان « لاهوت ارسطو » من اوسع انجازات الافلاطونيين الجدد نفوذاً واعمقها تأثيراً . واخيراً فان هذا المستلزم الميتافيزيقي للاسلوب والمعنى الاعمق للاسناد ، والذي استخدمه الآباء والربيون والفلاسفة من اليونان وفقهاء « الرومان » ، وانتهى ، من جهة ، الى قانون فالنتنيان الثالث ، والى استئصال الكتابات المشكوك في صحتها من القوانين الدينية اليهودية والمسيحية ــ اقول ان هذا المستلزم هو رأي اساسي يفرق بين مواد الخزين الكتابي وفق الفرق في الجوهر .

- ٥ -

سيصبح من المستحيل علينا في المستقبل ان نكتب تاريخاً لمجموعة الاديان المجوسية،اذا ما استندنا الى ابحاث كتلك . فهذه المجموعة تشكل وحدة من روح وتطور لا يمكن ابداً العزل او الفصل بين عناصرها ، ويجب على المرء ألا يتخيل ابداً انه باستطاعته ان يفهم احد اديان هذه المجموعة دون العودة الى بقية الأديان التي تتألف منها . ان ولادة هذه الاديان وانتشارها وتثبيتها الباطني تقع في الحقبة الممتدة من عام ٠ — ٥٠٠ . وهذه تتوافق تماماً ونشوء الدين الغربي ابتداء بالحركة الكلانية Cluniac حتى عصر الاصلاح الديني . ويملأ هذه القرون عطاء وأخـذ متبادلان وازدهار مدهش بخصبه وثرائه ، ونضوج مذهل وتحولات شكل — وطلاءات وهجرات وتكاييف ورفوض — وذلك كله دون اي نوع من اعتماد المنهاج الواحد على كون المناهج الاخرى ثابتة بالبراهين والأدلة . ولكن اشكال هذه الاديان وتراكيبها هي وحدها التي تتغير او تتبدل ، اذ أن في اعماق هـذه الاديان تكمن الروحانية الواحدة ذاتها ، وهذه الروحانية هي نفسها التي تنطق دائماً بجميع لغات عالم الاديان هذا .

عاشت شعوب فتية في المناطق الريفية البابلية القديمة . وكان كل شيء هنا في حال من تحفز وتوثب واستعداد . وتبدت اولى ارهاصات المستقبل قرابة عام ٧٠٠ قبل المسيح ، وذلك في الأديان النبوية من فارسية ويهودية وكلدانيـة . وتجلت صورة خليقة من نوع واحد ، قدر لها أن تكون فاتحة التوراة ، وتبدت هذه الصورة بخطوط واضحة جلية ، وتقرر الى جانبها تنظيم واتجـاه وهدف ورغبة . فشيء ما أدركته البصائر وهو لا يزال في رحم الغيب والمستقبل البعيد ،

انه شيء كان لا يزال آنذاك غامضاً مظلماً مبهماً ، لكن القناعة بحيثه كانت وطيدة راسخة . ومنذ ذاك الحين فما بعد عاش الناس رؤى هذا الشيء وكان يرافق عيشهم هذا احساس عميق برسالة وتورمت موجـة ثانية وانتفخت ثم تدحرجت في تيارات من رؤى هبت في اعقاب عام ٣٠٠ . فهنا قـد استيقظ الشعور الواعي المجوسي وهب يبني لذاته ميتافيزيقا للاشياء الاخيرة ، ميتافيزيقا ارتكزت الى الرمز الاولي للحضارة الآتية ، الا وهو الكهف . وتفجرت في كل مكان فكر عن نهاية العالم المرعبة ، وعن الدينونة الاخيرة والقيامة والفردوس والجحيم ، وكان يرافقها الفكر الرائع بعملية الخلاص حيث يكون مصير الارض والانسان واحـداً – ونحن لا نستطيع القول اي بلد او شعب هو الذي خلق هذه الفكر واوجدها – وقد جليت بمشاهد واشكال واسماء عجيبة مدهشة . فشخصية – المسيح تعرض ذاتها كاملة بضربة واحدة . وتجربة الشيطان للمخلص تروى كأنها اسطورة او خرافة . ولكن رعباً عميقاً متزايداً ابداً نشأ وانتفخ في الوقت ذاته ، وانتصب امام هذه القناعة بوجود حد نهائي – وشيك – لا يرحم ، حد نهائي لكل حدوث ، وبلحظة لا يكون عندها الا الماضي . وقد اعطى الزمان المجوسي ، اي « الساعة » ، الاتجاهيـة تحت الكهف ، نبضاً جديداً للحياة ، ومغزى جديداً لكلمة « المصير » . وأمسى فجأة موقف الانسان من الالوهية مختلفاً تماماً عما كان عليه فيما مضى . وقد وصف بعل ، في النقوش المحفورة على الباسيليكا العظيمة في تدمر ، (والتي ظن فيها طويلاً أنها مسيحية) بالخير والرحيم والرؤوف ، وقد نفذ هذا الشعور مع عبادة الرحمـن حتى بلغ جنوب الجزيرة العربية . وهو يملأ المزامير الكلدانية ، وحلت التعاليم عن زردشت المرسل من الله ، محل تعاليم زردشت نفسه . وهو الذي حرك يهودية العصور المكابيـة – فمعظم المزامير كتبت في تلك العصور – وآثار كل الطوائف الأخرى التي أسدل عليها الآن الزمان ستار النسيان هي في المناطق الواقعة بين العالم الكلاسيكي والعالم المندي .

وحدث الجيشان العظيم الثالث في زمن قيصر ، وتمخض عن أديان الخلاص العظمى . ومعه انتصبت الحضارة وأطلت على يوم رائع مشرق ، أما ما تبعه بصورة مستمرة وخلال قرن او قرنين من الزمن ، فانما كان تكشيفاً للخبرة الدينية ، تكشيفاً لا يعلى عليه ولا يطاق معاً . وتوتر كهذا يلامس نقطة تفجر نفس ـ الحضارة ، أغوطية كانت ام فيدية او اية نفس ـ حضارة اخرى معروفة لدينا ، ويلامسها مرة واحدة فقط وفي فجرها الوليد .

وهنا نشأت الآن الاسطورة العظمى في دوائر المعتقدات من فارسية ومندائية ويهودية ومسيحية ، ودوائر التشكل الكاذب الغربية ـ وعلى الشكل ذاته تماماً التي نشأت وفقه في عصور الفروسية من هندية وكلاسيكية وغربية . وفي هذه الحضارة العربية لا نستطيع أن نفصل بين البطولة الدينية والبطولة القومية بوضوح اكثر من الفصل بين الأمة والكنيسة والدولة ، أو بين القانون المنزل والقانون الموضوع . فهنا يمتزج النبي في المقاتل ، وترتفع قصة المتألم العظيم فتبلغ مرتبة الملحمة القومية ، وهنا تتصارع قوى النور والظلام ، وتحتوب كائنات اسطورية ، وتقتل الملائكة والشياطين ، ويلتحم الشيطان مع الارواح الطيبة ، وتصبح الطبيعة كلها ، ابتداء من ولادة العالم حتى دماره ، ميدان صراع وقتال . وتشترع في الدنيا هذه ، عالم الجنس البشري ، مغامرات وآلام المبشرين بالدين وابطاله وشهدائه . وقد كانت لكل امة ترتبط بهذه الحضارة اسطورتها البطولية الخاصة بها . وقد ألهمت حياة النبي الفارسي في الشرق الشعراء بمخطط رائع لشعر ملحمي . فلقد كانت قهقهات زردشت حين ولادته تجلجل في السماء وتدوي ، وكانت كل الطبيعة تردد اصداءها . وفي الغرب ، أمست آلام المسيح التي كانت تتزايد ابداً اتساعاً وسعة وتطوراً ، الملحمة الصحيحة للأمة المسيحية ، وقد نمت على جوانبها سلاسل من الاساطير عن طفولته ، هذه الاساطير التي أخصبت في النهاية واثمرت بنوع معين من الشعر . واصبحت شخصية أم الله واعمال الرسل ، كقصص ابطال الصليبيين الغربيين ، محوراً لروايات دينية

(اعمال توما ، والكلامنتين الكاذبين) مسهبة مستفيضة ، حيث نبتت وفرخت في القرن الثاني في كل مكان يقع بين النيـــل ودجلة . وقد نسقت في الهاغادا اليهودية وفي والتارغوم ، عدد وفير من الاساطير حول شاوول وداود والبطاركة والتنائيم العظام كشودا واكيبا ، وقد تناول خيـال العصر الذي لا يرتوي او يشبع ما طالته يداه من اساطير المذهب الكلاسيكي المتأخرة زمناً ، ومن قصص حيـاة المؤسسين (كحياة فيتاغورس وهرمز ابولونيوس Apollonius أوف تيانا) .

ومع نهاية القرن الثاني تخفت اصوات هذا التمجيد وتخرس وتموت . ففصل ازدهار الشعر الملحمي قد مر وانتهى ، وأطل عصر سيطرة الميتافيزيقا والتحليل الدغماتي للمادة الدينية . فالبطولة تستسلم الآن للفلسفة الكلامية ، والشعر يخضع للفكر ، والعراف والباحث الكاهن . فالفلسفة الكلامية المبكرة ، والتي تنتهي قرابة عام ٢٠٠ (بينما الغربية تنتهي قرابـــة ١٢٠٠) تشتمل على كامل العلم الروحاني ــ وتشتمل في المعنى الاوسع على التأمل العظيم ــ وتضم مؤلف انجيل يوحنـــا ، وفلانتنيوس وباردسين Bardesanes ، وماركيون والمبررين Apologists والآباء الاولين حتى ارينيوس Irenaeus وتورتليان ، وآخر التنائيم حتى الربي يهودا الذي أتم المشنا ، والفيتاغوريين الجدد ونساك الاسكندرية . وكل هؤلاء يترافقون في الغرب ، ومدرســة شارتر وأنسلم ، وبواكيم اوف فلورس ، وبرنارد اوف كليرفو وهوغو دي سان فكتور .

وتبدأ الفلسفة الكلاميـــة المليئة مع الافلاطونيين الجدد ، ومع كلمنت Clement واوريجين والآموارئيم الاوائل ، وواضعي الافستا الجديدة باشراف اردشير (٢٢٦ ــ ٢٤١) وسابور الاول ، وقبل هؤلاء جميعاً رئيس الكهنـة المازديين ، تانفاسار Tanvasar . وبدأ في الوقت ذاته تدين جديد ارقى ينسلخ عن ورع الفلاح في الريف الذي كان لا يزال يعيش داخل فطرته الرؤوية ، ومنذ ذاك الحين فما بعد ، حافظ هذا التدين على نفسه ، وتحت مختلف الاسماء ، من كل

تعديل او تبديل حتى عصر الفلاح التركي ، بينا امتص الاسلام الطوائف الفارسية واليهودية والمسيحية في العالم المتمدن والارقى عقلانياً .

وهنا بدأت الكنائس العظمى تتحرك بتؤدة وثبات متجهة نحو الاكتمال . فلقد تقرر بصورة حاسمة أن نتائج تعاليم يسوع لن تكون تبديلا للديانة اليهودية ، بل انها ستكون كنيسة جديدة تسلك طريقها الى الغرب ، بينا تتجه اليهودية ، دون أن تفقد أي طاقة من قواها الباطنية ، نحو الشرق — وان ما أدت اليه تعاليم يسوع لهو أهم نتيجة دينية عرفها القرن الثاني . اما القرن الثالث فهو قرن تستأثر به التراكيب العقلانية العظمى للاهوت . فالدين يبلغ هنا مرحلة من تعايش سلمي والواقع التاريخي ، فالفكرة القائلة بنهاية العالم قد تقهقرت وتراجعت بعيداً بعيداً ، فهنا قد نشأت عقيدة جديدة (دوغما) لتشرح الصورة الجديدة للعالم . فبلوغ الفلسفة الكلامية مرحلة النضوج يفترض الايمان بديمومة العقائد التي اخذت هذه الفلسفة على نفسها امر تقريرها .

ونحن اذا ما القينا بنظرة على مجهودات الاديان المجوسية ، نرى ان موطن الآرمية قد طور اشكاله باتجاهات ثلاثة . ففي الشرق شكلت الكنيسة المازدية نفسها من الدين الزردشتي الذي عرفته ازمان الاخمينيين ، ومن بقايا كتاباته المقدسة ، واوجدت لها سلطة كهنوتية صارمة حازمة وطقوساً كدودة ، وامراراً مقدسة وقداديس ومر اعتراف . وقد قام تانفاسار ، كما ذكرنا آنفاً ، فكان اول من بدأ بجمع وتنسيق الأفستا الجديدة ، وقد أضيفت اليها تحت اشراف سابور الاول ، (وتم هذا في وقت واحد والاضافات على التلمود) النصوص الدنيوية من طب وقانون وعلم فلك . وجاء تجميعها وتكبيرها على يد ماهاراسبند Maharaspand ، مقنطيس الكنيسة ، وتحت اشراف سابور الثاني (٣٠٩ — ٣٧٩) . اما هذا النمو الفوري لتفسير ما في اللغة البهلوية ، فكان الشيء الوحيد الذي يجب ان يترقبه المرء من الحضارة المجوسية . فالأفستا الجديدة ، مثلها مثل الكتاب المقدس ، بشقيه اليهودي والمسيحي ، كانت شريعة تتألف من كتابات

منفصلة ، ونحن نعرف بأنـــه كان يوجد ، بين النسك Nasks (وهي اصلاً ٢١ سفرا) المفقودة الآن ، انجيل لزردشت ، وقصة هداية فيشتاسبا Vishtaspa وسفر تكوينٌ ، وكتاب – قانون ، وكتاب سلالي يحتوي على اشجار عائلات تبدأ من الخليقـــة وتنتهي بملوك الفرس ، بينا أن الفنديداد Vendidad التي يسميها جلدنر بـ ليفيتيكس Leviticus فارس قد حوفظ عليها كامـلة باشد رعاية واهتمـام .

وظهر مؤسس دين جديد في عام ٢٤٢ ، وفي مدة ولايـة سابور الاول ، وكان هذا ماني الذي رفض اليهوديـــة والهيلينية « الحالة من الفداء » وصاغ الاديان المجوسية بكاملها في دين هو من اعظم الانجازات اللاهوتية وأهمها في كل العصور – وقد صلبته من اجله الكهانة المازدية عام ٢٧٦ فهو بعد أن سلحه ابوه (الذي تخلى عن عائلته في شيخوخته وانتظم في سلك رهبنة مانديـــة) بكل ما لحقته من علوم ومعارف ، قام بتوحيـــد الفكر الرئيسية للدينين الكلداني والفارسي مع مثيلاتها من مسيحية يوحنا والمسيحية الشرقية – وهذا عمل جرت محاولة القيام به من قبل وفي العلم الروحاني المسيحي – الفارسي الذي وضعـــه بارديـانيس ، ولكن هذه المحاولة كانت خاليـــة من فكرة تأسيس كنيسة جديـدة . وقد اعتبر ماني الشخصيات الصوفية للوغوس يوحنا « وهذا في نظره متوافق ومنطبـــق على فوهو – مانو Vohu — mano الفارسية » وزردشت اساطير الافستا وبوذا كما هو في النصوص المتأخرة زمناً ، فيضاً الهياً ، وأعلن نفسه على انه الروح القدس الذي تحدث عنه يوحنا في انجيله ، وأنه ساوشيانت Saoshyant الفرس . وكما نعلم ، والفضل بهذا يعود الى اكتشافات تورفان Turfan التي احتوت على اجزاء من مؤلفات ماني « وكانت حتى آنذاك مفقودة تماماً » اقول نعلم بأن لغة الكنيسة من مازدية ومانية ونسطورية كانت – مستقلة عن اللغات الدارجة – اذ انها كانت اللغة البهلوية . Pehlevi

وقد اوجدت كنيستا – المذهب في الغرب لاهوتا « وباللغة اليونانيـة » لم

يكن فقط مشابهاً لهذا اللاهوت ، بل انما كان ينطبق عليه ايضاً الى حد كبير .
وقد بدأ في زمن ماني الانصهار اللاهوتي لدين - الشمس الآرامي - الكلداني والمذهب الآرامي الفارسي ، مذهب مثرا ، وقد نشأ عن هذا الانصهار نظام ديني واحد ، وكان اول « آباء » هذا الدين العظام هو أيامبليخوس « قرابـة عام ٣٠٠ » - معاصر اثناسيوس ، ولكنه معاصر لديوكلتسيان ايضاً هذا الامبراطور الذي جعل في عام ٢٩٥ مثراس الها « الله » لدين الدولة الموحد . ولم يكن ممكناً التفريق من الوجهة الروحانية بين كهنة هذا الدين وكهنة المسيحية بأي شكل من الاشكال . فبروكلوس « وهذا ايضاً « أب » حقيقي » قـد تلقى في المنام شروحاً وتفاسير لبعض الفقرات الصعبـة من النصوص . فطيموس وأوراكل الكلدان كانت في نظره قوانـين كنسية ، وكان لا شك سيسر ان يرى جميع كتابات الفلاسفة الآخرين طعماً للدمار . وترانيمه هي دلائل على تمزق الناسك الحقيقي وتفطره ، فهو يتضرع لهيليوس ومساعـدين آخرين كي يحموه من الارواح الشريرة . وقد كتب هيروكليس Hierocles كتاب صلوات اخلاقية للمؤمنين من طائفة الفيثاغوريين الجدد ، ويحتاج المرء في هذا الكتاب الى عين نفاذة ونظرة ثاقبة كي يستطيع ان يفرق بينه وبين كتاب مسيحي مماثل له في موضوعه . وكان الأسقف سينسيوس Synesius هو الأسقف - الامـير للافلاطونية الجديدة قبل ان يصبح الاسقف - الامير للمسيحية - هذا التبدل لم يشتمل على عمل من هدايته الى المسيحية وارتداده عن الافلاطونية الجديدة ، فهو قد احتفظ بلاهوتـه وبدل الاسماء فقط . وقد كان باستطاعة اسكليبيادس Asclepiades ان يكتب كتاباً عظيما عن تماثل جميع اللواهيت وتشابهها . ونحن نمتلك حتى هذا اليوم اناجيل وتواريخ لكتابات دينية وثنية ، مساوية لما لدى المسيحية من هـذه . فلقد كتب ابولونيوس سيرة فيثاغوروس ، ووضع مارنيوس قصة حياة بروكلوس ، وألف داماسيوس سيرة اسيدور ، وليس هناك من أبسط فرق بين الكتب التي تبدأ وتنتهي بالصلوات وبين اعمـال الشهداء المسيحيين . وبروفيري يصف الايمان والمحبة والأمل والحق بأنها العناصر الإلهية

الأربعة . ونرى الكنيسة التلمودية « الكنيس » المنتصبة في وسط كنائس الشرق والغرب ، تتطلع بابصارها، وبلغتها الآرمية المخطوطة ، الى الجنوب من اديسا . ولم تستطع الأديان اليهودية ـ المسيحية « كـ Ebionites, Elkaztes » والمندين وكذلك الكلدانية « الا اذا اعتبرنا المانية تركيباً ثانياً لذلك الدين » أن تحافظ على تراكيبها امام تلك الاسس القوية الثابتة والقواعد الوطيدة « لكنائس الشرق والغرب والكنيس ـ المترجم » . فتفتتت الى ملل لا تعد او تحصى ، وذوت ثم توارت في ظلال الكنائس الكبرى ، او امتصها تركيب هـــذه ، كما حدث للماركيونيين والمونتانيين الذين امتصتهم المانية . وقرابة عام ۳۰۰ لم يبق لأي دين مجوسي هام وجود ما خلا الكنائس من وثنية ومسيحية وفارسيـــة ويهودية ومانية .

-٦-

وانطلق ، الى جانب الفلسفة الكلامية الناضجة ، وابتداء بعام ۲۰۰ ، تيار من مجهود يرمي الى تثبيت هوية الطائفة المنظورة ، التي كان نظامها يتزايد دقة وصرامـة ، وتأكيد شخصيتها بكيان الدولة . وهذا نشأ بالضرورة عن شعور الانسان المجوسي بالعالم ، وأدى بـدوره الى تحول الحكام الى خلفاء ـ وهؤلاء سادة مجتمع مذهب واكثر بكثير من كونهم سادة لدوائر ومناطق ـ ونجمت عنـه ايضاً فكرة الارثوذكسية بوصفها شرطاً أساسياً ، ومقدمة منطقيـــة للمواطنية الصحيحـــة ، كما ونتج عنـه الواجب القاضي باضطهاد الأديان الملفقة (« فالجهاد المقدس » في الاسلام مبدأ قديم قدم هـذه الحضارة نفسها حيث أن حقباتها مليئة باحداثه) ، ونجم عنـه نظام معين خاص اشترع داخل دولة غير المؤمنين ـ وتساهل معهم فقط في قوانينهم وادارتهم الخاصـــة

(لأن القانون الذي أنزله الله لم ينزله للهراطقة) — ومع هـذا نشأ اسلوب حياة الغيتو Ghetto . وكانت امرحون Osrhoene ، الواقعة وسط الصقع الآرامي اول من جعل المسيحية ديناً للدولة وذلك قرابة عام ٢٠٠ . ثم احتلت المازدية المرتبة نفسها في الامبراطورية الساسانية (٢٢٦) ، بينما أصبح المذهب التوفيقي هذا المركب من مذاهب ديغوس وسول ومتراس ، وباشراف اورليان «٢٧٥» وأهم من هذا واولئك ديوكلتسيان « ٢٩٥ » دين الدولة للامبراطورية الرومانية . واعتنق قسطنطين عام ٣١٢ المسيحية ،وحذا حذوه في ذلك الملك تِرداث ملك ارمينيا قرابة عام ٣٢١ ، وتبعه بعيد سنوات الملك ميريان ملك جورجيـــا اما في الجنوب البعيد ، فان سبأ يجب أن تكون قد اعتنقت المسيحية في القرن الثالث ، واكسوم في الرابع ، ومن جهة اخرى اصبحت في الوقت ذاته الدولة الحميرية يهودية المذهب ، وكان هناك مجهود واحد اكثر يتطر جوليان ليعود بالكنيسة الوثنية الى مراتب السلطان والسيادة .

وتباينا وهذا نجد — كما نجد في جميع أديان هذه الحضارة — انتشار الرهبانية بما لهذه من نفور واشمئزاز من الدولة والتاريخ والامر الواقع بصورة عامة . وذلك لأن شكل الكنيسة المجوسية ، وتثبيت هويتها بالدولة والأمة ، لم يستطع بالرغم من كل شيء ، ان يسيطر سيطرة كاملة على الصراع الناشب ابداً بـــين الكينونة والكينونة الواعية — اي الصراع بين السياسة وبين الدين ، بين التاريخ وبين الحضارة . ولكنه لم يكن هناك من صراع بين الكنيسة والدولة في الحقبة القوطية ، ولذلك فان الانقسام في صفوف الامة كان بين المتدينين الدنيويين وبين النساك والمتقشفين . ويربط حصراً الدين المجوسي بالشرارة الإلهية ، الروح في الانسان ، هذه الروح التي يشارك فيها الطائفة غير المنظورة من المؤمنين والارواح المباركة . اما ما تبقى من الانسان ، خلا الروح ، فانما هو ملك الشر والظلام . ولكن ما هو الهي داخل الانسان هو الذي يجب ان يحكم ويسيطر ويخضع ويدمر الجزء الآخر من الانسان . فرجل الدين الناسك ليس هو في هذه الحضارة كاهناً

صحيحا فقط ، بل انما هو اكثر من ذلك ايضاً ، اذ أنه رجل الورع الحقيقي ـ فالكاهن الدنيوي لا يكن ابداً له الناس في روسيا حتى هـذا اليوم ، احتراماً حقيقياً ، وكثيراً من الاحيان يسمح له بالزواج . فلقد كان من غير الممكن ان يقوم المرء بالواجبات الدينية ويتمم فرائض الدين ، خارج الرهبانية ، ولذلك نرى أن طوائف الندامة او التوبة ، والأديرة والرهبانيات تحتل في وقت مبكر تماماً مركزاً كانت لا تستطيع ابداً ان تبلغه لاسباب ميتافيزيقية في الهند او الصين ـ ناهيك عن الغرب حيث كانت فصائل الرهبان تعمل وتشتغل وتقاتل ـ وهذه هي ديناميكية ـ الوحدات . ولذلك يتوجب علينا ألا نعتبر شعب العالم المجوسي شعباً موزعاً بين « عالم » « ودير » بوصف هذين اسلوبين من حياة ، منعزل الواحد منها عن الآخر انعزالاً محدداً معرفاً ، ويتساوى كل منها بامكاناته لاتمام فرائض الدين اذ أن كل انسان تقي ورع كان راهباً من بعض نواحيه ، ولم يكن هناك اي تعارض بين العالم والدير ، بل كان هنـاك فرق في المرتبـة ، فالكنائس والرهبانيات المجوسية هي طوائف متجانسة ، ولا يمكن التمييز بينها الا بواسطة مدى انتشارها وحجمها . فطائفة بطرس كانت رهبانية ، اما طائفة بولس فكانت كنيسة ، بينا أن دين مثراس هو ، في وقت واحـد ، اوسع من أن يوصف بالأولى وأضيق من أن ينعت بالثانية .

ان كل كنيسة هي رهبانيـة بالذات ، وعن الضعف البشري فقط نشأت درجات رجالها ومراتبهم ، وهذه ليست امراً لازماً متوجباً ، بل انما هي امر مسموح به فقط ، كما كان مسموحاً بـه بين الماركيونيين والمانيين « المصطفين والمستمعين » . والحق أن اية امة مجوسية هي ليست بأكثر من المجموع الكلي ، اي رهبانيـة كل الرهبانيات التي تتألف من جماعات اقل فأقل عدداً ، وأصرم فأصرم نظاماً ، ومن ثم تتبدى اخيراً في رهبان ودراويش ونساك عموديين [1]

(١) اعتاد هؤلاء ان يجلسوا على رأس عمود واشهرهم سمعان العمودي الذي قيل انه بقي جالساً على رأس عمود مدة تزيد على الربع قرن من الزمن . — المترجم —

Stylites ، نبذت نفوسهم كل ما هو عالمي وامسى شعورهم الواعي ملكاً للروح فقط . ونحن اذا ما وضعنا جانباً الأديان النبويـــة ـ التي ولد ، منها وبينها ، الانفعال الرؤوي العديد من الطوائف الشبيهة بالرهبانيات ـ نرى أن كنيستي المذهب في الغرب قد انتجتا عدداً لا يحصى من الرهبان والأخويات « الاخوان » والرهبانيات ، والتي لا يمكن التمييز في النهاية بينهم أو بينها ، الا بواسطة اسم الإله الذي يتضرعون او تتضرع اليه . فجميع هؤلاء كانوا يتمسكون بفرائض الصيام والصلاة والعفة والفقر . ومن المشكوك فيـه أي من الكنيستين كانت في عام ٣٠٠ اقوى نزعة الى التنسك والرهبنـــة من الاخرى . فالراهب النيو افلاطوني سارابيون ذهب الى الصحراء كي يكرس نفسه تكريساً كلياً لدراسة ترانيم اورفيس . وداماسيوس انسحب ، موجهاً بحلم ، الى كهف مؤذ وخيم كي يصلي باستمرار لسيبل ويتعبد لها . زد على ذلك أن مدارس الفلسفة لم تكن اكثر من رهبانيات ، وكان موقف الفيثاغوريين الجدد ، جد متقارب من الأسين اليهود ، كما وأن مذهب مترا ، وهو رهبانية صحيحة ، لم يكن يسمح لغير الرجال بالانتاء الى طائفته وأخوياته ، أضف الى ذلك ان الامبراطور جوليان كان عازماً على ان يوقف مالاً وعقاراً على الاديرة الوثنية . ويبدو أن دين المندين كان يتألف من مجموعة من طوائف ـ رهبانية تتباين انظمتها في درجات الصرامة والشدة ، وكان يوحنا المعمدان ينتمي الى احدى هذه الطوائف . اما الرهبانية المسيحية فلم تبدأ بباخوميوس « ٣٢٠ » Pachomius ، فهذا كان مجرد بناء اول دير فقط . فحركة الرهبانية بدأت مع الطائفة الأصلية في القدس . والانجيـــل متى وجميع « اعمال الرسل[1] » تدل دلالة واضحة على عاطفة تنسك شديدة وصارمة . زد على ذلك أن الكنيستين من فارسية ونسطورية سارت بتطوير فكرة الرهبانية شأوا ابعد ، واخيراً جاء الاسلام فتمثلها تمثلاً كاملاً . ولا تزال الأخويات والرهبانيات

---

(١) سفر اعمال الرسل من العهد الجديد .

ـ المترجم ـ

الاسلامية تسيطر حتى هذا اليوم على الورع الشرقي . كما وأن اليهودية سلكت خط التطور ذاته ، ابتداء بالكاراي Karaie (Qaraits) في القرن الثامن وانتهاء بالماسيديم البولندي في القرن الثامن عشر .

أما المسيحية ، التي بالكاد كانت حتى في القرن الثاني ، اكثر من رهبانية ممتـــدة ، والتي كان نفوذها الشعبي لا يتناسب اطلاقاً وعدد اتباعها ، نمت فجأة وانتشرت قرابة عام ٢٥٠ . وهذه هي اللحظة الحقيقية التي طمست فيها آخر مذاهب المدنية للدين الكلاسيكي معالم ذواتها ، أمام الكنيسة الوثنيــة الوليدة ، وليس اطلاقاً امام المسيحيـــة . فقيود فريترز آرفالس Fratres Arvales ، في روما انهيت عام ٢٤١ ، وآخر نقوش – المذهب التي حفرت في اولمبيا كانت في عام ٢٦٥ . وامسى ، في الوقت ذاته ، ان يقوم احد الناس بتكديس اكثر الخصائص الكهنوتية اختلافاً وتنوعاً في شخصه امراً عادياً ومألوفاً ، وهذا يدل على أن هذه الاعراف لم تعد محددة ومعينة ومحصورة بفئة او فئات ، بل انها غدت اعرافاً لدين واحد فقط . وهذا الدين انطلق ليدخل الناس فيـــه ، ونشر ذاته بصورة بعيـــدة الابعاد وواسعة فوق اراضي الحزين الهيليني – الروماني . ومن جهة اخرى فكان الدين المسيحي « قرابة عام ٣٠٠ » هو وحده الذي يصول ويجول في الميدان العربي العظيم والمنفسح الوسيـع . ولهـــذا السبب بالذات كان يجب حتماً ان تقام آنذاك داخله تناقضات باطنية . وقد أدت هـــذه التناقضات الى انشطار المسيحيـــة الى اديان عديدة ، انشطاراً لا وحدة بعـده ، ولم ينجم آنذاك هذا الانشطار عن نزعات روحية لأناس معينين ، بل نجم عن روح الاصقاع الخاصة .

وكانت المشادة حول طبيعة المسيح هي الموضوع الذي دفع بهذا الخصام الى مرحـــلة الحسم . وكانت مواضيـع الخلاف ، هي مشاكل الجوهر تلك تماماً ، هذه المشاكل ، التي تملأ بالشكل ذاته ، والهوى ذاتـــه ، اذهان جميـع اللواهيت المجوسية الاخرى . وقد عالجت الفلسفة الكلامية الافلاطونية الجديدة ، وخاصة

بروفيري وأيامبليخوس ، وأهم من هذين واولئك ، بروكلوس ، هذه المشاكل وفق قاعدة غربية وبواسطة صيغ فكر شديد الشبه بفكر فيلو ، وحتى بفكر بولس . وقد قدرت العلاقة بين الواحد الاصلي ، النوس Nus اللوغوس الآب ، وبين الوسيط استناداً الى الجوهر . فهل كانت عملية هذا التقدير ، عملية من فيض ، او تقسيم او شمول ؟ وهل كان الآخر يحتوي الواحد ، وهل الواحد منهما هو الآخر بذاته ، ام انهما مقصوران بالتبادل ؟ وهل المثلث هو في الوقت ذاته الجوهر الفرد Monad ؟

ويتبدى لنا من المقدمـــة المنطقية لانجيل يوحنا ، ومن العلم الروحاني لباردسانيان ، ان الشرق قد شهد قبل الآن تركيباً مختلفاً للمشكلة : فعلاقـة اهورامازدا بالروح القدس « سبنتا مينيو Spenta Mainyu » وطبيعة الفوهو مانو قد اترعت اذهان « آباء » الأفستا بالمشاغل ، ونحن في زمن مجامع افسوس وخالقيدونيا Chalcedon الحاسمة بالذات ، نجد الانتصار الموقت للتزرفانيـــة (٤٣٨ – ٤٥٧) وسيادة مبـــدأ مجرى ـ العالم الالهي « بوصف تزرفان زماناً تاريخياً » وتفوقه على الجواهر الالهية وبلوغه بالمعركة الدغماتية ذروة احتدامهـا . ومن ثم جاء الاسلام واخذ الموضوع بأكمله بين يديه وحاول ان يحله استناداً الى طبيعة محمد والقرآن . فمشكلة ـ الجوهر وجدت منـذ ان وجد الجنس البشري المجوسي ـ ووجودها قائم بالتأكيد ذاته الذي يقوم وفقه وجود مشكلة ـ الارادة الغربية ، الند لمشكلة ـ الجوهر ، والتي عرضت حـين ولادة الفكر الفاوستي . وليست هناك من حاجة تدعو الى البحث عن هذه المشاكل ، فهي قائمة وموجودة حالما تبدأ الحضارة بالتفكير ، وهي الشكل الاساسي لفكرها ، وهي تنطلق الى المقدمـــة دون ان يستدعيها احـد ، وحتى احياناً لا تدرك مع كل الدراسات لها .

ولكن حلولا ثلاثة ـ فرضتها مسبقاً الاصقاع الثلاثـــة من شرق وغرب وجنوب ، كانت جميعها موجودة منذ البدايـــة ، ومفهومة قبل الآن ضمنا من

خـــلال نوازع مذهب المعرفة Gnosticism ، ويجوز لنا ان نشير الى هذه الحلول باسماء بارديسانيين Bardesanes و Basilides وفالنتينوسّ Valentinus .
وكانت مدينة اديسا هي نقطة الالتقاء ، حيث كانت شوارعها تجلجـــل بصرخات معركة النساطرة ضد المتنصرين في افسيس ، ويتبعها بعد قليل صياح اليعاقبــة وزعيقهم وهم يطالبون بطرح الاسقف اباس Ibas الى الوحوش الضارية في السيرك .

وجاءت صياغـــة السؤال العظيم على يدي اثاناسيوس الذي تضرب جذوره العقلانية في تربة التشكل الكاذب والذي له الكثير من اوجــه الشبه ومعاصره الوثني ايامبليخوس . ولقد قرر هــــذا ، تبايناً وآريوس Arius الذي رأى في المسيح نصف اله Demigod ومشابه فقط بجوهره للآب ، اقول قرر بان الآب والابن كانا من نفس الجوهر الذي اصبح في المسيح جسداً . « فالكلمـــة صار جسداً » وصيغة الغرب هذه تعتمد على وقائع منظورة لكنيستي المذهب ، ويعتمد فهم الكلمة على تأمل مستمر فيما هو قابل التصوير . فهنا في الغرب المتعبد للأيقونات والصور ، حيث كتب أيامبليخوس في هذه الأزمان بالذات كتابه عن تماثيل — الله التي يكون فيها الله حاضراً جوهراً وصانعاً للعجائب والمعجزات ، اقول هنا في الغرب ، كانت ترافق تجريد التثليث دائماً وبصورة فعالة مؤثرة علاقة انسانيــة حسية الا وهي علاقة الأم بالابن وهذا الاخير هو الذي كان من المستحيل استئصاله من عمليات فكر اثاناسيوس .

ومع الاعتراف بوحدة الجوهر للآب والابن ، اتخذت المشكلة الحقيقية لأول مرة وضعها — واعني موقف الثنائية المجوسية من الظاهرة التاريخية ، ظاهرة الابن نفسه . ففي كهف — العالم لم يكن يوجد جوهر بشري الهي ، ففي داخـــل الانسان هناك جزء من روح الهية ، ونفس الفرد ترتبط بالجسد . اذن فما هو امر المسيح ؟

والحق انه كان عاملاً حاسماً – ونتيجة من نتائج معركة اكتيوم – كون النزاع قد انهى بعد عراك ، باللسان اليوناني وعلى ارض التشكل الكاذب – اي تحت التأثير والنفوذ الكاملين « لخليفة » الكنيسة الغربية . فقسطنطين كان حتى الداعي الى مؤتمر نيس وكان حتى رئيسه ، حيث انفردت عقيـــدة اثاناسيوس بالمؤتمرين واستأثرت باهتمامهم وبحوثهم . اما الشرق بنطقه وفكره الآراميين فهو نادراً ماتتبع مثل هذه الاعمال «كما نعلم ذلك من رسائل افراحات Aphrahat » فهنا لم يرِ الناس اي سبب يدعو الى الخصام ، فهذه الامور فيما يتعلق بهم ، قد بت فيها منذ طويل زمن . فالهوة بين الشرق والغرب ، والتي نشأت نتيجة لمؤتمر أفسس « ٤٣١ » ، قد فصلت بـين امتين مسيحيتين ، امة « الكنيسة الفارسية » وامة الكنيسة اليونانية ، ولكن هذا الفصـل لم يكن اكثر من ظاهرة للفرق الفطري منذ البدء ، بين صيـغ فكرين ينتمي كل واحد منها الى صقع مختلف عن صقع الآخر . فلقـــد رأى نسطور والشرق باجمعه في المسيح آدم الثاني ، والمبعوث الالهي للدهر الاخير . فمريم ولدت طفلا – انسان يسكن في ناسوته وجوهره المخلوق (نفس) الجوهر الالهي غير المخلوق . اما الغرب فلقـــد رأى عكس هذا الرأي ، اذ رأى في مريم أماً لله : فالجوهر الالهي والانساني شكل في جسده « شخصه وفق الاصطلاح الكلاسيكي » وحدة سماها سيريل ثيوفوروس Theoforus « ذاك الذي يحمل الله داخله – المترجم » . وعندما اعترف مؤتمر افسس بام الله ، وبها التي ولدت الله انفجرت[١] مدينة ديانا الذائعـــة الصيت باحتفالات ومهرجانات صادقة كلاسيكية في قصوفها ومجونها وخلاعتها .

ولكن ابوليناريس Apollinaris السوري كان قد بشر قبل هذا بوقت طويل بالفكرة « الجنوبية » لهذا الموضوع – قائلاً بأنه لا يوجد في المسيح الحي فقط جوهر ، بل انه جوهر واحد احد . فالجوهر الالهي قـد حول نفسه الى جوهر

---

(١) يعني افسس – المترجم

بشري ، ولم يختلط بهذا الجوهر ، « وافضل اسلوب للتعبير عن الفكرة اليعقوبية هو مفاهيم سبينوزا – وهذا الواقع فيه من المغزى ما يكفي – فسبينوزا يقول بأن الجوهر الواحد هو صيغة Mode اخرى – » وقد دعا اليعاقبة مسيح مؤتمر خالقيدونيا « ٥١ ٤ » وحيث كانت السيطرة فيه للغرب مرة اخرى » بالصنم ذي الوجهين » . وهؤلاء لم ينشقوا عن الكنيسة فقط ، بل انفجروا بانتفاضات شرسة في فلسطين ومصر ، وعندما بلغت جحافل فارس في ايام جوستنيان ، في زحفها النيل هب اليعاقبة يرحبون بها بوصفها جيوش حرية وتحرير .

ولقد جاء المغزى الاساسي لهذا الصراع اليائس الذي امتد طيلة قرن كامل من الزمن – هذا الصراع الذي لم يكن يدور حول مفاهيم علماء ، بل حول نفس لصقع كان يحاول بجرر طاقاتها داخل شعبه – اقول جاء مغزى هـذا الصراع لينقض عمل بولس ويلغيه . ونحن اذا ما استطعنا ان ننقل نفوسنا فنجعلها تغوص ، دون تحفظ الى اعمق اعماق نفس هاتـين الامتين الوليدين وتجاهلنا جميـع النقاط الدغماتيـــة الثانوية ، عندئذ سنشاهد كيف أن اتجاه المسيحيـة نحو الغرب اليوناني ، وكيف أن تشابهها العقلاني والكنيسة الوثنيـــة قد بلغت اعلى ذراها في صيرورة حاكم الغرب وأساً للكنيسة بصورة عامة . فالمسيحيون اليهود من الطراز البطرسي كانوا في نظر هذا الحاكم ملة هرطيقـــة ، اما المسيحيون الشرقيون من طراز يوحنا ، فانه لم يشعر او يلحظ ابـداً لهم وجوداً . وعندما قامت روح التشكل الكاذب ومهرت ، في المؤتمرات الحاسمة الثلاثـة ، في نيس وافسوس وخالقيدونيا ، الدغما بخاتمها مرة واحدة والى الابد ، هب العالم العربي الحقيقي مدفوعاً بزخم الطبيعة ليقيم حاجزاً امام تلك الروح . ومع نهاية ربيـع الحضارة العربية ، انشطرت المسيحية الى ثلاثة اديان ، نستطيع ان نرمز اليها باسماء بولس وبطرس ويوحنا ، والتي لا يستطيـع اي دين منها أن يطالب ، منذ ذاك الحين فصاعداً ، العين التاريخية العقائدية والمترفعة عن كل هوى ، بأن تعتبره المسيحية الاصلية . وهذه الاديان الثلاثة ، هي في الوقت ذاته ، امم ثلاث تقطن في مناطق – عنصرية قديمـــة ، مناطق اليونان واليهود والفرس ، والالسنة التي

استعملها هؤلاء ، كانت لغات الكنيسة التي اقتبسوها منها - اي اليونانيــــة والآرامية والبهلوية .

-٧-

قامت الكنيسة الشرقية ، منذ مؤتمر نيقيا ، بتنظيم نفسها وفق نظام اسقفي تربع على قمته كاثوليكوس ترتسفون ، وكان له مجامعه وطقوسه وقانونه الخاص به . وفي عام ٤٨٦ قبلت العقيدة النسطورية بوصفها عقيدة ملزمة ، وعلى هــذا الشكل انقطع الرباط بالقسطنطينية . وانطلاقاً من هذه النقطة اصبح للمازديين والمانيين والنساطرة مصــير مشترك واحد بذرت بذرتـــه في العلم الروحاني لبارديسانس . وانبعث ، من جديد ، داخـل كنائس اليعاقبة في الجنوب روح الطائفة البدائية ، واخذت تتوسع وتنتشر بعقيدة التوحيد التي لا تعرف حلاً وسطاً ، وبكراهيتها للصور وتشابهها الشديد ومذهب منطقة اليهودية التلمودية ، وجاءت صرختها القديمة في ميدان القتال التي كانت قد وسمتها قبل الآن لتكون مع تلك اليهودية نقطة انطلاق للاسلام « لا اله الا الله » . اما الكنيسة الغربيــة فانها استمرت في ارتباطها بقدر الامبراطورية الرومانية – اي ان كنيسة المذهب اصبحت الدوّلة . ثم اخذت تمتص تدريجياً اتباع الكنيسة الوثنية ، ومنــذ هذا الحين فصاعداً لم تعــد اهميتها تكمن الى ذاك الحد داخل ذاتها – وذلك لأن الاسلام قد استأصل شأفتها تقريباً – بـل اصبحت اهميتها تتمثل في الصدفة التي جعلت الشعوب الفتية للحضارة الغربية تتلقى منها المنهاج المسيحي بوصفه القاعدة للابداع الجديد ، وتتلقاه علاوة على ذلك بالزي اللاتيني للغرب الاقصى ، الذي لم يعد ذا معنى بالنسبة للكنيسة اليونانية نفسها ، وذلك لأن روما ذاتها كانت الآن

مدنية يونانية ، وكانت اللغة اللاتينية تشعر بأنها تجـد لها في افريقيا والغال من الاهل والوطن اكثر بكثير مما تجده في اي بلد آخر .

ان المفهوم الجوهري والمبدأي للأمة المجوسية ، وهو كينونة تتضمن امتداداً، كان منذ البداية نشيطاً في تحديد ذاتـــه . فجميـع هذه الكنائس كانت كنائس تتعمد التبشير وتتعمده بقوة ونجاح . ولكن هذا لم يحدث الا بعد ان تخلى الناس عن التفكير بان نهاية العالم وشيكة ، وبعد ان اوجدوا عقيـدة مناسبة وملائمة لوجود مُدّ في اجله في كهف العالم ، وبعد ان اتخذت الاديان المجوسية موقفها من مشكلة الجوهر ، فبعد هذا كله انطلقت الحضارة (العربية – المترجم) بامتدادها انطلاقاً زوبعياً حماسياً ميزها عن جميـع الحضارات الاخرى ، ووجد في الاسلام اشد الامثلة تأثيراً واقواها تحريكاً للعاطفة ، ولكنه ليس المثل الوحيد على ايـة حال . واللاهوتيون والمؤرخون الغربيون يعظوننا عن هـذه الوقائع الجبارة صورة خاطئة بكل خط من خطوطها ولون من الوانها . فكل ما تـستطيعـــه حلقاتهم المسمرة على بلدان البحر الابيض المتوسط ، ان تلحظه هو الاتجاه الغربي الذي يتوافق ومناهجهم لتقسيم التاريخ الى « قديم – ووسيط – وحـديث » وحتى داخل هذه المحدوديات ، التي تقبـل بالوحدة الصريحة الواضحة للسيحية ، فانهم يعتبرونها كأنها تمر في حقبة معينة من شكل يوناني الى شكل لاتيني ، حيث تتوارى بذلك الفضلة اليونانية عن الانظار تاماً .

ولكن الكنيسة الوثنية كانت قد اكتسبت حتى قبـــل المسيحية المذهب التوفيقي والجزء الاكبر من سكان شمالي افريقيا واسبانيا وبلاد الغال وبريطانيا وحدود الرين والدانوب – وهذه واقعة لم يلحظ احـد حتى الآن مغزاها الهائل العميق ، وحتى لم تفسر صواباً على انها مجهود تبشيري . فمن الكهانة الوثنيـة Druidism التي اسسها قيصر في بلاد الغال ، لم يبق منها الا القليل على قيد الحياة في ايام قسطنطين . فتمثـــل الآلهة الاهلين تحت اسماء الوهيات مجوسية عظمى لكنيسة – المذهب (وخاصة مترا – سول – جوبتر) وذلك ابتداء من القرن

الثاني فما بعده ، اقول كان هذا التمثل في جوهره عملية من فتح وغزو ، والقول ذاته صحيح بالنسبة لعبادة الامبراطور . ولا شك ان جهود المسيحية التبشيرية ، كانت هنا ستصادف نجاحاً اقـــل مما صادفته لو ان كنيسة المذهب الاخرى ــ الوثيقة القرابة بها ــ لم تسبقها الى التبشير في هذه الاماكن . ولكن دعاية هذه الكنيسة الاخـــيرة لم تكن باي حال مقصورة على ميادين البرابرة ، فالمبشر اسكليبيودوتوس Asclepiodotus قد اقنع اهالي Aphrodisias وهي مدينـــة كارية Carian[1] بالارتداد عن المسيحية الى الوثنية .

وقد سبق لنا ان قلنا بان اليهود وجهوا جهودهم التبشيريـــة ، وعلى نطاق واسع ، نحو الشرق والجنوب . فلقد انطلق هؤلاء من خـــلال جنوبي الجزيرة العربيـة الى قلب افريقيا ، ومن الجائز ان انطلاقتهم هذه تمت حتى قبل ولادة المسيح ، كما واننا لا نزال نشاهـــد ، على جانب الشرق ، وفي الصين ، آثاراً لوجودهم تعود حتى الى القرن الثاني . وشمالاً اعتنقت مملكة الخزر ، وعاصمتها استراخان فيما بعد ، مذهب منطقة اليهودية . ومن هذه المنطقة خرج المغول الذين يدينون باليهودية واندفعوا في زحفهم حتى بلغوا قلب المانيـــا ، ثم هزموا والمنغاريين في معركة لشفلد Lechfeld عام ٩٥٥ . ولقـد تقدم العلماء اليهود في الجامعات الاسبانية والمراكشية بعروض الى الامبراطور البزنطي (عام ١٠٠٠) يرجونه فيه ان يسمح بحرية المرور وسلامته لبعثة كلفت بان تستفسر من الخزر عما اذا كانوا هم القبائل المفقودة من اسرائيل .

ومن ضفاف دجلة انطلق المذهبان المازدي والماني متسرباً بنة وبحاراً داخل الامبراطوريتين الرومانية والصينية حتى بلغا اقصى ما لهاتين الامبراطوريتين من

---

(١) منطقة قديمة في آسيا الصغرى ، وتقع بمحاذاة بحر ايجيه

ــ المترجم

حدود . وغزا المذهب الفارسي بريطانيـــا ، كما وغزاها ايضاً مذهب متوا ، واصبحت المانية في عام ٤٠٠ تشكل خطراً على المسيحية اليونانية ، وكانت توجد طوائف مانية في جنوبي فرنسا حتى في عصور الصليبيين ، لكن هذين الدينين اندفعا ايضاً بمحاذاة سور الصين العظيم (حيث تشهـــد النقوش المتعددة اللغات لكارا بالجاسون Kara Balgassun على وجود المذهب المانى في مملكـة أيغور Oigur) وبلغا حتى شانتونغ . وشيدت معابد النار الفارسية داخـل الصين ، ونحن نجد ، ابتـــداء من عام ٧٠٠ تعابير ومصطلحات فارسية في كتب علم التنجيم الصيني .

وقد اقتفت الكنائس الثلاث آثار اقدام ملتهبة على دروب مطروقـــة . وعندما هدت الكنيسة الغربية ، عام ٤٩٦ ، شلودفـغ ملك الفرنجة الى دينها ، كان مبشرو الكنيسـة الشرقية قد بلغوا سيلان ، والمعسكرات الصينية الواقعة في اقصى الغرب من السور العظيم ، وكان مبشرو الكنيسة الجنوبية ينشطون داخل امبراطورية اكسوم Axum . وفي الوقت ذاته عندما اعتنقت المانيا المسيحية بعد بونيفاسيوس (٧١٨) كان المبشرون النسطوريون على قاب قوسين او ادنى من اكتـاب الصين نفسها . فلقـد دخلوا شانتونغ عام ٦٣٨ . وقـــد سمح الامبراطور كاو - تسونغ (٦٥١ - ٦٨٤) ببنـاء الكنائس في جميـع اقاليم الامبراطورية ، وفي عام ٧٥٠ كان يكرز بالمسيحية داخل القصر الامبراطوري بالذات . وفي عام ٧٨١ ، واستناداً الى النقوش الآراميـة والصينية المحفورة على النصب التذكاري في سنغافو Singafu والتي لا تزال محفوظة « فان كامل رقعة الصين مغطاة بقصور من وفاق واتفاق » . ولكن بما هو شديد العمق كل الشدة في مغزاه ، كون الكونفوشيين ، الذين لا يستطيـع احد ان يزعم بانهم غير خبراء بامور الدين ، قـــد اعتبروا النسطوريين والمازديين والمانيين اتباعاً لدين « فارسي » واحد ، وذلك في الوقت ذاته الذي كان سكان الاقاليم الرومانيـــة الغربية لا يستطيعون ان يميزوا بين مترا والمسيح .

لذلك يتوجب علينا ان نعتبر الاسلام كحركة تطهير Puritanism من كامل مجموعة الاديان المجوسية المبكرة زمناً ، وهو ينبعث كدين جديد من جهة الشكل فقط ، وفي دائرة الكنيسة الجنوبية ومذهب منطقة اليهودية التلمودي . وهذا المغزى الاحمق ، وليس فقط زخم اكتساحه الباسل المقدام ، هو الذي يعطي المفتاح لنجاحاته المذهلة الاسطورية . وبالرغم من ان الاسلام قد تسامح تسامحاً مذهلاً في الميدان السياسي – فيوحنا داماسينوس آخر الدغمائيين العظام من الكنيسة اليونانية ، كان ، تحت اسم المنصور ، خازناً للخليفة – فان مذهب منطقة اليهودية والمازدية والكنائس الجنوبية والشرقية سرعان ما ذابت باكلها تقريباً داخله . فجوساب الثالث ، كاتوليكس سيلوقيا Seleucia يشكو ويتذمر من ان عشرات الالوف من المسيحيين قد اعتنقوا الاسلام حالما ظهر الى مسرح الوجود ، وقد اعتنق كامل سكان افريقيا الشمالية – موطن اوغسطين – الاسلام . وفي عام ٦٣٢ توفي محمد . وفي عام ٦٤١ اصبحت كامل مناطق اليعاقبة والنسطوريين (وكذلك مناطق التلمود والافستا) في قبضة الدين الاسلامي . وفي عام ٧١٧ كان يقرع ابواب القسطنطينية ، وكانت الكنيسة اليونانية مهددة بخطر الخمود والانطفاء . وفي عام ٦٢٨ ، كان احد اقارب النبي قد حمل الهدايا الى الامبراطور الصيني تاي – دسونغ ، واستحصل على ترخيص بانشاء مؤسسة تبشيرية . وابتداء من عام ٧٠٠ انتصبت الجوامع بمآذنها في شانتونغ ، وارسلت دمشق في عام ٧٢٠ تعليات الى العرب ، الذين كانوا قد استقروا منذ زمن طويل في جنوبي فرنسا ، تطلب اليهم احتلال مملكة الفرنجة . وبعد مضي قرنين من الزمن ، وبينما كان ينشأ في الغرب ومن بقايا الكنيسة الغربية ، عالم ديني جديد ، كان الاسلام قد استقر في السودان وجزيرة جاوا .

ومع كل هذا فروعة الاسلام تتجلى فقط في كونه قطعة من التاريخ الديني الظاهري . فالتاريخ الباطني للدين المجوسي ينتهي حقاً بانتهاء زمن يوستنيان ، كما ينتهي التاريخ الباطني للدين الفاوستي بشارل الخامس ومؤتمر ترنت . وان اياً من

الكتب في التاريخ الديني ، يظهر « اله » دين المسيحي قد مر بحقبتين من حركات فكرية عظمى الأولى في الشرق ومن عام ٠ – ٥٠٠ ، والثانية في الغرب ومن عام ١٠٠٠ – ١٥٠٠ . ولكن هاتين الحقبتين هما ربما حضارتين ، ويحتويات داخلها على اشكال غير مسيحية ايضاً تنتمي الى كل تطور ديني . فقيام يوستنيان باغلاق جامعة اثينا عام ٥٢٩ ، لا يمثل ، كما يصرحون مراراً ، نهاية الفلسفة الكلاسيكية – فلم يكن هناك آنذاك من فلسفة كلاسيكية قبل قرون وقرون من هذا التاريخ . اما ما فعله هذا ، قبل اربعين سنة من مولد محمد ، فانه وضع خاتمة للاهوت الكنيسة الوثنية باغلاقه هذه المدرسة ، وانهى – وهذا ما ينسى المؤرخون اضافته – اللاهوت المسيحي ايضاً باغلاقه لتلك الجامعات في انطاكية والاسكندرية . فالدوغما كانت آنذاك قد اكتملت ، قد انتهت – وذلك كما حدث في الغرب مع مؤتمر ترنت (١٥٦٤) واعتراف اوغسبرج (١٥٤٠) ، وذلك لأن القوة الابداعية الدينية تبلغ نهايتها مع المدينة والعقلانية .

وهذه هي ايضاً الحال واليهودية والفارسية ، فالتلمود انجز واكتمل قرابة عام ٥٠٠ ، وعندما قام تشوسروئيس نوشرفان ، في عام ٥٢٩ ، باخماد حركة الاصلاح الديني لمزداك واغرقها بالدم – وهذه الحركة لم تكن غير مشابهة لحركة انكار معمودية الاطفال Anabaptism التي عرفها عالمنا الغربي . وعرفها برفضها لمبدأ الزواج والملكية الدنيوية ، والتي دعمها الملك كوباد الاول بابطاله لسلطان الكنيسة والنبلاء – اقول عندما اخمدت حركة مزداك بلغت ايضاً دغما الافستا مرحلة الرسوخ وعدم التغير .

الفصل العشرون

مشاكل الحضارة العربية

(ج)

فيثاغورس ، محمد ، وكرومويل

– ١ –

يجوز لنا أن نصف الدين أنه الكينونة – الواعية لمخلوق حي في اللحظات التي يتغلب ويسيطر وينكر وحتى يدمر الكينونة . فحياة – عنصر اندفاعه ونبضه يتضاءلان حينما تحملق العين في عالم ممتد متوتر ومملوء بالضوء ، وحينما يستسلم الزمان للفراغ . فالرغبة الشبيهة بالنبات تنطلق ، ويعبر من الاعماق الاوليـــة الخوف الحيواني من الاكتمال ، ومن انتهاء الاتجاه والموت . وليست البغضاء والحب ، بل ان الخوف والحب هما الاحاسيس الرئيسية للدين . فالبغضاء والخوف يختلفان اختلاف الزمان والفراغ ، اختـــلاف الدم والعين ، اختلاف النبض والتوتر ،

اختلاف البطولة والقداسة . والحب حسب مفهوم – العنصر يختلف عن الحب وفق المفهوم الديني الاختلاف ذاته .

ان الدين باكمله قد وجه نحو الضوء . والممتد ذاته يصبح دينياً بوصفه عالماً للعين ، يدرك من الأنا كمركز للضوء . وينظم السمع واللمس ليلائم ما هو منظور والذي يحس باعماله فانها يصبح مجموعة من جن . وكل ما نشير اليه بكلمات « الوهية » « اعلان الهي » « خلاص » « افتقاد الهي » هو على كل حال عنصر من الواقع المنار . فالموت ، في نظر الانسان ، هو شيء ما يشاهده ويراه ، وهو يعرفه بالمشاهدة ، والولادة ، بالنسبة الى الموت ، هي السر الآخر . فهذا هما الحدان النهائيان المنظوران للكوني المدرك المتجسد جسداً يعيش في الفراغ المضاء .

وهناك نوعان من الخوف الاعمق – فهناك خوف (معروف حتى للحيوانات) يتبدى في حضرة الحرية الميكروكوسمية في الفراغ ، وامام الفراغ نفسه وقواه ، وامام الموت ؛ اما الآخر فهو الخوف على مجرى الكائن الكوني ، على الحياة ، على الزمان الاتجاهي . والنوع الاول يوقظ شعوراً اسود مظلماً بأن الحرية داخل الممتد هي ليس الا نوعاً جديداً من تبعية اعمق من تلك التبعية التي تسيطر على عالم النبات ، وهذا يدفع بالكائن الفردي المدرك لضعفه ، الى البحث عن ملازمة الآخرين والتحالف معهم . ان القلق ينتج النطق ، ونوعنا من النطق هو دين – وكل دين . وتنشأ من الخوف من الفراغ الارواح الالهية Numina للعالم – كطبيعة ، ومذاهب الآلهة . وتنشأ من الخوف على الزمان الارواح الالهية للحياة والجنس والنسل والدولة ، وتستقطب هذه عبادة السلف . وهذا هو الفرق بين التابو والطوطم – وذلك لأن الطوطمي ايضاً يتبدى دائماً في شكل ديني ، ويخرج من رعب مقدس يمر بكل منهم ويبقى ابداً اجنبياً غريباً .

ان الدين الارقى يتطلب تنبهاً شديداً ضد قوى الدم والكائن ، هذه القوى

التي تتربص ابداً في الاعماق لاستعادة حقوقها الفطرية على الجانب الاصغر عمراً من الحياة . « انتبهوا وصلوا كي لا تقعوا في تجربة . » ومع هذا فان « التحرير » هو كلمة اساسية في كل دين ، ورغبة خالدة لكل كائن واع . فهي في مفهومها العام وما قبل الدين ، تعني الرغبة في الحرية (التحرر – المترجم) من قلق الشعور الواعي وآلامـــه ، وفي استرخاء توترات الفكر والاستعصاء المولودين هيابين خائفين ، وفي طمس واطراح وعي الأنا لتوحدها في الكون ، وشرطيـــة الطبيعة الصارمـــة ، ومنظر الحدود الوطيدة الراسخة لكل الكينونة في القدم والموت .

ان النوم مجرد ايضاً – « فالموت وشقيقـــه النوم » . والخمر المقدس ، والثمل ، تحطم توتر الروح الصارم ، زد على ذلك الرقص ، وفن ديونيسوس ، وكل شكل آخر من اشكال ضياع الرشـــد ، والانتشاء الروحي . وهذه هي حالات وصيغ ينزلق فيها الانسان وينسل من القلق ، بمساعدة كائن ، بمساعدة الكوني ، بمساعدة الـ « IT » ، الفرار من الفراغ الى الزمان . ولكن هناك شيئاً يسمو فوق هذه كلها ، ألا وهو القهر الديني الأصيل المخوف بواسطة الفهم بالذات . فالتوتر السائد بين الكون الأصغر والكون الاكبر يصبح شيئاً ما باستطاعتنا ان نحبه ، شيئاً ما نستطيع ان نغرق فيه كل ذواتنا . وهذا ماندعوه بالايمان ، وهو بداية كل الحياة العقلانية للانسان .

ان الفهم هو سببي فقط ، أكان استدلالياً او استقرائياً ، أنشأ عن الحس ام لم ينشأ . فانه لمن المستحيـــل علينا تماماً ان نميز بين كون الشيء قد فهم ، وبين كونه قد سبب – فكلاهما يعبران عن المعنى ذاته . فعندما يكون شيء ما سبباً في نظرنا فعندئذ نراه ونفكر بـــه لشكل سببي ، وذلك تماماً كما نحس ونعرف انفسنا ونشاطاتنا بوصفها اشياء تولد اسباباً او عللاً . وعلى كل حال فان تعين الاسباب او العلل ، يختلف من قضية الى قضية ، واختلافـــه هذا ليس محصورا بالانسان المتدين فقط ، بل يتعداه بصورة عامـــة ايضاً الى المنطق

اللامتعضي للانسان . فالواقعة ، كسببها ، قد يفكر بها في احدى اللحظات بأن لها كذا وكيت ، ثم ترى في لحظة اخرى أنها تمتلك شيئاً ما غير ذاك . فلكل نوع من التفكير منهاج خاص لكل مجال من مجالاته في حقل التطبيق . وفي الحياة اليومية لا يتكرر ابداً تماماً ترابط سببي داخـــل الفكر . وحتى في الفيزياء الحديثة ، فان فرضيات العمل – وهذه مناهج سببية – التي تبعد الواحدة منها الاخرى جزئياً ، فانها حين استخدامها تكون جنباً الى جنب ، مثلاً على ذلك فكر الالكتروديناميكا وفكر الترموديناميكا . وبهذا لا تبطل اهمية الفكر او تلغى ، وذلك لاننا « نفهم » دائماً وخلال دورة مستمرة للشعور الواعي ، بشكل من مشاهد فردية ، حيث يكون لكل مشهد منها بدؤه ، او شروعـــه السببي الخاص به . اما النظرة الى كامل العالم – كطبيعة بالنسبة الى الوعي الافرادي ، بوصفها ترابطاً مفرداً ومنتظماً – سببياً ، هي شيء ما لا يمكن لفكرنا ان يتحقق منه تماماً ، نظراً لأن تفكيرنا يشرع دائماً بوحدة مشاهد . وهي – اي النظرة – المترجم – تبلى معتقداً والحق انها هي الايمان نفسه ، وذلك لأنهـا قاعدة الفهم الديني للعالم والتي تفترض ، حينما يلاحظ شيء ما ، ارواحاً المية بوصفها ضرورة للفكر – ارواحاً ، مريعة الزوال وبنات ساعتها ، للاحداث التصادفيـــة التي لا يفكر بها ثانيـــة ، وتحتمل الارواح بوصفها سكاناً لمكان معرف محدد (كالينابيع والاشجار والحجارة والتـلال والنجوم الخ ...) او بوصفها سكاناً كونيين (كآلهة السماء او الحرب او الحكمـــة) والذين يمكن ان يكونوا موجودين وحاضرين في كل مكان . والارواح هي محدودة فقط بمقتضى انفرادية كل مشهد منعزل من مشاهد الفكر . فهذه التي تكون اليوم ملكة من ملكات الاله تصبح غداً بنفسها الهاً . وآخرونهم حيناً تجمع وحيناً وحدة ، وغيره كيان غامض مبهم . وهناك منها ماهو ليس منظوراً (اشكال) وماليس مدركاً(مبادىء) وهذه قد تصبح ، في نظر من توهب اليه ، ظاهرة او مفهومة . والقدر وفق مفهوم الكلمة الكلاسيكية ، والكلمة الهندية له، هو شيء مايعلو ، بوصفه شيئاً – اصلاً، (اصيلا – المترجم) فوق الألوهيات القابلة للتصوير ، اماالمصير المجوسي ، فهو على

العكس من هذا ، اذ انه عملية الله الواحد الاسمى الذي لا شكل له . ويترك الفكر الديني ، دائما وابداً ، لنفسه أن تدرج قيماً ومراتب داخل التتالي السببي ، ويفضي الى الكائنات الاسمى ، او المبادىء بوصفها مقدمة الاوائل من العلل او الاسباب « الحاكمة ، المسيطرة » . وكلمة « ناموس » هي كلمة تستعمل لأشد جميع المناهج قابلية للادراك ، من المناهج المرتكزة الى التقييم . اما العلم فهو على العكس من هذا ، اذ انه يستفظع ويكره مبـــدأ التمييز للمراتب بين العلل او الاسباب ، وما يجده العلم هو القانون ، وليس ناموسا .

ان فهم الاسباب ، او العلل ، يحرر ، والاعتقاد بالروابط المكتشفة يفرض على الخوف من العالم ، ان يتراجع . والله هو ملاذ الانسان من المصير الذي يشعر به ويخبره خبرة حية ، ولكن لا يفكر به او يتصوره او يسميه ، والذي يملق ويرجأ طالما — وطالما فقط — يستطيع الفهم « التنديدي » (او المفكك بالمعنى الحرفي) وليـد الخوف ، ان يقيم بصورة قابلة للادراك عللاً وراء علل ، وذلك في نظام منظور للعين الظاهرية او الباطنية ومعضلة الانسان من المرتبة الارقى ، هذه المعضلة الميؤوس منها ، هي في كون ارادتـه الجبارة لأن يفهم في حالة من تعارض مستمر ودائم مع كينونته ، فهذه الارادة لم تعد تخدم الحيـاة ، لكنها عاجزة عن حكمها ، ويبقى ، نتيجة لذلك ، في كل الارتباطات الهامـة عنصر لا يمكن حله . « وليس على المرء الا ان يصرح بانه حر ، وحينئـــذ يشعر بان اللحظة مشترطة ولكن اذا كان المرء يتمتع بالشجاعة ليعلن انه نفسه مشترط ، فآنذاك يملك شعوراً بكونه حراً » . (غوتيه)

اننا نسمي الترابط داخل العالم — كطبيعة ، والذي نكون قانعين بانـه لن يبدله اي مزيد من تأمل او تفكير به ، اقول نسميه الحق . والحقائق هي ثابتة ، ومعدومة الزمان — وكلمة مطلقة تعني انها منفصلة عن المصير والتاريخ ، ولكنها ايضاً منفصلة عن وقائع حياتنا وموتنا الخاصـــين بنا — وهي — اي الحقائق — المترجم — تحرر باطني وعزاء ومساواة وخلاص ، وهي بهذا تتغلب وتبخس قيمة

احداث عالم الوقائع . او هي كما تتبدى على مرآة الذهن ، في كون الناس قد يمضون ولكن الحق يبقى .

ان داخل العالم — المحيط شيئاً ما مقرراً ثابتاً — اي راسخاً معقود اللسان مسحوراً . ويملك الانسان الفاهم السر بين يديه ، أكان هذا ، كما كان في القديم ، بعضاً من سحر فعال ، ام انه ، كما هو في ايامنا هذه ، قانون رياضي . فالشعور بنشوة الانتصار يرافق ، حتى هـذا اليوم ، كل خطوة تجريبية تقرر شيئاً ما في ميدان الطبيعة — عن اغراض آلهـة السماء وقواها او ارواح — العاصفة لجن — الارض ، او عن ارواح العلوم الطبيعيـة (نواة — الذرة سرعة حركة الضوء ، الجاذبيـة) ، او حتى عن الارواح التجريدية التي يدركها الفكر حين تأمله لصورته الخاصة (مفهوم ، مرتبة ، او نسق ، عقل) — وفي حالة تقرير هـذا الشيء ما ، فعندئذ تنبته التجربة داخـل سجن منهاج من روابط سببية لا يقبل تعديلا او تبديلا . ان الخبرة ، وفق هذا المفهوم القاتل اللامتمضي الحافظ ، والتي هي شيء ما يختلف تماماً عن خبرة — الحياة ومعرفة الناس ، تحدث في صيغتين — هما النظرية والتقنية ، او باللغة الدينية ، الاسطورة والمذهب — وذلك وفق ما اذا كانت مقاصد المؤمن ترمي الى فض اسرار العالم المحيط بـه ، او حصرها او تحديدها ، او سجنها . وكلتا هاتين الصيغتين تتطلبان تطويراً راقياً للفهم البشري . وكلتاهما قد تولدان من الخوف او المحبة . وهناك ميثالوجيا للخوف ، كالميثالوجيا الموسوية والبدائية بصورة عامـة ، وميثالوجيا المحبة كتلك الميثالوجيا المسيحية المبكرة والصوفية القوطية ، وبالمثل فهناك تقنية سحر دفاعيـة ، واخرى ترشيحية ، Postulant ، وهذا لا ريب ، هو اعمق التمييز اساساً بين القربان والصـلاة ، وهو يميز ايضاً الجنس البشري بين بدائي وناضج . فالتدين هو ميزة نفس ، اما الدين فهو موهبة . والنظرية : تتطلب موهبة الرؤيا التي تملكهـا القلة من الناس الى حد البصيرة النيرة المشرقة ، والكثيرون منهم لا يملكونها اطلاقاً . وانها لنظرة الى العالم Weltanschaurung باعمق مالها من مفهوم اولي، هي ما اذا

كان يراه المرء هو يد القوى ومنوالها ، ام انه (وبتعبير روح متمدنة اشد برودة، روح لا تخاف او تحب ، بل انها فضولية فقط) مسرح لتطابق قوانين الطاقات وتوافقها . فاسرار التابو والطوطم تشاهد في الايمان بالآلهة ، وفي ايمان النفس ، وتحسب في الفيزياء النظرية والبيولوجيا . والتقنية تفترض مسبقاً الموهبة العقلانية للربط والتغريم Conjuring والانسان النظري هو العراف المنـــدد النقاد ، والانسان التقني هو الكاهن ، اما المكتشف فهو النبي .

وعلى كل حال ، فان الوسيلة التي بواسطتها تركز كامـــل طاقة العقل ذاتها وتكثفها فهي الشكل لما هو واقعي والذي يستخلص من الرؤيا بواسطة النطق ، والذي لا يستطيــع كل شعور واع ان يميز او يفطن الى جوهره او لبه ـ الاحاطة المفاهيمية ، القانون القابل للتبليغ به ، الاسم الرمز . ومن هنا كان التغريم على كل اله او التعوذ به ، يرتكز على معرفـــة اسمه الحقيقي ، وعلى القيام بالطقوس والاسرار المقدسة المعروفـة من قبل المطلعين عليها فقط والتي هي بمتناول يدهم وحدهم ، والتي يجب ان تكون شكلاً ، وكلمات ، دقيقة كل الدقة في صحتها . وهذا القول لا ينطبق فقط على السحر البدائي ، بـــل انما ينطبق بالقدر ذاته على تقنيتنا الفيزيائية (وخاصة الطبية) ، ولهذا السبب بالذات ، للرياضيات طابـع قداسة وطهارة ، وهي ، بصورة منتظمة ، ثمرة من ثمرات البيئة الدينيـــة ، (فيتاغورس ، ديكارت ، باسكال) ، وهكذا فان في كل دين ، صوفية لأرقام مقدسة (٣ ، ٧ ، ١٢) وأن الزخرف (الذي يمثل الهندسة المعمارية ـ للمذهب ارقى اشكاله) هو اصلاً رمز احس بـــه كشكل . فالكون الاصغر يستخدم اشكالاً صلبة غاضبة ودوافع ـ تعبير واشارات مواصلة ، داخـــل عالم الشعور الواعي بغية الاتصال بالكون الاكبر . وهذه ما تسميها التقنية الكهنوتية بالسنن او الفرائض ، وتدعوها التقنية العلمية بالقوانين ـ ولكن كلا النوعين هما اسم ورمز ، والانسان البدائي قد لا يكتشف اي فرق بين سحر كاهن قريته الذي

بواسطته يأمر الجن ويسيطر عليها ، وبين مهندس ميكانيكي متمدن يدير الآلة ويتحكم بها .

ان النتاج الاول ، ولربما كان الوحيد ، لارادة الانسان ان يفهم هو الاعتقاد. « فأنا اعتقد » هي الكلمـــة العظمى ضد الخوف الميتافيزيقي ، وهي في الوقت ذاته ، مجاهرة بالحب واعلان عنه . ومع ان ابحاث احدهم او تجميعه للمعرفة قد يبلغ ذروته في نورانية مفاجئـــة « او تقدير بات جازم ، ولكن مع ذلك فان مفهوم هذا المرء وادراكه سيكونان بلا معنى ، الا اذا وضع الى جانب نورانيته او تقديره ، قناعة باطنية بشيء ما بوصفه آخر وغريباً — ووضعه بالاضافـــة الى ذلك في شكل مثبت ومؤكد — داخل تسلسل من علة ومعلول . لذلك فان ارقى المتلكات العقلانية المعروفـــة من قبل الانسان بوصفه كائناً ذا فكر يستنتج — نطقاً ، هو الايمان الثابت والمكتسب بشق الأنفس بهذا الـ - شيء ما ، والمستخلص من مجاري الزمان والمصير ، والتي فرزها بواسطـــة التأمل ووسمها بالاسم والرقم . ولكن ماهية هذا الشيء ما تبقى في نهاية المطاف غامضة مبهمة . فهل كان هذا الشيء ما المنطق السري للكون هو الذي لامسه الانسان ام كان فقط صورة ظلالية له Silhouette ؟ وهكذا يبدأ من جديد كل نضال وانفعال ، وتوجه الابحاث القلة التواقة نفسها نحو هذا الشك الجديد الذي قـــد يتحول الى يأس . فالانسان يحتاج في تنقيبه العقلاني عن الاعتقاد الى شيء ما نهائي يكون باستطاعة الفكر ان يبلغه ، الى نهاية لتشريح لا يخلف وراءه اي اثر لغموض او ابهام . فالنور يجب أن يغمر زوايا عالم تأمله وجيوبه — ولا يستطيع اي شيء اقل من هذا ان يفرج عن الانسان او يعتقه .

وهنا ينتقل الاعتقاد الى داخل المعرفـــة التي حركها الشك او الريب ، او بتعبير ادق ، يصبح اعتقاداً داخل تلك المعرفة . وذلك لأن شكل المعرفة للفهم يتوقف بصورة جذرية على الاعتقاد ، اذ انه كفل وعجز ، واكثر اصطناعيـــة وعط للتساؤل والريب . زد على ذلك ان النظريـــة الدينية — وهذه هي تأمل

المعتقد – تفضي الى الممارسة الكهنوتية، لكن النظرية العلمية ، هي العكس من هذه ، اذ انها تحرر ذاتها بواسطة التأمل من المعرفة التقنية للحياة اليومية . والاعتقاد الراسخ وليد النورانيات ، الاعلان الالهي ، واللمحات الفجائية العميقة ، كل هذه تستطيع ان تستغني عن العمل التنديدي . لكن المعرفة التنديدية تفترض مسبقاً الاعتقاد الذي سيفضي بـ منهاجها الى ما هو مشتهى ومطلوب تماماً – أي انها لا تؤدي الى خلق تخيلات جديدة ، بل الى ما هو «واقعي» . وعلى كل حال فان التاريخ يعلمنا بان الشك من جهة الاعتقاد يفضي الى المعرفة ، وأن الشك من جهة المعرفة يعود (بعد فترة من تفاؤل تنديدي) بالمعرفة الى الاعتقاد ثانية . ولما كانت المعرفة النظرية ، تحرر ذاتها من القبول الواثق ، فهي لذلك تتجه منطلقة الى تدمير ذاتها ، حيث لا يبقى بعد هذا التدمير الا مجرد خبرة تقنية فقط .

ان الاعتقاد ، في وضعه البدائي غير الواضح ، يعترف بوجود منابع اسمى للحكمة ، حيث تكون بواسطتها الاشياء ، التي لا يستطيع ابداً دهاء المرء او مراوغته ، ان يوضحها او يفسرها ، واضحة للعيان تقريباً – ومثل هذه الاشياء هي الكلمات النبوية ، الاحلام ، الاوراكل ، الكتب المقدسة ، صوت الاله . أما الروح التنديدية ، فهي على العكس من هذا ، اذ انها تريد وتعتقد بانها قادرة بالذات ان تنظر داخل كل شيء بنفسها . وهي لا ترتاب فقط في الحقائق الغريبة عنها ، بل تنكر حتى امكانية وجودها . والحق في نظرها هو ليس الا معرفة برهنت عليها لنفسها . ولكن اذا كان التنديد المجرد يخلق وسيلة من نفسه فقط ، فعندئذ لن يطول بنا الزمن لندرك ان هذا الوضع ينتحل صحة النتيجة . ان De omnibus dubitandum هي فرضية لا تستطيع ان تدخل ميدان التحقق او الواقع . وانه ، لعرضة لان لاينسى ، كون النشاط التنديدي يستوجب الارتكاز الى منهاج ، وامكانية الحصول على هذا المنهاج بدوره وبواسطة التنديد ، هي امر ظاهر فقط . وذلك لأنه ينشأ حقاً عن النزعة البوهية للفكر وهذا يعني

ان نتائج التنديد نفسها تقرر بواسطة المنهاج الاساسي ، ولكن هذا بدوره يقرر من قبل تيار الكائن الذي يحمل وينثر الشعور الواعي . فالاعتقاد بمرفة لا تحتاج الى فرضيات هو مجرد علامة من علامات السذاجة غير المحدودة للمراحل العقلانية ، وليست اية نظرية من نظريات العلوم الطبيعيـة ، سوى دوغما اقدم تاريخياً من تلك ، وفي شكل آخر غير شكل تلك . والفائدة الوحيدة التي تحصل الحياة عليها منها ، هي تلك التي تتمثل في شكل تقنية ناجحة زودتها النظرية بالمفتاح . ولقد قيل فيا مضى ان قيمة الفرضية العملية لا تكمن في « صحتها » بـــل في قابليتها للاستخدام . لكن الاكتشاف من النوع الآخر ، لقطات البصيرة ، « الحقائق » وفق المفهوم التفاؤلي ، لا يمكن ان تكون ثمرات الفهم العلمي المجرد ، نظراً لأن هذا يفترض دائماً ومسبقاً نظرة يستطيـع ان يعمل بواسطتها نشاطه التنديـــدي المشرح . فالعلوم الطبيعية الباروكية هي تشريح واحد دائم ومستمر لصورة العالم الدينية الحقبة القوطية .

لا يكمن هدف الايمان والعلم ، هدف الخوف والفضول ، في اختبار الحياة ، بل في معرفة العالم – كطبيعة . وهذان (الايمان والعـــالم – المترجم) هما نفي واضح وجلي للعالم – كتاريخ . لكن سر الشعور الواعي الذي هو سر مزدوج، فهناك صورتان وليدتا خوف ، ومنتظمتان سبباً تنشآن بالنسبة للعين الباطنية – العالم « الظاهري » وصورته المضادة ، صورة « العالم الباطني » . وكلاهما يحتويان على معضلات حقيقية ، وليس الشعور الواعي رقيباً فقط ، بـــل انما هو ايضاً مشغول جداً داخل ميادينه الخاصة ايضاً . فالروح المقيمة هناك في الخارج تدعى الله ، والمقيمة هنا في الداخل تدعى النفس . وتتحول آلهة رؤيا المؤمن ، بواسطة الفهم التنديدي ، داخل الفكر الى اجسام ميكانيكية تنسب الى عالمه ، لكن جوهرها ونواتها يبقيان الشيء نفسه – فيها المادة والشكل الكلاسيكيان ، والنور والظلام المجوسيان ، والطاقة والكتلة الفاوستيتان – ووسيلته هي دائماً التشريح ذاته لاعتقاد النفس البدائي ، ونهايته هي ايضاً دائماً النتيجة ذاتها والمقررة مسبقاً .

وتدعى فيزياء الباطن السيكولوجيا المناهجية ، وهذه تكتشف ، اذا ما كانت علماً كلاسيكياً ، داخل الانسان شيئاً مشابهاً لاجزاء – النفس ، اما اذا ما كانت علماً مجوسياً فهي تكتشف جوهر – نفس (روح ، نفس) واذا ما كانت علماً فاوستياً فتكتشف طاقات – نفس (تفكيراً شعوراً ارادة) . هذه هي اشكال التأمل الديني في الخوف والمحبة والتي يتبعها بالعلاقات السببية للذنب والخطيئة والغفران والضمير والمكافأة والعقاب .

ان الكينونة هي امر خفي غامض ، حالما يتوجه الايمان والعالم باهتماميهما اليها ، تستجرهما الى خطأ خطير . فبدلاً من بلوغ ما هو كوني (وهذا الامر خارج تماماً عن نطاق امكانات الشعور الواعي الفعال) نرى ان حركة الجسم العاقـــلة داخل ميدان العين ، والصورة المفاهيمية للسلسلة السببية الميكانيكية المستخلصة منها ، خاضعتان للتحليل . ولكن الحياة الحقيقية هي حيـاة تعاد ولا تعرف . والعديم الزمان هو وحده الحقيقي . والحقائق تقع ما وراء التاريخ والحياة ، بالعكس من هذه ، هي شيء ما يقع ما وراء كل العلل والمعاليل والحقائق . والتدديد بشقيه ، تدديد الشعور الواعي ، وتدديـــد الكائن ، هما مضادان للحدوث وغريبان عن الحياة . لكن تطبيق التدديد في الحالة الاولى ، امر يجد له القصد التدديـــدي والمنطق الباطني للموضوع المشار اليه كل تبرير ومبرر لكن لا مبرر له في الحالة الثانية . وينشأ من هذا ان التمييز بين الايمان وبين المعرفة ، او بين الخوف وبين الفضول ، او بين الالهام وبين النقد ، هو ليس ، بعد كل شيء ، التمييز النهائي . فالمعرفة ليست الا شكلاً متأخراً زمنـــاً من اشكال الاعتقاد . لكن الاعتقاد والحياة ، الحب النابع من الخوف الغامض من العالم ، والحب النابع من البغضاء الخفية للجنــين ، (ذكر ، وانثى – المترجم) ، المعرفة ذات المنطق اللامتعضي ، والحس ذو المنطق المتعضي ، العلل والمصائر – هذه تمثـل اعمق كل ما هناك من تعارض . ونحن هنا لا نميز بين الناس اعتماداً على صيـغ تفكيرهم – أدينية هي ام تدديدية – ولا اعتماداً على مواضيـع فكرهم ، بل نميز بينهم اعتماداً مما اذا كانوا مفكرين (وفي اي موضوع كان) او فعالين .

ان الشعور الواعي يتولى الامور في ميدان العمل ، فقط حينما يصبح العمل تقنية . زد على ذلك ان المعرفة الدينية هي قوة ايضاً – فالانسان لا يؤكد فقط التسبب ، او العلاقات بين العلل والمعاليل ، بل يعالجها . وان ذاك الذي يعرف العلاقـــة السرية بين الكون الاصغر والكون الاكبر ، يسيطر عليها ويأمرها ، اجاءت هذه المعرفة اليه نتيجة لوحي او الهام ، ام استرقها سمعاً . هكذا فان الساحر والمعزم (المشعوذ – المترجم) هو حقاً رجـــل – تابو . فهو يلزم الاله بواسطة القربان والصلاة ، وهو يقوم بالطقوس الصحيحة والاسرار المقدسة ، لأنها اسباب لنتائج محتومة ، وان من يعرفها ، يلزمها بان تخدمه بالذات ، وهو يقرأ في النجوم وفي الكتب المقدسة ، وداخل قوتـــه ، تكمن ، خارج الزمان ، ومصونة من كل احداث الصدفة ، العلاقة السببية بين الخطيئة والكفارة ، بين الندم والمغفرة ، بين القربان والنعمة . وسلسلته من الاصول المقدسة والنتائج ، تجعله بالذات ماعوناً لقوة غامضة خفية ، ولذلك تجعله علة لمعاليل جديدة ، يتوجب على المرء ان يؤمن بها قبل أن يقوم بالتبليـغ بها .

من نقطة الانطلاق هذه نستطيـع ان نفهم (ما نسيه تقريباً العالم الاوروبي – الاميركي اليوم) المعنى النهائي للاخلاقية الدينية ، الاخلاق ، انها حينما تكون العلاقة قوية حقيقية وذات مضمون كامـــل للمشهد الطقوسي والممارسة ، انها (ولنستعمل كلمات ليولا) « الممارسة الروحية » المتممة امام الاله الذي تتوجب تهدئته بواسطتها والتضرع اليه . « ماذا يجب علي ان اعمل كي اخلص ؟ » هـــذه « الـ – ماذا » هي المفتاح لفهم كل الاخلاق الحقيقية . وتكمن في اعمق اعماقها « لماذا » « وماذا » . وهذا ينطبق ايضاً على حال تلك الحفنـــة من الفلاسفة المصعدين بالحرارة تصعيداً ، والذين خيل اليهم وجود اخلاق « من اجل الاخلاق بالذات » – وهؤلاء يعترفون حتى بجملتهم القائلة بانهم مع ذلك يشعرون هناك في الاعماق بوجود « لماذا » ، غير ان قلة جذابة من نوعهم تستطيـع ادراكها . فهناك توجد فقط اخلاق سببية او علية – وهذه هي تقنية اخلاقية – وتوجد في

تركيزة خلفية للقانع بالميتافيزيقا .

ان الاخلاق هي سببية – علية – واعية ومخططة لسلوك ، وهي ما خلا كل خصوصيات الحياة الواقعية وطابعها ، شيء ما خالد وصحيح على مستوى كوني ، وهي ليست معدومة الزمان فقط ، بل انما هي معادية له ، وهي ، لهذا السبب بالذات ، « حقيقية » . وحتى لو لم يكن هناك وجود الجنس البشري ، لبقيت الاخلاق حقيقية وصحيحة – وهذا ليس مجرد خيلاء وتصور ، بل هو تعبير المنطق الاخلاقي اللامتعضي منطق العالم المدرك بوصفه منهاجاً جرى فعلا استخدامه . والفيلسوف قد لا يتنازل ابداً عن انه كان من الجائز للاخلاق تطور واكتمال . ان الفراغ ينفي الزمان ، والاخلاق الحقيقية هي مطلقة خالدة وكاملة ، وهي نفسها بالذات . ويكمن داخل اعماقها نفي دائم للحيـــاة ، وامتناع عنها وانكار يبلغان حدود التنسك والزهد وحتى الموت نفسه . فالنفي واضح وصريح في كل جملة من جملها – فالاخلاق الدينيـــة تحتوي على نواه وتحريم لا على فرائض . والتابو حتى حيث يؤكد بوضوح ، هو لائحة من انكار وتنصل . فلا سبيل الى تحرير المرء نفسه من عالم الواقع ، وان تجنب امكانات المصير ، وان النظر دائماً الى العنصر بوصفه عدواً يتربص به الدوائر – ما هو الا منهاج قاس وعقيدة وارادة ممارسة . ولا يتوجب على اي عمل ان يكون سبباً او محرضاً دافعاً – فهذا الامر متروك للدم – فكل شيء يجب ان يقدر على ضوء الدوافع والنتائج ، ويجب ان ينفذ « حسب منطوق الاوامر » . والمطلوب توتر مفرط القلق كيلا تقع في الخطيئة . واول الامور المستوجبة هي العفة وضبط النفس عن شهواتها ، وعما يتعلق بالدم والحب والزواج . فالحب والبغضاء في الجنس البشري هما كونيان وشران ، والحب الجنسي هو على طرفي نقيـــض والحب والخوف من الله اللذين لا زمان لهما ، ولذلك فهذا النوع من الحب خطيئة اصلية طرد من اجلها آدم من الجنة وأورث الجنس البشري وزر خطيئته . فالحمل والموت يحددان حياة الجسد في الفراغ ، وكون الجسد هو حقاً موضوع البحث ، يجعل الحمل خطيئة والموت

عقاباً . والكلمة الكلاسيكية الجسد تعني قبراً ، وهـــذا كان اعتراف دين اورفيوس . وبندار وآشيل ادركا الكينونة بوصفها تبكيتاً وتعنيفاً ، كما وأن قديسي جميع الحضارة يشعرون بأنهـــا عدم وورع او مروق يجب القضاء عليه بواسطة الزهد ، او بالاسراف في التصوف والتهتك والخلاعة (وهذه قريبة النسب اليها) . فالعمل وميدان التاريخ ، والفعـــل ، والبطولة ، والسرور في المعركة والنصر والغنائم والاسلاب ، كل هذه هي شر . وذلك لأن نبض الكائن الكوني يقرع الباب قرعاً شديداً ومزعجاً لتأمل الفكر ومجرانه . والعالم بأكمله – واعني بهذا العالم كتاريخ – عالم مرذول فاضح السمعة ممقوتها . فهو عالم يحارب بدلاً من ان ينكر وينبذ ، وهو لا يملك فكرة التضحية . وهو يسيطر على الحقائق بواسطة الوقائع . وهو لكونه يتبع الحرض ، يحير الفكر ويربكه حين تفكيره بالعلة والمعلول . ولذلك فان اسمى تضحية يستطيع الانسان العقلاني ان يقدمها ، هي ان يجعل من العالم كتاريخ هدية لقوى الطبيعة . وكل عمل اخلاقي هو جزء من هذه التضحيـــة ، ومجرى الحياة الاخلاقي هو سلسلة متصلة الحلقات من ضحايا كهذه . والرحمة ، هي اول مظهر من مظاهر العطف ، حيث يتخلى القوي باطنياً عن تفوقه لعديم القوة . فالرجل الرحيم يقتل شيئاً ما داخل ذاته . ولكن يجب علينا ألا نخلط بين هذا العطف بمفهومه الديني الجليل وبين العاطفية الغامضة لرجل الحياة اليومية ، الذي لا يستطيع ان يسيطر على نفسه ، او بينـــه وبين شعور العنصر الفروسي ، هذا الشعور الذي ليس هو اطلاقاً اخلاقاً من اسباب وقواعد واحكام ، بل عادة شامخة واضحة ولدت بها خفقات نبض غير واعية لحياة زودت بمفتاحها . اما ذاك الذي يدعى في الازمان المتمدنة بالآداب الاجتماعية ، فانـــه لا يمت بأية صـــلة الى الدين ، ووجوده قائم ليظهر فقط ضعف التدين اليومي وخواءه ، هذا التدين الذي فقد زخم قناعته الميتافيزيقيـــة الذي يعتبر الشرط الاساسي للاخلاق القوية الواثقة المنكرة للذات . ولنتأمل ، مثـلا ، في الفرق القائم بين باسكال ومل . فالاداب الاجتماعية ليست اكثر من سياسة عملية . وهي ثمرة جد متأخرة زمناً للعالم التاريخي ذاته الذي شهد ربيعه ، في كل الحضارات على

حد سواء ، ازدهار اخلاق سامية في الشجاعة والفروسية وأرومة قوية لا يطرف لها جفن امام حياة التاريخ وتحت وطأة القدر ، اخلاق ذات ردود افعال طبيعية ومكتسبة التي قــد يسميها المجتمع المتأدب اليوم « غرائز الجنتلمان » ، اخلاق نقيضها السوقية ، وليس الخطيئة . انها مرة اخرى القلعة في تباينها والكاتدرائية . فاخلاق القلعة لا تسأل عن الفرائض والاسباب . وهي في الواقع لا توجــه اي سؤال اطلاقاً . فشرعتها تكمن في الدم — الذي هو نبض ، وخوفها لا ينبع من رهبة من عقاب او رغبة في ثواب ، بل من الاحتقار ، وخاصة احتقار الذات . وهي ليست منكرة للذات ، بل على العكس من ذلك ، انها تنبع من امتلاء كل امتلاء ذات قوية . لكن الرحمة تتطلب ، بالمثل ، عظمة نفس باطنية ، وهكذا فان الازمان الربيعية ذاتها هي تلك التي تنتج امحق خدم الشفقة قداسة ، كأولئك الذين هم من طراز فرنسيس اوف اسيسي ، وبرنارد كليرفو ، والذين نبذ الحياة كان يتضوع اريجاً عطراً منهم ، وكانت تقدمة الذات غبطة وهناء في نظرهم ، وكانت طقوسهم اثيرية لا دم لها او زمان او تاريخ ، والذين اذاب الخوف من الكون نفسه داخلهم فاصبح محبــة نقية سليمة من كل عيب ، وقمة من اخلاق سببية ، اصبحت المراحل المتأخرة زمناً ، عاجزة بكل بساطة عن ارتقائها .

ان من يريد ان يتحكم بدمه ويضبطه ، يجب ان يكون له دم . ونتيجة لذلك نجد الرهبانية من الطراز الرفيع في ازمان الفرسان المحاربين فقط ، ونجد أن ارقى رمز للانتصار الكامل للفراغ على الزمان يتمثل في صيرورة المقاتل راهباً — لا في الحالم او الضعيف بالولادة ، والذي ينتمي بطبيعته الى الدير ، وليس ايضاً في العالم الذي يعمل في مناهج اخلاقيــة في مكتبه . ولنضع التصنع ، او الرياء جانباً الذي يدعونه هذا اليوم بالاخلاق — فان عطف المرء على اقربيه ، او ممارسة رغبة جديرة ، او طقوس ، ممارسة تنبع من فكرة سابقــة لها وتهدف الى اكتساب قوة سياسية بواسطتها — فهذه ليست بأخلاق — الشرف ، وليست حتى درجة دنيا منها وذلك اذا ماقيست بمستويات الربيع الحضاري . ولنكرر : هناك

أخلاق جلية فقط بالنسبة الى الموت ، ومنابعها هي خوف ينتاب كامل الشعور بالاسباب والنتائج الميتافيزيقية ، ومحبة تتغلب على الحياة وتقهرها ، وشعور المرء بانه واقع تحت تأثير سحر لا يرحم لمنهاج سببي يتألف من قوانين وأغراض مقدسة ، تبجل بوصفها حقائق ، والتي يتوجب على المرء اما ان ينتمي اليها كلياً او ينبذها كلياً . ويوافق ممارسة هذه الاخلاق توتر دائم ومراقبة ذات واختبارها ، وهذه فن يهوي ازاءه العالم كتاريخ الى اللاشيئية . فليكن الانسان اما بطلاً او قديساً ، فبين هذين لا توجد الحكمة ، بل توجد التفاهة والمألوف من الأمور .

- ٢ -

لو كانت هنا حقائق مستقلة عن تيارات الخليقة . لما كان بالامكان وجود تاريخ لحقائق . ولو كان هناك دين واحد فقط خالداً في صحته لأصبح التاريخ الديني فكرة لا يدركها عقل . ولكن مهما قد يكون مستوى الجانب الكوني الاصغر من حياة الفرد راقيا في تطوره ، فانه بالرغم من ذلك هو شيء ما قد مد كأنه الغشاء فوق الحياة المتطورة ، ورش بنبض الدم ، ويغشي ، دائماً وابداً ، سر الاندفاع التوجيه الكوني . ان العنصر يسيطر ويشكل كل فهم او ادراك . وان مصير كل لحظة من دراية او ادراك ، ان تكون شكلاً لشبكة الزمان فوق الفراغ .

وليست « الحقائق الخالدة » غير موجودة . فكل انسان يمتلكها – ويمتلك الكثير منها – الى حد انه يوجد ويمارس ملكة الفهم في عالم من الافكار ، وفي مجموعها المترابط حيث تكون داخل برهة الفكر ومن اجلها ، متاعاً ثابتاً لا يقبل

تغييراً او تبديلاً – ومشدوداً بعضها الى بعض بسلاسل من حديـــد ، بوصفها تراكيب من علة ومعلول تطوقها المقدمات والاستنتاجات . ويؤمن الانسان بانه لا يوجد اي شيء في هذا الترتيب يمكن ان يزاح او يزحزح . ولكن ، في الواقع ، ان جيشاناً واحدا من الحياة ، هو الذي يصعد ، في هذه الحال الشعور الواعي لمثل هذا الانسان وعالمه معاً . ووحدة هذا الترتيب تبقى متكاملة ، ولكنه يملك تاريخاً وذلك بوصفه وحدة ، كلا ، وواقعة . فالواحدة من هذه « الحقائق الخالدة » هي مطلقة ونسبية والحقيقة الأخرى ، كالأجزاء العرضية والطوليـــة لتتابع الاجيال ، حيث تتجاهل الاخيرة من هذا الفراغ ، والاولى منها الزمان . والمفكر المنهاجي يظل داخل نظام البرهـة السببي ، اما المفكر السياني ، الذي يستعرض ويفحص سياق المواقع وتتاليها ، فهو وحده الذي يدرك التبدل الدائم الذي يطرأ على « ما هو » صحيح .

ان «كل ما هو ماض « هو رمز » قول ينطبق ايضاً على الحقائق الخـــالدة ، وذلك حالما نتتبع سياقها ومجراها في نهر التاريخ وتياره ، ونراقبها وهي مستمرة في انطلاقها ، بوصفها عناصر في صورة – العالم للاجيال التي تعيش وتموت . فالدين الواحد بالنسبة لكل انسان ، وطيلة اجله من الوجود ، هو خالد وحق ، وقرره له المصير بواسطة زمن ولادته ومكانها . والانسان به يشعر بنظرات عمره وقناعاته ومنه يشكل هذه النظرات والقناعات . وهو يتمسك بثبات وشدة بكلمات دينه واشكاله ، بالرغم من ان ما يعنيه بها هو في حال من تبدل مستمر . ففي العالم – كتاريخ توجد صحة ابدية في تبدلها او تغيرها .

لذلك فان مورفولوجيـــا التاريخ الديني هو واجب تستطيع فقط الروح الفاوستيـة وحدها ان تقوم باعبائه ، وهو واجب ، يليق الآن فقط ، بالروح الفاوستية ، وفي مرحلتها الحالية من تطورها ، ان تعالجه . فالمشكلة قـد صرح عنها الآن وأعلن ، ويتوجب علينا ان نتجرأ ونتقدم على بذل المجهود الذي ينأى بنا تماماً عن قناعاتنا ، وان ننظر الى كل شيء نظرة لا مبالية « فنراه » بالمثل ،

اجنبياً وغريبا عنا . ويا لهذا المجهود من مجهود شاق صعب ! ان من يتصدى للقيام بهذا الواجب (واجب ايجاد مورفولوجيـــا للتاريخ ـ المترجم) يجب ان يمتلك القوة التي لا تمكنه فقط من تخيل نفسه منفصلا انفصالاً وهمياً عن حقائق فهمه ـ العالم ـ ووهميا ايضا هو هذا الانفصال بالنسبة لمن يعتبر هذه الحقائق مجموعة من المفاهيم والمناهج ـ بل تمكنه ايضاً من النفوذ الى منهاجه الخاص نفوذاً سيامياً يبلغ حتى آخر خلية فيه . ولكن حتى في هذه الحال ، هل باستطاعة لغـــة واحدة وحيدة ، تحمل تركيباً وروحياً كامل المحتوى الميتافيزيقي لحضارتها الخاصـــة ، ان تستولي على فكر الحقائق القابلة للتبليغ بها . والتي تعود لأناس ينطقون بالسنة غير السنتنا ؟

وبداية نقول بان هناك حشداً من السكان البدائيـــين الذين لا لون لهم ، يقفون ، طيـــلة آلاف من السنين من الحقبة الاولى ، مرعوبين فاغري الافواه أمام البيئة العديمة النظام والتي تثقل الغازها واحاجيها كواهلهم باستمرار ، هذه الاحاجي التي لا يستطيع اي واحد منهم ان يسيطر منطقيا عليها . والحيوان هو لسعيد الحظ اذا ما قورنت حاله وحال هؤلاء السكان ، الذين يعون ولكنهم لم يبدأوا بالتفكير بعد . فالحيوان يعرف الخوف فقط من حال الى حال ، بينما ان الانسان المبكر زمناً يرتعد رعباً امام العالم باكمله . فكل شيء داخل هـــذا الانسان وخارجـــه هو مظلم وغير ثابت او مقرر . فالجانب اليومي معقود ومشبوك مع الجانب الجني دونما قاعدة ، او دليل او حل . واليوم متوع بتدن مرعب والم ، حيث يكون من النادر ان تجد فيه حتى مجرد اقتراح لدين يبعث على الثقة والطمأنينة ـ وذلك لأنه لا توجد اية طريق تنطلق من هذا الشكل الاولي للخوف من العالم وتؤدي الى المحبة الفاهمة . فكل حجر قد يعثر به هـذا الانسان ، وكل اداة تمسك بها يداه ، وكل حشرة تئز وهي مارة بـه ، والطعام والمنزل ، كل هذه يمكن ان تكون مسكونة من الجن . ولكن هذا الانسان يؤمن بالقوى الكامنة في هذه الاشياء ، طالما هو يهابها ويخافها ، او طالما يستطيع

ان يستخدمها – ويوجد منها ما فيه الكفاية تماماً حتى في هذه الحال . لكن الانسان يستطيع ان يحب شيئاً ما فقط عندما يعتقـــد بالوجود المستمر لهذا الشيء . فالمحبة تفترض مسبقاً وجود فكر لنظام عالم اكتسب الاستقرار . ولقد قامت الابحاث الغربية الامرين لا بغية ان تنظم فقط الملاحظات الفردية المجمعة من جميع اجزاء العالم في نظام ، بل بغيـــة ترتيبها ايضاً حسب مراتب منتحلة « تنطلق » من المذهب الروحي Animism [1] (او منطلقات اخرى كما تريد او ترغب) الى المعتقدات التي تتمسك بها هذه الابحاث نفسها . ومن سوء الحظ ان ديناً واحدا خاصا هو الذي زود المنهاج بقيمه ، كما وان الصينيين او اليونان كانوا سيقيمون مثل هذا المنهاج على اسس مختلفة تماماً . والحق انه لا يوجـــد تدرج مراتب كهذا ، تدرج يؤدي بتطور انساني عام الى هدف واحد . فعالم الانسان البدائي العديم النظام والمحيط بهذا الانسان ، ووليد فهمه المتقطع غير المستمر ، للبرهات المنفصلة ، والذي هو مع هذا مليء بالمعنى المؤثر ، هو دائما شيء ما بالغ ناضج ومكتمل بذاته ومغلق مراراً بمهاوي الالهام الميتافيزيقي العميق ورعبه ، وهو يحتوي دائماً على منهاج ، ولا يهم كثيراً ما اذا كان هذا المنهاج قد استخلص جزئياً من التأمل في عالم الضوء ، او انه يبقى بأكمله داخل هذا العالم . وصورة عالم كهذه « لا تتقدم » ، وليست هي مجموعا ثابتا من خاصات يتوجب علينا ان نلتقط هذه الواحدة منها او تلك (بالرغم من اننا عادة نلتقطها) للمقارنة ، دون ان نلتفت الى الزمان والارض والشعب . وهذه تشكل ، في الواقع عالما متعضيا من اديان متعضيـــة امتلكت ، في كل جزء من اجزاء العالم ، (وهي لا تزال تمتلك حينما لم تمت بعد) طرازات خاصة بها ، وشديدة الاهميـــة ، عميقة المغزى ، طرازات من نشوء ونمو وامتداد وذبول ، وطابعا معينا احسن تقريره من حيث

---

(١) Animism : المذهب القائل بأن لكل شيء في الطبيعة روحاً . – المترجم –

التركيب والنموذج ، او الاسلوب ، ومقياس السرعـــة الزمنية Tempo والديمومة . ولا يجري تطوير اديان الحضارات الراقية من هذه ، بل من اشياء مخالفة لها . فهي توجد على صورة انقى واعمق عقلانية ، في الضوء ، فهي تعرف ما تعنيه المحبة القاهمة ، ولها قضايا وفكر ، ونظريات وتقنيات يرعاها عقل دقيق صارم ، لكنها لم تعد تعرف الرمزية الدينية لضوء كل يوم . ان التدين البدائي ينفذ الى كل شيء ، اما الاديان المفردة والتي تأتي فيما بعـــد ، فهي قائمة بذاتها ومستقلة عن عوالمها الخاصة .

ولذلك فان حقبات « ما قبل » الحضارات العظمى هي اعمق الغازاً ، وهي بعد بدائية متناً وحاشية ، وتخطو مع ذلك بجلاء وتشير بوضوح الى اتجاه معين . وهذه الحقبات ذات الديمومة التي لا تتعدى بضعة قرون ، هي وحدها التي كان من المتوجب فحصها فحصا دقيقا وصحيحا والمقارنة بين ذواتها ، ومن اجـل ذواتها . فاي شكل تعده الظاهرة القادمة لنفسها ؟ اما فيما يتعلق بالاديان المجوسية ، فان الحقبة الاولى قد انتجت ، كما سبق لنا ان رأينا ، طراز الدين النبوي الذي انتهى الى دين الرؤى . فكيف حدث ان رسخ هذا الشكل الخاص اعمق فاعمق داخل لب هذه الحضارة الخاصة ؟ او لماذا ملئت الفاتحـــة المسينية للحضارة الكلاسيكية منـــذ بدايتها حتى نهايتها ، بتخيلات عن آلهة لها اشكال الحيوان ؟ فهذه الآلهة ليست آلهة المحاربين القاطنين القلاع المسينية المشيدة فوق المرتفعات ، حيث كانت تمارس عبادة ـ النفس ـ والاسلاف ، بتقى رفيع وورع نبيل لا نزال نجد لها اثراً واضحاً في التماثيل والنصب التذكارية ، بل انما هي آلهة المنخفضات السفلية ، انها القوى التي آمن بها من هو داخـــل كوخ الفلاح . والآلهة العظام المشابهة للانسان صورة ،آلهة الدين الابولوني ، والتي يجب ان تكون قد نشأت عام ١١٠٠ في أعقاب اضطرابات دينية جبارة ، هذه الآلهة تحمل على كل جانب من جوانبها ، آثاراً واضحة من ماضيها المظلم . فبالكاد نجـــد اياً منها دون ما بعض لقب او كنية ، او نعت ، او دليل من اسطورة تحول تشير الى اصله . فهيرا عنـــد

هوميروس لها بصورة دائمـة عينا بقرة ، وزفس يتبدى كثور ، وبوسيدون Poseidon يظهر في اسطورة ثلبيوسان Thelpusan كحصان . وأبولو يصبح اسما لما لا يعد او يحصى من الارواح البدائيـة ، فهو حيناً ذئب (Lycaeus) كارس الروماني ، وحيناً دلفين (Delphinius) وآخر افعى (The Pythian Appollo of Delphi) وميليخيوس Meilichios زفس يتخذ شكل افعى ايضا على تضاريس القبور الأتيكيـة وقبور اسكليبيوس Asclepios وارواح الانتقام Furies حتى آشيـل . كما وأن الافعى التي احتفظ بتمثالها في الاكروبول قد ترجمت على انها اريثشونيوس Erichthonios . وفي آركاديا ، فان تمثال ديتر الذي له رأس حصان والقائم في معبد فيغاليا Phigalia كان لا يزال بوسانياس يراه على هذه الحال ايضاً ، وكاليستو – آرتميس تظهر كدبة ، ولكن راهبات بورونيا Brauronia ارتميس كن يدعين في اثينا ايضاً دبات . كما وأن ديونيسوس كان حيناً ثوراً وآخر ايلا ، واحتفظ بان Pan حتى النهايـة بعنصر حيواني معين . وبسيشي Psyche (وهذه كالنفس الجسمانية المصريـة) هي طائر – النفس وقد تلاهـذه كلها اشباه آلهة لها اشكال حيوانية لا يحصيها عد ، كجنيـات البحر ، والقنطروس التي تملأ كليـة الصورة الكلاسيكية المبكرة الطبيعـة .

ولكن ما هي الآن ملامح الدين البدائي للازمان الميروفنجية التي تنبىء بأن نهضة الدين القوطي الجبارة هي وشيكة الوقوع ؟ انها لا شك الدين ذاته ، وهذا امر جلي وواضح ، اما المسيحية فانها لا تبرهن على شيء عندما نتأمل في كامـل الفرق الكامن في اعمـاق هذين الدينين . وذلك (ويجب ان تكون النقطة التي سأوردها واضحة كل الوضوح في اذهاننا) لأن الطابع البدائي لدين ما لا يكمن في مخزونه من العقائد والاعراف ، بل يكمن في الروحانيـة المعينة لجنس البشري الذي يعتنق هذه العقائـد والاعراف ويشعر ويتحدث بها ويفكر بواسطتها . ويتوجب على طالب العلم ان يعود نفسه على الواقعة القائلة بان المسيحية

البدائية « وبتعبير ادق المسيحية المبكرة للكنيسة الغربية » قد اصبحت مرتين متتاليتين ماعونا لتعبير الورع البدائي ، ولذلك فهي نفسها دين بدائي - واعني بهاتين المرتين ، الاولى في الغرب الجرماني - الكلتي وفي الفترة الواقعة بين عام ٥٠٠ وعام ٩٠٠ ، والثانية في روسيا حتى هذا اليوم . والآن كيف كان العالم يصور نفسه لهذه العقول « المهتدية » ؟ ونحن اذا ما اخرجنا من حسابنا بعض آثار قليلة للتربية البزنطية ، فعندئذ ما الذي كان الانسان يفكره فعلاً ويتخيله عن هذه الشعائر والعقائد ؟ فالاسقف غريغوري اوف تور ، الذي ، كما يتوجب علينا ان نتذكر ، يمثل ارقى نظرة عقلانية عرفها جيله ، قد امتدح مرة ترابا مسح عن شاهدة نصبت على قبر قديس بالكلمات التالية :

« ايها المطهر الالهي ، المتفوق على وصفات جميع الاطباء ، والمطهر للمعدة كمشبة السقامونيا Scammony والغاسل لجميع اللطخات عن ضميرنا ! » ولم يكن موت يسوع في نظر هذا الاسقف اكثر من جريمة ملأت قلبه سخطاً وغضباً ، بينما على العكس من هذا ، كانت قيامة يسوع التي كانت ترفرف غامضة مبهمة امام ناظريه ، اذ انه شعر في اعمق اعماقه بانها مهارة جسمانية رياضية طبعت المسيح بطابع الساحر الاعظم ، وبذلك جعلت منه المخلص الحقيقي بصورة مشروعة وقانونية . كما وانـــه لم يكن لديه اقل مفهوم صوفي عن قصة الآلام . (آلام المسيح - المترجم) ولقد قررت في روسيا استنتاجات « سنودس المئة اصحاح » لعام ١٥٥١ نظاماً للايمان مغرقاً في بدائيته . فكانت حلاقة الذقن ، وتناول الصليب باليد بشكل خاطىء يمثلان خطيئتين مميتتـــين - اذ انها اجتراء على الارواح . وقد ادى « سنودس عدو المسيح » لعام ١٦٦٧ الى الانشقاق الواسع الذي حدث في صفوف حركة راسكول Raskol ، اذ انـــه تقرر منذ ذلك التاريخ فصاعداً ان ترسم اشارة الصليب بثلاثة اصابع بدلاً من اصبعين ، وأن يلفظ اسم يسوع بـ « Yissus » بدلا من « Issus » - حيث بذلك قد تفقد قوة هذا السحر وسيطرته على الارواح في نظر المؤمن المتزمت . ولكن اثر الخوف

هذا ، ليس هو الاثر الوحيد ، وليس حتى الاشد سيطرة . ولكن ما هو السبب في ان الحقبة الميروفنجية لا تظهر اقل اثراً من تلك الباطنية المتأججة المتوهجة ، ومن الحنين الى الغوص في تلك الميتافيزيقا التي تخضب زمان ـ البذر المجوسي ، زمان الرؤى بالف لون ولون ، وتلون الحقبة الشديدة التماثل وهذه ، حقبة السنودس المقدس (١٧٢١ – ١٩١٧) في روسيا ؟ وما هو السبب الذي دفع ، منذ عصر بطرس الاكبر فما بعده ، بكل ملل ـ الشهيد ، ملل واسكولنيكي Raskolniki الى نذر العفة والفقر والحج وتشويه ـ الذات والنسك باشد اشكالها رعباً وهولاً ، ودفع في القرن السابع عشر بالآلاف لأن يلقوا خلال نوبات من جنون ديني ، بانفسهم وبالجملة في النار اللاهبة ؟ وعقائد تشلستي Chlysti ، بما لهذه من « مسحاء روس » (وهناك سبعة مسحاء معدودون منهم حتى الآن) ، والدوخوبوريون Dukhobors بكتابهم عن الحيـــاة Book of life والذي يستعملونه بوصفه كتابهم المقدس ويزعمون بانه يحتوي على مزامير نقلت شفوياً عن يسوع ، والسكوبتسي Skoptsi بقرائنهم للتشويه المرعب ـ وهذه الواحدة منها وجميعها ظواهر لشيء ما لا يستطيع المرء دونه ان يفهم او يدرك تولستوي والعدمية والثورات السياسية ـ وما هو السبب الذي يجعل الحقبة الفرنكية اذا ما قورنت بهذه تبدو بليدة غبية ضحلة على هـذا الشكل ؟ هل يكمن السر في كون الآراميين والروس هم وحدهم الذين يملكون عبقرية دينية ؟ واذا كان هذا هو الواقع ، فما هو الذي يجب ان نترقبـه من الـ ـ روسيا . التي يجب ان تأتي مستقبلاً ، ونترقبه الآن (وفي القرون الحاسمة بالذات) وبعد ان دمرت عقبة الارثوذكسية العلمانية ؟

ان في الاديان البدائية شيئاً ما شريد لا موطن له او بلد ، انـــه شيء ما كالرياح والغيوم . فنفوس حشد الاقوام — الاصلية قد تكثفت داخل كيان واحد ، ولهذا فان « الـ ـ اين » — التي هي اي مكان — هي عرضيـــة وتبقى تصادفية ، واعني بهذه « الـ اين » « أين » انظمة ربط الشعور الواعي الناشيء من الخوف والمدافعة ، اللذين ينتشران فوقها . ولا يهم فيما يتعلق بالمغزى الباطني لهذه الاديان ، أاستقرت هذه ام تابعت تجوالها ، اتبدلت ام لم تتبدل .

وتقوم روابط التربة العميقة ووشائجها المتينـة بفصل الحضارات الراقية عن حياة هـذا النظام (الآنف الوصف ـ المترجم) . وهنا يكمن صقع ـ ام وراء كل اشكال ـ التعبير ، وكما يتوجب تماماً على الدولة ، وعلى المعبـــد والاهرام والكاتدرائيـــة ، ان تنجز تاريخها هناك (في البلد ـ المترجم) حيث ولدت فكرتها ، كذلك فان الدين العظيم لكل ربيـع حضـــارة مشدود بكل جذور كيانه الى الارض التي نشأت فوقها صورته ـ للعالم . ويجوز ان تحمل الممارسات الدينية والعقائد الى اراض نائية واسعة ، لكن تطورها الباطني يبقى مشدوداً الى مكان ولادتها . وانها لمجرد استحالة كليـــة ان نجد اقل اثر لتطور مذاهب ـ المدينة الكلاسيكية في بلاد الغال ، او اتفه دليل على الانطلاق الدغماتي للمسيحية الفاوستية في اميركا . فكل شيء ، مهما كان لونه او نوعه ، يفصل ذاتـــه عن الارض ، يصبح متخشباً وصلباً .

والدين يبدأ ، في كل حال ، كأنه صرخـة عظمى . ويتحول فجأة ارتباك

الرعب البليد والدفاع الى يقظة باطنية نقية تزدهر من التربة الأم كأنها النبات تماماً، وترى وتدرك عمق عالم ـ الضوء بنظرة واحدة. وحينئذ يوجـــد فحص الضمائر والافكار بوصفه احساساً حيـاً، يشعر بالتبدل ويرحب به بوصفه ولادة باطنية جديدة. وفي هذه اللحظة بالذات ـ وليس قبلها ولا بعدها (وعلى الاقل بالقوة العميقة ذاتها) اطلاقا يعترض الدين الارواح المختارة في زمنها كأنه النور الباهر الاعظم، فيذيب كل الخوف في المحبة السعيدة ويترك لما هو غير منظور أن يتبدى فجأة ودون سابق انذار، في اشعاع ميتافيزيقي.

وهنا تنجز كل حضارة رمزها الاولي. ولكل منها نوعه الخاص من المحبة ـ وهذا قد نسميه سماوياً او ميتافيزيقياً كما نرغب او نختار ـ وبواسطة هذه المحبة تتأمل الحضارة وتدرك وتدخل الى ذاتها لاهوتها، او ما لها من الرهبة، والتي تبقى بمنأى عن ادراك اية حضارة اخرى، او تبقى لا معنى لها في نظر الحضارات الاخرى. وأكان العالم قد وضع تحت كهف مقبب من ضوء، كما كانت حاله بالنسبة ليسوع ورفاقه، ام كان قطعة صغيرة متلاشية من لا نهائية اترعت بالنجوم كما احس به جيوردانو برونو، او ما اذا كان الاورفيون يدخلون الاله المتجسد داخل ذواتهم، او ما اذا كانت روح بلوتنيوس المحلقة في اجواء الانتشاء الروحي، تنصهر وتذوب في وحدانيـــة وروح الله، او القديس برنارد الذي يصبح وباتحاده الصوفي، متحداً وعملية الألوهيـة ـ كل هذه الامور هي الحاح عميق لنفس يسيطر عليها دائماً الرمز الاولي للحضارة الخاصة بها فقط، وليس لأيــة حضارة اخرى.

وفي عصر السلالة المصرية الخامسة (٢٦٨٠ ـ ٢٥٤٠)، هذا العصر الذي تبع بناة الاهرام العظام، ذوي مذهب عقاب ـ هوروس Horus-falcon الذي كانت روحه Ka تقيم في المليك الحاكم. وتراجعت الى المؤخرة المذاهب المحلية القديمة، وحتى الدين العميق، دين توت Thot لهرموبولس تراجع بدوره الى الصفوف الخلفية. وهنا تجلى دين ـ الشمس، دين رع. واخذ كل ملك يشيد، الى الغرب

من قصره وبالقرب من معبد ـ قبره ، معبداً لرع ، وكان هذا المعبد الاخير رمزاً للطبيعة العظمى الخالدة ، اما الاول فكان رمزاً لحياة ذات اتجاه من الولادة حتى قاعـــة النواويس . فالزمان والفراغ ، والكيان الواعي ، والمصير والسببية المقدسة ، قد وضع كل واحد من هذه ، وجهاً لوجه ونقيضه داخل هذا الابداع التوأمي الجبار ، وعلى حال لا توجد لها مثيل في اية هندسة معمارية اخرى في العالم . والى كلا المعبدين تفضي درب مسقوفة ، وترافق الدرب المفضية الى معبد نقوش وتصاويس تشير الى سلطان اله – الشمس على عالمي النبات والحيوان ، والى تبدلات الفصول . وليس هناك من صورة ، اله ، او معبد ، بل هناك فقط مذبح من المرمر يزين الشرفة الجبارة المتسامية بشموخ فوق الغبراء ، والتي ينطلق فجراً الفرعون من الظلام اليها ليرحب بالاله العظيم البازغ من الشرق .

ان هذه الباطنية الفنية تنطلق دائماً من ريف لا تقوم فيــه مدن او بلدات ، تنطلق من قرى وزرائب ومعابد وادبرة متوحدة وصوامع . فهنا تتشكل طائفة ذات دراية عالية ، طائفة المصطفين روحيــاً ، والتي انسلخت باطنياً بواسطة عالم كامل ، عن تياوات – كيان عظيم من بطولي وفروسي . وهنا تبدأ الطبقتان الاوليتان ، طبقة الكهنوت وطبقة النبلاء – ويبدأ التأمل داخل الكاتدرائية ، والافعال امام القلاع ، النساك ، والمنشدين Minne ، النشوة الروحية ، والعادة الرفيعة الاصل – كل هذه تبدأ تواريخها الخاصة انطلاقاً من هذه النقطة . ومع ان الخليفة كان ايضاً اميراً او حاكماً زمنياً للمؤمنين ، ومع ان الفرعون كان يقدم القرابين في كلا المعبدين ، ومع ان الملك الجرماني قد بنى مقبرة عائلته تحت الكاتدرائية ، مع كل هذا فانه لا يوجد اي شيء يستطيع ان يقضي على التعارض السحيق العميق القائم بين الزمان والفراغ ، والذي ينعكس في التباين بين هذين النظامين الاجتماعيـــين . فالتاريخ الديني والتاريخ السياسي ، تاريخ الحقائق وتاريخ الوقائع ، يقف كل واحد منهما من الآخر موقفاً مناقضاً لموقف الآخر ، موقفاً لا يمكن ابداً التوفيق بينه وبين نقيضه . ان التناقض يبدأ بالكاتدرائيــة

والقلعة ، ويتفشى وينشر ذاته داخل المدن المتزايـدة دائماً اتساعا ونموا ، بوصفه تناقضاً يقوم بين الحكمة والعمل Business ، وينتهي في آخر مراحل الطاقـة التاريخية كصراع بين العقل والسلطة .

ولكن كلتا الحركتين هاتين تحدثان على ذرى الانسانية . فالفلاحون يبقون تحتهما كلية ، دون ما تاريخ ، وفهمهم للسياسة قليـــل كإدراكهم للعقائد . وتتطور من الدين القوي الفتي لمجموعات القديسين ، فلسفة كلامية وصوفية وذلك داخل البلدات المبكرة زمناً ، وتنشأ حركات اصلاح ديني وفلسفة ، وتعلم دنيوي في ضجيج الشوارع والاحياء المتزايد صخباً ، وتتبدى عصور التنوير والعصور اللادينية في المدن العالمية العظمى والمتأخرة زمنا . اما اعتقاد الفلاح ، خارج هذه ، فهو خالد ، ويبقى دائما الاعتقاد ذاتـــه . فالفلاح المصري لم يفقه شيئا عن هذا الـ ـ رع . فهو قد سمع بهذا الاسم ، لكنه بيننا كان يمر فصل عظيم من تاريخ دين منطلقا فوق رأسه من المدن ، تابع عبادة آلهة ـ الحيوان لثاينيت Thinite حتى استعادة هذه الآلهة تفوقها بواسطة العائلة السادسة والعشرين ودينها الفلاحي . اما الفلاح الايطالي فلقد كان يصلي في زمن اوغسطس ، تماما كما كان يصلي ما قبـل هوميروس ، وكما يصلي هذا اليوم . فلقد تسربت الى الفلاح من المدن اسمـاء وعقائـــد اديان كبرى ، وازدهرت ثم ماتت بدورها ، لكنها لم تبدل من معتقدات الفلاح سوى جرس كلماته ونطوقها ــ اذ ان معانيها بقيت وتبقى المعاني ذاتها . فالفلاح الفرنسي لا يزال حتى هذا اليوم يعيش في الحقبـة المورونجية . ففريا Freya او مريم ، والكهنة الوثنيون او رهبان الدومنيكان ، وروما ـ او جنيف ـ لا تلامس اية منها الب الباطني الأعمق لمعتقداته .

ولكن حتى في المدن ترتبط الطبقة الواحدة تاريخيا ونسبياً بالطبقة الاخرى . ففوق الدين البدائي للريف يوجد دين شعبي آخر ألا وهو دين الاقوام الصغيرة ابناء الطبقة السفلى في المدن وابنـاء الاقاليم . وكلما ارتفعت الحضارة في مدارج الرقي والسمو ، تزداد ضيقا دائرة اولئك الذين يملكون الحقائق النهائية لعصرهم

وبكونها لا بوصفها مجرد اسم او صوت او جرس ، بل بوصفها حقيقـــة قائمة ـ وذلك كما حدث في المملكة الوسيطة والحقبات من بوهمية وما قبل السقراطيين والكونفوشسيين والباروكيين . فكم كان عدد اولئك الذين عاصروا سقراط واوغسطين وباسكال وفهموهم . ففي الدين خلافاً لغـــيره ، يرتفع الاهرام البشري بتدبيب متزايد حتى يكتمل في نهاية الحضارة ـ حيث يندثر ويتهاوى قطعة بعد قطعة .

وبدأ ، قرابة عام ٣٠٠٠ ، دينان عظيمان يشقان مجريـين لحياتيهما في مصر وبابل . وشهدت حقبة الاصلاح « الديني » في مصر وفي نهايـة المملكة القديمة ، ديناً فلكياً موحداً ارسيت دعائمه بثبات بوصفه ديناً للكهنة والمثقفين من الناس . وهكذا اصبحت جميع الآلهة ، الذكر منها والانثى ـ والتي استمر الفلاحون والبسطاء من الناس في عبادتها وفق المعنى القديم ـ تجسيداً او خدماً لرع الواحد الاحد . وقد جرى التوفيق حتى بين الدين الخاص لهرموبوليس ، بما لهذا الدين من كوسمولوجيا ، وبين النظام الاعظم (دين رع ـ المتوجم) ، وقـــد اسفرت مفاوضات لاهوتية ، جرت آنذاك ، عن اقامة وئام حتى بين بتا Ptah بمفيس وبين الدوغما بجعله المبدأ ـ الاولي التجريدي للخليقة . وقد اكدت روح المدنية سلطانها على الريف كما حدث تماماً في زمني يوستنيان وشارل الخامس ، وهكذا بدت القوة التشكيلية للربيـع الحضاري نهايتها ، فالدوغما قد اكتملت جوهراً ، وما تلاها من علاج لها وبحث بواسطة العمليات العقلانية ، هدم من تركيبها اكثر مما حسن فيه . فالفلسفة بدأت . والمملكة الوسيطة كانت فيما يتعلق بالدوغما ، كالحقبة الباروكية ، لا اهمية لها او وزن . وابتـداء من عام ١٥٠٠ بدأت ثلاثة تواريخ دينية جديدة ـ اولاً التاريخ الفيـــدي في البنجاب ، ومن ثم التاريخ الصيني المبكر في هوانغ ـ هو ، واخـــيراً الكلاسيكي شمالي بحر ايجيه . وتقابـــل الوضوح ذاتـه الذي تعرض به علينا صورة الانسان الكلاسيكي العـالم ورمزه الاولي لجسم وحدتـــه ، صعوبـة حتى في تخمـين تفاصيل

الدين الكلاسيكي العظيم المبكر . « والفضل في هذا الخواء ، او الفراغ ، يعود الى الاشعار الهوميرية ، التي تضع العراقيل ، بدلاً من ان تساعدنا ، في طريقنا الى ادراكه . وفكرة الالوهة الجديدة التي كانت بمثابـــة مثل اعلى خاص لهذه الحضارة ، هي الجسد الانساني ــ المشكل في الضوء ، البطل بوصفه وسيطاً بين الانسان والاله ــ والى هذا الحد ، تشهد على كل حال الالياذة . ومن الجائز أن يكون هذا الجسد ضوءاً بدل شكله ابولو ، او نثره ديونسيس الى الرياح ، لكنه كان ، في كل حال ، الشكل الاساسي للكينونة . فوحدة الجسد بوصفها مثلاً اعلى للممتد ، والكون بوصفه مجموعاً لوحدة الاجسام هذه ، و « الكينونـــة » و « الواحد » بوصفه الممتد بذاته ، « واللوغوس » بوصفها نظاماً ناشئاً منها ، ــ كل هذه تراءت امام عيون الكهنة ، وتبدت بعظمة للعيان ، وتمتلك كل ما يزخر به دين جديد من طاقة وزخم .

ولكن الشعر الهوميري هو شعر أرستقراطي مجرد . فمن العالمـــين ــ عالم النبلاء وعالم الكهنة ، عالم التابو وعالم الطوطم ، عالم البطولة وعالم القداسة ــ يعيش عالم واحد في شعر هوميروس . وهذا العالم ليس جاهلاً فقط بالعالم الآخر ، بل انما يحتقره بالفعل ايضاً فكما هي الحال في الإدا Edda ، كذلك عنـــد هوميروس اذ أن معظم الانتصارات واروعها التي قـد يحققها الانسان الخالد ، يتمثل في أن يعرف طريقه الى شرعة طبقة النبلاء . وقد اعتبر مفكرو الحقبـة الكلاسيكية « الباروكية » ، ابتداء من كزونوفانس حتى افلاطون ، مشاهد حياة ــ الاله تلك ، مشاهد وقحة سليطة تافهة ، وكانوا على صواب في هـــذا ، فاحساس هؤلاء كان تماماً كاحساس فلسفة الغرب ولاهوته فيما بعد ، بأساطير ــ البطل الالمانية ، وحتى بغوتفريد فون شتراسبورغ وفلفرام وفالتر . واذا كانت الملاحم الهوميرية لم تتلاش وتختف كما اختفت اناشيد ــ البطل التي جمعها شارلمان ، فان السبب في هذا يعود الى انـــه لم يكن هناك كهنوت كلاسيكي كامل التشكيل ، وقد نشأ عن هذا ان الآداب الفروسية العقلانية ، وليست الآداب

الدينية ، هي التي سيطرت على المدن الكلاسيكية عندما نشأت هـذه المدن وعرفت طريقها الى الوجود . زد على ذلك ان العقائد الاصلية لهذا الدين ، التي معارضة منها لهوميروس ، ربطت ذاتها باسم اقدم لأورفيوس (ومن الجائز باسم حتى اقدم من هذا) ، لم تدون ابداً او تكتب .

ومع ذلك فانها وجدت . ومن يعرف ماذا وكم مخبأ من آثار ، بين شخصيتي كالخاس Calchas وتايريسياس Tiresias ؟ فلا شك أن جيشانات جبارة يجب ان تكون قد حدثت في مطلع هـذه الحضارة ، كما حدث في مطالع الحضارات الاخرى ـ جيشان امتد من بحر ايجـيه حتى بلغ اتروريا ـ لكن الالياذة تظهر فقط القليل من علاماته ، والتي توازي ما تظهره اناشيد النيبلونغ وورولاند من باطنية يواكيم فون فلوريس والقديس فرنسيس والصليبيين وتصوفهم ، او تعادل ما تريه هذه من النار الباطنية لتلك Dies Irae [1] لتوماس فون سيلانو ، والتي لربما اثارت الطرب في بلاط الحب في القرن الثالث عشر . ولا شك انه يجب ان يكون قد وجدت شخصيات عظمى كي تعطي النظرة الجديدة الى العالم شكلاً صوفيا ميتافيزيقيا ، لكننا لا نعرف اي شيء عن هؤلاء ، ولم يصل من هـذه النظرة الى اغاني قاعات الفرسان ، الا جانبها المـبن المشرق والمرح الطروب . فهل كانت حرب « طروادة » خصاماً او نزاعاً ، ام كانت حرباً صليبية ايضا ؟ وما هو معنى هيلين ؟ فحتى سقوط القدس قد نظر اليه نظرة دنيوية ، كما ونظرة روحية ايضا .

فديونسيس وديميتر ، بوصفهما الهي الكهنة ، هما خاملا الذكر ، ولا يصادفان تكريماً او تمجيداً في شعر هوميروس الخاص بالنبلاء . ولكن حتى لدى هسيود ،

---

(١) Dies Irae ترنيمة دينية باللاتينية تتحدث عن يوم الدينونة .
ـ المترجم ـ

راعي الماشية في آسكرا ، والباحث المندفع والملهم بمعتقدات قومه ، فاننا لا نجد فكر الزمن المبكر العظيم على صورة انقى بما نجدها عليـــه لدى يعقوب بوهمة Jacob Böhme الاسكافي . وهذه هي الصعوبة الثانية . فالاديان العظمى المبكرة كانت هي ايضاً ملكا خاصاً بطبقة ، وكانت غير قابـــلة للفهم ، ولا بمتناول يد العامة من الناس ، كما وان صوفية ابكر العصور القوطية كانت بدورها محصورة بدوائر صغيرة من المختارين ، وقد اغلقت عليها اللاتينية بمفتاحها ، وزرعت صعوبة مفاهيمها واشخاصها الطريق الى فهمها بالسدود ، ولم يكن النبلاء ولا الفلاحون يملكون فكرة واضحة عن وجودها . كما والتنقيب ، وهو هام لذلك

ولذلك فالتنقيب ، على ما له من اهمية بالنسبة لمعتقدات الريف الكلاسيكية ، يستطيع ان ينبئنا عن الدين الكلاسيكي المبكر بالقليل من الانباء التي تستطيع ان تقدمها الينا كنيسة قريـــة عن آبلارد Abelard او بونافنتـورا Bonaventura .

ولكن آشيل وبندار كانا ، على كل حال ، خاضعين لسحر تقليـــد كهنوتي عظيم ، وقد عرف التاريخ ، قبل هذين ، الفيثاغوريين الذين جعلوا مذهب ديمتير مركزاً لدائرتهم (وبهذا اشاروا الى المكان الذي يجب ان يبحث فيه عن لب تلك الميتالرجيا) ، وقبل هؤلاء ايضاً كانت هناك الروايات الدينية الاليوسينية Eleusinian ، والاصلاح الديني الاورفي في القرن السابع ، واخـــيراً كانت هناك هنامات من آثار فيريسيدس Pherecydes وابيمينيديس Epimenides ، اللذين لم يكونا اول بـل آخر دغماتيي اللاهوت القديم حقاً . كما وان الفكرة القائلة بان عدم التقوى هي خطيئة متوارثـــة يتناقلها الآباء عن الاجداد فالى الاحفاد ، كانت فكرة معروفة لدى هسيود وصولون ، وكانت ايضا عقيـدة (ابولونية ايضا) لهبريس Hybris . ومهما كان فلقـد وضع افلاطون ، بوصفه مناهضاً اورفياً لمفهوم هوميريس للحياة ، عقائد جد قديمة عن الجحيم وعن دينونة الموتى وذلك في كتابه فيد Phaedo ونحن نعرف الصيغة الهائلة للأورفية ، والتي

يجب ان تكون قد نشأت في عام ١١٠٠ على ابعد حد ، ونعرف لا الغوامض التي تجيب على نعم الصراع ، بوصفها احتجاجاً للشعور الواعي ضد الكينونة . وهنا لم يعد الانسان يشعر بنفسه على انها شيء من توالد ، او تربية وتوليد ، ومن قوة وحركة ، بل انه يعرف نفسه وهو مرعوب بما يعرفه . وهنا يبدأ التنسك الكلاسيكي بما يعرفه . وهنا يولد النساك الكلاسيكيون الذين يحاولون ، باشد الطقوس صرامة وباقسى اساليب التكفير والاستغفار ، وحتى بواسطة الانتحار الاختياري ، ان يحصلوا على الخلاص من كينونة ـ الجسد اليوقليدية . والحق انه لخطأ بالغ ان يفترض المرء ان الناس ما قبـــل سقراط قد هاجموا هوميروس مدفوعين بوجهة نظر عصر التنوير . فهم قـد قاموا بهذا الامر بوصفهم نساكاً . فهؤلاء « المعاصرون » لديكارت ولايبنتز قد نشأوا وفق اشد تقاليد الاورفية القديمة والعظيمة ، قسوة وصرامة ، هذه التقاليد التي حوفظ عليها بدقة واخلاص في مدارس ـ تأمل تشابه الاديرة تقريباً ـ وهذه اماكن قديمـــة ، شهيرة ومقدسة ـ كما خزنت الفلسفة الكلاسيـة الغوطية في جامعات عقلانية مظهراً وجوهراً ، ألا وهي الجامعات الباروكية . فمن تضحية امبدوكليس بذاتـــه ينطلق الخط بصورة مستقيمة الى الامام حتى يبلغ مبدأ الانتحار الذي دانت به ومارسته الرواقية الرومانية ، ويعود هذا الخط الى الوراء حتى « اورفيوس » .

وعلى كل حال ، فانه ينبعث من هذه الآثار الاخيرة التي لم تطمس ، مخطط جلي واضح لتاريخ الدين الكلاسيكي المبكر . وكما ان كل الباطنية الغوطية قد وجهت ذاتها نحو مريم ، ملكة السماء ، والعذراء والأم ، كذلك نشأت ايضاً في تلك اللحظة من لحظات العالم الكلاسيكي اكاليل من صور وشخصيات واساطير حول ديميتر (١) الام الحامـــل ، وحول جيا Gaia وبيرسفون Persephone وايضا

(١) ديميتر الهة الخصب عند اليونان .

ـ المترجم ـ

حول ديونيسوس الوالد ، وحول الآلهة ما تحت الارض وما في داخلها ، ونشأت مذاهب عبادة العضو التناسلي للذكر ، والمهرجانات وغوامض المسرحيات عن الولادة والموت . كل هذه الامور كانت متميزة بكلاسيكيتها ، وقد ادركت على ضوء مفهوم الجسمانية الحاضرة . ولقد مجد الدين الابولوني الجسد ، اما الدين الارفي فنبذه ، كما وأن دين ديميتر كان يحتفـل بلحظات الاخصاب والولادة ، حيث يكتسب الجسد خلالها كينونة . ولقد كانت توجـد صوفية هناك تمجد بوقار سر الحياة ، بالعقيدة والرمز وبالتمثيل الصامت ، ولكن كان يوجد الى جانبها تماماً تهتك وخلاعة ايضاً ، وذلك لأن تبذير طاقات الجسد هو على شبه جد قريب وعميق من التنسك ، كالشبه القائم بين الدعارة « المقدسة » والعفـة — فكلتاهما ، وكلها هي نفي للزمان . انـه عكس « الـ قف ! » الأبولونية التي تكبح في مطلع « الهبريس » فالانفصال لم يحافظ عليه ، بل القي وطوح بـه » وذاك الذي خبر هذه الامور داخل نفسه « قد تحول من انسان فان « الى اله » . ويجب ان تكون تلك الايام قد عرفت قديسين وعرافين عظاماً سموا على ارتفاع عظيم فوق شخصيتي هرقليط وامبيدوكليس ، كما سما هذا الاخير فوق المعلمين المتجولين من معلمي الكلبية والرواقية — واشباه من هذا الطراز لا تحدث دون ان تحمل اسماً او شخصية . وبينما كانت اغاني آشيل واديسيوس Odysseus تلفظ آخر نغماتها في كل مكان ، كانت تنتصب على قدميها ، وفي اماكن مذهبية شهيرة وقديمة ، عقيدة عظمى وصارمة ، انها صوفية وفلسفة كلامية ذات مناهج تربوية متطورة وتقليد سري شفوي كما هو في الهند . لكن كل هذا قد غيبه الثرى وابتلعته الغبراء ، والآثار التي تعود الى ازمان جاءت بعد ازمان هذه ، بالكاد تكفي للبرهنة على ان هذه قد وجدت في احد الايام .

ونحن اذا ما وضعنا الشعر الفروسي ومذاهب — الأقوام جانباً ، عندئـذ نستطيع ان نقرر ، حتى الآن ، شيئاً ما اكثر من هـذا « الـ » — دين الكلاسيكي . ولكن بعملنا هذا يتوجب علينا ان نتجنب شركاً ثالثاً — انـه

التعارض بين الدين اليوناني وبين الدين الروماني . وذلك لانه لم يكن ، بالواقع ، وجود لمثل هذا التعارض .

فروما هي واحدة من دول ـ مدينة لا تعد او تحصى ، وقد نشأت خلال حقبة الاستعمار العظمى . وبناها الاتروسكان . وهي ، من وجهة النظر الدينية ، قد خلقت من جديد على ايدي السلالة المالكة الاتروسكانية في القرن السادس ، ومن الجائز فعلاً ان تكون مجموعة الآلهة الكابتولية ، جوبتر وجونو ومينرفا ـ التي حلت في ذاك العصر محل الثالوث القديم ، جوبتر ومارس وكويرنوس Quirinus ـ مربوطة ، على شكل ما ، بعائلة مذهب التاركوين ، حيث ، دون شك ، تبدو ، في هذا الموضوع ، مينرفا بوصفها الهة المدينة ، نسخة طبق الاصل عن بولياس Polias الهة اثينــــا . ومن الجائز ان يقاون المرء فقط بين مذاهب هذه المدينة الوحيدة وبين مذاهب تلك المدن الانفرادية الناطقة باللغة اليونانيــة والبالغة المستوى ذاته من النضوج ، ولنفرض مثـــلاً سبرطه او ثيبس Thebes اللتين لم تكونا اطلاقاً اكثر الواناً . فالقليل الذي يكشف عن نفسه في هاتـين الاخيرتين على انه هيليني بصورة عامة ، سيبرهن ايضاً على انـه ايطالي بشكل عام . اما الزعم القائل بان ما يفرق بين الدين « الروماني » ودين دول ـ المدينة اليونانية ، هو عدم وجود الاسطورة في الدين الاول ـ فعلى هذا الزعم اود سائلاً ما هي القاعدة التي ترتكز اليها معرفتنا بهذا الموضوع ؟ فنحن يجب ألا نكون نعرف باي امر اطلاقاً عن اساطير ـ الالهة العظمى في ربيـع الحضارة ، لو اننا كنا نملك فقط (تقويم) روزنامـــة الاحتفالات ، ومذاهب دول ـ المدينة اليونانية لنقابل هذه على تلك ، كما وانـه يتوجب علينا الا نعرف أي شيء عن ورع المسيح وتقواه من خلال اجراءات مجمع افسس وقراراته ، او اي شيء عن القديس فرنسيس ، من خلال دستور كنيسة من كنائس الاصلاح الديني . فنلاوس Menelaues وهيلـــين لم يكونا في نظر مذهب الدولة اللاكونية Laconian اكثر من الهي شجرة . والاسطورة الكلاسيكية تنطلق من حقبة

لم يكن خلالها اي وجود لبوليس Poleis ومهرجاناتها ، ولم يكن حينذاك وجود لا لروما فقط بل لاثينا ايضاً . وهذه الاسطورة لا تمت بأية صلة اطلاقاً لوجانب المدن الدينية وشعائرها وآرائها – والتي كانت على مستوى رفيع من العقلانية . والحق ان حتى تماس الاسطورة والمذهب في الحضارة الكلاسيكية هو اقل من اية حضارة اخرى . زد على ذلك ان الاسطورة هي ليست ، في اية حال ، انجازاً من انجازات ميدان – الحضارة الميلينية ككل – فهذه ليست « يونانية » – بل انما ولدت (كما ولدت قصص طفولة المسيح واسطورة الكأس) داخل هـــذه المجموعة وتلك ، وولدت محلياً تماماً ، وتحت ضغط اضطرابات باطنية عميقة . فلقد نشأت ، مثلا ، فكرة الاوليمبوس في تيساليا ، ولهذا السبب انتشرت ، بوصفها ملكاً خاصاً بجميع الناس المثقفين ، فبلغت قبرص واتروريا وهكذا اكتنفت بالبداهة روما . والتصوير الزيتي الاتروسكاني يفترض انها معروفة لدى الجميع ، ولذلك يجب ايضا على البلاط التاركويني ان يكون قد اطلع عليها والفها . ونحن باستطاعتنا ان نلصق اية تضامين نشاء ونرغب (ومها قد تعنيه هذه) « بالاعتقاد » بهذه الاسطورة ، فالمهم ان هذه التضامين ستكون صحيحة بالنسبة لرومان حقبة الملوك ، صحتها بالنسبة لسكان Tegea او Corcyra .

ولا يعود سبب اختلاف صور الميثالوجيا اليونانية والرومانية التي استخرجها البحث الحديث عما اوردته ، الى الوقائع ، بل انما يعود الى المناهج . ففيما يتعلق بروما(مومسن) اتخذت روزنامة المهرجانات ومذاهب الدولة، نقطتي انطلاق ، اما بالنسبة لليونان فجعل من الآداب الشعرية منطلقاً . ولتطبق المنهاج « اللاتيني » الذي افضى الى صورة فيسوفا Wissowa للمدن اليونانية ، وعندئذ ستكون النتيجة صورة مماثـــلة تماماً ، كما هو الحال مثلاً في كتاب « الاعياد اليونانية » لنلسون .

وعندما نأخذ هذه الامور بعين الاعتبار ، فعندئذ يرى الدين الكلاسيكي ككل يمتلك وحدة باطنية . فاساطير الآلهة العظمى العائدة الى القرن الحادي

عشر ، والتي لا تزالُ مبللة بندى الربيع ، وتذكرنا بقداستها الفاجعة بالجنانية ، وبمصرع بالدر وفرنسيس ، هي انقى ما للتأمل من جوهر ، واصفى صورة للعالم تعرض على العين الباطنية ، فلقد ولدت بعد يقظة مشتركة لمجموعة من نفوس مختارة من عالم الفروسية . لكن اديان — المدينة التي جاءت بعد هذه بزمن طويل ، هي تقنية متناً وحاشية ، انها عبادة شكلية رسمية ، وهي ، على هذه الحال ، تمثل جانباً واحداً (وجانبا مختلفاً) من الورع . وهذه الأديان بعيـــدة عن الاسطورة العظمى بعدها عن معتقـــد — القوم Volk . وهي لا تهتم بالميتـافيزيقا ولا بالاخلاق ، بل تركز اهتمامها على اقام اعمال طقوسية . واخيراً ، فكثيرا ما تنشأ اختيار المدن المتعددة لمذاهبها ، لا عن نظرة واحدة وحيـــدة الى العالم ، كالاسطورة ، بـــل عن مذاهب — سلف وعائلات من بيوتات كبيرة التي جعلت (كما حدث تاما في الحقبـــة القوطية) من اشخاصها المقدسين آلهة اوصياء على المدينة ، واحتفظت لنفسها ، في الوقت ذاته ، بحقوق الاحتفال وعبـادة هذه الآلهة . ففي روما مثـــلا كانت الـ لوبركاليا Lupercalia التي تقام تكريما لإله — الحقل فاؤنوس ، امتيازا خص بـ الكوينكتي Quinctii والفابي Fabii .

ويتوجب علينا ان نعالج الدين الصيني بحذر وعناية بالغين ، وتقع الحقبـة « القوطية » العظمى لهذا الدين في الفترة الممتدة من عام ١٣٠٠ الى عام ١١٠٠ ، حيث تغطي هذه الحقبة نشوء سلالة « شو » Chou المالكة . ويبـدو لنا امام العمق الاصطناعي والحماس المتحذلق للمفكرين الصينيـين من طراز كونفشيوس ولاوتسي — والذين ولدوا جميعاً في حقبـة النظام الغابر لعالم — دولتهم — من الخطر بمكان ان نحاول تقرير اي شيء اطلاقا فيما يتعلق بالصوفية الراقيـــة وبالاساطير العظمى التي عرفها مطلع هذا الدين . وبالرغم من هـذا فانه يجب ان تكون قد وجدت ، في احد الايام ، صوفية كتلك ، واساطير كهذه . ولكننا لن نتعلم اي شيء عنها من هذه الفلسفات المغرقة في العقلانيـــة حتى تجاوزتها ،

فلسفات المدن العظمى — شأننا معها كشأننا والقليل الذي يستطيع ان يقدمه الينا هوميروس عن الدين الكلاسيكي الموازي لهذا ، ولكن السبب يختلف هنا عن السبب الكامن وراء قصور هوميروس . فما الذي كنا سنعرفه عن الورع القوطي لو ان جميع المؤلفات الخاصة به قد مرت تحت قلم رقابـــة المطهرين Puritans ، او اقلام رقباء كلوك وروسو وفولف ! ومع هذا فاننا نعالج الحالة الكونفوشية للباطنية الصينية بوصفها بداية لها — وذلك اذا لم يشتط بنا المزار الى ابعد فنصف المذهب التوفيقي لأزمان الهان بانه هو « دين الصين » .

اننا نعرف ، في هذه الايام ، وخلافا للزعم المألوف بانه كانت توجد كهانة صينية قديمة وجبارة . ونحن نعرف ، بانـه هناك ، في نصوص ملك شو Shu ، آثاراً لاساطير ابطال غابرين وآلهة قديمة ، قد نقحت تنقيحاً عقلانيـــاً ، وبهذا استطاعت ان تبقى ، ونعرف بالمثل ، بان الهو — لي Hou - Li و Ngi - Li وملك شي Shi ، قد تكشف عن كمية اكبر بكثير ، لو اننا عالجناها بقناعة المؤمن بان فيها شيئاً ما اعمق بكثير من مقدرة كونفوشيوس واضرابـــه على فهمـه . ونحن نسمع عن مذاهب الارواح تحت وفي بطن الارض ، ونعرف بمذاهب العضو التناسلي الذكر وذلك في ازمان تشو Chou ، ونسمع عن طقوس تهتك وخلاعة ، حيث كان يرافق خدمة الآلهة رقص جماهيري خليـع ، ونعرف بمسرحيات صامتة وحوارات تدور بين الاله والكاهنـة ، والتي من الجائز ان يكون قد نشأت منها « كما في اليونان » الدراما الصينية . ومن ثم نستحصـل اخيراً على بعض من لمحة عن السبب الذي جعل ، بالضرورة ، ما جاد بـــه النماء المفرط في خصبه من شخصيات آلهـــة واساطير صينية مبكرة زمناً تنسق في ميثالوجيا — لامبراطور . وذلك لأن ليس جميع اباطرة الاسطورة وحدهم بل ان معظم شخصيات السلالتين المالكتين ، هيا Hia وشانغ قبـل عام ١٤٠٠ م ايضا — بالرغم من كل التواريخ والاخبار التاريخية — ليسوا الا طبيعة تحولت الى

تاريخ . وتقع اصول عملية كهذه عميقا عميقا داخـــل امكانات كل حضارة شابة فتية . فعبادة السلف تسعى دائماً للسيطرة على جن – الطبيعة . وجميع الابطال الهوميريين ، ومينوس وثيسيوس Theseus ورومولوس هم آلهة اصبحوا ملوكا . وفي الهيلياند Heliand ، يكاد المسيح ذاته ان تصبح هـــذه حاله . فمريم هي ملكة السماء المتوجة .

انه لهو الاسلوب الاسمى (واســلوب لا شعوري تماماً) هو ذاك الذي يمكن الناس ذوي الاصل من تبجيل شيء ما – فما هو عظيم في نظرهم يجب ان يكون ذا اصل وعنصر ، وسلف كل العائلات يجب ان يكون سيداً جباراً . ان كهانة قوية لقادرة ان تلخص ميثالوجيا الزمان هذه ولقد نجحت الكهانــة الكلاسيكية في هذا الامر نجاحا جزئيــا ، لكن الصينية حققت فيه نجاحا كاملا – وتحقيقها هذا جاء متناسبا تماما واختفاء العنصر الكهنوتي . فالآلهة القديمة هي الآن اباطرة وامراء ووزراء واتباع ، واصبحت حتى الاحداث الطبيعيــة افعال حكام ، وغدت غارات الشعوب مقاصد اجتماعية . وليس هناك من شيء يمكن ان يلائم كونفشيوس افضل من هذا . فهنا توجد اسطورة باستطاعتها ان تمتص النزعات الاجتماعية الاخلاقية الى حد غير معين ، وكل ما تحتاج اليه هو ان تطمس او تشطب آثار اسطورة الطبيعة الاصلية .

فالارض والسماء كانتا نصفي الكون الاكبر ، ولا يتعارض اي نصف منهما والآخر ، وكل واحد منهما هو صورة – مرآة للآخر . وهذه الصورة لم تكن تحتوي على الثنائية المجوسية ولا على الوحدة الفاوستية للطاقة العاملة . والصيرورة تتجلى هنا من خلال عمل متبادل ومطلق لمبدأين ، الـ يانغ Yang والـ ين Yin اللذين كانا يفهمان على انهما دوريان متعاقبان اكثر من كونهما قطبين . وتوجد ، وفق هذه النظرية ، نفسان داخــــل الانسان ، الكوي Kwei التي تنطبق على الـ ين الارضية المظلمة الباردة والمنحلة مع الجسد ، والـ سن Sen التي هي ارقى من تلك ولامعة ودائمة . ولكن توجد خارج الانسان بالاضافة الى ذلك جمهرات

لا تعد ولا تحصى من نفوس من كلا النوعين . فيحافل من الارواح تملأ الهواء والماء والارض – فكل هــــذه مسكونة وحركتها الـ Kweis والـ Sens . وحياة الطبيعة والانسان قد صنعت فعلاً من حركة وحدات كهذه . والحكمة والارادة والطاقة والفضيلة تعتمـــد على صلة قربى هذه الوحدات . فالنسك والخلاعة ، واعراف Hiao الفروسية التي تستوجب النبيل ان يثأر لتجديف على سلفه حتى بعد مرور القرون من الاعوام ، وتأمره بألا يبقى حياً بعد الهزيمة ، والتعليل الاخلاقي لـ – Yen الذي نشأ ، حسب قرار العقلانية ، من المعرفة – كل هذه تنطلق من مفاهيم الطاقات والامكانات لـ – Kwei والـ – Sen .

وكل هذا قد حشد في الكلمة الاساسية « Tao » . والصراع بين الـ – Yang والـ Yin داخل الانسان هو Tao حياتـه ، وسداة امراب – الارواح ولحمتها خارج الانسـان ، هما Tao الطبيعة . والعالم يمتلك Tao نظراً لانـه يمتلك خفقاناً وايقاعاً وتتالياً . وهو يمتلك Li ، توتراً نظراً لأن الانسان يعرفه ويستخلص منه وشائج القربى الثابتـــة ليستخدمها في المستقبل . والزمان والمصير والاتجاه والعنصر والتاريخ – كل هذه شملتها ، من خلال الرؤيا التأملية الشاملة للعالم ، رؤيا ازمان Chou المبكرة ، هذه الكلمة الواحدة « الـ – Tao – المترجم » . فدروب الفرعون خلال الزقاق المظلم الى حرمه المقدس ينتسب الى هذه الكلمة ، وكذلك العاطفة الفاوستية وانفعالها بالبعـد الثالث ، ولكن الـ Tao هي برغم ذلك بعيدة كل البعد عن اية فكرة للغزو التقني للطبيعة . فالحديقـــة الصينية تتجنب المرء النشيط الفعال . فهي تضع افقاً وراء افق ، وبدلاً من ان تشير الى الهدف ، تراها تغري الانسان وتغويه بالتنزه والتجوال . وليس « للكاتدرائية » الصينية في الازمان المبكرة ، بما لهذه من دروب تمر من بوابات وايكات وادراج وجسور وقاعات ، اقول ليس لها ابداً ذاك الزحف العنيد القاسي للمعبد المصري ، او الانطلاق داخل الاعماق الذي تمتاز به الكاتدرائية القوطيـة . وعندما ظهر

الاسكندر على ضفاف الاندوس كان تقى هذه الحضارات الثلاث ـ الصينية والهندية الكلاسيكية ـ قد قولب في اشكال لا تاريخية منذ زمن طويل ، اشكال عريضة من Tao وبوذية ورواقية . ولكن لم يكد يمضي الا القليل من الزمن حتى نشأت مجموعة الاديان المجوسية في الاقاليم المتوسطة بين الميدان الكلاسيكي والهندي ، ويجب ان يكون قد بدأ ، قرابة الوقت ذاته ، التاريخ الديني للمايا والانكا ، هذا التاريخ الذي فقد منا فقداناً لا امل باسترجاعه . وعقب مضي الف سنة ، وعندما امسى هنا كل شيء قد اكتمل باطنياً وانتهى امره ، ظهرت المسيحية الكاثوليكية الجرمانية فجأة وارتقت بسرعة فوق تربة لا تجتذب املا ولا تدغدغ رجاء ، تربة فرنسا . وهذه الكاثوليكية كانت في هذه الحال ، كما هي في كل حال اخرى ، وبغض النظر عما اذا كان كامل الحزين من الاسماء والممارسات قد جاء من الشرق ، او عما اذا كانت الآلاف من التفاصيل الخاصة قد اشتقت من الشعور الفطري الجرماني الكلتي ، فان الدين الغوطي هو شيء ما جديد الى حد لم يسمح بمثل هذه الجدة احد ، وذو اعماق نهائية تستعصي كلياً على ادراك اي انسان خارج دائرة ايمانه الى درجة يغدو معها استنباط انظمة ربط بين هذه الاعماق ، وعلى السطح التاريخي ، شعوذة لا معنى لها او مفهوم

والعالم الاسطوري الذي شكل عندئذ ذاته حول هذه النفس الشابة ، هذا التكامل ، من الطاقة والارادة والاتجاه المنظور على ضوء رمز اللانهائية ، ومن عمل مذهل عجيب داخل المسافة ومهاوي الرعب والغبطة المنشقة فجأة ـ كان كله في نظر المصطفين من هذا التدين المبكر ، شيئاً ما طبيعياً بكليته ، وطبيعياً الى حد لم يتمكنوا عنده من ان يعزلوا انفسهم بما فيه الكفاية ، كي « يعرفوه » كوحدة . لقد عاش هؤلاء الناس داخله . اما هذا العالم فهو يبدو بالنسبة لنا ، نحن الذين يفصلنا ثلاثون قرناً عن هؤلاء الاسلاف ، على العكس من ذلك ، اذ انه يبدو لنا غريباً وساحقا ماحقا الى درجة تجعلنا

نسعى معها لادراكه بالتفصيل ، وهكذا نسيء فهم كليته ووحدته غير القابلة للتجزئة والتقسيم .

ولقد احس الناس بالوهية - الآب على انها طاقـــة بالذات ، وفعالية خالدة عظمى وحاضرة ابدا ودوماً ، وسببية مقدسة ، من النادر ان تتخذ لها شكلاً تستطيع العيون البشرية ادراكه . لكن كامل حنين الذرية الشابة ، كامل رغبة هذا الدم الدائر بقوة في الاوردة والشرايين ، في الانحناء بخشوع وتواضع امام مغزى الدم ومفهومه ، قد وجد تعبيره في شخصية العذراء والام مريم التي كان تتويجها في السماء من ابكر نزعات الفن القوطي . فهي شخصية من نور تتألق باللونين الازرق ويحيط بها مضيفوها السماويون . وهي تنحني على طفلها الوليد ، وتحس بالسيف يخترق قلبها ، وتقف عنـــد قدم الصليب ، وتحتضن جثمان الابن الميت . وقد قام بطرس Petrus داميان وبرنارد فون كليرفو ابتداء من القرن العاشر فما بعـــد بتطوير مذهبها ، وهنا نشأت الـ Ave Maria [1] - السلام عليك يا مريم - ونشأت بعـــدها التحيات الملائكية ، ومن ثم تاج الورود بين الدومنيكان . وقد اجتمعت اساطير لا تعد او تحصى حول شخصها . فهي حارس مخزون الكنيسة من النعمة ، وهي الشفيعة العظمى . وعين الفرنسيسكان يوماً للاحتفال بالافتقاد الالهي ، ونشأ بين البنديكتيين من الانكلـــيز (وحتى قبل عام ١١٠٠) الاحتفال بالحبل بلا دنس ، الذي سما بها تماما فوق البشرية الفانية الى عالم النور .

ولكن هذا العالم ، عالم الطهر وجمال النفس المطلق ، هو عالم كان لا يمكن للخيال ان يتصوره لولا الفكرة المضادة له والتي يستحيـــل ان تنسلخ عنه ، انها

(١) Ave Maria تحية الملاك جبرائيل والبصابات لمريم .

- المترجم

فكرة تشكل حدا نهائيـــاً من حدود الغوطيَّة ، وابداعاً لا يسبر له غور من ابداعاتها – انها احدى الفكر التي ينساها هذا العصر ، وينساها عامدا متعمداً . فبينا نرى مربم تجلس متوجة هناك تبتسم بجمالها ورقتها ، نرى في المؤخرة عالماً آخر ينسج ، داخل كامل الطبيعة والجنس البشري باكمله ، الشر ويزق ويدمر ويغوي – واعني بهذا العالم مملكة الشيطان . وهذه تتخلل كل الخليقة وتكمن متربصة في كل مكان . فالعالم مطوق بجحافل من الجن والعفاريت والارواح الليلية والساحرات وبالممسوخين ذئابا ، وجميع هذه تتبدى في شكل الانسان . وليس هناك من شخص يعرف ما اذا كان جاره قد التحق او لم يلتحق بعسكر الشيطان . وليس هناك من انسان يستطيع ان يجزم بان طفلاً يتفتح على الحياة لم يغد منذ حين رسولاً للوسواس وتابعا للخناس . فالرعب يسيطر على النفوس ويكتسحها بموجاته اكتساحا قد يكون مثيلا له فقط ذاك الذي خبره ربيع الحضارة المصرية المبكر . والانسان معرض كل دقيقة لان يعثر ويهوي الى قعر مهواة . ولقد كان يوجد هناك سحر اسود وقداديس شيطان ، وسبوت (جمع سبت) للساحرات ، واعياد ليلية يحتفل بها على قمم الجبـال ، ومجار لتيارات سحرية ، وصيـغ سحر وفتنة . وامير الجحيم واقاربه – امه وجدتـه ، ولما كان وجوده بالذات ينفي ويسخر من سر الزواج المقدس ، لذلك من الجائز ان لا تكون له زوجـة او ولد – وملائكته الساقطون واتباعه الحطيرون ، كل هذا انما يمثل انجازاً من اروع الانجازات التي عرفتها جميع التواريخ الدينية . وبالكاد يبـدو لوكي Loki [1] الجرماني اكثر من لمحة اولية عن هذا الشيطان . وكانت اشخاصها الشاذة الغريبة ، بما لها من قرون ومخالب وحوافر خيـل ، قد تشكلت واكتملت منذ زمن في المسرحيات الدينية التي عرفها القرن الحادي عشر . وكان خيـال الفنان في كل

---

(١) Loki – اله الشقاق والشر .

– المترجم –

مكان يكثر من تصويرها ، وبقي التصوير الزيتي القوطي وحتى ديرر وغرينفالد ، امراً لا يقبله عقل اذا لم يتناولها شكلاً وسيماء ولوناً . فالشيطان خبيث مكار مؤذ بميت حقود سيء ، ولكن مع كل صفاته هذه ، فان قوى النور ستغور بـه في النهاية وتخدعه . فهو ونسله السيئو الطبع الاجلاف الجهنميون الحاذقون في الاستنباط ، هم جميعا ذوو خيـال مرعب وتجاسيد للتهيآت الجهنمية في تباينها والابتسامة المشرقة لملكة السماء ، لكنهم هم ايضا تجاسيد لمزاج العالم الفاوستي في تعارضه وهلع ندامة الخاطىء وانسحاق قلبه .

وحتى المبالغة تقصر دون وصف عظمة هذه الصورة القوية الهوج وفخامتها ، او عمق الاخلاص الذي كان يسيطر على ايمان الناس بها . فقد تشكلت اسطورة مريم جنباً الى جنب واسطورة الشيطان ، وكان عدم الاعتقاد في هاتيـن الاسطورتين يعتبر خطيئة مميتة . وكان هناك مذهب صلاة لمريم ، ومذهب الشيطان يقوم على السحر والرقى والتعازيم . وكان الانسان يسير ابداً على صراط ممدود فوق هاوية لاقعر لها او قرار . وكانت الحياة في هذا العالم ، مبارزة مستمرة بالـة والشيطان، وكان كل فرد يشترك بكل حمياه في هذا الصراع بوصفه عضواً في الكنيسة المجاهدة، ويناضل من اجل نفسه ، وبغية الفوز بمهازي الفارس . وكانت الكنيسة الظافرة بالملائكة والقديسين في مجدهم تنظر من عليائها الى الدنى ، وكانت النعمة السماوية هي درع المقاتل في المعركة . وكانت مريم هي الحامية التي يستطيـع ان يطير الى قلبها فيجد لديها الراحة والاطمئنان ، وكانت ايضا هي الـسيدة التي تمنح المكافآت والجوائز على الاقدام والشجاعـــة . ولكل من هذين العالمين اساطيره وفنه وفلسفته الكلامية وصوفيتـه – وذلك لأن الشيطان ايضاً يستطيـع ان يصنع العجائب ويقوم بالمعجزات . واللون : هو الشيء المميز البارز والوحيد الذي لم يعرفه اي ربيـع حضاري آخر غير ربيـع هـذه الحضارة – فالمادونا قد خصت باللونين الابيض والازرق ، وخص الشيطان بالالوان من اسود واصفر – كبريتي واحمر . وكان القديسون والملائكة يطوفون في الاثير ، اما الشياطين فكانوا

يثبون ويقفزون ويجلسون القرفصاء ، وكانت الساحرات « يخشخشن » طوال الليل . فالنور والليل ، هما معاً اللذان يلآن الفن الغوطي بباطنيته تلك غير القابلة للوصف - وتلك وحدها لا ابة تخيلات « فنية » اخرى . وكل انسان كان يعرف بان العالم مسكون بجحافل الملائكة وجنود الشيطان . فالملائكة المطوقون بالنور لفرا انجيليكو Fra Angelico ولغيره من الفنانين الرينشيين Rhenish المبكرين ، والاشياء المتجهمة المقطبة الوجوه التي نشاهدها على بوابات الكاتدرائيات العظمى كانت حقاً تملأ الجو والهواء . اذ كان الناس يرونها ويحسون بوجودها في كل مكان . اما نحن اليوم فلا نعرف ، بكل بساطة ، ما هي الاسطورة ، وذلك لانها ليست مجرد صيغة تستر جمالياً ، يعرض المرء بواسطتها شيئا ما على نفسه ، بل انما هي قطعة من واقع يزخر بكل طاقات الحياة ونشاطها ، قطعة تلغم كل زاوية من زوايا الشعور الواعي ، وتهز بقوة اعمق دعائم تركيب الكائن واسسه . فهذه المخلوقات كانت بوجودها تحيط بالانسان بصورة دائمة مستمرة . وكان الناس يلمحونها دون ان يروها . وكانوا يعتقدون بها اعتقادا جازماً حازما الى حد كان مجرد التفكير بايجاد برهان او دليل على وجودها يعتبر مروقاً وتدنيسا . اما ما ندعوه نحن اليوم بالاسطورة ، وما نراه من تذوق آدابنا وخبرائنا للون الغوطي ، فهو ليس الا اسكندرانية Alexandrinism . ففي الايام الخوالي لم يكن الناس « يستمتعون » به - فخلفه كان يقف الموت .

وذلك لان الشيطان قد استملك النفوس البشرية واغواها بالهرطقة والدعارة والفجور والفنون السوداء . ولقد كانت هي الحرب التي شنت عليه على الارض ، وشنت بالنار والسيف على اولئك الذين استسلموا له . انه من السهل علينا ما فيه الكفاية لطرد مثل هذه الافكار من رؤوسنا ، ولكننا اذا استأصلنا هذه الحقيقة المرعبة من الحقبة الغوطية فعندئذ يصبح كل المتبقي رومنتيكية و « ترمنتكا » . فلم تكن ترانيم - مريم المتأججة بالمحبة هي وحدها التي كانت تصعد الى السماء ،

بل كانت ايضاً تصعد اليها تلك الصرخات الهائلة الوفيرة المنبعثة من فوق اكوام الحطب المتأجج لهباً ونيراناً اكول . فالمشنقة وعجلة التعذيب كانتا تلتصقان بالكاتدرائية . وكان كل انسان يومذاك يعي وعياً كامـــلا الاخطار الهائلة التي تهدده ، وكانت الجحيم ، لا الجلاد ، هي مصدر رعبه وهلعه . وهناك الآلاف الآلاف من الساحرات اللواتي خيل اليهن انهن حقاً على هــذه الحال ، فبعضهن كن يفضحن امرهن بذواتهن ويصلين سائلات المغفرة والغفران ، وكن يعترفن مدفوعات بعجبة الحقيقة الصافية بجولاتهن الليلية وصفقاتهن والشيطان . وكان قضاة التفتيش يأمرون وعيونهم تترقرق بالدمع وقلوبهم تخفق بالاسى والحزن على اولئك البائسات الخاطئات ، بشدهن الى آلات التعذيب بغية انقاذ نفوسهن . هذه هي الاسطورة القوطية التي انجبت الكاتدرائيـــة والصليبيين ، والتصوير الزيتي الروحي والعميق ، والصوفية . وقد نبتت في ظلالها — (الاسطورة — المترجم) وازدهرت تلك الغبطـــة القوطية التي لا نستطيع هذا اليوم ان نشكل حتى فكرة عنها .

وهذه الامور كلها كانت لا تزال ، في الازمان الكارولنجية بعيدة رنائية . ولقد حرم شارلمان في الاصحاح الســكسوني الاول (٧٨٧) الاعتقاد الجرماني القديم بالممسوخين ذئاباً ، وفي عام ١١٢٠ صدر مرسوم عن بوركارد فون فورمز يعتبر هذا الاعتقاد ضلالة . ولكن بعد مضي عشرين سنـــة على صدور هذا المرسوم ، ظهر ثانية تحريم هذا الاعتقاد في Decretum Gratiani بصيغة فيها الكثير من التساهل . وكان سيساريوس هيسترباخ قد اطلع ، قبلئذ ، على كامل اسطورة الشيطان ، وهذه الاسطورة كما اوردتها Legenda Aurea واقعيـــة ومؤثرة كأساطير مريم تماما . وفي عام ١٢٣٣ عندمـــا كانوا يعقدون قباب كاتدرائيتي مايتز وشبير ، صدرت النشرة البابويـــة Vox in Roma وجعلت الاعتقاد بوجود الشيطان قانوناً كنسياً .

ولم يكن قد مضى بعد زمن طويل على اعادة كتابة ترنيمة القديس فرنسيس

المعروفة باسم « ترنيمة الى الشمس » وبينا كان الفرنسيسكان يركعون امام مريم مصلين باخلاص وصدق ، وناشرين مذهبها في اقاصي الارض ، كان الدومنيكان يسلحون انفسهم ويعدونها للمعركة ضد الشيطان وينشئون نظام التفتيش ومحاكمه . ووجد الحب السماوي بؤرته في صورة مريم ، وبهذا امسى الحب الدنيوي مماثلا للشيطان وشبيهاً به . ان المرأة خطيئة — بهذا احس النساك العظام ، كما احس انداده في الاديان من كلاسيكية وصينية وهندية . والشيطان يحكم فقط من خلال المرأة ، والساحرة هي ناشرة الخطيئة المميتة وحاملة لوائها . وكان توما الاكويني هو الذي اوجد انكيوباس Incubus [1] وساكيوبا Succuba [2] المقيتة والتي تشمئز منها النفس . وقد طور متصوفون باطنيون مثل بونا فنتورا والبرتوس ماغنوس دانز سكوتس ، ميتافيزيقا كاملة متكاملة مما كان يعتقده الناس يومذاك عن الشيطان .

زد على ذلك ان الايمان الغوطي القوي كان ابداً ودوماً دعامة نظرة عصر النهضة الى العالم . وعندما قام يطنب في مديح كيمابيو Cimabue وجيوتو Giotto لعودتهما الى الطبيعة ، كمعلميهم ، فانما كان يعني هذه الطبيعة الغوطية ، التي تطوقها بكل زاوية من زواياها جحافل من الملائكة والشياطين ، تتوعد وتهدد باستمرار في عالم الضوء . « وتقليد » الطبيعة كان يعني تقليد نفسها لا سطحها . فلنتخلص اذن من الخرافة القائلة بان كل هذا هو تجديد « للاساطير الكلاسيكية الغارقة في القديم » . وعصر النهضة كان يعني تصاعداً غوطياً يبتدىء بعام ١٠٠٠ ويمتد الى ما بعده ، انه عالم الشعور الفاوستي الجديد ، والخبرة

---

(١) Incubus : روح شريرة كانت تحضر النساء ليلا وتجامعهن جنسياً .

(٢) Succuba : عفريت كان يتجسد جسد المرأة ليلا ويحضر الرجال ليجامعوه .

— المترجم

الشخصية الجديـدة ، للأنا في اللانهائي . ولا شك ان عصر النهضة قد عنى لبعض الارواح الفردية حماساً عاطفياً للكلاسيكية (او ما كان يخال انـه كلاسيكي) لكن هذا لم يكن اكثر من مجرد تظاهرة لذوق . ولقـد كانت الاسطورة الكلاسيكية مادة تسلية وترفيه ، وتمثيلة مجازية ، كان الناس يرون من خلال قناعها المرهف ، وبصورة لا تقل في ثباتها عما قبـل ، الواقع الغوطي القديم . وعندما انتصب سافونا رولا واقفا على قدميـه ، تهاوت ، بلحظة واحدة ، واندثرت الزخارف واختفت من على سطح الحياة الفلورنسية . وقد كانت كل ما قام به الفلورنسيون من كدح وعمل مخصصا للكنيسة بقناعة وايمان . وكان رفائيل اعظم مصوري المدونا واخلصهم . وكان الايمان الثابت بوجود مملكة الشيطان وبالخلاص من هذه المملكة يلتف حول جذور كل هذا الفن والآداب ، وكان كل واحـد منهم ، من مصورين ومهندسين وانسانيين ، يتطلع ـ مهما رددت شفتاه اسماء شيشرون وفرجيل وفينوس وابولو مرارا وتكراراً ـ ويرى في احراق الساحرات امرا طبيعياً تماما ، ويحمل الحجب والتمائم ضد الشيطان . وكتابات مارسيليوس فيسينوس Marsilius Ficinus مليئة بالابحاث الفنية عن الشياطين والساحرات . وقد كتب فرانسيسكو ديلا ميراندولا (وبلغة لاتينية كيسة) حواره « الساحرة » وذلك بغية ان يحذر العقول المرهفة من اعضاء دائرته من خطر مقيم . وعندما كان ليوناردو دافنشي يعمل ، وذلك حين بلغ عصر النهضة ذروته ، على تحفته «آنا سلبدرت » Anna Selbdritt ، كانت « الساحرة » هم قـد كتبت في روما (١٤٨٧) باروع اسلوب انساني من اساليب اللغة اللاتينية . هذه هي الاشياء والامور التي تتشكل منها الاسطورة الحقيقية لعصر النهضة ، وبدونها لا نستطيع ابداً ان نفهم الزخم الغوطي الحقيقي والجهد لهذه الحركة المناهضة للغوطيـة . فالناس الذين لم يشعروا بان الشيطان هو اقرب اليهم من حبل الوريد ، لا يمكن ان يكون باستطاعهم خلق رائعـة

الكوميديا الالهية ، او الروائع المرسومة على جدران اورفيتو Orvieto ، او سقف كنيسة ستين .

والركيزة الهائلة لهذه الاسطورة هي التي ايقظت في النفس الفاوستية ما نعهده لها من شعور . ايقظت انا شريرة ضائعة في اللانهاية ، انا كانت كلها زخم وطاقة ، لكنه زخم ضعيف حتى التفاهة ، في لا نهائية من طاقات او زخوم اقوى واشد . لقد كانت هـــذه الأنا ارادة مظهراً وجوهراً ، لكنها ارادة مليئة بالخوف على حريتها . ولم يسبق ابداً لمشكلة الحرية ان صادفت تأمـــلا اعمق او اشد ايلاما للنفس من هذا التأمل . فالحضارات الاخرى لم تعرف هذه المشكلة او تعانيها . ولكن بسبب كون الاستسلام المجوسي بالذات امراً مستحيـــلا اطلاقا بالنسبة للنفس الفاوستية – وبسبب كون ذلك الذي كان يفكر به على انـــه لم يكن « IT » او ذرة من نفس كلية ، بل كان انا فردية مقاتلة تناضل للحفاظ على ذاتها – بسبب هذا احست النفس الفاوستية بان كل حد من الحرية هو قيـــد او غل يتوجب على الانسان ان يجره معه طيلة حياتـــه ، واحست بالحياة بدورها على انها هذا الشكل موت يحيـــا ويعيش . واذا كان الامر على هذه الحال – فلماذا ؟ ومن اجل ماذا ؟

كانت نتيجة هذه النظرة النافذة الى الاعماق شعوراً هائلا بالذنب حيث يسري هذا الشعور متخللا هذه القرون فيبدو كأنه مرثاة طويلة بائسة . فالكاتدرائيات كانت ترتفع بقبابها الى السماء بتضرع وابتهال متزايدين ، واصبح عقـد القباب كأنه تشابك الكفين حين الصلاة ، ولم يكن يشع الا القليل من الضوء متسربا من خلال النوافـذ العالية الى صحون الكنيسة الطويلة . وكان التتالي المتوازي الخانق من التراتيل والترانيم اللاتينية ينبىء بوكب مرضوضة مهروسة وبالجلد داخل الزنزانات المعتمة كدهماء الليل . ان كهف – العالم كان بالنسبة للانسان المجوسي على قاب قوسين او ادنى ، وكانت السماء وشبكة التحقق ، لكن هــذه السماء كانت في نظر الانسان القوطي بعيدة بعداً لانهاية له او حد . ولم تكن ترى اية

يد تمتد من فوق خلال هذه المسافات الهائلة ، وكان كل ما يحيط بالانا المتوحدة هو عالم الشيطان وممسكراته . ولذلك فان حنين الصوفية المعظم كان يهدف الى اضاعة الشكل المخلوق (كما قال هنيريخ سويسه Seuse) والتخلص من الذات ومن كل الاشياء (المعلم ايكارت) والتنازل عن الذاتية (اللاهوت الالماني) . ونشأ من هذا الحنين وتصاعد تدقيق عنيد شرس في الآراء التي كانت تلاقي يوماً بعد آخر المزيـــد من الفحص والتشريح بغيـة الوصول الى « لماذا » ولخيراً الى استغاثة كونية من اجل الحصول على النعمة – وهذه ليست بالنعمـــة المجوسية التي تنزل من العلاء بوصفها جوهراً ، بـــل انما هي النعمة الفاوستية المحررة للارادة .

فكونك قادراً ، هو كونك تريد بحرية ، هذه هي المنحة الوحيـــدة التي تتطلبها النفس الفاوستية من اعماقها من السماء . فالاسرار المقدسة السبعة ، اسرار الدين القوطي ، التي شعر بها بطرس لومبارد على انها سر واحـد ، وارتقى بها مجمع لاتيران عام ١٢١٥ ، الى مرتبة الدوغما ، وارساها توما الاكويني على دعائم ميتافيزيقيـــة ، انما تعني هذه وهذه فقط (الارادة الحرة – المترجم) . فهذه الاسرار ترافق وحدة النفس من الولادة حتى الموت وتحميها من القوى الشيطانية التي تحاول أن تعشعش داخل ارادتها . وذلك لأن بيـع المرء نفسه لشيطان يعني تسليم ارادته له . وما الكنيسة الجامدة على الارض الا الطائفة المنظورة المشكلة من اولئك الذين زودهم نهي الاسرار ووصاياها بالمقدرة على ان يريدوا . ويقال ان هذه القناعة بالكائن الحر ، يضمنها سر المذبح والذي حسب هذا القول يقامي تغيراً كامـــلا تاما بمعناه . فمعجزة التحول المقدس التي تحدث كل يوم على يدي الكاهن – معجزة المضيف المكرس (يسوع – المترجم) في مذبح الكاتدرائية العالي ، حيث كان المؤمن يشعر بوجود هذا الذي ضحى بنفسه منذ القدم ليؤمن له الحريـــة في الارادة – هذه المعجزة كانت تستخرج تنهدة من ارتياح ومن الاعماق وباخلاص من نوع بالكاد يحيط به خيالنا نحن معشر المعاصرين . ولذلك

كان تكريس جسد المسيح اهم عيد للكنيسة الكاثوليكية عام ١٢٦٤ تابعا من تقديم الشكر . ولكن اهم من هذا ـ لا بل واهم من هذا بكثير ـ هو سر الندامة المقدس الاولي والذي هو فاوستي سداة ولحمة . وهذا السر من مرتبة اسطورة ـ مريم واسطورة ـ الشيطان ، وهو الانجـاز العظيم الثالث من انجازات الدين القوطي . والحق ان السرين الآخرين يستحصلان على مغزييهما وعمقيهما من السر الثالث هذا ، فهو يكشف القناع عن آخر اسرار نفس هـذه الحضارة ، وبهذا ينفرد بها ويجعلها بمنأى عن جميع الحضارات الاخرى . لقد كانت نتيجة المعمودية تتمثل في ضم المعمـد الى الاتحاد العظيم ـ وكانت الـ ـ « IT » الوحيدة الكبرى للروح الالهية تتخذ لها منه كما من الآخرين مقراً او مقاما ، وبعد هذه كان الاستسلام لكل ما قد يحدث واجباً عليه وفرضاً .
ولكن فكرة الشخصية في الندامة الفاوستية كانت مضمرة وثابتة ، وليس صحيحاً ابداً ان عنصر النهضة اكتشف الشخصية ، بل ان ما فعله هذا العصر هو ارتفاعه بها الى سطح رائع ، حيث اصبحت منظورة عليه من قبـل كل فرد . فولادتها تمت في الحقبة القوطية ، وهي اشد ملكات القوطية التصاقاً بها وتميزاً لها ، وهي الواحدة والشيء ذاته والنفس القوطية . لان هذه الندامة هي امر ما يستطيع كل انسان ان ينجزه لنفسه وحدها . فهو وحده القادر على تحري ضميره الخاص . وهو وحده الذي يقف محزونا اسيفاً في حضرة اللانهائي . وهو وحـده الذي يستطيع ويجب ان يصنع ماضيه الخاص بكلمات في اعتراف . وحتى الغفران الذي يحرر أناه من اجل القيام بعمل جديد تترتب عليه مسؤولية ، هو امر شخصي لنفسه . اما المعمودية فهي امر غير شخصي ـ فالانسان يتلقاها لانه احدالناس وليس لانه هو هذا الانسـان ـ ولكن فكرة الندامة تفترض مسبقا ان قيمة كل عمل تتوقف بصورة مطلقة على الانسان الذي يفرق بين الدراما الغربية وبين الدرامات من كلاسيكية وصينية وهندية . وهذا هو الذي يوجه تشريعنا اكثر فاكثر نحو الفاعل اكثر منه نحو الفعل ، ويجعل مفاهيم اخلاقيتنا الاولية ترتكز على الفعل الفردي وليس على السلوك النموذجي . انه المسؤولية الفاوستية بدلاً من التسليم الجمومي ، والفرد بدلاً من الاجماع

(المجموع – المترجم) ، وانـه الخلاص من الانتقال بدلاً من الخضوع تحتها – هذا هو الفرق بين اقصى الايجابيـــة وبين منتهى السلبية لكل الاسرار المقدسة ، وخلفه يكمن ايضاً الفرق بين كهف العالم وبين ديناميكا – اللانهائية . فالعمودية هي عمل ما يقع على المرء ، اما الندامة فهي عمل يقوم به المرء داخل ذاتـــه . واكثر من ذلك فالتحري الضميري الحي هـــذا والذي يقوم به المرء لماضيه الخاص ، هو ابكر دليل ، وادق تدريب معاً للحس التاريخي للجنس البشري الفاوستي . وليس هناك من حضارة اخرى يحتل فيها الاستقصاء الضميري لكل ملمح من ملامح الحياة الشخصية للانسان الحي ، المركز الهام الذي يحتـــله في الحضارة الفاوستية ، وذلك لان هـــذا وحده هو الذي استوجب ان تؤدي الاقرارات بالكلمات . واذا كان البحث التاريخي والسيرة الشخصية Biography خاصتين من خصائص الغرب منذ بدايته ، واذا كان هذان هما في نهاية المطاف تحري ذات واعترافا ، واذا كانت حياتنا تعاد بقناعة وثقـــة وباستدلال واع باساسنا التاريخي الذي لم يراود كونه ممكنا او محتملا اي خيال في اي مكان آخر غير بلادنا ، واذا كنا اخيراً قد تعودنا على النظر الى التاريخ بوصفه آجالاً من دورات الفية من الاعوام ، ودورات ليست مشوشة مفككة او مزخرفة كما هي حالها في العالم الكلاسيكي وفي الصين والهنـد ، بل دورات ذات اتجاه ، وتراها عقولنا ، دائما على ضوء صيغة السر المقدس القائلة :

« Tout comprendre c'est tout pardonner »

فعندئذ يتوجب علينا ان نتوجه بالشكر على هـــذه الامور كلها الى السر المقدس هذا للكنيسـة القوطية ، الى هذا التحرر المستمر للأنا من اثقالها بواسطة التجربة التاريخية والتبرير . ان كل اعتراف هو سيرة شخصية . وهـــذا التحرر الغريب للارادة هو بالنسبة الينا ضروري الى حد يدفعنا معه رفض الغفران الى اليأس وحتى الى الدمار . وذاك الانسان الذي يشعر بغبطة بتبرئة باطنية كتلك

هو وحــــده فقط القادر على ادراك مغزى الاسم القديم لـ – Sacramentum
Resurgentium سر اولئك الذين بعثوا ثانية .

وحينا تترك النفس ، في هذه القرارات الاخطر حسماً ، لوسائلها الخاصة ، فعندئذ يبقى هناك شيء ما غير مقرر ومعلقاً فوق النفس كأنه سحابة دائمة . ولذلك يجوز لنا ان نقول بانه لربما لا توجد اية مؤسسة في اي دين آخر قد ادخل هذا القدر من السعادة على العالم . فكامل باطنية الغوطية ومحبتها السماوية ترتكز على القناعة بالغفران التام بواسطة السلطة المخولة للكاهن . وقد حدث ، نتيجة للقلق الذي نجم عن تدهور هذا السر المقدس وانحلاله ، أن ذوت وتلاشت البهجة الغوطيـــة من الحياة وكذلك عالم – النور ، عالم – مريم . ولم يبق الا عالم الشيطان بكل ما له من وجوم وتقطيب . ومن ثم حل محل الغبطة المفقودة الى الابد ، البروتستنتي ، وخاصة البيورتاني (المطهر) والبطولة التي تستطيع ان تستمر في القتال ، وحتى دون امل داخل موقع مفقود . ولقد قال غوتيـــه مرة : كان المتوجب ألا يؤخذ ابداً (يسلب – المترجم) الاعتراف السماعي من الجنس البشري . فلقد انتشرت فوق الارض التي تلاشى منها هذا الاعتراف ، جدية صارمة ثقيلة . واتخذت الاخلاق والبزة ، الفن والفكر ، لون – الليـل للاسطورة الوحيدة[1] التي بقيت بارزة شهيرة . وليس هناك من شيء حظه من نور الشمس أقل مما هو حظ عقائد « كنت » Kant من نورها . ان القول : بان كل انسان هو كاهن نفسه هو قول يستطيع المرء ان يبلغ بواسطته فقط ذاك الجزء من الكهانة المشتمل على الواجبات ، لكنه لا يستطيع ابداً ان يبلغ جزءها الممتلك للسلطات . فلا يوجد هناك انسان يعترف امام نفسه وهو قانع قناعة باطنية بالغفران . وهكذا فان حاجة النفس لأن تخلص من اثقال ماضيها ،

---

(١) يعني بهذه اسطورة الشيطان ،
– المترجم –

وان توجه ثانية ، بقيت حاجة ملحاحاً لجوجا كحالها ابدا ، وقـــد بدلت كل الاشكال الارقى للمواصـــلة ، وتحولت الموسيقى والتصوير الزيتي وكتابة – الرسائل ، والمذكرات ، في البـلاد البروتستنتية من كونها اساليب وصف الى صيرورتها تشهيراً بالذات وكفارة واعترافاً غير محدود . وحتى الفن في الاقاليم الكاثوليكية ايضا – وخاصة في باريس – فانه حالما دخل عليـــه علم النفس نما الشك في سر الندامــة والغفران . فالمطل على العالم قد فقد في عراك دائم نشب داخل النفس وكان سلاحه الالغام ، وبدلاً من اللانهائي جمع المعاصرون والخلف ليكونوا كهنة وقضاة . وكان الفن الشخصي ، وفق المفهوم الذي يميز غوتيه من دانتي ، ورمبراندت من ميخلانج ، البديل لسر الاعتراف المقدس . وكان ايضا الاشارة الى ان هذه الحضارة قد بلغت حال الحقبة المتأخرة زمناً .

– ٤ –

ان للاصلاح الديني المعنى ذاته في جميع الحضارات – ألا وهو العودة بالدين الى نقاء فكرته الاصلية وصفائها ، كما تجلت هذه الفكرة في بداية الدين ومطلعه . ولا تخلو اية حضارة من الحضارات من مثـل هذه الحركة (الاصلاح الديني – المترجم) ، وذلك اكنا نعلم بها ، كما هي الحال في مصر ، ام نجهل بها ، كما هو الامر في الصين . وهذه الحركة تعني ، فضلا عن ذلك ، ان المدينة ومعها روح – المدينة قد اخذتا بتحرير ذاتيهما تدريجيا من النفس الريفية ، كما وان هذه الحركة قد شرعت بالوقوف موقفا مناهضا لكامل سلطان النفس الريفية ، واخذت تعيد النظر في احاسيس الحقبة ما قبل الحضريـــة وافكارها ، وذلك من جهة ذاتها الحاضرة . ولقد كان المصير ، وليست الضرورات العقلانية للفكر ، هو الذي

انضى في العالمين المجوسي والفاوستي ، الى تفتح براعم اديان جديدة عن هـذا الخط الزماني . ونعلم اليوم ايضا بان لوثر ، كاد يصبح ، في عهد شارل الخامس ، المصلح لكامل الكنيسة غير المنقسمة .

وذلك لأن لوثر ، ككل المصلحين في جميع الحضارات ، لم يكن الحلقة الاولى بل الاخيرة من سلسلة تعاقب عظيم ابتـدأ بالزهاد الذين عرفتهم البراري وانتهى بكاهن - المدينة . والاصلاح الديني هو غوطي ، وهو من الغوطيـة انجازها وميثاقها . وترنيمة لوثر ذات المطلع « قلعة حصينة » لا تنتمي الى القصيد الغنائي الروحي الباروكي . ففي هـذه الترنيمة لا يزال الاسلوب اللاتيني الرائع لـ Dies irae يقعقع فيها ويدوي . فهي آخر ترانيم — الشيطان الجبـارة للكنيسة المجاهدة . ولقد ناضل لوثر ضد الكنيسة لا بسبب أن الكنيسة كانت تطالب بالكثير الكثير ، بل انما بسبب كونها تطالب باقل القليل ، وشأن لوثر في نضاله هذا هو شأن كل مصلح آخر نشأ منـذ عام الف فما بعده . وهذا التيار العظيم ينطلق من كلاني Cluny ماراً بأرنولد فون برسكيـا Arnold of Brescia الذي بشر ووعظ مطالباً بالعودة الى البساطـة الرسولية ، ومن ثم احرق عام ١١٥٥ ، فيواكيم فون فلوريس الذي كان اول من استعمل كلمة « يصلح » ، فالروحانيين من الرهبانيـة الفرنسسكانية ، فجاكوبون دا تودي Jacopone da Todi القائد ومنشد الترنيمة ذات المطلع « لقد كانت الام تقف هناك » Stabat Mater [١] ، هذا الفارس الذي حوله موت زوجة صبية الى ناسك ، والذي حاول ان يطوح ببونافيس الثامن Boniface لأنه كان يحكم الكنيسة بيد لينة متراخيـة ، فوكليف وهس وسافونارولا ، واخيرا لوثر

---

(١) Stabat Mater : ترنيمة لاتينيـة تتحدث عن احزان ام المسيح وهي تتبعه الى مكان صلبه .

المترجم .

وكارلشتادت وتزفنجلي وكالفن – وليولا . وكانت مقاصد هؤلاء فرداً وجموعاً لا تستهدف التغلب على مسيحية الدين الغوطي وقهرها ، بل تتوخى اولا واخيرا ان تسير بها الى الاكتال الباطني . وهذه ايضا كانت حال ماركيون واثاناسيوس واليعاقبة والنساطرة الذين حاولوا في مؤتمري افسس وخالقدونيا ان يطهروا الايمان وينقوه ويدفعوا بـــه وراء الى اصوله . ولكن اورفي القرن السابع الكلاسيكي كانوا كذلك آخر حلقات سلسلة المصلحين الدينيين وليسوا بدايتها ، هذه السلسلة التي يجب ان تكون قد بدأت حتى قبل عام ١٠٠٠ قبل المسيح . وكذلك ايضاً توطد دين رع في مصر وفي نهاية المملكة القديمة ، نهاية الغوطية المصرية . ان هؤلاء يرمزون الى نهاية لا الى بداية جديدة . وكذلك ايضا تم اكتال الاصلاح الديني في الدين الفيدي قرابة القرن العاشر ، وقد تبعه حلول البرهمية المتأخرة زمناً . كما ويجب ان يكون التاريخ الديني الصيني قد عرف في القرن التاسع نقطة حقبية مطابقة لهذه . .

ومهما بلغ الاختلاف بين الاصلاحات الدينية لشتى الحضارات ، من الاتساع ، فان الهدف او القصد هو ذاته بالنسبة لها جميعا – وهذا القصد يرمي الى اعادة الايمان الذي ضل وزاغ بعيداً بعيدا في العالم كتاريخ وفي دنيوية – الزمان الى ميدان الطبيعة ، الى الشعور الواعي النقي والفراغ الذي تسيطر عليه السببية المجردة وتتخلله وتشمله ، وان تخرج به من عالم الاقتصاد (الثروة) لتدخله عالم العلم (الفقر) ، ومن مجتمع النبلاء والفرسان (الذي كان ايضا مجتمع عصر النهضة وحركة الانسانيين) الى مجتمع الروحانيين والنساك والمتقشفين ، واخيراً الخروج به (وبقدر ما هو ممكن من الاهميـــة) من الطموح السياسي لابناء الارومة من ذوي الحلل الرسمية من رجال كهنوت ودولة الى السببية المقدسة التي لا تنتمي الى هذا العالم .

وفي تلك الايام قام الغرب – بما قام به تماما غيره في الحضارات الاخرى –

بتقسيم مسيحية السكان الى ثلاث طبقات هي : السياسية ، والاكليركية والاقتصادية (وهذه هي المتحضرة) ولكن لما كانت النظرة التي اعتمدت هذا التقسيم هي نظرة المدينة ولم تعد نظرة القلعة او القرية ، فان الرسميين والقضاة كانوا ينتمون الى الطبقة الاولى ، وكان رجال العلم ينتمون الى الثانية — امـــا الفلاح فلقد-نسي امره وتجوهل شأنه . وهذا هو المفتاح الى التعارض بين عصر النهضة والاصلاح الديني ، وقـــد كان تعارضا طبقيا ، وليس تعارضا نابعاً من الاختلاف في الشعور بالعالم ، كذلك التعارض الذي قام بين عصر النهضـــة والغوطية . فذوق — القلعة ونفس — الدير قد نزحا الى المدينــة وبقيا فيها في حالة من تعارض كما كان امرهمـا في السابق — وكما كانت الحال في فلورنسا بين المديتشي وسافونا رولا ، وكذلك كما كان الامر بالنسبة للعائلات النبيلة في مدن اليونان القديمة — وبعد ان دون اخيرا هوميروسهم — حتى آخر طقس او عقيدة اورفية — وابناء هذه العائلات كانوا ايضا كتاباً . ان فناني عصر النهضة وانسانيه هم الخلفاء الشرعيون للتروبادورز والمنشدين ، وكما انــه يوجد هناك تماما خطر يمتد من ارنولد فون بوسكايا الى لوثر ، كذلك فان هناك خطاً يمتد من برتراند بورن وبير كاردينال ماراً ببترارك الى اريوستو . فالقلعة قد اصبحت منزل — البلدة ، واصبح الفارس ، النبيل الذي يعيش فيه . والتصقت كامل الحركة (عصر النهضة — المترجم) بالقصور كما التصقت بالبلاطات ، وحصرت نفسها داخـل ميادين التعبير هذه التي تؤثر وتستأثر باهتمام المجتمع المتأدب ، فهي براقة مرحة كهوميروس ، لانها ظريفة « بلاطية » Courtly — وحيث تمثل جواً تعتبر فيه المعضلات ذوقاً سيئاً ، وحيث كان دانتي وميكلانجلو لا يستطيعان الا أن يشعرا بانهما غريبان عن مثل هذا الجو — ومن ثم انتشرت فوق جبـال الالب وبلغت بلاطات الشمال لا بوصفها نظرة جديدة الى العالم ، بـــل بوصفها ذوقاً جديداً . فعصر النهضة « الشمالي » للمدن والعواصم التجارية تجلى فقط في الواقعة الماثلة بحلول المجتمع الراقي للنبلاء الايطاليين محل الفروسية الفرنسية .

ولكن آخر المصلحين ايضاً ، اللوائر (جمع لوثر) وامثــــال سافونارولا ، كانوا رهباناً حضريين ، وهـــذا ما يفرقهم تفريقاً عميقاً عن بواكيم وبرنارد وامثالها . فتقشفهم العقلاني هو المنطلق من الصوامع القائمة في الوديان الهادئـــة ، الى غرفـــة الدراسة في العصر الباروكي . وخبرة لوثر الصوفية التي ولدت عقيدة التبرير ، ليست خبرة القديس برنارد التي عرفها في الغابات والتـــلال والغيوم والنجوم ، بل انما هي خبرة انسان يتطلع من خلال نوافذ ضيقة الى الشوارع والطرق وجدران المنازل والسقوف الهرمية . فالطبيعة التي يتخللها الله ويكتنفها هي نائية وبعيدة وتقع خارج جدران المدينة وأسوارها ، والعقل الحر المنفصل عن التربة يقع داخلها . فداخل الشعور الواعي المتحضر والمسور بجدران من الحجارة ، يفترق الحس عن العقل ويتخلى الواحد منهما عن رفقة الآخر ، ويصبح كل منهما عدواً للآخر ، وهكذا فان تصوف – المدينة ، تصوف آخر المصلحين ، هو تصوف العقل المجرد متناً وحاشية وليس بتصوف العين – انه اثارة مفاهيم تذوي في حضرتها الاشكال الملونة البراقـــة للاسطورة القديمة وتغدو شاحبة مكفهرة .

ولذلك كان هذا التصوف بالضرورة ، وباعماقه الحقيقية ، شيئاً موقوفاً على القلة من الناس . ولم يترك هناك من شيء من ذاك المحتوى المحسوس الذي كان فيما مضى يقدم حتى الى افقر الناس شيئاً ما يمسك به او يقبض عليه . فالعمـــل الجبار الذي قام بـــه لوثر كان قراراً عقلانياً مجردا . واعتباره آخر العظماء من المدرسين من طراز Occam اوكام لم يأت عن لا شيء . فهو قد حرر الشخصية الفاوستية تحريراً كاملا – وازال الشخص الوسيط ، شخص الكاهن الذي كان فيما مضى يقف بين هذه الشخصية وبـين اللانهائي . وهكذا اصبحت تقف الآن وحدها تماما ، عارفة بمكانها ، وكاهن – ذاتها وقاضيها . لكن العامة من الشعب استطاعت فقط ان تحس ، لا ان تفهم ، عنصر التحرير فيها . والحق انها رحبت بحماس بتمزيق الوجائب المنظورة ، لكنها لم تتحقق من ان هذه الوجائب قـد

استبدلت بوجائب عقلانية هي اشد قسوة وصرامة من تلك . ففرنسيس الاسيسي قد اعطى الكثير واخذ القليل ، لكن الاصلاح الديني المتحضر ، اخذ الكثير ، واعطى القليل وذلك فيا يتعلق باكثرية السكان .

وقد استبدل لوثر السببية المقدسة لسر الندامة المقدس ، بخبرة الغفران الباطني « بواسطة الايمان وحده » . وهو قد اقترب جداً من برنارد كليرفو بمفهوم سر الندامة ، بوصفه تقشفا عقلانياً مستمرا مدى العمر وذلك في تباينه وتقشف الاعمال الظاهرية المنظورة . وكلاهما فهما الغفران على انه معجزة الهية . فالانسان فيا يتعلق بتبديله لذاته ، فان الله هو الذي يبدله . ولكن ما لا يستطيع ان يحل التصوف العقلاني المجرد محله انما هو الـ « TU » خارجاً في الطبيعة الحرة . فالاول منهما كالثاني قد وعظ قائلا : « يتوجب عليك ان تؤمن بان الله قد غفر لك » ، ولكن الايمان بالنسبة الى برنارد كانت ترتقي بـــه قوى الكاهن الى المعرفـــة ، بينما بالنسبة للوثر ، هبط الايمان الى الشك والحاجة اليائسة . فهذه « الأنا » الصغيرة المنفصلة عن الكون والمسمرة الى الكائن الفرد ووحيدة (بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم رهيب مرعب) تحتاج الى مجاورة « انت » جبارة ، وكلما كان العقل اوهن واضعف ، كانت حاجتها الى هذه المجاورة اشد لجاجـــة والحاحاً . وهنـا يكمن المغزى النهائي للكاهن الغربي ، الذي ارتقي به ابتداء بعام ١٢١٥ ورفع فوق بقيـــة الجنس البشري بواسطة سر السياحة المقدس ، وطابعه الذي لا يندرس او يطمس . فهو كان يداً يستطيع بواسطتها حتى افقر التعساء ان يتحسس الله ويدركه . وهذا الرباط المنظور باللانهائي هو الذي دمرته البروتستنتية وكان باستطاعة النفوس القوية ، وقد استطاعت ان تستعيد هـــذا الرباط لذواتها ، لكنه فقد تدريجيـا بالنسبة للنفوس الاضعف . وبالرغم من ان المعجزة الباطنية كانت بالنسبة لبرنارد معجزة ناجحة بحد ذاتهـا ، لكنه لا يحرم الآخرين من الوسيلة الاشد رفقاً ، وذلك لأن نورانيـة نفسه بالذات قد ارته عالم — مريم للطبيعة الحية ، يتخلل كل شيء ويكتنفه ، وقريبا دائما من الكل ،

ويد دوما يد العون والمساعدة للكل . اما لوثر الذي عرف فقط نفسه ولم يعرف الناس ، فانه قد اقام البطولة المفترضة مقام الضعف الواقعي . فالحياة كانت في نظره معركة يائسة ضد الشيطان ، معركة طالب كل انسان ان يشترك فيها . وكل انسان خاض غمراتها ، انما خاضها منفرداً وحيداً .

لقد دمر الاصلاح الديني الجانب المشرق والمواسي من الاسطورة القوطية — فألغى مذهب مريم ، وتبجيل القديسين ، والذخائر النفيسة والحج والمزارات والقداس . لكن اسطورة الشيطانية ومهارة الساحرات بقيت واستمرت ، وذلك لانهما كانتا تجسيما للتعذيب الباطني وسبباً له ، وقد ارتقى التعذيب اخيراً فبلغ منتهى الرعب والهلع والفزع . وكانت المعمودية في نظر لوثر ، تعويذة على الاقل ، ومرأ مقدسا صحيحا لتحريم الشيطان او لعنـــة . وقد نشأت ونمت آداب بروتستنتية مجردة ضخمة ووفيرة عن الشيطان . ولم يبق من تراه اللون القوطي ووفرتـــه سوى اللون الاسود ، ولم يبق من فنونه ، سوى الموسيقى وخاصة موسيقى الأرغن Organ . ولكنه نشأ مكان عالم الضوء الاسطوري ، الذي لم يستطع ايمان عامة الناس ان يتنازل بعد كل شيء قربه عن المعين العضود ، عنصر اسطورة المانية غابرة . وقد دخل هذا العنصر دخولا خفياً مستسراً الى حد جعل الناس لا يتحققون حتى هذا اليوم من اهميته الحقيقية بعـد . فتعبيرا « الخرافة الشعبية » و « العادة العامة » هما تعبيران لا يفيان بالمراد ، فانها والحق لاسطورة حقة هي تلك التي تلتصق بالاعتقاد الراسخ بوجود القزعات والغيلان والجنيات وارواح المنزل والسحب الكاسحة لما لا اجسام لها ، وانه لمذهب حق ، هو ذلك الذي يشاهد من خلال الطقوس والتقدمات والتعاويذ والتوسلات التي لا تزال تمارس برهبة تقية ورعة . وعلى كل حال فان الخرافة قد حلت ، دون أن يلحظ ذلك احد ، محـــل اسطورة مريم : فلقد اصبحت مريم تدعى الآن السيدة هولدي ، وظهر حيث كان القديسون يقفون فيما مضى ، ايكارت الامين . اما ما نشأ بين الشعب الانكليزي فانه كان شيئا ما كان قد سمي منـذ طويل زمن

بفتيشية « الكتاب المقدس » « Bible — fetishism » ان ما كان ينقص لوثر هو عين ترى الوقائع وقوة تنظيم عملي — وهذا النقص هو نكبة خالدة بالنسبة لالمانيا . فهو لم يسر بعقائده لتصبح منهاجا واضحاً ، ولم يقد الحركة العظمى ولم يختر هدفها . وكلفن خليفته العظيم هو الذي حقق كلا هذين الامرين . فبينما كانت الحركة اللوثرية تتقدم دون ما قائد في اوروبا الوسطى ، كان كلفن يرى في حكمه في جنيف نقطة انطلاق لاخضاع العالم منهاجياً لبروتستنتية عالجها الفكر دون تردد او تلعثم حتى نتائجها المنطقية . ولهذا السبب اصبح هو وحده قوة عالمية ، ولهذا السبب ايضا اصبح الصراع الحاسم بين روح كلفن وروح ليولا هو الذي سيطر ، ابتداء بالارمادا الاسبانية فما بعد ، على السياسة العالمية في الحقبة الباروكية ، وعلى الصراع على السيادة البحريـــة . فبينما كان الاصلاح الديني ومناهضته يتصارعان في وسط اوروبا على بعض مدن امبراطورية صغيرة ، او على كانتونات سويسرية قليــــلة فقيرة ، كانت كندا ومصب الغانج والكاب والمسيسبي مسارح لقرارات عظمى اختصمت حولها وقاتلت فرنسا واسبانيـــا وانكلترا وهولنـــدا من اجلها حتى بلغت بها نتائجها المهودة . وكان المنظمان العظيمان (كلفن وليولا — المترجم) للدين المتأخر زمناً ابداً حاضرين وابـداً يقاوم الواحد منهما الآخر .

- ٥ -

ان الابداع العقلاني للمرحلة المتأخرة ، لا تبـــدأ مع ، بل بعد الاصلاح الديني . والعلم الحر هو اشد انجازاتها نموذجية . فالتعلم حتى في نظر لوثر كان « خادمة اللاهوت او وصيفتها » ، وقد امر كلفن بحرق المفكر الحر الدكتور

سيرفيت Servet . ولقد احس فكر الربيع الحضاري - الفاوستي منـــه والمصري ، الفيـــدي والاورفي - برسالته في ان يكون تبريراً للايمان بواسطة النقد . واذا لم ينجح النقد ، فعندئذ يجب ان يكون المنهاج التنديدي خاطئاً . فالمعرفة كانت هي الايمان المبرر ، وليس الايمان المناقش .

والآن فان القوى التنديدية لعقل المدنية قد اصبحت ضخمة الى ذاك الحد ، حيث لم يعد هذا العقل يقنع بالتأكيـد والاستتباب ، بل يتوجب عليه ان يجرب ويتمن . وغدا الحزين من المحتملات ، وخاصة ذاك الجزء منه الذي كان المرء يتلقاه بواسطـــة الفهم وليس بواسطة القلب ، الهدف الاول الواضح للنشاطات التشريحيـــة . وهذا ما يميز ربيـع الفلسفة الكلامية من فلسفة - الواقعة للفكر الباروكي - كما ويميز الافلاطونية الجديدة من الفكر الاسلامي ، والفيدية من الفكر البرهمي ، والاورفية من الفكر ما قبـل السقراطي . فالسببية الدنيوية (كما قد نقول) للحياة الانسانية ، ومحيط العالم ، وعملية معنى المعرفة ، تصبح مشكلة . وقد قاست الفلسفة المصرية للمملكة الوسيطة قيمة الحياة وفق هـذا المفهوم ، وكانت تشابهها ، بكل ترجيح ، الفلسفة ما قبل الكونفوشسية المتأخرة زمنا في الصين ابتداء بعام ٨٠٠ حتى عام ٥٠٠ ق. م. ولم يبق سوى الكتاب المنسوب لكوان - تسي (قرابة ٦٤٥) هو الذي يعطينا فكرة معتمة كلية من هذه الفلسفة ، ولكن الاشارات ، بالرغم من انها خفيفـة طفيفة ، هي علامات تشير الى ان القضايا الابستمولوجية والبيولوجية قد احتلت مركز الثقـــل في الفلسفة الصينية الاصيلة الوحيدة والتي هي اليوم مفقودة تماماً .

ويقف العلم الطبيعي لوحده داخل الفلسفة الباروكية . ولا تمتلك اية حضارة اخرى اي شيء مماثل له ، ولا شك ان هذا العالم يجب ألا يكون منذ بدايتـه « خادماً للاهوت » او « وصيفا له » بل انما كان خادما لارادة القوة التقنية ، وقد نسق نحو هذه الغايـة رياضياً وتجريبياً معا - وهو بأسسه كل اسسه ميكانيكا

عمليـــة . ولما كان هذا تقنية اولاً ، ونظرية ثانياً ، لذلك يجب ان يكون قديما قدم الانسان الفاوستي نفسه . وبناء على ذلك فنحن نجـــد ، حتى في عام ١٠٠٠ ، اعمالاً تقنية ذات طاقة تركيب عجيبة مذهلة . وفي وقت مبكر كالقرن الثالث عشر ، كان روبرت غروستيستي Robert Grosseteste يعالـــج الفراغ بوصفـــه وظيفة ضوء . ولقد كتب بتروس بـــيريغرينوس Petrus Peregrinus في عام ١٢٨٩ افضل نبـــذة بنيت على التجارب عن المغنطيسية والتي ظهرت قبل جلبرت (١٦٠٠) . وقد اوجد روجر بيكون ، تلميذ كل من الآنفي الذكر ، نظرية علمية طبيعية المعرفة لتقوم كقاعدة لأبحاثه التقنية . ولكن الجرأة في اكتشاف انظمة الترابط الديناميكية ذهبت الى مدى ابعد من ذلك ايضاً . فقد لحت مخطوطـــة في عام ١٣٢٢ الى المنهاج الكوبرنكي (نسبة لكوبرنيكوس) ، وبعد عقود قليلة من السنين من هـــذا العام قام اوكامستيو باريس، بوريدان والبرت فون سكسوني واوريسم بتطوير هذا المنهاج رياضياً . ويجب ألا نخـــدع انفسنا فيما يتعلق بقوة الدافع الاساسية لهذه الاستقصاءات والاستكشافات . لقد كان باستطاعة الفلسفة التأملية المجردة ان تستغني الى الابد عن التجربــة ، لكن الرمز الفاوستي للآلة لا يستطيـع ذلك ، فهذا الرمز قد دفع بنا وبالحاح الى التراكيب الميكانيكية حتى في القرن الثاني عشر وجعل من مبدأ الحركة الدائمة فكرة بروميثيوس للذهن الغربي . فان الشيء الاول بالنسبة لنا هو دائما وابدا الفرضية العلمية العاملة – وهي النوع كل نوع ثمرة – الفكر التي لا معنى لها او مفهوم في نظر الحضارات الاخرى . وانهـــا والحق لواقعة مذهـــلة (يتوجب ان نعتاد عليها على كل حال) كون فكرة الاستغلال الفوري ، وفي التطبيق ، لاية معرفة بالعلاقات الطبيعية التي يمكن اكتسابها ، فكرة غريبة عن كل نوع من انواع الجنس البشري ما عدا الفاوستي منه (وما عدا اولئك الناس كاليابانيين واليهود والروس الذين اصبحوا اليوم تحت السيطرة العقلانية للمدنية الفاوستية) ففكرة الفرضية العلميـــة العاملة بالذات

تحتوي دون ريب على عرض ديناميكي للكون . وكانت النظريـة العلمية ، اي الرؤيا التأملية للواقعة ، في نظر اولئك الرهبان المتسائلين بدهاء ومراوغة ، امراً ثانوياً فقط ، ولما كانت هذه النظرية بالذات ثمرة من ثمار العاطفة التقنية ، لذلك افضت بهم فوراً ، ودون شعور منهم ، الى المفهوم النموذجي في فاوستيته ، ألا وهو المفهوم القائل بان الله هو الاستاذ الاعظم للآلة ، الذي يستطيع ان ينجز كل شيء يتجرأون فقط هم انفسهم وفي عجزهم، على تمنيه . واصبح، بصورة لاشعورية، عالم الله قرناً بعد قرن ، يشابـــه اكثر فاكثر الحركة الدائمة . وغدا ، بصورة لا واعية ايضاً ، التفرس في الطبيعة يزداد حدة على حدة في مدرسة التجربــــة والتقنية ، وازدادت الاسطورة الغوطية ظلالية فوق ظلالية ، وتطورت مفاهيم الفرضيات العلمية الرهبانية العاملة ابتداء من غليليو فما بعد حتى اصبحت الروح التنديدية المضادة للعـــلم الحديث ، من التلاطمات ، Collisions والحقول ، والجاذبيـــة وسرعة الضوء و « الكهرباء » التي امتصت في صورة عالمنـــا الالكترودناميكية اشكال الطاقة الاخرى ، وبذلك بلغت مرتبة ميتافيزيقية من وحدانية الله . وهذه هي المفاهيم الموضوعة وراء القوانين الرياضية كي تمنحها رؤية اسطورية بالنسبة للعين الباطنية كما وان الارقام نفسها هي عناصر تقنية ، عتلات ولوالب واستباعات مختلسة لاسرار العالم . ولم يكن فكر ــ الطبيعـــة الكلاسيكي ــ وغيره من افكار ــ الطبيعة لحضارات الاخرى ــ يتطلب ارقاما ، وذلك لأنه لم يكن يطمح او يجاهد لحصول على القوى . ولم تكن للرياضيات المجردة لكل من فيتاغورس وافلاطون اية علاقـة ، مهما كان نوعها ، بنظرات ديموكريتوس وارسطو الى الطبيعة .

وكما ان العقل الكلاسيكي قد شعر بان تحدي بروميثيوس للآلهة على انـــه « Hybris » كذلك فان عقلنا الباروكي احس بان الآلة هي من صنع الشيطان . فروح الجحيم قد افشى للانسان سر السيطرة على ميكانيكية العالم ، وحتى سر

نفسه القيام بدور الله . ومن هنا نشأت كل هذه الطبائع الكهنوتية الصافية التي تعيش بكليتها في عالم الروح ولا تترقب أي شيء من « هذا العالم » — ومن هنا كان ايضاً الفلاسفة المثاليين ومقلدي الكلاسيكية والانسانيين وحتى نيتشه — لا يملكون شيئاً غير العداوة الصامتة للتقنية .

ان كل فلسفة متأخرة زمناً تحتوي على هذا الاحتجاج التنديدي على بداهة الربيع الحضاري اللاتنديدية . ولكن تنديد العقل هذا الواثق من تفوقه الخاص يؤثر ايضاً في الايمان نفسه ، ويبعث ذاك الانجاز العظيم في ميدان الدين الذي هو خاصة من خصائص المرحلة المتأخرة — وكل مرحلة متأخرة — واعني بهذا الانجاز حركة التطهير Puritanism .

ويظهر التطهير نفسه في جيش كرومويل واحراره الثابتين على الكتاب ثبوت الطود ، والذين كانوا ينشدون المزامير ويرتلونها وهم منطلقون على صهوات خيولهم الى المعركة ، ويتبدى ايضا في صفوف الفيثاغوريين الذين دمروا ، بجدية الجيل واجبهم المريرة مدينة سايباريس Sybaris ووصموها الى الابد بانها مدينة معدومة الاخلاق ، وفي جيوش الخلفاء الاوائل الذين لم يخضعوا دولاً فقط ، بل اخضعوا نفوسا ايضاً . فالفردوس المفقود لملتون ، والكثير من صور القرآن ، والقليل مما نعرفه من الفيثاغورية ، جميع هذه تبلغ الشيء ذاته . فهي حماسات تنبع من روح واعية صاحية وقور ، ومن توترات باردة وتصوف جاف وانتشاء روحي متحذلق . ولكن مع ان هذه هي حالها ، فان هناك ورعاً وحشيا يختلج داخلها مرة اخرى . فكل ما تستطيع المدينة ان تنتجه من باطنية متسامية بعد حصولها على السيطرة غير المشروطة على نفس التربة ، قد تركز هنا وتكثف بنوع من رعب وارهاب ، خشية ان يضطر ليبرهن على انه غير حقيقي وفان ، وهو بالمثل نافذ الصبر لا يرحم ولا يتسامح . فالتطهير تنقصه — لا في الحضارة الغربية فقط بل في جميع الحضارات ايضا —

تلك الابتسامة التي اضاءت الدين واثارتـــه في ربيع الحضارة – وربيع كل حضارة – وتعوزه تلك اللحظات من الفرح العميق في الحياة، ويفتقر الى مزاح الحياة ومرحها. فنحن لا نجـد في القرآن اي شيء من تلك الغبطة الهادئة التي كانت تومض مراراً وتكرارا في ربيـع الحضارة المجوسية ، من خـلال قصص طفولة يسوع ، او من خلال Gregory Nazianzen ، كما ولا نجد شيئا لدى ملتون من بهجـــة ترانيم القديس فرنسيس الصريحة الواضحة . بل نشعر بجدية بمتة تخيم فوق العقل الجانساني Jansenist لبورت رويال ، وفوق ذوي الرؤوس المستديرة المرتدين الثياب السود والذين استأصلوا شأفـــة « انكلترة شكسبير المرحة » خلال عدد قليـل من السنين – انها والحق قصة مدينة سايباريس مرة ثانية والآن شنت لأول مرة المعركة ضد الشيطان الذي أحس كلياً بهربـــه جسمانياً ، بحميا مريرة وهيجان اسود ولقـــد احرق في القرن السابع عشر ما يزيد على المليون من الساحرات – وبالمثل في الشمال البروتستنتي والجنوب الكاثوليكي وحتى الطوائف في اميركا والهند . زد على ذلك أن الفقه الاسلامي بعقلانيته الصلبة بالغ في جديته وشديد حتى الخشونة ، وكذلك ايضا دستور وستمنستر للايمان المسيحي الموضوع عام ١٦٤٣ ، والاخلاقيـــة الجانسنية (Jansen'a Augustinus, 1640) – كما وان الضرورة الباطنية استوجبت ان تكون هناك حركة تطهير بالنسبة لميدان ليولا .

ان الدين هو ميتافيزيقا خبرت خبرة حية ، لكن رفاق ما هو « المي » كما دعا انفسهم احرار « كرومويل » والفيثاغوريون وتلامذة محمـد ، لم يخبروها جميعاً وعلى حد سواء باحاسيسهم بل خبروها بصورة اوليـة بوصفها مفهوماً . وبارشفا Parshva الذي اسس قرابة عام ٦٠٠ ق. م. ملة « غير المقيدين » على ضفاف الغانج قد علم كما علم المطهرون من ابناء زمنه ، ان الخلاص لا يتم بواسطة القرابين والحقوق ، بل فقط بواسطة معرفة هوية آتمان وبراهمان Brahman .

وفي جميع شعر التطهير حلت محل الرؤى القوطية القديمة روح مجازيـــة طليقة العنان لكنها روح ركيكة تافهة كذلك . فالمفهوم داخل الشعور الواعي لهؤلاء النساك هو القوة الحقيقية . ومصارعات باسكال كانت تدور حول المفاهيم ، ولم تكن كمصارعات المعلم ايكارت تستهدف الاشكال . ولقد احرقت الساحرات لأنه قـد برهن على انهن ساحرات ، ولم يحرقن لأنهن شوهدن محلقات في الهواء ليلاً ، وقد استعمل الفقهاء البروتستانت مطرقـــة الساحرات للدومنيكان لانها كانت مبنية على المفاهيم . وقد تجلت مادونات العصور القوطية المبكرة استجابة للمتضرعين اليهن ، ولكن لم يشاهد اي انسان ابداً مادونات برنيني Bernini . فلقد وجدن لانه قد برهن على وجودهن – وقد نشأ حماس ايجابي لهذا النوع من الوجود . وقد قام ملتون ، السكرتير العظيم لدولة كروموبل ، بالباس المفاهيم اشكالاً ، كما ويستحضر بانيان Bunyan ميثالوجيا كاملة من مفاهيم الى فاعليـة اخلاقية – مجازية . ومن هنا تفصلنا فقط خطوة واحدة عن « كنت » الذي اتخذ الشيطان في اخلاقيـــة كنت المفاهيمية الشكل النهائي له بوصفه الشر اساساً وجوهراً .

يتوجب علينا ان نحرر ذواتنا من سطوح التاريخ – وعلينا بصورة خاصة ان نلقي جانباً بالاسوار الاصطناعية التي حبست منهاجية العلوم الغربية التاريخ داخلها – وذلك قبل ان نرى ان فيثاغور ومحمد وكروموبل انما يتجسدون الحركة الواحدة ذاتها في الحضارات الثلاث .

ان فيثاغوروس لم يكن فيلسوفاً . واستنادا الى جميع اقوال من هم قبـل سقراط ، فانـه كان قديساً ونبياً ومؤسساً لمجتمع ديني – متعصب متزمت ، فرض حقائقه على الناس المحيطين به بكل وسيلة سياسية وعسكريـة . فتدمير كروتون لسايباريس – وهذا حدث نستطيع ان نثق من انـــه بقي في دائرة التاريخ فقط لانه يمثل ذروة حرب دينية وحشية – كان انفجارا من انفجارات

البغضاء ذاتها التي لم تر في شارل الاول وفرسانه المرحين خطأ عقائديا فقط ، بل رأت فيه ايضاً نزعة عالية كأنها شيء ما يجب ان يتلف جذورا واغصاناً . فلقد شربت اسطورة مصفاة ومدعمة مفاهيمياً ومتحدة مع نواميس الاخلاقية صارمة ، الفيثاغوريين بالاعتقاد بانهم سيبلغون الخلاص قبل جميع الناس . وقد سطر على اللوائح التي وجدت في طهوري Thurii وبتيليا Petelia ، والتي كانت توضع في كف الموتى من المؤمنين الفيثاغوريين وعد الله وتأكيده التاليين :

« ايها السعيد المبارك ، لن تكون بعد الآن انساناً فانياً بل الهاً . » وهذه هي القناعة ذاتها التي كان يوحي بها القرآن لجميع المؤمنين الذين يخوضون غمار الحرب المقدسة ضد الكافرين — ويقول حديث للنبي : ان رهبانية الاسلام هي الحرب الدينية — وهذا الشيء هو الذي ملأ قلوب جيوش كرومويل عندما شتتوا « شمل فلسطيني الملك وعمالقته » في معركتي مورستون مور وناسيبي Naseby .

ان الاسلام لم يكن دين الصحراء بصورة خاصة اكثر من كون ايمان زفنغلي دينا للجبال العالية بوجه خاص . والصدفة وحدها وليس اكثر منها ، هي التي جعلت حركة التطهير ، التي كان العالم المجوسي ناضجاً لتلقيها ، تنطلق على يدي رجل من مدينة مكة ، وليس على يدي يعقوبي وذلك لانه كانت تقوم في شمالي الصحراء العربية دول الغساسنة المسيحية ، ودول اللخميين ، وقد شهد الجنوب السبأي حروباً دينية دارت رحاها بين المسيحيين واليهود واتسعت مداها فشملت عالم الدول الممتد من اسوان حتى الامبراطورية الساسانية . ولم يحضر مؤتمر الامراء في مأرب اكثر من وثني واحد ، وعقب هذا المؤتمر بمدة قليلة اصبح الجنوب العربي تحت سيطرة حكومة فارسية — اي مازادية . وكانت مدينة مكة جزيرة صغيرة في محيط الوثنية العربية القديمة ، وتقع في وسط عالم من اليهود والمسيحيين ، وكانت مجرد اثر صغير قد لفم منذ زمن طويل بفكر الاديان

للجوسية العظمى . والقليل من الوثنية الذي تسرب الى القرآن قد طرد فيا بعد شرحاً وايضاحاً بواسطة تفاسير السنة وعقولها السوريـــة — المابين النهرينية . والاسلام ، كان في منتهاه ، ديناً جديداً فقط الى الحد ذاته الذي كانته اللوثرية كدين جديد . فهو كان في الواقع الاسهاب في الاديان العظمى والمبكرة زمنا . وبالمثل فان امتداده او توسعه لم يكن (كما يخيل لبعضهم حتى الآن) نتيجـــة « لهجرة شعوب » انطلقت من الجزيرة العربية ، بل جاء نتاجاً لاكتساح المؤمنين به المتحمسين ، هذا الاكتساح الذي كان بمثابة انهيار كتل من الثلوج ، حمل معه المسيحيين واليهود والمازاديين ، وانتظمهم فورا في صفوفـــه الامامية بوصفهم مسلـــين شديدي الايمان . فالبربر مواطنو القديس اوغسطين هم الذين فتحوا اسبانيا ، والفرس هم الذين انطلقوا من العراق فبلغوا اوكسوس (جيحون). فعدو الامس قد اصبح رفيق السلاح في الصفوف الامامية . ومعظم العرب الذين هاجموا القسطنطينية عام ٧١٧ لأول مرة كانوا قد ولدوا مسيحيين . وقرابة عام ٦٥٠ اختفت فجأة تماماً الآداب البيزنطية ، ولم يلاحظ حتى الآن احد المغنى الاعمق لهذه الواقعة — اذ ان الآداب العربية قد استولت على زمام المبـادرة . ولقد وجدت الحضارة المجوسية اخيراً تعبيرها الحقيقي في الاسلام ، وبهذا اصبحت حقاً الحضارة العربية المتحررة منذ الاسلام فصاعداً من كل ما لعبودية التشكل الكاذب من قيود واغلال . فحركة تحطيم الصور والتماثيل التي قادها الاسلام ، والتي حضر لها منذ زمن طويل قبل الاسلام اليعاقبة واليهود ، قد انطلقت فبلغت القسطنطينية وحتى ما وراءها ، حيث كان السوري ليو الثالث « ٧١٧ — ٤١ » قد انشأ هذه الحركة التطهيرية للملل الاسلامية — المسيحية — البولشية قرابة ٦٥٠ والبغوملسية فيا بعد — وارتفع بها الى ذرى السلطان والسيادة .

والشخصيات الكبرى من بطانـــة محمد كأبي بكر وعمر هما من الاقرباء الاقربـــين لامثال بايم Pym وهامبدن Hampden من ابطـال الثورة الانكليزية ، ونحن سنرى هذه العلاقة من القرابة اشد تماسكا وقربى لو عرفنا اكثر

ما نعرف عن الاحناف ، المطهرين العرب قبل وقرابة عصر النبي . فجميع هؤلاء قد اكتسبوا من الجبرية الضمانــة بانهم مصطفو الله وتمجيد العهد القديم للبرلمان ولمسكرات الحربة والاستقلال ــ الذي ترك وراءه في العديــد من العائلات الانكليزيـــة ، حتى القرن التاسع عشر ، الاعتقاد بان الانكليز يتحدرون من اصلاب العشرة قبائل المفقودة من اسرائيل ، وانهم امة من القديسين قدر لهم الله ان يحكموا العالم ــ اقول ان ذاك التمجيد قـــد سيطر ايضاً على المهجرات الى اميركا التي بدأت بالآباء الحجاج لعام ١٦٢٠ . وقد شكل ذاك الذي يجوز لنا ان ندعوه بالدين الاميركي المعاصر ، واصل واحتضن تلك الميزة التي تعطي الانسان الانكليزي حتى الآن عدم مبالاته السياسية الخاصة ضماناً هو ديني في جوهره ، وتضرب جذوره في تربة الجبرية . ولقـــد مارس الفيثاغوريون ايضاً السلطان السياسي « وهـــذا امر لم يسبق له مثيل في التاريخ الديني للعالم الكلاسيكي » ومارسوه بغية ترقية غاياتهم الدينية ومناصرتها ، وقد سعوا سعياً حثيثاً ان يمدوا بمجالات حركة تطهيرهم من مدينة الى اخرى . ونحن نجد في كل مكان آخر ومذاهب فردية تسود في دول فردية ، وقد ترك كل واحد منها الآخر حراً في واجباته الدينية ولم يهتم بشأنه او يبالِ ، ولكننا هنا ، وفقط هنا نجد طائفة من القديسين الذين بزوا في طاقتهم العملية العقائد الاورفية القديمة وتجاوزوها ببعيد ، كما بزت الاستقلالية المقاتلة وفاقت روح حروب الاصلاح الديني .

ولكن في تربة التطهير تكمن بذرة العقلانية منذ زمن ، وبعد ان يطوي الزمان عددا قليلا من الاجيال المتحمسة ، وتنبجس هذه البذرة وتسيطر العقلانية في كل مكان . وهذه هي الخطوة من كرومويل الى هيوم . ولا تصبح المدن بصورة عامة ، ولا حتى المدن الكبرى ، بل انما يصبح فقط عدد قليل من المدن مسرحاً للتاريخ العقلاني ــ اثينا سقراط ، وبغداد العباسيـــة ولندن وباريس القرن الثـــامن عشر . ويصبح « التنوير » كليشة العصر . وتنبثق الشمس ــ

. ولكن ما هو ذاك الشيء الذي يجـــلي السماء من الوعي التنديدي ليمهد الطريق للشمس ؟

ان العقلانية تدل على الايمان بمعلومات الفهم التنديدي « المعلومات الصادرة من « العقل » » وحده . لقد كان بمقدور الناس ان يقولوا في الربيـع الحضاري « Credo quia absurdom » وذلك لأنهم كانوا متأكدين بان الممكن ادراكه وغير الممكن ادراكهما معاً جزءان ضروريان من العالم ــ فالطبيعة التي صورها غيوتو والتي اغرق فيها المتصوفون انفسهم ، يستطيع العقل ان ينفذ اليها فقط الى الحد الذي تسمح له بالالوهية به . ولكن الآن غيرة خفية تلد بفكرة اللامعقول ــ الذي بوصفه غير قابل للادراك ، هو لذلك معدوم من كل قيمة . وقد يسخر منه جهاراً على انه خرافة او خزعبلة ، او يهزأ به سراً بوصفه ميتافيزيقا .

فالفهم المقرر تقريرا تنديدياً هو وحده الذي يمتلك قيمة . وما الاسرار سوى شواهد على الجهل ودلائل على الجهالة . ويدعى الدين الجديد العديم الاسرار في ارقى امكاناته بالحكمة ، وكهنته هم الفلاسفة ، واشياعه هم الناس « المثقفون » . والدين القديم ، على حد زعم ارسطو ، هو امر لا يستغنى عنه بالنسبة لغير المثقفين وحدهم ، ونظرته هذه هي نظرة كونفشيوس وغوتاما بوذا وليسنغ وفولتير . والناس يبتعدون عن الحضارة « عائدين الى الطبيعة » لكن هذه الطبيعة ليست شيئا ما قد خبر خبرة حية ، بل انها شيء ما برهن عليـــه ، شيء ما ولد من العقل ، وهو بمتناول العقل فقط ــ انها طبيعة لا وجود لها اطلاقا في نظر الفلاح ، طبيعة لا يرهبها الانسان ابدا ، لكنه يوضع فيها فقط في حال من الحساسيـة . فالدين الطبيعي ، والدين العقلاني والاعتقاد بالله وحده وانكار الوحي والانظمة الدينية Deism ــ كل هذه ليست ميتافيزيقا معاشة ، بـل انها ميكانيكا مدركة دعاها كونفوشيوس « بقوانين السماء » وسماها الميليتيون بـ . . . . لقد كانت الفلسفة فيا مضى خادمة للتدين المتسامي ووصيفة له ، ولكن الآن تأتي الحساسية ،

ولذلك يتوجب على الفلسفة ان تصبح علمانية كالابستمولوجيا ونقد الطبيعة والقيم . ولا شك انه كان هناك شعور بان هذه الفلسفة ، حتى في هذه الحال ، لم تكن شيئاً سوى دغماتية مخففة ورقراقة ، وذلك لان الفكرة القائلة بان المعرفة المجردة كانت امراً ممكناً بالذات ، فكرة تشتمل على اعتقاد . ولقد حيكت المناهج من بدايات مضمونة ظاهرياً ، ولكن في المدى الطويل كانت النتيجة تتمثل بالقول « بالطاقة » بدلاً من « الله » و « بحفظ الطاقة » بدلاً من «السرمدية». ونحن نجد في جميع العقلانية الكلاسيكية الاولمبوس ، وفي العقلانية الغربية دوغما الاسرار المقدسة . وهكذا فان فلسفتنا الغربية تتأرجح يمنة ويسارا بين الدين والعلم التقني ، وهي تعرف على هذا الشكل او ذاك وذلك حسبما يكون واضع التعريف ، أكان لا يزال في هذا الواضع بعض من اثر كهنوتي ، ام كان خبيراً مجرداً وتقنيا في الفكر .

ان النظرة الى العالم Weltansschauung ، هو تعبير مميز خاص لشعور واع منار موجه من الفهم التنديدي ويتطلع حوله في عالم – ضوء لا الله له او فيه ، وحينما يجد ان مدركات الحس لا تتلاءم والعقل البشري السليم ، عندئذ يعامل الحس كأنه « امرأة سليطة كاذبة » . اما ذاك الذي كان في احد الايام اسطورة – اي لب الواقعي – قــد اخضع الآن لمناهج مــا تعرف بالـ Euhemerism [1] . ولقد قام يوهيميروس العلامة قرابة عام ٣٠٠ ق. م. « وفسر » الالهة الكلاسيكية للجمهور قائلا بان هذه قــد خدمت فيما مضى

---

(١) Euhemerism : النظريــة التي اوجدها Euhemerus وهو فيلسوف من جزيرة صقلية عاش في القرن الرابع ق. م ، وقال في نظريته بان آلهة الميثالوجيا كانت اناساً فانين ألهوا .

– المترجم –

بصورة جيدة كتلك ، وهذه العملية تحدث على هذا الشكل او ذاك في كل عصر من « عصور التنوير » . ولدينا نحن تفاسيرنا اليوهميروسية : فالجحيم هو ضميرنا المذنب ، والشيطان هو الرغبة الشريرة ، والله هو جمال الطبيعة ، ونحن نشاهد النازع ذاته يعلن عن نفسه وذلك حينما نرى ان نقوش القبور الاتيكية قرابة عام ٤٠٠ لا تستنزل الهة — المدينة اثينا بل الهة « ديموس » — وهي بهذه المناسبة قريبة من الهة العقل اليعاقبة . وكونفوشيوس يقول « السماء » بدلاً من شانغ — تي ، وهذا القول يعني انه يؤمن فقط بقوانين الطبيعة . وكان « تجميع » الكونفوشيون للكتابات الدينية الصينية وتبويبهم لها عملاً جباراً من اعمال اليوهميروسية ، حيث اتلف واقعاً جميع الكتب الدينية القديمة تقريباً بكل ما للائتلاف من معنى حرفي ، اما فضلاتها فأخضعت لتزوير عقلاني . ولو كان بامكان المتنورين من قرننا الثامن عشر ، ان يقوموا بما قام به اولئك الكونفوشيون ، فانهم كانوا لاشك قد عالجوا تركتنا القوطية بالاسلوب ذاته الذي عالج به اولئك التركة الصينية . فكونفوشيوس سداة ولحمة ينتمي الى « القرن الثامن عشر » الصيني . ويقف لاوتسي (الذي كان يحتقر كونفوشيوس) في منتصف الحركة الطاوية التي تجلت عليها بعض سمات البروتستنتية والتطهير والزندقة بدورها ، وكلتاهما قد نشرتا اخيرا اسلوب عالم عملي يرتكز على نظرة ميكانيكية متناً وحاشية الى العالم . ولقد طرأت على كلمة Tao في المرحلة المتأخرة زمناً في الصين التبدلات المستمرة ذاتها في محتواها الاساسي ، وفي الاتجاه الميكانيكي ذاته ، وكذلك كانت حال كلمة « لوغوس » في تاريخ الفكر الكلاسيكي ابتداء بهرقليط حتى بوسيدونيوس ، وكما كانت حال كلمة « الطاقة » في المرحلة الواقعة بين عصر غاليليو وعصرنا نحن اليوم . فذاك الذي كان فيما مضى اسطورة مقولبة بقالب عظيم ، وكان مذهباً ، يدعيان في هذا « الدين » دين الناس المثقفين « طبيعة وفضيلة — ولكن هذه الطبيعة هي نظام ميكانيكي معقول ، وهذه الفضيلة هي المعرفة . وكونفوشيوس وبوذا ، وسقراط وروسو

جميعهم متفقون على هذا الامر . فلدى كونفوشيوس القليل من الصلاة ، او التأمل في الحياة بعد الموت. ولكن ليس لديه اي شيء من الوحي او الالهام او الاعلان الالهي . فان يشغـــل المرء نفسه كثيراً بالقرابين والطقوس ، فعندئذ سيوصم بانعدام الثقافة وباللامعقوليـــة ، وغوتاما بوذا ومعاصره ماهافيرا Mahavira مؤسس طائفة الجانتس (الهندية) Jainism — وقد تحدر كلاهما من العالم السياسي للفانج الاسفل وشرقاً من ميـدان الحضارة البرهمية — اقول ان هذين لم يعترفـا ، كما يعرف كل انسان ، بفكرة الله ولا بالاسطورة ولا بالمذهب . والقليل من تعاليم بوذا الحقيقية يمكن ان تثبت صحة انتسابه اليـه — وذلك لانه كله يتبدى بالوان دين — الفلاحين الذي جاء فيما بعد وعمد باسم بوذا — ولكن هناك فكرة من فكره المتعلقة « بالنهوض المشروط » ، والتي لا ترقى الى صحة انتسابها اليه الشبهات ، وهذه هي فكرة اصل الالم الناشىء عن الجهل — اي الجهل « بالحقائق النبيـلة الاربـع » . فالنرفانا ، بالنسبة لهم ، هي انعتاق عقلاني مجرد ، وتنطبق تماما على الاكتفاء الذاتي « Autarkeia » والرفاه Eudaimonia او الغبطة لدى الرواقيين . انها (اي النرفانا — المترجم) ذاك الحـال من الفهم والشعور الواعي اللذين لا تعود توجد معها كينونة .

ويكون المثل الاعلى للمثقفين ، في هذه المراحـــل ، هو الحكيم Sage . فالحكيم يعود الى الطبيعة — الى فرني Ferney او ارمون فيـــل ، الى الحدائق الاتيكية او الغابات الهندية — وهذه هي اشد الوسائل عقلانية لكون المرء ابناً لمدينة عظمى . والحكيم هو الانسان ذو الوسيلة الذهبيـة . ونسكه يقوم على تخفيض فطين لقيمة العالم لصالح التأمل . فحكمة عصر التنوير لا تتدخل ابداً في المواساة والراحة . والاخـــلاق مع الاسطورة العظمى كي تسندها ، هي دائما تضحية ، ومذهب حتى الحدود النهائية للتقشف ، وحتى الموت ، ولكن الفضيلة مع الحكمة تركب ظهرها هي نوع من متعة خفية ، وانانية عقلانيـــة فوق

المرهفة . وهكذا يصبح المعلم الاخلاقي الذي يكون خارج نطاق الدين الحقيقي مادياً وما بوذا وكونفوشيوس وروسو ، بالرغم من كل نبل فكرهم المنتظمة سوى قادة المادية وعظامها ، كما وان حذلقة حكمة — الحياة السقراطية هي امر كؤود لا يغلب .

والى جانب هذه الفلسفة الكلامية (اذا جاز لنا استعمال هذه الكلمة) للعقل الصحيح ، يجب ان يكون هناك بالضرورة تصرف عقلاني للمثقفين . فالتنوير الغربي هو من اصل انجليزي ومن ابوين بيوريتانيين . وتنبع عقلانيـــة القارة الاوروبيـــة باكملها من لوك Locke . وقد نشأ في المانيا ، تبايناً والعقلانية ، الاتقياء الورعون Pietists (هرنهوت ١٧٠٠ ، وشبينر ، وفرنكه واوتنغر في فرتنبورغ) وفي انجلترا النظاميون Methodists (وسلي الذي « ايقظـــه » هرنهوت عام ١٧٣٨) . وهنا نرى لوثر وكلفن يعودان الى الحياة من جديد — اذ نظم الانكليز فوراً انفسهم واعدوها لحركة عالميـة ، بينما فقد الالمان ذواتهم داخل جمعيات المعتزلة في وسط اوربا . ونحن نجد امتداداً في الاسلام لهؤلاء في التصوف الذي هو ليس من اصل « فارسي » بل من اصل آرامي مشترك وقد انتشر في القرن الثامن وعم كامل اقطار العالم العربي . والاتقياء او النظاميون هم ايضا الوعاظ المنود العوام الذين كانوا يعظون قبـــل عصر بوذا بوقت قصير التحرر من دورة الحياة (سانسارا) بواسطة الانغماس في ذاتية الآتمان والبراهمان. ولكن لاوتسي وتلاميذه هم ايضا اتقياء او نظاميون ، وكذلك ايضاً الرهبان المتسولون الكلبيون — بالرغم من عقـلانيتهم ، والوعاظ المتجولون والمربوت الرواقيون ، والقساوسة المتزليون والمعرفون في العصور الهيلينية المبكرة زمناً . زد على ذلك ان التقى قد يسمو فيبلغ ذروة الرؤيا العقلانيـــة ، حيث يعتبر سويدنبورغ مثـــله العظيم في هذا ، كما وان التقى هو الذي خلق للرواقيين والمتصوفين عوالم كاملة من الوهم والخيال ، والذي بواسطته كانت البوذية مستعدة

لاعادة تشييد ذاتها بوصفها مهاياڤا Mehayana . وبوسع البوذية او امتداد الطاوية Taoism في دلالتيها الاصليتين يشابهان قريب الشبه توسع الطائفة النظاميـة في اميركا ، كما وان بلوغ كل منهما مرحلة نضوجـــه الكامل في فينك الاقليمين (الغانج الاسفل وجنوبي نهر يانغ – تسي كيانغ) لم يكن من ثمار الصدفـة ، اذ ان هذين الاقليمين كانا مهدي الحضارتين اللتين اشتقا منها .

- ٦ -

وبعد مضي قرنين من الزمن على ولادة حركة التطهير ، بلغ المفهوم الميكانيكي للعالم ذروته . واصبح هذا المفهوم دين العصر البالغ النفوذ والواسع السلطان . وحتى اولئك الناس الذين كانوا لا يزالون ورعين متدينـين وفق المفهوم القديم للتدين ، و « مؤمنـــين بالله » فانما كانوا فقط يخطئون في فهم العالم حيث كان شعورهم الواعي يتأمل في نفسه على صفحة مرآته . فالحقائق الدينية كانت دوماً داخل فهمهم حقائق ميكانيكية ، وكانت عادة استعمال الكلمات التقليدية وحدها هي التي تعطي بصورة عامة الطبيعة رواسب من لون اسطورة ، هذه الطبيعة التي كان ينظر اليها في الواقع نظرة علمية . ان الحضارة والابداع الديني هما دائما وابدا رديفان مترادفان . وكل حضارة عظمى تبدأ بموضوع جبـار ينشأ من الريف السابق للحضرية ، وينفذ هذا الموضوع في مدن الفن والعقل ، وينتهي بمادية نهائية في المدن – العالمية . ولكن حتى الاوتار الاخـيرة هي بصورة حازمة دقيقـة داخل مفتاح الكل . فهناك نظريات ماديـة صينية وهندية وكلاسيكية وعربية وغربيـــة ، وكل واحدة من هذه ليست سوى الحزين الاصلي من اشكال الاسطورة الذي نقي من عناصر الخبرة والرؤيا التأمليـــة ، ونظر اليه نظرة

ميكانيكية . فالكونفوشية كما ناقشها عقلانيا بانغ - تشو ، بت فيها وفق هذا المفهوم . ولم يكن منهاج اللاكاياتا Lakayata الا مدأ في اجل الاحتقار لعالم جرد من نفسه ، هذا الاحتقار الذي خاصة مشتركة بين غوتاما بوذا وماهافيرا والاتقياء المعاصرين ، الذين قد استخلصوه بدورهم من الحاد السانخيا Sankhya . وسقراط هو شبيه بوريث السفسطائيين وبالجد الاعلى للطوائف الكلبيين ، وبالمرتابين البايرهونيين Pyrrhonian (١) . وكل هؤلاء هم ظواهر تدل على تفوق عقل المدينة العظمى وسلطانه ، هذا العقل الذي انهى اللاعقلاني من الامور الى الابد ، والذي يحتقر اي شعور واع لا يزال يعرف او يعترف بالاسرار والغوامض . لقد كان الناس القوطيون يجفلون عند كل خطوة امام ما لا يسبر غوره وما يبعث المزيد من الرعب ، كما هو لا يزال معروضاً في الحقائق الدغمائية . ولكن حتى الكاثوليكي اليوم قد بلغ نقطة اصبح عندها يشعر بان هذه الدوغمات هي تفسير منهاجي لأحجية الكون . فالاعجوبة ينظر اليها اليوم على انها حادثة من مرتبة ارقى ، ويعبر احد الاساقفة الانكليز عن اعتقاده بامكانية تولد القوة الكهربائية وقوة الصلاة في منهاج طبيعي متجانس واحد . فالايمان هنا انما هو ايمان بالطاقة والمادة ، وحتى لو استخدمت الكلمات التالية : « الله » و « العالم » و « العناية الالهية » و « الانسان » .

والمادية الفاوستية هي ، ايضاً ، فريدة في نوعها ومستقلة قائمة بذاتها وفق المفهوم الأضيق لهذه الكلمة . ففيها قد بلغت النظرة التقنية الى العالم الاكتمال . فالعالم باجمعه هو منهاج ديناميكي ، صحيح ودقيق ، ومرتب ترتيباً رياضياً ، وقابل لأن يسبر تجريبية حتى اسبابه الاولى ، وان يثبت رقمياً كي يستطيع الانسان السيطرة عليه — وهذا هو ما يميز « عودتنا الخاصة الى الطبيعة » عن

---

(١) Pyrrho : مؤسس مدرسة فلسفة ارتيابية في اليونان القديمة .

— المترجم —

جميع الآخرين   فالمبدأ القائل « المعرفة هي فضيلة » مبـــدأ آمن به ايضاً كونفوشيوس وبوذا وسقراط ، ولكن « المعرفة قوة » هي شبه جملة لا تمتلك معنى الا داخل المدينة الاوربيـــة الاميركية فقط . فهنا تعني « العودة الى الطبيعة » استئصال جميع القوى التي تقف بين الذكاء العملي وبين الطبيعة ــ ففي كل مكان آخر قد قنعت المادية بان تقرر (بواسطة التأمل او المنطق ، او بواسطة ما يقتضيه الموضوع) وحدات بسيطة مفترضة يعلل عرضها السببي كل شيء دون ان يترك اية فضلة من الاسرار ، وحيث يكبح الكائن الماوراء الطبيعـــة نظراً للافتقار الى المعرفـــة . ولكن الاسطورة العقلانية العظمى ، اسطورة الطاقة والكتلة هي في الوقت ذاته فرضية علمية عاملة واسعة . فهي ترمم صورة الطبيعة بذاك الشكل الذي يمكن الانسان من استخـــدامها . « فيُمكنـــك » Mechanized عنصر المصير فيمسي تطوراً وتطويراً وتقدماً ، ويوضع داخل نقطة ثقل المنهاج ، والارادة هي عملية زلالية ، وجميع عقائد الوحدانيـــة والداروينيـــة والفلسفة الوضعية Positivism هذه ، وما لم يرق به الى الاخلاقية اللياقة او الاهلية التي هي مشغل رجال الاعمال الاميركيين والساسة البريطان والماديين ــ التقدميين الالمان على حد سواء ــ كل هذا يتضح في النهاية على انـه ليس صورة كاريكاتورية رسمها الانسان العقلاني لمبـــدأ التبرير القديم بواسطة الايمان .

ولا تكتمل المادية دون حاجتها بـين حين وآخر ، الى التفريج عن التوتر العقلاني بواسطة اخلاء السبيل امام صيغ الاسطورة ، عن طريق القيام بطقوس من بعض نوع ، او بواسطة التمتع بخفة روح باطنية بفاتن اللاعقلاني واللاطبيعي والشنيع ، وحتى اذا ما اقتضت الحاجة ، بالسخيف والغبي الاخرق . وهـذه النزعة الواضحة بما فيه الكفاية ، حتى بالنسبة لنا ، في ازمان منغتسي Mengtse « ٣٧٢ – ٢٨٩ » وفي عصور الجمعيات الاخوية البوذية الاولى ، هي موجودة

ايضاً ، ولها ايضا المغزى ذاته ، في الهيلينية حيث تعتبر هذه النزعة فيها ميزة رئيسية . وقد قام قرابة عام ٣١٢ العلماء الشاعريون من طراز كاليماخوس في الاسكندرية باختراع مذهب سيرابيس Serapis وزودوا هذا المذهب باسطورة متقنة الصنع محكمة . وقد كان مذهب ازيس في روما الجمهورية شيئاً ما يختلف اختلافاً شديداً عن كل من مذهب عبادة الامبراطور الذي خلف ازيس ، وعن دين ازيس العميق في جديته في مصر ، والحق ان ذاك المذهب كان تسلية ولهوا دينيين للمجتمع الراقي ، حيث كان يستثير احياناً سخرية الجمهور ، وقد ادى احياناً اخرى الى فضائح اجتماعية واغلاق مراكز المذهب . وكان التنجيم الكلداني في تلك الايام « موضة » بعيدة كل البعد عن الاعتقادالكلاسيكي الاصيل بالاوراكل، وعن الايمان المجوسي بجبروت الساعة . لقد كان استرخاء وتسليا بالقول القائل والتزعم او لتظاهر » . وفوق هذا كان هناك الأفاكون والانبياء والمزورون الذين كانوا يتجولون وينتقلون من مدينة الى مدينة محاولين بطقوسهم المنتفخة ادعاء ان يقنعوا انصاف المثقفين ويستثيروا فيهم اهتماماً مجدداً بالدين . وبالمثل لدينا اليوم في العالم الاوروبي الأميركي تدليس الثيوصوفيين والسحرة ، والعلم الأميركي المسيحي ، وبوذية قاعات الاستقبال الكاذبة ، والاعمال الدينية من فن وحيلة ، وهذه انشط في المانيا مما هي حتى في انكلترا ، التي تمون عاطفة مجموعات ومذاهب غوطية او كلاسيكية متأخرة زمناً او طاوية . فنحن نجد في كل مكان لهواً وعبثاً باساطير لايؤمن بالواقع بها احد ، وتذوقاً لمذاهب يؤمل بانها قد تملأ الخواء الباطني . اذ ان الاعتقاد الصحيح هو الايمان بالذرات والارقام ، ولكن هذا يستوجب حيل الحواة وخزعبلات السحر كي تجعله امراً مطاقاً على المدى الطويل . ان المادية هي ضحلة ومستقيمة ، ولكن الدين الكاذب الساخر هو ضحل وغير مستقيم . وكون هذا الاخير امراً ممكناً اطلاقاً يرمز الى روح بحث جديدة اصيلة تعلن عن نفسها اولاً بهدوء ، ولكن سرعان ما تصرح عن ذاتها

بعدئذ بتأكيد وصراحة داخل الشعور الواعي المتمدن .

وسأدعو الطور التالي بالتدين الثاني . وهذا يظهر في جميع المدنيات حالما تشكل هذه ذواتها تشكيلاً كاملاً على هذا الشكل وتبدأ بالعبور ببطء ودون ما شعور الى الوضع اللاتاريخي حيث لا تعود الحقبات الزمانية تملك اي معنى . ولذلك فيما يتعلق بالمدنية الغربية فانه لا يزال يفصلنا الكثير من الاجيال عن هذا المحط الزمني ، فالتدين الثاني هو النسخة طبق الاصل الضرورية للقيصرية التي هي الدستور السياسي الختامي للمدنيات المتأخرة زمناً ، ولذلك فان هذا التدين يصبح منظوراً في العصر الاوغسطي من المدنية الكلاسيكية ، وقرابة عصر شي - هوانغ - تي في الصين . وتفتقر كلتا الظاهرتين هاتين الى القوة الابداعية للحضارة المبكرة زمناً . ولكن لكلتيهما ، بالرغم من هذا عظمتاهما . فعظمة التدين الثاني تتمثل في تقوى عميقة تملأ الشعور الواعي - انها التقوى التي كان لها عميق الاثر في هيرودوت حينما شاهدها في المصريين ، المتأخرين زمناً ، وتؤثر في الاوروبيين الغربيين حينما يلمسون آثارها في الصين والهند والاسلام - اما عظمة القيصرية فتتجلى في جبروتها الطليق من كل قيد ، جبروت وقائعها الضخمة الهائلة . ولكن لا يوجد في ابداعات هذه التقوى ولا في شكل الامبراطورية الرومانية اي شيء اصلي وتلقائي ، فليس هنا من شيء قد بني ، ولا من فكرة حسرت القناع عن نفسها - ان كل ما هو هنا يبدو فقط كأن ضباباً قد انقشع عن الارض فاظهر انقشاعه الاشكال القديمة بصورة ملتبسة في البدء ، لكنها سرعان ما اخذت تتزايد جلاء ووضوحاً . فمادة التدين الثاني هي فقط مادة التدين الاول الاصيل والفتي - لكنها خبرت وعبر عنها خبرة وتعبيراً مخالفين لخبرة الاول والتعبير عنه . فالتدين الثاني يبدأ بذبول العقلانية ذبولاً يجعلها عاجزة عديمة الحيلة ، ومن ثم تصبح اشكال الربيع الحضاري مشهودة منظورة ، واخيرا يعود كامل عالم الدين البدائي الذي كان قد تقهقر متراجعا امام الاشكال العظمى للايمان

المبكر ، الى صدر الصورة ، ويعود قويا متنكرا بزي المذهب التوفيقي المألوف ، والموجود في كل حضارة تبلغ هذا الطور .

ان كل « عصر تنوير » ينطلق من تفاؤل العقل غير المحدود — ويكون دائماً منخرطاً في سلك نموذج الميغالوبوليتي — حتى يبلغ ارتيابية تساوي في كمالها ذاك التفاؤل . امـــا الشعور الواعي ، السيد ذو السلطان والذي تفصله جدران من التكلف والتصنع عن الطبيعة الحية وعن مـــا حوله وتحته من ارض ، فانه لا يعترف بوجود اي شيء خارج دائرة ذاته . فهو يطبق النقد على العالم الخيالي الذي ظهره من خبرة — الحس اليومية ، ويتابع عمله على هذا المنوال حتى يجد آخر النتائج واشدها مراوغة ودهاء ، انها شكل الشكل — انها نفسه : اي لا شيء . وبهذا تكون امكانات الفيزياء بوصفها اسلوباً تنديدياً لفهم العالم قد استهلكت واستنزفت ، وهنا يعرض الجوع الى الميتافيزيقا نفسه من جديد . ولكن ليس اللهو الديني للمثقفين والعصبات المتشربة بالاداب ، وحتى اقل من هـــذه ليس العقل ، هو الذي يزود التدين الثاني بقوى النشوء ، بـــل ان منبعه هو الاعتقاد الساذج الذي ينشأ تلقائياً ودون ان يشعر بـــه احد بين الجماهير ، الاعتقاد بان هناك بعض نوع من دستور صوفي للواقع (حيث تعتبر فوراً البراهين الشكلية من جهة الواقع مجدبة وعقيمة ومتعبة وشعوذة كلمة) بالاضافة الى حاجة — قلب ساذجة سذاجة ذاك الاعتقاد ومستجيبة للاسطورة مع مذهب ما ، ولكن اشكال اي من الاثنين لا يمكن ان ترى مسبقاً ، وحتى اقل من هذا ان تختار — فهي تتبدى من ذواتها ، وامـــا فيما يتعلق بنا ، فنحن لا نزال بعيدين بمراحل عنها . ولكن آراء كومت وسبنسر ، والمادية ووحدانية الكون والداروينية التي اثارت افضل عقول القرن التاسع عشر وهزتها حتى تلك الدرجة من الانفعال ، قد اصبحت النظرة الى العالم الخاصة بابناء العم .

لقد استنزفت الفلسفة الكلاسيكية طاقاتها قرابة عام ٢٥٠ ق.م. ومنذ ذاك التاريخ فما بعده لم تعد المعرفة خزيناً يجرب ويتزايد باستمرار ، بل اصبحت اعتقاداً

بوجود هذا الحزن ، وهذا يعود بصورة اساسية الى قوة العادة ، لكن المعرفة كانت لا تزال قادرة على الاقناع بفضل منهاجية قديمة احسن تجريبها . وكانت توجد في زمن سقراط عقلانية بوصفهـا ديناً للمثقفين ، وكانت توجد معها وفوقها فلسفة - علماء ، وتوجد تحتها خزعبلات الجماهير وخرافاتها . وقد تطورت الفلسفة انذاك باتجاه العقلانية وتطور المذهب التوفيقي المألوف نحو تدين محسوس ، وكانت النزعة هي ذاتها في كل من الفلسفة والمذهب التوفيقي ، ولم ينتشر الاعتقاد بالاسطورة والتقوى انتشاراً هابطاً الى تحت بل انتشاراً صاعداً الى فوق . وكان على الفلسفة ان تتلقى الكثير وتعطي القليل . ولقد بدأ الرواقيون داخل مادية السفسطائيين والكلبيين ، وشرحوا كامل الميثالوجيا وفق خطوط مجازية ، ولكن الصلاة لزفس على المائدة - وهذه من اجمل ذخائر التدين الثاني الكلاسيكي - يعود تاريخها الى زمن مبكر كزمن كلينثيس Cleanthes (قرابة عام ٢٣٢) وكانت توجد في زمن سولا رواقية خاصة بالطبقة العليا ، وكانت هذه دينية سداة ولحمـة ، ومذهب توفيقي جمع بـين المذاهب الفريجية Phrygian والسورية والمصرية وبين عدد لا يحصى من الاسرار الدينية الكلاسيكية التي كانت قـد اصبحت منسية تقريباً - وهـذا ينطبق تماماً على تطور حكمة بوذا المنارة وصيرورتها هنايانا Hinayana العلماء ، وماهايانا الجماهير ، وينطبق ايضاً على العلاقة بين الكونفوشية العلمية وبين الطاوية بوصفها ماعون المذهب التوفيقي الصيني والتي سرعان ما اصبحت ذلك .

ومعاصرة و « الوضعي » منغ - تسي (٣٧٢ - ٢٨٩) بدأت فجأة حركة جبارة بمست شطر الكيمياء السحرية Alchemy وعلم التنجيم والسحر . ولقد كانت هذه الحركة ، منذ طويل زمن ، موضوعاً شيقاً للنقاش عما اذا كانت هذه شيئاً مـا جديداً ، ام كانت بمثابة انتقاض جرح في الشعور الصيني القديم بالاسطورة - لكن لمحة نلقي بهـا على الهلينية تزودنا بالجواب . فهـذا المذهب التوفيقي يظهر « في وقت واحد » في التدين الكلاسيكي وفي الصين والهند وفي

الاسلام الشعبي المألوف وهو يبدأ دائماً مرتكزاً على عقائد عقلانية ـ الرواقيون لاوتسي ـ بوذا ـ وينفذهـا بدوافع فلاحيـة وربيعية حضارية واجنبية وبكل نوع آخر من الدوافع التي يمكن ان يدركها العقل . فمنذ قرابة عام ٢٠٠ ق.م اخذ المذهب التوفيقي الكلاسيكي ـ ويجب الا نخلط بينه وبـين ذاك المذهب الذي نجم فيما بعد عن التشكل المجوسي الـكاذب ـ بتجميـع الدوافع من الاورفية ومن مصر وسوريا ، وابتداء بعام ٦٧ ق.م ادخل الصينيون البوذية الهندية على الشكل الشعبي المألوف للماهايانا ، كما وان فاعلية الكتابات المقدسة بوصفها سحراً ، وشخصيات بوذا كتمائم ، كان يعتقد بها بانها هي الاعظم ، نظراً لاصلها الغريب . وقد اختفت عقيدة لاوتسي الاصليـة بسرعة فائقة . وفي بداية ازمان الهـان (قرابة عام ٢٠٠ ب.م) لم تعد حجافل سن و بملي الاخلاق ، واصبحت كائنات لطيفة . فلقد عادت آلهة الريح والسحاب والرعد والمطر . وقد اكتسبت جمهرة المذاهب التي افادت بانها قادرة على طرد الارواح الشريرة بمساعدة الالهة ، مقراً لها وموطىء قدم . وفي ذلك الوقت نشأت هناك ـ ودون ريب عن بعض من مبدأ اساسي سابق للفلسفة الكونفوشية ـ اسطورة بان ـ كو ، التي تحدرت من مبدئها الاصلي سلاسل من الاباطرة الاسطوريين . وكما نعرف فان فكرة ـ اللوغوس اتبعت خطاً مشابهاً لهذا في تطورها .

فنظرية سلوك الحياة وبماوسته اللذين بشر بها بوذا جاءا نتيجة لسآمة العـــالم وفتوره وثمرة للاشمئزاز العقلاني ، وكانا لا يمتان اطلاقاً بأية صلة للقضايا الدينية . ومع هذا فان بوذا نفسه كان قد اصبح في مستهل بداية الحقبة « الامبراطورية » الهندية (٢٥٠ ق.م) شخصية ـ اله مستقرة ، وكانت نظريات ـ النرفـــانا المدركة فقط من العلماء ، تخلي مكانها اكثر فاكثر ، لعقائد محسوسة صلبة عن السماء والجحيم والخلاص ، والتي على الارجح قد اقتبست ، كما حدث في المذاهب التوفيقية الاخرى ، من منبـع اجنبي ـ واعني بهذا الرؤيا الفارسية . ولقد كانت توجد حتى في زمن آسوكا ثماني عشرة ملة بوذية . ولقد وجدت عقيدة المهايانا في

الخلاص اول بشير عظيم بها في شخص العالم الشاعر اسفاغوشا (قرابة عام ٥٠ ق م) ووجدت اكتمالها الخاص في ناغاريونا Nagarjuna (قرابة عام ١٥٠ ب.م) ولكن قـــد عادت ، وجنباً الى جنب وتعاليم كهذه ، مجموعة الميثالوجيا الهندية الاصلية بأكملها الى التداول بين الناس فدينا الفيشنو Vishnu والشيفا Shiva كانا في عام ٣٠٠ ق.م قد استقرا من قبل داخل شكل محدد معين ، واكثر من ذلك داخل شكل مذهب توفيقي ، وهكذا فان اساطير كرشنا وراما قد نقلت آنذاك الى الفيشنو . ونحن نصادف المشهد ذاته في الامبراطورية المصرية الجديدة ، حيث شكل آمون طيبة مركزاً لمذهب توفيقي واسع ، ونصادفـــه ايضاً في العالم العربي في الحقبة العباسية ، حيث دفع الدين الشعبي بصوره للمطهر والجحيم والديثونة الاخيرة والكلمة السماوية ومحمد – اللوغوس ، وجنياتـــه وقديسيه وخيالاته واشباحه بالاسلام الفطري كلياً الى مؤخرة الصورة .

ويبقى في ازمان كهذه وجود لحفنة من الاذهان السامية كـنيكا ، معلم نيرون ، ونموذجه المضاد بسلوس Psellus ، الفيلسوف والمربي الملكي وسياسي حقبة القيصرية في الامبراطورية البزنطية وكارك اوريل الرواقي وآسوكا البوذي الذين كانا بنفسيهما القيصرين ، وكالفرعون آمنحوتيب الرابع (أخناتون) الذي اعتبرت تجربته العميقة هرطقة ، ودفع بهـــا كهنة – آمون الاشداء الى العدم – وهـــذه مغامرة كان على آسوكا ايضاً ان يواجههـــا ، دون شك ، من البراهمين .

ولكن القيصرية نفسها قـــد انجبت ، في الامبراطورية الصينية كمـــا في الامبراطورية الرومانية ، مذهب عبادة الامبراطور ، وبهـذا ركزت المذهب التوفيقي وكثفته . والحق انه لرأي سخيف وباطل هو ذاك الرأي القائل بأن تبجيل الصينيين للامبراطور الحي هو أثر من آثار الدين الغابر . اذ انه لم يكن يوجد اطلاقاً ، طيلة سياق الحضارة الصينية اي امبراطور . فحكام الدول كانوا

يلقبون بـ وانغ (وهذا يعني ملكاً) ، فلقد كتب منغ تسي قبل اقل من قرن وتقدم الانتصار النهائي لأوغسطس الصيني – وكتب بمزاج قرننا التاسع عشر – قائلاً : « ان الشعب هو اهم عنصر في البلاد ، وتليه بالاهمية آلهـــة التربة والغلال النافعة ، واقل هـــذه وذاك اهمية هو الحاكم » . ولا شك ان كونفوشيوس ومعاصريه هم الذين قاموا بتجميع وتصنيف ميثالوجيا الاباطرة القدماء ، وقد أملت المقاصد العقلانية لهؤلاء شكلها الدستوري والاجتماعي والاخلاقي ، وقـد اقتبس اول قيصر صيني من هذه الاسطورة كلا من اللقب وفكرة – المذهب . فالارتقاء بالنـــاس الى مرتب الألوهية هو عودة الدورة الكاملة الى الربيـع الحضاري ، حيث كانت الآلهة تحول الى ابطال – تماماً كهؤلاء الاباطرة بالذات وكشخصيات هوميروس – وهذا التحويل هو سمة مميزة لجميع الاديان تقريباً ، الاديان من المرتبة الثانية هذه . فلقد أله كونفوشيوس بالذات عام ٥٧ ب.م واصبح له مذهب رسمي ، وكان بوذا قد بلغ هذه المرتبة قبله بزمن طويل . كما وان الغزالي (قرابة ١٠٥٠) الذي ساعد على احـلال « التدين الثاني » في العـالم الاسلامي ، هو اليوم وفق الاعتقاد الشعبي ، كائن الهي ، ومحبوب بوصفه قديساً وعضيداً . ولقد كان يوجد في مدارس الفلسفة الكلاسيكية مذهب لافلاطون ، وآخر لابيقور ، كما وان زعم الاسكندر بتحدره من صلب هرقـل ، وادعـاء قيصر بتحدره من رحم فينوس قد أديا في النهاية الى نشوء مذهب ديفوس Divus حيث تطل فجأة ومن جديد برؤوسها تخيلات اورفية غارقـة في القـدم وأديان عائلية ، كما هي الحـال تماماً في مذهب هوانغ – تي الذي يحتوي على مسحات من اقدم ميثالوجيا صينية .

ولكن تبدأ فوراً مع حلول مذهب عبادة الامبراطور المحاولة لوضع التدين الثاني داخل تنظيمات ثابتة تكون دائماً مهما سميت – مللاً ، انظمة ، كنائس – اعادة متيبسة لبناء ما كان فيما مضى اشكالاً حيـة للربيـع الحضاري ، وعلاقتها بهذه الاشكال هي نفس العلاقة القائمة بين « السلالة » و « المنزلة » .

وهناك اشارات من هذه النزعة حتى في الاصلاحات الاوغسطينية ، بمــا لهذه الاصلاحات من احياء اصطناعي لمذاهب مدن طواها الموت منذ زمن طويل ، كطقوس الفراترس أرفاليس Fratres Arvales . ولكننــا لا نرى الا مع الاديان الغامضة الكلاسيكية ، او حتى مع المنزوية ، ان تنظيم الطائفة او الكنيسة خاصة يبدأ ثم ينهي تطوره فيا بتــلوه من سقوط للدين الكلاسيكي . والملمح المطابق لهذا يتمثل في الدولة الدينية التي اقامها ملوك الكهنة في طيبة في القرن الحادي عشر . والشبيه الصيني لهــذا هو كنائس الطاو في حقبة الهان ، وخاصة تلك منها التي أسسها شانغ – لو والتي كانت سبب العصيان المرعب الذي قام به ذوو العمائم الصفر Yellow Turbans (وهــذا يذكرنا بالثورات الريفية الدينية في الامبراطورية الرومانية) وقد دمر هذا العصيان أقاليم بأكملها وانتهى الى خلع سلالة الهان وسقوطها . ونحن نستطيع ان نجــد النسخة طبق الاصل تماماً عن كنائس الطاوية المتنسكة هــذه في دول – الرهبان البزنطية المتأخرة زمناً كدولة ستوديون Studion ، وفي مجموعة الاديرة المستقلة في آثوس والتي أسست عام ١١٠٠ ، وهذه الاديرة توحي بالبوذية كأحسن شيء يستطيع ان يوحي بها .

ويتدفق ، في النهاية ، التدين الثاني ليصب في اديان الفلاح . وهنا يختفي ثانيــة تماماً التعارض القائم بين القوى الكوسموبوليتية والريفية ، كاختفاء التعارض بين الحضارة البدائية والحضارة الارقى . أما ما يعنيه هــذا فان مفهوم الفلاح الذي بحثناه في فصل سابق يخبرنا بذلك . فهنا يصبح الدين كلياً دون مــا تاريخ ، فحيث كانت العقود من السنين تشكل حقبة ، تمر الآن قرون كاملة تافهة مجدبة غير ذات اهمية او بال ، ولتقلبات التبدلات الاصطناعية هنــا فائدة واحدة ، اذ انها تري نهائية الوضع الباطني التي لا يمكن تبديلها . ولا يهم أبداً كون الكونفوشوسية قد ظهرت في الصين (عام ١٢٠٠) بوصفها شيئاً مغايراً

لعقيدة ـ الدولة الكونفوشوسية ، كما لا يهمنا ايضاً متى ظهرت ، وعما اذا كانت قد صادفت النجاح او الفشل . وبالمثل ، فان كون البوذية الهندية قد أصبحت منذ زمن طويل ديناً شعبياً متعدد الالهة ، وسقطت امام الينو ـ براهمية (التي عاش الهها العظيم سنخارا قرابة عام ٨٠٠) فهذا كله لا يعني شيئاً ، كما وانه ليس من الاهمية ان يعرف تاريخ انتقال هــذا الاخير الى هندية براهما والفيشنو والشيفا . فان هناك دائمـاً وستكون هناك ابداً حفنة من الناس العقلانيين والمفكرين على أرفع صورة والمتكلين على ذواتهم تماماً كالبراهميين في الهنــد والماندرين في الصين والكهنة المصريين الذين أثاروا دهشة هيرودبت وذهوله . لكن دين الفلاح بالذات هو مرة اخرى دين بدائي متنا وحاشية ـ انه مذاهب الحيوان للسلالة السادسة والعشرين المصرية ، ومركب البوذية والكونفوشوسية والطاوية الذي يشكل دين الدولة في الصين ، واسلام الشرق هذا اليوم . اما دين الازتيك فانه تقريباً موضوع آخر ، لانه يبدو ، كما وجده كورتيز ، بعيداً حقاً عن دين المايا الشديد في كثافته العقلانية .

-٧-

ان دين اليهودية Jewery هو ايضاً دين ـ فلاح ، وذلك منذ زمن يهوذا بن هاليفي الذي كان (كمعلمه المسلم الغزالي) ينظر الى الفلسفة نظرة كامــلة في ارتيابيتها ، وقد رفض في الكوزاري Kuzari (١١٤٠) ان ينيط بها اي دور ما عدا دور خادمة اللاهوت الارثوذكسي ووصيفته . وهــذا ينطبق تماماً على المرحلة الانتقالية من الرواقية الوسطى الى شكل الحقبــة الامبراطورية التي جاءت فيما بعد ، وعلى انطفاء التأمل الصيني تحت وطأة سلالة الهان الغربية الحاكمة .

وبعد فان شخصية موسى بن ميمون لهي اكثر اهمية ، اذ انه قام في عام ١١٧٥ بجمع كامل مادة دين اليهودية ، بوصفها شيئاً ثابتاً وتاماً في كتاب ضخم عظيم من طراز لي – كي Li - Ki الصيني ، وذلك بغض النظر كلياً عما اذا كان بعض عناصر هذه المادة لا يزال يحتفظ باي معنى أم لا . وليس دين اليهودية ، في هذه المرحلة او في اية مرحلة اخرى ، ديناً فريداً في نوعه ، بالرغم من انه قد يبدو كذلك من وجهة النظر التي اتخذتها الحضارة الغربية استناداً الى اسبابها الخاصة . كما وانه ليس من المستغرب على دين اليهودية ، ان يكون اسمه في حالة من تبدل دائم في معناه ، دون ان يشعر بهـــذا التبدل من ينتمي الى هـذا الدين ، وذلك لان الشيء ذاته قد حدث له في تاريخه وفارس . ففي الحقبة « الميروفنجية » ، وهذه الحقبة تشمل تقريبا القرون الخمسة الاخيرة قبل ميلاد المسيح – انشأت اليهوديـــة وفارس وطورت من المجموعات العشائرية امتين من الطراز المجوسي ، دون ان تكون لهاتين الامتين ارض او وحدة اصــــل ، ولهما « وحتى بهذه السرعة » خاصة طابع حياة الغيتو التي لا تزال باقية على حالها ولم يطرأ عليها اي تبديــــل بالنسبة ليهود بروكلـــين وللبرسيس « الفرس – المترجم » في بومبـاي على حد سواء .

وقد انتشر جغرافياً هذا الاتحاد الذي لا ارض له ، في الربيع الحضاري (في القرون الخمسة الاولى من الحقبة المسيحية) من اسبانيا حتى شانتونج . وهذا كان عصر الفروسية اليهودية ، وكان زمن الازدهار « الغوطي » لزخم ابداعه الديني . والرؤى التي جاءت فيما بعد ، والمشنا وايضا المسيحية البدائية (التي لم تنبذ الا بعد زمن تراجان وهدريان) هي جميعا منجزات لهذه الامة . وانه لمن المعروف جيداً ان اليهود كانوا في تلك الايام فلاحين وصناعاً وسكاناً في بلدان صغيرة وكانت « الاعمال الكبرى » في ايدي المصريين واليونان والرومان – اي في ايدي اعضاء العالم الكلاسيكي .

وتبدأ ، قرابة عام ٥٠٠ ، الحقبة « الباروكية » اليهودية التي تعود المراقبون

الغربيون على اعتبارها ، ومن طرف واحد فقط ، بوصفها جزءاً من صورة عصور امجاد اسبانيا .

وهنا اخذ الاتحاد اليهودي ، شأنه في ذلك شأن الاتحاد من فارسي واسلامي وبيزنطي ، يتقدم نحو دراية متحضرة عقلانية ، ومنذ ذاك الحين فصاعداً اصبح سيداً لاشكال اقتصاد ـ المدن وعلومها . فتراغونا وتوليدو وغرناطة هي بأغلبيتها مدن يهودية . كما وان اليهود يشكلون عنصراً اساسياً في المجتمع المغربي الراقي . وقد اذهلت اشكالهم المنجزة ، وروحهم وفروسيتهم النبلاء القوطيين من الصليبيين الذين حاولوا تقليدهم ، زد على ذلك انه لولا الارستقراطية اليهوديـــة لما دار دولاب للدبلوماسية وتسيير دفة الحرب والادارات العامة في المدن المغربية . وقد كانت كل ذرة من هذه الارستقراطية اصيلة تماماً كالارستقراطية الاسلامية . وكما انه كانت هناك في الجزيرة العربية اناشيد Minnesang يهودية ، كذلك فانه قد كانت هنا آداب علم منـــار . ولقد جرى (قرابة عام ١٢٥٠) اعداد الكتاب الجديد لألفونسو العاشر عن الكواكب بارشاد الرابي اسحق حسان وتوجيه العلماء اليهود والاسلام كما والمسيحيين ايضاً ، وبتعبير آخر نقول بان هذا الكتاب كان انجازاً مجوسياً وليس من منجزات فكر ـ العالم الفاوستي . ولكن اسبانيا ومراكش لم تكونا تضمان سوى جزء جد ضئيل من الاتحاد اليهودي ، وحتى هذا الاتحاد نفسه لم يكن له فقط معنى دنيوياً بل كان له « وبصورة رئيسية » مغزى روحي . وداخل هذا الاتحاد حدث ايضا حركة تطهير رفضت التلمود ونبذته وحاولت ان تعود الى التوراة المجردة . فطائفة اليهود القرائين Qaraites التي تقدمها الكثيرون من الرواد ، قد نشأت قرابة عام ٧٦٠ في شمالي سوريا ، وفي المنطقة ذاتها التي انجبت ، قبل هؤلاء بقرن واحد من الزمن ، محطمي الصور والتماثيل والايقونات ، ومن ثم التصوف الاسلامي ـ وهذه ثلاث نزعات مجوسية لا يخطيء البصر القرابة الباطنية التي تربط بينها جميعا . وقد ناهضت الارثوذكسية والتنوير معاً طائفة القرائين ، كما ناهضتا المطهرين في جميع الحضارات الاخرى .

قد ودوت الانفجارات التلمودية المضادة لهذه الطائفة ابتداء من قرطبة وفيتز Fez حتى جنوبي جزيرة العرب وبلاد فارس . ولكن ظهرت في تلك الحقبة ايضا تلك التحفة الرائعـــة من التصوف العقلاني ـ التي كانت ثمرة « التصوف اليهودي » وتذكر المرء في كثير من فقراتها بسويدنبورغ ـ واعني بهذه اليسيرا Yesirah المتناسبة في فكر جذرها الكابالية ورمزية الصورة البزنطية ، والسحر المعاصر « للمسيحية الاغريقية من الدرجة الثانية » ، وبالمثل كذلك للدين الشعبي من الاسلام .

ولكن خلق وضع جديـــد كل الجدة عندما وجد فجأة الجزء الغربي من الاتحاد اليهودي نفسه ابتداء من قرابة عام ١٠٠٠ ، داخـــل ميدان الحضارة الغربية الفتية . وكان اليهود آنذاك ، كما كان الفرس والبزنطيون والمسلمون ، قد اصبحوا متمدنين وكسموبولتيين ، وذلك حينا كان العالم الجرماني الروماني يعيش على ارض خالية من البلدان او المدن ، وكانت المستوطنات التي شقت (او ستشق) طريقها الى الوجود وانتصبت حول الاديرة والاسواق لا تزال تفصلها اجيال عديدة عن امتلاك نفوس خاصة بها . وبينا اليهود قد اصبحوا منذ زمن فلاحين ، كانت لا تزال الشعوب الغربية شعوبا بدائية تقريبا ، ولم يكن باستطاعة اليهودي ان يدرك الباطنية الغوطية ، الماثلة في القلعة والكاتدرائية ، ولا المسيحي الارفع منزلة منه ، ان يفهم ذكاء اليهودي التهكمي تقزيبا ، وخبرته المتقنة الصقل في ميدان « فكر المال » . وهكذا كانت البغضاء والاحتقار المتبادل هما الناظمين لعلاقات الواحد منهما بالآخر ، وهذا الامر لم ينشأ عن تميز عنصري بل انما نشأ عن الاختلاف في المرحلة التي كان يجتازها كل منهما . ولقد قام الاتحاد اليهودي ببناء احيائه اليهودية الخاصة داخل جميع المستوطنات والبلدان الريفية . فالحي اليهودي يتقدم على البلدة الغوطية بالف عالم . وكذلك ايضا المستوطنات الرومانية ، في ايام يسوع ، تنتصب داخل القرى القائمة على بحيرة جنيسارت .

ولكن هذه الشعوب الغربية الفتية التي كانت بالاضافة الى ذلك مرتبطة بالتربة

وبفكرة الوطن ، قد رأت في هذا « الاتحاد » الذي لا وطن له ، والتماسك ، لا نتيجة للتنظيم الحازم المتبصر بالعواقب، بل نتيجة حافز هو بكليته حافز ميتافيزيقي ولا شعوري – وتعبير جد بسيط ومباشر عن الشعور الجومي بالعالم – اقول رأت فيه شيئا ما خطراً وغير قابل للفهم والادراك . وفي هذه المرحلة ولدت اسطورة اليهودي التائه . فلقد كان يهم كثيرا والى حد بعيد الراهب الاسكتلاندي أن يزور مثلا ديراً في لومبارديا ، ولكن سرعان ما كان الحنين الى الوطن يعود به الى موطنه ، ولكن عندما كان احد المعلمين اليهود (الرابي) من مدينة ماينز – التي كانت في عام ١٠٠٠ مركزاً لأهم مدرسة تلمودية في الغرب – أو من مدينة سارنو يسافر الى القاهرة او ميرف Merv أو البصرة ، فأنه كان يشعر بكل حي يهودي يحل فيه على انه في وطنه . في هذا التماسك الصامت تكمن فكرة الأمة المجوسية – بالرغم من ان الغرب المعاصر لم يكن يدري بالواقعة المبررة أن الدولة والكنيسة والشعب يشكلون كلاً كاملاً متكاملاً في نظر اليهود ويونان تلك الحقبة والفرس والاسلام . ولقد كان لهذه الدولة تشريعها الخاص بها ، وكانت لها حياتها العامة الخاصة (وهذا مما لم يفهمه المسيحيون ابداً) ، وكانت تحتقر العالم المحيط بها والشعوب المضيفة بوصفها واقعة خارج حدودها ، وكانت تلك المحاكمة التي انتهت الى طرد سبينوزا واوريل اكسوتا Uriel Acosta محاكمة حقيقية لتهمة الخيانة العظمى – وهذه حادثة لا تستطيع الشعوب المضيفة ان تدرك معناها العميق . وفي عام ١٧٩٩ قامت المعارضة التلمودية بتسليم السنيور سلمان ، المفكر البارز بين الحاسيديم ، الى حكومة بطرسبورغ ، بالرغم من أن هذه هي حكومة دولة اجنبية .

ولقد فقدت اليهودية من المجموعة الاوروبية الغربية علاقتها تماما بالارض المفتوحة الطليقة التي كانت لا تزال موجودة في الحقبة المغربية من اسبانيا . فلم يعد هناك من فلاحين يهود . وكان اصغر حي يهودي ، مهما كان بؤسه وتعاسته ، شظية من مدنية عالمية عظمى ، وكان سكانه « كسكان الهند والصين المتخشبتين »

منقسمين الى طبقات اجتماعية – فكان الرابي هو البراهمي او الماندرين في الغيتو - وكان جمهور – الكولي Coolie (العتالين) يتميزون بذكاء متمـــدن بارد متفوق ، وذوي نظرات لا تزوغ ابداً عن الاعمال من تجارية وغيرها . ولكن هذه الظاهرة ليست فريـدة في نوعها ، وذلك اذا كان حسنا التاريخي يستوعب الافق الاوسع ، لأن جميع الشعوب المجوسية كانت في هذا الوضع منذ حقبـــة الحروب الصليبية . فالفرس في الهنـد يتلكون السلطان نفسه تماما في ميدان الاعمال الذي يمتلكـــه اليهود في العالم الاوروبي ، والذي للارمن واليونان في جنوبي اوروبا . وهذه الظاهرة ذاتها تتبدى في كل حضارة اخرى ، وذلك عندما تندفع داخل بيئة اصغر عمرا – ولنتأمل حال الصينيين في كاليفورنيـا (حيث نجدهم هدفا لمناهضة السامية في اميركا الغربيـة) وفي جزيرة جاوه وسنغفورة ، وفي حال التجار الهنود في افريقيا الشرقية ، وحال الرومان في العالم العربي المبكر زمنا . وكانت الاوضاع في هذا المثل الاخير (الرومان - المترجم) معاكسة تماما لأوضاعنا اليوم ، فيهود تلك الايام كانت حالهم كحال الرومان ، فلقد احس الآراميون نحوهم بعاطفـة من بغضاء عجيبة تشبه الى حد بعيد لبغضائنا لهم نحن معشر الاوروبيين . كما وان ثورة عام ٨٨ التي قتل خلالها السكان الساخطون ، باشارة من مترداتس ، مئـــة الف من رجال الاعمال الرومان في آسيا الصغرى كانت مذبحة حقيقية منظمة .

ويقوم فوق هذه التناقضات ، التناقض في العنصر الذي تحول بصورة متناسبة من الاحتقار الى البغضاء ، وذلك عندما لحقت الحضارة الغربية بركب المدنيـة واصبح « الفرق في العمر » اقل مما كان عليه ، وقد تجلى هذا الفرق في طريقـة الحياة والسلطان المتزايد للذكاء . ولكن كل هذه الاشياء لا تمت بأية صلة للشعارات السقيمة « كالآرية » و « والسامية » والتي اقتبسناها من علم اشتقاق اللغات . فالفرس والارمن « الآريون » لا يمكن لنا ان نميز اطلاقاً بينهم وبين اليهود ، كما وانـه لا يوجد ، حتى في جنوبي اوروبا والبلقان ، اي فرق جسماني تقريباً بين السكان

المسيحيين واليهود . فالامة اليهوديـــة ، هي ككل امة اخرى من امم الحضارة العربيـــة ، هي ثمرة رسالة هائلة جبارة ، قد طرأ على هـــذه الامة ، وخلال الحملات الصليبية ، تغيير بعد تغيير نتيجة للزيادات والانشقاقات الجماعية . فهناك جزء من اليهود تنطبق اوصافـــه الجسمانية على سكان القوقاز المسيحيين ، وآخر على اوصاف التتار في جنوبي روسيا ، وجزء كبير ثالث منهم تنطبق اوصافه الجسمانية على مغاربة شمالي افريقيا . فما كان ذا اهميـــة في الغرب اكثر من اي تميز آخر ، انما هو الفرق بين المثـــل الاعلى للعنصر في الربيع الحضاري الغوطي الذي انجب نموذجه البشري ، وبين المثـــل الاعلى لليهودي السفردي Sephardic الذي شكل ذاته اولاً داخل الغيتو في الغرب ، وكان بالمثل ثمرة تربية روحية خاصة وتدريب يخضع لظروف خارجيـة بالغة في شدتها وقسوتها – ولا شك انه يتوجب علينا ان نضيف الى هذين الدور الفعال للارض والشعب المحيطين به وردود افعاله الميتافيزيقية الدفاعية ضد هذا الدور ، وخاصة بعد ان جعل فقدان اللغة العربية هذا الجزء من الامة عالما مستقلاً قائماً بذاته . وهذا الشعور بالفرق القائم لدى الطرفـــين يزداد سطوة ونفوذا بازدياد احساس الفرد بامتلاكه للمزيد من الاصالة . وان الافتقار الى العنصر (العرق) وليس اي شيء غيره ، هو الذي يجعل العقلانيين – من فلاسفة وعقائديين وطوباويين – عاجزين عن عمق فهم هذه البغضاء الميتافيزيقية ، التي هي الفرق في النبض بـين تياري كينونة ، فرق يتبدى على صورة تنافر لا يطاق او محتمل ، انه بغضاء قد تصبح فاجعة مفجعة لكل من الطرفين (اليهود والاوروبيين – المترجم) ، وانها البغضاء ذاتها التي سيطرت على الحضارة الهندية بدفعها الهندي الاصيل ذي العنصر للوقوف ضد السودرا Sudra . وقد كان هذا الفرق في العصور الغوطية فرقا عميقا ودينيا ، وكان الاتحاد اليهودي بوصفه دينا هدفا للبغضـاء وموضوعا لها ، وهو لم يصبح ماديا الا مع بدايـــة المدنية ، حيث شرع يهاجم الجوانب العقلانية والاعمالية (من تجارية ومالية وغيرها - المترجم) من اليهود ، اذ وجد

فجأة الغرب نفسه يجابه ندا له يتحداه في هذه المجالات .

ولكن اعمق عناصر التفرقة والمرارة كان عنصراً لاقت مأساته الكاملة اقل قـــدر من الادراك والفهم . فبينما عاش الانسان الغربي (بكل ما لكلمة عاش من معنى) تاريخه منذ ايام الاباطرة السكسون حتى هذا اليوم ، وعاشه بوعي لا مثيل له في اية حضارة اخرى ،كان الاتحاد اليهودي قد توقف عن صنع التاريخ اطلاقاً . فمشاكله كانت قد حلت ، وشكله الباطني قد اكتمل اكتمالاً نهائياً ولا يحتمل اي تبديل او تغيير . فلم تعد القرون تعني اي شيء بالنسبة له ، كما بالنسبة للاسلام والكنيسة اليونانية والفرس ، ونتيجـــة لذلك لم يستطع اي انسان ينتمي باطنيا للاتحاد ان يبدأ حتى بفهم الانفعال او العاطفة التي كان الفاوستيون يعيشون بها ويخبرون بواسطتها الحقبات القصيرة المزدحمة التي اتخذ خلالها تاريخهم ومصيرهم المنعطفات الحاسمة - وهذه الحقبات تتمثل في مطلع الحملات الصليبية ، وفي الاصلاح الديني والثورة الفرنسية وحروب التحرير الالمانيـــة ، وفي كل منعطف في وجود الشعوب المتعددة . فكل هـــذه الامور كانت ، بالنسبة الى اليهودي ، تقع ثلاثين جيـلا الى الوراء . فخارجه كان ينساب تاريخ من اعظم طراز ، ويتدفق شاقاً مجراه ، وكانت الحقبات تأخذ بعضها برقاب بعض ، وكان كل قرن يشهد بتبدلات انسانية جوهريـــة ، لكن كل شيء في الغيتو وفي نفوس سكانه الدخـــلاء ، كان جامدا صامتاً . وحتى عندما كان اليهودي يعتبر نفسه عضواً من الشعب الذي هاجر الى وسطه ، وكان يشارك في قدره من خير وشر - كما حدث في الكثير من البلدان عام ١٩١٤ - فانه لم يعش هذه الخبرات بوصفها خبرات خاصة به ، بل كان موقفه منها موقف النصير او المشايع ، فهو كان يحاكمها ويحكم عليها كمتفرج ذي مصلحـــة فيها ، ومن هنا كان يتوجب على اعمق معاني الصراع أن تبقى محجبة عن ناظريه . فلقد قاتـل جنرال يهودي من سلاح الفرسان في حرب الثلاثين عاما (وهو يرقد اليوم في قبر من قبور المقبرة اليهودية

في براغ) – ولكن ما الذي كانت تعنيه له افكار لوثر او لبولا ؟ وما الذي فهمه البيزنطيون – وهؤلاء اقرباء قريبون لليهود – من الحروب الصليبية ؟ ان امورا كهذه هي من الضرورات الفاجعة للتاريخ الارقى الذي يتوقف على مجاري – حياة الحضارات الافرادية ، وهذه الامور قد كررت ذواتها مراراً . زد على ذلك ان الرومان ، الذين كانوا في عصر المسيح شعباً دبت فيه الشيخوخة ، لربما لم يستطيعوا ان يفهموا الهدف الاساسي لليهود في محاكمة يسوع او القصد وراء ثورة باركوشبا . ولقد اظهر العالم الاوروبي الاميركي عدم ادراك مطلق لثورتي الفلاحين في كل من تركيا (١٩٠٨) والصين (١٩١١) ، فكون الحياة والفكر الباطنيين لكل من هذين الشعبين – ونتيجة لذلك كون حتى آراءهما في الدولة والسيادة – (الخليفة في تركيا وابن السماء في الصين) من طرازين يختلفان كلياً عن طراز حياة العالم الاوروبي الاميركي وفكره ، وهما كتابان مغلقان له ، لذلك لم يكن بمستطاع هـذا العالم ان يتبصر في مجرى الاحداث او ان يركن مسبقاً اليها . ان بمقدور العضو من الحضارة الغربية ان يكون مشاهداً متفرجاً ، ولذلك بامكانه ايضا ان يكون مؤرخاً وصافاً للماضي ، لكنه لا يستطيع ابداً ان يكون رجل دولة ، ان يكون انساناً يشعر بان المستقبل يعمل وينشط في داخله . فهو اذا لم يكن يملك القوة المادية ليعمل داخل اطار حضارته الخاصة ، فيتجاهل او يدبر امور ابناء الحضارة الغربية عنه (كما حدث طبعا ومرارا مع الرومان في الشرق الفتي ، او دزرائيلي في انكلترا) فعندئذ سيقف عديم الحيلة وسط الاحداث .

لقد كان الانسان الروماني او اليوناني يرسم دائما عقلانيا اوضاع حياة مدينته داخل الحدث الغريب ، كما وان الانسان الاوروبي الحديث ينظر دائما الى المصائر الغريبة عنه على اضواء الدستور والبرلمان والديموقراطية ، بالرغم من ان تطبيق فكر كهذه على الحضارات الاخرى هو امر مضحك ولا معنى له ، زد على ذلك

ان اليهودي من اعضاء الاتحاد يتتبع تاريخ الحاضر (الذي هو ليس سوى المدينة الفاوستية المنتشرة فوق القارات والمحيطات) بالشعور الاساسي للجنس البشري المجوسي ، حتى عندما يكون هو نفسه قانعا قناعة راسخة بان فكره ذو طابع غربي .

ولما كان كل اتحاد مجوسي لا ارض له او بلد ، وغير محدود جغرافيا ، لذلك فانه يرى ، بصورة لا ارادية ، في جميع الصراعات والخلافات المتعلقة بالفكر الفاوستية ، كلغة الأم ، العائلة الحاكمة ، الملكية ، الدستور ، عودة من الاشكال التي هي غريبة غرابة كلية عنه ، ولذلك فهي شاقة ومتعبة ولا معنى لها ، نحو اشكال تطابق طبيعته الخاصة . ومن هنا فان كلمة « الامة » ، ألقترنت هذه الكلمة بالاشتراكية او السلم العالمي ، او بالرأسمالية ، تستطيع ان تستثير حماسته واندفاعه ، ولكن ما يسمعه في هذه الكلمة هو جوهر اتحاده الذي لا ارض له او حدود جغرافية . فبينما نرى ان الصراعات الدستورية والثورات تعني في نظر الديمقراطية الاوروبية الاميركية تطوراً نحو المثل الاعلى المتمدن ، نراها تعني في نظره « وتعنيه دون ان يتحقق ابداً منه بصورة واعية تقريباً » انهيار كل شيء مخالفاً لاسلوبه الخاص . وحتى عندما تنهار داخله قوة الاتحاد ، وتجتذبه حياة الشعب المضيف اجتذاباً ظاهرياً يبلغ به درجة من وطنية مقنعة مؤثرة ، فانه مع هذا يناصر دائما من الاحزاب ذاك الحزب الذي تكون مقاصده الاقرب شبهاً من الجوهر المجوسي . ولهذا فانه في المانيا ديمقراطي ، وفي انجلترا « كالفارسي في الهند » امبراطوري « استعماري — المترجم » Imperialist . وانه سوء الفهم ذاته تماما الذي يتبدى عندما يقوم الاوروبيون الغربيون فيعتبرون ابناء تركيا الفتاة والاصلاحيين الصينيين ارواحاً من ارومة واحدة — اي « دستوريين » . فاذا كانت هناك قرابة باطنية ، فعندئذ يثبت الانسان حتى حيث يدمر ، اما اذا كان غريبا باطنيا ، فعندئذ سيكون تأثيره تأثيرا سلبيا حتى حيث تكون رغبته

وغبة انشائية . وما دمرته الحضارة الغربية بواسطة مجهودات الاصلاح من طرازها الخاص ، حيث كانت تمتلك قوة ، بالكاد يحتمل التفكير بامره ، كما وان اليهود كانوا بالمثـــل مدمرين حيثما تدخلوا . ان مفهوم حتمية سوء التفاهم المتبادل هذا يؤدي الى البغضاء المرعبـــة التي تستقر عميقا في الدم وتتمكن من الطوابع المنظورة ، كالعنصر ، وصيغة الحياة والمهنة والنطق ، وتؤدي ، حيث تتوفر هذه الشروط ، الى دمار الطرفين وخواتمها والغلو الدموي .

وهذا الامر ينطبق ايضا ، وقبل كل شيء، على تدين العالم الفاوستي الذي يشعر بان هناك ميتافيزيقا غريبة تقوم في وسطه وتهدده وتكرهه وتحاول تقويضه . فياله من تيار من مد تدفق من خلال شعورنا الواعي ابتداء باصلاحات هيو اوف كلاني Hugh of Cluny والقديس برنار ومؤتمر لا تيران عام ١٢١٥ ، فلوثر وكلفن وحركة التطهير ، ومن ثم عصر التنوير ، وذلك كله عندما كان التاريخ الديني اليهودي قد انتهى جملة وتفصيلا ! ونرى داخل الاتحاد اليهودي الاوروبي الغربي يوسف كارو يعيد في كتابه شوليهان آروخ شرح مادة ابن ميمون بشكل آخر ، وهذا كان بالامكان القيام به ، وبالصورة الحسنة ذاتها ، في عام ١٤٠٠ او عام ١٨٠٠ ، اوكان بالامكان عدم القيام به اطلاقا . فبعد رسوخ الاسلام الحديث وعدم تغييره ، وثبوت المسيحية البزنطية وتوطدها منـــذ الحروب الصليبية « وبالمثل حتى في حياة الصين المتأخرة زمنا ومصر » تبدو كل هذه الامور اموراً شكلية لا تنطوي حتى على الاطعمة المحرمة واسرار الصلاة ، والحجب ، بـل تنطوي ايضا على الافتاء التلمودي الذي هو الشيء ذاته الذي كان يطبق طيـــلة قرون على الفنديداد في بومباي والقرآن في القاهرة . كما وان التصوف « الغربي — المترجم » Mysticism اليهودي « الذي هو تصوف — شرقي — المترجم — مجرد Sufism » قد بقي ، كالتصوف الاسلامي ، دون تبديل او تعديل منذ الحروب الصليبية ، وقد انجب في القرون الاخيرة ثلاثـــة قديسين اكثر ، وفق مفهوم

التصوف الشرقي – مع ان تعرفنا على هؤلاء كقديسين يستلزمنا ان نرى من خلال رواسب لون اشكال الفكر الغربي . فسبينوزا بتفكيره بالجواهر بدلا من الطاقات ، وبثنائيته المجوسية متنا وحاشية ، هو قابـــل بكليته ليقارن بالعلماء المتأخرين عن رفاقهم زمنا من علماء الفلسفة الاسلاميــة كالمرتضى والشيرازي . وسبينوزا ينتفع بافكاره من مخزونه الغربي الباروكي ، ويعيش ذاته داخل صيغة من تخيل لذاك التركيب « الغربي - المترجم » وبصورة كاملة الى حد تجعله يخدع حتى نفسه ، لكنه يبقى ، تحت سطح حركات نفسه ، ذاك الانسان المتحدر من اصلاب ابن ميمون وابن سينا والمناهجية التلمودية « الاكثر هندسة » . وبعث في بعل شم Baal Shem مؤسس طائفة الهاسيديم « والمولود في فولهينيا Volhynia قرابة عام ١٦٩٨ » مسيح حقيقي . فتجواله في عالم الاحياء اليهودية البولنديــة معلماً وواعظا وصانعاً للمعجزات ، يعان فقط بقصة المسيحية البدائية ، فهنا نشهد حركة تتدفق منابعهــا من التصوف المجوسي الكابالي ، حركة امرت ألباب جزء كبير من اليهود الشرقيين ، وكانت لا شك واقعة ذات اثر ونفوذ في التاريخ الديني للحضارة العربية ، ومع انها سارت في مجراها حتى نهايتـــه ، على الشكل الذي سارت وفقـــه ، وسط جنس بشري غريب عنها ، فانها بدأت وعاشت وانتهت دون ان يحس بوجودها هذا الجنس بصورة عمليــة . فالمعركة السلمية التي شنها بعل شم باسم حاول ــ الله ضد الفريسيين التلموديـين في عصره ، وشخصيته المشابهة لشخصيــة المسيح ، والثروة من الاساطير التي سرعان ما نسجت حول شخصه ، واشخاص تلاميذه ــ كل هذه الاشياء جادت بها نفس مجوسية صافية ، وهي في أعماقها غريبة علينا غرابة المسيحية البدائية نفسها . فعمليات الفكر في الكتابات الهاسيدية هي عمليات غامضة غير مفهومة لغير اليهود ، وكذلك هي ايضاً طقوسهم ، اذ تنتاب البعض من طائفة الهاسيديم ، اثناء قيامهم الانفعالي بشعائرهم هزات وانتفاضات ، بينما يأخـــذ البعض الآخر بالرقص كدراويش الاسلام . وقد قام احد تلامذة الزادقيـــة Zaddikism بتطوير تعاليم بعل شم

الاصلية ، والزادقيـــة هذه هي ايضا اعتقاد يقول بتتالي رسالات القديسين « الزادقيـــين » الالهية وتتابعها ، وبأن مجرد مجاورة هؤلاء تعود على المرء بالخلاص ، وللزادقة وشائج واضحة من قربى بالمهدية الاسلامية ، واكثر من ذلك ، فهي وثيقة الصلة بعقيدة الامامة الشيعية ، حيث يتخذ « نور النبي » من الامام مقاما له ومقراً . وهناك تلميذ آخر يدعى سلمون ميـمون – ولهذا سيرة شخصية عجيبة مدهشة Autobiography – وقد خطا سلمون فكريا من بعل شم الى « كنت » Kant ، « والذي كان نوع فكره التجريدي يحظى بهوى شديد لدى العقول التلمودية » . ثم هناك تلميذ ثالث هو اوتوفاينتجر Otto weininger الذي كانت ثنائيته الاخلاقية عقيدة مجوسية مجردة ، والذي كان موتـــه خلال صراع روحي ذي خبرة مجوسية بصورة جوهرية ، والحق ان موته هذا كان من انبل المشاهد التي يمكن للتدين المتأخر زمنا ان يعرضها . وقد يكون باستطاعة الروس ان يخبروا شيئا من هذا النوع ، ولكنه ليس بمقدور النفس الكلاسيكية ولا الفاوستية ان تخبر مثله

وتصبح الحضارة الغربية بدورها في « عصر التنوير » ميغابولينية وعقلانية ، وتمسي فجأة بمتناول ادراك الإنتلجنسيا من الاتحاد اليهودي . وهذا الاخـــير (الاتحاد) الذي ارتقى وسط حقبة تنطبق بالنسبة لابنائه ، على الماضي البعيد ، ماضي مجري حياة سفردية تصرمت منذ زمن طويل ، فان مشاعر هؤلاء الابناء قد هزتها حتما احاسيس صدى هذا الماضي هزاً عنيفا ، لكن هذه الاصداء كانت من الجانب التنديدي والسلبي فقط ، وكانت النتيجة الفاجعة وغير الطبيعية لهذه ان جرف التماسك (اليهودي – المترجم) هذا التماسك الذي كان قد اكتمل تاريخياً وكان عاجزاً عن اي تقدم عضوي (حي) ، جرف فأمسى داخل الحركة الكبرى للشعوب المضيفة ، التي هزته وفككته ونثرته واتلفته حتى اعماقه . وذلك لان عصر التنوير كان يمثل ، بالنسبة للروح الفاوستية ، خطوة الى الامام على

دربها الخاص – وهي خطوة ، كانت لا شك ، فوق الانقاض والحطام ، لكنها مع هذا تبقى في اعماقها خطوة اثباتية ايجابية – بينما كان هذا العصر ذاته ، في نظر اليهود ، عصرا مدمراً فقط ، عصرا نسف التركيب الغريب عن اليهود ، نسفاً كاملا ، هذا التركيب الذي لم يدركوا له كنها ولم يفهموا منه مراً . وهذا هو السبب في اننا نرى مرارا وتكراراً مشهد عصر التنوير – وهـذا مواز لوضع الفرس في الهند ، وحال الصينيين واليابانيين في الملة المسيحية والاميركيين الحديثين في الصين – نراه يدفع به حتى مذهب الكلبية Cynicism ، والالحاد الكامل ، ويقاوم دينا غريبا عنه ، بينما يستمر الفلاحون في ممارسة دينهم الشعبي الخاص ، غير متأثرين به . فهناك اشتراكيون ، (من اليهود – المترجم) ومع هذا لا يعسون المحرمات من المآكل ، ويحافظون على شعائر الصلوات الروتينية ، ويحملون الحجب ، ويقومون بكل هذه الامور بدقة صارمة كأنها دقة من اضناه الشوق او برحه القلق . ويتكرر ، في الواقع ، اكثر من هذا المروق الباطني من الاتحاد اليهودي بوصفه مذهبا – ويعرض علينا ذاك الطالب الهندي مشهدا مماثلا لهذا المشهد ، فذاك الطالب الهندي الذي اكتسب بعد دراسة جامعيـــة للوك ومل ، احتقارا هازئا ساخرا لكل من المعتقدات الهندية والغربية معا ، يجب في النهاية ان تسحقه انقاض هذه المعتقدات وحطامها ، انقاض الهنديـــة منها والغربية . فمنذ الحقبة النابليونيـــة ، اخذ الاتحاد اليهودي المتمدن يترنح ، غير مرحب به ، « بمجتمع » المدن الغربية المتمدن – جديدا ، واخذ يقتبس مناهجها الاقتصادية والعلمية بتفوق الشيخوخة البارد وسلطانها . وبعد اجيال قليلة ، قام اليابانيون ، وهؤلاء هم ايضا عقـل بالغ في القدم ، بالامر نفسه ، ومن الجائز ، انهم قد حققوا من النجاح فيه اكثر مما لاقاه اولئك . وهناك ايضا مثـــل آخر يقدمه الينا القرطاجنيون : فهؤلاء الذين يعتبرون مؤخرة جيش المدينة البابلية ، والذين كانوا قد بلغوا شأواً رفيعا من التطور عندما كانت الحضارة الكلاسيكية لا تزال في طفولتها الاتروسكانية – الدوريـــة ، قد انتهوا الى التسليم الهيلينية

المتأخرة زمنا – وتحجروا في دولة – ختام لكل ما هو متعلق بالدين والفن ، ولكنهم كانوا امهر بكثير من اليونان والرومان ، كرجـال اعمال ، وكانوا مكروهين بقدر ما هم ماهرون .

والبوم فان هذا الشعب المجوسي ، « واليهودي – المترجم » باحيائه Ghettos ودينه ، مهدد بخطر التلاشي والزوال – والسبب في هذا يعود لكون الفلسفتين الميتافيزيقيتين لهاتين الحضارتين قد تقاربتا اكثر من الاول بكثير « فهذا امر مستحيل » ، بل يعود الى ان الطبقة العقلانية العليا من كلا الجانبين ، قد اخذت تكف عن كونها ميتافيزيقية اطلاقا . فلقد فقدت كل نوع من التماسك الباطني ، وما بقي من هذا التماسك فهو يتعلق فقط بالقضايا العملية . زد على ذلك ان الدور القيادي الذي اعتاد ان يقوم به هؤلاء القوم ، نتيجة لتدربهم الطويل على التفكير وفق المصطلحات والمفاهيم الاعمالية « من تجارية ومالية وغيرها – المترجم » ، اخذت اهميته تتضاءل يوما بعـد يوم وبصورة مستمرة ، وبفقدانهم لهذا الدور سيفقدون آخر وسيلة فعالة للحفاظ على الاتحاد الذي تناثر اقليمياً مزقاً واجزاء . واللحظة التي تبلغ فيها المناهج المتمدنة للمدن العالمية الاوروبية الاميركية مرحلة نضوجها الكامل فعندئذ سيكون مصير اليهود – وعلى الاقل اليهود الذين يعيشون وسطنا « اما يهود روسيا فحالهم غير هذه الحال » قد انجز واكتمل .

ان للاسلام تربة يقف عليها . فلقـد امتص عملياً الفرس واليهود والنساطرة والاتحاد اليعقوبي نفسه . كما وان « مخلفات » الامة البزنطية ، اهـل اليونان الحديثين ، يقيمون في ارضهم الخاصة بهم ايضاً .

الفصل الحادي والعشرون

الدولة

(أ)

مشاكل المنازل (جمع منزله) ــ النبالة والكهنوت

- ١ -

هناك سر لا يسبر له غور للسيول الكونية التي نسميها بالحياة ، انه انفصالها الى جنسين Sexes . فهما يحاولان في مجاري ـ وجود عالم النبات المشدود الى الارض ، ان ينفصل الواحد منهما عن الآخر ، كما يعلمنا بذلك رمز الزهرة ـ فيصبح شيئاً ما هو هذا الوجود ، ويمسي الثاني شيئاً مـــا يحافظ عليه ليستمر في سيره . ان الحيوانات هي عوالم صغيرة حرة وطليقة في عالم كبير ـ الكوني ـ مغلق بوصفه كوناً اصغر اقيم ضد الكون الاكبر . وحينما تقض مملكة الحيوان تاريخها ، يظهر ، اكثر فاكثر وبصورة حاسمة ، الاتجاه المزدوج للكيان المزدوج

المؤلف من الذكر والانثى نفسه ويعرض ذاته .

ان الانثى تقف اقرب من الذكر الى الكوني . وجذورها تضرب ، أعمق من جذوره ، في التربة ، وهي تشترك اشتراكاً مباشراً في الايقاعات الدورية العظمى للطبيعة . أما الذكر فهو أوسع حرية وانطلاقا منها ، وهو اكثر حيوانية وحركة - وذلك في ميادين الاحساس والفهم ، كما في غيرهـــا - وأشد تنبهاً وتوتراً .

ان المذكر يخبر المصير خبرة حية ، ويدرك السببية ، والمنطق السببي للمصير . اما الانثى فهي على العكس منه ، اذ انها هي نفسها المصير والزمان والمنطق العضوي للصيرورة ، ولهذا السبب بالذات ، فان مبدأ السببية ، مبدأ غريب ابداً .وذوماً عنها . وحينا حاول الانسان ان يعطي المصير شكلا محسوساً ، شعر به انه على شكل مؤنث وأسماه Moirai . Parcae , Norns فالاله الاسمى لم يكن ابداً بذاته مصيراً ، اذ كان اما ممثلا للمصير او سيداً له - تماما كالرجل الذي يمثل المرأة او يسيطر عليها . اما المرأة فهي بالفطرة عرافـــة ايضا ، وليس ذلك بسبب كونها تعرف المستقبـــل ، بل لانها هي المستقبل . فالكاهن يترجم فقط الاوواكل ذاتـــه ، والزمان هو الذي يتحدث بواسطتهـا .

ان الرجل يصنع التاريخ ، اما المرأة فهي التاريخ . وهنا وبوضوح غريب ، لكنه لا يزال مع هذا غامضا ، نمتلك معنى مزدوجاً لكل حدوث حي - فمن جهة نحس بدفق كوني على هذا الشكل ، ومن جهة اخرى تعود بنا سلسلة وقطار من الافراد المتعاقبين الى الاكوان الصغرى نفسها بوصفها اوعية هذا الدفق وحاوياته وحافظاته . ان هذا التاريخ « الثاني » هو التاريخ المذكر بصورة خاصة - انه تاريخ اشد وعياً واوسع حرية واشـد تهيجا واضطرابا من التاريخ الآخر .

فهو يعود عميقا فيبلغ عالم الحيوان ، ويتلقى ارقى ما له من تعبـــير رمزي وتاريخي ـ عالمي داخل مجاري ـ حياة الحضارات العظمى . اما تاريخ المؤنث فهو على العكس من هذا ، اذ انه التاريخ الاولي الخالد الامومي الشبيه بالثبات (وذلك لأن في الثبات دائما شيئا ما انثوياً داخله) ، انـه التاريخ اللاحضاري لتعاقب الاجيال الذي لا يتبدل ابداً او يتغير بل يمر هامدا باطراد خلال كينونة كل انواع الحيوان والانسان ، وخلال الحضارات الافرادية التي امتد بها الاجل قليلاً من الزمن . وهو حين استذكارة مرادف للحيـــاة نفسها . وهذا التاريخ ايضا لا تنقصـــه معاركه ومآسيه . فالمرأة في حالة الوضع تناضل حتى تبلغ نصرها . ولقد كان الازتيك ـ رومان الحضارة المكسيكية ـ يكرمون المرأة حين يأتيها المخاض بوصفها محاربا تخوض معركة ، وكانت اذا ما توفيت وهي في هذه الحال ، يدفنونها وفق مراسم دفن البطل الذي خر صريعا في المعركة . ان السياسة في نظر المرأة تهدف ابدا ودوما الى غزو الرجل والاستيلاء عليه ، هذا الرجل الذي تستطيع بواسطته ان تصبح اماً لأطفال ، وتستطيع بواسطته ايضا ان تغدو تاريخا ومصيراً ومستقبلا . فهدف خجلها العميق ، ودهائها التكتيكي ، كان ولا يزال وسيبقى والد ابنها . اما الاب فهو على العكس منها ، اذ انه يريد ذاك الابن ، بوصفه ابناً له ووريثا وناقلا لدمه وتقاليده التاريخية .

وهنا نرى هذين النوعين من التاريخ يتصارعان داخل الرجل والمرأة بغيـة الاستئثار بالقوة والسلطان . فالمرأة قوية ، وكل ما هي انها تخبر الرجل والابناء فقط على ضوء علاقتهم بها وبدورها المقرر . اما الكائن المذكر ، فهو على العكس منها ، اذ ان هناك في داخله تناقضاً معينا ، فهو هذا الرجل ، وهو الى جانب ذلك شيء ما غيره ، شيء ما لا تستطيع المرأة ابدا ان تفهمه او تسلم به ، اذ انها تعتبره بمثابة سرقـــة واعتداء على ما هو اقدس الاشياء في نظرها . وهذا السر والحرب الاساسية بين الجنسين قد بدأا منذ أن كان هناك جنسان ، وسيستمران

في قتال – صامت مرير غير متسامح لا يرحم – بينا يتابع الجنسان حياتيهما . وتوجد داخـــل تاريخ المؤنث ايضاً سياسات ومعارك وتحالفات ومعاهدات وخيانات . ويسود شعور – العنصر (العرق) من المحبة والكراهية ، والذي يولد في اعماق الحنين – الى العالم وغرائز التوجيه الاولية ، بين الجنسين – ويسود باكثر مما في التاريخ الآخر الذي يحدث بين الرجل والرجل الآخر من الفعالية الخطرة . فهناك اناشيد غنائية غرامية ، واناشيد غنائية حربية ، ورقصات حب ، ورقصات سلاح ، ونوعان من المأساة – عطيل ومكبث . ولكن لا يوجد اي شيء في عالم السياسي يمكن ان يقارن بانتقــام كليتمنسترا Clytaemnestra او كريمهلد .

وهكذا تحتقر المرأة ذاك التاريخ الآخر – اي سياسات الرجـــل – التي لا تستطيع ان تدركها ، والتي لا ترى فيها سوى انها تأخذ ابناءها منها . فما هي قيمة النصر في معركة تبيد الانتصارات في الف مرير من أسرة الولادة ؟ فتاريخ الرجل يضحي بتاريخ المرأة من اجـــل ذاته ، ولا شك ان هناك ايضا بطولة انثوية تدفع بالابنــــاء الى التضحية (كاترين سفورزا على اسوار امولا) ، ولكن بالرغم من هذا ، فانه قد كانت وتوجـــد ، وستوجد ابداً سياسة سرية للمرأة – وحتى للانثى من عالم الحيوان – وهذه السياسة تستهدف ابعاد ذكرها عن نوع تاريخه وان تنسجه جسدا وروحا في تاريخها الشبيـــه بالنبات ، تاريخ التتابع الجنسي – اي داخل ذاتها . ومع هذا فان كل ما ينجز في تاريخ الرجل ، انما ينجز على صيحات المعارك المرددة لشعارات الموقـــد والبيت والزوجات والاطفال والعرق وما يشابهها ، وكل ما له من هدف هو ان يصون ، بدوراً ، ويسند تاريخ الولادة والموت هذا . فالصراع بين الرجل والرجل ، انما ينشب بسبب الدم ، بسبب المرأة . فالمرأة بوصفها زماناً ، هي ذاك الزمــان الذي له اطلاقاً تاريخ .

والمرأة ، التي تمتلك عنصراً داخلها ، تشعر بهذا حتى حينما لا تكون تعرف

به . فهي مصير ، وتقوم بدور المصير . وهذا الدور يبـــدأ باحتراب الرجال واقتتالهم بغية امتلاكها - هيلين ومأساة كارمن وكاترين الثانية وقصة نابليون وديزيريه كلاري التي دفعت في النهاية بيرنادوت ليقف في معسكر اعـــداء نابليون - وهذا الدور ليس دوراً بشرياً فقط ، وذلك لان الاقتتال يبدأ تحت في عالم الحيوان ويملأ تاريخ جميع الانواع . ويبلغ هذا ذروته في سيطرة المرأة كأم او زوجة او محظية ، وفي مصير الامبراطوريات - هالجرد Hallgerd في اسطورة نجال Njal ، الملكة الفرنكية برونهلدي ، ومروتزيا التي اعطت السدة البابوية Holy See للذين وقع عليهم اختيارهـــا من الرجال . ان الانسان يرقى سلم تاريخه حتى يمتلك مستقبل بلد بين يديه - ثم تأتي المرأة وترغمه على ان يخر راكعاً على ركبتيه . والشعوب والدول قـــد تقتتل على المستقبل فتندثر وتمسي ركاماً ، لكن المرأة في تاريخها هي التي فتحت وغلبت . وهذا هو دائماً ، في نهاية المطاف ، هدف الطموح السياسي للمرأة ذات العرق .

وهكذا فان التاريخ معنيين ، ولا يجوز التجديف بأي منها . فهو إمـــا كوني ، واما سياسي ، وهو امـــا كائن ، او حافظ الـكائن وصائن . وهناك نوعان من المصير ، ونوعان من الحرب ومن المأساة - نوع عام ، ونوع شخصي خاص . ولا يوجد اي شيء يستطيع ان يستأصل هذه الازدواجية من العالم . فهي جذرية واوجدت داخل جوهر الحيوان الذي هو كون اصغر ومشترك في الكوني معاً . وهي تظهر على جميع الارتباطات الهامـــة في شكل تضارب الواجبات الذي يوجد بالنسبة للرجال فقط ، ولا يوجـــد بالنسبة للنساء ، ولا يتم التغلب عليه في مجرى الحضارة الارقى ، بل انما يزاد في تعميقه فقط . وهناك حياة عامة وحياة خاصة ، وقانون عـــام وآخر خاص ، ومذاهب طائفية واخرى منزلية . والكينونة ، بوصفهـــا منزلة ، هي « شكل لائق ، In form » بالنسبة للتاريخ الواحد ، وبوصفها عنصراً ، سلالة ، هي ، في السيلان ، كنفسها ، التاريخ

الآخر . وهذا هو التمييز الجرماني القديم ، بـــين « جانب السيف » و « جانب المغزل » من قرابة الدم . ويجد المغزى المزدوج للزمان الاتجاهي ارقى تعبير له في فكر الدولة والعائلة .

ان تنظيم العائلة هو في المادة الحية ، مـــا هو شكل المنزل في المادة الميتة . واذا ما حدث تغيير في تركيب حياة العائلة ومغزاهـــا ، فعندئذ يتغير ايضاً مخطط البيت . وتنطبق على طريقة السكن الكلاسيكية عائلة العصب من الطراز الكلاسيكي . وهذه تدل بأكملها على المنزلة ، كما هي كائنة في الهنا — والآن — اليوقليديتين ، وذلك كما كانت المدينة تدرك تماما على انها مجموعـــة من الاجسام الكائنة مباشرة . لذلك فان قرابة الدم ليست ضرورية ولا كافية بالنسبة لها ، وهي تنتهي عند حد Patria Potestas « للبيت » . والام وفق هـذا المفهوم لا ترتبط بابة وشيجة من قرابة عصب بذرية جسدها ، ومن جهة كونها مثـل ذريتها خاضعة لـ — Patria Potesta لزوجها الحي ، فانما هي فقط اخت عصب لاطفالها . ومن جهة اخرى فتنطبق على طريقة سكن « الاتحاد » عائلة الرحم المجوسية (مشابها بالعبرانية) التي توسع بواسطة قرابة الدم الابوية والامومية معاً ، وتتلك « روح » اتحاد صغير خاصة بها ، ولكن لاتمتلك رأساً خاصاً . وبما هو ذو مغزى ودلالة على انطفاء النفس الكلاسيكية وهمودها ، وتفتح الروح المجوسيـة وانطلاقها ، ان القانون الروماني ، في العصور الامبراطورية ، ينتقل من التركيز على قرابة العصب الى التركيز على قرابة الرحم . زد على ذلك ان قانوني جوستنيان ۱۱۸ ، و ۱۲۷ ، المعدلين لقانون الميراث ، يؤكدان انتصار فكرة العائلة المجوسية .

ونرى على الجانب الآخر جماهير من الكائنات الفردية تتدفق عبوراً وتنمو وتمر وتزول ، لكنها تصنع . وكلما زاد الخفقان المشترك لهذه الاجيال المتعاقبة

صفاء وعمقاً وقوة وثقة بـه ، يزداد تملكه من الدم والعرق . وتنشأ من اللانهائي عصبات من الناس لكل منها نفسها ، وتشعر بذواتها داخل موجة خفقان مشترك لكينونتها ككل – وهـذه ليست طوائف – فكر كأنها الرهبانيات ، ولا نقابات صنعة او مدارس تعليم تشدها الى بعض حقائق مشتركة ، لكنها تعاهدات من دم في ملحمة الحياة المقاتلة .

وهناك ارقال من كينونة هي في « شكل لائق » وفق ما لهذا الاصطلاح المستعمل في الرياضة من مفهوم . فـيدان الخيول في سباق الحواجز هو في شكل لائق عندما تقفز القوائم بثقة من فوق الحواجز ، وتضرب على سطحه بايقاع وقوة وثبات . وعندما يكون المصارعون ولاعبو الكرة في « شكل لائق » عندئذ تأتي اخطر الاعمال والحركات بيسر وسهولة طبيعية . ومرحلة الفن هي شكل لائق عندما تكون تقاليده هي الطبيعة الثانية ، كما الكونتر بونيت لباخ . والجيش هو في شكل لائق ، عندما يكون كجيش نابليون في معركة اوسترليتز او جيش مولتكه في سيـدان ، وان كل شيء آخر انجز في تاريخ العالم ، في الحرب ، وبمتابعة الحرب بواسطة الوسائل العقلانية التي نسميها سياسة ، وفي كل دبلوماسية ناجحـة وتكتيك وستراتيجية ، وفي تنافس الدول او الطبقات الاجتماعية او الاحزاب ، هو عملياً ثمرة الوحدات الحيـة التي وجدت ذواتها في شكل لائق .

ان الكلمة التي تعني تربية العنصر او الذرية هي كلمة « تدريب » وذلك في تباينها وكلمة تشكيل التي تعني خلق طوائف من الشعور الواعي على اساس من تعاليم وحدة النسق او عقائد . فالكتب مثلاً هي عوامل تشكيل ، بينما ان النبض المحس بـه دائماً وتناغم الوسط الذي يشعر المرء بنفسه داخله ويعيشها – كالراهب قبل سيامته او كالوصيف في الازمان القوطيـة المبكرة – هما مؤثرا تدريب . « فالشكل الحسن » وطقوس مجتمع معـين هي عروض

حس لخفقان نوع معين من الكينونة ، ولكي يتمكن المرء منها يتوجب عليه ان يتلك خفقانها . ومن هنا كانت النساء ، بوصفهن اشد حساسية غريزية واقرب من الرجال الى الايقاعات الكونية ، يستطعن ان يؤهلن ذواتهن لاشكال الوسط الجديد ، اسرع من الرجال . فالنساء من الطبقات الوضيعة يقدرن بعد عدد قليل من السنين ان يتحركن في المجتمع الكيس الرشيق بثقة كاملة بالنفس – ومن ثم يغرقن في طبقتهن الاصلية بالسرعة ذاتها . لكن الرجال يتبدلون ببطء ، لانهم اعمق وعياً واوسع دراية . فالبروليتاري لا يمكن ابداً ان يصبح ارستقراطيا كامــلاً ، كما وان الارستقراطي لا يستطيع ابدا ان يمسي بروليتارياً تاما – فخفقان الوسط الجديد لا يتبدى الا في الابناء فقط .

وكلما كان الشكل اعمق ، كلما كان اشد صرامة وتنفيراً للنفس ، لذلك يتبدى في نظر من لا ينتمي اليه رقاً وعبوديــة ، بينما ان حال من ينتمي اليه هي على العكس من ذلك ، اذ ان هذا يسيطر عليه سيطرة كاملة وبأيسر سبيل ، فسيطرة امير دي لاين Prince de Ligne على الشكل لم تكن ابداً تقــل عن سيطرة موزارت عليه ، وهو كان سيده ولبس عبده ، والقول هذا ينطبق على كل انسان ارستقراطي بالولادة ، وعلى رجل الدولة والمقاتـــل . ولذلك يوجد في جميع الحضارات الراقية فلاحون هم نسل ، اورومة ، في المفهوم العريض (وبذلك هم الى حد معين طبيعة بالذات) ، كما ويوجد مجتمع هو تأكيداً واثباتاً في « شكل لائق » . انه مجموعة من الطبقات او المنازل (جمع منزلة) ، وهو لا شك شيء اصطناعي وانتقالي عابر . ولكن تاريخ هذه الطبقات والمنازل هو تاريخ العالم بارقى وضع له . وبالنسبة لهذا فقط يرى الفلاح ان لا تاريخ له . ولقـــد حقق كامل التاريخ العظيم لهذه الدورات الالفيـــة الست من الاعوام ذاته داخل مجاري – حياة الحضارات الراقية ، وذلك لان هذه الحضارات بالذات قد وضعت بؤرها المبدعة الخلاقة في منازل تمتلك سلالة وتدريبا ، وامست في سياق الاكتمال

مستولدة سلالياً ومدربة ومؤهلة . ان الحضارة هي نفس بلغت التعبير عن ذاتها باشكال محسوسة معقولة ، لكن هذه الاشكال هي حية منفتحة وولود . ويوجد رحمها داخل الكينونة المصعدة للافراد او الجماعات – اي داخل ما اسميته قبل هنيهة بالكينونة في « الشكل اللائق » . وعندما ، وليس حتى ، تتشكل هذه الكينونة ، بما فيه الكفاية ، فتبلغ ذاك الصلاح الراقي ، عندئذ تصبح ممثلة للحضارة المستذكرة فكراً او ذهناً .

ليست الحضارة شيئاً عظيماً فقط ، بل انها بكليتها شيء لا يماثله اي شيء آخر في هذا العالم العضوي . فهي النقطة الواحدة التي يسمو عندها الانسان بنفسه فوق قوى الطبيعة ، ويصبح هو نفسه خالقاً . وحتى فيما يتعلق بالعرق والنسل ، فهو مخلوق الطبيعة – انه مولود . ولكنه بالنسبة للمنزلة ، يولد نفسه تماماً كما يولد الانواع النبيلة من نبات – الحيوان الذي يحيط به نفسه – وهذه العملية بأعمق مفهوم واشده نهائية ، هي « حضارة » ايضاً . فالحضارة والطبقة هما تعبيران متعاوضان ، وهما تنشآن معاً وتختفيان معاً . وتوليد نماذج مختارة من النبيذ او الفاكهة او الازهار ، وتوليد الخيول الاصيلة ، هو حضارة ، وحضارة وفق المفهوم ذاته تماماً الصفوة Elite من البشر الذين ينشئون بوصفهم تعبيراً للكينونة التي جعلت نفسها شكلاً راقياً .

ويوجد ، لهذا السبب بالذات في كل حضارة ، حس دقيق عما اذا كان هذا الانسان او ذاك ينتمي للحضارة المعينة ام لا . فالفكرة الكلاسيكية عن البربري ، والفكرة العربية عن غير المؤمن ، والهندية عن السدرا هي – مهما اختلفت خطوط الانشقاقات التي توصل الناس اليها – جميعاً فكر متشابهة ، لكون الكلمات لا تعبر بصورة أساسية عن الاحتقار او البغضاء ، بل تقرر ان هناك فروقاً واختلافات في نبض الكينونة حيث تقيم هذه الفروق حواجز لا

يمكن تخطيها امـــام جميع الاتصالات على المستويات الاعمق . وهذه الفكرة الواضحة وغير المبهمة تماماً قد حجبها المفهوم الهندي « الطبقة الرابعة » هـــذه الطبقة ، التي كما نعلم الآن ، لم توجد اطلاقاً . فشريعة مانو بأنظمتها المشهورة السدرا هي ثمرة من ثمرات دولة الفلاحين التي بلغت ذروة تطورها في هنده ، وقد وصف ـ وبغض النظر عن الوقائع حسب التشريع القائم ، او حتى القابل لان يشترع ـ الفكرة الضبابية للبرهمية مستعملاً بوصفه الاسلوب السلبي في معالجـــة نقيضها ، وذلك تماماً كما استعملت الفلسفة الكلاسيكية المتأخرة زمناً فكرة بانايوسوس Banausos العامل . فالاول ظاهرة هنديـــة بصورة خاصة ، بينما دفعتنا الثانيـــة الى تكوين فكرة خاطئة في اساسهـــا عن موقف الانسان الكلاسيكي من العمل .

فجميع ما يجابهنا في حالات كهذه ، هو الثقل الذي لا قيمة له او وزن في الحياة الباطنية للحضارة ورمزيتها ، وهـــذا الثقل يترك ، بالاصل ، خارج كل تصنيف حقيقي الاهمية ، كما يتجاهلون نوعاً ما « المنبوذ » في الشرق الاقصى . ان التعبير الغوطي « جسد المسيح الطاهر Corpus Christianum يـــدل باوضح صورة وافصح لسان على ان الاتحاد اليهودي لا ينتمي اليه . وفي الحضارة العربية كانوا يتسامحون مع المؤمن الآخر فقط داخـــل المناطق اليهودية والفارسية والمسيحية ، وفوق هذا الامم الاسلامية ، وكان يترك باحتقـــار وازدراء لادارته العامة الخاصة به وتشريعه الخاص . وفي العالم الكلاسيكي لم يكن البرابرة وحدهم هم المنبوذين ـ فلقد كان العبيد كذلك الى حد ما وخاصة بقايا السكان الاصليين ـ كالبنستيا Penestae في تساليـــا وهيلوط اسبرطه الذين كان اسيادهم يعاملونهم بطريقة تذكرنا بسلوك النورمان في انجلترا الانجلوسكسونية ، وبسلوك الفرسان التيوتون في الشرق السلافي . وتحفـــظ شريعة مانو ، كتسميات لطبقات السدرا ، اسماء شعوب قديمـــة من الاقليم المستعمر » في الغانج الاسفل . (وماغادها Magadha بين هذه الاسماء ، كما

أن بوذا نفسه يجب أن يكون من طبقـــة السدرا وكذلك «القيصر» آسوكا الذي كان جده تشاندراغوبتا يتحدر من اوضع ارومة) . والاخرى هي اسماء حرف ، وهذه تذكرنا انه يوجد في الغرب كما في غيره من البلاد حرف معينة كانت منبوذة - الشحاذين مثـــلا (الذين يشكلون في نظر هوميروس طبقة) والحدادين والمغنين ومحترفي الفقر الذين كانت تكايا الكنيسة تطعم الجماهير منهم تعاونها في ذلك اريحية العامة في الازمنة القوطية المبكرة .

وزبدة القول ، ان كلمة «طبقة» كلمة أسيء استعمالها بقدر ما استعملت . فلم تكن توجد طبقات في المملكتين القديمـــة والوسطى في مصر ، وكذلك في الهند قبل بوذا ، وفي الصين قبل ازمان الهان . فهذه لا تظهر الا في الاوضاع المتأخرة جداً في زمنها ، وعندئذ نجدها في جميع الحضارات . فابتداء من العائلة الحادية والعشرين فما بعـــد (قرابة عام ١١٠٠ ق.م) كانت مصر تقع حيناً بأيدي طبقة الكهنة في طيبه ، وحيناً آخر بأيدي طبقة المحاربين الليبيين ، ومن ثم تابعت عملية التيبس مجراها بمثابرة وثبات حتى زمن هيرودوت - الذي كانت نظرته الى اوضاع يومه ، وخاصة المصرية ، غـــير صحيحة تماماً كنظرتنا الى الاوضاع السائدة في الهند . ان التمييز بين المنزلة وبين الطبقة ، هو التمييز بين أبكر حضارة واشد مدنيـــة تأخراً في الزمن . فالحضارة تكون حين نشوء المنزلتين الاوليتين - النبيل والكاهن - في حالة تفتح وانفتاح عن ذاتها ، بينما ان الطبقات هي تعبير عن وضعها الفلاحي النهائي التحديد . فالمنزلة هي اشد الجميع حياة ، انها الحضارة المنطلقة على درب الاكتمال ، انها الشكل الذي يتوجب على الحي ان يفضه بنفسه . اما الطبقة فهي الانتهائية المطلقة ، انهـــا الطور الذي يعقب فيه التطور رسوخ لا يتبدل او يتغير .

لكن المنازل الكبرى هي شيء ما يختلف عن مجموعات - الحرف ، كحرف الصناع والموظفين والفنانين الذين تشدهم حرفيا بعضا الى بعض ، التقاليد التقنية

وروح مملهم . وهم ، في واقع الحال ، شعارات من لحم ودم ، حيث ان كامل كينونتهم ، كظاهرة ، كموقف ، كأسلوب وفكر ، تمتلك معنى رمزيا .
وعلاوة على ذلك يوجد داخل كل حضارة – حيث يكون الفلاحون قطعة من الطبيعة المجردة ونمواً ، ولذلك فهم تظاهرة كاملة في اللاشخصية – اقول يوجد نبلاء وكهنة هم نتاج توليد وتشكيل راقيين ، ولذلك يعبرون عن حضارة شخصية سداة ولحمة ، حضارة لا تنبذ ايضا وفورا كل من ليس في منزلتهم بوصفه ثقلاً – يعتبره النبلاء « كشعب » ويراه الكهنة بوصفه عوام" . واسلوب الشخصية هذا هو المادة التي تتحجر ، عندما يحين عصر الفلاح ، في نموذج طبقة تبقى فيما بعد طيلة قرون وقرون ثابتة على حالها لا يطرأ عليها تبديل او تغيير .
كما ان العنصر والمنزلة في الحضارة الحية هما في حال الطباق كاللاشخصي والشخصي ، كذلك فان الجمهور والطبقة ، الكولي والبرهمي ، هما في ازمان الفلاح في حال الطباق كاللاشكلي والشكلي . فالشكل الحي قد اصبح قاعدة او صيغة ، ومع انه لا يزال يمتلك اسلوباً لكنه يمتلكه بوصفه يبوسة اسلوبية . وهذا الاسلوب المتحجر للطبقة هو على جانب هائل من الدهاء والهيبة والعقلانية ، ويشعر بان ذاته ارفع بكثير وكثير من الجنس البشري المتطور لاية حضارة – وبالكاد نستطيع ان نشكل فكرة عن الذرى المتشامخة التي يطل منها المندرين او البرهمي على ما يراه تحته من الافكار والاعمال الاوروبية ، او عن اغوار احتقار الكاهن المصري لشخص زائر من طراز فيتاغوروس او افلاطون . وهذا الاسلوب يتحرك خلال الزمان هادئا رصينا بالوقار البزنطي لنفس خلقت بعيدا بعيدا وراءها جميع مشاكلها والغازها واحاجيها .

- ٢ -

كان الناس(٥) ، في الحقبة الكارولونجية ما قبل الحضارة ، يقسمون الناس الى ثلاث فئات : العبيد والاحرار والنبلاء . وهذا تمييز بدائي يرتكز فقط على وقائع الحياة الخارجية . لكن هذا التقسيم في الازمان القوطية المبكرة قد ورد على الشكل التالي في هذين البيتين من الشعر :

« لقد خلق الله الحياة على ثلاثة اشكال »

« الفلاح والفارس والكاهن »

وهنا تتبدى لنا فروق في المقامات في حضارة قد استيقظت لتوها . حيث نرى البطبة – الرداء – والسيف يقفان معاً في وجه المحراث موقفاً اعلى[?] في قوته ووضوحه ، وذلك بوصفها منزلتين قبالة الباقي الذي لا منزلة له ، والذي كونه شبيهاً بما هو واقعة ، ولكنه واقعة لا تشابه واقعيتها ، اذ انها واقعة لا تمتلك مغزى اعمق . فالتفارق الباطني والمحسوس ، بينهم يبلغ حداً من التعين والقوة حيث لا يستطيع عنده اي فهم ان يجهله او يتجاهله . فالبغضاء تمور من القرى ، والاحتقار يومض مجيباً عليها من القلاع . وهذه الهوة الفاصلة « بين الحياتات » لم تشقها ملكية ولا سلطة ولا حرفة . كما وانه لا يوجد لها اي مبرر منطقي ، فهي طبيعة ميتافيزيقية .

وتنشأ فيما بعد البرجوازية ، وهذه اصغر سناً من المنزلتين الآنفتي الذكر ، وتصبح « المنزلة الثالثة » . وهنا يرمي البرجوازي ايضا الريف بنظرات من

الازدراء والاحتقار ، حيث يجثم الريف حوله بليــــدا غبياً صبورا لا تتبدل له حال ، وحيث يشعر البرجوازي بنفسه متباينة واياه ، فهو يحس بانه اشد منــه وعيا وتنبهاً واوسع حرية وابعد انطلاقاً وتقدماً على درب الحضارة . كما وان البرجوازي يحتقر ايضا المنزلتين الاوليتين - « الاقطاعي » و « كاهن الابرشية » بوصفها شيئا ما دونه عقلانيا ووراءه تاريخيا . ومع هذا فاننا اذا ما قارنا بـين البرجوازي وبين هاتين المنزلتين يتضح لنا ان البرجوازي هو كما كان الفلاح ، اي لا منزلة له . فالفلاح في وسط « ذوي اصحاب الامتياز » يكاد يكون عديماً من كل قيمة ، لكن للبرجوازي قيمة بوصفه نقيضاً لاولئك وخلفية للصورة . فهو التفريغ الزخرفي foil الذي يصبح الآخرون ازاءه مدركين اهميتهم الخاصة ، وواعين للواقعة المقررة ان هذه الاهمية هي شيء ما يقع خارج جميـع الاعتبارات العملية . وعندما نجد هذا في جميع الحضارات ، ونجد ان الشيء نفسه يحدث في الشكل ذاته ، وانه مهما اختلفت رمزيـة الحضارة الواحدة عن رمزية الحضارة الاخرى ، فتاريخها - (الحضارات) يكمل ذاته في كل مكان داخل وبواسطـة التعارض القائم بين هـذه الجماعات - في الحروب التحريضية الفلاحية في الربيـع الحضاري وفي الحروب الاهلية المستندة الى العقلانية في المراحل المتأخرة زمناً - اقول عندما نجد هذا عندئذ يتضح لنا تماما انه يتوجب علينا ان نبحث عن مغزى الوقائع في اعمق اسس الحياة نفسها .

انها فكرة تلك التي تكمن تحت هاتين المنزلتين الاوليـتين ، وتحت هاتين فقط . وهي تعطيها الشعور الجبـــار بالمقام المستمد من اضفاء الهي ، وهو لذلك فوق كل نقد وتنديد - فهو الموقف الذي يفرض احترام الذات ووعيها ، لكنه يفرض ايضا اشد انضباط - الذات صرامة ايضا (وحتى الموت نفسه اذا دعت الحاجة) بوصفه واجبا ، ويخضب هاتين المنزلتين بالتفوق التاريخي ، انه سحر - النفس الذي لا يعيش على القوة بل انما يولدها حقيقـــة وواقعا . فهؤلاء الذين

ينتمون الى هاتين المنزلتين باطنيا لا اسمياً هم شيء ما غير الثقل ، فحياتهم ، خلافاً ، لحياة البرجوازي والفلاح ، مدعومة بكل جزء من اجزائها ، بوقار رمزي . فهذه الحياتات لا توجد لكي تعاش فقط ، بل ليكون لها معنى ومغزى . الى جانبي كل حياة تتحرك مجريـة هما اللذان يعبران عن نفسيهما من خلال هاتين المنزلتين ، فالاول منهما هو بكليته كينونـــة ، اما الآخر فهو شعور واع سداة ولحمة

ان كل طبقـــة نبالة هي رمز حي للزمان ، وكل كهنوت هو رمز حي للفراغ . انها المصير والسببية المقدسة ، التاريخ والطبيعـة ، الـ - والـ - اين ، العنصر واللغة ، حياة الجنس وحياة الشعور - كل هذه الامور تبلغ داخلها ارقى تعبير ممكن . فالنبيل يعيش داخـــل عالم الوقائع ، اما الكاهن فيعيش في عالم الحقائق ، وللأول فطنة ودهاء ، وللثاني معرفة ، والاول هو فاعـل ، اما الثاني فهو مفكر . ان الشعور الارستقراطي بالعالم هو في جوهره حس نبض ، امـــا الشعور الكهنوتي بالعالم فينطلق بكليته بواسطة التوترات . وقـــد شكل شيء ما ذاته داخل مجرى الزمان وذلك في الفترة الواقعة بين شارلمان وكونراد الثاني ، وهذا الشيء ما لا نستطيع شرحه او ايضاحه ، لكن يتوجب علينا ان نشعر به اذا ما اردنا ان نفهم فجر الحضارة الجديدة . لقد عرف العالم منذ زمن طويل بالنبلاء والاكليريكيين ولكنه كان يوجد اولا - وليس لمدة طويلة من الزمن - طبقة نبالة وطبقـــة كهنوت باعظم ما لهاتين الكلمتين من معنى ، وبكل ما لمغزييهما من زخم رمزي كامل ومليء . ولقد بلغ هجوم الرمزية هذا درجة من الجبروت والشدة حيث ترامت عندها جميع الفروق الاخرى ، كفروق البلاد والشعوب واللغات في خلفية الصورة . فلقد كانت السلطة الكهنوتية القوطية في جميع البلدان الممتدة من ارلندا الى كالابريا طائفة عظمى واحدة ، كما وان طبقة الفرسان الكلاسيكيين ، المبكرين زمنا ، امام اسوار طروادة ، او طبقـــة

الفرسان القوطيين امام اسوار القدس تبدو لناظرينا كأن ابناءها ينتمون الى عائلة عظيمة واحدة . وتبدو المديريات المصرية (في العهد اليوناني – المترجم) Nomes والدول الاقطاعيـــة في أزمان تشو الاولى ، اذا ما قورنت بمنزلتين كهاتين باهتة اللون تماما كبورغونديا واللورين (وذلك بسبب المقارنـة) في مرحلة هوهنشتاوفن . وهناك وضع كوسموبوليتي في بداية ونهاية كل حضارة معا ، وهو يوجـــد في الحالة الاولى بسبب الجبووت الرؤي للاشكال الارستقراطية الكهنوتية التي تكون لا تزال محلقـــة فوق الاشكال القومية ، ويوجـــد في الحالة الثانية لأن الجماهير التي لا شكل لها تتخلف تحت هذه الاشكال .

وتنفي هاتان المنزلتان من حيث المبدأ الواحدة منهما الاخرى . وهذا يمثل التعارض الاولي بين الكوني والكوني الاصغر ، والذي يتخلل كل كائن يتحرك بحرية في الفراغ ، ويكمن وراء الوجود المزدوج ايضا . ولقد قابـــل العالم الهوميري الاورفية بمؤامرة من صمت عدائي ، وقد اصبح الاول بدوره (كما نرى من قبل السقراطيين) محطاً لغضب الاورفية واحتقارها . وفي الازمنـــة القوطية اعترضت الارواح المصلحة . بحماس مقدس درب طبائع عصر النهضة . فالدولة والكنيسة لم تبلغا ابداً وضعاً من توازن ، وقـد بلغ التناقض بينهما ، خلال الصراع بين الامبراطورية والبابويـة حداً من الشدة التي لا يستطيعها الا الانسان الفاوستي .

زد على ذلك ان منزلة النبالة هي المنزلة الحقيقيـة من المنزلتين ، فهي مجموع الدم والعنصر ، وهي مجرى الكينونة باكل شكل يمكن للخيال ان يتصوره . ولذلك فان طبقة النبالة هي طبقة فلاحيـــة ارقى . وكان هناك قول مأثور وواسع الانتشار حتى في عام ١٢٥٠ مفاده :

« ان من يحرث الارض قبل الظهر يثاقف (يبارز – يقارع) بعد الظهر .

وقد كان من المألوف تماما ان يتزوج الفارس من ابنــــة فلاح . ولقد كانت القلعة تمثل ، خلافا للكاتدرائية ، تطوراً من مسكن الفلاح فالبيت الريفي للنبيل في الازمان الفرنكية . وتتحدث اساطير فلاحي ايسلنـــــدا عن محاصرة البساتين واقتحامها كما تقتحم القلاع . فطبقتا النبلاء والفلاحين هما شبيهتان بالنبات وهما فطريتان على السليقة ، وجذورهما تضرب عميقاً في تربة الاسلاف ، ويتكاثران في شجرة عائلة ، ينسلون وينسلون . ومنزلة الكهنوت حين مقارنتها بهاتين ، هي في جوهرها منزلة مناهضة لهما ، انها منزلة النفي ، منزلة اللاعنصر ، والانعزال عن التربة – منزلة الشعور الواعي العديم الزمان والتاريخ . ففي كل قريـــة فلاحية ، وفي كل عائلة فلاحيــة ابتداء من العصر الحجري حتى ذرى الحضارة ، يعرض التاريخ نفسه قليلا ، فلنستبدل كلمات : الشعوب العائلات الاراضي المزاوع بكلمات : الحفاظ على الدم وتعاقب الاجيال والكوني والمرأة والسلطة – فهنا تجد ان المعنى النهائي لهذه هو المعنى ذاته لتلك . ومن الجائز تماما ان يكون مكبث والملك قــــد خططا فكريا كمأساتي قرية – والواقعة هي دليل حقيقتيها الفاجعتين . وتتبدى طبقتا النبلاء والفلاحين في جميع الحضارات في اشكال اصل العائلة ، والعائلة بالذات هي التي تربطهم بالجنس الذي بواسطته تنشر الحيـاة ذاتها وتمتلك تاريخا وتكون تاريخاً . ونظراً لكون المرأة تاريخا فان المرتبة الباطنية لعائلات الفلاحين والنبلاء تقرر بقدر ما تمتلك نساءهم من عنصر داخل ذواتهن ، وبقدر ما هن من مصير . ولذلك فان هناك مغزى عميقا في الواقعة المقررة انـه كلما كان التاريخ انقى عنصراً واشد اكتنافا له كلما تزايد مجرى حياته العامة تحولاً وتناسبا والحياة الخاصة للعائلات الكبرى الافرادية . وهذه الواقعة هي طبعاً القاعدة التي يرتكز عليها مبدأ الاسرة الحاكمة ، لكنها ليست هذا فقط ، بل انها ايضا اساس فكرة الشخصية التاريخية العالمية . فوجود دول باكملها يصبح مرتبطا بمصائر شخصية قليلة ضخمت تضخما كبيرا واسعا . فتاريخ اثينا في القرن

الخامس هو في اساسه تاريخ Alcmaeonidae كما وان تاريخ روما هو تاريخ عدد قليل من العائلات من طراز عائلة فابي Fabii او عائلة كلاودي Claudii . وتاريخ الدول في الحقبة الباروكية هو ، بصورة عامـــة ، تاريخ اعمال آل هابسبورغ وسياسات عائلة البوربون وتتخذ ازماتها اشكال الزواج والحروب على وراثة العرش . زد على ذلك ان تاريخ الزواج الثاني لنابليون يحتوي ايضا على احراق موسكو ومعركة ليبتزيغ . كما وان تاريخ البابوية هو ، حتى القرن الثامن عشر ، تاريخ عدد قليل من العائلة النبيلة التي كانت تتنافس للحصول على التاج البابوي بغية توطيد نجاح امارة العائلة . وهذا القول ينطبق ايضا على اعيان بزنطة ورؤساء الوزراء الانكليز (ولنتأمل في آل سيسل) وحتى على امثلة عديدة من قادة الثورة العظماء .

ان الكهنوت (والفلسفة الى الحد الذي هي فيه كهنوت) هو النفي المباشر الصريح لكل هذا . فمنزلة الشعور الراعي المجرد والحقائق الخالدة تقاتل الزمان والعنصر والجنس بكل معنى الكلمة . فالانسان كفلاح او نبيل يتجه ببصره نحو المرأة ، اما الانسان ككاهن فانه ينأى بناظريه عنها . والارستقراطيـــة تغامر في تشتيت وتبديد وفقدان مجرى الكينونة العريض للحياة العامة في اقنية تافهة من الاسلاف والاقارب الثانويين . اما الكاهن فهو يرفض مبدأياً الاعتراف بالحياة الشخصية والجنس والعائلة « والبيت » . والموت يصبح حقيقة مرعبة للرجل ذي العنصر فقط عندما يرى مثل هذا الرجل انه سيموت دون ان يخلف وراءه ذرية او ورثة – والاساطير الايسلندية لا تقل ابداً في تعليمها هذا الامر عن عبادة الاسلاف الصينية . فذاك المرء ، الذي يستمر في حياتـــه من خلال ابنائه وابناء اخيه وبنات اخته ، لا يموت كلياً . ولكن بالنسبة للكاهن الحقيقي فالحال هي Media vita in morte sumus ، وما سيورثـــه هذا فهو عقلاني ، وليس للمرأة المنبوذة اي جزء فيه . والاشكال الظاهرتية لهذه المنزلة الثانية ،

والتي تحدث المرة تلو المرة ، هي العفة والدير والقتال ضد النزوع الجنسي ، هذا القتال الذي يبلغ منتهاه في خصي الذات ، والاحتقار للامومة الذي يعبر عن ذاته بالتهتك والخلاعة والدعارة المكرسة ، وبالبخس العقلاني لقيم الحياة والانحدار بها الى مستوى تعريف كنت Kant الفاجر السافل للزواج . وكانت تسود العالم الكلاسيكي طولاً وعرضاً قاعدة Temenos تقول بانه يتوجب ألا يولد اي انسان او يموت داخل المكان — التخم — المقدس . فعديم الزمان يجب ألا يتصل بالزمان . وبمقدور الكاهن ان يمتلك اعترافاً عقلانياً بالمحطات الكبرى للحبل والولادة وان يمجدها بقداسة ، لكن ليس باستطاعته ان يخبرها .

فبينما نرى ان النبالة هي شيء ما ، نرى ان الكهنوت يعني شيئاً ما ، وهذا وحده كاف ليعلمنا بان الكهنوت هو نقيض كل ما هو مصير وجنس ومنزلة . فالقلعة بمخادعها وابراجها واسوارها وخنادقها المائية تخبرنا بحياة متدفقة جياشة ، لكن الكاتدرائية بقبابها هي معنى متنا وحاشية — اي انها زخرفـة — وكل كهنوت محترم قد طور ذاته حتى بلغ بها تلك الجاذبيـة الرائعة وجمال الهيئة ، حيث يبدو كل شيء ، ابتداء من تعبير الوجـه وانحراف الصوت حتى البزة والسير ، على انه زخرفة استؤصلت منها الحياة الشخصية وحتى الباطنية بوصفهما نافلتين — بينما ان ما تعرضه ارستقراطية ناضجـة (كالارستقراطية الفرنسية في القرن الثامن عشر) هو حياة منتهيـة . ولقد كان الفكر القوطي هو الذي استخلص تطويرا من المفهوم الكهنوتي الصفة التي لا تمحى او تندرس والتي تجعل الفكرة غير قابلة للاندثار ومستقلة استقلالاً تاما تاجزا عن قيمة اهلية حياة حاملها في العالم كتاريخ — لكن كل كهنوت ، ونتيجـة لذلك كل فلسفة ، (بمفهوم مدارس الفلسفـة) تحتويان عليها بوضوح . فاذا كان الكاهن يمتلك عنصراً فعندئذ يعيش وجوداً خارجيا كوجود الفلاح او الفارس او الامير . ولقد كان البابوات والكرادلة في الحقبة القوطية امراء اقطاعيين وقادة جيوش ، وكانوا

يتعشقون الصيد وخبراء ومتضلعين في السياسات العائلية . وكان بين البراهمة في الحقبة « الباروكية » السابقـــة لبوذا ملاك كبار وكهنة علمانيون متأنقون متبرجون ، ورجال بلاط ومبذرون متلافون وخـــبراء بالمآكل والمشارب . ولكن الحقبة المبكرة هي التي تعلمت ان تميز بين الفكرة والشخص - ولم يحكم الناس ، حتى حلول عصر التنوير ، على الكاهن ككاهن استدلالاً بمحاسنـــه الشخصية ، وحتى هذا الحكم لم يصدر استناداً على ما ذكرت بسبب ان جيـــل عصر التنوير قد اكتسب عينين احد بصراً مما سبقه من عصور ، بل لانه كان قد فقد الفكرة .

ان النبيل هو الانسان كتاريخ ، اما الكاهن فهو الانسان بوصفه طبيعة . فالتاريخ من النوع الارقى هو دائماً وابداً تعبير كينونة المجتمع النبيل ومعلوله ، وان الميزان للاهمية النسبية لاحداثه المختلفة هو دائماً نبض مجرى الكينونة هـذا . وهذا هو السبب الذي يضفي على معركة كاني Cannae تلك الاهميـــة البالغة ، ويجرد معارك الاباطرة الرومان المتأخرين زمنا من كل اهميـــة اطلاقا . فحلول ربيـــع الحضارة ينطبق كليا على ولادة النبالة الاولية التي يكون الامير داخل عواطفها مجرد Primus inter pares وموضوعا للريب والشكوك . وذلك لأن العنصر القوي ليس في غنى فقط عن الفرد الكبير ، بـــل ان وجوده ايضا هو انعكاس على جدارتـه ، ومن هنا كانت حروب الاقيال Vassal ، تصدراً ، الشكل الذي حقق فيه تاريخ المراحل المبكرة ذاته ، ومنذ ذاك الحين فصاعداً امسى قدر الحضارة رهين قبضة النبالة . فلقد اعطيت بالحضارة ، وبقوة ابداعية مؤثرة فعالة ، لانها كانت قوة صامتة ، شكلاً ، ووضعاً ، فالنبض في الدم قـد صعد وثبت تثبيتاً نهائيا . وذلك لأن ماهية هذا التصاعد الابداعي الى الشكل الحي هي بالنسبة للربيـــع الحضاري - وكل ربيع حضاري - كماهيـــة جبروت التقاليد بالنسبة للحقبة المتأخرة زمنا - وكل حقبة متأخرة - واعني بهذه الانضباط

القديم الصارم ، نبض الحياة ، الذي بلغ درجة من اليقين ، حيث يعيش معها ما بعد انطفاء جميع العائلات وهمودها ، ويجتذب بسحره من الاعماق بشراً جديدا ومجاري حياة جديدة . وان كامل تاريخ المراحل المتأخرة ، وذلك فيما يتعلق بالشكل والخفقان وقياس الزمن ، هو ، ما وراء ظلال من شك ، ملازم فطرة وسليقة (وبصورة لا تنقض) لأبكر ابكر الاجيال زمنا . والنجاحات التي يلاقيها هي ليست اكثر او اقل من ثمرات لقوة التقاليد في الدم . فالنجاح يفترض في السياسة ، كما في جميع الفنون العظمى الناضجة الاخرى ، كائناً او كينونة ، في وضع راق ، ويفترض خزينا ضخماً موفورا من الخبرات الفطرية التي خزنت بصورة لا واعية وبيقين وطيد بوصفها غرائز ونوازع . وليس هناك من فن سياسي راق غير هذا . فالفرد الكبير هو ليس الا شيئا ما افضل من الصدفة ، وليس الا سيدا للمستقبل ، وبهذا هو صاحب صولة ونفوذ ، (او يجعل كذلك) ، ومصير ايضا (او يملك مصيراً) داخل هذا الشكل وبواسطته . وهذا هو ما يميز بين الفن الضروري ، والفن الذي لا لزوم له ، ويميز ، لذلك بين السياسة الضرورية تاريخيا ، وبين السياسة التي لا ضرورة تاريخيا لها . وانه لعلى جانب قليل من الاهمية ان يرقى الرجال الكبار من اعماق « الشعب » (وهذا هو مجموع من لا تقاليد لهم) الى الطبقة الحاكمة ، او حتى ان يكونوا هم الوحيدين الذين يستأثرون بالسلطان — وذلك لان المد العظيم للتقاليد يسيطر عليهم دون ان يشعروا ويشكل سلوكهم العقلاني والعملي ، ويتحكم بمناهجهم . وهذه التقاليد هي ليست سوى نبض الانظمة الغابرة التي انطفأت منذ زمن طويل .

ولكن المدنية ، « العودة الحقيقية الى الطبيعة » هي ابادة النبالة وانقراضها — ولا اعني ابادتها جسمانيا (وهذه لا تهم بكثير او قليل) بل انقراضها كتقاليد —

وهي احلال الذكاء السببي على نبض المصير ، وبهذا لا تصبح النبالة اكثر من مقطع يضاف الى اول الكلمة Prefix . ولهذا السبب بالذات يكون التاريخ المتمدن تاريخا سطحيا موجهاً بشكل مفكك متصدع نحو غايات واضحة ، وهكذا يصبح معدوم الشكل في الكوني ، ويعتمد على الحوادث العرضية التي يأتيها الافراد العظام ، ويفتقر الى اليقين الباطني متناً وحاشية . ومع القيصرية ينتكس التاريخ الى انعدام التاريخ ، الى النبض القديم للحياة البدائية بما تتخلل هذه الحياة من معارك حول السلطة المادية ، معارك لا معنى لها او نهاية ، كمعارك الاباطرة - العسكر في القرن الثالث والمنطبقة على معارك الدول « الست عشرة » في الصين (٢٦٥ - ٢٤٠) والتي لا تفترق الا في توافه امورها عن احداث حياة الحيوان في الغاب .

- ٣ -

ويترتب على ما ورد آنفاً ان التاريخ الحقيقي ليس « حضاريا » وفق المفهوم المناهض للسياسة ، وذلك كما يزعم الفلاسفة والعقائديون في كل المدنيات المبتدئة . لكن التاريخ الحقيقي على عكس ما يزعمون ، هو تاريخ النسل والسلالات ، تاريخ الحرب ، التاريخ الدبلوماسي تاريخ مجاري الكينونة في شكل الرجل والمرأة ، العائلة والشعب المنزلة والدولة ، وهو ، بالتناوب ، دفاعي هجومي في نبض موجة الوقائع الكبرى . فالسياسة ، وفق المفهوم الارقى ، هي الحياة ، والحياة هي السياسة . فكل انسان مرغم على ان يكون عضواً في دراما - المعركة هذه ، كموضوع او محول - اذ ليس هناك من بديل ثالث .

ان بملكة الروح هي من هذا العالم . وهـذا القول صحيح ، لكنها تفترضه مسبقاً ، كما يفترض الشعور الواعي الكينونة . فالاجابة الصحوح بلا ، هي أمر ممكن فقط بالنسبة لواقعة توجد بالرغم من كل شيء ، ويجب ان توجد قبل ان يصار الى رفضها . والعنصر يستطيع ان يستغني عن اللغة ، ولكن نطق لغة ما بالذات هو تعبير لعنصر متقدم ، كما هي الاديان والفنون واساليب الفكر وكل شيء آخر يحدث في تاريخ الروح – وكون ان تاريخاً كهذا قائم وموجود ، هو امر تظهره قوة الدم وسيطرتها على الشعور والعقل . وذلك لان جميع هذه الامور هي الشعور الواعي الفعال في « شكل لائق » وهي معبرة بتطورهـا ورمزيتها وعاطفتها عن الدم (الدم مرة اخرى) الذي يدور ويجري خلال هذه الاشكال في كينونة – الوعي لجيل بعد جيل . والبطل ليس في حاجة لان يعرف اي شيء اطلاقاً من هذا العالم الثاني – فهو حياة سداة ولحمة – لكن القديس وحده هو الذي يستطيع بواسطة اصرم ما هناك من تقشف وزهـد ان يقهر الحياة الموجودة داخله ، وان يكتسب معاشرة منعزلة متوحدة وروحه – وقوته من اجل هذا الاكتساب تنبع ، مرة اخرى ، من الحيـاة نفسها . ان البطل يحتقر الموت ، والقديس يحتقر الحياة ، لكننا نكتشف في التناقض القائم بين بطولة النساك العظام والشهداء وبين تقوى معظم الناس (التي وصفت في سفر الرؤيا[1] الاصحاح الثالث عدد ١٦) ان العظمة حتى في الدين تفترض مسبقاً العنصر وتفترض ان الحياة يجب ان تكون قوية فعلاً كي تكون جديدة بمثل هؤلاء المكافحين . اما الباقي فهو مجرد فلسفة .

---

(١) ورد في وصف هذه التقوى في السفر المذكور ما يلي :
وهكذا لانك فاتر ولست بارداً أو حاراً أنا مزمع أن اتقيأك .

– المترجم –

لذلك فان النبالة ، وفق المفهوم التاريخي للعالم ، هي اكثر بكثير مما تراه فيها المراحل المتأخرة المريحة المبنة المهينة ، فالنبالة ليست مجموعاً من الالقـــاب والامتيازات والطقوس ، بل انما هي ملكية باطنية شاقة الاكتساب ، والاحتفاظ بها امر محفوف بالمصاعب — وهي فعلاً جديرة باولئك الناس الذين يعرفون التضحية بكلية الحيـــاة . فالعائلة العريقة لا تشير فقط الى مجموعة من الاسلاف (فلجميعنا أسلاف) بل تشير الى اسلاف عاشوا طيلة اجيال كاملة متربعين على ذرى التاريخ وقممه ، أسلاف لم يكن لهم فقط مصير ، بل كانوا انفسهم مصيراً ، أسلاف اصّلت خــبرة القرون في دمائهم ، الشكل تصعيداً به حتى الكمال . والتاريخ بمفهومه الاعظم يبدأ بالحضارة . وانها لمجرد حزمة من ريش يشكلها الكولوني Colonna بخوذته حينما يتتبع اسلافه داخل الازمـان الرومانيــة المتأخرة . ولكنه لم يكن امراً عديم المعنى في نظر الوجيه البزنطي ان يسلسل نسبه ، في ازمنة بزنطة المتأخرة ، حتى يبلغ به قسطنطين ، كما وانه ليس بالامر التافه بالنسبة للاميركي المعاصر ان يعود بأصله الى مهاجر حملته السفينة ماي فلاور — زهرة أيار — عام ١٦٢٠ الى اميركا . والواقع ان النبالة الكلاسيكية تبدأ بمرحلة طراودة ، وليس بالمرحلة المسينية ، كما وان النبالة الغربية تبـــدأ بالحقبة القوطية ولا تبدأ بالفرنجة والقوط — وكذلك في انكلترا فانها تبدأ بالنورمان لا بالسكسون . ومن نقـاط الانطلاقات الحقيقية هـذه وحدها يوجد تاريخ ، ولذلك انطلاقاً من آنذاك فقط يمكن ان توجد ارستقراطية أصيلة ، تمييزاً لها عن النبلاء والابطال . وذلك الامر الذي اميته ، في الفصل الاول من هذا الجزء من الكتاب ، بالخفقان الكوني ، او النبض يتلقى داخل هذه الارستقراطية اكتماله . وذلك لان كل ذلك الذي ندعوه ، في الازمان الأنضج ، « باللباقة » الدبلوماسية والاجتماعية — والذي يشتمل على الفطنة الستراتيجية والأعمالية ، هذه الفطنة التي هي بمثابة عين الجامع للاشياء الثمينة والبصيرة الحاذقة الخبير بالنـــاس — وبصورة

عامة كل مـا تعلمه المرء ومـا لا يتعلمه ، والذي يستثير الحسد العاجز للآخرين الذين لا يستطيعون ان يشتركوا فيه ، والذي بوصفه « شكلاً » يوجـــه مجرى الاحـداث ، كل هـذه الامور ليست سوى ذات اليقين الكوني الشبيه بالحكم والذي يعبر عنـه بصورة منظورة ، في تحاويم اسراب الطير ، أو في الحركات المنضبطة للحصان الاصيل .

ان الكاهن محيط بالعالم كطبيعة ويعينه ويعمق صورته عنه بواسطة التفكير داخله . اما النبيل فيحيا في العالم كتاريخ ويعمقه بواسطة تبديل صورتـــه . وكلاهما يتدان باتجاه التقاليد العظمى ، لكن الاول منهما ينشأ عن التشكيل أما الثاني عن التهذيب . وهذا هو الفرق الاسامي بين المنزلتين ، ونتيجه لمـا أوردت ، لا توجد الا منزلة واحدة منها هي منزلة حقيقية ، اما الاخرى فتبدو كمنزلة بسبب اكتمال التناقض بينها وبين الاخرى . ان الدم هو ميدان اثر التوليد الاصيل والتهذيب ، ولذلك فها ينتقلان من الآباء الى الابناء . ومن جهة اخرى فان التشكيل يفترض مسبقاً وجود مواهب ، ونتيجة لذلك فان الكهنوت القوي هو دائماً مجموعة من المواهب الفردية — انه طائفة من شعور واع — لا تشدها اية وشيجة الى الاصل وفق مفهوم العنصر ، وهي ، بذلك من هذه الناحية كما من النواحي الاخرى ، نفي للزمـــان والتاريخ . فلنتأمل في هذين التعبيرين ولنسبر أغوارهمـــا : القرابة العقلانية وقرابة الدم ! فالكهنوت المتوارث هو تناقض في حدود المنطق . In terms . فهذا قد وجد فعلاً ، الى حد ما ، في الهند الفيدية ، لكن اسس وجوده ذاك كانت متمثلة في وجود نبالة ثانيـــة احتفظت بامتيازات الكهنوت للاعضاء الموهوبين في دائرتها الخاصة . ولقـــد وضعت السعفة نهاية في كل مكان آخر لهذا المبدأ الذي انتهكت حرمته مراراً وتكراراً . فالكاهن داخل الانسان — أكان هذا الانسان نبيلاً ام لم يكن —

يقوم مقام بؤرة السببية المقدسة في هذا العالم . والسلطة الكهنوتية هي بالذات ، ذات طبيعة سببية ، أوجدتها اسباب ارقى ، وهي بدورها بالذات سبب كفؤ فعال . فالكاهن هو الرجل الوسيط في الممتد العديم الزمان والممدود حتى التوتر بين الشعور الواعي والسر النهائي ، ولذلك يجري تقرير اهمية الاكليروس في كل حضارة بواسطة رمزه الاولي . امـــا النفس الكلاسيكية فهي تنكر الفراغ ، ولذلك فهي لا تحتاج الى رجـــل وسيط للتعامل مع الفراغ ، وهكذا نرى ان الكهنوت الكلاسيكي يختفي وهو لـما يزل في بدايته . لكن الانسان الفاوستي يقف وجهـــا لوجه واللانهائي ، وليس هناك شيء بديئي A priori يحميه من القوة الساحقة الماحقة لهـذا الوجه Aspect ، وهكذا صعد الكهنوت نفسه الى ذرى الفكرة البابوية .

ولما كان يتناسج مطلان على العالم ، ونمطان لجريان الدم في الاوردة والشرايين والافكار في الكينونة والفعل اليوميين لذلك ينشأ في النهاية (وفي كل حضارة) نوعان من الاخلاق ، حيث يحتقر كل نوع منهما الآخر ويزدري بـه — واعني بهذين عرف النبلاء وسلوك الكهنة ، وهما بالتناوب يقدح كل واحـد منهما في الآخر ، واصفاً اياه بالدينونة والحقارة . ولقد شرحنا كيف ان الاول ينطلق من القلعة ، وكيف يخرج الثاني من الدير ، فالاول يتدفق من كينونة مليئة مكتملة في فيضان التاريخ ، والثاني يسيل بعيـداً عنها ، اذ يخرج من الشعور الواعي داخل محيط الطبيعة التي يكتنفها الله . اما القوة التي تمارسها هذه التأثيرات الاولية عـلى الانسان فهي شيء مـا سيكون مستعصياً حتى على خيال المراحل المتأخرة زمناً . فالشعور الطبقي من العلماني ونده الروحاني قد انطلقا متصاعدين باتجاه مستقبليهما الحرفيين ، ويقتطع كل واحد منهما لنفسه مثلًا اخلاقياً اعلى هو يتناول افهـــام اللائقين من الناس فقط ، وهو حتى بالنسبة لهؤلاء امر لن يدركوه الا بعد مران مدرسي صارم وطويل . فمجرى — الكينونة العظيم

يشعر بذاته على انه وحدة ضد ثقل الدم البليد العديم النبض والهدف . اما طائفة العقل العظمى فهي تعرف ذاتها على انها وحدة ضد الثقل من غير المطلعين . وهاتان الوحدتان هما عصبة من الابطال وطائفة من القديسين .

وسيبقى فضل نيتشه العظيم مـاثلا في انه كان اول من تعرف على الطبيعة المزدوجة لكل الاخلاق . فتحديده للاخلاق ، بأخلاق سادة واخلاق عبيد ، كان تحديداً غير مصيب ، وعرضه « للمسيحية » قد وضعها بالكثير من التحديد على الجانب الواحد للخط الفاصل ، ولكن أسس كل افكاره تبدى قوية وواضحة ، في كون الطيب والخبيث هما تعبيران ارستقراطيان ، والخير والشر تعبيران كهنوتيان . فالطيب والخبيث هما مكانتان طمتان بين المجموعات البدائية من البشر والعشائر ، ولا تصفان السلوك ، بل تصفان الناس ، وتصفانهم ادراكياً بالنسبة لكينونتهم الحية . فالطيبون هم الاقوياء الاغنياء والمحظوظون . والطيبة تعني القوي الشجاع الاصيل وفق اصطلاح كل ربيع حضاري . والخبيث البائس الرخيص المبتذل هم وفق المفهوم الاصلي الضعفاء المعدمون المناحيس الجبناء التافهون – « ليسوا أبناء ، احد » كما كانوا يقولون في مصر . اما الخير والشر فهما مفهوما تابو Taboo تخصان الانسان بالقيمة حسب مداركه وعقله – اي حسب سليقته اليقظة واعماله الواعية . فان يسيء المرء لأخلاقية – الحب ، هو عمل غير شريف الاصل Ungentle ، أما ان يخطىء بحق وصية الكنيسة بالمحبة فهو عمل شرير . والعادة النبيلة هي النتيجة اللاوعية تماماً لتهذيب متواصل مستمر . وهي تكتسب في المخالطة ولا تدرس في الكتب ، وهي ايقاع محسوس بـه وليس رأياً او فكراً . لكن الاخلاق الاخرى هي اخلاق معلن عنها ومنظمة على اساس من السبب والنتيجة ، وهي لذلك قابلة لأن يتعلمها المرء ومعبرة عن القناعة واليقين .

فالاولى هي تاريخية مظهراً وجوهراً ، وتعترف بفروق المقامات والامتيازات

بوصف هذه امورا واقعية وبداهيـة او حكمية . والشرف في نظرها هو دائما شرف طبقة ــ اذ انـــه لا يوجد شيء « كشرف الانسانية » هذا . والمبارزة ليست واجباً محتوما على أناس غير احرار . فلكل انسان ، أكان بدويا ام ساموراً ام فلاحاً كورسيكيا ام عاملا ام قاضياً ام قاطع طريق ، ملزماته من قواعد الشرف والوفاء والشجاعة والثأر ، التي لا تنطبق على الانواع الاخرى من الحياة . فلكل حياة اخلاقية عرف ــ وهي امر لا يمكن التفكير بها بدون هذه الاخلاقية . والاطفال قد امتلكوها في لعبهم ، فهم يعرفون فوراً بانفسهم ما هو لائق وسديد . ولم يقم اي انسان بوضع هذه القواعد ، لكنها قائمة وموجودة . وهي تنشأ ، بصورة غير واعيـــة تماما من « الـ ــ نحن » التي كونت ذاتها من النبض المتجانس للجماعة . وهنا ايضا يكون كل كائن في « شكل لائق » . ولكل جمهور تجمهر في الشارع نتيجة لهذا الحرض او ذاك ، اخلاقيتـــه الخاصة بتلك اللحظة ، وكل فرد منه لا يتشرب هذه الاخلاقيـة ، ولا يناصرها بوصفها امراً غنياً عن البيان فيتبعها ، ويظهر اكثر من التعقلية في عمله مما هو موجود منها ــ هو مخلوق حقير بائس ، ولا منتمي . ويمتلك الناس غير المثقفين والأطفال ردة فعل مذهلة لهذه . وعلى كل حال فانـــه من المطلوب من الاطفال ان يتعلموا دستور الايمان ، ومن هـــذا الدستور يسمعون عن الخير والشر الموضوعين ــ وهذان قـد يكونان اي شيء ما عدا كونهما امراً واضحاً غنياً عن البيان فاخلاقيـة ــ العرف ليست بتلك الاخلاقية التي هي حقيقية ، بل انها الاخلاقية القائمة والموجودة هنا ، وهي امر من ولادة ونماء وشعور ومنطق عضوي . اما الاخلاق فهي على العكس من هذه ، اذا انها لا تكون ابداً امراً واقعاً (وذلك لانها لو كانت على هذه الحال لكان جميع البشر قديسين) ، بل هي قضية خالدة معلقـة فوق الشعور ــ وفروض سابقة فوق شعور جميع الناس على حد سواء ، وبغض النظر عن كل الفروق في الحياة الواقعية والتاريخ . ولذلك فان جميع

الاخلاق هي سلبية ، وكل اخلاقية - العرف هي ايجابية - اثباتية . فان يكون المرء في هذه الاخلاقية « بلا شرف » ، فهذه اسوأ صفة ، ولكن ان يكون بلا « خطيئة » فهذا ارقى نعت ينعت به .

ان المفهوم الاساسي لكل اخلاقية - عرف حية هو الشرف . وكل شيء غيره - من وفاء وتواضع وشجاعة وفروسية وضبط نفس وعزم - انما يشتمل عليه الشرف ويحتويه . والشرف هو قضية دم ، وليس بقضية عقل . فالانسان لا يتبحر في الامور المتعلقة بالشرف فكراً وتأملا - فهذا امر مخالف للشرف . وان يفقد المرء الشرف يعني ان يلغى من الحياة والزمان والتاريخ . فشرف الطبقة والعائلة والرجل والمرأة والشعب والوطن ، وشرف الفلاح والجندي وحتى قاطع الطريق - يعني ان للحياة في الانسان شيئا ما جديرا بالوقار التاريخي والرفة والنبالة . والشرف ينتمي الى الزمان الاتجاهي ، كما تنتمي الخطيئة الى الفراغ العديم الزمان وان يمتلك المرء شرفا داخل جسده يعني ان يمتلك عنصراً تقريبا . اما النوع المناقض فهو يتمثل في طبائع ثارسيتس[1] ، وذوي النفوس الموحلة والدهماء واولئك« الذين يقولون ارفسنا بقدمك ودعنانعيش ». فان يبلغ الانسان الاهانة وينسى الاذلال وتخور عزائمه فيجبن امام العدو - كل هذه الامور هي دلائل على ان الحياة قد اصبحت عديمة النفع ولا لزوم لها . ولكن هذه الامور هي ليست الامور ذاتهـــا وفق مفاهيم الاخلاق الكهنوتية ، وذلك لان الاخـلاق لا تلتصق بالحياة مهما كان ثمن التدني والانحطاط ، بل انها بالاحرى

---

(١) ثارسيتس : كان ابشع الاغريق ، امام اسوار طرواده ، مظهرا واسقمهم لساناً وقد شتم الجميع وخاصة آشيل واوديسيس .

- المترجم -

ترفض الحياة وتستنكف عنها ، وهي على هذه الحال تستنكف مصادفة عن الشرف وترفضه . وكما قلنا سابقاً ان كل عمل من اخلاق هو في اعماقه جزء من التنسك وقتل الكينونة . ولذلك فان الاخلاق تقف خارج دائرة الحياة وميدان التاريخ .

- ٤ -

ومن الضروري هنا ان نتنبأ ، نوعا ما ، وان نتأمل باحثين عن المكان الذي يستمد منه تاريخ العالم (وخاصة في المراحل المتأخرة زمنا من الحضارات العظمى ومطالع المدنيات) تنوعه الموفور الثراء من الالوان والرمزية العميقة لاحداثه . ان المنزلتين الاوليين، النبالة والكهنوت ، هما اصفى تعبيرين لجانبي الحياة، ولكنهما ليسا بالتعبيرين الوحيدين . فهناك في الازمان المبكرة ، علاوة على ذلك ـ وتظهر ارهاصاتها فعلاً في الحقبة البدائية ـ مجاري كينونة وسلاسل من ترابطات تنطلق صعوداً وعياناً ، حيث ينتقل خلالها الزمان والفراغ الى التعبير الحي ، وهذه عندما (وليس الى ان) تتحد مع الزمان والفراغ تركب الامتلاء الكامل لما ندعوه بالتنظيم الاجتماعي او المجتمع .

فبينما ان الكهنوت هو ميكروكوسمي وشبيه بالحيوان ، نرى ان النبالة هي كونية وشبيهة بالنبات (ومن هنا ينشأ ارتباطها العميق بالارض) . فالنبالة بالذات هي نبتة تضرب بذورها بقوة وعمق في التربة وتتوطد عليها ــ وهي من هذه الوجهة ، كما من وجهات اخرى كثيرة طبقة فلاحين عليا . ومن هذا النوع من الارتباط الذي تنشأ فيه فكرة الملكية ، هذه الفكرة التي هي بالنسبة

للميكروكوسمي ، المتحرك دون غل او قيد في الفراغ ، فكرة غريبة غرابة كليـــة . ان الملكية هي شعور اولي وليس مبدأ او مفهوماً ، وهي تنتمي الى الزمان والتاريخ والمصير ، ولا تنتمي الى الفراغ والسببية . وهي لا يمكن ان تركز على «كاثر منطقية ، اذ انها قائمة وموجودة . « فالامتلاك » يبدأ بالنبات ثم يتكاثر وينتشر في تاريخ الجنس البشري الارقى حتى ذاك الحد الدقيق الذي يحتوي عنده التاريخ صفة نباتية وعنصراً . ومن هنا كانت دائما الملكية باشـد ما لها من اصالة مفهوم ، ملكيـة ارض ، والاندفاع الى تحويـــل المكتسبات الاخرى الى ارض وتربـــة هو دليل صحيح الارومة سليمها . ان النباتات تمتلك الارض التي تضرب جذورها في تربتها . وهذه هي ملكيتها ، التي تدافع عنهـا بكل ما تمتلك كينونتها من زخم يائس ضد البذور الغريبـة ، وضد النباتات المجاورة لها والتي تغمرها بظلالها ، وضد كل الطبيعة ، اشد دفاع واعنـــده . وهكذا ايضا حال الطير ، اذ انه يدافع عن العش الذي يفرخ فيه . ولا تدور اعنف المعارك وامرها على الملكية والاموال المنقولة في المراحل المتأخرة زمناً من الحضارات العظمى ، بين الاغنياء والفقراء ، بل انما تدور هنا في مطالع عالم النبات . وعندما يشعر الانسان حوله في الغابة بهذه المعركة الصامتة العديمة الرحمة والدائرة ليلا نهارا بغية اكتساب التربـــة ، عندئذ يرغب مثل هذا الانسان ويرتجف رهبة من عمق الاندفاع المنطبق تقريباً على اندفاع الحياة نفسها . فهنا ، تنشب ، وعلى مدار السنة ، صراعات شديدة قاسية مريرة ، حيث يبدي الضعيف مقاومة يائسة للقوي ، مقاومة تبلغ حداً يتحطم عنده حتى المنتصر ــ وصراعات كهذه لا مثيل لها الا لدى الجنس البشري عندما تطرد عائلة فلاحية قديمة من تربتها ، من عشها ، او تستأصل عائلة من ارومة نبيلة ، او بتعبير ادق يستأصل المال مثل هذه العائلة من جذورها . والصراعات الاكثر جلاء واشد وضوحاً ، والتي تنشب في المدن فيما بعد ، معنى آخر تماما ، وذلك لأن هنا ــ في الشيوعية بكل انواعها ــ لا يكافحون خبرة الامتلاك ، بل انما يكافحون فكرة الملكيـة

المجردة بوصفها وسيلة مادية . فانكار الملكية أو نفيهـــا ، لا يكون ابداً نبضة عنصر ، بل انما هو الاعتراض العقائدي للشعور الواعي الصافي في عقلانيته وتمدنه ، والعديم الجذور والمناهض للنباتية ، وهذا شعور القديسين والفلاسفة والمثاليين . والسبب ذاته هو الذي يستفز الراهب من صومعته والاشتراكي العلمي – أكان اسمه موه – تي Moh-ti أم زينون أم ماركس – ليرفضا ما هو شبيه بالنبات ، والشعور ذاته هو الذي يستحث الانسان ذا العنصر ليدافع عنه . وهنا نرى ، كما هي الحال دائماً وابداً ، الواقعة تناهض الحقيقة . « ان الملكية هي سرقـــة » هذا الشعار هو الشكل المفرط في ماديته للفكر القديم المتسائل : « مـــا فائدة الانسان اذا كسب كل العالم وخسر نفسه ؟ » . وعندمـــا يتخلى الكاهن عن الملكية ، فانما يتخلى عن شيء ما خطر وغريب ، ولكن عندما يقوم النبيل بهذا الامر فعندئذ يكون قد تخلى عن نفسه .

وهذا يفضي بنا الى ازدواجية الشعور بفكرة الملكية – الامتلاك كسلطة ، والامتلاك كسلب أو نهب . وكلا هذين يقعان مباشرة معـــاً داخل الناس البدائيين ذوي العنصر . فبطل البحر هو دائماً لص بحر ايضاً ، ولقد كان هدف كل حرب التملك ، واستملاك الارض قبـــل كل شيء . وخطوة واحـــدة تخطي ويصبح بعدهـــا الفارس' الفارس اللص ، ويمسي المغامر فاتحـــاً وملكاً ، كروريك النورماني في روسيا ، وكالكثيرين من القراصنة الاتروسكان والآخيين في الازمان الموميريسية . ونجد في جميع الشعر البطولي ، وجنباً الى جنب ، الغبطة الطبيعية بكسب المعارك والسلطان والنساء والانفجارات الطليقة من الفرح والحزن والغضب والحب والسرور الطاغي « بالامتلاك » . ولقد كان اول امر فعله اوديسيوس عندما نزل على شاطىء موطنه ان قام باحصاء الكنوز في سفينته ، ونرى في الاساطير الايسلندية كيف ان هجا لمار والفارود عندمـــا ادركا ان كل واحد منهما لا يملك بضائع في مركبه ، توقفا عن البراز فوراً – ان ذاك الذي يقاتل من اجل الفخار والشرف هو احمق الرأي اخرق . ولقـــد

كان التلهف ، في ملاحم الابطال الهندية ، على المعارك ، يعني التلهف على قطعان الماشية ، زد على ذلك ان الاغارقة « المستعمرين » في القرن العاشر كانوا بالاساس قراصنة كالنورمان . والمركب في البحار العالية ، بوصفه مركباً غريباً ، كان جائزة طيبة . ولكنه نشأ من المنازعات في جنوبي الجزيرة العربيـــة وصراعات الفرسان عام ٢٠٠ ب.م ومن « الحروب الشخصية » لبارونات بروفانس عـــام ١٢٠٠ ب.م – هذه الحروب التي لم تكن اكثر من حروب تدور على كسب الماشية – اقول نشأت في النهاية من هذه كلها الحرب بمعناها الصحيح ، الحرب العظمى المستهدفة الى اكتساب الاراضي واستملاك الشعوب . وهذا كله يرقى في النهاية بالحضارة الى ، قمة شكلها ، بينما نرى الكهنة والفلاسفة معاً يحتقرونها .

وعندما تبلغ الحضارة ذراها ، تنشأ بين هذين الحافزين (الامتلاك كسلطة ، الامتلاك كسلب – المترجم) الأولين المتباعدين تباعـــداً شديداً ، عداوة وبغضاء . وتاريخ هذا العداء تقريباً تاريخ العالم . فيتولد من الشعور بالقوة الفتح والسياسة والقانون ، وتنشأ عن شعور النهب التجارة والاقتصاد والمال . فالقانون هو ملكية الاقوياء . وقانونهم هو قانون للجميع . والمال هو أمضى الاسلحة للكسب : فبالمال يخضع الكسب العالم . والاقتصاد يريد ويرغب ويتعمد اقامة دولة ضعيفة تناسب مصالحه وتخدمها . اما السياسة فتطلب من الحيـــاة الاقتصادية ان تتلاءم والدولة وداخلها – وهنا يطل علينا آدم سميث وفريدريك لست – الرأسمالية والاشتراكية . وجميع الحضارات تعرض في بداياتها نبـــالة حربية ونبالة تجارية ، ثم تعرض نبالة ارض ونبالة مال ، واخيراً ادارة عسكرية وادارة اقتصادية – حربية ، وصراعاً لا ينتهي بين المال والقانون .

ومن جهـة اخرى ينفصل ، بالمثل ، الكهنوت عن التعليم . وكلاهمـــا لا يوجهان نحو ما هو واقعي بل نحو ما هو حقيقي ، وكلاهما ينتميان الى جانب التابو من الحيـــاة والى الفراغ . والخوف من الموت ليس منبعاً لجميع الاديان

فحسب ، بل هو منبع كل فلسفة وعلم طبيعي ايضاً . وهنا تنشأ ، على كل حال ، سببية دنيوية في تباينها والسببية المقدسة . والنجاسة هو المفهوم- المضاد الجديد « للديني » الذي كان حتى الآن قد تسامح والمعرفة بوصف هذه خادماً له ووصيفاً . فجميع التنديد ، او النقد ، المتأخر زمناً ، هو ، بروحه ومناهجه ومقاصده واهدافه ، دنيوي – ولا يستثنى حتى اللاهوت المتأخر زمناً من هذه القاعدة . ولكن بالرغم من هذا تتحرك معرفة جميع الحضارات بخطى راسخة ثابتة ، داخل اشكال الكهنوت السالف زمناً – وبهذا تظهر على انها مجرد نتاج للتناقض نفسه ، وكيف انها تعتمد وستبقى تعتمد بكل شذرة من شذراتها ، على الصورة الاولية . ولذلك فان العلوم الكلاسيكية تعيش في طوائف – مذهب من الطراز الاورفي ، كمدارس ميليتوس Miletus ، والمجتمع الفيثاغوري ، والمدارس الطبية لكروتون وكوس Cos ، ومدارس الاكاديمية الاتيكية ، والمشائين (اتباع أوسطو – المترجم) والرواقيين ، وكل عميد من عمد هذه المدارس ينتمي الى طراز الكاهن القرباني (المقدم القربان) والى طراز العراف ، كما وان حتى المدارس الفقهية الرومانية ، مدارس سانبيان وبروكليان تنتمي ايضاً الى هذا الطراز ، زد على ذلك ان الكتاب المقدس ، القانون الكنسي ، هو من هذه الناحية علمي ، كما هو من النواحي الاخرى عربي – اضف الى ذلك قانون بطليموس (المجسطي) والطبي لابن سينا ، وذلك الجسم الفلسفي الذي « ندعوه » « ارسطو » والمليء بالتزوير الى حد بعيد – وكذلك ايضاً قوانين (لم يكتب معظمها) ومناهج الاقتباس والاستشهاد : والتفاسير بوصفها شكلاً لتطور فكر ، والجامعات كأديرة (Medrashim) – مدرسة – التي كانت تقدم للاساتذة والطلاب الطعام والصوامع والكساء ، ونوازع دراسية اتخذت شكل اخويات . ومما لا ريب فيه ان العالم الغربي المتعلم يتلك شكل الكنيسة الكاثوليكية ، وخاصة في الاقاليم البروتستنتية . ولقد تشكلت حلقة الوصل بين فصائل المتعلمين في الحقبة القوطية وبين مدارس الفصائل المشابهة لهذه في القرن التاسع عشر – كمدارس هيغل وكنت Kant ومدارس الفقه التاريخي ، وليس القليل من كليات

الجامعات الانكليزية ــ اقول تشكلت عــلى ايـدي المورييين Mauristis والبولانديين Bollandists في فرنسا الذين ابتـداء من عام ١٦٥٠ فما بعده سيطروا وخلقوا الى حد بعيد « العلم » الثانوي للتاريخ وتوجد داخل جميع علوم التخصص (بمـــا في ذلك الطب وفلسفة قاعات المحاضرات) سلطات كهنوتية طورت تطويراً عاليـاً حتى بلغت بابوات ـ المدرسة ، وذات درجات ورتب (فشهـــادة الدكتوراه هي سيامة وتكريس) واسرار مقـــدسة ومجامع . اما غير المثقف فيعامل بصرامة بوصفه « رجلا عامياً » ، وفكرة الكهنوت المعمم تكمن داخل المؤمنين انفسهم ، وتظهر هذه في العلوم « الشعبية » ــ الداروينية مثلا ــ التي تحارب بشدة وحماس . ولقد كانت لغة التعليم ، أصلا ، هي اللغـة اللاتينية ، لكن اليوم قد شكلت لغات خاصة من كل الانواع ، ذواتها ، وهذه اللغات غامضة مبهمة (مثلا في ميداني النشاط الاشعاعي وقانون العقود) بالنسبة للجميع ما عدا اولئك الذين حصلوا على دراسة ارقى . وهنـاك مؤسسو شيع وملل ، كما كان الكثيرون من تلاميذ كنت Kant وهيغل ، وهناك مبشرون يبشرون غـــير المؤمنين كالموحدين Monists . وهناك هراطقة كشوبنهاور ونيتشه ، وهناك ايضاً سلاح الحرمان (البابوي ــ المترجم) ، وهنـــاك ايضاً العقوبة التي تتخذ شكل مؤآمرة الصمت . وهناك حقائق اخلاقية ، (مثلا تقسيم المرئيات في القانون الى اشخاص واشياء) ودوغمات (كدوغما الكتلة والطاقة ، ونظرية الوراثة) ، وطقوسية في اقتباس الكتابات الارثوذكسية ، ويوجد هناك ايضاً حتى نوع من تطويب كنسي علمي .

وقد ارتقى نموذج ــ العلامة التحرير في الغرب (الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر فتساوى بذلك ونظيره نموذج ــ الكهنوت الحقيقي) بغرفة مكتبه حتى الكمال اذ جعلها كصومعة لرهبنة دنيوية لها نذورها اللاواعية ــ نذر الفقر في شكل الانفة الشريفة من حياة الترف والثروة ، والاحتقـار الصادق لمحترفي التجارة ، ولكل استغلال للنتائج العلمية بغية تحقيق كسب او فائدة مادية ، ونذر

العفة الذي ولد بتولة العلم الصحيحة ، والتي كان « كنت » نموذجها وذروتها ، ونذر الطاعة ، حتى حد تضحية المرء بذاته عـلى مذبح وجهة نظر المدرسة . واخيراً هناك ، علاوة على ذلك ، نوع من الاعتزال عن العالم ، هو صدى دنيوي للهروب الغوطي منه ، وهذا يفضي الى الاحتكار الكامل تقريباً للحيـاة ، في شكلها العام ، وفي اشكال المجتمع الطيب ـ وهذا المجتمع يحتوي على القليل من « التأصيل » والكثير الكثير من التشكيل » . لقـد كانت النبالة حتى تشعباتها التي حدثت فيا بعد ـ القاضي ، تابع الشريف ، الضابط ـ لا تزال تحتفظ بالغبطة الطبيعية ذات الجذور القديمة القوية بتنفيذ اورومتهـا وتجسيدها في الممتلكات والشرف ، لكن العالم (العلمي ـ المترجم) يعتبر هذه الاشياء زهيدة ضئيلة الى جانب امتلاك سريرة علمية مجردة وتنفيذ منهاج او وجهة نظر لم يفسدها المذهب التجاري للعالم . أما الواقعة المقررة ان العلامة المعاصر لم يعد يعيش بمعزل عن العالم ، وانه يضع (ويطبق كثيراً بذكاء وحصافة) علمه في خدمة التقنية وجمع المال ، فهذه الواقعة تشير الى ان النموذج المجرد للعلامة قـد بدأ بالتدهور والأفول ، وان العصر العظيم للتفاؤل العقلاني الذي عـبر عن نفسه من خلال نموذج ـ العلامة تعبيراً حياً قد دخل في الماضي .

والخلاصة ، نرى ان المنازل بنية طبيعية تشكل في تطورها وعملها التركيب الاساسي لمجرى حياة كل حضارة . ولم يأت هذا التركيب نتيجة لأي قرار معين او خاص ، فالثورات تبدله فقط عندما تكون اشكالاً لتطور ، وليست نتائج لارادة شخصية لبعض من الناس . وهو لا يدخل أبداً ، بمغزاه المليء كونياً ، شعور الناس بوصفهم فاعلين ومفكرين ، وذلك لانه يرقد عميقاً وعميقاً جـداً داخل الكائن البشري ، وبذلك لا يكون غير حقيقة مادية بدهية وغنيـة عن البيان . فمن على السطح فقط يلتقط الناس شعاراتهم واسبابهم التي يحتوبون حولها على ذاك الجانب من التاريخ الذي تعتبره النظرية على انه رقد ترقيداً افقياً ، والذي هو في الواقع مجموع من تقلقلات لا يمكن الفصل بينها . وتنشأ اول ما تنشأ

النبالة والكهنوت من الصقع الطليق المفتوح ، ويمثلان الرمزية المجردة للكينونة والكينونة الواعية ، الزمان والفراغ . ومن ثم ينطلق متطوراً من الاول تحت مظهر السلب ، ومن الثاني تحت مظهر الايجاب نموذجان مزدوجان لزخم رمزي أدنى يرقى في المراحل المتحضرة المتأخرة زمناً الى مرتبة التسلط والغلبـــة في شكلي الاقتصاد والعلم . ويبلغ التفكير بفكرتي المصير والسببية ، خلال مجريي الكينونة هذين منتهاه ، ويكون هذا التفكير صارماً كل الصرامـــة ومناهضاً لكل تقليد . وتنشأ قوى تفصل بينها وبين المثل العليـــا للطبقة القديمة ، مثل البطولة والقدسية ، عداوة حاقدة مميتة ـ وهذه القوى هي المـــال والعقل ، وارتباطها بهذه المثل هو كارتباط المدينة بالريف . ومن هنـــا فصاعداً تدعى الملكية بالثروة ، ويسمى المطل على العالم بالمعرفة ـ أي المصير غـــير المقدس والسببية الدنيوية . ولكن العلم يتناقض والنبالة ، لان هذه لا تبرهن او تدلل ، ولا تبحث او تتحدى ، بـــل هي طائفة قائمـــة وموجودة . ان القول «De Omnibus Dubitan Dum» يمثـــل موقف البرجوازي لا موقـــف الارستقراطي ، كما وانه ، في الوقت ذاته ، ينقض الشعور الاساسي للكهنوت حيث ان الدور الاساسي للتنديد ، بالنسبة للكهنوت ، هو دور الخـــادم والوصيف . ويجد الاقتصاد ايضاً هنا عدواً له يتمثل في شكل اخلاق التنسك التي ترفض جمع المال وتحتقره تماماً كاحتقار النبالة الأصيلة المرتكزة الى الارض . وفي كثير من الحال بادت حتى النبالة التجارية القديمة (كمدن المنسا ، والبندقية وجنوا) وذلك لان هذه بما لها من تقاليد لم تستطع ولم تقبل الموافقة على المفهوم الاعمالي (من تجاري وغيره ـ المترجم) للمدينة الكبرى . ومع كل هـــذا فان الاقتصاد والعلم يكن الواحد منها للآخر عداوة شديدة ، ونحن لنصادف مرة اخرى في الصراع بين جمع المال والمعرفة ، بين دار المحاسبة وغرفة المطالعة ، بين الليبرالية الاعمالية والليبرالية العقائدية ، اقول نصادف التناقضات العظمى بـــين

العمل والتأمل ، بين القلعة والكاتدرائية . وهذا النظام للاشياء ، يظهر في هذا الشكل او ذاك ، في كل حضارة - ومن هنا تنشأ امكانية قيـام مورفولوجيا مقارنة في الناحية الاجتماعية ، كما في النواحي الاخرى من التاريخ .

وتقع الطبقات المهنية - الحرفيـة - بكليتها خارج نطاق مرتبة المنازل الحقيقية ، واعني بهذه الطبقات العمال المهرة والموظفين والفنانين والعمال ، الذين يرجع تاريخ انتظامهم في نقـابات (مثـلاً نقابات الحدادين في الصين والنساخ في مصر والمغنين في العالم الكلاسيكي) الى العهود الغارقة في القـدم ، والذين يتطورون فعلاً ، بسبب انعزالهم المهني (هذا الانعزال الذي يبلغ احياناً حد عدم زواجهم من الآخرين) فيصبحون قبائـل وعشائر حقيقية كما هي الحال مثلاً مع الفلاشا في الحبشة ، وحال بعض طبقات السدرا التي عدد اسماءها قانون مانو . وانعزالهم هذا يعود فقط الى انجازاتهم التقنية ، ولذلك لا يعود الى كونهم اوعية لرمزية الزمان والفراغ . وتقاليدهم هي ، بالمثل محدودة بتقنياتهم ، ولا تمتد الى اخلاقية - عرف او الى اخلاق خاصة بهم ، كما نجد هـذا دائماً في الاقتصاد والعلم اللذين هما على هذه الحال . ولما كان القضاة والضباط يشتقون من النبالة لذلك هما طبقتان ، بينما ان الموظفين هم حرفيون ، ولما كان العلماء يشتقون من الكهنوت فهم اذن طبقة ، بينما ان الفنـانين يشكلون حرفة . ومفهوم الشرف والضمير يلازمان عند الفئة الاولى الرتبة والمقام ، بينما يلتصقان لدى الفئـة الثانية بالانجـاز . وهناك شيء مـا من الرمزية ، بالرغم من انه قـد يكون ناحلاً ضعيفاً ، في كل مرتبة من الفئة الاولى ، لكنه لا يوجد اي أثر من هذا لدى أية مرتبة من الفئة الثانية . ونتيجة لذلك نشعر بان هناك شيئاً ما من غرابة وشذوذ ، ومراراً ، خزي وعيب يلتصق بابناء الفئة الثانية - فلنتأمل ، مثلاً في الجـلادين والممثلين والمغنين الجوالين ، او فلنتبصر في اي تقـدير كان يكنه العالم الكلاسيكي للفنان . فطبقات او نقابات هؤلاء تنعزل عن المجتمع

العام او تطلب الحماية لدى انظمـــة المجتمع (او لدى الحماة الافراد وامثال مايسناس [1] Maecenas اما ان تلائم هذه بين ذواتها والمجتمع فهـــذا امر لا تستطيعه ، وعجزها عن القيام به يجد له تعبيراً في حروب النقابات التي عرفتها المدن القديمة ، وفي الشذوذ من كل نوع في غرائز الفنانين واخلاقهم .

- ٥ -

ان تاريخ منازل او طبقات يتجاهل مبدئياً تاريخ الطبقات الحرفيـــة او المهنية ، هو ، لذلك ، عرض للعنصر الميتافيزيقي في الجنس البشري الارقى ، من ناحية ، ارتقاء هـذا الجنس الى الرمزية العظمى في انواع الحياة المتدفقة ، انواع يتحرك ، داخلها ومعها من البدايـــة حتى النهاية ، تاريخ الحضارات حتى يبلغ اكتماله .

ويكون نموذج الفلاح المحدد تحديدا دقيقا ، في مستهل البداية وفاتحتها شيئا ما جديدا . فلقد كان الرجال الاحرار والعمال الزراعيون Hinds في الازمان الكرولانجية في النظام القيصري المعروف باسم « مر » « Mir » في روسيا هم الذين يقومون بفلاحة الارض وزراعتها وجني مواسمها ، لا الفلاحون (اذا لم يكن هناك فلاحون بالمعنى المألوف لهذه الكلمة - المترجم) وفقط عندما ينشأ الشعور بكون الكائن مختلفا عن « الحياتين » الرمزيتين ، تصبح هذه الحياة منزلة

---

(١) مايسناس : كان حاميا للشاعرين فرجيل وهوراس .
- المترجم -

والمنزلة الاغذائية – المغذية – Nourishing ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، اذ ان جذر نبتة الحضارة العظمى الذي كان قد ضرب بانسجته عميقا داخل تربة الارض الام ، يمتص ، بصورة معتمة ومثابرة واجتهاد ، جميع العصارات داخله ، ويرسل بها الى الاجزاء العلوية ، حيث تشمخ الجذوع والاغصان عاليا داخل ضوء التاريخ ونوره . وهو – اي الجذر – لا يخدم الحاقات العظمى بتغذيتها ، او اغذائها فقط ، بل انما يقدم اليها ايضا حصاد الام الارض الآخر ذاك – يقدم اليها دمها الخاص ، وذلك لأن الدم كان يتدفق طيلة قرون وقرون من القرى الى داخل الاماكن الراقية ، حيث كان يتلقى هناك الاشكال السامية ، ويحافظ على الحاقات الراقية ويذود عنها ، وتسمى هذه العلاقة (من وجهة نظر النبلاء) بالمقطعية Vassalage (التبعية – المترجم) ونحن نجدها تنشأ في الغرب – مها قد تكون الاسباب السطحية في كل قضية – بين عام ١٠٠٠ وعام ١٤٠٠ ، وفي المراحل « المعاصرة » لهذه من الحضارات الاخرى . فطبقة الهيلوتري Helotry في اسبرطة تنتمي اليها ، وكذلك الطبقة الرومانية القديمة Clientela (التي كانت ابناؤها يتعيشون على حساب طبقة النبـــلاء في المدينة Patrecians – المترجم) والتي نشأت منها بعد عام ٤٧١ طبقة العوام الريفية – وهذه تتشكل من ملاك ارض احرار . والحق ان زخم الكدح ذاك لمذهل وعجيب ، الكدح نحو الشكل الرمزي وذلك في مرحلة التشكل الكاذب الروماني المتأخرة زمنا ، حيث تطور الى الوراء نظام الطبقات للبرنسبيت Principate الذي وضعـــه اوغسطس (وبتقسيمه موظفي الحكومة الى خيالة وسناتوريين) ، حتى بلغ في سيره خلفاً قرابة عام ٣٠٠ حيث عاد ، في كل مكان خاضع لسيطرة الشعور المجوسي بالعالم ، الى الوضع الموازي للوضع القوطي في عام ٣٠٠ – وهذا الوضع هو في الواقع ، وضع الامبراطورية الساسانية لزمنه . كما ونشأ من طبقة الموظفين في الادارات العامة البالغة مرتبة جد راقية من المدنية ، نبالة ثانويـة تتألف من العرفاء العسكريين Decurions وفرسان القرى وسياسيي البلدان الذين كانوا مسؤولين امام صاحب

السلطان ، جسداً ومالاً ، عن جميع المنصرفات ـ وهذا نظام اقطاعي متطور الى الوراء ـ وحيث اصبحت تدريجيا وظائف هؤلاء وظائف متوارثة يرثها الابن عن الاب ، تماما كما حدث في مصر خلال حكم العائلة الخامسة ، وفي الصين في القرون الاولى من حكم آل شو Chou ، وفي اوروبا في حقبة الحروب الصليبيـــة . كما واصبحت الرتب العسكرية من ضباط وعساكر على حد سواء ، متوارثة ايضا وفق الطريقة ذاتها ، واصبحت الخدمة واجبا اقطاعيا ، وكذلك امسى كل الباقي الذي نظمه فوراً ديوكلتسيان في قوانين رسمية . وبذلك كان الفرد قد ربط ربطاً وثيقا بالمرتبة ، كما ووسعت دائرة سريان هذا المبـــدأ حيث فرضت على جميع العاملين في التجارة ان يكونوا اعضاء في النقابات ، كما كانت الحال في المراحـل القوطية او مصر القديمة . ولكن ، وقبـل كل شيء ، نشأت بالضرورة ومن انقاض الاقتصاد العبودي الكلاسيكي المتـــأخر زمنا ، اقتصاد « لاتيفونديا » Latifundia جاليات من صغار الفلاحين المتوارثين ، بينما اصبحت الاقطاعات الكبرى مديريات ذات نظام اداري ، وامسى السيد مسئولا عن جباية الضرائب وتأمين سوق حصة مديريته من المجندين الى الجندية . وقرابة الفترة الواقعة بين عام ٢٥٠ وعام ٣٠٠ ، اصبح كل فرد من ابناء هذه الجاليات من صغار الفلاحين مربوطا قانونيا بالارض (Adscriptus glebae) . وبهذا بلغ الفرق بين السيد الاقطاعي والمقطع Vassal بوصف كل واحـــد منهما يمثـل طبقة ، اقول بلغ حده .

ان لكل حضارة جديدة نبالتها وكهنوتها . اما الاستثناء الظاهري لهـذه القاعدة فانما يعود فقط الى غياب التقاليد المحسوسة . فنحن نعرف اليوم بان كهنوتا حقيقيا قد وجد في الصين القديمة ، ويمكننا ان نزعم ، كأمر غني عن البيان ، بوجود طبقة كهنوت في مطالع الاورفيـة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد — وزعمنا هذا يزداد ثقة واطمئنانا اذ ان لدينا دلائل واضحـــة عنه في الشخصيتين الملحميتين لكل من كلخاس Calchas وتيوسياس Tiresias . كما وان تطور .

النظام الاقطاعي المصري يفترض بالمثل ، وجود نبالة بدائية تعود حتى الى العائلة الثالثة . لكن الشكل الذي داخــله والقوة التي بواسطتها قد حققت بادىء ذي بدء ، المنازل الاوليـــة ذواتها ومن ثم سيطرت على مجرى التاريخ ـ فشكله وحمله وحتى مثله بمصائرها الخاصة ـ انما هو شكل يعتمــد على الرمز الاولي الذي ترتكز عليه كل حضارة بكل ما لها من لغة ـ شكل .

ان النبالة ، وهذه شبيهة كليا بالنبات ، تنطلق في كل مكان من الارض التي هي ملكيتها الاوليـة والتي ترتبط اليها باوثق رباط . وهي تمتلك في كل مكان الشكل الاسامي للعائلة ، الامرة ـ العشيرة (والتي لذلك يعبر فيهـــا ايضا عن الجنس الثاني للتاريخ ، الانثوي) وتظهر ذاتها بواسطة ارادة الديمومة ـ اعني ديمومة الدم - بوصفها رمزا عظيما للزمان والتاريخ . ويتبدى لنا ان الوظائفية المبكرة Officialdom لوضع المقطعين Vassal المبنية على الموثوقية الشخصية في كل مكان ـ في الصين ومصر كما في العالمين الكلاسيكي والعربي ـ تمر باطوار التطور ذاتها ، فتخلف اولاً وظائف ومراتب بلاط شبيهة بالاقطاعيـــة ، ثم تسعى الى انشاء روابط وراثيـة والارض ، واخيرا تصبح اصلا لسلاسل نسب العائلات النبيـــلة .

وتعبر الارادة الفاوستية للانهائية عن ذاتها بواسطة مبدأ تسلسل الانساب ، وهذا المبدأ مبدأ خاص بهذه الحضارة ـ وهذا الامر قـد يبدو غريبا . زد على ذلك انه في هذه يتخلل متلاصقا ويقولب جميع الاشكال التاريخية ، وخاصـة اشكال الدول نفسها تلك . فالحس التاريخي الذي يصر ويلح على معرفة مصائر اسلافه خلال القرون المتصرمة من الزمن ويلاحق دلائل المحفوظات Archive ومعلومات المراجع حتى اسلافه الاولين ، واعداد شجرة العائلة وتنسيقها بعناية واهتام ، هذا الاعداد الذي لديه من القدرة ما فيه الكفاية ليجعل التملك الحاضر والوراثة يعتمدان على اقدار زواج واحد لربما عقد قبل خمسماية سنة ، ومفاهيم

الدم النقي والولادة المتكافئة ، والزواج غير المتكافىء – كل هذه الامور هي ارادة الاتجاه في الزمان . وليس لهذا الامر من مثيـل ، ما عدا لدى النبالة المصريـة ، لكن الاشكال المشابهة التي بلغتها هـذه ، كانت اضعف بكثير من تلك .

اما النبالة من الطراز الكلاسيكي ، فهي على العكس من هذا ، اذ انها ترتبط بالمرتبة الراهنة لعائلة العصب ، وتنطلق منها مباشرة الى الاصل الاسطوري الذي لا يتضمن المغزى التاريخي من قريب او بعيد ، بل يتضمن فقط اشتهاء فخماً جليلا ، بغض النظر عن كل احتمالية تاريخية ، لأصول دائمة لما يعاصره في آنـه ومكانـه من الاحياء . وعلى هذا الشكل فقط نستطيع ان نفسر تلك السذاجة المحبطة المذهلة ، المتباينة ، التي كانت تجعل الفرد يرى ان زفس وهرقـل يقفان ما بعد جده على مستوى زماني واحد ، وتدفع به الى صناعة شجرة عائلة (او ربما عدة شجرات كما فعل الاسكندر) ، وكذلك تلك الحفة الجذلة التي كانت تندفع بعائلات رومانية محترمة الى صهر اسماء اسلاف مشهورين في قوائم قنصلية قديمة . وكانوا يحملون في موكب تشييع جنازة احد نبلاء الرومان الاقنعـة الشمعية لاجداده العظام ، لكنهم كانوا يقومون بهذا العمل مدفوعين فقط بحب عرض عدد وصحة الاسماء المشهورة ، لا رغبة في اقامـة اقل رباط من تسلسل نسب والحاضر . وهذه الظاهرة تتبدى في كل النبالة الكلاسيكية التي ، تركيبيا وروحيا ، شكلت ، كالغوطية ، وحدة باطنيـة واحدة ابتداء من اتروريا حتى آسيا الصغرى . وعلى هـذه النبالة استندت القوة التي كانت لا تزال ، حتى في مطلع الحقبة المتأخرة زمنا ، ملكا لمجموعة من عائلات شبيهة بالقبيلة (فخذ ، بطن عشيرة) ، والتي حافظت على عضويـة ووحدة مرهونتـين بحاضريها ، بواسطة اشكال طقوسية مقدسة – مثلا بطون العشيرة الدورية الثلاثة ، وبطون العشيرة الايونية الاربعة ، والقبائل الاتروسكانية الثلاث التي ظهرت في التاريخ

الروماني الابكر زمنا باسمـــاء تيتس Tities ورمنيس Ramnes ولوسيريس Luceres . ونفسا الام والاب لدى فيداس لها الحق بطقوس نفس وذلك حتى الاجيال الثلاثة الاقرب ، والثلاثـة الاخري الابعد من هذه ، وبعد هذه الاجيال السته للزمن الحق كل الحق ان يطويهم داخل ذمته . وليس هناك من مكان آخر غير الهند حيث نرى فيهـا المذهب الكلاسيكي لعبادة الاسلاف يمتد فيها امتداده في عالمه . بينما ان هـــذا المذهب هو على العكس تماما من ذلك لدى الصينيين والمصريين ، اذ انهم كانوا يرون نظريا ، ان التسلسل النسبي لا نهاية له ، وهذه النظرة حافظت على كيان العائلة داخل تنسيق معين حتى ما وراء الموت الجسدي . وحتى هـــذا اليوم يعيش في الصين دوق ، كونغ K'ung يتحدر من صلب كونفوشيوس ، وايضا من لاوتسي وشانغ – لو والآخرين . وليست القضيـة قضية شجرة عائـــلة كثيرة في تفرعاتها واغصانها ، بل انما هي تتابع تسلسل النسب طاو – الكائن – وبصراحة بواسطة التبني اذا ما اقتضت الحاجة (فالابناء بالتبني المرتهنون بمذهب عبادة الاسلاف ، يكونون بذلك قـــد انضموا روحيا للعائلة وامسوا من اغصانها) او بواسطة وسائل اخرى .

ويتدفق خلال القرون المزدهرة لمنزلة النبالة ، هذه المنزلة المتفوقـة ، سيول عرمة من فرع طاغ من الحياة ، حيث انها اتجـاه ومصير وعنصر سداة ولحمة . فالحب يتدفـق ، لان المرأة هي تاريخ ، والحرب تنشب ، لان القتال يصنع التاريخ ، وهذان هما البؤرتان المعترف بهما لافكار هـــذه المنزلة وشعورها . وينطبق شعر السكالد Skald الشمالي واغاني الميني الجنوبية، على اغاني الغرام لعصر الفروسية الصينية في شي – كنغ والتي كانت تغنى في بي – يونغ ، القصور التي كان يجري فيها تدويب النبلاء وتثقيفهم (Hiao) . كما وان المهرجانات العامة لرمي السهام كتلك المباريات الكلاسيكية المبكرة ، ولعب الجريـد الغوطي والفارسي – البزنطي ، هي مظاهر الحياة على جانبها الهوميروسي .

وتقف الاورفية موقفا متباينا وهذا الجانب – وهذه هي تعبير خبرة الفراغ لحضارة بواسطة طراز كهنوتها . وهي بهذا تتوافق والصفة اليوقليدية للامتداد الكلاسيكي – الذي لم يكن بحاجة الى وسيط ليتعامل والآلهة الحجمين والقريبين منه ، ولهذا انحل الكهنوت بوصفه منزلة ، منذ البداية وهبط فامسى وظائف مدنية . وبالمثل ، فانه لأمر بالغ الاثر من الطاو الصيني ، ان تحل محل الكهنوت الاصلي المتوارث ، طبقات محترفة من المصلين والنساخ وكهنة الاوراكل الذين كان باستطاعتهم ان يصاحبوا القيام بالشعائر الدينية للسلطات ورؤوس العائلات بالطقوس المعينة الموضوعة . وهذا كان ايضا متوافقا والشعور الهندي بالعالم الذي اضاع ذاته في لا نهائية لا قياس لها ، فاصبحت طبقة الكهنة هنا النبالة الثانيـــة وامست تمتلك سلطة هائلة وتتدخل متطفلة في كل انواع الحياة ، وتنتصب واقفة بين الشعب وبين تيه من الآلهة ، واخيرا انه لتعبير شعور « الكهف » كون الكاهن من الطائفة المجوسية الحقيقيـة واهبا وناسكا ، وكونه يتزايـــد مع الزمن رهبنـــة ونسكاً ، بينا يفقد الاكليروس الدنيوي بصورة مستمرة مغزاه الرمزي .

وخلافا لهذه جميعاً فهناك الكهنوت الفاوستي الذي بالرغم من انه كان في عام ٩٠٠ لا يزال يفتقد كل مغزى عميق ، غير انه اندفع بعد هذا العام في مدارج الرقي حتى بلغ ذاك الدور السامي ، دور الوساطة الذي وضعـــه مبدئيا بين الانسانية (كل الانسانية) وبين الكون الاكبر ، هذا الكون الذي عمل فيـه الوجد الفاوستي للبعد الثالث ، توسيعا ومداً الى اقصى حد قد يبلغه الخيال . ولما كان هذا الكهنوت قد عزلته العفة عن التاريخ وعزلته الصفـة الراسخة عن الزمان ، لذلك فانه بلغ ذروته في البابوية التي تمثل اسمى رمز يمكن ان يدركه العقل للفراغ الديناميكي لله ، وحتى الفكرة البروتستنتية للكهنوت المعمم لم تدمر هذا الكهنوت الفاوستي ، بل انها نقلت مركزيته من نقطة واحدة ، وشخص

واحد ، ووضعتها داخل قلب كل فرد مؤمن .

ان التناقض القائم بين الكائن وبين الكائن الواعي والموجود داخل كل كون اصغر ، يدفع بالضرورة بالمنزلتين لتناهض الواحـــدة منها الاخرى . فالقوة الروحية ، والقوة الدنيوية هما حجمان يبلغان حداً من الاختلاف في التركيب والنازع ، حيث يبدو عنـــده قيام ابة مصالحة ، او حتى تفاهم بينهما ، امرا مستحيلا . ولكن هذا الصراع لم يبلغ في كل حضارة مبلغ التعبير عن نفسه . ففي الصين صعد هذا الصراع الى فكرة الطاو القائلة بان السيادة يجب أن تستقر آمنة في الارستقراطية . اما في الهنـد فان مفهوم الفراغ ، بوصفه فراغاً لا نهائياً وغير معين ، قد استوجب ان تكون السيادة للكهنوت .

اما في الحضارة العربية ، فان الشعور المجوسي بالعالم يتضمن مبدئيا اندراج المجتمع المنظور دنيويا للمؤمنين ، بوصفه الجزء الاصلي الموجد Constituent ، في الاتحاد – الاجماع – العظيم ، لذلك استوجب قيام وحدة من نظام حكومي روحي ودنيوي ، وقانون وسيادة . وهذا الامر لا يدل على انه لم يكن هناك احتكاك او خلاف في الرأي بين المنزلتين ، فالواقع عن هذا القول جد بعيد ، فلقد نشبت في الامبراطورية الساسانية صراعات دموية بين الارستقراطية الريفية وبين الدخان Dikhans وحزب ماجي – وقد قتل في بعض الحوادث حتى ملوك وسلاطين – كما وان كامل القرن الخامس البزنطي مليء ومترع بالصراعات التي دارت بين السلطة الامبراطورية والاكليروس ، والتي تشكل قاعدة دائمة للجدل اليعقوبي والنقاش النسطوري . لكن التحابك الاساسي لهاتين المنزلتين لم يكن ابدا موضوعا لنقاش او جدل .

اما في العالم الكلاسيكي ، هذا العالم الذي يمقت اللانهائية ويكرهها ، فانه قد جرى اختزال الزمان الى الحاضر منه ، والامتداد الى وحدة من احجام ملموسة ،

ونتيجة لذلك اصبحت المنزلتان الرمزيتان العظيمتان عاطلتين من المعنى الى حد ، انهما اذا ما قورنتا عنده بدولة المدينة التي كانت تعبر عن الرمز الاولي الكلاسيكي بافصح اسلوب يدركه الخيال ، فانهما لا تعتبران اطلاقا سلطتين مستقلتين . اما في تاريخ الجنس البشري المصري ، الذي هو تاريخ الكــدح بزخم متساو (والفاوستي – المترجم) نحو ابعاد من الزمان والفراغ ، فان الصراع بين هاتين المنزلتين وبين رمزيتيهما امر جلي وواضح دائمــاً حتى المرحلة الكاملة في فلاحيتها من هــذا التاريخ . وذلك لان مرحلة الانتقال من العائلة الرابعــة الى العائلة الخامسة ، هي مرحلة يصاحبها الانتصار المنظور للشعور الفروسي الدنيوي ، فالفرعون يصبح ، بعد ان كان جسدا ووعاء للاله الاسمى ، خادما لهذا الاله ، ويتفوق معبد رع على معبد – القبر ، بهندسته وزخمه الايحائي . ولقد شهدت الامبراطورية الجديدة ، ومباشرة بعــد فياصرتها العظام ، الارستقراطية السياسية لكهنة أمون Amen في طيبة ، ومن ثم شهدت ايضا ثورة الملك « الهرطيق » امينوفيس الرابع (أخنـاتو ن) – الذي يشعر المرء شعورا صادقاً بان لهذا الملك جانبــين احدهما سياسي والآخر ديني – وهكذا انتهت مصر ، بعد صراعات غير محدودة نشبت بين طبقة المحاربين وطبقة الكهنة ، الى قبضة سيطرة اجنبية غريبة .

وقد دارت رحى المعركة ذاتها ، في الحضارة الفاوستية ، بين هذين الرمزين الساميين المتكافئــين في القوى ، بالروح ذاتها تقريبا ، غير ان السورة النفسية الفاوستية كانت اشد واقوى من نظيرتها المصرية – وهكذا فاننا لا نرى ابتداء من الحقبة القوطية المبكرة فما بعدها ، ان الهدنة ، لا السلام ابداً ، كانت هي الامر الوحيد الممكن تحقيقه بين الدولة والكنيسة . ولكن العقبة التي تعترض سبيل الكائن الواعي في هذا الصراع تنبىء – ان هذا الكائن الواعي يريد ان يتحرر من اعتياده على الكائن ، لكنه لا يستطيع او يقدر . فالعقل يحتاج للدم ، لكن الدم لا يحتاج للعقـل . والحرب تنتمي الى عالم الزمان والتاريخ – اما المعارك العقلانية فسلاحها الوحيد هو العقل ، المناقشة فقط – ولذلك يتوجب على

الكنيسة المناضلة ان تهاجر من عالم الحقائق الى عالم الوقائع - ان تهجر عالم يسوع الى عالم بيلاطوس . وهكذا تصبح جوهرا في تاريخ العنصر ، وموضوعا لقوى توليدية ، تشكيلية من الجانب السياسي للحياة . فلقد كانت الكهانة ، ابتداء من عصور الاقطاع المبكرة حتى الديمقراطية الحديثة ، تقاتل بالسيف والمدفع والسم والخنجر ، والرشوة والخيانة ، وبكل الاسلحـة التي تستعملها الاحزاب في عصرها . وكانت تضحي (ببعض) مبادىء الايمان بغية تحقيق مكاسب دنيوية ، وتتحالف مع الهراطقة والملاحدة ضد القوى الارثوذكسية . وللبابويـة ، كفكرة ، تاريخ خاص بها ، ولكن هـذا التاريخ لا يمت بصلة الى موقف البابوات في القرنـين السادس والسابع بوصفهم نواب ملك Viceroy او ولاة بزنطيين من اصول سورية وإغريقيـة ، او الى تطورهم فيما بعد الى ملاك ارض ذوي صولة ونفوذ وسلطان على جماهـير من الفلاحين الرعايا ، او الى الآباء الدينيين الوارثين Patrimonium petri ، في الازمنة القوطية المبكرة - فلقد كان يوجد (في هذين القرنين - المترجم) نوع من دوقية في حوزة عائلات كبرى من اقليم الكامبـانا Campagna [1] (كولونا Colona اورسيني Orsini ، سافيلي Savelli فرنجباني Frangipani) التي كانت بصورة متناوبة تنصب البابوات ، حتى ساد اخيرا هنـا ايضا النظام الاقطاعي الغربي العام ، واصبح الكرسي البابوي موقوفا على عائلات من بارونات رومان ، وهكذا كان على كل بابا جديد ، ان يحذو حذو الملوك من المان وفرنسيين ، فيقر بحقوق المقطعين Vassals التابعين له . وقد قام في عام ١٠٣٢ كونتات توسكولوم Tusculum بترشيح صبي يبلغ الثانية عشرة من العمر ، لمنصب البابا اذ انـه

---

(١) Campagna : مقاطعة ايطاليـة تقع حول روما وتبلغ مساحتها ٨٠٠ ميل مربع .

- المترجم -

كانت تنتصب في تلك الايام ٨٠٠ برج قلعة فوق ووسط الانقاض والخرائب الكلاسيكية المحيطة بمنطقة روما . وقد خندق عام ١٠٤٥ ثلاث بابوات في الفاتيكان وكان يدافع عنهم النبلاء من مناصريهم .

والآن خرجت المدينة بما لها من نفس خاصة بها الى ميدان الوجود ، وجاء خروجها بادىء ذي بدء بتحرير ذاتها من نفس الريف وروحه ، ومن ثم الانتصاب امام الريف بوصفها نداً له ، واخيراً سعيها لاخضاع روح الريف واخماد جذوتها . ولكن هذا التطور قد حقق ذاته داخل انواع من الحياة ، وهو لذلك جزء من تاريخ المنازل او الرتب . وتنشأ حياة المدينة على هذا الشكل - من خلال سكان هذه المستوطنات الصغيرة المكتسبين نفساً مشتركة (جماعية - المترجم) والذين يصبحون واعين ان الحياة في الداخل - داخل المستوطنات - المترجم - هي شيء ما يختلف عن الحياة في خارجها - وهنا يبدأ فوراً سحر الحرية الشخصية بالنشاط واجتذاب تيارات من الحياة وسيولها لتتدفق داخل الاسوار ، وهذه السيول تتزايد جدّة في انواعها . وهنا ينطلق نوع من حماس للتحضر ولنشر الحياة المتحضرة . وهذا الحماس وليست الاعتبارات المادية ، هو الذي ولد حميا مرحلة الاستعمار في العالم الكلاسيكي ، التي لا نزال نتعرف عليها من خلال عساليجها الصغيرة ، والتي هي ليست باستعمارية اطلاقاً وفق المفهوم الدقيق الصحة لهذه الكلمة . وذلك لان حماساً مبدعاً داخل انسان المدينة هو الذي اجتذب ، منذ القرن العاشر قبل الميلاد (وفي القرون « المعاصرة » لهذا القرن من الحضارات الاخرى) جيلاً بعد جيل تحت سحر الحياة الجديدة ، التي نشأت معها لاول مرة فكرة الحرية في التاريخ البشري . وهذه الفكرة لا تنتسب الى اصل سياسي (وحتى ، اقل من هذا ، اصل تجريدي) ، بل انها شيء ما يدفع بالواقعة الى التعبير عن ان الارتباط الشبيه بارتباط النبات بالتربة قد انتهى داخل اسوار المدينة وتصرم عهده ، وان الخيوط والانسجة التي تتخلل حياة الريف قد قطعت ، ونتيجة لذلك فان فكرة الحرية تحتوي ابداً ودوماً على نفي وانكار ،

فهي تفك وتفتدي وتحمي وتحرر دائماً الانسان من شيء ما . والمدينة هي التعبير عن هذه الحرية ، فروح المدينة هو الفهم الصائر حراً ، وكل شيء يتعلق بالحركات العقلانية والاجتماعية والقومية والذي قد ينفجر في المراحل المتأخرة زمناً باسم الحرية وتحت شعارها ، انما يعود الى اصل هذه الواقعة الاولية ، واقعة الانفكاك عن الارض والتحلل من رباطها .

ولكن المدينة هي اقدم من « المواطن فيها » Citizen . وهي تجتذب اول ما تجتذب طبقات الحرفيين ، او المهنيين ، الذين هم والحال هـذه ، خارج دائرة المنزلتين الرمزيتين ، وحتى عندما يتخذ الحضر شكل نقابات . ثم تجتذب المنزلتين الاوليتين نفسيهما ، فتنتقل النبالة الصغيرة قلاعها ، والفرنسيسكان اديرتهم الى داخل محيط المدينة . وحتى هـــذه الفترة ، لا يكون الكثير قد تبدل باطنياً . وليس روما البابوية وحدها ، بل ان جميع المدن الايطالية العائدة الى تلك الازمان ، ملئت بالابراج المحصنة ، للعائلات التي كان افرادهـا يتبارزون ويتعاركون في الازقة والشوارع . وتبدو هذه الابراج في صورة مشهورة لمدينـة سينا Siena حول سوقها كأنها مداخن المصانع . وبالنسبة للقصر الفلورنسي من عصر النهضة ـ وهـــذا القصر فيما يتعلق بالحياة المشرقة داخله هو وريث بلاطات بروفنسال ـ أقول بالنسبة لهذا القصر هو بواجهته المتريفة عسلوج من القلاع الغوطية التي كان الفرسان الالمان والفرنسون لا يزالون ، آنذاك ، يشيدونها على تلالهم . والحق ان الحياة كانت تنفصل خارجاً ببطء فقط . وقد قامت العائلات المهاجرة في جميع البلاد الغربية ـ الى المدن ـ بـــين عام ١٢٥٠ وعام ١٤٥٠ ، بحشد اعضائها وتركيزهم في طبقات النبلاء قبالة النقابات ، وهم بعملهم هذا قد فصلوا انفسهم من الناحية الروحية ، كما من النواحي الاخرى ، عن طبقة النبلاء الريفيين . وقد حدث هذا الامر بالذات في الصين ومصر في عصورهما المبكرة ، وفي الامبراطورية البزنطية ، وعلى هذا الضوء فقط نستطيع ان نفهم عصبات المدن الكلاسيكية الاقدم زمناً (كعصبة الاتروسكان ومن الجائز ايضاً عصبة اللاتين) ونعرف امر الترابطات

التي كانت قائمة بين المدن البنات المستعمرة وبين المدينة الام . ولم تكن المدينة ، وهذه حالها ، هي العمود الفقري للاحداث ، بل كانت طبقة النبلاء من العشيرة وبطون القبيلة التي كانت تقيم داخلها . فالمدينة الاصلية تتجانس وطبقة النبلاء ، كما كانت روما حتى عام ٤٧١ ، ومدن اسبرطه والاتروسكان طبقة وجودها . والترادف ينمو من داخل هذه الطبقة ، كما وانها هي التي شكلت دول ـ المدن . ولكن هنا كان الفرق بين نبلاء المدينة ونبلاء الريف ، كما هو في الحضارات الاخرى ، غير ذي اهمية اطلاقاً ، وذلك اذا ما قورن بالفارق بين النبلاء (بصورة عامة) وبين الدهماء.

وينشأ البرجوازي الاصيل عندما يدفع الفارق الاساسي بين المدينة والريف « بالعائلات والنقابات » بالرغم من العداوة الحقود المستعرة بينهما ، الى مفهوم لاتحاد يجمع بينها ضد طبقة النبلاء القديمة والنظام الاقطاعي بصورة عامة ، وضد المركز الاقطاعي للكنيسة . ففكرة « الطبقة الثالثة » (ونحن نستعمل هنا شعار عام ١٧٨٩) هي اصلاً وحدة من تناقض غير قابلة للتعريف بواسطة محتوى ايجابي ، وهي لا تمتلك اخلاقية عرف خاصة بها ـ وذلك لان المجتمع البرجوازي الارقى يتخذ من طبقة النبلاء قدوة له ، كما يتخذ الورع المتحضر من الكهنوت الاقدم مثلاً يحتذى ـ زد على ذلك ان الفكرة القائلة بان الحياة غير مكرسة لخدمة الاهداف العملية ، بل للتعبير المستمر عن رمزية الزمان والفراغ ، وانها تستطيع ان تدعي الصدارة حتى الحد الذي تصبح عنده وعاء جديراً بالزمان الفراغ ، فكرة هذا شكلها ، هي بالضرورة شيء يشمئز منه العقل المتحضر وينفر . وهذا العقل يسيطر في المرحلة المتأخرة زمناً ، على مجموعة الآداب والكتاب السياسية ، ويؤكد على تصنيف جديد للطبقات يبدأ من نشوء المدينة ـ ويأتي في البداية تأكيده تأكيداً نظرياً ، ولكن عندما تصبح العقلانية هي صاحبة الكلمة العليا والسطوة والنفوذ ، ينتقل بتأكيده الى حقل الممارسة الدموية ، ويمارسه حتى عن طريق الثورات . اما منزلتا النبالة والاكليروس ، فهما من

جهة كونهما لا تزالان موجودتين وقائمتين ، فانهما ، بالاحرى ، تبدوان هنا ، وبصورة بارزة ، على انهما طبقتان تتمتعان بامتيازات خاصة ، ويتبدى المغزى الضمني لتأكيدهما على عدالة حقوقهما الوضعية ، استناداً الى منزلتيهما التاريخيتين (لوجهة نظر القانون العقلاني او « الطبيعي » العديم الزمـــان) سخفاً وهراء . وهاتان المنزلتان تكونان الآن قـــد اتخذتا المدينة العاصمة المركز الرئيسي لهما (والمدينة العاصمة هي ايضاً فكرة مرحلة – متأخرة زمناً) ، وتأخذان الآن والآن فقط بتطوير الاشكال الارستقراطية حتى تبلغا بهـا ذاك المركب الجليل المهيب من الغطرسة والاناقة والذي نراه ، مثلاً ، في الصور الزينية التي رسمهـــا رينولدز ولورنس . وهنا تقف القوتان العقلانيتان للمدينة التي أمست الآن تملك ازمة التفوق والسيادة ، واعني بهاتين القوتين ، الاقتصاد والعلم ، اللذين يشعران باتحادهما وجماهير الحرفيين والموظفين والعمال بأنهما حزب واحد متنافر في اجزائه الاساسية لكنه متماسك تماسكاً راسخاً وطيداً اذا ما دعا الداعي الى خوض معركة الحرية – وهـــذه بالنسبة للاستقلال الحضري في الازمان القديـة العظمى هي رموز وحقوق تدفقت من هاتين المنزلتين . وبوصف الاقتصاد والعلم جزئين أصليين من الطبقة الثالثة ، هذه الطبقة التي تحصى وتعـــد رأساً رأساً وليس بالمراتب ، يصبح الجميع هنا ، في المراحل المتأخرة زمناً من الحضارة « ليبراليين » على هذا الشكل او غيره ، – اي متحررين من القوى الباطنية للحياة غـــير الحضرية . فينطلق الاقتصاد حراً لجمع المال وتكديسه ، ويتحرر العلم فيصول في ميادين النقد ويجول طليقاً . وهكذا نشعر ان العقل بكتبه واجتماعاته يحصل في كل القرارات العظمى عـلى الكلمة « الديمقراطيـــة » ، بينما يفوز المـــال (البلوتوكراتية) بالمكاسب والمغانم – وذلك لان رأس المـال هو الذي دائماً ينتصر ويكسب اما الافكار فلا تعرف النصر ابداً . وهذه الحـال تمثل تماماً ايضاً التعارض القائم بين الحقائق والوقائع عـلى الشكل الذي تتطور وفقه من حيـاة المدينة .

زد على ذلك ان المدينة تقيم بواسطة اعتراضها على الرموز القديمة للحياة المرتبطة بالارض والمشدودة اليها ، ارستقراطيتين مالية وعقلانية ، كفكرتين تناهضان الارستقراطية بالولادة – والاولى من هاتين الارستقراطيتين هي واضحة جداً كمطلب وادعاء ، لكنها اشد اثراً ونفوذاً كواقعة ، اما الثانية فهي ليست اكثر من حقيقة ، لكنها ليست شديدة الاقناع كمشهد ، بالنسبة للعين . وتنمو في كل مرحلة متأخرة للنبالة القديمة – التي امسى جزء كبير من التاريخ (مثلاً الحروب الصليبية والفتح النورماندي) مخزوناً داخلها كشكل ونبض ، والتي كثيراً ما انحطت واضمحلت باطنياً في البلاطات العظمى – اقول تولد وتنمو لها (غلة) ذرية ثانية اصيلة . وهكذا نرى في القرن الرابع قبل المسيح ان دخول ابناء عائلات العوام العظمى ، بوصفها عائلات مجندين ، Conscripti مجلس الشيوخ الروماني لآباء المجندين[1] Patres قد أوجد داخل نظام مجلس الشيوخ ارستقراطية نبلاء – نبلاء يمتلكون الأراضي ، لكنها ملكية خولهم اياها المنصب او الوظيفة . وبالطريقة ذاتها تماماً نشأت نبالة المحسوبية او التحيز الكهنوتي للاقارب في روما البابوية ، وفي عام ١٦٥٠ لم تكن هناك اكثر من خمس عائلات تعود بأصولها العائلية الى اكثر من ثلاثة قرون .

وقد نشأت ، ابتداء من الازمنة الباروكية فما بعدها ، وفي الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الاميركية ، طبقة ارستقراطية من المزارعين ، لكن قوى المال في الشمال ابادت هذه الطبقة في الحرب الاهلية ١٨٦١ – ٦٥ ، واستأصلت جذورها . ولقد كان في النبالة التجارية من طراز عائلات فوغر Fugger وولسر Welser ومديتشي والبيوتات الكبرى في جنوا

---

(١) Patres : الترجمة الحرفية لها آباء المجندين ، وتعني اعضاء مجلس الشيوخ الروماني في العهد القديم .

– المترجم –

والبندقية – وبهذا الطراز من العائلات يجب ان نخص مملياً كل طبقة النبلاء في المدن الهيلينية المستعمرة لعام ٨٠٠ – اقول كان فيها شيء من الارستقراطية ، ومن التقاليدية العنصرية ، والمستويات العالية ، ونزوع طبيعي الى اعادة روابطها بالارض عن طريق اكتساب العقارات الزراعية . (بالرغم من ان منزل العائلة في المدينة لم يكن بديلاً رديئاً) . ولكن سرعان ما اكتسبت ارستقراطية المال ، ارستقراطية الصفقات والمضاربات التجارية ذوقاً وتذوقاً للاشكال الدمثة المهذبة ، ومن ثم شقت طريقها بالقوة الى طبقة النبلاء بالولادة – اما في روما فشقت طريقها بوصف ابنائها فرساناً في الجيش Equites[1] وذلك ابتداء من الحرب البونية الاولى ، وفي فرنسا في عصر لويس الرابع عشر – لكن هذه الطبقة افسدت طبقة النبلاء واشاعت فيها الانحلال ، بينما قامت ارستقراطية عصر التنوير ، من جانبها ، بغمرها بأمواج عاتية من الهزء والسخرية . اما اتباع كونفوشيوس فانهم اخذوا الفكرة الصينية ، فكرة شي Shi ، من اخلاقية النبلاء ووضعوها داخل فضيلة العقل وحولوا الـ بي يونغ Pi - Yung مركز دائرة التدريب الحربي الفروسي ، الى « مدرسة للمصارعة العقلانية » ، الى معهد رياضي – يشابه تماماً في روحه لمعهدنا في القرن الثامن عشر .

وعندما تبلغ الحقبة المتأخرة من كل حضارة نهايتها ، يبلغ ايضاً تاريخ منزلاتها نهاية شديدة العنف او قليلة . فتهيمن الرغبة المجردة في العيش بحرية لا جذور لها ، على الرموز العظمى الالزامية للحضارة ، هذه الرموز التي لم يعد بمقدور الجنس البشري الذي تسيطر عليه المدنية سيطرة كاملة ، ان يفقه لها معنى أو يدرك لها مغزى او ان يطيقها او يحتملها . فالمال يهدر كل اثر لشعور

---

(١) Equites : سلاح الفرسان في الجيش الروماني وكان افراد هـذا السلاح يتمتعون بامتيازات وحقوق خاصة بالمكاسب والغنائم .

– المترجم –

نحو القيم المشدودة الى الارض وغير المنقولة ، كما ويقوم النقـد العلمي بـدوره فيقضي على كل بقية من ورع او تقوى . ويتحقق هنا الى حد ما ايضاً انتصار آخر على هذا الشكل ، الا وهو تحرر الفلاح من نظام القنانة Servage لكن هذا التحرر ينتهي به قبضة سلطان المال الذي ينطلق الان الى تحويل الارض بالذات الى ملكية منقولة — وهذا الامر قد حدث بالنسبة الينا في القرن الثامن عشر ، وحدث في بزنطة قرابة عـــام ٧٤٠ بموجب القانون المعروف باسم نوموس جيورجيكوس Nomos Georgikos الذي وضعه المشترع ليو الثالث (والذي اختفت بعده القنانة لكن بتدرج بطيء) ، وحدث في رومـا مع تأسيس نظام العوام وتوطده عام ٤٧١ . اما محاولة بوسانياس في سبرطه لتحرير الهيلوت Helots فلقد لاقت الفشل .

ان العوام هم الطبقة الثالثة في الشكل المعترف به دستورياً بوصفهم وحدة ، وممثلو هذه الطبقة هم التريبيونز[١] Tirbunes (القضاة الشعبيون) وليس الموظفين ، وهؤلاء كانوا اشخاصاً موثوقين يتسلحون بحصانـــة مضمونة . وقـــد اعتبر الاصلاح الذي وقع عام ٤٧١ ، والذي من بين ماحققه ، احلال اربع قبائل متحضرة ، او حماة ، محل القبائل الاتروسكانية الثلاث (وهذه الواقعة بالذات واقعة ايجابية الى حد بعيد) ، اقول اعتبر هذا الاصلاح ، على انـــه تحرر مجرد من الفلاحين او تنظيم للطبقة التجارية . ولكن العوام بوصفهم طبقة ثالثة ، ثقـلاً ، هم قابلون لان يعرفوا تعريفاً سلبياً فقط — فهم يمثلون كل من لا ينتمي الى طبقة نبلاء الارض ، او لا يشغل منصباً كهنوتياً سامياً . وصورة هـــذه الطبقة مبرقشة

---

(١) Tribunes — قاضي روماني من طبقة اجتماعية من الطبقات الرومانية وكانت مهمتـــه الاساسية ان يحمي الفرد من طبقة العوام من الاحـكام التعسفية لقضاة طبقة النبلاء .

— المترجم —

الالوان معقدتها ، كصورة دولة الطبقات الفرنسية Tiers Etat لعام ١٧٨٩ . فالاعتراض هو وحده الذي يحفظ على هذه الطبقة تماسكها . فهي تضم التجار الى الصناع الى العمال المياومين الى الكتاب في الدواوين من حكومية وغيرها . ولقد كانت عشيرة كلاودي Claudii تضم عائلات نبيلة واخرى من العوام – واعني بهذا سادة اقطاع وملاك ارض اثرياء (مثلا مارسيلي الكلاودي) . وكان مركب العوام في دول – المدن الكلاسيكية كذلك المركب من الفلاحين والبرجوازيين في الدولة الباروكية في الغرب ، وذلك عندما هب هؤلاء ضد اوتوقراطية الامير . وليس هناك من وجود للعوام خارج ميدان السياسة ، اي الاجتماع ، وذلك بوصفهم وحدة متميزة من طبقتي النبلاء والكهنوت ، فهي متناثرة تناثراً فورياً الى حرف او مهن خاصة ، ذات مصالح مختلفة تماماً ومتباينة بجـــلاء ووضوح . وهي حزب ، وما تناصره وتقوم من اجله ، انما هو الحرية بالمفهوم الحضري لهذه الكلمة . وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح اكثر وجلاء اشد في النجاح الذي حققته طبقة نبلاء الارض الرومان فوراً بعـــد الحاقها ستة عشر قبيلة ، سميت باسماء عائلات وخضعت خضوعاً مطلقاً لابناء هذه الطبقة ، الحاقها بالقبائل الاربـع المتحضرة التي كانت تناصر البرجوازية بالذات – اي تناصر المال والعقل . ولم تلغ قانونياً فكرة المنزلة الا بعد نشوب ذلك الصراع الاجتماعي الهائل خلال حروب السامنيت Samnite (وهذا الصراع معاصر للاسكندر ومتوافق تماماً والثورة الفرنسية) ، اذ الغاها قانون هورتنسيا Lex Hortensia الصادر عام ٢٨٧ ، وبهذا طويت صفحة تاريخ المنزلتين الرمزيتين . فهنا اصبح العوام الامة الرومانية ، بالطريقة ذاتها التي صنعت دولة Tiers Etat لعام ١٧٨٩ من ذاتها الامة الفرنسية . وانطلاقاً من هذه النقطة ، فان شيئاً ما مختلفاً اختلافاً جوهرياً هو الذي يحدث في كل حضارة ، تحت عنوان الصراع الاجتماعي ويافطته .

لقد كانت النبالة في كل ربيع حضاري هي المنزلة باوسع ما لهذه الكلمة من

مفهوم اولي ، وكان التاريخ يصبح فيها لحماً ودماً ، والعنصر يبلغ من خلالها الى ارقى جهد ومرتبة محتملة . وكان الكهنوت هو المنزلة الناهضة لهذه ، اذ انـــه يجيب بلا على كل ما تجيب النبالة بنعم عليه ، وبهـذا كان يعرض الجانب الآخر من الحياة ، برمز عظيم .

اما الطبقة الثالثة ، المجردة من وحدة باطنية خاصة بهـا ، فهي اللامنزلة – انها المعارضة في شكل منزلة ، معارضة وجود المنزلتين ، وهي لا تعارض هذه المنزلة او تلك ، بل انها تعارض النظرة الرمزية للحياة بصورة عامـة . وهي ترفض كل الفروق التي لا يبررها العقل أو المنفعة العملية . ومع هذا فان هذه الطبقة لا تعني بذاتها شيئاً لكنها تعني بجلاء ووضوح – ان حياة المدينة بوصفها منزلة ، هي حياة تتناقض وحياة الريف ، وان الحرية كشرط تتباين والالتزام وتتعارض والارتباط . ولكن اذا ما نظرنا اليها من ميدانها الخاص ، فهي ليست ، على اية حال ، الفضلة غـير المنسقة التي تتبـدى لنواظر المنزلتين . فللبرجوازية حدوودهـا المعينة المقررة ، وهي تنتمي الى الحضارة ، وهي تمتش ، على افضل الوجـوه ، جميع من يلتصق بهـا ، وتلم باسم الامـة ، الشعب ، شمث النبالة والكهنوت والمـال والعقل والحرفيين والاجراء ، بوصف هؤلاء جميعاً اجزاء اساسية منها .

هذه هي الفكرة التي تجدهـا المدنية ، سائدة ومسيطرة ، عندما تخرج الى مسرح الوجود . وهـذه هي الفكرة التي تدمرها المدنية بفكرتها عن الطبقة الرابعة ، طبقة الجماهير ، التي ترفض الحضارة واشكالها الناضجة جملة وتفصيلاً . انها اللاشكلية المطلقة المضطهدة بحقدها وبغضائها كل نوع من شكل ، وكل امتياز في المرتبة ، وكل تنظيم للملكية وتنسيق للمعرفة . انها البداوة الجديدة للمدينة

العالمية العظمى Cosmopolis البداوة التي ترى في العبيد والبرابرة في العالم الكلاسيكي ، والسدرا في الهند ، وبصورة عامة ، في اي وكل شيء بشري ، مجرد بشري ، شيئاً ما طافياً محوماً عائماً لا يعرف او يميز ، بل يتساقط ارباً ارباً في لحظة ولادته التي لا تعرف ماضياً ولا تملك مستقبلاً . وهكذا تصبح الطبقة الرابعة تعبيراً عن انتقال التاريخ الى اللاتاريخ . ان هذه الجماهير هي النهاية ، وانها الهبوط الجذري والبطلان المطلق .

الفصل الثاني والعشرون

الدولة

(ب)

الدولة والتاريخ

— ١ —

في العالم كتاريخ ، حيث نسجنا داخله على صورة حية الى درجة — جعلت ادراكنا وعقلنا يطيعان ، دائماً وباستمرار ، شعورنا — في هـــذا العالم يتبدى الدفق الكوني بوصفـــه ذاك الذي ندعوه بالواقع ، بالحياة الحقيقية ، بتيارات الكينونة ومجاريها داخـــل شكل جسماني . والشعار المشترك لهذه التيارات هو الاتجاه . ولكن يمكن لهـــذه التيارات ان تدرك على صورة متباينة ، وذلك مترتب على مـــا اذا كان المرء ينظر الى الحركة ، او الى الشيء المحرك . فالحركة ندعوها بالتاريخ ، امـــا الشيء المحرك فندعوه بالعائلة او الارومة او

المنزلة او الشعب ، لكن الاولى تكون امرا ممكنـــاً وموجوداً فقط بواسطة الثاني ، فالتاريخ انمـــا يوجد فقط بوصفه تاريخاً لشيء ما . ونحن اذا مـــا كنا نشير الى تاريخ الحضارات العظمى ، فعندئذ تكون الامـــة هي الشيء المحرك . فالدولة ، تعني وضعـــاً ، ونحن نستحصـــل على انطباعنا عن الدولة بوصفها كينونة داخل شكل محرك سابق لنا ، وهنا نركز الشكل على هذا النمط ونثبته داخل ابصارنا ، بوصفه شيئا ما ممتدا ويقف راسخ القدم غير مقيد رسوخه بزمان ، ويتجاهل كليا الاتجاه والمصير . فالدولة هي التاريخ في حالة توقف ، والتاريخ هو الدولة في حـــال متحرك . زد على ذلك ان دولة الامر الواقع هي سيالية وحدة كينونة تاريخية ، وليست غير الدولة المصممـــة ، المخططة ، دولة الانسان النظري هي منهاج .

ان الحركة شكلا ، وان لمن هو محرك شكلا لائقا ، او فلنستعمل التعبير الرياضي Sport ، فنقول بان عندما « يبذل قصارى جهده » فهو في وضع ممتاز . وهذا القول ينطبق ايضا على حصان السباق ، او المصارع ، وعلى اي جيش او امة او شعب . فالشكل المستخلص من مجرى حياة الشعب وتيارها هو « وضع » ذاك الشعب من جهة صراعه في التاريخ ومعه . ولكن الجزء الاصغر من هذا هو وحده الذي يمكن ان يستحصل عليه وتعرف هويته بواسطة العقل . وليس هناك من دستور حقيقي ، اذا ما اخذ بذاته وصيغ بكلمات دونت على الورق كمنهاج ، هو تام وكامل . فما هو ليس بمكتوب وما لا يقبل الوصف ، هـــذا المحسوس به ، الغني عن البيان ، يتفوق باهميتـه على كل شيء آخر والى حد — بالرغم من ان النظريين لايرونه ابدا — يجعل وصف الدولة او محفوظاتها الدستورية عاجزة عن تزويدنا حتى بالصورة الظلالية (السلهوطة) لذاك الشيء الذي يكمن وراء كل دولة الامر الواقع الحي بوصفـه الشكل الجوهري لها . ونحن نتلف وحـدة وجود لتاريخ عندما نخضع حركتها لاصفـــاد الدستور المكتوب واغلالـه .

ان الطبقة الافرادية ، او العائلة هي اصغر وحدة في مجرى التاريخ ، بينما ان الامة هي اضخم وحدة فيه واكبرها . والاقوام البدائية تخضع للحركة ، وهذه ليست بحركة تاريخية وفق المفهوم الارقى - وهذه الحركة قد تكون وئيدة متئدة ، او قد تكون هجوما ، لكنها لا تملك صفة عضوية واهمية عميقة . ومع هذا فان هذه الاقوام البدائية هي ، جماعات وافراد ، في حالـــة من تحرك والى حد يبدون عنده ، بالفعـــل ، لا شكل لهم ، لنظر المراقب العجول المتسرع . اما الفلاحون فهم ، على العكس من هذه الحال ، اذ انهم الاهداف المتخشبة لحركة تأتي من الخارج وتلطمهم صدفة وعماء ، ودون ما معنى . وتضم حال الاقوام البدائية « دولة » الحقبة المسينية ، ودولة حقبة الثاينيت ، Thinite وحقبـــة حكم امرة شانغ في الصين حتى ، فرضا ، الهجرة الى بن Yin (عام ١٤٠٠) ، ومملكة شارلمان الفرنكية ، ومملكـــة القيزغوت حتى اووريخ ، وروسيا البطرسية - واشكال الدول هذه كانت مرارا قديرة ووافية ، لكنها كانت لا تزال تفتقر الى الرمزية والضرورة . اما للاخيرة فتنتمي الامبراطوريتان الرومانية والصينية والامبراطورية الاخرى ، التي لم يعـد لها اي محتوى فعال معبر مهما كان نوعه .

ولكن بين الانسان البدائي والفلاح يقع تاريخ الحضارة العظمى . والشعب الذي يعيش وفق اسلوب الحضارة - وهذا هو الشعب التاريخي - يدعى امة . وتمتلك الامـة ، بوصفها شيئا حيا مقاتلا ، دولة ، وهذه الدولة لا تكون فقط وضعا لحركة ، بل انما هي (وقبل كل شيء آخر) فكرة . وقد تكون الدولة ، وفق ابسط مفهوم هذا الاصطلاح ، قديمة قدم الحياة الطليقة الحركة بالذات . وقد تكون لاسراب من حيوانات ذات انواع جد منحطة « دساتير » من بعض نوع - ودساتير النمل والنحل والعديد من انواع الاسماك والطيور المهاجرة والقنادس قد بلغت درجة مذهلة من الكمال - ولكن الدولة من الطراز العظيم قديمـة فقط قدم المنزلتين الاولتين ، النبالة والكهنوت ، وليست باقدم منها . فهاتان تولدان

مع الحضارة ، وتتلاشيان داخلها ، ومصيراهما متوافقان الى درجة عالية . ان الحضارة هي كينونة الامم في اشكال – دول .

فالشعب بوصفه دولة ، والاهل بوصفهم عائلة ، يكون هو وهم « في شكل لائق » – وهذا ، كما سبق لنا ان رأينا ، هو الفرق بين التاريخ السياسي وبين التاريخ الكوني Cosmic ، بين الحياة العامة ، وبين الحياة الخاصة ، بين الشيء العام Res publica وبين الشيء الخاص Res privata . وكلاهما بالاضافة الى ذلك رمزان للاهتمام . ان المرأة هي تاريخ العالم . فهي بحبلها وولادتها تهتم باستمرارية الدم . والام الضامة طفلها هي الشعار الاعظم للحياة الكونية . ومن هذه الناحية يكون . وعلى كل حال فالرجل هو الذي يصنع التاريخ ، الذي هو معركة لا تنتهي تدور من اجل حفظ تلك الحياة الاخرى . فالاهتمام الامومي يتممه ويوازيه الاهتمام الابوي . والرجـل المتمنطق بسلاحه هو الشعار الاعظم لارادة الديمومة . والامـــة هي اصلا « في وضع لائق » عندما تكون عصبة حرب ، وطائفة ، محسوس بها احساسا عميقا وثيقا ، من رجل لامتشاق السلاح . والدولة هي من اختصاص الرجل ، وهي الاهتمام بحفظ الكل (بما في ذلك حفظ الذات بالشرف واحترام – الذات) وهي الاهتمام باحباط المجمات ، وبتوقع الاخطار ، وهي ، قبل كل شيء ، العدوان الايجابي ، هذا العدوان الذي هو امر طبيعي وواضح وغني عن البيان بالنسبة لكل حياة بدأت بالتحليق والتسامي .

ولو انه كانت كل الحياتات مجاري كينونة متوافقة متجانسة ، لما كنا قد سمعنا ابـــدا بكلمات « شعب » و « دولة » و « حرب » و « سياســـة » و « دستور » . لكن التنوع الخالد الجبار في الحياة ، هذا التنوع الذي ترتقي به القوة الابداعية للحضارة الى ارقى ذرى الشدة والتوتر ، هو واقعـــة ، ونحن لا نملك تاريخيا الخيار الا ان نقبل به على هذا الشكل ، وبكل ما يتدفق منه . فحياة النبات ، هي فقط حياة نبات بالنسبة لحياة الحيوان ، والنبالة والكهنوت

يشترط بالتناوب الواحد منهما وجود الاخرى . والامة هي فقط على شكل امة بالنسبة للامم الاخرى ، ويتدفق جوهر هذا الامر الواقع في تعارضات طبيعية لا يمكن ان تزول او تمحى ، في هجوم ودفاع ، في عداوة وحرب . والحرب هي المبدعة لجميع الاشياء العظمى . وكل ما هو مثقل بالمعاني مليء بالمغازي ، في مجرى الحياة قد نشأ من النصر والهزيمة .

ان الشعب يعطي التاريخ شكلا ، من حيث انه « في وضع لائق » للقيام بمثل هذا الواجب . وهو يخبر خبرة حية تاريخا باطنيا ـ يبلغ به هذا « الوضع » الذي يصبح الشعب داخله فقط شعبا مبدعا ـ ويخبر ايضا تاريخا ظاهريا ، يقوم على هذا الابداع . اذن فان الشعوب ، بوصفها دولاً ، هي القوى الحقيقية لكل حدوث بشري . ولا يوجد اي شيء يتجاوزها في العالم كتاريخ . فهي المصير .

ان الشيء العام ، الحياة العامة ، « جانب السيف » من مجاري الكينونة الانسانية ، هو امر غير منظور داخل الامر الواقع . والانسان الغريب يرى فقط الناس ولا يبصر بالارتباط الباطني بينهم ، لان هذا يكمن فعلا ، عميقاً وعميقا جدا في مجرى الحياة ، وهو حتى حيث يكمن يشعر به اكثر مما يعرف او يفهم . وبالمثل فنحن لا نرى العائلة في الامر الواقع ، بل نرى اشخاصا معينين ، نعرف بتلاحمهم معرفة محددة تماما ، وندركه بواسطة خبرتنا الباطنية الخاصة . ولكن توجد ، بالنسبة لكل صورة عقلانية كهذه ، مجموعة من اشخاص اساسيين يشدهم دستور لكينونة باطنية وظاهرية بعضا الى بعض بوصفهم وحدة من حياة . ويدعى الشكل ، في دفق الوجود ، بالاخلاقية العرفية ، وذلك عندما يستيقظ من داخل ذاته بخفق وزحف ، ويكون لاواعيا قبل ان يكون واعيا ، وثم يدعى بالقانون عندما يقرر بصورة عامدة ويقدم للقبول والموافقة عليه .

ان القانون ، وبغض النظر عما اذا كان يستمد سلطانــه من الشعور والسورة

الفكرية (القانون غير المكتوب قانون العرف والعادة « العدل » الانكليزي) ام كان مستخلصا بواسطة التفكير والتأمل ، فسبر غوره ووضع داخل منهاج بوصفه شريعة Statute law ، — هذا القانون هو الشكل الذي فرضته ارادة الكينونة . اما الوقائع الفقهيـــة التي يحتويها فهي على نوعين ، بالرغم من ان كلا النوعين يمتلكان رمزيـــة زمان — انها الاهتمام في حالين ، حال بعـــد النظر Prevision ، وحـال التدبير Provision — ولكن هذا الفرق بالذات في تناسبات الوعي التي تحتويها كل منهما فيما يخصهـا ، يستوجب ان يكون هناك داخل التاريخ الحقيقي باكمله قانونان يتناقض الواحـــد منهما والآخر — قانون الآباء ، التقاليد ، القانون الموروث المكتمل نموا والممتحن المجروب ، وذي الحرمة القدسية بسبب كونه قديما قدم الزمان ومستخلصا من خبرة الدم ، وهو لذلك يركن اليه ، ومن ثم القانون الذي صممه العقل والطبيعـة والانسانية العريضة ، وهو نتاج التأمل والتفكير ، ولذلك فهو ابن العم الاول للرياضيات ، وهـــذا قانون قـــد لا يكون صالحاً تماما في التطبيق ، لكنه ، على كل حال ، قانون « عادل » . وداخل هذين النوعين من القانون ، ينضج التعارض القائم بين حياة الريف وحياة المدينة ، بين خبرة الحياة وخبرة الدراسة ، حتى ينفجر بتلك المرارة الثوروية التي يأخذ الناس بها القانون بدلا من ان يعطوه ، ويحطمون القانون الذي لا يريد ان يذعن او يستسلم .

ان القانون الذي تضعه الجماعة يعبر عن واجب كل عضو من هـذه الجماعة ، لكنه ليس الدليل على سلطان كل عضو من اعضائها . بل ان الامر على العكس من هذا ، فانها لقضية مصير بالنسبة لاولئك الذين يضعون القانون ، وبالنسبة لمن يشترع القانون من اجلهم . فهناك سادة ورعايا في اشتراع القانون ، بالرغم من ان كل فرد من هؤلاء واولئك ، هو خاضع لاحكامه . وهذا القول ينطبق ، دون ما تمييز ، على القانون الداخلي للعائلات والنقابات والمنازل والدول . ولكن يوجد الى جانب هذا القانون ، بالنسبة للدولة التي هي اسمى سيد يوجد في الامر الواقع

التاريخي ، قانون خارجي تفرضه عن طريق العدوان على الاجانب . ويندرج القانون المدني ، بصورة عادية ، في النوع الاول من القانون ، بينما معاهدة الصلح في النوع الثاني . ولكن قانون الاقوى ، هو في كل الاحوال ، قانون الاضعف ايضا . « فان تمتلك الحق » هذا تعبير عن القوة والسلطان . وهذه هي واقعة تاريخية تؤكدها كل لحظة من لحظات الحياة ، لكنها واقعة غير معترف بها في مملكة الحقيقة التي هي ليست من هذا العالم . فالكينونة والكينونة الواعية ، المصير والسببية ، يقفان في فهميهما للحق ، كما في فهميهما للاشياء الاخرى ، متعارضتين تعارضا لا يعرف هوادة او لينا . فالتمييز الاخلاقي بين الحق والخطأ ينتمي الى الاخلاق الكهنوتية المثالية ، من خير وشر ، لكن التمييز بين الطيب والرديء في اخلاقية العنصر هو التمييز بين اولئك الذين يعطون القانون وبين اولئك الذين يتلقونه .

وهناك فكرة تجريدية للعدالة تتخلل افكار وكتابات جميع الناس الذين يتمتعون بروح نبيلة قوية ، وبدم واهن خائر وضعيف ، وتتخلل كل الاديان وجميع الفلسفات — لكن عالم الامر الواقع التاريخي لا يعرف الا النجاح الذي يحول قانون الاقوى ويجعله قانونا للجميع . وهذا القانون يدوس على المثل العليا دون شفقة او رحمة ، واذا ما حدث ان قام انسان او شعب برفض سلطان البرهة بغية الحفاظ على بره وورعه — فعندئذ سيتأكد اكيدا حيث هذا الشعب او ذاك الانسان في العالم الآخر للفكر والحقيقة ، ولكنه سيتأكد ايضا حين يجيء البرهة التي سيخضع فيها لقوة حياة اخرى ادركت وقائع الحياة وفهمتها اكثر مما فهمها .

وطالما ان القوة التاريخية تبلغ تلك الدرجة من التفوق على وحداتها الاصلية — كما تكون مرارا حال الدولة او المنازل الاجتماعيـة بالنسبة للعائلات والطبقات الحرفية ، او حال رأس العائلة بالنسبة لاولاده — يكون وجود قانون عادل

للاضعف امراً ممكناً فقط بوصفه هدية او منحة من يد المهيمن الجبار ، يد من لا غرض له او غاية . ولكن نادراً ما تشعر المنازل الاجتماعية ، والدول لا تحس اطلاقاً بوجود قوة مهيمنة جبارة على هذا الشكل ، فوقها ، ونتيجة لذلك تسري بينها احكام قانون الاقوى بزخم فوري مباشر – كما نرى ذلك في معاهدة المنتصر ذات الجانب الواحد في موادها ، واكثر من هذه ، كما نشهد في تفسير مثل هـذه المعاهدة ومراعاة احكامها والتقيد بها . وهذا هو الفرق بين الحقوق الداخليـــة والحقوق الخارجية للوحدات التاريخيـة للحياة . وفي الاولى – الحقوق الداخلية – المترجم – يمكن ان تكون ارادة الحكم ، ليكون عادلاً وغير متحيز ، فعالة وبليغة الاثر – بالرغم من اننا ميالون لان نخدع انفسنا بصورة رديئة فيما يتعلق بدرجة اللاتحيز الفعال ، حتى في افضل شرائع التاريخ ، وحتى في اولئك الذين ينعتون انفسهم « بالمهذبين » Civil ، وذلك لان هذا النعت بالذات اللامتحيز – المترجم – يدل على ان منزلة اجتماعيـــة قد امتلكت القوة التي تمكنها من فرضها – الحقوق الداخلية – المترجم – على كل انسان . ان القوانين الداخليـة هي نتاج فكر منطقي سببي صارم ودقيق اتخذ من الحقائق بؤرته ومركزه ، ولكن لهذا السبب بات يكون مفعولها معتمداً ابداً ودائماً على القوة الماديـــة لمشترعها ، أكان هذا المشترع منزلة اجتماعيـة او دولة . والثورة التي تدمر هذه القوة وتستأصل شأفتها ، تدمر هـــذه القوانين وتلغيها – وهذه القوانين تبقى حقيقية لكنها لا تبقى واقعية . اما القوانين الخارجيـــة ، كجميـع معاهدات الصلح ، فلا تكون ابداً حقيقية ، بل تكون دائماً واقعية – وهي مرعبة بواقعيتها هذه . وهي لا تزعم ابداً العدل او تدعيه – اذ يكفي تماماً ان تكون ساريـة المفعول . ومن خلال هذه القوانين تنطق الحياة وتتحدث ، هذه الحياة لا تمتلك منطقاً سببياً او اخلاقياً ، وهي ، عضوياً ، تزداد لجاجة والحاحاً لافتقارها الى مثل هذا المنطق . اما ارادتها فهي تستهدف امتلاك المشروعية بالذات ، وهي تشعر بيقين باطني ، بمستلزمات هذه الغاية او تلك ، وبرؤيتها لهذه ، تعرف اي قانون

لما يتوجب ان يجعل قانونا للآخرين . ونحن نرى هذا المنطق يسيطر على كل عائلة ، وخاصة على تلك العائلات القديمـــة والاصيلة في فلاحيتها ، وذلك حينما تتهاوى سلطة رب العائلة ، ويحاول انسان غير رب العائلة ان يقرر « ما هو كائن وموجود » . وهذه الظاهرة تتبدى في كل دولة حالما يسيطر فيها احد الاحزاب على الموقف . زد على ذلك ان كل حقبة اقطاعية مليئة بالاحتكاكات بين سادة الاقطاع والمقطعين Vassals حول « الحق في الحقوق » . وقد انتهى هذا الصراع في كل مكان من العالم الكلاسيكي بانتصار المنزلة الاجتماعية الاولى التي جردت الملوكية من سلطانها التشريعية ، وجعلتها خاضعة لما تسنه من تشاريع – كما يبرهن على ذلك ، بصورة لا تقبل الشك ، اصل آرخونس Archons في اثينا ، وايفوروس Ephores في اسبرطة . ولكن الامر ذاته حدث في الميدان الغربي – وحدث لبرهة في فرنسا (وفي مؤسسة States - general [1] لعام ١٣٠٢) ، وتوطد بصورة نهائية في انجلترا ، حيث فرضت البارونية النورمانية والكهنوت الارقى في عام ١٢١٥ الماغنا كارتا ، وبذلك بذرت البذرة التي تقدر لها ان تنضج في سيادة البرلمان الفعـــالة . ومن هنا جاء استمرار سريان مفعول القانون النورماني القديم للمنازل الاجتماعية في بريطانيا . اما في المانيا ، فلقد كانت حالها عكس حال بريطانيا ، اذ ان السلطة الامبراطورية الضعيفة ، التي كانت تضغط عليها مطالب الاقطاعيين الكبار ضغطا شديدا ، قد لجأت الى قانون جوستنيان « الروماني » (هذا القانون الضيق في مركزيتـــه ابلغ ضيق) ليعضدها ضد القوانين الجرمانية الباكرة زمنا للارض .

---

(١) States - general : انها الجمعية العمومية في فرنسا قبل الثورة التي كانت تضم طبقتي الاكليروس والنبلاء والطبقة الثالثة .

– المترجم –

اما دستور دراكون ، دستور الاوليغارشية ، فلقد املته طبقة النبلاء ، على الشكل الصارم لقانون اللوائح الاثني عشرة في روما . ولكن مرحلة الحضارة المتأخرة زمنا كانت آنذاك قد انطلقت على دربها وكان سلطان المدينة والمال قد تطور تطورا كاملا ، وهكذا فان القوانين الموجهة ضد قوى المدينة والمال ، قد ارغمت بالضرورة على فسح الطريق باستحثات كامل ، امام قوانين الطبقة الثالثة (صولون و Tribunate – وظائف الدولة) . ومع هذا فان هـذه القوانين كانت ايضا قوانين اوجدتها منازل اجتماعيـــة ولا تقل عن سالفتها . ولقد ملأ الصراع بين المنزلتين الاولتين على حق اختراع القوانين كامـل تاريخ الغرب ، ابتداء من الصراع القوطي المبكر بين السيادة الدنيوية والكهنوتية حتى المشادة (التي لم تنته حتى هذا اليوم) والدائرة حول الزواج المدني . ومن هذه الناحية فما الذي كانته الخلافات الدستورية التي حدثت منذ نهاية القرن الثامن عشر غير اكتساب دولة الطبقـــات (التي كانت حسب تصريح سييي Sieyès المشهور لا شيئا بل من الجائز ان تكون كل شيء) لحق التشريع الملزم لكل انسان ، والتي انتجت قانوناً كان برجوازي الطبيعة تاماً كما كانت ابداً نبالة طبيعـــة القانون القوطي . وان اشد الاشكال عراء الذي يتبدى فيه الحق تعبيراً للقوة هو (كما ذكرت سابقاً) في الاحوال المتباينة لابرام معاهدات الصلح ، وفي شرعة الامم التي استطاع ميرابو ان يقول عنها بأنها قانون القوي الذي يتوجب عـــلى الضعيف ان يراعي احكامه ويتقيد بها . وهذا النوع من القانون يحتوي على قسم كبير من مقررات تاريخ العالم وقراراته . وهذه هي الدستور الذي بموجبـــه يتقدم التاريخ المناضل ويتطور ، وذلك طالما انه لا يعمد الى استخدام الشكل الاصلي للنزاع المسلح – وهذا النزاع هو اصلي وأساسي ايضاً ، وذلك لأن كل معاهدة سارية المفعول ، ويقصد منها ان تكون ذا فعاليات حقيقيـــة هي استمرار عقلاني لهذا الصراع . فاذا كانت السياسة هي الحرب بوسائل أخرى ، فان « الحق في اعطاء القوانين » هو الغنيمة لحزب الناجح .

- ٢ -

ومن الواضح ان هناك على ذرى التاريخ شكلي حيـــاة كهذين ، المنزلة والدولة ، حيث تتصارع هاتان وتتقاتلان على التفوق والسيادة ، وكلتاهما تيارا — كينونة ذات شكل باطني عظيم وزخم رمزي شديدين ، حيث عزم كل تيار من هذين التيارين ان يجعل مصيره الخاص مصيراً للجميع . وهذا — اذا ما اردنا ان نحاول فهم القضية في اعماقها وان نضع جانباً وبدون تحفظ مفاهيمنا اليوميـة عن الشعب والاقتصاد والمجتمع والسـياسة — اقول هذا هو معنى التعارض القائم بين سير الأحداث الاجتماعية والاحداث السياسية . ولا يبـــدأ التفريق بين الفكر الاجتماعية والفكر السياسية قبل فجر الحضارة العظمى ، أو حتى يأخـــذ النظام الاقطاعي بالانحطاط وتصبح العلاقة القائمـــة بين السيد الاقطاعي وبين المقطع Vassal تمثل الجانب الاجتماعي ، وتمسي العلاقة بين الملك والشعب ممثـلة للجانب السياسي . ولكن القوى الاجتماعية في الازمـان المبكرة (النبالة والكهنوت) لم تكن اقل نشاطاً من تلك القوى في الازمان المتأخرة (المال والعقـــل) — ومن المجموعات المهنية من العمال المهرة والموظفين والعمال ايضاً ، حينما كان هؤلاء يرقون السلم الى سلطانهم في المدن النامية — في سعيها لأن تخضع كل واحدة منهـا المثل الاعلى للدولة للمثل الاعلى لمنزلتها الاجتماعية ، وفي اغلب الاحيان لمصالـــح منزلتها واغراضها . وهكذا نشب ، على كل المستويات ابتداء من الوحـــدة القومية حتى الوعي الفردي، صراع بين الاولى والثانية « المنزلة والدولة ـ المترجم» حول الحدود والحقوق الخاصة بكل منهما — وكانت نتيجـــة هذا الصراع

انتصار الاولى انتصاراً بلغ درجة من الكمال امست عندها الثانيـــة اداة طيعة لهـــا .

وعلى كل حـــال فان الدولة هي التي تقرر ، في كل الاحوال ، الموقف الخارجي ، ولذلك فان العلاقات التاريخية بين الامم هي دائماً ذات طبيعة سياسية وليست اجتماعية . ولكن السياسة الداخلية هي ،على العكس من هذا اذ يسيطر عليها التناقض القائم بين الطبقات سيطرة تجعل المرء يرى عند النظرة الاولى أن الفصل بين التكتيك السياسي يبدو امرا مستحيلاً ، اذ انها ، فعـــلا ، في عقول الناس « مثـــلا البرجوازيين » الذين يساوون بين المثل الاعلى لطبقتهم والامر الواقع التاريخي – ونتيجة لذلك لا يستطيعون ان يفكروا بالسياسة الخارجيـة اطلاقاً – اقول هما فعلا تو أمان متجانسان متوافقان متطابقان . وتسعى الدولة في المعارك الخارجية الى عقد تحالفات مع دول اخرى ، لكنها في معاركها الداخلية تتحالف ابداً ودائماً مع هذه الطبقة او تلك – فلقد ارتكزت ، مثـــلا ، دولة طغاة القرن السادس على التحالف القائم بين فكرة الدولة وبين مصالح الطبقـــة الثالثة ضد اوليغارشية النبلاء القديمة ، واصبحت الثورة الفرنسية أمراً محتومـاً في اللحظة التي تخلت فيها الطبقتان – العقل والمال – عن صديقها العرش في ساعة محنته والتحقتا بالطبقتين الثانيتين « ابتداء من مجلس الاعيان ١٧٨٧ » . ولذلك فنحن على حق وصواب تامين ، في شعورنا بأن هناك فرقاً بين تاريخ الدولة وبين تاريخ الطبقة ، بين التاريخ السياسي « الافقي Horizontal » وبين التاريـخ الاجتماعي « العمودي » بين الحرب وبين الثورة . وانه والحق لخطأ خطير ان يعتبر المقائديون روح التاريخ الداخلي ، على انها روح التاريخ العام . فتاريـــخ العالم هو ، وسيبقى ابداً ، تاريخ الدولة والدستور الداخلي للامة يستهدف دائمـاً ان تكون الامة « في وضع لائق » للصراع الخارجي « من دبلوماسي وعسكري واقتصادي » ، وان اي انسان يعالج دستور الامة بوصفه هدفاً ومثلاً اعلى ، فانما يكون بعمله هذا يحطم جسم الامة فقط . ولكن من وجهة النظر الاخرى فان

مفهوم النبض السياسي الداخلي للفئة الحاكمة ، أكانت هذه الفئـــة تنتمي الى الطبقة الاولى او الثانية او الثالثة او الرابعة ، يثابر على تدبر امر المتناقضات بـين الطبقات وتوجيهها الوجهة التي تجعل بؤرة افكار الامة غير مرتبطـــة بالصراع الحزبي ، ولا تجعلها تفكر بأن خيانة الوطن هي الورقة الرابحة .

وهنا يتجلى لنا بوضوح ان الدولة والمنزلة الأولى هما من اصل واحد حتى اعمق ما لها من جذور – وهما متشابهتان قريبتان متناسبتان ليس فقط بسبب ما لها من رمزية زمان واهتمام ، وعلاقة مشتركة بالعنصر ووقائـــع تعاقب تسلسل النسب وبالعائلة والحوافز الاولية لطبقة الفلاحين ، التي ترتكز اليها في نهاية المطاف كل دولة وكل نبالة ، وليس فقط بسبب علاقتها بالارض بقاطعة العشير ، اكانت هذه اقطاعية موروثة أم وطناً ، والتي تبخس من قيمتهـــا حتى الشعوب من الطراز المجوس بسبب ان جلال الارثوذكسية هو وحده الذي يطغى تماماً على كل شيء آخر – ولكن ايضاً وقبل كل شيء ، هما متناسبتان في الممارسة الراقية وسط جميع وقائع العالم التاريخي ، وفي الوحـــدة الاختيارية بين النبض والحافز ، والدبلوماسية والحكم على الرجال وفي القيادة والسيطرة والارادة الجسور للحفاظ على السلطة وتوسيع دائرة سلطانها والتي كانت حتى في الازمان المبكرة تميز النبلاء عن الشعب من الحشد الحربي الواحد بالذات ، واخيراً فهما ايضاً من اصل واحد بشعورهما بالشرف والشجاعة . ولهذا السبب فان الدولة التي تكون فيهـا طبقة النبلاء بأكملها أو التقاليد التي اوجدتها هذه الطبقة بمجموعها ، في خدمـــة الصالح العام ، فان مثل هذه الدولة ستكون اوسخ الدول قدمـــاً حتى آخر اطوارها – كما كانت اسبرطة في حالة مقارنتها بأثينا ، وروما قبالة قرطاجـــة ، وفي تـسن Tsin حين مقارنتها بدولة تسو Tsu المدمجة بألوان الطاو Tao .

ان الفرق يتجلى في كون النبالة المستقلة القائمة بوصفها طبقة – وهـذا ينطبق ايضاً على اية منزلة اجتماعية اخرى – تخبر البقية من الامـــة على اضواء شخصيتها

الخاصة – النبالة – وهي ترغب فقط في ممارسة السلطة وفق هذا المفهوم ، بينما ان المبدأ الاساسي للدولة ينص على ان الدولة مرغمة على الاهتمام بالجميع ،واهتمامها بالنبلاء يكون على الشكل الذي يتوقف معه وينسجم واهتمامها الشامل العام . ولكن نبالة اصيلة قديمة تترك للدولة ان تتمثل Assimilate ذاتها ، فتهتم بأمور الجميع ، كاهتمامها بملكية او عقار . واهتمام النبالة هذا هو ، فعلاً ، واجب من اعظم واجباتها ، وواجب تعيه وتدركه اشد الوعي واعمق الادراك ، وهي تشعر به على انه امتياز فطري بالفعل ، وتعتبر الخدمة في الجيش والادارات العامة رسالتها الخاصة في الحياة .

وهناك فرق ، من نوع آخر تماماً ، يقوم ، على كل حال ، بين فكرة الدولة وفكرة اي من الطبقات الاخرى . وهذه جميعاً هي غريبة عن الدولة على هذا الشكل ، كما وان المثل العليا للدولة التي تصفها هذه الطبقات من حياتها الخاصة لم تنم عن روح التاريخ الواقعي وقواه السياسية – ومن هنا ينشأ التأكيد الواعي الذي تعنون بوصفه مثلاً عليا اجتماعية . وبينما كان الوضع في الازمان المبكرة يتلخص فقط بأن الوقائع التاريخية كانت تناهض طائفة الكنيسة في مجهوداتها الرامية الى تحقيق المثل العليا الدينية ، نرى ان المثل الأعلى الاعمالي للحياة الاقتصادية الحرة والمثل الاعلى الطوباوي للتعصب الذي قد يحقق هذا التجريد او ذاك ، يخرجان ، في المراحل المتأخرة الى الميدان ايضاً .

ولكن لا توجد في العالم التاريخي مثل عليا ، بل توجد وقائع فقط – ولا توجد حقائق بل وقائع ووقائع . وهذا العالم لا يعرف عقلاً ولا استقامة ولا عدلاً ولا انصافاً ولا هدفاً نهائياً ، بل يعرف الوقائع والوقائع وحدها ، وان اي انسان لا يدرك هذا الواقع يتوجب عليه ان يؤلف الكتب عن السياسة – ولكن اياه ثم اياه ان يحاول وضع سياسة او صنعها . ففي عالم الامر الواقع لا توجد دول تبنى على مثل عليا ، بل توجد فقط دول قد نمت ، وهذه ليست سوى

الامم الحية « في شكل لائق » . ولا شك « انه الشكل ممهور بأن الحي يتفتح وينمو بذاته » لكن الخاتم الذي مهر به هـــذا الشكل كان خاتم الدم والنبض لكائن كله غريزة وفطرة ، وليس له اي اختيـــار ، وهو بالنسبة الى تفتحـــه يتخذ الاتجـــاه الفطري في الدم ، ويتخذه كان بــد استاذ ماهر في السياسة توجهه الى ذاك الاتجاه وترشده ، ولو ان المثالي هو الذي وجه هذا الـكائن واملى عليه قناعاته لـكان قد انتهى به الى الحبوط والبطلان .

ولكن قضية المصير ، بالنسبة للدول التي توجد وجوداً واقعياً ، ولا توجد فقط في مخططات عقلانية ، ليست قضية واجب مثالي او تركيب ، بـــل قضية سلطانها الداخلي الذي لا يمكن على المدى الطويل ان يحافظ عليه بواسطة الوسائل المادية ، بل بواسطة فقط الاعتقاد او الايمان ـ ايمان صديق او عدو ـ بفعاليات هذه الدول وتأثيرها . ان القضايا الحاسمة لا تكمن في وضع الدستور ، بـــل تكمن داخل تنظيم سليم شغال للحكومة ، كما وانها لا تكمن في توزيع الحقوق السياسية وفق مبادىء « عادلة » (هذه المبادىء التي هي في اعماقها فقط الفكرة التي تشكلها الطبقة من مطالبها المشروعة الخاصة) ، بل تكمن في النبض الكفؤ القدير للمجموع (وهـــذا كفؤ وقدير وفق مفهوم القائل بان عرض العضلات والعصب هو كفؤ عندما يقترب حصان السباق المجلي من نقطة النهاية) ، وتكمن في ذاك الايقاع الذي يجتذب حتى العبقرية الجبارة للتناغم معـــه ، واخيراً لا تكمن في اية اخلاق عالم اجنبي ، بل في مثابرة ويقين وقناعـــة الزعامة السياسية وتفوقها . وكلما زادت هذه الاشياء كلها وضوحاً وجلاء ، كلما قل وتناقص ما يقال ويدور حولهـــا من احاديث او نقاش وجدل . وكلما ازدادت الدولة اكتمالاً في النضوج ، يزداد موقفها رفعة وسمواً ، وتزداد قدرتها التاريخية زخماً ، ولذلك يزداد مصير الامة تسامياً وشموخاً . ان جلال الدولة ، سيادتها ، هو رمز حيـــاة من المرتبة الاولى . وهي تميز بـــين المواطنين والرعـــايا

Subjects Objects في الاحداث السياسية ، ولا يجري تمييزها هــذا فقط في التاريخ الداخلي ، بل ايضاً في التاريخ الخارجي (وهذا اهم بكثير من ذاك) . وان قوة الزعامة التي تبلغ التعبير عن نفسها من خلال الانفصال الواضح القائم بين المواطنين والرعايا ، لهي دليل لا يخطىء له سهم ، على زخم الحياة داخل وحدة سياسية – الى درجة ان تدمير السلطة القائمة (من قبل مناصرين لمثل اعلى دستوري مناوىء لها مثلا) لا تنجم عنه دائماً تقريبا صيرورة الحزب الجديد سيداً للسياسة الداخلية ، بل تنجم عنه صيرورة الامة بأكملها خاضعة لسياسة اجنبية – وليس من النادر ان يكون خضوعها هذا ابدياً .

ولهذا السبب فان حرفية الدستور المكتوب تكون ، في كل دولة سليمة ، ضئيلة الاهمية وذلك اذا ما قورنت بممارسة الدستور الحي ، الشكل الذي انشأ ذاته وطورها من خبرة الزمان ، والوضع ، وفوق هذه كلها ، ملكات العنصر الطبيعي للكيان السياسي في بناء ذاته قوة وجبروتا ، كلما تزايدت مهارته رسوخا وثباتا في تدبر امر الاوضاع غير المرتقبة او المنظورة ، والحق انه في النهاية لا يهم ابدا ما اذا كان الزعيم الفعــلي يدعى ملكاً او وزيرا او زعيم حزب او ان لا تكون له حتى اية علاقة معينة بالدولة (كما كانت حال سيسيل رودز . لقد كان النبلاء الرومان هم الذين يديرون دفة السياسة في حقبــة الحروب البونية الثلاث ، ولم يكن لهؤلاء اي وجود اطلاقا من وجهة النظر الدستورية . زد على ذلك ان الزعيم هو مسؤول دائما امام الاقلية فقط التي تمتلك حس المهارة السياسية وغرائزها وتمثل بقية الشعب في صراع التاريخ .

ان هذه الواقعة لتعبر تعبيرا جلياً صريحا غير مبهم عن ان دولة الطبقــة الواحدة – اي الدولة التي تحكمها طبقة خاصة – هي الدولة الوحيدة (التي ينطبق عليها مفهوم الدولة الصحيح – المترجم) .

ويتوجب علينا ألا نخلط هنا بين هذه الدولة وبين دولة الطبقة التي يشعر الفرد بأنه مرتبط بها من حيث كونه ينتمي الى منزلة اجتماعية ، كما كانت الحال في دولة المدينة Polis الاقدم وفي الدول النورمانية في انكلترا وصقلية ، في فرنسا دستور عام ١٧٩١ ، وفي روسيا السوفياتية اليوم . فالدولة الطبقية الحقيقية هي التعبير عن الخبرة التاريخية العامة ، وهذه تكون دائماً مرتبة اجتماعية Stratum واحدة وحيدة تذود الامة بطريقة دستورية ، أو بطريقة اخرى ، بالزعامة السياسية. وهذه تكون ايضاً دائمـــاً اقلية محددة تمثل النزعة العالمية التاريخية للدولة ، وهذه الاقلية هي ايضاً داخل الدولة ، مستقلة وقائمة بذاتها تقريباً ، وذلك بفضل قدرتها وجدارتها ، « وهي احياناً وافيــة كافية تتعارض في مواقفها وروح الدستور » ، وهي التي تمسك واقعياً بأعنة السلطة ومقاليد الامور . ونحن اذا ما تجاهلنــــا ، معتمدين على المبدأ القائل بأن الاستثناءات تبرهن على القاعدة ، الفترات الثورية لخلو سدة العرش والاوضاع القيصرية التي يحافظ خلالها افراد من الناس وجماعات الفت بينها الصدفة والاتفاق ، على السلطة بواسطة وسائل مادية « كثيراً مـــا يكون هؤلاء عاطلين من الكفاءة والجدارة » ، اقول اذا ما تجاهلنا هذا نجـــد الاقلية داخل المنزلة الاجتماعية هي التي تحكم دائماً بقوة التقاليد . وفي الاكثر من الاحوال تكون هذه الاقلية متفقة والنبلاء ومنسجمة معهم – مثــلاً « الأعيان » الذين حكموا وسيطروا على الاسلوب البرلماني لانجلترا ، والوجـوه والأعيان الذين امسكوا بدفة السياسة الرومانية في الحروب البونيـــة والارستقراطية التجارية في البندقية ، والمدربين على ايدي الرهبنة اليسوعية (هؤلاء الذين وجهوا الدبلوماسية لكوريا Curia البابوية في الحقبة الباروكية) .

وبالمثل فاننا نجد الكفاءة السياسية موقوفة على جماعات مستقلة قائمة بذاتهـــا داخل المنزلة الدينية – ولا نجد هذه الجماعات فقط في الكنيسة الرومانيـــة الكاثوليكية ، بل نجدها ايضاً في مصر والهند ، واكثر من هاتين في بزنطة وبلاد فارس الساسانية .

وهناك في الطبقة الثالثة – بالرغم من ان هذه الطبقة نادراً ما تنجب مثل هذه الاقلية ، وذلك بسبب عدم كونها بالذات وحدة من حياة – بعض حالات من وجود لمثل هذه الاقلية ، كالحالات التي عرفتها روما في القرن الثالث ، حيث تألفت مثل هذه الاقلية من عوام مدربين على التجارة وخبيرين بأمورها ، وعرفتها ايضاً فرنسا ابتداء بعام ١٧٨٩ في فئة متضلعة في القانون من الطبقة البرجوازية ، وتكون هذه الاقلية ، في مثل هذه الحالات ، قائمة داخل دائرة مغلقة تتألف من اشخاص يمتلكون مواهب متجانسة وعملية ، وهي تكون في وضع من تعبئة دائمة لثباتها ، وتحتفظ داخلها بكامل التقاليد والخبرة السياسية غير المكتوبة .

هذا هو التنظيم للدول الواقعية في تمايزه والتنظيمات الموضوعة على الورق ، والموجودة داخل عقول المتحذلقين واذهانهم . فلا توجد هناك دولة أفضل وحقيقية وسليمة يمكن ان تُحقق وفق خطة أو منهاج . فكل دولة تنشأ في التاريخ ، انما توجد على الحال التي نشأت عليها ، ولكن حال وجودها هذه هي وحيدة الحدوث وتستمر برهة من الزمن ، اذ انها تصبح حالها بصورة لاوعية ، في البرهة التالية مختلفة عن حالها تلك ، وذلك مهما بلغت صلابة قشرتها الدستورية والقانونية من التيبس والشدة . ولذلك فان الكلمات «جمهورية» و «استبداد مطلق» و «ديمقراطية» تختلف في كل برهة من الزمن عن معانيها في البرهة السابقة لتلك ، اما ما يحول هذه الكلمات الى شعارات ، فهو استعمالها بوصفها مفاهيم محددة معينة للفلاسفة والايديولوجيين . ان تاريخ الدولة هو تاريخ سياسي وليس بمنهاجي . وليست مهمة هذا التاريخ ان يظهر كيف تتقدم « الانسانية » لغزو الحقائق الخالدة ، وكيف تنطلق نحو الحرية والمساواة ، والى خلق دولة لا نهائية الحكمة والعدالة ، بل ان مهمته هي ان يصف الوحدات السياسية التي توجد حقاً في عالم الامر الواقع ، فيصف كيف تنمو وتزدهر وتذوي ، وكيف انها فعلاً ليست سوى الحياة الواقعية « في شكل لائق » . اذن فلنقم بهذه المحاولة استناداً الى هذه القاعدة .

-٣-

يبدأ التاريخ من الطراز الراقي ، في كل حضارة ، بالدولة الاقطاعية ، وهذه الدولة ليست دولة وفق مفهوم الكلمة الآتي فيا بعد من تطور ، بل انما هي تنظيم الحياة العامة يستند الى الطبقة أو المنزلة . وهنا تأخذ أنبل ثمرة للتربة ، عنصرها ، بأشد ما لكل عنصر من مفهوم اعتزاز وفخر ، ببناء نفسها حسب نظـــام من مراتب يبدأ بابسط الفرسان رتبة حتى يبلغ مرتبة السيد الاول بين الأعيان Primus inter pares ، السيد الاقطاعي الأعلى بين أعيانه Peers [١] .

وهذا النظام يبدأ في وقت واحد والهندسة المعمارية للكاتدرائيات العظمى والاهرامات – اذ يرتقي بالحجر والدم فيصبحان رمزين ، حيث يكون الأول منهما معنى أو مغزى ، ويكون الثاني كينونة او وجوداً . ان فكرة الاقطاع التي سيطرت على كل ربيع حضارة هي مرحلة الانتقال من العلاقة البدائية المجردة بعمليتها والواقعة بين الزعيم ، او الرئيس السائد وبين الذين يطيعونه (أكان هؤلاء هم الذين اختاروه ، ام كان هو الذي قد اخضعهم) الى القانون الخاص ، الى العلاقة بين السيد الاقطاعي وبين المقطع Vassal ، (ولذلك فان هذا الامر

---

(١) Peers : الاعيـــان : وهؤلاء ينقسمون الى خمس مراتب في المجتمع البريطاني خاصة هي :

الدوق ، المركيز ، الايدل ، الفيسكونت ، البارون .

– المترجم –

عميق في رمزيته) . وهذه العلاقة ترتكز كلياً على اخلاقية النبـــلاء ، الشرف والولاء ، وتنشأ عنها بالضرورة أقسى تضارب واجب المقطع إزاء سيده ، وواجبه ازاء عائلته الخاصة . وما انحلال هنري الاسد واضمحلاله سوى المثل الفاجـع على هذا التضارب .

ولا يتجاوز هنا وجود « الدولة » الحدود القصوى للرباط الاقطاعي ، ولقد كانت توسع ميدان وجودها عن طريق دخول مقطعين اجانب او اغراب فيـه . وهنا سرعان ما اصبحت خدمة الحاكم والوكالة عنه – وهذه كانت بالأصل شخصية ومحدودة زمناً – هي الاقطاعية الدائمة من الارض ، وكان اذا ما توفي صاحبهـا وثبت ان ورثته غير قادرين على القيام بواجباتهم ، يقوم الحاكم باستردادهـــا « escheat » وتخصيصها بآخر (اذ انه كان حتى في عام ١٠٠٠ يوجـد مبدأ في الغرب يقول : لا ارض بلا سيد « لورد ») ، ومن هذا المبدأ انطلقت الى مرحلة التوارث (قانون الامبراطور كونراد الثاني ٢٨ أيار عام ١٠٣٧) . وبذلك نشأ وسيط بين الرعايا المباشرين سابقاً للحاكم وبين الحاكم ذاتـــه ، اذ امسى هؤلاء رعاياه بسبب كونهم رعايا لاحد مقطعه Vassal ، ولم يكن هناك من شيء يحفظ تماسك ما يتوجب علينا حتى في مثل هذه الاوضاع ان نسميـــه بالدولة ، سوى التماسك الاجتماعي المتين بين اعضاء المنزلة الاجتماعية (الاولى – المترجم) .

ونحن نشهد هنا فكرة السلطة والغنائم لاتحاد اتباعي Classic – او تبعي – للمنزلة الاجتماعية الاولى . وعندما فتح وليم وفرسانه من النورمان انكلترا ، جعلت كامل ارضها ملكية للملك واقطاعية له ، وهي لا تزال اسماً على هذه الحال حتى يومنا هذا . وهنا نشهد غبطة فايكنغية Viking حقيقية « بالامتـــلاك » واهتماماً مماثلاً لاهتمام اوسيوس الذي بدأ باحصاء كنوزه وماله حالمـــا لامست سفينته شاطىء اليونان . فمن حس الفاتحين الحاذقين ، هـــذا بالغنائم ، نشأت ممارسة وزارة الخزانـــة المشهورة ، ونشأ الموظفون في الحضارات المبكرة .

ويستحسن ان نميز هنا بين هؤلاء الموظفين وبـــين اولئك الذين حضنتهم وظائف الموثوقية العظمى التي نشأت من التوكيل الشخصي الاقدم . اما هؤلاء الموظفون فهم كتاب دواوين ، وليسوا بوزارين او وزراء – انهم « خدم » لكنهم خدم وفق مفهوم فيـــه الآن من الاعتزاز اكثر بما كان فيه فيما مضى . ان الوظائف المالية ووظائف الدواوين هي تعبير عن الاهتمام ، وهذه تتناسب تماماً في تطورها وتطور فكرة الامرة المالكة . ولهذا بلغت في مصر مستوى مذهلا في رقيـه ، وذلك في مستهل بداية المملكة القديمة . اما نظام وظائف الدولة الصيني الموصوف في كتاب تشو – لي Chou - li فهو يبلغ درجة من الشمول والتعقيد تجعل المرء يشك في صحة ما اورده هذا الكتاب ، لكن هذا النظام ينطبق في روحه ونزعته واتجاهه على نظام ديوكلتسيان الذي مكن نظاماً اقطاعياً من التطور من جهاز مالي هائل وجبار . اما في العالم الكلاسيكي المبكر فان غيابه يبدو واضحاً وبارزاً . « فلتتمتع بيومك ولتنتهز الفرصة المتاحة » Carpe diem » كان هو شعار الاقتصاد الكلاسيكي منذ البداية حتى النهاية ، كما وان عدم التبصر في هذا الميدان ، كما في الميادين الاخرى ، سياسة الاكتفاء الذاتي الرواقيـــة Autarkeia ، قد ارتفع به حتى أصبح مبدأ . وحتى افضل المحاسبين الحاسبين لم يكونوا يشكلون استثناء من هذا المبدأ – وهكذا فان يوبولوس Eubulus كان يدير الاعمال في اثينا ، عام ٣٣٠ ق . م ، وعينه مركزة على الفوائض والارباح ليوزعها عندما تحقق على المواطنين .

ويقدم لنا الفايكنغ الماهرون الحذرون المحترسون النظرية والممارسة المناقضتين كلياً لنظرية يوبولس في الاقتصاد وممارسته للادارة الحالية . فهؤلاء الفايكنغ هم الذين وضعوا ، بواسطة نظامهم الاداري المالي لدولهم النورمانية ، أسس الاقتصاد الفاوستي المخيم اليوم بظلاله فوق العالم بأكمله فمن جداول روبرت الشيطان Robert the Deivl (١٠٢٨ – ٣٥) المبرقشة بالارقام Chequered ، تملك اليوم الاسم الانكليزي لوزارة الخزانة Exchequer ، ومن هنا اشتقت ايضاً

كلمة « شيك » . ومن هنا نشأت ايضاً كلمات « مراقبة » و «مخالصة» و «تدوين» فهنا قد جرى تنظيم بريطانيا بوصفها غنيمة ، وهبط بالانغلو سكسونيين هبوطاً لا يعرف شفقة او رحمة الى مرتبة القنانة Serfdom ، ومن هنا ايضاً ولدت الدولة النورمانية في صقلية — وهكذا فان ما بناه فريدريك الثاني من آل هوهنشتاوفن، فيما بعد ، لم يكن يرتكز على اللاشيئية ، فهو لم يبدع اشد انجازاته شخصيـــة ، دساتير ملفي Melfi (عام ١٢٣١) بل انما قام فقط (وبواسطة مناهج اقتبسها من المدنية العربية الراقية) بصقلها صقلاً بلغ بها مرتبة الاكتمال . ومن هـــذا المركز انتشرت تقنية المالية ، من منهاجية وبيانيـــة ، في عالم الاعمال في لومبارديا ، وهكذا انتشرت ايضاً في جميع المدن التجاريـــة والادارات العامة في الغرب .

ولكن فترة قليلة من الزمن هي التي تفصل بين بنيان النظام الاقطاعي وبين اندثاره ، فهذان متقاربان زمنا وثيق تقارب . وعندما كانت المنزلتان الاوليتان لا تزالان في عنفوان الحيوية والازدهار ، كانت امم المستقبل ، ومع هذه فكرة الدولة الاصيلة ، تتحرك مندفعة نحو ميدان الحياة . وكان يقاطع الخلاف القائم بين القوميات ، المرة تلو المرة ، التعارض القائم بين القوى الزمنية والروحيـة ، والخلاف بين التاج والمقطعين الخلاف الالماني الفرنسي الذي بدأ حتى بازمان اوتو الاكبر ، والخلاف الالماني الايطالي الذي مزق ايطاليا بـــين اعضاء عائلتي غليف Guelph وجيلين Ghibelline ودمر الامبراطورية الجرمانيـــة ، والخلاف الفرنسي الانكليزي الذي نجمت عنــه سيطرة بريطانيا على الاقاليم الغربية من فرنسا . ومع ذلك ، فان هذه الامور كانت بالغة جداً في قلة اهميتها اذا ما قورنت بالقرارات والاحداث العظمى التي وقعت داخل النظام الاقطاعي بالذات ، حيث كانت فكرة القومية غير معروفة . فلقد تناثرت بريطانيـــا الى ٦٠٢٥١ اقطاعية رتبها كتاب دومسداي الصادر عام ١٠٨٤ . في قوائم (وهذا الكتاب لا يزال حتى اليوم مرجعاً في بعض الحالات) ، وبلغ المزال بالسلطة

المنظمـــة تنظيما مركزيا صارما جداً جعلها تلتمس الولاء لها حتى لدى صغار مستأجري الارض من الاعيان ، ولكن مع ذلك فانه لم تمض سوى مئة وخمسين من الاعوام حتى اصبحت الماغنا كارتا (عام ١٢١٥) نافذة المفعول ، وانتقلت السلطة الفعلية من الملك الى البرلمان المشكل من المقطعين – وقد تألف مجلس اللوردات من كبار البارونات ورجـــال الدين ، بينما تشكل مجلس العموم من ذوات المدن وابناء طبقة النبلاء فيها – وقـد اصبح هذا المجلس منذ ذاك الحين فصاعدا بطل التطور القومي ونصيره الشديد البأس والنفوذ . اما في فرنسا فان طبقة البارونات متعاونة والاكليروس والمدن ، قد ارغمت في عام ١٣٠٢ الملك على دعوة مجلس البرلمان States general ، زد على ذلك ان الامتياز العام الذي كانت تتمتع به ساراغوسا في عام ١٢٨٣ قد جعل من آرغون شبه جمهورية تتألف من النبلاء وتحكمها بلاطاتهم ، وقامت مجموعة من كبار المقطعين الالمان ، قبل هذا التاريخ بعدد قليل من عقود السنين ، بجعل انتخاب الملك الالماني من اختصاصهم ، بوصفهم ناخبين .

وقد وجدت فكرة الاقطاع – لا في الغرب فقط بل في كل حضارة اخرى – اعتى تعبير عن نفسها في الصراع الذي نشب بين الامبراطورية والبابوية ، فلقد كانت كل واحدة من هاتين تحلم ببلوغ نظام من السلطة يجعل العالم باكمله خاضعا لنظام اقطاعي هائل جبار ، وقد عاشتا داخل هذا الحلم جسدا وروحاً والى درجة من الاغراق جعلت انحلال النظام الاقطاعي واندثاره يؤديان الى سقوطها من ذراها معا ، وتناثرهما الى انقاض فاجعة وركام حزين .

واتخذت الفكرة القائلة بان اوامر الحاكم يجب ان تكون نافذة المفعول في العالم التاريخي طولا وعرضا ، وان مصير هـذا الحاكم يجب ان يكون مصيرا الجنس البشري باكمله ، اتخذت لها شكلا منظورا في حالات ثلاث – الاولى في

المفهوم القائل بان الفرعون هو حورروس Horus[1] ، والثانية في التخيل الصيني للحاكم على انه هو الوسط وان مملكته هي تين – هيا Tien - hia ، اي كل ما يقع تحت السماء ، واما الثالثة فلقد عرفتها الازمان الغوطية المبكرة . فلقد فهم اوتو الاكبر في عام ٩٦٢ ، تجاوبا وشعوره الصوفي وحنينه الى اللانهائيـــة الفراغية التاريخية التي كانت آنـــذاك تجرف العالم بسيولها ، عـــلى ان فكرة « الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة هي فكرة امة المانيـــة » . ولكن حتى ابكر من اتو ، كان البابا نقولا الاول (٨٦٠) ، هذا البابا الذي كان لا يزال يعيش داخل اطار الفكر الاوغسطيني – وهذا الاطار هو مجوسي – يحلم بديقراطية بابوية ذات سلطان يخضع له جميع ملوك العالم وامرائه ، وابتداء بعام ١٠٥٩ ، انطلق غريغور السابع بكل عنفوان زخم طبيعته الفاوستية نحو تحقيق مملكة بابوية عالمية تخضع لاشكال من نظام اقطاعي عالمي ، يكون فيه الملوك هم المقطعون Vassals . وقد قامت البابوية ، انسجاما ووجهة نظرها في السياسة الداخلية بانشاء الدولة الاقطاعيـــة الصغيرة ،دولة كامبانيا Campagna ، حيث كانت عائلات النبلاء في هذه الدولة هي التي تسيطر على انتخـــاب البابوات ، وسرعان ما خولت هـذه مجمع الكرادلة (الذي خول صلاحية انتخاب البابوات ابتداء من عام ١٠٥٩ فما بعـده) الى نوع من نبالة اوليغارشية . ولكن البابا غريغور السابع حصل فعلا ، حسب المفهوم الاوسع للسياسة الخارجية ، على الدولتين النورمانيتين في انجلترا وصقلية ، اذ ان هاتين الدولتين قد خلقتا نتيجة لمناصرته ومعاضدته ، وكان هو الذي يبت فعلا في امر التاج الامبراطوري ، كما بت اوتو الاكبر[1] في امر التاج البابوي . ولكن بعد مضي فترة قصيرة من الزمن نجح هنري الرابع من آل هوهنشتاوفن نجاحا معاكساً في معناه (لنجاح

---

(١) Horus اله مصري ، وهو اله له رأس صقر .

— المترجم —

اوتو وغريغور – المترجم) وحتى ريتشارد قلب الاسد اقسم قسم ولاء المقطعين له لانكلترا ، وكانت الامبراطورية العالمية على وشك ان تصبح امراً واقعاً عندما جعل انوسنت الثالث ، اعظم البابوات اطلاقا (١١٩٨ – ١٢١٦) السيادة العليا للبابوية على العالم حقيقــة وواقعاً لمدة قصيرة من الزمن . فلقد اصبحت انكلترا اقطاعية بابوية في عام ١٢١٣ ، وسرعان ما آلت الى هذه الحال كل من آراغون وليون والبرتغال والدانمرك وبولندا وهنغاريا وارمينيـا والامبراطورية اللاتينية المؤسسة حديثا في بزنطة . ولكن ما كاد الثرى يغيب البابا انوسنت حتى دب الانحلال في الكنيسة بالذات ، وسرعان ما حذا الرؤساء الروحانيون العظام الذين حولتهم الاضفاءات القانونية Investitures الى مقطعين للبابا بوصفه السيد الاعلى ، حذو المقطعين الزمنيين ، وانطلقوا مجدون من سلطانه بواسطة اقامــة مؤسسات تمثيلية لنظامهم . اما الفكرة القائلة بان المجمع العام يسمو فوق البابا ، فهي فكرة لا تمت بصلة الى الاصول الدينية ، اذ انها وليــدة مبدأ الاقطاع ونظامه . ونزعة هــذه الفكرة تنطبق تاما على الفكرة التي جعلها الاقطاب من الانكليز في الماغنا كارتا هي صاحبة النفوذ والسلطان . وقــد جرت في مجامع كونستانس (١٤١٤) وبازل (١٤٣١) آخر المحاولات لتحويل الكنيسة بما لها من وجه دنيوي ، الى نظام اقطاعي اكليركي ، كانت ستصبح بموجب أوليغارشية الكرادلة ممثلة لكامل المنزلة الاكليريكية في الغرب ، وكانت ستحل محل طبقة النبلاء الرومان . ولكن فكرة الاقطاع كانت آنذاك قد انحدرت منـذ زمن طويل الى المرتبة الثانية بالنسبة لفكرة الدولة ، وبذلك آل النصر الى البارونات الرومان . وأصبح الترشيح للمنصب البابوي محدودا داخل اقرب ضواحي روما ، وبهذا توفر لمركز الدائرة البابوية السلطان المطلق على تنظيات الكنيسة . اما فيا يتعلق بالامبراطورية (البابوية العالمية – المترجم) فكانت قد اصبحت آنذاك منذ زمن طويـل ، شبحاً مبجلا وظلا محترما كالامبراطوريتين المصريــة والصينيــة .

وعندما نقارن متمعنين في هذه الديناميكية المائلة الجبارة المتجلية من خلال هذه القرارات والاحـداث ، نجد ان تشكل النظام الاقطاعي في العـالم الكلاسيكي جاء بطيئاً ساكناً دون ما صخب او ضجة تقريباً ، حتى ليجد المرء صعوبة في التعرف عليه لولا بعض آثار من مرحلة انتقال . فنحن نشهد في الملاحم الهوميرية ، كما ترامت الينا اليوم ، ان لكل دائرة باسيليوسها Basileus ، الذي كان ، كما هو واضح بما فيه الكفاية ، يوماً مقطعاً كبيراً - ونستطيع ان نرى ايضاً في شخص أغاممنون الاحوال والاوضاع التي كان فيها احد حكام الاقاليم الواسعة ينطلق وبطانته من الاعيان الى الحرب . ولكن انحلال النظام الاقطاعي في العالم الاغريقي كان مترافقاً وتشكل دولة - المدينة ، « النقطة » السياسية . ونتيجة لذلك فان جميع وظائف البلاط المتوارثة ، الـ - Archai والـ - Timai والـ - Prytaneis والـ - آرخون ، ولربمـا ايضاً وظيفة البريتور الاصلي ، كانت ذات طبيعة مدنية متحضرة ، كما وان العائلات لم تتطور بصورة افرادية منعزلة داخل مقاطعاتها ، كما حدث في مصر والصين والغرب ، بـل جاء تطورها متلاصقاً تلاصقاً شديداً والمدينة ، حيث اخذ ابناؤها يستولون على حقوق الملك حقاً بعد حق ، حتى لم يعد في النهاية للبيت المالك سوى ذاك الحق الذي لا يمكن ان يمس بسبب الآلهة - الا وهو اللقب المرتبط بوظيفته في تقديم القربان (ومن هنا نشأ اللقب المعروف « بالملك المقدم القربان Rex Sacrorun) . ونجـد في الاجزاء التي كتبت فيما بعد من الملاحم الهوميرية (قرابة عام ٨٠٠) ان النبلاء كانوا هم الذين يـدعون الملك الى التربع على العرش ، وكانوا حتى هم الذين يخلعونه . والاوديسي لا تعرف حقاً الملوكية الا بوصفها جزءاً من اسطورة - فالاثا كا Ithaca الواقعية التي ترينا اياها هي مدينة تسيطر عليها الاوليغارشية . اما الاسبرطيون ، فلقد كانوا ، كطبقة نبلاء كوميتيا Comitia وكيورياتا Curiata الرومان ، نتاجاً لروابط الاقطاع . وتوجد في الفيديتيا Phiditiae آثار واضحة لجمعية النبلاء القديمـة ، لكن سلطات الملك تدنت وانحطت الى الجلال الشبحي لملك روما المقدم القربان . او « ملوك » اسبرطة الذين كانوا

دوماً معرضين للسجن والخلع في اية لحظـــة بشاء ذلك الايفورس Ephors . ويرغمنا التشابه الجوهري بين هذه الاوضاع على الظن في انه قد سبقت عهد الطغاة التور كوانيين الحسابة مرحلة سيطرت خلالها الاوليغارشية ، ويدعم هذا الظن التقاليد السليمة في اصالتها لتعيين الوصي على العرش ، وهـذا شخص يعينه مجمع النبلاء (مجلس الشيوخ) ويختاره من بين اعضائه ، وكان هـــذا يقوم بعمله حتى يطيب لهؤلاء انتخاب ملك ثانية .

وهنا ، كما في اي مـكان آخر ، يأتي زمن يدب الانحلال خـلاله في النظام الاقطاعي ، لكن دولة المستقبل لا تكون خلاله قد تكاملت بعد ، كما وان الامة لا تكون آنذاك قد أمست في « شكل لائق » . وهذه هي الازمة المرعبة التي تنشب في كل مكان وتتخذ ، من فترة خلو سدة العرش من شاغلها ، شكلا لها ، وتخطط الحدود بـــين الاتحاد الاقطاعي وبين دولة الطبقة . وفي مصر بلغ النظام الاقطاعي آخر مراحل تطوره قرابة منتصف عهد العائلة الخامسة . فلقد تخلى الفرعون آسوسي عن ممتلكاته قطعة قطعة للمقطعين ، زد عـــلى ذلك ان اقطاعات الكهنة الموفورة الثراء كانت (كما كانت تمامـــاً في الغرب) معفاة من الضرائب واصبحت تدريجياً ملكية دائمة (او بمعنى آخر موقوفة) على المعابـد الكبرى . ويبلغ عصر آل « هوهنشتاوفن » نهايته بالعائلة الخامسة (قرابة عام ٢٥٣٠ ق.م) . واصبح الامراء (رباتي Rpati) والكونتات مستقلـــين (هيتيو Hetio) في عهد السلطان الشبحي الواهن للعائلة السادسة التي لم يمتد بها الاجل طويلاً ، ولقد كانت الوظائف العالية جميعها وظائف متوارثة ، وترينـــا النقوش على القبور المصريـة التشديد الفخور المتزايد عـــلى سلاسل الانساب الغابرة . اما ذاك الذي خبأه المؤرخون المصريون ، الذين جاءوا فيما بعد ، تحت اسمي العائلتين السابعة والثامنة المشهورتين ، فانما كان في واقعه يمثل نصف قرن من الفوضى والخصومات المتمردة على القانون والتي دارت بـــين الامراء حول انتزاع مقاطعات بعضهم بعضاً ، او حول لقب الفرعون . وفي الصـــين ارغم

المقطعون حتى اي – وانغ I - Wang (٩٣٤ - ٩٠٩) على توزيع جميع الاراضي التي افتتحها ، وان يوزعها على صغار المستأجرين الذين عينوا اسماءهم . واضطر لي – وانغ وولي عهده عام ٨٤٢ على الفرار ، وقام امراء افراد بادارة امور الامبراطورية وتدبيرها . وقد بدأ خلال فترة خلو سدة العرش هذه تدهور مكانة آل شو وهبط الاسم الامبراطوري فامسى لقب شرف ، لكنه مجرد من كل معنى . وتنطبق صورة هذه المرحلة على صورة فترة خلو سدة العرش في المانيا والتي بدأت عام ١٢٥٤ ، وانحدرت بالسلطة الامبراطورية الى مرتبة نظيرتها لعام ١٤٠٠ وفي عهد ونسلاوس Wenceslaus ، وتتجانس ايضاً واسلوب عصر النهضة في تجنيد الجنود المرتزقة ، وتتماثل تماماً والانحلال الكامل للسلطة البابوية . فلقد شهدت البابوية ، بعد وفاة بونفاس الثامن الذي تثبت ثانية ، في عام ١٣٠٢ ، السلطة الاقطاعية للبابوية ، بمنشوره البابوي اونام سانكتام Unam Sanctam ، والذي قام بمثلو فرنسا بسجنه ، المرة تلو الاخرى ، اقول شهدت البابوية قرناً كاملاً من النفي والفوضى والوهن ، بينما افني معظم ابناء طبقة النبلاء الانكليز خلال الصراع الذي دار بين عائلتي يورك ولانكستر على العرش .

– ٤ –

جاء سقوط البابوية ليعبر عن انتصار الدولة على المنزلة . ولقد كان يكمن في جذور النظام الاقطاعي شعور يقول بأن هدف الوجود وغايته ، يستلزمان ان تعاش ، الحياة ، وتوجه على اضواء ما تعنيه . وكان التاريخ قد ضغط حتى آخر ذرة فيه داخل مصائر دم طبقة النبلاء . ولكن نشأ هنا شعور بأنَّ هناك شيئاً ما

آخر الى جانب الاشياء الاخرى، شيئاً ما تخضع له حتى طبقة النبلاء، وتشترك فيه هذه الطبقة وجميع الطبقات الاخرى (أكانت هذه مراتب أم مهناً وحرفاً) ، شيئاً ما غير محسوس به او ملموس ، انه فكرة . وهنا لم يعد ينظر الى الاحداث من وجهة نظر قانون – شخصي خاص صريح ، بل من وجهة نظر قانون «عام». فمن الجائز ان تبقى (وقـــد بقيت تقريباً دون استثناء) دولة ارستقراطية قلباً وقالباً ، ومن الجائز ألا يتبدل مظهرها الخارجي خلال مرحلة الانتقال من الجماعة الاقطاعية الى دولة الطبقة ، الا فيا ندر ، وان الفكرة القائلة بان لاولئك ، الذين يعيشون خارج دائرتي المنزلتين ، حقوقاً كما عليهم واجبات قـد تكون فكرة لا تزال غير معروفة ، لكن الشعور قد تبدل وتغير ، وقد تنحى الوعي للحياة على انها قـــد وجدت لتعاش على ذرى التاريخ وقممه ، عن مكانه للفكرة القائلة بأن الحياة تشتمل على واجب او فرض . ويتضح لنا هذا الفرق بجلاء عندمـــا نقابل بين سياسة راينالد فان داسل (١١٦٧) – الذي يعتبر من اعظم رجال الدولة الالمان في كل الحقبات والمراحل – وبين سياسة الامبراطور شارل الرابع (١٣٧٨) ، ونتأمل على نحو متواز وهاتين مرحلة الانتقال التي اجتازها الشعور الكلاسيكي من الحقبـة الفروسية ، حقبة ثميس Themis الى حقبة « الدايك » Dike ، حقبـة المدينة الكبرى الناميـــة . فالثميس تشتمل عـلى قضية او مطالبة فقط ، بينما ان الدايك تفترض بالاضافة الى تلك واجباً ايضاً .

ان فكرة الدولة هي ، في عنفوان شبابها مرتبطة دائماً – وتضرب ، بداهة ، جذورها ، بصورة طبيعية ، عميقاً داخل الحيوانية بالذات – بمفهوم الحاكم الفرد . وهذا القول ذاته ينطبق بالوضوح ذاته على كل جمهور محرض مستثار في كل وضع حاسم – كما تدلل على ذلك ، المرة بعد المرة كل جمعيـة مشاغبة وكل لحظة من خطر مفاجيء . وجماهير كهذه هي وحدات من شعور ، لكنها وحدات عمياء . وهي في « شكل لائق » بالنسبة لاندفاع الاحداث وتدافعها – فقط ، وعندمـا تكون في قبضة الزعيم الذي يظهر فجأة في وسطها ، فعندئذ تنصبه وحدة الشعور

هذه بالذات رأساً لها ، حيث يجد لديها طاعة عمياء غير مشروطة وهـذه العملية تكرر ذاتها في تشكل الوحدات العظمى من الحياة التي ندعوهـــا بالشعوب والدول ، لكنهـا تتكرر ببطء وبعزى اشد رسوخ قدم ويقيناً . وفي بعض الاحيان يتكلفون في الحضارات الراقية وضع هذه العملية جانباً او وراء ، وذلك لصالح اساليب من كينونة هي « في شكل لائق» ومن اجل رمز عظيم ، ولكننا حتى في هذه الحال ، نجد عملياً وواقعياً تحت قناع هذه الاشكال دائمـــاً سيطرة فردية ، أكانت هذه السيطرة سيطرة مستشار الملك أم سيطرة رئيس الحزب ، كما وان الوضع الاصلي للاشياء يظهر ثانية في كل اضطراب ثوري .

وترتبط بهذه الواقعة الكونية سمة من أعمق السمات باطنية واشدهـــا التصاقاً بكل الحياة الاتجاهية ، انها الوصية الموروثة التي تعرض ذاتها بزخم ظاهرة طبيعية ، وفي كل عنصر قوي ، وتستحث بارغام حتى الزعيم الموقوت (وبصورة لاواعية) على ان يرفع من شأن مرتبته طيلة وجوده الشخصي ، او حتى مـــا بعده ، طيلة تدفق دمه في شرايين ابنائه واحفاده . وهذه السمة العميقة والشبيهة بالنبات تلهم بالذات كل دفق حقيقي يشعر باستمرارية دم الزعامة ، لكل من اليقين باستمراريته الخاصة ورمزه . وهــــذه الغريزة الفطرية تنبجس في الثورات بصورة خاصة ، انبجاساً مليئاً قوياً بغض النظر عن كل ما هنالك من عقائد ومبادىء . وبسبب هذه الغريزة بالذات لم تر فرنسا عام ١٨٠٠ ، فقط في نابليون بـــل في ذريته الوارثـــة ايضاً ، الاكتمال الحقيقي للثورة . ان النظريين ، كماركس وروسو ، الذين انطلقوا من مفاهيم المثل العليا بدلاً من ان ينطلقوا من وقـائع الدم لم يدركوا أبداً هذا الزخم الهائــــل الجبار الذي يكمن داخل العالم التاريخي ، ولذلك وصموا آثاره الجلية الواضحة بالحزبي والرجعية . ولكن هذه الآثار قائمة هنا وموجودة ، ولها من الزخم الملحاح ما يجعل حتى طغيان رمزية الحضارات العظمى عليهـــا ، طغياناً موقتاً ومتكلفاً ، وهي تتبدى في احتكار عائلات كلاسيكية خاصة للوظائف المنتخبة ، وفي محسوبية البابوات ومحاباتهم لاقاربهم في

الحقبة الباروكية فيا يتعلق بنا . وتكمن دائـــماً وبصورة عملية ، وراء التنحي مراراً بطيبة خاطر عن الزعامـــة ، ووراء الشعار القائل « بأن الكفاءة هي التي يجب ان تحكم » ، المنافسة بين الاقطاب الذين لا يمانعون من حيث المبدأ بقيام حكم متوارث ، لكنهم يجولون في حقل الممارسة دون قيامه ، وذلك لان كل واحد منهم يدعي سراً حق دمه الخاص فيـــه . وهذه الحـــال من الحسد او التحاسد الفعال المبدع هي الاساس الذي شيدت عليـــه اشكال الاوليغارشية الكلاسيكية .

ان مركب كلا العنصرين ينتج فكرة السلالة الحاكمة . وهذه الفكرة تبلغ جذورها عميقاً في الكوني ، ويبلغ تحابكها والغشاء الواقعي للحياة التاريخية من التلاصق والالتحام مبلغاً يجعـــل فكر الدول لكل حضـــارة تكيفات وهــــذا المبدأ الواحد ، ابتداء من النفس الفاوستية الشديدة في اثباتيتها وايجابيتها حتى النفس الكلاسيكية العاقدة العزم على النفي والسلب . ويوافق المدينة نضوج فكرة الدولة ، لأية حضارة ، وحتى مرحلة المراهقة من تطور المدينة . فالامم ، اي الشعوب التاريخية ، هي شعوب بناة مدن . والعاصمة تحل محل القلعة ، ويحول القصر نفسه بوصفه مركز دائرة التاريخ الراقي ، ومعه الشعور بممارسة السلطة ، الثيمس Themis ، الى مركز للحكومة ، الدايك . وهنا تنتصر باطنياً الوحدة القومية على الوحدة الاقطاعية ، وانتصارها يتحقق حتى داخــــل وعي المنزلة الاولى بالذات . وهنا يرتفع واقع الحكم بنفسه فيمسي رمزاً للسيادة .

وهكذا يصبح التاريخ الفـــاوستي ، بانخساف النظام الاقطاعي ، تاريخاً للسلالات المالكة . ومن تلك المراكز الصغيرة حيث تقوم مقرات عائـــلات الامراء (أما من اين « نبتت » هـــذه العائلات ، فان شبه الجملة هذه تذكرنا بالنبات والملكية) ، ينطلق تشكل الامم ــ امم ذات فطرة ارستقراطية صارمة ، ولكن مع ذلك فان الدولة هي التي تشترط كينونة المنزلة . فمبدأ تسلسل

النسب الذي اصبح يسيطر في طبقة النبالة الاقطاعية وفي عائلات الملاك الزراعيين، أي تعبير الشعور عن التوسع والانفساح وارادة التاريخ ، قد أصبح من القوة على درجة أصبح عندها ظهور الامم المتسامية فوق الوحدات القوية من اللغة والصقع يعتمد على مصائر البيوتات الحاكمة . فالزواج او الموت يقطع او يوحد بين كامل دماء السكان . وحيث فشلت عائلة حاكمة لوترينجية واخرى بورغوندية في ان تتخذ شكلاً لها ، كذلك فشلت امم كانت لا تزال في الدور الجنيني في أن تتطور فتكتمل . والادانة التي كانت تخيم بظلالها فوق آل هوهنشتاوفن كانت تشتمل على اكثر من التاج الامبراطوري ، فلقد كانت تعني ظلمة قرون من الزمن حنيناً عميقاً غير راض الى امة المانية ــ ايطالية متحدة ، بينا آل هابسبورغ ، كانوا على العكس من آل هوهنشتاوفن اذ انهم مكنوا أمة نمساوية لا المانية من أسباب التطور ووسائله .

ولقد تشكل مبدأ حكم الاسرة المالكة في العالم المجوسي ، بما لهذا العالم من شعور كهف ، على شكل مغاير تماماً . أمـــا البرنسيبس Princeps ــ الرئيس الاكبر ــ الكلاسيكي ، ووريث الطغاة والتريبيونات ، فكان تجسيداً للعوام Demos . وكما ان الاله جانوس كان هو الباب ، والالهة فستا كانت هي الموقد، فكذلك كان القيصر هو الشعب . وهـذا كان آخر ابداعات التدين الاوروبي . أما السيد الاله Dominus et Deus ، فكان على العكس من هـذا ، اذ كان مجوسياً ، وهو الشاه المشترك في النار الالهية (الهفارينو Hvareno للامبراطورية المازادية الساسانيين ، والذي يصبح هالة من نور في البزنطية من امية ومسيحية) والذي يشع حول الشاه ويجعله Pius, felix, Invictus (وهذا اللقب الاخير أصبح اللقب الرسمي له ابتداء بعهد كوميديوس) . وقـــد مر نموذج الحاكم في بزنطة ، وفي القرن الثالث من تاريخنا ، بمرحلة الانتقال ذاتها ، وكان المفهوم ضمنا ان تحطيم اجهزة الادارة المدنية لدولة اوغسطس ، يستهدف بناء النظام الاقطاعي لديوكلتيان . ويقول ماير في كتابه « المخطوطات الكلاسيكية » وفي الصفحة

١٤٦ منه ما يلي : « لقد بدأ الابداع الجديد (١) باورليان وبروبوس ، وقد قام ديوكلتسيان ببنائه على الانقاض ، أما قسطنطين فلقد كان غريباً عن العـــالم الكلاسيكي والبرنسيبيت Principate غرابة امبراطورية شارلمان عنهـا » . ولقد كان الحاكم المجوسي بحكم الجزء المنظور من اتحاد » (من اجمـــاع) الارثوذكسية ، وهذا الجزء كان مركبا واحدا من الكنيسة والدولة والامة ، وذلك كما وصفه اوغسطين في Civitas Dei . أما الحاكم الغربي فهو العاهل بنعمة الله ، في العـــالم التاريخي ، وشعبه خاضع له لان الله هو الذي قلده منصبه واوكله بذلك ولكن هذا العاهل ، فيما يتعلق بأمور الايمـان ، هو خاضع بالذات ـ لوكيل الله على الارض ، او لضميره وذلك وفق مقتضيات الحـــال . وهـــذا هو فصل سلطة الدولة عن سلطة الكنيسة ، وهو يمثل النزاع الفاوستي الهائل بين الزمان والفراغ . وعندما قام البابا في عام ٨٠٠ بتتويج الامبراطور ، فانه اختار حاكماً جديداً لنفسه وذلك بغية ان يكسب هو بالذات وان ينمو وينشدد . وبينما كان الامبراطور في بزنطة ، بمقتضى الشعور المجوسي بالعالم ، السيد الاعلى للبابا في الامور الروحيـة والزمنية ، كان الامبراطور في الاراضي الفرنكية خادماً للبابا في القضايا الروحية ، الى جانب كونه (ربمـــا) عضداً له ويداً في الامور الزمنية . ولذلك فان البابوية ، كفكرة ، يمكن لهـا ان تنشأ فقط بواسطة انعزالها وفصلها عن الخلافة Caliphate ، وذلك لان شخص الخليفة يشتمل على البابا أيضاً .

ولهذا السبب بالذات ، من غير المستطاع ، ان يجري ربـط اختيار الحاكم المجوسي بقانون وراثة ذرية البيت المالك للعرش . فهـــذا الاختيار ينبع من

---

(١) يعني القيصر .
ـ المترجم ـ

الاجماع لعشيرة ــ الدم الحاكمة التي يتحدث من خلالها الروح القدس ويعين من يختاره للعرش . وعندما توفي تيودوسيوس في عام ٥٥٠ عقدت احدى قريباته ، الراهبـــة بلوكيريا ، قرانها على مار سيانوس الطاعن في السن وعضو مجلس الشيوخ ، وبذلك ضمت رجل الدولة هذا وجعلته احد اعضاء العائلة ، وامنت له ارتقاء العرش ، وضمنت استمرار السلالة الحاكمة ، وهذا العمل الذي نشهد كثيراً من الحوادث المشابهة له في الاسر المالكة الساسانية والعباسية ، كأن يعتبر على ان حدوثه قد تم بايعاز من فوق ، (من السماء ــ المترجم) .

اما في الصين ، فسرعان ما أصبحت فكرة الامبراطور ، التي كانت فكرة وثيقة الارتباط بالنظام الاقطاعي ، حلماً ، سرعان ما اصبح يعكس بوضوح متزايد كامل العالم السالف زمناً في شكل ثلاث سلالات مالكة من الاباطرة ، واباطرة اسطوريين اقدم من اولئك زمناً ايضاً . ولكن نشأت بالنسبة للامر الحاكمة وفق نظام الدول الذي نمت عليه هذه الامر وترعرعت ، (والذي اصبح اخيراً فيه اللقب ، الملك ، Wang شائعاً ومتداولاً بصورة عامة تماما) قوانـين صارمة وسارية المفعول لوراثة العرش ، وأصبحت مشروعيـة الوراثة ــ وهذه فكرة غريبة تماما بالنسبة للازمان المبكرة ــ قوة يستند اليها ويركن ، وقد ادى انقراض السلالة الحاكمة ، والتبني والزواج غير المتكافىء ، الى ما ادى اليه في الحقبة الباروكية في الغرب ، الى حروب لا يحصيها عد ، دارت حول الحق في وراثة العرش . وهناك بعض من مبادىء المشروعيـة كانت تكمن ايضا وراء الوقائع العجيبة في نباهتها والتي تمثلت في قيام فراعنة العائلة الثانية عشرة ، والذين انتهت بهم الحقبـــة المتأخرة زمنا من الحضارة ، بتتويج ابنائهم ، في حياتهم ، فراعنة على مصر . وان الترابط الباطني بين هذه الفكر الثلاث لتوارث العرش ، هو ايضا دليل آخر على ان كينونات هـــذه الحضارات الثلاث هي كينونات متشابهـة .

والحق ، أن المرء ليحتاج الى بصيرة ثاقبة تسبر اغوار لغة الشكل السامي للعالم الكلاسيكي ، كي يدرك ان الاحداث والاشياء قد اتخذت هنا ايضا المجرى ذاته تماما ، وان هذا المجرى لم يحتو فقط على مرحلة الانتقال من الاتحاد الاقطاعي الى دولة الطبقة ، بل انما اشتمل ايضا على مبدأ الوراثة العائلية للعرش . والكائن الكلاسيكي هو ، فعلا ، كائن كان يجيب نفياً على اي وكل شيء قد يجذبه الى ابعاد ومسافات في كل من الفراغ والزمان ، ولقد احاط نفسه حتى في عالم الامر الواقع التاريخ ، بابداعات او مبتدعات كانت تحتوي على شيء ما من الدفاعية . ولكن هذا التضييق والصلم او الجدع ، يفترضان مسبقا وجود الشيء الذي يكدح الكائن الكلاسيكي ويناضل ضده بغية الحفاظ على نفسه . فالتبذير او الاسراف الديونيسي ، والنفي الاورفي للجسد او انكاره ، انما كانا يحتويان في كل شكل من اشكال معارضتها على المثل الاعلى الكامل للكائن الجسماني .

فالحكم الفردي ، وارادة النقل الى الورثاء ، كانا دون ريب ، من الامور المسلم بها في اقدم الانظمة الملكية في العالم الكلاسيكي . لكنهما كانا قد اصبحا في عام ٨٠٠ موضوعين لنقاش وجدل ، كما يظهر ذلك دور تيليماخوس في الاجزاء الاخيرة من الاوديسة . ففي الكثير ، من الاحيان كان كبار المقطعين وابرز النبلاء يحملون اللقب الملكي فلقد كان يوجد في اسبرطة ولبقيا شخصان يحملان هذا اللقب ، وكان هناك في المدينة الفينيقية التي ورد ذكرها في الملحمة ، وفي مدن واقعية كثيرة اخرى ، اشخاص اكثر يحملونه.. ومن ثم يأتي تجريد الوظائف من مهابتها وجلالتها ، واخيرا يصبح مقام الملك بالذات وظيفة ينعم بها النبلاء ، ولربما كانوا ينعمون بها في البدء على اعضاء من العائلة المالكة ، وهكذا فان الافور في اسبرطه الذين كانوا يمثلون المنزلة الاولى – النبلاء – المترجم – لم يكونوا باي شكل من الاشكال ، مقيدين باختيارهم باية قاعدة أو قانون ، زد على ذلك ان الفخذ الملكي ، فخذ باكتشياديا Bacchiadae ، في كورينثيا ، قد الغي ، قرابة عام ٧٥٠ مبدأ توارث الملك ، وكان ينصب في كل مناسبة تستدعيه ،

بريتانيوس Brytaneus ، يختاره من بين أبنائه ، ويمنحه رتبة ملكية . زد على ذلك ان الوظائف الكبرى التي كانت بدورها في البداية وظائف متوارثـة ، اصبح شاغلها يشغلها فقط طيـلة حياته ، ثم عدل نظامها ، فأمسى شاغلها يقوم باعبائها لمدة محدودة من الزمن ، واخيرا حددت مدة اشغالها بسنة واحدة ، زد على ذلك انهم قاموا فيا بعد بتنظيمها على شكل اصبح معه الموظفون اكثر عددا من الوظائف ، اما الزعامة ، او القيادة ، فكانت دورية على كل فرد — وهذه العادة قد ادت ، كما نعرف تماما ، الى كارثـة قانبي . وهـذه الوظائف السنوية ، ابتداء من الحكم الاتروسكاني المحدودة مدتـه بسنة ، حتى الافور الدوري « الذي وجد في هيراقليا ومسين كما في اسبرطة » ترتبط وثيق ارتباط بجوهر المدينة Polis ، وقد بلغت تركيبها الكامل قرابة عام ٦٥٠ . وفي التاريخ المناظر تماما لهذا ، تاريخ دولة الطبقة الغربية « نهاية القرن الخامس عشر » قام الامبراطور مكسيمليان ، وفرديناد ملك آراغون ، وهـنري السابع ملك انكلترا ولويس الحادي عشر ملك فرنسا بتأمين سلطة الامرة الحاكمة وضمانها « ضد مطالب الناخبين وادعاءاتهم . »

ولكن التأكيد المتزايد على الـ هنا والآن الكلاسيكيتين ، جعـل الكهنوت ، الذي كانت له بدايات من تطوره الى منزلـة ، يصبح ، بدرجة متساوية ، ابناؤه مجرد مجموعـة من موظفي المدينة . اما العاصمة ، اذا جاز لنا استعمال هذه الكلمة ، عاصمة الملكية الهوميرية ، فبدلا من ان تكون مركزاً لاشعاع نفوذ الدولة وصولتها ، في كل الاتجاهات وداخل الابعاد والمسافات ، فانها قامت بتقليص دائرتها السحرية حتى اصبحت الدولة والمدينة شيئا واحدا . وبهذا انصهرت طبقة النبلاء وأعيان المدينة ، كما وان تمثيل حتى المدن الفتية لحقبة القوطية « مثلا مجلس العموم الانكليزي ، والجمعية الوطنية الفرنسية » كان امرا محصورا باكمله بطبقة نبلاء المدن ، فكيف اذن ستكون الحال في دولة المدينة الكلاسيكية القوية ، انها لا ريب لاكثر واشد بكثير من حال تلك المدن في

الحقبة القوطية . فالدولة الكلاسيكية لم تكن قولا دولة ارستقراطيـة لا ملك لها ، بل كانت فعلا كذلك . اما « الشكل » الابولوني جوهرا ومظهراً للمدينة النامية فهو ما نسميه بالاليغارشية .

وهكذا نرى في نهاية المراحل المبكرة من كلتا الحضارتين مبدأين متوازيين ومتضادين ، مبدأ تسلسل الانساب الفارستي ، والمبدأ الابولوني الاوليغارشي ، ونوعين من القانون الدستوري للدايك Dike ، اما الاول فهو يسنده مفهوم لانفساح يصل خلفاً ويغوص عميقا في الماضي ، بتقاليـد لشكل ، ويفكر اماماً وبالارادة القوية الشديدة ذاتها ، ارادة الديمومة ، بابعد مستقبل ، ولكنه يعمل ، في الحاضر ايضا ، لتدعيم الفعاليـة السياسية ونشرها في مساحات شاسعة واسعة بواسطة التزاوج المتدبر المتبصر بين السلالات المالكة ، وبواسطة السياسة الفاوستية الديناميكية الكونترابونتية « البلوفونية — المترجم » والتي ندعوها بالدبلوماسية . اما النوع الآخر فهو باكمله حجمي تمثالي ، وله ذات محدودة بسياستها ، سياسة الاكتفاء الذاتي الاقتصاديـــة Autarkeia ، ومحدودة باقرب الاشياء اليها ، وباشد ما للحاضر من آنية فورية ، وهي تنكر ، عند كل نقطة ، بجرأة واقدام ما تؤكده الكينونة الفاوستية وتثبته .

ان كلا من الدولة ذات النظام الملكي السلالي ودولة المدينــــة تفترضان مسبقا وجود المدينـة بالذات . ولكن هذا هو الفرق بينهما ، فمقر الحكومة في الغرب ، بالرغم من انه قد يكون « وكثيرا من الاحيان يكون » في بلدة هي دون المدينة الكبرى ضخامـة وسكاناً بدرجات ودرجات ، هو مركز زخم وقوة في ميدان من توترات سياسية هي على شكل يجعل أي حدث ، مهما كانت الزاوية التي وقع فيها نائية بعيدة ، يهتز بصورة عامة داخل كل حدث — بينما ان الحياة في مقر الحكومة الكلاسيكية تحتشد وتزدحم على شكل اوثق فاوثق، حتى تبلغ تلك الظاهرة الشاذة الغريبـــة ظاهرة ازدواج الجنس — الاوج بالذات

لارادة الشكل اليوقليدي في العالم السياسي . فمن المستحيل على الكائن الكلاسيكي ان يتخيل الدولة الا على شكل تتراكم فيه الاجساد بعضا فوق بعض فتصبح كومة واحدة بوصفها جسدا واحـــدا ، ويجب ان تكون الدولة بالنسبة لهذا الكائن ، دولة يحيط بها نظره ، لا بل تحيط بها حتى « لمحة واحـدة » يلقي بها عليها . وبينا نرى النزعة الفاوستية تنزع اكثر فاكثر الى اختزال عدد مراكز دوائر السلالات المالكة — حتى ان مكسيمليان الاول كان باستطاعته ان يلمح في الافق امكانية تأمين السيادة الملكية لعائلته على مستوى عالمي - تتاثر العالم الكلاسيكي الى نقاط حقيرة ما كادت تقريبا تنطلق الى ميـــدان الوجود حتى اخذت تقوم بذاك العمل الذي كان ، بالنسبة للجنس البشري الكلاسيكي ، عملا تستوجبـــه ضرورة الفكر وما يعنيه تعبير سياسة الاكتفاء الاقتصادي الذاتي تقريباً واعني بهذا العمل ، ان تدمر الواحدة من هذه النقاط الاخرى .

ولقد كان ازدواج الجنس ، هذا الابداع للنموذج الخاص بالمدينة ، وما نجم عنه واسفر ، عملا من اعمال الارستقراطية حصراً . فأبناء هذه الطبقة هم الذين شيدوا دولة — المدينــة الاجتماعية الكلاسيكية ، وشيدوها لانفسهم وحدهم ، وكان انجذاب نبلاء الريف ونبلاء المدينـة بعضا الى بعض هو الذي اعطى هذه الدولة شكلها وادخلها فيه . وكانت طبقات المهنيين والحرفيين حاضرة وموجودة ، اما الفلاحون فلم يعد الناس يعتبرونهم آنذاك طبقة . وقد اسفر تركيز سلطة النبلاء في نقطة واحدة عن اندثار الحقبة الاقطاعية الملكية ودمارها .

ونستطيع على اضواء هذه الومضات ، التي القينا بها على اليونان ان نغامر ، وبكل تحفظ ، في تلخيص تاريخ روما البدائيـــة . ان الازدواجيـــة الرومانية — تجمع بين العائلات النبيلة المتناثرة المشتتة بصورة واسعة — تنطبق على تأسيس المدينة ، وهذا عمل قام به الاتروسكان في بداية القرن السابع وكان يقوم منذ زمن طويل ، وقبالة القلعة الملكية على الكابيتول ، مستوطنان على

البالاتين والكويرنيال . وكان الاول من هذين ينتمي الى الالهـة القديمة ديفا رومينا Diva rumina ، وفخذ روما Ruma الاتروسكاني ، وكان اله الثاني هو كويرنيوس باتر Quirinus pater . ومن هذين نشأ الاسم المزدوج الرومان والكويريت ، ونشـأ الكهنوت المزدوج ، كهنوت سالي Salii وكهنوت لوبرتشي Luperci اللذان التصقا بالرابيتين. والآن ، وبما ان قبائل- الدم الثلاث ، المسماة بالرمنيين Ramnes وبالرابيتين Tities وباللوتشريين Luceres ، هي ، على اغلب الظن ، شائعة في جميع الاماكن الاتروسكانية ، لذلك يجب ان تكون هذه القبائل هي التي وجدت في كلا المستوطنين اللذين يهمنا امرهما هنا ، وبهـذا يتضح من جهـة امر رقم ٦ ، لقرون سلاح فرسان في الجيش الروماني ، سلاح الترببونات العسكريين من الفستال Vestals الارستقراطيين ، ويتضح من جهة ثانية معنى رقم ٢ للبريتورات (او القناصل) الذين كانوا مرتبطين ، منـذ زمن مبكر تماما ، بالملك بوصفهم ممثلين النبلاء ، والذين جردوه تدريجيا من كل نفوذ . ويجب ان يكون نظام روما في عام ٦٠٠ نظاما لطبقة اليغارشية قوية تتألف من الباترز Patres ، وذات نظام ملكي شبحي وواهن ، جعل من الملك شكلا لرأس لها . وهكذا تستطيع اخيرا كلتا النظريتين ، نظرية طرد الملوك ، وهي النظرية الاقدم ، والنظرية الاحدث ، نظرية الانحلال البطيء الذي دب في السلطة الملكية ، ان تقفا جنبا الى جنب ، فالنظرية الاولى تشير الى سقوط الطغاة التاركوينيين ، الذي اتخذ (كما اتخذ في كل مكان آخر من العالم الكلاسيكي - بيسيتراتوس مثـلا -) موقف المناهض للاليغارشية قرابة منتصف القرن السادس ، اما النظرية الثانية فتشير الى الانحلال البطيء الذي دب في السلطة الاقطاعية (لما من الجائز لنا تسميه) بالملكية الهوميرية ، وذلك بسبب دولة - المدينة الارستقراطية ، وقبل و تأسيس ، ما يسمى بالازمة التي ، على ما يظن ، تمخضت عن ولادة البريتوارت ، ونشوئهم ، النشأة التي نشأها الارخون والافور في كل مكان آخر .

ولم تكن المدينة Polis – الرومانية – المترجم – أقل انغلاقاً في ارستقراطيتها من الطبقة الغربيـــة بما لهذه من نبلاء واكليروس وبرجوازيين أرقى مرتبة من البرجوازيين العاديين . وكان الثقل من الشعب المنتمي اليها مجرد أقوام من رعايا تابعين لها ولكن – هؤلاء هم في الغرب رعايا ترعاهم دولة الطبقة باهتمامها السياسي ، أما في العالم الكلاسيكي فكانت دولة المدينة ترعاهم باهمالها شأنهم وبلا مبالاتهـــا بهم . وذلك لأن الشعار القائل ، تمتع بحياتك واغتنم كل فرصة متاحـــة لك ، لم يكن شعاراً للاليغارشية فقط ، بل شعاراً لكل انسان آخر ايضاً . وهو يعلن عن نفسه بضوضاء وصخب في قصائد تيوجنيس ، وانشودة هبرياس Hybrias الكريتي . وقد جعل المالية الكلاسيكية حتى آخر الأطوار الزمنيـة – ابتداء بالفرصنة التي كان يمارسها بلوكيتاس على شعبه الخـاص حتى طرد التربو مغربين الرومان وتجريدهم من حماية القانون – مالية تعتمد تقريباً على القاعـدة القائلة : من اليد الى الفم ، فتستولي على الموارد التي تفرضها احتياجات البرهة الآتيـــة . وقد نشأ عن هذا الشعار في ميدان التشريع ، ذاك المنطق الذي لا مثيل له ، في تحديد مدة سريان مفعول قانون الأجراءات بمدة وظيفـــة البريتور التي لم تكن تتجاوز السنة الواحدة . واخيراً يجد الكثيرون في المبارسة المتزايدة نماء لاملاء الشواغر في الوظائف من عسكرية وادارية (وخاصة الوظائف الاشد اهمية منها) نوعاً من الاحترام والخشوع لتيشي Tyche ، الهة البرهة الحاضرة .

وهذا كان اسلوب العالم الكلاسيكي « لشكله اللائـق » سياسياً ، وكذلك لتفكيره وشعوره . وليس هناك من اي استثناء أو مستثنى . فلقد كان هـــذا الاسلوب يسيطر على الاتروسكان سيطرته ذاتهـــا على الدوريين والمقدونيين . وعندما قام الاسكندر وخلفاؤه من بعده ببرقشة الشرق ، بعداً وسعة ، وتنقيطه بمدنهم الهيلينية ، فانهم قاموا بهذا دون ما اختيار واع ، ولأنه لم يكن باستطاعتهم ان يتخيلوا أي شكل آخر للتنظيم السياسي . فانطاكية كانت ، في نظرهم ، هي سوريا كلها ، والاسكندرية هي مصر . ولم تصبح هذه الاخيرة ، قانوناً وواقعاً ،

في عهد البطالسة ومن ثم في عهود القياصرة ، دولة مدينة الى حد بعيد ، لكنها كانت ، في الممارسة ، اكيداً كذلك – لأن البلاد المصرية خارجها كانت قد امست منذ زمن طويل ريفاً فلاحياً لا تقوم على ارضه بلدان ودساكر ، وكان تدبير اموره ، على هدي سوابق غارقة في القدم ، وكان يقف عند بواباتها المبتدئة كأنها حدود أجنبية غريبة . والحق ان الامبراطورية الرومانية لم تكن سوى آخر واعظم دولة مدينة كلاسيكية ترتكز الى اسس ازدواج جنسي هائل ووسيع . ولقد كان الخطيب ارستيديس كل حق ومبرر لأن يقول ، في عهد مارك اوريل ، بأن الامبراطورية الرومانية قد جمعت بين اجزاء هذا العالم باسم مدينة واحدة : « وإن اي مكان منها ، انما يعيش ويسكن في مركز دائرتها . » وقد نظموا حتى الشعوب المغلوبة من الامبراطورية – وقبائل الصحراء الرحالة والطوائف في وديان الهضاب من جبال الألب – بوصفهم مواطنين فيدولة المدينة . وليفي Livy يفكر دائماً ، وعلى منوال واحد لا يتبدل أو يتغير في أشكال دول – المدن ، اما التاريخ الاقليمي فلا وجود له اطلاقاً في نظر تسيتوس . وعندما تخلى عام ٤٩ بومباي المنسحب أمام جحافل قيصر ، عن روما بوصفها هدفاً غير هام من الوجهة العسكرية ، وانتقل الى الشرق لكي يوجد فيه قاعدة وطيدة راسخة لعملياته العسكرية ، فانه قد قضى بذلك على نفسه بالهلاك . فتخليه عن المدينة ، التي تخلى عنها ، كان يمثل في نظر الطبقات الحاكمة تخليه عن الدولة بالذات . فروما كانت كل الامبراطورية بالنسبة لهذه الطبقات .

ودوائر دول – المدن هذه – غير قابلة ، مبدئيا ، للتوسيع أو المطل . فعددها يمكن ان يتزايد ، لكن دوائرها لا يمكن أن تتسع . أما الفكرة القائلة بأن تحول بطاقات النبلاء الرومان الى عوام لهم حق الانتخاب ، وان ايجاد قبائل ريفية قد احدثا ثلمة في فكرة دولة – المدينة ، فانما هي فكرة خاطئة وغير مصيبة . فلقد بقيت كامل حياة الدولة في روما كما في اثينا – على حالها السابقة ، أي محدودة بنقطة واحدة ، كانت الأغورا ، الفوروم . فمنها نأت أماكن عيش أولئك الذين

منحوا الجنسية الرومانية وبعدت ـ ولقد كانت هذه الأماكن في ايام هنيبـــال تشكل ايطاليا ، ومن ثم اصبحت تقع في أي جزء من أجزاء العـالم ـ فان ممارسة هؤلاء لحقوقهم السياسية كانت مشروطة بتواجدهم الشخصي في الفوروم . ومن هنا فان الاغلبية من المواطنين كانوا من الوجهة الواقعية ، لا القانونية ، عاطلين من أي نفوذ أو تأثير في الحياة السياسية . ولذلك فان ما كانت تعنيه الرعويـــة في نظرهم ، فهو فقط واجب الخدمة العسكرية والتمتع بالحقوق المنصوص عليهـا في القانون الداخلي للمدينـــة . ولكن ازدواجا ثانياً واصطناعياً كان يحـــد من الحقوق السياسية للمواطنين الذين يرتحلون للسكن في روما ، وقد حدث هـــذا نتيجة ، وبعد ، منح الفلاحين حق الانتخاب ، وهو لا يمكن ان يفهم الا على انه جهد غير واع يهدف الى الحفاظ على فكرة دولة المدينة سليمة تمامـــاً من كل شائبة ، وأعني بهذا انهم كانوا يقومون بتسجيل المواطنين الجـدد ، غاضين النظر تماماً عن عددهم ، في عشائر جد قليلة (وقد بلغ عدد هذه الثانية في قانون جوليا) ولذلك بقي هؤلاء أقلية بالنسبة لعدد المواطنين الذين نالوا حقوقهم السياسيـــة في فترة اقدم من الزمن .

وهذا امر بدهي لأن هذا الـ Civitas كان يعتبر ، سداة ولحمة على انـــه جسم واحد أو جسد واحد . وكان كل من لا ينتمي اليه لا يشمله قانونـــه ، Hostis . وكانت الآلهة والابطال في المرتبة العليا ، وكان العبيد (وهؤلاء لا يجوز لنا على حد قول ارسطو ان نصفهم بانهم بشر تماماً) يقفون تحت هذه المجموعة من الاشخاص . وكان الفرد موجوداً فقط بسبب عضويته في دولة ـ مدينة منفردة .

ونتيجة لهذا الشعور اليوقليدي ، فان طبقة النبلاء بوصفها جسماً مستقلا قائماً بذاته ، كانت في البدء مرادفة لدولة ـ المدينة ـ ومرادفتها لهذه بلغ حداً جعل حتي اللوائح الاثنتي عشرة تحرم الزواج بين نبلاء المدينـــة والعوام ، وكان

الافوريون ، كما جرت العادة ، يستهلون الفترة المحـــددة لولايتهم الوظائف ، باعلانهم الحرب على الهيلوت . لكن الآية كانت تنعكس ، في كل مرة ، يصبح غير النبلاء ، نتيجة لثورة ، هم الشعب ـ لكن معناه بقي واستمر . ولقد كان الحجم السياسي في العلاقات الداخلية ، كما في العلاقات الخارجيـــة ، هو الاساس الذي استندت اليه جميع الأحداث في كامل التاريخ الكلاسيكي . وكانت المدن، والمئات منها ، تتربص كل واحدة منها الدوائر بالاخرى ، وكانت كل واحدة منها معبئة ذاتها سياسياً واقتصادياً بحدود امكاناتها ، ومتحفزة للنهش ، تتذرع باتفه الاسباب فتقاتل وتحارب ، ولم يكن قصدها من وراء الحرب الا توسيع دائرة دولتها ، بل كان يهدف الى ابادة الجانب الآخر والقضاء عليه . اذ كانت الحرب تنتهي بتدمير مدينة العدو وقتل سكانها واسترقاق الاحياء منهم ، وكانت الثورات تنتهي ايضاً بذبح او طرد المغلوبين ومصادرة أملاكهم من قبل الحزب المنتصر . اما الوضع الطبيعي للاحوال المتضاربة في الغرب ، فهو محـــل شبكة من العلاقات الدبلوماسية، والتي من الجائز ان تمزقها الحروب ، ولكن شرعة الامم الكلاسيكية تعتبر الحرب هي الوضع الطبيعي ، وهي وضع تقاطعـــه ، بين حين واخر ، معاهدات صلح وسلم ، كما وترى ان اعلان الحرب يعيد السياسة الى وضعهـا الطبيعي . وعلى هذا الشكل فقط تصبح معاهدات الاربعين والخمسين من معاهدات الصلح (كمعاهدة نيقياس Nicias المشهورة ، عام ٤٢١) جلية واضحـــة بوصفها معاهدات ــ لضمانة موقتة .

وقد ضمن شكلا ــ الدولة هذان ، بواسطة أساليب من سياسة المناسبة لكل واحد منها تحققها وذلك في ختام الحقبة المبكرة . وقد انتصرت فكرة الدولة على الاتحاد الاقطاعي ، لكن المنازل الاجتماعية هي التي تحمل هذه الفكرة ، وللأمة وجود سياسي فقط لأنها هي مجموع هذه المنازل .

- ٥ -

وبوجد ، مع بداية الحقبة المتأخرة ، منعطف حاسم ، تكون عنده المدينة والريف في حالة من توازن ، وتكون قوى المدينة ، المال والعقل ، قد بلغتا من القوة مبلغاً يجعلها يشعران بذاتها بوصفها لا منزلة ، عـلى انها ندان للمنزلتين القديمتين . وهذه اللحظة ، هي اللحظة التي تسمو فيها أخيراً فكرة الدولة عـلى المنزلتين ، بأساً وقوة ، وتبدأ ان يحل محليهما مفهوم الامة .

لقد ناضلت الدولة وانتصرت ، منطلقة بتقدمها الظافر على درب تبـدأ من الاتحاد الاقطاعي وتبلغ الدولة الارستقراطية . وهاتان المنزلتان الاجتماعيتان توجدان في الدولة الارستقراطية فقط وجوداً استدلالياً بها ، بدلاً من ان يكون الأمر المعكس بالعكس ، ولكن ، فطرة الاشياء ، من جهة اخرى ، هي عـلى شكل يجعل الحكومة تلتقي بالأمة المحكومة ، عندما ، والى الحد الذي تكون عنده الامة منتظمة انتظاماً طبقياً . فكل انسان ينتمي الى الامة ، لكن النخبة تنتمي الى الطبقة ، وهذه النخبة هي وحدها ذات قيمة سياسية .

ولكن كلما اقتربت الدولة من شكلها النقي المجرد ، تزداد مطلقيتها ـ أي استقلالها عن أي مثل أعلى لشكل آخر ـ وكلما تزايد حكم الدولة الشعب عـلى هذا الشكل ، عندئذ تصبح الفروقات ، بين المراتب ، فروقات اجتماعيـة مجردة وتقوم الطبقتان القديمتان ، النبلاء والكهنوت ببذل جهد آخر منمقاومة ضد هذا التطور ـ الذي هو احدى الضرورات المحتومة وغير القابلة للنقض أو الفسخ أو

الالغاء ، من ضرورات الحضارة . وذلك لأن كل شيء - من بطولي وقديسي ، والقانون القديم والمرتبة والدم - قد أصبح الآن ، بالنسبة لهاتين الطبقتين ، على كف عفريت ، وتحف بـــه المخاطر من كل جانب ، ومن وجهة نظرهم ضد ماذا ؟

وقد اتخذ صراع الطبقتين القديمتين هذا في الغرب ، ضـــد الدولة ، شكل الفروند Fronde [1] ، أما في العالم الكلاسيكي حيث لم تكن هناك من سلالة ملكية لتمثل المستقبل ، وحيث كان للارستقراطية وحدها وجود سياسي ، فاننا نجد تجسيداً أو شبه تجسيد سلالي مالكلفكرة الدولة قد شكل فعلاً ذاته ، وكان يناصر هذا التجسيد الجزء الذي لا يتمتع بامتيازات من الشعب ، وقد ارتقى هذا الجزء به لأول مرة الى السلطة . وهذه كانت رسالة الطغاة Tyrannis .

وخلال هذا التحول من دولة طبقة الى دولة مطلقة ، والذي لم يكن يسمح بأي اجراءات لمشروعية ، غير مشروعيته ، دعت السلالات المالكة في الغرب — كما دعت من قبلها السلالات المالكة من مصرية وصينية - من لا منزلة لهم الى مناصرتها وتأييدها ، وبهذا اعترفت باللا - منزلة ، بوصف هذه كميـــة سياسية . وهنا تكمن الاهمية الحقيقية للصراع ضد الفروند ، هذا الصراع الذي لم تستطع ، بادىء ذي بدء ، قوى المدن الكبرى ، الا ان ترى فيه فائدة ومصلحة لها ،وذلك

Fronde (١) : هذا بالاساس حزب سياسي نشأ في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر ، واتخذ من مناهضة الحكومة وحزب البلاط رسالته السياسية ، لكن اشبنغلر هنا ، يعمم اسمه ومعناه على جميع الحركات الاوروبية المماثلة في أهدافها له .

— المترجم —

لأن الحاكم كان يقف هنا باسم الدولة ، ورعاية الجميع والاهتمام بهم ، ويقاتل النبلاء لانهم لا يريدون ان يحتفظوا ويحافظوا على منزلة النبالة بوصفها مرتبة سياسية .

أما في دولة المدينة ، فالحال كانت على العكس من تلك ، فهذه الدولة التي كانت تستند حصراً على الشكل ، ولم تتجسد رأساً متوارثاً ، لقد أسفرت فيها ضرورة اخراج اللاطبقيين لمناصرة فكرة الدولة ، عن دولة الطغاة ، حيث أخذت إحدى العائلات النبيلة ، أو عصبة منها تقوم بدور السلالة المالكة ، هذا الدور الذي لم يكن تحققه أمراً ممكناً ، لولا مناصرة الطبقة الثالثة . ولقد كان المؤرخون الكلاسيكيون المتأخرون زمناً بعيدين جداً عن مجرى هذه العملية كي يدركوا مغزاها ، وقد عالجوها فقط داخل حدود الملامح الخارجية للحياة الشخصية . والحق ان الطغاة كانوا هم الدولة ، ولقد قاومتهم الاوليغارشية تحت لواء الطبقة ، ولذلك فان دولتهم كانت تستند الى مناصرة الفلاحين والبرجوازيين — وكانت في اثينا (قرابة عام ٥٨٠) ممثلة بحزبي دياكري Diakrii وبارالي Paralii . ولهذا السبب ناصرت المذاهب الديونيسية والاورفية ضد الأبولونية ، وهكذا قام بسيستراتوس في اتيكا بفرض عبادة ديونسيس على الفلاحين بالقوة والارغام ، وقد حرّم كلستينيس Clisthenes في سيكيون Sicyon تلاوة اشعار هوميروس . وقد أدخل على روما ، وبصورة اكيدة تقريباً في زمن التاركويين مذهب ثالوث ديميتير (سيريس Ceres) — ديونسيس — كور Kore . وقد قام سبوريوس كاسيوس في عام ٤٨٣ بتكريس هيكل ذاك الثالوث ، وهو كاسيوس ذاته الذي خر فيا بعد صريعاً في محاولة لاعادة دولة الطغاة . وكان هيكل سيريس معبداً للعوام ، وكان مدراء هذا المعبد ، موظفي الاشغال العامة Aediles ، وهم الناطقون الموثوقون بلسانهم ، قبل ان يسمع اي انسان بذكر التريبونية Tribunate . وكان الطغاة ، كأمراء العصور الباروكية ، ليبراليين بالمعنى العريض لهذه الكلمة ، لكن الليبرالية لم تعد أمراً ممكناً بالنسبة لهم في المرحلة التالية مرحلة

سيطرة البرجوازية . ولكن العالم الكلاسيكي ، كان قد بدأ يشيع القاعـدة القائلة « بأن المال يصنع الرجال . » وقد سار طغاة القرن السادس بفكرة الدولة حتى استحلبوها كل مدلولاتهـا ، وأوجدوا المفهوم الدستوري للمواطنين ، المهذبين Polite ، المدنيين ، وكان مجموع هؤلاء ، بغض النظر عن أصولهـم الطبقية ، يشكل جسد دولة المدينة . ولذلك عندما تدبرت الاليغارشية أمورها واستطاعت ، خدعة وحيلة ، ان تنتصر ـ والفضل في انتصارها هـذا يعود مرة أخرى الى التشبث الكلاسيكي بالحضر ، والى الخوف والبغضاء الناجمين عنـه ، واللذين استثارتهما شبه ارادة ديمومة للحكام ـ وجدت الاليغارشيـة ان مفهوم المواطنية والمواطنين قد اصبح عميق الجذور ثابت القدم ، وألفت ان اللانبيل قد تعلم ان يعتبر نفسه يمثل طبقة هي ند « الطبقات الأخرى » . فلقد امسى هـذا حزباً سياسياً ـ ولقد اكتسبت الآن كلمة « ديمقراطية » (بما لهذه الكلمـة من معنى كلاسيكي خاص بها) محتوى حقيقياً في جديته وهنا لم يعد انطلاقه يستهدف مناصرة الدولة وتعضيدها ، بل أصبح يهدف الى جعل نفسه هي الدولـة ، كما كانت حال طبقة النبلاء من قبل . وبدأ يحصي المال والرؤوس من البشر ، لأن المال والحقوق السياسية العامة هما سلاحا البرجوازيـة سواء بسواء ـ بينما ان الارستقراطية لا تحصي او تعد ، بل تقيم ، وهي لا تصوت رأساً رأساً ، بـل تصوت طبقة طبقة . وكما ان الدولة المطلقة قد نشأت عن الفروند ودولة الطغاة الأولى ، لذلك قوضتها الثورة الفرنسية ، ودولة الطغاة الثانية . ونرى في هـذا النزاع الثاني ، وهو نزاع دفاعي ، ان السلالة المالكة تعود لتتخذ جانب النبلاء ، وذلك بغية حماية فكرة الدولة من حكم طبقة جديدة ، هي الطبقة البرجوازية . وتبتدىء ايضاً المرحلة ، الممتدة بين الفروند والثورة الفرنسية ، في مصر بجـلاء ووضوح . وهذه تتمثل في المملكة الوسطى . فلقد أقامت العائلة الثانيـة عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨) ـ وخاصة آمينمحيت الاول سيـوستريس الأول ـ الدولـة المطلقة على قواعد راسخة ، وبعد صراع شديد ضد البارونات المصريين . ولقـد نجـا الحاكم الاول من هذين ، كما تروي قصيدة شهيرة تعود الى ذاك الزمن ،

باعجوبة من مؤامرة دبرت في البلاط ، كما وان سيرة سنوحيت الشخصية تريننا كيف تبدت ارهاصات الثورة في الافق ، عندما توفي ، وكان نبأ وفاته قد احتفظ به سراً لمدة من الزمن . وقد قام بقتله موظفو القصر . وتخبرنا النقوش على حدث عائلة الامير تشمينوتيب ، كيف أمست المدن موفورة الثراء ومستقلة تقريباً ، وكيف كانت تحترب ويقتتل بعضها ضد بعض . ومن المؤكد ان هذه المدن لم تكن في ذاك الزمن ، أصغر من المدن اليونانية في زمن الحروب الفارسية . وكان وجود السلالة المالكة يرتكز على هذه المدن ويستند الى عدد معين من الاقطاب . وقد نجح أخيراً سيسوستريس الثالث (١٨٨٧ — ١٨٥٠) في الغاء طبقة النبلاء الاقطاعيين الغاء كاملاً . ولم يعد منذ ذاك التاريخ فصاعداً من وجود للنبالة ، ما عدا نبلاء بلاط، ودولة بيروقراطية وحيدة نظمت تنظيماً يبعث على التقدير والاعجاب ، ولكن كان هناك بعض من الناس يتفجعون على هبوط ابناء العائلات الى مهاوي العوز والبؤساء ، ويتألمون لتمتع «ابناء من لا آباء لهم» بالمناصب والتقدير . ففجر الديمقراطية كان آنذاك يتبدى في الافق ، والتطور الاجتماعي الماثل لحقبة الهكسوس ، كان في حال من تخمر .

أما المتجانسون وهؤلاء من حكام الصين ، فهم آل منغ — تشو (او با Pa ، ٦٨٥ — ٥٩١) . وهؤلاء كانوا حماة من أصل ملكي ، وكانوا يمارسون سلطة غير دستورية ولكنها حقيقية في عالم من دول تتمرغ في الفوضى ، وقد استحضروا الامراء الى المؤتمرات بغية اعادة النظام والاعتراف بمبادىء سياسية ثابتة ، كما واستحضروا حتى « حاكم الوسط » نفسه من عائلة تشو (التي تصبح الآن غير ذات قيمة اطلاقاً) . وكان أول هؤلاء ، هو هوانغ من تسي (قرابة عام ٦٤٥) الذي سمي أعضاء الجمعية التمثيلية لعام ٦٥٩ ، والذي كتب عنه كونفوشيوس قائلاً بأنه هو الذي انقذ الصين من الارتداد الى البربرية . وقد أصبح اسمه منغ — تشو ، يعني فيما بعد ما تعنيه كلمة « طاغية » ، وهي كلمة أصبحت تقال الآن في معرض الذم والقدح ، وذلك لان الناس أمسوا فيما بعد

لا يريدون ان يروا في هذه الظاهرة أي شيء سوى سلطة غير مشروعة قانونيا . ولكن مما لا ريب فيه اطلاقاً ان هؤلاء الدبلوماسيين العظام كانوا عنصراً يعمل باهتمام صادق مخلص ، ومكرساً ذاتـــه للدولة ، ومتفانيا في سبيل المستقبل التاريخي ضد الطبقتين القديمتين ، وكانت تدعمه الطبقتان الفتيتان ، العمل والمال . والحق انها لحضارة راقية هي التي تتحدث الينا من خلال هذا القليل الذي نعرفه حتى الآن من المصادر الصينية . فبعض هؤلاء كانوا مؤلفين وكتاباً ، وآخرون منهم اصطفوا الفلاسفة وزراء لهم . ولا يهمنا في كثير او قليـــل اذا ما كنا نساويهم عقلاً بريشيليو او بفلانشتين ، او بـ بيرباندر - فعلى كل حال ، فان « الشعب » قد أصبح معهم كماً سياسياً . انها المطل والدبلوماسية الراقية الباروكي لاصيل - حيث تنطلق الدولة المغلقة ، من ناحية المبدأ ، فتصبح المناهضة للدولة الارستقراطية وتنتصر .

وفي هذا يكمن التوازي الوثيق لهذه الاحداث والفروند في اوروبا الغربية . ففي فرنسا لم يعد العرش ، بعـد عام ١٦١٤ ، يدعو الجمعية التمثيلية للاجتماع ، فهذه المؤسسة قد اظهرت بأنها قوية جـــداً بالنسبة لقوى الدولة والبرجوازية . وبالمثل حاول شارل الاول ان يحكم بعد عام ١٦٢٨ ، في انجلترا دون برلمان . ونشبت ، في الوقت ذاتـــه ، حرب الثلاثين عاماً في المانيا . وضخامة اهميتها الدينية ، جديرة بأن تحجب بظلالهـــا الموضوع الاساسي للنزاع ، عن ناظرينا ، ويتوجب علينا ألا ننسى ان هذه الحرب كانت أيضاً تمثل جهـداً يرمي الى البت بصورة حاسمة في الصراع بين السلطة الامبراطورية وبـــين عصبة الفروند من الامراء المنتخبين العظام ، والصراع بين الامراء المنفردين وبين الاقل فروندية من المجالس التمثيلية المحليـــة والمشكلة من النبلاء ، ولكن مركز الثقل لعالم السياسة كان يقوم آنذاك في اسبانيا . فهنا تفتح الاسلوب الدبلوماسي الباروكي ، مترابطاً والدمائة بصورة عامة ، في مجلس وزراء فيليب الثاني ، وبلغ مبدأ توارث العرش - الذي حشد كل امكانات الدولة أمـــام المجلس التشريعي - أرقى

مراحل تطوره وذلك في مجرى الصراع الطويل بين البيت المالك الاسباني وآل البوربون . وقد فشلت المحاولة الرامية الى ادخال انكلترا في المنهاج الاسباني على يدي فيليب الثاني ، وذلك عندما غضبت زوجته الملكة ماري من ووريث كان مترقباً وقد أعلن عنه من قبل . ولكن الآن ، وفي عهـد فيليب الرابع ، فان فكرة مملكة عالمية تقيس البحار والمحيطات وتعبرها شبراً شبراً ، لم تعـد تبعث الحياة - في تلك المملكة الصوفيـة ، مملكة الاحلام ، في العصور الغوطية ، والامبراطورية الرومانية المقدسة ذات الامة الالمانية - بل أحيت مثلاً أعـلى ملموساً يتجسد صيرورة العالم في قبضة آل هابسبورغ ، وتصبح مدريد مركزه ، وجعل الممتلكات الثابتة في الهند وأميركا بالاضافة الى قوى المال التي كانت آنذاك قد أمست ذات وزن ، ركائز هذا العالم واسسه . وفي هذا الوقت ايضاً حاول آل ستيوارت تأمين مركزهم المهدد بالاخطار ، عن طريق عقـد قران وارث العرشين الانكليزي والاسكتلندي ، على أميرة اسبانية ، ولكن مدريد اختارت في النهاية ان تربط نفسها باقربائهـا من السلالة المالكة في فيينا ، وهكذا عاد جيمس الاول فتحول بعروضه للزواج نحو الحزب المعارض لتلك السلالة ، نحو آل بوربون والحق أن التعقيدات العقيمة لهذه العائلة ، كان لها الفضل الاول في ربط حركة التطهير بعصبة الفروند من الانكليز ، وانفجارهما معـاً بثورة عظمى واحدة .

ولقد كان المتربعون على العروش في هذه الفترة - كما كان « معاصروهم » في الصين - مجرد شخصيات ثانوية اذا ما قورنوا برجال الدولة العظام الذين أمسكوا بأيديهم بزمام مصير الغرب طيلة عقود من السنين . ولقـد كان اوليفارتز في مدريـد ، والسفير الاسباني اوناتي Onàte في فيينا أوسع شخصيات اوروبا سلطة وسلطاناً . وكان خصماهما فلانشتين المناصر لفكرة الامبراطورية في المانيا ، وريشيليو المكافح في سبيل الدولة المطلقة في فرنسا - وقـد خلف هذين ، بعـد فـترة قليلة من الزمن ، كروموبل في انكلترا ، اولدبنارنيفلدت في هولنـدا

وأكسونستيرنا في السويد . ونحن لا نصادف حتى اطلالة الامير المنتخب العظيم، أمير براندنبورغ ، أي عاهل يملك أهمية سياسية خاصة بـه .

وانطلق فلانشتين ، دون مـا وعي ، من حيث توقـف آل هوهنشتاوفن . وكانت سلطة المنزلتين الاجتماعيتين قـد أصبحت ، منذ وفـاة فريدريك الثاني ، عام ١٢٥٠ ، سلطة لا تحدهـا حدود ولا تقيدهـا قيود ، وهكذا فان حربه التي شنها ، بوصفه المدافع الاول عن دولة الامبراطور المطلقة ، قـد شنها ضد هاتين الطبقتين في الفـترة الاولى من توليه القيـادة . ولو أن فلانشتين كان دبلوماسياً أمهر مما كانه ، وكان أنقى بصيرة ، وفوق هذا كله ، كان أشد مضاء في عزمه وجسوراً غير هياب (لانه كان في الواقع رعديدا أمـام المنعطفات الحاسمة) ، وكلف على الاقل نفسه عناء اخضاع الملك لنفوذه ، كما فعل ريشيليو ـ لـكان من الجائز ان تتاثرت الامارات بدداً بدداً ، وانتهى امرها داخل الامبراطورية . لقد كان فلانشتين يرى في هؤلاء الامراء عصاة ومتمردين ، وانـه من المتوجب خلعهم ومصادرة أراضيهم . ولقد قال ، وهو في ذروة سلطانه ، وعندما كانت ألمانيا ، عسكرياً ، في قبضة يده (نهاية عام ١٦٢٩) بصوت جهوري وخـلال حديث له ، بأنـه من المتوجب ان يصبح الامبراطور السيد في الامبراطورية ، كما هي حال ملكي فرنسا واسبانيا . وجيشه الذي وكان قادراً على تأمـين احتياجاته بنفسه ، وكان ، بسبب عدده ، مستقلاً عن المنزلتين ، هذا الجيش كان اول نموذج شهدته المانيا لجيش امبراطوري ذي وزن اوروبي ، واذا مـا قورن جيش تيللي Tilly به فانه يبدو ضئيل الشأن الى جانبـه (وذلك لان جيش فلانشتين كان ما كانته فعلاً عصبة الدول الالمـانية) . وعندمـا ضرب فلانشتين ، عام ١٦٢٨ ، حصاره حول شترالسوند ، وأخذ يتأمل ببصره متخيلاً وجود قوة بحرية هابسبورغيـة في البلطيق تهاجم منهاج آل بوربون من مؤخرتـه ـ وكان ريشيليو في ذلك الوقت تماماً يحاصر مدينة لاروشيل وحظه منها كان اكبر من حظ ذاك ـ أصبح العداء بين فلانشتين وعصبة الدول الالمانية امراً لا يمكن

تجنبه تقريباً . ولقد تغيب عن حضور اجتماع الجمعية التمثيلية في رجنسبورغ ، عام ١٦٣٠ ، قائلاً « إن مقر هذه الجمعية سيكون قريباً في باريس » . ولقد كان تغيبه هذا أشد الاخطاء السياسية خطورة التي اقترفها في حياته ، لان امراء الفروند الناخبين قد استغلوا غيابه فغلبوا الامبراطور على امره مهددينه بالخلع وتنصيب لويس الثالث عشر مكانه ، كما وارغموه على عزل قائده العسكري، وبهذا تكون القوة المركزية في المانيـــا ، بالرغم من عدم ادراكها لخطورة نتائج الخطوة التي خطتها ، قد تخلت عن جيشها . ومنذ هذا التاريخ فصاعداً أخذ ريشيليو يدعم الاعضاء الاقوياء من الفروندي في المانيا ، مستهدفاً من وراء ذلك تحطيم القوة الاسبانية فيها ، بينما تحالف الجانب الآخر ، البفاريز وفلانشتين، حالما استعاد سلطته ، مع الارستقراطية الفرنسية التي استعادت زمام المبادرة ، وانطلقت تهاجم بقيادة الملكة الام وغاستون اوف اورليان . لكن السلطة الامبراطورية كانت حينذاك قد فقدت فرصتها العظمى . فالكاردينال ربح في الميتين ، اذ انه أعدم في عام ١٦٣٢ آخر آل مونتمورنسي ، واجتذب الامراء الكاثوليك من الالمان فعقدوا حلفاً مع فرنسا . ومنذ هذا التاريخ فصاعداً أخذ فلانشتين ، الذي لم يعد قانعاً بمقاصده النهائية ، ينحرف اكثر فاكثر عن الفكرة الاسبانية ، مفكراً بان انحرافه هذا قادر على ابقاء فكرة الامبراطورية بقية منها ، وهكذا كان يقترب ، فعلاً ، خطوة بعد خطوة من موقف طبقتي النبلاء والكهنة — كما حدث للماريشال تورين في الفروند الفرنسية بعد قليل من الاعوام. وهذا كان هو المنعطف الحاسم في التاريخ الالماني فيما بعد . فبانفصال فلانشتين أصبحت دولة الامبراطور المطلقة امراً مستحيلاً ، وقتله فيما بعد عام ١٦٣٤ ، لم يصحح هذه الحال ، لانه لم يكن لدى الامبراطور بديل له يحل محله .

ومع ذلك فان هذا الارتباط كان حينذاك ملائماً مرة اخرى ، وذلك لان صراعاً حاسما نشب في عام ١٦٤٠ بين العروش وبين النبلاء والكهنة ، وانفجر في وقت واحد في كل من اسبانيا وفرنسا وانكلترا . وقد هبت المجالس التشريعية

في كل المقاطعات الاسبانية تقريباً ضد اليفارتز ، وانفصلت البرتغال عن اسبانيا الى الابد ، جارة معها الهند وافريقيا ، وقد استلزمت استعادة كاتالونيا ونابولي سنوات وسنوات من الكفاح . أما انكلترا .. فلقد حدث تماما ما حدث في حرب الثلاثين تماما – اذ ان الصراع الدستوري الذي نشب بين العرش والاعيان الذين كانوا يسيطرون على العوام قد عزل بعناية وحذر عن الجانب الديني للثورة . وذلك نظراً لان ترجمة هذا الجانب بالنسبة لكل من الاعيان والعامة كانت أمراً عويصاً . لكن المقاومة المتنامية التي صادفها كرومويل لدى الطبقة الدنيا بصورة خاصة – والتي ارغمته ، غير مختار أطلاقاً ، على اللجوء الى الدكتاتورية العسكرية والشعبية التي استرجعتها الملكية فيا بعد ، تظهران الى أي حد تخطت عنده المصالح الارستقراطية كل الفروقات الدينية ، بغية اسقاط العائلة المالكة .

وفي الوقت ذاته الذي كانت تجري محاكمة شارل الاول ومن ثم اعدامه ، نشب عصيان في باريس ارغم البلاط الملكي على الفرار . وأخذ الناس يهتفون باسم الجمهورية ويقيمون المتاريس في الشوارع . ولو انه كانت في الكردينال دي ريتز كمية اكبر مما فيه من معدن كرومويل ، لكان انتصار المنزلتين على مازارين أمرا ممكناً على الاقل . ولكن موضوع هذه الازمة العظمى العامة في الغرب ، قد بت فيه بوزن ومصائر حفنة من الشخصيات ، واتخذ له شكلاً ، وبنوع من اسلوب ، مكن الفروند (الممثلين بالبرلمان) من اخضاع الدولة والملكية في انكلترا وحدها لاشرافهم – وتوطد هذا الاشراف في « الثورة الجيدة » لعام ١٦٨٨ ، وبصورة دائمة الى حد لا تزال معه حتى هذا اليوم اجزاء جوهرية من الدولة النورمانية القديمة ، راسخة ثابتة . أما في فرنسا واسبانيا فلقد حققت الملكية نصرا كاملا شاملا . ولكن صلح فستفاليا ، نظم علاقات الامراء الاقوياء على أساس انكليزي بالامبراطور بينما نظم علاقاتهم بالاقل فروندية من الامراء المحليين على اساس فرنسي . وكانت المنزلتان تسيطران

وتمكهان في الامبراطورية بعد حالها هذه ، أما في الاقاليم فكانت السيطرة للاسر المالكة . وهكذا أمسى ، منذ ذاك التاريخ فصاعداً ، المقام الامبراطوري الالماني ، شبيهاً بمقام الملكية الانكليزية ، اي مجرد اسم محاط بمظاهر عظمة اسبانية تعود آثارها الى العصور الباروكية المبكرة ، بينا خضع الامراء الافراديون ، كما خضعت العائلات الكبرى من الارستقراطية الانكليزية ، لطراز باريس ، وارتبط استبدادهم الاثني عشري المطلق ، سياسياً واجتماعياً ، باسلوب فرساي . وهكذا جاءت النتائج ، في هذا الميدان وذاك في صالح آل بوربون ، وضد آل هابسبورغ ، وهي نتائج كانت جلية واضحة في معاهدة صلح البرينيز لعام ١٦٥٩ .

وبهذا المنعطف الحقبي ، تحققت الدولة ، بوصفها امكانية ملازمة لكل حضارة ، وبلغت تلك القمة من « الوضع » ، التي لم يعد بالامكان تجاوزها ، ولا الحفاظ عليها طويلا . ونحن لنشعر بنسمة من ربيع خريف تهب على فريدريك الاكبر وهو يقيم حفلاته في قصر سان سوسي . وهذه هي السنوات ايضاً التي تبلغ فيها الفنون العظمى ، قمة نضوجها العقلاني وأشده نقاء وصفاء – نجد تريكسيس وبراكسيتيلس بقفان جنباً والخطباء المفوهين الذين عرفتهم آغورا أثينا ، ونجد موسيقى باخ وموزارت مترافقة ودبلوماسية مجلس الوزراء البعيدة النظر والثاقبة البصر .

لقد أصبحت دبلوماسية مجلس الوزراء بالذات فناً رفيعاً ، وغبطة فنية لكل من له أصبع فيها ، فهي عجيبة مدهشة بدهائها ، ومخاتلتها ، ورشاقتها وليونتها ، دمثة أنيقة ، تعمل بغموض وسرية في مساحات شاسعة واسعة – وذلك لان روسيا والمستعمرات في اميركا الشمالية ، وحتى دول الهند قد أدخلت منذ زمن الميدان ، بغية اتخاذ قرارات في نقاط اخرى تماماً من الكرة الارضية ، بواسطة الثقل المجرد للتحزبات او الاتحادات المباغتة . انها لعبة لها قوانينها الصارمة ، لعبة

من فض الرسائل والاطلاع عليها دون علم اصحابها ، ومن العملاء السريين والتحالفات والمؤتمرات الدولية وفق النظام الدولي والذي دعي حتى آنذاك « بجوقة » الدول الكبرى (ولهذا الاسم الجوقة - مغزى عميق) - وهي مليئة (ولنستعمل مصطلحة تلك المرحلة هنا) بالـ Noblesse والـ Esprit ، وهي اسلوب للمحافظة على التاريخ في « شكل لائق » لم يسبق أبداً للخيال ان عرفه في أي مكان او حتى ان يدركه الخيال .

وبالكاد تغطي مرحلة الدولة المطلقة ، في الغرب الذي قد أصبح ميدان نفوذه ، العالم بأكمله ، قرنا ونصف قرن من الاعوام - وتبدأ بعام ١٦٦٠ عندما انتصر آل البوربون على عائلة هابسبورغ في معاهدة صلح البيرنيز ، وعندما عاد آل ستيوارت الى انجلترا ، وتنتهي بالحروب الائتلافية التي شنت على الثورة الفرنسية ، والتي انتصرت فيها لندن على باريس ، او اذا ما فضل احدهم ، انتصرت على مؤتمر فيينا ، حيث قدمت خلاله الدبلوماسية القديمة ، دبلوماسية الدم والمال ، انجازها الوداعي العظيم . وتتجانس مع هذه الحقبة ، حقبة بركليس الواقعة بين العهد الاول للطغاة وبين عهدهم الثاني ، وحقبة « ربيع وخريف » لتشون - تسوي Tshun Tsui ، كما يصف الصينيون كل الزمان الممتد بين الحماة وبين الدول المتنازعة .

وتتبدى في هذا الطور الاخير من أطوار الدبلوماسية الوقور ، هذه الدبلوماسية ذات الاشكال التقليدية ، لكنها غير شعبية ، والمألوفة ، لكن المرء لا يبتسم عليها ، أقول تتبدى قمما مطبوعة بخمود نار السلالتين الهابسبورغيتين في حوادث من توارث مريع للعرش ، واحداث دبلوماسية وشبه حربية ازدحمت من عام ١٧٠٠ - ١٠ - حول توارث العرش الاسباني ، واحتشدت من عام ١٧٤٠ - ٦٠ - حول وراثة التاج النمساوي . وهذا الطور هو ايضاً

أوج المبدأ السلالي . فالقول القائل: Bella, gerant alii, tu felix austria,nubi كان فعلا « امتدادا للحرب بوسائل اخرى » . والحق ان شبه الجملة هذه كانت قد صيغت قبل هـذا الزمن بمدة طويلة (وذلك ارتباطاً بمكسيمليان الاول) ، ولكنها لم تعبر فعلاً عن مدلولاتها الحقيقية الا الآن . فحروب الفروند تنتقل لتصبح حروباً تدور حول توارث العرش ، وهـذه تقررها مجالس الوزراء ، ويخوضون غمارها بروح الفروسية وبجيوش صغيرة ، وتدور رحاها وفق تقاليد حازمة صارمة . فالشيء الذي كانوا يتنازعون عليـه ؛ هو تركة حجمها نصف العالم ، وملك كسبته سياسة الزواج الباروكية المبكرة ، ووضعته جزءاً بعـد جزء في ايدي آل هابسبورغ . والدولة لا تزال في « حالة جيدة » ، والنبـلاء قد أصبحوا ارستقراطية موالية ، ارستقراطية بلاط وخدمة ، ينفذون حروب العرش وينظمون ادارته العامة . ومرعان ما نشأ في بروسيا ، او جنباً الى جنب ولويس الرابع عشر الفرنسي ، تنظيم لدولة هو رائعـة من الروائع . ولقد كانت طريق بروسيا ، ابتداء من النزاع بين الامير المنتخب العظيم وبين منزلتيه الاجتماعيتين (١٦٦٠) حتى وفاة فريدريك الاكبر (الذي استقبل ميرابو قبل ثلاثة اعوام من سقوط الباستيل) هو الطريق ذاتها التي سلكتها فرنسا ، وتمثلت النتيجة عند كل منهما في دولة ، كانت في كل نقطة من نقاطهـا النقيض للنظام الانكليزي .

وذلك لان الوضع في الامبراطورية الالمانية كان مخالفا للوضع في انكلترا . ففي انكلترا إنتصر الفروند ، ولم تكن الامة الانكليزية تحكم حكما استبداديا مطلقا ، بل كانت تحكم حكما ارستقراطيا . زد على ذلك ايضا وجود فرق هائل بين انكلترا والامبراطوريـة ، فانكلترا كانت جزيرة ، وكان باستطاعتها ان تستغني الى حد كبير عن الرقابـة الحكومية ، كما وان لورداتها في مجلس اللوردات ، واعيانها في مجلس العموم باعمالهم قد استندوا على وضوح عظمـة

انكلترا وجلالها ، بينا وكزت المرتبـــة العليا من امراء الارض – بجمعيتها التمثيلية الموجودة في ريجنسبورغ ، بوصفها مجلس لوردات اهتمامها بصورة رئيسية ، على تهذيب شظايا من الامة وقعت صدفة بين ايديهم وجعل هذه الشظايا « شعوبا » واضحة بينـــة ، وعلى تخطيط حدود قطيعاتهم المشتتة من ارض الوطن ، باشد ما يمكنهم من دقة وتحديـــد ، وعزلها عن قطيعات « الشعوب » الاخرى . وهكذا اخذ هؤلاء يتعهدون برعايتهم ، فكراً وعملا ، افقاً اقليميا ، بدلاً من ذاك الافق العالمي الذي تعهدته العصور القوطية . وتخلوا عن فكرة الامة لعالم الاحلام – ذاك العالم الذي لم يصنع من العنصر او العرق ، بل من اللغة ، ولم يبدع من العنصر بل من السببية . وفي هـذا العالم نشأت الفكرة واخيرا واقع « الشعب » كما ادركه الشعراء والمفكرون ، حيث اوجدوا لانفسهم جمهورية في غمام الشعر وغيوم المنطق ، ومن ثم اصبحوا يؤمنون اخيرا بان السياسة تتألف من كتابات وقراءات واحاديث مثالية ، وانها لا تتكون من الفعل والعزم – وحتى يومنا لا يزالون يشوشون معاني الافعال الفعلية والعزائم الحقيقية بتعابير مجردة عن رغبة وهوى .

ان انتصار الاعيان في بريطانيا ، واعلان الحقوق عام ١٦٨٩ قد وضعا فعلا نهاية للدولة . ولقد اجلس البرلمان وليم الثالث على العرش ، ثم منع فيما بعـد جورج الاول والثالث من ان يتخليا عن التاج ، وذلك كله ارضاء لمصالح طبقته . واصبحت كلمة « دولة » التي كانت شائعة ودارجة منذ زمن مبكر كزمن آل تيودور ، كلمة مهملة لا تتردد على لسان احد – وامسى من المستحيل ان نترجم الى الانكليزية كلمة لويس الرابع عشر « انا الدولة » او كلمـــة فريدريك الاكبر : « انا الخادم الاول لدولتي » . ومن جهـــة اخرى وطدت الكلمة « مجتمع » ذاتها بوصفها تعبيرا عن واقع كون الامة في « شكل لائق » في ظل نظام طبقة ونظام دولة . وهذه الكلمة « مجتمع » هي الكلمة ذاتها التي اقتبسها روسو والعقلانيون بصورة عامة ، واقتبسوها بسوء فهم بارز لمغزاها ، ليعبروا عن بغضاء

الطبقة الثالثة للسلطة . لكن السلطة في انكلترا بوصفها « الحكومـــة » مخططة تخطيطا جلياً واضحا ومفهومة جيـد الفهم . ولقد اصبح مجلس الوزراء ابتداء بجورج الاول فما بعده ، مركز السلطة ، لكنه كيان لا وجود له اطلاقا من الوجهة الدستورية ، فهو من الوجهة الواقعية لجنة تنفيذية لعصبة من النبلاء تكون مسيطرة على مقاليد الامور فترة وجود هذا المجلس . ولقد وجـــد الاستبداد المطلق ، لكنه استبداد وفد مفوض لطبقة ومن طبقة . زد على ذلك ان فكرة « صاحب الجلالة » قد انتقلت الى البرلمان ، كما انتقلت من قبل حصانـة ملوك الرومان الى التريبونات . ومبدأ التسلسل النسبي موجود في بريطانيا ايضا ، لكن يعبر عنه من خلال العلاقات العائلية داخل العائلات الارقى في طبقة النبلاء . وقد قام حتى اللورد سلسبري في عام ١٩٠٢ ، كأنه احد آل سيسل ، فاقترح ان يكون ابن اخيه بلفور خليفة له ، بدلاً من يوسف تشمبرلين . وكانت العصبتان من النبلاء ، التوري والهويـغ ، في كثير من الاحيان تنفصل الواحدة منهما عن الاخرى انفصالا متزايدا في وضوحه ، وذلك حين اختلاف وجهتي النظر ، في عما اذا كانت السلطة اهم من الغنيمة ـ وذلك في حال تقييم الارض فوق المال ـ او العكس بالعكس ، وقد عبرت الطبقة البرجوازية الارقى عن هذا التناقض حتى في القرن الثامن عشر ، وذلك من خلال التباين القائم بين كلمة « جدير بالاحترام» Respectable وكلمة « على الموضة » Fashionable ، وهاتان الكلمتان تعبران عن مفهومين متباينين للجنتلمان . زد على ذلك ان مصلحة الطبقة تحل بصراحة ، محل مبدأ اهتمام الدولة بالجميع . ولهذا يطالب الفرد بحريته ـ وهذا هو ما تعنيه « الحرية » في الانكليزية ـ ولكن الوجود الجزيري ـ نسبة الى جزيرة ـ وبنية « المجتمع » قد خلقا في انكلترا علاقات على شكل يجعل في النهاية كل من ينتمي اليها (وهذا موضوع ذو شأن في دكتاتورية المرتبة) يشعر بان مصالحه ممثلة بهذا الحزب او ذاك من النبلاء .

وهذا الرسوخ لآخر الاشكال واعمقها وانضجها ، هذا الشكل الذي ينبع

من الشعور التاريخي للجنس البشري الغربي ، هو شكل انكره العالم الكلاسيكي ونفاه . فالطغاة تلاشوا واختفوا ، وكذلك الاليغارشية ، والشعب ، العوام ، الذي خلفته سياسة القرن السادس ، بوصفه مجموعا لجميع الناس المنتمين الى دولة المدينة ، قد تناثر الى عصبات واحزاب وصدمات تشنجية لنبلاء ضد اللانبلاء ، وبدأت الصراعات داخل الدول وبينها ، حيث حاول كل حزب ان يفني الحزب الآخر ، كي لا يصبح هو نفسه عرضة للافناء . وعندما قام الفيثاغوريون في عام ٥١١ – وهذا عام من اعوام عصر الطغاة – بابادة السايباريين Sybaris ، كانت هذه الحادثة هي الاولى من نوعها ، وقد انجمت العالم الكلاسيكي طولا وعرضا ، وحتى مدينة ميليطيوس البعيدة النائية Miletus ، لبست عليها السواد ولكن الآن امسى ابادة دولة – مدينة باكملها وافناء حزب باجمعه امراً عاديا مألوفا حتى انه نشأ شكل نظامي واختيار مناهج واساليب – وهذه تنطبق على معاهدات الصلح النموذجية في باروكيته في الحقبة الباروكية الغربية للقضاء على المغلوبين – فمثلا قد يقدم المنتصر على ذبحهم او بيعهم في اسواق النخاسة ، او قد يعمد الى تدمير منازلهم ، او اقتسامها كغنائم وهنا تتبدى ارادة الاستبداد المطلق قائمة وموجودة – وهذه امست عالمية في انتشارها بعد الحروب الفارسية ، فكنت تراها في روما واسبرطة ، وايضا في اثينا – لكنها ارادة هي ضيق الافق المراد لدولة المدينة ، انها سياسة النقطة ، والاختزال المراد لعدد اولئك الذين يشغلون الوظائف ، زد على ذلك ان فورية المناهج جعلت من المستحيل على هذه الارادة ان تبلغ قرارا ثابتا ، فيما يتعلق بما يتوجب ان تكونه « الدولة » . فتلك المهارة الراقية في الدبلوماسية التي كانت تمارسها مجالس الوزراء في الغرب والمستوحاة من اعراف وتقاليد ، عطلتها ، هنا في العالم الكلاسيكي الهواية ، وهذه لم توجد بسبب القلة التصادفية من الرجال – فالرجال كانوا موجودين – بل انما كانت موجودة فقط داخل الشكل السياسي بالذات . ومجرى تطور هذا الشكل ابتداء بعهد الطغاة الاول حتى الثاني ، يجرى لا تخطئه الفراسة ، وينطبق على التطور ذاته لكل الحقبات المتأخرة زمنا من الحضارات الاخرى ، لكن الطراز الكلاسيكي

منه يبــدو ، بصورة خاصة مشوشا عادما لكل نظام ، وخاضعا لكل ما هو تصادفي وطارىء وهذا الطراز ينبع بداهة وحتما من شكل حياة لا تستطيع ولا تريد ان تفصل ذاتها عن البرهة الآنية .

واهم الامثلة على هذا الطراز ، هو تطور روما خلال القرن الخامس – وهذه مرحــلة لا تزال حتى الآن مدارا لخصام المؤرخين ونزاعاتهم ، وذلك لانهم ، حصراً ، يحاولون ان يجدوا فيها متانة او ترابطاً ، هذا الترابط الذي لا يستطيع ان يوجد هنا اكثر من وجوده في اي مكان آخر من الدولة الكلاسيكية . وهناك نبع آخر من منابع سوء الفهم ، وهو كونهم قــد اعتبروا الاوضاع لذاك التطور (تطور روما – المترجم) بوصفها اوضاعا بدائية تماما ، بينما في الواقع ، يجب ان تكون حتى مدينة التركوينيين ، قد بلغت منذ زمن وضعا متقدماً جداً ، وروما البدائية تقع في فترة اقدم زمنا بكثير من تلك . وعلاقات القرن الخامس هي عـلى مستوى بسيط اذا ما قورنت بعلاقات عصر قيصر ، لكنها لم تكن علاقات غارقة في القدم . وذلك لان التقليد المكتوب هو ناقص (كما كانت حاله في كل مكان آخر ما عدا اثينا) كما وان الحركة الادبية التي تلت الحروب البونية انطلقت لتملأ الفراغات بالقصائد والاشعار ، وبصورة خاصة (وذلك كما هو مترقب في العصر الهيليني) باستصراخ ماض رقيق لين ، كما هي الحال مثلا في قصة سنسناتوس . ومع ان العلمية الحديثة لم تعد تؤمن بهذه الاساطير ، لكنها بالرغم من ذلك بقيت تحت تأثير الوضع الذي اوحى بتلفيقها ، وتسترسل الآن في النظر الى اوضاع ذاك الزمن بعيني هذا الوضع – وبالاكثر من الاستعداد يعالج التاريخان اليوناني والروماني ، بوصفها عالمين منفصلين ، وتتبع كالعادة المارسة الشريرة في البرهنة على بداية التاريخ ببداية اسانيد صحيحة . والواقع ان اوضاع عام ٥٠٠ ق م ، قــد تكون اي شيء ، لكنها ليست بهوميرية . فالآثار الموجودة على جدرانها تظهر ان روما في عهــد التاركوينيين كانت ، كابوا Capua ، اكبر مدينة في ايطاليا ، واكبر من اثينا في عهـد تيموستكليس .

فالمدينة التي تبرم المعاهدات التجارية مع قرطاجة ليست بالتأكيد مستوطناً لفلاحين . ونستنتج من ذلك ان عدد سكان مدينة القبائل الاربع عام ٤٧١ يجب ان يكون جد غفير ، ولربما كان عددهم اكثر من مجموع القبائل الست عشرة المتنئة في الخلاء ، تافهة حقيرة .

أما النجاح الهائل الذي لاقاه النبلاء ، ملاك الارض ، في خلعهم الطغاة ، والذي صادف من المؤكد تقريباً ترحيباً شعبياً شديداً ، وفلاحهم في اقامة نظام سانتوري غير محدود ، فان نجاحهم هذا قد احبطته ثانية سلسلة من الاحداث العنيفة وقعت في عام ٤٧١ — احلال اربع حماة عظام للمدينة محل العشائر العائلية ، وتمثيل التريبيونات لاولئك (هؤلاء الذين كانوا ذوي حرمة مقدسة واعني بهذا انهم كانوا يتمتعون بامتيازات ملكية ، (لم يكن يتمتع بها اي موظف ارستقراطي من موظفي الادارات العامة) . واخيرا تحرير صغار المزارعين من حواشي النبلاء وبطانتهم .

لقد كانت التريبيونية ، اسعد إلهام ، لا لهذه الحقبة فقط ، بل لمدينة الدولة الكلاسيكية بصورة عامة . لقد كانت نظام الطغاة الذي أرتفع به الى مركز صحيح متكامل والدستور ، ووضعت على شكل متواز وكل ما بقي قائماً من انظمة ، وذلك بالاضافة الى الوظائف الاليغارشية القديمة . وهذا الامر يعني ان الثورة الاجتماعية ايضاً قد نفذت بوسائل مشروعة ، وان ما حدث في البلاد الاخرى من انعتاق وحشي عنيف ، وبهزات وهزات مضادة أصبح هنا مناظرات في الفوروم محدودة ومقيدة بقاعدتي النقاش والتصويت . فلم يكن هناك من حاجة لاستدعاء الطاغية ، فالطاغية كان موجوداً هنا وقائماً . وكان التريبيون يمتلك حقوقاً فطرية في المركز ، وليست حقوقاً تنشأ عن الوظيفة التي يشغلها ، وكان يستطيع ، اعتماداً على حصانته ، ان ينفذ مشروعات ثورية ، لا يمكن للمرء ان يتصور تنفيذها في دولة مدينة أخرى دون قتال شوارع . والحق ان خلق

التريبونية هذه كانت حدثاً تصادفياً ، ولكن لا يوجد أي من ابداعات روما ، كان بامكانه ان يأخذ بيدها ويعضدها كهذا الابداع . ففي روما وحدها نفذت مرحلة الانتقال من عهد الطغيان الاول حتى العهد الثاني منه ، وبالاضافة الى التطور من العهد الاخير هذا حتى ما بعد أيام زاما Zama ، تنفيذاً شهد بعض الهزات ، لكن ، على كل حال ، لم تنجم عنه أية كارثة . ولقد كان التريبيون هو حلقة الوصل بين التاركوينيين وقيصر . واصبح ، نتيجة قانون هورتنسيا Lex Hortensia الصادر عام ٢٨٧ ، صاحب السلطان المطلق ، اذ كان الطاغية الثاني في « شكل » دستوري . وفي القرن الثاني ، كان باستطاعة التريبيونات ان يتسببوا في اعتقال القناصلة والمراقبين Censors [1] ووضعهم في السجن . ولقد كان الفراتشيون تريبيونات ، كما وأن قيصر اتخذ لنفسه منصب التريبيونية بصورة دائمة ، أضف الى ذلك ان الوقار التريبيوني كان العنصر الاساسي في ولاية اوغسطس الحكم ، وهو العنصر الوحيد الذي يعود اليه الفضل في حصول اوغسطس على حقوق الملك .

ولم تكن أزمة ، عام ٤٧١ ، أزمة فريدة في نوعها ، بل انما كانت أزمة ذات اصل كلاسيكي . وكانت تستهدف الاليغارشية التي كانت تناضل حتى في هذا العصر ، عصر التريبونية ، وداخل صفوف الشعب الذي خلفه عهد الطغاة ، كي تصبح القوة الحضية ، الدافعة ، في الامور العامة . ولم تكن حالها في هذه الايام ، كحالها في أيام هسيود ، أي طبقة اليغارشية تجابه اللا طبقيين ، بل كانت حزباً اليغارشياً يعارض حزباً ثانياً - وكلا الحزبين كانا داخل « كادر Cadre »

(١) Censors : كان لروما قاضيان كبيران ، يطلق عليهما هذا اللقب ، وكانا هما المشرفان على مراقبة الاخلاق والسلوك بالاضافة الى اشرافهم على مراقبة دوائر الاحصاء العام .
— المترجم —

(نظام) الدولة ، ولذلك فان الاليغارشية ، وهذا هو شكلها الآن ، لم تصبح موضوعاً لنقاش أو جدل .

وفي أثينـــا ، خلع الارخونات في عـام ٤٨٧ ق . م ونقلت حقوقهم الى مجمع الستراتيجية . كما وألغي الاريباغوس ، المماثل لمجلس الشيوخ الرومـاني في ٤٦١ . اما في صقلية (التي كانت وثيقة العلاقات بروما) فلقـــد انتصرت الديمقراطية في أكراغاس (اغريغنتوم) عام ٤٧١ ، وفي سيراكوس عام ٤٦٥، وفي ريجيوم ومسينا عام ٤٦١ .

وفي اسبرطه ، حاول الملكان كليومينيس (٤٨٨) وبوسانياس (٤٧٠) أن يحررا الهيلوط لكنهما فشلا في هذه المحاولة — والهيلوط وفق المصطلح الروماني هم الحواشي والبطانة — وكانا يهدفان من وراء محاولتها هذه ، ان يرتفعا بالملكية ، تواجهاً والافورين الاليغارشيين ، الى مكانة التريبيونية في روما . أمـــا العنصر المفقود في هذه المحاولة ، والذي كان متوفراً في روما (بالرغم من ان علماءنا قـد اغفلوه) ، فهو قوة سكان المدن التجارية ، هذه القوة التي تزود حركات كهـــذه بالثقل والقيادة . وبسبب فقدان هذا العنصر بالذات فشلت الثورة العظمى التي قام بها الهيلوط في عام ٤٦٤ (وهذا حدث من الجائز أنه أوحى للرومان بالاساطير عن انشقاق العوام عن مونس ساسير) .

وفي دولة المدينة ، ينصهر نبلاء الارياف ونبلاء المدينة ويندمجون معاً في كتلة واحدة (وهذا هو هدف ازدواج الجنس كما سبق لنا ان رأينـــا) لكن البورجوازيين والفلاحين لا يتم اتحادهم على هذا الشكل ، فهم حزب واحـد متحد وذلك فيما يتعلق بصراعهم ضد الاليغارشيـــة — أي انهم الحزب الديمقراطي — ولكنهم حزبان في غير هذه الحال . وهذا هو ما ستعبر عنه الازمة التالية فيما بعد . وقد بذل نبلاء المدينة الرومان (قرابة عام ٤٥٠) جهودهم في هذه الازمةوذلك ان

يشيدوا سلطانهم على أساس كونهم حزباً - وهذا ما يتوجب علينا أن نفسر به الغاء التريبيونية واحلال الديسيمفرز Decemvirs (مجلس العشرة قضاة - المترجم) محلها ، واشتراع اللوائح الاثني عشرة التي تحرم على العوام ، الذين كانوا قد استحصلوا حديثاً على وجود سياسي ، الزواج غير المتكافىء والتجارة ، واهم من هذا كله « خلق » قبائل ريفية صغيرة كانت تسيطر عليها (واقعاً لا قانونا) العائلات العريقة التي كانت تتمتع بأكثرية ساحقة ١٦ على ٤ (في الـ Comitia– Tributa التي وضعت الآن جنباً الى جنب والـ Centuriata) وهذا يعني بداهة تحريم الفلاحين لحق التصويت على سكان المدن ، كما ويعني دون شك ايضاً ، انه حركة قام بها حزب نبلاء المدينة، وحاولوا من ورائها ان يوحدوا، بضربة مشتركة واحدة ، بين بغضاء الريف وبغضائهم ، وان يجعلوا هذه البغضاء المشتركة ذات اثر وفعل في الاقتصاد المالي للمدينة .

ولكن سرعان ما شن الهجوم المعاكس ، وهذا يتبدى في عدد التريبونات العشرة ، والذين يظهرون بعد انسحاب الديسيمفرز ، ولكن هناك احداثاً أخرى لا يمكن ان تكون الا منتمية لهذا الهجوم - كمحاولة سبتيموس ميليوس اقامة عهد طغيان (٤٣٩) ، وقيام الجيش - باحلال تريبونات قنصليين محل الموظفين المدنيين (٤٣٨) وقانون كانيوليا Lex Canuleia الذي وضع حداً لتحريم الزواج غير المتكافىء بين نبلاء المدينة والعوام .

ولا شك انه كانت توجد ، طبعاً ، عصبات داخل حزبي نبلاء المدينة والعوام ، وكانت هذه العصبات ترغب في تشويه هذا الملمح الاساسي من ملامح دولة المدينة الرومانية ، وان تستغل التباين القائم بين مجلس الشيوخ والتريبونية ، فتدفع بالواحد منها الى الغاء الآخر ، ولكن هذا الشكل من النظام قد اثبتت الايام سلامته الى درجة انه لم يصادف ابداً فيما بعد أي تحد خطير . وقد اتخذ مجرى المنافسة منعطفاً مخالفاً تماماً ، وذلك بسبب فرض جيش العوام جدارة هؤلاء

بأرقى الوظائف (عام ٣٩٩) . ويمكننا ان نلخص القرن الخامس ، فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، انه قرن من صراع استهدف اقامة عهد طغيان قانوني مشروع ، ومنذ ذاك القرن فما بعده ، أصبحت السيادة للدستور ، وسلم الجميع باستقطابيته ، ولم يعد الصراع بين الاحزاب يستهدف الغاء المناصب الكبرى ، بل غدا يهدف الى الاستيلاء عليها . وهـــذا كان جوهر الثورة التي نشبت في مرحلة حروب السمنيت . وامست جميع الوظائف ابتداء بعام ٢٨٧ بمتناول العوام ، الذين كانوا حين موافقتهم على اقتراحات التريبونات ، تصبح هذه الاقتراحات اوتوماتيكياً قوانين سارية المفعول ، ومن جهة اخرى كان من الممكن عملياً ودائمـــاً ، وذلك ابتداء من ذاك الزمن فما بعده ، أن يقوم مجلس الشيوخ ، بسبب فساد أعضائه ، أو بأي سبب آخر ، فيغري احد التريبونات ويدفعه الى استخدام حق « الفيتو » (النقض) ، وبهذا يجرد مجلس التريبونات من سلطانه ، والحق ان مـا نشهده من دهاء فقهي ، ومهارة قانونية لدى الرومان ، يعود الفضل في نشوئها وتطورها ، الى الصراع بين هاتين السلطتين القديرتين الماهرتين .

لقد كانت تتخذ القرارات حينذاك في كل مكان آخر بالقبضـــة والمراوة والنبوت ـ والكلمة الفنية لهذه « قوة الايدي وقانونها » Cheirocracy لكن هنا ، وفي « افضل » مراحل القانون الدستوري الروماني ، القرن الرابع ، لقد تشكلت عادة استخدام اسلحة البحث والاجتهادات والتفاسير ، وهـــذه اسلوب لمنافسة يمكن ان يكون فيه لابسط النقاط في الصياغة القانونية اهمية حاسمة .

ولكن روما كانت ظاهرة فريدة في نوعها ، في كل التاريخ الكلاسيكي ، باقامتها هذا التوازن بين مجلس الشيوخ والتريبونية . اذ ان القضية لم تكن في كل مكان آخر ، مسألة ميزان متأرجح الكفتين ، بل كانت دائماً الاختيـــار بين بديلين ، ، أي الأليغارشية او الدهماوية Ochlocracy وكانت دولة المدينـــة ، والامة المتجانسة واياها والمنطبقة عليها ، مقدمتين منطقيتين مسلماً بهما ، لكن لم

تكن أية واحدة منها تمتلك بشكلها الباطني هدوءاً أو استقراراً . اذ كان يعني انتصار الحزب الواحد ، الغاء جميع مؤسسات الحزب الآخر ، ولقد اعتاد الناس على الا يعتبروا أي شيء يملك من الاحترام أو النفع ما يكفي لاستثنائه من اقدار المعركة اليوميـــة ، لقد كان شكل اسبرطة ، مثلاً ، سينتوريا ، واثينا تريبيونيا ، ولكن ما كادت تنشب الحرب البيلوبونيزية في عـام ٤٣١ ، حتى كانت الفكرة القائلة بأن الاشكال يجب ان تكون متناوبة ، قد بلغت من الرسوخ مبلغاً ، امست معه ، منذ ذاك الحـــين فصاعداً ، الحلول الجذرية هي وحدها الامر الوحيد الممكن .

وبهذا يكون المستقبل قد تقرر لروما . فهذه هي الدولة الوحيدة في العـــالم الكلاسيكي ، حيث كانت العواطف والانفعالات السياسية تستهدف الاشخاص، ولم تعد تجعل ابداً المؤسسات أهدافها ، وهي الدولة الوحيدة التي كانت يومذاك في « شكل لائق » فمجلس الشيوخ والتريبونية صهر في شكل من البرونز ، ولم يحاول اي حزب منذ ذاك الحين فصاعداً ان يطرقـه ، بينما ان جميـع الدول الباقية ، بما لسلطة كل واحدة منها ، من ضيق أفق في العـــالم الكلاسيكي ، لم تستطع الا ان تبرهن ، المرة تلو الاخرى ، على الواقعـــة القائلة بان السياسة الداخلية ، انما توجد فقط ، من أجل صيرورة السياسة الخارجية أمراً ممكناً .

- ٦ -

وعند هذا الحط ، حيث تبدأ الحضارة بتحويل نفسها الى مدنية ، يتدخل من لا منزلة لهم - اللاطبقيون - في الامور العامة ، تدخلاً حاسماً - ويتدخلون لاول

مرة ، – بوصفهم قوة مستقلة .

ولقد سبق للدولة ان استصرختهم، في عصور الطغاة والفروند Fruonde ليهبوا الى مساعدتها ضد المنزلتين بالذات، ومنذ ذاك الوقت ، تعلم هؤلاء ، ولاول مرة ، ان يشعروا بأنهم سلطة وقوة . اما الآن فانهم يستخدمون قوتهم من أجل ذواتهم ، ويقومون باستخدامها بوصفهم طبقة تناصر حريتها وتدافع عنها ضد الباقين وهذه الطبقة ترى في الدولة المستبدة ، وفي التاج ، وفي المؤسسات ذات الجذور ، الحلفاء الطبيعيين المنزلتين القديمتين ، والممثلين الحقيقيين والاخيرين للتقاليد الرمزيـــة . وهذا هو الفرق بين عهـــد الطغيان الاول والثاني ، بين الثورة الفرونـــدية والبرجوازية ، بين كرومويل وروبـــيير .

ان العقل المتحضر يشعر بالدولة وبمطالبها الثقيلة من كل فرد داخلها ، على انها عبء مرهق . وهكذا يبدأون ، في الطور ذاته ، بأن يشعروا بأن الاشكال العظمى للفنون الباروكية هي اشكال قاسية في قيودها واغلالها ، وأنها قد اصبحت متكلسكة ومترمتكة – أي انها ناقصة التكوين وسقيمة واهنة ، وما الآداب الالمانية ابتداء بعام ١٧٧٠ الا ثورة طويلة شنتها شخصيات افرادية قوية على الشعر الملتزم . وهنا تصبح الفكرة القائلة بصيرورة الامة في حال من « تدريب لائق » أو « شكل لائق » ، فكرة لا تطاق أو تحتمل . وهذا القول ينطبق أيضاً على الاخلاق والفنون واساليب التفكير ، وقبل كل شيء آخر ، على السياسة . فكل ثورة برجوازية تتخذ من المدينة الكبرى مسرحاً لتمثيل رواياتها، وتتخذ من عدم ادراكها للرموز القديمة طابعها ، وتقوم باستبدال هذه الرموز بمصالح محسوسة ، وبأمنية (أو حتى بمجرد رغبة) المفكرين المتحمسين ومصلحي العالم ، في ان يروا

مفاهيمهم متجسدة واقعاً وفعلا . وهنا لا يعود لاي شيء قيمة ، ما عدا ذاك الذي يمكن العقل ان يبرره . لكن الحياة القومية ، وهي قد جردت على هـذا الشكل الذي هو بجوهره رمزي ويعمل بصورة ميتافيزيقية ، تفقد القوة للحفاظ على رأسها مرفوعاً في مجاري كينونة التاريخ .

ولتتابـع المحاولات اليائسة التي قامت بها الحكومة الفرنسية ـ وقامت بهـا حفنة من الرجال القديرين البعيدي النظر في عهد لويس السادس عشر العـادي الجوهر ـ بغية الحفاظ على وطنهم ، في وضع لائق ، وكيف أصبحت كامل قوة ثقل الوضع الخارجي ، بعد وفاة فرجيني Vergennes عام ١٧٨٧ ، جلية واضحة . فبموت هذا الدبلوماسي اختفت فرنسا لاعوام واعوام من الاتحـادات السياسية في أوروبا ، وكيف بقي في الوقت ذاته الاصلاح العظيم ـ وقبل كل شيء الاصلاح الاداري العام لتلك السنة ، المستند الى أوسع قواعد الحرية الذاتية هذا الاصلاح الهائل الذي نفذه التاج ضد كل المقاومات ، كيف بقي غير فعال اطلاقاً ، وذلك لانه قد اصبح فجأة ، في نظر دماثة السلطة ، موضوع الساعة بالنسبة المنزلتين ، هو القوة والسلطان .

وكانت تتبدى في الافق ، قبل هذا التاريخ بقرن ، وفي قرن بعده ، ارهاصات منظورة لحرب اوروبية ، وكانت هذه تقترب شيئاً فشيئاً مسوقة بضرورة حتمية لا تنقض ، لكن لم يكن هناك من انسان يلقي بنظرة واحـدة على الوضع الخارجي . لقد كان من النادر ان يفكر النبلاء كمنزلة بابعاد السياسة الخارجية ، والتاريخ العالمي ، اما البرجوازيون ، بوصفهم منزلة ، فلم يعرف فكرهم ابداً مثل هذا التفكير . ولم يسأل أحد عما اذا كانت الدولة بشكلها الجديـد تستطيع اطلاقاً المحافظة على كيانها بين الدول . لقد كان كل ما يهمهم هو ما اذا كانت

الدولة تضمن « حقوق » الناس وتؤمنها .

لكن البرجوازية ، طبقة « الحرية » الحضرية ، بالرغم من بقاء شعورها الطبقي قويا لاجيال واجيال (اذ بقي هذا الشعور في اوربا الغربية قويا حتى ما بعد عام ١٨٤٨) فانها لم تكن في اي وقت من الاوقات السيد المطلق الحرية في اعماله . وذلك لان وحدتها ، قبل كل شيء ، قد تبدت في كل وضع حرج وخطير ، على انها كانت وحدة سلبية وانها وحدة ، توجد فعلا ، في لحظات معارضة شيء ما ، او اي شيء آخر ، « فدولة الطبقات TiersÉtat » ، « والمعارضة » هما كلمتان تكادان تكونان متماثلتين في المعنى – وعندما كان يتوجب ، على هذه الطبقة ان تقوم بعمل انشائي خاص بها ، كانت مصالح شتى مجموعاتها تتجاذبه الى كل اتجاه . فكل ما تريده او ترغب فيه – هو ان تكون حرة متحررة من شيء ما . لكن العقلانيين كانوا يرغبون في ان تكون الدولة هي التجسيد « للعدالة » ضد الوقائع التاريخية ، او هي « حقوق الانسان » ، او حرية تقل الدين السائد . وكان المال يريد طريقا حرة الى النجاح في الاعمال . وكان هناك الكثيرون من الذين يتمنون ان يعيشوا براحة وهدوء بال ، ويريدون التبرؤ من العظمة التاريخية ويرغبون في ان يجنبهم الناس عناء تحقيق هذا التقليـــد او ذاك ، الذين كانوا يعيشون عليه جسمانيا وروحيا . ولكنه كان يوجد الآن عنصر آخر ، عنصر لم يكن له من وجود في صراعات الفروند (بما في ذلك الحرب الاهلية الانكليزية) او في العهد الاول للطغاة ، لكنه اليوم يمثل قوة من القوى – واعني بهذا العنصر ، هو ذاك الموجود في جميع المدنيات وتحت مختلف نعوت التحقير – حثالة الامة ، ارذال القوم ، الغوغاء الدهماء Dregs , Canaille , Mob , Pobel – ولهـــذه جميعاً المضمون المريع ذاته . وفي المدن العظمى ، التي كانت هي وحدها تنطق الآن بالكلمات الحاسمة – كان اكثر ما يستطيعه الريف المنفسح هو اما ان يقبـل أو يرفض سياسة الامر الواقع ، كما يدلل على ذلك قرننا الثامن عشر – فمن يقطنه

كانوا هتامات لا جذور لها من سكان ، تقف خارج دائرة كل الترابطات الاجتماعية . وهؤلاء لا يشعرون بأنهم مرتبطون بمنزلة اجتماعية ، أو بطبقة مهنية ، ولا يحسون بأنهم حتى طبقة عاملة حقيقية ، بالرغم من انهم مرغمون على العمل . وهناك عناصر مقتلعة من جميع الطبقات تنتمي الى هؤلاء ـ كالفلاحين المستأصلة جذورهم من الارض ، والمتعلمين ، ورجال الاعمال المفلسين ، واهم من هؤلاء كلهم ، النبلاء المنحرفون عن الجادة (كما تظهر عصور كاتلين Catiline ذلك بوضوح مرعب) . ولهذه الدهماء من القوة ما يفوق عددها ويتجاوزه بعيد ، وذلك لانها دائما وابداً حاضرة وناظرة ، وهي موجودة ويمتناول اليد ، حين اتخاذ القرارات العظمى ، ومستعدة للقيام بأي عمل ، وعاطلة من كل احترام للانتظام والاتساق ، حتى الاتساق وحزب ثوري . ومن هذه الاحداث تكتسب تلك القوة المدمرة التي تميز بين الثورة الفرنسية والثورة الانكليزية ، بين عهد الطغاة الثاني وعهدهم الأول . وتنظر البرجوازية الى هذه الجماهير من الغوغاء بقلق حقيقي ، وبنظرة دفاعية ، وتسعى لتنعزل عنها ـ والى هذا العمل الدفاعي ، لهذه الطبقة يعود الفضل في تألق نجم نابليون في ١٣ فنديمير Vendemiaire . ولكن لا يمكن تخطيط الحد الفاصل بين البرجوازية والدهماء خلال ضغط الوقائع أو الاحداث ، وحيثما تلقي البرجوازية بوزنها ضد الانظمة الاقدم زمناً ، يكون ثقله ضعيفاً في عدوانيته ـ ضعيفاً بعدده النسبي ، وضعيفاً لأن التماسك الباطني لهذه الطبقة مهدد في كل لحظة بالانحلال ـ وهكذا تجد الدهماء قد كشفت قوة وارغاماً ، طريقها الى صفوفها ، وتنطلق الى المقدمة ، وتقوم بالمجرم الذي يحقق النصر ، وتدبر في معظم الاحيان امورها فتؤمن المركز المغزو لنفسها ـ ولم تكن معاضدة المثقفين المثالية المستمرة ، هؤلاء المفتونون عقلانياً ، بأمر نادر للدهماء على هذا الفوز ، وكذلك الاسناد المادي لقوى المال ، هذه القوى التي تسعى لتحويل تيارات الاخطار عنها باتجاه منزلتي النبلاء والاكليريكيين .

وهناك وجه آخر يعطي لهذه الحقبة أهميتها ـ ففي هذه الحقبة تحاول الحقائق

التجريدية ، لاول مرة ، ان تتدخل في عالم الوقائع . فالمدن العواصم قد أمست على تلك الدرجة من الضخامة ، وبلغ الانسان الحضري ذاك المبلـــغ من التفوق والنفوذ على الشعور الواعي لكامل الحضارة (وهذا النفوذ هو ما ندعوه بالرأي العام) ، حيث زعزعت معه قوى الدم والتقاليد الفطرية فيـــه ، وجت في مركزها الذي لم يكن اقتحامه ممكناً حتى الآن ، رجاً . وذلك لانـه يتوجب علينا ان نذكر ان الدولة الباروكية ودولة المدينة المطلقة السلطان ، في تطويرهما النهائي للشكل ، هما سداة ولحمة تعابير حية عن مراقة الاصل ، وان التاريخ ، من حيث كونه ينجز ذاته داخل هذين الشكلين ، هو يمتلك النبض المليء لهـــذه الطرقة في الاصل . وان أية نظرية قد تصاغ عن الدولة ، داخل هذين الشكلين ، هي نظرية مستقرأة من الوقائع التي تطأطيء رأسها لعظمة الوقائـــع . ففكرة الدولة قد سيطرت أخيراً هنا على المنزلة الاجتماعية الاولى سيطرة كاملة ، ووضعت هذه المنزلة بأكملها ، ودون تحفظ ، في خدمة الدولة . والمطلق (يعني هنـــا الحكم المطلق المترجم) يعني ان المجرى العظيم لكينونة هو في شكل لائـــق بوصفه وحدة ، وانه يملك نوعاً واحداً من النبض والغريزة ، أكانت ظواهر هـذا النبض بصيرة دبلوماسية ، أو فطنة ستراتيجية ، ووقار اخلاق وسلوك ، او ذوقاً متأنقاً في الفنون والافكار .

وهنا تطل العقلانية برأسها ، بوصفها النقيض لهذه الوقمة العظمى ، وتنشر ذاك الذي وصفناه أعلاه بأنه الصفة المشتركة من الشعور الواعي في المثقفين الذين دينهم هو النقد ، وأرواحهم ليست آلهة ، بل مفاهيم . وهنا يبدأ نفوذ الكتب والنظريات العامة فعله في السياسة — وهذا النفوذ يتمثل في الصين بلاوتسي ، وفي اثينـــا بالسفسطائيين ، وفي اوروبا بمونتسكيو — ويغرس الرأي العـــام الذي شكله هؤلاء ، نفسه في طريق الدبلوماسية ، بوصفه جرماً أو قيمة من نوع جديد تماماً . ومن السخف ان يزعم المرء أن بـيستراتوس او ريشيليو ، او حتى كرومويل ، قد قرروا ما قاموا به من اعمال تحت تأثير مناهج تجريدية ، ولكن هـــذا هو

ما يحدث فعلا بعد انتصار عصر « التنوير » .

وبالرغم من هذا ، فان الدور التاريخي للمفاهيم العظمى للمدينـة ، هو دور يختلف تماماً عن اللامح التي عرضتها داخل عقول الايديولوجيين الذين تخيلوهـا . فتأثير الحقيقة يختلف دائماً عن نزعتها . فالحقائق في عالم الوقائع ، هي وسائل ذات أثر ونفوذ ، من حيث انها تسيطر على الارواح ولذلك تقرر الاعمال والافعال . ولا يجري تقرير مركزها التاريخي ، على اساس انها عميقة وصحيحة او حتى منطقية ، بل على أساس ما اذا كانت توحي وتنطق فتبلغ . وهذا ما نراه في كلمة «شعار» (او الكلمة المأثورة ــ المترجم Catchword) . فما كانت تخبره أديان الربيع الحضاري من رموز معينة خبرة حيـــة ــ ككنيسة القيامة في نظر الصليبيين ، وجوهر المسيح في أزمات مجمع نيقية Nicaea ــ فان جرسي كلمتين او ثلاث موحيين روحياً ، هما الخبرة بالنسبة لكل ثورة متمدنة . فالشعارات وحدها هي الوقائع ــ أما ما يتبقى بعدها في المناهج الفلسفية او الاجتماعية ، ومن اين نشأت هذه وجاءت ، فهذا امر لا يهم التاريخ كثيراً أو قليلا . لكنها كانت ، بوصفها شعارات ، ولمدة قرنين من نبض الدم نفسه ، الذي اخذ يتبلد Dull في هذا العالم المتحجر من المدن الواسعة الانتشار .

ولكن ــ الروح التنديدية هي فقط احدى النزعتين اللتين تنشآن عن الكتل الفوضوية من اللاطبقيين . فتظهر المفاهيم التجريدية الى جانب المال التجريدي ــ المـال المنفصل عن القيم الاساسية للارض ــ والى جانب غرفـة المطالعة ، تظهر غرفة المحاسبة ، بوصفهما قوتين سياسيتين ، وكلتاهما متقاربتان باطنياً ، ومن أصل واحد ولا يمكن العزل أو الفصل بينهما ــ اما التعارض القائم بين النبيل والكاهن فلقد استمر على شدته كما كان دائماً ، في محيط البرجوازية وداخل اطار المدينة . ويظهر المال نفسه على انه هو المتفوق تفوقاً غير مشروط عـلى الحقائق المثالية ، التي لا وجود لها في نظر عالم الامر الواقع ، الا بوصفها شعارات ووسائل (كما

سبق لي ان قلت آنفاً) . واذا كنا نحن نعني بالديمقراطية انها الشكل الذي تريد الطبقة الثالثة ان تنشره على هذه الصورة في الحياة العامة ككل ، عندئذ يتوجب علينا ان نقرر ان الديمقراطية والبلوتوقراطية هما الشيء نفسه من وجهتي نظر الأمنية والواقع ، النظرية والممارسة ، المعرفة والعمل . والحق انها لمهزلة فاجعة تتبدى في الصراع اليائس لمصلحي العالم ومعلمي الحرية ، ضد المال ، فهم بصراعهم هذا يساعدون فعلاً المال على ان يكون مؤثراً واسع النفوذ . وما الاحترام للرقم الكبير – المعبر عنه في مبادىء المساواة ، والحقوق الطبيعية والتصويت العام الشامل للجميع – سوى مثل أعلى لطبقة من لا طبقة له ، وحالة هذه تتفق تماماً وحال مبدأ حرية الرأي العام (وبصورة اشد تخصيصاً مبدأ حرية الصحافة) . فهذه جميعاً هي مثل عليا ، لكن حرية الرأي العام ، تشتمل في ميدان الامر الواقع ، على اعداد الرأي العام ، وهذا الاعداد يكلف مالاً ، كما وان حرية الصحافة تثير معها موضوع ملكية الصحف ، وهذه هي ايضاً قضية مال او نقود ، ومع حق التصويت العام تطالعنا الانتخابات حيث من يدفع الثمن المغني يختار الاغنية . زد على ذلك ان ممثلي الفكرة (المبدأ – المترجم) ينظرون الى الجانب الواحد فقط ، بينا يعمل ممثلو المال وينشطون في الجانب الآخر . كما وان مفاهيم الليبرالية والاشتراكية يدفع بها المال الى الحركة المؤثرة الفعالة . وسلاح الفرسان في الجيش الروماني Equites ، حزب الثروات المالية الكبرى ، هو الذي جعل حركة تيبريوس غراشوس الشعبية امراً ممكناً اطلاقاً ، وحالما أقر قانونا ذاك الجزء من الاصلاحات الذي يخصهم ، انسحبوا وتراجعوا وانهارت هذه الحركة . زد على ذلك ان قيصر وكراسوس قد مولا حركة كاتلين Catilinarian ، وهكذا وجهوها ضد حزب الشيوخ بدلاً من ان يوجهوها ضد الملكية . « وقد استن ساسة بارزون في بريطانيا منذ عام ١٧٠٠ قاعدة « المضاربة بأصوات الناخبين كما هي حال المضاربة في سوق المال والاسهم ، وكان ثمن الصوت معروفاً تماماً

كثمن فدان من الارض[1] » . وعندما بلغت انباء معركة واترلو مسامع باريز ارتفعت اسعار سندات الحكومة الفرنسية - فالباقية كانوا قد دمروا وجانب الدم وفروضه القديمة وكذلك فعل المال المعتوق الحرر ، وهو الآن يتقـــدم الصفوف بوصفه سيداً للوطن . ولا توجـــد هناك أية حركة بروليتارية وحتى شيوعية لم تنشط لصالح المال ، أو في اتجاهات اشار اليها المال ، او لمدة من زمن سمح بها - وذلك دون ان يكون لدى المثاليين من قادتها أبسط وعي لهـــذا الواقع . ان العقل يرفض توجيهات المـــال - وهكذا تراه يدخل في كل فصل ختامي من دراما الحضارة ، وذلك عندما تصبح المدينة العالمية العظمى سيدة على الباقي . وفي النهاية لا يكون للعقل أي سبب يستثير شكواه . وذلك لانه قد حقق ، في نهاية المطاف ، انتصاره - اي انتصر في مملكة حقائقه ، مملكة كتبه ومثله العليا ، وهذه المملكة ليست من هـذا العالم . ومفاهيمه أصبحت موضع احترام وتبجيل لمطلع المدنية . لكن المال ينتصر في مملكته بواسطة هذه المفاهيم بالذات ، ومملكته هذه هي من هذا العالم .

ومن دول العالم الغربي كانت انكلترا هي وحدهـــا التي تدرجت على كلا جانبي سياسة الطبقة الثالثة ، الجانب المثالي ، والجانب الحقيقي منهـا . ففي هذه الدولة وحدها كان باستطاعة الطبقة الثالثة ان تتجنب ضرورة الزحف ضد الدولة المطلقة السلطان ، بغية تدميرها وتشييد سلطانها الخاص على انقاضها . وذلك لانه كان بمقدور هذه الطبقة ان تترعرع وتنمو داخـل الشكل القوي للمنزلة الاولى ، منزلة النبالة ، حيث وجدت شكلاً مستكمل التطور لسياسة المصالح ، شكلاً كان بامكانها ان تقتبس من مناهجه ، ولاغراضها الخاصة ، تكتيكاً تقليديا بلغ

---

(١) ج. هتشيك : تاريخ التشريع الانكليزي ، صفحة ٥٨٨ .

- المترجم -

من التطور درجة ، بحيث نادراً مـــا راودتها عندها رغبة في ادخال اي تحسين عليه . فهنا كان موطن برلمانية اصيلة منقطعة النظير برلمانية لا تضاهي ولا تقلد او تحاكي ، برلمانية كانت تمتلك مركزا جزيرياً ، بدلاً من الدولة ، كمنطلق لها ، وتقاليد المنزلة الاولى ، لا الطبقة الثالثـــة ركيزة لها . اضف الى ذلك توفر الظروف والاوضاع الصالحـة لنمو هذا الشكل في أوج الازدهار الباروكي ، ولهـــذا كان يحوي موسيقى في داخله . وكان الاسلوب البرلماني متجانساً كل التجانس ودبلوماسية مجلس الوزراء ، ويكمن في هذا الاصل المناهض للديمقراطية سر كل ما لاقاه من نجاح .

ولكن من التربة البريطانية ايضاً نمت الشعارات العقلانيـــة فرداً وجملة ، وعلاقاتها بمبادىء مدرسة مانشستر كانت وثيقة — وهيوم كان استاذ آدم سميث ومعلمه . « والحرية » كانت تعني جهاراً نهاراً حرية العقـــل والتجارة . وكان التعارض بين سياسة الامر الواقع والحماسة للحقائق التجريدية امرا مستحيلاً في انكلترا جورج الثالث ، على قدر ما كان امرا محتوما في فرنسا لويس السادس عشر . وقد استطاع فيما بعد ان يرد ادموند بورك على ميرابو قائلا « اننا نطالب بحرياتنا ، لا بوصفها حقوقاً للانسان ، بل لكونها حقوقا للانسان الانكليزي » . لقد تلقت فرنسا جميع فكرها الثورية ، دون استثناء من بريطانيـا ، كما تلقت اسلوب ملكيتهـا المطلقة من اسبانيا . ولقد قامت فرنسا باعطاء كلتيهما شكلاً رائعا لا يقاوم اتخذ كنموذج في طول اوروبا وعرضها ، لكن فرنسا لم تكن تملك ابـة فكرة عن التطبيق والاستخدام العمليين لهذا الشكل . وان الانتفاع الناجح بالشعارات البرجوازية في ميدان السياسة يفترض وجود عـين ثاقبـة البصر داهية واربية لطبقة حاكمة ، نرى الدستور العقلاني لطبقة تنوي الحصول على السلطة لكنها لن تكون قادرة على استخدامها حين حصولها عليها . ومن هنا نجح الشكل الذي اعطتـه فرنسا في انكلترا . لكن انكلترا كانت هي ايضا البلد الذي استخدم فيه المال في السياسة ودون تردد ، اكثر ممـــا استخدم في اي بلد

آخر - لكنه لم يستخدم هنا لرشوة افراد يتمتعون بمراكز عالية ، كما كانت عادة الاسلوب الاسباني او البندقي ، بل « لحضانة » القوى الديمقراطية بالذات ورعايتها . وقد جرى في القرن الثامن عشر ، في انكلترا ، تدبير امر الانتخابات البرلمانية اولا ، ومن ثم تدبير المنتخبين لمجلس العموم ، تدبيرا منهاجيا بواسطة المال ، كما وان بريطانيا اكتشفت بدورها المثل الاعلى للصحافة الحرة ، لكنها اكتشفت ايضا الى جانبه ان الصحف تخدم من يملكها . فهي لا تنشر الآراء الحرة بل تولدها .

وكلا هذين الجانبين يشكلان الليبرالية (بمعناها العريض) ، وهذان همـــا - التحرر من قيود الحياة المرتبطة بالارض ، أكانت هـذه الحقوق امتيازات أم اشكالا او مشاعر - اي حرية العقل في جميع انواع النقد - وحرية المال في كل نوع من انواع العمل ولكن كلاهما يهدفان ، دون تردد ، الى تحقيق سيطرة طبقة ، سيطرة لا تعترف بطغيان سيادة الدولة عليها . فالعقل والمال بوصفهما غير متعضيين معاً ، لا يريدان ان تكون الدولة شكلًا ناضجاً لرمزية راقيـة تحترم وتبجل ، بل يريدانها آلة تخدم اغراضهما . وهكذا فان الفرق بين هاتين القوتين وبـين قوى الفروندية هو فرق جوهري ، وذلك لان ردة فعـــل القوى الفروندية ، كانت تمثل دفاعاً عن اسلوب الحياة القوطية ضد اسلوب الحياة الباروكية المفخم وكونه في « شكل لائق » - والآن نري كلا هذين يقفان معاً موقفاً دفاعيا ، ويبدو التمييز بينهما امراً يكاد يكون مستحيلا تقريبا . ففي انجلترا وحدها (وهذا ما نؤكده المرة تلو المرة) لم يجرد الفروند الدولة وحدها من اسلحتها في معركة مكشوفة ، بل انما جرد ايضاً الطبقة الثالثـــة بتفوقه الباطني ، وهكذا بلغت انكلترا ذاك النوع الواحـــد من الشكل ، من الدرجة الاولى ، الذي تستطيع الديمقراطية ان تحطه ، وهو شكل لم يخطط له ولم يقتبس ، بـــل نضج نضوجاً طبيعيا ، وهو تعبير لاصل عريق ، وفطنة اكيدة مستمرة تستطيع ان تهيء ذاتها لاستخدام كل وسيلة جديدة تضعها تصاريف الزمن بين يديها . وهكذا

ظهر ان البرلمان الانكليزي ، بينا كان يشترك في حروب الدول المطلقة الدائرة حول توارث العرش ، كان يعالج امورهـا بوصفها حروبـاً اقتصادية تشتمل على اهداف ومقاصد تجارية . ان سوء ظن اللاطبقيين ، اللاشكليين باطنا ، يبلغ من العمق ، في كل مكان ، مبلغاً يجعلهم دائمـاً وفي كل مكان مستعدين للمخاطرة بحريتهم – من كل الاشكال – بواسطة الدكتاتورية التي لا تعترف بأيـة قاعدة او قانون ، وهي لذلك معادية لكل ما نمـا وترعرع ، زد على ذلك ان ذوقي كل من العقل والمال يتقبلها نظراً انزعتها الميكانيكية – ولنتأمل مثلا في هيكل آلة الدولة الذي بدأ ببنائه روبسبير وأنهاه نابليون . ولقـد لاقت الدكتاتورية في خدمة مصالح المثل الأعلى الطبقي هوى لدى روسو وسان سيمون كما واستحسنها الايديولوجيون الكلاسيكيون في القرن الرابع – كزينفون في كيروباديا Cyropaedia واسوكراتس في نيكوكليس Nicocles .

ولكن قول روبسبير المأثور « ان حكومـة الثورة هي الاستبداد المطلق للحرية ضد الطغيان » يعبر عن اكثر من هذا . انه يكشف عن الخوف العميق الذي ينفض نفضاً كل جمهرة من الناس تشعر بذاتها في الشدائد الخطرة ، على انهـا « ليست في شكل لائق » . ان اللواء العسكري الذي تفككت حلقات انضباطه ، يكون مستعداً لاطاعة قواد تضعهم الصدفـة البرهية على رأسه ، ولتنفيذ اوامر الى حد وذات نوع لا تستطيع ابدا ان تصدرها القيادة الشرعية او تطالب بتنفيذها ، والتي اذا ما اصبحت مشروعة تمسي غير محتملة اطلاقـاً . ولكن هذا هو الى حـد بعيد حال كل مدينة مبتدئة . وليس هناك من شيء يكشف بوضوح وفصاحة عن انحطاط الشكل السياسي وتدهوره ، اكثر وافصح مما يكشفه نشوء تلك القوى اللاشكلية التي نستطيع ان نسميها ، اعتماداً على مثالها الواضح ، بالنابليونية . فكم كان لمقدمات حقبـة ريشيليو أو فلانشتين الراسخة الثابتة ، من اكتناف شامل كامل لكياني هذين الشخصين !

وكم كان لشكل الثورة الانكليزية ، تحت كل مـا لشكلها الظاهري من

نقص تكوين ، من غريزة وسليقة وجبلة ! لكننا نشهد في النابليونيـــة العكس تماماً ، اذ نرى حزب الفروند يحارب على الشكل ، ونرى الدولة المطلقة تحارب داخل الشكل ، لكننا نشهد البرجوازية تحارب ضد الشكل . ان الالغاء المجرد لنظام اصبح هزيلا واهناً ليس بالامر الجديد – فكرومويل وزعماء عهد الطغيان الاول قاموا بهذا العمل . ولكن كون انتفاء وجود جوهر لشكل غير منظور وراء انقاض الشكل المنظور وركامه ، وكون روبسبيير ونابليون لم يجـدا شيئاً حولهما او داخلهما ليصنعا منه القاعدة الواضحة والغنية عن البيان ، والجوهرية بالنسبة لكل ابداع جديد ، وكون ان هذين لم يكن لهما من خيـار سوى ان يستبدلا حكومة ذات تقاليد راقية وخبرة عميقة بحكومة عرضية طارئة لم يعد مستقبلها يرتكز آمنا على صفات وسجايا اقلية مدربة تدريباً بطيئا وكاملا ، بل يعتمد بكليته على صدفة تدفع بخليفة كفؤ جدير قدير الى الميدان – على هـذا الشكل هي العلامات الفارقة في منعطف الازمان هذا ، ومن هنـــا ينشأ ذلك التفوق الهائل الذي لا تزال تتمتع بـــه ، طيلة أجيال ، تلك الدول التي تدبرت أمورها فاحتفظت بالتقاليد لفترة أطول من غيرها .

لقد انجز عهد الطغاة الأول بناء المدينة بمساعدة اللانبلاء ، لكن هؤلاء قاموا بتدميرها مستعينين بعهد الطغاة الثاني . ونراهـا كفكرة تضمحل وتفنى خلال الثورات البرجوازية التي شهدها القرن الرابع ، وذلك لأن كل مـــا كان لها استمرار ، جاء بوصفه تدبيرا أو عادة ، او آلة بيـد السلطات البرهية التي يؤول اليها الحكم . لكن الانسان الكلاسيكي لم يتوقف فعلا ، وابداً ، عن التفكير والعيش داخل شكلها ، غير ان احترامها وتبجيلها بوصفها رمزا يستوجب ذلك ، لم يعد لهما من العمق ، أشد مما كان للحق الالهي للملوك من احترام وتبجيل في الغرب ، وخاصة بعد ان نجح نابليون تقريبا في ان يجعل سلالته المالكة « أقدم السلالات المالكة في اوروبا . »

زد على ذلك هذه الثورات (الكلاسيكية) لم تتمخض أبـداً عن ولادة أي

شيء ما عدا الحلول المحلية الموقتة فقط ، وهـذه حالات مألوفـة ابدا ودوماً في التاريخ الكلاسيكي - كما وانه لم تشهد اي شيء يضاهي تلك الانطلاقة الرائعة للثورة الفرنسية التي اندفعت من الباستيل حتى واترلو - كما وان مشاهد هـــذه الثورات كانت اشد فظاعة وهولا من مشاهـــد تلك ، وذلك بسبب ان النهاية الوحيدة الممكنة للمغلوب ، في هذه الحضارة ، لم تكن تمثل في صهره عضويا داخل الحزب الغالب ونظامه ، كما هي الحال في الغرب ، بل في تدميره جذراً وجذعاً وغصناً . ولقد ذبحت طبقات المـــلاك ، في كورسيرا Corcyra (٤٢٧) في أرغوس (٣٧٠) وأبيدت على بكرة أبيهـــا ، وفي ليونتيني (٤٢٢) طردت الطبقات الدنيا هذه الطبقات ونفتها من المدينة ، مما اضطرها الى الاستعانة بالعبيد ، لفترة من الزمن ، على ادارة الشؤون العامة ، حتى ارغمها اخيراً الخوف من ودة ثأرية على النزوح جماعياً الى سيراكوس . وكان المئات من اللاجئين من هـــذه الثورات يغرقون المدن باعدادهم ، ويقطعون الطرق البرية والبحرية ، ويجندون الجيوش المرتزقة لعهد الطغاة الثاني . وان الموافقـــة على عودة المنفيين في شروط الصلح التي عرضهـــا الدياذوتشي ، والرومان فيما بعد هي ملمح ظاهر وراسخ . لكن عهد الطغاة الثاني ضمن مراكزه بواسطة اعمال من هذا النوع . ولقـد قام ديونسيوس الاول (٤٠٧ - ٣٦٧) بتأمين سيادته على سيراكوس - هـــذه المدينة التي اجتمع حول مجتمعها الاوفى ، كما اجتمع حول مجتمع اثينا الاعلى ، أنضج ما عرفته حضارة هيلاس ، وهي المدينة التي وضع فيها اشيلوس ثالوثها(١) الفارسية في عام ٤٧٠ - قام بتنفيذ اعدامات جماعية ، بالمثقفين وبمصادرة ممتلكاتهم ، ثم أتبـع هذين الاجرائين باعادة بناء تركيب السكان تركيباً كاملاً في جدتـــه ، فخلق المستويات العليا منـــه ، بواسطة منحه لانصاره ممتلكات ضخمة وثروات

---

(١) - Trilagy رواية تمثيلية ذات فصول ثلاثة .

- المترجم -

وفيرة ، ثم انشأ المستويات الدنيا بمنحه حقوق الرعوية لجماهير غفيرة من العبيد ، وبتوزيعه بنـــات ضحاياه وزوجاتهم عليهم (وهذا امر لم يكن مستهجناً او غير مألوف) .

وهذا الاسلوب لهذه الثورات لم ينتج ، تقيدا منـــه بالطراز الكلاسيكي الخاص المميز ، سوى زيادة في العدد ، ولم ينجم عنـــه ابداً اتساع في الحدود والتخوم . ولقد شهد العالم الكلاسيكي جمهرة غفيرة من هذه الثورات ، لكن كل ثورة منها كانت تنطلق مستقلة تماماً بذاتها عن الثورات الاخرى ، وتنشب في النقطة ، الخاصة بهـا ، وان الواقعة الوحيدة التي تجعلها تتخذ طابع الظاهرة الجماعية ، هذه الظاهرة التي تمثل حقبة تاريخية ، أقول ان هـــذه الواقعة تتمثل في كون هذه الثورات ثورات متعاصرة . وحال النابليونية متشابهة وهـذه . فهنا نرى ايضاً ولأول مرة ، نظام حكم لا شكل له يرتفع بنفسه فوق اطار الدولة ، ومع ذلك لا يستطيع ان يحقق انفصاله الباطني التام عن هـــذا الاطار . لقـد ارتكز على مناصرة الجيش الذي بدأ ، تواجها والشعب الفاقد « لشكله » يشعر بذاتيته على انها قوة مستقلة . وهذه هي الطريق القصيرة من روبسبير الى نابليون - فبسقوط اليعاقبة انتقل مركز الثقل من موظفي الادارات العامة الى الجنرالات الطموحين . والى اي حد من عمق ركزت هذه النزعة الجديدة ذاتها في الغرب ، فهذا مـا نستطيع ان نستقرئه من مثلي برنادوت وولنغتون ، ونستطيع ان نستخلصه حتى بوضوح اكثر من قصة نداء فريدريك غليوم الثالث ، هـذا النداء الذي وجهه عام ١٨١٣ ، والذي عرف باسم « نداء الى شعبي » ففي هـــذا الحدث كان استمرار السلالة المالكة مهدداً تهديدا خطيرا من العسكريين ، لو لم يستجمع الملك عزمه على الانشقاق عن نابليون .

كما واعلنت المناهضة للدستورية ، مناهضة عهد الطغاة الثاني ، عن ذاتها من خـــلال المركز الذي شغله كل من السيبياديس وليساندر في كل من الجيشين

التابعين لبلديهما خلال المراحل الاخيرة من الحرب البولوبونيزية ، وهو مركز يتنافر والشكل الاساسي لدولة ـ المدينة . فالاول من هذين كان ابتداء بعام ٤١١ ، يرأس سلطات القيادة الواقعية للبحرية اليونانية ، بالرغم من انه لم يكن في هذا المنصب الرسمي لانه كان منفيا ، أما الثاني ، فلقد كان يشعر وهو على رأس جيش شديد الولاء لشخصه ، بأنه مستقل استقلالا تاما ، بالرغم من انه لم يكن حتى اسبرطيا . وقد اتخذت المنافسة ، في عام ٤٠٨ ، بين هاتين الدولتين على السيادة على عالم ايجيا ، شكل المنافسة بين هاتين الشخصيتين . وبعد هذا العام بقليل ، قام ديونسيوس حاكم سيراكوس بانشاء جيش محترف غفير العدد ، وعلى نطاق واسع ، وادخل آلات الحرب (المدفعية) على اسلحته - وجاء هذا الجيش المحترف شكلا جديدا حيث اصبح فيما بعد نموذجا للديادوتشي ولروما ايضا . ومنذ هذا التاريخ فما بعده ، اصبحت روح الجيش قوة سياسية ، بحد ذاتها ؛ وأصبحت القضية الخطيرة تمثل في السؤال التالي : الى اي حد كانت الدولة هي السيدة الآمرة ، والى اي مدى هي اداة بيد جيشها ؟

وان واقعة كون حكومة روما بأجمعها ومن عام ٣٩٠ ـ ٣٦٧ ، تحت السيطرة الكاملة للجنة العسكرية ، لتظهر بوضوح تام ـ انه كان للجيش سياسة خاصة به ومن المعروف تماماً ان الاسكندر ، رومانتيكي عهد الطغاة الثاني ، كان ينصاع اكثر فاكثر لنفوذ جنرالاته الذين لم يرغموه فقط على التراجع من الهند ، بل انما توزعوا ايضاً تركته فيما بينهم ، بوصف هذا الامر بدهيا تفرضه طبيعة الاشياء .

وهذا العمل هو نابليوني الجوهر ،. وكذلك امتداد السلطان الشخصي فوق مناطق واقاليم لا توحد بينهما روابط قومية او قانونية ، بل الادارة العسكرية فقط . ولكن الاتساع كان امرا يتناقض بجوهره ودولة المدينة . فالدولة الكلاسيكية هي الدولة الوحيدة العاجزة عن اي اتساع عضوي ، ولذلك انتهت

فتوحات عهد الطغاة الثاني الى تقريب ذاتها داخل تلاصق لوحدتين سياسيتين ، هما دولة المدينة والمنطقة الخاضعة لسيادتهـــا ، وتلاصق هاتين الوحدتين هو تلاصق عرضي طاريء ومهدد في كل لحظة بالخطر . وهكذا نشأت تلك الصورة الغربية للعالم الهيلنستي الروماني ، والتي لم يعترف احد حتى الآن بعزاها الحقيقي – واعني بهذه دائرة من مناطق الحدود تقع داخلها عرمات من دول المدن التي بالرغم مما كانت عليه من صغر حجم ، أرضاً وسكاناً ، استمر لها المفهوم الخاص بالدولة ، بالشيء العام ، وبقي مرتبطاً بها كما كانت الحال اطلاقاً فيما قبل . وداخل هـــذا الوسط كان يوجد المسرح للسياسة الحقيقية (وذلك لأنــه فيما يتعلق بكل فرد ، فان السيادة كانت فعلاً في نظره تقيم في نقطـــة واحدة) . فدائرة الارض « Orbis Terrarum » وهـــذا تعبير عميق المغزى – كانت فقط وسيلة ، او موضوعاً لها . زد على ذلك ان الآراء الرومانية في الامبراطورية – وهي تتمثل في السلطات الديكتاتورية للموظفين الاداريين خارج الخنادق المائية للمدينة (هذه الخنادق التي كانت تردم اوتوماتيكيا حالما يدخل المعتصمون بها الـ Pomoerium) – وارائهم في حكومة المقاطعة الواقعة بعيداً عن روما « Provincia » وهذه هي النقيض (لدولة المدينة) ، للشيء العام ، تعبر بوضوح عن الغريزة الكلاسيكية المشتركة التي لا تعرف الا حجم المدينة بوصفه الدولة ، والذاتية السياسية ، وكل ماهو خارجها ، وعلى ضوء علاقتها به ، بوصفه موضوعاً لها . ولقد حول ديونسيوس مدينته سيراكوس الى قلعة تحيط بها كومة من قصاصات من دول ، ومن هنـا وسع ميدان سلطانه ليشمل ايطاليا العليا وامتلك انكونا وهاتريا Hatria الواقعة على مصب البو . أمـا فيليب المقدوني الذي حـــذا حذو معلمه جانسون اوف فيريا Janosn of Pherae ، (وهذا قتل عام ٣٧٠) فانه سلك الطريق المعاكس لديونسيوس اذ جعل مركز ثقله داخل محيط الدائرة (أي داخل الجيش من الوجهة العملية) ومن هنا مارس سلطانه على عالم من الدول الميلنية . وهكذا امتدت مقدونية حتى الدانوب ، واضيفت بعـــد وفاة الاسكندر

الامبراطوريتان السلوقية والبطلمية الى هذه الدائرة الخارجيـــة ـ وكانت كل امبراطورية من هاتين تحكم من دولة مدينة (انطاكية والاسكندرية) ، ولكن تحكم بواسطة جهاز اداري يشغل مناصبه افراد من سكانها الاصليين ، جهاز كانت ادنى مستوياته كفاءة ، أفضل بكثير من أي جهاز اداري كلاسيكي يمكن ان يوجد . كما وان روما ، انشأت في الحقبة ذاتها (قرابة عام ٣٢٦ – ٢٦٥) وفي أرضها الواقعة في وسط ايطاليا دولة حدود ، وامنتها في كل اتجاه بأحاطتها بسلسلة من المستعمرات والحلفاء ومستوطنات لها حقوق لاتينية . ومن ثم نشهد ابتداء بعام ٢٣٧ هملكار يكسب لقرطاجه ، هذه المدينة التي انشئت منذ طويل زمن وفق الاسلوب الكلاسيكي في الحياة ، امبراطورية في اسبانيا ،ونرىك.فلامينيوس في (عام ٢٢٥) يغزو وادي البو ويضمه الى روما ، واخيراً قيصراً يصنـــع امبراطوريته الغالية . وهذه هي الاسس التي ارتكزت اليها اولاً صراعات الدياودوتشي النابليونية في الشرق ، ومعارك تسبيو وهانيبال في الغرب ـ وهنا نشهد حدود دولة المدينة تتجاوز نموها الطبيعي في كلتا الحالين ـ ونشهـــد اخيراً صراعات التريومفيرين القيصرية الذين استندوا الى مناصرة جموع كل دول الحـــدود ، واستخدموا وسائلها كي يكونوا « الاوائل في روما . »

- ٧ -

وفي روما ، حافظ شكل الدولة ، هذا الشكل الذي فقهه الشعب بغبطـــة وسرور ، وبلغته الدولة قرابة عام ٣٤٠ ، على بقاء الثورة الاجتماعية داخل الحدود الدستورية . ولقد فشلت شخصية نابليونية ، كأبيوس كلوديوس الرقيب Censor

في عام ٣١٠ ، واول من شق اقنية الماء في المدن ، وطريق أبيان ، وحكم روما كطاغية تقريباً ، اقول مرعان ما فشل هذا عندما حاول ان يستأصل شأفة الفلاحين مستعيناً بجماهير المدينة – الكبرى على ذلك ، بغية ان ينهج النهج الاثيني (نسبة لاثينا) ذا الجانب الواحد في ادارة دفة السياسة – وهذا كان قصده من وراء ادخال ابناء العبيد في مجلس الشيوخ، واعادة تنظيم فئات المئة Centuries من الناخبين ، على اساس المال ، بدلاً من قيمة الارض المخمنة ، وفي توزيعه الاشخاص المعتوقين ومن لا ارض لهم بين القبائل الريفية ، وذلك كي تكون لهم اغلبية الاصوات على الفلاحين « وهذه ما كانت تتحقق دائماً » ، بسبب ندوة حضور الفلاحين » . ولكن خلفاءه في مجلس الرقابة لم يضيعوا طويل زمن لينهجوا عكس نهجه ، اذ سرعان ما اعادوا ثانية من لا ارض له الى قبائل المدينة الكبرى . ولم تر فئات اللاطبقيين ، التي كانت تقودها اقلية من العائلات البارزة قيادة حكيمة ، هدفها في تدمير الاجهزة السناتورية للادارات العامة ، بل في الحصول عليها عن طريق الاكتساب « كما سبق لنا ان قلنا » . وفي النهاية تمكن هؤلاء من ان يشقوا طريقهم الى جميع وظائف الدولة « وحتى ان قانون اغلنيا Lex Ogulnia قد مكنهم ايضاً من الوصول الى مراتب الاحبار في الكهنوتين Pontifices and Augurs الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي واسع » ، وفي مطلع عـام ٢٨٧ استطاعوا ان يجعلوا قانون الاستفتاء ساري المفعول حتى بالرغم من عدم موافقة مجلس الشيوخ .

وجاءت نتائج حركة التحرير « الحرية » هذه على العكس تماماً مما قد يترقبه الايديولوجيون – ففي روما لم يكن هناك وجود لمثل هؤلاء . وجاءت عظمة نجاح هذه الحركة لتسرق من اللاطبقيين هدفهم ، وبهذا جردتهم من القوة الدافعة ، لان هؤلاء لا قيمة لهم مطلقاً ، في الحال الايجابي ، وذلك عندما لا يكونون « في وضع المعارضة » . وبعد عام ٢٨٧ كان وجود شكل الدولة ، قائماً بغية استخدامه سياسياً ، واستخدامه في عالم ، تكون فيـه دول السجاف العظيم –

روما ، قرطاجة ، مقدونية ، سوريا ، ومصر ، - هي وحدها ذات القيمة والشأن . فشكل الدولة هذا لم يعد في خطر ليصبح النشاطات السلبية « لحقوق الشعوب » . وهذه الطمأنينة بالذات هي التي اوجدت القاعدة التي يسرت للشعب الواحد الذي بقي في « شكل لائق » كي يرتفع الى مستوى عظمة هذا الشكل وجلاله .

ونشأت داخل العوام اللاشكليين ، والذين اضعف ، منذ طويل زمن ، استنشاق كثيف الحرية ، نبضات العرق فيهم ، اقول نشأت وتطورت داخل هؤلاء مرتبة عليا من طبقة تميز ابناؤها بمهارة سياسية عظمى ، وبمكانة رفيعة ، وبثراء وفير ، وتحالفت هذه المرتبة المماثلة لها من طبقة نبلاء المدينة . ومن هنا نشأت دائرة بالغة الضيق من رجال يتمتعون بأقوى ما للعرق من صفات وسجايا ، وبحياة مهيبة وقورة ، وبنظرة سياسية واسعة ثاقبة ، وفي هذه الدائرة ، تمركز كامل مخزون الخبرة في الحكم والقيادة العسكرية والمفاوضات ، وانتقل اليهم . وهؤلاء كانوا يعتبرون ادارة دفة الدولة المهنة الوحيدة الجديرة بمرتبتهم ، ورأوا في انفسهم ورثة لامتياز ممارستها ، ودربوا اطفالهم ببطء وحزم على فن الحكم ، وغرسوا في نفوسهم الايمان العميق بتقاليد لا حدود فيها للشمم وعزة النفس والفخار . وهذه الطبقة من النبلاء التي لم يكن لها ، على هذا الشكل ، وجود دستوري ، وجدت جهازها الدستوري في مجلس الشيوخ ، الذي كان ، أصلاً ، هيئة تمثل مصالح طبقة نبلاء المدينة ، (واعني بهذه ، الارستقراطية « الهوميرية ») وكان هذا المجلس يضم ، ابتداء من منتصف القرن الرابع ، فناصل سابقين - كانوا حكاماً وقواد جيوش معاً - بوصفهم اعضاء طيلة حياتهم ، فيه وقد شكل هؤلاء مجموعة متماسكة من مواهب رفيعة سامية ، وكانت تسيطر على مجلس الشيوخ ، وتهيمن بواسطته على الدولة . وقد بدأ مجلس الشيوخ حتى ، في عام ٢٨٩ ، في نظر سيناس Cineas سفير بيروس Pyrrhus ، كأنه مجمع من ملوك ، واصبحت اخيراً فئة صغيرة ، من رجال قياديين ، يحملون لقبي برنسيبس

Princeps ، وكلاريسيموس Clarissimus ، لب هـــذا المجلس وجوهره . وهؤلاء كانوا رجالاً بكل معنى الكلمة - مكانة وسلطة ومهابة شعبيـــة - انهم انداد لاولئك الذين حكموا امبراطوريات الديادوتشي . لقد شهدت رومـا في عصرهم حكومة لم تشهد مثيلاً لها أية مدينة عالمية عظمى في حضـــارة أخرى مها كان لونها أو جنسها ، وكانت الحكومة تمتلك تقاليد من المستحيل ان نجد موازيات لها ، ما عدا في البندقية ، وفي كيوريا Curia البابويـــة في العصور الباروكية ، ولكننا نجدها هنا في أوضاع مختلفة تماماً عن تلك . فهنا لم يكن للنظريات وجود ، كتلك النظريات التي دمرت اثينا ، ولم يكن للروح الاقليمية أي أثر أو ملـــح اطلاقاً ، هذه الروح التي جعلت من اسبرطة ، على المدى الطويل ، دولـة حقيرة مهانة ، بل كانت توجد ممارسة عملية فقط ، وممارسة من طراز جد رفيـع . واذا ما كانت روما ظاهرة عجائبية وفريدة في نوعها تماماً في تاريخ العالم ، فالفضـل في هذا لا يعود الى « الشعب » الروماني الذي كان مجد ذاته لا يختلف عن «الشعوب» الكلاسيكية الاخرى ، اذ كان مادة فجة لا شكل لها ، بل انما يعود ويعود الى هذه الطبقة التي ارتفعت بروما الى الوضع اللائق ، وحافظت عليها على هذا الشكل أأرادت روما ذلك أم لم ترده - وجاءت نتيجة ابداع هذه الطبقة متمثلة في كون هذا التيار الخاص من الكينونة ، والذي كان في عام ٣٥٠ لا يزال عديم الأهمية ، ما عدا في وسط ايطاليا ، قد استجر تدريجياً الى مجراه كامـــل تاريخ العالم الكلاسيكي ، وجعل الحقبة الكبرى والاخيرة من هذا التاريـــخ حقبة رومانيــــة .

لقد كان الكمال بالذات في الفطنة السياسية التي ابدتها هذه الحلقة الضيقة من الشخصيات (والذين لم يكونوا يشغلون اي منصب رسمي يخولهم قانوناً اتيان ما أتوه) هو الذي تجلى في توجيه الاشكال الديمقراطية التي خلقتها الثورة - اشكال تستمد قيمتها هنا ، كما تستمدها في كل مكان آخر ، من النفع الذي يستخلص منها . وأما العامل الوحيد في هذه الاشكال ، الذي قد يضبح فوراً خطراً اذا ما أسيء

توجيهه – هو تشابك الصلاحيات لسلطتين ، كل سلطة منها جامعة مانعة لكنهم عالجوا هذا العامل علاجاً رائعاً هادئاً الى درجة كانت عندها للخبرة الارقى كلمة الفصل دائماً ، بينا بقي الشعب قانعاً طيلة هذه الحقبة بان القرارات المتخذة ، انما هو الذي ارادها واتخذها ، وشعوراً تماما . فلكي تكون واسع الشعبية ، ومع ذلك ناجحاً تاريخياً حتى أرقى درجات النجاح – فعليك بسد هذ السياسة ، وهي فيا يتعلق بهذا الامر ، هي السياسة الممكنة الوحيدة والموجودة بقضها وقضيضها في أزمان كهذه ، انها فن لم يوجد حتى هذا اليوم من يضاهي الرومان فيه .

ومع هذا فنحن نشهد في الجانب الآخر من الصورة ، ان نتيجة الثورة كانت انعتاق المال وتحريره . فمنـــذ ذاك التاريخ فصاعدا اصبح المال السيد في الـ – Comitia Centuriata اما ذاك الذي يطلق على نفسه امم « شعب » فلقد امسى هنا ، واكثر فاكثر ، اداة بيد المال الموفور ، وهذا مما استلزم الدوائر الحاكمة ان تبذل كل جهد من تفوق تكتيكي ، بغية الحفاظ على التوازن داخل العوام ، والمحافظة على ان يبقى تمثيل ملاك الارض فعالا نافذ الاثر ، وتحت قيادة العائلات النبيلة من عشائر الريف البالغ عددها ٣١ عشيرة ، والتي كانت لا تزال جماهير المدينة الكبرى مستثناة منها . وهذا هو منشأ تلك الحيوية الفعالة الخشنة التي الغت التدابير التي اتخذها أبيوس كلوديوس . وعلى كل حال ، فلقد جعـــل التحالف الطبيعي بين دوائر المال العليا وبين الجماهير والمستهدف تدمير تقاليد الدم امراً مستحيلا طيلة اجيال عديدة واجيال ، بالرغم من اننا نراها في وقت لاحق ناشطة فعالة ، (وخاصة في عصر الغراتشي وماريوس) . فلقـد حافظ البرجوازيون وملاك الاراضي ، المال وملكية الارض ، على توازن متعادل في نظامين منفصل الواحد منهما عن الآخر ، وقـــد امسكت بها معا فكرة الدولة (وهي تجسيد النبلاء) وجعلتهما منتجين فعالين ، حتى تناثر هذا الشكل الباطني شظايا ومزقاً ، وانفصلت النزعة الاولى عن الثانية انفصالا عدائيا حاقدا .

لقد كانت الحرب البونية الاولى حربا شنها التجار على مصالح المزارعـين ،

ولهذا السبب قدم القنصل ابيوس كلوديوس (سليل الرقيب العظيم) ، في عام ٢٨٤ ، قرار هذه الحرب الى الـ Comitia Centuriata – . ومن جهة اخرى ، جاء فتح وادي البو واحتلاله في صالح الفلاحين ، ولهذا قدم التريبيون فلامينيوس قراره الى الـ Comita Tributa – وفلامينيوس هذا هو اول نموذج اصيل في قيصريته في التاريخ الروماني ، وهو الذي شق طريق فلامينيا وشيد سيرك فلامينيوس . ولكنه ، واستمرارا في سياسته ، عندما قام فحرم على اعضاء مجلس الشيوخ الاشتغال في التجارة ، وجعل في الوقت ذاته طبقة قواد المئة Centuries النبيلة القديمة مقبولة للعوام ، فانما كان يخدم عمليا مصالح طبقة نبلاء مالية جديدة فقط طبقة مرحلة الحرب البونية الاولى ، وبهذا أصبح (رغما عنه تماما) مبدعا لمالية رفيعة ، ومنظمة بوصفها طبقة (منزلة) اجتماعية – هي طبقة الفرسان في الجيش الروماني ، الذين وضعوا ، بعد قرن ، نهاية لطبقة النبلاء . ومنذ هـــذا التاريخ فصاعدا ، وعندما تخلصت روما من كابوس هانيبال (الذي سقط امامه فلامينيوس صريعا في ساحة المعركة) . اصبح المال وبصورة ثابتـة ، كلمة الفصل ، حتى بالنسبة للحكومة وذلك فيما يتعلق بتنفيذ سياستها – وهي آخر دولة حقيقية قدر للعالم الكلاسيكي ان يعرفها .

وعندما لم يعـــد السيبيون « نسبة سيبيو » ودائرتهم هم النفوذ المسيطر على الحكم ، لم يبق اي شيء ، ما عدا سياسات شخصية لافراد انساقوا وراء مصالحهم الخاصة انسياقا اعمى ، ورأوا في الأربس تيراروم Orbis Terrarum ، غنيمة هينة لينة . ولقد اعتبر المؤرخ بوليبيوس « الذي كان ينتمي الى هذه الدائرة » فلامينيوس مجرد قائد دهماء Demagogue ، وعزا اليه كل الكوارث والهبوط التي عرفتها المرحلة الغراكشية . والحق ان هـذا المورخ كان مخطئا كل الخطأ فيما يتعلق بحكمه على مقاصد فلامينيوس واهدافه ، لكنه كان مصيبا ، فيما نجم عن هذه المقاصد من اثر . ففلامينيوس – كـكاتو الاسبق الذي طوح ، مدفوعا بحميا المزارع العمياء ، بسيبيو العظيم من اجل سياسته العالمية – فلامينيوس هذا حقق

عكس ما كان يقصده تماما . فالمال حل محل زعامة ـ الدم ، وهي اقل من ثلاثة اجيال ، استأصل شأفة ملاك الاراضي فيها .

وانها لمية بعيدة الاحتمال والترقب ، من هبـــات الحظ لمصائر الشعوب الكلاسيكية ، ان تكون روما ـ دولة ـ المدينة الوحيدة التي لم تنزل بدستورها خلال الثورة ، اية نازلة ، فخرجت به سليما صحيحا ، بينما ان الحال هي على العكس من ذلك عندنا في الغرب ـ بما لهذا من اشكال لسلاســـل من انساب تضرب جذورها عميقا في الارض وفكرة ديمومة ـ اذ انها لأعجوبة تقريبا أن يقدر اطلاقا لتلك الثورة العنيفة الدامية ان تنفجر ، وان تنشب حتى في مكان واحد ـ ألا وهو باريس . فلم تكن قوة الحكم الفرنسي المطلق ، بل ضعفه هو الذي دفع بالافكار الانكليزية الى الاتحاد والمثل في مركب واحد بلغ الانفجار الذي زود شعارات « عصر التنوير » بالشكل الحي ، هذه الشعارات التي جمعت بين الفضيلة والارهاب معا ، بين الحريـــة والاستبداد ، والتي ترددت اصداؤها حتى في الكارثتين اللتين هما دون تلك الثورة رعبـــا وهولا ، كارثتي عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ ، وترددت في الحنين الاشتراكي الاحدث عهدا من هاتين ، الحنين الى كارثة . ولقد كانت توجد اكيدا في انكلترا نفسها ، وذلك عندما كانت الارستقراطية تحكمها باطلاقية اشد من اية اطلاقية عرفتها نفسها ، حلقة صغيرة التف اعضاؤها حـــول فوكس وشيردان ، وكانوا متحمسين لافكار الثورة وآرائهـــا ـ وهـذه الافكار كانت جميعا ذات منابع انكليزية ـ وكان الناس يتحدثون عن حق الانتخاب العام وعن الاصلاح البرلماني . وهذا الامر كان وحده كافيا لان يدفع بكلا الحزبين ، وتحت زعامـــة قطب المويغ (بت الاصغر) الى اتخاذ اشد الاجراءات للقضاء على اي وكل محاولة ترمي الى اقـــل تدخل في نظام الحكم الارستقراطي لصالح البرجوازية . فطبقة النبلاء الانكليزية عندما فجرت حرب العشرين عاما ضد فرنسا لم تكن تستهدف اسقاط نابليون ، بل كانت تهدف الى التطويح بالثورة ووضع نهاية لها ـ هذه الثورة التي كان لها

الاقدام الساذج على ادخال آراء شخصية لمفكرين انكليز في السياسة العملية ، بغية ان تعطي مركزا لدولة الطبقة الثالثة ، حيث كانت نتائجها مقدرة مسبقا في كواليس السياسة البريطانية ومراديبها ، وجاء تقديرها هذا على صورة افضل ، بسبب كون صالونات باريس قد سهت عن هذه النتائج واغفلت امرها .

ان ما كان يدعى في انكلترا « بالمعارضة » ، - هو موقف واحد من الحزبين الارستقراطيين بينا يكون الحزب الثاني قائما بادارة الحكومة . فالمعارضة هنا لا تعني ما تعنيه في جميع دول القارة الاوروبية ، اي النقد المحترف لعمل هو حرفة لانسان ما آخر ، بل تعني الاجتهاد العملي في ان ترغم نشاط الحكومة على الدخول داخل شكل وجدت المعارضة نفسها فيه مستعدة وصالحة لتتسلم منها مقاليد الحكم وتضطلع به . ولكن هذه المعارضة قد اتخذت فورا - واتخذت بجهل مطبق بفرضياتها الاجتماعية - بوصفها ذاك النموذج الذي كان يهدف المثقفون في فرنسا ، وغيرها من الدول ، الى ابداعه ، اي السيطرة الطبقية للطبقة الثالثة تحت بصر السلالة المالكة ، ولم يشكل هؤلاء اية فكرة واضحة عن مستقبل هذه السلالة . وكانت الصفات الانكليزية ، ابتداء بمونتسكيو فما بعده ، يسبح بحمدها سوء فهم حماسي منفعل - بالرغم من ان هـذه البلدان الاوروبية كانت تفتقر الى الشرط الاول للتطور « الانكليزي » ، وذلك بسبب عدم كونها جزائر . فلقد كانت انكلترا نموذجا صحيحا في نقطة واحدة فقط . فعندما بلـغ البرجوازيون ذاك الشوط من الطريق كي يحولوا الدولة المطلقة ، ثانية الى دولة منزلية اجتماعية ، وجدوا هناك صورة لم تكن ابداً في الواقع الا ما كانته . نعم ان الارستقراطية وحدها هي التي كانت تحكم داخـــل هذه الصورة - ولكنها لم تكن على الاقل هي التاج .

ان نتيجة هـــذا المنعطف الحقبي ، او مآل الشكل الاساسي لدول القارة الاوروبية ، هي ، « الملكية الدستورية » في بداية المدنية ، وان اقصى امكانية لها هي تلك التي تتبدى على شكل ما ندعوه اليوم بالجمهوريـــة . ولهذا من

الضروري ان تتخلص الى الابد من تمتمات المذهبيين ووشوشاتهم ، هؤلاء الذين تركيبهم مفاهيم معدومـــة الزمان ، وهي لذلك غير واقعية ، والذين تكون الجمهورية في نظرهم شكلاً قائماً بذاته . وما اوجه الشبه بين المثل الجمهوري الاعلى وبين المثل الاعلى الكلاسيكي للشيء المشاع ، او حتى البندقية او الكانتون السويسري الاصل ، بأكثر من اوجـــه الشبه بين الدستور الانكليزي وبين « اي دستور » وفق مفهوم القارة الاوروبية . ان ذلك الذي ندعوه نحـــن بالجمهورية ، هو نفي يفترض بالضرورة الباطنية ان الشيء الذي ينفيه هو امكانية قائمة وموجودة ابداً . والجمهورية هي اللاملكية في اشكال مقتبسة من الملكية . فالحس بالتسلسل السلالي حسن هائل القوة داخل الجنس البشري الغربي ، فهو يجهد ضميره الى حد يتعلل عنده بأن السلالة المالكة تقرر سلوكه السياسي حتى عندما لا يعود لهذه اي وجود اطلاقاً . فالتاريخي يكتنف هذا الحس ويكمن متحدا فيه ، ونحن لا نستطيع ان نعيش حياة لا تاريخية . وانه والحق لفرق كبير في عما اذا كان مبدأ السلالة المالكة لا يعبر عن اي شيء اطلاقاً للشعور الباطني للانسان ، كما هي الحال في العالم الكلاسيكي ، او ان فيه من الحقيقة مـــا يكفي ليرغم ستة اجيال من المثقفين على محاربته وكبحه داخل ذواتهم ، كما هي الحال عندنا في الغرب . ان الشعور هو العدو الخفي لكل الدساتير التي تكون مناهج ومخططات وليست نمـــوا ، فهي بعد كل تحليل ، ليست سوى اجراءات دفاعية اوحى بهـــا الخوف والارتياب . فالمفهوم الحضري للحرية – الحرية من شيء ما – يقلص ذاته حتى يصبح مغزى مناهضة للسلالة المالكة فقط ، والحماس الجمهوري لا يعيش فقط الا على هذا الشعور .

ونفي كهذا يشتمل حتما على ترجيح النظرية ورجحانها ، بينما ان مبدأ السلالة المالكة ودبلوماسيته المتجانسة واياه تجانساً وثيقاً ، وتعود معه الى اصل واحد ، يحفظان التقاليد القديمة والنبض ، فالدساتير تحتوي عـلى حمل مرهف من المناهج والقراءات الكثيرة الحفظ والقليلة الفهم Bookishness ، والمفاهيم والمبروزة ، –

وعلى شكل غير معقول ابدا لدى انكلترا حيث لا يلازم شكل الحكومة فيهـــا اي شيء دفاعي او انـكاري . وليس كون الحضارة الفاوستية ، حضارة متفوقة في القراءة والكتابة ، بأمر دون مغزى . فالكتاب المطبوع هو شعار اللانهائية الزمانية ، بينما ان الصحافة هي عنوان اللانهائية الفراغية . وتبدو المدنية الصينية ، تباينا وقوة هذين الرمزين وطغيانها الهائلين ، كأنها فارغة تقريباً من الكتابة . ففي الدساتير توضع المؤلفات والمصنفات في الميدان ضد معارضة الناس والاشياء ، واللغـة ضد العرق ، والحق التجريدي ضد التقليد الناجح - وذلك بغض النظر عما اذا كانت الامة المستغرقـــة في تيار الاحداث لا تزال قادرة على العمل والحفاظ على شكلها » . لقد كان ميرابو وحيداً تماماً وغير ناجح في صراعه ضد الجمعية الوطنية التي تخلط بين السياسة والخيـــال » . ولم تكن تلك الدساتير العقائدية الثلاثة في تلك الحقبـــة - الدستور الفرنسي عام ١٧٩١ والدستوران الالمانيان الصادران في عامي ١٨٤٨ و ١٩١٩ - هي وحدهـا التي اغمضت عيونها عن المصير العظيم في عالم الامر الواقع وتوهمت ان اغماضها عنه هو والتغلب عليه سواء بسواء ، بل كانت ايضاً كذلك جميع المحاولات المماثلة لهذه . وتحكم هنـا السببية بدلا من الاحداث غـــير المنظورة ، كصدف من الشخصيات القوية والاوضاع الطاغية مثلا ، وهذه السببية هي تلاصق عقلاني لا يتبدل ابداً من علة ومعلول . وانه لأمر ذو دلالة ومغزى ان لا يكون هناك اي دستور مكتوب يعرف المال بوصفه قوة سياسية . والنظرية المجردة هي التي تحتوي عليهـــا هذه الدساتير جملة وتفصيلا .

ان هذا الفتق في جوهر الملكية الدستورية غير قابل للرتق . فهنـــا يتعارض تعارضاً جبرياً مـــا هو واقعي وما هو نظري ، العمل والنقد ، واحتكاكهما المشترك هو الذي يشكل ما يسميه الانسان العادي الثقافـــة بالسياسة الداخلية . وما خلا المانيا بروسيا والنمسا - حيث خرجت في هاتين الدولتين اول الدساتير الى الوجود ، لكن لم يكن لدستوريهما ابداً نفوذ شديد ازاء التقاليد السياسية

الاقدم عهداً – كانت بريطانيا هي وحدها التي حافظت في ممارستها للحكم على حكومة متجانسة . فهنا تمسك العرق واحتفظ بما له ضد المبدأ . وكان لدى الناس اكثر من لمحة من فهم ان السياسة الحقيقية ، السياسة الهادفة الى تحقيق نجاحات تاريخية ، هي قضية تدريب وليست قضية تشكيل . وهـذا لم يكن اعتراضاً ارستقراطياً ، بل واقعة كونية تتبدى في خـبرة اي مدرب انكليزي لخيول السباق ، بوضوح اشد بكثير من وضوح جميع المناهج الفلسفية في العالم . فبمقدور التشكيل ان يصقل التدريب ، ولكن ليس باستطاعته ان يحـل محله . وهكذا اصبح المجتمع الارقى في انكلترا ، ايتون وباليول Balliol ، ميـداني التدريب حيث يجري فيهما اعداد السياسيين بيقين ماجاح مثابر ، لا نجـد له مثيلاً الا في تدريب الضباط البروسيين – اي انهم يدربون بوصفهم خـبراء واساتذة للنبض الجوهري للاشياء (ولا يستثنى من هذا المجرى الخفي للاراء والفكر) . ولمـا كانوا قد أعدوا على هذا الشكل ، لذلك كان باستطاعتهم ان يقفوا ، خلال ذاك الطوفان الهائل من المبادىء الثورية البرجوازية التي غمرت سيولها الاعوام التالية لعام ١٨٣٢ ، فيحافظون ويسيطرون على مجرى الكينونة الذي كانوا يوجهونه . لقد كانوا يمتلكون مرونة الفارس وتحفزه ، ومثل هذا الفارس يشعر وهو على صهوة جواد كريم ، بالنصر يزحف نحوه أقرب فأقرب . لقـد سمحوا للمبادىء العظمى بأن تحرك الجماهير لانهم كانوا يعلمون حق العلم بأن المال هو « الـ – بناء وبناء عليه » وهو الذي ينفخ في المبادىء الكبرى فتدب فيهـا روح الحركة ، وقد استبدلوا اساليب القرن الثامن عشر المرعبـة الوحشية ، بأساليب مهذبة مصقولة لكنها لم تكن أقل تأثيراً من تلك – وابسط احد هذه الاساليب هو ان يهددوا معارضيهم بنفقات حملة انتخابية جديدة . اما الدساتير العقائدية في القارة الاوروبية فانها لم تر الا جانباً واحداً من ديمقراطية الامر الواقع . وهنا ، حيث لم يكن من وجود لدستور ، بـل رجال « في وضع لائق » شوهدت هـذه الديمقراطية بوصفها كلا متكاملاً .

ولكن القارة الاوروبية لم تفقد تماماً وابداً شعوراً غامضاً بكل هـذا . فلقد كان للدولة المطلقة في الحقبة الباروكية شكل واضح كل الوضوح ، ولكن لم تكن توجد « للملكية الدستورية » سوى حلول وسطى متقلبة وغير ثابتة ، فكان هناك حزب محافظ وآخر ليبرالي ـ ولم تكن حال هذين كحال الحزبين في انكلترا بعد كاننغ ، اي اسلوبين مختلفين لحرفة ، اسلوبين مجربين للحكومة ، ويطبقان بصورة متناوبة على العمل الواقعي للحكم بل كانت حالهما مرهونة باتجاه رغبة كل منهما لتعديل الدستور - اي هـل يتجه بالتعديل نحو التقاليد او نحو النظرية . وهل يتوجب على البرلمان ان يخدم السلالة المالكة ام العكس بالعكس ! هذا كان الجوهر الذي يدور حوله كل نزاع ، ولقد نسيا في خلافهما حوله ان السياسة الخارجية هي الهدف النهائي . ان الجانب « الاسباني » والجانب المنعوت خطأً « بالانكليزي » للدستور لا يريدان ولا يستطيعان ان ينموا معاً ، وهكذا حدث ، في القرن الثامن عشر ، ان سلكت الدبلوماسية في الخارج ، والنشاط البرلماني في الداخل طريقين متباعدتين . واصبح كل منهما داخل شعوره الجوهري غريباً عن الاخر ويبادله احتقاراً باحتقار . واخذت الحياة تمور وتضطرب حتى التفجع الوجيع داخل شكل لم ينشأ ويتطور منها . وخضعت فرنسا بعد شهر ثرميدور لقانون البورصة ، فكانت تلطف من حالها باقامة دكتاتورية عسكرية بين حين وآخر (١٨٠٠ ، ١٨٥١ ، ١٨٧١ ، ١٩١٨) وكان ابداع بسمارك ، بأجزائه الجوهرية ، ذا طبيعة سلالية ملكية يردفها مركب برلماني ذو اهمية ثانوية بالتأكيد ، ولكن التعشق الاحتكاكي Friction الباطني داخله كان شديداً الى درجة استأثر عندها بكل نشاط ممكن وموجود واخيراً استنفد بعد عام ١٩١٦ النظام نفسه . اما الجيش فلقد كان له تاريخه الخاص ، وتقاليده التي تعود فتبلغ فريدريك غليوم الاول ، وكذلك كانت الادارات العامة للدولة . وهذه والجيش كانت منبع الاشتراكية بوصفها نوعاً واحداً من « التدريب » السياسي الحقيقي ، لكنه كان تدريباً متضاداً قطرياً والتدريب الانكليزي ، غير انه كان مثله مليئاً بتعبير مفعم عن نوعية عرق قوية .

لقد كان الضباط والموظفون مدربين تدريبا عاليا . ولكن لم يعترف أحد بالضرورة القاضية باستيلاء وتأصيل طراز سياسي متجانس وهؤلاء . فلقد كانوا يعالجون السياسة العليا علاجاً « ادارياً » ، أما السياسة الثانوية فكانت نزاعاً ميؤوساً منه . وهكذا أصبح أخيراً الجيش والادارة العامة هدفين ذاتيهما ، وذلك بعد أن عزل بسمارك من منصبه ، اختفى الرجل الوحيد الذي كان ، حتى بدون مساندة الساسة الحقيقيين له ، فيه من العظمة ما يكفي ليعامل الجيش والادارة معاً بوصفها اداتين للسياسة (وهذا أمر لا يستطيع الا التقاليد ان تكون منه الام والوالد) . وعندما أزاحت نتيجة الحرب العالمية (الاولى ــ المترجم) المراتب الطبقية العليا ، لم يبق من شيء ، سوى أحزاب تقفت من أجل المعارضة وحدها ، وهذه هبطت بنشاط الحكومة الى درك لم تهبط اليه في أية مدنية أخرى حتى اليوم .

ولكن البرلمانية ، هي اليوم ، في حال من انحطاط كامل . فهذه كانت استمراراً للثورة البرجوازية بوسائل اخرى ، انها ثورة الطبقة الثالثة لعام ١٧٨٩ التي صيغ لها شكل قانوني ، واتحدت مع مناهضتها ، السلالة الملكية ، كوحدة حكومية . فكل انتخاب عام حديث هو ، في الواقع ، حرب أهلية سلاحها صناديق الاقتراع ، وكل تحريض مكتوب ، وزعيم حزب كبير ، هما نوعان من نابليون . وفي هذا الشكل المقصود ان يبقى صحيحاً ومشروعاً حتى اللا نهاية ، والذي هو خاص بالحضارة الغربية ، ويكون سخفاً وهراء ومستحيلاً في اية حضارة أخرى ، نبصر مرة اخرى نزعتنا المميزة الى اللا نهائية ، الى بعد النظر التاريخي ، والتوجس وارادة تنظم المستقبل البعيد وفق المستويات البرجوازية للحاضر ، وذلك فيما يتعلق بهذا الامر .

ومع ذلك ، فليست البرلمانية قمة ، كما ان دولة ــ المدينة المطلقة والدولة الباروكية لم تكونا قمتين بل ان البرلمانية هي مرحلة انتقال قصيرة ــ بين الحقبة

المتأخرة من الحضارة بما لهذه الحقبة من اشكال ناضجة وبين عصر الافراد العظام في عالم لا شكل له . وهي تحتوي على ثقل من الحقبة الباروكية الطيبة ، شأنها في ذلك شأن المنازل والرياش في النصف الأول من القرن التاسع عشر . والعـــادة البرلمانية هي فن ركوكو انكليزي — لكنها لم تعد ركوكو لا تعي ذاتها اذ انها في الدم ، بل انها ابتكار سطحي متصنع وتحت رحمة حسن الاستعداد . ولها فقط في المراحل القصيرة من الحماسات الأولى مظهر من عمق وديمومة ، وذلك لأنه آنذاك فقط يحتم عليها الاحترام للمرتبة التي اكتسبها أحدهم حديثاً ، ان تقتبس سجايا الطبقة المغلوبة واخلاقها . وان المحافظة على الشكل ، حتى عندمـــا يتناقض والمنفعة ، هي التقليد الذي يجعل البرلمانية وضعاً ممكناً . ولكن عندما يلاحظ هذا التقليد ويعرف با كمله ، فان واقعه هذا بالذات ، وهذه هي حاله ، يعني ان جوهر البرلمانية قد تبخر وتلاشى منذ زمن . وهنا يتناثر اللا طبقيون «اللا متزليون» ثانية الى مجموعات طبيعية من مصالح ، وتخمد عاطفة الدفاع العنيـــد والمنتصر . وحالما لا يعود الشكل يمتلك قوة اجتذاب لمثل أعلى فني نضـــير يدعو الناس ويحشدهم في المتاريس ، فعندئذ ستطل بوجوهها الوسائل اللا برلمانية لبلوغ الهدف بدون « وحتى بالرغم من » صناديق الاقتراع — وهذه الوسائل هي المال والضغط الاقتصادي ، واهم من هذين الاضراب . ولا تكن جماهير المدينة العالمية العظمى ولا الافراد الاقوياء أي احترام حقيقي لهذا الشكل الذي لا مـاض له أو عمق ، وعندما يكتشفون ان هذا هو شكل فقط ، عندئذ يكون قد أصبح علامـــة وظلا . وان البرلمانية « وحتى الانكليزية » أخذت ، مع مطلع القرن العشرين ، تجنح جنوحاً سريعاً نحو القيام بالدور الذي ، كان في احد الايام ، مناطـــاً بالملكية. وهي تصبح اليوم مشهداً دافعاً مؤثراً بالنسبة للجمهرة من الارثوذكس ، وذلك بينما أن مركز ثقل السياسة الضخمة الذي كان قد انتقل بصورة دائمـة De jure من التاج الى ممثلي الشعب ، ينتقل الآن بشكل واقــع De facto من هؤلاء الى مجموعات من اللا رسميين والى ارادة شخصيات غير رسميـــة . ولقد أنجزت ، تقريباً ، الحرب العالمية « الاولى — المترجم » هذا التطور . وليس هناك

من طريق العودة الى البرلمانية القديمة ابتداء بسيطرة لويد جورج ونابليونيـة العسكريين الفرنسيين . أما بالنسبة لاميركا التي كانت لا تزال حتى الآن بعيدة منعزلة ، ومنطوية عـلى نفسها ، وكانت منطقة اكثر من كونها دولة ، فان توازنية رئيس الجمهورية والكونغرس التي اقتبستها من احدى نظريات مونتسكيو قد أصبحت بدخولها ميدان السياسة الدولية ، امراً لا بدافع عنـه ، ولذلك يتوجب عليها في اوقات الخطر الواقعي ، ان تفسح الطريق لقوى معدومـة الشكل ، كتلك القوى التي ألفتها المكسيك واميركا الجنوبية منـذ طويل زمن .

- ٨ -

وبهذا يدخل عصر الاصطدامات العملاقة الذي نجد انفسنا فيـه اليوم . وهو انتقال من النابليونية الى القيصرية ، وطور عام من أطوار التطور ، وتسود على الاقل قرنين من الاعوام ، ويمكن لنا تبيان وجوده في جميع الحضارات . ويسميه الصينيون بـ شان – كوو Shan - Kwo ، أي « مرحلة الدول المتنازعـة » (٤٨٠ – ٢٣٠ وتتجانس والمرحلة الكلاسيكية الممتدة بين عامي ٣٠٠ – ٥٠) . ونحن نتعرف هنا في بداية هذا العصر على قوى عظمى سبع ، ونرى هذه القوى تؤول ، في البدء ، ودون ما تخطيط سابق ، ولكن ملاحقة لمقصد بتزايد وضوحاً يوماً بعد يوم ، وتنتهي الى النتيجة النهائية المحتومة لهذا التتالي السريع من الحروب الواسعة والثورات ونشهد ان هذه القوى لا تزال بعد مضي قرن ، قوى خمساً . وفي عام ٤٤١ أصبح الحاكم من السلالة المالكة تشو Chou سجيناً سياسياً لدى « الدوق الشرقي » ، وبذلك لم يعد لما تبقى له من مناطق أي ذكر في التاريخ فيما

بعد . وبدأ في الوقت ذاته النشوء السريع لدولة تسن Tsin « الرومانية » في الغرب الشمالي اللا متقلب ، ووسعت دائرة نفوذها في اتجاه الغرب والجنوب فاشتملت على التيبت ويونان واحاطت بالدول الاخرى بقوس عظيم . وكانت بؤرة المعارضة تقع في مملكة تسو في الجنوب الطاووي Taoist حيث كانت المدنية الصينية تضغط منطلقة ببطء الى المناطق الواقعة جنوباً من النهر الكبير والتي كانت لا تزال معروفة قليل معرفة . وهنا يطالعنا فعلاً ، تضاد روما والهيلينستية - وهو من الجهة الواحدة ارادة القوة الصلبة الواضحة، وهو من الجهة الاخرى نزوع الى الاحلام واصلاح العالم . وازداد الصدام ، ابتداء بعام ٣٦٨ - عام ٣٢٠ ، (وهذه الفترة متجانسة والحرب البونية الثانية) حدة وأمسى صداماً مستمراً عم كامل العالم الصيني ، وقد خاضت غماره جيوش جرارة استجلبت كل قطرة من ضروع السكان .

ويكتب ستزي - ما - تسين Sze - ma tsien قائلاً : « وعبثاً جند الحلفاء مليوناً من الرجال ، هؤلاء الذين كانوا يسيطرون على مناطق تبلغ مساحتها عشرة اضعاف ما تسيطر عليه دولة تسن ، اذ كانت هذه الدولة تملك دائماً احتياطاً من الجند ، ولقد التهمت هذه الحروب ، منذ نشوبها حتى خمودها مليوناً من الرجال . » وقد قام سو - تسن ، الذي بدأ عمله الحكومي بتسلمه لمنصب مستشار دولة تسن ، لكنه أصبح فيما بعد نصيراً لفكرة عصبة الامم (هو - تسونغ Hoh - tsung) وانتقل الى صفوف المعارضة ، اقول قام هذا بعقد ائتلافين عظيمين « عام ٣٣٣ و عام ٣٢١ » انهارا ، على كل حال ، في المعارك الاولى ، بسبب التفكك الداخلي . وكان خصمه العظيم المستشار تشانغ - ا Chang - I الاستعماري الصميم ، على وشك ان يخضع العالم الصيني خضوعاً طوعياً ، عندما أحبط تبديل طرأ على اشغال سدة العرش مشاريعه الاتحادية . وفي عام ٢٩٤بدأت حملات بي - كي Pe - Ki العسكرية .

وقد خول ملك دولة تسن ، ما اضفت عليه انتصاراته من مهابة ووقار

وجلال ، ان يتخذ لنفسه اللقب الغامض ، لقب الامبراطور ، لعصر الاسطوري ، والذي يعني جهارا نهارا المطالبة بحكم العالم ، وهنا سرعان ما قام حاكم تسي في الشرق ، مقلداً ملك دولة تسن فيما اتخذه . وبهذا بدأ الطور الاقصى للصراعات الحاسمة . واخذ عدد الدول المستقلة يتناقص تناقصا مستمراً . ففي عام ٢٥٥ اضمحلت حتى دولة لو Lu موطن كونفوشيوس ، وفي عام ٢٤٩ لاقت سلالة شو المالكة نهايتها . وفي عام ٢٤٦ اصبح وانغ - تشنغ الجبار ، امبراطوراً لدولة تسن وهو لما يتجاوز الثالثة عشرة من العمر ، وقام هـذا في عام ٢٤١ ، بمساعدة مستشاره لو - شي Lui - Shi ، (ماسيناس الصين) بالجولة الاخيرة ضد آخر خصومه ، امبراطورية تسو ، التي اقدمت على تحديه ، وانتصر عليها . واتخذ له في عام ٢٢١ ، بوصفه الحاكم الاوحد فعلاً لقب شي (اوغسطس) . هذا هو مطلع الحقبة الامبراطورية في الصين .

وليس هناك من حقبة تاريخية تجابه الجنس البشري ببديل للشكل العظيم ، او السلطات الفردية العظمى ، وبوضوح اشد من وضوح « مرحلة الدول المتنازعة هذه » ، وتعرض علينا تلك الدرجة التي بلغتها الامم في توقفها عن الكون « في وضع لائق » سياسياً ، وتظهر درجة الامكانات المتاحة ، تلك للافراد الاقوياء الفعالين الذين عقدوا النية على ان يكونوا مبدعين سياسياً ، والذين يريدون الحصول على السلطة مهما كان ثمنها ، والذين يصبحون بوصفهم ظاهرة لزخم ، مصيراً لأمـة باجمعها ، او حضارة باكملها . فالاحداث اصبحت اموراً لا يمكن التنبؤ بها اعتمادا على قاعدة الشكل . وهنا نرى بدلاً من التقاليـد المعنية التي تستطيع ان تستغني عن العبقرية (لأنها هي بالذات زخم كوني من ارقى درجة وطاقة) ، صدفاً من رجال الامر الواقع العظام . فصدفة نشوئهم ترتفع ، بين عشية وضحاها ، بالشعب الضعيف (المقدونيين مثلاً) الى ذروة الاحداث ، كما ويمكن لصدفة موتهم (مثلاً قيصر) ان تهبط فورا بعالم بستقطب النظام فيه فرد الى مهاوي الفوضى وانعدام النظام .

ولقد تجلى هذا فعلا في اوقات ابكر ، وفي الازمان الحرجـــة من مراحل الانتقال . فحقبات الفروند ، والمنغ – تشو ، وعهد الطغاة الاول ، حينما لم يكن الناس في شكل لائق ، بل كانوا مجتربون على الشكل ، كانت دائما تتجب بعدد من الشخصيات العظيمة الضخمة التي نمت وتضخمت حتى اصبحت اكبر من ان توصف مناصبها او تحدد او تعرّف . زد على ذلك ان التحول من الحضارة الى المدنيـــة بأنموذجه النابليوني يستطيع ان يفعل هذا الامر ايضاً . ولكن مع هذا التحول الذي هو مقدمـــة اللاشكلية التاريخية التي لا يمكن ان تفتدى ، ينبلج فجر اليوم الحقيقي للافراد العظام . وهذه المرحلة ، بالنسبة لنا نحن معشر الغربيين ، بلغت تقريبا ذروتها في الحرب العالمية (الاولى – المترجم) اما في العالم الكلاسيكي فانها بدأت بهنيبال ، الذي تحدى روما باسم الهيلينية (التي كان ينتمي اليها باطنياً) ، لكنه سقط لأن الشرق الهيليني لم يدرك معنى ساعة الحسم تلك الا بعد فوات الأوان ، او انه لم يدركه اطلاقاً . وبسقوطه بدأ ذاك السياق المعتز الذي يبدأ بتسيبيو مـــاراً باميليوس باولوس ففلامينوس ، فآل كاتو ، فعائلة الغراكشي ، فماريوس فسولا حتى بومباي وقيصر واوغسطس .

وبالمثل ، فلقد تمركزت ، في دولة تسن ، وفي حقبة الدول المتنازعة ، سلسلة من رجال دولة وقادة عسكريين مشابهة لتلك السلسلة من الشخصيات الكلاسيكية التي تمركزت في روما . وتوافقاً والافتقار التـــام الى فهم الجانب السياسي من التاريخ الصيني ، هذا الافتقار المسيطر والسائد الآن ، لقد جرت العادة على ان ينعت هؤلاء بالسفسطائيين . وهم كانوا كذلك ، ولكن فقط بالمعنى ذاتـــه من حيث كون الشخصيات الرومانية في الحقبـــة نفسها ، رواقيين – أي انهم ثقفوا ودربوا على فن خطابة الشرق اليوناني وفلسفته فكل فرد من هذه الشخصيات كان خطيباً مصقولاً مفوها ، وجميعهم كانوا يكتبون بين فينة وفينة في الفلسفة ، وما كتبه قيصر وبروتس في هذا الموضوع كان اقل مما كتبه كاتو وشيشرون فيه ، لكنهم لم يعالجوه بوصفهم فلاسفة محترفين ، بل لأن Otium cum dignitate

كانت عادة الجنتلمان المثقف . وهؤلاء كانوا في ساعات العمل اساتذة الامر الواقع ، أكان ذلك في ميدان المعركة أم في حقول السياسة العليا ، والقول ذاته ينطبق كل الانطباق على المستشارين تشانغ - آ وسو - تسن ، وعلى الدبلوماسي المرعب فان - سو Fan - Swi الذي طوح بالجنرال بي - كي ، ووي - يانغ Wei - yang المشترع في تسن ، ولوي - شي ، ماسيناس الأمبراطور الأول وآخرين غيره .

لقد كانت الحضارة سجنت كل طاقاتها داخل شكل صارم ، اما الآن وقد تحررت هذه الطاقات ، فسرعان ما تفجرت « الطبيعة » - أي العامل الكوني - بمكنوناتها . ان التحول من الدولة المطلقة الى مجتمع متعارك محترب من امم ، هو الطابع المميز لبداية كل مدنية ، وليعن هذا التحول في نظر المثاليين والايديولوجيين ما يريدون له ان يعنيه - فهو في عالم الوقائع يعني الانتقال من حكومة تقاليد صارمة وذات اسلوب ونبض الى الـ - Sic volo , sic jubeo لنظام حكومي شخصي متحرر من كل عنان . وان الحد الاقصى من الشكل الرمزي والمغرق في الشخصانية ينطبق على مثله في الحقبة المتأخرة من الحضارة - فلقد شهدته الصين قرابة عام ٦٠٠ ، والعالم الكلاسيكي قرابة ٤٥٠ ، وشاهدناه نحن معشر الغربيين قرابة ١٧٠٠ . أما الحد الادنى منه فيتمثل في سولا وبومباي ، أما نحن فسنبلغه (ولربما تجاوزناه) خلال المئة سنة القادمة . وتتشابك ، في مرحلة الانتقال هذه ، أحوال متباينة ضخمة ونزاعات داخلية وثورات من نوع رهيب ومرعب ، لكن القضايا الأساسية التي هي مدار النزاع في هذه كلها وبدون استثناء « وأ كانت مدركة صريحة أم لم تكن » هي في النهاية قضايا السلطة الفردية المجردة وغير الرسمية « او القانونية - المترجم » . ولا يهم اطلاقاً من وجهة النظر التاريخية ، ما الذي استهدفه مثل هؤلاء الافراد في الحقل النظري ، ولسنا بحاجة الى ان نعرف الشعارات التي باسمها تفجرت الثورات من صينية وعربية في هذه المرحلة ، ولا حتى ان نعرف عما اذا كان قد وجد حتى شعارات كهذه .

وليست هناك من ثورة واحدة من ثورات هذه الحقبة التي لا تعد ولا تحصى

« والتي تصبح انفجارات يتزايد عماؤها يوماً بعد يوم ، لجماهير المدن العالميـــة العظمى ، هذه الجماهير المستأصلة الجذور » ـ قد بلغت ابدا ، او حتى توفرت لهـــا الامكانية لبلوغ هدفها . وكل ما يحدث فيها انما هو فقط تدمير متسارع للاشكال القديمة ، يجعل الطريق امام القيصرية خالياً من العقبات والعراقيل .

ولكن هذا الامر نفسه صحيح ايضاً فيما يتعلق بالحروب ، حيث لا تصبح فيها الجيوش ومناهجها التكتيكية ابداعاً للحقبة ، بل تصبح اكثر فاكثر ابداعاً لقواد افرادين غير منضبطين يكونون في كثير من الاحوال قـــد اكتشفوا عبقرياتهم في وقت متأخر جداً او عن طريق الصدفة . فبينما كانت توجد ، في عام ١٠٠٠ جيوش لماريوس وسولا وقيصر ، زد على ذلك ان جيش اوكتافيان الذي كان يتشكل من جند قيصر المتمرس في الحرب ، كان يقود قائده اكثر بكثير من انقياده له . ولكن الحرب وفق مثل هذه المناهج ، والوسائل والاهداف قد اتخذت اشكالاً كاسرة مفترسة ، ذات طبيعـــة فجة ، وهـذه الاشكال تختلف اختلافاً كبيراً عن الاشكال التي كانت سائـــدة فيما قبل . ومبارزاتهـا لم تكن مبارزات من طراز التريانون في القرن الثامن عشر ، هـذه المبارزات التي سادتها الاشكال الفروسية والتزمت بقواعد ثابتة ، تقرر متى يجوز للمبارز ان يعلن عن استنفاد قواه ، واي حد أقصى من القوة يجوز استخدامـــه ، وما هي الشروط التي تسمح بها الشهامة والفروسية للمنتصر ان يفرضها . بل انمـــا كانت معارك حلقات يخوضها رجال غاضبون حانقون ، يستخدمون قبضاتهم واسنانهم ، ويقاتلون حتى ينهار الخصم انهياراً جسمانياً كلياً ، وهنا يستغل المنتصر هـــذا الانهيار دون تحفظ أو كبح ، الى اقصى درجات الاستغلال . واول مثال ضخم « على العودة الى الطبيعة » تقدمه الينا الجيوش الثورية الفرنسية والنابليونيـــة ، حيث كانت هذه الجيوش ، بدلاً من ان تقوم بمناورات اصطناعية تعتمـــد وحدات صغيرة ، تقوم بشن هجمات جماعية لا تعير التفاتاً للخسائر ، وبهـــذا

نسفت الستراتيجية الروكوكية المهذبة ، المصفاة ، ودمرتها تدميراً . فأن تقذف بكامل القوة العضلية للامة الى ميدان القتال ، بواسطة نظام التجنيد العام ، فهذا امر غريب غرابة كلية عن حقبة فريدريك الاكبر .

ومشابهة ، فان تقنية الحرب ، في كل حضارة ، كانت تتبع بخطوات مترددة تقدم الصناعة ، حتى اذا ما تبدى مطلع المدنية ، تنطلق فجأة الى المقدمة وتتسلم زمام القيادة ، وتضع ، دون شفقة او رحمـــة ، امكانات العصر الميكانيكية في خدمتها ، ومن ثم تندفع ، تحت ضغط الضرورة العسكرية لتوجـد حتى ميادين صناعية جديدة لم تستغل بعد ــ لكنها في الوقت ذاته ، تشل الى حد كبير فعالية البطولة الشخصية للعريقين في اصولهم ، وكيف النبلاء Ethos والعقل الحـــاذق للحضارة المتأخرة زمناً . امـــا في العالم الكلاسيكي ، حيث جعلت دولة المدينة وجود الجيوش الجرارة الجماعية امرا مستحيلاً ــ ونظرا للضآلة العامة للاشكال الكلاسيكية ، بما في ذلك التكنيكية منهـــا ، فقد كانت اعـداد الجيوش التي اشتركت في معارك قانية وفيلبي واكتيوم ضخمة واستثنائية في غفارة عددها ــ في هذا العالم ادخل عهد الطغاة الثـــاني (ديونسيوس حاكم سيراكوس) التقنية الميكانيكية على وسائل الحرب وعممها بصورة واسعة . وهنـا أصبح لأول مرة ضرب الحصارات كحصارات رودوس (٣٠٥) وسيراكوس (٢١٣) وقرطاجة (١٤٦) واليسيا (٥٢) امراً ممكناً ، وحيث تبدت الاهمية المتزايدة للسرعة ، حتى بالنسبة للستراتيجية التكنيكية ، واضحة جلية . واتفاقاً وهـذه النزعة كان الفيلق الروماني ، الذي تطور تركيبه المميز في العصر الهيليني فقط ، ينشط كأنه الآلة ، اذا ما قورن بالميليشيا الاثينية والاسبرطية في القرن الخامس . وتطابقاً قاموا في الصين بصنع الاسلحة القاطعة والراخزة ، الطاعنة ، من الحديد ، ابتداء بعام ٤٧٤ ، وحل سلاح الفرسان الخفيف من الطراز المغولي ، محل المركبات الحربية الثقيلة ، واكتسب فجأة حرب القلاع أهمية بارزة . واخيراً اتحدت الرغبة الاساسية للجنس البشري في السرعة والحركة والنتائج والمؤثرات الجماعية ، في عالم

اوروبا واميركا ، مع الادارة الفاوستية للسيطرة على الطبيعة ، وانتجت المناهج الديناميكية للحرب ، هذه المناهج التي كانت ستبدو حتى لفريدريك الاكبر كأنها الجنون بعينه ، لكنها تبدو لنا اليوم ، نظراً لتجاورهـا الوثيق وتقنيتي النقل والصناعة طبيعية تماماً . لقد قام نابليون بقطر مدفعيته الى الخيول ، وبهذا جعلها مدفعية بالغة في سرعة حركتها ، (كما وقام بتقسيم جيش الثورة الجماعي الى فيالق متفردة وسهلة التحريك) ، وفي معركتي فاغرام وبورودينو ، كانت فعاليات هذه الفيالق قد تزايدت تزايداً جسمانيا مجرداً الى درجة مـا نسميه بالقذف السريع ، وبالقذف الطبلي Drum fire . امـا المرحلة الثانية — وهذه متميزة بالثورة الاميركية الاهليـة ١٨٦١ — ٥ ، تميزاً له اشد دلالة واعمق مغزى — والتي ، حتى بما احتوت عليه من عدد من الفيالق التي اشتركت فيها ، قد تجاوزت الى حد بعيد تنظيم حجم الحروب النابليونية وفاقته ضخامة ، وقد استخدمت فيها لأول مرة السكك الحديدية للتحركات العسكرية الكبرى ، وشبكات التلغراف للرسائل ، واسطولا بخاريا يضرب الحصار على الشواطىء ، ويمخر عباب البحار طيلة شهور بدون توقف او كلل ، واستخدمت فيها السفن المسلحة والطوربيد والأسلحة السريعة ، واكتشفت خلالها المدفعية العملاقة ذات المرمى اللاقياسي في مـداه .

أما المرحلة الثالثة فهي تتمثل في الحرب العالمية الثالثة التي كانت فاتحتها الحرب الروسية اليابانية ، وهنـا استخدمت الغواصة والطائرة ، واصبحت السرعة في الاختراع سلاحاً جديدا بحد ذاته ، وبلغت الوسائل التي استعملت حدها الاقصى (وبالتأكيد ليست شدتها هي التي بلغت هـذا الحد) . ولكن يتجانس في كل مكان والاسراف في الطاقات هذا ، عسف القرارات وقسوتهـا . اذ تطالعنا في مستهل بداية مرحلة شان كوور Shan - Kwo الصينية الابادة الكاملة لدولة وو — Wu — وهذا عمل كان سيكون امراً مستحيلا في المرحلة الفروسية السالفة، مرحلة تشون ـ تسيو Chun - Tsiu . وقد انتهك نابليون حتى في معاهـدة

صلح كامبيو فورميو حرمة ميثاق القرن الثامن عشر ، وبعد معركة اوسترليتز ادخل مبدأ ممارسة استغلال النجاح العسكري دون اي اعتبار لاي امر آخر ما عدا الحوائل المادية . وجاءت الخطوة الاخيرة والممكنة متمثلة في معاهدة صلح من طراز معاهدة فرساي ، حيث تتعمد هذه المعاهدة ان تتجنب النهائية وتصفية الامور ، وتترك الباب مفتوحا امام كل احتمال لخلق اوضاع جديدة عند كل تبدل يطرأ على الحال . ونحن نرى التطور ذاتـــه يطالعنا من الحروب البونية الثلاث . ففكرة القضاء الكامل على احـدى القوى الرئيسية الكبرى في العالم – والتي امست في النهاية فكرة مألوفة لكل واحد نتيجة للالحاح الجاف المتعمد لكاتو على قوله : Ceterum censeo carthaginem esse delendam – هذه الفكرة لم تخطر ابدا على بال المنتصر في معركة زامـــا ، وبالرغم من كل ما في الاخلاقية الحربية لدول المدن الكلاسيكية من وحشية ، فانها كانت ستبدو في نظر ليساندر ، وهو يقف منتصرا في اثينا ، كفرا وتجديفاً بكل إله .

وتبدأ مرحلة الدول المتنازعة ، بالنسبة للعالم الكلاسيكي ، بمعركة ابـوس (٣٠١) ثالوث القوى الكبرى الشرقية ، وبالانتصار الروماني على الاتروسكان والسمنيت في سانتينوم (٢٩٥) الذي خلق قوة كبرى ايطالية اوسطية الى جانب قرطاجـة . ومن ثم نشأ اولا عن التفضيل المميز في كلاسيكيته للاشباه القريبة والراهنة ، وفي عيون كانت مطبقة الاجفان ، عندما انتصرت روما على الجنوب الايطالي خلال مغامرة البايريك Pyrrhic ، ومن ثم البحر خلال الحرب البونية الاولى ، واخيرا الشمال الكلتي بواسطة ك. فلامينيوس . وقـد تجاهل الجميع ، ولا يستثنى الرومان انفسهم من هذا القول، اهمية هانيبال ومغزاه (هذا الشخص الذي لربما كان الانسان الوحيد في عصره الذي رأى مجرى الاحداث بجـــلاء ووضوح) . فالقوى الهيلينستية الشرقية قد هزمت في معركة زاما ، ولم تنهزم قط فيما بعدها ، في ماغنسيا وبدنا Pydna . ولقد حاول عبثاً ستبيو فيما بعـد ان يتجنب كل غزو ، نظراً للاقة الحقيقي امـام مصير كانت تزحف نحوه دولة

مدينة مثقلة الكاهلين بأعباء السيطرة على العالم وفروضها . وعبثا انشبت حاشيته الحرب المقدونية قوة وارغاماً وضد رغبات جميع الاحزاب ، وانشبتها فقط بغية ان تتمكن فيما بعد من تجاهل الشرق بوصفه مسالماً وعاجزا عن الحاق اي ضرر بروما . ان الاستعمار هو نتاج ضروري بالنسبة لكل مدنية ، ومحتوم الى درجة انه يمسك بالشعب ويدفع به الى القيام بهذا الدور . فالامبراطورية الرومانية لم تكن ثمرة غزو او فتح ، ولكن الـ Orbis terrarum كشفت نفسها داخل ذلك الشكل وارغمت الرومان على ان يطلقوا اسمهم عليها . فهي كلها كلاسيكية وكلاسيكية جداً . فبينما كانت الدول الصينية تدافع حتى عن بقايا استقلالها بضراوة بائس ، وشجاعة مستميت ، اخذت روما ، في اعقاب عام ١٤٦ ، تحول جمهرات الاقاليم الشرقية الى ولايات (تتمتع باستقلال اداري ـ المترجم) Province ، لانها لم تجد من وسيلة اخرى تمكنها من الصمود في وجه الفوضى . وحتى هذا المقدار افضى بشكل روما الباطني ـ وهذا هو آخر ما بقي قوياً ـ الى الذوبان خلال الفوضى التي تفشت في العهود الغراتشية . واكثر من ذلك (وهذا امر لا مثيل له في اي مكان آخر) كون الجولات الاخيرة من المعركة على الامبراطورية لم تدر بين دول ، بل بين احزاب في مدينة ـ فشكل دولة المدينة لم يكن يسمح بايـة نتيجة اخرى . فمنذ القدم كانت اسبرطة هي خصم اثينا ، واليوم اصبحت الخصومة بـين الحزب الارستقراطي والحزب الشعبي . وخلال الثورة الغراتشية التي كانت ارهاصاتها قد تبدت خلال حرب العبيد الاولى (١٣٣) ، اغتيل سراً ستسيبيو الاصغر ، وذبح ك غراتشوس جهاراً نهارا . والاول بوصفه برنسيب ، والثاني بوصفه تريبيون ، كانا بحد ذاتيهما قطبين سياسيين وسط عالم امسى لا شكل له . وعندما قامت الجماهير الحضرية في روما لاول مرة ، ومخالفة لكل قانون ، ونصّبت ، اضطراباً وضجيجاً ، فرداً نفرا ، هـو ماريوس ، امبراطوراً ، فان المغزى الاعمق لهذه الرواية التي مثلت ، يعـادل مغزى انتحال حاكم تسن ، في عـام ٢٨٨ ، لقب الاسطوري ، امبراطور . وجاءت النتيجة الحتمية لهذه الحقبة ، قيصرية رسمت فجأة ذاتها في الافق .

خلف ماريوس التريبون ، وحـذا حذوه ، فوحد بين الدهماء والطبقة المالية الراقية ، ثم اقدم في عام ٨٧ عـلى القيام بحملات من ابادة جماعية ضد الطبقة الارستقراطية القديمة . وخلف سولا البرنسيب حيث قام هـذا في عام ٨٢ ، باستئصال شأفة كبار التجار اعداماً ونفياً وتجريداً من حماية القانون . وبعد هذا الحدث نرى القرارات الحاسمة الختامية تتدافع بسرعة كتدافعها في الصين بعد بروز وانـغ ـ شنغ Wang - Cheng . وكان بومباي البرنسيب ، وقيصر التريبون – والتريبيون هنا ليست منصباً بل اتجاه وموقف – لا يزالان زعيمي حزب ، لكنهما بالرغم من هذا ، كانا يتدبران الامور مع كاسيوس ، في لوتشيا ، ومعاً لتقسيم العالم لاول مرة بينها . وعندما هزم ورثة قيصر قاتليه في فيلبي ، لم تعد الدهماء والطبقة المـالية اكثر من مجموعات من افراد . وكان الصراع في معركة اكتيوم يدور بـين افراد ، وكان للقيصرية مـا تريد حتى في هذه العملية .

ومن البديهي ان يحل الاجماع الجوهري خلال التطور المتجانس هـذا ، داخل العالم العربي ، محـل دولة المدينة الجمعية ، بوصفه الشكل الاساسي الذي داخله وبواسطته تحقق الوقائع ذواتها ، وهذا الشكل ، ينفي ، كما رأينا ، اي فصل بين النزعة السياسية والنزعة الدينية ، وينكره الى حد يجعل حتى الاندفاع الحضري البرجوازي نحو الحرية (وهو هنا يدل ، كما يدل في كل مكان آخر على بداية مرحلة الدول المتنازعة) يعرض ذاته متنكراً بزي ارثوذكسي ، وهكذا فشل الناس حتى الآن تقريباً في التعرف عليه على هذا الشكل . وقـد تبدى هذا الاندفاع كارادة عزمت على التحرر من نظام الخلافة الذي اوجده الساسانيون ، وديوكلتسيان من بعدهم ، في اشكال لدولة اقطاعية . وقـد اضطر هذا النظام ، ابتداء بزمني جوستنيان وكسرى انو شروان ، ان يجابه « الفروندين » – الذين كان يقودهم احبار الكنيستين اليونانية والمزديه ، طبقة النبلاء من كل من المزديين الفرس (وبخاصة في العراق) واليونان (وخـاصة الاسيويين منهم) والفروسية

الراقية في ارمينيا التي كانت منقسمة الى جزئين بسبب الفرق الديني . وجـــاء الاسلام ليدمر فجأة النظام المطلق الذي بلغه هذا الجزء من العالم في القرن السابع. ولقد كان الاسلام في بداياتـه السياسية ارستقراطي الطابع تماماً ، فتلك الحفنة من العائلات العربية التي حافظت في كل مكان ، على بقاء مقاليد الامور بـــين ايديها ، سرعان ما شكلت في البلدان المفتوحة طبقة نبالة ارقى تتمتع بعراقة أصل قوية واكتفاء ذات هائل ينزل بالسلالة المالكة الى المرتبة ذاتهـا التي تنزل طبقتها « المعاصرة » من النبلاء الانكليز بسلالتها اليها . ولقد كانت الحرب الاهلية التي نشبت بين عثمان وعلي (٦٥٦ – ٦٦١) تعبيراً عن الفروندية الحقيقية ، وجاءت كل الحركات التي نشأت عنهـا في صالح فخذين وفي مصلحة مناصري كل منهما . وكان حزب « الهويغ » وحزب « التوري » Tories الاسلاميـــــان في القرن السابع هما وحدهما اللذان ياوسان السياسة العليا ، مثلهم في ذلك مثـل الحزبين الانكليزيين في القرن الثامن عشر ، وكانت للنزعات التي نشبت بـــين الخلان والعائلات في هذين الحزبين ، اهمية من وجهة نظر التاريخ اشد بمـا كان لكل الاحداث التي شهدتها العائلة المالكة الاموية (٦٦١ – ٧٥٠) من اهمية .

ولكن ظهر مع سقوط السلالة المالكة المرحة والمثقفة المنـــارة والقابعة في دمشق - اي في الغرب الآرامي وسوريا اليعقوبية – وتبـدى مركز الجاذبية الطبيعي للحضارة العربية من جديد ، انه كان الاقليم الآرامي الشرقي . وهـذا الاقليم كان فيما مضى قاعدة السلطة الساسانية ، وهو الان قاعدة للدولة العباسية لكنه كان دائماً وابداً – وبغض النظر عما اذا كان تشكيله فارسياً او عربياً ، او كان دينه المزدية او النسطورية او الاسلام – يعـــبر عن الخط الواحد والعظيم ذاته للتطور ، وكان نموذجاً لسوريا وبزنطة على حد سواء . ومن الكوفة انطلقت تلك الحركة التي اسفرت عن سقوط الدولة الاموية ، الممثلة للنظام القــــديم Ancien Règime ، وان طابـع هذه الحركة – التي لم يلحظ حتى الان كامل سعتها وحجمها – كان طابع الثورة الاجتماعيـــة الموجهة ضد الانظمة الاولية

المجتمع وضد التقاليد الارستقراطية . وقد بدأت بين الموالي ، طبقة البرجوازية الصغيرة في الشرق ، وانعطفت مسوقة ببساط من عداوة مريرة ضـــد العرب ، لا بوصف هؤلاء أبطال الاسلام والذائدين عن حياضه ، بل بوصفهم طبقــة نبلاء جديدة . وكان الموالي المهتدون حديثاً الى الاسلام ، يتمسكون بشعائره اكثر من تمسك العرب بها ، وكان كل الموالي تقريباً مزدرين سابقـين ، لكن العرب كانوا يمثلون بالاضافة الى ذلك مثـــلًا اعلى لطبقة . وحتى جيش علي الذي كان روحاً وجسداً ديمقراطي الفطرة وقراء مطهرين ، دب فيه الانقسام ، ونشاهد في صفوف هذا الجيش لاول مرة ، ذاك المركب من التشايعية المتعصبة ويعقوبية (الثورة الفرنسية – المترجم) ولا تبرز ، هنا والان ، فقط النزعـــة الشيعية ، بـــل يتجلى ايضـاً اول نزوع الى الحرميـــة الشيوعية وهـذه حركة بقدورنا ان نقتفي آثارها عائدين بها حتى مزداك Mazdak ، وهي التي نجمت عنها فيا بعد تلك الانفجارات الواسعة في عهد بابك Babek . وقـد تكون عواطف العباسيين الودية قد اتجهت نحو اي شيء ولكنها لم تكن اكيـــداً مع المتمردين في الكوفـــة ، وبفضل مهارتهم الدبلوماسية فقط سمح بأن يكون لهم موطىء قدم ، كضباط ، ومن ثم استطاعوا – كما فعل نابليون تقريباً ان يرثوا الثورة التي عمت الشرق بأكمله . وبعـد ان تحقق لهم النصر قاموا ببناء بغداد – وهذه تبدو كأنها مدينة تستزفون قـد بعثت حية ، وهي رمز لسقوط العروبة الاقطاعية – واصبحت هذه المدينة العالمية الاولى للمدينة الجديدة ، ابتداء بعـام ٨٠٠ الى عام ١٠٥٠ ، مسرحاً للاحداث التي افضت بالنظام من النابليونيـة الى القيصرية ، اي من الخلافة الى السلطنة ، والتي هي بغداد ، ليست اقل مما هي في بزنطة ، الطراز المجوسي للسلطة التي لا شكل لها – وهي انها ايضاً النوع الوحيد الممكن من السلطة .

اذن فعلينا ان نعرّف بصورة واضحة بان الديمقراطية في العالم العربي ، كشأنها في اي مكان اخر ، كانت مثلًا أعلى لطبقة – انهـا النظرة الفلسفية لأهل المدن

والتعبير عن ارادتهم للتحرر من الروابط القديمة بالارض ، أكانت هـذه الارض صحراء ام ارض حراثة وزراعة . وكان باستطاعـة « الـ – لا » التي اجابت على تقاليد الخليقة ان تتنكر في اشكال متعددة تعددا غفيراً جدا ، ولم تكن هناك من ضرورة تحتم على هذه « الـ – لا » ان تعمد الى الفكر الحر او تلجـأ الى الدستورية وفق ما نفهمها نحن . فالعقل والمـال المجوسيان هما حران ولكن بشكل يختلف تمامـاً عن شكل حريتيهما عندنا . وكانت الرهبنة البزنطية تتمتع بدرجة من الليبرالية تبلغ حدود الشغب والفتن ، وكانت ايضاً توجـه مشاغباتها هذه ضد السلطات الاكليريكية العليا التي كانت قـد اوجدت وطورت نظاماً كهنوتيا (يتجانس والغوطي) حتى مـا قبل مؤتمر نيقية Nicaea . وكان ينظر الى اتحاد (اجماع) المؤمنين ، الى الشعب ، نظرة تفيض بكل معاني الشجاعـة والجرأة ، على انـه شيء اراده الله (ولا شك ان روسو كان سيقول الطبيعة) وهو متساو وحر من جميع قوى الدم . وكان المشهد المشهور لمناشدة الراهب ثيودور الستوديوني للامبراطور ليو الخامس (٨١٣) بمثابة اقتحام الباستيل في شكل مجوسي . ولم يمض على هـذا الحدث الا القليل من الزمن ، واذ بثورة البولوسيين تنشب ، وهؤلاء كانوا عميقي الورع شديـدي التدين ، ولكنهم متطرفون جذرياً فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية ، وقد انشأوا ، مـا وراء جبال طوروس ، دولة خاصة بهم عاثت الفساد في آسيا الصغرى طولا وعرضاً ، وقـد هزموا جيوش الامبراطور جيشاً بعد جيش ، ولم تتمكن الدولة من اخضاعهم الا في عام ٨٧٤ . وهـذه الحركة تنطبق تماماً على حركة الخرمية الشيوعية الدينية والتي امتدت من دجلة حتى ميرف Merv ، وحيث لم يذعن قائدها بابك ويخضع الا بعـد صراع استمر عشرين عاماً (٨١٧ – ٨٣٧) ، وينطبق ايضاً على تلك انفجـار ثورة القرامطة في الغرب (٨٩٠ - ٩٠٤) والذين كانت ارتباطاتهم تمتد من جزيرة العرب الى جميع المدن السورية وكانوا يحرضون على الثورة وينشرونها بصورة واسعة حتى بلغوا بدعوتهم اليها شاطىء فارس . ولكن الى جانب هذه الثورات كانت لا تزال توجد اشكال تتكر لمعارك حزبية سياسية

اخرى . وعندما يقولون لنا الان بأن الجيش البزنطي كان جيشاً يحطم الاصنام والايقونات ، وان الحزب العسكري يناهض حزبـــاً من الرهبان يقول بتبجيلها ، عندئذ نبدأ برؤية جدلية الصورة (٧٤٠ – ٨٤٠) على ضوء جديـد تماماً وبادراك ان نهاية ازمة (عام ٨٤٣) – بالهزيمـــة النهائية لمحطمي الاصنام والايقونات وسياسة الرهبان الهادفة الى كنيسة حرة – تمثل في مغزاهـــا عودة الملكية الى فرنسا في عام ١٨١٥ بكل ما للكلمة من معنى . واخيراً فان هـذه الحقبة هي ايضاً زمن ثورة الزنج المرعبـــة التي نشبت في العراق – لب الدولة العباسية وجوهرهـــا – وهذه الثورة تلقي فجأة بأضواء على سلسلة اخرى من الاضطرابات الاجتماعية . قام علي (بن محمد) عام ٨٦٩ سبارتكوس الاسلام، بتأسيس دولة صحيحة للزنج تقع الى الجنوب من بغداد، وقد كان سكانها يتألفون من الفارين والشاردين ، وشيد لنفسه عاصمة عرفت باسم المختارة ، ثم وسع سلطانه باتجاه جزيرة العرب وبلاد فارس معاً، حيث لاقى معاضدة قوية من قبائل بكامل افخاذها وبطونها . وفي عام ٨٧١ شن الزنج على البصرة ، اول ميناء اسلامي عظيم والبالغ عدد سكانه آنذاك المليون من النفوس واقتحموها واستولوا عليها واعملوا فيها المذابح ثم احرقوها ودكوا مبانيها دكاً . ولم تتمكن الدولة العباسية من تدمير دولة الزنج هذه الا في عام ٨٨٣ .

وهكذا أفرغت ، ببطء ، الاشكال الساسانية والبزنطيـــة من محتوياتها ، ونشأت عـــل التقاليد الارقى للنبلاء وكبار الموظفين ، تلك السلطة الفردية اللامنطقية والمستأثرة كلياً بمقاليـــد الامور ، سلطة العباقرة الذين انجبت بهم الصدفة – سلطة السلطنة . وذلك لان هـذه هي الشكل العربي الخاص ، وهو يتبدى في وقت واحد في بزنطة وبغداد ، ويتخذ مجراه الثابت انطلاقـــاً من البدايات النابليونية قرابة عام ٨٠٠ ، ويكتمل في قيصرية السلاجقة الاتراك قرابة عام ١٩٥٠ . وهكذا الشكل هو مجوسي الجوهر والمظهر ، وهو ينتمي فقط الى الحضارة العربية ، وهو شكل لا يمكن المرء ان يدركه دون ان يكون

على اطلاع على اكثف بديهيات نفسه جوهرا ونظام الخلافة هو مركب من نبض سياسي « كي لا نقول كوني » واسلوب ، هذا النظـــام لم يلغ – وذلك لان الخليفة بوصفه ممثلا لله ومعترفاً به الاتحاد « الاجماع » هو شخص مقدس – لكن هذا النظام جرد من جميع السلطات التي احتاجت القيصرية الى امتلاكها ، كما هي الحال وبومبي واغسطس وسولا وقيصر حينما قام هؤلاء قولا وفعلا باستخلاص تلك السلطات من الاشكال الدستورية القديمة لروما . اذ انه لم يبق في النهـــاية للخليفة من القوة ، الا ما بقي لمجلس الشيوخ وال Comitias منها في عهـــد تيبريوس . وقد أمسى كل ذلك الثراء الموفور للكينونة من القانون، والعرف والاخلاقية – والذي كان في سالف الايام رمزاً ، أمسى الآن مجرد زخارف تغطي نظام حكم لا شكل له ، لكنه مجرد في واقعيته .

وهكذا نجد الى جانب ميخائيل الثالث (٨٤٢ – ٨٦٧) بارداس ونشهد الى جانب قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩) رومانوس – وهـــذا الاخير كان فيما مضى حتى يشارك الامبراطور سلطاته ، Co-Emperor .

وقام ، في عام ٨٦٧ باسليوس ، سائس الخيل السابق ، والشخصية النابليونية ، بالتطويح ببارداس، وأسس « حتى ١٠٨١ » للارمن سلالة مالكة قانونها السيف ، حيث كان يحكم في معظم الاحيان ، الجنرالات بدلا من الاباطرة – جنرالات رجال قوة كرومانوس ونيقفوروس وبارداس فوكاس . وكان الاعظم من بين هؤلاء حنا تزيمسكس John Tzimisces (٩٦٩ – ٩٧٦) المسيطر على الاقليم كيورتزان Kiur Zan من أرمينيا . أما في بغـــداد فلقد قام الاتراك بدور الارمن ، وقد خلع الخليفـــة فاتك ، عام ٨٤٢ على أحد قادتهم لقب سلطان . وابتداء بعام ٨٦٢ أصبح الفيلق « البريتوري » التركي وصياً على الحاكم ، ومن ثم قام عام ٩٤٥ أحمد مؤسس سلالة الاباضية السلطانية بحصر سلطات الخليفة العباسي في الامور الدينية فقط . وهنــا نشبت في كلتا المدينتين العالميتين « بغداد وبزنطة

المترجم ، منافسة شديدة لا يكبح لها جماح بين العائلات الريفية الجبـــارة حول الاستيلاء على السلطة العليـا . ونصادف فيما يتعلق بالعائلات المسيحية ، باسيليوس الثاني وآخرين يتحدون فعلا اسياد الاقطاعات الواسعة ، ولكن هـذه المناوأة لا تخفي وراءها اطلاقاً أقل الاهداف والمقاصد الاجتماعية من حيث التشريـع . بل انها كانت عملا دفاعياً عن النفس من جانب الحكام الراهنين آنذاك ، وموجهاً ضد ورثاء محتملين ، وهو لذلك كان شديـد الشبه واجراءات سولا وتريبفيوس من اعدام ونفي وطرد .

وكان دوكاس وفوكاس وسكليروس Skleros وأقرباؤهم يملكون نصف آسيا الصغرى ، وكان المستشار باسيليوس ، الذي استطاع ان يحتفظ بجيش وان يدفـع له مرتباته من موارده الخيالية الخاصة ، قــد شبه منذ زمن طويل بكراسوس . ولكن العصر الامبراطوري بالذات يبدأ فقط بالسلاجقة الاتراك . فلقد استولى قائدهم طغرل بك، على العراق في عام ١٠٤٣ ،وعلى ارمينيا عام١٠٤٩ وعام ١٠٥٥ أورغم الخليفة على ان يمنحه سلطنة متوارثة . وافتتح ابنه آلب ارسلان سوريا ، وربح بانتصاره في مانزكرت Manzikert آسيا الصغرى الشرقية . ومن هنا فصاعداً لم تعد لبقايا الامبراطورية البزنطية اية اهمية اطلاقاً او نفوذ او تأثير على مصائر الامبراطورية التركية الاسلامية .

وهـذا هو الطور ايضاً الذي يخفونه في مصر تحت اسم « المكسوس » . ان هنـــاك قرنين من الاعوام يفصلان بين العائلة الثانية عشرة والعائلة الثامنة عشرة التي بدأت بانهيار النظام القديم الذي بلغ ذروته بسيسوستريس الثالث وانتهى بمطلع الامبراطورية الجديدة . ان عدد العائلات المالكة هنـا ، في هذه المرحلة ، كافية وحدها لتكشف عن شيء ما له أثر الكارثة وفعلها . وتتبدى لنا في لوائح الملوك اسمــاء متتالية او متوازية لمغتصبين من أغمض الاصول وأشدها ضعة وخمولا ، وقواد عسكريين وأناس يحملون القاباً شاذة غريبة ، وكان بعضهم لا يمتد أجل

حكمه اكثر من بضعة ايام قليلة . ونرى ان سجلات النيل الاعلى في سمّ Semne تتوقف في تدوينها عند اول ملك من العائلة الثالثة عشرة ، ونشهد ان محفوظات الدولة Archives تنتهي عند خلفه . وهـــذا هو الزمن الذي يرسم بابيروس لايدن من احداثه الثورة الاجتماعية الكبرى . وقـــد تلت سقوط الحكومة وانتصـــار الجماهير انفجارات حدثت داخل الجيش ، برز اثرها قادة عسكريون طموحون .

وابتداء بعام ١٦٨٠ ظهر في مصر اسم « الهكسوس » ، وهو تسمية لم يعد ، او لم يرغب مؤرخو الامبراطورية الجديدة في فهم مغزى تلك الحقبة فاستخدموا اسم « الهكسوس » ليستروا تحته خزي تلك السنوات وعارها . ومما لا شك فيه ابداً ان هؤلاء الهكسوس قاموا بالدور ذاته الذي قام به الارمن في بزنطه ، ولا ريب ايضاً في ان مصائر الكمبري Cimbri والتيوتون كانت ستسلك الطريق ذاتهـــا لو انه قدر لهم ان يهزموا ماريوس وفيالقه من دهماء المدينة وغوغائها ، وكانوا ، لو قدر لهم هـــذا النصر ، ملأوا صفوف جيوش تريمفيوس المرة تلو المرة ولربما انتهوا الى تنصيب شيوخ عشائر بربرية محل هؤلاء . وذلك لان قضية جوغورتا Jugurtha تظهر الى أي حد تجرأ الغرباء فبلغوا في تعاملهم وروما في تلك الايام . فأصل المتطفلين المقتحمين ودستورهم أمران غير ذي بال فهؤلاء قد يكونون حرساً شخصياً ، أو عبيداً عصاة ، أو بعاقبة ، أو قبائل أجنبية تماماً . ولكن ما يهم هو ما كان هؤلاء بالنسبة للعالم المصري في قرنهم . وقـــد قاموا في النهاية بانشاء دولة في الدلتا الغربية وبنوا مدينة عواريس Auaris عاصمة لهـا . وقد حكم أحد قادتهم ، واسمه Khayan ، هذا الذي لم يتخذ لنفسه لقب فرعون ، بل « حاضن البلاد » و « أمير الشباب » (وهذان لقبان ثوريا الجوهر كلقبي Consul Sine Collega أو Dictator prepetuus في زمن قيصر) وهو شخص لربما كان من معدن John Tzimisces ، أقول حكم هذا كامل البلاد المصرية وبلغت شهرته جزيرة كريت ونهر الفرات . ولكن نشب ، بعده صراع

عم كل المنـــاطق المصرية ، وكان المتصارعون يستهدفون الاستيـــلاء على الامبراطورية ، وأسفر أخيراً هـــذا القتال عن فوز آماسيس وسلالة طيبة المالكة .

أما بالنسبة لنا ، فان مرحلة الدول المتنازعة بدأت بنابليون وبنظام حكومته، التعسفي العنيف . وكان رأس هذا النظام اول انسان في عالمنا جعـــل فكرة العسكريين مؤثرة فعالة ، ومبدأ السيطرة الشعبية على العالم مبدأ نافذاً شديـــد الأثر – وهذان امران يختلفان تماماً عن امبراطورية شارل الخامس وحتى عن الامبراطورية الاستعمارية البريطانية في ايام نابليون بالذات واذا ما كان القرن التاسع عشر فقيراً نسبياً في الحروب الكبرى – والثورات – وكان يتغلب على أسوأ الازمات الدبلوماسية بواسطة المؤتمرات ، فالفضل في هذا يعود الى الاستعداد الحربي المرعب والمستمر والذي كان يجعل المختلفين يقررون ، خائفين ، في الساعة الأخيرة ، تأجيل القرار الحاسم المرة تلو المرة ، ويستبدلون قرار الحرب بآخر . وذلك لأن هذا القرن كان قرن الجيوش الدائمة الجبارة ، وقرن الخدمة الاجبارية العامة . ونحن بذواتنا جد قريبين منه ، كي نراه على ضوء هذه النظرة المرعبة . فليس هناك من مثيل له في كامل تاريخ العالم .

ومنذ سقوط نابليون كان يقف مئات الآلاف ، ومؤخراً الملايين من الرجال على أهبة الاستعداد للزحف ، وكانت الموانىء البحرية تعج بالاساطيل الجبارة التي كانت تجدد كل عشر سنوات . لقد كانت الحال في ذلك القرن حرباً دون حرب ، حرباً من المزايدات في التسلح والاستعداد ، حرباً من ارقـــام وتمبو Tempo وتقنية ، وكانت المعاملات الدبلوماسية لا تجري بين بلاط وبلاط ، بل بين قيادة عسكرية عامة واخرى . وكلما كانوا يؤخرون في ساعة الانفجار ، كانت تتزايد وسائل الحرب جبروتاً وضخامة ويزداد التوتر شدة وارهاقاً . هذا هو الشكل الفاوستي الديناميكي ، للدول المتنازعة ، خلال القرن الأول من تلك

الحقبة ، لكنها انتهت بانفجار الحرب العالمية (الاولى – المترجم) وذلك لأن مستلزمات تلك الأعوام ومطالبها كانت اكثر من ان يطبقها مبدأ التجنيد العام – وليد الثورة الفرنسية ، والثوروي متناً وحاشية ، كما هو في هذا الشكل – وتحتملها كل المناهج التكتيكية التي نجمت عنه . وسيحل تدريجياً محل الجيوش الدائمة على الشكل التي نعرفها فيه ، قوات محترفة من الجند المتطوعين الحاذقين في فنون الحرب والمتلهفين عليها ، وستتدنى اعداد الجيوش من الملايين الى مئات الألوف . ولكن هذا القرن الثاني من هذه الحقبة سيكون في الواقع قرن الدول المتنازعة . ولن تكون هذه الجيوش بدلاء للحرب ، بل ستعد من اجل الحرب وهي تريد الحرب وتطلبها . وخلال جيلين ستكون لهذه الجيوش الكلمة العليا ، وستسيطر على كل اولئك الهانئين مجتمعين .

وسيقامر في الحروب التي سنشنها هذه الجيوش بمصائر قارات ، كالهند والصين وجنوبي أفريقيا وروسيا ، وسيطلب الاسلام الى المبارزة ، وستطبق تقنية جديدة يرد عليها بتطبيق معاكس . وستهب بؤرة السلطة الكوسموبوليتيـــة العظمى ، ارضاء للجيوش ، الدول الصغرى بأراضيها واقتصادها وسكانها سواء بسواء – فهذه كلها تمسي الآن مجرد اقاليم ومناطق ، واهدافاً مغلوبة على امرها ووسائـــل الى غاية ، ومصيرها لا قيمة له بالنسبة للزحف العظيم للاشياء . لقد دربنا ، نحن معشر الغربيين أنفسنا ، خلال سنين جد قليلة ، على ألا نولي كبير اهتمام لاحداث كانت قبل الحرب العالمية (الاولى – المترجم) تثير الهلع والرعب في جميع انحاء العالم طولاً وعرضاً ، فهل يوجد اليوم احد من بيننا يفكر جدياً بتلك الملايين من البشر التي تهلك في روسيا ؟

وتتعالى المرة بعد المرة ، بين كوارث الدم والرعب ، صرخة تنادي بالتوفيق بين الشعوب والسلم على الارض . لكن هذه الصرخة ليست سوى مؤخرة صورة الحدوث العظيم وصداه ، ولكن وبوصف هذه الصرخة على هـــذا الشكل ، فمن

الضروري ان نفترض وجودها حتى ولو لم يكن هناك تقليد يخبرنا به ، كما كانت الحال في مصر المكسوس وبغداد وبيزنطة . وليحترم المرء منا ما تنادي به هذه قدر ما يشاء ويرغب ، ولكن يجب ان تكون لدينا الشجاعة على مواجهة الوقائع ، كما هي – وهذه هي الطابع المميز للناس ذوي السجايا العرقية ، وبسبب كينونة هؤلاء الرجال فقط يوجد التاريخ ويكون. واذا ما اريد للحياة ان تكون عظيمة. فهي شاقة قاسية ، وهي لا تسمح بالاختيار الا بين النصر والدمار ، وليس بين الحرب والسلم ، والى النصر تنتمي ضحايا النصر وقرابينه . اما ذاك الذي يمشي متثاقلا ضجراً متذمراً وغيوراً الى جانب الاحداث فهو الآداب أو المؤلفات – أكانت آداباً مكتوبة ، او مفكراً بها أو معاشة – انها جميعاً مجرد حقائق تفقد ذواتها داخل تصادم الوقائع المتحرك . ولم يسبق للتاريخ أبداً ان تواضع فتنازل ليرمي بلمحة عابرة على مثل هذه المقترحات . وقد حاول هيانغ سو Hiang Sui في وقت مبكر يعود الى عام ٥٣٥ ايجاد عصبة سلم في العالم الصيني. وكانت فكرة عصبة تناهض ، خلال حقبة الدول المتنازعة الامبريالية Lien - heng ، وناهضتها خاصة في الاقاليم الجنوبية ، لكنها كانت فكرة مقدراً عليها الفشل ، شأنها في ذلك ، شأن الحل الوسط الذي يعترض سبيل الحل الكامل ، وقد اختفت هذه الفكرة حتى قبل الانتصار الذي حققه الشمال . ولكن كلتا هاتين النزعتين قد نبذتا ، سواء بسواء ، الذوق السياسي للطاويين Taoist ، الذين اختاروا في هذه القرون المرعبة ، التجريد العقلاني للذات من السلاح ، وبذلك هبطوا الى مستوى أصبحوا فيه مجرد اداة يستعملها الآخرون ، او للآخرين ، في القرارات العظمى الحاسمة . زد على ذلك ان حتى السياسة الرومانية – وهي سياسة تتعمد عدم التبصر ، كما كانت حال الروح الكلاسيكية في جميع الامور الاخرى – قد قامت على الاقل بمحاولة واحدة ترمي الى ادخال جميع بلدان العالم في نظام لقوى متساوية متناسقة ، وافترض في هذا النظام ان ينفي كل ضرورة لمزيد من الحروب – وذلك عندما أفلتت الفرصة من روما لضم الشرق بعد سقوط هانيبال . لكن التودد كان أمراً غير مجد ، اذ جاهر حزب تسيبو الاصغر

بالامبريالية وانحاز الى جانبها كي يضع حداً للفوضى، بالرغم من أن زعيم هذا الحزب البعيد النظر استشف في الامبريالية هلاك مدينته التي كان لها (والى حد بعيد) العجز الكلاسيكي المألوف عن تنظيم اي شيء مهما كان نوعه او لونه . وان الدرب من الاسكندر الى قيصر درب واضح المعالم ومحتوم ، وقد كتب على أقوى امة لاية وكل حضارة ان تسلكه ، أوعته أم لم تعه ، أأرادته ، أم لم ترده .

ليس هناك من مهرب من صرامة هذه الوقائع وقسوتها . ولقد كان المؤتمر الضخم الذي عقد عام ١٩٠٧ فاتحة الحرب العالمية ومقدمتها ، وسيكون مؤتمر واشنطن لعام ١٩٢١ بدايات الحروب الاخرى ومطالعها . ولم يعد تاريخ هذه الازمان لعبة من فطن وبصائر في اشكال انيقة يستطيع أي جانب ان يستخلص منها النواقص (–) والزوائد (+) في أي وقت يشاء ويرغب . وليس هناك للمرء من خيار الا بين ان يقف ثابت القدم او ان ينهار ويتحطم ، اذ لا وجود اليوم لمجرى وسيط . ومنطق الاشياء لا يسمح لنا اليوم الا باتباع اخلاقية واحدة ، هي اخلاقية متسلق الجبل عند القمة الشامخة الوعرة – وهنا تكفي لحظة من ضعف لتنهي كل أمر وشيء . وما كل « الفلسفات » اليوم سوى اعتزال واستسلام باطنيين، انها أمل يلوذ بالفرار من الحقائق عن طريق التصوف . والامر نفسه شهدته روما من قبلنا . فتاسيتوس يخبرنا كيف نجا موسينيوس روفوس الشهير بأعجوبة من ضربات الفيالق التي وقفت عام ٧٠ أمام ابواب روما حين انطلق هذا نحوها يبشرها بفضائل السلم وبركاته ويعظها عن شرور الحرب وويلاته ، مؤملاً من وراء ذلك ان يؤثر في صفوفها ، فكان ما كان من أمره . وكان القائد العسكري آفيديوس كاسيوس يسمي الامبراطور مارك اوريل « بالعجوز الشمطاء المتفلسفة » .

وفي هذه الاوضاع يكتسب القدر المتبقي من التقاليد العظمى القديمة ، ومقدار ما دخل دم امم القرن العشرين من « جدارة » تاريخية وخبرة ، فعالية

منقطعة النظير وعنفواناً لا مثيل له . وذلك لان الروع الابداعي (او لنستعمل اصطلاحا اصفى جوهرا) النبض ، بالنسبة لنا ، والذي تحدر الينا من الاصول الاولى ، يلازم فقط الاشكال الاقدم من الثورة ونابليون ، وهي اشكال نمت وترعرعت ولم تعمل او تصنع . وان كل فضلة من هذه الاشكال ، مهما كانت طفيفة زهيدة ، قد ابقت على نفسها حية داخل كينونة اية اقلية مستقلة بذاتها مهما كانت هذه الاقلية ، فان هذه الفضلة ، لن يبلغ بها الزمان طويلا ، حتى ترتفع الى قيم لا تعد او تحصى ، وتحقق نتائج تاريخية لم يتخيل اي انسان حتى الآن كونها امورا ممكنة . وان تقاليد ملكية قديمة ، وارستقراطية عريقة لمجتمع قديم اديب ومهذب ، وذلك الى الحد الذي يكون عنده ابناؤها لا يزالون نافعين صالحين بما فيه الكفاية ، كي يبتعدوا عن السياسة المحترفة او البروقسودية ، بحيث انهم يتمتعون بالشرف وانكار الذات والحس السليم الاصيل برسالة عظمى صفة عنصر وهذه تدريب وشعور بالواجب واستعداد للتضحية - تستطيع تلك التقاليد ان تصبح مركزا يحافظ على وحدة تيار الكينونة لشعب باكمله ، وتمكنه من ان يبقى بعد هذا الزمان وان يصنع ظهور يابسته في المستقبل .

ان كون الامة « في وضع لائق » هو كل شيء . لقد قدر لنا ان نعيش في اشد تجاريب الازمان التي عرفها تاريخ حضارة عظمى . وان العرق الاخير الذي يحافظ على شكله ، وعلى آخر التقاليد الحية ، وآخر الزعماء الذين يتكفلون بحمل هذه وذاك على كواهلهم ، له سيكتب النصر .

٩

أعني بلفظ « القيصرية » ذاك النوع من الحكومة التي هي بذاتها الباطنية العودة الى اللاشكلية ، وذلك بغض النظر عن أية صيغة دستورية قد تكون لها . ولا يهم ابداً ما اذا كان اغسطس في روما أو هوانغ ـ تي في الصين ، أو آمسيس في مصر وألب أرسلان في بغداد قد تستروا تحت اشكال قديمة . فروح تلك الاشكال كانت ميتة ، وكذلك جميع المؤسسات ، ومهما بلغت العناية في صيانتها والحفاظ عليها ، فلقد كانت منذ ذاك الزمن تفتقر الى كل معنى ووزن . فالاهمية الحقيقية كانت تتمركز في السلطة الشخصية الكاملة التي كان يمارسها القيصر ، أو في أي شخص آخر قادر على ممارستها في مكانه . والقيصرية هي الارتداد لعالم انجز شكله الى اللا تاريخي الكوني . وهنا تحل الامتطاطات البيولوجية للزمان في المحل الذي أخلته الحقبات والمراحل التاريخية .

وفي البداية حيث تكون المدنية تتطور نحو ازدهار كامل (اليوم) تنتصب أعجوبة المدينة الكبرى العالمية ، هذا التحجر الضخم ، ورمز اللاشكل ، وتتبدى ـ وضيعة منفسحة منتشرة بعجرفة وغطرسة . وتمتص داخلها تيارات من كينونة تتدفق من الريف الذي أمسى الآن واهناً عاجزاً ، وهـــذه جماهير بشرية تسير متموجة كأنها كثبان من رمال وتنتقل من مدينة الى اخرى أو تصب كالرمال المتحركة في شروخ وفلوع من حجر . وهنا يحتفل المال والعقـــل بأعظم وآخر انتصاراتهم . زد على ذلك ان هذه المدينة هي اضحل الظاهرات سطحيـة واشد ما عرض على العيون البشرية في عالم الضوء — وهي طبقة شبحية غريبـــة

« وواقعها أغرب من أن يصدقه العقل »، وها هي تنتصب وتكاد تكون وراء كل امكانات التشكل الكوني .

وفي كل حال سرعان ما تنطلق الوقائع المعدومة الفكر الى مقدمة الصفوف ثانية ، وتندفع الى الامام جبارة عارية . فلقد تغلب اخيراً النبض الكوني الخالد على التوترات العقلانية لمدد قليل من القرون . والحـــال قد انتصر في شكل الديمقراطية . وقد عرف المال حقبة كانت السياسة خلالها واقية ومربية . ولكن حالما حطم هذه الانظمة القديمة للحضارة ، أنجبت الفوضى بعامل جبار قهار يتخلل جواهر الصيرورة بالذات - انه رجال قيصر .

ولكن المال يتهاوى قبل هؤلاء وينهار . فالحقبة الامبريالية في كل حضارة تعني نهاية سياسة العقل والمـــال . وهنا تستأنف قوى الدم ، الطاقات السليمة جـداً ، ممارسة سيادتها الغابرة . ويتدفق « العرق » نقياً لا يقاوم ، - وهنا ينتصر الاقوى ، ويصبح الشغل غنيمة . وهنا يستولي هؤلاء « القياصرة - المترجم » على مقاليد العالم ودفته ، وتتحجر مملكة الكتب والقضايا ، أو تضمحل وتتلاشى من الذاكرة . ومنذ الآن تصبح مصائر جديدة من طراز ما قبـل الحضارة أموراً ممكنة من جديد ، ومنظورة من قبل الشعور دون ان تكون بحاجة الى ملابس تخيطها لها السببية . وهنا لا يعود يوجد من فرق باطني بين حياتي سبتيموس سيفروس وغالينوس ، أو بين حيـــاتي ألاريك وأدوسير Odoacer . وينتمي رمسيس وتراجان و وو - تي Wu - ti الى امتطاطات زمانية متجانسة هنا وهناك .

وعندما تطل الحقبة الامبريالية لا يعود هناك المزيد من القضايا السياسيـــة ، والناس يتدبرون امورهم والوضع كما هو قائم ، والسلطات كما هي حالها . لقـــد تدفقت الدماء انهاراً خلال حقبة الدول المتنازعة ، وصبغت بسيولها الحمراء أرصفة مدن العالم وشوارعها ، وذلك كله بغية ان تتحول الديمقراطية الى وقائع ، ونضال

لا كتساب الحقوق التي كانت تبدو ان الحياة غير جديرة بان تعاش بدونها . ولكن وقد اكتسبت هذه الحقوق الآن ، لكن احفاد مكتسبيها يعجزون حتى بالقصاص عن دفعهم الى استخدامها وممارستها . ولا تمضي المئة سنة على حلول القيصرية ، حتى يعود المؤرخون انفسهم لا يفهمون المناظرات القديمة معنى أو مغزى . وفي زمن قيصر كان الرجال المحترمون قد توقفوا عن الاشتراك في الانتخابات تقريباً . وقد عانى تيبريوس العظيم الامرين بسبب ابتعاد معظم الرجال القديرين في عصره عن السياسة . ولم يستطع نيرون حتى بالتهديد ان يرغم سلاح الفرسان في الجيش Equites على الحضور الى روما لممارسة حقوقهم . هذه هي نهاية السياسة العظمى وختامها . وعلى الصدام بين العقول الذي كان بديلا للحرب ، ان يخلي الآن محله للحرب نفسها ، ولاشد اشكالها بدائية .

ولهذا فانه لسوء فهم كامل لمعنى هذه الحقبة ان يفترض المرء ، كما فعل مومسون ، وجود مخطط عميق لتجزئة في الحكومة الثنائية « Dyarchy » وضعه اوغسطس ، حيث وزع السلطات بين البرنسيبس ومجلس الشيوخ . فلو جاء هذا الدستور أبكر بقرن واحد لربما أمسى شيئاً حقيقياً ، ولكن هذا الواقع وحده كاف ليجعل من المستحيل دخول فكرة كهذه الى رؤوس رجال — القوة الراهنين . فهو الآن لا يعني سوى محاولة تقوم بها شخصية ضعيفة كي تخدع نفسها امام هذه الوقائع التي لا ترحم ، فتكسبها اشكالاً فارغة .

لقد كان قيصر يرى الاشياء على حالها الراهن ، وكان لا يسترشد في ممارسة سلطاته الا بالاعتبارات العملية الاثباتية التي لا تعرف عاطفة أو هوى . وكانت التشريعات التي استصدرها في شهوره الأخيرة تتعلق كلياً بتدابير انتقالية ، ولم يكن يقصد ان يكون لاي منها سريان دائم . وهذا هو بالذات الذي اغفل أمره بصورة عامة . فقيصر كحكم على الاشياء كان اعمق من ان يتوقع تطوراً او ان يقرر في تلك الفترة اشكاله ويعينها ، وهو يرى ارهاصات الحرب البارثية

تلوح في الافق . لكن اوغسطس كبومباي من قبله ، لم يكن السيد بين اتباعه ، بل كان يعتمد اعتمادا كلياً عليهم وعلى نظرتهم الى الاشياء . زد على ذلك ان شكل البرنسيب لم يكن اطلاقا من مكتشفاته ، ولكنه كان التنفيذ العقائدي لمثل اعلى هزيل لحزب ، مثل اعلى كان كاتو - وهذا بدوره شخصية ضعيفة اخرى - قد صاغه . وعندما قام اوغسطس في ١٣ و ٢٧ من كانون الثاني باعادة سلطة الدولة « الى شعب روما ومجلس شيوخها » (وهذا مشهد ، هو اكثر من ذلك عديم المعنى ، بسبب ما فيه من صدق او اخلاص) احتفظ لنفسه بالتريبونية . والحق ان التريبونية كانت هي العنصر الواحد الذي بمقدوره ان يظهر نفسه في الامر الواقع . فالتريبيون كان الوارث الشرعي للطاغية ، وكان كايوس غراكوس قبل اوغسطس بزمن طويل قد حمل ، عام ١٢٢ ق.م ، هذا اللقب من المضمون او المحتوى ، حيث لم يعد محدودا بالحدود القانونية للمنصب ، بل فقط بالمواهب الشخصية لشاغله . ومن كايوس ينتقل هذا المنصب بخط مستقيم ماراً بماريوس وقيصر حتى الفتى نيرون الذي اخذ على عاتقه احباط المقاصد السياسية لأمه اغريبينا . ومن جهة اخرى كان البرنسيبس قد امسى منذ ذاك الوقت فصاعدا لباساً رسميا فقط ، رتبة - ومرتبة من الجائز ان تكون حقيقة وواقعا في المجتمع ، ولكنها بالتأكيد ليست كذلك في السياسة . وكان هذا المفهوم هو الذي احاطته نظرية شيشرون بهالة من دون كل الناس - مع فكرة الـ ديفوس . وعلى العكس كانت حال « التعاون » بين مجلس الشيوخ والشعب ، فهذا التعاون كان طقساً اثرياً مستعتقاً ، وكان فيه من الحياة مقدار ما في شعائر فراتريس آرفاليس Fratres Arvales - وهذه ايضا اعادها اغسطس . اما الاحزاب الكبرى في العصر الغراكشي Gracchan ، فكانت قد امست آنذاك منذ طويل زمن بطانات وحواشي - لقيصر وبومباي - واخيرا لم تبق على الجانب الواحد سوى تلك الواقعة القهارة الشرسة اللاشكلية واعني القيصر - او اي انسان آخر تدبر امره فطوى القيصر تحت جناحي نفوذه - اما على الجانب الآخر فكانت توجد حفنة من الايديولوجيين الضيقي الافق والذين كانوا

يخفون تذمرهم تحت ستار الفلسفة ، واخذوا منذ ذاك الوقت فصاعداً ، يسعون لترقية مثلهم العليا مستعينين بسلم المؤامرات . وان ما كانه الرواقيون في روما كانه الكونفوشيون في الصين — ونحن اذا نظرنا على هــذا الضوء يبدأ حدث « احراق الكتب » الذي اشترعه اوغسطس الصيني عام ٢١٢ ، بالاتضاح لنا من خلال الاجراءات الزجرية الفاندالية (الهمجية) المروعة التي تشد اليها عقول المتعلمين فيا بعد . ولكن ، هؤلاء الرواقيون المتحمسون لمثل أعلى أمسى مستحيلاً ، هم الذين قتلوا قيصر على كل حال . ولقــد أقاموا مذهب كاتو وبروتوس كمذهب مناهض لمذهب ديفوس . ولم يكل الفلاسفة في مجلس الشيوخ (الذي كان آنذاك قد اصبح نادياً للنبلاء) ولم يملوا من التفجع على سقوط « الحرية » ، واندثارهـا ، ومن حبك المؤامرات والتحريض عليها ، كمؤامرة بيسو Piso في عام ٦٥ مثلاً ، ولو ان هذا كان وضع الاشياء عند قتل نيرون ، فلربما كان سولا مرة أخرى ، وهذا هو السبب الذي دفع بنيرون الى اعدام الرواقي تراسيا بيتوس Thrasea Paetus ، وحمل فاسبسيان على اعدام هلفيديوس بريسكوس ، وهو أيضاً السبب الذي جعل السلطة آنذاك تجمع نسخ كتاب تاريخ كريموتيوس كوردس الذي يمجد بروتوس بوصفه آخر الرومان ، وتقوم باحراقها . وهذه كانت اعمالاً استلزمتها الضرورة الدفاعية للدولة تواجهاً وايدلوجيا عمياء — وقد قام كرومويل وروبسبير بأعمال كهذه كما نعــلم — كما وان هذا هو الوضع نفسه الذي وجد القياصرة الصينيون أنفسهم فيه تواجها ومدرسة كونفوشيوس الذي كان سبق لهـا أن وضعت مثلهم الاعلى لدستور الدولة ، لكنها الآن لم تعد تميــل الى احتمال الأمر الواقع . وان احراق الكتب هذا لم يكن سوى تدمير جزء من المؤلفات الفلسفية السياسية ، والغاء الدعاية ، والتنظيمات السرية وقد استمر هذا الاجراء الدفاعي قرناً من الزمن في كلتا الامبراطوريتين ، ومن ثم تلاشت حتى الذكريات عن الانفعالات والاندفاعات السياسية الحزبية ، وأصبحت الفلسفتان المطـل الفلسفي السائد في العالم في الحقبة الامبراطورية ونضوجها .

ولكن العالم كان الآن مسرحاً لتواريخ عائلية مأساوية ، ذابت داخلهـــا تواريخ الدول ، فعائلة يوليوس وكلوديوس دمرت التاريخ الروماني ، كما قضى آل شي – هوانغ – تي (وحتى ابتداء بعام ٢٠٦ ق . م) على التاريخ الصيني ، ونحن نميز ، بغموض شيئاً من هـذا النوع في مصائر الملكة المصرية هتشبسوت واخواتها (١٥٠١ – ١٤٤٧) . وهذه الخطوة هي الخطوة الاخيرة في الطريق الى القطعي . ومع السلام العالمي – سلام السياسات الراقية – يتراجع « جانب السيف » من الكينونة ، ويحكم « جانب المغزل » ثانية . ومنذ هذا الزمن فصاعـــداً لا تطالعنا سوى تواريخ شخصية ومصائر فردية ، وطموح شخصي ، وذلك ابتداء من القمة حتى القرار ، ومن الاضطرابات التعيسة بين الفلاحين ، حتى الصراعات الكظيم بين القياصرة على الامتلاك الشخصي للعالم . ان حروب حقبة السلام العالمي هي حروب شخصية ، وهي أشد رعباً وهولاً من اية حرب دولية ، وذلك لأن هذه الحروب لا شكل لها .

وذلك لان السلام العالمي – والذي وجـد فعلا مرارا – يستلزم الشجب الشخصي للحرب من جانب الاكثرية الساحقة ، ولكن يترتب عليه مع هذا ايضا الاستعداد الخفي لدى من يشجبه للخضوع أصيرورته غنيمة باردة للآخرين الذين لا يشجبوه . وهذا السلام يبدأ بالرغبة المدمرة للدولة ، الرغبة في الوفاق العالمي ، وينتهي بألا يحرك اي انسان ساكنا طالما ان النوازل تنزل بجاره فقط . ولقد كانت كل مدينة ، وكل رقعة من ارض ، قـــد اصبحت في عهد مارك اوريل تفكر بنفسها فقط ، وكانت ترى في نشاطات الحاكم وتحركاتـه اموراً شخصية خاصة به وحده ، كما كانت حال امور الآخرين . وكانت لا مبالاة الشعوب الأبعد مسافة عن تلك ، به وبجنده واهدافه كلامبالاتها بمقاصد العصابات الحربية الجرمانية سواء بسواء . ومن هذه المقدمة الروحية ينطلق تطور فايكنغية ثانية . وكيان الدولة « في شكل لائق » ينتقـــل من الامم الى العصابات وحواشي المغامرين والقياصرة المنصبين لذواتهم ، والجنرالات المنشقين ، والملوك البرابرة

وهكذا دواليك ـ حيث يصبح اخيرا السكان في نظر هؤلاء جزءاً من صقع فقط . وهناك علاقة عميقـــة تربط بين الابطال في العهد المسيني البدائي وبين الاباطرة العسكر لروما ، ومثلا بين مينيس ورمسيس الثاني . وستبعث في عالمنا الجرماني روحا ألاريك وتيودريك ثانية ـ وها اننا نرى اول ملمح لها في سيسيل رودز ـ وفي الجلادين الاجانب في فاتحة الحضارة الروسية ، ابتداء من جنكيزخان حتى تروتسكي ، (بما يفصل بين هذين من مرحلة بطرسية قيصرية) والذين بعد كل شيء ، يختلفون اختلافا جد قليل عن معظم الادعيـــاء في جمهوريات اميركا اللاتينية ، هؤلاء الذين دمرت صراعاتهم الشخصية ، منذ زمن طويل الشكل الموفور الثراء الباروكية الاسبانية .

ومع الدولة القيصرية ، يضطجع التاريخ الراقي ايضا متعبـاً يطلب النوم . ويعود الانسان ليصبح نبتة من جديد ، وغرسة تلتصق بالارض ، بكماء خرساء تكابـد الحياة وتستمر . وهنا تتبدى ثانية القرية المعدومة الزمان ، والفلاح « الخالد » فينجب بالاطفال ويدفن البذار في جوف ارضنا الام ـ وتبـدو حشوده دؤوبة وليست بغير ملائمة تمر من فوقهم زوابع الاباطرة العسكر هابة عبورا . وعلى وسط الارض تترامى المدن العالمية ، اواني واوعية فارغة لروح هامدة خامـــدة ، حيث يعشش فيها بطيئاً بطيئا ، جنس بشري لا تاريخ له . والناس تستعجل افواههم حركات ايديهم لالتهام ما فيها ، ويعيشون عيش مقتصد حقير ، ذي ثروة تافهـــة حقيرة لكنهم يكابدون الحياة ويستمرون . والجماهير تدوسها سنابك خيل الغزاة وهم يتصارعون على السلطة واسلاب هذا العالم وغنائمه ، لكنها سرعان ما تملأ الثغرات بما عرف فيها من اخصاب تناسلي بدائي ، وتستمر في المكابدة والالم . وبينما يكون اولئك المتربعون على المراتب العالية في حال من تداول خالد من نصر وهزيمـــة ، يكون من في الحضيض مشغولين بالصلاة ، ويصلون بذاك الورع الجبار المعهود بالتدين الثاني والذي يكون قد تغلب على كل شك حتى الابد .

الفصل الثالث والعشرون

الدولة

(ج)

فلسفة السياسة

- ١ -

لقد أولينا السياسة ، كفكرة ، من التفكير اكثر مما يتفق وصالحنا ، وذلك لانه تطابقاً وهذا ، قد فهمنا الأقل من التفرس في السياسة بوصفها واقعاً . فرجال الدولة العظام معتادون على العمل الفوري والتنفيذ المباشر ، ويعتمدون في ذلك على دقة تمييز ، واثقة واكيدة ، بين الوقائع . وهـذه العادة هي ، بالنسبة لهم ، واضحة وغنية عن البيان الى حد انه لا يخالجهم ابـداً اي خاطر يستدعيهم للتأمل في المبادىء الاساسية العامة لعملهم — وذلك اذا ما فرضنا ان هذه المبادىء توجد فعلاً . فهؤلاء الرجال كانوا في كل العصور يعرفون بما هو متوجب عليهم القيام

به ، ولقد كانت اية نظرية في المعرفة غريبة عن قدراتهم واذواقهم معاً . ولكن المفكرين المحترفين الذين وجهوا انتباههم الى سياسة الأمر الواقع Fait accomplis التي نفذها رجال الدولة كانوا بعيدين باطنياً عن اعمال هؤلاء ذاك البعد ، الذي جعلهم ينسجون فقط لأنفسهم شبكة من التجريدات ــ لحق الاختيار ولاساطير التجريدات كالعدالة والفضيلة والحرية ــ ثم طبقوهـا ، بوصفها ميزاناً ، على الماضي وخاصة على الحدوث التاريخي في المستقبل . وهكذا فانهم في النهاية قـد نسوا ان المفاهيم هي مفاهيم فقط ، ثم دفعوا بأنفسهم الى الاستنتاج ان هناك علوماً سياسية نستطيع بواسطتها ان نشق مجرى العالم ونشكله وفق مخطط مثالي مرسوم . ولما لم يكن قد حدث ابداً ، وفي أي مكان شيء من هذا النوع ، لذلك اخـذ هؤلاء المفكرون المحترفون يعتبرون الفعل السياسي ، في ميدان الواقع ، شيئاً ما زهيداً تافها حينا يقارن بالتفكير المجرد الذي يعرضونه في كتبهم ويناقشون « عمـا اذا كان يوجد ، اطلاقاً ، عبقرية فعل سياسي » .

وحالنا هنا ، هي العكس من حالهم ، اذ اننا سنحاول ، بدلا من ان نقدم منهاجاً ايديولوجياً للسياسة، ان نتقدم بسيمائية لها كما مورست فعلا وواقعاً في مجرى التاريخ العام ، وليس لما كان الجائز ، او الواجب ان يكون شكل ممارستها واسلوبها . لقد كانت القضية ولا تزال تتمثل في النفوذ الى المعنى النهائي للاحداث العظمى ، بغية ان « نراها » ونشعر بالهامٍ رمزيا ــ منها وننقله حرفاً وصورة وجوهراً . وليست هناك اية علاقة بـين مشاريع مصلحي العالم وبـين الامر الواقع للتاريخ .

ان مجاري كينونة الانسانية تسمى بالتاريخ ، وذلك عندمـا نعتبرها بوصفها حركة وعائلة ومنزلة (اجتماعية) وشعباً وامة ، اي عندما نعتبرهـا الموضوع المحرك . وان السياسة هي الاسلوب الذي تحافظ به هذه الكينونة المنساقة الدفاقة على نفسها ، فتنمو وتنتصر على مجـار لحياة اخرى . وان كل حي هو سياسة

بكل ملمح من ملامح الغريزة وحتى نخاع عظامه . وان ذاك الذي نرغب في ان نسميه ، في هذه الايام ، بطاقة الحياة (الحيوية) ، الـ ــ it داخلنا ، التي تكد وتكدح أماماً وعلاء مهما كان ثمن هذين ، هـذا الاندفاع الكوني الأعمى نحو التوطد والرسوخ والقوة والذي يبقى في الوقت نفسه مرتبطاً بالأرض ، بأرض « الوطن » ، هذا التوجيه ، هذه الحاجة الى التحقق ــ هذا هو الذي يتبدى في كل جنس بشري ارقى بوصفه حياته السياسية الساعية ، طبيعة وحتما ، عن القرارات العظمى التي تقرر مـا اذا كانت هذه الحياة ستكون مصيراً بذاتها ، او ستكابد مصيراً ، وذلك لانهـــا تنمو او تذوي وتمـوت ، وليست هناك امكانية ثالثة امامها .

ولهذا السبب فان طبقة النبلاء بوصفها تعبيراً لنوعيـة عرق قوية ، هي النظام السياسي الصحيح ، وان التدريب لا التشكيل هـو النوع السياسي السليم من التهذيب والتثقيف . وان لكل سياسي عظيم ، تطب القوى في سبل الحدوث ، شيئاً ما من النبالة داخل شعوره برسالته الذاتية وبواجبه الباطني . ومن جهـــة اخرى فان كل ما هو عالم أصغر « وعقل » هو لا سياسي ، وهكذا فانـه يوجد شيء مـــا من كهنوت في جميع سياسات المناهج والايديولوجيات . وان افضل الدبلوماسيين هم الاطفال ، ففي لهوهم ، او عندمـــا يريدون شيئاً ما ، تتدفق فوراً it كونيـــة مشدودة الى الكائن الافرادي ، وتنطلق بخطوات واثقة ثابتة كأنها خطوات ، الجولاني (السائر نائماً) . والاطفال لا يتعلمون ، بل ينسون هذا الفن عندما يشبون ويكبرون ــ ومن هنا تنشأ هذه الندرة في العالم في رجال الدولة الراشدين سنا .

ان السياسة الراقية لا توجد الا بين وداخل سيول الكينونة هـذه التي تملأ ميدان الحضارة الراقية . لذلك فان هـــذه السيول هي ممكنة فقط في حال من تعدد Plural . فالشعب هو شعب كائن حقيقي وذلك ارتباطاً والشعوب ،

ولكن علاقة العرق الطبيعية بين الشعوب هي لهذا السبب بالذات علاقة حرب – وهذه واقعة لا تستطيع كل الحقائق ان تبدلها . فالحرب هي السياسة الاولية لكل من وما يحيا ويعيش ، وحتى ان الحياة والمعركة هما في الاعماق الامر الواحد ذاته ، زد على ذلك ان الكينونة وارادة العراك تموتان معاً . وان الكلمتين الجرمانيتين القديمتين ككلمتي Orlog و Orrusta ، تعنيان الجدية والمصير ، في تباينهما واللهو والتمثيل – وهذا التباين هو تباين في القوة ، في الشدة ، وليس فرقاً وصفيا Qualitative . وحتى بالرغم من ان جميع السياسات الراقية تحاول ان تكون البديل ، من اكثر الاسلحة العقلانية ، للسيف ، وبالرغم من ان طموح كل رجل دولة ، عندما تبلغ الحضارة ذروتها ، هو ان يشعر بأنه يستطيع ان يستغني عن الحرب ، بالرغم هذا ، تستمر العلاقة الاولية بين الدبلوماسية وفن الحرب قائمة وموجودة . فطابع المعركة هو طابع مشترك بينهما ، وبين التكنيك والمكائد ، وضرورة وجود قوى مادية في المؤخرة كي تعطي للعمليات وزناً . زد على ذلك ان الهدف ايضاً يبقى هو الهدف ذاته – واعني بذلك نمو وحدة الحياة للمرء (أكانت هذه طبقة او أمة) على حساب الوحدات الاخرى . وان كل محاولة ترمي الى استئصال جوهر العرق ، تؤدي في النهاية فقط الى نقل هذه الوحدة ، الى ارض اخرى ، ويكون لدينا بدلاً من الصراع بين الدول ، صراع بين الاحزاب ، او صراع بين المناطق او ، اذا ما كانت ارادة النمو قد خمدت نارها ، صراع بين بطانات المغامرين ، حيث تقوم البقية من السكان ، فتقدم نفوسها خضوعاً واذعانا ، لتتفق واعمال هؤلاء .

ان موضوع النزاع في كل حرب تنشب بين قوى الحياة ، يكون متمثلا في اية من القوى ستحكم الكل منها . وان الحياة ، وليس ابداً النظام او القانون او المنهاج ، هي وحدها التي تعطي الخفقان Beat في سيل الحدوث . فأن تكون مركز العمل أو قطبه ، وبؤرة الجماهير الفعالة ، وان تجعل من شكلك الباطني شكلاً لشعوب بأكملها ولحقبات وحقبات ، وان تكون الضابط الآمر للتاريخ ،

وان يكون هدفك من هذا الارتقاء بشعبك او عائلتك او مقاصدك الى قمة الاحداث - هذا هو الشعور النادر ، لكنه الحافز الذي لا يصمد اي شيء في وجهه لكل كائن فرد يمتلك دخله رسالة تاريخية . فهناك لا يوجد الا تاريخ شخصي ، ونتيجة لذلك لا توجد الا سياسة شخصية . فالصراع لا يدور بين المبادىء بل بين الرجال ، ولا بين المثل العليا بل بين صفات العروق ونوعياتها ، ويدور حول الاستئثار بالسلطة التنفيذية هذا هو ألف A السياسة وياؤها . وحتى الثورات نفسها لا تستثنى من هذه القاعدة ، وذلك لان ما يسمى « بسيادة الشعب » انما تعبر فقط عن الواقعة المقررة ان السلطة الحاكمة قد اتخذت لنفسها لقب زعيم الشعب ، بدلاً من لقب الملك ، زد على ذلك انه نادراً ما يتبدل منهاج الحكم نتيجة لهذا التطور ، كما وان مركز المحكومين لا يتبدل اطلاقاً . اضف الى ذلك ان كل قضية كان فيها حتى للسلام العالمي وجود ومكان ، فان مثل هذه القضية لم تكن سوى استعباد الجنس البشري بأكمله من قبل نظام فرضته طبائع قليلة وقوية عزمت على ان تحكم .

ان مفهوم السلطة التنفيذية يفترض ضمناً ان كل وحدة من حياة - وحتى وفيا يتعلق بالحيوان - قد قسمت الى اسياد للحكومة والى خاضعين لها . وهذا امر واضح وغني عن البيان الى درجة انه لم يسبق ابداً لوحدة من جماهير ان فقدت لحظة واحدة ، وحتى في اشد الازمات جموحاً (كأزمة ١٧٨٩) ، شعورها بتركيبها الباطني بالذات . فشخص من يشغل المنصب هو الذي يتوارى ويختفي وليس المنصب ابداً ، واذا ما حدث ان فقد ، فعلاً وواقعاً ، الشعب الزعامة او القيادة وعام سابحاً في خضم من المصادفات ، فهذا يعني ان مقاليد السيطرة على الامور قد انتقلت الى ايد خارجية ، وان الشعب بأكمله قد أصبح خاضعاً لهذه ومذعناً .

وليس هناك من وجود لشعوب موهوبة سياسياً ، اما الشعوب التي يزعمون

بان هذه هي حالها ، فهي تكون فقط في قبضة حازمة لاقلية حاكمة ، وتحس هذه الشعوب بذواتها، في سياق الاحداث على انها في شكل لائق . فالامة الانكليزية، كأمة هي امة لا تختلف في عدم تفكيرها وضيق افقها وانعدام شعورها العملي في القضايا السياسية ، عن اية امة اخرى لكنها تمتلك - بالرغم من كل ما لها من حب للمناقشات العامة - تقاليد ثقة . والفرق بين الانسان الانكليزي وغيره ، هو ان هذا الانسان يخضع لنظام ذي اعراف وعادات ناجحة وغارقة في القدم ، يقنع به الفرد الانكليزي ويرضى ، لان خبرته جعلته يرى ان هذا النظام نافع له ومفيد . ولا تفصل بين القناعة ذات المظهر الخارجي للموافقة ، وبين اليقين بان هـــذه الحكومة ترتكز الى ارادة القانـــع وتعتمد عليها سوى خطوة واحدة ، وذلك بالرغم من الحكومة ، تعارضاً وهذا اليقين الذاتي ، هي التي لا تكل ولا تمـل ، ولاسباب تقنية خاصة بها، باستمرار تسمر هذا اليقين داخل رأسه. فالطبقة الحاكمة في انكلترا قد اوجدت اهدافها ومناهجها وطورتها بصورة مستقلة تماماً عن «الشعب» وهي تعمل بواسطة وداخل دستور غير مكتوب - دستور نشأت انقى قواعده واصفاها عن الممارسة وهي بريئة من النظريات متناً وحاشية - وهـــذه القواعد معتمة مبهمة في نظر غير العليم ، كما هي ملتبسة غامضة . لكن شجاعـــة القطعة العسكرية تعتمد على ثقتها بالقيادة ، والثقة تعني الاستنكاف الارغامي عن النقد . فالضابط هو الذي يجعل من الرعاديد أبطالاً ، او يحول الابطال الى رعاديـد ، وهذا القول ينطبق تماماً على الشعوب والطبقات والاحزاب انطباقه على الجيوش . فالموهبة السياسية للامـــة ليست سوى الثقة بقادتها ، لكن هـــذه الثقة يجب ان تكتسب اكتساباً ، وهي تنضج فقط في فصل نضوجهـــا ، والنجاح هو الذي سيرسخها ويجعل منها تقليداً . وما يظهر على انه انعدام يقين المحكومين بالحاكم ، فهو في الواقع ليس سوى افتقار الطبقات الحاكمة لموهبة القيادة ، هـــذا الافتقار الذي يولد ذلك النوع اللافطري والمتطفل من النقد والذي يدل مجرد وجوده ، على ان الشعب لم يعد « في وضع مناسب » .

- ٢ -

كيف تصنع السياسة ؟ ان رجل الدولة بالولادة هو ، قبل كل شيء ، مقيم ـ مقيم للرجال والاوضاع والاشياء . وله « عين » تحيط ، بدون تردد وانحراف ، بالامكانات من جميع جهاتها . زد على ذلك ان الخبير بالخيول يستوعب جوهر الحصان بلمحة واحدة يلقيها عليه ، ويعرف اي حظ له في ميدان السباق . فأن تقوم بالعمل الصحيح « دون ان تعرفه » وان تكون لك اليدان اللتان تشدان العنان أو ترخيانه بصورة لاشعورية ـ فهذه هي موهبة رجل الدولة ، المناقضة كلياً لموهبة الانسان النظري . فالنبض السري في كل الكينونة هو النبض الواحد ذاته فيه وفي أشياء التاريخ . وكل نبض منهما يشعر بالثاني ويتواجدان معاً . ورجل الامر الواقع مصون من خطر ممارسة سياسة عاطفية أو منهاجية . وهو لا يؤمن بالكلمات الضخمة . وسؤال بيلاطوس يتردد دائماً على شفتيه ـ ما هو الحق ؟ زد على ذلك ان رجل الدولة بالولادة هو فوق ما هو صحيح وخطأ . وهو لا يخلط بين منطق الحوادث ومنطق المناهج . وهو يهتم فقط « بالحقائق » أو « الاخطاء » ـ ولهذه القيمة نفسها هنا ـ بوصفها تيارات عقلانية ، وفيما يتعلق بأعماله فقط . وهو يقدر فعالياتها وديمومتها واتجاهها ويضيفها ، عند اللزوم ، الى تقديراته لمصير السلطة التي يوجهها . وله اكيداً معتقداته الخاصة ، وهي معتقدات عزيزة عليه ، لكنه يملكها بوصفه فرداً ، أي بصورة شخصية ، ولم يسبق أبداً لرجل سياسي حقيقي ان احس يوماً بأنه مشدود الى معتقداته حينما يمارس عمله . ولقد قال غوتيه « ان العامل يعمل دائماً بصورة لاشعورية ، وليس هناك من انسان يشعر ويعي ما خلا المتفرج » ، وهـذا القول ينطبق ايضاً على سولا

وروبسبير ، انطباقه على بسمارك وبت Pitt أضف الى ذلك ان البابوات العظام وزعماء الاحزاب الانكليزية كانوا ، طبلة نضالهم للسيطرة على الاشياء ، يعتمدون على المبادىء ذاتها التي يعتمدها الغزاة والمحدثو نعمة في كل العصور . ولنتأمل في تصرفات البابا انوسنت الثالث ، الذي لامس النجاح في تحقيق السيطرة العالميـــة للكنيسة ، ولنستنتج من هذه التصرفات دستور النجاح ، انك ستجد تصرفات البابا انوسنت الثالث تتنافى الى ابعد الحدود وجميع قواعد الاخلاق الدينية ومع ذلك فلولاها لما كان هناك من وجود مطاق لأي كنيسة ، ناهيك عن المستعمرات الانكليزية والثورات الاميركية والثورات المنتصرة ، او فيما يتعلق بهذا الامر ، بالدول والاحزاب او الشعوب بصورة عامـــة . فالحياة ، لا الفرد ، هي المعدومة الضمير .

لذلك فان الامر الجوهري هو ان يفهم المرء الزمان الذي ولد من أجله ، وان كل من لا يشعر باشد قوى زمانه تكتما وسرية ، ولا يحس في داخله بشيء ما هو وزمانه من أصل واحد ، شيء ما يدفع بـــه قدما على درب لم تسورها المبادىء ولم تحددها المفاهيم ، وان من يؤمن بالسطح ، بالرأي العـــام والجمل الضخمة والمثل العليا ليومـــه ـ لن يكون على مستوى الاحداث ولن يليق بمقامهـا ، وسيكون رهين سلطتها ، ولن تكون هي رهينة سلطته . وعليك ألا تنظر الى الماضي وراءك مفتشاً عن مقاييس ومقاسات ! وحتى أقل من هـذا ، لا تتلفت الى جانبي دربك باحثا عن منهاج معين أو آخر !

ان هناك ازمانا ، كزمننا والحقبـــة الغراكشية Gracchan تنجب بأشد مثاليتين مخاطر وتهلكة ، وهما الرجعية والديمقراطية ، فالاولى من هاتين تؤمن بتقهقر التاريخ Reversibility والثانية بغائيته . ولكن لا فرق بينهما فيما يتعلق بالفشل المحتوم الذي تلحقانه بالامة التي تسيطران على مصيرها ، ولا فرق بينهما فيما اذا كانتا تضحيان بها من اجـل ذكرى او في سبيل مبـدأ او مفهوم . ان

رجل الدولة الاصيل هو التاريخ المتجسد ، وان توجيه هذا التاريخ يتجلى بوصفه ارادة الفرد ، ويتبدى منطقه العضوي بكونه خلقه .

ولكن رجل الدولة يتوجب ان يكون ، الى حد بعيد ، مربياً ـ ولا أعني هنا مثلاً لاخلاق او عقيدة بل اعني قدوة تحتذى في العمل . وانها لحقيقة واضحة جلية كون الدين لم يبدل ابداً حتى الآن اسلوب الوجود . فلقد نفذ الدين الى الشعور الواعي للانسان العقلاني وتخلله ، والقى بأضواء جديدة على عالم آخر ، وخلق غبطة عميقة شديدة فيما يتعلق بالانسانية ، واوجد الاتكالية والصبر حتى الموت ، لكن لم تكن له اية سلطة على قوى الحيـــاة . فلقد كانت الشخصية الكبرى ـ الـ it ، العرق ، الزخم الكوني المرتبط بهذه الشخصية ـ هي وحدها الطاقة المبدعة في محيط الحياة (وابداعها لم يكن تشكيلاً ، بل تأصيلاً وتدريباً) ، وهي وحدها التي بدلت ، بصورة فعالة ، طراز طبقات اجتماعية وشعوب بأكملها ، وهي ليست «الحقيقة» او الخير او القويم ، بل انها « الرومانية » او « اليوريتانية » او « البروسية » ، هـــذا هو الامر الواقع . فالشرف والواجب والانضباط والعزيمة ، كل هذه ليست بأمور يتعلمها المرء من الكتب ، بينما انها توقظها قدوة حية في مجرى الكينونة ، ولهذا كان فريدريك غليوم الاول من اولئك المربين العظماء في كل حقبـــة وجيل ، حيث ان سلوكه الشخصي المشكل للعرق لن يختفي اثره في سياق اجيال واجيال . ويمـــيز رجل الدولة الاصيل من الرجل « السياسي المجرد » ـ هذا اللاعب حباً بـــا في اللعبة من لهو ، وهذا الوصولي على قمم التاريخ والباحث عن الثروة والمنصب ـ كما ويميزه ايضاً من صاحب مدرسة لمثل اعلى ، ويتم تمييزه من هذين بكونه يملك من الجرأة مـــا يجعله يطالب الامة بالتضحيات ـ ويحصل على ما يطالب به ، وذلك بسبب كون الالاف يشاركونه شعوره بأنه ضرورة ولازم لزمانه وأمته ، وهـــذا الشعور يبدلهم حتى القلب والجوهر ، ويؤهلهم للقيام بأعمال ما كانوا ليستطيعوها ابداً بوسائل اخرى .

وعلى كل حال ، فليس الفعل هو المتربع على ارقى مرتبة ، بـل انها القدرة على القيادة . فهي التي تأخذ بالفرد وتجرده من ذاتـه ، وتجعله المركز من دائرة عالم العمل . وهناك نوع واحـد من الامر (القيادة) يجعل الطاعـة عادة فخورة حرة ونبيلة . وهـذا النوع لم يكن يمتلكه نابليون مثـلاً . فبعض راسب من نفسية الملازم الثاني قـد منعه من ان يدرب الرجال كي يكونوا رجالا ، لا موظفين في المكاتب ، وقاده الى الحكم بواسطة المراسيم والاوامر بدلا من ان يحكم بواسطة الشخصيات ، ولما كان لم يفهم امهر اللباقات هذه ، وكان لذلك مرغماً على ان يقوم بنفسه بكل امر حاسم حقـاً ، لذلك انهار رويداً رويداً بسبب عجزه عن التوفيق بين متطلبات مركزه وبـين الحدود النهائية للطاقة البشرية . ولكن قائداً ، كقيصر او فريدريك الاكبر مثـلا ، يتمتع بهذه الموهبة الاخيرة والارقى من المواهب الانسانية يشعر — في عشية المعركة عندما تكون العمليات منطلقة نحو نتائجها المرادة ، ويتبدى النصر في المعركة حاسماً واكيداً ، او عندما يوقع الامضاء الاخير الذي يختزل حقبة تاريخية بأكملها — يشعر ببساطة عجائبية مذهلة لا يستطيع ابـداً رجل الحقائق ان يعرف عن احاسيسها شيئاً . وهناك لحظات — وهذه تدل على الدفقات الكونية القصوى — يحس خلالها الفرد بأن شخصه والمصير والمركز من دائرة العالم سواء بسواء ، وتتبدى له شخصيته كأنها رداء على وشك ان يرتديه تاريخ المستقبل .

ان المشكلة الأولى هي في ان يجعل المرء نفسه شخصاً ما ، أما الثانية — وهذه أقل وضوحاً من الأولى لكنها أقسى وأشد وأعظم في نتائجها النهائية — فهي ان يخلق المرء تقليداً وأن يجعله سارياً عند الآخرين ، كي يستطيـع عمـله ان يستمر بنبضه وروحه ، بغية اطلاق تيار من نشاط مشابه لنشاطه ، تيار لا يحتـاج الى القائد الاصلي كي يحافظ عليه في شكل لائق .

وهنا يرتقي الزعيم الى شيء ما كان ، لا شك ، سيسمى في العالم الكلاسيكي

بالإله . فهو بهذا يصبح خالقاً لحياة جديدة ، ويمسي الجد الروحي الاعلى لعرق فتي . أما هو نفسه ، بوصفه وحدة ، فانه يختفي من التيار بعد بضعة سنوات قليلة. لكن اقلية دفع بها الى الوجود تتعهد مجرى التيار وتحافظ عليه لوقت غير محدود . وباستطاعة الفرد ان يولد هـذا الشيء ما ، هذه الروح لمرتبة من طبقة حاكمة ، وان يخلفها وراءه تركة للاجيال طيلة التاريخ ، وهـذه هي التي تعطي الآثار الباقية على الزمن .

ان وجود رجل الدولة العظيم امر نادر . والصدفة وحدها هي التي تقرر ما اذا كان سيأتي او سينتصر مبكراً جداً أو متأخراً جدا . وكثيراً من الأحيان يدمر الأفراد العظام اكثر مما شيدوا وبنوا ــ وذلك نتيجة الثغرة التي تحدثها وفاتهم في دفق الحدوث . لكن خلق تقليد يعني سد الطريق في وجه الصدفة . فالتقليد ينجب بمستوى راق يستطيع المستقبل ان يعتمد عليه ــ وهو لا ينجب بقيصر بل بمجلس شيوخ ، ولا بنابليون بل بهيئة من ضباط لا تضاهى ، فالتقليد القوي يجتذب القرائح من كل ناحية ، ويستخلص من المواهب الصغيرة نتائج ضخمة . ومدارس التصوير الزيتي في ايطاليا وهولندا خير دليل على صحة هـذا القول ، ولا يقل الجيش البروسي ودبلوماسية كيوريا Curia الرومانية في دلالتيها عن تلك . ولقد كان العيب الاكبر في بسمارك ، اذا ما قورن بفريدريك غليوم الاول ، انه استطاع ان ينجز تقليداً لا أن يخلقه ، فهو لم يخلق هيئة من ساسة عرق يوازي بها هيئة اركان حرب مولتكة ، ساسة يتحدون شعوراً ودولته ويتعرفون على واجباتها الجديدة ، ويرتفعون بصورة دائمة بالرجال الطيبين الى مرتبتهم ، وبذلك يضمنون استمرار نبض العمل البسماركي خافقاً الى الابد . واذا لم يتم خلق التقليد هذا ، فعندئذ سنطالعنا ، بدلاً من مرتبة متجانسة من طبقة حاكمة ، مجموعة من الرؤوس المعدومة من كل حيلة ، اذا ما جابهتها الأمور غير المرتقبة . اما اذا تم خلق التقليد ، فعندئذ سيكون لدينا شعب سيد ، وذلك بالمعنى الواحد للسيادة ، اي السيادة الجديرة بالشعب والممكنة

في عالم الامر الواقع – وهذه تتمثل في اقلية مدربة تدريباً عالياً ، أقلية تملأ نفسها بنفسها ، وذات تقاليد ثابتة . تقاليد نضجت بطيئاً على نار الزمن ، وتجتذب كل موهبة وتدخلها في الدائرة المسحورة ، وتستخدمها الى اوسع حد ، وتحافظ على ذاتها في حال متناغم . وبقية الأمة التي تحكمها هذه الأقلية تتطور ببطء لتصبح « سلالة » حقيقية ، وحتى لو أنهـا كانت قد بدأت كحزب ، ويصبح يقين قراراتها هو يقين الدم لا العقل . ولكن هذا يعني ان ما يحدث داخلها ، انمـا يحدث « من ذاته » ولا يحتاج الى العبقرية . فالسياسة العظمى ، ولنستعمل هـذا التعبير ، تحل محل الساسة العظام .

اذن ما هي السياسة ؟ انها فن الممكن – وهذا قول قديم ويكاد يكون جامعاً مانعاً . فالبستاني يستطيع ان يستحصل على نبتة من البذرة ، أو بامكانه ان يحسن أصلها . وبمقدوره ان يدفع باستعداداتها الفطرية الخبيئة – أي بنموها ولونهـا ، بزهرها وثمرها – الى الازدهار او الى الوهن والفتور . فعلى بصيرته بالامكانات – ولذلك الضرورات – يعتمد كلياً اكتمالها وقوتها وكامل مصيرهـا . لكن الشكل الاساسي للنبتة واتجاه كينونتها ، ومراحل هذا الاتجـاه ومقاساته الزمنيـة ، ليست بمتناول يدي البستاني . فعلى النبتة ان تنجزها بنفسها أو أن تذوي وتموت .

وهذا القول هو صحيح أيضاً بالنسبة لتلك النبتة الهائلة التي ندعوها «بالحضارة» ولسيول الكينونة من العائلات البشرية المرتبطة بعالم شكلها . وما رجل الدولة العظيم الا بستاني الشعب .

ان كل فاعل هو مولود في زمن ولزمن ، ولذلك فان محيط دائرة انجازاته الممكنة البلوغ ، هو محدود وثابت . فالوقائع بالنسبة لجـده أو حفيده ليست بالوقائع ذاتها ، ولذلك فان الواجبات والاهداف ليست بذاتها ايضاً . ويزداد محيط

دائرته ضيقاً نتيجة لحدود شخصيته وملكات شعبه والوضع والرجال الذين يتوجب عليه ان يعمل معهم . وان الطابع المميز للسياسي الراقي هو انه من النادر ان يسيء تقدير مدى حدوده ، أو أن يغفل عن أي شيء قابل للتحقيق داخلهـــا . وبهذا ـ ونحن لا نستطيع ان نكرر القول التالي مراراً وتكراراً وخاصةبالنسبة للألمان ـ يقوم تمييز أكيد بين « ما يجب » ان يكون وبين ما سيكون . فالاشكال الاساسية للدولة والحياة السياسية ، واتجاه تطورها ودرجته ، هي قيم معينة تعتمد اعتماداً ثابتاً على زمن معين . وهذه القيم تشكل درب النجاح السياسي لا هدفه . بينما نرى ، من جهة أخرى ، ان عبدة المثل السياسية العليا يخلقون من اللاشيئية . زد على ذلك ان حريتهم العقلانية عجيبة مذهلة ، لكن قلاع أدمغتهم المشيدة من مبادىء هوائية كالحكمة والبر والحرية والمساواة ، هي في النهايـة جميعاً الشيء ذاته . فهم يبدأون البناء من الطابق العلوي ثم ينحدرون ببنائهم ليشيدوا الطوابق السفلية ، أما سيد الامر الواقع فيرضى، منجانبه ، ان يوجه بصورة لا شعورية، ما يراه ويقبل به بوصفه حقيقة واضحة . وهذا الأمر لا يبدو أمراً ضخماً كبيراً، لكنه مع هذا فهو المنطلق كل المنطلق للحرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . فالمهارة (البراعة) تكمن في الاشياء الصغيرة ، في اللمسة الحذرة الاخيرة لدفـة السفينة ، في الاحساس الدقيق باشد اهتزازات النفوس ، من فردية وجماعيـــة ، رقة وارهافاً . وفن رجل الدولة لا يقوم فقط على فكرته الواضحة عن الخطوط الرئيسية المرسومة أمامه رسماً لا انحراف فيه او زوغان ، بل يقوم ايضاً عـــلى معالجته الرائقة للحوادث الفرديـة والاشخاص الافراديين الذين يصادفهم بمحاذاة هذه الخطوط ، والذين يمكن لهم ان يحولوا كارثة تنذر بالوقوع الى نجاح حاسم. ان سر كل انتصار يكمن في تنظيم ما هو غير واضح . فباستطاعة اللوذعي في لعبة ، كتاليران مثلاً ، ان يذهب الى فيينا سفيراً للحزب المغلوب وأن يجعل من نفسه سيداً للمنتصر .

وقيصر ، هذا الذي كان وضعه في اجتماع لوكشا Lucca يكاد يكونميؤوساً

منه ، لم يجعل سلطة بومباي خادمة لغاياته فقط ،بل انما لضمها ايضاً في الوقت نفسه، وذلك دون ان يشعر خصمه بهذه الواقعة . ولكن لميدان الممكن حافاتخطرة ، واذا ما كانت اللباقة المصقولة للدبلوماسيين الباروكيين العظام ، قد تدبرت أمرها فبقيت نقية واضحة ودائماً تقريباً ، فان الايديولوجيين قد احتكروا دائماً امتياز التعثر بها . وان في التاريخ بعض منعطفات دفع فيها فن سياسة دولة برجله ليعوم مع التيار فترة من زمن ، وذلك بغية ألا يفقد زمام القيادة . فلكل وضع حده المرن المطاط ، ولا يسمح حين تقدير هذا الحد باقتراف أقل الاخطاء . وانالثورة التي تبلغ نقطة الانفجار لهي دائماً الدليل على افتقار الحكام ومنافسيهم معاً الى النبض السياسي .

زد على ذلك ان الضروري يجب ان يقام به وفي وقته المناسب ـ واعني بهذا طالما ان الضروري لا يزال هبة أو منحة تستطيع بواسطتها السلطة الحاكمة ان تبتاع الثقة بنفسها ، بينما انه اذا ما سامت به السلطة ونزلت عنه ، فان عملها هـذا يكشف عن ضعف ويثير الاحتقار . ان الاشكال السياسية هي اشكال حية ، وتتبع التغييرات التي تطرأ عليها اتجاهاً محدداً تحديداً ثابتاً متزمتاً ، وان المحاولة لمنع هذا الاتجاه هي تحويل مجراه نحو احد المثل العليا ، هي بمثابة الاعتراف الصريح بأن صاحبها خارج كل « وضع لائـق » . لقد كان النبلاء الرومان يملكون مواءمة النبض هذه ، وأما الاسبرطيون فلا . ونجد في مرحلة الديمقراطية الصاعدة ، (كما في فرنسا قبل عام ١٧٨٩ وفي المانيا قبل عام ١٩١٨) والمرة تـلو المرة ، حلول اللحظة الخطيرة عندما يكون فيها الاصلاح الضروري قد تأخر طويـلا ليمسي هبة حرة ، ومنحة قدمت طوعاً واختياراً ، ونرى ايضاً فيها ان ذاك الذي يجب ان يرفض بكل عناد واصرار يعطى بوصفه تضحية ، وهكذا يصبح علامة من علامات الانحـلال . ولكن اولئك الذين يفشلون في اكتشاف الضرورة الاولى في الوقت المناسب ، سيكون اكيدا فشلهم أشد في فهم الوضع الثاني .

وحتى الرحلة الى كانوسا (١) يمكن ان يقوم بها المرء قبل اوانها بكثير ، او بعد اوانها بزمن طويـــل ـ فالتوقيت قد يبت في مستقبل شعوب بأكملها ، ويقرر ما اذا كانت هذه الشعوب ستكون مصائر للآخرين ، ام تصبح خاضعة لمصائر الآخرين . ولكن تدهور الديمقراطية يكرر ايضاً الخطأ ذاته ، خطأ التمسك بما كان مثلاً اعلى للأمس . وهذا هو الخطر الذي يحف بقرننا العشرين . فعلى الطريق الى القيصرية يوجد هناك دائماً فرصة لاامجاد كاتو .

ان النفوذ الذي يمتلكه احد رجال الدولة ـ وحتى الذي يكون منهم في مركز منيع بصورة استثنائية ـ على مناهج السياسة هو نفوذ جد ضئيل ، وان من الخصائص المميزة لكونه رجل دولة من طراز رفيع ، هي انه لا يخدع نفسه فيما يتعلق بهذا الامر . فواجبه ان يعمل داخـــل الشكل التاريخي وبواسطته ، والشكل الذي يجده قائماً وموجوداً ، والانسان النظري هو وحده الذي يبحث بحمياً وحماسة عن المزيد من الاشكال المثالية . ولكن كي يكون المرء « في شكل لائق » سياسياً ، يعني بالضرورة ، بالاضافة الى ما يعنيه من امور اخرى ، أن يسيطر هذا المرء سيطرة غير مشروطـة على احدث الوسائل واجدها . وليس هناك من خيار في هذا . فالوسائل والمناهج هي مقدمات منطقية تتعلق بالزمان وتنتمي الى شكله الباطني ـ وأن ذاك الذي يمد بيده ليمسك بغير الملائم منها ، ويسمح لذوقه او شعوره بان يسيطر على النبض داخله ، يفقد سيطرتـــه على الوقائع . ويتمثل خطر احـــدى الطبقات الارستقراطية في تمسكها بالوسائل المحافظـــة ، بينما يتجلى خطر الديمقراطية في مزجها بين الصيغ والشكل . اما

---

(١) يشير هنا اشبنغلر الى رحلة اوتو الاكبر الى قلعة كانوسا طلباً لغفران البـــابا غريغور السابع والتماساً لاعفائه من الحرمان .

ـ المترجم ـ

الوسائل الراهنة فهي وستبقى طيلة سنوات عديدة ، وسائل برلمانية ـ الانتخابات والصحافة . وباستطاعة المرء ان يرى فيها ما يشاء ويريد ، وبمقدوره ان يحترمها او يحتقرها ، لكن يتوجب عليه ان يسيطر عليها . لقد كان باخ وموتزارت يسيطران على الوسائل الموسيقية لزمنيهما . وهذا هو الطابع المميز للتفوق في كل ميدان ، والمهارة السياسية لا تشكل استثناء منه . وليس شكلها الخارجي والمنظور بصورة عامة ، هو الجوهر ، بل انما هو لباسها التنكري ، ولذلك هو قابل للتبديل والعقلنة والصياغة في نصوص دستورية ـ دون ان تتأثر بالضرورة واقعها ادنى تأثر ـ ومن هنا فان طموح كل الثورويين يبدد طاقات نفوسهم في لهوهم بلعبة الحقوق والمبادىء والحقوق السياسية على سطح التاريخ . ولكن رجل الدولة يعلم حق العلم بان توسيع دائرة الحقوق السياسية هو امر معدوم الاهمية تماما اذا ما قورن بالتقنية ـ أأثينية كانت ام رومانية ام يعقوبية ام اميركية ام المانية على حالها اليوم ـ تقنية ادارة الاصوات (الناخبين) وتوجيهها . فما يقضي به الدستور الانكليزي ، هو امر قليل الاهمية اذا ما قورن بكونه موجهاً من قبل مرتبة صغيرة من العائلات الراقية الى درجة اصبح عندها الملك ادوارد السابع مجرد وزير لوزارته . اما فيما يتعلق بالصحافة فقد يشرق وجه الانسان العاطفي غبطة وهناء عندما يضمن الدستور حريتها ـ ولكن الانسان العملي يتساءل لخدمة من تقوم هذه الصحافة الحرة .

واخيرا ان السياسة هي الشكل الذي يتحقق فيه تاريخ امة بين تعددية من امم. وهي الفن العظيم للحفاظ على الامة « في شكل لائق » باطنياً استعداداً للاحداث الخارجية ، وهذه هي العلاقة الطبيعية بين السياسة الداخلية والخارجية ، وهي علاقة لا تولد فقط لدى الشعوب والدول والطبقات ، بل ايضا لدى جميع الوحدات الحية من كل نوع ، انحدارا حتى ابسط حشود الحيوان ، وحتى الاجسام الافرادية . وفيما يتعلق بمركزي السياسة من داخلية وخارجية ، فان الاولى توجد حصراً وحصراً فقط من اجل الثانية وليس العكس بالعكس

ولقد تعود الديمقراطي الصحيح أن يعالج السياسة الداخلية بوصفها غاية بذاتها ، اما الدبلوماسيون افراداً وجماعات فانهم يفكرون بالامور الخارجية فقط ، ولهذا السبب بالذات ، ليس للنجاحات الفردية التي يصادفها كلا الفريقين اية قيمة عملية .
ولا شك ان الاستاذ السياسي يعرض قواه بوضوح شديـــد من خلال تكتيك الاصلاح الداخلي ، ومن نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية ، ومن خلال مهارته في محافظته على الشكل العام للكل ، على « الحقوق والحريات » لتكون متناغمة واذواق المرحلة ، وفعالة في الوقت ذاته ، ومن خلال تهذيبه ، او تثقيفه للمشاعر التي يستحيل بدونها ان يكون الشعب في « وضع لائق » ـ واعني بهذه الثقة والاحترام لشعور السلطـــة القائدة ، والرضاء والامتنان (واذا ما اقتضت الضرورة) الحماسة لها . ولكن قيمة كل هذه الامور تستند الى علاقتها بهـذه الحقيقة الاساسية للتاريخ الارقى ـ اي الى ان الشعب هو ليس وحده في العالم ، وان مستقبله تقرره علاقات زخمة بالشعوب والقوى الاخرى ، ولا يقرره التنظيم الداخلي المجرد لها . ولما كان الانسان العادي ليس على درجة عالية من التبصر في الامور ، وكانت الاقلية الحاكمة هي التي يجب ان تتمع بهذه الملكة ، نيابة عن الباقين ، لهذا فان رجل الدولة لا يجد الاداة لتنفيذ مقاصده الا اذا وجدت مثل هذه الاقليات .

- ٣ -

تكون السلطات الحاكمة ، في السياسات المبكرة زمن لجميع الحضارات ، راسخة ومقرورة من قبل ومكينة حتى اليقين . ويكون كامل الوجود في شكل شديد الجلال والرمزية . وتكون الارتباطات بالأم الارض على تلك الدرجة من

القوة والمتانة ، والعلاقة الاقطاعية وحتى وريثتها ، الدولة الارستقراطية واضحة للحياة الواقعة تحت سحريها وجلية الى حد يجعل السياسة في الحقبة الهوميرية او القوطية محدودة بالعمل الصريح الساذج السليم الطويـــة داخل اطار الاشكال المعينة . اما من حيث تغير هذه الاشكال او تبدلها ، فان هذا الامر يتم بصورة تلقائية ، اما الفكرة القائلة بان واجب السياسة هو ان تقوم بمثل هذه التغيرات ، فانها اكيداً لا تخطر على بال احد ، حتى ولو كان الامر يتعلق بالتطويح بالمملكة او الانحدار بالنبلاء الى مرتبة الخاضعين المذعنين . فهنا لا توجد الا سياسة طبقة واحدة ، سياسة امبراطورية او باباويـــة او سياسة مقطعين Vassal والدم والعرق يتكلمان من خلال اعمال تصدر عن فطرة وجبـــلة او عن شعور نصف واع ــ وحتى الـكاهن يكون شبه سياسي بوصفه رجـــل عرق او عنصر . « فمشاكل » الدولة ومعضلاتها لم توقظ بعد . وتكون هنا السيادة ، والانظمة الاولية وكامل عالم الشكل اشياء او اموراً معطاة من الله ، واستناداً الى هـذه المقدمات ، لا خلافاً عليها بوصفها مواضيـع لنقاش وجدل ، تحـارب الاقليات العضوية معاركها . ونحن سندعو هذه الاقليات بالعصبات .

ومن جوهر العصبة كونها لا تستطيـع ابداً ان تدرك الفكرة القائلة بان بمقدور المرء ان يبدل نظام الاشياء الى مخطط او خطة . فهدفها ان تفوز لذاتها بالمقام والسلطة او بالممتلكات داخل النظام ــ وذلك ككل الاشياء النامية في عالم نام . وهناك مجموعات تلعب فيها علاقات العائلات والشرف والولاء ، (وهـذه روابط من اتحاد لباطنية اسطورية تقريباً ،) دوراً ، وعن هذه العلاقات تصدر تماماً جميـع الفكر التجريدية . على هـــذا الشكل كانت العصبات في الحقبتين الهوميرية والقوطية ، مثلاً تليماخوس Telemachus [1] وطالبي يـــد (امه ــ

---

(١) تليماخوس : نجل ادوسيوس وبينولوب ، الذي عندما فشل في البحث عن والده عاد في الوقت المناسب ليقتل طالبي يد امه .

ــ المترجم .

المترجم) في اثيكا ، وعصبة الزرق والخضر في زمن جوستنيان، والغولف Guelphs والغيبلين ، وعائلتي لانكستر ويورك ، والبروتستنت والهوغونت ، وحتى القوى الهرضة فيما بعد ، قوى الفروند وعهد الطغاة الاول . زد على ذلك ان كتاب مكيافيلي (الامير) يرتكز بصورة مطلقة على هذه الروح .

ويبدأ التغير حالما تتسلم الطبقة اللامنزلية ، البرجوازية ، مع المدينة الكبرى مهام الدور القيادي . وهنا تمسي الحال عكس ما كانت عليـــه ، اذ ان الشكل السياسي يصبح موضوع الخلاف ، ويغدو المعضلة . فهذا الشكل كان حتى الآن قد نضج ، واليوم ملزم بأن يقولب . وهنا أصبحت السياسة واعية ، وهي لم تعد مفهومة فقط ، بل اختزلت ايضاً الى فكر قابلة للفهم والادراك . وهنا تهب قوى العقل والمال لتناهض الدم والتقاليد ، وهنا يحل المنظم محـل العضوي ، والحزب محل المنزلة الاجتماعية . والحزب ليس بناء عرق ، بل مجموعة من الرؤوس ، ولذلك يبلغ تفوقه العقلاني على المنزلتين القديمتين قدراً يساوي تماماً فقره في الغريزة والجبلة أو الفطرة .

والحزب هو العدو المميت للانتظام الطبقي الناضج بصورة طبيعية ، هـــذا الانتظام الذي يكون مجرد وجوده متناقضاً وجوهر الحزب . ونتيجة لذلك فان فكرة الحزب هي دائماً فكرة مرتبطة بتلك الفكرة النافية دون تحفظ والتصديعية التمزيقية والانبساطية الاجتماعية ، فكرة المساواة . وهنا لا يعترف احد بالمثـل العليا النبيلة ، بل بالمصالح الحرفية ، المهنية ، وحدها . والامر ذاته بالنسبة لفكرة الحرية ، اذ ان هذه الفكرة نفي كذلك . والاحزاب هي ظاهرات حضريـــة مجردة . ومع انعتاق المدينة من الريف ، تخلي سياسة المنزلة الاجتماعيـــة في كل مكان (أعرفنا به يانياً أم لم نعرف) الطريق امام سياسة الحزب . وقد تم هذا الامر في مصر في نهاية المملكة الوسيطة ، وفي الصين في حقبة الدول المتنازعة ، وفي بغداد وبيزنطة في الحقبة العباسية . وتتشكل الاحزاب في عواصم الغرب

وفق الاسلوب البرلماني ، او في دول مدن العالم الكلاسيكي عـــلى طراز الفوروم ، وتطالعنا أحزاب من الطراز المجوسي في الموالي ورهبان ثيودور فون شتوديون .

ولكن الطبقة اللا منزلية ، وحدة المعارضة والاحتجاج على جوهر المنزلة ، هي دائماً التي تدفع بأقليتها ـ المشكّلة من المثقفين والاثرياء ـ بوصفها حزباً ذا منهاج يتألف من مقاصد لا يشعر بها بل تعرف ، ومن رفض لكل شيء لا يمكن ادراكه عقلانياً . ولذلك فانه يوجد في الاعماق ، حزب واحد فقط ، حزب البرجوازية ، حزب الليبرالية ، وهذا الحزب يعي وعياً كاملاً مركزه على هذا الشكل الآنف الوصف . وهو يرى نفسه متساوياً في الانتشار ، او الامتـــداد « والشعب » . وخصوم هذا الحزب (وهم قبل اي انسان المنزلتان الاصيلتان ـ أي النبيـــل صاحب الملك والكاهن) هم اعداء وخونة « للشعب » ، أما آراؤه فهي « صوت الشعب » ـ وهذه آراء تطعم بكل ما هو مناسب وملائم لحضانـــة الحزب سياسياً وتلقح بالخطابة في الفوروم ، وبالصحافة في الغرب حتى تمسي تمثـل الحزب تمثلاً حسنا .

ان المنزلتين الاوليتين هما النبالة والكهنوت . اما الحزب الأولي ، فهو حزب المال والعقل ، حزب الليبرالية والميغالوبوليتية . وهنا يكمن التبرير العميق في كل الحضارات لفكرتي الارستقراطية والديمقراطية . فالارستقراطية تحتقر عقل المدن ، والديمقراطية تزدري بالفلاح العتيق وتكره الريف . وهذا هو الفرق بين سياسة المنزلة وسياسة الحزب ، بين الشعور الطبقي والميل الحزبي ، بين العرق والعقل ، بين النمو والبناء . وتقف الارستقراطية في الحضارة المكتملة ، والديمقراطيـة في مطلع المدنية الكوسموبوليتية ، موقفين يناهض الواحد منهما الآخر ، وتبقيان على هذه الحال حتى تجرفهما سيول القيصرية ويغرقهما طوفانها معاً . ولما كانت النبالة ، المنزلة الاجتماعية الاكيدة (وكانت دولة الطبقة الثالثة لم تستطع ان تدبر أمرهـا

كي تجعل نفسها حقاً في شكل من هذا الطراز) كذلك يفشل اكيداً النبلاء في محاولة شعورهم بأنهم حزب بالرغم من انهم قد يقدمون على تنظيم انفسهم بوصفهم حزباً . وليس للنبلاء خيار في ذلك . فجميع الدساتير الحديثة تنكر وجود المنزلتين الاجتماعيتين وتجحده . وهي مبنية استناداً الى الحزب بوصفه الشكل الاساسي الواضح والغني عن البيان للسياسة .

ان القرن التاسع عشر هو موسم ازدهار سياسة الحزب وشبابها ـ وهو لذلك يتجانس والقرن الثالث قبل المسيح . والطبيعة الديمقراطية لهذه السياسة تفرض بالضرورة نشوء احزاب معارضة ، وحيث انه فيما مضى ، وحتى في وقت متأخر يعود الى القرن الثامن عشر ، قامت « الطبقة الثالثة » تقليداً منها للنبلاء بوصفهم منزلة اجتماعية ، « بتشكيل » ذاتها ، لذلك تبرز هنا الشخصية الدفاعية ، شخصية حزب المحافظين ، المنسوخة عن الحزب الليبرالي ، والخاضعة كلياً لسيطرة اشكاله ، ومن ثم ترتدي هذه الرداء البرجوازي ، دون ان تكون برجوازية ، وترغم على الصراع وفق القواعد والمناهج التي اشترعتها الليبرالية . وليس أمام الحزب المحافظ من خيار ، فعليه اما ان يعالج هذه الوسائل أفضل من خصمه أو يبيد ، ولكن بسبب طبيعة تركيبه كمنزلة اجتماعية ، نراه لا يفقه الوضع الراهن ، فهو يهاجم الشكل بدلاً من العدو ، وهكذا نراه متورطاً في استخدام تلك المناهج المتطرفة التي نشاهدها تسيطر على السياسات الداخلية لدول بأكملها وذلك في الاطوار الاولى من كل مدنية ، وبهذا يكون الحزب المحافظ يسلم هذه المناهج بصورة بائسة الى أيدي العدو . ويصبح الارغام المحتوم على كل حزب أن يكون برجوازياً ، صورة كاريكاتورية مجردة ، وذلك عندما يقوم الثقل القابع ما دون برجوازيي الثقافة والممتلكات ، بتنظيم نفسه بوصفه حزباً ايضاً . فالماركسية مثلاً هي ، كنظرية ، نفي للبرجوازية ، ولكنها ، كحزب ، لها ، جوهرياً ، موقف الطبقة الوسطى وقيادتها . وتعاني ارادتها صراعاً دائماً مستمراً وهي لذلك تندفع بالضرورة خارج حدود السياسة الحزبية ، ولهذا خارج النطاق الدستوري (وكلا

هذين هما ، حصراً ، ظاهرتان ليبراليتان) الى ما نسميه صواباً بالحرب الاهلية ـ والى المظاهر الحزبية التقليدية التي تشعر بأنها مرغمة ، تبريراً لذاتها ، على اتخاذها كي تصون نفسها من التدهور والسقوط . ولكن هـذه المظاهر هي أمور لا يستغنى عنها بالنسبة للماركسية ايضاً ، وذلك اذا ما كانت تقصد تحقيق نجاحات لها صفة الديمومة . زد على ذلك ان حزب النبلاء يكون باطنياً داخل البرلمان ، حزباً اصطناعياً مزوراً كالحزب البروليتاري تماماً . اذ ان الحزب البرجوازي هو وحده الذي يحتل مكانه الطبيعي داخل البرلمان .

وكان نبلاء المدينة والعوام ، في روما ، ابتداء من العمل بنظام التريبونات عام ٤٧١ ، حتى الاعتراف بالحق المطلق للفريقين في الامور التشريعية ، في ثورة ٢٨٧ ، يقتتلون بوصفهم منزلتين ، طبقتين ، بصورة جوهرية . ولكن لم يعد بعد هذا التاريخ للالفاظ المتناقضة اكثر من مغزى سلالي تقريباً ، وهنا نشأ وتطور ، بدلاً من الحزبين ، اللذين يمكننا ان نسميهما ، ونحن نستند الى كل سبب ، بالليبرالي والمحافظ ـ اقول نشأ حزب الشعب الذي كان يسيطر على الفوروم ، وحزب النبلاء الذي اتخذ من الشيوخ مرتكزاً له . وكان مجلس الشيوخ قد حوّل نفسه (قرابة عام ٢٨٧ من مجمع عائلي يضم الافخاذ القديمة الى مجمع دولة للطبقة الارستقراطية الادارية . وكان حزب الشعب يرتبط بجمعيـة الملكيات المدرجة ، جمعية سنتيورياتا وبمجموعة كبار الماليين الاكويتس ، اما النبلاء فكانوا يتحالفون مع ملاك الارض الذين كانوا ذوي سطوة ونفوذ في جمعية التريبوتا . ولنتأمل ، من جهة ، في الغراكشي Gracchi وماريوس ، من جهة أخرى ، في ك . فلامينيوس ، ان بعضاً من توغل سيكشف عن التبدل الكامل الذي طرأ على مركزي القناصل والتريبونات . فهم لم يعودوا الاوصياء المختارين من قبـل المنزلة الاولى والثالثة ، ذلك وفق ما لهاتين من قواعد سلوك ، بل يمثلون حزبين ، ويبدلونهما في المناسبات . فلقد كان يوجد قناصل ليبراليون ككاتو الاكبر ، وتريبونات محافظون كأكتافيوس الذي عارض تي . غراكشوس . وكان كلا

الحزبين يعينان مرشحيهما للانتخابات ، ويستخدمان كل وسيلة دهماوية لانجاحهم - وكانا ، عندما يفشل المال في كسب الانتخابات ، يسارعان الى التأثير (وبصورة متزايدة) فيمن انتخب محاولاً كل منهما ان يجتذبه الى صفوفه .

اما في انكلترا فلقد قام التوري والهويغ ، ابتداء بمطلع القرن التاسع عشر ، وخلقا من نفسيهما حزبين ، وأصبح كلاهما برجوازيين ، واقتبسا المنهاج الليبرالي اقتباساً حرفياً ، هذا المنهاج الذي كان يتمتع بالرضاء التام للرأي العام وبقناعته المطلقة ، ولذلك اخلد الى السكينة . والحق ان هذا العمل كان بمثابة ضربة معلم وجهت في اللحظة السديدة ، ومنعت تشكل حزب معاد لمبدأ المنزلة الاجتماعية ، كالحزب الذي نشأ في فرنسا عام ١٧٨٩ . وقد أصبح أعضاء مجلس العموم ، الذين لا يزالون حتى اليوم سفراء المرتبة الحاكمة من الطبقة ، الممثلين الشعبيين ،لكنهم بقوا يعتمدون مالياً على هذه المرتبة . وهكذا بقيت مقاليد القيادة في الايدي ذاتها وكان تعارض الحزبين اللذين أصبحا ابتداء بعام ١٨٣٠ ، يعرفان بالليبرالي والمحافظ ، امراً بدهيا تقريباً ، اذ انه كان دائماً واحداً من الزوائد (+) أو النواقص (-) ولم يكن ابداً تعاقبيين غفلا . وتحولت ، في هذه السنوات ذاتها حركة الحرية الابية « لالمانيا الفتاة » الى حركة حزب ، وفي عهد اندرو جاكسون ، انتظم الهويغ القوميون والأحزاب الديمقراطية في اميركا في حزبين متنافسين ، وقد تم الاعتراف الصريح بالمبدأ القائل بان الانتخابات هي عمل تجاري أو صناعي Business ، وان وظائف الدولة من اعلاها مرتبة حتى ادناها هي « غنائم واسلاب حرب » للمنتصرين .

لكن شكل الاقلية الحاكمة يتطور بصورة منتظمة من شكل المنزل مروراً بشكل الحزب واتجها نحو التبعية للفرد . وذلك لأن الدلالة الظاهرية على نهاية الديمقراطية وانتقالها الى القيصرية ، لا تتبدى مثلاً في اختفاء الطبقة الثالثة ، الليبرالية ، بل في اختفاء الحزب نفسه بوصفه شكلاً وهنا تذوب العواطف

والمقاصد الشعبية والمثل العليا التجريدية التي تميز كل سياسة حزبية اصيلة ، وتحل محلها السياسة الشخصية وارادة القوة المطلقة من كل لجام وعنان لحفنة قليلة من الاشخاص ذوي نوعية عرقية قوية . ان المنزلة الاجتماعية فطرتها وجبلتها ، وان للحزب « منهاجه وبرامجه » لكن للاتباع سيداً وهكذا كان مجرى الاحداث ابتداء بزلاء المدينة والعوام ومروراً بحزبي الاعيان والشعبيين حتى اتباع بومباي وقيصر . وهنا نشهد ان حقبة السياسة الحزبية الصحيحة بالكاد تغطي قرنين من الاعوام ، وفيما يتعلق بنا (الغربيين) فانها في حال من تدهور مستمر منذ الحرب العالمية (الاولى - المترجم) .

اما القول بأنه يتوجب على كامل جماهير الناخبين التي يحركها محرض مشترك ، ان تختار أناساً قادرين على ادارة امورها — وهذا زعم ساذج تتبناه جميع الدساتير - هو امر ممكن فقط في الانطلاقة ، في الدفعة الاولى ، ويفترض مسبقاً ألا يكون وجود حتى لمبدأ التنظيم لدى جماعات معينة . وهذه كانت الحال في فرنسا عام ١٧٨٩ وعام ١٨٤٨ . فليس امام الجمعية الا ان تكون او توجد ، حتى تتشكل فوراً داخلها وحدات تكتيكية ، يعتمد ترابطها على ارادة المحافظة على المركز الذي اكتسب ، وبدلاً من ان تعتبر هذه الوحدات نفسها ناطقة بالناخبين ، تنطلق لتوفر كل وسائل التحريض التي يتطلبها نفوذ وتستلزمها غاياتها وتصلح لمقاصدها . فالنزعة التي نظمت نفسها داخل الشعب ، قد اصبحت فعلا اداة للمنظمة ، التي امست بدورها أداة بيد الزعيم . فارادة القوة هي اقوى من أية وكل نظرية . وفي البداية توحد الزعامة والاجهزة الحزبية من أجل المنهاج ، ثم يتمسك القائمون عليها بها تمسكاً دفاعياً حباً بالسلطة والغنائم — كما هي الحال اليوم في كل مكان ، اذ اننا نشاهد الآلاف في كل بلد يعيشون على حساب الحزب ويتعيشون من المناصب والمهام التي يوزعها عليهم . واخيراً يتلاشى المنهاج ويزول من الذاكرة ، وتصبح المنظمة تعمل من أجل نفسها فقط .

كانت الزمـــالة في المعركة ، في عصر تسيبيو الاكبر او كورنيكتوس فلامينيوس لا تزال تعني الالتزام الادبي الذي نعهده بين « الاصدقاء » عندما نتحدث عنهم . ولكنها قطعت مع تسيبيو الاصغر شوطاً ابعـــد من ذلك « فاصدقاؤه الحميمون » كانوا لا شك اول مثال للاتباع المنظمين الذين كان نشاطهم يمتد الى المحاكم والانتخابات . ووفق الاسلوب ذاته تطورت العلاقة البطريركية والارستقراطية ، علاقة الولاء بين النصير والعميل الى طائفة مصلحية ترتكز الى اسس مادية صرفة ، وكانت توجد حتى قبل قيصر مواثيق خطية بين المرشحين والناخبين تنص على شروط خاصة بالدفع (بالقبض) والقيام بالالتزامات . وكانت توجد ، من الجهة الاخرى ، كما هي الحال اليوم في اميركا ، اندية ولجان انتخابية بلغت سيطرتها او ارهابها لجماهير ناخبين حداً دوجة مكنتها من ان تعقد الصفقات الانتخابية مع الزعماء الكبار ما قبل قيصر ، وتفاوض هؤلاء مفاوضة الند للند . وهذا الواقع بعيد كل البعد عن كونه مظهراً لدمار الديمقراطيــة واندثارها ، وذلك لان هذا هو ما تعنيه بالذات ، وهذا هو موضوعها بالضرورة ، اما تفجعات المثاليين الذين ليسوا من هــذا العالم ، ومراثيهم وعويلهم على دمار آمالهم فانها تكشف فقط عن جهالتهم العمياء بالثنائية الصلبة التي لا ترحم ، ثنائيــة الحقائق والوقائع ، وبالرباط الوثيق الذي يشد العقل الى المال .

ان النظرية السياسية الاجتماعية هي قاعدة واحدة فقط من قواعـــد السياسة الحزبية ، لكنها قاعدة ضرورية . وان السلسلة الفخورة الممتدة من جان جاك روسو الى ماركس ، نموذجها المضاد في سلسلة السوفسطائيين الكلاسيكيين حتى افلاطون وزينون ، اما فيما يتعلق بالصين ، فانه يتوجب علينا ان نستخلص العقائد المتجانسة وتلك وهذه من الكتب الكونفوشية والطاوية ، ويكفينا هنا ان نشير الى الاشتراكي مو – تي Moh - ti كما وان هذه العقائد تحتل في الكتب البزنطية والعربية العائدة الى الحقبة العباسية – وحيث الراديكالية فيها هي ، ككل

شيء آخر منها ، ذات نظام ديني ارثوذكسي - اقول تحتل مكاناً كبيراً منها ، وقد كانت هذه العقائد قوى اقتحامية قيادية في جميع الازمات التي عرفها القرن التاسع . اما كون انها قد وجدت في مصر والهند ايضاً ، فهذا ما تبرهن عليه ارواح الاحداث في عصور المكسوس وبوذا . والشكل الادبي ليس جوهرياً بالنسبة لها - فهي تنتشر بكلمة الفم والوعظ والدعاية بين الطوائف والملل والجمعيات الانتشار المطلوب والذي كان المنهاج المثالي للدعوة في ختام حركات التطهير (ولا يستثنى من هذه الاسلام والمسيحية الانغلو اميركية) .

اما ما اذا كانت هذه العقائد « صحيحة » او « خاطئة » فهذا الامر لا قيمة له في نظر التاريخ السياسي - وهذا ما يتوجب علينا ان نكرره ونؤكده . - فدحض الماركسية ، مثلاً ، امر يتعلق بالبحث الاكاديمي وبالمناقشات العامة حيث يكون فيها كل انسان دائماً على صواب ويكون خصمه بصورة مستمرة على خطأ . ولكن ما اذا كانت هذه فعالة ومؤثره - وابتداء بمتى والى متى بقيت المعتقد الذي يستطيع الامر الواقع ان يصلح من امره بواسطة منهاج من المفاهيم او الاراء ، المعتقد الممثل لقوة حقيقية يتوجب على السياسة ان تحسب لها حساباً - فهذا هو المهم . واننا لنجد اليوم انفسنا في مرحلة تسودها قناعة مطلقة بجبروت العقل وقدرته الكلية . فالفكر العظمى العامـة - الحرية ، العدالة ، الانسانية التقدم - هي ذات حرمة قدسية ، انها قدس الاقداس . والنظريات الكبرى هي الاناجيل . وقوتها على الاقناع لا تنبع من مقدمات منطقية ، وذلك لان جمهرة الحزب لا تمتلك الحيوية التنديدية ولا التفريد Detachment لتضعها جدياً في انبوب الاختبار ، لهذا فان قوتها تلك تنبع من اقنومها (جوهرها) الكامن في مفتاح كلماتها . زد على ذلك ان سحرها محصور فعله في سكان المدن الكبرى . كما وان مرحلة العقلانية هي مرحلة « دين الانسان المثقف » . وهي معدومة من كل اثر في الفلاحين ، كما وان تأثيرها في جماهير المدينة يستمر فقط مدة معينة . ولكن تكون لها طيلة مدة استمرارها لامقاومة الوحي الجديد . فهنا ترى

الجماهير مؤمنة بها وتتعلق بغيرة وحماسة بكل كلمة او عظة عنهـــا وتندفع الى الاستشهاد في المتاريس وميدان المعركة واعواد المشانق ، لكن هؤلاء تكون حلقاتهم مركزة على عالم اجتماعي سياسي غير هـــذا العالم ، لذلك يبدو لهم اي تنديد واع خبيثاً وتجديفاً يستحق صاحبه الموت .

ولكن لهذا السبب بالذات تكون الوثائق من طراز العقد الاجتماعي او البيان الشيوعي ، آلات ذات طاقات هائلة في ايدي الفئة الجسور التي ارتفعت الى قمـة الحيـــاة الحزبية ، والتي تعرف كيف تشكل وتستخدم قناعات الجماهـــير الخاضعة لسيطرتها .

ونادراً ما تستمر هذه المثل العليا التجريدية في المحافظة على ما لهـــا من قوى اكثر من قرنين ، وهذان مخصصان للسياسة الحزبية ، وقواها لا تسقط وتتلاشى نتيجة لانكار مثلها او دحضها ، بل بسبب السأم او الضجر – الذي قتل روسو منذ طويل زمن وسيقضي على كارل ماركس مما قريب . فالناس يتخلون اخيراً لا عن هذه النظرية او تلك ، بـل عن الايمـــان بالنظريات من اي نوع كانت ، ويتخلون معه عن التفاؤلية العاطفية لقرن ثامن عشر خيل اليـه بان باستطاعته ان يصلح من امر وقائع غير مرضية بواسطة تطبيق المبادىء او المفاهيم . وعندما قام افلاطون وارسطو ومعاصروهما بتعريف وتوليف مختلف الانواع من الدستور الكلاسيكي بغية الحصول على نتيجة حكيمة وجميلة ، كان العـــالم بأكمله آذاناً صاغية لهم ، وقـــد حاول افلاطون بالذات ان يحول سيراكوس وفق صيغة التركيب الايديولوجي – فدفع بهذه المدينة الى منحدرات الدمار . ويبـدو لي بصورة مؤكدة ان التجارب الفلسفية المختبرية من هـذا النوع هي المسؤولة عن تدهور دول الصين الجنوبية ، وتسليمها لقمة سائغة لامبرياليـــة تسن . زد على ذلك ان المتطرفين من اليعاقبة في المناداة بالحرية والمساواة قد دفعوا بفرنسا من نظام الدريكتوار الى ايدي الجيش والبورصة الى الابد ، وكل انفجار اشتراكي

انما ينير فقط دروباً حديدة امام الرأسمالية . ولكن عندمـــا كتب شيشرون De re publica لبومباي وكتب سالاست Sallust وعيــديه لقيصر لم يكن يوجد يومذاك من يسمع او يصغي . ولربما اكتشفنا في تيبريوس غراكوس شيئاً من اثر يعود للرواقي الغيور بلوسيوس الذي انتحر فيما بعـــد ، عقب ان دفع بأرسطونيكوس فون برغاموم الى الدمار ، لكن النظريات كانت قـد أمست والقرن الأول قبل المسيح ممارسة مدرسية رثة مهلهلة ، ومنذ هذا التاريخ أصبح للقوة والقوة وحدها القول الفصل .

ان عصر النظريات ، بتقرب ، بالنسبة الينا ايضاً ، من نهايته ـــ وارجو الا يخطيء انسان في هذا الامر . فجميع المناهج من ليبرالية واشتراكية قد نشأت خلال الفترة الواقعة بين عام ١٧٥٠ وعام ١٨٥٠ . كما وان نظرية ماركس قـد بلغت منذ حين نصف قرن من العمر ، ولم تجد من نظرية اخرى تخلفهـا . وهي بهذا تعني باطنياً وحسب منطوق فهمهـا المادي للتاريخ ، ان القومية قـد بلغت اقصى نتائجها المنطقية ، وانها لذلك حـد النهاية . ولكن كما ان الايمـان بحقوق الانسان لروسو قد فقد زخمه (قرابة) عام ١٨٤٨ ، كذلك فان الايمان بماركس قد فقد طاقاته ابتداء من الحرب العالمية . وعندمـا يقاون المرء ذاك التفاني حتى الموت الذي اوجدته افـكار روسو في الثورة الفرنسية بموقف الاشتراكيين عـام ١٩١٨ ، هؤلاء الذين حاولوا الحفاظ امام وداخل مناصريهم على قناعة لم يعودوا هم بالذات يتلكونها ـ ومحاولتهم هـذه لم تكن باعثها فكرة الاشتراكية ، بـل كانت سببها السلطة المرتكزة اليها ـــ عندمـــا يقارن المرء هذا ويتأمله عندئذ يستطيـع ان يتميز المراحل التي لا تزال امامه من الطريق ، حيث يكون الذي لا يزال متبقياً من المنهاج محكوماً عليه بالاندثار ، نتيجة لكونـه آنذاك مجرد عثرة في طريق الصراع على السلطة . لقد كان الايمـان بالمنهاج وساماً وبجـــداً لاجدادنا ـ وسيكون في نظر احفادنا دليلاً على الاقليمية والريفية . فمكانه تنمو، حتى الآن ، بذرة لورع مذعن متوكل جديد انبثق من الضمير المعذب والجوع

الروحي ، وسيكون واجبـــه ايجاد جانب جديد يواجهنا ، جانب يبحث عن الاسرار بـدلا من المبادىء الفولاذية اللاعة ، وسيجدهـا ، في النهاية في أغوار « التدين الثاني » .

– ٤ –

هذا هو الجانب الواحد ، انـه الجانب اللفظي من الواقعـة العظمى المعروفة بالديمقراطية . ويبقى أمامنا الآن ان نتأمل في الجانب الآخر ، الجانب الحاسم ، جانب العرق منها . ان الديمقراطية كانت ستبقى سجينة العقول اسيرة الورق لو لم يقدر لها ان يكون بين ابطالهـــا طبائع اسياد اصيلي السيادة لم يكن الشعب في نظرهم اكثر من هدف ، ولم يكن المثل الاعلى اكثر من وسيلة – بالرغم انه من الجائز لم يكونوا يشعرون بهذا ، لكنهم كثيراً ما وعوا هذا الواقع وادركوه فجميـع مناهجها ، وحتى أشدها دهاوية في انعـدام الشعور بالمسؤولية – والتي هي باطنياً المناهج ذاتها للـ – Ancien régime لكنها صممت لتطبق على الجماهير بدلا من تطبيقها على الامراء والسفراء ، واعتمدت الاراء الوحشية والانفعالات وانفجارات الإرادة بدلا من الارواح المختارة ، وكانت بمثابة جوقـة من ابواق ومزاهر ، بدلا من موسيقى – المخدع Chamber music – نعم جميع هـذه المناهج قد وضعهـا ديمقراطيون مستقيمون لكنهم عمليون ، ومن هؤلاء تعلمتهـا الاحزاب ذات التقاليد .

وعلى كل حال فان من الخصائص المميزة لمجرى الديمقراطية وسياقها ، كون مشترعي الدساتير الواسعة الشعبية لم يكونوا يمتلكون اية فكرة عن سير التطبيق

العملي لمخططاتهم - ولا يستثنى من هذا واضعو دستور « السرف » في روما ولا مشترعو دستور الجمعية الوطنية في باريس . ولما كانت اشكالهم هذه (دساتيرهم – المترجم) ليست كشكل الاقطاع ، اي حاصل نمو وغلة نماء ، بل على فكر تجريدية عن الحق والعدالة) لذلك سرعان ما تنشأ هوة تفصل بين الجانب العقلاني من القوانين وبين - العادات العملية التي تشكل بصمت تحت ضغط هذه القوانين ، فاما ان توفق بينها وبين هذه القوانين او تطردها من ايقاع الحياة العملية . فالخبرة هي وحدها التي علمت وتعلم ابدا الدرس ، والناس لا يتأكدون الا في نهاية كامل التطور من ان حقوق الشعب ونفوذ الشعب هما شيئان يختلف الواحد منهما عن الآخر . وكلما اتسعت دائرة حق الانتخاب تتقلص دائرة سلطة الناخبين وتضيق .

ويكون الميدان في مطلع الديمقراطية وقفاً على العقل وحده . وليس لدى التاريخ من مشهد تباهي به أنبل وانقى من الجلسة الليلية التي عقدت في الرابع من شهر آب عام ١٧٨٩ ، والقسم الذي ادي في ساحة التنس ، او الاجتماع الذي عقد في كنيسة بولس في فرنكفورت في الثامن عشر من شهر ايار عام ١٨٤٨ - وذلك عندما قام رجال يملكون مقاليد السلطة فغاصوا في خضم مناقشات الحقائق العامة تلك الفترة الطويلة من الزمن ، حيث استطاعت معها قوى الامر الواقع ان تهزأ بالحالمين وتنحيهم جانباً . ولكن تلك الكمية الديمقراطية الاخرى لم تضع الوقت هباء في تلك الاثناء ، وذلك عندما تبدت على المسرح مذكرة رجال الامر الواقع ، بأن المرء يستطيع ان يستخدم حقوقه الدستورية عندما يملك المال فقط . اما ان يتوجب على حق الانتخاب ان يسفر عن النتيجة ذاتها تقريباً التي يريده المثاليون أن يسفر عنها ، فهذا يفترض عدم وجود اية قيادة منظمة تنشط بين وعلى الناخبين (موجهة اياهم لمصلحتها) الى الحد الذي يسمح به المال المتوفر لديها . وحالما تطل مثل هذه القيادة برأسها ، لا يعود هناك اي معنى للتصويت اكثر من كونه تعزيزاً او لوما توجهه

الجماهير الى المنظمات الافرادية ، والتي لن تكون لهذه الجماهير في النهاية ابسط اثر من نفوذ ايجابي فيها . وهذه ايضاً حال الموضوع المثالي للدساتير الغربية ، حال الحق الجوهري للجماهير في اختيار ممثليها - فهذا الحق يبقى نظرية مجردة ، وذلك لان كل منظمة تجند ذاتها في ميدان الامر الواقع . واخيراً ينشأ ذاك الشعور القائل بان حق الانتخاب العام لا يحتوي اية حقوق فعالة اطلاقاً ، وحتى معدوم من حق الاختيار بين الاحزاب . وذلك لان الشخصيات الجبارة التي نمت على تربة الجماهير تسيطر ، بواسطة المال ، على الآلة العقلانية بأكملها من خطابة وكتابة ، وهي قادرة ، من جهة ، على توجيه الاراء الافرادية كيفما تشاء وتهوى ، فوق الاحزاب ، وتستطيع من جهة اخرى ، بواسطة حمايتها او رعايتها ونفوذها وتشاريعها ان تخلق كياناً كاملاً من مناصرين مخلصين (نظام اللجان في الاحزاب) يصدون الباقين حيث يشبعون في نفس هؤلاء خمولاً وتبلداً في ممارستهم للانتخاب ، وحيث لا يستطيع هؤلاء في النهاية ان يتغلبوا على شعور التبلد هذا حتى في الازمات الكبرى .

ويتبدى مظهراً ان هناك فروقاً كبيرة بين الديمقراطية البرلمانية الغربية وبين الديمقراطية التي عرفتها كل من المدنيات المصرية والصينية والعربية ، والتي تعتبر فكرة الانتخاب العام بالنسبة لها فكرة غريبة غرابة كلية . ولكن الجماهير في عصرنا نحن معشر الغربيين هي بالنسبة الينا في « شكل لائق » بوصفها هيئة من ناخبين ، وذلك وفق ذاك المفهوم تماماً حينما تعودت على ان تكون في « شكل لائق » بوصفها طاعة جماعية - واعني بهذا بوصفها هدفاً لسيد - وكما كانت في « شكل لائق » في بغداد بوصفها مللاً أو نحلاً ، او في بيزنطة كرهبان ، وفي غير هذه من أماكن بوصفها جيشاً مسيطراً او جمعية سرية او « دولة داخل الدولة » .

ان الحرية هي بحالها أبداً ، نفي ، وهي تقوم على انكار التقاليد والسلالة

المالكة والخلافة ، لكن السلطة التنفيذية تنتقل فوراً من هذه المؤسسات ودون أن يطرأ عليها أي نقص الى القوى الجديدة ـ زعماء الحزب الديكتاتوريين ـ رؤساء الجمهوريات الانبياء ومناصريهم ـ وحيث تستمر الجماهير ازاءهم جميعاً ودون ما قيد أو شرط الموضوع السلبي . ان « حق تقرير المصير الشعبي » هو تعبير مجازي أريب مهذب ولكن الانتخاب لم يعد له في الواقع ووفق حتى الانتخاب العام اللامتعني ، معناه الاصيلي . اذ كلما تزايد الاستئصال السياسي في جذريته لانظمة المنزلتين القديمتين الناضجتين الناضجتين والحرف ، المهن ، تتزايد جماهير الناخبين في لا شكليتها وهزالها ، ويتزايد اكتمال جمعها وتسليمها للقوى الجديدة ، لزعماء الحزب الذين يفرضون ارادتهم على الشعب بواسطة مجموع آلة الارغام العقلاني ، وهؤلاء يتبارز بعضهم ضد بعض بالمناهج على السيادة ، والتي لا تستطيع الجماهير في النهاية ان تلاحظها أو تدركها ، ويتعاملون والرأي العام بوصفه سلاحاً عليهم أن يصهروه ويصقلوه ليستعمله بعضهم ضد بعض . ولكن هذه العملية بالذات ، اذا ما نظر اليهم المرء من زاوية اخرى ، يراها كأنها نزعة لا تقاوم لترفع بكل ديمقراطية خطوة فخطوة على طريق الانتحار .

وقد امتدت الحقوق الجوهرية للشعب الكلاسيكي (Demos Populus) الى القبض على ارقى مقاليد الدولة واشغال أعلى الوظائف القضائية . وكان الشعب في « شكل لائق » حينما يمارس هذه الحقوق في الفوروم التابع له ، حيث تكون جماهير النقطة اليوقليدية قد التأم شملها حجمياً ، وحيث تصبح هنا هدفاً لعملية تأثير وفق الاسلوب الكلاسيكي ، واعني بهذا وفق وسائل حجمية حسية وقريبة مسافة ـ أي بواسطة الخطابة التي يتلوها الخطيب على كل اذن وعين ، وبواسطة ابتكارات (حيل) قد يبدو الكثير منها في نظرنا أموراً تشمئز منها النفس ولا تطاق او تحتمل تقريباً ، كالبكاء التمثيلي المدرب عليه ، وشق الثياب وتملق المستمعين تملقاً لا خجل فيه أو حياء ، والاكاذيب الاسطورية التي كانوا يلفقونها عن خصومهم ، وباستعمال كلمات رائعة وشبه جمل بديعة ،

وكاندنزات Cadanzas متصاوتة (حيث أصبح مع الزمن لدى العالم الكلاسيكي مستودعات هائلة من هذه ومخصصة للمكان والغرض) وبالالعاب والهدايا ، وبالتهديد والضربات ، ولكن قبل كل هذه ، وأهم من جميع هذه بالمال . ويطالعنا هذا السلاح بادىء ذي بدء في اثينا عام ٤٠٠ ، ويبلغ ذروته في روما قيصر وشيشرون . وهنا لم تختلف الحال عن الحال في اي مكان آخر ، فبدلا من أن تصبح الانتخابات تعيينات لممثلي طبقات ، أمست ميداناً تدور عليه المعارك بين مرشحي الاحزاب ، وميدان يفتح صدره لتدخل المال ، والمزيد فالمزيد من المال ما بعد معركة زاما . ويورد غلتسر في الصفحة ٩٤ من كتابه « النبالة » الجملة التالية :

وكلما وفق الافراد في تركيز المال بايديهم ، كان الصراع السياسي على السلطة يتطور ليصبح موضوع مال . » ولا اعتقد بانني بحاجة الى المزيد من القول . ومع هذا فانه لمن الخطأ ان ننعت هذا الامر بالفساد وذلك اذا اردنا الانسجام والمفهوم الاعمق . فهذا الامر لا يمثل انحلالا بل انه من صميم الاخلاقية الديمقراطية بالذات حيث تستلزمها الضرورة ان تتخذ اشكالاً كهذه عندما تبلغ مرحلة نضوجها . وكان الانتخاب العام بموجب الاصلاحات التي ادخلها السنسور آبيوس كلاوديوس (٣١٠) الذي كان دون ريب هلينيا صحيحا وعقائديا دستوريا من طراز حلقة مدام رولان ، اقول كان هذا الانتخاب بالتأكيد على هذا الشكل ولم تكن اطلاقاً تلك الاصلاحات تمثل فنوناً في تقسيم تحيزي لدوائر الانتخاب Gerry – mandering بل كانت نتيجتها فقط تمهيد الطريق امام هذه الفنون . ولكن ما كادت هذه الاصلاحات تطبق حتى شقت ، وعند التطبيق الاول ، نوعية العرق ، طريقها ، دون ان تتعمد هذه الاصلاحات ذلك ، وسيطرت بسرعة صاعقة على مقاليد الامور بكاملها . وبعد هذا كله ارى من غير المستحسن ان

نصف استخـدام المال ، في دولة دكتاتورية المال ، بانه علامـــة تدن وانحـلال .

وكان احتراف المنصب في روما ، ابتداء بالزمن الذي امسى فيه سلاسل من انتخابات ، يتطلب رأسمالاً ضخماً حيث اصبح معـــه كل سياسي مديناً لجميع رجال حاشيته . وكان منصب الادايل Aedile [1] اكثر المناصب التهاماً للمال ، اذ كان يتوجب على من يشغله ان يتفوق على سلفه في أبهة الالعاب العامة وروعتها ، وذلك بغية ان يستحصل فيما بعد على اصوات المتفرجين . (ولقد فشل سولا في محاولته للوصول الى منصب البريتور لانه لم يكن قبل ذلك ادايل) . زد على ذلك ان تلق جماهير المتسكعين كان يستلزم الرجـل السياسي ان يظهر يوما في الفوروم محاطاً باتباع رائعين مظهراً . لقـــد كان القانون يمنع الاحتفاظ باتباع مأجورين ، لكن اكتساب الرجل السياسي لاشخاص من الطبقة الراقية بواسطة اقراضهم المال وتزكيتهم للاعمال الرسمية والتجارية وتغطية نفقات دعاويهم امام القضاء ، وكل ذلك بغية ان يجعلهم اتباعا له ، لا شك كان اغلى بكثير من اي اجر او معاش . لقـــد كان بومباي نصيرا (Patron) لنصف العالم وظهيرا لنصف سكانه .

فمن الفلاح في بسينوم Picenum حتى ملوك الشرق ، كان بومباي يمثلهم ويحميهم جميعا ، وهذا كان رصيده السياسي الضخم الذي كان باستطاعته ان يقامر بـــه ضد قروض كراسوس التي لم يكن يتقاضى فوائد عليها ، وضد « الطلاء الذهبي » الذي كان يغلف به فاتح بلاد الغال كل رجل طموح . وكانت

---

(١) Aedilesbip وظيفة الاشغـــال العامـــة والعاب السيرك والشرطة وتموين المدينة بالحنطة .

– المترجم –

تقام حفلات العشاء لحشود من الناخبين الاتباع ، ويعطون مقاعد مجانية لحضور صراع المجتلدين ، او حتى (كما حدث وميلو) يحمل اليهم المال عداً ونقداً الى منازلهم . وذلك احتراما للتقاليد الاخلاقية على زعم شيشيرون . وارتفع رأس المال الانتخابي حتى بلغ في ضخامته الابعاد المألوفة في الانتخابات الاميركية اليوم ، اذ كان احيانا يتجاوز مئات الملايين من السسترسسات ، ومع ان السيولة النقديـــة كانت جد موفورة في روما ، غير ان انتخابات عام ٥٤ التهمت من الاموال قدراً ارتفع بسببه سعر الفائـــدة من ٤٪ الى ٨٪ . وقد انفق قيصر من المال للحصول على منصب الأدايل مبلغا بلغ من ضخامته حداً اضطر عنده كراسوس ان يكفله على عشرين مليون قبل ان يسمح له دائنوه بالسفر الى مقاطعته ، وحينا رشح نفسه لمنصب بونتيفكس ماكسيموس ، فانـه تمادى في انفاق رصيده المال الى حد كان يعني فشله عنده في الحصول على المنصب دماره ، زد على ذلك ان منافسه كاتولوس لم يكن باستطاعته ان يعرض عليه جدياً ثمناً لانسحابه في صالحه . ولكن فتح بلاد الغال واستغلالها ـ وهذا امر حرض عليه المال جعل من قيصر اغنى رجل في العالم . والحق ان معركة فارسالوس[1] قد كسبت سلفا في الغال. ومن اجل السلطة كدس قيصر هذه المليارات الثلاثة، شأنه في ذلك شأن سيسل ، وليس حباً بالمال كفيرس Verres وحتى كراسوس الذي كان اولاً واخيراً رجلاً مالياً ، ومن ثم وثم فقط سياسياً . لقد ادرك قيصر الواقعة المقررة ان الحقوق الدستورية لا تعني شيئاً على تربة الديمقراطية بدون مال ، وانها تعني كل شيء معه . فعندما كان بومباي لا يزال يحلم بانه يستطيع اذا ما ضرب الارض بقدمه ان يجعلها تنبت فيالق وجيوشا ، كان قيصر قد حول

---

(١) فارسالوس : بلدة تقع في شمالي شرقي بلاد اليونان وقد دارت فيها رحى معركة عام ٤٨ ق . م .

المترجم ـ

هذا الحلم منــذ زمن الى واقعة بواسطة ماله . وعلى كل حال يتوجب ان يفهم بوضوح ان قيصراً لم يدخل هــذه المناهج والاساليب ، بل انما الفاها قائمة وموجودة ، وجعل من نفسه سيداً لكنه لم يساو نفسه بها ابداً . وذلك لأن احزابا لقرن من الزمن اجتمعت فيا مضى حول مبادىء ، قـد اخذت واقعياً بالانحلال الى اتباع شخصيين تجمعوا حول رجال كانوا يلاحقون مقاصد سياسية شخصية ، وكانوا خبراء في استعمال الاسلحة السياسية لعصرهم .

وكان التأثير على المحاكم هو احد الوسائل الى جانب المال . ولما كانت الجمعيات الكلاسيكية تصوت لكنها لا تناقش ، لذلك كانت المحاكمة امام منصة القضاء شكلاً من اشكال المعارك الحزبيـة ، ومدرسة المدارس للتدرب على الاقناع السياسي . وكان السياسي الشاب يفتتح حياتــه السياسية باتهام او اذا امكن باستئصال شأفة شخصية كبرى ، فكراسوس مثلاً قضى وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره على بابيريوس كاربو الشهير ، صديق الغراتشي ، والذي انضم فيا بعد الى حزب الاعيان . وهذا هو السبب في كون ان كاتو قد حوكم اكثر من اربعين مرة ، بالرغم من انه كان يبرأ من كل قضية . وكان الجانب القانوني في هذه القضايا جانباً ثانوياً تماما . اذ ان العوامل الرئيسية في مثـل هذه المحاكمات كانت تتمثل في قرابات القضاة باعضاء الحزب ، وعدد الحماة ، وحجم جمهور المساندين — وكانوا يعرضون عدد الشهود بغيــة القاء الاضواء على قوى المدعي من سياسية ومالية .

ولقد كان يرمي شيشرون من وراء كل الخطابات التي القاها ضــد فيريس Verres ، والتي اخفاها وراء حميا اخلاقية ان يقنع القضاة بان ادانة خصمـه تقتضيها مصالح نظامهم . فالمحاكم من وجهـة النظر الكلاسيكية العامة ، توجد بوضوح وجلاء ، من اجل خدمة المصالح الشخصية والحزبية . وقد درج المتظلمون الديمقراطيون في اثينا على عادة انهاء خطاباتهم بتذكير المحلفين من الشعب ، بانهم

سيخسرون اجورهم اذا ما رأوا المتهم الثري . وكانت السلطة الهائلة التي يتمتع بها مجلس الشيوخ الروماني تستند الى اشغالهم كل مقعـــد في المنصة القضائية (المخصصة للمحلفين) ، وبهذا اصبح مصير كل فرد تحت رحمتهم . ومن هنا نشأ ذلك المرمى البعيد للقانون الغراكشي لعام ١٢٢ والذي اوكل السلطة القضائيـة للاكويتس ، واسلم النبلاء – اي طبقة الموظفين – لأيدي عالم المال . وفي عام ٨٣ قام في وقت| واحد سولا ، باجراءاته العنيفـــة ضد الاقطاب الماليين ، واسترجاع السلطة القضائية لمجلس الشيوخ ، بوصفها طبعاً سلاحا سياسياً ، وتجـد المبارزة النهائية بين الرؤساء تعبيرها مرة اخرى في التبدلات المستمرة التي كانت تطرأ على القضاة المختارين .

وبينا كان الاسلوب الكلاسيكي ، وخاصة فوروم روما يجتذب جماهير الشعب ومحتويها معاً بوصفها حجماً منظورا يتوخى ارغامه على استخدام حقوقه المرغوبة ان يستخدمهـــا ، نرى ان السياسة الانكليزية الاميركية « المعاصرة » لهذه الحقبة قد خلقت ، بواسطة الصحافة ، مجال زخم ذا قوى عقلانية ومالية ، تكاد دائرتها تشمل العالم باسره وحيث يتخذ كل فرد داخلها ، دون ما شعور ، المكان المخصص له ، كي يتوجب عليه ان يفكر ويريد ويعمل وفق مشيئة شخصية حاكمة في مكان ما او آخر ، وبعيدة عنه . وهذه هي الديناميكية الفاوستية في تباينها والكونيـــة الكلاسيكية ، والشعور الفاوستي العالمي في تعارضـه والشعور الابولوني ، وجـد البعد الثالث في اختلافـه والحاضر البرهي المحسوس المجرد . فالانسان ، في الغرب ، لا يتحدث الى الانسان ، بل يترك هذه المهمة للصحافـة وشريكاتها من وكالات الانباء العالمية (الكهربائية) ، ويستمر في تسليط النار الطبلية الصامة للآذان على الشعور الواعي لشعوب بأكملها ، ويقذفها يوما بيوم وسنة بسنة بمواضيـع وشعارات ومواقف ومشاهـد واحاسيس ، وهكذا كل « أنا » مجرد وظيفة لشيء ما عقلاني مرعب عملاقي ورهيب . ان المال لا يتداوله الناس سياسياً ، ولا ينتقل من يد الى يد ، وهو لا يبدد في المقامرة وعلى الخمور ،

انه يتحول الى قوة ، وكميته هي التي تحدد قدر شدة نفوذه العامل الفعال .

ان البارود والطباعة شقيقان توأمان — فكلاهما قد اكتشفا في ذروة الحقبة القوطيــة ، وكلاهما انجب بها الفكر التقني الجرماني — بوصفهما الوسيلتين العظاويتين للتكتيك الفاوستي البعيد المدى . ولقد شهد الاصلاح الديني في مطلع الحقبــة المتأخرة زمنا اول المناشير وبكر مدافع الميدان ، كما وشهدت الثورة الفرنسية اول زوبعة من الكراريس في خريف عام ١٨٨٨ ، واول نيران مدفعية غزيرة في معركة فالمي . ولكن مع هذا اصبحت الكلمة المطبوعة المخرجة بكميات كبيرة والموزعة على مناطق هائلة في اتساعها ، سلاحا خطراً بيــد من يعرف كيف يستخدمها . لقد كانت الكلمة المطبوعـة لا تزال في فرنسا عام ١٧٨٨ وسيلة للتعبير عن قناعات شخصية ، لكن بريطانيا كانت في هذه الفترة ، قد تخطت بكلمتها المطبوعة هذه المرحلة ، وامست تسعى عامدة متعمدة ان تؤثر في القارىء وتخلق فيه ما تريده من انطباعات .

وما الحرب التي كانت اسلحتهـا المقالات والمناشير والمذكرات الشخصية المزورة التي انطلقت من لندن الى التربة الفرنسية ، ووجهت حملاتها ضد نابليون ، سوى اول مثال عظيم في هذا الميدان . وقـد حولت الصفحات المتناثرة المشتتة لعصر التنوير نفسها الى صحافة « Press » — ولهذه الكلمة اشد ما للغفلة من مغزى . واخذت الحملات الصحافيــة تبدو الآن بوصفها اطالة — او اعداداً — للحرب بوسائل اخرى ، زد على ذلك ان ستراتيجية المراكز الامامية ، من قتال وخدع ومباغتات وهجمات ، قـد بلغت درجة من التطوير حتى امسى عندها كسب الحرب امراً ممكناً قبل اطلاق طلقة واحدة وذلك — لأن الصحافة كانت قد كسبته في تلك الغضون .

اننا نعيش اليوم ، تحت نيران هذه المدفعية العقلانية ، في حالة من رعب ، حتى امسى ، من الصعوبة بمكان ، على المرء ان يبلغ التغريد الباطني المطلوب ليلقي بنظرة صافية على هذه الدراما الرهيبة العملاقة . فلقد انجزت ارادة القوة المتنكرة ، في نشاطها ، برداء ديمقراطي ، وانعتها انجازاً بلغ من الكمال مبلغاً يجعل شعور المحكوم بالحرية يحس بالزهو والخيلاء ، حينما يتملقه اشد استعباد عرفه الوجود البشري حتى اليوم ، استعباد يتخلل حتى العظم . ان العقل البورجوازي الليبرالي فخور بالغاء الرقابة على الصحافة - نورث كليف - لا يزال يجلد عبيده من القراء بمقالاته الموجهة وبرقياته وصوره . لقد طردت الديمقراطية بصحافتها الكتاب ، المؤلف ، من حياة الامة الذهنية وابعدته ابعاداً تاماً . وهكذا نرى ان عالم الكتاب ، بما في هذا العالم من فيض من الآراء والافكار حيث يرغم معها القارىء على الاختيار والانتقاد ، لم يعد الا ملكاً حقيقياً لحفنة قليلة من الناس . فالشعب يقرأ الجريدة الواحدة ، « جريدته » التي تشق طريقها يومياً الى اعتاب الملايين من البشر ، بما لها من عروض اشد اغراء من الكتاب ، واذا ما حدث ان عرف هذا الكتاب او ذاك طريقه الى العالم المنظور ، تسارع الجريدة فتستأصل منه تأثيراته المحتملة بواسطة « استعراضها » له .

ما هو الحق ؟ بالنسبة للجماهير التي تقرأ وتسمع بصورة مستمرة ان نقطة صغيرة مهملة مهجورة قد تستقر في مكان ما وتستجمع من الاسباب والمبررات ما يجعلها تقرر « الحق » ، - ولكن ما تحصل عليه انما هو فقط حقها It's truth . أما الحق الآخر ، الحق الشعبي العام للبرهة القائمة ، والذي وحده يستأثر باهتمام النتائج والنجاحات في عالم الامر الواقع ، فالصحافة هي صواب وحق . وأمارها هم الذين يعثون الحقائق ويبدلونها ويتداولونها ويتقايضونها . ويكفي للصحافة ان تنشط ثلاثة اسابيع حتى يعترف كل انسان بالحق ، وقواعده لن تكون ابداً قابلة للدحض او النفي ، طالما ان المال متوفر للمحافظة عليها في حال سليم . زد على ذلك ان فن الخطابة الكلاسيكي فن صمم من اجل تحقيق نتيجة ، لا رضاء

ـ كما يعرض ذلك شكسبير بصورة رائعة في مرثاة انطونيوس ـ لكنــه فن محدود بالمستمعين حجماً وبالبرهة الراهنة . اما ما تتوخاه ديناميكية صحافتنا فهو التأثير الدائم المستمر . فهي يجب ان تحافظ على عقل الناس ليبقى بصورة مستمرة خاضعاً لنفوذها . وهي تطوح بقواعدها الجدلية حالما تنتقل مصلحة القوى الماليـة الى قواعد جدلية مناهضة لتلك ، وتردد هذه بتكرار اكثر على آذان النـــاس وعيونهم . وعند هذه اللحظة تنحرف ابرة الرأي العام نحو القطب الأقوى ، وهنا يقنع فوراً كل انسان ذاته بالحق الجديد ، ويعتبر انــه قد انتشل من الخطأ واستيقظ فوعاه .

ويرتبط بالصحافة السياسية تثقيف مدرسي عام كان العالم الكلاسيكي مفتقراً اليه تماماً . ويوجد داخل هذا المطلب عنصر رغبة ـ غير واعية تماماً ـ في ان تسوق الجماهير ، بوصفها هدفاً للسياسة الحزبية ، الى منطقة نفوذ الصحافة . لقد كان المثالي في المرحلة المبكرة من الديمقراطية يعتبر التعليم الشعبي ، كتنوير مجرد فقط ، اذ لم تكن لديه اية فكرة مبينة عنه ، وحتى هــذا اليوم لا يزال المرء يصادف ، هنا او هناك ، بعض الرؤوس الضعيفة التي اصبحت متحمسة لحريــة الصحافة ـ لكن هذا الحماس بالذات هو الذي يمهد الطريق لقياصرة صحف العالم القادمين . فهؤلاء الذين تعلموا القراءة سيعنون لسلطانهم ، كما وان حق تقرير المصير الذاتي الرؤى في الديمقراطيـة المتأخرة زمناً ، سيتحول الى جبريـة الشعب بواسطة تلك القوى التي تطبعها الكلمة المطبوعة وتذعن لها . Determinations

ويستهدف تكتيك المبارزات اليوم حرمان الخصم من هذا السلاح. لقد عانت الصحافة في طفولة قوتها غير المشوبة ، الرقابة الرسمية التي اشترعها ابطال التقاليـد وحماها دفاعاً عن الذات ، وهنا تعالت صيحات البرجوازيين مرددة ان حريـــة الروح في خطر . اما الآن فان الجماهير تسلك طريق الصحافة بوداعة ودماثة وهدوء ، فلقد حققت الصحافة اكيداً لنفسها هذه الحرية . ولكن هناك في المؤخرة ، حيث

لا يرى احد ما يحدث ، تتقاتل القوى الجديدة ، وتصارع الواحدة منها الأخرى ، لشراء الصحافة . وبدون ان يشعر القارىء ، يبدل وتبدل الصحيفة سيدهما . وهنا ينتصر المال ايضاً ويرغم الأرواح الحرة على الدخول في خدمته . ولا يوجد هناك من مروض يملك من الحيوانات الاكثر الفة من هذه . فاطلق العنان للشعب كجماهير قراء ، وستراها متدفقة في الشوارع ومقتحمة الاهداف المعنية ، وناشرة الرعب ومحطمة النوافذ ، واشارة واحدة يوعز بها للمحررين ، تكفي لتعود هذه هذه الجماهير الى منازلها بهدوء وصمت . ان الصحافة هي اليوم جيش منظم تنظيماً جيداً ، له اسلحته وفروعه ، والصحافيون هم ضباطـــه اما جنوده فهم القراء . ولكن الحال هنا ، مماثلة للحال في كل جيش ، فالجندي يطيع طاعة عميـــاء ، والاهداف الحربية وخطط العمليات تتبدل دوما . فالقارىء لا يعرف ولبس مسموحاً له بان يعرف الاغراض التي يستخدم من أجلها ، ولا حتى الدور الذي سيسند اليه . ولا اعتقد بأن هناك صورة كاريكاتورية لحرية الفكر أشد تنفيراً للنفس من هذه الصورة . لقد كان الانسان فيما مضى لا يجرأ على التفكير بحرية ، اما اليوم فانه يجرأ لكنه لا يستطيع ان يفكر بحرية ، فارادته للتفكير هي فقط تصميمه على التفكير الايعازي ، وهذا هو ما يشعر به على انه حريته .

اما الجانب الآخر من هذه الحرية المتأخرة ـ فهو يسمح لكل انسان بأن يقول ما يشاء او يرغب لكن الصحافة هي حرة ايضاً في ان تشير الى قولـــه او لا تشير . وبمقدورها ان تحكم على اية « حقيقة » بالموت ، بصمتها وعدم تبليغها العالم ـ انها والحق لرقابة صمت مرعبة ، وان قسوتها لأشد في كون جماهير قراء الجريدة لا يعرفون اطلاقاً بان مثل هذه « الحقيقة » قائمة وموجودة . وهنـــا يبرز ، كما يبرز دائمـــاً في غمرات آلام ولادة القيصرية ، ملمح من ملامح الربيـــع الحضاري الدفين .

فقنطرة الحدوث على وشك ان تنغلق على نفسها . وكما تدفقت مرة اخرى

ارادة التعبير لحقبة القوطية المبكرة من خلال مباني الاسمنت والفولاذ تدفقاً بارداً مراقباً ومتمدناً ، فكذلك تماماً ستبدى ثانية ارادة القوة الحديدية للكنيسة القوطية وتسيطر على النفوس بوصفها - « حريـة (تحريراً - المترجم) من الديمقرطية . » فحقبة « الكتاب » محاطة من جانبها بحقبة الموعظة (الدينية - المترجم) وحقبة الجريدة . والكتب هي تعابير شخصية ، لكن الموعظة والجريدة تطبعان قصداً غير شخصي . وان سنوات الفلسفة الكلامية تقدم لنا المثل الوحيد في تاريخ العالم ، مثل الانضباط العقلاني الذي طبق بصورة عامة فكان لا يسمح بالكتابة والحديث والخطابة والتفكير في اي موضوع يتعارض والوحدة المرادة . هذه هي ديناميكية روحية . ولا شك ان الجنس البشري من كلاسيكي وهندي وصيني كان سينتابه رعب شديد من هذا المشهد ولكن الاشياء نفسها تتواتر ، وتتكرر بوصفها النتيجة الضرورية لليبرالية الاوروبية الاميركيـة - بوصفها النتيجة « لاستبداد الحرية ضد الطغيان » كما وصفها روبسبير . فالصمت العظيم حل الآن محل الخازوق وكومات[1] الحطب . ودكتاتورية زعماء الحزب تسند ذاتها بدكتاتورية الصحافة . والمتنافسون يجدون بوسائل المال لأن يفصلوا القراء - لا بل ، الشعوب قاطبة - عن الرأي المعادي لهم ، وان يدفعوا بهم الى ميادين تدريبهم العقلاني الخاص . وكل ما يتعلمه هؤلاء من هذا التدريب هو ما قدر على انه من المتوجب ان يتعلموه - فهناك ارادة اعلى تجمع لهم اجزاء الصورة معـاً ، صورة عالمهم . وان لم تعـد هناك من حاجة ، كما كانت بالنسبة للامراء الباروكيين ، تستدعي فرض كفالة الخدمة العسكرية ، على الرعايا - فيكفي ان يسوط المرء نفوسهم بالمقالات والبرقيات والصور (نورثكلف !) وعندئـذ سيصخبون ويضجون مطالبين بالسلاح ، ويرغمون زعماءهم عـلى اصطدامات اراد

(١) حيث كانوا يحرقون عليها الهراطقة .

- المترجم -

هؤلاء لهم ان يرغموهم عليها .

هذه هي نهاية الديمقراطية . واذا ما كان البرهان في عـالم الحقائق هو الذي يقرر كل شيء ، فان النجاح هو الذي يقوم بهذا التقرير في عالم الوقائع . فالحياة قد انتصرت ، وتحولت احلام مصلحي العالم الى ادوات بأيدي طبائع سيدة . ففي المرحلة المتأخرة من الديمقراطية ينطلق العرق متدفقاً ، وهو هنا اما ان يجعل المثل العليا عبيداً له ، واما ان يقذف بها بسخرية وازدراء الى الهاوية .

وهذه كانت الحال ايضاً في طيبة المصرية وروما والصين ـ ولكن لا توجد أية مدنية اخرى عرضت ارادة القوة نفسها على هذا الشكل من الصلابة والتزمت ، غير مدنيتنا . ففكر الجماهير ، ونتيجة لذلك نشاطها ، خاضعان لضغط حديدي ـ من اجله ومن اجله فقط يسمح للناس بأن يكونوا قراء وناخبين ـ وهذا يعني ان يرزحوا تحت نير عبودية ثنائية ـ وذلك بينما تمسي الاحزاب بطانات مطيعة لحفنة من رجال بدأ ظلال القيصرية يلامسهم منذ زمن . والى ما انتهت اليـــه المكتبة الانكليزية في القرن التاسع عشر ، ستنتهي اليه البرلمانات في القرن العشرين ـ اي الى أبهة فارغة وفخامة دون جوهر . وكما عرض آنذاك الصولجان والتـــاج ، فكذلك تعرض حقوق الشعب على الجماهير ، وكلما كان عرضها مطبوعاً بالاكثر من قواعد الآداب وحسن السلوك ، كلما تزايد مغزاها ضحالة واقعية ـ ولهـــذا السبب بالذات لم يترك اوغسطس الحذر فرصة تفوته ليؤكد على العادات القديمة المحترمة للحرية الرومانية . لكن السلطة تهاجر حتى في هـــذا اليوم ، وتجانساً هجرتها ، نرى الانتخابات في حال من تدهور بالنسبة لنا ، حتى اننا امسينا نشهد فيها مسرحية انتخابات روما . فالمال هو الذي ينظم هذه العمليـة لتخدم مصالح اربابه ، وشؤون الانتخاب أمست لعبة يتدبرون امرها مسبقاً ومن ثم يدفعون بها الى المسرح بوصفها حق الشعب في التقرير الذاتي . واذا ما كانت الانتخابات اصلاً ثورة في اشكال مشروعة ، فانها قد استهلكت هذه الاشكال ، اما مـا يحدث الآن فهو ان الجنس البشري « ينتخب » اليوم مصيره مرة ثانية ، عامداً

في ذلك الى الوسائل البدائية ، وسائل العنف الدموي عندما تصبح سياسة المـال امراً لا يحتمل او يطاق .

ان الديمقراطية تصبح بالمال ، ناحرة لذاتها بذاتها ، وذلك بعد ان يكون المال قد دمر العقل . ولكن وبسبب كون ذاك الوهم بالذات والقائل بان الامر الواقع يستطيع ان يسمح لأفكار اي من امثال زينون وماركس بان تصلح من امره ، قد فر واختفى ، وبسبب ان الناس قد تعلموا في مدرسة الامر الواقع انه لا يمكن التطويع بارادة قوة الا بواسطة ارادة قوة اخرى فقط (وذلك لأن هـذه هي كانت العبرة البشرية العظمى من كل حقبات الدول المتنازعة) ، لهذه الاسباب يستيقظ اخيراً حنين عميق الى التقاليد القديمة الثمينة التي لا تزال متوانية في الحياة . فالاقتصاد المالي قد ارهق الناس حتى الاشمئزاز والنفور . وهم يفتشون عن الخلاص في كل جهة ومن اية جهـة ، ويبحثون عن شيء ما حقيقي الشرف فروسي الجوهر نبيل الباطن جاحد للذات قائماً بالواجب . وهنا يتبدى فجر زمن يقظة قوى الدم المليئة شكلاً ، والتي كبتتها عقلانية المدينـة العالمية الكبرى ، فتستيقظ هذه القوى في الاعماق من جديـــد . وهنا يصبح فجأة كل ما يتفق وتقاليد نظام السلالة المالكة والنبالة القديمة ، والذي ادخر نفسه للمستقبل ، وكل ما هو مترفع من الاخلاقيات على المال ومزدر به ، وكل من هو سليم جوهراً بما فيه الكفاية ليكون خادم الدولة ، كما وفق منطوق كلمات فريدريك الاكبر — الخادم الكادح المضحي بذاته العميق الرعاية والاهتمام — ويصبح ايضاً كل ذاك الذي وصفته في مكان آخر من هذا الكتاب بالاشتراكية في تباينها والرأسمالية — كل هذه الامور والاشياء تصبح فجأة بؤرة لقوى حياة هائلة جبارة . ان القيصرية تنمو في تربة الديمقراطية ، لكن جذورها تضرب عميقاً في تربة تقاليد الدم . لقد استمد القيصر الكلاسيكي سلطته من التربيون ، ويستمد مهابته ومعها استمراريتها من كونه البرنسبس وهنا ايضاً تستيقظ نفس الحقبة القوطية القديمة من جديد . ان اقوياء المستقبل وجبابرته قد يملكون الارض بوصفها ملكية شخصية لهم —

وذلك لان الشكل السياسي العظيم الحظارة قد تصدع وتدمر ولم يعد قابلا لصلاح او اصلاح — ولكن لا اهمية لذلك فان له واجبا . وهذا الواجب يتمثل في رعاية لا تكل او تمل ، لهذا العالم على ما هي حاله ، وهذه الرعاية هي تستوجب حساً مرهفا بالشرف وشعورا شديدا بالضمير . ولكن لهذا السبب بالذات تنشب الآن المعركة الاخيرة بين الديمقراطية والقيصرية ، بين القوى الرئيسية للاقتصاد المالي الدكتاتوري وبين ارادة النظام السياسية المجردة القياصرة . ولكن نستطيع ان نفهم تلك المعركة الاخيرة بين الاقتصاد والسياسة والتي ستستعيد السياسة ، خلالها ، ميدانها ، يتوجب علينا ان نلقي بلمحة على سياء التاريخ الاقتصادي .

الفصل الرابع والعشرون

عالم شكل الحياة الاقتصادية

(أ)

المال Money

- ١ -

يجب علينا ألا نفتش عن المرقب Standpoint الذي ندرك منه التاريخ الاقتصادي للحضارات العظمى على اساس اقتصادي . فالفكر الاقتصادي والفعل هما جانب من الحياة يكتسب مظهراً مزوراً عندما يعتبر على انه نوع من الحياة متفرد بذاته . ودون كل هذا ، يجب ألا نوجد هذا المرقب على اساس الاقتصاد العالمي الراهن والذي كان طيلة المئة والخمسين عاما يرتفع بصورة خيالية خطرة وبلغ في النهاية حالا يائسة تقريبا – وهو علاوة على ذلك اقتصاد ديناميكي غربي

محصور بالغرب فقط ، ويمكن ان يكون اي شيء ما عدا كونـــه اقتصادا مشتركا انسانياً .

ان ما ندعوه اليوم بالاقتصاد الوطني ، انما هو شيء قـد شيد على مقدمات منطقية هي صريحة ومتفردة بانكليزيتها . وتقف صناعة الآلة ، هـذه الصناعة المجهولة لدى كل الحضارات الاخرى ، في مركز الدائرة كما لو ان هذه الصناعة كانت امراً طبيعيا ، وتسيطر ، دون ان يشعر الناس بهذه الواقعة ، سيطرة تامة على صياغـــة الفكر وعلى الاستدلال القياسي بما يسمى بالقوانين . ويقوم المال المعتمد Credit - money ، بالشكل الخاص الذي اعطته اياه علاقات التجارة الدولية وصناعة التصدير في انكلترا الحالية من الفلاحين ، يقوم هذا مقام الأساس الذي تحدد ، اعتماداً عليه ، معاني كلمات كرأس المال والقيمة والسعر والملكية — ثم تنقل تعاريف مثل هـذه الكلمات ، دون مشقة او عناء ، الى مراحل حضارة ودورات حياة اخرى .

ان المركز الجزيري لانكلترا قد قرر تصوراً عاماً Conception لسياستها ، وعلاقتها بالاقتصاد ، وهذا هو المسيطر في كل النظريات الاقتصادية . لقد كان خالقا هذه الصورة هما دافيد هيوم وآدم سميث . وكل شيء كتب ، منذ ذاك اللذين فما بعده ، عنهما او ضدهما يفترض مسبقا ودائما التركيب والمناهج التنديدية العائدة الى نظامي هذين . وهذا القول ينطبق في صحتـــه على كاري Carey ولست List كما وعلى فوريه ولاسال . اما فيما يتعلق بالخصم الاعظم لآدم سميث ، كارل ماركس ، فان المرء مهما صرخ عاليا باحتجاجه على الرأسمالية الانكليزية ، فأمره لا يهم الا قليلا ، وذلك عندما يكون متشبعا بصورها ومضرجا بالوانها ، فالاحتجاج هو بحد ذاته اعتراف ، وهدفه الوحيد هو الانعام بفوائد كينونـة السيد على التابع بواسطة نوع جديد من الحسابية .

ونحن لا نجد ابتداء بآدم سميث حتى ماركس أي شيء سوى تحليل ذات قام

به التفكير الاقتصادي لحضارة واحـــدة وعلى مستوى معين من التطور . وهو عقلاني سداة ولحمة ، ويبدأ من المادي وظروفه وشروطه وحاجاته وحوافزه بدلاً من ان يبـــدأ من النفس ـ نفس أجيال ومنازل اجتماعية وشعوب ـ ومن قوة النفس المبدعة ـ وهو ينظر الى الناس بوصفهم كأجزاء موجدة Constituent من الاوضاع ، ولا يعرف أي شيء عن الشخصية الكبـيرة وعن ارادة تشكيل التاريخ لدى الافراد والجماعات ، هـذه الارادة التي ترى في الوقائع الاقتصادية وسائل لاغايات . ويأخذ الحياة كأنها شيء ما يمكن ان تحسب دون ان تتبقى منه بقية وذلك بواسطة علل ومعاليل منظورة ، شيء مـا ذو تركيب ميكانيكي تماماً ومتفرد بذاته تفرداً كاملا ، وحتى اخيراً شيء مـا يرتبط بنوع من بعض علاقة بالدين والسياسة ـ وهذان أيضاً يعتبرهما هـــذا الفكر مملكتين افراديتين متفردتين . وهـــذه النظرة هي النظرة المنهاجية وليست التاريخيـة ، ولمفاهيمها وقواعدها صحة كونية معدومة الزمان ، وهي بند ايمان ، وطموحها يهدف الى تقرير المنهاج الصحيح الواحـــد لتطبيق علم الادارة . ونتيجة لذلك فاننا تلامست حقائقها والوقائع فانها كانت تصادف فشلاً كاملاً ـ كما كانت الحال ونبوءات النظريين البورجوازيين عن الحرب العالميـــة ، ونبوءات النظريين البروليتاريين عن بداءة الاقتصاد السوفياتي وتفاعله .

ولذلك لم يقم حتى الان اقتصاد وطني ، بمفهوم مورفولوجيا الجانب الاقتصادي من الحياة ، وبصورة اخص ، ـ هـــذا الجانب من حياة الحضارات الراقية بتشكلات طرازاتها الاقتصادية ـ المؤتلفة والمرحلة والقياس الزمني والديمومة . ليس للاقتصاد منهاج بل سيماء . وان سبر أغوار سر شكلها الباطني يستوجب تمتع المرء بالفطنة السيمائية . ولـكي ينجح في هـــذا ، يجب ان يكون « حكماً » (قاضياً) فيها ، ككونه « حكما » على الرجال والخيول ، وهـذا يتطلب حتى قدراً أقل من المعرفة التي يحتاج اليها رجـــل الخيل من علم الحيوان . ولكن موهبة الحكم هذه يمكن في ان توقظ ،ووسيلة ايقاظها تتوفر بواسطة المطل التعاطفي

على التاريخ الذي يعطي فكرة اريبـــة متبصرة لـلائق العرق وغرائزه، والتي تنشط في الاقتصاد ، كنشاطها في الجواهر الاخرى من الوجود الفعال ، وتشكل رمزياً المركز الخارجي - « المادة » الاقتصادية الحاجة - بصورة متناغمة وجبلتها الباطنية الخاصة . ان كل الحياة الاقتصادية هي تعبير لحياة نفس .

ان هذا مطل جديد ، مطل المانيا عـــلى الاقتصاد مطل من ما وراء كل واسمالية واشتراكية - وكلتا هاتين انجبت بها العقلانية المزيلة التافهة للقرن الثامن عشر ، والتي لم تهدف الا الى التحليــــل المادي والمركب Synthesis التابـع للسطح الاقتصادي . وكل ما علم حتى الآن ليس بأكثر من اعدادي وتمهيدي . فالفكر الاقتصادي ، كالفكر القانوني ، يقف اليوم عـــلى عتبة تطوره الحقيقي الخاص الذي يبدأ (بالنسبة لنا كما بالنسبة للحقبة الهيلينية الرومانية) فقط عندمـا يلفظ الفن والفلسفة انفاسهما الاخيرة الى غير رجعة .

وان المحاولة التالية ، بقصد من ورائهـــا ، مسح جوي فقط للامكانات المتوفرة لدينا .

ان الاقتصاد والسياسة همـــا جانبان من جوانب تيار الكينونة الواحد المتدفق حيــــاة ، وليسا من جوانب الشعور الواعي ، الذهن . ويتبدى في كل منهما نبض الدفقات الكونية المحجوزة داخل الاجيال القادمة للوجودات الافرادية . فمن الجائز القول بان لا تاريخ لهما ، لكنهما يكونان تاريخاً . فالزمان الذي لا يُعكس ، ال – متى When ، هو الذي يحكم داخليهما ، وكلاهما ينتميان الى العرق ، ولا ينتميان كالدين والعلم ، الى اللغة بتوتراتها السببية الفراغية ، وهمـا يحلقان في الوقائع وليس في الحقائق . فهناك مصائر اقتصادية ، كما توجد مصائر سياسية ، بينما يوجد في النظريات العلمية والعقائد الدينية ترابط معدوم الزمان من علة ومعلول .

ولذلك فان للحياة نوعين ، سياسي واقتصادي « لشرط » ولياقتها للتاريخ . وهذان النوعان يتكىء الواحد منهما على الآخر ويسانده ، كما ويقابل الواحد الآخر ، لكن النوع السياسي هو ، دون اي شرط ، الاول . ان ارادة الحياة تتركز على الحفاظ على ذاتها وسيادتها ، او بالاحرى استجماع الاكثر من اسباب القوة كي تسود . لكن تيارات الكينونة من الوجهة الاقتصادية هي تيارات لاثقة بوصفها تقوم على مبدأ حب النفع الشخصي ، بينما انها من الوجهة السياسية تستهدف حب نفع الآخرين . وهذا القول صحيح بالنسبة لجميع السلاسل ابتداء بالنباتات الاحادية الخلية ومروراً بالحيوانات وانتهاء بالشعوب الطليقة من كل قيد في تحركها في الفراغ . ويقودونا التعرف على الفرق في المرتبة بين جانبي الحياة ، التغذية والفوز ، من خلال علاقة كل واحد منهما بالموت . وليس هناك من تباين يبلغ في عمقه ما يبلغه التباين بين الموت جوعاً وبين الموت البطولي . فالجوع يهدد الحياة اقتصاديا باوسع ما لهذه الكلمة من معنى ، تهديداً مخزياً اثيماً مشيناً — زد على ذلك ان صد الامكانات وتقليل الفرص والظلام والضغط كل هذه لا تقل في تأثيرها عن التضور جوعاً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة . لقد فقدت شعوب بأكملها زخم عرقها الشديد بسبب البؤس الناخر القاضم لاسباب عيشها . فهنا يموت الناس بسبب شيء ما وليس من اجل شيء ما . فالسياسة تضحي بالناس من أجل فكرة ، وهم يستشهدون من اجل فكرة ، لكن الاقتصاد يبددهم ويهدرهم هدراً .

ان الحرب هي مبدع كل الاشياء العظيمة ، لكن الجوع هو مدمرها . ففي الحرب يصعد الموت الحياة ، ويرتقي بها مراراً الى درجة من زخم لا يصد او يقاوم ، والذي يضمن مجرد وجوده النصر ، لكن الجوع يوقظ في الحياة ذلك النوع من الخوف البشع الخسيس الدنيء اللاميتافيزيقي ، الخوف على الحياة ، حيث ينهار تحت وطأته عالم الشكل الارقى للحضارة انهياراً بائساً تعيساً ويبدأ الصراع العاري من أجل الوجود بين الحيوانات البشرية .

اما المغزى الثاني ، لكل تاريخ ، والمتجلي في الرجل والمرأة ، فلقد بحثناه في فصل من هذا الكتاب ، تقدم . فهناك تاريخ شخصي يمثل « الحياة في الفراغ » بوصفها سلاسل من توليد ، او استيلاد لاجيال ، وتاريخ عام بدافع عن الحياة ويؤمنها ، بوصفها « الشكلية اللائقة » سياسياً « جانب المغزل » و « جانب السيف » من الكائن ، وهذان يجدان تعبيريهما في فكرتي العائلة والدولة ، ولكنهما يجدانها ايضاً في الشكل الأولي للبيت ، حيث تقوم روح الباب الخيرة ، جانوس ، بحماية الروحين الخيرتين لفراش الزوجية - غنيوس وجونو في كل مسكن روماني قديم. والى هذا التاريخ الشخصي للعائلة ، يحشد الآن التاريخ الاقتصادي نفسه . انه لا يمكن ابداً التفريق بين ديمومة حياة مزدهرة وبين قوة هذه الحياة ، وبطالعنا سر انجابها وحملها بأصفى وجه من خلال أرومة الفلاح القوية النسل ، التي تضرب جذورها متعافية خصبة في تربتها . وكما ان العضو التناسلي يرتبط داخل شكل الجسد بالعضو الدوري ، فكذلك تشكل وسط المسكن ، بالمعنى الآخر لوسط المسكن ، بواسطة الموقد المقدس ، يدي فستا Vesta .

ولهذا السبب بالذات فان مغزى التاريخ الاقتصادي يختلف كلياً عن مغزى التاريخ السياسي . ففي هذا التاريخ الاخير تحتل مصائر افرادية عظمى صدر الصورة ، حيث تنجز هذه ، فعلاً ، ذاتها داخل الاشكال الملازمة لحقبتها ، ولكن بالرغم من هذا فان كل واحد منها ، هو مصير شخصي بصورة محددة صارمة . اما الموضوع الذي يستأثر باهتمام التاريخ الاقتصادي ، وباهتمام تاريخ العائلة ، فهو مجرى تطور لغة الشكل ، فكل شيء يحدث مرة واحدة فقط ، وشخصي هو مصير خاص غير ذي أهمية ، ولا أهمية سوى للشكل الاساسي المشترك بين ملايين القضايا والامور . ولكن حتى على هذه الحال ، فان الاقتصاد هو اساس فقط لكينونة مليئة بالمعنى على كل حال .

وليس كون الفرد او الشعب في « وضع لائق » حيث يغذى تغذية حسنة ،

ويكون خصبا ولوداً ، هو ذو الدلالة والمغزى ، بل انما المهم هو السبب الذي يكون من اجله الفرد او الشعب في مثل هذا الوضع ، زد على ذلك ان الانسان يتسلق تاريخياً ويرتفع كلما تزايدت ارادته السياسية والدينية والرمزية الباطنية وزخم التعبير وضوحا في تساميها فوق كل شيء تمتلكه الحيــاة الاقتصادية من حيث الشكل والعمق . ويبــدأ فقط في مطلع المدنية ، عالم الشكل باكمله بالتدهور والانحزار ، ويبدأ حفظ الحياة المجرد برسم ذاته عارية لحوحاً - وهـذا هو الزمن الذي لا يعود الزعم التافــه ، بان « الجوع والعشق » هما القوتان الدافعتان في الحياة ، يستحي او يخجل من نفسه ، وهو الزمن الذي تصبح فيه الحياة لا تعني زيادة في القوة من اجـل القيام بالواجب ، بل تعني قضية « سعادة اكبر رقم » قضية ترف ولهو ، قضية « خبز والعاب سيرك » وهو الزمن الذي تحل فيه السياسة الاقتصادية بوصفها غاية بذاتها ، محل السياسة العظمى .

ولما كان الاقتصاد ينتمي الى جانب العرق من الحياة ، لذلك فهو ، كالسياسة ، يمتلك اخلاقية عرف ، وليس اخلاقا - وهنا يطالعنا ثانيــة الفرق بين النبالة والكهنوت ، بين الوقائع والحقائق . فالطبقة الحرفية ، كالمنزلة الاجتماعية ، تمتلك بداهة شعوراً بالطيب والخبيث (لا بالخير والشر) . وانعدام هذا الشعور يعني انعدام الشرف والقانون . وذلك لأن الشرف بالنسبة ايضا للعاملين في الحيـاة الاقتصادية ، يحتل منزلة القسطاس المركزي بما له من لياقة وفطنة حصيفة لما هو « بالشيء الصالح السديد » - وهو شيء ما منعزل تماما عن فكرة الخطيئة التي تكمن وراء التأمــل الديني للعالم . ولا يوجد فقط شرف مهني محدد القواعد تحديدا شديدا بين التجار والمهرة من الصناع والفلاحين ، بل يوجد ايضا تدرج انحداري معرف كذلك تماما لاصحاب الدكاكين والمصدرين والمصرفيين وحتى ، كما جميعنا يعلم ، للصوص والشحاذين ، وذلك طالما يشعر اثنان او ثلاثة منهم ، بانهم زملاء محترفون . ولم يقم احد بتحديد او كتابة قواعد اخلاقية العرف هذه ،

لكنها قائمة وموجودة ، وهي ، كالأخلاقية الطبقية ، ملزمة دائما وفي كل مكان وسارية المفعول داخل دائرة الاعضاء المنتسبين فقط . ويظهر بمحاذاة فضائل النبلاء من ولاء وشجاعة وفروسية وزمالة ، او رفاقة ، والتي توجد في كل مجتمع مهني ، آراء محددة تحديدا شديدا في القيم الاخلاقية للصناعة والنجاح والعمل . ويتبدى ايضا احساس مذهل بالتميز والانفراد . ويملك الانسان هذا النوع من الشيء — ويملكه دون ان يعرف الكثير عنه ، وذلك لان العادة تتجلى للشعور فقط عندما تنتهك او تنقض — بينما ان الامر هو العكس من ذلك فيما يتعلق بنواة الدين وتحريماته التي هي معدومة الزمان وذات صحة كونية ، لكنها ليست ابداً مثلاً عليا قابلة للتحقيق ، ولذلك يتوجب على المرء ان يتعلمها قبل ان يستطيع ان يعرفها او يحاول اتباعها .

فجواهر الزهد الديني ، « كانكار الذات » و « بلا خطيئـــة » ، هي امور لا معنى لها في الحياة الاقتصادية . فالاقتصاد بحد ذاته هو خطيئة في نظر القديس الحقيقي ، وليس فقط من جهة كونه يتقاضى الفوائد ، او الغبطة بالثروات او حسد الفقراء . والقول المتعلق « بزنابق الحقل »[1] هو في نظر الطبائع العميقة التدين (والطبائع الفلسفية) قول صحيح دون قيد او شرط . فكل ما لهذه الطبائع من ثقل كينونة او وزن ، انما يقع خارج كل نطاق اقتصادي وسياسي وخارج جميع وقائع « هذا العالم » . وهذا ما نراه في ازمان يسوع والقديس برنارد وفي النفس الروسية اليوم ، ويطالعنا ايضا من خلال اسلوب حياتي ديوجنيس

---

(١) قول السيد المسيح : تأملوا الزنابق كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل ولكن اقول انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها . انجيل لوقا أص . ١٢ ، ٢٧ .

— المترجم —

وكنت Kant . ومن اجله اختار رجال الفقر الطوعي والتطواف والتجوال ، وهم يحبسون انفسهم في الصوامع وغرف الدراسة . وليس هناك ابداً من وجود للنشاط الاقتصادي في الدين او الفلسفة ، وهو موجود دائماً فقط في الانظمـــة السياسية للكنيسة او الانظمة الاجتماعية للزمالة المشتغلين في عالم النظريات ، وهو في حالة من توافق دائم وهذا العالم ، ودليل على وجود ارادة القوة .

- ٣ -

ان ذلك الذي يجوز لنا ان ندعوه بالحياة الاقتصادية للنبات ، هو ينجز ويتم عليه وفي داخله ، ودون ان يكون هو بذاته اكثر من مسرح وموضوع معدوم الارادة لعملية طبيعية . وهذا العنصر يكمن في اقتصاد الجسد الانساني ايضا ، الذي لا يزال نباتيا لا يتبدل او يتغير ، وحاملاً بلاحق وجوده المعدوم الارادة (وهذا من هذه الوجهة غريب عنه تقريبا) في شكل الاعضاء الدورية Circulatory organs . ولكن عندما نبلغ الجسد الحيواني المتحرك بحرية وانطلاق في الفراغ نجد ان الكائن ليس وحيدا - بل مرافقا بالكائن الواعي ، بالادراك والفهم ، ومن هنا ينشأ الارغام على تدبير حفظ الحياة بواسطة الفكر المستقل . وهنا يبدأ قلق الحياة المؤدي الى اللمس والشم والنظر والسمع بحواس تتزايـــد ابداً شدة وارهافاً ، ويفضي فوراً الى التحركات في الفراغ مـــن اجل البحث والتقصي والجمع والملاحقـــة والمخادعة والسرقة ، والتي جميعا تنشأ وتتطور في انواع عديـــدة من الحيوان (كالقنادس والنمل والنحل والطيور المتعددة والجوارح من الطير) وتفضي الى تقنية اقتصادية ارومية تفترض عملية من تأمل واستبصار ولذلك تحقق للفهم قدراً معيناً من التحرر من الاحساس .

فالانسان هو انسان اصيل من حيث ان فهمه قد حرر ذاتـــه من الاحساس ، وبسبب ان الفكر قد تدخل ابداعياً في العلاقات بين الكون الاصغر والكون الاكبر . ولا تزال حيلة المرأة نحو الرجل حيلة حيوانية تامـــا ، وكذلك دهاء الفلاح في حصوله على منافع صغيرة ، وكلاهما لا يختلفان في اي شكل عن مكر الثعلب ، وكلاهما ينبعان من المقدرة على الاستشفاف بلحظة واحدة لسر الضحية . ولكن يتلو هذا ويتربع على قمته الفكر الاقتصادي الذي يبذر الحقل ، ويدجن الحيوانات ويبدل الاشياء ويثمنها ، ويقايض عليها ، ويجد الف طريقة ووسيلة لحفظ الحياة بشكل افضل ، ويحول الاعتماد على البيئة الى سيطرة عليها . هذا هو الاساس لكل الحضارات . فالعرق ينتفع بالفكر الاقتصادي الذي يمكن أن يسمو على درجة من الجبروت بحيث يتمكن من التفرد بذاته عن المقاصد والاغراض المعينة ، فيشيد قلاعا من تجريد واخيرا يفقد ذاتـه في متاهات او امتدادات طوباوية .

ان كل حياة اقتصادية ارقى تطور ذاتها اعتمادا على الفلاحين وعلى حسابهم . فالفلاحون بالذات لا يفترضون اية قاعدة ما عدا انفسهم . فهم ، مثلا عرق بحد ذاته ، ومشابهون للنبات ومعدرمون من كل تاريخ ، وهم ينتجون وينتفعون كلياً بما ينتجون بذواتهم ولذواتهم ، وينظرون الى العالم نظرة ماسحة تعتبر كل وجود اقتصادي آخر ، وجودا عرضيا ، طارئاً وجديراً بالاحتقار . ويقابل فورا هذا النوع من الاقتصاد المنتج نوع مكتسب مستجمع مكتنز ، يستخدم النوع الاول بوصفه موضوعا خاضعاً — ومنبعاً للتغذيـــة والأتاوة والجزية والسلب والنهب . فالسياسة والتجارة هما في شبابيهما خلان لا يمكن الفصل بينهما ابـداً ، وكلاهما مأخوذان بشعور السيادة وشخصيان جسوران ، ويقطع احشاءهما جوع نهم للسلطة والاسلاب والغنائم ، جوع ينشأ عنه مطل* آخر تاما على العالم — مطل لا يستشرف العالم من زاوية داخله ، بل يجول ببصره منحدرا من فوق فاسفل ،

ويمسحه بنظرات يغريها ما في العالم من سوء انتظام ، مطل يعبر عنه بسلامة طوية تاماً ، اختيار الاسد والدب ، والصقر والنسر ، كشعار للاسلحة والعتاد .

ان الحروب البدائية هي دائماً حروب اسلاب وغنائم، زد على ذلك ان التجارة البدائية وثيقة الارتباط بالنهب والقرصنة .

وتحدثنا الاساطير الايسلندية كيف كان الفايكنغ يوافقون في كثير من الاحيان على عقد هدنة بينهم وبين سكان احدى البلدان يسود خلالها سوقها العام السلام لمدة اسبوعين ، وعندما تنتهي مدتها يتسارعون الى اسلحتهم ويبدأون بالسلب والنهب .

ان السياسة والتجارة في شكليهما المطورين — أي في تحقيق الانتصارات المادية على الخصم بوسائل عقلانية متفوقة — هما بديل للحرب بوسائل اخرى . ولكل نوع من الدبلوماسية طبيعة أعمالية ، ولكل نوع من الأعمال (الاقتصادية — المترجم) سليقة دبلوماسية ، وكلاهما يرتكزان على الحكم الاختراقي النفاذ ، على الرجال ، ويستندان الى اللباقة السياسية .

ان روح المغامرة التي كان يتمتع بها العظام من جوابة البحار كالفينيقيين والاتروسكان والنورمان والبندقيين والهنسا ، والروح الداهية الأريبة التي لبست اسياد المصارف كآل فوجر Fugger وآل مديتشي والماليين الجبابرة من أمثال كراسوس ، وأقطاب التعدين والاحتكارات في يومنا هذا ، هذه الروح يجب ان تمتلك الموهبة الستراتيجية التي يتمتع بها الجنرال ، اذا ما كانت تريد لعملياتها النجاح . فالاعتزاز بفخذ العائلة ، والتركة الابوية ، وتقاليد العائلة ، ينمو هنا ويتطور ، قيمة في الميدان الاقتصادي ، نموه وتطوره في الميدان السياسي ، زد على ذلك ان الثروات الضخمة هي كالممالك الضخمة ، لها تاريخها ، وبوليكراتس

وصولون ولورنزو دي مديتشي ، ويورغن فولنفير ، وهم ابعـد من ان يكونوا الأمثلة الوحيدة على الطموح السياسي المستولد من الطموح الاقتصادي .

لكن الامير ورجل الدولة الاصيلين يريدان ان يحكما ، اما التاجر الاصيـل فيريد ان يثري فقط ، وهنا يفرق الاقتصاد المكتسب بين ملاحقـــة الاهداف والوسائل . فالمرء قد يهدف الى الغنيمة من أجل كسب السلطة ، او يستهدف السلطة ليجني المغانم والاسلاب . ولقـــد كانت ايضاً للعظام من الحكام ، كهوانغ – تي وتيبريوس وآله وفريدريك الثاني – ارادة للثراء ، ارادة تدفعهم ليكونوا « موفوري الثراء بلداناً ورعايا » ولكن هذه الارادة كان يرافقها وتخضع لحس مرهف بالمسؤوليات . فقد يستولي الانسان على ثروات العالم بأكملها بنيـة سلبية ، وذلك كي لا نقول ببداهة : ويجوز ان يعيش حياة مشعة بالابهة والرواء ، وحتى متلافة لاهية مسرفة ، – لكنه اذا ما أحس فقط بأنه آلة لرسالة (كنابليون وسيسيل رودز وأعضاء مجلس الشيوخ في القرن الثالث) فعندئذ تكون فكرة الملكية الشخصية نادرة الوجود في نظر مثل هذا الانسان .

ان من ينطلق مدفوعاً بالمنافع الاقتصادية فقط – كما كان أهل قرطاجة في الازمنة الرومانية ، وكما هم الاميركيون اليوم ، ولكن اندفاع هؤلاء اشـد من اولئك بكثير ، ان مثل هذا المرء يتساوى عجزه ، واندفاعـــه ذاك ، عن التفكير السياسي النقي . فهو يكون دائماً ضحية الخداع حينما تتخـــذ القرارات العظمى ، ويكون مخلباً واداة ، كما تظهر حال ولسن – وخاصـة عندما يترك غياب فن سياسة الدولة مقعده فارغاً من اجل التجاوب وعواطف اخلاقيـة . وهذا هو السبب الذي يجعل اليوم المجموعات الاقتصادية الكبرى (مثلاً اتحادات أرباب العمل والعمال) يكدسون الخطأ السياسي الواحد فوق الآخر ، الا اذا وجدوا فعلاً بينهم سياسياً واقعي السياسة ، واتخذوه زعيماً لهم – وعندئذ هو القادر على

الانتفاع منهم [1]

ان النجاحات الاعمالية الضخمة توقظ حساً لا عنان له او لجام بالسلطة الشعبية - وكلمة « رأس المال » بالذات تعبر تعبيراً ضمنياً لا يخطيء عن هذا المعنى ولكن لون الارادة واتجاهها ، وميزان الاوضاع للاشياء لا يتبدل الا عند قلة القلة فقط من الاقتصاديين . فعندما لا يعود الانسان يشعر حقاً بان مشروعه القائم ، هو مشروع « خاص به وملك له » وان هدفه هو اكتناز الثروات وجمع العقارات ، عندئذ وعندئذ فقط يستطيع مثل هذا القطب الصناعي ان يصبح رجل دولة ،ان يصبح سيسل رودز .

ولكن الامر يطالعنا على عكس ما نريـــد ، فرجال عالم السياسة معرضون لخطر التدني والانحلال ، ارادة وتفكيراً تاريخياً بالواجب ، فيمسي همهم الاول تدبير امور عيشهم فقط ، وهنا بمقدور النبالة ان تصبح نظاماً للصوص ، وهنـــا نرى نشوء النماذج المألوفة من الامراء والوزراء والدهماويين وابطال الثورات الذين يستنزفون طاقات حماهم في الترف الخامل الكسول وفي تكديس الثروات الهائلة - وليس لدينا من هذه الجهة الا القليل من الخيار بين فرساي ونادي اليعاقبة ، بين اقطاب الاعمال وزعماء اتحادات العمال ، بين الحكام الروس والبلاشفة . وتصبح في مرحلة نضوج الديمقراطية ، سياسة اولئك الذين وصلوا « الى هناك » (كراسي الحكم - المترجم) متجانسة تماماً ليس والاعمال الاقتصادية فقط ، بل ايضاً واعمال المضاربات ، ومن أقذر انواع المضاربة التي تعرفها المدينة الكبيرة .

وعلى كل حال فان هذا كله هو التجلي كل التجـــلي المجرى المستتر للحضارة

---

(١) لاحظ قلنا الانتفاع منهم لا بهم .

- المترجم -

الراقية . ففي بدايتها يظهر النظامان الاوليان ، النبالة والكهنوت ، برمزيتهما الزمان والفراغ . وان للحياة السياسية ، كما للخبرة الدينية ، مكانها الثابت المقرر، ورجالها الحاذقين الماهرين المكرسين ، وكل اهدافها المقررة من وقائع وحقائق ، على حد سواء ، في مجتمع حسن الانتظـــام ، اما هناك في الاعماق فتجري الحياة الاقتصادية ، جرياناً غير واع ، في حوض يقيني اكيد . ومن ثم يصادف سيل الكينونة عوائق وعراقيل في مباني البلدة الحجرية ، وابتداء بهذا فما بعد ، يتولى العقل والمال مقاليد التوجيه التاريخي لهذا السيل .

وهنا تأتي الايام شيئاً فشيئاً على البطولي والقديسي ، بما لهما من زخم رمزي فني ، ويمسي هذا أندر فأندر ، وينسحبان الى دوائر تزيد الايام في ضيقها . وهنا يحل الصفاء البرجوازي محليهما . فابرام منهاج ، وابرام صفقة ، يتطلبان في الاعماق النوع الواحد ذاته من الذكاء المحترف . ولما كان هنا التمييز بواسطة أي قياس من زخم رمزي ، امراً نادراً بين الحياة السياسية والاقتصادية ، بين الخبرة الدينيـــة والعلمية ، لذلك سرعان ما تتعارفان وتتدافعان وتختلطان ، ويفقد سيل الكينونة في احتكاكات المدينة شكله الصارم الثري . وتطفو العوامل الاقتصادية الابتدائية على السطح وتتفاعل والسياسة المشبعة ببقايا الشكل ، كما يضيف العلم السيد ، وفي الوقت ذاته تماماً ، الدين الى مخزونه من الموضوعات .

وتنتشر فوق حياة من رضى ذاتي اقتصادي سياسي ، عالمية تنديدية تقويمية . ولكن تنبعث منها كلها ، مجاري حياتات افرادية ، تحل محل المنزلتين المضمحلتين . وتتدفع هذه الحياتات بزخم سياسي حقيقي أو ديني ، قدر لها جميعاً ان تصبــــح مصيراً للكل .

وعلى هذا الشكل تبــــدأ بادرات مورفولوجيا التاريخ الاقتصادي . فهناك يوجد اولاً اقتصاد بدائي « للانسان » وهو — اقتصاد كاقتصاد النبات والحيوان —

ويتبع ميزاناً زمانيا بيولوجيا في تطور اشكاله . وهذا يسيطر سيطرة تامة على الحقبة البدائية ، ثم يستمر منطلقاً بتحركه بصورة لا نهائية في بطئها ، ويتحرك بغموض وارتباك تحت وبين الحضارات الراقية . وتدخل الحيوانات والنباتات فيه ، وتحول تدجيناً وتهجينا واستيلاداً واختياراً وبذراً ، وهنا تستغل النار والمعادن ، وتجعل العمليات التقنية خصائص الطبيعة غير المتعضية ، صالحة لاستخدام الحياة لها في سلوكها . ويطلى كل هذا بالخلافية سياسية دينيـــة ومعنى ، ويكون التمييز ممكناً بين الطوطم والتابو ، وخوف النفس وعشق الجنس والفن والحرب والطقوس القربانية والمعتقد والخبرة .

اما التواريـخ الاقتصادية للحضارات الراقية ، فانها تختلف اختلافاً كلياً عن هذا ، وذلك في الفكرة والتطور ، وهي مميزة بشدة ، في القياس الزمني Tempo والديمومة ، ولكل منها طرازها الاقتصادي الخاص . امـا النظام الاقطاعي فهو ينتمي الى الريف المقفر من المدن . ويظهر ، مع الدولة الحاكمة نصف قطرياً Radially من المدينـــة ، اقتصاد المال الحضري ، ويرتفع هذا مع دنو المدنية واقترابها ليصبح دكتاتورية المال ، وذلك في وقت واحد ، وانتصار ديمقراطية المدينة العالمية . ولكل حضارة عالم شكلها الخاص والمطور تطورا مستقلاً . وان طباق المال الابولوني الحجمي (اي قطعة النقد المعدنيـــة المدموغة) ، والمال العلائقي Relational لطراز الفاوستي الديناميكي (وهذا تسجيـــل وحدات الاعتماد) كطباق دولة المدينة ودولة شارل الخامس . ولكن الحياة الاقتصادية ، كالحياة الاجتماعية ، اذ انها تشكل ذاتها على شكل هرمي . ويحافظ ، في الاعماق الريفية ، وضع بدائي ، كلي البدائية ، على ذاته دون ان تتأثر بالحضارة تقريبا . وينظر الاقتصاد الحضري المتأخر زمنا ، الذي هو نشاط محصور باقلية جسورة شديدة العزم ، بنظرات من احتقار متزايـــد للاقتصاد الفطري الريفي الذي يكون لا يزال محيطا به ، بينا يحدق هذا ، برماً متضجراً ، من الطراز المتعقلن المسيطر داخل اسوار المدينة . وتدخل اخيراً المدينـة العالمية الكبرى اقتصاداً

عالميـــاً متمدناً ، حيث يشع هذا من حبيبات (نواة) جد صغيرة لمراكز جد قليلة ، ويخضع كل شيء ما عداه ، معتبراً اياه اقتصادا ريفياً ، بينما تكون في كثير من الاحيان ، عادة (أبوية) بدائية كلياً لا تزال حية في الاصقاع الابعد . ويزداد ، باستمرار ، مع نمو المدينة اسلوب الحياة تصنعاً ودهاء ومراوغـــة وتعقيدا . فالعامل في المدينة الكبرى ، في روما قيصر ، وبغداد هارون الرشيد ، وبرلين اليوم ، يشعر بكثير من الاشياء على انها ضروريات واضحة غنية البيان ، حيث يكون اغنى ملاك لا يزالون يحسون بانها من الكماليات ، ولكن هـذا المستوى المعاشي هو امر شاق بلوغه ، وصعب الحفاظ عليـه . ففي كل حضارة ينمو كم Quantum العمل اضخم فأضخم حتى نجد في مطلع كل مدينة فيضاً في الحياة الاقتصادية وافراطاً ، حيث تصبح الافراطات متجاوزة كل حد وخطرة ومن المستحيل الحفاظ عليها لمدة طويلة ، ويتوصلون في النهاية الى وضع متخشب صلب مقررة ديمومته ، وهو شيوع ملكية عجيب او خليط غريب من عوامـل عقلانية نقية مصفاة واخرى بدائية خام ، فيبدو كأنــــه مسبحة الدراويش ، كالوضع الذي وجده اليونان في مصر ، ووجدناه نحن في الهند الحديثة والصين — وذلك طبعاً ، اذا لم يقم ضغط حضارة فتية بتفكيك القشرة ونخرها من اسفل ، كما فعل الضغط الكلاسيكي في زمن هيوكلتسيان .

وتناسباً وهذه الحركة الاقتصادية ، يكون الناس في « شكل لائق » اقتصادياً بوصفهم طبقة اقتصادية ، تماماً ككونهم في « شكل لائق » سياسياً بالنسبة لتاريخ العالم ، بوصفهم منزلة اجتماعية سياسية . فلكل فرد مركز اقتصادي داخل النظام الاقتصادي ، تماماً كما له درجة من نوع ما في المجتمع .

وهنا يطلب كلا هذين النوعـــين من الولاء (الاقتصـادي والسياسي — المترجم) بالاستئثار بالمشاعر والافكار والعلاقات ، ويطالبان بكل هذه في وقت واحد . ان الحياة تلح على أن تكون ، وعلى ان تعني شيئاً ما ايضاً ، وقد جعلت

الواقعة ارتباك فكرنا اسوأ تشويشاً وحيرة ، الواقعة التي نراهـــا اليوم ، كما كانت في الازمنة الهيلينية ، ماثلة في الاحزاب السياسية التي ارتفعت ، مدفوعة برغبتها في تحسين الاحوال المعاشية لمجموعات اقتصادية معينة ، فارتفعت بهـــذه المجموعات الى مقام منزلة سياسية ، كما ارتقى ماركس مثلاً بطبقـــة عمال المصانع .

البلبلة والارتباك ! - وذلك لأن المنزلة الاولى والاصيلة هي النبالة . فمنها يشتق الضابط والقاضي وكل من يقوم بأرقى واجبات الحكومات والادارات العامة . وهؤلاء هم مجموعات شبيهة بالمنزلة وتعني شيئاً ما . وكذلك ايضاً هي حال العلمـــاء Scientists فهؤلاء ينتمون الى الكهنوت ، ولهم نوع من طبقة محددة تحديداً دقيقاً ومحصورة بهم . لكن الرمزية العظمى تنطفىء مع القلعـــة والكاتدرائية . اما الطبقة الثالثـــة اللا منزلـة ، الباقي ، وهي عرمات متنوعة متعددة ، لا تعني الا قليلا جداً على هذه الحـــال ، ما عدا في لحظات الاعتراض السياسي ، وهكذا فان الاهمية التي تخللها لنفسها هي اهميـــة حزبية . فالفرد لا يعي نفسه بوصفه برجوازياً ، بل بسبب كونه « ليبرالياً » وهكذا فهو جزء وعدد من الشيء الكبير ، وليس لأنه يمثل هذا الشيء بشخصه بل لانـــه ملتصق به عن قناعة أو معتقد . وتتيجـــة لضعف « شكله » الاجتماعي ، يزداد نسبياً « الشكل » الاقتصادي للبرجوازية وضوحاً على وضوح من خلال حرفتـه وتقاباتـــه واتحاداته . وعلى كل حال فان الانسان ، يشار اليـــه ، بصورة رئيسية ، في المدن ، وفق اسلوب العمل الذي يؤمن له قوته .

ان اول صيغة اقتصادية للحياة (ومن قديم هي الصيغة الوحيدة تقريباً) هي صيغة الفلاح التي هي انتاج نقي مجرد ، وهي لذلك الشرط السابق لكل صيغة اخرى . كما وان حتى المنزلات الاولى كانت هي ايضاً تركز اسلوبها في الحياة ، وفي الازمنة المبكرة على القنص وامتلاك قطعان الماشية والاراضي ، وكان النبـــلاء

والكهنة حتى في المراحل المتأخرة يعتبرون الارض النوع الوحيد الشريف والصحيح من الملكية . وتقف التجارة متعارضة وهذه ، وهي صيغة الوسط المكتسب ، او المتدخل ، وهذه جبارة قوية وخارجة على كل تناسب وعددها ، وكانت صيغة لا يستغنى عنها حتى في الاوضاع المبكرة تماماً - انها صيغة لطفيلية مهذبة ، عديمة الانتاج كلياً ، وهي لذلك غريبة عن الارض ، وذات مدى بعيد ، « وحرة » غير مقيدة روحياً ايضاً بأخلاقية الريف وبممارسته ، انها صيغة حياة تعيش على حساب حياة اخرى . وينمو بين هاتين الصيغتين الاقتصاديتين ، نوع ثالث من الاقتصاد ، الاقتصاد الاعدادي للتقنية ، ويتطور بمهنه وحرفه وصناعاته التي لا تعد أو تحصى ، ويطبق هذا النوع الثالث ، بابداع ، تأملاته على على الطبيعة ، ويكون ضميره وشرفه مرتبطين بانجاز العمل واتمامه . اما اقدم نقاباته والتي تبلغ من القدم حتى الحقبة البدائية الاولى ، وتملأ صورة هذه الحقبة بأساطيرها المظلمة وطقوسها وتخيلاتها ، فهي نقابة الحدادين والذين كانوا يصبحون مراراً - نتيجة لاعتزالهم المستعلي عن الفلاحين ، والخوف المخيم فوق رؤوسهم والذي كان يوفر لهم آناً الاحترام وحيناً اللعنة - قبائل ذات عرق خاص بها ، كما هي حال الفالاشا الاحباش ، أو « اليهود السود » .

ويوجد في هذه الاقتصادات الثلاثة من الانتاج والاعداد والتوزيع ، كما يوجد في كل شيء آخر ينتمي الى السياسة والحياة بصورة واسعة ، اسياد واتباع - وهذان النوعان من البشر هم في هذا الامر أولاً مجموعات كاملة تتصرف وتقرر وتنظم وتكتشف ، وثانياً مجموعات كاملة تكون كل ما لها من وظيفة ان تنفذ فقط . والتدرج قد يكون هنا شاقاً ومحدداً ، او يجوز ان لا يحس به الا نادراً ، وقد تكون الترقية أمراً مستحيلاً ، أو أمراً لا يعوقه عائق ، وقد يكون المقام النسبي في العمل هو ذاته تقريباً طيلة تدرج طويل من عبور بطيء ، أو مختلفاً اختلافاً يتجاوز كل مقارنة . فالتقاليد والقانون ، والموهبة والممتلكات ، عدد السكان والمستوى الحضاري والوضع الاقتصادي ، كل هذه يمكن لها ان تدوس

بصورة فعالة على هذين النقيضين الاساسيين من الاسياد والاتباع — لكنها قائمة وموجودة ، وهي مقدمة منطقية كالحياة نفسها ، وغير قابلة للتعديل أو التبديل . وبالرغم من هذا لا توجد اقتصادياً طبقة عاملة ، فهذه الطبقـــة هي لمخترع من مخترعات النظريين الذين ركزوا أبصارهم على عمال المصانع في انكلترا — ومن ثم مدوا بمناهجهم بثقة واطمئنان وغطوا به كل الحضارات والعصور كي يأتي السياسيون فيأخذوه ويستعملوه كوسيلة لبناء احزاب لأنفسهم .

والحق انه يوجد عدد لا يحصى تقريباً من نشاطات خدمة مجردة في الورشات ودور المحاسبة والمكاتب وارصفة البضائع والطرق ومهواءات المناجم والحقول والمروج . وهؤلاء يعتلون ويطرقون ويخدمون ويلاحظون وكثيراً من الأحيان يفتقرون الى ذلك العنصر الذي يرتفع بالحياة فوق عيش الكفاف المجردة ويخلعون على العمل من الوقار والغبطة اللذين يخلعان مثلا على واجبات الضباط واعمال العلماء والحكماء ، او الانتصارات الشخصية التي يحققها المهندسون والمديرون والتجار — ولكن حتى ما عدا هذا فان جميع هذه الاشياء امور لا تستطيع ان تقارن بين ذواتها . فعقل العمل او قوته العضلية ، وموقعه في القرية او في المدينة العالميـــة الكبرى ، وديمومة القيام به وشدته يمر بعمال المزرعة القيام به وشدته حيث تجعله يتجاوز في جهده عمل العمال الزراعيين او كتبة المصارف والخياطين واجرائهم ، كل هذه تعيش في عوالم اقتصادية يختلف الواحد منها عن الآخر تماماً ، والسياسة الحزبية في الاطوار المتأخرة ، واكرر قولي ، هي وحدها التي تغري هؤلاء جميعاً بواسطة الشعارات وتغويهم فينتظمون داخل مركب من اعتراض ، بغية الاستفادة من جموع جماهيره . أما العبد الكلاسيكي ، فهو على العكس من ذلك ، ولا سيما فيما يتعلق بالقانون الدستوري — اذ انه كان يعتبر فيما يتعلق بدولة المدينة الحجمية ، غير موجود اطلاقاً — لكنه من الوجهة الاقتصادية كان مسموحاً له بان يكون

عاملا زراعيا أو صانعا او حتى مديراً او تاجر جملة ، له رأس مال ضخم ويملك القصور والدارات الريفية واتباعاً - بما فيهم رجالاً احراراً . اما ما كان يستطيع ان يكونه فوق كل هذا ، وذلك في الازمان الرومانية ، فهــذا ما سيظهر في العاقبــة .

- ٣ -

ومع مطلع الربيع الحضاري ، تبدأ في كل حضارة ، حيـاة اقتصادية ذات شكل مستقر . وتكون حياة السكان بأكملها هي حياة الفلاحين في الريف . فخبرة المدينة لم تأت بعد . وكل ما يتشامخ بذاته من بين القرى والقــلاع والقصور والاديرة وأسوار المعابد وسياجاتها ، ليس بالمدينة ، بل هو السوق ، النقطـة التي تجتمع فيها مصالح الملاك ، والتي تكتسب فورا معنى دينيــاً وسياسياً معينا ، ولكن لا نستطيع اكيدا ان نقول بان لهذه السوق حياة خاصة بها . فالسكان ، حتى بالرغم من انهم قد يكونون صناعاً أو تجارا ، لكن لا يزالون يشعرون كفلاحين ، وهم حتى ، بطريقة أو اخرى ، يعملون كفلاحين .

ان ذاك الذي ينفتح عن حياة يكون كل فرد فيها منتجاً ومستهلكاً معاً هو السلع . وتبادلها هو علامة كل تعامل مبكر زمناً ، أكانت السلعة المتّجر بهـــا قد جيء بها من مكان بعيد ، أو من داخل حدود القرية أو حتى المزرعة . وأن قطعة من السلع هي تلك التي تلتصق مشدودة ببعض من خيوط جوهرها الخفيـة بالحياة التي تنتجها أو الحياة التي تستخدمها وتنتفع بها ان الفلاح يسوق بقرته الى السوق ، والمرأة تضع ادوات زينتها ، أو « كمالياتها » في الخزانة . ونحن « نقول

هنا » ان الرجل قد منح « بضاعة » العالم هذه ، وذلك لأن كلمة « امتلاك » تعود بنا مباشرة الى الأصل الشبيه بالنبات للملكية ، والتي نما فيها هذا الكائن بالذات ــ وليس غيره ــ جذرا وجذعاً وفروعاً . ويكون التبادل في هذه المراحل عمليــة تنتقل السلع بواسطتها من دائرة حياة الى دائرة حياة اخرى . وتقيم السلع استنادا الى الحياة ووفق تسعيرة متغيرة يحس بها على ضوء علاقتها بالبرهة الزمنية . وهنـا لا يوجد مفهوم للقيمة ولا يوجد نوع أو مقدار من البضائع بحيث يشكل قياساً عاماً ــ لأن قطع النقد الذهبية هي سلع ايضاً تجعلها ندرتها ولا فنائيتها تثمن تثميناً عالياً مرتفعاً .

ويدخل البائع ايقاع هذه المقايضة ومجراها بوصفه وسيطاً او متدخلاً فقط . ويصادف الاقتصاد المكتسب والاقتصاد المبدع احدهما الآخر ، ولكن التجـارة تبدو ، حتى الاماكن التي تفرغ فيها الأساطيل والقوافل بضائعها ، كأنها جهـاز المبادلة الريفية . وهذه هي الشكل « الخالد » للاقتصاد ، وهي لا تزال حتى اليوم منظورة في شخص البائع المتجول العتيق والغارق في القدم ، هذا البائع الذي يجوب المناطق الريفية النائية عن البلدان والمدن ، وفي الضواحي والدروب غير المطروقة ، حيث تتكون بداهة دوائر من تجارة صغيرة ، وفي الاقتصاد الشخصي للعلمـــاء والموظفين ، وبصورة عامة في كل ما هو ليس بجزء ناشط من الحياة الاقتصاديـة للمدينة الكبرى .

ويستيقظ مع روح البلدة نوع آخر تماماً من حياة . اذ حالمـــا يصبح السوق البلدة لا تعود البلدة مجرد مركز لسيول من بضائع تجتاز الصقع الفلاحي المجرد ، بل تصبح عالماً ثانياً داخل الاسوار ، وحيث لا تمسي الحياة المنتجة « هناك خارجاً » في نظرها اكثر من هدف ووسيلة ، وهنا يتدفق منها سيل آخر ويبدأ بالدوران . والنقطة الحازمة الحاسمة هي ــ ان الانسان المتمدن ليس منتجـــاً وفق مفهوم التربة الاولية . وهو لا يملك الترابط الباطني والتربة أو البضائع التي تمر بيديـه .

وهو لا يعيش معها بل ينظر اليهـــا من الخارج ويثمنها على ضوء علاقتها بأمور معيشته فقط .

وبهذا يصبح المتاع بضائع وسلعاً ، وينقلب التبادل رأساً على عقب ، ويحـل التفكير بالمال محل التفكير بالمتاع .

وهنا يجري استخلاص شيء ما امتدادي مجرد ، شكل لتعريف الحد الاقصى ، ويجري استخلاصه من المواد المنظورة من الاقتصاد ، وذلك تماماً كما يستخلص الفكر الرياضي شيئاً ما من البيئة المدركة ادراكاً ميكانيكياً . فالمال التجريدي ينطبق كل الانطباق على الرقم التجريدي . وكلاهما غير متعصبين تماماً . وهنـا تختزل الصورة الاقتصادية الى كميات اختزالاً جامعاً مانعاً ، بينما ان النقطة الهامة في السلع كانت تتمثل في النوعية . فلقد كانت البقرة في نظر الفلاح – في المراحل المبكرة ، كمالها تماماً ، أي وحدة كائن قبـل كل شيء ، ومن ثم فقط هي موضوع للمقايضة ، ولكن النظرة الاقتصادية لابن البلدة الحقيقي لا تقيم اي وزن لأي شيء آخر ما عدا لقيمة المال التجريدي ، وهذه هي وحدها الموجودة ، وقد تكون في هذه البرهة ماثلة في شكل البقرة التي تستطيـع ان تحولـهـــا دائماً الى ورق مالي مثـلاً . كما وان هذه ايضاً حال حتى المهنـدس الاصيل ، فهو لا يرى في شلال مشهور مشهداً طبيعياً فريداً في نوعه ، بل يرى فيه كماً محـروباً لطاقـة لم تستغـــل .

وان الخطأ الذي تقترفه جميع النظريات المالية الحديثة هو انها تبدأ من اشارة المال او علامته ، او حتى من مادة وسيلة الدفـــع ، بدلاً من شكل الفكر الاقتصادي . والحق ان المال هو ، كالرقم والقانون ، انـه مقولة Category فكر . فكما ان هناك تفكيراً فقهياً ورياضياً بالعالم ، كذلك تماماً يوجد تفكير مالي به ايضاً . ونحن نستحصل من خبرة الحس بيئة على تجريدات متباينة تماماً ،

وذلك فيما اذا كنا عقلانياً نثمن هـــذا البيت من وجهة نظر تاجر أو قاضي أو مهندس ، وعلى ضوء ما اذا كان هناك كشف حساب أو دعوى قضائية او خطر انهياره . زد على ذلك ان الرياضيات هي ، على كل حال ، قريبة التفكير المـــالي ومن عشيرته . فان تفكر بحدود الاعمال يتوجب عليك ان تحسب . وقيمة المال هي قيمة رقمية تقاس بالعد والحساب . وانسان البلدة ، الانسان المعدوم الجذور هو اول من تصور هذه « القيمة بذاتها » كما تخيل « الرقم بذاته » ، وذلك لأنه لا توجد هنا في نظر الفلاح سوى قيم يومية الحياة سريعة الزوال ، وتستنـــد في تقديرها الى تبادل هذا الشيء الآن او ذاك في حين مبادلته ، مما لا يريد ان يستعمله ، او لا يريد ان يملكه لا قيمة له . اما القيم الموضوعية فلا توجد الا في صورة الاقتصاد لانسان البلدة الحقيقي ، وانواع من قيم لها وجود منفرد عن حاجاته الشخصية ، كعناصر فكر لصحة تقييمية ، بالرغم من ان لكل فرد ، في الواقع ، منهاجـــه الخاص للقيم ، وخزينه الخاص منها ، واشدها تنوعاً ، وهو يشعر بأن الاسعار السائدة في السوق هي « رخيصة » او « مرتفعة » اعتماداً على قيمه الخاصة هذه .

بينما ان الجنس البشري الابكر كان يقارن بين السلع ، ولم تكن مقارنته هذه تستند الى العقل فقط ، اما الجنس البشري اللاحق فكان يخمن القيم ، وكان يستند في تخمينه الى مقاسات غير موصوفة . اما الآن فلم يعد الذهب يقاس بالبقرة ، بل أصبحت البقرة تقاس بالذهب ، ونتيجة القياس يعبر عنها الرقم التجريدي للسعر . أما ما اذا كان وكيف يجد قياس القيمة هذا تعبيراً رمزياً في اشارة قيمة - وذلك لأن اشارة الرقم المكتوبة او المنطوقة او الممثلة هي بمعنى ما رقم فهذا الامر يعتمد على الطراز الاقتصادي لكل حضارة بحد ذاتها ،اذ ان كل حضارة تنتج نوعاً مختلفاً من المال . أما الشرط المشترك لظهور المال فهو وجود سكان حضريين يفكرون اقتصادياً وفق منطوقه ومصطلحاته ، كما وان طابعه الخاص هو الذي يقرر مـا اذا كانت اشارة قيمته ستستخدم ايضاً وسيلة للدفع ، وعلى هذا الشكل كان من الجائز حـــال القطعة المعدنية النقدية الكلاسيكية ، والفضة في بابل ، بينما ان

الدبين Deben المصري (وهو نحاس خام كان يوزن بالارطال) كان يستعمل قياساً للمبادلة ، ولكنه لم يستعمل كاشارة او وسيلة للدفع . زد على ذلك ان الورق المالي الغربي ، « ومعاصره » الصيني همـا ايضاً وسيلة وليسا بقياس . والحق انه قد تعودنا على ان نخدع انفسنا خداعاً تاماً بالنسبة للدور الذي تلعبه القطع النقدية من المعادن الثمينة في نوع اقتصادنا ، فهذه ليست سوى سلع صيغت تقليداً للعادة الكلاسيكية ، ومن هنا فهي تقاس قبالة قيم السجلات لمال الاعتاد ، ولهذه « ثمن » .

ويسفر هذا الاسلوب من التفكير عن انفساح التملك القديم المرتبط بالحياة والتربة الطريق امام الثروة التي هي بجوهراً متحركة وغير معرفة وصفاً ، وهي لا تتألف من السلع ، بل انما تعرض فيها . ونحن اذا ما تأملنا فيها بحد ذاتها ، نجدها كماً رقمياً مجرداً لقيمة مال .

ولما كانت المدينة هي مرتكز هذا التفكير ، لذلك تصبح السوق الماليـة ومركزاً للقيم ، ويبدأ سيل من القيم بالانتشار والتعقلن ، ويسيطر على السيل المتدفق من البضائع . وبهذا يتحول التاجر من كونه اداة للحياة الاقتصادية الى صيرورته سيداً لها فالتفكير بالمال ، باسلوب او بآخر ، هو دائماً تفكير تجاري أو أعمالي . وهو يفترض مسبقاً وجود الاقتصـاد الانتاجي للريف ، ولذلك هو دائماً وبصورة اولية تفكير مكتسب ،لأنه لا يجد امامه من طريق ثالثة يسلكها. فالكلمات التالية : « اكتساب » ، « ربح » ، « مضاربة » انما تدل بحد ذاتهـا على ان ربحاً قد حقق احتيالاً وخديعة اثناء انتقال السلع الى المستهلك . انه نهب عقلاني، ولهذا السبب فان هذه الكلمات غير قابلة للتطبيق على الفلاحين المبكرين زمناً . ونحن لا نستطيع ان نفهم مغازيها الا اذا ضبطنا أوتار ذواتنا لتتناغم وروح النظرة الاقتصادية للانسان البلدي المتحضر حقاً . فهو لا يعمل مدفوعاً بحاجات ، بل بغية البيع وسعياً وراء « المال » . وتنتشر النظرة الاعمالية ذاتها تدريجياً وتتداخل في

كل نوع من نشاط . ولقد كان الانسان الريفي المرتبط باطنيـــاً في التعامل بالبضائع ، معطياً وآخذاً في الوقت ذاته ، ولم يكن حتى التاجر في السوق البدائية يشكل استثناء لهذه القاعدة ولكن يظهر مع التعامل بالمال بين المنتج والمستهلك، كأن هذين عالمان منفصلان ، فريق ثالث ، اي الوسيط ، الذي يسيطر بداهـــة الجانب الاعمالي من الحياة على فكره . فهو يرغم المنتج على العرض عليه ،والمستهلك على الطلب منه . ويرتقي بالوساطة حتى يجعل منهـــا احتكاراً ، ومن ثم تنطلق سيادته الاقتصادية ، ويرغم هذين الآخرين ، على ان يكونا « في شكل لائق » بمصلحته ، فيعد السلع وفق حساباته ، ويخفض اثمانها تحت ضغط عروضه .

ان من يسيطر على هذا الاسلوب من التفكير ، هو سيد المال وربه . وان التطور في كل الحضارات يسلك هذه الطريق .

ويصف لنا ليسياس في خطبته ضد تجار الحنطة ، كيف أن المضاربين في بيريوس كانوا في كثير من الاحيان يشيعون اخبار غرق اسطول بحري محمل بالحنطة ، أو نشوب حرب ، كي يثيروا الذعر والفزع . وقد درجوا في الازمان الهيلينستية الرومانية على عادة تعمد اهمال زراعة الارض وجعلها بوراً ، او عـــلى احتجاز الواردات كي يرغموا الاسعار على الارتفاع . وقد وجد في الامبراطورية المصرية الجديدة محتكرون للقمح ، من الطراز الاميركي الذي نراه اليوم ، وقد جعلوا احتكارهم أمراً ممكناً بواسطة خصومات الحوالات التي يستطيع المرء ان يقارنها تماماً بالعمليات المصرفية في الغرب . ولقد تمكن كليومينيس ، المنظم الاداري ، للاسكندر الاكبر في مصر ، أن يجمع بين يديه كامـل انتاج مصر من القمح ، وذلك بواسطة صفقات مالية اعتمدت السجلات ، وبهذا نشر المجاعـــة في اليونان طولاً وعرضاً وحقق لنفسه ارباحاً ضخمة هائلة . وان كل انسان لا يعتمد عـلى هذه القواعد في تفكيره الاقتصادي ، سيصبح اكيداً مجرد متاع مرهون لدى

العمليات المالية للمدينة الكبيرة .

وسرعان ما يسيطر هذا الاسلوب من التفكير على الشعور الواعي لسكان الحضريين بأكملهم ، وكذلك على شعور كل فرد يلعب دوراً جدياً في توجيه التاريخ الاقتصادي . « فالفلاح » ووليد البلدة لا يمثلان الفرق القائم بين الريف والمدينة فقط ، بل يمثلان التباين بين الملكية والمال ايضاً . فالحضارة الرائعة التي عرفتهـا البلاطات الهوميرية ، وبلاطات امراء بروفنسال ، كانت شيئـاً ما نما وتضخم وتضاءل وعزل مع الناس انفسهم - وهذا ما بمقدورنا مشاهدتـه حتى اليوم في حياة العائلات القديمة في مراكزها الريفيـة - لكن الحضارة الاكثر صفاء (تصفية) ، حضارة البرجوازيـة ، فان « ترفها » شيء ما يأتي من خارجها ، شيء ما يستطيع البرجوازي أن يدفع سعره . ان كل اقتصـاد مطور تطوراً عالياً هو اقتصاد حضري .

ويجب على ما اعتقد ان ندعو الاقتصاد العالمي ، وهو خاصة من خصائص كل مدينة ، باقتصاد المدينة العالمية . زد على ذلك ان مصائر حتى هذا الاقتصاد العالمي يجري تقريرها في أماكن قليلة ، في الاسواق المالية للعالم - في بابل ، طيبة ، روما بيزنطة ، بغداد ، نيويورك لندن برلين وباريس - أما ما خلا هذه ، أي الشغل ، فهو اقتصاد ريفي جائع وهزيل ، يتابع جريانه داخـل دوائره دون ان يعي تبعيته المطلقة .

واخيراً فان المال هو شكل الطاقة العقلانية التي تتركز فيهـا ارادة الحاكم والقوة الابداعية من سياسية واجتماعية وتقنية وذهنيـة . ولقد أصاب جورج برناردشو كبد الحقيقة حينما قال :

« ان الاحترام العالمي للمال هو الواقعة الوحيدة المرتقبة في مدنيتنا ... فهذان الشيئان (المال والحياة) لا يمكن الفصل بينهما اطلاقاً ، فالمال هو الصداق ، أو

شباك الدفع ، الذي يجعل الحياة امراً ممكنا توزيعه اجتماعيا : هذه هي الحيـــاة ، اذن فان ما يوصف هنا بالمدنية ، هو مرحلة من حضارة فقدت فيها التقاليـــد والشخصية فعاليتها الفورية المباشرة ، وان كل فكرة يراد لها ان تتحقق يجب ان توضع في حدود المال ووفق اعرافه . لقد كان المرء في البداية ثرياً لأنه كان قوياً – اما الآن فان المرء قوي لأنــه ثري يملك المال . والعقـل يبلغ العرش فقط عندما ينصبه المال عليه . والديمقراطية هي التعادل المنجز بين المال والسلطة السياسية .

علماً بأنه ينشب ، في التاريخ الاقتصادي لكل حضارة ، صراع يائس تشنــه تقاليد العنصر الضاربة جذوره في التربة ، تشنه روحه ، على روح المال . فحروب الفلاحين في الحقبة المتأخرة (وهذه تعاصر الحقبــة الكلاسيكية ٧٠٠ – ٥٠٠ ، الغربية ١٤٥٠ – ١٦٥٠ والمصرية تتمثل في نهاية المملكة القديمـــة) هي ردود الافعال الاولى للدم ضد المال الذي كان يمد بيده من المدينة الشمعية فوق الريف. وان تحذير شتاين القائل : « ان من يحرك التربة (عسكرياً – المترجم) يحلهـــا غباراً » هو تحذير وانذار بالخطر المشترك العـــام بين كل الحضارات ، واذا كان المال لا يستطيع ان يهاجم الملكية ، لكنه يدس بنفسه ويدمسها في افـكار النبلاء والمالكين من الفلاحين ، حتى ينبدى الملك الموروث الذي رافق نموه نماء العائلة ، مجرد مورد ، وظف ، في الأرض والتربة ، نظرا لاعتبار جوهريها ملكية منقولة . ان المال يهدف الى تعبئة كل الاشياء . وما الاقتصاد العالمي سوى اقتصاد القيم التي تفردت بفكرها تفردا تاماً عن الارض ، وجعلت سائلة . ولقد حول التفكير المالي الكلاسيكي ابتداء بزمن هنيبال فما بعده ، مدناً بأكملها الى قطـع معدنية من نقود ، وشعوباً بأجمعها الى عبيد ، ثم حول كلا من هذين الى مـال كان يمكن استجلابه من كل مكان الى رومـــا ، ويستعمل كقوة تنطلق من روما خارجاً .

ان التفكير المالي الفاوستي « بفتح » قارات بأكملها ، ويحول القوى المائية في احواض الانهار الجبارة ، وقوى الشعوب العضلية في اقطار وسيعة منفسحة ، وطاقات الفحم والغابات العذارى وقوانين الطبيعة ، يحول هذه جميعاً الى طاقة ماليه ترصد باسلوب أو آخر ، صحافة ، انتخابات أو موازنات او جيوشاً — لتحقيق خطط الاسياد . ويجري ابدا ودوماً استخلاص قيم جديدة من كل خزين عالمي مهما كان نوعه ، ولا يزال غير « مرصود بدين » من وجهة النظر الاعمالية ، وهذه القيم الجديدة هي ما يسميها جون جبرائيل بوركمان بأرواح الذهب الهاجعة ، اما ماهية الاشياء بذاتها ، فهي ، ما عدا هذه ، لا قيمة لها أو وزن من وجهة النظر الاقتصادية .

— ٤ —

ولما كان لكل حضارة اسلوبها الخاص للتفكير بالمال ، فكذلك لها ايضاً رمزها الخاص بها ، والذي بواسطته تنطلق بمبدئها للتقييم ، الى التعبير عنه تعبيرا منظورا . وهذا الشيء ما ، وهو تحقق مغزى للتفكير ، هو مساو تماماً بأهميته لما للمشخصات أو الارقام المنطوقة أو المكتوبة أو المرسومة ، وغيرها من رموز الرياضيات الأخرى من اهمية . وهنا يوجد ميدان عميق وخصب للاستقصاء والبحث ، وهو لم تسبر أغواره حتى الآن تقريبا . ولم يجر حتى الآن ان صدح أو تلفظ حتى بالافكار الاساسية بصورة سليمة ، ولذلك فمن المستحيل علينا تماما ان نترجم بوضوح فكرة — المال التي كانت تكمن وراء المقايضة واعمال السندات في مصر ، والمصرفية في بابل ، ومسك الدفاتر في الصين ، ورأسمالية اليهود والفرس والأغارقة والعرب في زمن هارون الرشيد . لذلك فكل ما بمقدورنا

هو ان نعرض التباين الجوهري بين المال الأبولوني والمال الفاوستي – المـال الاول بوصفه حجماً والآخر بوصفه وظيفة .

لقد كان للانسان الكلاسيكي وجهـة نظر اقتصادية ، لا تختلف عن وجهات نظره الأخرى في منبعها ، اذ كان يرى في العالم المحيط به مجموعة من أحجام ، افرادها يبدلون أماكنهم أو يسافرون وينطلقون او يضرب الواحد منهم الآخر ، أو يبيده ، كوصف ديمقريطس لطبيعته . فالانسان كان حجما بين أحجـــام ، ودولة المدينة لم تكن سوى حجم من نظام أرقى . وكانت جميع حاجات الحياة تتألف من كميات حجمية ، ولذلك كان المال يمثل أيضاً حجماً كهذا ، وبالطريقة ذاتها التي كان تمثال ابولو يمثل الهاً . وقرابة عام ٦٥٠ ظهرت قطعة النقد المعدنية ، وذلك في وقت واحد ، والحجم الحجري للمعبد الدوري والتمثال الحر المنحوت الممتلىء والمفتول حقا ، وكانت قطعة النقد هذه وزنا معدنيـا وذات شكل جميل السبك . وكانت القيمة كحجم قد وجدت قبل طويل زمن – ووجدت فعلاً منذ وجود هذه الحضارة نفسها وطيلة وجودها .

وكانت التالنت [١] ، لدى هوميروس ، مجموعة صغيرة من الذهب في سبيكة ومواد ديكور ، وذات وزن اجمالي معين مقرر . وكان درع آشيـل يمثل ٢ تالنت من الذهب ، كما واعتادوا حتى في الأزمان الرومانية المتأخرة على تحديـــد قيمة الأواني الفضية والذهبية وزنا . والحق ان اكتشاف المـال المشكل حجما كلاسيكيا ، وهو اكتشاف غريب الى حد اننا لم ندرك بعد مغزاه العميق والمجرد في كلاسيكيته . فنحن نعتبره احد « انجازات الانسانية » وهكذا نسك هـــذه

---

(١) قطعة نقدية اغريقية .

– المترجم –

النقود المعدنية في كل مكان ، كأننا تماما نضع التماثيل في شوارعنا وساحاتنا العامة ، هذا كل ما بمقدورنا فقط ان نفعله ، وليس بأكثر من هذا ، اذ اننا نستطيع ان نقلد الشكل ، ولكننا لا نستطيع ان نعبر عن المعنى الاقتصادي ذاته له . فالقطعة المعدنية ، كمال ، او نقد ، هي ظاهرة كلاسيكية فقط - وهي امر ممكن فقط في بيئة فطرت كلياً على الفكر اليوقليدية ، شريطة ان تكون هذه الفكر مسيطرة سيطرة ابداعية على مثل هذه البيئة . فالآراء في الدخل والموارد والدين ورأس المال ، كانت تعني في المدن الكلاسيكية شيئاً ما مختلفاً تماماً عما تعنيه لدينا . فلم تكن تعني طاقة اقتصادية تشع من نقطه ، بل مجموعة من مواد ثمينة في حوزة اليد . فالثروة كانت دائماً مورداً نقدياً متحركاً منقولاً ، وحيث كان حجمها يبدل اما حسماً ، (طرحاً) واما جمعاً للمواد الثمينة ، ولم تكن لهذه العملية أي ارتباط بالممتلكات من الارض - وذلك لأن هذين النوعين من الثروة ، كان الواحد منهما منفصلاً تاماً عن الآخر في نظر الفكر الكلاسيكي. وكان الاعتماد يقوم على اساس اقراض النقود ترقباً من ان الدين يدفع نقداً ايضاً . لقد كان كاتلين Catiline رجلاً فقيراً ، بالرغم من انه كان يملك الشاسع الواسع من الأرض ، وذلك لأنه لم يجد من انسان يقرضه المال اللازم لتحقيق اهدافه السياسية ، زد على ذلك ان ديون الساسة الرومان الهائلة ، لم تكن أراضيهم تقبل كضمانات لها ، بل كان ضمانها النهائي يتمثل في امكانية اكيدة لحصول على منطقة يحكمونها ويعملون نهباً في ثرواتها المنقولة .

وعلى هذا الضوء ، وعليه فقط ، نستطيع ان نفهم ظاهرات معينة ، كتنفيذ الاعدامات الجماعية بالاثرياء في عهد الطغاة الثاني ، والحرمانات الرومانية من حماية القانون (التي كانت تستهدف الاستيلاء على جزء كبير من النقد المتداول في المجتمع) وصهر كنوز معبد دلفي ، هذا العمل الذي قام به Phocians في الحرب المقدسة وقيام موميوس بصهر كنوز الفن في كورينث ، وما فعله قيصر في روما بآخر الهبات المنذورة ، وبأعمال سولا في اليونان وبروتوس وكاسيوس في

آسيا الصغرى ، اذ أقدم هؤلاء ، دون رادع من تقدير فن على صهرها عندما احتاجوا الى المعادن الثمينة والمواد النبيلة والعاج . فلقد كانوا يستولون على التماثيل وكانت الأواني التي يعرضونها في استعراضات النصر مجرد نقود في أعين المتفرجين، وقد استطاع مومسون ان يحاول ان يقرر مشهد الكارثة التي نزلت بفاروس بواسطة الأماكن التي نقب فيها عن مخابىء القطع النقدية — وذلك لأن الجنود الرومان حملوا كامل ما يملكه هذا من المعدن الثمين على ظهره . ان الثروة الكلاسيكية لا تتألف من امتلاك الملكيات ، بل من تكديس المال نقداً ، ولم تكن السوق المالية الكلاسيكية مركزاً للاعتماد كالبورصات في عالمنا وعالم طيبة الغابرة ، بل كانت مدينة تجمع ، فعلاً ، فيها النقود من انحاء العالم . وباستطاعتنا القول بان روما كانت قد اصبحت تختزن في زمن قيصر نصف ما في العالم الكلاسيكي من ذهب .

ولكن عندما تطور هذا العالم ، ابتداء بزمن هنيبال تقريباً ، فأصبح دولة بلوتوكراتية غير محدودة ، وأصبحت كتل المعادن الثمينة والمحدودة طبيعيا ، وروائع الفن لا تفي ابداً بالحاجات المتزايدة ، تفجرت شهوة حقيقية تفتش عن احجام غير هذه يمكن استخدامها كنقود . وهنا وقعت ابصار الناس على العبد الذي كان حجماً من نوع آخر ، كان شيئا لا شخصا ، وبمقدور المرء ان يفكر به بوصفه مالاً . ومن هنا اصبحت العبودية الكلاسيكية فريدة في نوعها في جميع التواريخ الاقتصادية . فمطوا بصفات القطع النقدية وجعلوها تطبق ايضا على الأحياء ، وهنا انفتحت أبواب المستودعات من الناس في الاقاليم ليعمل فيها حكام الولايات نهبا وسلبا ، وأصبح فلاحو الجزية فيهم من المنفعة والمصالح ما في المخزون من المعادن . ونشأ نوع غريب من تقييم مزدوج ، فأمسى للعبد سعر في السوق ، بالرغم من ان الارض لم يكن لها سعر . فهو كان يقوم مقام تجميع الثروات غير المستثمرة ، وهذا هو السبب في وجود تلك الجماهير الضخمة من العبيد في الحقبة الرومانية ، والتي لا يمكن تفسير سبب وجودها على هذا الشكل بأي

نوع من ضرورة أخرى غير تلك التي اوردناها آنفا . فالانسان يومذاك ، حينا كان يهدف من جمع العبيد تشغيلهم في اعمال تدر عليه ربحا ومنفعة ، كان عددهم ضئيلا ، وكان من السهولة ان يسد أسرى الحرب والمحكومون بسبب دين او تعويض حاجات العمل هذه . وكان تشيوس Chios هو أول من بدأ ، وذلك في القرن السادس ، باستيراد العبيد المباعين Argyronetes . وكان الفرق بين هؤلاء وبين الجماهير الغفيرة من العمال المأجورين ، فرقا سياسيا وقانونيا ، وليس من نوع اقتصادي . ولما كان الاقتصاد الكلاسيكي اقتصاداً سكونيا وليس ديناميكيا ، وكان جاهلا بالاكتشاف المنهاجي لموارد الطاقة ، لذلك فان العبيد في الحقبة الرومانية لم يوجدوا كي يستغلوا في العمل ، بل استخدموا بشكل تقريبا يمكن من اعالة اكبر عدد منهم . وكانوا يفضلون بصورة خاصة العبيد من ذوي السمات الذين يتمتعون بصفات خاصة من نوع معين أو آخر ، وذلك لأن نفقات اعالة هؤلاء هي واحدة ، لكن هؤلاء يمثلون موجودات مالية افضل ، وكانوا يقرضون العبيد ، كما يقرضون الدراهم ، وكان يسمح لهم بأن تكون لهم اعمال خاصة بهم وعلى حسابهم ، كي يصبحوا اثرياء ، وكان سعر العمل الحر بخسا ـ وذلك كله بغية تغطية نفقات اعالة رأس المال هذا . زد على ذلك انه كان من المستحيل اطلاقا تشغيل العدد الاكبر منهم او استخدامه . وكان القصد من وراء وجودهم يتمثل بكونه مخزونا من المال في اليد (قابل للتداول ـ المترجم) ، ولم يكن محدودا بأي حد طبيعي ، كالمخزون من المعادن الموجودة في تلك الايام . ولهذا السبب بالذات تضاعفت الحاجة الى العبيد تضاعفا لا حد له ، ولم تفض فقط الى حروب نشبت رغبة في الحصول على العبيد فقط ، بل ادت ايضا الى اقتناص العبيد ، وكان يقوم بهذا العمل متعهدون افراد على طول سواحل البحر الابيض المتوسط (حيث كانت تغمز لهم روما بطرفها) ، والى اسلوب جديد لتضخيم ثروات حكام الولايات ، حيث كان يقوم هذا الاسلوب على استنزاف آخر طاقات السكان ، ومن ثم بيعهم عبيدا لعجزهم عن الوفاء بديونهم . ويجب ان تكون سوق ديلوس قد تعاملت يوميا بعشرة آلاف عبد وعندما ذهب قيصر الى بريطانيا ،

ووجدت روما في فقر البريطان ما خيب آمالهـــا ، تعزت بأسلاب موفورة من العبيد . وعندما دمرت مثلاً كورينث ، فان صهر التماثيـــل قطعاً من نقود ، ومزادات بيـع سكانها عبيداً في سوق النخاسة ، كان بالنسبة للعقول الكلاسيكية الأمر الواحد ذاته — فهو تحويل مواد جسمانية وحجمية الى مال .

ويقف رمز المال الفاوستي موقفاً مناقضاً حتى آخر حـــدود التناقض من الكلاسيكي — فالمال هنا بوصفه وظيفة ، تكمن قيمته في أثره في فحواه وليس في وجوده المجرد . وقد تبدى هذا الاسلوب الخاص من التفكير الاقتصادي من خلال النهج الذي نظم وفقه النورمان في عام ١٠٠٠ ب.م أسلابهم من الرجال والارض فجعلوها طاقة اقتصادية . ولتقابل فقط بين تقييم السجلات لدى الموظفين في بلاطات الدوقات (والذين تخلد ذكراهم كلماتنا : « شيك » « ومحاسبة » « ومراجعة ») وبين التالنت الذهبية « المعاصرة » لهذه ، والتي ورد ذكرها في الالياذة ، وهنـــا سرعان ما يصادف المرء وفي مستهل فاتحة هذه الحضارة الفاوستية آثاراً لنظـــام الاعتماد الحديث الذي هو ثمرة الثقة بالزخم وباستمرارية صيغته الاقتصادية ، والتي معه تتجانس تماماً تقريباً فكرة المال وفق مفهومنا لها . وهذه المناهج المالية التي نقلها روجر الثاني الى المملكة الرومانية في صقلية ، قام الامبراطور فريدريك الثاني من آل هوهنشتاوفن (قرابة عام ١٢٣٠) بتطويرها وجعلها نظاماً جباراً يتجاوز في طاقاته النظام الاصلي في الديناميكية باشواط واشواط ، وبهذا أصبح أول قوة رأسمالية في العالم ، وبينما كان هذا التآخي بين قوة التفكير الرياضي ، وارادة القوة الامبراطورية (الملكية) يشق طريقه من النورمانـــدي الى فرنسا ، ويطبق وطبق على شكل واسع على استغلال انكلترا المفتوحة ، المغزوة ، اذ ان ارض انكلترا لا تزال حتى الآن أرضاً يملكها اسماً الملك) كانت جمهوريات المدن الايطالية تقلد جانبه الصقلي ، (نسبة لصقلية) (ولما كان النبلاء الحاكمون سرعان ما اقتبسوا مناهج الاقتصاد الحضري واستخدموها في مسك دفاترهم الشخصيـــة الخاصة) وهكذا انتشر هذا النظام فوق الفكر والممارسة التجاريين في العالم الغربي

بأكمله . وبعد قليل من الزمن اقتبس سلك الفرسان التيوتونيون المناهج الصقلية كما واقتبستها السلالة المالكة في آراغون ، وبامكاننا ان نرد الى هذه الاصول مسك الحسابات التجارية في اسبانيـــا في عهد فيليب الثاني ، والطراز البروسي في زمن فريدريك غليوم الاول .

ولكن الحدث الحاسم جاء متمثلاً على كل حال بذاك الابتكار – « المعاصر » للابتكار الكلاسيكي للقطعة النقدية المدنية قرابة عـــام ٦٥٠ – الذي حققه فرا لوكشا باتشيولا عام ١٤٩٤ واعني به مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجـــة Double - entry book - keeping . ويصف غوتيه هذا الابتكار في ولـــيم مايستر قائلاً « انه انقى اكتشافات العقل البشري وأصفاها جميعاً » ، والحق انـه لبمقدورنا ان نصف واضعه ، دون تردد ، في مرتبـــة معاصريه كولومبوس وكوبرنيكوس . واننا مدينون للنورمان بحسابنا ، وللومبارديين بمسك دفاترنا .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى ان هاتين الأرومتين الجرمانيتين هما بالذات اللتان ابدعتا الانجازين القانونيين الابعازيين في الحقبة المبكرة ، واللتـــان ولد حنينهما الى البحار البعيدة ، الحوافز لاكتشاف اميركا . ان مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة قد انجبت به الروح ذاتها التي انجبت بغاليليو ونيوتن ... وهو يعتمـد وسائل هذين بالذات في تنظيمه للظاهرات في نظام انيق ، ومن الجائز لنـــا ان نسميه بأنه أول كون شيد على قواعد من الفكر الرياضي . وهو يكشف لنا عن كون العالم الاقتصادي ، وفق المنهاج ذاته الذي حسر الاستقصاء المظلم للفلسفة الطبيعية بواسطته القناع عن الكون الكواكبي . فهو يرتكز على المبدأ الاساسي الذي نفذ منطقياً لفهم جميع الظاهرات بوصفها كميات مجردة .

ان مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة هو تحليـــل مجرد لفراغ Space القيم المستند الى نظـام احداثيات Co - ordinate System ، الذي تعتبر الشركة

التجارية Firm أصلا له . لقد كانت النقود المعدنية للعالم الكلاسيكي تسمح فقط بالتوليف الحسابي وأحجام القيمة . وهنا نجد فيتاغوروس وديكارت يقف كل واحد منهما موقفاً متعارضاً والآخر ، شأنهما في كل امر آخر . ويحق لنا شرعاً ان نتحدث ، بالنسبة للغرب ، عن « تكامل » في المباشرة او المعاطاة Undertaking كما وان المنعطف البياني هو الظهير Auxiliary البصري للاقتصاد ، وهذا ايضاً هو مركزه بالذات بالنسبة للعلوم . لقد كان العالم الاقتصادي الكلاسيكي منظماً ، ككون ديمقريطيس تماماً ، اي على اساس من مادة وشكل . فالمادة ، في شكل قطعة معدنية ، تحمل الحركة الاقتصادية ، وتضغط على وحدة ــ الطلب لكمية قيمة معادلة مساوية في مكان الانتفاع . اما عالمنا الاقتصادي فهو منظم على اساس من طاقة وكتلة . ويقع مجال توترات المال في الفراغ ، ويعين لكل مادة ، وبغض النظر عن نوعها الخاص ، قيمة تأثير ايجابية أو سلبية ، حيث تمثل هذه القيمة في المسجل Book entry . Quod non est in lebirs , non est in moundo ولكن رمز المال الوظيفي المتخيل على هذا الشكل والذي يمكن وحده ان يقارن بقطعة النقد المعدنية الكلاسيكية ، هو ليس المسجل فعلا ، ناهيك بسندات الاسهم والشيك ، أو الصك او الكمبيالة ، ولكن العمل الذي تتحقق به الوظيفة وتنجز تدويناً ، ودور قيمة القرطاس يراد منه فقط ان يكون الشاهد التاريخ المعمم على هذا العمل .

ومع هذا ، فان الغرب مدفوعاً باعجاب لا يأتيه الشك من خلف أو قدام ، أخذ يسك القطع المدنية من النقود ، وذلك لا بوصفها فقط دلائل على السيادة ، بل اعتقادا منه بان هذا المال المشهود يتجانس فعلاً والاقتصاد فكراً . والامر ذاته حدث في الحقبة الغوطية ، فلقد اقتبسنا القانون الروماني بمساواته الاشياء والاجرام الجسمية ، واقتبسنا الرياضيات اليوقليدية المبنية على مبدأ يعتبر الرقم جرمــا . وهكذا قدر لتطور العوالم العقلانية الثلاثة لهذا الشكل ان لا ينطلق ، كما انطلقت الموسيقى الفاوستية تفتحاً كالأزاهير ، بل ان ينطلق من عملية تحرر تقدمي من

فكرة الحجم . ولقد حققت رياضياتنا تحررها هذا في نهاية الحقبة الباروكية . بينما ان تشريعنا ، من جهة أخرى ، لم يتعرف بعد حتى على واجبه المقبل ، لكن هذا القرن سيقرره ، وسيطالب بذلك الذي كان بالنسبة للمشرعين الرومانيين قاعدة، واضحة وغنية عن البيان ، للقانون ، واعني بـــه التطابق الباطني بين التفكير الاقتصادي والتفكير القانوني ، وبالفه ومودة ، عملية معادلة لهذا التطابق ،لكلا التفكيرين . فمفهوم المال الذي اتخذ له من قطعة النقد رمزه كان يتفق تمامـــا والقانون الكلاسيكي للشيء ، ولكن ليس هناك من اتفاق بعيد عنا كهذا النوع من الاتفاق. فكامل حياتنا قد نظمت تنظيماً ديناميكياًلاسكونياً ، ولا رواقياً، لذلك فانجواهرنا هي زخوم وانجازاتوعلاقات وقدرات ـ انها المواهبالمنظمة والعقول المبادهة ، والاعتماد المالي ، والفكر والمناهج ومنابع الطاقـــة . وهي ليست مجرد وجود داخل اشياء حجمية .

ان الفكر الشيئي « المتروممن » لمشرعينا وفقهائنا ، ونظرية المـال التي تبدأ واعية أو غير واعية من قطعة النقد المعدنية ، هما غريبان بالمثل عن حياتنا . زد على ذلك ان الكنز المعدني الضخم الذي كنا ، تقليدا للكلاسيكيين ، نزيـــد باستمرار في ضخامته حتى نشوب الحرب العالمية ، قد جعل فعلاً لنفسه دوراً بعيداً عن الطريق الرئيسي ، لكن الشكل الباطني للاقتصاد الحديث ووجائبه ومقاصده لا تمت بأية صلة له ، ولو ان الحرب أسفرت عن اختفائه كليا من النقود ، لما كان هذا قد بدل أي شيء اطلاقا .

ومن سوء الحظ ان الاقتصاداتالوطنية الحديثة قد انشئت في عصر التكلسك وكما ان التماثيل والمزهريات والأوعية الخزفيـــة والدراما الجامـدة كانت تعتبر في ذاك العصر فنا حقيقيا ، كذلك ايضا اعتبرت قطعة النقد المعدنيةالمدموغة دمغة جميلة انها هي المال الواقعي .

وان ما هدف اليه يوشع فدجوود Wedgwood (١٧٥٨) بتضاريسه ذات البنيات الناحلة الرهيفة وكؤوسه (فناجينه) ، كان آدم سميث ايضاً يهدف اليه باطناً بنظريته في القيمة واعني بهذا الحاضر البوهي المجرد للاجسام المحسوسة . وذلك لأن هذه النظرية متوافقة تماماً والوهم القائل بان المال واسعار المال الشيء ذاته لقياس قيمة الشيء قبالة حجم كمية العمل . وهنا لا يعود العمل عملاً علياً في عالم من معاليل ، عملاً قادراً على التبدل تبدلاً لا نهائياً من حال الى حال ، وذلك بالنسبة للقيمة الباطنية والشدة والمدى ، وعلى نشر ذاته في دوائر أوسع فأوسع ، وهو كالمجال الكهربائي ، يمكن ان يقاس لكن لا يمكن ان يدمغ (كالمال ـ المعدني ـ المترجم) ـ بل يصبح نتيجة للتسبيب ، للإحداث ، ويعتبر ما هو منجزاً اعتباراً ماديا كلياً وشيئاً محسوساً لا يظهر أي شيء جدير بالقيمة ، ما عدا حجمه أو سعته فقط .

والحق ان اقتصاد المدينة الاوروبية الاميركية قد شيد على العمل ، وعلى العمل من نوع تنشأ فيه الفروقات وفق نوعية العمل الباطنية وحدها ـ وهذه القاعدة تجاوزت في دقتها مصر والصين ، ناهيك عن العالم الكلاسيكي . ونحن لا نعيش ، دون سبب ، في عالم اقتصاد ديناميكي ، حيث لا تكون اعمال الفرد اعمالاً من جمع او اضافة ، وفق الاسلوب اليوقليدي ، بل اعمالاً يرتبط الواحد منها بالآخر ارتباطاً وظيفياً . فالعمل التنفيذي المجرد (الذي يعالجه ماركس فقط) هو ليس ، في الواقع ، الا وظيفة لانتظام ابتكاري اختراعي ، وتنظيم العمل ، ومن هذا يأخذ العمل من النوع الآخر ، معناه ، وقيمته النسبية ، وحتى امكانية القيام به اطلاقاً . فلقد كان الاقتصاد العالمي باكمله ، منذ اختراع الآلة البخارية ، ابداعاً انجزته حفنة قليلة من الرؤوس التي لولا عملها ذو الدرجة العالية ، لما كان قد خرج شيء الى الوجود . لكن هذا الانجاز للتفكير المبدع ليس بكم ، وقيمته يجب ألا توزن قبالة عدد معين من القطع المعدنية ـ فهو بالاحرى مالي ـ مال فاوستي ـ لا يمسك بل يفكر به بوصفه مركزاً تسبيبياً او احداثياً

ينبع من الحياة – وان النوعية الباطنية لهذا العمل هي التي ترتقي بالفكر الى اهمية الامر الواقع ومغزاه . ان التفكير بالمال يولد المال – وهذا هو سر عالم الاقتصاد . فعندما يدون قطب منظم مليوناً على القرطاس ، فهذا المليون قائم وموجود ، وذلك لان هذه الشخصية بوصفها مركزاً اقتصاديا تقرر وتؤكد زيادة في الطاقة الاقتصادية في ميدانه تعادل المليون الذي دوّنه . وهذا وحده ، ولا شيء غيره ، هو معنى كلمة « الاعتماد » في نظرنا . ولكن جميع ما في العالم من نقود ذهبية لن تكفي لأن تضفي على العمل اليدوي اي معنى ، وليس لذلك اية قيمة ، اذا ما استأصل مبدأ « نزع الملكية » المشهور ، و « نازعوها » هـذه المقدرات المتفوقة من ابداعاتهم ، ولو حدث هذا الامر ، لأصبح العمل اليدوي فرقعة فارغة معدومة النفس والارادة . ولهذا فان ماركس هو كلاسيكي ، وثمرة من ثمار الفكر القانون « المترومن » تماماً كآدم سميث ، فهو يرى فقط الحجم المنجز ، ولا يرى الوظيفة ، وهو يرغب في ان يفصل وسائل الانتاج عن اولئك الذين تحول عقولهم بواسطة اكتشاف المناهج ، وتنظيم الصناعات الفعالة الكفؤة واكتساب اسواق الصادرات ، كومـة من آجر وفولاذ الى مصنع ، كان لا يمكن ان تقوم له قائمة لو لم تجد طاقات هذه العقول ميداناً لها فيـه تصول وتجـول .

واذا ما كان هناك من حد يريد ان يعلن وينشر نظرية في العمل الحديث ، فليبدأ اولاً بالتفكير بهذا الملمح الاساسي لكل حياة . فهناك اسياد واتباع في كل حياة كما تعاش ، وكلما تزايدت الحياة اهمية وثراء في شكلها ، يتزايد الوضوح في الفرق بين هؤلاء واولئك . وكل سيل من كينونة يتألف من اقلية من زعماء يقودون ، واكثرية ساحقة تقاد ، وهكذا فان كل نوع من اقتصاد يتشكل من عمل – قائد وعمل تنفيذي .

اما نظرة الضفدعة ، نظرة كارل ماركس وايديولوجيي الاخلاق الاجتماعية ،

فانها لا تظهر سوى حشد من الاشياء الاخيرة والصغيرة ، ولكن هذه انما توجد اطلاقا فقط بفضل الاشياء الاولى ، ولا يمكن فهم روح عالم العمل هـذا ، الا بواسطة فهم اوفى ما له من امكانات واسماها . فمخترع الآلة البخارية ، وليس وقادها ، هو العامل الحاسم . والفكر القيمة والمقام .

وبالمثل ، فان للتفكير بالمال اسياداً واتباعا : وهم اولئك الذين يولدون بزخم شخصياتهم المال ، واولئك الذين يتدبرون امر عيشهم بـه . والمال من الصنف الفاوستي ، هو الزخم المقطر في ديناميكية الاقتصاد من الصنف الفاوستي ، وهو ينتسب الى مصير الفرد (الى الجانب الاقتصادي من مصير حياته) والذي فطر باطنيا على تمثيل جزء من هذا الزخم او ذاك الذي هو على العكس من هذا ، ليس سوى كتلة له .

- ٥ -

ان كلمة « رأس المال » تفيد مركز هذا التفكير – ولا تفيد مجموعـة من القيم ، بل تلك المجموعــة منها التي تبقيها في حالة حركة على هـــذا الشكل . وتبرز الرأسمالية الى الوجود فقط مع وجود المدينة العالمية المدنية ، وهي محصورة بتلك الحلقة الصغيرة جداً من اولئك الذين يمثلون هذا الوجود (وجود الرأسمالية – المترجم) باشخاصهم وذكائهم ، اما نقيضها فهو الاقتصاد الريفي .

ولقد كان التفوق غير المشروط الذي حققته القطعة النقدية المعدنية في الحياة الكلاسيكية (بما في ذلك الجانب السياسي من هذه الحياة) هو الذي ولد رأس المال الـكوني ، الـ . . . ، او نقطـة الانطلاق ، التي جذبت ، بالجملـة ، الى نفسها بوجودها ، بنوع من جاذبية مغناطيسية ، اشياء فأشياء . ولكن تفوق

قيم ـ الكتاب الذي سرعان ما تفرد منهاجه التجريدي وانعزل عن الشخصية بواسطة الدوبيا في مسك الحسابات ، وانطلق اماماً بفضل ديناميكيته الباطنة ، هو الذي أنتج رأس المال الحديث الذي يجوب الارض بأكملها شبراً شبراً ، بما لها من مجال زخم .

ولقد اتخذت الحياة الاقتصادية الكلاسيكية ، تحت تأثير نوعها الخاص من رأس المال ، شكلاً من سيل من ذهب يتدفق من الولايات على روما وينطلق عائداً منها ، وكان يبحث دائماً وابداً عن مناطق جديدة بحيث يكون مخزونها من الذهب المصاغ « لم يفتح بعد » . ولقد حمل بروتوس وكاسيوس ذهب آسيا الصغرى على قوافل من البغال الى معركة فيليبي ـ وهنا يستطيع المرء ان يتخيل اية عملية من نهب قام بها المنتصرون في المعركة ـ كما وان حتى ك غراكوس قد أشار ، قبل هذه المعركة بقرن ، الى الجرة الضخمة ذات الحلقتين Amphorae التي خرجت من روما الى الولايات مليئة بالنبيذ وعادت اليها مملوءة ذهباً . وهـذا الاقتناص للممتلكات الذهبية للشعوب الاجنبية يتجانس تماماً واقتناص الفحم في هذه الايام ، والذي هو بمعناه العميق ليس بشيء بل مخزون من طاقة .

ولكن ، وبالمثل ، فان التطلع الكلاسيكي الى ما هو قريب مسافة ، وحاضر زمناً ، لا يستطيع ان يتوافق الا والمثل الأعلى لدولة المدينـة ، المثل الاعلى لسياسة الاكتفاء الذاتي الاقتصادية ، وهذا هو بمثابـة تذرير Atomization اقتصادي يتفق والتذرير السياسي . لقد كانت كل وحدة من وحدات الحيـاة الصغيرة هذه ، ترغب في سبل اقتصادي خاص بها كلياً ، ومتفرد تماماً بذاتـه ، ويدور مستقلاً عن سبول الوحـدات الاخرى ، وداخل محيط البصر . واما القطب المناهض لهذا ، فهو يتمثل في الفكرة الغربيـة ، فكرة الشركة ، حيث تعتبر مركزاً لزخم لا شخصي ولا حجمي اطلاقاً ، وحيث تتدفق منها النشاطات الى كل اتجاه والى مسافات غير محدودة ، والتي يكون مالكها ، صاحبها ، نتيجة

لقدرته ومهارته في التفكير بالمال ، لا يمثلها بل يملكها ويوجهها — اي انها طوع يمنه — كانها كون صغير . ان الثنائيـــة من الشركة والمالك ، كانت لا شك ستكون أمراً لا يستطيع العقل الكلاسيكي ان يتصوره اطلاقا .

ونتيجة لذلك ، فكما ان الحضارة الغربية تعرض الحد الاقصى ، من التنظيم، فلذلك تعرض الحياة الكلاسيكية الحد الادنى منه . وذلك لان التنظيم لم يكن له ابداً وجود كفكرة لدى الانسان الكلاسيكي . وكانت ماليتـــه تقوم على اساس من تدابير وقتية ، تضبح قواعد وعادات .

وكان يجوز في اثينا وروما ان تلقى تكاليف تسليح السفن الحربيـة على عاتق الاثرياء من ابنائها . وكانت السلطـة السياسية للادايل Aedile الروماني لا ترتكز فقط على كونه انه هو الذي يخرج الالعاب ، ويشق الطرقات ويشيد المباني ، بل ايضا بسبب انه هو الذي كان يدفع تكاليفها — وطبعاً كان باستطاعته ان يعوض ما انفقه بواسطة نهب لاحدى الولايات . ولم يكن الكلاسيكيون يفكرون بموارد دخل ، الا عندما تسوطهم الحاجة اليه ، وهنا كانوا يسحبون من هذه الموارد دون اي اعتبار للمستقبل ، ملبين فقط مطالب البرهة — وحتى لو كانت هذه المطالب ستؤدي الى دمارهم الكامل . فنهب كنوز معابدهم الخاصة ، وشن حملات قرصنة على مدنهم بالذات ، ومصادرة ثروات مواطنيهم ، كل هذه الامور كانت مناهج سياستهم المالية . واذا كان يوجـــد من فائض فكان يوزع على المواطنين — وهذا الاجراء لم يعد بالحب الشعبي على يوبولوس Eubulus وحده ، بل عاد على الكثيرين من اضرابه في اثينا .

اما الموازنات العامة . فكانت مجهولة لديهم تماما فكرة وعملاً ، كغيرها من قواعد السياسة المالية واعراضها . وكان « النظام الاداري الروماني » في الولايات منهاجاً للصوصية ، وكان يمارسهـــا الشيوخ والماليون ممارسة لا تتقيد بأبسط

الاعتبارات بما اذا كان من الممكن تعويض البضائع المصدرة . ولم يسبق ابداً للانسان الكلاسيكي ان فكر منهاجياً بكيفية تنمية حياته الاقتصادية ومواردها ، بل كان أبداً يبحث عن نتائج البرهة الآنية وحدها ، عن الكم من النقد المحسوس وكانت روما الامبراطورية لا شك ستتهاوى وتندثر لو لم يسعفها الحظ بما فيه الكفاية لتمتلك في مصر القديمة مدنية لم تفكر طيلة دورة ألفية من الاعوام بشيء ما عدا تنظيم اقتصادها .

اما الانسان الروماني فلم يدرك هذا الاسلوب من الحياة ولم يكن قادراً على اقتباسه ، ولكن الصدفة التي جعلت مصر تزود الملاك السياسيين لعالم الفلاحين بمورد لا ينضب له معين من الذهب ، وهذا ما جعل فيما بعد المذابح الجماعية في روما ليس بالعادة المألوفة المتعارف عليها ، فلقد جرت آخر عملية مالية على شكل مجزرة عام ٤٣ ، وذلك قبيل ضم مصر بوقت قليل . وقد جعل الذهب الذي كان يستجمعه بروتوس وكاسيوس من آسيا الصغرى – وهذا يعني جيشاً وسيطرة على العالم – من الضروري قتل ألفين من أغنى سكان ايطاليا وحمل رؤوسهم بأكياس الى الفوروم لقاء المكافآت المعروضة . وهذه المجزرة لم توفر الاقارب والاطفال والشيوخ ، وحتى الناس الذين لم يسبق لهم ابداً ان تعاطوا السياسة . فلقد كان يكفي ان يكون الضحية ثرياً ومالكاً لمخزون من نقود . والا فان الحصول سيكون ، خلافاً لهذا ، جد قليل .

ولكن مع انطفاء الشعور الكلاسيكي العالمي ، في العصور الامبراطورية المبكرة ، انطفأ ايضاً هذا الاسلوب من التفكير بالمال . وهنا عادت القطع النقدية لتصبح ثانية بضائع – لأن الناس عادوا مرة اخرى ليمارسوا حياة الفلاح – وهذا هو ما يفسر التدفق الهائل من الذهب الى الشرق البعيد عقب عهد هدريان ، والذي لا يمكن حتى الآن حسابه .

الفصل الخامس والعشرون

عالم شكل الحياة الاقتصادية

(ب)

الآلة

– ١ –

ان عمر التقنية هو عمر الحياة الطليقة الحركة ذاتها . وان النبات – على قدر ما نراه في الطبيعة – هو وحده المسرح المجرد للعمليات التقنية . فالحيوان من حيث انه يتحرك ، له تقنية حركة ، وذلك كي يتمكن من تغذية نفسه وحمايتها .

ان العلاقة الاصلية بين الكون الاصغر الواعي وكونه الاكبر – « الطبيعة » – تتكون من ملامسة بواسطة الحواس التي تنبجس من انطباعات حاسة بمجرده وترتفع الى حكم – حاسة ، وهكذا تراها تعمل توآ عملاً تنديدياً (أي عازلاً

فاصلاً) او ما ينتهي الى الشيء ذاته ، عملاً تحليليا سببيا وما يقرر عندئذ من مختزن احكام بضغم الى منهاج ، على القدر الذي قد يكون من الاكتمال ، من اشد الخِبَر اولية ـ اي علامات تعريف ـ وهو منهاج ذاتي تلقائي يتمكن المرء بواسطته من الشعور بأن هذا العالم موطنه ، وقد أدى هذا المنهاج فيما يتعلق بالحيوان الى ثراء موفور مذهل من الخبرة ، ثراء لم يسبق ابداً حتى الآن لأي علم انساني ان تفوق عليه وارتفع . ولكنّ الكائن الواعي الاولي هو دائماً كائن فعال، وهو بعيد عن النظرية المجردة بكل انواعها ، وهكذا فان هذه الخبر تكتسب ، بالتقنية الصغرى للحياة اليومية ، واستناداً الى اشياء ؛ من جهة كونها ميتة ، اكتساباً قهريـــاً لا طوعيا . وهذا هو الفرق بين المذهب والاسطورة ، وذلك لأنه لا يوجـــد على هذا المستوى أي حد يفصل بين الدين والدنيا ـ فكل الشعور الواعي هو دين .

ويحدث المنعطف الحاسم في تاريخ الحياة الأرقى عندما يتحول قدر الطبيعة أو عزمها الى ارساخ وتوطيد (وذلك بغية ان تترك زمام قيادتها له) ـ وهذا يعني تبدلاً مقصودا متعمدا يطرأ على الطبيعة

وبهذا تصبح التقنية هي ذات السيادة تقريباً ، وتتبدل الخبرة الاولية الغريزية الى معرفة اولية « واعية » . فالفكر قد حرر ذاته من الاحساس . ولغة الكلمات هي التي تصنع هذا التبدل الحقبي . فتحرر اللغة من النطق ينبجس عنه مخزون من اشارات اللغة مواصلة ، وتكون هذه الاشارات اكثر بكثير من كونها علامات تعريف ـ فهي اسماء ترتبط بمفهوم من معنى ، والتي بواسطتها يمتلك الانسان سر الارواح (الآلهة ، قوى الطبيعة) ويسيطر عليه ، ويملك رقماً (صيغة ، معادلة ، قوانين بسيطة) يجري بواسطته استخلاص الشكل الباطني من التصادفي الموغـل في الحساسية .

وبهذا يتطور نسق علامات التعريف الى نظرية ، الى صورة تفصل ذاتهـا عن

تقنية اليوم — أكان هذا اليوم هو يوم تقنيات متمدنة على مستوى عال ، او يوم أبسط البدايات — ويتم تطوره بواسطة التجريد ، بوصفه جزءاً من الشعور الواعي وغير ملتزم بالنشاط . ان الانسان « يعرف » ما يريده ، ولكن يجب ان يكون قد حدث الكثير للمرء حتى تمكن من الحصول على هذه المعرفة ، وعلينا الا نخطىء فيا يتعلق بصفتها . وقد مكنت الخبرة الرقمية الانسان من ان يضيء السر وبطفئه ، ولكنه لم يكتشفه . ان شخصية الساحر الحديث وهي لوحة مفاتيح المحولات Switch board ذات الاذرع والاشارات المميزة والتي يستطيع العامل ان يدفع بفعاليات هائلة الى النشاط بواسطة ضغط من اصبعه دون ان تكون لديه اقل فكرة عن جوهر هذه الفعاليات — هذه اللوحة هي فقط رمز التقنية الانسانية بصورة عامة . وان صورة عالم الضوء المحيط بنا — وحيث اننا قد شكلناها تشكيلاً تنديديا تحليليا ، كنظرية ، كصورة — هي ليست سوى لوحة مفاتيح المحولات ومن النوع الذي وسمت عليها الاشياء بعلامات مميزة وبشكل يجعل (مثلاً) اذا ما ضغطنا على زر معين ، انطلاق فعاليات معينة أمرا اكيداً . ومع ذلك فان السر يبقى في هذه الناحية ظالماً مستبداً . ولكن بالرغم من هـــذا ، فان الشعور الواعي يتدخل بواسطة هذه التقنية في عالم الامر الواقع تدخلا بارعاً ماهرا . فالحياة تستخدم الفكر كأنه « افتح يا سمسم » ولكن تأتي اخيرا لحظة عند ذرى مدنيات كثيرة ، وفي المدن العظمى لهذه المدنيات، يحل فيها النقد التقني ويتعب من كونه خادماً للحياة ، وهنا يتحول فيصبح المستبد بها والطاغية . وان الحضارة الغربيــة تشاهد ، حتى الآن ، تهتك هذا الفكر الجموح والطليق من كل عنان، وتختبر لهوه على درجة مأساوية .

لقد انصت الانسان الى زحف الطبيعة ، ودون ملاحظات عن أسسها (جمع اس) . وهو يبدأ بتقليدها بواسطة وسائل ومناهج تنفع النبض الكوني وتفيده . وهو قد تجرأ على القيام بدور الله ، ومن السهل علينا ان نفهم كيف تبدى الأوائل من معدي هذه الاشياء الاصطناعية ومختبريها — وذلك لأنه هنا اصبح الفن المفهوم

المضاد للطبيعة - وكيف تبدى بصورة خاصة حماة فن الحـــدادة لأولئك الذين حولهم ، على انهم شيء ما خطر ومهلك ، وكيف كانوا ينظرون اليهم بخشوع او رهبة ، حسبما قد تكون الحال . لقد نما المخزون من اكتشافات كهذه وتزايـــد يوماً بعد آخر . وكثيراً من الاحيان كانوا يحققونها ثم ينسونها ، ثم يحققونها ثانية ، ويقلدونها ويعرضون عنها ويحسنونها . ولكن هذه الاكتشافات اوجدت في النهاية ولكل القارات بأكملها مخزوناً من الوسائل الجلية الواضحة - النـــار والتعدين والادوات والاسلحـــة والمحاريث والقوارب والبيوت وتدجين الحيوانات والزراعة ، وقد كان يقود الانسان نابض خطر صوفي داخله الى مواقع المعادن قبل كل شيء . وقد افضت دروب تجارية غاورة في القدم الى اماكن رواسب المعادن الخام التي كانت قـــد ابقتها حياة الريف المستقر سراً ، وزرعت هذه الدروب البحار طولا وعرضاً ، وعلى هذه الدروب انتقلت فيما بعـــد المذاهب والزخارف واساطير ملحاحة عن جزر من التنك ، وارض من الذهب . لقد كانت تجارة المعادن هي اول نوع عرفته التجارة ، ويرتبط بها وباقتصاد الانتاج والعمل عنصر متطفل ثالث - عنصر غريب مغامر جسور ذا مدى واسع وحر طليق فوق الارض .

وعلى هذا الاساس تنشأ تقنية الحضارات الارقى ، معـبرة تعبيراً مؤثرا في نوعيته ولونه وسورته عن كامل نفس هذه الذاتيات الكبرى . ونكاد لا نكون بحاجة الى القول بان الانسان الكلاسيكي الذي كان يشعر بذاته وبيئته شعورا يوقليديا سواء بسواء ، قد اتخذ بداهة موقفا معاديا لفكرة التقنية بالذات . اما اذا كنا نعني بالتقنية (الكلاسيكية) شيئا ما بالاضافة الى المتبقي مما نفهمه من الصفة الكلاسيكية) ، شيئا ما ارتفع بجهد عزوم فوق كل الانجازات العامة للحقبة المسينية ، فعندئذ نقول بانه لم تكن هنا تقنية كلاسيكية . فسفن هذه الحقبة ، من نوع الطريم ، (ذات مجاذيف ثلاثة - المترجم) التي كانوا يجدونها ، لم تكن سوى زوارق تجديف ، وكانت منجنيقاتها وسلاسلها بدلاء للاسلحة والقبضات -

وهذه لا تذكر أبداً عند ذكر آلات الحرب في آشور والصين أمـــا فيما يتعلق بهيرو Hero واشكاله ، فان الاكتشافات التي انجزوها كانت كلاليب مراسي . لقد كانوا يفتقرون الى الوزن الباطني وضحية بوهتهم وقدريتهم والضرورة العميقة، فهم كانوا يلعبون هنا وهناك بالمعلومات (ولماذا لا ؟) معلومات ربما جاءت من الشرق ولكن لم يكرس اي واحد منهم اهتماماً جدياً بها ، وفوق هذا كله ، لم يحاول احد ان يدخلها على هيئة صورة الحياة .

اما التقنية الفاوستية فتختلف اختلافا كبيرا جداً عن هـذه ، فهي بما لها من سورة نفسية وحماس للبعد الثالث تدفع منذ ابكر العصور القوطية بنفسها ضاغطة على الطبيعة بعزم ثابت وتصميم مكين على ان تكون سيدتها . وهنا ، وفقط هنا يكون الترابط بين البصيرة والانتفاع امراً بدهيا . فالنظرية هي فرضية علمية ناشطة منذ البدء . ولقد كان الباحث الكلاسيكي يتأمل تأمل لاهوت ارسطو ، والعربي كان يسعى بالكيميا لاستنباط وسائل سحرية (كحجر الفلاسفة) وذلك كي يمتلك كنوز الطبيعة دون ان يبذل جهداً ، لكن البحاثة الغربي يكدح ليوجه العالم وفق مشيئته .

ان المخترع والمكتشف الفاوستيين هما من طراز فريد في نوعـــه . فالزخم البدائي لارادته ، وروعة رؤياه والطاقة الفولاذية لتبصره ، يجب ان تتبدى غريبة شاذة وغير مفهومة لأي واحد يقف في اي مرقب لحضارة اخرى ، لكن هذه جميعا هي بالنسبة لنا مستقرة في دمنـــا وموجودة . فلحضارتنا باكملها نفس مكتشف . فان تكتشف Dis - Cover ذاك غير المنظور ، وان تجر بـه الى داخل عالم الضوء للعين ، كي تسيطر عليه ـ هذه هي السورة العنيدة منـذ اليوم الاول فما بعده . فلقد نضجت جميع الاختراعات التقنية الفاوستية بطيئا بطيئا في الاعماق ، كي تبرز اخيرا مع ضرورة المصير . وجميع هذه الاختراعات تقريبا كاد يقترب منها الرهبان القوطيون بابحاثهم الباسلة الفطنة . واذا كان هناك من مكان

تتجلى فيه الاصول الدينية لكل فكر تقني ، فإنه هاهنا . فهؤلاء المكتشفون التأمليون في صوامعهم ، والذين اغتصبوا بصلواتهم وصيامهم سر الله منـــه ، كانوا يشعرون بانهم بهذا يخدمون الله . وهنا تطالعنا شخصيـة فاوست ، الرمز العظيم لحضارة مكتشفة فعلاً . فالـ Scientia experimentalis (العلم التجريبي) الذي كان روجر بيكون أول من سمى بحث الطبيعة به ، هذا الاستنطاق الملحاح الدؤوب للطبيعـة بواسطة الاذرع والمتـــلات والرافعات واللوالب والبراغي ، قد بدأ بذلك الذي يقع موضوعه تحت ابصارنا بوصفه مداخن المصانع المفرخة من الريف ، وابراج التبليغ . ولكن كان يمثل بالنسبة لهم جميعا ، الخطر الفاوستي الحقيقي في ان تكون للشيطان يد في هذه اللعبة ، خطر ان يقودهم روحاً الى ذاك الجبل الذي يعد فوق قمتـــه باعطاء كل قوة الارض . وهذا هو مغزى مبدأ الحركة الدائمة الذي حلم بـه اولئك الدومينيكان الغريبو الأمر ، كبطرس بيريغرينوس ، والذي بموجبه ينتزع المرء القدرة الكلية من الله . لقد كانوا يذعنون المرة بعد المرة لهذا الطموح ، ولقد اغتصبوا هذا السر من الله كي يصبحوا انفسهم الله . لقـــد كانوا يصيخون السمع لقوانين النبض الكوني ، كي يتمكنوا من التغلب عليه وهكذا خلقوا فكرة الآلة ، بوصفها كوناً صغيراً يطيع مشيئة الانسان وحده . ولكنهم بهذا تجاوزوا الخطر المرهف الفاصل حيث كان يرى بعـــده ورع الآخرين بداية لخطيئة ، وابتداء من روجر بيكون حتى جيوردانو برونو ، كان يعتبر هذا المسلك مصيبة وكارثة ، اذ ان الاعتقاد الحقيقي كان دائما وابداً يرى في الآلة انها الشيطان .

ان سورة الاكتشاف اعلنت عن ذاتها في وقت مبكر ، بكور الهندســـة المعمارية القوطية - ولتقابل بين هـــذه وبين الفقر المتعمد في شكل الهندسة الدورية ! - وهي تتجلى واضحة في كل موسيقانا . فلقد ظهرت طباعة الكتب والاسلحة ذات المدى البعيد ، وجاء على اعقاب كولومبوس و كوبيرنكوس

التلسكوب والميكروسكوب والعناصر الكيميائيـــة واخيرا كامل الجسم التكنولوجي الماثل للعصور الباروكية المبكرة .

وتبع هذه ، في وقت واحد والعقلانية ، اختراع الآلة البخاريـــة التي قلبت كل شيء رأسا على عقب ، وبدلت شكل الحيـــاة الاقتصادية اساسا وهيكلا .

لقد كانت الطبيعة ، حتى آنذاك تتفضل علينا بخدماتها ، اما الآن فلقد شددنا نيرنا الى عنقها وجعلناها عبداً لنا ، زد على ذلك حتى قواها كأنها تقاس باحتقار على مستوى قوة الحصان . فلقـد تقدمنا من القوة العضلية للعبد التي كانت قـد قررت المتعمل وفق روتين منظم ، الى الاحتياطات العضويـة لقشرة الارض ، حيث كانت قوى حياة مطمورة ، كفحم فيها لدورات ودورات الفيـــة من الاعوام ، والآن نتوجه بابصارنا نحو الطبيعة غير المتضمنـة ، حيث دفع بقوى المياه منذ زمن لتتم ما للفحم من قوى . وكما ان قوى الاحصنة ترتفع الى الملايين والمليارات ، كذلك يتزايد عدد السكان زيادة على زيادة ، وعلى مستوى لم تفكر اية حضارة اخرى بانه امر ممكن . وهذا النمو هو نتاج الآلة ، نتاج يلح على ان يستخدم وتوجه الى تلك الغاية التي تضاعف قوة الفرد مئة ضعف . ومن اجـل خاطر الآلة تصبح حياة الانسان غالية ثمينة . ويصبح العمل كلمة عظمى في نظر التفكير الاخلاقي فهو يفقـــد مثالب مغزاه في القرن التاسع عشر وفي جميع اللغات . فالآلة تعمـل وترغم الانسان على الاشتراك في الشغل Co - Operate (لاحظ لم يقل التعاون – المترجم) وتبلغ الحضارة الفاوسنية باكملها درجـة من النشاط والحيوية تهتز لها الارض وترتعد تحت اقدامها .

اما ما ينشأ الآن ويتطور ، وخلال فترة تكاد لا تبلغ القرن ، فانه دراما من عظمة ستجعـل الناس من ذوي النفوس والانفعالات الاخرى ، في حضارة

مقبلة عاجزين عن مقاومة قناعتهم بان الارض « في تلك الايام » كانت ترتعد خوفاً ورعبا . ان السياسة تسير فوق المدن والشعوب، وحتى الاقتصادات ، وبما لها من عضات عميقة في مصائر عالمي النبات والحيوان ، فانها تلامس فقط هدب الحياة وتندرس وتبيد . لكن هذه التقنية ستخلف وراءها آثار ازدهارها ، عندما يكون كل شيء قد طواه الضياع والنسيان ، وذلك لأن السورة الفاوستية قد بدلت وجه الارض .

وهذا الكفاح المجاهد خارجا وعلاء ، كفاح الحياة ، المتحدر حقاً لذلك من الاصلاب القوطية — هو كما عبر عنه مونولوج فاوست غوتيه عندما كانت الآلة البخارية لا تزال طرية العود فتية . ان النفس السكرى تريد ان تحلق فوق الفراغ والزمان . والحنين المحرس يغريها الى آفاق لا تحديد لها او تعريف . ان الانسان قد يحرر ذاته وشيكا من الارض وان يرقى سدة اللامنتهى ، مخلفاً وراءه قيود الجسد واغلاله وحوماً في كون الفراغ (الفضاء) بين النجوم والافلاك . وهذا هو ما سعت اليه في البداية باطنية القديس برنارد المحلقة الوهاجـــة ، وهذا هو ما فهمه غرينفالد ورمبرانت في مؤخرات لوحاتهم ، وادركه بيتهوفن في انغامه المتجاوزة حدود الارض ، انغام رباعياته الاخيرة ، هذا يعود الآن في هذا الشمل العقلاني من الاختراعات الآخـذ بعضها برقاب بعض . ومن هنا حركة المرور الخيالية هذه ، التي تعبر القارات بايام قليـلة ، وتضع نفسها في مدن عائمة عابرة المحيطات ، وتنقب في بطون الجبـال ، وتتدافع في متاهات من كهوف ، وتستخدم الآلة البخاريـــة حتى تلفظ آخر انفاسها ، ومن ثم تتحول الى الآلة الغازية ، واخيرا ترتفع بنفسها فوق الدروب والخطوط الحديدية ، وتحلق محومة في الهواء ، ومن هنا ترسل الكلمة الملفوظة ببرهة واحدة عبر كل المحيطات ، ومن هنا ينبجس الطموح لتحطيم كل رقم قياسي وتجاوز كل الابعاد ، في بناء قاعات جبارة وآلات عملاقـــة وبواخر منفسخة ودروب من جسور ، ومبان تناطح

السحاب بهذيان محموم ، وزخوم خيالية ضعطت معاً داخـــل بؤرة ، كي تطيع بنان طفـل ، ومنشآت من فولاذ وزجاج تدنـــدن وترتعش ، والانسان الصغير حجماً يجول بينها ملكاً مطلق السلطان ، فأخيراً قد احس بان الطبيعة تحت اقدامه .

وتتنازل هذه الآلات باشكالها ، يوما بعد يوم عن انسانيتهـا ، وتزداد نسكا وغموضا وصوفية ، وتنسج حول الارض شبكة لا نهايـــة لها من قوى مكارة وتيارات وتوترات . واحجامها تخلع يوما بعد يوم اورديتها المادية عنها ، وتقل ابداً جلبـة وضجيجا . وتخرس الدواليب والاسطوانات والعتلات والاذرع ، فهي لم تعد تستطيع لغطاً . وكل ما يهم يتراجع منسحباً الى الداخـل ، انها لتعني في عيني المؤمن خلع الله عن عرشه . وتسلم الانسان السببية المقدسة ، وبيديـــه يسلمهـــا ، وبنوع من استشفاف العلم بكل شيء ، تدور هادرة صامتـة لا تقاوم .

- ٣ -

ولم يبق مطلقاً ما عدا هنا ، ان احس كون اصغر بانه متفوق على كون اكبر ، ولكن ها هنا جعلت وحدات صغيرة من حياة اللاحي يعتمـــد عليها ، وجعلته كذلك بواسطة زخم عقلها المجرد . انه لانتصار ، هذا ما تقرر ابصارنا ، انتصار لا مثيل له او شبيه . ولقد حققته فقط حضارتنا ، ولربما لبضعة قرون قليلة لا غير . ولكن لهذا السبب بالذات اصبح الانسان الفاوستي عبداً لمخلوقه . فرغم حياته وتدبيرها كما يعيشها ، قد دفعت بها الآلة الى درب لا توقف فيه ولا

وجوع . وهنا يتبدى فجأة الفلاح والعامل اليدوي ، وحتى التاجر ، من النوافل ، وذلك اذا ما قورن بينهم وبين الشخصيات الثلاث العظمى التي انجبت بها الآلة - المتعهد والمهندس وعامل المصنع . فلقد نبتت من فرع عمل يدوي صغير تماما – واعني بهذا الاقتصاد التجهيزي – (وفي حضارتنا وحدها) شجرة جبارة غمرت كل الحرف والمهن الاخرى بظلالها – وهذه هي اقتصاد صناعة الآلات . وارغامها للمتعهد على اطاعتها لا يقل ابدا عن ارغامها للعامل . فكلاهما قد اصبحا عبدين للآلة وليسا بسيديها ، هذه الآلة التي تبرز الآن ولأول مرة سلطتها الشيطانية الحرية . ولكن بالرغم من ان النظرية الاشتراكية المعاصرة قد ادخلت بالحاح هذين الاولين في اعتبارها من حيث ما يقدمانه من عمل ، ورأت ان كلمة « عمل » لا تنطبق الا على هذين وحدهما ، فان العمــل اصبح أمراً ممكناً فقط نتيجة لسيادة إنجاز المهندس وحسبه . وان القول المأثور « الذراع القوية » التي تأمر كل دولاب ان يتوقف عن الحركة ، هو قطعة من حماقة . فالذراع تستطيع ان توقفها ، ولكنها لا تحتاج الى العامل ليقوم بهذا العمل . اما ان يحافظ العامل على دورانها – فكلا ولا ! فمركز مملكة الآلة الاصطناعية والمعقدة هو المنظم او المدير . والفكر لا اليد هو الذي يحافظ على بقائها متماسكة . ولكن لهذا السبب بالذات ، سبب المحافظة على هيكل الآلة المعرض دائما للخطر ، يكون شخص واحد اهم بكثير من كل نشاط الرجال الاسياد المقدامين الذين يجعلون المدن تنمو من التربة ، ويبدلون وجه الصقع ، وهذه الشخصية النزاعة الى ان تنسى في هذا الصراع السياسي – هي شخصية المهندس ، كاهن الآلة ، الرجل الذي يعرفها . وليست اهمية الصناعة وحدها ، بل وجودها المجرد ايضا يعتمد بصورة مطلقة على وجود المئة الف من العقول الموهوبة المدربة تدريبا مدروساً صارما والتي تسيطر على التقنية وتطورها قدماً وقدماً .

ان المهندس الصامت هو سيد الآلة ومصيرها . فكما ان الآلة هي امر واقع فكذلك فان فكره امكانية . ولقد انتشرت مخاوف ، مخاوف مادية النزوع

والمنبع ، من نفاد مناجم الفحم وحقوله . ولكن طالما يوجــد هناك رواد لدووب، فلن يكون هناك من وجود لمخاطر من هذا النوع . وفقط عندما، وعندما فقط ينفد محصولنا من مجندي هذا الجيش ــ هذا الجيش الذي يشكل عمل فكره وحدة باطنية وعمل الآلة ــ فعندئذ يجب ان تخمد الصناعة بالرغم من كل نشاط اداري ، وبالرغم من كل ما يستطيع العمال ان يفعــلوه . ولنفترض ان اوفر العقول موهبة في الاجيــال المقبلة ، قد وجدت ان صحتها النفسية اهم بكثير من جميع سلطات العالم ، ولنفترض ان صفوة النخبة من هذه العقول المهتمة بالآلة قد وقعت ، تحت تأثير الصوفية الميتافيزيقية التي اخذت تحل الآن محل العقلانية ، تحت سيطرة حس متزايد بشيطانية الآلة (وهناك خطوة تفصــل بين روجير بيكون وبين برنارد فون كليرفو) ــ فعندئذ لن يستطيع اي شيء ان يمنع هذه الدراما التي وضعت مسرحيتها العقول من ان تنتهي على ابد هي مجرد اضافيــة ومعاونــة .

لقد حولت الصناعة الغربية التقاليد القديمــة للحضارات الاخرى . ومجاري الحياة الاقتصادية تتجــه اليوم نحو مواقع الملك فحم والى المناطق الكبرى التي تتوفر فيها المواد الاولية . فالطبيعة تستنزف ، والكرة الارضية يضحى بها على مذبح التفكير الفاوستي بالطاقات . فالارض العاملة ، هي النظرة الفاوستية فيها ، النظرة التي تأملها فاوست بطل الجزء الثاني من هذه الدراما ، انها التبديل الجسور لشكل العمل ــ وفاوست يموت وهو يتأمــل . وليس هناك من شيء تقاطري مطلق Antipodal لهذه النظرة كالكينونة المتوهلة المعدومة الحركة ، كينونــة فكر القانون الكلاسيكي ، هو الذي سيتدبر الامر كي يكون لاقتصاده قانونــه الخاص به ، حيث تحل القوى والجهود محل الشخص والشيء .

ولكن هجوم المال ايضاً على هذا الزخم العقلاني هو هجوم جبار مروع . فالصناعة ، كالمالك الزراعي ، هي مشدودة الى الارض بدورها . والمال الراقي وحده هو حر مطلق من كل قيد ، وغير ملموس باكمله . ومنـــذ عام ١٧٨٩ اخذت المصارف ومعها البورصات تطور ذاتها على اساس احتياجات الاعتمادات للصناعات المتزايدة نمواً على شكل هائل ، وتعتبر هذه الصناعات قوى في حسابها ، والمال يريد (كما يريد في كل مدينة) ان يكون هو القوة الوحيدة . وهنا يشتد الصراع القديم بين الاقتصاد المنتج والاقتصاد المكتسب ، ويتطور الى معركة صامتة يخوض غمراتها عمالقة الفكر ، وتدور رحاها في تخوم المدن العالميـة . اما المعركة فهي صراع يائس يبديه الفكر التقني ليحافظ على حريتـــه من سيطرة الفكر المالي .

وتخطو دكتاتورية المال ، وتتابع زحفها متجهة نحو ذروتها المادية في المدينة الفاوستية كما شأنها في المدنيات الاخرى . والآن يحدث شيء ما هو واضح فقط في نظر ذاك الذي نفذ ببصيرته الى جوهر المال . فلو كان هـــذا الجوهر شيئا محسوسا لبقي موجودا حتى الابـــد ـ ولكنه كما كان شكلا من اشكال الفكر ، لذلك يذوي ويضمحل حالما يبلغ تفكيره بعالمه الاقتصادي نهايته ، ولا يعود لفكره هذا من مادة يعيش عليها او بها يقتات . وهنا يندفع الى داخل حياة ريف المالك الزراعي ، ويطلق في الارض الحركة ، ففكره قد بدل شكل كل نوع من صناعة ، وها انـه اليوم يضغط بانتصار على الصناعات كي

يجعل العمل المنتج لكل من المتعهد والمهندس والعامل سواء بسواء ، غنيمة له . ان الآلة بما لها من بطانة بشرية ، ملكة هذا القرن ، مهددة لأن تذعن لقوة اشد منها . ولكن بهذا يكون المال ايضا قد بلغ نهاية نجاحاته ، فالمعركة الاخيرة وشيكة ، حيث تتلقى فيها المدينة شكلها الجامع النهائي الناجز - وهذه المعركة هي بين المال والدم .

ان حلول القيصرية سيحطم دكتاتورية المال وسلاحها السياسي ، الديمقراطية . وبعد طويل انتصار حققه اقتصاد المدينة العالمية ومصالحه على القوى السياسية المبدعة ، يحسر الجانب السياسي من الحياة القناع عن وجهه ، بوصفه ، بعد كل شيء ، الجانب الاقوى منها . فالسيف ينتصر على المال ، وارادة السيد تخضع ثانية ارادة النهاب . واذا ما سمينا قوى المال هذه بالرأسمالية ، فعندئذ يمكن لنا ان نعرف الاشتراكية بانها الارادة لاستدعاء نظام سياسي اقتصادي جبار الى الحياة، نظام يتسامى فوق كل المصالح الطبقية ، نظام لحمته تبصر عميق وسداته احساس بالواجب يحفظ الكل في وضع حسن استعدادا للمعركة الحاسمة للتاريخ ، وهذه المعركة ايضاً معركة المال والقانون . ان القوى الشخصية للاقتصاد تريد دروباً حرة الى اكتساب موارد ضخمة . ولا تريد لاي تشريع أن يقف دربها ، فهي تريد ان تشترع القانون بذاتها وفي صالحها وخدمة لمصالحها ، واتجاها نحو هذه الغاية تستخدم الاداة التي صنعتها لذاتها ، الديمقراطية والحزب المموّل .

وان القانون ليحتاج ، بغية مقاومة هذه الغارة الاجتياحية ، الى تقاليد راقية رفيعة ، والى طموح عائلات قوية تجد غبطتها لا في تكديس الثروات ، بل في وجائب الحكم الحقيقي المتشامخة فوق ووراء كل منفعة مالية . ان بالامكان ان تطوح قوة بقوة اخرى لا مبدأ أو نظرية ، ولم يبق لدينا أية قوة تستطيع ان تجابه المال الا هذه القوة . فالمال لا يطوح بسلطانه ولا يلغيه الا الدم وحده وفقط . والحياة ألفاً وياء هي دفق كوني مستمر في الشكل الكوني الاصغر ،

وهذه هي واقعة الوقائع في العالم — كتاريخ . فامام الايقاع الذي لا يدفع او يقام ، ايقاع تتالي الاجيال ، يتلاشى حتى آخره ، كل شيء بناء الشعور الواعي في عالمه العقلاني . فالحياة في التاريخ وحدها ، ووحدها فقط هي دائماً وابدا — صفة عرق ، وهي انتصار ارادة القوة — وليست انتصار الحقائق ، او ما ترمز اليـــه الاختراعات أو المال . ان التاريخ العالمي هو المحكمة العالمية ، وهذه المحكمـــة كانت ابدا ودوماً تحكم لصالح الحياة الاقوى والاشد امتلاء والمتسلطة المحققـــة لسلطانها — وقد قضت لها بالحق في الوجود ، أقبلت به محكمة الشعور الواعي ام لم تقبل .

فمحكمة التاريخ كانت ابداً تضحي بالحقيقة والعدالة ، على مذبـح الجبروت والعرق ، وكانت دائماً تقضي بالاعدام على اولئك الناس أو الشعوب التي كانت تختزن من الحقائق أقل مما تختزنه من الافعال ، ومن العدالة اقل من القوة . وهكذا تنتهي دراما حضارة راقية — بعالمها العجائبي من الآلهة والاديان والفنون والافكار والمعارك والمدن — بعودة الوقائع الفطرية للدم الخالد ، الذي هو الواحد ذاتـه والدفق الكوني الدائر ابدا . وهنا تغوص الكينونة الواعية المبتكرة بذاتها وتضعها في الخدمة الهادئة الصامتة للكينونة ، كما تحدثنا بذلك الامبراطوريتان الصينية والرومانية . وهنا ينتصر الزمان على الفراغ . والزمان هو الذي يدفن بحركته الجامدة المترمتة الصدفة اليومية للحياة ، صدفة الحضارة ، على هـــذا الكوكب ، ويطمرها في صدفة الانسان — وهذا شكل تتدفق فيه الحياة لمدة من زمن ، بينما تتكدس وراءه جميع الآفاق من التواريخ الجيولوجيـــة والكواكبية في عالم ضوء ناظرينا .

أما بالنســبة لنا نحن الذين وضعنا المصير في هذه الحضارة ، وفي هذه اللحظة من تطورها — لحظة احتفال المال بآخر انتصاراته ، واقتراب القيصرية وريثته بخطى ثابتة اكيدة — فان اتجاهنا المحتوم والمراد قد حدد داخل حدود ضيقة ، والحياة

ليست جديرة بان تعاش اذا كانت حدودها غير هذه . وليس لنا الحرية في ان نمد بأيدينا الى هذا الامر أو ذاك ، بل لنا الحرية في ان نقوم بما هو ضروري ولازم أو أن لا نقوم بأي شيء . وان واجباً تستلزمه الضرورة التاريخية ، سينفذ ، بالتعاون مع الفرد أو ضده .

Ducunt Fata Volentem , Nolentem Trabunt .

انتهى

النص الكامل للكتاب

« اللوحة الاولى »

الحقبـــات الروحية « المتعاصرة »

	الحضارة الهندية (ابتداء من عام ١٥٠٠)	الحضارة الكلاسيكية (ابتداء من عام ١١٠٠)	الحضارة العربية (ابتداء من عام ٠)	الحضارة الغربية (ابتداء من عام ٩٠٠)
الربيع	١ ولادة اسطورة ذات طراز عظيم تعبر عن شعور جديد بالله وخوف العالم			
وجداني ديني . ابداعات عظمى لنفس المستيقظة جديداً والمثقلة بالاحلام. وحدة واكتمال ما فوق الذاتية .	١٥٠٠ - ١٢٠٠ الدين الفيدي واساطير الابطال الآريين المحفوظة	١١٠٠ — ٨٠٠ الدين الميليني الابطالي دين ديترء دين الشعب هوميروس واساطير هرقل وزفس .	٠ — ٣٠٠ – المسيحية البدائية (المانديه مارسيون ، الغنوصية ، مذهب التوفيق بين النقيضين ، متراس ، بمل . الاناجيل . سفر الرؤيا . الاساطير المسيحية والمازادية والوثنية .	٩٠٠ـ ١٢٠٠ ـ الكاثوليكية الالمانية ، الادا (يلدر) برنارد كليرفو ، يواكيم فلوريس فرنسيس الأسيسي الملحمة الشعبية « سيجفريد » اساطير القديسين
	٢ أبكر تشكيل صوفي ميتافيزيقي والنظرة الجديدة الى العالم وذروة الفلسفة اللاهوتية (الكلامية)			
	في اقدم أجزاء الفيدا	اقدم انضباط « شفهي » أرفي اتروسكاني ما بعد الاثر : هسيود وكسنوفونيس.	اوريجن « ٢٥٤ » بـلوطونيوس « ٢٦٩ » ماني « ٢٧٦ » ايامبليخوس « ٣٣٠ » الافستا ، التلمود ، الادب الكنسي .	توما الاكويني « ت ١٢٧٤ » دونس سكوتوس « ١٣٠٨ » دانتي « ١٣٢١ » ايكهارت « ١٣٢٩ » الصوفية . الفلسفة اللاهوتية .
الصيف .	٣ الاصـلاح : المناهضة الشعبية الداخلية لأشكال الربيع العظمى			
الوعي في مجرى النضوج الهيجانات الحضرية والانتقادية في ابكر العصور	البراهمة اقدم اجزاء اليوبانيشادز (١٠٠٠ — ٩٠٠)	الحركة الافتية . دين ديانوزيس « نوما » كدين (القرن السابع)	اوغسطين « ٤٣٠ » النساطرة « قرابة ٤٣٠ » اليعاقبة « قرابة ٤٥٠ » مزداك « قرابة ٥٠٠ »	نقولا جونوس « ١٤٦٤ » جون هس « ١٣٠٨ » سوفونا رولا كارلشتادت لوثر كالفن « ١٥٦٤ »
	٤ بدء شكل فلسي مجرد للشعور بالعالم ومناهضة المناهج المثالية والحقيقية Realistic			
	محفوظة في اليوبانيشادز	الفلاسفة العظام ما قبل سقراط (القرنان الخامس والسادس)	الاداب البزنطية اليهودية السورية القبطية والفارسية في القرنين السادس والسابع	غاليليو بيكون ديكارت برونو بوهمي ليبنتز القرنان السادس عشر والسابع عشر .
	٥ تشكل مفهوم رياضي جديد للرقم بوصفه نسخة ومحتوى لشكل العالم			
	مفقودة	الرقم كحجم « تناسب » الهندسة . الحساب الفيثاغوريون « ابتداء من عام ٥٤٠ »	الرقم غير المعرف « الجبر » لم يبحث بعد تطوره	الرقم كوظيفة (التحليل) ديكارت باسكال فرما « ١٦٣٠ » نيوتن وليبنتز « ١٦٧٠ »
	٦ البيوروتانية والافقار العقلاني الصوفي للدين			
	مفقودة	الجمعية الفيثاغورية « ابتداء من عام ٥٤٠ »	محمد « ٦٢٢ » البولصية وتحطيم التماثيل « ابتداء من ٦٥٠ »	المطهرون الانكليز « ابتداء من ١٦٢٠ » الجانسنيون الفرنسيون « ١٦٤٠ » بورت رويال

الخريف	٧	عصر التنوير ، والايمان بالعقـل القادر على كل شيء . مذهب «الطبيعـة» (الدهري) والدين العقلاني			
ذكاء المدينة ، ذروة الابداعية الصارمة		سوتراس ، بوذا سنخيا اليوبانيشادز المتأخرة .	سفسطة القرن الخامس سقراط ، توفي ٣٩٩ ، ديمقريطس ، توفي قرابة عام ٣٦٠ ،	المعتزلة والصوفية نظام والكندي ، قرابة ٨٣٠ ،	العقلانيون الانكليز ، لوك ، الانسكلبيديون الفرنسيون ، فولتير ، روسو .
	٨	ذروة الفكر الرياضي وشروح عـالم شكل الارقـام			
		مفقودة «الصفر كرقم»	ارخيتاس ، ٣٦٥ ، افـلاطون ، ٣٤٦ ، القطع المخروطي	لم تبحث نظرية الرقم .. حساب المثلثات الدائري ، «تريغو نومتري»	اويلر ١٧٦٣ ، لاغرانج ، ١٨١٣ ، لابلاس مشكلة اللانهائيات ، ١٨٢٧ ،
	٩	المناهج النهائيـة الجامعة الشامـلة العظمى			
في ذهنيتها		المثاليـة يوغا ، فيدانتا الابستيمولوجيا : فالكاشيكا المنطق : نيايا	افلاطون ارسطوطاليس ، توفي عام ٣٢٢ ،	الفارابي ، ٩٥٠ ، ابن سينا ، ١٠٠٠ ،	غوته / كنت ‖ شلنغ هيجل فيشتي
الشتاء	١٠	النظرة المادية الى العالم . مذهب العلم ، المنفعة والرفـاه			
فجر مدينة المدينة العالمية الكبرى		سنخيا ، تشارفاكا الوكوياتا	الكلبيون ، والسيرانيون وآخر السفاسطة ، بيرهون ،	المذاهب الشيوعية الالحادية الابيقورية في العصور العباسية ، اخوان الصفا ،	بنتهام كومت داروين سبنسر ستيرنر ماركس فيورباخ
	١١	المثل العليا الاخلاقية الاجتماعية للحياة . حقبة الفلسفة اللارياضية . الارتيابيات			
استعمال القوة المبدعة . النوازع الاخلاقية العملية للكوسموبوليته اللامتدينة واللاميتافيزيقية		النوازع في زمن بوذا	الميلينية ، ابيقور ، ت عام ٢٧٠ ، زينون ، عام ٢٦٥ ،	حركات في الاسلام	شوبنهور نيتشه الاشتراكية الفوضوية هيبل فاجنر ايسن
	١٢	الاكمال الباطني لعـالم الشكل الرياضي . الفكر المستدل المستنتج.			
		مفقودة	يوقليد ، ابولونيوس ، قرابة ٣٠٠ ، ارخميدس ، قرابة ٢٥٠ ،	الخوارزمي ، ٨٠٠ ، ابن قرة ، ٨٥٠ ، القرشي ، البيروني ، قرن عاشر ،	غاوس ، ١٨٥٥ ، كوشي ، ١٨٥٧ ، ريمان ، ١٨٦٦ ،
	١٣	انحلال التفكير التجريدي الى فلسفة قاعات المحاضرات المحترفة			
		«المناهج الكلاسيكية الستة»	الاكاديمية ، الرواقيون الابيقوريون ، المشاؤون	مدارس بغداد والبصرة	الكانتيون ، المناطقة ، السيكولوجيون .
	١٤	انتشار عاطفة عالميـة نهائية			
		البوذيـة الهندية	الرواقية الميلينية ــ الرومانية ابتداء من عام ٢٠٠	الجبرية العملية في الاسلام ما بعد عام ١٠٠٠	الاشتراكية الاخلاقية ابتداء من عام ١٩٠٠

عقبات الحضـــــارة « المتعـاصرة »

المصرية	الكلاسيكية	العربية	الغربية

مرحلة ما قبل الحضارة ، فوضى من اشكال التعبير البدائية . الرمزية الصوفيـــة . والتقليد الساذج

مرحلة ثانيات	العصر الماسيني (١٦٠٠ – ١٧٠٠)	المرحلة الفارسية السلوقية (٥٠٠ – ٠)	العصر الميروفونجي الكارولنجي
الميجان – (٣٤٠٠ – ٣٠٠) المصري المتأخر (منوان)	البابلي المتأخر (آسيا الصغرى) الكلاسيكي المتأخر (هيلنستي)	الهندي المتأخر (هندي ايراني)	٩٠٠ – ٥٠٠

الحضارة

تاريـخ حياة اسلوب اشتقاقي لكامل الكينونة الباطنية ، ولغـــة شكل ذات ضرورة هي الإعمق رمزية

	المصرية	الكلاسيكية	العربية	الغربية
I المرحلة المبكرة (الزينة والهندسة المعمارية بوصفها تعبيرين ابتدائيين ظاهريين للشعور الفني بالعـــالم) « البدائيون »	المملكة القديمة (٢٩٠٠ – ٢٤٠٠)	العصور الدورية (١١٠٠ ٥٠٠)	عالم الشكل العربي المبكر (الساساني البزنطي الارمني السوري ، البابلي ، الكلاسيكي المتأخر ، والمسيحي المبكر) (٠ – ٥٠٠)	العصور الغوطية ١٥٠٠ – ٩٠٠
١ – الولادة والنشوء . الاشياء التي انبثقت من الارض وشكلت (دون وعي) تشكيلاً عفوياً				
	العائلتا الرابعة ـ الخامسة (٢٩٣٠ – ٢٦٢٥) اسلوب المعبد الهندسي ، معابد الاهرامات الاعمدة المتنظمة صفوفاً صفوف التضاريس المستوية تماثيل الاضرحة	القرن الحادي عشر ـ التاسع : البناء الخشبي ، العمود الدوري العارضة ، الاسلوب الهندسي (ديلون) ترميد الميت .	القرن الاول ـ الثالث : دواخل العبادة : البازليكا ، القبة (البنتون كمسجد) العمود والقنطرة . مشبك الجذع يملأ الفراغات . التوابيت الحجرية .	من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر الرومانسك والكاتدرائيات الغوطية ذات العقود المبكرة . الدعامة الطائرة . لتصوير على الزجاج . الكاتدرائية . النحت .
٢ – اكتال لغة الشكل المبكرة . استهلاك الامكانات .. التناقض				
	العائلة السادسة . خمود اسلوب الاهرام اسلوب التضويس الملحمي النشيدي ، ازدهار التصوير التشكيلي المبتذل .	القرنان الثامن والسابع نهايـــة الاسلوب الدوري الاوتروسكاني المبتذل التصوير على الاواني ذي الاسلوب الكورنثـي الاولي والاتيكي والخزافي ، رسم الآنية .	القرن ٤ – ٥ ـ نهايـــة فن التصوير السوري ، الفارسي ، القبطي . نشوء تصوير الفسيفساء والزخرف العربي .	القرن ١٤ – ٢٥ ـ الغوطي المتأخر ، وعصر النهضة وازدهار وانكماش التصوير على الحائط والتمثال ، ابتداء من جيوتو (غوطي) الى ميكالنجلو «باروكي» سينا ، نورنبرغ . الصورة الغوطية من فان آيك حتى هولباين الكونتربوينت . التصوير الزيتي .
II المرحلة المتأخرة تشكل مجموعة من الفنون تشكلاً حضرياً واعياً على ايدي الافراد والاساتذة العظام » .	المملكة الوسطى (٢١٥٠ – ١٨٠٠)	الايوني (٦٥٠ – ٣٥٠)	عالم الشكل العربي المتأخر و الفارسي ـ النسطوري ، الارمـــني البزنطي ، الاسلامي المراكشي» (٥٠٠ – ٨٠٠)	الباروكي (١٥٠٠ – ١٨٠٠)

٣ – تشكل هزة وذوق فنيين للمجتمع

العائلة الحادية عشرة : الفن الرهيف التعبيري (لم يبق منه أثر تقريباً)	انجاز جسم المعبد (البريستورل الحجري) العمود الايوني . سيادة التصوير على الحائط حتى بوليغنوتوس (٤٦٠) نشوء التشكيل الحر « بالتتابع » (ابولو من تينيا هاجيلاداس) .	انجاز داخل المسجد (القبة الرئيسية لآجيا صوفيا) ذروة الفسيفساء التصويرية . اكتمال لاسلوب الزخرف العربي المشابه لسجادة مشاطا (Maschatta) .	الاسلوب التصويري في الهندسة المعمارية ابتداء من ميكالنجلو حتى برنيني (توفي ١٦٨٠) سيادة التصوير الزيتي ابتداء من تيتيان حتى رمبراندت « توفي ١٦٦٤ » . نشوء الموسيقى ابتداء من اورلاندو لاسو حتى هـ . شوتز « توفي عام ١٦٧٢ »

٤ – انجاز لغة شكل عقلانية وبلوغها مستوى الكمال

العائلة الثانية عشرة « ٢٠٠٠ – ١٧٨٨ » معبد بيلون ، المتاهة ، تماثيل الاخلاق والتضاريس التاريخية .	نضوج أثينا « ٤٨٠ – ٣٥٠ » الاكروبول سيادة التشكيل الكلاسيكي من مايرون الى فيدياس نهاية التصوير على الحائط الجازم وتصوير على الفخار « زيكسوس »	الامويون « القرن السابع – الثامن » الانتصار الكامل للزخرف العربي الخالي من الملامح على الهندسة المعمارية ايضاً .	الروكوكو : الهندسة المعمارية الموسيقية ، « روكوكو » سيادة الموسيقى الكلاسيكية ، من باخ الى موزارت ، نهاية التصوير الزيتي الكلاسيكي من فاتو الى غويا .

٥ – نضوب الابداعية الحازمة وانحلال الاشكال العظمى . نهاية الاسلوب ، « الكلاسيكية » ، والرومانتيكية

الاختلاط ما بعد قرابة عام ١٧٥٠ « لم يبق اي اثر »	عصر الاسكندر . العمود الكورنثي . ليسبوس وابلليس .	هارون الرشيد « قرابة عام ٨٠٠ » الفن المراكشي .	الامبراطورية وبيدر ماير ، الذوق « التكلسكي » في الهندسة المعمارية بيتهوفن ديلاكروا .

المدنية : الوجود دون ما شكل باطني فن المدينة العالمية الكبرى بوصفه فناً عامياً ، الرفاه ، الرياضة البدنية ، الانفعال العصبي الازياء السريعة التغير في الفن تكشف عن اكتشافات تعسفية وعن اقتباسات واستعارات .

١ – الفن الحديث . « مشكلات الفن ، المحاولات لتصوير أو اثارة وعي المدينة العالمية الكبرى تحويل الموسيقى والهندسة المعمارية والتصوير الزيتي الى مجرد صناعات فن

مرحلة المكسوس « محفوظة فقط في كريت ، الفن المنوالي »	الهيلنية : فن برغامين « مسرحية » . فنون الرسم الهلنستي ، « فرستيكي » شاذ « ذاتي » المرض الهندسي في مدن الديودوتشي .	عهود السلطان من القرن التاسع الى العاشر . الفن الاسباني الصقلي الابتدائي سامرا .	القرن التاسع عشر – العشرين : لست ، برليوز ، فاغنر الانطباعية ابتداء من كونستابل الى لايبل ومانيت . الهندسة المعمارية الأميركية .

٢ – نهاية تطور الشكل ، هندسة معمارية وزخرفة لامعنى لها وفارغان متكلفتان ومدعيتان تقليد النوازع المبتذلة والدخيلة

العائلة الثامنة عشر – « ١٥٨٠ – ١٣٥٠ » المعبد الصخري في ظهر البحر . تماثيل بمتون الهائلة . فن كنوسوس وتل العمارنة	المرحلة الرومانية « ١٠٠ – ١٠٠٠ » التركيز اللاسمي لكل الانظمة الثلاثة . السوق العامة ، المسارح « كولوسوم » اقواس النصر	السلجوقون « ابتداء من ١٠٥٠ » « الفن الشرقي » لمرحلة الحروب الصليبية .		ابتداء من عام ٢٠٠٠

٣ – الختام ، تشكل مخزون ثابت من الاشكال . العرض الامبراطوري بواسطة المادة والجمهور . صناعة الارياف .

العائلة التاسعة عشرة « ١٣٥٠ – ١٢٠٥ » الابنية الجبارة في الاقصر والكرنك وابيدوس فن الصغير : « تشكيل حيوان ، نسيج ، اسلحة »	تراجان الى اورليان ، والفورا الجبارة ، سوابيط الاعمدة في الحمامات العامة ، اقواس النصر الفن الريفي الروماني « التصوير على الفخار ، التماثيل ، الاسلحة .	فترة المغول « من ١٢٥٠ » الابنية الجبارة « مثلاً في الهند » صناعة فن شرقية : « السجاد ، الاسلحة الادوات »	

« اللوحة الثالثة »

الحقبـــــــات التاريخية السياسية « المتعاصرة »

	المصريـة	الـكلاسيكـية	الصينية	الغربيـة
مرحلة ما قبـل الحضارة : القوم البدائيون . العشائر وشيوخها . حتى الآن « لا سياسـة » ولا « دولة »				
	مرحـلة ثانيات (مينيس) ٣٤٠٠ — ٣٠٠٠	العصر الماسيني (آغامنون) ١٦٠٠ — ١١٠٠	مرحلة شانغ (١٧٠٠ — ١٣٠٠)	المرحلة الفرنكية (شارلمان) ٥٠٠ — ٩٠٠
الحضارة : الجماعات القوميـة ذات الاسلوب المعين والشعور الخـاص بالعالم . « الشعوب » . عمل فكرة دولة فطريـة				
I . المرحلة المبكرة . العقدة المتعصية للوجود السياسي . الطبقتان الاوليتان (النبيل والكاهن) . الاقتصاد الاقطاعي ، قيم تقسيم الاراضي المجردة				
١ — الاقطاع . روح الريف وروح الانسان الريفي . « المدينة » وحدها كسوق او كقلعة . المثل العليا للفروسية الدينية . صراع اصحاب الاقطاعيات بعضهم ضد بعض وضد السيد.	المملكة القديمة (٢٩٠٠ — ٢٤٠٠) الظروف الاقطاعية للعائلة الرابعـة تزايد سلطان كبار الملاك والكهنة . فرعون بوصفه تجسداً لرع .	المرحلة الدورية . (١١٠٠ — ٦٥٠)الملكية الهوميروسية نشوء طبقة النبلاء (اتيكا ، اتروريا ، اسبرطة)	مرحلة تشو المبكرة . (١٣٠٠ — ٨٠٠) الحاكم المركزي (وانغ) المضغوط عليه ضغطاً شديداً من قبل طبقة النبلاء الاقطاعيين .	المرحلة القوطية . (٩٠٠— ١٥٠٠) المرحلة الامبراطورية الرومانية الجرمانية . نبلاء الصليبين . الامبراطورية والبابوية .
٢ الازمـة والحل المزدوج للشكلين الابويين . من الاقطاع الى الدولة الارستقراطية .	العائلة السادسة . اندثار المملكة الى امارات وولايات وراثية . العائلتان السابعة والثامنـة . فترات خلو عرش المملكة	التشكل الارستقراطي وانحلال الملكية الى وظائف (حولية) تشغل لمدة عام الاوليغاركية	٩٣٤ — ٩٠٤ — ١ — وانغ وكبار الملاك من الاقطاعيين ٨٤٢ — خلو عرش المملكة .	امراء الاقاليم ،نهضـة البلدات . لانكستر ويورك ١٢٥٤ — خلو العرش .
II . المرحلة المتأخرة . تحقق فكرة الدولة الناضجة . البلدة ضد الريف . نشوء المنزلة الثالثة (البرجوازية) انتصار النقود على الملكية العقارية				
٣ — صياغـة عالم من دول ذات شكل ثابت بات . (حزب الفروند)	المملكة الوسطى (٢١٥٠—١٨٠٠) العائلة الحادية عشرة . تطويع حكام طيبه بالنبلاء . الدولة ذات البيروقراطية المتمركزة .	المرحلة الايونية (٦٥٠ — ٣٠٠) القرن السادس . الطغاة الاوائـل (كلايثينس بيرياندر ، بوليقراطيس ، التركويتز) . دولة المدينة .	مرحلة تشو المتأخرة (٨٠٠—٥٠٠) مرحلة « الحماة » منغ تشو (٦٨٥ — ٥٩١) ومجلس الامراء (٤٦٠ ق.م)	المرحلة الباروكية (١٥٠٠ — ١٨٠٠) سلطة العائلة السلالية وحزب الفروند (ريشليو ، فالنشتاين كرومويـل) قرابة عام ١٦٣٠ .
٤ — ذروة شكـل الدولة . (الاخلاقيـة) (الاستبداد) اتحاد البلدة والريف (« الدولة والمجتمع » . المنزلات — الطبقات الثلاث)	العائلة الثانية عشرة(٢٠٠٠—١٧٨٨) التمركز الاشد للسلطة طبقة نبلاء البلاط والمال	المدينة المجردة (استبداد العوام) سيادة السوق العامة . نشوء دولة تيموتستكليس ويركليس	مرحلة تشون — تشيو (« الربيع والخريف ») ٥٩٠ — ٤٨٠ السلطات السبع واكمال الاصلاحات الاجتماعية (...)	النظام القديم . طبقـة نبلاء بلاط فرساي . الروكوكو . سياسة مجلس الوزراء . آل هابسبورغ والبوربون لويس الرابع عشر . فريدريك العظيم

• – اندثار شكل الدولة (الثورة والنابليونية) انتصار المدينة على الريف (الشعب على أصحاب الامتيازات ، الانتلجنسيا على التقليـــد ، المال على السياسة)	الثورة والحكومـــة العسكرية (١٧٨٨ – ١٦٨٠) انحطاط الدولة ، وثوب ملوك من عامة الشعب في بعض الحالات الى مرابع السلطان .	القرن الرابـع . الثورة الاجتماعية ، والعهـــد الثاني للطغاة (ديونيسيوس الاول ، جاسون من فيريي ، الرقيب آبيوس كلوديوس) الاسكندر	٤٨٠ . بدء مرحلة شان كوا٤٤١ . سقوط عائلة تشو ، الثورات وحروب الابادة .	نهاية القرن الثامن عشر . الثورة في اميركا وفرنسا (واشنطن فوكس ميرابو روبسبير نابليون

المدنية :

جسم الشعب الآن هو حضري (مدني) في تركيبه الاساسي . الانحلال الى جماهير لا شكل لها . المدينة العالمية الكبرى والاقاليم . المنزلة الرابعة (الجماهير) ، لا متعصبة وكسموبوليتية

١ – سيطرة المال (الديمقراطية) القوى الاقتصاد تنفذ الى الاشكال السياسية والسلطات .	١٦٨٠ ؛ ١٧٨٨ ، – ١٥٨٠ . مرحـــلة الهكسوس احط درجات الانحطاط دكتاتوريات قواد عسكريين اجانب ، تشيان ،	٣٠٠ – ١٠٠ الهلينية السياسية بدء من الاسكنـــدر الى هانيبال ، والسلطة الكاملة الملكية لتبيو ،ابتداء من كليومينيس الثالث وفلامينيوس	٤٨٠ – ٢٣٠ مرحـــلة و الدول المتنازعة، ٢٨٨ ـ اللقب الامبراطوري، رجال الدولة الامبراطوريون في عهد تسن ،ابتداء من ٢٨٩ دمج آخر الدول في الامبراطورية	١٨٠٠ – ٢٠٠٠ . القرن التاسع عشر ابتداء من نابليون الى الحرب العالمية الاولى ، نظام الدول العظمى ، الجيوش الدائمة ، الدساتير . القرن العشرون : الانتقـــال من المرحلة الدستورية ، الى السلطان غير الشرعي للافراد . حروب الابادة . الاستعمار
٢ – تشكل القيصرية . انتصار سياسة القوة على المال . الابتدائيـــة المتزايـــدة في الاشكال السياسية . الانحطاط الباطني للشعوب الى سكان لا شكل لهم ، دستورهم كسلطة عليا لفجاجة طغيان يتزايد تدريجيا .	بعد عام ١٦٠٠ الانتصار الاكيد لحكام طيبة	٢٢٠ ، الى ماريوس ، الدماغوجيون الراديكاليون .		
	١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ العائلة الثامنة عشر توتوسيس الثالث	١٠٠ – ٠ – ١٠٠ سولا الى دوميتسيان	٢٥٠ – ٠ – ٢٦ ، عائلة وانغ – تشنغ ، وعهد سلالة الهان الغربية .	٢٠٠٠ – ٢٢٠٠
		. قيصر ، تيبريوس .	٢٢١ لقب اوغسطس ، للامبراطور هوانغ – تي . ١٤٠ – ٨٠ وو – تي .	
٣ – نضوج الشكل الختـــامي ، سياسات من خاصـــة وعائلية لقادة الزادوين . العالم كفنية . المصريـــة والمندرانية والبزنطيـــة . التاويخ اقل تصلباً ، تخشباً ، ووهن الآليـــة الامبراطورية أم شعوب فتية تتطلع الى الغنائم ، أو امام غزاة غرباء . احوال بشرية بدائية تندفع ببطء في صيغ عيش رفيع الدرجة في قدمه .	١٣٥٠ – ١٢٠٥ ، العائلة التاسعة عشرة سيتوس الاول رمسيس الثاني	١٠٠ – ٣٠٠ ، تراجان الى اوريليان . تراجان ؛ سبيتموس سيفروس	٢٥ – ٢٢٠ ب ٠ م عهد سلالة الهان الشرقية ٥٨ – ٧١ منغ تي .	ما بعد عام ٢٢٠٠

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

بلغ التقدير لهذا الكتاب في الغرب حداً صُنِّف معه كأعظم مؤلف صدر في النصف الأول من القرن العشرين ؛ فهو كتاب يعالج جميع مواضيع الحضارات الإنسانية وانجازاتها من فن وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، فاشبنغلر يرى أن كل حضارة من الحضارات هي كل متكامل غير قابل للتجزئة وظاهرة أولية متفردة ، وذلك لأن لكل حضارة نفساً أولية واحدة تنطلق عنها ، وتعبّر برموزها عن نوازعها وطاقاتها ، وأن تلك الظاهرة وهذه النفس وهذه الرموز هي التي تسيطر وتوجّه جميع نتاج الحضارة من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وعلم وفلسفة ومذاهب وأديان ، لهذا سيجد القارئ اشبنغلر يعالج في هذا الكتاب الضخم جميع هذه الفروع الحضارية ، وسيراه يستشهد بالموسيقى وهو يبحث في الرياضيات ، ويدلل على صحة أقواله بالدين وهو يتحدث عن النحت والتصوير ، ويقتبس براهينه من الطقوس المذهبية أو الدينية ليثبت نظرياته في الهندسة المعمارية ، ويختار دليله من الرقم الرياضي ليبرهن على صحة نظريته في الجنس . لهذا فإن القارئ سيذهل لوفرة معلومات اشبنغلر الموسوعية وسيعجب بمنطقه المنسق والدقيق الملاحظة في هذا الكتاب .

من مقدمة المترجم

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان